

زاد المسير

في
علم النفس

تأليف

الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي

٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

دار ابن خزيمة

المكتب الإسلامي

زَلَّالَةُ الْمَسِيرِ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَأَلَّفَتْ

الإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي

٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

دار ابن حزم

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى الجديدة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب. ١١/٢٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٥)
دمشق : ص.ب. ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب. ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

دار ابن خزيمة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب. ١٤/٦٣٦٦ - تلفون : ٧٠١٩٧٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقْدَمَةُ الطَّبَعَةِ الثَّالِثَةِ

بقلم: زهير الشاويش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد، فهذه الطبعة الثالثة من «زاد المسير» للإمام العلامة ابن الجوزي، الذي شرفني الله منذ عشرين سنة بإخراجه إلى دنيا الطباعة والانتشار، بين محبي كتاب الله، ونفع به. فله سبحانه الفضل والمنة، وبنعمته تتم الصالحات. ثم يسر الله لي المتابعة في هذا الطريق، وتقديم العدد الكبير من تراثنا العظيم تفسيراً، وعقيدة، وحديثاً، وفقهاً، جعل ذلك ذخراً لي يوم الدين. يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم يلقى الناس جزاء أعمالهم. ولا يظلمون فتيلاً. ومن ذلك «جواهر الأفكار» للعلامة الشيخ عبد القادر بدران؛ و«التفسير العصري القديم» للشيخ عبد الفتاح الإمام؛ و«قوة العينين على تفسير الجلالين» للقاضي الشيخ محمد كنعان؛ و«البرهان على سلامة القرآن من الزيادة والنقصان» للعلامة الشيخ سعدي ياسين؛ و«تفسير جزئي عم وتبارك» للأستاذ أحمد مظهر العظمة؛ و«الفلم القرآني» للأستاذ عبد الرحمن الباني؛ و«المحات في علوم القرآن» للدكتور الشيخ محمد بن لطفى الصباغ؛ و«علوم القرآن» للدكتور عدنان زرزور، و«التجويد وعلوم القرآن» للأستاذ عبد البديع السيد صقر؛ و«فوائد قرآنية» للعالم الجليل الشيخ عبد الرحمن بن سعدي؛ و«إقامة الدليل والبرهان» للعلامة الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع؛ و«تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» لأبي حيان الأندلسي بتحقيق الأستاذ سمير مجذوب، و«الدستور القرآني» للأستاذ عزة دروزة؛ و«قصص القرآن» للأستاذ هوفق سليمة؛ و«الناسخ والمنسوخ» للعلامة ابن سلامة، و«قبضة البيان في ناسخ ومنسوخ القرآن» للشيخ البلوري؛ وغيرها.

كما أن تحت الإعداد للطبع، عدد آخر أرجوه تعالى أن يكون لنا عوناً على الإتمام والإحسان؛ وأن يصرف عنا شر الأشرار، وحسد وكيد من لا خلاق لهم، إنه سميع مجيب.

وهذه الطبعة أقدمها بعد تصغير الكتاب من حجم ٢٨/٢١ إلى حجم ٢٥/١٨ بطريقة الأوفست، ليكون حجمه أصغر استجابة لرغبة الكثيرين من العلماء وطلاب العلم؛ وليبقى ثمنه ضمن الحدود المعقولة. وقد قمت باستدراك الكثير مما قد نُدَّ عَنَّا سابقاً من الأخطاء ضمن الحدود التي تسمح بها طريقة الطبع؛ وأرجو الله سبحانه أن ينفع بها كما نفع بما سبقها، وأن يجعلنا من أهل طاعته، وخدام شريعته، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير؛ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا. مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَبَارَكَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ، رَسُولِ اللَّهِ وَخَيْرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَأَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ.

أما بعد فهذا كتاب «زاد المسير في علم التفسير» للإمام المحقق أبي الفرج عبد الرحمن بن علي القرشي التيمي البكري المعروف بابن الجوزي (٥٠٨ - ٥٩٧هـ).

نضعه بين أيدي القراء لأول مرة بعد أن اضطلعنا بتحقيقه وضبطه على نحو نرجو أن نكون قد وفَّقنا فيه.

ولعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا: إن هذا الكتاب من أجل ما انتهى إلينا من تراث السلف في بابه، وأوفاهها بالغاية من هذا العلم، مع تقيق وتهذيب يسيران الفائدة منه في أي غرض من أغراضه، وقد بعثه على تأليفه أنه نظر - كما يقول في مقدمته - في كُتُب التفسير، فوجدها بين كبير قد يتيسر الحافظ منه، وصغير لا يُستفاد كل المقصود منه، والمتوسط منها قليل الفوائد، عديم الترتيب، وربما أهمل فيه المشكل، وشرح غير الغريب؛ فأتى بهذا المختصر اليسير منظوياً على العلم الغزير. ومن ثم حاول في تفسيره هذا أن يتلافى ما ألمع إليه من عيوب التصنيف التي وقع فيها من تقدمه، فترك ما لا فائدة في استقصائه، واستدرك ما فات السابقين مما لا غنى عن ذكره، وحرص أن يجعله على اختصاره وإفياً بالغاية منه غير مُجَلِّ بشيء مما يحتاج طالب التفسير إليه.

وكان معولّه في تفسير الآي على ما أثير عن رسول الله ﷺ من الأخبار، ثم على ما نُقل عن الأفاضل من علماء الصحابة من أمثال علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ثم على ما روي عن خلفهم من جلة التابعين، كسعيد بن جبيرة، وعكرمة بن عبد الله، وطاووس اليماني، وعطاء بن أبي رباح، وأبي العالية، والحسن البصري، وأضرابهم^(١) وقد ألم أيضاً بمشهور القراءات، وأطراف من شواذها، ونقل توجيهها في العربية عن أئمة هذا العلم، ولم يفته - وهو يفسر مفردات القرآن - أن يذكر اشتقاقها استكمالاً للمعنى، وزيادة الفائدة، كما أنه استعرض آراء الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين في المسائل الفقهية المختلفة.

أما المصادر التي نقل عنها، ففي طليعتها تفسير ابن جرير، وكتب الحديث، وكتابتها ابن قتيبة: «مشكل القرآن»، و«غريب القرآن»، وكتب معاني القرآن، ولا سيما كتابا القراء والزجاج، و«الحجة» لأبي علي الفارسي، و«مجاز القرآن» لأبي غنيدة، وكتب ابن الأباري في القرآن، و«أسماء الله الحسنى» للخطابي، وغيرها.

(١) لقد انبرى إلى تفسير القرآن من الصحابة الكرام عدد غير قليل، قالوا في القرآن بما سمعوه من رسول الله ﷺ مباشرة أو بالواسطة، وبما شاهدوه من أسباب النزول، وبما فتح الله عليهم من طريق الفهم والتأويل. وأشهر من عرف بذلك عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب رضي الله عنهم، وقد نثر المؤلف رحمه الله في تفسيره أقوال هؤلاء الصحابة الأعلام في تأويل الآي. وأشهر تلاميذ ابن عباس من التابعين الذين أخذوا التفسير عنه سعيد بن جبيرة، ومجاهد، وعكرمة مولا، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح. وأشهر تلاميذ عبد الله بن مسعود علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمداني، وعامر، والشيمي، والحسن البصري، وقادة بن دعامة الدوسي. وأشهر تلاميذ علي بن أبي طالب، عبيدة السلماني، وأبو الطفيل، والحسين ابنه. وأشهر تلاميذ أبي بن كعب، زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي، وهؤلاء منهم من أخذ عنه مباشرة، ومنهم من أخذ عنه بالواسطة.

وكان أكثر ما يتقل عنهم بحكاية لفظهم نفسه، فإذا تجاوز ذلك إلى الحكاية بالمعنى لم يغفل في الغالب الإشارة إلى ذلك.

هذا ولم يخلُ تفسيره من الاستشهاد ببعض الأحاديث المنكرة التي لا تصح، ومن إيراد طائفة غير قليلة من الأخبار الإسرائيلية الغريبة التي أغنانا الله عنها بما هو أصح منها وأنفع، وأوضح وأبلغ، وغالبه مما لا يتعلق به كبير فائدة، ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين^(١) وكذلك لم يحاول ترجيح رأي على رأي أو معنى على معنى، ولا ناقش ما يحكيه من أقوال إلا في مواضع قليلة، ولكن مثل هذه المآخذ اليسيرة التي لا يكاد يخلو منها كتاب لا تحط من قدر هذا التفسير الجليل الزاخر بالفوائد.



(١) يقول علماء الإسلام: إن الأخبار الإسرائيلية على ثلاثة أقسام: أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح، والثاني: ما علمنا كذبه بما عتدنا مما يخالفه، والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به، ولا نكذبه، وتجوز حكايته، لما روى البخاري ٣٦١/٦ بشرح «الفتح» أن النبي ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية»، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» قال الحافظ ابن كثير: وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل أسماء أهل الكهف، ولون كليهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي شجر كانت، وأصحاء الطيور التي أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله موسى عندها... إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، لكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: «سَيَقُولُونَ كَلِمَةً دَائِمَةٌ تَكُفِّرُنَّ كَلِمَةً إِلَى آخِرِ آيَةٍ». وقد علق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله على كلمة ابن كثير هذه، فقال: إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عتدنا دليل على صدقه، ولا كذبه شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيينها لم يبين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها، شيء آخر، لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله، ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومنفصل لما أجمل فيه، وحاشا لله ولكتابه من ذلك، وإن رسول الله ﷺ إذ أذن بالتحدث عنهم أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم، فأي تصديق لرواياتهم وأقوالهم أقوى من أن تقرنها بكتاب الله، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟! اللهم غفر!

نسخ الكتاب

كان اعتمادنا في نشر هذا التفسير على أربع نسخ مصورة عن أصول مخطوطة.

النسخة الأولى:

مصورة عن مخطوطة الخزانة العامة بالرباط التابعة لوزارة الأوقاف هناك^(١)، وقد حُجِّمت كل نسخة بخاتم الخزانة. ونصه: مخطوطات الأوقاف - الخزانة العامة بالرباط. وفي وسط الخاتم كتب رقم النسخة المكتبي، وهو (١٨٣) وتحته حرف أبجدي يشير إلى رقم الجزء، وإلى جانبه خاتم آخر باسم مكتبة الزاوية الناصرية - تمكروت. وقد سجل على غلاف كل جزء من أجزاء النسخة اسم مالكة الأصلي، وهو أحمد بن محمد بن ناصر، ولعل كتب مكتبة الزاوية الناصرية نسبت إليه، غير أن ما في غلاف الجزء الرابع من النسخة يبين أن ملك النسخة قد انتقل إلى أحمد بن ناصر هذا من شخص آخر، كتب اسمه تحت عنوان الجزء نفسه، ثم في هامش آخر صفحاته هو: محمد بن محمد بري. وجميع أجزاء هذه النسخة منقولة عن أصل المصنف الذي كتبه بيده، ومقروءة عليه، ومقابلة، كما يظهر من السماعات التي سئبت صورتها.

أما مقياسها فهو كما يبدو من القياس (السانتيمتري) الموضوع على وجه الغلاف (١٣×٢٠) أوصاف أجزائها: الجزء الأول: (١٨٣/١): عدد صفحاته ٥٣٧ صفحة، في كل منها ٢١ سطراً في كل سطر ١٣ كلمة تقريباً، يبتدئ بسورة الفاتحة، وينتهي بسورة المائدة. خطه جميل ومقروء بوضوح، وصفحاته الأوائل أكثر حسناً من غيرها، وهي إلى ذلك مضبوطة بالشكل، ولم يذكر فيه اسم ناسخه، ولا متى نسخ.

الجزء الثاني: (١٨٣/٢): عدد صفحاته يزيد عن سابقه بثلاث صفحات، ويساويه في عدد أسطره وكلماته، يبتدئ بسورة الأنعام وينتهي بسورة الحجر، ويشبه الجزء الأول من حيث جمال خطه ووضوحه، وهو مثله أغفل من ذكر اسم الناسخ، غير أن تاريخ النسخ ذكر فيه، وهو يوم السبت ثالث رمضان من سنة ست وتسعين وخمسمئة، وذكر في آخره بخط دقيق ما صورته: بلغ العرض بأصل الشيخ الذي بخطه العتيق، وضح حسب الإمكان والحمد لله والمنة. وكذلك أثبت بعدها السماعات والقراءات عن الأئمة والعلماء.

الجزء الثالث: (١٨٣/٣): عدد صفحاته وعدد الأسطر في كل صفحة يطابق ما في الجزء الثاني، وفي كل سطر ١٥ كلمة تقريباً، وعلى صفحة الغلاف كتبت أسماء السور المفسرة طيه، ويبتدئ بسورة (النحل)؛ وينتهي بسورة (يس). خطه واضح جميل متوسط الحجم وحلّق على هامش آخر صفحاته ما نصه: بلغ مقابلة حسب الإمكان.

الجزء الرابع: (١٨٣/٤): عدد صفحاته (٣٦٢) صفحة، في كل صفحة ٢٩ سطراً، أي بزيادة ثمانية أسطر عن صفحات الأجزاء السابقة، وفي كل سطر ١٤ كلمة. يبتدئ بسورة (يس) حتى آخر القرآن. خطه جميل مقروء وواضح، غير أنه ناعم دقيق الجسم متقارب الكلمات. ويبدو أن ناسخه غير ناسخ الأجزاء الثلاثة. ويظهر من التعليق على هامش الصفحة الأخيرة اسم الناسخ، إذ كتب ما نصه: وكتبه لي الشيخ إبراهيم بن الصارم القواس، أخذ أجرة كاملة، وعلقه تعليقاً، سامحاً الله. وفي خاتمة الجزء ما يلي:

قال الشيخ رحمه الله: فهذا آخر «زاد المسير»، والحمد لله على الإنعام الغزير. وإذ قد بلغنا بحمد الله مرادنا مما أملنا، فلا يعتقده من رأى اختصاصارنا أنا قللنا، فإننا قد أشرنا بما ذكرنا إلى ما تركنا، وذللتنا، فليكن الناظر كتابنا متيقظاً

(١) لا يفوتنا في هذه المناسبة أن نقدم خالص شكرنا، وجزيل امتناننا للسادة القائمين على الخزانة العامة بالرباط، لتدبيرهم «فعلماً» مصوراً عن المخطوطة مدية خالصة، وللعالم الفاضل الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة الذي كان الواسطة في تيسير ذلك.

لما أغفلنا، فإننا صَّغْنَا للاختصار مع نيل المراد، وقد فعلنا. ومن أراد زيادة بسط في التفسير فعليه بكتابتنا «المغني» في التفسير، فإن أراد مختصراً فعليه بكتابتنا المسمى بـ «تذكرة الأريب في تفسير الغريب». والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آبيه آدم وذريته والصالحين، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

ثم يعقب ذلك فصل في ترتيب سور القرآن، ذكر في أوله أنه من صنع ابن الجوزي، وقد كتب عنوانه: «قصيدة» وليس كذلك، وإنما هو عبارة عن جمل مسجوعة تسهل حفظ أسماء سور القرآن الكريم مرتبة.

وفي هامش الصفحة التي قبل الأخيرة إلى جانب تفسير سورة (الناس) كُتِبَ بخط دقيق ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله كتب هذه البسملات من أوائل التفسير إلى آخره، وهو هذا الجزء الرابع مالكة العبد الفقير من الفقر إلى الفقر، الراجي رحمة ربه ذي الجود والبر، محمد بن محمد بري. بلغه الله ما أمله، وأم له، وكان له في حاله وما له بمحمد وآله.

كما كُتِبَ في الهامش اليساري من الصفحة الأخيرة، عند آخر التفسير ما نصه: «بلغ الله الحمد» وتحتة بقليل: من كتب العبد الفقير من الفقر إلى الفقر محمد بن محمد بري لطف الله به وبالمسلمين بمنه.

النسخة الثانية:

وهي نسخة المكتبة الأحمدية في حلب تحت رقم (٧٠)، وهي مؤلفة من أجزاء أربعة، في صفحة كل جزء (٢٩) سطراً، في كل سطر (١٤) كلمة تقريباً.

الجزء الأول: وعدد صفحاته (٤٩٢) ويتدئ من (الفاتحة) حتى نهاية سورة (الأنعام) خطه حسن وهو مغفل من التاريخ في أوله وآخره، ويبدو أنه قديم قريب من عهد المؤلف أو بعده بقليل.

الجزء الثاني: عدد صفحاته (٥٤٢) ويتدئ من أول تفسير سورة (الأنعام) إلى آخر سورة (الحجر)، وخطه أكثر وضوحاً من الجزء الأول، كما أن كاتبه غير كاتبه، وطريقة خطه ووضوحه وبيانه وصحة رسمه تظهر أنه كتب في عصر المؤلف أو بعده بفترة قريبة. وقد كتب في آخر الورقة بخط حديث: تم بها النقص الواقع في هذا الجزء من الورقة الساقطة من المخطوط الأصل.

الجزء الثالث: غير موجود.

الجزء الرابع: وعدد صفحاته (٤٢٩) ويتدئ بسورة (الأنبياء) وينتهي بانتهاء سورة (محمد) ﷺ. وخط هذا المجلد غير منقوطة على عادة كتب القدامى، وفي آخره على هامش الصفحة: «الحمد لله، مر عليه مصلحاً الفقير الحنبلي لطف الله به» وفي آخره أيضاً بجانب الصفحة: تاريخ ولادة لابن متملك له سنة ٩٦٦.

وفي آخر الجزء ما صورته: «يتلوه الجزء الخامس من أول سورة (الفتح)، إلى آخر القرآن. ونقل... بعده من نسخة: تاريخ الفراغ من تعليقها يوم السبت حادي عشر من شعبان المكرم سنة اثنتين وسبعين وخمسمئة، وهو الجزء الرابع من كتاب «زاد المسير في علم التفسير» تأليف الشيخ الأجل الإمام العالم الأوحى جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ابن الجوزي رحمه الله ونفعنا به ويعلمه في الدنيا والآخرة أمين.

النسخة الثالثة:

وهي نسخة العثمانية بحلب ورقمها (٤٦). وهي ناقصة لا يوجد منها إلا جزء واحد عدد صفحاته (٦٧١)، يتدئ من أول القرآن إلى نهاية (سورة الكهف)، مكتوب بخط غير قديم لعله من القرن التاسع، وليس في أوله أو آخره تاريخ لكتابته، وإنما كتب على وجه الورقة الأولى المذهبة فيه: «من نعمه سبحانه وتعالى على عبده الحقير عبد الكريم بن أحمد الشراباتي» وخطه واضح حسن صحيح ناعم غير قليل، وهو من بداية المجلد إلى آخره بخط واحد. وفي صفحته بعض الطول إذ تحتوي على (٣٣) سطراً. وعلى هامشه بعض تعليقات تدل على أن النسخة مقروءة من بعض العلماء.

النسخة الرابعة:

وردت إلينا من مكتبة صاحب السمو الشيخ علي آل ثاني حفظه الله في قطر، وقد صورت عن النسخة الأصلية

الموجودة في مكتبة واغب باشا باستنبول، وهي كاملة تقع في ٦١٣ ورقة من القطع الكبير، احتوت كل صفحة من صفحاتها على خمسة وثلاثين سطرًا، وفي كل سطر خمس عشرة كلمة، وخطها نسخي جميل واضح لم يذكر فيها تاريخ النسخ، وقد ذكر في آخرها اسم ناسخها، وهو محمد أمين بن المصطفى المذنب الخاطيء الضعيف الأنكداري. إلا أنه وقع فيها تحريف وتصحيف وسقط غير قليل.

عملنا في التحقيق:

لقد اعتمدنا في التحقيق من هذه النسخ على النسخة المصورة عن مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، لأنها أوثق النسخ، وأكملها، وأصحها، وأضبطها، ولأنها مقابلة ومقروءة على المؤلف، وتولينا تصحيح النص وضبطه، ومقابلته على ما بين أيدينا من الأصول، ومراجعتنا على أمهات المصادر التي استقى منها المؤلف، رحمه الله، مادة كتابه، وبذلنا الجهد في تفصيله وترقيمه، وشرح شواهد، وتخريج أحاديثه، والكلام عليها حسب ما تقتضيه القواعد الحديثية، مسترشدين في ذلك بأمهات المصادر، وأقاويل جهاذة علم الحديث ونقاده، وعلقنا عليه بما تدعو الحاجة إليه، وسنقوم - إن شاء الله - بوضع فهرس عامة للكتاب بعد تمامه، تُيسر تمام الفائدة منه.

ونسأل الله المبتدئ لنا بنعمه قبل استحقاقها، المُدِيمها علينا مع تقصيرنا في الإتيان على ما أوجب به من شكره بها، الجاعلنا في خير أمة أخرجت للناس: أن يرزقنا فهمًا في كتابه، ثم سنة نبيه، وقولًا وعملاً يؤدي بها عنا حقه، ويوجب لنا نافلة مزیده^(١) ونسأله سبحانه السداد والتوفيق.

الخميس ٩ جمادى الآخرة ١٣٨٤ هـ

الموافق ١٥ تشرين الأول ١٩٦٤ م



(١) اقتباس من «الرسالة»: ١٩ للإمام الشافعي رحمه الله.

٢٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله

الحق الذي شهدنا على الامير بالقران المحمود عانا بتوفيقه على الحكم الامير
 الرشيد وقررت به نغرسنا بين الوعد والوعد وحقه من تعبير الجمل
 وتبريد العنبر كالباب الياطل من بين يديه ولا من حله من قبل من حطم حده
 الله على التوفيق للتحديد واسكوه على الضيق في التوحيد وشهد ان لا اله الا الله
 وحده لا شريك له شهادة يسبق ذكرها على التاميد ان محمد عبده ورسوله
 ارسله الى القريب والبعيد بنسبه الخلاق ونذيرا وسراجا في الاكوان من انوار
 له من فضله خير كثير او حمله مقدما على الكل كبريا او لم يجعل له من ارادة جسته
 نظيرا لشيء من خلقه باسمه تعظيما له ونورا او انزل عليه كلاما برصد قوله
 بالصدق في حقنا فنقرير افعال فلين اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا
 القران لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا جعل الله عليه وسعاده واصحا
 وانساعة وازدادت اشياعه وسلم تسليما كثيرا وكان القران العجيب والسر العليم
 كان الصبر حيا واول النهج وكان شرف العلم شرف العلوم واول نظره في جملة من
 كتب الفقه والعلوم ما كان ليبر قد نزل الحافظ منه وصغير لا يسع ادراك الفصود عنه
 والتمس سطرا من قبل الخوايد عديرا التيب ورتعا العمل فيه المتخل وشرح غزيرة
 فانيتك هذا المختصر اليسير منطويا على العم الغزير وسويت براد المسير في علم
 التفسير وقد بلغت في اختصار اللفظة واجتهاد وفضل الله في حفظه والله العليم على
 ما نال جايد ابتويقة في حصيله علم التفسير روي الوعد الرحمن العليم
 مسعود فالكنا نتعلم من رسول الله صلى الله عليه وآله الحشر ولا تحاورها الى العشر الآخرة
 حتى نطرحها من العلم والعمل وروي قتادة عن الحسن ان قال ما انزل الله اية الا يجب ان
 لا يتعدوا في حقها ولا يفتروا في حقها ولا يفتروا في حقها ولا يفتروا في حقها



قوله ان احدكم مؤمنون صددوا الناس عنهم وما منهم من آمن فاسمهم فاسم احن هاهنا
 بما سلكه اسماهم رجلا لا يفرقه بعدون رجلين احن وسيا هم فاسترا
 حوله استمع ففر من احن هذا اقول القدر على هذا القول يكون السور
 مؤسوسا للعين كما يؤسوس للناس والناكب ان الوسواس الذي
 يؤسوس في صدور الناس يؤسوس اليهم وهم احن وهم احن والمعنى من سورة
 الذكر هو من اين سر عطف قوله والناس على الوسواس والمعنى من السور
 ومن سر الناس في جوارحهم يسعون من اين والناس هذا قول الرجاء
 بالشيخ رحمه الله معناه اخبرنا ان المسببه واكملنا على

الإنعام العزير وازدد لنا مجد الله ثم اذا ما استلنا خلا
 بعد فنقد من راي حيد سارنا اننا لثنا بتقوا اشرفنا بها
 ذكرنا الي ما تركنا وذلكنا طبعنا لناظركنا اني في قلبنا
 لما اعلمنا اننا صمدنا الله بجمع بيل من غننا الابد
 وقد فعلنا كومن اراد زيادة بسطه في التصديق
 فعليه كما اننا المصير في اليفسيرا ان اراد محضرا
 فعليه كما اننا المستي في ذكره الفوزة
 في تفسير الغرنيش

Marginal note on the left side:
 من راي حيد سارنا اننا لثنا بتقوا اشرفنا بها
 ذكرنا الي ما تركنا وذلكنا طبعنا لناظركنا اني في قلبنا
 لما اعلمنا اننا صمدنا الله بجمع بيل من غننا الابد
 وقد فعلنا كومن اراد زيادة بسطه في التصديق
 فعليه كما اننا المصير في اليفسيرا ان اراد محضرا
 فعليه كما اننا المستي في ذكره الفوزة
 في تفسير الغرنيش

Marginal note on the right side:
 في تفسير الغرنيش

واكملنا رسالنا من واصلنا الله على محمد وعلى ابي بكر
 وذريته والصالحين وسلم تسليما كما كتبت في اليوم الدين في يوم الجمعة

هذا هو الرهن الرهن
 ما من سعي ابو الفرج ابن المبروك رحمه الله
 بالشمس اثناء التفسير العبقري المكون من التوراة زهر بيك بدأه الحرف المشهور كما اصطلحوا به في اللغة
 هادئ من اشرفنا وسبقنا واحدة من لغتنا سادت به عليه خطا واحدة ربيعة في لغة من كان شعرنا طاقنا كما كان في لغتنا
 ما في حكم العترة ما لنا بعد اصناح مطربة الا انه وكما با حذر العترة البقرة لانه كان من حظه من
 انهم رزقوا بحمل الذي لغدرب الحمارين خيرة الاضواء فيركه في ذلك الوقت والابدية ما يجدت من حظه
 واصغرها الانحياز في كل تحصيل من كل واحد وفي العترة والاهل من سمرقند ما كان وما يكون وما يكون
 طغرة الاقالة ليطبق كل بالاعتراض والاهل من العترة يشار كل من تابت من قسطل واخذت من بير
 احوال الرتبة بل لغنا اشتملنا بدمولر شربيك واتوزر وهو صمد بيك مبرواهر الا ان من كان في حقه ما في حقه



هذه نسخة من كتاب الاربعة الالف في الحساب
 وهو من كتب المصنفين المشهورين في علم الحساب
 وقد كتبه على وجه التحديد في سنة الف واربعمائة
 من الهجرة النبوية في شهر رمضان المبارك
 في مدينة القاهرة بمصر
 والله اعلم بالصواب
 وكتبه في سنة الف واربعمائة
 من الهجرة النبوية في شهر رمضان المبارك
 في مدينة القاهرة بمصر
 والله اعلم بالصواب

سماعات الأجزاء الأربعة من زاد المسير^(١)

قرأت هذه المجلدة جميعها، وهي الثانية من كتاب «زاد المسير» على شيخنا الإمام العالم العامل زين الدين أبي العباس أحمد بن عبد الدايم بن نعمة المقدسي^(٢) فسح الله في مدته بحق سماعه قراءة، فسمعها الفقيه الإمام الفاضل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن غالب بن يوسف بن سعيد الأنصاري، والفقيه الإمام الحافظ عبد الحافظ بن عبد المنعم بن غازي المقدسي، وصح ذلك وثبت في مجلس الشيخ المسمع، شيخ جبل قاسيون ظاهر دمشق، في مجالس آخرها يوم الجمعة السادس عشر لشهر صفر سنة أربع وستين وستمئة، وكذلك قرأت المجلد الأول مثل هذا والثالث بعده والرابع وذلك جميع كتاب (زاد المسير في علم التفسير) فسمعه جميعه شمس الدين محمد بن غالب المذكور، وعبد الحافظ بن عبد المنعم المذكور، سمع بقراءتي المجلد الثاني والثالث والرابع، وسمع المجلد الأول بقراءة غيري، وسماع شيخنا زين الدين المذكور على مصنفه جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي المذكور من أول الكتاب العزيز إلى آخر سورة (القصص) ومن أول سورة (العنكبوت) إلى آخر الكتاب العزيز إجازة من المصنف، إن لم يكن سماعاً. وذكر الشيخ المسمع أن الكتاب جميعه سماعه من المؤلف، وكانت لديه نسخة وعليها سماعه، فذكرنا هذه الإجازة احتياطاً.

وأجاز الشيخ للجماعة السامعين جميع ما تجوز عنه روايته بشرطه.

وكتب أحمد بن فرج بن أحمد بن محمد^(٣) اللخمي الأندلسي عفا الله عنه وسامحه وغفر له ولوالديه ولمشايقه، ولجميع المسلمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.



(١) وهي مثبتة في آخر الجزء الثاني من مخطوطة الرباط. انظر لوحة رقم ٦ و٧.

(٢) هو أحمد بن عبد الدايم بن نعمة بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن بكر، المقدسي الصالحي، ولد سنة خمس وسبعين وخمسمئة بفندق الشيوخ من أرض نابلس، وسمع الكثير بدمشق من يحيى الثقفي، وأبي عبد الله بن صدقة، وأبي الحسن بن الموازيني، وعبد الرحمن الخرفي، وإسماعيل الجنزوي وغيرهم، وانفرد بالرواية عنهم. ودخل بغداد، وسمع بها من أبي الفرج بن كليب، والمبارك بن المعطوش، وأبي الفرج بن الجوزي، وغيرهم. وقرأ بنفسه، وعنى بالحديث، وتفقه على الشيخ موفق الدين، وخرج لنفسه مشيخة عن شيوخه، وجمع تاريخاً لنفسه، وكان فاضلاً متنبهاً وله نظم. ولي الخطابة بكفر بطنا بضع عشرة سنة. كان حسن الخط سريعاً فيه، مكثرأ من نسخ الكتب له وبالأجرة. لازم الكتابة أكثر من ٥٠ سنة. وكان يكتب في اليوم إذا تفرغ تسعة كراريس، ويقال: إنه كتب بيده ألفي مجلدة، منها «تاريخ الشام» لابن عساكر مرتين. و«المغني» لموفق الدين مرات. وكف بصره في آخر عمره. روى عنه الأئمة الكبار، والحفاظ المتقدمون والمتأخرون، منهم: الشيخ محيي الدين النووي، والشيخ شمس الدين بن أبي عمرو، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ تقي الدين بن تيمية. وتوفي في رجب سنة ٦٦٨. ودفن بسفح قاسيون. انظر «ذيل طبقات الحنابلة» ٢/٢٧٨، و«نكت الهميان» ٩٩، و«وفوات الوفيات» ٨٥/١.

(٣) قال ابن العماد في «الشذرات» ٥/٤٤٣: هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرج بن أحمد الإشبيلي الشافعي المحدث الحافظ تفقه على ابن عبد السلام. قال الذهبي: وحديثنا عن ابن عبد الدايم وطبقته، عاش خمسا وسبعين سنة، وكان ذا وروع وعبادة وصدق.

ترجمة ابن الجوزي^(١)

نسبه - مولده - نشأته - شيوخه:

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن بن علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن حُمّادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي، القرشي التميمي البكري البغدادي، الفقيه الحنبلي، الواظ الحافظ المفسر، الأديب الملقب: جمال الدين. وقد اختلف في نسبته، فقيل: إنَّ جدّه جعفر نُسب إلى فُرْضَة^(٢) من فُرْض البصرة يقال لها: جوزة. قال المنذري: هو نسبة إلى موضع يقال له: فُرْضَة الجوز. وذكر الشيخ عبد الصمد بن أبي الجيش أنه منسوب إلى محلة بالبصرة تسمى: محلة الجوز، وقيل: بل كانت بداره في واسط جوزة، لم يكن بواسط جوزة سواها. وكما اختلف في نسبه، اختلف كذلك في مولده، فقد وجد بخطه: لا أحقُّ مولدي، غير أنه مات والذي في سنة أربع عشرة، وقالت الوالدة: كان لك من العمر نحو ثلاث سنين، فعلى هذا يكون مولده: سنة إحدى عشرة، أو اثني عشرة وخمسمائة.

وكان مولده ببغداد بدارب حبيب، فلما توفي والده، وهو صغير، كفلته أمه وعمته، وكان أهله تجاراً في النحاس، ولهذا يوجد في بعض سماعاته القديمة: ابن الجوزي الصفار. والصفري هو: النحاس. ولما ترعرع حملته عمته إلى مسجد أبي الفضل ابن ناصر الحافظ الثقة البغدادي فاعتنى به، وأسمعه الحديث، وقد قيل: إن أول سماعه كان سنة ٥١٦هـ. وحفظ القرآن، وقرأه مجوداً على جماعة من أئمة القراءة وفي كبره قرأ بالروايات بواسط علي ابن الباقلاني، قال في أول مشيخته: حملني شيخنا ابن ناصر إلى الأشياخ في الصغر، وأسمعني العوالي، وأثبت سماعاتي كلها بخطه، وأخذ لي إجازات منهم، فلما فهمت الطلب، كنت أأزم من الشيوخ أعلمهم، وأوثر من أرباب النقل أفهمهم، فكانت همتي تجويد العدد، لا تكثير العدد، ولما رأيت من أصحابي من يؤثر الاطلاع على كبار مشايخي، ذكرت عن كل واحد منهم حديثاً، ثم ذكر في هذه المشيخة له سبعة وثمانين شيخاً.

وسمع الكتب الكبار كالمسند للإمام أحمد^(٣)، وجامع الترمذي، وتاريخ الخطيب البغدادي، وسمع صحيح البخاري على أبي الوقت، وصحيح مسلم بنزول، وما لا يحصى من الأجزاء، وتصانيف ابن أبي الدنيا، وغيرها. ثم صحب أبا الحسن ابن الزاغوني، ولازمه، وعلق عنه الفقه والوعظ. قال ابن الجوزي: كان له في كل فن من العلم حظ وافر، ووعظ مدة طويلة، وصحبته زماناً، فسمعت منه الحديث، وعلقت عنه من الفقه والوعظ، وكانت له حَلَقَة بجامع المنصور يناظر فيها يوم الجمعة قبل الصلاة، ثم يعظ فيها بعد الصلاة، ويجلس يوم السبت أيضاً. وشهد ابن ناصر الدين للزاغوني أنه كان فقيه الوقت، وأنه كان مشهوراً بالصلاح والديانة، والورع والصيانة. وتوفي ابن الزاغوني حين بلغ ابن الجوزي سن الحلم، فطلب ابن الجوزي خلفته^(٤) فلم يُعْط ذلك لصغره، وأعطيت الخلفة لأبي علي الرذائي، فذهب ابن الجوزي إلى الوزير، فألقى بين يديه فصلاً في المواعظ، فأذن له بالوعظ في جامع المنصور، قال ابن الجوزي: فتكلمت فيه، فحضر مجلسي أول يوم جماعة من أصحابنا الكبار من الفقهاء، منهم

(١) أخذت ترجمة ابن الجوزي عن كتاب «الذليل على طبقات الحنابلة» ٣٩٩/١، «والبداية والنهاية» لابن كثير ٢٨/١٣. و«وفيات الأعيان» لابن خلكان ٢/٣٢١. ومما ألفه ابن الجوزي نفسه. وانظر ترجمته في كتاب «القصاص والمذكرين» تحقيق الدكتور الشيخ محمد بن لطفي الصياغ. وأصل هذه الترجمة كنت قد وضعتها في أول زاد المسير.

(٢) فرضة النهر: ثلثة التي يستقي منها، وفرضة البحر: محط السفن.

(٣) وهو من مطبوعات المكتب الإسلامي مع فهرس للصحابة من عمل المحدث الشيخ ناصر الدين الألباني.

(٤) أي: أن يحل محله في وظائفه.

عبد الواحد بن شعيب، وأبو علي ابن القاضي، وأبو بكر بن عيسى، وغيرهم.

ثم تكلمت في مسجد معروف^(١)، وفي باب البصرة، ونهر المعلى، فاتصلت المجالس، واشتد الزحام، وقوي اشتغالي بفنون العلم، وانقطعت مجالس أبي علي الرذائي.

وقرأ الفقه والخلاف والجدل والأصول على أبي بكر الدينوري، والقاضي أبي يعلى، وتتبع مشايخ الحديث والفقه، فكان منهم القاضي أبو بكر الأنصاري، وأبو القاسم الحريري، وأبو السعادات المتوكلي، وأخوه يحيى، وأبو عبد الله البارع، وأبو الحسن علي بن أحمد الموحد، وأبو غالب الماوردي، وأبو منصور ابن خيرون، وأبو القاسم السمرقندي، وعبد الملك الكرخوي، وأبو سعد الزوزني، وأبو سعد البغدادي، ويحيى بن الطراح، وإسماعيل بن أبي صالح المؤذن، وأبو القاسم علي الهروي الواعظ، وأبو منصور القزاز، وعبد الجبار بن منده.

قال: ولم أقتع بفن واحد، بل كنت أسمع الفقه والحديث، وأتبع الزهاد، ثم قرأت اللغة، ولم أترك أحداً ممن يروي ويعظ، ولا غريباً يقدم، إلا وأحضره وأتخير الفضائل، ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث، فيقطع نفسي من العدو لثلاث أسبوع، وكنت أصيخُ وليس لي مأكُل. وأمسي وليس لي مأكُل، ما أذلي الله لمخلوق قط، ولو شرحت أحوالي لطال الشرح.

وقرأ الأدب على أبي منصور الجواليقي أستاذ عصره في علوم العربية. وكان مدرستها في المدرسة النظامية، وكان إمام الخليفة المقتفي. وكان [الجواليقي] متديناً ثقة ورعاً، غزير الفضل، كامل العقل، ملبح الخط. كثير الضبط، له التصانيف الكثيرة. قال ابن الجوزي: قرأت عليه كتابه: «المعرب» وغيره من تصانيفه.

صفاته وأخلاقه - مجالسه - مذهبه ومحاربه البدع:

كان ابن الجوزي يكثر الكلام عن نفسه في كتابه «صيد الخاطر»^(٢) فيذكر أنه نشأ في النعيم، ورُبي على الدلال، وأنه قد حُبب إليه العلم من زمن الطفولة، ولم يرغب في فن واحد من فنونه، بل رغب في كل فن، وأنه يتردد أبدأ بين الزهد والعبادة، وبين العلم والبحث، وأن من لداته وأصحابه من أنفق عمره في اكتساب الدنيا، ثم لم يئل منها ما ناله هو، وأن عيشه ألين من عيشهم، وجاهه أعلى من جاههم، وتحدث كيف أنه كان في زمن الطلب يأخذ معه أرغفة يابسة، ويخرج في طلب الحديث، فيقعد على نهر عيسى - غربي بغداد -، لا يقدر على أكل هذا الخبز اليابس إلا عند الماء كلما أكل لقمة شرب عليها شربة، وأنه وجد مع ذلك من لذة العلم وحلاوة الإيمان ما يخاف جعله على نفسه العجب إن شرحه.

وقال عنه ابن العماد: وكان يراعي حفظ صحته، وتلطيف مزاجه، وما يفيد عقله قوة، وذهنه حدة، لباسه الناعم الأبيض المطيب، وله مداعبات حلوة، وما تناول مالا من جهة لا يتيقن حلها، ولا ذل لأحد، قال في «الفتة الكبد»^(٣) يخاطب ولده: «وما ذل أبوك في طلب العلم قط، ولا خرج يطوف في البلدان كخيره من الوعاظ، ولا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئاً».

وقال ابن كثير: وكان فيه بهاء، وترفع، وإعجاب بنفسه، وسمو بها، أكثر من مقامها، وذلك ظاهر في كلامه في نشره ونظمه، ثم أورد له شعراً منه قوله:

لو كان هذا العلم شخصاً ناطقاً

وسألته هل زار مثلي؟ قال: لا

قال ابن رجب: مما عيب عليه ما يوجد في كلامه من الثناء على نفسه، والترفع والتعظيم، وكثرة الدعاوى، ولا ريب أنه كان عنده من ذلك طرف، سامحه الله.

قال ابن الجوزي في «الفتة الكبد»: ولقد وضع الله لي من القبول في قلوب الخلق فوق الحد، وأرقع كلامي في

(١) هو معروف الكرخي. ومسجده في محلة الكرخ غربي دجلة في بغداد.

(٢) طبع بتحقيق أستاذنا الكبير الشيخ علي الطنطاوي، وعلق على أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

(٣) طبعها المكتب الإسلامي بتحقيق الدكتور مروان القبانى.

نفوسهم فلا يرتابون بصحته، وقد أسلم على يدي نحو مائتين من أهل الذمة... وقد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يتعناه الجهال^(١).

وقال سبطه أبو المظفر: أقل ما كان يحضر مجلسه عشرة آلاف، وكان زاهداً في الدنيا متقللاً منها، وسمعته يقول على المنبر في آخر عمره: «كتبت بأصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يدي مئة ألف». وما خرج من بيته إلا إلى الجامع للجمعة وللمجلس، وما مازح أحداً قط، ولا أكل من جهة لا يتيقن حلها، وما زال على ذلك الأسلوب حتى توفاه الله تعالى.

وكان يتصف بقوة البديهة، وحضور الذهن، والأجوبة النادرة، مع كثرة الحفظ وسعة الرواية. ومن أندر أجوبته أنه وقع النزاع على عهده في المفاضلة بين أبي بكر وعلي، بين أهل السنة والشيعة، ورضوا فيما بينهم بما يجب به الشيخ أبو الفرج، فأقاموا له رجلاً وسط المجلس، فسأله عن ذلك، فقال على الفور: أفضلهما من كانت ابنته تحته، ونزل في الحال حتى لا يراجع في ذلك. فقال السنية: هو أبو بكر رضي الله عنه، لأن عائشة رضي الله عنها تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت الشيعة: هو علي رضي الله عنه، لأن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحته^(٢).

قال ابن خلكان: وهذه من لطائف الأجوبة، ولو حصل بعد الفكر التام وإمعان النظر كان في غاية الحسن، فضلاً عن البديهة. ومن أجوبته أن رجلاً سأله: أيهما أفضل، أسبح، أو استغفر؟ فقال: الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون منه إلى البخور.

ومنزلة في الوعظ لم يكن يدانيه فيها أحد، ولقد أوتي من قوة العارضة، وحسن التصرف في فنون القول، وشدة التأثير في الناس، ما لم يؤت الكثيرون.

قال ابن رجب: قرأت بخط الإمام ناصح الدين ابن الحنبلي الواعظ في حق الشيخ أبي الفرج: اجتمع فيه من العلوم ما لم يجتمع في غيره. وكانت مجالسه الوعظية جامعة للحسن والإحسان باجتماع ظراف بغداد، ونظاف الناس، وحسن الكلمات المسجعة، والمعاني المودعة في الألفاظ الرائجة، وقراءة القرآن بالأصوات المرجعة، والنعيمات المطربة، وصيحات الواجدنين، ودمعات الخاشعين، وإنابة النادمين، وذل التائبين... ووعظ وهو ابن عشر سنين إلى أن مات. حضرت مجالسه الوعظية بباب بدر عند الخليفة المستضيء، ومجالسه بدر ديار في مدرسته، ومجالسه بباب الأزج على شاطئ دجلة.

ويصف ابن الجوزي نفسه مجلساً من مجالسه فيقول: فسألني أهل الحريرة أن أعقد عندهم مجلساً للوعظ ليلة، فوعدتهم ليلة الجمعة سادس ربيع الأول، وانقلبت بغداد، وعبر أهلها عبوراً زاد على نصف شعبان زيادة كبيرة، فعبرت إلى باب البصرة فدخلتها بعد المغرب، فتلقاني أهلها بالشموع الكثيرة، وصحبني منها خلق عظيم، فلما خرجت من باب البصرة، رأيت أهل الحريرة قد أقبلوا بشموع لا يمكن إحصاؤها، فأضيفت إلى شموع أهل باب البصرة، فحزرت بألف شمعة، وما رأيت البرية إلا مملوءة بالأضواء، وخرج أهل المحال والنساء والصبيان ينظرون، وكان الزحام كالزحام بسوق الثلاثاء، فدخلت الحريرة، وقد امتلأ الشارع، وأكثرت الرواشين من وقت الضحى، ولو قيل: إن الذين خرجوا يطلبون المجلس، وسعوا في الصحراء بين باب البصرة والحريرة مع المجتمعين في المجلس كانوا ثلاثمائة ألف ما أبعد القائل.

قال ابن الجوزي: وظهر أقوام يتكلمون بالبدع ويتعصبون في المذاهب، فأعاني الله سبحانه عليهم، وكانت كلمتنا العليا.

وكان الشيخ رحمه الله يظهر في مجالسه مدح السنة والإمام أحمد وأصحابه، ويذم من يخالفهم، ويصرح

(١) مثل ما يفعل اليوم السفهاء من إطالة الشعر والأظفار... إلخ.

(٢) الحق أنه أبو بكر، لأنه آخر المذكور، كما أن السؤال عن فضلها لا عن فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

بمذاهبهم في مسائل الأصول، لا سيما في مسألة القرآن^(١). وكلامه في كته الوعظية في ذلك كثير جداً. وقال يوماً على المنبر: أهل البدع يقولون: ما في السماء أحد، ولا في المصحف قرآن، ولا في القبر نبي، ثلاث عورات لكم.

وقيل له مرة: قلل من ذكر أهل البدع مخافة الفتن، فأشدد:

أتوب إليك يا رحمنُ ما
جنيْتُ فقد تعاطمتِ الذنوبُ
وأما من هوى ليلى وحبي
زيارتها، فإنني لا أتوب

وقال له قائل: ما فيك عيب إلا أنك حنيلي، فأشدد:

وعيرني الواشون أني أحبها
وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

ثم قال: أهذا عيبي؟! ولا عيب في وجه نقط صحته بالخال.

علمه ومصنفاته:

ذكره الحافظ الديلمي في ذيله على تاريخ ابن السمعاني فقال: شيخنا الإمام جمال الدين ابن الجوزي صاحب التصانيف في فنون العلم: من التفاسير، والفقه، والحديث، والوعظ، والرقائق، والتواريخ وغير ذلك. وإليه انتهت معرفة الحديث وعلموه، والوقوف على صحيحه من سقيم، وله فيه المصنفات من المسانيد والأبواب والرجال، ومعرفة ما يحتاج به في أبواب الأحكام والفقه، وما لا يحتاج به من الأحاديث الواهية الموضوعة، والانتقاع والاتصال، وله في الوعظ العبارة الرائقة، والإشارات الفائقة، والمعاني الدقيقة، والاستعارة الرشيقة، وكان من أحسن الناس كلاماً، وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لساناً، وأجودهم بياناً، وبورك له في عمره وعمله، فروى الكثير، وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة، وحدث بمصنفاته مراراً.

وقال الموفق عبد اللطيف: كان ابن الجوزي لا يضيع من زمانه شيئاً، يكتب في اليوم أربعة كراريس، ويرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلداً إلى ستين. وله في كل علم مشاركة، لكنه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفاظ، وفي التاريخ من المتوسعين ولديه فقه كافٍ...

وقد ذكر ابن القادسي في تاريخه ما أخذ على ابن الجوزي من كثرة أغلاطه في تصانيفه فقال: وعذره في هذا واضح، وهو أنه كان مكثراً من التصانيف، فيصنف الكتاب ولا يعتبره^(٢)، بل يشتغل بغيره، وربما كتب في الوقت الواحد في تصانيف عديدة. ولولا ذلك لم يجتمع له هذه المصنفات الكثيرة. ومع هذا فكان تصنيفه في فنون من العلوم بمنزلة الاختصار من كتب في تلك العلوم، فينقل من التصانيف من غير أن يكون متقناً لذلك العلم من جهة الشيوخ والبحث، ولهذا نقل عنه أنه قال: أنا مرتب، ولست بمصنف.

قال ابن رجب: قرأ على الشيخ أبي الفرج جماعة؛ منهم طلحة العلثي، ومنهم أبو عبد الله ابن تيمية خطيب حران. وذكر في أول تفسيره أنه قرأ عليه كتابه «زاد المسير» في التفسير قراءة بحث ومراجعة.

وروى عنه خلق، منهم ولده الصاحب محيي الدين، وسبطه أبو المظفر الواعظ^(٣)، والشيخ موفق الدين ابن قدامة، والحافظ عبد الغني المقدسي، وابن الديلمي، وابن القطيعي، وابن النجار، وابن الخليل، وابن عبد الدايم، والنجيب عبد اللطيف الحراني، وهو خاتمة أصحابه بالسماع.

قال ابن رجب: وكان رحمه الله تعالى إذا رأى تصنيفاً وأعجبه صنف مثله في الحال، وإن لم يكن قد تقدم له في ذلك الفن عمل، لقوة فهمه، وحدة ذهنه، فربما صنف لأجل ذلك الشيء ونقيضه بحسب ما يتفق له من الوقوف على

(١) أي قضية خلق القرآن التي فارق المعتزلة والجمعية وآباعهم أهل السنة فيها. وكان ضلالهم فيها كبيراً. ومن زعم بأنها مسألة لفظية!! فقد دلس وخلق.

(٢) أي: لا يراجعه.

(٣) وهذا لم يكن ثقة وهو صاحب التاريخ المعروف.

تصانيف من تقدمه^(١).

قال ابن خلكان: وبالجملة فكتبه أكثر من أن تعد، وكتب بخطه شيئاً كثيراً، والناس يغالون في ذلك حتى يقولون: إنه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره، وقسمت الكراريس على المدة، فكان ما خص كل يوم تسع كراريس، وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل، ويقال: إنه جمعت برائة أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله ﷺ فحصل منها شيء كثير، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته، ففعل ذلك، فكفت وفضل منها.

وتصانيف ابن الجوزي كثيرة جداً بلغت - فيما يذكر الرواة - خمسين ومائتي كتاب، وقد نقل ابن رجب عن ابن القطيعي أن ابن الجوزي ناو له كتاباً بخطه سرد فيه تصانيفه.

قال أبو الفرج: أول ما صنفت وألفت ولي من العمر نحو ثلاث عشرة سنة.

مصنفاته في القرآن وعلومه:

- ١ - «المغني» في التفسير ٨١ جزء. ٢ - «زاد المسير في علم التفسير» أربع مجلدات. ٣ - «تيسير البيان في تفسير القرآن» مجلد. ٤ - «تذكرة الأريب في تفسير الغريب» مجلد. ٥ - «غريب الغريب» جزء. ٦ - «نزهة العيون الناظر في الوجوه والنظائر» مجلد. ٧ - «الوجوه النواضر في الوجوه والنظائر» مجلد. ٨ - «الإشارة إلى القراءة المختارة» ٤ أجزاء. ٩ - «تذكرة المنتبه في عيون المشتبه» جزء. ١٠ - «فنون الأفتان في عيون علوم القرآن» مجلد. ١١ - «ورد الأغصان في فنون الأفتان» جزء. ١٢ - «عمدة الراسخ في معرفة المنسوخ والناسخ» ٥ أجزاء. ١٣ - «المصفي بأكف أهل الرسوخ في علم الناسخ والمنسوخ»^(٢) جزء.

مصنفاته في أصول الدين:

- ١٤ - «منتقد المعتقد» جزء. ١٥ - «منهاج الوصول إلى علم الأصول» ٥ أجزاء. ١٦ - «بيان غفلة القائل بقدم أفعال العباد» جزء. ١٧ - «غوامض الإلهيات» جزء. ١٨ - «مسلك العقل» جزء. ١٩ - «منهاج أهل الإصابة». ٢٠ - «السر المصون» مجلد. ٢١ - «دفع شبه التشبيه» ٤ أجزاء. ٢٢ - «الرد على المتعصب العنيد».

مصنفاته في الحديث والزهديات:

- ٢٣ - «جامع المسانيد بالخص الأسانيد». ٢٤ - «الحدائق» ٣٤ جزء. ٢٥ - «نفي النقل» ٥ أجزاء. ٢٦ - «المجتبى» مجلد. ٢٧ - «النزهة» جزآن. ٢٨ - «عيون الحكايات» مجلد. ٢٩ - «ملنقط الحكايات» ١٣ جزء. ٣٠ - «إرشاد المريدين في حكايات السلف الصالحين» مجلد. ٣١ - «روضة الناقل» جزء. ٣٢ - «غرر الأثر». ٣٠ جزء. ٣٣ - «التحقيق في أحاديث التعليق» مجلدان. ٣٤ - «المديح» ٧ أجزاء. ٣٨ - «الموضوعات من الأحاديث المرفوعات» مجلدان. ٣٩ - «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» مجلدان. ٤٠ - «الكشف لمشكل الصحيحين» أربع مجلدات. ٤١ - «الضعفاء والمتروكين» مجلد. ٤٢ - «إعلام العالم بعد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث ومنسوخه» مجلد. ٤٣ - «إخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث»^(٣) جزء. ٤٤ - «السهم المصيب» جزآن. ٤٥ - «أخبار الذخائر» ٣ أجزاء. ٤٦ - «الفوائد عن الشيوخ» ٦٠ جزء. ٤٧ - «مناقب أصحاب الحديث» مجلد. ٤٨ - «موت الخضر» مجلد. ٤٩ - «مختصرة» جزء. ٥٠ - «المشيخة» جزء. ٥١ - «المسلسلات» جزء. ٥٢ - «المحتسب في النسب» مجلد. ٥٣ - «تحفة

(١) قلت: وقد ألف رحمه الله كتاباً حافلاً في الأحاديث الموضوعات ليحترز منها الفقهاء والوعاظ وغيرهم، ومع ذلك فقد أورد في كتيبه الوعظية أحاديث موضوعة وأخبار واهية منكرة دون أن يشير إليها أو ينبه عليها، بل تراء يستشهد بها كأنها من الصحاح أو الحسان، كما تجد ذلك في كتابه «دم الهوى» و«قرة العيون المبصرة بتلخيص كتاب التبصرة» و«رؤوس القوارير في الخطب والمحاضرات والوعظ والتذكير»، قال الحافظ السخاوي في «شرح ألفية العراقي» ١٠٧: وقد أكثر ابن الجوزي في تصانيفه الوعظية وما أشبهها من إيراد الموضوع وشبهه.

(٢) وقد طبعته بالاشتراك في تحقيقه مع الأخ الفاضل الشيخ محمد كنعان.

(٣) طبع المكتب الإسلامي بتحقيق الشيخ محمد كنعان، وزهير الشاويش.

- الطلاب» ٣ أجزاء. ٥٤ - «تتوير مدلهم الشرف» جزء. ٥٥ - «الألقاب» جزء. ٥٦ - «فضائل عمر بن الخطاب» مجلد. ٥٧ - «فضائل عمر بن عبد العزيز» مجلد. ٥٨ - «فضائل سعيد بن المسيب» مجلد. ٥٩ - «فضائل الحسن البصري» مجلد. ٦٠ - «مناقب الفضيل بن عياض» أربعة أجزاء. ٦١ - «مناقب بشر الحافي» سبعة أجزاء. ٦٢ - «مناقب إبراهيم بن أدهم» ستة أجزاء. ٦٣ - «مناقب سفیان الثوري» مجلد. ٦٤ - «مناقب أحمد بن حنبل» مجلد. ٦٥ - «مناقب معروف الكرخي» جزآن. ٦٦ - «مناقب رابعة العدوية» جزء. ٦٧ - «مشير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن» مجلد. ٦٨ - «صفوة الصفوة» ٥ مجلدات. ٦٩ - «منهاج القاصدين» أربع مجلدات^(١). ٧٠ - «المختار من أخبار الأخيار» مجلد. ٧١ - «القاطع لمحال اللجاج بمحال الحجاج» جزء. ٧٢ - «عجالة المنتظر لشرح حال الخضر» جزء. ٧٣ - «النساء وما يتعلق بأدابهن» مجلد. ٧٤ - «علم الحديث المنقول في أن أبا بكر أم الرسول». جزء ٧٥ - «الجوهر». ٧٦ - «المغلق».

مصنفاته في التاريخ:

- ٧٧ - «تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التواريخ والسير» مجلد. ٧٨ - «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» ١٠ مجلدات. ٧٩ - «شذور العقود في تاريخ المعهود» مجلد. ٨٠ - «طرائف الظرائف في تاريخ السوالمف» جزء. ٨١ - «مناقب بغداد» مجلد.

مصنفاته في الفقه:

- ٨٢ - «الإنصاف في مسائل الخلاف». ٨٣ - «جُنة النظر وجنة النظر» وهي التعليقة الوسطى. ٨٤ - «معتصر المختصر في مسائل النظر». ٨٥ - «عمد الدلائل في مشتهر المسائل» وهي التعليقة الصغرى. ٨٦ - «المذهب في المذهب»^(٢). ٨٧ - «مسبوك الذهب» مجلد. ٨٨ - «النبذة» جزء. ٨٩ - «العبادات الخمس» جزء. ٩٠ - «أسباب الهداية لأرباب البداية» مجلد. ٩١ - «كشف الظلمة عن الضياء في رد دعوى». ٩٢ - «رد اللوم والضييم في صوم يوم الغيم» جزء.

مصنفاته في علوم الوعظ:

- ٩٣ - «اليواقيت في الخطب» مجلد. ٩٤ - «المنتخب في التواب»^(٣) مجلد. ٩٥ - «منتخب المنتخب» مجلد. ٩٦ - «نسيم الرياض» مجلد. ٩٧ - «اللؤلؤ» مجلد. ٩٨ - «كنز المذكر» مجلد. ٩٩ - «الأرج» مجلد. ١٠٠ - «اللطفات» مجلد. ١٠١ - «كنوز الرموز» مجلد. ١٠٢ - «المقتبس» مجلد. ١٠٣ - «موافق المرافق» مجلد. ١٠٤ - «شاهد ومشهود» مجلد. ١٠٥ - «واسطات العقود من شاهد ومشهود» مجلد. ١٠٦ - «الذهب» جزآن. ١٠٧ - «المدهش» مجلدان. ١٠٨ - «صبا نجد» جزء. ١٠٩ - «محادثة العقل». ١١٠ - «لقط الجمال» جزء. ١١١ - «معاني المعاني» جزء. ١١٢ - «فتوح الفتوح» جزء. ١١٣ - «التعازي الملوكية» جزء. ١١٤ - «العقد المقيم» جزء. ١١٥ - «إيقاظ الومنان من الرقعات بأحوال الحيوان والنبات» جزآن. ١١٦ - «نكت المجالس البديرة» جزآن. ١١٧ - «نزهة الأديب» جزآن. ١١٨ - «متهى المتهى» مجلد. ١١٩ - «تبصرة المبتدئ» ٢٠ جزء. ١٢٠ - «الياقوتة» جزآن. ١٢١ - «تحفة الوعاظ» مجلد.

مصنفاته في فنون مختلفة:

- ١٢٢ - «ذم الهوى» مجلدان. ١٢٣ - «صيد الخاطر» ٦٥ جزء. ١٢٤ - «أحكام الأشعار بأحكام الإشعار» عشرون جزء. ١٢٥ - «القصاص والمذكرين»^(٤). ١٢٦ - «تقويم اللسان» مجلد. ١٢٧ - «الأذكياء» مجلد. ١٢٨ - «الحمقى» مجلد. ١٢٩ - «تلييس إبليس» مجلدان. ١٣٠ - «لقط المنافع» في الطب مجلدان. ١٣١ - «الشيب والخضاب» مجلد.

(١) ومن مطبوعات المكتب الإسلامي لابن قدامة المقدسي، بتحقيق زهير الشاوش.

(٢) هو لابنه يوسف وقد طبعه المحسن الشيخ قاسم بن درويش فخر جزاه الله كل خير.

(٣) وهو تحت الطبع في المكتب الإسلامي، بتحقيق الدكتور عبده الراجحي وزهير الشاوش.

(٤) وقد تم طبعه في المكتب الإسلامي بتحقيق الدكتور محمد الصباغ.

١٣٢ - «أعمار الأعيان»^(١) جزء. ١٣٣ - «الثبات عند الممات» جزآن. ١٣٤ - «تنوير الغبش في فضل السود والحبش» مجلد. ١٣٥ - «الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ» جزء. ١٣٦ - «إشراف الموالي» جزآن. ١٣٧ - «إعلام الأحياء بأغلاط الأحياء». ١٣٨ - «تحريم المحل المكروه» جزء. ١٣٩ - «المصباح لدعوة الإمام المستضيء» مجلد. ١٤٠ - «عطف العلماء على الأمراء والأمراء على العلماء» جزء. ١٤١ - «النصر على مصر» جزء. ١٤٢ - «المجد العسدي» مجلد. ١٤٣ - «الفجر النوري» مجلد. ١٤٤ - «مناقب الستر الرفيع» جزء. ١٤٥ - «ما قلته من الأشعار» جزء. ١٤٦ - «المقامات» مجلد. ١٤٧ - «من رسائل» جزء. ١٤٨ - «الطب الروحاني» جزء. ١٤٩ - «بيان الخطأ والصواب عن أحاديث الشهاب» ١٦ جزء. ١٥٠ - «الباز الأشهب المنقض على من خالف المذهب». ١٥١ - «الوفا بفضائل المصطفى ﷺ» مجلدان. ١٥٢ - «النور في فضائل الأيام والشهور» مجلد. ١٥٣ - «تقريب الطريق الأبعد في فضائل مقبرة أحمد». ١٥٤ - «مناقب الإمام الشافعي». ١٥٥ - «العزلة». ١٥٦ - «الرياضة». ١٥٧ - «منهاج الإصابة في محبة الصحابة». ١٥٨ - «فنون الألباب». ١٥٩ - «الظرفاء والمتحابين». ١٦٠ - «مناقب أبي بكر». ١٦١ - «مناقب علي» مجلد. ١٦٢ - «فضائل العرب» مجلد. ١٦٣ - «درة الإكليل في التاريخ» أربع مجلدات. ١٦٤ - «الأمثال» مجلد. ١٦٥ - «المنفعة في المذاهب الأربعة» مجلدان. ١٦٦ - «المختار من الأشعار» عشر مجلدات. ١٦٧ - «رؤوس القوارير» مجلدان. ١٦٨ - «المرتجل في الوعظ» مجلد كبير. ١٦٩ - «ذخيرة الواعظ؟ أجزاء». ١٧٠ - «الزجر المخوف». ١٧١ - «الأنس والمحبة». ١٧٢ - «المطرب الملهب». ١٧٣ - «الزند الوري في الوعظ الناصري» جزآن. ١٧٤ - «الفاخر في أيام الإمام الناصر» مجلد. ١٧٥ - «المجد الصلاحي» مجلد. ١٧٦ - «لغة الفقه» جزآن. ١٧٧ - «غريب الحديث» مجلد. ١٧٨ - «ملح الأحاديث» جزآن. ١٧٩ - «الفصول الوعظية على حروف المعجم». ١٨٠ - «سلوة الأحران» عشر مجلدات. ١٨١ - «المعشوق في الوعظ». ١٨٢ - «المجالس اليوسفية في الوعظ». ١٨٣ - «الوعظ المقبري». ١٨٤ - «قيام الليل» ٣ أجزاء. ١٨٥ - «المحادثة». ١٨٦ - «المناجاة». ١٨٧ - «زاهر الجواهر في الوعظ» أربع أجزاء. ١٨٨ - «كنز المذكر». ١٨٩ - «النحاة الخواتيم» جزآن. ١٩٠ - «المرتقى لمن اتقى». ١٩١ - «زين القصص» مجلد. ١٩٢ - «نسيم الرياض». ١٩٣ - «لفتة الكيد في نصيحة الولد»^(٢). ١٩٤ - «القرامطة»^(٣).

وفاته:

قال سبطه أبو المظفر: جلس جدي يوم السبت سابع شهر رمضان - يعني سنة سبع وتسعين وخمسائة - تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي، وكنت حاضراً، فأنشد أبياتاً قطع عليها المجلس، ثم نزل عن المنبر فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بين العشاءين في داره وعمره نحو التسعين، وغسل وقت السحر واجتمع أهل بغداد، وغلقت الأسواق، وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيراً جداً، وكان في شهر تموز، فأطفر بعض من حضر لشدة الحر وكثرة الزحام^(٤)، وما وصل حفرة إلا وقت صلاة الجمعة والمؤذن يقول: الله أكبر. ودفن بباب حرب، بالقرب من مدفن أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وترك من الأولاد ثلاثة ذكور، وثلاث إناث. تغمد الله برحمته ونفع المسلمين بعلومه، وجعل أجر ذلك في صحيفة أعماله.



(١) وهو تحت الطبع بتحقيقي.

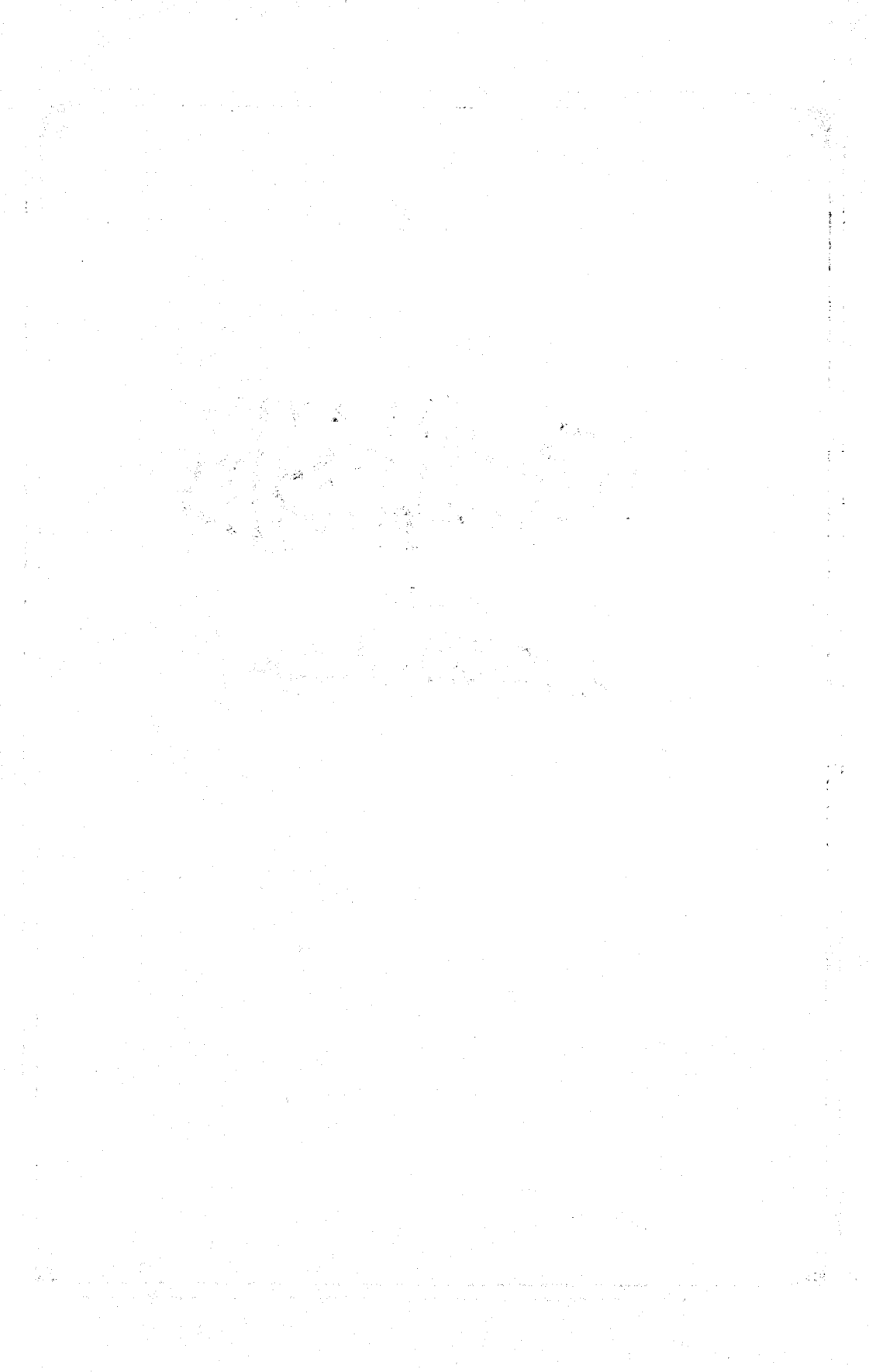
(٢) طبع المكتب الإسلامي تحقيق الدكتور الشيخ مروان القباني.

(٣) طبع المكتب الإسلامي تحقيق الدكتور محمد بن لطفي الصباغ.

(٤) هذا المعنى غير ثقة وصاحب مبالغت، وعجيب أن يترك الناس الفريضة من أجل ناقله، لأن صلاة الجنازة إذا قام بها البعض كان للأخريين نافلة.

فِزَالَةُ الْمَسِيرِ

فِي
عِلْمِ التَّفْسِيرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي شرفنا على الأمم بالقرآن المجيد، ودعانا بتوفيقه على الحكم إلى الأمر الرشيد، وقوم به نفوسنا بين الوعد والوعيد، وحفظه من تغيير الجهول وتحريف العنيد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

أحمده على التوفيق للتحميد، وأشكره على التحقيق في التوحيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة يبقى ذخرها على التأيد، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله إلى القريب والبعيد، بشيراً للخلائق ونذيراً، وسراجاً في الأكنون منيراً، ووهب له من فضله خيراً كثيراً، وجعله مقدماً على الكل كبيراً، ولم يجعل له من أزياب جنسه نظيراً، ونهى أن يدعى باسمه تعظيماً له وتوقيراً، وأنزل عليه كلاماً قرر صدق قوله بالتحدي بمثله تقريراً، فقال: ﴿قُلْ لَيْسَ آخِذَتِ السُّوءُ وَالْحَسَنُ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِبُحْتٍ هَذَا الْفُرْقَانِ لَا يَأْتُونَ بِبُحْتٍ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِيَمِينِ ظَهْرِكَ﴾ [الاسراء: ٨٨] فصلي الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأزواجه وأشياعه، وسلم تسليماً كثيراً.

لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم، لأن شرف العلم بشرف المعلوم، وإني نظرت في جملة من كتب التفسير، فوجدتها بين كبير قد يس الحافظ منه، وصغير لا يستفاد كل المقصود منه^(١)، والمتوسط منها قليل الفوائد عديم الترتيب، وربما أهمل فيه المشكل، وشرح غير الغريب، فأتيتك بهذا المختصر اليسير، منطوباً على العلم الغزير، ووسمته^(٢) ب:

[زاد المسير في علم التفسير]

وقد بلغت في اختصار لفظه، فاجتهد وفقك الله في حفظه، والله المعين على تحقيقه، فما زال جائداً بتوفيقه.

فصل في فضيلة علم التفسير

روى أبو عبد الرحمن السلمي، عن ابن مسعود قال: كنا نتعلم من رسول الله ﷺ العشر، فلا نجاوزها إلى العشر الأخر حتى نعلم [ما]^(٣) فيها من العلم والعمل^(٤).

وروى قتادة عن الحسن أنه قال: ما أنزل الله آية إلا أحب أن أعلم فيم أنزلت، وماذا عنى بها. وقال إياس بن معاوية: مثل من يقرأ القرآن ومن يعلم تفسيره أو لا يعلم، مثل قوم جاءهم كتاب من صاحب لهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فتدخلهم لمجيء الكتاب روعة لا يدرون ما فيه، فإذا جاءهم المصباح عرفوا ما فيه.

فصل

اختلف العلماء: هل التفسير والتأويل بمعنى، أم يختلفان؟ فذهب قوم يميلون إلى العربية إلى أنهما بمعنى، وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين. وذهب قوم يميلون إلى الفقه إلى اختلافهما، فقالوا: التفسير: إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام التجلي. والتأويل: نقل الكلام عن وضعه فيما يحتاج في إثباته إلى دليل [لولاة]^(٥) ما ترك ظاهر اللفظ، فهو مأخوذ من قولك: آك الشيء إلى كذا، أي: صار إليه^(٦).

(١) في الأصل: عنه.

(٢) في الأصل: ووسمه، والتصويب من نسخة (ب).

(٣) الزيادة من نسخة (ب). رواء الطبري، وإسناده صحيح.

(٤) الزيادة من «تاج العروس» للزبيدي. وفي نسخة (ب) «إلى دليل لولاة ترك ظاهر اللفظ».

(٥) في الأصل: الأهل. والتصويب من نسخة (ب).

فصل في مدة نزول القرآن

روى عكرمة عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر إلى بيت [العزة، ثم] (١) أنزل بعد ذلك في عشرين سنة (٢).

وقال الشعبي: فرق الله تنزيل القرآن، فكان بين أوله وآخره عشرون سنة.

وقال الحسن: ذكر لنا أنه كان بين أوله وآخره ثماني عشرة سنة، أنزل عليه بمكة ثماني سنين.

فصل

واختلفوا في أول ما نزل من القرآن، فأثبت المنقول أن أول ما نزل: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [المعلق: ١]. رواه عروة عن عائشة (٣) وبه قال قتادة وأبو صالح.

وروي عن جابر بن عبد الله: أن أول ما نزل ﴿بِأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١].

والصحيح أنه لما نزل عليه ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ رجح فتدثر فنزل: ﴿بِأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ يدل عليه ما أخرج [في] (٤) «الصحيحين» من حديث جابر قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجثت منه رهيباً، فرجعت فقلت: زملوني، زملوني، فذثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿بِأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ومعنى جثت: فرقت. يقال: رجل مجووث [ومجوث] (٥) وقد صحفه بعض الرواة فقال: جنت من الجبن، والصحيح الأول. وروي عن الحسن وعكرمة: أن أول ما نزل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

فصل

واختلفوا في آخر ما نزل، فروى البخاري في أفراده من حديث ابن عباس، قال: آخر آية أنزلت على النبي ﷺ، آية الربا، وفي أفراد مسلم عنه: آخر سورة نزلت جميعاً ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: آخر آية أنزلت ﴿وَأَنْقُضُوا يَوْمَئِذٍ إِلَهُكُمْ﴾ (٦) [البقرة: ٢٨١] وهذا مذهب سعيد بن جبيرة وأبي صالح. وروي أبو إسحاق عن البراء قال: آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] وآخر سورة نزلت (براءة) (٧). وروي عن أبي بن كعب: أن آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. إلى آخر السورة (٨).

فصل

لما رأيت جمهور كتب المفسرين لا يكاد الكتاب منها يفي بالمقصود كشفه حتى ينظر للآية الواحدة في كتب، قرب تفسير أهل فيه بعلم الناسخ والمنسوخ، أو ببعضه، فإن وجد فيه لم يوجد أسباب النزول، أو أكثرها، فإن وجد لم يوجد بيان المكي من المدني، وإن وجد ذلك لم توجد الإشارة إلى حكم الآية، فإن وجد لم يوجد جواب إشكال يقع في الآية، إلى غير ذلك من الفنون المطلوبة.

وقد أدرجت (٩) في هذا الكتاب من هذه الفنون المذكورة مع ما لم أذكره، مما لا يستغني التفسير عنه، ما أرجو به وقوع الغناء بهذا الكتاب عن أكثر ما يجانسه.

(١) الزيادة من نسخة (ب).

(٢) رواه الحاكم ج٢/٢٢٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه مسلم.

(٤) الزيادة من نسخة (ب).

(٥) الزيادة من «لسان العرب».

(٦) رواه الطبري وإسناده صحيح، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقات.

(٧) رواه البخاري في تفسير سورة (براءة).

(٨) رواه أحمد والحاكم.

(٩) وفي نسخة (ج): خرجت. وجواب لما «وقد أدرجت» وكان حقه أن يقال: «وقد أدرجت».

وقد حذرت من إعادة تفسير كلمة متقدمة إلا على وجه الإشارة، ولم أغادر من الأقوال التي أحطت بها إلا ما تبعده صحته مع الاختصار البالغ، فإذا رأيت في فرش الآيات ما لم يذكر تفسيره، فهو لا يخلو من أمرين؛ إما أن يكون قد سبق، وإما أن يكون ظاهراً لا يحتاج إلى تفسير.

وقد انتقى كتابنا هذا أنقى التفسير، فأخذ منها الأصح والأحسن والأصون، فنظمه في عبارة الاختصار. وهذا حين شروعتنا فيما ابتدأنا^(١) له، والله الموفق.

فصل في الاستعاذة

قد أمر الله ﷻ بالاستعاذة عند القراءة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] ومعناه: إذا أردت القراءة. ومعنى أعوذ: ألتجأ وألوذ.

فصل في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال ابن عمر: نزلت في كل سورة. وقد اختلف العلماء: هل هي آية كاملة، أم لا؟ وفيه [عن] أحمد روايتان. واختلفوا: هل هي من الفاتحة، أم لا؟ فيه عن أحمد روايتان أيضاً. فأما من قال: إنها من الفاتحة، فإنه يوجب قراءتها في الصلاة إذا قال بوجوب الفاتحة، وأما من لم يرها من الفاتحة، فإنه يقول: قراءتها في الصلاة سنة. ما عدا مالكاً فإنه لا يستحب قراءتها في الصلاة.

واختلفوا في الجهر بها في الصلاة فيما يجهر به، فنقل جماعة عن أحمد: أنه لا يسن الجهر بها، وهو قول أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وعمار بن ياسر، وابن مغفل، وابن الزبير، وابن عباس، وقال به من كبراء التابعين ومن بعدهم: الحسن، والشعبي، وسعيد بن جبيرة، وإبراهيم، وقتادة، وعمر بن عبد العزيز، والأعمش، وسفيان الثوري، ومالك، وأبو حنيفة، وأبو عبيد في آخرين.

وذهب الشافعي إلى أن الجهر مستنون، وهو مروى عن معاوية بن أبي سفيان، وعطاء، وطاوس، ومجاهد. فأما تفسيرها:

فقوله: «بِسْمِ اللَّهِ» اختصار، كأنه قال: أبدأ باسم الله. أو: بدأت باسم الله. وفي الاسم خمس لغات: «إِسْمٌ» بكسر الألف، و«أَسْمٌ» بضم الألف إذا ابتدأت بها، و«إِسْمٌ» بكسر السين، و«سُمٌّ» بضمها، و«سُمًّا». قال الشاعر:

والله أسماك سُمًّا مُبَارَكًا آترك الله به إيشاركنا
وأنشدوا:

باسم الذي في كل سورة سُمًّا

قال الفراء: بعض قيس [يقولون]:^(٢) سمه، يريدون: اسمه، وبعض قضاة يقولون: سُمُّه. أنشدني بعضهم:

وعامنا أعجبنا مقدّمه يدعى أبا السمح وقرضاب سُمُّه
والقرضاب: القطاع، يقال: سيف قرضاب^(٣).
واختلف العلماء في اسم الله الذي هو «الله»:

فقال قوم: إنه مشتق، وقال آخرون: إنه علم ليس بمشتق. وفيه عن الخليل روايتان. إحداهما: أنه ليس بمشتق، ولا يجوز حذف الألف واللام منه كما يجوز من الرحمن. والثانية: رواها عنه سيبويه: أنه مشتق. وذكر أبو سليمان الخطابي عن بعض العلماء أن أصله في الكلام مشتق من: أله الرجل ياله: إذا فرغ إليه من أمر نزل به. فآلهه، أي: أجاره وأمنه، فسمي إلهاً

(١) وفي نسخة (ج) ابتدأنا.

(٢) الزيادة من نسخة (ب).

(٣) جاء في القرطبي بعد إنشاده البيت: وقرضب الرجل: إذا أكل شيئاً يابساً فهو قرضاب. وفي «الصحاح» و«اللسان» و«القاموس» و«شرح» قرضب الرجل: أكل شيئاً يابساً، حكوا ذلك عن ثعلب، وهو الأصح.

كما يسمّى الرجل إماماً. وقال غيره: أصله ولاء. فأبدلت الواو همزة فقليل: إله كما قالوا: وسادة وإسادة، ووشاح وإشاح. واشتق من الوله، لأن قلوب العباد توله نحوه. كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٤٥٣]. وكان القياس أن يقال: مألوه، كما قيل: معبود، إلا أنهم خالفوا به البناء ليكون علماً، كما قالوا للممكتوب: كتاب، وللمحسوب: حساب. وقال بعضهم: أصله من: أله الرجل يأله إذا تحير، لأن القلوب تتحير عند التفكر في عظمتها. وحكي عن بعض اللغويين: أله الرجل يأله إلهة، بمعنى: عبد يعبد عبادة.

وروي عن ابن عباس أنه قال: ﴿وَيَذَرُكَ وَأَهْلَكَ﴾ [الأعراف: ١٧٧] أي: عبادتك. قال: والتأله: التبعّد. قال رؤية: لله در الغانيات الممدّه

سَبَّحْنِ وَاسْتَرْجِعْنِ مِنْ تَأْلِهِي

فمعى الإله: المعبود.

فأما «الرَّحْمَنُ»:

فذهب الجمهور إلى أنه مشتق من الرحمة، مبني على المبالغة، ومعناه: ذو الرحمة التي لا نظير له فيها. وبناء «فعلان» في كلامهم للمبالغة، فإنهم يقولون للشديد الامتلاء: ملآن، وللشديد الشح: شبعان.

قال الخطابي: ذ «الرحمن»: ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم، وعمت المؤمن والكافر. و«الرحيم»: خاص للمؤمنين. قال علقمى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. والرحيم: بمعنى الراحم.



سورة الفاتحة

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال وقرأ عليه أبي بن كعب أم القرآن فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١). فمن أسماؤها: الفاتحة، لأنه يستفتح الكتاب بها تلاوة وكتابة. ومن أسماؤها: أم القرآن، وأم الكتاب، لأنها أمت الكتاب بالتقدم. ومن أسماؤها: السبع المثاني، وإنما سميت بذلك لما سنشرحه في (الحجر) إن شاء الله. واختلف العلماء في نزولها على قولين: أحدهما: أنها مكية، وهو مروى عن علي بن أبي طالب، والحسن، وأبي العالية، وقتادة، وأبي مسيرة. والثاني: أنها مدنية، وهو مروى عن أبي هريرة، ومجاهد، وعبيد بن عمير، وعطاء الخراساني. وعن ابن عباس كالقولين.

فصل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

فأما تفسيرها: فـ ﴿الْحَمْدُ﴾ رفع بالابتداء، و﴿لِلَّهِ﴾ الخبر والمعنى: الحمد ثابت لله، ومستقر له، والجمهور على كسر لام «الله» وضمها ابن أبي عملة، قال الفراء: هي لغة بعض بني ربيعة، وقرأ ابن السَّمِيعِ^(٢): «الحمد» بنصب الدال «الله» بكسر اللام. وقرأ أبو نهيك بكسر الدال واللام جميعاً. وأعلم أن الحمد: ثناء على المحمود، ويشاركه الشكر، إلا أن بينهما فرقاً، وهو: أن الحمد قد يقع ابتداء للثناء، والشكر لا يكون إلا في مقابلة النعمة، وقيل: لفظه لفظ الخبر، ومعناه الأمر، فتقديره: قولوا: الحمد لله. وقال ابن قتيبة: الحمد: الثناء على الرجل بما فيه من كرم أو حسب أو شجاعة، وأشباه ذلك. والشكر: الثناء عليه بمعروف أولاك، وقد يوضع الحمد موضع الشكر. فيقال: حمدته على معرفته عندي، كما يقال: شكرت له على شجاعته. فأما «الرب» فهو المالك، ولا يذكر هذا الاسم في حق المخلوق إلا بالإضافة، فيقال: هذا رب الدار، ورب العبد. وقيل: هو مأخوذ من الثرية. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: يقال: رب فلان صنيعته يربها رباً: إذا أتمها وأصلحها، فهو رب ورباب. قال الشاعر:

يرب الذي يأتي من الخير إنه إذا سئل المعروف زاد وتممًا

قال: والرب يقال على ثلاثة أوجه: أحدها: المالك. يقال: رب الدار. والثاني: المصلح، يقال: رب الشيء. والثالث: السيد المطاع. قال تعالى: ﴿فَإَسْتَقِ رَبُّهُ حَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١]. والجمهور على خفض باء «رب». وقرأ أبو العالية، وابن السَّمِيعِ، وعيسى بن عمر بنصبها. وقرأ أبو رزین العقيلي، والربيع بن خثيم^(٣)، وأبو عمران الجوني برفعها. فأما «الْعَالَمِينَ» فجمع عالم، وهو عند أهل العربية: اسم للمخلوق من مبدئهم إلى منتهاهم، وقد سمو أهل الزمان الحاضر عالماً. فقال الحطية:

[تنحى فاجلسي مني بعيداً] أراح الله منك العالمينا

فأما أهل النظر، فالعالم عندهم: اسم يقع على الكون الكلي المحدث من فلك، وسماء، وأرض، وما بين ذلك. وفي اشتقاق العالم قولان: أحدهما: أنه من العلم، وهو يقوي قول أهل اللغة. والثاني: أنه من العلامة، وهو يقوي قول أهل النظر، فكانه إنما سمي عندهم بذلك، لأنه دالٌّ على خالقه. وللمفسرين في المراد بـ«العالمين» هاهنا خمسة أقوال: أحدها: الخلق كله، السموات والأرضون وما فيهنَّ وما بينهن. رواه الضحَّاك عن ابن عباس. والثاني: كل ذي

(١) رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢)

(٣) جاء في «التقريب» الربيع بن خثيم بضم المعجمة، وفتح المثناة، وفي «الخلاصة» بفتح المعجمة والمثناة بينهما تحتانية. أي: خثيم، كما في الأصول

التي بين أيدينا.

روح دب على وجه الأرض. رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم الجن والإنس. روي أيضاً عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، ومقاتل. والرابع: أنهم الجن والإنس والملائكة، نقل عن ابن عباس أيضاً، واختاره ابن قتيبة. والخامس: أنهم الملائكة، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾. قرأ أبو العالية، وابن السميع، وعيسى بن عمر بالنصب فيهما، وقرأ أبو رزين العقبلي، والربيع بن خيثم، وأبو عمران الجوني بالرفع فيهما.

قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. قرأ عاصم والكسائي، وخلف، ويعقوب: «مالك» بآلف. وقرأ ابن السميع، وابن أبي عمير كذلك، إلا أنهما نصبا الكاف. وقرأ أبو هريرة، وعاصم الجحدري: «مَلِكِ» بإسكان اللام من غير الألف مع كسر الكاف، وقرأ أبو عثمان النهدي، والشعبي «مَلِكِ» بكسر اللام ونصب الكاف من غير ألف. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وعائشة، ومورق العجلي: «مَلِكِ» مثل ذلك إلا أنهم رفعوا الكاف. وقرأ أبي بن كعب، وأبو رجاء المطارد «ملك» بياء بعد اللام مكسورة الكاف من غير ألف. وقرأ عمرو بن العاص كذلك، إلا أنه ضم الكاف. وقرأ أبو حنيفة^(٢١)، وأبو حيو «مَلِكِ» على الفعل الماضي، «ويوم» بالنصب. وروى عبد الوارث عن أبي عمرو: إسكان اللام، والمشهور عن أبي عمرو وجهمور القراء «مَلِكِ» بفتح الميم مع كسر اللام، وهو أظهر في المدح، لأن كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً. وفي «الدين» هاهنا قولان: أحدهما: أنه الحساب، قاله ابن مسعود. والثاني: الجزاء، قاله ابن عباس، ولما أقر الله ﷻ في قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنه مالك الدنيا. دل بقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ على أنه مالك الأخرى. وقيل: إنما خصَّ يوم الدين، لأنه يفرد يومئذ بالحكم في خلقه.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. وقرأ الحسن، وأبو المتوكل، وأبو مجلز «يُعْبُدُ» بضم الياء وفتح الباء. قال ابن الأنباري: المعنى: قل يا محمد: إياك يعبد، والعرب ترجع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَبَرِحَ بِرَيْمِ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله: ﴿وَسَمِعْتُمْ رَبَّهُمْ شَرَكَاءَ طُغُورًا﴾ [١٧] إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْجَاءَ ﴿[الدر: ٢١، ٢٢]. وقال ليبد:

باتت تشكى إلى النفس مجهشة

وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا

وفي المراد بهذه العبادة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بمعنى التوحيد. روي عن علي، وابن عباس في آخرين. والثاني: أنها بمعنى الطاعة، كقوله: ﴿لَا تَقْبَلُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]. والثالث: أنها بمعنى الدعاء، كقوله: ﴿إِنَّ الدُّيْنَ يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: ثبتنا. قاله علي، وأبي. والثاني: أرشدنا. والثالث: وفقنا. والرابع: ألهمنا. رويت هذه الثلاثة عن ابن عباس. و«أَصْرَطَ» الطريق. ويقال: إن أصله بالسين، لأنه من الاستراط وهو: الابتلاع، فالسراط كأنه يستطرط المارِّين عليه، فمن قرأ بالسين، كمجاهد، وابن محيصة، ويعقوب، فعلى أصل الكلمة، ومن قرأ بالصاد، كأبي عمرو، والجمهور، فلأنها أخف على اللسان، ومن قرأ بالزاي، كرواية الأصمعي عن أبي عمرو، واحتج بقول العرب: سقر وزقر^(٢٣) وروي عن حمزة: إشمام السين زايًا، وروي عنه أنه تلفظ بالسراط بين الصاد والزاي. قال الفراء: اللغة الجيدة بالصاد، وهي لغة قريش الأولى، وعامة العرب يجعلونها سينًا، وبعض قيس يشمُون الصاد، فيقول: الصراط بين الصاد والسين، وكان حمزة يقرأ «الزراط» بالزاي، وهي لغة لعذرة وكتب وبني القين. يقولون في [أصدق]^(٢٤) أزدق. وفي المراد بالسراط هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنه كتاب الله، رواه علي عن

(١) قال أبو العلاء الواسطي: إن الخزاعي وضع كتاباً في الحروف نسب إلى أبي حنيفة، فأخذت خط الدارقطني وجماعة؛ أن الكتاب موضوع لا أصل له. قال ابن الجزري: وقد رأيت الكتاب المذكور، ومنه ﴿إِنَّمَا يَتَّبِعُ اللَّهُ مَن يَشَاءُ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ برفع الهاء ونصب الهززة. وقد راج ذلك على أكثر المفسرين، ونسبها إليه، وتكلف توجيهها، وإن أبا حنيفة ليرى منها. انظر «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري ١٦٧.

(٢) قال في «لسان العرب» الزقر: لغة في الصقر.

(٣) الزيادة من القرطبي.

النبي ﷺ. والثاني: أنه دين الإسلام. قاله ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وأبو العالية في آخرين. والثالث: أنه الطريق الهادي إلى دين الله، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والرابع: أنه طريق الجنة، نقل عن ابن عباس أيضاً. فإن قيل: ما معنى سؤال المسلمين الهداية وهم مهتدون؟ ففيه^(١) ثلاثة أجوبة^(٢): أحدها: أن المعنى: اهدنا لزوم الصراط، فحذف اللزوم. قاله ابن الأنباري. والثاني: أن المعنى: ثبتنا على الهدى، تقول العرب للقاتم: قم حتى آتيك، أي: اثبت على حالك. والثالث: أن المعنى: زدنا هدى^(٣).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. قال ابن عباس: هم النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون. وقرأ الأكثرون «عليهم» بكسر الهاء، وكذلك «الديهم» و«إليهم» وقرأه ن حزمة بضمها. وكان ابن كثير يصل [ضم] الميم بواو. وقال ابن الأنباري: حكى اللغويون في «عليهم» عشر لغات، قرئ بعامتها «عليهم» بضم الهاء وإسكان الميم و«عليهم» بكسر الهاء وإسكان الميم، و«عليهمي» بكسر الهاء والميم وإلحاق ياء بعد الكسرة، و«عليهمو» بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة، و«عليهمو» بضم الهاء والميم وإدخال واو بعد الميم، و«عليهم» بضم الهاء والميم من غير زيادة واو، وهذه الأوجه الستة مأثورة عن القراء، وأوجه أربعة منقولة عن العرب «عليهمي» بضم الهاء وكسر الميم وإدخال ياء، و«عليهم» بضم الهاء وكسر الميم من غير إدخال ياء، و«عليهم» بضم الهاء ولا ياء بعد الميم. فأما «المغضوب عليهم» فهم اليهود؛ «والضالون»: النصارى. رواه عدي بن حاتم عن النبي ﷺ^(٤). قال ابن قتيبة: والضلال: الحيرة والعدول عن الحق.

فصل

ومن السنة في حق قارئ الفاتحة أن يعقبها بـ «آمين». قال شيخنا أبو الحسن علي بن عبيد الله: وسواء كان خارج الصلاة أو فيها، لما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قال الإمام: ﴿عَبَّرَ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال من خلفه: آمين، فوافق ذلك قول أهل السماء، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٥). وفي معنى آمين: ثلاثة أقوال: أحدها: أن معنى آمين: كذلك يكون. حكاه ابن الأنباري عن ابن عباس، والحسن. والثاني: أنها بمعنى: اللهم استجب. قاله الحسن والزجاج. والثالث: أنه اسم من أسماء الله تعالى. قاله مجاهد، وهلال بن يساف، وجعفر بن محمد. وقال ابن قتيبة: معناها: يا آمين أجب دعاءنا، فسقطت يا، كما سقطت في قوله: «يُؤَسِّئُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا» [يوسف: ٢٩] تأويله: يا يوسف. ومن طول الألف فقال: آمين، أدخل ألف النداء على ألف آمين، كما يقال: آزيد أقبل. ومعناه: يا زيد. قال ابن الأنباري: وهذا القول خطأ عند جميع النحويين، لأنه إذا أدخل «يا» على «آمين» كان منادى مفرداً، فحكم آخره الرفع، فلما أجمعت العرب على فتح نونه، دل على أنه غير منادى، وإنما فتحت نون «آمين» لسكونها وسكون الياء التي قبلها، كما تقول العرب: ليت، ولعل. قال: وفي «آمين» لغتان: «آمين» بالقصر، و«آمين» بالمد، والنون فيهما مفتوحة. أنشدنا أبو العباس عن ابن الأعرابي:

سَقَى اللهُ حَيًّا بَيْنَ صَارَةَ وَالْحَمَى
آمِينَ وَأَدَى اللهُ رَكْبًا إِلَيْهِمْ
وَأَنْشَدَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ أَيْضًا:
تَبَاعَدَ مِنِّي فَظَحُلَ وَابْنُ أُمِّهِ

(جَمَى)^(٧) فَيَدُ صَوْبِ الْمُذْجَنَاتِ الْمَوَاطِرِ
بِخَيْرٍ وَوَقَاهُمْ جِمَامَ الْمَقَادِرِ^(٨)
آمِينَ فزاد الله ما بيننا بُغْدًا^(٩)

(١) في الأصلين: فنه، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) في نسخة (أ) أوجه. وكذلك كان كتبها ناسخ (ب) ثم أصلحها كما أثبتنا.

(٣) في نسخة (ب) هداية.

(٤) رواه أحمد والترمذي وحسنه.

(٥) رواه البخاري ومسلم بلفظ: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإن من وافق تأمينة تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

(٦) الزيادة من نسخة (ب).

(٧) البيتان في «اللسان» في مادة «آمن» ورواية الثاني فيه: ورد الله.

(٨) البيت سقط من نسخة (ب).

(٩) البيت سقط من نسخة (ب).

وأنشدنا أبو العباس أيضاً:
يا ربَّ لا تسلبني حُبَّها أبداً
وأنشدني أبي:
أميّن ومن أعطاك منِّي هواده
وأنشدني أبي:
فقلْتُ له قد هجت لي بآرَح الهوى
أميّن وأضناه الهوى فوق ما به

وَيَرْحَمُ اللهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَ
رمى الله في أطرافه فأقْفَعَلْتُ^(١)
أصاب حمام الموت أهورنا وجدنا
[أميّن]^(٢) ولاقى من تبارحه جَهْدًا

فصل

نقل الأكترون عن أحمد أن الفاتحة شرط في صحة الصلاة، فمن تركها مع القدرة عليها لم تصح صلاته، وهو قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا تتعين، وهي رواية عن أحمد، ويدل على الرواية الأولى ما روي في «الصحيحين» من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». والله تعالى أعلم بالصواب.



(١) الاقفلال: تشنج الأصابع والكف من برد أو داء.

(٢) الزيادة من نسخة (ب).

سورة البقرة

فصل في فضيلتها^(١)

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان»^(٢). وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف، اقرووا البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»^(٣). والمراد بالزهراوين: المنيرتين. يقال لكل منير^(٤): زاهر. والغاية: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه، مثل السحابة والغبرة. يقال: غايا القوم فوق رأس فلان بالسيف، كأنهم أطلوه به. قال لييد:

فَتَدَلَّيْتُ عَلَيْهِ قَافِلًا وَعَلَى الْأَرْضِ غَيَايَاتِ الْطِفْلِ

ومعنى فرقان: قطعتان. والفرق: القطعة من الشيء. قال عز وجل: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّيْرِ الْمَطِيرِ﴾ [الشعراء: ٦٣]. وَالصُّوْفَاءُ: المصطفة المتضامة لتظل قارئها. والبطلة: السحرة.

فصل في نزولها

قال ابن عباس: هي أول ما نزل بالمدينة، وهذا قول الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وجابر بن زيد، وقتادة، ومقاتل. وذكر قوم أنها مدنية سوى آية، وهي قوله عز وجل: ﴿وَأَنقَضُوا يَوْمًا تُنِجُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. فإنها أنزلت يوم النحر بمنى في حجة الوداع.

فصل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وأما التفسير. فقلوه: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ اختلف العلماء فيها وفي سائر الحروف المقطعة في أوائل السور على ستة أقوال: أحدها: أنها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «الله عز وجل في كل كتاب سر، وسر الله في القرآن أوائل السور، وإلى هذا المعنى ذهب الشعبي، وأبو صالح، وابن زيد. والثاني: أنها حروف من أسماء، فإذا ألقت ضرباً من التأليف كانت أسماء من أسماء الله عز وجل. قال علي بن أبي طالب: هي أسماء مقطعة لو علم الناس تأليفها علموا اسم الله الذي إذا دعي به أجاب. وسئل ابن عباس عن «الر» و«حم» و«نون» فقال: اسم الرحمن على الهجاء، وإلى نحو هذا ذهب أبو العالية، والريبع بن أنس. والثالث: أنها حروف أقسم الله بها، قاله ابن عباس، وعكرمة. قال ابن قتيبة: ويجوز أن يكون أقسم بالحروف المقطعة كلها، واقتصر على ذكر بعضها كما يقول القائل: تعلمت «أ ب ت ث» وهو يريد سائر الحروف، وكما يقال: قرأت الحمد، يريد فاتحة الكتاب، فيسميها بأول حرف منها، وإنما أقسم بحروف المعجم لشرفها ولأنها مباني كتبه المنزلة، وبها يذكر ويوحد. قال ابن الأنباري: وجواب القسم محذوف، تقديره: وحروف المعجم لقد بين الله لكم السبيل، وأنهجت لكم الدلالات بالكتاب المنزل، وإنما حذف لعلم المخاطبين به، ولأن في قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ دليلاً على الجواب. والرابع: أنه أشار بما ذكر من الحروف إلى سائرها، والمعنى أنه لما كانت الحروف أصولاً للكلام المؤلف، أخبر أن هذا القرآن إنما هو مؤلف من هذه الحروف، قاله الفراء، وقطرب. فإن قيل: فقد علموا أنه حروف، فما الفائدة في إعلامهم بهذا؟

(١) هذا العنوان ثابت في نسخة (ب).

(٢) رواه مسلم والترمذي والنسائي.

(٤) في نسخة (أ): «مستبر».

(٣) رواه مسلم.

فالجواب: أنه نبه بذلك على إعجازه، فكأنه قال: هو من هذه الحروف التي تؤلفون منها كلامكم، فما بالكم تعجزون عن معارضته؟! فإذا عجزتم فاعلموا أنه ليس من قول محمد ﷺ. والخامس: أنها أسماء للسور. روي عن زيد بن أسلم، وابنه، وأبي فاختة سعيد بن علاقة مولى أم هانئ. والسادس: أنها من الرمز الذي تستعمله العرب في كلامها. يقول الرجل للرجل: هل تأ؟ فيقول له: بلى، يريد هل تأتي؟ فيكتفي بحرف من حروفه. وأنشدوا:

قلنا لها قفي [لنا] فقالت قاف

[لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف]^(١)

أراد قالت: أقف. ومثله:

نادوهم ألا الجموا ألا تا

قالوا جميعاً كلهم ألا فا

يريد: ألا تركبوا؟ قالوا: بلى فاركبوا. ومثله:

بالخير خيرات وإن شراً فا

ولا أريد الشر إلا أن تا

معناه: وإن شراً فشر ولا أريد الشر إلا أن تشاء. وإلى هذا القول ذهب الأخفش، والزجاج، وابن الأنباري. وقال أبو روق عطية بن الحارث الهمداني: كان النبي ﷺ يجهر بالقراءة في الصلوات كلها، وكان المشركون يصفقون ويصفقون، فنزلت هذه الحروف المقطعة، فسمعوها فبقوا متحيرين. وقال غيره: إنما خاطبهم بما لا يفهمون ليقبلوا على سماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، أو يكون معلوماً عند المخاطبين، فهذا الكلام يعم جميع الحروف.

وقد خص المفسرون قوله «الآلم»^(٢) بخمسة أقوال: أحدها: أنه من المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله عز وجل، وقد سبق بيانه. والثاني: أن معناه: أنا الله أعلم. رواه أبو الضحى عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود، وسعيد بن جبير. والثالث: أنه قسم. رواه أبو صالح عن ابن عباس، وخالد الحذاء عن عكرمة. والرابع: أنها حروف من أسماء. ثم فيها قولان: أحدهما: أن الألف من «الله» واللام من «جبريل» والميم من «محمد» قاله ابن عباس. فإن قيل: إذا كان قد تنول من كل اسم حرفه الأول اكتفاءً به، فلم أخذت اللام من جبريل وهي آخر الاسم؟! فالجواب: أن مبتدأ القرآن من الله تعالى، فدل على ذلك بابتداء أول حرف من اسمه، وجبريل انختم به التنزيل والإقراء، فتنول من اسمه نهاية حروفه، و«محمد» مبتدأ في الإقراء، فتنول أول حرف فيه. والقول الثاني: أن الألف من «الله» تعالى، واللام من «لطيف» والميم من «مجيد» قاله أبو العالية. والخامس: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله مجاهد، والشعبي، وقادة، وابن جريج.

قوله تعالى: «ذَلِيلًا». فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى هذا، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والكسائي، وأبي عبيدة، والأخفش. واحتج بعضهم بقول خفاف بن ثلبة:

أقول له والرمح ياطر متنه

تأمل خفافاً إنسي أنا ذلكا

أي: أنا هذا. وقال ابن الأنباري. إنما أراد: أنا ذلك الذي تعرفه. والثاني: أنه إشارة إلى غائب. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أراد به ما تقدم إنزاله عليه من القرآن. والثاني: أنه أراد به ما وعده أن يوحيه إليه في قوله: «سَتَلَقِي عَنكَ قَوْلًا نَيْبًا» [الزمر: ٥]. والثالث: أنه أراد بذلك ما وعد به أهل الكتب السالفة، لأنهم وعدوا بنبي وكتاب. و«الْكِتَابُ»: القرآن. وسمي كتاباً، لأنه جمع بعضه إلى بعض، ومنه الكتيبة، سُميت بذلك لاجتماع بعضها إلى بعض. ومنه: كتيب البغلة^(٣).

قوله تعالى: «لَا رَيْبَ فِيهِ». الرِّيبُ: الشك. والهدى: الإرشاد. والمتقون: المحترزون مما اتقوه. وفرَّق شيخنا علي بن عبيد الله بين التقوى والورع، فقال: التقوى: أخذ^(٣) عدة، والورع: دفع شبهة، فالتقوى: متحقق السبب، والورع: مظنون المسبب. واختلف العلماء في معنى هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أن ظاهرها النفي، ومعناها

(١) الرجز: للوليد بن عتبة.

(٢) قال في «اللسان»: وكتب البغلة: إذا جمعت سُفري حياتها بحلقه أو سير، لتلا يتزى عليها.

(٣) في نسخة (ب): «أشده».

النهي، وتقديرها: لا ينبغي أحد أن يرتاب به لإتقانه وإحكامه. ومثله: ﴿مَا كُنَّا لَنَأَنَّ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ١٣٨]. أي: ما ينبغي لنا. ومثله: ﴿فَلَا رَفَتْ وَلَا سُوفَكَ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وهذا مذهب الخليل، وابن الأنباري. والثاني: أن معناها: لا ريب فيه أنه هدى للمتقين. قاله المبرد. والثالث: أن معناها: لا ريب فيه أنه من عند الله، قاله مقاتل في آخرين. فإن قيل: فقد ارتاب به قوم. فالجواب: أنه حق في نفسه، فمن حقق النظر فيه علم. قال الشاعر:

ليس في الحق يا أمانة ريب [إنما الريب ما يقول الكذوب]^(١)

فإن قيل: فالمتقي مهتد، فما فائدة اختصاص الهداية به؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه أراد المتقين، والكافرين، فاكفى بذكر أحد الفريقين، كقوله تعالى: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْآحَرَ﴾ [النحل: ٨١]. أراد: البرد. والثاني: أنه خص المتقين لانتفاعهم به، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ تَحْشَنَّا﴾ [التازعات: ٤٥]. وكان منذراً لمن يخشى ولمن لا يخشى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾. الإيمان في اللغة: التصديق، والشرح أقره على ذلك، وزاد فيه القول والعمل. وأصل الغيب: المكان المظمن الذي يستتر فيه لنزوله عما حوله، فسمي كل مستتر: غيباً. وفي المراد بالغيب هاهنا ستة أقوال: أحدها: أنه الوحي، قاله ابن عباس، وابن جريج. والثاني: القرآن، قاله أبو رزين العقيلي، وزر بن حبيش. والثالث: الله عز وجل، قاله عطاء، وسعيد بن جبيرة. والرابع: ما غاب عن العباد من أمر الجنة والنار، ونحو ذلك مما ذكر في القرآن. رواه السدي عن أشياخه، وإليه ذهب أبو العالية، وقتادة. والخامس: أنه قدر الله عز وجل، قاله الزهري. والسادس: أنه الإيمان بالرسول في حق من لم يره. قال عمرو بن مرة: قال أصحاب عبد الله له: طوبى لك، جاهدت مع رسول الله ﷺ، وجالسته. فقال: إن شأن رسول الله ﷺ كان ميبئاً لمن رآه، ولكن أعجب من ذلك: قوم يجدون كتاباً مكتوباً يؤمنون به ولم يروه، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾. الصلاة في اللغة: الدعاء. وفي الشريعة: أفعال وأقوال على صفات مخصوصة. وفي تسميتها بالصلاة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها سميت بذلك لرفع الصلَا، وهو مغرز الذنب من الفرس. والثاني: أنها من صليت العمود إذا ليته، فالمصلي يلين ويخشع. والثالث: أنها مبنية على السؤال والدعاء، والصلاة في اللغة: الدعاء، وهي في هذا المكان اسم جنس. قال مقاتل: أراد بها هاهنا: الصلوات الخمس. وفي معنى إقامتها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تمام فعلها على الوجه المأمور به، روي عن ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنه المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، قاله قتادة، ومقاتل. والثالث: إدامتها، والعرب تقول في الشيء الراتب: قائم، وفلان يقيم أرزاق الجند، قاله ابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾. أي: أعطيناهم ﴿يُقْفُونَ﴾ أي يخرجون. وأصل الإنفاق الإخراج. يقال: نفقت الدابة: إذا خرجت روحها. وفي المراد بهذه النفقة أربعة أقوال: أحدها: أنها النفقة على الأهل والعيال، قاله ابن مسعود، وحذيفة. والثاني: أنها الزكاة المفروضة، قاله ابن عباس، وقتادة. والثالث: أنها الصدقات النوافل، قاله مجاهد، والضحاك. والرابع: أنها النفقة التي كانت واجبة قبل وجوب الزكاة، ذكره بعض المفسرين، وقالوا: إنه كان فرض على الرجل أن يمسك مما في يده مقدار كفايته يومه وليته، ويفرق باقيه على الفقراء. فعلى قول هؤلاء، الآية منسوخة بآية الزكاة، وغير هذا القول أثبت. واعلم أن الحكمة في الجمع بين الإيمان بالغيب وهو عقد القلب، وبين الصلاة وهي فعل البدن، وبين الصدقة وهو تكليف يتعلق بالمال، أنه ليس في التكليف قسم رابع، إذ ما عدا هذه الأقسام فهو ممتزج بين اثنين منهما، كالحج والصوم ونحوهما.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾. اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه، رواه الضحاك عن ابن عباس، واختاره مقاتل. والثاني: أنها نزلت في العرب الذين آمنوا بالنبي وبما

(١) هذه الزيادة من نسخة (ب).

أنزل من قبله .. رواه أبو صالح عن ابن عباس، قال المفسرون: [الذي أنزل إليه، القرآن]. وقال شيخنا علي بن عبيد الله: القرآن^(١) وغيره مما أوحى إليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. يعني: الكتب المتقدمة والوحي، فأما «الآخرة» فهي اسم لما بعد الدنيا، وسميت آخرة، لأن الدنيا قد تقدمتها: وقيل: سميت آخرة لأنها نهاية الأمر.

قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَكَ﴾. اليقين: ما حصلت به الثقة، وثلج به الصدر، وهو أبلغ علم مكتسب.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾. أي: علي رشاد. وقال ابن عباس: علي نور واستقامة. قال ابن قتيبة: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الفائزون ببقاء الأبد. وأصل الفلاح: البقاء. ويشهد لهذا قول لبيد:

نحل بلاداً كلُّها حُلٌّ قبلنا
ونرجو الفلاح بعد عادٍ وحمير

يريد: البقاء. وقال الزجاج: المفلح: الفائز بما فيه غاية صلاح حاله. قال ابن الأنباري: ومنه: حيٌّ علي الفلاح، معناه: هلموا إلى سبيل الفوز ودخول الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْيَبَ كَثُرُوا﴾. في نزولها أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في قادة الأحزاب، قاله أبو العالية. والثاني: أنها نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل بيته، قاله الضحاك. والثالث: أنها نزلت في طائفة من اليهود، ومنهم حيي بن أخطب، قاله ابن السائب. والرابع: أنها نزلت في مشركي العرب، كأبي جهل وأبي طالب، وأبي لهب وغيرهم ممن لم يسلم. قال مقاتل: فأما تفسيرها، فالكفر في اللغة: التغطية. تقول: كفرت الشيء إذا غطيته، فسمي الكافر كافراً، لأنه يغطي الحق.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾. أي: متعادل عندهم الإنذار وتركه، والإنذار: إعلام مع تخويف، وتناذر بنو فلان هذا الأمر: إذا خوفه بعضهم بعضاً. قال شيخنا علي بن عبيد الله: هذه الآية وردت بلفظ العموم، والمراد به الخصوص، لأنها أذنت بأن الكافر حين إنذاره لا يؤمن، وقد آمن كثير من الكفار عند إنذارهم، ولو كانت على ظاهرها في العموم، لكان خبر الله لهم خلاف مخبره، ولذلك وجب نقلها إلى الخصوص.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾. الختم: الطبع، والقلب: قطعة من دم جامدة سوداء، وهو مستكن في الفؤاد، وهو بيت النفس، ومسكن العقل، وسمي قلباً لتقلبه، وقيل: لأنه خالص البدن، وإنما خصّه بالختم لأنه محل الفهم.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾. يريد: على أسماعهم، فذكره بلفظ التوحيد، ومعناه: الجمع، فاكتفى بالواحد عن الجميع، ونظيره قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ ظُلُمًا﴾ [الحج: ٥]. وأنشدوا من ذلك:

كلوا في نصف بطونكم تعيشوا
فلإن زمانكم زمن خميص

أي: في أنصاف بطونكم. ذكر هذا القول أبو عبيدة، والزجاج. وفيه وجه آخر، وهو أن العرب تذهب بالسمع مذهب المصدر، والمصدر يوحد، تقول: يعجبني حديثكم، ويعجبني ضربكم. فأما البصر والقلب فهما اسمان لا يجريان مجرى المصادر في مثل هذا المعنى. ذكره الزجاج، وابن القاسم. وقد قرأ عمرو بن العاص، وابن أبي عبيدة: (وعلى أسماعهم).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾. الغشاوة: النطاء. قال الفراء: أما قریش وعامة العرب، فيكسرون الغين من «غشاوة»، وعكل يضمون الغين، وبعض العرب يفتحها، وأظنها لربيعة. وروى الفضل عن عاصم «غشاوة» بالنصب على تقدير: جعل على أبصارهم غشاوة. فأما العذاب، فهو الألم المستمر، وماء عذب: إذا استمر في الحلق سائغاً.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَأَمَّا بِاللَّهِ﴾. اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها في المنافقين، ذكره السدي عن ابن مسعود، وابن عباس، وبه قال أبو العالية، وقتادة، وابن زيد. والثاني: أنها في منافقي أهل الكتاب.

رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال ابن سيرين: كانوا يتخوفون من هذه الآية. وقال قتادة: هذه الآية نعت المنافق، يعرف بلسانه، وينكر بقلبه، [و] يصدق بلسانه، ويخالف بعمله، ويصبح على حالٍ ويمسي على غيرها، ويتكفأ تكفأ السفينة، كلما هبت ريح هب معها.

قوله تعالى: ﴿يَخْدِعُونََ اللَّهَ﴾. قال ابن عباس: كان عبد الله بن أبي، ومعتب بن قشير، والجد بن القيس؛ إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، ونشهد أن صاحبكم صادق، فإذا خلوا لم يكونوا كذلك، فنزلت هذه الآية. فأما التفسير، فالخديجة: الحيلة والمكر، وسميت خديعة، لأنها تكون في خفاء. والمخدع: بيت داخل البيت تختفي فيه المرأة، ورجل خادع: إذا فعل الخديعة، سواء حصل مقصوده أو لم يحصل، فإذا حصل مقصوده، قيل: قد خدع. وانخدع الرجل: استجاب للخداع، سواء تعمد الاستجابة أو لم يقصدها، والعرب تسمي الدهر خداعاً، لثلونه بما يخفيه من خير وشر. وفي معنى خداعهم الله؛ خمسة أقوال: أحدها: إنهم كانوا يخادعون المؤمنين، فكانهم خادعوا الله. روي عن ابن عباس؛ واختاره ابن قتيبة. والثاني: إنهم كانوا يخادعون نبي الله، فأقام الله نبيه مقامه، كما قال: ﴿إِنَّ أَلْيَوْمَ يَأْيُومُوكَ إِنَّمَا يُيَاطُومُوكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ١٠]. قاله الزجاج. والثالث: أن الخادع عند العرب: الفاسد. وأنشدوا:

[أبيض اللون لذيذ طعمه] طيب الريق إذا الريق خدع^(١)

أي: فسد. رواه محمد بن القاسم عن ثعلب عن ابن الأعرابي. قال ابن القاسم: فتأويل: يخادعون الله: يفسدون ما يظهرون من الإيمان بما يضمرون من الكفر. والرابع: أنهم كانوا يفعلون في دين الله ما لو فعلوه بينهم كان خداعاً. والخامس: أنهم كانوا يخفون كفرهم، ويظهرون الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: (وما يخادعون) وقرأ الكوفيون، وابن عامر: (يخدعون)، والمعنى: أن وبال ذلك الخداع عائد عليهم. ومتى يعود وبال خداعهم عليهم؟ فيه قولان: أحدهما: في دار الدنيا، وذلك بطريقين. أحدهما: بالاستدراج والإمهال الذي يزيدهم عذاباً. والثاني: باطلاع النبي والمؤمنين على أحوالهم التي أسروها. والقول الثاني: أن عود الخداع عليهم في الآخرة. وفي ذلك قولان: أحدهما: أنه يعود عليهم عند ضرب الحجاب بينهم وبين المؤمنين، وذلك قوله: ﴿قِيلَ آرْحَمُوا وَرَلَّكُمْ فَالْتَسُوا نَزَا فَضِرْبَ يَنَّهُمْ يَسُورَ لَهُ بَأْسًا﴾ [الحديد: ١٣]. والثاني: أنه يعود عليهم عند اطلاع أهل الجنة عليهم، فإذا رأوهم طمعوا في نيل راحة من قبلهم، فقالوا: ﴿أَيُسُوا عَلَيْكَا يَنَ الْمَاءَ أَوْ مَيَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠] فيجيئونهم: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكُفْرِيَّةِ﴾ [الأعراف: ٥١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. أي: وما يعلمون. وفي الذي لم يشعروا به قولان: أحدهما: أنه إطلاع الله نبيه على كذبهم، قاله ابن عباس. والثاني: أنه إسرارهم بأنفسهم بكفرهم، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَجٌ﴾. المرض هاهنا: الشك، قاله عكرمة، وقاتدة. ﴿فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ هذا الإخبار من الله تعالى أنه فعل بهم ذلك، و«الآليم» بمعنى المؤلم، والجمهور يقرؤون (يكذبون) بالشديد، وقرأ الكوفيون سوى أبان، عن عاصم بالتخفيف مع فتح الباء.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾. اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وهو قول الجمهور، منهم ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أن المراد بها قوم لم يكونوا خلقوا حين نزولها، قاله سلمان الفارسي. وكان الكسائي يقرأ بضم القاف من «قيل» والحاء من «حيل» والغين من «غيض»، والجميم من «جبي»، والسين من «سي» و«سيثت». وكان ابن عامر يضم من ذلك ثلاثة «حيل» و«سبيق» و«سي» و«سيثت». وكان نافع يضم «سي» و«سيثت»، ويكسر البواقي، والآخرين يكسرون جميع ذلك. وقال الفراء: أهل الحجاز من قريش ومن جاورهم من بني كنانة يكسرون القاف في «قيل» و«جبي» و«غيض»، وكثير من عقيل ومن جاورهم وعامة أسد، يشمون^(٢) إلى الضم من «قيل» و«جبي». وفي المراد بالفلساد هاهنا خمسة أقوال: أحدها:

(١) البيت نسبة في «اللسان» لسويد بن أبي كاهل الشكري، وهو من قصيدة جيدة، تجدها في «المفضليات».

(٢) في الأصول التي بين أيدينا «يشيرون» وما أنتباه هو الصواب، كما هو في كتب القراءات.

أنه الكفر، قاله ابن عباس. والثاني: العمل بالمعاصي، قاله أبو العالية، ومقاتل. والثالث: أنه الكفر والمعاصي، قاله السدي عن أشياخه. والرابع: أنه ترك امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، قال مجاهد. والخامس: أنه النفاق الذي صادفوا به الكفار، وأطلعهم على أسرار المؤمنين، ذكره شيخنا علي بن عبيد الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَحْنُ مُضِلُّونَ﴾. فيه خمسة أقوال: أحدها: أن معناه إنكار ما عرفوا به، وتقديره: ما فعلنا شيئاً يوجب الفساد. والثاني: أن معناه: إنا نقصد الإصلاح بين المسلمين والكافرين، والقولان عن ابن عباس. والثالث: أنهم أرادوا مضافة الكفار صلاح، لا فساد، قاله مجاهد، وقتادة. والرابع: أنهم أرادوا أن فعلنا هذا هو الصلاح، وتصديق محمد هو الفساد، قاله السدي. والخامس: أنهم ظنوا أن مضافة الكفار صلاح في الدنيا لا في الدين، لأنهم اعتقدوا أن الدولة إن كانت للنبي ﷺ فقد أمنوه بمبايعته^(١) وإن كانت للكفار فقد أمنوهم بمصافاتهم، ذكره شيخنا.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾. قال الزجاج. ألا: كلمة يبتدأ بها يئنه بها المخاطب، تدل على صحة ما بعدها. و«هم»: تأكيد للكلام.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْكُرُونَ﴾. قولان: أحدهما: لا يشعرون أن الله يطلع نبيه على فسادهم. والثاني: لا يشعرون أن ما فعلوه فساد، لا صلاح.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَايَاتُنَا﴾ في المقول لهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: المنافقون، قاله مجاهد، وابن زيد. وفي القائلين لهم قولان: أحدهما: أنهم أصحاب النبي ﷺ، قاله ابن عباس، ولم يحين أحداً من الصحابة. والثاني: أنهم معينون، وهم سعد بن معاذ، وأبو لبابة، وأسيد، ذكره مقاتل. وفي الإيمان الذي دعوا إليه قولان: أحدهما: أنه التصديق بالنبي، وهو قول من قال: هم اليهود. والثاني: أنه العمل بمقتضى ما أظهوره، وهو قول من قال: هم المنافقون. وفي المراد بالناس هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: جميع الصحابة، قاله ابن عباس. والثاني: عبد الله بن سلام، ومن أسلم معه من اليهود، قاله مقاتل. والثالث: معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وجماعة من وجوه الأنصار، عدهم الكلبي. وفيمن عنوا بالسفهاء ثلاثة أقوال: أحدها: جميع الصحابة، قاله ابن عباس. والثاني: النساء والصبيان، قاله الحسن. والثالث: ابن سلام وأصحابه، قاله مقاتل. وفيما عنوه بالغيب من إيمان الذين زعموا أنهم السفهاء ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أرادوا دين الإسلام، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: أنهم أرادوا البعث والجزاء، قاله مجاهد. والثالث: أنهم عنوا مكاشفة الفريقين بالعداوة من غير نظر في عاقبة، وهذا الوجه الذي قبله يخرج على أنهم المنافقون، والأول يخرج على أنهم اليهود. قال ابن قتيبة: والسفهاء: الجهلة، يقال: سفه فلان رآه إذا جهله، ومنه قيل للبداء: سفه، لأنه جهل. قال الزجاج: وأصل السفه في اللغة: خفة الحلم، ويقال: ثوب سفه: إذا كان رقيقاً بالياً، وتسفت الريح الشجر: إذا مالت به. قال الشاعر:

مشين كما اهتزت رماح تسفت

أعاليها مر الرياح النواسم^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. قال مقاتل: لا يعلمون أنهم هم السفهاء.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمَّنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَبْرَهُونَ﴾. اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه، قاله ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في المنافقين وغيرهم من أهل الكتاب الذين كانوا يظهرون للنبي ﷺ من الإيمان ما يلقون رؤساءهم بضده، قاله الحسن. فأما التفسير: فالإلى: بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَمْسَكَ إِلَهُ إِلَىٰ﴾ أي: مع الله. والشياطين: جمع شيطان، قال الخليل: كل متمرد عند العرب شيطان. وفي هذا الاسم قولان: أحدهما: أنه من شطن، أي: بعد عن الخير، فعلى هذا تكون النون أصلية. قال أمية بن أبي الصلت في صفة سليمان ﷺ:

(١) في نسخة (١): «بمبايعته».

(٢) البيت لذي الرمة يصف النساء. يقول: إذا مشين اهتززن في مشيين، وتئين فكانهن رماح نصبت، فمرت عليها الرياح فاهتزت وتنتت. والنواسم: الرياح الضعيفة الهبوب.

أَيُّمَا شَاطِئِنِ عَصَاهِ عَكَاهُ
عَكَاهُ: وَأَوْثَقَهُ. وَقَالَ النَّابِغَةُ:

نَاتٍ بِسَعَادٍ عَنكَ نَوَى شَطُونٍ
وَالثَّانِي: أَنَّهُ مِنْ شَاطِئِنِ شَيْطَانٍ إِذَا تَهَبَّ وَاحْتَرَقَ، فَتَكُونُ النَّوْنُ زَائِدَةً. وَأَنْشَدُوا:

وَقَدْ يَشِيْطُ عَلَيَّ أَرْمَاحُنَا الْبِطْلُ (١)

أَيُّ: يَهْلِكُ. وَفِي الْمُرَادِ بِشَيَاطِينِهِمْ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ رُؤُوسُهُمْ فِي الْكُفْرِ، قَالَه ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ، وَالسَّدي. وَالثَّانِي: إِخْرَانُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَه أَبُو الْعَالِيَةِ، وَمَجَاهِدٌ. وَالثَّلَاثُ: كَهَيْتِهِمْ، قَالَه الضَّحَّاكُ، وَالْكَلْبِيُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾. فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ أَرَادُوا: إِنَّا مَعَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ. وَالثَّانِي: إِنَّا مَعَكُمْ عَلَى التَّصَرُّفِ وَالْمَعَاوَضَةِ. وَالْهَزَاءُ: السَّخَرِيَّةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَنْتَهِزُكُمْ يَوْمَ﴾. اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِاسْتِهْزَاءِ اللَّهِ بِهِمْ عَلَى تِسْعَةِ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ يَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ مِنَ الْجَنَّةِ وَهُمْ فِي النَّارِ، فَيَسْرِعُونَ إِلَيْهِ فَيَغْلِقُ، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ آخَرَ، فَيَسْرِعُونَ فَيَغْلِقُ، فَيَضْحَكُ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ. رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَمَدَتِ النَّارُ لَهُمْ كَمَا تَجَمَدُ الْإِهَالَةُ فِي الْقَدْرِ، فَيَمَشُونَ فَتَنْخَسِفُ بِهِمْ. رَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّ الْاسْتِهْزَاءَ بِهِمْ: إِذَا ضَرَبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ، فَيَقُونَ فِي الظُّلْمَةِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿أَنْجِسُوا وَرَبَّكُمْ فَالْحَسْبُ لَكُمْ﴾ [الحديد: ١٦٣]. قَالَه مِقَاتِلٌ. وَالرَّابِعُ: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ: يَجَازِيهِمْ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ، فَقَوْلِيلِ الْفَلْظِ بِمِثْلِهِ لَفْظًا وَإِنْ خَالَفَهُ مَعْنَى، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤١]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وَقَالَ عَمْرُو بْنُ كَلْتُومٍ:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا
فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

أَرَادَ: فَنَعَاقِبُهُ بِأَغْلَظِ مِنْ عَقُوبَتِهِ. وَالْخَامِسُ: أَنَّ الْاسْتِهْزَاءَ مِنَ اللَّهِ التَّخَطُّطُ لَهُمْ وَالتَّجْهِيلُ، فَمَعْنَاهُ: اللَّهُ يَخْطِئُ فَعَلَهُمْ، وَيَجْهَلُهُمْ فِي الْإِقَامَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ. وَالسَّادِسُ: أَنَّ اسْتِهْزَاءَهُ: اسْتِدْرَاجُهُ إِيَّاهُمْ. وَالسَّابِعُ: أَنَّهُ إِيقَاعُ اسْتِهْزَائِهِمْ بِهِمْ، وَرَدُّ خُدَاعِهِمْ وَمَكْرِهِمْ عَلَيْهِمْ. ذَكَرَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الْأَنْبَارِيُّ. وَالثَّامِنُ: أَنَّ الْاسْتِهْزَاءَ بِهِمْ أَنْ يَقَالَ لِأَحَدِهِمْ فِي النَّارِ وَهُوَ فِي غَايَةِ الدَّلِّ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] ذَكَرَهُ شَيْخُنَا فِي كِتَابِهِ. وَالثَّاسِعُ: أَنَّهُ لَمَّا أَظْهَرُوا مِنْ أَحْكَامِ إِسْلَامِهِمْ فِي الدُّنْيَا خِلَافَ مَا أَبْطَنَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، كَانَ كَالْاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَيُكْفِّرُكُمْ فِي لُغْتَيْنِهِمْ يَمْعَهُونَ﴾. فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: يُمْكِّنُ لَهُمْ، قَالَه ابْنُ مَسْعُودٍ. وَالثَّانِي: يَمْلِي لَهُمْ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّلَاثُ: يَزِيدُهُمْ، قَالَه مَجَاهِدٌ. وَالرَّابِعُ: يَمْهَلُهُمْ، قَالَه الزَّجَاجُ. وَالطَّغْيَانُ: الزِّيَادَةُ عَلَى الْقَدْرِ، وَالْخُرُوجُ عَنِ حَيْزِ الْإِعْتِدَالِ فِي الْكَثْرَةِ، يَقَالُ: طَغَى الْبَحْرُ إِذَا هَاجَتْ أَمْوَاجُهُ، وَطَغَى السَّيْلُ إِذَا جَاءَ بِمَاءٍ كَثِيرٍ. وَفِي الْمُرَادِ بِطَغْيَانِهِمْ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ كَفَرَهُمْ، قَالَه الْجُمْهُورُ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ عَتَوْهُمْ وَتَكَبَّرَهُمْ، قَالَه ابْنُ قَتَيْبَةَ. وَ«يَمْعَهُونَ» بِمَعْنَى: يَتَحَيَّرُونَ، يَقَالُ: رَجُلٌ عَمَهُ وَعَامَهُ، أَيُّ: مَتَحَيَّرَ. قَالَ الرَّاجِزُ:

وَمُخْتَفِقٍ مِنْ لُهْلُوٍ وَلُهْلُوٍ
مِنْ مَهْمُوٍ يَجْتَبِنُهُ فِي مَهْمِهِ

أَعْمَى الْهَدَى بِالْجَاهِلِينَ السُّمَّةُ (٢)

(١) هُوَ عَجْزٌ بَيْتٌ لِلْأَعْمَى، وَصَدْرُهُ: (قَدْ نَخَضِبُ الْمِيرَ مِنْ مَكُونٍ فَائِلَةً) وَالْفَائِلُ: عَرَقٌ فِي الْفَخْدِ يَكُونُ فِي خِرْبَةِ الْوَرْكِ يَنْحَدِرُ فِي الرَّجْلَيْنِ. وَمَكُونٌ فَائِلَةٌ: دَمَةٌ الَّتِي كُنَّ فِيهِ، أَرَادَ: إِنَّا حَذَاقٌ بِالطَّمَنِ.

(٢) الشَّعْرُ لِرُؤْيَةِ بَنِ الْمَجَاجِ يَصِفُ مَضْلَةً مِنَ الْمَهَامَةِ. وَالْمَخْفِقُ: الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ الْمَسْتَوِيَّةُ الَّتِي يَضْطَرِبُ فِيهَا السَّرَابُ. وَلِهَلْهُ: أَرْضٌ وَاسِعَةٌ، وَالْجَمْعُ لِهَالِهِ. وَالْمَهْمَةُ: الْفَلَاةُ الْمُقْفَرَةُ الَّتِي لَيْسَ بِهَا أَنْبَسٌ وَلَا مَاءٌ. وَجَابَ الْمَفَازَةَ وَاجْتَابَهَا: قَطَعَهَا سَيْرًا. وَقَوْلُهُ: فِي مَهْمَةٍ: أَيُّ: يَقْطَعُهُ وَيَدْخُلُنَّ فِي مَهْمِهِ آخِرَ مَوْغِلِينَ فِي الصَّحْرَاءِ.

وقال ابن قتيبة: يعمهون: يركبون رؤوسهم، فلا يبصرون.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾. في نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في جميع الكفار، قاله ابن مسعود، وابن عباس. والثاني: أنها في أهل الكتاب، قاله قتادة والسدي ومقاتل. والثالث: أنها في المنافقين، قاله مجاهد. واشتروا: بمعنى استبدلوا، والعرب تجعل من أثر شيئاً على شيء مشترياً له، وبأنه للآخر. والضلالة والضلال بمعنى واحد. وفيهما للمفسرين ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد هاهنا الكفر، والمراد بالهدى: الإيمان، روي عن الحسن وقاتدة والسدي. والثاني: أنها الشك، والهدى: اليقين. والثالث: أنها الجهل، والهدى: العلم. وفي كيفية استبدالهم الضلالة بالهدى ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم آمنوا ثم كفروا، قاله مجاهد. والثاني: أن اليهود آمنوا بالنبي قبل مبعته، فلما بعث كفروا به، قاله مقاتل. والثالث: أن الكفار لما بلغهم ما جاء به النبي من الهدى فردوه واختاروا الضلال، كانوا كمن أبدل شيئاً بشيء، ذكره شيخنا علي بن عبيد الله.

قوله تعالى: ﴿فَمَا رِيحَتْ يَمَنَهُمْ﴾. من مجاز الكلام، لأن التجارة لا تريح، وإنما يريح فيها، ومثله قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣] يريد: بل مكروهم في الليل والنهار. ومثله: ﴿وَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١] أي: عزم عليه. وأنشداو:

حَارَتْ قَدْ فَرَجَتْ عَنِّي هَمِي

فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى غَمِّي^(١)

والليل لا ينام، بل ينام فيه، وإنما يستعمل مثل هذا فيما يزول فيه الإشكال، ويعلم مقصود قائله، فأما إذا أضيف إلي ما يصلح أن يوصف به، وأريد به ما سواه، لم يجوز، مثل أن تقول: ريح عبدك، وتريد: ربح في عبدك. وإلى هذا المعنى ذهب الفراء وابن قتيبة والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾. فيه خمسة أقوال: أحدها: وما كانوا في العلم بالله مهتدين. والثاني: وما كانوا مهتدين من الضلالة. والثالث: وما كانوا مهتدين إلى تجارة المؤمنين. والرابع: وما كانوا مهتدين في اشتراء الضلالة. والخامس: أنه قد لا يريح التاجر، ويكون على هدى من تجارته، غير مستحق للدم فيما اعتمده، فنفى الله عز وجل عنهم الأمرين، مبالغة في ذمهم.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾. هذه الآية نزلت في المنافقين. والمثل بتحريك الاء: ما يضرب ويوضع لبيان النظائر في الأحوال. وفي قوله تعالى: ﴿اسْتَوْقَدَ﴾ قولان: أحدهما: أن السين زائدة، وأنشداو:

وداع دعا يا من يجيبُ إلى الندى

فلم يستجبه عند ذلك مجيب^(٢)

أراد: فلم يجبه، وهذا قول الجمهور، منهم الأخفش وابن قتيبة. والثاني: أن السين داخلة للطلب، أراد: كمن طلب من غيره ناراً.

قوله تعالى: ﴿قَلْبًا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَرَهُمْ فِي قَلْمَتٍ لَا يُبْعِرُونَ﴾. وفي ﴿أَضَاءَتْ﴾ قولان: أحدهما: أنه من الفعل المتعدي، قال الشاعر:

أضياءت لهم أحسابهم ووجوههم

دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه^(٣)

وقال آخر:

أضياءت لنا النار وجهاً أغرَّ

ملتبساً بالفؤاد التباساً^(٤)

والثاني: أنه من الفعل اللازم. قال أبو عبيد: يقال أضياءت النار، وأضياءها غيرها. وقال الزجاج: يقال: ضاء القمر، وأضياء. وفي «دما» قولان: أحدهما: أنها زائدة، تقديره: أضياءت حوله. والثاني: أنها بمعنى الذي. وحول

(١) الشعر لرؤية بن المعجاج يمدح الحارث بن سليم من آل عمرو بن سعد بن زيد مناة.

(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي من قصيدة يرثي بها أخاه أبا المغوار، وهي في «الأصمعيات».

(٣) الجزع: ضرب من الخرز. وقيل: هو الخرز اليماني، وهو الذي فيه يياض وسواد، تشبه به العين.

(٤) البيت للجمدي كما في «اللسان».

الشيء: ما دار من جوانبه. والهاء: عائدة على المستوقد. فإن قيل: كيف وحده، فقال: ﴿كَمَثَلِ الْآزِيِّ اسْتَوْقَدَ﴾، ثم جمع فقال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؟ فالجواب: أن ثعلباً حكى عن الفراء أنه قال: إنما ضرب المثل للفعل، لا لأعيان الرجال، وهو مثل للفتاق. وإنما قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ لأن المعنى ذاهب إلى المنافقين، فجمع لذلك. قال ثعلب: وقال غير الفراء: معنى الذي: الجمع، وحده أولاً للفظه، وجمع بعد لمعناه، كما قال الشاعر:

فإن الذي حانت بفلج دماؤهم
فجعل «الذي» جمعاً.

فصل

اختلف العلماء في الذي ضرب الله تعالى له هذا المثل من أحوال المنافقين على قولين: أحدهما: أنه ضرب بكلمة الإسلام التي يلفظون بها، ونورها صيانة النفوس وحقق الدماء، فإذا ماتوا سلبهم الله ذلك العز، كما سلب صاحب النار ضوءه. وهذا المعنى مروى عن ابن عباس. والثاني: أنه ضرب لإقبالهم على المؤمنين وسماهم ما جاء به الرسول، فذهاب نورهم: إقبالهم على الكافرين والضلال، وهذا قول مجاهد. وفي المراد بـ«الظلمات» هاهنا أربعة أقوال: أحدها: العذاب، قاله ابن عباس. والثاني: ظلمة الكفر، قاله مجاهد. والثالث: ظلمة يلقبها الله عليهم بعد الموت، قاله قتادة. والرابع: أنها نفاقهم، قاله السدي.

فصل

وفي ضرب المثل لهم بالنار ثلاث حكم: إحداها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره، لا من قبل نفسه، فإذا ذهب تلك النار بقي في ظلمة، فكأنهم لما أقرؤا بألسنتهم من غير اعتقاد قلوبهم؛ كان نور إيمانهم كالمستعار. والثانية: أن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة الحطب، فهو له كغذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم. والثالثة: أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد معها ضياء، فشيبه حالهم بذلك.

قوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَى﴾. الصمم: انسداد منافذ السمع، وهو أشد من الطرش. وفي البكم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الخرس، قاله مقاتل، وأبو عبيد، وابن فارس. والثاني: أنه عيب في اللسان لا يتمكن معه من النطق، وقيل: إن الخرس يحدث عنه. والثالث: أنه عيب في الفؤاد يمنع أن يعي شيئاً يفهمه، فيجمع بين الفساد في محل الفهم ومحل النطق، ذكر هذين القولين شيخنا.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾. فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يرجعون عن ضلالتهم، قاله قتادة ومقاتل. والثاني: لا يرجعون إلى الإسلام، قاله السدي. والثالث: لا يرجعون عن الصمم والبكم والعمى، وإنما أضاف الرجوع إليهم، لأنهم انصرفوا باختيارهم، للغلبة أهوائهم عن تصفح الهدى بآلات التصفح، ولم يكن بهم صمم ولا بكم حقيقة، ولكنهم لما التفتوا عن سماع الحق والنطق به؛ كانوا كالصمم البكم. والعرب تسمي المعرض عن الشيء: أعمى، والملتفت عن سماعه: أصم، قال مسكين الدارمي:

ما ضرَّ جاراً لي أجاوره
أعمى إذا ما جازتي خرجت
وتصمُّ عما بينهم أذني

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾. «أو»: حرف مردود على قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْآزِيِّ اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ واختلف العلماء فيه على ستة أقوال: أحدها: أنه داخل هاهنا للتخيير، تقول العرب: جالس الفقهاء أو النحويين، ومعناه: أنت

(١) البيت للأشهب بن ربيعة. وفلج: واد بين البصرة وحمي ضربة، كانت فيه هذه الوقعة التي ذكرها.

مخير في مجالسة أي الفريقين شئت، فكأنه خيرنا بين أن نضرب لهم المثل الأول أو الثاني. والثاني: أنه داخل للإبهام فيما قد علم الله تحصيله، فأبهم عليهم ما لا يطلبون تفصيله، فكأنه قال: مثلهم كأحد هذين. ومثله قوله تعالى: ﴿فَبَيَّنَّا كَالْجِبَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] والعرب تبهم ما لا فائدة في تفصيله. قال لبيد:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما
وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
أي: هل أنا إلا من أحد هذين الفريقين، وقد فنيا، فسبيلي أن أفنى كما فنيا. والثالث: أنه بمعنى: بل. وأنشد الفراء:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى
والرابع: أنه للتفصيل، ومعناه: بعضهم يشبه بالذي استوقد ناراً، وبعضهم بأصحاب الصبب. ومثله قوله تعالى: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١٣٥] معناه: قال بعضهم، وهم اليهود: كونوا هوداً، وقال النصارى: كونوا نصارى. وكذا قوله: ﴿فَبَيَّنَّا هَآ بِأَسْنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] معناه: جاءه بعضهم بأسنا بيئاتاً، وجاء بعضهم بأسنا وقت القائلة. والخامس: أنه بمعنى الواو. ومثله قوله تعالى: ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُرُوكُمْ أَوْ بُرُوكُمْ مِنْ بُرُوكُمْ﴾ [النور: ٦١] قال جرير: نال الخلافة أو كانت له قدراً
كما أتى ربه موسى على قدر
والسادس: أنه للشك في حق المخاطبين، إذ الشك مرتفع عن الحق عز وجل، ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] يريد: فالإعادة أهون من الابتداء فيما تظنون. فاما التفسير لمعنى الكلام: أو كأصحاب صيب، فأضمر الأصحاب، لأن في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي ذُرَاهِمٍ﴾، دليلاً عليه. والصيب: المطر. قال ابن قتيبة: هو فيعل^(١) من صاب يصبوب: إذا نزل من السماء، وقال الزجاج: كل نازل من علو إلى استفال، فقد صاب يصبوب، قال الشاعر:

كانهم صابت عليهم سحابة
صواعقها لطيرهن دسيب
وفي الرعد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه صوت ملك يزجر السحاب، وقد روي هذا المعنى مرفوعاً إلى النبي ﷺ^(٢)، وبه قال ابن عباس ومجاهد. وفي رواية عن مجاهد: أنه صوت ملك يسبح. وقال عكرمة: هو ملك يسوق السحاب كما يسوق الحادي الإبل. والثاني: أنه ريح تختنق بين السماء والأرض. وقد روي عن أبي الجلد أنه قال: الرعد: الريح. واسم أبي الجلد: جيلان بن أبي فروة البصري، وقد روى عنه قتادة. والثالث: أنه اصطكاك أجرام السحاب، حكاه شيخنا علي بن عبيد الله. وفي البرق ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مخاريق يسوق بها الملك السحاب، روي هذا المعنى مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وهو قول علي بن أبي طالب. وفي رواية عن علي قال: هو ضربة بمخراق من حديد. وعن ابن عباس: أنه ضربة بسوط من نور. قال ابن الأنباري: المخاريق: ثياب تلف، ويضرب بها الصبيان بعضهم بعضاً، فشب السوط الذي يضرب به السحاب بذلك المخراق. قال عمرو بن كلثوم:

كأن سيوفنا فينا وفيهم
مخاريق بأيندي لأعبينا
وقال مجاهد: البرق: مصع ملك، والمصع: الضرب والتحريك. والثاني: أن البرق: الماء، قاله أبو الجلد. وحكى ابن فارس أن البرق: تلالؤ الماء. والثالث: أنه نار تنفدح من اصطكاك أجرام السحاب لسيره، وضرب بعضه لبعض، حكاه شيخنا. والصواعق: جمع صاعقة، وهي صوت شديد من صوت الرعد يقع معه قطعة من نار تحرق ما تصيبه. وروي عن شهر بن حوشب: أن الملك الذي يسوق السحاب، إذا اشتد غضبه، طار من فيه النار، فهي الصواعق. وقال غيره: هي نار تنفدح من اصطكاك أجرام السحاب. قال ابن قتيبة: وإنما سميت صاعقة، لأنها إذا أصابت قتلت، يقال: صعقتهم أي: قتلتهم.

(١) ولما اجتمعت المياه والواو، وسبقت إحداهما بالسكون، قلبت الواو ياء، وأدغمت فاصرات «صيب» ونظيره: ميت وسيد وهين ولين.

(٢) أخرجه أحمد في «المستند»، والنسائي، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب. وهو حديث طويل أجاب فيه الرسول ﷺ عن أسئلة يهود، انظر «مسند أحمد» (٢٤٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ حَيُّطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لا يفوته أحد منهم، فهو جامعهم يوم القيامة. ومثله قوله تعالى: ﴿أَمَلْتُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] قاله مجاهد. والثاني: أن الإحاطة: الإهلاك، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْتُ يَشْرِيًّا﴾ [الكهف: ٤٢]. والثالث: أنه لا يخفى عليه ما يفعلون.

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ﴾. يكاد بمعنى: يقارب، وهي كلمة إذا أثبتت انتفى العمل، وإذا نفيت ثبت الفعل. وسئل بعض المتأخرين فقبل له:

أنحوي هذا العصر ما هي كلمة
إذا نفيت والله يشهد أثبتت
جرت بلساني جرهم وثمرود
وإن أثبتت قامت مقام جحود
ويشهد للإثبات عند النفي قوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُونَ يَقْفُونَ حَيْثُكَ﴾ [النساء: ٧٨] وقوله: ﴿إِنَّا أَخْرَجَ يَكْدُ لُرَّ يَكْدُ بَرِيهَا﴾ [النور: ٤٠] ومثله: ﴿وَلَا يَكَادُ بَيْنَ﴾ [الزخرف: ٥٢] ويشهد للنفي عند الإثبات قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ [البقرة: ٢٠] و﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِي﴾ [النور: ٤٣] و﴿يَكَادُ زَيْتًا يَغِيءُ﴾ [النور: ٣٥]. وقال ابن قتيبة: كاد بمعنى: همّ ولم يفعل. وقد جاءت بمعنى [الإثبات] قال ذو الرمة:

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت
لعينيه مي سافراً كاد يبرق
أي: لو تعرضت له لبرق، أي: دهش وتحير. قلت: وقد قال ذو الرمة في المنفية ما يدل على أنها تستعمل للإثبات، وهو قوله:

إذ غير النأي المحبين لم يكد
رسيس الهوى من حب مئة يبرح
أراد: لم يبرح.

قوله تعالى: ﴿يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ﴾. قرأ الجمهور بفتح الباء، وسكون الخاء وفتح الطاء. وقرأ أبان بن تغلب، وأبان بن يزيد كلاهما عن عاصم، بفتح الباء وسكون الخاء، وكسر الطاء مخففاً. ورواه الجعفي عن أبي بكر عن عاصم، بفتح الباء وكسر الخاء، وتشديد الطاء، وهي قراءة الحسن كذلك، إلا أنه كسر الباء. وعنه: فتح الباء والخاء مع كسر الطاء المشددة. ومعنى ﴿يَخْطِفُ﴾: يستلب، وأصل الاختطاف: الاستلاب، ويقال لما يخرج به الدلو: خطاف، لأنه يختطف ما علق به. قال النابغة:

خطاطيف حجن في حبال متينة
والحجن المتعققة^(١) وجمل خيطف: سريع المر، وتلك السرعة الخطفى.

قوله تعالى: ﴿كَلِمًا أُنْبَاءً لَهُمْ﴾. قال الزجاج: يقال: ضاء الشيء يضيء، وأضاء يضيء، وهذه اللغة الثانية هي المختارة.

فصل

اختلف العلماء ما الذي يشبه الرعد مما يتعلق بأحوال المنافقين على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التخويف الذي في القرآن، قاله ابن عباس. والثاني: أنه ما يخافون أن يصيبهم من المصائب إذا علم النبي والمؤمنون بنفاقهم، قاله مجاهد والسدي. والثالث: أنه ما يخافونه من الدعاء إلى الجهاد، وقاتل من يبطنون مودته، ذكره شيخنا. واختلفوا: ما الذي يشبه البرق من أحوالهم على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما يتبين لهم من مواعظ القرآن وحكمه. والثاني: أنه ما يضيء لهم من نور إسلامهم الذي يظهره. والثالث: أنه مثل لما يتألونه بإظهار الإسلام من حفن دعاتهم، فإنه بالإضافة إلى ما ذخر لهم في الأجل كالبرق. واختلفوا في معنى قوله: ﴿يَجْمَلُونَ أَسْبِعَمَ فِي عَادَاتِهِمْ مِنْ الصَّرِيحِ﴾ على قولين: أحدهما: أنهم كانوا يفرون من سماع القرآن لئلا يأمرهم بالجهاد مخافة الموت، قاله الحسن والسدي. والثاني: أنه مثل لإعراضهم عن

(١) في الأصل: المتوقفة، وهو خطأ. وقال ابن قتيبة في «الشعر والشعراء»: رأيت علماءنا يستجدون معناه، ولست أرى ألفاظه جيداً، ولا مينة لمعناه، لأنه أراد: أنت في قدرتك عليّ، كخطاطيف عقف يمد بها، وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف.

القرآن كراهية له، قاله مقاتل. واختلفوا في معنى ﴿كُلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ على أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: كلما أتاهم القرآن بما يحبون تابعوه، قاله ابن عباس والسدي. والثاني: أن إضاءة البرق حصول ما يرجونه من سلامة نفوسهم وأموالهم، فيسرعون إلى متابعتها، قاله قتادة. والثالث: أنه تكلمهم بالإسلام، ومشيههم فيه، اهتداؤهم به، فإذا تركوا ذلك وقفوا في ضلالة، قاله مقاتل. والرابع: أن إضاءته لهم: تركهم بلا ابتلاء ولا امتحان، ومشيههم فيه: إقامتهم على المسالمة بإظهار ما يظهرونه. ذكره شيخنا. فأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَنِّي﴾ فمن قال: إضاءته: إتيانه إياهم بما يحبون، قال: إظلامه: إتيانه إياهم بما يكرهون. وعلى هذا سائر الأقوال التي ذكرناها بالعكس. ومعنى ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ وقفوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَنْبُؤُهُمْ﴾. قال مقاتل: معناه: لو شاء لأذهب أسمعهم وأبصارهم عقوبة لهم. قال مجاهد: من أول البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين، وآياتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في نعت المنافقين. قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ عِبْدُوا رَبِّكُمْ أَلَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. اختلف العلماء فيمن عنى بهذا الخطاب على أربعة أقوال: أحدها: أنه عام في جميع الناس، وهو قول ابن عباس. والثاني: أنه خطاب لليهود دون غيرهم، قاله الحسن ومجاهد. والثالث: أنه خطاب للكفار من مشركي العرب وغيرهم، قاله السدي. والرابع: أنه خطاب للمنافقين واليهود، قاله مقاتل. و﴿النَّاسِ﴾ اسم للحيوان الآدمي. وسماوا بذلك لتحركهم في مراداتهم. والنوس: الحركة. وقيل: سماوا أناساً لما يعترتهم من النسيان. وفي المراد بالعبادة هاهنا قولان: أحدهما: التوحيد. والثاني: الطاعة، روي عن ابن عباس. والخلق: الإيجاد. وإنما ذكر من قبلهم، لأنه أبلغ في التذكير، وأقطع للجحد، وأحوط في الحجّة. وقيل: إنما ذكر من قبلهم، لينبههم على الاعتبار بأحوالهم من إثابة مطيع، ومعاقبة عاص. وفي «لعل» قولان: أحدهما: أنها بمعنى كي، وأنشدوا في ذلك:

وقلتم لنا كُفُّوا الحروب لعلنا
نكفُّ ووثقتم لنا كل مَوثِق
فلما كففنا الحرب كانت عهدكم

يريد: لكي نكف، وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل وقطرب وابن كيسان. والثاني: أنها بمعنى الترجي، ومعناها: اعبدوا الله راجين للتقوى، ولأن تقوا أنفسكم بالعبادة عذاب ربكم. وهذا قول سيبويه. قال ابن عباس: لعلمكم تتقون الشرك، وقال الضحاك: لعلمكم تتقون النار. وقال مجاهد: لعلمكم تطيعون.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرِشًا﴾. إنما سميت الأرض أرضاً لسعتها، من قولهم: أرضت القرحة: إذا اتسعت. وقيل: لانحطاطها عن السماء، وكل ما سفل: أرض، وقيل: لأن الناس يرضونها بأقدامهم، وسميت السماء سماء لعلوها. قال الزجاج: وكل ما علا على الأرض فاسمه بناء، وقال ابن عباس: البناء هاهنا بمعنى السقف. قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾. يعني: من السحاب. ﴿نَزْلًا﴾ يعني: المطر. ﴿فَلَا تَجْمَعُوا لِلَّهِ أَسْدَادًا﴾ يعني: شركاء، أمثالاً. يقال: هذا نذ هذا، ونديده. وفيما أريد بالانناد هاهنا قولان: أحدهما: الأصنام، قاله ابن زيد، والثاني: رجال كانوا يطيعونهم في معصية الله، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ مَكْمُورُونَ﴾. فيه ستة أقوال: أحدها: وأنتم تعلمون أنه خلق السماء، وأنزل الماء، وفعل ما شرحه في هذه الآيات، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس وقتادة ومقاتل. الثاني: وأنتم تعلمون أنه ليس ذلك في كتابكم التوراة والإنجيل، روي عن ابن عباس أيضاً، وهو يخرج على قول من قال: الخطاب لأهل الكتاب. والثالث: وأنتم تعلمون أنه لا نذ له، قاله مجاهد. والرابع: أن العلم هاهنا بمعنى العقل، قاله ابن قتيبة. والخامس: وأنتم تعلمون أنه لا يقدر على فعل ما ذكره أحد سواه. ذكره شيخنا علي بن عبيد الله. والسادس: وأنتم تعلمون أنها حجارة، سمعته من الشيخ أبي محمد بن الخشاب.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾. سبب نزولها أن اليهود قالوا: هذا الذي يأتينا به محمد لا يشبه الوحي، وأنا لفي شك منه، فنزلت هذه الآية. وهذا مروى عن ابن عباس ومقاتل. و«إن» هاهنا لغير شك، لأن الله تعالى علم أنهم مرتابون، ولكن هذا عادة العرب، يقول الرجل لابنه: إن كنت ابني فأطعني. وقيل: إنها هاهنا بمعنى إذ، قال أبو زيد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَدُّرُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾. قال ابن قتيبة: السورة تهمز ولا تهمز، فمن همزها جعلها من أسارت، يعني [أفضلت] لأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها جعلها من سورة البناء، أي منزلة بعد منزلة. قال النابغة في النعمان:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يستذبذب

والسورة في هذا البيت: سورة المجد، وهي مستعارة من سورة البناء. وقال ابن الأنباري: قال أبو عبيدة: إنما سميت السورة سورة لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة، مثل سورة البناء. ومعنى: أعطاك سورة، أي: منزلة شرف ارتفعت إليها عن منازل الملوك. قال ابن القاسم: ويجوز أن تكون سميت سورة لشرفها، تقول العرب: له سورة في المجد، أي: شرف وارتفاع، أو لأنها قطعة من القرآن من قولك: أسارتُ سُوراً، أي: أبقيت بقية، وفي هاء «مثله» قولان: أحدهما: أنها تعود على القرآن المنزل، قاله قتادة، والفراء ومقاتل. والثاني: أنها تعود على النبي ﷺ، فيكون التقدير: فاتوا بسورة من مثل هذا العبد الأمي، ذكره أبو عبيدة والزجاج وابن القاسم. فعلى هذا القول: تكون «من» لابتداء الغاية، وعلى الأول: تكون زائدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. فيه قولان: أحدهما: أن معناه: استعينوا^(١) من المعونة، قاله السدي والفراء. والثاني: استغيثوا من الاستغاثة، وأنشدوا:

فلما التقت فرساننا^(٢) ورجالهم دعوا يال كعب واعتزينا لعامر^(٣)

وهذا قول ابن قتيبة: وفي «شهادتهم» أقوال: أحدها: أنهم ألتهم، قاله ابن عباس والسدي ومقاتل والفراء. قال ابن قتيبة: وسما شهداء، لأنهم يشهدونهم، ويحضرونهم. وقال غيره: لأنهم عبدوهم ليشهدوا لهم عند الله. والثاني: أنهم أعوانهم، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أن معناه: فاتوا بناس يشهدون أن ما تأتون به مثل القرآن، روي عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. أي: في قولكم: إن هذا القرآن ليس من عند الله، قاله ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ تَقُولُوا﴾. في هذه الآية مضمّر مقدّر، يقتضي الكلام تقديمه، وهو أنه لما تحداهم بما في الآية الماضية من التحدي، فسكتوا عن الإجابة؛ قال: ﴿إِنْ أَنْتُمْ تَقُولُوا﴾. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَقُولُوا﴾ أعظم دلالة على صحة نبوة نبينا، لأنه أخبر أنهم لا يفعلون، ولم يفعلوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْتُمْ أَكْثَرُ الظَّالِمِينَ﴾. وبالضم: المصدر، وهو: اسم حركات المتوضىء. وقرأ الحسن وفتادة: ﴿وَقُودَهَا﴾ بضم الواو، والاختيار الفتح. والناس أوقدوا فيها بطريق العذاب، والحجارة، لبيان قوتها وشدتها، إذ هي محرقة للحجارة. وفي هذه الحجارة قولان: أحدهما: أنها أصنامهم التي عبدوها، قاله الربيع بن أنس. والثاني: أنها حجارة الكبريت، وهي أشد الأشياء حرّاً إذا أحميت، يعذبون بها. ومعنى ﴿أُعْتَبَتْ﴾: هيئت. وإنما خوفهم بالنار إذا لم يأتوا بمثل القرآن، لأنهم إذا كذبوه، وعجزوا عن الإتيان بمثله؛ ثبتت عليهم الحجة، وصار الخلاف عاداً، وجزاء المعاندين النار.

(١) في «معاني القرآن» للفراء: استغيثوا بهم.

(٢) في الأصل: مرساننا.

(٣) هذا البيت للراعي النميري. عزي واعتزى: انتسب، ودعا في الحرب بمثل قوله: يا لفلان أو يا للمهاجرين أو يا للأنصار، والاسم الغزاة والعزوة، وهي دعوى المستغيث: «لسان العرب».

قوله تعالى: ﴿وَيَبِّئُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. البشارة: أول خبر يرد على الإنسان، وسمي بشارة، لأنه يؤثر في بشرته، فإن كان خيراً، أثر المسرة والانبساط، وإن شراً، أثر الانجماع والغم، والأغلب في عرف الاستعمال أن تكون البشارة بالخير، وقد تستعمل في الشر، ومنه قوله تعالى: ﴿يَبِّئُ الْمُتَّقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابُكَ أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَلِّبُوا الْفَيْلِيْنَ﴾. يشمل كل عمل صالح، وقد روي عن عثمان بن عفان أنه قال: أخلصوا الأعمال. وعن علي رضي الله عنه قال: أقاموا الصلوات المفروضات. فأما الجنات، فجمع جنة. وسميت الجنة جنة، لاستتار أرضها بأشجارها، وسمي الجن جنناً، لاستتارهم، والجنين من ذلك، والدرع جنة، وجرن الليل: إذا ستر، وذكر عن المفضل أن الجنة: كل بستان فيه نخل. وقال الزجاج: كل نبت كلف وكثر وستر بعضه بعضاً، فهو جنة.

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت شجرها لا من تحت أرضها.

قوله تعالى: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: هذا الذي طعمنا من قبل، فزق الغداة كرزق العشي، روي عن ابن عباس والضحاك ومقاتل. والثاني: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، قاله مجاهد وابن زيد. والثالث: أن ثمر الجنة إذا جُني خلفه مثله، فإذا رآوا ما خلف الجنى، اشتبه عليهم، فقالوا: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قاله يحيى بن أبي كثير وأبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْتُوا بِهِ مَثَلَيْهَا﴾. فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه متشابه في المنظر واللون، مختلف في الطعم، قاله مجاهد وأبو العالية والضحاك والسدي ومقاتل. والثاني: أنه متشابه في جودته، لا رديء فيه، قاله الحسن وابن جريج. والثالث: أنه يشبه ثمار الدنيا في الخلق والاسم، غير أنه أحسن في المنظر والطعم، قاله قتادة وابن زيد. فإن قال قائل: ما وجه الامتنان بمتشابهه، وكلما تنوعت المطاعم واختلفت ألوانها كان أحسن؟ فالجواب: أنا إن قلنا: إنه متشابه المنظر مختلف الطعم، كان أغرب عند الخلق وأحسن، فإنك لو رأيت تفاحة فيها طعم سائر الفاكهة، كان نهاية في العجب. وإن قلنا: إنه متشابه في الجودة؛ جاز اختلافه في الألوان والطعوم. وإن قلنا: إنه يشبه صورة ثمار الدنيا مع اختلاف المعاني؛ كان أطرف وأعجب، وكل هذه مطالب مؤثرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: في الخلق، فإنهن لا يحضن ولا يبطن، ولا يأتين الخلاء. وفي الخلق، فإنهن لا يحسدن، ولا يغرن، ولا ينظرن إلى غير أزواجهن. قال ابن عباس: نقية عن القذى والأذى. قال الزجاج: «مطهرة» أبلغ من طاهرة، لأنه للتكثير. والخلود: البقاء الدائم الذي لا انقطاع له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿شَرِبَ مَثَلٌ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ١٧]. ونزول قوله: ﴿كَذَّبِلِ الْمَكِّيِّينَ أَخَذَتِ بَيْتًا﴾ [المنكبر: ٤١]. قالت اليهود: وما هذا من الأمثال؟ فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس والحسن وقاتل والفراء. والثاني: أنه لما ضرب الله المثلين المتقدمين، وهما قوله تعالى: ﴿كَذَّبِلِ الَّذِينَ اسْتَوْقَدُوا نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] وقوله: ﴿أَوْ كَمَيْسٍ مِنْ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] قال المناقون: الله أجل وأعلى من أن يضرب هذه الأمثال، فنزلت هذه الآية، رواه السدي عن أشياخه. وروي عن الحسن ومجاهد نحوه. والحياء بالمد: الانقباض والاحتشام، غير أن صفات الحق لا يطلع لها على ماهية، وإنما تمر كما جاءت. وقد قال النبي ﷺ: «إن ربكم حيي كريم»^(١).

وقيل: معنى لا يستحيي: لا يترك. وحكى ابن جرير الطبري عن بعض اللغويين أن معنى لا يستحيي: لا يخشى. ومثله: ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَّهَ﴾ [الأحزاب: ٢٧] أي: تستحيي منه. فالاستحياء والخشية ينوب كل واحد منهما عن الآخر. وقرأ مجاهد وابن محيصن: لا يستحي بياء واحدة، وهي لغة.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾. قال ابن عباس: أن يذكر شيئاً. واعلم أن فائدة المثل أن يبين للمضروب له الأمر الذي ضرب لأجله، فينجلي عامضه.

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن سلمان رضي الله عنه وقال الترمذي: حديث حسن غريب، ولفظه «إن ربكم حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه إن يردهما صفراً».

قوله تعالى: ﴿مَّا بَعُوضَةٌ﴾. ما زائدة، وهذا اختيار أبي عبيدة والزجاج والبصريين. وأنشدوا للناطقة:

[قالت]: ألا ليتما هذا الحمام لنا

وذكر أبو جعفر الطبري أن المعنى: ما بين بعوضة إلى ما فوقها، ثم حذف ذكر: «بين» و«إلى» إذ^(١) كان في نصب البعوضة، ودخول الفاء في «ما» الثانية؛ دلالة عليهما، كما قالت العرب: مطرنا ما زبالة فالثعلبية، وله عشرون ما ناقة فجمالاً، وهي أحسن الناس ما قرناً فقدماً [يعنون: ما بين قرنهما إلى قدمها]^(٢). وقال غيره: نصب البعوضة على البدل من المثل. وروى الأصمعي عن نافع: «بعوضة» بالرفع، على إضمار هو. والبعوضة: صغيرة البق.

قوله تعالى: ﴿فَمَّا قَوْفَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: فما فوقها في الكبر، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج، والفراء. والثاني: فما فوقها في الصغر، فيكون معناه: فما دونها، قاله أبو عبيدة. قال ابن قتيبة: وقد يكون الفوق بمعنى: دون، وهو من الأضداد، ومثله: الجون؛ يقال للأسود والأبيض. والصريم: الصباح، والليل. والسدفة: الظلمة، والضوء. والجلل: الصغير، والكبير. والناهل: العطشان، والريان. والمائل: القائم، واللاطي بالأرض. والصارخ: المغيث، والمستغيث. والهاجد: المصلي بالليل، والنائم. والرهوة: الارتفاع، والانحدار. والتلعة: ما ارتفع من الأرض، وما انهبط من الأرض. والظن: يقين، وشك. والأقراء: الحيض، والأطهار. والمفرع في الجبل: المصعد، والمنحدر. والوراء: خلفاً، وقداماً. وأسرت الشيء: أخفيته، وأعلنته. وأخفيت الشيء: أظهرته وكتمته. ورتوت الشيء: شدته، وأرخيته. وشعبت الشيء: جمعته، وفرقته. وبعث الشيء بمعنى: بعته، واشتريته. وشريت الشيء: اشتريته، وبعته. والحي خلوف: غيب، ومتخلفون. واختلفوا في قوله: ﴿يُضِلُّ بِوَيْهٍ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِوَيْهٍ كَثِيرًا﴾ هل هو من تمام قول الذين قالوا: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أو هو مبتدأ من كلام الله ﷻ على قولين: أحدهما: أنه تمام الكلام الذي قبله، قاله الفراء، وابن قتيبة. قال الفراء: كأنهم قالوا: ماذا أراد الله بمثل لا يعرفه كل أحد، يضل به هذا، ويهدي به هذا؟! [ثم استأنف الكلام والخبر عن الله] فقال الله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِوَيْهٍ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. والثاني: أنه مبتدأ من قول الله تعالى، قاله السدي ومقاتل. فأما الفسق؛ فهو في اللغة: الخروج، يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرها. فالفاسق: الخارج عن طاعة الله إلى معصيته. وفي المراد بالفاسقين هاهنا، ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: المنافقون، قاله أبو العالية والسدي. والثالث: جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْفُسُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾. هذه صفة للفاسقين، وقد سبقت فيهم الأقوال الثلاثة. والنقض: ضد الإبرام، ومعناه: حل الشيء بعد عقده. وينصرف النقض إلى كل شيء بحسبه، فنقض البناء: تفريق جمعه بعد إحكامه. ونقض العهد: الإعراض عن المقام على أحكامه. وفي هذا العهد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما عهد إلى أهل الكتاب من صفة محمد ﷺ والوصية باتباعه، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أنه ما عهد إليهم في القرآن، فأقروا به ثم كفروا، قاله السدي. والثالث: أنه الذي أخذه عليهم حين استخرج ذرية آدم من ظهره، قاله الزجاج. ونحن وإن لم نذكر ذلك العهد، فقد ثبت بخبر الصادق، فيجب الإيمان به. وفي هاء «ميثاقه» قولان: أحدهما: أنها زائدة، والثاني: أنها لا ابتداء الغاية، كأنه قال: ابتداء نقض العهد من بعد ميثاقه. وفي هاء «ميثاقه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى، والثاني: أنها ترجع إلى العهد، فتقديره: بعد إحكام التوفيق فيه. وفي: الذي أمر الله أن يوصل: ثلاثة أقوال: أحدها: الرحم والقرابة، قاله ابن عباس وقتادة والسدي. والثاني: أنه رسول الله ﷺ قطعوه بالتكذيب، قاله الحسن. والثالث: الإيمان بالله، وأن لا يفرق بين أحد من رسله، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، قاله مقاتل. وفي فسادهم في الأرض ثلاثة أقوال: أحدها: أنه استدعاؤهم الناس إلى الكفر، قاله ابن عباس. والثاني: أنه العمل بالمعاصي، قاله السدي، ومقاتل. والثالث: أنه قطعهم الطريق على من جاء مهاجراً إلى النبي ﷺ ليمنعوا الناس من الإسلام. والخسران في اللغة: النقصان.

(٢) ما بين القوسين زيادة من الطبري.

(١) في الأصل: إذا.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ في كيف قولان: أحدهما: أنه استفهام في معنى التعجب، وهذا التعجب للمؤمنين، أي: اعجبوا من هؤلاء كيف يكفرون، وقد ثبت حجة الله عليهم، قاله ابن قتيبة والزجاج. والثاني: أنه استفهام خارج مخرج التقرير والتوبيخ. تقديره: ويحكم! كيف تكفرون بالله! قال المعجاج:

أطرباً وأنت قنـسري
[والدهر بالإنسان دواري^(١)]

أراد: أظرب وأنت شيخ كبير؟!، قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَشْرَاقًا﴾. قال الفراء: أي: وقد كنتم أمواتاً. ومثله: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَيَّرْتُمْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠] أي: قد حصرت. ومثله: ﴿وَإِنْ كَانَ قَبِيضٌ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ﴾ [يوسف: ٢٧] أي: فقد كذبت، ولولا إضمار «قد» لم يجز مثله في الكلام. وفي الحياتين، والموتيتين أقوال: أصحها: أن الموتة الأولى، كونهم نطفاً وعلقاً ومضغاً، فأحياهم في الأرحام، ثم يميتهم بعد خروجهم إلى الدنيا، ثم يُحييهم للبعث يوم القيامة، وهذا قول ابن عباس وقتادة ومقاتل والفراء وتعلب، والزجاج، وابن قتيبة، وابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: لأجلكم، فبعضه للانتفاع، وبعضه للاعتبار. ﴿ثُمَّ أَسْرَوْنَا إِلَى السَّمَاءِ﴾، أي: عمد إلى خلقها، والسماء: لفظها لفظ الواحد، ومعناها، معنى الجمع، بدليل قوله: ﴿فَسَوَّيْنَاهُ﴾. وأيهما أسبق في الخلق: الأرض، أم السماء؟ فيه قولان: أحدهما، الأرض، قاله مجاهد. والثاني: السماء، قاله مقاتل. واختلفوا في كيفية تكميل خلق الأرض وما فيها، فقال ابن عباس: بدأ بخلق الأرض في يومين، ثم خلق السموات في يومين، وقدر فيها أوقاتها في يومين. وقال الحسن ومجاهد: جمع خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام متوالية، ثم خلق السماء في يومين. والعليم: جاء على بناء: فعيل، للمبالغة في وصفه بكمال العلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾. كان أبو عبيدة يقول: «إذ» ملغاة، وتقدير الكلام: وقال ربك، وتابعه ابن قتيبة، وعاب ذلك عليهما الزجاج وابن القاسم. وقال الزجاج: إذ: معناها: الوقت، فكأنه قال: ابتداء خلقكم إذ قال ربك للملائكة. والملائكة: من الألوكة، وهي الرسالة، قال لبيد:

وـغلام أرسلته أمه

وواحد الملائكة: ملك، والأصل فيه: ملاك. وأنشد سيبويه:

فـلست لإنسي ولكن لملائك

قال أبو إسحاق: ومعنى ملاك: صاحب رسالة، يقال: مألكة ومألكة وملاكة. ومالك: جمع مألكة. قال الشاعر:

أبلغ النعمان عني مالكا

وفي هؤلاء الملائكة قولان: أحدهما: أنهم جميع الملائكة، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: أنهم الذين كانوا

مع إبليس حين أهبط إلى الأرض، ذكره أبو صالح عن ابن عباس. ونقل أنه كان في الأرض قبل آدم خلق، فأفسدوا، فبعث الله إبليس في جماعة من الملائكة فأهلكوهم. واختلفوا ما المقصود في إخبار الله ﷻ الملائكة بخلق آدم على ستة أقوال: أحدها: أن الله تعالى علم في نفس إبليس كبراً، فأحب أن يطلع الملائكة عليه، وأن يظهر ما سبق عليه في علمه، رواه الضحاك عن ابن عباس، والسدي عن أشياخه. والثاني: أنه أراد أن يبلى طاعة الملائكة، قاله الحسن، والثالث: أنه لما خلق النار خافت الملائكة، فقالوا: ربنا لمن خلقت هذه؟ قال: لمن عصاني، فخافوا وجود المعصية منهم، وهم لا يعلمون بوجود خلق سواهم، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] قاله ابن زيد. والرابع: أنه أراد إظهار عجزهم عن الإحاطة بعلمه، فأخبرهم حتى قالوا: ﴿أَجْتَمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا؟﴾ فأجابهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. والخامس: أنه أراد تعظيم آدم بذكره بالخلافة قبل وجوده، ليكونوا معظمين له إن أوجده. والسادس: أنه أراد إعلامهم بأنه خلقه ليسكنه الأرض، وإن كان ابتداء خلقه في السماء. والخليفة: هو القائم مقام غيره، يقال: هذا

خلف فلان وخليفته. قال ابن الأنباري: والأصل في الخليفة خليفة، بغير هاء، فدخلت الهاء للمبالغة في مدحه بهذا الوصف، كما قالوا: علامة ونسابة وراوية. وفي معنى خلافة آدم قولان: أحدهما: أنه خليفة عن الله تعالى في إقامة شرعه، ودلائل توحيده، والحكم في خلقه، وهذا قول ابن مسعود ومجاهد. والثاني: أنه خلف من سلف في الأرض قبله، وهذا قول ابن عباس والحسن.

قوله تعالى: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن ظاهر الألف الاستفهام، دخل على معنى العلم ليقع به تحقيق. قال جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندي العالمين بطون راح

معناه: أنتم خير من ركب المطايا. والثاني: أنهم قالوه لاستعلاء وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراض. ذكره الزجاج. والثالث: أنهم سألوا عن حال أنفسهم، فتقديره: أتجعل فيها من يفسد فيها ونحن نسبح بحمدك، أم لا؟ وهل علمت الملائكة أنهم يفسدون بتوقيف من الله تعالى، أم قاسوا على حال من قبلهم؟ فيه قولان: أحدهما: أنه بتوقيف من الله تعالى، قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة، وابن زيد وابن قتيبة. وروى السدي عن أشياخه: أنهم قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً، فقالوا: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا؟﴾ والثاني: أنهم قاسوه على أحوال من سلف قبل آدم، روي نحو هذا عن ابن عباس وأبي العالية ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَيُسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾. قرأ الجمهور بكسر الفاء، وضمها ابن مصرف وإبراهيم بن أبي عبلة، وهما لغتان، وروي عن طلحة وابن مقسم: وَيُسْفِكُ: يضم الياء، وفتح السين، وتشديد الفاء مع كسرها، وهي لتكثير الفعل وتكريره. وسفك الدم: صبُّه وإراقتة وسفحه، وذلك مستعمل في كل مضيغ، إلا أن السفك يختص الدم، والصب والسفح والإراقة يقال في الدم وفي غيره. وفي معنى تسيحهم أربعة أقوال: أحدها: أنه الصلاة، قاله ابن مسعود وابن عباس. والثاني: أنه قول: سبحان الله، قاله قتادة. والثالث: أنه: التعظيم والحمد، قاله أبو صالح. والرابع: أنه الخضوع والذل، قاله محمد بن القاسم الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَنَقَّذِشْ لَكَ﴾. القدس: الطهارة، وفي معنى تقديسهم ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: نطهر لك من أعمالهم، قاله ابن عباس. والثاني: نعظمك وتكبرك، قاله مجاهد. والثالث: نصلي لك، قاله قتادة. قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَلْمُؤُونَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: أعلم ما في نفس إبليس من البغي والمعصية، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي عن أشياخه. والثاني: أعلم أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء وصالحون، قاله قتادة. والثالث: أعلم أنني أملا جهنم من الجنة والناس، قاله ابن زيد. والرابع: أعلم عواقب الأمور، فأنا ابتلي من تظنون أنه مطيع، فيؤديه الابتلاء إلى المعصية كإبليس، ومن تظنون به المعصية فيطيع، قاله الزجاج.

الإشارة إلى خلق آدم ﷺ

روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ﷻ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر [والأبيض] والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك، والخبيث والطيب» قال الترمذي: هذا حديث صحيح^(١). وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله تعالى آدم طوله ستون ذراعاً». وأخرج مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، ما بين العصر إلى الليل». قال ابن عباس: لما نفخ فيه الروح، أنه النفخة من قبل رأسه، فجعلت لا تجري منه في شيء إلا صار لحماً ودماً.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. في تسمية آدم قولان: أحدهما: لأنه خلق من آدم الأرض، قاله ابن

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وصححه ابن حبان.

عباس وابن جبير والزجاج. والثاني: أنه من الأدمة في اللون، قاله الضحاك والنضر بن شميل وقطرب. وفي الأسماء التي علمه قولان: أحدهما: أنه علمه كل الأسماء، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة. والثاني: أنه علمه أسماء معدودة لمسميات مخصوصة. ثم فيها أربعة أقوال: أحدها: أنه علمه أسماء الملائكة، قاله أبو العالية. والثاني: أنه علمه أسماء الأجناس دون أنواعها، كقولك: إنسان وملك وجني واطر، قاله عكرمة. والثالث: أنه علمه أسماء ما خلق من الأرض من الدواب والهوام والطيور، قاله الكلبي ومقاتل وابن قتيبة. والرابع: أنه علمه أسماء ذريته، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾. يريد: أعيان الخلق على الملائكة، قال ابن عباس: الملائكة هاهنا: هم الذين كانوا مع إبليس خاصة.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ﴾: أخبروني.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إن كنتم صادقين أنني لا أخلق خلقاً هو أفضل منكم وأعلم، قاله الحسن. والثاني: أنني أجعل فيها من يفسد فيها، قاله السدي عن أشياخه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾. قال الزجاج: لا اختلاف بين أهل اللغة أن التسييح هو: التنزيه لله تعالى عن كل سوء. والعليم بمعنى: العالم، جاء على بناء «فعليل» للمبالغة. وفي الحكيم قولان: أحدهما: أنه بمعنى الحاكم، قاله ابن قتيبة. والثاني: المحكم للأشياء، قاله الخطابي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَكْفُلُكُمْ أَنبِيئُهُمْ﴾ أي: أخبرهم، وروي عن ابن عباس: أنبئهم بكسر الهاء، قال أبو علي: قراءة الجمهور على الأصل، لأن أصل هذا الضمير أن تكون الهاء مضمومة فيه، ألا ترى أنك تقول: ضربهم وأبناءهم، وهذا لهم. ومن كسر أتبع كسر الهاء التي قبلها وهي كسرة الباء. والهاء والميم تعود على الملائكة. وفي الهاء والميم من «أسمائهم» قولان: أحدهما: أنها تعود على المخلوقات التي عرضها، قاله الأثرون. والثاني: أنها تعود على الملائكة، قاله الربيع بن أنس. وفي الذي أبدوه قولان: أحدهما: أنه قولهم: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، ذكره السدي عن أشياخه. والثاني: أنه ما أظهره من السمع والطاعة لله حين مروا على جسد آدم، فقال إبليس: إن فضل هذا عليكم ما تصنعون؟ فقالوا: نطيع ربنا، فقال إبليس في نفسه: لئن فضّلت عليه لأهلكته، ولئن فضل عليّ لأعصينه، قاله مقاتل. وفي الذي كنموه قولان: أحدهما: أنه اعتقاد الملائكة أن الله تعالى لا يخلق خلقاً أكرم منهم، قاله الحسن وأبو العالية وقتادة. والثاني: أنه ما أسره إبليس من الكبر والعصيان، رواه السدي عن أشياخه، وبه قال مجاهد وابن جبير ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾ عامة القراء على كسر التاء من الملائكة، وقرأ أبو جعفر والأعمش بضمها في الوصل، قال الكسائي: هي لغة أزد شنوءة. وفي هؤلاء الملائكة قولان: أحدهما: أنهم جميع الملائكة، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: أنهم طائفة من الملائكة، روي عن ابن عباس، والأول أصح. والسجود في اللغة: التواضع والخضوع، وأنشدوا:

ساجد المنخر ما يرفعه خاشع الطرف أصم المستمع

وفي صفة سجودهم لآدم قولان: أحدهما: أنه على صفة سجود الصلاة، وهو الأظهر. والثاني: أنه الانحناء والميل المساوي للركوع.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ في هذا الاستثناء قولان: أحدهما: أنه استثناء من الجنس، فهو على هذا القول من الملائكة، قاله ابن مسعود في رواية، وابن عباس. وقد روي عن ابن عباس أنه كان من الملائكة، ثم مسخه الله تعالى شيطاناً. والثاني: أنه من غير الجنس، فهو من الجن، قاله الحسن والزهري. قال ابن عباس: كان إبليس من خزان الجنة، وكان يدير أمر السماء الدنيا. فإن قيل: كيف استثنيتي وليس من الجنس؟ فالجواب: أنه أمر بالسجود معهم، فاستثنيتي منهم، لأنه لم يسجد، وهذا كما تقول: أمرت عبيدي وإخوتي فأطاعوني إلا عبيدي، هذا قول الزجاج. وفي إبليس قولان: أحدهما: اسم أعجمي ليس بمشتق، ولذلك لا يصرف، هذا قول أبي عبيدة، والزجاج وابن الأنباري.

والثاني: أنه مشتق من الإبلّاس، وهو: اليأس، روي عن أبي صالح، وذكره ابن قتبية وقال: إنه لم يصرف، لأنه لا سمي له، فاستثقل. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: والأول أصح، لأنه لو كان من الإبلّاس لصرف، ألا ترى أنك لو سميت رجلاً: بإخريط وإجفيل؛ لصرف في المعرفة.

قوله تعالى: ﴿أَنْ﴾ معناه: امتنع، ﴿وَأَسْتَكْبَرُ﴾ استفعل من: الكبر، وفي ﴿وَكَانَ﴾ قولان: أحدهما: أنها بمعنى: صار، قاله قتادة. والثاني: أنها بمعنى الماضي، فمعناه: كان في علم الله كافراً، قاله مقاتل وابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَخْدَمُ أَنْكَرَ أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجِنَّةَ﴾: زوجته: حواء، قال الفراء: أهل الحجاز يقولون لامرأة الرجل: زوج، ويجمعونها: الأزواج. وتميم وكثير من قيس وأهل نجد يقولون: زوجة، ويجمعونها: زوجات. قال الشاعر:

فلن الذي يسعى يحرقش زوجتي
وأشدني أبو الجراح:

يا صاح بلغ ذوي الزوجات كلهم
وفي الجنة التي أسكنها آدم قولان: أحدهما: جنة عدن. والثاني: جنة الخلد. والرغد: الرزق الواسع الكثير، يقال: أرغد فلان: إذا صار في خصب وسعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَأُ هَٰذَا الشَّجْرَةَ﴾ أي: بالأكل، لا بالدنو منها. وفي الشجرة ستة أقوال: أحدها: أنها السنبلة، وهو قول ابن عباس، وعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وهب بن منبه، وقاتدة، وعطية العوفي، ومحارب بن دثار، ومقاتل. والثاني: أنها الكرم، روي عن ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وجعدة بن هبيرة. والثالث: أنها التين، روي عن الحسن، وعطاء بن أبي رباح، وابن جريج. والرابع: أنها شجرة يقال لها: شجرة العلم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والخامس: أنها شجرة الكافور، نقل عن علي بن أبي طالب. والسادس: أنها النخلة، روي عن أبي مالك. وقد ذكروا وجهاً سابعاً عن وهب بن منبه أنه قال: هي شجرة الخلد، وإنما الكلام على جنسها.

قوله تعالى: ﴿فَنَكَلْنَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. قال ابن الأنباري: الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، ويقال: ظلم الرجل سقاه إذا سقاه قبل أن يخرج زبده. وقال الشاعر:

وصاحب صدق لم تربني شكاته
ظلمت وفي ظلمي له عامداً أجرُ

أراد بالصاحب: وطب اللبن، وظلمه إياه، أن يسقيه قبل أن يخرج زبده. والعرب تقول: هو أظلم من حية، لأنها تأتي الحفر الذي لم تحفره فتسكنه، ويقال: قد ظلم الماء الوادي: إذا وصل منه إلى مكان لم يكن يصل إليه فيما مضى. فإن قيل: ما وجه الحكمة في تخصيص تلك الشجرة بالهي؟ فالجواب: أنه ابتلاء من الله تعالى بما أراد. وقال أبو العالية: كان لها ثفل من بين أشجار الجنة، فلما أكل منها، قيل: اخرج إلى الدار التي تصلح لما يكون منك.

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾. أزلهما بمعنى: استزلهما، وقرأ حمزة: (فأزلهما)، أراد: نحاها. قال أبو علي الفارسي: لما كان معنى ﴿أَسْكُرَ أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجِنَّةَ﴾ اثبتا فيها، فثبتا؛ قابل حمزة الثبات بالزوال الذي يخالفه، ويقوي قراءته: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾. والشيطان: إبليس، وأضيف الفعل إليه، لأنه السبب. وفي هاء (عنها) ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تعود إلى الجنة. والثاني: ترجع إلى الطاعة. والثالث: ترجع إلى الشجرة. فمعناه: فأزلهما بزلّة صدرت عن الشجرة. وفي كيفية إزالته لهما، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه احتال حتى دخل إليهما الجنة، وكان الذي أدخله الحية^(١)، قاله ابن عباس والسدي. والثاني: أنه وقف على باب الجنة، وناداهما، قاله الحسن. والثالث: أنه وسوس إليهما، وأوقع في نفوسهما من غير مخاطبة ولا مشاهدة، قاله ابن إسحاق، وفيه بعد. قال الزجاج: الأجود: أن يكون خاطبهما، لقوله: ﴿وَكَاسَمَهُمَا﴾ [الاعراف: ٢١]. واختلف العلماء في معصية آدم بالأكل، فقال قوم: إنه نهي عن شجرة بعينها، فأكل من جنسها. وقال آخرون: تأول الكراهة في النهي دون التحريم.

(١) البيت قاله الفرزدق. ومعنى يستبيلها: أي يأخذ بولها بيده، كما في اللسان.

(٢) هذا من الأخبار الإسرائيلية التي لا مستند لها من الكتاب والسنة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْبَطُوا بَعْضَكُمْ لِيَبْصِرَ الْعَدُوَّ وَلَكِنَّ فِي الْأَنْبِيَاءِ مَسْتَفْرَقِينَ﴾ الهبوط بضم الهاء: الانحدار من علو، وفتح الهاء: المكان الذي يهبط فيه، وإلى من انصرف هذا الخطاب؟ فيه ستة أقوال: أحدها: أنه انصرف إلى آدم وحواء والحية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: إلى آدم وحواء وإبليس والحية، حكاه السدي عن ابن عباس. والثالث: إلى آدم وإبليس، قاله مجاهد. والرابع: إلى آدم وحواء وإبليس، قاله مقاتل. والخامس: إلى آدم وحواء وذريتهما، قاله الفراء. والسادس: إلى آدم وحواء فحسب، ويكون لفظ الجمع واقعاً على التثنية، كقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] ذكره ابن الأنباري، وهو العلة في قول مجاهد أيضاً. واختلف العلماء: هل أهبطوا جملة أو متفرقين؟ على قولين: أحدهما: أنهم أهبطوا جملة، لكنهم نزلوا في بلاد متفرقة، قاله كعب، وهب. والثاني: أنهم أهبطوا متفرقين، فهبط إبليس قبل آدم، وهبط آدم بالهند، وحواء بجُدَّة، وإبليس بالأبلة^(١) قاله مقاتل. وروي عن ابن عباس أنه قال: أهبط الحية بنصيبين، قال: وأمر الله تعالى جبريل بإخراج آدم، فقبض على ناصيته وخلصه من الشجرة التي قبضت عليه، فقال: أيها الملك ارفق بي. قال جبريل: إني لا أرفق بمن عصى الله، فارتعد آدم واضطرب، وذهب كلامه، وجبريل يعاتبه في معصيته، ويعتد نعم الله عليه، قال: وأدخل الجنة ضحوة، وأخرج منها بين الصلاتين، فمكث فيها نصف يوم، خمسمائة عام مما يعد أهل الدنيا. وفي العداوة المذكورة هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن ذرية بعضهم أعداء لبعض، قاله مجاهد. والثاني: أن إبليس عدو لآدم وحواء، وهما له عدو، قاله مقاتل. والثالث: أن إبليس عدو للمؤمنين، وهم أعداؤه، قاله الزجاج. وفي المستقر قولان: أحدهما: أن المراد به القبور، حكاه السدي عن ابن عباس. والثاني: موضع الاستقرار، قاله أبو العالية، وابن زيد، والزجاج، وابن قتيبة، وهو أصح. والمتاع: المنفعة. والحين: الزمان. قال ابن عباس: ﴿إِلَى حِينٍ﴾، أي: إلى فناء الأجل بالموت.

قوله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَتَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْكَاذِبُ الرَّجِيمُ﴾. تلقى: بمعنى أخذ، وقبل. قال ابن قتيبة: كان الله تعالى أوحى إليه أن يستغفره [ويستقبله] بكلام من عنده، ففعل [ذلك آدم] فتاب عليه. وقرأ ابن كثير: (فتلقى آدم) بالنصب، (كلمات): بالرفع؛ على أن الكلمات هي الفاعلة. وفي الكلمات أقوال: أحدها: أنها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَّمْنَا مَا لَمْ كُنَّا آفَئَةً وَإِنْ لَمْ تَنْفِرْنَا لَفَطَرْنَا حُرَّكَاتًا لُكُوفًا مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. قاله ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وعطاء الخراساني، وعبيد بن عمير، وأبي بن كعب، وابن زيد. والثاني: أنه قال: أي رب؛ ألم تخلقتني بيدك؟ قال: بلى. قال: ألم تنفخ في من روحك؟ قال: بلى، قال: ألم تسبق رحمتك إلي قبل غضبك؟ قال: بلى. قال: ألم تسجد لي ملائكتك، وتسكني جنتك؟ قال: بلى. قال: أي رب [أرايت] إن تبت وأصلحت، أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم. حكاه السدي عن ابن عباس. والثالث: أنه قال: اللهم لا إله إلا أنت، سبحانه وبحمده، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت، سبحانه وبحمده، رب إني ظلمت نفسي فتاب علي، إنك فارحمني، فأنت خير الراحمين، [اللهم] لا إله إلا أنت، سبحانه وبحمده، رب إني ظلمت نفسي فتاب علي، إنك أنت التواب الرحيم. زواه ابن أبي نجيع^(٢) عن مجاهد. وقد ذكرت أقوال من كلمات الاعتذار تقارب هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿تَابَّ عَلَيْهِ﴾. أصل التوبة: الرجوع، فالتوبة من آدم: رجوعه عن المعصية، وهي من الله تعالى: رجوعه عليه بالرحمة، والثواب الذي كلما تكررت توبة العبد تكرر قبوله، وإنما لم تذكر حواء في التوبة، لأنه لم يجر لها ذكر، لا أن توبتها لم تقبل. وقال قوم: إذا كان معنى فعل الاثنين واحداً؛ جاز أن يذكر أحدهما ويكون المعنى لهما، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحْسَنُ أَنْ يُرْسِلَ﴾ [التوبة: ٦٣] وقوله: ﴿فَلَا يُخْرِجُكُم مِّنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقُّوا﴾ [طه: ١١٧]. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنهَا جِئِمًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٧٨]: في إعادة ذكر الهبوط - وقد تقدم - قولان: أحدهما: أنه أعيد لأن آدم أهبط إهابطين؛ أحدهما: من الجنة إلى السماء، والثاني: من السماء إلى الأرض. وأيهما الإهابط المذكور في هذه الآية؟ فيه قولان. والثاني: أنه إنما كرر الهبوط توكيداً.

(١) الأبلة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى (معجم البلدان).

(٢) في الأصلين: ابن كثير، وهو خطأ، فإن الراوي لهذا الأثر من مجاهد هو ابن أبي نجيع كما في الطبري.

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُ﴾ قال الزجاج: هذه «إن» التي للجزاء، ضمت إليها «ما» والأصل في اللفظ «إن ما» مفصولة، ولكنها مدغمة، وكتبت على الإدغام، فإذا ضمت «ما» إلى «إن» لزم الفعل النون الثقيلة أو الخفيفة. وإنما تلزمه النون لأن «ما» تدخل مؤكدة، ودخلت النون مؤكدة أيضاً، كما لزم اللام النون في القسم في قولك: والله لتفعلن، وجواب الجزء الفاء. وفي المراد بـ «الهدى» هاهنا قولان: أحدهما: أنه الرسول، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: الكتاب، حكاه بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾. وقرأ يعقوب: «فلا خوف»: بفتح الفاء من غير تنوين، وقرأ ابن محيصن بضم الفاء من غير تنوين. والمعنى: فلا خوف عليهم فيما يستقبلون من العذاب، ولا هم يحزنون عند الموت. والخوف لأمر مستقبل، والحزن لأمر ماضٍ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ في معنى الآية: ثلاثة أقوال: أحدها: أنها العلامة، فمعنى آية: علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها، والذي بعدها، قال الشاعر:

ألا أبليغ لديك بني تميم
وقال النابغة:

توهمت آيات لها فعرفتها
وهذا اختيار أبي عبيد. والثاني: أنها سميت آية، لأنها جماعة حروف من القرآن، وطائفة منه. قال أبو عمرو الشيباني: يقال: خرج القوم بأيتهم، أي: بجماعتهم. وأنشدوا:

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا

والثالث: أنها سميت آية، لأنها عجب، وذلك أن قارئها يستدل إذا قرأها على مباينتها كلام المخلوقين، وهذا كما تقول: فلان آية من الآيات؛ أي: عجب من العجائب. ذكره ابن الأنباري. وفي المراد بهذه الآيات أربعة أقوال: أحدها: آيات الكتب التي تتلى. والثاني: معجزات الأنبياء. والثالث: القرآن. والرابع: دلائل الله في مصنوعاته. وأصحاب النار: سكانها، سمو أصحاباً، لصحبتهن إياها بالملازمة.

قوله تعالى: ﴿يَبْنَونَ إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا فَمَتَىٰ آلِي إِسْرَائِيلَ عَلَيَّكَ وَأَوْفُوا بِوَعْدِ أَوْفٍ بِوَعْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْسِلُونَهُ ﴿٤٠﴾﴾. إسرائيل: هو يعقوب، وهو اسم أعجمي. قال ابن عباس: ومعناه: عبد الله. وقد لفظت به العرب على أوجه، فقالت: إسرائيل، وإسرال، وإسرائيل، وإسرائين. قال أمية:

إنني زارد الحديد على النا
لا أرى من يعينني في حياتي
وقال أعرابي صاد ضباً، فأتى به أهله:
يقول أهل السوق لما جينا:

أراد: هذا مما مسخ من بني إسرائيل. والنعمة: المنة، ومثلها: النعماء. والنعمة، بفتح النون: التمتع، وأراد بالنعمة: النعم، فوحدها، لأنهم يكتفون بالواحد من الجميع، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤]. أي: ظهراء. وفي المراد بهذه النعمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ما استودعهم من التوراة التي فيها صفة رسول الله ﷺ قاله ابن عباس. والثاني: أنها ما أنعم به على آبائهم وأجدادهم إذ أنجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوهم، وأعطاهم التوراة، ونحو ذلك، قاله الحسن والزجاج. وإنما منّ عليهم بما أعطى آباءهم، لأن فخر الآباء فخر للأبناء، وعار الآباء عار على الأبناء. والثالث: أنها جمع نعمة على تصريف الأحوال. والمراد من ذكرها: شكرها، إذ من لم يشكر فما ذكر.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنَا﴾. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: أوفيت، وأهل نجد يقولون: وفيت، بغير ألف. قال الزجاج. يقال: وفى بالعهد، وأوفى به، وأنشد:

أما ابن طوق فقد أوفى بدمته

كما وفى بقلاص النجم حاديها^(١)

وقال ابن قتيبة: يقال: وفيت بالعهد، وأوفيت به، وأوفيت الكيل لا غير. وفي المراد بعهد: أربعة أقوال: أحدها: أنه ما عهده إليهم في التوراة من صفة محمد ﷺ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه الإسلام، قاله أبو العالية. والرابع: أنه العهد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٣] قاله قتادة. قوله تعالى: ﴿أَوْفَى بِعِدَّتِكُمْ﴾. قال ابن عباس: أدخلكم الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَرِئَىٰ قَائِمِينَ﴾: أي: خافون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَا مِنَّا نَزْلًا﴾ يعني القرآن ﴿مَمْدُوحًا لِمَا مَكَّمْ﴾ يعني التوراة أو الإنجيل، فإن القرآن يصدقهما أنهما من عند الله، ويوافقهما في صفة النبي ﷺ. ﴿وَلَا تَكُونُوا أَكْوَافًا بِئْسَ الْكَاذِبِينَ﴾. إنما قال: أول كافر، لأن المتقدم إلى الكفر أعظم من الكفر بعد ذلك، إذ المبادر لم يتأمل الحجة، وإنما بادر بالعناد، فحاله أشد. وقيل: ولا تكونوا أول كافر به بعد أن آمن، والخطاب لرؤساء اليهود. وفي هاتين قولان: أحدهما: أنها تعود إلى المنزل، قاله ابن مسعود وابن عباس. والثاني: أنها تعود على ما معهم، لأنهم إذا كتموا وصف النبي ﷺ وهو معهم، فقد كفروا به، ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ﴾. أي: لا تستبدلوا [بآياتي] ثمنًا قليلًا. وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما كانوا يأخذون من عرض الدنيا. والثاني: بقاء رئاستهم عليهم. والثالث: أخذ الأجرة على تعليم الدين. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَمَّارُونَ﴾. تلبسوا: بمعنى تخلطوا. يقال: ليست الأمر عليهم، البسه: إذا عييته عليهم، وتخليطهم أنهم قالوا: إن الله عهد إلينا أن نؤمن بالنبي الأمي، ولم يذكر أنه من العرب. وفي المراد بالحق قولان: أحدهما: أنه أمر النبي ﷺ، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، وأبو العالية، والسدي ومقاتل. والثاني: أنه الإسلام، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. يريد: الصلوات الخمس، وهي هاهنا اسم جنس، والزكاة: مأخوذة من الزكاء، وهو النماء، والزيادة. يقال: زكا الزرع يزكو زكاء. وقال ابن الأنباري: معنى الزكاة في كلام العرب: الزيادة والنماء، فسميت زكاة، لأنها تزيد في المال الذي تخرج منه، وتوفره، وتقيه من الآفات. ويقال: هذا أزكى من ذلك، أي: أزيد فضلًا منه.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا مَعَ الَّذِينَ﴾. أي: صلوا مع المصلين. قال ابن عباس: يريد محمدًا ﷺ، والصحابة ﷺ. وقيل: إنما ذكر الركوع، لأنه ليس في صلاتهم ركوع، والخطاب لليهود. وفي هذه الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع، وهي إحدى الروايتين عن أحمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ عَنْهَا﴾. أي: تأمرهم بالبِرِّ. قال ابن عباس: نزلت في اليهود، كان الرجل يقول لقرابته من المسلمين في السر: اثبت على ما أنت عليه فإنه حق. والألف في ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ ألف الاستفهام، ومعناه التوبيخ. وفي «البر» هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التمسك بكتابتهم، كانوا يأمرون بتابعه ولا يقومون به. والثاني: اتباع محمد ﷺ، روي القولان عن ابن عباس. والثالث: الصدقة، كانوا يأمرون بها، ويبخلون. ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَتَسْوُونَ﴾: أي: تتزكون. وفي «الكتاب» قولان: أحدهما: أنه التوراة، قاله الجمهور. والثاني: أنه القرآن، فلا يكون الخطاب على هذا القول لليهود.

(١) قلاص النجم: هي المشرون نجماً التي ساقها الديران في خطبة الثريا كما تزعم العرب. والبيت لطيف الغنوي.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَيْسِرُوا بِالْفَتْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥) الأصل في الصبر: الحبس، فالصابر حابس لنفسه عن الجزع. وسمي الصائم صابراً لحبسه نفسه عن الأكل والشرب والجماع، والمصبورة: البهيمة تتخذ غرضاً. وقال مجاهد: الصبر هاهنا: الصوم. وفيما أمروا بالصبر عليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أداء الفرائض، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أنه ترك المعاصي، قاله قتادة. والثالث: عدم الرئاسة، وهو خطاب لأهل الكتابيين، ووجه الاستعانة بالصلاة أنه يتلى فيها ما يرغب في الآخرة، ويزهد في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا﴾ في المكنى عنها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الصلاة، قاله ابن عباس والحسن، ومجاهد والجمهور. والثاني: أنها الكعبة والقبلة، لأنه لما ذكر الصلاة، دلت على القبلة، ذكره الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثالث: أنها الاستعانة، لأنه لما قال: ﴿وَأَسْتَيْسِرُوا﴾ دل على الاستعانة، ذكره محمد بن القاسم النحوي.

قوله تعالى: ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ قال الحسن والضحاك: الكبيرة: الثقيلة، مثل قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١١٣] أي: ثقل، والخشوع في اللغة: التظامن والتواضع، وقيل: السكون.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ أَنفُسَهُمْ فِي سُبُلِ الْمَوْتِ﴾ (٤٦) الظن هاهنا: بمعنى اليقين، وله وجوه قد ذكرناها في كتاب «الوجوه والظواهر».

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعِي بِرَبِّهِمْ أَذْكُورًا﴾ (٤٧) أي: أتت عليك عليك وأنت على الكافرين (٤٧) يعني: على عالمي زمانهم، قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن زيد. قال ابن قتيبة: وهو من العام الذي أريد به الخاص.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسًا يَوْمًا لَا تَجْرِي فِيهَا نُفُوسٌ عَنْ نَفْسٍ سَبِيحًا وَلَا يَقْبَلُ فِيهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ فِيهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ (٤٨) قال الزجاج: كانت اليهود تزعم أن آباءها الأنبياء تشفع لهم يوم القيامة، فأيسهم الله بهذه الآية من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسًا يَوْمًا﴾ [فيه] إضمار، تقديره: اتقوا عذاب يوم، أو: ما في يوم. والمراد باليوم يوم القيامة (٤٨) و«تجزي» بمعنى تقضي (٤٩). قال ابن قتيبة: يقال: جزى الأمر عني يجزي، بغير همز، أي: قضى عني، وأجزاني يجزئني، مهموز، أي: كفاني.

قوله تعالى: ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾. قالوا: المراد بالنفس هاهنا: النفس الكافرة، فعلى هذا يكون من العام الذي أريد به الخاص.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ فِيهَا شَفَعَةٌ﴾. قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتاء، وقرأ الباقون بالياء، إلا أن قتادة فتح الباء، ونصب الشفاعة، ليكون الفعل لله تعالى. قال أبو علي: من قرأ بالتاء، فلأن الاسم الذي أسند إليه هذا الفعل مؤنث، فيلزم أن يلحق المسند أيضاً علامة التأنيث، ومن قرأ بالياء، فلأن التأنيث في الاسم الذي أسند إليه الفعل ليس بحقيقي، فحمل على المعنى، كما أن الوعظ والموعظة بمعنى واحد. وفي الآية إضمار، تقديره: لا يقبل منها فيه شفاعة. و«الشفاعة» مأخوذة من الشفع الذي يخالف الوتر، وذلك أن سؤال الشفيع يشفع سؤال المشفوع له. فأما «العدل» فهو الفداء، وسمي عدلاً، لأنه يعادل المفدى. واختلف اللغويون: هل «العدل» و«العدل» بفتح العين وكسرهما، يختلفان، أم لا؟ فقال الفراء: العدل بفتح العين: ما عادل الشيء من غير جنسه، والعدل بكسرهما: ما عادل الشيء من جنسه، فهو المثل، تقول: عندي عدل غلامك، بفتح العين: إذا أردت قيمته من غير جنسه، وعندي عدل غلامك، بكسر العين: إذا كان غلام يعدل غلاماً. وحكى الزجاج عن البصريين أن العدل والعدل في معنى المثل، وأن المعنى واحد، سواء كان المثل من الجنس أو من غير الجنس.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ (٤٩) أي: يمتعون من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لَكُمْ مَا كَفَرْتُمْ فِي سُبُلِ الْمَوْتِ﴾ (٥٠) أي: تذكر لكم ما كنتم تكفرون به في سبل الموت، وفي ذلك لكم بلاء من ربكم عظيم (٥٠) تقديره: واذكروا إذ نجيناكم، وهذه النعم على آباؤهم كانت. وفي «آل فرعون» ثلاثة أقوال: أحدها:

(١) في الأصل تقتضي. وفي نسخة (ب) وتجزى بمعنى تقتضي. والصواب ما أثبتنا.

أنهم أهل مصر، قاله مقاتل. والثاني: أهل بيته خاصة، قاله أبو عبيدة. والثالث: أتباعه على دينه، قاله الزجاج. وهل الآل والأهل بمعنى، أو يختلفان؟ فيه قولان: وقد شرحت معنى الآل في كتاب «النظائر». وفرعون: اسم أعجمي، وقيل: هو لقبه. وفي اسمه أربعة أقوال: أحدها: الوليد بن مصعب، قاله الأكثرون. والثاني: فيطوس^(١)، قاله مقاتل. والثالث: مصعب بن الريان، حكاه ابن جرير الطبري. والرابع: مغيث، ذكره بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿يَسْمُوتِكُمْ﴾ أي: يولونكم. يقال: فلان يسومك خسفاً، أي: يوليك ذلاً واستخفافاً. وسوء العذاب: شديده. وكان الزجاج يرى أن قوله: ﴿يَذُحُونَ آبَاءَكُمْ﴾ تفسير لقوله: ﴿يَسْمُوتِكُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ﴾، وأبى هذا بعض أهل العلم، فقال: قد فرق الله بينهما في موضع آخر، فقال: ﴿يَسْمُوتِكُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ وَيَذُحُونَ آبَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] وإنما سوء العذاب: استخدامهم في أصعب الأعمال، وقال الفراء: الموضع الذي طرحت فيه الواو، تفسير لصفات العذاب، والموضع الذي فيه الواو، يبين أنه قد مسهم من العذاب غير الذبح، فكأنه قال: يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح.

قوله تعالى: ﴿رَسَّخْتَنِ لِسَانَكَ﴾ أي: يستبقون نساءكم، أي: بناتكم. وإنما استبقوا نساءهم للاستدلال والخدمة. وفي البلاء هاهنا قولان: أحدهما: أنه بمعنى النعمة، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو مالك وابن قتيبة والزجاج. والثاني: أنه النقمة، رواه السدي عن أشياخه. فعلى هذا القول يكون «ذا» في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾: عائداً على سومهم سوء العذاب، وذبح آبائهم واستحياء نساءهم، وعلى القول الأول يعود على النجاة من آل فرعون. قال أبو العالية: وكان السبب في ذبح الأبناء، أن الكهنة قالت لفرعون: سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فقتل الأبناء. قال الزجاج: فالعجب من حمق فرعون، إن كان الكاهن عنده صادقاً، فما ينفذ القتل؟! وإن كان كاذباً؛ فما معنى القتل!؟

قوله تعالى: ﴿وَأَرْفَأْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمَيْتَكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ الفرق: الفصل بين الشيتين، و«بكم» بمعنى «لكم». وإنما ذكر آل فرعون دونه، لأنه قد علم كونه فيهم. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنه من نظر العين، معناه: وأنتم ترونهم يغرقون. والثاني: أنه بمعنى العلم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]. قاله الفراء.

الإشارة إلى قصتهم

روى السدي عن أشياخه: أن الله تعالى أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل، وألقى على القبط الموت، فمات بكر كل رجل منهم، فأصبحوا يدفنونهم، فشغلوا عن طلبهم حتى طلعت الشمس. قال عمر بن ميمون: فلما خرج موسى بلغ ذلك فرعون، فقال: لا تبعوهم حتى يصبح الديك، فما صاح ديك ليلتئذ. قال أبو السليل: لما انتهى موسى إلى البحر قال: هيه^(٢) أبا خالد، فأخذه أكل، يعني: رعدة، قال مقاتل: تفرق الماء يميناً وشمالاً كالجبلين المتقابلين، وفيهما كوى ينظر كل سبط إلى الآخر. قال السدي: فلما رآه فرعون متفرقاً قال: ألا ترون البحر فرق مني، فافتتح لي؟! فأتت خيل فرعون فأبت أن تقتم، فنزل جبريل على ماذيابة، فتشامت الحصن ربح الماذيابة، فافتحمت في إثرها، حتى إذا هم أولهم أن يخرج، ودخل آخرهم، أمر البحر أن يأخذهم، فالتطم عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْفَأْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمَيْتَكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. قرأ أبو جعفر وأبو عمرو: «وعدنا» بغير ألف هاهنا وفي (الأعراف) و(طه) ووافقهما أبان عن عاصم في (البقرة) خاصة. وقرأ الباقر «وعدنا» بألف. ووجه القراءة الأولى: أفراد الوجد من الله تعالى، ووجه الثانية: أنه لما قبل موسى وعد الله ﷻ، صار ذلك مواعدة بين الله تعالى وبين موسى. ومثله: ﴿لَا تَوَاعِدُهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥]. ومعنى الآية: وعدنا موسى تنمة أربعين ليلة، أو انقضاء أربعين ليلة. وموسى: اسم أعجمي، أصله بالعبرانية: موشا، فمؤ: هو الماء، وشا: هو الشجر، لأنه وجد عند الماء والشجر، فعرّب بالسين. ولماذا كان هذا الوجد؟ فيه قولان: أحدهما: لأخذ التوراة. والثاني: للتكليم. وفي هذه المدة قولان: أحدهما: أنها ذو

(١) في الأصل: هي، وأبو خالد كنى به البحر.

(٢) في «البحر المحيط» فتطرس.

القعدة وعشر من ذي الحجة، وهذا قول من قال: كان الوعد لإعطاء التوراة. والثاني: أنها ذو الحجة وعشر من المحرم، وهو قول من قال: كان الوعد للتكليم، وإنما ذكرت الليالي دون الأيام، لأن عادة العرب التأريخ بالليالي، لأن أول الشهر ليله، واعتماد العرب على الأهلة، فصارت الأيام تبعاً لليالي. وقال أبو بكر النقاش: إنما ذكر الليالي، لأنه أمره أن يصوم هذه الأيام ويواصلها بالليالي، فلذلك ذكر الليالي وليس بشيء.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَمَلَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ من بعده، أي: من بعد انطلاقه إلى الجبل.

الإشارة إلى اتخاذهم العجل

روى السدي عن أشياخه أنه لما انطلق موسى، واستخلف هارون، قال هارون: يا بني إسرائيل! إن الغنيمة لا تحل لكم، وإن حلتي القبط غنيمة فاجمعوه واحفروا له حفيرة، فادفنوه، فإن أحله موسى فخذوه، وإلا كان شيئاً لم تأكلوه، ففعلوا. قال السدي: وكان جبريل قد أتى إلى موسى ليذهب به إلى ربه، فرآه السامري، فأنكره وقال: إن لهذا شأنًا، فأخذ قبضة من أثر حافر الفرس، فدفنها في الحفيرة، فظهر العجل. وقيل: إن السامري أمرهم بإلقاء ذلك الحلتي، وقال: إنما طالت غيبة موسى عنكم لأجل ما معكم من الحلتي، فاحفروا لها حفيرة وقربوه إلى الله، يبعث لكم نبيكم، فإنه كان عارية، ذكره أبو سليمان الدمشقي. وفي سبب اتخاذ السامري عجلاً قولان: أحدهما: أن السامري كان من قوم يعبدون البقر، فكان ذلك في قلبه، قاله ابن عباس، والثاني: أن بني إسرائيل لما مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، أعجبهم ذلك، فلما سألوا موسى أن يجعل لهم إلهاً وأنكر عليهم؛ أخرج السامري لهم في غيبته عجلاً لما رأى من استحسانهم ذلك، قاله ابن زيد. وفي كيفية اتخاذ العجل قولان: أحدهما: أن السامري كان صوّاعاً، فصاغه وألقى فيه القبضة، قاله علي وابن عباس. والثاني: أنهم حفروا حفيرة، وألقوا فيها حلتي قوم فرعون وعواربهم تنزهاً عنها، فألقى السامري القبضة من التراب، فصار عجلاً. روي عن ابن عباس أيضاً. قال ابن عباس: صار لحمًا ودمًا وجسداً، فقال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى قد جاء، وأخطأ موسى الطريق، فعدوه وزفوا حوله^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَمَّا كَفَرَ لَمَلَكُ الْفِرْعَوْنَ كَيْدَهُ ﴿٥١﴾﴾ الكتاب: التوراة. وفي الفرقان خمسة أقوال: أحدها: أنه النصر، قاله ابن عباس وابن زيد. والثاني: أنه ما في التوراة من الفرق بين الحق والباطل، فيكون الفرقان نوعاً للتوراة، قاله أبو العالية. والثالث: أنه الكتاب، فكرهه بغير اللفظ. قال عدي بن زيد:

فألفى قولها كذباً وميناً

وقال عترة:

أقوى وأقرب بعد أم الهيثم

هذا قول مجاهد، واختيار الفراء والزجاج. والرابع: أنه فرق البحر لهم، ذكره الفراء والزجاج وابن القاسم. والخامس: أنه القرآن. ومعنى الكلام: لقد آتينا موسى الكتاب، ومحمداً الفرقان، ذكره الفراء، وهو قول قطرب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أِفْتَأْتِيكُمْ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَيَّ يَا رَبِّكُمْ فَأَنْتُمُ الْمُنَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ قَبْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَابِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٢﴾﴾. القوم: اسم للرجال دون النساء، قال الله تعالى: ﴿لَا يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهُ يَوْمِ يُبْعَثُونَ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يُسَاءُ مِنْ نِسَائِهِ﴾ [المحجرات: ١١]. وقال زهير:

أقوم آل حصن أم نساء؟!

وما أدري وسوف إخال أدري

وإنما سموا قوماً، لأنهم يقومون بالأمر.

قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَيَّ يَا رَبِّكُمْ﴾ قال أبو علي: كان ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحزمة والكسائي يكسرون الهمزة من غير اختلاس ولا تخفيف. وروى البيهقي وعبد الوارث عن أبي عمرو: (بارئكم) بجزم الهمزة. روى عنه

العباس بن الفضل: «بارفكم» مهموزة غير مثقلة. وقال سيبويه: كان أبو عمرو يختلس الحركة في: «بارثكم» و: «يامركم» وما أشبه ذلك مما تتوالى فيه الحركات، فيرى من سمعه أنه قد أسكن ولم يسكن. والبارئ: الخالق. ومعنى «قَاتَلُوا أَنْفُسَكُمْ»: ليقتل بعضهم بعضاً، قاله ابن عباس ومجاهد. واختلفوا فيمن خوطب بهذا على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه خطاب للكل، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: أنه خطاب لمن لم يعبد ليقتل من عبد، قاله مقاتل. والثالث: أنه خطاب للعابدين فحسب، أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي الإشارة بقوله: «ذا» في: «ذلكم» قولان: أحدهما: أنه يعود إلى القتل. والثاني: أنه يعود إلى التوبة.

الإشارة إلى قصتهم في ذلك

قال ابن عباس: قالوا لموسى: كيف يقتل الآباء الأبناء، والإخوة الإخوة؟ فأنزل الله عليهم ظلمة لا يرى بعضهم بعضاً، فقالوا: فما آية توبتنا؟ قال: أن يقوم السلاح فلا يقتل، وترفع الظلمة. فقتلوا حتى خاضوا في الدماء، وصاح الصبيان: يا موسى: العفو العفو. فيكى موسى، فنزلت التوبة، وقام السلاح، وارتفعت الظلمة. قال مجاهد: بلغ القتلى سبعين ألفاً. قال قتادة: جعل القتل للقتيل شهادة، وللحي توبة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأُنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَدَأْتُمْ مِنَ بَدَأِ تَوَلَّيْتُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَنْكَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾. في القائلين لموسى ذلك قولان: أحدهما: أنهم السبعون المختارون، قاله ابن مسعود وابن عباس. والثاني: جميع بني إسرائيل إلا من عصم الله منهم، قاله ابن زيد، قال: وذلك، أنه أتاهم بكتاب الله، فقالوا: والله لا نأخذ بقولك حتى نرى الله جهرة؛ فيقول: هذا كتابي. وفي «جهرة» قولان: أحدهما: أنه صفة لقولهم، أي: جهروا بذلك القول، قاله ابن عباس وأبو عبيدة. والثاني: أنها الرؤية البينة، أي: أرناه غير مستتر عنا بشيء، يقال: فلان يتجاهر بالمعاصي، أي: لا يستتر من الناس، قاله الزجاج. ومعنى «الصاعقة»: ما يصعقون منه، أي: يموتون. ومن الدليل على أنهم ماتوا، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأْتُمْ﴾ هذا قول الأكثرين. وزعم قوم أنهم لم يموتوا، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَحَرَّ مَوْسَى صَيْعًا﴾ وهذا قول ضعيف، لأن الله تعالى فرق بين الموضوعين، فقال هناك: ﴿فَلَمَّا آتَاكُم﴾ وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ بَدَأْتُمْ﴾ والإفاقة للمغشي عليه، والبعث للميت.

قوله تعالى: ﴿وَأُنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: ينظر بعضهم إلى بعض كيف يقع ميتاً. والثاني: ينظر بعضهم إلى إحياء بعض. والثالث: تنظرون العذاب كيف ينزل بكم، وهو قول من قال: نزلت نار فأحرقتهم. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا عَلِمْنَا أَنَّكُمُ الْمَتَّامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ النَّارَ وَالسَّلْوَٰتِ كُفُوًا مِنْ لَيْلِيَّتِ مَا رَفَعْنَاكُمُ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾. «المتَّام»: السحاب، سمي غماماً، لأنه يغم السماء، أي: يسترها، وكل شيء غطيته فقد غمته، وهذا كان في التيه. وفي المن ثمانية أقوال: أحدها: أنه الذي يقع على الشجر فيأكله الناس، قاله ابن عباس والشعبي والضحاك. والثاني: أنه الترنجيبين، روي عن ابن عباس أيضاً، وهو قول مقاتل. والثالث: أنه صمغه، قاله مجاهد. والرابع: أنه يشبه الرب الغليظ، قاله عكرمة. والخامس: أنه شراب، قاله أبو العالية، والربيع بن أنس. والسادس: أنه خبز الرقاق مثل الذرة، أو مثل النقي، قاله وهب. والسابع: أنه عسل، قاله ابن زيد. والثامن: أنه الزنجبيل، قاله السدي. وفي السلوى قولان: أحدهما: أنه طائر، قال بعضهم: يشبه السمانى، وقال بعضهم: هو السمانى. والثاني: أنه العسل^(١) ذكره ابن الأنباري، وأنشد:

وقاسمها بالله جهداً لأنتم

الأذن السلوى إذا ما نشورها

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ قال ابن عباس: ما نقصونا وضرونا، بل ضروا أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا مِنْهُ الْفَيْتَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَفِّرْ لَكُمْ حَطَايِكُمْ

(١) نقل ابن عطية أن السلوى طير ياجمع المفسرين، وغلط الشاعر، وهو خالد بن زهير الهذلي حين ظن أن السلوى العسل في البيت الذي استشهد به

المصنف، وقد رد عليه القرطبي، بأن دعوى الإجماع لا تصح.

وَسَيَزِيدُ الْغَافِلِينَ ﴿٥٩﴾. في القائل لهم قولان: أحدهما: أنه موسى بعد مضي أربعين سنة. والثاني: أنه يوشع بن نون بعد موت موسى. والقرية: مأخوذة من الجمع، ومنه: قربت الماء في الحوض. والمقراة: الحوض يجمع فيه الماء. وفي المراد بـ: ﴿مَكَاوِي الْقَرْيَةِ﴾ قولان: أحدهما: أنها بيت المقدس، قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي. وروي عن ابن عباس أنها أريحا. قال السدي: وأريحا: هي أرض بيت المقدس. والثاني: أنها قرية من أداني قرى الشام، قاله وهب.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنُوا أَبْوَابَ سُجَّدِكُمْ﴾ قال ابن عباس: وهو أحد أبواب بيت المقدس، وهو يدعى: باب حطة. وقوله: (سجداً) أي: ركعاً. قال وهب: أمروا بالسجود شكراً لله تعالى إذ ردهم إليها.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وقرأ ابن السمينع وابن أبي عملة (حطة) بالنصب. وفي معنى حطة ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: استغفروا، قاله ابن عباس ووهب. قال ابن قتيبة: وهي كلمة [أمروا أن يقولوها] في معنى الاستغفار، من: حططت، أي: حط عنا ذنوبنا. والثاني: أن معناها: قولوا: هذا الأمر حق كما قيل لكم، ذكره الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أن معناها: لا إله إلا الله، قاله عكرمة. قال ابن جرير الطبري: فيكون المعنى: قولوا الذي يحط عنكم خطاياكم. [وهو قول: «لا إله إلا الله»]. ولماذا أمروا بدخول القرية؟ فيه قولان: أحدهما: أن ذلك للذنوب ركبوها فقبل: ﴿أَذِّنُوا مَكَاوِي الْقَرْيَةِ﴾، ﴿وَأَذِّنُوا أَبْوَابَ سُجَّدِكُمْ﴾ وَقُولُوا حِطَّةً نُنَزِّلُ لَكُمْ حِطَّاتِكُمْ﴾ قاله وهب. والثاني: أنهم ملوا المن والسلوى، فقبل: ﴿أَمِيطُوا مِنْكُمْ﴾ فكان أول ما لقيهم أريحا، فأمرؤا بدخولها.

قوله تعالى: ﴿نُنَزِّلُ لَكُمْ حِطَّاتِكُمْ﴾. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: (نغفر لكم) بالنون مع كسر الفاء. وقرأ نافع وأبان عن عاصم (يعفر) بياء مضمومة وفتح الفاء. وقرأ ابن عامر بياء مضمومة مع فتح الفاء.

قوله تعالى: ﴿فَسَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٦٠﴾. اعلم أن الله ﷻ أمرهم في دخولهم بفعل وقول، فالفعل السجود، والقول: حطة، فغير القوم الفعل والقول. فأما تغيير الفعل؛ ففيه خمسة أقوال: أحدها: أنهم دخلوا متزحفين على أوراكهم. رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ^(١) والثاني: أنهم دخلوا من قبل أستاهم، قاله ابن عباس وعكرمة. والثالث: أنهم دخلوا مقنعي رؤوسهم، قاله ابن مسعود^(٢). والرابع: أنهم دخلوا على حروف عيونهم، قاله مجاهد. والخامس: أنهم دخلوا مستلقين، قاله مقاتل. وأما تغيير القول؛ ففيه خمسة أقوال: أحدها: أنهم قالوا مكان «حطة»: حبة في شعرة، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ. والثاني: أنهم قالوا: حنطة، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، ووهب، وابن زيد. والثالث: أنهم قالوا: حنطة حمراء فيها شعرة، قاله ابن مسعود. والرابع: أنهم قالوا: حبة حنطة مثقوبة فيها شعيرة سوداء، قاله السدي عن أشياخه. والخامس: أنهم قالوا: سنبلانا، قاله أبو صالح. فأما الرجز؛ فهو العذاب، قاله الكسائي وأبو عبيدة والزجاج. وأنشدوا لرؤبة:

حتى وقمنا كبيده بالرجز

وفي ماهية هذا العذاب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ظلمة وموت، مات منهم في ساعة واحدة، أربعة وعشرون ألفاً، وهلك سبعون ألفاً عقوبة، قاله ابن عباس. والثاني: أنه أصابهم الطاعون، عذبوا به أربعين ليلة ثم ماتوا، قاله وهب بن منبه. والثالث: أنه الثلج، هلك به منهم سبعون ألفاً، قاله سعيد بن جبيرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَسْوَأُوا فِي الْأَرْضِ مُغْتَبِينَ﴾ ﴿٦١﴾. استسقى بمعنى: استدعى ذلك، كقولك: استنصر. وفي الحجر قولان: أحدهما: أنه حجر معروف عين لموسى، قاله ابن عباس، وابن جبيرة، وقتادة، وعطية،

(١) الثابت عن رسول الله ﷺ من طريق أبي هريرة بلفظ «فدخلوا يزحفون على أستاهم» رواه البخاري في التفسير. أما لفظ «متزحفين على أوراكهم» فلم يرو عن أبي هريرة، وإنما هو من قول الحسن وقتادة كما في «تفسير الطبري».

(٢) وأسد هذا القول الطبري أيضاً إلى ابن عباس وعكرمة.

وابن زيد، ومقاتل، واختلفوا في صفته على ثلاثة أقوال. أحدها: أنه كان حجراً مربعاً، قاله ابن عباس. والثاني: كان مثل رأس الثور، قاله عطية. والثالث: مثل رأس الشاة، قاله ابن زيد. وقال سعيد بن جبير: هو الذي ذهب بشباب موسى. فجاهه جبريل فقال: إن الله تعالى يقول لك: ارفع هذا الحجر، فلي فيه قدرة، ولك فيه معجزة، فكان إذا احتاج إلى الماء ضربه. والقول الثاني: أنه أمر بضرب أي حجر كان، والأول أثبت.

قوله تعالى: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ تقدير معناه: فضرب فانفجرت، فلما عرف بقوله: «فانفجرت» أنه قد ضرب، اكتفى بذلك عن ذكر الضرب. ومثله: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] قاله الفراء. ولما كان القوم اثني عشر سبطاً، أخرج الله لهم اثني عشرة عيناً، ولأنه كان فيهم تشاحن فسلموا بذلك منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ العثر: أشد الفساد، يقال: عثي، وعاث، وعاث. قال ابن الرقاع:

لولا الحياء وأن رأسي قد عشا
فيه المشيب لزرت أم القاسم

قوله تعالى: ﴿وَرَأَى فَلْسُفٌ يَسْتَوِيْنَ لَنْ نَمْسِيَّ عَلَى طَعَامٍ دَجِدُ قَانِعٌ لَنَا رَبُّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِنْ مَّا تُؤْتِي الْأَرْضُ مِنْ بَقِيلًا وَقَفَائِمًا وَفُؤْمًا وَتَدْيِيمًا وَسَمِيلًا قَالَ أَسْتَبِيلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدَفٌ وَالَّذِي هُوَ حَيْرٌ أَهْبَطُوا بِضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِيَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالسَّكْنَةُ وَبَاءُوا بِمَنْسَرٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَ آيَاتِ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَسْتَدْبِرُونَ﴾. هذا قولهم في التيه. وعنوا بالطعام الواحد: المن والسلوى. قال محمد بن القاسم: كان المن يؤكل بالسلوى، والسلوى بالمن، ولذلك كانا طعاماً واحداً. والبقل هاهنا: اسم جنس، وعنوا به: البقول. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: تذهب العامة إلى أن البقل: ما يأكله الناس خاصة دون البهائم من النبات للنجم الذي لا يحتاج في أكله إلى طبخ، وليس كذلك، إنما البقل: العشب، وما ينبت الربيع مما يأكله الناس والبهائم، يقال: بقلت الأرض، وأبقلت، لغتان فصيحتان: إذا أنبت البقل. وابتقلت الإبل: إذا رعت. قال أبو النجم يصف الإبل:

تبقلت في أول التبقيل
بين رماحي مالك ونهشل

وفي «القفاء» لغتان: كسر القاف وضمها، والكسر أجود، وبه قرأ الجمهور. وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء، وقتادة، وطلحة بن مصرف، والأعمش: بضم القاف. قال الفراء: الكسر لغة أهل الحجاز، والضم لغة تميم، وبعض بني أسد. وفي «الفوم» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحنطة، قاله ابن عباس، والسدي عن أشياخه، والحسن وأبو مالك، قال الفراء: هي لغة قديمة، يقول أهلها: فؤمونا لنا، أي: اختبزوا لنا. والثاني: أنه الثوم، وهو قراءة عبد الله وأبي: «وثومها» واختاره الفراء، وعلل بأنه ذكر مع ما يشاكله، والقفاء تبدل من الشاء، كما تقول العرب: الجدث، والجدف: للقبر، والأثافي والأثافي: للحجارة التي توضع تحت القدر. والمغافير، والمغاثير: لضرب من الصمغ. وهذا قول مجاهد، والربيع بن أنس، ومقاتل، والكسائي، والنضر بن شميل، وابن قتيبة. والثالث: أنه الجوب، ذكره ابن قتيبة والزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَسْتَبِيلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدَفٌ﴾: أي: أردأ ﴿وَالَّذِي هُوَ حَيْرٌ﴾: أي: أعلى، يريد: أن المن والسلوى أعلى ما طلبتم.

قوله تعالى: ﴿أَهْبَطُوا بِضْرًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه اسم لمصر من الأمصار غير معين، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وإنما أمروا بالمصر، لأن الذي طلبوه في الأمصار. والثاني: أنه أراد البلد المسمى بمصر. وفي قراءة عبد الله والحسن وطلحة بن مصرف والأعمش «مصر» بغير تنوين، قال أبو صالح عن ابن عباس: أراد مصر فرعون، وهذا قول أبي العالوية والضحاك، واختاره الفراء، واحتج بقراءة عبد الله. قال: وسئل عنها الأعمش، فقال: هي مصر التي عليها صالح^(١) بن علي. وقال مفضل الضبي: سميت مصرأ، لأنها آخر حدود المشرق، وأول حدود المغرب، فهي حد بينهما. والمصر: الحد. وأهل هجر يكتبون في عهدهم: اشترى فلان الدار بمصورها، أي: بحدودها. وقال عدي:

(١) في الأصل: سليمان، وهو خطأ. وصالح هنا: هو ابن علي بن عبد الله بن العباس، أول من ولي مصر من قبل أبي العباس السفاح سنة ١٣٣هـ.

وتوفي بقسنبرين وهو عامل على حمص سنة ١٥٤هـ.

وجاعل الشمس مصراً لا خفاء به

بين النهار وبين الليل قد فصلا

وحكى ابن فارس أن قوماً قالوا: سميت بذلك لقصد الناس إياها، كقولهم: مصرت الشاة، إذا حلبتها، فالتاس يقصدونها، ولا يكادون يرغبون عنها إذا نزلوها.

قوله تعالى: ﴿وَتَرِبَتْ عَلَيْهِمُ اللَّيْلَةُ﴾: أي: ألزموها، قال الفراء: الذلة والذل: بمعنى واحد. وقال الحسن: هي الجزية. وفي المسكنة قولان: أحدهما: أنها الفقر والفاقة، قاله أبو العالية، والسدي، وأبو عبيدة. وروي عن السدي قال: هي فقر النفس. والثاني: الخضوع، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَبَاءَدُ﴾ أي: رجعوا. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الغضب. وقيل: إلى جميع ما ألزمه من الذلة والمسكنة وغيرها.

قوله تعالى: ﴿رَيْثُلُونَ لَلْيَيْسُ﴾ كان نافع يهزم «الييسين» و«الأنبياء» و«النبوة» وما جاء من ذلك، إلا في موضعين: في الأحزاب: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ﴿إِنْ وَهَبَتْ لِنَفْسِكُمْ اللَّيْسُ﴾ [الأحزاب: ٥٠]. وإنما ترك الهمز في هذين الموضعين لاجتماع همزتين مكسورتين من جنس واحد، وباقي القراء لا يهزمون جميع المواضع. قال الزجاج: الأجود ترك الهمز. واشتقاق النبي من: نبأ، وأنبأ، أي: أخبر. ويجوز أن يكون من: نبا ينبو: إذا ارتفع، فيكون بغير همز: فعلاً، من الرفعة. قال عبد الله بن مسعود: كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار.

قوله تعالى: ﴿يَلْمِزُ الْحَقُّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناها: بغير جرم، قاله ابن الأنباري. والثاني: أنه توكيد، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَمَسَّى الْقَلْبُ أَتَى لِي الشُّكُّ﴾. والثالث: أنه خارج مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم، فهو كقوله تعالى: ﴿رَبِّ أَمْكُرْ بِالْحَقِّ﴾ فوصف حكمه بالحق، ولم يدل على أنه يحكم بغير الحق.

قوله تعالى: ﴿رَكَّابُوا يُسْتَدْرِكُ﴾ العدوان: أشد الظلم. وقال الزجاج: الاعتداء: مجاوزة القدر في كل شيء. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْآيِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجْسُوبِينَ مِنَ الْآيِينَ وَالزُّبَيْرِ الْأَيْبِرِ وَحَمَلَ صَلَاحًا لَهُمْ أَرْبَعًا مِنْهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا حَوْكٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْآيِينَ آمَنُوا﴾ فيهم خمسة أقوال: أحدها: أنهم قوم كانوا مؤمنين بعيسى قبل أن يُبعث محمد ﷺ، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم الذين آمنوا بموسى، وعملوا بشريعته إلى أن جاء عيسى، فأمنوا به وعملوا بشريعته إلى أن جاء محمد. وهذا قول السدي عن أشياخه. والثالث: أنهم المنافقون، قاله سفيان الثوري. والرابع: أنهم الذين كانوا يطلبون الإسلام، كقس بن ساعدة، وبحيرا، وورقة بن نوفل، وسلمان. والخامس: أنهم المؤمنون من هذه الأمة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ قال الزجاج: أصل هادوا في اللغة: تابوا. وروي عن ابن مسعود أن اليهود سماوا بذلك، لقول موسى: ﴿هَذَا إِلَهِي﴾، والنصارى لقول عيسى: ﴿مَنْ آمَنَ بِمَا آتَى إِلَهُهُ﴾. وقيل: سماوا النصارى لقرية نزلها المسيح، اسمها: ناصرة، وقيل: لتناصرهم. فأما «الصابئون» فقرأ الجمهور بالهمز في جميع القرآن. وكان نافع لا يهزم كل المواضع. قال الزجاج: معنى الصابئين: الخارجون من دين إلى دين، يقال: صبا فلان: إذا خرج من دينه. وصبأت النجوم: إذا طلعت [وصبا نابه: إذا خرج]. وفي الصابئين سبعة أقوال: أحدها: أنه صنف من النصارى ألين قولا منهم، وهم السائحون المحلقة أوساط رؤوسهم، روي عن ابن عباس. والثاني: أنهم قوم بين النصارى والمجوس، ليس لهم دين، قاله مجاهد. والثالث: أنهم قوم بين اليهود والنصارى، قاله سعيد بن جبير. والرابع: قوم كالمجوس، قاله الحسن والحكم. والخامس: فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، قاله أبو العالية. والسادس: قوم يصلون إلى القبلة، ويعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور، قاله قتادة. والسابع: قوم يقولون: لا إله إلا الله، فقط، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ في إعادة ذكر الإيمان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لما ذكر مع المؤمنين طوائف من الكفار رجح قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ إليهم. والثاني: أن المعنى من أقام على إيمانه. والثالث: أن الإيمان الأول نطق المنافقين بالإسلام، والثاني: اعتقاد القلوب.

قوله تعالى: ﴿وَعَمَلٌ صَالِحًا﴾ قال ابن عباس: أقام الفرائض.

فصل

وهل هذه الآية محكمة أم منسوخة؟. فيه قولان: أحدهما: أنها محكمة، قاله مجاهد والضحاك في آخرين، وقدرها فيها: إن الذين آمنوا، ومن آمن من الذين هادوا. والثاني: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ عِبْرَ الْإِنْسَانِ وَيَتَّكِنْ بِفَيْعَلٍ يَنْتَهُ﴾، ذكره جماعة من المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾. الخطاب بهذه الآية لليهود. والميثاق: مفعال من التوثق بيمين أو عهد أو نحو ذلك من الأمور التي تؤكد القول. وفي هذا الميثاق ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أخذ ميثاقهم أن يعملوا بما في التوراة، فكرهوا الإقرار بما فيها، فرفع عليهم الجبل، قاله مقاتل. قال أبو سليمان الدمشقي: أعطوا الله عهداً ليعملنَّ بما في التوراة، فلما جاء بها موسى فرأوا ما فيها من الثقل، امتنعوا من أخذها، فرفع الطور عليهم. والثاني: أنه ما أخذه الله تعالى على الرسل وتابعيهم من الإيمان بمحمد ﷺ، ذكره الزجاج. والثالث: ذكره الزجاج أيضاً، فقال: يجوز أن يكون الميثاق يوم أخذ الذرية من ظهر آدم.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ قال أبو عبيدة: الطور في كلام العرب: الجبل. وقال ابن قتيبة: الطور: الجبل بالسرانية. وقال ابن عباس: ما أنبت من الجبال فهو طور، وما لم ينبت فليس بطور. وأي الجبال هو؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: جبل من جبال فلسطين، قاله ابن عباس. والثاني: جبل نزلوا بأصله، قاله قتادة. والثالث: الجبل الذي تجلى له ربه، قاله مجاهد. وجمهور العلماء على أنه إنما رفع الجبل عليهم لإبائهم التوراة. وقال السدي: لإبائهم دخول الأرض المقدسة.

قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾. وفي المراد بالقوة أربعة أقوال: أحدها: الجد والاجتهاد، قاله ابن عباس وفتادة والسدي. والثاني: الطاعة، قاله أبو العالية. والثالث: العمل بما فيه، قاله مجاهد. والرابع: الصدق، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: اذكروا ما تضمنه من الثواب والعقاب، قاله ابن عباس. والثاني: معناه: ادرسوا ما فيه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: تتقون العقوبة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن العمل بما فيه من بعد إعطاء المواثيق لتأخذنه بجد، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ قُلُلًا لَهُمْ كُفُؤًا قُرْدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ السبت: اليوم المعروف، قاله ابن الأنباري: ومعنى السبت في كلام العرب: القطع، يقال: قد سبت رأسه: إذا حلقة وقطع الشعر منه، ويقال: نعل سبتي: إذا كانت مدبوغة بالقرظ محلوقة الشعر، فسمي السبت سبتاً، لأن الله تعالى ابتداء الخلق فيه، وقطع فيه بعض خلق الأرض، أو: لأن الله تعالى أمر بني إسرائيل فيه بقطع الأعمال وتركها. قال: وقال بعضهم: سمي سبتاً، لأن الله تعالى أمرهم بالاستراحة فيه من الأعمال، وهذا خطأ، لأنه لا يعرف في كلام العرب سبت بمعنى: استراح. وفي صفة اعتدائهم في السبت قولان: أحدهما: أنهم أخذوا الحيتان يوم السبت، قاله الحسن ومقاتل. والثاني: أنهم حبسوها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، وذلك أن الرجل كان يحضر الحفيرة؛ ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر، وقد حرم الله عليه العمل يوم السبت، فيقبل الموج بالحيتان حتى يلقبها في الحفيرة، فيريد الحوت الخروج فلا يطيق، فيأخذها يوم الأحد، قاله السدي.

الإشارة إلى قصة مسحهم

روى عثمان بن عطاء عن أبيه قال: نودي الذين اعتدوا في السبت ثلاثة أصوات. نودوا: يا أهل القرية، [فانتبهت طائفة، ثم نودوا: يا أهل القرية،] فانتبهت طائفة أكثر من الأولى، ثم نودوا: يا أهل القرية، فانتبه الرجال والنساء والصبيان، فقال الله لهم: ﴿كُونُوا قَرَدَةً حَشِيصِينَ﴾ فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم: بلى. قال قتادة: فصار القوم قرودة تعاوي، لها أذنان بعدما كانوا رجالاً ونساء. وفي رواية عن قتادة: صار الشبان قرودة، والشيوخ خنازير، وما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم. وقال غيره: كانوا نحواً من سبعين ألفاً، وعلى هذا القول العلماء، غير ما روي عن مجاهد أنه قال: مسخت قلوبهم ولم تمسخ أبدانهم، وهو قول بعيد، قال ابن عباس: لم يحيوا على الأرض إلا ثلاثة أيام، ولم يحيا مسخ في الأرض فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. وزعم مقاتل أنهم عاشوا سبعة أيام، وماتوا في اليوم الثامن، وهذا كان في زمان داود عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿حَشِيصِينَ﴾: الحاشي في اللغة: المبعد، يقال للكلب: اششأ، أي: تباعد.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ في المكنى عنها أربعة أقوال: أحدها: أنها الخطيئة، رواه عطية عن ابن عباس. والثاني: العقوبة، رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال الفراء: الهاء: كناية عن المسخة التي مسحوها. والثالث: أنها القرية، والمراد أهلها، قاله قتادة وابن قتيبة. والرابع: أنها الأمة التي مسخت، قاله الكسائي، والزجاج. وفي النكاح قولان: أحدهما: أنه العقوبة، قاله مقاتل. والثاني: العبرة، قاله ابن قتيبة والزجاج.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لما بين يديها من القرى وما خلفها، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: لما بين يديها من الذنوب، وما خلفها: ما عملوا بعدها، رواه عطية عن ابن عباس. والثالث: لما بين يديها من السنين التي عملوا فيها بالمعاصي، وما خلفها: ما كان بعدهم في بني إسرائيل لثلا يعملوا بمثل أعمالهم، قاله عطية. وفي المتقين قولان: أحدهما: أنه عام في كل متق إلى يوم القيامة، قاله ابن عباس. والثاني: أن المراد بهم أمة محمد عليه السلام، قاله السدي عن أشياخه، وذكره عطية وسفيان.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذْبِحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَجِدُكَ هَرُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ قالوا أذع لنا ربك بين لنا ما هم قال إنه يقول إنها بقرة لا فارس ولا بكر عوان بينك ذلك فافعلوا ما تؤمرون عليه السلام.

ذكر السبب في أمرهم بذبح البقرة

روى ابن سيرين عن عبدة قال: كان في بني إسرائيل رجل عقيم لا يولد له، وله مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله واحتمله ليلاً، فأتى به حياً آخر، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يديه حتى تسلحوا، وركب بعضهم إلى بعض، فأتوا موسى فذكروا له ذلك، فأمرهم بذبح البقرة. وروى السدي عن أشياخه أن رجلاً من بني إسرائيل كانت له بنت وابن أخ فقير، فخطب إليه ابنته، فأبى، فغضب وقال: والله لأقتلن عمي، ولأخذن ماله ولأنكحن ابنته، ولأكلن ديتة، فاتاه فقال: قد قدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل، فانطلق معي فنخذ لي من تجارتهم لعلني أصيب فيها ربحاً، فخرج معه، فلما بلغا ذلك السبط، قتله الفتى، ثم رجع، فلما أصبح، جاء كأنه يطلب عمه لا يدري أين هو، فإذا بذلك السبط قد اجتمعوا عليه، فأمسكهم وقال: قتلتم عمي، وجعل يبكي وينادي: واعماه. قال أبو العالية: والذي سأل موسى أن يسأل الله البيان: القاتل. وقال غيره: بل القوم اجتمعوا فسألوا موسى، فلما أمرهم بذبح بقرة، قالوا: ﴿أَنْتَجِدُكَ هَرُؤًا﴾. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «هزؤاً»، بضم الهاء والزاي والهمزة، وقرأ حمزة، وإسماعيل، وخلف في اختياره، والفراء عن عبد الوارث، والمفضل: «هزءاً»، بإسكان الزاي. ورواه حفص بالضم من غير همز، وحكى أبو علي الفارسي أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم، فمن العرب من يثقله، ومنهم من يخففه، نحو العسر واليسر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْهَوَاتِ﴾. وإنما انتفى من الهزء، لأن الهزئ جاهل لاعب، فلما تبين لهم أن الأمر من عند الله، قالوا: ﴿أَنْعَ لَكَ رَبُّكَ يَبِينُ لَنَا مَا هِيَ﴾. قال الزجاج: وإنما سألوا: ما هي، لأنهم لا يعلمون أن بقرة يحيى بضرب بعضها ميت. فاما الفارض فهي: المسنة، يقال: فرضت البقرة فهي فارض: إذا أسنت. والبكر: الصغيرة التي لم تلد، والعوان: دون المسنة، وفوق الصغيرة. يقال: حرب عوان: إذا لم تكن أول حرب، وكانت ثانية.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْعَ لَكَ رَبُّكَ يَبِينُ لَنَا مَا لَوْئِهَآ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ سَوَّاهُ قَائِعُ لَوْئِهَآ قَسْرُ النَّظِيرِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَنْعَ لَكَ رَبُّكَ يَبِينُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾. في الصفراء قولان: أحدهما: أنه من الصفرة، وهو: اللون المعروف، قاله ابن عباس، وقناة، وابن زيد، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنها السوداء، قاله الحسن البصري، ورده جماعة، فقال ابن قتيبة: هذا غلط في نعوت البقر، وإنما يكون ذلك في نعوت الإبل، يقال: يعبر أصفر، أي: أسود، لأن السوداء من الإبل يشوب سوادها صفرة، ويدل على ذلك: قوله تعالى: ﴿قَائِعُ لَوْئِهَآ﴾ والعرب لا تقول: أسود قائع، وإنما تقول: أسود حالك، وأصفر قائع. قال الزجاج: وقائع نعت للأصفر الشديد الصفرة، يقال: أصفر قائع، وأحمر قانئ، وأخضر ناضر، وأبيض يقن، وأسود حالك، وحلكوك ودجوجي، فهذه صفات المبالغة في الألوان. ومعنى ﴿قَسْرُ النَّظِيرِ﴾ تعجبهم، قال ابن عباس: شدد القوم فشد الله عليهم. وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لولا أن بني إسرائيل استنوا لم يعطوا الذي أعطوا» يعني بذلك قولهم: ﴿وَلَيْقًا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾. وفي المراد باهتدائهم قولان: أحدهما: أنهم أرادوا: المهتدون إلى البقرة، وهو قول الأكثرين، والثاني: إلى القائل، ذكره أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُبِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْفَنَ حِثَّ وَالْحَقَّ فَذَبْحُومًا وَمَا كَادُوا يَمْلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ﴾ قال قتادة: لم يذلها العمل فتشير الأرض. قال ابن قتيبة: يقال في الدواب: دابة ذلول: بينة الذل بكسر الذال، وفي الناس: رجل ذليل بين الذل بضم الذال. ﴿تُبِيرُ الْأَرْضَ﴾: تقلبها للزراعة، ويقال للبقرة: المثيرة. قال الفراء: لا تقفن على ذلول، لأن المعنى: ليست بذلول فتشير الأرض، وحكى ابن القاسم أن أبا حاتم السجستاني أجاز الوقف على ذلول، ثم أنكره عليه جداً، وعلل بأن التي تشير الأرض لا يعدم منها سقي الحرث؛ ومتى أثارت الأرض كانت ذلولاً. ومعنى: ﴿وَلَا تَسْقِي الْمَرْثَ﴾: لا يستقى عليها الماء لسقي الزرع.

قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: مسلمة من العيوب، قاله ابن عباس، وأبو العالية، وقناة، ومقاتل. والثاني: مسلمة من العمل، قاله الحسن وابن قتيبة. والثالث: مسلمة من الشية، قاله مجاهد وابن زيد، والرابع: مسلمة الفوائم والخلق، قاله عطاء الخراساني. فأما الشية، فقال الزجاج: الوشي في اللغة: خلط لون بلون. ويقال: وشيت الثوب أشبه شية ووشياً، كقولك: وديت فلاناً أديه دية. ونصب: لا شية فيها، على النفي. ومعنى الكلام: ليس فيها لون يفارق سائر لونها. وقال عطاء الخراساني: لونها لون واحد.

قوله تعالى: ﴿الْفَنَ حِثَّ وَالْحَقَّ﴾ قال ابن قتيبة: الآن: هو الوقت الذي أنت فيه، وهو حدّ الزمانين، حد الماضي من آخره، وحد المستقبل من أوله، ومعنى ﴿حِثَّ وَالْحَقَّ﴾: بينت لنا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَمْلِكُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لغلاء ثمنها، قاله ابن كعب القرظي. والثاني: لخوف الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم، قاله وهب. قال ابن عباس: مكثوا يطلبون البقرة أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل، فأبى أن يبيعهها إلا بملء مسكها ذهباً، وهذا قول مجاهد وعكرمة، وعبيدة، وهب، وابن زيد، والكلبي، ومقاتل في مقدار الثمن. فأما السبب الذي لأجله غلا ثمنها، فيحتمل وجهين: أحدهما: أنهم شددوا فشدد الله عليهم. والثاني: لإكرام الله صلى الله عليه وسلم صاحبها، فإنه كان برأ بوالديه. فذكر بعض المفسرين أنه كان شاب من بني إسرائيل برأ بأبيه، فجاء رجل يطلب سلعة هي عنده، فانطلق لبيعه إياها، فإذا مفاتيح حانوته مع أبيه، وأبوه نائم، فلم يوقظه، ورد

المشتري، فأضعف له المشتري الثمن، فرجع إلى أبيه، فوجده نائماً، فعاد إلى المشتري فردّه، فأضعف له الثمن، فلم يزل ذلك دأبهما حتى ذهب المشتري، فأثابه الله على بره بأبيه أن نتجت له بقرة من بقره تلك البقرة. وروي عن وهب بن منبه في حديث طويل أن فتي كان برأً بوالديه، وكان يحتطب على ظهره، فإذا باعه تصدق بثلته، وأعطى أمه ثلثه، وأبقى لنفسه ثلثه، فالت له أمه يوماً: إني ورثت من أبيك بقرة، فتركتها في البقر على اسم الله، فإذا أتيت البقر، فادعها باسم إله إبراهيم، فذهب فصاح بها، فأقبلت، فانطقها الله، فقالت: اركبني يا فتي، فقال [الفتى: إن أمي] لم تأمرني بهذا. فقالت: أيها البر بأمه! لو ركبتني لم تقدر عليّ، فانطلق، فلو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله [وينطلق معك] لانقلع لبرك بأمك. فلما جاء بها قالت أمه: بعها بثلاثة دنانير على رضى مني، فبعث الله ملكاً فقال: بكم هذه؟ قال: بثلاثة دنانير على رضى من أمي. قال: لك ستة ولا تستأمرها، فأبى، وعاد إلى أمه فأخبرها، فقالت: بعها بستة على رضى مني، فجاء الملك فقال: خذ اثني عشر ولا تستأمرها، فأبى، وعاد إلى أمه فأخبرها، فقالت: يا بني! ذاك ملك، فقل له: بكم تأمرني أن أبيعها؟ فجاء إليه فقال له ذلك، فقال: يا فتي يشتري بقرتك هذه موسى بن عمران لقتيل يقتل في بني إسرائيل.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خُرُّجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هذه الآية مؤخرة في التلاوة، مقدمة في المعنى، لأن السبب في الأمر بذبح البقرة قتل النفس، فتقدير الكلام: وإذ قتلتم نفساً فآذارتكم فيها، فسألتم موسى فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾. ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ لِمَنْ لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَوَاقِبًا﴾ [الكهف: ١، ٢] أراد: أنزل الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً، فأخر المقدم وقدم المؤخر، لأنه من عادة العرب. قال الفرزدق:

إن الفرزدق صخرة ملمومة
طالت فليس تنالها الأوعالا
أراد: طالت الأوعال. وقال جرير:

طاف الخيال وأين منك لماما
أراد: طاف الخيال لماماً، وأين هو منك؟ وقال الآخر:

خير من القوم العصاة أميرهم
- يا قوم فاستحيوا - النساء الجلس

أراد: خير من القوم العصاة النساء، فاستحيوا من هذا. ومعنى قوله: ﴿فَأَذَرْتُمْ﴾: اختلفتم، قاله ابن عباس ومجاهد. وقال الزجاج: آذارتكم، بمعنى: تدارأتم، أي: تدافعتم، وألقى بعضكم على بعض، تقول: درأت فلاناً: إذا دفعته، وداريته: إذا لاينته، ودريته إذا ختلته، فأدغمت التاء في الدال، لأنهما من مخرج واحد، فأما الذي كتّموه؛ فهو أمر القتل.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّيْمِيْنَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧٣﴾﴾. من قال: أقاموا في طلبها أربعين سنة؛ قال: ضربوا قبره، ومن لم يقل ذلك، قال: ضربوا جسمه قبل دفنه. وفي الذي ضرب به ستة أقوال: أحدها: أنه ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف، رواه عكرمة عن ابن عباس. قال أبو سليمان الدمشقي: وذلك العظم هو أصل الأذن، وزعم قوم أنه لا يكسر ذلك العظم من أحد فيعيش. قال الزجاج: الغضروف في الأذن، وهو: ما أشبه العظم الرقيق من فوق الشحمة، وجميع أعلى صدقة الأذن، وهو معلق الشنوف، فأما العظمان اللذان خلف الأذن الناتان من مؤخر الأذن، فيقال لهما: الخشأوان، والخششاوان، واحدهما: خُشَاءٌ، وخُشْشَاءٌ. والثاني: أنه ضرب بالفخذ، روي عن ابن عباس أيضاً، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وذكر عكرمة ومجاهد أنه الفخذ الأيمن. والثالث: أنه البضعة التي بين الكتفين. رواه السدي عن أشياخه. والرابع: أنه الذنب، رواه ليث عن مجاهد. والخامس: أنه عجب الذنب، وهو عظم بني عليه البدن، روي عن سعيد بن جبيرة. والسادس: أنه اللسان، قاله الضحاك. وفي الكلام اختصار تقديره: فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا، فضرِبوه فحي، فقام فأخبر بقاتله. وفي قاتله أربعة أقوال: أحدها: بنو أخيه، رواه عطية عن ابن عباس. والثاني: ابنا عمه، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهذان القولان

يدلان على أن قاتله أكثر من واحد. والثالث: ابن أخيه، قاله السدي عن أشياخه، وعبيدة. والرابع: أخوه، قاله عبد الرحمن بن زيد.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ النَّارَةَ﴾: فيه قولان: أحدهما: أنه خطاب لقوم موسى. والثاني: لمشركي قريش، احتج عليهم إذ جحدوا البعث بما يوافق عليه أهل الكتاب، قال أبو عبيدة: وآياته: عجائبه.

﴿لَمْ يَسْتَفْئِدْ قَوْمُكَ مِنْهُ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّارِ لَعْنَةً وَكُنْتُمْ أَصْحَابًا﴾^(٧٤) قال ابن عباس: أي: لم يستفدوا من آيات الله التي أنزلنا بها على النار، وإنما استفادوا من آيات الله التي أنزلنا بها على قريش، قال ابن عباس: قال النبي: «لما نزلت آيات الله على النار، لم يستفدوا من آيات الله التي أنزلنا بها على النار، وإنما استفادوا من آيات الله التي أنزلنا بها على قريش».

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَسْتَفْئِدْ قَوْمُكَ مِنْهُ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّارِ لَعْنَةً وَكُنْتُمْ أَصْحَابًا﴾: قال إبراهيم بن السري: قست في اللغة: غلظت وبيست وعست، فقسوة القلب: ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه. والقاسي والعاسي: الشديد الصلابة. وقال ابن قتيبة: قست وعست وعتت واحد، أي: ييست. وفي المشار إليهم بها قولان: أحدهما: جميع بني إسرائيل. والثاني: القاتل. قال ابن عباس: قال النبي: «قتلوه بعد أن سمي قاتله: والله ما قتلناه». وفي كاف «ذلك» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إشارة إلى إحياء الموتى، فيكون الخطاب لجميع بني إسرائيل. والثاني: إلى كلام القاتل، فيكون الخطاب للقاتل، ذكرهما المفسرون. والثالث: إلى ما شرح من الآيات من مسخ القردة والخنازير، ورفع الجبل وانجاس الماء، وإحياء القاتل، ذكره الزجاج. وفي «أو» أقوال: هي بعينها مذكورة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَمِثْلِهِ﴾ وقد تقدمت.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْجَبَارَةِ لِمَنْ يُنْفَخُ مِنْهُ الْآهَنْتُ﴾ قال مجاهد: كل حجر ينفجر منه الماء، وينشق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، فمن خشية الله.

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ مَعَهُمْ أَوْ أَنْتُمْ كَذِبَةٌ﴾ في المخاطبين بهذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه النبي ﷺ خاصة، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أنه المؤمنون، تقديره: أنتظمعون أن تصدقوا نبيكم، قاله أبو العالية وقتادة. والثالث: أنهم الأنصار، فإنهم لما أسلموا أحبوا إسلام اليهود للرضاعة التي كانت بينهم، ذكره النقاش. قال الزجاج: وألف «أَنْتُمْ مَعَهُمْ» ألف استخبار، كأنه يسألهم من الطمع في إيمانهم. وفي سماعهم لكلام الله قولان: أحدهما: أنهم قرؤوا التوراة فحرقوها، هذا قول مجاهد والسدي في آخرين، فيكون سماعهم لكلام الله بتبليغ نبيهم، وتحريفهم: تغيير ما فيها. والثاني: أنهم السبعون الذين اختارهم موسى، فسمعوا كلام الله كفاً عند الجبل، فلما جاؤوا إلى قومهم قالوا: قال لنا: كذا وكذا، وقال في آخر قوله: إن لم تستطيعوا ترك ما أنهاكم عنه؛ فافعلوا ما تستطيعون. هذا قول مقاتل، والأول أصح. وقد أنكر بعض أهل العلم، منهم الترمذي^(١) صاحب «النوادر» هذا القول إنكاراً شديداً، وقال: إنما خص بالكلام موسى وحده، وإلا فأي ميزة؟! وجعل هذا من الأحاديث التي رواها الكلبي وكان كذاباً. ومعنى «عَقَلُوا»: سمعوه ووعوه. وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ قولان: أحدهما: وهم يعلمون أنهم حرقوه. والثاني: وهم يعلمون عقاب تحريفه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاطَبُوا بِهِمْ مِنْكُمْ وَيَسْتَفْئِدُوا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ كَارِهِونَ﴾^(٧٥) هذه الآية نزلت في نفر من اليهود، كانوا إذا لقوا النبي والمؤمنين قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض، قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم، هذا قول ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وقتادة، وعطاء الخراساني، وابن زيد، ومقاتل. وفي معنى «بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» قولان: أحدهما: بما قضى الله عليكم، والفتح: القضاء، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾^(٧٦) الأعراف: ٨٩ قال السدي عن أشياخه: كان ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين بما عذبوا به، فقال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم. [من العذاب، ليقولوا: نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم]. والثاني: أن معناه: بما علمكم الله. قال ابن عباس وأبو العالية وقتادة: الذي فتحه عليهم: ما أنزله من التوراة في صفة

(١) هو محمد بن علي، أبو عبد الله، عالم بالحديث وأصول الدين، توفي نحو ٢٢٠هـ، وقد تكلم عليه بعض أهل العلم، انظر «لسان الميزان» للحافظ ابن

محمد ﷺ وقال مقاتل: كان المسلم يلقى حليفه، أو أخاه من الرضاة من اليهود، فيسأله: أتجدون محمداً في كتابكم؟ فيقولون: نعم، إنه لحق. فسمع كعب بن الأشرف وغيره، فقال لليهود في السر: أتحدثون أصحاب محمد بما فتح الله عليكم، أي: بما بين لكم في التوراة من أمر محمد ليخاصموكم به عند ريكم باعترافكم أنه نبي، أفلا تعقلون أن هذا حجة عليكم؟!

قوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى: في حكم ربكم، كقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النور: ١٣] والثاني: أنه أراد يوم القيامة.

﴿رَبِّكُمْ أَيُّونَ لَا يَمْلِكُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٌ وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ أَيُّونَ﴾ يعني: اليهود. والأي: الذي لا يكتب ولا يقرأ، قاله مجاهد. وفي تسميته بالأي قولان: أحدهما: لأنه على خلقه الأمة التي لم تتعلم الكتاب، فهو على جبلته، قاله الزجاج. والثاني: أنه ينسب إلى أمه، لأن الكتابة في الرجال كانت دون النساء. وقيل: لأنه على ما ولدته أمه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الْكِتَابَ﴾ قال قتادة: لا يدرون ما فيه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانٌ﴾ جمهور القراء على تشديد الياء، وقرأ الحسن، وأبو جعفر، بتخفيف الياء، وكذلك: ﴿تِلْكَ آيَاتُهُمْ﴾ [البقرة: ١١١] و﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٧٣] ﴿فِي أُنْيُوتِهِمْ﴾ [الحج: ٥٢] و﴿وَعَزَّكَتُمْ الْأَمَانِي﴾ [الحديد: ١٤] كله بتخفيف الياء وكسر الهاء من «أمانيهم». ولا خلاف في فتح ياء «الأماني». وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الأكاذيب. قال ابن عباس: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾: يريد إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذباً. وهذا قول مجاهد واختيار القراء. وذكر الفراء أن بعض العرب قال لابن داب^(١) وهو يحدث: أهذا شيء رويته، أم شيء تمنيته؟ يريد: افتعلته؟. والثاني: أن الأماني: التلاوة، فمعناه: لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم. قال الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليلة
تمنى داود الزبور على رسل

وهذا قول الكسائي والزجاج. والثالث: أنها أمانيهم على الله، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَنْظُرُونَ﴾ قال مقاتل: ليسوا على يقين، فإن كذب الرؤساء أو صدقوا، تابعوهم.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال مقاتل: ليسوا على يقين، فإن كذب الرؤساء أو صدقوا، تابعوهم. قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ هذه الآية نزلت في أهل الكتاب [الذين] بدلوا التوراة وغيروا صفة النبي ﷺ فيها. وهذا قول ابن عباس وقتادة وابن زيد وسفيان. فأما الويل: فروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ: أنه قال: «ويل» واد في جهنم، يهوي الكافر فيه أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره^(٢) وقال الزجاج: الويل: كلمة تقولها العرب لكل من وقع فيهلكة، ويستعملها هو أيضاً^(٣). وأصلها في اللغة: العذاب والهلاك. قال ابن الأنباري: ويقال: معنى الويل: المشقة من العذاب. ويقال: أصله: وي لفلان، أي: حزن لفلان، فكثر الاستعمال للحرفين، فوصلت اللام ب«وي» وجعلت حرفاً واحداً، ثم خبر عن «ويل» بلام أخرى، وهذا اختيار الفراء. والكتاب هاهنا: التوراة. وذكر الأيدي توكيد، والشمس القليل: ما يفتنى من الدنيا. وفيما يكسبون قولان: أحدهما: أنه عوض ما كتبوا. والثاني: إنهم ما فعلوا.

﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا الْكَاذِبُ إِلَّا نَبَأًا مَقْدُونًا﴾ قل أئحذتم عند الله عهداً قلن يحلفن الله عهداً أم سؤلون على الله ما لا تملكون ﴿٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا الْكَاذِبُ إِلَّا نَبَأًا مَقْدُونًا﴾ وهم: اليهود. وفيما عنوا بهذه الأيام قولان: أحدهما: أنهم أرادوا أربعين يوماً، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو العالية، وقتادة، والسدي. ولماذا قدروها بأربعين؟ فيه ثلاثة

(١) هو أبو الوليد عيسى بن يزيد بن بكر بن داب المدني كان يضع الشعر، وأحاديث السر، وكلاماً ينسب إلى العرب، فسقط وزهبت روايته.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، من طريق دراج عن أبي الهيثم، وابن أبي حاتم، وابن جبان، والمحام وصححه، وأقره الذهبي.

(٣) أي: الذي يقع في الهلكة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا بِنَبَأًا إِذَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

أقوال: أحدها: أنهم قالوا: بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، ونحن نقطع مسيرة كل سنة في يوم، ثم ينقضي العذاب وتهلك النار، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم قالوا: عتب علينا ربنا في أمر، فأقسم ليعذبنا أربعين ليلة، ثم يدخلنا الجنة، فلن تمسنا النار إلا أربعين يوماً تحلّة القسم، وهذا قول الحسن وأبي العالقة. والثالث: أنها عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل، قاله مقاتل. والقول الثاني: أن الأيام المعدودة سبعة أيام، وذلك لأن عندهم أن الدنيا سبعة آلاف سنة، والناس يعذبون لكل ألف سنة يوماً من أيام الدنيا، ثم ينقطع العذاب، قاله ابن عباس: ﴿لَمَّا أَخَذْتُم مِّنَ اللَّهِ عَهْدَكُمْ أَي: عهد إليكم أنه لا يعذبكم إلا هذا المقدار؟!﴾.

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطَبَةُ فَأُولَٰئِكَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَاللَّيْلِ ءَامِنًا وَيَوْمَ الْأُمِّيَّةِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطَبَةُ﴾: بلى: بمنزلة «نعم» إلا أن «بلى» جواب النفي، و«نعم» جواب الإيجاب، قال الفراء: إذا قال الرجل لصاحبه: مالك عليّ شيء، فقال الآخر: نعم، كان تصديقاً أن لا شيء له عليه. ولو قال: بلى؛ كان رداً لقوله. قال ابن الأنباري: وإنما صارت «بلى» تتصل بالجحد، لأنها رجوع عن الجحد إلى التحقيق، فهي بمنزلة «بل». و«بل» سبيلها أن تأتي بعد الجحد، كقولهم: ما قام أخوك، بل أبوك. وإذا قال الرجل للرجل: ألا تقوم؟ فقال له: بلى؛ أراد: بل أقوم، فزاد الألف على «بل» ليحسن السكوت عليها، لأنه لو قال: بل؛ كان يتوقع كلاماً بعد بل، فزاد الألف ليزول هذا التوهم عن المخاطب. ومعنى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾: بل من كسب. قال الزجاج: بلى: رد لقولهم: ﴿لَمَّا تَمَسَّتْ النَّارُ النَّارَ إِلَّا آتِيَانَا مَفْدُودَةً﴾ والسبيحة هاهنا: الشرك في قول ابن عباس، وعكرمة، وأبي وائل، وأبي العالقة، ومجاهد، وقناة، ومقاتل. ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ﴾: أي: أحذقت به خطيئته. وقرأ نافع «خطيئاته» بالجمع. قال عكرمة: مات ولم يتب منها، وقال أبو وائل: الخطيئة: صفة للشرك. قال أبو علي: إما أن يكون المعنى: أحاطت بحسنته خطيئته، أي: أحبطتها، من حيث أن المحيط أكثر من المحاط به، فيكون كقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] وقوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] أو يكون معنى أحاطت به: أهلكته، كقوله: ﴿لَا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ هذا الميثاق مأخوذ عليهم في التوراة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾

عجبت من دهماء إذ تشكرونا
ومن أبي دهماء إذ يوصينا

وأما الإحسان إلى الوالدين؛ فهو برهما. قال ابن عباس: لا تنفض ثوبك فيصيبهما الغبار. وقالت عائشة: ما بر والده من شد النظر إليه. وقال عروة: لا تمتنع عن شيء أحياه.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَاكُم بِالْحَيْرَةِ وَالْحَيْرَةُ خَيْرٌ مِنْ قَبْلِ الْأَمِّ...﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَاكُم بِالْحَيْرَةِ وَالْحَيْرَةُ خَيْرٌ مِنْ قَبْلِ الْأَمِّ...﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَاكُم بِالْحَيْرَةِ وَالْحَيْرَةُ خَيْرٌ مِنْ قَبْلِ الْأَمِّ...﴾

قال: يروى: يتيم ويثيم. فمن روى يتيم بالتاء؛ أراد: كل النساء ضعيف منفرد. ومن روى بالياء أراد: كل النساء يموت عنهن أزواجهن. وقال: أنشدنا ابن الأعرابي:

ثلاثة أحباب: فحب علاقة

وحب تملأق وحب هو القتل

قال: فقلنا له: زدنا، فقال: البيت يتيم: أي: منفرد. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: إذا بلغ الصبي، زال عنه اسمه اليتيم. يقال منه: يتم يتيم يُتَمًا وَيَتَمًا. وجمع اليتيم: يتامى، وأيتام. وكل منفرد عند العرب يتيم ویتيمة. قال: وقيل: أصل اليتيم: الغفلة، وبه سمي اليتيم، لأنه يتغافل عن برة. والمرأة تدعى: يتيمة ما لم تزوج، فإذا تزوجت زال عنها اسم اليتيم، وقيل: لا يزول عنها اسم اليتيم أبداً. وقال أبو عمرو: اليتيم: الإبطاء، ومنه أخذ اليتيم، لأن البر يبطئ عنه. «والمساكين»: جمع مسكين، وهو اسم مأخوذ من السكون، كأن المسكين قد أسكنه الفقر.

قوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّوْا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم، وابن عامر: (حُسناً) بضم الحاء والتخفيف، وقرأ حمزة والكسائي: (حَسَنًا) بفتح الحاء والتثنية. قال أبو علي: من قرأ «حُسناً» فجائز أن يكون الحسن لغة في الحسن، كالبخل، والبخل، والرشد والرشد. وجاء ذلك في الصفة كما جاء في الاسم، ألا تراهم قالوا: العُرب والعُرب ويجوز أن يكون الحسن مصدراً كالكفر والشكر والشغل، وحذف المضاف معه، كأنه قال: قولوا قولاً ذا حسن. ومن قرأ (حَسَنًا) جعله صفة، والتقدير عنده: قولوا للناس قولاً حسناً، فحذف الموصوف. واختلفوا في المخاطب بهذا على قولين: أحدهما: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، وابن جبير، وابن جريج. ومعناه: اصدقوا وبنوا صفة النبي. والثاني: أنهم أمة محمد ﷺ. قال أبو العالية: قولوا للناس معروفاً. وقال محمد بن علي بن الحسين: كلموهم بما تحبون أن يقولوا لكم. وزعم قوم أن المراد بذلك مساهلة الكفار في دعائهم إلى الإسلام. فعلى هذا؛ تكون منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي: أعرضتم إلا قليلاً منكم. وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أزلوهم الذين لم يبدلوا. والثاني: أنهم الذين آمنوا بالنبي محمد ﷺ في زمانه.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْفِكُونَ ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِكُمْ فَتَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتِوكُمْ أُسْرَى فَعُدُّوهُمْ وَهُوَ حَرْمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوِيْتُمْ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرْتُمْ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسْفَى الْمَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ أي: لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً من داره. قال ابن عباس: ثم أقررتهم يومئذ بالعهد، وأنتم اليوم تشهدون على ذلك، فالإقرار على هذا متوجه إلى سلفهم، والشهادة متوجهة إلى خلفهم. ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي: يقتل بعضهم بعضاً. روى السدي عن أشياخه قال: كانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقاتلون في حرب سمير^(١) فيقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضير وحلفاءها، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها، فيغلبونهم ويخربون الديار ويخرجون منها، فإذا أسر الرجل من الفريقين كليهما، جمعوا له حتى يفدوه، فتعيرهم العرب بذلك، فتقول: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟! فيقولون: أمرنا أن نفديهم، وحرم علينا قتلهم. فتقول العرب: فلم تقاتلونهم؟ فيقولون: نستحي أن يستدل حلفاؤنا، فعيروهم الله ﷻ فقال: ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَفْتَوِيْتُمْ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرْتُمْ بِبَعْضٍ ﴾ فكان إيمانهم ببعضه: فداهم الأسارى، وكفرهم: قتل بعضهم بعضاً.

قوله تعالى: ﴿ تَظَاهَرُونَ ﴾: قرأ عاصم وحمزة والكسائي: (تظاهرون) وفي (التحريم) (تظاهرا) بتخفيف الظاء. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر بتشديد الظاء مع إثبات الألف. قال أبو علي: من قرأ (تظاهرون) بتشديد

(١) سمير: حرب كانت في الجاهلية بين الأوس والخزرج. وسمير: رجل من بني عمرو بن عوف، وخبر هذه الحرب تجدها في كتاب «الأغاني».

الظاء؛ أَدغم الظاء في الظاء، لمقاربتها لها، فخفف بالإدغام. ومن قرأ (تظاهرون) خفيفة؛ حذف التاء التي أَدغمها أولئك من اللفظ، فخفف بالحذف. والتاء التي أَدغمها ابن كثير هي التي حذفها عاصم. وروى عن الحسن وأبي جعفر (تظَّهرون) بتشديد الظاء من غير ألف، فالتظاهر: التعاون. قال ابن قتيبة: وأصله من الظهر، فكان التظاهر: أن يجعل كل واحد من الرجلين [أو من القوم] الآخر ظهراً له يتقوى به، ويستند إليه. قال مقاتل: والإثم: المعصية، والعدوان: الظلم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى فَمَا أَكْثَرُ يُؤْمِنُونَ﴾ أصل الأسر: الشد. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (أسارى)، وقرأ الأعمش وحمزة (أسرى) قال الفراء: أهل الحجاز يجمعون الأسير: «أسارى» وأهل نجد أكثر كلامهم «أسرى» وهو أجود الوجهين في العربية، لأنه بمنزلة قولهم: جريح وجرحى، وصريع وصرعى. وروى الأصمعي عن أبي عمرو قال: الأسارى: ما شدوا، والأسرى: في أيديهم، إلا أنهم لم يشدوا. وقال الزجاج: «فعلَى» جمع لكل ما أصيب به الناس في أبدانهم وعقولهم. يقال: هالك وهلكى، ومريض ومرضى، وأحمق وحمقى، وسكران وسكرى. فمن قرأ: (أسارى)؛ فهي جمع الجمع. تقول: أسير وأسرى وأسارى جمع أسرى.

قوله تعالى: ﴿تَتَدَوَّعُونَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: (تفدوهم) وقرأ نافع وعاصم والكسائي: (تفادوهم) بالف. والمفاداة: إعطاء شيء، وأخذ شيء مكانه. «أَفْتَوِيُونَ بِعِضِ الْكِتَابِ» وهو: فكاك الأسرى. «وَكَلَّوْنَا بِسَبْعِينَ» وهو: الإخراج والقتل. وقال مجاهد: تفديه في يد غيرك، وتقتله أنت بيدك؟! وفي المراد بالخزي قولان: أحدهما: أنه الجزية، قاله ابن عباس. والثاني: قتل قريظة ونفي النضير، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُشْرِكُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس: هم اليهود. وقال مقاتل: باعوا الآخرة بما يصيبونه من الدنيا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتُوتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا بِكُمْ وَفَرِقْنَا بِتِلْكَ الْأُمَّةِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يريد التوراة. وفاقنا: أتبعنا. قال ابن قتيبة: وهو مأخوذ من القفا. يقال: قفوت الرجل: إذا سرت في أثره. والبينات: الآيات الواضحات كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى. وأيدناه: قويناه. والأيد: القوة. وفي روح القدس ثلاثة أقوال: أحدها: أنه جبريل. والقدس: الطهارة، وهذا قول ابن عباس، وفتادة، والضحاك، والسدي في آخرين. وكان ابن كثير يقرأ: (بروح القدس) ساكنة الدال. قال أبو علي: التخفيف والتثقيب فيه حسنان، نحو: العنق والعنق، والطنب والطنب. وفي تأييده به ثلاثة أقوال ذكرها الزجاج: أحدها: أنه أيد به لإظهار حجته وأمر دينه. والثاني: لدفع بني إسرائيل عنه إذا أرادوا قتله. والثالث: أنه أيد به في جميع أحواله. والقول الثاني: أنه الاسم الذي كان يحيي به الموتى، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه الإنجيل، قاله ابن زيد.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَمَسَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قرأ الجمهور بإسكان اللام، وقرأ قوم، منهم الحسن وابن محيصن بضمها. قال الزجاج: من قرأ: (غلف) بتسكين اللام، فمعناه: ذوات غلف، فكانهم قالوا: قلوبنا في أوعية. ومن قرأ (غلف) بضم اللام، فهو جمع (غلاف) فكانهم قالوا: قلوبنا أوعية للعلم، فما بالها لا تفهم وهي أوعية للعلم؟! فعلى الأول؛ يقصدون إعراضه عنهم، كأنهم يقولون: ما نفهم شيئاً. وعلى الثاني يقولون: لو كان قولك حقاً لقبلته قلوبنا.

قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: فقليل من يؤمن منهم، قاله ابن عباس وفتادة. والثاني: أن المعنى: قليل ما يؤمنون به. قال معمر: يؤمنون بقليل مما في أيديهم، ويكفرون بأكثره. والثالث: أن المعنى: فما يؤمنون قليلاً ولا كثيراً. ذكره ابن الأنباري، وقال: هذا على لغة قوم من العرب، يقولون: قلما رأيت مثل هذا الرجل، وهم يريدون: ما رأيت مثله. والرابع: فيؤمنون قليلاً من الزمان: كقوله تعالى: ﴿عَامُوا بِالَّذِي أُوتُوا وَبِالَّذِي أُوتُوا وَبِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ قاله ابن الأنباري أيضاً. والخامس: أن المعنى: فإيمانهم قليل، ذكره ابن جرير الطبري. وحكى في «ما» قولين: أحدهما: أنها زائدة. والثاني: أن «ما» تجمع جميع الأشياء، ثم تخص بعض ما عمته بما يذكر بعدها.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ بِسْمَا أَشْرَقُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَوْقِهِ عَنَّا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مِنْ عِبَادِهِ فَكَاهَهُمْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن. و«يستفتحون»: يستنصرون. وكانت اليهود إذا قاتلت المشركين استنصروا باسم نبي الله محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿بِسْمَا أَشْرَقُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ بس: كلمة مستوفية لجميع الدم، ونقيضها: «نِعْم» واشتروا، بمعنى: باعوا. والذي باعوا به قليل من الدنيا.

قوله تعالى: ﴿بَعِيًّا﴾ قال قتادة: حسداً. ومعنى الكلام: كفروا بغياً، لأن نزل الله الفضل على النبي ﷺ. وفي قوله تعالى: ﴿بِعَصْبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ خمسة أقوال: أحدها: أن الغضب الأول لاتخاذهم العجل. والثاني: لكفرهم بمحمد، حكاه السدي عن ابن مسعود وابن عباس. والثاني: أن الأول لتكذيبهم رسول الله. والثاني: لعداوتهم لجبريل. رواه شهر عن ابن عباس. والثالث: أن الأول حين قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] والثاني: حين كذبوا نبي الله. رواه أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء. والرابع: أن الأول لتكذيبهم بعميسى والإنجيل. والثاني: لتكذيبهم بمحمد والقرآن. قاله الحسن، والشعبي، وعكرمة، وأبو العالية، وقاتدة، ومقاتل. والخامس: أن الأول لتبديلهم التوراة. والثاني: لتكذيبهم محمداً ﷺ قاله مجاهد. والمهين: المذل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آيَاتُ اللَّهِ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَقَالُوا قَوْلُ اللَّهِ كَذِبٌ أَوَّلَ كِتَابِ الْإِنشَاءِ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آيَاتُ اللَّهِ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَقَالُوا قَوْلُ اللَّهِ كَذِبٌ أَوَّلَ كِتَابِ الْإِنشَاءِ﴾ يعني: القرآن؛ ﴿قَالُوا قَوْلُ اللَّهِ كَذِبٌ﴾ يعنون: التوراة. وفي قوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَّاءَهُ﴾ قولان: أحدهما: أنه أراد بما سواه. ومثله: ﴿وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَّاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٢٤] قاله الفراء ومقاتل. والثاني: بما بعد الذي أنزل عليهم. قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ يعود على ما وراءه. ﴿فَلَمَّا تَقَالُوبُوا آيَاتِ اللَّهِ﴾ هذا جواب قولهم: ﴿قَوْلُ اللَّهِ كَذِبٌ﴾. ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَّاءَهُ﴾ فإن الأنبياء، وتقتلون بمعنى: قتلتم، فوضع المستقبل في موضع الماضي، لأن الهم لا يذهب إلى غيره. وأنشدوا في ذلك:

شهد الحطيئة حين يلقى ربه
أن الوليد أحق بالعدو

أراد: يشهد.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَأَنْتُمْ تَلَاحُوتُونَ ﴿٩٢﴾﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَوْلًا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ يَعْنِيكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فيها قولان: أحدهما: ما في الألواح من الحلال والحرام، قاله ابن عباس. والثاني: الآيات التسع، قاله مقاتل. وفي هاء «بعده» قولان: أحدهما: أنها تعود إلى موسى، فمعناه: من بعد انطلاقه إلى الجبل، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أنها تعود إلى المجيء، لأن «جاءكم» يدل على المجيء. وفي ذكر عبادتهم العجل تكذيب لقولهم: ﴿قَوْلُ اللَّهِ كَذِبٌ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ قال ابن عباس: كانوا إذا نظروا إلى الجبل، قالوا: سمعنا وأطعنا، وإذا نظروا إلى الكتاب، قالوا: سمعنا وعصينا.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: سقوا حب العجل، فحذف المضاف، وهو الحب، وأقام المضاف إليه مقامه، ومثله قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْرَبُ مَقْلُوبَةً﴾ [البقرة: ١٧٧] [أي وقت الحج] وقوله: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ [التوبة: ١١٩] [أي: أجعلتم صاحب سقاية الحاج]. وقوله: ﴿وَسَكَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] [أي: أهلها] وقوله: ﴿إِذَا

لَأَذِقَنَّكَ عَذَابَ الْحَيَاةِ [الإسراء: ١٧٥]. أي، ضعف عذاب الحياة. وقوله: ﴿لَمَلَأْتُمْ صَوَابِعُ وَيَسَعُ وَصَلَاتُكُمْ﴾ [الحج: ٤٤]. أي: بيوت صلوات. وقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ الْآيِلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: ٢٣٠]. أي: مكرهم فيهما. وقوله: ﴿فَلْيَعْنُ نَادِيَهُ﴾ [العلق: ١٧] أي: أهله. ومن هذا قول الشاعر:

أُنْبِئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدْتُ وَاسْتَبَيْتُ بَعْدَكَ يَا كَلِيبُ الْمَجْلِسُ
أي: أهل المجلس. وقال الآخر:

وَشَرَّ الْمَنِيَا مَيِّتٌ بَيْنَ أَهْلِهِ

أي: شر المنيا ميت بين أهله.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَمِينٍ يَأْتُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ أي: أن تكذبوا المرسلين، وتقتلوا النبيين بغير حق، وتكتموا الهدى.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ في «إن» قولان: أحدهما: أنها بمعنى: الجحد، فالمعنى: ما كنتم مؤمنين إذ عصيتم الله، وعبدتم العجل. والثاني: أن تكون «إن» شرطاً معلقاً بما قبله، فالمعنى: إن كنتم مؤمنين؛ فبئس الإيمان إيمان يأمركم بعبادة العجل، وقتل الأنبياء، ذكرهما ابن الأنباري.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٧] ﴿وَلَنْ يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [١٨] ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا أَشْرَكُوا يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُسَرُّ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْتَضِيَةٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُسَرُّ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٩]

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ كانت اليهود تزعم أن الله تعالى لم يخلق الجنة إلا لإسرائيل وولده، فنزلت هذه الآية. ومن الدليل على علمهم بأن النبي ﷺ صادق، أنهم ما تمنوا الموت، وأكبر الدليل على صدقه أنه أخبر أنهم لا يتمنونوه بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَمَنَّوْهُ﴾ فما تمناه أحد منهم. والذي قدمته أيديهم: قتل الأنبياء وتكذيبهم، وتبديل التوراة.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ اللام: لام القسم، والنون توكيد له، والمعنى: ولنجدن اليهود في حال دعائهم إلى تمني الموت أحرص الناس على حياة، وأحرص من الذين أشركوا. وفي «الذين أشركوا» قولان: أحدهما: أنهم: المجوس، قاله ابن عباس، وابن قتيبة والزجاج. والثاني: مشركو العرب، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ أَحَدُهُمْ﴾ في الهاء والميم من «أحدهم» قولان: أحدهما: أنها تعود على الذين أشركوا، قاله الفراء. والثاني: ترجع إلى اليهود، قاله مقاتل. قال الزجاج: وإنما ذكر «ألف سنة» لأنها نهاية ما كانت المجوس تدعو بها لملوكتها، كان الملك يحيا بأن يقال له: عش ألف نيروز، وألف مهرجان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ﴾ فيه قولان ذكرهما الزجاج: أحدهما: أنه كناية عن أحدهم الذي جرى ذكره، تقديره: وما أحدهم بمزحزحه من العذاب تعميره. والثاني: أن يكون هو كناية عما جرى من التعمير، فيكون المعنى: وما تعميره بمزحزحه من العذاب، ثم جعل «أن يعمر» مبيناً عنه، كأنه قال: ذلك الشيء الذي ليس بمزحزحه من العذاب.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٧] ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [١٨] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [١٩]

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال ابن عباس: أقبلت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: من يأتيك من الملائكة؟ قال: جبريل: فقالوا: ذاك ينزل بالحرب والقتال، ذاك عدونا، فنزلت هذه الآية والتي تليها. وفي جبريل إحدى عشرة لغة: إحداها: جبريل، بكسر الجيم والراء من غير همز، وهي لغة أهل الحجاز، وبها قرأ ابن عامر، وأبو عمرو. قال ورقة بن نوفل:

من الله وحي يشرح الصدر منزل

وجبريل يأتيه وميكال معهما

وقال عمران بن حطان:

والروح جبريل فيهم لا كفاء له
وقال حسان:

وجبريل رسول الله فينا

واللغة الثانية: جبريل بفتح الجيم وكسر الراء، وبعدها ياء ساكنة من غير همز على وزن: فَعْلِيل، وبها قرأ الحسن البصري، وابن كثير، وابن محيضر. وقال الفراء: لا أشتهبها، لأنه ليس في الكلام فَعْلِيل، ولا أرى الحسن قرأها إلا وهو صواب، لأنه اسم أعجمي. والثالثة: جبرئيل: بفتح الجيم والراء، وبعدها همزة مكسورة على وزن: جبرئيل، وبها قرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي. قال الفراء: وهي لغة تميم وقيس، وكثير من أهل نجد. وقال الزجاج: هي أجود اللغات، وقال جرير:

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد
وجبرئيل وكذبوا ميكالاً

والرابعة: جبرئيل، بفتح الجيم والراء وهمزة بين الراء واللام، مكسورة من غير مد، على وزن جبرئيل، رواها أبو بكر عن عاصم. والخامسة: جبرئيل، بفتح الجيم وكسر الهمزة وتشديد اللام، وهي قراءة أبان عن عاصم ويحيى بن يعمر. والسادسة: جبرائيل، بهمزة مكسورة بعدها ياء مع الألف. والسابعة: جبرائيل، بياثين بعد الألف وأولهما مكسورة. والثامنة: جبرين، بفتح الجيم ونون مكان اللام. والتاسعة: جبرين، بكسر الجيم ونون، قال الفراء: هي لغة بني أسد. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن الأنباري قال: في جبريل تسع لغات، فذكرهن. وذكر ابن الأنباري في كتاب «الرد على من خالف مصحف عثمان»: جبرائيل، بفتح الجيم وإثبات الألف مع همزة مكسورة ليس بعدها ياء. وجبرئين، بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء ونون. فأما ميكايل، ففيه خمس لغات: إحداهن: ميكال، مثل: يفعال بغير همز، وهي لغة أهل الحجاز، وبها قرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم. والثانية: ميكايل بإثبات ياء ساكنة بعد الهمزة، مثل: ميكايل، وهي لغة تميم وقيس، وكثير من أهل نجد، وبها قرأ ابن عامر، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم. والثالثة: ميكايل بهمزة مكسورة بعد الألف من غير ياء، مثل ميكايل، وبها قرأ نافع وابن شنبوذ وابن الصباح، جميعاً عن قتيل. والرابعة: ميكل، على وزن ميكل، وبها قرأ ابن محيضر. والخامسة: ميكاين بهمزة معها ياء ونون بعد الألف، ذكرها ابن الأنباري. قال الكسائي: جبريل وميكايل، اسمان لم تكن العرب تعرفهما، فلما جاءا عربتهما. قال ابن عباس: جبريل وميكايل، كقولك: عبد الله، وعبد الرحمن، ذهب إلى أن «إيل» اسم الله، واسم الملك «جبر» أو «ميكا». وقال عكرمة: معنى جبريل: عبد الله، ومعنى ميكايل: عبيد الله. وقد دخل جبريل وميكايل في الملائكة، لكنه أعاد ذكرهما لشرفهما، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا نَزَّلْنَا بِرَأْسِهِ الْقُرْآنَ وَالْجِبْرَئِيلَ الَّذِي كَفَّلْنَا لَهُ قَلْبَهُ﴾ [الرحمن: ٦٨]. وإنما قال: ﴿قَالَ اللَّهُ عِدُّواْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل: لهم، ليدل على أنهم كافرون بهذه العداوة.

﴿أَوْكَلْنَا عَلَيْهِمْ عَهْدًا نَبَدُّواْ فَرِيْقَ مِنْهُمْ بَلْ أَكْرَمُواْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٣٠] وَلَكِنَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَدُّواْ فَرِيْقَ مِّنَ الَّذِينَ أَوْكَلْنَا الْكُتُبَ كُتِبَ اللَّهُ رِزْقَهُمْ لَظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٣١] قوله تعالى: ﴿أَوْكَلْنَا عَلَيْهِمْ عَهْدًا﴾ الواو واو العطف، أدخلت عليها ألف الاستفهام. قال ابن عباس ومجاهد: والمشار إليهم اليهود. وقيل: العهد الذي عاهدوه، أنهم قالوا: والله لئن خرج محمد لنؤمننَّ به. وروي عن عطاء أنها العهد التي كانت بين رسول الله ﷺ وبينهم، ففرضوها، كفعل فريضة والنضير. ومعنى نبذه: رفضه. قوله تعالى: ﴿نَبَدُّواْ فَرِيْقَ مِّنَ الَّذِينَ أَوْكَلْنَا الْكُتُبَ﴾ يعني اليهود. والكتاب: التوراة. وفي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ اللَّهُ﴾ قولان: أحدهما: القرآن. والثاني: أنه التوراة، لأن الكافرين بمحمد ﷺ قد نبذوا التوراة.

﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيْطَانُ عَلَى مَلَكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَئِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُواْ بِمَلِكِ النَّاسِ النَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِأَيِّ لَهْرٍ وَرُوحٍ وَمَا يُبَلِّغُنَّ مِنْ أَمْرٍ حَتَّىٰ يَبْلُغُواْ إِنَّمَا نَحْنُ قِسْطٌ فَلَئِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ لَيَسْتَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفْرَقُونَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ وَالْجِنَّةِ وَمَا هُمْ بِمُعْزِزِينَ بِهِ مِنْ أَمْرٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَنَعْمَلُهُمْ مَا يَشُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرُّواْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [١٣٢]

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن اليهود كانوا لا يسألون النبي عن شيء من التوراة إلا أجابهم، فسألوه عن السحر وخاصموه به، فنزلت هذه الآية، قاله أبو العالية. والثاني: أنه لما ذكر سليمان في القرآن قالت يهود المدينة: ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبياً؟! والله ما كان إلا ساحراً، فنزلت هذه الآية. قاله ابن إسحاق. وتتلوه، بمعنى: تلت، و«على» بمعنى: «في» قاله المبرد. قال الزجاج: وقوله: ﴿عَلَىٰ مَثَلِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: على عهد ملك سليمان. وفي كيفية ما تلت الشياطين على ملك سليمان ستة أقوال: أحدها: أنه لما خرج سليمان عن ملكه؛ كتبت الشياطين السحر، ودفتته في مصلاه، فلما توفي استخرجوه، وقالوا: بهذا كان يملك الملك، ذكر هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس، وهو قول مقاتل. والثاني: أن آصف كان يكتب ما يأمر به سليمان، ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان، استخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكذباً، وأضافوه إلى سليمان، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثالث: أن الشياطين كتبت السحر بعد موت سليمان، ثم أضافته إليه، قاله عكرمة. والرابع: أن الشياطين ابتدعت السحر، فأخذه سليمان، فدفته تحت كرسيه لئلا يتعلمه الناس، فلما قبض استخرجته، فعلمته الناس وقالوا: هذا علم سليمان، قاله قتادة. والخامس: أن سليمان أخذ عهد الدواب، فكانت الدابة إذا أصابت إنساناً طلب إليها بذلك العهد، فتخلي عنه، فزاد السحرة السجع والسحر، قاله أبو مجلز. والسادس: أن الشياطين كانت في عهد سليمان تسترق السمع، فتسمع من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيث أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم، فتحدث الكهنة الناس، فيجدونه كما قالوا، حتى إذا أمتهم الكهنة كذبوا لهم [وآدخلوا فيه غيره]، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب، وفشا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس، فجمع تلك الكتب في صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق [وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه]، فلما مات سليمان؛ جاء شيطان إلى نفر من بني إسرائيل، فدلهم على تلك الكتب وقال: إنما كان سليمان يضبط أمر الخلق بهذا، ففشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، واتخذ بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها، هذا قول السدي. وسليمان: اسم عبراني، وقد تكلمت به العرب في الجاهلية، وقد جعله النابتة سليماً ضرورة، فقال:

ونسج سليم كل قضاة ذائل

واضطر الحطيئة فجعله: سلاماً، فقال:

فيه الرماح وفيه كل سابغة

جدلاً محكمة من نسج سلام

وأرادا جميعاً: داود أبا سليمان، فلم يستقم لهما الشعر، فجعلاه: سليمان وغيره. كذلك قرأته على شيخنا أبي منصور اللغوي. وفي قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ دليل على كفر الساحر، لأنهم نسبوا سليمان إلى السحر، لا إلى الكفر. قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم بتشديد نون (ولكن) ونصب نون (الشياطين). وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بتخفيف النون من (لكن) ورفع نون (الشياطين).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ وقرأ ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، والزهري (الملكين) بكسر اللام، وقرءة الجمهور أصح. وفي «ما» قولان: أحدهما: أنها معطوفة على السحر، فتقديره: يعلمون الناس السحر، ويعلمونهم ما أنزل على الملكين. فإن قيل: إذا كان السحر نزل على الملكين، فلماذا كرهه؟ فالجواب من وجهين، ذكرهما، ابن السري، أحدهما: أنهما كانا يعلمان الناس: ما السحر، ويأمران باجتنابه، وفي ذلك حكمة؛ لأن سائلاً لو قال: ما الزنى؟ لوجب أن يوقف عليه، ويعلم أنه حرام. والثاني: أنه من الجائز أن يكون الله تعالى امتحن الناس بالملكين، فمن قبل التعلم كان كافراً، ومن لم يقبله فهو مؤمن، كما امتحن بنهر طالوت^(١). وفي الذي أنزل على الملكين قولان:

(١) وقال القرطبي في «تفسيره»: «ما» نفي، والوار للمطف على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر،

فنفى الله ذلك، وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر بباب =

أحدهما: أنه السحر، روي عن ابن مسعود والحسن، وابن زيد. والثاني: أنه التفرقة بين المرء وزوجه، لا السحر، روي عن مجاهد وقتادة. وعن ابن عباس كالتولين. قال الزجاج: وهذا من باب السحر أيضاً.

الإشارة إلى قصة الملكين

ذكر العلماء أن الملكين إنما أنزلا إلى الأرض لسبب، وهو أنه لما كثرت خطايا بني آدم؛ دعت عليهم الملائكة، فقال الله تعالى: لو أنزلت الشهوة والشياطين منكم منزلتهما من بني آدم، لعلتم مثل ما فعلوا، فحدثوا أنفسهم أنهم إن ابتلوا، اعتصموا، فأوحى الله إليهم [أن] اختاروا من أفضلكم ملكين، فاختاروا هاروت وماروت. وهذا مروى عن ابن مسعود، وابن عباس. واختلف العلماء: ماذا فعلا من المعصية على ثلاثة أقوال: أحدها: أنهما زنيا، وقتلا، وشربا الخمر، قاله ابن عباس. والثاني: أنهما جازا في الحكم، قاله عبيد الله بن عتبة. والثالث: أنهما هتما بالمعصية فقط. ونقل عن علي عليه السلام أن الزهرة كانت امرأة جميلة، وأنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت، فراودها كل واحد منهما على نفسها، ولم يُعلم صاحبه، وكانا يصعدان السماء آخر النهار، فقالت لهما: بم تهبطان وتصعدان؟ قالتا: باسم الله الأعظم، فقالت: ما أنا بموايتكما إلى ما تريدان حتى تعلمانيه، فعلماهما إياه، فطارت إلى السماء، فمسخها الله كوكباً^(١). وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله: «لعن الزهرة، وقال: إنها فتنت ملكين»^(٢) إلا أن هذه الأشياء بعيدة عن الصحة^(٣)، وتأول بعضهم، هذا فقال: إنه لما رأى الكوكب، ذكر تلك المرأة، لا أن المرأة مسخت نجماً. واختلف

هاروت وماروت. فهاروت وماروت يدل من الشياطين في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ الْكَلْبِ كَنُوزًا يَلْمُوهَ آدَمَ ابْنَ آدَمَ﴾ هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى ما سواه. وقال القاسمي رحمه الله: اعلم أن للعلماء في هذه الآية وجوهاً كثيرة، وأقوالاً عديدة، فمنهم من ذهب فيها مذهب الإخباريين نقلة الغث والسمين، ومنهم من وقف مع ظاهرها البحث وتمحل لما اعترضه، بما المعنى الصحيح في غنى عنه. ومنهم من ادعى فيها التقديم والتأخير، ورد آخرها على أولها، بما جعلها أشبه بالأنغاز والمعميات، التي يتنزه عنها بيان أبلغ كلام. إلى غير ذلك مما يراه المتتبع لما كتب فيها. والذي ذهب إليه المحققون أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في بابل - وهي مدينة بالعراق على نهر الفرات - وكانا يعلمان الناس السحر. وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء، وما يعلمانه للناس هو يوحى من الله. وبلغ مكر هذين الرجلين، ومحافظتهما على اعتقاد الناس الحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما: إنما نحن فتنة فلا تكفر. أي: إنما نحن أولو فتنة، نلوك ونختبرك، أتشكر أم تكفر، ونصح لك أن لا تكفر، يقولان ذلك ليوهما الناس أن علومهما إلهية، وصناعتهما روحانية، وأنهما لا يقصدان إلا الخير. و«ما» هنا نافية على أصح الأقوال، ولفظ «الملكين» هنا وارد حسب العرف الجاري بين الناس في ذلك الوقت.

- (١) قال ابن كثير: غريب جداً.
- (٢) رواه أبو بكر بن مردويه، وابن راهويه عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لعن الله الزهرة فإنها هي التي فتنت الملكين هاروت وماروت». وقال ابن كثير في «تفسيره»: لا يصح، وهو منكر جداً.
- (٣) تنبيه: ما ورد من أن ابن عمر سمع النبي صلى الله عليه وآله يقول: «إن آدم لما أهبطه الله تعالى إلى الأرض، قالت الملائكة: أي رب، أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون. قالوا: ربنا نحن أطوع لك من بني آدم. قال الله تعالى للملائكة: هلموا ملكين من الملائكة، حتى يهبط بهما إلى الأرض، فننظر كيف يعملان. قالوا: ربنا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما، فسألتهما، فقالت: لا والله حتى تكلما بهذه الكلمة من الإشرار. فقالتا: والله لا نشرك بالله أبداً، فذهبت عنهما، ثم رجعت بصبي تحمله، فسألتهما نفسها، فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي. فقالتا: والله لا تقتله أبداً، فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله، فسألتهما نفسها فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر، فشربا فسكرا، فوقما عليها وقتلا الصبي، فلما أتاها، قالت المرأة: والله ما تركتما شيئاً مما أبتماه علي إلا قد فعلتما حين سكرتما، فخيروا بين عذاب الدنيا والآخرة، فاختارا عذاب الدنيا». فقد رواه أحمد في «المستند» وابن حبان، وهو حديث ضعيف جداً، ولم يصح أن رسول الله صلى الله عليه وآله حدث بهذا، ولعله من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار عن بني إسرائيل. وقد ذكر ابن كثير في التفسير أن الحكاية خرافة إسرائيلية. وقال في «التاريخ»: وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراودها عن نفسها فأبت... فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين، وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار، وتلقاه عنه طائفة من السلف، فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل. وكل هذا يرجح ما رجحه ابن كثير من أن الحديث من قصص كعب الأحبار الإسرائيلية، وأنه ليس مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وأن من رفعه فقد أخطأ ووهم. وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطباب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراه الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال. وقال القاضي عياض: وإن ما ذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت، وما روي عن علي وابن عباس عليهما السلام في خبرهما وابتلائهما، فاعلم - أكرمك الله - أن هذه الأخبار لم يرو منها سقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وليس هو شيئاً يؤخذ بقياس، والذي منه في القرآن اختلفت المفسرون في معناه، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف، وهذه الأخبار من كتب اليهود واقتراهم، كما نصه الله تعالى أول الآيات.

العلماء في كيفية عذابهما؛ فروي عن ابن مسعود أنهما معلقان بشعورهما إلى يوم القيامة، وقال مجاهد: إن جباً ملئ نارا فجعلا فيه. فأما بابل؛ فروي عن الخليل أن السن الناس تلبلت بها. واختلفوا في حدما على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الكوفة وسوادها، قاله ابن مسعود. والثاني: أنها من نصيبين إلى رأس العين، قاله قتادة. والثالث: أنها جبل في وهدة من الأرض، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنَّ مِنْفَةً﴾ أي: اختبار وابتلاء.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ يريد: بقضائه. ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾: إشارة إلى اليهود ﴿لَمَنِ اشْرَيْتَهُ﴾، يعني: اختاره، يريد: السحر. واللام لام اليمين. فأما الخلاق؛ فقال الزجاج: هو النصب الوافر من الخير.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ مَا سَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: باعوها به ﴿تَوَكَّلُوا بِمَكْرُومٍ﴾ العقاب فيه.

فصل

اختلف الفقهاء في حكم الساحر؛ فمذهب إمامنا أحمد عليه السلام يكفر بسحره، قتل به، أو لم يقتل، وهل تقبل توبته؟ على روايتين. وقال الشافعي: لا يكفر بسحره، فإن قتل بسحره، وقال: سحري يقتل مثله، وتعمدت ذلك، قتل قوداً. وإن قال: قد يقتل، وقد يخطئ، لم يقتل، وفيه الدية. فأما ساحر أهل الكتاب، فإنه لا يقتل عند أحمد إلا أن يضر بالمسلمين، فيقتل لنقض العهد، وسواء في ذلك الرجل والمرأة. وقال أبو حنيفة: حكم ساحر أهل الكتاب حكم ساحر المسلمين في إيجاب القتل، فأما المرأة الساحرة، فقال: تحبس، ولا تقتل.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَقْرَبُوا لِلثَّوْبَةِ مِن عِنْدِ اللَّهِ حَبْرٌ لَوْ كَانُوا يَسْمُوكَ ﴿١٠٣﴾ بِمَا بَيْنَ الْأَيْدِي ءَامِنُوا لَا تَقُولُوا رِعْسًا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمُوكَ وَالْعَصْبُ عَصَابُ الْبُرِّ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامِنُوا﴾ يعني: اليهود، والثوبية: الثواب. ﴿تَوَكَّلُوا بِمَكْرُومٍ﴾ قال الزجاج: أي: يعلمون بعلمهم.

قوله تعالى: ﴿بِمَا بَيْنَ الْأَيْدِي ءَامِنُوا لَا تَقُولُوا رِعْسًا﴾ قرأ الجمهور بلا تنوين، وقرأ الحسن، والأعمش، وابن محيصن بالتنوين، و«راعنا» بلا تنوين من راعيت، وبالتنوين من الرعونة، قال ابن قتيبة: راعناً بالتنوين: هو اسم مأخوذ من [الرعن] [الرعونة، أراد: لا تقولوا جهلاً ولا حمقاً. وقال غيره: كان الرجل إذا أراد استنصت صاحبه، قال: أرعني سمعك، فكان المنافقون يقولون: راعنا، يريدون: أنت أرعن. وقوله: (انظرننا) بمعنى: انتظرننا، وقال مجاهد: انظرننا: اسمع منا، وقال ابن زيد: لا تعجل علينا.

﴿مَا يَوْمَ الْأَيْدِي كَثُرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الشَّرِكِينَ أَن يُزِيلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَبْرٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا يَوْمَ الْأَيْدِي كَثُرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، قال ابن عباس: هم يهود المدينة، ونصارى نجران، فالمشركون مشركو أهل مكة. ﴿أَن يُزِيلَ عَلَيْكُم﴾ أي: على رسولكم. ﴿مِّنْ حَبْرٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ أراد: النبوة والإسلام. وقال أبو سليمان الدمشقي: أراد بالخير: العلم والفقه والحكمة. ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ في هذه الرحمة قولان: أحدهما: أنها النبوة، قاله علي بن أبي طالب، ومحمد بن علي بن الحسين، ومجاهد والزجاج. والثاني: أنها الإسلام، قاله ابن عباس ومقاتل.

﴿مَا نَسَخَ مِن ءَايَةٍ أَوْ نُنسَخْ بِهَا نُصُوحًا أَوْ يُشَاهِدُكُم أَنَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ ذُوِّبِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِن ءَايَةٍ﴾ سبب نزولها: أن اليهود قالت لما نسخت القبلة: إن محمداً يحل لأصحابه إذا شاء، ويحرم عليهم إذا شاء؛ فنزلت هذه الآية. قال الزجاج: النسخ في اللغة: إبطال شيء وإقامة آخر مقامه، تقول العرب: نسخت الشمس الظل: إذا أذهبته، وحلت محله، وفي المراد بهذا النسخ ثلاثة أقوال: أحدها: رفع اللفظ

والحكم. والثاني: تبديل الآية بغيرها، رويها عن ابن عباس، والأول قول السدي، والثاني: قول مقاتل.. والثالث: رفع اليحكم مع بقاء اللفظ، رواه مجاهد عن أصحاب ابن مسعود، وبه قال أبو العالية. وقرأ ابن عامر: (ما تُنسخ) بضم النون، وكسر السين. قال أبو علي: أي: ما نجده منسوخاً كقولك: أحمدت فلاناً، أي: وجدته محموداً، وإنما يجده منسوخاً بنسخه إياه^(١).

قوله تعالى: ﴿أَوْ تُنْبِئُهَا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (تنسأها) بفتح النون مع الهمزة، والمعنى: تؤخرها. قال أبو زيد: نسأت الإبل عن الحوض، فأنا أنسأها: إذا أخرتها، ومنه: النسيئة في البيع. وفي معنى تؤخرها ثلاثة أقوال: أحدها: تؤخرها عن النسخ فلا تنسخها، قاله الفراء. والثاني: تؤخر إنزالها، فلا تنزلها البتة. والثالث: تؤخرها عن العمل بها بنسخنا إياها، حكاها أبو علي الفارسي. وقرأ سعد بن أبي وقاص: (تنسها) بناء مفتوحة ونون. وقرأ سعيد بن المسيب والضحاك: (تُنسها) بضم التاء. وقرأ نافع: (أو ننسها) بنونين، الأولى مضمومة، والثانية ساكنة. أراد: أو تُنْبِئُهَا، من النسيان.

قوله تعالى: ﴿تَأْتِي بِخَبَرٍ مِّنْهَا﴾ قال ابن عباس: بالين منها، وأيسر على الناس.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْبِئُهَا﴾ أي: في الثواب والمنفعة، فتكون الحكمة في تبديلها بمثلها الاختيار. ﴿أَلَمْ تَقْتُلُوا﴾ لفظ الاستفهام، ومعناه التوقيف والتقرير. والملك في اللغة: تمام القدرة واستحكامها، والله ﷻ يحكم بما يشاء على عباده، ويغير ما يشاء من أحكام.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلْتُمْ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَكُن يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ قَلِيلًا ۖ سَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أن رافع بن حريملة، وهب بن زيد، قالوا لرسول الله: اثنا بكتاب نقرؤه تنزله من السماء علينا، وفجر لنا أنهاراً حتى نتبعك، فنزلت الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أن قريشاً سألت النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فقال: «هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل [إن كفرتم] فأبوا» قاله مجاهد. والثالث: أن رجلاً قال: يا رسول الله لو كانت كفاراتنا ككفارات بني إسرائيل، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا نبغيها، ما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل، كانوا إذا أصاب أحدهم الخطيئة؛ وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فإن كفرها كانت له خزياً في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزياً في الآخرة، فقد أعطاكم الله خيراً مما أعطى بني إسرائيل». فقال: ﴿وَمَنْ يَمَسَّ سَوءًا أَوْ يَطْلَمْ نَفْسًا نَّعَّرَ يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ يَجِدُ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]. وقال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن» فنزلت هذه الآية. قاله أبو العالية. والرابع: أن عبد الله ابن أبي أمية المخزومي أتى النبي ﷺ في رهط من قريش، فقال: يا محمداً والله لا أؤمن بك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، فنزلت هذه الآية. ذكره ابن السائب. والخامس: أن جماعة من المشركين جاؤوا إلى النبي ﷺ فقال بعضهم: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً. وقال آخر: لن أؤمن لك حتى تسير لنا جبال مكة، وقال عبد الله ابن أبي أمية: لن أؤمن لك حتى تأتي بكتاب من السماء، فيه: من الله رب العالمين إلى ابن أبي أمية: اعلم أنني قد أرسلت محمداً إلى الناس. وقال آخر: هلا جئت بكتابك مجتمعاً، كما جاء موسى بالنوراة. فنزلت هذه الآية. ذكره محمد بن القاسم الأنباري. وفي المخاطبين بهذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قريش، قاله ابن عباس ومجاهد. والثاني: اليهود، قاله مقاتل. والثالث: جميع العرب، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي «أم» قولان: أحدهما: أنها بمعنى: بل، تقول العرب: هل لك عليّ حق، أم أنت معروف بالظلم. يريدون: بل أنت. وأنشدوا:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى وصورتها أم أنت في العين أم ملح

ذكره الفراء والزجاج. والثاني: بمعنى الاستفهام. فإن اعترض معترض، فقال: إنما تكون للاستفهام إذا كانت

(١) نص كلام أبي علي في القرطبي: قال أبو علي: ليست لغة، لأنه لا يقال: نسخ وأنسخ بمعنى، إلا أن يكون المعنى: ما نجده منسوخاً، كما تقول: أحمدت الرجل وأبختك بمعنى: وجدته محموداً وبخلاً. قال أبو علي: وليس نجده منسوخاً إلا بأن ننسخه، فتفتق القراءتان في المعنى وإن اختلفتا في اللفظ.

مردودة على استفهام قبلها، فأين الاستفهام الذي تقدمها؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه قد تقدمها استفهام، وهو قوله: ﴿أَلَمْ تَلْمَ أَنْ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ذكره الفراء. وكذلك قال ابن الأنباري: هي مردودة على الألف في: ﴿أَلَمْ تَلْمَ﴾ فإن اعترض على هذا الجواب، فقيل: كيف يصح العطف ولفظ: ﴿أَلَمْ تَلْمَ﴾ ينبت عن الواحد، (وتريدون) عن جماعة؟ فالجواب: أنه إنما رجع الخطاب من التوحيد إلى الجمع، لأن ما خوطب به النبي ﷺ فقد خوطبت به أمته، فاكتمى به من أمته في المخاطبة الأولى، ثم أظهر المعنى في المخاطبة الثانية. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]. ذكر هذا الجواب ابن الأنباري. فأما الجواب الثاني عن (أم)؛ فهو أنها للاستفهام، وليست مردودة على شيء. قال الفراء: إذا توسط الاستفهام الكلام؛ ابتدىء بالألف ويأم، وإذا لم يسبقه كلام؛ لم يكن إلا بالألف أو «هل». وقال ابن الأنباري: «أم» جارية مجرى «هل»، غير أن الفرق بينهما: أن «هل» استفهام مبتدأ، لا يتوسط ولا يتأخر، و«أم»: استفهام متوسط، لا يكون إلا بعد كلام. فأما الرسول هاهنا؛ فهو: محمد ﷺ، والذي سئل موسى من قبل قولهم: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَهُنَّ﴾ [النساء: ١٥٣]. وهل سألوا ذلك نبياً أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنهم سألوا ذلك، فقالوا: ﴿كُنْ نُوْمَنَ لَكَ حَسْبٌ... تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ مِيمَلًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢]. قاله ابن عباس. والثاني: أنهم بالنوا في المسائل، فقيل لهم بهذه الآية: لعلمكم تريدون أن تسألوا محمداً أن يريكم الله جهرة، قاله أبو سليمان الدمشقي. والكفر: الجحود. والإيمان: التصديق. وقال أبو العالية: المعنى: ومن يتبدل الشدة بالرخاء. وسواء السيل: وسطه.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَدَمِ إِيمَانِكُمْ كَمَا كَانَ بَدَمٌ مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَدَمِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَرُوا وَاسْتَحْوَا حَسْبُ يَأْتِي اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن حبي بن أخطب، وأبا ياسر كانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أن كعب بن الأشرف كان يهجو النبي، ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون رسول الله حين قدمها، فأمر النبي بالصفح عنهم، فنزلت هذه الآية، قاله عبد الله بن كعب بن مالك. والثالث: أن نفرأ من اليهود دعوا حذيفة وعماراً إلى دينهم، فأبى، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. ومعنى «ودد»: أحب وتمنى. وأهل الكتاب: اليهود. قال الزجاج: ﴿مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾ موصول: (ب)ود كثير)، لا بقوله: (حسداً) لأن حسد الإنسان لا يكون إلا من عند نفسه. والمعنى: مودتهم لكفركم من عند أنفسهم، لا أنه عندهم الحق. فأما الحسد، فهو تمنى زوال النعمة عن المحسود، وإن لم يصر للحاسد مثلها، وتفارق الغبطة، فإنها تمنى مثلها من غير حب زوالها عن المغبوط. وحد بعضهم الحسد فقال: هو أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأختار، ولا يجوز أن يكون الفاضل حسوداً، لأن الفاضل يجري على ما هو الجميل. وقال بعض الحكماء: كل أحد يمكن أن ترضيه إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتك. وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد، حزن لازم، ونفس دائم، وعقل هائم، وحسرة لا تنقضي.

قوله تعالى: ﴿حَسْبُ يَأْتِي اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ قال ابن عباس: فجاء الله بأمره في النصير بالجلء والنفي، وفي قريظة بالقتل والسبي.

فصل

وقد روي عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي العالية، وقنادة ؓ: أن العفو والصفح منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَقِيلُوا لَا بِيَأْتِيكُمُ اللَّهُ وَلَا يَأْتِيكُمُ الْآخِرُ وَلَا يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مَا حَزَمَ اللَّهُ رَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٢٩] وأبى هذا القول جماعة من المفسرين والفقهاء، واحتجوا بأن الله لم يأمر بالصفح والعفو مطلقاً، وإنما أمر به إلى غاية، وما بعد الغاية يخالف حكم ما قبلها، وما هذا سبيله لا يكون من باب المنسوخ، بل يكون الأول قد انقضت مدته بغايته، والآخر يحتاج إلى حكم آخر.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقْرَأُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾
قوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ﴾ أي: تجدوا ثوابه.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا يَلِكَ آمَانِيَتُهُمْ قُلْ هَاؤُنَا بُرْهَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَانِيَّةُ عَلَيْهَا لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكَيْدَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا﴾ قال ابن عباس: اختصم يهود المدينة ونصارى نجران عند النبي ﷺ فقالت اليهود: ليست النصارى على شيء، ولا يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وكفروا بالإنجيل وعيسى. وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء، وكفروا بالتوراة وموسى؛ فقال الله تعالى: ﴿يَلِكَ آمَانِيَتُهُمْ﴾. واعلم أن الكلام في هذه الآية مجمل، ومعناه: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً. واليهود، جمع: هاند. ﴿يَلِكَ آمَانِيَتُهُمْ﴾ أي: ذاك شيء يتمنونه، وظن يظنون، هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد. ﴿قُلْ هَاؤُنَا بُرْهَانُكُمْ﴾ أي: حجتكم إن كنتم صادقين بأن الجنة لا يدخلها إلى من كان هوداً أو نصارى. ثم بين تعالى بأنه ليس كما زعموا فقال: ﴿بَلْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ وأسلم، بمعنى: أخلص. وفي الوجه قولان: أحدهما: أنه الدين. والثاني: العمل.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله؛ ﴿فَلَهُ أَجْرٌ﴾ قال الزجاج: يريد: فهو يدخل الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكَيْدَ﴾ أي: كل منهم يتلو كتابه بتصديق ما كفر به، قاله السدي، وقادة. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم مشركو العرب قالوا لمحمد وأصحابه: لستم على شيء، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: أنهم أمم كانوا قبل اليهود والنصارى، كقوم نوح، وهود، وصالح، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ قال الزجاج: يريد حكم الفصل بينهم، فيريهم من يدخل الجنة عياناً [ومن يدخل النار عياناً] فاما الحكم بينهم في العقد فقد بينه لهم في الدنيا بما أقام على الصواب من الحجج.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في الروم، كانوا ظاهروا بختصر على خراب بيت المقدس من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا، فخرّب وطرح الحيف فيه، قاله ابن عباس في آخرين. والثاني: أنها في المشركين الذين حالوا بين رسول الله وبين مكة يوم الحديبية، قاله ابن زيد. وفي المراد بخرابها قولان: أحدهما: أنه نقضها، والثاني: منع ذكر الله فيها.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه إخبار عن أحوالهم بعد ذلك. قال السدي: لا يدخل رومي بيت المقدس إلا وهو خائف أن يضرب عنقه، أو قد أخيف بأداء الجزية. والثاني: أنه خبر في معنى الأمر، تقديره: عليكم بالجد في جهادهم كي لا يدخلها أحد إلا وهو خائف. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن خزيهم الجزية، قاله ابن عباس. والثاني: أنه فتح القسطنطينية، قاله السدي. والثالث: أنه طردهم عن المسجد الحرام، فلا يدخله مشرك أبداً ظاهراً، قاله ابن زيد.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتُونَ قَسَمَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَالِمٌ ﴿١١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتُونَ قَسَمَ رَبِّهِمْ﴾ في نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن الصحابة كانوا مع رسول الله في غزوة في ليلة مظلمة، فلم يعرفوا القبلة، فجعل كل واحد منهم مسجداً بين يديه وصلى، فلما أصبحوا إذا هم على غير القبلة، فذكروا ذلك لرسول الله، فأنزل الله تعالى هذه الآية. رواه عامر بن ربيعة. والثاني: أنها نزلت في التطوع بالنافلة، قاله ابن عمر. والثالث: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِغَيْرِهِمْ﴾ [غانر: ٦٠]. قالوا: إلى أين: فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد. والرابع: أنه لما مات النجاشي، وأمرهم النبي ﷺ بالصلاة عليه؛ قالوا: إنه كان لا يصلي إلى القبلة؛ فنزلت هذه الآية، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ وَجَّهَ اللَّهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: فثم الله، يريد: علمه معكم أين كنتم، وهو قول ابن عباس، ومقاتل. والثاني: فثم قبلة الله، قاله عكرمة، ومجاهد. والواسع: الذي وسع غناه مفاقر عباده، ورزقه جميع خلقه. والسعة في كلام العرب: الغنى.

فصل

وهذه الآية مستعملة الحكم في المجتهد إذا صلى إلى غير القبلة، وفي صلاة المتطوع على الراحلة، والخائف. وقد ذهب قوم إلى نسخها، فقالوا: إنها لما نزلت؛ توجه رسول الله إلى بيت المقدس، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَيَسِّرُ مَا كُنتُمْ قَوْلُوا وَيُوجِّهَكُمْ سُبُلَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٤]. وهذا مروى عن ابن عباس. قال شيخنا علي بن عبيد الله: وليس في القرآن أمر خاص بالصلاة إلى بيت المقدس، وقوله: ﴿فَأَيِّنَّا قَوْلُوا فَمَنْ وَجَّهَ اللَّهُ﴾ ليس صريحاً بالأمر بالتوجه إلى بيت المقدس، بل فيه ما يدل على أن الجهات كلها سواء في جواز التوجه إليها، فإذا ثبت هذا؛ دل على أنه وجب التوجه إلى بيت المقدس بالسنة، ثم نسخ بالقرآن.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ لَمْ يَأْتِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لِهٖ قٰنِیْنٌ ﴿١١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في اليهود إذ جعلوا عزيزاً ابن الله، قاله ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في نصارى نجران حيث قالوا: عيسى ابن الله، قاله مقاتل. والثالث: أنها في النصارى ومشركي العرب، لأن النصارى قالت: عيسى ابن الله، والمشركين قالوا: الملائكة بنات الله، ذكره إبراهيم بن السري. والرابع: أنها في اليهود والنصارى ومشركي العرب، ذكره الثعلبي. فأما القنوت؛ فقال الزجاج: هو في اللغة بمعنيين: أحدهما: القيام. والثاني: الطاعة. والمشهور في اللغة والاستعمال أن القنوت: الدعاء في القيام، فالقنات: القائم بأمر الله. ويجوز أن يقع في جميع الطاعات، لأنه إن لم يكن قيام على الرجلين؛ فهو قيام بالنية. وقال ابن قتيبة: لا أرى أصل القنوت إلا الطاعة، لأن جميع الخلال من الصلاة، والقيام فيها والدعاء وغير ذلك يكون عنها. وللمفسرين في المراد بالقنوت هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الطاعة، قاله ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنه الإقرار بالعبادة، قاله عكرمة، والسدي. والثالث: القيام، قاله الحسن، والربيع. وفي معنى القيام قولان: أحدهما: أنه القيام له بالشهادة بالعبودية. والثاني: أنه القيام بين يديه يوم القيامة. فإن قيل: كيف عمَّ بهذا القول وكثير من الخلق ليس له بمطيع؟ فمعه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن يكون ظاهرها ظاهر العموم، ومعناها معنى الخصوص. والمعنى: كل أهل الطاعة له قانتون. والثاني: أن الكفار تسجد ظلالمهم لله بالغدوات والعشيات، فنسب القنوت إليهم بذلك. والثالث: أن كل مخلوق قانت له بأثر صنعه فيه، وجري أحكامه عليه، فذلك دليل على ذل للرب. ذكرهن ابن الأنباري.

﴿يٰۤاَيُّهَا السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَعْتُمْ أَمْرًا فَاِنَّمَا يَقُوْلُ لَهٗ كُنْ فَيَكُوْنُ ﴿١١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يٰۤاَيُّهَا السَّمٰوٰتِ﴾ البديع: المبدع، وكل من أنشأ شيئاً لم يسبق إليه قيل له: أبدعت. قال الخطابي: البديع، فعيل بمعنى: مفعول، ومعناه: أنه فطر الخلق مخترعاً له لا على مثال سبق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَعْتُمْ أَمْرًا﴾ قال ابن عباس: معنى القضاء: الإرادة. وقال مقاتل: إذا قضى أمراً في علمه، فإنما يقول له: كن فيكون. والجمهور على ضم نون (فيكون)، بالرفع على القطع. والمعنى: فهو يكون. وقرأ ابن عامر بنصب النون. قال مكي ابن أبي طالب: النصب على الجواب، لكن فيه بعد.

فصل

وقد استدلل أصحابنا على قدم القرآن بقوله: ﴿كُنْ﴾ فقالوا: لو كانت «كن» مخلوقة؛ لانفترت إلى إيجادها بمثلها وتسلسل ذلك، والمتسلسل محال. فإن قيل: هذا خطاب لمعدوم؛ فالجواب أنه خطاب تكوين يُظهر أثر القدرة، ويستحيل أن يكون المخاطب موجوداً، لأنه بالخطاب كان، فامتنع وجوده قبله أو معه. ويحقق هذا أن ما سيكون متصور للعلم، فضاهاى بذلك الموجود، فجاز خطابه لذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَلْمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ تَشْبَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَلْمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس والثاني: النصارى، قاله مجاهد. والثالث: مشركو العرب، قاله قتادة، والسدي عن أشياخه. و(لولا) بمعنى: هلا. وفي ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: اليهود والنصارى، قاله السدي عن أشياخه. والثالث: اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار، قاله قتادة. ﴿تَشْبَهتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: في الكفر.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْتَلَّ عَنْ أَحْسَبِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾
قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾: في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ قال يوماً: «ليت شعري ما فعل أبواي!»؛ فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). والثاني: أن النبي ﷺ قال: «لو أنزل الله بأسمه باليهود لأمنوا» فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. وفي المراد (بالحق) هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن. قاله ابن عباس. والثاني: الإسلام. قاله ابن كيسان. والثالث: الصدق.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْتَلَّ عَنْ﴾: الأكثرون بضم التاء، على الخبر، والمعنى: لست بمسؤول عن أعمالهم. وقر نافع ويعقوب، بفتح التاء وسكون اللام، على النهي عن السؤال عنهم. وجوز أبو الحسن الأخفش أن يكون معنى هذا القراءة: لا تسأل عنهم فإنهم في أمر عظيم. فيكون ذلك على وجه التعظيم لما هم فيه. فأما الجحيم؛ فقال الفراء الجحيم: النار، والجحمر على الجحمر. وقال أبو عبيدة: الجحيم: النار المستحكمة المتلطفة. وقال الزجاج: الجحيم النار الشديدة الوقود، وقد جحم فلان النار: إذا شدد وقودها، ويقال لعين الأسد: جحمة لشدة توقدها. ويقال لوقود الحرب، وهو شدة القتال فيها: جاحم. وقال ابن فارس: الجاحم: المكان الشديد الحر. قال الأعشى:

يُعدون للهيحاء قبل لقائها
غداة احتضار البأس والموت جاحم
ولذلك سميت الجحيم. وقال ابن الأنباري: قال أحمد بن عبيد: إنما سميت النار جحيماً، لأنها أكثر وقودها. من قول العرب: جحمت النار أجمحها: إذا أكثر لها الوقود. قال عمران بن حطان:

يرى طاعة الله الهدى وخلافه
﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَانَىٰ سَخَّ تَنَجَّ بِمَلْئِهِمْ قُلْ إِنَّكَ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْمُدَيَّبُ وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَدَأَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْبُلْغَاءِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَانَىٰ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي ﷺ إلى قبلتهم، فلما صرف إلى الكعبة يشقوا منه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم دعوه إلى دينهم، فنزلت، قاله مقاتل. والثالث: أنهم كانوا يسألونه الهدنة، ويطمعونه في أنه إذا هادنهم وافقوه؛ فنزلت، ذكر معناه الزجاج. قال الزجاج: والملة في اللغة: السنة والطريقة. قال ابن عباس: (وهدى الله) هاهنا: الإسلام. وفي الذي جاءه من العلم أربعة أقوال: أحدها: أنه التحول إلى الكعبة، قاله ابن عباس. والثاني: أنه البيان بأن دين الله الإسلام. والثالث: أنه القرآن. والرابع: العلم بضلالة القوم. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعك من عقوبته.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُنزِلَتْ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنْ نَارٍ سَمِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾
﴿وَلَا تَجْرَىٰ عَنْكَ النَّفْسُ النَّفْسِ وَلَا يُجْرَىٰ عَلَيْهَا إِلَّا جَسَدٌ لَكُمْ فِيهَا رِئاسَةٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٢﴾﴾
قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها نزلت في الذين آمنوا

(١) رواه ابن جرير في التفسير من طريق موسى بن عبيدة الرديني، وهو ضعيف جداً.

من اليهود، قاله ابن عباس. والثاني: في المؤمنين من أصحاب النبي ﷺ، قاله عكرمة، وقاتدة. وفي الكتاب قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله قاتدة. والثاني: أنه التوراة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿يَلْوِزُّوْهُ حَقَّ يَلَاوِزِهِ﴾ أي: يعملون به حق عمله، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ في هاء «به» قولان: أحدهما: أنها تعود على الكتاب. والثاني: على النبي محمد ﷺ، وما بعد هذا قد سبق بيانه إلى قوله: ﴿وَإِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ وَالْإِنجِيلَ﴾ والاختيار: وفي إبراهيم ست صفات: أحدها: إبراهيم، وهي اللغة الفاشية. والثانية: إبراهيم. والثالثة: إبراهيم. والرابعة: إبراهيم، ذكرهن الفراء. والخامسة: إبراهيم. والسادسة: إبراهيم. قال عبد المطلب:

عذت بما عاذ به إبراهيم
مستقبل الكعبة وهو قائم
وقال أيضاً:

نحن آل الله في كعبته
لم يزل ذاك على عهد إبراهيم

وفي الكلمات خمسة أقوال: أحدها: أنها خمس في الرأس، وخمس في الجسد. أما التي في الرأس؛ فالفرق، والمضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك. وفي الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، ونتف الإبط، والاستطابة بالماء، والختان، رواه طاووس عن ابن عباس. والثاني: أنها عشر، ست في الإنسان، وأربع في المشاعر. والثالث: حلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وقص الشارب، والسواك، والغسل من الجنابة، والغسل يوم الجمعة. والرابع: التي في المشاعر: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة. رواه حنبل بن عبد الله عن ابن عباس. والثالث: أنها المناسك، رواه قاتدة عن ابن عباس. والرابع: أنه ابتلاه بالكوكب، والشمس، والقمر، والهجرة، والنار، وذبح ولده والختان، قاله الحسن. والخامس: أنها كل مسألة في القرآن، مثل قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْكَلِمَةَ كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٣٥]. ونحو ذلك، قاله مقاتل. فمن قال: هي أفعال فعلها؛ قال: معنى فأتهمن: عمل بهن. ومن قال: هي دعوات ومسائل؛ قال: معنى فأتهمن: أجابه الله إليهن. وقد روي عن أبي حنيفة أنه نزل: (إبراهيم) برفع الميم (رَبِّهِ) ينصب الباء (١)، على معنى: اختبر ربه هل يستجيب دعاءه، ويتخذة خليلاً أم لا؟.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتِي﴾ في الذرية قولان: أحدهما: أنها فعلية من الذر، لأن الله أخرج الخلق من صلب آدم كالذر. والثاني: أن أصلها ذرورة، على وزن: فعلولة، ولكن لما كثر التضعيف أبدل من الراء الأخيرة ياء، فصارت: ذرورية، ثم أدغمت الواو في الياء، فصارت: ذرية، ذكرهما الزجاج، وصوب الأول. وفي العهد هاهنا سبعة أقوال: أحدها: أنه الإمامة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير. والثاني: أنه الطاعة، رواه لضحاك عن ابن عباس. والثالث: الرحمة، قاله عطاء وعكرمة. والرابع: الدين، قاله أبو العالية. والخامس: النبوة، قاله السدي عن أشياخه. والسادس: الأمان، قاله أبو عبيدة. والسابع: الميثاق، قاله ابن قتيبة. والأول أصح. وفي المراد بالظالمين هاهنا قولان: أحدهما: أنهم الكفار، قاله ابن جبير، والسدي. والثاني: العصاة، قاله عطاء.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْآيَةَ لِقَائِ اللَّهِ رَبِّنَا وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢١] وعهدتاً إلى إبراهيم مُصَلِّاً وَعَهْدتاً إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَاسْتَمِعِينَ أَنْ نَقُولَ لِيكَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ لِلطَّالِبِينَ وَالْمَكِينِينَ وَأَرْسَلْنَا الشُّجُرَ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْآيَةَ لِقَائِ اللَّهِ رَبِّنَا﴾ البيت هاهنا: الكعبة، والألف واللام تدخل للمعهود، أو للجنس، فلما علم المخاطبون أنه لم يرد الجنس؛ انصرف إلى المعهود، قال الزجاج: والمثاب والمثابة واحد، كالمقام والمقامة، قال ابن قتيبة: والمثابة: المعاد، من قولك: ثبت إلى كذا، أي: عدت إليه، وثاب إليه جسمه بعد العلة: إذا عاد، فأراد: أن الناس يعودون إليه مرة بعد مرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد أن من أحدث حدثاً في غيره، ثم لجأ إليه؛ فهو آمن، ولكن ينبغي

(١) سبق أن أشرنا إلى عدم صحة نسبة هذه القراءة وأمثالها إلى أبي حنيفة أحد أئمة المذاهب الأربعة رحمه الله.

لأهل مكة أن لا يبايعوه، ولا يطعموه، ولا يسقوه، ولا يؤووه، ولا يكلم حتى يخرج، فإذا خرج؛ أقيم عليه الحد. قال القاضي أبو يعلى: وصف البيت بالأمن، والمراد جميع الحرم، كما قال: ﴿هَذَا بَلَدٌ بَلِغٌ الْكَمْبُوتِ﴾ [المائدة: ٩٥] والمراد: الحرم كله لأنه لا يذبح في الكعبة، ولا في المسجد الحرام، وهذا على طريق الحكم، لا على وجه الخبر فقط. وفي ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحرم كله، قاله ابن عباس. والثاني: عرفة والمزدلفة والجمار، قاله عطاء. وعن مجاهد كالقولين. وقد روي عن ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، قالوا: الحج كله مقام إبراهيم. والثالث: الحجر، قاله سعيد بن جبير، وهو الأصح. قال عمر بن الخطاب: قلت: يا رسول الله! لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت. وفي سبب وقوف إبراهيم على الحجر قولان: أحدهما: أنه جاء يطلب ابنه إسماعيل، فلم يجده، فقالت له زوجته: انزل، فأبى، فقالت: فدعني أغسل رأسك، فأنته بحجر فوضع رجله عليه، وهو راكب، فغسلت شقه، ثم رفعته وقد غابت رجله فيه، فوضعت تحت الشق الآخر وغسلته، فغابت رجله فيه، فجعله الله من شعاره، ذكره السدي عن ابن مسعود وابن عباس. والثاني: أنه قام على الحجر لبناء البيت، وإسماعيل يناوله الحجارة، قاله سعيد بن جبير. قرأ الجمهور، منهم: ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة والكسائي: (وَأَتَّخِذُوا) بكسر الخاء؛ على الأمر. وقرأ نافع، وابن عامر بفتح الخاء على الخبر. قال ابن زيد: قال النبي ﷺ «أين ترون أن نصلي؟» فقال عمر: إلى المقام، فنزلت: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(١). وقال أبو علي: وجه فتح الخاء: أنه معطوف على ما أضيف إليه، كأنه قال: وإذا اتخذوا. ويؤكد الفتح في الخاء أن الذي بعده خير، وهو قوله: وعهدنا. قوله تعالى: ﴿وَرَعَىٰ نَدَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أمرناهما وأوصيناهما. وإسماعيل: اسم أعجمي، وفيه لغتان: إسماعيل، و: اسماعين. وأنشدوا:

قال جوارى الحي لما جينا هذا ورب البيت إسماعينا

قوله تعالى: ﴿إِنْ طَهَّرْنَا بَيْتَ﴾ قال قتادة: يريد من عبادة الأوثان والشرك، وقول الزور. فإن قيل: لم يكن هناك بيت؛ فما معنى أمرهما بتطهيره؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه كانت هناك أصنام، فأمرها بإخراجها، قاله عكرمة. والثاني: أن معناه: إنباه مطهراً، قاله السدي. والعاكفون: المقيمون، يقال: عكف يعكف ويعكف عكوفاً: إذا أقام، ومنه الاعتكاف. وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ينزل في كل ليلة ويوم، عشرين ومائة رحمة ينزل على هذا البيت: ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين»^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا وَارْتُفِعْ لَهُ أَهْلَهُ مِنْ أَكْثَرِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَبَنِيَّ أَجْعَلْنِي قَبْلاً ذُوًّا شَرَفًا وَإِنَّ رِجْلَكُمْ مِنَ الْيَوْمِ عَلَى الْوَادِيَةِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا﴾ البلد: صدر القرى، والبالد: المقيم بالبلد، والبلدة: الصدر ووضعت الناقة ببلدتها: إذا بركت، والمراد بالبلد هاهنا: مكة. ومعنى (آيأتاً): ذا أمن. وأمن البلدة مجاز، والمراد أمن من فيه. وفي المراد بهذا الأمن ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سأل الله الأمن من القتل. والثاني: من الخسف والقذف والثالث: من القحط والجذب. قال مجاهد: قال إبراهيم: لمن آمن، فقال الله ﷻ: ومن كفر فسأزقه.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَيْتُهُمْ﴾ وقرأ ابن عامر: (فَأَمْتَعْتُهُم) بالتخفيف، من أمتعت. وقرأ الباقون بالتشديد من: مَتَّعْتُ والإمتاع: إعطاء ما تحصل به المتعة. والمتعة: أخذ الحظ من لذة ما يشتهي. وبماذا يمتعه؟ فيه قولان: أحدهما بالأمن. والثاني: بالرزق. والاضطرار: الإلجاء إلى الشيء، والمصير: ما ينتهي إليه الأمر.

﴿وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَبِوَدِّكَ دُرِّيَّتًا إِنَّهُ سُلَيْمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَا رَبَّنَا عَلَيْنَا مَا آتَيْتَنَا بِكَ وَكُنَّا لَكَ آخِثِينَ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ رَبَّنَا وَابْنِثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَنُفِثْهُمْ إِلَىٰ الْحَيْبَةِ وَرَكَّبْنَاهُمْ نَجْمَ الْجُذَيْفَةِ﴾

(١) رواه أحمد والبخاري، ولفظ أحمد عن عمر: وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» والحاكم في «الكنز» والخطيب في «التاريخ» والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» في يوسف بن السفر، وهو متروك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ القواعد: أساس البيت، واحدها: قاعدة. فأما قواعد لنساء؛ فواحدتها: قاعدة، وهي العجوز. ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا﴾ أي: يقولان: ربنا، فحذف ذلك، كقوله: ﴿وَاللَّيْلَةَ يَدْخُلُونَ ظُهُورَهُمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٥]. أراد: يقولون. (والسميع) بمعنى: السامع، لكنه أبلغ، لأن بناء فعيل للمبالغة. نال الخطابي: ويكون السماع بمعنى القبول والإجابة، كقول النبي ﷺ: «أعوذ بك من دعاء لا يسمع»^(١) أي: لا يستجاب. وقول المصلي: سمع الله لمن حمده، أي: قبل الله حمد من حمده. وأنشدوا:

دعوت الله حتى خفت أن لا يكون الله يسمع ما أقول

الإشارة إلى بناء البيت

روى أنس عن النبي ﷺ قال: كانت الملائكة تحج إلى البيت قبل آدم. وقال ابن عباس: لما أهبط آدم؛ قال الله تعالى: يا آدم! اذهب فابن لي بيتاً فطف به، واذكرني حوله كما رأيت ملائكتي تصنع حول عرشي. فأقبل يسعى حتى انتهى إلى البيت الحرام، وبناء من خمسة أجبل: من لبنان، وطور سيناء، وطور زيتا، والجودي، وحراء، فكان آدم أول من أسس البيت، وطاف به، ولم يزل كذلك حتى بعث الله الطوفان، فدرس موضع البيت، فبعث الله إبراهيم لإسماعيل. وقال علي ابن أبي طالب ﷺ: لما أمر الله تعالى إبراهيم ببناء البيت؛ ضاق به ذرعاً، ولم يدر كيف صنع، فأنزل الله عليه كهيئة السحابة، فيها رأس يتكلم، فقال: يا إبراهيم! علم على ظلي، فلما علم ارتفعت. وفي رواية أنه كان يبني عليها كل يوم، قال: وحفر إبراهيم من تحت السكينة، فأبدى عن قواعد، ما تحرك القاعدة منها دون ثلاثين رجلاً. فلما بلغ موضع الحجر، قال لإسماعيل: التمس لي حجراً، فذهب يطلب حجراً، فجاء جبريل بالحجر الأسود، فوضعه، فلما جاء إسماعيل، قال: من جاءك بهذا الحجر؟ قال: جاء به من لم يتكل على بنائي وبنائك. وقال ابن عباس، وابن المسيب، وأبو العالية: رفعا القواعد التي كانت قواعد قبل ذلك. وقال السدي: لما أمره الله ببناء البيت؛ لم يدر أين يبني، فبعث الله له ريحاً، فكنست حول الكعبة عن الأساس الأول الذي كان البيت عليه قبل الطوفان.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ قال الزجاج: المسلم في اللغة: الذي قد استسلم لأمر الله، وخضع. المناسك: المتعبادات. فكل متعبد منك ومنيك، ومنه قيل للعابد: ناسك. وتسمى الذبيحة المتقرب بها إلى الله ﷻ: نسكية. وكان الأصل في النسك إنما هو من الذبيحة لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْنَا مَنَازِكَنَا﴾ أي: مذابحنا. قاله مجاهد. وقال غيره: هي جميع أفعال الحج. وقرأ ابن كثير: (وَأَرْنَا) بجزم الراء. ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ﴿وَأَرْنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ [فصلت: ٢٩]. وقرأ نافع، وحمرزة، والكسائي (أَرْنَا) بكسر الراء في جميع ذلك. وقرأ أبو بكر عن عاصم وابن عامر كذلك، إلا أنهما أسكنا الراء من (أَرْنَا اللذين) حددها. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: (أَرْنَا) وكثير من العرب يجزم الراء، فيقول: (أَرْنَا مناسكنا) وقرأ بها بعض لقطات. وأنشد بعضهم:

قالت سليمة اشتر لنا دقيقا
واشتر فعجل خادماً لبيقا

ومن يتق فإن الله معه
ورزق الله مؤتباب وغادي

قال قتادة: أراهما الله مناسكهما: الموقف بعرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار، والطواف، والسعي. قال أبو مجلز: لما فرغ إبراهيم من البيت أتاه جبريل، فأراه الطواف، ثم أتى به جمره العقبة، فعرض له الشيطان، أخذ جبريل سبع حصيات، وأعطى إبراهيم سبعاً، وقال له: ارم وكبر، فرمياً وكبراً مع كل رمية حتى غاب الشيطان. ثم أتى به جمره الوسطى، فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات، وأعطى إبراهيم سبع حصيات، فقال: ارم

(١) رواه مسلم عن زيد بن أرقم بلفظ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشيع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

وكبير، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى غاب الشيطان. ثم أتى به الجمرة القصوى، فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات، وأعطى إبراهيم سبع حصيات. فقال له: ارم وكبر، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى غاب الشيطان، ثم أتى به منى، فقال: هاهنا يخلق الناس رؤوسهم، ثم أتى به جمعاً، فقال: هاهنا يجمع الناس، ثم أتى به عرفة، فقال: أعرفت؟ قال: نعم. قال: فمن ثم سميت عرفات.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَنْتَ فِيهِمْ رُسُولًا يُنَبِّئُهُمْ﴾ في الهاء والميم من (فيهم) قولان: أحدهما: أنها تعود على الذرية. قاله مقاتل والفراء. والثاني: على أهل مكة في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا أَهْلَهُ﴾ والمراد بالرسول: محمد ﷺ. وقد روى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قيل: يا رسول الله! ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»^(١). والكتاب: القرآن. والحكمة: السنة، قاله ابن عباس. وروي عنه: الحكمة: الفقهاء والحلال والحرام، ومواظب القرآن. وسميت الحكمة حكمة، لأنها تمنع من الجهل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: يأخذ الزكاة منهم فيطهرهم بها، قاله ابن عباس والفراء. والثاني: يطهرهم من الشرك والكفر، قاله مقاتل. والثالث: يدعوهم إلى ما يصيرون به أذكىاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ قال الخطابي: العز في كلام العرب على ثلاثة أوجه: أحدها: بمعنى الغلبة يقولون: من عز بزز. أي: من غلب سلب. يقال منه: عزَّ يعزُّ، يضم العين من يعز، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخَطَابِ﴾ [ص: ٢٨]. والثاني: بمعنى الشدة والقوة، يقال منه: عزَّ يعزُّ، بفتح العين من يعز. والثالث: أن يكون بمعنى نفاسة القدر، يقال منه: عزَّ يعزُّ بكسر العين من يعز. ويتناول معنى العزيز على أنه الذي لا يعادله شيء، ولا مثل له.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الْوَالِدِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَهَبْنَا لِإِبْرَاهِيمَ بَيْتَهُ وَيَعْقُوبَ بَنِي إِدَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ سبب نزولها أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه مهاجراً وسلمة إلى الإسلام، فأسلم سلمة، ورجع عن الإسلام مهاجر، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. قال الزجاج: «ومن» لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها التقرير والتوبيخ. والمعنى: ما يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه. ويقال: رغبت في الشيء إذا أردته. ورغبت عنه: إذا تركته. وملة إبراهيم: دينه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: إلا من سفه نفسه، قاله الأخفش^(٢) ويونس قال يونس: ولذلك تعدى إلى النفس فنصبها، وقال الأخفش: نصبت النفس لإسقاط حرف الجر، لأن المعنى: إلا من سفه في نفسه. قال الشاعر:

نغالي اللحم للأضياف نيئاً
ونرخصه إذا نضح القدور

والثاني: إلا من أهلك نفسه، قاله أبو عبيدة. والثالث: إلا من سفهت نفسه، كما يقال: غبن فلان رأيه، وهذا مذهب الفراء وابن قتيبة. قال الفراء: نقل الفعل عن النفس إلى ضمير «من»، ونصبت النفس على التشبيه بالتفسير، كما يقال: ضقت بالأمر ذرعاً، يريدون: ضاق ذرعي به، ومثله: ﴿وَأَسْتَحَلَّ الرَّأْسُ سَكِينًا﴾ [مریم: ٤٤]. والرابع: إلا من جهل نفسه، فلم يفكر فيها، وهو اختيار الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن الأنباري: لمن الصالحي الحال عند الله تعالى. وقال الزجاج: الصالح في الآخرة: الفائز.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ وذلك حين وقوع الاصطفاء، قال ابن عباس: لما رأى الكوكب والقمر والشمس، قال له ربه: أسلم، أي: أخلص.

(١) رواه أبو داود الطيالسي وأحمد في «المستد» عن أبي أمامة، وفي سننه الفرج بن فضالة، وهو ضعيف، وجاء الحديث بمعناه في «مسند أحمد» عن العرياض بن سارية، وقد صححه الشيخ أحمد شاكر.

(٢) نقل القرطبي في «التفسير» عن الأخفش في معنى (سفه نفسه) أنه فعل بها من السفه ما صار به سفياً. وعنه أيضاً: هي لغة، بمعنى سفه.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى﴾ قرأ ابن عباس وأهل المدينة: (وأوصى) بألف، مع تخفيف الصاد، والباقون بغير ألف شدة الصاد، وهذا لاختلاف المصاحف. أخبرنا ابن ناصر، قال: أخبرنا ثابت، قال: أخبرنا ابن قشيش، قال: أخبرنا ابن حيويه، قال: حدثنا ابن الأنباري، قال: أخبرنا ثعلب، قال: أُملى عليّ خلف بن هشام البزار قال: اختلف مصحفا أهل المدينة وأهل العراق في اثني عشر حرفاً: كتب أهل المدينة: (وأوصى) وأهل العراق: (ووصى) وكتب أهل المدينة: ﴿سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. بغير واو، وأهل العراق: ﴿وَسَارِعُوا﴾ وكتب أهل المدينة: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٥٦]. وأهل العراق: (ويقول) وكتب أهل المدينة: ﴿مَنْ يُزَلِّدْ﴾ [المائدة: ٥٧]. وأهل العراق: (من يرتد) وكتب أهل المدينة: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ [التوبة: ١٠٨]. وأهل العراق (والذين) وكتب أهل المدينة: ﴿خَيْرًا مِنْهُمَا مُّغْلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]. وأهل العراق: (منها) وكتب أهل المدينة: ﴿فَيَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]. وأهل العراق: (وتوكل) وكتب أهل المدينة: ﴿وَأَنْ يُظَهِّرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [المؤمن: ٢٦]. وأهل العراق: (أو أن يظهر) وكتب أهل المدينة في (حم عسق): ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بغير فاء، وأهل العراق: (فبما) وكتب أهل المدينة ﴿مَا فَتَنَهُمُ الْإِنْفُسُ﴾ [الزخرف: ٧١]. باللهاء. وأهل العراق: (ما تشتهي) وكتب أهل المدينة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْكَنُوزُ الْكَبِيرُ﴾ [الحديد: ٢٤]. وأهل العراق: (إن الله هو الغني الحميد) وكتب أهل المدينة: ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [النس: ١٥]. وأهل العراق (ولا يخاف). ووصى أبلغ من أوصى، لأنها تكون لمرات كثيرة، وهاء «بها» تعود على المسألة. قاله عكرمة والزجاج. قال مقاتل: وبنوه أربعة: إسماعيل، وإسحاق، ومدين، ومدائن. وذكر غير مقاتل نهم ثمانية.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يريد: الزموا الإسلام، فإذا أدرككم الموت صادفكم عليه. ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاكَ إِزْهَبْ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَيَعْقُوبَ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [تلك أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمْسَلُونَ ﴿١٣٣﴾] قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألسنت تعلم أن يعقوب أوصى بنيه يوم مات باليهودية؟ فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت، يشير إلى إبراهيم وبنيه، ويعقوب وبنيه. ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ وَرَاءَ دِينِكُمْ دِينًا وَرَأَيْتُمُ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنَّا أَنْزِيلٌ إِنَّكَ إِزْهَبَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْحَاقَ وَنَحْنُ وَآلِ سَبْطٍ وَمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أَوْفَىٰ الْيَهُودَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ نَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا﴾ معناه: قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى، تهتدوا. ﴿بَلْ وَرَاءَ دِينِكُمْ دِينًا﴾ المعنى: بل تتبع ملة إبراهيم في حال حنيفيته. وفي الحنيف قولان: أحدهما: أنه المائل إلى لعبادة. قال الزجاج: الحنيف في اللغة: المائل إلى الشيء، أخذ من قولهم: رجل أحنف، وهو الذي تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها. قالت أم الأحنف ترقصه:

والله لو لآ حَنَفٌ بِرَجْلِهِ
وودقة في ساقه من هزله
ما كان في فتیانکم من مثله

والثاني: أنه المستقيم، ومنه قيل للأعرج: حنيف، نظراً له إلى السلامة، هذا قول ابن قتيبة. وقد وصف لمفسرون الحنيف بأوصاف، فقال عطاء: هو المخلص، وقال ابن السائب: هو الذي يحج. وقال غيرهما: هو الذي وُحِدَ ويحج، ويضحى ويختن، ويستقبل الكعبة. فأما الأسباط: فهم بنو يعقوب، وكانوا اثني عشر رجلاً. قال الزجاج: السبط في اللغة: الجماعة الذين يرجعون إلى أب واحد. والسبط في اللغة: الشجرة لها قبائل، فالسبط: الذين هم من شجرة واحدة.

﴿فَإِنَّ ءَامَنُوا بِبَيْتِ اللَّهِ مَا ءَامَنُوا بِهِ فَقَدِ افْتَدَوْا وَلَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا آمَنُوا﴾ يعني: أهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿يَبْتَغِي مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناها: مثل إيمانكم، فزيدت الباء للتوكيد، كما زيدت في قوله: ﴿وَمَهْرِيَّ إِلَيْكَ بِمِغْنَمٍ النَّحْلَ﴾ (مرهم: ٢٤). قاله ابن الأنباري. والثاني: أن المراد بالمثل هاهنا: الكتاب، وتقديره: فإن آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم، قاله أبو معاذ النحوي. والثالث: أن المثل هاهنا: صلة، والمعنى: فإن آمنوا بما آمنتم به. ومثله قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. أي: ليس كهو شيء. وأنشدوا:

يا عاذلي دعني من عدلكا
مثلي لا يقبل من مثلكا

أي: أنا لا أقبل منك، فأما الشقاق؛ فهو المشاقة والعداوة، ومنه قولهم: فلان قد شق عصا المسلمين، يريدون: فارق ما اجتمعوا عليه من اتباع إمامهم، فكانه صار في شق غير شقهم.

قوله تعالى: ﴿سَبِّحْهُمْ اللَّهُ﴾ هذا ضمان لنصر النبي ﷺ.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَكِيدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ سبب نزولها أن النصارى كانوا إذا ولد لأحدهم ولد، فأتى عليه سبعة أيام، صبغوه في ماء لهم، يقال له: المعمودية، ليطهره بذلك، ويقولون: هذا طهور مكان الختان، فإذا فعلوا ذلك؛ قالوا: صار نصرانياً حقاً، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. قال ابن مسعود وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والنخعي، وابن زيد: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: دينه. قال الفراء: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [نصب] مردودة على الملة^(١). وقرأ ابن عبدة: (صِبْغَةَ اللَّهِ) بالرفع على معنى: هذه صبغة الله. وكذلك قرأ: (ملة إبراهيم) بالرفع أيضاً على معنى: هذه ملة إبراهيم. قال ابن قتيبة: المراد بصبغة الله: الختان، فسماه صبغة، لأن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في ماء [ويقولون: هذا طهرة لهم، كالختان للحنفاء] فقال الله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي: الزموا صبغة الله، لا صبغة النصارى أولادهم، وأراد بها: ملة إبراهيم وقال غيره: إنما سمي الدين صبغة لبيان أثره على الإنسان، كظهور الصبغ على الثوب.

﴿قُلْ أَتَعْبَرُونَ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا تَمْلِكُونَ مِنْهُ لِيُضِلَّكُمْ أَوْ يَهْدِيَكُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَعْبَرُونَ فِي اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يريد: يهود المدينة، ونصارى نجران. والمحاجة: المخاصمة في الدين، فإن اليهود قالت: نحن أهل الكتاب الأول. وقيل: ظهرت اليهود عبدة الأوثان، فقيل لهم: تزعمون أنكوا موحدون، ونحن نوحدهم، فلم ظاهرتهم من لا يوحده!

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْلِكُونَ﴾ قال أكثر المفسرين: هذا الكلام اقتضى نوع مساهلة، ثم نسخ بأي

السيف.

﴿أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنتُمْ أَهْلُكُمْ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ

كَثَرَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ﴾

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الآية. سبب نزولها أن يهود المدينة، ونصارى نجران قالوا للمؤمنين: إن أنبياء الله كانوا منا من بني إسرائيل، وكانوا على ديننا، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. ومعنى الآية: إن الله قد أعلمنا بدين الأنبياء، ولا أحد أعلم به منه. قرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر، وأبو عمرو: (أم يقولون) بالياء على وجه الخبر عن اليهود. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: (تقولون) بالياء لأن قبلها مخاطبة، وهي ﴿أَتَعْبَرُونَ﴾ وبعدها ﴿قُلْ أَنتُمْ أَهْلُكُمْ﴾. وفي الشهادة التي كتبوها قولان: أحدهما: أن الله تعالى شهدا عندهم بشهادة إبراهيم ومن ذكر معه أنهم كانوا مسلمين، فكتبوها، قاله الحسن، وزيد بن أسلم. والثاني: أنهم كتبوها للإسلام، وأمر محمد وهم يعلمون أنه نبي دينه الإسلام، قاله أبو العالية، وقتادة.

(١) يريد أنها بدل من (ملة إبراهيم).

﴿ سَيَقُولُ الشُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ مِنْ قِبَلِهِمْ آلِي كَاؤُا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَتَدَوَّرُ مِنْ يَدَيْهِ إِنَّ رَبَّهُ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الشُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله البراء بن عازب، ومجاهد، وسعيد بن جبير. والثاني: أنهم أهل مكة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم المنافقون، ذكره السدي عن ابن مسعود، وابن عباس. وقد يمكن أن يكون الكل قالوا ذلك، والآية نزلت بعد تحويل القبلة. والشفهاء: الجهلة. ما ولاهم، أي: صرفهم عن قبلتهم: يريد: قبله المقدس. واختلف العلماء في مدة صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس بعد قدومه إلى المدينة على ستة أقوال: أحدها: أنه ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر، قاله البراء بن عازب. والثاني: سبعة عشر شهراً، قاله ابن عباس. والثالث: ثلاثة عشر شهراً، قاله معاذ بن جبل. والرابع: تسعة أشهر، أو عشرة أشهر، قاله نسي بن مالك. والخامس: ستة عشر شهراً. والسادس: ثمانية عشر شهراً، روي القولان عن قتادة. وهل كان استقباله لى بيت المقدس برأيه، أو عن وحي؟ فيه قولان: أحدهما: أنه كان بأمر الله تعالى ووحيه، قاله ابن عباس وابن جريج. والثاني: أنه كان باجتهاده ورأيه، قاله الحسن، وأبو العالية، وعكرمة، والربيع. وقال قتادة: كان الناس يتوجهون إلى أي جهة شاؤوا بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَشْرَقُ وَأَكْرَبُ﴾ [البقرة: ١١٥]. ثم أمرهم باستقبال بيت المقدس. وفي سبب اختياره بيت المقدس قولان: أحدهما: ليتألف أهل الكتاب، ذكره بعض المفسرين. والثاني: لامتحان العرب بغير ما لفوه، قاله الزجاج.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَتَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَهُمْ يُؤْتُونَ فِي حُبٍّ وَإِنَّا لَكَرِيمُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ سبب نزولها أن اليهود قالوا: قبلتنا قبله الأنبياء، ونحن عدلٌ بين الناس، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. والأمة: الجماعة. والوسط: العدل، قاله ابن عباس، وأبو سعيد، ومجاهد، وقاتادة، وقال ابن قتيبة: الوسط: العدل، الخيار، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطَكُمْ﴾ [القلم: ٢٨]. أي: أعدلهم، وخيرهم. قال الشاعر:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمُعظم

وأصل ذلك أن خير الأشياء أوسطها، والغلو والتقصير مذمومان. وذكر ابن جرير الطبري أنه من التوسط في الفعل، فإن المسلمين لم يقصروا في دينهم كاليهود، فإنهم قتلوا الأنبياء، وبدلوا كتاب الله، ولم يغلوا كالنصارى، فإنهم عموا أن عيسى ابن الله. وقال أبو سليمان الدمشقي: في هذا الكلام محذوف، ومعناه: جعلت قبلتكم وسطاً بين قبلتين، فإن اليهود يصلون نحو المغرب، والنصارى نحو المشرق، وأنتم بينهما.

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: لتشهدوا للأنبياء على أممهم. روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «يجيء النبي يوم القيامة ومع الرجل، ويجيء النبي ومع الرجلان، ويجيء النبي معه أكثر من ذلك، فيقال لهم: أبلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال للنبي: أبلغتكم؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ قال: محمد وأمه؛ فيشهدون أن الرسل قد بلغوا، فيقال: ما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا، فصدقناه، لذلك قوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾»^(١) وهذا مذهب عكرمة، وقاتادة. والثاني: أن معناه: لتكونوا شهداء لمحمد ﷺ على الأمم: اليهود والنصارى والمجوس، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يعني: محمداً ﷺ. وماذا يشهد عليهم؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أصمالمهم، قاله ابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وابن زيد. والثاني: بتليغهم الرسالة، قاله قتادة، ومقاتل. والثالث: إيمانهم، قاله أبو العالية. فيكون على هذا «عليكم» بمعنى: لكم. قال عكرمة: لا يسأل عن هذه الأمة إلا نبيا.

(١) رواه أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الزَّيْبَةَ أَلَىٰ كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ يريد: قبلة بيت المقدس. ﴿إِلَّا لَتَعْلَمَنَّ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لنرى. والثاني: لتمييز. رُوي عن ابن عباس. والثالث: لتعلمه واقعاً، إذ علمه قديم، قاله جماعة من أهل التفسير، وهو يرجع إلى قول ابن عباس: «لنرى». والرابع: أن العلم راجع إلى المخاطبين، والمعنى: لتعلموا أنتم، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَيَّ عَمِيًّا﴾ أي: يرجع إلى الكفر، قاله ابن زيد، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ في المشار إليها قولان: أحدهما: أنه التولية إلى الكعبة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل. والثاني: أنها قبلة بيت المقدس قبل التحول عنها، قاله أبو العالية، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ نزل على سبب: وهو أن المسلمين قالوا: يا رسول الله! رأيت إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس! فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(١) والإيمان المذكور هاهنا أريد به: الصلاة في قول الجماعة. وقيل: إنما سمي الصلاة إيماناً، لاشتغالها على قول ونية وعمل. قال الفراء: وإنما أسند الإيمان إلى الأحياء [من المؤمنين] والمعنى: فيمن مات [من المسلمين] قبل أن تحول القبلة [لأنهم داخلون معهم في الملة].

قوله تعالى: ﴿لِرُؤُوفٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: (لرؤوف) على وزن: لرعوف، في جميع القرآن، ووجهها: أن فعولاً أكثر في كلامهم من فعل، فباب ضروب وشكور، أوسع من باب حذر ويقظ. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر، عن عاصم: (لرؤوف) على وزن: رَعُوفٍ. ويقال: هو الغالب على أهل الحجاز. قال جرير:

ترى للمسلمين عليك حقاً كفعل الوالد الرؤوف الرحيم

الرؤوف بمعنى: الرحيم، هذا قول الزجاج. وذكر الخطابي عن بعض أهل العلم أن الرأفة أبلغ الرحمة وأرقها. قال: ويقال: الرأفة أخص، والرحمة أعم.

﴿قَدْ رَأَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنَرْجِعَنَّكَ إِلَيْهِ رَاضِيًا بِمَا قَالَ وَجْهَكَ سَطَرًا﴾

﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لِيَحْمِلُوا فِيهِ وَجْهًا﴾

﴿قَدْ رَأَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ سبب نزولها أن النبي ﷺ كان يحب أن يوجه إلى الكعبة، قاله

البراء، وابن عباس، وابن المسيب، وأبو العالية، وقتادة. وذكر بعض المفسرين أن هذه الآية مقدمة في النزول على قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الشُّرَكَاءُ مِنَ الَّذِينَ﴾ واختلفوا في سبب اختيار النبي الكعبة على بيت المقدس على قولين: أحدهما: أنها كانت قبلة إبراهيم، روي عن ابن عباس. والثاني: لمخالفة اليهود، قاله مجاهد. ومعنى تقلب وجهه: نظره إليها يميناً وشمالاً. وفي «إلى»، و«ترضاها» بمعنى: «تحبها». و«الشرط»: النحو من غير خلاف. قال ابن عمر: أتى الناس آت وهم في صلاة الصبح بقاء، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وأمر أن يستقبل الكعبة، ألا فاستقبلوها [وكانت وجوههم إلى الشام] فاستداروا وهم في صلاتهم^(٢).

فصل

اختلف العلماء أي وقت حولت القبلة؟ على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها حولت في صلاة الظهر يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله المدينة، قاله البراء بن عازب، ومعتل بن يسار. والثاني: أنها حولت يوم الثلاثاء للنصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدمه المدينة، قاله قتادة. والثالث: أنها حولت في جمادى الآخرة، حكاه ابن سلامة المفسر عن إبراهيم الحربي. وفي «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قولان: أحدهما: اليهود، قاله مقاتل. والثاني: اليهود والنصارى، قاله أبو سليمان الدمشقي.

(١) رواه أحمد، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» ولقظه: عن ابن عمر قال: بينما الناس في صلاة الصبح بقاء، إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يشير إلى ما أمر به من التوجه إلى الكعبة، ثم توعدهم بباقي الآية على كتمانهم ما علموا. ومن أين علموا أنه الحق؟ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن في كتابهم الأمر بالتوجه إليها، قاله أبو العالية. والثاني: يعلمون أن المسجد الحرام قبله إبراهيم. والثالث: أن في كتابهم أن محمداً رسول صادق، فلا يأمر إلا بحق. والرابع: أنهم يعلمون جواز النسخ.

﴿وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَعْبَرُوا قِبَلِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِبَالِيغِي أَمْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا يَكُنْ عَلَيْكُمْ زِيَادٌ بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَمَا تَعْبَرُوا قِبَلِكُمْ وَمَا تَعْبَرُوا قِبَلِكُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ سبب نزولها أن يهود المدينة ونصارى نجران قالوا للنبي: اتنا بآية كما أتى الأنبياء قبلك، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبَرُوا قِبَلِكُمْ﴾ يزيد: الكعبة ﴿وَمَا تَعْبَرُوا قِبَلِكُمْ﴾ لأن اليهود يصلون قبل المغرب إلى بيت المقدس، والنصارى قبل المشرق ﴿وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ فصليت إلى قبلتهم ﴿وَمَا تَعْبَرُوا قِبَلِكُمْ﴾ قال مقاتل: يريد بالعلم: البيان.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتَرَفَعُونَ كَمَا يَتَرَفَعُونَ آيَاتَهُمْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ إِلْفًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتَرَفَعُونَ كَمَا يَتَرَفَعُونَ آيَاتَهُمْ﴾ في هاء «يعرفونه» قولان: أحدهما: أنها تعود على النبي ﷺ، قاله ابن عباس. والثاني: تعود على صرفة إلى الكعبة، قاله أبو العالية، وقناة، والسدي، ومقاتل، وروي عن ابن عباس أيضاً. وفي الحق الذي كتموه قولان: أحدهما: أنه النبي ﷺ، قاله مجاهد. والثاني: أنه التوجه إلى الكعبة، قاله السدي، ومقاتل في آخرين. وفي قوله: ﴿وَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ قولان: أحدهما: وهم يعلمون أنه حق. والثاني: وهم يعلمون ما على مخالفه من العقاب.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكْفُرْ مِنَ الْمُنْتَهَيْنِ﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال الزجاج: أي: هذا الحق من ربك. والممترون: الشاكون، والخطاب عام.

﴿وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُوَ مُوَلِّئُهَا قِصَّةً مِمَّا كَتَبْنَا بِالْقُرْآنِ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ فِي خُبْرِ الْقُرْآنِ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهٍ﴾ أي: لكل أهل دين وجهة. المراد بالوجهة: القبلة، قاله ابن عباس في آخرين. قال الزجاج: يقال: جهة، ووجهة. وفي «هو» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الله تعالى، فالمعنى: الله مواليها إياهم، أي: أمرهم بالتوجه إليها. والثاني: ترجع إلى المتولي، فالمعنى: هو مواليها نفسه، فيكون «هو» ضمير كل. والثالث: يرجع إلى البيت، قال مجاهد: أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة. والجمهور يقرؤون: (مواليها). وقرأ ابن عامر، والوليد عن يعقوب: «هو مولاه» بألف بعد اللام، فضمير «هو» لكل، ومعنى القراءتين متقارب.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفِيقُوا الْعَزَبَاتِ﴾ أي: بادروها. وقال قتادة: لا تغلبوا على قبلكم، ﴿أَيَّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ كِتَابُ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ قال ابن عباس وغيره: هذا في يوم القيامة.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَيْهِ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَنَّا تَعَالَى﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: ما كنته قولاً ويؤمكم شطركم إنك لا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحسبهم وأخسروا ولأولهم يتمم عليهم ولأنهم تهتدوا

فأما إعادة قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإنه تكرير تأكيد، ليحسم طمع أهل الكتاب في رجوع المسلمين أبداً إلى قبلتهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ﴾ في الناس قولان: أحدهما: أنهم أهل الكتاب، قاله ابن عباس، وأبو العالية، وقناة، ومقاتل. والثاني: مشركو العرب، رواه السدي عن أشياخه. فمن قال بالأول؛ قال: احتجاج أهل الكتاب أنهم قالوا للنبي: مالك تركت قبلة بيت المقدس؟! إن كانت ضلالة؛ فقد دنت بها الله، وإن كانت هدى؛ فقد نقلت عنها. وقال قتادة: قالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه. ومن قال بالثاني؛ قال: احتجاج المشركين أنهم قالوا: قد رجع إلى قبلكم، ويوشك أن يعود إلى دينكم. وتسمية باطلهم حجة على وجه الحكاية عن المحتج به، كقوله تعالى:

﴿مِنْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]. وقوله: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٤٨٣].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ قال الزجاج: معناه: إلا من ظلم باحتجازه فيما قد وضع له، كما تقول: ما لك عليّ حجة إلا الظلم، أي: إلا أن تظلمني. أي: ما لك عليّ البتة، ولكنك تظلمني. قال ابن عباس: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ﴾ في انصرافكم إلى الكعبة ﴿وَأَخْشَوْنِي﴾ في تركها.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَرُزُقِكُمْ وَنُزِّلَ عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَوَعَدْنَاكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ قال الزجاج: «كما» لا تصلح أن تكون جواباً لما قبلها، والأجود أن تكون معلقة بقوله: ﴿فَأَذْكُرُونِي﴾ وقد روي معناه عن عليّ، وابن عباس، ومجاهد، ومقاتل. والآية خطاب لمشركي العرب. وفي قوله: ﴿وَرُزُقِكُمْ﴾ ثلاثة أقوال، قد سبق ذكرها في قصة إبراهيم. والكتاب: القرآن. والحكمة: السنة.

﴿فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاتَّكِرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُونِي﴾ قال ابن عباس، وابن جبير: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي. وقال إبراهيم بن السري: كما أنعمت عليكم بالرسالة، فاذكروني بتوحيدي وتصديق نبيي. قال: فإن قيل: كيف يكون جواب: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾: ﴿فَأَذْكُرُونِي﴾؟ فإن قوله: ﴿فَأَذْكُرُونِي﴾ أمر. وقوله: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ جزاؤه؛ فالجواب: أن المعنى: إن تذكروني أذكركم.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّكِرُوا لِي﴾ الشكر: الاعتراف بحق المنعم، مع الثناء عليه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ سبب نزولها أن المشركين قالوا: سيرجع محمد إلى ديننا، كما رجع إلى قبلتنا، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة. وقال ابن عباس: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على أداء الفرائض، وبالصلاة، وقد سبق الكلام في الصبر، وبيان الاستعانة به وبالصلاة.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أُمِيتَ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ﴾ سبب نزولها أنهم كانوا يقولون لقتلى بدر وأحد: مات فلان بيد، مات فلان بأحد، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. ورفع الأموات بإضمار مكني من أسمائهم، أي: لا تقولوا: هم أموات، ذكر نحوه الفراء. فإن قيل: فنحن نراهم موتى، فما وجه النهي؟ فالجواب أن المعنى: لا تقولوا: هم أموات لا تصل أرواحهم إلى الجنات، ولا تنال من تحف الله ما لا يناله الأحياء، بل هم أحياء، أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة^(١)، فهم أحياء من هذه الجهة، وإن كانوا أمواتاً من جهة خروج الأرواح، ذكره ابن الأنباري. فإن قيل: ليس جميع المؤمنين منتمين بعد موتهم؟ فلم خصصتم الشهداء؟ فالجواب: أن الشهداء فضلوا على غيرهم بأنهم مرزوقون من مطاعم الجنة ومأكلاها، وغيرهم منعم بما دون ذلك، ذكره ابن جرير الطبري.

﴿وَلَتَبْلُغُنَّكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ الْخَوَافُ وَالْجُوعُ وَنَقْصُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّرْبُ وَالصَّبْرُ وَالصَّبْرُ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُغُنَّكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ الْخَوَافُ وَالْجُوعُ وَنَقْصُ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ قال الفراء: «من» تدل على أن لكل صنف منها شيئاً مضمراً، فتقديره: بشيء من الخوف، وشيء من الجوع، وشيء من نقص الأموال. وفيمن أريد في هذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أنهم أصحاب النبي خاصة، قاله عطاء. والثاني: أنهم أهل مكة. والثالث: أن هذا يكون في آخر الزمان. قال كعب: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمرة. والرابع: أن الآية على عمومها. فأما الخوف؛ فقال ابن عباس: وهو الفرع في القتال. والجوع: المجاعة التي أصابت أهل مكة سبع سنين. ونقص من الأموال: ذهاب أموالهم، والأنفس بالموت والقتل الذي نزل بهم، والشمرات لم تخرج كما كانت تخرج. وحكى أبو سليمان الدمشقي عن بعض أهل العلم: أن الخوف في الجهاد، والجوع في فرض الصوم، ونقص الأموال: ما فرض فيها من

(١) جاء في صحيح مسلم «أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت... الحديث».

الزكاة والحج، ونحو ذلك. والأنفس: ما يستشهد منها في القتال، والثمرات: ما فرض فيها من الصدقات. ﴿وَيُؤْتِرُ أَكْثَرِيكَ﴾ على هذه البلاوي بالجنة. واعلم أنه إنما أخبرهم بما سيصيبهم ليوطنوا أنفسهم على الصبر، فيكون ذلك أبعد لهم من الجزع. ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ يريدون: نحن عبيده يفعل بنا ما يشاء ﴿وَأَلْبَسْنَا إِلَيْهِ رِجُومًا﴾ يريدون: نحن مقررون بالبعث والجزاء على أعمالنا، والثواب على صبرنا. قال سعيد بن جبيرة: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة شيئاً لم يعطه الأنبياء قبلهم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِلَيْهِ رُجُومٌ﴾ ﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ سَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾. ولو أعطيتها الأنبياء لأعطيتها يعقوب، ألم تسمع إلى قوله: ﴿يَتَأَسَّفُ عَلٰى يُوْسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] قال الفراء: وللعرب في المصيبة ثلاث لغات: مصيبة، ومصابة، ومصوبة، زعم الكسائي أنه سمع أعرابياً يقول: جبر الله مصوبتك.

﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ سَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ سَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ قال سعيد بن جبيرة: الصلوات من الله: المغفرة ﴿وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ﴾ بالاسترجاع. قال عمر بن الخطاب: نعم العذلان، ونعمت العلاوة: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ سَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ﴾^(١).

﴿إِنَّا أَلَمْنَا وَالْمُرَّةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَصَّ الْبَيْتَ أَوْ ائْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّقَهُنَّ بِهَمًّا وَمَنْ تَطَّوَّقَ حَرًّا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْهِ﴾ [١٥٧] إِنَّا الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا بَدَّلْنَا مِنْ بَيْنِكَ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أَوَلَيْكَ يُلْمُهُمُ اللَّهُ وَيُلْمُهُمُ الْبَشَرُ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَلَمْنَا وَالْمُرَّةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن رجلاً من الأنصار ممن كان يهمل لمناة في الجاهلية - ومناة: صنم كان بين مكة والمدينة - قالوا: يا رسول الله! إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما؟ فنزلت هذه الآية - رواه عروة عن عائشة^(٢). والثاني: أن المسلمين كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة، لأنه كان على الصفا تماثيل وأصنام؛ فنزلت هذه الآية. وراه عكرمة عن ابن عباس. وقال الشعبي: كان وثن على الصفا يدعى: إساف، وثن على المروة يدعى: نائلة، وكان أهل الجاهلية يسعون بينهما ويمسحونهما، فلما جاء الإسلام كفوا عن السعي بينهما، فنزلت هذه الآية. والثالث: أن الصحابة قالت للنبي ﷺ: إنا كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة، وإن الله تعالى ذكر الطواف بالبيت، ولم يذكره بين الصفا والمروة، فهل علينا من حرج أن لا نطوف بهما؟ فنزلت هذه الآية. رواه الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن عن جماعة من أهل العلم. قال إبراهيم بن السري: الصفا في اللغة: الحجارة الصلبة الصلدة التي لا تثبت شيئاً، وهو جمع، واحده صفاة وصفاء، مثل: حصاة وحصى. والمروة: الحجارة اللينة، وهذان الموضعان من شعائر الله، أي: من أعلام متعبداته. وواحد الشعائر: شعيرة. والشعائر: كل ما كان من موقف أو سعي أو ذبح. والشعائر: من شعرت بالشيء: إذا علمت به، فسميت الأعلام التي هي متعبدات الله: شعائر الله. والحج في اللغة: القصد، وكذلك كل قاصد شيئاً فقد اعتمره. والجناح: الإثم، أخذ من جناح: إذا مال وعدل، وأصله من جناح الطائر، وإنما اجتنب المسلمون الطواف بينهما، لمكان الأوثان، فقليل لهم: إن نصب الأوثان بينهما قبل الإسلام لا يوجب اجتنابهما، فأعلم الله ﷻ أنه لا جناح في التطوف بهما، وأن من تطوع بذلك فإن الله شاكر عليم. والشكر من الله: المجازاة والثناء الجميل، والجمهور قرؤوا (ومن تطوع) بالثناء ونصب العين. منهم: ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر. وقرأ حمزة، والكسائي «يطوع» بالياء وجزم العين. وكذلك خلافهم في التي بعدها بآيات.

فصل

اختلفت الرواية عن إمامنا أحمد في السعي بين الصفا والمروة، فنقل الأثر من ترك السعي لم يجزه حجه.

(١) العذل بكسر العين: نصف الحمل يكون على أحد جنبي البعير. والعلاوة: هي ما يوضع بين العذلين، وهي زيادة في الحمل، وأراد بالعذلين الصلاة، والرحمة. وبالعلاوة: الانتهاء، وقد أخرج هذا الأثر البخاري تعليقاً، ووصله الحاكم وقال: صحيح الإسناد، وواقه الذهبي.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» وسنده صحيح، ورواه أحمد والبخاري ومسلم مطولاً.

ونقل أبو طالب: لا شيء في تركه عمداً أو سهواً، ولا ينبغي أن يتركه. ونقل الميموني أنه تطوع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا آتَاكَ مِن بَيْنَتِ وَأَلَدَتِكَ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود، تكفروا ما أنزل الله في التوراة من البينات والهدى، فالبينات: الحلال والحرام والحدود والفرائض. والهدى: نعت النبي وصفته ﴿مِن بَعْدِ مَا يَبْتَغِي النَّاسُ﴾ قال مقاتل: لبني إسرائيل. وفي الكتاب قولان: أحدهما: أنه التوراة، وهو قول ابن عباس. والثاني: التوراة والإنجيل، قاله قتادة. ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الكافرين ﴿يَكْفُرُونَ بِاللَّعْنَةِ﴾ أصل اللعن في اللغة: الطرد، ولعن الله إبليس، أي: طرده، ثم انتقل ذلك فصار قولاً. قال الشماخ وذكر ماء:

ذعرتُ به القسطا ونفيتها عنه

مقام الذئب كالرجل اللعين^(١)

أي: الطريد. وفي اللاعنين أربعة أقوال: أحدها: أن المراد بهم: دواب الأرض، رواه البراء عن النبي ﷺ^(٢) وهو قول مجاهد، وعكرمة. قال مجاهد: يقولون: إنما منعنا القطر بذنوبكم، فيلعنونهم. والثاني: أنهم المؤمنون، قاله عبد الله بن مسعود. والثالث: أنهم الملائكة والمؤمنون، قاله أبو العالية، وقاتة. والرابع: أنهم الجن والإنس وكل دابة، قاله عطاء.

فصل

وهذه الآية توجب إظهار علوم الدين، متصوفاً كانت أو مستنبطاً، وتدل على امتناع جواز أخذ الأجرة على ذلك، إذ غير جائز استحقاق الأجر على ما يجب فعله، وقد روى الأعرج عن أبي هريرة أنه قال: إنكم تقولون: أكثر أبو هريرة على النبي ﷺ، والله الموعود، وإيم الله: لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحداً بشيء أبداً، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا آتَاكَ﴾ .. إلى آخرها^(٣).

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَسْلَمُوا وَبَيَّنَّا فَاوْتَيْكَ أَنُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ قال ابن مسعود: إلا الذين تابوا من اليهود وأصلحوا أعمالهم، وبينوا صفة رسول الله في كتابهم.

فصل

وقد ذهب قوم إلى أن الآية التي قبل هذه منسوخة بالاستثناء في هذه، وهذا ليس بنسخ، لأن الاستثناء إخراج بعض ما شمله اللفظ، وذلك يقتضي التخصيص دون النسخ، ومما يحقق هذا أن النسخ والمنسوخ لا يمكن العمل بأحدهما إلا بترك العمل بالآخر، وهاتنا يمكن العمل بالمستثنى والمستثنى منه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ إنما شرط الموت على الكفر، لأن حكمه يستقر بالموت عليه، فإن قيل: كيف قال: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وأهل دينه لا يلعونه، فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنهم يلعونه في الآخرة. قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّمَن بَعْضُكُمْ بِصَاحِبٍ﴾ [المنكسوت: ٢٥]. وقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلْتَ أُتَى لَمَسْتَ أَخِيًّا﴾ [الأعراف: ٣٨]. والثاني: أن المراد بالناس هاتنا: المؤمنون، قاله ابن مسعود، وقاتة، ومقاتل. فيكون على هذا من العام الذي أريد به الخاص. والثالث: أن اللعنة من الأكثر يطلق عليها: لعنة جميع الناس تغليباً لحكم الأكثر على الأقل.

﴿حَتَّابِينَ فِيهَا لَا يَخْفَى عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾

(١) قال في «اللسان» أراد مقام الذئب الطريد، كالرجل. والرجل اللعين المطرود، لا يزال منتبذاً عن الناس، شبه الذئب في ذلك وشدة مخافته وذعره.

(٢) رواه ابن ماجه، وابن أبي حاتم، وفي سننه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٣) رواه أحمد، والبخاري ومسلم، وغيرهم. وقوله: «والله الموعود» قال القاضي عياض في «المشارك»: أي: عند الله المجتمع، أو إليه. وقال الحافظ في «الفتح»: ومراده أن الله تعالى يحاسبني إن تعدت كذباً، ويحاسب من يظن بي سوء.

قوله تعالى: ﴿خَلْقَيْنَ فِيهَا﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها تعود إلى اللعنة، قاله ابن مسعود، ومقاتل. والثاني: أنها ترجع إلى النار، وإن لم يجر لها ذكر فقد علمت.

﴿وَاللَّهُكَرُّ إِلَهٌُ وَجِدُّ لَأَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُكَرُّ إِلَهٌُ وَجِدُّ﴾ قال ابن عباس: إن كفار قريش قالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه، فنزلت هذه الآية، وسورة الإخلاص. والإله بمعنى: المعبود.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْحَثَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَرَكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالشَّجَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المشركين قالوا للنبي: اجعل لنا الصفا ذهباً إن كنت صادقاً؛ فنزلت هذه الآية، حكاه السدي عن ابن مسعود، وابن عباس. والثاني: أنهم لما قالوا: انسب لنا ربك وصفه؛ فنزلت: ﴿وَاللَّهُكَرُّ إِلَهٌُ وَجِدُّ﴾ قالوا: فأرنا آية ذلك؛ فنزلت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنه لما نزلت ﴿وَاللَّهُكَرُّ إِلَهٌُ وَجِدُّ﴾ قال كفار قريش: كيف يسع الناس إله واحد؟ فنزلت هذه الآية، قاله عطاء. فأما ﴿السَّمَكَاتِ﴾؛ فتدل على صانعها، إذ هي قائمة بغير عمد، وفيها من الآيات الظاهرة ما يدل سيره على مبدعه، وكذلك الأرض في ظهور ثمارها، وتمهيد سهولها، وإرساء جبالها، إلى غير ذلك. ﴿وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ كل واحد منهما حادث بعد أن لم يكن، وزائل بعد أن كان ﴿وَالْفَلَكَ﴾: السفن. قال ابن قتيبة: الواحد والجمع بلفظ واحد. وقال اليزيدي: واحدة فلكة، ويذكر ويؤنث. وقال الزجاج: الفلك: السفن، ويكون واحداً، ويكون جمعاً، لأن فَعَلَ، وفُعِلَ جمعهما واحد، ويأتيان كثيراً بمعنى واحد. يقال: العجم والعُجم، والعرب والعُرَبُ، والفلك والفُلُك. والفلك: يقال لكل شيء مستدير، أو فيه استدارة. و﴿الْبَحْرِ﴾: الماء الغزير ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من المعاش. ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ يعني: المطر، والمطر ينزل على معنى واحد، وأجزاء الأرض والهواء على معنى واحد، والأنواع تختلف في النبات والطعوم والألوان والأشكال المختلفة، وفي ذلك رد على من قال: إنه من فعل الطبيعة، لأنه لو كان كذلك لوجب أن يتفق موجهها، إذ المتفق لا يوجب المختلف، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى في قوله: ﴿يَسْتَقْبِلُ مِمَّا رَزَقُوا وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾ [الرعد: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَبَرَكَ﴾ أي: فرق.

قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ قرأ ابن كثير (الرياح) على الجمع في خمسة مواضع: هاهنا. وفي الحجر: ٢٢. ﴿وَأَنْزَلْنَا الرِّيْحَ لَوَيْحَةً﴾ وفي الكهف: ٤٦. ﴿تَذَرُوهُ الرِّيْحَ﴾ وفي الروم: ٤٦. الحرف الأول (الرياح). وفي الجاثية: ٤ ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ وقرأ باقي القرآن (الريح). وقرأ أبو جعفر (الرياح) في خمسة عشر موضعاً؛ في البقرة، وفي الأعراف: ٥٦. ﴿يُرْسِلُ الرِّيْحَ﴾ وفي إبراهيم: ١٨. ﴿أَسْتَدْتُّ بِه الرِّيْحَ﴾ وفي الحجر: ٢٢. ﴿الرِّيْحَ لَوَيْحَةً﴾ وفي سبحان: ١٩. وفي الكهف: ٤٥. ﴿تَذَرُوهُ الرِّيْحَ﴾ وفي الأنبياء: ٨١. وفي الفرقان: ٤٨. ﴿أَنْزَلَ الرِّيْحَ﴾ وفي النمل. والثاني من الروم: ٤٨. وفي سبأ: ١٢. وفي ص: ٣٦. وفي عسق: ٣٣. ﴿يُسْكِنُ الرِّيْحَ﴾ وفي الجاثية: ٥. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ تابعه نافع إلا في سبحان. ورياح سليمان: الأنبياء: ٨١. وتابع نافعاً أبو عمرو إلا في حرفين: (الريح) في إبراهيم، وعسق، ووافق أبا عمرو، وعاصم، وابن عامر. وقرأ حمزة (الرياح) جمعاً في موضعين: في الفرقان، والحرف الأول من الروم، وياقهبه على التوحيد. وقرأ الكسائي مثل حمزة، إلا إنه زاد عليه في الحجر: ٢٢. ﴿الرِّيْحَ لَوَيْحَةً﴾ ولم يختلفوا فيما ليس فيه ألف ولا ميم، فمن جمع؛ فكل ربح تساوي أختها في الدلالة على التوحيد والرفع، ومن وحد؛ أراد الجنس. ومعنى تصريف الرياح: تقلبها شمالاً مرة، وجنوباً مرة، ودبوراً أخرى، وصباً أخرى، وعذاباً ورحمة. ﴿وَالشَّجَابِ الْمُسَخَّرِ﴾: المذلل. والآية فيه من أربعة أوجه، ابتداء كونه، وانتهاء تلاشيه، وقيامه بلا دعامة ولا علاقة، وإرساله إلى حيث شاء الله تعالى. ﴿لَآيَاتٍ﴾. الآية: العلامة. أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا عاصم

قال: أخبرنا ابن بشران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا ابن أبي الدنيا قال: حدثني هارون قال: حدثني عفان عن مبارك بن فضالة قال: سمعت الحسن يقول: كانوا يقولون، يعني: أصحاب النبي ﷺ: الحمد لله الرفيق، الذي لو جعل هذا الخلق خلقاً دائماً لا يتصرف، لقال الشاك في الله: لو كان لهذا الخلق ربٌ لحادثه، وإن الله تعالى قد حدث بما ترون من الآيات، إنه جاء بضوء طَبَّقَ ما بين الخافقين، وجعل فيها معاشاً، وسراجاً وهاجاً، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق، وجاء بظلمة طَبَّقَتْ ما بين الخافقين، وجعل فيه سكناً ونجوماً، وقمرأ منيراً، وإذا شاء، بنى بناء، جعل فيه المطر، والبرق، والرعد، والصواعق، ما شاء، وإذا شاء صرف ذلك، وإذا شاء جاء ببرد يرقف الناس، وإذا شاء ذهب بذلك، وجاء بحر يأخذ أنفاس الناس، ليعلم الناس أن لهذا الخلق رباً يحادثه بما ترون من الآيات، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ سَكِيدٌ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ في الأنداد قولان قد تقدم في أول السورة. وفي قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: يحبونهم كحب الذين آمنوا لله، هذا قول ابن عباس، وعكرمة، وأبي العالية، وابن زيد، ومقاتل، والفراء. والثاني: يحبونهم كمحبتهم لله، أي: يسوون بين الأوثان وبين الله تعالى في المحبة. هذا اختيار الزجاج، قال: والقول الأول ليس بشيء، والدليل على نفيه قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ قال المفسرون: أشد حباً لله من أهل الأوثان لأوثانهم.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وعاصم، وحزمة والكسائي: (يرى) بالياء، ومعناه: لو يرون عذاب الآخرة؛ لعلموا أن القوة لله جميعاً. وقرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب: ﴿لَوْ يَرَى﴾ بالتاء، على الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به جميع الناس. وجوابه محذوف، تقديره: لرأيتم أمراً عظيماً، كما تقول: لو رأيت فلاناً والسياط تأخذه. وإنما حذف الجواب، لأن المعنى واضح بدونه. قال أبو علي: وإنما قال: «إذ» ولم يقل: «إذا» وإن كانت «إذ» لما مضى، لإرادة تقريب الأمر، فأتى بمثال الماضي، وإنما حذف جواب «لو» لأنه أفخم، لذهاب المتوعد إلى كل ضرب من الوعيد. وقرأ أبو جعفر، (إن القوة لله) و: (إن الله) بكسر الهمزة فيهما على الاستئناف، كأنه يقول: فلا يحزنك ما ترى من محبتهم أصنامهم إن ﴿الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال ابن عباس: القوة: القدرة، والمنعة.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْمَكَدَّ وَنَقَطَتْ بِهِنَّ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَا كُنَّا كُرَّةً فَنَتَّبِعُ مِثْلَهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ لَعَنَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِبَارِعِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم القادة والرؤساء، قاله ابن عباس، وأبو العالية، وقتادة، ومقاتل، والزجاج. والثاني: أنهم الشياطين، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَوْا الْمَكَدَّ﴾ يشمل الكل. ﴿وَنَقَطَتْ بِهِنَّ الْأَسْبَابُ﴾ أي: عنهم، مثل قوله: ﴿سَتَلَ يَدَهُ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]. وفي (الأسباب) أربعة أقوال: أحدها: أنها المودات، وإلى نحوه ذهب ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنها الأعمال، رواه السدي عن ابن مسعود، وابن عباس، وهو قول أبي صالح وابن زيد. والثالث: أنها الأرحام. رواه ابن جريج عن ابن عباس. والرابع: أنها تشمل جميع ذلك. قال ابن قتيبة: هي الأسباب التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا، فأما تسميتها بالأسباب، فالسبب في اللغة: الحبل، ثم قيل لكل ما يتوصل به إلى المقصود: سبب. والكُرَّة: الرجعة إلى الدنيا، قاله ابن عباس، وقتادة في آخرين ﴿فَنَتَّبِعُوا مِثْلَهُمْ﴾ يريدون: من القادة ﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ في الآخرة. ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ لَعَنَهُمْ﴾ قال الزجاج: أي: كتبرؤ بعضهم من بعض، يريدهم الله أعمالهم حسرات عليهم، لأن أعمال الكافر لا تنفعه. وقال ابن الأنباري: يريدهم الله أعمالهم القبيحة حسرات عليهم إذا رأوا أحسن المجازاة للمؤمنين بأعمالهم، قال: ويجوز أن يكون: كذلك يريدهم الله ثواب أعمالهم الصالحة وجزاءها، فحذف الجزاء وأقام الأعمال مقامه. قال ابن فارس: والحسرة: التلطف على الشيء الفات. وقال غيره: الحسرة: أشد الندامة.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلًّا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَاكًا مَلِيًّا وَلَا تُدْعَىٰ حُلُوبًا أَلَمْ يَكُن لَكُمْ عَذُوبًا مُّبِينًا ﴿١٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلًّا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَاكًا مَلِيًّا﴾ نزلت في ثقيف، وخزاعة، وبنو عامر بن صعصعة، فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام، وحرموا البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُدْعَىٰ حُلُوبًا أَلَمْ يَكُن لَكُمْ عَذُوبًا مُّبِينًا﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم ﴿حُلُوبًا﴾ مثقلة^(١). وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وحمزة (حُطُوبَات) ساكنة الطاء خفيفة. وقرأ الحسن، وأبو الجوزاء (حُطُوبَات) بفتح الخاء وسكون الطاء من غير همز. وقرأ أبو عمران الجوني بضم الخاء وفتح الطاء مع الهمز. قال ابن قتيبة: خطواته: سبيله ومسلكه، وهي جمع حُطوة، والخطوة بضم الخاء: ما بين القدمين، ويفتحها: الفعلة الواحدة. واتباعهم خطواته: أنهم كانوا يحرمون أشياء قد أحلها الله، ويحلون أشياء قد حرمها الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذُوبًا مُّبِينًا﴾ أي: بين. وقيل: أبان عداوته بما جرى له مع آدم.

﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ كل إنم وقبح. قال ابن عباس: وإنما سمي سوءاً، لأنه تسوء عواقبه، وقيل: لأنه يسوء إظهاره (والفحشاء): من: فحش الشيء: إذا جاز قدره. وفي المراد بها هاهنا خمسة أقوال: أحدها: أنها كل معصية لها حد في الدنيا. والثاني: أنها ما لا يعرف في شريعة ولا سنة. والثالث: أنها البخل، وهذه الأقوال الثلاثة منقولة عن ابن عباس. والرابع: أنها الزنى، قاله السدي. والخامس: المعاصي، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنه حرم عليكم ما لم يحرم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْجُوهُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ آيَاتًا أَرَأَيْتُمْ لَو أَنَّ نَارَ اللَّهِ تَوَلَّتْكُمْ وَأَن يَسْأَلَكُمْ سَاءَ مَا يَحْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْجُوهُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ آيَاتًا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها في الذين قيل لهم: ﴿كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَاكًا مَلِيًّا﴾ فعلى هذا تكون الهاء والميم هائدة عليهم، وهذا قول مقاتل. والثاني: أنها نزلت في اليهود، وهي قصة مستأنفة، فتكون الهاء والميم كناية عن غير مذكور، ذكره ابن إسحاق عن ابن عباس. والثالث: في مشركي العرب وكفار قريش، فتكون الهاء والميم هائدة إلى قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ﴾ فعلى القول الأول؛ يكون المراد بالذي أنزل الله: تحليل الحلال، وتحريم الحرام. وعلى الثاني يكون: الإسلام. وعلى الثالث: التوحيد والإسلام. و﴿الَّذِينَ﴾ بمعنى: وجدنا.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا يَشْعُرُونَ لَآتَيْنَهُمْ آيَاتًا لَّيْسَ لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهٌ غَيْرٌ لَّهُمْ﴾ من الذين، ولا يهتدون له، آيتعونهم أيضاً في خطيئهم

واقترانهم ١٩.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْوَيْتِ الَّذِي يَدْعُو بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةً وَيَبْدَأُ مِمَّنْ بَيْنَكُمْ عَمَّا فَهَمُوا بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْوَيْتِ الَّذِي يَدْعُو بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةً وَيَبْدَأُ مِمَّنْ بَيْنَكُمْ عَمَّا فَهَمُوا بِمَا يَقُولُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْوَيْتِ الَّذِي يَدْعُو بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةً وَيَبْدَأُ مِمَّنْ بَيْنَكُمْ عَمَّا فَهَمُوا بِمَا يَقُولُونَ﴾ في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناها: ومثل الذين كفروا كمثل البهائم التي ينعق بها الراعي، وهذا قول الفراء، وثلعب، فالأجمع: أن معنى الآية: ومثل الذين كفروا كمثل البهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي كفروا، ثم شبههم بالراعي، ولم يقل: كالغنم، والمعنى: ومثل الذين كفروا كمثل البهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت، فلو قال لها الراعي: ارعي، أو اشربي؛ لم تدر ما يقول لها، فكذلك الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن وإنذار الرسول، فأضيف التشبيه إلى الراعي، والمعنى في المرعي، وهو ظاهر في كلام العرب، يقولون: فلان يخافك كخوف الأسد، والمعنى: كخوف الأسد [لأن الأسد هو المعروف بأنه المخوف]. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزناء فريضة الرجم

والمعنى: كما كان الرجم فريضة الزنى. والثاني: أن معناها: ومثل الذين كفروا، ومثلنا في وعظهم، كمثل الناقع

(١) أي: مضمومة الطاء.

والمنعوق به، فحذف: ومثلنا، اختصاراً، إذ كان في الكلام ما يدل عليه، وهذا قول ابن قتيبة، والزجاج. والثالث: ومثل الذين كفروا في دعائهم ألتهم التي يعبدون، كمثل الذي ينطق، هذا قول ابن زيد، والذي ينطق هو الراعي، يقال: نطق بالغنم، ينطق نطقاً ونعيقاً ونعاقاً ونعقانا. قال ابن الأنباري: والفاشي في كلام العرب أنه لا يقال: نطق، إلا في الصياح بالغنم وحدها، فالغنم تسمع الصوت ولا تعقل المعنى. ﴿مُّمَّ بَكْمُ﴾ إنما وصفهم بالصمم والبكم، لأنهم في تركهم قبول ما يسمعون بمنزلة من لا يسمع، وكذلك في النطق والنظر، وقد سبق شرح هذا المعنى.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالذَّمَّ وَاللَّعْنَ الْخِزْيِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ قرأ أبو جعفر «الميتة» هاهنا، وفي المائدة، والنحل: ﴿بَلَدَةٌ مَيْتَةٌ﴾ [٢١]. بالتشديد، حيث وقع. والميتة في عرف الشرع: اسم لكل حيوان خرجت روحه بغير ذكاة. وقيل: إن الحكمة في تحريم الميتة أن جمود الدم فيها بالموت يحدث أذى للآكل، وقد يسمى المذبوح في بعض الأحوال: ميتة حكماً، لأن حكمه حكم الميتة، كذبيحة المرتد. فاما الدم؛ فالمحرم منه: المسفوح، لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]. قال القاضي أبو يعلى: فاما الدم الذي يبقى في خلل اللحم بعد الذبح، وما يبقى في العروق؛ فهو مباح. فاما لحم الخنزير؛ فالمراد: جملته، وإنما خص اللحم، لأنه معظم المقصود. قال الزجاج: الخنزير يشتمل على الذكر والأنثى. ومعنى ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾. ما رفع فيه الصوت بتسمية غير الله، ومثله الإهلال بالحج، إنما هو رفع الصوت بالتلبية.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: ألجئ بضرورة. وقرأ أبو جعفر: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ بكسر الطاء حيث كان. وأدغم ابن محيصة الضاد في الطاء.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال الزجاج: البغي: قصد الفساد، يقال: بغى الجرح: إذا ترامى إلى الفساد. وفي قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أن معناه غير باغ على الولاية، ولا عاد يقطع السبيل، هذا قول سعيد بن جبير ومجاهد. والثاني: غير باغ في أكله فوق حاجته، ولا متعدُّ بأكلها وهو يجد غيرها، هذا قول الحسن، وعكرمة، وقتادة، والربيع. والثالث: غير باغ، أي: مستحل، ولا عاد: غير مضطر، روي عن سعيد بن جبير، ومقاتل. والرابع: غير باغ شهوته بذلك، ولا عاد بالشبع منه، قاله السدي.

فصل

معنى الضرورة في إباحة الميتة: أن يخاف على نفسه أو بعض أعضائه. سئل أحمد رضي الله عنه عن المضطر إذا لم يأكل الميتة، فذكر عن مسروق أنه قال: من اضطر فلم يأكل فمات دخل النار. فاما مقدار ما يأكل؛ فنقل حنبل: يأكل مقدار ما يقيمه عن الموت. ونقل ابن منصور: يأكل بقدر ما يستغني. فظاهر الأولى: أنه لا يجوز له الشبع، وهو قول أبي حنيفة والشافعي، وظاهر الثانية: جواز الشبع، وهو قول مالك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْكُرُونَ بِهِ تَمَّا قِيلَ أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرْكِبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس: نزلت في اليهود، كتموا اسم النبي صلى الله عليه وسلم وغيره في كتابهم. والتمن القليل: ما يصيبونه من أتباعهم من الدنيا. ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ قال الزجاج: معناه: إن الذين يأكلونه يعدِّبون به، فكانهم يأكلون النار. ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ هذا دليل على أن الله لا يكلم الكفار ولا يحاسبهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرْكِبُهُمْ﴾ [فيه] ثلاثة أقوال: أحدها: لا يركب أعمالهم، قاله مقاتل. والثاني: لا يثني عليهم، قاله الزجاج. والثالث: لا يطهرهم من دنس كفرهم وذنوبهم، قاله ابن جرير.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الصَّلَاةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْوِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: اختاروها على الهدى.

قوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: فما أصبرهم على عمل يؤديهم إلى النار! قاله عكرمة، والربيع. والثاني: ما أجزأهم على النار؛ قاله الحسن، ومجاهد. وذكر الكسائي أن أعرابياً حلف له رجل كاذباً، فقال الأعرابي: ما أصبرك على الله، يريد: ما أجزأك. والثالث: ما أبقاهم في النار، كما تقول: ما أصبر فلاناً على الحبس، أي: ما أبقاه فيه، ذكره الزجاج. والرابع: أن المعنى: فأي شيء صبرهم على النار؟! قاله ابن الأنباري. وفي «ما» قولان: أحدهما: أنها للاستفهام، تقديرها: ما الذي أصبرهم؟ قاله عطاء، والسدي، وابن زيد، وأبو بكر بن عياش. والثاني: أنها للتعجب، كقولك: ما أحسن زيداً، وما أعلم عمراً. وقال ابن الأنباري: معنى الآية التعجب، والله يعجبُ المخلوقين، ولا يعجب هو كعجبهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْكِتَابِ لَرِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الإشارة بذلك إلى ما تقدم من الوعيد بالعذاب، فتقديره: ذلك العذاب بأن الله نزل الكتاب بالحق، فكفروا به واختلفوا فيه. وفي «الكتاب» قولان: أحدهما: أنه التوراة. والثاني: القرآن. وفي «الحق» قولان: أحدهما: أنه العدل، قاله ابن عباس. والثاني: أنه ضد الباطل، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْكِتَابِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه التوراة. ثم في اختلافهم فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أن اليهود والنصارى اختلفوا فيها، فادعى النصارى فيها صفة عيسى، وأنكر اليهود ذلك. والثاني: أنهم خالفوا ما في التوراة من صفة محمد ﷺ. والثالث: أنهم خالفوا سلفهم في التمسك بها. والثاني: أنه القرآن، فمنهم من قال: شعر، ومنهم من قال: إنما يعلمه بشر. والشقاق: معاداة بعضهم لبعض. وفي معنى «بعيد» قولان: أحدهما: أن بعضهم متباعد في مشاققة بعض، قاله الزجاج. والثاني: أنه بعيد من الهدى.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ يَكُلَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْكِتَابِ وَآتَىٰ مِمَّا رَزَقَهُمْ وَحَدِيثًا وَآلَافًا عَدِيدَةً فِي الْبَيْتِ الَّذِي بُنِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا لِيُتَذَكَّرَ بِهِ لعلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً سأل عن «البر»، فأنزلت هذه الآية، فدعاه رسول الله ف تلاها عليه. وفيمن حُوطب بها قولان: أحدهما: أنهم المسلمون. والثاني: أهل الكتابيين. فعلى القول الأول؛ معناها: ليس البر كله في الصلاة، ولكن البر ما في هذه الآية. وهذا المعنى مروى عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، والضحاك، وسفيان. وعلى القول الثاني؛ معناها: ليس البر صلاة اليهود إلى المغرب، وصلاة النصارى إلى المشرق، ولكن البر ما في هذه الآية، وهذا قول قتادة، والربيع، وعوف الأعرابي، ومقاتل. وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ بنصب الراء. وقرأ الباقون برفعها، قال أبو علي: كلاهما حسن، لأن كل واحد من الاسمين؛ اسم «ليس» وخبرها معرفة، فإذا اجتمعا في التعريف تكافأ في كون أحدهما اسماً، والآخر خبراً، كما تتكافأ التكرتان. وفي المراد بالبر ثلاثة أقوال: أحدها: الإيمان. والثاني: التقوى. والثالث: العمل الذي يقرب إلى الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: ولكن البر بر من آمن بالله. والثاني: ولكن ذا البر من آمن بالله، حكاهما الزجاج. وقرأ نافع، وابن عامر: (ولكن البر) بتخفيف نون «لكن» ورفع «البر». وإنما ذكر اليوم الآخر، لأن عبدة الأوثان لا يؤمنون بالبعث. وفي المراد بالكتاب هاهنا قولان: أحدهما: أنه القرآن. والثاني: أنه بمعنى الكتب، فيدخل في هذا اليهود، لتكذيبهم بعض النبيين وردهم القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَآتَىٰ مِمَّا رَزَقَهُمْ﴾ في هاء «حبه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى المال. والثاني: إلى الإيتاء. وكان الحسن إذا قرأها قال: سوى الزكاة المفروضة.

قوله تعالى: ﴿ذَوَى الثَّرِيفِ﴾ يريد: قرابة المعطي. وقد شرحنا معنى: ﴿وَأَلَيْتَيْنِ وَالسَّكِينِ﴾ عند رأس ثلاث

وثمانين آية من هذه السورة. فاما ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الضيف، قاله سعيد بن جبير، والضحاك، ومقاتل، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنه الذي يمر بك مسافراً، قاله الربيع بن أنس، وعن مجاهد، وقاتلدا كالقولين. وقد روي عن الإمام أحمد أنه قال: هو المنقطع به يريد بلداً آخر. وهذا اختيار ابن جرير الطبري، وأبي سليمان الدمشقي، والقاضي أبو يعلى، ويحققه: أن السبيل الطريق، وابنه: صاحبه الضارب فيه، فله حق على من يمر به إذا كان محتاجاً. ولعل أصحاب القول الأول أشاروا إلى هذا، لأنه إن كان مسافراً، فإنه ضيف لم ينزل. والقول الثالث: أنه الذي يريد سافراً، ولا يجد نفقة، ذكره الماوردي وغيره عن الشافعي.

قوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي: في فك الرقاب. ثم فيه قولان: أحدهما: أنهم المكاتبون يعانون في كتابتهم بما يعتقون به، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهو مروى عن علي بن أبي طالب، والحسن، وابن زيد، والشافعي. والثاني: أنهم عبيد يشترون بهذا السهم ويعتقون، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال مالك بن أنس، وأبو عبيد، وأبو ثور. وعن أحمد كالقولين. فاما البأساء؛ فهي: الفقرة. والضراء: المرض. وحين البأس: القتال، قاله الضحاك. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ مَسَدُوا﴾ قال أبو العالية: تكلموا بالإيمان وحققوه بالعمل.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُيِّبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْمُرِّ بِالْحَرْ وَالْمَبْدُ بِالْمَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُيِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبَى بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَئِمَّ عَذَابُ آيَةٍ﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُيِّبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ﴾ روى شيبان عن قتادة أن أهل الجاهلية كان فيهم بغي وطاعة للشيطان، وكان الحي منهم إذا كان فيهم عدة ومنعة، فقتل عدهم عبد قوم آخرين؛ قالوا: لن نقتل به إلا حراً، تعزراً لفضلهم على غيرهم. وإذا قتلت امرأة منهم امرأة من آخرين؛ قالوا: لن نقتل بها إلا رجلاً؛ فنزلت هذه الآية. ومعنى «كتب»: فرض، قاله ابن عباس وغيره. والقصاص: مقابلة الفعل بمثله، مأخوذ من: قص الأثر. فإن قيل: كيف يكون فرضاً والولي مخير بينه وبين العفو؟ فالجواب: أنه فرض على القاتل للولي، لا على الولي.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُيِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: من دم أخيه، أي: ترك له القتل، ورضي منه بالدية. ودل قوله: ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ على أن القاتل لم يخرج عن الإسلام، ﴿فَأَبَى بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: مطالبته بالمعروف، بأمر أخذ الدية بالمطالبة الجميلة التي لا يرهقه فيها: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ يأمر المطالب بأن لا يبغض ولا يماطل ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال سعيد بن جبير: كان حكم الله على أهل التوراة أن يقتل قاتل العمدة، ولا يعفى عنه، ولا يؤخذ منه دية، فرخص الله لأمة محمد، فإن شاء ولي المقتول عمداً قتل، وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَ﴾ أي: ظلم، فقتل قاتل صاحبه بعد أخذ الدية؛ ﴿فَلَئِمَّ عَذَابُ آيَةٍ﴾ قال قتادة: يقتل ولا تقبل منه الدية.

فصل

ذهب جماعة من المفسرين إلى أن دليل خطاب⁽¹⁾ هذه الآية منسوخ، لأنه لما قال: ﴿الْمُرِّ بِالْحَرْ﴾؛ اقتضى أن لا يقتل العبد بالحر، وكذلك لما قال: ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ اقتضى أن لا يقتل الذكر بالأنثى من جهة دليل الخطاب، وذلك منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَيْكُمْ نِيهَاً أَنْ تُلْفَسَ بِالْأُنْثَى﴾ قال شيخنا علي بن عبيد الله: وهذا عند الفقهاء ليس بنسخ، لأن الفقهاء يقولون: دليل الخطاب حجة ما لم يعارضه دليل أقوى منه.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لِمَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ قال الزجاج: إذا علم الرجل أنه إن قُتِل قُتِل؛ أمسك عن القتل، فكان في ذلك حياة للذي هم بقتله ولنفسه، لأنه من أجل القصاص أمسك. وأخذ هذا المعنى الشاعر فقال:

أبلغ أبا مالك عني مغلغلة
وفي العتباب حياة بين أقوام

(1) دليل الخطاب عند الأصوليين هو مفهوم المخالفة، وهو ثبوت نقيض حكم المنطوق للمسكوت.

يريد: أنهم إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب. والألباب: العقول، وإنما خصهم بهذا الخطاب وإن كان الخطاب عاماً، لأنهم المستمعون بالخطاب، لكونهم يأترون بأمره ويتبهون بتهيه.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا كُمُتُمْ تَتَقُونَ﴾ قال ابن عباس: لعلكم تتقون الدماء. وقال ابن زيد: لعلك تتقي أن يقتله فتقتل

به.

فصل

نقل ابن منصور عن أحمد: إذا قتل رجل رجلاً بعصى، أو خنقه، أو شدخ رأسه بحجر، يقتل بمثل الذي قتل به. فظاهر هذا: أن القصاص يكون بغير السيف، ويكون بمثل الآلة التي قتل بها، وهو قول مالك، والشافعي. ونقل عنه حرب: إذا قتله بخشبة قتل بالسيف. ونقل أبو طالب: إذا خنقه قتل بالسيف. فظاهر هذا: أنه لا يكون القصاص إلا بالسيف، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا قَتَلْتُمْ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا قَتَلْتُمْ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قال الزجاج: المعنى: وكتب عليكم، إلا أن الكلام إذا طال استغنى عن العطف بالواو. وعلم أن معناه معنى الواو، وليس المراد: كتب عليكم أن يوصي أحدكم عند الموت، لأنه في شغل حينئذ، وإنما المعنى: كتب عليكم أن توصوا وأنتم قادرون على الوصية، فيقول الرجل: إذا أنا مت، فلفلان كذا. فأما الخير هاهنا؛ فهو المال في قول الجماعة. وفي مقدار المال الذي تقع هذه الوصية فيه ستة أقوال: أحدها: أنه ألف درهم فصاعداً، روي عن علي، وقتادة. والثاني: أنه سبعمائة درهم فما فوقها، رواه طاووس عن ابن عباس. والثالث: ستون ديناراً فما فوقها، رواه عكرمة عن ابن عباس. والرابع: أنه المال الكثير الفاضل عن نفقة العيال. قالت عائشة لرجل سألها: إني أريد الوصية، فقالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: هذا شيء يسير، فدعه لعيالك. والخامس: أنه من ألف درهم إلى خمسمائة، قاله إبراهيم النخعي. والسادس: أنه القليل والكثير، رواه معمر عن الزهري. فأما المعروف؛ فهو الذي لا حيف فيه.

فصل

وهل كانت الوصية ندباً أو واجبة؟ فيه قولان: أحدهما: أنها كانت ندباً. والثاني: أنها كانت فرضاً، وهو أصح، لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ﴾ ومعناه: فرض. قال ابن عمر: نسخت هذه الآية بآية الميراث. وقال ابن عباس: نسختها: ﴿لِزَّيَالٍ نَّصِيبٍ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧]. والعلماء متفقون على نسخ الوصية للوالدين والأقربين الذين يرثون، وهم مختلفون في الأقربين الذين لا يرثون: هل تجب الوصية لهم؟ على قولين، أحدهما أنها لا تجب لأحد.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَلًا مِمَّا بَدَدْنَا قَانًا إِسْمُهُ عَلَى الْإِثْمِ يَبْذُلُوهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ قال الزجاج: من بدل أمر الوصية بعد سماعه إياها، فإنما إثمه على مبدله، لا على الموصي، ولا على الموصى له ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما قد قاله الموصي ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعله الموصى إليه.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم ﴿مَوْصٍ﴾ ساكنة الواو، وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿مَوْصٍ﴾ مفتوحة الواو مشددة الصاد. وفي المراد بالخوف هاهنا قولان: أحدهما: أنه العلم. والثاني: نفس الخوف. فعلى الأول؛ يكون الجور قد وجد. وعلى الثاني: يخشى وجوده. و«الجنف»: الميل عن الحق. قال الزجاج: ﴿جَنَفًا﴾، أي: ميلاً، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾، أي: قصد الإثم. وقال ابن عباس: الجنف: الخطأ، والإثم: العمد. قال أبو سليمان الدمشقي: الجنف: الخروج عن الحق، وقد يسمى به المخطف والعامد، إلا أن المفسرين علقوا الجنف على المخطف، والإثم على العامد. وفي توجيه هذه الآية قولان: أحدهما: أن معناها: من حضر رجلاً يموت، فأسرف في وصيته، أو قصر عن حق؛ فليأمره بالعدل، هذا قول مجاهد.

والثاني: أن معناها: من أوصى بجور، فرد وليه وصيته، أو ردها إمام من أئمة المسلمين إلى كتاب الله وستة نبيه؛ فلا إثم عليه، وهذا قول قتادة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَلَّحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الذين أوصى لهم، ولم يجز لهم ذكر، غير أنه لما ذكر الموصي أفاد مفهوم الخطاب أن هناك موصى له، وأنشد القراء:

وما أدري إذا يممّت أرضاً
الخير الذي أنا ابتغيه
أريد الخير أيهما يليني؟
أم الشر الذي هو يبتغيني

فكُنّي في البيت الأول عن الشر بعد ذكره الخير وحده، لما في مفهوم اللفظ من الدلالة.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُيِّبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُيِّبَ عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُيِّبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ الصيام في اللغة: الإمساك في الجملة، يقال: صامت الخيل: إذا أمسكت عن السير، وصامت الريح: إذا أمسكت عن الهبوب. والصوم في الشرع: عبارة عن الإمساك عن الطعام والشراب والجماع مع انضمام النية إليه. وفي الذين من قبلنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أهل الكتاب، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وهو قول مجاهد. والثاني: أنهم النصارى، قاله الشعبي، والربيع. والثالث: أنهم جميع أهل الملل، ذكره أبو صالح عن ابن عباس. وفي موضع التشبيه في كاف ﴿كَمَا كُيِّبَ﴾ قولان: أحدهما: أن التشبيه في حكم الصوم وصفته، لا في عدده. قال سعيد بن جبيرة: كتب عليهم إذا نام أحدهم قبل أن يطعم لم يحل له أن يطعم إلى القابلة، والنساء عليهم حرام ليلة الصيام، وهو عليهم ثابت. وقد أرخص لكم. فعلى هذا تكون الآية منسوخة بقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ [البرقة: ١٨٧]. فإنها فرقت بين صوم أهل الكتاب وبين صوم المسلمين. والثاني: أن التشبيه في عدد الأيام. ثم في ذلك قولان: أحدهما: أنه فرض على هذه الأمة صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وقد كان ذلك فرضاً على من قبلهم. قال عطية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿كَمَا كُيِّبَ عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ﴾ قال: كان ثلاثة أيام من كل شهر، ثم نسخ برمضان. قال معمر عن قتادة: كان الله قد كتب على الناس قبل رمضان ثلاثة أيام من كل شهر، فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ والثاني: أنه فرض على من قبلنا صوم رمضان بعينه. قال ابن عباس: فقدم النصارى يوماً ثم يوماً، وأخروا يوماً، ثم قالوا: نقدم عشراً ونؤخر عشراً. وقال السدي عن أشياخه: اشتد على النصارى صوم رمضان، فجعل يتقلب عليهم في الشتاء والصيف، فلما رأوا ذلك اجتمعوا فجعلوا صياماً في الفصل بين الشتاء والصيف، وقالوا: نزيد عشرين يوماً نكفر بها ما صنعنا. فعلى هذا تكون الآية محكمة غير منسوخة.

قوله تعالى: ﴿لَمَلَّكُمُ النَّفْسَ﴾ لأن الصيام وصلة إلى التقى، إذ هو يكف النفس عن كثير مما تتطلع إليه من المعاصي، وقيل: لملكم تنقون محظورات الصوم.

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ سَبْعِينَ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ قال الزجاج: نصب «أياماً» على الظرف، كأنه قال: كتب عليكم الصيام في هذه الأيام. والعامل فيه «الصيام»، كأن المعنى: كتب عليكم أن تصوموا أياماً معدودات. وفي هذه الأيام ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ثلاثة أيام من كل شهر. والثاني: أنها ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عاشوراء. والثالث: أنها شهر رمضان، وهو الأصح. وتكون الآية محكمة في هذا القول، وفي القولين قبله تكون منسوخة، ﴿فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فيه إضمار: فأفطر.

فصل

وليس المرض والسفر على الإطلاق، فإن المريض إذا لم يضره الصوم؛ لم يجز له الإفطار، وإنما الرحمة

موقوفة على زيادة المرض بالصوم. واتفق العلماء أن السفر مقدر، واختلفوا في تقديره، فقال أحمد، ومالك، والشافعي: أقله مسيرة ستة عشر فرسخاً؛ يومان، وقال أبو حنيفة وأصحابه: أقله مسيرة ثلاثة أيام، مسيرة أربعة وعشرين فرسخاً. وقال الأوزاعي: أقله مرحلة يوم، مسيرة ثمانية فراسخ. وقيل: إن السفر مشتق من السفر الذي هو الكشف، يقال: سفت المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح: إذا أضاء، فسمي الخروج إلى المكان البعيد: سفرأ، لأنه يكشف عن أخلاق المسافر.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ فِدْيَةَ طَعَامِ مَسْكِينٍ﴾ نقل عن ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وابن عمر، وابن عباس، وسلمة بن الأكوع، وعلقمة، والزهري في آخرين في هذه الآية أنهم قالوا: كان من شاء صام، ومن شاء أفطر وافتدى، يطعم عن كل يوم مسكيناً، حتى نزلت: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ أَنَّهُ مُرِيدٌ فِدْيَةَ طَعَامِ مَسْكِينٍ﴾ فعلى هذا يكون معنى الكلام: وعلى الذين يطيقونه ولا يصومونه فدية، ثم نسخت. وروي عن عكرمة أنه قال: نزلت في الحامل والمرضع. وقرأ أبو بكر الصديق، وابن عباس: (وعلى الذين يُطِيقُونَهُ) بضم الياء وفتح الطاء وتشديد الواو. قال ابن عباس: هو الشيخ والشيخة.

قوله تعالى: ﴿فِدْيَةُ طَعَامِ مَسْكِينٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمره، والكسائي ﴿فِدْيَةَ﴾ منون ﴿طَعَامِ مَسْكِينٍ﴾ موحد. وقرأ نافع، وابن عامر: «فدية» بغير تنوين «طعام» بالخفض «مساكين» بالجمع. قال أبو علي: معنى القراءة الأولى: على كل واحد طعام مسكين. ومثله: ﴿تَأْتِيهِمْ ثَمَرَاتٌ﴾ [النور: ٤]. أي: اجلدوا كل واحد ثمانين. قال أبو زيد: أتينا الأمير فكسانا كلنا حلّة، وأعطانا كلنا مئة، أي: فعل ذلك بكل واحد منا. قال: فأما من أضاف الفدية إلى الطعام، فكإضافة البعض إلى ما هو بعض له، وذلك أنه سمي الطعام الذي يفدى به: فدية، ثم أضاف الفدية إلى الطعام الذي يعم الفدية وغيرها، فهو على هذا من باب: خاتم حديد.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: من أطعم مسكينين، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أن التطوع إطعام مساكين، قاله طاووس. والثالث: أنه زيادة المسكين على قوته، وهو مروى عن مجاهد، وفعله أنس بن مالك لما كبر، ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ عائد إلى من تقدم ذكره من الأصحاء المقيمين المخيرين بين الصوم والإطعام على ما حكينا في أول الآية عن السلف، ولم يرجع ذلك إلى المرضى والمسافرين، والحامل والمرضع، إذ الفطر في حق هؤلاء أفضل من الصوم، وقد نهوا عن تعريض أنفسهم للتلف، وهذا يقوي قول القائلين بنسخ الآية.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَلَكُمْ لُكُوفٌ﴾ (١٨٥)

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ قال الأخفش: شهر رمضان بالرفع على تفسير الأيام، كأنه لما قال: ﴿إِنَّمَا تَعُدُّونَهُ﴾ فسرها فقال: هي شهر رمضان. قال أبو عبيد: وقرأ مجاهد: (شهر رمضان) بالنصب، وأراه نصبه على معنى الإغراء: عليكم شهر رمضان فصوموه، كقوله: ﴿بَلِّغْ أَيْكُمُ﴾ وقوله: ﴿وَسِعَتْهُ اللَّهُ﴾ قلت: وممن قرأ بالنصب معاوية، والحسن، وزيد بن علي، وعكرمة، ويحيى بن يعمر. قال ابن فارس: المرض: حر الحجارة من شدة حر الشمس، ويقال: شهر رمضان، من شدة الحر، لأنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة، سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام مرض الحر، ويجمع على رمضان، وأرمضاء، وأرمضة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أنزل القرآن فيه جملة واحدة، وذلك في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا. قاله ابن عباس. والثاني: أن معناه: أنه أنزل القرآن بفرض صيامه، روي عن مجاهد، والضحاك. والثالث: أن معناه: إن القرآن ابتدئ بنزوله فيه على النبي ﷺ قاله ابن إسحاق، وأبو سليمان الدمشقي. قال مقاتل: والفرقان: المخرج في الدين من الشبهة والضلالة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: من كان حاضراً غير مسافر. فإن قيل: ما الفائدة في إعادة ذكر المرض والسفر في هذه الآية، وقد تقدم ذلك؟ قيل: لأن في الآية المتقدمة منسوخاً، فأعاده لئلا يكون مقروناً بالمنسوخ.

قوله تعالى: ﴿رِيذُ اللَّهِ بِكُمْ أَلَسَرَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: اليسر: الإفطار في السفر، والعسر: الصوم فيه. وقال عمر بن عبد العزيز: أي ذلك كان أيسر عليك فافعل: الصوم في السفر، أو الفطر.

قوله تعالى: ﴿وَلْيُكْفِلُوا الْيَتِيمَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿وَلْيُكْفِلُوا﴾ بإسكان الكاف خفيفة. وقرأ أبو بكر عن عاصم بتشديد الميم، وذلك مثل: «وصى» و«أوصى» وقال ابن عباس: ولتكملوا عدة ما أفطرتم. وقال بعضهم: المراد به: لا تزيدوا على ما افترض، كما فعلت النصارى، ولا تنقلوه عن زمانه كما نقلته. ﴿وَلْيُكْفِرُوا اللَّهَ عَنَّا مَا هَدَيْتُمْ﴾ قال ابن عباس: حق على المسلمين إذا نظروا إلى هلال شوال، أن يكفروا لله حتى يفرغوا من عيدهم. فإن قيل: ما وجه دخول الواو في قوله: ﴿وَلْيُكْفِلُوا الْيَتِيمَ﴾ وليس هناك ما يعطف عليه؟ فالجواب: أن هذه الواو عطف اللام التي بعدها على لام محذوفة، والمعنى: ولا يريد بكم العسر، ليسعدكم، ولتكملوا العدة، فحذفت اللام الأولى لوضوح معناها، ذكره ابن الأنباري.

فصل

ومن السنة إظهار التكبير ليلة الفطر، وليلة النحر، وإذا غدوا إلى المصلّى. واختلفت الرواية عن أحمد رضي الله عنه متى يقطع في عيد الفطر، فنقل عنه حنبل: يقطع بعد فراغ الإمام من الخطبة. ونقل الأثرم. إذا جاء المصلّى قطع. قال القاضي أبو يعلى: يعني: إذا جاء المصلّى وخرج الإمام.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْتُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أقرب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت هذه الآية، رواه الصلت بن حكيم عن أبيه عن جده. والثاني: أن يهود المدينة قالوا: يا محمداً كيف يسمع ربنا دعوانا، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام؟! فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم قالوا: يا رسول الله! لو نعلم أية ساعة أحب إلى الله أن ندعو فيها دعوانا، فنزلت هذه الآية، قاله عطاء. والرابع: أن أصحاب النبي قالوا له: أين الله؟ فنزلت هذه الآية، قاله الحسن. والخامس: أنه لما حرم في الصوم الأول على المسلمين بعد النوم الأكل والجماع؛ أكل رجل منهم بعد أن نام، ووطئ رجل بعد أن نام، فسألوا: كيف التوبة مما عملوا؟ فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. ومعنى الكلام: إذا سألك عني؛ فأعلمهم أنني قريب. وفي معنى «أجيب» قولان: أحدهما: أسمع، قاله الفراء، وابن القاسم. والثاني: أنه من الإجابة ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: فليجيبوني. قال الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى

أراد: فلم يجبه. وهذا قول أبي عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ قال أبو العالية: يعني: يهتدون.

فصل

إن قال قائل: هذه الآية تدل على أن الله تعالى يجيب أدعية الداعين، وترى كثيراً من الداعين لا يستجاب لهم! فالجواب: أن أبا سعيد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من مسلم دعا الله تعالى بدعوة ليس فيها قطعة رحم ولا إثم؛ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها»^(١). وجواب آخر: وهو أن الدعاء تفتقر إجابته إلى شروط أصلها الطاعة لله، ومنها أكل الحلال، فإن أكل الحرام

(١) رواه أحمد في «المستد» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه البزار، وأبو يعلى بإسانيد جياد، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

يمنع إجابة الدعاء، ومنها حضور القلب، ففي بعض الحديث: «لا يقبل الله دعاء من قلب غافل لاه»^(١). وجواب آخر: وهو أن الداعي قد يعتقد المصلحة في إجابته إلى ما سأل، وقد لا تكون المصلحة في ذلك، فيجانب إلى مقصوده الأصلي، وهو: طلب المصلحة، وقد تكون المصلحة في التأخير أو في المنع.

﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ النَّبِيَّاتِ الرَّفَّتُ إِلَيْنِ يَسْأَلُكُمْ مَنْ يَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْسُ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْفَنَ بَشِيرُومَنْ وَابْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكَلُوا وَأَشْرُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَبِطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْحَبِطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا النَّبِيَّ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا تَبْشُرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِي التَّسْبِيحِ تَكُ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ لِلنَّاسِ لَمَلَهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ النَّبِيَّاتِ الرَّفَّتُ﴾ سبب نزول هذه الآية أن الصحابة كانوا إذا نام الرجل قبل الأكل والجماع، حرماً عليه إلى أن يفطر، فجاء شيخ من الأنصار وهو صائم إلى أهله، فقال: عشوني، فقالوا: حتى تسخن لك طعاماً، فوضع رأسه فنام، فجاؤوا بالطعام، فقال: قد كنت نمت، فبات يتقلب ظهراً لبطن، فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فأخبره، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله! إني أردت أهلي الليلة، فقالت: إنها قد نامت، فظننتها تعتل، فواقعتها، فأخبرتني أنها قد نامت، فأنزل الله تعالى في عمر بن الخطاب: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ النَّبِيَّاتِ الرَّفَّتُ إِلَيْنِ يَسْأَلُكُمْ﴾ وأنزل الله في الأنصاري: ﴿وَكَلُوا وَأَشْرُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَبِطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْحَبِطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ هذا قول جماعة من المفسرين. واختلفوا في اسم هذا الأنصاري على أربعة أقوال: أحدها: قيس بن صرمة، قاله البراء. والثاني: صرمة بن أنس، قاله القاسم بن محمد. وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: صرمة بن مالك. والثالث: ضمرة بن أنس. والرابع: أبو قيس بن عمر^(٢). وذكر القولين أبو بكر الخطيب. فأما «الرفث» فقال ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وابن جبير في آخرين: هو الجماع.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْسُ لَهُنَّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن اللباس السكن. ومثله ﴿جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ يَأْسًا﴾ [الفرقان: ٤٧]. أي: سكناً. وهذا قول ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وقناة. والثاني: أنهم بمنزلة اللباس، لإفشاء كل واحد ببشرته إلى بشرة صاحبه، فكفى عن اجتماعهما متجردين باللباس. قال الزجاج: والعرب تسمى المرأة: لباساً وإزاراً، قال النابغة الجعدي:

إذا ما الضجيج ثنى جيدها
وقال غيره:

ألا أبلغ أبا حفص رسولاً
يريد بالإزار: امرأته.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال ابن قتيبة: يريد: تخونونها بارتكاب ما حُرِّمَ عليكم. قال ابن عباس: وعنى بذلك فعل عمر، فإنه أتى أهله، فلما اغتسل أخذ يلوم نفسه ويكي. ﴿فَالْفَنَ بَشِيرُومَنْ﴾: أصل المباشرة: إصااق البشرة بالبشرة. وقال ابن عباس: المراد بالمباشرة هاهنا: الجماع. ﴿وَابْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الولد، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد في آخرين. قال بعض أهل العلم: لما كانت المباشرة قد تقع على ما دون الجماع، أباحهم الجماع الذي يكون من مثله الولد، فقال: ﴿وَابْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يريد: الولد. والثاني: أن الذي كتب لهم الرخصة، وهو قول قناة، وابن زيد. والثالث: أنه ليلة القدر. رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس. والرابع: أنه القرآن، فمعنى الكلام: اتبعوا القرآن، فما أبيع لكم وأمروم به فهو المتبغى، وهذا اختيار الزجاج.

(١) رواء أحمد في «المستند» عن عبد الله بن عمرو، وفي سننه ابن لبيبة، وله شاهد من حديث أبي هريرة عن الترمذي ولنظفه: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واهلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»، وفي سننه ضعف.

(٢) ذكر الحافظ ابن حجر في «الفتح» أن الناس اختلفوا في اسم الأنصاري هذا، فبعضهم أعطاه اسمه وسماه بكتيبة، وبعضهم نسب لجد، وبعضهم قلب نسبه، وبعضهم صفه «ضمرة» ورجح أن صوابه «أبو قيس صرمة بن أبي أنس قيس بن مالك بن عدي».

قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَيْثُ يَبَيِّنُ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ قال عدي بن حاتم: لما نزلت هذه الآية، عمدت إلى عقالين، أبيض وأسود، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أقوم في الليل ولا أستبين الأسود من الأبيض، فلما أصبحت؛ غدوت على رسول الله فأخبرته، فضحك وقال: «إن كان وسادك إذا لمريض، إنما ذاك بياض النهار من سواد الليل»^(١). وقال سهل بن سعد: نزلت هذه الآية: ﴿حَيْثُ يَبَيِّنُ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأسود والخيط الأبيض، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له زيهما، فأنزل الله بعد ذلك ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنما يعني بذلك الليل والنهار.

فصل

إذا شك في الفجر، فهل يدع السحور أم لا؟ فظاهر كلام أحمد يدل على أنه لا يدع السحور، بل يأكل حتى يستيقظ طلوع الفجر. وقال مالك: أكره له أن يأكل إذا شك في طلوع الفجر، فإن أكل فعليه القضاء. وقال الشافعي: لا شيء عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْتَغُوا مِنْهُ وَآتَاكُمْ عَنْ كَفُورٍ فِي النَّسْجِ﴾ في هذه المباشرة قولان: أحدهما: أنها المجامعة، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنها ما دون الجماع من اللمس والقبلة، قاله ابن زيد. وقال قتادة: كان الرجل المعتكف إذا خرج من المسجد، فلقى امرأته باشرها إذا أراد ذلك، فوعظهم الله في ذلك.

فصل

الاعتكاف في اللغة: اللبث، يقال: فلان معتكف على كذا، وعاكف. وهو فعل مندوب إليه، إلا أن ينذره الإنسان، فيجب. ولا يجوز إلا في مسجد تقام فيه الجماعات، ولا يشترط في حق المرأة مسجد تقام فيه الجماعة، إذ الجماعة لا تجب عليها. وهل يصح بغير صوم؟ فيه عن أحمد روايتان.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجْرُؤُوا كَيْدًا إِنَّهُ عَادِدٌ غَيْرُ مَكْرُومٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: المباشرة ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ قال الزجاج: الحدود ما منع الله من مخالفتها، فلا يجوز مجاوزتها. وأصل الحد في اللغة: المنع، ومنه: حد الدار، وهو ما يمنع غيرها من الدخول فيها. والحداد في اللغة: الحاجب والبواب، وكل من منع شيئاً فهو حداد. قال الأعشى:

فقمنا ولما يصح ديكننا
إلى جونة عند حدادها

أي: عند ربه الذي يمنعها إلا بما يريد. وأحدت المرأة على زوجها، وحدت، فهي حاد، ومحد: إذا قطعت الزينة، وامتنعت منها، وأحدت النظر إلى فلان: إذا منعت نظرك من غيره. وسمي الحديد حديداً، لأنه يمتنع به الأعداء.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ﴾ أي: مثل هذا البيان الذي ذكر.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ وَتُدْخِلُوا بِهَا إِلَى الْكُفَّارِ يَتَّكِلُوا قَرِيْبًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ﴾ سبب نزولها: أن امرأ القيس بن عابس^(٢)، وعبدان الحضرمي، اختصما في أرض، وكان عبدان هو الطالب ولا بيته له، فأراد امرؤ القيس أن يحلف، فقرأ عليه النبي ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْتَدُونَ يَمْهَدُ اللَّهُ وَأَيْمَنِيهِمْ تَمْكًا قِيْلًا﴾ [آل عمران: ٤٧]. فكره أن يحلف، ولم يخاصم في الأرض، فنزلت هذه الآية. هذا قول جماعة، منهم سعيد بن جبیر. ومعنى الآية: لا يأكل بعضكم أموال بعض، كقولته: ﴿فَأَقْبَلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال القاضي أبو يعلى: والباطل على وجهين: أحدهما: أن يأخذه بغير طيب نفس من مالكة، كالسرقة، والغصب، والخيانة. والثاني: أن يأخذه بطيب نفسه، كالقمار، والغناء، وثن الخمر. وقال الزجاج: الباطل: الظلم. ﴿وَتُدْخِلُوا﴾ أصله في

(٢) في الأصل: ابن عباس.

(١) رواه أحمد في «المستد» وهو في «الصحيحين» من غير وجه.

اللغة من: أدليت الدلو: إذا أرسلتها لتملأها، ودلوها: إذا أخرجتها. ومعنى أدلى فلان بحجته: أرسلها، وأتى بها على صحة. فمعنى الكلام: تعملون على ما يوجب إدلاء الحججة، وتخونون في الأمانة، وأنتم تعلمون أن الحججة عليكم في الباطن. وفي هاء «بها» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الأموال، كأنه قال: لا تصنعوا ببعضها جورة الحكام. والثاني: أنها ترجع إلى الخصومة، فإن قيل: كيف أعاد ذكر الأكل فقال: «ولا تاكلوا» و«لتاكلوا»؟ فالجواب: أنه وصل اللفظة الأولى بالباطل، والثانية بالإثم، فأعادها للزيادة في المعنى، ذكره ابن الأنباري.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجَّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِمَّا أَنْتَرُوا وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَوْا اللَّهَ لِمَلَكُمُ تَلَمَّحُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ هذه الآية من أولها إلى قوله: ﴿وَالْحَجَّ﴾ نزلت على سبب، وهو أن رجلين من الصحابة قالوا: يا رسول الله! ما بال الهلال يبدو دقيقاً، ثم يزيد ويمتلئ حتى يستدير ويستوي، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان؟ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ هذا قول ابن عباس. ومن قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ إلى آخرها، يدل على سبب آخر، وهو أنهم كانوا إذا حجوا، ثم قدموا المدينة، لم يدخلوا من باب، ويأتون البيوت من ظهورها، ففسى رجل، فدخل من باب، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ هذا قول البراء بن عازب^(١). وفيما كانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها لأجله أربعة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يفعلون ذلك لأجل الإحرام، قاله ابن عباس، وأبو العالية، والنخعي، وقتادة، وقيس النهشلي. والثاني: لأجل دخول الشهر الحرام، قاله البراء بن عازب. والثالث: أن أهل الجاهلية كانوا إذا هم أحدهم بالشئ فاحتبس عنه؛ لم يأت بيته من بابه حتى يأتي الذي كان هم به، قاله الحسن. والرابع: أن أهل المدينة كانوا إذا رجعوا من عيدهم فعلوا ذلك، رواه عثمان بن عطاء عن أبيه. فأما التفسير؛ فإنما سأله عن وجه الحكمة في زيادة الأهلة ونقصانها، فأخبرهم أنها مقادير لما يحتاج الناس إليه في صومهم وحجهم وغير ذلك. والأهلة: جمع هلال. وكم يبقى الهلال على هذه التسمية؟ فيه للعرب أربعة أقوال: أحدها: أنه يسمى هلالاً لليلتين من الشهر. والثاني: لثلاث ليال، ثم يسمى: قمراً. والثالث: إلى أن يحجر، وتحجيره: أن يسير بخطة دقيقة، وهو قول الأصمعي. والرابع: إلى أن يبهز ضوءه سواد الليل. حكى هذه الأقوال ابن السري، واختار الأول، قال: واشتقاق الهلال من قولهم: استهل الصبي: إذا بكى حين يولد. وأهل القوم بالحج: إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، فسمي هلالاً، لأنه حين يُرى يهل الناس بذكره.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِمَّا أَنْتَرُوا﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِمَّا آمَنُ بِاللَّهِ﴾ وقد سبق بيانه، واختلف القراء في البيوت وما أشبهها، فقرأ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي بكسر باء «البيوت» وعين «العيون» وغين «الثيوب» وروي عن نافع أنه ضم باء «البيوت» وعين «العيون» وغين «الغيوب» وجيم «الجيوب» وشين «الشيوخ» وروى عنه قالون أنه كسر باء «البيوت» وقرأ أبو عمر، وأبو جعفر بضم الأحرف الخمسة، وكسرهن جميعاً حمزة، واختلف عن عاصم. قال الزجاج: من ضم «البيوت» فعلى أصل الجمع: بيت وبيوت، مثل: قلب وقلوب، وفلس وفلوس. ومن كسر؛ فإنما كسر للياء التي بعد الباء، وذلك عند البصريين رديء، لأنه ليس في الكلام فعول بكسر الفاء. وسمعت شيخنا أبا منصور اللغوي يقول: إذا كان الجمع على فعول، وثانيه ياء؛ جاز فيه الضم والكسر، تقول: بُيُوتٌ وبيوت، وشُيُوخٌ وشييوخ، وقُبُودٌ وقبُود.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفْتِنُونَكُمْ وَلَا تَسَدُّوا لِلَّهِ لِيُضِلَّ الْمُضِلِّينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفْتِنُونَكُمْ﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما صُدَّ عن البيت، ونحر هديه بالحديبية، وصالحه المشركون على أن يرجع من العام المقبل؛ رجع، فلما تجهز في العام المقبل؛ خاف أصحابه أن لا

(١) روى البخاري عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا أتوا البيت من ظهره، فانزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ ورواه مسلم، وابن جرير قريباً من لفظ المؤلف.

تفي لهم قريش بذلك، وأن يصدوهم ويقاتلوهم، وكره أصحابه القتال في الشهر الحرام؛ فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس (١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسَدُّوْا﴾ أي: ولا تظلموا. وفي المراد بهذا الاعتداء أربعة أقوال: أحدها: أنه قتل النساء والولدان، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أن معناه: لا تقاتلوا من لم يقاتلكم، قاله سعيد بن جبير، وأبو العالية، وابن زيد. والثالث: أنه إتيان ما نهوا عنه، قاله الحسن. والرابع: أنه ابتداؤهم بالقتال في الحرم في الشهر الحرام، قاله مقاتل.

فصل

اختلف العلماء: هل هذه الآية منسوخة أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها منسوخة. واختلف أرباب هذا القول في المنسوخ منها على قولين: أحدهما: أنه أولها، وهو قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ قالوا: وهذا يقتضي أن القتال يباح في حق من قاتل من الكفار، ولا يباح في حق من لم يقاتل، وهذا منسوخ بقوله: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ﴾ والثاني: أن المنسوخ منها: ﴿وَلَا تَسَدُّوْا﴾ ولهؤلاء في هذا الاعتداء قولان: أحدهما: أنه قتل من لم يقاتل. والثاني: أنه ابتداء المشركين بالقتال، وهذا منسوخ بآية السيف. والقول الثاني: أنها محكمة، ومعناها عند أرباب هذا القول: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ وهم الذين أعدوا أنفسهم للقتال؛ فأما من ليس بمعد نفسه للقتال، كالرهبان والشيخ الفناء، والزمنى، والمكافيف، والمجانين، فإن هؤلاء لا يقاتلون، وهذا حكم باقي غير منسوخ (٢).

فصل

اختلف العلماء في أول آية نزلت في إباحة القتال على قولين: أحدهما: أنها قوله تعالى: ﴿أَنْزِلْنَا لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ١٣٩]. قاله أبو بكر الصديق، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والزهري. والثاني: أنها هذه الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قاله أبو العالية، وابن زيد.

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ﴾ أي: وجدتموهم. يقال: ثقفته أثقفه: إذا وجدته. قال القاضي أبو يعلى: قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ﴾ عام في جميع المشركين، إلا من كان بمكة، فإنهم أمروا بإخراجهم منها، إلا من قاتلهم، فإنهم أمروا بقتالهم، يدل على ذلك قوله في نسق الآية: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ وكانوا قد آذوا المسلمين بمكة حتى اضطروهم إلى الخروج، فكأنهم أخرجوهم. فأما الفتنة، ففيها قولان: أحدهما: أنها الشرك، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وقاتدة في آخرين. والثاني: أنها ارتداد المؤمن إلى عبادة الأوثان. قاله مجاهد. فيكون معنى الكلام على القول الأول: شرك القوم أعظم من قتلهم إياهم في الحرم. وعلى الثاني: ارتداد المؤمن إلى الأوثان أشد عليه من أن يقتل محقاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: (ولا تقتلوهم... حتى يقتلكم... فإن قتلوكم) بحذف الألف فيهن. وقد اتفق الكل على قوله: ﴿فَأَقْتُلُوهُمْ﴾ واحتج من قرأ بالألف بقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ بِنْتًا﴾ واحتج من حذف الألف بقوله: ﴿فَأَقْتُلُوهُمْ﴾

فصل

اختلف العلماء في قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾: هل هو منسوخ أم لا؟ فذهب مجاهد

(١) رواه الواحدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي وأبو صالح لا يحتج بهما.

(٢) قال أبو جعفر: وهذا القول أولى بالصواب، لأن دعوى المدعي نسخ آية؛ يحتمل أن تكون غير منسوخة بغير دلالة على صحة دعواه، تحكم.

في جماعة من الفقهاء إلى أنه محكم، وأنه لا يقاتل فيه إلا من قاتل، ويدل على ذلك الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه خطب يوم فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس! إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، ولم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي. وإنما أحلت لي ساعة من النهار، ثم عادت حراماً إلى يوم القيامة»^(١). فبين ﷺ أنه خص في تلك الساعة بالإباحة على سبيل التخصيص، لا على وجه النسخ، ثبت بذلك حظر القتال في الحرم، إلا أن يقاتلوا فيدفعون دفعاً، وهذا أمر مستمر، والحكم غير منسوخ، وقد ذهب قتادة إلى أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينًا يُبْدِيهِ لَكَ رَبُّكَ حَيْثُ وَجَدْتَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. فأمر بقتالهم في الحل والحرم وعلى كل حال. وذهب الربيع بن أنس، وابن زيد إلى أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وزعم مقاتل أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينًا يُبْدِيهِ لَكَ رَبُّكَ حَيْثُ وَجَدْتَهُمْ﴾. والقول الأول أصح.

قوله تعالى: ﴿إِن تَنَالُوا الْمَشْكَرَ فَمَا عَلَيْهِمْ غَيْرُ حَرَامٍ﴾ قال مقاتل: أي: فقاتلوهم.

﴿إِن تَنَالُوا الْمَشْكَرَ فَمَا عَلَيْهِمْ غَيْرُ حَرَامٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَنَالُوا الْمَشْكَرَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: فإن انتهوا عن شركهم وقاتلكم. والثاني: عن كفرهم. والثالث: عن قتالكم دون كفرهم. فعلى القولين الأولين تكون الآية محكمة، ويكون معنى: ﴿إِن تَنَالُوا الْمَشْكَرَ فَمَا عَلَيْهِمْ غَيْرُ حَرَامٍ﴾ لشركهم وجرمهم، وعلى القول الأخير؛ يكون في معنى قوله: ﴿غَيْرُ حَرَامٍ﴾ قولان: أحدهما: غفور لكم حيث أسقط عنكم تكليف قتالهم. والثاني: أن معناه: يأمركم بالفقران والرحمة لهم. فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية السيف.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ بَرًّا﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقاتدة في آخرين: الفتنة هاهنا: الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ بَرًّا﴾ قال ابن عباس: أي: يخلص له التوحيد. والعدوان: الظلم، وأريد به هاهنا: الجزاء، فسمي الجزاء عدواناً مقابلة للشيء بمثله، كقوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ فَأَعَدَّوْا عَلَيْهِمْ﴾ والظالمون هاهنا: المشركون، قاله عكرمة، وقاتدة في آخرين.

فصل

وقد روي عن جماعة من المفسرين، منهم قتادة؛ أن قوله تعالى: ﴿إِن تَنَالُوا الْمَشْكَرَ فَمَا عَلَيْهِمْ غَيْرُ حَرَامٍ﴾ منسوخ بآية السيف، وإنما يستقيم هذا إذا قلنا: إن معنى الكلام: فإن انتهوا عن قتالكم مع إقامتهم على دينهم، فأما إذا قلنا: إن معناه: فإن انتهوا عن دينهم؛ فالآية محكمة.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هذه الآية نزلت على سبب، واختلفوا فيه على قولين: أحدهما: أن النبي ﷺ أقبل هو وأصحابه معتمرين في ذي القعدة ومعهم الهدى، فصلهم المشركون، فصالحهم نبي الله على أن يرجع عنهم ثم يعود في العام المقبل، فيكون بمكة ثلاث ليال، ولا يدخلها بسلاح، ولا يخرج بأحد من أهل مكة، فلما كان العام المقبل؛ أقبل هو وأصحابه فدخلوها، فافتخر المشركون عليه إذ رده يوم الحديبية، فأقصه الله منهم وأدخله مكة في الشهر الذي رده فيه، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وأبو العالية، وقاتدة في آخرين. والثاني: أن مشركي العرب قالوا للنبي ﷺ: أنهيت عن قتالنا في الشهر الحرام؟ قال: «نعم» وأرادوا أن يفتروه في الشهر الحرام، فيقاتلوه فيه، فنزلت هذه الآية، يقول: إن استحلوا منكم شيئاً في الشهر الحرام، فاستحلوا منهم مثله، هذا قول الحسن، واختاره إبراهيم بن السري والزجاج. فأما أرباب القول

الأول؛ فيقولون: معنى الآية: الشهر الحرام الذي دخلتم فيه الحرم بالشهر الحرام الذي صدوكم فيه عام أول. ﴿وَأَلْزَمْتُمْ قِيَاسًا﴾: اقتضت لكم منهم في ذي القعدة كما صدوكم في ذي القعدة. وقال الزجاج: الشهر الحرام، أي: قتال الشهر الحرام بالشهر الحرام، فأعلم الله تعالى أن أمر هذه الحرمات لا تجوز للمسلمين إلا قصاصاً، ثم نسخ ذلك بآية السيف، وقيل: إنما جمع الحرمات، لأنه أراد الشهر الحرام بالبلد الحرام، وحرمة الإحرام.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس: من قاتلكم في الحرم فقاتلوه. وإنما سمي المقابلة على الاعتداء اعتداءً، لأن صورة الفعلين واحدة، وإن كان أحدهما طاعة والآخر معصية. قال الزجاج: والعرب تقول: ظلمني فلان فظلمته، أي: جازيته بظلمه. وجهل فلان عليّ، فجهلت عليه. وقد سبق بيان هذا المعنى في أول السورة.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ قال سعيد بن جبير: واتقوا الله، ولا تيدؤوهم بقتال في الحرم.

﴿وَأَيُّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٩٥﴾ وَأَيُّقُوا لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَيْسِرَ مِنَ الْقُدْرَةِ وَلَا يَحْلِفُوا رُؤُوسَهُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْمُدَىٰ حَيْثُ يَبْلُغُ الْمُدَىٰ حَيْثُ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ يَدُ أَدَىٰ مِنْ رَأْسِهِ فَيَذِيهَ مِنْ سِوَاهِ أَوْ مَدَقَةً أَوْ سَلْوًا فَإِذَا أَيْتَمَّ مَنْ تَبَعَ بِالْمَمْرَةِ إِلَى الْكَلْبِ قَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْقُدْرَةِ مَنْ لَمْ يَجِدْ قَيْسِيًّا تَلْتَمَسُ أَيُّورَ فِي الْكَلْبِ وَسَبَعُوا إِذَا رَمَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةَ كَامِلَةً ذَلِكَ لِئِنْ كُنَّ يَكْفَىٰ أَهْلَهُ حَاضِرِي السَّجِدِ الْمَرَارِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه الآية نزلت على سبب، وفيه قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ لما أمر بالتجهز إلى مكة، قال ناسٌ من الأعراب: يا رسول الله! بماذا نتجهز؟ فوالله ما لنا زاد ولا مال! فنزلت، قاله ابن عباس^(١). والثاني: أن الأنصار كانوا ينفقون ويتصدقون، فأصابتهم سنة، فأمسكوا؛ فنزلت، قاله أبو جبير بن الضحاك^(٢). والسبيل في اللغة: الطريق. وإنما استعملت هذه الكلمة في الجهاد، لأنه السبيل الذي يقاتل فيه على عقد الدين. والتهلكة: بمعنى الهلاك، يقال: هلك الرجل يهلك هلاكاً وهلكاً وتهلكة. قال المبرد: وأراد بالأيدي: الأنفس؛ فعبّر بالبعض عن الكل. وفي المراد بالتهلكة هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنها ترك النفقة في سبيل الله، قاله حذيفة، وابن عباس، والحسن، وابن جبير، وعكرمة. ومجاهد، وقتادة، والضحاك. والثاني: أنها القعود عن الغزو شغلاً بالمال، قاله أبو أيوب الأنصاري. والثالث: أنها القنوط من رحمة الله، قاله البراء، والنعمان بن بشير، وعبيدة. والرابع: أنها عذاب الله، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: أحسنوا الإنفاق، وهو قول أصحاب القول الأول. والثاني: أحسنوا الظن بالله، قاله عكرمة، وسفيان، وهو يخرج على قول من قال: التهلكة: القنوط. والثالث: أن معناه: أدوا الفرائض، رواه سفيان عن أبي إسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّقُوا لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَيْسِرَ مِنَ الْقُدْرَةِ وَلَا يَحْلِفُوا رُؤُوسَهُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْمُدَىٰ حَيْثُ يَبْلُغُ الْمُدَىٰ حَيْثُ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ يَدُ أَدَىٰ مِنْ رَأْسِهِ فَيَذِيهَ مِنْ سِوَاهِ أَوْ مَدَقَةً أَوْ سَلْوًا فَإِذَا أَيْتَمَّ مَنْ تَبَعَ بِالْمَمْرَةِ إِلَى الْكَلْبِ قَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْقُدْرَةِ مَنْ لَمْ يَجِدْ قَيْسِيًّا تَلْتَمَسُ أَيُّورَ فِي الْكَلْبِ وَسَبَعُوا إِذَا رَمَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةَ كَامِلَةً ذَلِكَ لِئِنْ كُنَّ يَكْفَىٰ أَهْلَهُ حَاضِرِي السَّجِدِ الْمَرَارِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال ابن عباس: لا يقولن أحدكم إنني لا أجد شيئاً، إن لم يجد إلا مشقاً، فليجهز به في سبيل الله.

(٢) في الأصول التي بين أيدينا: الضحاك بن أبي جبير، وهو خطأ، وصوابه ما أثبتناه، فقد جاء في «تقريب التهذيب» أبو جبير - بفتح الجيم - ابن الضحاك الأنصاري المدني: صحابي، وقيل: لا صحبة له. والحديث رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وزاد: (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وقال الهيثمي: ورجالهما رجال الصحيح.

(١) لم يرد هذا السبب بهذا اللفظ في كتب التفسير التي بين أيدينا، وإنما جاء فيها: عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: لا يقولن أحدكم إنني لا أجد شيئاً، إن لم يجد إلا مشقاً، فليجهز به في سبيل الله.

(٢) في الأصول التي بين أيدينا: الضحاك بن أبي جبير، وهو خطأ، وصوابه ما أثبتناه، فقد جاء في «تقريب التهذيب» أبو جبير - بفتح الجيم - ابن الضحاك الأنصاري المدني: صحابي، وقيل: لا صحبة له. والحديث رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وزاد: (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وقال الهيثمي: ورجالهما رجال الصحيح.

(٣) الدورية: تضيير الدار: كل موضع حل به قوم، فهو دارهم.

رزين، والحسن، والشعبي. وقراءة الجمهور تدل على وجوبها. وممن ذهب إلى أن العمرة واجبة: علي، وابن عمر، وابن عباس، والحسن، وابن سيرين، وعطاء، وطاووس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأحمد، والشافعي. وروي عن ابن مسعود، وجابر، والشعبي، وإبراهيم، وأبي حنيفة، ومالك، أنها سنة وتطوع.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْزِنْتُمْ﴾ قال ابن قتيبة: يقال: أحضره المرض والعدو: إذا منعه من السفر، ومنه هذه الآية. وحضره العدو: إذا ضيق عليه. وقال الزجاج: يقال للرجل إذا حبس: قد حصر، فهو محصور. وللعلماء في هذا الإحصار قولان: أحدهما: أنه لا يكون إلا بالعدو، ولا يكون المريض محصراً. وهذا مذهب ابن عمر، وابن عباس، وأنس، ومالك، والشافعي، وأحمد. ويدل عليه قوله: ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ﴾. والثاني: أنه يكون بكل حابس من مرض أو عدو أو عذر، وهو قول عطاء، ومجاهد، وقتادة، وأبي حنيفة. وفي الكلام اختصار وحذف، والمعنى: فإن أحضرتكم دون تمام الحج والعمرة فحللتكم؛ فعليكم ما استيسر من الهدى. ومثله: ﴿أَوْ يَذُوقْ أَذَىٰ يَنْزِيلِهِ فَيِذِيقْهُ﴾ تقديره: فحلقت، ففدية. والهدى: ما أهدي إلى البيت. وأصله: هديّ مشدد، فخفف، قاله ابن قتيبة. وبالتشديد يقرأ الحسن، ومجاهد. وفي المراد بـ﴿فَإِنْ أُحْزِنْتُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه شاة، قاله علي بن أبي طالب، وابن عباس، والحسن، وعطاء، وابن جبير، وإبراهيم، وقتادة، والضحاك. والثاني: أنه ما تيسر من الإبل والبقر لا غير، قاله ابن عمر، وعائشة، والقاسم. والثالث: أنه على قدر الميسرة، رواه طاووس عن ابن عباس. وروي عن الحسن، وقتادة قالاً: أعلاه بدنة، وأوسطه بقرة، وأخسه شاة. وقال أحمد: الهدى من الأصناف الثلاثة، من الإبل والبقر والغنم، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله، ومالك، والشافعي، رحمهما الله.

قوله تعالى: ﴿سَيِّئٌ يَبْلُغُ الْمَذَىٰ حَلْهُ﴾ قال ابن قتيبة: المحل: الموضع الذي يحل به نحره، وهو من: حل يحل. وفي المحل قولان: أحدهما: أنه الحرم، قاله ابن مسعود، والحسن، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وابن سيرين، والثوري، وأبو حنيفة. والثاني: أنه الموضع الذي أحصر به فيذبحه ويحل، قاله مالك، والشافعي، وأحمد.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذَىٰ يَنْزِيلِهِ فَيِذِيقْهُ﴾ هذا نزل على سبب، وهو أن كعب بن عجرة كثر قمل رأسه حتى تهافت على وجهه، فنزلت هذه الآية فيه، فكان يقول: في نزلت خاصة^(١).

فصل

قال شيخنا علي بن عبيد الله: اقتضى قوله: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ سَيِّئٌ يَبْلُغُ الْمَذَىٰ حَلْهُ﴾ تحريم حلق الشعر، سواء وجد به الأذى، أو لم يجد، حتى نزل: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذَىٰ يَنْزِيلِهِ فَيِذِيقْهُ﴾ فاقضى هذا إباحة حلق الشعر عند الأذى مع الفدية، فصار ناسخاً لتحريمه المتقدم. ومعنى الآية: فمن كان منكم - أي: من المحرمين، محصراً كان أو غير محصر - مريضاً، واحتاج إلى لبس أو شيء يحظره الإحرام، ففعله، أو به أذى من رأسه فحلقت؛ ففدية من صيام. وفي الصيام قولان: أحدهما: أنه ثلاثة أيام، روي في حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٢) وهو قول الجمهور. والثاني: أنه صيام عشرة أيام، روي عن الحسن وعكرمة، ونافع. وفي الصدقة قولان: أحدهما: أنه إطعام ستة مساكين، روي في حديث كعب^(٣)، وهو قول من قال: الصوم ثلاثة أيام. والثاني: أنها إطعام عشرة مساكين، وهو قول من أوجب صوم عشرة أيام. والنسك: ذبح شاة، يقال: نسكت الله، أي: ذبحت له. وفي النسك لغتان: ضم النون والسين، وبها قرأ الجمهور، وضم النون مع تسكين السين، وهي قراءة الحسن.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ﴾، أي: من العدو، إذ المرض لا تؤمن معاودته، وقال علقمة في آخرين: فإذا أنتم من الخوف والمرض. ﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعَمْرِ إِلَىٰ الْمَحْيِ﴾ معناه: من بدأ بالعمرة في أشهر الحج، وأقام الحج من عامه ذلك؛ فعليه ما استيسر من الهدى. وهذا قول ابن عمر، وابن المسيب، وعطاء، والضحاك. وقد سبق الكلام فيما استيسر من الهدى.

(١) رواه البخاري ومسلم، وغيرهما عن كعب بن عجرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي لَيْلٍ﴾ قال الحسن: هي قبل التروية بيوم، و[يوم] التروية، و[يوم] عرفة، وهذا قول عطاء، والشعبي، وأبي العالية، وابن جبير، وطاووس، وإبراهيم. وقد نقل عن علي رضي الله عنه. وقد روي عن الحسن، وعطاء قالوا: في أي العشر شاء صامهن. ونقل عن طاووس، ومجاهد، وعطاء، أنهم قالوا: في أي أشهر الحج شاء فليصمهن ونقل عن ابن عمر أنه قال: من حين يحرم إلى يوم عرفة.

فصل

فإن لم يجد الهدى، ولم يصم الثلاثة أيام قبل يوم النحر، فماذا يصنع؟ قال عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن جبير، وطاووس، وإبراهيم: لا يجزئه إلا الهدى ولا يصوم. وقال ابن عمر وعائشة: يصوم أيام منى. ورواه صالح عن أحمد، وهو قول مالك. وذهب آخرون إلى أنه لا يصوم أيام التشريق، بل يصوم بعدهن. روي عن علي. ورواه المرزوقي عن أحمد، وهو قول الشافعي.

فصل

فإن وجد الهدى بعد الدخول في صوم الثلاثة أيام، لم يلزمه الخروج منه، وهو قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: يلزمه الخروج، وعليه الهدى. وقال عطاء: إن صام يومين ثم أيسر؛ فعليه الهدى. وإن صام ثلاثة ثم أيسر؛ فليصم السبعة، ولا هدي عليه. وفي معنى قوله: ﴿فِي لَيْلٍ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: في أشهر الحج. والثاني: في زمان الإحرام بالحج. وفي قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ إِذَا رَضَيْتُمْ﴾ قولان: أحدهما: إذا رجعتن إلى أمصاركم، قاله ابن عباس، والحسن، وأبو العالية، والشعبي، وقتادة. والثاني: إذا رجعتن من حجكم، وهو قول عطاء، وسعيد بن جبير، وأبي حنيفة، ومالك. قال الأثرم: قلت لأبي عبد الله، يعني أحمد بن حنبل: فصيام السبعة أيام إذا رجعت متى يصومهن؟ أفي الطريق، أم في أهله؟ قال: كل ذلك قد تأوله الناس. قيل لأبي عبد الله: ففرق بينهن، فرخص في ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا رَضَيْتُمْ مِنْ حَجِّكُمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أن معناه: كاملة في قيامها مقام الهدى، وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس، والحسن. قال القاضي أبو يعلى: وقد كان يجوز أن يظن ظان أن الثلاثة قد قامت مقام الهدى في باب استكمال الثواب، فأعلمنا الله تعالى أن العشرة بكاملها هي القائمة مقامه. والثاني: أن الواو قد تقوم مقام «أو» في مواضع، منها قوله: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَكُنْتُمْ وَرَثَةً﴾ [النساء: ٣] فأزال الله تعالى احتمال التخيير في هذه الآية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا رَضَيْتُمْ مِنْ حَجِّكُمْ﴾ وإلى هذا المعنى ذهب الزجاج. والثالث: أن ذلك للتوكيد. وأنشدوا للفرزدق:

ثلاث واثنتان فهن خمس
وسادة تميل إلى شماسي
وقال آخر:

هلا سألت جموع كندة يوم ولوا أين أيننا

وقال آخر:

كم نعمة كانت له كم كم وكم

والقرآن نزل بلغة العرب، وهي تكرر الشيء لتوكيده. والرابع: أن معناه: تلك عشرة كاملة في الفصل، وإن كانت الثلاثة في الحج، والسبعة بعد، لتلا يسبق إلى وهم أحد أن السبعة دون الثلاثة، قاله أبو سليمان الدمشقي. والخامس: أنها لفظة خبر، ومعناها الأمر، فتقديره: تلك عشرة فأكملوها.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا رَضَيْتُمْ مِنْ حَجِّكُمْ﴾ في المشار إليه بذلك قولان: أحدهما: أنه التمتع بالعمرة إلى الحج. والثاني: أنه الجزاء بالنسك والصيام. واللام من «المن» في هذا القول بمعنى: «على». فأما حاضروا المسجد الحرام؛ فقال ابن عباس، وطاووس، ومجاهد، هم أهل الحرم. وقال عطاء: من كان منزله دون المواقيت. قال ابن الأنباري: ومعنى الآية: إن هذا الفرض لمن كان من الغرباء، وإنما ذكر أهله، وهو المراد بالحضور، لأن الغالب على الرجل أن يسكن حيث أهله ساكنون.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ مِّن رَّغَبٍ فِيهِمْ الْحَجُّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَسْأَلُهُ اللَّهُ وَكَرَّوَهُدَا قَالِك حَيْرَ الرَّابِ الثَّقَوْنُ وَتَقَوْنِ يَتَأَوَّلِ الْأَلْتَبِ ﴿١٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ في الحج لفتان. فتح الحاء، وهي لأهل الحجاز، وبها قرأ الجمهور. وكسرهما، وهي لتميم، وقيل: لأهل نجد، وبها قرأ الحسن. قال سيويه: يقال: حج حجاً، كقولهم: ذكر ذكراً. وقالوا: حجة، يريدون: عمل سنة. قال الفراء: المعنى: وقت الحج هذه الأشهر. وقال الزجاج: معناه: أشهر الحج أشهر معلومات. وفي أشهر الحج قولان: أحدهما: أنها شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، قاله ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، والحسن، وابن سيرين، وعطاء، والشعبي، وطاووس، والنخعي، وقتادة، ومكحول، والضحاك، والسدي، وأبو حنيفة، وأحمد بن حنبل، والشافعي رضي الله عنه. والثاني: أنها شوال وذو القعدة وذو الحجة، وهو مروى عن ابن عمر أيضاً، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، والزهري، والربيع، ومالك بن أنس. قال ابن جرير الطبري: إنما أراد هؤلاء أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة، إنما هي للحج، وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء منى، وقد كانوا يستحبون أن يفعلوا العمرة في غيرها. قال ابن سيرين: ما أحد من أهل العلم شك في أن عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج، وإنما قال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ وهي شهران وبعض الآخر على عادة العرب. قال الفراء: تقول العرب: له اليوم يومان لم أره، وإنما هو يوم، وبعض آخر. وتقول: زرتك العام، وأنتك اليوم، وإنما وقع الفعل في ساعة. وذكر ابن الأباري في هذا قولين: أحدهما: أن العرب توقع الجمع على الثنية، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ وإنما يريد عائشة وصفوان. وكذلك قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ يريد: داود وسليمان. والثاني: أن العرب توقع الوقت الطويل على الوقت القصير، فيقولون: قتل ابن الزبير أيام الحج، وإنما كان القتل في أقصر وقت.

فصل

اختلف العلماء فيمن أحرم بالحج قبل أشهر الحج، فقال عطاء، وطاووس، ومجاهد، والشافعي: لا يجزئه ذلك، وجعلوا فائدة قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ أنه لا ينعد الحج إلا فيهن. وقال أبو حنيفة، ومالك، والثوري، والليث بن سعد، وأحمد بن حنبل: يصح الإحرام بالحج قبل أشهر، فعلى هذا يكون قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ أي: معظم الحج يقع في هذه الأشهر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الحج عرفة»^(١).

قوله تعالى: ﴿مَنْ رَمَسَ فِيهِمُ الْحَجُّ﴾ قال ابن مسعود: هو الإهلال بالحج، والإحرام به. وقال طاووس، وعطاء: هو أن يليه. وروى عن علي، وابن عمر، ومجاهد، والشعبي في آخرين: أنه إذا قلّد بدنته فقد أحرم، وهذا محمول على أنه قلدها نأوياً للحج. ونص الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في رواية الأثرم: أن الإحرام بالنية. قيل له: يكون محرماً بغير تلبية؟ قال: نعم إذا عزم على الإحرام، وهذا قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يجوز الدخول في الإحرام إلا بالتلبية أو تقليد الهدي وسوقه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وأبو جعفر: «فلا رفث ولا فسوق» بالضم والتنوين. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بغير تنوين، ولم يرفع أحد منهم لام «جدال» إلا أبو جعفر. قال أبو علي: حجة من فتح أنه أشد مطابقة للمعنى المقصود، لأنه بالفتح قد نفى جميع الرفث والفسوق، كقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فإذا رفع ونون؛ كان النفي لواحد منه، وإنما فتحوا لام الجدال، ليتناول النفي جميع جنسه، فكذلك ينبغي أن يكون جمع الاسمين قبله. وحجة من رفع أنه قد علم من فحوى الكلام نفى جميع الرفث، وقد يكون اللفظ واحداً، والمراد بالمعنى: الجميع. وفي الرفث ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الجماع، قاله ابن عمر، والحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة في آخرين. والثاني: أنه الجماع، وما دونه من التعريض به، وهو مروى عن ابن عمر أيضاً، وابن عباس، وعمرو بن

(١) رواه أحمد في «المسند» وأصحاب «السنن» والحاكم، والبيهقي، كلهم عن عبد الرحمن بن بصر الليلي رضي الله عنه، وسنده صحيح.

دينار في آخرين. والثالث: أنه اللغو من الكلام، قاله أبو عبد الرحمن اليزيدي. وفي الفسوق ثلاثة أقوال: أحدها: أنه السباب، قاله ابن عمر، وابن عباس، وإبراهيم في آخرين. والثاني: أنه التنازع بالألقاب، مثل أن تقول لأخيك: يا فاسق، يا ظالم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه المعاصي، قاله الحسن، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وقتادة في آخرين، وهو الذي نختاره، لأن المعاصي تشمل الكل، ولأن الفاسق: الخارج من الطاعة إلى المعصية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ الجدال: المراء. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: أن معناه: لا يمارين أحد أحداً، فيخرجه المراء إلى الغضب، وفعل ما لا يليق بالحج، وإلى هذا المعنى ذهب ابن عمر، وابن عباس، وطاووس، وعطاء، وعكرمة، والنخعي، وقتادة، والزهري، والضحاك في آخرين. والثاني: أن معناه: لا شك في الحج ولا مراء، فإنه قد استقام أمره وعرف وقته وزال النسيء عنه، قال مجاهد: كانوا يحجون في ذي الحجة عامين، وفي المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكانوا يحجون في كل سنة في كل شهر عامين حتى وافقت حجة أبي بكر الآخر من العامين في ذي القعدة قبل حجة النبي ﷺ بسنة، ثم حج النبي ﷺ من قابل في ذي الحجة، فذلك حين قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض»^(١) وإلى هذا المعنى ذهب السدي عن أشياخه، والقاسم بن محمد.

قوله تعالى: ﴿وَكَزَّرُوا فَأَنَّكَ خَيَّرَ الْأَزَادَ النَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فيسألون الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَزَّرُوا فَأَنَّكَ خَيَّرَ الْأَزَادَ النَّقُونَ﴾^(٢) قال الزجاج: أمروا أن يتزودوا، وأعلموا أن خير ما تزودوا تقوى الله ﷻ.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَقَاتِكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ﴾^(٣) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَكَّأْتِ النَّكَاشَ وَأَسْتَنْزِرُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٤)

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال ابن عباس: كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم، ويقولون: أيام ذكر؛ فنزلت هذه الآية. والابتغاء: الالتماس. والفضل هاهنا: التماس الرزق بالتجارة والكسب. قال ابن قتيبة: «أَقَضْتُمْ»، بمعنى: دفعتم. وقال الزجاج: معناه: دفعتم بكثرة، يقال: أفاض القوم في الحديث إذا اندفعوا فيه، وأكثروا التصرف. وفي تسمية «عرفات» قولان: أحدهما: أن الله تعالى بعث جبريل إلى إبراهيم فحج به، فلما أتى عرفات قال: قد عرفت، فسميت «عرفة» قاله علي عليه السلام. والثاني: أنها سميت بذلك لاجتماع آدم وحواء، وتعارفهما بها، قاله الضحاك. قال الزجاج: والمشعر: المعلم، سمي بذلك، لأن الصلاة عنده. والمقام والمبيت والدعاء من معالم الحج، وهو مزدلفة، وهي جمع يسمى بالاسمين. قال ابن عمر، ومجاهد: المشعر الحرام: المزدلفة كلها.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ﴾ أي: جزاء هدايته لكم، فإن قيل: ما فائدة تكرير الذكر؟ قيل: فيه أربعة أجوبة: أحدها: أنه كرره للمبالغة في الأمر به. والثاني: أنه وصل بالذكر الثاني ما لم يصل بالذكر الأول، فحسن تكريره. فالمعنى: اذكروه بتوحيده كما ذكرتم بهدايته. والثالث: أنه كرره ليدل على مواصلته، والمعنى: اذكروه ذكراً بعد ذكر، ذكر هذه الأقوال محمد بن القاسم النحوي. والرابع: أن الذكر في قوله: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هو: صلاة المغرب والعشاء اللتان يجمع بينهما بالمزدلفة. والذكر في قوله: ﴿كَمَا هَدَيْتُمْ﴾ هو: الذكر المفعول عند الوقوف بمزدلفة غداة جمع، حكاه القاضي أبو يعلى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ﴾ في هاء الكناية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الإسلام، قاله ابن

(١) متفق عليه من حديث أبي بكر نفع بن الحارث. قال العلماء في شرح هذا الحديث: إن العرب كانت تمسك بملة إبراهيم عليه السلام في تحريم الأشهر الأربعة، إلا أنهم كانوا إذا احتاجوا للقتال في شهر منها، أخروا تحريمهم إلى الشهر الذي يليه، هكذا شهراً إلى شهر، حتى اختلط الأمر عليهم، فصادت حجة النبي ﷺ تحريمهم، لأنهم كانوا في تلك السنة حرموا ذا الحجة بمقتضى حسابهم، فأخبر ﷺ أن الاستدارة وافقت ما حكم الله سبحانه وتعالى به يوم خلق السموات والأرض.

(٢) رواه البخاري، وأبو داود، والنسائي.

عباس. والثاني: أنها ترجع إلى الهدى، قاله مقاتل، والزجاج. والثالث: أنها ترجع إلى القرآن، قاله سفيان الثوري. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا مِنَ حَيْثُ أَكَّأْتِ الْكَأْسِ﴾ قالت عائشة: كانت قريش ومن يدين بدينها، وهم الحمس، يقفون عشية عرفة بالمزدلفة، يقولون: نحن قطن البيت، وكان بقية العرب والناس يقفون بعرفات، فنزلت هذه الآية^(١). قال الزجاج: سمو الحمس لأنهم تحمسوا في دينهم، أي: تشددوا. والحمامة: الشدة في كل شيء. وفي المراد بالناس هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنهم جميع العرب غير الخمس، ويدل عليه حديث عائشة، وهو قول عروة، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أن المراد بالناس هاهنا: إبراهيم الخليل عليه السلام، قاله الضحاك بن مزاحم. والثالث: أن المراد بالناس آدم، قاله الزهري. وقد قرأ أبو المتوكل، وأبو نهيك، ومورق العملي: «الناسي» بإثبات الياء. والرابع: أنهم أهل اليمن وربيعة، فإنهم كانوا يفيضون من عرفات، قاله مقاتل. وفي المخاطبين بذلك قولان: أحدهما: أنه خطاب لقريش، وهو قول الجمهور. والثاني: أنه خطاب لجميع المسلمين، وهو يخرج على قول من قال: الناس آدم، أو إبراهيم. والإفاضة هاهنا على ما يقتضيه ظاهر اللفظ: هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى صبيحة النحر، إلا أن جمهور المفسرين على أنها الإفاضة من عرفات، فظاهر الكلام لا يقتضي ذلك، كيف يقال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ ثم أفيضوا من عرفات؟! غير أنني أقول: وجه الكلام على ما قال أهل التفسير: أن فيه تقدماً وتأخيراً، تقديره: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله. و«الغفور»: من أسماء الله تعالى، وهو من قولك: غفرت الشيء: إذا غطيته، فكان الغفور هو الساتر لعبده برحمته، أو الساتر لذنوب عباده. والغفور: هو الذي يكثر المغفرة، لأن بناء المفعول للمبالغة من الكثرة، كقولك: صبور، وضروب، وأكول.

﴿فَإِذَا فُضِّتُمْ تَلَاكُمُ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمَنْ الْكَافِرُ مِنَ الْكَافِرِينَ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَنَا فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الآخِرَةِ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ صِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي آيَاتِهِ مَتَدُونَ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِيَنِ اتَّقَىٰ وَرَأَىٰ اللَّهَ وَاعْمَلُوا لَكُمْ إِلَيْنِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فُضِّتُمْ تَلَاكُمُ فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن أهل الجاهلية كانوا إذا اجتمعوا بالموسم، ذكروا أفعال آبائهم وأيامهم وأنسابهم في الجاهلية، فتفاخروا بذلك؛ فنزلت هذه الآية. وهذا المعنى مروى عن الحسن، وعطاء، ومجاهد. والثاني: أن العرب كانوا إذا حدثوا أو تكلموا يقولون: وأبيك إنهم لفعلوا كذا وكذا؛ فنزلت هذه الآية. وهذا مروى عن الحسن أيضاً. والثالث: أنهم كانوا إذا قضاوا مناسكهم، قام الرجل بمنى فقال: اللهم إن أبي كان عظيم الجفنة، كثير المال، فأعطني مثل ذلك، فلا يذكر الله، إنما يذكر أباه، ويسأل أن يعطى في دنياه؛ فنزلت هذه الآية، هذا قول السدي. والمناسك: المتعبدات. وفي المراد بها هاهنا قولان: أحدهما: أنها جميع أفعال الحج، قاله الحسن. والثاني: أنها إراقة الدماء، قاله مجاهد. وفي ذكرهم آبائهم أربعة أقوال: أحدها: أنه إقرارهم بهم. والثاني: أنه حلفهم بهم. والثالث: أنه ذكر إحسان آبائهم إليهم، فإنهم كانوا يذكرونهم وينسون إحسان الله إليهم. والرابع: أنه ذكر الأطفال والآباء، لأنهم أول نطقهم بذكر آبائهم، روي هذا المعنى عن عطاء، والضحاك. وفي «أر» قولان: أحدهما: أنها بمعنى «بل». والثاني: بمعنى الواو. و«الخلاق»: قد تقدم ذكره. وفي حسنة الدنيا سبعة أقوال: أحدها: أنها المرأة الصالحة، قاله علي. والثاني: أنها العبادة، رواه سفيان بن حسين عن الحسن. والثالث: أنها العلم والعبادة، رواه هشام عن الحسن. والرابع: المال، قاله أبو وائل، والسدي، وابن زيد. والخامس: العافية، قاله قتادة. والسادس: الرزق الواسع، قاله مقاتل. والسابع: النعمة، قاله ابن قتيبة. وفي حسنة الآخرة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الحور العين، قاله علي عليه السلام. والثاني: الجنة، قاله الحسن، والسدي، ومقاتل. والثالث: العفو والمعافاة، روي عن الحسن، والثوري.

(١) روى البخاري في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وسائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله: ﴿وَمَنْ حَيْثُ أَكَّأْتِ الْكَأْسِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ قال الزجاج: معناه: دعاؤهم مستجاب، لأن كسبهم هاهنا هو الدعاء، وهذه الآية متعلقة بما قبلها، إلا أنه قد روي أنها نزلت على سبب يخالف سبب أخواتها، فروى الضحاك عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله! مات أبي ولم يحج، فأحج عنه؟ فقال: «لو كان على أبيك دين قضيته، أما كان ذلك يجزئ عنه؟» قال: نعم، قال: «فدين الله أحق أن يقضى!» قال: فهل لي من أجر؟ فنزلت هذه الآية^(١). وفي معنى سرعة الحساب خمسة أقوال: أحدها: أنه قلته، قاله ابن عباس. والثاني: أنه قرب مجيئه، قاله مقاتل. والثالث: أنه لما علم ما للمحاسب وما عليه قبل حسابه، كان سريع الحساب لذلك. والرابع: أن المعنى: والله سريع المجازاة، ذكر هذا القول والذي قبله الزجاج. والخامس: أنه لا يحتاج إلى فكر وروية كالعاجزين، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّسْكُورَاتٍ﴾ في هذا الذكر قولان: أحدهما: أنه التكبير عند الجمرات، وأدبار الصلوات، وغير ذلك من أوقات الحج. والثاني: أنه التكبير عقب الصلوات المفروضة. واختلف أرباب هذا القول في الوقت الذي يبتدئ فيه بالتكبير ويقطع على ستة أقوال: أحدها: أنه يكبر من صلاة الفجر يوم عرفة، إلى [ما] بعد صلاة العصر من آخر أيام التشريق، قاله علي، وأبو يوسف، ومحمد. والثاني: أنه من صلاة الفجر يوم عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر، قاله ابن مسعود، وأبو حنيفة. والثالث: من بعد صلاة الظهر يوم النحر إلى [ما] بعد العصر من آخر أيام التشريق، قاله ابن عمر، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وعطاء. والرابع: أنه يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى [ما] بعد صلاة الظهر من يوم النفر، وهو الثاني من أيام التشريق، قاله الحسن. والخامس: أنه يكبر من الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، قاله مالك بن أنس، وهو أحد قولي الشافعي. والسادس: أنه يكبر من صلاة المغرب ليلة النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وهذا قول للشافعي. ومذهب إمامنا أحمد أنه إن كان محلاً، كبر عقب ثلاث وعشرين صلاة؛ أولها الفجر يوم عرفة، وآخرها العصر من آخر أيام التشريق، وإن كان محراً كبر عقب سبعة عشر صلاة؛ أولها الظهر من يوم النحر، وآخرها العصر من آخر أيام التشريق. وهل يختص هذا التكبير عقب الفرائض بكونها في جماعة، أم لا؟ فيه عن أحمد روايتان: إحداهما: يختص بمن صلاها في جماعة، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله. والثانية: يختص بالفريضة، وإن صلاها وحده، وهو قول الشافعي. وفي الأيام المعدودات ثلاثة أقوال: أحدها: أنها أيام التشريق، قاله ابن عمر، وابن عباس، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وقتادة في آخرين. والثاني: أنها يوم النحر ويومان بعده، روي عن علي، وابن عمر. والثالث: أنها أيام العشر، قاله سعيد بن جبير، والنخعي. قال الزجاج: «والمعدودات» يستعمل كثيراً للشيء القليل، كما يقال: دريهمات وحمامات.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: فمن تعجل النفر الأول في اليوم الثاني من أيام منى؛ فلا إثم عليه، ومن تأخر إلى النفر الثاني، وهو اليوم الثالث من أيام منى، فلا إثم عليه. فإن قيل: إنما يخاف الإثم المتعجل، فما بال المتأخر الحق به، والذي أتى به أفضل؟! فتنه أربعة أجوبة: أحدها: أن المعنى: لا إثم على المتعجل، والمتأخر مأجور، فقال: لا إثم عليه، لتوافق اللفظة الثانية الأولى، كقوله: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ عَلَيْكُمْ فَاغْتَدُوا عَلَيْهِ﴾. والثاني: أن المعنى: فلا إثم على المتأخر في ترك استعمال الرخصة. والثالث: أن المعنى: قد زالت آثام المتعجل والمتأخر التي كانت عليهما قبل حجهما. والرابع: أن المعنى: طرح المأثم عن المتعجل والمتأخر إنما يكون بشرط التقوى. وفي معنى «لمن اتقى» ثلاثة أقوال: أحدها: لمن اتقى قتل الصيد، قاله ابن عباس. والثاني: لمن اتقى المعاصي في حجه، قاله قتادة. وقال ابن مسعود: إنما مغفرة الله لمن اتقى الله في حجه. والثالث: لمن اتقى فيما بقي من عمره، قاله أبو العالية، وإبراهيم.

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِلُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿١٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِلُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على ثلاثة أقوال:

(١) لم يذكر هذا الحديث في شيء من كتب الحديث والتفسير التي بين أيدينا على أنه سبب لنزول الآية، والأحاديث في جواز الحج عن الغير وردت من طرق صحيحة عن ابن عباس وعلي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم.

أحدها: أنها نزلت في الأخنس بن شريق، كان لين الكلام، كافر القلب، يظهر للنبي الحسن، ويحلف له أنه يحبه، ويتبعه على دينه، وهو يضمير غير ذلك، هذا قول ابن عباس، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنها نزلت فيمن نافق فأظهر بلسانه ما ليس في قلبه. وهذا قول الحسن، وقناة، وابن زيد. والثالث: أنها نزلت في سرية الرجيع^(١)، وذلك أن كفار قريش بعثوا إلى النبي ﷺ وهو بالمدينة: إنا قد أسلمنا، فابعث لنا نفرًا من أصحابك يعلمونا ديننا، فبعث ﷺ خبيب بن عدي، ومرثداً الغنوي، وخالد بن بكير، وعبد الله بن طارق، وزيد بن الدثنة، وأمر عليهم عاصم بن ثابت، فساروا نحو مكة، فنزلوا بين مكة والمدينة ومعهم تمر، فأكلوا منه، فمرت عجوز فأبصرت النوى، فرجعت إلى قومها وقالت: قد سلك هذا الطريق أهل يثرب، فركب سبعون منهم حتى أحاطوا بهم، فحاربوهم، فقتلوا مرثداً، وخالدًا، وابن طارق، ونثر عاصم كنانته وفيها سبعة أسهم، فقتل بكل سهم رجلاً من عظامئهم، ثم قال: اللهم إني حميت دينك صدر النهار، فأحمي لحمي آخر النهار، ثم أحاطوا به فقتلوه، وأرادوا حَزَّ رأسه ليبعوه من سلافة بنت سعد، وكان قتل بعض أهلها، فنذرت: لئن قدرت على رأسه لثشرين في قحفه الخمر، فأرسل الله تعالى رَجُلًا^(٢) من اللبير - وهي: الزنابير - فحمته، فلم يقدروا عليه، فقال: دعوه حتى يمسي فنذهب عنه، فنأخذه، فجاءت سحابة فأمرت كالعزالي، فبعث الله الوادي، فأحمله فذهب به، وأسروا خبيباً وزيداً، فابتاع بنو الحارث بن عامر خبيباً ليقتلوه، لأنه قتل أباهم، فلما خرجوا به ليقتلوه قال: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فصلى ركعتين، ثم قال: لولا أن تقولوا: جزع خبيب؛ لذت، وأنشأ يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزَع

فصلبوه حياً، فقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد حولي يبلغ رسولك سلامي، فجاءه رجل منهم يقال له: أبو سروعة، ومعه رمح، فوضعه بين يدي خبيب، فقال له خبيب: اتق الله، فما زاده ذلك إلا عتواً. وأما زيد، فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه، فجاءه سفيان بن حرب حين قدم ليقتله، فقال: يا زيدا! أنشدك الله، أتحب أن محمداً مكانك، وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذي وأنا جالس في أهلي، ثم قتل^(٣). وبلغ النبي الخبر، فقال: «أيكم يحتمل خبيباً عن خشبته وله الجنة؟» فقال الزبير: أنا وصاحبي المقداد، فخرجا يمشيان بالليل ويمكانان بالنهار، حتى وافيا المكان، وإذا حول الخشبة أربعون مشركاً نيام نشاوى، وإذا هو رطب يتثنى لم يتغير فيه شيء بعد أربعين يوماً، فحملة الزبير على فرسه، وسار فلحقه سبعون منهم، فقفذ الزبير خبيباً فابتلعه الأرض، وقال الزبير: ما جرأكم علينا يا معشر قريش؟! ثم رفع العمامة عن رأسه وقال: أنا الزبير بن العوام، وأمي صفية بنت عبد المطلب، وصاحبي المقداد، أسدان رابضان يدفعان عن شبلهما، فإن شتمت ناضلتكم، وإن شتمت نازلتنكم، وإن شتمت انصرفتكم، فانصرفوا، وقدموا على رسول الله ﷺ وجبريل عنده، فقال: «يا محمد إن الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك». وقال بعض المنافقين في أصحاب خبيب: ويح هؤلاء المقتولين، لا في بيوتهم قعدوا، ولا رسالة صاحبهم أدوا، فأنزل الله تعالى في الزبير والمقداد وخبيب وأصحابه والمنافقين هذه الآية، وثلاث آيات بعدها. وهذا الحديث بطوله مروى عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾. فيه قولان: أحدهما: أنه يقول: إن الله يشهد أن ما ينطق به لساني هو الذي في قلبي. والثاني: أنه يقول: اللهم اشهد عليّ بهذا القول. وقرأ ابن مسعود: «ويستشهد الله» بزيادة سين وتاء. وقرأ الحسن، وطلحة بن مصرف، وابن محيصن وابن أبي عبله: «وَيَسْهَدُ» بفتح الياء «الله» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾. الخصام: جمع خصم، يقال: خصم وخصام وخصوم. قال الزجاج: والألد:

(١) الرجيع: ماء لهليل قرب الهداة بين عسفان ومكة، وهو الموضع الذي غدرت فيه عضل والقارة، بالنفر الذي بعثهم رسول الله ﷺ. انظر «سيرة ابن هشام» ١٦٩/٢.

(٢) الرجل: الكثير.

(٣) روى معنى هذا الحديث البخاري إلى هنا مطولاً في كتاب المغازي من «صحيحه» وفيه قصة مقتل خبيب وزيد وعاصم.

الشديد الخصومة، واشتقاقه من ليددي العنق، وهما صفحتا العنق، ومعناه: أن خصمه في أي وجه أخذ من أبواب الخصومة، غلبه في ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا فِيهَا قَالُوا تَبٰۤءَءَ الَّذِيٰنَ كَفَرُوۡا ۗ سَاۤءَ مَا يَكْسِبُوۡنَ ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا فِيهَا قَالُوا تَبٰۤءَءَ الَّذِيٰنَ كَفَرُوۡا ۗ سَاۤءَ مَا يَكْسِبُوۡنَ ۗ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه بمعنى: غضب، روي عن ابن عباس، وابن جريج. والثاني: أنه الانصراف عن القول الذي قاله، قاله الحسن. والثالث: أنه من الولاية، فتقديره: إذا صار والياً، قاله مجاهد والضحاك. والرابع: أنه الانصراف بالبدن، قاله مقاتل وابن قتيبة. وفي معنى «سعى» قولان: أحدهما: أنه بمعنى: عمل، قاله ابن عباس ومجاهد. والثاني: أنه من السعي بالقدم، قاله أبو سليمان اللمشقي. وفي الفساد قولان: أحدهما: أنه الكفر. والثاني: الظلم. والحرث: الزرع. والنسل: نسل كل شيء من الحيوان، هذا قول ابن عباس وعكرمة في آخرين. وحكى الزجاج عن قوم: أن الحرث: النساء، والنسل: الأولاد. قال: وليس هذا بمنكر، لأن المرأة تسمى حرثاً. وفي معنى إهلاكه للحرث والنسل ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إهلاك ذلك بالقتل والإحراق والإفساد، قاله الأكترون. والثاني: أنه إذا ظلم كان الظلم سبباً لقطع القطر، فيهلك الحرث والنسل، قاله مجاهد. وهو يخرج على قول من قال: إنه من التولي. والثالث: أنه إهلاك ذلك بالضلال الذي يؤول إلى الهلاك، حكاه بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِيۡنَ﴾ قال ابن عباس: لا يرضى بالمعاصي. وقد احتجت المعتزلة بهذه الآية، فأجاب أصحابنا بأجوبة. منها: أنه لا يحبه ديناً، ولا يريده شرعاً، فأما أنه لم يرده وجوداً؛ فلا. والثاني: أنه لا يحبه للمؤمنين دون الكافرين. والثالث: أن الإرادة معنى غير المحبة، فإن الإنسان قد يتناول المرء، ويريد بط الجرح، ولا يجب شيئاً من ذلك. وإذا بان في المعقول الفرق بين الإرادة والمحبة؛ بطل ادعاؤهم التساوي بينهما، وهذا جواب معتمد. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِبٰۤءَادِيَ الْكَفْرِ﴾ [الزمر: ١٧].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا فِيهَا قَالُوا تَبٰۤءَءَ الَّذِيٰنَ كَفَرُوۡا ۗ سَاۤءَ مَا يَكْسِبُوۡنَ ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿أَخَذْتُمُ الرِّزْقَ﴾ قال ابن عباس: هي الحمية. وأشدوا:

أَخَذْتُمُ الرِّزْقَ مِنْ جِهَلِهِ فَتَوَلَّىٰ مَغْضِبًا فَعَلَ الضَّجِرَ

ومعنى الكلام: حملته الحمية على الفعل بالإثم. وفي «جهنم» قولان، ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أنها أعجمية لا تجر للتعريف والعجمة. والثاني: أنها اسم عربي، ولم يجز للتأنيث والتعريف. قال رؤية: رُكِيَّةٌ جهنم: بعيدة القمر. وقال الأعشى:

دَعَوْتُ خَلِيْلِي مَسْحَلًا وَدَعَا لَهٗ جُهَنَّمَ جَدْعًا لِلْهَجِيْنِ الْمَذْمُومِ^(١)

فترك صرفه يدل على أنه اسم أعجمي مُعْرَب. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: فحسبه جهنم جزاء عن إثمه. والثاني: فحسبه جهنم ذلاً من عزه. والمهاد: الفراش، ومهدت لفلان: إذا وطأت له، ومنه: مهد الصبي.

﴿وَمِمَّنْ أَلْمِزْتُم مِّنْ يَّسْرِى نَفْسَهُۥ بِآيٰتِنَا مَن كٰفَرَ بِاللّٰهِ وَآلِهٖٓ رَبُّهُۥ وَكَفَرَ أَيْۤمٰنِهِۦٓ وَكٰفَرَ بِمَا نَزَّلْنَا مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِۥ مِنۡ كِتٰبِنَا ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ أَلْمِزْتُم مِّنْ يَّسْرِى نَفْسَهُۥ بِآيٰتِنَا مَن كٰفَرَ بِاللّٰهِ وَآلِهٖٓ رَبُّهُۥ وَكَفَرَ أَيْۤمٰنِهِۦٓ وَكٰفَرَ بِمَا نَزَّلْنَا مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِۥ مِنۡ كِتٰبِنَا ۗ﴾ اختلّفوا فيمن نزلت هذه الآية على خمسة أقوال: أحدها: أنها نزلت في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهو معنى قول عمر وعلي رضي الله عنهما. والثاني: أنها نزلت في الزبير والمقداد حين ذهبا لإنزال خبيب من خشبته، وقد شرحنا القصة. وهذا قول ابن عباس والضحاك. والثالث: أنها نزلت في صهيب الرومي، واختلفوا في قصته، فروي أنه أقبل مهاجراً نحو النبي صلى الله عليه وسلم فاتبه نفر من قريش، فنزل، فانتشل كنانته، وقال: قد علمتم أنني من أركانكم بسهم، وإيم الله لا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، فإن شتمت دلتكم على مالي. قالوا: فدلنا على مالك نخل عنك، فعاهدكم على ذلك، فنزلت فيه هذه الآية، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ريح البيع أبا يحيى؟» وقرأ عليه القرآن. هذا قول سعيد بن المسيب، وذكر نحوه أبو

(١) جهنم: لقب لشاعر كان يهاجي الأعشى اسمه وعمرو بن قطن؛ وقيل: هو اسم شيطان الشاعر على عقيدة بعض العرب في ذلك، كما أن مسحلاً اسم شيطان الأعشى.

صالح عن ابن عباس، وقال: إن الذي تلقاه فبشره بما نزل فيه أبو بكر الصديق. وذكر مقاتل أنه قال للمشركين: أنا شيخ كبير لا يضركم إن كنت معكم أو عليكم، ولي عليكم حق لجواري، فخذوا مالي غير راحلة، وارتكوني وديني، فاشترط أن لا يمنع عن صلاة ولا هجرة، فأقام ما شاء الله، ثم ركب راحلته، فأتى المدينة مهاجراً، فلقه أبو بكر، فبشره وقال: نزلت فيك هذه الآية. وقال عكرمة: نزلت في صهيب، وأبي ذر الغفاري، وأما صهيب، فأخذه أهله فافتدى بماله، وأما أبو ذر، فأخذه أهله فأفلت منهم حتى قدم مهاجراً. والرابع: أنها نزلت في المجاهدين في سبيل الله، قاله الحسن وابن زيد في آخرين. والخامس: أنها نزلت في المهاجرين والأنصار حين قاتلوا على دين الله حتى ظهروا، هذا قول قتادة. و«يشري» كلمة من الأضداد، يقال: شري، بمعنى: باع، وبمعنى: اشترى. فمعناها على قول من قال: نزلت في صهيب؛ معنى: يشتري. وعلى بقية الأقوال بمعنى: يبيع.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ السَّكَنَانِ اِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَاِنْ رَاكُمُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ اَلْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوْا اَنَّ اَللّٰهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُوْنَ اِلَّا اَنْ يَّاتِيَهُمُ اللّٰهُ فِي ظُلُمٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالسَّائِبَةِ وَفُضِيَ اَلْاَمْرُ وِلَى اللّٰهُ رُجُوعَ الْاُمُوْر ﴿٢١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب، كانوا بعد إسلامهم يتقون السبت ولحم الجمل، وأشياء يتقيها أهل الكتاب. رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ، أمروا بالدخول في الإسلام. روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الضحاك. والثالث: أنها نزلت في المسلمين، يأمرهم بالدخول في شرائع الإسلام كلها، قاله مجاهد وقتادة. وفي «السلم» ثلاث لغات: كسر السين، وتسكين اللام؛ وبها قرأ أبو عمرو، وابن عامر في «البقرة» وفتح السين في «الأنفال» وسورة «محمد». وفتح السين مع تسكين اللام؛ وبها قرأ ابن كثير، ونافع، والكسائي في المواضع الثلاثة. وفتح السين واللام؛ وبها قرأ الأعمش في «البقرة» خاصة. وفي معنى «السلم» قولان: أحدهما: أنه الإسلام، قاله ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن قتيبة، والزجاج في آخرين. والثاني: أنها الطاعة، روي عن ابن عباس أيضاً، وهو قول أبي العالية، والربيع. وقال الزجاج: و«كافة» بمعنى الجميع، وهو في اشتقاق اللغة: ما يكف الشيء في آخره، من ذلك: كُفَّة القميص، وكل مستطيل فحرفه كُفَّة: بضم الكاف. ويقال في كل مستدير: كُفَّة بكسر الكاف، نحو: كُفَّة الميزان. ويقال: إنما سميت كُفَّة الثوب، لأنها تمنع أن ينتشر، وأصل الكف: المنع، وقيل لطف اليد: كف، لأنها تكف بها عن سائر البدن، ورجل مكفوف: قد كف بصره أن ينظر. واختلفوا: هل قوله: «كافة» يرجع إلى السلم، أو إلى الداخلين فيه؟ على قولين: أحدهما: أنه راجع إلى السلم، فتقديره: ادخلوا في جميع شرائع الإسلام. وهذا يخرج على القول الأول الذي ذكرناه في نزول الآية. والثاني: أنه يرجع إلى الداخلين فيه، فتقديره: ادخلوا كلكم في الإسلام، وبهذا يخرج على القول الثاني. وعلى القول الثالث يحتمل قوله: «كافة» ثلاثة أقوال: أحدها: أن يكون أمراً للمؤمنين بالسنتهم أن يؤمنوا بقلوبهم. والثاني: أن يكون أمراً للمؤمنين بالدخول في جميع شرائعه. والثالث: أن يكون أمراً لهم بالثبات عليه، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنًا﴾ [النساء: ٤١٣٦]. و: ﴿خُطُوَاتِ السَّكَنَانِ﴾: المعاصي. وقد سبق شرحها. و«الْبَيِّنَاتِ»: الدلالات الواضحات. وقال ابن جريج: هي الإسلام والقرآن. و«ينظرون» بمعنى: يتظنون.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللّٰهُ﴾ كان جماعة من السلف يمسكون عن الكلام في مثل هذا. وقد ذكر القاضي أبو يعلى عن أحمد أنه قال: المراد به: قدرته وأمره. قال: وقد بينه في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيْ اَمْرٌ رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ٤١٥٨].

قوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: بظلل. والظلل: جمع ظلة. و«الغمام»: السحاب الذي لا ماء فيه. قال الضحاك: في قطع من السحاب. ومتى يكون مجيء الملائكة؟ فيه قولان: أحدهما: أنه يوم القيامة، وهو قول الجمهور. والثاني: أنه عند الموت. قاله قتادة. وقرأ الحسن بخفض «الملائكة». و«فُضِيَ الأَمْرُ»: فرغ منه. ﴿وَرِءَى اللّٰهُ رُجُوعَ الْاُمُوْر﴾. أي: تصير. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم، «ترجع» بضم التاء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي بفتحها. فإن قيل: فكأن الأمور كانت إلى غيره؟ فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أن المراد به إعلام الخلق أنه

المجازي على الأعمال بالشواب والعقاب، قاله الزجاج. والثاني: أنه لما عبد قوم غيره، ونسبوا أفعاله إلى سواه، ثم انكشف الغطاء يوم القيامة؛ ردوا إليه ما أضافوه إلى غيره. والثالث: أن العرب تقول: قد رجع عليّ من فلان مكروه: إذا صار إليه منه مكروه، وإن لم يكن سبق، قال الشاعر:

فإن تكن الأيام أحسن مرة
إلّي فقد عادت لهنّ ذنوب

ذكرهما ابن الأنباري. ومما يشبه هذا قول لبيد:

ومنا الممرء إلا كالشهاب وضوءه
بحور رماداً بعد إذ هو ساطع

أراد: يصير رماداً، لا أنه كان رماداً. وقال أمية بن أبي الصلت:

تلك المكارم لا قعبان من لبين

أي: صار. والرابع: أنه لما كانت الأمور إليه قبل الخلق، ثم أوجدتهم فملكهم بعضها رجعت إليه بعد هلاكهم. فإن قيل: قد جرى ذكر اسمه تعالى في قوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ فما الحكمة في أنه لم يقل: وإليه ترجع الأمور؟ فالجواب: أن إعادة اسمه أفخم وأعظم، والعرب إذا جرى ذكر شيء فبضم أعاودوا لفظه، وأنشدوا:

لا أرى الموت يسبق الموت شيئاً
نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فأعادوا ذكر الموت لفخامته في صدورهم، ذكره الزجاج.

﴿سَلِّ بِحَبِّ إِسْرَائِيلَ كَمْ مَاتَتْهُمْ مِنَّ مَاتِمٍ بَيْنَهُ وَمَنْ يَبْدُلُ مَمَّةَ اللَّهِ مِنْ بَدْوٍ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿سَلِّ بِحَبِّ إِسْرَائِيلَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى له وللمؤمنين. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: «سل» بغير همز، وبعض تميم يقول: «أسأل» بالهمز، وبعضهم يقول: «إسل» بالالف وطرح الهمز، والأولى أغربهن، وبها جاء الكتاب. وفي المراد بالسؤال قولان: أحدهما: أنه التقرير والإذكار بالنعمة. والثاني: التوبيخ على ترك الشكر. والآية البينة: العلامة الواضحة، كالعصا، والغمام، والمن، والسلوى، والبحر. وفي المراد بنعمة الله قولان: أحدهما: أنها الآيات التي ذكرناها، قاله قتادة: والثاني: أنها حجج الله الدالة على أمر النبي ﷺ، قاله الزجاج. وفي معنى تبديلها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الكفر بها، قاله أبو العالية ومجاهد. والثاني: تغيير صفة النبي ﷺ، في التوراة. قاله أبو سليمان الدمشقي. والثالث: تعطيل حجج الله بالتأويلات الفاسدة.

﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَسَعْرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ رِزْقٌ مَن نَّشَاءُ بِحَسَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ في نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أبي جهل وأصحابه، قاله ابن عباس. والثاني: نزلت في علماء اليهود، قاله عطاء. والثالث: في عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين. قاله مقاتل. قال الزجاج: وإنما جاز في «زين» لفظ التذكير، لأن تأنيث الحياة ليس بحقيقي، إذ معنى الحياة ومعنى العيش واحد. وإلى من يضاف هذا التزيين؟ فيه قولان: أحدهما: أنه يضاف إلى الله. وقرأ أبي بن كعب، والحسن، ومجاهد، وابن محيصن، وابن أبي عبيدة: ﴿زَيْنٌ يفتح الزاي والياء، على معنى: زيتها الله لهم. والثاني: أنه يضاف إلى الشيطان، روي عن الحسن. قال شيخنا علي بن عبيد الله: والتزيين من الله تعالى: هو التركيب الطبيعي، فإنه وضع في الطباع محبة المحبوب، لصورة فيه تزينت للنفس، وذلك من صنعه، وتزيين الشيطان بإذكار ما وقع من إغفاله مما مثله يدعو إلى نفسه لزينته، فالله تعالى يزِين بالوضع، والشيطان يزِين بالإذكار. وما السبب في سخرية الكفار من المؤمنين؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم سخروا منهم للفقير. والثاني: لتصدقهم بالآخرة. والثالث: لاتباعهم للنبي ﷺ. وقيل: إنهم كانوا يوهمونهم أنكم على الحق، سخرية منهم بهم. وفي معنى كونهم «فوقهم» ثلاثة أقوال: أحدها: أن ذلك على أصله، لأن المؤمنين في عليين، والكفار في سجين. والثاني: أن حجج المؤمنين فوق شبه الكافرين، فهم المنصورون. والثالث: في أن نعيم المؤمنين في الجنة فوق نعيم الكافرين في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ بَيْنَ حَسَابٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه يرزق من يشاء رزقاً واسعاً غير ضيق. والثاني: يرزق من يشاء بلا محاسبة في الآخرة.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَدَا مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لَنَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ صِرْطَ مَسْجِدٍ﴾

قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ في المراد بـ«الناس» هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: جميع بني آدم، وهو قول الجمهور. والثاني: آدم وحده، قاله مجاهد. قال ابن الأنباري: وهذا الوجه جائز، لأن العرب توقع الجمع على الواحد. ومعنى الآية: كان آدم ذا دين واحد، فاختلف ولده من بعده. والثالث: آدم وأولاده كانوا على الحق، فاختلغوا حين قتل قابيل هابيل. ذكره ابن الأنباري. والأمة هاهنا: الصنف الواحد على مقصد واحد. وفي ذلك المقصد الذي كانوا عليه قولان: أحدهما: أنه الإسلام، قاله أبي بن كعب، وقتادة، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنه الكفر. رواه عطية عن ابن عباس. ومتى كان ذلك؟ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه حين عرضوا على آدم، وأقروا بالعبودية. قاله أبي بن كعب. والثاني: في عهد إبراهيم كانوا كفاراً. قاله ابن عباس. والثالث: بين آدم ونوح، وهو قول قتادة. والرابع: حين ركبو السفينة، كانوا على الحق. قاله مقاتل. والخامس: في عهد آدم، ذكره ابن الأنباري. ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالنار. هذا قول الأكثرين. وقال بعض السلف: مبشرين لمن آمن بك يا محمد، ومنذرين لمن كذبك. ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ والكتاب: اسم جنس، كما تقول: كثر الدرهم في أيدي الناس. وذكر بعضهم أنه في التوراة. وفي المراد بالحق هاهنا قولان: أحدهما: أنه بمعنى الصدق والعدل. والثاني: أنه القضاء فيما اختلفوا فيه ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ في الحاكم هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الله تعالى. والثاني: أنه النبي الذي أنزل عليه الكتاب، والثالث: الكتاب، كقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطَلِّقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجنات: ٢٩]. وقرأ أبو جعفر: «لِيَحْكُمَ» بضم الياء وفتح الكاف. وقرأ مجاهد «لتحكم» بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يعني: الدين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ في هذه الهاء ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تعود إلى محمد ﷺ، قاله ابن مسعود. والثاني: إلى الدين. قاله مقاتل. والثالث: إلى الكتاب، قاله أبو سليمان الدمشقي. فأما هاء «أوتوه» فعائدة على الكتاب من غير خلاف. وقال الزجاج: ونصب «بغياً» على معنى المفعول له، فالمعنى: لم يوقعوا الاختلاف إلا للبغى، لأنهم عالمون بحقيقة الأمر في كتبهم. وقال الفراء: في اختلافهم وجهان: أحدهما: كفر بعضهم بكتاب بعض، والثاني: تبديل ما بدلوا.

قوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لَنَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: لمعرفة ما اختلفوا فيه، أو تصحيح ما اختلفوا فيه. وفي الذي اختلفوا فيه ستة أقوال: أحدها: أنه الجمعة، جعلها اليهود السبت، والنصارى الأحد، فروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»^(١) بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلغوا فيه، فهدانا الله له فالיום لنا، وغدا لليهود، وبعد غد للنصارى^(٢). والثاني: أنه الصلاة، فمنهم من يصلي إلى المشرق، ومنهم من يصلي إلى المغرب. والثالث: أنه إبراهيم. قالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً. والرابع: أنه عيسى، جعلته اليهود لفرية، وجعلته النصارى إلهاً. والخامس: أنه الكتب، آمنوا ببعضها، وكفروا ببعضها. والسادس: أنه الدين، وهو الأصح، لأن جميع الأقوال داخلة في ذلك.

(١) أي: نحن الآخرون زماناً، السابقون منزلة، والمراد أن هذه الأمة وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية، فهي سابقة لهم في الآخرة، بأنهم أول من يحشر، وأول من يحاسب، وأول من يقضى بينهم، وأول من يدخل الجنة.

(٢) متفق عليه، واللفظ الذي أورده المصنف لمسلم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَاللَّيِّنَ يَقُولُ سَوَاءٌ لِيَ الْبَيْتُ وَاللَّيِّنَ يَقُولُ سَوَاءٌ لِيَ الْبَيْتُ﴾ قال الزجاج: إذنه: علمه. وقال غيره: أمره. قال بعضهم: توفيقه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمِينَ وَالنَّاسُ كَانُوا عَلَىٰ سَبِيلٍ ضَلَّالِينَ﴾ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن الصحابة أصابهم يوم الأحزاب بلاء وحصر، فنزلت هذه الآية، ذكره السدي عن أشياخه، وهو قول قتادة. والثاني: أن النبي ﷺ لما دخل المدينة هو وأصحابه اشتد بهم الضر، فنزلت هذه الآية، قاله عطاء. والثالث: أن المنافقين قالوا للمؤمنين: لو كان محمد نبياً لم يُسلط عليكم القتل، فأجابوهم: من قتل منا دخل الجنة، فقالوا: لم تمنون أنفسكم بالباطل؟ فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. وزعم أنها نزلت يوم أحد. قال الفراء: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ بمعنى: أظننتم، وقال الزجاج: «أم» بمعنى: بل. وقد شرحنا «أم» فيما تقدم شرحاً كافياً. والمثل بمعنى: الصفة. و«زلزلوا» خُوفوا وحركوا بما يؤدي، وأصل الزلزلة في اللغة من: زل الشيء عن مكانه، فإذا قلت: زلزلته، فتأويله: كررت زلزله من مكانه، وكل ما كان فيه ترجيح كزرت فيه فاء الفعل، تقول: أقل فلان الشيء: إذا رفعه من مكانه، فإذا كرر رفعه وردّه، قيل: قلقه. فالمعنى أنه تكرر عليهم التحريك بالخوف، قاله ابن عباس. البأساء: الشدة والبؤس، والضراء: البلاء والمرض. وكل رسول بعث إلى أمته يقول: ﴿مَنْ تَصَرَ اللَّهُ آيَةً وَالنَّصْرَ الْفَتْحَ وَالْجَهْمُورَ عَلَىٰ فَتْحِ لَامٍ﴾ حَقَّقَ يَقُولُ، وضمها نافع.

فصل

ومعنى الآية: أن البلاء والجهاد بلغ بالأمم المتقدمة إلى أن استبطؤوا النصر لشدة البلاء. وقد دلت على أن طريق الجنة إنما هو الصبر على البلاء. قالت عائشة: ما شيع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تبعاً من خبز بُر حتى مضى لسبيله^(١). وقال حذيفة: أقرت أيامي لعيني، يوم أرجع إلى أهلي فيشكون إليّ الحاجة. قيل: ولم ذلك؟ قال: لأنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده [بالخير]، وإن الله ليحمي المؤمن من الدنيا، كما يحمي المريض أهله الطعام»^(٢). أخبرنا أبو بكر الصوفي، قال: أخبرنا أبو سعيد ابن أبي صادق، قال: أخبرنا أبو عبد الله الشيرازي، قال: سمعت أبا الطيب ابن الفرخان يقول: سمعت الجنيد يقول: دخلت على سري السقطي وهو يقول:

وَمَا زُمْتُ الدُّخُولَ عَلَيْهِ حَتَّى

وَأَغْضَيْتُ الْجَفُونَ عَلَىٰ قَذَاهَا

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا وَلَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَاللَّيِّنَ يَقُولُ سَوَاءٌ لِيَ الْبَيْتُ وَاللَّيِّنَ يَقُولُ سَوَاءٌ لِيَ الْبَيْتُ﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها نزلت في عمرو بن الجموح الأنصاري، وكان له مال كثير، فقال: يا رسول الله بماذا تنصق، وعلى من نفق؟ فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن لي ديناراً، فقال: «أنفقها على نفسك». فقال: إن لي دينارين، فقال: «أنفقهما على أهلك». فقال: إن لي ثلاثة، فقال: «أنفقها على خادمك». فقال: إن لي أربعة، فقال: «أنفقها على والدك». فقال: إن لي خمسة، فقال: «أنفقها على قرابتك». فقال: إن لي ستة، فقال: «أنفقها في سبيل الله، وهو أحسنها» فنزلت فيه هذه الآية. رواه عطاء عن ابن عباس^(٣). قال الزجاج: «ماذا» في اللغة على ضربين: أحدهما: أن

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون سند وقد جاء معنى هذا الحديث مستنداً من طريق أبي هريرة ولم يذكر فيه أنه سبب لنزول الآية. فقد روى أحمد في «المسند» وأبو داود والنسائي والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا، قال رجل: عندي دينار؟ قال: تصدق به على نفسك، قال: عندي دينار آخر؟ قال: تصدق به على زوجك. قال: عندي دينار آخر؟ قال: تصدق به على ولدك. قال: عندي دينار آخر؟ قال: تصدق به على خادمك. قال: عندي دينار آخر؟ قال: أنت أبصر وإسناده صحيح.

(٣) رواه البيهقي. وقال المناوي: في البیان بن المغيرة، قال اللهمي: ضفوه.

تكون «ذا» بمعنى الذي، و«ينفقون»: صلته، فيكون المعنى: يسألونك: أي شيء الذي ينفقون؟ والثاني أن تكون «ما» مع «ذا» اسماً واحداً، فيكون المعنى: يسألونك أي شيء ينفقون، قال: وكأنهم سألوا: على من ينبغي أن يفضلوا، وما وجه الذي ينفقون؟ لأنهم يعلمون ما المنفق، وأعلمهم الله أن أولى من أفضّل عليه الوالدان والأقربون. والخير: المال، قاله ابن عباس في آخرين. وقال: ومعنى: ﴿فَكَيْفَ لِلَّذِينَ﴾: فعلى الوالدين.

فصل

وأكثر علماء التفسير على أن هذه الآية منسوخة، قال ابن مسعود: نسختها آية الزكاة. وذهب الحسن إلى إحكامها، وقال ابن زيد: هي في النوافل. وهذا الظاهر من الآية، لأن ظاهرها يقتضي الندب، ولا يصح أن يقال: إنها منسوخة، إلا أن يقال: إنها اقتضت وجوب النفقة على المذكورين فيها.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ قال ابن عباس: لما فرض الله على المسلمين الجهاد شق عليهم وكرهوه، فنزلت هذه الآية. و«كتب» بمعنى: فرض في قول الجماعة. قال الزجاج: يقال: كرهت الشيء أكرهه كرهماً وكُرْهاً، وكرهأةً وكراهيةً. وكل ما في كتاب الله من الكره، فالفتح فيه جائز، إلا أن أبا عبيد ذكر أن الناس مجتمعون على صَمِّ هذا الحرف الذي في هذه الآية. وإنما كرهوه لمشقته على النفوس، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى. وقال الفراء: الكُره والكره: لغتان. وكان النحويين يذهبون بالكره إلى ما كان منك مما لم تُكره عليه، فإذا أكرهت على الشيء استحسبوا «كرهاً» بالفتح. وقال ابن قتيبة: الكره بالفتح، معناه: الإكراه والقهر، وبالضم معناه: المشقة. ومن نظائر هذا: الجُهد: الطاقة، والجُهد: المشقة، ومنهم من يجعلهما واحداً. وعُظْم الشيء: أكبره، وعُظمه: نفسه. وعُرض الشيء: إحدى نواحيه. وعرضه: خلاف طوله. والأكل: مصدر أكلت، والأكل: المأكول، وقال أبو علي: هما لغتان، كالفقر والفقر، والضَّعف والضَّعف، والدَّف والدَّف، والشَّهد والشَّهد.

قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ قال ابن عباس: يعني الجهاد. ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فتح وغنيمة أو شهادة. ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ وهو: القعود عنه. ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ لا تصيبون فتحاً ولا غنيمة ولا شهادة. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أن الجهاد خير لكم. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ حين أحببتم القعود عنه.

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها من المحكم الناسخ للعفو عن المشركين. والثاني: أنها منسوخة، لأنها أوجبت الجهاد على الكل، فنسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْرِفُوا كَمَا أَتَتْ﴾ [التوبة: ١٢٢]. والثالث: أنها ناسخة من وجه، منسوخة من وجه. وقالوا: إن الحال في القتال كانت على ثلاث مراتب: الأولى: المنع من القتال، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧]. والثانية: أمر الكل بالقتال، ومنه قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] ومثلها هذه الآية. والثالثة: كون القتال فرضاً على الكفاية، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْرِفُوا كَمَا أَتَتْ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فيكون الناسخ منها إيجاب القتال بعد المنع منه، والمنسوخ منه وجوب القتال على الكل.

﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدَّقْنِي بِسَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرُوا بِيَوْمِ وَأَلَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِيهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ وَلَا يَرَاؤُنَ يَغْلِبُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِيَارِكُمْ وَإِنْ اسْتَظَلَمُوا وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِيَارِهِمْ فَيَسْتَأْذِنُكُمْ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ روى جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً واستعمل عليهم أبا عبيدة، فلما انطلق ليتوجه بكى صباية إلى رسول الله ﷺ فبعث مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً،

وأمره ألا يقرأه إلا بمكان كذا وكذا، وقال: «لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك» فلما صار إلى المكان، قرأ الكتاب واسترجع، وقال: سمعاً [وطاعة لأمر] الله ولسروله [فخبرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب]، فرجع رجلان من أصحابه، ومضى بقيتهم، فأتوا ابن الحضرمي فقتلوه، فلم يدروا ذلك اليوم، أمين رجب، أو من جمادى الآخرة؟ فقال المشركون [للمسلمين]: قتلتم في الشهر الحرام. [فأتوا النبي ﷺ فحدثوه الحديث] فنزلت هذه الآية، فقال بعض المسلمين: لئن كان أصحابهم خير فما لهم أجر، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿رَجِمُوا﴾ [البقرة: ٢١٨]. قال الزهري: اسم ابن الحضرمي: عمرو، واسم الذي قتله: عبد الله بن واقد الليثي. قال ابن عباس: كان أصحاب النبي ﷺ يظنون تلك الليلة من جمادى، وكانت أول رجب. وقد روى عطية عن ابن عباس أنها نزلت في شيئين: أحدهما: هذا. والثاني: دخول النبي ﷺ مكة في شهر حرام يوم الفتح، حين عاب المشركون عليه القتال في شهر حرام. وفي السائلين النبي ﷺ عن ذلك قولان: أحدهما: أنهم المسلمون سألوه: هل أخطأوا أم أصابوا؟ قاله ابن عباس وعكرمة ومقاتل. والثاني: أنهم المشركون سألوه على وجه العيب على المسلمين، قاله الحسن وعروة، ومجاهد. والشهر الحرام: شهر رجب، وكان يدعى الأصم، لأنه لم يكن يسمع فيه ل السلاح قعقة تعظيماً له، ﴿وَقَالَ فِيهِ﴾ أي: يسألونك عن قتال فيه. ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: لا يجل. قال القاضي أبو يعلى: كان أهل الجاهلية يعتقدون تحريم القتال في هذه الأشهر، فأعلمهم الله تعالى في هذه الآية ببقاء التحريم.

فصل

اختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم: هل هو باق أم نسخ؟ على قولين: أحدهما: أنه باق. روى ابن جريج أن عطاء كان يحلف بالله: ما يحل للناس الآن أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يقاتلوا فيه أو يغزوا، وما نسخت. والثاني: أنه منسوخ، قال سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار: القتال جائز في الشهر الحرام، هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. ويقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]. وهذا قول فقهاء الأمصار.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هو مرفوع بالابتداء، وخبر هذه الأشياء: ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. وفي المراد بـ ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هاهنا قولان: أحدهما: أنه الحج، لأنهم صدوا رسول الله ﷺ عن مكة. قاله ابن عباس والسدي عن أشياخه. والثاني: أنه الإسلام، قاله مقاتل. وفي هاء الكناية في قوله: ﴿وَكَفَّرَ بِهِ﴾ قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى، قاله السدي عن أشياخه، وقتادة، ومقاتل، وابن قتيبة. والثاني: أنها تعود إلى السبيل. قاله ابن عباس. قال ابن قتيبة: وخفض ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ نسقاً على قوله: ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كأنه قال: وصد عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام.

قوله تعالى: ﴿وَلِإِخْرَاجِ أَهْلِيهِ مِنْهُ﴾ لما آذوا رسول الله ﷺ وأصحابه؛ اضطروهم إلى الخروج فكانهم أخرجوهم، فأعلمهم الله أن هذه الأفعال أعظم من قتل كل كافر. «والفتنة» هاهنا بمعنى الشرك. قاله ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة، والجماعة. والفتنة في القرآن على وجه كثيرة، قد ذكرتها في كتاب «النظائر» ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ يعني: الكفار، ﴿يَقْتُلُونَكَ﴾ يعني: المسلمين. و﴿حَطَّتْ﴾ بمعنى: بطلت:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما نزل القرآن بالرخصة لأصحاب عبد الله بن جحش في قتل ابن الحضرمي، قال بعض المسلمين: ما لهم أجر، فنزلت هذه الآية: وقد ذكرنا هذا في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ عن جندب بن عبد الله. والثاني: أنه لما نزلت لهم الرخصة قاموا، فقالوا: [يا رسول الله] أنطمع أن تكون لنا غزاة تعطى فيها أجر المجاهدين، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. وقال: ﴿هَاجَرُوا﴾ من مكة إلى المدينة، ﴿وَجْهَهُدُوا﴾ في طاعة الله ابن الحضرمي وأصحابه. و﴿رَحِمَتَ اللَّهُ﴾: مغفرته

وجنته. قال ابن الأنباري: الهجرة عند العرب من هجران الوطن والأهل والولد. والمهاجرون معناهم: المهاجرون الأولاد والأهل، فعرف مكان المفعول فأسقط. قال الشعبي: أول لواء عقد في الإسلام لواء عبد الله بن جحش، وأول مغنم قسم في الإسلام: مغنمه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكَبَرٌ مِنْ نَفْعِهِمَا وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُحِبُّونَ قُلِ الْمَنْفَعُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن عمر بن الخطاب، قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية (١). والثاني: أن جماعة من الأنصار جاؤوا إلى النبي ﷺ وفيهم عمر، ومعاذ، فقالوا: أفتنا في الخمر، فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزلت هذه الآية. وفي تسمية الخمر خمراً ثلاثة أقوال: أحدها: أنها سميت خمراً، لأنها تخامر العقل، أي: تخالطه. والثاني: لأنها تخمّر العقل، أي: تستره. والثالث: لأنها تخمّر، أي: تغطى. ذكر هذه الأقوال محمد بن القاسم. وقال الزجاج: الخمر في اللغة: ما ستر على العقل، يقال: دخل فلان في خمارة الناس، أي: في الكثير الذي يستتر فيهم، وخمار المرأة قناعها، سمي خمراً لأنه يغطي. قال: والخمر هاهنا هي المجمع عليها، وقياس كل ما عمل عملها أن يقال له: خمر، وأن يكون في التحريم بمنزلتها، لأن العلماء أجمعوا على أن القمار كله حرام، وإنما ذكر الميسر من بينه، وجعل كله قياساً على الميسر، والميسر إنما يكون قماراً في الجزر خاصة. فأما الميسر؛ فقال ابن عباس، وابن عمر، والحسن، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وقتادة في آخرين: هو القمار. قال ابن قتيبة: يقال: يسرت: إذا ضربت بالقداح، ويقال للضارب بالقداح: ياسر وياسرون، ويُسَرُ وأيسار. وكان أصحاب الثروة والأجواد في الشتاء عند شدة الزمان وكلبه ينحرون جزوراً، ويجزئونها أجزاء، ثم يضربون عليها بالقداح، فإذا قمر القامر، جعل ذلك لذوي الحاجة والمسكنة، وهو النفع الذي ذكره الله، وكانوا يتماذحون بأخذ القداح، ويتسابون بتركها ويعيبون من لا يسر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ قرأ الأكثرون «كبير» بالباء، وقرأ حمزة والكسائي بالثاء. وفي إثم الخمر ثلاثة أقوال: أحدها: أن شربها ينقص الدين. قاله ابن عباس. والثاني: أنه إذا شرب سكر وآذى الناس، رواه السدي عن أشياخه. والثالث: أنه وقوع العداوة والبغضاء وتغطية العقل الذي يقع به التمييز، قاله الزجاج. وفي إثم الميسر قولان: أحدهما: أنه يشغل عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقع العداوة، قاله ابن عباس. والثاني: أنه يدعو إلى الظلم ومنع الحق. رواه السدي عن أشياخه، وجائر أن يراد جميع ذلك. وأما منافع الخمر؛ فمن وجهين: أحدهما: الريح في بيعها. والثاني: انتفاع الأبدان (٢) مع التذاذ النفوس. وأما منافع الميسر: فإصابة الرجل المال من غير تعب.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا آكَبَرٌ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: وإثمه بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم، قاله سعيد بن جبيرة والضحاك ومقاتل. والثاني: وإثمه قبل التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم أيضاً، لأن الإثم الذي يحدث في أسبابهما أكبر من نفعهما. وهذا منقول عن ابن جبيرة أيضاً. واختلفوا بماذا كانت الخمرة مباحة؟ على قولين: أحدهما: بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَتَذَوَّنَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النحل: ٦٧]. قاله ابن جبيرة. والثاني: بالشريعة الأولى، وأقر المسلمون على ذلك حتى حرمت.

فصل

اختلف العلماء: هل لهذه الآية تأثير في تحريم الخمر أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها تقتضي ذمها دون تحريمها، رواه السدي عن أشياخه، وبه قال سعيد بن جبيرة، ومجاهد وقتادة، ومقاتل. وعلى هذا القول تكون هذه

(١) أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي واللفظ لأحمد، عن عمر رضي الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر، قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية... الحديث. وصححه علي بن المديني، والترمذي.

(٢) كلا ليست الخمرة بنافمة للبدن، وثبت في الطب الحديث أن الخمرة ضارة بالبدن والعقل، وقد ألف في بيان ضررها كثير من الأطباء، مسلمين وغير مسلمين، وهناك رسالة في هذا الموضوع للدكتور نبيل الطويل، وهي ضمن كتابه «أحاديث في الصحة» وقد قام المكتب الإسلامي بطبعه ونشره.

الآية منسوخة. والقول الثاني: أن لها تأثيراً في التحريم، وهو أن الله تعالى أخبر أن فيها إثماً كبيراً والإثم كله محرم بقوله: ﴿وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ﴾ [الأعراف: ٣٣]. هنا قول جماعة من العلماء، وحكاية الزجاج، واختاره القاضي أبو يعلى للعللة التي بينها، واحتج لصحته بعض أهل المعاني، فقال: لما قال الله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ﴾؛ وقع التساوي بين الأمرين، فلما قال: ﴿وَأَثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ صار الغالب الإثم، وبقي النفع مستغرقاً في جنب الإثم. فعاد الحكم للغالب المستغرق، فغلب جانب الحظر.

فصل

فأما الميسر؛ فالقول فيه مثل القول في الخمر، إن قلنا: إن هذه الآية دلت على التحريم، فالميسر حكمها حرام أيضاً، وإن قلنا: إنها دلت على الكراهة؛ فاقوم الأقوال أن نقول: إن الآية التي في المائدة نصت على تحريم الميسر. قوله تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ قال ابن عباس: إن الذي سأله عن ذلك عمرو بن الجموح: قال ابن قتيبة: والمراد بالنفقة هاهنا: الصدقة والعطاء.

قوله تعالى: ﴿قُلِ الْمَغْفُورُ﴾ قرأ أبو عمرو برفع وار «العفو»، وقرأ الباقون بنصبها. قال أبو علي: «ماذا» في موضع نصب، فجوابه العفو بالنصب، كما تقول في جواب: ماذا أنفقت؟ درهماً، أي: أنفقت درهماً. هذا وجه نصب العفو. ومن رفع جعل «ذا» بمنزلة الذي، ولم يجعل «ماذا» اسماً واحداً، فإذا قال قائل: ماذا أنزل ربكم؟ فكأنه قال: ما الذي أنزل ربكم؛ فجوابه: قرآن. قال الزجاج: «العفو» في اللغة: الكثرة والفضل، يقال: قد عفا القوم: إذا كثروا. و«العفو»: ما أتى بغير كلفة. وقال ابن قتيبة: العفو: الميسور. يقال: خذ ما عفاك، أي: ما أتاك سهلاً بلا إكراه ولا مشقة. وللمفسرين في المراد بالعفو هاهنا خمسة أقوال: أحدها: أنه ما يفضل عن حاجة المرء وعياله، رواه مقسم عن ابن عباس. والثاني: ما تطيب به أنفسهم من قليل وكثير، رواه عطية عن ابن عباس. والثالث: أنه القصد بين الإسراف والإنتار، قاله الحسن، وعطاء، وسعيد بن جبير. والرابع: أنه الصدقة المفروضة، قاله مجاهد. والخامس: أنه ما لا يتبين عليهم مقداره، من قولهم: عفا الأثر؛ إذا خفي ودرس، حكاه شيخنا عن طائفة من المفسرين.

فصل

وقد تكلم علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية، فروى السدي عن أشياخه أنها نسخت بالزكاة، وأبى نسخها آخرون. وفضل الخطاب في ذلك أنا متى قلنا: إنه فرض عليهم بهذه الآية التصديق بفاضل المال، أو قلنا: إنه أوجبت عليهم هذه الآية صدقة قبل الزكاة، فالآية منسوخة بآية الزكاة، ومتى قلنا: إنها محمولة على الزكاة المفروضة كما قال مجاهد، أو على الصدقة المندوب إليها، فهي محكمة.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ قال الزجاج: إنما قال كذلك، وهو يخاطب جماعة، لأن الجماعة معناها: القبيل، كأنه قال: كذلك يا أيها القبيل. وجاز أن تكون الكاف للنبي ﷺ كأنه قال: كذلك يا أيها النبي، لأن الخطاب له مشتمل على خطاب أمته. وقال ابن الأنباري: الكاف في «كذلك» إشارة إلى ما بين من الإنفاق، فكأنه قال: مثل ذلك الذي بينه لكم في الإنفاق بين الآيات. ويجوز أن يكون «كذلك» غير إشارة إلى ما قبله، فيكون معناه: هكذا، قاله ابن عباس: ﴿لَتَلَكُنَّ مِنْكُمْ فِئَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فتعرفون فضل ما بينهما، فتعملون للباقي منها. ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الَّتِي قُلْ إِصْلَاحٌ لِمَنْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالَفُوهُمْ فَاخْرَجْتُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَخْرَجْتُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الَّتِي﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه كما أنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَمْسِنُ﴾ [الإسراء: ٣٤] و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا﴾ [النساء: ٩] انطلق من كان عنده مال يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسده. فاشتد ذلك

عليهم، فذكروه للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية^(١) هذا قول ابن عباس، وعطاء، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل. والثاني: أن العرب كانوا يشددون في أمر اليتيم حتى لا يأكلون معه في قصعته، ولا يستخدمون له خادماً. فسألوا النبي ﷺ عن مخالطهم، فنزلت هذه الآية، ذكره السدي عن أشياخه، وهو قول الضحاك. وفي السائلين للنبي ﷺ، عن ذلك قولان: أحدهما: أن الذي سأله ثابت بن رفاعة الأنصاري، قاله مقاتل. والثاني: عبد الله بن رواحة، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لِّمَنْ حَرَّمَ﴾ قال ابن قتبية: معناه: تسمير أموالهم، والتنزه عن أكلها لمن وليها خير. ﴿وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم، حكمهم في ذلك حكم إخوانكم. قال ابن عباس: والمخالطة: أن يشرب من لبنك، وتشرب من لبنه، ويأكل في قصعتك، وتأكل في قصعته. ﴿وَاللَّهُ يَلْمُ الْفَاسِقَ مِنَ الْمَصْلُوحِ﴾ يريد: المتعمد أكل مال اليتيم، من المتحرّج الذي لا يألو إلا الإصلاحي. ﴿وَوَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ﴾ قال ابن عباس: أي لأحرجكم، ولضيق عليكم. وقال ابن الأنباري: أصل العنت: التشديد. تقول العرب: فلان يتعنت فلاناً ويعتته، أي: يشدد عليه، ويلزمه بما يصعب عليه أداؤه [قال: ثم نقلت إلى معنى الهلاك] واشتقاق الحرف، من قول العرب: أكمة عنوت: إذا كانت شديدة شاقة [المصعد]، فجعلت هذه اللفظة مستعملة في كل شدة.

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِرَ وَلَا أُمَّةً مُّؤْمِنَةً حَرِّمَ مِنَ مُشْرِكَةٍ وَلَا أَعْيَبْتُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَمَّذَ مُؤْمِنٌ حَرِّمَ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَا أُعْيِبْتُمْ أَوْلِيَاءَ الَّذِينَ دَعَوْا إِلَى الْكُفْرِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ وَالْمَغْفِرَةِ لِذُنُوبِهِمْ وَبَيْنَ أَيْتِيهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِرَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رجلاً يقال له: مرثد بن أبي مرثد بعثه النبي ﷺ إلى مكة ليخرج ناساً من المسلمين بها أسرى، فلما قدمها سمعت به امرأة يقال لها: عناق، وكانت خليفة له في الجاهلية، فلما أسلم أعرض عنها، فأنته فقالت: ويحك يا مرثد: ألا تخلو؟ فقال: إن الإسلام قد حال بيني وبينك، ولكن إن شئت تزوجتك، إذا رجعت إلى رسول الله ﷺ استأذنته في ذلك، فقالت له: أبي تتبرم؟! واستغاثت عليه، فضرهه ضرباً شديداً، ثم خلوا سبيله، فلما قضى حاجته بمكة رجع إلى النبي ﷺ فسأله: أتحل لي أن أتزوجها؟ فنزلت هذه الآية. هذا قول ابن عباس^(٢). وذكر مقاتل بن سليمان أنه أبو مرثد الغنوي. والثاني: أن عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء، وأنه غضب عليها فلطمها، ثم فرغ، فأتى النبي ﷺ فأخبره خبرها، [فقال له النبي ﷺ: «ما هي يا عبد الله؟»] فقال: يا رسول الله: هي تصوم وتصلي وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله. فقال: «يا عبد الله: هذه مؤمنة». فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها، ففعل، فعابه ناس من المسلمين، وقالوا: أنكح أمة، وكانوا يرغبون في نكاح المشركات رغبة في أحسابهن، فنزلت هذه الآية. رواه السدي عن أشياخه. وقد ذكر بعض المفسرين أن قصة عناق وأبا مرثد كانت سبباً لنزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِرَ﴾ وقصة ابن رواحة كانت سبباً لنزول قوله تعالى: ﴿وَلَا أُمَّةً مُّؤْمِنَةً حَرِّمَ مِنَ مُشْرِكَةٍ﴾. فأما التفسير، فقال المنفصل: أصل النكاح: الجماع، ثم كثرت ذلك حتى قيل للعقد: نكاح. وقد حرم الله ﷻ نكاح المشركات عقداً ووطءاً. وفي «المشركات» هاهنا

(١) رواه أبو داود، والنسائي، والحاكم، وقال: صحيح ولم يخرجاه، وواقفه الذهبي.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» عن ابن عباس، ورواه بسند حسن بغير هذا السياق وسبباً لآية أخرى، أبو داود والنسائي والترمذي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ولفظه: «أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي كان يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بني بمكة يقال لها: عناق، وكانت صديقة له، وإنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة بحمله. قال: فنجت حتى انتهت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة. قال: فجمعت عناق، فأبصرت سواد ظلي ينجب الحائط، فلما انتهت إلي عرفته، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً. هلّم فبت عندنا الليلة. قال: قلت: يا عناق حرم الله الزنى، قالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعتي ثمانية وسلكت الخندمة، فأنتهت إلى غار أو كهف، فدخلت، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا، فظل بولهم على رأسي، وعصاهم الله عني، قال: ثم رجعوا، ورجعت إلى صاحبي، فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهت إلى الأخر، ففككت عنه أكبله، فحملته أحمله، ويميني حتى قدمت المدينة. فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ، ولم يرد علي شيئاً حتى نزلت ﴿الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَاجَهُمْ وَالزَّوْجَاتِ لَا يَنْكِحُهُنَّ إِلَّا زَوَاجَهُنَّ﴾ [النور: ٣]. فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد: الزواني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، فلا تنكحها». وقال الترمذي: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

قولان: أحدهما: أنه يعم الكتابيات وغيرهن، وهو قول الأكثرين. والثاني أنه خاص في الوثنيات، وهو قول سعيد بن جبير، والنخعي، وقتادة. وفي المراد بالامة قولان: أحدهما: أنها المملوكة، وهو قول الأكثرين، فيكون المعنى: ولنكاح أمة مؤمنة خير من نكاح حرة مشركة. والثاني: أنها المرأة، وإن لم تكن مملوكة، كما يقال: هذه أمة الله، وهذا قول الضحاك، والأول أصح. وفي قوله: ﴿وَلَوْ أَعَجَبْتُكُمْ﴾ قولان: أحدهما: بجمالها وحسنها. والثاني: بحسبها ونسبها.

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية، فقال القائلون بأن المشركات الوثنيات: هي محكمة، وزعم بعض من نصر هذا القول أن اليهود والنصارى ليسوا بمشركين بالله، وإن جحدوا بنبو نبينا. قال شيخنا: وهو قول فاسد من وجهين: أحدهما: أن حقيقة الشرك ثابتة في حقهم حيث قالوا: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله. والثاني: أن كفرهم بمحمد ﷺ، يوجب أن يقولوا: إن ما جاء به ليس من عند الله، وإضافة ذلك إلي غير الله شرك. فاما القائلون بأنها عامة في جميع المشركات، فلهم في ذلك قولان: أحدهما: أن بعض حكمها منسوخ بقوله: ﴿وَأَلْحَسَنَتْ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وبقي الحكم في غير أهل الكتاب محكماً. والثاني: أنها ليست منسوخة، ولا ناسخة، بل هي عامة في جميع المشركات، وما أخرج عن عمومها من إباحة كافرة؛ فلذلك خاص، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَلْحَسَنَتْ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]؛ فهذه خصصت عموم تلك من غير نسخ، وعلى هذا عامة الفقهاء. وقد روي معناه عن جماعة من الصحابة، منهم: عثمان، وطلحة، وحذيفة، وجابر، وابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْفِرُوا الشُّرَكَ﴾ أي: لا تزوجوهم بمسلمة حتى يؤمنوا؛ والكلام في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَزَوَّجْتُمْ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعَجَبْتُكُمْ﴾ مثل الكلام في أول الآية. قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْبَيْتَةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِأَذْوَاهِهَا﴾؛ قرأ الجمهور بخفض «المغفرة»، وقرأ الحسن، والقزاز، عن أبي عمرو، برفعها.

﴿رَسْمُكَ عَلَى الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَعَزَّزُوا نِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿رَسْمُكَ عَلَى الْمَحِيضِ﴾ روى ثابت عن أنس قال: كانت اليهود إذا حاضت المرأة منهن لم يواكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوا في البيوت، فمثل النبي ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية، فأمرهم النبي ﷺ أن يواكلوهن ويشاربوهن ويكونوا معهن في البيوت، وأن يتفعلوا كل شيء ما عدا النكاح^(١). وقال ابن عباس: جاء رجل يقال له: ابن الدحداح^(٢)، من الأنصار، إلى النبي ﷺ فقال: كيف تصنع بالنساء إذا حضن؟ فنزلت هذه الآية. وفي المحيض قولان: أحدهما: أنه اسم للحيض، قال الزجاج: يقال: قد حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحاضاً ومحيضاً. وقال ابن قتيبة: المحيض: الحيض. والثاني: أنه اسم لموضع الحيض، كالمقيل، فإنه موضع القبولة، والمبيت موضع البيوتة. وذكر القاضي أبو يعلى أن هذا ظاهر كلام أحمد. فاما أرباب القول الأول؛ فأكدوه بأن في اللفظ ما يدل على قولهم، وهو أنه وصفه بالأذى، وذلك صفة لتفسير الحيض، لا لمكانه. وأما أرباب القول الثاني، فقالوا: لا يمتنع أن يكون المنحيض صفة للموضع، ثم وصفه بما قاربه وجاوره، كالعقيقة، فإنها اسم لشعر الصبي، وسميت بها الشاة التي

(١) أخرجه أحمد في «المستند» ومسلم في «صحيحه» ٢٤٦/١ ولفظه عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يواكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿رَسْمُكَ عَلَى الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَعَزَّزُوا نِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ إلى آخر الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود. فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه. فجهاد أسيد بن حضير وعباد بن بشر، فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجتمعن؟ فنغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا، فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما فسقاها، ففرحا أن لم يجد عليهما.

(٢) ويقال له: ابن الدحداح كما جاء في «الإصابة». والأثر ذكره ابن جرير عن السدي.

تذبح عند حلق رأسه مجازاً. والمرابية: اسم للجمل، وسميت المزادة راوية مجازاً. والأذى يحصل للواطئ بالنجاسة، وتنن الريح. وقيل: يورث جماع الحائض علة بالغة في الألم. ﴿فَاعْزَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ المراد به اعتزال الوطء في الفرج، لأن المحيض نفس الدم أو نفس الفرج ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ أي: لا تقربوا جماعهن، وهو تأكيد لقوله: ﴿فَاعْزَلُوا النِّسَاءَ﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص، عن عاصم ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ خفيفة. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وأبو بكر، عن عاصم (يَطْهَرْنَ) بتشديد الطاء والهاء وفتحهما. قال ابن قتيبة: يطهرون: ينقطع عنهن الدم، يقال: طهّرت المرأة وطهّرت: إذا رأت الطهر، وإن لم تغتسل بالماء. ومن قرأ: ﴿يَطْهَرْنَ﴾ بالتشديد أزداد: يغتسلن بالماء. والأصل يتطهرون، فأدغمت التاء في الطاء. قال ابن عباس ومجاهد: حتى يطهرون من الدم، فإذا تطهرون اغتسلن بالماء.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَوْكُمْ﴾ إباحة من حضر، لا على الوجوب.

قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: من قبل الطهر، لا من قبل الحيض، قاله ابن عباس، وأبو رزين، وقتادة، والسدي في آخرين. والثاني: أن معناه: فأتوهن من حيث أمركم الله أن لا تقربوهن فيه، وهو محل الحيض، قاله مجاهد. وقال من نصر هذا القول: إنما قال: ﴿أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ والمعنى: نهاكم، لأن النهي أمر بترك المنهي عنه (ومن) بمعنى (في): كقوله تعالى: ﴿إِذَا تَوَدَّى لِلصَّلَاةِ مِنْ بَيْتِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]. والثالث: فأتوهن من قبل التزويج الحلال، لا من قبل الفجور، قاله ابن الحنفية. والرابع: أن معناه: فأتوهن من الجهات التي يحل أن تقرب فيها المرأة، ولا تقربوهن من حيث لا ينبغي مثل أن كن صائمات أو معتكفات أو محرّمات. وهذا قول الزجاج، وابن كيسان. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّائِبِينَ﴾ قولان: أحدهما: التائبين من الذنوب، قاله عطاء، ومجاهد في آخرين. والثاني: التائبين من إتيان الحيض، ذكره بعض المفسرين. وفي قوله: ﴿وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: المتطهرين من الذنوب، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو العالية. والثاني: المتطهرين بالماء، قاله عطاء. والثالث: المتطهرين من إتيان أدبار النساء. روي عن مجاهد.

فصل

أقل الحيض يوم وليلة في إحدى الروايتين عن أحمد. والثانية: يوم. وقال أبو حنيفة: أقله ثلاثة أيام. وقال مالك وداود: ليس لأقله حد. وفي أكثره روايتان عن أحمد: إحداهما: خمسة عشر يوماً، وهو قول مالك والشافعي. والثانية: سبعة عشر يوماً. وقال أبو حنيفة: أكثره عشرة أيام. والحيض مانع من عشرة أشياء: فعل الصلاة، ووجوبها، وفعل الصوم دون وجوبه، والجلوس في المسجد، والاعتكاف، والطواف، وقراءة القرآن، وحمل المصحف، والاستمتاع في الفرج، وحصول نية الطلاق.

﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلنَّفْسِ وَالْوَالِدَاتِ وَالْأَقْرَبِينَ مِمَّا قَلَّ مِنْكُمْ نِعْمَةً وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلنَّفْسِ وَالْوَالِدَاتِ وَالْأَقْرَبِينَ مِمَّا قَلَّ مِنْكُمْ نِعْمَةً﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن اليهود أنكرت جواز إتيان المرأة إلا من بين يديها، وهابت من يأتيها على غير تلك الصفة، فنزلت هذه الآية. روي عن جابر^(١)، والحسن، وقتادة. والثاني: أن حياً من قريش كانوا يتزوجون النساء بمكة، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات، فلما قدموا المدينة، تزوجوا من الانتصار، فذهبوا ليفعلوا ذلك، فأنكره، وانتهى الحديث إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية. رواه مجاهد عن ابن عباس. والثالث: أن عمر بن الخطاب جاء إلى النبي ﷺ فقال: هلكت، حولت رحلي الليلة، فنزلت هذه الآية. رواه سعيد بن جبير عن

(١) روى الشيخان وأبو داود عن جابر، قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلنَّفْسِ وَالْوَالِدَاتِ وَالْأَقْرَبِينَ مِمَّا قَلَّ مِنْكُمْ نِعْمَةً﴾.

ابن عباس^(١). والحرث: المزدرع، وكنى به هاهنا عن الجماع، فسامهن حرثاً، لأنهن مزدرع الأولاد، كالأرض للزرع، فإن قيل: النساء جمع، فلم لم يقل: حروث؟ فعنه ثلاثة أجوبة، ذكرها ابن القاسم الأنباري النحوي: أحدها: أن يكون الحرث مصدرأ في موضع الجمع، فلزمه التوحيد، كما تقول العرب: إخوتك صوم، وأولادك فطر، يريدون: صائمين ومفطرين، فيؤدى المصدر بتوحيده عن اللفظ المجموع. والثاني: أن يكون أراد: حروث لكم، فاكتفى بالواحد من الجمع، كما قال الشاعر:

كلوا في نصف بطنكم تعيشوا

أي: في أنصاف بطونكم. والثالث: أنه إنما وحّد الحرث، لأن النساء شبهن به، ولسن من جنسه، والمعنى: نساؤكم مثل حروث لكم.

قوله تعالى: ﴿أَنْ شِئْتُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بمعنى: كيف شئتم، ثم فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: كيف شئتم، مقبلة أو مدبرة، وعلى كل حال، إذا كان الإتيان في الفرج. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعطية، والسدي، وابن قتيبة في آخرين. والثاني: أنها نزلت في العزل. قاله سعيد بن المسيب، فيكون المعنى: إن شئتم فاعزلوا، وإن شئتم فلا تعزلوا. والقول الثاني: أنه بمعنى: إن شئتم، ومتى شئتم، وهو قول ابن الحنفية والضحاك، وروي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنه بمعنى: حيث شئتم، وهذا محكي عن ابن عمر ومالك بن أنس^(٢)، وهو فاسد من وجوه: أحدها: أن سالم بن عبد الله لما بلغه أن نافعاً تحدث بذلك عن ابن عمر، قال: كذب العبد، إنما قال عبد الله: يؤتون في فروجهن من أديارهن. وأما أصحاب مالك، فإنهم يتكرونها صحته عن مالك، والثاني: أن أبا هريرة روى عن النبي ﷺ أنه قال: «لمعون من أديارهن»^(٣)، فدل على أن الآية لا يراد بها هذا. والثالث: أن الآية نهت على أنه محل الولد بقوله: ﴿فَأَوْأُوا حَزَنَكُمْ﴾ وموضع الزرع: هو مكان الولد. قال ابن الأنباري: لما نصّ الله على ذكر الحرث، والحرث به يكون النبات، والولد مثبته بالنبات؛ لم يجز أن يقع الوطاء في محل لا يكون منه ولد. والرابع: أن تحريم إتيان الحائض كان لعله الأذى، والأذى ملازم لهذا المحل لا يفارقه.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمُوا إِلَىٰ سَبْئَةَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: وقدموا لأنفسكم من العمل الصالح، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: وقدموا التسمية عند الجماع، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: وقدموا لأنفسكم في طلب الولد، قاله مقاتل. والرابع: وقدموا طاعة الله واتباع أمره، قاله الزجاج.

﴿وَلَا تَجْمَعُوا لَكُمْ عِزَّةً﴾

(١) رواه الإمام أحمد والنسائي وابن حبان والترمذي، وقال: حسن غريب، ولفظه عند أحمد «عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت. قال: «وما الذي أهلكك؟» قال: حولت رحلي البارحة، قال: فلم يرد علي شيئاً، قال: فأوحى الله إلى رسوله هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجْمَعُوا لَكُمْ عِزَّةً﴾ أنبأ وأدبر، واتقوا الدبر والحضه. قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. وقوله: «حولت رحلي البارحة»، قال ابن الأثير في «النهاية» كنى برحله عن زوجته، وأراد به غشيانها في قبلها من جهة ظهرها، لأن المجامع يعلو المرأة ويركبها مما يلي وجهها، فعنت ركبها من جهة ظهرها كنى عنه بتحويل رحله. (والرحل): إما أن يريد به المنزل والمأوى، وإما أن يريد به الرحل الذي تتركب عليه الإبل وهو الكور.

(٢) ثبت عن رسول الله ﷺ أحاديث في نهى الرجل أن يأتي المرأة في دبرها، فمن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا إن الله لا يستحي من الحق، لا يحل أن تأتوا النساء في حشوشهن» (الحش: الدبر) رواه الدارقطني، والطبراني ورجاله ثقات. وعن خزيمه بن ثابت الخطمي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يستحي الله من الحق، لا يستحي الله من الحق، ثلاثاً، لا تأتوا النساء في أعجازهن» رواه أحمد والنسائي وابن ماجه. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة في الدبر» رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في «صحيحه»، وحسن الترمذي، وصححه ابن حزم. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى». رواه أحمد والبخاري في «الأوسط»، وصححه المنذري والهيثمي. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد». رواه أحمد في «المستد» وأبو داود والترمذي وابن ماجه وسنده صحيح. فهذه الأحاديث الصحيحة تفسير قاطع للآية، فليس لمسلم أن يعدل عن تفسير رسول الله ﷺ إلى تفسير غيره مهما كان هذا الغير.

(٣) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، لأن الحارث بن مخلد ذكره ابن حبان في «الثقات»، وياقي رجال الإسناد ثقات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْمَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْنَيْكُمْ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في عبد الله بن رواحة، كان بينه وبين خنته^(١) شيء، فحلف عبد الله أن لا يدخل عليه ولا يكلمه، وجعل يقول: قد حلفت بالله، فلا يحل لي، إلا أن تبرّ يميني، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أن الرجل كان يحلف بالله أن لا يصل رحمه، ولا يصلح بين الناس، فنزلت هذه الآية، قاله الربيع بن أنس. والثالث: أنها نزلت في أبي بكر حين حلف لا يتفق على مسطح، قاله ابن جريج. والرابع: نزلت في أبي بكر، حلف أن لا يصل ابنه عبد الرحمن حتى يسلم، قاله المقاتلان: ابن حيان، وابن سليمان. قال الفراء: والمعنى: ولا تجعلوا الله مُعْتَرِضاً لأيمانكم. وقال أبو عبيد: نصباً لأيمانكم، كأنه يعني: أنكم تعترضونه في كل شيء، فتحلفون به. وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناها: لا تحلفوا بالله أن لا تبرؤوا ولا تتقوا ولا تصلحوا بين الناس، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وابن جبير، وإبراهيم، والضحاك، وقتادة، والسدي، ومقاتل، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج في آخرين^(٢). والثاني: أن معناها: لا تحلفوا بالله كاذبين لتتقوا المخلوقين وتبرؤهم، وتصلحوا بينهم بالكذب، روى هذا المعنى عطية عن ابن عباس. والثالث: أن معناها: لا تكثروا الحلف بالله وإن كنتمم بآراء مصلحين، فإن كثرة الحلف بالله ضرب من الجرأة عليه. هذا قول ابن زيد.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُلُوِّ فِي أَيْنَيْكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُلُوِّ فِي أَيْنَيْكُمْ﴾ قال الزجاج: اللغو في كلام العرب: ما أطرّح ولم يعقد عليه أمر، ويسمى ما لا يعتد به، لغواً. وقال ابن فارس: اشتقاق ذلك من قولهم لما لا يعتد^(٣) [به] من أولاد الإبل في الدية وغيرها لغواً، يقال منه: لغنا يلغو، وتقول: لغني بالامر: إذا لهج به. وقيل: إن اشتقاق اللغة منه [أي: يلهج صاحبها بها]. وفي المراد باللغو هاهنا خمسة أقوال: أحدها: أن يحلف على الشيء يظن أنه كما حلف، ثم يتبين له أنه بخلافه. وإلى هذا المعنى ذهب أبو هريرة، وابن عباس، والحسن، وعطاء، والشعبي، وابن جبير، ومجاهد، وقتادة، والسدي عن أشياخه، ومالك، ومقاتل. والثاني: أنه: لا والله، وبلى والله، من غير قصد لعقد اليمين، وهو قول عائشة، وطاوس، وعروة، والنخعي، والشافعي. واستدل أرباب هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وكسب القلب: عقده وقصده، وهذان القولان متقولان عن الإمام أحمد، روى عنه ابنه عبد الله أنه قال: اللغو عندي أن يحلف على اليمين، يرى أنها كذلك، ولا كفارة. والرجل يحلف ولا يعقد قلبه على شيء، فلا كفارة. والثالث: أنه يمين الرجل وهو غضبان، رواه طاووس عن ابن عباس. والرابع: أنه حلف الرجل على معصية، فليحنت، وليكفر، ولا إثم عليه. قاله سعيد بن جبير. والخامس: أن يحلف الرجل على شيء، ثم ينسأه. قاله النخعي. وقول عائشة أصح الجميع. قال حنبل: سئل أحمد عن اللغو فقال: الرجل يحلف فيقول: لا والله، وبلى والله، لا يريد عقد اليمين، فإذا عقد على اليمين لزمته الكفارة.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ قال مجاهد: أي: ما عقدت عليه قلوبكم «والحليم»: ذو الصفح الذي لا يستغزه غضب، فيعجل، ولا يستغفه جهل جاهل مع قدرته على العقوبة. قال أبو سليمان الخطابي: ولا يستحق اسم الحليم من سامح مع العجز عن المجازاة، إنما الحليم الصفوح مع القدرة، المتأنّي الذي لا يعجل بالعقوبة. وقد أنعم بعض الشعراء أبياتاً في هذا المعنى فقال:

لا يدرك المجد أقوامٌ وإن كرموا
حتى يندأوا وإن عزّوا لأقوام
وُسُئِمُوا فترى الألوانَ مسفرةً
لأصْفَحِ ذُلٍّ وَلَكِنْ صَفْحِ أَحْلَامِ

(١) هو بشير بن النعمان، وكان خنته على أخته.

(٢) جاء في «غريب القرآن» لابن قتيبة في تفسير الآية: «لا تجعلوا الله بالحلف به؛ مانعاً لكم من أن تبرؤوا وتتقوا، ولكن إذا حلفتم على أن لا تصلحوا رحماً، ولا تصدقوا، ولا تصلحوا، وعلى أشياء ذلك من أبواب البر؛ فكفروا وأتوا الذي هو خير».

(٣) في الأصل: يعد، والتصحيح من «معجم مقاييس اللغة».

قال، ويقال: حَلَمَ الرجل يَحْلُمُ حُلْمًا بضم اللام في الماضي والمستقبل. وحَلَمَ في النوم، بفتح اللام، يحلم حُلْمًا، اللام في المستقبل والحاء في المصدر مضموتان.

فصل

الأيمان على ضربين: ماضٍ ومستقبل، فالماضي على ضربين: يمين محرمة، وهي: اليمين الكاذبة، وهي أن يقول: والله ما فعلت، وقد فعل. أو: لقد فعلت، وما فعل. ويمين مباحة، وهي أن يكون صادقاً في قوله: ما فعلت. أو: لقد فعلت. والمستقبل على خمسة أقسام: أحدها: يمين عقدها طاعة، والمقام عليها طاعة، وحلها معصية، مثل أن يحلف: لأصليَنَّ الخمس، ولأصومَنَّ رمضان، أو: لا شربت الخمر. والثاني: عقدها معصية، والمقام عليها معصية، وحلها طاعة، وهي عكس الأولى. والثالث: يمين عقدها طاعة، والمقام عليها طاعة، وحلها مكروه، مثل أن يحلف: ليَفْعَلَنَّ النوافل من العبادات. والرابع: يمين عقدها مكروه، والمقام عليها مكروه، وحلها طاعة، وهي عكس التي قبلها. والخامس: يمين عقدها مباح، والمقام عليها مباح، وحلها مباح. مثل أن يحلف: لا دخلت بلداً فيه من يظلم الناس، ولا سلكت طريقاً مخوفاً، ونحو ذلك.

﴿لَّذَيْنِ يُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثَرْغَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ إِنْ قَامُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَّذَيْنِ يُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثَرْغَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ إِنْ قَامُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية إذا طلب الرجل من امرأته شيئاً، فأبت أن تعطيه؛ حلف أن لا يقربها السنة، والستين، والثلاث، فيدعها لا أيماً، ولا ذات بعل، فلما كان الإسلام، جعل الله ذلك أربعة أشهر، فأنزل الله هذه الآية^(١). وقال سعيد بن المسيب: كان الإيلاء ضرار أهل الجاهلية، وكان الرجل لا يريد المرأة، ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبداً، فجعل الله تعالى الأجل الذي يعلم به ما عند الرجل في المرأة أربعة أشهر، وأنزل هذه الآية. قال ابن قتيبة: يُولُونَ، أي: يحلفون. يقال: آليت من امرأتي، أولي إيلاء: إذا حلف لا يجامعها. والاسم: الأليّة. وقال الزجاج: يقال من الإيلاء: آليت أولي إيلاءً وأليّةً وألوةً وألوةً، وهي بالكسر أقل اللغات، قال كثير:

قيل الألياء حافظٌ ليمينه وإن بددت منه الأليّة بئرت

وحكى ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال: «من» بمعنى: «في» أو: «على» والتقدير: يحلفون على وطء نساءهم، فحذف الوطء، وأقام النساء مقامه، كقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ قال عمران: ١٦٤، أي: على السنة رسلك. وقيل: في الكلام حذف، تقديره: يُولُونَ يعتزلون من نساءهم. والترص: الانتظار. ولا يكون مؤلياً إلا إذا حلف بالله أن لا يصيب زوجته أكثر من أربعة أشهر، فإن حلف على أربعة أشهر فما دون ذلك، لم يكن مؤلياً. وهذا قول مالك، وأحمد، والشافعي. وفاؤوا: رجعوا، ومعناه: رجعوا إلى الجماع، قاله عليّ، وابن عباس، وابن جبير، ومسروق، والشافعي. وإذا كان للمؤلي عذر لا يقدر معه على الجماع، فإنه يقول: متى قدرت جامعته، فيكون ذلك من قوله فيئة؛ فمتى قدر فلم يفعل، أمر بالطلاق، فإن لم يطلق، طلق الحاكم عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال عليّ، وابن عباس: غفور لإثم اليمين.

﴿وَإِنْ عَزَبُوا فَأَنْتَ عَلَىٰ سَبِيلٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَبُوا فَأَنْتَ عَلَىٰ سَبِيلٍ﴾ أي: حققوه. وفي عزم الطلاق قولان: أحدهما: أنه إذا مضت الأربعة الأشهر استحق عليه أن يفيء، أو يطلق، وهو مروى عن عمر وعثمان، وعليّ، وابن عمر، وسهل بن سعد، وعائشة، وطاووس، ومجاهد، والحكم، وأبي صالح. وحكاه أبو صالح عن اثني عشر رجلاً من الصحابة، وهو قول مالك، وأحمد، والشافعي. والثاني: أنه لا يفيء حتى يمضي أربعة أشهر، فتطلق بذلك من غير أن يتكلم بطلاق. واختلف أرباب هذا القول فيما يلحقها من الطلاق على قولين: أحدهما: طلقة بائنة. روي عن عثمان، وعليّ، وابن عمر،

(١) رواه الواحدي بمعناه في «أسباب النزول» بسنده إلى ابن عباس.

وزيد بن ثابت، وقبيصة بن ذؤيب. والثاني: طلقة رجعية، روي عن سعيد بن المسيب، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وابن شبرمة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: سميع لطلاقه، عليم بنيته. والثاني: سميع ليمينه، عليم بها.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْصِدْنَ أَنْفُسَهُنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمَنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَوْمَئِذٍ أَحْسَنُ بَرَاءً فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادَا إِسْلَامًا وَلَكِنْ شِئْلُ الَّذِي عَلَيْكَ بِالْمَعْرُوفِ وَالْإِجْتِهَادِ عَلَيْهِمْ ذَرِيَّةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْصِدْنَ أَنْفُسَهُنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ سبب نزولها: أن المرأة كانت إذا طلقت وهي راغبة في زوجها، قالت: أنا حبلى، وليست حبلى، لكي يراجعها، وإن كانت حبلى وهي كارهة، قالت: لست بحبلى، لكي لا يقدر على مراجعتها. فلما جاء الإسلام ثبتوا على هذا، فنزل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقَتُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١] ثم نزلت: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْصِدْنَ أَنْفُسَهُنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. رواه أبو صالح عن ابن عباس. فأما التفسير؛ فالطلاق: التخلية. قال ابن الأنباري: هي من قول العرب: أطلقت الناقة، فطلقت: إذا كانت مشدودة، فأزلت الشد عنها، وخليتها، فشيء ما يقع للمرأة بذلك، لأنها كانت متصلة الأسباب بالرجل، وكانت الأسباب كالشد لها، فلما طلقها قطع الأسباب. ويقال: طلقت المرأة، وطلقت. وقال غيره: الطلاق: من أطلقت الشيء من يدي، إلا أنهم لكثرة استعمالهم اللفظتين فرقوا بينهما، ليكون التطلق مقصوراً في الزوجات. وأما القروء: فيراد بها: الأطهار، ويراد بها الحيض. يقال: أقرأت المرأة إذا حاضت، وأقرأت: إذا طهرت. قال النبي ﷺ في المستحاضة: «تتعد أيام أقرائها»^(١) يريد: أيام حيضها. وقال الأعشى:

وفي كل عام أنت جاشم غزوة تشدُّ لأقصاها غريم عزائكا
مؤرثة مالا، وفي الحي رفعاً لما ضاع فيها من قروء نساككا^(٢)

أراد بالقروء: الأطهار، لأنه لما خرج عن نسائه أضاع أطهارهن. واختلف أهل اللغة في أصل القروء على قولين: أحدهما: أن أصله الوقت، يقال: رجع فلان لقرته، أي: لوقته الذي كان يرجع فيه، [ورجع لقارته أيضاً] قال الهذلي^(٣):

كرهت العقر عقر بني شليل إذا هبت لقارثها الرياح^(٤)

فالحيض يأتي لوقت، والطهر يأتي لوقت، هذا قول ابن قتيبة. والثاني: أن أصله الجمع. وقولهم: قرأت القرآن، أي: لفظت به مجموعاً. والقروء: اجتماع الدم في البدن، وذلك إنما يكون في الطهر، وقد يجوز أن يكون اجتماعه في الرحم، وكلاهما حسن، هذا قول الزجاج. واختلف الفقهاء في الأقرء على قولين: أحدهما: أنها الحيض. روي عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي موسى، وعيادة بن الصامت، وأبي الدرداء، وعكرمة، والضحاك، والسدي، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والحسن بن صالح، وأبي حنيفة وأصحابه، وأحمد بن حنبل رضي الله عنه فإنه قال: قد كنت أقول: القروء: الأطهار، وأنا اليوم أذهب إلى أنها الحيض^(٥). والثاني: أنها الأطهار. روي عن زيد بن ثابت، وابن عمر، وعائشة، والزهري، وأبان بن عثمان، ومالك بن أنس، والشافعي، وأوماً إليه أحمد. ولفظ قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ

(١) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سئل رسول الله ﷺ عن المستحاضة، فقال: «تدع الصلاة أيام أقرائها، ثم تغتسل غسلًا واحدًا، ثم تتوضأ عند كل صلاة» رواه ابن حبان في صحيحه، وقد رواه غير ابن حبان عن غير عائشة. انظر: «تصنيف الرامية» ٢٠١/٨.

(٢) هما من تصديده يملح بها هودة بن علي الحنفي. جسم الأمر تجشمه جشماً وجشامة: تكلفه على جهد ومشقة. والغريبة والفرام: الجد وعقد القلب على أمرائك فاعله. المزاء: حسن الصبر عن فقد ما يفقد الإنسان. وقوله: مؤرثة؛ صفة لقوله: غزوة. يقول: لك في كل عام غزوة أنت جاشمها، تجمع لها صبرك وجلدك، فتعود منها بالمال والمجد الذي يعرضك عما عانيت من هجر نساك في وقت طهرهن، فلم تقرهن.

(٣) هو مالك بن النخاعة الهذلي.

(٤) العقر: اسم مكان، كرهه لأنه قوتل فيه، وشليل: جد جرير بن عبد الله الجبلي.

(٥) وقد نصر هذا القول ابن القيم في «زاد المعاد» والأحاديث الصحيحة تزيد.

يَرِيضَنَّ ﴿ لفظ الخير، ومعناه: الأمر، كقوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرِيضْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ وقد يأتي لفظ الأمر في معنى الخير كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَبَدُّهُ لِحُزْنِهِ مُدًّا ﴾ [مرم: ٧٥]. والمراد بالمطلقات في هذه الآية، البالغات، المدخول بهن غير الحوامل.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحمل، قاله عمر، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنه الحيض، قاله عكرمة، وعطية، والنخعي، والزهري. والثالث: الحمل والحيض، قاله ابن عمر، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِرُ بِإِلَهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ خرج مخرج الوعيد لهن والتوكيد، قال الزجاج: وهو كما تقول للرجل: إن كنت مؤمناً فلا تظلم. وفي سبب وعيدهم بذلك قولان: أحدهما: أنه لأجل ما يستحقه الزوج من الرجعة، قاله ابن عباس. والثاني: لأجل إلحاق الولد بغير أبيه، قاله قتادة. وقيل: كانت المرأة إذا رغبت في زوجها، قالت: إني خافض، وقد طهرت. وإذا زهدت فيه، كتبت خيضها حتى تغتسل، فتفوته. والبعولة: الأزواج. وذلك: إشارة إلى العدة. قاله مجاهد، والنخعي، وقتادة في آخرين. وفي الآية دليل على أن خصوص آخر اللفظ لا يمنع عموم أوله، ولا يوجب تخصيصه، لأن قوله تعالى: ﴿ وَأَنْطَلَقْتُ يَرِيضَةً ﴾ عام في المبتوتات والرجعيات، وقوله تعالى: ﴿ وَيُؤَلِّقَنَّ أَحَقُّ يَرِيضَةً ﴾ خاص في الرجعيات^(١).

قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ قيل: إن الرجل كان إذا أراد الإضرار بامرأته، طلقها واحدة وتركها، فإذا قارب انقضاء عدتها راجعها، ثم تركها مدة، ثم طلقها، فنهوا عن ذلك. وظاهر الآية يقتضي أنه إنما يملك الرجعة على غير وجه المضارة بتطويل العدة عليها، غير أنه قد دل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرَهُنَّ مُرَارًا لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ على صحة الرجعة وإن قصد الضرر، لأن الرجعة لو لم تكن صحيحة إذا وقعت على وجه الضرر؛ لما كان ظالماً بفعلها.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَشَأْ يُرْسِلْ إِلَىٰ آلِي عَالِيَةِ الْبَلَدِ ﴾ وهو: المعاشرة الحسنة، والصحبة الجميلة. روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن حق المرأة على الزوج، فقال: «أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يضرب الوجه، ولا يقبح، ولا يهجر إلا في البيت»^(٢) وقال ابن عباس: إني أحب أن أتزين للمرأة، كما أحب أن تتزين لي، لهذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ ذِمَّةٌ ﴾ قال ابن عباس: بما ساق إليها من المهر، وأنفق عليها من المال. وقال مجاهد: بالجهد والميراث. وقال أبو مالك: يطلقها، وليس لها من الأمر شيء. وقال الزجاج: تنال منه من اللذة كما ينال منها، وله الفضل بنفخته. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(٣). وقالت ابنة سعيد بن المسيب: ما كنا نكلم أزواجنا إلا كما تكلمون أمراءكم.

فصل

اختلف العلماء في هذه الآية: هل تدخل في الآيات المنسوخات أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها تدخل في ذلك. واختلف هؤلاء في المنسوخ منها، فقال قوم: المنسوخ منها قوله تعالى: ﴿ وَأَنْطَلَقْتُ يَرِيضَةً بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ وقالوا: فكان يجب على كل مطلقة أن تعتد بثلاثة قروء، فنسخ حكم الحامل بقوله تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ أَكْمَالُ أَيْمَانِهِمْ أَنْ يَصْعَقَ جَمَلُهُمْ ﴾ [الطلاق: ٤]. وحكم المطلقة قبل الدخول بقوله تعالى: ﴿ إِذَا نَكَحَتِ الْمُؤْمِنَاتُ نَمْرًا طَلَّقَتْهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ تَعَدُوهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٤٩] وهذا مروى عن ابن عباس، والضحاك في آخرين. وقال قوم:

(١) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: أي: وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها، إذا كان تزاده بردها الإصلاح والخير، وهذا في الرجعيات. فأما المطلقات البوائن فلم يكن خال نزول هذه الآية مطلقة بانن، وإنما كان ذلك لما حضروا في الطلقات الثلاث. فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطلقات، صار للناس مطلقة بانن وغير بانن. وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين من استنهادهم على مسألة عود الضمير؛ هل يكون مخصصاً لما تقدمه من لفظ العموم أم لا؟ بهذه الآية الكريمة، فإن التمثيل بها غير مطابق لما ذكره، والله أعلم.

(٢) رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه واللفظ له، وحسنه النووي. (٣) رواه أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

أولها محكم، والمنسوخ قوله تعالى: ﴿وَيُؤَلِّهِنَّ أَحْسَنَ رِزْقٍ﴾ قالوا: كان الرجل إذا طلق امرأته كان أحق برجعتها، سواء كان الطلاق ثلاثاً، أو دون ذلك، فنسخ بقوله تعالى: ﴿إِن طَلَّقَهَا فَلَا حِجْلَ لَهَا مِنْ بَدْحٍ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ والقول الثاني: أن الآية كلها محكمة، فأولها عام. والآيات الواردة في العدد، خصت ذلك من العموم، وليس بنسخ. وأما ما قيل في الارتجاع، فقد ذكرنا أن معنى قوله تعالى: ﴿وَيُؤَلِّهِنَّ أَحْسَنَ رِزْقٍ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في العدة قبل انقضاء القروء الثلاثة، وهذا القول هو الصحيح.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِسْتِنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ سِتْرًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ حَقَمَ أَحَدُهُمَا حُدُودَهُ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾
قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ سبب نزولها، أن الرجل كان يطلق امرأته، ثم يراجعها ليس لذلك شيء ينتهي إليه، فقال رجل من الأنصار لامرأته: والله لا أريك إليّ أبداً ولا أدعك تحلين مني. فقالت: كيف ذلك؟ قال: أطلقك، فإذا دنا أجلك، وراجعتك، فدهبت إلى النبي ﷺ تشكو إليه ذلك، فنزلت هذه الآية، فاستقبلها الناس [جديداً] من كان طلق، ومن لم يكن طلق. رواه هشام بن عروة عن أبيه^(١). فأما التفسير، ففي قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ قولان: أحدهما: أنه بيان لسنة الطلاق، وأن يوقع في كل قرء طلقة، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنه بيان للطلاق الذي يملك معه الرجعة، قاله عروة، وقتادة، وابن قتيبة، والزجاج في آخرين.

قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ معناه: فالراجع عليك إمساك بمعروف، وهو ما يعرف من إقامة الحق في إمساك المرأة، وقال عطاء، ومجاهد، والضحاك، والسدي: المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾: الرجعة بعد الثانية. وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِسْتِنٍ﴾ قولان: أحدهما: أن المراد به: الطلقة الثالثة، قاله عطاء، ومجاهد، ومقاتل. والثاني: أنه الإمساك عن رجعتها حتى تنقضي عدتها، قاله الضحاك، والسدي. قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء: وهذا هو الصحيح، لأنه قال عقيب الآية: ﴿إِن طَلَّقَهَا فَلَا حِجْلَ لَهَا مِنْ بَدْحٍ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ والمراد بهذه الطلقة: الثالثة بلا شك، فيجب إذن أن يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِسْتِنٍ﴾ على تركها حتى تنقضي عدتها، لأنه إن حمل على الثالثة، وجب أن يحمل قوله تعالى: ﴿إِن طَلَّقَهَا﴾ على رابعة، وهذا لا يجوز.

فصل

الطلاق على أربعة أضرب: واجب، ومندوب إليه، ومحظور، ومكروه. فالواجب: طلاق المؤلّي بعد التربص، إذا لم يفى، وطلاق الحكيمين في شقاق الزوجين، إذا رأيا الفرقة. والمندوب: إذا لم يتفقا، واشتدّ الشقاق بينهما، ليتخلصا من الإثم. والمحظور: في الحيض، إذا كانت مدخولاً بها، وفي طهر جامعها فيه قبل أن تطهر. والمكروه: إذا كانت حالهما مستقيمة، وكل واحد منهما يتم بحق صاحبه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ سِتْرًا﴾ نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، أتت زوجته إلى النبي ﷺ فقالت: والله ما أعيب على ثابت في دين ولا خلق، ولكني [أكره الكفر في الإسلام] لا أطيقه بغضاً. فقال لها النبي ﷺ: «أتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم. فأمره النبي ﷺ أن يأخذها، ولا يزداد. رواه عكرمة عن ابن عباس^(٢) واختلفوا في اسم زوجته، فقال ابن عباس: جميلة. ونسبها يحيى بن أبي كثير، فقال: جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، وكنّاها مقاتل، فقال: أم حبيبة بنت عبد الله بن أبي. وقال آخرون: إنما هي جميلة أخت عبد الله بن أبي. وروى يحيى بن سعيد عن عمرة روايتين: إحداهما: أنها حبيبة بنت سهل. والثانية: سهلة بنت حبيب^(٣). وهذا الخلع

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» والترمذي، وغيرهما مرسلأ، لأن عروة بن الزبير تابعي. وقد جاء الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنحوه متصلاً مرفوعاً، رواه الترمذي والحاكم والبيهقي.

(٢) رواه ابن ماجه عن ابن عباس، ورواه البخاري في «صحيحه» والسنائي بمعناه.

(٣) الذي في كتب التفسير حبيبة بنت سهل، ولم يذكر أحد منهم سهلة بنت حبيب، ولا وجدنا لها ترجمة في الصحاحيات. وقد اختلف العلماء فيمن اختلعت من ثابت بن قيس بن شماس، أم حبيبة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، أم حبيبة بنت سهل؟ والذي رجحه الحافظ ابن حجر وارتضاه =

أول خلع كان في الإسلام. والخوف في الآية بمعنى: العلم: قال أبو عبيد: معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾: يوقنا. والحدود قد سبق بيان معناها. ومعنى الآية: أن المرأة إذا خافت أن تعصي الله في أمر زوجها لبغضها إياه، وخاف الزوج أن يعتدي عليها لامتناعها عن طاعته؛ جاز له أن يأخذ منها الفدية، إذا طلبت ذلك. هذا على قراءة الجمهور في فتح «ياه» ﴿يَخَافَا﴾. وقرأ الحسن، ومجاهد، وأبو جعفر، وحزمة والأعمش: (يُخَافَا) بضم الياء.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ قال قتادة: هو خطاب للولاء ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا﴾ على المرأة ﴿فِيَا أَفَدَّتْ يَدُهَا﴾ وعلى الزوج فيما أخذ، لأنه ثمن حقه. وقال الفراء: يجوز أن يراد الزوج وحده، وإن كانا قد ذكرا جميعاً، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ بَيْنَمَا أَلْرَّؤُ وَالْمَرْجَاتِ﴾ [الرحمن: ٢٢٢] وإنما يخرج من أحدهما. وقوله: ﴿فِيَا حَوْتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] وإنما نسي أحدهما.

فصل

وهل يجوز له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها؟ فيه قولان: أحدهما: يجوز، وبه قال عمر بن الخطاب، وعثمان، وعلي، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، والنخعي، والضحاك، ومالك، والشافعي. والثاني: لا يجوز، وبه قال سعيد بن المسيب، وعطاء، والشعبي، وطاووس، وابن جبير، والزهري، وأحمد بن حنبل، وقد نقل عن علي، والحسن أيضاً. وهل يجوز الخلع دون السلطان؟ قال عمر، وعثمان، وعلي، وابن عمر، وطاووس، وشريح، والزهري: يجوز، وهو قول جمهور العلماء. وقال الحسن، وابن سيرين، وقاتدة: لا يجوز إلا عند السلطان.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا حِجْلَ لَهَا مِنْ بَدْحٍ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ طَلَّ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا حِجْلَ لَهَا مِنْ بَدْحٍ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ ذكر مقاتل أن هذه الآية نزلت في تميمية بنت وهب بن عتيك النضيري، وفي زوجها رفاعة بن عبد الرحمن القرظي. وقال غير مقاتل: إنها عاتشة بنت عبد الرحمن بن عتيك، كانت تحت رفاعة بن وهب بن عتيك وهو ابن عمها، فطلقها ثلاثاً، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، ثم طلقها، فأتت إلى النبي ﷺ، فقالت: إني كنت عند رفاعة، فطلقني، فأبى طلاقي، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وإنه طلقني قبل أن يمسي، فأرجع إلى ابن عمي؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تلدوقي عسيلته ويلدوق عسيلتك»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ يعني: الزوج المطلق مرتين. قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة: هي الطلقة الثالثة. واعلم أن الله تعالى عاد بهذه الآية بعد الكلام في حكم الخلع إلى تمام الكلام في الطلاق.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ يعني: الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا﴾ يعني: المرأة، والزواج الأول ﴿إِنْ طَلَّ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ قال طاووس: ما فرض الله على كل واحد منهما من حسن العشرة والصحة.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا﴾ قراءة الجمهور ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ بالياء. وقرأ الحسن، ومجاهد، والمفضل عن عاصم بالنون، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال الزجاج: يعلمون أن أمر الله حق.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُنكِحَنَّ أَهْلَهُنَّ بِمُرُوفٍ أَوْ سَرَحُونَ بِمُرُوفٍ وَلَا حِجْلَ لَكُمْ زِيَارًا لِيَعْتَدُوا وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَنْجِدُوا أَيْدِيَهُمْ وَأَذْكَرُوا بَأْسَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَبْطِئُ بِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُنكِحَنَّ أَهْلَهُنَّ﴾ قال ابن عباس: كان الرجل يطلق امرأته، ثم يراجعها قبل انقضاء

= إنهما كلتاها اختلعتا منه، فقد قال في «الفتح» ٢٥٠/٩: والذي يظهر أنهما قصتان وقتنا لامرأتين، لشهرة الخبرين، وصحة الطريقتين، واختلاف السياقين.

(١) - أخرج الحديث بمعناه البخاري ومسلم وأصحاب السنن إلا أبا داود. وقوله: «حتى تلدوق عسيلته ويلدوق عسيلتك» شبه لذة الجماع بلذة العسل، فاستعار لها ذوقاً، وإنما أتت، لأنه أراد قطعة من العسل، وقيل: على إعطائها معنى النطفة. وقيل: العسل في الأصل يذكر ويؤث، فمن صغره مؤثناً قال: عسيلة، وإنما صغره إشارة إلى القدر القليل الذي يحصل به الحل.

عديتها، ثم يطلقها [يفعل ذلك]، يضارها [ويعضلها]^(١) بذلك، فنزلت هذه الآية. والأجل هاهنا: زمان العدة. ومعنى البلوغ هاهنا: مقاربة الأجل دون حقيقة الانتهاء إليه، يقال: بلغت المدينة: إذا قاربتها، وبلغتها: إذا دخلتها. وإنما حمل العلماء هذا البلوغ على المقاربة، لأنه ليس بعد انقضاء العدة رجعة.

قوله تعالى: ﴿فَأَنبِئُكُمْ بِمَعْرِفِهِ﴾ قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة: المراد به الرجعة قبل انقضاء العدة.

قوله تعالى: ﴿سَيَرْوِيَنَّ بِمَعْرِفِهِ﴾ وهو تركها حتى تنقضي عدتها. والمعروف في الإمساك: القيام بما يجب لها من حق. والمعروف في التسريح: أن لا يقصد إضرارها، بأن يطيل عدتها بالمراجعة، وهو معنى قوله: ﴿وَلَا تُنكِهُنَّ مِرَارًا لِّعْتِدَادِكُمْ﴾ قاله الحسن ومجاهد، وقتادة في آخرين. وقال الضحاك: إنما كانوا يضارون المرأة لتفتدي. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الاعتداء، ﴿فَقَدْ ظَلَمَ النَّفْسَ﴾ بارتكاب الإثم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَتِ اللَّهُ هُنَّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الرجل يطلق أو يراجع، أو يعتق، ويقول: كنت لاعباً. روي عن عمر، وأبي الدرداء، والحسن. والثاني: أنه المضار بزوجه في تطويل عدتها بالمراجعة والطلاق. قاله مسروق، ومقاتل. ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: احفظوا منته عليكم بالإسلام. قال: والكتاب: القرآن. والحكمة: الفقه. ﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ﴾ في الضرار ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ به وبغيره ﴿عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا فَسَّخِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا أَن يَنْكِحَنَّ أَحَدُهُمَا إِذَا تَرَاصُوا بَيْنَهُمَا بِالْمَعْرِفَةِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ لَعْنٌ وَاللَّهُ يَسْمَعُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا فَسَّخِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: ما روى الحسن أن معقل بن يسار زوج أخته من رجل من المسلمين، فكانت عنده ما كانت، فطلقها تطليقة [ثم تركها] ومضت العدة، فكانت أحق بنفسها، فخطبها مع الخطاب، فرضيت أن ترجع إليه، فخطبها إلى معقل، فغضب معقل، وقال: أكرمتك بها، فطلقتها؟! لا والله! لا ترجع إليك آخر ما عليك. قال الحسن: فعلم الله ﷻ حاجة الرجل إلى امرأته، وحاجة المرأة إلى بعلها، فنزلت هذه الآية، فسمعها معقل، فقال: سمعاً لربي وطاعة، فدعا زوجها، فقال: أزوجك، وأكرمك^(٢). ذكر عبد الغني الحافظ عن الكلبي أنه سمي هذه المرأة، فقال: جميلة بنت يسار. والثاني: أن جابر بن عبد الله الأنصاري كانت له ابنة عم، فطلقها زوجها تطليقة، فانقضت عدتها، ثم رجع يريد رجعتها، فأبى جابر، وقال: طلقت ابنة عمنا، ثم تريد أن تتكحها الثانية؟! وكانت المرأة تريد زوجها، قد راضته، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(٣). فأما بلوغ الأجل في هذه الآية، فهو انقضاء العدة، بخلاف التي قبلها. قال الشافعي ﷻ: دل اختلاف الكلامين على افتراق البلوغين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَصُولُوهُنَّ﴾ خطاب للأولياء. قال ابن عباس، وابن جبير، وابن قتيبة في آخرين: معناه: لا تجسوهن. والعرب تقول للشدايد: معضلات. وداء عضال: قد أعيأ. قال أوس بن حجر:

وليس أخوك الدائم العهد بالذي
يذمك إن ولى ورضيك مقبلا
ولكنه النائي إذا كنت آمناً
وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا

وقالت ليلى الأخيلية:

(١) عضل المرأة، يعضلها: لم يحسن عشرتها ليضطرها بذلك إلى الافتداء منه بمهرها الذي أمرها.
(٢) أخرجه بمعناه البخاري وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وقال الترمذي بعد روايته للحديث: وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا يجوز النكاح بغير ولي، لأن أخت معقل بن يسار كانت ثيبية، فلو كان الأمر إليها، لزوجت نفسها ولم تتحج إلى وليها معقل بن يسار، وإنما خاطب الله في هذه الآية الأولياء عتقك: ﴿فَلَا تَصُولُوهُنَّ أَن يَنْكِحَنَّ أَحَدُهُمَا﴾ في هذه الآية دلالة على أن الأمر إلى الأولياء في التزوج مع رضاهن.
(٣) قال السيوطي في «باب القول في أسباب النزول»: والأول أصح، وهو أقوى.

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة
شفاها من الداء العضال الذي بها
قال الزجاج: وأصل العضل، من قولهم: عضلت الدجاجة، فهي مُعْضِلٌ؛ إذا احتبس بيضها ونشب^(١) فلم يخرج، وعضلت المناقة أيضاً: إذا احتبس ولدها في بطنها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَائِعَ بَيْنَهُمُ الْمُرُوءِيَّ﴾ قال السدي، وابن قتيبة: معناه: إذا تراضى الزوجان بالنكاح الصحيح. قال الشافعي: وهذه الآية آية في أنه ليس للمرأة أن تزوج إلا بولي.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُؤْخَذُ بِهِ﴾ قال مقاتل: الإشارة إلى نهي الولي عن المنع. قال الزجاج: إنما قال: «ذلك»، ولم يقل: «ذلكم» وهو يخاطب جماعة، لأن لفظ الجماعة لفظ الواحد، والمعنى: ذلك أيها القبيل.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَكْثَرُ لَكُمْ﴾ يعني رد النساء إلى أزواجهن، أفضل من التفريق بينهما ﴿وَأَطَهَّرَ﴾ أي: أبقى لقلوبكم من الرية لئلا يكون هناك نوع محبة، فيجتمعان على غير وجه صلاح.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهِ يَسْكُمُ وَأَنْتُمْ لَا تَسْمُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: يعلم ود كل واحد منهما لصاحبه، قاله ابن عباس، والضحاك، والثاني: يعلم مصالحكم عاجلاً وأجلاً، قاله الزجاج في آخرين.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَرْءِيِّ لَا يُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا نَفْسَهَا وَلَا مَعْسَاةً عَلَيْهِمْ وَلَا يُولَدَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُمْ يُولَدُوهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَائِعِ رَبِّهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَلَا آدَبٌ أَنْ يَسْتَزِعِمُوا أَوْلَادَهُمْ فَمَا حَمَّاحَ عَلَيْكَ إِذَا سَأَلْتَهُمْ مَا بَالِهِم بِالْمَرْءِيِّ وَأَتَمُّوا اللَّهَ وَاعْتَمُوا أَنْ اللَّهَ بِمَا تَسْأَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ لفظه لفظ الخبر، ومعناه الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَرْضِعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال القاضي أبو يعلى: وهذا الأمر انصرف إلى الآباء، لأن عليهم الاسترضاع، لا إلى الوالدات، بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَتَأْتِيهِنَّ أَجُورُهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤] فلو كان متحماً على الوالدة، لم تستحق الأجرة. وهل هذا عام في جميع الوالدات؟ فيه قولان: أحدهما: أنه خاص في المطلقات، ولهذا سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، والسدي، ومقاتل في آخرين. والثاني: أنه عام في الزوجات والمطلقات، ولهذا نقول: لها أن تؤجر نفسها لرضاع ولدها، سواء كانت مع الزوج، أو مطلقة، قاله القاضي أبو يعلى، وأبو سليمان الدمشقي في آخرين. والحوال: السنة، وفي قوله: ﴿كَامِلَيْنِ﴾ قولان: أحدهما: أنه دخل للتوكيد، كقوله تعالى: ﴿بِئْسَ عَصَرةً كَامِلةً﴾ [البقرة: ١٩٦]. والثاني: أنه لما جاز أن يقول: «حولين»، ويريد أقل منهما، كما قال: ﴿فَمَنْ تَحَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] ومعلوم أنه يتعجل في يوم، وبعض آخر. وتقول العرب: لم أر فلاناً منذ يومين، وإنما يريدون: يوماً وبعض آخر - قال: كاملين لتبيين أنه لا يجوز أن يُنقص منهما، وهذا قول الزجاج، والقراء.

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذا القدر من الآية، فقال بعضهم: هو محكم، والمقصود منه بيان مدة الرضاع، ويتعلق به أحكام، منها أنه كمال الرضاع، ومنها أنه يلزم الأب نفقة الرضاع مدة الحولين، ويجبره الحاكم على ذلك، ومنها أنه يثبت تحريم الرضاع في مدة الحولين، ولا يثبت فيما زاد، ونقل عن قتادة، والربيع بن أنس في آخرين أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَائِعِ رَبِّهِنَّ﴾ قال شيخنا علي بن عبيد الله: وهذا قول بعيد، لأن الله تعالى قال في أولها: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ﴾ فلما قال في الثاني: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَائِعِ رَبِّهِنَّ﴾ خير بين الإرادتين، وذلك لا يعارض المدة المقدرة في التمام.

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ﴾ أي: هذا التقدير بالحولين ليريدى إتمام الرضاعة. وقرأ مجاهد بتأعين «أن تتم الرضاعة» وبالرفع، وهي رواية الحلبي عن عبد الوارث. وقد نبه ذكر التمام على نفي حكم الرضاع بعد الحولين.

وأكثر القراء على فتح راء «الرضاعة»، وقرأ طلحة بنُ مصرف، وابن أبي عبله، وأبو رجاء، بكسرهما، قال الزجاج: يقال: الرضاعة بفتح الراء وكسرها، والفتح أكثر، ويقال: ما حملة على ذلك إلا اللؤم، والرضاعة بالفتح هاهنا لا غير^(١).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَالِدِ الْوَالِدُ﴾ يعني: الأب ﴿يَرْزُقُهُنَّ وَيَكْفُرُهُنَّ﴾ يعني: المرضعات. وفي قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ دلالة على أن الواجب على قدر حال الرجل في إعساره ويساره، إذ ليس من المعروف إلزام المعسر ما لا يطيقه، ولا الموسر النزر الطفيف، وفي الآية دليل على تسوية اجتهاد الرأي في أحكام الحوادث، إذ لا يتوصل إلى تقدير النفقة بالمعروف إلا من جهة غالب الظن، إذ هو معتبر بالعادة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَكْفُلُ نَفْسٌ إِلَّا نَفْسَهَا﴾ أي: إلا ما تطيقه ﴿لَا تُكْفِرُ بِلَدِّهَا﴾ يولدها، قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبان عن عاصم (لا تضار) برفع الراء، وقرأ نافع، وعاصم، وحزمة، والكسائي بنصبها، قال أبو علي: من رفع، فلاجل المرفوع قبله، وهو ﴿لَا تَكْفُلُ﴾، فأتبعه بما قبله ليقع تشابه اللفظ، ومن نصب جعله أمراً، وفتح الراء لتكون حركته موافقة لما قبلها وهو الألف، قال ابن قتيبة: معناه: لا تضار، فأدغمت الراء في الراء. وقال سعيد بن جبير: لا يحملن المطلقة مضارة الزوج أن تلقي إليه ولده. وقال مجاهد: لا تأبى أن ترضعه ضراراً بأبيه، ولا يضارَ الوالد بولده، فيمنع أمه أن ترضعه، ليحزنها بذلك. وقال عطاء، وقتادة، والزهري، وسفيان، والسدي في آخرين: إذا رضيت بما يرضى به غيرها، فهي أحق به. وقرأ أبو جعفر «لا تضار» بتخفيفها وإسكانها.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه وارث المولود، وهو قول عطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وابن أبي ليلى، وقتادة، والسدي، والحسن بن صالح، ومقاتل في آخرين. واختلف أرباب هذا القول، فقال بعضهم: هو وارث المولود من عصبته، كائناً من كان، وهذا مروى عن عمر، وعطاء، والحسن، ومجاهد، وإبراهيم وسفيان. وقال بعضهم: هو وارث المولود على الإطلاق من الرجال والنساء، روي عن ابن أبي ليلى، وقتادة، والحسن بن صالح، وإسحاق، وأحمد بن حنبل. وقال آخرون: هو من كان ذا رحم محرم من ورثة المولود، روي عن أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد. والقول الثاني: أن المراد بالوارث هاهنا، وارث الوالد، روي عن الحسن والسدي. والثالث: أن المراد بالوارث الباقي من الولد بعد وفاة الآخر، روي عن سفيان. والرابع: أنه أريد بالوارث الصبي نفسه، والنفقة عليه، فإن لم يملك شيئاً، فعلى عصبته، قاله الضحاك، وقبيصة بن ذؤيب، قال شيخنا علي بن عبيد الله: وهذا القول لا ينافي قول من قال: المراد بالوارث وارث الصبي، لأن النفقة تجب للموروث على الوارث إذا ثبت إعسار المنفق عليه. وفي قوله تعالى: ﴿يُرْثِلُ ذَلِكَ﴾ ثلاثة أقوال. أحدها: أنه الإشارة إلى أجره الرضاع والنفقة، روي عن عمر، وزيد بن ثابت، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وإبراهيم، وقتادة، وقبيصة بن ذؤيب، والسدي. واختاره ابن قتيبة، والثاني: أن الإشارة بذلك إلى النهي عن الضرار، روي عن ابن عباس، والشعبي، والزهري، واختاره الزجاج. والثالث: أنه إشارة إلى جميع ذلك، روي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، ومقاتل، وأبي سليمان الدمشقي، واختاره القاضي أبو يعلى، ويشهد لهذا أنه معطوف على ما قبله، وقد ثبت أن على المولود له النفقة والكسوة، وأن لا يضار، فيجب أن يكون قوله: ﴿يُرْثِلُ ذَلِكَ﴾ مشيراً إلى جميع ما على المولود له.

قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ أَرْوَاحِهِمْ﴾ فصلاً عن قرائن الفصائل: النظام. قال ابن قتيبة: يقال: فصلت الصبي أمه: إذا فطمته. ومنه قيل للحوار إذا قطع عن الرضاع: فصليل، لأنه فصل عن أمه، وأصل الفصل: التفريق. قال مجاهد: التشاور فيما دون الحولين إن أرادت أن تظطم وأبى، فليس لها، وإن أراد هو، ولم ترد، فليس له ذلك حتى يقع ذلك عن تراض منهما وتشاور، يقول: غير مسئين إلى أنفسهما وإلى صبيهما.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ قال الزجاج: أي: لأولادكم. قال مقاتل: إذا لم ترض الأم بما يرضى به غيرها، فلا حرج على الأب أن يسترضع لولده.

(١) قال في «اللسان»: الرضاعة بالفتح والكسر: الاسم من الإرضاع، فأما من الرضاعة اللؤم، فالفتح لا غير.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا سَأَلْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ قولان. أحدهما: إذا سألتم أيها الآباء إلى أمهات الأولاد أجور ما أرضعن قبل امتناعهن، قاله مجاهد، والسدي. والثاني: إذا سلمتم إلى الظئر أجرها بالمعروف، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل. وقرأ ابن كثير (ما آتيتم) بالقصرة، قال أبو علي: وجهه أن يقدر فيه: ما آتيتم نقده أو سوقه، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه [فكان التقدير: ما آتيتموه] ثم حذف الضمير من الصلة] كما تقول: آتيت جميلاً، أي: فعلته. ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا قَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ أي: يقبضون بالموت. وقرأ المفضل عن عاصم «يتوفون» بفتح الباء في الموضوعين. قال ابن قتيبة: هو من استيفاء العدد، واستيفاء الشيء: أن تستقصيه كله، يقال: توفيته واستوفيته، كما يقاله: تيقنت الخير واستيقنته، هذا الأصل، ثم قيل للموت: وفاة وتوفٌ و﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ينتظرن، وقال الفراء: وإنما قال: ﴿وَعَشْرًا﴾ ولم يقل: عشرة، لأن العرب إذا أبهمت العدد من الليالي والأيام، غلبوا عليه الليالي، حتى إنهم ليقولون: صمنا عشراً من شهر رمضان، لكثرة تغليبهم الليالي على الأيام، فإذا أظهروا مع العدد تفسيره، كانت الإناث بغير هاء، والذكور بالهاء^(١) كقوله تعالى: ﴿سَخَّرْنَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَكَنِينَةً آيَاتٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] فإن قيل: ما وجه الحكمة في زيادة هذه العشرة؟ فالجواب: أنه يبين صحة الحمل بنفخ الروح فيه، قاله سعيد بن المسيب، وأبو العالية، ويشهد له الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إن خلق أحدكم يجتمع في بطن أمه أربعين يوماً [نطفة]، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح»^(٢).

فصل

وهذه الآية ناسخة للتي تشابهها، وهي تأتي بعد آيات، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِنَّ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ [البقرة: ٢٤٠]. لأن تلك كانت تقتضي وجوب العدة سنة، وستذكر ما يتعلق بها هنالك، إن شاء الله. فأما التي نحن في تفسيرها، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: نسختها ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. والصحيح: أنها عامة دخلها التخصيص، لأن ظاهرها يقتضي وجوب العدة على المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، سواء كانت حاملاً، أو غير حامل، غير أن قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ خص أولات الحمل، وهي خاصة أيضاً في الحرائر، فإن الأمة عدتها شهران وخمسة أيام، فبان أنها من العام الذي دخله التخصيص.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يعني: انقضاء العدة. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَزَمْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا وَأَعَدُّهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَشْرُوفًا وَلَا تَقْرَبُوا عَهْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ سَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه قولان. أحدهما: أن معناه: فلا جناح على الرجال في تزويجهم بعد ذلك،

(١) قال أبو حيان رحمه الله في «البحر المحيط»: الذي نقل أصحابنا أنه إذا كان المعدود مذكراً وحذفته، فلك فيه وجهان. أحدهما وهو الأصل: أن يبقى المعدود على ما كان عليه ولو لم يحدف المعدود، فتقول: صمت خمسة، وتريد خمسة أيام. قالوا: وهو الصحيح. قالوا: ويجوز أن تحذف منه كله تاء التأنيث. وحكى الكسائي عن أبي الجراح: صمنا من الشهر خمساً. ومعلوم أن الذي يصام من الشهر إنما هي الأيام واليوم مذكور. وكذلك قوله: ولا فسيري مثل ما سار راكب يتنعم خمساً ليس فني سيره اسم يريد: خمسة أيام. وعلى ذلك ما جاء في الحديث من صام رمضان، وأتبعه بست من شوال. وإذا قرر هذا فجاه قوله تعالى: ﴿وَعَشْرًا﴾ على أحد الجانبين، وحسن هنا، أنه مقطع كلام، فهو شبه بالفواصل، كما حسن قوله تعالى: ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا شَرًّا﴾ [طه: ١٠٣] كونه فاصلة، فلذلك اختير مجيء هنا على أحد الجانبين.

(٢) رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه أبو عوانة في «مسنده» وزاد نطفة، بين قوله: «إن أحدكم» وبين قوله: «أربعين».

والثاني: فلا جناح على الرجال في ترك الإنكار عليهن إذا تزوجن وتزوجن. قال أبو سليمان الدمشقي: وهو خطاب لأوليائهن.

قوله تعالى: ﴿يَسَا فَعَلْنَ فِي أَفْسِهِنَّ بِالْمَعْرِفِ﴾ فيه قولان. أحدهما: أنه المترين والتشوف للنكاح، قاله الضحاك، ومقاتل. والثاني: أنه للنكاح، قاله الزهري، والسدي. و«الخبير» من أسماء الله تعالى، ومعناه: العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته. و«الخبير» في صفة المخلوقين، إنما يستعمل في نوع من العلم، وهو الذي يتوصل إليه بالاجتهاد دون النوع المعلوم ببدائه العقول. وعلم الله تعالى سواء، فيما غمض ولطف، وفيما تجلى وظهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَزَمْتُمْ بِهِ مِنْ ظُلْمِ الْإِنْسَاءِ﴾ هذا خطاب لمن أراد تزويج معتدة. والتعريض: الإيحاء والتلويح من غير كشف، فهو إشارة بالكلام إلى ما ليس له في الكلام ذكر. والخطبة بكسر الخاء: طلب النكاح، والخطبة بضم الخاء: مثل الرسالة التي لها أول وآخر. قال ابن عباس: التعريض أن يقول: إنني أريد أن أتزوج. وقال مجاهد: أن يقول: إنك لجميلة، وإنك لحسنة، وإنك لإلى خير.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَكَنَنْتُمْ فِي أَفْسِيكُمْ﴾ قال الفراء: فيه لغتان، كنتت الشيء، وأكنته^(١) وقال ثعلب: أكنتت الشيء: إذا أخفيته في نفسك، وكنتته: إذا سترته بشيء. وقال ابن قتيبة: أكنتت الشيء: إذا سترته، ومنه هذه الآية، وكنتته: إذا صتمته. ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْكَ كُنُوتٌ﴾ [الصافات: ٤٩] قال بعضهم: يجعل كنتته، وأكنتته، بمعنى: قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَرْتُمُنَّ﴾ قال مجاهد: ذكره إياها في نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ لَآ تَوَاعِدُونَهُنَّ سِرًّا﴾ فيه أربعة أقوال. أحدها: أن المراد بالسر هاهنا. النكاح، قاله ابن عباس. وأنشد بيت امرئ القيس:

ألا زعمت بسبامه اليوم أنني كبرت وأن لا يشهد السر أمثالي

وفي رواية: يشهد الله^(٢). قال الفراء: ونرى أنه مما كنى الله عنه، كقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٤٣]. وذكر الزجاج عن أبي عبيدة أن السر: الإفضاء بالنكاح [المحرم] وأنشد:

ويخرم سراً جارتهم عليهم ويأكل جارتهم أنف القصاع^(٣)

قال ابن قتيبة: استعير السر للنكاح، لأن النكاح يكون سراً، فالمعنى: لا تواعدوهن بالتزويج، [وهن في العدة] تصريحاً ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّسْرُوفًا﴾ لا تذكرن فيه رفثاً ولا نكاحاً. والثاني: أن المواعدة سراً؛ أن يقول لها: إنني لك محب، وعاهديني أن لا تتزوجي غيري، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أن المراد بالسر الزنى^(٤). قاله الحسن، وجابر بن زيد، وأبو مجلز، وإبراهيم، وقتادة، والضحاك. والرابع: أن المعنى: لا تتكوهن في عدتهن سراً، فإذا حلت أظهرتم ذلك، قاله ابن زيد. وفي القول المعروف قولان. أحدهما: أنه التعريض لها، وهو قول ابن عباس،

(١) ونص كلامه في «معاني القرآن»: للعرب في «وأكنت الشيء»: إذا سترته، لغتان، كنتته، وأكنتته. وأنشدوني: ثلاث من ثلاث قداميات من اللاتي تكمن من الصقيع وبعضهم يرويه: تكمن، من أكنتت. وأما قوله: ﴿وَأَوْ كَنَنْتُمْ﴾ [الطور: ٢٤] و«بَيْنَ يَدَيْكَ كُنُوتٌ» [الصافات: ٤٩] فكانه مذهب للشيء يمان؛ وإحداهما قرية من الأخرى.

(٢) رواية البيت في الديوان هكذا: ألا زعمت بسبامه اليوم أنني كبرت وألا يحسن السهو أمثالي وعلى هذه الرواية فلا شاهد في البيت

(٣) البيت للحطيفة، وهو من قصيدة يمدح فيها بني رباح وبني كلب من بني يربوع، وأنف كل شيء: طرفه وأوله. والقصاع: جمع قصعة، وهي الجفنة الضخمة، يذكر عفتهم وحفاظهم وامتناعهم من انتهاك حرمة الجارة، واقتراب الإثم في حقها، ويصف كرمهم ولينهم. جارهم بالطعام على أنفسهم، فلا يتقدمون إلى الطعام حتى يأخذ منه ما يشتهي وما يكتبه.

(٤) قال الأعشى: ولا تنفق سراً جارة إن سهرها عليك حرام فانكحهن أو تأبنا وقد فسروا السر في هذا البيت بالزنى، وهو ظاهر، وقد رجح هذا القول الطبري في «تفسيره».

وسعيد بن جبير، وعطاء، والقاسم بن محمد، والشعبي، ومجاهد، وإبراهيم، وقتادة، والسدي. والثاني: أنه إعلام وليها برغبته فيها، وهو قول عبيدة^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْمِيُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ قال الزجاج: معناه: لا تعزموا على عقدة النكاح، وحذفت «على» استخفافاً، كما قالوا: ضرب زيد الظهر والبطن، معناه: على الظهر والبطن ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ﴾ أي: حتى يبلغ فرض الكتاب أجله. قال: ويجوز أن يكون «الكتاب» بمعنى «الفرض» كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]. فيكون المعنى: حتى يبلغ الفرض أجله. قال ابن عباس، ومجاهد، والشعبي، وقتادة، والسدي: بلوغ الكتاب أجله: انقضاء العدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَلْكُم مَّا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ قال ابن عباس: من الوفاء، فاحذروه أن تخالفوه في أمره. والحليم قد سبق بيانه.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِسُوا لَهُنَّ فَرِيضَةٌ وَمِمَّاوهُنَّ عَلَى التَّوْبِيعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وأبو عمرو «تمسوهن» بغير ألف حيث كان، وفتح التاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف «تماسوهن» بألف وضم التاء في الموضوعين هنا وفي الأحزاب ثالث. قال أبو علي: وقد يراد بكل واحد من «فاعل» و«فعل» ما يراد بالأخر، تقول: طارقت النعل، وعاقبت اللص. قال مقاتل بن سليمان: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة، ولم يسم لها مهراً، فطلقها قبل أن يمسه، فقال النبي ﷺ: «هل تمتعها بشيء؟» قال: لا. قال: «امتعها ولو بقلنسوتك» ومعنى الآية: ما لم تمسوهن ولم تفرسوهن لهن فريضة. وقد تكون «أو» بمعنى الواو. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ بَنَاتَهُنَّ إِنَّمَا أَوْ كَفُّرًا﴾ [الدر: ٢٤].

والمس: النكاح، والفريضة: الصداق، وقد دلت الآية على جواز عقد النكاح بغير تسمية مهر. ﴿وَمِمَّاوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن ما يتمتعن به من أموالكم على قدر أحوالكم في الغنى والفقر. والمتاع: اسم لما يتتبع به، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿عَلَى التَّوْبِيعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ﴾. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو «قذره» بإسكان الدال في الحرفين، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي بتحريك الحرفين، وعن عاصم: كالقراءتين، وهما لغتان.

فصل

وهل هذه المتعة واجبة، أم مستحبة؟ فيه قولان: أحدهما: واجبة، واختلف أرباب هذا القول، لأي المطلقات تجب، على ثلاثة أقوال. أحدها: أنها واجبة لكل مطلقة، روي عن علي، والحسن، وأبي العالية، والزهري. والثاني: أنها تجب لكل مطلقة إلا المطلقة التي فرض لها صداقاً، ولم يمسه، فإنه يجب لها نصف ما فرض، روي عن ابن عمر، والقاسم بن محمد، وشريح، وإبراهيم. والثالث: أنها تجب للمطلقة قبل الدخول إذا لم يسم لها مهراً، فإن دخل بها، فلا متعة، ولها مهر المثل، روي عن الأوزاعي، والثوري، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، والثاني: أن المتعة مستحبة، ولا تجب على أحد، سواء سمى للمرأة، أو لم يسم، دخل بها، أو لم يدخل، وهو قول مالك، والثالث بن سعد، والحكم، وابن أبي ليلى. واختلف العلماء في مقدار المتعة، فنقل عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب: أعلاها خادم، وأدناها كسوة يجوز لها أن تصلي فيها، وروي عن حماد وأبي حنيفة: أنه قدر نصف صداق مثلها. وعن الشافعي وأحمد: أنه قدر يساره وإعساره، فيكون مقدراً باجتهاد الحاكم. ونقل عن أحمد: المتعة بقدر ما تجزئ فيه الصلاة من الكسوة، وهو درع وخمار.

(١) روى ابن أبي حاتم قال: قال محمد بن سيرين: قلت لعبيدة: ما معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّشْرُوعًا﴾؟ قال: يقول لوليها: لا تسبقني بها، يعني: لا تزوجها حتى تمليني.

قوله تعالى: ﴿مَتَّعْنَا بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بقدر الإمكان، والحق: الواجب. وذكر المحسنين والمنفقين ضرب من التأييد.

﴿وَلَنْ نُلَقِّتَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْؤُوهُمْ وَوَدَّ فَرَضَتُمْ لَنْ فَرِيضَةً فَنَصِفُ مَا وَضَعْتُمْ إِلَّا أَنْ يَسْؤُوكَ أَوْ يَسْؤُوا الَّذِي يَكُونُ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَسْؤُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَسْؤُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُلَقِّتَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْؤُوهُمْ﴾ أي: قبل الجماع ﴿وَوَدَّ فَرَضَتُمْ لَنْ﴾ أي: أوجبتم لهن شيئاً التزمتم به، وهو المهر ﴿إِلَّا أَنْ يَسْؤُوكَ﴾ يعني: النساء، وخفو المرأة: ترك حقها من الصداق. وفي الذي بيده عقدة النكاح ثلاثة أقوال. أحدها: أنه الزوج، وهو قول علي، وابن عباس، وجبير بن مطعم، وابن المسيب، وابن جبير، ومجاهد، وشريح، وجابر بن زيد، والضحاك، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس، وابن شبرمة، والشافعي، وأحمد رضي الله عنه في آخرين. والثاني: أنه الولي، روي عن ابن عباس، والحسن، وعلقمة، وطاوس، والشعبي، وإبراهيم في آخرين. والثالث: أنه أبو البكر. روي عن ابن عباس، والزهري، والسدي في آخرين. فعلى القول الأول عفو الزوج: أن يكمل لها الصداق، وعلى الثاني: عفو الولي: ترك حقها إذا أبت، روي عن ابن عباس، وأبي الشعثاء. وعلى الثالث يكون قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَسْؤُوكَ﴾ يختص بالثيبات. وقوله: ﴿أَوْ يَسْؤُوا﴾ يختص أبا البكر، قاله الزهري، والأول أصح، لأن عقدة النكاح خرجت من يد الولي، فصارت بيد الزوج، والعفو إنما يطلق على ملك الإنسان، وعفو الولي عفو عما لا يملك، ولأنه قال: ﴿وَلَا تَسْؤُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ والفضل في هبة الإنسان مال نفسه، لا مال غيره.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْؤُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه خطاب للزوجين جميعاً، روي عن ابن عباس، ومقاتل: والثاني: أنه خطاب للزوج وحده، قاله الشعبي، وكان يقرأ: ﴿وَأَنْ يَعْفُوَ﴾ بالياء.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْؤُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ خطاب للزوجين. قال مجاهد: هو إتمام الرجل الصداق، وترك المرأة شرطها.

﴿حَافِظُوا عَلَى الْفَرَكَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَأَتُوا اللَّهَ قَنِينًا﴾ ﴿٢٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الْفَرَكَاتِ﴾ المحافظة: المواظبة والمداومة، والصلوات بالألف واللام ينصرف إلى المعهود، والمراد: الصلوات الخمس.

قوله تعالى: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ قال الزجاج: هذه الواو إذا جاءت مخصصة، فهي دالة على فضل الذي تخصصه، كقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٧] قال سعيد بن المسيب: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الصلاة الوسطى هكذا، وشبك بين أصابعه^(١). ثم فيها خمسة أقوال. أحدها: أنها العصر، روى مسلم في «أفراده» من حديث علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملاأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً»^(٢). وروى ابن مسعود، وسمرة، وعائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنها صلاة العصر^(٣)، روى مسلم في «أفراده» من حديث البراء بن عازب قال: نزلت هذه الآية ﴿حَافِظُوا عَلَى الْفَرَكَاتِ [وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ]﴾^(٤) وصلاة العصر ﴿فقرأنا ما شاء الله، ثم نسخها الله، فنزلت: ﴿حَافِظُوا عَلَى الْفَرَكَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وأبي، وأبي أيوب، وابن عمر في رواية، وسمرة بن جندب، وأبي هريرة، وابن عباس في رواية عطية، وأبي سعيد

(١) يريد أنهم كانوا يختلفون في تعيين الصلاة الوسطى.

(٢) وتماه عند مسلم ثم صلاها بين المشائين، بين المغرب والمشاء» ورواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغير واحد من أصحاب «السنن» والصحاح.

(٣) حديث ابن مسعود هو في «صحيح مسلم» ٤٣٧/١، وحديث عائشة أيضاً في «صحيح مسلم» ٤٣٨/١. وأما حديث سمرة، فقد رواه الإمام أحمد في «مسنده»، والترمذي في «جامعه»، وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) هذه الزيادة التي أوردها المؤلف هنا لم ترد في رواية البراء، وإنما وردت من طريق عائشة رضي الله عنها. انظر: «صحيح مسلم» ٤٣٨/١.

الخدري، وعائشة في رواية، وحفصة، والحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعطاء في رواية، وطاووس، والضحاك، والنخعي، وعبيد بن عمير، وزر بن حبيش، وقتادة، وأبي حنيفة، ومقاتل في آخرين، وهو مذهب أصحابنا^(١). والثاني: أنها الفجر، روي عن عمر، وعلي في رواية، وأبي موسى، ومعاذ، وجابر بن عبد الله، وأبي أمامة، وابن عمر في رواية مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن عباس في رواية أبي رجاء العطاردي، وعكرمة، وجابر بن زيد، وأنس بن مالك، وعطاء، وعكرمة، وطاووس في رواية ابنه، وعبد الله بن شداد، ومجاهد، ومالك، والشافعي. وروي أبو العالية قال: صليت مع أصحاب رسول الله ﷺ الغداة فقلت لهم: أيما الصلاة الوسطى؟ فقالوا: التي صليت قبل. والثالث: أنها الظهر، روي عن ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وأبي سعيد الخدري، وعائشة في رواية، وروي ضميرة عن علي رضي الله عنه قال: هي صلاة الجمعة، وهي سائر الأيام الظهر. والرابع: أنها المغرب، روي عن ابن عباس، وقبيصة بن ذؤيب. والخامس: أنها العشاء الأخيرة، ذكره علي بن أحمد النيسابوري في «تفسيره». وفي المراد بالوسطى ثلاثة أقوال. أحدها: أنها أوسط الصلوات محلاً. والثاني: أوسطها مقداراً. والثالث: أفضلها. وأوسط الشيء: خيره وأعدله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٢]، فإن قلنا: إن الوسطى بمعنى: الفضلى، جاز أن يدعي هذا كل ذي مذهب فيها. وإن قلنا: إنها أوسطها مقداراً، فهي المغرب، لأن أقل المفروضات ركعتان، وأكثرها أربعاً. وإن قلنا: إنها أوسطها محلاً، فللقائلين: إنها العصر أن يقولوا: قبلها صلاتان في النهار، وبعدها صلاتان في الليل، فهي الوسطى. ومن قال: هي الفجر، فقال عكرمة: هي وسط بين الليل والنهار، وكذلك قال ابن الأنباري: هي وسط بين الليل والنهار، وقال: وسمعت أبا العباس، يعني ثعلباً يقول: النهار عند العرب أوله: طلوع الشمس. قال ابن الأنباري: فعلى هذا صلاة الصبح من صلاة الليل، قال: وقال آخرون: بل هي من صلاة النهار، لأن أول وقتها أول وقت الصوم. قال: والصواب عندنا أن نقول: الليل المحض خاتمة طلوع الفجر، والنهار المحض، أوله: طلوع الشمس، والذي بين طلوع الفجر، وطلوع الشمس يجوز أن يسمى نهاراً، ويجوز أن يسمى ليلاً، لما يوجد فيه من الظلمة والضوء، فهذا قول يصح به المذهبان، قال ابن الأنباري: ومن قال: هي الظهر، قال: هي وسط النهار. فأما من قال: هي المغرب، فاحتج بأن أول صلاة فرضت، الظهر، فصارت المغرب وسطى، ومن قال: هي العشاء، فإنه قال: هي بين صلاتين لا تقصران.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَمَّؤُوا لِلَّهِ تَتَنِيَّيْنَ﴾ المراد بالقيام هاهنا: القيام في الصلاة، فأما القنوت، فقد شرحناه فيما تقدم. وفي المراد به هاهنا ثلاثة أقوال. أحدها: أنه الطاعة، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن جبير، والشعبي، وطاووس، والضحاك، وقتادة في آخرين. والثاني: أنه طول القيام في الصلاة، روي عن ابن عمر، والربيع بن أنس، وعن عطاء كالتولين. والثالث: أنه الإمساك عن الكلام في الصلاة. قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت الآية ﴿وَتَوَمَّؤُوا لِلَّهِ تَتَنِيَّيْنَ﴾ فأمرنا بالسكوت [ونهيها عن الكلام]^(٢).

﴿إِن خِفْتُمْ رِيحَ لَيْلٍ أَوْ رِيحَ نَهَارٍ فَإِذَا أَسَأْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِن خِفْتُمْ رِيحَ لَيْلٍ أَوْ رِيحَ نَهَارٍ﴾ أي: خفتم عدواً، فصلوا رجالاً، وهو جمع راجل، والركبان جمع راكب، وهذا يدل على تأكيد أمر الصلاة، لأنه أمر بفعلها على كل حال. وقيل: إن هذه الآية أنزلت بعد التي في سورة النساء، لأن الله تعالى وصف لهم صلاة الخوف في قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٢] ثم نزلت هذه الآية ﴿إِن خِفْتُمْ﴾ أي: خوفاً أشد من ذلك، فصلوا عند المسابقة كيف قدرتم. فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين ما روي ابن عباس عن النبي ﷺ أنه صلى يوم الخندق الظهر والعصر، والمغرب والعشاء بعد ما غاب الشفق^(٣)؟

(١) وهو الصحيح الذي تدل عليه الأحاديث الصحيحة الراجحة، وإليه ذهب الطبري والليثي وابن كثير، وأكثر أهل الأثر.

(٢) - رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيره.

(٣) رواه الترمذي وأبو يعلى والبيهقي عن ابن مسعود، ورواه النسائي وابن حبان عن أبي سعيد الخدري، ورواه البزار، في «مسنده» عن جابر بن عبد الله، ولم نجده من طريق ابن عباس كما ذكر المؤلف.

فالجواب: أن أبا سعيد روى أن ذلك كان قبل نزول قوله تعالى: ﴿إِن جُفَّتْ رِحَالُ أَوْ زَكَّاتًا﴾ قال أبو بكر الأثرم: فقد بين الله أن ذلك الفعل الذي كان يوم الخلق منسوخاً^(١).

قوله تعالى: ﴿قَدْ آتَيْنَا آيَاتِنَا فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ في هذا الذكر قولان: أحدهما: أنه الصلاة، فتقديره: فصلوا كما كنتم تصلون آمين. والثاني: أنه الشاء على الله، والحمد له.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مِّمَّا تَرَكَ إِخْرَاجًا فَإِن جُرْحَنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَمَلَكَ مِن أَشْهُبِكُم مِّن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا﴾ روى ابن حبان أن هذه الآية نزلت في رجل من أهل الطائف يقال له: حكيم بن الحارث، هاجر إلى المدينة معه أبواه وامراته، وله أولاد، فمات فرفع ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية، فأعطى النبي ﷺ أبويه وأولاده من ميراثه، ولم يعط امرأته شيئاً، غير أنه أمرهم أن يتفقوا عليها من تركه زوجها حولاً.

قوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة، وابن عامر «وصية» بالنصب، وقرأ ابن كثير، ونافع، والكسائي «وصية» بالرفع. وعن عاصم كالقراءتين. قال أبو علي: من نصب حَمَلَهُ على الفعل؛ أي: ليوصوا وصية، ومن رفع، فمن وجبهن. أحدهما: أن يجعل الوصية مبتدأ، والخبر لأزواجهم. والثاني: أن يضم له خبراً، تقديره: فعليهم وصية. والمراد منه من قارب الوفاة، فليوص، لأن المتوفى لا يؤمر ولا ينهى.

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَرَكَ إِلَى الْوَالِدِ﴾ أي: متعوهن إلى الحول ولا تخرجهن. والمراد بذلك نفقة السنة وكسوتهما وسكنها. ﴿وَإِن جُرْحَنَ﴾ أي: من قبل أنفسهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أولياء الميت. ﴿فِي مَا تَمَلَكَ مِن أَشْهُبِكُم مِّن مَّعْرُوفٍ﴾ يعني التشوف إلى النكاح، وفي ماذا رفع الجناح عن الرجال؟ فيه قولان. أحدهما: أنه في قطع النفقة عنهن إذا خرجن قبل انقضاء الحول. والثاني: في ترك منهن من الخروج، لأنه لم يكن مقامها الحول واجباً عليها، بل كانت مخيرة في ذلك.

فصل

ذكر علماء التفسير أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات أحدهم، مكثت زوجته في بيته حولاً، ينفق عليها من ميراثه، فإذا تم الحول، خرجت إلى باب بيتها، ومعها بعة، فرمت بها كلباً، وخرجت بذلك من عدتها، وكان معنى رميها بالبعرة أنها تقول: مكثي بعد وفاة زوجي أهون عندي من هذه البعرة. ثم جاء الإسلام، فأقرهم علي ما كانوا عليه من مكث الحول بهذه الآية، ثم نسخ ذلك بالآية المتقدمة في نظم القرآن على هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(٢). ونسخ الأمر بالوصية لها بما فرض لها من ميراثه.

(١) وقد ذهب البعض إلى عدم النسخ، وجعل صلاة الخوف قسمين، أحدهما: أن تكون في حال القتال - وهو المراد بهذه الآية - والثاني: في غير حال القتال، وهو المذكور في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَنْتَ لَهُمُ الْمَكْرُوهَ فَلْيَنْتَهِنَّ عَنْهُنَّ وَأَنْتَ بِهِنَّ بِرَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [النساء: ١٠٢]. وقد روى مالك في «الموطأ» عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف، وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك، صلوا رجالاً على أقدامهم أو ركبائاً، مستظلي القبلة أو غير مستظليها.

(٢) وإليه ذهب الجمهور من أهل العلم سلفاً وخلفاً. وروى البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قد نسخها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه. قال الحافظ ابن كثير: ومعنى هذا الإشكال الذي قال ابن الزبير لكمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجعلتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، حيث وجدتها. وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ج ٨/ ١٤٤: وهذا الموضع مما وقع فيه النسخ مقدماً في ترتيب التلاوة على المنسوخ، ثم أشار إلى آيات أخر في مثل هذا. ومن السلف من ذهب إلى أنها ليست منسوخة، وإنما خص من الحول بعشه، وبقي البعض وصية لها، إن شاءت أقامت، فقد روى البخاري عن مجاهد ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مِّمَّا تَرَكَ إِخْرَاجًا فَإِن جُرْحَنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَمَلَكَ مِن أَشْهُبِكُم مِّن مَّعْرُوفٍ﴾ قال: جعل الله لها تمام السنة بسبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قول الله تعالى: ﴿عَبْرَ إِخْرَاجٍ فَإِن جُرْحَنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فالعدة كما هي واجب عليها.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّحٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢٤١﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّحٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قد سبق الكلام في المتعة بما فيه كفاية.

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: كما بيّن الذي تقدم من الأحكام ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أي: يثبت لكم وصف العقلاء باستعمال ما بين لكم، وثمرة العقل استعمال الأشياء المستقيمة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧] وإنما سموا جهالاً، لأنهم آثروا أهواءهم على ما علموا أنه الحق.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّكَ لَأَنْتَ الَّذِي تَصِفُ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ معناه: ألم تعلم. قال ابن قتيبة: وهذا على جهة التعجب، كما تقول: ألا ترى إلى ما يصنع فلان؟

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: وهم مؤتلفون، قاله ابن زيد. والثاني: أنه من العدد، وعليه العلماء. واختلفوا في عددهم على سبعة أقوال. أحدها: أنهم كانوا أربعة آلاف. والثاني: أربعين ألفاً، والقولان عن ابن عباس. والثالث: تسعين ألفاً، قاله عطاء بن أبي رباح، والرابع: سبعة آلاف، قاله أبو صالح. والخامس: ثلاثين ألفاً، قاله أبو مالك، والسادس: بضعة وثلاثين ألفاً، قاله السدي، والسابع: ثمانية آلاف، قاله مقاتل. وفي معنى: حذرهم من الموت، قولان: أحدهما: أنهم فروا من الطاعون، وكان قد نزل بهم، قاله الحسن، والسدي. والثاني: أنهم أمروا بالجهاد، ففروا منه، قاله عكرمة، والضحاك، وعن ابن عباس كالقولين.

الإشارة إلى قصتهم

روى حصين بن عبد الرحمن عن هلال بن يساف قال: كانت أمّة من بني إسرائيل إذا وقع فيهم الوجد، خرج لغنياؤهم، وأقام فقراؤهم، فمات الذين أقاموا، ونجا الذين خرجوا، فقال الأشراف: لو أقمنا كما أقام هؤلاء لهلكنا، وقال الفقراء: لو ظننا كما ظن هؤلاء سلمنا، فأجمع رأيهم في بعض السنين على أن يظنوا جميعاً، فظنوا فماتوا، وصاروا عظاماً تبرق، فكنسهم أهل البيوت والطرق عن بيوتهم وطرقهم، فمرو بهم نبي من الأنبياء، فقال: يا رب لو شئت أحيتهم، فعبدوك، وولدوا أولاداً يعبدونك، ويعمرون بلادك. [قال: أو أحب إليك أن أفعل؟ قال: نعم]. فقيل له: تكلم بكذا وكذا، فتكلم به، فنظر إلى العظام تخرج من عند العظام التي ليست منها إلى التي هي منها، ثم قيل له: تكلم بكذا وكذا، فتكلم به، فنظر إلى العظام تكسى لحماً وعصباً، ثم قيل له: تكلم بكذا وكذا، فنظر فإذا هم قعود يسبحون الله ويقدسونه، وأنزل الله فيهم هذه الآية. وهذا الحديث يدل على بعد المنة التي مكثوا فيها أموالاً. وفي بعض الأحاديث: أنهم بقوا أموالاً سبعة أيام، وقيل: ثمانية أيام. وفي النبي الذي دعا لهم قولان: أحدهما: أنه حزقيل، والثاني: أنه شمعون. فإن قيل: كيف أميت هؤلاء مرتين وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا التَّوْبَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦] فالجواب أن موتهم بالعقوبة لم يفن أعمارهم، فكان كقوله تعالى: ﴿وَأَلْبَسْتَهُمْ فِي مَنَاهِكُمْ﴾ [الزمر: ٤٢] وقيل: كان إحيائهم آية من آيات نبيهم، وآيات الأنبياء نواذر لا يقاس عليها، فيكون تقدير قوله تعالى: ﴿إِلَّا التَّوْبَةَ الْأُولَى﴾ التي ليست من آيات الأنبياء، ولا لأمر نادر. وفي هذه القصة احتجاج على اليهود إذ أخبرهم النبي ﷺ بأمر لم يشاهدوه، وهم يعلمون صحته، واحتجاج على المنكرين للعبث، فدلهم عليه بإحياء الموتى في الدنيا، ذكر ذلك جميعه ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الَّذِي تَصِفُ عَلَى النَّاسِ﴾ ﴿٢٤٣﴾ به ﷻ بذكر فضله على هؤلاء على فضله على سائر خلقه مع قلة شكرهم.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ عَلَيْهِمُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في المخاطبين بهذا قولان. أحدهما: أنهم الذين أماتهم الله، ثم أحياهم، قاله الضحاك. والثاني: خطاب لأمة محمد ﷺ. فمعناه: لا تهربوا من الموت، كما هرب هؤلاء، فما ينفعكم الهرب ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تنطوي عليه ضمائرکم.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ قال الزجاج: أصل القرض ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه، وأصله في اللغة القطع، ومنه أخذ المقرض. فمعنى أقرضته: قطعت له قطعة يجازيني عليها. فإن قيل: ما وجه تسمية الصدقة قرضاً؟ فالجواب من ثلاثة أوجه. أحدها: لأن هذا القرض بيدل بالجزاء، والثاني: لأنه يتأخر قضاؤه إلى يوم القيامة، والثالث: لتأكيد استحقات الثواب به، إذ لا يكون قرض إلا والعوض مستحق به. فأما اليهود فإنهم جهلوا هذا، فقالوا: أيستقرض الله منا؟ وأما المسلمون فوثقوا بوعدهم الله، وبادروا إلى معاملته. قال ابن مسعود: لما نزلت هذه الآية، قال أبو الدحداح: وإن الله ليريد منا القرض؟ فقال النبي ﷺ: نعم. قال: أرني يدك. قال: إني أقرضت ربي حاططي، قال: وحاططه فيه ستمائة نخلة، ثم جاء إلى الحاطط، فقال: يا أم الدحداح اخرجي من الحاطط. فقد أقرضته ربي^(١). وفي بعض الألفاظ: فعمدت إلى صبيانها تخرج ما في أفواههم، وتنفض ما في أكمامهم، فقال النبي ﷺ: «كم من علق رداح في الجنة لأبي الدحداح». وفي معنى القرض الحسن ستة أقوال: أحدها: أنه الخالص لله، قاله الضحاك. والثاني: أن يخرج عن طيب نفس، قاله مقاتل. والثالث: أن يكون حلالاً، قاله ابن المبارك. والرابع: أن يحتسب عند الله ثوابه. والخامس: أن لا يتبعه مناً ولا أذى. والسادس: أن يكون من خيار المال.

قوله تعالى: ﴿فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ قرأ أبو عمرو «فيضاعفه» بآلف مع رفع الفاء، كذلك في جميع القرآن، إلا في سورة الأحزاب «يُضْعَفُ لَهَا الْعَدَابُ ضِعْفَيْنِ» وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، جميع ذلك بالآلف مع رفع الفاء، وقرأ ابن كثير (فيضعفه) برفع الفاء من غير آلف في جميع القرآن، وقرأ ابن عامر (فيضعفه) بغير آلف مشددة في جميع القرآن، ووافقه عاصم على نصب الفاء في «فيضاعفه» إلا أنه أثبت الألف في جميع القرآن، قال أبو علي: للرفع وجهان: أحدهما: أن يعطفه على ما في الصلة، وهو يقرض. والثاني: أن يستأنفه. ومن نصب حمل الكلام على المعنى، لأن المعنى: أيكون قرض؟ فحمل عليه «فيضاعفه» وقال: ومعنى ضاعف وضعف: واحد، والمضاعفة: الزيادة على الشيء حتى يصير مثلين أو أكثر. وفي الأضعاف الكثيرة قولان. أحدهما: أنها لا يحصى عددها، قاله ابن عباس والسدي. وروى أبو عثمان النهدي عن أبي هريرة أنه قال: إن الله يكتب للمؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة، وقرأ هذه الآية، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة»^(٢). والثاني: أنها معلومة المقدار، فالدرهم بسبعمائة، كما ذكر في الآية التي بعدها، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي «يبسط» و«بسطه» بالسين، وقرأهما نافع بالصاد. وفي معنى الكلام قولان. أحدهما: أن معناه: يقتر على من يشاء في الرزق، ويبسطه على من يشاء، قاله ابن عباس، والحسن، وابن زيد. والثاني: يقبض يد من يشاء عن الإنفاق في سبيله، ويبسط يد من يشاء بالإنفاق، قاله أبو سليمان الدمشقي في آخرين.

(١) رواه ابن أبي حاتم بإسناد ضعيف، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣٢١/٦ وقال: رواه البزار، ورجاله ثقات. ثم ذكره أيضاً ٣٢٤/٩. وقال: رواه أبو يعلى، والطبراني، ورجاله ثقات، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(٢) رواه أحمد في «المستد» من طريق مبارك بن فضالة عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي عثمان النهدي. وعلي بن زيد، ضعفه غير واحد. والحديث حسن. وقد قال الشيخ أحمد شاكر: رواه ابن أبي حاتم عن أبي خلد سليمان بن خالد المؤدب عن محمد الرقاعي عن زياد بن الجصاص عن أبي عثمان النهدي، وزياد بن الجصاص، ذكره البخاري في «التاريخ الكبير» فلم يذكر فيه جرحاً، وهذا أمانة توثيقه عنده، ثم لم يذكره في «الضعفاء»، وذكره ابن حبان في «الثقات» وقال: ربما وهم. وهذا الحديث لم ينفرد به كما ترى، فقد رواه كما رواه علي بن زيد بن جدعان بنحوه، فارتفعت شبهة الخطأ والوهم، وصح الحديث من الوجهين، والحمد لله.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدُو مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَجْوِ لَهْمُؤُنَا لَنَا مَلِكًا نُنْقِذَ فِي سَكِينِ اللَّهِ قَالَهُ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا قُلْنَا كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فَرَأَوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال الفراء: الملا: الرجال في كل القرآن لا يكون فيهم امرأة، وكذلك القوم والنفر والرهط. وقال الزجاج: الملا: هم الوجوه، وذوو الرأي، وإنما سموا ملاً، لأنهم مليونون بما يحتاج إليه منهم. وفي نبيهم ثلاثة أقوال. أحدها: أنه شمویل، قاله ابن عباس، وهب. والثاني: أنه يوشع بن نون، قاله قتادة. والثالث: أنه نبي، يقال له: سمعون بالسين المهملة^(١)، سمته أمه بذلك، لأنها دعت الله أن يرزقها غلاماً، فسمع دعاؤها فيه، فسمته، هذا قول السدي.

وسبب سؤالهم ملكاً أن عدوهم غلب عليهم.

قوله تعالى: ﴿نُنْقِذَ﴾ قراءة الجمهور بالنون والجزم، وقرأ ابن أبي عمير بالياء والرفع، كناية عن الملك.

قوله تعالى: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ قراءة الجمهور بفتح السين، وقرأ نافع بكسرهما هاهنا وفي سورة «محمد»، وهي لغتان.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فرض ﴿أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ أي: لعلكم تجبنون.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا﴾ يعنون: أخرج بعضنا، وهم الذين سبوا منهم وقهروا، فظاهره العموم، ومعناه الخصوص.

قوله تعالى: ﴿فَرَأَوْا﴾ أي: عرضوا عن الجهاد. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهم الذين عبروا النهر، وسيأتي ذكرهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُوتَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ذكر أهل التفسير أن نبي بني إسرائيل سأل الله أن يعث لهم ملكاً، فأتي بعضاً وقرن فيه دهن، وقيل له: إن صاحبكم الذي يكون ملكاً يكون طوله هذه العصا، ومتى دخل عليك رجل، فنشق الدهن، فهو الملك، فادهن به رأسه، وملكه على بني إسرائيل، فقاَس القوم أنفسهم بالعصا، فلم يكونوا على مقدارها. قال عكرمة، والسدي: كان طالوت سقاءً يسقي على حمار له، فضل حماره، فخرج يطلبه. وقال وهب: بل كان دباغاً يعمل الأدم، فضلت حمرٌ لأبيه، فأرسل مع غلام له في طلبها، فمرا بيت شمویل النبي ﷺ، فدخلا ليسألاه عن ضالتهما، فنشق الدهن، فقام شمویل، فقاَس طالوت بالعصا، وكان على مقدارها، فذهنه، ثم قال له: أنت ملك بني إسرائيل، فقال طالوت: أما علمت أن وسطي أدنى أسباط بني إسرائيل، وبيتي أدنى بيوتهم؟ قال: بلى. قال: فبأية آية؟ قال: بأية أنك ترجع وقد وجد أبوك حمره، فكان كما قال.

قال الزجاج: طالوت، وجالوت، وداود، لا تصرف، لأنها أسماء أعجمية، وهي معارف، فاجتمع فيها التعريف والعجمة.

قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ﴾ من أي جهة يكون له الملك علينا. قال ابن عباس: إنما قالوا ذلك، لأنه كان في بني إسرائيل سلطان، في أحدهما النبوة، وفي الآخر الملك، فلم يكن هو من أحد السبطين. قال قتادة: كانت النبوة في سبط لاوي، والملك في سبط يهوذا.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أي: لم يؤت ما يتملك به الملك. ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾

أي: اختارها، وهو «افتعل» من الصفوة. والبسطة: السعة، قال ابن قتيبة: هو من قولك: بسطت الشيء: إذا كان مجموعاً، ففتحته، ووسعته. قال ابن عباس: كان طالوت أعلم بني إسرائيل بالحرب، وكان يفوق الناس بمكيه وعنفه ورأسه. وهل كانت هذه الزيادة قبل الملك، أم أحدثت له بعد الملك؟ فيه قولان. أحدهما: قبل الملك، قاله وهب، والسدي. والثاني: بعد الملك، قاله ابن زيد. والمراد بتعظيم الجسم، فضل القوة، إذ العادة أن من كان أعظم جسماً، كان أكثر قوة، والواسع: الغني.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلَ مُوسَىٰ وَآلَ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ الَّذِينَ تُمَيِّنُونَ﴾ (١٦)

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ الآية: العلامة، فمعناه: علامة تملكك الله إياه ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ وهذا من مجاز الكلام، لأن التابوت يؤتى به، ولا يأتي، ومثله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ وإنما جاز مثل هذا، لزوال اللبس فيه، كما بينا في قوله تعالى: ﴿فَمَا رِيحَتْ يُحَدِّثُكُمْ﴾ [البقرة: ١٦]. وروي عن ابن مسعود، وابن عباس: أنهم قالوا لنبيهم: إن كنت صادقاً، فأتنا بآية تدل على أنه ملك، فقال لهم ذلك. وقال وهب: خيرهم، أي آية يريدون؟ فقالوا: أن يرد علينا التابوت. قال ابن عباس: كان التابوت من عود الشمشار عليه صفائح الذهب، وكان يكون مع الأنبياء إذا حضروا قتالاً قدموه بين أيديهم يستنصرون به، وفيه السكينة. وقال وهب بن منبه: كان نحواً من ثلاث أذرع في ذراعين. قال مقاتل: فلما تفرقت بنو إسرائيل، وعصوا الأنبياء، سلب الله عليهم عدوهم، فغلبوهم عليه. وفي السكينة سبعة أقوال. أحدها: أنها ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان، رواه أبو الأحوص عن علي رضي الله عنه. والثاني: أنها دابة بمقدار الهر، لها عينان لها شعاع، وكانوا إذا التقى الجمعان، أخرجت يدها، ونظرت إليهم، فيهزم الجيش من الرعب. رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال مجاهد: السكينة لها رأس كراس الهر، وجناحان. والثالث: أنها طست من ذهب [من الجنة] تغسل فيه قلوب الأنبياء. رواه أبو مالك عن ابن عباس. والرابع: أنها روح من الله تتكلم، كانوا إذا اختلفوا في شيء كلمتهم وأخبرتهم ببيان ما يريدون، رواه عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه. والخامس: أن السكينة ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليها، رواه ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح، وذهب إلى نحوه الزجاج، فقال: السكينة، من السكون، فمعناه: فيه ما تسكنون إليه إذا أتاكم. والسادس: أن السكينة معناها هاهنا: الوقار، رواه معمر عن قتادة. والسابع: أن السكينة: الرحمة. قاله الربيع بن أنس ^(١).

وفي البقية تسعة أقوال: أحدها: أنها رضاض الألواح التي تكسرت حين ألقاها موسى وعصاه، قاله ابن عباس، وقاتدة، والسدي. والثاني: أنها رضاض الألواح. قاله عكرمة، ولم يذكر العصا. وقيل: إنما اتخذ موسى التابوت ليجمع رضاض الألواح فيه. والثالث: أنها عصا موسى، والسكينة، قاله وهب. والرابع: عصا موسى وعصا هارون، وثياهما، ولوحان من التوراة، والمنز، قاله أبو صالح. والخامس: أن البقية؛ العلم والتوراة، قاله مجاهد، وعطاء بن أبي رباح. والسادس: أنها رضاض الألواح، وقفيز من من في طست من ذهب، وعصا موسى وعمامته، قاله مقاتل. والسابع: أنه قفيز من من ورضاض الألواح، حكاه سفيان الثوري عن بعض العلماء. والثامن: أنها عصا موسى

(١) قال ابن جرير الطبري: فأولى هذه الأقوال بالحق في معنى السكينة، ما قاله عطاء بن أبي رباح، أنها الشيء تسكن إليه النفوس من الآيات التي يعرفونها - وقال ابن عطية: والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأس به وتقوى. وقال الشوكاني رحمه الله في «تفسيره»: وأقول: هذه التفسير المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقامهم الله، فجاءوا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين رضي الله عنهم، والتشكيك عليهم، وانظر إلى جعلهم لها تارة حيواناً، وتارة جماداً، وتارة شيئاً لا يعقل، كقول مجاهد: كهيئة الريح، لها وجه كوجه الهر، وجناحان وذناب مثل ذنب الهر. وهكذا كل منقول عن بني إسرائيل يتناقض ويشتمل على ما لا يعقل في الغالب، ولا يصح أن يكون مثل هذه التفسير المتناقضة مروياً عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا رأياً له قاله فهم أجل قدر من التفسير بالرأي، وبما لا مجال للاجتهاد فيه. إذا تقرر لك هذا، عرفت أن الواجب الرجوع في مثل ذلك إلى معنى السكينة لغة، وهو معروف، ولا حاجة إلى ركوب هذه الأمور المتعسفة المتناقضة، فقد جعل الله عنها سعة.

والنعلان. ذكره الثوري أيضاً عن بعض أهل العلم. والتاسع: أن المراد بالبقية: الجهاد في سبيل الله، وبذلك أمروا، قاله الضحاك.

والمراد بآل موسى، وآل هارون: موسى، وهارون. وأنشد أبو عبيدة:

ولا تبك ميتاً بعد ميت أحبة
عليّ وعباس وآل أبي بكر

يريد: أبا بكر نفسه.

قوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ الجمهور: «تحمله» بالياء. وقرأ الحسن، ومجاهد، والأعمش بالياء. وفي المكان الذي حملته منه الملائكة إليهم قولان. أحدهما: أنه كان مرفوعاً مع الملائكة بين السماء والأرض منذ خرج عن بني إسرائيل، قاله الحسن. والثاني: أنه كان في الأرض.

وفي أي مكان كان؟ فيه قولان: أحدهما: أنه كان في أيدي العمالقة قد دفنوه، قال ابن عباس: أخذ التابوت قوم جالوت، ودفنوه في متبرز لهم، فأخذهم الباسور فهلكوا، ثم أخذه أهل مدينة أخرى، فأخذهم بلاء، فهلكوا، ثم أخذه غيرهم كذلك، حتى هلكت خمس مدائن، فأخرجوه على بقرتين، ووجههما إلى بني إسرائيل، فسأقتهما الملائكة. والثاني: أنه كان في بركة التيه، خلّفه فيها يوشع، ولم يعلموا بمكانه حتى جاءت به الملائكة، قاله قتادة. وفي كيفية مجيء الملائكة به قولان: أحدهما: أنها جاءت به بأنفسها، قال وهب: قالوا لتبيهم: اجعل لنا وقتاً يأتينا فيه، فقال: الصبح، فلم ينأوا ليلتهم، ووافت به الملائكة مع الفجر، فسمعوا حفيف الملائكة تحمله بين السماء والأرض. والثاني: أن الملائكة جاءت به على عجلة وثورين، ذكر عن وهب أيضاً. فعلى القول الأول: يكون معنى تحمله: نقله. وعلى الثاني: يكون معنى حملها: إياه: تسببها في حمله. قال الزجاج: ويجوز في اللغة أن يقال: حملت الشيء إذا كنت سبباً في حمله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ﴾ أي: علامة تدل على تملك طالوت. قال المفسرون: فلما جاءهم التابوت وأقروا له بالملك، تأهب للخروج، فأسرعوا في طاعته، وخرجوا معه، فذلك قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاؤُهُمْ قَالُوا كُنَّا بِمَا نَسْعُكُمْ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَرِهَ مِنْكُمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ فَذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَفَرُوا بِهِ وَأَلَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي: خرج وشخص. وفي عدد من خرج معه ثلاثة أقوال: أحدها: سبعون ألفاً، قاله ابن عباس. والثاني: ثمانون ألفاً، قاله عكرمة والسدي. والثالث: مائة ألف، قاله مقاتل. قال: وساروا في حر شديد، فابتلاه الله بالنهر. والابتلاء: الاختبار. وفي النهز لغتان: إحداهما: تحريك الهاء، وهي قراءة الجمهور، والثاني: تسكينها، وبها قرأ الحسن ومجاهد. وفي هذا النهر قولان: أحدهما: أنه نهر فلسطين، قاله ابن عباس والسدي، والثاني: نهر بين الأردن وفلسطين، قاله عكرمة، وقاتدة، والربيع بن أنس. ووجه الحكمة في ابتلائهم به أن يعلم طالوت من له نية في القتال منهم، ومن ليس له نية.

قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي ليس من أصحابي.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً﴾ قرأ ابن كثير ونافع، وأبو عمرو، «غرفة» بفتح الغين، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي بضمها. قال الزجاج: من فتح الغين، أراد المرة الواحدة باليد، ومن ضمها، أراد ملء اليد. وزعم مقاتل أن الغرفة كان يشرب منها الرجل، ودابته، وخدمه ويملاً قريته. وقال بعض المفسرين: لم يرد به غرفة الكف، وإنما أراد المرة الواحدة بقربة أو جرة، أو ما أشبه ذلك. وفي عدد القليل الذين لم يشربوا إلا غرفة قولان: أحدهما: أنهم أربعة آلاف، قاله عكرمة والسدي. والثاني: ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وهو الصحيح، لما

روي عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه يوم بدر: «أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقاء جالوت» وكانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً^(١).

قوله تعالى: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾ أي: لا قوة لنا، قال الزجاج: يقال: أطقت الشيء إطاقة وطاقة، وطوقاً، مثل قولك: أطقته إطاعة وطاعة وطوعاً. واختلفوا في القائلين لهذا على ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الذين شربوا أكثر من غرفة، فإنهم انصرفوا، ولم يشهدوا، وكانوا أهل شك ونفاق، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: أنهم الذين قتل بصائرهم من المؤمنين، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد. والثالث: أنه قول الذين جاوزوا معه، وإنما قال ذلك بعضهم لبعض، لما رأوا من قتلهم، وهذا اختيار الزجاج.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ في هذا الظن قولان: أحدهما: أنه بمعنى اليقين، قاله السدي في آخرين. والثاني: أنه الظن الذي هو التردد، فإن القوم توهموا لقله عددهم أنهم سيقتلون فيلقون الله، قاله الزجاج في آخرين. وفي المظانين هذا الظن قولان: أحدهما: أنهم الثلاثمائة والثلاثة عشر، قالوا للراجمين: ﴿كَمْ يَنْ يُنَكِّرُ قَلِيلَةً عَبَّتْ يَنْتَهُ كَثِيرَةً﴾، قاله السدي. والثاني: أنهم أولو العزم والفضل من الثلاثمائة والثلاثة عشر. والفئة: الفرقة، قال الزجاج: وإنما قيل لهم: فئة من قولهم: فأوت رأسه بالعصا، وفأيته: إذا شققته.

قوله تعالى: ﴿يَا ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ قال الحسن: بنصر الله.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي بالنصر والإعانة.

﴿وَلَمَّا بَرَرُوا لِحَالُوْتٍ وَجُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا وَأَسْرِ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَسَبَّحْنَا عَلَى الْقَوْرِ الْكَثِيرِ﴾^(٢) قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَرُوا﴾ أي: صاروا بالبراز من الأرض، وهو ما ظهر واستوى. و﴿أَخْرِجْ﴾ بمعنى اصعب، و﴿تَسَبَّحْنَا أَقْدَانِكَا﴾ أي: فؤ قلوبنا لتثبيت أقدامنا، وإنما تثبت الأقدام عند قوة القلوب. قال مقاتل: كان جالوت وجنوده يعبدون الأوثان.

﴿فَهَرَمُوهُمْ يَأْتِيهِمُ اللَّهُ وَفَقَلَ دَاوُدُ جَالُوْتٍ وَمَا كُنْهُ اللَّهُ الْمَلِكُ وَالْحِكْمَةُ وَعَلَّمَهُ مَكَا يَسْكَا وَتَوَلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَفْسَكِدَتْ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى السَّالِكِينَ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿فَهَرَمُوهُمْ﴾ أي: كسروهم وردوهم، قال الزجاج: أصل الهزم في اللغة: كسر الشيء، وثني بعضه على بعض، يقال: سقاء منهزم [ومهزم] إذا كان بعضه قد ثني على بعض مع جفاف، وقصب منهزم: قد كسر وشقق، والعرب تقول: هزمت على زيد، أي: عطقت عليه.

قال الشاعر:

هزمت عليك اليوم يا ابنة مالك فجوذي علينا بالنوال وأنعمي^(٤)

ويقال: سمعت هزمة الرعد، قال الأصمعي: كأنه صوت فيه تشقق.

وداود: هو نبي الله أبو سليمان، وهو اسم أعجمي، وقيل: إن إخوة داود كانوا مع طالوت، فمضى داود لينظر إليهم، فناده أحجار، خذني، فأخذها، وجاء إلى طالوت، فقال: مالي إن قتلت جالوت؟ فقال: ثلث ملكي، وأنكحك ابنتي، فقتل جالوت.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْهُ اللَّهُ الْمَلِكُ﴾ يعني أتى داود ملك طالوت. وفي المراد بـ«الحكمة» هاهنا قولان. أحدهما: أنها النبوة، قاله ابن عباس. والثاني: الزبور، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُ مَكَا يَسْكَا﴾ فيه ثلاثة أقوال. أحدها: أنها صنعة الدروع، والثاني: الزبور، والثالث: منطق

الطير.

(١) رواه ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر، فلكره. وأخرج أحمد والبخاري وغيره عن البراء بن عازب قال: كنا أصحاب محمد نتحدث أن أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر - ولم يجاوزوا معه إلا مؤمن - بضعة عشرة وثلاثمائة.

(٢) البيت نسبة في «اللسان» لأبي بدر السلمي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ قرأ الجمهور ﴿دَفْعُ اللَّهِ﴾ بغير ألف هاهنا وفي «الحج»، وقرأ نافع، ويعقوب، وأبان (ولولا دفاع) بألف فيهما. قال أبو علي: المعنيان متقاربان، قال الشاعر:

ولقد حرصتُ بيان أذاع عنهم
فإذا التمنية أقبلت لا تدفع^(١)

وفي معنى الكلام قولان. أحدهما: أن معناه: لولا أن الله يدفع بمن أطاعه عن عصاه، كما دفع عن المتخلفين عن طالوت بمن أطاعه، لهلك العَصاة بسرعة العقوبة، قاله مجاهد. والثاني: أن معناه: لولا دفع الله المشركين بالمسلمين، لغلب المشركون على الأرض، فقتلوا المسلمين، وخربوا المساجد، قاله مقاتل. ومعنى: ﴿لَمَسَكِدَتِ الْأَرْضُ﴾ لهلك أهلها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَالْحَقَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَالْحَقَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: نقص عليك من أخبار المتقدمين. ﴿وَأَنَّكَ لَمِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ حُكْمُ حَكْمِهِمْ، فمن صدقك، فسيله سبيل من صدقهم، ومن عصاك، فسيله سبيل من عصاهم.

الجزء الثالث: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَالْحَقَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي المراءى بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِيَّةَ وَأَيَّدْنَاهُ رُوحَ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِهِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَيَنظُرُونَ مِمَّنْ آمَنُوا وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

قوله تعالى: ﴿يُنظُرُونَ مِمَّنْ آمَنُوا﴾ يعني: موسى ﷺ. وقرأ أبو المتوكل، وأبو نعيم، وابن السمينغ: «منهم من كالم الله» بألف خفيفة اللام، ونصب اسم «الله». وفي المراءى بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ قولان: أحدهما: عنى بالمرقوع درجات، محمداً ﷺ، فإنه بعث إلى الناس كافة، وغيره بعث إلى أمته خاصة، هذا قول مجاهد. والثاني: أنه عنى تفضيل بعضهم على بعض فيما آتاه الله، هذا قول مقاتل. قال ابن جرير الطبري: والدرجات: جمع درجة، وهي المرتبة، وأصل ذلك: مراقي السلم ودرجه، ثم يستعمل في ارتفاع المنازل والمراتب. وقد تقدم تفسير «البيئات» و«روح القدس».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد الأنبياء. وقال قتادة: من بعد موسى وعيسى ﷺ. قال مقاتل: وكان بينهما ألف نبي.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ يعني: الأمم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَالْحَقَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَالْحَقَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذه الآية تحت على الصدقات، والإنفاق في وجوه الطاعات.

وقال الحسن: أراد الزكاة المفروضة.

قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ يعني، يوم القيامة ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعاً) بالنصب من غير تنوين، ومثله في «إبراهيم» (لا يبيع فيه) وفي الطور (لا لغو فيها ولا تأثيم). وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، جميع ذلك بالرفع والتنوين. قال ابن عباس: لا فدية فيه، وقيل: إنما ذكر لفظ البيع لما فيه من المعاوضة، وأخذ البدل. والخلة: الصداقة. وقيل: إنما نفى هذه الأشياء، لأنه غني عن الكافرين، وهذه الأشياء لا تفعمهم، ولهذا قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي أَلْهَمَ الْبَشَرَ لِسَانَ رَبِّهِمْ لِيُؤْذِنُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِمَا آمَنُوا وَإِلَىٰ هَاتِهِ تُبْطَلُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي أَلْهَمَ الْبَشَرَ لِسَانَ رَبِّهِمْ لِيُؤْذِنُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِمَا آمَنُوا وَإِلَىٰ هَاتِهِ تُبْطَلُونَ﴾ وهو المولى العظيم ﷻ

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي أَلْهَمَ الْبَشَرَ لِسَانَ رَبِّهِمْ لِيُؤْذِنُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِمَا آمَنُوا وَإِلَىٰ هَاتِهِ تُبْطَلُونَ﴾ روى مسلم في «صحيحه» عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال له: «يا

(١) البيت لأبي ذؤيب الهللي، وهو من قصيدة جيدة، يرفي بها بينه الخمسة الذين هلكوا بالطاعون.

أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله أعظم؟ قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. قال: فضرب صدري، وقال: «ليهنك العلم يا أبا المنذر»^(١) قال أبو عبيدة: القيوم: الذي لا يزول، لاستقامته وصفه بالوجود، حتى لا يجوز عليه التغيير بوجه من الوجوه. وقال الزجاج: القيوم: القائم بتدبير أمر الخلق، وقال الخطابي: القيوم: هو القائم الدائم بلا زوال، وزنه: «فيعول» من القيام، وهو نعت للمبالغة للقيام على الشيء، ويقال: هو القائم على كل شيء بالرعاية، يقال: قمت بالشيء: إذا وليته بالرعاية والمصلحة. وفي «القيوم» ثلاث لغات: القيوم، وبه قرأ الجمهور. والقيام، وبه قرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن أبي عبيدة، والأعمش. والقيّم، وبه قرأ أبو رزين، وعلقمة. وذكر ابن الأباري أنه كذلك في مصحف ابن مسعود، قال: وأصل القيوم: القيوم: فلما اجتمعت الياء والواو والسابق ساكن، جعلنا ياء مشددة. وأصل القيام: القوام، قال الفراء: وأهل الحجاز يصرفون الفعّال [إلى] الفيعال، فيقولون للصواغ: صياغ. فأما «السنة» فهي: النعاس من غير نوم، ومنه: الوسنان. قال ابن الرقاع:

وكانها بين النساء أعارها
وسنان أقصده النعاس فرنقت
عينيه أحور من جاذر جاسم
في عينه سنة وليس بنائم^(٢)

قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال بعض العلماء: إنما لم يقل: والأرضين، لأنه قد سبق ذكر الجمع في السموات، فاستغنى بذلك عن إعادته، ومثله ﴿وَجَمَلُ الْأُنثَى وَالنَّوْرُ﴾ ولم يقل: الأنوار.
قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فيه رد على من قال: ﴿مَنْ تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].
قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ظاهر الكلام يقتضي الإشارة إلى جميع الخلق، وقال مقاتل: المراد بهم الملائكة. وفي المراد ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن الذي بين أيديهم أمر الآخرة، والذي خلفهم أمر الدنيا، روي عن ابن عباس، وقتادة. والثاني: أن الذي بين أيديهم الدنيا، والذي خلفهم الآخرة، قاله السدي عن أشياخه، ومجاهد وابن جريج، والحكم بن عتيبة. والثالث: ما بين أيديهم: ما قبل خلقهم، وما خلفهم: ما بعد خلقهم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُصَلُّونَ بِحَسْبِ﴾ قال الليث: يقال لكل من أحرز شيئاً، أو بلغ علمه أقصاه: قد أحاط به. والمراد بالعلم هاهنا المعلوم ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ أي: احتمل وأطاق. وفي المراد بالكُرسي ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كرسي فوق السماء السابعة دون العرش، قال النبي ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة»^(٣) وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء. والثاني: أن المراد بالكُرسي علم الله تعالى. رواه ابن جبير عن ابن عباس^(٤). والثالث: أن الكرسي هو العرش، قاله الحسن^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤَدُّهُ﴾ أي: لا يثقله، يقال: آده الشيء يؤوده أوداً وإياداً. والأود: الثقل، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والجماعة. والعلي: العالي القاهر، «فعليل» بمعنى «فاعل»، وقال الخطابي: وقد يكون من العلو الذي هو مصدر: علا يعلو، فهو عال، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. ويكون ذلك من علاء المجد

(١) ورواه الإمام أحمد، ولفظه عند مسلم عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال: فضربني صدري، وقال: «والله ليهنك العلم أبا المنذر» معنى «ليهنك العلم»: ليكن العلم هيناً لك.

(٢) الجاذر: بقر الوحش، وهي حسان العيون. جاسم: موضع تكثر فيه الجاذر. الوسن: ثقل النوم وتجمعه. أقصده النعاس: قتل النعاس وأماته. رنقت: خلطت عينه. السنة: النوم الخفيف.

(٣) رواه ابن مردويه وابن جرير الطبري، والبيهقي في «الأسماء والصفات». وقال البيهقي بعد روايته: تفرد به يحيى بن سعيد السعدي. وهو منكر الحديث، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد كما قال النقاد من المحدثين. وقد ساق البيهقي شاهداً له، وفي إسناده إبراهيم بن هشام، كذب أبو زرعة وأبو حاتم، ووصفه الذهبي بأنه أحد المتروكين، ولم يصب ابن حبان في توثيقه. فليس يقوى الحديث بهذا الشاهد.

(٤) قال الشيخ أحمد شاكر: هي رواية شاذة لا يقوم عليها دليل من كلام العرب. ولذلك رجح أبو منصور الأزهرى الرواية الصحيحة عن ابن عباس التي تقول: إن الكرسي موضع القدمين، وقال: وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها، ومن روى عنه في الكرسي، أنه العلم، فقد أبطل.

(٥) رواه ابن جرير، وفي سننه جوير بن سعيد الأزدي، وهو ضعيف جداً.

والشرف، يقال منه: علي يعلى علاء. ومعنى العظيم: ذو العظمة والجلال، والعظم في حقه تعالى، منصرف إلى عظم الشأن، وجلال القدر، دون العظم الذي هو من نعوت الأجسام.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن المرأة من نساء الأنصار كانت في الجاهلية إذا لم يعش لها ولد، تحلف: لئن عاش لها ولد لتهودته. فلما أجليت يهود بني النضير، كان فيهم ناس من أبناء الأنصار: فقال الأنصار: يا رسول الله أبناؤنا، فنزلت هذه الآية. هذا قول ابن عباس^(١). وقال الشعبي: قالت الأنصار: والله لنكرهن أولادنا على الإسلام، فإنا إنما جعلناهم في دين اليهود إذ لم نعلم ديناً أفضل منه، فنزلت هذه الآية. والثاني: أن رجلاً من الأنصار تنصّر له ولدان قبل أن يبعث النبي ﷺ، ثم قدما المدينة، فلزمهما أبوهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا، فاخصموا إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية. هذا قول مسروق. والثالث: أن ناساً كانوا مسترضعين في اليهود، فلما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير، قالوا: والله لنذهبن معهم. ولندين بدينهم، فمنعهم أهلهم، وأرادوا إكراههم على الإسلام، فنزلت هذه الآية. والرابع: أن رجلاً من الأنصار كان له غلام اسمه صبيح، كان يكرمه على الإسلام، فنزلت هذه الآية، والقولان عن مجاهد.

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذا القدر من الآية، فذهب قوم إلى أنه محكم، وأنه من العام المخصوص، فإنه خصص منه أهل الكتاب بأنهم لا يكرهون على الإسلام بل يختارون بينه وبين أداء الجزية، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقادة^(٢). وقال ابن الأنباري: معنى الآية: ليس الدين ما تدين به في الظاهر على جهة الإكراه عليه، ولم يشهد به القلب، وتنتظري عليه الضمائر، إنما الدين هو المنعقد بالقلب. وذهب قوم إلى أنه منسوخ، وقالوا: هذه الآية نزلت قبل الأمر بالقتال، فعلى قولهم، يكون منسوخاً بآية السيف. وهذا مذهب الضحاك، والسدي، وابن زيد، والدين هاهنا: أريد به الإسلام. والرشد: الحق. والغي: الباطل، وقيل: هو الإيمان والكفر. فأما الطاغوت؛ فهو اسم مأخوذ من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، قال ابن قتيبة: الطاغوت: واحد، وجمع، ومذكر، ومؤنث، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَوْلُوا بِالطَّاغُوتِ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا الْكَلْبُوتَ أَنْ يَمْدُدُوا﴾ [الزمر: ٢١٧] والمراد بالطاغوت هاهنا خمسة أقوال: أحدها: أنه الشيطان، قاله عمر، وابن عباس، ومجاهد، والشعبي، والسدي، ومقاتل في آخرين. والثاني: أنه الكاهن، قاله سعيد بن جبير، وأبو العالية. والثالث: أنه الساحر، قاله محمد بن سيرين. والرابع: أنه الأصنام، قاله الزبيدي، والزجاج. والخامس: أنه مردة أهل الكتاب، ذكره الزجاج أيضاً.

قوله تعالى: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ هذا مثل للإيمان، شبه التمسك به بالتمسك بالعروة الوثيقة. وقال الزجاج: معنى الكلام: فقد عقد لنفسه عقداً وثيقاً. والانفصام: كسر الشيء من غير إبانة.

﴿اللَّهُ وَرَىٰ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَوْلُوا بِالطَّاغُوتِ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَرَىٰ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: متولي أمورهم، يهديهم، وينصرهم، ويعينهم. والظلمات: الضلالة. والنور: الهدى. والطاغوت: الشياطين، هذا قول ابن عباس، وعكرمة في آخرين. وقال مقاتل: الذين كفروا: هم

(١) أخرجه أبو داود والنسائي والبيهقي في «السنن» وابن حبان وابن أبي حاتم، والفضاء في «المختارة». عن ابن عباس، ولفظه عند أبي داود: عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مفلتاً، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّه، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناؤنا، فأذن الله ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾. والمفلتات: المرأة التي لا يعيش لها ولد.

(٢) ووجه ابن جرير الطبري في «تفسيره».

اليهود، والطاغوت: كعب بن الأشرف. قال الزجاج: والطاغوت هاهنا: واحد في معنى جماعة، وهذا جائز في اللغة إذا كان في الكلام دليل على الجماعة. قال الشاعر:

بها جيف الحسرى فأما عظامها

فبيض وأما جلدها فصليب^(١)

أراد جلودها. فإن قيل: متى كان المؤمنون في ظلمة؟ ومتى كان الكفار في نور؟ فعنه ثلاثة أجوبة. أحدها: أن عصمة الله للمؤمنين عن مواجهة الضلال، إخراج لهم من ظلام الكفر، وتزوين قرناء الكفار لهم الباطل الذي يحددون به عن الهدى إخراج لهم من نور الهدى، و«الإخراج» مستعار هاهنا، وقد يقال للمنتع من الشيء: خرج منه، وإن لم يكن دخل فيه. قال تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ بِلَدِّ قَوْمِي لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٧] وقال: ﴿وَيُنَكِّرُ مَنْ رَزَّ إِلَهُ أَزْوَاجَ الْمُتَرِّبِ﴾ [النحل: ٤٧٠] وقد سبقت شواهد هذا في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّ اللَّهُ رُشُوعَ الْأُمُونِ﴾ [البقرة: ٢١٠] والثاني: أن إيمان أهل الكتاب بالنبي قبل أن يظهر نور لهم، وكفرهم به بعد أن ظهر، خروج إلى الظلمات. والثالث: أنه لما ظهرت معجزات رسول الله ﷺ كان المخالف له خارجاً من نور قد علمه، والموافق له خارجاً من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمَلْكَ إِذْ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبُدُ وَيُيْتَّى قَالَ آتَا أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبرَاهِيمُ فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالْحَيَاتِ مِنْ الشَّرَاقِ فَأَتَى بِهَا مِنَ الْمَنْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ [٢٥٨]

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ قد سبق معنى «ألم تر». وحاج: بمعنى خاصم، وهو نمرود في قول الجماعة. قال ابن عباس: ملك الأرض شرقها وغربها؛ مؤمنان، وكافران؛ فالمؤمنان سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمرود، ويختصر. قال ابن تقيية: معنى الآية: حاجَّ إبراهيم، لأن الله آتاه الملك، فأعجب بنفسه [وملكه].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبُدُ وَيُيْتَّى﴾ قال بعضهم: هذا جواب سؤال سابق غير مذكور، تقديره: أنه قال له: من ربك؟ فقال: ربي الذي يحيي ويميت. قال نمرود: أنا أحيي وأميت. قال ابن عباس: يقول: أترك من شئت، وأقتل من شئت. فإن قيل: لم انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى، وعدل عن نصرته الأولى؟ فالجواب: أن إبراهيم رأى من فساد معارضته أمراً يدل على ضعف فهمه، فإنه عارض اللفظ بمثله، ونسي اختلاف الفعلين، فانتقل إلى حجة أخرى، فصدأ لقطع المحاج، لا عجزاً عن نصرته الأولى.

قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي: انقطعت حجته، فتحير. وقرأ أبو رزين العقيلي، وابن السميع: ﴿فَبُهِتَ﴾، بفتح الباء والهاء، وقرأ أبو الجوزاء، ويحيى بن يعمر، وأبو حيوه: ﴿فَبُهِتَ﴾، بفتح الباء، وضم الهاء، قال الكسائي: ومن العرب من يقول: بهت، وبهت، بكسر الهاء وضمها. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ يعني: الكافرين. قال مقاتل: لا يهديهم إلى الحجة، وعنى بذلك نمرود.

﴿وَكَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَسَّطَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَيْثٌ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَابِكَ وَشِرَابِكَ لَمْ يَكُنْ تُنِصِّتُ وَأَنْظُرْ إِلَى جَمَارِكَ وَنَجْمِكَ أَيْكَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى الْوَيْطَانِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا ثُمَّ كَسَّوْهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٥٩]

قوله تعالى: ﴿وَكَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ قال الزجاج: هذا معطوف على معنى الكلام الذي قبله، معناه: رأيت كالذي حاج إبراهيم، أو كالذي مر على قرية؟ وفي المراد بالقرية قولان. أحدهما: أنها بيت المقدس لما خربه يختصر، قاله وهب، وقتادة، والربيع بن أنس. والثاني: أنها التي خرج منها الألوف حذر الموت، قاله ابن زيد: وفي الذي مر عليها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه عزيز، قاله علي بن أبي طالب، وأبو العالية، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وناجية بن كعب، وقتادة، والضحاك، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنه أرمياء، قاله وهب، ومجاهد، وعبد الله بن

(١) البيت لمعلمة بن عبدة بن النعمان بن قيس، من قصيدة مفضلية جيدة قالها يمدح الحارث بن جبلة ابن أبي شمر النسائي. الحسرى: الإبل المعية يتركها أصحابها فتמות. الصليب: الجلد اليابس. وقوله: عظامها بيض؛ كنى بذلك عن استخراج ما فيها من الوردك. فصليب يريد: وأما جلودها فذرات صليب، وهو الصديد يسيل من الموتى، والأصل فيه صليب العظام، وهو ودكها.

عبيد بن عمير، والثالث: أنه رجل كافر شك في البعث، نقل عن مجاهد أيضاً. والخواوية: الخالية، قاله الزجاج. وقال ابن قتيبة: الخاوية: الخراب، والعرووش: السقوف، وأصل ذلك أن تسقط السقوف، ثم تسقط الحيطان عليها ﴿قَالَ أَنَّى يُبَيِّهُ هَذَا اللَّهُ﴾ أي: كيف يحييها. فإن قلنا: إن هذا الرجل نبي، فهو كلام من يؤثر أن يرى كيفية الإعادة، أو يستهولها، فيعظم قدرة الله، وإن قلنا: إنه كان رجلاً كافراً، فهو كلام شك، والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾

الإشارة إلى قصته

روى ناجية بن كعب عن علي عليه السلام قال: خرج عزيز نبي الله من مدينته، وهو رجل شاب، فمر على قرية، وهي خاوية على عروشها، فقال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها، فأماته الله مائة عام، ثم بعثه، وأول ما خلق الله منه عيناه، فجعل ينظر إلى عظامه ينضم بعضها إلى بعض، ثم كسيت لحماً، ونفخ فيها الروح. قال الحسن: قبضه الله أول النهار، وبعثه الله آخر النهار بعد مائة سنة. قال مقاتل: ونودي من السماء: كم لبثت؟ قال قتادة: فقال: لبثت يوماً، ثم نظر فرأى بقية من الشمس فقال: أو بعض يوم. فهذا يدل على أنه عزيز. وقال وهب بن منبه: أقام أرميا بأرض مصر فأوحى الله إليه أن الحق بأرض إيلياء^(١)، فركب حماره، وأخذ معه سلة من عنب وتين، ومعه سقاء جديد فيه ماء، فلما بدا له شخص بيت المقدس وما حوله من القرى [والمساجد] نظر إلى خراب لا يوصف [فلما رأى هدم بيت المقدس كالجبل العظيم] قال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ ثم نزل منها منزلاً، ووطئ حماره، [وعلق سقاه] فألقى الله عليه النوم، ونزع روحه مئة عام، فلما مر منها سبعون عاماً، أرسل الله ملكاً إلى ملك من ملوك فارس، عظيم، فقال: إن الله يأمرك أن تنفر بقومك، فتعمر بيت المقدس وإيلياء وأرضها حتى تعود أعمار ما كانت، [فقال الملك: أنظرني ثلاثة أيام حتى أتأهب لهذا العمل، ولما يصلحه من أداة العمل، فأنظره ثلاثة أيام] فانتدب ثلاثمئة قهرمان، ودفع إلى كل قهرمان ألف عامل، وما يصلحه من أداة العمل [فسار إليها قهارته ومعهم ثلاثمئة ألف عامل] فلما وقعوا في العمل، رد الله روح الحياة في عيني أرميا، وآخر جسده ميت، فنظر إليها تعمر، فلما تمت بعد ثلاثين سنة، رد الله إليه الروح، فنظر إلى طعامه وشرابه لم يتسنه [ونظر إلى حماره واقفاً كهيبته يوم ربطه لم يطعم ولم يشرب، ونظر إلى الرمة في عنق الحمار لم تتغير جديدة، وقد أتى على ذلك ربح مائة عام، وبرد مائة عام، وحرّ مائة عام، لم تتغير ولم تنتقص شيئاً، وقد نحل جسم أرميا من البلى، فأبنت الله له لحماً جديداً، ونشز عظامه وهو ينظر، فقال له الله: انظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ولتعجلك آية للناس، وانظر إلى العظام كيف نشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير^(٢). وزعم مقاتل أن هذه القصة كانت بعد رفع عيسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم «لبثت» و«ولبثتم» في كل القرآن بإظهار التاء، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بالإدغام [لبثت]^(٣). قال أبو علي الفارسي: من بين «لبثت»، فلتباين المخرجين، وذلك أن الظاء والذال والتاء من حيز، والطاء والتاء والذال من حيز، فلما تباين المخرجان، واختلفت الحيزان، لم يدغم. ومن أدغمها أجراها مجرى المثليين، لاتفاق الحرفين في أنها من طرف اللسان، وأصول الثنايا، واتفاقهما في الهمس. ورأى الذي بينهما من الاختلاف سيراً، فأجراها مجرى المثليين^(٤). فأما طعامه وشرابه، فقال وهب: كان معه مكتل فيه عنب وتين، وقلة فيها ماء. وقال السدي: كان معه تين وعنب، وشرابه من العصير، لم يحمض التين والعنب، ولم يختمر العصير.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: (يتسنه) و(اقتده) و(ما أغنى عني ماليه) و(سلطانيه) و(ماهيه) بإثبات الهاء في الوصل. وكان حمزة يحذفهن في الوصل، ووافق الكسائي في حذف

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من الطبري.

(١) أي: بيت المقدس.

(٤) قال النحاس: والإظهار أحسن لتباين مخرج التاء من مخرج الناء.

(٣) أي: بإدغام التاء في الناء.

موضعين (يتسنه) و(اقتده) وكلهم يقف على الهاء. ولم يختلفوا في (كتابه) و(حسابه) أنها بالهاء وصلاباً ووقفاً. فأما معنى: (لم يتسنه)، فقال ابن عباس، والحسن، وفتادة في آخرين: لم يتغير. وقال ابن قتيبة: لم يتغير بمر السنين عليه، واللفظ مأخوذ من السنه، يقال: سانهت النخلة: إذا حملت عاماً، وحالت عاماً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ جَمْرِكَ﴾ قال مقاتل: انظر إليه، وقد ابيضت عظامه، وتفرقت أوصاله، فأعلاه الله. قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ جَمْرِكَ﴾ اللام صلة لفعل مضمرة تقديره: فعلنا بك ذلك لنريك قدرتنا، ولتجعلك آية للناس، أي: علماً على قدرتنا، فأضمر الفعل لبيان معناه. قال ابن عباس: مات وهو ابن أربعين سنة، وابنه ابن عشرين سنة، ثم بعث وهو ابن أربعين، وابنه ابن عشرين ومائة، ثم أقبل حتى أتى قومه في بيت المقدس، فقال لهم: أنا عزير، فقالوا: حدثنا أبؤنا أن عزيراً مات بأرض بابل، فقال لهم: أنا هو أرسلني الله إليكم أجدد لكم توراتكم، وكانت قد ذهبت، وليس منهم أحد يقرؤها، فأملأها عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ الْوَيْطَانِ﴾ قيل: أراد عظام نفسه، وقيل: عظام حماره، وقيل: هما جميعاً. قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُنشِئُهَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو (نشرها) بضم النون الأولى، وكسر الشين وراء مضمومة، ومعناها: نخيها، يقال: أنشر الله الميت، فنشروهم. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: نشزها، بضم النون مع الزاي، وهو من النشز الذي هو الارتفاع. والمعنى: نرفع بعضها إلى بعض للأحياء. وقرأ الأعمش: نشزها، بفتح النون، ورفع الشين مع الزاي، وقرأ الحسن، وأبان عن عاصم: نشرها، بفتح النون مع الراء، كأنه من النشز عن الطي، فكان الموت طواها، والإحياء نشرها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أي: بان له إحياء الموتى ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «أعلم» مقطوعة الألف، مضمومة الميم، والمعنى: قد علمت ما كنت أعلمه غيباً مشاهدة. وقرأ حمزة والكسائي بوصل الألف، وسكون الميم على معنى الأمر، والابتداء على قراءتهما بكسر الهمزة، وظاهر الكلام أنه أمر من الله له، وقال أبو علي: نزل نفسه منزلة غيظه، فأمرها وخاطبها. وقرأ الجعفي عن أبي بكر، قال: «أعلم» بكسر اللام على معنى الأمر بإعلام الغير.

﴿وَرَأَىٰ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ كَيْفَ تُعَيِّمُ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ وَإِنِّي لَمَكِينٌ قَلْبِي قَالَ فَتَدَأُ رَبِّمَ مِنْ أَلْفِ قَوْمٍ مِّنْ دُونِكَ ثُمَّ أَوَّلَ مَا نَبَأَهُ رَبُّهُ أَنَّهُ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّهُ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قوله تعالى: ﴿وَرَأَىٰ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ كَيْفَ تُعَيِّمُ الْمَوْتَىٰ﴾ في سبب سؤاله هذا أربعة أقوال. أحدها: أنه رأى ميتة تمزقها الهوام والسباع، فسأل هذا السؤال، وهذا قول ابن عباس، والحسن، وفتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وابن جريج، ومقاتل. وما الذي كانت هذه الميتة؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: كان رجلاً ميتاً، قاله ابن عباس. والثاني: كان جيفة حمار، قاله ابن جريج، ومقاتل. والثالث: كان حوتاً ميتاً، قاله ابن زيد. والثاني: أنه لما بشر باتخاذ الله له خليلاً، سأل هذا السؤال ليعلم صحة البشارة، ذكره السدي عن ابن مسعود، وابن عباس. وروي عن سعيد بن جبير أنه لما بشر بذلك، قال: ما علامة ذلك؟ قال: أن يجيب الله دعاءك، ويحيي الموتى بسؤالك، فسأل هذا السؤال. والثالث: أنه سأل ذلك ليزيل عوارض الوسواس، وهو قول عطاء بن أبي رباح. والرابع: أنه لما نازعه نمرود في إحياء الموتى، سأل ذلك ليرى ما أخبر به عن الله، وهذا قول محمد بن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ وَإِنِّي لَمَكِينٌ قَلْبِي﴾ قال ابن جبير: ألم ترقن بالخلعة؟ قوله تعالى: ﴿بَلْ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ «اللام» متعلقة بفعل مضمرة، تقديره: ولكن سألتك ليطمن، أو أرني ليطمن قلبي، ثم في المعنى أربعة أقوال: أحدها: لأعلم أنك تخبيني إذا دعوتك، قاله ابن عباس. والثاني: ليزداد قلبي يقيناً، قاله سعيد بن جبير. وقال الحسن: كان إبراهيم موقناً، ولكن ليس الخبر كالمعاينة. والثالث: ليطمن قلبي بالخلعة، روي عن ابن جبير أيضاً. والرابع: أنه كان قلبه متعلقاً بزوية إحياء الموتى، فأراد: ليطمن قلبه بالنظر، قاله ابن قتيبة. وقال غيره: كانت نفسه تائقة إلى رؤية ذلك، وطالب الشيء قلق إلى أن يظفر بطلبته، يدل على أنه لم يسأل لشك، أنه قال: ﴿أَرَأَيْتَ كَيْفَ تُعَيِّمُ الْمَوْتَىٰ﴾ وما قال: هل تحيي الموتى.

قوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْتُ مِنْ أَلْيَمِ فِي الَّذِي أَخَذَ سَبْعَةَ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا: أَنَّهَا الْحَمَامَةُ، وَالذِّبْكَ، وَالكَرْكِي، وَالطَّاوُوسُ، رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَبِيرَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: أَنَّهَا الطَّاوُوسُ، وَالذِّبْكَ، وَالذِّجَاجَةُ السَّنْدِيَّةُ، وَالْأَوْزَةُ، رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَفِي لَفْظٍ آخَرَ، رَوَاهُ الضَّحَّاكُ مَكَانَ الذِّجَاجَةِ السَّنْدِيَّةِ الرَّألَ، وَهُوَ فَرْخُ النَّعَامِ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّهَا الشَّعَانِينُ، وَكَانَتْ قَرِيْبَاهُمُ يَوْمَئِذٍ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَالرَّابِعُ: أَنَّهَا الطَّاوُوسُ، وَالنَّسْرُ، وَالغُرَابُ، وَالذِّبْكَ، نَقَلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضاً، وَالخَامِسُ: أَنَّهَا الذِّبْكَ، وَالطَّاوُوسُ وَالغُرَابُ، وَالْحَمَامُ، قَالَهُ عِكْرَمَةُ، وَمَجَاهِدٌ، وَعَطَاءٌ، وَابْنُ جَرِيْجٍ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَالسَّادِسُ: أَنَّهَا ذِيبُكَ، وَغُرَابُ، وَبَطُ، وَطَاوُوسُ، رَوَاهُ لَيْثٌ عَنِ مَجَاهِدٍ. وَالسَّابِعُ: أَنَّهَا الذِّبْكَ، وَالْبَطَّةُ، وَالغُرَابُ، وَالْحَمَامَةُ، قَالَهُ مِقَاتِلٌ. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ خَذَ بَطَّةً وَغُرَاباً أَسْوَدَ وَحَمَامَةً بَيْضَاءَ، وَدِيكاً أَحْمَرَ.

قوله تعالى: ﴿فَصَرُّهُنَّ إِلَيْكَ﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِضَمِّ الصَّادِ، وَالْمَعْنَى: أَمَلَهُنَّ إِلَيْكَ، يُقَالُ: صَرْتُ الشَّيْءَ فَانصَابَ، أَي: أَمَلْتَهُ فَمَالَ، وَأَنشَدُوا:

الله يعلم أنا في تلفتنا
يوم الفراق إلى جيراننا صور

فمعنى الكلام: أجمعهن إليك ﴿ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فِيهِ إِضْمَارٌ قَطْعُهُنَّ. قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: أَضْمَرَ «قَطْعُهُنَّ» وَانكفى بقوله: ﴿ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ عَن قَوْلِهِ «قَطْعُهُنَّ»، لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَهَذَا كَمَا نَقَوْلُ: خَذَ هَذَا الثُّوبَ، وَاجْعَلْ عَلَى كُلِّ رَمْحٍ عِنْدَكَ مِنْهُ عِلْمًا. يَرِيدُ: قَطْعَهُ، وَافْعَلْ ذَلِكَ. وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ، وَحَمَزَةٌ، وَخَلْفٌ وَالْمَفْضَلُ، عَنِ عَاصِمٍ «فَصَرُّهُنَّ إِلَيْكَ» بِكسْرِ الصَّادِ. قَالَ الْيَزِيدِيُّ: هُمَا وَاحِدٌ، وَقَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: الْكسْرُ وَالضَّمُّ لِعِثَانٍ. قَالَ الْفَرَّاءُ: أَكْثَرُ الْعَرَبِ عَلَى ضَمِّ الصَّادِ، وَحَدَّثَنِي الْكِسَائِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ بَنِي سَلِيمٍ يَقُولُ: صِرْتَهُ، فَأَنَا أَصِيرُهُ، وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَوَهْبٍ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَأَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ، وَالسُّدِّيِّ، أَنَّ مَعْنَى الْمَكْسُورَةِ الصَّادِ: قَطْعُهُنَّ. وَرَوَى عَنِ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ قَالَ: مَعْنَاهُ بِالضَّمِّ: أَجْمَعُهُنَّ، وَبِالْكَسْرِ: قَطْعُهُنَّ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ: اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا. وَرَوَى عَوْفٌ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: أَذْبَحَهُنَّ وَنَفَعَهُنَّ، ثُمَّ قَطَعَهُنَّ أَعْضَاءً، ثُمَّ خَلَطَ بَيْنَهُنَّ جَمِيعاً، ثُمَّ جَزَّأَهَا أَرْبَعَةَ أَجْزَاءَ، وَضَعَّ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ جُزْءًا. ثُمَّ تَنَحَّى عَنْهُنَّ، فَدَعَاهُنَّ، فَجَعَلَ يَدْعُو كُلَّ عَضْوٍ إِلَى صَاحِبِهِ حَتَّى اسْتَوَيْنَ كَمَا كُنَّ، ثُمَّ أَتَيْتَهُنَّ بِسَعِينٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمْسَكَ رُؤُوسَهَا بِيَدِهِ، فَجَعَلَ الْعِظْمُ يَذْهَبُ إِلَى الْعِظْمِ، وَالرِّيشَةُ إِلَى الرِّيشَةِ، وَالْبِضْعَةُ إِلَى الْبِضْعَةِ، وَهُوَ يَرَى ذَلِكَ، ثُمَّ دَعَاهُنَّ، فَأَقْبَلْنَ عَلَى أَرْجُلَيْهِنَّ يَلْقِي لِكُلِّ طَائِرٍ رَأْسَهُ. وَفِي عِدَّةِ الْجِبَالِ الَّتِي قَسَمْنَ عَلَيْهَا قَوْلَانِ. أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ قَسَمَهُنَّ عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْبَلٍ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةُ. وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَعَلَهُنَّ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءَ فِي أَرْبَاعِ الْأَرْضِ، كَأَنَّهُ يَعْنِي جِهَاتِ الْإِنْسَانِ الْأَرْبَعِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ قَسَمَهُنَّ سَبْعَةَ أَجْزَاءَ عَلَى سَبْعَةِ أَجْبَلٍ، قَالَ ابْنُ جَرِيْجٍ، وَالسُّدِّيُّ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ بِأَيْتِكَ سَعِيًّا﴾ قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: يُقَالُ: عَدَوْتُ، وَيُقَالُ: مَشِيًّا عَلَى أَرْجُلَيْهِ، وَلَا يُقَالُ لِلطَّيْرِ إِذَا طَارَ: سَعَى ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ غَيْرٌ﴾ أَي: مَنِيْعٌ لَا يَغْلِبُ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا يَدْبُرُ، وَيَزْعَمُ مِقَاتِلٌ أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ جَرَتْ لِإِبْرَاهِيمَ بِالشَّامِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، وَقَبْلَ نَزُولِ الصَّحْفِ عَلَيْهِ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَفًا فِي كُلِّ سَبْكَةٍ مِّائَةٌ حَبًّا وَاللَّهُ يُنْفِثُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حَدَّثَنَا عَنْ ثَعْلَبٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا الْمَثَلُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِلنَّفَقَةِ، لِأَنَّ الرِّجَالَ، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ إِذَا دَلَّ الْمَعْنَى عَلَى مَا يَرِيدُونَ، حَذَفُوا، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرِيُوا فِي قُلُوبِهِمْ أَلْبَجْلَ﴾

(١) لم يعرف قائله، وهو في «اللسان» و«الخرافة» و«شرح شواهد المغنبة» وبعد البيت:

وأنسني حينئذ ما يبشني الهوى بصري
من حوثما سلكوا أدنو فانظور

وهو من «الشواهد المضطفة».

فأضمر «الحب»، لأن المعنى معلوم، فكذلك هاهنا. أراد: مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠] يريد: بخل الباخلين، فحذف البخل. وفي المراد بسبيل الله قولان. أحدهما: أنه الجهاد. والثاني: أنه جميع أبواب البر. قال أبو سليمان الدمشقي: والآية مردودة على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتُوا زَكَاةً مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾. وقد أعلم الله ﷻ بضرب هذا المثل، أن الحسنة في النفقة في سبيله تضاعف بسبعمائة ضعف^(١).

وقال الشعبي: نفقة الرجل على نفسه وأهل بيته تضاعف سبعمائة ضعف. قال ابن زيد: ﴿وَاللَّهُ يَكْفِيكَ إِمْنًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُغْنِي عَنْكُمْ كَثْرَتُ أَمْوَالِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتِمُّونَ مَا نَفَقُوا مِمَّا وَلَا آذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال ابن السائب ومقاتل: نزلت في عثمان بن عفان في نفقته في غزوة تبوك، وشراة بئر رومة، ركية بالمدينة، تصدق بها على المسلمين، وفي عبد الرحمن بن عوف حين تصدق بأربعة آلاف درهم، وكانت نصف ماله^(٢). وأما المن ففيه قولان. أحدهما: أنه المن على الفقير، ومثل أن يقول: قد أحسنت إليك ونعشتك، وهو قول الجمهور^(٣). والثاني: أنه المن على الله بالصدقة، روي عن ابن عباس. فإن قيل: كيف مدحهم بترك المن، ووصف نفسه بالمنان؟ فالجواب: أنه يقال: من فلان على فلان: إذا أنعم عليه، فهذا الممدوح، قال الشاعر:

فمُنِّي علينا بالسلام فإنما كلامك ياقوت ودر منظم

أراد بالمن الإنعام. وأما الوجه المذموم، فهو أن يقال: من فلان على فلان: إذا استعظم ما أعطاه، وافتخر بذلك، قال الشاعر في ذلك:

أنت قليل قليلًا ثم أسرعت منة فنيلك ممنون كذاك قليل

ذكر ذلك أبو بكر الأنباري. وفي الأذى قولان. أحدهما: أنه مواجهة الفقير بما يؤذيه، مثل أن يقول له: أنت أبدأ فقير، وقد بليت بك، وأراحي الله منك. والثاني: أن يخبر بإحسانه إلى الفقير، من يكره الفقير إطلاعه على ذلك، وكلا القولين يؤذي الفقير وليس من صفة المخلصين في الصدقة. ولقد حدثنا عن حسان بن أبي سنان أنه كان يشتري أهل بيت الرجل وعياله، ثم يعطهم جميعاً، ولا يتعرف إليهم، ولا يخبرهم من هو.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى وَاللَّهُ عِنْدَ حَيْثُ﴾ [آل عمران: ٩٢]

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: قول جميل للفقير، مثل أن يقول له: يوسع الله عليك، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: يستر على

(١) أخرج مسلم عن ابن مسعود قال: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله هذه في سبيل الله، فقال ﷺ: «ذلك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة». وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف». قال ﷺ: «إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزى به، يدع طعامه وشهوته من أجلي. للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخولف فيه أطيب عند الله من ريح المسك».

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن الكلبي، وأخرج ابن المنذر عن ابن المسيب قال: الآية نزلت في عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان في نفقتهما في جيش العسرة. وأخرج البخاري تعليقاً عن أبي عبد الرحمن أن عثمان ﷺ حين حوضر أشرف عليهم، وقال: أنشدكم الله، ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ، أستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «من حفر رومة فله الجنة» فحفرتها؟ أستم تعلمون أنه قال: «من جهز جيش العسرة فله الجنة» فجهزته؟ قال: فصدقوه بما قال. قال الحافظ ابن حجر: وقد وصله الدارقطني والإسماعيلي وغيرهما من طريق القاسم بن محمد المروري عن عبيد بن تمامه. ورواه مطولاً الترمذي والنسائي والدارقطني وقال الترمذي: حديث حسن. وذكر في «الإصابة» أنه قد جاء من طرق كثيرة شهيرة صحيحة عن عثمان لما أن حصره انشدد الصحابة في أشياء... وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في كفه حين جهز جيش العسرة، فتراها في حجره، فرأيت النبي ﷺ يقبلها في حجره، ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» مرتين، رواه أحمد والترمذي وحسنه.

(٣) روى مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمبسل إزاره، والمنفق سلمته بالحلف الكاذب».

المسلم خلته وفاقته، وقيل: أراد بالمغفرة التجاوز عن السائل إن استطال على المسؤول وقت رده ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَذَكَّرُ بِهَا﴾ وقد سبق بيانه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَبْتَغُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُبْفِئُ مَا لَمْ يَرْفَعْ إِلَيْهِ يَتَّبِعُهُ النَّاسُ وَلَا يُؤْمِنُ إِلَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَاسْتَغْنَى كَذَلِكَ صَفْوَانٌ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَدَقَةً لَا يَتَذَكَّرُ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَبْتَغُوا صَدَقَتِكُمْ﴾ أي: لا تبطلوا ثوابها، كما تبطل ثواب صدقة المرابي الذي لا يؤمن بالله، وهو المنافق ﴿فَمَسَّكُهُ﴾ أي: مثل نفقته، كمثل صفوان، قال ابن قتبية: الصفوان: الحجر، والوابل: أشد المطر، والصلد: الأملس. وقال الزجاج: الصفوان: الحجر الأملس، وكذلك الصفا. وقال ثعلب: الصلد: النقي. وروي عن ابن عباس، وفتادة ﴿فَتَرَكَهُ صَدَقَةً﴾ قالوا: ليس عليه شيء. وهذا مثل ضربه الله تعالى للمرابي بنفقته، لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء مما أنفق.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ آمْوَالَهُمْ أُتْبَعَةً مَّرْصَاتٍ لِلَّهِ وَيَتْلَمِذُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَحْمِ بْنِ رَيْثَةَ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْلَهَا يَضْمَعِيَتِ فَإِنَّ لَمْ يُسَبِّحْهَا وَابِلٌ فَظَلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ بِمِثْرٍ ﴿٢٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ آمْوَالَهُمْ أُتْبَعَةً مَّرْصَاتٍ لِلَّهِ﴾ أي: طلباً لرضاه. وفي معنى التثبيت قولان. أحدهما: أنه الإنفاق على يقين وتصديق، وهذا قول الشعبي، وفتادة، والسدي، في آخرين والثاني: أنه التثبيت لارتياح محل الإنفاق، فهم ينظرون أين يضعونها، وهذا قول الحسن، ومجاهد، وأبي صالح.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَحْمِ بْنِ رَيْثَةَ﴾ الجنة: البستان. وقرأ مجاهد، وعاصم الجحدري «حبة» بالحاء. والربوة: ما ارتفع. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي «بربوة» بضم الراء. وقرأ عاصم، وابن عامر بفتح الراء، وقرأ الحسن والأعمش بكسر الراء، وقرأ ابن عباس، وأبو زرين، «برباوة» بزيادة ألف، وفتح الراء، وقرأ أبي بن كعب، وعاصم الجحدري كذلك، إلا أنهما ضمما الراء، وكذلك خلفهم في «المؤمنين». قال الزجاج: يقال: ربوة وربوة وربوة وربوة. والموضع المرتفع من الأرض إذا كان له ما يرويه من الماء، فهو أكثر ربيعاً من السفلى. وقال ابن قتبية: الربوة الارتفاع، وكل شيء ارتفع وزاد، فقد ربا، ومنه الربا في البيع.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ أَكْلَهَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع: أكلها، والأكل بسكون الكاف حيث وقع، ووافقهما أبو عمرو، فيما أضيف إلى مؤنث، مثل: ﴿أَكْلَهَا دَابَّةً﴾ فأما ما أضيف إلى مذكر مثل: أكله؟ أو كان غير مضاف إلى مكنى: مثل «أَكْلِي حَمَلٍ» فنقله أبو عمرو. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي جميع ذلك مثقلاً. وأكلها، أي: ثمرها. ﴿يَضْمَعِيَتِ﴾ أي: مثلين. فأما «الظل» فقال ابن قتبية: هو أضعف المطر، وقال الزجاج: هو المطر الدائم، الصغار القطر الذي لا تكاد تسيل منه المشاعب. قال ثعلب: وهذا لفظ مستقبل وهو لأمر ماض، فمعناه: فإن لم يكن أصابها وابل فظل^(١). ومعنى هذا المثل: أن صاحب هذه الجنة لا يخيب، فإنها إن أصابها الظل خست، وإن أصابها الوابل أضعفت، فكذلك نفقة المؤمن المخلص. والبصير من أسماء الله تعالى، معناه: المبصر. قال الخطابي: وهو فعيل بمعنى مفعول، كقولهم: أليم بمعنى مؤلم.

﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْتَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَفِيهَا مِنْ سُلَيْمٍ صَدَقَاتٍ وَأَصَابَةُ الْكِبَرِ وَلَمْ يُدْرِئَهُ صُفْعَانَةٌ فَأَصَابَهَا وَابِلٌ فَاصْبَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَنْكُمُ تَنْفَكُرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ﴾ هذه الآية متصلة بقوله تعالى: ﴿لَا يَبْتَغُوا صَدَقَتِكُمْ﴾ ومعنى: «أَيُّود» أيحب، وإنما ذكر النخيل والأعتاب، لأنها من أنفس ما يكون في البساتين، وخص ذلك بالكبير، لأنه قد يشس من سعي الشباب في أكسابهم.

(١) قال الفراء: كيف قال قوله: ﴿فَإِنَّ لَمْ يُسَبِّحْهَا وَابِلٌ فَظَلَّ﴾ وهذا الأمر قد مضى؟ قيل: أصمرت «كان» فصح الكلام، ومثله أن تقول: قد اعتقت عبيد، فإن لم اعتق اثنين، فواحداً بقيتتهما، والمعنى: إلا أكن، لأنه ماض، فلا بد من إضمار «كان» لأن الكلام جزاء. ومنه قول الشاعر:
إذا ما انتسبنا لم تلدني لشيعة
والبيت لزانة بن صعصعة القمسي يعرض بزوجه، وكانت أمها سرية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ذُرِّيَّتُكُمْ مَكَمَلَةٌ﴾ أي: ضفاف، وإذا ضعفت الذرية كان أحنى عليهم، وأكثر إشفاقاً ﴿فَأَصَابَهَا﴾ يعني: الجنة ﴿إِعْصَارًا﴾ أي ريح شديدة، تهب بشدة، فترفع إلى السماء تراباً، كأنه عمود.
قال الشاعر:

إِلَّا كُنْتُ رِيحًا فَقَدْ لَاقَيْتَ إِعْصَارًا^(١)

أي: لاقيت أشد منك. فإن قيل: كيف جاز في الكلام أن يكون له جنة فأصابها، ولم يقل: فُصِيبُهَا؟ أفيجوز أن يقال: أتود أن تصيب مالا، فضاع، والمراد: فيضيع؟ فالجواب: أن ذلك جائز في «وددت»، لأن العرب تلقاها مرة «بأن»، ومرة «بلو»، فيقولون: وددت لو ذهبت عنا، ووددت أن تذهب عنا^(٢)، قاله الفراء، وتعلب.

فصل

وهذه الآية مثل ضربه الله تعالى في الحسرة بسلب النعمة عند شدة الحاجة. وفيمن قصّد به ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره، قاله ابن عباس. والثاني: أنه مثل للمفرط في طاعة الله تعالى حتى يموت، قاله مجاهد. والثالث: أنه مثل للمرائي في النفقة، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه، قاله السدي.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَبْعِكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْتَجِمَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْكَيْبَ يَنَّهُ تَتُفَوَّنَ وَلَكُمْ يَخَافِيهِ إِلَّا أَنْ تَشْرَحُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَبْعِكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن الأنصار كانوا إذا جدّوا النخل، جاء كل رجل بشيء من ذلك فعلقه في المسجد، فيأكل منه فقراء المهاجرين، وكان أناس ممن لا يرغب في الخير يجيء أحدهم بالقنو فيه الحشف والشيص^(٣) فيعلقه، فنزلت هذه الآية. هذا قول البراء بن عازب^(٤). والثاني: أن النبي ﷺ أمر بزكاة الفطر، فجاء رجل بتمر رديء، فنزلت هذه الآية. هذا قول جابر بن عبد الله^(٥). وفي المراد بهذه النفقة قولان: أحدهما: أنها الصدقة المفروضة، قاله عبيدة السلماني في آخرين. والثاني: أنها التطوع. وفي المراد بالطيب هاهنا قولان: أحدهما: أنه الجيد الأنفس، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الحلال، قاله أبو معقل في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ أي: لا تقصدوا. واليتم في اللغة: القصد. قال ميمون بن قيس الأعشى:

تَيَمَّمْتُ قَيْسًا وَكَمْ دُونَهُ
مِنَ الْأَرْضِ مِنْ مَهْمَوْ ذِي شَرَنْ^(٦)

وفي الخبيث قولان: أحدهما: أنه الرديء، قاله الأكترون، وسبب الآية يدل عليه. والثاني: أنه الحرام، قاله ابن زيد.

(١) قال أبو عبيدة: الإعصار: ريح تهب شديدة فيما بين السماء والأرض. يضرب مثلاً للمدل بنفسه إذا صلي بمن هو أدهى منه وأشد.

(٢) وتعام كلام الفراء في معاني القرآن: فلما صلحت «بلو» و«إن» ومعناها جميعاً الاستقبال، استجازوا أن يردوا «فعل» بتأويل «لو» على «يفعل» مع «أن» فلذلك قال: (فأصابها) وهي في مذهبه بمنزلة «لو» إذا ضارعت «إن» بمعنى الجزاء، فوضعت في مواضعها، وأجيب «إن» بجواب «لو» و«لو» بجواب «إن» فكانه قيل: أبود أحدكم لو كانت له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر.

(٣) القنو: الكباسة، وهي العلق التام بشماريخه ورطبه، هو في التمر بمنزلة المنقود من العنب وجمعه: أقتاء. الحشف: هو التمر ما لم ينو، فإذا يبس صلب وفسد، لا طعم له ولا لحاء ولا حلاوة، والشيص: رديء التمر.

(٤) رواه ابن أبي حاتم، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ولفظه عند الترمذي «عن البراء» ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْكَيْبَ يَنَّهُ تَتُفَوَّنَ﴾ قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين، فيعلقه بالمسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع، أتى القنو، فضره بعضاه، فيسقط البسر والتمر، فيأكل. وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو، فيه الشيص والحشف، وبالقنو قد انكسر، فيعلقه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَبْعِكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْتَجِمَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْكَيْبَ يَنَّهُ تَتُفَوَّنَ وَلَكُمْ يَخَافِيهِ إِلَّا أَنْ تَشْرَحُوا فِيهِ﴾. قال: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطى، لم يأخذه إلا على الإغماض أو حياء، قال: فكان بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده.

(٥) رواه الحاكم في «المستدرک» ٢/ ٢٨٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٦) ديوانه: ص ١٩ وهو من قصيدة يمدح بها قيس بن معدى كرب الكندي. ذي شرن: غليظ، والشرن: الغلظ. يصف وهرة الطريق الذي يسلكه ليصل منه إلى مملوحه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ بِقَابِذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْنُوا يَوْمَ﴾ قال ابن عباس: لو كان بعضكم يطلب من بعض حقاً له، ثم قضاء ذلك، ولم يأخذه إلى أن يرى أنه قد اغمض عن بعض حقه. وقال ابن قتيبة: أصل هذا أن يصرف المرء بصره عن الشيء، ويغمضه، فسمي الترخص إغماضاً. ومنه قول الناس للبايع: اغمض، أي: لا تشخص، وكن كأنك لا تبصر. وقال غيره: لما كان الرجل إذا رأى ما يكره، اغمض عينيه، لئلا يرى جميع ما يكره؛ جعل التجاوز والمساهلة في كل شيء إغماضاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ قال الزجاج: لم يأمركم بالتصدق عن عوز، لكنه بلا أخباركم، فهو حميد على ذلك. يقال: قد غني زيد، يغني غنى مقصوراً؛ إذا استغنى، وقد غني القوم: إذا نزلوا في مكان يغنيهم، والمكان الذي ينزلون فيه مغنى، والغواني: النساء، قيل: إنما سمين بذلك، لأنهن غنين بجمالهن، وقيل: بأزواجهن. فأما «الحميد» فقال الخطابي: هو بمعنى المحمود، فعمل بمعنى مفعول.

﴿الَّذِينَ يَبْدُوا الْفَقْرَ وَأَنْتُمْ بِالْمَعْسُكَةِ وَاللَّهُ يُوَدِّعُ الَّذِينَ هُمْ مَقْرُونَ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْدُوا الْفَقْرَ﴾ قال الزجاج: يقال: وعدته أعده وعداً وموعداً وموعدة وموعوداً، ويقال: الفقير، والفقر. ومعنى الكلام: يحملكم على أن تؤدوا في الصدقات الرديء، يخوفكم الفقر بإعطاء الجيد. ومعنى: يعدكم الفقر، أي: بالفقر، وحذفت الباء. قال الشاعر:

أمرتكم الخيرَ فإفعل ما أمرت به فقد تركتكم ذا مال وذا نسب

وفي الفحشاء قولان، أحدهما: البخل. والثاني: المعاصي. قال ابن عباس: والله يعدكم مغفرة لفحشائكم، وفضلاً في الرزق.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَدْرِكُهُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ في المراد بهذه الحكمة أحد عشر قولاً: أحدها: أنها القرآن، قاله ابن مسعود، ومجاهد، والضحاك، ومقاتل في آخرين. والثاني: معرفة ناسخ القرآن، ومنسوخه، ومحكمه، ومتشابهه، ومقدمه، ومؤخره، ونحو ذلك، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: النبوة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: الفهم في القرآن، قاله أبو العالية، وقتادة، وإبراهيم. والخامس: العلم والفقه، رواه ليث عن مجاهد. والسادس: الإصابة في القول، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد. والسابع: الورع في دين الله، قاله الحسن. والثامن: خشية الله، قاله الربيع بن أنس. والتاسع: العقل في الدين، قاله ابن زيد. والعاشر: الفهم، قاله شريك. الحادي عشر: العلم والعمل، لا يسمى الرجل حكيماً إلا إذا جمعهما، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ قرأ يعقوب بكسر تاء «يؤت»، ووقف عليها بهاء. والمعنى: ومن يؤته الله الحكمة. وكذلك هي في قراءة ابن مسعود بهاء بعد التاء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَدْرِكُهُ﴾ قال الزجاج: أي وما يتفكر فكرياً يذكر به ما قص من آيات القرآن إلا ذور العقول. قال ابن قتيبة: «أولوه» بمعنى: ذور، وواحد «أولو» «ذور»، و«أولات»: «ذات».

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَكَرِهْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ فَوَدَّ أَنَّكُمْ لَأَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ فَوَدَّ أَنَّكُمْ لَأَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال مجاهد: يُحْصِيهِ، وقال الزجاج: يجازى عليه. وفي المراد بالظالمين هاهنا، قولان: أحدهما: أنهم المشركون، قاله مقاتل. والثاني: المنفقون باليمن والأذى والرياء، والمنفقون في المعصية، قاله أبو سليمان الدمشقي. والأنصار: المانعون. فمعتاه: ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله.

﴿إِنْ تَبَدُّوا لِمَنْ تَدْعُونَ فَاذْكُرُوا أَنَّكُمْ أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لِمَنْ تَدْعُونَ فَاذْكُرُوا أَنَّكُمْ أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال ابن السائب: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

قالوا: يا رسول الله، صدقة السر أفضل، أم العلانية؟ فنزلت هذه الآية. قال الزجاج، يقال: بدا الشيء يبدو: إذا ظهر، وأبديته إبداء: إذا أظهرته، وبدا لي بدء: إذا تغير رأيي عما كان عليه.

قوله تعالى: ﴿فَيَعْمَأُ فِي﴾ في «نعم» أربع لغات. «نِعَم» بفتح النون، وكسر العين، مثل: عَلِمَ، و«نِعْمَ» بكسرها، و«نَعَمَ» بفتح النون، وتسكين العين، و«نِعَمَ» بكسر النون وتسكين العين. وأما قوله ﴿فَيَعْمَأُ فِي﴾ فقرأ نافع في غير رواية «ورش»، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر، والمفضل: «فَيَعْمَأُ»، بكسر النون، والعين ساكنة، وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية حفص، ونافع في رواية «ورش»، ويعقوب بكسر النون والعين. وقرأ ابن عامر، وحمزة والكسائي، وخلف: «فَتَعْمَأُ» بفتح النون، وكسر العين، وكلهم شددوا الميم. وكذلك خلافهم في سورة النساء. قال الزجاج: «ما» في تأويل الشيء، أي: فنعم الشيء هي. وقال أبو علي: نعم الشيء إيدأها. وقوله تعالى ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني الإخفاء. وافق العلماء على أن إخفاء الصدقة النافلة أفضل من إظهارها^(١)، وفي الفريضة قولان: أحدهما: أن إظهارها أفضل، قاله ابن عباس في آخرين. واختاره القاضي أبو يعلى، وقال الزجاج: كان إخفاء الزكاة على عهد رسول الله ﷺ أحسن، فأما اليوم، فالناس يسيئون الظن، فإظهارها أحسن. والثاني: إخفاؤها أفضل، قاله الحسن، وقتادة ويزيد بن أبي حبيب. وقد حمل أرباب القول الأول الصدقات في الآية على الفريضة، وحملوا ﴿وَلَا تُخْفَوْهَا﴾ على النافلة، وهذا قول عجيب، وإنما فضلت صدقة السر لمعنيين: أحدهما: يرجع إلى المعطي، وهو بُعْذُه عن الرياء، وقزبه من الإخلاص، والإعراض عما تؤثر النفس من العلانية. والثاني: يرجع إلى المعطى، وهو دفع الذل عنه بإخفاء الحال، لأنه في العلانية يتكسر.

قوله تعالى: ﴿وَتُكْفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم (وتكفر عنكم) بالنون والرفع، والمعنى: ونحن تكفر عنكم، ويجوز أن يكون مستأنفاً، وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: «وتكفر» بالنون وجزم الراء. قال أبو علي: وهذا على حمل الكلام على موضع قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في موضع جزم، ألا ترى أنه لو قال: وإن تخفوها يكون أعظم لأجركم لجزم، ومثله ﴿لَوْلَا أَلْتَمَسْنَا إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَسَدَفْنَاكُمْ﴾ [المتفقون: ١٠] حمل قوله: «وأكن»، على موضع «فأصدق». وقرأ ابن عامر: «ويكفر» بالياء والرفع، وكذلك حفص عن عاصم على الكناية عن الله ﷻ، وقرأ أبان عن عاصم، «وتكفر» بالتاء المرفوعة، وفتح الفاء مع تسكين الراء.

قوله تعالى: ﴿مَنْ سَاءَ مَا يَحْكُمُ﴾ في «من» قولان: أحدهما: أنها زائدة. والثاني: أنها داخلة للتبعيض. قال أبو سليمان الدمشقي: ووجه الحكمة في ذلك أن يكون العباد على خوف ووجل.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ نُلَاقِيكُمْ وَمَا تَنْفِقُوا إِلَّا أَنْتُمْ تَرَاهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن المسلمين كرهوا أن يتصدقوا على أقربائهم من المشركين، فنزلت هذه الآية، هذا قول الجمهور. والثاني: أن النبي ﷺ، قال: «لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبيرة^(٢). والخير في الآية أريد به المال، قاله ابن عباس، ومقاتل: ومعنى: ﴿نُلَاقِيكُمْ﴾، أي: فلکم ثوابه.

(١) روى الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، من حديث عتبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمر بالصدقة» وإسناده صحيح. وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

(٢) رواه الطبري بهذا اللفظ عن سعيد بن جبيرة. وروى النسائي. والحاكم، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأسيابهم من المشركين، فسألوا، فرخص لهم، فنزلت هذه الآية. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والرضخ: العطية القليلة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْتَفِرُونَ إِلَّا أَنْتَ بَعْدَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: هذا خاص للمؤمنين، أعلمهم الله أنه قد علم أن مرادهم ما عنده، وإذا أعلمهم بصحة قصدهم، فقد أعلمهم بالجزاء عليه.

قوله تعالى: ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: توفون أجره. ومعنى الآية: ليس عليك أن يهتدوا، فتمتعهم الصدقة ليدخلوا في الإسلام، فإن تصدقتم عليهم أثبتتم. والآية محمولة على صدقة التطوع، إذ لا يجوز أن يعطى الكافر من الصدقة المفروضة شيئاً.

﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْكُرْآنَ بِالْحِكْمَةِ وَنَاذَرْنَا بِالْحِزْبِ آتَيْنَاهُ لَكَ الْحِكْمَ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْعَادِلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْكُرْآنَ بِالْحِكْمَةِ وَنَاذَرْنَا بِالْحِزْبِ آتَيْنَاهُ لَكَ الْحِكْمَ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْعَادِلِينَ﴾ لما حثهم على الصدقات والنفقات، دلهم على خير من تصدق عليه. وقد تقدم تفسير الإحصار عند قوله: ﴿إِنَّا نُحْصِرُكُمْ﴾ (البقرة: ٢١١) وفي المراد: ب ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنهم أهل الصفة حسوا أنفسهم على طاعة الله، ولم يكن لهم شيء، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنهم فقراء المهاجرين، قاله مجاهد. والثالث: أنهم قوم حسوا أنفسهم على الغزو، فلا يقدرّون على الاكتساب، قاله قتادة. والرابع: أنهم قوم أصابهم جراحات مع النبي ﷺ، فصاروا زمني، قاله سعيد بن جبير، واختاره الكسائي، وقال: أحصروا من المرض، ولو أراد الحبس، لقال: حُصِرُوا، وإنما الإحصار من الخوف، أو المرض، والحصر: الحبس في غيرهما. وفي سبيل الله قولان: أحدهما: أنه الجهاد، والثاني: الطاعة. وفي الضرب في الأرض قولان: أحدهما: أنه الجهاد لم يمكنهم لفقيرهم، نقل عن ابن عباس. والثاني: الكسب، قاله قتادة. وفي الذي منعهم من ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: الفقر، قاله ابن عباس. والثاني: أمراضهم، قاله ابن جبير، وابن زيد. والثالث: التزامهم بالجهاد، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْكَاذِبُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي «يحسبهم» و«يُحْسِبِينَ» بكسر الحين في جميع القرآن. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر، بفتح السين في الكل. قال أبو علي: فتح السين أقيس، لأن الماضي إذا كان على «فعل»، نحو: حسب، كان المضارع على «يفعل»، مثل: فرق يفرق، وشرب يشرب، والكسر حسن لموضع السمع. قال ابن قتيبة: لم يرد الجهل الذي هو ضد العقل، إنما أراد الجهل الذي هو ضد الخبر، فكأنه قال: يحسبهم من لا يخبر أمرهم. والتعفف: ترك السؤال^(١)، يقال: عف عن الشيء وتعفف. والسيما: العلامة التي يعرف بها الشيء، وأصله من السمة، وفي المراد بسيماهم ثلاثة أقوال: أحدها: تجملهم، قاله ابن عباس. والثاني: خشوعهم، قاله مجاهد. والثالث: أثر الفقر عليهم، قاله السدي والربيع بن أنس، وهذا يدل على أن للسيما حكماً يتعلق بها، قال إمامنا أحمد في الميت يوجد في دار الحرب، ولا يعرف أمره: ينظر إلى سيماه، فإن كان عليه سيما الكفار من عدم الختان، حكم له بحكمهم، فلم يدفن في مقابر المسلمين، ولم يصل عليه، وإن كان عليه سيما المسلمين حكم له بحكمهم، وأما الإلحاف، فهو: الإلحاح، قال ابن قتيبة: يقال: ألحف في المسألة: إذا ألح، وقال الزجاج: معنى ألحف: شبل بالمسألة، ومنه اشتقاق اللحاف، لأنه يشمل الإنسان بالتغطية، فإن قيل: فهل كانوا يسألون غير ملحقين؟ فالجواب: أن لا، وإنما معنى الكلام: أنه لم يكن منهم سؤال، فيكون إلحاف.

قال الأعشى:

لا يغمز الساق من أين ولا وصبٍ ولا يعرضُ على شرسوفٍ الصفر^(٢)

(١) جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرثان، ولا اللقمة ولا اللقمان، إنما المسكين الذي يتعفف، فترؤوا إن شئتم، ويعني قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْكَاذِبِ﴾».

(٢) في «الأصمعيات» من أين ومن وصب، والبيت لأعشى باهلة، من قصيدة يرثي بها أخاه لأمه المنتشر بن وهب. الأين: الإعياء والتعب. والوصب: الوجع والمرض. والشرسوف: رأس الضلع مما يلي البطن. والصفر: يزعم العرب أنه دابة تعض الضلوع والشراسيف إذا جاع الإنسان. قال ابن السيد: وإنما أراد: لاصفر في جوفه، فيعض على شراسيفه. يصفه بشدة الخلق، وصحة البنية.

معناه: ليس بساقه أين ولا وصب، فيغمزها لذلك. قال الفراء: ومثله أن تقول: فلما رأيت مثل هذا الرجل، ولعلك لم تر

قليلاً ولا كثيراً من أشباهه، فهم لا يسألون الناس إلحافاً، ولا غير إلحاف، وإلى نحو هذا ذهب الزجاج، وابن الأنباري في آخرين.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْقَهْرِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْقَهْرِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في الذين يرتبطون الخيل في سبيل الله ﷺ، رواه حنش الصنعاني عن ابن عباس، وهو قول أبي الدرداء وأبي أمامة، ومكحول، والأوزاعي في آخرين. والثاني: نزلت في علي بن أبي طالب ﷺ، فإنه كان معه أربعة دراهم، فأنفق في الليل درهماً وبالنهار درهماً، وفي السر درهماً، وفي العلانية درهماً، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وابن السائب، ومقاتل. والثالث: أنها نزلت في علي، وعبد الرحمن بن عوف، فإن علياً بعث بوسق من تمر إلى أهل الصفة ليلاً، وبعث عبد الرحمن إليهم بدنانير كثيرة نهاراً، رواه الضحاك عن ابن عباس.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ

الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ الربا: أصله في اللغة: الزيادة، ومنه الربوة والرابية، وأربى فلان على

فلان: زاد. وهذا الوعيد يشمل الآكل، والعامل به، وإنما خص الآكل بالذكر، لأنه معظم المقصود. وقد صح عن النبي ﷺ أنه «لمن أكل الربا وموكله وشاهديه وكتابته»^(١).

قوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ قال ابن قتيبة أي: يوم البيعة من القبور. والمس: الجنون، يقال: رجل ممسوس.

فالناس إذا خرجوا من قبورهم أسرعوا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْجَنَابِ سِرًّا﴾ [المعارج: ٤٤٣]. إلا أكلة الربا، فإنهم

يقومون ويسقطون، لأن الله أربى الربا في بطونهم يوم القيامة حتى أثقلهم، فلا يقدرون على الإسراع. وقال سعيد بن

جبير: تلك علامة أكل الربا إذا استحله يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: هذا الذي ذكر من عقابهم ﴿يَأْتَهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وقيل: إن ثقيفاً كانوا أكثر

العرب رباً، فلما نهوا عنه؛ قالوا: إنما هو مثل البيع.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال الزجاج: كل تأنيث ليس بحقيقي، فتذكيره جائز، ألا ترى أن الوعد

والموعظة معبران عن معنى واحد.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي: ما أكل من الربا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أن «الهاء» ترجع إلى المرابي، فتقديره: إن شاء عصمه منه،

وإن شاء لم يفعل، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل. والثاني: أنها ترجع إلى الربا، فمعناه: يعفو الله عما شاء منه، ويعاقب

على ما شاء منه، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ قال ابن جبير: من عاد إلى الربا مستحلاً محتجاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾

﴿يَمَسُّهُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرْبِيهِ كَمَا يَرْبِي الْوَدْقَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [١٧] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا

الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَمَسُّهُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معنى محقه: تنقيصه واضمحلاله، ومنه: محاق الشهر

لتقصان الهلال فيه. روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير. والثاني: أنه إبطال ما يكون منه

من صدقة ونحوها، رواه الضحاك عن ابن عباس^(٢).

(١) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما عن عبد الله بن مسعود، ورواه مسلم في «صحيحه» عن جابر بن عبد الله، ولفظه: «لمن رسول الله ﷺ أكل الربا وموكله وكتابه وشاهديه وقال: هما سواء».

(٢) أخرجه أحمد وابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه الذهبي من حديث ابن مسعود مرفوعاً: «إن الربا وإن كثرت فإن عاقبته إلى قل» والقل، بضم القاف وتشديد اللام: القلة، كالذل والنذلة.

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيَّ السَّكَّانَاتُ﴾ قال ابن جبير: يضاعفها. والكفَّار: الذي يكثر فعل ما يكفر به، والأثيم: المتماذي في ارتكاب الإثم المصر عليه.

﴿يَتَأَيَّمُوا الْأَيْمَانَ﴾ مَأْتُوا أَتَوْا اللَّهَ وَدَرُّوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْإِيْزَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الْأَيْمَانَ﴾ مَأْتُوا أَتَوْا اللَّهَ وَدَرُّوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْإِيْزَاءِ في نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في بني عمرو بن عمير بن عوف من ثقيف، وفي بني المغيرة من بني مخزوم، وكان بنو المغيرة يأخذون الربا من ثقيف، فلما وضع الله الربا، طالبت ثقيف بني المغيرة لما لهم عليهم، فنزلت هذه الآية، والتي بعدها، هذا قول ابن عباس^(١). والثاني: أنها نزلت في عثمان بن عفان، والعباس، كانا قد أسلفا في التمر، فلما حضر الجذاذ، قال صاحب التمر: إن أخذتما مالكما، لم يبق لي ولعيايي ما يكفي، فهل لكما أن تأخذا النصف وأضعف لكما؟ فعلا، فلما حل الأجل، طلبا الزيادة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فنهاهما، فنزلت هذه الآية، هذا قول عطاء وعكرمة. والثالث: أنها نزلت في العباس، وخالد بن الوليد، وكانا شريكين في الجاهلية، وكانا يسلفان في الربا، فجاء الإسلام، ولهما أموال عظيمة في الربا، فنزلت هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «الآن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس»^(٢) هذا قول السدي. قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: إنما قال: «مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْإِيْزَاءِ» لأن كل ربا كان قد ترك، فلم يبق إلا ربا ثقيف. وقال قوم: الآية محمولة على من أربى قبل إسلامه، وقبض بعضه في كفره، ثم أسلم، فيجب عليه أن يترك ما بقي، ويعفى له عما مضى. فأما المراباة بعد الإسلام، فمردودة فيما قبض، ويسقط ما بقي.

﴿إِنْ لَمْ تَمْلَأُوا فَاذْنُؤُا يَحْرَبِ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتَرُوا فَلكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ لَمْ تَمْلَأُوا فَاذْنُؤُا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿فَاذْنُؤُا﴾ مقصورة، مفتوحة الذال. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: «فَاذْنُؤُا» بمد الألف وكسر الذال. قال الزجاج: من قرأ: فَاذْنُؤُا، بقصر الألف، وفتح الذال، فالمعنى: أيقنوا. ومن قرأ بمد الألف، وكسر الذال، فمعناه: أعلموا كل من لم يترك الربا أنه حرب. قال ابن عباس: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْتَرُوا فَلكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: التي أقرضتموها، لا تظلمون، فتأخذون أكثر منها، ولا تظلمون فتتقصون منها، والجمهور على فتح «تاء» تظلمون الأولى، وضم «تاء» تظلمون الثانية. وروى المفضل عن عاصم: ضم الأولى، وفتح الثانية.

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَمُظْرَبٌ لِّكَ مَيْسَرَةٌ وَإِنْ مَسَدٌ فَأَرْضٌ لِّكَ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَإِنْ كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ ﴿٢٨٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ﴾ ذكر ابن السائب، ومقاتل أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾

(١) رواه الواحدي، من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

(٢) رواه الواحدي عن السندي بدون سند. وأخرج مسلم من حديث جابر في صفة حجة النبي ﷺ وفيه: فخطب الناس وقال: «إن دعاءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمه بؤمكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودعاء الجاهلية موضوع، وإن أول دم أضع من دمائكم دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد، لقتله هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع زماناً، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله».

(٣) ثبت عن رسول الله ﷺ أحاديث في النهي عن الربا، والتفريق منه، وأنه من الكبائر، وأن عاقبة من يقع فيه وخيمة. من ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». وروى البخاري عن سمرة بن جندب ؓ قال: قال النبي ﷺ: «رأيت الليلة وجلين أتاني فلأعرجاني إلى أرض مقلسة، حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم، وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج، رمى الرجل بحجر في يده، فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في يده بحجر، فبرجع كما كان. قلت: ما هذا الذي رأيته في النهر؟ قال: أكل الربا». وروى أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن حنظلة فصيل الملائكة، قال: قال رسول الله ﷺ: «دهزم رباً يأكل الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية». وروى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود ؓ، عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون باباً» ورواه الحاكم وزاد «ليسر مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم» وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وروى الحاكم في «المستدرک» عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ أن تشتري التمرة حتى تطعم، وقال: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله». قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

قال بنو عمرو بن عمير لبني المغيرة: هاتوا رؤوس أموالنا، وندع لكم الربا، فشكا بنو المغيرة العسرة، فنزلت هذه الآية، فأما العسرة، فهي الفقر، والضيق. والجمهور على تسكين السين، وضمها أبو جعفر هاهنا وفي ﴿سَاعَةً أَلْمَسْتُمْ﴾ وقرأ الجمهور بفتح سين «الميسرة»، وضمها نافع، وتابعه زيد عن يعقوب على ضم السين، إلا أنه زاد، فكسر الراء، وقلب التاء هاء، ووصلها بياء. قال الزجاج: ومعنى ﴿وَلَنْ كَاتِبٌ﴾: وإن وقع. والنظرة: التأخير، فأمرهم بتأخير رأس المال بعد إسقاط الربا إذا كان المطالب معسراً، وأعلمهم أن الصدقة عليه بذلك أفضل بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ والأكثر على تشديد الصاد، وخففها عاصم مع تشديد الدال، وسكنها ابن عبله مع ضم الدال فجعله من الصدق.

﴿وَأَقْرَأُوا يَوْمَ تُنْفَخُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٧١﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَأُوا يَوْمَ تُنْفَخُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو بفتح تاء «ترجعون» وضمها الباقون. قال ابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وسعيد بن جبير، وعطية، ومقاتل في آخرين: هذه آخر آية نزلت من القرآن^(١). قال ابن عباس: وتوفي رسول الله ﷺ بعدها بأحد وثمانين يوماً، وقال ابن جريج: توفي بعدها بسبع ليال. وقال مقاتل: بسبع ليال.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: تعطى جزاء ما كسبت.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينِ اللَّهِ أَجَلٌ مُّسَمًّى فَاسْتَهْوُوا وَلِيَتَّخِبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْمَدَنِيِّ وَلَا يَأْتِ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَيَلْبِسْ إِلَىٰ عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْهَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَمِيمًا أَوْ لَا يَسْتَلِيعُ أَنْ يُمِيزَ هُوَ فَلْيُقَدِّلْ وَلِيُؤَدِّ بِالْمَدَنِيِّ وَأَسْتَهْوُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ بَنِيكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَاكِيهٌ وَمَنْ تَرَضَوْا مِنْ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَقْبَلَ إِحْدَهُمَا فَتُكْفَرْ لِإِحْدَهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْتِ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَقْبَلُوا أَنْ تَكْتُمُوا سَجِيهًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَنْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشُّهَدَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَجَرَةً حَاصِرَةٌ تُوَدُّونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُمُوا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُصَاكُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ سُوءٌ بِكُمْ وَأَقْرَأُوا اللَّهُ وَبَلَّغْتُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينِ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: يقال: دابنت الرجل إذا عاملته، فأخذت منه بدين، وأعطته.

قال الشاعر:

داينت أروى والديون تقضى فمأطلت بعضاً وأدت بعضاً

والمعنى: إذا كان لبعضكم على بعض دين إلى أجل مسمى، فاكتبوه، فأمر الله تعالى بكتابة الدين، وبالإشهاد، حفظاً منه للأموال، وللناس من الظلم، لأن من كانت عليه البينة، قل تحديته لنفسه بالطمع في إذهابه. وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في السلم خاصة. فإن قيل: ما الفائدة في قوله: «بدين» و«تداينت» يكفي عنه؟ فالجواب: إن تداينت يقع على معينين. أحدهما: المشاركة والمبايعة والإقراض. والثاني: المجازاة بالأفعال، فالأول يقال فيه: الدين بفتح الدال، والثاني: يقال منه: الدين بكسر الدال. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ﴿١٧٣﴾ [الذاريات: ١٧٣] أي: يوم الجزاء.

(١) رواه الطبري والنسائي في «اللسن الكبير» وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»، وقال: رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقات. وظاهر هذه الرواية يعارض ما ثبت عن ابن عباس من أن آخر آية نزلت هي آية الربا، فقد روى البخاري في «صحيحه» عن ابن عباس ﷺ قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا. وطريق الجمع بين الروایتين كما قال الحافظ ابن حجر أن هذه الآية - يريد آية الربا - ختم الآيات المنزل في الربا إذ هي معطوفة عليهن. وقال الزركشي في «البرهان» ١/ ٢١٠ بعد أن ذكر الآثار الواردة عن الصحابة عن آخر آية نزلت من القرآن: قال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: وهذه الأقوال ليس في شيء منها ما رفع إلى النبي ﷺ، ويجوز أن يكون قائله بضرب من الاجتهاد، وتغليب الظن، وليس المعلم بذلك من فرائض الدين، حتى يلزم ما طعن به الطاعنون من عدم الضبط. ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من رسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك، وإن لم يسمعه هو لمفارقتة له، ونزول الوحي عليه بقرآن بعد. ويحتمل أيضاً أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسوم ما نزل منها، وتلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخرها وتلاوته، فيظن سماع ذلك أنه آخر ما نزل من الترتيب.

وأشدوا:

... دنَاهُم كَمَا دَانُوا^(١)

فدل قوله: ﴿بَدِينٍ﴾ على المراد بقوله: ﴿تَدَايَيْتُمْ﴾ ذكره ابن الأنباري. فأما العدل فهو الحق. قال قتادة: لا تدعن حقاً، ولا تزيدن باطلاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِ كَاتِبٌ﴾ أي: لا يمتنع أن يكتب كما علمه الله، وفيه قولان. أحدهما: كما علمه الله الكتابة، قاله سعيد بن جبير. وقال الشعبي: الكتابة فرض على الكفاية كالجهاد. والثاني: كما أمره الله به من الحق، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّبِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني المطلوب، يقول: ليمل ما عليه من حق الطالب على الكاتب، ﴿وَلَا يَبْحَثُ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقص عند الإملاء. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: يقال: أمللت أمل، وأملت أملي لغتان، فأملت من الإملاء وأملت من الملل والملال، لأن الممل يطيل قوله على الكاتب ويكرره.

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً﴾ في المراد بالسفيه هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنه الجاهل بالأموال، والجاهل بالإملاء. قاله مجاهد، وابن جبير. والثاني: أنه الصبي والمرأة، قاله الحسن. والثالث: أنه الصغير، قاله الضحاك، والسدي، والرابع: أنه المبذر، قاله القاضي أبو يعلى. وفي المراد بالضعيف ثلاثة أقوال: أحدها: أنه العاجز والأخرس، ومن به حق، قاله ابن عباس، وابن جبير. والثاني: أنه الأحمق، قاله مجاهد، والسدي. والثالث: أنه الصغير، قاله القاضي أبو يعلى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبَلِّغَهُ هُوَ﴾ قال ابن عباس: لا يستطيع لعينه. وقال ابن جبير: لا يحسن أن يمل ما عليه، وقال القاضي أبو يعلى: هو المجنون.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْلِكْ لِلَّذِي فِي هَاءِ الْكِنَايَةِ قَوْلَانٍ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها تعود إلى الحق، فتقديره: فليملل ولي الحق، هذا قول ابن عباس، وابن جبير، والربيع بن أنس، ومقاتل، واختاره ابن قتيبة. والثاني: أنها تعود إلى الذي عليه الحق، وهذا قول الضحاك، وابن زيد، واختاره الزجاج، وعاب قول الأولين، فقال: كيف يقبل قول المدعى؟! وما حاجته إلى الكتاب والإشهاد، والقول قوله؟! وهذا اختيار القاضي أبي يعلى أيضاً. والعدل: الإنصاف. وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ رِبَالِكُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه يعني الأحرار، قاله مجاهد، والثاني: أهل الإسلام، وهذا اختيار الزجاج، والقاضي أبي يعلى، ويدل عليه أنه خاطب المؤمنين في أول الآية.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنْتُمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ أراد: فإن لم يكن الشهيديان رجلين ﴿فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ﴾ ولم يرد به: إن لم يوجد رجلان.

قوله تعالى: ﴿مَنْ رَضِيَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ قال ابن عباس: من أهل الفضل والدين.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَصِلَ إِحْدَاهُمَا فَتُكْفَرَ بِمَدِينَتِهَا الْأُخْرَى﴾ ذكر الزجاج، أن الخليل، وسيبويه، وسائر النحويين الموثوق بعلمهم، قالوا: معناه: استشهدوا امرأتين، لأن تذكر إحداها الأخرى. ومن أجل أن تذكر إحداها الأخرى.

(١) هو عجز بيت من قصيدة لشهل بن شيبان الزماني، أولها:

وقلنا القوم إخوان
من قوماً كالذي كانوا
وأمنى وهو عريان
ن دنَاهُم كَمَا دَانُوا

صفحتنا عن بنسي ذهل
عسى الأيام أن يبرجنا
فلما صرح الشمر
ولم يبق سوى السعدوا

قال المرزوقي: الفدان والقداء والقدو: الظلم. وأما قوله: دناهم كما دانوا، والأول ليس بجزء، فهذا ليلهم إلى المطابقة والموافقة، وإخراج اللفظ في معرض صاحبه، ليعلم أنه جزؤه على حدّ وقدره، أو ابتداؤه. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ ﴿وَاللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وما أشبهه. والدين: لفظه مشتركة في عدة معان: الجزاء العادة والطاعة والحساب، وهو هاهنا الجزاء، ويقولون: «كما تدن تدان» أي: كما تصنع يصنع بك.

وقرأ حمزة: «إن تضل» بكسر الألف. والضلال هاهنا: النسيان، قاله ابن عباس والضحاك، والسدي، والربيع، ومقاتل، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. وأما قوله: «فتذكر» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، بالتخفيف مع نصب الراء، وقرأ حمزة بالرفع مع تشديد الكاف، وقرأ الباقون بالنصب، وتشديد الكاف. فمن شدد أراد الإذكار عند النسيان، وفي قراءة من خفف قولان: أحدهما: أنها بمعنى المشددة أيضاً، وهذا قول الجمهور. قال الضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، ومعنى القراءتين واحد. والثاني: أنها بمعنى: تجعل شهادتهما بمنزلة شهادة ذكر، وهذا مذهب سفيان بن عيينة، وحكى الأصمعي عن أبي عمرو نحوه، واختاره القاضي أبو يعلى، وقد رده جماعة، منهم ابن قتيبة. قال أبو علي: ليس مذهب ابن عيينة بالقوي، لأنهن لو بلغن ما بلغن، لم تجز شهادتهن إلا أن يكون معهن رجل، ولأن الضلال هاهنا: النسيان، فينبغي أن يقابل بما يعادله، وهو التذكير.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبُ الشُّهَادَةَ إِذَا مَا دُعُوا﴾ قال قتادة: كان الرجل يطوف في الجواء العظيم^(١)، [فيه القوم، فيدعوه إلى الشهادة] فلا يتبعه منهم أحد، فنزلت هذه الآية. وإلى ماذا يكون هذا الدعاء؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: إلى تحمل الشهادة، وإثباتها في الكتاب، قاله ابن عباس، وعطية، وقاتدة، والربيع. والثاني: إلى إقامتها وأدائها عند الحكام بعد أن تقدمت شهادتهم بها، قاله سعيد بن جبيرة، وطاووس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والشعبي، وأبو مجلز، والضحاك، وابن زيد. ورواه الميموني عن أحمد بن حنبل. والثالث: إلى تحملها وإلى أدائها، روي عن ابن عباس، والحسن، واختاره الزجاج، قال القاضي أبو يعلى: إنما يلزم الشاهد أن لا يأبى إذا دعي لإقامة الشهادة إذا لم يوجد من يشهد غيره، فأما إن كان قد تحملها جماعة، لم تتعين عليه، وكذلك في حال تحملها، لأنه فرض على الكفاية كالجهاد، فلا يجوز لجميع الناس الامتناع منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْفُرُوا﴾ أي: لا تملوا وتضجروا أن تكتبرا القليل والكثير الذي قد جرت العادة بتأجيله إلى أجله، أي: إلى محل أجله ﴿ذَلِكُمْ أَسْفَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أعدل، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشُّهَادَةِ﴾ لأن الكتاب يذكر الشهود جميع ما شهدوا عليه ﴿وَأَدَنَّهُ﴾ أي: أقرب ﴿أَلَا تَرَ تَأْوِيلَهُ﴾ أي: لا تشكوا ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْأَمْوَالُ بَيْعَةً﴾ أي: إلا أن تقع تجارة. وقرأ عاصم «تجارة» بالنصب على معنى: إلا أن تكون الأموال تجارة حاضرة، وهي البيوع التي يستحق كل واحد منهما على صاحبه تسليم ما عقد عليه من جهته بلا تأجيل، فأباح ترك الكتاب فيها توسعة، لئلا يضيق عليهم أمر تباعهم في مأكول أو مشروب.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ الإشهاد مندوب إليه فيما جرت العادة بالإشهاد عليه.

فصل

وهذه الآية تتضمن الأمر بإثبات الدين في كتاب، وإثبات شهادة في البيع والدين. واختلف العلماء، هل هذا أمر وجوب، أم على وجه الاستحباب؟ فذهب الجمهور إلى أنه أمر ندب واستحباب^(٢) فعلى هذا هو محكم،

(١) قال في «اللسان»: العواء بكسر الحاء: جماعة بيوت الناس إذا تباينت، والجمع: الأحوية.

(٢) قال ابن كثير: وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب، والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري، وقد رواه الإمام أحمد، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثنا عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي ﷺ، أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستبته النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ، وأبطأ الأعرابي فطلق رجال يعترضون الأعرابي، فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السلم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ، فقال: إن كنت متباعاً هذا الفرس فابتعه، وإلا بعت. فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي: قال: «لو ليس قد ابتعتك؟» قال الأعرابي: لا والله ما بعتك. فقال النبي ﷺ: قبل قد ابتعتك، فطلق الناس بلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجمان؛ فطلق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بابتعتك، فمن جاء من المسلمين، قال الأعرابي: ويلك، النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً، حتى جاء خزيمة، فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي. فطلق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بابتعتك. قال خزيمة: أنا. أشهد أنك قد بابتعت. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة شهادة رجلين. ورواه أبو داود، والنسائي، والحاكم، وابن سعد في «الطبقات» والطبراني، ورجاله كلهم ثقات، وهو حديث صحيح.

وذهبت طائفة إلى أن الكتاب والإشهاد واجبان، روي عن ابن عمر، وأبي موسى، ومجاهد، وابن سيرين، وعطاء، والضحاك، وأبي قلابه، والحكم، وابن زيد. ثم اختلف هؤلاء، هل هذا الحكم باقٍ، أم منسوخ؟ فذهب أكثرهم إلى أنه محكم غير منسوخ، وذهبت طائفة إلى أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنَ بِكُمْ بَعْضُ قَلْبِوَرِ الَّذِي أَوْثَقَ آمَنَتَهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قرأ أبو جعفر بتخفيف الراء من «يضار» وسكونها، وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: لا يضارُّ بأن يدعى وهو مشغول، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وهكرمة، والسدي، والربيع بن أنس، والفراء، ومقاتل. وقال الربيع: كان أحدهم يجيء إلى الكاتب فيقول: اكتب لي، فيقول: إني مشغول، فيلزمه، ويقول: إنك قد أمرت بالكتابة، فيضاره، ولا يدعه، وهو يجد غيره، وكذلك يفعل الشاهد، فنزلت: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾. والثاني: أن معناه: النهي للكاتب أن يضار من يكتب له، بأن يكتب غير ما يمل عليه، وللشاهد أن يشهد بما لم يستشهد عليه، هذا قول الحسن، وطاوس، وقاتدة، وابن زيد، واختاره ابن قتيبة، والزجاج. واحتج الزجاج على صحته بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَمَّلُوا فِئْتَهُ فُسُوقًا بِكُمْ﴾ قال: ولا يسمى من دعا كاتباً ليكتب، وهو مشغول، أو شاهداً؛ فاسقاً، إنما يسمى من حرف الكتاب، أو كذب في الشهادة، فاسقاً. والثالث: أن معنى المضارة: امتناع الكاتب أن يكتب، والشاهد أن يشهد، وهذا قول عطاء في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَمَّلُوا﴾ يعني: المضارة.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَعَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُورَهُ﴾ فَإِنْ آمَنَ بِكُمْ بَعْضًا قَلْبِوَرِ الَّذِي أَوْثَقَ آمَنَتَهُ وَيَسِّرَ اللَّهُ رِيئَهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آيِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَعَرٍ﴾ إنما خص السفر، لأن الأغلب عدم الكاتب والشاهد فيه. ومقصود الكلام: إذا عدمتم التوثق بالكاتب، والإشهاد، فخذوا الرهن.

قوله تعالى: ﴿فَرِهْنَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعبد الوارث (فرهن) بضم الراء والهاء من غير ألف، وأسكن الهاء عبد الوارث. وجهه للتخفيف. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي (فرهان) بكسر الراء، وفتح الهاء، وإثبات الألف. قال ابن قتيبة: من قرأ (فرهان) أراد: جمع رهن، ومن قرأ: (فرهن) أراد: جمع رهان، فكانه جمع الجمع.

قوله تعالى: ﴿مَقْبُورَهُ﴾ يدل على أن من شرط لزوم الرهن القبض، وقبض الرهن أخذه من راهته منقولا، فإن كان مما لا ينقل، كالدور والأرضين، فقبضه تخلية راهته بينه وبين مرتته.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنَ بِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: فإن وثق رب الدين بأمانة الغريم، فدفع ماله بغير كتاب، ولا شهود، ولا رهن، ﴿قَلْبِوَرِ الَّذِي أَوْثَقَ﴾ وهو المدين ﴿آمَنَتَهُ وَيَسِّرَ اللَّهُ رِيئَهُ﴾ أن يخون من اتتمه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ آيِمٌ قَلْبُهُ﴾ قال السدي عن أشياخه: فإنه فاجر قلبه. قال القاضي أبو يعلى: إنما أضاف الإثم إلى القلب، لأن المأثم تتعلق بعقد القلب، وكتمان الشهادة إنما هو عقد النية لترك أداها.

﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ تُخْفَوُ بِمَآسِكُمْ بِدِ اللَّهِ فَيَخْفَىٰ عَنْ يَسَاءٍ وَيَعْدِبُ مَنْ يَسَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ تُخْفَوُ بِمَآسِكُمْ بِدِ اللَّهِ﴾ أما إبداء ما في النفس، فإنه العمل بما أضمره العبد، أو النطق، وهذا مما يحاسب عليه العبد، ويؤاخذ به، وأما ما يخفيه في نفسه، فاختلص العلماء في المراد بالمخفي في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنه عام في جميع المخفيات، وهو قول الأكثرين. واختلفوا: هل هذا الحكم ثابت في المواخضة، أم منسوخ؟ على قولين. أحدهما: أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿لَا يَكْتُمُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَهَا﴾ [البرقة: ٢٨٤] هذا قول ابن مسعود، وأبي هريرة، وابن عباس في رواية، والحسن، والشعبي، وابن سيرين

وسعد بن جبير، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسدي، وابن زيد، ومقاتل^(١). والثاني: أنه ثابت في المؤاخذه على العموم، فيؤاخذ به من يشاء، ويغفره لمن يشاء، وهذا مروى عن ابن عمر، والحسن، واختاره أبو سليمان الدمشقي، والقاضي أبو يعلى. وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: هذه الآية لم تنسخ، ولكن الله ﷻ إذا جمع الخلائق، يقول لهم: أني مخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي، فاما المؤمنون فيخبرهم، ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ بِاللهِ﴾ يقول: يخبركم به الله، وأما أهل الشرك والريب، فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب، وهو قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُرَى لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعِدُّ مِنْ يَشَاءُ﴾^(٢). والأكثر على تسكين راء «يفغفر» وباء «يعذب» منهم ابن كثير ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وإنما جزموا لإتباع هذا ما قبله، وهو «يحاسبكم» وقرأ أبو جعفر، وابن عامر، وعاصم ويعقوب: برفع الراء، والباء فيهما. فهؤلاء قطعوا الكلام عن الأول. قال ابن الأنباري: وقد ذهب قوم إلى أن المحاسبة هاهنا هي إطلاع الله العبد يوم القيامة على ما كان حدث به نفسه في الدنيا، ليعلم أنه لم يعزب عنه شيء. قال: والذي نختاره أن تكون الآية محكمة، لأن النسخ إنما يدخل على الأمر والنهي. وقد روي عن عائشة أنها قالت: أما ما أعلنت، فالله يحاسبك به، وأما ما أخفيت، فما عجلت لك به العقوبة في الدنيا. والقول الثاني: أنه أمر خاص في نوع من المخفيات، ولأرباب هذا القول فيه قولان: أحدهما: أنه كتمان الشهادة، قاله ابن عباس في رواية، وعكرمة، والشعبي، والثاني: أنه الشك واليقين، قاله مجاهد. فعلى هذا المذكور تكون الآية محكمة.

﴿إِنَّ أَرْسُولَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّي وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا فِرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْسُولَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّي﴾. روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» من حديث أبي مسعود البدرى عن النبي ﷺ، أنه قال: «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه»^(٣) قال أبو بكر النقاش: معناه: كفتاه عن قيام الليل^(٤). وقيل: إنهما نزلتا على سبب، وهو ما روى العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: لما أنزل الله

(١) نقل ابن كثير في «تفسيره» حديث ابن عباس المخرج في مسلم، وفيه: «فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله: ﴿يَكُفُّ اللهُ نَفْسًا إِلَّا نَفْسًا...﴾ ثم قال بعد أن ذكر له أكثر من طريق: فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس. وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس، فروى البخاري عن مروان الأصغر، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - أحسبه ابن عمر - «وإن نُزِلَ مَا فِي أُنْفُسِكُمْ أَوْ نُشْرُوهُ» قال: نسخها الآية التي بعدها. وهكذا روي عن علي، وابن مسعود، والشعبي، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة: أنها منسوخة بالتي بعدها. وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تكلم أو تعمل». وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: إذا هم عبدي بسينة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فكتبوها سينة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فكتبوها حسنة، فإن عملها فكتبوها عسراً».

(٢) وهو اختيار ابن جرير الطبري، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب، بالحديث الذي رواه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم عن صفوان بن محرز قال: «بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدنو المؤمن من ربه ﷻ حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بلنوبه، فيقول له: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف مرتين، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، قال: فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه، وأما الكفار والمنافقون، فينادي بهم على رؤوس الأشهاد: ﴿كَذَّبْتُمْ آلَ فِرْعَوْنَ عَلَى رَبِّهِمْ لَا لَسْنَا اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾». ثم قال ابن جرير: فتأويل الآية إذا: وإن تبدوا ما في أنفسكم أيها الناس فظنوه، أو تخفوه فتتطوي عليه نفوسكم يحاسبكم به الله، فيعرف مؤسكم تفضله بغفوه عنه، ومغفرته له، فيغفره له، ويعذب منافقكم على الشك الذي انطوت عليه نفسه في وحدانية خالقه، ونبوة أنبيائه.

(٣) رواه مسلم بهذا اللفظ، ورواه البخاري بلفظ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

(٤) وقيل: كفتاه عما يكون من الآفات تلك الليلة، وقيل: من الشيطان وشربه، قيل: حسب بهما أجراً وفضلاً، وروى مسلم في «صحيحه» عن عبد الله قال: لما أسرى برسول الله ﷺ، انتهى به إلى سدره المنتهي، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يمرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض، قال: ﴿إِنِّي سَمِعْتُ أَيْدِيَهُ مَا يَسْتَعِينُ﴾ قال: فرأى من ذهب، قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقححات. والمقححات: بكسر الحاء: الذنوب العظام التي تقم أصحابها في النار، أي تلقيهم فيها.

تعالى: ﴿وَلَنْ تُبَدَّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ بِمَا سَبَّحْتُمْ بِهِ أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾ اشتمد ذلك على أصحاب النبي ﷺ [فاتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب] فقالوا: قد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما قالوها وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها ﴿مَأْمَرٌ أَرْسَلَهُ﴾^(١). قال الزجاج: لما ذكر ما تشتمل عليه هذه السورة من القصص والأحكام، ختمها بتصديق نبيه، والمؤمنين. وقرأ ابن عباس (وكتابه) فقيل له في ذلك، فقال: كتاب أكثر من كُتِّب، ذهب به إلى اسم الجنس، كما تقول: كثر الدرهم في أيدي الناس. وقد وافق ابن عباس في قراءته حمزة، والكسائي، وخلف، وكذلك في (التحريم)، وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر (وكتبه) هاهنا بالجمع، وفي (التحريم) بالتحديد. وقرأ أبو عمرو بالجمع في الموضعين.

قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَأُ بَيْتًا أَحَدٌ مِنْ رُسُلِهِمْ﴾ قرأ أبو عمرو ما أضيف إلى مكني على حرفين، مثل «رسلنا» و«رسلكم» بإسكان السين، وثقل ما عدا ذلك. وعنه في قوله تعالى: ﴿عَلَى رُسُلِكُمْ﴾ روايتان، التخفيف والتثقل. وقرأ الباقون كل ما في القرآن من هذا الجنس بالتثقل. ومعنى قوله: ﴿لَا تَقْرَأُ بَيْتًا أَحَدٌ مِنْ رُسُلِهِمْ﴾ أي: لا تفعل كما فعل أهل الكتاب، آمنوا ببعض، وكفروا ببعض. وقرأ يعقوب «لا يفرق» بالياء، وفتح الراء.

قوله تعالى: ﴿عَفْرَانِكَ﴾ أي: نسألك غفرانك. والمصير: المرجع.
﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ نَسَاْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الوسع: الطاقه. قاله ابن عباس، وفتاده. ومعناه: لا يكلفها ما لا قدرة لها عليه لاستحالته، كتكليف الزمن السعي، والأعمى النظر. فأما تكليف ما يستحيل من المكلف، لا لفقد الآلات، فيجوز كتكليف الكافر الذي سبق في العلم القديم أنه لا يؤمن الإيمان، فالآية محمولة على القول الأول. ومن الدليل على ما قلناه قوله تعالى في سياق الآية: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ فلو كان تكليف ما لا يطاق ممتنعاً، كان السؤال عبثاً، وقد أمر الله تعالى نبيه بدعاء قوم قال فيهم: ﴿وَلَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧] وقال ابن الأنباري: المعنى: لا تحملنا ما يتحملنا ما يتحملنا علينا أداؤه، وإن كنا مطيقين له على تجشم، وتحمل مكروه، فخطاب العرب على حسب ما تعقل، فإن الرجل منهم يقول للرجل يبغضه: ما أطيق النظر إليك، وهو مطيق لذلك، لكنه يتحمل عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَلِيمُونَ السَّمْعَ﴾ (هود: ٢٠).

قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ قال ابن عباس: لها ما كسبت من طاعة ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من معصية. قال أبو بكر النقاش: فقوله: «لها» دليل على الخير، و«عليها» دليل على الشر. وقد ذهب قوم إلى أن «كسبت» لمرء ومرات، و«اكتسبت» لا يكون إلا لشيء بعد شيء، وهما عند آخرين لغتان بمعنى واحد، كقوله ﷺ: ﴿فَقِيلَ الْكَافِرِينَ أَمَهُلَهُمْ رُسُلًا﴾^(٣) [الطارق: ١٧].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ هذا تعليم من الله للخلق أن يقولوا ذلك، قال ابن الأنباري: والمراد بالنسيان هاهنا: الترك مع العمد، لأن النسيان الذي هو بمعنى الغفلة قد أمنت الآثام من جهته. والخطأ أيضاً هاهنا من جهة العمد، لا من جهة السهو^(٤)، يقال: أخطأ الرجل: إذا تعمد، كما يقال: أخطأ إذا غفل. وفي «الإصر» قولان:

(١) رواه أحمد ومسلم وابن حبان بمعناه.

(٢) يؤيد هذا التفسير قوله ﷺ: «إن الله وضع عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». رواه ابن ماجه وابن حبان في «صحيحه» والطبراني عن ابن عباس. ورواه الحاكم ١٩٨/٢ ونظفه «تجارتنا» من أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه اللهمي. وقال أبو جعفر الطبري: والنسيان على وجهين: أحدهما على وجه التضييع من العبد والتفريط، وهذا الذي يرغب العبد إلى الله ﷻ في تركه مواخذته به، وهو النسيان الذي عاقب الله ﷻ به آدم صلوات الله عليه، فأخرجه من الجنة، فقال في ذلك: ﴿وَلَقَدْ هَمَمْنَا إِلَهُ كَادَ مِنْ قَبْلِ فَيْسَىٰ وَكَمْ تَجِدَ لَمَرَّ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. والآخر: على وجه عجز الناسي عن حفظ ما استحفظ ووكيل به، وضعف عقله عن احتمالها، فإن ذلك من

أحدهما: أنه العهد، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والسدي. والثاني: الثقل، أي: لا تثقل علينا من الفروض ما ثقلته على بني إسرائيل، قاله ابن قتية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه ما يصعب ويشق من الأعمال، قاله الضحاك، والسدي، وابن زيد، والجمهور، والثاني: أنه المحبة، رواه الثوري عن منصور عن إبراهيم. والثالث: الغلظة^(١) قاله مكحول. والرابع: حديث النفس ووساوسها. والخامس: عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: أنت ولينا ﴿فَأَنْصُرْنَا﴾ أي: أعنا. وكان معاذ إذا فرغ من هذه السورة قال: آمين.



= العبد غير معصية، وهو به غير آثم، ولا وجه لمسألة العبد ربه أن يغفره له. وكذلك الخطأ وجهان: أحدهما من وجه ما نهى عنه، فيأتيه بقصد منه وإرادة، فذلك خطأ منه، وهو به مأخوذ، وهذا الوجه الذي يرغب العبد إلى ربه في صمغ ما كان منه من إثم عنه إلا ما كان من ذلك كفرًا. والآخر منهما: ما كان منه على وجه الجهل به، والظن منه بأن له فعله، كالذي يأكل في شهر رمضان ليلاً، وهو يحسب أن الفجر لم يطلع، أو يؤخر صلاة في يوم غيم، وهو ينتظر بتأخيره إياها دخول وقتها، فيخرج وقتها وهو يرى أن وقتها لم يدخل، فإن ذلك من الموضوع عن العبد الذي وضع الله ﷻ عن عباده الإثم فيه، فلا وجه لمسألة العبد ربه ألا يؤاخذ به. انتهى باختصار.

(١) الغلظة: غلبان شهوة المواقفة من الرجل والمرأة.

سورة آل عمران

ذكر أهل التفسير أنها مدنية، وأن صدرها من أولها نزل في وفد نجران، قدموا النبي ﷺ في ستين ركباً، فيهم العاقب، والسيد، فخاصموه في عيسى، فقالوا: إن لم يكن ولد الله، فمن أبوه؟ فنزلت فيهم صدر (آل عمران) إلى يضع وثمانين آية منها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ زَكَرَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مَصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هَٰذَا لِقَائِكَ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾

قوله تعالى: ﴿زَكَرَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ يعني: القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني: العدل. ﴿مَصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب. وقيل: إنما قال في القرآن: «نزل» بالتشديد، وفي التوراة والإنجيل: أنزل، لأن كل واحد منهما أنزل في مرة واحدة، وأنزل القرآن في مرات كثيرة. فأما التوراة، فذكر ابن قتيبة عن الفراء أنه يجعلها من: وري الزند يري: إذا خرجت ناره، وأورثه، يريد أنها ضياء. قال ابن قتيبة: وفيه لغة أخرى: وري يري، ويقال: وريت بك زنادي، والإنجيل، من نجلت الشيء: إذا أخرجته، وولد الرجل: نجله، كأنه هو استخرجه، يقال: قبح الله ناجليه، أي: والديه، وقيل للماء يقطر من البئر: نجل، يقال: قد استنجل الوادي: [إذا ظهر نزره]. وإنجيل: إفعال من ذلك، كأن الله أظهر به عافياً من الحق دارساً. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: والإنجيل: أعجمي معرب، قال: وقال بعضهم: إن كان عربياً، فاشتقاقه من النجل، وهو ظهور الماء على وجه الأرض، واتساعه، ونجلت الشيء: إذا استخرجته وأظهرته، فالإنجيل مستخرج به علوم وحكم، وقيل: هو إفعال من النجل وهو الأصل: فالإنجيل أصل لعلوم وحكم^(١). وفي الفرقان هاهنا قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله قتادة، والجمهور. قال أبو عبيدة: سمي القرآن فرقاناً، لأنه فرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر، والثاني: أنه الفصل بين الحق والباطل في أمر عيسى حين اختلفوا فيه، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقال السدي: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: وأنزل التوراة، والإنجيل، والفرقان، فيه هدى للناس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يريد وفد نجران النصارى، كفروا بالقرآن، وبمحمد. والانتقام: المبالغة في العقوبة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُكُمْ فِي الْأَرْضِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: هذا تعريض بنصارى أهل نجران فيما كانوا ينظرون عليه من كيد النبي ﷺ، وذكر التصوير في الأرحام تنبيه على أمر عيسى.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الضَّلَالَةِ وَأْتِيتَهُمْ تَأْوِيلَهُ وَمَا يَسْمَعُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ المحكم: المتقن المبين، وفي المراد به هاهنا ثمانية أقوال: أحدها: أنه الناسخ، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، والسدي في آخرين. والثاني: أنه الحلال والحرام، روي عن ابن عباس،

(١) قال الشيخ أحمد شاذلي في تعليقه على «المعرب» للجواليقي: والصحيح أن الكلمة يونانية الأصل، أصلها «أونجيليون» مركبة من كلمتين معناهما: البشرى الحسنة.

ومجاهد. والثالث: أنه ما علم العلماء تأويله. روي عن جابر بن عبد الله. والرابع: أنه الذي لم ينسخ، قاله الضحاك. والخامس: أنه ما لم تتكرر ألفاظه، قاله ابن زيد. والسادس: أنه ما استقل بنفسه، ولم يحتج إلى بيان. ذكره القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد. وقال الشافعي، وابن الأنباري: هو ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً. والسابع: أنه جميع القرآن غير الحروف المقطعة. والثامن: أنه الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والحلال والحرام، ذكر هذا والذي قبله القاضي أبو يعلى^(١). وأم الكتاب أصله. قاله ابن عباس، وابن جبير، فكانه قال: هن أصل الكتاب اللواتي يعمل عليهن في الأحكام، ومجمع الحلال والحرام. وفي المتشابهة سبعة أقوال: أحدها: أنه المنسوخ، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، والسدي في آخرين. والثاني: أنه ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل، كقيام الساعة، روي عن جابر بن عبد الله. والثالث: أنه الحروف المقطعة كقوله: ﴿الآن﴾ ونحو ذلك، قاله ابن عباس. والرابع: أنه ما اشتبهت معانيه، قاله مجاهد. الخامس: أنه ما تكررت ألفاظه، قاله ابن زيد. والسادس: أنه ما احتمل من التأويل وجوهاً. وقال ابن الأنباري: المحكم ما لا يحتمل التأويلات، ولا يخفي على مميّز، والمتشابه: الذي تعتوره تأويلات. والسابع: أنه القصص، والأمثال، ذكره القاضي أبو يعلى. فإن قيل: فما فائدة إنزال المتشابه، والمراد بالقرآن البيان والهدى؟ ففته أربعة أجوبة: أحدها: أنه لما كان كلام العرب على ضربين: أحدهما: الموجز الذي لا يخفي على سامعه، ولا يحتمل غير ظاهره. والثاني: المنجاز، والكنائيات، والإشارات، والتلويحات، وهذا الضرب الثاني هو المستحلى عند العرب، والبديع في كلامهم، أنزل الله تعالى القرآن على هذين الضربين، ليتحقق عجزهم عن الإتيان بمثله، فكانه قال: عارضوه بأي الضربين شئتم، ولو نزل كله محكماً واضحاً، لقالوا: هلا نزل بالضرب المستحسن عندنا. ومتى وقع في الكلام إشارة أو كناية، أو تعريض أو تشبيه، كان أفصح وأغرب.

قال امرؤ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربني
بسهميك في أعشار قلب مقتل^(٢)
فجعل النظر بمنزلة السهم على جهة التشبيه، فحلا هذا عند كل سامع ومنشد، وزاد في بلاغته. وقال امرؤ القيس أيضاً:

رمتني بسهم أصاب الفؤاد
وقال أيضاً:

فقلت له لما تمطى بصلبه
فجعل لليل صلباً وصدراً على جهة التشبيه، فحسن بذلك شعره. وقال غيره:

من كميّت أجادها طابخاها
أراد بالطابخين: الليل والنهار على جهة التشبيه. وقال آخر:

تبكي هاشماً في كل فجر
كما تبكي على الفنن الحمام

(١) قال القاسمي في «محاسن التأويل» ص ٧٥٢: للعلماء في المحكم والمتشابه أقوال كثيرة، ومباحث واسعة، وأبدع ما رأيته في تحرير هذا المقام مقالة سابعة الذيل لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية عليه الرحمة والرضوان. ويعني بهذه المقالة الرسالة الموسومة بـ «الإكليل في المتشابه والتأويل» وقد أثبتها القاسمي رحمه الله في تفسيره بطولها.

(٢) شرح القصائد السبع ص ٤٧. ذرفت: سال مدعها. وأراد بالسهمين: العينين. الأعشار: القطع والكسور. المقتل: المذلّل. يقول: ما بكيت إلا لتنجري قلباً معشراً، أي: مكسراً، ولم تبكي، لأنك مظلومة. وقال غير الأصمعي: كاذرت عيناك إلا لتنهني بقلبي كله، كالرجل الذي يأخذ المعلى والغريب، وهما من سهام القمار ولهما عشرة أنصاء، والجزور يقسم عشرة أعشار، وهذا مثل ضربه لذهابها بقلبه كله.

(٣) «ديوانه» ص ١٥٥. وقوله: رمتني بسهم، أي: نظرت إليّ نظرة فلم أنتصر، أي: لم يبلغ حبي من قلبها ما بلغ حبها من قلبي. وقال الطوسي: سهمها هانت: عينها.

(٤) شرح القصائد السبع ص ٧٥. تمطى: تمدد. جزوه: وسطه. يقال: تمطى الرجل إذا تمدد، أي مد مطاء: أي ظهره. يقول: قلت لليل لما أنرط طولها، وتناثرت أوائله، وازدادت أواخره تطاولاً، وطول الليل يئيب عن مقاساة الأحزان والشدائد، والسهير المتولى منها، لأن المغموم يستطيل ليله، والمسروور يستصر ليله.

وقال آخر:

عجبت لها أنى يكون غناؤها

فصيحا ولم تفتح بمنطقها فما

فجعل لها غناء وفماً على جهة الاستعارة. والجواب الثاني: أن الله تعالى أنزله مختبراً به عباده، ليقف المؤمن عنده، ويرده إلى عالمه، فيعظم بذلك ثوابه، ويرتاب به المنافق، فيداخله الزيغ، فيستحق بذلك العقوبة، كما ابتلاههم بنهر طالوت. والثالث: أن الله تعالى أراد أن يشغل أهل العلم بردهم المتشابه إلى المحكم، فيطول بذلك فكرهم، ويتصل بالبحث عنه اهتمامهم، فيثابون على تعبههم، كما يثابون على سائر عباداتهم، ولو جعل القرآن كله محكماً لاستوى فيه العالم والجاهل، ولم يفضل العالم على غيره، ولماتت الخواطر، وإنما تقع الفكرة والحيلة مع الحاجة إلى الفهم. وقد قال الحكماء: عيب الغنى: أنه يورث البلادة، وفضل الفقر: أنه يبعث على الحيلة، لأنه إذا احتاج احتال. والرابع: أن أهل كل صناعة يجعلون في علومهم معاني غامضة، ومسائل دقيقة ليحرجوا بها من يعلمون، ويمرتوهم على انتزاع الجواب، لأنهم إذا قدروا على الغامض، كانوا على الواضح أقدر، فلما كان ذلك حسناً عند العلماء، جاز أن يكون ما أنزل الله تعالى من المتشابه على هذا النحو، وهذه الأجوبة معنى ما ذكره ابن قتيبة^(١)، وابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا فِي قُلُوبِهِمْ رَيْبًا﴾ في الزيغ قولان: أحدهما: أنه الشك، قاله مجاهد، والسدي. والثاني: أنه الميل، قاله أبو مالك، وعن ابن عباس كالتولين. وقيل: هو الميل عن الهدى. وفي هؤلاء القوم أربعة أقوال: أحدها: أنهم الخوارج، قاله الحسن. والثاني: المنافقون، قاله ابن جريج. والثالث: وقد نجران من النصارى، قاله الربيع. والرابع: اليهود، طلبوا معرفة بقاء هذه الأمة من حساب الجمل، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ مَا نَشَاءُ مِنْهُ﴾ قال ابن عباس: يُحيلون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويُليسون. وقال السدي: يقولون: ما بال هذه الآية عمل بها كذا وكذا، ثم نسخت؟! وفي المراد بالفتنة هاهنا، ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الكفر، قاله السدي، والربيع، ومقاتل، وابن قتيبة. والثاني: الشبهات، قاله مجاهد. والثالث: إفساد ذات البين، قاله الزجاج. وفي التأويل وجهان: أحدهما: أنه التفسير. والثاني: العاقبة المنتظرة. والراسخ: الثابت، يقال: رسخ يرسخ رسوخاً. وهل يعلم الراسخون تأويله أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنهم لا يعلمونه، وأنهم مستأنفون، وقد روى طاووس عن ابن عباس أنه قرأ: (ويقول الراسخون في العلم آتينا به) وإلى هذا المعنى ذهب ابن مسعود، وأبي ابن كعب، وابن عباس، وعروة، وقتادة، وعمر بن عبد العزيز، والفراء، وأبو عبيدة، وثعلب، وابن الأنباري، والجمهور. قال ابن الأنباري: في قراءة عبد الله: (إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم) وفي قراءة أبي، وابن عباس: (ويقول الراسخون) وقد أنزل الله تعالى في كتابه أشياء، استأثر بعلمها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] فأنزل الله تعالى المجمل، ليؤمن به المؤمن، فيسعد، ويكفر به الكافر، فيشقى. والثاني: أنهم يعلمون، فهم داخلون في الاستثناء. وقد روى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: أنا ممن يعلم تأويله، وهذا قول مجاهد، والربيع، واختاره ابن قتيبة، وأبو سليمان الدمشقي. قال ابن الأنباري: الذي روى هذا القول عن مجاهد ابن أبي نجيع، ولا تصح روايته التفسير عن مجاهد.

﴿رَبَّنَا لَا تُرِخْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَكَّابُ﴾ ﴿١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ لِشَيْءٍ إِلَّا كَ اللَّهُ لَا يُخَلِّقُ أَلِيمًا ﴿٢﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِخْ قُلُوبَنَا﴾ أي يقولون: (ربنا لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ هديتنا) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وابن يعمر، والمجدي «لا تُرِخْ» بفتح التاء «قُلُوبَنَا» برفع الباء. ولدنك: بمعنى عندك. والوهاب: الذي يجود بالعباءة من غير استئابة، والمخلوقون لا يملكون أن يهبوا شفاءً لسقيم، ولا ولدناً لعقيم، والله تعالى قادر على أن يهب جميع الأشياء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُخْرِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَنْ تُخْرِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ أي: لن تدفع، لأن المال يدفع عن صاحبه في الدنيا، وكذلك الأولاد، فأما في الآخرة، فلا ينفع الكافر ماله، ولا ولده. وقوله تعالى: ﴿بِئْسَ اللَّهُ﴾ أي: من عذابه.

﴿كَذَّابٍ مَالٍ زَعْوَنٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّابٍ مَالٍ زَعْوَنٍ﴾ في الدأب قولان: أحدهما: أنه العادة، فمعناه: كعادة آل فرعون، يريد: كفر اليهود، ككفر من قبلهم، قاله ابن قتيبة، وقال ابن الأنباري: «والكاف» في «كذاب» متعلقة بفعل مضمر، كأنه قال: كفرت اليهود، ككفر آل فرعون. والثاني: أنه الاجتهاد، فمعناه: أن دأب هؤلاء، وهو اجتهادهم في كفرهم، وتظاهرهم على النبي ﷺ كتظاهر آل فرعون على موسى ﷺ، قاله الزجاج.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَهْلٌ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُسَاقُونَ إِلَيْهَا﴾ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَهْلٌ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُسَاقُونَ إِلَيْهَا﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر (ستغلبون وتحشرون) بالتاء (ويروهنم) بالياء، وقرأ نافع ثلاثين بالتاء، وقرأه ابن حمزة، والكسائي بالياء. وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن يهود المدينة لما رأوا وقعة بدر، هموا بالإسلام، وقالوا: هذا هو النبي الذي نجده في كتابنا، لا ترد له راية، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا له وقعة أخرى، فلما كانت أحد، شكوا، وقالوا: ما هو به، ونقضوا عهداً كان بينهم وبين النبي، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة، فقالوا: تكون كلمتنا واحدة، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(١). والثاني: أنها نزلت في قريش قبل وقعة بدر، فحقق الله وعده يوم بدر، روي عن ابن عباس، والضحاك. والثالث: أن أبا سفيان في جماعة من قومه، جمعوا الرسول الله ﷺ بعد وقعة بدر، فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي يَسْتَوِيَ الثَّقَنَاتُ يَتَذَكَّرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَأَنَّهُ يَرْوَنَّهُمْ وَيَلْتَمِسُ رَأْيَ الْكَاذِبِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَطْرِيْقَهُ مَن يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَءَاتِيَةٌ لِلَّذِينَ الْأَبْصَارِ﴾ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي يَسْتَوِيَ الثَّقَنَاتُ﴾ في المخاطبين بهذا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المؤمنون، روي عن ابن مسعود، والحسن. والثاني: الكفار، فيكون معطوفاً على الذي قبله، وهو يتخرج على قول ابن عباس الذي ذكرناه آنفاً. والثالث: أنهم اليهود، ذكره الفراء، وابن الأنباري، وابن جرير. فإن قيل: لم قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ ولم يقل: قد كانت لكم؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أن ما ليس بمؤث حقيقي، يجوز تذكيره. والثاني: أنه رد المعنى إلى البيان، فمعناه: قد كان لكم بيان، فذهب إلى المعنى، وترك اللفظ، وأنشدا:

إن امرأ غبره منكناً واحداً
بعدي وبعذك في الدنيا لمغرور

وقد سبق معنى «الآية» و«الفئة»، وكل مشكل تركت شرحه، فإنك تجده فيما سبق، والمراد بالفتنتين: النبي ﷺ وأصحابه، ومشركو قريش يوم بدر. قاله قتادة والجماعة. وفي قوله تعالى: ﴿يَرْوَنَّهُمْ وَيَلْتَمِسُ رَأْيَ الْكَاذِبِ﴾ قولان: أحدهما: يروهنم ثلاثة أمثالهم، قاله الفراء، واحتج بأنك إذا قلت: عندي ألف دينار، وأحتاج إلى مثليه، فإنك تحتاج إلى ثلاثة آلاف^(٢). والثاني: أن معناه يروهنم ومثلهم، قال الزجاج: وهو الصحيح^(٣).

قوله تعالى: ﴿رَأَى الْكَاذِبِينَ﴾ أي: في رأي العين. قال ابن جرير: جاء هذا على مصدر رأيته، يقال: رأيته رأياً،

(١) رواه الواحد في «أسباب النزول» عن الكلبي، عن أبي صالح.

(٢) نصح كلام الفراء في «معاني القرآن» ١٩٤/١. فإن قلت: فكيف جاز أن يقال: «بعليهم» يريد ثلاثة أمثالهم؟ قلت: كما تقول وعندك عبد: أحتاج إلى مثله، فأنت محتاج إليه، وإلى مثله، وتقول: أحتاج إلى مثلي بعدي، فأنت إلى ثلاثة محتاج. ويقول الرجل: معي ألف وأحتاج إلى مثليه، فهو يحتاج إلى ثلاثة، فلما نوى أن يكون الألف داخلاً في معنى المثل صار المثل اثنين، والمثلان ثلاثة، ومثله في الكلام أن تقول: أراكم مثلكم، كأنك قلت: أراكم ضعفيكم، وأراكم مثليكم: يريد ضعفيكم، فهذا على معنى الثلاثة.

(٣) في القرطبي ٢٦/٤: قال الزجاج: وهذا باب العلط - ما ذهب إليه الفراء - فيه غلط في جميع المقائيس، لأننا إنما نعقل مثل الشيء مساوياً له، فنعقل مثليه ما يساويه مرتين.

وروية. واختلفوا في الفة الرائية على ثلاثة أقوال، هي التي ذكرناها في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾. فإن قلنا: إن الفة الرائية المسلمون، فوجهه أن المشركين كانوا يضعفون على عدد المسلمين، فأروهم على ما هم عليه، ثم نصرهم الله، وكذلك إن قلنا: إنهم اليهود. وإن قلنا: إنهم المشركون، فتكثير المسلمين في أعينهم من أسباب النصر. وقد قرأ نافع: «ترونهم» بالتاء. قال ابن الأنباري: ذهب إلى أن الخطاب لليهود. قال الفراء: ويجوز لمن قرأ «يرونهم» بالياء أن يجعل الفعل لليهود، وإن كان قد خاطبهم في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ لأن العرب ترجع من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب. وقد شرحنا هذا في «الفتاح» وغيرها. فإن قيل: كيف يقال: إن المشركين امتكثروا المسلمين. وإن المسلمين استكثروا المشركين، وقد بين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَيْلًا وَقَوْلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] أن الفتينين تساوتا في استقلال إحداهما للأخرى؟ فالجواب: أنهم استكثروهم في حال، واستقلوهم في حال، فإن قلنا: إن الفة الرائية المسلمون، فإنهم رأوا عدد المشركين عند بداية القتال على ما هم عليه، ثم قلل الله المشركين في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم، فنصرهم الله بذلك السبب. قال ابن مسعود: نظرنا إلى المشركين فرأيانهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم، فما رأيانهم يزيدون علينا رجلاً واحداً. وقال في رواية أخرى: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة، فأسرنا منهم رجلاً، فقلت: كم كنتم؟ قال: ألفاً وإن قلنا: إن الفة الرائية المشركون، فإنهم استقلوا المسلمين في حال، فاجترؤوا عليهم، واستكثروهم في حال، فكان ذلك سبب خذلانهم، وقد نقل أن المشركين لما أسروا يومئذ، قالوا للمسلمين: كم كنتم؟ قالوا: كنا ثلاثمائة وثلاثة عشر. قالوا: ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُوَيِّدُ﴾، أي: يقوي. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في الإشارة قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى النصر. والثاني: إلى رؤية الجيش مثليهم. والعبرة: الدلالة الموصلة إلى اليقين، المؤدية إلى العلم، وهي من العبور، كأنه طريق يُعبر به، ويتوصل به إلى المراد. وقيل: العبرة: الآية التي يعبر منها من منزلة الجهل إلى منزلة العلم. والأبصار: العقول والبصائر.

﴿زَيْنَ لَنَاسٍ حُبِّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَنْعَامِ وَالْعَبْرَةِ ذَلِكَ مَتَكِّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ﴾

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لَنَاسٍ حُبِّ الشَّهَوَاتِ﴾ قرأ أبو رزين العقيلي، وأبو رجاء العطاردي، ومجاهد، وابن محيصن «زَيْن» بفتح الزاي «حُبِّ» بنصب الباء، وقد سبق في «البقرة» بيان التزيين. والقناطر: جمع قنطار، قال ابن دريد: ليست النون فيه أصلية، وأحسب أنه معرب. واختلف العلماء: هل هو محدود أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه محدود، ثم فيه أحد عشر قولاً: أحدها: أنه ألف ومثنا أوقية، رواه أبي بن كعب عن النبي ﷺ^(١) وبه قال معاذ بن جبل، وابن عمر، وعاصم بن أبي النجود، والحسن في رواية. والثاني: أنه اثنا عشر ألف أوقية، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ^(٢). وعن أبي هريرة كالثقلين، وفي رواية عن أبي هريرة أيضاً: اثنا عشر أوقية. والثالث: أنه ألف ومثنا دينار، ذكره الحسن، ورواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: أنه اثنا عشر ألف درهم، أو ألف دينار، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وروي عن الحسن، والضحاك، كهذا القول، والذي قبله. والخامس: أنه سبعون ألف دينار، روي عن ابن عمر، ومجاهد. والسادس: ثمانون ألف درهم، أو مئة رطل من الذهب، روي عن سعيد بن المسيب، وقتادة. والسابع: أنه سبعة آلاف دينار، قاله عطاء. والثامن: ثمانية آلاف مثقال، قاله السدي. والتاسع: أنه ألف مثقال ذهب أو فضة، قاله الكلبي. والعاشر: أنه ملاء مسك ثور ذهباً، قاله أبو نضرة، وأبو عبيدة. والحادي عشر: القنطار: رطل من الذهب، أو الفضة، حكاه ابن الأنباري. والقول الثاني: أن القنطار ليس بمحدود. وقال الربيع بن أنس: القنطار: المال الكثير، بعضه على بعض، وروي عن أبي عبيدة أنه ذكر عن العرب أن القنطار وزن لا يحد، وهذا اختيار ابن جرير الطبري.

(١) رواه الطبري في «الضمير» وذكره ابن كثير، وقال: وهذا حديث مبكر أيضاً، والأقرب أن يكون موقوفاً على أبي بن كعب، كثيره من الصحابة.

(٢) رواه أحمد في «المسند» وابن ماجه مرفوعاً، ورواه ابن جرير ووكيع موقوفاً. قال ابن كثير: وهذا أصح.

قال ابن الأنباري: قال بعض اللغويين: القنطار: العقدة الوثيقة المحكمة من المال. وفي معنى المقنطرة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها المضعفة، قال ابن عباس: القناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة، وهذا قول الفراء. والثاني: أنها المكملة، كما تقول: بدرة مبدرة، وألف مؤلفة، وهذا قول ابن قتيبة. والثالث: أنها المضروبة حتى صارت دنائير ودراهم، قاله السدي. وفي المسومة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الرابعة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد في رواية، والضحاك، والسدي، والربيع، ومقاتل. قال ابن قتيبة: يقال: سامت الخيل، وهي سائمة: إذا رعت، وأسمتها وهي مسامة، وسومتها فهي مسومة: إذا رعيتهما، والمسومة في غير هذا: المعلمة في الحرب بالسومة وبالسائماء، أي: بالعلامة. والثاني: أنها المعلمة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة، واختاره الزجاج، وعن الحسن كالقولين. وفي معنى المعلمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها معلمة بالشية، وهو اللون الذي يخالف سائر لونها، روي عن قتادة. والثاني: بالكفي، روي عن المؤرج. والثالث: أنها البلق، قاله ابن كيسان. والثالث: أنها الحسان، قاله ابن عكرمة، ومجاهد. فأما الأنعام، فقال ابن قتيبة: هي: الإبل، والبقرة، والغنم، واحدها: نم، وهو جمع لا واحد له من لفظه. والمأب: المرجع. وهذه الأشياء المذكورة قد تحسن نية العبد بالتلبس بها، فيثاب عليها، وإنما يتوجه الذم إلى سوء القصد فيها وبها.

﴿ قُلْ أُو۟سُّ۟رَتُكَ بِخَيْرٍ مِّنۢ ذٰلِكُمْ لِيُذَيَّبَ لَكَ عِنۢدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجَرَّى مِنۢ تَحْتِهَا الْاَثَٰثُ خٰلِدِي۟نَ فِي۟هَا وَاَز۟وٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِض۟وٰتٌ مِّنۢ اٰم۟رٍ وَّاللّٰهُ بِسِرِّۙ اِل۟وٰبَا۟كُم۟ عَلِي۟مٌ ۝۱۵﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُو۟سُّ۟رَتُكَ بِخَيْرٍ مِّنۢ ذٰلِكُمْ﴾ روى عطاء بن السائب عن أبي بكر بن حفص قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ لِلَّذِي۟نَ سُبُّ الشَّهَوٰتِ﴾. قال عمر: يا رب الآن حين زينتها؟! فنزلت: ﴿قُلْ أُو۟سُّ۟رَتُكَ بِخَيْرٍ مِّنۢ ذٰلِكُمْ﴾ ووجه الآية أنه خير أن ما عنده خير مما في الدنيا، وإن كان محبوباً، لبتروا ما يحبون لما يرجون. فأما الرضوان، فقرأ عاصم، إلا حفصاً وأبان بن يزيد عنه، برفع الراء في جميع القرآن، واستثنى يحيى والعلمي كسر الراء في المائة في قوله تعالى: ﴿مَنۢ اَتٰ۟نَحَّ رِض۟وَانُكَ﴾ [المائدة: ١٦]. وقرأ الباقر بكسر الراء، والكسر لغة قريش. قال الزجاج: يقال: رضيت الشيء أرضاه رضى ومرضاه ورضواناً ورضواناً. ﴿وَاللّٰهُ بِسِرِّۙ اِل۟وٰبَا۟كُم۟﴾. يعلم من يؤثر ما عنده ممن يؤثر شهوات الدنيا، فهو يجازيهم على أعمالهم.

﴿ اَلَّذِي۟نَ يَتُوبُو۟نَ رِج۟سًا مِّنۢ اِن۟نَّ ءَا۟مَنَّا فَاَغ۟فِر۟ لَنَا ذُنُوبَنَا وَاِن۟نَّا لَنَارِۙ ۝۱۶﴾ ﴿الْمَكِّي۟نَ وَالْمَدِي۟نَ وَالْقَدِي۟بِي۟نَ وَالسَّنِي۟بِي۟نَ وَالسَّنِي۟بِي۟نَ وَالسَّنِي۟بِي۟نَ﴾

قوله تعالى: ﴿الْمَكِّي۟نَ﴾ أي: على طاعة الله ﷻ، وعن محارمه ﴿الْمَدِي۟نَ﴾ في عقائدهم وأقوالهم ﴿وَالْقَدِي۟بِي۟نَ﴾ بمعنى المطيعين لله ﴿وَالسَّنِي۟بِي۟نَ﴾ في طاعته. وقال ابن قتيبة: يعني بالنفقة: الصدقة. وفي معنى استغفارهم قولان: أحدهما: أنه الاستغفار المعروف باللسان، قاله ابن مسعود، والحسن في آخرين^(١). والثاني: أنه الصلاة. قاله مجاهد، وقاتدة، والضحاك، ومقاتل في آخرين. فعلى هذا إنما سميت الصلاة استغفاراً، لأنهم طلبوا بها المغفرة. فأما السحر، فقال إبراهيم بن السري: السر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر، وهو أول إدبار الليل إلى طلوع الفجر، فوصفهم الله بهذه الطاعات، ثم وصفهم بأنهم لشدة خوفهم يستغفرون.

﴿ شَهِدَ اللّٰهُ اَن۟نَّ لَآ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ وَالْمَلٰٓئِكَةُ وَاُولُو۟ا۟لِۙ اٰلِۙمِل۟يۙمَ بِال۟سُب۟حٰنِ لَاۤ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْعَزِي۟زُ الْحَكِي۟مُ ۝۱۷﴾

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللّٰهُ اَن۟نَّ لَآ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ﴾ سبب نزول هذه الآية أن حبرين من أحبار الشام قدما النبي ﷺ، فلما أبصرا المدينة، قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي ﷺ الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا

(١) ثبت في «الصحیح» وغيرهما من «السانيد» و«السنن» من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له». وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير الطبري.

على النبي ﷺ، عرفاه بالصفة، فقالا: أنت محمد؟ قال: «نعم». قالوا: وأحمد؟ قال: «نعم». قالوا: نسألك عن شهادة، فإن أخبرتنا بها، آمنا بك وصدقناك، فقال: «سلاني». فقال: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله، فنزلت هذه الآية، فأسلما، قاله ابن السائب^(١).. وقال غيره: هذه الآية رد على نصارى نجران فيما ادعوا في عيسى ﷺ، وقد سبق ذكر خبرهم في أول السورة. وقال سعيد بن جبيرة: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، وكان لكل حي من العرب صنم أو صنمان، فلما نزلت هذه الآية، خزت الأصنام سجداً. وفي معنى «شَهِدَ اللَّهُ» قولان: أحدهما: أنه بمعنى قضى وحكم، قاله مجاهد، والفراء، وأبو عبيدة. والثاني: بمعنى بين، قاله ثعلب والزجاج، قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب، وأموره المحكمات عند خلقه، أنه لا إله إلا هو. وسئل بعض الأعراب: ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير، وأثار القدم تدل على المسير، فهيكلك علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة، أما يدلان على الصانع الخبير؟! وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن السميع، وعاصم الجحدري (شهداء الله) بضم «الشين» وفتح «الهاء» والبدال» وبهمزة مرفوعة بعد المد، وخفض «الهاء» من اسم الله تعالى: ﴿قَائِمًا بِأَنْتُمْ﴾ أي: بالعدل. قال جعفر الصادق: وإنما كرر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأن الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم، أي: قولوا: لا إله إلا هو.

﴿إِنَّ أَلْيَبَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَدِ مَا جَاءَهُمْ الْوَحْيُ بَشِيئًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَأْتِ اللَّهُ فَتَكُ اللَّهُ فَتَكُ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْيَبَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ الجمهور على كسر «إن» إلا الكسائي، فإنه فتح «الألف»، وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، وأبي رزين، وأبي العالية، وقتادة. قال أبو سليمان الدمشقي: لما ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية، وادعت النصارى أنه لا دين أفضل من النصرانية، نزلت هذه الآية. قال الزجاج: الدين: اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه، وأمرهم بالإقامة عليه، وأن يكون عاداتهم، وبه يجزيهم. وقال شيخنا علي بن عبيد الله: الدين: ما التزمه العبد لله ﷻ. قال ابن قتيبة: والإسلام الدخول في السلم، أي: في الانقياد والمتابعة، ومثله الاستسلام، يقال: سلم فلان لأمرك، واستسلم، وأسلم، كما تقول: اشتى الرجل، أي: دخل في الشتاء، وأربع: دخل في الربيع. وفي الذين أوتوا الكتاب ثلاثة أقوال: أحدهما: أنهم اليهود، قاله الربيع. والثاني: أنهم النصارى، قاله محمد بن جعفر بن الزبير. والثالث: أنهم اليهود والنصارى، قاله ابن السائب. وقيل: الكتاب هاهنا: اسم جنس بمعنى الكتب. وفي الذين اختلفوا فيه أربعة أقوال: أحدها: دينهم. والثاني: أمر عيسى. والثالث: دين الإسلام، وقد عرفوا صحتهم. والرابع: نبوة محمد ﷺ، وقد عرفوا صفتهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنْ بَدِ مَا جَاءَهُمْ الْوَحْيُ﴾ أي: الإيضاح لما اختلفوا فيه ﴿بَشِيئًا بَيْنَهُمْ﴾ قال الزجاج: معناه: اختلفوا للبغي، لا لقصد البرهان، وقد ذكرنا في «البقرة» معنى: سريع الحساب.

﴿فَإِنْ حَاجَّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُكُمْ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ مَا أَسَلْتُكُمْ فَإِنْ أَسَلْتُمْ فَقَدْ أَهَكْدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَرَكْنَا عَلَيْكُمُ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِعَمِيرِكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجَّوكَ﴾ أي: جادلوك، وخاصموك. قال مقاتل: يعني اليهود، وقال ابن جرير: يعني نصارى نجران في أمر عيسى، وقال غيرهما: اليهود والنصارى. ﴿فَقُلْ أَسَلْتُكُمْ وَجْهِي لِلَّهِ﴾ قال الفراء: معناه: أخلصت عملي، وقال الزجاج: قصدت بعبادتي إلى الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ أثبت الياء في الوصل دون الوقف أهل المدينة والبصرة، وابن شنيوذ عن قبل، ووقف ابن شنيوذ ويعقوب بياء. قال الزجاج: والأحب إلي اتباع المصحف. وما حذف من الياءات في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ و﴿لَيْنَ لُحْرَتَيْنِ﴾ و﴿رَبَّتْ أَرْوَمَيْنِ﴾ و﴿رَبَّتْ أَرْوَمَيْنِ﴾. فهو على ضربين: أحدهما: ما كان مع النون، فإن كان رأس آية، فأهل اللغة يجيزون حذف الياء، ويسمون أواخر الآي الفواصل كما أجازوا ذلك في الشعر.

(١) رواء الواحدي في «أسباب النزول» بدون سند عن ابن السائب الكلبي.

قال الأعشى:

ومن شأنه كاسف باله
وهل يمنعي ارتيادي البلا
إذا ما انتسبت له أنكرن
د من حذر الموت أن يأتين^(١)
فأما إذا لم يكن آخر آية أو قافية، فالأكثر إثبات الياء، وحذفها جيد أيضاً، خاصة مع النونات، لأن أصل
«اتبعني» «اتبعي» ولكن «النون» زيدت لتسلم فضحة العين، فالكسرة مع النون تنوب عن الياء، فأما إذا لم تكن النون،
نحو غلامي وصاحبي، فالأجود إثباتها، وحذفها عند عدم النون جائز على قلتها، تقول: هذا غلام، قد جاء غلامي،
وغلامي بفتح الياء وإسكانها، فجاز الحذف، لأن الكسرة تدل عليها.
قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِيَذِينَ آوْتُوا الْكِتَابَ﴾ يريد اليهود النصارى ﴿وَالَّذِينَ﴾ بمعنى مشركي العرب، وقد سبق في البقرة
شرح هذا الاسم.
قوله تعالى: ﴿عَسَلْتُمْ﴾ قال الفراء: هو استفهام ومعناه الأمر^(٢)، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. [المائدة: ٩١].

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية، فذهبت طائفة إلى أنها محكمة، وأن المراد بها تسكين نفس
النبي ﷺ عند امتناع من لم يجبه، لأنه كان يحرص على إيمانهم، ويتألم من تركهم الإجابة. وذهبت طائفة إلى أن
المراد بها الاقتصار على التبليغ، وهذا منسوخ بآية السيف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْقَوْلِ الَّيْسَ فَبَشِّرْهُم بِكَذَابِ آلِيمٍ﴾ [أولئك الذين حطت عنهم آياتنا والآخرة وما لهم من نصيب] ﴿٣١﴾
قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: عنى بذلك اليهود والنصارى. قال ابن
عباس: والمراد بآيات الله محمد والقرآن. وقد تقدم في «البقرة» شرح قتلهم الأنبياء، والقسط، والعدل. وقرأ
الجمهور: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْقَوْلِ الَّيْسَ﴾ وقرأ حمزة «ويقاتلون» بآلف. وروى أبو عبيدة بن الجراح عن النبي ﷺ
أنه قال: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنان عشر رجلاً من عباد بني
إسرائيل، فأمرؤا من قتلهم بالمعروف، ونهوهوم عن المنكر، فقتلوا جميعاً في آخر النهار، فهم الذين ذكرهم الله في
كتابه^(٣)» وأنزل الآية فيهم. وإنما يخ بهذا اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ لأنهم تولوا أولئك، ورضوا بفعلهم
﴿فَبَشِّرْهُم﴾ بمعنى: أخبرهم، وقد تقدم شرحه في «البقرة» ومعنى حطت: بطلت.

﴿أَنْ تَرَى إِلَى اللَّهِ أُولِيَّاءَ مِنْ آلِهِمْ يَوْمَئِذٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]
قوله تعالى: ﴿أَنْ تَرَى إِلَى اللَّهِ أُولِيَّاءَ مِنْ آلِهِمْ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ دخل
بيت المدراس على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله فقال رجلان منهم: على أي دين أنت؟ فقال: على ملة إبراهيم.
قالا: فإنه كان يهودياً. قال: فهلما إلى التوراة، فأبيا عليه، فنزلت هذه الآية. رواه سعيد بن جبير، عن ابن عباس^(٤).
والثاني: أن رجلاً من اليهود، وامرأة زنيا، فكرهوا رجمهما لشرفهما، فرفعوا أمرهما إلى النبي ﷺ رجاء أن يكون عنده

(١) الديوان ص ١٩، ورواية صدر البيت الأول فيه: ومن شأنه كاسف وجهه. والثاني: المنفص. والكاسف الوجه: العابس المتغير.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: وهذه الآية وأمثالها من أصح الدلالات على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه
الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِيئًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ
الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نُبُوءًا﴾ [الفرقان: ١] وفي «الصححين» وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه بعث كنهه ﷺ يدعو إلى الله
ملوك الأنفاق، وطوائف بني آدم، من عربهم وعجمهم، كتابتهم وأميتهم، امتثالاً لأمر الله بذلك. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي
بيده لا يسع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار» رواه مسلم. وقال ﷺ: «بعثت إلى
الأحمر والأسود» رواه أحمد في «المسنند» من حديث أبي موسى الأشعري، ورواه أيضاً من حديث أبي ذر.

(٣) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وفي سننه أبو الحسن مولى من بني أسد، وقد قال الحافظ في «اللسان»: مجهول.

(٤) رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر وابن جرير.

رخصة، فحكّم عليهما بالرجم، فقالوا: جزّت علينا يا محمد، ليس علينا الرجم. فقال: بيني وبينكم التوراة، فجاه ابن سوريا، فقرأ من التوراة، فلما أتى على آية الرجم، وضع كفه عليها، وقرأ ما بعدها، فقال ابن سلام: قد جاوزها، ثم قام، فقرأها، فأمر رسول الله ﷺ باليهوديين، فرجما، فغضب اليهود. فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١). والثالث: أن النبي ﷺ دعا اليهود إلى الإسلام، فقال نعمان بن أبي أوفى: هلم نحاكمك إلى الأحبار. فقال: بل إلى كتاب الله، فقال: بل إلى الأحبار. فنزلت هذه الآية، قاله السدي. والرابع: أنها نزلت في جماعة من اليهود، دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: نحن أحق بالهدى منك، وما أرسل الله نبياً إلا من بني إسرائيل. قال: فأخرجوا التوراة، فإني مكتوب فيها أني نبي، فأبوا، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل بن سليمان. فأما التفسير، فالنصيب الذين أتوه: العلم الذي علموه من التوراة. وفي الكتاب الذي دعوا إليه قولان: أحدهما: أنه التوراة، رواه عكرمة، عن ابن عباس، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنه القرآن، رواه أبو صالح، عن ابن عباس، وهو قول الحسن، وقتادة. وفي الذين أريد أن يحكم الكتاب بينهم فيه أربعة أقوال: أحدها: ملة إبراهيم. والثاني: أنه القرآن، رواه أبو صالح، عن ابن عباس، وهو قول الحسن، وقتادة. وفي الذي أريد أن يحكم الكتاب بينهم فيه أربعة أقوال. أحدها: ملة إبراهيم. والثاني: حد الزنى. روي عن ابن عباس. والثالث: صحة دين الإسلام، قاله السدي. والرابع: صحة نبوة محمد ﷺ، قاله مقاتل. فإن قيل: التولي هو الإعراض، فما فائدة تكريهه؟ فالجواب من أربعة أوجه: أحدها: التأكيد. والثاني: أن يكون المعنى: يتولون عن داعي، ويعرضون عما دعا إليه. والثالث: يتولون بأبدانهم، ويعرضون عن الحق بقلوبهم. والرابع: أن يكون الذين تولوا علماءهم، والذين عرضوا أتباعهم، قاله ابن الأنباري.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّكَ الْكَافِرُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّمُوا فِي يَوْمِهِمَا كَأَنَّهُمْ يَقْتُولُونَ﴾ (١١)

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ يعني: الذي حملهم على التولي والإعراض أنهم قالوا: ﴿لَنْ نَمَسَّكَ الْكَافِرُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ وقد ذكرناها في «البقرة». و﴿يَقْتُولُونَ﴾: يختلفون. وفي الذي اختلقوه قولان: أحدهما: أنه قولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، قاله مجاهد، والزجاج. والثاني: قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، قاله قتادة، ومقاتل.

﴿كَيْفَ إِذَا جِئْتَهُمْ لَيُّوْا لَا رَبَّ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٢)

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ إِذَا جِئْتَهُمْ لَيُّوْا لَا رَبَّ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لجزاء يوم، أو لحساب يوم. وقيل: «اللام» بمعنى: «في».

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ قُوِّي الْمَلِكِ مَن كَسَاةَ وَتَنَزَّعُ الْمَلِكِ وَمَن كَسَاةَ وَتَوَسَّلُ مَن كَسَاةَ وَتَدْوُلُ مَن كَسَاةَ يَبِيكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَيَّ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٣)

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ لما فتح مكة، ووعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس، وأنس بن مالك. والثاني: أن النبي ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته، فنزلت هذه الآية، حكاه قتادة^(١٤). والثالث: أن اليهود قالوا: والله لا نطيع رجلاً جاء ينقل النبوة من بني إسرائيل إلى غيرهم، فنزلت هذه الآية، قاله أبو سليمان الدمشقي. فأما التفسير، فقال الزجاج: قال: الخليل، وسبيويه، وجميع النحويين الموثوق بعلمهم: «اللهم» بمعنى «يا الله»، و«الميم» المشددة

(١) جاء في «الصحيحين» وفي مسنن أبي داود واللفظ له عن ابن عمر أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجلدون في التوراة في شأن الزنى؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون. فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة، فنشروها، فجعل أحدهم يده على آية الرجم، ثم جعل يقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفمها، فإذا فيها آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. فهذا الحديث الصحيح ليس فيه أن هذه القصة سبب لنزول الآية. وأثر المصنف رحمه الله إنما هو من رواية الكلبي عن أبي صالح. والكلبي هذا هو محمد بن السائب وقد اتفق العلماء على عدم الاحتجاج به، بل بعضهم نسب إلى الكذب، وقال البخاري: قال علي: حدثنا يحيى عن سفيان، قال لي الكلبي: كلما حدثك عن أبي صالح فهو كذب.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا...

زيدت عوضاً من «يا»، لأنهم لم يجدوا «يا» مع هذه «الميم» في كلمة، ووجدوا اسم الله ﷻ مستعملاً بـ «يا» إذا لم تذكر الميم، فعملوا أن الميم في آخر الكلمة بمنزلة «يا» في أولها والضممة التي في «الهاء» هي ضمة الاسم المنادى المفرد. قال أبو سليمان الخطابي: ومعنى «مالك الملك»: أنه بيده، يؤتبه من يشاء، قال: وقد يكون معنا: مالك الملوك، ويحتمل أن يكن معنا: وارث الملك يوم لا يدعيه مدع، كقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يُبْهِمُ عَلَاقَ الرَّحْمٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿تَوَقَّى الْمَلِكُ مَن كَثَبَهُ﴾ في هذا الملك قولان: أحدهما: أنه النبوة، قاله ابن جبير، ومجاهد. والثاني: أنه المال، والعييد، والحفدة، ذكره الزجاج. وقال مقاتل: ﴿تَوَقَّى الْمَلِكُ مَن كَثَبَهُ﴾، يعني محمداً وأمه، وتترجع الملك ممن تشاء، يعني فارس والروم. ﴿وَتَهَرَّجَ مَن كَثَبَهُ﴾ محمداً وأمه ﴿وَتَشَذَّلَ مَن كَثَبَهُ﴾ فارس والروم. وبماذا يكون هذا العز والذل؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: العز بالنصر، والذل بالقهر، والثاني: العز بالغنى، والذل بالفقر، والثالث: العز بالطاعة، والذل بالمعصية.

قوله تعالى: ﴿يَدْرِكُ الْغَيْرَ﴾ قال ابن عباس: يعني النصر والغنيمة، وقيل: معناه بيدك الخير والشر، فاكتفى بأحدهما، لأنه المرغوب فيه.

﴿فُلَيْحُ أَيْدٍ فِي الْفَهَارِ وَفُلَيْحُ الْفَهَارِ فِي أَيْدٍ وَتُخْرِجُ الْعَمَى مِنَ الْعَيْتِ وَتُفْرِجُ الْعَيْتَ مِنَ الْعَمَى وَتَرْزُقُ مَن كَثَبَهُ بِعَبْرٍ حِسَابٍ﴾^(١)
قوله تعالى: ﴿فُلَيْحُ أَيْدٍ فِي الْفَهَارِ﴾ أي: تدخل ما نقصت من هذا في هذا. وقال ابن عباس، ومجاهد: ما ينقص من أحدهما يدخل في الآخر. قال الزجاج: يقال: ولج الشيء يلج ولوجاً ولوجاً وولجة.

قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْعَمَى مِنَ الْعَيْتِ وَتُفْرِجُ الْعَيْتَ مِنَ الْعَمَى﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَتُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ و«الْبَلَدُ مَيْتٌ» [الاعراف: ٥٧]، و«أَوْ مَن كَانَ مَيْتًا» [الانعام: ١٢٢]، و«وَإِن يَكُن مَيْتًا» [الانعام: ١٣٩]، و«الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ» [يس: ٣٣] كله بالتخفيف. وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: ﴿وَتُخْرِجُ الْعَمَى مِنَ الْعَيْتِ وَتُفْرِجُ الْعَيْتَ مِنَ الْعَمَى﴾ و«إِلَّا بَلَدٌ مَيْتٌ» وخفف حمزة، والكسائي غير هذه الحروف. وقرأ نافع: «أَوْ مَن كَانَ مَيْتًا» و«الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ» و«لَحْمٌ أَحْيِيٌّ مَيْتًا» [الحجرات: ١٢] وخفف في سائر القرآن ما لم يمت. وقال أبو علي: الأصل التثقيب، والمخفف محذوف منه، وما مات. وما لم يمت في هذا الباب مستويان في الاستعمال. وأنشدوا:

ومنهل فيه الغراب مَيْتٌ
سَقَيْتُ مِنْهُ الْقَوْمَ اسْتَقَيْتُ
فهذا قد مات. وقال آخر:

لَيْسَ مَن مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ
إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيْتٌ الْأَحْيَاءُ^(٢)

خفف ما مات، وشد ما لم يمت. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيْتٌ وَإِنَّهُمْ مَيْتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ثم في معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إخراج الإنسان حياً من النطفة، وهي ميتة. وإخراج النطفة من الإنسان، وكذلك إخراج الفرخ من البيضة، وإخراج البيضة من الطائر، هذا قول ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، والجمهور. والثاني: أنه إخراج المؤمن الحي بالإيمان من الكافر الميت بالكفر، وإخراج الكافر الميت بالكفر من المؤمن الحي بالإيمان، روى نحو هذا الضحاك عن ابن عباس، وهو قول الحسن، وعطاء. والثالث: أنه إخراج السنبلة الحية من الحبة الميتة، والسنبلة الحية من النواة الميتة، والنواة الميتة من النخلة الحية، قاله السدي. وقال الزجاج: يخرج النبات الغض من الحب اليابس، والحب اليابس من النبات الحي النامي.

قوله تعالى: ﴿بِعَبْرٍ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير. قال الزجاج: يقال للذي ينفق موسعاً: فلان ينفق بغير حساب، كأنه لا يحسب ما أنفقه إنفاقاً.

(١) البيت نسبة في «اللسان» لعدي ابن الرعلاء وبعده:

كاسفاً باله قليل الرجاء
وأناس حلسوقهم في السماء

إنما الميت من يمشي شقيماً
فأناس يمشون ثماداً

﴿لَا يَخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْهُمْ ثَمَنًا وَيُعْزِزُكُمُ اللَّهُ فَتَنْصُرَهُمْ لِيَتَاجَرُوا فِي حُرِّ الْمَسْجِدِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن عبادة بن الصامت كان له خلفاء من اليهود، فقال يوم الأحزاب: يا رسول الله إن معي خمسمائة من اليهود، وقد رأيت أن أستظهر بهم على العدو، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في عبد الله بن أبي، وأصحابه من المنافقين كانوا يتولون اليهود، ويأتونهم بالأخبار يرجون لهم الظفر من النبي ﷺ، فنهى الله المؤمنين عن مثل فعلهم، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أن قوماً من اليهود، كانوا يباطنون نفاقاً من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فنهاهم قوم من المسلمين عن ذلك، وقالوا: اجتنبوا هؤلاء اليهود، فأبوا، فنزلت هذه الآية. روي عن ابن عباس أيضاً. والرابع: أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره، كانوا يظهرون المودة لكفار مكة، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك، هذا قول المقاتلين، ابن سليمان، وابن حبان. فأما التفسير، فقال الزجاج: معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يجعل المؤمن ولايته لمن هو غير مؤمن، أي: لا يتناول الولاية من مكان دون مكان المؤمنين، وهذا كلام جرى على المثل في المكان، كما تقول: زيد دونك، ولست تريد المكان، ولكنك جعلت الشرف بمنزلة الارتفاع في المكان، والخسة كالاستفال في المكان. ومعنى ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: فإله بريء منه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْهُمْ ثَمَنًا﴾ قرأ يعقوب، والمفضل عن عاصم «ثَمَنًا» بفتح التاء من غير ألف، قال مجاهد: إلا مضافة في الدنيا. قال أبو العالية: التقاة باللسان، لا بالعمل.

فصل

والتقية رخصة، وليست بعزيمة. قال الإمام أحمد - وقد قيل: إن عرضت على السيف تجيب؟ - قال: لا. وقال: إذا أجاب العالم تقية، والجاهل بجهل، فمتى يبين الحق؟ وسنشرح هذا المعنى في «النحل» عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ [النحل: ١٠٦]، إن شاء الله.

﴿قُلْ إِنْ تَحْفَظُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَأْكُمُ اللَّهُ وَيَكْفُرْ بِكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٩﴾﴾
قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تَحْفَظُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ قال ابن عباس: يعني اتخاذ الكافرين أولياء.
﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُضَاعَافًا وَمَا كَانَتْ مِنْ شَرٍّ قَوَدَ لَوْ أَنَّ بَيْنَهُمَا بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُعْزِزُكُمُ اللَّهُ فَتَنْصُرَهُ وَاللَّهُ زَوَّادٌ بَالِغٌ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُضَاعَافًا﴾ قال الزجاج: نصب «اليوم» بقوله: ﴿وَيُعْزِزُكُمُ اللَّهُ فَتَنْصُرَهُ﴾ في ذلك اليوم. قال ابن الأنباري: يجوز أن يكون متعلقاً بالمصير، والتقدير: وإلى الله المصير، يوم تجد. ويجوز أن يكون متعلقاً بفعل مضمر، والتقدير: اذكر يوم تجد. وفي كيفية وجود العمل وجهان: أحدهما: وجوده مكتوباً في الكتاب. والثاني: وجود الجزاء عليه. والأمد: الغاية.

قال الطرماح:

كُلُّ حَيْ مَسْتَكْمَلُ عِدَّةِ الْعَمَلِ

و مَوْجِدٌ إِذَا انْقَضَى أَمَلُهُ ^(١)

يريد: غاية أجله.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ وقف

(١) «ديوانه» ١١٢ وروايت فيه:

و مَوْجِدٌ إِذَا انْقَضَى عَمَلُهُ

كُلُّ حَيْ مَسْتَكْمَلُ عِدَّةِ الْعَمَلِ

يريد أن المرء هالك إذا انقضى عدد أيامه وأكله في هذه الحياة الدنيا.

على قریش، وقد نصبوا أصنامهم يسجدون لها، فقال: «يا معشر قريش: لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم»، فقالوا: يا محمد إنما نعبد هذه حياً لله، ليقربونا إلى الله زلفى. فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس^(١). والثاني: أن اليهود قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فنزلت هذه الآية، فعرضها النبي ﷺ عليهم، فلم يقبلوها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أن ناساً قالوا: إنا لنحب ربنا حياً شديداً، فأحب الله أن يجعل لحبه علماً، فنزلت هذه الآية، قاله الحسن، وابن جريج. والرابع: أن نصارى نجران، قالوا: إنما نقول هذا في عيسى حياً لله، وتعظيماً له، فنزلت هذه الآية، ذكره ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، واختاره أبو سليمان الدمشقي.

﴿قُلْ أَلَيْسُوا اللَّهُ وَالرَّسُولُ فَإِنْ قَوْلَا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَلَيْسُوا اللَّهُ وَالرَّسُولُ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن عبد الله بن أبي قال لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله، وبأمرنا أن نحبه كما أحببت النصارى عيسى ابن مريم، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس. والثاني: أن النبي ﷺ دعا اليهود إلى الإسلام، فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أشد حياً لله مما تدهوننا إليه، فنزلت: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ ونزلت هذه الآية، هذا قول مقاتل. والثالث: أنها نزلت في نصارى نجران، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿إِنَّ اللَّهَ اسْتَلَفَ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اسْتَلَفَ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قال ابن عباس: قالت اليهود: نحن أبناء إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونحن على دينهم، فنزلت هذه الآية. قال الزجاج: ومعنى اصطفاهم في اللغة: اختارهم، فجعلهم صفوة خلقه، وهذا تمثيل بما يرى، لأن العرب تمثل المعلوم بالشيء المرئي، فإذا سمع السامع ذلك المعلوم كان عنده بمنزلة ما يشاهد عياناً، فنحن نُعابن الشيء الصافي أنه النقي من الكدر، فكذلك صفوة الله من خلقه. وفيه ثلاث لغات: صفوة، وصفوة، وصفوة. وأما آدم فعربي، وقد ذكرنا اشتقاقه في «البقرة». وأما نوح، فأعجمي مُعرب، قال أبو سليمان الدمشقي: اسم نوح: السكن، وإنما سمي نوحاً، لكثرة نوحه. وفي سبب نوحه خمسة أقوال: أحدها: أنه كان ينوح على نفسه، قاله يزيد الرقاشي. والثاني: أنه كان ينوح لمعاصي أهله، وقومه. والثالث: لمراجعته ربه في ولده. والرابع: لدعائه على قومه بالهلاك. والخامس: أنه مر بكلب مجذوم، فقال: اخساً يا قبيح، فأوحى الله إليه: أعبتني يا نوح، أم عبت الكلب؟ وفي آل إبراهيم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من كان على دينه، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: أنهم إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، قاله مقاتل. والثالث: أن المراد «آل إبراهيم» هو نفسه، كقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا كَرَّمَكَ مَالٌ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، ذكره بعض أهل التفسير. وفي «عمران» قولان: أحدهما: أنه والد مريم، قاله الحسن، وهب. والثاني: أنه والد موسى، وهارون، قاله مقاتل. وفي «آله» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه عيسى ﷺ، قاله الحسن. والثاني: أن آل موسى وهارون، قاله مقاتل. والثالث: أن المراد بـ«آله» نفسه، ذكره بعض المفسرين، وإنما خص هؤلاء الذكر، لأن الأنبياء كلهم من نسلهم. وفي معنى اصطفاهم هؤلاء المذكورين ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد اصطفاي دينهم على سائر الأديان، قاله ابن عباس، واختاره الفراء، والدمشقي. والثاني: اصطفاهم بالنبوة، قاله الحسن، ومجاهد، ومقاتل. والثالث: اصطفاهم بتفضيلهم في الأمور التي ميزهم بها على أهل زمانهم. والمراد بـ«العالمين»: عالمو زمانهم، كما ذكرنا في «البقرة».

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال الزجاج: نضبها على البدل، والمعنى: اصطفاي ذرية بعضها من بعض. قال ابن الأنباري: وإنما قال: بعضها، لأن لفظ الذرية مؤنث، ولو قال: بعضهم، ذهب إلى معنى الذرية. وفي معنى هذه البعضية قولان: أحدهما: أن بعضهم من بعض في التناثر والدين، لا في التناسل، وهو معنى قول ابن عباس،

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» من طريق جوير، عن الضحاك، عن ابن عباس. وجوير، هو أبو القاسم البلخي، نزيل الكوفة، روى التفسير، قال الحافظ في «التدريب»: ضعيف جداً.

وقتادة. والثاني: أنه في التسلسل، لأن جميعهم ذرية آدم، ثم ذرية نوح، ثم ذرية إبراهيم، ذكره بعض أهل التفسير. قال أبو بكر النقاش: ومعنى قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أن الأبناء ذرية للأباء، والآباء ذرية للأبناء، كقوله تعالى: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، فجعل الآباء ذرية للأبناء، وإنما جاز ذلك، لأن الذرية مأخوذة من: ذرأ الله الخلق، فسمي الولد للوالد ذرية، لأنه ذرئ منه، وكذلك يجوز أن يقال للآب: ذرية لابن، لأن ابنه ذرئ منه، فالفعل يتصل به من الوجهين، ومثله: ﴿يُحْيِيهِمْ كَحِسَبِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأضاف الحب إلى الله، والمعنى: كحب المؤمن لله، ومثله ﴿وَيُطَيِّرُنَ الْفَلَّامَ عَلَى حَبِيبٍ﴾ [الذمر: ٤٨]، فأضاف الحب للطعام.

﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ أَسْمِعُ الْغَلِيظَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ في «إذ» قولان: أحدهما: أنها زائدة، واختاره أبو عبيدة، وابن قتيبة. والثاني: أنها أصل في الكلام. وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: أذكر إذ قالت امرأة عمران، قاله المبرد، والأخفش. والثاني: أن العامل في «إذ» قالته معنى الاصطفاء، فيكون المعنى: اصطفى آل عمران، إذ قالت امرأة عمران، واصطفاهم إذا قالت الملائكة: يا مريم، هذا اختيار الزجاج. والثالث: أنها من صلة «سميع» تقديره: والله سميع إذ قالت، وهذا اختيار ابن جرير الطبري. قال ابن عباس: واسم امرأة عمران حنة، وهي أم مريم، وهذا عمران بن ماثان^(١)، وليس: «عمران أبي موسى» ولست هذه مريم أخت موسى. وبين عيسى وموسى ألف وثمانمائة سنة. والمحرَّر: العتيق. قال ابن قتيبة: يقال: أعتقت الغلام، وحررته: سواء. وأرادت: أي نذرت أن أجعل ما في بطني محرراً من التعبد للدينا، ليعبدك. وقال الزجاج: كان على أولادهم فرضاً أن يطيعوهم في نذرهم، فكان الرجل ينذر في ولده أن يكون خادماً في متعبدهم. وقال ابن إسحاق: كان السبب في نذرها أنه أمسك عنها الولد حتى أسنت، فرأت طائراً يطعم فرخاً له، فدعت الله أن يهب لها ولداً، وقالت: اللهم لك عليّ إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس، فحملت بمریم، وهلك عمران. وهي حامل. قال القاضي أبو يعلى: والنذر في مثل ما نذرت صحيح في شريعتنا، فإنه إذا نذر الإنسان أن ينشئ ولده الصغير على عبادة الله وطاعته، وأن يعلمه القرآن، والفقه، وعلوم الدين، صح النذر.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَلَئِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُهَيِّئُهَا بِطَعْنٍ وَأُورِيهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم إلا حفصاً ويعقوب «بِمَا وَضَعْتُ» بإسكان العين، وضم التاء. وقرأ الباقون بفتح العين، وجزم التاء، قال ابن قتيبة: من قرأ بجزم التاء، وفتح العين، فيكون في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: إني وضعتها أنثى، وليس الذكر كالأنثى، والله أعلم بما وضعت. ومن قرأ بضم التاء، فهو كلام متصل من كلام أم مريم.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ من تمام اعتذارها، ومعناه: لا تصلح الأنثى لما يصلح له الذكر، من خدمته المسجد، والإقامة فيه، لما يلحق الأنثى من الحيض والنفاس. قال السدي: ظنت أن ما في بطنها غلام، فلما وضعت جارية، اعتذرت. ومريم: اسم أعجمي. وفي الرجيم قولان: أحدهما: الملعون، قاله قتادة. والثاني: أنه المرجوم بالحجارة، كما تقول: قتل بمعنى مقتول، قاله أبو عبيدة، فعلى هذا سُمي رجيماً، لأنه يرمى بالنجوم.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَوْنَهَا رُحْنًا كَمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِثًا قَالَ يَمْرِؤُكَ أَنَّ لَرُبِّ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قرأ مجاهد (فتقبلها) بسكون اللام (رُبُّهَا) بنصب الباء (وَأَنْبَتَهَا) بكسر الباء وسكون التاء على معنى الدعاء قال الزجاج: الأصل في العربية: فتقبلها بتقبل حسن، ولكن «قبول» محمول على قبلها

قبولاً يقال: قبلت الشيء قبُولاً، ويجوز قبُولاً: إذا رضيت. ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، أي: جعل نشوءها نشوءاً حسناً، وجاء «نباتاً» على غير لفظ أنبت، على معنى: نبتت نباتاً حسناً. وقال ابن الأنباري: لما كان «أنبت» يدل على «نبت» حمل الفعل على المعنى، فكانه قال: وأنبتها، فنبتت هي نباتاً حسناً. قال امرؤ القيس:

فصرنا إلى الحسنى ورقاً كلامنا
ورضتُ فذلتُ صعبةً أيّ إذلال^(١)

أراد: أي رياضة، فلما دل «رضت» على «أذلت» حمله على المعنى. وللمفسرين في معنى النبات الحسن، قولان. أحدهما: أنه كمال النشوء، قال ابن عباس: كانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام، والثاني: أنه ترك الخطايا. قال قتادة: حدثنا أنها كانت لا تصيب الذنوب، كما يصيب بنو آدم.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «وكفلها» بفتح الفاء خفيفة، و«زكرياء» مرفوع ممدود. وروى أبو بكر عن عاصم: تشديد الفاء، ونصب «زكرياء»، وكان يمد «زكرياء» في كل القرآن في رواية أبي بكر. وروى حفص عن عاصم: تشديد الفاء و«زكريا» مقصورة في كل القرآن. وكان حمزة والكسائي يشددان «وكفلها»، ويقصران «زكريا» في كل القرآن. فأما «زكريا» فقال الفراء: فيه ثلاث لغات: أهل الحجاز يقولون: هذا زكريا قد جاء، مقصور، وزكرياء، ممدود، وأهل نجد يقولون: زكري، فيجرونه، ويلقون الألف. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، عن ابن دريد، قال: زكري اسم أعجمي، يقال: زكريئ، وزكرياء ممدود، وزكريا مقصور. وقال غيره: وزكري بتخفيف الياء، فمن قال: زكرياء بالمد، قال في التثنية: زكرياوان، وفي الجمع زكرياؤون، ومن قال: زكريا بالقصر، قال في التثنية زكريان، كما تقول: مديان، ومن قال: زكري بتخفيف الياء، قال في التثنية: زكريان - الياء خفيفة، وفي الجمع: زكرون - بطرح الياء.

الإشارة إلى كفالة زكريا مريم

قال السدي: انطلقت بها أمها في خرقتها، وكانوا يقترعون على الذين يؤتون بهم، فقال زكريا وهو نبيهم يومئذ: أنا أحقكم بها، عندي أختها، فأبوا، وخرجوا إلى نهر الأردن، فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها، فجرت الأقلام، ووثبت قلم زكريا، فكفلها. قال ابن عباس: كانوا سبعة وعشرين رجلاً، فقالوا: نطرح أقلامنا، فمن سعد قلمه مغالباً للجرية فهو أحق بها، فصعد قلم زكريا، فعلى هذا القول كانت غلبة زكريا بمساعدة قلمه، وعلى قول السدي بوقوفه في جريان الماء. وقال مقاتل: كان يغلغ عليه الباب، ومعه المفتاح، لا يأمن عليه أحداً، وكانت إذا حاضت، أخرجها إلى منزله تكون مع أختها أم يحيى، فإذا طهرت، ردها إلى بيت المقدس. والأكثرون على أنه كفلها منذ كانت طفلة بالقرعة. وقد ذهب قوم إلى أنه كفلها عند طفولتها بغير قرعة، لأجل أن أمها ماتت، وكانت خالتها عنده، فلما بلغت، أدخلوها الكنيسة لنذر أمها، وإنما كان الاقتراع بعد ذلك بمدة، لأجل سنة أصابتهم. فقال محمد بن إسحاق: كفلها زكريا إلى أن أصابت الناس سنة، فشكا زكريا إلى بني إسرائيل ضيق يده، فقالوا: ونحن أيضاً كذلك، فجعلوا يتدافعونها حتى اقترعوا، فخرج السهم على جريج النجار، وكان فقيراً، وكان يأتيها بالسير، فيمنى، فدخل زكريا، فقال: ما هذا على قدر نفقة جريج؟ فمن أين هذا؟ قالت: هو من عند الله. والصحيح ما عليه الأكثرون، وأن القوم تشاحوا على كفالتها، لأنها كانت بنت سيدهم وإمامهم عمران، كذلك قال قتادة في آخرين، وأن زكريا ظهر عليهم بالقرعة منذ طفولتها. فأما المحراب، فقال أبو عبيدة: المحراب سيد المجالس، ومقدمها، وأشرفها، وكذلك هو من المسجد. وقال الأصمعي: المحراب هائنا: الغرفة. وقال الزجاج: المحراب في اللغة: الموضع العالي الشريف.

(١) «ديوانه» ص ٣٢. وصرنا إلى الحسنى. أي: لما نحب من الأمور. ورق كلامنا: أي: صرنا إلى الصبا وجد اللعب واللهو والغزل، فلم نرفع أصواتنا لئلا يشعر بنا. ورضت فقلت: بعد امتناع وصعوبة. والمعنى: ليبتها بالكلام والمدارة، كما يراض البعير بالسير حتى يذل. وقوله: أيّ إذلال، محمول على: رضت، لأن معناه: أذلت.

قال الشاعر:

رِيَّةٌ مُحْرَابٌ إِذَا جُنِثْتَهَا

لَمْ أَلْقَهَا أَوْ أُرْتَقِي سَلْمًا^(١)

قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال ابن عباس: ثمار الجنة، فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، وهذا قول الجماعة.

قوله تعالى: ﴿أَنْ لَكَ هَذَا﴾ أي: من أين؟ قال الربيع بن أنس: كان زكريا إذا خرج، أغلق عليها سبعة أبواب، فإذا دخل وجد عندها رزقاً. وقال الحسن: لم ترتضع ثدياً قط، وكان يأتيها رزقها من الجنة، فيقول زكريا: أنى لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله، فتكلمت وهي صغيرة. وزعم مقاتل أن زكريا استأجر لها ظئراً، وعلى ما ذكرنا عن ابن إسحاق يكون قوله لها: أنى لك هذا؟ لاستكثار ما يرى عندها. وما عليه الجمهور أصح. والحساب في اللغة: التقدير والتضييق.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ قال المفسرون: لما عين زكريا هذه الآية العجيبة من رزق الله تعالى مريم الفاكهة في غير حينها، طمع في الولد على الكبر. ﴿وَمِنْ لَدُنْكَ﴾ بمعنى: من عندك. والذرية، تقال للجمع، وتقال للواحد، والمراد بها هاهنا: الواحد. قال الفراء: وإنما قال طيبة، لتأنيث الذرية، والمراد بالطيبة: النقية الصالحة. والسميع: بمعنى السامع. وقيل: أراد مجيب الدعاء.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُعَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيِّنِينَ مُصَدِّقًا لِمَقْوَدٍ مِنْ اللَّهِ وَحَصُورًا نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمر، وابن عامر: «فنادته» بالياء، وقرأ حمزة، والكسائي: «فناداه» بألف مائلة، قال أبو علي: هو كقوله تعالى: ﴿رَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: ٢٠]. وقرأ علي، وابن مسعود، وابن عباس: «فناداه» بألف. وفي الملائكة قولان: أحدهما: جبريل وحده، قاله السدي، ومقاتل، ووجهه أن العرب تخبر عن الواحد بلفظ الجمع، تقول: ركبت في السفن، وسمعت هذا من الناس. والثاني: أنهم جماعة من الملائكة، وهو مذهب قوم، منهم ابن جرير الطبري. وفي المحراب قولان: أحدهما: أنه المسجد. والثاني: أنه قبلة المسجد. وفي تسمية محراب الصلاة محراباً، ثلاثة أقوال: أحدها: لانفراد الإمام فيه، ويُعده من الناس، ومنه قولهم: فلان حرب لفلان: إذا كان بينهما باغضة، وتباعد، ذكره ابن الأنباري عن أبيه، عن أحمد بن عبيد. والثاني: أن المحراب في اللغة أشرف الأماكن، وأشرف المسجد مقام الإمام. والثالث: أنه من الحرب فالمصلي محارب للشيطان.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيِّنِينَ﴾ قرأ الأكثرون بفتح الألف على معنى: فنادته الملائكة بأن الله، فلما حذف الجار منها، وصل الفعل إليها، فنصبها. وقرأ ابن عامر، وحمزة، بكسر «إِنَّ» فأضمر القول. والتقدير: فنادته، فقالت: إن الله يبشرك. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: يبشرك بضم الباء: وفتح الباء، والتشديد في جميع القرآن إلا في ﴿حَدَّ ۝ عَسَى ۝﴾: ﴿يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ [النورى: ٢٣] فإنهما فتحا الباء وضمما الشين، وخففاها. فأما نافع، وابن عامر، وعاصم، فشددوا كل القرآن. وقرأ حمزة: «يبشرك» خفيفاً في كل القرآن، إلا قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُنَّ﴾ [الحجر: ٥٤]. وقرأ الكسائي «يبشرك» مخففة في خمسة مواضع، في (آل عمران) في قصة زكرياء، وقصة مريم، في (بني إسرائيل)، وفي (الكهف) وفي (حم عسق) قال الزجاج: وفي «يبشرك» ثلاث لغات: أحدها: «يبشرك»، بفتح الباء وتشديد الشين. والثاني: «يبشرك» بإسكان الباء، وضم الشين. والثالثة: «يبشرك» بضم الباء، وإسكان الباء، فمعنى «يبشرك» بالتشديد و«يبشرك» بضم الباء: البشارة. ومعنى «يبشرك» بفتح الباء: يَسْرُكُ ويفرحك، يقال: بَشَرْتُ الرجل أَبَشْرُهُ،: إذا أفرحته، وبشرك الرجل يَبْشُرُ: إذا فرح.

وأشد الأخش والكسائي:

وإذا لقيت الباهسين إلى العلى
فأعنهم وابشرو بما بشروا به

عُبْرًا أَكْفُهُمْ بِقَاعِ مُمَجَّلٍ
وإذا هُم نزلوا بضنك فانزل^(١)

فهذا على بشر يشر: إذا فرح. وأصل هذا كله أن بشرة الإنسان تبتسط عند السرور، ومنه قولهم: يلقاني بشر. أي: بوجه منبسط، وفي معنى تسميته «يحيى» خمسة أقوال: أحدها: لأن الله تعالى أحيا به عمر أمه، قاله ابن عباس. والثاني: لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان، قاله قتادة. والثالث: لأنه أحياه بين شيخ وعجوز، قاله مقاتل. والرابع: لأنه حيي بالعلم والحكمة التي أوتيتها، قاله الزجاج. والخامس: لأن الله أحياه بالطاعة، فلم يعص، ولم يهيم، قاله الحسن بن الفضل. وفي «الكلمة» قولان: أحدهما: أنها عيسى، وسمي كلمة، لأنه بالكلمة كان، وهي «كن» وهذا قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وفتادة، والسدي، ومقاتل. وقيل: إن يحيى كان أكبر من عيسى بستة أشهر، وقتل يحيى قبل رفع عيسى. والثاني: أن الكلمة كتاب الله وآياته، وهو قول أبي عبيدة في آخرين. ووجه أن العرب تقول: أنشدني فلان كلمة، أي: قصيدة. وفي معنى السيد ثمانية أقوال: أحدها: أنه الكريم على ربه، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنه الحلیم التقي، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الضحاك. والثالث: أنه الحكيم، قاله الحسن، وسعيد بن جبیر، وعكرمة، وعطاء، وأبو الشعثاء، والربيع، ومقاتل. والرابع: أنه الفقيه العالم، قاله سعيد بن المسيب. والخامس: أنه التقي، رواه سالم عن ابن جبیر. والسادس: أنه الحَسَنُ الخلق، رواه أبو روق عن الضحاك. والسابع: أنه الشريف، قاله ابن زيد. والثامن: أنه الذي يفوق قومه في الخير، قاله الزجاج. وقال ابن الأنباري: السيد هاهنا الرئيس، والإمام في الخير. فأما «الحصيرة» فقال ابن قتيبة: هو الذي لا يأتي النساء، وهو فعول بمعنى مفعول، كأنه محصور عنهن، أي: محبوس عنهن. وأصل الحصر: الحبس. ومما جاء على «فعلول» بمعنى «مفعول»: ركوب بمعنى مركوب، وحلوب بمعنى محلوب، وهيوب بمعنى مهيب. واختلف المفسرون لماذا كان لا يأتي النساء؟ على أربعة أقوال: أحدها: أنه لم يكن له ما يأتي به النساء، فروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا» قال: ثم دلى رسول الله ﷺ يده إلى الأرض، فأخذ عوداً صغيراً، ثم قال: «وذلك أنه لم يكن له ما للرجال إلا مثل هذا العود، ولذلك سماه الله سيداً وحضوراً»^(٢) وقال سعيد بن المسيب: كان له كالنواة. والثاني: أنه كان لا ينزل الماء، قاله ابن عباس، والضحاك. والثالث: أنه كان لا يشتهي النساء، قاله الحسن، وفتادة، والسدي. والرابع: أنه كان يمنع نفسه من شهواتها، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ مِنَ الْمَكِيلِينَ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: من الصالحين الحال عند الله.

﴿قَالَ رَبِّ أَلَيْسَ لِي بِكَؤُوفٍ عَلِيمٌ﴾ وَقَدْ بَلَغَنِي الْعُكْبُرُ وَأَمْرَانِي عَاقِبَةٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَقَعْلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَلَيْسَ لِي بِكَؤُوفٍ عَلِيمٌ﴾ أي: كيف يكون؟!.

قال الكمي:

أَتَى وَمِنْ أَيْسَنِ أَبْنِكَ الطَّرْبُ^(٣)

(١) البيتان لمجد قيس بن خفاف البرجمي من قصيدة حكيمية أثبتها صاحب «الأصمعيات» رقم ٨٧، و«المفضليات» رقم ١١٦. يهش إلى الشيء: فرح به فأسرع إليه. القاع: أرض سهلة مستوية تنفرج عنها الجبال والأكام، ولا حصى فيها ولا حجارة، ولا تنبت الشجر. الممحل: المجدب. يقول: إذا رأيت الكرام الأسخياء، قد أجهدتهم السنة، والقحط، والجذب، حتى اغبرت أيديهم من قلة ما يجدون، وكثرة ما بدلوا في معونة الناس فأعتهم. وأبشرو من: بشر على وزن فرح يبشرو، يقال: أتاني أمر بشرت به، أي: سررت به. يقول: شاركهم في ارتياحهم، وفرحهم بالسخاء مع ما يلقون من جهد السنة. الضنك: الضيق. يقول: كن مع الكرام حيث كانوا، وأزل معهم كل منزل أنزلهموه كرمهم، من ضنك، وحاجة.

(٢) رواه ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم مرفوعاً وموقوفاً، ووصف ابن كثير المرفوع بأنه غريب جداً، وقال: الموقوف أصح إسناداً من المرفوع، وكذلك ذكر السيوطي في «الدر المنثور» المرفوع والموقوف، وقال: الموقوف أقوى إسناداً من المرفوع.

(٣) تعامه: من حيث لا صبرة ولا ريب. وهو مطلع قصيدة له يمدح بها رسول الله ﷺ. أبك: جارك وعشيك، وهو فعل ماضٍ من الأوب. الطرب: خفة من فرح أو حزن، والمراد الأول. الصبا: الصبي والشوق. الريب: جمع ريبة، وهي الشبهة. يقول: كيف طربت مع كبير سنك من حيث لا يوجد الطرب ومواضعه؟ الصبرة للفرح، والريب للحزن.

قال العلماء، منهم الحسن، وابن الأنباري، وابن كيسان: كأنه قال: من أي وجه يكون لي الولد؟ أيكون بإزالة العقر عن زوجتي، وردة شبابي؟ أم يأتي ونحن على حالنا؟ فكان ذلك على سبيل الاستعلام، لا على وجه الشك. قال الزجاج: يقال: غلام بين الغلوميّة، وبين الغلاميّة، وبين الغلومة. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: الغلام: فعال، من العُلْمَة، وهي شدة شهوة النكاح. ويقال للكهل: غلام.

قالت ليلي الأخيلية تمدح الحجاج:

غلام إذا هزّ القنّاة سقاها^(١)

.....

وكان قولهم للكهل: غلام، أي: قد كان مرة غلاماً. وقولهم للطفل: غلام على معنى التناول، أي: سيصير غلاماً. قال: وقيل: الغلام الطار الشارب، ويقال للجارية غلامة. قال الشاعر:

يهان لها الغلامة والغلام^(٢)

.....

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ الْكَبَرَ﴾ أي: وقد بلغت الكبر، قال الزجاج: كل شيء بلغته فقد بلغك. وفي سنة يؤمّنذ ستة أقوال: أحدها: أنه كان ابن مائة وعشرين سنة، امرأته بنت ثمان وتسعين سنة، قاله ابن عباس. والثاني: أنه كان ابن بضع وسبعين سنة، قاله قتادة. والثالث: ابن خمس وسبعين، قاله مقاتل. والرابع: ابن سبعين، حكاه فضيل بن غزوان. والخامس: ابن خمس وستين. والسادس: ابن ستين، حكاهما الزجاج. قال اللغويون: والعاقر من الرجال والنساء: الذي لا يأتيه الولد، وإنما قال: «عاقر»، ولم يقل: عاقرة، لأن الأصل في هذا الوصف للمؤنث، والمذكر فيه كالمستعار، فأجري مجرى «طالق» و«حائض» هذا قول الفراء.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِآلَمِنِيِّ وَإِلِيمِ الْبَيْتِ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة على وجود الحمل. وفي علة سؤاله «آية» قولان: أحدهما: أن الشيطان جاءه، فقال: هذا الذي سمعت من صوت الشيطان، ولو كان من وحى الله، لأوحاه إليك، كما يوحي إليك غيره، فسأل الآية، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: أنه إنما سأل الآية على وجود الحمل ليبادر بالشكر، وليتجمل السرور، لأن شأن الحمل لا يتحقق بأوله، فجعل الله آية وجود الحمل حبس لسانه ثلاثة أيام. فأما «الرمز» فقال الفراء: الرمز بالشفقتين، والحاجبين، والعينين، وأكثره في الشفتين. قال ابن عباس: جعل يكلم الناس بيده. وإنما منع من مخاطبة الناس، ولم يحبس عن الذكر لله تعالى. وقال ابن زيد: كان يذكر الله، ويشير إلى الناس. وقال عطاء بن السائب: اعتقل لسانه من غير مرض. وجمهور العلماء على أنه إنما اعتقل لسانه آية على وجود الحمل. وقال قتادة، والربيع بن أنس: كان ذلك عقوبة له إذ سأل الآية بعد مشافهة الملائكة بالبشارة.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ﴾ قال مقاتل: صل. قال الزجاج: يقال: فرغت من سبحتي، أي: من صلاتي. وسميت الصلاة تسيحاً، لأن التسيح تعظيم الله، وتبرئته من سوء، فالصلاة يوصف فيها بكل ما يبرئه من سوء. قوله تعالى: ﴿بِآلَمِنِيِّ الْعِشِيِّ﴾ من حين نزول الشمس إلى آخر النهار ﴿وَإِلِيمِ الْبَيْتِ﴾: ما بين طلوع الفجر إلى وقت الضحى: قال الشاعر:

فلا الظلّ في برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد الشعبي يذوق^(٣)

قال الزجاج: يقال: أبكر الرجل يبكر إيكاراً، وبكر يبكر تكبيراً، وبكر يبكر؛ في كل شيء تقدم فيه.

(١) الأماي ٨٦/١: وصدرة: شفاها من الداء المضال الذي بها. وقيله:

إذا مضط الحجاج أرضاً مريضة

(٢) هو عجز بيت من قصيدة لأوس بن خلف الهجيمي، وصدرة:

ومركضة صريح أبيوها

(٣) البيت لحميد بن ثور الهلالي: الديوان ص ٣٣. وهو من قصيدته الغزلية الجيدة التي قالها لما تقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشعراء: ألا يشب أحد بامرأة إلا جلده، فخرج من عقوبة عمر بأن ذكر «مرحقة» وسماها سرحة ملك. ورواية البيت في الديوان:

فلا الظلّ منها بالضحى تستطيعه ولا الفيء منها بالشعبي تذوق

﴿وَاذْكُرْ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي بُدِئَ بِمَرْيَمَ إِذْ نَسَتْهُ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي بُدِئَ بِمَرْيَمَ إِذْ نَسَتْهُ عَلِيمٌ﴾ قال جماعة من المفسرين: المراد بالملائكة: جبريل وحده. وقد سبق معنى الاصطفاء. وفي المراد بالتطهير هاهنا أربعة أقوال. أحدها: أنه التطهير من الحيض، قاله ابن عباس. وقال السدي: كانت مريم لا تحيض. وقال قوم: من الحيض والنفس. والثاني: من مس الرجال، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: من الكفر، قاله الحسن، ومجاهد. والرابع: من الفاحشة والإثم، قاله مقاتل. وفي هذا الاصطفاء الثاني أربعة أقوال: أحدها: أنه تأكيد للأول. والثاني: أن الأول للعبادة، والثاني: لولادة عيسى عليه السلام. والثالث: أن الاصطفاء الأول اختيار مبهم، وعموم يدخل فيه صوالح من النساء، فأعاد الاصطفاء لتفضيلها على نساء العالمين. والرابع: أنه لما أطلق الاصطفاء الأول، أبان بالثاني أنها مصطفاة على النساء دون الرجال. قال ابن عباس، والحسن وابن جريج: اصطفاهما على عالمي زمانها. قال ابن الأنباري: وهذا قول الأكثرين^(١).

﴿يَمْرُؤًا أَقْنَىٰ لِرَبِّكِ وَاسْتَجَابَىٰ لِوَجْهِ رَبِّكِ﴾

قوله تعالى: ﴿يَمْرُؤًا أَقْنَىٰ لِرَبِّكِ وَاسْتَجَابَىٰ لِوَجْهِ رَبِّكِ﴾ قد سبق شرح القنوت في «البقرة»، وفي المراد به هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنه العبادة، قاله الحسن. والثاني: طول القيام في الصلاة، قاله مجاهد. والثالث: الطاعة، قاله قتادة، والسدي، وابن زيد. والرابع: الإخلاص، قاله سعيد بن جبيرة. وفي تقديم السجود على الركوع أربعة أقوال: أحدها: أن الواو لا تقتضي الترتيب، وإنما تؤذن بالجمع، فالركوع مقدم، قاله الزجاج في آخرين. والثاني: أن المعنى استعملي السجود في حال، والركوع في حال، لا أنهما يجتمعان في ركعة، فكانه حث لها على فعل الخير. والثالث: أنه مقدم ومؤخر، والمعنى: اركعي واسجدي، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَكِّلٌ وَرَافِعٌ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ذكرهما ابن الأنباري. والرابع: أنه كذلك كان في شريعتهم تقديم السجود على الركوع، ذكره أبو سليمان الدمشقي. قال مقاتل: ومعناه: اركعي مع المصلين قراء بيت المقدس. قال مجاهد: سجدت حتى قرحت.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ النَّبِيِّ نُوحِيَ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا وَمِنْ أَمْرِهِمْ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ النَّبِيِّ﴾ «ذلك» إشارة إلى ما تقدم من قصة زكرياء، ويحيى، وعيسى، ومريم. والأنباء: الأخبار. والغيب: ما غاب عنك. والوحي: كل شيء دلت به من كلام، أو كتاب، أو إشارة، أو رسالة، قاله ابن قتيبة. والوحي في القرآن على أوجه تراها في كتابنا الموسوم بـ «الوجوه والنظائر» موقفة. وفي الأقلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنها التي يكتب بها، قاله ابن عباس، وابن جبير، والسدي. والثاني: أنها العصي، قاله الربيع بن أنس. والثالث: أنها القداح، وهو اختيار ابن قتيبة، وكذلك قال الزجاج: هي قداح جعلوا عليها علامات يعرفونها على جهة القرعة. وإنما قيل للسهم: القلم، لأنه يقلم، أي: يبرى. وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء، فقد قلمته، ومنه القلم الذي يكتب به، لأنه قلم مرة بعد مرة، ومنه: قلمت إلفظاري. قال: ومعنى: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ لينظروا أيهم تجب له كفالة مريم، وهو الضمان للقيام بأمرها. ومعنى: ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم. وقد سبق شرح كفالتهم لها آنفاً. وفي المراد بالكلمة هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قول الله له: «كن» فكان، قاله ابن عباس، وقاتادة. والثاني: أنها بشارة الملائكة مريم بعيسى، حكاه أبو سليمان. والثالث: أن الكلمة اسم لعيسى، وسمي كلمة، لأنه كان عن الكلمة. وقال القاضي أبو يعلى: لأنه يهتدى به كما يهتدى بالكلمة من الله تعالى. وفي تسميته بالمسيح ستة أقوال: أحدها: أنه لم يكن لقدمه أخمص، والأخمص: ما يتجافى عن الأرض من باطن القدم، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: أنه كان لا يمسح

(١) قال الحافظ ابن حجر ٣٣٩/٦ في قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْنَاكَ عَلَىٰ نَسْوِكَ الْكَاذِبِينَ﴾ وظهر أن مريم أفضل من جميع النساء، وهذا لا يمتنع عند من يقول: إنها نبيه، وأما من قال: ليست نبيه فيحمل على عالمي زمانها، وبالأول جزم الزجاج وجماعة، واختاره القرطبي، ويحتمل أيضاً أن يراد نساء بني إسرائيل أو نساء تلك الأمة.

بيده ذا عاهة إلا برا، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه مسح بالبركة، قاله الحسن، وسعيد. والرابع: أن معنى المسيح: الصديق، قاله مجاهد، وإبراهيم النخعي، وذكره اليزيدي. قال أبو سليمان الدمشقي: ومعنى هذا أن الله مسحه، فظهره من الذنوب. والخامس: أنه كان يمسح الأرض أي: يقطعها، ذكره ثعلب. وبيانه: أنه كان كثير السياحة. والسادس: أنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، قاله أبو سليمان الدمشقي، وحكاه ابن القاسم. وقال أبو عبيد: المسيح في كلام العرب على معنيين: أحدهما: المسيح الدجال، والأصل فيه: الممسوح، لأنه ممسوح أحد العينين. والمسيح عيسى، وأصله بالعبرانية «مسيحا» بالشين، فلما عربته العرب، أبدلت من شينه سيناً، كما قالوا: موسى، وأصله بالعبرانية موسى. قال ابن الأنباري: وإنما بدأ بلقبه، فقال: المسيح عيسى ابن مريم، لأن المسيح أشهر من عيسى، لأنه قل أن يقع على سمي يشته به، وعيسى قد يقع على عدد كثير، فقدمه لشهرته، ألا ترى أن ألقاب الخلفاء أشهر من أسمائهم. فأما قوله: عيسى ابن مريم، وإنما نسه إلى أمه، لينفي ما قال عنه الملحدون من النصارى، إذ أضافوه إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجِبَاهَا﴾ قال ابن زيد: الوجيه في كلام العرب: المحبب المقبول. وقال ابن قتيبة. الوجيه: ذو الجاه. وقال الزجاج: هو ذو المنزلة الرفيعة عند ذوي القدر والمعرفة، يقال: قد وجّه الرجل يوجه وجهه، ولفلان جاه عند الناس، أي: منزلة رفيعة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال قتادة: عند الله يوم القيامة. والمهد: مضجع الصبي في رضاعه، وهو مأخوذ من التمهيد، وهو التوطئة. وفي تكليمه للناس في تلك الحال قولان: أحدهما: لتبرئة أمه مما قذفت به. والثاني: لتحقيق معجزته الدالة على نبوته. قال ابن عباس: تكلم ساعة من مهده، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغ النطق. ﴿وَكَهَلًا﴾ قال: ابن ثلاثين سنة أرسله الله تعالى، فمكث في رسالته ثلاثين شهراً، ثم رفعه الله. وقال وهب بن منبه: جاءه الوحي على رأس ثلاثين سنة، فمكث في نبوته ثلاث سنين، ثم رفعه الله. قال ابن الأنباري كان ﷺ قد زاد على الثلاثين، ومن أربى عليها، فقد دخل في الكهولة. والكهل عند العرب: الذي قد جاوز الثلاثين، وإنما سمي الكهل كهلاً، لاجتماع قوته، وكمال شبابه، وهو من قولهم: قد اكتهل النبات. وقال ابن فارس: الكهل: الرجل حين وخطه الشيب. فإن قيل: قد علم أن الكهل يتكلم، فعنه ثلاثة أجوبه: أحدها: أن هذا الكلام خرج مخرج البشارة بطول عمره، أي: أنه يبلغ الكهولة. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: ﴿وَكَهَلًا﴾ قال: ذلك بعد نزوله من السماء. والثاني: أنه أخبرهم أن الزمان يؤثر فيه، وأن الأيام تنقله من حال إلى حال، ولو كان إلهاً لم يدخل عليه هذا التغيير، ذكره ابن جرير الطبري. والثالث: أن المراد بالكهل: الحليم، قاله مجاهد.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَلَيْسَ لِي بِذَلِكَ آيَةٌ أَنِّي كُنْتُ أَهْلًا لِمَا يَخْلُقُ اللَّهُ فَمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضَعْنَا أَثَرًا فَلَنَمَّا يَقُولُ لَكُم مِّنْ فَكْرُونَ﴾^(١١٧) قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَلَيْسَ لِي بِذَلِكَ آيَةٌ أَنِّي كُنْتُ أَهْلًا لِمَا يَخْلُقُ اللَّهُ فَمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضَعْنَا أَثَرًا فَلَنَمَّا يَقُولُ لَكُم مِّنْ فَكْرُونَ﴾، في علة قولها هذا قولان: أحدهما: أنها قالت هذا تعجباً واستهتماً، لا شكاً وإنكاراً، على ما أشرنا إليه في قصة زكريا، وعلى هذا الجمهور. والثاني: أن الذي خاطبها كان جبريل، وكانت تظنه آدمياً يريد بها سوءاً، ولهذا قالت: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١٨]، فلما بشرها لم تتيقن صحته قوله، لأنها لم تعلم أنه ملك، فلذلك قالت: ﴿أَلَيْسَ لِي بِذَلِكَ آيَةٌ أَنِّي كُنْتُ أَهْلًا لِمَا يَخْلُقُ اللَّهُ فَمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾. قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَسْمَعْ سَمْعًا﴾ أي: ولم يقربني زوج. والمس: الجماع، قاله ابن فارس. وسمي البشر بشراً، لظهورهم، والبشرة: ظاهر جلد الإنسان، وأبشرت الأرض: أخرجت نباتها. وبشرت الأديم: إذا قشرت وجهه، وتباشير الصبح: أوائله. قال - يعني جبريل: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: بسبب، وبغير سبب. وباقي الآية مفسر في «البقرة».

﴿وَيَمْلَأُ الْكِتَابَ وَالْقُرْآنَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(١١٨)

قوله تعالى: ﴿وَيَمْلَأُ الْكِتَابَ﴾ قرأ الأكثرون «ونعلمه» بالنون. وقرأ نافع، وعاصم بالياء، فعطفاه على قوله: «يشرك». وفي الكتاب قولان: أحدهما: أنه كُتِبَ النبيين وعلمهم، قاله ابن عباس. والثاني: الكتابة: قاله ابن جريج، ومقاتل. قال ابن عباس: والحكمة: الفقه، وقضاء النبيين.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَنفَلْتُ لَكُمْ مِنَ اللَّحْمِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرِيءَ الْأَعْمَىٰ وَالْأَبْرَصَ وَأُتْبِئْتُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا﴾ قال الزجاج: ينتصب على وجهين: أحدهما: ونجعله رسولا. والاختيار عندي: ويكلم الناس رسولا.

قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَنفَلْتُ﴾ قرأ الأكثرون «أني» بالفتح، فجعلوها بدلاً من آية، فكانه قال: قد جئتكم بأني أخلق لكم، وقرأ نافع بالكسر، قال أبو علي: يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون مستأنفاً. والثاني: أنه فسر الآية بقوله: إني أخلق، أي: أصور وأقدر. قال ابن عباس: أخذ طيناً، وصنع منه خفاشاً، ونفخ فيه، فإذا هو طير، ويقال: لم يصنع غير الخفاش، ويقال: إن بني إسرائيل نعتوه بذلك، لأن الخفاش عجيب الخلق. وروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال لهم: ماذا تريدون؟ قالوا: الخفاش. فسألوه أشد الطير خلقاً، لأنه يطير بغير ريش. وقال وهب: كان الذي صنعه يطير ما دام الناس ينظرونه، فإذا غاب عن أعينهم، سقط ميتاً، ليميز فعل الخلق من فعل الخالق. والأكثرون قرؤوا ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ وقرأ نافع هاهنا وفي «المائدة» «طائراً». قال أبو علي: حجة الجمهور قوله تعالى: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ ولم يقل: كهية الطائر. ووجهة قراءة نافع: أنه أراد: يكون ما أنفخ فيه، أو ما أخلقه، طائراً. وفي «الأكمة» أربعة أقوال: أحدها: أنه الذي ولد أعمى، رواه الضحاك عن ابن عباس، وسعيد عن قتادة، وبه قال اليزيدي، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنه الأعمى، ذكره ابن جريج عن ابن عباس، ومعمار عن قتادة، وبه قال الحسن، والسدي. وحكى الزجاج عن الخليل أن الأكمة: هو الذي يولد أعمى، وهو الذي يعمي، وإن كان بصيراً. والثالث: أنه الأعمش، قاله عكرمة. والرابع: أنه الذي يبصر بالنهار، ولا يبصر بالليل، قاله مجاهد والضحاك. والأبرص: الذي به وضح. وكان الغالب على زمان عيسى عليه السلام، علم الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك، إلا أنه ليس في الطب إبراء الأكمة والأبرص، وكان ذلك دليلاً على صدقه. قال وهب: ربما اجتمع على عيسى من المرضى في اليوم الواحد خمسون ألفاً، وإنما كان يداويهم بالدعاء. وذكر المفسرون أنه أحيأ أربعة أنفس من الموت، وعن ابن عباس: أن الأربعة كلهم بقي حتى ولد له، إلا سام بن نوح.

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِئْتُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ قال سعيد بن جبير: كان عيسى إذا كان في المكتب يخبرهم بما يأكلون، ويقول للغلام: يا غلام إن أهلك قد هيؤوا لك كذا وكذا من الطعام فتعلمني منه^(١)؟ وقال مجاهد: بما أكلتم البارحة، وبما خيأتم منه. وعلى هذا المفسرون، إلا أن قتادة كان يقول: وأنبئكم بما تأكلون من المائدة التي تنزل عليكم، وما تدخرون منها، وكان أخذ عليهم أن يأكلوا منها، ولا يدخروا، فلما خانوا، مُسخوا خنازير^(٢).

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجْرًا لِّكُم بِمَنْ أَلْزَىٰ حُرْمَ عَلَيْكُمْ يَحْسِبَنَّ أَنَّ يَدَيْهِ أَيْدِي اللَّهِ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِ تَكُونُونَ ۖ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال الزجاج: نصب «مصدقاً» على الحال، أي: وجئتكم مصدقاً ﴿وَلَأَجْرًا لِّكُم بِمَنْ أَلْزَىٰ حُرْمَ عَلَيْكُمْ﴾ قال قتادة: كان قد حرم عليهم موسى الإبل والثوب^(٣) وأشياء من الطير، فأحلها عيسى. قوله تعالى: ﴿يَحْسِبَنَّ أَنَّ يَدَيْهِ أَيْدِي اللَّهِ﴾ أي: بآيات تعلمون بها صدقي، وإنما وحد، لأن الكل من جنس واحد ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من عند ربكم.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْغَرَارِيُّونَ مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ عَمَّا لِلَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ سُلَيْمَانَ ﴿٥١﴾﴾

(١) أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر رضي الله عنه.

(٣) الثوب: جمع ثوب، وهي الشحم الرقيق الذي يغشى الكرش والأمعاء والمصارين من الذبائح والأنعام.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ﴾ أي: علم. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: يقال: أحسستُ بالشيء، وحسنت به، وقول الناس في المعلومات «محسوسات» خطأ، إنما الصواب «المحسبات» فأما المحسوسات، فهي المقتولات، يقال: حسه: إذا قتله. و«الأنصار»: الأعوان. و«إلى» بمعنى «مع» في قول الجماعة، قال الزجاج: وإنما حسنت في موضع «مع» لأن «إلى» غاية و«مع» تضم الشيء بالشيء^(١). قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون المعنى: من أنصاري إلى أن أبين أمر الله. واختلفوا في سبب استنصاره بالحواريين، فقال مجاهد: لما كفر به قومه، وأرادوا قتله، استنصر الحواريين. وقال غيره: لما كفروا به، وأخرجوه من قريتهم، استنصر الحواريين. وقيل: استنصرهم، لإقامة الحق، وإظهار الحجة. والجمهور على تشديد «إيا» الحواريين. وقرأ الجوني، والجحدري، وأبو حيو: الحواريون يتخفيف الياء. وفي معنى الحواريين ستة أقوال: أحدها: أنهم الخواص الأصفياء، قال ابن عباس: الحواريون: أصفياء عيسى. وقال الفراء: كانوا خاصة عيسى. وقال الزجاج: الحواريون في اللغة: الذين أخلصوا، ونقوا من كل عيب، وكذلك الدقيق: الحواري، إنما سمي بذلك، لأنه ينقى من لياب البر وخالصه. قال حذاق اللغويين: الحواريون: صفوة الأنبياء الذين خلصوا وأخلصوا في تصديقهم ونصرتهم. ويقال: عين حوراء: إذا اشتد بياضها وخلص، واشتد سوادها، ولا يقال: امرأة حوراء، إلا أن تكون مع حور عينها بياضاً. والثاني: أنهم البيض الثياب، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنهم سموا بذلك، لبياض ثيابهم. والثالث: أنهم القصارون، سموا بذلك، لأنهم كانوا يحورون الثياب، أي: يبيضونها. قال الضحاک، ومقاتل: الحواريون: هم القصارون. قال اليزيدي: ويقال للقصارين: الحواريون، لأنهم يبيضون الثياب، ومنه سمي الدقيق: الحواري، والعين الحوراء: النقية المحاجر. والرابع: الحواريون: المجاهدون. وأنشدوا:

ونحن أناسٌ يملأ البَيْضُ هامنا
ونحن حواريون حين نزاحف
جماجمنا يوم اللقاء تراشنا
إلى الموت نمشي ليس فينا تحائف

والخامس: الحواريون: الصيادون. والسادس: الحواريون: الملوك، حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن الأنباري. قال ابن عباس: وعدد الحواريين اثنا عشر رجلاً. وفي صناعتهم قولان: أحدهما: أنهم كانوا يصطادون السمك، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: أنهم كانوا يغسلون الثياب، قاله الضحاک، وأبو أرتاة.

﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنَّا مِثْلَ قَوْلِكَ﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنَّا مِثْلَ قَوْلِكَ﴾ هذا قول الحواريين. والذي أنزل: الأنجيل. والرسول: عيسى. وفي المراد بالشاهدين خمسة أقوال: أحدها: أنهم محمد ﷺ وأمه، لأنهم يشهدون للرسول بالتبليغ، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أنهم من آمن قبلهم من المؤمنين، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم الأنبياء، لأن كل نبي شاهد أمته، قاله عطاء. والرابع: أن الشاهدين: الصادقون، قاله مقاتل. والخامس: أنهم الذين شهدوا للأنبياء بالتصديق. فمعنى الآية: صدقنا، واعترفنا، فآكتبنا مع من فعل فعلنا، هذا قول الزجاج.

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ قال الزجاج: المكر من الخلق: خبث وخذاع، ومن الله ﷻ: المجازاة، فسمي باسم ذلك، لأنه مجازاة عليه، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرِجْمٍ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، لأن مكره مجازاة، ونصر للمؤمنين. قال ابن عباس: ومكرهم، أن اليهود أرادوا قتل عيسى، فدخل خوخة، فدخل رجل منهم، فألقى عليه شبه عيسى، ورفع عيسى إلى السماء، فلما خرج إليهم، ظنوه عيسى، فقتلوه.

(١) قال الفراء في «معاني القرآن» ص ٢١٨: المفسرون يقولون: من أنصاري مع الله. وهو وجه حسن، وإنما يجوز أن تجعل «إلى» موضع «مع» إذا ضمنت إلى الشيء، مما لا يكن معه، كقول العرب: إن الذود إلى الذود إيل؛ أي: إذا إذا ضمنت الذود إلى الذود صارت إبلاً. فإذا كان الشيء مع الشيء لم تصلح مكان «مع» «إلى» ألا ترى أنك تقول: قدم فلان، ومعه مال كثير. ولا تقول في هذا الموضع: قدم فلان وإليه مال كثير. وكذلك تقول: قدم فلان إلى أهله، ولا تقول: مع أهله. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ معناه: ولا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْمَ الذِّكْرِ كَثْرًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِنَّكَ مَرْجُومٌ مِّنْ قِبَلِكُمْ فَاحْكُم بَيْنَكُمْ يَا كَثْرًا فِيْمَا كُنْتُمْ فِيْمَا تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ قال ابن قتيبة: التوفي، من استيفاء العدد، يقال: توفيت، واستوفيت، كما يقال: تيقنت الخبر، واستيقنته، ثم قيل للموت: وفاة، وتوف. وأنشد أبو عبيدة:

إن بنى الأردد ليسوا من أحدٍ
ليسوا إلى قيس وليسوا من أسدٍ
ولا توفاهم قريش في العدد^(١)

أي: لا تجعلهم وفاء لعددها، والوفاء: التمام. وفي هذا التوفي قولان: أحدهما: أنه الرفع إلى السماء^(٢). والثاني: أنه الموت. فعلى القول الأول يكون نظم الكلام مستقيماً من غير تقديم ولا تأخير، ويكون معنى «متوفيك» قابضك من الأرض وفاقاً تاماً من غير أن ينال منك اليهود شيئاً، هذا قول الحسن، وابن جريج، وابن قتيبة، واختاره الفراء، ومما يشهد لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ أَزْوَاجٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، أي: رفعتني إلى السماء من غير موت، لأنهم إنما بدلوا بعد رفعه، لا بعد موته. وعلى القول الثاني يكون في الآية تقديم وتأخير، وتقديره: إني رافعت إليّ ومطهرتك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد ذلك، هذا قول الفراء، والزجاج في آخرين. فتكون الفائدة في إعلامه بالتوفي تعريفه أن رفعه إلى السماء لا يمنع من موته. قال سيعد بن المسيب: رُفِعَ عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. وقال مقاتل: رفع من بيت المقدس ليلة القدر في رمضان. وقيل: عاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين. ويقال: ماتت قبل رفعه.

قوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه رفعه من بين أظهرهم. والثاني: منعهم من قبله. وفي الذين اتبعوه قولان: أحدهما: أنهم المسلمون من أمة محمد ﷺ، لأنهم صدقوا بنبوته، وأنه روح الله وكلمته، هذا قول قتادة، والربيع، وابن السائب. والثاني: أنهم النصارى، فهم فوق اليهود، واليهود متسذلون مقهورون، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ فِيْمَا تَخْتَلِفُونَ﴾ يعني الدين.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَابُهُمْ عَذَابًا سَكِينًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قيل: هم اليهود والنصارى، وعذابهم في الدنيا بالسيف والجزية، وفي الآخرة بالنار.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَجُبُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ قرأ الأکثرون بالنون، وقرأ الحسن، وقاتدة، وحفص عن عاصم: «فيوفيههم» بالياء معطوفاً على قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى﴾.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ يعني ما جرى من القصص. «وَمِنَ الْآيَاتِ»، يعني الدلالات على صحة رسالتك، إذ كانت أخباراً لا يعلمها أمي. «وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ» قال ابن عباس: هو القرآن. قال الزجاج: معناه: ذو الحكمة في تأليفه ونظمه، وإبانة الفوائد منه.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾

(١) الرجز لمنظور البوري كما في «اللسان» ٤٠٠/١٥. يريد: أن قريشاً لا تجعلهم تمام عددهم، ولا تستوفي بهم عددهم.

(٢) وهو الصحيح المتعين، قال الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال: معنى ذلك إني قابضك من الأرض ورافعتك، لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينزل عيسى ابن مريم، فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مئة - ذكراها، اختلفت الرواية في مبلغها - ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفونونه». ثم قال: «ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله ﷻ، لم يكن بالذي يمته مئة أخرى، فيجمع عليه مبتتين، لأن الله ﷻ إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم، ثم يحييهم، كما قال جل ثناؤه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ مَثَلٌ مِّنْ شُرَٰكِكُمْ مَن يَمُوتُ يَنْبَغِلُ مِنْ ذِكْرِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الروم: ٤٠]. فتاويل الآية إذاً: قال الله لعيسى: يا عيسى إني قابضك من الأرض ورافعتك إلي، ومطهرتك من الذين كفروا فجدوا نبوتك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ قال أهل التفسير: سبب نزول هذه الآية، مخاصمة وفد نجران من النصارى للنبي ﷺ، في أمر عيسى، وقد ذكرناه في أول السورة. فأما تشبيهه عيسى بآدم، فلأنهما جميعاً من غير أب.

قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني: آدم. قال ثعلب: وهذا تفسير لآمر آدم. وليس بحال^(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني لآدم، وقيل لعيسى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: فكان: فأريد بالمستقبل الماضي، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ أي: ما تلت الشياطين.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكْفُرْ مِنَ الَّذِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال الزجاج: الحق مرفوع على خبر ابتداء محذوف، المعنى: الذي أنبأتك به في قصة عيسى الحق من ربك ﴿فَلَا تَكْفُرْ مِنَ الَّذِينَ﴾ أي: الشاكين. والخطاب للنبي خطاباً للخلق، لأنه لم يشك.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبُرْجِ فَقُلْ مَاذَا أَدْعَاؤُهُمْ أَتَدْعُونَهُمْ لِئَلَّا يَكْفُرُوا بِاللَّهِ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ في هاء «فيه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى عيسى. والثاني: إلى الحق. والعلم: البيان والإيضاح.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ مَاذَا أَدْعَاؤُهُمْ﴾ قال ابن قتيبة: تعالى: تفاعل، من علوت، ويقال للثنتين من الرجال والنساء: تعالينا، وللنساء: تعالين. قال الفراء: أصلها من العلو، ثم إن العرب لكثرة استعمالهم إياها، صارت عندهم بمنزلة «هلم» حتى استجازوا أن يقولوا للرجل، وهو فوق شرف: تعال، أي: اهبط. وإنما أصلها: الصعود. قال المفسرون: أراد بأبنائنا: فاطمة والحسن، والحسين. وروى مسلم في «صحيحه» من حديث سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية ﴿مَاذَا أَدْعَاؤُهُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلي»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أراد علي بن أبي طالب، قاله الشعبي. والعرب تخبر عن ابن العم بأنه نفس ابن عمه. والثاني: أراد الإخوان، قاله ابن قتيبة. والثالث: أراد أهل دينه، قاله أبو سليمان الدمشقي. والرابع: أراد الأزواج. والخامس: أراد القرابة القريبة، ذكرهما علي بن أبي أحمد النيسابوري. فأما الابتهاج، فقال ابن قتيبة: هو التداعي باللعن، يقال: عليه بهلة الله. وبهلته، أي: لعنته. وقال الزجاج: معنى الابتهاج في اللغة: المبالغة في الدعاء، وأصله: اللاتعان، يقال: بهله الله، أي: لعنه. وأمر بالمبالهة بعد إقامة الحجّة. قال جابر بن عبد الله: قدم وفد نجران فيهم السيد والعاقب، فذكر الحديث... إلى أن قال: فدعاها إلى الملاعنة، فوعدها أن يفاديها، فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما، فأبيا أن يجيباه، فأقرا له بالخراج، فقال: «والذي بعثني بالحق لو فعلا لأمطر الوادي عليهم ناراً»^(٣).

﴿إِنَّ مَثَلَ لُوطٍ وَإِسْرَائِيلَ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال الزجاج: دخلت «من» هاهنا توكيداً ودليلاً على نفي جميع ما ادعى المشركون من الآلهة.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: عن الملاعنة، قاله مقاتل. والثاني: أنه عن البيان الذي أتى به

(١) يريد أن جملة «خلقه» تفسيرية لمثل آدم، فلا موضع لها من الإعراب، ولا يصلح أن تكون حالاً، لأن «خلقه» فعل ماضٍ، ولا يكون الحال منه، وقيل: هي في موضع الحال، و«قد» مع «خلقه» مقدرة، والعامل فيها معنى التشبيه. انظر: «معاني القرآن» للفراء، و«البحر المحيط» ٤٧٨/٢.

(٢) رواه مسلم في «فضائل الصحابة» مطولاً من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٣) قال الحافظ ابن كثير: رواه ابن مردويه، ورواه الحاكم بمعناه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، هكذا قال. وقد رواه أبو داود الطيالسي عن الشعبي مرسلأ، وهو أصح، وقد روي عن ابن عباس، والبراء نحو ذلك.

النبي ﷺ، قاله الزجاج. والثالث: عن الإقرار بوحدانية الله، وتنزيهه عن الصحابة والولد، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي الفساد هاتنا قولان: أحدهما: أنه العمل بالمعاصي، قاله مقاتل، والثاني: الكفر، ذكره الدمشقي.

﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَكَلَّمُوا بِحَسَنَاتِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ فَكَلِّمُوا بِحَسَنَاتِكُمْ وَأَلَّا تَكُونُوا مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١٤)

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله قتادة، وابن جريج، والربيع بن أنس. والثاني: وقد نجران الذين حاجوا في عيسى، قاله السدي ومقاتل. والثالث: أهل الكتابين جميعاً، قاله الحسن. وقال ابن عباس: نزلت في القيسيين والرهبان، فبعث بها النبي ﷺ إلى جعفر وأصحابه بالحبشة، فقرأها جعفر، والنجاشي جالس، وأشرف الحبشة. فأما «الكلمة» فقال المفسرون هي: لا إله إلا الله. فإن قيل: فهذه كلمات، فلم قال كلمة؟ فعهن جوابان: أحدهما: أن الكلمة تعبر عن ألفاظ وكلمات. قال اللغويون: ومعنى كلمة: كلام فيه شرح قصة وإن طال، تقول العرب: قال زهير في كلمته؛ يراد في قصيدته.

قالت الخنساء:

وقافية مثل حد السننا
تقد الذوابة من يذبل
نطقت ابن عمرو فسهلتها

ن تبقى ويذهب من قالها
أبت أن تزايل أوعالها
ولم ينطق الناس أمثالها^(١٥)

فأوقعت القافية على القصيدة كلها، والغالب على القافية أن تكون في آخر كلمة من البيت، وإنما سميت قافية، لأن الكلمة تتبع البيت، وتقع آخره، فسميت قافية من قول العرب: قفوت فلاناً: إذا تبعته، وإلى هذا الجواب يذهب الزجاج وغيره. والثاني: أن المراد بالكلمة: كلمات، فاكفى بالكلمة من كلمات، كما قال علقمة بن عبدة:

بها جيئ الحسرى فأتا عظامها

فبيض وأما جلدتها فصليب

أراد: وأما جلودها، فاكفى بالواحد من الجمع، ذكره والذي قبله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿سَوِّى بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾ قال الزجاج: يعني بالسواء العدل، وهو من استواء الشيء، ويقال: للعدل سَوَاءٌ وسِوَاءٌ وسَوَاءٌ.

قال زهير بن أبي سلمى:

أروني خُطَّةً لا ضيمَ فيها
فإن تدعوا السواء فليس بيني

يسوي بيننا فيها السواء
وبينكم بني حصن بقاء^(١٦)

قال: وموضع «أن» في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ خفض على البدل من «كلمة». المعنى: تعالوا إلى أن لا تعبدوا إلا الله، وجائز أن يكون «أن» في موضع رفع، كأن قاتلاً قال: ما الكلمة؟ فأجيب، فقيل: هي ألا نعبد إلا الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سجد بعضهم لبعض، قاله عكرمة. والثاني: لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، قاله ابن جريج. والثالث: أن نجعل غير الله رباً، كما قالت النصارى في المسيح، قاله مقاتل والزجاج.

﴿يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِيْرِهِمْ وَمَا أُنزِلَتْ الذُّرُوءُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١٧)

قوله تعالى: ﴿يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِيْرِهِمْ﴾ قال ابن عباس، والحسن، والسدي: اجتمع عند النبي ﷺ

(١) الأبيات من قصيدة ترضي بها أخاها معاوية. وفي الديوان: «يهلك» بدل «يذهب» و«تفارق» بدل «تزايل». تقد: تشق. الذؤابة: أعلى كل شيء. يذبل: جبل في أقصى أرض بني كلاب. تقول: إن هذه القصيدة التي ينطق بها ماضية، كسيف قاطع تقد قمم الجبال. وقولها: أبت أن تزايل أوعالها. أي: أن ذؤابة جبل يذبل ألت العرول، فكادت لا ترضى بأن لا تفارقها، تريد بذلك وصف علو الجبل، لأن العرول لا تسكن سوى أعلى الجبال. وقولها: سهلها، أي: جنت بها سهلة.

(٢) الديوان ص ١٥. وفيه: أروني سنة لا عيب فيها. والسواء: العدل. يقول: أرونا سنة لا تعاب عليكم تسوي بيننا في الحق. وقوله: تدعو السواء. أي: تركوا العدل، فلا يبقى بعضنا على بعض.

نصارى نجران، وأحبار اليهود، فقال هؤلاء: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقال هؤلاء: ما كان إلا نصرانياً. فنزلت هذه الآية.

﴿هَكَانَتْمْ هَوْلَاءُ حَمَمَتْمْ فِيمَا لَكُمْ يَوْمَ عِلْمٍ فَلَمْ تُنَاصِرُونِ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿هَكَانَتْمْ﴾ قرأ ابن كثير «هانتم» مثل: هعنتم، فأبدل من همزة الاستفهام «هاء» أراد: أنتم. وقرأ نافع وأبو عمرو «هانتم» ممدوداً، استفهام بلا همزة، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي «هانتم» ممدوداً مهموزاً، ولم يختلفوا في مد «هؤلاء» و«أولاء».

قوله تعالى: ﴿فِيمَا لَكُمْ يَوْمَ عِلْمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه ما رأوا وعانوا، قاله قتادة. والثاني: ما أمروا به، ونهوا عنه، قال السدي. فأما الذي ليس لهم به علم، فهو شأن إبراهيم ﷺ. وقد روى أبو صالح عن ابن عباس أنه كان بين إبراهيم وموسى، خمسمائة وخمس وسبعون سنة. وبين موسى وعيسى ألف وستمائة واثنان وثلاثون سنة. وقال ابن إسحاق: كان بين إبراهيم وموسى خمسمائة وخمس وستون سنة، وبين موسى وعيسى ألف وتسعمائة وخمس وعشرون سنة. وقد سبق في (البقرة) معنى الحنيف.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مَّسَلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ إِنَّكَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَكُلِّ ذِي نَبْهٍ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَكُلِّ ذِي نَبْهٍ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رؤساء اليهود قالوا للنبي ﷺ: لقد علمت أننا أولى بدين إبراهيم منك، وأنه كان يهودياً، وما بك إلا الحسد، فنزلت هذه الآية. ومعناها: أحق الناس بدين إبراهيم، الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي ﷺ على دينه، قاله ابن عباس. والثاني: أن عمرو بن العاص أراد أن يُغضب النجاشي على أصحاب النبي ﷺ، فقال النجاشي: إنهم ليشتمون عيسى! فقال النجاشي: ما يقول صاحبكم في عيسى؟ فقالوا: يقول: إنه عبد الله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم. فأخذ النجاشي من سواكه قدر ما يقذي العين، فقال: والله ما زاد على ما يقول صاحبكم ما يزن هذا القذى، ثم قال: أبشروا، فلا دهورة^(١) اليوم على حزب إبراهيم. قال عمرو بن العاص: ومن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم. فأنزل الله يوم خصومتهم على النبي ﷺ هذه الآية، هذا قول عبد الرحمن بن غنم.

﴿وَدَدَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَدَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ سبب نزولها أن اليهود قالو لمعاذ بن جبل، وعمار بن ياسر: تركتما دينكما، واتبعتما دين محمد، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والطائفة: اسم لجماعة مجتمعين على ما اجتمعوا عليه من دين، ورأي، ومذهب، وغير ذلك. وفي هذه الطائفة قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله ابن عباس. والثاني: اليهود والنصارى، قاله أبو سليمان الدمشقي. والضلال: الحيرة. وفيه هاهنا قولان: أحدهما: أنه الاستئصال عن الحق إلى الباطل، وهو قول ابن عباس، ومقاتل. والثاني: الإهلاك، ومنه ﴿أَوَدَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٤١]. قاله ابن جرير، والدمشقي. وفي قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ قولان: أحدهما: وما يشعرون أن الله يدل المؤمنين على حالهم، والثاني: وما يشعرون أنهم يضلون أنفسهم.

﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِحَاثِبِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ﴾ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِحَاثِبِ اللَّهِ﴾ قال قتادة: يعني: محمداً والإسلام ﴿وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ﴾ أن بعث محمد في كتابكم، ثم تكفرون به.

﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ قال البيهقي: معناه: لم تخلطون الحق بالباطل؟ قال ابن فارس: واللبس:

(١) قال في «اللسان» الدهورة: جمعك الشيء، وقذفك به في مهواة، ودهورت الشيء كذلك، وفي حديث النجاشي: «فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيم»

كانه أراد: لا ضيعة عليهم، ولا يترك حفظهم وتمهدهم..

اختلاط الأمر، وفي الأمر لبسة، أي: ليس بواضح. وفي الحق والباطل أربعة أقوال: أحدها: أن الحق: إقرارهم ببعض أمر النبي ﷺ، والباطل: كتمانهم بعض أمره. والثاني: الحق: إيمانهم بالنبي ﷺ غدوة، والباطل: كفرهم به عشية، روي عن ابن عباس. والثالث: الحق: التوراة، والباطل: ما كتبوه فيها بأيديهم، قاله الحسن، وابن زيد. والرابع: الحق: الإسلام، والباطل: اليهودية والنصرانية، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ﴾ قال قتادة: كتموا الإسلام، وكتموا محمداً ﷺ.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَا يُدْيُ بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَّا وَجَاءَ النَّهَارُ وَآكْفَرُوا مَا كَانُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن طائفة من اليهود قالوا: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار، فآمنوا، وإذا كان آخره، فصلوا صلاتكم لعلمهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب، وهم أعلم منا، فيقبلون عن دينهم، رواه عطية عن ابن عباس. وقال الحسن والسدي: تواطأ اثنا عشر حبراً من اليهود، فقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد باللسان أول النهار، واكفروا آخره، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمداً ليس بذلك، فيشك أصحابه في دينهم، ويقولون: هم أهل الكتاب، وهم أعلم منا، فيرجعون إلى دينكم، فترلت هذه الآية. وإلى هذا المعنى ذهب الجمهور. والثاني: أن الله تعالى صرف نبيه إلى الكعبة عند صلاة الظهر، فقال قوم من علماء اليهود: ﴿يَا يُدْيُ بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَّا وَجَاءَ النَّهَارُ﴾ يقولون: آمنوا بالقبلة التي صلوا إليه الصبح، واكفروا بالتي صلوا إليها آخر النهار، لعلمهم يرجعون إلى قبلكم، رواه أبو صالح عن ابن عباس، قال مجاهد، وقاتدة، والزجاج في آخرين. وجه النهار: أوله.

وأشدد الزجاج:

من كان مسروراً بمقتل مالك

يجد النساء حواسراً يندبنه

فليأت نسوتنا بوجه نهار

قد قُمن قبل تبلُّج الأسحار^(١)

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُنكَّرَ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ اختلف العلماء في توجيه هذه الآية على أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، ولا تصدقوا أن يجادلوكم عند ربكم، لأنكم أصح ديناً منهم، فيكون هذا كله من كلام اليهود بينهم، وتكون اللام في «لمن» صلة، ويكون قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ كلاماً معترضاً بين كلامين، هذا معنى قول مجاهد، والأخفش. والثاني: أن كلام اليهود تام عند قوله: ﴿لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ والباقي من قول الله تعالى، لا يعترضه شيء من قولهم، وتقديره: قل يا محمد: إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد، إلا أن تجادلكم اليهود بالباطل، فيقولون: نحن أفضل منكم، هذا معنى قول الحسن، وسعيد بن جبيرة. قال الفراء: معنى: «أن يؤتى»: أن لا يؤتى. والثالث: أن في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، إلا من تبع دينكم، فأخرت «أن»، وهي مقدمة في النية على مذهب العرب في التقديم والتأخير، ودخلت اللام على جهة

(١) البيتان للربيع بن زياد العسبي، من أبيات قالها حين قتل حميمه مالك بن زهير، وحمي لقتله، واستعد لطلب ثاره. وروايتها في «شرح الحماسة» للمرزوقي:

فليأت ساحتنا بوجه نهار

يلطمن أوجههن بالأسحار

من كان مسروراً بمقتل مالك

يجد النساء حواسراً يندبنه

قال المرزوقي في شرحهما: كانت العادة مستمرة مستحكمة فيهم، أنهم لا يندبون القتل أو يدرك ثاره. فيقول: من كان فرحاً بمقتل مالك، شامتاً بأولياته، فلينزع ملابس المسرة، ويلطرح أردية الشماعة، فقد أدركت الأثر، وأريقت الدماء، وشفيت الأداة، وليحضر ساحتنا في أول النهار، ليري أن ما كان محرماً من الرثاء قد حل، وأن الحظر الواقع بيكاه قد رفع، ويجد النساء مكشوفات الرؤوس، يذكرنه بما كان من فضائله، ويندبته بأشهر أوصافه، وأعلى مراتبه ومجالاته، فإن ذلك متصل من فعلهن، غير منقطع في أطراف الليل والنهار، والأصالة والأسحار.

التوكيد، كقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَّكُمْ﴾ [النمل: ٧٢] أي: ردفكم. وقال الشاعر:

ما كنتُ أخذتُ للخليل بخلةً حتى يكون لي الخليلُ خدوعاً
أراد: ما كنت أخذت الخليل. وقال الآخر:

يذمّون للدنيا وهم يحلبونها أفأويق حتى ما يذُرُّ لها ثُغلاً^(١)

أراد: يذمون الدنيا، ذكره ابن الأنباري، والرابع: أن اللام غير زائدة، والمعنى: لا تجعلوا تصديقكم النبي في شيء مما جاء به إلا لليهود، فإنكم إن قتلتم ذلك للمشركين، كان عوناً لهم على تصديقه، قاله الزجاج. وقال ابن الأنباري: لا تؤمنوا أن محمداً وأصحابه على حق، إلا لمن تبع دينكم، مخافة أن يطلع على عنادكم الحق، ويحاجوكم به عند ربكم، فعلى هذا يكون معنى الكلام: لا تقروا بأن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم، وقد ذكر هذا المعنى مكي بن أبي طالب النحوي. وقرأ ابن كثير: أن يؤتى بهمزين، الأولى مخففة، والثانية مليئة على الاستفهام، مثل: أنتم أعلم، قال أبو علي: ووجهها أن «أن» في موضع رفع بالابتداء، وخبره: يصدقون به، أو يعترفون به، أو يذكرونه لغيركم، ويجوز أن يكون موضع «أن» نصباً، فيكون المعنى: أتشيعون، أو أتذكرون أن يؤتى أحدٌ، ومثله في المعنى: ﴿أَتَحَدِّثُوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦]. وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف: إن يؤتى، بكسر الهمزة، على معنى: ما يؤتى. وفي قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِذْ أَخْرَجْنَا مِنْهَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: ولا تصدقوا أنهم يحاجوكم عند ربكم، لأنهم لا حجة لهم، قاله قتادة، والثاني: أن معناه: حتى يحاجوكم عند ربكم على طريق التعبد، كما يقال: لا يلقاه أو تقوم الساعة، قاله الكسائي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعني النبوة، والكتاب، والهدى. ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ لا ما تمثيموه أنتم يا معشر اليهود من أنه لا يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم.

﴿يَخْصُصُ رِزْقَهُمْ مَّنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

قوله تعالى: ﴿يَخْصُصُ رِزْقَهُمْ مَّنْ يَشَاءُ﴾ في الرحمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الإسلام، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: النبوة، قاله مجاهد. والثالث: القرآن والإسلام، قاله ابن جريج.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْتَهُ بِقِطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْتَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْتَهُ بِقِطَارٍ﴾ قال ابن عباس: أودع رجل ألفاً ومئتي أوقية من ذهب عبد الله بن سلام، فأداها إليه، فمدحه الله بهذه الآية، وأودع رجل فنحاص بن عازوراء ديناراً، فخانته. وأهل الكتاب اليهود، وقد سبق الكلام في القنطار. وقيل: إن «الباء» في قوله: «بقنطار» بمعنى «على» فأما الدينار، فقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: الدينار فارسي معرب، وأصله: دينار، وهو وإن كان معرباً، فليس تعرف له العرب اسماً غير الدينار، فقد صار كالعربي، ولذلك ذكره الله تعالى في كتابه، لأنه خاطبهم بما عرفوا، واشتقوا منه فعلاً، فقالوا: رجل مُدَنَّرٌ: كثير الدنانير. ويردون مدنَّرٌ: أشبه مستدير النقش ببياض وسواد. فإن قيل: لم خص أهل الكتاب بأن فيهم خائناً وأميناً والخلق على ذلك، فالجواب: أنهم يخونون المسلمين استحلالاً لذلك، وقد بيّنه في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِينَ سَبِيلٌ﴾ فحذّر منهم، وقال مقاتل: الأمانة ترجع إلى من أسلم منهم، والخيانة إلى من لم يسلم، وقيل: إن الذين يؤدّون الأمانة: النصارى، والذين لا يؤدونها: اليهود.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: دُمْتُ ودُمْتُم، ومُتَّ ومُتْمُ، وتميم يقولون: مت ودمت بالكسر، ويجمعون في «يفعل» يدوم ويموت. وفي هذا القيام قولان: أحدهما: أنه التقاضي، قاله مجاهد،

(١) نسبة في «اللسان» لابن همام السلولي، وروايته فيه: ودعوا لنا الدنيا وهم يرضعونها. الأفأويق: واحداً فيقة، وهي اسم للبن الذي يجتمع بين الحلبتين. والنمل: زيادة في أطباء الناقة، والبقرة، والشاة، وإنما ذكر النمل للمبالغة في الارضاع، لأن النمل لا يدر.

وقادة، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. قال ابن قتيبة: والمعنى: ما دمت مواظباً بالاقتضاء له والمطالبة. وأصل هذا أن المطالب بالشيء يقوم فيه ويتصرف، والتارك له يقعد عنه. [قال الأعشى:

يقوم على الرغام في قومه
فيعفو إذا شاء أو ينتقم

أي: يطالب بالذحل^(١) ولا يقعد عنه. قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَلِيلَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣] أي: عاملة غير تاركة، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَكُنْ هُوَ قَائِمًا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: أخذ لها بما كسبت^(٢). والثاني: أنه القيام حقيقة، فتقديره: إلا ما دمت قائماً على رأسه، فإنه يعترف بأمانته، فإذا ذهب، ثم جثت، جحدك، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: الخيانة. والسبيل: الإثم والجرح، ونظيره ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١] قال قتادة: إنما استحل اليهود أموال المسلمين، لأنهم عندهم ليسوا أهل كتاب.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ قال السدي: يقولون: قد أحل الله لنا أموال العرب.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ قولان: أحدهما: يعلمون أن الله قد أنزل في التوراة الوفاء، وأداء الأمانة. والثاني: يقولون الكذب، وهم يعلمون أنه كذب.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ رد الله ﷻ عليهم قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾ بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ قال الزجاج: وهو عندي وقف التمام، ثم استأنف، فقال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾ ويجوز أن يكون استأنف جملة الكلام بقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ﴾. والعهد: ما عاهدكم الله ﷻ عليه في التوراة. وفي «هاء» «عَهْدُهُ» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى. والثاني: إلى الموفي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْبُرْجَةِ وَلَا يُرْكَعِبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن الأشعث بن قيس خاصم بعض اليهود في أرض، فجحدته اليهودي، فقدمه إلى النبي ﷺ، فقال [له]: «ألك بيعة؟» قال: لا. قال لليهودي: «أتحلف؟» فقال الأشعث: إذا يحلف فيذهب بمالي. فنزلت هذه الآية. أخرجه البخاري ومسلم^(٣). والثاني: أنها نزلت في اليهود، عهد الله إليهم في التوراة بتبين صفة النبي ﷺ، فجددوا، وخالفوا لما كانوا يتالون من سفلتهم من الدنيا، هذا قول عكرمة، ومقاتل، والثالث: أن رجلاً أقام سلعة في السوق أول النهار، فلما كان آخره، جاء رجل يساومه، فحلف: لقد منعتها أول النهار من كذا، ولولا المساء لما باعها به، فنزلت هذه الآية، هذا قول الشعبي، ومجاهد. فعلى القول الأول، والثالث، العهد: لزوم الطاعة، وترك المعصية، وعلى الثاني: ما عهدته إلى اليهود في التوراة، واليمين: الحلف. وإن قلنا: إنها في اليهود، والكفار، فإن الله لا يكلمهم يوم القيامة أصلاً. وإن قلنا: إنها في العصاة، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: لا يكلمهم الله كلام خير. ومعنى ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾، أي: لا يعطف عليهم بخير مقراً لهم، قال الزجاج: تقول: فلان لا ينظر إلى فلان، ولا يكلمه، معناه: أنه غضبان عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرْكَعِبُهُمْ﴾ أي: لا يطهرهم من دنس كفرهم وذنوبهم.

(١) الذحل: الثار، وطلب المكافأة بجنابة جيت عليه، من قتل أو جرح أو نحو ذلك.

(٢) هذا نص كلام ابن قتيبة في «تأويل مشكل القرآن» ص ١٣٨ - ١٣٩، وما بين معقوفتين مزيد منه.

(٣) ونصه كما في البخاري ٥٣/٥ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان» قال: فقال الأشعث: في والله كان ذلك. كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فجددني، فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «ألك بيعة؟» قلت: لا. قال، فقال لليهودي: «أحلف». قال: قلت: يا رسول الله إذا يحلف ويذهب بمالي، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يُرْكَعِبُهُمْ يَوْمَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية.

﴿وَأَنَّ يَنْهَرَهُ لَفَرِيحًا يَلُؤْنَ آلَيْسَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبُ وَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ يَنْهَرَهُ لَفَرِيحًا﴾ اختلفوا فمن نزلت على قولين، أحدهما: أنها نزلت في اليهود، رواه عطية، عن ابن عباس، والثاني: في اليهود والنصارى، رواه الضحاك عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ﴾ هي كلمة مؤكدة، واللام في قوله: «لَفَرِيحًا» وتوكيد زائد على توكيد «إِنَّ». قال ابن قتيبة: ومعنى ﴿يَلُؤْنَ آلَيْسَتَهُمْ﴾: يقبلونها بالتحريف والزيادة. والألسنة: جمع لسان، قال أبو عمرو: اللسان يذكر ويؤنث، فمن ذكره جمعه: السنة، ومن أنثه، جمعه: السنأ، وقال الفراء: اللسان بعينه لم نسمعه من العرب إلا مذكراً. وتقول العرب: سبق من فلان لسان، يعنون به الكلام، فيذكرونه. وأنشد ابن الأعرابي:

لسانك معسولٌ ونفسك شحّة
وعند الشرياء من صديقك مالكا
وأشدّ ثعلب:

نَدِمْتُ عَلَى لِسَانِ كُلِّ مَنِي
وَالعَمَكُ: العَدَلُ. ودل بقوله: كان مني، على أن اللسان الكلام. وأنشد ثعلب:
أَتَنِي لِسَانُ بَنِي عَامِرٍ
أَحَادِيثُهَا بَعْدَ قَوْلِ نَكِرٍ
فَأَنَّثَ اللِّسَانَ، لَأَنَّهُ عَنِ الكَلِمَةِ وَالرَّسَالَةِ.

﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهِ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبِيَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن قومًا من رؤساء اليهود والنصارى، قالوا: يا محمد أتريد أن نتخذك رباً؟ فقال: معاذ الله، ما بذلك بعثني، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ألا نسجد لك؟ قال: «لا، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله» فنزلت هذه الآية، قاله الحسن البصري. والثالث: أنها نزلت في نصارى نجران حيث عبدوا عيسى. قاله الضحاك، ومقاتل. وفيمن عني «البشر» قولان: أحدهما: محمد ﷺ. والكتاب: القرآن، قاله ابن عباس، وعطاء. والثاني: عيسى، والكتاب: الإنجيل، قاله الضحاك، ومقاتل. والحكم: الفقه والعلم، قاله قتادة في آخرين. قال الزجاج: ومعنى الآية: لا يجتمع لرجل نبوة، والقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله، لأن الله لا يصطفي الكذبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا﴾ أي: ولكن يقول لهم: كونوا، فحذف القول لدلالة الكلام عليه.

فأما الربانيون، فروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: هم الذين يغذون الناس بالحكمة، ويربونهم عليها، وقال ابن عباس، وابن جبير: هم الفقهاء المعلمون. وقال قتادة، وعطاء: هم الفقهاء العلماء الحكماء. قال ابن قتيبة: واحدهم رباني، وهم العلماء المعلمون. وقال أبو عبيد: أحسب الكلمة ليست بعربية، إنما هي عبرانية، أو سريانية، وذلك أن أبا عبيدة زعم أن العرب لا تعرف الربانيين. قال أبو عبيد: وإنما عرفها الفقهاء، وأهل العلم، قال: وسمعت رجلاً عالماً بالكتب يقول: هم العلماء بالحلال والحرام، والأمر والنهي. وحكى ابن الأنباري عن بعض اللغويين: الرباني: منسوب إلى الرب، لأن العلم: مما يطاع الله به، فدخلت الألف والنون في النسبة للمبالغة، كما قالوا: رجل لحياني: إذا بالغوا في وصفه بكبر اللحية.

قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع وأبو عمرو: «تَعْلَمُونَ»، بإسكان العين، ونصب اللام. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «تَعْلَمُونَ» مثقلاً، وكلهم قرؤوا: «تدرسون» خفيفة. وقرأ ابن

(١) قاله الحطيطي: «ديوانه» ص ٣٤٧. اللسان هاتان: الكلام، وأدخل الباء على «أن» مع «ليت» وهو قليل، وأراد: ليت أنه في جوف عكم، ففحم الباء على «أن» وهو حجة في العربية. ويروي: «فليت يان»، ووردت بانه. والعكم: داخل الجنب على المثل بالعكم، وهو النمط تجعله المرأة كالرعاء تدخر فيه متاعها.

مسعود، وابن عباس، وأبو رزين، وسعيد بن جبير، وطلحة بن مصرف، وأبو حيوة، «تُدْرَسُونَ»، بضم التاء مع التشديد، والدراسة: القراءة. قال الزجاج: ومعنى الكلام: ليكن هديكم ونيتكم في التعليم هدي العلماء والحكماء، لأن العالم إنما يستحق هذا الاسم إذا عمل بعلمه.

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكِبَرَىٰ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠)

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ﴾ قرأ ابن عامر، وحمزة، وخلف، ويعقوب، وعاصم في بعض الروايات عنه، وعبد الوارث عن أبي عمرو، واليزيدي في اختياره، بنصب الراء. وقرأ الباقون برفع الراء، فمن نصب كان المعنى: وما كان لبشر أن يأمركم، ومن رفع قطعه مما قبله. قال ابن جريج: ولا يأمركم محمد.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ حَسَبِ وَجْهِكُمْ أَنْ تَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّعِيرَاتِ﴾ (٨١)

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ قال الزجاج: موضع «إذ» نصب، المعنى: واذكر في أقاصيصك إذ أخذ الله، قال ابن عباس: الميثاق: العهد. وفي الذي أخذ ميثاقهم عليه قولان: أحدهما: أنه تصديق محمد ﷺ، روي عن علي، وابن عباس، وقتادة، والسدي. والثاني: أنه أخذ ميثاق الأول من الأنبياء ليؤمنن بما جاء به الآخر منهم، قاله طائوس. قال مجاهد، والربيع بن أنس: هذه الآية خطأ من الكتاب^(١)، وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ واحتج الربيع بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ (١١). وقال بعض أهل العلم: إنما أخذ الميثاق على النبيين، وأمهم، فاكفى بذكر الأنبياء عن ذكر الأمم، لأن في أخذ الميثاق على المتبوع دلالة على أخذه على التابع، وهذا معنى قول ابن عباس، والزجاج.

واختلف العلماء في لام «لما» فقرأ الأكثرون «لما» بفتح اللام والتخفيف، وقرأ حمزة مثلها، إلا أنه كسر اللام، وقرأ سعيد بن جبير «لما» مشددة الميم، فقراءة ابن جبير، معناها: حين آتيتكم، وقال الفراء في قراءة حمزة: يريد أخذ الميثاق للذي آتاهم، ثم جعل قوله: ﴿لَتُؤَيِّنَنَّ بِهِ﴾ من الأخذ. قال الفراء: ومن نصب اللام جعلها زائدة. «وما» هاهنا بمعنى الشرط والجزاء، فالمعنى: لئن آتيتكم ومهما آتيتكم شيئاً من كتاب وحكمة. قال ابن الأنباري: اللام في قوله تعالى: ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾ على قراءة من شدد أو كسر: جواب لأخذ الميثاق. قال: لأن أخذ الميثاق يمين، وعلى قراءة من خففها، معناها: القسم، وجواب القسم اللام في قوله: ﴿لَتُؤَيِّنَنَّ بِهِ﴾. وإنما خاطب، فقال: آتيتكم، بعد أن ذكر النبيين وهم غيب، لأن في الكلام معنى قول وحكاية، فقال مخاطباً لهم: لما آتيتكم. وقرأ نافع «آتيناكم» بالنون والألف.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ قال علي ﷺ: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد، إن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به وليصرنه، وقال غيره: أخذ ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضاً، والإصر هاهنا: العهد في قول الجماعة. قال ابن قتيبة: أصل الإصر: الثقل، فسمي العهد إصرأ، لأنه منغ من الأمر الذي أخذ له، وثقل وتشديد. وكلهم كسر ألف «إصري». وروى أبو بكر، عن عاصم، ضمّه. قال أبو علي: يشبه أن يكون الضم لغة.

(١) في الطبري «من الكاتب» قال الشيخ محمود شاكر: قلت: والقول الذي ذكره مجاهد إنه خطأ من الكاتب، إنما عني به أن قراءة ابن مسعود هي مع القراءة التي كانت في العرصة الأخيرة، فأخطأ وكب القراءة الأولى، ولم يرد بقوله: خطأ من الكاتب، أنه وضع ذلك من عند نفسه؟ كيف والقرآن كتابا تلقى بالرواية والوراثه عن رسول الله ﷺ، لا بما هو مكتوب في المصحف.

(٢) قال أبو بكر الباقاني في كتاب «الانتصار لثقل القرآن»: وأما نحن وإن كنا نؤمن جميع من ذكرنا من السلف وأتباعهم، فأنا لا نعتقد تصديق جميع ما يروى عنهم، بل نعتقد أن فيه كذباً كثيراً، قد قامت الدلالة على أنه موضوع عليهم، وأن فيه ما يمكن أن يكون حقاً عنهم وما يمكن أن يكون باطلاً، ولا يثبت عليهم من طريق العلم الثبات بأخبار الآحاد، وإذا كان ذلك كذلك، وكانت هذه القراءات والكلمات المروية عن جماعة منهم المخالفة لما في مصحفنا، مما لا نعلم صحتها وثبوتها، وكنا مع ذلك نعلم اجتماعهم على تسليم مصحف عثمان وقراءتهم وإقراءهم ما فيه، والعمل به دون غيره، لم يجب أن نحفل بشيء من هذه الروايات عنهم لأجل ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاتَّبِعُوا﴾ قال ابن فارس: الشهادة: الإخبار بما شوهد. وفيمن خوطب بهذا قولان: أحدهما: أنه خطاب للنبیین، ثم فيه قولان. أحدهما: أن معناه: فاشهدوا على أممكم، قاله علي بن أبي طالب. والثاني: فاشهدوا على أنفسكم، قال مقاتل. والثاني: أنه خطاب للملائكة، قاله سعيد بن المسيب. فعلى هذا يكون كناية عن غير مذكور.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيَّرَ بَيْنَ اللَّهِ يَبْعُوثَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيَّرَ بَيْنَ اللَّهِ يَبْعُوثَ﴾ قرأ أبو عمرو: «يبغون» بالياء مفتوحة. ﴿وَالَّذِي رُجِعُونَ﴾ بالياء مضمونة، وقرأها الباقون بالياء في الحرفين. وروى حفص عن عاصم: «يبغون» و«يرجعون» بالياء فيهما، وفتح الياء وكسر الجيم يعقوب على أصله. قال ابن عباس: اختصم أهل الكتابين، فزعمت كل فرقة أنها أولى بدين إبراهيم، فقال النبي ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم». فغضبوا، وقالوا: والله لا نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك، فنزلت هذه الآية. والمراد بدين الله، دين محمد ﷺ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ انقاد، وخضع ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ الطوع: الانقياد بسهولة، والكره: الانقياد بمشقة وإبائه من النفس. وفي معنى الطوع والكره ستة أقوال: أحدها: أن إسلام الكل كان يوم الميثاق طوعاً وكراً، رواه مجاهد عن ابن عباس، والأعمش عن مجاهد، وبه قال السدي. والثاني: أن المؤمن يسجد طائعاً، والكافر يسجد ظلماً وهو كاره، روي عن ابن عباس، ورواه ابن أبي نجيح، وليث عن مجاهد. والثالث: أن الكل أقروا له بأنه الخالق، وإن أشرك بعضهم، فإقراره بذلك حجة عليه في إشراكه، هذا قول أبي العالية، ورواه منصور عن مجاهد. والرابع: أن المؤمن أسلم طائعاً، والكافر أسلم مخافة السيف، هذا قول الحسن. والخامس: أن المؤمن أسلم طائعاً، والكافر أسلم حين رأى بأس الله، فلم ينفعه في ذلك الوقت، هذا قول قتادة. والسادس: أن إسلام الكل خضوعهم لنفاذ أمره في جبلتهم، لا يقدر أحد أن يمتنع من جبلته عليه، ولا على تغييرها، هذا قول الزجاج، وهو معنى قول الشعبي: انقاد كلهم له.

﴿قُلْ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أَنزَلَ عَلَىٰ إِبْرٰهٖمَ وَإِسْمٰعٖلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰنِهِمْ وَسَهِدُوا أَنَّهُمُ الرُّسُلُ حَتَّىٰ وَجَّاهُمْ الْبَئِثَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَّأُوهُمْ أَن عٰلَمِهِم لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلٰئِكَةُ وَالنَّٰسِ أجمعِينَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰنِهِمْ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن رجلاً من الأنصار ارتد، فلقق بالمشركين، فنزلت هذه الآية، إلى قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ فكتب بها قومه إليه، فرجع تائباً [فقبل النبي ﷺ ذلك منه وخطى عنه] رواه عكرمة عن ابن عباس^(١). وذكر مجاهد، والسدي أن اسم ذلك الرجل: الحارث بن سويد. والثاني: أنها نزلت في عشرة رهط ارتدوا، فيهم الحارث بن سويد، فندم، فرجع. رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثالث: أنها في أهل الكتاب، عرفوا النبي ﷺ، ثم كفروا به، رواه عطية عن ابن عباس، وقال الحسن: هم اليهود والنصارى. وقيل: إن «كيف» هاهنا لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها الجحد، أي: لا يهدي الله هؤلاء.

﴿خٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَخْفٰنَ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحٖمٌ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خٰلِدِينَ فِيهَا﴾ قال الزجاج أي: في عذاب اللعنة ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يؤخرون عن الوقت. قال: ومعنى: ﴿وَأَسْلَحُوا﴾ أي: أظهروا أنهم كانوا على ضلال، وأصلحوا ما كانوا أفسدوه، وغرّوا به من تبعهم ممن لا علم له.

(١) رواه النسائي وابن حبان وابن أبي حاتم والطبري والبيهقي والحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه أحمد أيضاً، وإسناده صحيح.

فصل

وهذه الآية استثنت من تاب ممن لم يتب، وقد زعم قوم أنها نسخت ما تضمنته الآيات قبلها من الوعيد، وليس بنسخ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ وَأَوْلِيكَ هُمْ الْمَكَالُونَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت فيمن لم يتب من أصحاب الحارث بن سويد، فإنهم قالوا: نقيم بمكة وترتبص بمحمد ريب المنون، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنها نزلت في اليهود كفروا بعميس والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، قاله الحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني. والثالث: أنها نزلت في اليهود والنصارى، كفروا بمحمد بعد إيمانهم بصفته، ثم ازدادوا كفراً بإقامتهم على كفرهم، قاله أبو العالية. قال الحسن: كلما نزلت آية كفروا بها، فازدادوا كفراً، وفي علة امتناع قبول توبتهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم ارتدوا، وعزموا على إظهار التوبة لستر أحوالهم، والكفر في ضمائرهم، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم قوم تابوا من الذنوب في الشرك، ولم يتوبوا من الشرك، قاله أبو العالية. والثالث: أن: معناه: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت، وهو قول الحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسدي. والرابع: لن تقبل توبتهم بعد الموت إذا ماتوا على الكفر، قاله مجاهد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمْ يَوْمَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ روى أبو صالح عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما فتح مكة، دخل من كان من أصحاب الحارث بن سويد حياً في الإسلام، فنزلت هذه الآية فيمن مات منهم كافراً. قال الزجاج: وملء الشيء: مقدار ما يملؤه. قال سيويه، والخليل: والملء بفتح الميم: الفعل، تقول: ملأت الشيء أملؤه ملاءً، المصدر بالفتح لا غير. والملاءة: التي تلبس ممدودة، والملاوة من الدهر: القطعة الطويلة منه، يقولون: ابل جديداً، وتمل حبيباً، أي: عش معه دهرأ طويلاً. و﴿ذَهَبًا﴾ منصوب على التمييز. وقال ابن فارس: ربما أنث الذهب، فقيل: ذهبة، ويجمع على الأذهاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ﴾^(١) قال الفراء: الواو هاهنا قد يستغنى عنها، ولو حذف كان صواباً، كقوله تعالى: ﴿وَلَيْكُنَّ مِنَ الْأُمَّرِيَّتِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] قال الزجاج: هذا غلط، لأن فائدة الواو بيئة، فليست مما يلقى. قال النحاس: قال أهل النظر من النحويين في هذه الآية: الواو ليست مقحمة، وتقديره: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً تبرعاً ولو افتدى.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَ عِلْمِهِ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ في البر أربعة أقوال: أحدها: أنه الجنة، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي في آخرين. قال ابن جرير: فيكون المعنى: لن تنالوا بر الله بكم الذي تطلبونه بطاعتكم. والثاني: التقوى، قاله عطاء، ومقاتل. والثالث: الطاعة، قاله عطية. والرابع: الخير الذي يستحق به الأجر، قاله أبو روق، قال القاضي أبو يعلى: لم يزد نفي الأصل، وإنما نفي وجود الكمال، فكانه قال: لن تنالوا البر الكامل.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه نفقة العبد من ماله، وهو صحيح صحيح، رواه ابن عمر عن النبي ﷺ^(٢). والثاني: أنه الإنفاق من محبوب المال، قاله قتادة، والضحاك. وفي المراد بهذه النفقة ثلاثة

(١) روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مقتدياً به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر إبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي، وأخرجه البخاري، ومسلم.

(٢) لم تنف على هذه الرواية التي ذكرها المؤلف من طريق ابن عمر في شيء من كتب السنة، وإنما الذي جاء فيها: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح صحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان» رواه البخاري ومسلم.

أقوال: أحدها: أنها الصدقة المفروضة، قاله ابن عباس، والحسن، والضحاك. والثاني: أنها جميع الصدقات، قاله ابن عمر. والثالث: أنها جميع النفقات التي يُبتغى بها وجه الله تعالى، سواء كانت صدقة، أو لم تكن، نُقل عن الحسن، واختاره القاضي أبو يعلى. وروى البخاري، ومسلم في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَنْ نَأْتَاكَ بِرِجَالٍ مُّسَبِّحِينَ﴾، وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء^(١)، وإنها صدقة لله، أرجو برّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها حيث أراك الله، فقال ﷺ: «بيع بئح، ذلك مال رابح أو رائج [شك الراوي]^(٢)» وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقسمها أبو طلحة في أقاربه، وبني عمّه. وروي عن عبد الله بن عمر أنه قرأ هذه الآية فقال: لا أجد شيئاً أحب إليّ من جاريتي رميثة^(٣)، فهي حرة لوجه الله، ثم قال: لولا أنني أعود في شيء جعلته لله، لنكحتها، فأنكحها نافعاً، فهي أم ولده، وسئل أبو ذر: أي الأعمال أفضل؟ فقال: الصلاة: عماد الإسلام، والجهاد: سنام العمل، والصدقة: شيء عَجِب، ثم قال السائل: يا أبا ذر لقد تركت شيئاً هو أوثق عمل في نفسي لا أراك ذكرته. قال: ما هو؟ قال: الصيام. فقال: قرينة وليس هناك، وتلا قوله تعالى: ﴿لَنْ نَأْتَاكَ بِرِجَالٍ مُّسَبِّحِينَ﴾^(٤). قال الزجاج: ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي: يجازي عليه.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَّا مَا حرَّمَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ سبب نزولها أن النبي ﷺ قال: «أنا على ملة إبراهيم» فقالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل. وتشرب البانها؟ فقال: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم». فقالوا: كل شيء نحرمه نحن، فإنه كان محرماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا. فنزلت هذه الآية تكذيباً لهم. قاله أبو روق، وابن السائب^(٦): «والطعام»: اسم للمأكول. قال ابن قتيبة: والجل: الحلال، ومثله الحرم والحرام، واللبس واللباس. وفي الذي حرّمه على نفسه، ثلاثة أقوال: أحدها: لحوم الإبل والبانها. روي عن النبي ﷺ^(٧)، ورواه أبو صالح، عن ابن عباس، وهو قول الحسن، وعطاء بن أبي رباح، وأبي العالية في آخرين. والثاني: أنه العروق، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(٨) وهو قول مجاهد، وقادة، والضحاك، والسدي في آخرين. والثالث: أنه زائدتا الكبدة، والكليتان، والشحم إلا ما على الظهر، قاله عكرمة. وفي سبب تحريمه لذلك أربعة أقوال: أحدها: أنه طال به مرضٌ شديد، فنذر:

- (١) قوله: بيرحاء، قال الحافظ ابن حجر: بفتح الموحدة، وسكون التحتية، وفتح الراء، وبالمهمل والمد، وجاء في ضبطه أوجه كثيرة، جمعها ابن الأثير في «النهاية»، فقال: يروى بفتح الباء، ويكسرهما، ويفتح الراء وضهما، وبالمد والقصر. فهذه ثمان لغات. وفي رواية حماد بن سلمة «بريحاء» بفتح أوله وكسر الراء وتقديهما على التحتية. وفي «سنن أبي داود» «باريحاء» مثله لكن بزيادة ألف. وقال الباقى: أفصحها بفتح الباء، وسكون الياء، وفتح الراء مقصور، وكذا جزم به الصغاني، وقال: إنه «فيعلى» من البراح. قال: ومن ذكره بكسر الموحدة، وظن أنها بتر من آبار المدينة فقد صحف.
- (٢) جاء في البخاري: رابع أو رائج، شك ابن مسلمة. قال الحافظ ابن حجر: أي القعني، والرواية الأولى واضحة من الريح، أي: فور ربح. وقيل: هو فاعل بمعنى مفعول، أي: هو مال مربوح فيه. وأما الثانية فمعناها: رائج عليه أجره. قال ابن بطال: والمعنى أن مسافته قريبة، وذلك أنفس الأموال. وقيل: معناه يروح بالأجر ويغتنو به، واكتفى بالروح عن الغد.
- (٣) في «الدر المنثور»: مرجانة.
- (٤) رواه ابن جرير الطبري ٥٩١/٦، وهذا الخبر منقطع لأن ميمون بن مهران لم يذكر أبا ذر.
- (٥) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ولم يذكر له سنداً.

(٦) روى الإمام أحمد بسند حسن عن ابن عباس قال: «حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمن إلا نبي أفذكر الحديث، وفيه لأنهم قالوا: [أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟] [وإن رسول الله ﷺ قال لهم: [فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ﷺ هل تعلمون أن إسرائيل أي: يعقوب ﷺ مرض مرضاً شديداً، وطال سقمه، فنذر له نذراً، لئن شفاء الله من سقمه ليحرمن أحبّ الشراب إليه وأحبّ الطعام إليه. وكان أحبّ الطعام إليه لحمان الإبل، وأحبّ الشراب إليه البانها؟] فقالوا: اللهم نعم. فقال: «اللهم أشهد عليهم».

(٧) رواه البيهقي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والمحام وصححه، من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس.

لئن شفاه الله، ليحرّم من أحبّ الطعام والشراب إليه، روي عن النبي ﷺ. والثاني: أنه اشتكى عرق النسا^(١) فحرّم العروق، قاله ابن عباس في آخرين. والثالث: أن الأطباء وصفوا له حين أصابه النسا اجتناب ما حرّمه، فحرّمه، رواه الضحاك عن ابن عباس. والرابع: أنه كان إذا أكل ذلك الطعام، أصابه عرق النسا، فبييت وقيذا^(٢) فحرّمه، قاله أبو سليمان الدمشقي. واختلفوا: هل حرم ذلك بإذن الله أو باجتهاده؟ على قولين. واختلفوا: بماذا ثبت تحريم الطعام الذي حرّمه على اليهود، على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه حرم عليهم بتحريمه، ولم يكن محرماً في التوراة، قاله عطية. وقال ابن عباس: قال يعقوب: لئن عافاني الله لا يأكله لي ولد. والثاني: أنهم وافقوا أباهم يعقوب في تحريمه، لا أنه حرّم عليهم بالشرع، ثم أضافوا تحريمه إلى الله، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ قَاتُوا يَا تَوْرَةَ قَاتِلُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ هذا قول الضحاك. والثالث: أن الله حرّمه عليهم بعد التوراة لا فيها. وكانوا إذا أصابوا ذنباً عظيماً، حرم عليهم به طعام طيب، أو صب عليهم عذاب، هذا قول ابن السائب. قال ابن عباس: ﴿قَاتُوا يَا تَوْرَةَ قَاتِلُوهُمْ﴾ هل تجدون فيها تحريم لحوم الإبل والبانها!

﴿مَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَفْتَرَىٰ﴾ يقول: اختلق ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد البيان في كتبهم، وقيل: من بعد مجيئكم بالتوراة وتلاوتكم إياها.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ الصدق: الإخبار بالشيء على ما هو به، وضده الكذب. واختلفوا أي خبر عنى بهذه الآية؟ على قولين: أحدهما: أنه عنى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا﴾، قاله مقاتل، وأبو سليمان الدمشقي. والثاني: أنه عنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلٰلًا﴾ قاله ابن السائب.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ قال مجاهد: افتخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل من الكعبة. وقال المسلمون: الكعبة أفضل، فنزلت هذه الآية. وفي معنى كونه «أول» قولان: أحدهما: أنه أول بيت كان في الأرض، واختلف أرباب هذا القول، كيف كان أول بيت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ظهر على وجه الماء حين خلق الله الأرض، فخلقه قبلها بألفي عام، ودحاها من تحته، فروى سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: كانت الكعبة حشفة على وجه الماء، عليها ملكان يسبحان الليل والنهار قبل الأرض بألفي سنة، وقال ابن عباس: وضع البيت في الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفي سنة، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت، وبهذا القول يقول ابن عمر، وابن عمرو، وقتادة، ومجاهد، والسدي في آخرين. والثاني: أن آدم استوحش حين أهبط، فأوحى الله إليه، أن: ابن لي بيتاً في الأرض، فاصنع حوله نحو ما رأيت ملائكتي تصنع حول عرشي، فبناه، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. والثالث: أنه أهبط مع آدم، فلما كان الطوفان، رُفِعَ فصار معموراً في السماء، وبنى إبراهيم على أثره، رواه شيبان عن قتادة. القول الثاني: أنه أول بيت وُضِعَ للناس للعبادة^(٣)، وقد كانت قبله بيوت، هذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٤)، والحسن، وعطاء بن السائب في آخرين، فأما بكة، فقال الزجاج: يصلح هذا الاسم أن يكون مشتقاً من البكّ. يقال: بكّ الناس بعضهم بعضاً، أي: دفع. واختلفوا في تسميتها ببكة على ثلاثة أقوال: أحدها: لآزدحام

(١) النسا: هو العرق الذي يخرج من الورك، فيستطن الفخذين، ثم يمر حتى يبلغ الكعب، وهو الذي يأخذه المرض المعروف.

(٢) قال في «اللسان»: الرقيذ والموقوذ: الشديد المرض الذي قد أشرف على الموت. وفي «الطبري»: «فكان بيت له زقاه». والزقاه: صوت الباكى وصياحه.

(٣) يؤيده ما رواه أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجداً». رواه أحمد في «المستد» والبخاري ومسلم.

(٤) أثر علي، رواه ابن أبي حاتم، وصححه الحافظ ابن حجر.

الناس بها، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، والفراء، ومقاتل. والثاني: لأنها تبك أعناق الجبابرة، أي: تدقها، فلم يقصدها جبارٌ إلا قصمه الله، روي عن عبد الله بن الزبير، وذكره الزجاج. والثالث: لأنها تضع من نخوة المتجبرين، يقال: بككت الرجل، أي: وضعت منه، ورددت نخوته، قاله أبو عبد الرحمن البيهقي، وقطرب. واتفقوا على أن مكة اسمٌ لجميع البلدة. واختلفوا في بكة على أربعة أقوال: أحدها: أنه اسمٌ للبقعة التي فيها الكعبة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو مالك، وإبراهيم. وعطيّة. والثاني: أنها ما حول البيت، ومكة ما وراء ذلك، قاله عكرمة. والثالث: أنها المسجد، والبيت. ومكة: اسمٌ للحرم كله، قاله الزهري، وضمرة بن حبيب. والرابع: أن بكة هي مكة، قاله الضحاك، وابن قتيبة، واحتج ابن قتيبة بأن الباء تبدل من الميم؛ يقال: سمد رأسه، وسبد رأسه: إذا استأصله، وشر لازم، ولازب.

قوله تعالى: ﴿مِائَاتًا﴾ قال الزجاج: هو منصوب على الحال. المعنى: الذي استقر بمكة في حال بركته.

قوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أي: وذا هدى. ويجوز أن يكون «هدى» في موضع رفع، المعنى: وهو هدى، فأما بركته، فيه تغفر الذنوب، وتضاعف الحسنات، ويأمن من دخله. وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «من طاف بالبيت، لم يرفع قدماً، ولم يضع أخرى، إلا كتب الله له بها حسنة، وحط عنه بها خطيئة، ورفع له بها درجة»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَهُدًى لِّلْمَلَكِينَ﴾، في الهدى هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنه بمعنى القبلية، فتقديره: وقبلية للعالمين. والثاني: أنه بمعنى: الرحمة. والثالث: أنه بمعنى: الصلاح، لأن من قصده، صلحت حاله عند ربه. والرابع: أنه بمعنى: البيان، والدلالة على الله تعالى بما فيه من الآيات التي لا يقدر عليها غيره، حيث يجتمع الكلب والظبي في الحرم، فلا الكلب يهيج الظبي، ولا الظبي يستوحش منه، قاله القاضي أبو يعلى.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُزَيِّبُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾، الجمهور يقرؤون: آيات. وروى عطاء عن ابن عباس أنه قرأ: «فيه آية بينة مقام إبراهيم»، وبها قرأ مجاهد. والآية: مقام إبراهيم. فأما من قرأ: «آيات» فقال علي بن أبي طالب ﷺ: الآيات: مقام إبراهيم، وأمن من دخله. فعلى هذا يكون الجمع معبراً عن التثنية، وذلك جائز في اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِنُكَلِّمُهُمُ شُهَدَاءَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. وقال أبو رجاء: كان الحسن يعدهن، وأنا أنظر إلى أصابعه: مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً، والله على الناس حج البيت، وقال ابن جرير: في الكلام إضمار، تقديره: منهم مقام إبراهيم. قال المفسرون: الآيات فيه كثيرة، منها مقام إبراهيم، ومنها: أمن من دخله، ومنها: امتناع الطير من العلو عليه، واستشفاء المريض منها به، وتعجيل العقوبة لمن انتهك حرمة، وإهلاك أصحاب الفيل لما قصدوا إخراجه، إلى غير ذلك. قال القاضي أبو يعلى: والمراد بالبيت هاهنا: الحرم كله، لأن هذه الآيات موجودة فيه، ومقام إبراهيم ليست في البيت، والآية في مقام إبراهيم أنه قام على حجر، فأثرت قدماه فيه، فكان ذلك دليلاً على قدرة الله، وصدق إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾، قال القاضي أبو يعلى: لفظه لفظ الخبر، ومعناه: الأمر، وتقديره: ومن دخله، فأمنوه، وهو عام فيمن جنى جناية قبل دخوله، وفيمن جنى فيه بعد دخوله، إلا أن الإجماع انعقد على أن من جنى فيه لا يؤمن، لأنه هنك حرمة الحرم ورد الأمان، فبقي حكم الآية فيمن جنى خارجاً منه، ثم لجأ إلى الحرم، وقد اختلف الفقهاء في ذلك، فقال أحمد في رواية المروزي: إذا قتل، أو قطع يداً، أو أتى حداً في غير الحرم، ثم دخله، لم يقم عليه الحد، ولم يقتص منه، ولكن لا يبيع، ولا يشارى، ولا يؤاكل حتى يخرج، فإن فعل شيئاً من ذلك في

(١) رواه أحمد في «المسنند» رقم ٤٤٦٢، والترمذي في «جامعه» والحاكم في «المستدرک» وابن خزيمة في «صحيحه» عن ابن عمر، ولفظ المصنف عند ابن خزيمة. قال الهيثمي في مجمع «الزوائد» ٣/٢٤٠: وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط. وهشيم الراوي عن عطاء سمع منه بعد اختلاطه. وقد حسن الشيخ أحمد شاكر هذا الحديث في تعليقه على «المسنند» فانظره.

الحرم، استوفى منه. وقال أحمد في رواية حنبل: إذا قتل خارج الحرم، ثم دخله، لم يقتل. وإن كانت الجناية دون النفس، فإنه يقام عليه الحد، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه. وقال مالك والشافعي: يقام عليه جميع ذلك في النفس، وفيما دون النفس.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آيَاتًا﴾، دليل على أنه لا يقام عليه شيء من ذلك، وهو مذهب ابن عمر، وابن عباس، وعطاء، والشعبي، وسعيد بن جبير، وطاووس.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَّ النَّاسُ حُجَّ الْبَيْتِ﴾، الأكثرون على فتح حاء «الحج»، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، بكسرهما. قال مجاهد: لما أنزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] قال أهل الملل كلهم: نحن مسلمون، فنزلت هذه الآية، فحججه المسلمون، وتركه المشركون، وقالت اليهود: لا نحجه أبداً.

قوله تعالى: ﴿مَنْ اسْتَلْطَحَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، قال النحويون: من استلطح بدل من «الناس»، وهذا بدل البعض من الكل، كما تقول: ضربت زيداً رأسه. وقد روي عن ابن مسعود، وابن عمر، وأنس، وعائشة عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ: ما السبيل؟ فقال: «من وجد الزاد والراحلة»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، فيه خمسة أقوال: أحدها: أن معناه: من كفر بالحج فاعتقله غير واجب، رواه مقسم عن ابن عباس، وابن جريج عن مجاهد، وبه قال الحسن، وعطاء، وعكرمة، والضحاك، ومقاتل: والثاني: من لم يرج ثواب حجه، ولم يخف عقاب تركه، فقد كفر به، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وابن أبي نجيح عن مجاهد. والثالث: أنه الكفر بالله، لا بالحج، وهذا المعنى مروى عن عكرمة، ومجاهد. والرابع: أنه إذا أمكنه الحج، فلم يحج حتى مات، وسم بين عينيه: كافر، هذا قول ابن عمر. والخامس: أنه أراد الكفر بالآيات التي أنزلت في ذكر البيت، لأن قوماً من المشركين قالوا: نحن نكفر بهذه الآيات، هذا قول ابن زيد.

﴿قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾ قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ﴾، قال الحسن: هم اليهود والنصارى، فأما آيات الله؛ فقال ابن عباس: هي القرآن ومحمد ﷺ. وأما الشهيد، فقال ابن قتيبة: هو بمعنى الشاهد، وقال الخطابي: هو الذي لا يغيب عنه شيء، كأنه الحاضر الشاهد.

قوله تعالى: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّنْ ءَامَنَ﴾. قال مقاتل: دعت اليهود حذيفة، وعمار بن ياسر، إلى دينهم، فنزلت هذه الآية، وفي المراد بأهل الكتاب هاهنا قولان: أحدهما: أنهم اليهود والنصارى، قاله الحسن. والثاني: اليهود. قاله زيد بن أسلم، ومقاتل. قال ابن عباس: لم تصدوا عن سبيل الله: الإسلام، والحج. وقال قتادة: لم تصدوا عن نبي الله، وعن الإسلام. قال السدي: كانوا إذا سئلوا: هل تجدون محمداً في كتبكم؟ قالوا: لا. فصدوا عنه الناس.

(١) قال الحافظ في «التلخيص»: رواه الدارقطني ٢٥٤/١، والحاكم ٤٤٢/١ والبيهقي من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَّ النَّاسُ حُجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَلْطَحَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، قال: قيل: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة». قال البيهقي: الصواب عن قتادة عن الحسن مرسلاً، يعني الذي خرج به الدارقطني، وسنده صحيح إلى الحسن ولا يرى الموصول إلا وهماً. وقد رواه الحاكم من حديث حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس أيضاً، إلا أن الراوي عن حماد هو أبو قتادة عبد الله بن واقد الحراني، وقد قال أبو حاتم: هو منكر الحديث. وقد رواه الشافعي في «السنن» ٢٨٤/١، والترمذي ص ١٠٠، وابن ماجه ص ٢١٤، والدارقطني ص ٢٥٥ من حديث ابن عمر، وقال الترمذي: حسن، وهو من رواية إبراهيم بن يزيد الخوزي، وقد قال فيه أحمد والنسائي: متروك الحديث، ورواه ابن ماجه ٢١٤/١، والدارقطني من حديث ابن عباس، وسنده ضعيف أيضاً، ورواه ابن المنذر من قول ابن عباس. ورواه الدارقطني من حديث جابر، ومن حديث علي بن أبي طالب، ومن حديث ابن مسعود، ومن حديث عائشة، ومن حديث عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده، وطرقتها كلها ضعيفة، وقد قال عبد الحق: إن طرقها كلها ضعيفة، وقال أبو بكر بن المنذر: لا يثبت الحديث في ذلك مستنداً، والصحيح من الروايات رواية الحسن مرسلة. وقال الشوكاني في «نيل الأوطار»: ولا يخفى أن هذه الطرق بقوى بعضها بعضاً تفصلح للاحتجاج بها. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: فهذه الأحاديث مستندة من طرق حسان مرسلة وموقوفة تدل على أن مناط الوجوب الزاد والراحلة، مع علم النبي ﷺ أن كثيراً من الناس يقدرون على المشي.

قوله تعالى: ﴿تَبَوَّأَهَا﴾ قال اللغويون: الهاء كناية عن السبيل، والسبيل يذكر ويؤنث. وأنشدوا:

فلا تبؤد فكل فتسى أناس
سُيُصِيحُ سالكاً تلك السبيلا

ومعنى «تبغونها»: تبغون لها، تقول العرب: ابغني خادماً، يريدون: ابغته لي، فإذا أرادوا: ابغ معي، وأعني على طلبه، قالوا: أبغني، ففتحوا الألف، ويقولون: وهبتك درهماً، كما يقولون: وهبت لك. قال الشاعر:

فتولّى غلامهم ثم نادى
أظليماً أصيدكم أم حماراً؟

أراد: أصيد لكم. ومعنى الآية: يلتمسون لسبيل الله الزبغ والتحرير، ويريدون ردّ الإيمان والاستقامة إلى الكفر والاعوجاج، ويطلبون العدول عن القصد، وهذا قول الفراء، والزجاج، واللغويين. قال ابن جرير: خرج هذا الكلام على السبيل، والمعنى: لأهله، كأن المعنى: تبغون لأهل دين الله، ولمن هو على سبيل الحق، عوجاً، أي: ضلالاً، قال أبو عبيدة: العوج بكسر العين في الدين، والكلام، والعمل، والعوج بفتحها، في الحائط والجذع، وقال الزجاج: العوج بكسر العين: فيما لا ترى له شخصاً، وما كان له شخص قلت: عوج بفتحها، تقول: في أمره ودينه عوج، وفي العصا عوج. وروى ابن الأنباري عن ثعلب قال: العوج عند العرب بكسر العين: في كل ما لا يحاط به، والعوج بفتح العين في كل ما لا يحصل، فيقال: في الأرض عوج، وفي الدين عوج، لأن هذين يتسعان، ولا يدركان. وفي العصا عوج، وفي السن عوج، لأنهما يحاط بهما، ويبلغ كنههما، وقال ابن فارس: العوج بفتح العين: في كل متصب، كالحائط. والعوج: ما كان في بساط أو أرض، أو دين، أو معاش.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: وأنتم شاهدون بصحة ما صدقتم عنه، ويُطلان ما أنتم فيه، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس، وقتادة، والأكثرين. والثاني: أن معنى الشهداء هاهنا: العقلاء، ذكره القاضي أبو يعلى في آخرين.

﴿يُنَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ طَوْعِيُمْ قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُرْسُوا أَن كَتَبَ يَرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَفْرًا﴾

سبب نزولها أن الأوس والخزرج كان بينهما حرب في الجاهلية، فلما جاء النبي ﷺ أطفأ تلك الحرب بالإسلام، فبينما رجلان أوسي وخزرجي يتحدثان، ومعهما يهودي، جعل اليهودي يذكّرهما أيامهما، والعداوة التي كانت بينهما حتى اقتتلا، فنادى كل واحد منهما بقومه، فخرجوا بالسلاح، فجاء النبي ﷺ، فأصلح بينهم، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد، وعكرمة، والجماعة. قال المفسرون: والخطاب بهذه الآية للأوس والخزرج. قال زيد بن أسلم: وعنى بذلك الفريق: شاس بن قيس اليهودي وأصحابه. قال الزجاج: ومعنى طاعتهم: تقليدهم.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنَادِي عَالِيكُمْ ءَايَةُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَمِدِ بِاللَّهِ فَقَدِ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَمِدِ بِاللَّهِ﴾. قال ابن قتيبة: أي: يمتنع، وأصل العصمة: المنع، قال الزجاج: ويعتصم جزم بدمن، والجواب ﴿فَقَدِ هَدَىٰ﴾.

﴿يُنَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

قال عكرمة: نزلت في الأوس والخزرج حين اقتتلوا، وأصلح النبي ﷺ بينهم. وفي «حق تقاته» ثلاثة أقوال: أحدها: أن يطاع الله فلا يعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يشكر فلا يكفر، رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ^(١). وهو قول ابن مسعود، والحسن، وعكرمة، وقتادة، ومقاتل. والثاني: أن يجاهد في الله حق الجهاد وأن لا يأخذ العبد فيه لومة لائم، وأن يقوموا له بالقسط، ولو على أنفسهم، وآبائهم، وأبنائهم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أن معناه: اتقوه فيما يحق عليكم أن تتقوه فيه، قاله الزجاج.

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» والحاكم في «المستدرک» ٢/٢٩٤ موقوفاً غير مرفوع، وإسناده صحيح. ورواه ابن مردويه مرفوعاً كما ذكره المصنف، قال ابن كثير. والأظهر أنه موقوف.

فصل

واختلف العلماء: هل هذا الكلام محكم أو منسوخ؟ على قولين: أحدهما: أنه منسوخ، وهو قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن زيد، والسدي، ومقاتل. قالوا: لما نزلت هذه الآية، شقت على المسلمين، فنسخها قوله تعالى: ﴿فَأَقْرَأُوا اللَّهَ مَا اسْتَلْظَمْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. والثاني: أنها محكمة، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهو قول طاوس. قال شيخنا علي بن عبيد الله: والاختلاف في نسخها وإحكامها، يرجع إلى اختلاف المعنى المراد بها، فالمعتقد نسخها يرى أن «حق تقاته» الوقوف مع جميع ما يجب له ويستحقه، وهذا يعجز الكل عن الوفاء به، فتحصيله من الواحد ممتنع، والمعتقد إحكامها يرى أن «حق تقاته» أداء ما يلزم العبد على قدر طاقته، فكان قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَلْظَمْتُمْ﴾ مفسراً لـ«حق تقاته» لا ناسخاً ولا مخصصاً.

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ قال الزجاج: اعتصموا: استمسكوا. فأما الحبل، فيه ستة أقوال: أحدها: أنه كتاب الله: القرآن: رواه شقيق عن ابن مسعود^(١) وبه قال قتادة، والضحاك، والسدي. والثاني: أنه الجماعة، رواه الشعبي عن ابن مسعود. والثالث: أنه دين الله، قاله ابن عباس، وابن زيد، ومقاتل، وابن قتيبة. وقال ابن زيد: هو الإسلام. والرابع: عهد الله، قاله مجاهد، وعطاء، وقتادة في رواية، وأبو عبيد، واحتج له الزجاج بقول الأعشى:

وَإِذَا تُجَوِّزُهَا حِبَالُ قَبِيلَةٍ
وَأُنشِدُ ابْنَ الْأَنْبَارِيِّ:

فَلَوْ حِبَالًا تَنَالُوا مِنْ سُلَيْمِي

لَمَدَّ بِحَبْلِهَا حِبَالًا مَتِينًا

والخامس: أنه الإخلاص، قاله أبو العالية. والسادس: أنه أمر الله وطاعته، قاله مقاتل بن حيان. قال الزجاج: وقوله: «جميعاً» منصوب على الحال، أي: كونوا مجتمعين على الاعتصام به. وأصل «تفرقوا»: تفرقوا، إلا أن الناء حذفت لاجتماع حرفين من جنس واحد، والمحدوفة هي الثانية، لأن الأولى دليلة على الاستقبال، فلا يجوز حذف الحرف الذي يدل على الاستقبال، وهو مجزوم بالهي، والأصل: ولا تفرقون، فحذفت النون، لتدل على الجزم. قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ اختلفوا فيمن أريد بهذا الكلام على قولين: أحدهما: أنهم مشركو العرب، كان القوي يستبيح الضعيف، قاله الحسن، وقتادة. والثاني: الأوس والخزرج، كان بينهم حرب شديد، قاله ابن إسحاق. والأعداء: جمع عدو. قال ابن فارس: وهو من عدَا: إذا ظَلَمَ.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ أي: صرتم، قال الزجاج: وأصل الأخ في اللغة أنه الذي مقصده مقصد أخيه، والعرب تقول: فلان يتوخى مساراً فلان، أي: ما يسره. والشُّفَا: الحرف. وأعلم أن هذا مثل ضربه الله لإشرافهم على الهلاك، وقربهم من العذاب، كأنه قال: كنتم على حرف حفرة من النار، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا الموت على الكفر. قال السدي: فأنقذكم منها محمد ﷺ.

﴿وَلَكُمْ يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الشُّكْرِ وَأُوتِيَهُمْ اللَّهُ الْغُلُوبَ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ قال الزجاج: معنى الكلام: ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير، وتأمرون بالمعروف، ولكن «من» هاهنا تدخل لتخص المخاطبين من سائر الأجناس، وهي مؤكدة أن الأمر للمخاطبين، ومثله: ﴿فَأَجْتَبَيْنَا أَرِيضًا مِنَ الْأَرْزَاقِ﴾ [الحج: ٢٠] معناه: اجتنبوا الأوثان، فإنها رجس. ومثله قول الشاعر:

(١) رواه الطبري وإسناده صحيح، ولفظه: «إن الصراط محض ترهضه الشياطين، ينادون: يا عبد الله، هلم هذا الطريق، ليصلوا عن سبيل الله، فاعتصموا بحبل الله، فإن حبل الله هو كتاب الله».

(٢) من «ديوانه» ص ٢٧ من قصيدته في قيس بن معد كرب، وهذا البيت في ذكر ناقته. يقول: إذا ما أخذت من قبيلة عهودها حتى اجتاز ديارها أمناً، أعطتها القبيلة التي تليها عهداً ودفماً أن تخرق ديارها أمناً لا ينالها أحد بسوء، وذلك أن القبائل كلها ترهب قيساً وتخافه، فكل قاصد إليه، واجد الأمان حيث سار.

أخو رغائب يعطيها ويسألها

يأبى الظلّامة منه السّوفل الزفر^(١)

وهو النوفل الزفر.. لأنه وصفه بإعطاء الرغائب. والنوفل: الكثير الإعطاء للنوافل، والزفر: الذي يحمل الأتقال. ويدل على أن الكل أمروا بالمعروف والنهي عن المنكر قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ خَيْرٌ مِّمَّا أُخْرِجَتْ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِّنْ أُمَّةٍ قَوْمٌ مَّا يَعْرِفُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَتَهُتُّوهُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ قال: ويجوز أن يكون أمر منهم فرقة، لأن الدعوة ينبغي أن يكونوا علماء بما يدعون إليه، وليس الخلق كلهم علماء، والعلم ينوب بعض الناس فيه عن بعض، كالجهاد، فأما الخير، ففيه قولان: أحدهما: أنه الإسلام، قاله مقاتل. والثاني: العمل بطاعة الله، قاله أبو سليمان الدمشقي. وأما المعروف، فهو ما يعرف كل عاقل صوابه، وضده المنكر، وقيل: المعروف ما هنا: طاعة الله، والمنكر: معصيته.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَنَزَّهُوا وَآخِذُوا بِمَدَامَا آتَيْنَهُمُ الْآيَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١٥)

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَنَزَّهُوا وَآخِذُوا بِمَدَامَا آتَيْنَهُمُ الْآيَاتُ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود والنصارى، قاله ابن عباس، والحسن في آخرين. والثاني: أنهم الحرورية^(٢) قاله أبو أمامة.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(١٦)

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قرأ أبو رزین العقبلي، وأبو عمران الجوني، وأبو نهيك: «تبيض» و«تسود»، بكسر التاء فيهما. وقرأ الحسن، والزهري، وابن محيصة، وأبو الجوزاء: «تبياض» و«تسواد» بألف، ومدة فيهما. وقرأ أبو الجوزاء، وابن يعمر: فأما الذين اسوأت وبيأضت، بألف ومدة. قال الزجاج: أخبر الله بوقت ذلك العذاب، فقال: يوم تبيض وجوه. قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدعة. وفي الذين اسودت وجوههم، خمسة أقوال: أحدها: أنهم كل من كفر بالله بعد إيمانه يوم الميثاق، قاله أبي بن كعب. والثاني: أنهم الحرورية، قاله أبو أمامة، وأبو إسحاق الهمداني. والثالث: اليهود، قاله ابن عباس. والرابع: أنهم المنافقون، قاله الحسن. والخامس: أنهم أهل البدع، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ قال الزجاج: معناه: يقال لهم: أكفرتم، فحذف القول لأن في الكلام دليلاً عليه، كقوله تعالى: ﴿رَأْسُ سَيْبِلٍ رَّبًّا نَقَبَلْنَا مِثًّا﴾ [البقرة: ١٢٧]، أي: ويقولان: ربنا تقبل منا. ومثله: ﴿مِن كُلِّ بَابٍ سَكَنَ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٥، ٢٦] والمعنى: يقولون: سلام عليكم. والألف لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها التقرير والتوبيخ. فإن قلنا: إنهم جميع الكفار، فإنهم آمنوا يوم الميثاق، ثم كفروا، وإن قلنا: إنهم الحرورية، وأهل البدع، فكفرهم بعد إيمانهم: مفارقة الجماعة في الاعتقاد، وإن قلنا: اليهود، فإنهم آمنوا بالنبي قبل مبعثه، ثم كفروا بعد ظهوره، وإن قلنا: المنافقون، فإنهم قالوا بالاستتهم، وأنكروا بقلوبهم.

قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أصل الذوق إنما يكون بالفم، وهذا استعارة منه، فكانهم جعلوا ما يتعرف ويُعرف مذوقاً على وجه التشبيه بالذي يعرف عند الطعام، تقول العرب: قد ذقتُ من إكرام فلان ما يُرغيني في قصده، يعنون: عرفت، ويقولون: ذق الفرس، فاعرف ما عنده. قال تميم بن مقبل:

أَوْ كَأَمْتَرَ زَارِزُ رُدَيْنِي تُذَاوِقُهُ أَيْدِي التَّجَارِ فزادوا متنه لينا^(٣)

(١) هو لأعشى باهلة، من فصيلة جيدة يرثي بها المنتشر بن وهب الباهلي. والظلّامة: ما أخذ ظلماً. النوفل: الكثير النوافل، وهي العطايا، واحداً: نافلة. الزافر: القوي على الحملات، وهي الفرمانات التي تحملها عن القوم. قال في «اللسان» وقوله: «منه» مؤكدة للكلام، كما قال تعالى: ﴿يَبْيُزُّ لَكُمْ بِنَ دُؤْبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]. والمعنى: يأبى الظلّامة، لأنه النوفل الزفر.

(٢) الحرورية: هم الخوارج الذين قاتلهم علي عليه السلام، نسبة إلى حروراء. قال ياقوت في «معجم البلدان»: وحروراء، بفتحين وسكون الواو، وراء أخرى وألف ممدودة: قرية بظاهر الكوفة، وقيل: موضع على ميلين منها، نزل بها الخوارج الذين خالفوا علياً عليه السلام فنسبوا إليها.

(٣) «ديوانه» ص: ٣٢٨. وقد جاء فيه «تداوله» مكان «تداوله» والرديني: الرمح، منسوب إلى ردينة، وهي امرأة كانت تقن هي وزوجها سمهر صنع الرماح بخصب هجر. التجار: جمع تاجر، وهو الذي يتجر في الشيء، الحاذق بالأمور. شبه تنني النساء في مشيهن باهتزاز الرمح اللدن. وقال الشماخ في وصف القوس:

فذاق فأعطته من اللين جانباً

كفى ولها أن يفرق السهم حاجز

وقال الآخر:

وإن الله ذاق حُلُومَ قيسٍ فلما رآه خفنتها قلاها^(١)

يعنون بالدوق: العلم. وفي كتاب الخليل: كل ما نزل بإنسان من مكروه. فقد ذاقه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْتَيْتَ وَجُوهَهُمْ فَبِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَلِيدُونَ﴾^(١٧٧)

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْتَيْتَ وَجُوهَهُمْ﴾ قال ابن عباس: هم المؤمنون. ورحمة الله: جنته، قال ابن قتيبة: وسمى الجنة رحمة، لأن دخولهم إياها كان برحمته. وقال الزجاج: معناه: في ثواب رحمته، قال: وأعاد ذكر «فيها» تأكيداً.

﴿بَلَاغٌ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْمُكَلِّبِينَ﴾^(١٧٨)

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْمُكَلِّبِينَ﴾ قال بعضهم: معناه: لا يعاقبهم بلا جرم. وقال الزجاج: أعلمنا أنه يعذب من عذبه باستحقاق.

﴿وَلَوْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(١٧٩) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَذُوئُرُونَ بِاللَّهِ وَكُلُّ قَوْلٍ لَأَكْفُرَنَّ اللَّهُ لَهُمْ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١٨٠)

قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ سبب نزولها أن مالك بن الضيف ووهب بن يهوذا اليهوديين، قال ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة (وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل): ديننا خير مما تدعوننا إليه، ونحن أفضل منكم، فنزلت هذه الآية، هذا قول عكرمة ومقاتل. وفيمن أريد بهذه الآية، أربعة أقوال: أحدها: أنهم أهل بدر. والثاني: أنهم المهاجرون^(٢١). والثالث: جميع الصحابة. والرابع: جميع أمة محمد ﷺ، نقلت هذه الأقوال كلها عن ابن عباس. وقد

روى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ، أنه قال: «إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها، وأكرمها على الله تعالى»^(٢٢). قال الزجاج: وأصل الخطاب لأصحاب النبي ﷺ، وهو يعم سائر أمته^(٢٣). وفي قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ﴾،

قولان: أحدهما: أنها على أصلها، والمراد بها الماضي، ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: كنتم في اللوح

المحفوظ. والثاني: أن معناه: خُلِقْتُمْ وَوُجِدْتُمْ. ذكرهما المفسرون. والثالث: أن المعنى: كنتم مذ كنتم، ذكره ابن الأنباري. والثاني: أن معنى كنتم: أنتم، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]. ذكره الفراء^(٢٤)، والزجاج.

قال ابن قتيبة: وقد يأتي الفعل على بنية الماضي، وهو راهن، أو مستقبل، كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ﴾ ومعناه: أنتم،

ومثله: ﴿رَأَى قَالِ اللَّهُ يَجِيسِي﴾ [المائدة: ١١٦]، أي: وإذ يقول. ومثله: ﴿أَنْتَ أَنْزَلْتَهُ﴾ [النحل: ٤١]، أي: سيأتي، ومثله:

﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْرِ سَيِّئًا﴾ [مریم: ٢٩]، أي: من هو في المهد، ومثله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

أي: والله سميع بصير، ومثله: ﴿فَتَبَيَّرُ صَبَابًا فَسَقَنَّا﴾ [فاطر: ٩] أي: فنسوقه. وفي قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾

(١) قال الجاحظ في «الحيوان» ٣٠/٥: قال يزيد بن الصنق لبني سليم حين صنعوا لسيدهم العباس بن أسن ما صنعوا، وقد كانوا توجهوا وملكوه، فلما خالفهم في بعض الأمر، وثبوا عليه وكان سبب ذلك قلة رهطه:

وإن الله ذاق حُلُومَ قيسٍ فلما ذاق خفنتها قلاها

وأهلاً لا تطيع لها أميراً فخلاها تروذٌ فسي خلاها

قلاها: أبغضها. وخلاها: تركها. والخلى، مقصورة: الرطب من النبات، واحلته: خلأه، يقول: جعلها كالسواثم تتراد المرابي.

(٢) رواه أحمد، والنسائي، والحاكم بإسناد جيد عن ابن عباس. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وواقفه الذهبي.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: حديث حسن صحيح أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وله شاهد مرسل عن قتادة عند الطبري رجاله ثقات. وروى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء، فلنأني: يا رسول الله ما هو؟ قال نصرت بالرب، وأعطيت مفتاح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أمي خير الأمم، وقد حسن هذا الحديث الحافظ ابن كثير، والحافظ ابن حجر.

(٤) قال الحافظ ابن كثير بعدما ساق الأحاديث الثابتة في فضل أمة محمد ﷺ: فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَذُوئُرُونَ بِاللَّهِ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الملح، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَبَّأُونَ عَنْ مُنْكَرٍ قَوْلُهُمْ لَيْسَ مَا كَانُوا يَسْمُكُونَ﴾.

(٥) جاء في «معاني القرآن»: وقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ في التأويل في اللوح المحفوظ، ومعناه: أنتم خير أمة، كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِذْ كُنْتُمْ بَيْتًا نَكْرَةً﴾ [المائدة: ٨٦]. و﴿إِذْ أَنْزَلْنَا قُرْآنًا مُنْتَضِلاً فِي الْأَرَبِ﴾ [الأنفال: ٢٦]. فإضمار «كان» في مثل هذا وإظهارها سواء.

لِلنَّاسِ ﴿١١١﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: كتتم خير الناس للناس. قال أبو هريرة: يأتون بهم في السلاسل حتى يدخلوهم في الإسلام^(١). والثاني: أن معناه: كتتم خير الأمم التي أخرجت.

وفي قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ قولان: أحدهما: أنه شرط في الخيرية، وهذا المعنى مروى عن عمر بن الخطاب، ومجاهد، والزجاج. والثاني: أنه ثناء من الله عليهم، قاله الربيع بن أنس. قال أبو العالية: والمعروف: التوحيد. والمنكر: الشرك. قال ابن عباس: وأهل الكتاب: اليهود والنصارى.

قوله تعالى: ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: مَنْ أسلم، كعبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَأَكْفَرَهُمُ النَّاسِ﴾، يعني: الكافرين، وهم الذين لم يسلموا.

﴿إِنْ يَصْرُوكُمْ إِلَّا آذَىٰ وَإِنْ يَسْتَأْذِنُوا فَمَا لَهُمْ بَلَاءٌ أَلَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ بِالْحَقِّ وَأَوَّلَ آيَاتِهِ لِيُكْفَرُوا مِنْهَا فَيُحَرِّمُونَ عَلَى النَّاسِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَالطَّائِفَةُ أَكْثَرُ الْجُمْهُورِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَصْرُوكُمْ إِلَّا آذَىٰ﴾ قال مقاتل: سبب نزولها أن رؤساء اليهود عمدوا إلى عبد الله بن سلام وأصحابه فأذوهم لإسلامهم، فنزلت هذه الآية. قال ابن عباس: والأذى قولهم: ﴿عُذِرْتُ مِنْ رَبِّي﴾ [التوبة: ٣٠] و﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣٠] و﴿ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وقال الحسن: هو الكذب على الله، ودعاؤهم المسلمين إلى الضلالة. وقال الزجاج: هو البهت والتحريف. ومقصود الآية: إعلام المسلمين بأنه لن ينالهم منهم إلا الأذى باللسان من دعائهم إياهم إلى الضلال، وإسماعهم الكفر، ثم وعدهم النصر عليهم في قوله: ﴿وَإِنْ يَصْرُوكُمْ إِلَّا آذَىٰ﴾.

﴿صَبَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يُصْرَبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ مَا تَقُفُوا﴾ معناه: أدركو ووجدوا، وذلك أنهم أين نزلوا احتاجوا إلى عهد من أهل المكان، وأداء جزية. قال الحسن: أدركتهم هذه الأمة، وإن المحجوس لتجبيهم الجزية. وأما الجبل، فقال ابن عباس، وعطاء والضحاك، وقتادة، والسدي، وابن زيد: الجبل: العهد، قال بعضهم: ومعنى الكلام: إلا بعهد يأخوذنه من المؤمنين بإذن الله. قال الزجاج: وما بعد الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا يَحْتَلِي مِنَ اللَّهِ﴾ ليس من الأول، وإنما المعنى: أنهم أذلاء، إلا أنهم يتصمون بالعهد إذا أعطوه. وقد سبق في «البقرة» تفسير باقي الآية.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِمَّنْ آمَنُوا﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ احتبس عن صلاة العشاء ليلة حتى ذهب ثلث الليل، ثم جاء فشرهم، فقال: «إنه لا يصلي هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب»^(٢) فنزلت هذه الآية، قاله ابن مسعود. والثاني: أنه لما أسلم ابن سلام في جماعة من اليهود، قال أحبارهم: ما آمن بمحمد إلا أشرارنا، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس، ومقاتل. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: ليس أمة محمد واليهود سواء، هذا قول ابن مسعود، والسدي. والثاني: ليس اليهود كلهم سواء، بل فيهم من هو قائم بأمر الله، هذا قول ابن عباس، وقتادة. وقال الزجاج: الوقف التام ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: ليس أهل الكتاب متساوين. وفي معنى «قائمة» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الثابتة على أمر الله، قاله ابن عباس، وقتادة. والثاني: أنها العادلة، قاله الحسن، ومجاهد، وابن جريج. والثالث: أنها المستقيمة، قاله أبو عبيد، والزجاج. قال الفراء: ذكر أمة واحدة ولم يذكر بعدها أخرى، والكلام مبني على أخرى، لأن «سواء» لا بد لها من اثنين، وقد تستجيز العرب إضمار أحد الشئيين إذا كان في الكلام دليل عليه. قال أبو ذؤيب:

(١) أخرجه البخاري ج٨/١٦٩ موقوفاً، وهو في حكم المرفوع، لأنه في معنى الحديث المرفوع الذي رواه البخاري: «حجب الله ﷺ من قوم يدخلون الجنة في السلاسل».

(٢) رواه أحمد والطبري وأبو يعلى والبخاري وإسناده حسن، ولفظ أحمد: عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، قال: «أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هله الساعمة غيركم» قال: وأنزل هؤلاء الآيات: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِمَّنْ آمَنُوا﴾ حتى بلغ ﴿وَمَا يَتَّقُوا مِنَ اللَّهِ مَا يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾.

عصيت إليها القلب إنني لأمره
ولم يقل: أم لا، ولا أم غي، لأن الكلام معروف المعنى. وقال آخر:
وما أدري إذا يمممت أرضاً
أريد الخير أيهما يليني
أالخير الذي أنا ابتغيه
أم الشر الذي هو يبتغيني^(٢)

ومثله قوله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَتِيلٌ أَتَأْتِي السَّاجِدِينَ وَالْمُهَلِّينَ أَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٢٩]. دليلاً على ما أضمر من ذلك، وقد رد هذا القول الزجاج، فقال: قد جرى ذكر أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِكَايِدَاتِ اللَّهِ وَفَتَاتِلِ الْأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ حَتْمٍ﴾، فأعلم الله أن منهم أمة قائمة. فما الحاجة إلى أن يقال: وأمة غير قائمة؟ وإنما بدأ بذكر فعل الأكثر منهم، وهو الكفر والمشاقة، فذكر من كان منهم مباناً لهؤلاء. قال: ﴿وَأَتَى الْكُفْرَ وَالشَّقَاةَ﴾. قال ابن فارس: يقال: مضى من الليل إنني، وإنيان، والجمع: الآناء. واختلف المفسرون: هل هذه الآناء معينة من الليل أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها معينة، ثم فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها صلاة العشاء، قاله ابن مسعود، ومجاهد. والثاني: أنها ما بين المغرب والعشاء، رواه سفيان عن منصور. والثالث: جوف الليل، قاله السدي. والثاني: أنها ساعات الليل من غير تعيين، قاله قتادة في آخرين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، قولان: أحدهما: أنه كناية عن الصلاة، قاله مقاتل، والفراء، والزجاج. والثاني: أنه السجود المعروف، وليس المراد أنهم يتلون في حال السجود، ولكنهم جمعوا الأمرين، التلاوة والسجود. ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَرَأَوْا آيَاتِ الْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَرَبَّرُوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الْعَابِدِينَ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالشَّقِيْقِ﴾^(١)
وتكفروه، بالتاء في الموضعين على الخطاب، لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾. قال قتادة: فلن تكفروه: لن يضل عنكم. وقرأ قوم، منهم حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وعبد الوارث عن أبي عمرو، يفعلوا، ويكفروا، بالياء فيهما، إخباراً عن الأمة القائمة. وبقية أصحاب أبي عمرو يخبرون بين الباء والتاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا يَبِيعُ فِيهَا صِرّاً أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَنَّهُمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اختلفوا فيمن أنزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها في نفقات الكفار وصدقاتهم، قاله مجاهد. والثاني: في نفقة سفلة اليهود على علمائهم، قاله مقاتل. والثالث: في نفقة المشركين يوم بدر. والرابع: في نفقة المنافقين إذا خرجوا مع المسلمين لحرب المشركين، ذكر هذين القولين أبو الحسن الماوردي. وقال السدي: إنما ضرب الإنفاق مثلاً لأعمالهم في شركهم. وفي الصر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه البرد، قاله الأكثرون. والثاني: أنه النار، قاله ابن عباس، قال ابن الأنباري: وإنما وصفت النار بأنها صر لتصويتها عند الانتهاء. والثالث: أن الصر: التصويت، والحركة من الحصى والحجارة، ومنه: صرير النعل، ذكره ابن الأنباري. والحرث: الزرع. وفي معنى ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: ظلموها بالكفر والمعاصي، ومنع حق الله تعالى. والثاني: بأن زرعوا في غير وقت الزرع.

(١) ديوان الهذليين ٧١/١ قال الشيخ محمود شaker في تعليقه على البيت: رواية البيت هكذا لا يستقيم بها معنى، ورواية «ديوانه»:

عصاني إليها القلب إنني لأمره

ويروي: دعاني إليها. ومما روايتان صحيحتان. وتعام معنى البيت في الذي يليه:

فقلت لقلبي يا لك الخير إنما

يدليك للموت الجديد حبابها

يقول: عصاني القلب، وذهب إليها، فأن أتبع ما يأمرني به.

(٢) للمصنف العبد من نصيلة جيدة في «المفضليات» والبيان تعبير صادق عن جهل الإنسان بما يخفى له القدر من الخير والشر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: أي: ما نقصهم ذلك بغير جرم أصابوه، وإنما أنزل بهم ذلك لظلمهم أنفسهم بمنع حق الله منه، وهذا مثل ضربه الله لإبطال أعمالهم في الآخرة. وحدثننا عن ثعلب، قال: بدأ الله تعالى هذه الآية بالريح، والمعنى: على الحرث، كقوله تعالى: ﴿كَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ وإنما المعنى على المنعوق به. وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنكُم مَّوَدُّونَ أَرْوَاحًا يَرْصَنَ بِأَنفُسِهِمْ﴾ فخير عنه «الأزواج» وترك «الذين» كأنه قال: أزواج الذين يتوفون منكم يترصن، فبدأ بالذين، ومراده: بعد الأزواج. وأنشد:

لعلِّي إن مالت بي الريح ميلاً
على ابن أبي ديان أن يتندماً

فخير عن ابن أبي ديان، وترك نفسه، وإنما أراد: لعل ابن أبي ديان أن يتندما إن مالت بي الريح ميلاً. وقد يبدأ بالشيء، والمراد التأخير، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَوَجُوهُهُم مَّسْوُودَةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] والمعنى: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة يوم القيامة.

﴿يَتَأَيَّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُمْ تُهْلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يضافون المنافقين، ويواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصدقة، والجوار، والرضاع، والحلف، فنهوا عن مباظنتهم. قال الزجاج: البطانة: الذخلاء الذين يستبطنون [أمره] وينسبط إليهم، يقال: فلان بطانة لفلان، أي: مُدَاخِلُ لَهُ، مؤانس. ومعنى ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾: لا يتقون غاية في الفائقكم فيما يُضُرُّكُمْ^(١).

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: ودُّوا عنتكم، وهو ما نزل بكم من مكروه وضُرٍّ، يقال: فلان يعنت فلاناً، أي: يقصد إدخال المشقة والأذى عليه، وأصل هذا من قولهم: أكمة عنتت، إذا كانت طويلة، شاقة المسلك. قال ابن قتيبة: ومعنى ﴿مِن دُونِكُمْ﴾ أي: من غير المسلمين. والخبال: الشر.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي: قد ظهر لكم منهم الكذب، والشتم، ومخالفة دينكم. قال القاضي أبو يعلى: وفي هذه الآية دلالة على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين من العملات والكتابة، ولهذا قال أحمد: لا يستعين الإمام بأهل الذمة على قتال أهل الحرب. وروي عن عمر أنه بلغه أن أبا موسى استكتب رجلاً من أهل الذمة، فكتب إليه يعنه، وقال: لا تردوهم إلى العز بعد إذ أذلهم الله.

﴿هَتَأْتُمْ أَوْلَادَ تُحْبِبُّهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُفْرًا وَإِذَا لَقُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَابِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتَا بَيْتِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

قوله تعالى: ﴿هَتَأْتُمْ أَوْلَادَ تُحْبِبُّهُمْ﴾ قال ابن عباس: كان عامة الأنصار يواصلون اليهود ويواصلونهم، فلما أسلم الأنصار بغضهم اليهود، فنزلت هذه الآية. والخطاب بهذه الآية للمؤمنين. قال ابن قتيبة: ومعنى الكلام: ها أنتم يا هؤلاء. فاما «تحبونهم» فالهاء والميم عائدة إلى الذين نهوا عن مصافقتهم. وفي معنى محبة المؤمنين لهم أربعة أقوال: أحدها: أنها الميل إليهم بالطباع، لموضع القرابة، والرضاع، والحلف، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس. والثاني: أنها بمعنى الرحمة لهم، لما يفعلون من المعاصي التي يقابلها العذاب الشديد، وهذا المعنى منقول عن قتادة. والثالث: أنها لموضع إظهار المنافقين الإيمان، روي عن أبي العالية. والرابع: أنها بمعنى إرادة الإسلام لهم، وهم يريدون المسلمين على الكفر، وهذا قول المفضل، والزجاج. والكتاب: بمعنى الكتب، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ هذه حالة المنافقين، وقال مقاتل: هم اليهود. والأنايل: أطراف الأصابع. قال ابن عباس: والغيط: الحنق عليكم، وقيل: هذا من مجاز الكلام، ضُرب مثل لما حلَّ بهم، وإن لم يكن هناك عض على أنملة، ومعنى ﴿مُؤْتَا بَيْتِيكُمْ﴾: ابقوا به حتى تموتوا، وإنما كان غيظهم من رؤية شمل المسلمين ملتصماً. قال

(١) قال القرطبي: معنى ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا﴾ لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم.

ابن جرير: هذا أمر من الله تعالى لنبئ أن يدعو عليهم بأن يهلكهم الله كعدا من الغيظ.

﴿إِنْ تَسْتَكْمِبُونَ حَسَنَةً سَوْفَ تَكُونُ مِنْكُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا تَنَقُّوْا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَمْكُرُونَ مُحِيطٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَكْمِبُونَ حَسَنَةً﴾ قال قتادة: وهي الألفة والجماعة. والسيئة: الفرقة والاختلاف، وإصابة طرف من المسلمين. وقال ابن قتيبة: الحسنة: النعمة. والسيئة: المصيبة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصِيرُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: على أذاهم، قاله ابن عباس. والثاني: على أمر الله، قاله مقاتل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَنَقَّرُوا﴾ قولان: أحدهما: الشرك، قاله ابن عباس. والثاني: المعاصي، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، «يَضُرُّكُمْ» بكسر الضاد، وتخفيف الراء. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «لَا يَضُرُّكُمْ» بضم الضاد وتشديد الراء. قال الزجاج: الضر والضير بمعنى واحد. فأما الكيد فقال ابن قتيبة: هو المكر. قال أبو سليمان الخطابي: والمحيط: الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه، وأحاط علمه بالأشياء كلها.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ قال المفسرون: في هذا الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ولقد نصركم الله بيدر، وإذ غدوت من أهلك. وقال ابن قتيبة: تبوئ، من قولك: بوأتك منزلاً: إذا أهدت لك إياه، أو أسكنته. ومعنى «مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ»: المعسكر والمصاف. واختلفوا في أي يوم كان ذلك، على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوم أحد، قاله عبد الرحمن بن عوف، وابن مسعود، وابن عباس، والزهري، وقاتدة، والسدي، والربيع، وابن إسحاق، وذلك أنه خرج يوم أحد من بيت عائشة إلى أحد، فجعل يصف أصحابه للقتال. والثاني: أنه يوم الأحزاب، قاله الحسن، ومجاهد، ومقاتل. والثالث: يوم بدر، نقل عن الحسن أيضاً. قال ابن جرير: والأول أصح، لقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَتَشَكَّلَا﴾ وقد اتفق العلماء أن ذلك كان يوم أحد.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: سمع لمشاورتك إياهم في الخروج، ومرادهم للخروج، عليم بما يخفون من حب الشهادة.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَتَشَكَّلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَتَشَكَّلَا﴾ قال الزجاج: كانت التبوئة في ذلك الوقت. وتفشلا: تجبنا، وتخورا. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، أي: ناصرهما. قال جابر بن عبد الله: نحن هم بنو سلمة، وبنو حارثة، وما نحب أن لو لم يكن ذلك لقول الله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. وقال الحسن: [هما] طائفتان من الأنصار همتا بذلك، فعصمهما الله. وقيل: لما رجع عبد الله بن أبي في أصحابه يوم أحد، همت الطائفتان باتباعه، فعصمهما الله.

فصل

فأما التوكل، فقال ابن عباس: هو الثقة بالله. وقال ابن فارس: هو إظهار العجز [في الأمر]، والاعتماد على غيرك، ويقال: فلان وكَلَّهْتُ كَلَّةً، أي: عاجز، يكمل أمره إلى غيره. وقال غيره: هو تفعل من الوكالة، يقال: وكلت أمري إلى فلان فتوكل به، أي: ضمنه، وقام به، وأنا متوكل عليه. وقال بعضهم: هو تفويض الأمر إلى الله ثقة بحسن تدبيره.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ في تسمية بدر قولان: أحدهما: أنها بشر لرجل اسمه بدر، قاله الشعبي. والثاني: أنه اسم للمكان الذي التقوا عليه، ذكره الواقدي عن أشياخه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَوْلَىٰ﴾ أي: لفلة العدد والعدد. ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تُشْكِرُونَ﴾ أي: لتكونوا من الشاكرين.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبِّكُمْ بِمَلَكٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبِّكُمْ﴾ قال الشعبي: قال كُرْزُ بْنُ جَابِرٍ لمشركي مكة: إني أمدكم بقومي، فاشتد ذلك على المسلمين، فنزلت هذه الآية. وفي أي يوم كان ذلك؟ فيه قولان: أحدهما: يوم بدر، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والثاني: يوم أحد، وعدهم فيه بالمدد إن صبروا، فلما لم يصبروا، لم يُمددوا، روي عن عكرمة، والضحاك، ومقاتل، والأول أصح. والكفاية: مقدار سد الخلة. والاكتفاء: الاقتصار على ذلك. والإمداد: إعطاء الشيء بعد الشيء.

قوله تعالى: ﴿مُزِيلِينَ﴾ قرأ الأكثرون بتخفيف الزاي، وشدها ابن عامر.

﴿بَلْ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يَتَذَكَّرْ لَكُمْ بِمَنْعَةِ الْكَافِرِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: من وجههم وسفرهم هذا، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومقاتل، والزجاج. والثاني: من غضبهم هذا، قاله عكرمة، ومجاهد، والضحاك في آخرين. قال ابن جرير: من قال: من وجههم، أراد ابتداء مخرجهم يوم بدر، ومن قال: من غضبهم، أراد ابتداء غضبهم لقتالهم يوم بدر^(١). وأصل الفور: ابتداء الأمر يؤخذ فيه، يقال: فارت القدر: إذا ابتدأ ما فيها بالغيان، ثم اتصل. وقال ابن فارس: الفور: الغليان، يقال: فارت القدر تفور، وفار غضبه: إذا جاش، ويقولون: فعله من فوره، أي: قبل أن يسكن. وفي يوم فورهم قولان: أحدهما: أنه يوم بدر، قاله قتادة. والثاني: يوم أحد، قال مجاهد، والضحاك: كانوا غضبوا يوم أحد ليوم بدر مما لقوا.

قوله تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم بكسر الواو، والباقون بفتحها، فمن فتح الواو، أراد أن الله سَمَّها، ومن كسرها، أراد أن الملائكة سومت أنفسها. وقال الأخفش: سومت خيلها، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال يوم بدر: «سوموا فإن الملائكة قد سومت»^(٢) ونسب الفعل إليها، فهذا دليل الكسر. قال ابن قتيبة: ومعنى مسومين: معلمين بعلامة الحرب، وهو من السيماء [مأخوذاً]، والسومة: العلامة التي يعلم بها الفارس نفسه. قال علي ﷺ: وكان سيماء خيل الملائكة يوم بدر، الصوف الأبيض في أذنابها ونواصيها. وقال أبو هريرة: العهن الأحمر. وقال مجاهد: كانت أذناب خيولهم مجزوزة، وفيها العهن. وقال هشام بن عروة: كانت الملائكة على خيل بلق، وعليهم عمائم صفر. وروي ابن عباس عن رجل من بني غفار قال: حضرت أنا وابن عم لي بدرأ، ونحن على شركتنا، فأقبلت سحابة، فلما دنت من الخيل سمعنا فيها حمحمة الخيل، وسمعنا فارساً يقول: أقدم حيزوم، فأما صاحبي فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك، ثم انتعشت^(٣). وقال أبو داود المازني: إني لأتبع يوم بدر رجلاً من

(١) نص كلام ابن جرير: «فالذي قال في هذه الآية معنى قوله تعالى: ﴿مِّن فُورِهِمْ هَذَا﴾ من وجههم هذا، قصد إلى أن تأويله: ويأتيكم كرز بن جابر وأصحابه يوم بدر من ابتداء مخرجهم الذي خرجوا منه لنصرة أصحابهم من المشركين. وأما الذين قالوا: معنى ذلك: من غضبهم هذا، فإنما عنوا أن تأويل ذلك: ويأتيكم كزار قريش، وبعثهم يوم أحد من ابتداء غضبهم الذي غضبوه لقتالهم الذين قتلوا يوم بدر بها.

(٢) روى ابن جرير الطبري ١٨٦/٧ عن عمير بن إسحاق قال: إن أول ما كان الصوف ليومئذ - يعني ليوم بدر - قال رسول الله ﷺ: «سوموا فإن الملائكة قد سومت». قال الشيخ أحمد شاكر: وعمير بن إسحاق أبو محمد مولى بني هاشم، روى عن المقداد بن الأسود، وعمرو بن العاص، وكان قليل الحديث، وقال أبو حاتم والنسائي: لا نعلم روى عنه غير ابن عون، قال ابن معين: ثقة، وقال أيضاً: لا يساوي حديثه شيئاً، ولكن يكتب حديثه، فهذا الحديث كما ترى مرسل، وعن رجل يكتب حديثه ولا يحتج به.

(٣) روى ابن هشام في «السيرة» ٦٣٣/١، ورواه ابن جرير في «التفسير»: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث عن ابن عباس، أن ابن عباس قال: حدثني رجل من بني غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في جبل يشرف بنا على بدر، ونحن مشركان، ننظر الواقعة على من تكون الدبيرة، فننتهب مع من ينتهب، قال: فبينما نحن في الجبل، إذ دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم. قال: فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك، ثم تماسكت. الدبيرة: الهزيمة في القتال. أقدم: كلمة زجر تزجر بها الخيل، وأمر لها بالتقدم. حيزوم: اسم فرس من خيل الملائكة يومئذ، ويقال: هو فرس جبريل ﷺ. وقناع القلب: غشاؤه. وجاء في الحديث الذي أخرجه «مسلم» ١٣٨٤، قال أبو زميل - هو سماك الحنفي - فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر =

المشركين لأضربه، فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أن غيري قد قتله^(١). وفي عدد الملائكة يوم بدر خمسة أقوال: أحدها: خمسة آلاف، قاله الحسن. وروى جبير بن مطعم عن علي رضي الله عنه، قال: بينا أنا أمتح من قلب بدر، جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها، ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها إلا التي كانت قبلها، ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها، فكانت الريح الأولى جبريل نزل في ألفين من الملائكة، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألفين من الملائكة عن يمين رسول الله، وكانت الريح الثالثة إسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن يسار رسول الله، وكنت عن يساره، وهزم الله أعداءه. والثاني: أربعة آلاف، قاله الشعبي. والثالث: ألف، قاله مجاهد. والرابع: تسعة آلاف، ذكره الزجاج. والخامس: ثمانية آلاف، ذكره بعض المفسرين.

﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَسَطَ لِقَابُكُمْ يَوْمَ مَا آتَاكُمْ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْمَكِيدِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ﴾ يعني المدد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، أي: إلا بشارة تطيب أنفسكم، ﴿وَلَسَطَ لِقَابُكُمْ يَوْمَ﴾، فتسكن في الحرب، ولا تجزع، والأكثر على أن هذا المدد يوم بدر. وقال مجاهد: يوم أحد، وروي عنه ما يدل على أن الله أمدهم في اليومين بالملائكة جميعاً، غير أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: ليس بكثرة العدد والمُد.

﴿يَقْطَعُ طَرِيقًا مِنَ الدِّينِ كَقَرُونَ أَوْ يُكِنِّهِمْ فَيَنْقِلُونَا حَآئِبِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَقْطَعُ طَرِيقًا﴾ معناه: نصركم بيدر ليقطع طرفاً. قال الزجاج: أي: ليقتل قطعة منهم. وفي أي يوم كان ذلك؟ فيه قولان: أحدهما: في يوم بدر، قاله الحسن، وقناة، والجمهور. والثاني: يوم أحد، قتل منهم ثمانية وعشرون، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُكِنِّهِمْ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: أن معناه: يهزمهم، قاله ابن عباس، والزجاج. والثاني: يخزيهم، قاله قتادة، ومقاتل. والثالث: يصرعهم، قاله أبو عبيد، واليزيدي. وقال الخليل: هو الصرع على الوجه. والرابع: يهلكهم، قاله أبو عبيدة. والخامس: يلعنهم، قاله السدي. والسادس: يُظْفَرُ عليهم، قاله المبرد. والسابع: يغظهم، قاله النضر بن شميل، واختاره ابن قتيبة. وقال ابن قتيبة: أهل النظر يرون أن التاء فيه منقلبة عن دال، كأن الأصل فيه: يكبدهم، أي: يصيبهم في أكبادهم بالحزن والغضب، وشدة العداوة، ومنه يقال: فلان قد أحرق الحزن كبده، وأحرق العداوة كبده، والعرب تقول: العدو أسود الكبد. قال الأعشى:

فما أجدُشِمْتُ من إتيان قوم هم الأعداء والأكبَادُ سود^(٢)

كان الأكبَادُ لما احترقت بشدة العداوة، أسودت، ومنه يقال للعدو: كاشح، لأنه يخبأ العداوة في كشحه. والكشح: الخاصة، وإنما يريدون الكبد، لأن الكبد هناك. قال الشاعر:

وأضوِرُ أضفاناً عليّ كشوْحُها^(٣)

والتاء والبدال متقاربتا المخرج، والعرب تدغم إحداهما في الأخرى، وتبدل إحداهما من الأخرى، كقولهم: هرت الثوب وهرده: إذا خرقة، وكذلك: كبت العدو، وكبده، ومثله كثير.

(١) إلى المشرك أمامه. فخر مستقياً، فنظر إليه، فإذا هو قد حُطِمَ أنفه، وشق وجهه كضربة بالسوط، فاحضُرَ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة» فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين.

(٢) ذكر هذا الأثر ابن هشام ٦٣٣/١ عن ابن إسحاق عن أبيه، عن رجال من بني مازن بن النجار عن أبي داود المازني. ومن طريقه أخرجه الطبري وغيره.

(٣) «ديوانه» ص ٣٢٣. وأجشمت: على البناء للمجهول من أجشمت الأمر: إذا كلفه إياه فتحمله بمشقة. إتيان قوم: يقصد قوم صاحبه التي انصرفت عنه. عدو أسود الكبد: أحرقت كبده العداوة.

(٤) هو للنمر بن توبل، وتماه:

وعفث إذا أردى النفوس شحوحها

أقارض أقواماً فأوفي قروضهم

وأضوِرُ أضفاناً عليّ كشوْحُها

تنفذ منهم نافعذات تسونني

قوله تعالى: ﴿يَتَقَلَّبُوا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال الزجاج: الخائب: الذي لم ينل ما أمّل. وقال غيره: الفرق بين الخيبة واليأس، أن الخيبة لا تكون إلا بعد الأمل، واليأس قد يكون من غير أمل.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل؟!» فنزلت هذه الآية. أخرجه مسلم في «أفراده» من حديث أنس^(١). وهو قول ابن عباس، والحسن، وقادة، والربيع. والثاني: أن النبي ﷺ، لعن قوماً من المنافقين، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عمر^(٢). والثالث: أن النبي ﷺ هم بسبب الذين انهزموا يوم أحد، فنزلت هذه الآية، فكف عن ذلك، نقل عن ابن مسعود، وابن عباس. والرابع: أن سبعين من أهل الصفة، خرجوا إلى قبيلتين من بني سليم، عصية وذكوان، فقتلوا جميعاً، فدعا النبي ﷺ عليهم أربعين يوماً، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل بن سليمان^(٣). والخامس: أن النبي ﷺ لما رأى حمزة مثلاً به، قال: «لأمثلن بكذا وكذا منهم» فنزلت هذه الآية، قاله الواقدي. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: ليس لك من استصلاحهم أو عذابهم شيء. والثاني: ليس لك من النصر والهزيمة شيء. وقيل: إن «لك» بمعنى «إليك».

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قال الفراء: في نصبه وجهان، إن شئت جعلته معطوفاً على قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ وإن شئت جعلت نصبه على مذهب «حتى» كما تقول: لا أزال معك حتى تعطيني، ولما نفى الأمر عن نبيه أثبت أن جميع الأمور إليه بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿يَأْتِيهَا اللَّيْلُ مَأْمُورًا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا اللَّيْلُ مَأْمُورًا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ قال أهل التفسير: هذه الآية نزلت في ربا الجاهلية. قال سعيد بن جبير: كان الرجل يكون له على الرجل المال، فإذا حلّ الأجل، فيقول: أخرجني، وأزيدك على مالك، فتلك الأضعاف المضاعفة^(٤).

(١) ورواه أحمد في «المسند» والترمذي وغيرهما، والرباعية على وزن ثمانية: الأسنان الأربعة التي تلي الثنايا بين الشية والثاب.

(٢) رواه أحمد في «المسند» والترمذي عن ابن عمر. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح يستغرب من هذا الوجه، من حديث نافع عن ابن عمر، ولفظه عند أحمد: «كان رسول الله ﷺ يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فترك ذلك.

(٣) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، ثم يقول وهو قائم: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشد وطأتك على مصر، واجعلها عليهم كسني يوسف، اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية عصت الله ورسوله. ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ هذا لفظ مسلم. وقال الحافظ في «الفتح» ٧/٢٧٣: وهذا - يريد الحديث - إن كان محفوظاً احتمل أن يكون نزول الآية تراخي عن قصة أحد، لأن قصة رعل وذكوان كانت بعدها، كما سيأتي تلو هذه الغزوة - وفيه بعد. والصواب أنها نزلت في شأن الذين دعا عليهم بسبب قصة أحد، والله اعلم. ويؤيد ذلك ظاهر قوله تعالى في صدر الآية: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يقتلهم ﴿أَوْ يَكْفِهِمْ﴾ أي: يخزيهم. ثم قال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أي: إن ماتوا كفاراً. وقال في ج/٧١: ثم ظهر لي علة الخبر، وأن فيه إدراجاً، وأن قوله: حتى أنزل الله، مقطع من رواية الزهري عن بلغة، بين ذلك مسلم في رواية يونس المذكورة.

(٤) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في «عمدة التفسير» ٣/٣٨ تعلقاً على هذه الآية: والمتلاعبون بالدين من أهل عصرنا، وأوليائهم من عابدي التشريع الوثني الأجنبي، بل التشريع اليهودي في الربا يلعبون بالقرآن، ويزعمون أن هذه الآية تدل على أن الربا المحرم هو الأضعاف المضاعفة، ليجزوا ما بقي من أنواع الربا، على ما ترضى أهواؤهم وأهواء سادتهم، ويتركوا الآية الصريحة: ﴿وَإِن تَبَيَّنَّ فَلَكُمْ رُؤُوسٌ أَمْثَلُكُمْ لَا تَقْلِبُونَهَا وَلَا تَقْلِبُونَهَا﴾ فكانوا في تلاعبهم يتناول هذه الآية الصريحة أسوأ حالاً ممن «يَتَقَلَّبُونَ مَا كُنْتُمْ بِتَنَائِفَةٍ بَيْنَهُ تَأْتِيَةً تَلَيْفَةً تَأْتِيَةً»، «فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم». وقال الشيخ محمود شلتوت في كتابه «تفسير القرآن الكريم» ص ١٥٨: بقي علينا أن ننبه في هذا الشأن لأمر خطير، هو أن بعض الباحثين المولعين بتصحيح التصرفات الحديثة، وتخريجها على أساس فقهي إسلامي، ليعرفوا بالتجديد، وعمق التفكير، وبحاولون أن يجدوا تخريجها للمعاملات الربوية التي يقع التعامل بها في المصارف أو صناديق التوفير، أو السندات الحكومية أو نحوها، ويلتصمون السبيل إلى ذلك. فمنهم من يزعم أن القرآن إنما حرم الربا الفاحش بدليل قوله: ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ فهذا قيد في التحريم لا بدان يكون له فائدة، وإلا كان الإتيان به عبثاً، تعالى الله عن ذلك، وما =

﴿وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هذا تهديد للمؤمنين، لئلا يستحلوا الربا. قال الزجاج: والمعنى: اتقوا أن تحلوا ما حرم الله فتكفروا.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كلهم أثبت الواو في «وسارعوا» إلا نافعاً، وابن عامر، فإنهما لم يذكرها. وقال أبو علي: وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة والشام، فمن قرأ بالواو، عطف «وسارعوا» على «وأطيعوا»، ومن حذفها، فلان الجملة الثانية ملتبسة بالأولى، فاستغنت عن العطف. ومعنى الآية: بادروا إلى ما يوجب المغفرة. وفي المراد بموجب المغفرة هاهنا عشرة أقوال: أحدها: أنه الإخلاص، قاله عثمان بن عفان رضي الله عنه. والثاني: أداء الفرائض، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. والثالث: الإسلام، قاله ابن عباس. والرابع: التكبيرة الأولى من الصلاة، قاله أنس بن مالك. والخامس: الطاعة، قاله سعيد بن جبير، والسادس: التوبة، قاله عكرمة. والسابع: الهجرة، قاله أبو العالية. والثامن: الجهاد، قاله الضحاك. والتاسع: الصلوات الخمس، قاله يمان. والعاشر: الأعمال الصالحة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال ابن قتيبة: أراد بالعرض السعة، ولم يرد العرض الذي يخالف الطول، والعرب تقول: بلاد عريضة، أي: واسعة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم للمنهزمين يوم أحد: «لقد ذهبتم فيها عريضة». قال الشاعر: كان بلاد الله وهي عريضة

على الخائف المطلوب كيف حابل^(١)

قال: وأصل هذا من العرض الذي هو خلاف الطول، وإذا عرض الشيء اتسع، وإذا لم يعرض ضاق ودق. وقال سعيد بن جبير: لو ألقى بعضهم إلى بعض كانت الجنة في عرضهم.

﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالْفَرَءِ وَالْكَطِيبِ الْغَيْظَ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالْفَرَءِ وَالْكَطِيبِ الْغَيْظَ﴾ قال ابن عباس: في العسر واليسر. ومعنى الآية: أنهم رغبوا في معاملة الله، فلم يظروهم الرخاء، فينسيهم، ولم تمنعهم الضراء فيخلوا.

قوله تعالى: ﴿وَالْكَطِيبِ الْغَيْظَ﴾ قال الزجاج: يقال: كظمت الغيظ: إذا أمسكت على ما في نفسك منه، وكظم البعير^(٢) على جرته: إذا ردها في حلقه. وقال ابن الأنباري: الأصل في الكظم: الإمساك على غيظ وغم. وروى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى»^(٣).

فأثتته في زعمهم إلا أن يؤخذ بمفهومه، وهو إياحة ما لم يكن أضعافاً مضاعفة من الربا. وهذا قول باطل، فإن الله سبحانه وتعالى أتى بقوله: ﴿أَتَسْكَبُوا كَمَا تَكْتُمُونَ﴾ توبيخاً لهم على ما كانوا يفعلون، وإبرازاً لفضلهم السيء، وتشهيراً به، وقد جاء مثل هذا الأسلوب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِمُوا قَبِيحًا عَلَى قَبِيحٍ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَشَدِيدٌ يُعَذِّبُ مَن لَّيِّنَ﴾ [النور: ٣٣] فليس الغرض أن يحرم عليهم إكراه الفتيات على البغاء في حالة إرادتهن التحصن، وأن يببجه لهن إذا لم يردن التحصن، ولكنه يببشع ما يفعلونه، ويشهر به، ويقول لهم: لقد بلغ بكم الأمر أنكم تكروهون فتياتكم على البغاء وهن يردن التحصن، وهذا أنقطع ما يصل إليه مولى مع مولاته، وكذلك الأمر في آية الربا، يقول الله لهم: لقد بلغ بكم الأمر في استحلال أكل الربا أنكم تأكلونه أضعافاً مضاعفة، فلا تفعلوا ذلك، وقد جاء النهي في غير هذه المواضع مطلقاً صريحاً، وروى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا أَتَى الْبَيْتَ فَاصْبِرْ لَهُ وَخِطْبَةَ الْأُخْلُقِ﴾ [النور: ٣٤] وشاهدية، كما جاء في الآثار، وأذن من لم يدهم بحرب الله وحرب رسوله، واعتبره من الظلم المفقوت، وكل ذلك ذكر فيه في الربا على الإطلاق دون تقييد بقليل أو كثير. ومنهم من يعميل إلى اعتباره ضرورة من الضرورات بالنسبة للأمة، ويقول: ما دام صلاح الأمة في الناحية الاقتصادية متوقفاً على أن تتعامل بالربا، وإلا اضطربت أحوالها بين الأمم، فقد دخلت بذلك في قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات» وهذا أيضاً مغالطة، فقد بينا أن صلاح الأمة لا يتوقف على هذا التعامل، وأن الأمر فيه، إنما هو وهم من الأوهام، وضعف أمام النظم التي يسير عليها الغالبون الأقوياء. وخلاصة القول: إن كل محاولة يواد بها إياحة ما حرم الله، أو تبرير ارتكابه بأي نوع من أنواع التبرير، بدافع المجارة للاوضاع الحديثة أو الغربية، والانخلاق عن الشخصية الإسلامية، إنما هي جرأة على الله تعالى، وقول عليه بغير علم، وضعف في الدين، وتزلزل في اليقين.

(١) البيت غير منسوب في «الكامل» و«اللسان» وروايتهما: «كان فجاج الأرض». والحابل: الصائد. وكفته: حبالته التي يصيد بها.

(٢) الجرعة، بالكسر: ما يخرج البعير من بطنه ليضمضه ثم يبلعه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسنن» وابن ماجه عن ابن عمر، ونقل السندي عن «زوائد البوصيري» قال: إسناده صحيح، ورجاله ثقات. وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» وقال: رواه ابن ماجه، ورواه محتج بهم في الصحيح. الجرعة: يجوز فيها ضم الجيم، وهي الاسم من التجرع، أي: الشرب، ويجوز فتحها، وهي المرة الواحدة منه، والجرعة بالضم أيضاً: ملء القم يظلمه، وتجرع الجرعة: شربها وابتلعها. قال في «اللسان»: وجرع الغيظ: كظمه على المثل بذلك. وفي «النهاية»: كظم الغيظ: تجرعه واحتمال سببه، والصبر عليه.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَافِيَيْنِ عَنِ النَّاسِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه العفو عن المماليك، قاله ابن عباس، والربيع والثاني: أنه على إطلاقه، فهم يعفون عن ظلمهم، قاله زيد بن أسلم، ومقاتل.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَعَسَىٰ أَلَّا اللَّهُ وَكَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفُورَةٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَسُمْ أَجْرُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن امرأة أتت إلى نبهان التمار تشتري منه تمرأ فضمتها، وقبلها، ثم ندم، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس^(١). والثاني: أن أنصاريًا وثقيًا آخى النبي ﷺ بينهما، فخرج الثقي مع النبي ﷺ في بعض مغازبه، فكان الأنصاري يتعهد أهل الثقي، فجاء ذات يوم فأبصر المرأة قد اغتسلت وهي ناشرة شعرها، فدخل ولم يستأذن؛ فذهب ليلتها فوضعت كفها على وجهها، فقبله ثم ندم، فأدبر راجعًا فقالت: سبحان الله خنت أمانتك، وعصيت ربك، ولم تصب حاجتك، قال: فخرج يسبح في الجبال، ويتوب إلى الله من ذنبه، فلما قدم الثقي أخبرته المرأة بفعله، فخرج يطلبه حتى دل عليه، فندم على صنيعه فوافقه ساجدًا يقول: ذنبي ذنبي، قد خنت أخي، فقال له: يا فلان انطلق إلى رسول الله ﷺ فأسأله عن ذنبك، لعل الله أن يجعل لك منه مخرجًا، فرجع إلى المدينة، فنزلت هذه الآية بتوبته، رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(٢). وذكره مقاتل. والثالث: أن المسلمين قالوا للنبي ﷺ: بنو إسرائيل أكرم على الله منا! كان أحدهم إذا أذنب، أصبحت كفارة ذنوبه مكتوبة في عتبة بابه، فنزلت هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخير من ذلك» فقرأ هذه الآية، والتي قبلها، هذا قول عطاء^(٣). واختلفوا هل هذه الآية نعت للمنفقين في السراء والضراء؟ أم لقوم آخرين؟ على قولين: أحدهما: أنها نعت لهم، قاله الحسن. والثاني: أنها لصف آخر، قاله أبو سليمان الدمشقي. والقاحشة: القبيحة وكل شيء جاوز قدره، فهو فاحش. وفي المراد بها هاهنا قولان: أحدهما: أنها الزنى، قاله جابر بن زيد، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنها كل كبيرة، قاله جماعة من المفسرين. واختلفوا في «الظلم» المذكور بعدها، فلم يفرق قوم بينه وبين القاحشة، وقالوا: الظلم للنفس فاحشة أيضاً، وفرق آخرون، فقالوا: هو الصغائر. وفي قوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ قولان: أحدهما: أنه ذكر اللسان، وهو الاستغفار، قاله ابن مسعود، وعطاء في آخرين. والثاني: أنه ذكر القلب، ثم فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه ذكر العرض على الله، قاله الضحاك. والثاني: أنه ذكر السؤال عنه يوم القيامة، قاله الواقدي. والثالث: ذكر وعيد الله لهم على ما أتوا، قاله ابن جرير. والرابع: ذكر نهي الله لهم عنه. والخامس: ذكر غفران الله: ذكر القولين أبو سليمان الدمشقي. فأما الإصرار، فقال الزجاج: هو الإقامة على الشيء. وقال ابن فارس: هو العزم على الشيء والثبات عليه^(٤). وللمفسرين في المراد بالإصرار ثلاثة أقوال: أحدها: أنه موافقة الذنب عند الاهتمام به، وهذا مذهب مجاهد. والثاني: أنه الثبوت عليه من غير استغفار، وهذا مذهب قتادة^(٥)، وابن إسحاق. والثالث: أنه ترك الاستغفار منه، وهذا مذهب السدي^(٦). وفي معنى ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ثلاثة أقوال:

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون سند.

(٢) رواه الواحدي عن عطاء بن أبي رباح مرفوعاً.

(٣) جاء في معجم «مقاييس اللغة» ومن الباب: الإصرار: العزم على الشيء، وإنما جعلناه قياسه، لأن العزم على الشيء والإجماع عليه، وكذلك الإصرار: الثبات على الشيء.

(٤) روى الطبري عن قتادة قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فبإياكم والإصرار، فإنما هلك المصرون الماضون قدماً لا تنهائم مخافة الله عن حرام حرمه الله عليهم، ولا يتوبون من ذنب أصابوه حتى اتاهم الموت وهم على ذلك؟

(٥) قال أبو جعفر الطبري ٢٢٥/٧: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندنا قول من قال: الإصرار: الإقامة على الذنب عاملاً، وترك التوبة منه. ولا معنى لقول من قال: الإصرار على الذنب هو موافقته، لأن الله ﷻ مدح بترك الإصرار على الذنب مواقع الذنب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَعَسَىٰ أَلَّا اللَّهُ وَكَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ولو كان مواقع الذنب مصراً بموافقته لياه لم يكن للاستغفار وجه مفهوم، لأن الاستغفار من الذنب إنما هو التوبة منه والندم، ولا يعرف للاستغفار من ذنب لم يواقعه صاحبه وجه. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أمر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»، حدثني بذلك الحسين بن يزيد السبيعي قال: حدثنا عبد الحميد الحماني، عن عثمان بن واقد، عن أبي نصيرة، عن مولى لأبي بكر، عن أبي بكر، عن رسول الله ﷺ. فلو كان مواقع الذنب مضمراً لم يكن لقوله: «ما

أحدهما: وهم يعلمون أن الإصرار يضر، وأن تركه أولى من التماذي، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: يعلمون أن الله يتوب على من تاب، قاله مجاهد، وأبو عمارة. والثالث: يعلمون أنهم قد أذنبوا، قاله السدي، ومقاتل.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ السنن: جمع سنة، وهي الطريقة. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: قد مضى قبلكم أهل سنن وشرائع، فانظروا ماذا صنعنا بالمكذبين منهم، وهذا قول ابن عباس. والثاني: قد مضت قبلكم سنن الله في إهلاك من كذب من الأمم، فاعتبروا بهم، وهذا قول مجاهد. وفي معنى ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قولان: أحدهما: أنه السير في السفر. قال الزجاج: إذا سرتهم في أسفاركم، عرفتم أخبار الهالكين بتكذيبهم. والثاني: أنه التفكير. ومعنى: فانظروا: اعتبروا، والعاقبة: آخر الأمر.

﴿هَذَا بَيِّنٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَيِّنٌ لِّلنَّاسِ﴾ قال سعيد بن جبیر: هذه الآية أول ما نزل من «آل عمران» وفي المشار إليه «هذا» قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله الحسن، وقتادة، ومقاتل. والثاني: أنه شرح أخبار الأمم السالفة، قاله ابن إسحاق. والبيان: الكشف عن الشيء، وبيان الشيء: اتضح، وفلانٌ أبين من فلان، أي: أفصح. قال الشعبي: هذا بيان للناس من العمى، وهدى من الضلالة، وموعظة من الجهل.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ سبب نزولها أن أصحاب رسول الله ﷺ لما انهزموا يوم أحد، أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا يعلون علينا، اللهم لا قوة لنا إلا بك» فنزلت هذه الآيات، قاله ابن عباس^(١). قال ابن عباس، ومجاهد: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: ولا تضعفوا. وفيما نهوا عن الحزن عليه أربعة أقوال: أحدها: أنه قتل إخوانهم من المسلمين، قاله ابن عباس. والثاني: أنه هزيمتهم يوم أحد، وقتلهم، قاله مقاتل. والثالث: أنه ما أصاب النبي ﷺ من شجوه، وكسر رباعيته، ذكره الماوردي. والرابع: أنها ما فات من الغنيمة، ذكره علي بن أحمد النيسابوري.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ قال ابن عباس: يقول: أنتم الغالبون فأخر الأمر لكم.

﴿إِنْ يَسْتَكْفِرْ فَرِحْ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ مَرٌّ مِثْلُهُ وَفَلَكَ الْآيَاتُ تَدْوِيلُهَا بَيْنَ الْقَائِمِينَ وَرَبِّعَتُمْ اللَّهُ الْأَرْبَةَ مَأْمُوتًا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْتَكْفِرْ فَرِحْ﴾ قال ابن عباس: أصابهم يوم أحد قرح، فشكوا إلى النبي ﷺ ما لقوا، نزلت هذه الآية. فأما المس، فهو الإصابة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ونافع «قرح» بفتح القاف وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، عن عاصم «قرح» بضم القاف. واختلفوا هل معنى القراءتين واحد أم لا؟ فقال أبو سعيد: القرح بالفتح: الجراح، والقتل. والقرح بالضم: ألم الجراح، وقال الزجاج: هما في اللغة بمعنى واحد، ومعناه: الجراح وألمها، قال: ومعنى ندائها، أي: نجعل الدولة في وقت للكفار على المؤمنين إذا عصى المؤمنون، فأما إذا أطاعوا، فهم منصورون، قال: ومعنى ﴿وَرَبِّعَتُمْ اللَّهُ الْأَرْبَةَ﴾ أي: ليعلم واقعاً منهم، لأنه عالم قبل ذلك، وإنما يجازي على ما وقع. وقال ابن عباس: معنى العلم هاهنا: الرؤية.

(١) أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة معنى، لأن واقعة الذنب إذا كانت هي الإصرار، فلا يزال الاسم الذي لزمه معنى غيره، كما لا يزال عن الزاني اسم زان، وعن القاتل اسم قاتل توبته منه، ولا معنى غيرها. وقد أبان هذا الخبر أن المستغفر من ذنبه غير مصر عليه، فمعلوم بذلك أن الإصرار غير المواقعة، وأنه المقام عليه، على ما قلنا قبل.

وقال ابن كثير بعد ذكره الحديث السابق الذي استدل به الطبري: ورواه أبو داود، والترمذي، والبخاري في «مسند» من حديث عثمان بن واقد، وقد وثقه يحيى بن معين، وشيخه أبو نصيرة الواسطي، واسمه مسلم بن عبيد، وثقه الإمام أحمد، وابن حبان، وقول علي بن المديني، والترمذي: ليس إسناد هذا الحديث بذلك، فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر، ولكن جهالة مثله لا تضر، لأنه تابعي كبير، ويكفيه نسبه إلى أبي بكر، فهو حديث حسن.

(١) رواه ابن جرير ٢٣٦/٧. عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْخِطُ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ﴾ قال أبو الضحى: نزلت في قتلى أحد، قال ابن جريج: كان المسلمون يقولون: ربنا أرننا يوماً كيوم بدر، نلتبس فيه الشهادة، فاتخذ منهم شهداء يوم أحد. قال ابن عباس: والظالمون هاهنا: المنافقون: وقال غيره: هم الذين انصرفوا يوم أحد مع ابن أبي المنافق.

﴿وَلِيَمِصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمِصَّ الْكُفْرِينَ﴾ ﴿١٤١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِيَمِصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال الزجاج: معنى الكلام: جعل الله الأيام مداولة بين الناس، ليمحص المؤمنين، ويمحق الكافرين. وفي التمهيص قولان: أحدهما: أنه الابتلاء والاختبار، وأنشدوا:

رأيت فضيلاً كان شيئاً ملففاً فكشّفه التمهيص حتى بدا لياً^(١)

وهو قول الحسن، ومجاهد، والسدي، ومقاتل، وابن قتيبة في آخرين. والثاني: أنه التقيّة، والتخليص، وهو قول الزجاج. وحكي عن المبرد، قال: يقال: محص الحبل محصاً: إذا ذهب منه الوبر حتى يتخلص، ومعنى قولهم: [اللهم] محص عنا ذنوبنا: أذهبها عنا^(٢). وذكر الزجاج عن الخليل أن التمهيص: التخليص، يقال: محصت الشيء أمحصه محصاً: إذا أخلصته. فعلى القول الأول التمهيص ابتلاء المؤمنين بما يجري عليهم، وعلى الثاني: هو تفتيتهم من الذنوب بذلك. قال الفراء: معنى الآية: وليمحص الله بالذنوب عن الذين آمنوا.

قوله تعالى: ﴿وَيَمِصَّ الْكُفْرِينَ﴾ فيه أربعة أقوال. أحدهما: يهلكهم، قاله ابن عباس. والثاني: يذهب دعوتهم، قاله مقاتل. والثالث: ينقصهم ويقللهم^(٣)، قاله الفراء. والرابع: يحبط أعمالهم، ذكره الزجاج.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَلْمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَمْلَأَنَّ الصُّدُورَ﴾ ﴿١٤٢﴾ ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ الْوَدَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ﴿١٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ الْوَدَّ﴾ قال ابن عباس: لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه ﷺ، بما فعل بهداه يوم بدر من الكرامة، ورجعوا في ذلك، فتمنوا قتالاً يستشهدون فيه، فيلحقون بإخوانهم، فأراهم الله يوم أحد، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فنزل فيهم ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ الْوَدَّ﴾ يعني القتال [مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ] أي: من قبل أن تنظروا إليه يوم أحد ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يومئذ، قال الفراء وابن قتيبة: أي: رأيتم أسبابه، وهي السيف ونحوه من السلاح، وفي معنى ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تنظرون إلى السيوف، قاله ابن عباس. والثاني: أنه ذكر للتوكيد، قاله الأخفش، وقال الزجاج: معناه: فقد رأيتموه، وأنتم بصراء، كما تقول: رأيت كذا وكذا، وليس في عينك علة، أي: رأيته رؤية حقيقة. والثالث: أن معناه: وأنتم تنظرون ما تمنيت. وفي الآية إضمار [أي: فقد رأيتموه وأنتم تنظرون] فلم انهزمتم؟!

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَجَّزَى اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ قال ابن عباس: صاح الشيطان يوم أحد: قتل محمد. فقال قوم: لئن كان قتل لنعطينهم بأيدينا إنهم لعشائرننا وإخواننا، ولو كان محمد حياً لم نهزم، فترخصوا في الفرار، فنزلت هذه الآية^(٤). وقال الضحاك: قال قوم من المنافقين: قتل محمد، فالحقوا بدينكم الأول، فنزلت هذه الآية. وقال قتادة: قال أناس: لو كان نبياً ما قُتل، وقال ناسٌ من عليّة أصحاب رسول الله: قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم حتى تلحقوا به، فنزلت هذه الآية. ومعنى الآية: أنه يموت كما ماتت قبله الرُّسل، أفإن مات على فراشه، أو قتل كمن قتل قبله من الأنبياء، أتقبلون على أعقابكم؟! أي: ترجعون إلى ما كنتم عليه من الكفر؟! وهذا على سبيل المثل، يقال لكل من رجع عما كان عليه: قد انقلب على عقبيه، وأصله: رجعة القهقري، والعقب: مؤخر القدم.

(١) البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، وهو في «عيون الأخبار» ٧٥/٣ و«الكامل» ١٨٣/١، وفي «الأغانى» أنه قاله في صديقه قصي بن ذكوان، ثم قال في ص ٦٧ أنه قاله في صديقه الحسين بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، بعد أن تهاجرا.

(٢) في القرطبي: أي: «خلصنا من عقوبتها».

(٣) في «معاني القرآن»: «يفنيهم» بدل من «يقللهم».

(٤) أخرجه ابن جرير: ٢٥٧/٧.

قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَرْضَىٰ اللَّهُ شَيْئًا بِرَجُوعِهِ، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ﴾ «وَسَيَجْزِي» أي: يشيب الشاكرين، وفيهم ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم الثابتون على دينهم، قاله علي عليه السلام، وقال: كان أبو بكر أمير الشاكرين. والثاني: أنهم الشاكرون على التوفيق والهداية. والثالث: على الدين.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُؤَجَّلَاتٍ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ في الإذن قولان: أحدهما: أنه الأمر، قاله ابن عباس. والثاني: الإذن نفسه، قاله مقاتل.

قال الزجاج: ومعنى الآية: وما كانت نفس لتموت إلا بإذن الله.

قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا مُؤَجَّلَاتٍ﴾ توكيد، والمعنى: كتب الله ذلك كتاباً موجلاً، أي: كتاباً ذا أجل. والأجل: الوقت المعلوم، ومثله في التوكيد ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] لأنه لما قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٢] دل على أنه مفروض، فاكد بقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٨] لأنه لما قال: ﴿وَرَزَىٰ لِبَيْعَالٍ تَحَسُّبًا جَائِدَةً﴾ [النمل: ٨٨] دل على أنه خلق الله فاكد بقوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: من قصد بعمله الدنيا، أعطي منها، قليلاً كان أو كثيراً، ومن قصد الآخرة بعمله، أعطي منها. وقال مقاتل: عنى بالآية: من ثبت يوم أحد، ومن طلب الغنيمة.

فصل

وأكثر العلماء على أن هذا الكلام محكم، وذهبت طائفة إلى نسخة بقوله تعالى: ﴿عَبَلْنَا لَوْ فِيهَا مَا فَشَأَ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] والصحيح أنه محكم، لأنه لا يؤتى أحد شيئاً إلا بقدرته الله ومشيبته.

ومعنى قوله تعالى: ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: ما نشاء، وما قدرنا له، ولم يقل: ما يشاء هو.

﴿وَكَايُنَ مِنْ نَبِيِّ تَنَكَّلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٦﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَكَايُنَ مِنْ نَبِيِّ﴾ قرأ الجمهور «وكاين» في وزن «كعين». وقرأ ابن كثير «وكائن» في وزن «كاعن». قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: «كايُن» مثل: «كعين» ينصبون الهمزة، ويشددون الياء. وتميم يقولون: «وكائن» كأنها فاعل من كت، وأنشدني الكسائي:

وكاين ترى يسعى من الناس جاهداً
وقال آخر:

وكاين أصابت مؤمناً من مُصيبةٍ
على الله عُقباها ومنه ثوابها

وقال ابن قتيبة: كائن بمعنى «كم» مثل قوله: ﴿وَكَايُنَ مِنْ قَرِيْبَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [العلاق: ٨] وفيها لغتان: «كايُن» بالهمزة وتشديد الياء، و«كائِن» على وزن «قائل»، [ويافع] وقد قرئ بهما [جميعاً في القرآن] والأكثر والأصح تخفيفها. قال الشاعر:

وكاين أرينا الموت من ذي تحيةٍ
وقال الآخر:

وكاين ترى من صابت لك مُعجِبٍ
زيادته أو نقصه في التَّكَلِمِ

قوله تعالى: ﴿تَنَكَّلَ مَعَهُ رِيثُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبان، والمفضل كلاهما عن عاصم: «قَتِيل»

(١) أنشده ابن فارس في «المصاحي» ص ١٣٢، ولم ينسبه لقائل.

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى من «معلقاته» في شرح الزرذني ص ٨٩، ونسبه الجاحظ في «البيان والتبيين» ١/ ١٧٠ للأعور الشني، وذكر بعده بيتاً آخر وهو: لسان الفتنى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

بضم القاف، وكسر التاء، من غير ألف، وقرأ الباقون: «قاتل» بألف. وقرأ ابن مسعود، وأبو رزين، وأبو رجاء، والحسن، وأبو يعمر، وابن جبير، وقتادة، وعكرمة، وأيوب: «رُبيون» بضم الراء، وقرأ ابن عباس، وأنس وأبو مجلز، وأبو العالية، والجحدري، بفتحها. فعلى حذف الألف يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون قتل للنبي وحده، ويكون المعنى: وكأين من نبي قتل، ومعه ربيون، فما وهنوا بعد قتله. والثاني: أن يكون قتل للربيين، ويكون: ﴿فَمَا وَمَتَّوْا﴾ لمن بقي منهم. وعلى إثبات الألف يكون المعنى: أن القوم قاتلوا، فما وهنوا. وفي معنى الربيين خمسة أقوال: أحدهما: أنهم الألو، قاله ابن مسعود، وابن عباس في رواية، واختاره الفراء. والثاني: الجماعات الكثيرة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي، والربيع، واختاره ابن قتيبة. والثالث: أنهم الفقهاء والعلماء، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال الحسن، واختاره البيهقي، والزجاج. والرابع: أنهم الأتباع، قاله ابن زيد. والخامس: أنهم المتألهون العارفون بالله تعالى، قاله ابن فارس. قوله تعالى: ﴿فَمَا وَمَتَّوْا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الضعف، قاله ابن عباس، وابن قتيبة. والثاني: أنه العجز، قاله قتادة. قال ابن قتيبة: والاستكانة: الخشوع، والذل، ومنه أخذ المسكين. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: فما وهنوا بالخوف، وما ضعفوا بنقصان القوة، ولا استكانوا بالخضوع. والثاني: فما وهنوا لقتل نبيهم، ولا ضعفوا عن عدوهم، ولا استكانوا لما أصابهم.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَكَيْتَ أَقْدَامِنَا وَأَصْرَارَنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾ يعني الربيين. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ أي: لم يكن قولهم غير الاستغفار. والإسراف: مجاوزة الحد، وقيل: أريد بالذنوب الصغائر، وبالإسراف: الكبار.

قوله تعالى: ﴿وَكَيْتَ أَقْدَامِنَا﴾ قال ابن عباس: على القتال. وقال الزجاج: معناه: ثبتنا على دينك، فإن الثابت على دينه ثابت في حربه.

﴿فَقَالَتْ لَهُمْ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَسَنْ تَوَابَ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَالَتْ لَهُمْ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه النصر، قاله قتادة. والثاني: الغنيمة، قاله ابن جريح، وروي عن ابن عباس، أنه قال: النصر والغنيمة. وفي حسن ثواب الآخرة قولان: أحدهما: أنه الجنة. والثاني: الأجر والمغفرة، وهذا تعلم من الله تعالى للمؤمنين ما يفعلون ويقولون عند لقاء العدو.

﴿يَتَأَيَّمُوا الذِّرْبَ مَا سَمُوا إِنْ طَلَبُوا الذِّرْبَ كَفَرُوا يُرْذَلُونَ عَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ فَتَنَقَّلُوا خَيْرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الذِّرْبَ مَا سَمُوا إِنْ طَلَبُوا الذِّرْبَ كَفَرُوا﴾ قال ابن عباس: نزلت في قول ابن أبي للمسلمين لما رجعوا من أحد: لو كان نبياً ما أصابه الذي أصابه، وفي الذين كفروا هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المنافقون على قول ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنهم اليهود والنصارى، قاله ابن جريح. والثالث: أنهم عبدة الأوثان، قاله السدي. قالوا: وكانوا قد أمروا المسلمين بالرجوع عن دينهم. ومعنى ﴿يُرْذَلُونَ عَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ﴾: يصرفوكم إلى الشرك. ﴿فَتَنَقَّلُوا خَيْرِينَ﴾ بالعقوبة.

﴿بَلَىٰ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: وليكم ينصركم عليهم، فاستغنوا عن موالاته الكفار.

﴿سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الذِّرْبِ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَيَنْسَ مَتَّوَى الطَّالِبِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الذِّرْبِ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾^(١) قال السدي: لما ارتحل المشركون يوم أحد نحو مكة ندموا في بعض الطريق، وقالوا: قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشرذمة، تركتموهم؟! ارجعوا فاستأصلوهم، فقتل الله في قلوبهم الرعب، ونزلت هذه الآية. والإلقاء: القذف. والرعب: الخوف. قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو

(١) ثبت في «الصحيحين» من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرهب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لي الغنائم، وأعطيت السفاة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة».

عمرو، وحزمة «الرُّب» ساكنة العين، خفيفة. وقرأ ابن عامر، والكسائي، ويعقوب، وأبو جعفر، مضمومة العين، مثقلة، أين وقعت. والسلطان هاهنا: الحجة في قول الجماعة. والماوى: المكان الذي يؤوي إليه. والمثوى: المقام، والثوى: الإقامة. قال ابن عباس: والظالمون هاهنا: الكافرون.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَا مَا نُحِبُّونَ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفْنَا عَنْهُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ قال محمد بن كعب القرظي: لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من أحد، قال قومٌ منهم: من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله النصر؟ فنزلت هذه الآية. وقال المفسرون: وعد الله تعالى المؤمنين النصر بأحد، فنصرهم، فلما خالفوا، وطلبوا الغنيمة، هُزموا. وقال ابن عباس: ما نُصر رسول الله ﷺ في موطن ما نُصر في أحد، فأنكر ذلك عليه، فقال: بيني وبينكم كتاب الله، إن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ فأما الحسن، فهو القتل، قاله ابن عباس^(١)، والحسن، ومجاهد، والسدي، والجماعة. وقال ابن قتبية: تحسونهم، أي: تستاصلونهم بالقتل، يقال: سَنَتَ حسوس: إذا أتت على كل شيء، وجراد محسوس: إذا قتله البرد. وفي قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: بأمره، قاله ابن عباس. والثاني: بعلمه، قاله الزجاج. والثالث: بقضائه، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ قال الزجاج: أي: جبنتم. ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ﴾ أي: اختلفتم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بغير ما أريدكم ما نُحِبُّونَ يعني: النصر. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير، معناه: حتى إذا تنازعتم في الأمر، فشلتكم وعصيتكم، وهذه الواو زائدة، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاكَ وَلَمْ نَكُنْ لِلْحَبِيبِ ﴿١٥٢﴾ وَتَنَزَّعْتُمْ﴾ [الصفوات: ١٥٣] معناه: ناديناها. فأما تنازعهم، فإن بعض الرماة قال: قال انهزم المشركون، فما يمنعنا من الغنيمة؟ وقال بعضهم: بل نثبت مكاننا كما أمرنا رسول الله ﷺ، فترك المركز بعضهم، وطلب الغنيمة، وتركوا مكانهم، فذلك عصيانهم، وكان النبي ﷺ قد أوصاهم: «لو رأيتم الطير تخطفنا فلا تيرحوا من مكانكم».

قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ قال المفسرون: هم الذين طلبوا الغنيمة، وتركوا مكانهم. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا. وقال ابن مسعود: ما كنت أظن أحداً من أصحاب محمد يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿صَرَّفْنَا عَنْهُمْ﴾ أي: ردكم عن المشركين بقتلكم وهزيمتكم. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: ليختبركم، فيبين الصابر من الجازع.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: عفا عن عقوبتكم، قاله ابن عباس. والثاني: عفا عن استئصالكم، قاله الحسن. وكان يقول: هؤلاء مع رسول الله، في سبيل الله غضاب الله، يقاتلون في سبيل الله، نهوا عن شيء فضيعوه، فما تركوا حتى غموا بهذا الغم، والفاسق اليوم يتجرم كل كبيرة، ويركب كل داهية، ويزعم أن لا بأس عليه، فسوف يعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إذ عفا عنهم، قاله ابن عباس. والثاني: إذ لم يقتلوا جميعاً، قاله مقاتل.

﴿إِذْ تُصَدِّقُونَ وَلَا تَكْفُرُونَ عَلَى أَكْثَرِ الْأَرْسَالِ يَدْعُونَكُمْ فِي آخِرَتِكُمْ فَأَلْبَسَكُمْ عَمَّا بِسَمِئَاتِكُمْ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

(١) هو قطعة من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في «المستند» ٢٦٠٩ والمحاكم ٢٩٦/٢ ووافقه الذهبي، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «دلائل النبوة»، وذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ٢٤/٥، وقال: وهذا حديث غريب، وهو من مراسلات ابن عباس، وله شواهد من وجوه كثيرة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُبْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا﴾ قال المفسرون: «إذ» متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ وأكثر القراء على ضم التاء، وكسر العين، من قوله: «تصعدون» وهو من الإصعاد. وروى أبان عن ثعلب، عن عاصم فتحها، وهي قراءة الحسن، ومجاهد، وهو من الصعود. قال الفراء: الإصعاد في ابتداء الأسفار، والمخارج، تقول: أصدنا من بغداد إلى خراسان، فإذا صعدت على سلم أو درجة، قلت: صعدت، ولا تقول: أصدت. وقال الزجاج: كل من ابتدا مسيراً من مكان، فقد أصد، فأما الصعود، فهو من أسفل إلى فوق. ومن فتح التاء والعين، أراد الصعود في الجبل. وللمفسرين في معنى الآية قولان: أحدهما: أنه صعودهم في الجبل، قاله ابن عباس ومجاهد. والثاني: أنه الإبعاد في الهزيمة، قاله قتادة، وابن قتيبة، و«تلوون» بمعنى: «تعرجون». وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَحْسَنِ﴾ عام، وقد روي عن ابن عباس أنه أريد به النبي ﷺ قال: والنبي ﷺ يناديهم من خلفهم: «إليَّ عباد الله، أنا رسول الله»، وقرأت عائشة، وأبو مجلز، وأبو الجوزاء، وحמיד «على أحد» بضم الألف والحاء، يعنون الجبل.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَبِهُكُمْ﴾ أي: جازاكم. قال الفراء: الإثابة هاهنا بمعنى عقاب، ولكنه كما قال الشاعر:

أخاف زياداً أن يكونَ عطاؤه
أداهمَ سوداً أو محدرجةً سُفراً^(١)

المحدرجة: السياط. والسود فيما يقال: القيود.

قوله تعالى: ﴿عَسَاءَ يَسْحَرُ﴾ في هذه الباء أربعة أقوال: أحدها: أنها بمعنى «مع». والثاني: بمعنى «بعد». والثالث: بمعنى «على»، فعلى هذه الثلاثة الأقوال يتعلق الغمان بالصحابة. وللمفسرين في المراد بهذين الغمين خمسة أقوال: أحدها: أن الغم الأول ما أصابهم من الهزيمة والقتل. والثاني: إشراف خالد بن الوليد بخيل المشركين عليهم، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أن الأول فرارهم الأول، والثاني: فرارهم حين سمعوا أن محمداً قد قتل، قاله مجاهد. والثالث: أن الأول ما فاتهم من الغنيمة وأصابهم من القتل والجراح، والثاني: حين سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل، قاله قتادة. والرابع: أن الأول ما فاتهم من الغنيمة، والفتح، والثاني: إشراف أبي سفيان عليهم، قاله السدي. والخامس: أن الأول إشراف خالد بن الوليد عليهم، والثاني: إشراف أبي سفيان عليهم، ذكره الثعلبي. والقول الرابع: أن الباء بمعنى الجزاء، فتقديره: غمكم كما غمتم غيركم، فيكون أحد الغمين للصحابة، وهو أحد غومهم التي ذكرناها عن المفسرين، ويكون الغم الذي جُوزوا لأجله لغيرهم. وفي المراد بغيرهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون غمومهم يوم بدر، قاله الحسن. والثاني: أنه النبي ﷺ غموه حيث خالفوه، فجوزوا على ذلك، بأن غموا بما أصابهم، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾ في «لا» قولان: أحدهما: أنها باقية على أصلها، ومعناها التفي، فعلى هذا في معنى الكلام قولان: أحدهما: فأنابكم غماً أناسكم الحزن على ما فاتكم وما أصابكم، وقد روي أنهم لما سمعوا أن النبي قد قتل، نسوا ما أصابهم وما فاتهم. والثاني: أنه متصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ فمعنى الكلام: عفا عنكم، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم وأصابكم، لأن عفوه يذهب كل غم. والقول الثاني: أنها صلة، ومعنى الكلام: لكي تحزنوا على ما فاتكم وأصابكم عقوبة لكم في خلافكم. ومثلها قوله تعالى: ﴿لِنَلَّا بِمَلَأَ أَهْلَ الْكِتَابِ الْآيَاتِ يُدْرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليعلم. هذا قول المفضل. قال ابن عباس: والذي فاتهم: الغنيمة، والذي أصابهم: القتل والهزيمة.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَدُوِّ أَمَنَةٍ نَّسَا يَتَّبِعُونَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٩﴾﴾

(١) قاله الفرزدق، وزياد: هو ابن أبيه، كان قد توعد الفرزدق، ثم أظهر الرضى عنه، وأنه سيحبه إن قصده، فلم يركن لذلك الفرزدق. والأداهم، جمع أدهم: وهو القيد. والمحدرجة: السياط، وهو وصف، من: حدرج السوط: إذا أحكم فتله حتى استوى، وسوط محدرج: مغار محكم القتل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَدِّ السَّمَاءِ سَاقِطَةً﴾ قال ابن قتيبة: الأمانة: الأمن. يقال: وقعت الأمانة في الأرض. وقال الزجاج: معنى الآية: أعقبكم بما نالكم من الرعب أن أمنكم أمناً تامون معه، لأن الشديد الخوف لا يكاد ينام. و«نعاساً» منصوب على البدل من «أمانة»، يقال: نعى الرجل ينعس نعاساً، فهو ناعس. وبعضهم يقول: نعسان. قال الفراء: قد سمعتها، ولكني لا أشتبهها. قال العلماء: النعاس: أخف النوم. وفي وجه الامتنان عليهم بالنعاس قولان: أحدهما: أنه أمنهم بعد خوفهم حتى ناموا، فالمنة بزوال الخوف، لأن الخائف لا ينام. والثاني: قواهم بالاستراحة على القتال.

قوله تعالى: ﴿يَتَسَوَّىٰ طَائِفَتُكُمْ يَنكَبُكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «يفشى» بالياء مع التضمين، وهو يعود إلى النعاس. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف «تغشى» بالتاء مع الإمالة، وهو يرجع إلى الأمانة. فأما الطائفة التي غشيها النوم، فهم المؤمنون، والطائفة الذين أهمتهم أنفسهم: المنافقون، أهمهم خلاص أنفسهم، فذهب النوم عنهم. قال أبو طلحة: كان السيف يسقط من يدي، ثم أخذه، ثم يسقط، وأخذه من النعاس. وجعلت أنظر، وما منهم أحد يومئذ إلا يمد تحت حَجَفَتَهُ^(١) من النعاس^(٢). وقال الزبير: أرسل الله علينا النوم، فما متنا رجل إلا ذقته في صدره، فوالله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير: (لو كان لنا من الأمر شيء ما قلنا هاهنا)، فحفظتها منه^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَطْلُبُونَ يَأْتِيهِمُ الْخَبْرُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنهم ظنوا أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم كذبوا بالقدر، رواه الضحاك، عن ابن عباس. والثالث: أنهم ظنوا أن محمداً قد قتل، قاله مقاتل. والرابع: ظنوا أن أمر النبي ﷺ مضمحل، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْكُفَّارُ﴾ قال ابن عباس: أي: كظن الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿يَتَوَلَّوْنَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الجحد، تقديره: ما لنا من الأمر من شيء. قال الحسن: قالوا: لو كان الأمر إلينا ما خرجنا، وإنما أخرجنا كرهاً. وقال غيره: المراد بالأمر: النصر والظفر، قالوا: إنما النصر للمشركين ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ﴾، أي: النصر، والظفر، والقضاء والقدر ﴿لِلَّهِ﴾. والأكثرون قرؤوا ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ بنصب اللام، وقرأ أبو عمرو يرفعها، قال أبو علي: حجة من نصب، أن «كله» بمنزلة «أجمعين» في الإحاطة والعموم، فلو قال: إن الأمر أجمع، لم يكن إلا النصب، و«كله» بمنزلة «أجمعين». ومن رفع، فلأنه قد ابتدأ به، كما ابتدأ بقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُم بَابِهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَفَقَّهُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ في الذي أخفوه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قولهم: ﴿لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا﴾. والثاني: أنه إسرارهم الكفر، والشك في أمر الله. والثالث: الندم على حضورهم مع المسلمين بأحد. قال أبو سليمان الدمشقي: والذي قال: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ عبد الله بن أبي. والذي قال: ﴿لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ معتب بن قشير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: لو تخلفتم، لخرج منكم من كُتِبَ عليه القتال، ولم ينجه القعود. والمضاجع: المصارع بالقتل. قال الزجاج: ومعنى (برزوا): صاروا إلى برز، وهو المكان المنكشف. ومعنى ﴿وَلِيَتَّبِعَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: ليختبره بأعمالكم، لأنه قد علمه غيباً، فيعلمه شهادة.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَسْمَعْ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ قال قتادة: أراد ليظهرها من الشك والارتباب، بما يريكم من عجائب صنعه من الأمانة، وإظهار سرائر المنافقين. وهذا التمحيص خاص للمؤمنين. وقال غيره: أراد بالتمحيص: إيابة ما في القلوب من الاعتقاد لله، ولرسوله، وللمؤمنين، فهو خطاب للمنافقين.

(١) الحجفة: ضرب من الترس، تتخذ من جلود الإبل مقورة، يطارق بعضها على بعض، ليس فيه خشب، وهي الحجفة والذرقعة.

(٢) روى البخاري ج١٧/٨ عن أنس، أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه، ويسقط وأخذه. وقد رواه الترمذي والسائي والحاكم بنحو معناه. وروى ابن جرير ٣١٧/٧، والترمذي ١٢٥/٢، والحاكم ٢٩٧/٢ وصححه، ووافقه الذهبي، عن أنس عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أحد، فجعلت أنظر، وما منهم يومئذ أحد إلا يمد تحت حجفته من النعاس، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَدِّ السَّمَاءِ سَاقِطَةً﴾. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن إسحاق، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل».

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها. وقال ابن الأباري: معناه: عليم بحقيقة ما في الصدور من المضمرات، فتأنيت ذات بمعنى الحقيقة، كما تقول العرب: لقيته ذات يوم. فيؤنون لأن مقصدهم: لقيته مرة في يوم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنكُمْ يَوْمَ التَّفَقُّ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١٥٥)
قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنكُمْ يَوْمَ التَّفَقُّ الْجَمْعَانِ﴾ الخطاب للمؤمنين، وتوليهم: فرارهم من العدو. والجمعان: جمع المؤمنين، وجمع المشركين، وذلك يوم أحد^(١). واستزلهم: طلب زللهم، قال ابن قتبية: هو كما تقول: استعجلت فلاناً، أي: طلبت عجلته، واستعملته: طلبت عمله. والذي كسبوا: يريد به الذنوب. وفي سبب فرارهم يومئذ قولان: أحدهما: أنهم سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل، فترخصوا في الفرار، قاله ابن عباس في آخرين. والثاني: أن الشيطان أذكروهم خطاياهم، فكروها لقاء الله إلا على حال يرضونها، قاله الزجاج.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْمَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١٥٦)
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كالمنافقين الذين قالوا لإخوانهم في النفاق، وقيل: إخوانهم في النسب. قال الزجاج: وإنما قال: «إذا ضربوا» ولم يقل: «إذ ضربوا»، لأنه يريد: شأنهم هذا أبداً، تقول: فلان إذا حدث صدق، وإذا ضرب صبر. و«إذا» لما يستقبل، إلا أنه لم يحكم له بهذا المستقبل إلا لما قد خير منه فيما مضى. قال المفسرون: ومعنى ﴿ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾: ساروا وسافروا. و«غزى» جمع غازي. وفي الكلام محذوف تقديره: إذا ضربوا في الأرض، فماتوا، أو غزوا، وقتلوا.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْمَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ قال ابن عباس: ليجعل الله ما ظنوا من أنهم لو كانوا عندهم، سلموا، ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: حزناً. قال ابن فارس: الحسرة: التلهف على الشيء الفاتت.
قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: ليس تحرز الإنسان يمنعه من أجله.
قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي: «يعملون» بالياء، وقرأ الباقون بالياء. قال أبو علي: حجة من قرأ بالياء أن قلبها غيبة، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾، ومن قرأ بالياء، فحجته ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

﴿وَلَكِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَعْفُورَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١٥٧)
قوله تعالى: ﴿وَلَكِن قُتِلْتُمْ﴾ اللام في «لكن» لام القسم، تقديره: والله لئن قتلتكم في الجهاد ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ في إقامتكم. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «مُتُّ» و«مُتُّمٌ» و«مُتُّنَا» برفع الميم في جميع القرآن، وروى حفص عن عاصم: ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ ﴿وَلَكِن مُتُّمٌ﴾ برفع الميم في هذين دون باقي القرآن. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي كل ما في القرآن بالكسر.

قوله تعالى: ﴿لَمَعْفُورَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: من أعراض الدنيا التي تتركون الجهاد لجمعها. وقرأ حفص عن عاصم: «يجمعون» بالياء، ومعناه: خير مما يجمع غيركم مما تركوا الجهاد لجمعهم. قال ابن عباس: خير مما يجمع المنافقون في الدنيا.

(١) روى الإمام أحمد، وأبو يعلى، والطبري، والبخاري، وابن جرير، بإسناد حسن، عن عاصم، عن شقيق، قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة، فقال له الوليد: ما لي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغني أي لم أفر يوم عنين - قال عاصم: يقول: يوم أحد - ولم أتخلف عن بدر، ولم أترك سنة عمرا قال: فانطلق فغير بذلك عثمان، قال: فقال: أما قوله: «إني لم أفر يوم عنين»، فكيف يعبرني بذلك وقد عفا الله عنه؟ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنكُمْ يَوْمَ التَّفَقُّ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١٥٥) وأما قوله: «إني تخلفت يوم بدر، فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت، وقد ضرب لي رسول الله ﷺ بسهم، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم، فقد شهد. وأما قوله: «إني تركت سنة عمر، فإني لا أطيعها ولا هو، فأنه فحده بذلك. عنين، بلفظ ثنية العين: جبل من جبال أحد، ولذلك يقال له: يوم أحد» ويوم عنين.

﴿وَلَيْنِ تُثَمُّ أَوْ قَتَلْتُمْ لَإِنَّ اللَّهَ تَحْشُرُونَ﴾ (١٥٨)

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ تُثَمُّ﴾ أي: في إقامتكم. ﴿أَوْ قَتَلْتُمْ﴾ في جهادكم. ﴿لَإِنَّ اللَّهَ تَحْشُرُونَ﴾ وهذا تخويف من القيامة. والحشر: الجمع مع سوق.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفَرْنَا مِنْ حَوَالِكُمْ فَأَعَفَّ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَكُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٥٩)

قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ قال الفراء وابن قتيبة، والزجاج: «ما» هاهنا صلة، ومثله: ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ يَسْتَقْفَرُ﴾ قال ابن الأنباري: دخول «ما» هاهنا يحدث توكيداً. قال النابغة:

الممرء يهوى أن يعي —

ش وطول عيش ما يضره (١)

فأكد بذكر «ما» وفيمن تتعلق به هذه الرحمة قولان: أحدهما: أنها تتعلق بالنبي ﷺ. والثاني: بالمؤمنين. قال قتادة: ومعنى ﴿لَيْتَ لَهُمْ﴾ لان جانبك، وحسن خلقتك، وكثر احتمالك (٢). قال الزجاج: والفظ: الغليظ الجانب، السيء الخلق، يقال: فظظت تفظ فظاظه وفظظاً، والفظ: ماء الكرش والفرث، وإنما سمي فظاً لغلظ مشربه. فأما الغليظ القلب، فقيل: هو القاسي القلب، فيكون ذكر الفظاظه والغلظ - وإن كانا بمعنى واحد - توكيداً. وقال ابن عباس: الفظ: في القول، والغليظ القلب: في الفعل.

قوله تعالى: ﴿لَأَنفَرُوا﴾ أي: تفرقوا. وتقول: فضضت عن الكتاب ختمه: إذا فرقته عنه. ﴿فَأَعَفَّ عَنْهُمْ﴾ أي: تجاوز عن هفواتهم، وسل الله المغفرة لذنوبهم ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (٣) معناه: استخرج آراءهم، واعلم ما عندهم. ويقال: إنهم من: شرت العسل. وأنشدوا:

وقاسمها بالله حقاً لأنتم

ألد من السلوى إذا ما نشورها (٤)

قال الزجاج: يقال: شاورت الرجل مشاوراً وشوراً، وما يكون عن ذلك اسمه المشورة. وبعضهم يقول: المشورة. ويقال: فلان حسن الصورة والشورة، أي: حسن الهيئة واللباس. ومعنى قولهم: شاورت فلاناً، أظهرت ما

(١) أمالي المرتضى، ٢٦٦/١، وحامسة البحرى، ص ١٣٦، وأمالي القاضي، ٨/٢، والخزانة، ٥١٤/١ وفيها «قد يضره» بدل «ما يضره».

(٢) روى الإمام أحمد رقم ٦٦٢٢ والبخاري ٢٨٧/٤ من عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة. فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: ﴿يَأْتِيكَ النَّبِيُّ إِذَا أَرْسَلْتَكَ نَبِيًّا وَرَبِّيكَ وَرَبِّيكَ﴾ وحرراً للابيين، وأنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بظف ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يفتح السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها عيناً عمياً، وأذانا صماً وقلوباً غلفاً.

(٣) قال الشيخ أحمد شاذلي في «عمدة التفسير» تعليقاً على هذه الآية: وهذه الآية: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ والآية الأخرى ﴿وَأَكْرَمَهُمْ شُيُوعًا بَيْنَهُمْ﴾ اتخذهما اللابيون بالدين في هذا العصر من العلماء وغيرهم عدتهم في التفضيل بالتأويل ليواطئوا صنع الإفترج في منهج النظام الدستوري الذي يزعمونه، والذي يخدمون الناس بتسميته النظام الديمقراطي، فاصطنع هؤلاء اللابيون شعاراً من هاتين الآيتين يخدمون به الشعوب الإسلامية أو المنتسبة للإسلام، ويقولون كلمة حق يراد بها الباطل، يقولون: الإسلام يأمر بالشورى، ونحو ذلك من الألفاظ. وحقاً إن الإسلام يأمر بالشورى، ولكن أي شورى يأمر بها الإسلام؟ إن الله سبحانه يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ومعنى الآية واضح صريح لا يحتاج إلى تفسير، ولا يحتمل التأويل، فهو أمر للرسول ﷺ، ثم لمن يكون ولي الأمر من بعده أن يستعرض آراء أصحابه الذين يراهم موضع الرأي الذين هم أولو الأحلام والنهى في المسائل التي تكون موضع تبادل الآراء، وموضع الاجتهاد في التطبيق، ثم يختار من بينها ما يراه حقاً أو صواباً، أو مصلحاً، فيعزم على إنفاذه غير متقيد برأي فريق معين، ولا برأي عدد محدود، ولا برأي أكثرية، ولا برأي أقلية، فإذا عزم توكل على الله، وأخذ العزم على ما ارتأه. ومن المفهوم البيهقي الذي لا يحتاج إلى دليل أن الذين أمر الرسول بمشاورتهم - ويأتي به فيه من يلي الأمر من بعده - هم الرجال الصالحون القائمون على حدود الله، المتقون الله المقيمو الصلاة، المؤدو الزكاة، المجاهدون في سبيل الله، هم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: ﴿لِيُنبئنكم أولو الأحلام والنهى﴾ ليسوا هم الملحدون ولا المحاربين لدين الله، والفجار الذين لا يتورعون عن منكر، ولا الذين يزعمون أن لهم أن يضعوا شرائع وقوانين تخالف دين الله، وتهدم شريعة الإسلام، هؤلاء وأولئك من بين كافر وفاسق، موضعهم الصحيح تحت السيف أو السوط، لا موضع الاستشارة وتبادل الآراء.

(٤) البيت لخالد بن زهير، ديوان الهذليين ١٥٨/١ وشرح أشعار الهذليين ٢١٥/١. والسلوى: العسل. نشورها: نأخذها من خليتها. قال في «اللسان»: قال الزجاج: أخطأ خالد إنما السلوى طائر. وقال الفارسي: السلوى: كل ما سلاك، وقيل للسل: سلوى، لأنه يسليك بحلاوته وتأنيبه عن غيره مما تلحلق فيه مؤونة الطبخ وغيره من أنواع الصناعة، يرد بذلك على أبي إسحاق الزجاج.

عنده وما عندي. وشرت الدابة: إذا امتاحتها: عرفت هيئتها في سيرها. وشرت العسل: إذا أخذته من مواضع النحل. وعسل مشار. قال الأعشى:

كَأَنَّ الْقِرْنَ فِلسَ وَالزَّنَجَبِيَّ
لِ بَاتَا بِفِيهَا وَأَرِيأَ مَشَارًا^(١)

والأري: العسل. واختلف العلماء لأي معنى أمر الله نبيه بمشاورة أصحابه مع كونه كامل الرأي، تام التدبير، على ثلاثة أقوال: أحدها: ليستن به من بعده، وهذا قول الحسن، وسفيان بن عيينة. والثاني: لتطيب قلوبهم، وهو قول قتادة، والربيع، وابن إسحاق. ومقاتل. قال الشافعي رضي الله عنه: نظير هذا قوله ﷺ: «البركر تُستأمر في نفسها»^(٢)، إنما أراد استطابة نفسها، فإنها لو كرهت، كان للأب أن يزوجه^(٣)، وكذلك مشاورة إبراهيم رضي الله عنه لابنه حين أمر بذبحه. والثالث: للإعلام ببركة المشاورة، وهو قول الضحاك. ومن فوائد المشاورة أن المشاور إذا لم ينجح أمره، علم أن امتناع النجاح محض قدر، فلم يلم نفسه، ومنها أنه قد يعزم على أمر، فيبين له الصواب في قول غيره، فيعلم عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح. قال علي رضي الله عنه: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه، والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم. وقال بعض الحكماء: ما استنبت الصواب بمثل المشاورة، ولا حُصِنَت النعم بمثل المواساة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر. واعلم أنه إنما أمر النبي ﷺ بمشاورة أصحابه فيما لم يأت فيه وحى، وعمهم بالذكر، والمقصود أرباب الفضل والتجارب منهم. وفي الذي أمر بمشاورتهم فيه قولان. حكاها القاضي أبو يعلى: أحدهما: أنه أمر الدنيا خاصة. والثاني: أمر الدين والدنيا، وهو أصح. وقد قرأ ابن مسعود، وابن عباس: «وشاورهم في بعض الأمر».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ قال ابن فارس: العزم: عقد القلب على الشيء ويريد أن يفعله^(٤). وقد قرأ أبو رزين، وأبو مجلز، وأبو العالية، وعكرمة، والجحدري: (فإذا عزمتم) بضم التاء. فأما التوكل، فقد سبق شرحه. ومعنى الكلام: فإذا عزمت على فعل شيء، فتوكل على الله، لا على المشاورة.

﴿إِنْ يَصْرُكَ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ وَإِنْ يَضُدْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَصْرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَصْرُكُمْ اللَّهُ﴾ قال ابن فارس: النصر: العون، والخذلان: ترك العون. وقيل: الكناية في قوله ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ تعود إلى خذلانه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ وَمَنْ يَكُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ أَيَّامِهِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾ في سبب نزولها سبعة أقوال: أحدها: أن كטיפية من المغنم فقدت يوم بدر، فقال ناس: لعل النبي ﷺ أخذها، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٥). والثاني: أن رجلاً غلَّ من غنائم هوازن يوم حنين، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أن قوماً من أشراف الناس طلبوا من

(١) روايته في الديوان ص ٩٣.

كَانَ جَنِيًّا مِّنَ الزَّنَجَبِيِّ
لِ خَالِطَ فِئَاهَا وَأَرِيأَ مَشُورًا

جني: فقيل من: جنى الثمر يجنيه. الزنجبيل: نبات طيب الرائحة معروف. الأري: عسل النحل. شار العسل واشتاره: جمعه.

(٢) روى الجماعة إلا البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الطيب أحق بنفسها من وليها، والبركر تستأذن في نفسها، وإفئتها صماؤها» وفي رواية لأحمد ومسلم وأبي داود والنسائي «والبركر يستأمرها أبوها». وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، تستأمر النساء في أوضاعهن؟ قال: «نعم». قلت: إن البركر تستأمر فتنسحق؟ فقال: «سكاتها إئنه».

(٣) قال النووي في «شرح مسلم». وأما قوله ﷺ في البركر: «ولا تكبح البركر حتى تستأمر» فاختلفوا في معناه، فقال الشافعي وابن أبي ليلى وأحمد وإسحاق وغيرهم: الاستئذان في البركر مأثور به، فإن كان الولي أباً أو جدّاً، كان الاستئذان مندوباً إليه، ولو زوجه بغير استئذانه، صح، لكامل شفقتك، وإن كان غيرهما من الأولياء، وجب الاستئذان، ولم يصح إنكاحها قبله. وقال الأوزاعي وأبو حنيفة وغيرهما من الكوفيين: يجب الاستئذان في كل بكر بالغة.

(٤) في «معجم مقاييس اللغة» ٣٠٨/٤ قال الخليل: العزم: ما عقد عليه القلب من أمر أنت فاعله، أي: متيقنه. ويقال: ما لفلان عزيمة، أي: ما يعزم عليه، كأنه لا يمكنه أن يصرم أمره، بل يخطط فيه ويتردد.

(٥) رواه ابن أبي حاتم، وأبو داود، والترمذي، والطبري، وقال الترمذي: حسن غريب. وفي إسناده خفيف بن عبد الرحمن الجزري ضعفه أحمد، وقال ابن عدي: إذا حدث عن خفيف ثقة فلا بأس بحديثه، والراوي عنه في هذا الحديث عبد الواحد بن زياد العبدي، وهو ثقة، روى له الجماعة.

رسول الله ﷺ أن يخصهم بشيء من الغنائم، فنزلت هذه الآية، نقل عن ابن عباس أيضاً. والرابع: أن النبي ﷺ بعث طلائعاً، فغنم النبي ﷺ غنيمة، ولم يقسم للطلائع، فقالوا: قسم الفياء ولم يقسم لنا، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك^(١). والخامس: أن قوماً غلوا يوم بدر، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة. والسادس: أنها نزلت في الذين تركوا مركزهم يوم أحد طلباً للغنيمة، وقالوا: نخاف أن يقول النبي ﷺ: «من أخذ شيئاً، فهو له» فقال لهم النبي ﷺ: «ألم أعهد إليكم ألا تبرحوا؟! أظنتم أنا نغل؟!» فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب، ومقاتل. والسابع: أنها نزلت في غلول الرحي، قاله القرظي، وابن إسحاق. وذكر بعض المفسرين أنهم كانوا يكرهون ما في القرآن من عيب دينهم وأكهنتهم، فسألوه أن يطوي ذلك، فنزلت هذه الآية.. واختلف القراء في «يغل» فقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو: بفتح الياء وضم الغين، ومعناها: يخون. وفي هذه الخيانة قولان: أحدهما: خيانة المال على قول الأكثرين. والثاني: خيانة الرحي على قول القرظي، وابن إسحاق. وقرأ الباقر: بضم الياء وفتح الغين، ولها وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى يُخَان، أو يجوز أن يكون: يلقى خائناً، يقال: أغللت فلاناً، أي: وجدته غالاً، كما يقال: أحمته: وجدته أحماً، وأحمدته: وجدته محموداً^(٢)، قاله الحسن، وابن قتيبة. والثاني: يُخَوِّن، قاله الفراء، وأجازة الزجاج، ورده ابن قتيبة، فقال: لو أراد: يخوِّن، لقال: يغلل، كما يقال: يفسق، ويخون، ويفجر. وقيل: «اللام» في قوله «النبي» منقولة، ومعنى الآية: وما كان النبي ليُغَلِّ، ومثله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَخْذَ مِنْ يَدَيْهِ﴾ [سرم: ٣٦]، أي: ما كان الله ليأخذ ولداً. وهذه الآية من اللفظ التعريض، إذ قد ثبتت براءة ساحة النبي ﷺ من الغلول فدل على أن الغلول في غيره. ومثله: ﴿وَلَيْتَ أَوْ

يَتَاكُمُ لَمَّا كُنْتُ هُنَى أَوْ فِي صَكَلِي ثِيَابٍ﴾ [سبأ: ٢٥] وقد ذكر عند السدي نحو هذا.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الغلول: أخذ شيء من المغنم خفية، ومنه الغلالة، وهي ثوب يلبس تحت الثياب، والغلل: وهو الماء الذي يجري بين الشجر، والغلل: وهو الحقد الكامن في الصدر، وأصل الباب الاختفاء. وفي إتيانه بما غل ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يأتي بما غله، يحمله، ويدل عليه ما روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول، فعظمه، وعظم أمره، ثم قال: «لا ألقى أحداً منكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، يقول: يا رسول الله اغثنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك، لا ألقى أحداً منكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحة، فيقول: يا رسول الله اغثنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك، لا ألقى أحداً منكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها نغاء، يقول: يا رسول الله اغثنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، فقد أبلغتك. لا ألقى أحداً منكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول: يا رسول الله اغثنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك. لا ألقى أحداً منكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاغ تخفق، فيقول: يا رسول الله اغثنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك. لا ألقى أحداً منكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله اغثنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك^(٣)». الرغاء: صوت البعير، والثغاء: صوت الشاة، والنفس: ما يُغَلُّ من السبي، والرقاق: الثياب، والصامت: المال. والقول الثاني: أنه يأتي حاملاً إثم ما غل. والثالث: أنه يرُدُّ عوض ما غل من حسناته، والقول الأول أصح لمكان الأثر الصحيح.

قوله تعالى: ﴿لَمْ تَوْفَّ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: تعطى جزاء ما كسبت.

﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَكَسِبُ الْمَصِيرِ﴾ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ اختلفوا في معنى هذه الآية على قولين. أحدهما: أن معناها: أفمن اتبع

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير من طريق سلمة بن نبط عن الضحاك.

(٢) الزيادة من «غريب القرآن» ص ١١٥ لابن قتيبة.

(٣) رواه الإمام أحمد رقم ٩٤٩٩، والبخاري ١٢٩٠/٦، ومسلم ١٦٦١/٣، واللفظ الذي ساقه المصنف لمسلم. وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم خيبر، أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد، حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «كلائي رأيت في النار في بردة غلها، أو عياها»، ثم قال رسول الله ﷺ: «ذهب فئاد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون». قال: فتأديت: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. وكذا رواه مسلم، والترمذي، وقال: حديث صحيح.

رضوان الله، فلم يغفل، ﴿كَمْ بَاءٌ يَسْحَطُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ حين غل؟! هذا قول سعيد بن جبير، والضحاك، والجمهور. والثاني: أن النبي ﷺ لما أمر المسلمين باتباعه يوم أحد، اتبعه المؤمنون، وتخلف جماعة من المنافقين، فأخبر الله بحال من تبعه، ومن تخلف عنه، هذا قول الزجاج.

﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿هُم دَرَجَتٌ﴾ قال الزجاج: معناه: هم ذوو درجات. وفي معنى درجات قولان: أحدهما: أنها درجات الجنة، قاله الحسن. والثاني: أنها فضائلهم، فبعضهم أفضل من بعض، قاله الفراء، وابن قتبية. وفيمن عنى بهذا الكلام قولان: أحدهما: أنهم الذين اتبعوا رضوان الله، والذين باؤوا بسخط من الله، فلمن اتبع رضوان الله الثواب، ولمن باء بسخطه العذاب، هذا قول ابن عباس. والثاني: أنهم الذين اتبعوا رضوان الله فقط، فإنهم يتفاوتون في المنازل، هذا قول سعيد بن جبير، وأبي صالح، ومقاتل.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكَّعِهِمْ وَيُزَكِّيهِمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَنِي سَاقِلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنعم عليهم. و«أنفسهم»: جماعتهم، وقيل: نسبهم. وقرأ الضحاك، وأبو الجوزاء: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ بفتح الفاء. وفي وجه الامتنان عليهم بكونه من أنفسهم أربعة أقوال. أحدها: لكونه معروف النسب فيهم، قاله ابن عباس، وقتادة. والثاني: لكونهم قد خبروا أمره، وعلموا صدقه، قاله الزجاج. والثالث: ليسهل عليهم التعلم منه، لموافقة لسانه للسانهم، قاله أبو سليمان الدمشقي. والرابع: لأن شرفهم يتم بظهور نبي منهم، قاله الماوردي. وهل هذه الآية خاصة أم عامة؟ فيه قولان: أحدهما: أنها خاصة للعرب، روي عن عائشة^(١) والجمهور. والثاني: أنها عامة لسائر المؤمنين، فيكون المعنى أنه ليس بملك، ولا من غير بني آدم، وهذا اختيار الزجاج. وقد سبق في [البقرة] بيان باقي الآية^(٢).

﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَّةً فَدَّأبْتُمْ بِمَثَلِهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قَوْلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَّةً﴾ قال عمر بن الخطاب ؓ: لما كان يوم أحد، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فنزلت هذه الآية [إلى قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: بأخذكم الفداء]^(٣).

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا﴾ قال الزجاج: هذه واو النسق، دخلت عليها ألف الاستفهام، فبقيت مفتوحة على هيئتها قبل دخولها، ومثل ذلك قول القائل: تكلم فلان بكذا وكذا فيقول المجيب له: أو هو ممن يقول ذلك؟ فأما «المصيبة» فما أصابهم يوم أحد، وكانوا قد أصابوا مثلها من المشركين يوم بدر، لأنهم قتل منهم سبعون، فقتلوا يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين، وهذا قول ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والجماعة، إلا أن الزجاج قال: قد أصبتم يوم أحد مثلها، ويوم بدر مثلها، فجعل المثليين في اليومين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ قال ابن عباس: من أين أصابنا هذا ونحن مسلمون.

(١) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» ومعنى قول عائشة هذا: أن هذا الامتنان خاص بالعرب المسلمين، لأنهم يفتقون عنه، ويفهمون كلامه، ولا يحتاجون إلى ترجمان، وليس كذلك الأعاجم.

(٢) قال أبو جعفر الطبري في تفسير الآية: يعني بذلك: لقد تطول الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً، حين أرسل فيهم رسولاً: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ نبياً من أهل لسانهم، ولم يجعله من غير أهل لسانهم فلا يفقهون عنه ما يقول: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يقول: يقرأ عليهم أي كتابه وتنزيله، ﴿وَرُكَّعِهِمْ﴾، يعني: يظهرهم من ذنوبهم باتباعهم إياه، وطاعتهم له فيما أمرهم ونهاهم، ﴿وَيُزَكِّيهِمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، يعني: ويعلمهم كتاب الله الذي أنزله عليه، ويبين تأويله ومعانيه، والحكمة؛ ويعني بالحكمة، السنة التي سنّها الله جل ثناؤه للمؤمنين على لسان رسول الله ﷺ وبيانه لهم، ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَنِي سَاقِلِينَ﴾ يعني: وإن كانوا قبل أن يمن الله عليهم بإرساله رسولاً الذي هذه صفته، لفي ضلال مبين، يقول في جهالة جهلاء، وفي حيرة عن الهدى عمياء، لا يعرفون حقاً، ولا يظنون باطلاً.

(٣) رواه ابن أبي حاتم، وما بين معقنين منه، وزواه الإمام أحمد في «المستند» رقم ٢٠٨ باطون وإسناده حسن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: بأخذكم الفداء يوم بدر، قاله عمر بن الخطاب. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله قد كره ما صنع قومك من أخذهم الفداء، وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يضربوا أعناق الأسارى، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتكم، فذكر ذلك للناس، فقالوا: عشارنا وإخواننا، بل نأخذ منهم الفداء، ويستشهد منا عدتكم، فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى بدر^(١) فعلى هذا يكون المعنى: قل هو بأخذكم الفداء، واختياركم القتل لأنفسكم. والثاني: أنه جرى ذلك بمعصية الرماة يوم أحد، وتركهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله ابن عباس، ومقاتل في آخرين. والثالث: أنه بمخالفتهم الرسول في الخروج من المدينة يوم أحد، فإنه أمرهم بالتحصن فيها، فقالوا: بل نخرج، قاله قتادة، والرابع. قال مقاتل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النصر والهزيمة «قديراً».

﴿وَمَا أَصَبَكُمْ يَوْمَ التَّقِي لَيْمَانَ فَإِذَا نِ أَنْتَ وَلَيْسَ لَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَيْسَ لَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَرَسُولَ الَّذِينَ نَاقَوْا وَقِيلَ لَهُمْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَاتِلُوا لَوْ نَعَلْتُمْ قِتَالًا لَأَتَيْنَنَّكُمْ هُمْ لِلكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿لَوْ نَعَلْتُمْ قِتَالًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَبَكُمْ يَوْمَ التَّقِي لَيْمَانَ﴾ الجمعان: النبي وأصحابه، وأبو سفيان وأصحابه، وذلك في يوم أحد، وقد سبق ذكر ما أصابهم.

قوله تعالى: ﴿فِي إِذِ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أمره، والثاني: قضاؤه، روي عن ابن عباس، والثالث: علمه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليظهر إيمان المؤمنين بشبوتهم على ما نالهم، ويظهر نفاق المؤمنين بفشلهم وقلة صبرهم. قال ابن قتيبة: والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع، وهو جحر من جحرتيه يخرج منه إذا أخذ عليه الجحر الذي دخل فيه. قال الزبدي عن الأصمعي: ولليربوع أربعة أوجه، النافقاء: وهو الذي يخرج منه كثيراً، ويدخل منه كثيراً. والقاصعاء، سمي بذلك لأنه يخرج تراب الجحر، ثم يقصع ببعضه كأنه يسد به فم الجحر، ومنه يقال: جرح فلان قد قصع بالدم: إذا امتلأ ولم يسد. والدائم، سمي بذلك، لأنه يخرج التراب من فم الجحر، ثم يدب به فم الجحر، كأنه يطليه به، ومنه يقال: ادم قدرك بشحم، أي اطلها به. والراهطاء، ولم يذكر اشتقاقه، وإنما يتخذ هذه الجحر عدداً، فإذا أخذ عليه بعضها، خرج من بعض. قال أبو زيد: فشب المنافق به، لأنه يدخل في الإسلام بلفظه، ويخرج منه بعقده، كما يدخل اليربوع من باب ويخرج من باب. قال ابن قتيبة. والنفاق: لفظ إسلامي لم تكن العرب تعرفه قبل الإسلام^(٢). قال ابن عباس: والمراد بالذين نافقوا عبد الله بن أبي، وأصحابه. قال موسى بن عقبة: خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، ومعهم المسلمون، وهم ألف رجل، والمشركون ثلاثة آلاف، فرجع عنه ابن أبي في ثلاثمائة. فأما القتال، فمباشرة الحرب. وفي المراد بالدفع ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التكاثر بالعدد. رواه مجاهد عن ابن عباس وهو قول الحسن، وعكرمة، والضحاك، والسدي، وابن جريج في آخرين. والثاني: أن معناه: ادفعوا عن أنفسكم وحريمكم، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهو قول مقاتل. والثالث: أنه بمعنى القتال أيضاً. قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿لَوْ نَعَلْتُمْ قِتَالًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: لو نعلم أن اليوم يجري قتال ما أسلمناكم، ذكره ابن إسحاق. والثاني: لو كنا نحسن القتال لاتبعناكم. والثالث: إنما معناه: أن هناك قتلاً وليس بقتال، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿هُمْ لَلْكَفْرِ﴾ أي: إلى الكفر ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ أي: إلى الإيمان، وإنما قال: يومئذ، لأنهم فيما قبل لم يظهروا مثل ما أظهروا، فكانوا بظاهر حالهم فيما قبل أقرب إلى الإيمان.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فيه وجهان ذكرهما الماوردي: أحدهما: ينطقون بالإيمان،

(١) ذكره ابن كثير ٢/٣٢٦، وقال: رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه» من حديث الثوري به، وهذا حديث غريب جداً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٢/٩٣، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، والترمذي، وابن جرير، وابن مردويه، ونقل تحسبه عن الترمذي.

(٢) في «اللسان» وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره، ويظهر إيمانه، وإن كان أصله في اللغة معروفاً.

وليس في قلوبهم إلا الكفر. والثاني: يقولون: نحن أنصار، وهم أعداء. وذكر في الذي يكتمون وجهين: أحدهما: أنه النفاق. والثاني: العداوة.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَدْ جَاءُوا قَاتِلًا قَاتِلُوا مَا قَاتِلُوا قُلْ قَادِرُوا عَلَىٰ أَنْ يُكْفِرُوا لَوْ أُعْطُوا قُوَّةً﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت في عبد الله بن أبي. وفي إخوانهم قولان: أحدهما: أنهم إخوانهم في النفاق، قاله ابن عباس. والثاني: إخوانهم في النسب، قاله مقاتل. فعلى الأول يكون المعنى: قالوا لإخوانهم المتنافقين: لو أطاعونا الذين قتلوا مع محمد ما قتلوا، وعلى الثاني يكون المعنى: قالوا عن إخوانهم الذين استشهدوا بأحد: لو أطاعونا ما قتلوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَاءُوا قَاتِلًا﴾ يعني القاتلين قعدوا عن الجهاد.

قوله تعالى: ﴿قَادِرُوا﴾ أي: فادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الحذر ينفع مع القدر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَوِّقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوتًا﴾ قرأ ابن عامر: قتلوا بالتشديد. واختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في شهداء أحد، روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتاكل من ثمارها، وتأوي إلى فتاديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحسن مقيلمهم، قالوا: ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد [ولا ينكلوا^(١)] عن الحرب» قال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٢)، وهذا قول سعيد بن جبير، وأبي الضحى. والثاني: أنها نزلت في شهداء بدر لما أفضوا إلى كرامة الله تعالى وقالوا: ربنا أعلم إخواننا، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهو قول مقاتل. والثالث: أنها نزلت في شهداء بدر معونة. روى محمد بن إسحاق عن أشياخ له، أن النبي ﷺ بعث المنذر بن عمرو في سبعين رجلاً من خيار المسلمين إلى أهل نجد، فلما نزلوا بئر معونة، خرج حرام بن ملحان إلى عامر بن الطفيل بكتاب رسول الله ﷺ، فلم ينظر فيه عامر، وخرج رجل من كسر البيت برمح، فضرب به في جنب حرام حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، وقتل سائر أصحابه غير واحد منهم، قال أنس بن مالك: فأنزل الله تعالى فيهم: «بلغوا قومنا عنا أنا قد لقينا ربنا، فرضي عنا ورضينا عنه» ثم رفعت، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوتًا﴾^(٣). فهذا اختلاف الناس فيمن نزلت، واختلفوا في سبب نزولها على ثلاثة أقوال: أحدها: أن الشهداء بعد استشهادهم سألوا الله أن يخبر إخوانهم بمصيرهم، وقد ذكرناه عن ابن عباس. والثاني: أن رجلاً قال: يا ليتنا نعلم ما لقي إخواننا الذين استشهدوا، فنزلت، قاله مقاتل. والثالث: أن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة أو سرور، تحسروا، وقالوا: نحن

(١) نكل عن عدوه: جبن فنكص على عقبه، وانصرف عنه هيبه له وخوفاً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المستند» رقم ٢٣٨٨، وأبو داود رقم ٢٣٨٩، والطبري ٣٨٥/٧، والحاكم ٢٩٧/٢، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري ٣٩٣/٧ مطولاً وسنده حسن. ورواه الإمام أحمد ١٣٧/٣ و٢١٠ و٢٨٩ بأسانيد صحيحة، وليس فيه: «فنزلت هذه الآية» ولفظه عن أنس: أن رسول الله ﷺ لما بعث حراماً أخاه أم سليم في سبعين رجلاً، قتلوا يوم بدر معونة، وكان رئيس المشركين يومئذ عامر بن الطفيل، وكان هو أتى النبي ﷺ فقال: اخترتني ثلاث خصال يكون لك أهل السهل، ويكون لي أهل الوب، أو أكون خليفة من بعدك، أو أغزوك بنغطفان ألف أشقر، وألف شقراء، قال: فطعن في بيت امرأة من بيت فلان، فقال: غدة كغدة البعير في بيت امرأة من بني فلان، التوتوني بفرسي، فأتى به، فركبه، فمات وهو على ظهره. فانطلق حرام أخو أم سليم ورجلان معه، رجل من بني أمية، ورجل أعرج، فقال لهم: كونوا قريباً مني حتى آتيهم، فإن آمنوني وإلا كنتم قريباً، فإن قتلوني، أعلمتكم أصحابكم. قال: فأتاهم حرام، فقال: أتومنونني، أبلغكم رسالة رسول الله ﷺ إليكم؟ قالوا: نعم. فجعل يحدثهم، وأومؤوا إلى رجل منهم من خلفه، فطعته حتى أنفذه بالرمح، قال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، قال: ثم قتلهم كلهم غير الأعرج، كان في رأس جبل، قال أنس: فأنزل علينا وكان مما يقرأ فنسخ «أن بلغوا قومنا أننا لقينا ربنا، فرضي عنا وأرضانا» قال: فدعا النبي ﷺ عليهم أربعين صباحاً، على رعل وذكوان وبني لحيان وعصية الذين عصوا الله ورسوله. ورواه البخاري ٢٩٧/٧، وانظر تفصيل القصة في «البداية والنهاية» ٧١/٤ - ٧٤.

في النعمة والسرور، وأبأونا وأبناؤنا وإخواننا في القبور، فنزلت هذه الآية، ذكره علي بن أحمد النيسابوري. فأما التفسير، فمعنى الآية: لا تحسبهم أمواتاً كالأموات الذين لم يقتلوا في سبيل الله، وقد بينا هذا المعنى في (البقرة) وذكرنا أن معنى حياتهم: أن أرواحهم في حواصل طير تأكل من ثمار الجنة، وتشرب من أنهارها^(١). قال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسْتِيئِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ﴾ قال ابن قتيبة: الفرح: المسرة، فأما الذي آتاهم الله، فما نالوا من كرامة الله ورضقه، والاستبشار: السرور بالبشارة، ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ إخوانهم من المسلمين. وفي سبب استبشارهم بهم ثلاثة أقوال: أحدها: أن الله تعالى لما أخبر بكرامة الشهداء، أخبر الشهداء بأني قد أنزلت على نبيكم، وأخبرته بأمركم، فاستبشروا، وعلموا أن إخوانهم سيحرسون على الشهادة، قاله سعيد بن جبيرة. والثاني: يستبشرون بإخوانهم الذين يرجون لهم الشهادة، يقولون: إن قتلوا نالوا ما نلنا من الفضل، قاله قتادة. والثالث: أن الشهيد يؤتى بكتاب فيه ذكر من تقدم عليه من إخوانه وأهله، وفيه يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، فيستبشر بقدمه، كما يستبشر أهل الغائب به، هذا قول السدي. «والهاء» والميم» في قوله تعالى: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ تعود إلى الذين لم يلحقوا بهم. قال الفراء: معناه: يستبشرون لهم بأنهم لا خوف عليهم، ولا حزن. وفي ماذا يرتفع «الخوف» والحزن؟ عنهم؟ فيه قولان: أحدهما: لا خوف عليهم فيمن خلفوه من ذريتهم، ولا يحزنون على ما خلفوا من أموالهم. والثاني: لا خوف عليهم فيما يقدمون عليه، ولا يحزنون على مفارقة الدنيا فرحاً بالآخرة.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ وَفَضْلَهُ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ﴾ قال مقاتل: برحمة ورضق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ قرأ الجمهور بالفتح على معنى: ويستبشرون بأن الله، وقرأ الكسائي بالكسر على

الاستئناف.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَدَى مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَدَى مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن المشركين لما انصرفوا يوم أحد، نذب النبي ﷺ أصحابه لاتباعهم، ثم خرج بمن انتدب معه، فلقي أبو سفيان قوماً، فقال: إن لقيتم محمداً، فأخبروه أنني في جمع كثير، فلقبهم النبي ﷺ فسألهم عنه؟ فقالوا: لقيناه في جمع كثير، ونراك في قلة، فأبى إلا أن يطلبه، فسبقه أبو سفيان، فدخل مكة، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس^(٢)، والجمهور. والثاني: أن أبا سفيان لما أراد الانصراف عن أحد، قال: يا محمد، موعد بيننا وبينك موسم بدر، فلما كان العام المقبل، وخرج أبو سفيان، ثم ألقى الله في قلبه الرعب، فبدا له الرجوع، فلقي نعيم بن مسعود^(٣)، فقال: إني قد واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر الصغرى، وهذا عام جذب، لا يصلح لنا، فثبطهم عنا، وأعلمهم أننا في جمع كثير، فلقبهم فخوفهم، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، وخرج النبي ﷺ بأصحابه، حتى أقاموا ببدر ينتظرون أبا سفيان، فنزل قوله تعالى:

(١) روى الإمام مسلم في «صحيحه» عن مسروق قال: لما سلنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فقال: أما إنا قد سلنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها فتاهيل بالمرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأتي إلى تلك القناديل». وقال الحافظ ابن كثير في «البيسر ٤٢٦/١»: وقد روينا في «مسند الإمام أحمد» حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً أيضاً فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة! وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة، أصحاب المذاهب المتبعة، فإن الإمام أحمد رواه عن محمد بن إدريس الشافعي، عن مالك بن أنس الأصبحي، عن الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه».

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ص ٧٥ بإسناد إلى عمرو بن دينار.

(٣) في رواية ابن إسحاق أن الرسول بذلك كان معبداً الخزامي، وقال الحافظ ابن حجر: ويقال: إن الرسول بذلك كان نعيم بن مسعود الأشجعي.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَالرَّسُولِ﴾ الآيات. وهذا المعنى مروى عن مجاهد، وعكرمة^(١). والاستجابة: الإجابة. وأنشدوا:

فلم يستجيبه عند ذلك مجيب^(٢)

أي: فلم يجبه. وفي مراد النبي ﷺ وخروجه وندب الناس للخروج ثلاثة أقوال: أحدها: ليرهب العدو باتباعهم. والثاني: لموعده أبي سفيان. والثالث: لأنه بلغه عن القوم أنهم قالوا: أصبتم شوكتهم، ثم تركتموهم. وقد سبق الكلام في القرح.

قوله تعالى: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ أي: أحسنوا بطاعة الرسول، واتقوا مخالفته.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ في المراد بالناس ثلاثة أقوال. أحدها: أنهم ركب لقيهم أبو سفيان، فضمن لهم ضماناً لتخويف النبي ﷺ وأصحابه، قاله ابن عباس، وابن إسحاق. والثاني: أنه نعيم بن مسعود الأشجعي، قاله مجاهد، وعكرمة، ومقاتل في آخرين. والثالث: أنهم المنافقون، لما رأوا النبي ﷺ يتجهز، نهوا المسلمين عن الخروج، وقالوا: إن أتيتهم في ديارهم، لم يرجع منكم أحد، هذا قول السدي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ قال الزجاج: زادهم ذلك التخويف ثبوتاً في دينهم، وإقامة على نصرته بينهم، وقالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾^(٣) أي: هو الذي يكفيننا أمرهم. فأما «الوكيل»، فقال الفراء: الوكيل: الكافي، واختاره ابن القاسم. وقال ابن قتبية: هو الكفيل، قال: ووكيل الرجل في ماله: هو الذي كفله له، وقام به. وقال الخطابي: الوكيل: الكفيل بأرزاق العباد ومصالحهم، وحقيقته: أنه الذي يستقل بالأمر الموكل إليه. وحكى ابن الأباري أن قوماً قالوا: الوكيل: الرب.

﴿فَاتَّقَلَّبُوا فِي نِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَقَضَىٰ لَهُمْ سُوْرَهُمْ بِمَسْمُومَةٍ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقَلَّبُوا فِي نِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ﴾ الانقلاب: الرجوع. وفي النعمة، ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الأجر، قاله مجاهد. والثاني: العافية، قاله السدي. والثالث: الإيمان والنصر، قاله الزجاج. وفي الفضل، ثلاثة أقوال: أحدها: ربح التجارة، قاله مجاهد، والسدي، وهذا قول من يرى أنهم خرجوا لموعده أبي سفيان. قال الزهري: لما استنفر النبي ﷺ المسلمين لموعده أبي سفيان بيد، خرجوا ببضائع لهم، وقالوا: إن لقينا أبا سفيان، فهو الذي خرجنا إليه، وإن لم نلقه ابتعنا ببضائعنا، وكانت بدر متجراً يوافي كل عام، فانطلقوا فقصوا حوائجهم، وأخلف أبو سفيان الموعده. والثاني: أنهم أصابوا سرية بالصفراء، فزرقوا منها، قاله مقاتل. والثالث: أنه الثواب، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَسْتَمِمْ سُوْرَهُمْ﴾ قال ابن عباس: لم يؤذهم أحد. ﴿وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ في طلب القوم. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾ أي: ذو من يدفع المشركين عن المؤمنين.

(١) جاء في «الدر المنثور» ١٠١/٢: وأخرج النسائي، وابن أبي حاتم، والطبراني بسند صحيح من طريق عكرمة عن ابن عباس، قال: لما رجع المشركون عن أحد، قالوا: لا محملاً لتلتم، ولا الكواعب أردتم، بشما صنعتم، ارجعوا، فسمع رسول الله ﷺ بذلك، فندب المسلمين. فأتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد، أو بئر أبي عتبة - شك سفيان - فقال المشركون: نرجع قابل، فرجع رسول الله ﷺ فكانت تعد غزوة، فأنزل الله ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية. وقد كان أبو سفيان قال للنبي ﷺ: موعدهم موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا، فأما الجبان فرجع، وأما الشجاع فأخذ أهبة القتال والتجارة، فاتوه فلم يجدوا به أحداً وتسوقوا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَاتَّقَلَّبُوا فِي نِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَقَضَىٰ لَهُمْ سُوْرَهُمْ﴾ الآية.

(٢) صدر البيت:

وداع دعماً يا من يُجيب إلى السُّدى

والبيت لكعب بن سعد المغنوي، وهو من قصيدة أصمعية جيلة، يرثي بها أخاه أبا المغوار، قال الأصمعي: ليس في الدنيا مثله.

(٣) روى البخاري ج ١٧٢/٨ عن ابن عباس: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وروى الإمام أحمد في «المسند» ٢٤/٦ بسند حسن عن عوف بن مالك أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدير: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «ودوا علي الرجل، فقال: ما قلت؟» قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «إن الله يلوم على المجرم، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل». وكذا رواه أبو داود والنسائي بنحوه.

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧٥)

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ قال الزجاج: معناه: ذلك التخويف كان فعل الشيطان، سؤله للمخوفين. وفي قوله تعالى: ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: يخوفكم بأوليائه، قاله الفراء، واستدل بقوله تعالى: ﴿ لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ [الكهف: ٤٤]. أي: ببأس، ويقوله تعالى: ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ [غانر: ١٥]، أي: بيوم التلاق. وقال الزجاج: معناه: يخوفكم من أوليائه، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي ﴾. وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وإبراهيم، وابن قتيبة. وأنشد ابن الأنباري في ذلك:

وَأَيَقِنْتُ التَّفَرُّقَ يَوْمَ قَالُوا تُنْقَسَمَ مَا لَ أُرِيدُ بِالسَّهَامِ (١)

أراد: أيقنت بالتفرق. قال: فلما أسقط الباء عمل الفعل فيما بعدها ونصبه. قال: والذي نختاره في الآية أن المعنى: يخوفكم أوليائه. تقول العرب: قد أعطيت الأموال، يريدون: أعطيت القوم الأموال، فيحذفون القوم، ويقتصرون على ذكر المفعول الثاني. فهذا أشبه من ادعاء «باء» ما عليها دليل، ولا تدعو إليها ضرورة. والثاني: أن معناه: يخوف أوليائه المنافقين، ليقعدوا عن قتال المشركين، قاله الحسن والسدي، وذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ يعني: أولياء الشيطان ﴿ وَخَافُوا مِنِّي ﴾ في ترك أمري. وفي «إن» قولان: أحدهما: أنها بمعنى: «إذ» قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنها للشرط، وهو قول الزجاج في آخرين.

﴿ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسُرُّونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوكَ اللَّهُ شَيْئًا رُبِمَا اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٧٦)

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسُرُّونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ قرأ نافع «يُحْزِنُكَ» «لِيُحْزِنَنِي» و«لِيُحْزِنَ» بضم الياء وكسر الزاي في جميع القرآن، إلا في (الأنبياء) ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فإنه فتح الياء، وضم الزاي. وقرأ الباقون كل ما في القرآن بفتح الياء وضم الزاي. قال أبو علي: يشبه أن يكون نافع تبع في سورة (الأنبياء) أثراً، أو أحب أن يأخذ بالوجهين. وفي الذين يسارعون في الكفر أربعة أقوال: أحدها: أنهم المنافقون، ورؤساء اليهود، قاله ابن عباس. والثاني: المنافقون، قاله مجاهد. والثالث: كفار قريش، قاله الضحاك. والرابع: قوم ارتدوا عن الإسلام، ذكره الماوردي. وقيل: معنى مسارعهم في الكفر: مظاهرتهم للكفار، ونصرهم إياهم. فإن قيل: كيف لا يحزنه المسارعة في الكفر؟ فالجواب: لا يحزنك فعلهم، فإنك منصور عليهم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوكَ اللَّهُ شَيْئًا ﴾ فيه قولان: أحدهما: لن: ينقصوا الله شيئاً بكفرهم، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: لن يضرروا أولياء الله شيئاً، قاله عطاء. قال ابن عباس: والحظ: النصيب، والآخرة: الجنة. ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في النار.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوكَ اللَّهُ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٧٧)

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ قال مجاهد: المنافقون آمنوا ثم كفروا، وقد سبق في (البقرة) معنى الاشتراء.

﴿ وَلَا يَحْزَنَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّ لَهُمْ حَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّ لَهُمْ لِيُذَادُوا إِثْمًا وَلَكُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١٧٨)

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزَنَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّ لَهُمْ حَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال. أحدها: في اليهود والنصارى والمنافقين، قاله ابن عباس. والثاني: في قريظة والنضير، قاله عطاء. والثالث: في مشركي مكة، قاله مقاتل. والرابع: في كل كافر، قاله أبو سليمان الدمشقي (١). وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، ﴿ وَلَا يَحْزَنَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿ وَلَا يَحْزَنَنَّ الَّذِينَ يَبْتَئُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، ﴿ لَا تَحْزَنَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٨] بالياء وكسر

(١) البيت للبيد بن ربيعة، من قصيدة يرثي بها أخاه أريد، ذكر بعضها صاحب «الأغانى» ١٣٣/١٥.

(٢) أخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: ما من نفس برة، ولا فاجرة، إلا والموت خير لها من الحياة. إن كان برأ، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّأُولَئِكَ ﴾ وإن كان فاجراً، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزَنَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّ لَهُمْ حَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّ لَهُمْ لِيُذَادُوا إِثْمًا ﴾ وإسناده صحيح.

السين، ووافقهم ابن عامر غير أنه فتح السين، وقرأ حمزة بالياء، وقرأ عاصم والكسائي كل ما في هذه السورة بالياء غير حرفين ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ فإنهما بالياء، إلا أن عاصماً فتح السين، وكسرها الكسائي، ولم يختلفوا في ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ أنها بالياء. ﴿تَنْتَلُّكُمْ﴾: أي: نطيل لهم في العمر، ومثله: ﴿وَأَهْمَجْرِي مَيْكَا﴾ قال ابن الأنباري: واشتقاق «نملي لهم» من الملو، وهي المدة من الزمان، يقال: ملو من الدهر، وميلو، ومُلو، وملاوة، وملاوة، بمعنى واحد، ومنه قولهم: البس جديداً وتملّ حبيباً، أي: لتظل أيامك معه. قال متم بن نويرة:

بِوَدِّي لَوْ أَنِّي تَمَلَّيْتُ عَمْرَهُ
بِمَالِي مِنْ مَالِ طَرِيفٍ وَتَالِدٍ
﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَابَا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ يَضْحَكُوا وَتَفْتَنُوا فَلَئِنَّ آجُرَ عَظِيمٍ ﴿٢٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أن قريشاً قالت: تزعم يا محمد أن من اتبعك، فهو في الجنة، ومن خالفك فهو في النار؟! فأخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا يؤمن، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس^(١). والثاني: أن المؤمنين سألوا أن يعطوا علامة يفرقون بها بين المؤمن والمنافق، فنزلت هذه الآية، هذا قول أبي العالية^(٢). والثالث: أن النبي ﷺ قال: «عرضت عليّ أمي، وأعلمت من يؤمن بي، ومن يكفر، فبلغ ذلك المنافقين، فاستهزؤوا، وقالوا: فنحن معه ولا يعرفنا، فنزلت هذه الآية، هذا قول السدي^(٣). والرابع: أن اليهود، قالت: يا محمد قد كنتم راضين بديننا، فكيف بكم لو مات بعضكم قبل نزول كتابكم؟! فنزلت هذه الآية. هذا قول عمر مولى غفرة. والخامس: أن قوماً من المنافقين ادّعوا أنهم في إيمانهم مثل المؤمنين، فأظهر الله نفاقهم يوم أحد، وأنزل هذه الآية، هذا قول أبي سليمان الدمشقي. وفي المخاطب بهذه الآية قولان: أحدهما: أنهم الكفار، والمنافقون، وهو قول ابن عباس، والضحاك. والثاني: أنهم المؤمنون، فيكون المعنى: ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمن بالمنافق. قال الثعلبي: وهذا قول أكثر أهل المعاني.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع وأبو عمرو، وابن عامر ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ و﴿يَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ بفتح الياء والتخفيف. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب: «يُمِيزُ» بالتشديد، وكذلك في ﴿يَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ [الأنفال: ٢٧]. قال أبو علي: مزت وميزت لغتان. قال ابن قتيبة: ومعنى يميز: يخلص. فأما الطيب، فهو المؤمن. وفي الخبيث قولان: أحدهما: أنه المنافق، قاله مجاهد، وابن جريج. والثاني: الكافر، قاله قتادة، والسدي. وفي الذي وقع به التمييز بينهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الهجرة والقتال، قاله قتادة، وهو قول من قال: الخبيث: الكافر. والثاني: أنه الجهاد، وهو قول من قال: هو المنافق. قال مجاهد: فميز الله يوم أحد بين المؤمنين والمنافقين، حيث أظهروا النفاق وتخلّفوا. والثالث: أنه جميع الفرائض والتكاليف، فإن المؤمن مستور الحال بالإقرار، فإذا جاءت التكاليف بان أمره، هذا قول ابن كيسان. وفي المخاطب بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ قولان: أحدهما: أنهم كفار قريش، فمعناه: ما كان الله ليبين لكم المؤمن من الكافر، لأنهم طلبوا ذلك، فقالوا: أخبرنا بمن يؤمن ومن لا يؤمن، هذا قول ابن عباس. والثاني: أنه النبي ﷺ، فمعناه: وما كان الله ليطلع محمداً على الغيب، قاله السدي. و«يجتبي» بمعنى يختار، قاله الزجاج وغيره. فمعنى الكلام على القول الأول: أن الله لا يطلع على الغيب أحداً إلا الأنبياء الذين اجتباهم، وعلى القول الثاني: أن الله لا يطلع على الغيب أحداً إلا أنه يجتبي من يشاء فيطلع على ما يشاء.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَبُّهُ يَبْدَأُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٨٠﴾﴾

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص ٧٦ عن الكلبي بدون سند.

(٢) ذكره في «أسباب النزول» للواحدي ص ٧٥ عن السدي بدون سند.

(٣) الغير في «أسباب النزول» للواحدي ص ٧٦.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْصِرُ الَّذِينَ يُبْخَلُونَ يِمَّا ءَاتَتْهُمْ اَللّٰهُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في الذين يبخلون أن يودوا زكاة أموالهم، وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة، وابن عباس في رواية أبي صالح، والشعبي، ومجاهد، وفي رواية السدي في آخرين. والثاني: أنها في الأجار الذين كتبوا صفة النبي ﷺ، ونبوته، رواه عطية عن ابن عباس، وابن جريج عن مجاهد، واختاره الزجاج. قال الفراء: ومعنى الكلام: لا يحسن الباخلون البخل هو خيراً لهم، فاكفى بذكر «يبخلون» من البخل، كما تقول: قدم فلان، فسررت به، أي: سررت بقدمه. قال الشاعر:

إِذَا نُهِيَ السَّفِيهُ جَرَىٰ إِلَيْهِ
وَخَالَفَ وَالسَّفِيهِ إِلَىٰ خِلَافٍ^(١)

يريد: جرى إلى السفه. والذي آتاهم الله على قول من قال: البخل بالزكاة: هو المال، وعلى قول من قال: البخل بذكر صفة النبي ﷺ هو العلم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ﴾ إشارة إلى البخل وليس مذكوراً، ولكنه مدلول عليه ب«يبخلون» وفي معنى تطويقهم به أربعة أقوال: أحدها: أنه يجعل كالحية يطوق بها الإنسان، روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا مثَّل له يوم القيامة شجاع أقرع يفر منه، وهو يتبعه حتى يطوق في عنقه» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿سَيَطُورُونَ مَا يُبْخَلُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٢). وهذا مذهب ابن مسعود، ومقاتل. والثاني: أنه يجعل طوقاً من نار، رواه منصور عن مجاهد، وإبراهيم. والثالث: أن معنى تطويقهم به: تكليفهم أن يتأوا به، رواه ابن أبي نجيح، عن مجاهد. والرابع: أن معناه: يلزم أعناقهم إثم، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿زَلَّةٌ يَبْرُثُ اَلسَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يموت أهل السموات وأهل الأرض، ويبقى رب العالمين. قال الزجاج: حوَّط القوم بما يعقلون، لأنهم يجعلون ما رجع إلى الإنسان ميراثاً إذا كان ملكاً له، وقال ابن الأنباري: معنى الميراث: انفراد الرجل بما كان لا يتفرد به، فلما مات الخلق، وانفرد عزَّ وجل، صار ذلك له وراثته.

قوله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ يَمَّا قَمَلُونَ خَيْرٌ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «يعملون» بالياء إتباعاً لقوله تعالى: ﴿سَيَطُورُونَ﴾ وقرأ الباقون بالناء، لأن قلبه ﴿وَإِنْ تَوَيْسُوا وَكَتَبُوا﴾.

﴿لَقَدْ سَبَّحَ اَللّٰهُ قَوْلَ اَلَّذِيْنَ قَالُوْا اِنَّ اَللّٰهَ فَعِيْرٌ وَخَرُّنَا اَنْفِيْكَ سَكَتُكُنَّ مَا قَالُوْا وَقَتْلَهُمُ الْاَنْبِيَاةَ بِعَبْرٍ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوْغُوْا عَذَابَ الْحَرِيْقِ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَبَّحَ اَللّٰهُ قَوْلَ اَلَّذِيْنَ قَالُوْا اِنَّ اَللّٰهَ فَعِيْرٌ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن أبا بكر الصديق ﷺ دخل بيت مدراس اليهود، فوجدهم قد اجتمعوا على رجل منهم، اسمه فنحاص، فقال له أبو بكر: اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله. فقال: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عطا ما استقرض منا. فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والله لولا العهد الذي بيننا لضربت عنقك. فذهب فنحاص يشكو إلى النبي ﷺ، وأخبره أبو بكر بما قال، فوجد فنحاص، فنزلت هذه الآية، ونزل فيما بلغ من أبي بكر من الغضب ﴿وَالسَّمْعُ مِنْ اَلَّذِيْنَ اُوْتُوْا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ اَلَّذِيْنَ اَشْرَكُوْا اَدْنٰى كَثِيْرًا﴾^(٤)

(١) أنشده الفراء في «معاني القرآن» ٢٤٨/١، وثعلب في «مجالسه» ٦٠/١، و«أمالي الشجري» ٦٨/١، والبغداد في «الخرزاق» ٣٨٣/٢، ولم ينسبه إلى قائل. وقوله: إذا نهي، متعلق بالنهي عام محذوف، أي: من أي شيء كان. وقوله: وخالف: مفعوله محذوف؛ أي: خالف زاجره. وقوله: والسفيه إلى خلاف: جملة تذييلية، أي: شأن السفيه الميل إلى مخالفة الناصح.

(٢) أخرجه أحمد في «المستند» رقم ٣٥٧٧، والترمذي، وابن خزيمة، وابن ماجه ٥٦٧/١، ولفظه: «ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله، إلا مثَّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع حتى يطوق عنقه»، ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَخْصِرُ الَّذِينَ يُبْخَلُونَ يِمَّا ءَاتَتْهُمْ اَللّٰهُ مِنْ قَضِيْبٍ﴾ الآية. وقال الترمذي: حسن صحيح. وروى البخاري ج ٢٧٣/٨، ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يود زكاته، مثل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه - يعني شديقيه - يقول: أنا مالك، أنا كنزك»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَخْصِرُ الَّذِينَ يُبْخَلُونَ يِمَّا ءَاتَتْهُمْ اَللّٰهُ مِنْ قَضِيْبٍ﴾ إلى آخر الآية. الشجاع: الحية الذكر، وهو ضرب من الحيات حبيث مارد. وأقرع: صفة من صفات الحياة الخبيثة، يزعمون أنه إذا طال عمر الحية، وكثر سمه، جمعه في رأسه حتى تمتع منه فروة رأسه.

عمران: ١٨٦] هذا قول ابن عباس^(١) وإلى نحوه ذهب مجاهد، وعكرمة، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنه لما نزل قوله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: إنما يستقرض الفقير من الغني، فنزلت هذه الآية، هذا قول الحسن، وقتادة. وفي الذين قالوا: إن الله فقير، أربعة أقوال: أحدها: أنه فنحاص بن عازوراء اليهودي، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: حبي بن أخطب، قاله الحسن وقتادة. والثالث: أن جماعة من اليهود قالوه. قال مجاهد: صلَّ أبو بكر رجلاً من الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَاقِرٌ وَعِنْدَهُ أُغْنِيَةٌ﴾ لم يستقرضنا وهو غني؟^(٢). والرابع: أنه النبَّاش بن عمرو اليهودي، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ قرأ حمزة وحده: «سَيَكْتُب» بياء مضمومة و«قَتْلَهُمْ» بالرفع و«يقول» بالياء، وقرأ الباقون: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ بالنون، و«قتلهم» بالنصب و«نقول» بالنون، وقرأ ابن مسعود و«يقال»، وقرأ الأعمش، وطلحة و«يقول». وفي معنى ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ قولان: أحدهما: سنحفظ عليهم ما قالوا، قاله ابن عباس. والثاني: سنأمر الحفظة بكتابه، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ أي: ونكتب ذلك. فإن قيل: هذا القائل لم يقتل نبياً قط، فالجواب أنه رضي بفعل متقدمه لذلك، كما بينا في قوله تعالى: ﴿وَيَنْظُرُونَ النَّبِيَّ يَبْتَرِ الْهَقَى﴾. قال الزجاج: ومعنى ﴿عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ عذاب محرق، أي: عذاب بالنار، لأن العذاب قد يكون بغير النار.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَبِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب، والذي قدمت أيديهم: الكفر والخطايا.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا نُوَدِّعُ إِلَّا نُؤْتِيكَ رَسُولًا حَتَّىٰ يَأْتِينَا يُقْرَأُونَ تَأْكُلُهُ الْكَاذِبُ فَلَّ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ الْبَلِيغِينَ وَاللَّذِي قَلْتُمْ قَلِيلًا فَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا﴾ قال ابن عباس: نزلت في كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحبي بن أخطب، وجماعة من اليهود، أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: إن الله عهد إلينا، أي: أمرنا في التوراة: أن لا نؤمن لرسول، أي: لا نصدق رسولا يزعم أنه رسول، حتى يأتينا بقران تأكله النار^(٣). قال ابن قتيبة: والقربان: ما تُقرب به إلى الله تعالى من ذبح وغيره. وإنما طلبوا القربان، لأنه كان من سنن الأنبياء المتقدمين، وكان نزول النار علامة القبول. قال ابن عباس: كان الرجل يتصدق، فإذا قبلت منه، نزلت نار من السماء، فأكلته، وكانت ناراً لها دوي، وحفيف. وقال عطاء: كان بنو إسرائيل يذبحون لله، فيأخذون أطياب اللحم، فيضعونها في وسط البيت تحت السماء، فيقوم النبي في البيت، ويناجي ربه، فتتزل نار، فتأخذ ذلك القربان، فيخر النبي ساجداً، فيوحي الله إليه ما يشاء. قال ابن عباس: قل يا محمد لليهود ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ الْبَلِيغِينَ﴾ أي: بالآيات، ﴿وَالَّذِي﴾ سألتهم من القربان.

﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءَهُ الْبَلِيغِينَ وَالرُّبُرُ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ معناه: لست بأول رسول كذب. قال أبو علي: وقرأ ابن عامر وحده «بالبينات وبالزبير» بزيادة باء، وكذلك في مصاحف أهل الشام، ووجهه أن إعادة الباء ضرب من التأكيد، ووجه قراءة الجمهور أن الواو قد أغنت عن تكرير العامل، تقول: مررت بزيد وعمرو، فتستغني عن تكرير الباء. وقال الزجاج: والرُّبُرُ: جمع زبور، والزبور: كل كتاب ذي حكمة.

قوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ قال أبو سليمان: يعني به الكتب النيرة بالبراهين والحجج.

(١) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس، ورجال إسناده ثقات خلا محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت الأنصاري، فإنه مجهول تفرد عن ابن إسحاق كما قال الحافظ في «التقريب» وقال الشيخ أحمد شاكر في «عمدة التفسير» ٨٢/٣. وإسناده جيد أو صحيح.

(٢) رواه عبد بن حميد، وابن جرير ٤٤٣/٧، وابن المنذر عن مجاهد. (٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص: ٧٧، عن الكلبي.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن دُحِّنَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله: ﴿قُلْ بِرَبِّكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِرَ بِكُمْ﴾ (السجدة: ١١). قالوا: يا رسول الله إنما نزل في بني آدم، فأين ذكر الموت في الجن، والطير، والأنعام، فنزلت هذه الآية. وفي ذكر الموت تهديد للمكذبين بالمصير، وتزهيد في الدنيا، وتنبية على اغتنام الأجل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بشارة للمحسنين، وتهديد للمسيئين.

قوله تعالى: ﴿فَمَن دُحِّنَ﴾ قال ابن قتيبة: سُجِّي وأبعد. ﴿فَقَدْ فَازَ﴾^(١) قال الزجاج: تأويل فاز: تباعد عن المكروه، ولقي ما يحب، يقال لمن نجا من هلكة، ولمن لقي ما يغتبط به: قد فاز.

قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ يريد أن العيش فيها يغر الإنسان بما يمتنيه من طول البقاء، وسيقطع عن قريب. قال سعيد بن جبیر: هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، فأما من يشتغل بطلب الآخرة، فهي له متاع بلاغ إلى ما هو خير منها.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصَبَرُوا وَلَتَسْفُحُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَذَابِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ مرَّ بمجلس فيه عبد الله بن أبي، وعبد الله بن رواحة، فغشي المجلس عجاجة الدابة، فخرم ابن أبي أنفه بردائه، وقال: لا تغربوا علينا، فنزل رسول الله ﷺ، ثم دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال ابن أبي: إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقاً فلا تؤذنا في مجالسنا. وقال ابن رواحة: اغشنا به في مجالسنا يا رسول الله، فإننا نحب ذلك، فاستبَّ المسلمون، والمشركون، واليهود، فنزلت هذه الآية، رواه عروة عن أسامة بن زيد^(٢). والثاني: أن المشركين واليهود كانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فنزلت هذه الآية، قاله كعب بن مالك الأنصاري^(٣). والثالث: أنها نزلت فيما جرى

(١) روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقربوا إن شئتم: ﴿فَمَن دُحِّنَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾»، ورواه أحمد في «المسنند»، والترمذي، والحاكم في «المستدرک» وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وروى الإمام أحمد في «المسنند» رقم ٦٨٠٧، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه». ورواه الإمام مسلم بأطول منه.

(٢) أخرجه البخاري بأطول منه ج ٨/ ١٧٣، ولفظه: عن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد ؓ أخبره أن رسول الله ﷺ ركب على حمار على طيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد وراه، يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر. قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغربوا علينا. فسلم رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف، فنزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن. فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله فافشنا به في مجالسنا، فإننا نحب ذلك، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى كادوا يتناورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا. ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عباد فقال له النبي ﷺ: «يا سعد، ألم تسمع ما قال أبو حبيب - يريد عبد الله بن أبي - قال: كلما وكذا». قال سعد بن عباد: يا رسول الله، اعف عنه، واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلع أهل هذه البحرة على أن يتوجهوا، فيمصروه بالمصائب، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. فمعا عنه النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ وأصحابه يعمرون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون عن الأذى. قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ يُرِّبُوْكُمْ وَيُرِي بِسِيْرِكُمْ كُنُوزًا حَسَنًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ فِرًا بِيْنَ مَا بَيْنَ لَهُمْ الْحَرْبُ فَاسْفُحُوا وَاسْمَعُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ وكان النبي ﷺ يتناول العفر وما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا، فقتل الله به صناديد كفار قريش. قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فإيما الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا. قوله: يتناورون، أي: يتواثبون. والبحرة: وفي رواية «البحيرة» هذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد، والمراد به هنا: المدينة النبوية، ونقل ياقوت أن «البحرة» من أسماء المدينة المنورة. شرق: غص، وهو كناية عن الحسد.

(٣) رواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، ولفظه: أنها نزلت في كعب بن الأشرف فيما كان يهجو به النبي ﷺ من الشعر.

بين أبي بكر الصديق، وبين فنحاص اليهودي، وقد سبق ذكره عن ابن عباس^(١). والرابع: أنها نزلت في النبي ﷺ، وأبي بكر الصديق، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره مقاتل. وقال عكرمة: نزلت في النبي ﷺ، وأبي بكر الصديق، وفنحاص اليهودي. والخامس: أنها نزلت في كعب بن الأشرف، كان يحرض المشركين على رسول الله ﷺ وأصحابه في شعره، وهذا مذهب الزهري. قال الزجاج: ومعنى «التبلون» لتخبرن، أي: توقع عليكم المحن، فيعلم المؤمن حقاً من غيره. و«النون» دخلت مؤكدة مع لام القسم، وضمت الواو لسكونها، وسكون النون. وفي البلوى في الأموال قولان: أحدهما: ذهابها وتقصانها. والثاني: ما فرض فيها من الحقوق. وفي البلوى في الأنفس أربعة أقوال: أحدها: المصائب، والقتل. والثاني: ما فرض من العبادات. والثالث: الأمراض. والرابع: المصيبة بالأقارب، والعشائر. وقال عطاء: هم المهاجرون أخذ المشركون أموالهم، وباعوا رباعهم، وعذبوهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَسْتُمْ مِمنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى، والذين أشركوا: مشركو العرب ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا﴾ على الأذى ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بمجانبة معاصيه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: ما يعزم عليه، لظهور رشده.

فصل

والجمهور على إحكام هذه الآية، وقد ذهب قوم إلى أن الصبر المذكور منسوخ بآية السيف.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَفُوا بِهِ مِنَّا قَلِيلًا فَمَا يَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، وابن جبير، والسدي، ومقاتل. فعلى هذا، الكتاب: التوراة. والثاني: أنهم اليهود، والنصارى، والكتاب: التوراة والإنجيل. والثالث: أنهم جميع العلماء، فيكون الكتاب اسم جنس.

قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر، والمفضل عن عاصم، وزيد عن يعقوب «لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ» بآلاء فيهما، وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم بالياء فيهما. وفي هاء الكناية في «لتبينه» و«تكتُمونه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى النبي محمد ﷺ، وهذا قول من قال: هم اليهود. والثاني: أنها ترجع إلى الكتاب، قاله الحسن، وقتادة، وهو أصح، لأن الكتاب أقرب المذكورين، ولأن من ضرورة تبينهم ما فيه إظهار صفة محمد ﷺ، وهذا قول من ذهب إلى أنه عام في كل كتاب. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: ما أخذ الله على أهل الجاهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا.

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ قال الزجاج: أي: رموا به، يقال للذي يطرح الشيء ولا يعبا به: قد جعلت هذا الأمر يظهر. قال الفرزدق:

تميم بن قيس لا تكونن حاجتي

بظهر ولا يعيا علي جوابها^(٢)

معناه: لا تكونن حاجتي مهُمَّلة عندك، مطرحة. وفي هاء «فنبذوه» قولان: أحدهما: أنها تعود إلى الميثاق. والثاني: إلى الكتاب^(٣).

(١) قال الحافظ في «الفتح» ج ١٧٣/٨: رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر بإسناد حسن عن ابن عباس.

(٢) «ديوانه» ٨٦/١، و«اللسان» ٥٢٢/٤، و«الأغاني»، وروايته في الديوان.

لديك ولا يعيا علي جوابها

تميم بن زيد لا تهونن حاجتي

(٣) قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينهوا بذكره في الناس ليكونوا على أمة من أمرة، فإذا أرسله الله تعالى تابعوه، فكتُموا ذلك، وتعرضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبست الصفة صفتهم، وبست البيعة بيعتهم. وفي هذا تذكير للعلماء أن يسلكوا مسلكتهم، فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكتهم. فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح، ولا يكتُموا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار». وهذا الحديث الذي =

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَوُوا بِهِ﴾ يعني: استبدلوا بما أخذ الله عليهم القيام به، ووعدهم عليه الجنة ﴿كُنَّا قَلِيلًا﴾ أي: عرضاً يسيراً من الدنيا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرُحُونَ بِمَا آتَاؤُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُغْمَدُوا بِمَا لَمْ يُفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَنَّادٍ مِنَ الْعَذَابِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرُحُونَ بِمَا آتَاؤُهُمْ﴾ وقرا أهل الكوفة: «لا تحسبن» البناء. وفي سبب نزولها ثمانية أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ، سأل اليهود عن شيء، فكتموه، وأخبروه بغيره، وأروه أنهم قد أخبروه به، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما آتوا من كتمانهم إياه، فنزلت هذه الآية. والثاني: أنها نزلت في قوم من اليهود، فرحوا بما يصيبون من الدنيا، وأحبوا أن يقول الناس: إنهم علماء، وهذا القول، والذي قبله عن ابن عباس. والثالث: أن اليهود قالوا: نحن على دين إبراهيم، وكتموا ذكر محمد ﷺ، فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبير^(١). والرابع: أن يهود المدينة كتبت إلى يهود العراق واليمن، ومن بلغهم كتابهم من اليهود في الأرض كلها: أن محمداً ليس بنبي، فائتوا على دينكم، فاجتمعت كلمتهم على الكفر به، وفرحوا بذلك، وقالوا: نحن أهل الصوم والصلاة، وأولياء الله، فنزلت هذه الآية، هذا قول الضحاك، والسدي. والخامس: أن يهود خيبر أتوا النبي ﷺ وأصحابه، فقالوا: نحن على رأيكم، ونحن لكم رده، وهم مستمسكون بضلاتهم، فأرادوا أن يحمدهم نبي الله بما لم يفعلوا، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة. والسادس: أن ناساً من اليهود جهزوا جيشاً إلى النبي ﷺ، واتفقوا عليهم، فنزلت هذه الآية، قاله إبراهيم النخعي. والسابع: أن قوماً من أهل الكتاب دخلوا على النبي ﷺ، ثم خرجوا من عنده فذكروا للمسلمين أنهم قد أخبروا بأشياء قد عرفوها، فحمدوهم، وأبطنوا خلاف ما أظهروا، فنزلت هذه الآية، ذكره الزجاج. والثامن: أن رجلاً من المنافقين كانوا يتخلفون عن الغزوة مع النبي ﷺ، فإذا قدم، اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمداً بما لم يفعلوا، فنزلت هذه الآية، قاله أبو سعيد الخدري^(٢)، وهذا القول يدل على أنها نزلت في المنافقين، وما قبله من الأقوال يدل على أنها في اليهود. وفي الذي أتوا ثمانية أقوال: أحدها: أنه كتمانهم ما عرفوا من الحق. والثاني: تبديلهم التوراة. والثالث: إيثازهم الفاني من الدنيا على الثواب. والرابع: إضلالهم الناس. والخامس: اجتماعهم على تكذيب النبي. والسادس: نفاقهم بإظهار ما في قلوبهم ضده. والسابع: اتفاقهم على محاربة النبي ﷺ، وهذه أقوال من قال: هم اليهود. والثامن: تخلفهم في الغزوات، وهذا قول من قال: هم المنافقون. وفي قوله تعالى: ﴿وَيَحْبِبُونَ أَن يُغْمَدُوا بِمَا لَمْ يُفْعَلُوا﴾^(٣) ستة أقوال: أحدها: أحبوا أن يحمداً على إجابة النبي ﷺ، عن شيء سألهم عنه وما أجابوه. والثاني: أحبوا أن يقول الناس: هم علماء، وليسوا كذلك. والثالث: أحبوا أن يحمداً بما لم يفعلوا من الصلاة، والصيام. وهذه الأقوال الثلاثة عن ابن عباس. والرابع: أحبوا أن يحمداً على قولهم: نحن على دين إبراهيم، وليسوا عليه، قاله سعيد بن

استشهد به ابن كثير أخرجه أحمد وأبو داود، وابن ماجه، وأبو يعلى، والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، والبيهقي من حديث أبي هريرة به مرفوعاً، وهو عند الحاكم أيضاً وغيره عن ابن عمرو، وعند ابن ماجه عن أنس وأبي سعيد، وعند الطبراني من حديث ابن عباس وابن عمر وابن مسعود، وهو حديث صحيح.

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) رواه البخاري ج ٨/ ١٧٥، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان»، ونقله عند البخاري: «عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزوة، وتخلفوا عنه وفرحوا بمقدمهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمداً بما لم يفعلوا فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرُحُونَ بِمَا آتَاؤُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُغْمَدُوا بِمَا لَمْ يُفْعَلُوا﴾».

(٣) روى الإمام أحمد عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف: أن مروان قال: اذهب يا رافع - ليوابه - إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى، وأحب أن يحمداً بما لم يفعل معذباً، لتعذبن أجمعين؟ فقال ابن عباس: ما لكم بهذه؟ إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَرَأَى أَنَّ اللَّهَ يَبْغِي الْوَيْلَ لِقَوْمِ الْوَيْلِ أَوْ رَأَى الْوَيْلَ لِقَوْمِ الْوَيْلِ﴾ الآية، وتلا ابن عباس: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرُحُونَ بِمَا آتَاؤُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُغْمَدُوا بِمَا لَمْ يُفْعَلُوا﴾ وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما آتوا من كتمانهم ما سألهم عنه. وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، والحاكم، وابن مردويه.

جبير. والخامس: أحبوا أن يحمدوا على قولهم: إنا راضون بما جاء به النبي، وليسوا كذلك، قاله قتادة. وهذه أقوال من قال: هم اليهود. والسادس: أنهم كانوا يحلفون للمسلمين إذ نصرُوا: إنا قد سررنا بنصركم، وليسوا كذلك، قاله أبو سعيد الخدري، وهو قول من قال: هم المنافقون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «فلا يحسبهم»، بالياء وضم الباء. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: بالياء، وفتح الباء. قال الزجاج: إنما كررت «تحسبهم» لطول القصة، والعرب تعيد إذا طالت القصة «حسبت» وما أشبهها، إعلماً أن الذي يجري متصل بالأول، وتوكيداً له، فتقول: لا تظننَّ زيداً إذا جاء وكلمك بكذا وكذا، فلا تظنَّ صادقاً.

قوله تعالى: ﴿بِمَنَازِرٍ﴾ قال ابن زيد، وابن قتيبة: بمنجاة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه تكذيب القائلين: بأنه فقير. وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تهديد لهم، أي: لو شئت لعجلت عذابهم.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن قريشاً قالوا لليهود: ما الذي جاءكم به موسى؟ قالوا: عصاه ويده البيضاء. وقالوا للنصارى: ما الذي جاءكم به عيسى؟ قالوا: كان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى. فأتوا النبي ﷺ، وقالوا: ادع ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، فنزلت هذه الآية، رواه ابن جبير عن ابن عباس^(٢). والثاني: أن أهل مكة سألوه أن يأتيهم بآية، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهُ وَجْدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]. قالت قريش: قد سوى بين آل هنتا، اثنتا بآية، فنزلت هذه الآية، قاله أبو الضحى، واسمه: مسلم بن صبيح. فأما تفسير الآية فقد سبق.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ضَحِكًا فَإِنَّا عَذَابُ النَّارِ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ في هذا الذكر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الذكر في الصلاة، يصلي قائماً، فإن لم يستطع، فقاعداً، فإن لم يستطع، فعلى جنب^(٣)، هذا قول علي، وابن مسعود، وابن عباس، وقاتدة. والثاني: أنه الذكر في الصلاة وغيرها، وهو قول طائفة من المفسرين. والثالث: أنه الخوف، فالمعنى: يخافون الله قياماً في تصرفهم، وقعوداً في دعوتهم، وعلى جنوبهم في منامهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن فارس: التذكر: تردد القلب في الشيء. قال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكير، خير من قيام ليلة، والقلب ساه.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ قال الزجاج: معناه: يقولون: ربنا ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾، أي: خلقته دليلاً عليك، وعلى صدق ما أتت به أنبياءك. ومعنى ﴿سُبْحَانَكَ﴾: براءة لك من السوء، وتنزيهاً لك أن تكون خلقتكما باطلاً، ﴿فَقِيْنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، فقد صدقنا أن لك جنةً وناراً.

(١) ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر (آل عمران) إذا قام الليل لتعجده، فروى البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن ابن عباس، قال: بت عند خالتي يمومة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد، فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ثم قام فتوضأ واستن، فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن ببلان فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح.

(٢) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، ورجاله ثقات إلا الحماني فإنه تكلم فيه. قال الحافظ: وقد خالفه الحسن بن موسى، فرواه عن يعقوب بن جعفر عن سعيد مرسلًا وهو أشبه، وعلى تقدير كونه محفوظاً وصله، فيه إشكال من جهة أن هذه السورة مدنية، وقريش من أهل مكة، ويحتمل أن يكون سؤالهم لذلك بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ولا سيما في زمن الهدنة.

(٣) جاء في «صحيح البخاري» عن عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب».

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ قال الزجاج: المخزى في اللغة: المذل المحقور بأمرٍ قد لزمه، ويحجة. يقال: أخزيت، أي: ألزمته حجةً أدلته معها. وفيمن يتعلق به هذا الخزي قولان: أحدهما: أنه يتعلق بمن يدخلها مخلصاً، قاله أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، وابن جبير، وقنادة، وابن جريج، ومقاتل. والثاني: أنه يتعلق بكل داخل إليها، وهذا المعنى مروى عن جابر بن عبد الله، واختاره ابن جرير الطبري، وأبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ قال ابن عباس: وما للمشركين من مانع يمنعهم عذاب الله تعالى. ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ في المنادي قولان: أحدهما: أنه النبي ﷺ، قاله ابن عباس، وابن جريج، وابن زيد، ومقاتل. والثاني: أنه القرآن، قاله محمد بن كعب القرظي، واختاره ابن جرير الطبري. قوله تعالى: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: ينادي إلى الإيمان، ومثله: ﴿الَّذِي هَدَيْتَنَا لَهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: ٥]، [يريد: هدانا إلى هذا، وأوحى إليها] قاله الفراء. والثاني: بأنه مقدم ومؤخر، والمعنى: سمعنا منادياً للإيمان يتادي، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ قال مقاتل: امح عنا خطايانا. وقال غيره: غطها عنا، وقيل: إنما جمع بين غفران الذنوب، وتكفير السيئات، لأن الغفران بمجرد الفضل، والتكفير بفعل الخير ﴿وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي «الأبرار» و«الأشرار» و«ذات قرار» وما كان مثله بين الفتح والكسر، وقرأ ابن كثير، وعاصم بالفتح: ومعنى: ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ فيهم، قال ابن عباس: وهم الأنبياء والصالحون.

﴿رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا نَحْزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ قال ابن عباس: يعنون: الجنة ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾ أي: على ألسنتهم. فإن قيل: ما وجه هذه المسألة والله لا يخلف الميعاد؟ فعه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه خرج مخرج المسألة، ومعناه الخبر، تقديره: فأمتنا، فاغفر لنا لتوطيننا ما وعدتنا. والثاني: أنه سؤال له، أن يجعلهم ممن آتاه ما وعده، لا أنهم استحقوا ذلك، إذ لو كانوا قد قطعوا أنهم من الأبرار، لكانت تزكية لأنفسهم. والثالث: أنه سؤال لتعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء، لأنه وعدهم نصراً غير مؤقت، فرغبوا في تعجيله، ذكر هذه الأجوبة ابن جرير، وقال: أولى الأقوال بالصواب، أن هذه صفة المهاجرين، رغبوا في تعجيل النصر على أعدائهم. فكأنهم قال: لا صبر لنا على حلمك عن الأعداء، فعجل خزيهم، وظفرنا بهم.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَابِدٍ مِّنْكُمْ فَمَن ذَكَرَ أَنِّي أَنْتُ بِمَعْصُومٍ فَلَذَيْنَ هَاجَرُوا وَأُخْرَجُوا مِن دِينِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ روي عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، لا أسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فنزلت هذه الآية^(١)، واستجاب: بمعنى أجاب. والمعنى: أجابهم بأن قال لهم: إنني لا أضيع عمل عامل منكم، ذكراً كان أو أنثى. وفي معنى قوله تعالى: ﴿بِمَعْصُومٍ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: بمعصوم من بعض في الدين، والثبيرة والموالاة. والثاني: حكم جميعكم في الثواب واحد، لأن الذكور من الإناث، والإناث من الذكور. والثالث: كلكم من آدم وحواء.

قوله تعالى: ﴿فَلَذَيْنَ هَاجَرُوا﴾ أي: تركوا الأوطان والأهل والعشائر ﴿وَأُخْرَجُوا مِن دِينِهِمْ﴾ يعني: المؤمنين الذين

(١) رواه ابن جرير الطبري ١٩٥/٧، والحاكم في «المستدرک» ٣٠٠/٢، وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

أخرجوا من مكة بأذى المشركين، فهاجروا، ﴿وَقَاتِلُوا﴾ المشركين ﴿وَقَاتِلُوا﴾. قرأ ابن كثير، وابن عامر: «وقاتلوا وقتلوا» مشددة التاء. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا﴾ خفيفة. وقرأ حمزة، والكسائي: «وقتلوا وقتلوا». قال أبو علي: تقديم «قتلوا» جائز، لأن المعطوف بالواو يجوز أن يكون أولاً في المعنى، مؤخراً في اللفظ.

قوله تعالى: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: هو مصدرٌ مؤكد لما قبله، لأن معنى ﴿وَلَا تُؤْتِيهِمْ جَنَّتِي﴾: ﴿لَا يَعْزُتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلْدِ﴾ ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْمُهَادِ﴾ ﴿١٩٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلْدِ﴾ ﴿١٩٧﴾ ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْمُهَادِ﴾ ﴿١٩٧﴾ اختلَفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في اليهود، ثم في ذلك قولان: أحدهما: أن اليهود كانوا يضربون في الأرض، فيصيبون الأموال، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أن النبي ﷺ، أراد أن يستسلم من بعضهم شعيراً، فأبى إلا على رهن، فقال النبي ﷺ: ﴿لَوْ أَعْطَانِي لِأُوفِيْتَهُ، إِنِّي لِأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي الْأَرْضِ﴾. فنزلت، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والقول الثاني: أنها نزلت في مشركي العرب كانوا في رخاء، فقال بعض المؤمنين: قد أهلكنا الجهد، وأعداء الله فيما ترون، فنزلت هذه الآية، هذا قول مقاتل. قال قتادة: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره. وقال غيره: إنما خاطبه تأديباً وتحذيراً، وإن كان لا يغتر. وفي معنى «تقلبهم» ثلاثة أقوال: أحدها: تصرفهم في التجارات، قاله ابن عباس، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: تقلب ليلهم ونهارهم، وما يجري عليهم من النعم، قاله عكرمة، ومقاتل. والثالث: تقلبهم غير مأخوذٍ بذنوبهم، ذكره بعض المفسرين. قال الزجاج: ذلك الكسب والربح متاع قليل. وقال ابن عباس: منفعة يسيرة في الدنيا. والمهاد: الفراش.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَمْ يَكُنَّ لِيَمْرَأَةٍ مِنْ تَحْتِهَا أَلْفُ نَهْرٍ خَلِيلِينَ﴾ ﴿١٩٨﴾ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَزْوَاجِ﴾ ﴿١٩٨﴾ قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ قرأ أبو جعفر: «لكنن» بالتشديد ها هنا، وفي (الزمر) قال مقاتل: وحدوا. قال ابن عباس: «النزل» الثواب. قال ابن فارس: النُزُل: ما يهيا للنزول، والنزِيل: الضيف.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشْيَتِ اللَّهِ لَا يَشْرُونَ بِعَاثَتِ اللَّهِ سَكَنًا قَلِيلًا أَوْ لَيْتًا لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿١٩٩﴾ ﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿١٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ اختلَفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في النجاشي، لأنه لما مات صلى عليه النبي ﷺ، فقال قائل: يصلي على هذا العلج النصراني، وهو في أرضه؟! فنزلت هذه الآية، هذا قول جابر بن عبد الله (٢)، وابن عباس، وأنس. وقال الحسن، وقاتادة: فيه وفي أصحابه. والثاني: أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب من اليهود والنصارى، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد.

(١) روى ابن جرير ٤٩١/٧ بإسناده صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ثلثة تدخل الجنة لقرءاه المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، إذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كان لرجل منهم حلة إلى السلطان، لم تقض حتى يموت وهي في صدره، وإن الله يدع يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول: أي عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وقتلوا، وأودوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي، ادخلوا الجنة، فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة، فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبح الليل والنهار، ونقدس لك، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب جل ثناؤه: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأودوا في سبيلي، فتدخل الملائكة عليهم من كل باب ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ يَا سَيِّدِي﴾ ﴿فِيمَ عَمِنَ الْكُفْرُ﴾ [الرعد: ٢٤]. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٧١/٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وواقفه الذهبي. ورواه أحمد ١٠٣/١٠، و١٠٣، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢٥٩/١٠ من روايته «المسنده». وذكر في الأولى أنه رواه أيضاً البزار، والطبراني، ورجالهم ثقات، وذكر في الثانية أنه رواه أيضاً الطبراني، ورجاله الطبراني رجال الصحيح، غير أبي عشانة، وهو ثقة.

(٢) رواه ابن جرير ٤٩٧/٧ وإسناده ضعيف، وروى ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أنس بن مالك، قال: لما توفي النجاشي قال رسول الله ﷺ: «استغفروا لأخيكم». فقال بعض الناس: يا مرنان أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة؟! فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشْيَتِ اللَّهِ﴾ الآية... وروى البزار، والطبراني في «الأوسط» ورجال الطبراني ثقات كما قال الهيثمي ٣٨/٣: أن النبي ﷺ صلى على النجاشي حين نعي، فقيل: يا رسول الله، تصلي على عبد حبشي؟! فانزل الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية. وصلاة النبي ﷺ على النجاشي صلاة الجنازة الغائبة، ثابتة صحيحة، رواها الشيخان من حديث جابر، ومن حديث أبي هريرة.

والثالث: في عبد الله بن سلام، وأصحابه، قاله ابن جريج، وابن زيد، ومقاتل. والرابع: في أربعين من أهل تجران، وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى، فأمنوا بالنبي ﷺ، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: كتابهم. والخاشع: الذليل. ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَائِدَتِ اللَّهِ تَمَكُّنًا قَلِيلًا﴾ أي: عرضاً من الدنيا كما فعل رؤساء اليهود، وقد سلف بيان سرعة الحساب.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَكُمْ يُفْلِحَ كِتَابٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: نزلت في انتظار الصلاة بعد الصلاة^(١)، وليس يومئذ غزوة يرابط. وفي الذي أمروا بالصبر عليه خمسة أقوال: أحدها: البلاء والجهاد، قاله ابن عباس. الثاني: الدين، قاله الحسن، والقرظي، والزجاج. والثالث: المصائب، روي عن الحسن أيضاً. والرابع: الفرائض، قاله سعيد بن جبير. والخامس: طاعة الله، قاله قتادة. وفي الذي أمروا بمصابرتهم قولان: أحدهما: العدو، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: الوعد الذي وعدهم الله، قاله عطاء، والقرظي. وفيما أمروا بالمرابطة عليه قولان: أحدهما: الجهاد للأعداء، قاله ابن عباس، والحسن، وفتادة في آخرين. قال ابن قتيبة: وأصل المرابطة والرباط^(٢): أن يربط هؤلاء خيولهم، وهؤلاء خيولهم في الثغر، كلُّ يُعَدُّ لصاحبه. والثاني: أنه الصلاة، أمروا بالمرابطة عليها، قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن، وقد ذكرنا في (البقرة) معنى «العل»، ومعنى «الفلاح».



(١) روى مسلم ٢٠١٩/١، والنسائي ٨٩/١ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة، بعد الصلاة فلكم الرباط، فلكم الرباط، فلكم الرباط».

(٢) وردت أحاديث صحيحة عن الرسول ﷺ في فضل المرابطة، وحفظ ثغور المسلمين، وصيانة البلاد الإسلامية عن دخول الكفار إليها، فروى البخاري ٦٣/٦ عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها». وروى مسلم ١٥٢٠/٣ عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان». وروى الإمام أحمد ٢٠/٦ عن فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر»، ورواه أبو داود ١٤/٣، والترمذي ١٩٥/١، وقال الترمذي: حسن صحيح.

٤ - سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

اختلفوا في نزولها على قولين: أحدهما: أنها مكّية، رواه عطية عن ابن عباس، وهو قول الحسن، ومجاهد، وجابر بن زيد، وقتادة. والثاني: أنها مدنية، رواه عطاء عن ابن عباس، وهو قول مقاتل. وقيل: إنها مدنية، إلا آية نزلت بمكة في عثمان بن طلحة حين أراد النبي ﷺ أن يأخذ منه مفاتيح الكعبة، فبسلّمها إلى العباس، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى الطاعة، قاله ابن عباس. والثاني: بمعنى الخشية. قاله مقاتل. والنفس الواحدة: آدم، وزوجها حواء «مين» في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا﴾ للتبويض في قول الجمهور. وقال ابن بحر: منها، أي: من جنسها^(١). واختلفوا أي وقت خلقت له، على قولين: أحدهما: أنها خلقت بعد دخوله الجنة، قاله ابن مسعود، وابن عباس. والثاني: قبل دخوله الجنة، قاله كعب الأحبار، وهب، وابن إسحاق. قال ابن عباس: لما خلق الله آدم، ألقى عليه النوم، فخلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى^(٢)، فلم تؤذ بشيء، ولو وجد الأذى ما عطف عليها أبداً، فلما استيقظ؛ قيل: يا آدم ما هذه؟ قال: حواء.

قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ قال الفراء: بثّ: نشر، ومن العرب من يقول: أثبت الله الخلق، ويقولون: بثتلك ما في نفسي، وأبثتلك.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والبرجمي، عن أبي بكر، عن عاصم. واليزيدي، وشجاع، والجعفي، وعبد الوارث، عن أبي عمرو: «تساءلون» بالتشديد. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي، وكثير من أصحاب أبي عمرو عنه بالتخفيف.

قال الزجاج: الأصل: تساءلون، فمن قرأ بالتشديد. أدغم التاء في السين، لقرب مكان هذه من هذه، ومن قرأ بالتخفيف، حذف التاء الثانية لاجتماع التائين. وفي معنى «تَسَاءَلُونَ بِهِ» ثلاثة أقوال: أحدها: تتعاطفون به، قاله ابن عباس. والثاني: تتعاقدون، وتتعاهدون به. قاله الضحاك، والربيع. والثالث: تطلبون حقوقكم به، قاله الزجاج. فأما قوله: «والأرحام» فالجمهور على نصب الميم على معنى: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وفسرها على هذا ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسُّدِّي، وابن زيد. وقرأ الحسن، وقتادة، والأعمش، وحزمة بخفض الميم على معنى: تساءلون به وبالأرحام، وفسرها على هذا الحسن، وعطاء، والنخعي. وقال الزجاج: الخفض في «الأرحام» خطأ في العربية لا يجوز إلا في اضطراب الشعر، وخطأ في الدين، لأن النبي ﷺ قال: «لا تحلفوا بأبائكم»^(٣) وذهب إلى نحو هذا الفراء،

(١) في «البحر المحيط» ١٥٤/٣: وقيل: هو على حذف مضاف، التقدير: وخلق من جنسها زوجها، قاله ابن بحر، وأبو مسلم، لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ أَفْسِكُمْ وَأَزْوَاجِكُمْ﴾ و«رَبِّكُمْ وَبَيْنَهُمْ».

(٢) روى البخاري ٢٦١/٦ ومسلم ١٠٩١/٢ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أحوج شيء في الضلع أهلا، فإن نعتت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أحوج، فاستوصوا بالنساء» هذا لفظ البخاري. قال النووي في «شرح مسلم» ٥٧/١٠: وفيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلع آدم.

(٣) روى الإمام مسلم ١٢٦٧/٣ عن عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله»، وكانت قريش تحلف بأبائهم، يقال: «لا تحلفوا بأبائكم» وروى أيضاً عن عبد الله بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلفوا بالطواغي ولا ببائكم» والطواغي: الأصنام، واحدتها: طاغية. وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من حلف بنغير الله فقد أشرك» وفي رواية «فقد كفر» =

وقال ابن الأنباري: إنما أراد حمزة الخبر عن الأمر القديم الذي جرت عاداتهم به، فالمعنى: الذي كنتم تسألون به وبالأرحام في الجاهلية. قال أبو علي: من جر، عطف على الضمير المجرور بالباء، وهو ضعيف في القياس، قليل في الاستعمال، فترك الأخذ به أحسن^(١). فأما الرقيب، فقال ابن عباس، ومجاهد: الرقيب: الحافظ. وقال الخطابي: هو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، وهو في نعوت الأدميين الموكل بحفظ الشيء، المترصد له، المتحرز عن الغفلة فيه، يقال منه: رَقِبْتُ الشيءَ أَرْقِبُهُ رَقِيبَةً^(٢).

﴿وَأَتُوا الْيَتِيمَ أَتْوَاهُ وَلَا تَبَدَّلُوا لَهَيْتِ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِنَّ أَمْوَالَكُمْ لِأَنْتُمْ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتِيمَ أَتْوَاهُ﴾ سبب نزولها: أن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ طلب ماله فمنعه، فخاصمه إلى النبي ﷺ فنزلت، قاله سعيد بن جبير^(٣). والخطاب بقوله: «وأتوا» للأولياء والأوصياء. قال الزجاج: وإنما سماها يتامى بعد البلوغ، بالاسم الذي كان لهم، وقد كان يقال لليتيم ﷻ: يتيم أبي طالب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا لَهَيْتِ بِالطَّيِّبِ﴾ قرأ ابن محيصة: «تبدلوا» بقاء واحدة. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أنه إبدال حقيقة، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه أخذ الجيد، وإعطاء الرديء مكانه، قاله سعيد بن المسيب، والضحاك، والنخعي، والزهرى، والسدي قال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم، ويجعل مكانها المهزولة، ويأخذ الدراهم الجياد، وي طرح مكانها الزيوف. والثاني: أنه الربح على اليتيم، واليتيم غر لا علم له، قاله عطاء. والقول الثاني: أنه ليس بإبدال حقيقة، وإنما هو أخذه مستهلكاً، ثم فيه قولان: أحدهما: أنهم كانوا لا يورثون النساء والصغار، وإنما يأخذ الميراث الأكبر من الرجال، فنصيب الرجل من الميراث طيب، وما أخذه من حق اليتيم خبيث، هذا قول ابن زيد. والثاني: أنه أكل مال اليتيم بدلاً من أكل أموالهم، قاله الزجاج. «وإلى» بمعنى «مع» والحبوب: الإثم. وقرأ الحسن، وقتادة، والنخعي بفتح الحاء. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: حُوب بالضم، وتميم يقولونه بالفتح. قال ابن الأنباري: وقال الفراء: المضموم الاسم، والمفتوح المصدر. قال ابن قتيبة: وفيه ثلاث لغات: حُوب، وحُوب، وحاب.

﴿وَأَنْ حِفْمٌ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْيَتِيمِ فَآتُوا مَا كَانَتْ لَكُمْ مِنَ الْيَسَاةِ سَهْوًا وَأَنْ يَتَزَوَّجُوا مِنْكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آتَى أَلَّا تَتَوَلَّوْا ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ حِفْمٌ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْيَتِيمِ﴾ اختلفوا في تنزيلها وتأويلها على ستة أقوال: أحدها: أن القوم كانوا يتزوجون عدداً كثيراً من النساء في الجاهلية، ولا يتحرجون من ترك العدل بينهن، وكانوا يتحرجون في شأن اليتامى، فقبل لهم بهذه الآية: احذروا من ترك العدل بين النساء، كما تحذرون من تركه في اليتامى، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبير^(٤) والضحاك، وقتادة، والسدي، ومقاتل. والثاني: أن أولياء اليتامى كانوا يتزوجون النساء

= رواه أحمد، والترمذي وقال: حديث حسن، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي.

(١) قال ابن عطية: وهذه القراءة عند رؤساء نحويي البصرة لا تجوز، لأنه لا يجوز عندهم أن يعطف ظاهر على مضمير مخفوض. وانظر «الطبري» ٥١٩/٧ و«القرطبي» ٢/٥ و«البحر المحيط» ١٥٧/٣.

(٢) قال ابن كثير في «الضبير» ٤٤٨/١: وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَبِّيًا﴾ أي: هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم، كما قال: ﴿وَاللَّهُ عَنَّا كَلِيمٌ﴾ وفي الحديث الصحيح: «أهد الله كائنك فراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا إرشاد وأمر بمرآة الرقيب، ولهذا ذكر تعالى: أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة، ليعطف بعضهم على بعض، ويحتشم على ضعفائهم. وقد ثبت في «صحيح مسلم» ٧٠٤/٢ من حديث جرير بن عبد الله الجبلي قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاءه قوم حفاة عراة مجتاهي النمار أو العباء. متقلدي السيوف، عامتهم من مَضْر، بل كلهم من مضر، فتعمر وجه رسول الله ﷺ، لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَ مِنْكُمْ وَرَبُّكُمْ﴾ [النساء: ١] إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَبِّيًا﴾. والآية التي في الحشر: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُنْتُمْ تُفْسِدُونَ مَا فَدَمْتُمْ لِسْرًا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨] تصدق رجل من دينار، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمره. قال: فجاء رجل من الأنصار بعصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت. قال: ثم تابع الناس حتى رأيت كومي من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذقبة. ورواه الإمام أحمد وأصحاب «السنن».

(٣) قال السيوطي في «الدر المنثور» ١١٧/٢: أخرجه ابن أبي حاتم.

(٤) رواه بمعناه عن سعيد بن جبير الطبري ٥٣٦/٧ وإسناده صحيح، ونسبه السيوطي في «الدر» ١١٨/٢ إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

بأموال اليتامى، فلما كثر النساء، مالوا على أموال اليتامى، فقصروا على الأربع حفظاً لأموال اليتامى. وهذا المعنى مروى عن ابن عباس أيضاً، وعكرمة^(١). والثالث: أن معناها: وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا في صدقات اليتامى إذا نكحتموهن، فانكحوا سواهن من الغرائب اللواتي أحلَّ الله لكم، وهذا المعنى مروى عن عائشة^(٢). والرابع: أن معناها: وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا في نكاحهن، وحذرتن سوء الصحبة لهن، وقلة الرغبة فيهن، فانكحوا غيرهن، وهذا المعنى مروى عن عائشة أيضاً، والحسن. والخامس: أنهم كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى، فأبروا بالتحرج من الزنى أيضاً، وندبوا إلى النكاح الحلال، وهذا المعنى مروى عن مجاهد. والسادس: أنهم تخرجوا من نكاح اليتامى، كما تخرجوا من أموالهم، فرخص الله لهم بهذه الآية، وقصرهم على عدل يمكن العدل فيه، فكأنه قال: وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن، فانكحوهن، ولا تزيدوا على أربع لتعدلوا، فإن خفتم أن لا تعدلوا فيهن، فواحدة، وهذا المعنى مروى عن الحسن. قال ابن قتيبة: ومعنى قوله: وإن خفتم، أي: [إن] علمتم أنكم لا تعدلون [بين اليتامى] يقال: أسقط الرجل: إذا عدل [ومنه قول النبي ﷺ] «المقسطون في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة» [ويقال:] قسط الرجل: إذا جار [ومنه قول الله: «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا»]^(٣) وفي معنى العدل في اليتامى قولان: أحدهما: في نكاح اليتامى، والثاني: في أموالهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ أي: ما حل لكم. قال ابن جرير: وأراد بقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾، الفعل دون أعيان النساء، ولذلك قال: «ما» ولم يقل: «من» واختلفوا: هل النكاح من اليتامى، أو من غيرهن؟ على قولين قد سبقا.

قوله تعالى: ﴿مَثَقٌ وَتَلَّتْ وَرَبَّعٌ﴾. قال الزجاج: هو بدل من ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ ومعناه: اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، وإنما خاطب الله العرب بأفصح اللغات، وليس في شأن البلغ أن يعبر في العدد عن التسعة باثنتين، وثلاث، وأربع، لأن التسعة قد وضعت لهذا العدد، فيكون عيباً في الكلام. وقال ابن الأنباري: هذه الواو معناها التفرق، وليست جامعة، فالمعنى: فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى، وانكحوا ثلاث في غير الحال الأولى، وانكحوا رباع في غير الحالين. وقال القاضي أبو يعلى: الواو هاهنا لإباحة أي الأعداد شاء، لا للجمع^(٤)، وهذا العدد إنما هو للأحرار، لا للعبيد، وهو قول أبي حنيفة والشافعي. وقال مالك: هم كالأحرار. ويدل على قولنا: أنه قال: فانكحوا، فهذا منصرف إلى من يملك النكاح، والعبد لا يملك ذلك بنفسه، وقال في سياقها: ﴿فَإِن خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاجِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، والعبد لا ملك له، فلا يباح له الجمع إلا بين اثنتين.

قوله تعالى: ﴿فَإِن خِفْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: علمتم، والثاني: خشيتم.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ قال القاضي أبو يعلى: أراد العدل في القسم بينهن.

(١) رواه ابن جرير ٥٣٥/٧ وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس. ورواه ابن جرير ٥٣٥/٧ عن عكرمة بمعناه. ولفظ الطبري: عن ابن عباس قال: قصر الرجال على أربع من أجل أموال اليتامى.

(٢) روى البخاري ١٧٩/٨ ومسلم ٣٣١٣/٤ عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِن خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فِي الصَّدَقَاتِ﴾ قالت: يا ابن أختي هذه البيعة تكون في حجر وليها، تشركه في ماله، ويعجبها مالها وجمالها، فريد وليها أن يتزوجها بنير أن يقسط في صداقتها، يعطيها مثل ما يعطيها غيره، فتهاون عن ذلك إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى ستهن في الصداق، فأمرنا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

(٣) «غريب القرآن» ١١٩، وما بين معقنين منه. وحديث «المقسطون على منابر من لؤلؤ». رواه مسلم: ١٤٥٨/٣ ولفظه «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز جل - وكلنا بيديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

(٤) روى الإمام أحمد رقم (٤٦٠٩) عن مالك عن أبيه أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحت عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعة» ورواه الترمذي وصححه، وابن حبان، والحاكم، قال الحافظ ابن حجر: وأعله البخاري وأبو زرعة، وقال الحافظ ابن كثير في «الإرشاد»: رواه الإمامان أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل، والترمذي، وابن ماجه، وهذا الإسناد رجاله على شرط الشيخين، إلا أن الترمذي يقول: سمعت البخاري يقول: هذا حديث غير محفوظ، والصحيح ما روى شعيب وغيره عن الزهري، قال: حدثت عن محمد بن شعيب الثقفي أن غيلان... فذكره، قال البخاري: وإنما حديث الزهري، عن سالم عن أبيه أن رجلاً من ثقيف طلق نساءه، فقال له عمر: تراجعتن نساءك... الحديث. قال ابن كثير: قلت: قد جمع الإمام أحمد في روايته لهذا الحديث بين هذين الحديثين بهذا السند، فليس ما ذكره البخاري قادحاً، وساق رواية النسائي رجاله ثقات. «سبل السلام» ١٨٠/٢. انظر كلام الشيخ أحمد شاكر على هذا الحديث في «المستند»، فإنه قد فصل الكلام فيه.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فانكحوا واحدة، وقرأ الحسن، والأعمش، وحמיד: «فواحدة» بالرفع، المعنى، فواحدة تقع.

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: السراي. قال ابن قتيبة: معنى الآية: فكما تخافون أن لا تعدلوا بين اليتامى إذا كفلتموهم، فخافوا [أيضاً] أن لا تعدلوا بين النساء إذا نكحتوهن، فقصرهم على أربع، ليقدروا على العدل، ثم قال: فإن خفتم أن لا تعدلوا بين هؤلاء الأربع، فانكحوا واحدة، واقتصروا على ملك اليمين^(١).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَتَى﴾ أي: أقرب. وفي معنى «تعولوا» ثلاثة أقوال: أحدها: تميلوا، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، وإبراهيم، وقتادة، والسدي، ومقاتل، والفراء. وقال أبو مالك، وأبو عبيد: تجوروا. قال ابن قتيبة، والزجاج: تجوروا وتميلوا بمعنى واحد. واحتكم رجلان من العرب إلى رجل، فحكم لأحدهما، فقال المحكوم عليه: إنك والله تعول علي، أي: تميل وتجور. والثاني: تزلوا، قاله مجاهد، والثالث: تكثر عيالكم، قال ابن زيد، ورواه أبو سليمان الدمشقي في «تفسيره» عن الشافعي، وردّه الزجاج، فقال: جميع أهل اللغة يقولون: هذا القول خطأ، لأن الواحدة يعولها، وإباحة ملك اليمين أزيد في العيال من أربع^(٢).

﴿وَأُولَئِكَ أَلَسَتْ صَدَقَاتِهِنَّ بِخَلَّةٍ فَإِنَّ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُنَّ حَيْثُ مَرَّيَا﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ أَلَسَتْ صَدَقَاتِهِنَّ بِخَلَّةٍ﴾ اختلفوا فيمن خوطب بهذا على قولين: أحدهما: أنهم الأزواج، وهو قول الجمهور، واحتجوا بأن الخطاب للناكحين قد تقدم، وهذا معطوف عليه، وقال مقاتل: كان الرجل يتزوج بلا مهر، فيقول: أرثك وترثيني، فتقول المرأة: نعم، فنزلت هذه الآية. والثاني: أنه متوجه إلى الأولياء^(٣) ثم فيه قولان: أحدهما: أن الرجل كان إذا زوج أئمة جاز صداقها دونها، فنهوا بهذه الآية، هذا قول أبي صالح، واختاره الفراء، وابن قتيبة. والثاني: أن الرجل كان يعطي الرجل أخته ويأخذ أخته مكانها من غير مهر، فنهوا عن هذا بهذه الآية، رواه أبو سليمان التيمي عن بعض أشياخه. قال ابن قتيبة: والصدقات: المهور، واحدها: صدقة. وفي قوله «نحلة» أربعة أقوال: أحدها: أنها بمعنى الفريضة، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، ومقاتل. والثاني: أنها الهبة والعطية، قاله الفراء. قال ابن الأباري: كانت العرب في الجاهلية لا تعطي النساء شيئاً من مهرهن، فلما فرض الله لهن المهر، كان نخلة من الله، أي: هبة للنساء، فرضاً على الرجال. وقال الزجاج: هو هبة من الله للنساء. قال القاضي أبو يعلى: وقيل: إنما سمي المهر: نخلة، لأن الزوج لا يملك بدله شيئاً، لأن البضع بعد النكاح في ملك المرأة، ألا ترى أنها لو وطئت بشبهة، كان المهر لها دون الزوج، وإنما الذي يستحقه الزوج الاستباحة، لا الملك. والثالث: أنها العطية بطيب نفس، فكانه قال: لا تعطوهن مهرهن وأنتم كارهون، قاله أبو عبيدة. والرابع: أن معنى «النحلة»: الديانة، فتقديره: وآتوهن صدقاتهن ديانة، يقال: فلان يتحل كذا، أي: يدين به، ذكره الزجاج عن بعض العلماء.

(١) نص كلام ابن قتيبة في «المشكل» ٥١: والمعنى أن الله تعالى قصر الرجال على أربع نسوة. وحرم عليهم أن ينكحوا أكثر منهن، لأنه لو أباح لهم أن ينكحوا من الحررات ما أباح من ملك اليمين لم يستطيعوا العدل عليهن بالسوية بينهن، فقال لنا: فكما تخافون ألا تعدلوا بين اليتامى إذا كفلتموهم، فخافوا أيضاً ألا تعدلوا بين النساء إذا نكحتوهن، فانكحوا اثنتين وثلاثاً وأربعاً، ولا تتجاوزوا ذلك فتجاوزوا عن العدل.

(٢) قال ابن كثير ٤٥١/١: وقوله ﴿ذَلِكَ أَتَى أَلَّا تَتْرَوْا﴾ قال بعضهم: ذلك أفنى ألا تكثر عيالكم، قاله زيد بن أسلم، وسفيان بن عيينة، والشافعي، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَتَكُمْ﴾ أي: فقرأ ﴿فَسَوْفَ يَنْتَعِمُكُمْ اللَّهُ بِنَفْسِهِ إِنْ كُنْتُمْ﴾ وقال الشاعر:

فما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يبس

وتقول العرب: حال الرجل يعيل عيلة، إذا افتقر، ولكن في هذا التفسير هاهنا نظر، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تمداد الحررات، كذلك يخشى من تمداد السراي أيضاً، والصحيح قول الجمهور ﴿ذَلِكَ أَتَى أَلَّا تَتْرَوْا﴾ أي: لا تجوروا، يقال: حال في الحكم: إذا قسط وظلم وجار.

(٣) اختار ابن جرير ٥٥٤/٧ أن الخطاب للأزواج، قال: لأن الله تعالى ابتداء ذكر هذه الآية بخطاب الناكحين النساء، ونهاهم عن ظلمهن والجور عليهن، وعرفهم سبيل النجاة من ظلمهن. ولا دلالة في الآية على أن الخطاب قد صرف عنهم إلى غيرهم، فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن الذين قيل لهم ﴿فَانكحُوا مَا كَاتَبَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ هم الذين قيل لهم: ﴿وَأُولَئِكَ أَلَسَتْ صَدَقَاتِهِنَّ﴾ وأن معناه: وآتوا من نكحت من النساء صدقاتهن نخلة، لأنه قال في أول الآية: فانكحوا ما طاب لكم من النساء، ولم يقل: ﴿فَانكحُوا﴾ فيكون قوله: ﴿وَأُولَئِكَ أَلَسَتْ صَدَقَاتِهِنَّ﴾ مصروحاً إلى أنه مثنى به أولياء النساء دون أزواجهن.

قوله تعالى: ﴿إِن طَلَبْتُمْ لَكُمْ﴾ يعني النساء المنكوحات. وفي «لكم» قولان: أحدهما: أنه يعني الأزواج. والثاني: الأولياء. و«الهاء» في «منه» كناية عن الصداق، قال الزجاج: و«منه» هاهنا للجنس، كقوله: ﴿فَأَجْكِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَرْثَيْنِ﴾ [الحج: ٣٠] معناه: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن، فكأنه قال: كلوا الشيء الذي هو مهر، فيجوز أن يسأل الرجل المهر كله. و«نفساً»: منصوب على التمييز. فالمعنى: فإن طابت أنفسهن لكم بذلك، فكلوه هنيئاً مريئاً. وفي الهنيء ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما تؤمن عاقبته. والثاني: ما أعقب نفعاً وشفاء. والثالث: أنه الذي لا ينغصه شيء. وأما «المريء» فيقال: مريء الطعام: إذا نهضم، وحمدت عاقبته.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَأُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّتْرُوكًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ المراد بالسفهاء خمسة أقوال: أحدها: أنهم النساء، قاله ابن عمر. والثاني: النساء والصبيان، قاله سعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك، ومقاتل، والفراء، وابن قتيبة. وعن الحسن ومجاهد كالقولين. والثالث: الأولاد، قاله أبو مالك. وهذه الأقوال الثلاثة مروية عن ابن عباس، وروي عن الحسن، قال: هم الأولاد الصغار. والرابع: اليتامى، قاله عكرمة، وسعيد بن جبير في رواية. قال الزجاج: ومعنى الآية: ولا تؤتوا السفهاء أموالهم، بدليل قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ وإنما قال: «أموالكم» ذكراً للجنس الذي جعله الله أموالاً للناس. وقال غيره: أضافها إلى الولاة، لأنهم قوامها. والخامس: أن القول على إطلاقه، والمراد به كل سفيه يستحق الحجر عليه، ذكره ابن جرير، وأبو سليمان الدمشقي، وغيرهما، وهو ظاهر الآية^(١). وفي قوله: ﴿أَمْوَالِكُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه أموال اليتامى. والثاني: أموال السفهاء.

قوله تعالى: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ قرأ الحسن: «اللاتي جعل الله لكم قيوماً». وقرأ ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو: «قياماً» بالياء مع الألف هاهنا، وقرأ نافع، وابن عامر: «قيماً» بغير ألف. قال ابن قتيبة: قياماً وقوماً بمنزلة واحدة، تقول: هذا قوام أمرك وقيامه، أي: ما يقوم به [أمرك]. وذكر أبو علي الفارسي أن «قواماً» و«قياماً» و«قيماً»، بمعنى القوام الذي يقيم الشأن، قال: وليس قول من قال: «القيم» هاهنا: جمع «قيمة» بشيء.

قوله تعالى: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أي: منها. وفي «القول المعروف» ثلاثة أقوال: أحدها: العدة الحسنة، قاله ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، ومقاتل. والثاني: الرذ الجميل، قاله الضحاك. والثالث: الدعاء، كقولك: عافاك الله، قاله ابن زيد.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَمِمْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ سبب نزولها أن رجلاً، يقال له: رفاعه، مات وترك ولداً صغيراً، يقال له: ثابت، فوليه عمه، فجاء إلى النبي ﷺ، فقال: إن ابن أخي يتيم في حجري، فما يحل لي من ماله؟ ومتى أدفع إليه ماله؟ فنزلت هذه الآية، ذكر نحوه مقاتل^(٢). والابتلاء: الاختبار. وبماذا يختبرون؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم يختبرون في عقولهم، قاله ابن عباس، والسدي، وسفيان، ومقاتل. والثاني: يختبرون في عقولهم ودينهم، قاله الحسن، وقتادة. وعن مجاهد كالقولين. والثالث: في عقولهم ودينهم، وحفظهم أموالهم، ذكره الثعلبي. قال القاضي أبو يعلى: وهذا الابتلاء قبل البلوغ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: بلغوا أن ينكحوا النساء ﴿إِنْ آنَسْتُمْ﴾ أي: علمتم،

(١) قال ابن كثير: ٤٥٢/١: ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، أي: تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها، ومن هاهنا يؤخذ الحجر على السفهاء، وهم أقسام؛ فتارة يكون الحجر للصغير، فإن الصغير سلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف، لنقص العقل أو الدين، وتارة للفلس، وهو إذا ما أحاطت الديون برجل، وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه.

(٢) ذكره الواحدي ص ٨٢ بدون سند.

وتبيّنتم. وأصل: أنست: أبصرت. وفي الرشد أربعة أقوال: أحدها: الصلاح في الدين، وحفظ المال، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: الصلاح في العقل، وحفظ المال، روي عن ابن عباس والسدي. والثالث: أنه العقل، قاله مجاهد، والنخعي. والرابع: العقل والصلاح في الدين، روي عن السدي.

فصل

واعلم أن الله تعالى علّق رفع الحجر عن اليتامى بأمرين؛ بالبلوغ والرشد، وأمر الأولياء باختيارهم، فإذا استبانوا رشدهم، وجب عليهم تسليم أموالهم إليهم. والبلوغ يكون بأحد خمسة أشياء، ثلاثة يشترك فيها الرجال والنساء؛ الاحتلام^(١)، واستكمال خمس عشرة سنة^(٢)، والإنبات^(٣)، وشيئان يختصان بالنساء: الحيض والحمل^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْرَافًا﴾ خطاب للأولياء، قال ابن عباس: لا تأكلوها بغير حق. و«إسرافاً»: يُبادرون أكل المال قبل بلوغ الصبي ﴿وَمَنْ كَانَ عَيْبًا فَلْيَسْتَوْفَّ﴾ بماله عن مال اليتيم. وفي الأكل بالمعروف أربعة أقوال: أحدها: أنه الأخذ على على وجه القرض، وهذا مروى عن عمر، وابن عباس، وابن جبير، وأبي العالية، وعبيدة، وأبي وائل، ومجاهد، ومقاتل. والثاني: الأكل بمقدار الحاجة من غير إسراف، وهذا مروى عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وعطاء، والنخعي، وقتادة، والسدي. والثالث: أنه الأخذ بقدر الأجرة إذا عمل لليتيم عملاً، روي عن ابن عباس، وعائشة^(٥)، وهي رواية أبي طالب، وابن منصور، عن أحمد رضي الله عنه. والرابع: أنه الأخذ عند الضرورة، فإن أيسر قضاءه، وإن لم يوسر، فهو في حل، وهذا قول الشعبي.

فصل

واختلف العلماء هل هذه الآية محكمة أو منسوخة؟ على قولين. أحدهما محكمة، وهو قول عمر، وابن عباس، والحسن، والشعبي، وأبي العالية، ومجاهد، وابن جبير، والنخعي، وقتادة في آخرين. وحكمها عندهم أن الغني ليس له أن يأكل من مال اليتيم شيئاً، فأما الفقير الذي لا يجد ما يكفيه، وتشغله رعاية مال اليتيم عن تحصيل الكفاية، فله أن يأخذ قدر كفايته بالمعروف من غير إسراف. وهل عليه الضمان إذا أيسر؟ فيه قولان لهم: أحدهما: أنه لا ضمان عليه، بل يكون كالأجرة له على عمله، وهو قول الحسن، والشعبي، والنخعي، وقتادة، وأحمد بن حنبل. والثاني: إذا أيسر وجب عليه القضاء، روي عن عمر وغيره، وعن ابن عباس أيضاً كالقولين. والقول الثاني: أنها منسوخة بقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ﴾ [النساء: ٢٩] وهذا مروى عن ابن عباس، ولا يصح.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْهَبُوا عَلَيْكُمْ﴾ قال القاضي أبو يعلى: هذا على طريق الاحتياط لليتيم، والولي، وليس بواجب،

(١) لقوله رضي الله عنه: «رفع القلم عن ثلاثة، عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفقه». رواه الترمذي ١٧٠/١ وأبو داود ٤/١٩٧ عن علي رضي الله عنه. ورواه الدارمي ١٧١/٢ عن عائشة، وابن ماجه ٦٥٨/١ عنهما، وهو حديث صحيح.

(٢) أعدل الفقهاء ذلك من الحديث الثابت في «الصحيحين» عن ابن عمر، قال: «عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يُجزني، و عرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني» قال نافع: قدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فحدثه هذا الحديث؛ فقال: إن هذا لحدّ بين الصغير والكبير، وكب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة.

(٣) يدل لذلك ما روى الإمام أحمد ٤/٣١٠ عن عطية القرظي، قال: عرضنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قريظة، فكان من أنبت قتل، ومن لم ينبت خلى سبيله، فكنت فيمن لم ينبت، فخلى سبيلي. وقد أخرجه أصحاب «السنن» بنحوه، وقال الترمذي: حسن صحيح. قال ابن كثير: وإنما كان كذلك، لأن سعد بن معاذ كان قد حكم فيهم بقتل المقاتلة، وسبي الذرية. وكون البلوغ يثبت باستكمال خمس عشرة سنة والإنبات: هو مذهب الشافعي، وأحمد، وابن وهب، وأصبغ، وعبد الملك بن الماجشون، وعمر بن عبد العزيز، واختاره ابن العربي.

(٤) قال القرظي: ٥/٣٥٥: فأما الحيض والحبل فلم يختلف العلماء في أنه بلوغ، وأن الفرائض والأحكام تجب بهما.

(٥) في البخاري ٨/١٨١: عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ عَيْبًا فَلْيَسْتَوْفَّ وَمَنْ كَانَ عَيْبًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أنها نزلت في مال اليتيم إذا كان فقيراً أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف. وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ليس لي مال، ولي يتييم، فقال: «كل من مال يتييمك غير مُسرفٍ ولا مَبْذُورٍ ولا متأنلٍ مالا، ومن غير أن تقي مالك» أو قال: «تفدي مالك بماله». ورواه أبو داود ٣/١٥٦، والنسائي ٢/١٣١، وابن ماجه ٢/٨٣ بنحوه، وهو حديث حسن. وقوله: «ولا متأنل» بتشديد التاء المثناة المكسورة. قال ابن الأثير: أي: غير جامع، يقال: مال مؤنل، ومجد مؤنل، يفتح التاء المشددة فيهما، أي: مجموع ذو أصل.

فأما اليتيم، فإنه إذا كانت عليه بيّنة، كان أبعد من أن يدّعي عدم القبض، وأما الولي، فإنه تظهر أمانته، ويسقط عنه اليمين عند إنكار اليتيم للدّفع. وفي «الحسيب» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الشهيد، قاله ابن عباس، والسّدي، ومقاتل. والثاني: أنه الكافي، من قولك: أحسبني هذا الشيء [أي: كفاني، والله حسيبي وحسيبك، أي: كافينا، أي: يكون حكماً بيننا كافياً].

قال الشاعر:

وَنُقِضِي وَلَيْدَ الْحَيِّ إِنْ كَانَ جَائِعاً وَنُحْسِبُهُ إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَائِعٍ^(١)

أي: نعطيه ما يكفيه حتى يقول: حسيبي^(٢)، قاله ابن قتيبة والخطابي. والثالث: أنه المحاسب، فيكون في مذهب جليس، وأكيل، وشريب، حكاه ابن قتيبة والخطابي.

﴿لِرَجَالٍ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾^(٧)
قوله تعالى: ﴿لِرَجَالٍ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ سبب نزولها أن أوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك ثلاث بنات وامرأة، فقام رجلان من بني عمّه، يقال لهما: قتادة، وعرفطة^(٣) فأخذوا ماله، ولم يعطيا امرأته، ولا بناته شيئاً، فجاءت امرأته إلى النبي ﷺ، فذكرت له ذلك، وشكت الفقر، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. وقال قتادة: كانوا لا يورثون النساء، فنزلت هذه الآية^(٤). والمراد بالرجال: الذكور، وبالنساء: الإناث، صغاراً كانوا أو كباراً. و«النصيب»: الحظ من الشيء، وهو مجمل في هذه الآية، ومقداره معلوم من موضع آخر، وذلك مثل قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَكَاؤِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٤] وقوله: ﴿حِذِّبْ أَمْوَالَهُمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] والمفروض: الذي فرضه الله، وهو أكد من الواجب.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(٨)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ في هذه القسمة قولان: أحدهما: قسمة الميراث بعد موت الموروث، فعلى هذا يكون الخطاب للوارثين، وبهذا قال الأكثرون، منهم ابن عباس، والحسن، والزهري. والثاني: أنها وصية الميت قبل موته، فيكون مأموراً بأن يعين لمن لا يرثه شيئاً، روي عن ابن عباس، وابن زيد. قال المفسرون والمراد بأولي القربى: الذي لا يرثون، ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي: أعطوهم منه، وقيل: أطعموهم، وهذا على الاستحباب عند الأكثرين، وذهب قوم إلى أنه واجب في المال، فإن كان الورثة كباراً، تولوا إعطائهم، وإن كانوا صغاراً، تولّى ذلك عنهم وليّ مالهم، فروي عن عبيدة أنه قسم مال أيتام، فأمر بشاة، فاشترت من مالهم، وبطعام فصنع، وقال: لولا هذه الآية لأحببت أن يكون من مالي^(٥)، وكذلك فعل محمد بن سيرين في أيتام وليّهم، وكذلك روي عن مجاهد: أن ما تضمنته هذه الآية واجب. وفي «القول المعروف» أربعة أقوال: أحدها: أن يقول لهم الولي حين يعطيهم: خذ بارك الله فيك، رواه سالم الأفتس، عن ابن جبير. والثاني: أن يقول الولي: إنه مال يتامى، ومالي فيه شيء، رواه أبو بشر عن ابن جبير. وفي رواية أخرى عن ابن جبير، قال: إن كان الميت أوصى لهم بشيء أنفذت لهم وصيتهم، وإن كان الورثة كباراً رضخوا لهم، وإن كانوا صغاراً، قال وليّهم: إني لست أملك هذا المال، إنما هو للصغار، فذلك القول المعروف. والثالث: أنه العدة الحسنة، وهو أن يقول لهم أولياء الورثة: إن هؤلاء الورثة صغار، فإذا بلغوا، أمرناهم أن يعرفوا حقكم. رواه عطاء بن دينار، عن ابن جبير. والرابع: أنهم يُعطون من المال، ويقال لهم عند قسمة الأرضين والرقيق: بورك فيكم، وهذا القول المعروف. قال الحسن والنخعي: أدركنا الناس يفعلون هذا.

(١) البيت غير منسوب في «غريب القرآن» ١٧، و«الصالح»: مادة: حسب، و«اللسان»: مادة: قني، وفيه ١/٣١٢ لامرأة من بني قشير، وقوله: «قنفيه» أي: نؤثره بالقنفيه، ويقال لها: القفاوة أيضاً، وهي ما يؤثر به الضيف والصبي.

(٢) ما بين معقنين من تمام كلام ابن قتيبة في «غريب القرآن» ص ١٧.

(٣) في ب «عكومة وعرفطة» وفي «أسباب النزول» للواحدى ص: ٨٢ سويد وعرفطة، وفي «الدر المنثور» ١/١٢٢: خالد وعرفطة، والخبر أخرجه أبو الشيخ وابن حبان في «كتاب الفرائض» من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي وأبو صالح، ضعيفان لا يحتج بهما.

(٤) أخرجه ابن جرير ٧/٥٩٧ من طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة.

(٥) رواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن إسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن ابن سيرين...

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها محكمة، وهو قول أبي موسى الأشعري، وابن عباس^(١)، والحسن، وأبي العالية، والشعبي، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والنخعي، والزهري، وقد ذكرنا أن ما تضمنته من الأمر مستحب عند الأكثرين، واجب عند بعضهم. والقول الثاني: أنها منسوخة؛ نسخها قوله: ﴿يُؤَيِّدُكُمُ اللَّهُ فِي أَزْوَاجِكُمْ﴾. رواه مجاهد عن ابن عباس، وهو قول سعيد بن المسيب، وعكرمة، والضحاك، وقتادة في آخرين.

﴿وَلَيْخَشَ الْيَتِيمَ لَوْ تَزَكَّى مِنْ خَلْفِهِمْ دُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْخَشَ الْيَتِيمَ لَوْ تَزَكَّى مِنْ خَلْفِهِمْ دُرِّيَّةً ضِعْفًا﴾ اختلفوا في المخاطب بهذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه خطاب للحاضرين عند الموصي. وفي معنى الآية على هذا القول قولان: أحدهما: وليخش الذين يحضرون موصياً في ماله أن يأمره بتفريقه فيمن لا يرثه، فيفرقه، ويترك ورثته، كما لو كانوا هم الموصين، لسرهم أن يحثهم من حضرم على حفظ الأموال للأولاد، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، ومقاتل. والثاني: على الضد من هذا القول، وهو أنه نهي لحاضري الموصي أن يمنعه من الوصية لأقاربه، وأن يأمره بالاعتصام على ولده، وهذا قول مقسم، وسليمان التيمي في آخرين. والقول الثاني: أنه خطاب لأولياء اليتامى متعلق بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْتِرَافًا وَبِدَارًا﴾. فمعنى الكلام: أحسنوا فيمن وليتم من اليتامى، كما تحببون أن يحسن ولاية أولادكم بعدكم، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس، وابن السائب. والثالث: أنه خطاب للأوصياء أمروا بأداء الوصية على ما رسم الموصي، وأن تكون الوجوه التي عينها مرعية بالمحافظة كرعى الذرية الضعاف من غير تبديل، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِسْقَاتًا فَلْيَصْلَحْ بَيْنَهُمْ فَلَا إِسْرَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢] فأمر الوصي بهذه الآية إذا وجد ميلاً عن الحق أن يستعمل قضية الشرع، ويصلح بين الورثة، ذكره شيخنا علي بن عبيد الله، وغيره، في «الناسخ والمنسوخ» فعلى هذا تكون الآية منسوخة، وعلى ما قبله تكون محكمة. و«الضعاف»: جمع ضعيف، وهم الأولاد الضعفاء. وقرأ حمزة: «ضعافاً» بإمالة العين. قال أبو علي: وجهها: أن ما كان على «فعال» وكان أوله حرفاً مستعلياً مكسوراً، نحو ضعاف، وقفاف، وخفاف؛ حسنت فيه الإمالة، لأنه قد يُصَعَّدُ بالحرف المستعلي، ثم يُخَفَّرُ بالكسر، فيستحب أن لا يُصَعَّدَ بالتخفيف بعد التصوُّب بالكسر، فيجعل الصوت على طريقة واحدة، وكذلك قرأ حمزة: ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ بإمالة الخاء، والإمالة هاهنا حسنة، وإن كانت «الخاء» حرفاً مستعلياً، لأنه يطلب الكسرة التي في «خِيف» فينحو نحوها بالإمالة. و«القول السديد»: الصواب.

(١) روى البخاري ١٨١/٨ عن ابن عباس في الآية قال: هي محكمة، وليست بمنسوخة. تابعه سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال الحافظ ابن حجر: وصله في الوصايا بلفظ «إن ناسأ يزعمون أن هذه الآية نسخت، ولا والله ما نسخت، ولكنها مما تهان الناس بها، هما واليان، وإلي يرت، وذلك الذي يرزق، ووإلي لا يرت، وذلك الذي يقال له بالمعروف، يقول: لا أمالك لك أن أعطيك، وهذا الإسنادان الصحيحان هما المتمدان، وجاءت عنه روايات من أوجه ضعيفة عند ابن أبي حاتم وابن مردويه أنها منسوخة نسختها آية الميراث، وضح ذلك عن سعيد بن المسيب، وهو قول القاسم بن محمد وعكرمة وغير واحد، وبه قال الأئمة الأربعة وأصحابهم. وجاء عن ابن عباس قول آخر، أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن القاسم بن محمد أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر: قسم ميراث أبيه عبد الرحمن في حياة عائشة، فلم يدع في النار ذا قرابة ولا مسكيناً إلا أعطاه من ميراث أبيه، وتلا الآية. قال القاسم: ففكرته لابن عباس، فقال: ما أصاب، وليس ذلك له، إنما ذلك إلى الوصي، وإنما ذلك في الوصية، أي: ندب للमित أن يوصي لهم. قلت: - أي: الحافظ ابن حجر - وهذا لا ينافي حديث الباب، وهو أن الآية محكمة، وليست بمنسوخة. وقيل: معنى الآية: وإذا حضر قسمة الميراث قرابة الميت ممن لا يرت، واليتامى والمساكين، فإن نفوسهم تشوف إلى أخذ شيء منه، ولا سيما إن كان جزيلاً، فأمر الله سبحانه أن يرخص لهم بشيء على سبيل البر والإحسان. واختلف من قال بذلك: هل الأمر فيه على الندب أو الوجوب؟ فقال مجاهد وطائفة: هي على الوجوب، وهو قول ابن حزم أن على الوارث أن يعطي هذه الأصناف ما طابت به نفسه، ونقل ابن الجوزي عن أكثر أهل العلم أن المراد بأولي القرابة: من لا يرت، وأن معنى «فأرزقهم»: أعطوهم من المال. وقال آخرون: أطمعوهم، وأن ذلك على سبيل الاستحباب، وهو المتمد، لأنه لو كان على الوجوب لانتفى استحقاقاً في التركة، ومشاركة في الميراث بجهة مجهولة، فيفضي إلى التنازع والتقاطع، وعلى القول بالنذب فقد قيل: يفعل ذلك ولي المحجور، وقيل: لا بل يقول: ليس المال لي، وإنما هو لليتيم، وإن هذا هو المراد بقوله: ﴿زَوْلًا مِّنْ دُونِكَ﴾ وعلى هذا فتكون الواو في قوله ﴿زَوْلًا﴾ للتقسيم، وعن ابن سيرين وطائفة: المراد بقوله: ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ اصنعوا لهم طعاماً يأكلونه، وإنها على العموم في مال المحجور وغيره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رجلاً من غطفان، يقال له: مرثد بن زيد، ولي مال ابن أخيه، فأكله، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل بن حيان. والثاني: أن حنظلة بن الشمرديل ولي يتيماً، فأكل ماله، فنزلت هذه الآية، ذكره بعض المفسرين. وإنما خصّ الأكل بالذكر لأنه معظم المقصود، وقيل: عبر به عن الأخذ. قال سعيد بن جبير: ومعنى الظلم: أن يأخذه بغير حق. وأما ذكر «البطون» فللتوكيد، كما تقول: نظرت بعيني، وسمعت بأذني. وفي المراد بأكلهم النار قولان: أحدهما: أنهم سيأكلون يوم القيامة ناراً، فسمي الأكل بما يؤول إليه أمرهم، كقوله: ﴿أَصْمِرُ حَصْرًا﴾ [يوسف: ٣٦] قال السدي: يبعث آكل مال اليتيم ظلماً، ولهيب النار يخرج من فيه، ومن مسامعه، وأذنيه، وأنفه، وعينه، يعرفه من رآه يأكل مال اليتيم^(١). والثاني: أنه مثل. معناه: يأكلون ما يصيرون به إلى النار، كقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ [آل عمران: ١٤٣] أي: رأيت أسبابه.

قوله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، «وسيصلون» بفتح الياء، وقرأ الحسن، وابن عامر، بضم الياء، ووافقهما ابن مقسم، إلا أنه شدد. والمعنى: سيحرقون بالنار، ويُسْوَوْنَ والسعير: النار المستعرة، واستيعار النار: توقدها.

فصل

وقد تورم قومٌ لا علم لهم بالتفسير وفقهه، أن هذه الآية منسوخة، لأنهم سمعوا أنها لما نزلت، تخرج القوم عن مخالطة اليتامي، فنزل قوله: ﴿وَإِن تَخَافُوا ظُفُرَهُمْ فَأَخُونَكُمُ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وهذا غلط، وإنما ارتفع عنهم الحرج بشرط قصد الإصلاح، لا على إباحة الظلم.

﴿يُؤْيِيكُمُ اللَّهُ فِي بَيْتِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَخَوَاتَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُمَا الشُّدْهُنَّ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلَّتِي نَكَحَتْهُ إِخْوَةُ فَلِأَخِيهِ الشُّدْهُنَّ مِنْ بَدَنِهِ وَصِيَّةُ يُوسُفَ إِذَا دِيَّ عَابَتُوكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَمَّا وَكَمْتُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمُ أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْمًا فَوَصَّيْتُ لَكُمْ اللَّهُ إِذْ لَمْ يَكُن لَكُمْ عَالِيًا حَكِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿يُؤْيِيكُمُ اللَّهُ فِي بَيْتِكُمْ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن جابر بن عبد الله مرض، فعاده رسول الله ﷺ، فقال: كيف أصنع في مالي يا رسول الله، فنزلت هذه الآية، رواه البخاري ومسلم^(٢). والثاني: أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ بابنتين لها، فقالت: يا رسول الله قُتِلَ أَبُو هَاتَيْنِ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَدْ اسْتَفَاءَ^(٣) عَمَهُمَا مَالَهُمَا، فنزلت، روي عن جابر بن عبد الله أيضاً^(٤). والثالث: أن عبد الرحمن أختا حسان بن ثابت مات، وترك امرأة، وخمس بنات، فأخذ ورثته ماله، ولم يعطوا امرأته ولا بناته شيئاً، فجاءت امرأته تشكو إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية، هذا قول السدي. قال الزجاج: ومعنى يوصيكم: يفرض عليكم، لأن الوصية منه فرض، وقال غيره: إنما ذكره بلفظ الوصية لأمرين: أحدهما: أن الوصية تزيد على الأمر، فكانت أكد. والثاني: أن في الوصية حقاً للموصي، فدل على تأكيد الحال بإضافته إلى حقه. وقرأ الحسن، وابن أبي عبله: «يوصيكم» بالتشديد.

(١) أخرجه ابن جرير ٢٦٨/٨ من طريق أسباط عن السدي.

(٢) البخاري: ١٨٢/٨، ومسلم: ١٢٣٥/٣ من طريق ابن جرير عن ابن المنكدر عن جابر، وقد وهم بعض المحذذين ابن جرير في هذا الحديث، وقالوا: الصواب أن الآية التي نزلت في قصة جابر هذه، الآية الأخيرة من (النساء) وهي: ﴿يَسْتَشْفِقُ عَلَى اللَّهِ يَرْحَمُكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾ وقد استوفى الحافظ ابن حجر الكلام حل هذا الحديث في «الفتح» فانظره.

(٣) قال ابن الأثير ٢٢٠/٣: أي: استرجع حقهما من الميراث وجعله شيئاً له، وهو استغفل من الشيء.

(٤) أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود ١٦٦/٣، والترمذي ٣٠/١، وحسنه، وابن ماجه ٩٠٨/٢، وصححه الحاكم من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عهدهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالاً، ولا تنكحان إلا ولهما مال، قال: فقال: «يقضي الله في ذلك»، قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عهدهما، فقال: «أعطيت ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك».

قوله تعالى: ﴿لَلَّذِكْرِ يَمْلُ حَظُّ الْأُنثَىٰ﴾ يعني، للابن من الميراث مثل حظ الأنثيين، ثم ذكر نصيب الإناث من الأول، فقال: ﴿إِن كُنَّ﴾ يعني: البنات ﴿نِسَاءً فَوْقَ أُمَّتَيْنِ﴾ وفي قوله: «فوق» قولان: أحدهما: أنها زائدة، كقوله: ﴿فَأَمْهَرِيهَا فَوْقَ الْإِنثَىٰ﴾ [الأنفاس: ١١٣]. والثاني: أنها بمعنى الزيادة. قال القاضي أبو يعلى: إنما نص على ما فوق الاثنتين، والواحدة، ولم ينص على الاثنتين، لأنه لما جعل لكل واحدة مع الذكر الثلث، كان لها مع الأنثى الثلث أولى.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ قرأ الجمهور بالنصب، وقرأ نافع بالرفع، على معنى: وإن وقعت، أو وجدت واحدة.

قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْكَ﴾ قال الزجاج: أبواه ثنية أب وأبة، والأصل في الأم أن يقال لها: أبة، ولكن استغني عنها بأم، والكناية في قوله: «لأبويه» عن الميت وإن لم يجر له ذكر.

وقوله تعالى: ﴿فَلِأَيِّ الثَّلَاثِ﴾ أي: إذا لم يخلف غير أبوين، فثلث ماله لأمه، والباقي للأب، وإنما خص الأم بالذكر، لأنه لو اقتصر على قوله: ﴿وَوَرَثَهُ أَبَوَاهُ﴾ ظنَّ الظان أن المال يكون بينهما نصفين، فلما خصها بالثلث، دل على التفضيل. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿فَلِأَيِّ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ وفي بطون أمهاتكم [الزمر: ٦] وفي أيها [القصص: ٥٩] وفي أير الكسبي [الزخرف: ٤٤] بالرفع^(١). وقرأ حمزة والكسائي كل ذلك بالكسر إذا وصل، وحجتهما: أنهما أتبعوا الهزمة ما قبلها، من ياء أو كسرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ أي: مع الأبوين، فإنهم يحجبون الأم عن الثلث، فيردونها إلى السدس، واتفقوا على أنهم إذا كانوا ثلاثة إخوة، حجبا، فإن كانا أخوين، فهل يحجبانها؟ فيه قولان: أحدهما: يحجبانها عن الثلث، قاله عمر، وعثمان، وعلي، وزيد، والجمهور^(٢). والثاني: لا يحجبها إلا ثلاثة، قاله ابن عباس^(٣)، واحتج بقوله: إخوة. والأخوة: اسم جمع، واختلفوا في أقل الجمع، فقال الجمهور: أقله ثلاثة، وقال قوم: اثنان، والأول: أصح. وإنما حجب العلماء الأم بأخوين لدليل اتفقوا عليه، وقد يُسمى الاثنان بالجمع، قال الزجاج: جميع أهل اللغة يقولون: إن الأخوين جماعة، وحكى سيبويه أن العرب تقول: وضعا رحالهما، يريدون: رَحْلِي وراحتيهما^(٤).

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَدْوٍ وَوَسِيْرٍ﴾ أي: هذه السهام إنما تقسم بعد الوصية والذين. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم «يوصى بها» بفتح الصاد في الحرفين. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «يوصى» فيهما بالكسر، وقرأ حفص، عن عاصم الأولى بالكسر، والثانية بالفتح. واعلم أن الذين مؤخر في اللفظ، مقدم في المعنى، لأن الدين حق عليه، والوصية حق له، وهما جميعاً مقدمان على حق الورثة إذا كانت الوصية في ثلث المال، و«أو» لا توجب الترتيب، إنما تدل على أن أحدهما إن كان، فالميراث بعده، وكذلك إن كانا^(٥).

(١) أي: برقع الهزمة.

(٢) قال الشوكاني في «فتح القدير» ٣٩٨/١: وقد أجمع أهل العلم على أن الاثنتين من الأخوة يقومون مقام الثلاثة فصاعداً في حجب الأم إلى السدس، إلا ما يروى عن ابن عباس أنه جعل الاثنتين كالواحد في عدم الحجب.

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» ٦/٢٢٧ من طريق إسحاق بن إبراهيم عن شابة عن ابن أبي ذئب عن شعبة مولى ابن عباس. قال ابن كثير ١/٤٥٩: وفي صحة هذا الأثر نظر، فإن شعبة هذا تكلم فيه مالك بن أنس، ولو كان هذا صحيحاً عن ابن عباس، لذهب إليه أصحابه الأخصاء به، والمقول عنهم خلافه. وقد روى عبد الرحمن بن أبي الزناد عن خارجة بن زيد عن أبيه أنه قال: «الأخوان تسمى إخوة» وقد أفردت لهذه المسألة جزءاً على حدة. وفي «التقريب»: شعبة بن دينار الهاشمي مولى ابن عباس المدني: صدوق سيح الحفظ.

(٤) في «مجاز القرآن» ١/١١٨: «فإن كان له إخوة» أي: أخوان فصاعداً، لأن العرب تجعل لفظ الجمع على معنى الاثنتين، قال الراعي:

أخلى ليد إن أباك ضاف وسادّه
مُمانٍ باناً جنباً ودخيلاً

طرقاً فتلك همهمي أقربهما...

(٥) فجعل الاثنتين في لفظ الجمع، وجعل الجمع في لفظ الاثنتين. وقال المرتضى في «أماله» ٢/١٥٥: فغير بالهماهم، وهي جمع عن الهمين، وهما اثنان. وخليفة: ابنة الشاعر، والمعنى أن أحد الهمين بات جنبه، والآخر داخل جوفه.

(٥) أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن الجارود والدارقطني والبيهقي في =

قوله تعالى: ﴿أَبَاؤَكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَسَبًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه النفع في الآخرة، ثم فيه قولان: أحدهما: أن الوالد إذا كان أرفع درجة من ولده، رفع إليه ولده، وكذلك الولد، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. والثاني: أنه شفاعة بعضهم في بعض، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. والقول الثاني: أنه النفع في الدنيا، قاله مجاهد. ثم في معناه قولان: أحدهما: أن المعنى: لا تدرون هل موت الآباء أقرب، فينتفع الأبناء بأموالهم، أو موت الأبناء، فينتفع الآباء بأموالهم؟ قاله ابن بحر. والثاني: أن المعنى: أن الآباء والأبناء يتفاوتون في النفع. حتى لا يدري أيهم أقرب نفعاً، لأن الأولاد ينتفعون في صغرهم بالآباء، والآباء ينتفعون في كبرهم بالأبناء، ذكره القاضي أبو يعلى. وقال الزجاج: معنى الكلام: أن الله قد فرض الفرائض على ما هو عنده حكمة. ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم، فتضعون الأموال على غير حكمة. إن الله كان عليمًا بما يصلح خلقه، حكيمًا فيما فرض. وفي معنى «كان» ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناها: كان عليمًا بالأشياء قبل خلقها، حكيمًا فيما يقدّر تدبيره منها، قاله الحسن. والثاني: أن معناها: لم يزل. قال سيبويه: كان القوم شاهدوا علمًا وحكمة، فقيل لهم: إن الله كان كذلك، أي: لم يزل على ما شاهدتم، ليس ذلك بحادث. والثالث: أن لفظة «كان» في الخبر عن الله ﷻ يتساوى ماضيها ومستقبلها، لأن الآيات عنده على حال واحدة، ذلك هذه الأقوال الزجاج.

﴿وَلَكُمْ نِسْفٌ مَّا تَرَكَ آزْوَاجُكُمْ إِن كُرِيَ لَكُمْ وَلَكُم مَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَدَّ يَسَّرَ لَكُم مِّنْ قَبْلِ هَٰذَا وَمَا كُنْتُمْ تُحِبُّونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَّةً﴾ قرأ الحسن: «يُورِثُ» بفتح الواو، وكسر الراء مع التشديد. وفي الكلاية أربعة أقوال: أحدها: أنها ما دون الوالد والولد، قاله أبو بكر الصديق. وقال عمر بن الخطاب: أتى عليّ حين وأنا لا أعرف ما الكلاية، فإذا هو: من لم يكن له والد ولا ولد^(١)، وهذا قول علي، وابن مسعود، زيد بن ثابت، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، والزهري، وقتادة، والفراء، وذكر الزجاج عن أهل اللغة، أن «الكلاية»: من قولهم: تكلله النسب، أي: لم يكن الذي يرثه ابته، ولا أباه. قال: والكلاية سوى الوالد الولد، وإنما هو كالإكليل على الرأس. وذكر ابن قتيبة عن أبي عبيدة أنه مصدر تكلله النسب^(٢). إذا أحاط به. والابن والأب: طرفان للرجل، فإذا مات، ولم يخلفهما، فقد مات عن ذهاب طرفيه، فسمي ذهاب الطرفين: كلاله [وكانها اسم للمصيبة في تكلل النسب مأخوذ منه؛ نحو هذا قولهم: وجهت الشيء: أخذت وجهه، وتغرّفت الرجل: كسرت ثغره]^(٣). والثاني: أن

«سننه» عن عليّ قال: إنكم تقرّون هذه الآية «بأن يترك وصيّ يوصي بها أو دين» وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات. وفي سننه الحارث الأعور، وهو ضعيف، قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث أبي إسحاق عن الحارث عن علي، وقد تكلم بعض أهل العلم في الحارث، والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم. وقال ابن كثير بعد روايته للحديث في شأن الحارث: لكن كان حافظاً للفرائض معتنياً بها وبالكتاب. وقال ابن كثير أيضاً: أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية، وذلك عند إيمان النظر فيهم من فعوى الآية الكريمة. وقوله: «وبنو العلات، العلات: هم الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد. يريد أنهم إذا اجتمعوا توارث الأخوة الأشقاء دون الأخوة لأب».

(١) أثر عمر أخرجه البيهقي في «السنن» ٦/٢٢٤ من طريق محمد بن نصر عن عبد الأعلى عن حماد عن عمران بن حدير، عن السميث بن عمير. وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» عن طاووس - بسند صحيح - قال: سمعت ابن عباس يقول: كنت آخر الناس عهداً بعمر فسمعت يقول: القول ما قلت، قلت: وما قلت؟ قال: الكلاية من لا ولد له ولا والد. قال ابن كثير: وهكذا قال علي وابن مسعود، وصح عن غير واحد عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وبه يقول الشعبي، والنخعي، والحسن، وقتادة، وجابر بن زيد، والحكم، وبه يقول أهل المدينة، وأهل الكوفة، والبصرة، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور السلف والخلف، بل جميعهم، وقد حكى الإجماع عليه غير واحد.

(٢) في «مجاز القرآن» ١/١١٩ «يورث كلاله» مصدر من تكلله النسب، أي: تحطفت النسب عليه، ومن قال «يورث كلاله» فهم الرجال الورثة، أي: يعطف النسب عليه.

(٣) ما بين معنيين من تمام كلام ابن قتيبة في «غريب القرآن» ص ١٢١.

الكلالة: من لا ولد له، رواه ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، وهو قول طاووس. والثالث: أن الكلالة: ما عدا الوالد، قاله الحكم^(١). والرابع: أن الكلالة: بنو العم الأبعاد، ذكره ابن فارس، عن ابن الأعرابي^(٢). واختلفوا على ما يقع اسم الكلالة على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اسم للحي الوارث، وهذا مذهب أبي بكر الصديق. وعامة العلماء الذين قالوا: إن الكلالة من دون الوالد والولد، فإنهم قالوا: الكلالة: اسم للورثة إذا لم يكن فيهم ولد ولا والد، قال بعض الأعراب: مالي كثير، ويرثني كلاله متراخ نسبه^(٣). والثاني: أنه اسم للميت، قاله ابن عباس، والسدي، وأبو عبيدة في جماعة. قال القاضي أبو يعلى: الكلالة: اسم للميت، ولحاله، وصفته، ولذلك انتصب. والثالث: أنه اسم للميت والحي، قاله ابن زيد. وفيما أخذت منه الكلالة قولان: أحدهما: أنه اسم مأخوذ من الإحاطة، ومنه الإكليل، لإحاطته بالرأس. والثاني: أنه مأخوذ من الكلال، وهو التعب، كأنه يصل إلى الميراث من بُعد وإعياء. قال الأعشى:

فَأَكَيْتُ لَا أَرْتِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ
وَلَا مِنْ حَفْصٍ حَتَّى تَزُورَ مُحَمَّدًا^(٤)

قوله: ﴿لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ يعني: من الأم بإجماعهم.

قوله تعالى: ﴿هُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ قال قتادة: ذكرهم وأثامهم فيه سواء.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَاكِرٍ﴾ قال الزجاج: «غير» منصوب على الحال، والمعنى: يوصي بها غير مضار، يعني:

للورثة.

﴿ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يريد ما حدَّ الله من فرائضه في الميراث ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في شأن الموارث ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ قرأ ابن عامر، ونافع: «ندخله» بالنون في الحرفين جميعاً، والباقون بالياء فيهما.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَمَدَّدْ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا كَالْحَلِيمَاءِ فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ﴾ فلم يرض بقسمه ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ فإن قيل: كيف قطع للعاصي بالخلود؟ فالجواب: أنه إذا رد حكم الله، وكفر به، كان كافراً مخلداً في النار.

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ النَّجْةَ مِنْ يَدَيْكُمْ فَاصْبِرْ لَهَا إِنَّهَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيكُمْ فَاسْتَشِيرُوا عَلَيْهِمْ أُزِيحَ عَنْكُمْ وَإِن تَعَدَّ اللَّهُ إِلَى يَدَيْهِمْ أَلْفَ مَوْثَ أَوْ يَبْغَلَ اللَّهُ لَعَنَ سَبِيلًا﴾^(٧)

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ النَّجْةَ﴾ قال الزجاج: «التي» تجمع اللاتي واللواتي. قال الشاعر:

مِنَ اللَّوَاتِي وَالْتِي وَاللَاتِي
زَعَمَنَ أَنِّي كَبَّرْتُ لِدَاتِي^(٨)

وتجمع اللاتي بإثبات التاء وحذفها. قال الشاعر:

(١) ذكره ابن جرير ٥٨/٨ عنه.

(٢) ذكره في «معجم مقاييس اللغة» ١٢١/٥.

(٣) قوله: متراخ: أي بعيد نسبه، من قولهم: تراخ فلان عني، أي: بعد عني. والخبر في الطبري ٦١/٨ عن العلاء بن زياد، قال: جاء شيخ إلى عمر رضي الله عنه، فقال: إنني شيخ وليس لي وارث إلا كلاله أعراب متراخ نسبه.

(٤) «ديوانه» ص ١٣٥ والبيت من قصيدة يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم مطلعها:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا
وَعَادَاكَ مَا عَادَ السُّلَيْمِ الْمُهْدَا

ولهذه القصيدة قصة مشهورة مودعها أن الأعشى خرج إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام، وقد أعد له هذه القصيدة ليمدحه بها، وكان ذلك في المدة التي بين صلح الحديبية وفتح مكة، فلما بلغ مكة، وعرفت قريش ما قصد له، لم يزالوا يفيضون إليه الإسلام، ويحدثونه بأسوأ ما يقدرون عليه، ويغرونه بالمال حتى صدوه عن وجهه بعد أن جمعوا له مائة ناقة حمراء، فقتل الأعشى راجعاً إلى البعثة، ثم لم يلبث أن مات من عامه. «الأغاني» ١٢٥/٩.

(٥) قال البغدادي في «خزانة الأدب» ٥٦٠/٢: لا أعرف ما قبله ولا فائله مع كثرة وجوده في كتب النحو، قلت: وهو في «الصحاح» و«اللسان» و«التاج» والقرطبي ٨٣/٥ وقوله: لداتي جمع: لدة، ولدة الرجل: تربه الذي ولد معه قريباً.

من اللاتي لم يحججن يبغين حِسبة
والفاحشة: الزنى في قول الجماعة. وفي قوله: ﴿فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْكُمْ﴾ قولان. أحدهما: أنه خطاب للأزواج.
والثاني: خطاب للحكام، فالمعنى: اسمعوا شهادة أربعة منكم، ذكرهما الماوردي. قال عمر بن الخطاب: إنما
جعل الله ﷻ الشهود أربعة سترأ ستركم به دون فواحشكم. ومعنى «منكم»: من المسلمين.
قوله تعالى: ﴿فَأَنبِئُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾ قال ابن عباس: كانت المرأة إذا زنت، حبست في البيت حتى تموت،
فجعل الله لها سبيلاً، وهو الجلد، أو الرجم.^(١)

﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيهِمْ مِنْكُمْ فَكَادُواهُمْ فَأَرَاتِ كَاتِبًا وَأَصْلَحًا فَأَقْرَصُوا عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَهُ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ قرأ ابن كثير: «واللذنان» بتشديد النون، و«هذان» في (طه) و(الحج) و«هاتين» في
(القصص): «إحدى ابنتي هاتين» و«فدأئك» كله بتشديد النون. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي،
بتخفيف ذلك كله، وشدد أبو عمرو «فدأئك» وحدها. وقوله: واللذنان: يعني: الزانيين. وهل هو عام، أم لا، فيه
قولان: أحدهما: أنه عام في الإيثار والثيب من الرجال والنساء، قاله الحسن، وعطاء. والثاني: أنه خاص في البكرين
إذا زنيا، قاله أبو صالح، والسدي، وابن زيد، وسفيان. قال القاضي أبو يعلى: والأول أصح، لأن هذا تخصيص بغير
دلالة.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهِمْ﴾ يعني الفاحشة. قوله: ﴿فَكَادُواهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الأذى بالكلام، والتعير، رواه
أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والسدي، والضحاك، ومقاتل. والثاني: أنه التعير، والضرب بالنعال، رواه
ابن أبي طلحة، عن ابن عباس. ﴿فَأَرَاتِ كَاتِبًا﴾ من الفاحشة ﴿وَأَصْلَحًا﴾ العمل ﴿فَأَقْرَصُوا﴾ عن أذاهما. وهذا كله كان
قبل الحد.

فصل

كان حد الزانيين، فيما تقدم، الأذى لهما، والحس للمرأة خاصة، فنسخ الحكمان جميعاً، واختلفوا بماذا وقع
نسخهما، فقال قوم: بحديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: «خلوا عني، خلوا عني، خلوا عني، قد جعل الله له
سبيلاً، الثيب بالثيب جلد مائة، ورجم بالحجارة، والبكر بالبكر جلد مائة، ونفي سنة^(٢)» وهذا على قول من يرى نسخ
القرآن بالسنة. وقال قوم: نسخ بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَجْهِهَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] قالوا: وكان قوله: ﴿وَالَّذِينَ
يَأْتِيهِمْ﴾ للبكرين، فنسخ حكمهما بالجلد، ونسخ حكم الثيب من النساء بالرجم^(٣). وقال قوم: يحتمل أن يكون النسخ
وقع بقرآن، ثم رفع رسمه، وبقي حكمه، لأن في حديث عبادة «قد جعل الله له سبيلاً» والظاهر: أنه جعل بوحى لم
تستقر تلاوته. قال القاضي أبو يعلى: وهذا وجه صحيح، يخرج على قول من لم ينسخ القرآن بالسنة. قال: ويمتنع أن
يقع النسخ بحديث عبادة، لأنه من أخبار الآحاد، والنسخ لا يجوز بذلك.

(١) البيت في «مجاز القرآن» ١٢٥/١ منسوب إلى عمر بن أبي ربيعة، وليس في «ديوانه».

(٢) أخرجه ابن جرير ٧٤/٨، وابن المنذر، والنحاس في «ناسخه»: ٩٨، والبيهقي في «سننه» من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس. وعلي بن طلحة
- كما في «التنزيه» - روى عن ابن عباس، ولم يسمع منه، ورواه أبو داود ٢٠٢/٤ من طريق عكرمة عن ابن عباس، وفي سننه علي بن واقد، قال
المنذري: وفيه مقال.

(٣) روى الإمام أحمد في «المستند» ٣١٨/٥، والشافعي في «الرسالة» ١٢٩، ٢٤٧، ومسلم في «صحيحه» ١٣١٦/٣، وأبو داود ٢٠٢/٤ عن عبادة بن
الصامت ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ «خلوا عني، خلوا عني، خلوا عني، قد جعل الله له سبيلاً. البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة
والرجم» هنا لفظ مسلم.

(٤) قال الإمام الخطابي في «معالم السنن» ٢٤١/٦: واختلف العلماء في تنزيل هذا الكلام - يريد الحديث السابق - ووجه ترتبه على الآية، وهل هو ناسخ
للآية أو مبين لها؟ ذهب بعضهم إلى النسخ، وهذا على قول من يرى نسخ الكتاب بالسنة، وقال آخرون: بل هو مبين للحكم الموعود بيانه في الآية،
فكانه قال: عقوبتهن الحس إلى أن يجعل الله له سبيلاً، فوقع الأمر بحبسهن إلى غاية، فلما انتهت مدة الحبس، وحان وقت محيئ السبيل، قال
رسول الله ﷺ «خلوا عني تفسير السبيل وبيانه»، ولم يكن ذلك ابتداء حكم منه، وإنما هو بيان أمر كان ذكر السبيل منطقياً عليه، فأبان المبهم منه،
وفصل المجمل من لفظه، فكان نسخ الكتاب بالكتاب لا بالسنة، وهذا أصوب القولين. والله أعلم.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَقُولُونَ إِنَّهُ بَشَرٌ خَلَقْنَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١٧)

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ قال الحسن: «إنما التوبة التي يقبلها الله». فأما «السوء»، فهو المعاصي، سمي سوءاً لسوء عاقبه.

قوله تعالى: ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ قال مجاهد: كل عاصٍ فهو جاهل حين معصيته^(١٨). وقال الحسن، وعطاء، وقتادة، والسدي في آخرين: إنما سُموا جهالاً لمعاصيهم، لا أنهم غير مُميزين. وقال الزجاج: ليس معنى الآية أنهم يجهلون أنه سوء، لأن المسلم لو أتى ما يجهله، كان كمن لم يوقع سوءاً، وإنما يحتمل أمرين: أحدهما: أنهم عملوه، وهم يجهلون المكروه فيه. والثاني: أنهم أقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبه مكروهة، وآثروا العاجل على الأجل، فسموا جهالاً، لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة، والعاقبة الدائمة. وفي «القريب» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التوبة في الصحة، رواه أبو صالح، عن ابن عباس، وبه قال السدي، وابن السائب. والثاني: أنه التوبة قبل معاينة ملك الموت. رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال أبو مجلز. والثالث: أنه التوبة قبل الموت، وبه قال ابن زيد في آخرين^(١٩).

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتُّ أَكْفَرًا وَلَا الَّذِينَ يَتُوبُونَ وَهُمْ كَفَّارًا أُولَئِكَ أَجْرَنَا اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَهْلُ الْعِلْمِ﴾^(٢٠)

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ في السيئات ثلاثة أقوال: أحدها: الشرك، قاله ابن عباس، وعكرمة. والثاني: أنها النفاق، قاله أبو العالية، وسعيد بن جبيرة. والثالث: أنها سيئات المسلمين، قاله سفيان الثوري، واحتج بقوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَتُوبُونَ وَهُمْ كَفَّارًا﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ في الحضور قولان: أحدهما: أنه السُّوق^(٢١)، قاله ابن عمر. والثاني: أنه معاينة الملائكة لقبض الروح، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقد روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: أنزل الله تعالى بعد هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية [النساء: ١١٦]. فحرم المغفرة على من مات مشركاً، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته [فلم يؤسهم من المغفرة]^(٢٢). فعلى هذا تكون منسوخة في حق المؤمنين.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَضْلُوهُنَّ لِيَتَّخِبْنَ عَلَيْكُمْ إِلَهُاتٍ يَدْعُونَ بِغَضَبٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَيَتَّخِبْنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا﴾^(٢٣)

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا﴾ سبب نزولها: أن الرجل كان إذا مات، كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاؤوا زوجها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، فنزلت هذه الآية. قاله ابن عباس^(٢٤). وقال في رواية أخرى: كانوا في أول الإسلام إذا مات الرجل، قام أقرب الناس منه، فيُلقي على امرأته ثوباً، فيرت نكاحها. وقال مجاهد: كان إذا توفي الرجل، فابنه الأكبر أحق بامرأته، فينكحها إن شاء، أو يُنكحها من شاء. وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته من بعده، وكان ذلك لهم في الجاهلية، فنزلت

(١) في «الطبري» ٨٩/٨ من طريق عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن قتادة قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي به، فهو جهالة عمداً كان أو غيره. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير ٨٩/٨ وابن المنذر عن أبي العالية، أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة. وسنده صحيح.

(٢) روى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» ورواه الترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب، ورواه الحاكم ٢٥٧/٤، وصححه، ووافقه الذهبي. ورواه الإمام أحمد والحاكم مطولاً من حديث عبد الرحمن البيهقي، قال البيهقي في «المجمع» ١٩٧/١٠: ورجال رجال الصحيح غير عبد الرحمن وهو ثقة.

(٣) يقال: حضرت فلاناً في السوق، وفي سياق الموت، أي: في النزح عند إقبال الموت.

(٤) الأثر أخرجه ابن جرير ١٠١/٨ والزيادة منه، وأبو داود في «تاسخه»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) الأثر رواه البخاري في «صحيحه» ١٨٤/٨، ١٨٦ ولفظه: «كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك» ورواه ابن جرير ١٠٤/٨، وأبو داود في «سننه» ٣١٠/٢.

هذه الآية^(١). قال عكرمة: واسم هذه المرأة: كيشة بنت معن بن عاصم، وكان هذا في العرب. وقال أبو مجلز: كانت الأنصار تفعله. وقال ابن زيد: كان هذا في أهل المدينة. وقال السدي: إنما كان ذلك للأولياء ما لم تسبق المرأة، فتذهب إلى أهلها، فإن ذهبت، فهي أحق بنفسها. وفي معنى قوله: ﴿أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ قولان: أحدهما: أن تروثوا نكاح النساء، وهذا قول الجمهور. والثاني: أن تروثوا أموالهن كرهًا. روى ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: كان يُلقى حميم^(٢) الميت على الجارية ثوباً، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت، فيرثها^(٣). واختلف القراء في فتح كاف «الكره» وضمها في أربعة مواضع: هاهنا، وفي (التوبة) وفي (الأحقاف) في موضعين، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو بفتح الكاف فيهن، وضمن حمزة. وقرأ عاصم، وابن عامر بالفتح في (النساء) و(التوبة)، وبالضم في (الأحقاف). وهما لغتان، قد ذكرناهما في (البقرة). وفيمن خوطب بقوله: ﴿وَلَا تَصَلُّوا﴾ ثلاثة أقوال. أحدها: أنه خطاب للأزواج، ثم في العضل الذي نهى عنه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الرجل كان يكره صحبة امرأته، ولها عليه مهر، فيحبسها، ويضربها لتفتدي، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي. والثاني: أن الرجل كان ينكح المرأة الشريفة، فلعلها لا توافقه، فيفارقها على أن لا تتزوج إلا بإذنه، ويشهد على ذلك، فإذا خطبت، فأرضته، أذن لها، وإلا عضلها، قاله ابن زيد. والثالث: أنهم كانوا بعد الطلاق يعضلون، كما كانت الجاهلية تفعل، فنهوا عن ذلك، روي عن ابن زيد أيضاً. وقد ذكرنا في (البقرة) أن الرجل كان يطلق المرأة، ثم يراجعها، ثم يطلقها كذلك أبداً إلى غير غاية يقصد إضرارها، حتى نزلت ﴿أَطْلِقْ مَرْثَاكَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. والقول الثاني: أنه خطاب للأولياء، ثم في ما نهوا عنه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الرجل كان في الجاهلية إذا كانت له قرابة قريبة، ألقى عليها ثوبه، فلم تتزوج أبداً غيره إلا بإذنه، قاله ابن عباس. والثاني: أن اليتيمة كانت تكون عند الرجل، فيحبسها حتى تموت، أو تتزوج بابه، قاله مجاهد. والثالث: أن الأولياء كانوا يمنعون النساء من التزويج، ليرثوهن، روي عن مجاهد أيضاً. والقول الثالث: أنه خطاب لورثة أزواج النساء الذين قيل لهم: لا يحل لكم أن تروثوا النساء كرهًا. كان الرجل يرث امرأة قريبة، فيعضلها حتى تموت، أو تردّ عليه صداقها. هذا قول ابن عباس في آخرين^(٤). وعلى هذا يكون الكلام متصلاً بالأول، وعلى الأقوال التي قبله يكون ذكر العضل منفصلاً عن قوله: ﴿أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾. وفي الفاحشة قولان: أحدهما: أنها النشوز على الزوج، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة في جماعة. والثاني: الزنى، قاله الحسن، وعطاء، وعكرمة في جماعة. وقد روى معمر، عن عطاء الخراساني، قال: كانت المرأة إذا أصابت فاحشة، أخذ زوجها ما ساق إليها، وأخرجها، ونسخ ذلك بالحد. قال ابن جرير: وهذا القول ليس بصحيح، لأن الحد حق الله، والافتداء حق للزوج، وليس أحدهما مبطلاً للآخر، والصحيح: أنها إذا أتت بأي فاحشة كانت، من زنى الفرج، أو بذاء اللسان، جاز له أن يعضلها، ويضيق عليها حتى تفتدي^(٥). فأما قوله: ﴿مُبَيَّنَاتٌ﴾ فقرأ ابن كثير، وأبو بكر، عن عاصم: «مُبَيَّنَاتٌ»، و«آيَاتٌ مَبِينَاتٌ» بفتح الياء فيهما جميعاً. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص، عن عاصم: بكسر الياء فيهما، وقرأ نافع، وأبو عمرو «مبينة» كسراً و«آيات مبيّنات» فتحاً. وقد سبق ذكر «العشرة».

(١) أخرجه ابن جرير ١٠٥/٨ وابن مردويه، ورجال إسناده ثقات. (٢) الحميم: القريب الذي توده ويودك، وتهتم لأمره.

(٣) في الأصل «دميمة» وما أثبتناه هو الصواب، والخبر رواه ابن جرير ١٠٩/٨.

(٤) اختار الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيره ١١٣/٨ القول الأول فقال بعد أن ذكر أقوال السلف في الآية: وأولى هذه الأقوال التي ذكرناها بالصحة في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَصَلُّوا عَلَى مَن يَتَّبِعُ مَاءً أَتَيْتُمُوهُنَّ﴾ قول من قال: نهى الله جل ثناؤه زوج المرأة عن التضييق عليها، والإضرار بها، وهو لصحتها كاره ولقرانها محب، لتفتدي منه ببعض ما آتاها من الصداق. وإنما قلنا: ذلك أولى بالصحة، لأنه لا سبيل لأحد إلى عضل امرأة إلا لأحد رجلين: إما لزوجها بالتضييق عليها، وحبسها على نفسه وهو لها كاره، مضارة منه لها بذلك، ليأخذ منها ما آتاها بافتدائها منه نفسها بذلك، أو لوليها الذي إليه إنكاحها، وإذا كان لا سبيل إلى عضلها لأحد غيرها، وكان الولي معلوماً أنه ليس مما آتاها شيئاً، فيقال: إن عضلها عن النكاح: عضلها ليهذب بعض ما آتاها، كان معلوماً أن الذي عنى الله تبارك وتعالى بنهيه عن عضلها، هو زوجها الذي له السبيل إلى عضلها ضرراً لتفتدي منه.

(٥) قال أبو جعفر: فمعنى الآية: ولا يحل لكم أيها الذين آمنوا أن تعضلوا نساءكم، فتضيّقوا عليهن، وتمنعوهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لتذهبوا ببعض ما آتيتوهن من صدقاتكم، إلا أن آتيتن بفاحشة - من زنى، أو بذاء عليكم، وخلافاً لكم فيما يجب عليهن لكم - مبنية ظاهرة، فيحل لكم حبسهن عضلهن والتضييق عليهن، لتذهبوا ببعض ما آتيتوهن من صدقات إن هن آتيتن منكم به.

قوله تعالى: ﴿فَسَمِعَ أَنَّ نَكَرَهُوا سَيِّئًا﴾ قال ابن عباس: ربما رزق الله منهما ولدًا، فجعل الله في ولدها خيراً كثيراً. وقد نذبت الآية إلى إمساك المرأة مع الكراهة لها، ونبّهت على معنيين: أحدهما: أن الإنسان لا يعلم وجوه الصلاح، فرب مكرره عاد محموداً، ومحمود عاد مذموماً. والثاني: أن الإنسان لا يكاد يجد محبوباً ليس فيه ما يكره، فليصبر على ما يكره لما يُحِبُّ^(١). وأنشدوا في هذا المعنى:

وَمَنْ لَمْ يُعْطِ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ

وَمَنْ يَتَّبِعْ جَاهِداً كُلَّ عَفْرةٍ

﴿وَلَوْلَا أَرَدْتُمْ أَسْتَيْدَالَ زَوْجٍ مَكْرًا وَءَاتَيْتُمْ إِيَّاهُمْ نَصَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ سَخِيحًا أَتَأْخُذُونَكُمْ بِهِمْ كَمَا وَإِنَّمَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَرَدْتُمْ أَسْتَيْدَالَ زَوْجٍ﴾ هذا الخطاب للرجال. والمراد: وقد سبق ذكر «الفتنار» في (آل عمران).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ سَخِيحًا﴾ إنما ذلك في حق من وطئها، أو خلا بها، وقد بيّنت ذلك الآية التي بعدها. قال القاضي أبو يعلى: وإنما خصّ النبي عن أخذ شيء مما أعطى بحال الاستبدال، وإن كان المنع عاماً، لثلا يظن ظان أنه لما عاد البضع إلى ملكها، وجب أن يسقط حقها من المهر، أو يظن ظان أن الثانية^(٢) أولى بالمهر منها، لقيامها مقامها. وفي البيهتان قولان: أحدهما: أنه الظلم، قاله ابن عباس، وابن قتبية. والثاني: الباطل، قاله الزجاج. ومعنى الكلام: أتأخذونه مباهتين آمنين.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ أي: كيف تستجيزون أخذه. وفي «الإفضاء» قولان: أحدهما: أنه الجماع، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي، ومقاتل، وابن قتبية. والثاني: الخلوة بها، وإن لم يغشها، قاله الفراء. وفي المراد بالميثاق هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الذي أخذه الله للنساء على الرجال؛ الإمساك بمعروف، أو التسريح بإحسان. هذا قول ابن عباس، والحسن، وابن سيرين، وقتادة، والضحاك، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنه عقد النكاح، قاله مجاهد، وابن زيد. والثالث: أنه أمانة الله، قاله الربيع.

﴿وَلَوْلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بَرَائِةً إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بَرَائِةً إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين، فنزلت هذه الآية^(٣): وقال بعض الأنصار: توفي أبو قيس بن الأسلت، فخطب ابنه قيس امرأته، فأتت النبي ﷺ تستأذنه، وقالت: إنما كنت أعده ولدًا، فنزلت هذه الآية. قال أبو عمر غلام ثعلب: الذي حصلنا عن ثعلب، عن الكوفيين، والمبرد عن البصريين، أن «النكاح» في أصل اللغة: اسم للجمع بين الشيتين. وقد سموا الوطء نفسه نكاحاً من غير عقد. قال الأعشى:

وَمِنْكُمْ وَحِدَةٌ غَيْرَ مَمْهُورَةٍ^(٤)

يعني المسبية الموطوءة بغير مهر ولا عقد. قال القاضي أبو يعلى: قد يطلق النكاح على العقد، قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ نَزَّ طَلَقُهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] وهو حقيقة في الوطء، مجاز في العقد، لأنه اسم للجمع، والجمع إنما يكون بالوطء، فسُمي العقد نكاحاً، لأنه سبب إليه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أنها بمعنى: بعد ما قد سلف، فإن الله يغفره، قاله الضحاك، والمفضل. وقال الأخفش: المعنى: لا تنكحوا ما نكح آباؤكم، فإنكم تعذبون به، إلا ما قد سلف، فقد وضعه الله عنكم. والثاني: أنها بمعنى: سوى ما قد سلف، قاله الفراء. والثالث: أنها بمعنى: لكن ما قد سلف فدعوه،

(١) في «صحيح مسلم» ١٠٩/٢ عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر» أو قال: «غيره» والفرك: البفض.

(٢) في النسخة الأحمدية: «البائنة» وهو خطأ. (٣) أخرجه ابن جرير ١٣٣/٨ وسنده حسن.

(٤) «ديوانه» ص ٧٥ وعجزه: وأخرى يقال له: فادعا. يقول: كم في بيته من سيئة قد أحرزها لم يدفع فيها مهراً، وأخرى يطلب أهلها أن يفتدوها بالمال.

قاله قطرب. وقال ابن الأنباري: لكن ما قد سلف، فإنه كان فاحشة. والرابع: أن المعنى: ولا تنكحوا كنكاح آبائكم النساء، أي: كما نكحوا على الوجوه الفاسدة التي لا تجوز في الإسلام إلا ما قد سلف في جاهليتيكم، من نكاح لا يجوز ابتداء مثله في الإسلام، فإنه معفو لكم عنه، وهذا كقول القائل: لا تفعل ما فعلت، أي: لا تفعل مثل ما فعلت، ذكره ابن جرير^(١). والخامس: أنها بمعنى «الواو» فتقديرها: ولا ما قد سلف، فيكون المعنى: اقطعوا ما أنتم عليه من نكاح الآباء، ولا تبتدئوا، قاله بعض أهل المعاني. والسادس: أنها للاستثناء، فتقدير الكلام: لا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء بالنكاح الجائز [الذي كان عقده بينهم] إلا ما قد سلف منهم بالزنى، والسفاح، فإنهن حلال لكم، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ يعني النكاح، و«الفاحشة»: ما يفحش ويقبح. و«المقت»: أشد البغض. وفي المراد بهذا «المقت» قولان. أحدهما: أنه اسم لهذا النكاح، وكانوا يستمون نكاح امرأة الأب في الجاهلية: مقتاً، ويستمون الولد منه: «المقتي». فأعلموا أن هذا الذي حرم عليهم [من نكاح امرأة الأب] لم يزل منكرًا [في قلوبهم] ممقوتًا عندهم. هذا قول الزجاج. والثاني: أنه يوجب مقت الله لفاعله، قاله أبو سليمان الدمشقي. قوله: ﴿وَسَاءَ سَكِينًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: قبح هذا الفعل طريقًا.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَخَنَكُمُ وَوَعَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْتُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ بَيْنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُنَّ يَسَاءُكُمْ وَرَبِّبَتُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ إِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا رَحِيمًا﴾^(١٣)

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ قال الزجاج: الأصل في أمهات: أمات، ولكن الهاء زيدت مؤكدة، كما زادوها في: أهرقت الماء، وإنما أصله: أرتقت.

قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْتُمْ﴾ إنما سُمِّين أمهات، لموضع الحرمة. واختلفوا: هل يعتبر في الرضاع العدد، أم لا؟ فنقل حنبل، عن أحمد؛ أنه يتعلق بالتحريم بالرضعة الواحدة، وهو قول عمر، وعلي، وابن عباس، وابن عمر، والحسن، وطاووس، والشعبي، والنخعي، والزهري، والأوزاعي، والثوري، ومالك، وأبي حنيفة وأصحابه^(٢). ونقل محمد بن العباس، عن أحمد: أنه يتعلق بالتحريم بثلاث رضعات^(٣). ونقل أبو الحارث، عن أحمد: لا يتعلق بأقل من خمس رضعات متفرقات، وهو قول الشافعي^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْتُمْ﴾ أمهات النساء: يحرمُ بنفس العقد على البنت، سواء دخل بالبنت، أو لم يدخل، وهذا قول عمر، وابن مسعود، وابن عمر، وعمران بن حصين، ومسروق، وعطاء، وطاووس، والحسن، والجمهور. وقال علي عليه السلام في رجل طلق امرأته قبل الدخول: له أن يتزوج أمها^(٥)، وهذا قول مجاهد، وعكرمة.

(١) واختاره ووصفه بأنه أولى الأقوال بالصواب، انظر «تفسيره» ١٣٧/٨.

(٢) لعموم قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْتُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ بَيْنَ الرَّضْعَةِ﴾ وقوله ﷺ: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة» رواه مسلم ١٠٦٨/٢.

(٣) لما ثبت في «صحيح مسلم» ١٠٧٣/٢ عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحرم المصاة والمصتان» وعن أم الفضل قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تحرم الرضعة أو الرضعتان أو المصاة أو المصتان» وفي لفظ آخر: «لا تحرم الإملجة والإملجان» رواه مسلم ١٠٧٤/٢.

(٤) ذكر ابن قدامة المقدسي في «المغني» ١٩٢/٩ الأقوال الثلاثة عن الإمام أحمد، وقال: إن الذي يتعلق به التحريم خمس رضعات فصاعداً، هذا الصحيح في المذهب، لما روى مسلم ١٠٧٥/٢ عن عائشة أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وعن فيما يقرأ من القرآن» وفي رواية الترمذي ١٣٧/١ «فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك» وفي حديث سهلة بنت سهيل أن رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع سالماً مولى أبي حنيفة خمس رضعات والآية فسرتها السنة، وبينت الرضاعة المحرمة. وصرح ما رواه يعقوب بن مهران ما رواه المخالف، فنجمع بين الأخبار، ونحملها على الصريح الذي رواه.

(٥) رواه ابن جرير الطبري ١٤٥/٨، وفي سننه غلاص بن عمرو الهجري، نص البخاري في «التاريخ الكبير» بأنه لم يسع من علي، وأن حديثه عنه من صحفة كانت عنده، فمن أجل ذلك قال القرطبي في هذا الأثر: وحديث غلاص بن علي لا تقوم به حجة، ولا تصح روايته عند أهل العلم بالحديث، والصحيح عنه مثل قول الجماعة.

قوله تعالى: ﴿رَبِّبْكُمْ﴾ الرببية: بنت امرأة الزوج من غيره. ومعنى الرببية: مربوبة، لأن الرجل يربّيها، وخرج الكلام على الأعم من كون التربية في حجر الرجل، لا على الشرط^(١). قوله: ﴿وَحَلَّلْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ قال الزجاج: الحلال: الأزواج. وحليلة: بمعنى محلّة، وهي مشتقة من الحلال. وقال غيره: سُميت بذلك، لأنها تحل معه أينما كان. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: الحليل: الزوج، والحليلة: المرأة، وسُمّي بذلك، إما لأنهما يحلان في موضع واحد، أو لأن كل واحد منهما يحال صاحبه، أي: ينازله، أو لأن كل واحد منهما يحل^(٢) إزار صاحبه. قوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أُمَّتِكُمْ﴾ قال عطاء: إنما ذكر الأصلاب، لأجل الأدياء. والكلام في قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدَّ سَكَتٌ﴾ على نحو ما تقدم في الآية التي قبلها. وقد زادوا في هذا قولين آخرين: أحدهما: إلا ما قد سلف من أمر يعقوب عليه السلام، لأنه جمع بين أم يوسف وأختها، وهذا مروى عن عطاء، والسدي، وفيه ضعف لوجهين: أحدهما: أن هذا التحريم يتعلق بشريعتنا، وليس كل الشرائع تتفق، ولا وجه للعفو عنا فيما فعله غيرنا. والثاني: أنه لو طولب قائل هذا بتصحيح نقله، لَعَسَ عليه. والقول الثاني: أن تكون فائدة هذا الاستثناء أن العقود المتقدّمة على الأختين لا تنسخ، ويكون للإنسان أن يختار إحداهما، ومنه حديث فيروز الديلمي قال: أسلمت وعندي أختان، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله فقال: «طلق إحداهما» ذكره القاضي أبو يعلى^(٣).

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْرَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَسْتَفُوا بِأَمْوَالِكُمْ مَحْصِنِينَ عِزِّ مُسْتَفِيحٍ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَفَاوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ قَرِيبَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا زَوَّجْتُمْ بِهِ مِنْ بَدَنِ الْقَرِيبَةِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أما سبب نزولها، فروى أبو سعيد الخدري قال: أصبنا سبانيا يوم أوطاس لهن أزواج، فكرهنا أن نفع عليهن، فسالنا النبي صلى الله عليه وآله، فنزلت هذه الآية، فاستحللناهن^(٤). وأما خلاف القرآء، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحزمة بفتح الصاد في كل القرآن، وفتح الكسائي الصاد في هذه وحدها، وقرأ سائر القرآن بالكسر، و«المحصنات» و«محصنات». قال ابن قتيبة: والإحصان: أن يحمي الشيء، ويمنع منه، فالمحصنات [من النساء]: ذوات الأزواج، لأن الأزواج أحصنوهن، ومنعوا منهن. [قال الله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾] والمحصنات: الحرائر وإن لم يكن متزوجات، لأن الحرّة تُحصن وتُحصن، وليست كالامة، [قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾] [النساء: ٢٥] قال: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَدَابِ﴾ [النساء: ٢٥] يعني: الحرائر] والمحصنات: العفائف [قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ﴾] [النور: ٤] يعني العفائف. وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَبَتْ عَيْرَكُنَّ الْآيَاتِ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحریم: ١٢] أي: عفت^(٥). وفي المراد بالمحصنات هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: ذوات الأزواج، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن، وابن جبير، والنخعي، وابن زيد، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: العفائف: فإنهن حرام على الرجال إلا بعقد نكاح، أو ملك يمين. هذا قول عمر بن الخطاب، وأبي العالية، وعطاء، وعبيدة، والسدي.

(١) قال الإمام الطحاوي: وإضافتهن إلى الحجور إنما ذلك على الأغلب مما يكون عليه الرقاب، لا أنهن لا يحرمن إذ لم يكن كذلك.

(٢) في نسخة الأحمديّة «محل» وكذلك جاءت في «اللسان».

(٣) رواه الإمام أحمد ٢٢٢/٤ وأبو داود ١٥٨/٣ والترمذي ٤٣٦/٣ وابن ماجه ٦٢٧/١ عن الضحاک بن فيروز عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، إنني أسلمت وتحتي أختان! قال: «طلق إيهما شئت» ولفظ الترمذي: «اختر إيهما شئت» وقال الترمذي: حديث حسن. وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» ٢٠٥/٣: وفي سنده مقال، فإنه من رواية ابن لهيعة عن أبي وهب. وقال ابن القيم في «تهذيب السنن» ١٥٨/٣: هذا الحديث يرويه أبو وهب الجشاني عن الضحاک بن فيروز عن أبيه، قال البخاري: في إسناد هذا الحديث نظر، ووجه قوله: إن أبا وهب والضحاک مجهول حالهما، وفي يحيى بن أيوب: ضعيف. وقال الشوكاني: حديث الضحاک أخرجه أيضاً الشافعي، وصححه ابن حبان، والدارقطني، والبيهقي، وحسنه الترمذي، وأعله البخاري والعليني.

وفيروز الديلمي روى هذا الحديث، كان من جملة الأمراء باليمن الذين لولا قتل الأسود العنسي لعمه الله.

(٤) المسند ٧١/٣، ومسلم ١٠٧٩/٢، والترمذي ٨٦/٤، وأبو داود ٣٣٢/٢، والنسائي ١١٠/٦، والبيهقي ١٦٧/٧.

(٥) «مشكل القرآن» ٣٩١، وما بين معقنين منه.

والثالث: الحرائر، فالمعنى: أنهن حرام بعد الأربع اللواتي ذُكِرْنَ في أول السورة، روي عن ابن عباس، وعبيدة. فعلى القول الأول في معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: إلا ما ملكت أيمانكم من السبايا في الحروب، وعلى هذا تأوَّل الآية علي، وعبد الرحمن بن عوف، وابن عمر، وابن عباس، وكان هؤلاء لا يرون بيع الأمة طلاقاً. والثاني: إلا ما ملكت أيمانكم من الإمامة ذوات الأزواج، بسبي أو غير سبي، وعلى هذا تأوَّل الآية ابن مسعود، وأبي بن كعب، وجابر، وأنس، وكان هؤلاء يرون بيع الأمة طلاقاً. وقد ذكر ابن جرير، عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن أنهم قالوا: بيع الأمة طلاقها، والأول أصح، لأن النبي ﷺ خير بريرة إذ أعتقها عائشة، بين المقام مع زوجها الذي زوّجها منه سادتها في حال رقها، وبين فراقه، ولم يجعل النبي ﷺ عتق عائشة إياها طلاقاً، ولو كان طلاقاً لم يكن لتخييره إياها معنى. ويدل على صحة القول الأول ما ذكرناه من سبب نزول الآية^(١). وعلى القول الثاني: العفاف حرام إلا بملك، والملك يكون عقداً، ويكون ملك يمين. وعلى القول الثالث: الحرائر حرام بعد الأربع إلا ما ملكت أيمانكم من الإمامة، فإنهن لم يُحصرن بعد.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على التوكيد، محمول على المعنى، لأن معنى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾: كتب الله عليكم هذا كتاباً، قال: ويجوز أن ينتصب على جهة الأمر، ويكون «عليكم» مفسراً له، فيكون المعنى: الزموا كتاب الله. قال: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَدَّاعٌ لَكُمْ﴾ أي: ما بعد هذه الأشياء، إلا أن السنة قد حرمت تزويج المرأة على عمتها، وتزويجها على خالتها^(٢)، وقرأ ابن السميع، وأبو عمران: «كتب الله عليكم» بفتح الكاف، والثاء، والباء، من غير ألف، ورفع الهاء. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: وأحلّ بفتح الحاء، وقرأ حمزة، والكسائي: بضم الألف.

فصل

قال شيخنا علي بن عبيد الله: وعامة العلماء ذهبوا إلى أن قوله: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَدَّاعٌ لَكُمْ﴾ تحليل ورد بلفظ العموم، وأنه عموم دخله التخصيص، والمخصص له نهي النبي ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها، أو على خالتها. وليس هذا على سبيل النسخ. وذهب طائفة إلى أن التحليل المذكور في الآية منسوخ بهذا الحديث^(٣).

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَتَزَوَّجُوا بِأُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: تطلبوا إنا بصدقات في نكاح، أو ثمن في ملك ﴿مُحْصِنِينَ﴾ قال ابن قتيبة: متزوّجين، وقال الزجاج: عاقدين التزويج، وقال غيرهما: متعقّفين غير زانين. والسفاح: الزنى، قال ابن قتيبة: أصله من سفحت القرية: إذا صببته، فُسِّمِي الزنى سفاحاً، لأنه [يسافح] يصب النطفة، وتصب المرأة النطفة. وقال ابن فارس: السفاح: صب الماء بلا عقد، ولا نكاح، فهو كالشيء يسفح ضياعاً.

قوله تعالى: ﴿فَمَا أَسْمَتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ أَجْرُهُنَّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الاستمتاع في النكاح بالمهور، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجمهور. والثاني: أنه الاستمتاع إلى أجل مُسمًى من غير عقد نكاح. وقد روي عن

(١) قال ابن كثير: ٤٧٤/١: وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً من زوجها، أخذاً بعموم هذه الآية، وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً، فقرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقاً لها، لأن المشتري نائب عن البائع، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة، وباعها مسلوقة عنها، واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخزوم في «الصحيحين» وغيرهما، فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها، ولم ينسخ نكاحها من زوجها من غير ما خيراها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ، وقصتها مشهورة، فلو كان بيع الأمة طلاقاً كما قال هؤلاء، ما خيراها النبي ﷺ، فلما خيراها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية الميسيات فقط، والله أعلم.

(٢) حديث النهي رسول الله ﷺ أن يجمع الرجل بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها، رواه البخاري ١٠٧/٢٠، بشرح العيني، ومسلم ١٠٢٩/٢ وغيرهما عن أبي هريرة.

(٣) والأول هو الصواب، لأن قوله تعالى: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَدَّاعٌ لَكُمْ﴾ عام مخصوص بمحرمات دلت عليها دلالات أخر، فمن ذلك ما صح عن النبي ﷺ من النهي عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها. وقد حكى الترمذي المنع من ذلك عن كافة أهل العلم، وقال: لا نعلم بينهم اختلافاً في ذلك، ومن ذلك نكاح المعتدة، ومن ذلك أن من كان في نكاحه حرة لا يجوز له نكاح الأمة، ومن ذلك القادر على الحرة لا يجوز له نكاح الأمة، ومن ذلك من عنده أربع زوجات لا يجوز له نكاح الخامسة، ومن ذلك الملاعبة فإنها محرمة على الملاعن أبداً. فالآية مما نزل عاماً، ودلت السنة ومواضع من التزويل على أنها مخصصة بغيرها.

ابن عباس: أنه كان يفتي بجواز المتعة، ثم رجع عن ذلك وقد تكلف قوم من مفسري القرآن، فقالوا: المراد بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلف لا يحتاج إليه، لأن النبي ﷺ أجاز المتعة، ثم منع منها، فكان قوله منسوخاً بقوله^(١). وأما الآية، فإنها لم تتضمن جواز المتعة. لأنه تعالى قال فيها: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِينٍ﴾ فدل ذلك على النكاح الصحيح. قال الزجاج: ومعنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَمْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فما نكحتموهن على الشريطة التي جرت، وهو قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِينٍ﴾ أي: عاقدين التزويج ﴿فَتَأْوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن. ومن ذهب في الآية إلى غير هذا، فقد أخطأ، وجعل اللغة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أن معناه: لا جناح عليكم فيما تركته المرأة من صداقها، ووهبه لزوجها، هذا مروى عن ابن عباس، وابن زيد. والثاني: ولا جناح عليكم فيما تراضيت به من مقام، أو فرقة بعد أداء الفريضة، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: ولا جناح عليكم أيها الأزواج إذا أعسرتم بعد الفرض لنسائكم فيما تراضيت به من أن ينقصنكم، أو يبرئنكم، قاله أبو سليمان التيمي. والرابع: لا جناح عليكم إذا انقضى أجل المتعة أن يزدنكم في الأجل، وتزيدونهن في الأجر من غير استبراء، قاله السدي، وهو يعود على قصة المتعة. والخامس: لا جناح عليكم أن تهب المرأة للرجل مهرها، أو يهب هو للتي لم يدخل بها نصف المهر الذي لا يجب عليه. قاله الزجاج. والسادس: أنه عام في الزيادة، والنقصان، والتأخير، والإبراء، قاله القاضي أبو يعلى^(٢).

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْصَحَ الْمُحْصَنَاتِ فَمَنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآئِهِنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَنْتَ بِنِكَاحِهِ قَلْبَتَيْنِ يَضُفُّ مَا عَلَّ الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْمَدَائِبِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْمَنَّتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ «الطول» الغنى والسعة في قول الجماعة. «المحصنات»: الحرائر. قال-

(١) عامة فقهاء الأمصار، وجماهير السلف والخلف على تحريم المتعة، وأنها منسوخة بعد الترخيص بها، وقد ثبت النسخ من حديث جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، فقد أخرج مسلم ١٠٢٥/٢ من حديث سيرة الجهنبي أنه كان مع رسول الله ﷺ، قال: فإيا أيها الناس إني قد كنت أفنت في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، وفي لفظ له قال: أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة، ثم لم نخرج منها حتى نهانا عنها.

وفي البخاري ١١١/٢٠ بشرح العيني، ومسلم ١٠٢٧/٢ والترمذي ١٣٣/١، وابن ماجه ٦٣٠/١ عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ نهى عن نكاح المتعة يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الأهلية. قال الترمذي: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، وإنما روي عن ابن عباس شيء من الرخصة في المتعة، ثم رجع عن قوله حيث أخبر عن النبي ﷺ، وأمر أكثر أهل العلم على تحريم المتعة، وهو قول الثوري وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق. وروى مسلم ١٠٢٣/٢ عن سلمة بن الأكوع قال: رخص رسول الله ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثاً، ثم نهى عنها.

وأخرج ابن ماجه ٦٣١/١ عن ابن عمر قال: لما ولي عمر بن الخطاب خطب الناس فقال: إن رسول الله ﷺ أذن لنا في المتعة ثلاثاً، ثم حرمها، والله لا أعلم أحداً يتمتع وهو محصن إلا رجعت به بالحجارة. قال الحافظ في «التلخيص» ٢٩٤/٢: إسناد صحيح.

وروى الطبراني في «الأوسط» بسند قوي كما قال الحافظ من طريق إسحاق بن راشد عن الزهري عن سالم قال: أتني ابن عمر فقيل له: إن ابن عباس يأمر بنكاح المتعة، قال: معاذ الله ما أظن ابن عباس يفعل هذا، فقيل: بلى، قال: وهل كان ابن عباس على عهد رسول الله ﷺ إلا غلاماً صغيراً، ثم قال ابن عمر: نهانا عنها رسول الله ﷺ وما كنا مسافحين. وذكره الهيثمي في «المجموع» ٢٦٥/٤، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله رجال الصحيح، خلا المعافى بن سليمان وهو ثقة.

وروى الدارقطني في «سننه» ٢٩٨/٢ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: حرم أو هدم المتعة النكاح والطلاق والعدة والميراث. قال الحافظ في «التلخيص»: وإسناده حسن، وله شاهد صحيح أخرجه البيهقي في «السنن» ٢٠٧/٧ عن سعيد بن المسيب. وقال الشوكاني في «نبيل الأوطار» ٦/٢٧٤: ونحن متعبدون بما بلغنا عن الشارع، وقد صح لنا عنه التحريم المؤبد، ومخالفة طائفة من الصحابة له غير قاذحة في حجته، ولا قائمة لنا بالمعذرة عن العمل به، كيف والجمهور من الصحابة قد حفظوا التحريم، وعملوا به، ورووه لنا.

(٢) قال أبو جعفر الطبري بعد أن ذكر أقوال السلف والعلماء: ١٨١/٨: وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ولا حرج عليكم أيها الناس فيما تراضيت به أنفسكم ونسائكم من بعد إعطائهن أجورهن على النكاح الذي جرى بينكم وبينهن من حط ما وجب لهن عليكم أو إبراء أو تأخير ووضع، وذلك نظير قوله جل ثناؤه: ﴿وَأَمَّا الْبُيُوتُ الْمَسْكُونَةُ فَحَقَّ لِلنَّاسِ أَنْ يَبْنَوا عَلَيْهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ عَنْ نَهْيِ رَبِّهِمْ كَمَا لَكُمُ اللَّعْنَةُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ﴾ [النساء: ٤]. فأما الذي قاله السدي، فقول له، لفساد القول: بإحلال جماع امرأة بغير نكاح ولا ملك بيمين.

الزجاج: والمعنى: من لم يقدر على مهر الحرة، يقال: قد طال فلان طولاً على فلان، أي: كان له فضل عليه في القدرة. والمراد بالفتيات هاهنا: المملوكات، يقال للأمة: فتاة، وللعبد: فتى، وقد سُمي بهذا الاسم من ليس بمملوك. قرأت على شيخنا الإمام أبي منصور اللغوي قال: المتفتية: الفتاة والمراهقة، ويقال للجارية الحادثة: فتاة، وللغلام: فتى. قال الفتيبي: وليس الفتى بمعنى الشاب والحدث، إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال^(١). فأما ذكر الإيمان، فشرط في إياحتهن، ولا يجوز نكاح الأمة الكتابية، هذا قول الجمهور، وقال أبو حنيفة: يجوز.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ قال الزجاج: معناه: اعملوا على ظاهركم في الإيمان، فإنكم متعبدون بما ظهر من بعضكم لبعض^(٢). قال: وفي قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ يَءْتِنُ﴾ وجهان: أحدهما: أنه أراد النسب، أي: كلكم ولد آدم. ويجوز أن يكون معناه: دينكم واحد، لأنه ذكر هاهنا المؤمنات. وإنما قيل لهم ذلك، لأن العرب كانت تطعن في الأنساب، وتفخر بالأحساب، وتُسَمَّى ابن الأمة: الهجين، فأعلم الله ﷻ أن أمر العبيد وغيرهم مستو في باب الإيمان، وإنما كُرِه التزويج بالأمة، وحُرِّمَ إذا وَجَدَ إلى الحرة سبيلاً، لأن وُلْدَ الأمة من الحرة يصيرون رقيقاً، ولأن الأمة ممتحنة في عشرة الرجال، وذلك يشق على الزوج. قال ابن الأنباري: ومعنى الآية: كلكم بنو آدم، فلا يتداخلكم شُموخ وأنفة من تزوج الإماء عند الضرورة. وقال ابن جرير: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات [المؤمنات]، فلينكح بعضكم من بعض، أي: لينكح هذا فتاة هذا.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ﴾ يعني: الإماء ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، أي: سادتهن. و«الأجور»: المهور. وفي قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ قولان: أحدهما: أنه مقدم في المعنى، فتقديره: انكحوهن بإذن أهلهن بالمعروف، أي: بالنكاح الصحيح: ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾. والثاني: أن المعنى: وآتوهن أجورهن بالمعروف، كمهور أمثالهن. قال ابن عباس: «محصنات»: عفاف غير زوان ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ يعني: أخلاء، كان الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنى، ويستحلون ما خفي. وقال في رواية أخرى: «السافحات»: المعلنات بالزنى. و«المتخذات أخداناً»: ذات الخليل الواحد. وقال غيره: كانت المرأة تتخذ صديقاً تزني معه، ولا تزني مع غيره.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْبَبْتَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «أحصب» مضمومة الألف. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، والمفضل عن عاصم: بفتح الألف، والصاد. قال ابن جرير: من قرأ بالفتح، أراد: أسلمن، فصرن ممنوعات الفروج عن الحرام بالإسلام، ومن قرأ بالضم، أراد: فإذا تزوجن، فصرن ممنوعات الفروج من الحرام بالأزواج. فأما «الفاحشة»، فهي الزنى، و«المحصنات»: الحرائر، و«العذاب»: الحد. قال القاضي أبو يعلى: وليس الإسلام والتزويج شرطاً في إيجاب الحد على الأمة، بل يجب وإن عُدما، وإنما شرط الإحصان في الحد، لثلا يتوهم متوهم أن عليها نصف ما على الحرة إذا لم تكن محصنة، وعليها مثل ما على الحرة إذا كانت محصنة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى إباحتهم تزويج الإماء. وفي «العتت» خمسة أقوال: أحدها: أنه الزنى، قاله ابن

(١) وتام كلام ابن قتيبة كما في «اللسان»: مادة: فتى: يدل على ذلك قول الشاعر:

ليس الفتى بمنعم الشبان

إذ الفتى حُمائل كل ملأمة

وقال ابن هرمة:

خَلَقْتُ وَجِيبَ قَمِيصِهِ مَرْقُوعٌ

فَدِيدُكَ الشَّرْفَ الْفَتَى وَرِوَاوُهُ

وقال الأسود بن يعفر:

قَتَلْتُ وَنَفْسِيأُ بِعَمْدِ حَسَنٍ تَأْدِي

يَا بِعَمْدِ زَيْدٍ فِي فِتْنَةٍ فَرَقُوا

لَوْجَدْتِ فِيهِمْ أَمْرَةَ الْمُؤَدِّادِ

فِي آلِ غَرْفٍ لَوْ بَغِيَّتِ لِي الْأَمَى

وَيَزِيدُ وَإِيْدَهُمْ عُلَى الرَّؤَسَادِ

فَتَخَيَّرُوا الْأَرْضَ الْفَضَاءَ لِعَمْرِهِمْ

(٢) في «البحر المحيط»: ٢٢١/٣: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ لما خاطب المؤمنين بالحكم الذي ذكره من تجوز نكاح عادم طول الحرة المؤمنة للأمة المؤمنة، نيه على أن الإيمان هو وصف باطن، وأن المطلق عليه هو الله، فالمعنى: أنه لا يشترط في إيمان الفتيات أن يكونوا عالمين بذلك العلم اليقيني، لأن ذلك إنما هو الله تعالى، فيكفي من الإيمان من إظهاره، فمن كانت مظاهرة للإيمان فنكاحها صحيح.

عباس، والشعبي، وابن جبير، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد، ومقاتل، وابن قتيبة. والثاني: أنه الهلاك، ذكره أبو عبيدة، والزجاج. والثالث: لقاء المشقة في محبة الأمة، حكاه الزجاج. والرابع: أن العنت هاهنا: الإثم. والخامس: أنه العقوبة التي تعنته، وهي الحد، ذكرهما ابن جرير الطبري^(١). قال القاضي أبو يعلى: وهذه الآية تدل على إباحة نكاح الإمامة المؤمنات بشرطين: أحدهما: عدم طول الحرّة. والثاني: خوف الزنى، وهذا قول ابن عباس، والشعبي، وابن جبير، ومسروق، ومكحول، وأحمد، ومالك، والشافعي. وقد روي عن علي، والحسن، وابن المسيّب، ومجاهد، والزهري، قالوا: ينكح الأمة، وإن كان موسراً، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس والجماعة: عن نكاح الإمام، وإنما ندب إلى الصبر عنه، لاسترقاق الأولاد.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَتَّبِعَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَتَّبِعَ لَكُمْ﴾ اللام بمعنى «أن» وهذا مذهب جماعة من أهل العربية، واختاره ابن جرير، ومثله ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعُوذَ بَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥] ﴿وَأْمَرْنَا لِنُسَلِّمَ﴾ [الأنعام: ٧١] ﴿رَبُّيُونُ يَلْتَفِتُوا﴾ [الصف: ٢٨]. والبيان من الله تعالى بالنص تارة، وبدلالة النص أخرى. قال الزجاج: «والسُنَنُ»: الطُّرُق، فالمعنى يدلكم على طاعته، كما دل الأنبياء وتابعيهم. وقال غيره: معنى الكلام: يريد الله ليُتَّبِعَ لكم سُنَنَ من قبلكم من أهل الحق والباطل، لتجتنبوا الباطل وتجيئوا الحق، ويهديكم إلى الحق.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُبَيِّلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزجاج: يريد أن يدلكم على ما يكون سبباً لتوبتكم. وفي الذين اتبعوا الشهوات أربعة أقوال: أحدها: أنهم الزناة، قاله مجاهد، ومقاتل، والثاني: اليهود والنصارى، قاله السدي. والثالث: أنهم اليهود خاصة، ذكره ابن جرير. والرابع: أهل الباطل، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُبَيِّلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي: عن الحق بالمعصية.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ التخفيف: تسهيل التكليف، أو إزالة بعضه. قال ابن جرير: والمعنى: يريد أن يُيسِّرَ لكم بإذنه في نكاح الفتيات المؤمنات لمن لم يستطع طولاً لحرّة. وفي المراد بضعف الإنسان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الضعف في أصل الخلقة. قال الحسن: هو أنه خُلِقَ من ماء مهين. والثاني: أنه قلة الصبر عن النساء، قاله طاووس، ومقاتل. والثالث: أنه ضعف العزم عن قهر الهوى، وهذا قول الزجاج، وابن كيسان.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحُكْمٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ الباطل: ما لا يحل في الشرع.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحُكْمٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «تجارة» بالرفع. وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم بالنصب، وقد بينا العلة في آخر (البقرة).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه على ظاهره، وأن الله حرم على العبد قتل نفسه، وهذا الظاهر^(٢). والثاني: أن معناه: لا يقتل بعضكم بعضاً، وهذا قول ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقادة، والسدي، ومقاتل، وابن قتيبة. والثالث: أن المعنى: لا تكلفوا أنفسكم عملاً ربّما أدى إلى قتلها وإن

(١) قال الطبري: والصواب من القول في قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ ذلك لمن خاف منكم ضرراً في دينه ويده.

(٢) روى الإمام أحمد في «المسند» ١٣/١٨٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديده بيده يجرأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسم نفسه بيده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه، فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً» ورواه البخاري ٢١١/١٠ ومسلم ١٠٣/١ وغيرهما.

كان فرضاً، وعلى هذا تأولها عمرو بن العاص في غزاة ذات السلاسل حيث صلى بأصحابه جنباً في ليلة باردة، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ، قال له: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فقال: يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة، وأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فضحك رسول الله ﷺ^(١). والرابع: أن المعنى: لا تغفلوا عن حظ أنفسكم، فمن غفل عن حظها، فكأنما قتلها، هذا قول الفضيل بن عياض. والخامس: لا تقتلوا بارتكاب المعاصي.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ تَأْرًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: «﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ في المشار إليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قتل النفس، قاله ابن عباس، وعطاء. والثاني: أنه عائد إلى كل ما نهى الله عنه من أول السورة إلى هاهنا، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: قتل النفس، وأكل الأموال بالباطل، قاله مقاتل.

﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُهَوَّنُ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مِثْقَالَ حَبِّ كَرِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: «﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُهَوَّنُ عَنْهُ﴾ اجتناب الشيء: تركه جانباً. وفي الكبائر أحد عشر قولاً: أحدها: أنها سبع، فروى البخاري، ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»^(٢). وقد روي هذا الحديث من طريق آخر عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «الكبائر سبع، الإشراك بالله أولهن، وقتل النفس بغير حقها، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم بداراً أن يكبروا، والفرار من الزحف، ورمي المحصنات، وانقلاب إلى أعرابية بعد هجرة»^(٣). وروي عن علي ﷺ قال: هي سبع، فعذ هذه^(٤). وروي عن عطاء أنه قال: هي سبع، وعدّ هذه، إلا أنه ذكر مكان الإشراك

(١) رواه الإمام أحمد في «المستد» ٢٠٣/٤، وأبو داود ١٤١/١، ورواه البخاري تعليقاً ٣٨٥/١، قال الحافظ ابن حجر: هذا التعليق وصله أبو داود والحاكم من طريق يحيى بن أيوب عن يزيد بن أبي حبيب، عن عمران بن أبي أنس، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عمرو بن العاص، قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت أن اغتسل فأهلك تيممت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فأخبرته بالذي معني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً. ورواه أيضاً من طريق عمرو بن الحارث عن يزيد بن أبي حبيب، لكن زادا بين عبد الرحمن بن جبير وعمرو بن العاص رجلاً، وهو أبو قيس مولى عمرو بن العاص، وقال في القصة: «فغسل مغابته وتوضأ» وقال فيه: «لو اغتسلت مت» وذكر أبو داود أن الأوزاعي روى عن حسان بن عطية هذه القصة فقال فيها: تيمم. ورواه عبد الرزاق من وجه آخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ولم يذكر التيمم. والسياق الأول أليق بمراد المصنف - يعني البخاري - وإسناده قوي، لكنه علقه بصيغة التمرض، لكونه اختصره. وقال البيهقي: يمكن الجمع بين الروايات بأنه توضأ، ثم تيمم عن اليائي، وقال النووي: وهو متعين.

وقال ابن القيم في «زاد المعاد» ١٥٨/٢: اختلفت الرواية عنه، فروى عنه فيها أنه غسل مغابته، وتوضأ وضوءه للصلاة، ثم صلى بهم، ولم يذكر التيمم، وكان هذه الرواية أقوى من رواية التيمم. قال عبد الحق الإشبيلي - وقد ذكرها وذكر رواية التيمم قبلها - ثم قال: وهذا أوصل من الأول، لأنه عن عبد الرحمن بن جبير المصري عن أبي قيس مولى عمرو بن عمرو، والأولى التي فيها التيمم من رواية عبد الرحمن بن جبير عن عمرو بن العاص لم يذكر بينهما أبا قيس.

(٢) البخاري ٢٩٤/٥، ١٦٠/١٢، ومسلم ٩٢/١ والموبقات: المهلكات، قال المهلب: سميت بذلك، لأنها سبب لإهلاك مرتكبيها.

(٣) قال الحافظ ابن حجر ١٦٠/١٢: المراد بالموبقة - يريد حديث البخاري «اجتنبوا السبع الموبقات» - هنا الكبيرة، كما ثبت في حديث أبي هريرة من وجه آخر أخرجه الزوار وابن المنذر من طريق عمر بن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رفعه: «الكبائر الشرك بالله وقتل النفس...» الحديث مثل رواية أبي الفيث إلا أنه ذكر بدل «السحر» الانتقال إلى الأعرابية بعد الهجرة.

قلت: ومعنى هذه الجملة: الرجوع إلى سكنى البادية كالأعراب.

(٤) رواه ابن جرير ٢٣٥/٨، ولفظه: عن محمد بن سهل بن أبي حثمة عن أبيه قال: إني لفي هذا المسجد مسجد الكوفة، وعلي يخطب الناس على المنبر، فقال: يا أيها الناس إن الكبائر سبع، فأصاخ الناس فأعادها ثلاث مرات، ثم قال: ألا تسألوني عنها؟ قالوا: يا أمير المؤمنين ما هي؟ قال: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف، والتعرب بعد الهجرة. فقلت لأبي: يا أبا ما التعرب بعد الهجرة؟ كيف لحق هاهنا؟ فقال: يا بني وما أعظم من أن يهاجر الرجل حتى إذا وقع سهمه في الفبي، ووجب عليه الجهاد، خلع ذلك من عنقه، فرجع أعرابياً كما كان!! ورواه ابن مردويه مرفوعاً، قال ابن كثير: وفي إسناده نظر، ورفع غلط فاحش، والصواب ما رواه ابن جرير.

والتعرب شهادة الزور وعقوق الوالدين^(١). والثاني: أنها تسع، روى عبيد بن عمير، عن أبيه، وكان من الصحابة، عن النبي ﷺ أنه سئل ما الكبائر؟ فقال: «تسع، أعظمهن الإشراك بالله، وقتل نفس المؤمن بغير حق، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، والسحر، وأكل الربا، وقذف المحصنة، وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً»^(٢). والثالث: أنها أربع: روى البخاري، ومسلم في «الصحیحين» من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «الكبائر؛ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»^(٣). وروى أنس بن مالك قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، أو سئل عنها، فقال: «الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين» وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قول الزور، أو شهادة الزور»^(٤). وروي عن ابن مسعود أنه قال: الكبائر أربع: الإشراك بالله، والأمن لمكر الله، والقنوط من رحمة الله، والإياس من روح الله^(٥). وعن عكرمة نحوه. والرابع: أنها ثلاث، فروى عمران بن حصين، عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الشرك بالله، وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فاحتفز - قال: «والزور»^(٦). وروى البخاري، ومسلم في «الصحیحين» من حديث أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال: وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. وأخرجنا في «الصحیحين» من حديث ابن مسعود قال: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله تعالى نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(٧). والخامس: أنها مذكورة من أوّل السورة إلى هذه الآية، قاله ابن مسعود، وابن عباس. والسادس: أنها إحدى عشرة: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار من الزحف، وقذف المحصنات، وشهادة الزور، والسحر، والخيانة. روي عن ابن مسعود أيضاً. والسابع: أنها كل ذنب يختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس. والثامن: أنها كل ما أوجب الله عليه النار في الآخرة، والحدّ في الدنيا، روى هذا المعنى أبو صالح، عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والتاسع: أنها كل ما حُصّي الله به، روي عن ابن عباس، وعبيدة، وهو قول ضعيف. والعاشر: أنها كل ذنب أوعّد الله عليه النار، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك في رواية، والزجاج. والحادي عشر: أنها ثمان: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل المؤمن، وقذف المحصنة، والزنا، وأكل مال اليتيم، وقول الزور، واقتطاع الرجل يمينه وعهده ثمناً قليلاً. رواه مخرز، عن الحسن البصري^(٨).

(١) رواه ابن جرير ٢٣٨/٨.

(٢) رواه الحاكم مطولاً ٥٩١/٤، ٢٥٩/٤، وقال: قد احتجا برواية هذا الحديث غير عبد الحميد بن سنان، فأما عمير بن قتادة فإنه صحابي، وابنه عبيد متفق على إخرجه والاحتجاج به. وتعبه الذهبي في «مختصره» بأنهما لم يحتجا بعبد الحميد لجهلته، وثقّه ابن حبان.

(٣) رواه أبو داود ١٥٧/٣، والنسائي ٨٩/٧، وذكره ابن كثير ٤٨١/١ عن رواية الحاكم، ثم قال: هكذا رواه الحاكم مطولاً، وقد أخرجه أبو داود والنسائي مختصراً من حديث معاذ بن هانئ به، وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديثه مبسوطاً ثم قال الحاكم: رجاله كلهم محتج بهم في «الصحیحين» إلا عبد الحميد بن سنان، قلت: وهو حجازي لا يعرف إلا بهذا الحديث، وذكره ابن حبان في كتاب «الثقات» وقال البخاري: في حديثه نظر.

(٤) البخاري ٤٨٢/١١، وثنّ نجده في مسلم من رواية عبد الله بن عمرو، وإنما هو فيه من رواية أنس بن مالك، وفيه «قول الزور» مكان قوله «واليمين الغموس» وزواه الإمام أحمد في «المسند» ١١٢/١١، وذكره ابن كثير ٤٨٣/١ من رواية «المسند» ونسبه للبخاري، والترمذي، والنسائي.

(٥) واليمين الغموس: قال ابن الأثير في «النهاية»: هي اليمين الكاذبة الفاجرة، كالتى يقطع بها الحالف مال غيره، سميت غموساً، لأنها تنفس صاحبها في الإثم، ثم في النار، «وفعول» للمبالغة. وفي «عمدة القاري» ١٩٣/٢٣: قال ابن عبد البر: أكثر أهل العلم لا يرون في الغموس كفارة، ونقله ابن بطال أيضاً عن جمهور العلماء، وبه قال النخعي، والحسن البصري، ومالك ومن تبعه من أهل المدينة، والأوزاعي في أهل الشام، والثوري وسائر أهل الكوفة، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وأبو عبيد، وأصحاب الحديث. وقال الشافعي: فيها الكفارة، وبه قال طائفة من التابعين.

(٦) رواه الإمام أحمد في «المسند» ١٣١/٣، والبخاري ٣٤٥/١٠، ومسلم ٩٢/١.

(٧) خبر ابن مسعود ساقه الطبري من طرق كثيرة، وقال ابن كثير: هو صحيح إليه بلا شك.

(٨) رواه البخاري في «الأدب المفرد» ١٠١/١ وزاد الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٦١/١٢ نسبته إلى البيهقي، والطبراني وقال: سنه حسن.

(٩) البخاري ٤١٣/١٣، ومسلم ٩٠/١، والحليلة: الزوجة، سميت بذلك لكونها تحل للزوج، وقيل: لكونها تحل معه.

(١٠) قال أبو جعفر الطبري: وأولى ما قيل في تأويل «الكبائر» بالصحة، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ، دون ما قاله غيره، وإن كان كل قائل فيها قولاً =

قوله تعالى: ﴿تَكْفُرَ عَنْكُمْ سِجَاتِكُمْ﴾ روى المفضل، عن عاصم: «يكفر» ويدخلكم» بآية فيهما، وقرأ الباقون بالنون فيهما، وقرأ نافع، وأبان عن عاصم، والكسائي عن أبي بكر، عن عاصم: «مدخلًا» بفتح الميم هاهنا، وفي (الحج) وضم الباقون «الميم»، ولم يختلفوا في ضم «ميم» ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] قال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون «المدخل» مصدرًا، ويجوز أن يكون مكانًا، سواء فتح، أو ضم. قال السدي: السينات هاهنا: هي الصغائر. والمدخل الكريم: الجنة. قال ابن قتيبة: والكريم: بمعنى: الشريف.

﴿وَلَا تَنَمَّنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَفِيسٌ وَمَا أَكْفَرُوا لِلنِّسَاءِ نَفِيسٌ مِّمَّا أَكْفَرُوا مِّنَ اللَّهِ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَمَّنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن أم سلمة قالت: يا رسول الله: يغزو الرجال، ولا تغزو، وإنما لنا نصف الميراث، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد^(١). والثاني: أن النساء قلن: وددن أن الله جعل لنا الغزو، فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال، فنزلت هذه الآية، قاله عكرمة^(٢). والثالث: أنه لما نزل ﴿اللَّذِكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ قال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا، كما فضلنا عليهن في الميراث، وقال النساء: إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال، كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة، والسدي^(٣). وفي معنى هذا التمني قولان: أحدهما: أن يتمنى الرجل مال غيره، قاله ابن عباس، وعطاء. والثاني: أن يتمنى النساء أن يكن رجالاً. وقد روي عن أم سلمة أنها قالت: يا ليتنا كنا رجالاً، فنزلت هذه الآية. وللتمني وجوه: أحدها: أن يتمنى الإنسان أن يحصل له مال غيره، ويزول عن الغير، فهذا الحسد. والثاني: أن يتمنى مثل ما لغيره، ولا يحب زواله عن الغير، فهذا هو الغبطة^(٤) وربما لم يكن نيل ذلك مصلحة في حق المتمنى. قال الحسن: لا تمنن مال فلان، ولا مال فلان، وما يدريك لعل هلاكه في ذلك المال؟ والثالث: أن

من الذين ذكرنا أقوالهم قد اجتهد وبالغ في نفسه، ولقوله في الصحة مذهب. وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٢/١٦٣: ومن أحسن التعاريف، أي: تعريف الكبيرة قول القرطبي في «المفهم»: كل ذنب أطلق عليه بنص كتاب أو سنة أو إجماع: أنه كبيرة أو عظيم، أو أخبر فيه بشدة العقاب، أو علق عليه الحد، أو شدد التكثير عليه؛ فهو كبيرة. وعلى هذا ينبغي تتبع ما ورد فيه الوعيد، أو اللعن، أو الفسق، من القرآن، أو الأحاديث الصحيحة والحسنة، ويضم إلى ما ورد فيه التنصيص في القرآن والأحاديث الصحاح والحسان على أنه كبيرة، فهما بلغ مجموع ذلك، عرف منه تحرير عددها. وقال الذهبي في أوائل كتاب «الكبائر»: والذي يتجه ويقوم عليه الدليل: أن من ارتكب شيئاً من هذه العظائم مما فيه حد في الدنيا، كالقتل، والزنى، والسرقه، أو جاء فيه وعيد في الآخرة من عذاب، أو غضب، أو تهديد، أو لعن فاعله على لسان نبينا محمد ﷺ فإنه كبيرة، ولا بد من تسليم أن بعض الكبائر أكبر من بعض، ألا ترى أنه ﷺ عذَّ الشرك بالله من الكبائر؟ مع أن مرتكبه مخلد في النار، ولا يغير له أبداً. وقال الحافظ ١٢/١٦٢ بعد أن جمع كثيراً من الأحاديث في بيان الكبائر: فهذا جميع ما وقتت عليه مما ورد التصريح بأنه من الكبائر، أو من أكبر الكبائر صحيحاً وضيعاً مرفوعاً وموقوفاً، وقد تتبعت غاية التبع وفي بعضه ما ورد خاصاً ويدخل في عموم غيره، ثم قال: والمعتمد من كل ذلك ما ورد مرفوعاً بغير تدخل من وجه صحيح، وهي السبعة المذكورة في حديث الباب - يعني حديث «اجتنبوا السبع الموبقات» والانتقال عن الهجرة والزنى والسرقه والمعقوق واليمين الغموس والإلحاد في الحرم وشرب الخمر، وشهادة الزور، والنسيمة، وترك التنزه من البول، والغلول وتكث الصفقة وفراق الجماعة، فتلك عشرون خصلة، وتتفاوت مراتبها، والمجمع على عده من ذلك أقوى من المختلف فيه إلا ما عضده القرآن أو الإجماع فيلتنق بما فوته.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسنند» ٦/٣٢٢، والترمذي ٢/١٢٧، والحاكم ٢/٣٠٥، عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أم سلمة. قال الحاكم: هذا حديث على شرط الشيخين إن كان سماع مجاهد من أم سلمة، ووافقه الذهبي على تصحيحه، قال الشيخ أحمد شاكر: وأما حكم الترمذي في روايته من طريق ابن عيينة بأنه حديث مرسل، فإنه جزم بلا دليل، ومجاهد أدرك أم سلمة يتيماً وعاصرها، فإنه ولد سنة ٢١، وأم سلمة ماتت بعد سنة ٦٠ على اليقين، والمعاصرة من الراوي الثقة تحمل على الاتصال إلا أن يكون الراوي مدلساً، ولم يزعم أحد أن مجاهداً مدلس إلا كلمة قالها القطب الحلبي في «شرح البخاري» حكاهما عنه الحافظ في «التهذيب» ١٠/٤٤، ثم عقب عليها بقوله: ولم أر من نسبه إلى التديس. وقال الحافظ أيضاً في «الفتح» ٦/١٩٤ رداً على من زعم أن مجاهداً لم يسمع من عبد الله بن عمرو: لكن سماع مجاهد من عبد الله بن عمرو ثابت وليس بمدلس.

(٢) في «الدر الثموري»: أخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن عكرمة.

(٣) أخرجه ابن جرير ٨/٢٦٤، وابن أبي حاتم عن السدي.

(٤) قال ابن كثير: وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، قال: ولا يتمنى الرجل فيقول: ليت أن لي مال فلان وأهله، فهى الله عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله. وقال الحسن ومحمد بن سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا، وهو الظاهر من الآية، ولا يرد على هذا ما ثبت في صحيح البخاري ٩/٦٥ «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكه في الحق، فيقول رجل: لو أن لي مثل مال فلان لعلمت مثله» فإن هذا شيء غير ما نهى عنه الآية، وذلك أن الحديث حفص على تمنى مثل نعمة هذا، الآية نهى عن تمنى عين نعمة هذا.

تمنى المرأة أن تكون رجلاً، ونحو هذا مما لا يقع، فليعلم العبد أن الله أعلم بالمصالح، فليرضى بقضاء الله، ولتكن أمانه الزيادة من عمل الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لِرَجَالٍ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المراد بهذا الاكتساب: الميراث، وهو قول ابن عباس، وعكرمة. والثاني: أنه الثواب والعقاب. فالمعنى: أن المرأة ثاب كثواب الرجل، وتأم كإثمه، هذا قول قتادة، وابن السائب، ومقاتل. واحتج على صحته أبو سليمان الدمشقي بأن الميراث لا يحصل بالاكتساب، وبأن الآية نزلت لأجل التمني والفضل.

قوله تعالى: ﴿وَسَلُّوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قرأ ابن كثير، والكسائي، وأبان، وخلف في اختياره «سَلُّوا اللَّهَ» فَسَلَّ الذين «فَسَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا وما كان مثله من الأمر المواجه به، وقبله «واو» أو «فاء» فهو غير مهموز عندهم. وكذلك نقل عن أبي جعفر، وشيبة^(١). وقرأ الباقون بالهمز في ذلك كله، ولم يختلفوا في قوله: ﴿وَلَيْسَتُوا مَا أَتَّفَقُوا﴾ [المسحنة: ١٠] أنه مهموز. وفي المراد بالفضل قولان: أحدهما: أن الفضل: الطاعة، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، والسدي. والثاني: أنه الرزق، قاله ابن السائب، فيكون المعنى: سلوا الله ما تتمنون من النعم، ولا تتمنوا مال غيركم.

﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوَهُمْ نَصِيحُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًى﴾ الموالى: الأولياء، وهم الورثة من العسبة وغيرهم. ومعنى الآية: لكل إنسان موالى يرثون ما ترك. وارتفاع الوالدين والأقربين على معينين من الإعراب: أحدهما: أن يكون الرفع على خبر الابتداء، والتقدير: وهم الوالدان والأقربون، ويكون تمام الكلام قوله ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾. والثاني: أن يكون رفعاً على أن الفاعل التارك للمال، فيكون الوالدان، هم المولى.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «عاهدت» بالالف، وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «عقدت» بلا ألف. قال أبو علي: من قرأ بالالف، فالتقدير: والذين عاهدتكم أيانكم، ومن حذف الالف، فالمعنى: عقدت جلفهم أيانكم، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أهل الحلف، كان الرجل يحالف الرجل، فأيهما مات ورثه الآخر، فنسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس^(٢). وروى عنه عطية قال: كان الرجل يلحق الرجل في الجاهلية، فيكون تابعه، فإذا مات الرجل، صار لأهله الميراث، وبقي تابعه بغير شيء، فأنزل الله ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ فاعطي من ميراثه، ثم نزل من بعد ذلك ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وممن قال هم الخلفاء: سعيد بن جبير، وعكرمة، وقاتدة. والثاني: أنهم الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ، هم المهاجرون والأنصار، كان المهاجرون يورثون الأنصار دون ذوي رحم للأخوة التي عقدها رسول الله ﷺ بينهم. رواه سعيد بن جبير، عن ابن عباس^(٣). وبه قال ابن زيد. والثالث: أنهم الذين كانوا يتبنون أبناء غيرهم في الجاهلية، هذا قول سعيد بن المسيب. فأما أرباب القول الأول،

(١) في «طبقات القراء» ١/٣٢٩: شيبه بن نصاح بن سرجس بن يعقوب إمام ثقة مقرر المدينة مع أبي جعفر وقاضيها، ومولى أم سلمة ؓ، مسحت على رأسه، ودعت له بالخير.

(٢) في «الطبري» ٨/٢٧٥: عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوَهُمْ نَصِيحُهُمْ﴾ فكان الرجل يعاهد الرجل: أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَقُولَ إِنَّ أَوْلِيَاءَكُمْ مَقْرُونًا﴾ [سورة الأحزاب: ٦] يقول: إلا أن يوصوا لأولياتهم الذين عاهدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وذلك هو المعروف. قلت: وعلي بن أبي طلحة أرسل عن ابن عباس ولم يره، فالخير منقطع.

(٣) أخرجه البخاري ٨/١٨٦، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس، وتمام الحديث: فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًى﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوَهُمْ نَصِيحُهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له.

فقالوا: نسخ حكم الحلفاء الذين كانوا يتعاقدون على النصر والميراث بآخِرِ (الأنفال)، وإليه ذهب ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والثوري، والأوزاعي، ومالك، وأحمد، والشافعي. وقال أبو حنيفة وأصحابه: هذا الحكم باقٍ غير أنه جعل ذوي الأرحام أولى من موالي المعاقدة. وذهب قوم إلى أن المراد: فأتوهم نصيبهم من النصر والنصيحة من غير ميراث، وهذا مروى عن ابن عباس، ومجاهد. وذهب قوم آخرون إلى أن المعاقدة: إنما كانت في الجاهلية على النصر لا غير، والإسلام لم يُغَيِّرْ ذلك، وإنما قرَّره، فقال النبي ﷺ: «أبما حلف كان في الجاهلية، فإن الإسلام لم يزد إلا شدة»^(١) أراد: النصر والعون. وهذا قول سعيد بن جبير، وهو يدل على أن الآية محكمة.

﴿الْبَيْتُ عَلَى الْقَوْمِ مِمَّا فَسَّكَ اللَّهُ بِمَنْهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْمَكْلُوبَةُ تَنْبِتُ حَفِظْتُ لِلنَّبِيِّ مِمَّا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيْ نَمَّافُونَ شَوْرَهُمْ فَيَطُورُهُمْ وَأَنْجُرُونَهُمْ فِي الْمَتَكَايِجِ وَأَنْجُرُونَهُمْ فَإِنْ أَلَمْتَكُمْ فَلَا تَبِعُوا عَلَيْنَ سَكِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْنَا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْبَيْتُ عَلَى الْقَوْمِ مِمَّا فَسَّكَ اللَّهُ بِمَنْهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ سبب نزولها: أن رجلاً لطم زوجته لطمة فاستعدت عليه رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(٢). وذكر المفسرون أنه سعد بن الربيع الأنصاري. قال ابن عباس: «قوامون» أي: مسلطون على تأديب النساء في الحق. وروى هشام بن محمد، عن أبيه في قوله: ﴿الْبَيْتُ عَلَى الْقَوْمِ مِمَّا فَسَّكَ اللَّهُ﴾ قال: إذا كانوا رجلاً، وأنشد:

أكل امرئٍ تحسبين امرءاً

وناراً توقدُ بالليل ناراً^(٣)

قوله تعالى: ﴿يَمَّا فَسَّكَ اللَّهُ بِمَنْهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني: الرجال على النساء، وفضل الرجل على المرأة بزيادة العقل، وتوفير الحظ في الميراث، والغنيمة، والجمعة، والجماعات، والخلافة، والإمارة، والجهاد، وجعل الطلاق إليه غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ قال ابن عباس: يعني المهر والنفقة عليهن. وفي «الصالحات» قولان: أحدهما: المحسنات إلى أزواجهن، قاله ابن عباس. والثاني: العاملات بالخير، قاله ابن المبارك. قال ابن عباس: «والقانتات»: المطيعات لله في أزواجهن، و«الحافظات للغيب»، أي: لغيب أزواجهن. وقال عطاء، وقتادة: يحفظن ما غاب عنه الأزواج من الأموال، وما يجب عليهن من صيانة أنفسهن لهم.

قوله تعالى: ﴿يَمَّا حَفِظَ اللَّهُ﴾ قرأ الجمهور برفع اسم «الله» وفي معنى الكلام على قراءتهم ثلاثة أقوال: أحدها: بحفظ الله إياهن، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، ومقاتل. وروى ابن المبارك، عن سفيان، قال: بحفظ الله إياها

(١) رواه مسلم في «صحيحه» ١٩٦١/٤، والإمام أحمد في «المسند» ٨٣/٤، وأبو داود، وابن جرير، والنسائي، عن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأبما جلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة» قال القرطبي في «المفهم»: معنى: لا حلف، لا يتحالف أهل الإسلام كما كان أهل الجاهلية، كانوا يتحالفون، وذلك أن المتحالفين كانوا يتناصرون في كل شيء فيمنع الرجل حليفه وإن كان ظالماً، ويقوم دونه، ويدفع عنه بكل ممكن حتى يمنع الحقوق، ويصير به على الظلم والفساد، ولما جاء الشرع بالانصاف من الظالم، وأنه يؤخذ ما عليه من الحق لا يمنعه أحد من ذلك، وحد الحدود، وبين الأحكام؛ أبطل ما كانت الجاهلية عليه من ذلك. قال النووي: وأما المواخاة في الإسلام، والمخالفة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين، والتعاون على البر والتقوى، وإقامة الحق، فهذا باق، لم ينسخ، وهذا معنى قوله ﷺ في هذه الأحاديث: «وأبما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة» وأما قوله ﷺ: «لا حلف في الإسلام» فالمراد به حلف التواضع والحلف على ما منع الشرع منه، والله أعلم.

(٢) الخبر في الأصول كلها معزو لابن عباس، وقد بحث في كتب «التفسير» فلم أجد أحداً عزاه إليه، ولا نقله عنه، وقد ذكره ابن جرير ٢٩١/٨ عن الحسن، وابن جرير، والسدي، وفي «الدر المنثور» ١٥١/٢: وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أشعث بن عبد الملك، عن الحسن، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير من طريق قتادة عن الحسن. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق جرير بن حازم، عن الحسن. وأخرج ابن مردويه عن علي قال: أتى النبي ﷺ...

(٣) البيت في «سبويه» ٣٣/١، و«الأصمعيات» ص ٢٢١، و«الشعر والشعراء» ١٩٢ و«شواهد الميني» ٤٤٦/٣، و«الخزانة» ١٩١/٤، وهو لأبي ذؤاد الأيادي من قصيدة يصف بها فرساً. وقوله: «وناراً توقد» هكذا الأصل، وهو موافق لرواية ابن قتيبة. وفي «الأصمعيات» «وناراً توقد» وهو الموافق لرواية سبويه، و«الخزانة»، والعيني. والبيت شاهد للمعطف على معمولي عاملين بتقدير «كل» و«تحسين» قال النحاس: ومن لم يعطف على عاملين رواه «وناراً» بالنصب.

أن جعلها كذلك. والثاني: بما حفظ الله لهن مهورهن، وإيجاب نفقتهن، قاله الزجاج. والثالث: أن معناه: حافظات للغيب بالشيء الذي يحفظ به أمر الله، حكاه الزجاج. وقرأ أبو جعفر بنصب اسم الله. والمعنى: بحفظهن الله في طاعته.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ نَقَاوُنُ نُشُورُهُمْ﴾ في الخوف قولان: أحدهما: أنه بمعنى العلم، قاله ابن عباس. والثاني: بمعنى الظن لما يبدو من دلائل النشور، قاله الفراء، وأنشد:

وَمَا خِفْتُ يَا سَلَامُ أَنْكَ عَائِي ^(١)

قال ابن قتيبة: والنشور: بغض المرأة للزوج، يقال: نَشَرْتُ المرأةَ على زوجها، ونشِصت: إذا فركته، ولم تطمئن عنده، وأصل النشور: الانزعاج ^(٢). وقال الزجاج: أصله من النشز، وهو المكان المرتفع من الأرض.

قوله تعالى: ﴿يَطُورُونَ﴾ قال الخليل: الوعظ: التذكير بالخير فيما يرق له القلب. قال الحسن: يعظها بلسانه، فإن أبت وإلا هجرها. واختلفوا في المراد بالهجر في المضجع على أربعة أقوال: أحدها: أنه ترك الجماع، رواه سعيد بن جبير، وابن أبي طلحة، والعمري، عن ابن عباس، وبه قال ابن جبير، ومقاتل. والثاني: أنه ترك الكلام، لا ترك الجماع، رواه أبو الضحى عن ابن عباس، وخصيف عن عكرمة، وبه قال السدي، والثوري. والثالث: أنه قول الهُجْر من الكلام في المضجع، روي عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة. فيكون المعنى: قولوا لهن في المضجع هُجْرًا من القول. والرابع: أنه هجر فراشها، ومضاجعتها. روي عن الحسن، والشعبي، ومجاهد، والنخعي، ومقسم، وقتادة. قال ابن عباس: اهجرها في المضجع، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح. وقال جماعة من أهل العلم: الآية على الترتيب، فالوعظ عند خوف النشور، والهجر عند ظهور النشور، والضرب عند تكرره، واللجاج فيه. ولا يجوز الضرب عند ابتداء النشور. قال القاضي أبو يعلى: وعلى هذا مذهب أحمد. وقال الشافعي: يجوز ضربها في ابتداء النشور.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلَمْتَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني في المضجع ﴿فَلَا تَبْعُوا عَلَيْنَ سَبِيلًا﴾ أي: فلا تتجن عليها العلل. وقال سفيان بن عيينة: لا تكلفها الحب، لأن قلبها ليس في يدها. وقال ابن جرير: المعنى: فلا تلتسوا سبيلا إلى ما لا يحل لكم من أبدانهم وأموالهم بالعلل، وذلك أن تقول لها وهي مطيعة لك: لست لي مُحِبَّة، فتضربها، أو تؤذيها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَظِيمًا كَبِيرًا﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: لا تبغوا على أزواجكم، فهو ينتصر لهن منكم. وقال الخطابي: الكبير: الموصوف بالجلال، وكبر الشأن، يصغر دون جلاله كل كبير. ويقال: هو الذي كبر عن شبه المخلوقين.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَنِيهَا فَأَبْسُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٣) قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَنِيهَا﴾ في الخوف قولان: أحدهما: أنه الحذر من وجود ما لا يتيقن وجوده، قاله الزجاج. والثاني: أنه العلم، قاله أبو سليمان الدمشقي. قال الزجاج: والشقاق: العداوة، واشتقاقه من المتشاقين، كل صنف منهم في شق. و«الحكم»: هو القيم بما يسند إليه. وفي المأمور بإنفاذ الحكمين قولان: أحدهما: أنه السلطان إذا ترافعا إليه، قاله سعيد بن جبير، والضحاك. والثاني: الزوجان، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا﴾ قال ابن عباس: يعني الحكمين. وفي قوله: ﴿يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ قولان: أحدهما: أنه راجع إلى الحكمين، قاله ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وعطاء، والسدي، والجمهور. والثاني: أنه راجع إلى الزوجين، ذكره بعض المفسرين.

(١) صدره: أتاني كلامٌ عن نُصَيْبٍ يَقُولُهُ. وهو لأبي الغول الطهوي، شاعر إسلامي كان في الدولة المروانية. والبيت في «الخرزانه» ١٠٩/٣، و«مسقط اللكالي» ٥٧٩، و«معاني القرآن» ١٤٦/١، ٢٦٥، و«نوادير أبي زيد» و«الطبري» ٥٥٠/٤، ٢٩٩/٨.

(٢) في «غريب القرآن» ١٢٦ «إذا تركته... الارتجاع».

فصل

والحكمان وكيلان للزوجين، ويُعتبر رضا الزوجين فيما يحكما به، هذا قول أحمد، وأبي حنيفة، وأصحابه. وقال مالك، والشافعي: لا يفتقر حكم الحكمن إلى رضا الزوجين^(١).

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبْيِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قال ابن عباس: وحده.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ قال الفراء: أغرامهم بالإحسان إلى الوالدين. قوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الجار الذي بينك وبينه قرابة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، ومقاتل في آخرين. والثاني: أنه الجار المسلم، قاله نوف الشامي. فيكون المعنى: ذي القربى منكم بالإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ روى المفضل، عن عاصم: «والجارِ الْجُنُبِ» بفتح الجيم، وإسكان النون. قال أبو علي: المعنى: والجار ذي الجنب، فحذف المضاف. وفي الجار الجنب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الغريب الذي ليس بينك وبينه قرابة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والضحاك، وابن زيد، ومقاتل في آخرين. والثاني: أنه جارك عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك، رواه الضحاك، عن ابن عباس. والثالث: أنه اليهودي والنصراني، قاله نوف الشامي^(٢). وفي الصحاح بالجنب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الزوجة، قاله علي، وابن مسعود، والحسن، وإبراهيم النخعي، وابن أبي ليلى. والثاني: أنه الرقيق في السفر، قاله ابن عباس في رواية مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن قتيبة. وعن سعيد بن جبيرة كالتولين. والثالث: أنه الرقيق، رواه ابن جريج، عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. قال ابن زيد: هو الذي يَلْصَقُ بك رجاء خيرك. وقال مقاتل: هو رقيقك حضراً وسفراً. وفي ابن السبيل أقوال قد ذكرناها في (البقرة).

(١) قال ابن جرير ٣٣١/٨: وأي الأمرين كان. فليس لهما - أي للحكمين - ولا لواحد منهما الحكم بينهما بالفرقة، ولا بأخذ مال إلا برضى المحكوم عليه بذلك، وإلا ما لزم من حق لأحد الزوجين على الآخر في حكم الله، وذلك ما لزم الرجل لزوجته من النفقة والإسكان بمعروف إن كان هو الظالم لها. فأما غير ذلك، فليس ذلك لهما، ولا لأحد من الناس غيرهما، لا السلطان ولا غيره، وذلك أن الزوج إن كان هو الظالم للمرأة فللإمام السبيل إلى أخذه بما يجب لها عليه من حق، وإن كانت المرأة هي الظالمة زوجها الناشئة عليه، فقد أباح الله له أخذ القدية منها، وجعل إليه طلاقها على ما قد بيناه في سورة (البقرة). وإذا كان الأمر كذلك، لم يكن لأحد الفرقة بين رجل وامرأة بغير رضا الزوج، ولا أخذ مال من المرأة بغير رضاها بإعطائه إلا بحجة يجب التسليم لها من أصل أو قياس. وإن بعث الحكمين السلطان، فلا يجوز لهما أن يحكما بين الزوجين بفرقة إلا بتوكيل الزوج إياهما بذلك، ولا لهما أن يحكما بأخذ مال من المرأة إلا برضى المرأة.

قلت: وقد تمسك الإمام مالك بلفظ الحكم، فرأى نفاذ حكم الحكمن عليهما في المال والفرقة، بخلاف أبي حنيفة وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وابن حزم الظاهري وأصحابه، فإنهم يرون جميعاً أن نفاذ حكمهما عليهما متوقف على رضا الزوجين بتحكيمهما من قبل، لأن السياق يبين أن شأن الحكمن السعي في الإصلاح لا التفريق، ولا يعرف في اللغة، ولا في الشريعة: أصلحت بين الزوجين، أي: طلقتهما عليه، كما في «المحلى» ٨٧/١٠ لابن حزم، وقال ابن حزم: ليس في الآية ولا في شيء من السنن أن للحكمين أن يفرقا، ولا أن ذلك للحاكم.

(٢) ذهب ابن جرير الطبري في تفسير معنى «الجنب» في هذا الموضع إلى أنه الغريب البعيد، مسلماً كان أو مشركاً، يهودياً كان أو نصرانياً، وقال: إن «الجنب» في كلام العرب البعيد، كما قال أعشى بني قيس:

أَتَيْتَ حُرَيْشاً زَانِسراً عَيْنِ جَنَابِيهِ
فَكَانَ حُرَيْشٌ نَسِي عَطَائِي جَامِداً

يعني بقوله: «عن جنابة» عن بعد وغربة، ومنه قيل: اجتنبت فلان فلاناً: إذا بعدت منه وتجنبت، وجنبه خيره: إذا منعه إياه، ومنه قيل للجنب: جنباً، لاعتزاله الصلاة حتى يتنسل. فمعنى ذلك: والجار المجانب للقرابة. قلت: وقد ورد في الوصية بالجار أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»، رواه البخاري في «صحيحه» كتاب «الأدب» ومسلم ٢٠٢٥/٤. ومنها ما رواه الإمام أحمد في «المستند» ٢/ ١٦٨، والترمذي ٣/ ١٢٩، والحاكم في «المستدرک» ٤/ ١٦٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره». وروى الإمام مسلم في «صحيحه» ٢٠٢٥/٤ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتماهد جيرانك». وروى البخاري في «صحيحه» كتاب «الرقائق»، ومسلم كتاب «الإيمان»: مرفوعاً «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره».

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: المملوكين^(١). وقال بعضهم: يدخل فيه الحيوان البهيم. قال ابن عباس: والمختال: البطر في مشيته، والفخور: المفتخر على الناس بكبره. وقال مجاهد: هو الذي يعد ما أعطى، ولا يشكر الله، وقال ابن قتيبة: المختال: ذو الخيلاء والكبر. وقال الزجاج: المختال: الصِّلَف التَّيَاه الجهول. وإنما ذكر الاختيال هاهنا، لأن المختال يأنف من ذوي قربائه، ومن جيرانه إذا كانوا قراء.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ ذكر المفسرون أنها نزلت في اليهود. فأما سبب نزولها، فقال ابن عباس: كان كَرْدَم بن زيد، [حليف كعب بن الأشرف] وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحري بن عمرو، وحيي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت، يأتون رجالاً من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا يخالطونهم، ويتصحون لهم، فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر [في ذهابها] ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرؤن ما يكون، فنزلت هذه الآية^(٢). وفي الذي بخلوا به وأمروا الناس بالبخل به قولان: أحدهما: أنه المال، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: أنه إظهار صفة النبي ﷺ ونبوته، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي.

قوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «بالبخل» خفيفاً. وقرأ حمزة، والكسائي: «بالبخل» محراً، وكذلك في سورة (الحديد). وفي الذين آتاهم الله من فضله قولان: أحدهما: أنهم اليهود، أوتوا علم نعت محمد ﷺ فكتموه، هذا قول الجمهور. والثاني: أنهم أرباب الأموال بخلوا بها، وكنمو الغنى، ذكره الماوردي في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ قال الزجاج: معناه: جعلنا ذلك عتاداً لهم، أي: مثبتاً لهم.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً مِنَ النَّارِ وَلَا يَأْتِرُونَ الْآخِرَ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا قَرِينًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً مِنَ النَّارِ﴾^(٣) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل. والثاني: أنهم المنافقون، قاله السدي، والزجاج، وأبو سليمان الدمشقي. والثالث: مشركو مكة أنفقوا على عداوة النبي ﷺ، ذكره الثعلبي. والقرين: الصاحب الموالف، وهو فعيل من الاقتران بين الشيتين. وفي معنى مقارنة الشيطان قولان: أحدهما: مصاحبته في الفعل. والثاني: مصاحبته في النار.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ المعنى: وأي شيء على هؤلاء الذين ينفقون أموالهم رياء الناس، ولا يؤمنون بالله، لو آمنوا. وفي الإنفاق المذكور هاهنا قولان: أحدهما: أنه الصدقة، قاله ابن عباس. والثاني: الزكاة، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ تهديد لهم على سوء مقاصدهم.

(١) قال الحافظ ابن كثير: وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وصية بالأرقاء، لأن الرقيق ضعيف الحيلة، أسير في أيدي الناس، فلهاذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم» فجعل يرددها حتى ما يبيض بها لسانه. قلت: والحديث رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه ٥١٩/١ عن أنس، وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما في «الزوائد». وروى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة» ورواه النسائي، وإسناده صحيح وله الحمد. وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق» رواه مسلم. وعن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «هم إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلِبهم لأن كلفتموهم فأهينوهم عليه» أخرجه.

(٢) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق في «سيرته» ٢/٢٠٨، وابن جرير ٨/٣٥٣ عن ابن عباس، وفي سننه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، قال الذهبي: لا يعرف. قلت: ابن إسحاق لم يصرح بالتحديث.

(٣) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: إن الله ذكر الباذين المرأين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة، وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله، وفي حديث «الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار، وهم: العالم والغايزي والمنفق، المرأون بأعمالهم» يقول صاحب المال: ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك، فيقول الله: كذبت إنما أردت أن يقال: جواد قد قيل: أي: فقد أخذت جزاءك في الدنيا، وهو الذي أردت بملك. والحديث رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، عن أبي هريرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرُّوْ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُوْتِبْ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيْمًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرُّوْ﴾ قد شرحنا الظلم فيما سلف، وهو مستحيل على الله ﷻ، لأن قوماً قالوا: الظلم: تصرّف فيما لا يملك، والكل ملكه، وقال آخرون: هو وضع الشيء في غير موضعه، وحكمته لا تقتضي فعلاً لا فائدة تحته. ومثقال الشيء: زنة الشيء. قال ابن قتيبة: يقال: هذا على مثقال هذا، أي: على وزنه. قال الزجاج: وهو مفعول من الثقل. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: يظن الناس أن المثقال وزن دينار لا غير، وليس كما يظنون. مثقال كل شيء: وزنه، وكل وزن يسمى مثقالاً، وإن كان وزن ألف. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ لِيَرْجِيَنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكُمْ لَعُنْتُمْ فَتَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. قال ابن قتيبة: قال ابن عباس: والثاني: ذرة يسيرة من التراب، رواه يزيد بن الأصم، عن ابن عباس. والثالث: أصغر النمل، قاله ابن قتيبة، وابن فارس. والرابع: الخردلة. والخامس: الواحدة من الهباء الظاهر في ضوء الشمس إذا طلعت من ثقب، ذكرهما الشعلبي. واعلم أن ذكر الذرة ضربٌ مثل بما يعقل، والمقصود أنه لا يظلم قليلاً ولا كثيراً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع: حسنة بالرفع. وقرأ الباقون بالنصب. قال الزجاج: من رفع، فالمعنى: وإن تحدثت حسنة، ومن نصب، فالمعنى: وإن تك فعلته حسنة.

قوله تعالى: ﴿يُضْعِفْهَا﴾ قرأ ابن عامر، وابن كثير: يُضْعِفْهَا بالتشديد من غير ألف. وقرأ الباقون: يضاعفها بألف مع كسر العين. قال ابن قتيبة: يضاعفها بالألف: يعطي مثلها مرات، ويضعفها بغير ألف: يعطي مثلها مرة^(١).

قوله تعالى: ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي: من قبله. والأجر العظيم: الجنة^(٢).

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ قال الزجاج: معنى الآية: فكيف يكون حال هؤلاء يوم القيامة، فحذف الحال، لأن في الكلام دليلاً عليه. ولفظ «كيف» لفظ الاستفهام، ومعناها التوبيخ. والشهيد: نبي الأمة. وبماذا يشهد؟ فيه أربعة أقوال: أحدها: بأنه قد بلغ أمته. قاله ابن مسعود^(٣)، وابن جريج، والسدي، ومقاتل.

(١) نص كلام ابن قتيبة في «غريب القرآن» ١٢٧: يضمها، أي: يؤتي مثلها مرات، ولو قال: يضمها لكان مرة واحدة. وفي «مجاز القرآن» ١/١٢٧: «يضاعفها»: أضعافاً، و«يضعفها»: ضعفين. وفي «الطبري» ٨/٣٦٦. وأما قوله: «يضاعفها» فإنه جاء بالألف، ولم يقل «يضعفها»، لأنه أريد به في قول بعض أهل العربية يضاعفها أضعافاً كثيرة، ولو أريد به في قوله: يضمف ذلك ضعفين، لقبل: «يضعفها» بالتشديد.

(٢) قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرُّوْ...﴾ ٤٩٧/١: يخبر تعالى أنه لا يظلم عبداً من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل، ولا مثقال ذرة، بل يوفيهما له ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَنُصِّحَ النَّبِيُّونَ أَنِيسُوا إِلَيْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا تَلْمِزْ لَكُمْ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ لِيَرْجِيَنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكُمْ لَعُنْتُمْ فَتَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال: ﴿يَكْفُرُ بِهَا إِنْ تَكَ تَكَ وَيُقَالُ حَبْرٌ مِثْرٌ حَبْرٌ فَكُنْ فِي مِثْرَةٍ أَوْ فِي التَّكْوِينِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَيُبَيِّنُ حَبْرٌ ﴿٤١﴾﴾ [لقمان: ١٦]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْأَلُ سَأْلًا عَنَّا أَشْنَاكَ لِيُرَوْا أَعْمَلْتُمْ ﴿٤١﴾ تَمَنَّ بِسَلِّ يَشْقَالُ دَرُّوْ حَبْرٌ سَرُّوْ ﴿٤١﴾ وَمَنْ يَسْأَلْ يَشْقَالُ دَرُّوْ سَكْرٌ سَرُّوْ﴾. وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، وفيه «فيقول الله ﷻ: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار» وفي لفظ: «أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقاً كثيراً» ثم يقول أبو سعيد: إفرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرُّوْ﴾ الآية.

قلت: وروى الإمام مسلم في «صحيحه» ٤/٢١٦٢ عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيظلم بحسنات ما عمل بها في الدنيا، حتى إذا أنفى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها». ورواه الإمام أحمد ١٢٣/٣، والطبرسي في «مسنده».

(٣) روى الإمام أحمد في «المسنده» ٣٥٥٠ والبخاري ٨١/٩، ومسلم ٥٥١/١ عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي القرآن» قال: فقلت: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتي أن أسمعه من غيري» فقرأت «النساء» حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] رفعت رأسي، أو غمزني رجل إلى جنب، فرفعت رأسي، فوأيت دموعه تسيل. هذا لفظ مسلم.

والثاني: بإيمانهم، قاله أبو العالية. والثالث: بأعمالهم، قاله مجاهد، وقناة. والرابع: يشهد لهم وعليهم، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يعني: نبينا ﷺ. وفي «هؤلاء» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم جميع أمته، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه يشهد عليهم. والثاني: يشهد لهم، فتكون «على» بمعنى: اللام. والقول الثاني: أنهم الكفار يشهد عليهم بتبليغ الرسالة، قاله مقاتل. والثالث: اليهود والنصارى، ذكره الماوردي.

﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا أَرْسُولَ لَوْ سُوءِ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ سُوءِ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو: «لو سُوءِ»، بضم التاء، وتخفيف السين. والمعنى: ودوا لو جُعِلُوا تراباً، فكانوا هم والأرض سواء، هذا قول الفراء في آخرين. قال أبو هريرة: إذا حشر الله الخلائق، قال للبهائم، والدواب، والطير: كونى تراباً. فعندها يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً^(١). وقرأ نافع، وابن عامر: «لو تُسْوَى»، بفتح التاء، وتشديد السين، والمعنى: لو تتسوى، فأدغمت التاء في السين، لقرئها منها. قال أبو علي: وفي هذه القراءة اتساع، لأن الفعل مسند إلى الأرض، وليس المراد: ودوا لو صارت الأرض مثلهم، وإنما المعنى: ودوا لو يتسَوون بها. ثم في المعنى للمفسرين قولان: أحدهما: أن معناه: ودوا لو تخرقت بهم الأرض، فساخوا فيها، قاله قتادة، وأبو عبيدة، ومقاتل. والثاني: أن معناه: ودوا أنهم لم يبعثوا، لأن الأرض كانت مستوية بهم قبل خروجهم منها، قاله ابن كيسان، وذكر نحوه الزجاج. وقرأ حمزة، والكسائي: «لو تُسْوَى»، بفتح التاء، وتخفيف السين، والواو مشددة مماله، وهي بمعنى: تتسوى، فحذف التاء التي أدغمها نافع، وابن عامر. فأما معنى القراءتين، فواحد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ في «الحديث» قولان: أحدهما: أنه قولهم: ما كنا مشركين، هذا قول الجمهور. والثاني: أنه أمر النبي ﷺ وصفته ونعته، قاله عطاء. فعلى الأول يتعلق الكتمان بالآخرة، وعلى الثاني يتعلق بما كان في الدنيا، فيكون المعنى: ودوا أنهم لم يكتُموا ذلك. وفي معنى الآية ستة أقوال: أحدها: ودوا إذا فضحتهم جوارحهم أنهم لم يكتُموا الله شركهم، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس. والثاني: أنهم لما شهدت عليهم جوارحهم لم يكتُموا الله حديثاً بعد ذلك، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنهم في موطن لا يكتُمونه حديثاً، وفي موطن يكتُمون، ويقولون: ما كنا مشركين، قاله الحسن. والرابع: أن قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ كلام مستأنف لا يتعلق بقوله: ﴿لَوْ سُوءِ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾، هذا قول الفراء، والزجاج. ومعنى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾: لا يقدر على كتمانه، لأنه ظاهر عند الله^(٢). والخامس: أن المعنى: ودوا لو سَوَّيت بهم الأرض، وأنهم لم يكتُموا الله حديثاً. والسادس: أنهم لم يعتقدوا قولهم: ما كنا مشركين كذباً، وإنما اعتقدوا أن عبادة الأصنام طاعة، ذكر القولين ابن الأنباري. وقال القاضي أبو يعلى: أخبروا بما توهموا، إذ كانوا يظنون أنهم ليسوا بمشركين، وذلك لا يخرجهم عن أن يكونوا قد كذبوا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ مِمَّا شَكَّرْتُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ حَتَّىٰ تَغْتَابُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْرَةً أَوْ عَلَنَ سَفَرٍ أَوْ جَاءَتْكُمْ مِنَ الْمَسْجِدِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَظِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ روى أبو عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي

(١) رواه ابن جرير الطبري ٢٦/٣٠ طبع مصطفى الباي الحلبي الطبعة الثانية، وإسناده قوي.

(٢) قال ابن كثير: قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه، ولا يكتُمون منه شيئاً. وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: سمعت الله ﷻ يقول - يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فقال ابن عباس: أما قوله ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: نعالوا فلنجحد، فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. فحتم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم، فلا يكتُمون الله حديثاً. قلت: وسنده حسن. ورواه الطبري أيضاً بإسنادين آخرين، وذكرهما ابن كثير عنه.

طالب ﷺ قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا، وسقانا من الخمر، فأخذت [الخمر] منا، وحضرت الصلاة، فقدموني، فقرأت «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون» فنزلت هذه الآية (١). وفي رواية أخرى، عن أبي عبد الرحمن، عن علي ﷺ أن الذي قدموه، وخلط في هذه السورة، عبد الرحمن بن عوف (٢). وفي معنى قوله: «لَا تَقْرَبُوا الصَّكَاةَ» قولان: أحدهما: لا تتعرضوا بالسكر في أوقات الصلاة. والثاني: لا تدخلوا في الصلاة في حال السكر، والأول أصح، لأن السكران لا يعقل ما يخاطب به. وفي معنى: «وَأَنْتُمْ شَكَرْتُمْ» قولان: أحدهما: من الخمر، قاله الجمهور. والثاني: من النوم، قاله الضحاک، وفيه بعد. وهذه الآية اقتضت إباحة السكر في غير أوقات الصلاة، ثم نسخت بتحريم الخمر (٣).

قوله تعالى: «وَلَا جُنُبًا» قال ابن قتيبة: الجنابة: البعد، قال الزجاج: يقل: رجل جنب، ورجلان جنب، ورجال جنب، كما يقال: رجل رضى، وقوم رضى. وفي تسمية الجنب بهذا الاسم قولان: أحدهما: لمجانبة مآثمه محله. والثاني: لما يلزمه من اجتناب الصلاة، وقراءة القرآن، ومس المصحف، ودخول المسجد.

قوله تعالى: «إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ» فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إلا أن تكونوا مسافرين غير واجدين للماء فتتيمموا، وتصلوا. وهذا المعنى مروى عن علي ﷺ، ومجاهد، والحكم، وقتادة، وابن زيد، ومقاتل، والفراء، والزجاج. والثاني: لا تقربوا مواضع الصلاة وهي المساجد وأنتم جنب إلا مجتازين، ولا تقعدوا. وهذا المعنى مروى عن ابن مسعود، وأنس بن مالك، والحسن، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، وعطاء الخراساني، والزهري، وعمرو بن دينار، وأبي الضحى، وأحمد، والشافعي، وابن قتيبة (٤). وعن ابن عباس، وسعيد ابن جبیر، كالقولين، فعلى القول الأول: «عابر السبيل»: المسافر، و«قربان الصلاة»: فعلها، وعلى الثاني: «عابر السبيل»: المجتاز في المسجد، و«قربان الصلاة»: دخول المسجد الذي تغفل فيه الصلاة.

قوله تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَاهُمْ فِي سَبِيلِ» في سبب نزول هذا الكلام قولان: أحدهما: أن رجلاً من الأنصار كان مريضاً فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ، ولم يكن له خادم، فأتى رسول الله ﷺ، فذكر له ذلك، فنزلت هذه الآية «وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَاهُمْ أَوْ عَلَى سَكْرٍ» قاله مجاهد. والثاني: أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم جراحات، ففشت فيهم، وابتلوا بالجنابة، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: «وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَاهُمْ» الآية كلها، قاله إبراهيم النخعي. قال القاضي أبو يعلى: وظاهر الآية يقتضي جواز التيمم مع حصول المرض الذي يستصّر معه باستعمال الماء، سواء كان يخاف التلف، أو لا

(١) أخرجه أبو داود ٤٤٥/٣، والترمذي ١٢٧/٢، وابن جرير ٣٧٦/٨، كلهم من طريق عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي ﷺ، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) رواه ابن جرير ٣٧٦/٨، عن محمد بن بشار، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن سفیان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي ﷺ.

(٣) روى الإمام أحمد ٣٧٩/١ عن عمر بن الخطاب، قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ» قال: فدعي عمر فقررت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّكَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ» فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقررت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في (المائدة)، فدعي عمر فقررت عليه، فلما بلغ «هَذَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ» قال: فقال عمر: انتهينا انتهينا. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. قال علي بن المديني: هذا الإسناد صالح، وصححه الترمذي.

(٤) قال ابن جرير ٣٨٤/٨ بعد أن حكى القولين: وأولى القولين بالتأويل لذلك تأويل من تأوله «وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ» إلا مجتازي طريق فيه. وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَاهُمْ أَوْ عَلَى سَكْرٍ أَوْ جَسَةً أَمْثَلُ مِنْ الْكَلْبِ أَوْ لَسْتُمْ مِنَ الْأُنثَىٰ فَلَمْ يُحْدِثْ مَا كُنْتُمْ تَسْبِيحًا سَبِيحًا يَبِيحًا» فكان معلوماً بذلك أن قوله: «وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَابُوا» لو كان معنياً به المسافر، لم يكن لإعادة ذكره في قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَاهُمْ أَوْ عَلَى سَكْرٍ» معنى مفهوم، وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك. وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تتسلبوا إلا عابري سبيل. والمعابر السبيل: المجتاز مرأً وقطعاً، يقال منه: عبرت هذا الطريق، فانا عبره عبراً وعبروا. قال ابن كثير ٥٠٢/١: وهذا الذي نصره - يعني ابن جرير - هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية.

يخاف، وكذلك السفر يجوز فيه التيمم عند عدم الماء، سواء كان قصيراً، أو طويلاً، وعدم الماء ليس بشرط في جواز التيمم للمريض، وإنما الشرط: حصول الضرر، وأما السفر، فعدم الماء شرط في إباحة التيمم، وليس السفر بشرط، وإنما ذكر السفر، لأن الماء يُعدم فيه غالباً.

قوله تعالى: ﴿أَوْ جَسَاءَ أُمَّدٍ يُنَكِّمُ مِنَ الْغَائِطِ﴾ «أو» بمعنى الواو، لأنها لو لم تكن كذلك، لكان وجوب الطهارة على المريض والمسافر غير متعلق بالحدث. والغائط: المكان المظلم من الأرض، فكفي عن الحدث بمكانه، قاله ابن قتيبة. وكذلك قالوا للمزادة: روية، وإنما الرواية للبعير الذي يُسقى عليه، وقالوا للنساء: ضعائن، وإنما الضعائن: الهوادج، وكُنَّ يكن فيها، وسموا الحدث عذرة، لأنهم كانوا يلقون الحدث بأفنية الدور.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَكَسْتُمْ النِّسَاءَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «أو لامتتم» بألف هائنا، وفي (المائدة)، وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف في اختياره، والمفضل عن عاصم، والوليد بن عتبة، عن ابن عامر «أَوْ لَمَسْتُمْ» بغير ألف هائنا، وفي (المائدة). وفي المراد بالملامسة قولان: أحدهما: أنها الجماع، قاله علي، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنها الملامسة باليد، قاله ابن مسعود، وابن عمر، والشعبي، وعبيدة، وعطاء، وابن سيرين، والنخعي، والثدي، والحكم، وحماد^(١). قال أبو علي: اللمس يكون باليد، وقد اتسع فيه فأوقع على غيره، فمن ذلك ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ [الجن: ٨] أي: عالجنا غيب السماء، ومنا من يسترقه فيلقبه إلى الكهنة، ويخبرهم به. فلما كان اللمس يقع على غير المباشرة باليد، قال: ﴿فَلَمَسُوا بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧] فخص اليد، لثلاثا يلتبس بالوجه الآخر، كما قال: ﴿وَحَلَلَيْلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِن أُمَّةِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] لأن الابن قد يدعى وليس من الصلب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّ يَحْدُوا مَاءً تَتَيَّمُوا﴾ سبب نزولها: أن عائشة رضي الله عنها كانت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، فانقطع عقدها، فأقام النبي صلى الله عليه وسلم على التماسه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فنزلت هذه الآية، فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. أخرجه البخاري، ومسلم^(٢)، وفي رواية أخرى أخرجه البخاري ومسلم أيضاً: أن

(١) قال ابن جرير ٣٩٦/٨: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله ﴿أَوْ لَكَسْتُمْ النِّسَاءَ﴾ الجماع دون غيره من معاني اللمس، لصحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قيل بعض نساءه، ثم صلى ولم يتوضأ، ثم روى عن عائشة قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ، ثم يقبل، ثم يصلي ولا يتوضأ»، ثم روى عن عروة، عن عائشة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعض نساءه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ. قلت: من هي إلا أنت؟ فضحكت». وحديث عائشة هذا، رواه أبو داود ٨٣/١، وابن ماجه ١٦٨/١، وأحمد في «المسنده» ٢١٠/٦، وقد تكلم على هذا الحديث بعض الأئمة، والحق أنه صحيح. قال أبو عمر بن عبد البر: صححه الكوفيون وثبتوه لرواية الثقات من أئمة الحديث له، وحبيب لا ينكر لقائه عروة، لروايته عن هو أكبر من عروة وأقدم موتاً.

قلت: ولم ينفرد حبیب برواية هذا الحديث، فقد تابعه عليه هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير. انظر «سنن الدارقطني»: من: ٥٠، وقد جاء الحديث بإسناد آخر صحيح عن عائشة، انظر «الجوهر النقي» ١٢٥/١، و«نصب الراية» ٣٨/١.

وقال الإمام ابن رشد في «بداية المجتهد» ٢٩/١: وسبب اختلافهم في هذه المسألة اشتراك اسم اللمس في كلام العرب، فإن العرب تطلق مرة على اللمس الذي هو باليد، ومرة تكيي به عن الجماع، فذهب قوم إلى أن اللمس الموجب للطهارة في آية الوضوء هو الجماع في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَكَسْتُمْ النِّسَاءَ﴾ وذهب آخرون إلى أنه اللمس باليد. ثم قال: «وقد احتج من أوجب الوضوء من اللمس باليد، بأن اللمس ينطلق حقيقة على اللمس باليد، وينطلق مجازاً على الجماع، وأنه إذا تردد اللفظ بين الحقيقة والمجاز: فالأولى أن يحمل على الحقيقة، حتى يدل الدليل على المجاز. ولأنك أن يقولوا: إن المجاز إذا كثر استعماله كان أدل على المجاز منه على الحقيقة، كالحال في اسم «الغائط» الذي هو أدل على الحدث - الذي هو فيه مجاز - منه على المظلمن من الأرض، الذي هو فيه حقيقة. والذي اعتقده: أن اللمس وإن كانت دلالة على المعنيين بالسواء؛ أو قريباً من السواء: فإنه أظهر عندني في الجماع، وإن كان مجازاً، لأن الله تعالى قد كنى بالمباشرة واللمس عن الجماع، وهما في معنى اللمس، وعلى هذا التأويل في الآية يحتج بها في إجازة التيمم للجنب، دون تقدير تقديم فيها ولا تأخير، على ما سيأتي بعد، وترتفع المعارضة التي بين الآثار والآية على التأويل الآخر - يريد ابن رشد بالآثار هنا حديث عائشة في القبلة - وأما من فهم من الآية اللمسين معاً فضعيف، فإن العرب إذا خاطبت بالاسم المشترك إنما تقصد به معنى واحداً من المعاني التي يدل عليها الاسم، لا جميع المعاني التي يدل عليها، وهذا بين بنفسه في كلامهم».

(٢) البخاري ١٨٩/٨، ومسلم ٢٧٩/١، ولفظه عن عائشة أنها قالت: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء (أو بذات الجيش) انقطع عقدي، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء. فجاه أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ليسوا على ماء، وليس معهم ماء! قالت: فعابني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطن بيده في

عائشة استعارت من أسماء فلاة فهلكت، فبعث رسول الله ﷺ رجالاً في طلبها، فأدرتهم الصلاة وليس معهم ماء، فصلوا بغير وضوء، وشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنزلت آية التيمم^(١). والتيمم في اللغة: القصد، وقد ذكرناه في قوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ وأما الصعيد: فهو التراب، قاله علي، وابن مسعود، والقرء، وأبو عبيد^(٢) والزجاج، وابن قتيبة. وقال الشافعي: لا يقع اسم الصعيد إلا على تراب ذي غبار. وفي الطيب قولان: أحدهما: أنه الطاهر. والثاني: الحلال.

قوله تعالى: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ الوجه الممسوح في التيمم: هو المحدود في الوضوء. وفيما يجب مسحه من الأيدي ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إلى الكوعين حيث يقطع السارق، روى عمار عن النبي ﷺ أنه قال: «التيمم ضربة للوجه والكفين»^(٣) وبهذا قال سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة، والأوزاعي، ومكحول، ومالك، وأحمد، وإسحاق، وداود. والثاني: أنه إلى المرفقين، روى ابن عباس عن النبي ﷺ: أنه تيمم، فمسح ذراعيه^(٤). وبهذا قال ابن عمر، وابنه سالم، والحسن، وأبو حنيفة، والشافعي، وعن الشعبي كقولين. والثالث: أنه يجب المسح من رؤوس الأنامل إلى الأباط، روى عمار بن ياسر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلت الرخصة في المسح، فضربنا بأيدينا ضربة لوجوهنا، وضربة لأيدينا إلى المناكب والأباط^(٥). وهذا قول الزهري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ قال الخطابي: «العفو»: بناء للمبالغة. و«العفو»: الصفح عن الذنوب، وترك مجازاة المسيء. وقيل: إنه مأخوذ من: عفت الريح الأثر: إذا درسته، وكان العافي عن الذنوب يمحوه بصفحه عنه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُرْتُوا نُصَيْبًا مِّنَ الْكُتُبِ يَشْتُرُونَ أَصْلَهُنَّ بِرَبِيذٍ وَأَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ﴾

خاصرتي، فلا يمتنع من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم «فتيمموا» فقال أسيد بن الحضير (وهو أحد النقباء): ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. فقالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنت عليه. فوجدنا العقد تحته. والبيداء: هي ذو الحليفة بالقرب من المدينة من طريق مكة، وذات الجيش وراء ذي الحليفة، قاله ابن التين.

(١) البخاري ٣٧٣/١، ومسلم ٢٧٩/١.

(٢) في النسخة الأحمدية «وأبو عبيدة» وفي «مجاز القرآن» ١٢٨/١: الصعيد: وجه الأرض. وفي «اللسان» ٢٥٤/٣: وقال أبو إسحاق: الصعيد وجه الأرض، قال: وعلى الإنسان أن يضرب يديه وجه الأرض، ولا يبالي أكان في الموضع تراب أو لم يكن، لأن الصعيد ليس هو التراب، إنما هو وجه الأرض تراباً كان أو غيره، قال: ولو أن أرضاً كلها صخر لا تراب عليه، ثم ضرب التيمم يده على ذلك الصخر، لكان ذلك طهوراً إذا مسح به وجهه، قال الله تعالى ﴿فَتَيَمَّمْ صِدْقًا﴾ لأنه نهاية ما يصعد إليه من باطن الأرض، لا أعلم بين أهل اللغة خلافاً في أن الصعيد وجه الأرض. اهـ.

ونقل القرطبي أيضاً ٢٣٦/٥: عن الخليل، وابن الأعرابي، والزجاج. أن الصعيد: وجه الأرض كان عليه تراب أو لم يكن، وقد ذهب إلى تخصيص التيمم بالتراب الشافعي وأحمد وداود. وذهب مالك، وأبو حنيفة، وعطاء، والأوزاعي، والثوري إلى أنه مجزئ بالأرض وما عليها. وقال ابن القيم في «زاد المعاد» ١٠٣/١: وكذلك كان يتيمم بالأرض التي يصبلي عليها، تراباً كانت أو سبخة أو مراً. وضح عنه أنه قال: «حيثما أدركت رجلاً من أمي الصلاة فمنده مسجده وطهوره». وهذا نص صريح في أن من أدركته الصلاة في الرمل فالرمل له طهوره. ولما سافر هو وأصحابه في غزوة تبوك قطعوا تلك الرمال في طريقهم، وماؤهم في غاية القلة، ولم يروا عنه أنه حمل معه التراب، ولا أمر به، ولا فعله أحد من أصحابه، مع القطع بأن في المغازر الرمال أكثر من التراب، وكذلك أرض الحجاز وغيره. ومن تدبر هذا قطع بأنه كان يتيمم بالرمل؛ والله أعلم، وهذا قول الجمهور.

(٣) البخاري ٣٧٧/١، ومسلم ٢٨٠/١، وأبو داود ١٣٦/١، والنسائي ١٦٩/١، وابن ماجه ١٥٨/١.

(٤) لم نجد في كتب السنة التي بين أيدينا هذا الحديث بهذا اللفظ عن ابن عباس، وروى الزبارة من طريق محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، عن عمار، قال: كنت في القوم حين نزلت الرخصة في المسح بالتراب إذا لم نجد الماء، فأمرنا، فضربنا واحدة للوجه ثم ضربة أخرى لليدين إلى المرفقين. قال الحافظ في «الدرية» ص ٣٦ بعد أن حسن إسناده: لكن أخرجه أبو داود، فقال: «إلى المناكب» وذكر أبو داود علته والاختلاف فيه. وحديث «التيمم ضربتان ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين» رواه الدارقطني، والحاكم من حديث ابن عمر وقد تفرد علي بن زبير برفعه، ووقفه غيره، وصوب وقفه الدارقطني، وأخرجه الدارقطني، والحاكم أيضاً من طريقين وإهيبن عن ابن عمر. قاله الحافظ ابن حجر. وقد روي من حديث جابر، ومن حديث عائشة، انظر «نصب الراية» ١٥٠/١، ١٥٤.

(٥) أبو داود ١٣٤/١، والنسائي ١٦٧/١. وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣٧٦/١٥: إن الأحاديث الواردة في صفة التيمم لم يصح منها سوى حديث أبي جهيم، وعمار، وما عداهما ضعيف أو مختلف في رفعه ووقفه، والراجح عدم رفعه، فأما حديث أبي جهيم، فورد بذكر اليدين مجملاً، وأما حديث عمار، فورد بذكر الكفين في «الصحيحين»، ويذكر المرفقين في «السنن» وفي رواية «إلى نصف الذراع» وفي رواية «إلى الأباط». فأما رواية المرفقين وكذا نصف الذراع، ففيهما مقال، وأما رواية الأباط، فقال الشافعي وغيره: إن كان ذلك وقع بأمر النبي ﷺ، فكل تيمم صح للنبي ﷺ بعده، فهو ناسخ له، وإن كان وقع بغير أمره، فالحجة فيما أمر به، ومما يقوي رواية «الصحيحين» في الاقتصار على الوجه والكفين كون عمار كان يقني بعد النبي ﷺ بذلك، ورواي الحديث أعرف بالمراد به من غيره، ولا سيما الصحابي المجتهد.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في رفاعة بن زيد بن النابوت. والثاني: أنها نزلت في رجلين كانا إذا تكلم النبي ﷺ لويأ ألسنتهما وعاباه، روي القولان عن ابن عباس^(١). والثالث: أنها نزلت في اليهود، قاله قتادة. وفي النصيب الذي أوتوه قولان: أحدهما: أنه علم نبوة محمد النبي ﷺ. والثاني: العلم بما في كتابهم دون العمل.

قوله تعالى: ﴿بَشِّرُوا الصَّالِكَةَ﴾ قال ابن قتيبة: هذا من الاختصار، والمعنى: يشتركون الضلالة بالهدى، ومثله: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (الصافات: ٧٨) أي: تركنا عليه ثناء حسناً، فحذف الثناء لعلم المخاطب. وفي معنى اشتراهم الضلالة أربعة أقوال: أحدها: أنه استبدلهم الضلالة بالإيمان، قاله أبو صالح، عن ابن عباس. والثاني: أنه استبدلهم التكذيب بالنبي ﷺ بعد ظهوره بإيمانهم به قبل ظهوره، قاله مقاتل. والثالث: أنه إيتارهم التكذيب بالنبي لأخذ الرشوة، وثبوت الرئاسة لهم، قاله الزجاج. والرابع: أنه إعطاؤهم أحبارهم أموالهم على ما يصنعونه من التكذيب بالنبي ﷺ، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَرِيْدُونَ أَن يَخْلُوا نَصِيبًا﴾ خطاب للمؤمنين. والمراد بالسبيل: طريق الهدى.

﴿وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (١٥)

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ﴾ فهو يعلمكم ما هم عليه، فلا تستنصحوهم، وهم اليهود، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ لكم، فمن كان وليه، لم يضره عدوه. قال الخطابي: «الولي»: الناصر، و«الولي»: المتولي للأمر، والقائم به، وأصله من الولي، وهو القرب، و«النصير»: فعيل بمعنى فاعل^(٢).

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنفَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَدَعْنَا لِيَأْتِيَنَاهُمُ وَطَمَنَّا فِي الَّذِينَ كُتِبَ لَهُم مَّا قَالُوا بِحَمِيَّتِنَا وَأَطَمْنَا وَسَمِعَ وَأَنْطَرًا لَكَانَ حَبْرًا لَهُمْ وَأَقَوْمٌ وَلَكِن لَّمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٦)

قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ قال مقاتل: نزلت في رفاعة بن زيد، ومالك بن الضيف، وكعب بن أسيد، وكلهم يهود. وفي «من» قولان ذكرهما الزجاج: أحدهما: أنها من صلة الذين أوتوا الكتاب، فيكون المعنى: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من الذين هادوا. والثاني: أنها مستأنفة، فالمعنى: من الذين هادوا قوم يحرفون، فيكون قوله: يحرفون، صفة، ويكون الموصوف محذوفاً، وأنشد سيبويه:

وما الدهر إلا تارتانٍ فمنهما أموت وأخرى ابتغي العيش أكلح^(٣)

والمعنى: فمنهما تارة أموت فيها. قال أبو علي الفارسي: والمعنى: وكفى بالله نصيراً من الذين هادوا، أي: إن الله ينصر عليهم. فأما «التحريف»، فهو التغيير. و«الكلم»: جمع كلمة. وقيل: إن «الكلام» مأخوذ من «الكلم»، وهو الجرح الذي يشق الجلد واللحم، فسمي الكلام كلاماً، لأنه يشق الأسماع بوصوله إليها، وقيل: بل لتشقيقه المعاني المطلوبة في أنواع الخطاب. وفي معنى تحريفهم الكلم قولان: أحدهما: أنهم كانوا يسألون النبي ﷺ عن الشيء، فإذا خرجوا، حرفوا كلامه، قاله ابن عباس. والثاني: أنه تبديلهم التوراة، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِ﴾، أي: عن أماكنه ووجوهه.

(١) أخرج الأول ابن جرير ٤٢٨/٨ من طريق محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس، ومحمد بن أبي محمد مجهول. ونسبه السيوطي في «الدرر» ١٦٨/٢ إلى ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل».

(٢) قال ابن كثير ٥٠٧/١ في تفسيره: يخبر تبارك وتعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - أنهم يشتركون الضلالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتروكون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين في صفة محمد ﷺ ليشترتوا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا ﴿وَرِيْدُونَ أَن يَخْلُوا نَصِيبًا﴾ أي: يريدون لو تكفروا بما أنزل عليكم أيها المؤمنون، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع، ﴿وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ﴾ أي: هو يعلم بهم، ويحذرهم منهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: كفى به ولياً لمن لجأ إليه، ونصيراً لمن استنصره.

(٣) البيت لتميم بن مقبل، «ديوانه» ص ٢٤، و«الكتاب» ٣٧٦/١، و«الكامل» ٩٠٨/٣، و«حجاسة البحري» ١٨٣، و«الحيوان» ٤٨/٣. والكدرج: الاكتساب، يقال: فلان يكدرج على أهله. يقول: لا راحة في الدنيا، لأن وقتها قسمان، إما موت وهو مكروه عند النفس، وإما حياة وكلها سعي في المعيشة. واستشهد به سيوري والمبرد على حذف الاسم دلالة الصفة عليه، وتقديره الكلام: فمنها تارة أموت فيها، كما ذكره المؤلف رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ قال مجاهد: سمعنا قولك، وعصينا أمرك.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: اسمع لا سمعت، قاله ابن عباس، وابن زيد، وابن قتيبة. والثاني: أن معناه: اسمع غير مقبول ما تقول، قاله الحسن، ومجاهد. وقد تقدم في (البقرة) معنى: وراعنا. قوله تعالى: ﴿لَيْلًا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ قال قتادة: «اللي»: تحريك ألسنتهم بذلك. وقال ابن قتيبة معنى ﴿لَيْلًا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: أنهم يحرفون «راعنا» عن طريق المراعاة، والانتظار إلى السبت بالرعوثة. قال ابن عباس: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ مما بدلوا، و﴿أَقْوَمُ﴾ أي: أعدل، ﴿وَلَكِنَّ لَمَنَّهُمُ اللَّهُ يُكْفِّرُهُمْ﴾ بمحمد^(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: فلا يؤمن منهم إلا قليل، وهم عبد الله بن سلام، ومن تبعه، قاله ابن عباس. والثاني: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، قاله قتادة، والزجاج. قال مقاتل: وهو اعتقادهم أن الله خلقهم ورزقهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُورُوا الْكُتُبَ آيَاتُوا بِمَا نَزَّلْنَا مَبْدُوعًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَرَدَدَهَا عَلَيْهِمْ أَوْ يُدْعَبُ لَمَّا نَلَّأَ أَحْسَبَ الْكُتُبَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُورُوا الْكُتُبَ آيَاتُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ سبب نزولها: أن النبي ﷺ دعا قومًا من أحرار اليهود، منهم عبد الله بن سوريا، وكعب [ابن أسد] إلى الإسلام، وقال لهم: إنكم لتعلمون أن الذي جئت به حق، فقالوا: ما نعرف ذلك، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس^(٢). وفي الذين أوتوا الكتاب قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله الجمهور. والثاني: اليهود والنصارى، ذكره الماوردي. وعلى الأول يكون الكتاب: التوراة، وعلى الثاني: التوراة والإنجيل. والمراد بما نزلنا: القرآن، وقد سبق في (البقرة) بيان تصديقه لما معهم.

قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ في طمس الوجوه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إعماء العيون، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك. والثاني: أنه طمس ما فيها من عين، وأنف، وحاجب، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس، واختيار ابن قتيبة. والثالث: أنه ردّها عن طريق الهدى، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن، ومجاهد، والضحاك، والسدي. وقال مقاتل: من قبل أن نطمس وجوهًا، أي: نحول الملة عن الهدى والبصيرة. فعلى هذا القول يكون ذكر الوجه مجازاً. والمراد: البصيرة والقلوب. وعلى القولين قبله يكون المراد بالوجه: العضو المعروف.

قوله تعالى: ﴿فَرَدَدَهَا عَلَيْهِمْ أَوْ يُدْعَبُ﴾ خمسة أقوال: أحدها: نُصِيرُهَا فِي الْأَفْعَاءِ، وَنَجْعَلُ عَيْونَهَا فِي الْأَفْعَاءِ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطِيَّة. والثاني: نُصِيرُهَا كَالْأَفْعَاءِ، لَيْسَ فِيهَا فَمٌ، وَلَا حَاجِبٌ، وَلَا عَيْنٌ، وَهَذَا قَوْلُ قَوْمٍ، مِنْهُمْ ابْنُ قَتَيْبَةَ. والثالث: نجعل الوجه منبتاً للشعر، كالقرود، هذا قول الفراء. والرابع: نُفَيْحًا مَدْبِرَةً عَنْ دِيَارِهَا وَمَوَاضِعِهَا. وَإِلَى نَحْوِهِ ذَهَبَ ابْنُ زَيْدٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَيَكُونُ الْمَعْنَى: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهَهُمُ الَّتِي هُمْ فِيهَا. وَنَاحِيَتِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا نَزَلُوا، فَفَرَدَهَا عَلَى أَدْبَارِهَا مِنْ حَيْثُ جَاؤُوا بَدِيًّا مِنَ الشَّامِ^(٣). والخامس: نردّها في الضلالة، وهذا قول الحسن، ومجاهد، والضحاك، والسدي، ومقاتل.

(١) في «مشكل القرآن»: ٢٩١: هؤلاء قوم من اليهود كانوا يقولون للنبي ﷺ إذا حدثهم وأمرهم: سمعنا، ويقولون في أنفسهم: عصينا، وإن أرادوا أن يكلموه بشيء قالوا له: اسمع يا أبا القاسم، ويقولون في أنفسهم: لا سمعت، ويقولون له: راعنا، يوهونه في ظاهر اللفظ أنهم يريدون: انتظرنا، حتى تكلمك بما نريد، كما تقول العرب: أرعني سمعتك وراعني، أي: انتظرني وترقب بي وتلوم علي، هذا ونحوه، وإنما يريد سبه بالرعوثة في لغتهم، فقال الله سبحانه: ﴿يَنْزِلُ إِلَيْكَ مَادًّا لِيُمَثِّلُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ﴾ ويقولون كذا وكذا، ويقولون: ﴿وَرَدَدْنَا لَيْلًا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي: قلباً للكلام بها، ﴿وَلَمَّا فِي الْأَرْبِ وَكَلَّمَ اللَّهُ نَحْمًا وَتَمَنَّا وَكَلَّمْنَا﴾ مكان قولهم: سمعنا وعصينا، وقالوا: واسمع، مكان قولهم: لا سمعت، وانتظرنا، مكان قولهم: راعنا؛ لكان خيراً لهم وأقوم. والعرب تقول: نظرتك وانتظرتك بمعنى واحد، قال الحطيفة:

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ لِبِنَاءِ عَاشِيَةٍ
لِلْحَسَنِ طَالَ بِهَا حَزُونِي وَتَنَاسِي

(٢) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل» من طريق محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبيرة أو عكرمة عن ابن عباس.

(٣) في تفسير الطبري ٤٤٢/٨: وقال آخرون: معنى ذلك: من قبل أن نمحو آثارهم من وجوههم التي هم بها، وناحيتهم التي هم بها، ففردّها على أدبارها من حيث جاؤوا منه بدياً من الشام.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَكُنْتُمْ﴾ يعود إلى أصحاب الوجوه. وفي معنى لعن أصحاب السبب قولان: أحدهما: مسخهم قردة، قاله الحسن، وقتادة، ومقاتل. والثاني: طردهم في التيه حتى هلك فيه أكثرهم، ذكره الماوردي.
قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَعْمُولًا﴾ قال ابن جرير: الأمر هاهنا بمعنى المأمور، سُمي باسم الأمر لحدوثه عنه.
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾
قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ قال ابن عمر: لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] قالوا لرسول الله ﷺ: والشرك؟ فكره رسول الله ﷺ ذلك، فنزلت هذه^(١). وقد سبق معنى الإشراك.

والمراد من الآية: لا يغفر لمشرك مات على شركه. وفي قوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ نعمة عظيمة من وجهين: أحدهما: أنها تقتضي أن كل ميت على ذنب دون الشرك لا يقطع عليه بالعذاب، وإن مات مصراً^(٢). والثاني: أن تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين، وهو أن يكونوا على خوف وطمع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزُكُّونَ مِنِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ قَيْلًا﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ سبب نزولها: أن مرحب بن زيد، ويحري بن عون - وهما من اليهود - أتيا النبي ﷺ بأطفالهما، ومعهما طائفة من اليهود فقالوا: يا محمد هل على هؤلاء من ذنب؟ قال: لا، قالوا: والله ما نحن إلا كهيتهم، ما من ذنب نعمله بالنهار إلا كُفِّرَ عنا بالليل، وما من ذنب نعمله بالليل إلا كُفِّرَ عنا بالنهار، فنزلت هذه الآية. هذا قول ابن عباس^(٣).

وفي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قولان: أحدهما: ألم تُخبر، قاله ابن قتيبة. والثاني: ألم تعلم، قاله الزجاج. وفي الذين يزكون أنفسهم قولان: أحدهما: اليهود على ما ذكرنا عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل. والثاني: أنهم اليهود، والنصارى، وبه قال الحسن، وابن زيد. ومعنى «يزكون أنفسهم»: يزعمون أنهم أذكيا، يقال: زكى الشيء: إذا نما في الصلاح. وفي الذي زكوا به أنفسهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم برؤوا أنفسهم من الذنوب، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. والثاني: أن اليهود قالوا: إن أبناءنا الذين ماتوا يزكوننا عند الله، ويشفون لنا، رواه عطية، عن ابن عباس. والثالث: أن اليهود كانوا يقدمون صبيانهم في الصلاة فيؤمونهم، يزعمون أنهم لا ذنوب لهم، هذا قول عكرمة، ومجاهد، وأبي مالك. والرابع: أن اليهود والنصارى قالوا: ﴿مَنْ أَيْتَنَّا اللَّهُ وَأَجْبَلْتُهُ﴾ [المانعة: ١٨] وقالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾ [البقرة: ١١١] هذا قول الحسن، وقتادة.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ اللَّهُ يَزُكُّ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يجعله زاكياً، ولا يظلم الله أحداً مقدار فتيل. قال ابن جرير: وأصل «الفتيل»: المفتول، صُرف عن مفعول إلى فعيل، كصريع، ودهين. وفي الفتيل قولان: أحدهما: أنه ما يكون في شق النواة، رواه عكرمة، عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك، وقتادة، وعطية، وابن زيد، ومقاتل، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنه ما يخرج بين الأصابع من الوسخ إذا دلكن، رواه العوفي، عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وأبو مالك، والسدي، والفراء.

(١) ابن جرير ٤٤٩/٨، ونقله عنه ابن كثير، ثم قال: وقد رواه ابن مردويه من طرق عن ابن عمر.

(٢) قال ابن جرير الطبري ٤٥٠/٨: وقد أبانت هذه الآية على أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه، ما لم تكن كبيرته شركاً بالله تعالى. قلت: وروى البخاري في «صحيحه» ٦٠/١ عن عبادة بن الصامت ﷺ - وكان شهد بدرًا - وهو أحد النقباء ليلة العقبة - أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بيهتان ففسروته بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم، فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقب في الدنيا، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً، ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه» فبايعنا على ذلك. ورواه مسلم ١٣٣٣/٣ والترمذي. وروى الإمام أحمد في «المسنَد» ١٦٦/٥ عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى ثلاثاً»، ثم قال في الرابعة: «على رغم أنف أبي ذر»، فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره، وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر، فكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول: وإن رغم أنف أبي ذر» ورواه الشيخان.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٨٨ بمعناه عن الكلبي.

﴿ أَنْظَرُ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبُ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴾ (١)

قوله تعالى: ﴿ أَنْظَرُ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبُ ﴾ وهو قولهم: ﴿ عَنُّ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَجْبُونُوهُ ﴾ وقولهم: ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هَؤُلَاءِ أَوْ نَصَرَهُمْ ﴾ وقولهم: لا ذنب لنا، ونحو ذلك مما كذبوا فيه ﴿ وَكَفَى بِهِ ﴾ أي: وحسبهم بقيلهم الكذب ﴿ إِثْمًا مُبِينًا ﴾ يبين كذبهم لسامعيه.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكُتُبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ (٢)

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكُتُبِ ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن جماعة من اليهود قدموا على قريش، فسألوهم: أديتنا خير، أم دين محمد؟ فقال اليهود: بل دينكم، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس^(١). والثاني: أن كعب بن الأشرف، وحبي بن أخطب، قدما مكة، فقالت لهما قريش: أنحن خير، أم محمد؟ فقالا: أنتم، فنزلت هذه الآية، هذا قول عكرمة في رواية^(٢). وقال قتادة: نزلت في كعب، وحبي، ورجلين آخرين من بني النضير قالوا لقريش: أنتم أهدى من محمد. والثالث: أن كعب بن الأشرف وهو الذي قال لكفار قريش: أنتم أهدى من محمد، فنزلت هذه الآية. وهذا قول مجاهد، والسدي، وعكرمة في رواية. والرابع: أن حبي بن أخطب قال للمشركين: نحن وإياكم خير من محمد، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن زيد. والمراد بالمذكورين في هذه الآية اليهود. وفي «الجبت» سبعة أقوال. أحدها: أنه السحر، قاله عمر بن الخطاب، ومجاهد، والشعبي. والثاني: الأصنام، رواه عطية، عن ابن عباس. وقال: عكرمة: الجبت: صنم. والثالث: حبي بن أخطب، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، والفراء. والرابع: كعب بن الأشرف، رواه الضحاك، عن ابن عباس، وليث عن مجاهد. والخامس: الكاهن، روي عن ابن عباس، وبه قال ابن سيرين، ومكحول. والسادس: الشيطان، قاله سعيد بن جبير في رواية، وقاتدة، والسدي. والسابع: الساحر، قاله أبو العالية، وابن زيد. وروى أبو بشر، عن سعيد بن جبير، قال: الجبت: الساحر بلسان الحبشة. وفي المراد بالطاغوت هاهنا ستة أقوال: أحدها: الشيطان، قاله عمر بن الخطاب، ومجاهد في رواية، والشعبي، وابن زيد. والثاني: أنه اسم للذين يكفرون بين يدي الأصنام يعبرون عنها ليضلوا الناس، رواه العوفي، عن ابن عباس. والثالث: كعب بن الأشرف، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، والفراء. والرابع: الكاهن، وبه قال سعيد بن جبير، وأبو العالية، وقاتدة، والسدي. والخامس: أنه الصنم، قاله عكرمة. وقال: الجبت والطاغوت صنمان. والسادس: الساحر، روي عن ابن عباس، وابن سيرين، ومكحول. فهذه الأقوال تدل على أنهما اسمان لمسميين. وقال اللغويون منهم ابن قتيبة، والزجاج: كل معبود من دون الله، من حجر، أو صورة، أو شيطان، فهو جبت وطاغوت^(٣).

(١) سيرة ابن هشام ٢١٠/٢، والطبري من طريق ابن إسحاق ٤٦٩/٨ وفي سننه مجهول.

(٢) أثر عكرمة، رواه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم مرسلاً. وروى ابن جرير ٤٦٦/٨ عن ابن عباس، قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت حبر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنوبر المنبت من قومه. يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحميج، وأهل السدانة، وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير منه. قال: فانزلت: ﴿ إِنَّكَ مَوْءَاظٌ عَلَىٰ نَجْوَىٰ ﴾ [الكوثر: ٣] وانزلت ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكُتُبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ نُورٌ كَرِيمٌ ﴾ وإسناده صحيح. وزاد السيوطي نسبة في «الدر» ١٧١/٢ لأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وقولهم «ألا ترى إلى هذا الصنوبر الأبر» في «النهاية» الصنوبر: سمفات تنبت في جذع النخلة، لا في الأرض، ثم قالوا للرجل الفرد الضعيف اللليل الذي لا أهل له ولا عقب ولا ناصر: «صنوبر» قال الاستاذ محمود شاكر: فأراد هؤلاء الكفار من قريش أن محمداً ﷺ - بأبي هو وأمي - صنوبر نبت في جذع نخلة، فإذا قلع انقطع، فكذلك هو إذا مات، فلا عقب له. وكذبوا ونصر الله رسوله ﷺ وقطع دابر الكافرين. والأبر: الذي لا عقب له.

(٣) قال أبو جعفر الطبري ٤٦٥/٨: والصواب من القول في تأويل ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ أن يقال: يصدقون بمعبودين من دون الله، يعبدونهما من دون الله، ويتخذونهما إلهين، وذلك أن «الجبت» و«الطاغوت» اسمان لكل معظّم عبادة من دون الله أو طاعة أو خضوع له، كأننا ما كان ذلك المعظّم، من حجر أو إنسان أو شيطان، وإذا كان ذلك كذلك، وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها، كانت معظمة بالعبادة من دون الله، فقد كانت جبروتا وطواغيت، وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله، وكذلك الساحر والكاهن اللذان كان مقبولاً منهما ما قالوا في أهل الشرك بالله، وكذلك حبي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، لأنهما كانا مطاعين في أهل ملتهم من اليهود في معصية الله، والكفر به، ورسوله، فكانا جبتين وطاغوتين.

قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ لَوْلَا يَأْتِينَا اللَّهُ بِآيَاتٍ كَبِيرًا﴾ يعني لمشركي قريش: أنتم ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الْآيِينَ ءَامَنُوا﴾، يعنون النبي وأصحابه طريقاً في الديانة والاعتقاد.

﴿أَزَلَّكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (٥٢) أَمْ لَمْ تَنْصِبِ مِنَ الْمَلِكِ إِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَصِيرًا ﴿٥٣﴾

﴿أَمْ لَمْ تَنْصِبِ مِنَ الْمَلِكِ﴾ هذا استفهام معناه الإنكار، فالتقدير: ليس لهم. وقال الفراء: قوله: ﴿إِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَصِيرًا﴾ جوابٌ لجزء مضمير، تقديره: ولئن كان لهم نصيب لا يؤتون الناس نصيراً^(١). وفي «التقير» أربعة أقوال: أحدها: أنه النقطة التي في ظهر النواة، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وقناة، والضحاك، والسدي، وابن زيد، ومقاتل، والفراء، وابن قتيبة في آخرين. والثاني: أنه القشر الذي يكون في وسط النواة، رواه التيمي، عن ابن عباس. وروي عن مجاهد: أنه الخيط الذي يكون في وسط النواة. والثالث: أنه نقر الرجل الشيء بظفر إبهامه، رواه أبو العالية، عن ابن عباس. والرابع: أنه حبة النواة التي في وسطها، رواه ابن أبي نجیح، عن مجاهد. قال الأزهري: «والفتيل» و«التقير» و«القطمير»: تضرب أمثالا للشيء التافه الحقيق.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٥٣)

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ سبب نزولها: أن أهل الكتاب قالوا: يزعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع، وله تسع نسوة، فأى ملك أفضل من هذا، فنزلت، رواه العوفي، عن ابن عباس^(٢). وفي «أم» قولان: أحدهما: أنها بمعنى ألف الاستفهام، قاله ابن قتيبة. والثاني: بمعنى «بل» قاله الزجاج، وقد سبق ذكر «الحسد» في (سورة البقرة) والحاسدون هاهنا: اليهود. وفي المراد بالناس هاهنا أربعة أقوال: أحدها: النبي ﷺ، رواه عطية، عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، والسدي، ومقاتل. والثاني: النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وروي عن علي بن أبي طالب ؓ. والثالث: العرب، قاله قناة. والرابع: النبي، والصحابة، ذكره الماوردي. وفي الذي آتاهم الله من فضله ثلاثة أقوال: أحدها: إباحة الله تعالى نبيه أن يتكح ما شاء من النساء من غير عدد، روي عن ابن عباس، والضحاك، والسدي. والثاني: أنه النبوة، قاله ابن جريج، والزجاج. والثالث: بعثة نبي منهم على قول من قال: هم العرب^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة، والإنجيل، والزبور. كله كان في آل إبراهيم، وهذا النبي من أولاد إبراهيم. وفي الحكمة قولان: أحدها: النبوة، قاله السدي، ومقاتل. والثاني: الفقه في الدين، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي الملك العظيم خمسة أقوال: أحدها: ملك سليمان، رواه عطية، عن ابن عباس^(٤). والثاني: ملك داود، وسليمان في النساء، كان لداود مائة امرأة، وسليمان سبعمئة امرأة، وثلاثمئة سريّة، رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(٥)، وبه قال السدي. والثالث: النبوة، قاله مجاهد. والرابع: التأييد بالملائكة، قاله ابن زيد في آخرين.

(١) قال الطبري ٤٧٥/٨: ورفق قوله: ﴿لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ﴾ ولم ينصب به «إذنه» ومن حكمها أن تنصب الأفعال المستقبلية إذا ابتدئ الكلام بها، لأن معها «فأما» ومن حكمها إذا دخل فيها بعض جروف العطف على توجه إلى الابتداء بها مرة، وإلى النقل عنها إلى غيرها أخرى، وهذا الموضع مما أريد به «الفاء» في النقل عن «إذنه» إلى ما بعدها، وأن يكون معنى الكلام: أم لهم نصيب، فلا يؤتون الناس نصيراً إذن. وانظر استيفاء الكلام على «إذن» في «سبويه» ٤١١/١، و«معاني القرآن» للفراء ٢٧٢/١.

(٢) رواه ابن جرير ٤٧٨/٨ قال: حدثني محمد بن سعد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي، قال: حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس فذكره. وهذا إسناد مسيلس بالضعفاء: محمد بن سعد، قال الخطيب: هو لين في الحديث، وأبوه سعد بن محمد بن الحسن العوفي، ضعيف جداً، وعمه: وهو الحسن بن الحسن بن عطية العوفي، ضعفه ابن معين، وابن سعد، وأبو حاتم، والنسائي. وأبوه: هو الحسن بن عطية بن سعد العوفي، وهو ضعيف أيضاً. قال البخاري في «الكبير»: ليس ذلك، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث. وأبو أبيه: عطية بن سعد بن جنادة العوفي، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق يخطئ كثيراً، كان مدلساً.

(٣) قال ابن جرير ٤٧٩/٨: وأولى البأويلين في ذلك بالضروب قول قناة وابن جريج الذي ذكرناه قبل، أن معنى «الفضل» في هذا الموضع: النبوة التي فضل الله بها محمداً، وشرف بها العرب، إذ آتاها رجلاً منهم دون غيرهم، لما ذكرنا من أن دلالة ظاهر هذه الآية تدل على أنها تقرّب للنبي ﷺ وأصحابه، رحمة الله عليهم، على ما قد بينا قبل، وليس النكاح وتزويج النساء - وإن كان من فضل الله جل ثناؤه الذي آتاه عباده - بتقرّب لهم ومدح.

(٤) سنده ضعيف.

(٥) سنده ضعيف.

والخامس: الجمع بين سياسة الدنيا، وشرع الدين، ذكره الماوردي^(١).

﴿فَيَنْهَى مَنْ آمَنَ بِهِ وَيَنْهَى مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ (٥٥)

قوله تعالى: ﴿فَيَنْهَى مَنْ آمَنَ بِهِ﴾. فيمن تعود عليه الهاء والميم قولان: أحدهما: اليهود الذين أنذرهم نبينا محمد ﷺ، وهذا قول مجاهد، ومقاتل، والفراء في آخرين. فعلى هذا القول في هاء «به» ثلاثة أقوال: أحدها: تعود على ما أنزل الله على نبينا محمد ﷺ، قاله مجاهد. قال أبو سليمان: فيكون الكلام مبنياً على قوله ﴿عَلَى مَا أَنزَلَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو النبوة، والقرآن. والثاني: أنها تعود إلى النبي ﷺ، فتكون متعلقة بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ يعني بالناس: محمداً ﷺ، ويكون المراد بقوله: ﴿فَيَنْهَى مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ عبد الله بن سلام، وأصحابه. والثالث: أنها تعود إلى النبي عن آل إبراهيم، قاله الفراء. والقول الثاني: أن الهاء، والميم في قوله «فمنهم» تعود إلى آل إبراهيم، فعلى هذا في هاء «به» قولان: أحدهما: أنها عائدة إلى إبراهيم، قاله السدي. والثاني: إلى الكتاب، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَى مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن جبير، وعكرمة، وابن يعمر، والجحدري: «من صد عنه» برفع الصاد. وقرأ أبي بن كعب، وأبو الجوزاء، وأبو رجاء والجوني: بكسر الصاد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٥٦)

قوله تعالى: ﴿سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا﴾ قال الزجاج: أي: نشويهم في نار. ويروى أن يهودية أدت إلى النبي ﷺ شاة مصلية، أي: مشوية. وفي قوله: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ قولان: أحدهما: أنها غيرها حقيقة، ولا يلزم على هذا أن يقال: كيف بدلت جلود التذت بالمعاصي بجلود ما التذت، لأن الجلود آلة في إيصال العذاب إليهم، كما كانت آلة في إيصال اللذة، وهم المعاقبون لا الجلود. والثاني: أنها هي بعينها تعاد بعد احتراقها، كما تعاد بعد البلى في القبور. فتكون الغيرية عائدة إلى الصفة، لا إلى الذات، فالمعنى: بدلناهم جلوداً غير محترقة، كما تقول: صُغت من خاتمي خاتماً آخر. وقال الحسن البصري في هذه الآية: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا، فعادوا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ (٥٧)

قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ قال الزجاج: هو الذي يُظَلُّ من الحر والريح، وليس كلُّ ظلٍّ كذلك، فأعلم الله تعالى أن ظل الجنة ظليل لا حر معه، ولا برد. فإن قيل: أفي الجنة برد أو حر يحتاجون معه إلى ظل؟ فالجواب: أن لا، وإنما خاطبهم بما يعقلون مثله، كقوله: ﴿وَلَمْ يَرَوْهُمْ فِيهَا بَكَرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وجواب آخر: وهو أنه إشارة إلى كمال وصفها، وتمكين بناؤها، فلو كان البرد أو الحر يتسلط عليها، لكان في أبنيتها وشجرها ظل ظليل.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تُوَدُّوا الْأَمْثَلَكُمْ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبَأٌ بَاطِنٌ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

نَبِيًّا بَصِيحًا﴾ (٥٨)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تُوَدُّوا الْأَمْثَلَكُمْ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ لما فتح مكة، طلب مفتاح البيت من عثمان بن أبي طلحة، فذهب ليعطيه إياه، فقال العباس: بأبي أنت وأمي اجتمع لي مع السقاية، فكف عثمان يده مخافة أن يعطيه للعباس، فقال النبي ﷺ: «هاهنا المفتاح» فأعاد العباس قوله، وكف عثمان، فقال النبي ﷺ: «أرني المفتاح إن كنت تؤمن بالله وباليوم الآخر» فقال: هاك يا رسول الله بأمانة الله، فأخذ المفتاح، ففتح البيت، فنزل جبريل بهذه الآية، فدعا عثمان، فدفعه إليه. رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(٢)، وبه قال مجاهد،

(١) رجح ابن جرير رحمه الله في «تفسيره» ٤٨٢/٨ قول ابن عباس في تفسير «الملك» بملك سليمان، قال: لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، دون الذي قال: إنه ملك النبوة، ودون قول من قال: إنه تحليل النساء والملك عليهن، لأن كلام الله الذي خوطب به العرب غير جائز توجيهه إلا إلى المعروف المستعمل فيه من معانيه، إلا أن تأتي دلالة، أو تقوم حجة على أن ذلك بخلاف ذلك، يجب التسليم لها.

(٢) قال السيوطي في «الدر المنثور» ١٧٤/٢: أخرجه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس معلولاً. قلت: والكلبي وأبو صالح ضعيفان لا يحتج بهما.

والزهري، وابن جريج، ومقاتل. والثاني: أنها نزلت في الأمراء. رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال زيد بن أسلم، وابنه، ومكحول، واختاره أبو سليمان الدمشقي، وقال: أمر الأمراء أن يؤدوا الأمانة في أموال المسلمين. والثالث: أنها نزلت عامة، وهو مروى عن أبي بن كعب، وابن عباس، والحسن، وقنادة، واختاره القاضي أبو يعلى. وأعلم أن نزولها على سبب لا يمنع عموم حكمها، فإنها عامة في الودائع وغيرها من الأمانات. وقال ابن مسعود: الأمانة في الوضوء، وفي الصلاة، وفي الصوم، وفي الحديث، وأشد ذلك في الودائع^(١).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلِيمُوا اللَّهَ وَأَلِيمُوا رَسُولَهُ﴾ يقول: نعم الشيء يعظكم به، وقد ذكرناه في (البقرة).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلِيمُوا اللَّهَ وَأَلِيمُوا رَسُولَهُ وَأَلِيمُوا رَسُولَهُ﴾ فإن نَزَعْتُمْ فِي حَقِّهِ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلِيمُوا اللَّهَ وَأَلِيمُوا رَسُولَهُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها نزلت في عبد الله بن خذافة بن قيس السهمي إذ بعثه النبي ﷺ في سرية، أخرجه البخاري، ومسلم، من حديث ابن عباس^(٢). والثاني: أن عمار بن ياسر كان مع خالد بن الوليد في سرية، فهرب القوم، ودخل رجل منهم على عمار، فقال: إني قد أسلمت، هل ينفعني، أو أذهب كما ذهب قومي؟ قال عمار: أقم فأنت آمن، فرجع الرجل، وأقام فجاء خالد، فأخذ الرجل، فقال عمار: إني قد أمته، وإنه قد أسلم، قال: أنتجى علي وأنا الأمير؟ فتنازعا، وقدم على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلِيمُوا اللَّهَ وَأَلِيمُوا رَسُولَهُ﴾ طاعة الرسول في حياته: امتثال أمره، واجتناب نهيه، وبعد مماته: اتباع سنته^(٤). وفي أولي الأمر أربعة أقوال: أحدها: أنهم الأمراء، قاله أبو هريرة^(٥)، وابن عباس في رواية، وزيد بن أسلم، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنهم العلماء، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وهو قول جابر بن عبد الله، والحسن، وأبي العالية، وعطاء، والنخعي، والضحاك، ورواه خصيف عن مجاهد. والثالث: أنهم أصحاب النبي ﷺ، رواه ابن

(١) قال ابن كثير في تفسير الآية: يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «أد الأمانة إلى من اتممك، ولا تمنن من خالك» رواه الإمام أحمد وأهل السنن. وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله ﷻ على عباده من الصلاة والزكاة والصيام، والكفارات، والذنور، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه، لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك مما ياتمون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله ﷻ بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لنؤذي الحقوق إلى أهلها حتى يقتضئ للثأب للجماء من القرناء». قلت: وحديث «أد الأمانة...» رواه أبو داود في سننه ٣٩٩٣، والترمذي ٢٥١٢/٢، والدارمي ٢٦٤/٢، والحاكم ٤٦٢/٢، كلهم من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: حسن غريب. وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. قلت: وهو حديث صحيح. وقد وهم الشيخ أحمد شاكر الحافظ ابن كثير رحمه الله في عزو الحديث إلى الإمام أحمد وأهل السنن من طريق سمرة. وللإمام ابن تيمية رحمه الله رسالة أسماها «السياسة الشرعية» بناها على هذه الآية الكريمة، فارجع إليها، فإنها فريدة في بابها.

(٢) البخاري: ١٩٠/٨، ومسلم: ٤٦٦٥/٣. قال الحافظ في «الفتح»: كذا ذكره - أي: البخاري - مختصراً، والمعنى: نزلت في قصة عبد الله بن خذافة، أي: المقصود منها في قصته قوله ﴿إِنْ نَزَعْتُمْ فِي حَقِّهِ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ - الآية. قلت: وقصة خذافة بطولها رواها الإمام أحمد ٦٢٢/٢، والبخاري ١٣/١٠٩، ومسلم ١٤٦٩/٣ عن علي ﷺ، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء، فقال: اجتمعوا لي حطباً، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا ناراً، فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك، وسكن غضبه، وطفئت النار، فلما رجعوا، ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة في المعروف».

(٣) ذكره ابن جرير بأطول مما ذكره المصنف ٤٩٨/٨ عن السدي، ونقله ابن كثير عنه ٥١٨/١ ثم قال: وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طرق عن السدي مرسلًا، ورواه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير عن السدي عن أبي صالح، عن ابن عباس، فذكره بنحوه والله أعلم.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: النكته في إعادة العامل في «الرسول» دون «أولي الأمر» مع أن المطاع في الحقيقة هو الله تعالى، كون الذي يعرف به ما يقع به التكليف، هما القرآن والسنة، فكان التقدير: وأطيعوا الله فيما قضى عليكم في القرآن، وأطيعوا الرسول فيما بين لكم من القرآن، وما ينصه عليكم من السنة، والمعنى: أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحي المتبدي بتلاوته، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن. قلت: وقد روى أبو داود ٢٧٩/٤ بسند صحيح عن المقدام بن مدي كرب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فاحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، وإن ما حرّمه رسول الله ﷺ كما حرّم الله».

(٥) رواه ابن جرير عن أبي هريرة بإسناد صحيح، وقد ذكره الحافظ في «الفتح» ١٩١/٨، وقال: أخرجه الطبري بإسناد صحيح.

أبي نجیح، عن مجاهد، وبه قال بكر بن عبد الله المزني. والرابع: أنهم أبو بكر، وعمر، وهذا قول عكرمة^(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ قال الزجاج: معناه: اختلفتم وقال كل فريق: القول قولي. واشتقاق المنازعة: أن كل واحد يتزعج الحجة.

قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ في كيفية هذا الرد قولان: أحدهما: أن رده إلى الله رده إلى كتابه، ورده إلى النبي رده إلى سنته، هذا قول مجاهد، وقتادة، والجمهور. قال القاضي أبو يعلى: وهذا الرد يكون من وجهين: أحدهما: إلى المنصوص عليه باسمه ومعناه. والثاني: الرد إليهما من جهة الدلالة عليه، واعتباره من طريق القياس، والنظائر. والقول الثاني: أن رده إلى الله ورسوله أن يقول من لا يعلم الشيء: الله ورسوله أعلم، ذكره قوم منهم الزجاج. وفي المراد بالتأويل أربعة أقوال: أحدها: أنه الجزء، والثواب، وهو قول مجاهد، وقتادة. والثاني: أنه العاقبة، وهو قول السدي، وابن زيد، وابن قتيبة، والزجاج. والثالث: أنه التصديق، مثل قوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رَبِّي﴾ [يوسف: ١٠٠] قاله ابن زيد في رواية. والرابع: أن معناه: ردكم إياه إلى الله ورسوله أحسن من تأويلكم، ذكره الزجاج^(٢).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ صَلَكًا بِعِيدًا﴾ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: انطلق بنا إلى محمد، وقال المنافق: بل إلى كعب بن الأشرف، فأبى اليهودي، فأتيا النبي ﷺ، ففضى لليهودي، فلما خرجا، قال المنافق: نطلق إلى عمر بن الخطاب، فأقبلا إليه، ففضا عليه القصة، فقال: رويداً حتى أخرج إليكما، فدخل البيت، فاشتمل على السيف، ثم خرج، فضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء الله ورسوله، فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(٣). والثاني: أن أبا بردة الأسلمي كان كاهناً يقضي بين اليهود، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة، عن ابن عباس^(٤). والثالث: أن يهودياً ومنافقاً كانت بينهما خصومة، فدعا اليهودي المنافق إلى النبي، لأنه لا يأخذ الرشوة، ودعا المنافق إلى حكامهم، لأنهم يأخذون الرشوة، فلما اختلفا، اجتمعا أن يحكما كاهناً، فنزلت هذه الآية، هذا قول الشعبي^(٥). والرابع: أن رجلاً من بني النضير قتل رجلاً من بني قريظة، فاختمصوا،

(١) قال أبو جعفر: وأولى الأقوال من ذلك بالصواب، قول من قال: هم الأمراء، والولاية، لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالامر بطاعة الأئمة والولاية فيما كان له طاعة، وللمسلمين مصلحة. ثم ذكر الأحاديث التي وردت في الباب.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٥١٨/١ في تفسير الآية: وهذا أمر من الله ﷻ بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ فِي شَيْءٍ فَخُذُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ كُفْرَكُمْ تُمْسِكُونَ بِإِلَهِ الْكَافِرِينَ أَزْجَارًا﴾ أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿إِنَّ كُفْرَكُمْ تُمْسِكُونَ بِإِلَهِ الْكَافِرِينَ أَزْجَارًا﴾ فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله، ولا باليوم الآخر. وقوله: ﴿فَتَكْفُرُوا﴾ أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والرجوع في فصل النزاع إليهما خير ﴿وَأَسْمُنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن عاقبة ومألاً، كما قاله السدي وغير واحد، وقال مجاهد: وأحسن جزاء وهو قريب.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ٩٢ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٤) نقل الخبر الهيثمي في «المجمع» ٦/٧ وقال: رواه الطبراني، ووجهه رجال الصحيح، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ١٧٨/٢ عن أبي حاتم والطبراني بسند صحيح. وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة»: في ترجمة أبي بردة: وعند الطبراني بسند جيد عن ابن عباس قال: كان أبو بردة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود، فذكر القصة في نزول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ...﴾ قلت: وقوله: «فتنافر إليه ناس من المسلمين» هكذا جاءت في الأصول وفي «مجمع الزوائد» ٦/٧، و«الدر المنثور» ١٧٨/٢، و«اللباب القبول» ص: ٦٧، والطبري ٥١٠/٨ من رواية السدي «فقال المنافق من بني قريظة والنضير: انطلقوا إلى أبي بردة بن بشر بيننا» وفي ابن كثير ٥١٩/١: «فتنافر إليه ناس من المشركين» وفي «أسباب النزول» للواحدي ص: ٩٢ «فتنافر إليه ناس من أسلم». وفي «المجمع» وابن كثير، و«الفتح» ٢٩/٥ و«الدر المنثور» و«أسباب النزول»: «أبو بردة» بدل «أبي بردة» وهو خطأ.

(٥) ابن جرير ٥٠٨/٨، عن الشعبي، ونسبه السيوطي في «الدر» لابن المنذر، وذكره الواحدي في أسباب النزول: ٩٢ بسنده إلى الشعبي.

فقال المنافقون منهم: انطلقوا إلى أبي بردة الكاهن، فقال المسلمون من الفريقين: بل إلى النبي ﷺ، فأبى المنافقون، فانطلقوا إلى الكاهن، فنزلت هذه الآية. هذا قول السدي^(١). والرُّعْم والرُّعْم لغتان، وأكثر ما يستعمل في قول ما لا تتحقق صحته، وفي «الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله» قولان: أحدهما: أنه المنافق. والثاني: إن الذي زعم أنه آمن بما أنزل إليه المنافق، والذي زعم أنه آمن بما أنزل من قبله اليهودي. والطاغوت: كعب بن الأشرف، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والربيع، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ قال مقاتل: أن يتبرؤا من الكهنة، و«الضلال البعيد»: الطويل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَبِّئِينَ يُضْذَوْنَ عَنْكَ ضُذُوكًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ قال مجاهد: هذه الآية والتي قبلها نزلتا في خصومة اليهودي، والمنافق، والهاء والميم في «لهم»: إشارة إلى الذين يزعمون. و«الذي أنزل الله»: أحكام القرآن. و«إلى الرسول» أي: إلى حكمه.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ سَاءَ قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ وَمَكَ يَلْفُفُونَ يَلْفُفُونَ يَلْفُفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ﴾ أي: كيف يصنعون ويحتالون إذا أصابتهم عقوبة من الله؟ وفي المراد بالمصيبة قولان: أحدهما: أنه تهديد ووعيد. والثاني: أنه قتل المنافق الذي قتله عمر. وفي الذي قدمت أيديهم ثلاثة أقوال: أحدها: نفاقهم واستهزاؤهم. والثاني: ردهم حكم النبي ﷺ. والثالث: معاصيهم المتقدمة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ بمعنى: ما أردنا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لما قتل عمر صاحبهم، جاؤوا يطلبون بدمه، ويحلفون ما أردنا بالمطالبة بدمه إلا إحساناً لنا، وما يوافق الحق في أمرنا. والثاني: ما أردنا بالترافع إلى عمر إلا إحساناً وتوفيقاً. والثالث: أنهم جاؤوا يعتذرون إلى النبي ﷺ من محاكمتهم إلى غيره، ويقولون: ما أردنا في عدولنا عنك إلا إحساناً بالتقريب في الحكم، وتوفيقاً بين الخصوم دون الحمل على مَرِّ الحق^(٢).

﴿أَوَلَيْكَ الْذَبُّ بِعَلَّمَ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الْذَبُّ بِعَلَّمَ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من النفاق والزيف. وقال ابن عباس: إضمارهم خلاف ما يقولون ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تعاقبهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ بلسانك ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: تقدم إليهم: إن فعلتم الثانية، عاقبتكم. وقال الزجاج: يقال: بَلَغَ الرجل يَبْلُغُ بلاغة فهو بليغ: إذا كان يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه. وقد تكلم العلماء في حدِّ «البلاغة» فقال بعضهم: «البلاغة»: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وقيل: «البلاغة»: حسن العبارة مع صحة المعنى، وقيل: «البلاغة»: الإيجاز مع الإفهام، والتصرف من غير إضجار. قال خالد بن صفوان: أحسن الكلام ما قَلَّتْ ألفاظه، وكثُرَتْ معانيه، وخيِرُ الكلام ما شَوَّقَ أوله إلى سماع آخره. وقال غيره: إنما يستحق الكلام اسم البلاغة إذا سابق لفظه معناه، ومعناه لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك.

فصل

وقد ذهب قوم إلى أن «الإعراض» المذكور في هذه الآية منسوخ بأية السيف.

(١) رواه ابن جرير ٥٠٨/٨ عن السدي.

(٢) قال أبو جعفر في تفسير الآية: يعني بذلك جل ثناؤه، فكيف بهؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وهم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك ﴿وَإِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ﴾ يعني إذا نزلت بهم نعمة من الله ﴿بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ يعني بذنوبهم التي سلفت منهم، ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ وَمَكَ يَلْفُفُونَ يَلْفُفُونَ﴾ يقول: ثم جاؤوك يحلفون بالله كذباً وزوراً ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ وهذا خير من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يردعهم عن النفاق العبر والنعم، وأنهم إن تأتتهم عقوبة من الله على تحاكمهم إلى الطاغوت لم ينبيوا ولم يتوبوا، ولكنهم يحلفون بالله كذباً وجرأة على الله: ما أردنا باحتكامنا إليه إلا الإحسان من بعضنا إلى بعض، والصواب فيما احتكمتنا فيه إليه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْتُمْ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ جَاءَتْكُمْ فَاستَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ قال الزجاج: «من» دخلت للتوكيد. والمعنى: وما أرسلنا رسولاً إلا ليطاع. وفي قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أنه بمعنى: الأمر، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الإذن نفسه، قاله مجاهد. وقال الزجاج: المعنى: إلا ليطاع بأن الله أذن له في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْتُمْ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يرجع إلى المتحاكمين اللذين سبق ذكرهما. قال ابن عباس: ظلموا أنفسهم بسخطهم قضاء الرسول ﴿جَاءَتْكُمْ فَاستَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ من صنيعهم.

﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا سَلِيمًا﴾^(١)
قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها نزلت في خصومة كانت بين الزبير وبين رجل من الأنصار في شراج الحرّة^(١)، فقال النبي ﷺ للزبير: «اسق ثم أرسل إلى جارك» فغضب الأنصاري، قال: يا رسول الله: أن كان ابن عمك ا فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال للزبير: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يبلغ الجذرة» قال الزبير: فوالله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك. أخرجه البخاري، ومسلم^(٢). والثاني: أنها نزلت في المنافق، واليهودي اللذين تحاكما إلى كعب بن الأشرف، وقد سبق قصتهما، قاله مجاهد^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يكونون مؤمنين حتى يحكموك، وقيل: «لا» رد لزعمهم أنهم مؤمنون، والمعنى: فلا، أي: ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا، وهم يخالفون حكمك. ثم استأنف، فقال: وريك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، أي: فيما اختلفوا فيه. وفي «الحرّج» قولان: أحدهما: أنه الشك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي في آخرين. والثاني: الضيق، قاله أبو عبيدة، والزجاج. وفي قوله: ﴿وَيَسْلَمُوا سَلِيمًا﴾ قولان: أحدهما: يسلموا لما أمرتهم به، فلا يعارضونك، هذا قول ابن عباس، والزجاج، والجمهور. والثاني: يسلموا ما تنازعا فيه لحكمك، ذكره الماوردي.

﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْتُمْ عَلَيْنَ لَأَقْتُلَنَّكُمْ أَوْ أخرجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا قَلَّوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَكَرِهْتُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَدُونَ إِنْ كَانَ حَرَجًا لَكُمْ وَأَشَدُّ تَنَبُّيًا﴾^(٤) وَإِنَّا لَأَقْتِنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٠﴾ وَلِهَذَا نَبَّيْتُمْ صِرْعًا مُسْتَقِيمًا ﴿١١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْتُمْ عَلَيْنَ لَأَقْتُلَنَّكُمْ﴾ سبب نزولها: أن رجلاً من اليهود قال: والله لقد كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم، فقتلناها. فقال ثابت بن قيس بن الشماس: والله لو كتب الله علينا ذلك لفعلنا، فنزلت هذه الآية. هذا قول السدي^(٤). قال الزجاج: «لو» يمتنع به الشيء لامتناع غيره، تقول: لو جاءني زيد لجتته. والمعنى: أن

(١) الشراج، بكسر الشين، جمع شرج: مسيل الماء من الحرّة إلى السهل. والحرّة: موضع معروف بالمدينة، وهي أرض ذات حجارة سود نخرة، كأنما أحرقت بالنار.

(٢) البخاري ٢٦/٥، ومسلم ١٨٣٠/٤، ولغظه عن عروة، عن عبد الله بن الزبير ﷺ أنه حدثه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند رسول الله ﷺ في شراج الحرّة التي يسقون بها النخل. فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه، فاخصمنا عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك»، فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمك، فتلون وجه النبي ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذرة» فقال الزبير: والله إنني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾. وقد أفاض الحافظ ابن حجر في «الفتح» في بيان صحة الحديث واتصاله فانظرو. قوله: «فقال الأنصاري سرح» أي: أطلق الماء، وإنما قال له ذلك، لأن الماء كان يمر بأرض الزبير قبل أرض الأنصاري، فيحسبه لإكمال سقي أرضه، ثم يرسله إلى أرض جاره، فالتمس منه الأنصاري تعجيل ذلك فامتنع. وقوله: «أن كان ابن عمك» بفتح همزة «أن» وهي للتعليل، كأنه قال: حكمت له بالتقديم لأجل أنه ابن عمك. وقوله: «حتى يرجع إلى الجذرة» أي: يصير إليه، والجذرة، بفتح الجيم: الحواجز التي تجس الماء.

(٣) الطبري ٥٢٣/٨. قال الحافظ في «الفتح» ٢٩/٥: إنساده صحيح. وقد رجح ابن جرير هذا القول، وقال: إنه أولى بالصواب، لأن قوله ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ في سياق قصة الدين ابتداء الله الخبر عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ رَفَعُوا أَنْفُسَهُمْ هَؤُلَاءِ أُولَٰئِكَ﴾ ولا دلالة تدل على انقطاع قصتهم، فالحاق بعض ذلك ببعض ما لم تأت دلالة على انقطاعه أولى. ثم قال: وغير مستحيل أن تكون الآية نزلت في قصة المحكمين إلى الطاغوت، ويكون فيها بيان ما احكم فيه الزبير وصاحبه الأنصاري.

(٤) ابن جرير ٥٢٦/٨، ونقله ابن كثير عن ابن أبي حاتم أيضاً.

مجيئك امتنع لامتناع مجيئه، و«كتبنا» بمعنى: فرضنا. والمعنى: لو أنا فرضنا على المؤمنين بك أن اقتلوا أنفسهم. قرأ أبو عمرو: «أَنْ اُقْتُلُوا» أنفسهم، بكسر النون، «أَوْ اُخْرَجُوا» بضم الواو. وقرأ ابن عامر، وابن كثير، ونافع، والكسائي: «أَنْ اُقْتُلُوا أَوْ اُخْرَجُوا» بضم النون والواو. وقرأ عاصم، وحمزة بكسرهما. والمعنى: لو فرضنا عليهم كما فرضنا على قوم موسى، لم يفعله إلا قليل منهم، هذه قراءة الجمهور. وقرأ ابن عامر: «إِلَّا قَلِيلًا» بالنصب. «وَلَوْ أَنَّهُمْ» يعني: المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا، وهم يتحامون إلى الطاغوت، ويصدون عنك «فَقَمَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ» أي: ما يذكرون به من طاعة الله، والوقوف مع أمره، «لَكَانَ حَرَكًا لَهُمْ» وأثبت لأمورهم. وقال السدي: «وَأَشَدُّ تَبَيُّنًا» أي: تصديقاً.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾
 ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (٧٠)

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد المحبة لرسول الله ﷺ، فرآه رسول الله يوماً فعرف الحزن في وجهه، فقال: «يا ثوبان ما غير وجهك؟» قال: ما بي من وجع غير أنني إذا لم أرك اشتقت إليك، فأذكر الآخرة، فأخاف أن لا أراك هناك، فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(١). والثاني: أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له: ما ينبغي أن نفارقك في الدنيا، فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا، فنزلت هذه الآية. هذا قول مسروق^(٢). والثالث: أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي وهو محزون، فقال: «ما لي أولك محزوناً؟» فقال: يا رسول الله غداً ترفع مع الأنبياء، فلا نصل إليك. فنزلت هذه الآية. هذا قول سعيد بن جبيرة^(٣). قال ابن عباس: ومن يطع الله في الفرائض، والرسول في السنن. قال ابن قتيبة: والصديق الكثير الصدق، كما يقال: فسّيق، وسكّير، وشريب، وخمير، وسكّيت، وفجير، وعشيق، وضليل، وظليم: إذا كثرت منه ذلك. ولا يقال ذلك لمن فعل الشيء مرة أو مرتين حتى يكثر منه ذلك، أو يكون عادة. فأما الشهداء، فجمع شهيد وهو القتل في سبيل الله. وفي تسميته بالشهيد خمسة أقوال: أحدها: لأن الله تعالى وملائكته شهدوا له بالجنة، قاله ثعلب. والثاني: لأن ملائكة الرحمة تشهده. والثالث: لسقوطه بالأرض، والأرض: هي الشاهدة، ذكر القولين ابن فارس اللغوي. والرابع: لقيامه بشهادة الحق في أمر الله حتى قتل، قاله أبو سليمان الدمشقي. والخامس: لأنه يشهد ما أعد الله له من الكرامة بالقتل، قاله شيخنا علي بن عبيد الله. فأما الصالحون، فهو اسم لكل من صلّحت سيرته وعلايته. والجمهور على أن النبيين، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين عام في جميع من هذه صفته^(٤). وقال عكرمة: المراد بالنبيين هاهنا محمد، والصدّيقين أبو بكر، والشهداء عمر وعثمان وعلي، وبالصالحين سائر الصحابة.

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون سند عن الكلبي. (٢) الطبري ٥٣٤/٨، وابن أبي حاتم، وإسناده صحيح.

(٣) ابن جرير ٥٣٤/٨ بإسناد لا بأس به. وروى الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية» ١٢٥/٨ والفضاء المقدسي في «صفة الجنة» عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إنك لأحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى أتيتك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك؟ فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ قال الفضاء المقدسي: لا أرى بإسناده بأساً. وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/٧: رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن عمران العابدي وهو ثقة.

(٤) في «صحيح مسلم» ٣٥٣/١ عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: «كنت أبيت عند النبي ﷺ، فأتيت بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل»، فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» روى الإمام أحمد، والطبراني عن عمرو بن مرة الجهني، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت شهر رمضان؟ فقال رسول الله ﷺ: «من مات على ذلك كان مع النبيين، والصدّيقين، والشهداء يوم القيامة هكذا». ونصب أصميه - ما لم يبق والده» قال الهيثمي في «الزوائد» ١٤٧/٨: رواه أحمد، والطبراني بإسنادين، ورجال أحد إسنادي الطبراني رجال الصحيح. وذكره قبل ذلك ٤٦/١ مختصراً، وقال: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح، خلا شيخي البزار، وأرجو أنه إسناد حسن أو صحيح. قال ابن كثير بعدما روى جملة من الأحاديث: وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في «الصحيح» و«المسانيد» وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من أحب» قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. وفي رواية عن أنس أنه قال: إنني لأحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر ﷺ، وأرجو أن يمضي الله معهم، وإن لم أعمل كعملهم.

قوله تعالى: ﴿رَحْسَنَ أَوْلِيَّتِكَ رَئِيمًا﴾ قال الزجاج: «رفيقاً» منصوب على التمييز، وهو يئوب عن رفاء. قال الشاعر:
بها جيف الحسرى فأما عظامها
فبيضٌ وأما جلدُها فصليب^(١)
وقال آخر:

ففي حلقكم عظم وقد شجينا^(٢)
يريد: في حلوكم عظام^(٣).

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾ الذي أعطى المذكورين ﴿مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَيْسًا﴾ بالمقاصد والنيات.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ مَاتُوا خُدُوا جُدْرَكُمْ فَأَنْفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَبِيحًا﴾ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿خُدُوا جُدْرَكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: احذروا عدوكم. والثاني: خذوا سلاحكم.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْفِرُوا ثَبَاتٍ﴾ قال ابن قتيبة: أي: جماعات، واحدها: ثبة، يريد جماعة بعد جماعة. وقال
الزجاج: «الثبات»: الجماعات المتفرقة. قال زهير:

وقد أغدو على ثبّة كرام

قال ابن عباس: فانفروا ثبات، أي: عصياً، سرايا متفرقين، أو انفروا [جميعاً يعني] كلكم.^(٤)

فصل

وقد نقل عن ابن عباس أن هذه الآية وقوله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] وقوله: ﴿إِلَّا نَفِرُوا بَعْدَ بَعْدِكُمْ
عَدَاً أَيْسًا﴾ [التوبة: ٣٩] منسوخات بقوله: ﴿وَمَا كَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَلْتَمِزُونَ كَأَنَّ﴾ [التوبة: ١٢٢] قال أبو سليمان الدمشقي:
والأمر في ذلك بحسب ما يراه الإمام، وليس في هذا من المنسوخ شيء.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيَبَدَلْهُ فَإِنْ أَسْبَغَ إِحْسَابًا﴾ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ
لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ لِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَأْتِيَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيَبَدَلْهُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها في المنافقين، كعبد الله بن
أبي، وأصحابه كانوا يتشاقلون عن الجهاد، فإن لقيت السرية نكبة، قال من أبطأ منهم: لقد أنعم الله عليّ، وإن لقوا
غنيمَةً، قال: يا ليتني كنت معهم. هذا قول ابن عباس، وابن جريج. والثاني: أنها نزلت في المسلمين الذين قلت
علومهم بأحكام الدين، فتشبوا لقلّة العلم، لا لضعف الدين، ذكره الماوردي، وغيره. فعلى الأول تكون إضافتهم إلى
المؤمنين بقوله «منكم» لموضع نطقهم بالإسلام، وجريان أحكامه عليهم، وعلى الثاني تكون الإضافة حقيقة. قال ابن

(١) البيت لعلمة بن عبدة وهو في «المفضليات» ٣٩٢، و«مختار الشعر الجاهلي» ٤٢١، و«الكتاب» ١٠٧/١ وقد تقدم. قال الأعلام: الشاهد فيه وضع
الجلد موضع الجلود، لأنه اسم جنس يئوب واحده عن جميعه فأفرد ضرورة لذلك. وصف طريقاً بعيداً شاقاً على من سلكه، فجيف الحسرى - وهي
المعينة من الإبل - مستقرة فيه. وقوله: «فأما عظامها فييض»، أي: أكلت السباع والطيور ما عليها من اللحم فتمعرت وبدا وضحها. وقوله: «فأما جلدُها
فصليب» أي: محرم يابس، لأنه ملقى بالفلاة لم يذيق، ويقال: «الصليب» هنا الولد، أي: قد سال ما فيه من رطوبة لإحماء الشمس عليه.

(٢) «الكتاب» ١٠٧/١، وصدوره: لا تُنكروا القتل وقد سينا. وهو للمسيب بن زيد مائة الغنوي، قال الأعلام: الشاهد فيه وضع «الحلق» مكان الحلو. وقد
وصف أنهم قتلوا من قوم كانوا قد سبوا من قومه، فيقول: لا تنكروا تلتنا لكم، وقد سببتم منا، ففي حلوكم عظم بقتلنا لكم، «وقد شجينا» نحن
أيضاً، أي: غصصنا بسبيكم لمن سببتم منا، وهذا مثل.

(٣) قال سيبويه في «الكتاب» ١٠٧/١: وليس بمستكثر في كلامهم أن يكون اللفظ واحداً والمعنى جميع، حتى قال بعضهم في الشعر من ذلك ما لا
يستعمل في الكلام، ثم أنشد البيهقي اللذين ذكرهما المصنف. وفي «مجاز القرآن» ١/٣١١: والعرب تلفظ بلفظ الواحد، والمعنى يقع على الجميع.
قال العباس بن مرداس:

فقلنا أشلُّوا نأأ أخوكم

فقد برئت من الأَخِي الضُّدور
وفي القرآن ﴿تَحْمِيصُكُمْ لِيَفْلَاحًا﴾ [الحج: ٢٢] والمعنى: أطفالاً. وفي «البحر المحيط» ٢٨٨/٣: وجاء مفرداً، إما لأن «الرفيق» مثل الخليل، والصدديق
يكون للمفرد والمثنى، والمجموع بلفظ واحد، وإما لإطلاق المفرد في باب التمييز اكتفاءً ويراد به الجمع، ويحسن ذلك هنا كونه فاصلة.

(٤) «ديوانه» ٧٢، و«مختار الشعر الجاهلي» ٢٧٠، و«مجاز القرآن» ١/٣٢٢، و«الطبري» ٥٣٦/٨، و«اللسان» «ثبا» و«نشا» وفي «الديوان»: وقد أغدو على
شُرب كرام. والرواية التي استشهد بها المؤلف وغيره هي رواية الأعلام.

(٥) الزيادة من الطبري.

جرير: اللام في «لمن» لام تأكيد. قال الزجاج: واللام في «ليبطئن» لام القسم، كقولك: إن منكم لمن أحلف بالله لبطئن، يقال: «أبطأ الرجل» و«بطؤ». فمعنى «أبطأ»: تأخر، ومعنى «بطؤ»: ثقل. وقرأ أبو جعفر: (لَيَبْطِئَنَّ) بتخفيف الهمزة. وفي معنى: «ليبطئن» قولان: أحدهما: لبطئن هو نفسه، وهو قول ابن عباس. والثاني: لبطئن غيره، قاله ابن جريج. قال ابن عباس: و«المصيبة»: النكبة. و«الفضل من الله»: الفتح والغنيمة.

قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ قرأ ابن كثير، وحفص، والمفضل، عن عاصم: «كأن لم تكن» بالياء، لأن الفاعل المسند إليه مؤنث في اللفظ. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر، عن عاصم: «يكن» بالياء، لأن التانيث ليس بحقيقي. قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى: يقولن يا ليتني كنت معكم، كأن لم يكن بينكم وبينه مودة، أي: كأنه لم يعاقدكم على أن يجاهد معكم. ويجوز أن يكون هذا الكلام معترضاً به، فيكون المعنى: ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن يا ليتني كنت معكم، فإن أصابتكم مصيبة، قال: قد أنعم الله علي، كأن لم يكن بينكم وبينه مودة. فيكون معنى «المودة» أي: كأنه لم يعاقدكم على الإيمان^(١).

﴿قَلْبَيْلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤)

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يشرون هاهنا: بمعنى يبتغون في قول الجماعة. وأنشدوا:

وَشَرَيْتُ... بُرْدًا لِيَتَنِي
مَنْ بَعْدَ بُرْدِ كُنْتُ هَامَهُ^(٢)

و«برد»: غلام له باعه. ومعنى الآية: ليكن قتال المقاتلين على وجه الإخلاص، وطلب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ خرج مخرج الغالب، وقد يثاب من لم يغلب ولم يقتل.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالسِّبْغِيَّةِ مِنَ الرِّجَالِ وَاللِّسَاءِ وَالْوَلَدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْتَمَلْنَا مِنْ لَدُنْكَ وَيَا وَاجْتَمَلْنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥)

قوله تعالى: ﴿السِّبْغِيَّةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ قال الفراء: تقديره: وفي المستضعفين. وكذلك روي عن ابن عباس. وقال الزجاج: المستضعفون في موضع خفض، والمعنى في سبيل الله، وسبيل المستضعفين، أي: ما لكم لا تسعون في خلاص هؤلاء؟ قال ابن عباس: وهم ناس مسلمون كانوا بمكة لا يستطيعون أن يخرجوا. و«القرية»: مكة في قول الجماعة. قال الفراء: وإنما خفض «الظالم» لأنه نعت للأهل، فلما عاد الأهل على القرية كان فعل ما أضيف إليها بمنزلة فعلها، تقول: مررت بالرجل الواسعة داره^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَاجْتَمَلْنَا مِنْ لَدُنْكَ وَيَا﴾ قال أبو سليمان: سألوا الله ولياً من عنده يلي إخراجهم منها، ونصيراً يمنعهم من المشركين. قال ابن عباس: فلما فتح رسول الله مكة، جعل الله ﷺ النبي ﷺ وليهم، واستعمل عليهم رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد، فكان نصيراً لهم، ينصف الضعيف من القوي^(٤).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَفَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦)

(١) قال ابن عطية: المتناقض يعاطي المؤمنين المودة، ويعاهد على التزام كلف الإسلام، ثم يتخلف نفاقاً وشكاً وكفراً بالله ورسوله، ثم يمتنى عندما يكشف الغيب الظفر للمؤمنين، فعلى هذا يجهي قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ الصائفة بليغة، واعتراضاً بين القاتل والمقول بلفظ يظهر زيادة في قبح فعلهم «البحر المحيط» ٢٩٣/٣.

(٢) البيت لابن مفرغ، وهو يزيد بن ربيعة بن مفرغ، شاعر إسلامي، ولقب جده مفرغاً، لأنه راهن على سقاء لبن أن يشربه، فشره حتى فرغ، فلحق مفرغاً، ويكنى أبا عثمان، وهو من حمير، انظر أخباره في «الشعر والشعراء» ٣٢١، و«الأغاني» ١٨١/١٨. والبيت في «مجاز القرآن» ٤٨/١، و«الأضداد» لابن السكيت: ١٨٥، و«الشعر والشعراء» ٣٢١/١، والكمال: ٣٢٥/١، و«الخرزانة» ٢/٢١٤. وفي «الخرزانة»: والهامة: أنثى الصدى وهو ذكر اليوم، وفي «مروج الذهب» للمسعودي: ومن العرب من يزعم أن النفس طائر ينسبط في الجسم، فإذا مات الإنسان أو قتل، لم يزل يطيف به مستوحشاً، فيصيح على قبره، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً، ثم يكبر حتى يكون كضرب من اليوم، وهو أبداً مستوحش، ويوجد في الديار المعطلة، ومصارع القتلى والقبور، وإنها لم تزل عند ولد الميت، ومخلفة لتعلم ما يكون بعده فتخبزه.

(٣) «معاني القرآن» ١/٢٧٧.

(٤) قال الحافظ في «الإصابة» ٢/٤٤٤: أورده القبلي في ترجمة هشام بن محمد بن السائب الكلبي بسنده إليه عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس...

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ فِي سَبِيلِ اللَّعْنَتِ﴾ الطاغوت هاهنا: الشيطان. وقال أبو عبيدة: الطاغوت هاهنا في معنى جماعة، كقوله: ﴿وَلَعْنَمُ الْخَزِيرِ﴾ معناه: ولحم الخنازير^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ النَّاصِئِينَ﴾ يعني: مكروه وصنيعه ﴿كَانَ ضَمِيمًا﴾ حيث خذل أصحابه يوم بدر.

﴿أَنْزَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدَّ لَهُمْ كُفْرًا أَيُّوبَ﴾ وَأَصْفُوا السَّلَوَةَ وَأَثَرُوا الزُّكُوتَ فَلَمَّا كَيْبَ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَالُ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ يَخْتَفُونَ النَّاسَ كَخَفِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَفِيَّةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتْنَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَوْلَا أَنَّكَ لَمَّا كُنَّا فِي الْيَهُودِ

قوله تعالى: ﴿أَنْزَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدَّ لَهُمْ كُفْرًا أَيُّوبَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في نفر من المهاجرين، كانوا يحبون أن يؤذن لهم في قتال المشركين وهم بمكة قبل أن يُفْرَضَ القتال، فنهوا عن ذلك، فلما أُذِنَ لهم فيه، كرهه بعضهم. روى هذا المعنى أبو صالح، عن ابن عباس^(٢)، وهو قول قتادة، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنها نزلت واصفة أحوال قوم كانوا في الزمان المتقدم، فحذرت هذه الأمة من مثل حالهم، روى هذا المعنى عطية، عن ابن عباس. قال أبو سليمان الدمشقي: كأنه يومئذ إلى قصة الذين قالوا: ابعث لنا ملكاً. وقال مجاهد: هي في اليهود. فأما كَفَّ اليد، فالمراد به: الامتناع عن القتال، ذلك كان بمكة. و«كُتِبَ» بمعنى: فُرض، وذلك بالمدينة، هذا على القول الأول.

قوله تعالى: ﴿إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ﴾ في هذا الفريق ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المنافقون. والثاني: أنهم كانوا مؤمنين، فلما فرض القتال، ناقدوا جُبناً وخوفاً. والثالث: أنهم مؤمنون غير أن طبائعهم غلبتهم، فنفرت نفوسهم عن القتال. قوله: ﴿يَخْتَفُونَ النَّاسَ﴾ في المراد بالناس قولان: أحدهما: كفار مكة. والثاني: جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَفِيَّةً﴾ قيل: إن «أو» بمعنى الواو، و«كُتِبَ» بمعنى: فرضت. و«لولا» بمعنى «هلا». قال الفراء: إذا لم تر بعدها اسماً، فهي استفهام، بمعنى هلاً، وإذا رأيت بعدها اسماً مرفوعاً، فهي التي جوابها اللام، تقول: لولا عبد الله لضربتك. وقال ابن قتيبة: إذا رأيتها بغير جواب، فهي بمعنى «هلاً» تقول: لولا فعلت كذا، ومثلاً «لوما» فإذا رأيت لـ «لولا» جواباً، فليست بمعنى «هلاً» إنما هي التي تكون لأمر يقع بوقوع غيره، كقوله: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لَيْتَ فِي بَطْنِيهِ [الصفات: ١٤٣ - ١٤٤] قلت: فأما «لولا» التي لها جوابٌ فكثيرة في الكلام، وأتشدوا في ذلك:

فيه المشيبُ لَزُرْتُ أُمَّ الْقَاسِمِ^(٣)

لولا الحياء وأن رأسي قد عشا

وأما التي بمعنى «هلاً» فأتشدوا منها:

بني صَوَّ طَرَى لولا الكَمِّي المَقْتَعَا^(٤)

تعذون عقر النيب أفضل مجدكم

(١) في «مجاز القرآن» ٧٩/١: «أولياهم الطاغوت» في موضع جمع، لقوله: «يخرجونهم».

(٢) ذكره الواحدي عن الكلبي، وروى ابن جرير ٥٤٩/٨ عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا ألدنا فقال: «إني أمرت بالهفو، فلا تقتلوا»، فلما حوله الله إلى المدينة، أمر بالقتال فكفوا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أَنْزَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدَّ لَهُمْ كُفْرًا أَيُّوبَ﴾ الآية. وإسناده جيد، ورواه الحاكم في «المستدرک» مع اختلاف في لفظه، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) البيت لمدي بن الرقاع، وهو في «غريب القرآن» ص ٥٠، و«الشعر والشعراء» ٦٠٢/٢، و«الكامل» ١٢٧/١، و«الأغاني» ٣١١/٩، و«أمالي المرتضى» ٥١١/١، و«السمط» ٥٢١/١. وعنا فيه المشيب: أفسده أشد الإفساد، وهي بالناء المثناة، وهي كذلك في «الشعر والشعراء» و«اللسان». وفي «السمط»: علا. وفي «أمالي المرتضى»: بدا. وفي حاشية أصل المرتضى: فشا. وفي «غريب القرآن»: عتا. وفي «الأغاني» و«الكامل»: عسا. قال ابن قتيبة: وكان بعض الرواة ينشد بيت عدي بن الرقاع:

لولا الحياء وأن رأسي قد عشا

فيه المشيب لَزُرْتُ أُمَّ الْقَاسِمِ

ويتكرر على من يرويه: «عسا» قال: وكيف يسو الشيب وهو إلى أن يرق في كبر الرجل ويلين، أقرب منه إلى أن يغلظ ويقسو ويصلب.

(٤) البيت لجرير بن عطية، ونسبه بعضهم لأشهب بن ربيعة، وهو خطأ، وهو في ديوان جرير: ٣٣٨، و«النتاوض» ٨٣٣، من قصيدة طويلة في مناقشة جرير والفرزدق، و«مجاز القرآن» ٥٢/١، و«شرح المفصل» ١٤٤/٨، و«الخرزانه» ٤٦١/١، ورواية «الديوان والنتاوض»: «أفضل سعيكم». وقوله: «عقر النيب» عقر الناقة أو الفرس: ضرب قوائمها فقطعها، والمرب تفلع ذلك إذا أرادوا نحر البعير كيلا يشرد عند النحر. والنيب، جمع ناب: وهي الناقة المسنة. ويشير جرير بذلك إلى ما كان يفخر به الفرزدق من معاقرة أبيه غالب بن صعصعة، وسحيم بن وثيل الرياحي بمكان يقال له: صعرة، فقفر

أراد: فهلاً تعدون الكمي، والكمي: الداخل في السلاح. وفي الأجل القريب قولان: أحدهما: أنه الموت، فكانهم قالوا: هلاً تركتنا نموت موتاً، وعافيتنا من القتل، هذا قول السدي، ومقاتل. والثاني: أنه إمهال زمان، فكانهم قالوا: هلاً أخرت فرض الجهاد عنا قليلاً حتى نكثر ونقوى، قاله أبو سليمان الدمشقي في آخرين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَى الدُّنْيَا قِيلٌ﴾ أي: مدة الحياة فيها قليلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْسُونَهُ فَيْلًا﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «ولا يظلمون» بالياء. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم: بالياء، وقد سبق ذكر المتاع والفيتل.

﴿أَتَيْنَا تَكْوِينًا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُضَيِّبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُضَيِّبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالَ هَذِهِ الْقَوَارِيرُ لَا يَكَادُونَ بِفَقْهُونَهَا حِينًا ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا تَكْوِينًا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ سبب نزولها أن المنافقين قالوا في حقّ شهداء أحد: لو كانوا عندنا ما ماتوا، وما قتلوا، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس، ومقاتل. والبروج: الحصون، قاله ابن عباس^(١)، وابن قتبية. وفي «المشيدة» خمسة أقوال: أحدها: أنها الحصينة، قاله ابن عباس، وقتادة. والثاني: المطولة، قاله أبو مالك، ومقاتل، وابن قتبية. والثالث: المجصصة، قاله هلال بن خباب، واليزيدي. والرابع: أنها المبنية بالشيد، وهو الجص، قاله أبو سليمان الدمشقي. والخامس: أنها بروج في السماء، قاله الربيع بن أنس، والثوري. وقال السدي: هي قصور يبض في السماء مبنية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُضَيِّبُهُمْ﴾ اختلفوا فيهم على ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المنافقون واليهود، قاله ابن عباس. والثاني: المنافقون، قاله الحسن. والثالث: اليهود، قاله ابن السري. وفي الحسنة والسيئة قولان: أحدهما: أن الحسنة؛ الخصب، والمطر. والسيئة: الجذب، والغلاء، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. والثاني: أن الحسنة: الفتح والغنيمة، والسيئة: الهزيمة والجراح، ونحو ذلك، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس. وفي قوله: ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ قولان: أحدهما: بشؤك، قاله ابن عباس. والثاني: بسوء تدبيرك، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: الحسنة والسيئة، أما الحسنة، فأنعم بها عليك، وأما السيئة، فابتلاك بها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ الْقَوَارِيرُ﴾ وقف أبو عمرو، والكسائي على الألف من «فما» في قوله: ﴿قَالَ هَذِهِ الْقَوَارِيرُ﴾ و«مَالٍ هَذَا الْكَيْبِ» و«مَالٍ هَذَا أَرْسُولٌ» و«فما للذين كفروا» والباقون وقفوا على اللام. فأما «الحديث»، فقيل: هو القرآن، فكأنه قال: لا يفقهون القرآن، فيؤمنون به، ويعلمون أن الكل من عند الله.

﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ في المخاطب بهنا الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنه عام، فتقديره: ما أصابك أيها الإنسان، قاله قتادة. والثاني: أنه خطاب للنبي ﷺ، والمراد به غيره، ذكره الماوردي. وقال ابن الأنباري: ما أصابك الله من حسنة، وما أصابك الله به من سيئة، فالفاعلان يرجعان إلى الله ﷻ. وفي «الحسنة» و«السيئة» ثلاثة أقوال: أحدها: أن الحسنة: ما فُتِحَ عليه يوم بدر، والسيئة: ما أصابه يوم أحد، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس. والثاني: الحسنة: الطاعة، والسيئة: المعصية، قاله أبو العالية. والثالث: الحسنة: النعمة، والسيئة، البلية، قاله ابن قتبية، وعن أبي العالية نحوه، وهو أصح، لأن الآية عامة. وروى كرداب، عن يعقوب: «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ»

سحيم خمساً وأمسك وعقر غالب مئة أو مئتين. قال ابن الأثير في «النهاية» ١١٤/٣: وفي حديث ابن عباس: «لا تأكلوا من تعاقر الأعراب فإني لا آمن أن يكون مما أهل به لغير الله» هو عقرهم الإبل، كان يتبارى الرجلان في الجود والسخاء، فيعقر هذا إبلاً، ويعقر هذا إبلاً حتى يعجز أحدهما الآخر، وكانوا يفعلونه رياءً وسمعةً وتفاخراً، ولا يقصدون به وجه الله، فشبهه بما ذبح لغير الله. وقوله: «بني ضوطني»، يعني: يا بني الحمقى، قال في «اللسان»: ويقال للقوم إذا كانوا لا يفتنون غناء: «بنو ضوطني». الكمي: الشجاع الذي لا يرهب، فلا يحيد عن قرنه، كان عليه سلاح أو لم يكن. والمفتع: الذي على رأسه البيضة والمغفر، ومعنى «تعدون»: تجملون وتحسبون، ولهذا عداه إلى مفعولين.

(١) ذكره الواحدي من رواية أبي صالح عن ابن عباس.

بتشديد النون، ورفعها، ونصب الميم، وخفض اسم «الله» ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ مِنْ نَفْسِكُمْ﴾ بنصب الميم، ورفع السين^(١). وقرأ ابن عباس: وما أصابك من سيئة، فمن نفسك، وأنا كتبتها عليك. وقرأ ابن مسعود: وأنا عدتها عليك^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أي: فيذنبك، قاله الحسن، وقتادة، والجماعة. وذكر فيه ابن الأنباري وجهاً آخر، فقال: المعنى: أضمن نفسك، فأضمرت ألف الاستفهام، كما أضمرت في قوله ﴿وَلَكَّ سِنَّةً﴾ أي: أو تلك نعمة^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِتَأْتِيَ رَسُولًا﴾ قال الزجاج: ذكر الرسول مؤكداً لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾ والباء في «الله» مؤكدة. والمعنى: وكفى بالله شهيداً. و«شهاداً»: منصوب على التمييز، لأنك إذا قلت: كفى بالله، ولم تبين في أي شيء الكفاية كنت مبهماً. وفي المراد بشهادة الله هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: شهيداً لك بأنك رسوله، قاله مقاتل. والثاني: على مقالتهم، قاله ابن السائب. والثالث: لك بالبلاغ، وعليهم بالتكذيب والنفاق، قاله أبو سليمان الدمشقي. فإن قيل: كيف عاب الله هؤلاء حين قالوا: إن الحسنة من عند الله، والسيئة من عند النبي ﷺ، وردة عليهم بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ثم عاد، فقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ مِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ نَفْسِكُمْ﴾ فهل قال القوم إلا هكذا؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنهم أضافوا السيئة إلى النبي ﷺ تشاؤماً به، فرد عليهم، فقال: كل بتقدير الله. ثم قال: ما أصابك من حسنة، فمن الله، أي: من فضله، وما أصابك من سيئة، فيذنبك، وإن كان الكل من الله تقديراً. والثاني: أن جماعة من أرباب المعاني قالوا: في الكلام محذوف مقدر، تقديره: فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، يقولون: ما أصابك من حسنة، فمن الله، وما أصابك من سيئة، فمن نفسك. فيكون هذا من قولهم. والمحذوف المقدر في القرآن كثير، ومنه قوله: ﴿رَبَّنَا نَقْبَلْهُ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧] أي: يقولان: ربنا. ومثله ﴿أَوْ يَهْدِ أَدَىٰ مِنْ رَأْسِهِ فَيَذَرُهَا﴾ [البقرة: ١٩٦] أي: فحلق، ففدية. ومثله ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] أي: يقال لهم. ومثله ﴿وَاللَّاتِيكَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَمٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] أي: يقولون سلام. ومثله ﴿أَوْ كُفِّرُوا بِلِئْلِهِ الْأَمْرِ﴾ [الرعد: ٣١] أراد: لكان هذا القرآن. ومثله ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ جَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٠] أراد: لعذبكم. ومثله ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] أي: يقولون. وقال الثمير بن توبل:

فإن المنية من يخشها
أراد: أينما ذهب. وقال غيره:
فأقسم لو شيء أتانا رسوله
أراد: لرددناه.

﴿مَنْ يُؤِخِّرِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾

- (١) في «البحر المحيط» ٣/٢٠٢: وقرأت عائشة رضي الله عنها: فمن نفسك، بفتح الميم ورفع السين، فمن: استفهام معناه الإنكار، أي: فمن نفسك حتى ينسب إليها، المعنى: ما للنفس في الشيء فعل.
- (٢) في «القرطبي» ٥/٢٨٥: وروى عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس وأبي وابن مسعود، وذكر القراءة، ثم قال: فهذه قراءة على التفسير، وقد أتيتها بعض أهل الزيغ من القرآن، والحديث بذلك عن ابن مسعود وأبي منقطع، لأن مجاهداً لم ير عبد الله ولا أياً.
- (٣) في «البحر المحيط»: والعرب تحذف ألف الاستفهام، قال أبو خراش: رفونسي وقالوا يا خويلد لم ترع فقلت وأنتك وأنتكرت السجود هم هم أي: أهم هم؟ قلت: والبيت في «ديوان الهذليين» ٢/١٤٤، قال الشارح: رفوني: أي سكنوني وكان أصلها: رفونتي، قال أبو سعيد: وأهل الحجاز يهزون، فترك الهمزة. قلت: وفي «البحر المحيط»: «رفوني» وهو تحريف.
- (٤) «مشكل القرآن» ١٦٨، و«أدب الكاتب» ١٨٣، و«المعاني الكبير» ٢/١٢٦٤، وهو من فصيحة له في «مختارات ابن الشجري» ١٩، وقبل هذا البيت قوله:

فإن أنت لا تئيبك نفسي نجدة

يقول: إذا لقيت يوماً ذوي نجدة في حرب، فلا تئيب الإقدام عليها، فإن الذي يخشى المنية تلقاه أين ذهب من الأرض.

- (٥) البيت لامرئ القيس، وهو في «ديوانه» ٢٤٢ وفيه «أجذك» قال شارح الديوان: وقوله: «لو شيء» يريد لو أحد، وليس ل «لو» هنا جواب، كما أسلك عن الجواب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]. فيقول: لو أحد أتانا رسوله لما أجبنا، ولكننا لم ندفعك عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ سبب نزولها: أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني، فقد أطاع الله^(١)، ومن أحبني، فقد أحب الله» فقال المنافقون: لقد قارب هذا الرجل الشرك، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. ومعنى الكلام: من قَبِلَ ما أتى به الرسول، فإنما قبل ما أمر الله به، ومن تولى، أي: أعرض عن طاعته. وفي «الحفيظ» قولان: أحدهما: أنه الرقيب، قاله ابن عباس. والثاني: المحاسب، قاله السدي، وابن قتيبة.

فصل

قال المفسرون: وهذا كان قبل الأمر بالقتال، ثم نُسِخَ بآية السيف.
﴿وَيَتْلُونَ طَاعَةً﴾ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَلَّى عَنَّا اللَّهُ وَكَانَ بِاللَّهِ وَكَيْلًا ﴿٨١﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُونَ طَاعَةً﴾ نزلت في المنافقين، كانوا يؤمنون عند رسول الله ﷺ ليأمنوا، فإذا خرجوا خالفوا، هذا قول ابن عباس. قال الفراء: والرَّع في «طاعة» على معنى: أمرُك طاعة.
قوله تعالى: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة: بيت، بسكون «التاء»، وإدغامها في «الطاء» ونصب الباقون «التاء». قال أبو علي: التاء والطاء والذال من حيز واحد، فحسن الإدغام، ومَنْ بَيَّنَّ، فلانفصال الحرفين، واختلاف المخرجين. قال ابن قتيبة: والمعنى [فإذا برزوا من عندك، أي: خرجوا، بيت طائفة منهم غير الذي تقول، أي^(٢)]

قالوا: وقَدَرُوا لَيْلاً غير ما أعطوك نهاراً. قال الشاعر:
أتوني فلم أرض ما بيئتوا
والعرب تقول: هذا أمر قد قُدِّرَ ليليل [وفرخ منه ليليل، ومنه قول الحارث بن حلزة:
أجمعوا أمرهم عشاءً فلما
وقال بعضهم: بيت، بمعنى: بذل، وأنشد:

وبيتٌ قولِي عند المليك
قَاتِلِكَ اللهُ عِبْدًا كَفُورًا^(٣)

وفي قوله: ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ قولان: أحدهما: غير الذي تقول الطائفة عندك، وهو قول ابن عباس، وابن قتيبة. والثاني: غير الذي تقول أنت يا محمد، وهو قول قتادة، والسدي.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يكتب في الأعمال التي تثبتها الملائكة، قاله مقاتل في آخرين. والثاني: ينزله إليك في كتابه. والثالث: يحفظه عليهم ليجازوا به، ذكر القولين الزجاج، قال ابن عباس: فأعرض عنهم: فلا تعاقبهم، وثق بالله ﷻ، وكفى بالله ثقة لك. قال: ثم نسخ هذا الإعراض، وأمر بقتالهم. فإن قيل: ما الحكمة في أنه ابتدأ بذكرهم جملة، ثم قال: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾ والكل منافقون؟ فالجواب من وجهين، ذكرهما أهل التفسير: أحدهما: أنه أخبر عن سهر ليله، ودبر أمره منهم دون غيره منهم. والثاني: أنه ذكر من علم أنه يبقى على نفاقه دون من علم أنه يرجع.

(١) قول الرسول ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله» رواه البخاري ٩٩/١٣، ومسلم ١٤٦٦/٣ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قال الحافظ في «الفتح»: قوله: «من أطاعني فقد أطاع الله»: هذه الجملة منزهة من قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

(٢) الزيادة من «غريب القرآن» ١٣١.

(٣) البيت لعبيدة بن همام، أخو بني العديونية من بني مالك بن حنظلة من بني تميم، وهو في «مجاز القرآن» ١٣٣/١، و«غريب القرآن» ١٣١، و«الكامل» ٧٣٩/٢، و«الحيوان» ٤٧٦/٤، و«تفسير الطبري» ٥٦٣/٨. نكر، بضمين، مثل نكر بضم فسكون: الأمر المنكر الذي تنكره، والبيت يضمه الذي بعده وهو:

لَأُنْكِحَ أَيْمَهُمْ مِنْ لَدُونِ
وهل ينكح العبد حراً لحر؟
وقد ذكر الجاحظ في «الحيوان» خبر هذين البيتين في خبر النعمان بن المنذر ومثاله، وذلك أن أخاه المنذر بن المنذر خطب إلى عبيدة بن همام، فرده أقيح الرد، وذكر البيتين.

(٤) الزيادة من «غريب القرآن» ١٣١. والبيت في «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» ٤٥٢.

(٥) البيت للأسود بن عامر بن جوين الطائي، وهو في «غريب القرآن» ١٣٢، و«تفسير الطبري» ١٩٢/٩، و«الجامع لأحكام القرآن» ٢٨٩/٥ وفيهما «عبد المليك» وفي «الطبري»، «قاتلك الله عبداً كئوداً».

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ قال الزجاج: «التدبر»: النظر في عاقبة الشيء، و«التدبر» النحل، سُمي دبراً، لأنه يُعقَّب ما يُنتزع به، و«التدبر»: المال الكثير، سُمي دبراً لكثرتِه، لأنه يبقى للأعقاب والأدبار. وقال ابن عباس: أفلا يتدبرون القرآن، فيفتكرون فيه، فيرون تصديق بعضه لبعض، وأن أحداً من الخلائق لا يقدر عليه. قال ابن قتيبة: والقرآن من قولك: ما قرأت الناقة سلى^(١) قط، أي: ما ضمت في رحمها ولدأ، وأنشد أبو عبيدة:

هجانُ اللَّونِ لم تقسراً جنيناً^(٢)

وإنما سُمي قرناً، لأنه جمع السور، وضمها^(٣).

قوله تعالى: ﴿لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التناقض، قاله ابن عباس، وابن زيد، والجمهور. والثاني: الكذب، قاله مقاتل، والزجاج. والثالث: أنه اختلاف تفاوت من جهة بليغ من الكلام، ومرذول، إذ لا بد للكلام إذا طال من مرذول، وليس في القرآن إلا بليغ، ذكره الماوردي في جماعة^(٤).

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَظِرُونَ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفَتَحْتُمُ الْبَابَ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فِعْلاً فَاعِلاً﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ لما اعتزل نساءه، دخل عمر المسجد، فسمع الناس يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فدخل على النبي ﷺ فسأله: أطلقت نساءك؟ قال: «لا». فخرج فنادى: ألا إن رسول الله لم يطلق نساءه. فنزلت هذه الآية. فكان هو الذي استنيط الأمر. انفرد بإخراجه مسلم، من حديث ابن عباس، عن عمر^(٥). والثاني: أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية من السرايا فَعَلَبَتْ أو عُلبت، تحدثوا بذلك، وأفشوه، ولم يصبروا حتى يكون النبي هو المتحدث به. فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح، عن ابن عباس. وفي المشار إليهم بهذه الآية قولان: أحدهما: أنهم المنافقون. قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أهل النفاق، وضعفة المسلمين، ذكره الزجاج. وفي المراد بالأمن أربعة أقوال: أحدها: فوز السرية بالظفر والغنيمة، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنه الخبر يأتي إلى النبي ﷺ أنه ظاهر على قوم، فيأمن منهم، قاله الزجاج. والثالث: أنه ما يعزم عليه رسول الله ﷺ من المودة والأمان لقوم، ذكره الماوردي. والرابع: أنه الأمن يأتي من المأمن وهو المدينة، ذكره أبو سليمان الدمشقي مُخرجاً من حديث عمر. وفي «الخوف» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه النكبة التي تُصيب السرية، ذكره جماعة من المفسرين. والثاني: أنه الخبر يأتي أن قوماً يجتمعون للنبي ﷺ، فيخاف منهم، قاله الزجاج. والثالث: ما يعزم عليه النبي من الحرب والقتال، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ قال ابن قتيبة: أشاعوه. وقال ابن جرير: والهاء عائدة على الأمر^(٦).

(١) في «اللسان» السلى: لفاة الولد من الدواب والإبل، وهو من الناس المشيمة.

(٢) صدره: فزاعي عيطل آدماء بكر. والبيت لعمر بن كلثوم من معلته المشهورة، وقد انفرد أبو عبيدة بهذه الرواية، انظر «شرح القصائد السبع الجاهليات» ٣٨٠. وهو في «مجاز القرآن» ٢/١ وغرب القرآن: ٣٣ و«تفسير الطبري» ٩٦/١ و«الجمهرة» ٢٢٩/١، و«اللسان» و«التاج» مادة قرأ. والميطل: الناقة الطويلة العنق في حسن منظر وسمن. والأدماء: البيضاء مع سواد المقلتين، ووصفها بأنها بكر، لأن ذلك أحسن لها، وهي في عهدا ذلك الين وأسمن، وهجان اللون: يضاء كريمة.

(٣) رجع الطبري في «تفسيره» ٩٤/١ قول ابن عباس في تأويل «القرآن» بالتلاوة والقراءة. ونقل عنه أنه فسر قول الله تعالى (فإذا قرأناه) أي: بيناه (فاتبع قرأته) يقول اصطل به. ثم قال: ومعنى قول ابن عباس هذا: فإذا بيناه بالقراءة فاعمل بما بيناه لك بالقراءة.

(٤) قال ابن جرير ٥٦٧/٨: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أفلا يتدبر الميبتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك، واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم من التنزيل من عند ربهم لاتساق معانيه، واتلاف أحكامه، وتأيد بعضه بعضاً بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من غير الله، لاختلقت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض.

(٥) مسلم ١١٠٥/٢ وهو حديث طويل فيه فوائد عظيمة، وتوجيهات قيمة، فارجع إليه.

(٦) في «الطبري» ٥٦٨/٨: و«الهاء» في قوله: «أذاعوا به» من ذكر «الأمر» وتأويله: أذاعوا بالأمر من الأمن أو الخوف الذي جاءهم، يقال منه: «أذاع فلان بهذا الخبر وأذاعه» ومنه قول أبي الأسود:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ يعني: الأمر ﴿إِلَى الرَّسُولِ﴾ حتى يكون هو المخبر به ﴿وَأَلَّتْ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ وفيهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم مثل أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم أبو بكر، وعمر، قاله عكرمة. والثالث: العلماء، قاله الحسن، وقتادة، وابن جريج. والرابع: أمراء السرايا، قاله ابن زيد، ومقاتل. وفي ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ قولان: أحدهما: أنهم الذين يتبعونه من المذيعين له، قاله مجاهد. والثاني: أنهم أولو الأمر، قاله ابن زيد. والاستنباط في اللغة: الاستخراج. قال الزجاج: أصله من النبط، وهو الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفر، يقال من ذلك: قد أنبظ فلان في غصراء، أي: استنبط الماء من طين حُرّ. والنبط: سُموا نَبْطًا، لاستنباطهم ما يخرج من الأرض. قال ابن جرير: ومعنى الآية: وإذا جاءهم خبر عن سرية للمسلمين بخير أو بشر أفسوه، ولو سكتوا حتى يكون الرسول وذوو الأمر يتولون الخبر عن ذلك، فيصحوه إن كان صحيحاً، أو يبطلوه إن كان باطلاً، لعلم حقيقة ذلك من يبحث عنه من أولي الأمر^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾. في المراد بالفضل أربعة أقوال: أحدها: أنه رسول الله. والثاني: الإسلام. والثالث: القرآن. والرابع: أولو الأمر. وفي الرحمة أربعة أقوال: أحدها: أنها الوحي. والثاني: اللطف. والثالث: النعمة. والرابع: التوفيق.

قوله تعالى: ﴿لَا تَبْتَغُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في معنى هذا الاستثناء ثلاثة أقوال: أحدها: أنه راجع إلى الإذاعة، فتقديره: إذا عوا به إلا قليلاً. وهذا قول ابن عباس، وابن زيد، واختاره الفراء، وابن جرير^(٢). والثاني: أنه راجع إلى المستنبطين، فتقديره: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلاً، وهذا قول الحسن، وقتادة، وإختره ابن قتيبة. فعلى هذين القولين، في الآية تقديم وتأخير. والثالث: أنه راجع إلى أتباع الشيطان، فتقديره: لا تبغتم الشيطان إلا قليلاً منكم، وهذا قول الضحاك، واختاره الزجاج. وقال بعض العلماء: المعنى: لولا فضل الله بإرسال النبي إليكم، لضلتمت إلا قليلاً منكم كانوا يستدركون بقولهم معرفة الله، ويعرفون ضلال من يعبد غيره، ككس بن ساعدة.

﴿فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكْفَىٰ إِلَّا نَفْسُكَ وَرَحْمَةُ الْمُؤْمِنِينَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَكْفِيَٰ بِأَسَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسَىٰ تَنكِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سبب نزولها: أن النبي ﷺ لما نذب الناس لموعده أبي سفيان بيد الصغرى بعد أحد، كره بعضهم ذلك، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. وفي «فناء» «فقاتل» قولان: أحدهما: أنه جواب قوله: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُكْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾، والثاني: أنها متصلة بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَأَنْ تَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ذكرهما ابن السري. والمراد بسبيل الله: الجهاد.

قوله تعالى: ﴿لَا تُكْفَىٰ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ أي: إلا المجاهدة بنفسك^(٣). و«جرّض»: بمعنى حضض. قال الزجاج:

(١) نص كلامه في «جامع البيان» ٥٦٨/٨، ٥٧١: وإذا جاءهم خبر عن سرية للمسلمين غازية بأنهم قد آمنوا عن عدوهم بغلبتهم إياهم ﴿أَوْ الْخَوَافِ﴾ يقول: أو تخوفهم من عدوهم بإصابة عدوهم منهم، ﴿أَنَّهُمْ أَوْدٌ﴾ يقول: أفسوه ويشوه في الناس قبل رسول الله ﷺ، وقيل ما أتى سرايا رسول الله ﷺ... ولو ردوا الأمر الذي نالهم من عدوهم والمسلمين إلى رسول الله ﷺ، وإلى أولي أمرهم، يعني: وإلى أمرائهم وسكتوا فلم يذبوا ما جاءهم من الخبر حتى يكون رسول الله ﷺ، أو ذوو أمرهم هم الذين يتولون الخبر عن ذلك، بعد أن ثبت عندهم صحته، أو بطوله، فيصحوه إن كان صحيحاً، أو يبطلوه إن كان باطلاً، لعلم حقيقة ذلك الخبر الذي جاءهم به، الذين يبحثون عنه، ويستخرجونه «منهم» يعني أولي الأمر، و«الهاء» و«الميم» في قوله «منهم» من ذكر أولي الأمر، يقول: لعلم ذلك من أولي الأمر من يستنبطه.

(٢) انظر «معاني القرآن» للفراء ٢٧٩/١، و«جامع البيان» ٥٧٧/٨.

(٣) قال ابن جرير الطبري: فأما قوله ﴿لَا تُكْفَىٰ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ فإنه يعني لا يكفك الله فيما فرض عليك من جهاد عدوه وعدوك إلا ما حملك من ذلك من دون ما حطّل غريك منه، أي: إنك إنما تتبج بما اكتسبه دون ما اكتسبه غريك، وإنما عليك ما كلفته دون ما كلفه غريك. وقال الزجاج: أمره بالجهاد وإن قاتل وحده، لأنه ضمن له النصر. وقال ابن كثير: يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل فلا عليه منه، ولهذا قال: ﴿لَا تُكْفَىٰ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق، قال: سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدو فيقاتل أيكون ممن قال الله فيه: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى الْبَيْتِ؟﴾ قال: قد قال الله تعالى: ﴿فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكْفَىٰ إِلَّا نَفْسُكَ وَرَحْمَةُ الَّذِينَ﴾ ورواه الإمام أحمد عن أبي إسحاق، قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال: ﴿فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكْفَىٰ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ إنما ذلك في النفقة. قلت: وإسناده صحيح، وذكره الهيثمي في «الزوائد» ٣٣٨/٥ عن «المسنده» وقال: رجاله رجال الصحيح، غير سليمان بن داود الهاشمي وهو ثقة.

ومعنى «عسى» في اللغة: معنى الطمع والإشفاق. والإطماع من الله واجب. و«البأس»: الشدة. وقال ابن عباس: والله أشدّ عذاباً. قال قتادة: و«التنكيل»: العقوبة.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا ﴿٨٥﴾﴾
قوله تعالى: «مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً» في المراد بالشفاعة أربعة أقوال: أحدها: أنها شفاعة الإنسان للإنسان، ليجتلب له نفعاً، أو يخلصه من بلاء، وهذا قول الحسن، ومجاهد، وقاتدة، وابن زيد. والثاني: أنها الإصلاح بين اثنين، قاله ابن السائب. والثالث: أنه الدعاء للمؤمنين والمؤمنات، ذكره الماوردي. والرابع: أن المعنى: مَنْ يَصْرُ شَفَعاً لَوْتِرِ أَصْحَابِكَ يَا مُحَمَّد، فيشفعهم في جهاد عدوهم وقتالهم في سبيل الله، قاله ابن جرير، وأبو سليمان الدمشقي. وفي الشفاعة السيئة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها السعي بالنميمة، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثاني: أنها الدّعاء على المؤمنين والمؤمنات، وكانت اليهود تفعله، ذكره الماوردي. والثالث: أن المعنى من يشفع وتر أهل الكفر، فيقاتل المؤمنين، قاله ابن جرير، وأبو سليمان الدمشقي. قال الزجاج: و«الكفل» في اللغة: النصب، وأخذ من قولهم: اكتفلت البعير: إذ أدت على سنامه، أو على موضع من ظهره كساء، وركبت عليه. وإنما قيل له: كفل، لأنه لم يستعمل الظهر كله، وإنما استعمل نصيباً منه. وفي «المقيت» سبعة أقوال: أحدها: أنه المقتدر، قال أحيحة بن الجلاح:

وذي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَىٰ مَسَاءَتِهِ مُقِيبًا^(١)

والى هذا المعنى ذهب ابن عباس، وابن جرير، والسدي، وابن زيد، والفراء، وأبو عبيد، وابن قتيبة، والخطابي. والثاني: أنه الحفيظ، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والزجاج. وقال: هو بالحفيظ أشبه، لأنه مشتق من القوت، يقال: قُتُّ الرجل أقوته قوتاً: إذا حفظت عليه نفسه بما يقوته. والقوت: اسم الشيء الذي يحفظ نفسه [ولا فضل فيه على قدر الحفظ]، فمعنى المقيت: الحافظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة من الحفظ. قال الشاعر:

أَلَيْ الْفَضْلُ أَمْ عَلَيَّ إِذَا حُو سَبْتُ إِنِّي عَلَىٰ الْحِسَابِ مُقِيبٌ^(٢)

والثالث: أنه الشهيد، رواه ابن أبي نجیح، عن مجاهد، واختاره أبو سليمان الدمشقي. والرابع: أنه الحسيب، رواه خصيف عن مجاهد. والخامس: الرقيب، رواه أبو شيبه عن عطاء. والسادس: الدائم، رواه ابن جرير عن عبد الله بن كثير. والسابع: أنه معطي القوت، قاله مقاتل بن سليمان. وقال الخطّاب: المقيت يكون بمعنى معطي القوت، قال الفراء: يقال: قاته وأقاته.

﴿وَإِذَا حُيِّبْتُمْ يَبْجِرُوا بِحَيْبِهَا أَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: «وَإِذَا حُيِّبْتُمْ يَبْجِرُوا بِحَيْبِهَا» في التحية قولان: أحدهما: أنها السلام، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني:

(١) «غريب القرآن» ١٣٢، و«تفسير الطبري» ٥٨٤/٩، و«اللسان» مادة: قوت، و«الجمهرة» ٣٦/٢، ونسبه للزبير بن عبد المطلب. قال الأستاذ محمود شاكز: لم أجده للزبير، بل وجدته لأبي قيس بن رفاعة، مرفوع القافية في «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام: ٢٤٣، وفي «الطبقات»: بعد أن ذكر تخريج البيت: وروايتهم «مقيتاً» وهو خطأ، ورواه ابن السجري: «واني في مساهته مقيت» والرفع في رواية ابن سلام وجه عربي صحيح، انظر ابن مالك في كتابه «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح» ٢٤/٢١، وتأويل البيت «وكنته على مساءته مقيت» فحذف خبر كان، لأنه ضمير متصل، كما يحذف المفعول به إذا كان ضميراً متصلاً، ويستغنى عنه بنية الضمير، يعني: وكننت ذا ضغن مثله وأنا على مساءته مقيت. ومقيت: مقتدر، من قولهم: أقات على الشيء: اقتدر عليه وأطاقه.

(٢) البيت للسموأل بن عادياء، وهو في «مجاز القرآن» ١/١٣٥، و«الأصمعيات» ٨٥، و«طبقات فحول الشعراء» ٢٢٧، و«غريب القرآن» ١٣٣، و«اللسان» ٧٥/٢، وقوله:

لَيْتَ شِعْرِي! وَأَشْمَرُونَ إِذَا مَا قَرَّبُوها مِنْ شِوْرَةٍ فَتَقْرِيئُ

وقوله: «لبيت شعري» أي: ليت لي علماً حاضراً يحيط بما سوف يكون. وأشعرن: استفهام، يقول: وهل أشعرن. وقوله: «قربوها منشورة» يعني صحف أعماله يوم يقوم الناس لرب العالمين. وفي «الصحاح»: المقيت: الحافظ للشيء والشاهد له. أي: أحرف ما عملت من السوء، لأن الإنسان على نفسه بصيرة.

الدعاء، ذكره ابن جرير، والماوردي. فأما «أحسن منها» فهو الزيادة عليها، وردها: قول مثلها. قال الحسن: إذا قال أخوك المسلم: السلام عليكم، فرد السلام، وزد: ورحمة الله. أو ردّ ما قال ولا تزد. وقال الضحاك: إذا قال: السلام عليك، قلت: وعليكم السلام ورحمة الله. وإذا قال: السلام عليك ورحمة الله، قلت: وعليكم السلام، ورحمة الله وبركاته، وهذا منتهى السلام. وقال قتادة: بأحسن منها للمسلم، أو ردّوها على أهل الكتاب.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَيَاتًا﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال مقاتل: نزلت في الذين شكّوا في البعث. قال الزجاج: واللام في «ليجمعنكم» لام القسم، كقولك: والله ليجمعنكم، قال: وجائز أن تكون سُميت القيامة، لقيام الناس من قبورهم، وجائز أن تكون، لقيامهم للحساب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَيَاتًا﴾ إنما وصف نفسه بهذا، لأن جميع الخلق يجوز عليهم الكذب، ويستحيل في حقه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِّينَ فَتَنِي وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مَنَ أَصَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا يَمُجِدْ لَهُمْ سَبِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِّينَ فَتَنِي﴾ في سبب نزولها سبعة أقوال: أحدها: أن قوماً أسلموا، فأصابهم وباء بالمدينة وجماعها، فخرجوا فاستقبلهم نفرٌ من المسلمين، فقالوا: مالكم خرجتم؟ قالوا: أصابنا وباء بالمدينة، واجتوبناها، فقالوا: أما لكم في رسول الله أسوة؟ فقال بعضهم: نأفقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا، فنزلت هذه الآية، رواه أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه^(١). والثاني: أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى أحد، رجع ناسٌ ممن خرج معه، فافترق فيهم أصحاب رسول الله، ففرقة تقول: نقلهم، وفرقة تقول: لا نقلهم، فنزلت هذه الآية، هذا في «الصححين» من قول زيد بن ثابت^(٢). والثالث: أن قوماً كانوا بمكة تكلموا بالإسلام وكانوا يعاونون المشركين، فخرجوا من مكة لحاجة لهم، فقال قوم من المسلمين: اخرجوا إليهم، فأتولهم، فإنهم يظاهرون عدوكم. وقال قوم: كيف نقلهم وقد تكلموا بمثل ما تكلمنا به؟ فنزلت هذه الآية، رواه عطية، عن ابن عباس^(٣). والرابع: أن قوماً قدموا المدينة، فأظهروا الإسلام، ثم رجعوا إلى مكة، فأظهروا الشرك، فنزلت هذه الآية، هذا قول الحسن، ومجاهد. والخامس: أن قوماً أعلنوا الإيمان بمكة وامتنعوا من الهجرة، فاختلف المؤمنون فيهم، فنزلت هذه الآية، وهذا قول الضحاك. والسادس: أن قوماً من المنافقين أرادوا الخروج من المدينة، فقالوا للمؤمنين: إنه قد أصابنا أوجاع في المدينة، فلعلنا نخرج فنتماثل، فإننا كنا أصحاب بادية، فانطلقوا واختلف فيهم أصحاب رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية. هذا قول السدي. والسابع: أنها نزلت في شأن ابن أبي حنيفة حين تكلم في عائشة بما تكلم، وهذا قول ابن زيد^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ خطاب للمؤمنين. والمعنى: أي شيء لكم في الاختلاف في أمرهم؟ و«الفئة»: الفرقة.

(١) «المستند» ١٣١/٣. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/٧ عن أحمد وقال: وفيه ابن إسحاق وهو مدلس، وأبو سلمة لم يسمع من أبيه، قلت: ولم يصرح ابن إسحاق بالحديث، وذكره السيوطي في «أسباب النزول» ٧١، قال: في إسناده تدليس وانقطاع. وقال الحافظ في «الفتح»: وفي سبب نزولها قول آخر، أخرجه أحمد من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه، وذكر الحديث، ثم قال: وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن أبي سلمة مرسلًا، فإن كان محفوظًا، احتمال أن تكون نزلت في الأمرين جميعًا. وقوله «اجتوبناها» أي أصابنا الجوى، وهو المرضن وباء الجوف إذا تطاول، وذلك إذا لم يوافقهم هواها واستوحشوها، ويقال: اجتويت البلد: إذا كرهت المقام فيها وإن كنت في نعمة، قاله في «النهاية».

(٢) «المستند» ١٨٤/٥، والبخاري ١٩٣/٨ ومسلم ٢١٤٢/٤. قال الحافظ في «الفتح»: وهذا هو الصحيح في سبب نزولها. وفي «الفتح»: وقوله «رجع ناسٌ ممن خرج معي» يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، وقد ورد ذلك صريحاً في رواية موسى بن عقبة في «المغازي»، وأن عبد الله بن أبي كان وافق رأيه رأي النبي ﷺ على الإقامة بالمدينة، فلما أشار غيره بالخروج، وأجابهم النبي ﷺ فخرج، قال عبد الله بن أبي: أطاعهم وعصاني، غلام نقتل أنفسنا؟ فرجع بثلاث الناس. قال ابن إسحاق في رواية: فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام وهو والد جابر، وكان خزرجياً كعبد الله بن أبي، فناداهم أن يرجعوا فأبوا، فقال: أبعدهم الله.

(٣) ابن جرير ١٠/٩، وابن أبي حاتم من طريق العمري، وإسناده ضعيف جداً.

(٤) ابن جرير ١٣/٩. وقوى قول من قال: إنها نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في قوم كانوا ارتدوا بعد إسلامهم من أهل مكة.

وفي معنى «أركسهم» أربعة أقوال: أحدها: ردهم، رواه عطاء، عن ابن عباس. قال ابن قتيبة: ركست الشيء، وأركسته: لغتان، أي: نكسهم وردهم في كفرهم^(١)، وهذا قول الفراء، والزجاج. والثاني: أوقعهم، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس. والثالث: أهلكتهم، قاله قتادة. والرابع: أضلهم، قاله السدي. فأما الذي كسبوا، فهو كفرهم، وارتدادهم. قال أبو سليمان: إنما قال: أتريدون أن تهتدوا من أضل الله، لأن قوماً من المؤمنين قالوا: إخواننا، وتكلموا بكلمتنا.

قوله تعالى: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ سَبِيلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: إلى الحجة، قاله الزجاج. والثاني: إلى الهدى، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكْفُرُونَ سَوَاءٌ فَلَا تَنجِدُوا مِنْهُمْ آيَاتِهِ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنجِدُوا مِنْهُمْ وَإِنَّا لَا نَصِيرًا﴾ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ أخبر الله ﷻ المؤمنين بما في ضمائر تلك الطائفة، لئلا يحسنوا الظن بهم، ولا يجادلوا عنهم، وليعتقدوا عداوتهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنجِدُوا مِنْهُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: لا توالوهم فإنهم أعداء لكم ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ أي: يرجعوا إلى النبي ﷺ. قال ابن عباس: فإن تولوا عن الهجرة والتوحيد، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ أي: اتسروهم، واقتلوهم حيث وجدتموهم في الجبل والحرم^(٢).

فصل

قال القاضي أبو يعلى: كانت الهجرة فرضاً إلى أن فتحت مكة. وقال الحسن: فرض الهجرة باق، وأعلم أن الناس في الهجرة على ثلاثة أضرب: من تجب عليه، وهو الذي لا يقدر على إظهار الإسلام في دار الحرب، خوفاً على نفسه، وهو قادرٌ على الهجرة، فتجب عليه لقوله: ﴿إِنَّم تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ والثاني: من لا تجب عليه بل تستحب له، وهو من كان قادراً على إظهار دينه في دار الحرب. والثالث: من لا تستحب له، وهو الضعيف الذي لا يقدر على إظهار دينه، ولا على الحركة كالشيخ الفاني والزمن فلم تستحب له للحوق المشقة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَمِيلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حَبَشٌ أَوْ جَاءتُكُمْ حَصْرَتٌ مَدُونَهُمْ أَنْ يُقْبِلُوكُمْ أَوْ يُقْبِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْتُلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلْتُمْ فَلَمْ يُقْبِلُوكُمْ وَالْقُرْآنُ إِلَيْكُمْ أَلَسْتُمْ بِأَعْيُنٍ سَابِقَةٍ﴾ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَمِيلُونَ﴾ هذا الاستثناء راجع إلى القتل، لا إلى الموالاة. وفي «يصلون» قولان: أحدهما: أنه بمعنى يصلون ويلجؤون. قال ابن عباس: كان هلال بن عويمر الأسلمي وأدع رسول الله ﷺ على أن لا يُعَيِّنَ ولا يُعَيِّنَ عليه. فكان من وصل إلى هلال من قومه وغيرهم، فلهم من الجوار مثل ما لهلال^(٣). والثاني: أنه بمعنى يتسبون، قاله ابن قتيبة، وأندس:

إِذَا اتَّصَلَتْ قَالَتْ أَبْكَرَ بَنٍ وَأَثَلٍ

وَيَكْرُ سَبَّهَا وَالْأَنْوْفُ رَوَاغِمٌ^(٤)

(١) نص كلام ابن قتيبة في غريب القرآن، ١٣٣: ﴿وَأَلْفَهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ أي: نكسهم وردهم في كفرهم، وهي في قراءة عبد الله بن مسعود «أَرْكَسَهُمْ» وهما لغتان ركست الشيء وأركسته.

(٢) في «مفاتيح الغيب» ٢٨١/٣: دلت الآية على أنه لا يجوز موالاة المشركين والمنافقين والمشركين بالزندقة والإلحاد، وهذا متأكد بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عُتْرَةَ وَآلِهَتِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الممتحنة: ١] والسبب فيه أن أعز الأبياء وأعظمها عند جميع الخلق هو الدين، لأن ذلك هو الأمر الذي يتقرب به إلى الله تعالى، ويتوصل به إلى طلب السعادة في الآخرة، وإذا كان كذلك، كانت العداوة الحاصلة بسببه أعظم أنواع العداوة، وإذا كان كذلك، امتنع طلب المحبة والولاية في الموضوع الذي يكون أعظم موجبات العداوة حاصلاً فيه.

(٣) قال ابن كثير رحمه الله: ثم استثنى الله سبحانه من هؤلاء فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَمِيلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حَبَشٌ﴾ أي: إلا الذين لجؤوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة، أو عقد ذمة، فاجعلوا حكمهم كحكمهم، وهذا قول السدي، وابن زيد، وابن جرير. وانظر تفصيل القول في «المغني» ١٠/٥١٣، وقيل الأوطار، ١٧٦/٨.

(٤) البيت للأعشى وهو في «ديوانه» ص ٨١، و«مجاز القرآن» ١/١٣٦، و«غريب القرآن» ١٢٣، و«تفسير الطبري» ٢٠/٩، و«الناسخ والمنسوخ» للححاس ١٠٩ =

يريد: إذا انتسبت، قالت: أبكراً، أي: يا آل بكر. وفي القوم المذكورين أربعة أقوال: أحدها: أنهم بنو بكر بن زيد مناة، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم هلال بن عويمر الأسلمي، وسراقة بن مالك، وخزيمة بن عامر بن عبد مناف، قاله عكرمة. والثالث: أنهم بنو مدلج، قاله الحسن^(١). والرابع: خزاعة وبنو مدلج، قاله مقاتل. قال ابن عباس: «والميثاق»: العهد.

قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاؤُكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: أو يصلون إلى قوم جاؤوكم، قاله الزجاج في جماعة. والثاني: أنه يعود إلى المطلوبين للقتل، فتقديره: أو رجعوا فدخلوا فيكم، وهو بمعنى قول السدي.

قوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن فيه إضمار «قد». والثاني: أنه خبرٌ بعد خبر، فقوله: ﴿جَاؤُكُمْ﴾: خبرٌ قد تم، و﴿حَصِرَتْ﴾: خبرٌ مستأنف، حكاها الزجاج. وقرأ الحسن، ويعقوب، والمفضل، عن عاصم: «حَصِرَةُ صُدُورُهُمْ» على الحال. و«حصرت»: ضاقت، ومعنى الكلام: ضاقت صدورهم عن قتالكم للعهد الذي بينكم وبينهم، أو يقاتلوا قومهم، يعني قريشاً. قال مجاهد: هلال بن عويمر هو الذي حصِرَ صدره أن يقاتلكم، أو يقاتل قومه.

قوله تعالى: ﴿وَكُوْشَاةٌ أَلَّهَ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكَ﴾ قال الزجاج: أخبر أنه إنما كفَّهم بالرعب الذي قذف في قلوبهم. وفي «السلام» قولان: أحدهما: أنه الإسلام، قاله الحسن. والثاني: الصلح، قاله الربيع. ومقاتل.

فصل

قال جماعة من المفسرين: معاهدة المشركين وموادعتهم المذكورة في هذه الآية منسوخة بآية السيف. قال القاضي أبو يعلى: لما عزَّ الله الإسلام أمروا أن لا يقبلوا من مشركي العرب إلا الإسلام أو السيف^(٢).

من قصيدة يهجو بها يزيد بن مسهر الشيباني. قال في «اللسان» اتصلت: انتسبت، وفسرها شارح شعر الأعشى: إذا دعت: يعني بدعوى الجاهلية، وهو الاعتزاز. يقول: تدعى إليهم وتتسبب، وهي من إيمانهم اللواتي سببن وقد رغمت أنوفهن وأنوف رجالهن الذين كانوا يدافعون عنهن، ثم انهزموا عنهن وتركوهن للنساء. قلت: وما جرى عليه ابن تيبة في تفسير هذه الآية سبقه إليه أبو عبيدة في «مجاز القرآن» ١٣٦/١ وتلقيهما النحاس بقوله في «الناسخ والمنسوخ» ١٠٩: وهذا غلط عظيم، لأنه يذهب إلى أن الله تعالى حظر أن يقاتل أحد بينه وبين المسلمين نسب، والمشركون قد كان بينهم وبين السابقين الأولين أنساب، وأشد من هذا الجهل الاحتجاج بأن ذلك كان ثم نسخ، لأن أهل التأويل مجمعون على أن الناسخ له (برائة)، وإنما نزلت (برائة) بعد الفتح وبعد أن انتقلت الحروب، وإنما يؤتى هذا من الجهل بقول أهل التفسير، والاجتزاء على كتاب الله، وحمله على المعقول من غير علم بأقاويل المتقدمين. والتقدير على قول أهل التأويل: فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أولئك خزاعة صالحهم النبي ﷺ على أنهم لا يقاتلون، وأعطاهم الزمام والأمان، ومن وصل إليهم، فدخل في الصلح معهم، كان حكمه كحكمهم ﴿أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي: وإلا الذين جاؤوكم حصرت صدورهم، وهم بنو مدلج وبنو خزيمة ضاقت صدورهم أن يقاتلوا المسلمين، أو يقاتلوا قومهم بني مدلج. و«حصرت»: خبر بعد خبر.

وفي «صحيح البخاري» في قصة صلح الحديبية: فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ وأصحابه وعهدهم.

(١) قال ابن كثير ٥٣٣/١: وروى ابن أبي حاتم، حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن الحسن أن سراقة بن مالك المدجلي حدثهم، قال: لما ظهر يعني النبي ﷺ على أهل بدر وأحد، وأسلم من حولهم، قال سراقة بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج، فأتيته فقلت: أشدك النعمة. فقالوا: صة، فقال النبي ﷺ: «هوه ما تريد؟» قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا، لم تخش قلوب قومك عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد، فقال: «ذهب معه فاقبل ما يريد»، فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا، فأنزل الله ﴿وَوَدَّأَوْ تَتَكَّفَرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً لَكُمْ تَسْجُدُوا وَيَتَمُتُونَ أَرِيَّةً﴾ ورواه ابن مردويه، وقال: فأنزل الله ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَسْلُونَ إِلَاكَ قَوْمَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم. قلت: والحسن لم يسمع من سراقة، وعلي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

(٢) قال الخرفي: ولا تقبل الجزية إلا من يهودي أو نصراني أو مجوسي إذا كانوا مقيمين على ما عهدوا عليه، ومن سواهم بالإسلام أو القتل. قال في «المنغني» ٥٣٣/١٠: يعني من سوى اليهود والنصارى والمجوس لا تقبل منهم الجزية، ولا يقرؤون بها، ولا يقبل منهم إلا بالإسلام، فإن لم يسلموا قتلوا، هذا ظاهر منعب أحمد، وروي عن الحسن بن ثوبان أنها تقبل من جميع الكفار إلا عبدة الأوثان من العرب، لأن حديث بريدة يدل بعمومه على قبول الجزية من كل كافر إلا أنه خرج منه عبدة الأوثان من العرب لغلظ كفرهم من وجهين: أحدهما: دينهم، والثاني: كونهم من وهط النبي ﷺ. وفي «نيل الأوطار» ٥٣/٨، وقوله: «فسلمهم الجزية» ظاهره عدم الفرق بين الكافر المعجمي والعربي، والكتابي وغير الكتابي، وإلى ذلك ذهب مالك، والأوزاعي، وجماعة من أهل العلم.

﴿سَتَجِدُونَ كَافِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيَأْمُنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا وَدَّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْمَلُوا بِالِإِيمَانِ لَمَّ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)

قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ كَافِرِينَ﴾ اختلغوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أسد وغطفان، كانوا قد تكلموا بالإسلام ليأمنوا المؤمنين بكلمتهم، ويأمنوا قومهم بكفرهم، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في بني عبد الدار، رواه الضحاک، عن ابن عباس. والثالث: أنها نزلت في قوم أرادوا أخذ الأمان من النبي ﷺ، وقالوا: لا نقاتلك ولا نقاتل قومنا، قاله قتادة. والرابع: أنها نزلت في نعيم بن مسعود الأشجعي، كان يأمن في المسلمين والمشرکين، فيقل الحديث بين النبي ﷺ وبينهم، ثم أسلم نعيم، هذا قول السدي. ومعنى الآية: ستجدون قوماً يظهرن الموافقة لكم ولقومهم، ليأمنوا الفريقين، كلما دعوا إلى الشرك، عادوا فيه، فإن لم يعتزلوكم في القتال، ويلقوا إليكم الصلح، ويكفوا أيديهم عن قتالكم، فخذوهم، أي: اتسروهم، واقتلوهم حيث أدرکتهم، وأولائكم جعلنا لكم عليهم حجة بيّنة في قتلهم.

فصل

قال أهل التفسير: والكف عن هؤلاء المذكورين في هذه الآية منسوخ بآية السيف.

﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا حَطَّكَاءَ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحْرِيْرُهُ رَقَبَةٌ مُؤْمِنَةٌ وَوَيْدٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوًّا لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيْرُهُ رَقَبَةٌ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مَسْئَلَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ. وَتَحْرِيْرُهُ رَقَبَةٌ مُؤْمِنَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَبْسِيَّامَ شَهْرَيْنِ مُتَكَابِرَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا حَطَّكَاءَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن عياش بن أبي ربيعة أسلم بمكة قبل هجرة رسول الله، ثم خاف أن يظهر إسلامه لقومه، فخرج إلى المدينة فقالت أمه لابنيها أبي جهل، والحارث ابني هشام، وهما أخواه لأمه: والله لا يظنّتي سقفاً، ولا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى تأتيا بي به. فخرجا في طلبه. ومعهما الحارث بن زيد، حتى أتوا عياشاً وهو مُتَحَصِّنٌ في أطم، فقالوا له: انزل فإن أمك لم يؤوها سقفاً، ولم تذوق طعاماً، ولا شرباً، ولك علينا أن لا نحول بينك وبين دينك، فنزل، فأوتقوه، وجلده كل واحد منهم مائة جلدة، فقدموا به على أمه، فقالت: والله لا أحلك من وثاقتك حتى تكفر، فطرح موثقاً في الشمس حتى أعطاهم ما أرادوا، فقال له الحارث بن زيد: يا عياش لئن كان ما كنت عليه هدى لقد تركته، وإن كان ضلالاً لقد ركبته. فغضب، وقال: والله لا ألقاك خالياً إلا قتلتك، ثم أظلت عياش بعد ذلك، وهاجر رسول الله ﷺ بالمدينة، ثم أسلم الحارث بعده، وهاجر ولم يعلم عياش، فلقبه يوماً بقتله، فقيل له: إنه قد أسلم، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره بما كان، وقال: لم أشعر بإسلامه، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. وهو قول سعيد بن جبیر، والسدي، والجمهور. والثاني: أن أبا الدرداء قتل رجلاً قال لا إله إلا الله في بعض السرايا، ثم أتى النبي ﷺ، فذكر له ما صنع، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن زيد^(٣). قال الزجاج: معنى الآية: وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً بالبتة. والاستثناء ليس من الأول، وإنما المعنى: إلا أن يُخطئ المؤمن. وروى أبو عبيدة، عن يونس: أنه سأل روية عن هذه الآية، فقال: ليس له أن يقتله عمداً ولا خطأً، ولكنه أقام «الإلا» مقام «الواو» قال الشاعر:

وكلُّ أخٍ مُفَارِقُهُ أخوه
لعمُرُ أبيك إلا المُفَرِّقَدَانِ^(٤)

(١) قال ابن جرير الطبري ٣٤/٩: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عرف عباده بهذه الآية ما على من قتل مؤمناً خطأ من كفارة ودية، وجائز أن تكون الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة وقيله، وفي أبي الدرداء وصاحبه. وأي ذلك كان، فالذي عنى الله تعالى بالآية: تعريف عباده ما ذكرنا. وقد عرف ذلك من عقل عنه من عباده تنزيهه، وغير ضائرهم جهلهم بمن نزلت فيه.

(٢) البيت لعمر بن معد يكرب، وقيل لسوار بن المضرب، وقيل لحضرمي بن عامر. وهو في سيبويه ٣٧١/١، والكامل ١٢٤٠/٣، والبيان والبيان ١/٢٢٨، وشرح المفصل ٨٩/٢، والبحر المحیط ٣٢١/٣، وشواهد المغني ٧٨، و«خزانة الأدب» ٥٢/٢. قال الأعمش: والشاهد فيه نعت «كل» =

أَزَادَ: وَالْفَرْقَدَانِ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعَانِي: تَقْدِيرُ الْآيَةِ: لَكِنْ قَدْ يَقْتُلُهُ خَطَا، وَليْسَ ذَلِكَ فِيمَا جَعَلَ اللهُ لَهُ، لِأَنَّ الْخَطَا لَا تَصِحُّ فِيهِ الْإِبَاحَةُ، وَلَا النَّهْيُ. وَقِيلَ: إِنَّمَا وَقَعَ الْإِسْتِثْنَاءُ عَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ مِنْ اسْتِحْقَاقِ الْإِثْمِ، وَإِجْبَابِ الْقَتْلِ.

قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مَوْجُودٌ﴾ قال سعيد بن جبير: عتق الرقبة واجبٌ على القاتل في ماله، واختلفوا في عتق الغلام الذي لا يصح منه فعل الصلاة والصيام، فروي عن أحمد جواز، وكذلك روى ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهذا قول عطاء، ومجاهد^(١). وروي عن أحمد: لا يجزئ إلا من صام وصلّى، وهو قول ابن عباس في رواية، والحسن، والشعبي، وإبراهيم، وقتادة.

قوله تعالى: ﴿وَوَيْدٌ مَسْكُومٌ إِلَهُ أَهْلِيهِ﴾ قال القاضي أبو يعلى: ليس في هذه الآية بيان من تلزمه هذه الدية، واتفق الفقهاء على أنها عاقلة القاتل، تحملها عنه على طريق المواساة، وتلزم العاقلة في ثلاث سنين، كل سنة ثلثها. والعاقلة: العصبية من ذوي الأنساب، ولا يلزم الجاني منها شيء^(٢). وقال أبو حنيفة: هو كواحد من العاقلة. وللنفس ستة أبدال: من الذهب ألف دينار، ومن الورق اثنا عشر ألف درهم، ومن الإبل مائة، ومن البقر مائتا بقرة، ومن الغنم ألفا شاة، وفي الحلل روايتان عن أحمد، إحداهما: أنها أصل، فتكون مائتا حلة. فهذه دية الذكر الحر المسلم، ودية الحرّة المسلمة على النصف من ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَكْفُرُوا﴾ قال سعيد بن جبير: إلا أن يتصدّق أولياء المقتول بالدية على القاتل.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مَوْثِقُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: وإن كان المقتول خطأ من قوم كفار، ففيه تحرير رقبة من غير دية، لأن أهل ميراثه كفار. والثاني: وإن كان مقيماً بين قومه، فقتله من لا يعلم بإيمانه، فعليه تحرير رقبة ولادية، لأنه ضيّع نفسه بإقامته مع الكفار، والقولان مرويان عن ابن عباس، وبالأول قال النخعي، وبالثاني سعيد بن جبير. وعلى الأول تكون «من» للتبعض، وعلى الثاني تكون بمعنى في.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حِثٌّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الرجل من أهل الذمة يُقتل خطأ، فيجب على قاتله الدية والكفارة، هذا قول ابن عباس، والشعبي، وقتادة، والزهري، وأبي حنيفة، والشافعي. ولأصحابنا تفصيل في مقدار ما يجب من الدية^(٣). والثاني: أنه المؤمن يقتل وقومه مشركون، ولهم عقد، فديته لقومه، وميراثه للمسلمين، هذا قول النخعي.

بقوله: «إلا الفرقدان» على تأويل «غير» والتقدير: وكل أخ غير الفرقدين مفارقة أخوه، وهذا على مذهب الجاهلية، كأنه قال هذا قبل الإسلام، ويحتمل أنه يريد في مدة الدنيا. والفرقدان، ثنية فرقد: وهو نجم قريب من القطب الشمالي يهتدى به، وبجانبه آخر أخفى منه، فهما فرقدان. وقال أبو حيان رحمه الله بعد أن نقل مقالة أبي عبيدة: والذي يظهر أن قوله: «إلا خطأ» استثناء منقطع، وهو قول الجمهور منهم أبان بن تغلب، والمعنى: لكن المؤمن قد يقتل المؤمن خطأ.

(١) قال ابن كثير ٥٣٤/١: والذي عليه الجمهور أنه متى كان مسلماً صح عتقه عن الكفارة، سواء كان صغيراً أو كبيراً.

(٢) في «المعنى» ٤٩٦/٩: ولا تعلم بين أهل العلم خلافاً في أن دية الخطأ على العاقلة، قال ابن المنذر: أجمع على هذا كل من تحفظ عنه من أهل العلم، وقد ثبت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قضى بدية الخطأ على العاقلة، وأجمع أهل العلم على القول به، وقد جعل النبي ﷺ دية عمد الخطأ على العاقلة بما قد رويناه من الأحاديث، وفيه تشبيه على أن العاقلة تحمل دية الخطأ، والمعنى في ذلك أن جنائيات الخطأ تكثر، ودية الأدمي كثيرة، فإيجابها على الجاني في ماله يحضف به، فانقضت الحكمة إيجابها على العاقلة على سبيل المواساة للقاتل، والإعانة له تخفيفاً عنه إذا كان معذوراً في فعله، وينفرد هو بالكفارة. قال ابن كثير: وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله، قال الشافعي: لا أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة، وهو أكثر من حديث الخاصة. وهذا الذي أشار إليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: اقتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما في بطنها، فاخصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنيها خرة هيد أو أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها، وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية. لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً كالعمد لشبهه به. وفي «صحيح البخاري» عن عبد الله بن عمر، قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جليمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجمعوا يقولون: صيأنا صيأنا، فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرغ يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك من صنع خالد» قال ابن إسحاق: وبعث علياً، فردى قتلاهم، وما أتلف من أموالهم حتى مبلغة الكلب. وهذا يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال.

(٣) في «الكافي» ٧٨/٣: ودية الكتابي نصف دية المسلم، لما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال: «دية المعاهد نصف دية المسلم» رواه أبو داود. وروي عنه: أن دية ثلث الدية، لما روي أن عمر جعل دية اليهودي والنصراني أربعة آلاف، إلا أنه رجع عن هذه الرواية، =

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَكَامِلَيْنِ﴾ اختلفوا هل هذا الصيام بدل من الرقبة وحدها إذا عدتها، أو بدل من الرقبة والدية؟ فقال الجمهور: عن الرقبة وحدها، وقال مسروق، ومجاهد، وابن سيرين: عنهما. واتفق العلماء على أنه إذا تخلل صوم الشهرين إفطار لغير عذر، فعليه الابتداء، فأما إذا تخللها المرض، أو الحيض، فعندنا لا ينقطع التتابع، وبه قال مالك. وقال أبو حنيفة: المرض يقطع، والحيض لا يقطع، وفرق بينهما بأنه يمكن في عادة صوم شهرين بلا مرض، ولا يمكن ذلك في الحيض، وعندنا أنها معذورة في الموضوعين.

قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ مِنْ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: معناه: فعل الله ذلك توبة منه. قوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا﴾ أي: لم يزل عظيمًا بما يصلح خلقه من التكليف ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يقضي بينهم، ويدبره في أمورهم.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا﴾ سبب نزولها: أن مقيس بن ضبابة وجد أخاه هشام بن ضبابة قتيلًا في بني النجار، وكان مسلمًا، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأرسل رسول الله رسولا من بني فهر، فقال له: إيت بني النجار، فأقرئهم مني السلام، وقل لهم: إن رسول الله ﷺ يأمركم إن علمتم قاتل هشام، فادفعوه إلى مقيس بن ضبابة، وإن لم تعلموا له قاتلاً، فادفعوا إليه دية، فأبلغهم الفهري ذلك، فقالوا: والله ما نعلم له قاتلاً، ولكننا نعطى دية، فأعطوه مائة من الإبل، ثم انصرفا راجعين إلى المدينة، فأتى الشيطان مقيس بن ضبابة، فقال: تقبل دية أخيك، فيكون عليك سببة ما بقيت. اقتل الذي معك مكان أخيك، وأفضل بالدية، فرمى الفهري بصخرة، فشدخ رأسه، ثم ركب بعيراً منها، وساق بقية راجعاً إلى مكة، وهو يقول:

قتلت به فهراً وحمّلتُ عقله
وأدركت ثأري واضطجعتُ موسداً
سُراةَ بني النجار أرباب فراع
وكننت إلى الأصنام أول راجع

فزلت هذه الآية، ثم أهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح، فقتل، رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(١). وفي قوله: ﴿مُتَعَمِدًا﴾ قولان: أحدهما: متعمداً لأجل أنه مؤمن، قاله سعيد بن جبير. والثاني: متعمداً لقتله، ذكره بعض المفسرين. وفي قوله: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ قولان: أحدهما: أنها جزاؤه قطعاً. والثاني: أنها جزاؤه إن جازاه. واختلف العلماء هل للمؤمن إذا قتل مؤمناً متعمداً توبة أم لا؟ فذهب الأكثرون إلى أن له توبة، وذهب ابن عباس إلى أنه لا توبة له.

= وقال: كنت أذهب إلى أن دية اليهودي والنصراني أربعة آلاف، فإنا اليوم أذهب إلى نصف دية المسلم. قلت: أما حديث عمرو بن شعيب فرواه أيضاً أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، وهو حديث حسن. وأما أثر عمر فقد رواه عنه سعيد بن المسيب، وهو منقطع، لأن سعيداً لم يسمع من عمر.

(١) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص ٩٨ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ونسبه السيوطي في «الدر المنثور» ٢/١٩٦ إلى البيهقي في «شعب الإيمان» من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. ورواه ابن جرير الطبري ٦١/٩ من طريق ابن جريج عن عكرمة ولنظفه: أن رجلاً من الأنصار قتل أخا مقيس بن ضبابة، فأعطاه النبي ﷺ الدية، قبلها، ثم وثب على قاتل أخيه فقتله. قال ابن جريج: وقال غيره: ضرب النبي ﷺ دية على بني النجار، ثم بعث مقيساً، وبعث معه رجلاً من بني فهر في حاجة للنبي ﷺ، فاحتمل مقيس الفهري، وكان أيداً فضرب به الأرض، ورضخ رأسه بين حجرين، ثم ألقي يتغنى:

ثأرتُ به فهراً وحمّلتُ عقله
فقال النبي ﷺ: «أظنه قد أحدث حدثاً، أما والله لئن كان فعل لا أومنه في جُل ولا حرم، ولا سلم ولا حرب» فقتل يوم الفتح. قال ابن جريج: وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا﴾. وفي «سيرة ابن هشام» ٢/٢٩٣ قال ابن إسحاق: وقدم مقيس بن ضبابة من مكة مسلماً فيما يظهر، فقال: يا رسول الله جنتك مسلماً، وجنتك أطلب دية أخي، فُتِل خطأ. فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه هشام بن ضبابة فأقام عند رسول الله غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتداً، فقال في شعره قوله:

شفي السُّنْسَنُ أن قد مات بالقراع مُسَيِّداً
وكنانت هموم السُّنْفَسِ من قبل قتله
حسلسلت به وتري وأدركت ثأرتي
ثأرت به فهراً وحمّلت عقله
فُضْرَجَ ثوبيه ومانه الأخواع
ثُلِمُ فتحميني وطاء المضاجع
وكننت إلى الأوثان أول راجع
سُراةَ بني النجار أرباب فراع

فصل

اختلف العلماء في هذه الآية هل هي محكمة أم منسوخة؟ فقال قوم: هي محكمة، واحتجوا بأنها خبر، والأخبار لا تحتل النسخ، ثم افرق هؤلاء فرقتين، إحداهما قالت: هي على ظاهرها، وقاتل المؤمن مخلد في النار. والفرقة الثانية قالت: هي عامة قد دخلها التخصيص بدليل أنه لو قتله كافر، ثم أسلم الكافر، انهدرت عنه العقوبة في الدنيا والآخرة، فإذا ثبت كونها من العام المخصص، فأى دليل صلح للتخصيص، وجب العمل به. ومن أسباب التخصيص أن يكون قتله مستحلاً، فيستحق الخلود لاستحلاله. وقال قوم: هي مخصوصة في حق من لم يتب، واستدلوا بقوله تعالى في الفرقان: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان]. وقال آخرون: هي منسوخة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].^(١)

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صَرَّمَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيْسَرُ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَدُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَوَدَّ اللَّهُ مَكَائِدُ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صَرَّمَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيْسَرُ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ بعث سرية فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم، وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فأهوى إليه المقداد فقتله. فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً يشهد أن لا إله إلا الله؟! لأذكرن ذلك للنبي ﷺ، فلما قدموا على النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال: «ادعوا لي المقداد فقال: يا مقداد أقتلت رجلاً قال لا إله إلا الله، فكيف لك بـ لا إله إلا الله غداً! قال: فانزل الله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صَرَّمَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيْسَرُ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَدُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَوَدَّ اللَّهُ مَكَائِدُ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته؟ وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل». رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(٢). والثاني: أن رجلاً من بني سليم مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، ومعه غنم، فسلم، فقالوا: ما سلم عليكم إلا ليتعوذ [مننا]، فعمدوا إليه فقتلوه، وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله ﷺ، فنزلت هذه

(١) قال الشوكاني في «فتح القدير» ٤٦١/١: وقد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا توبة له؟ فروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: اختلف فيها علماء أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسأته عنها، فقال: نزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَشْتَلِ مُؤْمِنًا مُتَحَدِّثًا﴾ وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء. وقد روى النسائي عنه نحو هذا. وروى النسائي عن زيد بن ثابت نحوه. وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف أبو هريرة، وعبد الله بن عمرو، وأبو سلمة، وعبيد بن عمير، والحسن، وقادة، والضحاك بن مزاحم، نقله ابن أبي حاتم عنهم. وذهب الجمهور إلى أن التوبة منه مقبولة، واستدلوا بمثل قوله تعالى ﴿إِذْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَدِينُ الشُّكَّانِ﴾ وقوله: ﴿وَوَدَّ اللَّهُ مَكَائِدَ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾، قالوا أيضاً: والجمع ممكن بين آية النساء هذه، وآية الفرقان فيكون معناهما: فجزاؤه جهنم إلا من تاب، لا سيما وقد اتحد السبب، وهو القتل والموجب وهو التوعد بالعقاب. واستدلوا أيضاً بالحديث المذكور في الصحيحين عن عبادة بن الصامت أنه قال: «بابعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزونا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق»، ثم قال: «فمن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء علمه» ويحدث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم في «صحيحه» غيره في الذي قتل مئة نفس. وذهب جماعة منهم أبو حنيفة وأصحابه، الشافعي إلى أن القاتل عمداً داخل تحت المشيئة تاب أو لم يتب. وقد أوضحت في شرحي على «المتقى» متمسك كل فريق. والحق أن باب التوبة لم يغلط دون كل عاص، بل هو مفتوح لكل من قصده ورام الدخول منه، وإذا كان الشرك - وهو أعظم الذنوب وأشدها - تمحوه التوبة إلى الله ويقبل من صاحبه الخروج منه، والدخول في باب التوبة، فكيف بما دونه من المعاصي التي من جملتها القتل عمداً، لكن لا بد في توبة قاتل العمد من الاعتراف بالقتل، وتسليم نفسه للقصاص إن كان واجباً. أو تسليم الدنيا إن لم يكن القصاص واجباً، وكان القاتل غنياً متمكناً من تسليمها أو بعضها. وأما مجرد التوبة من القاتل عمداً، وعزمه على أن لا يعود إلى قتل أحد من دون اعتراف ولا تسليم نفس، فنحن لا نتقطع بقبولها، والله أرحم الراحمين هو الذي يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

(٢) رواه البزار والطبراني في «الكبير» والدارقطني في «الأفراد» قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/٧: وإسناده جيد. وقد روى البخاري ١٧٧/٢ شرح الفتحة بعضه مختصراً تعليقا، فقال الحافظ: وهذا التعليق وصله البزار والدارقطني في «الأفراد» والطبراني في «الكبير» من رواية أبي بكر بن علي بن عطاء بن مقدم والد محمد بن أبي بكر المقدمي عن حبيب وذكر الحديث بطوله. ثم قال: قال الدارقطني: تفرد به حبيب وتفرد به أبو بكر عنه. قلت: أي الحافظ ابن حجر - قد تابع أبا بكر سفیان الثوري، لكنه أرسله. أخرجه ابن أبي شيبة عن وكيع عنه، وأخرجه الطبري من طريق أبي إسحاق الفزاري عن الثوري كذلك.

الآية. رواه عكرمة، عن ابن عباس^(١). والثالث: أن قوماً من أهل مكة سمعوا بسرية لرسول الله ﷺ أنها تُرِيدُهُمْ فهربوا، وأقام رجل منهم كان قد أسلم، يقال له: مرداس، وكان على السرية رجل، يقال له: غالب بن فضالة، فلما رأى مرداس الخيل، كبر ونزل إليهم، فسلم عليهم، فقتله أسامة بن زيد، واستاق غنمه، ورجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجداً شديداً، ونزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٢). وقال السدي: كان أسامة أمير السرية. والرابع: أن رسول الله بعث أبا حدرد الأسلمي، وأبا قتادة، ومحلّم بن جثامة في سرية إلى إضم^(٣)، فلحقوا عامر بن الأضبط الأشجعي، فحيّاهم بتحية الإسلام، فحمل عليه محلّم بن جثامة فقتله، وسلبه بغيراً وسقاء. فلما قدموا على النبي ﷺ أخبروه، فقال: «أقتلته بعدما قال آمنت؟!» ونزلت هذه الآية. رواه ابن أبي حدرد، عن أبيه^(٤). فأما التفسير، فقولُه: ﴿إِذَا ضَرَجْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: سرتهم وغزوتهم. وقوله: ﴿فَتَيَبَّسُوا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عارم: «فَتَيَبَّسُوا» بالنون من التبيين للأمر قبل الإقدام عليه. وقرأ حمزة، والكسائي وخلف (فتشبتوا) بالثاء من الثبات وترك الاستعجال، وكذلك قرؤوا في (الحجرات).

قوله تعالى: ﴿لَمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمْ مِنَ الْكُفْرِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر، وحفص عن عاصم، والكسائي: «السلام» بالألف مع فتح السين. قال الزجاج: يجوز أن يكون بمعنى التسليم، ويجوز أن يكون بمعنى الاستسلام. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، وخلف، وجبلة عن المفضل عن عاصم: (السلم) بفتح السين واللام من غير ألف، وهو من الاستسلام. وقرأ أبان بن يزيد عن عاصم: بكسر السين وإسكان اللام من غير ألف. و«السلم»: الصلح. وقرأ الجمهور: «لَسْتُ مُؤْمِنًا»، بكسر الميم، وقرأ علي، وابن عباس، وعكرمة، وأبو العالية، ويحيى بن يعمر، وأبو جعفر: بفتح الميم من الأمان.

قوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ و«عرضها»: ما فيها من مال، قلّ أو كثر. قال المفسرون: والمراد به: ما غنموه من الرجل الذي قتله.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَائِدٌ كَثِيرَةٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه ثواب الجنة، قاله مقاتل. والثاني: أنها أبواب الرزق في الدنيا، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنتُمْ مِّن قَبْلُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: كذلك كنتم تأمنون من قومكم المؤمنين بهذه الكلمة، فلا تخيفوا من قالها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: كذلك كنتم تُخفون إيمانكم بمكة كما كان هذا يخفي إيمانه، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثالث: كذلك كنتم من قبل مشركين، قاله مسروق، وقاتدة، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ في الذي مَنَ به أربعة أقوال: أحدها: الهجرة، قاله ابن عباس. والثاني: إعلان الإيمان، قاله سعيد بن جبيرة. والثالث: الإسلام، قاله قاتدة، ومسروق. والرابع: التوبة على الذي قتل ذلك الرجل، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿فَتَيَبَّسُوا﴾ تأكيد للأول.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَتِيلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَدُوًّا أَوْ الْأَنْصَارَ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَتِيلِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْتَفِينَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَتِيلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَتِيلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: نزلت هذه الآية من أجل قوم كانوا إذا

(١) «المسند»، والترمذي ٩٠/٤، والحاكم: ٢٤٥/٢ من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ورواه بمعناه البخاري ١٩٤/٨، ومسلم ٢٣١٩/٤ من طريق سفيان عن عمرو، عن عطاء عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن جرير ٧٦/٩ عن أبي صالح، واسم الذي على رأس السرية عنده «قليب»، وانظر الاختلاف في اسمه «قليب» أو «فليت» في «الإصابة».

(٣) إضم: واد يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر، من عند المدينة، وهو واد لأشجع وجهية.

(٤) «المسند»، ١١١/٦، وابن جرير ٧٣/٩، وذكره البيهقي في «المجموع» ٨/٧، وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات. قلت: وفي سند أحمد القعقاع بن عبد الله بن أبي حدرد، أورده الحافظ ابن حجر في «تعمير النخعة»، ونقل عن البخاري أن له صحبة ولا تصح، ولم يذكر عن أحد توثيقه.

حضرت غزاة يستأذنون في القعود. وقال زيد بن ثابت: إني لقاعد إلى جنب رسول الله ﷺ إذ غشيت السكينة، ثم سُرِّي عنه، فقال: «اكتب» (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون) الآية، فقام ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد؟ فوالله ما قضى كلامه حتى غشيت رسول الله السكينة، ثم سُرِّي عنه، فقال: «اقرأ» فقرأت لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون، فقال النبي ﷺ: ﴿عَبْدُ أَوْلَى النَّصْرِ﴾ فالحققتها^(١).

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ﴾ يعني عن الجهاد، والمعنى: أن المجاهد أفضل. قال ابن عباس: وأريد بهذا الجهاد غزوة بدر^(٢). وقال مقاتل: غزاة تبوك.

قوله تعالى: ﴿عَبْدُ أَوْلَى النَّصْرِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة: (غير) برفع الراء، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وخلف، والمفضل: بنصبها. قال أبو علي: من رفع الراء، جعل- (غير) صفة للقاعدين، ومن نصبها، جعلها استثناء من القاعدين. وفي «الضرر» قولان: أحدهما: أنه العجز بالزمانة والمرض، ونحوهما. قال ابن عباس: هم قوم كانت تحبسهم عن الغزاة أمراض وأوجاع. وقال ابن جبير، وابن قتيبة: هم أولو الزمانة. وقال الزجاج: الضرر: أن يكون ضريباً أو أعمى أو زماً. والثاني: أنه العذر، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَقَسَلَ اللَّهُ التَّجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَائِدِينَ دَرَجَةً﴾ في هؤلاء القاعدين قولان: أحدهما: أنهم القاعدون بالضرر، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: القاعدون من غير ضرر، قاله أبو سليمان الدمشقي. قال ابن جرير: والدرجة: الفضيلة. فأما الحسنی ففيه الجئة في قول الجماعة.

قوله تعالى: ﴿وَقَسَلَ اللَّهُ التَّجَاهِدِينَ عَلَى الْقَائِدِينَ﴾ قال ابن عباس: القاعدون هاهنا: غير أولي الضرر، وقال سعيد بن جبير: هم الذين لا عذر لهم.

﴿دَرَجَاتٍ بَيْنَهُمْ وَمِنْتَهُ مَتَرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿دَرَجَاتٍ بَيْنَهُمْ﴾ قال الزجاج: درجات في موضع نصب بدلاً من قوله: «أجراً عظيماً»، وهو مفسر للأجر. وفي المراد بالدرجات قولان: أحدهما: أنها درجات الجنة، قل ابن محيريز: الدرجات: سبعون درجة ما بين كل درجتين حُضِرُ الفرس المضمر سبعين سنة^(٣)، وإلى نحوه ذهب مقاتل. والثاني: أن معنى الدرجات: الفضائل، قاله سعيد بن جبير^(٤). قال قتادة: كان يقال: الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة. وقال ابن زيد: الدرجات: هي السبع التي ذكرها الله تعالى في براءة حين قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمًا﴾... إلى قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ وَرِوَابًا إِلَّا كَتِيبَ كُتْمٍ﴾... [التوبة: ١٢٠، ١٢١]. فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى ذكر في أول الكلام درجة، وفي آخره درجات؟ فنه جوابان: أحدهما: أن الدرجة الأولى تفضيل المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر منزلة. والدرجات: تفضيل المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر منازل كثيرة، وهذا معنى قول ابن عباس. والثاني: أن الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم، والدرجات: منازل الجنة، ذكره القاضي أبو يعلى.

(١) «المسنَد» ١٨٤/٥، والبخاري ١٩٥/٨، وأبو داود ١٧/٣، والترمذي ٩٢/٤، والنسائي ٩/٦، ولفظه عند البخاري عن ابن شهاب قال: حدثني سهل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن النبي ﷺ أملى عليه ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ التَّجَاهِدِينَ وَاللَّجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فجاه ابن أم مكتوم وهو يملها علي قال: يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فنقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله ﴿عَبْدُ أَوْلَى النَّصْرِ﴾. واملها - بضم أوله وكسر الميم وتشديد اللام - هو مثل يملها. وللرض: اللق. وسري: كشف. وروى البخاري عن البراء، قال: لما نزلت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ التَّجَاهِدِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاه ابن أم مكتوم، فشكا ضرارته، فأنزل الله ﴿عَبْدُ أَوْلَى النَّصْرِ﴾.

(٢) «البخاري» ١٩٧/٨.

(٣) حضر الفرس: ارتفاعه في عدوه، يقال: أحضر الفرس يحضر إحضاراً: عدا عدواً شديداً. والفرس المضمر: هو الذي أعد إعداداً للسياق والركض.

(٤) روى البخاري ٩٦/٦، ٣٤٩/١٣ عن أبي هريرة مرفوعاً: «إن في الجنة مائة درجة أهناها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض» وروى مسلم ١٥٠١/٣ عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «فيا أبا سعيد من رضي بالله رياءً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وحببت له الجنة فمجب لها أبو سعيد، فقال: أعدنا علي يا رسول الله ففعل، ثم قال: «واشترى برفع بها العبد مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله».

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكُفْرَ وَالظُّلْمَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا لَأَمَّ تَكَرَّرَ آتُشَ اللَّهِ دَائِمَةً فَهَبَّاجُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكُفْرَ وَالظُّلْمَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن أناساً كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام، فلما خرج النبي ﷺ إلى بدر لم تلح قريش أحداً إلا أخرجوه معهم، فقتل أولئك الذين أقروا بالإسلام، فنزلت فيهم هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس^(١). وقال قتادة: نزلت في أناس تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع أبي جهل، فقتلوا يوم بدر، واعتذروا بغير عذر، فأبى الله أن يقبل منهم. والثاني: أن قوماً نافقوا يوم بدر، وارتابوا، وقالوا: غير هؤلاء دينهم وأقاموا مع المشركين حتى قتلوا، فنزلت فيهم هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنها نزلت في قوم تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ولم يخرجوا معه، فمن مات منهم قيل إن يلحق بالنبي، ضربت الملائكة وجهه ودبره، رواه العوفي عن ابن عباس^(٢). وفي «التزي» قولان: أحدهما: أنه قبض الأرواح بالموت، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: الحشر إلى النار، قاله الحسن. قال مقاتل: والمراد بالملائكة ملك الموت وحده. وقال في موضع آخر: ملك الموت وأعوانه، وهم ستة، ثلاثة يُلون أرواح المؤمنين، وثلاثة يُلون أرواح الكفار. قال الزجاج: ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ نصب على الحال، والمعنى: تترواهم في حال ظلمهم أنفسهم، والأصل: ظالمين، لأن النون حذفت استخفافاً. فأما ظلمهم لأنفسهم، فيحتمل على ما ذكر في قصتهم أربعة أقوال: أحدها: أنه ترك الهجرة، والثاني: رجوعهم إلى الكفر، والثالث: الشك بعد اليقين. والرابع: إعانة المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ كُنْتُمْ﴾ قال الزجاج: هو سؤال توبيخ، والمعنى: كنتم في المشركين أو في المسلمين.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: كنا مقهورين في أرض مكة، لا نستطيع أن نذكر الإيمان، قالت الملائكة: ﴿لَأَمَّ تَكَرَّرَ آتُشَ اللَّهِ دَائِمَةً﴾ يعني المدينة ﴿فَهَبَّاجُوا فِيهَا﴾ يعني: إليها. وقول الملائكة لهم يدل على أنهم كانوا يستطيعون الهجرة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا وَالنِّسَاءَ وَالْوَالِدَاتِ لَا يُسْطَبِعُونَهُنَّ حِيلَةً وَلَا يَبْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا﴾ سبب نزولها: أن المسلمين قالوا في حق المستضعفين من المسلمين بمكة: هؤلاء بمنزلة الذين قتلوا ببدر، فنزلت هذه الآية. قاله مجاهد. قال الزجاج: «المستضعفين» نصب على الاستثناء من قوله: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ قال أبو سليمان: «المستضعفون»: ذوو الأسنان، والنساء، والصبيان.

قوله تعالى: ﴿لَا يُسْطَبِعُونَهُنَّ حِيلَةً﴾ أي: لا يقدرن على حيلة في الخروج من مكة، ولا على نفقة، ولا قوّة. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ قولان: أحدهما: أنهم لا يعرفون الطريق إلى المدينة، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد. والثاني: أنهم لا يعرفون طريقاً يتوجهون إليه، فإن خرجوا هلكوا، قاله ابن زيد. وفي «عسى» قولان: أحدهما: أنها بمعنى الإيجاب، قاله الحسن. والثاني: أنها بمعنى الترجي. فالمعنى: أنهم يرجون العفو، قاله الزجاج.

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكبروا، فاستغفروا لهم، فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكُفْرَ وَالظُّلْمَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ الآية. قال: نكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية: لا عذر لهم، قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت فيهم ﴿وَرَبِّهِمْ كَثِيرٌ مِّنْ يُّؤَلِّئُكُمْ بِأَنفُسِكُمْ فَيَلْقَىٰ تَمَرُّهُمُ فِي اللَّهِ﴾ الآية [المكثوب: ١٠] نكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وأيسوا من كل خير، ثم نزل فيهم ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُ سَاقِطٌ عَلَىٰ سُنْبُلِهِ﴾ الآية [النحل: ١١٠] نكتبوا إليهم بذلك: إن الله قد جعل لكم مخرجاً، فخرجوا فأدرجهم المشركون، فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقتل من قتل. وإسناده صحيح، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩/٧، ١٠ وقال: رواه البزار، ورجال رجال الصحيح غير محمد بن شريك وهو ثقة. وقوله «فأعطوهم الفتنة» أي: كفروا بعد إسلامهم. وفي البخاري ١٩٧/٨ سبب آخر لهذه الآية عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود، قال: قطع على أهل المدينة بئس، فاشتد فيه، فلقبت عكرمة مولى ابن عباس، فأخبرته فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكتفون سواد المشركين على رسول الله ﷺ يأتي السهم يرمي به، فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل، فانزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكُفْرَ وَالظُّلْمَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١٠٠)

قوله تعالى: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ قال سعيد بن جبير، ومجاهد: متزحزحاً عما يكره. وقال ابن قتيبة: المراعيم والمهاجر: واحد، يقال: راغمت وهاجرت، وأصله: أن الرجل كان إذا أسلم، خرج عن قومه مُراعماً، أي: مغاضباً لهم، ومهاجراً، أي: مقاطعاً من الهجران، فقيل للمذهب: مراغم، وللمصير إلى النبي ﷺ هجرة، لأنها كانت بهجرة الرجل قومه. [قال الجعدي: عزيز المراعيم والمذهب] (١). وفي السعة قولان: أحدهما: أنها السعة في الرزق، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: التمكن من إظهار الدين، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ اتفقوا على أنه نزل في رجل خرج مهاجراً، فمات في الطريق، واختلّفوا فيه على ستة أقوال: أحدها: أنه ضمرة بن العيص، وكان ضريباً موبراً، فقال: احملوني فحمل وهو مريض، فمات عند التنعيم (٢)، فنزل فيه هذا الكلام، رواه سعيد بن جبير (٣). والثاني: أنه العيص بن ضمرة بن زبناح الخزاعي أمر أهله أن يحملوه على سريره، فلما بلغ التنعيم مات، فنزلت فيه هذه الآية، رواه أبو بشر عن سعيد ابن جبير. والثالث: أنه ابن ضمرة الجندعي مرض، فقال لبيته: أخرجوني من مكة، فقد قتلني غمها، فقالوا: أين؟ فأوماً بيده نحو المدينة، يريد الهجرة، فخرجوا به فمات في الطريق، فنزل فيه هذا، ذكره ابن إسحاق. وقال مقاتل: هو جُنْدَب بن ضمرة. والرابع: أن اسمه سبرة، فلما نزل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلَكُمُ الظَّالِمِينَ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى قوله ﴿مُرْتَمًا كَثِيرًا﴾ قال لأهله وهو مريض: احملوني، فإني موبر، ولي من المال ما يُبلغني إلى المدينة، فلما جاوز الحرم، مات. فنزل فيه هذا، قاله قتادة. والخامس: أنه رجل من بني كنانة هاجر، فمات في الطريق، فسخر منه قومه، فقالوا: لا هو بلغ ما يريد، ولا أقام في أهله حتى يدفن، فنزل فيه هذا، قاله ابن زيد. والسادس: أنه خالد بن حزام أخو حكيم بن حزام، خرج مهاجراً، فمات في الطريق، ذكره الزبير بن بكار، وقوله: «وقع» معناه: وجب.

﴿وَلَمَّا سَأَلْنَا فِي الْأَرْضِ فَوَجَدْنَا عَلَىٰ آلِهَةٍ مَنَاجِرَ وَإِنِ لَمَّا سَأَلْنَا فِي الْأَرْضِ فَوَجَدْنَا عَلَىٰ آلِهَةٍ مَنَاجِرَ وَإِنِ لَمَّا سَأَلْنَا فِي الْأَرْضِ فَوَجَدْنَا عَلَىٰ آلِهَةٍ مَنَاجِرَ﴾ (١٠١)

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْنَا فِي الْأَرْضِ فَوَجَدْنَا عَلَىٰ آلِهَةٍ مَنَاجِرَ﴾ روى مجاهد عن أبي عياش الزُّرقي قال: كنا مع رسول الله ﷺ ببغسفان (٤)، وعلى المشركين خالد بن الوليد، [قال: فصلينا الظهر، فقال المشركون: لقد أصبنا غرة، لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة، فنزلت آية القصر فيما بين الظهر والعصر] (٥). والضرب في الأرض: السفر،

(١) ما بين معقنين من تمام كلام ابن قتيبة في «غريب القرآن» ١٣٥. وصدر البيت «كطرد بلاذ بأركانه» وهو في «ديوانه» ٣٣، و«مجاز القرآن» ١٣٨/١، و«الطبري» ١١٢/٩، و«اللسان» و«التاج» مادة رغم، والطود: الجبل العظيم المنيف. بلاذ: يتحصن، والمرام: المضطرب في البلاد والمذهب.

(٢) التنعيم: موضع في الحل بين مرسف، بينه وبين مكة فرسخان، ومن التنعيم يحرم من أراد العمرة من أهل مكة.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير ١١٤/٩، والبيهقي في «سننه» ١٤/٩ عن سعيد بن جبير. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فنزلت ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية. وفي إسناده أشعث بن سوار، وهو ضعيف. ورواه ابن جرير ١١٨/٩ بنحوه بإسناد آخر، وفيه شريك بن عبد الله القاضي، وهو صدوق يخطئ كثيراً، وذكره الهيثمي في «الزوائد» ١٠/٧، وقال: رواه أبو يعلى، ورجاله ثقات، ونسبه السيوطي في «الدر المنثور» ٢٠٧/٢ لأبي يعلى وابن أبي حاتم والطبراني بسند رجاله ثقات، ثم لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من وجه آخر.

(٤) عسفان: على مرحلتين من مكة.

(٥) هو قطعة من حديث طويل أخرجه الطبري: ١٣١/٩، وأحمد في «المسند» ٩٥/٤، وأبو داود ١٦٢/٢، والنسائي ١٧٧/٣، والحاكم في «المستدرک» ٣٣٧/١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وواقفه الذهبي، وصححه البيهقي، وقال الحافظ ابن كثير في: «تفسيره»: وإسناده صحيح، وله شواهد كثيرة، ولفظه بتامه: عن أبي عياش الزُّرقي، قال: كنا مع رسول الله ﷺ ببغسفان، وعلى المشركين خالد بن الوليد، فصلينا الظهر، فقال المشركون: لقد أصبنا غرة، لقد أصبنا غفلة لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة، فنزلت آية القصر بين الظهر والعصر، فلما حضرت العصر، قام رسول الله ﷺ مستقبل القبلة، والمشركون أمامه، فصفت خلف رسول الله ﷺ صف، وصف بعد ذلك الصف صف آخر، فركع رسول الله ﷺ، وركعوا جميعاً، ثم سجد، وسجد الصف الذين يلونه، وقام الآخرون يحرسونهم، فلما صلى هؤلاء السجدتين وقاموا، سجد الآخرون الذين كانوا خلفهم، ثم تأخر الصف الذي يليه إلى مقام الآخرين، وتقدم الصف الأخير إلى مقام الصف الأول، ثم ركع رسول الله ﷺ وركعوا جميعاً، ثم سجد وسجد الصف الذي يليه، وقام الآخرون يحرسونهم، فلما جلس رسول الله ﷺ والصف الذي يليه، سجد الآخرون، ثم جلسوا جميعاً، فسلم عليهم جميعاً، فصلاها ببغسفان، وصلها يوم بني سليم. هذا لفظ أبي داود.

والجُنَاح: الإثم، والقصر: النقص، والفتنة: القتل. وفي القصر قولان: أحدهما: أنه القصر من عدد الركعات. والثاني: أنه القصر من حدودها. وظاهر الآية يدل على أن القصر لا يجوز إلا عند الخوف، وليس الأمر كذلك، وإنما نزلت الآية على غالب أسفار رسول الله ﷺ، وأكثرها لم يخل عن خوف العدو. وقيل: إن قوله: ﴿أَنْ تَقْرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ كلام تام. وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ كلام مبتدأ، ومعناه: وإن خفتم^(١). واختلف العلماء هل صلاة المسافر ركعتين مقصورة أم لا؟ فقال قوم: ليست مقصورة، وإنما فرض المسافر ذلك، وهو قول ابن عمر، وجابر بن عبد الله، وسعيد بن جبير، والسدي، وأبي حنيفة، فعلى هذا القول قصر الصلاة أن تكون ركعة^(٢) ولا يجوز ذلك إلا بوجود السفر والخوف، لأن عند هؤلاء أن الركعتين في السفر إذا لم يكن فيه خوف تمام غير قصر، واحتجوا بما روى ابن عباس أن النبي ﷺ صلى بذي قرد، فصف الناس خلفه صفين، صفاً خلفه، و صفاً موازي العدو، فصلى بالذين خلفه ركعة، ثم انصرف هؤلاء إلى مكان هؤلاء، وجاء أولئك فصلى بهم ركعة، ولم يقضوا^(٣). وعن ابن عباس أنه قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة^(٤). والثاني: أنها مقصورة، وليست بأصل، وهو قول مجاهد، وطاوس، وأحمد، والشافعي. قال يعلى بن أمية: قلت لعمر بن الخطاب: عجبت من قصر الناس اليوم، وقد آمنوا، وإنما قال الله تعالى ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ فقال عمر: عجبت مما عجبت منه، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: ﴿صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته﴾^(٥).

فصل

وإنما يجوز للمسافر القصر إذا كان سفره مُباحاً، وبهذا قال مالك، والشافعي، وقال أبو حنيفة: يجوز له القصر في سفر المعصية. فأما مدة الإقامة التي إذا نواها أتم الصلاة، وإن نوى أقل منها قصر، فقال أصحابنا: إقامة اثنين وعشرين صلاة. وقال أبو حنيفة: خمسة عشر يوماً. وقال مالك، والشافعي: أربعة أيام^(٦).

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُم مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا بِأَسْلِحَتِهِمْ فِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ زُرِّيهِمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَوْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلُوبُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَتْمِعْتَكُمْ فَيُؤَدُّوا عَلَيْكُمْ مَبْلَةً وَحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْمِضًا أَنْ تَضَمَّوْا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ سبب نزولها: أن المشركين لما رأوا النبي ﷺ وأصحابه قد

(١) في «فتح القدير» للشوكاني ٤٧٠/١: ذكر معنى هذا الجرجاني والمهدوي وغيرهما ورده القشيري، والفاضي أبو بكر بن العربي. وقد حكى القرطبي عن ابن عباس معنى ما ذكره الجرجاني ومن معه. ومما يرد هذا ويدفعه الواو في قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ وقد تكلف بعض المفسرين، فقال: إن الواو زائدة، وإن الجواب للشرط المذكور، أعني قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ هو قوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ﴾.

(٢) جاء في «المبسوط» للسرخسي ٤٦٢/٢ والثاني: وهو ألا يتقص عدد الركعات بسبب الخوف عندنا، وكان ابن عباس يقول: صلاة المقيم أربع ركعات، وصلاة المسافر ركعتان، وصلاة الخوف ركعة، وبه أخذ بعض العلماء.

(٣) رواه النسائي ١٦٩/٣ ورجال إسناده ثقات، وذكر الحافظ في «التلخيص» ١٤١: أن الشافعي ذكر هذا النوع، فقال: روي حديث لا يثبت أنه صلى بذي قرد - وذكره - ثم قال: فتركناه. قال الحافظ ابن حجر: وقد صححه ابن حبان وغيره. وذو قرد: موضع على ليلتين من المدينة. وعن ثعلبة بن زهدم قال: كنا مع سعيد بن العاص بطبرستان، فقال: أيكم صلى مع رسول الله صلاة الخوف؟ فقال حذيفة: أنا، فصلى بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا. رواه أبو داود، والنسائي، وسكت عنه أبو داود، والمنذري، ورجال إسناده رجال الصحيح.

(٤) «المسنند» ٣٦٣/٣، ومسلم ٤٧٩/١، وأبو داود ٢٣/١، والنسائي ١٦٩/٣.

(٥) «المسنند» ١٧٥/١، ومسلم ٤٧٨/١، وأبو داود ٤/٢، والنسائي ١١٦/٣، وابن ماجه ٣٣٩/١، والترمذي ٩٢/٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحافظ ابن كثير ٥٤٤/١: وأما قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا يتنهضون إلا إلى غزو هام، أو في سرية خاصة، وسائر الأحياء حرب للإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب، أو على حادثة، فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِلَيْكُم مَّا كَانُوا فِيكُمْ﴾ [التور: ٣٣] وكقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ كَيْفَ كَانَتْ فِي حُبْرِكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. قلت: وروى الإمام أحمد ٢٥٧/٣، والترمذي ٤٣١/٢، والنسائي ١١٧/٣ عن ابن عباس: أن النبي ﷺ خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا الله رب العالمين، فصلى ركعتين. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٦) انظر «المغني لابن قدامة» ١٣٢/٢، و«فوائد المعاد» ٢٩/٣، و«نيل الأوطار» ٢٥٦/٣.

صلوا الظهر، ندموا إذ لم يكبوا عليهم، فقال بعضهم لبعض: دعوهم فإن لهم صلاة هي أحب إليهم من آبايهم وأبنائهم، يعتنون العصر، فإذا قاموا فشدوا عليهم، فلما قاموا إلى صلاة العصر، نزل جبريل بهذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ خطابٌ للنبي ﷺ، ولا يدل على أن الحكم مقصورٌ عليه، فهو كقوله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال أبو يوسف: لا تجوزُ صلاة الخوف بعد النبي ﷺ. والهاء والميم من «فيهم» تعودُ على الضاربين في الأرض.

قوله تعالى: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: ابتدأتها، ﴿فَلْتَقُمْ مَقَامَكُمْ مِنْهُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: لتقف. ومثله ﴿وَإِذَا أَقَلَّمْتُمْ مَتَنًا﴾ [البقرة: ٢٠]. ﴿وَلْيَأْخُذُوا بِحُلِيِّهِمْ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم الباقون، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم المصلون معه، ذكره ابن جرير. قال: وهذا السلاح كالسيف، يتقلده الإنسان، والخنجر يشده إلى ذراعه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ يعني المصلين معه ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: هم الطائفة التي لم تصل، أمرت أن تحرس الطائفة المصلية، وهذا معنى قول ابن عباس. والثاني: أنهم المصلون معه أمروا إذا سجدوا أن ينصرفوا إلى الخرس. واختلف العلماء كيف ينصرفون بعد السجود، فقال قوم: إذا أتوا مع الإمام ركعةً أتوا لأنفسهم ركعةً، ثم سلموا، وانصرفوا، وقد تمت صلاتهم. وقال آخرون: ينصرفون عن ركعة، واختلف هؤلاء، فقال بعضهم: إذا صلوا مع الإمام ركعة وسلموا، فهي تجزئهم. وقال آخرون منهم أبو حنيفة: بل ينصرفون عن تلك الركعة إلى الخرس وهم على صلاتهم، فيكونون في وجه العدو مكان الطائفة الأخرى التي لم تصل، وتأتي تلك الطائفة. واختلفوا في الطائفة الأخرى، فقال قوم: إذا صلى بهم الإمام أطال التشهد حتى يقضوا الركعة الفائتة، ثم يسلم بهم، وقال آخرون: بل يسلم هو عند فراغه من الصلاة بهم، فإذا سلم قضوا ما فاتهم. وقال آخرون: بل يصلي بالطائفة الثانية ركعة ويسلم هو، ولا تسلم هي، بل ترجع إلى وجه العدو، ثم تجيء الأولى، فتقضي ما بقي من صلاتها وتسلم، وتمضي وتجيء الأخرى، فتم صلاتها، وهذا مذهب أبي حنيفة^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد الذين صلوا أولاً. وقال الزجاج: يجوز أن يريد به الذين وجاه العدو، لأن المصلي غير مقاتل، ويجوز أن يكون الجماعة أمروا بحمل السلاح، لأنه أربح للعدو، وأحرى أن لا يقدموا عليهم. و«الجناح»: الإثم، وهو من: جنحت: إذا عدلت عن المكان، وأخذت جانباً عن القصد. والمعنى: أنكم إذا وضعت أسلحتكم، لم تعدلوا عن الحق.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ يَكُمُ آذَىٰ مِنْ مَطَرٍ﴾ قال ابن عباس: رخص لهم في وضع الأسلحة لثقلها على المريض وفي المطر، وقال: وخذوا حذرکم كي لا يتغفلوكم.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِيمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ فَإِذَا أطمأنتم فاقموا الصلوة إن الصلوة كانت عل الكوزين كتباً مؤفوكا ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ يعني صلاة الخوف، و«قضىتم» بمعنى: فرغتم.

(١) في «المعنى» ٢/٢٦٨: ويجوز أن يصلي صلاة الخوف على كل صفة صلاها رسول الله ﷺ، قال أحمد: كل حديث يروى في أبواب صلاة الخوف، فالمعمل به جائز، وقال: ستة أوجه أو سبعة يروى فيها كلها جائز، وقال الأثرم: قلت لأبي عبد الله: تقول بالأحاديث كلها، كل حديث في موضعه، أو تختار واحداً منها؟ قال: أنا أنول: من ذهب إليها كلها فحسن، وأما حديث سهل، وأنا اختاره. قلت: وحديث سهل الذي اختاره الإمام أحمد رواه الجماعة ولفظه عند مسلم ١/٥٧٥: عن صالح بن خوات بن جبير عن سهل بن أبي حشمة أن رسول الله ﷺ صلى بأصحابه في الخوف، فصنم خلفه صفيين، فصلى بالذين يلونه ركعة، ثم قام، فلم يزل قائماً حتى صلى الذين خلفهم ركعة، ثم تقدموا وتأخر الذين كانوا قدامهم فصلى بهم ركعة، ثم قعد حتى صلى الذين تخلفوا ركعة، ثم سلم. وقال الحافظ في «التلخيص» ص ١٤١: رويت صلاة الخوف عن النبي ﷺ على أربعة عشر نوعاً ذكرها ابن حزم في جزء مفرد، وبعضها في «صحيح مسلم» ومعظمها في «سنن أبي داود». وذكر الحاكم منها ثمانية أنواع، وذكر ابن حبان تسعة، وقال: ليس بينها تضاد، ولكنه ﷺ صلى صلاة الخوف مراراً، والمرء سبحانه له أن يصلي ما شاء عند الخوف من هذه الأنواع، وهي من الاختلاف المباح. ونقل ابن الجوزي عن أحمد أنه قال: ما أعلم في هذا الباب حديثاً إلا صحيحاً.

قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ في هذا الذكر قولان: أحدهما: أنه الذكر لله في غير الصلاة، وهذا قول ابن عباس، والجمهور قالوا: وهو التسييح، والتكبير، والدعاء، والشكر. والثاني: أنه الصلاة، فيكون المعنى: فصلوا قياماً، فإن لم تستطيعوا فقعوداً، فإن لم تستطيعوا فعلى جنوبكم، هذا قول ابن مسعود. وفي المراد بالطمأنينة قولان: أحدهما: أنه الرجوع إلى الوطن عن السفر، وهو قول الحسن، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنه الأمن بعد الخوف، وهو قول السدي، والزجاج، وأبي سليمان الدمشقي. وفي إقامة الصلاة قولان: أحدهما: إتمامها، قاله مجاهد، وقتادة، والزجاج، وابن قتيبة. والثاني: أنه إقامة ركوعها وسجودها، وما يجب فيها مما قد يترك في حالة الخوف، هذا قول السدي.

قوله تعالى: ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي: فرضاً. وفي «الموقت» قولان: أحدهما: أنه بمعنى المفروض، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وابن زيد. والثاني: أنه الموقت في أوقات معلومة، وهو قول ابن مسعود، وقتادة، وزيد بن أسلم، وابن قتيبة.

﴿وَلَا تَهَوُّوا فِي آيَاتِهِ الْقَوْرَىٰ إِنَّ تَكْوُرًا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَجُونَ مِنَّا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهَوُّوا فِي آيَاتِهِ الْقَوْرَىٰ﴾ قال أهل التفسير: سبب نزولها: أن النبي ﷺ أمر أصحابه لما انصرفوا من أحد أن يسيروا في أثر أبي سفيان وأصحابه، فشكوا ما بهم من الجراحات، فنزلت هذه الآية. قال الزجاج: ومعنى «تهنوا»: تضعفوا، يقال: وهن بهن: إذا ضعف، وكلُّ ضعف فهو وهنٌ. وابتغى القوم: طلبهم بالحرب. و«القوم» هاهنا: الكفار ﴿إِنَّ تَكْوُرًا تَأْمُونًا﴾ أي: توجعون، فإنهم يجدون من الوجود بما ينالهم من الجراح والتعب، كما تجدون، وأنتم مع ذلك ترجون ما لا يرجون. وفي هذا الرجاء قولان: أحدهما: أنه الأمل، قاله مقاتل. قال الزجاج: وهو إجماع أهل اللغة الموثوق بعلمهم. والثاني: أنه الخوف، رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال الفراء: ولم يوجد الخوف بمعنى الرجاء إلا ومعه جحد، [فإذا كان كذلك كان الخوف على جهة الرجاء والخوف، وكان الرجاء كذلك] كقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٠٣﴾﴾ [نوح: ١٣] وقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجن: ١٤] قال الشاعر:

لا تترجي حين تلاقى الذائدا
وقال الهذلي:

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا

ولا يجوز رجوتك وأنت تريد خنتك، ولا خنتك وأنت تريد رجوتك^(١). قال الزجاج: وإنما اشتمل الرجاء على معنى الخوف، لأنه أمل قد يخاف أن لا يتم، فعلى القول الأول يكون المعنى: ترجون النصر وإظهار دينكم والجنة. وعلى الثاني: تخافون من عذاب الله ما لا يخافون.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ حَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن طعنة بن أبيرق سرق درعاً لقتادة بن النعمان، وكان الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتشر من خرق في الجراب، حتى انتهى إلى الدار،

(١) «معاني القرآن» للفراء ٢٨٦/١، و«الأضداد» لابن الأثيري ص ١١، و«اللسان»: مادة رجا، من غير نسبة. و«الذائد»: من ذاد الإبل: إذا طردها وساقها ودفعها.

(٢) «شرح أشعار الهذليين» ١٤٤/١، و«معاني القرآن» ٢٨٦/١، و«الطبري» ١٧٤/٩. وهذا البيت لأبي ذؤيب من قصيدة له، وصف فيها مشار العسل من بيوت النحل، فقال قبل هذا البيت:

فلو كان حبل من ثمانين ثامة
تدلى عليها بالحبال مؤتقاً
وتسعين باعاً نالها بالأنامل
شديدة الوصاة نابل وابن نابل

وقوله: لم يرج لسعها: أي: لم يخف ولم يبالها. وقوله: خالفها: أي دخل بيت النحل ليأخذ صلتها وقد خرجت إليه حين سمعت حسه فخالفها إلى بيوت. صلتها غير هياب للسعها. ويروي «وخالفها» بالحاء، أي لازمها. والنوب: جمع نائب: وهو صفة للنحل أي: أنها ترعى ثم تنوب إلى بيتها لتضع صلتها، تهجئ وتذهب. والعوامل: التي تعمل العسل، ويروي «العوامل» أي ذوات العسل.

(٣) «معاني القرآن» للفراء ٢٨٦/١، وما بين معقنين منه.

ثم خياها عند رجل من اليهود، فالتصمت الدرع عند طعمة، فلم توجد عنده، وحلف: مالي بها علم، فقال أصحابها: بلى والله، لقد دخل علينا فأخذها، وطلبنا أثره حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق، فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه، فقال: دفعها إلي طعمة، فقال قوم طعمة: انطلقوا إلى رسول الله ﷺ وليجادل عن صاحبنا فإنه بريء، فاتوه فكلّموه في ذلك، فهم أن يفعل، وأن يعاقب اليهودي، فنزلت هذه الآيات كلها. رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١). والثاني: أن رجلاً من اليهود، استودع طعمة بن أبيرق درعاً، فخانها، فلما خاف اطلاعهم عليها، ألقاها في دار أبي مُليل الأنصاري، فجادل قوم طعمة عنه، وأتوا النبي ﷺ فسألوه أن يبرئه، ويكذب اليهودي، فنزلت الآيات، هذا قول السدي، ومقاتل. والثالث: أن مشربة رفاعة بن زيد نُقبت، وأخذ طعامه وسلاحه، فاتهم به بنو أبيرق، وكانوا ثلاثة؛ بشير، ومبشر، وبشر، فذهب قتادة بن النعمان إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أهل بيت منّا فيهم جفاء نقبوا مشربة^(٢) لعمي رفاعة بن زيد، وأخذوا سلاحه، وطعامه، فقال: انظر في ذلك، فذهب قوم من قوم بني أبيرق إلى النبي ﷺ، فقالوا: إن قتادة بن النعمان، وعمه، عمدوا إلى أهل بيت منّا يرمونهم بالسرقه وهم أهل بيت إسلام وصلاح، فقال النبي لقتادة: «رميتهم بالسرقه على غير بيئته!» فنزلت هذه الآيات. قاله قتادة بن النعمان^(٣). والكتاب: القرآن. والحق: الحكم بالعدل. ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ الَّذِينَ﴾: أي لتقضي بينهم. وفي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا اللَّهُ﴾ قولان: أحدهما: أنه الذي علّمه، والذي علّمه أن لا يقبل دعوى أحد على أحد إلا ببرهان. والثاني: أنه ما يؤدي إليه اجتهاده، ذكره الماوردي^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ قال الزجاج: لا تكن مخاصماً، ولا دافعاً عن خائن. واختلّفوا هل خصم عنه أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه قام خطيباً فعذره. رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه همّ بذلك ولم يفعله، قاله سعيد بن جبير، وفتادة. قال القاضي أبو يعلى: وهذه الآية تدلّ على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن غيره في إثبات حق أو نفيه، وهو غير عالم بحقيقة أمره، لأن الله تعالى عاتب نبيه على مثل ذلك.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾ في الذي أمر بالاستغفار منه قولان: أحدهما: أنه القيام بعذره. والثاني: أنه العزم على ذلك.

﴿وَلَا تَحِدُوا عَنِ الَّذِينَ يَحْتَمِلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ حَوَآنًا أَيْمًا﴾ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضون من القول وكان الله يما يعملون محيطاً

(١) إسناده ضعيف جداً.

(٢) الجفاء: غلظ الطبع، والمشرية، بفتح الميم وسكون الشين وفتح الراء أو ضمها: وهي الفرفة، أو العلية، أو الصفة بين الفرفة، والمشارب: العلالى.

(٣) هو قطعة من حديث طويل رواه الترمذي: ٩٣/٤، وابن جرير: ١٨١/٩، والحاكم: ٣٨٥/٤، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. قلت: وليس كما قال، ففي إسناده عمر بن قتادة بن النعمان الظفري الأنصاري المدني لم يخرج له مسلم، وهو مجهول، لم يوثقه غير ابن حبان، انظر «تهذيب التهذيب» ٤٨٩/٧.

(٤) قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» ٥٥٠/١: وقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ الَّذِينَ يَأْتِيكَ اللَّهُ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، وبما ثبت في «الصحاحين» عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضي بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليحلمها أو ليبرها» وروى الإمام أحمد عن أم سلمة، قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في موارث بينهما قد دزست، ليس عندهما بيئته، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها إسظاماً في حق يوم القيامة» فبكى الرجلان، وقال كل منهما: حقي لأخي، فقال رسول الله ﷺ: «أما إذا قلتما فاذعبا فالتسما ثم توخيا الحق بينكما، ثم استهما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه» وقد رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد به وزاد: «إني إنما أقضي بينكما برأي فيما لم ينزل علي فيه». قلت: الحديث الأول في البخاري ٧٧/٥، ٢٩٩/١٢، ١٣٩/١٣، وفي مسلم: ١٣٣٧/٣ وقد استوفى الحافظ رحمه الله في «الفتح» ١٥١/١٣ الكلام على هذا الحديث فانظره. والحديث الثاني رواه أحمد في «المسند» ٦/٣٢٠ وإسناده حسن، ورواه أبو داود: ٤١٠/٣ مختصراً. والإسظام: بكسر الهمزة وسكون السين: الحديدية التي تحرك بها النار وتسر. وفي «تفسير ابن كثير»: «انتظاماً» وهو تحريف.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجِدِلْ عَنَ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يخونون أنفسهم، فيجعلونها خائنة بارتكاب الخيانة. قال عكرمة: والمراد بهم: طُعْمَة بن أبيرق، وقومه الذين جادلوا عنه. وفي حديث العوفي عن ابن عباس قال: انطلق نفرٌ من عشيرة طُعْمَة ليلاً إلى رسول الله ﷺ فقال: إن صاحبنا بريء. و«الاستخفاء»: الاستتار، والمعنى: يستترون من الناس لئلاً يظلموا على خيانتهم وكذبهم، ولا يستترون من الله، وهو معهم بالعلم. وكلُّ ما فُكِّر فيه، أو خيض فيه بليل، فقد بَيَّت. وجمهور العلماء على أن المشار إليه بالاستخفاء، والتبصيت، قوم طُعْمَة. والذي بَيَّتوا: احتيالهم في براءة صاحبهم بالكذب. وقال الزجاج: هو السارق نفسه، والذي بَيَّت أنه قال: أرمي اليهودي بأنه سارق الدرع، وأحلف أي لم أسرقها، فتقبل يميني، ولا تقبل يمين اليهودي.

﴿هَاتِنْتَهُ هَتُولَاءَ جَدَلْتَهُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّدُ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾^(١)
قوله تعالى: ﴿هَاتِنْتَهُ هَتُولَاءَ جَدَلْتَهُ عَنْهُمْ﴾ قال الزجاج: «ها» للتبصيت، وأعيدت في أوله. والمعنى: ما أنتم الذين جادلتم. و«المجادلة، والجدال»: شدة المخاصمة، و«الجدل»: شدة القتل. والكلام يعود إلى مَنْ احتج عن السارق. فأما قوله: «عنهم» فإنه عائد إلى السارق. و«عليهم» بمعنى «لهم». والوكيل: القائم بأمر مَنْ وكَّله، فكانه قال: من الذي يتوكل لهم منكم في خصومة ربهم!؟

﴿وَمَنْ يَمَلِّ سَوْءًا أَوْ يظَلِّمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهُ عَفْوَكَ رَحِيمًا﴾^(٢)
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلِّ سَوْءًا أَوْ يظَلِّمْ نَفْسَهُ﴾ اختلفوا في نزولها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت خطاباً للسارق، وعرضاً للتوبة عليه. رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد، ومقاتل. والثاني: أنها للنبي جادلوا عنه من قومه، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنه عنى بها كل مسيء ومُذنب. ذكره أبو سليمان الدمشقي. وإطلاقها لا يمنع أن تكون نزلت على سبب. وفي هذا السوء ثلاثة أقوال: أحدها: أنه السرقة. والثاني: الشرك. والثالث: أنه كل ما يَأْت به. وفي هذا الظلم قولان: أحدهما: أنه رمي البريء بالثُمة. والثاني: ما دون الشرك^(٣).

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٤)
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ أي: ومن يعمل ذنباً ﴿فإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ يقول: ما يعود وباله عليه. قاله مقاتل، وهذه في طُعْمَة أيضاً.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾^(٥)
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ جمهور العلماء على أنها نزلت متعلقة بقصة طُعْمَة بن أبيرق. وقد روى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول إذ رمى عائشة ؓ بالإفك. وفي قوله: ﴿خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ أربعة أقوال: أحدها: أن «الخطيئة» يمين السارق الكاذبة، و«الإثم»: سرقة الدرع، ورميه اليهودي، قاله ابن السائب. والثاني: أن «الخطيئة» ما يتعلق به من الذنب، و«الإثم»: قذفه البريء، قاله مقاتل. والثالث: أن «الخطيئة» قد تقع عن عمد، وقد تقع عن خطأ، و«الإثم»: يختص العمد. قاله ابن جرير، وأبو سليمان الدمشقي. وذكر الزجاج أن الخطيئة نحو قتل الخطأ الذي يرتفع فيه الإثم. والرابع: أنه لما سَمَى الله ﷻ بعض المعاصي خطيئة، وبعضها إثماً، أعلم أن من كسب ما يقع عليه أحد هذين الاسمين، ثم قذف به بريئاً، فقد احتمل بهتاناً، ذكره الزجاج أيضاً. فأما قوله: ﴿ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا﴾ أي: يقذف بما جناه بريئاً منه. فإن قيل: الخطيئة والإثم اثنان، فكيف قال: «به» فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أنه أراد: ثم يرم بهما، فاكتمى بإعادة الذكر على الإثم من إعادته على الخطيئة، كقوله: ﴿انْفُتَّحُوا لَهَا﴾ فخصص التجارة، والمعنى للتجارة واللُّهُو. والثاني: أن الهاء تعود على الكسب، فلما دلَّ بـ «يكسب» على الكسب، كنى عنه. والثالث:

(١) روى الإمام أحمد في «المسند» ١/١٧٤ عن علي ؓ قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعتني الله بما شاء أن ينفعني منه، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يلنب ذنباً ثم يتوضأ فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله تعالى لذلك الذنب إلا غفر له، وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَنْ يَمَلِّ سَوْءًا أَوْ يظَلِّمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهُ عَفْوَكَ رَحِيمًا﴾ و«الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا ذَنْبًا أَوْ ظَلَمُوا نَجَسًا أَوْ ظَلَمُوا... أَنفُسَهُمْ» الآية ذكّر عمران: ١١٣» ورواه الترمذي: ٢/٢٥٧، وابن حبان في «صحيحه» وهو حديث حسن. وقد ذكر في «التهديب» ١/٢٦٨ تحسينه عن ابن عدي.

أن الهاء راجعة على معنى الخطيئة والإثم، كأنه قال: ومن يكسب ذنباً، ثم يرم به. ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري. والرابع: أن الهاء تعود على الإثم خاصة، قاله ابن جرير الطبري. وفي المراد بالبريء الذي قذفه هذا السارق قولان: أحدهما: أنه كان يهودياً، قاله ابن عباس، وعكرمة، وابن سيرين، وقتادة، وابن زيد، وسماء عكرمة، وقتادة، زيد بن السَّمِير^(١). والثاني: أنه كان مسلماً، روي عن ابن عباس، وقتادة بن النعمان، والسدي، ومقاتل. واختلفوا في ذلك المسلم، فقال الضحاك عن ابن عباس: هو عائشة لما قذفها ابن أبي، وقال قتادة بن النعمان: هو ليبيد بن سهل. وقال السدي، ومقاتل: هو أبو مُليل الأنصاري. فأما البهتان: فهو الكذب الذي يُحَيَّر من عَظْمه، يقال: بهت الرجل: إذا تحيَّر. قال ابن السائب: فقد احتمل بهتاناً برميه البريء، وإثماً مبيناً يمينه الكاذبة.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُدُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها متعلقة بقصة طعمة وقومه، حيث لبسوا على النبي ﷺ أمر صاحبهم، هذا قول ابن عباس من طريق ابن السائب. والثاني: وقد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: جنتك نبائعك على أن لا نحشُر ولا نُعشُر، وعلى أن تمتعنا بالعرى سنة، فلم يجيبهم، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس في رواية الضحاك. وفي المراد بفضل الله ورحمته قولان: أحدهما: النبوة والعصمة. والثاني: الإسلام والقرآن، روي عن ابن عباس. قال مقاتل: لولا فضل الله عليك حيث بين لك أمر طعمة، وحولك بالقرآن عن تصديق الخائن؛ لهمت طائفة منهم أن يُضِلُّوكَ. قال الفراء: والمعنى: لقد همت. فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ﴾ وقد همت بإضلاله؟ فالجواب: أنه لولا فضل الله عليك ورحمته، لظهر تأثير ما هموا به. فأما الطائفة، فعلي رواية ابن السائب عن ابن عباس: قوم طعمة، وعلى رواية الضحاك: وقد ثقيف. وفي الإضلال قولان: أحدهما: التخطئة في الحكم. والثاني: الاستزلال عن الحق. قال الزجاج: وما يضلُّون إلا أنفسهم، لأنهم يعملون عمل الضالين، فيرجع الضلال إليهم. فأما «الكتاب»، فهو القرآن. وفي «الحكمة» ثلاثة أقوال: أحدها: القضاء بالوحي، قاله ابن عباس. والثاني: الحلال والحرام، قاله مقاتل. والثالث: بيان ما في الكتاب، وإلهام الصواب، وإلقاء صحة الجواب في الرُوع، قاله أبو سليمان الدمشقي، وفي قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الشرع، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أخبار الأولين والآخرين، قاله أبو سليمان. والثالث: الكتاب والحكمة، ذكره الماوردي، وفي قوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المنة بالإيمان. والثاني: المنة بالنبوة، هذان عن ابن عباس. والثالث: أنه عام في جميع الفضل الذي خصه الله به، قاله أبو سليمان.

﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ قال ابن عباس: هم قوم طعمة، وقال مقاتل: وكلهم يهود تناجوا في أمر طعمة، وقال مجاهد: هو عام في نجوى جميع الناس. قال الزجاج: ومعنى النجوى: ما تنفرد به الجماعة أو الاثنان، سراً كان أو ظاهراً. ومعنى «نجوت الشيء» في اللغة: خلصته وألقيته، يقال: نجوت الجلد: إذا ألقيته عن البعير وغيره. قال الشاعر:

فقلتُ انجُوا عنها نجا الجلد إته

سِيرُضِيكَمَا مِنْهَا سَنَامٌ وَغَارِيَةٌ^(٢)

(١) في «الطبري» ١٨٧/٩، و«ابن كثير» ٥٥٣/١ زيد بن السمين.

(٢) البيت لأبي الفجر الكلابي كما في «الخرزانة» ٢٢٧/٢ و«العيني» ٣٧٣/٣، ونسب في «الخرزانة» أيضاً إلى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وهو في «المجمل» و«اللسان» مادة نجا، و«إصلاح المنطق» ٩٤ و«المخصص» ١٧٥/٧، ٨١/١٥، ١٤٣ بدون نسبة. وقال في «اللسان»: قال الفراء: أضاف النجا إلى الجلد [وهما مترادفان] لأن العرب تضيف الشيء إلى نفسه إذا اختلف اللفظان، كقوله تعالى: حق اليقين، ولدار الآخرة، والجلد نجا مقصور أيضاً، وقال ابن بري: ومثله ليزيد بن الحكم:

وقد نجوت فلاناً: إذا استنكته، قال الشاعر:

نَجُوتُ مُجَالِدًا فَوَجِدْتُ مِنْهُ
وأصله كله من النجوة، وهو ما ارتفع من الأرض، قال الشاعر يصف سيلاً:

فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ كَمَنْ بَعَقَوْتِهِ
والمُستَكْنُ كَمَنْ يَمْشِي بِقُرْوَاهِ (٢)

والمراد بنجواهم: ما يدبرونه بينهم من الكلام. فأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، فيجوز أن يكون بمعنى: إلا في نجوى من أمر بصدقة، ويجوز أن يكون استثناء ليس من الأول، فيكون بمعنى: لكن من أمر بصدقة، ففي نجواهم خير (٣). وأما قوله: ﴿أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ فالمعنى: حث عليها. وأما المعروف، ففيه قولان: أحدهما: أنه الفرض، روي عن ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنه عام في جميع أفعال البر، وهو اختيار القاضي أبي يعلى، وأبي سليمان الدمشقي.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ لُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَصَلَّىٰ بِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١٥)
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما نزل القرآن بتكذيب طعمة، وبيان ظلمه، وخاف على نفسه من القطع والفضيحة، هرب إلى مكة، فلحق بأهل الشرك، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، والسدي. وقال مقاتل: لما قدم مكة نزل على الحجاج بن علاط السلمي فأحسن نزله، فبلغه أن في بيته ذهباً، فخرج في الليل فنقب حائط البيت، فعلموا به فأحاطوا بالبيت، فلما راواه، أرادوا أن يرجموه، فاستحيا الحجاج، لأنه ضيفه، فتركه، فخرج، فلحق بحرة بني سليم يعبد صنمهم حتى مات على الشرك، فنزل فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقال غيره: بل خرج مع تجار فسرق منهم شيئاً، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، وقيل: ركب سفينة، فسرق فيها مالاً، فعُلم به، فألقي في البحر. والقول الثاني: أن قوماً قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا، ثم ارتدوا، فنزلت فيهم هذه الآية، روي عن ابن عباس. ومعنى الآية: ومن يخالف الرسول في التوحيد والحدود، ومن بعد ما تبين له التوحيد والحكم، ويتبع غير دين المسلمين، نوله ما تولى، أي: نكله

= تفاوض من أطوي طوى الكشح دونه

ومن دون من صافيته أنت منسطوي

قال: ويقوي قول الفراء بعد البيت قولهم: عرق النسا، وحبل الوريد، وثابت قطن، وسعيد كرز. وفي «الخرائفة»: وقال ابن السرياني في شرح أبيات «إصلاح المنطق»: يريد: قشر عنها لحمها وشحمها، كما يقشر الجلد فإنها سمينة. وغاربها: ما بين السنام والعتق. قال صاحب «الخرائفة»: ويؤخذ من هذا التفسير أن «النجا» هنا اسم مصدر بمعنى النجو، على أنه مفعول مطلق، وليس اسماً للجلد فلا يكون كما قاله الفراء فأمل.

(١) البيت في «الحيوان» ٢٥٢/١ للحكم بن عبد الله الأسدي، وورد بدون نسبة في «معجم مقاييس اللغة» ٣٩٨/٥، و«المخصص» ٢٠٩/١١، و«اللسان» مادة: جلد، ونكه، ونجا وفي «الحيوان» و«اللسان»: «قريب عهد»، وفي «المخصص» و«معجم مقاييس اللغة»: «حديث عهد». قلت: وقد جاء في النسخة الخطية لكتاب «الحيوان» التي رمز لها محقق الكتاب بـ «ل» و«نجوت» بالجيم، على الصواب كما هو في سائر المراجع، ولكن المحقق حذفها، ووضع مكانها «نحوت» بالحاء، ثم أثبت ما في نسخة «ل» بالهاش، وقال: هو تحريف.

(٢) البيت لعبيد بن الأبرص في «ديوانه» ٥٣، و«الأزمنة والأمكنة» ٩٣/٢ و«الأمالي» ١٧٧/١، و«مختارات ابن السجري» ١٠١، و«اللسان» ٣٠٨/١٥ ويروي أيضاً لأوس بن حجر في «ديوانه» ١٦، و«الشعر والشعراء» ١١٠/١، و«الحيوان» ١٣٢/٦، و«الأغانى» ٧١/١١، وفي الديوان وبعض المراجع: «فمن ينجوته كمن بمجفله»، والمجفل: مستقر الماء. النجوة: ما ارتفع من الأرض. والعقوة: الساحة، وما حول الدار، والمحلة. والمسكن: الذي استكن في بيته، والكن: البيت. والقرواح: الأرض البارزة للشمس لا يسترها شيء. يريد أن المطر عم المرتفعات والمنخفضات، وأدرك الناس اللين في بيوتهم وخارجها.

(٣) في «الطبري» ٢٠٢/٩: وقال بعض نحوي الكوفة: قد تكون «من» في موضع خفض ونصب، أما الخفض فعلى قولك: لا خير في كثير من نجواهم إلا في من أمر بصدقة، فتكون «النجوى» على هذا التأويل هم الرجال المناجون، كما قال جل ثناؤه ﴿مَنْ يَكْرِهُ يَنْجُوهُ فَلَهُ مَا رَآهُمُ﴾ [المجادلة: ٧] وكما قال ﴿كُلُّهُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء: ٤٧] وأما نصب فعلى أن تجعل «النجوى» فعلاً فيكون نصباً، لأنه حينئذ يكون استثناء منقطعاً، لأن «من» خلاف «النجوى» فيكون ذلك نظير قول الشاعر:

عَيْتُ جِوَاباً وَمَا بِالرَّيْبِ مِنْ أَحَدٍ
وَالنَّوْيُ كَالْحَوْضِ بِالمُظْلَمِ لِمَا جَلَدِ

وقسفت فيها أصيلاً ما أتلتها
إلا الأوازي لا يأتها أبى منها

وقد يحتمل «من» على هذا التأويل أن يكون رقماً كما قال الشاعر:

إلا اليمانيير وإلا المعيس

وبلسدة ليس بها أنيس

قلت: وأراد بعض نحوي الكوفة: الفراء، وكلامه هذا في «معاني القرآن» ٢٨٧/١. مع بعض تغيير.

إلى ما اختار لنفسه، ونصله جهنم: ندخله إياها. قال ابن فارس: تقول صليت اللحم أصليه: إذا شويته، فإن أردت أنك أحرته، قلت: أصليته. وساءت مصيراً، أي: مرجعاً يُصار إليه^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها نزلت في حق طعمة بن أبيرق لما هرب من مكة، ومات على الشرك، وهذا قول الجمهور، منهم سعيد بن جبير. والثاني: أن شيخاً من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني مُتَهَمَك في الذنوب، إلا أنني لم أشرك بالله منذ عرفته، وإني لنادمٌ مستغفرٌ، فما حالي؟ فنزلت هذه الآية، روي عن ابن عباس. فأما تفسيرها، فقد تقدم.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتٍ مَبِيدًا﴾ ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوسًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا﴾ بمعنى: «ما» و«يدعون» بمعنى: يعبدون. والهاء في «دونه» ترجع إلى الله ﷻ. والقراءة المشهورة إناثاً. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأبو مجلز، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «إِلَّا وَثَاءً»، بفتح الواو، والثاء من غير ألف. وقرأ ابن عباس، وأبو رزين: «أُنثَاءً» برفع الهمزة والتون من غير ألف. وقرأ أبو العالية، ومعاذ الفارسي، وأبو نُهيك: «أُنثَاءً»، برفع الهمزة وبألف بعد الثاء. وقرأ أبو السوار العدوي، وأبو شيخ الهنائي: «أوثاناً»، بهمزة مفتوحة بعدها واو وبألف بعد الثاء. وقرأ أبو هريرة، والحسن، والجوني: «إلا أنثى»، على وزن «فعلى». وقرأ أيوب السخيتاني: «إِلَّا وَثَاءً»، برفع الواو والثاء من غير ألف. وقرأ موزق العجلي: «أُنثَاءً»، برفع الهمزة والثاء من غير ألف. قال الزجاج: فمن قال: إناثاً، فهو جمع أنثى وإناث، ومَنْ قال: أنثاء، فهو جمع إناث، ومن قال: «أُنثَاءً»، فهو جمع وثن، والأصل: وُثْنٌ، إلا أن الواو إذا انضمت جاز إبدالها همزة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ﴾ [المرسلات: ١١] الأصل: وقتت. وجائز أن يكون أُنثى أصلها: أنثى، فأتبع الضمّة الضمّة، وجائز أن يكون أنثى، مثل أسد وأسد. فأما المفسرون، فلهم في معنى الإناث أربعة أقوال: أحدها: إن الإناث بمعنى الأموات، قاله ابن عباس، والحسن في رواية، وقناة. قال الحسن: كل شيء لا روح فيه، كالحجر، والخشب، فهو إناث. قال الزجاج: والموات كلها يخبر عنها، كما يخبر عن المؤنث، تقول من ذلك: الأحجار تعجبني، والدراهم تنفعني. والثاني: أن الإناث: الأوثان، وهو قول عائشة، ومجاهد. والثالث: أن الإناث اللات والعزى ومناة، كلهن مؤنث، وهذا قول أبي مالك، وابن زيد، والسدي. وروى أبو رجاء عن الحسن قال: لم يكن حيٌّ من أحياء العرب إلا ولهم صنم يسمونه: أنثى بني فلان، فنزلت هذه الآية. قال الزجاج: والمعنى: ما يدعون إلا ما يُسمونه باسم الإناث. والرابع: أنها الملائكة كانوا يزعمون أنها بناتُ الله، قاله الضحّاك. وفي المراد بالشیطان ثلاثة أقوال: أحدها: شيطانٌ يكون في الصنم. قال ابن عباس: في كل صنم شيطان يترأى للسدنة فيكلمهم. وقال أبي بن كعب: مع كل صنم جنيّة. والثاني: أنه إبليس. وعبادته: طاعته فيما

(١) قال ابن كثير ٥٥٤/١ في تفسير الآية: قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمدٍ منه بعد ما ظهر له الحق، وتبين له واتضح له. وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون مخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصية في اجتماعهم من الخطأ، تشريفاً لهم، وتعظيماً لنبئهم، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك، قد ذكرنا منها طرفاً صالحاً في كتاب «أحاديث الأهرول». ومن العلماء من ادعى تواتر معناها. والذي عول عليه الشافعي في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفة هذه الآية الكريمة، بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك، واستبعد الدلالة منها على ذلك. ولهذا ترددت تعالى على ذلك بقوله: ﴿قُلْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلْسِنَاتٌ لَبِذَاتِ الْكُفْرِيِّ سَتَتَّبِعُهُمْ فِي بَاطِنٍ إِنَّ لَهُمْ صِغَارًا لِلْكِبْرِيِّ﴾ [الأنعام: ١١٠] وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لَنْ نُجِزِيَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا إِلَّا النَّارَ وَنَجَّيْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ النَّارِ مَنْ يَشَاءُ لِمَنْ هُوَ مُقَرَّبٌ وَقَدْ خَلَّيْنَا مِنْ قَبْلُ لَكَ آيَاتٍ لَعَلَّكَ تَلْتَمِذٌ لِمَنِ الْأَنْبِيَاءُ مُطِيعُونَ وَمَا كُنَّا بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١٠] بن دؤبٍ لله فأعذدكم إن يربط لكم الحميم ﴿الصافات: ٢٢، ٢٣﴾. وقال: ﴿وَلَا تُجِزِي النَّارَ كَقَطْرَةٍ مِنْ سُحُوبٍ وَتَمَّ يَجِدُهَا وَعَبَّاءَ مُتَمَرِّقًا﴾ [الكهف: ٥٣]. قلت: وورد أكثر من حديث يصرح بأن الله عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة، انظر «كشف الخفاء» للمجلوني ٣٥٠/٢.

سؤل لهم، هذا قول مقاتل، والزجاج. والثالث: أنه أصنامهم التي عبدوا، ذكره الماوردي. فأما «المريد»، فقال الزجاج: «المريد»: المارد، وهو الخارج عن الطاعة، ومعناه: أنه قد مرد في الشر، يقال: مرد الرجل يمرُد مُروداً: إذا عتا، وخرج عن الطاعة. وتأويل المرود: أن يبلغ الغاية التي يخرج بها من جملة ما عليه ذلك الصنف، وأصله في اللغة: املاس الشيء، ومنه قيل للإنسان: أمرد: إذا لم يكن في وجهه شعر، وكذلك يقال: شجرة مرداء: إذا تناثر ورقها، وصخرة مرداء: إذا كانت ملساء. وفي قوله: ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أنه ابتداء دعاء عليه باللعن، وهو قول من قال: هو الأوثان. والثاني: أنه إخبار عن لعن متقدم، وهو قول من قال: هو إبليس. قال ابن جرير: المعنى: قد لعنه الله. قال ابن عباس: معنى الكلام: حره الله، وأخرجه من الجنة. وقال - يعني إبليس -: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾. وقال ابن قتيبة: أي: حظاً افترضته لنفسي منهم، فأصلهم. وقال مقاتل: النصيب المفروض: أن من كل ألف إنسان واحد في الجنة، وسائرهم في النار^(١). قال الزجاج: «الفرض» في اللغة: القطع، و«الفُرْضة»: الثلثة تكون في النهر. و«الفرض» في القوس: الحزن الذي يشد فيه الوتر، والفرض فيما أزمه الله العباد: جعله حتماً عليهم قاطعاً.

﴿وَلَا صَلَواتَهُمْ وَلَا مَنِيَّتَهُمْ وَلَا مَنِيَّتَهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ مَا ذَاكَ الْكُفْرُ وَالْأَمْرُ بِهِمْ فَلْيَعْبِرْكَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا مُّبِينًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا صَلَواتَهُمْ﴾ قال ابن عباس: عن سبيل الهدى، وقال غيره: ليس له من الضلال سوى الدعاء إليه. وفي قوله: ﴿وَلَا مَنِيَّتَهُمْ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنه الكذب الذي يخبرهم به، قال ابن عباس: يقول لهم: لا جنة، ولا نار، ولا بعث. والثاني: أنه التسوية بالتوبة، روي عن ابن عباس. والثالث: أنه إيهامهم أنهم سينالون من الآخرة حظاً، قاله الزجاج. والرابع: أنه تزيين الأمانى لهم، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَبْتَئِكُنَّ مَا ذَاكَ الْكُفْرُ﴾ قال قتادة، وعكرمة، والسدي: هو شق أذن البحيرة. قال الزجاج: ومعنى «يبتكُن» يُشَقِّقُن، يقال: بكت الشيء أبكته بتكاً: إذا قطعت، وبتكه وبتك، مثل: قطعه وقطع. وهذا في البحيرة كانت الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن، وكان الخامس ذكراً، شقوا أذن الناقة، وامتنعوا من الانتفاع بها، ولم تُطرذ عن ماء، ولا مرعى، وإذا لقيها المعبي، لم يركبها. سؤل لهم إبليس أن هذا قرينة إلى الله تعالى. وفي المراد بتغيير خلق الله خمسة أقوال: أحدها: أنه تغيير دين الله، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن في رواية، وسعيد بن المسيب، وابن جبير، والنخعي، والضحاك، والسدي، وابن زيد، ومقاتل. وقيل: معنى تغيير الدين: تحليل الحرام، وتحريم الحلال. والثاني: أنه تغيير الخلق بالخصاء، رواه عكرمة عن ابن عباس، وهو مروى عن أنس بن مالك. وعن مجاهد، وقتادة، وعكرمة، كالقولين. والثالث: أنه التغيير بالوشم، وهو قول ابن مسعود^(٢)، والحسن في رواية. والرابع: أنه تغيير أمر الله، رواه أبو شيبة عن عطاء. والخامس: أنه عبادة الشمس والقمر والحجارة، وتحريم ما حرّموا من الأنعام، وإنما خلق ذلك للانتفاع به، قاله الزجاج^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ في المراد بالولي قولان: أحدهما: أنه بمعنى الرب،

(١) وفي «القرطبي» ٢٨٨/٥ قلت: وهذا صحيح معنى، يفضده قوله تعالى لآدم يوم القيامة: «ابعت بعت النار، فيقول: وما بعت النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». أخرجه مسلم. وبعث النار: هو نصيب الشيطان.

(٢) أحمد في «المسنند»، والبخاري ٤٨٣/٨، ومسلم ١٦٧٩/٣، ولفظه: «لعن الله الواشحات والمستوشحات، والنامصات والمنتمصات، والمتفلجات للحسن، والمغيرات خلق الله... قلت: الواشحة هي التي تشم، والمستوشمة: هي التي تطلب الروشم، والوشم: أن يفرز في العضو إبرة أو نحوها حتى يسيل الدم، ثم يحشى بكحل أو زور فيخضر. والمنتمصة والنامصة: التي تنتف الشعر من وجهها. وقيل: هي التي تزيل شعر الحاجبين بالمناقش حتى ترقيه وترفقه وتسويه. والمتفلجة: التي تصنع الفلج بأسنانها إذا كانت متلاصقة، وذلك بأن تحك ما بينهما بالمرء حتى يتسع ما بين أسنانها.

(٣) قال أبو جعفر الطبري ٢٢٢/٩: وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك قول من قال: معناه: ﴿وَلَا مَنِيَّتَهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ مَنَّا اللَّهُ﴾ قال: دين الله، وذلك لدلالة الآية الأخرى على أن ذلك معناه، وهي قوله: ﴿وَطَرَفَ اللَّهُ إِلَيَّ نَسْرَ النَّاسِ مِنِّي لَا يَبْدِلُ لِيَنَّ اللَّهُ إِلَيْكَ أَيُّدِي الْقَيْمِيَّةِ﴾ [الروم: ٣٠] وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك فعل كل ما نهى الله عنه، من خصاء ما لا يجوز خصاؤه ووشم ما نهى عن وشمه ووشره وغير ذلك من المعاصي، ودخل فيه ترك كل ما أمر الله به، لأن الشيطان لا شك أنه يدعو إلى جميع معاصي الله، وينهى عن جميع طاعته، فذلك معنى أمره نصيبه المفروض من عباد الله، بتغيير ما خلق الله من دينه.

قاله مقاتل. والثاني: من الموالاة، قاله أبو سليمان الدمشقي. فإن قال قائل: من أين لإبليس العلم بالعواقب حتى قال: ولا ضللتهم. وقال في (الأعراف): ﴿وَلَا يَجِدُ أَكْرَهَهُمْ شَكْرِيكَ﴾ (١٧٧). وقال في (بني إسرائيل): ﴿لَاخْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٧٦). فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه ظن ذلك، فتحقق ظنه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ لَيْلِيُّ ظُلْمَهُ﴾ (سبا: ٢٠) قاله الحسن، وابن زيد. وفي سبب ذلك الظن قولان: أحدهما: أنه لما قال الله تعالى له: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَمَعَكَ مِنْهُمْ أَبْجِيمًا﴾ (١٨٥) [ص: ١٨٥] علم أنه ينال ما يريد. والثاني: أنه لما استزل آدم، قال: ذرية هذا أضعف منه. والثاني: أن المعنى: لأحرصن ولأجتهدن في ذلك، لا أنه كان يعلم الغيب، قاله ابن الأنباري. والثالث: أن من الجائر أن يكون علم من جهة الملائكة بخبر من الله تعالى أن أكثر الخلق لا يشكرون، ذكره الماوردي. فإن قيل: فلم اقتصر على بعضهم فقال: ﴿نُوبِيًا مَفْرُوسًا﴾ وقال: ﴿وَلَا يَجِدُ أَكْرَهَهُمْ شَكْرِيكَ﴾ [الأعراف: ١٧٧] وقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه يجوز أن يكون علم مآل الخلق من جهة الملائكة، كما بينا. والثاني: أنه لما لم ينل من آدم كل ما يريد، طمع في بعض أولاده، وأيس من بعض. والثالث: أنه لما عين الجنة والنار، علم أنهما خلقتا لمن يسكنهما، فأشار بالنصيب المفروض إلى ساكني النار.

قوله تعالى: ﴿يَبْدُهُمْ﴾ يعني: الشيطان يعد أولياءه. وفيما يقدم به قولان: أحدهما: أنه لا بعث لهم، قاله مقاتل. والثاني: النصرة لهم، ذكره أبو سليمان الدمشقي. وفيما يُنتهيم قولان: أحدهما: الغرور والأمانى، مثل أن يقول: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا مرادك. والثاني: الظفر بأولياء الله.

﴿يَبْدُهُمْ وَيُنَبِّئُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا﴾ (١٧٥) أَوْلَيْتُمْ مَاؤَلْبَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيمًا ﴿١٧٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجَاهِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا﴾ أي: باطلاً يغرهم به. فاما المحيص. فقال الزجاج: هو المعدل والملجأ، يقال: حصت عن الرجل أحيص، ورووا: حصت أحيص بالجم، والضاد، بمعنى: حصت، ولا يجوز ذلك في القرآن، وإن كان المعنى واحداً، لأن القراءة سنة، والذي في القرآن أفصح مما يجوز، ويقال: حصت أحوص حوصاً وحياسة^(١): إذا خطت، قال الأصمعي: يقال: حص عين صقر، أي: خط عينه، والحوص في العين: ضيق مؤخرها، ويقال: وقع في حيص بيص. وحاص باص: إذا وقع فيما لا يقدر على التخلص منه^(٢).

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمْلِكُ سَوْماً يَجْزِي بِهِ وَلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيحًا﴾ (١٧٧) قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن أهل الأديان اختصموا، فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال المسلمون: كتابنا نسخ كل كتاب، ونبينا خاتم الأنبياء، فنزلت هذه الآية، ثم خير بين الأديان بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ رواه العوفي عن ابن عباس^(٣) وإلى هذا المعنى ذهب مسروق، وأبو صالح، وقتادة، والسدي. والثاني: أن العرب قالت: لا تُبعث، ولا نعذب، ولا نحاسب، فنزلت هذه الآية، هذا قول مجاهد^(٤). والثالث: أن اليهود والنصارى قالوا: لا يدخل الجنة غيرنا، وقالت قريش: لا تُبعث، فنزلت هذه الآية، هذا قول عكرمة. قال الزجاج: اسم «ليس» مضمرة، والمعنى: ليس ثواب الله ﷻ بأمانيتكم، وقد جرى ما يدل على الثواب، وهو قوله: ﴿سَنَجَاهِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. وفي المشار إليه بقوله «أمانيتكم» قولان: أحدهما: أنهم المسلمون على قول الأكثرين. والثاني: المشركون على قول مجاهد.

(١) في الأصول التي بين أيدينا «حياصاً» والتصويب من «اللسان».

(٢) قال ابن عبيد شاعر «المفصل» ١١٤/٤: العرب تقول: «وقع الناس في حيص بيص» إذا وقعوا في فتنة واختلاط من أمرهم، لا مخرج لهم منه، وهما اسمان زكياً اسماً واحداً، ونبيا بناء «خمسة عشر» و«خيمص» مأخوذ من: حاص يحيص: إذا فر، يقال: ما عته محيص، أي: مهرب. و«بيص» مأخوذ من قولهم: باص بيوص: أي: فات سبق، لأنه إذا وقع الاختلاط والفتنة، فمنهم هارب، ومنهم فانت، ولذلك فرهما - أي الزمخشري - بفتنة تموج بأهلها متأخرين ومتقدمين» فالحيص: التأخر والهرب، والبوص: التقدم والسبق، وكان ينبغي أن يقال: حيص بوص، غير أنهم أتبعوا الثاني الأول.

(٣) رواه ابن جرير الطبري: ٢٣٠/٩.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وإسناده صحيح، ورجع هذا القول الطبري ٢٣٢/٩.

فأما أمانى المسلمين، فما نقل من قولهم كتابنا ناسح للكتب، ونبينا خاتم الأنبياء، وأمانى المشركين قولهم: لا نبعث، وأمانى أهل الكتاب قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وإن النار لا تمسنا إلا أياماً معدودة، وإن كتابنا خيرُ الكتب، ونبينا خير الأنبياء، فأخبر الله ﷻ أن دخول الجنة والجزاء، بالأعمال لا بالأمانى. وفي المراد «بالسوء» قولان: أحدهما: أنه المعاصي، ومنه حديث أبي بكر الصديق أنه قال: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية؟ ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجْزَى بِهِ﴾ فإذا عملنا سوءاً جزينا به، فقال: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألسنت تمرض؟ ألسنت تحزن؟ ألسنت تصيبك اللأواء؟»^(١) فذلك ما تُجْزَوْنَ به^(٢). والثاني: أنه الشرك، قاله ابن عباس، ويحيى بن أبي كثير. وفي هذا الجزاء قولان: أحدهما: أنه عام في كل من عمل سوءاً فإنه يجازى به، وهو معنى قول أبي بن كعب، وعائشة، واختاره ابن جرير، واستدل عليه بحديث أبي بكر الذي قدمناه. والثاني: أنه خاص في الكفار يجازون بكل ما فعلوا، فأما المؤمن فلا يجازى بكل ما جنى، قاله الحسن البصري. وقال ابن زيد: وعد الله المؤمنين أن يكفر عنهم سيئاتهم، ولم يعد المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُ لَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرِيّاً﴾ قال أبو سليمان: لا يجد من أراد الله أن يجزيه بشيء من عمله ولياً، وهو القريب، ولا ناصرأ يمنعه من عذاب الله وجزائه.

﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الْفَعْلِيَّاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الْفَعْلِيَّاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قال مسروق: لما نزلت ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكُتُبِ﴾ قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء، فنزلت ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ... الْفَعْلِيَّاتِ﴾ الآية، وهذه تدل على ارتباط الإيمان بالعمل الصالح، فلا يقبل أحدهما إلا بوجود الآخر، وقد سبق ذكر «النكير».

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ قال ابن عباس: خير الله بين الأديان بهذه الآية. «وأسلم» بمعنى: أخلص. وفي «الوجه» قولان: أحدهما: أنه الدين. والثاني: العمل. وفي الإحسان قولان: أحدهما: أنه التوحيد، قاله ابن عباس. والثاني: القيام بما فرض الله، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي اتباع ملة إبراهيم قولان: أحدهما: اتباعه على التوحيد والطاعة. والثاني: اتباع شريعته، اختاره القاضي أبو يعلى. فأما الخليل، فقال ابن عباس: الخليل: الصفي، وقال غيره: المصافي، وقال الزجاج: هو المحب الذي ليس في محبته خلل. قال: وقيل: الخليل: الفقير، فجازئ أن يكون إبراهيم سُمِّيَ خليل الله بأنه أحبه محبةً كاملةً، وجازئ أن يكون لأنه لم يجعل فقره وفاقته إلا إليه، و«الخلَّة»: الصداقة، لأن كل واحد يسدُّ خلل صاحبه، و«الخلَّة» بفتح الخاء: الحاجة، سُميت خلَّةً للاختلال الذي يلحق الإنسان فيما يحتاج إليه، وسمي الخَلُّ الذي يؤكل خللاً، لأنه اختلَّ منه طعم الحلاوة. وقال ابن الأنباري: الخليل: فعيل من الخَلَّة، والخلَّة: المودة. وقال بعض أهل اللغة: الخليل: المحب، والمحب الذي ليس في محبته نقص ولا خلل، والمعنى: أنه كان يحبُّ الله، ويحبه الله محبة لا نقص فيها، ولا خلل، ويقال: الخليل: الفقير، فالمعنى: اتخذه فقيراً إليه ينزل فقره وفاقته به، لا بغيره. وفي سبب اتخاذ الله له خليلاً ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اتخذه خليلاً لإطعامه الطعام، روى عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «يا جبريل لم اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟ قال: لإطعامه الطعام»^(٣). والثاني: أن الناس أصابتهم سئة فأقبلوا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام، وكانت له ميرة من صديق

(١) اللأواء: بفتح اللام والواو بينهما همزة ساكنة بالمد: المشقة والشدة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المستد» ١٨١/١، وابن جرير ٢٤٢/٩، والحاكم في «المستدرک» ٧٤/٣، والبيهقي في «السنن» ٣٧٣/٣ عن أبي بكر ﷺ، وفي إسناده انقطاع بين التابعي أبي بكر بن أبي زهير الثقفي رواه عن أبي بكر الصديق وبين أبي بكر، لكن للحديث شواهد تؤيد صحته، من ذلك ما رواه الإمام أحمد في «المستد» ١١٥/١٣، ومسلم في «صحيحه» ١٩٩٣/٤، والترمذي ٩٤/٤ عن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجْزَى بِهِ﴾ شقت على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تَبَلَّغَ، فشكروا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا»، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكها، أو الشوكة يشاكيها. وقوله: قاربوا: أي: اقتصدوا فلا تغلوا ولا تقصروا بل توسطوا. وسددوا: معناه: اقتصدوا السداد وهو الصواب. والنكبة: ما يصاب الإنسان من الحوادث.

(٣) نسبة السيوطي في «الدرر» ٢٠/٢٣٠ للبيهقي في «شعب الإيمان».

له بمصر في كل سنة، فبعث غلمانها بالإبل إلى صديقه، فلم يعطهم شيئاً، فقالوا: لو احتملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أننا قد جئنا بميرة، فملؤوا الغرائر^(١) رملًا، ثم أتوا إبراهيم ﷺ، فأعلموه، فاهتم إبراهيم لأجل الخلق. فنام وجاءت سارة وهي لا تعلم ما كان، ففتحت الغرائر، فإذا دقيق حواري، فأمرت الخيازين فخبزوا، وأطعموا الناس، فاستيقظ إبراهيم، فقال: من أين هذا الطعام؟ فقالت: من عند خليلك المصري، فقال: بل من عند خليلي الله ﷻ، فيومئذ اتخذ الله خليلاً، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٢). والثالث: أنه اتخذته خليلاً لكسره الأصنام، وجداله قومه، قاله مقاتل.

﴿وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء.

﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُبَيِّنُكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَسَّرَ الْكَلِمَةَ لِيَتَذَكَّرَ أَنتَ وَرَبُّوكَ أَنَّ تَنْكِحُوهُنَّ وَالشُّشُنَيْنِ مِنِ الْأَوْلَادِ وَأَنْ تَتَوَمَّؤُوا لِلتَّكْوِينِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أنهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال، فلما فرض الله الموارث في هذه السورة، شق ذلك عليهم، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية^(٣)، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقناة، وابن زيد. والثاني: أن ولي اليتيمة كان يتزوجها إذا كانت جميلة وهويها، فيأكل مالها، وإن كانت دميعة منعها الرجال حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس^(٤). والثالث: أنهم كانوا لا يوتون النساء صدقاتهن، ويتملك ذلك أولياؤهن، فلما نزل قوله: ﴿وَأَمَّا النِّسَاءُ صَدَّقْتِهِنَّ مِنْهُ﴾ سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية، هذا قول عائشة^(٥).

والرابع: أن رجلاً كانت له امرأة كبيرة، وله منها أولاد، فأراد طلاقها، فقالت: لا تفعل، واقسم ليس في كل شهر إن شئت أو أكثر، فقال: لئن كان هذا يصلح، فهو أحب إليّ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك، فقال: «قد سمع الله ما تقول، فإن شاء أجابك»، فنزلت هذه الآية، والتي بعدها، رواه سالم الأفطس عن سعيد بن جبير^(٦). والخامس: أن ولي اليتيمة كان إذا رغب في مالها وجمالها لم ييسط لها في صداقتها، فنزلت هذه الآية، ونهوا أن ينكحوهن، أو يبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق، ذكره القاضي أبو يعلى. وقوله: ﴿وَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يطلبون الفتوى، وهي تبيين المشكل من

(١) الغرائر: جمع غرارة بكسر النين: وهي الجوارق التي يوضع فيها التبن والقمح وغيرها.

(٢) إسناده ضعيف، وقد رواه ابن جرير الطبري في «التفسير» بدون سند، ونقله عنه ابن كثير، وقال: وفي صحة هذا ووقوعه نظر، وغايته أن يكون خيراً إسرائيلياً لا يصدق ولا يكذب.

(٣) ابن جرير: ٢٥٣/٩ وابن المنذر من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وعطاء هذا صدوق لكنه اختلط، فمن روى عنه قبل الاختلاط فحديثه صحيح، ومن روى عنه بعده فإنه يتوقف في حديثه ولا يحتج به. قال الحافظ في «التهذيب»: قلت: فيحصل لنا من مجموع كلامهم أن سفیان الثوري وشعبة وزهيراً، وزائدة وحمام بن زيد وأيوب عنه صحيح، ومن عداهم يتوقف فيه.

(٤) لم نجد هذا الأمر عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة في كتب المصادر التي بين أيدينا، وفي الطبري ٢٥٥/٩ عن إبراهيم قال: كان الرجل منهم تكون له اليتيمة بها الدمامة والأمر الذي يرغب عنها فيه، ولها مال، قال: فلا يتزوجها ولا يزوجه، حتى تموت فيرتها. قال: فنهاهم الله عن ذلك. وفيه أيضاً عن ابن عباس من طريق العوفي: كانت اليتيمة تكون في حجر الرجل فيرغب أن ينكحها أو يجامعها، ولا يعطيها مالها رجاء أن تموت فيرتها، وإن مات لها حميم لم تعط من الميراث شيئاً، وكان ذلك في الجاهلية، فبين الله لهم ذلك.

(٥) رواه ابن جرير ٢٨١/٩ بمعناه.

(٦) روى البخاري: ١٧٩/٨، ومسلم ٢٣١٥/٤ عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي النِّسَاءِ فَانكِحُوا مَا كَتَبَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَأَنْتُمْ تَرْضَوْنَ﴾ فقالت: يا ابن أخي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله، فيعجبها مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقتها، فيعطيا مثل ما يعطيها غيره. فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفوتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله ﷻ ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُبَيِّنُكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَسَّرَ الْكَلِمَةَ لِيَتَذَكَّرَ أَنتَ وَرَبُّوكَ أَنَّ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قالت: والذي ذكر الله تعالى أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي النِّسَاءِ فَانكِحُوا مَا كَتَبَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وَسْتَفْتُونَكَ أَنَّ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدمكم عن اليتيمة التي تكون في حجره، حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن.

الأحكام. وقيل: الاستفتاء: الاستخبار. قال المفسرون: والذي اسْتَفْتَوْهُ فيه، ميراث النساء، وذلك أنهم قالوا: كيف تراث المرأة والصبي الصغير؟

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْتَلِ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ قال الزجاج: موضع «ما» رفع، المعنى: الله يفتيكم فيهن، وما يتلى عليكم في الكتاب أيضاً يفتيكم فيهن. وهو قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ...﴾ الآية. والذي تلى عليهم في التزويج قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْتِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]. وفي يتامى النساء قولان: أحدهما: أنهن النساء اليتامى، فأضيفت الصفة إلى الاسم، كما تقول: يوم الجمعة. والثاني: أنهن أمهات اليتامى، فأضيف إليهن أولادهن اليتامى. وفي الذي كتب لهن قولان: أحدهما: أنه الميراث، قاله ابن عباس، ومجاهد في آخرين. والثاني: أنه الصداق. ثم في المخاطب بهذا قولان: أحدهما: أنهم أولياء المرأة كانوا يحوزون صداقها دونها. والثاني: ولي اليتيمة، كان إذا تزوجها لم يعدل في صداقها. وفي قوله: ﴿وَتَرَعُونَ أَنَّ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قولان: أحدهما: وترغبون في نكاحهن رغبة في جمالهن، وأموالهن، هذا قول عائشة، وعبيدة. والثاني: وترغبون عن نكاحهن لقبهجن، فتمسكوهن رغبة في أموالهن، وهذا قول الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَالسُّنْبَيْتُ يَرْكَبُ الْوِلْدَانَ﴾ قال الزجاج: موضع المستضعفين خفض على قوله: ﴿وَمَا يَنْتَلِ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ المعنى: وفي الولدان. قال ابن عباس: يريد أنهم لم يكونوا يورثون صغيراً من الغلمان والجواري، فنهاهم الله عن ذلك، وبين لكل ذي سهم سهمه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْبَيْتِ بِالْقِسْطِ﴾ قال الزجاج: موضع «أن» خفض، فالمعنى: في يتامى النساء، وفي أن تقوموا لليتامى بالقسط. قال ابن عباس: يريد العدل في مهرهن ومواريهن.

﴿وَإِنْ أَمْرًاؤُاُ خَافَتْ مِنْ بَيْتِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصَلِّحَا بَيْنَهَا صُلْحًا وَالْمُصْلِحُ خَيْرٌ وَأُحْزِرْتَ أَلَانُفْسُ الشَّحِّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرًاؤُاُ خَافَتْ مِنْ بَيْتِهَا شُورًا﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن سودة خشيت أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لا تطلقني، وأمسكتني، واجعل يومي لعائشة، ففعل، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس^(١). والثاني: أن بنت محمد بن مسلمة كانت تحت رافع بن خديج، فكره منها أمراً، إما كبيراً، وإما غيره، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقني، واقسم لي ما شئت، فنزلت هذه الآية، رواه الزهري عن سعيد بن المسيب^(٢). قال مقاتل: واسمها خويلدة. والثالث: قد ذكرناه عن سالم الأطفس عن سعيد بن جبير في نزول الآية التي قبلها. وقالت عائشة: نزلت في المرأة تكون عند الرجل، فلا يستكثر منها، ويريد فراقها، ولعلها تكون له محبة أو يكون لها ولد فكره فراقها، فتقول له: لا تطلقني وأمسكتني، وأنت في حل من شأني. رواه البخاري، ومسلم^(٣). وفي خوف النشوز

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي ١٧/٢، والترمذي ٩٤/٤، والبيهقي في «السنن» ٢٩٧/٣، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحافظ في «الفتح» بعد نقل هذا الحديث عن الترمذي: وله شاهد في «الصحيحين» من حديث عائشة بدون ذكر نزول الآية. قلت: روى الشيخان عن عائشة أن سودة بنت زمة وهبت يومها لعائشة، وكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة. وأخرج أبو داود في «مسند» ٢٢٦/٢ عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قالت عائشة: يا ابن أخي كان رسول الله لا يفضل بعضنا على بعض في القسم، من مكته عندنا، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً، فيلنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ التي هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمة حين أسنت، وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله يومي لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها، قالت: نقول في ذلك أنزل الله تعالى وفي أشباهها، أراه قال: ﴿وَإِنْ أَمْرًاؤُاُ خَافَتْ مِنْ بَيْتِهَا شُورًا﴾. وإسناده جيد.

(٢) «الموطأ» ٥٤٨/٢ عن ابن شهاب عن رافع بن خديج. و«الأم» ١٧١/٥، و«المسند» للشافعي ٢٨/٢، و«جامع البيان» ٢٧٥/٩، عن الزهري عن سعيد بن المسيب. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٣٠٨/٢ من طريق إسحاق بن إبراهيم عن عبد الرزاق مرفوعاً إلى رافع بن خديج، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وواقفه الذهبي. ورواه البيهقي في «السنن» من طريق أخرى مطولاً من طريق أبي اليمان عن شعيب ابن أبي حمزة عن الزهري.

(٣) البخاري ١٩٩/٨، ومسلم ٢٣١٦/٤ ولقظه عن عائشة في قوله ﷺ ﴿وَإِنْ أَمْرًاؤُاُ خَافَتْ مِنْ بَيْتِهَا شُورًا﴾ قالت: «نزلت في المرأة تكون عند الرجل، فلعله أن لا يستكثر منها، وتكون لها صحبة وولد، فكره أن يفارقها، فتقول له: أنت في حل من شأني».

قولان: أحدهما: أنه العلم به عند ظهوره. والثاني: الحذر من وجوده لأماراته. قال الزجاج: والنشوز من بعل المرأة: أن يُسيء عشرتها، وأن يمنعها نفسه ونفقتها. وقال أبو سليمان: نشوزاً، أي: نبوأ عنها إلى غيرها، وإعراضاً عنها، واشتغالاً بغيرها. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ أَنْ يُصَلِحَ بَيْنَهُمَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «بِضَالِحَا بَيْنَهُمَا» بفتح الياء، والتشديد. والأصل: «بِصَالِحَا»، فأدغمت التاء في الصاد. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «يُصَلِحَا» بضم الياء، والتخفيف. قال المفسرون: والمعنى: أن يوقعا بينهما أمراً يرضيان به، وتدوم بينهما الصلحة، مثل أن تصبر على تفضيله. وروي عن علي، وابن عباس: أنهما أجازا لهما أن يصلحا على ترك بعض مهرها، أو بعض أيامها، بأن يجعله لغيرها. وفي قوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قولان: أحدهما: خير من الفرقة، قاله مقاتل، والزجاج. والثاني: خير من النشوز والإعراض، ذكره الماوردي. قال قتادة: متى ما رضيت بدون ما كان لها، واصطلحا عليه، جاز، فإن أثبت لم يصلح أن يجسها على الخسف.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْزَرْتُ الْأَنْفُسَ أَشْحًا﴾ «أحضرت»: بمعنى: ألزمت. و«الشح» الإفراط في الحرص على الشيء. وقال ابن فارس: «الشح»: البخل مع الحرص، وتشاح الرجلان على الأمر: لا يريدان أن يفوتهما. وفيمن يعود إليه هذا الشح من الزوجين قولان: أحدهما: المرأة، فتقديره: وأحضرت نفس المرأة الشح بحقها من زوجها، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبيرة. والثاني: الزوجان جميعاً، فالمرأة تشح على مكانها من زوجها، والرجل يشح عليها بنفسه إذا كان غيرها أحب إليه، هذا قول الزجاج. وقال ابن زيد: لا تطيب نفسه أن يعطيها شيئاً فتحلله، ولا تطيب نفسها أن تعطيه شيئاً من مالها، فتعطفه عليها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: بالصبر على التي يكرهها. والثاني بالإحسان إليها في عشرتها.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَّقُوا﴾ يعني الجور عليها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَمَلَّوْتُمْ حَبِيرًا﴾ فيجازيكم عليه. ﴿وَإِنْ تَسْتَكْبِرُوا أَنْ تَدُلُّوا بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْوَعْدِ﴾ فلا تسيئوا كمالملقة وإن تضيئوا وتتنفوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْتَكْبِرُوا أَنْ تَدُلُّوا بَيْنَ الْأَيْدِي﴾ قال أهل التفسير: لن تطيقوا أن تسؤوا بينهم في المحبة التي هي ميل الطباع، لأن ذلك ليس من كسبكم ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ على ذلك^(١) ﴿فَلَا تَجِئُوا﴾ إلى التي تحبون في النفقة والقسم. وقال مجاهد: لا تتعمدوا الإساءة فتندروا الأخرى كالمعلقة وقال ابن عباس: المعلقة: التي لا هي أيم، ولا ذات بعل. وقال قتادة: المعلقة: المسجونة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْلِحُوا﴾ أي: بالعدل في القسمة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الجور ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا﴾ لميل القلوب. ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا بَيْنَ اللَّهِ كَلًّا مِنْ سَعْيِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ كَفَرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ بِاللَّهِ وَكَيْلًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا﴾ يقول: وإن أبت المرأة أن تسمح لزوجها بإيثار التي يميل إليها، واختارت الفرقة، فإن الله يعني كل واحد من سعته. قال ابن السائب: يعني المرأة برجل، والرجل بامرأة. ثم ذكر ما يوجب الرغبة إليه في طلب الخير، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني: أهل

(١) قال أبو بكر بن العربي في «شرح الترمذي» ٨٠/٥: قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْتَكْبِرُوا أَنْ تَدُلُّوا بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْوَعْدِ﴾ كالمعلقة. فأخبر سبحانه أن أحداً لا يملك العدل بين النساء، والمعنى فيه تعلق القلب لبعضهن أكثر منه إلى بعض، فعندهم فيما يكون، وأخذهم بالمساواة فيما يظهرون. قلت: روى أبو داود ٣٢١/٢، والترمذي بشرح ابن العربي ٨٠/٥، والنسائي ٦٤/٧، وابن ماجه ٦٣٤/١ بسند جيد عن عائشة قالت: إن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «اللهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» وصححه أيضاً ابن كثير في «التفسير». ورواه الحاكم ١٨٧/٢ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. قال الترمذي: ومعنى قوله: «لا تلمني فيما تملك ولا أملك» إنما يعني به الحب والمودة.

التوراة، والإنجيل، وسائر الكتب ﴿وَأَيَّاكُمْ﴾ يا أهل القرآن^(١) ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ قيل: وحدوه ﴿وَأَنْ تَكْفُرُوا﴾ بما أوصاكم به ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فلا يضره خلافكم. وقيل: له ما في السموات، وما في الأرض من الملائكة، فهم أطوع له منكم. وقد ذكرنا في سورة (البقرة) معنى «الغني الحميد»، وفي (آل عمران) معنى «الوكيل».

﴿إِنْ يَشَأْ يُدْخِلْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِخَيْرٍ وَكَانَ اللَّهُ عَلَّ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْخِلْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾. قال ابن عباس: يريد المشركين والمنافقين ﴿وَيَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أطوع له منكم. وقال أبو سليمان: هذا تهديد للكفار، يقول: إن يشأ يهلككم كما أهلك من قبلكم إذ كفروا به، وكذبوا رسله^(٢).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَمِنَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت من أجل المنافقين كانوا لا يصدقون بالقيامة، وإنما يطلبون عاجل الدنيا، ذكره أبو سليمان. وقال الزجاج: كان مشركو العرب يتقربون إلى الله ليعطيهم من خير الدنيا، ويصرف عنهم شرها، ولا يؤمنون بالبعث، فأعلم الله عز وجل أن خير الدنيا والآخرة عنده. وذكر الماوردي أن المراد بثواب الدنيا: الغنيمة في الجهاد، وثواب الآخرة: الجنة. قال: والمراد بالآية: حث المجاهد على قصد ثواب الله.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفْرًا فَمِمَّنْ يَأْتِ بِالسُّبْحَةِ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَنَ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَمْدُلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَسُوا فَلَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفْرًا فَمِمَّنْ يَأْتِ بِالسُّبْحَةِ لِلَّهِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن فقيراً وغنياً اختصما إلى النبي ﷺ، فكان صفوه^(٣) مع الفقير يرى أن الفقير لا يظلم الغني، فنزلت هذه الآية، هذا قول السدي^(٤). والثاني: أنها متعلقة بقصة ابن أبيرق، فهي خطاب للذين جادلوا عنه، ذكره أبو سليمان الدمشقي. و«القوام»: مبالغة من قائم. و«القسط»: العدل. قال ابن عباس: كونوا قوالين بالعدل في الشهادة على من كانت، ولو على أنفسكم. وقال الزجاج: معنى الكلام: قوموا بالعدل، واشهدوا لله بالحق، وإن كان الحق على الشاهد، أو على والديه، أو قريبه، ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ المشهود له ﴿غَنِيًّا﴾ فالله أولى به، وإن يكن ﴿فَقِيرًا﴾ فالله أولى به. فأما الشهادة على النفس، فهي إقرار الإنسان بما عليه من حق. وقد أمرت الآية بأن لا ينظر إلى فقر المشهود عليه، ولا إلى غناه، فإن الله تعالى أولى بالنظر إليهما. قال عطاء: لا تحيفوا على الفقير، ولا تعظموا الغني، فتمسكوا عن القول فيه. وممن قال: إن الآية نزلت في الشهادات، ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، والزهري، وقتادة، والضحاك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَمْدُلُوا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: فلا تتبعوا الهوى، واتقوا الله أن تمدلوا عن الحق، قاله مقاتل. والثاني: ولا تتبعوا الهوى لتعدلوا، قاله الزجاج. والثالث: فلا تتبعوا الهوى كراهية أن تعدلوا عن الحق. والرابع: فلا تتبعوا الهوى فتعدلوا، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي: تلووا، وبواوين، الأولى مضمومة، واللام ساكنة^(٥). وفي معنى هذه القراءة ثلاثة أقوال: أحدها: أن يلوي الشاهد لسانه بالشهادة إلى غير الحق. قال ابن عباس: يلوي لسانه بغير الحق، ولا يقيم الشهادة على وجهها، أو يعرض عنها ويتركها. وهذا قول مجاهد،

(١) أي: ووصيائكم أتمم يا أهل القرآن، كما وصينا من كان قبلكم من أهل الكتابين: أن اتقوا الله.

(٢) قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْخِلْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِخَيْرٍ وَكَانَ اللَّهُ عَلَّ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ أي: هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، كما قال: ﴿وَلَا تَتَلَوُّوا تَتَلَوُّوا يَسْتَبْدِلُ فَرَمًا قَبْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّمَا كَانُوا أَتَيْنَهُمْ﴾ [محمد: ٣٨] وقال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره.

(٣) ابن جرير ٤٠٣/٩، وقوله «فكان صفوه» أي: ميله، وفي «الطبري» «ضلمه» وهو الميل أيضاً.

(٤) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٦١).

(٥) من لوى يلوي، والأصل: تلووا، حذف الضمة عن الياء لثقلها، ثم الياء لالتقاء الساكنين، وضمت الواو من أجل واو الضمير.

وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة، والسدي، وابن زيد. والثاني: أن يلوي الحاكم وجهه إلى بعض الخصوم، أو يُعرض عن بعضهم، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أن يلوي الإنسان عنقه إعراضاً عن أمر الله لكبره وعتوه^(١). ويكون: «أو تعرضوا» بمعنى: وتعرضوا، ذكره الماوردي. وقرأ الأعمش، وحزمة، وابن عامر: «تلوا» بواو واحدة، واللام مضمومة. والمعنى: أن تلوا أمور الناس، أو تتركوا، فيكون الخطاب للحكام^(٢).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآلِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن عبد الله بن سلام، وأسدًا، وأسيداً ابني كعب، وثعلبة بن قيس، وسلاماً، وسلمة، ويامين. وهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله نؤمن بك، وبكتابك، وبموسى، والتوراة، وعزير، ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسول، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٣). والثاني: أن مؤمني أهل الكتاب كان بينهم وبين اليهود كلام لما أسلموا، فنزلت هذه الآية، هذا قول مقاتل. وفي المشار إليهم بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المسلمون، قاله الحسن، فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا بمحمد والقرآن اثبتوا على إيمانكم. والثاني: اليهود والنصارى، قاله الضحاك، فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى والتوراة، وبعيسى والإنجيل: آمنوا بمحمد والقرآن. والثالث: المنافقون، قاله مجاهد، فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا في الظاهر بالستهم، آمنوا بقلوبكم.

قوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل» مضمومتين^(٤). وقرأ نافع، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل» مفتوحتين. والمراد بالكتاب الذي نزل على رسوله القرآن، والكتاب الذي أنزل من قبل: كل كتاب أنزل قبل القرآن، فيكون «الكتاب» هاهنا اسم جنس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَدَّأُوا كُفْرًا ثُمَّ كَفَرُوا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها في اليهود آمنوا بموسى، ثم كفروا بعد موسى، ثم آمنوا بعزير، ثم كفروا بعده بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، هذا قول ابن عباس. وروي عن قتادة قال: آمنوا بموسى، ثم كفروا بعبادة العجل، ثم آمنوا به بعد عوده، ثم كفروا بعده بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد. والثاني: أنها في اليهود والنصارى، آمن^(٥) اليهود بالتوراة، وكفروا بالإنجيل، وآمن النصارى بالإنجيل، ثم تركوه فكفروا به، ثم ازدادوا كفراً بالقرآن وبمحمد، رواه شيبان عن قتادة. وروي عن الحسن قال: هم قوم من أهل الكتاب، قصدوا تشكيك المؤمنين، فكانوا يظهرون الإيمان ثم الكفر، ثم ازدادوا كفراً بشيئهم على دينهم. وقال مقاتل: آمنوا بالتوراة وموسى، ثم كفروا من بعد موسى، ثم آمنوا بعيسى والإنجيل، ثم كفروا من بعده، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن. والثالث: أنها في المنافقين آمنوا، ثم ارتدوا، ثم ماتوا على كفرهم، قاله مجاهد. وروي ابن جريج^(٦) عن مجاهد ﴿ثُمَّ أَدَّأُوا كُفْرًا﴾ قال: ثبتوا عليه حتى ماتوا. قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ ما أقاموا على ذلك ﴿وَلَا لِيَدِينَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي: لا يجعلهم بكفرهم مهتدين. قال: وإنما علق امتناع المغفرة بكفر بعد كفر، لأن المؤمن بعد الكفر يُغفر له كفره، فإذا ارتدَّ طوَّلب بالكفر الأول.

﴿بَشِيرِ الْمُتَّقِينَ وَإِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَشِيرِ الْمُتَّقِينَ﴾ زعم مقاتل أنه لما نزلت المغفرة في (سورة الفتح) للنبي والمؤمنين قال عبد الله بن

(١) في النسخة الأحمدية: وعلوه.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ١٠٦ عن الكلبي، وليس فيه «يامين».

(٣) أي: على بناءهما للمفعول، والثائب ضمير الكتاب.

(٤) في «الأحمدية»: أقر.

(٥) في «الأحمدية»: ابن جريج. والخبر رواه ابن جريج عن ابن جريج، عن مجاهد.

أبي ونفر معه: فما لنا؟ فنزلت هذه الآية. وقال غيره: كان المنافقون يتولون اليهود، فألحقوا بهم في التبشير بالعذاب. وقال الزجاج: معنى الآية: اجعل موضع بشارتهم العذاب. والعرب تقول: تحيتك الضرب، أي: هذا بدل لك من التحية. قال الشاعر:

وخيل قد دلفت لها بخيل

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلَيْسَتْ لَهُمْ عِندَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ قال ابن عباس: يتخذون اليهود أولياء في العون والنصرة.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَتْ لَهُمْ عِندَهُمُ الْعِزَّةُ﴾ أي: القوة بالظهور على محمد وأصحابه، والمعنى: أيتقون بهم؟ قال مقاتل: وذلك أن اليهود أعانوا مشركي العرب على قتال رسول الله ﷺ. وقال الزجاج: أيتغي المنافقون عند الكافرين العزة. و«العزة»: المنعة، وشدة الغلبة، وهو مأخوذ من قولهم: أرض عزاز. قال الأصمعي: «العزاز»: الأرض التي لا تنبت. فتأويل العزة: الغلبة والشدة التي لا يتعلق بها إذلال. قالت الخنساء:

كأن لم يكونوا حمي يتقى

إذ الناس إذ ذاك من عزّ براً^(١)
أي: من قوي وعُلب سلب. ويقال: قد استعز على المريض^(٢)، أي: اشتد وجعه. وكذلك قول الناس: يعز علي يفعل، أي: يشتد، وقولهم: قد عز الشيء: إذا لم يوجد، معناه: صعب أن يوجد، والباب واحد^(٤).

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ يَأْتِيكُمُ الْفِتْنَةُ مِنْ فِتْنَةِ اللَّهِ فَأَنْتُمْ فِيهَا كَالْعِزَّةِ الْمُرْتَجَاتِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ وقرأ عاصم، ويعقوب: «نَزَّلَ» بفتح النون والزاي. قال المفسرون: الذي نزل عليهم في النهي عن مجالستهم، قوله في (الأنعام ٦٨) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن ويكذبون به، فنهى الله المسلمين عن مجالستهم. وآيات الله: هي القرآن. والمعنى: إذا سمعتم الكفر بآيات الله، والاستهزاء بها، فلا تقعدوا معهم حتى يأخذوا من حديث غير الكفر والاستهزاء. ﴿إِنَّ جَالِسْتُمُوهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، فَاَنْتُمْ فِيهَا كَالْعِزَّةِ﴾ وفي ماذا تقع المماثلة فيه قولان:

(١) «الكتاب» لسبب ١/٣٦٥، ٤٢٩، و«الخزاة» ٤/٥٣، قال البغدادى: وهذا البيت نسيه شرح آيات الكتاب وغيرهم إلى عمرو بن معديكرب الصحابي ولم أره في شعره. وفي «العمدة» لابن رشيق: ٢/٢٩٢: وما يعد سرقاً وليس يسرق اشتراك اللفظ المتعارف، كقول عترة:

وخيل قد دلفت لها بخيل
وقول عمرو بن معدى كرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل

والخيل: اسم جمع الفرس لا واحد له من لفظه، والمراد به الفرسان، وأراد بالخيل الأول: خيل الأعداء، والثاني: خيله، والضمير في «بينهم» للخليين. ودلفت: دنوت وزحفت. وجميع: بمعنى موجه، يقول: إذا تلاقوا جعلوا بدلاً من تحية بعضهم لبعض الضرب الوجيع. وهذا على سبيل التهكم.

(٢) «ديوانها» ١٤٤، و«الكامل» ٢/٧٩٣، ٣/١٢٢٣، و«مجمع الأمثال» ٢/٣٠٧، و«شواهد المغني» ٨٨، و«الحماسة» لابن الشجري ١/٢٤٦ قال ابن الشجري: و«عز»: معناه: غلب، من قول الله ﷻ: ﴿وَعَزَّزْنَا فِي الْغَيْطِ﴾ [ص: ٢٣]. و«بز»: معناه: سلب، تقول: بززت الرجل: إذا سلبت سلاحه، ويقال للسلاح المسلوب: هذا يز فلان. و«من» في البيت بمعنى الذي، وموضعه مع «عز» رفع بالابتداء و«بز» خبرها، والجملة التي هي المبتدأ وخبره خير عن المبتدأ الأول الذي هو الناس، والمائد إلى الناس محذوف، كما حذفه من قولهم: «السمن منون بدرهم» يريدون: منون منه، وكذلك التقدير: من عز منهم بز، ولا يجوز أن يكون «إذ ذاك» خبراً عن الناس لما ذكرته لك من امتناع الأخبار بظروف الزمان عن الأشخاص، وإذا بطل أن يكون إذ ذاك خبراً عن الناس، بقي أن يتعلق ببز، ولا يجوز أن تكون «من» شرطية، لأن الشرط وجوبه لا يعمل واحد منهما فيما قبله بإجماع البصريين، كما لا يتقدم على الاستفهام ما يكون في حيزه، وأجاز قوم من البغداديين أن يعمل جواب الشرط فيما تقدم عليه لمفارقه الاستفهام بكونه جزء، فعلى قول هؤلاء تحتل «من» أن تكون شرطاً، فاما «ذاك» فموضعه رفع بالابتداء وخبره محذوف. أي: ذاك كان أو موجود، ولا يجوز أن يكون موضع ذاك على انفراده خفضاً، لأن «إذ» لا تضاف إلا إلى جملة، فموضع الجملة التي هي ذاك وخبره جر.

(٣) استعز: بالبناء للمجهول، وفي الحديث «أنه استعز برسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه» أي: اشتد به المرض وطلبه، وأشرف على الموت.

(٤) في «الصحاح»: عز الشيء يبرز عزاً وعزة وعزازة: إذا قل لا يكاد يوجد، فهو عزيز. وعز فلان يبرز عزاً وعزازة أيضاً: أي: صار عزيزاً، أي: قوي بعد ذلة. وعز علي أن تفعل كذا، وعز علي ذاك، أي: حق واشتد، وفي المثل: «إذا عز أخوك فهن، وعزه يعزه عزاً: غلبه، وفي المثل «من عز بز».

أحدهما: في العصيان. والثاني: في الرضا بحالهم، لأن مجالس الكافر غير كافر. وقد نهت الآية على التحذير من مجالسة العصاة^(١). قال إبراهيم النخعي: إن الرجل ليجلس في المجلس فيتكلم بالكلمة، فيرضي الله بها، فتصيبه الرحمة فتعم من حوله، وإن الرجل ليجلس في المجلس، فيتكلم بالكلمة، فيسخط الله بها، فيصيبه السخط، فيعم من حوله.

﴿الَّذِينَ يَرْبُّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَتَسْتَعْتِبُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرْبُّصُونَ بِكُمْ﴾ قال أبو سليمان: هذه الآية نزلت في المنافقين خاصة. قال مقاتل: كان المنافقون يربصون بالمؤمنين الدوائر، فإن كان الفتح، قالوا: ألم تكن معكم؟ فأعطونا من الغنيمة. وإن كان للكافرين نصيب، أي: دولة على المؤمنين، قالوا للكفار: ألم نستحوذ عليكم؟ قال المبرّد: ومعنى: ألم نستحوذ عليكم: ألم تغلبكم على رأيكم. وقال الزجاج: ألم تغلب عليكم بالموالاة لكم. و«نستحوذ» في اللغة، بمعنى: نستولي، يقال: حذت الإبل، وحزتها: إذا استوليت عليها وجمعتها. وقال غيره: ألم نستول عليكم بالمعونة والنصرة؟ وقال ابن جريج: ألم نبين لكم أنا على دينكم؟ وفي قوله: ﴿وَتَسْتَعْتِبُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تمنعكم منهم بتخذيلهم عنكم. والثاني: بما نعلمكم من أخبارهم. والثالث: بصرنا إياكم عن الدخول في الإيمان. ومراد الكلام: إظهار المنة من المنافقين على الكفار، أي: فاعرفوا لنا هذا الحق عليكم.

قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني المؤمنين والمنافقين. قال ابن عباس: يريد أنه آخر عقاب المنافقين.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لا سبيل لهم عليهم يوم القيامة، روى يسع الحضرمي عن علي بن أبي طالب أن رجلاً جاءه، فقال: رأيت قول الله ﷻ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وهم يقاتلوننا [فيظهرون ويقتلون]، فقال: ولن يجعل الله للكافرين يوم القيامة على المؤمنين سبيلًا. هذا مروى عن ابن عباس^(٢)، وفتادة. والثاني: أن المراد بالسبيل: الظهور عليهم، يعني: أن المؤمنين هم الظاهرون، والعاقبة لهم، وهذا المعنى في رواية عكرمة، عن ابن عباس. والثالث: أن السبيل: الحجة. قال السدي: لم يجعل الله عليهم حجة، يعني فيما فعلوا بهم من القتل والإخراج من الديار. قال ابن جرير: لما وعد الله المؤمنين أنه لا يدخل المنافقين مدخلهم من الجنة، ولا المؤمنين مدخل المنافقين، لم يكن للكافرين على المؤمنين حجة بأن يقولوا لهم: أنتم كنتم أعداءنا، وكان المنافقون أولياءنا، وقد اجتمعتم في النار^(٣).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْتَصِمُونَ لِلَّهِ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى إِرْهَاقِ الْمَاءِ وَلَا يُذَكِّرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْتَصِمُونَ لِلَّهِ﴾ أي: يعملون عمل المخادع. وقيل: يخادعون نبيّه، وهو خادعهم، أي:

(١) روى الإمام أحمد ١٤٨/٢ بترتيب الساعاتي، والترمذي ٢٠/٤ وحسنه، والنسائي ١٩٨/١ من حديث جابر أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر» وهو حديث صحيح. قال ابن حجر: أخرجه النسائي من حديث جابر مرفوعاً وإسناده جيد، قلت: وليس في النسائي الشطر الثاني من الحديث، وأخرجه الترمذي من وجه آخر بسند فيه ضعف، وأبو داود في «سننه» ٣/٧٧٧ عن ابن عمر بسند فيه انقطاع، وأحمد ١/٢١٠ عن عمر بسند فيه مجهول. وفي «القرطبي» ٥/٤١٨: فكل من جلس في مجلس مصيبة، ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمصيبة وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم، فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٥١، وابن جرير ٣٢٧/٩ بإسناد صحيح، الحاكم ٣٠٩/٢، وصححه ووافقه الذهبي، وزاد السيوطي في «الدر» ٢/٢٣٥ نسبه للقرطبي وعبد بن حميد وابن المنذر. و«يسع» بضم الياء في أوله وفتح السين، وسكون الياء الثانية: هو ابن معدان الحضرمي، ويقال: الكندي، وهو تابعي وثقه النسائي وغيره، مترجم في «التهذيب» ١١/٢٨٠ وقع في «الأحمدية» وتفسير ابن كثير: «سبب» وهو تصحيف.

(٣) ذكر القرطبي في «تفسره» ٥/٤١٩ لآية التأويل الثالث: وهو أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً منه إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر، ويتفاعدوا عن التوبة، فيكون تسلط العدو من قبلهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْبَكُمْ مِنْ مُؤْمِنٍ مِمَّا كَذَّبَ آبَاؤَكُمْ﴾ [النورى: ٣٠] قال ابن العربي: وهذا نفس جداً. فيكون المعنى: إذن: إن الكافرين لا يكون لهم من حيث هم كافرون سبيل ما على المؤمنين من حيث هم مؤمنون، يقومون بحقوق الإيمان ويتبعون هديه.

مجازيهم على خداعهم. وقال الزجاج: لما أمر بقبول ما أظهروا، كان خادعاً لهم بذلك. وقيل: خداعه إياهم يكون في القيامة بإطفاء نورهم، وقد شرحنا طرفاً من هذا في (البقرة).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالٍ﴾ أي: متقلبين. و«كسالي»: جمع كسلان، و«الكسل»: التثاقل عن الأمر. وقرأ أبو عمران الجوني: «كسالي» بفتح الكاف، وقرأ ابن السميع: «كسلي»، بفتح الكاف من غير ألف. وإنما كانوا هكذا. لأنهم يصلون حذراً على دمائهم، لا يرجون بفعالها ثواباً، ولا يخافون بتركها عقاباً^(١).

قوله تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أي: يصلون ليراهم الناس. قال قتادة: والله لولا الناس ما صلى المنافق^(٢). وفي تسمية ذكرهم بالقليل ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سُمِّيَ قليلاً، لأنه غير مقبول، قاله علي رضي الله عنه، وفتادة. والثاني: لأنه رياء، ولو كان لله لكان كثيراً، قاله ابن عباس، والحسن. والثالث: أنه قليل في نفسه، لأنهم يقتصرون على ما يظهر، دون ما يخفى من القراءة والتسبيح، ذكره الماوردي.

﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ مُضِلٌّ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ سَبِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المذبذب: المتردد بين أمرين، وأصل المذبذب: التحرك، والاضطراب، وهذه صفة المنافق، لأنه محير في دينه لا يرجع إلى اعتقاد صحيح. قال قتادة: ليسوا بالمشركين المصّرحين بالشرك، ولا بالمؤمنين المخلصين. قال ابن زيد: ومعنى «بين ذلك»: بين الإسلام والكفر، لم يظهروا الكفر فيكونوا إلى الكفار، ولم يصدقوا الإيمان، فيكونوا إلى المؤمنين. قال ابن عباس: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ مُضِلٌّ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى. وقد روى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثل المنافق: مثل الشاة العائرة بين الغنمين تُعْمِرُ إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، ولا تدري أيها تتبع»^(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْبُدُونَ أَنْ تَحْمِلُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَنًا تُبِينًا﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ في المراد بالكافرين قولان: أحدهما: اليهود، قاله ابن عباس. والثاني: المنافقون، قال الزجاج: ومعنى الآية: لا تجعلوهم بطانتكم وخاصتكم. والسلطان: الحجة الظاهرة^(٤)، وإنما قيل للامير: سلطان، لأنه حجة الله في أرضه، واشتقاق السلطان: من السليط. والسليط^(٥): ما يستضاء به، ومن هذا قيل للزيت: السليط. والعرب تؤثت السلطان وتذكره، تقول: قضت عليك السلطان، وأمرتك السلطان، والتذكر أكثر وبه جاء القرآن، فمن أنت، ذهب إلى معنى الحجة، ومن ذكر، أراد صاحب السلطان. قال ابن الأنباري: تقدير الآية: أريدون أن تجعلوا الله عليكم بموالات الكافرين حجة بينة تلزمكم عذابه، وتكسبكم غضبه؟

﴿إِنَّ الْكُفْرَانَ فِي الذَّرِكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ صَوِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكُفْرَانَ فِي الذَّرِكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: بفتح الراء، وقرأ

(١) أخرج الإمام مسلم ٤٥١/١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيها لأفوهما ولو حيوياً، ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام، ثم أمر رجلاً فبصلي بالناس، ثم انطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار». وفي «السنند» عن أبي هريرة رضي الله عنه «ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لأمتت صلاة العشاء، وأمرت فتياي يحرقون ما في البيوت بالنار». وروى الإمام مالك في «الموطأ» ٢٢٠/١ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فقرها أربماً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» ورواه مسلم ٤٣٤/١، والترمذي ٣٠١/١، والنسائي ٢٥٤/١.

(٢) في «الأحمدية» المنافقون.

(٣) رواه الإمام أحمد ١٢٩/٧، ومسلم ٢١٤٦/٤ وابن جرير ٣٣٣/٩. والشاة العائرة: هي المترددة بين قطيعين لا تدري أيهما تتبع، من قولهم: عار الفرس والكلب وغيرهما بعير عياراً: إذ ذهب كأنه منفلت من صاحبه، فهو يتردد هنا وهناك. وقوله: تعير إلى هذه مرة. أي: تذهب في ترددها إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة.

(٤) روى ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس في قوله «سُلْطَنًا تُبِينًا»: كل سلطان في القرآن حجة.

(٥) في «الأحمدية» التسليط، وهو خطأ. و«السليط» الزيت. قال: النابغة الجعدي:

يضفي كمثل سراج السليط
ظلم يجعل الله فيه نحاساً

نظر «اللسان» مادة سلق.

عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: بتسكين الراء. قال الفراء: وهي لغتان: قال أبو عبيدة: جهنم أدراك، أي: منازل، وأطبق^(١). فكل منزل منها: درك. وحكى ابن الأنباري عن بعض العلماء أنه قال: الدركات: مراق، بعضها تحت بعض. وقال الضحاك: الدرج: إذا كان بعضها فوق بعضها، والدرك: إذا كان بعضها أسفل من بعض. وقال ابن فارس: الجنة درجات، والنار دركات. وقال ابن مسعود في هذه الآية: هم في توابيت من حديد مبهمه [عليهم]^(٢). قال ابن الأنباري: المبهمه: التي لا أفعال عليها، يقال: أمرٌ مبهمٌ: إذا كان ملتبساً لا يعرف معناه، ولا بابه.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ قال ابن عباس: مانعاً من عذاب الله.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَسْلَمُوا وَعَتَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا فِيهِمْ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ قال مقاتل: سبب نزولها: أن قوماً قالوا عند ذكر مستقر المنافقين: فقد كان فلان وفلان منافقين، فتابوا، فكيف يُفعل بهم؟ فنزلت هذه الآية^(٣). ومعنى الآية: إلا الذين تابوا من النفاق ﴿وَأَسْلَمُوا﴾ أعمالهم بعد التوبة ﴿وَأَعْتَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: استمسكوا بدينه. ﴿وَأَخْلَصُوا فِيهِمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الإسلام، وإخلاصه: رفع الشرك عنه، قاله مقاتل. والثاني: أنه العمل، وإخلاصه: رفع شوائب النفاق والرياء منه، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في «مع» قولان: أحدهما: أنها على أصلها، وهو الاقتران. وفي ماذا اقترنوا بالمؤمنين؟ فيه قولان: أحدهما: في الولاية، قاله مقاتل. والثاني: في الدين. والثواب. قاله أبو سليمان. والثاني: أنها بمعنى «من» فتقديره: فأولئك من المؤمنين، قاله الفراء.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِمَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِمَذَابِكُمْ﴾ «ما» حرف استفهام، ومعناه: التقرير^(٤)، أي: إن الله لا يعذب الشاكر المؤمن، ومعنى الآية: ما يصنع الله بعبادكم إن شكرتم نعمه، وآمتم به وبرسوله. والإيمان مقدم في المعنى وإن أُخِّر في اللفظ. وروي عن ابن عباس أن المراد بالشكر: التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي: للقليل من أعمالكم، علماً بنياتكم، وقيل: شاكراً، أي: قابلاً.

﴿لَا يُجِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يُجِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن ضيفاً تضيف قوماً فأسأوا قراءه فاشتكاهم، فنزلت هذه الآية رخصة في أن يشكوا، قاله مجاهد^(٥). والثاني: أن رجلاً نال من أبي بكر

(١) تمام كلام أبي عبيدة في «مجاز القرآن» ١٤٢: ويقال للجميل الذي عجز عن بلوغ الركبة: أعطني دركاً أصل به.

(٢) قال السيوطي في «الدر» ٢٣٦/٢: رواه ابن أبي شيبة، وهناد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في صفة النار عن ابن مسعود. قلت: وفي سنده انقطاع، لأن خيشمة بن عبد الرحمن الراوي عن ابن مسعود لم يسمع منه، ذكره الإمام أحمد، ورواه ابن أبي حاتم من طريق حماد بن سلمة: أخبرنا علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن أن ابن مسعود... وعلي بن يزيد ضعيف، والقاسم بن عبد الرحمن صدوق يرسل كثيراً. وفي «الطبري» ٣٣٩/٩: أن أبي هريرة: ﴿إِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّرُكِ الْأَسْفَلِيِّ مِنَ النَّارِ﴾ قال: «في توابيت ترتج عليهم» وفي «تفسير ابن كثير» ٥٧٠/١: ورواه ابن أبي حاتم بسند حسن، ولفظه: «الدرك الأسفل»: بيوت لها أبواب تطبق عليهم، فتوقد من تحتمهم ومن فوقهم.

(٣) في «صحيح البخاري» ٢٠٠/٨: عن الأسود قال: كنا في حلقة عبد الله، فجاه حذيفة حتى قام علينا، فسلم، ثم قال: لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم. قال الأسود: سبحان الله! إن الله يقول: ﴿إِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّرُكِ الْأَسْفَلِيِّ مِنَ النَّارِ﴾ فتبسم عبد الله، وجلس حذيفة في ناحية المسجد، فقام عبد الله، ففرق أصحابه، فرماني بالحصى، فأتيته، فقال حذيفة: عجبت من ضحكك وقد عرف ما قلت، لقد أنزل النفاق على قوم كانوا خيراً منكم، ثم تابوا فتاب الله عليهم. قال الحافظ ابن حجر: ويستفاد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَسْلَمُوا وَعَتَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا فِيهِمْ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ صحة توبة الزنديق، وقبولها على ما عليه الجمهور، فإنها مستثناة من المنافقين من قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّرُكِ الْأَسْفَلِيِّ مِنَ النَّارِ﴾ وقد استدل بذلك جماعة، منهم أبو بكر الرازي في «أحكام القرآن».

(٤) في «الأحذية»: التقدير، وهو خطأ.

(٥) ابن جرير ٣٤٧/٩، ونسب السيوطي في «الدر» للفريابي وعبد بن حديد، وجاء في «تفسير ابن كثير» ٥٧٠/١: قال ابن عباس في تفسير الآية: يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ وإن صبر فهو خير له. وروي أبو داود ١٠٧/٢ عن عائشة قالت: سُرق لها شيء، فجمعت تدعو عليه، فقال النبي ﷺ: «لا تسبني عنه» (قال الخطابي: لا تسبني عنه، =

الصديق والنبى ﷺ حاضر، فسكت عنه أبو بكر مراراً، ثم ردة عليه، فقام النبي ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله شتمني فلم تقل له شيئاً، حتى إذا رددت عليه قلت؟! فقال: «إن ملكاً كان يجيب عنك، فلما رددت عليه، ذهب الملك، وجاء الشيطان» فنزلت هذه الآية^(١)، هذا قول مقاتل. واختلف القراء في قراءة ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ فقرأ الجمهور بضم الظاء، وكسر اللام. وقرأ عبد الله بن عمرو، والحسن، وابن المسيب، وأبو رجاء، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، بفتحها. فعلى قراءة الجمهور، في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: إلا أن يدعو المظلوم على من ظلمه، فإن الله قد أرخص له، قاله ابن عباس. والثاني: إلا أن ينتصر المظلوم من ظالمه، قاله الحسن، والسدي. والثالث: إلا أن يخبر المظلوم بظلم من ظلمه، رواه ابن أبي نجيب عن مجاهد. وروى ابن جريج عنه قال: إلا أن يجهر الضيف بدم من لم يضيفه. فأما قراءة من فتح الظاء، فقال ثعلب: هي مردودة على قوله: ﴿مَنْ يَمْكُلُ اللَّهُ بِمَدَائِكُمْ﴾ إلا من ظلم. وذكر الزجاج فيها قولين: أحدهما: أن المعنى: إلا أن الظالم يجهر بالسوء ظملاً. والثاني: إلا أن تجهروا بالسوء للظالم. فعلى هذا تكون «إلا» في هذا المكان استثناءً مقطوعاً، ومعناها: لكن المظلوم يجوز له أن يجهر لظالمه بالسوء. ولكن الظالم قد يجهر بالسوء. واجهروا له بالسوء^(٢). وقال ابن زيد: إلا من ظلم، أي: أقام على النفاق، فيجهر له بالسوء حتى يتزع.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيحًا﴾ أي: لما تجهرون به من سوء القول ﴿عَلِيمًا﴾ بما تخفون. وقيل: سمياً لقول المظلوم، عليمًا بما في قلبه، فليتب الله، ولا يقل إلا الحق. وقال الحسن: من ظلم، فقد رخص له أن يدعو على ظالمه من غير أن يعتدي، مثل أن يقول: اللهم أعني عليه، اللهم استخرج لي حقي، اللهم حل بينه وبين ما يريد^(٣).

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تَخْفَوْهُ أَوْ تَعْفَوْا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ قال ابن عباس: يريد من أعمال البر كالصيام والصدقة. وقال بعضهم: إن تبدوا خيراً بدلاً من السوء. وأكثرهم على أن «الهاء» في «تخفوه» تعود إلى الخير. وقال بعضهم: تعود إلى السوء.

أي: لا تخفني عنه بدعائك) وقال الحسن البصري: لا يدع عليه، وليل: اللهم أعني عليه واستخرج حقي منه. وقال عبد الكريم بن مالك الجزري في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه لكن إن اتري عليك فلا تفر عليه، لقوله: ﴿وَلَمْ يَنْسَخْ بَدَّ عَلَيَّهِ فَأَتَيْتَهُ مَا عَتَمَ بَيْنَ سَيْدِي﴾ وروى أبو داود ٣٧٧/٤ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الاستبان ما قالا فعلى الباطن منهما ما لم يعتد المظلوم» [قلت: ورواه أحمد في المسند ١٩٤/١٤ والبخاري في «الأدب المفرد» ٥١٢/١، ومسلم ٢٠٠٠/٤، والترمذي ١٢٩٩/٣]. وقد روى البخاري ٧٧/٥، ومسلم ١٣٥٣/٣ عن عتبة بن عامر قال: قلنا: يا رسول الله إنك تبعنا، فتنزل بقم فلا يقروننا، فما ترى في ذلك؟ فقال: «إذا نزلتم بقم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا منهم وإن لم يفعلوا، فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم» روى الإمام أحمد ١٣١/٤، وأبو داود [عن المقدم أبي كريمة عن النبي ﷺ أنه قال: «أيما مسلم ضاف قومًا فأصبح الضيف محرومًا، فإن حقًا على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقري ليه من زوجه وماله» وروى أحمد ١٣٠/٤] أيضاً عن المقدم أبي كريمة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليلة الضيف واجبة على كل مسلم، فإن أصبح بفاته محرومًا كان ديناً عليه، فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه» ورواه أبو داود ٤٦٩/٣، ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة «أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له: «أخرج متاعك، فضعه على الطريق»، فأخذ الرجل متاعه، فطرحه على الطريق، فجعل كل من مر به قال: ما لك؟ قال: جار يؤذيني، فيقول: اللهم العنه، اللهم اخزه. قال: فقال: ارجع إلى منزلك، قال: لا أؤذيك أبداً» ورواه أبو داود ٤٦٠/٤ والبخاري في «الأدب المفرد» ٢١٦/١ وهو حديث حسن.

(١) لم يذكره أحد من المفسرين سبباً لنزول الآية، وقد جاء معنى الحديث بدون ذكر سبب، فعن ابن المسيب قال: بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر ﷺ، فآذاه فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة، فانتصر أبو بكر، فقام رسول الله ﷺ، فقال: أوجدت علي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «نزل ملك من السماء يكتبه بما قال لك، فلما انتصرت ذهب الملك وقعد الشيطان فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان» رواه أبو داود هكذا مرسلًا ٣٧٧/٤ ومتصلًا من طريق ابن عجلان عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة بنحوه، قال المنذري: وذكر البخاري في «تاريخه» أن المرسل أصح.

(٢) في «مجمع البيان» للطبرسي ٢٧٣/٦ قال ابن جني: ظلمَ وظلمَ جميعاً على الاستثناء المنقطع، أي: لكن من ظلم فإن الله لا يخفى عليه أمره، ودل عليه قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا عَظِيمًا﴾ وموضع «من» نصب في الوجهين جميعاً، قال الزجاج: فيكون المعنى: لكن المظلوم يجهر بظلامته تشكيًا، ولكن الظالم يجهر بذلك ظلمًا، قال: ويجوز أن يكون موضع «من» رفعًا، على معنى: لا يجب الله أن يجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، فيكون «من» بدلاً من معنى «أخذ». المعنى: لا يجب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول إلا المظلوم، قال: وفيها وجه آخر لا أعلم أحدًا من النحويين ذكره، وهو أن يكون على معنى: لكن الظالم اجهروا له بالسوء من القول. وقال الطبري: وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة من قرأ ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ بضم الظاء، لإجماع الحجة من القراءة وأهل التأويل على صحتها، وشذوذ قراءة من قرأ ذلك بالفتح.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَدُوًّا﴾ قال أبو سليمان: أي: لم يزل ذا عفوٍ مع قدرته، فاعفوا أنتم مع القدرة^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود كانوا يؤمنون بموسى، وعزير، والتوراة، ويكفرون بعيسى، والإنجيل، ومحمد، والقرآن، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم اليهود والنصارى، آمن اليهود بالتوراة وموسى، وكفروا بالإنجيل وعيسى، وآمن النصارى بالإنجيل وعيسى، وكفروا بمحمد والقرآن، قاله قتادة. ومعنى قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: يريدون أن يفرقوا بين الإيمان بالله، والإيمان برسله، ولا يصح الإيمان به والتكذيب برسله أو ببعضهم ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: بين إيمانهم ببعض الرسل، وتكذيبهم ببعض ﴿سَبِيلًا﴾ أي: مذهباً يذهبون إليه. وقال ابن جريج: ديناً يدينون به.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِمًّا﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ آخِرِهِمْ وَأُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا﴾ ذكره «الحق» هاهنا تأكيداً لكفرهم إزالةً لتزهم من يتوهم أن إيمانهم ببعض الرسل^(٢) يزيل عنهم اسم الكفر.

﴿يَسْتَلِكْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُنزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَدْنِ مَا جَاءَهُمْ إِلَيْهِمْ فَمَعَرَفًا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا بِمُوسَىٰ سُلْطٰنًا حَقًّا﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْتَلِكْ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم سألوه أن ينزل كتاباً عليهم خاصة، هذا قول الحسن، وقاتده. والثاني: أن اليهود والنصارى أتوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: لا نبأبعك حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان أنك رسول الله، وإلى فلان بكتاب أنك رسول الله، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن جريج. والثالث: أن اليهود سألو النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء مكتوباً كما نزلت التوراة على موسى، هذا قول القرظي، والسدي. وفي المراد بأهل الكتاب قولان: أحدهما: اليهود والنصارى. والثاني: اليهود. وفي المراد بأهل الكتاب المنزل من السماء قولان: أحدهما: كتاب مكتوب غير القرآن. والثاني: كتاب بتصديقه في رسالته، وقد بينا في البقرة) معنى سؤالهم رؤية الله جهرة، واتخاذهم العجل. والبيئات: الآيات التي جاء بها موسى. فإن قيل: كيف قال: ثم اتخذوا العجل، و«ثم» تقتضي التراخي والتأخر، أفكان اتخاذ العجل بعد قولهم: «أرنا الله جهرة؟» فغته أربعة أجوبة، ذكرهن ابن الأنباري. أحدهن: أن تكون «ثم» مردودة على فعلهم القديم، والمعنى: وإذ وعدنا موسى أربعين ليلة، فخالفوا أيضاً، ثم اتخذوا العجل. والثاني: أن تكون مقدمة في المعنى، مؤخره في اللفظ، والتقدير: فقد اتخذوا العجل، ثم سألو موسى أكبر من ذلك. ومثله «فَأَلْفَيْهَ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَوْلَ عَنَّمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ» [النمل: ٢٨] المعنى: فألقه إليهم، ثم انظر ماذا يرجعون، ثم تول عنهم. والثالث: أن المعنى، ثم كانوا اتخذوا العجل، فأضمر الكون. والرابع: أن «ثم» معناها التأخير في الإخبار، والتقديم في الفعل، كما يقول القائل: شربت الماء، ثم أكلت الخبز، يريد: شربت الماء، ثم أخبركم أنني أكلت الخبز بعد إخباري بشرب الماء^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَمَعَرَفًا عَنْ ذَلِكَ﴾ أي: لم نستأصل عبدة العجل. و«السلطان المبين»: الحجّة البينة. قال ابن عباس: اليد والعصا. وقال غيره: الآيات التسع.

(١) روى الإمام أحمد في «المستدرك» ١٢/١٩٤، ومسلم في «صحيحه» ٤/٢٠٠١ عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

(٢) في «الأحمدية»: ذكرهم بزيادة «هم» ولا معنى لها هنا.

(٣) في «البحر المحيط» ٣/٣٨٧: «ثم» للترتيب في الإخبار لا في نفس الأمر، ثم قد كان من أمرهم أن اتخذوا العجل، أبأوهم والذين شجقوا غير الذين اتخذوا العجل.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي الْأَسْبَابِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أي: بما أعطوا الله من العهد والميثاق: ليعملن بما في التوراة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَعْدُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ قرأ نافع: لا تعدوا، بتسكين العين، وتشديد الدال، وروى عنه ورش «تعدوا» بفتح العين، وتشديد الدال. وقرأ الباقون «تعدوا» خفيفة، وكلهم ضم الدال^(١). وقد ذكرنا هذا وغيره في (البقرة) و«الميثاق الغليظ»: العهد المؤكد.

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَيَأْتِي اللَّهُ وَفَلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِمَعْرِ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا يَكْفُرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ «ما» صلة مؤكدة. قال الزجاج: والمعنى: فينقضهم ميثاقهم، وهو أن الله أخذ عليهم الميثاق أن يُبَيِّنُوا ما أنزل عليهم من ذكر النبي ﷺ وغيره. والجالب للباء العامل فيها، وقوله: ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ﴾ أي: بنقضهم ميثاقهم، والأشياء التي ذكرت بعده حَرَمْنَا عليهم. وقوله: ﴿فَيَطَّلِرُ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ﴾، وجعل الله جزاءهم على كفرهم أن طبع على قلوبهم. وقال ابن فارس: الطبع: الختم [ومن ذلك] طبع الله على قلب الكافر [كأنه] ختم [عليه حتى لا يصل إليه هدى ولا نور] فلم يوفق لخير، والطابع: الخاتم يختم به^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: فلا يؤمن منهم إلا القليل، وهم عبد الله بن سلام، وأصحابه، قاله ابن عباس. والثاني: المعنى: إيمانهم قليل، وهو قولهم: ربنا الله، قاله مجاهد.

﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرِيحٍ مُّبِينًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ﴾ في إعادة ذكر الكفر فائدة: وفيها قولان. أحدهما: أنه أراد: ويكفرهم بمحمد والقرآن، قاله ابن عباس. والثاني: ويكفرهم بالمسيح، وقد بشروا به، قاله أبو سليمان الدمشقي. فأما «البهتان» فهو في قول الجماعة: قذفهم مريم بالزنى.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قُتِلُوا وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظُّلُمِ وَمَا قُلُوا قَوْلًا يَقِينًا﴾ ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ قال الزجاج: أي باعتبار فهم بقتلهم إياه، وما قتلوه، يُعَذِّبُونَ عذاب من قتل، لأنهم قتلوا الذي قتلوا على أنه نبي. وفي قوله: «رسول الله» قولان: أحدهما: أنه من قول اليهود، فيكون المعنى: أنه رسول الله على زعمه. والثاني: أنه من قول الله، لا على وجه الحكاية عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: التي شبهه على غيره. وفيمن ألقى عليه شبهه قولان: أحدهما: أنه بعض من أراد قتله من اليهود. روى أبو صالح عن ابن عباس: أن اليهود لما اجتمعت على قتل عيسى، أدخله جبريل خوخة لها روزنة، ودخل وراءه رجل منهم، فألقى الله عليه شبه عيسى، فلما خرج على أصحابه، قتلوه يظنونهم عيسى، ثم صلبوه، وبهذا قال مقاتل، وأبو سليمان. والثاني: أنه رجلٌ من أصحاب عيسى، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن عيسى خرج على أصحابه لما أراد الله رفعه، فقال: أيكم يُلقى عليه شبيهي، فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب فقال: أنا، فقال: اجلس، ثم أعاد القول، فقام الشاب، فقال عيسى: اجلس، ثم أعاد، فقال الشاب: أنا، فقال: نعم

(١) في الطبري ٣٦٢/٩: واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقراءته حامة قراءة أمصار المسلمين ﴿لَا تَعْدُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ بتخفيف العين من قول القائل: عدوت في الأمر: إذا تجاوزت الحق فيه، أعدو عدواً وعدواً وعدواً وهداء، وقرأ ذلك بعض قراء أهل المدينة «وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا» بتسكين العين وتشديد الدال، والجمع بين ساكتين، بمعنى تعدوا، ثم تدمج الدال فتصير دالاً مشددة مضمومة. وفي «النشر» ٢/٢٤٤: واختلفوا في «تعدوا» فقرأ أبو جعفر: بتشديد الدال مع إسكان العين، وكذلك روى ورش إلا أنه فتح العين، وكذلك قالون إلا أنه اختلف عنه في إسكان العين واختلاسها، فروى عنه العراقيون من طريقه: إسكان العين مع التشديد كأبي جعفر سواء، وهكذا وردت النصوص عنه، وروى المغاربة عنه: للاختلاس لحركة العين، ويعبر بعضهم عنه بالإخفاء فرأوا من الجمع بين الساكتين. وانظر «إبراز المعاني» ٢٩٣.

(٢) «معجم مقاييس اللغة» ٣/٤٣٨، وما بين منقفيته من.

أنت ذاك، فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى، وجاء اليهود، فأخذوا الرجل، فقتلوه، ثم صلبوه^(١). وبهذا القول قال وهب بن منبه، وقاتدة، والسدي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اختلفُوا فِيهِ﴾ في المختلفين قولان: أحدهما: أنهم اليهود، فعلى هذا في هاء «فيه» قولان: أحدهما: أنها كناية عن قتله، فاختلفوا هل قتلوه أم لا؟. وفي سبب اختلافهم في ذلك قولان. أحدهما: أنهم لما قتلوا الشخص المشبه كان الشبه قد أُلقي على وجهه دون جسده، فقالوا: الوجه وجه عيسى، والجسد جسد غيره، ذكره ابن السائب. والثاني: أنهم قالوا: إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسى؟ يعنون الذي دخل في طلبه، هذا قول السدي. والثاني: أن «الهاء» كناية عن عيسى، واختلافهم فيه قول بعضهم: هو ولد زني، وقول بعضهم: هو ساحر. والثاني: أن المختلفين النصارى، فعلى هذا في هاء «فيه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى قتله، هل قتل أم لا؟ والثاني: أنها ترجع إليه، هل هو إله أم لا؟ وفي هاء «منه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى قتله. والثاني: إلى نفسه، هل هو إله، أم لغير ردة، أم هو ساحر؟.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ بِهِ مِنْ حِلْمٍ إِلَّا اتَّبَعَ الظَّنُّ﴾ قال الزجاج: «اتباع» منصوب بالاستثناء، وهو استثناء ليس من الأول. والمعنى: ما لهم به من علم إلا أنهم يتبعون الظن، وإن رُفِعَ جاز على أن يجعل علمهم اتباع الظن، كما تقول العرب: تحيتك الضرب.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قُلُوهُ﴾ في «الهاء» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الظن فيكون المعنى: وما قتلوا ظنهم يقيناً، هذا قول ابن عباس. والثاني: أنها ترجع إلى العلم، أي: ما قتلوا [العلم به] يقيناً، تقول: قتلته يقيناً، وقتلته علماً [للرأي والحديث]^(٢) هذا قول الفراء، وابن قتيبة. قال ابن قتيبة: وأصل هذا: أن القتل للشيء يكون عن قهر واستعلاء وغلبة، يقول: فلم يكن علمهم بقتل المسيح علماً أحيط به، وإنما كان ظناً. والثالث: أنها ترجع إلى عيسى، فيكون المعنى: وما قتلوا عيسى حقاً، هذا قول الحسن. وقال ابن الأنباري: اليقين مؤخر في المعنى، فالتقدير: وما قتلوه، بل رفعه الله إليه يقيناً.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ. قَبْلَ مَوْتِهِ. وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ قال الزجاج: المعنى: وما منهم أحد إلا ليؤمنن به، ومثله ﴿وَإِنَّ يَنْتَكِرُوا لَإِلَّا وَاوَدُّهُمْ﴾ [مریم: ٧١]. وفي أهل الكتاب قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله ابن عباس. والثاني: اليهود والنصارى، قاله الحسن، وعكرمة. وفي هاء «به» قولان: أحدهما: أنها راجعة إلى عيسى، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنها راجعة إلى محمد ﷺ، قاله عكرمة. وفي هاء «موت» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى المؤمن. روى سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى، فقيل لابن عباس: إن خر من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهوي^(٣) قال: وهي في قراءة أبي: «قبل موتهم»^(٤). وهذا قول مجاهد، وسعيد بن جبیر. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: يؤمن اليهودي قبل أن يموت، ولا تخرج روح النصراني حتى يشهد أن عيسى عبدٌ. وقال عكرمة: لا تخرج روح اليهودي والنصراني حتى يؤمن بمحمد ﷺ. والثاني: أنها تعود إلى عيسى. روى عطاء عن ابن عباس قال: إذا نزل إلى الأرض لا يبقى يهودي ولا نصراني، ولا أحد يعبد غير الله إلا أتبعه

(١) هو قطعة من خبر طويل رواه ابن أبي حاتم، وذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٥٧٤/١ وصحح إسناده إلى ابن عباس. وقد استبعد الشيخ أحمد شاكر في «عمدة التفسير» ٣١/٤ صحة هذا الأثر، ورده، واستنتج أنه من أوام المنهال بن عمرو الأسدي، راويها عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس، ثم قال: فالذي يؤمن به موقنين هو ما أخبرنا الله به في كتابه نصاً أنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم دون أن ندخل في تفصيل كيف شبه لهم، وعلى من ين الناس ألقى شبهه؟ فهذا التفصيل لم تكلف الإيمان به، إذ لم يعلمنا الله ولا رسوله بشيء من ذلك التفصيل.

(٢) «غريب القرآن» ص ١٢٧، والزيادة منه.

(٣) الهوي، بضم الهاء، وكسر الواو والياء المشددة: مصدر هوى يهوي: إذا سقط من فوق إلى أسفل.

(٤) رواه ابن جرير الطبري ٣٨٢/٩، ولفظه: عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ. قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: هي في قراءة أبي «قبل موتهم» ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى. قيل لابن عباس: أرايت إن خر من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهوي، فقيل: أرايت إن ضرب عنق أحد منهم؟ قال: يلجلج بها لسانه.

وصدقته، وشهد أنه روح الله، وكلمته، وعبدته، ونبيه^(١). وهذا قول قتادة، وابن زيد، وابن قتيبة، واختاره ابن جرير^(٢)، وعن الحسن كالمقولين. وقال الزجاج: هذا بعيدٌ، لعموم قوله: ﴿رَبَّنَا مَنِ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، والذين يبقون حينئذٍ شرذمة منهم، إلا أن يكون المعنى: إنهم كلهم يقولون: إن عيسى الذي ينزل لقتل الدجال نؤمن به.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْفَيْتَنَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ قال قتادة: يكون عليهم شهيداً أنه قد بلغ رسالات ربه، وأقر بالعبودية على نفسه.

﴿يُظَلِّرُ ذِينَ الْاٰلِهِيْنَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ اٰطَعْتُمْ لَهَا وَوَصَّيْنَاهُمْ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ كَثِيْرًا ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿يُظَلِّرُ ذِينَ الْاٰلِهِيْنَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ اٰطَعْتُمْ لَهَا وَوَصَّيْنَاهُمْ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ كَثِيْرًا ۗ﴾، فعلموا، وصدوا عن دين الله، وعن الإيمان بمحمد ﷺ، فحرم الله عليهم ما ذكر في قوله: ﴿وَعَلَى الْاٰلِهِيْنَ هَادُوا حَرَمْنَا كَعَلَى ذِي طُوًفٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] عقوبة لهم. قال أبو سليمان: وظلمهم: نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله، وما ذكر في الآيات قبلها. وقال مجاهد: ﴿وَوَصَّيْنَاهُمْ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ﴾ قال: صدّهم أنفسهم وغيرهم عن الحق. قال ابن عباس: صدّهم عن سبيل الله، يعني الإسلام، وأكلهم أموال الناس بالباطل، أي: بالكذب على دين الله، وأخذ الرشى على حكم الله، وتبديل الكتب التي أنزلها الله ليستديموا المآكل.

﴿وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوْا عَنَّا وَاكْفِهِمْ اَمْوَالَهُمْ اَلْبَاطِلُ وَاَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِيْنَ مِنْهُمْ عَذَابًا اَلِيْمًا ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: أعدنا للكافرين، يعني اليهود. وقيل: إنما قال «منهم»، لأنه علم أن قوماً منهم يؤمنون، فيأمنون العذاب.

(١) ابن جرير ٣٨٠/٩ وإسناده صحيح، وقد صحح الحافظ ابن كثير الروايات التي جاءت عن ابن عباس في تفسير هذه الآية.

(٢) قال أبو جعفر الطبري ٣٨٦/٩ وأولى الأقوال بالصحّة والصواب، قول من قال: تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب من غيره من الأقوال، لأن الله جل ثناؤه حكم لكل مؤمن بمحمد ﷺ بحكم أهل الإيمان في الموارثة والصلاة عليه، والحق صغار أولاده بحكمه في الملة، فلو كان كل كتابي يؤمن بعيسى قبل موته، لوجب أن لا يرث الكتابي إذا مات على ملته إلا أولاده الصغار، أو البالغون منهم من أهل الإسلام، إن كان له ولد صغير أو بالغ مسلم، وإن لم يكن له ولد صغير ولا بالغ مسلم، كان ميراثه مصروفاً حيث يصرف مال المسلم يموت ولا وارث له، وأن يكون حكمه حكم المسلمين في الصلاة عليه وغسله وتقبيره، لأن من مات مؤمناً بعيسى، فقد مات مؤمناً بمحمد ﷺ وجميع الرسل. وذلك أن عيسى صلوات الله عليه، جاء بتصديق محمد وجميع المرسلين صلوات الله عليهم، فالمصدق بعيسى والمؤمن به، مصدق بمحمد وجميع أنبياء الله ورسله، كما أن المؤمن بمحمد، مؤمن بعيسى وجميع أنبياء الله ورسله. فغير جائز أن يكون مؤمناً بعيسى من كان بمحمد مكذباً. وقال الحافظ ابن كثير ٥٧٧/١: ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، وقتلوا الشبه وهم لا يبيّنون ذلك، ثم إنهم رفعه إليه وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التي سندها إن شاء الله قريباً - فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف. فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذٍ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم ولهذا قال: ﴿رَبَّنَا مَنِ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّ قَتْلَ مَوْجِبَةٍ﴾ أي: قبل موت عيسى ﷺ الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب ﴿وَيَوْمَ الْفَيْتَنَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: بأعمالهم التي شاهدتها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض. فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام - فهذا هو الواقع، وذلك: أن كل أحد عند احتضاره يتجمل به ما كان جاهلاً به فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيماناً تاماً له إذا كان قد شاهد الملك، كما قال تعالى في أول هذه السورة: ﴿وَلِكَيْتَ اٰتُوتَهُ الْاٰلِهِيْنَ يَسْمَعُوْنَ اَلْحِكْمَاتِ حَتّٰى اِحْرَ اَعْدَهُمُ الْمَرْتَّ قَالَ اِنِّي نَبِيٌّ اَتَيْتُ النَّاسَ وَلَا الْاٰلِهِيْنَ يَتَّبِعُوْنَكَ رَهْمَ كَعَفَاذُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَاْنَا اٰسَاتِنَا قَالًا اٰمَنَّا بِاللّٰهِ وَرَسُوْهُ رَسُوْلًا مِّنْ سَمٰوٰتٍ مَّرْكُوْبَةٍ ۗ﴾ فَرَبِّكَ يَنْفَعُهُمْ اِيْسَابُهُمْ لَمَّا رَاُوْا اٰسَاتِنَا﴾ [المؤمن: ٨٤، ٨٥] وهذا يدل على ضعف ما احتج به ابن جرير في رد هذا القول، حيث قال: ولو كان المراد بهذه الآية هذا لكان كل من آمن بمحمد ﷺ أو بالمسيح ممن كفر بهما يكون على دينهما وحينئذٍ لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه، لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته. فهذا ليس بجيد، إذ لا يلزم من إيمانه في حالة لا يتفهمه إيمانه أنه يصير بذلك مسلماً. ألا ترى قول ابن عباس: ولو تردى من شاهق، أو ضرب بالسيف، أو افترسه سبع، فإنه لا بد أن يؤمن بعيسى! فالإيمان به في هذه الحال ليس بنافع ولا ينقل صاحبه عن كفره، لما قمنا والله أعلم. ومن تأمل هذا جيداً وأمن النظر اتضح له أنه هو الواقع - لكن لا يلزم من أن يكون المراد بهذه الآية هذا بل المراد بها الذي ذكرناه من تقرير وجود عيسى ﷺ، وبقاء حياته في السماء، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه وتصادمت وتماكست وتناقضت وختلت عن الحق ففرط هؤلاء اليهود، وأفرط هؤلاء النصارى، تنقصه اليهود بما رموه به وأمه من العظائم، وأطراه النصارى بحيث ادعوا فيه ما ليس فيه، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً وتزهد وتقدم إلى إلا هو.

﴿لَنْ يَكُنَ الرَّسِيخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْتُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُسْتَضِينَ بِرَأْسِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضِينَ بِرَأْسِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضِينَ بِرَأْسِ اللَّهِ﴾

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَكُنَ الرَّسِيخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ قال ابن عباس: هذا استثناء لمؤمني أهل الكتاب، فأما الراسخون، فهم الثابتون في العلم. قال أبو سليمان: وهم عبد الله بن سلام، ومن آمن معه، والذين آمنوا من أهل الإنجيل ممن قَدِمَ مع جعفر من الحبشة، والمؤمنون، يعني أصحاب رسول الله. فأما قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ فهم القائمون بأدائها كما أمروا. وفي نصب «المقيمين» أربعة أقوال: أحدها: أنه خطأ من الكاتب، وهذا قول عائشة، وروي عن عثمان بن عفان أنه قال: إن في المصحف لحناً ستقيمه العرب بألسنتها^(١). وقد قرأ ابن مسعود، وأبي، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والجحدري: «والمقيمون الصلاة» بالواو. وقال الزجاج: قول من قال إنه خطأ، بعيد جداً، لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة، والقدوة، فكيف يتركون في كتاب الله شيئاً يُصلحُه غيرهم؟! فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم. وقال ابن الأباري: حديث عثمان لا يصح، لأنه غير متصل، ومحال أن يؤخر عثمان شيئاً فاسداً، ليُصلحَه من بعده^(٢). والثاني: أنه نسق على «ما» والمعنى: يؤمنون بما أنزل إليك، وبالمقيمين الصلاة، فقيل: هم الملائكة، وقيل: الأنبياء. والثالث: أنه نسق على الهاء والميم من قوله ﴿مِنْهُمْ﴾ فالمعنى: لكن الراسخون في العلم منهم، ومن المقيمين الصلاة يؤمنون بما أنزل إليك. قال الزجاج: وهذا رديء عند النحويين، لا ينسق بالظاهر المجرور على المضمَر المجرور إلا في الشعر. والرابع: أنه منصوب على المدح، فالمعنى: اذكر المقيمين الصلاة، وهم المؤتون الزكاة. وأنشدوا:

لَا يَنْبَعِدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُ
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مَعْتَرِكٍ
سُمُّ الْعُدَاةِ وَأَنْفُ الْجُزُرِ
وَالطَّيِّبُونَ مَعَايِدَ الْأُزُرِ^(٣)

(١) قال السخاوي: هذا الأثر ضعيف، والإسناد فيه اضطراب واتقطاع، لأن عثمان رضي الله عنه جعل للناس إماماً يقتدون به، فكيف يرى فيه لحناً ويتركه لتقيمه العرب بالسنتها؟ وقد كتب مصاحف سبعة، وليس فيها اختلاف قط إلا فيما هو من وجوه القراءات، وإذا لم يقمه هو ومن باشر الجمع، كيف يقمه غيرهم؟ وقد نقل ابن هشام في شرح «شذور الذهب» ٥٠ عن الإمام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه الله أنه قال: وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ «إِنْ هَذَانِ» لحن، وأن عثمان رضي الله عنه قال: إن في المصحف لحناً ستقيمه العرب بالسنتها. وهذا خبر باطل لا يصح من وجوه. أحدها: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا ينسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات، فكيف يقررون اللحن في القرآن مع أنهم لا كلفة عليهم في إزالته. والثاني: أن العرب كانت تستقيح اللحن غاية الاستباح في الكلام، فكيف لا يستقبحون بقاءه في المصحف. والثالث: أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بالسنتها غير مستقيم، لأن المصحف الكريم يقف عليه العربي والمجمعي. والرابع: أنه قد ثبت في «الصحیح» أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب «التابوت» بالهاء على لغة الأنصار، فمنعه من ذلك، ورفعه إلى عثمان رضي الله عنه، فأمرهم أن يكتبوه بالثاء على لغة قريش. وقال الزمخشري: نصب على المدح لبيان فضل الصلاة، وهو باب واسع قد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد، ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً في خط المصحف، وربما نفتت إليه من لم ينظره في الكتاب، ولم يعرف مذاهب العرب، وما لهم من النصب على الاختصاص من الائتنان، وغبي عليه أن السابقين الأولين كانوا أبعدهم في الفيرة على الإسلام، وذنب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلثة ليسدها من بعدهم، وخرقاً يرفوه من يلحق بهم. وقد روى أبو جعفر الطبري الرواية التي نسبت إلى عائشة أم المؤمنين بقوله: فلو كان ذلك خطأ من الكاتب، لكان الواجب أن يكون في كل المصاحف غير مصحفنا الذي كتب لنا الكاتب الذي أخطأ في كتابه بخلاف ما هو في مصحفنا. وفي اتفاق مصحفنا ومصحف أبي في ذلك، ما يدل على أن الذي في مصحفنا من ذلك صواب غير خطأ مع أن ذلك لو كان خطأ من جهة الخط، لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول ﷺ يعلمون من علموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن، ولا صلحوا بالسنتهم، ولقنوه الأمة تعليماً على وجه الصواب، وفي نقل المسلمين جميعاً ذلك قراءة على ما هو به في الخط مرسوماً أدل الدليل على صحة ذلك وصوابه، وأن لا صنع في ذلك للكاتب.

(٢) انظر كلام الزجاج هذا وكلام ابن تيمية رحمهما الله على الآية في «مجموع فتاويه»؛ ١٥٣/١٥.

(٣) «مجاز القرآن» ١٤٣/١، و«سبويه» ١٠٤/١، و«الكامل» ٧٥١/٢، و«الأمالي» ١٥٤/٢، و«خزانة الأدب» ٣٠١/٢ وهما للخروج بنت هفان من قصيدة رثت بها زوجها بشر بن عمرو بن مرثد الضبيعي، وابنها علقمة بن بشر، وأخوها حسان وشرحيل، ومن قتل معه من قومه. قال البغدادي: وقولها: سم العداة. . السم: معروف وسبته مثلك. والعداة: الأعداء، جمع عاد، كقفاة: جمع قاض. حكى أبو زيد: أشتت الله عاصيك، أي: عدوك. ولا يكون «العداة» جمع عدو، لأن «عدواً» فعول، وفعول لا يجمع على فعلة، وإنما يجمع عليه فاعل المعتل اللام. والأعداء: جمع عدو، أجروا فعولاً مجرى فعيل كشراف وأشرف، وقد جمعوا أعداء على أعادي. والأفة: العلة. والجزر، بضم فسكون: جمع جزور، والأصل بضمين كرسول ورسول، فسكن الثاني تخفيفاً. والجزور: هي الناقة التي تنحر، فإن كانت من الغنم فهي جزرة بفتحين. وصفتهم أولاً بالشجاعة والنجدة، وأنهم يقتلون أعداءهم كما يقتلهم السم، وثانياً بالكرم ونحر الإبل للأضياف، فكانهم أفة للإبل تصيبها فتلكها. والباء في «بكل»: ظرفية متعلقة بالنازليين. والمعترك، والمعرك، وموضع القتال، وهو مشتق من: عركت الرحى الحب: إذا طحنته، أرادوا أن موضع القتال: يطحن كما تطحن الرحى ما يحصل فيها. وقولها: النازليين بكل معترك. يعني أنهم ينزلون عن الخيل عند ضيق المعترك فيقاتلون على أقدامهم، وفي ذلك الوقت يتناحون: نزالي. وقولها: =

وهذا على معنى: اذكر النازلين، وهم الطييون، ومن هذا قولك: مرتت يزيد الكريم، إن أردت أن تخلصه من غيره، فالخفض هو الكلام، وإن أردت المدح والثناء، فإن شئت نصبت، فقلت: يزيد الكريم، كأنك قلت: اذكر الكريم، وإن شئت رفعت على معنى: هو الكريم. وتقول: جاني قومك المطعمين في المنحل، والمغيثون في الشدايد على معنى: اذكر المطعمين، وهم المغيثون، وهذا القول اختيار الخليل، وسيبويه. فهذه الأقوال حكاها الزجاج، واختار هذا القول.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّوِيِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: قال عدي بن زيد، وسكين: يا محمد ما نعلم الله أنزل على بشرٍ من شيءٍ بعد موسى، فنزلت هذه الآية^(١). وقد ذكرنا في «آل عمران» معنى الوحي، وذكر هنالك. وإسحاق: أعجمي، وإن وافق لفظ العربي، يقال: أسحقه الله يسحقه إسحاقاً، ويعقوب: أعجمي. فأما يعقوب، وهو ذكر الحجل وهي القبيح^(٢) فعربي، كذلك قرأته على شيخنا أبي منصور اللغوي^(٣). وأيوب: أعجمي، ويونس: اسم أعجمي. قال أبو عبيدة، يقال: يُونس ويونس بضم النون من غير همز لغة أهل الحجاز، وبعض بني أسد يقول: يُونس الكسرة والضمّة والفتحة. وقال الفراء: يونس بضم النون من غير همز لغة أهل الحجاز، وبعض بني أسد يقول: يُونس بالهمز، وبعض بني عُقيل يقول: يونس بفتح النون من غير همز. والمشهور في القراءة يُونس برفع النون من غير همز. وقد قرأ ابن مسعود، وقتادة، ويحيى بن يعمر، وطلحة: يونس بكسر النون مهموزاً. قرأ أبو الجوزاء، وأبو عمران، والجحدري: يُونس بفتح النون من غير همز. وقرأ أبو المتوكل: يونس بفتح النون مهموزاً. وقرأ أبو السّمك العدوي: يونس بكسر النون من غير همز. وقرأ عمرو بن دينار برفع النون مهموزاً. وهارون: اسم أعجمي، وباقي الأنبياء قد تقدم ذكرهم. فأما الزبور، فأكثر القراء على فتح الزاي، وقرأ أبو رزين، وأبو رجاء، والأعمش، وحزمة بضم الزاي. قال الزجاج: فمن فتح الزاي، أراد: كتاباً، ومن ضم، أراد: كُتِباً. ومعنى ذكر «داود» أي: لا تنكروا تفضيل محمد بالقرآن، فقد أعطى الله داود الزبور. وقال أبو علي: كأن حمزة جعل كتاب داود أنحاء، وجعل كلُّ نحو زبراً، ثم جمع، فقال: زُبوراً. وقال ابن قتيبة: الزُّبُورُ فَعُولٌ بمعنى مفعول، كما تقول: حلوب وركوب بمعنى: محلوب ومركوب، وهو من قولك: زبرت الكتاب أزره زبراً: إذا كتبت، قال: وفيه لغة أخرى: الزُّبُور بضم الزاي، كأنه جمع^(٤).

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْوِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْوِيمًا﴾ تأكيد كَلَّمَ بالمصدر يدل على أنه سمع كلام الله حقيقة. روى أبو سليمان الدمشقي، قال: سمعت إسماعيل بن محمد الصفار يقول: سمعت ثعلباً يقول: لولا أن الله تعالى أكّد الفعل بالمصدر،

والطييون. أرادت أنهم أعفاء في فروجهم، لأن العرب تكني بالشيء عما يحويه أو يشتمل عليه، كقولهم: ناصح الجيب، يريدون الفؤاد، فكنا عنه بالجيب الذي يقع عليه أو قريباً من. قال ابن خلف: إذا وصفوا الرجل بطهارة الإزار وطيه، فهو إشارة وكناية عن عفة الفرج، يراد أنه: لا يعقد إزاره على فرج زانية وكذلك طهارة الذليل. وإذا وصف بطهارة الكم أو الرदन وهو الكم بعينه: أرادوا أنه لا يسرق ولا يخون وإذا وصفوه بطهارة الجيب: أرادوا أن قلبه لا ينطري على غش ولا مكروه، وقد يكون عن عفة الفرج طيب الحجة كما قال النابغة:

رقاق النسمال طيب حجزاتهم يحييون بالريحان يوم السباسب

(١) مسيرة ابن هشام ١/٥٦٢، وابن جرير ٩/٤٠٠، وفي سننه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، ذكره ابن حبان في «الثقات» وقال الذهبي: لا يعرف. وسكين بن أبي سكين، وعدي بن زيد بن بني قتيقاع، ذكرهم ابن هشام في «السيرة» في الأعداء من يهود.

(٢) في «اللسان» ٢/٣٥١: القبيح: الحجل، والقبيح: الكروان مغرب، وهو بالفرنسية كبيج مغرب، القاف والجيم لا يجتمعان في كلمة واحدة من كلام العرب، والقبجة: تقع على الذكر والأنثى حتى تقول: يعقوب، يختص بالذكر، لأن الهاء إنما دخلته على أنه الواحد من الجنس، وكذلك النعام حتى تقول: ظليم، والنحلة حتى تقول: يعسوب.

لجاز أن يكون كما يقول أحدنا للآخر: قد كلمتُ لك فلاناً بمعنى: كتبت إليه رقعة، أو بعثت إليه رسولاً، فلما قال: تكلماً لم يكن إلا كلاماً مسموعاً من الله^(١).

﴿رُسُلًا مُّبْتَلِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ أي: لئلا يحتجوا في ترك التوحيد والطاعة بعدم الرسل، لأن هذه الأشياء إنما تجب بالرُّسل^(٢).

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَنْهَىٰ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ دخل على جماعة من اليهود، فقال: «إني والله أعلم أنكم لتعلمون أنني رسول الله»، فقالوا: ما نعلم ذلك، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس^(٣). والثاني: أن رؤساء أهل مكة أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: سألنا عنك اليهود، فزعموا أنهم لا يعرفونك، فأتنا بمن يشهد لك أن الله بعثك، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن السائب. قال الزجاج: الشاهد: الميِّن لما يشهد به، فالله ﷻ بين ذلك، ويعلم مع إباته أنه حق. وفي معنى ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنزله وفيه علمه، قاله الزجاج. والثاني: أنزله من علمه، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والثالث: أنزله إليك يعلم منه أنك خيرته من خلقه، قاله ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ﴾ في قولان: أحدهما: يشهدون أن الله أنزله. والثاني: يشهدون بصدقك^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ قال الزجاج: «الباء» دخلت مؤكدة. والمعنى: اكتفوا بالله في شهادته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال مقاتل وغيره: هم اليهود كفروا بمحمد، وصدوا الناس عن الإسلام، قال أبو سليمان: وكان صدُّهم عن الإسلام قولهم للمشركين ولأتباعهم: ما نجد صفة محمد في كتابنا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا﴾ إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يبيِّرا

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ قال مقاتل وغيره: هم اليهود أيضاً كفروا بمحمد والقرآن. وفي الظلم المذكور هاتنا قولان: أحدهما: أنه الشرك، قاله مقاتل. والثاني: أنه جحدهم صفة النبي محمد ﷺ في كتابهم.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يريد من مات منهم على الكفر. وقال أبو سليمان: لم يكن الله ليستر عليهم قبيح فعالهم، بل يفضحهم في الدنيا، ويعاقبهم بالقتل والجلد والسبي، وفي الآخرة بالنار ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا﴾ ينجون فيه. وقال مقاتل: طريقاً إلى الهدى ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ يعني كان عذابهم على الله هيناً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

(١) وفي «القرطبي» ١٨/٦: قال النحاس: وأجمع التحويين على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً وأنه لا يجوز في قول الشاعر:

استملا الحورس وقال قطنيني

أن يقول: قال قولاً، فكذا لما قال: «تكلماً» وجب أن يكون كلاماً على الحقيقة من الكلام الذي يعقل.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» ٣٣٧/١٣، ومسلم ٢١١٤/٤ واللفظ له عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد أحب إليه الملح من الله ﷻ من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل».

(٣) «سيرة ابن هشام» ٢١١/٢، وابن جرير ٤٠٩/٩ عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من يهود، فقال لهم: «إني والله أعلم أنكم لتعلمون أنني رسول الله ﷻ» فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله ﷻ ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَنْهَىٰ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ و زاد السيوطي نسبه في «الدر» ٢٤٨/٢ إلى ابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل». قلت: وفي سننه محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول كما تقدم.

(٤) في «الأحمدية»: بصدق.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الكلام عام، وروي عن ابن عباس أنه قال: أراد المشركين. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالهدى، وبالصدق.

قوله تعالى: ﴿فَقَامُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾^(١) قال الزجاج عن الخليل وجميع البصريين: إنه منصوبٌ بالحمل^(٢) على معناه، لأنك إذا قلت: انته خيراً لك، وأنت تدفعه عن أمرٍ فتدخله في غيره، كان المعنى: انته وأت خيراً لك، وادخل في ما هو خير لك. وأنشد الخليل وسيبويه قول عمر بن أبي ربيعة:

فواعديه سَرَحْتَنِي مَالِك

أَو الرُّبَا بَيْنَهُمَا أَسْهَلًا^(٣)

كانه قال: إيتي مكاناً أسهل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو غني عنكم، وعن إيمانكم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما يكون من إيمان أو كفر ﴿حَكِيمًا﴾ في تكليفكم مع علمه بما يكون منكم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا ابْنُ مَرْيَمَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ قال مقاتل: نزلت في نصارى نجران، السيد والعاقب، ومن معهما. والجمهور على أن المراد بهذه الآية: النصارى. وقال الحسن: نزلت في اليهود والنصارى. والغلو: الإفراط ومجاوزة الحد، ومنه غلا السعير. وقال الزجاج: الغلو: مجاوزة القدر في الظلم. وغلو النصارى في عيسى: قول بعضهم: هو الله، وقول بعضهم: هو ابن الله، وقول بعضهم: هو ثالث ثلاثة. وعلى قول الحسن غلو اليهود فيه قولهم: إنه لغير ردة. وقال بعض العلماء: لا تغلوا في دينكم بالزيادة في التشدد فيه^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: لا تقولوا: إن الله له شريك أو ابن أو زوجة. وقد ذكرنا معنى «المسيح» والكلمة في (آل عمران). وفي معنى «رُوحٌ مِنْهُ» سبعة أقوال: أحدها: أنه رُوحٌ من أرواح الأبدان. قال أبي بن كعب: لما أخذ الله الميثاق على بني آدم كان عيسى روحاً من تلك الأرواح، فأرسله إلى مريم، فحملت به. والثاني: أن الروح النفخ، فسُمي روحاً، لأنه حدث عن نفخة جبريل في درع مريم. ومنه قول ذي الرمة:

(١) وفي «مجاز القرآن» ١/١٤٣: ﴿فَقَامُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ نصب على ضمير جواب «يكن خيراً لكم» وكذلك كل أمر ونهي. قلت: ويريد بقوله: «ضمير» الإضمار الذي هو المصدر، لا بمعنى المضمر في اصطلاح النحاة.

(٢) في «الأحمدية» على الحمل.

(٣) «ديوانه» ٣٤٩ وروايته فيه:

أَوْ ذَا الَّذِي بَيْنَهُمَا أَسْهَلًا

وواعديه سَرَحْتَنِي مَالِك

وسيبويه، ١/١٤٣، و«الخرزانه» ١/٢٨٠، و«ابن جرير» ٩/٤١٥. قال الأعمش: الشاهد فيه نصب أسهل بإضمار فعل دل عليه ما قبله، لأنه لما قال: «فواعديه سرحتي مالك أو الربيا بينهما» علم أنه مزج لها داع إلى إتيان أحدهما، فكانه قال: إيتي أسهل الأمرين عليك. وهذا تفسيره على مقالة سيبويه. ونقل صاحب «الخرزانه» عن ابن خلف معناه أنها قالت لأمتها: واعدية الليلة أن يقصد السرحتين، ويلتصم مكاناً سهلاً يقرب من ذلك الموضع، لأنهما إذا علوا الربي عرف مكانهما وشنع أمرهما. و«أسهل»: أفضل: تفضيل من السهولة ضد الحزونة، والمفضل عليه محذوف تقديره: أسهل منهما. وسرحتا مالك: شجرتان لمالك، والسرحة: واحدة السرح، وهو كل شجر عظيم لا شوك له. والربي: جمع رهبة: المشرف من الأرض، وكانت الربي بين السرحتين.

(٤) قال ابن كثير رحمه الله: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإفراط، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه - ممن زعم أنه على دينه - فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال تعالى ﴿أَتَكْفُرُونَ أَفَكُلُّهُمْ رَبُّكُمُ وَمَكُنَّكُمْ رَبُّكُمُ إِنَّكُمْ كَوَّابُونَ﴾ [التوبة: ٣١] وروى الإمام أحمد ١/٢٢٦ عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله» ورواه البخاري: ٦/٣٣٥. قلت: قال الحافظ ابن حجر: وقوله: «لا تطروني» بضم أوله، والإفراط: المدح بالباطل، تقول: أطرت فلاناً: مدحته فأطرت في مدحه. وقوله: «كما أطرت النصارى ابن مريم» أي: في دعواهم فيه الإلهية وغير ذلك.

وَقُلْتُ لَهُ اَرْفَعَهَا إِلَيْكَ وَأَخِيهَا

هذا قول أبي روق. والثالث: أن معنى ﴿رُوحٌ مِنْهُ﴾ إنسان حي بإحياء الله له. والرابع: أن الروح: الرحمة، نعمته: ورحمة منه، ومثله ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. والخامس: أن الروح هاهنا جبريل. فالمعنى: ألقاها الله إلى مريم، والذي ألقاها رُوحٌ منه، ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو سليمان الدمشقي. والسادس: أنه سناه روحاً، لأنه يحيها به الناس كما يحيون بالأرواح، ولهذا المعنى سمي القرآن روحاً، ذكره القاضي أبو يعلى. والسابع: أن الروح: الوحي أوحى الله إلى مريم يبشرها به، وأوحى إلى جبريل بالنفخ في درعها، وأوحى إلى ذات عيسى أن: كن فكان. ومثله: ﴿يُرِزُّ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢] أي: بالوحي، ذكره الثعلبي. فأما قوله: «منه» فإنه إضافة تشريف، كما تقول: بيت الله، والمعنى من أمره، ومما يقاربه قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجن: ١٣]. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لَنَنصُرَهُ﴾ قال الزجاج: رفعه بإضمار: لا تقولوا ألقاها ثلاثة «إنما الله وحده» أي: ما هو إلا إله واحد «شككته» ومعنى «سبحانه»: تبرئته من أن يكون له ولد. قال أبو سليمان: ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: فيما على خلقه، مدبراً لهم.

﴿لَنْ يَسْتَنْصِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُرْسَلُونَ وَمَنْ يَسْتَنْصِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسَخَّرَ لَيْسَ خَيْرًا مِنْهُ جَمِيعًا﴾ قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْصِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ سبب نزولها: أن وفد نجران وفدوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد لم تذكر صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى، قال: وأي شيء أقول له؟ هو عبد الله، قالوا: بل هو الله، فقال: إنه ليس بعار عليه أن يكون عبداً لله، قالوا: بلى، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال الزجاج: معنى يستنصف: يأنف، وأصله في اللغة من نكفت الدمع: إذا نحته بأصبعك من خدك. قال الشاعر:

فبانوا فلولا ما تذكروهم منهم

من الجلف لم ينكف لعينيك مذمعة^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُرْسَلُونَ﴾ قال ابن عباس: هم حملة العرش. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ دَعَاؤُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنصَفُوا فَاسْتَكَرُوا فَأَعْدَبَهُمْ عَدَابًا أَلِيمًا وَلَا يَخْدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَبِئْسَ لِلظَّالِمِينَ حَكِيمًا﴾ قوله تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مضاعفة الحسانات. وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ قال: يدخلون الجنة، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا^(٣).

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾

(١) «ديوانه» ص ٢٤٦، وابن جرير ٤٢٠/٩، و«اللسان» مادة «روح» من جملة آيات نعت بها النار وقبل البيت:

فلما بدت كأنها وهي طفلة
بطلساء لم تكمل فراصاً ولا شبراً
وقلت... البيت وبعدة:

وظاهر لها من يابس الشُّخْتِ واستمن
ولما تنمَّتْ تَأْكُلُ الرُّمَّ لَمْ تَدْعُ
فلما جَرَّتْ نسي الجزل جريماً كأنه

وقوله: ارفعها إليك. أي: قال لصاحبه: خلها بيدك، وارفعها إلى فمك، ثم أحبها بروحك أي: انفخ لها نفخاً يسيراً، واقته لها قينة قدراً، يأمره بالرفق والنفخ القليل شيئاً شيئاً، كأنه جعل النفخ قوتاً لهذه النار، يقدر لها تقديراً شيئاً بعد شيء حتى تكتمل.

(٢) «اللسان» ٣٤٠/٩، و«تاج العروس» ٢٦١/٦ ولم ينسبه لقال. وفي «التلخيص»: فماتوا. وانظر كلام الزجاج في «القرطبي» ٢٦١/٦.

(٣) في «الدر المنثور» ٢٤٩/٢: وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، والإسماعيلي في «معجمه» بسند ضعيف عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: أجورهم: يدخلهم الجنة. ويزيدهم من فضله: الشفاعة فيمن وجبت لهم النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا. وذكره ابن كثير عن ابن مردويه، ثم قال: وهذا إسناد لا يثبت، وإذا روي عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد. وفي «المعجم» ١٣/٧: رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير»، وفيه إسماعيل بن عبد الله الكندي ضعفه الذهبي من عند نفسه، فقال: أتى بخبر منكر، وبقيته رجاله وثقوا. قلت: ذكره الذهبي في «الميزان» ١٠٩/١، وقال: روى عن الأعمش، وعنه بقية بخبر عجيب منكر. قلت: يريد به هذا الخبر.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في البرهان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحجة، قاله مجاهد، والسدي. والثاني: القرآن، قاله قتادة. والثالث: أنه النبي محمد ﷺ، قاله سفيان الثوري. فأما النور المبين، فهو القرآن، قاله قتادة، وإنما سماه نوراً، لأن الأحكام تبين به بيان الأشياء بالنور.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَتِي وَتَهْتَدِي بِهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: استمسكوا. وفي هاء «به» قولان: أحدهما: أنها تعود إلى النور وهو القرآن، قاله ابن جريج. والثاني: تعود إلى الله تعالى، قاله مقاتل. وفي «الرحمة» قولان: أحدهما: أنها الجنة، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنها نفس الرحمة، والمعنى: سيرحمتهم، قاله أبو سليمان. وفي «الفضل» قولان: أحدهما: أنه الرزق في الجنة، قاله مقاتل. والثاني: أنه الإحسان، قاله أبو سليمان.

قوله تعالى: ﴿وَيَهْتَدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ أي: يوفقههم لإصابة الطريق المستقيم. وقال ابن الحنفية: الصراط المستقيم: دين الله.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُنَبِّئُكُمْ فِي الْكَلْبَةِ إِنَّ آيَاتِنَا لَمَّا لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ وَلَكُؤُا أَخْتٌ فَلَهَا يَصِفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَكَ وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الْاُلْتَانِ بِنَا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَصِلُوا وَاللَّهُ يَكْتُبُ شَيْءٌ عَلَيْهِ ﴿١٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها نزلت في جابر بن عبد الله. روى أبو الزبير عن جابر قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ يعودني هو وأبو بكر [وهما ماشيان] فوجدني قد أعغمي علي، فتوضاً رسول الله ﷺ، ثم صب علي من وضوئه، فأفقت، وقلت: يا رسول الله كيف أصنع في مالي؟ وكان لي تسع أخوات، ولم يكن لي ولد. فلم يجبني بشيء، ثم خرج وتركني، ثم رجع إلي وقال: يا جابر لا أراك ميتاً من وجعك هذا، وإن الله ﷻ قد أنزل في أخواتك، وجعل لهن الثلثين، فقرأ علي هذه الآية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُنَبِّئُكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾ فكان جابر يقول: أنزلت هذه الآية في^(١). والثاني: أن الصحابة أهمتهم بيان شأن الكلاله فسألوا عنها نبي الله، فنزلت هذه الآية، هذا قول قتادة. وقال سعيد بن المسيب: سأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ كيف نورث الكلاله؟ فقال: «أو ليس قد بين الله تعالى ذلك، ثم قرأ: ﴿وَإِن كَانَتْ رِجَالٌ يُوْرِثُ كَلْبَةً﴾» فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُنَبِّئُكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِن آيَاتِنَا هَلْكَ﴾ أي: مات ﴿لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ﴾ يريد: ولا ولد؛ فاكتفى بذكر أحدهما، ويدل على المحذوف أن الفتيا في الكلاله، وهي من ليس له ولد ولا والد.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُؤُا أَخْتٌ﴾ يريد من أبيه وأمه ﴿فَلَهَا يَصِفُ مَا تَرَكَ﴾ عند انفرادها ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ أي: يستغرق ميراث الأخت إذا لم يكن لها ولد ولا والد، وهذا هو الأخ من الأب والأم، أو من الأب ﴿إِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ يعني: أختين. وسئل الأخض ما فائدة قوله «اثنتين» و«كانتا» لا يُفسر إلا باثنتين؟ فقال: أفادت العدد العاري عن الصفة، لأنه يجوز في «كانتا» صغيرتين، أو حرتين، أو صالحتين، أو طالحتين، فلما قال: «اثنتين» فإذا إطلاق العدد على أي وصف كانتا عليه ﴿فَلَهُمَا الْاُلْتَانِ﴾ من تركه أخيهما الميت ﴿وَإِن كَانُوا﴾ يعني المخلفين.

قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَصِلُوا﴾ قال ابن قتيبة: لتلا تصلوا. وقال الزجاج: فيه قولان: أحدهما: أن لا تصلوا، فأضمرت لا. والثاني: كراهية أن تصلوا، وهو قول البصريين. قال ابن جريج: أن تصلوا في شأن الموارث.

(١) أبو داود: ١٦٤/٣، والطالسي في «مسنده» ١٧/٢، و«ابن جرير» ٤٣٢/٩، والبيهقي في «السنن» ٢٣١/٦. وروى مسلم في «صحيحه» ١٢٣٤/٣ عن جابر بن عبد الله قال: مرضت، فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمي علي، فتوضاً، ثم صب علي من وضوئه فأفقت قلت: يا رسول الله! كيف أقضي في مالي؟ فلم يرده علي شيئاً حتى نزلت آية الميراث ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُنَبِّئُكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾ وروى البخاري: ١٨٢/٨، ومسلم: ١٢٣٥/٣ عن جابر ﷺ قال: عادني النبي ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل، فدعا بماء فتوضاً منه، ثم رش علي فأفقت، قلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَصِلُوا﴾.

(٢) أخرجه ابن جرير ٤٣١/٩، وهو حديث مرسل، وفي سننه سفيان بن وكيع شيخ الطبري وهو ضعيف.

سورة المائدة (١)

قال ابن عباس، والضحاك: هي مدينة. وقال مقاتل: نزلت نهاراً وكلها مدينة. وقال أبو سليمان الدمشقي: فيها من المكي ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ قال: وقيل: فيها من المكي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ والصحيح أن قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ نزلت بعرفة يوم عرفة، فلهذا نسبت إلى مكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ حِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾^(١) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اختلفوا في المخاطبين بهذا على قولين: أحدهما: أنهم المؤمنون من أمتنا، وهذا قول الجمهور. والثاني: أنهم أهل الكتاب، قاله ابن جريج. و«العقود»: العهود، قاله ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة، والضحاك، والسدي، والجماعة. وقال الزجاج: «العقود»: أوكد العهود. واختلفوا في المراد بالعهود هاهنا على خمسة أقوال: أحدها: أنها عهود الله التي أخذها على عباده فيما أحلّ وحرم، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنها عهود الدين كلها، قاله الحسن. والثالث: أنها عهود الجاهلية، وهي الحلف الذي كان بينهم، قاله قتادة. والرابع: أنها العهود التي أخذها الله على أهل الكتاب من الإيمان بالنبي محمد ﷺ، قاله ابن جريج، وقد ذكرنا عنه أن الخطاب للكتابين. والخامس: أنها عقود الناس بينهم، من بيع، ونكاح، أو عقد الإنسان على نفسه من نذر، أو يمين، وهذا قول ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ في بهيمة الأنعام ثلاثة أقاويل: أحدها: أنها أجنّة الأنعام التي توجد ميتة في بطون أمهاتها إذا ذبحت الأمهات، قاله ابن عمر، وابن عباس^(٢). والثاني: أنها الإبل، والبقر، والغنم، قاله الحسن، وقتادة، والسدي. وقال الربيع: هي الأنعام كلها. وقال ابن قتيبة: هي الإبل، والبقر، والغنم، والوحوش كلها. والثالث: أنها وحوش الأنعام كالظباء، وبقر الوحش، وروي عن ابن عباس، وأبي صالح. وقال الفراء: بهيمة الأنعام: بقر الوحش، والظباء، والحمر الوحشية. قال الزجاج: وإنما قيل لها بهيمة، لأنها أبهمت عن أن تميّز، وكل حي لا يميّز فهو بهيمة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: هي الميتة وسائر ما في القرآن تحريمه. وقال ابن الأنباري: المتلو علينا من المحظور الآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَسَةُ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ حِلِّي الصَّيْدِ﴾ قال أبو الحسن الأخفش: أوفوا بالعقود غير محلي الصيد، فانتصب على الحال. وقال غيره: المعنى: أحث لكم بهيمة الأنعام غير مستحلي اصطياها وأنتم حرم، قال الزجاج: الحرم: المحرمون، وواحد الحرم: حرام، يقال: رجل حرام، وقوم حرم. قال الشاعر:

(١) روى الحاكم في «المستدرک» ٢/٣١١ عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة رضي الله عنها، فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ قلت: نعم، قالت: أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرموه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وواقفه الذهبي، ورواه الإمام أحمد وزاد: «وسألتهما عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: القرآن».

(٢) في الحديث عن النبي ﷺ قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمه» رواه أبو داود ١٣٦/٣، والترمذي ١٧٨/١، وابن ماجه ١٠٦٧/٢ من حديث جابر وهو حديث صحيح. وفي «المغني» ٥١/١١: إذا خرج الجنين ميتاً من بطن أمه بعد ذبحها أو وجده ميتاً في بطنها، أو كانت حركته بعد خروجه كحركة المذبوح فهو حلال. روي هذا عن عمر وعلي وبه قال سعيد بن المسيب، والنخعي، والشافعي، وإسحاق وابن المنذر.

(٣) وفي «القرطبي» ٦/٣٥: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: يقرأ عليكم في القرآن والسنة من قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَسَةُ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام: «وكل ذي ناب من السباع حرام».

فقلت لها فينسي إليك فانسي

حرام وإنسي بعد ذلك لبيب^(١)

أي: ملب. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: الخلق له يحل ما يشاء لمن يشاء، ويحرم ما يريد على من يريد. ﴿يَكْفِيكَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُحِلُّوا شَعْبَكَ اللَّهُ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْمَدَىٰ وَلَا أَلْقَتَهُ وَلَا آتَيْنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَتَتَوَّؤْنَ فَعَلًا مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَمَتُونَا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَفَاؤُ قَوْمٍ أَن صَدَّقْتُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالْقَوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالْمَدَدَيْنِ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعْبَكَ اللَّهُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن شريح بن ضبيعة^(٢) أتى المدينة، فدخل على النبي ﷺ، فقال: إلى ما تدعو؟ فقال: «إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله»، فقال: إن لي أمراء خلفي أرجع إليهم أشاورهم، ثم خرج، فقال النبي ﷺ: «لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقبى غادر، وما الرجل بمسلم»، فمر شريح بسرح لأهل المدينة، فاستاقه، فلما كان عام الحُدبية، خرج شريح إلى مكة معتمراً، ومعه تجارة، فأراد أهل السرح أن يغيروا عليه كما أغار عليهم، فاستأذنوا رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٣). وقال السدي: اسمه الحُطَمُ بن هند البكري^(٤). قال: ولما ساق السرح جعل يرتجز:

قَدْ لَقَّيْنَا اللَّيْلَ بِسَوَاقِي حُطَمٍ

ليس براعي إبل ولا غنم

وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمٍ

باتوا نياماً وابنٌ هندی لم ينم

بَات يُقَاسِمُهَا غِلَامٌ كَالرَّزْمِ

خَدَلَجُ السَّاقِينِ مَسْوُوحُ الْقَدَمِ^(٥)

(١) البيت للمضرب بن كعب بن زهير بن أبي سلمى، وهو في «مجاز القرآن» ١/١٤٥، و«السمط» ٢/٧٩١، و«الاقطاب» ٤٧٥، و«شرح أدب الكاتب» للجواليقي ٤١١، و«القرطبي» ٦/٣٦٦. قال البليوي: سمي المضرب، لأنه شب بامرأة، فغار أخوها لذلك، فضربه بالسيف ضربات عديدة، ويروى لثيل بن الصامت المري ويعد:

فَصَدَّتْ بِمَيْتِي شَادِي وَتَبَسَّمَتْ

بِمَجْفَاءٍ عَنِ غُرْلِهِنَّ غُرُوبٍ

وأراد بالفر: أسنانها، والغروب: جمع غرب، وهو حد الأسنان. وصف أن محبوبته لقيها وهو محرم ملب، فتورع عن الكلام معها، ومعنى «فيشي»: ارجعي. و«الحرام»: المحرم. و«البيب» هاتنا بمعنى: ملب وهو نادر، لأن فعلاً لا يستعمل بمعنى «مفعول». و«بعد» بمعنى: «مع» وقوله: «فيشي إليك» أمر بعد أمر على معنى التأكيد في إبعادها عن نفسه.

(٢) في «أسباب النزول» للواحدي: ضبيع الكندي.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص ١٠٧ عن ابن عباس بدون سند.

(٤) رواية السدي هذه أخرجه ابن جرير ٩/٤٧٢. ورواه أيضاً ابن جرير، وابن المنذر من طريق عكرمة.

(٥) الرجز في «الأغانى» ١٤/٤٤، و«حماصة» أبي تمام ١/٣٥٤، و«رغبة الأمل» ٤/٧٥، و«البيان والتبيين» ٢/٣٠٨. وقد اختلفوا في نسبة هذا الشعر اختلافاً كثيراً، فنسب في «الحماصة» لرشيد بن رميض العنزي، ونسب أيضاً للأغلب المجلي، وللأخض بن شهاب، ولجابر بن حني التغلبي، وانظر «السمط» ٧٢٩، ولعل الحطم أشده مدحاً لنفسه فيما فعل من سوق السرح. وقبل هذا الرجز:

هَذَا أَرَاؤُا الشُّدِّ فَاشْتَدُّتْهُي زَيْمٌ

قال المروزقي: وزيم اسم فرس، وقوله: قد لفها. يريد الإبل، وجعل الفعل لليل على المجاز. والمعنى: جمعها برجل متناهي القوة، عنيف السوق، يكسر الطرائد بعضاً على بعض، لقله رفقه وكثرة ضعفه، ولأنه قليل الفكر فيها إذا كانت حصلت بالغايرة، فإن سلمت فهي غنم، وإن تلفت فليست بخرم، فالعروض منها بالقرب. وقوله: الحطم: بناء للمبالغة، وهو من الحطم: الكسر. وقوله:

لَيْسَ بِرَاعِيِ إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ

ولا بجزارٍ على ظهرٍ وضَمٍ

يقول: لا يرفق هذا الرجل بوساقه رفق الرعاة، ولا رفق الجزار، وذلك أن الراعي مكترى لاستصلاح مرعيه، وحفظ ما ضم إليه بجهد، والجزار لا يستهلك ماله، ولا يعنف من لا يبالي به، وهذا صفة المغوار، القليل الفكر في فساد ما يحويه منها، الذاهب عن استبقائها، لا يبالي كيف استوسقت، على أي حالة تحصلت. وقوله: باتوا نياماً... يقول: مكث الناس النائمين في ليهم، وهذا الرجل لم ينم، لأنه كان يبت للغارة، ثم قال: بات يقاسيها أي: يعاني الغارة كيف يوقعها ويديرها، متى يأخذ فيها غلام مدحج الخلق، خفف ثقف مشمس، كأنه قدح. يعني ابن هند والزلم، بفتح الزاي وضما: القدح كان يتقسم به. قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَنْزَلِ﴾. ويجوز أن يكون المضمرون في «باتوا» المغار عليهم. وقوله: خدج الساقين، يصفه بأنه غليظ الساقين، ولوطه الأرض صوت، ولقدهم خفق، وهو سرعة الخطو مع ضرب الأرض بها، كأنه يشير بهذا إلى ثباته وقوته في العمل والسير، وشدة بلائه وصبره على الكد. وقال الأستاذ محمود شاکر: وخدج الساقين: ممتلئ الساقين، وهذا غير حسن في الرجال، وإنما صواب روايته ما رواه ابن الأعرابي:

سَهْفَهُ الْكَشْحِينَ خَفَاقِ الْقَدَمِ

أي: ضامر أخضر، وخفاق القدم: لأقدامه خفق متتابع على الأرض من سرعته وهو يحدو بالإبل. ورواية المصنف «مسوح القدم» أي: ليس لباطن قدميه أخمص، فأسفل قدميه مستو أملس لين، ليس فيهما تكسر ولا شقاق.

والثاني: أن ناساً من المشركين جاؤوا يؤمون البيت يوم الفتح مهلين بعمرة، فقال المسلمون: لا ندع هؤلاء بل نغير عليهم، فنزل قوله: ﴿وَلَا يَأْتِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾^(١). قال ابن قتيبة: وشعائر الله: ما جعله الله علماً لطاعته. وفي المراد بها هاهنا سبعة أقوال: أحدها: أنها مناسك الحج، رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال الفراء: كانت عامة العرب لا يرون الصفا والمروة من الشعائر، ولا يطوفون بينهما، فقال الله تعالى: لا تستحلوا ترك ذلك. والثاني: أنها ما حرم الله تعالى في حال الإحرام، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: دين الله كله، قاله الحسن. والرابع: حدود الله، قاله عكرمة، وعطاء. والخامس: حرم الله، قاله السدي. والسادس: الهدايا المشعرة لبيت الله الحرام، قاله أبو عبيدة، والزجاج. والسابع: أنها أعلام الحرم، نهاهم أن يتجاوزوها غير محرمين إذا أراوا دخول مكة، ذكره الماوردي، والقاضي أبو يعلى^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُحِلُّوا الْقِتَالَ فِيهِ﴾ قال ابن عباس: لا تُحِلُّوا القتال فيه. وفي المراد بالشهر الحرام ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ذو القعدة، قاله عكرمة، وقناة. والثاني: أن المراد به الأشهر الحرم. قال مقاتل: كان جنادة بن عوف يقوم في سوق عكاظ كل سنة فيقول: ألا إني قد أحللت كذا، وحرمت كذا. والثالث: أنه رجب، ذكره ابن جرير الطبري. والهدى: كل ما أهدى إلى بيت الله تعالى من شيء. وفي القلائد قولان: أحدهما: أنها المقلدات من الهدى، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنها ما كان المشركون يقلدون به إبلهم وأنفسهم في الجاهلية، ليأمنوا به عدوهم، لأن الحرب كانت قائمة بين العرب إلا في الأشهر الحرم، فمن لقوه مقلداً نفسه، أو بغيره، أو مشعراً بدينه أو سابقاً هدياً لم يتعرض له. قال ابن عباس: كان من أراد أن يسافر في غير الأشهر الحرم، قلد بغيره من الشعر والوبر، فيأمن حيث ذهب. وروى مالك بن ميمون^(٣) عن عطاء قال: كانوا يقلدون من لحاء شجر الحرم، فيأمنون به إذا خرجوا من الحرم. فنزلت هذه الآية^(٤). وقال قتادة: كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من السمر، فلم يعرض له أحد، وإذا رجع تقلد قلادة شعر، فلم يعرض له أحد^(٥). وقال الفراء: كان أهل مكة يقلدون بلحاء الشجر، وسائر العرب يقلدون بالوبر والشعر. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: لا تستحلوا المقلدات من الهدى. والثاني: لا تستحلوا أصحاب القلائد. والثالث: أن هذا نهى للمؤمنين أن ينزعوا شيئاً من شجر الحرم، فيقلدوه كما كان المشركون يفعلون في جاهليتهم، رواه عبد الملك عن عطاء، وبه قال مطرف، والربيع بن أنس^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ «الآم»: القاصد، والبيت الحرام: الكعبة، والفضل: الربح في التجارة، والرضوان من الله يطلبونه في حجهم على زعمهم. ومثله قوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَيْكَ الْوَلَّى﴾ [طه: ٩٧] وقيل: ابتغاء الفضل عام، وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ لفظه لفظ الأمر، ومعناه الإباحة، نظيره ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وهو يدل على إحرام متقدم^(٧).

- (١) أخرجه ابن جرير ٤٧٤/٩: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد...
- (٢) رجع ابن جرير الطبري ما ذهب إليه عطاء من قوله - حين سئل عن شعائر الله -: حرمت الله، اجتناب سخط الله، واتباع طاعته، فذلك شعائر الله.
- (٣) في «الأحمدية» «معول» وهو تصحيف. ومالك هنا ثقة، روى له الجماعة، مترجم في «التهذيب» ٢٢/١٠.
- (٤) ابن جرير ٤٦٨/٩ وفي سننه سفيان بن وكيع، وهو ضعيف. و«اللحاء» بكسر اللام: قشر الشجرة.
- (٥) ابن جرير ٤٦٨/٩ وإسناده صحيح. والسمر، بفتح السين وضم الميم: ضرب من الشجر، صفار الورق، قصار الشوك، وله برمة صفراء يأكلها الناس، وليس في الغضاء شيء أجود خشياً منه، ينقل إلى القرى فتغشى به البيوت. وقوله: «تقلد من السمر» يريد قشره.
- (٦) اختار ابن جرير أن الله نهى عن استحلال حرمة المقلد، هدياً كان أو إنساناً دون حرمة القلادة، فمعنى الآية على ما اختاره: يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله، ولا الشهر الحرام، ولا الهدى، ولا المقلد نفسه بقلائد الحرم.
- (٧) قال ابن كثير ٥/٢: وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي: فرغتم من إحرامكم، وأحللتم منه، فقد أباحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد، وهذا أمر بعد الحظر، والصحيح الذي يثبت على السبب أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً رده واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فمباح، ومن قال: إنه على الوجوب يتنقض عليه بآيات كثيرة، ومن قال: إنه للإباحة يرد عليه آيات أكثر، والذي يتنظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ وروى الوليد عن يعقوب «يجرمنكم» بسكون النون، وتخفيفها. قال ابن عباس: لا يحملنكم، وقال غيره: لا يدخلنكم في الجرم. كما تقول: آثمته، أي: أدخلته في الإثم. وقال ابن قتيبة: لا يكسبنكم يقال: فلان جارمٌ أهله، أي: كاسبهم، كذلك جريمته^(١). وقال الهذلي ووصف عقاباً:

جريمة ناهض في رأس زنيق

والناهض: فرخها، يقول: هي تكسب له، وتأتيه بقوته. و«الشنان»: البغض، يقال: شنته أشنؤه: إذا أبغضته. وقال ابن الأنباري: «الشنان»: البغض، و«الشنان» بتسكين النون: البغيض. واختلف القراء في نون الشنان، فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: بتحريكها، وأسكنها ابن عامر، وروى حفص عن عاصم تحريكها، وأبو بكر عنه تسكينها، وكذلك اختلف عن نافع. قال أبو علي: «الشنان»، قد جاء وصفاً، وقد جاء اسماً، فمن حرّك، فلأنه مصدر، والمصدر يكثر على فعلان، نحو التزوان، ومن سَكَن، قال: هو مصدر، وقد جاء المصدر على فعلان، تقول: لويته دينه لياناً، فالمعنى في القراءتين واحد، وإن اختلف اللفظان. واختلفوا في قوله: ﴿أَنْ صَدُوكُمْ﴾ فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالكسر، وقرأ الباقر بالفتح، فمن فتح جعل الصّد ماضياً، فيكون المعنى من أجل أن صدوكم، ومن كسرها، جعلها للشرط، فيكون الصّد مترقياً. قال أبو الحسن الأفش: وقد يكون الفعل ماضياً مع الكسر، كقوله: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَحٌ لَّهُ مِنْ بَيْتِ﴾ [يوسف: ٧٧] وقد كانت السرقة عندهم قد وقعت، وأنشد أبو علي الفارسي:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة

وَلَمْ تَجِدِي مِنْ أَنْ تُقْرِي بِهَا بُدَاً^(٢)

[فانتفاء الولادة أمر ماضٍ وقد جعله جزاء، والجزاء إنما يكون بالمستقبل، فيكون المعنى: إن نتسب لا تجدني مولود لئيمة^(٤)]. قال ابن جرير: وقراءة من فتح الألف آيين، لأن هذه السورة نزلت بعد الحديدية، وقد كان الصّد تقدّم. فعلى هذا في معنى الكلام قولان: أحدهما: ولا يحملنكم بغض أهل مكة أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا فيه، فتقاتلوهم، وتأخذوا أموالهم إذا دخلتموه، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: لا يحملنكم بغض أهل مكة، وصدّهم إياكم أن تعتدوا بإيائنا ما لا يحل لكم من الغارة على المعتمرين من المشركين، على ما سبق في نزول الآية.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَارُونًا عَلَى الْآيَةِ وَاللَّقَوِي﴾ قال الفراء: يُعِين بعضكم بعضاً. قال ابن عباس: البر ما أمرت به، و«التقوى»: ترك ما نهيت عنه. فأما «الإثم»: فالمعاصي. والمدوان: التعلّي في حدود الله، قاله عطاء^(٥).

(١) في الأحمدية: «حرمته» وهو خطأ.

(٢) البيت لأبي خراش الهذلي كما في «ديوان الهذليين» ١٣٣/٢، و«المعاني الكبير» ٢٨٠/١ و«غريب القرآن» ١٣٩، و«معجم مقاييس اللغة» ٤٤٦/١، و«اللسان»: مادة جرم وهو في وصف عقاب شبه فرسه بها وقوله:

كأنسي إذ غدّوا ضُمننتُ بزي

جريمة: كاسبة. وناهض: فرخ. والنيق: أرفع موضع في الجبل. والصليب: الدوك. وقال الأزهري في «التهذيب» عن هذا البيت: يصف عقاباً تصيد فرخها الناهض ما تأكله من لحم طير أكلته وبقي عظامه يسيل منها الدوك.

(٣) «معاني القرآن» للفراء ٦١/١، ١٧٨، و«ابن جرير» ١٦٥/٢، و«شذور الذهب» ٣٣٩، و«شواهد المغني» ٣٣. وهو لزائدة بن صمصمة الفقمسي يعرض بزوجه، وكانت أمها مصرية، وقيل البيت:

رمتني عن قوس العمدو وأعادت

و«الشاهد» فيه قوله: «إذا ما انتسبتا لم تلدني لئيمة» فإن ظاهره أن جواب الشرط، وهو قوله «لم تلدني» ماضٍ في المعنى وإن كان فعلاً مضارعاً في اللفظ، لكن هذا الظاهر غير مراد، لأن الشاعر يريد أن يقول: إننا إذا تفاخرنا بأنسابنا، تبين أني لم تلدني لئيمة.

(٤) ما بين معقنين من «معجم البيان» للطبرسي ١١/٦.

(٥) قال ابن كثير ٦/٢: وقوله تعالى ﴿وَتَمَارُونًا عَلَى الْآيَةِ وَاللَّقَوِي﴾ فإن ظاهره أن جواب الشرط، وهو قوله «لم تلدني» ماضٍ في المعنى وإن كان فعلاً مضارعاً في اللفظ، لكن هذا الظاهر غير مراد، لأن الشاعر يريد أن يقول: إننا إذا تفاخرنا بأنسابنا، تبين أني لم تلدني لئيمة.

(٥) قال ابن كثير ٦/٢: وقوله تعالى ﴿وَتَمَارُونًا عَلَى الْآيَةِ وَاللَّقَوِي﴾ فإن ظاهره أن جواب الشرط، وهو قوله «لم تلدني» ماضٍ في المعنى وإن كان فعلاً مضارعاً في اللفظ، لكن هذا الظاهر غير مراد، لأن الشاعر يريد أن يقول: إننا إذا تفاخرنا بأنسابنا، تبين أني لم تلدني لئيمة.

وترك المنكرات، وهو التقوى، وبينها من التناصر على الباطل، والتمازج على المآثم والمحارم. قال ابن جرير: الإثم: ترك ما أمر الله بفعله، والمدوان: مجاوزة ما حد الله في دينكم ومجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم. وقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال، قال رسول الله ﷺ: «اتصر أحاكم ظالماً أو مظلوماً، قيل يا رسول الله، هذا نصرت مظلوماً، فكيف أتصره إذا كان ظالماً؟ قال: تحجزه وتمنعه من الظلم، فذلك نصره» ورواه البخاري ٧١/٥، ومسلم ١٩٩٨/٤. وروى الإمام مسلم في «صحيحه» ١٥٠٦/٣ عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «من دأ حل خير فله مثل أجر فاعله». وروى الإمام مسلم أيضاً ٢٠٦٠/٤ عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها محكمة، روي عن الحسن أنه قال: ما نسخ من المائدة شيء، كذلك قال أبو ميسرة في آخرين قالوا: ولا يجوز استحلال الشعائر، ولا الهدى قبل أوان ذبحه. واختلفوا في «القلائد» فقال قوم: يحرم رفع القلادة عن الهدى حتى ينحر، وقال آخرون: كانت الجاهلية تقلد من شجر الحرم، فقيل لهم: لا تستحلوا أخذ القلائد من الحرم، ولا تصدوا الفاصدين إلى البيت. والثاني: أنها منسوخة، وفي المنسوخ منها أربعة أقوال: أحدها: أن جميعها منسوخ، وهو قول الشعبي. والثاني: أنها وردت في حق المشركين كانوا يقلدون هداياهم، ويظهرون شعائر الحج من الإحرام والتلبية، فنهى المسلمون بهذه الآية عن التعرض لهم، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وهذا قول الأكثرين. والثالث: أن الذي نسخ قوله: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ إِلَيْكَ الْمُرْتَدُّ﴾ نسخته قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَدَّ عَاهِمَهُمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨] روي عن ابن عباس، وفتادة. والرابع: أن المنسوخ منها: تحريم الشهر الحرام، وأتمون البيت الحرام: إذا كانوا مشركين. وهدي المشركين: إذا لم يكن لهم من المسلمين أمان، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ السَّيِّئَةُ وَالذَّمُّ وَغَمُّ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهَلَ لِعَبْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخِفَةُ وَالْمَوْوَدَةُ وَالْمُرْدِيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبَّحُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْقِسُوا بِالْأَنْزَلِ ذَلِكُمْ يَسْقُ الْيَوْمَ الْيَوْمِ نَبَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِيَارِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ وَدِيَارِكُمْ وَأَمْسَتْ عَلَيْكُمْ يَمَعِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ وَيَأْتِي فَمَنْ أَشْطَرُ فِي مَخْصَمَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾﴾
قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ السَّيِّئَةُ﴾^(١) مفسر في (البقرة)، فأما «المنخفة» فقال ابن عباس: هي التي تختنق فتموت، وقال الحسن، وفتادة: هي التي تختنق بحبل الصائد وغيره. قلت: والمنخفة حرام كيف وقع ذلك. قال ابن تيبية: «الموقوذة»: التي تضرب حتى توفد، أي: تشرف على الموت، ثم تترك حتى تموت، وتؤكل بغير ذكاة^(٢)، ومنه يقال: فلان وقيد، وقد وقذته العبادة. «المرتدية»: الواقعة من جبل أو حائط، أو في بشر، يقال: تردى: إذا سقط. «النطيحة»: التي تنطحها شاة أخرى، أو بقرة، «فعيلة» في معنى «مفعولة» ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبَّحُ﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو مجلز، وابن أبي ليلى: السَّبَّحُ: بسكون الباء. والمراد: ما اقتربه فأكل بعضه ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي: إلا ما لحقتم من هذا كله وبه حياة، فذبحتموه. فأما الاستثناء، ففيه قولان: أحدهما: أنه يرجع إلى المذكور من عند قوله: ﴿وَالْمُنْخِفَةُ﴾. والثاني: أنه يرجع إلى ما أكل السبع خاصة، والعلماء على الأول.

فصل في الذكاة

قال الزجاج: أصل الذكاة في اللغة: تمام الشيء، فمنه الذكاء في السن، وهو تمام السن. قال الخليل: الذكاء:

(١) يستننى من الميتة السمك فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيره، لما رواه مالك ٢٢/١، والشافعي ٢١/١، وأحمد ٢١٤/١، وأبو داود ٥٤/١، والترمذي ٩٦/١، والنسائي ١٧٤/١، وابن ماجه ١٣٦/١، وابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحهما» عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر، فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وكذلك الجراد لما روى الشافعي ١٧٣/٢، وأحمد ١٠٣/٨، وابن ماجه ١٠٧٣/٢، والدارقطني ٥٤٠، والبيهقي ٢٥٤/١ عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحل لكم ميتان ودمان، فأما الميتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكلب والطحال» وقد رواه سليمان بن بلال - أحد الأثبات - عن زيد بن أسلم عن ابن عمر فوقفه عليه، وصحح الموقوف أبو زرعة الرازي وأبو حاتم. قال الحافظ ابن حجر في «التلخيص» ٩: نعم الرواية الموقوفة التي صححها أبو حاتم وغيره هي في حكم المرفوع، لأن قول الصحابي: أحل لنا، وحرّم علينا كذا، مثل قوله: أمرنا بكذا ونهينا عن كذا، فيحصل الاستدلال بهذه الرواية، لأنها في معنى المرفوع.

(٢) في «صحيح مسلم» ١٥٢٩/٣ أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله إني أرمي بالمعرض الصيد فأصيب، قال: «إذا رميت بالمعرض فخرق فكله، وإن أصاب بمرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله» وفي «المغني» ٢٥/١١: المعراض: عود محدد، وربما جعل في رأسه حديد، قال أحمد: المعراض يشبه السهم يحذف به الصيد، وربما أصاب الصيد بحدته فخرق وقتل قبيح، وربما أصاب بمرضه فقتل بقله فيكون موقوذاً فلا يباح، وهذا قول علي، وهشام، وعمار، وابن عباس وبه قال النخعي ومالك، والثوري، والشافعي، وأبو حنيفة، وإسحاق، وأبو ثور. وقال الشوكاني في «فتح القدير» ٨/٢: وقد سألت جماعة من أهل العلم عن الصيد بالبنادق الحديدية التي يجعل فيها البارود والرصاص إذا مات ولم يتمكن الصائد من تذكيته حياً، والذي يظهر لي أنه حلال، لأنها تخرق وتدخل في الغالب من جانب منه، وتخرج من الجانب الآخر، وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا رميت بالمعرض فخرق فكله» فاعتبر الخرق في تحليل الصيد.

أن تأتي على قروحه سنة، وذلك تمام استكمال القوة، ومنه الذكاء في الفهم، وهو أن يكون فهماً تاماً، سريع القبول. وذُكِّيت النار، أي: أتممت إشعالها. وقد روي عن عليّ، وابن عباس، والحسن، وقاتدة أنهم قالوا: ما أدركت ذكاته بأن توجد له عينٌ تُظَرِّفُ، أو ذنب يتحرك، فأكله حلالاً. قال القاضي أبو يعلى: ومذهب أصحابنا أنه إن كان يعيش مع ما به، حل بالذبيح، فإن كان لا يعيش مع ما به، نظرت، فإن لم تكن حياته مستقرة، وإنما حركته حركة المذبوح، مثل أن شقَّ جوفه، وأبينت حشوته، فانفصلت عنه، لم يحل أكله، وإن كانت حياته مستقرة يعيش اليوم واليومين، مثل أن يشق جوفه، ولم تقطع الأمعاء، حل أكله. ومن الناس من يقول: إذا كانت فيه حياة في الجملة أبيح بالذكاة، والصحيح ما ذكرنا، لأنه إذا لم تكن فيه حياة مستقرة، فهو في حكم الميت. ألا ترى أن رجلاً لو قطع حُشْوَةَ آدمي، ثم ضرب عنقه آخر، فالأول هو القاتل، لأن الحياة لا تبقى مع الفعل الأول^(١). وفي ما يجب قطعه في الذكاة روايتان: إحداهما: أنه الحلقوم والمريء، والعرقان اللذان بينهما الحلقوم والمريء، فإن نقص من ذلك شيئاً، لم يؤكل، هذا ظاهر كلام أحمد في رواية عبد الله. والثانية: يجزئ قطع الحلقوم والمريء، وهو ظاهر كلامه في رواية حنبل، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: يجزئ قطع الحلقوم والمريء وأحد الودجين. وقال مالك: يجزئ قطع الأوداج، وإن لم يقطع الحلقوم^(٢). وقال الزجاج: الحلقوم بعد الفم، وهو موضع النَّسِّس، وفيه شعب تتشعب منه في الرئة. والمريء: مجرى الطعام، والودجان: عرقان يقطعهما الذابح. فأما الآلة التي تجوز بها الذكاة، فهي كل ما أنهر الدم، وفري الأوداج سوى السن والظفر، سواء كانا متزوعين، أو غير متزوعين^(٣). وأجاز أبو حنيفة الذكاة بالمنزوعين. فأما البعير إذا توحش، أو تردى في بئر، فهو بمنزلة الصيد ذكاته عقره^(٤). وقال

(١) في «المغني» لابن قدامة ٦١/١١ والمنهقة، والموقودة، والمتردية، والنطيحة وأكيلة السج وما أصابها مرض فماتت به محرمة إلا أن تدرك ذكاتها لقوله تعالى: ﴿إِذَا مَا ذُكِّمْتُمْ﴾ وفي حديث جارية كعب أنها أصيبت شاة من غنمها، فأدركتها فذبحتها بحجر فسل النبي ﷺ فقال: «كلوها» رواه أحمد والبخاري. فإن كانت لم يبق من حياتها إلا مثل حركة المذبوح لم تبيح بالذكاة، لأنه لو ذبح ما ذبحه المجوسي لم يبيح، وإن أدركها وفيها حياة مستقرة بحيث يمكنه ذبحها حلت لمعوم الآية والخبر، وسواء كانت قد انتهت إلى حال يعلم أنها لا تعيش معه أو تعيش لمعوم الآية والخبر، ولأن النبي ﷺ لم يسأل ولم يستفضل. وقد قال ابن عباس في ذنب عدا على شاة فقمرها، فوقع قصبها بالأرض، فأدركها فذبحها بحجر قال: يلقي ما أصاب الأرض ويأكل سائرهما. وقال أحمد في بهيمة عقرت بهيمة حتى تبين فيها آثار الموت إلا أن فيها الروح يعني فذبحت قال: إذا مصمت بذنبها، وطرفت بعينها، وسال الدم، فأرجو إن شاء الله تعالى أن لا يكون يأكلها بأس، ورؤى ذلك بإسناده عن عقيل بن عمير وطواروس وقالوا: تحركت، ولم يقلوا: سال الدم، وهذا على مذهب أبي حنيفة. وقال إسماعيل بن سعيد: سألت أحمد عن شاة مريضة خافوا عليها الموت، فذبحوها فلم يعلم منها أكثر من أنها طرفت بعينها أو حركت يدها أو رجلها أو ذنبها بضعف فنهز الدم قال: فلا بأس به، وقال ابن أبي موسى: إذا انتهت إلى حد لا تعيش معه لم تبيح بالذكاة، ونص عليه أحمد فقال: إذا شق الذئب بطنها فخرج قصبها فذبحها لا تؤكل، وقال: إن كان يعلم أنها تموت من عقر السبع فلا تؤكل وإن ذكاه، وقد يخاف على الشاة الموت من العلة والشئ يبصيا فيأدها فذبحها فأكلها وليس هذا مثل هذه، لا يدري لعلها تعيش، والتي قد خرجت أمعاؤها يعلم أنها لا تعيش، وهذا قول أبي يوسف والأول أصح، لأن عمر ﷺ انتهى به الجرن إلى حد علم أنه لا يعيش معه فوصى فقبلت وصاياه، ووجبت العبادة عليه، وفي ما ذكرنا من عموم الآية والخبر وكون النبي ﷺ لم يستفضل في حديثه جارية كعب ما يرد هذا وتحمل نصوص أحمد على شاة خرجت أمعاؤها وبانت منها فلنك لا تحل بالذكاة، لأنها في حكم الميت، ولا تبقى حركتها إلا كحركة المذبوح، فأما ما خرجت أمعاؤها ولم تبين منها فهي في حكم الحياة، تباح بالذبح ولهذا قال الخريفي فيمن شق بطن رجل فأخرج حشوته فقطعها فأبانتها، ثم ضرب عنقه آخر، فالقاتل هو الأول، ولو شق بطن رجل، وضرب عنقه آخر، فالقاتل هو الثاني. وقال بعض أصحابنا: إذا كانت تعيش معظم اليوم حلت بالذكاة، وهذا التحديد بعيد يخالف ظواهر النصوص ولا سبيل إلى معرفته، وقوله في حديث جارية كعب: «فأدركتها فذكتها بحجر» يدل على أنها بادرتها بالذكاة حين خافت موتها في ساعتها، والصحيح أنها إذا كانت تعيش زمناً يكون الموت بالذبح أسرع منه، حلت بالذبح، وأنها متى كانت مما لا يتيقن موتها كالمريضة أنها متى تحركت وسال دمه حلت والله أعلم.

(٢) في «المغني» ٤٤/١١: وأما الفعل فيعتبر قطع الحلقوم والمريء، وبهذا قال الشافعي، وعن أحمد رواية أخرى أنه يعتبر مع هذا قطع الودجين، وبه قال مالك وأبو يوسف، لما روى أبو هريرة ﷺ قال: نهى رسول الله عن شريطة الشيطان وهي التي تذبح فقطع الجلد ولا تفري الأوداج، ثم ترك حتى تموت. رواه أبو داود ١٣٦٦/٣. [قال المنذري: وفي إسناده عمرو بن عبد الله الصنعاني وقد تكلم فيه غير واحد] وقال أبو حنيفة: يعتبر قطع الحلقوم والمريء وأحد الودجين. ولا خلاف في أن الأكل قطع الأربعة، الحلقوم والمريء والودجين.

(٣) روى البخاري: ٩٤/٥، ومسلم: ١٥٥٨/٤، وأبو داود: ١٣٤/٣، والنسائي: ٢٢٦/٧، والترمذي: ١٨٠/١ وابن ماجه: ١٠٦١/٢ عن رافع بن خديج قال: قلت: يا رسول الله إننا نقلى العمدو غداً وليس معنا مدى، فقال النبي ﷺ: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا ما لم يكن سناً أو ظفراً وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فمظم، وأما الظفر فمدي الحيشة».

(٤) روى البخاري: ٩٤/٥، ومسلم: ١٥٥٨، والنسائي: ٢٢٨/٧، وأبو داود عن رافع بن خديج قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فند بعير من إبل القوم، ولم يكن معهم خيل، فرماه رجل بسهم فحسبه، فقال رسول الله ﷺ: «إن لهله البهائم أو أباد كراويد الوحش، فما فعل منها هذا فاعملوا به هكذا». وفي =

مالك: ذكاته ذكاة المقدور عليه^(١). فإن رمى صيداً، فأبان بعضه، وفيه حياة مستقرة، فذكاه، أو تركه حتى مات جازأكله، وفي أكل ما بان منه روايتان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ في النصب قولان: أحدهما: أنها أصنام تنصب فتُعبَد من دون الله، قاله ابن عباس، والفراء، والزجاج، فعلى هذا القول يكون المعنى، وما ذبح على اسم النصب، وقيل لأجلها، فتكون «على» بمعنى «اللام»، وهما يتعاقبان في الكلام، كقوله: ﴿سَكَّرَ لَكَ﴾ [الواقعة: ٢٩١] أي: عليك، وقوله: ﴿وَرَأَى أَسَاتِمَ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٢٧]. والثاني: أنها حجارة كانوا يذبحون عليها، ويشرحون اللحم عليها ويعظمونها، وهو قول ابن جريج. وقرأ الحسن، وخارجه عن أبي عمرو: على النُّصْبِ، يفتح النون، وسكون الصاد، قال ابن قتيبة، يقال: نُصِبَ ونُصِبَ ونُصِبَ، وجمعه أنصاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ سَتَقْسِمُوا بِالْأَزْكَرِ﴾ قال ابن جرير: أي: وأن تطلبوا علم ما قُسم لكم، أو لم يقسم بالأزلام، وهو استفعتل من القسم [قسم الرزق والحاجات]. قال ابن قتيبة: الأزلام: القداح، واحدها: زَلَمٌ وزَلْمٌ. والاستقسام بها: أن يضرب [بها] فيعمل بما يخرج فيها من أمرٍ أو نهي، فكانوا إذا أرادوا أن يقتسموا شيئاً بينهم، فأحبو أن يعرفوا قسم كل امرئٍ تعرفوا ذلك منها، فأخذ الاستقسام من القسم وهو النصيب. قال سعيد بن جبيرة: الأزلام: حصي بيض، كانوا إذا أرادوا غدواً، أو رواحاً، كتبوا في قدهين، في أحدهما: أمرني ربي، وفي الآخر: نهاني ربي، ثم يضربون بهما، فأيهما خرج، عملوا به. وقال مجاهد: الأزلام: سهام العرب، وكما ب فارس التي يتقارون بها. وقال السدي: كانت الأزلام تكون عند الكهنة. وقال مقاتل: في بيت الأصنام. وقال قوم: كانت عند سدنة الكعبة^(٢). قال الزجاج: ولا فرق بين ذلك، وبين قول المنجمين: لا تخرج من أجل نجم كذا، أو أخرج من أجل نجم كذا.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَسُقُ﴾ في المشار إليه بذلكم قولان: أحدهما: أنه جميع ما ذكر في الآية، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وبه قال سعيد بن جبيرة. والثاني: أنه الاستقسام بالأزلام، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والفسق: الخروج عن طاعة الله إلى معصيته^(٣).

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَبِّئُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ رَيْبِكُمْ﴾ في هذا اليوم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اليوم الذي دخل فيه رسول الله مكة في حجة الوداع، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال ابن السائب: نزلت ذلك اليوم. والثاني: أنه يوم عرفة، قاله مجاهد، وابن زيد. والثالث: أنه لم يرد يوماً بعينه، وإنما المعنى: الآن يتسورا كما تقول: أنا اليوم قد كبرت، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: العرب توقع اليوم على الزمان الذي يشتمل على الساعات والليالي، فيقولون: قد كنت في غفلة، فاليوم استيقظت، يريدون: فالآن، ويقولون: كان فلان يزورنا، وهو اليوم يجفوننا، ولا يقصدون باليوم قصد يوم واحد. قال الشاعر:

فِيَوْمٍ عَلَيْنَا وَيَوْمٍ لَنَا
وَيَوْمٍ نُسَاءُ وَيَوْمٍ نُسْرُ^(٤)

= «المنفي»: روي ذلك عن علي، وابن مسعود، وابن عمر، وأبن عباس، وعائشة رضي الله عنها، وبه قال مسروق، والأسود، والحسن، وعطاء، وإسحاق، والشعبي، والحكم، وحماد، والثوري، وأبو حنيفة، والشافعي، وإسحاق، وأبو ثور.

(١) ذكر في «المنفي» أن الإمام أحمد قال: لعل مالكا لم يسمع حديث رافع بن خديج. وتناول ابن العربي في «أحكام القرآن» الحديث بأن مفاده جواز حبس ما ند من البهائم بالرمي وغيره، لا أن ذلك ذكاة لها.

(٢) روى البخاري ٢٧٦/٦ عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحييت، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام، فقال: «قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قط».

(٣) قال الحافظ ابن كثير: وقد أمر الله المؤمنين إذا تردوا في أمورهم أن يستخبروه بأن يعبدوه، ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه، كما روى الإمام أحمد والبخاري ٤٠/٣ وأهل السنن عن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، ويقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخبرك بعلمك وأستفرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسمه باسمه - خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شراً لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفني عنه واصرفه عني، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به» لفظ أحمد. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٤) البيت للنمر بن تولب كما في «الشواهد الكبرى» ٥٦٥/١ للميني، والنمر بن تولب: شاعر مخضرم عاش عمراً طويلاً في الجاهلية، وكان فيها شاعر =

أراد: فزمان لنا، وزمان علينا، ولم يقصد ليوم واحد لا ينضم إليه غيره. وفي معنى ياسهم قولان: أحدهما: أنهم يتسوا أن يرجع المؤمنون إلى دين المشركين، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: يتسوا من بطلان الإسلام، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: وإنما يتسوا من إبطال دينهم، ولا على استصالحهم، وإنما قاتلوهم بعد ذلك ظناً منهم أن كفرهم يبق.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ قال ابن جريج: لا تخشوهم أن يظهروا عليكم، وقال ابن السائب: لا تخشوهم أن يظهروا على دينكم، واخشوني في مخالفة أمري.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْمَ أَكَلْتُمْ لُحْمَكُمْ﴾ روى البخاري، ومسلم في «الصحيحين» من حديث طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرأون آية من كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية هي؟ قال: قوله: ﴿أَلَيْمَ أَكَلْتُمْ لُحْمَكُمْ وَأَمْنَتُمْ عَلَيْكُمْ فَعَمَّيْ﴾ فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله، والساعة التي نزلت فيها، والمكان الذي نزلت فيه على رسول الله وهو قائم بعرفة في يوم جمعة. وفي لفظ «نزلت عشية عرفة»^(١) قال سعيد بن جبيرة: عاش رسول الله ﷺ بعد ذلك أحداً وثمانين يوماً. فأما قوله: ﴿أَلَيْمَ﴾ ففيه قولان: أحدهما: أنه يوم عرفة، وهو قول الجمهور^(٢). والثاني: أنه ليس بيوم معين، رواه عطية عن ابن عباس، وقد ذكرنا هذا آنفاً. وفي معنى إكمال الدين خمسة أقوال: أحدها: أنه إكمال فرائضه وحدوده، ولم ينزل بعد هذه الآية تحليل ولا تحريم، قاله ابن عباس، والسدي، فعلى هذا يكون المعنى: اليوم أكملت لكم شرائع دينكم. والثاني: أنه بنفي المشركين عن البيت، فلم يحج معهم مشرك عاملاً، قاله سعيد بن جبيرة، وقاتدة. وقال الشعبي: كمال الدين هاهنا: عزه وظهوره، وذلل الشرك ودروسه، لا تكامل الفرائض والسنن، لأنها لم تنزل إلى أن قبض رسول الله ﷺ، فعلى هذا يكون المعنى: اليوم أكملت لكم نصر دينكم. والثالث: أنه رفع النسخ عنه. وأما الفرائض فلم تنزل عليه حتى قبض، روي عن ابن جبيرة أيضاً. والرابع: أنه زوال الخوف من العدو، والظهور عليهم، قاله الزجاج. والخامس: أنه أمن هذه الشريعة من أن تنسخ بأخرى بعدها، كما نسخ بها ما تقدمها. وفي إتمام النعمة ثلاثة أقوال: أحدها: منع المشركين من الحج معهم، قاله ابن عباس، وابن جبيرة، وقاتدة. والثاني: الهداية إلى الإيمان، قاله ابن زيد. والثالث: الإظهار على العدو، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَمَّطَنَّ﴾ أي: دعت الضرورة إلى أكل ما حُرِّم عليه. ﴿فِي مَحَضَةٍ﴾ أي: مجاعة، والخمص: الجوع. قال الشاعر يذم رجلاً:

يَسْرِى الخُمْصَ تعذيباً وإن يلقى شُبْعَةً يَسْرِى قَلْبُهُ من قَلَّةِ الهَمِّ مُبْهِمًا^(٣)

وهذا الكلام يرجع إلى المحرمات المتقدمة من الميتة والدم، وما ذكر معهما. قوله: ﴿عَبْرَ مُتَجَانِبٍ لِإِثْمٍ﴾ قال ابن قتيبة: غير مائل إلى ذلك، و«الجنف»: الميل. وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: غير متعمد للإثم. وفي معنى «تجانف الإثم» قولان: أحدهما: أن يتناول منه بعد زوال الضرورة، روي عن ابن عباس في آخرين. والثاني: أن

= الرباب، وكان من ذوي النعمة والوجاعة جواداً وهاباً لماله، أدرك الإسلام وهو كبير السن، ووفد على النبي ﷺ فكتب له كتاباً فكان في أيدي أهله. وقوله: «فيوم علينا ويوم لنا» يريد أن الدهر يومان، يوم يكون علينا وفيه نساء، ويوم يكون لنا وفيه نسر ونفرح.
(١) البخاري ٢٠٣/٨، ومسلم ٢٣١٤/٤، ولفظ مسلم قريب من سياقة المصنف، ورواه الإمام أحمد في «المسند» ٢٣٧/١، والترمذي ٩٦/٤، والنسائي ١١٤/٨.

(٢) قال ابن كثير: والصواب الذي لاشك فيه ولا مرية: أنها أنزلت يوم عرفة وكان يوم جمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن عباس، وسعرة بن جندب، وأرسله الشعبي، وقاتدة بن دهامة، وشهر بن حوشب، وغير واحد من الأئمة والعلماء، واختاره ابن جرير رحمه الله.

(٣) البيت لحاتم الطائي، وهو في «ديوانه» ١٠٩، و«توادر أبي زيد» ١١١، و«طبقات فحول الشعراء» ٤٨٣، و«الأغاني» ١٦/١٢٢، و«غرب القرآن» ١٤١. وقيل:

لحا الله ضُملوكاً مُنْهًا وهُمُّه وللشعر في «طبقات ابن سلام» خير فانظروه.

من العيش أن يلقى نُبوساً ومطعماً

يتعرض لمعصية في مقصده، قاله قتادة. وقال مجاهد: من بغى وخرج في معصية، حرم عليه أكله. قال القاضي أبو يعلى: وهذا أصح من القول الأول، لأن الآية تقتضي اجتماع تجانف الإثم مع الاضطراب، وذلك إنما يصح في سفر العاصي، ولا يصح حمله على تناول الزيادة على سد الرّمق، لأن الاضطراب قد زال. قال أبو سليمان: ومعنى الآية: فمن اضطرب فأكله غير متجانف لإثم، فإن الله غفور، أي: متجاوز عنه، رحيم إذ أحل ذلك للمضطرب^(١).

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا مِنْهُ قُلْ أَحَلَّ اللَّهُ لِلرِّجَالِ مَا سَأَلُوا عَنْهُ مِنَ الْأَنْعَامِ إِذَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا مِنْهُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ لما أمر بقتل الكلاب، قال الناس: يا رسول الله ماذا أحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فنزلت هذه الآية، أخرجها أبو عبد الله الحاكم في «صحيحه» من حديث أبي رافع عن النبي ﷺ^(٢) وكان السبب في أمر النبي ﷺ بقتلها أن جبريل ﷺ استأذن على رسول الله ﷺ فأذن له، فلم يدخل وقال: «إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة» فنظروا فإذا في بعض بيوتهم جرو^(٣). والثاني: أن عدي بن حاتم، وزيد الخيل الذي سماه رسول الله: زيد الخير، قالوا: يا رسول الله إنا قومٌ نصيد بالكلاب والبزاة، فمنه ما ندرك ذكاته، ومنه ما لا ندرك ذكاته، وقد حرّم الله الميتة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبير^(٤). قال الزجاج: ومعنى الكلام: يسألونك أي شيء أحل لهم؟ قل: أحل لكم الطيبات، وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح، والتأويل أنهم سألوها عنه ولكن حذف ذكر صيد ما علمتم، لأن في الكلام دليلاً عليه. وفي الطيبات قولان: أحدهما: أنها المباح من الذبائح. والثاني: أنها ما استطابته العرب مما لم يحرم. فأما «الجوارح» فهي

(١) قال ابن كثير رحمه الله ١٤/٢: وقوله: ﴿فَمَنْ أَشْطَرُ فِي مَعْمَرٍ غَيْرِ مَتَكَايِفَ لَيْثٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة الجاهت إلى ذلك، فله تناوله، والله غفور رحيم له، لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وانقاره إلى ذلك، فيجاوز عنه ويغفر له. وفي «المسنند» ١٧٠/٨ و«صحيح ابن حبان» عن ابن عمر مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته» لفظ ابن حبان. [قلت: وفي «المجمع» ١٦٢/٣: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، والبزار والطبراني في «الأوسط» وإسناده حسن] وفي لفظ لأحمد ٢٣٨/٧ «من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة». ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان، وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً، بحسب الأحوال. واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرّمق، أو له أن يشبع ويتزود؟ على أقوال، كما هو مقرر في كتاب «الأحكام»، وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير، أو صيداً وهو محرم، هل يتناول الميتة أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء، أو ذلك الطعام ويضمن بدله؟ على قولين، هما قولان للشافعي رحمه الله. وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً كما قد توهمه كثير من العوام وغيرهم! بل متى اضطرب إلى ذلك جاز له. وقد روى الإمام أحمد ٢١٨/٥ عن أبي واقد الليثي، أنهم قالوا: يا رسول الله إنا بأرض تصيبنا بها الممخضة فتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: «إذا لم تصطبحوا، ولم تفتقروا، ولم تحضفوا بقلاً، فثأنتكم بها». فنرد به أحد من هذا الوجه، وهو إسناده صحيح على شرط «الصحيحين». وكذا رواه ابن جرير ٥٣٨/٩. ومعنى قوله: «ما لم تصطبحوا» يعني به الغداء، «وما لم تفتقروا» يعني به العشاء. «أو تحضفوا بقلاً فثأنتكم بها» أي: فكلوا منها. قال ابن جرير: يروى هذا الحرف - يعني قوله أو تحضفوا - على أربعة أوجه: «تحضفوا» بالهمزة و«تحضفوا» بتخفيف الباء والحاء. و«وتحضفوا» بتشديد الفاء. و«تحضفوا» بالحاء والتخفيف، ويحتمل الهمز، كما ذكره في «التفسير»، وقوله: «غير متجانف لإثم» أي: متعاط لمعصية الله فإن الله قد أباح ذلك له. وسكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة ١٧٣: ﴿فَمَنْ أَشْطَرُ بِرَأْسِهِ وَلَا عَاوِلًا عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقد استدلل بهذه الآية من يقول بأن العاصي يسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر، لأن الرخص لا تنال بالمعاصي. والله أعلم.

(٢) «المستدرک» ٣١١/٢: وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافق على تصحيحه الذهبي. وفي سننه محمد بن إسحاق وقد عمن. ورواه ابن جرير ٥٤٥/٩ بسند فيه موسى بن عبيدة بن نسيب الرندي، وهو منكر الحديث لا تحل الرواية عنه. وروى الإمام أحمد في «المسنند» ٩/٦، ٣٩١ نحو هذا المعنى عن أبي رافع في قتل الكلاب ولكن ليس فيه أنه سبب لنزول هذه الآية. قلت: وإطلاق المصنف لفظ الصحيح على «مستدرک الحاكم» فيه تساهل إذ ليس كل ما في «المستدرک» صحيحاً، بل فيه الضعيف والموضوع.

(٣) روى الإمام مسلم ١٦٦٤/٣ عن عبد الله بن عباس ؓ قال: قال: أخبرني ميمونة أن رسول الله ﷺ أصبح يوماً واجماً فقالت ميمونة: يا رسول الله لقد استكرت هيتك منذ اليوم! قال رسول الله ﷺ: «لأن جبريل كان واهلني أن يلقاني الليلة فلم يلقني أما والله ما أخلفني» قال: فظل رسول الله ﷺ يومه ذلك على ذلك، ثم وقع في نفسه جرو كلب تحت فسطاط لنا، فأمر به فأخرج، ثم أخذ بيده ماء فنضح مكانه، فلما أمسى لقيه جبريل فقال له: «قد كت وعدتني أن تلقاني البارحة» قال: أجل لكننا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة، فأصبح رسول الله ﷺ يومئذٍ فأمر بقتل الكلاب، حتى إنه يأمر بقتل كلب الحائط الصغير، ويترك كلب الحائط الكبير.

(٤) رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن عدي بن حاتم، وزيد بن مهلهل الطائين. وفي سننه ابن لهيعة، قال الحفاظ في «التقريب» صدوق خلط بعد احتراق كبه، وعطاء بن دينار الراوي عن سعيد بن جبير، قيل: لم يسمع منه.

ما صيد به من سباع البهائم والطيير، كالكلب، والفهد، والصقر، والبازي، ونحو ذلك مما يقبل التعليم. قال ابن عباس: كل شيء صاد فهو جارح. وفي تسميتها بالجوارح قولان: أحدهما: لكسب أهلها بها. قال ابن قتيبة: أصل الاجتراح: الاكتساب، يقال: امرأة لا جارح لها، أي: لا كاسب. والثاني: لأنها تجرح ما تصيد في الغالب، ذكره الماوردي. قال أبو سليمان الدمشقي: وعلامة التعليم أنك إذا دعوته أجاب، وإذا أسدته استأسد، ومضى في طلبه، وإذا أمسك أمسك عليك لا على نفسه، وعلامة إمساكه عليك: أن لا يأكل منه شيئاً، هذا في السباع والكلاب، فأما تعليم جوارح الطير فبخلاف السباع، لأن الطائر إنما يُعلّم الصيد بالأكل، والفهد والكلب وما أشبههما يعلمون بترك الأكل، فهذا فرق ما بينهما.

وفي قوله: ﴿مَكْلَبِينَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أصحاب الكلاب، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهو قول ابن عمر، وسعيد بن جبير، وعطاء، والضحاك، والسدي، والفراء، والزجاج، وابن قتيبة. قال الزجاج: يقال: رجل مكلب وكلايبي، أي: صاحب صيد بالكلاب. والثاني: أن معنى «مكلبين»: مُصْرَبِينَ على الصيد، وهذا مروى عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد. والثالث: أن «مكلبين» بمعنى: معلمين. قال أبو سليمان الدمشقي: وإنما قيل لهم: مكلبين، لأن الغالب من صيدهم إنما يكون بالكلاب. قال ثعلب: وقرأ الحسن، وأبو رزين، «مُكْلَبِينَ»، بسكون الكاف، يقال: أكلب الرجل: إذا كثرت كلابه، وأمشى: إذا كثرت ماشيته، والعرب تدعو الصائد مكلباً.

قوله تعالى: ﴿تَمَيُّوْنَهُنَّ يَمَّا عَلِمَكُمُ اللَّهُ﴾ قال سعيد بن جبير: تؤدّبونهن لطلب الصيد. وقال الفراء: تؤدّبونهن أن لا يأكلن صيدهن. واختلفوا هل إمساك الصائد عن الأكل شرط في صحة التعليم أم لا؟ على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه شرط في كل الجوارح، فإن أكلت، لم يؤكل، روي عن ابن عباس، وعطاء. والثاني: أنه ليس بشرط في الكل، ويؤكل وإن أكلت، روي عن سعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وأبي هريرة، وسلمان الفارسي. والثالث: أنه شرط في جوارح البهائم، وليس بشرط في جوارح الطير، وبه قال الشعبي، والنخعي، والسدي، وهو أصح لما بيننا أن جوارح الطير يعلم على الأكل، فأبيح ما أكل منه، وسباع البهائم تعلم على ترك الأكل، فأبيح ما أكلت منه. فعلى هذا إذا أكل الكلب والفهد من الصيد، لم يبيح أكله. فأما ما ل منه الصقر والبازي، فمباح، وبه قال أبو حنيفة، وأصحابه، وقال مالك: يباح أكل ما أكل منه الكلب، والفهد، والصقر، فإن قتل الكلب، ولم يأكل، أبيع. وقال أبو حنيفة: لا يباح، فإن أدرك الصيد، وفيه حياة، فمات قبل أن يذكيه، فإن كان ذلك قبل القدرة على ذكاته أبيع، وإن أمكنه فلم يذكه، لم يبيح، وبه قال مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يباح في الموضعين. فأما الصيد بكلب المجوسي، فروى عن أحمد أنه لا يكره، وهو قول الأكثرين، وروي عنه الكراهة، وهو قول الثوري، لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ وهذا خطاب للمؤمنين. قال القاضي أبو يعلى: ومنع أصحابنا الصيد بالكلب الأسود، وإن كان معلماً، لأن النبي ﷺ أمر بقتله^(١)، والأمر بالقتل: يمنع ثبوت اليد، ويبتل حكم الفعل، فيصير وجوده كالعدم، فلا يباح صيده.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا يَمَّا أَتَسَكَّرَ عَلَيْكُمْ﴾ قال الأخفش: «من» زائدة، كقوله: ﴿وَيَا مَنْ بَرَّ﴾ [النور: ٤٤].
قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ عَلَّمَهُمْ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الإرسال، قاله ابن عباس، والسدي، وعندنا أن التسمية شرط في إباحة الصيد^(٢). والثاني: ترجع إلى الأكل فتكون التسمية مستحبة.
قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ قال سعيد بن جبير: لا تستحلوا ما لم يذكر اسم الله عليه.

(١) روى الإمام أحمد، ومسلم ١٢٠٠/٣ عن جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب حتى إن المرأة تقدم من البادية بكلبها فتقتله، ثم نهى رسول الله ﷺ عن قتلها وقال: عليكم بالأسود البهيم ذي الثقلتين فإنه شيطان» وروى أبو داود ١٤٤/٣، والدارمي ٩٠/٢ عن عبد الله بن مغفل عن النبي ﷺ قال: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها، فافعلوا منها كل أسود بهيم».

(٢) قال في «المنهي»: فإن ترك التسمية عمداً أو سهواً، لم يبيح. هذا تحقيق المذهب. وروى البخاري ٩٢/٢١ «شرح المعني» ومسلم ١٥٣١/٣ عن عدي بن حاتم ﷺ قال: قلت: يا رسول الله إني أرسل كلبني وأسمي. قال: «إن أرسلت كلبك وسميت فأخذ، فقتل، وإن أكل منه فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه». قلت: إني أرسل كلبني فأجد معه كلباً آخر، لا أدري أيهما أخذ؟ قال: «فلا تأكل فإنما سميت على كلبك، ولم تسم على غيره».

﴿أَيُّومٍ أُحِلَّ لَكُمْ الْفَلَيْحُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلْلٌ لَهُمْ وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ مَخْمُومِينَ غَيْرَ مُسْتَفْهِينَ وَلَا مُتَجَدِّينَ أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَيُّومٍ أُحِلَّ لَكُمْ الْفَلَيْحُ﴾ قال القاضي أبو يعلى: يجوز أن يريد باليوم اليوم الذي أنزلت فيه الآية، ويجوز أن يريد اليوم الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿أَيُّومٍ يَسَّرَ اللَّهُ الْإِيمَانَ بِكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿أَيُّومٍ أُحِلَّ لَكُمْ دِينُكُمْ﴾، وقيل: ليس بيوم معين. وقد سبق الكلام في «الطيبات» وإنما كرر إجلالها تأكيداً. فأما أهل الكتاب، فهم اليهود والنصارى. وطعامهم: ذبائحهم، هذا قول ابن عباس، والجماعة. وإنما أريد بها الذبائح خاصة، لأن سائر طعامهم لا يختلف بمن تولى من مجوسي وكتابي، وإنما الذكاة تختلف، فلما خص أهل الكتاب بذلك، دل على أن المراد الذبائح، فأما ذبائح المجوس، فأجمعوا على تحريمها. واختلفوا في ذبائح من دان باليهودية والنصرانية من عبدة الأوثان، فروي عن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب، فقال: لا بأس بها، وتلا قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ يَتَّبِعْكُمْ﴾ [المائدة: ٥١] وهذا قول الحسن، وعطاء بن أبي رباح، والشعبي، وعكرمة، وقناة، والزهري، والحكم، وحمام. وقد روي عن علي، وابن مسعود في آخرين أن ذبائحهم لا تحل. ونقل الخرقى عن أحمد في نصارى بني تغلب روايتين: إحداهما: تباح ذبائحهم، وهو قول أبي حنيفة، مالك. والثانية: لا تباح. وقال الشافعي: من دخل في دين أهل الكتاب بد نزول القرآن، لم يباح أكل ذبيحته^(١).

قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حَلْلٌ لَكُمْ﴾ أي: وذبائحكم لهم حلال، فإذا اشتروا منا شيئاً كان الثمن لنا حلالاً، واللحم لهم حلالاً. قال الزجاج: والمعنى: أحل لكم أن تطعموهم.

فصل

وقد زعم قوم أن هذه الآية اقتضت إباحة ذبائح أهل الكتاب مطلقاً وإن ذكروا غير اسم الله عليها، فكان هذا ناسخاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] والصحيح أنها أطلقت إباحة ذبائحهم، لأن الأصل أنهم يذكرون الله، فيحمل أمرهم على هذا. فإن تيقنا أنهم ذكروا غيره، فلا نأكل، ولا وجه للنسخ، وإلى هذا الذي قلته ذهب علي، وابن عمر، وعبادة، وأبو الدرداء، والحسن في جماعة.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فيهن قولان: أحدهما: العفاف، قاله ابن عباس. والثاني: الحرائر، قاله مجاهد. وفي قوله: ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قولان: أحدهما: الحرائر أيضاً، قاله ابن عباس. والثاني: العفاف، قاله الحسن، والشعبي، والنخعي، والضحاك، والسدي، فعلى هذا القول يجوز تزويج الحرّة منهن والأمة.

فصل

وهذه الآية أباحت نكاح الكتابية. وقد روي عن عثمان أنه تزوج نائلة بنت الفرافصة على نسائه وهي نصرانية. وعن طلحة بن عبيد الله أنه تزوج يهودية. وقد روي عن عمر، وابن عمر كراهة ذلك. واختلفوا في نكاح الكتابية الحرة، فقال ابن عباس: لا تحل. والجمهور على خلافه، وإنما كرهوا ذلك، لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْدُ قَوْمًا يَتَّبِعُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] والنكاح يوجب الود. واختلفوا في نكاح نساء تغلب، فروي عن علي رضي الله عنه الحظر، وبه قال جابر بن زيد، والنخعي، وروي عن ابن عباس الإباحة. وعن أحمد روايتان. واختلفوا في إماء أهل الكتاب، فروي عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد: أنه لا يجوز نكاحهن، وبه قال الأوزاعي، ومالك،

(١) في «الأم» للشافعي ٦/٥: «ولا يحل نكاح حرائر من دان من العرب دين اليهودية والنصرانية، لأن أصل دينهم كان الحنيفية، ثم ضلوا بعبادة الأوثان، وإنما انتقلوا إلى دين أهل الكتاب بعده، لا بأنهم كانوا الذين دانوا بالتوراة والإنجيل فضلوا عنها وأحدثوا فيها، إنما ضلوا عن الحنيفية ولم يكونوا كذلك، لا تحل ذبائحهم، كذلك كل أجنبي كان أصل دين من مضى من آباءه عبادة الأوثان ولم يكن من أهل الكتابين المشهورين، التوراة والإنجيل، فدان دينهم، لم يحل نكاح نسائهم».

واللّيث بن سعد، والشافعي، وأصحابنا، وروي عن الشعبي، وأبي مسرة جواز ذلك، وبه قال أبو حنيفة. فأما المجوس، فالجمهور على أنهم ليسوا بأهل كتاب، وقد شدّ من قال: إنهم أهل كتاب، ويطل قولهم قوله ﷺ: «سُئِلُوا بِهِمْ سُنَّةُ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(١). فأما «الأجور»، و«الإحصان»، و«السّفاح»، و«الأخدان» فقد سبق في سورة (النساء).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ سبب نزول هذا الكلام: أن الله تعالى لما رخص في نكاح الكتابيات قلن بينهن: لولا أن الله تعالى قد رضي علينا، لم يبح للمؤمنين تزويجنا، وقال المسلمون: كيف يتزوج الرجل منا الكتابية وليست على ديننا، فنزلت: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل بن حيان: نزلت فيما أحصن المسلمون من نساء أهل الكتاب، يقول: ليس إحصان المسلمين إياهن بالذي يخرجهن من الكفر. وروى ليث عن مجاهد: ومن يكفر بالإيمان، قال: الإيمان بالله تعالى. قال الزجاج: معنى الآية: من أحل ما حرّم الله، أو حرّم ما أحلّه الله، فهو كافر. وقال أبو سليمان: من جحد ما أنزله الله من شرائع الإيمان، وعرفه من الحلال والحرام، فقد حبط عمله المتقدّم. وسمعت الحسن بن أبي بكر النيسابوري الفقيه يقول: إنما أباح الله ﷺ الكتابيات، لأن بعض المسلمين قد يعجبه حسنهن، فحدّز ناكحهن^(٢) من الميل إلى دينهن بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الْبُرْتُ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ بِكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ قال الزجاج: المعنى: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨] قال ابن الأنباري: وهذا كما تقول: إذا أخبت فأخ أهل الحساب، وإذا اتجرت فاتجر في البز. قال: ويجوز أن يكون الكلام مقدماً ومؤخراً، تقديره: إذا غسلتم وجوهكم، واستوفيتم الطهور، فقوموا إلى الصلاة. وللعلماء في المراد بالآية قولان: أحدهما: إذا قمتم إلى الصلاة محدثين، فاغسلوا، فصار الحدث مضماً في وجوب الوضوء، وهذا قول سعد بن أبي وقاص، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، والفقهاء. والثاني: أن الكلام على إطلاقه من غير إضمار، فيجب الوضوء على كل من يريد الصلاة، محدثاً كان، أو غير محدث، وهذا مروى عن علي عليه السلام^(٣)، وعكرمة، وابن سيرين. ونقل عنهم أن هذا الحكم غير منسوخ، ونقل عن جماعة من العلماء أن ذلك كان واجباً، ثم نسخ بالسنة، وهو ما روى بُريدة أن النبي ﷺ صلى يوم الفتح خمس صلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: لقد صنعت شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال: «عمداً فعلته يا عمر»^(٤). وقال قوم: في الآية تقديم وتأخير، ومعناها: إذا

(١) رواه مالك في «الموطأ» ٢٧٨/١، والشافعي في «مسنده» ١٣٠/٢، وغيرهما، وفيه كلام انظره في «نصب الرابة» ٤٤٨/٣.

(٢) في نسخة الرباط: نكاحهن.

(٣) روى ابن جرير ١٢/١٠، والنحاس في «التاسخ والمنسوخ» ١١٩ عن مسعود بن علي الشيباني قال: سمعت عكرمة يقول: كان علي عليه السلام يتوضأ عند كل صلاة، ويقرأ هذه الآية ﴿يَتَأْتِيَ الْبُرْتُ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ...﴾ الآية. وهذا الأثر ساقه ابن كثير في «تفسيره» ٢٢/٢، وساق معه أثرين آخرين عن علي، ثم قال: وهذه طرق جيدة عن علي، يقوي بعضها بعضاً.

(٤) أحمد في «المسند» ٣٥٠/٥، ومسلم ٢٢٢/١، وأبو داود ٨٢/١، والنسائي ٨٦/١، وابن ماجه ١٧٠/١، والترمذي ٨٩/١ وقال: حديث حسن صحيح. وروى البخاري ٢٧٣/١ عن سويد بن النعمان قال: فخرنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر حتى إذا كنا بالصهبا صلى لنا رسول الله ﷺ العصر، فلما صلى دعا بالأطعمة، فلم يوت إلا بالسويق، فأكلنا وشربنا، ثم قام النبي ﷺ إلى المغرب، فمضض ثم صلى لنا المغرب ولم يتوضأ. قال أبو جعفر الطبري ١٩/١٠: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: إن الله عنى بقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ جميع أحوال قيام القائم إلى الصلاة، غير أنه أمر فرض بفسل ما أمر الله بفسله القائم إلى صلاته، بعد حدث كان منه ناقض طهارته، وقبل إحداث الوضوء منه، وأمر ندب لمن كان على طهر قد تقدم منه، ولم يكن منه بعده حدث ينقض طهارته، ولذلك كان عليه السلام يتوضأ لكل صلاة قبل فتح مكة، ثم صلى يومئذ الصلوات كلها بوضوء واحد، ليعلم أمته أن ما كان يفعل ﷺ من تجديد الطهر لكل صلاة، إنما كان منه أخذاً بالفضل وإيثارة منه لأحب الأميين إلى الله، ومسارة منه إلى ما تنبه إليه ربه لا على أن ذلك كان عليه فرضاً واجباً. قلت: ومنع الجمهور أنه يستحب الوضوء لكل صلاة، لما روى الإمام أحمد في «المسند» ٢٥٥/١٣ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء» أو مع =

قتم إلى الصلاة من النوم أو جاء أحد منكم من الغائط أو لاستتم النساء، فاغسلوا وجوهكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ إِلَى الْمُرْتَفِقِ﴾ «إلى» حُرِّفَ موضوعاً للغاية، وقد تدخل للغاية فيها تارة، وقد لا تدخل، فلما كان الحدث يقيناً، لم يرتفع إلا بيقين مثله، وهو غسل المرتفقين. فأما الرأس فنقل عن أحمد وجوب مسح جميعه، وهو قول مالك، وروي عنه: يجب مسح أكثره، وروي عن أبي حنيفة روايتان: إحداهما: أنه يتقدّر برقع الرأس. والثانية: بمقدار ثلاث أصابع^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَكُمْ إِلَى الْكَمْبِيِّينَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، وأبو بكر عن عاصم: بكسر اللام عطفاً على مسح الرأس، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم، ويعقوب: بفتح اللام عطفاً على الغسل، فيكون من المقدم والمؤخر. قال الزجاج: الرُّجُل من أصل الفخذ إلى القدم، فلما حدّ الكعبين، عُلِمَ أن الغسل ينتهي إليهما، ويدل على وجوب الغسل التحديد بالكعبين، كما جاء في تحيد اليد «إلى المرافق» ولم يجز في شيء من المسح تحديد. ويجوز أن يراد الغسل على قراءة الخفض، لأن التحدد بالكعبين يدل على الغسل، فينسق بالغسل على المسح. قال الشاعر:

يَا لَيْتَ بَعْلُكَ قَدْ غَدَا
والمعنى: وحاملاً رمحاً. وقال الآخر:

عَلَفْتَهَا تَبِيناً وَمَاءً بَارِداً^(٢)

والمعنى: وسقيتها ماءً بارداً. وقال أبو الحسن الأخفش: يجوز الجر على الإبتاع، والمعنى: الغسل، نحو قولهم: جحر ضبٍ حربٍ. وقال ابن الأنباري: لما تأخرت الأرجل بعد الرؤوس، نسقت عليها للقرّب والجوار، وهي في المعنى نسق على الوجوه، كقولهم: جحر ضبٍ حربٍ^(٣)، ويجوز أن تكون منسوقة عليها، لأن العرب تسمي الغسل مسحاً، لأن الغسل لا يكون إلا بمسح. وقال أبو علي: مَنْ جَرَّ فُحْجَتَهُ أنه وجد في الكلام عاملين: أحدهما: الغسل، والآخر: الباء الجازة، ووجه العاملين إذا اجتماعاً: أن يحمل الكلام على الأقرب منهما دون الأبعد، وهو «الباء» هاهنا، وقد قامت الدلالة على أن المراد بالمسح: الغسل من وجهين: أحدهما: أن أبا زيد قال: المسح خفيف

كل وضوء سواك، ولاخرت عشاء الأخرة إلى ثلث الليل» وإسناده صحيح، وقد سقط من إسناده في طبعة الشيخ أحمد شاكر للمسنّد: أبو سلمة الراوي عن أبي هريرة. وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يتوضأ عند كل صلاة. قيل له: فأنتم كيف تصنعون؟ قال: كنا ننصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث. رواه أحمد في «المسنّد» بترتيب الساعاتي ٥٤/٢، والبخاري ٨٥/١، والنسائي ٨٥/١، وأبو داود ٨١/١، والترمذي ٨٨/١، والبيهقي في «السنن» ١٧٠/١. وعن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل أن رسول الله ﷺ كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر، فلما شن ذلك عليه أمر بالسواك عند كل صلاة، ووضع عنه الوضوء إلا من حدث. رواه أحمد ٢٢٥/٥، وأبو داود ٤٣/١ وإسناده حسن.

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢٤/٢: وقوله: ﴿وَأَنْسَخُوا رِيضَكُمْ﴾ اختلفوا في هذه الباء هل هي للإصاق وهو الأظهر، أو للتبويض وفيه نظر، على قولين، ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل، فليرجع في بيانه إلى السنة. وقد ثبت في «الصحيحين» من طريق مالك عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه: أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم - وهو جد عمرو بن يحيى - وكان من أصحاب النبي ﷺ: هل تستطيع أن تربني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه، فأقبل بهما وأبدر، بدأ بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. قلت: الحديث في البخاري ٢٥٨/١، ومسلم ٢١٠/١. وفي «المعني» ١١٢/١: لا خلاف في وجوب مسح الرأس، وقد نص الله تعالى عليه بقوله: ﴿وَأَنْسَخُوا رِيضَكُمْ﴾ واختلف في قدر الواجب، فروي عن أحمد وجوب مسح جميعه في حق كل أحد، وهو ظاهر كلام الخرفي، ومذهب مالك، وروي عن أحمد: يجزئ مسح بعضه. قال أبو الحارث: قلت لأحمد: فإن مسح برأسه وترك بعضه؟ قال: يجزئه.

(٢) البيت غير منسوب في «مشكل القرآن» ١٦٥، و«تفسير الطبري» ١٤٠/١، و«الكامل» ٢٨٩/١، و«أمالي المرتضى» ٥٤/١، و«أمالي ابن السجري» ٢/٣٢١، و«شرح الحماسة» للمرزوقي ١١٤٧/٣، و«اللسان» مادة: قلد، ونسبه في حواشي ابن القوطية على «الكامل» ١٨٩ طبع ليبسك لعبد الله بن الزبير. ويروى الشطر الأول منه «ورويت زوجك في الوضوء» وفي «اللسان» تقلد الأمر: احتمله وكذلك تقلد السيف.

(٣) تمامه: حتى شئت هائلة عينها. وهو في «مشكل القرآن» ١٦٥، و«أمالي المرتضى» ٢٥٩/٢، و«أمالي ابن السجري» ٣٢١/٢، و«الإيضاح» ٢٥٣، وشرح «شواهد المعني» ٣١٤، و«الخرزانه» ٤٩٩/١، قال الميني: ١٨١/٤: أنشده الأصمعي وغيره، ولم أر أحداً عزاه إلى قائله. وشتت: بمعنى أقامت شتاء، ففي القاموس: شتا باليد: أقام به شتاء، كشتى وتشتى. وهائلة: من هملت العين: إذا صبت دمعها، وعيناها فاعل «هائلة».

(٤) قال أبو حيان في «البحر» ٤٢٧/٣: وهو تأويل ضعيف جداً، ولم يرد إلا في التمت حيث لا يلبس على خلاف فيه قد قرر في علم العربية.

الغسل، قالوا: تمسحت للصلاة، وقال أبو عبيدة: ﴿فَطَقِيَ مَسْحًا بِالشُّوقِ﴾، أي: ضرباً، فكان المسح بالآية غسل خفيف. فإن قيل: فالمستحب التكرار ثلاثاً؟ قيل: إنما جاءت الآية بالمفروض دون المسنون. والوجه الثاني: أن التحديد والتوقيت إنما جاء في المغسول دون الممسوح، فلما وقع التحديد مع المسح، علم أنه في حكم الغسل لموافقته الغسل في التحديد، وحجة من نصب أنه حمل ذلك على الغسل لاجتماع فقهاء الأمصار على الغسل^(١).

قوله تعالى: ﴿إِلَى الْكَمِيمِينَ﴾ «إلى» بمعنى «مع» والكعبان: العظامان الناتان من جانبي القدم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ أي: فتطهروا، فأدغمت التاء في الطاء، لأنهما من مكان واحد، واجتلبت الهمزة توضحاً إلى النطق بالسكان، وقد بين الله ﷻ طهارة الجنب في سورة (النساء) بقوله: ﴿حَتَّى تَغْتَابِلُوا﴾ [النساء: ٤٣] وقد ذكرنا هناك الكلام في تمام الآية إلى قوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ و«المرح»: الضيق، فجعل الله الدين واسعاً حين رخص في التيمم.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ يُطَهِّرَكُمْ﴾ أي: يريد أن يطهركم. قال مقاتل: من الأحداث والجنابة، وقال غيره: من الذنوب والخطايا، لأن الوضوء يكفر الذنوب.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ بِحَمَلِكُمْ﴾ في الذي يتم به النعمة أربعة أقوال: أحدها: بغفران الذنوب. قال محمد بن كعب القرظي: حدثني عبد الله بن دارة، عن حمران قال: مرت على عثمان بفخارة من ماء، فدعا بها فتوضأ، فأحسن الوضوء ثم قال: لو لم أسمع من رسول الله ﷺ غير مرة أو مرتين أو ثلاثاً ما حدثتكم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما توضأ عبد فأحسن الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى». قال محمد بن كعب: وكنت إذا سمعت الحديث التمسته في القرآن، فالتسنت هذا فوجدته في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ لَكَ قَتْمًا نَبِيًّا ۗ لِنَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ بِحَمَلِكُكَ﴾ [الفتح: ١، ٢] فعلمت أن الله لم يتم النعمة عليه حتى غفر له ذنوبه، ثم قرأت الآية التي في «المائدة»: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ إلى قوله ﴿وَلِيُتِمَّ بِحَمَلِكُمْ﴾ فعلمت أنه لم يتم النعمة عليهم حتى غفر

(١) قال القرظي ٩٢/٦: إن لفظ «المسح» مشترك يطلق بمعنى المسح، ويطلق بمعنى الغسل، قال الهروي: أخبرنا الأزهرى أخبرنا أبو بكر محمد بن عثمان بن سعيد الداردي عن أبي حاتم عن أبي زيد الأنصاري قال: «المسح» في كلام العرب يكون غسلًا ويكون مسحًا، ومنه يقال للرجل إذا توضأ، فغسل أعضائه: قد تمسح، ويقال: مسح الله ما بك: إذا غسلك وطهرك من الذنوب. فإذا ثبت بالنقل عن العرب أن «المسح» يكون بمعنى «الغسل» فترجح قول من قال: إن المراد بقراءة الخفض الغسل، بقراءة النصب التي لا احتمال فيها، وبكثرة الأحاديث الثابتة بالغسل، والتوعد على ترك غسلها في أخبار صحاح لا تحصى كثرة أخرجه الأئمة. وقال الحافظ ابن كثير ٢٦/٢: ومن أحسن ما يستدل به على أن «المسح» يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي ٧٥/١ عن النزال بن سبرة يحدث عن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر ثم قعد في حوائج الناس في رجة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء، فأخذ منه حفنة واحدة، مسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضله وهو قائم، إن ناماً يكرهون الشرب قائماً، وإن رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، وقال: «هذا وضوء من لم يحدث». رواه البخاري في «الصحيح» ببعض معناه. قلت: رواه البخاري في «كتاب الأشربة» ٧١/١٠ ولفظه: عن عبد الملك بن مسيرة سمعت النزال بن سبرة يحدث عن علي ﷺ أنه صلى الظهر، ثم قعد في حوائج الناس في رجة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بماء فشرب وغسل وجهه ويديه وذكر رأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضله وهو قائم، ثم قال: إن ناماً يكرهون الشرب قائماً، وإن النبي ﷺ صنع مثل ما صنعت. قال الحافظ: وفي رواية بهز: «فأخذ منه كفاً لمسح وجهه وذراعيه ورأسه ورجليه» وكذلك عند الطيالسي «فغسل وجهه ويديه ومسح على رأسه ورجليه» ومثله في رواية عمرو بن مرزوق عند الإسماعيلي. ويؤخذ منه أنه في الأصل: ومسح على رأسه ورجليه، وأن «آدم» - وهو أحد رواة الحديث - توقف في سياقه، فغير بقوله: وذكر رأسه ورجليه. ووقع في رواية الأعمش، فغسل يديه ومضمض واستنشق، ومسح بوجهه وذراعيه ورأسه، وفي رواية علي بن الجعد عن شعبة عند الإسماعيلي: مسح بوجهه ورأسه ورجليه. والأحاديث التي جاءت بالنسل كثيرة، ففي البخاري ٢٣٢/١، ومسلم ٢١٤/١ عن عبد الله بن عمرو، قال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرتها، فأدركنا وقد أرفقتنا الصلاة صلاة العصر، ونحن نتوضأ، فجمعنا تمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: «أسيغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار» وهو في «الصحيحين» أيضاً من حديث أبي هريرة. وفي «صحيح مسلم» ٢١٣/١ عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «ويل للأعقاب من النار»، وروى مسلم ٢١٥/١ عن عمر بن الخطاب: أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدم، فأبصره النبي ﷺ فقال: «ارجع فأحسن وضوءك» فرجع ثم صلى. وروى أبو داود ٨٢/١، وابن ماجه ٢١٨/١ عن أنس بن مالك أن رجلاً أتى النبي ﷺ وقد توضأ وترك موضع الظفر لم يصبه الماء، فقال له النبي ﷺ: «ارجع فأحسن وضوءك» قال ابن كثير: وإسناده جيد قوي صحيح. وفي «الصحيحين» و«السنن» عن عثمان، وعلي، وابن عباس، ومعاوية، وعبد الله بن زيد بن عاصم، والمقدام بن معد يكرب: أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوءه إما مرة أو مرتين أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم.

لهم^(١). والثاني: بالهداية إلى الإيمان، وإكمال الدين، وهذا قول ابن زيد. والثالث: بالرخصة في التيمم، قاله مقاتل، وأبو سليمان. والرابع: ببيان الشرائع، ذكره بعض المفسرين.

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي أَوْفَقَكُمْ بِذِي الْقُنَيْنِ إِذْ أَتَمْتُمْ سَوْسَنًا وَاَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾
 قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني النعم كلها. وفي هذا حث على الشكر. وفي الميثاق أربعة أقوال: أحدها: أنه إقرار كل مؤمن بما آمن به. قال ابن عباس: لما أنزل الله الكتاب، وبعث الرسول، فقالوا: أمنا، ذكرهم ميثاقه الذي أقرأوا به على أنفسهم، وأمرهم بالوفاء. والثاني: أنه الميثاق الذي أخذه من بني آدم حين أخرجهم من ظهره، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وابن زيد. والثالث: أنه ما وثق على المؤمنين على لسان نبيه ﷺ من الأمر بالوفاء بما أقرأوا به من الإيمان. روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أنه الميثاق الذي أخذ من الصحابة على السمع والطاعة في بيعة العقبة، وبيعة الرضوان، ذكره بعض المفسرين.
 قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ قال مقاتل: اتقوه في نقض الميثاق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من إيمان وشك.

﴿وَتَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاكُومَ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُونَ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ لِلَّهِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت من أجل كفار قريش أيضاً، وقد تقدم ذكرهم في قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاكُومَ قَوْمٍ أَنْ سَدَّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ روى نحو هذا أبو صالح، عن ابن عباس^(٢) وبه قال مقاتل. والثاني: أن قريشاً بعثت رجلاً ليقول رسول الله ﷺ، فأطلع الله نبيه على ذلك، ونزلت هذه الآية والتي بعدها، هذا قول الحسن. والثالث: أن النبي ﷺ ذهب إلى يهود بني النضير يستعينهم في دية، فهتموا بقتله، فنزلت هذه الآية^(٣)، قاله مجاهد، وقناة. ومعنى الآية: كونوا قوامين لله بالحق، ولا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل ﴿اعْدِلُوا﴾ في الولي والعدو ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، أي: إلى التقوى. والمنى: أقرب إلى أن تكونوا متقين، وقيل: هو أقرب إلى اتقاء النار.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾

(١) نسبة السيوطي في «الدر» ٢٤٦/٢ إلى ابن المبارك في «الزهد»، وابن المنذر، والبيهقي في «شعب الإيمان» من طريق محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن دارة عن حمران مولى عثمان، عن عثمان ﷺ... وقد جاء في فضل الوضوء أحاديث صحاح عن النبي ﷺ. روى مسلم ٢١٦/١ عن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره» وروى مالك في «الموطأ» ٣٠١/١، والبخاري ٢٢٨/١، ومسلم ٢٥٥/١، والنسائي ٩١/١ عن عثمان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يصلي الصلاة إلا غُفِرَ له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصليها». وروى مسلم ٢٠٩/١، وأبو داود ٨٠/١، والنسائي ٩٢/١، والترمذي ٧٨/١، وابن ماجه ١٥٩/١ عن عتبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجمعت نويتي فروحتها بعشي، فأدرت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس، فأدرت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة» فقلت: ما أجود هذا! فإذا قاتل بين يدي يقول: التي قبلها أجود، فنظرت فإذا عمر، قال: إني قد رأيتك جئت آنفاً، قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فُتِحَ، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» وزاد الترمذي بعد قوله «ورسوله»: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» وسندها حسن. وروى مالك ٣٢/١، ومسلم ٢١٥/١، والترمذي ٦/١ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها برجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب» وروى مسلم ٢٠٣/١ عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتبها أو موبقها، و«الطهور» الوضوء. و«موبقها» يهلكها.

(٢) في النسخة الأحمدية: روي نحو هذا عن ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير ٩٦/١٠ عن عبد الله بن كثير.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ في معناها قولان: أحدهما: أن المعنى: وعدهم الله أن يغفر لهم ويأجرهم، فاكتمى بما ذكر عن هذا المعنى. والثاني: أن المعنى: وعدهم فقال: لهم مغفرة. وقد بينا في (البقرة) معنى «الجحيم».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِمَّتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِمَّتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن رجلاً من محارب قال لقومه: ألا أقتل لكم محمداً؟ فقالوا: وكيف تقتله؟ فقال: أفنك به، فأقبل إلى رسول الله ﷺ وسيفه في حجره، فأخذه، وجعل يهزه، ويهيم به، فيكثبه الله، ثم قال: يا محمد ما تخافني؟ قال: لا، قال: لا تخافني وفي يدي السيف؟ قال: يمتني الله منك، فأعمد السيف، فنزلت هذه الآية، رواه الحسن البصري عن جابر بن عبد الله. وفي بعض الألفاظ: فسقط السيف من يده. وفي لفظ آخر: فما قال له النبي ﷺ شيئاً، ولا عاقبه. واسم هذا الرجل: غورث بن الحارث من محارب خصفة^(١). والثاني: أن اليهود عزموا على الفتك برسول الله ﷺ، فكفاه الله شرهم. قال ابن عباس: صنعوا له طعاماً، فأوجي إليه بشأنهم، فلم يأت^(٢). وقال مجاهد، وعكرمة: خرج إليهم يستعينهم في دية، فقالوا: اجلس حتى نعطيك، فجلس هو وأصحابه، فخلا بعضهم ببعض، وقالوا: لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن، فمن يظهر على هذا البيت، فيطرح عليه صخرة؟ فقال عمرو بن جحاش: أنا، فجاء إلى رحي عظيمة لي طرحها عليه، فأمسك الله يده، وجاء جبريل، فأخبره، وخرج، ونزلت هذه الآية^(٣). والثالث: أن بني ثعلبة، وبني محارب أرادوا أن يفتكوا بالنبي وبأصحابه، وهم ببطن نخلة في غزاة رسول الله ﷺ السابعة، فقالوا: إن لهم صلاة هي أحب إليهم من آبايهم وأمهاتهم، فإذا سجدوا وقعنا بهم، فأطلع الله نبيه على ذلك، وأنزل صلاة الخوف، ونزلت هذه الآية، هذا قول قتادة^(٤). والرابع: أنها نزلت في حق اليهود حين ظاهروا المشركين على رسول الله ﷺ، هذا قول ابن زيد.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَقَالَ اللَّهُ لِي مَعْكُمْ كَيْنَ أَخَذْتُمُ الْمَكَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُعْطِيَنَّكُمُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال أبو العالية: أخذ الله ميثاقهم أن يخلصوا له العبادة، ولا يعبدوا غيره. وقال مقاتل: أن يعملوا بما في التوراة. وفي معنى النقيب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الضمين، قاله الحسن، ومعناه: أنه ضمين ليعرف أحوال من تحت يده، ولا يجوز أن يكون ضميناً عنهم بالوفاء، لأن ذلك لا يصح ضمانه. وقال ابن قتيبة: هو الكفيل على القوم. والنقابة شبيهة بالعرفاة. والثاني: أنه الشاهد، قاله قتادة. وقال ابن

(١) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» ١٥٢ من طريق ابن إسحاق قال: حدثني عمرو بن عبيد عن جابر أن رجلاً... وقد سقط من إسناده الحسن، فقد رواه ابن هشام في «السيرة» ٢٠٥/٢ عن ابن إسحاق وحدثني عمرو بن عبيد عن الحسن عن جابر بن عبد الله، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» ص ٦ من طريق معمر عن الزهري ذكره عن أبي سلمة عن جابر. وقصة هذا الأعرابي - وهو غورث بن الحارث - ثابتة في «الصحاحين» بدون ذكر السبب، فقد روى البخاري ٣٣٠/٧، ومسلم ٥٧٦/١ عن ستان بن أبي ستان الدؤلي عن جابر بن عبد الله ﷺ أخبره أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قتل رسول الله ﷺ قتل معه، فأدركتهم القافلة في وادٍ كثير العضاء، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاء يستظلون بالشجر ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه. قال جابر: فلما نومة فلما نزل رسول الله ﷺ يدعوننا، فجننا، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اختلط سفيهاً وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال لي: من يمتك مني؟ قلت له: الله. فلما هوذا جالس، ثم لم يعالجه رسول الله ﷺ».

(٢) رواه ابن جرير ١٠٥/١٠ وابن أبي حاتم وسنده ضعيف لا يحتج به.

(٣) خبر مجاهد وعكرمة رواه ابن جرير ١٠٢/١٠، ١٠٣، وانظر ابن هشام ١٩٠/٢.

(٤) ابن جرير ١٠٥/١٠ وفيه «وهو ببطن نخل» قال الأستاذ محمود شاكر: هكذا قال في الغزوة السابعة وهي في كثير من الروايات «الغزوة التاسعة» وهي غزوة ذي أمر، بنجد، انظر ابن سعد ٤٤/١/٢، وإمتاع الأسماع للمقريزي ١١٠/١. والذي جاء في الأخبار أن صلاة الخوف كانت في السنة السابعة.

فارس: النقيب: شاهد القوم، وضمينهم. والثالث: الأمين، قاله الربيع بن أنس، واليزيدي، وهذه الأقوال تتقارب. قال الزجاج: النقيب في اللغة، كالأمين والكفيل، يقال: نقب الرجل على القوم ينقب: إذا صار نقيباً عليهم، وصناعته النقابة، وكذلك عُرف عليهم: إذا صار عريفاً، ويقال لأول ما يبدو من الجرب: النقبة، ويجمع الثُّقْب والثُّقْب. قال الشاعر:

مَتَبَذَّلًا تَسْبَدُو مَحَاسِنُهُ يَضَعُ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ الثُّقْبِ^(١)

ويقال: في فلان مناقب جميلة، وكل الباب معناه: التأثير الذي له عمق ودخول، ومن ذلك نقتب الحائط، أي: بلغت في النقب آخره، والنقبة من الجرب: داء شديد الدخول. وإنما قيل: نقيب، لأنه يعلم دخيلة أمر القوم، ويعرف مناقبهم، وهو الطريق إلى معرفة أمورهم. ونقل أن الله تعالى أمر موسى وقومه بالسير إلى الأرض المقدسة، وكان يسكنها الجبارون، فقال تعالى: يا موسى اخرج إليها وجاهد من فيها من العدو، وخذ من قومك اثني^(٢) عشر نقيباً، من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به، فاخاروا النقباء. وفيما بعثوا له قولان: أحدهما: أن موسى بعثهم إلى بيت المقدس، ليأتوه بخير الجبارين، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي. والثاني: أنهم بعثوا ضمناً على قوميهم بالوفاء بميثاقهم، قاله الحسن، وابن إسحاق. وفي نبوتهم قولان: أحدهما: أنهم ليسوا بأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ في الكلام محذوف. تقديره: وقال الله لهم. وفي المقول لهم قولان: أحدهما: أنهم بنو إسرائيل، قاله الجمهور. والثاني: أنهم النقباء، قاله الربيع، ومقاتل. ومعنى ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾، أي: بالعون والنصرة. وفي معنى: ﴿وَعَزَّزْنَاهُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه الإعانة والنصر، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقادة، والسدي. والثاني: أنه التعظيم والتوقير، قاله عطاء، واليزيدي، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْنَاهُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ في هذا الإقراض قولان: أحدهما: أنه الزكاة الواجبة. والثاني: صدقة التطوع. وقد شرحنا في (البقرة) معنى القرض الحسن.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ يشير إلى الميثاق ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، أي: أخطأ قصد الطريق.

﴿فِيمَا نَقَّبْنَاهُمْ لِيَتَّقُوا اللَّهَ وَيَخْشَوْهُمْ فَتَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الكلام محذوف، تقديره: فنقضوا، فبنقضهم لعناهم. وفي المراد بهذه اللعنة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها التعذيب بالجزية، قاله ابن عباس. والثاني: التعذيب بالمسخ، قاله الحسن، ومقاتل. والثالث: الإبعاد من الرحمة، قاله عطاء، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَجَمَعْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «قاسية» بالألف، يقال: قست، فهي قاسية، وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل، عن عاصم: «قسيّة» بغير ألف مع تشديد الياء،

(١) البيت للريد بن الصمة من جملة أبيات في «الشعر والشعراء» ٣٠٢/١ و«الأغاني» ٢٢/١٠، و«اللسان» مادة نقب، قالها في الخساء بنت عمرو بن الشريد، وقد مر بها وهي تهنا بغيراً لها، قود تبدلت حتى فرغت منه، ثم نضت عنها ثيابها فاغسلت، ودريد يراها وهي لا تشعر به، فأعجبه، فانصرف إلى رحله وأنشأ يقول:

حَيَاؤُكُمْ مَاضِرٌ وَارْبِعُوا خَبِي وَقِفُوا فِلَانٌ وَقِفُوا كَمِ خَبِي
أَخْنَانٌ قَدِ هَامَ الْفَوَادُ بِكُمْ وَأَصْحَابَهُ تَبَلُّلٌ مِنَ الْحُبِّ
مَا إِنْ رَأَيْتُمْ وَلَا مَمَعْتُ بِهِ كَالْيَوْمِ طَالِي أَيْنُقُ جُزْبِ
مَتَبَذَّلًا تَسْبَدُو مَحَاسِنُهُ يَضَعُ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ الثُّقْبِ
مَتَحَنُّرًا نَضَحَ الْهِنَاءُ بِهِ نَضَحَ الْعَبِيرُ بِرِبْطَةِ الْعَضْبِ
قَسَلِيهِمْ عُنِّي خُنَاسٌ إِذَا عَفَّ الْجَمِيعَ الْخَطْبُ مَا خَطْبِي

فخطبها إلى أبيها فردته وقالت: أنزاني تاركة بني عمي كأنهم عوالي الرماح، ومرثية شيخ بني جشم؟

(٢) في الأحمدية «اثنا عشر» وهو خطأ.

لأنه قد يجيء فاعل وفعليل، مثل شاهد وشهيد، وعالم وعليم. و«القسوة»: خلاف اللين والرقة. وقد ذكرنا هذا في (البقرة). وفي تحريفهم الكلم ثلاثة أقوال: أحدها: تغيير حدود التوراة، قاله ابن عباس. والثاني: تغيير صفة محمد ﷺ، قاله مقاتل. والثالث: تفسيره على غير ما أنزل، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿عَنْ قَوَائِمِهِ﴾ مبيّن في سورة (النساء).

قوله تعالى: ﴿وَكَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ النسيان هانها: الترك عن عمد. والحظ: النصيب. قال مجاهد: نسوا كتاب الله الذي أنزل عليهم. وقال غيره: تركوا نصيبهم من الميثاق المأخوذ عليهم. وفي معنى ﴿دُكِّرُوا بِهِ﴾ قولان: أحدهما: أمروا. والثاني: أوصوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خِائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ وقرأ الأعمش «على خيانة منهم» قال ابن قتيبة: الخائنة: الخيانة. ويجوز أن تكون صفة للخائين، كما يقال: رجلٌ طاغية، وراوية لحديث. قال ابن عباس: وذلك مثل نقض قريظة عهد رسول الله ﷺ، وخروج كعب بن الأشرف إلى أهل مكة للتحريض على رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ لم ينقضوا العهد، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه. وقيل: بل القليل ممن لم يؤمن.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْتَفَ عَنْهُمْ وَاصْفَحَ﴾ واختلّفوا في نسخها على قولين: أحدهما: أنها منسوخة، قاله الجمهور. واختلّفوا في ناسخها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها آية السيف. والثاني: قوله: ﴿فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا بَرْؤَ لَكُمْ بِهِ...﴾ (التوبة: ٢٩) والثالث: قوله: ﴿وَرِئًا مَخَافَتٍ مِنْ قَوْمٍ خِائِنَةٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]. والثاني: أنها نزلت في قوم كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد، فغدروا، وأرادوا قتل النبي ﷺ، فأظهره الله عليهم، ثم أنزل الله هذه الآية، ولم تنسخ. قال ابن جرير: يجوز أن يعنى عنهم في غدره فعلوها، ما لم ينصبوا حرباً، ولم يمتنعوا من أداء الجزية والإقرار بالصغار، فلا يتوجّه النسخ^(١).

﴿وَرِئًا مَخَافَتٍ مِنْ قَوْمٍ خِائِنَةٍ﴾ قالوا: إِنَّا نَصَدَّقُكُمْ أَحَدًا مِمَّنْ تَقُولُونَ حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْيَوْمِ وَسَوْفَ يُنْفِئُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَرِئًا مَخَافَتٍ مِنْ قَوْمٍ خِائِنَةٍ﴾ قال الحسن: إنما قال: ﴿قَالُوا إِنَّا نَصَدَّقُكُمْ﴾، ولم يُقَل: من النصارى، ليدل على أنهم ليسوا على منهاج النصارى حقيقة، وهم الذين اتبعوا المسيح. وقال قتادة: كانوا بقرية، يقال لها: ناصرة، فسمّوا بهذا الاسم. قال مقاتل: أخذ عليهم الميثاق، كما أخذ على أهل التوراة أن يؤمنوا بمحمد، فتركوا ما أمروا به.

قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَبْنَا بَيْنَهُمُ﴾ قال النضر: هيجنا، وقال المؤرّج: حرّشنا بعضهم على بعض. وقال الزجاج: ألقينا بهم ذلك، يقال: يقال: غرّيت بالرجل غرى مقصوراً: إذا لصقت به، هذا قول الأصمعي. وقال غير الأصمعي: غرّيت به غراءً ممدود، وهذا الغراء الذي يُغرى به إنما يلصق به الأشياء، ومعنى أغربنا بينهم العداوة والبغضاء: أنهم صاروا فرقاً يكفر بعضهم بعضاً. وفي الهاء الميم من قوله «بينهم» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى اليهود والنصارى، قاله مجاهد، وقاتدة، والسدي. والثاني: أنها ترجع إلى النصارى خاصة، قاله الربيع. وقال الزجاج: هم النصارى، منهم النسبورية، واليعقوبية، والملكية، وكل فرقة منهم تعادي الأخرى. وفي تمام الآية وعيد شديد لهم.

﴿بِمَا هَلَلِ الْكُتُبَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُكُمْ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكُتُبِ وَيَعْلَمُ أَعْنِ كَثِيرٌ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

(١) نص كلام ابن جرير ١٣٥/١٠: قال أبو جعفر: والذي قاله قتادة وهو أن الآية منسوخة بقوله: ﴿فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا بَرْؤَ لَكُمْ بِهِ...﴾ - غير مدفوع إمكانه، غير أن الناسخ الذي لا شك فيه من الأمر، هو ما كان نافية كل معاني خلافه الذي كان قبله، فاما ما كان غير نافٍ جميعه، فلا سبيل إلى العلم بأنه ناسخ إلا بخبر من الله ﷻ أو من رسوله ﷺ، وليس في قوله: ﴿فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا بَرْؤَ لَكُمْ بِهِ...﴾ دلالة على الأمر بنفي معاني الصّح والعمو عن اليهود. وإذا كان ذلك كذلك وكان جائزاً مع إقرارهم بالصغار وأدائهم الجزية بعد القتال الأمر بالعمو عنهم في غدره هموا بها، أو نكفة غرموا عليها، ما لم ينصبوا حرباً دون أداء الجزية ويمتنعوا من الأحكام اللازمهم - لم يكن واجباً أن يحكم لقوله: ﴿فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا بَرْؤَ لَكُمْ بِهِ...﴾ الآية، بأنه ناسخ قوله: ﴿فَأَعْتَفَ عَنْهُمْ وَاصْفَحَ﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتَلِ أَلْكُتَبِ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود. والثاني: اليهود والنصارى. والرسول: محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿بَيِّنَتْ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس: أخفوا آية الرجم^(١) وأمر محمد ﷺ وصفته ﴿وَيَقُومُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ يتجاوز، فلا يخبرهم بكتمانه. فإن قيل: كيف كان له أن يمسك عن حق كتموه فلا يبينه؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه كان متلقياً ما يؤمر به، فإذا أمر بإظهار شيء من أمرهم، أظهره، وأخذهم به، وإلا سكت. والثاني: أن عقد اللزمة إنما كان على أن يُقروا على دينهم، فلما كتموا كثيراً مما أمروا به، واتخذوا غيره ديناً، أظهر عليهم ما كتموه من صفته وعلامة نبوته، لتتحقق معجزته عندهم، واحتكموا إليه في الرجم، فأظهر ما كتموا مما يوافق شريعته، وسكت عن أشياء ليتحقق إقرارهم على دينهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ قال قتادة: يعني بالنور: النبي محمداً ﷺ. وقال غيره: هو الإسلام، فأما الكتاب المبين، فهو القرآن.

﴿يَهْدِي بِرِضْوَانِهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِرِضْوَانِهِ﴾ يعني: بالكتاب. ورضوانه: ما رضيه الله تعالى. و«السُّبُلُ»، جمع سبيل، قال ابن عباس: سبيل السلام: دين الإسلام. وقال السدي: «السلام»: هو الله، و«سبله»: دينه الذي شرعه. قال الزجاج: وجائز أن يكون «سبيل السلام» طريق السلامة التي من سلكها سليم في دينه، وجائز أن يكون «السلام» اسم الله عز وجل، فيكون المعنى: طرق الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ قال ابن عباس: يعني الكفر ﴿إِلَى النُّورِ﴾ يعني: الإيمان ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ أي: بأمره ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام. وقال الحسن: طريق الحق.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ قَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قال ابن عباس: هؤلاء نصارى أهل نجران، وذلك أنهم اتخذوه إلهاً ﴿قُلْ قَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فمن يقدر أن يدفع من عذابه شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: فلو كان إلهاً كما تزعمون لقدّر أن يرده أمر الله إذا جاءه بإهلاكه أو إهلاك أمه، ولما نزل أمر الله بأمه لم يقدر أن يدفع عنها. وفي قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ردّ عليهم حيث قالوا للنبي: فهات مثله من غير أب. فإن قيل: فلم قال ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ولم يقل: وما بينهن؟^(٢) فالجواب أن المعنى: وما بين هذين النوعين من الأشياء، قاله ابن جرير.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قَوْلَ قَلِمٍ يَمْدُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أُنشِرُ بَشَرًا مِّمَّنْ خَلَقَ يُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ قال مقاتل: هم يهود المدينة، ونصارى نجران. وقال السدي: قالوا: إن الله تعالى أوحى إلى إسرائيل: إن ولدك بكري من الولد^(٣)، فأدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم، وتآكل خطاياهم، ثم ينادي مناد: أخرجوا كلّ مختون من بني إسرائيل. وقيل: إنهم لما قالوا: المسيح ابن الله، كان

(١) ابن جرير ١٠/١٤١، والحاكم في «المستدرک» ٤/٣٥٩ قال: هنا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وواقفه الذهبي.

(٢) في النسخة الأحمدية «وما بينهم» والتصويب من نسخة «الرباط» والطبري.

(٣) الخبر في «القرطبي» ٦/١٢٠، وابن كثير ٢/٣٥ ونسبه لابن جرير وابن أبي حاتم. وجاء في «الطبري» ١٠/١٥١: «إن الله أوحى إلى بني إسرائيل أن ولدنا من ولدك فأدخلهم النار...» وقال الأستاذ محمود شاكر في «المخطوطة»: «إلى إسرائيل إن ولدك من الولد أدخلهم النار» وهو خلط بلا معنى صوابه ما في المطبوعة على الأرجح. قلت: الصواب ما جاء في «المخطوطة» بزيادة «بكري» كما وردت في الأصل وفي «تفسير ابن كثير» وغيره.

معنى قولهم: ﴿حَسْبُ آبَتَاكَ اللَّهُ﴾ أي: متا ابن الله. وفي قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ إبطال لدعواهم، لأن الأب لا يعذب ولده، والحبيب لا يعذب حبيبه^(١) وهم يقولون: إن الله يعذبنا أربعين يوماً بالنار. وقيل: معنى الكلام: فلم عذب منكم من مسخه قرودة وخنازير؟ وهم أصحاب السبت والمائدة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي: أنتم كسائر بني آدم تُجازون بالإحسان والإساءة. قال عطاء: يغفر لمن يشاء، وهم الموحدون، ويعذب من يشاء، وهم المشركون.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتَيْبُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولًا يَبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَمَّرَ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتَيْبُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولًا﴾ سبب نزولها: أن معاذ بن جبل، وسعد بن عباد، وعقبة بن وهب، قالوا: يا معشر اليهود اتقوا الله، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، كنتم تذكرونه لنا قبل بيعته، وتصفونه بصفته. فقال وهب بن يهودا^(٢)، ورافع: ما قلنا هذا لكم، وما أنزل الله بعد موسى من كتاب، ولا أرسل رسولا بشيراً ولا نذيراً [بعده]، فنزلت هذه الآية^(٣)، قاله ابن عباس. فاما «الفترة» فأصلها السكون، يقال: فتر الشيء يفتت فتوراً: إذا سكنت حدته، وانقطع عما كان عليه، والطرف الفاتر: الذي ليس بحديد. والفتور: الضعف. وفي مدة الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ أربعة أقوال: أحدها: أنه كان بين عيسى ومحمد ﷺ ستماية سنة، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٤)، وبه قال سلمان الفارسي، ومقاتل. والثاني: خمسمائة سنة وستون سنة، قاله قتادة. والثالث: أربع مائة وبضع وثلاثون سنة، قاله الضحاك. والرابع: خمسمائة سنة وأربعون سنة، قاله ابن السائب. وقال أبو صالح عن ابن عباس: ﴿عَلَى فَمَّرَ مِنَ الرَّسُولِ﴾ أي: انقطاع منهم، قال: وكان بين ميلاد عيسى، وميلاد محمد ﷺ خمسمائة سنة وتسعة وتسعون سنة، وهي فترة. وكان بعد عيسى أربعة من الرسل، فذلك قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]. قال: والرابع لا أدري من هو. وكان بين تلك السنين مائة سنة، وأربع وثلاثون نبوة وسائرهما فترة. قال أبو سليمان الدمشقي: والرابع - والله أعلم - خالد بن سنان الذي قال فيه رسول الله ﷺ ﴿نَبِيٌّ ضَمِعَهُ قَوْمُهُ﴾^(٥).

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ قال الفراء: كي لا تقولوا: [ما جاءنا من بشيراً]^(٦)، مثل قوله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَصَلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]. وقال غيره: لثلاث تقولوا، وقيل: كراهة أن تقولوا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِمَّنْ أَلَمَلَيْتُمْ﴾

(١) روى الإمام أحمد ١٠٤/٣ قال: حدثنا ابن أبي عدي عن حميد عن أنس قال: مر النبي ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسمى، وتقول: ابني ابني، وسعت فأخذته فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ولدها في النار، قال: فخفضهم النبي ﷺ، فقال: لا، والله لا يلقي حبيبه في النار؛ قلت: وإسناده صحيح، وحميد الطويل وإن قال بعضهم: إنه يدل عن أنس، فإن الراسطة بينه وبين أنس ثابت، وهو ثقة صحيح كما قال الحافظ العلامي.

(٢) في «الطبري»، و«السيرة» و«الذكر المشهور»: «يهودا» بالذال.
(٣) ابن هشام ٥٦٣/١، وابن جرير ١٥٥/١٠ وفي سننه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول. وزاد السيوطي نسبه في «الدر» ٢٢٩/٢ لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل».

(٤) ونسبه ابن كثير إلى أبي عثمان النهدي وقاتدة في رواية عنه، ورواه البخاري عن سلمان الفارسي. قال ابن كثير: وهو المشهور.

(٥) روى البخاري ٣٥٤/٦، ومسلم ١٨٣٦/٤ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياء أبناء علات، وليس بيني وبين عيسى نبي» قال الحافظ ابن كثير ٣٥/٢: وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القاضي وغيره. وقال الحافظ في «الفتح»: واستدل به، أي: بالحديث على أنه لم يبعث بعد عيسى أحد إلا نبياً ﷺ وفيه نظر، لأنه ورد أن الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية المذكورة قصتهم في سورة (يس) كانوا من أتباع عيسى، وأن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبين، وكانا بعد عيسى. والجواب أن هذا الحديث يُضَمُّ ما ورد من ذلك، فإنه صحيح بلا تردد، وفي غيره مقال، أو المراد أنه لم يبعث بعد عيسى نبي بشريعة مستقلة، وإنما بعث بعده من بعث بتقرير شريعة عيسى. وقصة خالد بن سنان أخرجها الحاكم في «المستدرک» من حديث ابن عباس، ولها طرق جمعتها في ترجمته في كتابي في الصحابة. قلت: يريد كتاب «الإصابة» فانظره ٤٥٨/١.

(٦) ما بين معنيين من «معاني القرآن» للفراء ٣٠٣/١.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم السبعون الذين اختارهم موسى، وانطلقوا معه إلى الجبل، جعلهم الله أنبياء بعد موسى وهارون، وهذا قول ابن السائب، ومقاتل. والثاني: أنهم الأنبياء الذين أُرسلوا من بني إسرائيل بعد موسى، ذكره الماوردي. وبماذا جعلهم ملوكاً؟ فيه ثمانية أقوال: أحدها: بالمن والسلوى والحجر. والثاني: بأن جعل للرجل منهم زوجةً وخادماً. والثالث: بالزوجة والخادم والبيت^(١)، رويت هذه الثلاثة عن ابن عباس، وهذا الثالث اختيار الحسن، ومجاهد. والرابع: بالخادم والبيت، قاله عكرمة. والخامس: بتملكهم الخدم، وكانوا أول من تملك الخدم، ومن اتخذ خادماً فهو ملك، قاله قتادة، والسادس: بكونهم أحراراً يملك الإنسان منهم نفسه وأهله وماله، قاله السدي. والسابع: بال منازل الواسعة، فيها المياه الجارية، قاله الضحاك. والثامن: بأن جعل لهم الملك والسلطان، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِأُمَّةٍ مِمَّنْ قَدْ خَلَتْ مِنْ أَمَّاكِنَ آيَاتِنَا﴾ اختلفوا فيمن خوطب بهذا على قولين: أحدهما: أنهم قوم موسى، وهذا مذهب ابن عباس، ومجاهد. قال ابن عباس: ويعني بالعالمين: الذين هم بين ظهرانيهم^(٢). وفي الذي أتاهم ثلاثة أقوال: أحدها: المن والسلوى والحجر والغمام، رواه مجاهد عن ابن عباس وقال به. والثاني: أنه الدار والخادم والزوجة، رواه عطاء عن ابن عباس. قال ابن جرير: ما أوتي أحد من النعم في زمان قوم موسى ما أوتوا. والثالث: كثرة الأنبياء فيهم، ذكره الماوردي. والثاني: أن الخطاب لأمه محمد ﷺ، وهذا مذهب سعيد بن جبير^(٣)، وأبي مالك.

﴿يَقْوَرِ أَدْخَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فَنَنْقَلِبُوا حَسْرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَقْوَرِ أَدْخَلُوا﴾ وقرأ ابن محيصن: يا قوم، بضم الميم، وكذلك ﴿يَقْوَرِ أَدْخَلُوا﴾ وقيل للسلطان: القُدس، لأنه يُطَهَّر منه، وسُمِّي بيت المقدس، لأنه يتطهر فيه من الذنوب. وقيل: سماها مقدسة، لأنها طهرت من الشرك، وجعلت مسكناً للأنبياء والمؤمنين. والثاني: أن المقدسة: المباركة، قاله مجاهد. وفي المراد بتلك الأرض أربعة أقوال: أحدها: أنها أريحا، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال السدي، وابن زيد. قال السدي: أريحا: هي أرض بيت المقدس. وروي عن الضحاك أنه قال: المراد بهذه الأرض إيلياء وبيت المقدس. قال ابن قتيبة: وقرأت في مناجاة موسى أنه قال: اللهم إنك اخترت من الأنعام الضائفة، ومن الطير الحمامة، ومن البيوت بكة وإيلياء، ومن إيلياء بيت المقدس. فهذا يدل على أن إيلياء الأرض التي فيها بيت المقدس. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي أن إيلياء بيت المقدس، وهو معرَّب. قال الفرزدق:

وَبَيْتَانِ بَيْتُ اللَّهِ نَحْنُ وَلَائُهُ

وَبَيْتٌ بِأَعْلَىٰ إِيلِيَاءِ مُشْرِفٌ^(٤)

والقول الثاني: أنها الطور وما حوله، رواه مجاهد عن ابن عباس وقال به. والثالث: أنها دمشق وفلسطين وبعض الأردن، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: أنها الشام كلها، قاله قتادة. وفي قوله تعالى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بمعنى أمركم وفرض عليكم دخولها، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: أنه بمعنى: وهبها الله

(١) روى مسلم في «صحيحه» ١١٠/١٨ بشرح النووي، وابن جرير ١٦١/١٠ عن أبي عبد الرحمن الخُبَئي قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل، فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين، فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأت من الأغنياء. قال: فإن لي خادماً. قال: فأت من الملوك.

(٢) قال ابن كثير: ٣٧/٢. والمقصود كانوا أفضل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً، وأعظم ملوكاً، وأغزر أرزاقاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة، وأدوم عزاً. قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وخبر ابن عباس رواه الحاكم في «المستدرک» ٣١٢/٢. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وواقفه الذهبي.

(٣) أثر سعيد بن جبير رواه ابن جرير ١٦٤/١٠ عن السدي.

(٤) «ديوانه» ٣٣/٢، و«المعرب» ٣٢، و«معجم البلدان» ٣٩٢/١، و«اللسان»: مادة «أيل» وفي النسخة الأحمدية: «وبنيان» وهو تصحيف. وإيلياء: بكسر الهجزة في أوله ثم ياء، ثم لام مكسورة ثم ياء وألف ممدودة. قال في «القاموس»: ويقصر ويشد فيهما، وإليا: بياء واحدة ويقصر.

لكم، قاله محمد بن إسحاق. وقال ابن قتيبة: جعلها لكم. والثالث: كتب في اللوح المحفوظ أنها مساكنتكم. فإن قيل: كيف قال: فإنها محرمة عليهم، وقد كتبها لهم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه إنما جعلها لهم بشرط الطاعة، فلما عصوا حرّمها عليهم. والثاني: أنه كتبها لبني إسرائيل، واليهم صارت، ولم يعن موسى أن الله كتبها للذين أمروا بدخولها بأعينهم. قال ابن جرير: ويجز أن يكون الكلام خرج مخرج العموم، وأريد به الخصوص، فتكون مكتوبة لبعضهم، وقد دخلها يوشع، وكالب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَذْبَارِكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا ترجعوا عن أمر الله إلى معصيته. والثاني: لا ترجعوا إلى الشرك به.

﴿قَالُوا يَمْشِيَنَّ إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ قال الزجاج: الجبار من الأدميين: الذي يُجبر الناس على ما يريد، يقال: جبار: بَيْنُ الْجَبَرِيَّةِ، والَجَبَرِيَّةُ بكسر الجيم والباء، والَجَبَرُوتُ والجُبُورَةُ والتَّجْبَارُ والجَبَرُوتُ. وفي معنى وصفه هؤلاء بالجبارين ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم كانوا ذوي قوّة، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم كانوا عظام الخلق والأجسام، قاله قتادة. والثالث: أنهم كانوا قتّالين، قاله مقاتل.

الإشارة إلى القصة

قال ابن عباس: لما نزل موسى وقومه بمدينة الجبارين، بعث اثني عشر رجلاً ليأتوه بخبرهم، فلقبهم رجل من الجبارين، فجعلهم في كسائه، فأتى بهم المدينة، ونادى في قومه فاجتمعوا، فقالوا لهم: من أين أنتم؟ فقالوا: نحن قوم موسى بعثنا لنأتيه بخبركم، فأعطوهم حبةً من عنبٍ توقر الرجل، وقالوا لهم: قولوا لموسى وقومه: اقدروا قدر فاكههم، فلما رجعوا، قالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين. وقال السدي: كان الذي لقبهم، يقال له: عاج، يعني: عوج بن عناق، فأخذ الاثني عشر، فجعلهم في حُجرتِه وعلى رأسه حُزمة حطب، وانطلق بهم إلى امرأته، فقال: انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا، فطرحهم بين يديها، وقال: ألا أطحنهم برجلي؟ فقالت امرأته: لا، بل خلّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا. فلما خرجوا قالوا: يا قوم إن أخبرتم بني إسرائيل بخبر القوم، ارتدوا عن نبي الله، فأخذوا الميثاق بينهم على كتمان ذلك، فنكث عشرة، وكتم رجلان. وقال مجاهد: لما رأى الثقباء الجبارين وجدوهم يدخل في كُفِّ أحدهم اثنان منهم، ولا يحمل عقود عنهم إلا خمسة أو أربعة، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبتها خمسة أو أربعة، فرجع الثقباء كلُّهم ينهى سبطه عن قتالهم، إلا يوشع، وابن يوقنا^(١).

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا آذَنُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ في الرجلين ثلاثة أقوال: أحدها: أنهما يوشع بن نون، وكالب بن يوقنة، قاله ابن عباس. وقال مجاهد: ابن يوقنا، وهما من الثقباء. والثاني: أنهما كانا من الجبارين فأسلما، روي عن ابن عباس. والثالث: أنهما كانا في مدينة الجبارين، وهما على دين موسى، قاله الضحاك. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وأبو رجاء، وأيوب: «يُخَافُونَ» بضم الياء، على معنى أنهما كانا من العدو، فخرجوا مؤمنين. وفي معنى «خوفهم» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم خافوا الله وحده. والثاني: خافوا الجبارين، ولم يمنعهم خوفهم قول الحق. والثالث: يُخَافُ منهم، على قراءة ابن جبيرة. وفيما أنعم به عليهما أربعة أقوال: أحدها: الإسلام، قاله ابن عباس. والثاني: الصلاح والفضل واليقين، قاله عطاء. والثالث: الهدى، قاله الضحاك. والرابع: الخوف، ذكره ابن جرير عن بعض السلف.

(١) كان الأجدد بالمنصف أن لا يذكر هذه الأخبار الإسرائيلية الكاذبة التي وضعتها القصاص ونفقت عند من لا يميز بين الصحيح والسقيم، فدونها في كثير من التفسير. وخير لنا أن نقصر في وصفهم على ما ذكر الله تعالى في الآيات الكريمة دونما زيادة.

قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبُيُوتَ﴾ قال ابن عباس: قال الرجلان: ادخلوا عليهم باب القرية، فإنهم قد مُلثوا منا رُعباً وقرعاً.

﴿قَالُوا يَكُونُ مِنَّا لَوْ نَدَّخَلْهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَآذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَتَيْتَنَا إِنَّا هُنَا قَائِدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَآذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَتَيْتَنَا﴾ قال ابن زيد: قالوا له: انظر كما صنع ربك بفرعون وقومه، فليصنع بهؤلاء. وقال مقاتل: فآذهب أنت وسل ربك النصر. وقال غيرهما: إذهب أنت وليجئك ربك. قال ابن مسعود: لقد شهدت من المقداد شهيداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عُدي به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت رسول الله ﷺ أشرق لذلك وجهه وسر به^(١). وقال أنس: استشار رسول الله ﷺ الناس يوم خرج إلى بدر، فأشار عليه أبو بكر، ثم استشارهم، فأشار عليه عمر فسكت، فقال رجل من الأنصار: إنما يريدكم، فقالوا: يا رسول الله! لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن والله لو ضربت أعبادها حتى تبلغ برك الغماد لكنا معك^(٢).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ فيه قولان: أحدهما: لا أملك إلا نفسي، وأخي لا يملك إلا نفسه. والثاني: لا أملك إلا نفسي وإلا أخي، أي: وأملك طاعة أخي، لأن أخاه إذا أطاعه فهو كالمملك له، وهذا على وجه المجاز، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نفعني مال [قط] ما نفعني مال أبي بكر» فبكى أبو بكر، وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله^(٣) يعني: أنني متصرف حيث صرقتني، وأمرك جائز في مالي.

قوله تعالى: ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال ابن عباس: اقض بيننا وبينهم. وقال أبو عبيدة: باعد، وافصل، وميّر. وفي المراد بالفاسقين ثلاثة أقوال: أحدها: العاصون، قاله ابن عباس. والثاني: الكاذبون، قاله ابن زيد. والثالث: الكافرون، قاله أبو عبيدة. قال السدي: غضب موسى حين قالوا له: اذهب أنت وربك، فدعا عليهم، وكان عجلة من موسى عجلها.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَهْتَبُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ الإشارة إلى الأرض المقدسة. ومعنى تحريمها عليهم: منعهم منها. فأما نصب «الأربعين»، فقال الفراء: هو منصوب بالتحريم، وجائز أن يكون منصوباً بـ «يهتبون»^(٤). وقال الزجاج: لا يجوز أن يتنصب بالتحريم، لأن التفسير جاء أنها محرمة عليهم أبداً. قلت: وقد اختلف المفسرون في ذلك، فذهب الأكثرون،

(١) «المسنده» ٢٥٩/٥، ٦٥/٦، ١٧٤، والبخاري ٢٢٣/٧، ٢٠٥/٨، والحاكم في «المستدرک» ٣٤٩/٣، وصححه ووافقه الذهبي. وذكره الحافظ ابن كثير في «البدایة والنهایة» عن البخاري، ثم قال: انفرد به البخاري دون مسلم، فرواه في مواضع من «صحيحه». وقوله: «مما عُدي به» قال الحافظ: بضم المهملة وكسر الدال المهملة، أي: وزن، أي: من كل شيء يقابل ذلك من الذنوبات.

(٢) «المسنده» ٩٧/٢٠ بترتيب الساعاتي. ورواه النسائي وابن حبان وابن مردويه. قال الحافظ ابن كثير في «البدایة والنهایة» ٣٦٣/٣ بعدما رواه عن «المسنده»: وهذا إسناد ثلاثي صحيح على شرط الصحيح. وبرك الغماد: قال في «النهایة» بفتح الباء وتكسر، وتضم الفين وتكسر، وهو موضع باليمن. وقال السهيلي في «الروض الأنف» ٦٥/٢: وجدت في بعض كتب التفسير أنها مدينة الحبة.

(٣) «المسنده» ١٨٣/١٣، وابن ماجه ٣٦١/١. وقال البوصيري في «زوائد»: إسناده إلى أبي هريرة في مقال، لأن سليمان بن مهران الأعمش يلبس وكفا أبو معاوية إلا أنه صرح بالحدیث، فزال التلبس، وبقية رجاله رجال الصحيح، وتقبيه الشيخ أحمد شاکر في شرح «المسنده» بقوله: وهذا تعليل منه غير جيد ولا سديد، فإنه - كما قال - قد صرح أبو معاوية والأعمش بالتحديث في رواية ابن ماجه، فلم يبق موضع للكلام، ولا يسمى هذا الإسناد حديثاً بأن فيه مقالاً. ثم رواية أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح صححة على شرط الشيخين، والصحيحان روايا الكثير بهذا الإسناد. قلت: الذي في «سنن ابن ماجه» تصريح أبي معاوية بالسماح، وأما الأعمش فلم يصرح. ورواه ابن حبان في «صحيحه» ٣٣١/٢ من مصورة «التفاسيم والأنواع» وذكر السيوطي أوله في «الجامع الصغير» ونسبه لأحمد وابن ماجه ورمز له بالحسن، وزاد شارحه المناوي أنه رواه أبو يعلى أيضاً، ثم قال: قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن إسرائيل وهو ثقة مأمون، وليس هذا الحديث من شرط «الزوائد» للهيثمي، ولم يوجد فيه.

(٤) في «المكبري» ٢١٣/١: «أربعين سنة» ظرف لـ «محرمة» فالتحريم على هذا مقدار «يهتبون» حال من الضمير المجزوء، وقيل: هي ظرف لـ «يهتبون»، فالتحريم على هذا غير مؤقت.

منهم عكرمة، وقتادة، إلى ما قال الزجاج، وأنها حرّمت عليهم أبداً. قال عكرمة: فإنها محرمة عليهم أبداً يتيهون في الأرض أربعين سنة، وذهب قومٌ، منهم الربيع بن أنس، إلى أنها حرّمت عليهم أربعين سنة، ثم أمروا بالسير إليها، وهذا اختيار ابن جرير. قال: إنما نصبت بالتحريم، والتحريم كان عاماً في حق الكلّ، ولم يدخلها في هذه المدة منهم أحد، فلما انقضت، أذن لمن بقي منهم بالدخول مع ذراريهم. قال أبو عبيدة: ومعنى: يتيهون: يحورون ويضلون^(١).

الإشارة إلى قصّتهم

قال ابن عباس: حرّم الله على الذين غصّوا دُخُولَ بيت المقدس، فلبثوا في تيههم أربعين سنة، وماتوا في التيه، ومات موسى وهارون، ولم يدخل بيت المقدس إلا يوشع وكالب بأبناء القوم، وناهض يوشع بمن بقي معه مدينة الجبارين فافتتحها. وقال مجاهد: تاهوا أربعين سنة يصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا. وقال السدي: لما ضرب الله عليهم التيه، ندم موسى على دعائه عليهم، وقالوا له: ما صنعت بنا، أين الطعام؟ فأنزل الله المنّ. قالوا: فأين الشراب؟ فأمر موسى أن يضرب بعصاه الحجر. قالوا: فأين الظلُّ؟ فظلّ عليهم الغمام. قالوا: فأين اللباس؟ وكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، وقُبض موسى ولم يبق أحد ممن أبي دخول قرية الجبارين إلا مات، ولم يشهد الفتح. وفيه قول آخر أنه لما مضت الأربعون خرج موسى ببني إسرائيل من التيه، وقال لهم: ادخلوا هذه القرية، فكلوا منها حي شتّم رغداً، وادخلوا الباب سجداً، وقولوا حطّة. إلى آخر القصة. وهذا قول الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد. قال ابن جرير الطبري، وأبو سليمان الدمشقي: وهذا الصحيح، وأن موسى هو الذي فتح مدينة الجبارين مع الصالحين من بني إسرائيل، لأن أهل السيرة أجمعوا على أن موسى هو قاتل عوج، وكان عوج ملكهم، وكان بلعم بن باعوراء فيمن سباه موسى وقتله، ولم يدخل مع موسى من قدمائهم غير يوشع وكالب، وإنما حرّمت على الذين لم يطيعوا. وفي مسافة أرض التيه قولان: أحدهما: تسعة فراسخ، قاله ابن عباس. قال مقاتل: هذا عرضها، وطولها ثلاثون فرسخاً. والثاني: ستة فراسخ في طول اثني عشر فرسخاً، حكاه مقاتل أيضاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْرِ الْمُتَيْفِينَ﴾ قال الزجاج: لا تحزن على قوم شأنهم المعاصي، ومخالفة الرسل^(٢). وقال ابن قتيبة: يقال: أسيت على كذا، أي: حزنت، فأنا آسي أسى.

﴿وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرَ قَالَ أَأَنْتَ أَكْبَرُ مِنْ نِبْتَلِي﴾

الله مِنَ الْمُتَيْفِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ النّبأ: الخبر. وفي ابني آدم قولان: أحدهما: أنهما ابناه لصلبه، وهما قابيل وهابيل، قاله ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنهما أخوان من بني إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلب، هذا قول الحسن، والعلماء على الأول، وهو أصح، لقوله: ﴿كَيْفَ يُؤَرِّى سَوَاءَ أَخِي﴾ [المائدة: ٣١] ولو كان من بني إسرائيل، لكان قد عرف الدفن، ولأن النبي ﷺ قال عنه: «إنه أول من سن القتل»^(٣). وقوله تعالى:

(١) في «مجاز القرآن» ١٦٠: أي: يحورون ويحارون ويضلون. وفي «الطبري» ١٩٩/١٠: يحارون ويضلون. قلت: وجاء في هامش نسخة الرباط ما نصه: لعله: يحارون.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٤٠/٢ بعد تفسير الآيات: وهذه القصة تضمنت تبريع اليهود، وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن طاعتها فيما أمراه به من الجهاد، فضمعت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجاللتهم ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله وكتابه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يمدّم بالنصر والظفر بأعدائهم، وهذا مع ما شاهدوا من فعل الله بدمهم فرعون من العذاب والنكال، والفرق له ولجنوده في اليوم وهم ينظرون، لتعزّ به أعينهم، وما بالمهد من قدم، ثم يتكلمون من مقاتلة أهل بلد في بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المشاعر في عدة أهلها وعددهم. فظهرت قبائح صنيمهم للخاص والعام، وانفضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الليل. هذا وهم في جهلهم بعمهون، وفي غيهم بترددون، وهم البغضاء إلى الله وأعدائه، ويقولون مع ذلك: نحن أبناء الله وأحباؤه!! قبح الله وجوههم التي سخ منها الخنازير والقرود، والزهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوجود، ويقضي لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل، وله الحمد من جميع الوجود.

(٣) «الفتنة» ٢٢٦/٥، والبخاري ٢٦٢/٦، ١٦٩/١٢، ٢٥٦/١٣، ١٣٠٣/٣، والترمذي ٩٢/٢، والنسائي ٨٢/٧، وابن ماجه ٨٧٣/٢ من حديث ابن مسعود مرفوعاً، ولفظه: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من جمها، لأنه أول من سن القتل» وقوله: «كفل منها» الكفل،

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: كما كان. والقربان: فعلان من القرب، وقد ذكرناه في (آل عمران). وفي السبب الذي قربا لأجله قولان: أحدهما: أن آدم ﷺ كان قد نُهي أن يُنكح المرأة أخاها الذي هو توأمها^(١)، وأجبر له أن يُنكحها غيره من إخوتها، وكان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فولدت له ابنة وسيمة، وأخرى دميمة، فقال أخو الدميمة لأخي الوسيمة: أنكحني أختك، وأنكحك أختي، فقال أخو الوسيمة: أنا أحق بأختي، وكان أخو الوسيمة صاحب حرث، وأخو الدميمة صاحب غنم، فقال: هلّم فلنقرب قرباناً، فأينا تُقبّل قربانهُ فهو أحقُّ بها، فجاء صاحب الغنم بكبش أبيض أعين أقرن، وجاء صاحب الحرث بصَبْرٍ^(٢) من طعام، فثُقِّل الكبش، فخزنه الله في الجنة أربعين خريفاً، فهو الذي ذبحه إبراهيم، فقتله صاحب الحرث، فولد آدم كلهم من ذلك الكافر، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس^(٣). والثاني: أنهما قرباه من غير سبب^(٤). روى العوفي عن ابن عباس أن ابني آدم كانا قاعدَيْن يوماً، فقالا: لو قربنا قرباناً، فجاء صاحب الغنم بخير غنمه وأسمنها، وجاء الآخر ببعض زرع، فنزلت النار، فأكلت الشاة، وتركت الزرع، فقال لأخيه: أتمشي في الناس وقد علموا أن قربانك تُقبّل، وأنت خيرٌ مني! لأقتلنك. واختلفوا هل قابيل وأخته ولدا قبل هابيل وأخته، أم بعدهما؟ على قولين، وهل كان قابيل كافراً أو فاسقاً غير كافر؟ فيه قولان. وفي سبب قبول قربان هابيل قولان: أحدهما: أنه كان اتقى الله من قابيل. والثاني: أنه تقرب بخيار ماله، وتقرب قابيل بشرِّ ماله. وهل كان قربانها بأمر آدم، أم من قبل أنفسهما؟ فيه قولان: أحدهما: أنه كان وأدم قد ذهب إلى زيارة البيت. والثاني: أن آدم أمرهما بذلك. وهل قُتل هابيل بعد تزويج أخت قابيل، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه قتله قبل ذلك لثلاثا يصل إليها. والثاني: أنه قتله بعد نكاحها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وروى زيد عن يعقوب: «لأقتلنك» بسكون النون وتخفيفها. والقائل: هو الذي لم يُتقبّل منه. قال الفراء: إنما حذف ذكره لأن المعنى يدل عليه، ومثل ذلك في الكلام أن تقول: إذا رأيت الظالم والمظلوم أعنت^(٥)، وإذا اجتمع السفية والحليم حُمِد، وإنما كان ذلك، لأن المعنى لا يشكل، فلو قلت: مر بي رجل وامرأة، فأعنت، وأنت تريد أحدهما، لم يجز، لأنه ليس هناك علامة تدل على مرادك^(٦). وفي المراد بالمتقين قولان: أحدهما: أنهم الذين يتقون المعاصي، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم الذين يتقون الشرك، قاله الضحاك.

﴿لَبِنَ بَسَطَ إِلَٰهَ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: ما أنا بمنتمصر لنفسي، قاله ابن عباس. والثاني: ما كنت لأبتدئك، قاله عكرمة. وفي سبب امتناعه من دفعه عنه قولان: أحدهما: أنه منعه التحرُّج مع قدرته

= بكر أوله وسكون الفاء: النصب، وأكثر ما يطلق على الأجر، والضمف على الإثم. ومنه قوله تعالى: ﴿كَلْبَيْنَ مِن دَحْيُونَ﴾ [الحديد: ٢٨] ووقع على الإثم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

(١) التوأم والتوأم والتوأم والتوأم: هو من جميع الحيوان: المولود مع غيره في بطن من الاثنين إلى ما زاد، ذكرًا وأنثى، أو ذكرًا مع الأنثى. ويقال أيضاً: توأم للذكر، وتوامة للأنثى. «لسان العرب».

(٢) الصبرة: كومة من الطعام بلا كيل ولا وزن، ويقال: اشتريت الشئ صبرةً، أي: بلا كيل ولا وزن.

(٣) ابن جرير الطبري ٢٢٣/١٠، وابن كثير ٤٢/٢، عن ابن أبي حاتم، وجود إسناده، وزاد السيوطي في «الدر المشثور» ٢٢٣/٢ نسبة إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عساکر، وجود إسناده أيضاً. قال الشيخ أحمد شاكر: وهو خير - كما ترى - ليس من السنة النبوية، بل ظاهره يدل على أنه مما أخذ ابن عباس من كتب أهل الكتاب.

(٤) قال ابن كثير: وهو ظاهر القرآن ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحْسَنِمَا وَلَمْ يَبْتَلِ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَّبِعُ اللَّهَ مِنَ الْغَايِبِ﴾ فالسباق يقتضي أنه إنما غضب عليه وحسده لقبول قربانه دونه. قلت: وخبر ابن عباس الذي ساقه المصنف عن العوفي ضعيف جداً.

(٥) في النسخة الأحمدية: «أعيت» وهو تحريف.

(٦) اختصر المؤلف رحمه الله كلام الفراء في «معاني القرآن» ٣٠٥/١ وإليك نصه بتمامه قال: ولم يقل: قال الذي لم يتقبل منه: لأقتلنك، لأن المعنى يدل على أن الذي لم يتقبل منه هو القائل لحسده لأخيه: لأقتلنك، ومثله في الكلام أن تقول: إذا اجتمع السفية والحليم حمد، تنوي بالحمد الحليم، وإذا رأيت الظالم والمظلوم أعنت، وأنت تنوي: أعنت المظلوم للمعنى الذي لا يشكل. ولو قلت: مر بي رجل وامرأة فأعنت، وأنت تريد أحدهما لم يجز حتى يبين، لأنهما ليس فيهما علامة تستدل بها على موضع المعونة، إلا أن تريد: فأعنتهما جميعاً.

على الدفع وجوازه له، قاله ابن عمر^(١)، وابن عباس. والثاني: أن دفع الإنسان عن نفسه لم يكن في ذلك الوقت جائزاً، قاله الحسن، ومجاهد^(٢). وقال ابن جرير: ليس في الآية دليل على أن المقتول علم عزم القاتل على قتله، ثم ترك الدفع عن نفسه، وقد ذكر أنه قتله غيلةً، فلا يدعى ما ليس في الآية إلا بدليل^(٣).

﴿إِنَّ أَرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إنني أريد أن ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي في عنقك، هذا قول ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك. والثاني: أن تبوء بإثمي في خطاياي، وإثمك في قتلك لي، وهو مروى عن مجاهد أيضاً^(٥) قال ابن جرير: والصحيح عن مجاهد القول الأول. وقد روى البخاري، ومسلم في «صحيحيهما» من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقتل نفس ظملاً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل» فإن قيل: كيف أراد هابيل وهو من المؤمنين أن يبوء قابيل بالإثم وهو معصية، والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه ما أراد لأخيه الخطيئة، وإنما أراد: إن قتلتي أردت أن تبوء بالإثم، وإلى هذا المعنى ذهب الزجاج. والثاني: أن في الكلام محذوفاً، تقديره: إنني أريد أن لا تبوء بإثمي وإثمك، فحذف «لا» كقوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ رَاسٍ أَنْ تَبِيدَ بِكُمْ﴾ [القمان: ١٠] أي: أن لا تميد بكم، ومنه قول امرئ القيس:

فقلْتُ يمينُ الله أبرحُ قاعداً
ولو قَطَّعوا رأسي لَدَيْكَ وأوصالي^(٥)

أراد: لا أبرح. وهذا مذهب ثعلب. والثالث: أن المعنى: أريد زوال أن تبوء بإثمي وإثمك، وبطلان أن تبوء بإثمي وإثمك، فحذف ذلك، وقامت «أن» مقامه، كقوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْكَيْدَ﴾ [البقرة: ٩٣] أي: حبّ العجل، ذكروه والذي قبله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ الإشارة إلى مصاحبة النار.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْقَاسِيَةِ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: تابعته على قتل أخيه، قاله ابن عباس. والثاني: شجّعته، قاله مجاهد. والثالث: زوّنت له، قاله قتادة. والرابع: رخصت له، قاله أبو الحسن الأخفش. والخامس: أن «طوّعت» فعّلت من «الطوع» والعرب تقول: طاع لهذه الظبية أصول هذا الشجر، وطاع له كذا، أي: آتاه طوعاً، حكاة

(١) في «الطبري» عن عبد الله بن عمرو.

(٢) قال القرطبي ١٣٦/٦: قال علماؤنا: وذلك مما يجوز التعبد به، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعاً، وفي وجوب ذلك عليه خلاف، والأصح وجوب ذلك، لما فيه من النهي عن المنكر. وفي الحشوية قوم لا يجوزون للمصول عليه الدفع، واحتجوا بحديث أبي ذر، وحمله العلماء على ترك القتال في الفتنة، وكف اليد عند الشبهة على ما بيناه في كتاب «التذكرة». قلت: حديث أبي ذر في «المستدرك» ١٤٩/٥، وأبي داود ١٤٢/٤، وابن ماجه ١٣٠٨/٢ وفيه «أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً، يعني حتى تفرق حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع؟ قال: الله رسوله أعلم. قال: اقعدي بيتك، وأغلق عليك بابك. قال: فإن لم أترك؟ قال: فأت من أنت منهم، فكن فيهم. قال: فأخذ سلاحي؟ قال: إذن تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شمع السيف، فألق طرف رداك على وجهك حتى يبرؤ بإثمك وإثمك، وفي معناه أحاديث عن جماعة من الصحابة، انظر «سنن أبي داود»، كتاب الفتن.

(٣) انظر كلام ابن جرير مطوّل في «التفسير» ٢١٤/١٠.

(٤) قال ابن كثير ٤٤/٢: وهذا قول وجدته عن مجاهد وأخشي أن يكون غلطاً، لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه. قلت: القائل ابن كثير -: وقد يترجم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب» وقد روى الزوار حديثاً يشبه هذا ولكن ليس به، فروى عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «قتل الصبر لا يمر بقلب إلا محاه». وهذا لا يصح، ولو صح فمعناه: أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فإما أن تحمل على القاتل فلا. ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العرصات، فيأخذ له من حسناته بقدر مظلمته، فإن نفذت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطرحت على القاتل، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، والقتل أعظمها وأشدّها.

(٥) «ديوانه» ٣٢، ومشكل القرآن ١٧٤، والصناعتين: ١٧٤، والطبري ٤٢/١٣. وقد أضمر حرف النفي - وهو «لا» - لدلالة المعنى عليه، لأن الفعل بعد القسم غير مؤكّد، ولو كان الكلام إثباتاً لوجب تأكيد الفعل بالنون. والأوصال: جمع وصل بالكسر: وهو كل عضو يفصل من آخر.

الزجاج عن المبرد. وقال ابن قتيبة: شايعته وانقادت له، يقال: لساني لا يطوع بكذا، أي: لا يتقاد^(١). وهذه المعاني تتقارب. وفي كيفية قتله ثلاثة أقوال: أحدها: أنه رماه بالحجارة حتى قتله، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: ضرب رأسه بصخرة وهو نائم، رواه مجاهد عن ابن عباس، والسدي عن أشياخه. والثالث: رضخ رأسه بين حجرين. قال ابن جريج: لم يدر كيف يقتله، فتمثل له إبليس، وأخذ طائراً فوضع رأسه على حجر، ثم شدخه بحجر آخر، ففعل به هكذا، وكان له «هابيل» يومئذ عشرون سنة. وفي موضع مصرعه ثلاثة أقوال: أحدها: على جبل ثور، قاله ابن عباس. والثاني: بالبصرة، قاله جعفر الصادق. والثالث: عند عقبة جراء، حكاه ابن جرير الطبري. وفي قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْقَلْبِيِّينَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: من الخاسرين الدنيا والآخرة، فخرسانه الدنيا: أنه أسخط والديه، وبقي بلا أخ، وخرسانه الآخرة: أنه أسخط ربه، وصار إلى النار، قاله ابن عباس. والثاني: أنه أصبح من الخاسرين الحسنات، قاله الزجاج. والثالث: من الخاسرين أنفسهم بإهلاكهم إياها، قاله القاضي أبو يعلى.

﴿بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ أُعْجِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِيينَ﴾

قوله تعالى: ﴿بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ﴾ قال ابن عباس: حمله على عاتقه، فكان إذا مشى تخطف يده ورجلاه في الأرض، وإذا قعد وضعه إلى جنبه حتى رأى غرابين اقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، ثم بحث له الأرض حتى وراه بعد أن حمله سنين. وقال مجاهد: حمله على عاتقه مائة سنة. وقال عطية: حمله حتى أروح^(٢). وقال مقاتل: حمله ثلاثة أيام. وفي المراد بسوءة أخيه قولان: أحدهما: عورة أخيه. والثاني: جيفة أخيه.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِيينَ﴾ فإن قيل: أليس الندم توبة، فلم لم يقبل منه؟ فنعته أربعة أجوبة: أحدها: أنه يجوز أن لا يكون الندم توبة لمن تقدمنا، ويكون توبة لهذه الأمة، لأنها خصت بخصائص لم تشارك فيها، قاله الحسن بن الفضل. والثاني: أنه ندم على حمله لا على قتله. والثالث: أنه ندم إذ لم يواره حين قتله. والرابع: أنه ندم على فوات أخيه، لا على ركوب الذنب. وفي هذه القصة تحذير من الحسد، لأنه الذي أهلك قابيل.

﴿وَمِنْ آجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَقَدْ جَاءَ نَهْمُ رَسُولِنَا بِالْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَكُسْرُوفٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آجَلِ ذَلِكَ﴾ قال الضحاك: من أجل ابن آدم الذي قتل أخاه ظلماً. وقال أبو عبيدة: من جنابة ذلك، ومن جري ذلك. قال الشاعر^(٣):

وأهل خبَاءٍ صَالِحٍ دَاثَ بَيْنَهُمْ
قَدِ احْتَرَبُوا فِي عَاجِلِ أَنَا آجِلُهُ^(٤)
أي: جانبه وجار ذلك عليهم. وقال قوم: الكلام متعلق بما قبله، والمعنى: فأصبح من النادمين من أجل ذلك.

(١) وتما كلام ابن قتيبة في «غريب القرآن»: ١٤٢: ومنه يقال: أتبه طائماً وطوعاً وكراً، ولو كان من «أطاع» لكان مطيعاً وطاعة وإطاعة.

(٢) يقال: أروح اللحم، وأراح: أتنت وسطعت له ريح خبيثة.

(٣) نسبة أبو عبيدة في «مجاز القرآن» إلى الخنوث وهو توبة بن مفرس أحد بني مالك بن سعد بن زيد نامة بن تميم، وإنما سماه الخنوث الأحنف بن قيس، لأن الأحنف كلمه، فلم يكلمه احتقاراً له، فقال: إن صاحبكم هذا لخنوث، والخنوث: المتجبر الذاهب بنفسه، المستصغر للناس. وذكره الأمدى في «المؤلف والمختلف» ٩١ وقال: قتل أخواه... فأدرك الأخذ بشارهما، وجزع على أخويه جزعاً شديداً. وكان لا يزال يبكي أخويه، فطلب إليه الأحنف أن يكف فأبى، فسماه الخنوث، وهو الذي يمنعه النيط أو الكباء من الكلام. ونسبه التبريزي في شرح «إصلاح المنطق» والشتمري في «شرح ديوان زهير» إلى خوات بن بجير الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ والحق بشعر زهير بن أبي سلمى في «ديوانه» بشرح الشتمري.

(٤) «مجاز القرآن» ١٦٣/١، و«إصلاح المنطق» ٩، و«الطبري» ٢٣١/١٠، و«ديوان زهير» بشرح الشتمري ٣٣، و«اللسان» مادة: أجل. وفي رواية لابن بري في «اللسان».

وأهل خبَاءٍ أَسْمَى أَسْأَلَ الْقَوْمَ مَا لَهُمْ
بِشْيءٍ عَزِيزٍ عَاجِلٍ أَنَا آجِلُهُ
وأقبلت أسمى أسأل القوم ما لهم

ويرى الشطر الأول من البيت الثاني «فأقبلت في الساعين أسأل عنهم». قال الشتمري: ومعنى البيت: أنه وصف تأريشه بين قوم مصطلخين وسعيه بينهم بالفساد حتى أوقعهم في حرب وعاجل شر أجله عليهم، أي: جناه وأحدثه، ثم زعم أنه بعد ما كادهم وبعت الحرب بينهم جعل يسأل عن الساعين بالشر المهيجين له بين القوم، كما يسأل الإنسان عما جهل.

فعلى هذا يحسن الوقف هاهنا، وعلى الأول لا يحسن الوقف. والأول أصح. و«كتبتنا» بمعنى: فرضنا. ومعنى «تَنَكَّرَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ» أي: قتلها ظلماً ولم تقتل نفساً. «أَوْ نَسَاوُ فِي الْأَرْضِ» «فساد» منسوق على «نفس»، المعنى: أو بغير فساد تستحق به القتل. وقيل: أراد بالفساد هاهنا: الشرك. وفي معنى قوله: «فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» خمسة أقوال: أحدها: أن عليه إثم من قتل الناس جميعاً، قاله الحسن، والزجاج. والثاني: أنه صلى النار بقتل المسلم، كما لو قتل الناس جميعاً، قاله مجاهد، وعطاء. وقال ابن قتيبة: يُعَذَّبُ كما يُعَذَّبُ قَاتِلُ النَّاسِ جَمِيعًا. والثالث: أنه يجب عليه من القصاص مثل ما لو قتل الناس جميعاً، قاله ابن زيد. والرابع: أن معنى الكلام: ينبغي لجميع الناس أن يُعِينُوا ولي المقتول حتى يُقِيدُوهُ منه، كما لو قتل أولياءهم جميعاً، ذكره القاضي أبو يعلى. والخامس: أن المعنى: من قتل نبياً أو إماماً عادلاً، فكأنما قتل الناس جميعاً، رواه عكرمة عن ابن عباس. والقول بالعموم أصح. فإن قيل: إذا كان إثم قاتل الواحد كإثم من قتل الناس جميعاً، دل هذا على أنه لا إثم عليه في قتل مَنْ يقتله بعد قتل الواحد إلى أن يفنى الناس؟ فالجواب: أن المقدار الذي يستحقه قاتل الناس جميعاً، معلوم عند الله محدود، فالذي يقتل الواحد يلزمه ذلك الإثم المعلوم، والذي يقتل الاثنتين يلزمه مثله، وكلما زاد قتلاً زاده الله إثمًا، ومثل هذا قوله: «مَنْ جَاءَ بِالسِّنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالٍ» [الأنعام: ١٦٠] فالحسنة معلوم عند الله مقدار ثوابها، فعاملها يعطي بمثل ذلك عشر مرات. وهذا الجواب عن سؤال سائل إن قال: إذا كان من أحيا نفساً فله ثواب من أحيا الناس، فما ثواب من أحيا الناس كلهم؟ هذا كله منقول عن المفسرين. والذي أراه أن التشبيه بالشئ قريب منه، لأنه لا يجوز أن يكون إثم قاتل شخصين كإثم قاتل شخص، وإنما وقع التشبيه بـ «كأنما»، لأن جميع الخلائق من شخص واحد، فالمقتول يتصور منه نشر عدد الخلق كلهم^(١). وفي قوله: «وَمَنْ أَحْيَاهَا» خمسة أقوال: أحدها: استنقاذها من هلكة، روي عن ابن مسعود، ومجاهد. قال الحسن: من أحياها من غرق أو حرق أو هلاك. وفي رواية عكرمة عن ابن عباس: من شَدَّ عَضُدَ نَبِيٍّ أَوْ إِمَامٍ عَادِلٍ، فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا. والثاني: ترك قتل النفس المحرمة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في رواية. والثالث: أن يعفو أولياء المقتول عن القصاص، قاله الحسن، وابن زيد، وابن قتيبة. والرابع: أن يزرع عن قتلها وينهى. والخامس: أن يعين الولي على استيفاء القصاص، لأن في القصاص حياة، ذكرهما القاضي أبو يعلى. وفي قوله: «فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» قولان: أحدهما: فله أجر من أحيا الناس جميعاً، قاله الحسن، وابن قتيبة. والثاني: فعلى جميع الناس شكره، كما لو أحياهم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ» يعني: بني إسرائيل الذين جرى ذكركم.

«إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِمَّنْ خَلْفًا أَوْ يُنْفَخُوا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في ناسٍ من عُربنة قدموا المدينة، فاجتازوها، فبعثهم رسول الله في إبل الصدقة، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا، فصحوا، وارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، فأرسل رسول الله في آثارهم، فجيء بهم، فقطع أيديهم

(١) قال ابن جرير ٢٤١/١٠: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: أنه من قتل نفساً مؤمنة بغير نفس قتلها، فاستحققت القود بها والقتل قصاصاً - أو بغير فساد في الأرض بحرب الله ورسوله وحرب المؤمنين فيها - فكأنما قتل الناس جميعاً فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله جل ثناؤه، كما أوعده ذلك - من فعله - ربه بقوله: «وَمَنْ يُقْتَلْ مُؤْمِنًا مُمْتَعًا فَذُرِّيَّتُهُ جَاهِدًا لِيَا وَكُفْرًا بِلِلَّهِ عَلَيْهِ وَكُفْرًا لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [سورة النساء]. وقال ابن كثير في تفسير الآية ٤٦/٢: أي: من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض واستحل قتلها بلا سبب ولا جنابة، فكأنما قتل الناس جميعاً، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ومن أحياها، أي: حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم بهذا الاعتبار، ولهذا قال: «فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا». وفي «البحر المحيط» لأبي حيان ٤٦٨/٣: وقال ابن عطية: والذي أقول: إن التشبيه بين قاتل النفس وقاتل الكل لا يطرد من جميع الجهات، لكن الشبه قد يحصل من ثلاث جهات. إحداها: القود فإنه واحد، والثانية: الوحيد، فقد وعد الله قاتل النفس بالخلود في النار، وتلك غاية العذاب، فإن تربتانه يخرج من النار بعد ذلك بسبب التوحيد، فكذلك قاتل الجميع أن لو اتفق ذلك. والثالثة: انتهاك الحرمه، فإن نفساً واحدة في ذلك وجميع الأئمة سواء، والمتنكح في واحدة ملحوظ بعين متنكح الجميع.

وأرجلهم من خلاف، وسَمَّرَ أعينهم، وألقاهم بالحِجْرَةِ حتى ماتوا، ونزلت هذه الآية، رواه قتادة عن أنس^(١)، وبه قال سعيد بن جبير، والسدي. والثاني: أن قوماً من أهل الكتاب كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد، وأفسدوا في الأرض، فخير الله رسوله بهذه الآية: إن شاء أن يقتلهم، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثالث: أن أصحاب أبي بردة الأسلمي قطعوا الطريق على قوم جاؤوا يريدون الإسلام، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال ابن السائب: كان أبو بردة، واسمه هلال بن عويمر، وادع النبي ﷺ على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن أتاه من المسلمين لم يُهَيِّجْ، ومن مرَّ بهلال إلى رسول الله ﷺ لم يُهَيِّجْ، فمَرَّ قوم من بني كنانة يريدون الإسلام بناسٍ من قوم هلال، فَهَدُّوا إليهم، فقتلوه وأخذوا أموالهم، ولم يكن هلال حاضراً، فنزلت هذه الآية. والرابع: أنها نزلت في المشركين، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٢)، وبه قال الحسن. واعلم أن ذكر «المحاربة» لله ﷻ في الآية مجاز. وفي معناها للعلماء قولان: أحدهما: أنه سَمَّاهم محاربين له تشبيهاً بالمحاربين حقيقة، لأن المخالف محارب، وإن لم يحارب، فيكون المعنى: يخالفون الله ورسوله بالمعاصي. والثاني: أن المراد: يحاربون أولياء الله، وأولياء رسوله. وقال سعيد بن جبير: أراد بالمحاربة الله ورسوله، والكفر بعد الإسلام. وقال مقاتل: أراد بها الشرك. فأما «الفساد» فهو القتل والجراح وأخذ الأموال، وإخافة السبيل.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ اختلف العلماء هل هذه العقوبة على الترتيب، أم على التخخير؟ فمذهب أحمد ﷺ أنها على الترتيب، وأنهم إذا قتلوا، وأخذوا المال، أو قتلوا ولم يأخذوا، قُتِلُوا وصَلَّبُوا، وإن أخذوا المال، ولم يقتلوا، قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإن لم يأخذوا المال، نُفُوا. قال ابن الأنباري: فعلى هذا تكون «أو» مَبْعُضَةٌ، فالمعنى: بعضهم يفعل به كذا، وبعضهم كذا، ومثله قوله: ﴿كُفُّوا هُودًا أَوْ نَكَرُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] المعنى: قال بعضهم هذا، وقال بعضهم هذا. وهذا القول أكثر اللغويين. وقال الشافعي: إذا قتلوا وأخذوا المال، قُتِلُوا وصَلَّبُوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال ولم يقتلوا، قُتِلُوا وصَلَّبُوا، وإذا أخذوا المال أو لم يأخذوا، والصلب بعد القتل. وقال أبو حنيفة، ومالك: يُضَلَّبُ ويُبْعَجُ برمح حتى يموت. واختلفوا في مقدار زمان الصلْب، فعندنا أنه يُضَلَّبُ بمقدار ما يشتهر صلْبُه. واختلف أصحاب الشافعي، فقال بعضهم: ثلاثة أيام، وهو مذهب

(١) «المسنَد» ١٦٣/٣ من طريق معمر بن قنادة، ١٧٠، ٢٣٣ من طريق سعيد بن قنادة، ٢٨٧ من طريق حماد بن قنادة، ٢٩٠ من طريق عفان بن قنادة، والبخاري: ٢٨٩/١، ١٠٨/٦، ٣٥٢/٧، ٢٠٦/٨، ٩٩/١٢، ومسلم ١٥٣/١، وأبو داود ١٨٦/٤، والنسائي ٩٧/٧، ومسند البيهقي ٦٢/٨. عريضة، بضم العين المهملة وفتح الراء وآخرها نون ثن هاء: حي من قضاة وحى من بجيلة، والمراد هنا الثاني. واجتوى الأرض بالبلد: إذا كره المقام فيه وإن كان في نعمة، وقيد الخطابي بما إذا تضرر بالإقامة وهو المناسب هنا، وقيل: أصابهم الجوى، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول. و«سمر» روي بتشديد الميم وتخفيفها، وضبطت في الأصل بالتشديد. ووقع لمسلم من رواية عبد العزيز «وسلم» بالتخفيف واللام. قال الخطابي: السمل: فقه العين بأي شيء كان. قال أبو ذؤيب الهذلي:

والمعين بـمـمهم كان حـداقها

قال: «والسمر» لغة في «السمل» ومخرجهما متقارب. قال: وقد يكون من السمار. يريد: أنهم كحلوا بأبمال قد أحميت. قال الحافظ ابن حجر: وقد وقع التصريح بالمراد عند المصنف - يعني البخاري - من رواية وهيب عن أيوب، ومن رواية الأوزاعي عن يحيى كلاهما عن أبي قلابة. ولفظه ثم أمر بمسامير فأحميت فكحلهم بها». قلت: وإنما سمل رسول الله ﷺ أعينهم قصاصاً، لأنهم سملوا آحين الرعاة. وقد جاء التصريح بذلك عن أنس في «صحيح مسلم» ١٥٧/١. والحرة، بفتح الحاء: أرض ذات حجارة سود نخرات، كانتا أحرقتا بالنار، ومدينة رسول الله ﷺ بين حرتين.

(٢) النسائي ١٠١/٧، وأبو داود: ١٨٧/٤ وتامه: فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل، وليست هذه الآية للرجل المسلم، فمن قتل وأفسد في الأرض وحارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفر قبل أن يقدر عليه، لم يمتنع ذلك أن يقام فيه الحد الذي أصاب. وإسناده حسن، ورواه الطبري ٢٤٤/١٠ من قول عكرمة والحسن البصري. وقد ضعف القرطبي هذا القول، وردده بقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ ظَنَرُوا أَنْ يَنْذَرُوا نُقْرًا لَكُمْ مَا نَدَّ سَلَكٌ﴾ ويقول ﷺ: «الإسلام يهدم ما قبله رواه مسلم. وقال أبو ثور: وفي الآية دليل على أنها نزلت في غير أهل الشرك، وهو قوله جل ثناؤه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَيْنِ أَنْ نَحْنُ بِكُمْ﴾ وقد أجمعوا على أن أهل الشرك إذا وقعوا في أيدينا فأسلموا أن دماهم نحر، فدل ذلك على أن الآية نزلت في أهل الإسلام. وقال ابن كثير ٤٨/٢ وتبعه الشوكاني في «فتح القدير» ٢٢/٢: والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات.

أبي حنيفة، وقال بعضهم: يترك حتى يسيل صديده. قال أبو عبيدة: ومعنى «من خلاف» أن تُقَطَّع يَدُهُ اليمنى ورجله اليسرى، يُخَالَفُ بَيْنَ قِطْعِهِمَا. فأما «النفى» فأصله الطرد الإبعاد. وفي صفة نفيهم أربعة أقوال: أحدها: إبعادهم من بلاد الإسلام إلى دار الحرب، قاله أنس بن مالك، والحسن، وقتادة، وهذا إنما يكون في حق المحارب المشرك، فأما المسلم فلا ينبغي أن يُضطر إلى ذلك. والثاني: أن يُطلبوا لِنُقَامِ عَلَيْهِمُ الحُدُودَ، فيُبعَدُوا، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثالث: إخراجهم من مدينتهم إلى مدينة أخرى، قاله سعيد بن جبير. وقال مالك: ينفي إلى بلد غير بلده، فيحبس هناك. والرابع: أنه الحبس، قاله أبو حنيفة وأصحابه. وقال أصحابنا: صفةُ النفي: أن يُشْرَدَ ولا يترك يأوي في بلد، فكلما حَصَلَ في بلد نُفِيَ إلى بلد غيره. وفي «الخزي» قولان: أحدهما: أنه العقاب. والثاني: الفضيحة. وهل يثبت لهم حكم المحاربين في المصر، أم لا؟ ظاهر كلام أصحابنا أنه لا يثبت لهم ذلك في المصر^(١) وهو قول أبي حنيفة. وقال الشافعي، وأبو يوسف: المصر والصحارى سواء، ويعتبر في المال المأخوذ قدر نصاب، كما يُعتبر في حَقِّ السَّارِقِ، خلافاً لمالك^(٢).

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ قال أكثر المفسرين: هذا الاستثناء في المحاربين المشركين إذا تابوا من شركهم وحرابهم وفسادهم، وأمنوا قبل القدرة عليهم، فلا سبيل عليهم فيما أصابوا من مال أو دم، وهذا لا خلاف فيه. فأما المحاربون المسلمون، فاختلَفوا فيهم، ومذهب أصحابنا: أن حدود الله تسقط عنهم من انتحام القتل والصلب والقطع والنفى. فأما حقوق الأدميين من الجراح والأموال، فلا تسقطها التوبة، وهذا قول الشافعي^(٣).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُقُوا لِلَّهِ وَأَبْتَعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لِمَلَلِكُمْ تَقْلُحُونَ﴾ ^(٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نَقِيلُ بِهِمْ وَعَذَابُ أَلِيمٌ ^(٢٥) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ^(٢٦)

قوله تعالى: ﴿وَأَبْتَعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ في «الوسيلة» قولان: أحدهما: أنها القرية، قاله ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، والفراء. وقال قتادة: تقربوا إليه بما يرضيه. قال أبو عبيدة: يقال: توسلت إليه، أي: تقربت إليه. وأُشْد: إذا غفل الواشون غُدًا لِوَضْلِنَا وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلِ^(٤)

والثاني: المحبة، يقول: تحببوا إلى الله، هذا قول ابن زيد:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(١) في «المعني» ٣٠١/١: وثبت أحكام المحاربين بشروط ثلاثة. أحدها: أن يكون ذلك في الصحراء، فإن كان ذلك منهم في القرى والأمصار، فقد توقف أحمد رحمه الله فيهم، وظاهر كلام الخرقى أنهم غير محاربين، وبه قال أبو حنيفة، والثوري، وإسحاق... وقال كثير من أصحابنا: هو قاطع حيث كان، وبه قال الأوزاعي، والليث، والشافعي، وأبو يوسف، وأبو ثور.

(٢) في «القرطبي» ١٥٣/٦: ولا يراعى في المال الذي يأخذه المحارب نصاباً كما يراعى في السرقة، وانظر «أحكام القرآن» لابن العربي ٥٩٨/٢.

(٣) قال الخرقى: فإن تابوا من قبل أن يقدر عليهم، سقطت عنهم حدود الله تعالى، وأخذوا بحقوق الأدميين من الأنفس والجراح والأموال، إلا أن يعفى لهم عنها. قال ابن قدامة: لا نعلم في هذا خلافاً بين أهل العلم، وبه قال مالك، والشافعي، وأصحاب الرأي، وأبو ثور.

(٤) «مجاز القرآن» ١٦٤/١، و«الطبري» ٢٩٠/١٠، و«القرطبي» ١٥٩/٦، وقائله لا يعرف. واستشهد أبو عبيد أيضاً - على أن الوسيلة معناها القرية - ببيت عترة:

إِنْ يَأْخُذُوكَ تَكْفُلِي وَتَخْفُ بِي

إِنَّ السَّرْجَالَ لَهُمْ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ

وهو في «مختار الشعر الجاهلي» ٣٩٦، و«الطبري» ٢٩٠/١٠، و«الخرزاة» ١١/٣ من أبيات قالها لامراته، وكانت لا تزال تذكر خيله، وتلومه في فرس كان يؤثره على خيله، ويسقيه ألبان إبله فقال:

لَا تَذْكَرِي مُسْهَرِي وَمَا أَطْعَمْتُهُ

إِنَّ النَّخْبِوقَ لَهُ وَأَنْتَ مَسْرُومَةٌ

إِنْ كُنْتَ سَأَلْتَنِي فَبَرِّقْ أَمْ فَادْهَبِي

كُذِّبَ الْمَعْتَبِقُ وَمَاءٌ شَدِيدٌ بَارِدٌ

إِنْ السَّرْجَالَ.....

إِنْ السَّرْجَالَ.....

وَابْنُ النِّعَامَةِ عِنْدَ ذَلِكَ مَرْكَبِي

وَيَكُونُ مَرْكَبُكَ الْقَسَمُودَ وَحَدِجَهُ

قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ قال ابن السائب: نزلت في طعمة بن أبيرق، وقد مضت قصته في سورة (النساء). و«السارق»: إنما سُمِّي سارقاً، لأنه يأخذ الشيء في خفاء، واسترق السَّمع: إذا تَسَمَّع مستخفياً. قال الميرد: والسارق هاهنا مرفوع بالابتداء، لأنه ليس القصد منه واحداً بعينه، وإنما هو كقولك: مَنْ سَرَقَ فاقطع يده^(١). وقال ابن الأنباري: وإنما دخلت الفاء، لأن في الكلام معنى الشرط، تقديره: من سرق فاقطعوا يده. قال الفراء: وإنما قال: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ لأن كلَّ شيءٍ موحد من خلق الإنسان إذا دُكِرَ مضافاً إلى اثنين فصاعداً، جُمع، تقول: قد هشتم رؤوسهما، وملأت [ظهورهما] ويطورهما [ضرباً]. ومثله ﴿فَقَدْ صَعَتَ قُلُوبُكُمْ﴾ [التحريم: ٤] وإنما اختير الجمع على الثنية، لأن أكثر ما تكون عليه الجوارح اثنين اثنين في الإنسان: اليدين، والرجلين، والعينين، فلما جرى أكثره على هذا، دُهِبَ بالواحد منه إذا أُضيف إلى اثنين مذهب الثنية، وقد يجوز تثنيتهما. قال أبو ذؤيب:

فتخالسا نفسيهما بنوافذٍ كَنَوَافِذِ الْعُطْبِ الشِّي لَا تُرْقَعُ^(٢)

فصل

وهذه الآية اقتضت وجوب القطع على كلِّ سارق، وبينت السُّتَةَ أن المراد به السارقُ لِإِنصَابِ من جَرَزِ مثله، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ﴾ [التوبة: ٥] ونهى النبي ﷺ عن قتل النساء، والصبيان، وأهل الصوامع^(٣). واختلِفَ في مقدار النصاب، فمذهب أصحابنا: أن للسَّرقة نصابين: أحدهما: من الذهب ربع دينار، ومن الوُرُق ثلاثة دراهم، أو قيمة ثلاثة دراهم من العروض^(٤) وهو قول مالك^(٥). وقال أبو حنيفة: لا يقطع حتى تبلغ السَّرقة

(١) في «معاني القرآن» للفراء ٣٠٦/١: وقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ مرفوعان بما عاد من ذكرهما، والنصب فيهما جائز، كما يجوز: أزيد ضربه؟ و: أزيداً ضربته، وإنما تختار العرب الرفع في «السارق والسارقة» لأنهما غير موتين، فوجها توجيه الجزاء، كقولك: من سرق فاقطعوا يده. ومن لا يكون إلا رفعاً، ولو أردت سارقاً بعينه، أو سارقة بعينها، كان النصب وجه الكلام. ومثله ﴿وَالَّذِينَ تَأْتِيَنَا بِبَنَاتِكُمْ فَكَاذُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٦] وفي قراءة عبد الله «والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمنهما». وانظر كتاب سيره ٧١/١.

(٢) «ديوان الهذليين» ٢٠/١، وشرح «أشعار الهذليين» ٤٠/١، و«معاني القرآن» للفراء ٣٠٧/١، و«جمهرة أعلام العرب» ٢٤٨ طبع صادر، وجاء فيها: «عط» وهو تحريف. والبيت من قصيدته العينية المشهورة التي يرثي بها بنه. تخالسا: جعل كل واحد منهما يختلس نفس صاحبه بالطن، والنوافذ: جمع نافذة وهي الطعن تنفذ حتى يكون لها راسان. عُطِبَ: جمع عيط، وأصل العيط: شق الجلد الصحيح، ونحر البعير من غير علة. قال الأخصش: شبه الطعنة بالثوب الجديد الذي قد تقطع قطعة قطعة، فلا يقدر أحد على رقعته، وروى الأصمعي: «كنوافذ المُطْبِ والعطب: القطن. يقول: إن كلاً من هذين البطلين قد اختلس نفس صاحبه بطعنات نوافذ تشبه في اتساعها ونفاذها وعدم التامها شقوقاً في ثياب جدد، لا ترقع بعد شقها، وهي شقوق الجيوب وأطراف الأكمام واللؤلؤ.

(٣) روى البخاري ١٠٤/٦، ومسلم ١٣٦٤/٣، وأبو داود ٧٢/٣، والترمذي، والنسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما: «وحدثت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان. وروى مسلم ١٣٥٧/٣ عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداه». وروى أحمد ٢٥٧/٤ عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشه قال: «اغزوا باسم الله قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع» وفيه إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة وثقه أحمد والمجلي، وضمه ابن معين وغيره. وبقية رجاله ثقات.

(٤) وذلك أنه ورد عن النبي ﷺ أنه قطع يد السارق في ربع دينار، وفي ثلاثة دراهم. فقد روى أحمد ١١٠/١٦ بترتيب الساعاتي، ومالك: ٣٠١، والبخاري ٨٩/١٢، ومسلم ١٣١٢/٣، وأبو داود ١٩٢/٤، والنسائي ٧٨/٨، والترمذي ١٧٤/١ عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً. وفي رواية لمسلم ١٣١٢/٣، والنسائي ٨١/٨، وابن ماجه ٨٢٢/٢: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً» وفي رواية للبخاري ٨٩/١٢، والنسائي ٧٨/٨، وأبو داود ١٩٢/٤: «تقطع يد السارق في ربع دينار» وفي رواية للبخاري ٨٩/١٢: «تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً». وروى الإمام أحمد ١١٠/١٦، والبخاري ٩٣/١٢، ومسلم ١٣١٣/٣، وأبو داود ١٩٢/٤، والنسائي ٧٦/٨، والترمذي ١٧٤/١، وابن ماجه ٨٢٢/٢ عن ابن عمر أن النبي ﷺ قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم، وفي رواية «قيمة ثلاثة دراهم».

(٥) في «المدونة» ٦٥/١٦ قلت: رأيت إن سرق ما يساوي ثلاثة دراهم ذلك اليوم وهو لا يساوي ربع دينار اليوم لارتفاع صرف الدينار، أيقطع فيه في قول مالك؟ قال: قال مالك: نعم يقطع إذا سرق قيمة ثلاثة دراهم ذلك اليوم. قال مالك: لأن النبي ﷺ قطع في ثلاثة دراهم، وإن عثمان بن عفان قطع في ثلاثة دراهم، وإن عمر قَوْمُ الدية على اثني عشر ألف درهم، فلا ينظر إلى الصرف في هذه الأشياء إن ارتفع أو انخفض، وإنما ينظر في هذا إلى ما مضت به السنة. قلت: رأيت إن اتضع الصرف صرف الذهب فسرق ربع دينار من ذهب وهو لا يساوي ثلاثة دراهم، أتقطع يده لأنه ربع دينار؟ قال: نعم وإنما تقوم الأشياء كلها بالذهب والفضة.

عشرة دراهم^(١). وقال الشافعي: الاعتبار في ذلك بربع دينار، وغيره مقوّم به، فلو سرق درهمين قيمتهما ربع دينار، قطع، فإن سرق نصاباً من الثبر، فعليه القطع. وقال أبو حنيفة: لا يقطع حتى يبلغ ذلك نصاباً مضروباً، فإن سرق منديلاً لا يساوي نصاباً، في طرفه دينار، وهو لا يعلم، لا يقطع. وقال الشافعي: يقطع. فإن سرق ستارة الكعبة، قطع، خلافاً لأبي حنيفة. فإن سرق صبيّاً صغيراً حُرّاً، لم يقطع، وإن كان على الصغير حُلِي. وقال مالك: يقطع بكل حال. وإذا اشترك جماعة في سرقة نصاب، قطعوا، وبه قال مالك، إلا أنه اشترط أن يكون المسروق ثقیلاً يحتاج إلى معاونة بعضهم لبعض في إخراجه. وقال أبو حنيفة، والشافعي: لا قطع عليه بحال^(٢) ويجب القطع على جاحد العارية عندنا، وبه قال سعيد بن المسيب، والليث بن سعد، خلافاً لأكثر الفقهاء^(٣).

فصل

فأما الحرز، فهو ما جعل للسكنى، وحفظ الأموال، كالدور والمضارب والخيم التي يسكنها الناس، ويحفظون امتعتهم بها، فكل ذلك حرز، وإن لم يكن فيه حافظ ولا عنده، وسواء سُرق من ذلك وهو مفتوح الباب، أو لا باب له إلا أنه محجّر بالبناء. فأما ما كان في غير بناء ولا خيمة، فإنه ليس في حرز إلا أن يكون عنده من يحفظه. ونقل الميموني عن أحمد: إذا كان المكان مشتركاً في الدخول إليه، كالحمام والخيمة لم يقطع السارق منه، ولم يُعتَبَر الحافظ. ونقل عنه ابن منصور: لا يقطع سارق الحمام إلا أن يكون على المتاع أجير حافظ. فأما النباش، فقال أحمد في رواية أبي طالب: يقطع، وبه قال مالك، والشافعي، وابن أبي ليلى. وقال الثوري، والأوزاعي، وأبو حنيفة: لا يقطع.

(١) في «موطأ مالك» برواية محمد بن الحسن ٣٠٤: قال محمد: قد اختلف الناس فيما تقطع فيه اليد، فقال أهل المدينة: ربع دينار، ورووا هذه الأحاديث، وقال أهل العراق: لا تقطع في أقل من عشرة دراهم، ورووا ذلك عن النبي ﷺ وعن عمر وعن عثمان وعن علي وعن عبد الله بن مسعود وعن غير واحد، فإذا جاء الاختلاف في الحدود، أخذ فيها بالثقة، وهو قول أبي حنيفة والعمامة من فقهائنا. وانظر أدلة الحنفية في «نصب الرأية» ٣/ ٣٥٥ للزيلعي، و«سنن أبي داود» ٣/ ١٩٣، و«مسند أحمد» ١١/ ١٣٩، و«التعليق الممجّد» ٣٠٤ للكنوني، و«التعليق المغني على سنن الدارقطني» ٣٦٨.

(٢) في «تفسير القرطبي» ٦/ ١٦٣: إذا اجتمع جماعة فاشتركوا في إخراج نصاب من حرزه فلا يخلو، إما أن يكون بعضهم ممن يقدر على إخراجه، أو لا، إلا بتعاونهم، فإذا كان الأول فاختلف فيه علماؤنا على قولين: أحدهما: يقطع فيه. والثاني: لا يقطع فيه، وبه قال أبو حنيفة والشافعي، قالوا: لا يقطع في السرقة المشتركة إلا بشرط أن يجب لكل واحد من حصته نصاب، لقوله ﷺ: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً» وكل واحد من هؤلاء لم يسرق نصاباً فلا قطع عليهم. ووجه القطع في إحدى الروايتين أن الاشتراك في الجناية لا يسقط عقوبتها كالاشتراك في القتل، قال ابن العربي: وما أقرب ما بينهما فإنا إنما قلنا: الجماعة بالواحد صيانة للدناء، لئلا يتعاون على سفكها الأعداء، فكذلك في الأموال مثله، لا سيما وقد ساعدنا الشافعي على أن الجماعة إذا اشتركوا في قطع يد رجل قطعوا ولا فرق بينهما. وإن كان الثاني وهو مما لا يمكن إخراجه إلا بالتعاون، فإنه يقطع جميعهم بالاتفاق من العلماء، ذكره ابن العربي.

(٣) في «شرح المفردات» للبهوتي ٢٠٨: يقطع جاحد العارية كالسارق، وجزم به جماعة من الأصحاب وهو المذهب، قطع به في «التنقيح» و«الإقناع» و«المنتهى» وهو قول إسحاق، وصح الشيخ الموفق والشارح وجماعة: لا قطع عليه، وهو قول الخرقني، وأبي إسحاق بن شاقلا، وأبي الخطاب، وسائر الفقهاء، لقوله ﷺ: «لا قطع على الخائن»، رواه أحمد وأصحاب «السنن» وصححه الترمذي، ولأن الواجب قطع السارق، والخائن ليس بسارق، فأشبهه جاحد الوديعة وغيرها من الأمانات. ولنا حديث عائشة قالت: كانت امرأة تستعير المتاع وتجده، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها، فأتى أهلها أسامة فكلّموه فكلّم النبي ﷺ، فقال ﷺ: «لا أراك تكلمني في حد من حدود الله تعالى»، ثم قام النبي ﷺ خطيباً وقال: «إنما هلك من كان بقلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، والذي نفسي بيده لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» قال: فقطع يدها. متفق عليه. قال أحمد: لا أعرف شيئاً يدينه، والجواب عنه بأنها قطعت بسرقته لا بجدها، لا يلائم سياق الخبر. قلت: وجاء في البخاري: أنها سرت. قال الحافظ ١٢/ ٧٩ وقد وقع في رواية معمر عن الزهري في هذا الحديث أن المرأة المذكورة كانت تستعير المتاع وتجده. أخرجه مسلم وأبو داود، وأخرجه النسائي من رواية شعيب بن أبي حمزة عن الزهري بلفظ: «استعارت امرأة على السنة ناس يعرفون وهي لا تعرف حليا بياضته، وأخذت ثمنه الحديث. قال شيخنا في «شرح الترمذي» - أي الحافظ العراقي -: اختلف على الزهري، فقال الليث ويونس وإسماعيل بن أمية، وإسحاق بن راشد: سرت، وقال معمر وشعيب: إنها استعارت وجحدت. ثم قال الحافظ: وجزم جماعة بأن معمر تفرد عن الزهري بقوله: «استعارت وجحدت» وليس كذلك، بل تابعه شعيب كما ذكره شيخنا عند النسائي، ويونس كما أخرجه أبو داود من رواية أبي صالح كاتب الليث عن الليث، وعلقه البخاري لليث عن يونس لكن لم يسق لفظه. قلت: وبذلك يتبين أن قول البهوتي - بعد أن ذكر الحديث بلفظ «استعارت» - متفق عليه، وهم، وانظر الكلام على هذا الحديث في «الفتح» ١٢/ ٧٧.

فصل

فأما موضع قطع السارق، فمن مفصل الكف، ومن مفصل الرجل. فأما اليد اليسرى والرجل اليمنى، فروي عن أحمد: لا تقطع، وهو قول أبي بكر، وعمر، وعلي، وأبي حنيفة، وروى عنه: أنها تقطع، وبه قال مالك، والشافعي. ولا يثبت القطع إلا بإقراره مرتين^(١)، وبه قال ابن أبي ليلى، وابن شبرمة، وأبو يوسف. وقال أبو حنيفة، ومالك، والشافعي: يثبت بمرة. ويجتمع القطع والغرم موبراً كان أو معسراً. وقال أبو حنيفة: لا يجتمعان، فإن كانت العين باقية أخذها ربها، وإن كانت مستهلكة، فلا ضمان. وقال مالك: يضمنها إن كان موبراً، ولا شيء عليه إن كان معسراً.

قوله تعالى: ﴿تَكَلَّا مِنَّ اللَّهِ﴾ قد ذكرنا «النكال» في (البقرة).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال سعيد بن جبيرة: شديد في انتقامه، حكيم إذ حكم بالقطع. قال الأصمعي: قرأت هذه الآية، وإلى جنبي أعرابي، فقلت: والله غفور رحيم، سهواً، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله. قال: أعد فأعدت: والله غفور رحيم، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنهت، فقلت: والله عزيز حكيم. فقال: أصبت، هذا كلام الله. فقلت له: أقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا عزّ فحكّم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

﴿فَن تَابَ مِن بَدِّ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَكُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿فَن تَابَ مِن بَدِّ ظُلْمِهِ﴾ سبب نزولها: أن امرأة كانت قد سرقت، فقالت: يا رسول الله هل لي من توبة؟ فنزلت هذه الآية. قاله عبد الله بن عمرو^(٢). وقال سعيد بن جبيرة: فمن تاب من بعد ظلمه، أي: سرقته، وأصلح العمل، فإن الله يتجاوز عنه، إن الله غفور لما كان منه قبل التوبة، رحيم لمن تاب.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَيَمُنُّ الَّذِينَ هَادُوا سَتَمُونَ لِلْكَذِبِ سَتَمُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِتُوبَةٍ الْكُفْرُ مِنْ بَدِّ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِن أُرْسِلَتْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ نُؤْتُوهُ فَأَعْرَضُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِك لَهُ مِن أَلْوَانِك الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْتَرِ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الضَّلَالَةِ حَزَنٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ مرّ بيهودي وقد حمموه^(٣) وجلدوه، فقال: أهكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى، هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولكنك كثر في أشرفنا، فكنا نترك الشريف، ونقيم على الوضع، فقلنا: تعالوا نُجمِع على شيء نقيم على الشريف والوضع، فاجتمعنا على التحميم والجلد. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فأمر به فُرجم،

(١) قال الخرمي: ولا يقطع إلا بشهادة عدلين أو اعتراف مرتين. ولم يذكر المصنف رحمه الله الشهادة، لأن كل من حفظه عنه من أهل العلم يوجب القطع بشهادة حرين مسلمين.

(٢) «المستند» ١٨٥/١٠، وابن جرير ٢٩٩/١٠ ولفظه «عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ، فجاء بها الذين سرقتهم، فقالوا: يا رسول الله: إن هذه المرأة سرقتنا، قال قوماً: فنحن نغديها، يعني أهلها، فقال رسول الله ﷺ: «اطعموا بها» فقالوا: نحن نغديها بخمس دينار، قال: «اطعموا بها» قال: فقطعت يدها اليمنى. فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم أنت اليوم من خطيتك كيوم ولدتك أمك» فانزل الله ﷻ في سورة المائدة ﴿فَن تَابَ مِن بَدِّ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ...﴾ إلى آخر الآية. وهو في «مجمع الزوائد» ٦/ ٢٧٦، وقال الهيثمي: رواه أحمد وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات. قلت: وفي إسناده أيضاً يحيى بن عبد الله بن شريح المعافري. قال أحمد: أحاديثه متاكير، وقال البخاري: فيه نظر. وقال النسائي: ليس بالقوي. وقال ابن معين: ليس به بأس، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به إذا روى عنه ثقة. ونقله ابن كثير في «التفسير» ٥٧/٢ عن «مسند أحمد»، وقال: وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت، وحديثها ثابت في «الصحيحين» من رواية الزهري عن عروة عن عائشة.

(٣) في «اللسان» وحمم الرجل: سخم وجهه بالحمم، وهو الفحم، وفي حديث الرجم: أنه مرّ بيهودي محمّم مجلود، أي: مسود الوجه.

ونزلت هذه الآية، رواه البراء بن عازب^(١). والثاني: أنها نزلت في ابن سوريا آمن ثم كفر، وهذا المعنى مروى عن أبي هريرة^(٢). والثالث: أنها نزلت في يهودي قتل يهودياً، ثم قال: سلوا محمداً فإن كان بُعِثَ بالذِّبَةِ، اختصمنا إليه، وإن كان بعث بالقتل، لم نأته، قاله الشعبي^(٣). والرابع: أنها نزلت في المنافقين، قاله ابن عباس، ومجاهد. والخامس: أن رجلاً من الأنصار أشارت إليه قريظة يوم حصارهم على ماذا ننزل؟ فأشار إليهم: أنه الذَّبِجُ، قاله السدي^(٤). قال مقاتل: هو أبو لبابة بن عبد المنذر، قالت له قريظة: أنزل على حُكم سعدٍ، فأشار بيده: إنه الذَّبِجُ، وكان حليفاً لهم. قال أبو لبابة: فعلمت أنني قد حُثْتُ الله ورسوله، فنزلت هذه الآية. ومعنى الكلام: لا يحزنك مسارعة الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم وهم المنافقون، ومن الذين هادوا وهم اليهود. ﴿سَتَعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ قال سيبويه: هو مرفوعٌ بالابتداء. قال أبو الحسن الأخصف: ويجوز أن يكون رَفَعَهُ على معنى: ومن الذين هادوا سماعون للكذب. وفي معناه أربعة أقوال: أحدها: سماعون منك ليكذبوا عليك. والثاني: سماعون للكذب، أي: قائلون له. والثالث: سماعون للكذب الذي بذلوه في توراتهم. والرابع: سماعون للكذب، أي: قائلون له، ومنه: «سمع الله لمن حمده» أي: قبل. وفي قوله: ﴿سَتَعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ﴾ قولان: أحدهما: يسمعون لأولئك، فهم عيونٌ لهم. والثاني: سماعون من قوم آخرين، وهم رؤساؤهم المبدلون التوراة. وفي السماعين للكذب، وللقوم الآخرين قولان: أحدهما: أن «السماعين للكذب» يهود المدينة، والقوم الآخرون [الذين لم يأتوا رسول الله ﷺ] يهود فذلك. والثاني: بالعكس من هذا. وفي تحريفهم الكلم خمسة أقوال: أحدها: أنه تغيير حدود الله في التوراة، وذلك أنهم غَيَّرُوا الرَّجْمَ، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: تغيير ما يسمعون من النبي ﷺ بالكذب عليه، قاله الحسن. والثالث: إخفاء صفة النبي ﷺ. والرابع: إسقاط القود بعد استحقاقه. والخامس: سوء التأويل. وقال ابن جرير: المعنى يُحَرِّفُونَ حُكْمَ الكَلِمِ، فحذف ذكر الحكم لمعرفة السامعين بذلك.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ مَوَاضِعَهُ﴾ قال الزجاج: أي: من بعد أن وَضَعَهُ اللهُ مواضعه، فأحلَّ حلاله وحرم حرامه. قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيئَتْنَا هَذَا فِرْعَوْنُ﴾ في القائلين لهذا قولان: أحدهما: أنهم اليهود، وذلك أن رجلاً وامرأة من أشرافهم زنيا، فكان حدهما الرَّجْمُ، فكرهت اليهود رجمهما، فبعثوا إلى النبي ﷺ يسألونه عن قضائه في الزَّانِئِينَ إِذَا أَحْصَيْنَا، وقالوا: إن أفتاكم بالجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرَّجْمِ فلا تعملوا به، هذا قول الجمهور. والثاني: أنهم المنافقون. قال قتادة: وذلك أن بني النضير كانوا لا يُعْطُونَ قريظة القود إذا قتلوا منهم، وإنما يعطونهم الدية، فإذا قتلت قريظة من النضير لم يَرْضُوا إلا بالقود تعزراً عليهم، فقتل بنو النضير رجلاً من قريظة عمداً، فأرادوا رفع ذلك إلى النبي ﷺ، فقال رجل من المنافقين: إن قتلكم قتيلاً عمداً، ومتى ترفعوا ذلك إلى محمد خشيتُ عليكم القود، فإن قُلتُ منكم الدية فأعطوا، وإلا فكونوا منه على حذر^(٥). وفي معنى «فاحذروا» ثلاثة أقوال: أحدها: فاحذروا أن تعملوا بقوله الشديد. والثاني: فاحذروا أن تطلعوه على ما في التوراة فيأخذكم بالعمل به. والثالث: فاحذروا أن تسألوه بعدها. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ في «الفتنة» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بمعنى الضلالة، قاله ابن عباس ومجاهد. والثاني: العذاب، قاله الحسن، وقاتادة. والثالث: الفضيحة، ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ سَيْئاً﴾ أي: لا تغني عنه، ولا تقدر على استنقاذه. وفي هذا تسليية للنبي ﷺ من حزنه على مسارعتهم في الكفر.

(١) «المسند» ٢٨٦/٤، ومسلم ١٣٢٧/٣، وأبو داود ٢٥١/٤، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس ١٣٠، و«مسنن البيهقي» ٢٤٦/٨. وتامه: فأنزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُكْفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ أُوتِيئَتْنَا هَذَا فِرْعَوْنُ﴾ يقول: اتوا محمداً، فإن أمرمكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْزَنْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْزَنْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ في الكفار كلها. واختار ابن كثير هذا السبب، وقال: هو الصحيح.

(٢) ابن جرير: ٣٠٤/١٠، و«مسنن البيهقي» ٢٤٦/٨، وذكره السيوطي في «الدرر» ٢٨١/٢، وزاد نسبه إلى ابن إسحاق، وابن المنذر. قلت: وفي سننه مجهول.

(٣) ابن جرير ٣٠٢/١٠، وزاد السيوطي نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٤) ابن جرير ٣٠٢/١٠، ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) ابن جرير: ٣١٥/١٠ من طريق يزيد بن زريع قال: حدثنا سعيد عن قتادة...

قوله تعالى: ﴿لَرُبِّدُ اللَّهِ أَنْ يَطْلُبَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال السدي: يعني المنافقين واليهود، لم يرذ أن يطهر قلوبهم من دنس الكفر، ووسخ الشرك بطهارة الإيمان والإسلام.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ﴾ أما حزبي المنافقين، فبهتك سترهم وإطلاح النبي على كفرهم، وحزبي اليهود بفضيحتهم في إظهار كذبهم إذ كتموا الرجم، وبأخذ الجزية منهم. قال مقاتل: وحزبي قريظة بقتلهم وسبيهم، وحزبي النضير بإجلائهم.

﴿سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّخْتِ فَإِنْ جَاءَكُمْ فَآخِذُوا بِهِمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرَضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَعْزُوكَ سَخِيًّا وَإِنْ حَكَمْتَ فَآخِذُوا بِهِمْ بِأَلْقَسَطٍ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَلْقَسَطِينَ﴾ (١٤)

قوله تعالى: ﴿سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ﴾ قال الحسن: يعني حكام اليهود يسمعون الكذب ممن يكذب عندهم في دعواه، ويأتيهم برشوة فيأخذونها. وقال أبو سليمان: هم اليهود يسمعون الكذب، وهو قول بعضهم لبعض: محمد كاذب، وليس بنبي، وليس في التوراة رجم، وهم يعلمون كذبهم.

قوله تعالى: ﴿أَكْثَرُونَ لِلسَّخْتِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر «السُّخْتُ» مضمومة الحاء مثقلة. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحزمة «السُّخْتُ» ساكنة الحاء خفيفة. وروى خارجة بن مصعب عن نافع «أَكْثَرُونَ لِلسَّخْتِ» بفتح السين وجزم الحاء. قال أبو علي: السُّخْتُ والسُّخْتُ لغتان، وهما اسمان للشيء المسحوت، وليس بالمصدر، فأما من فتح السين، فهو مصدر سحت، فأوقع اسم المصدر على المسحوت، كما أوقع الضرب على المضروب في قولهم: هذا الدرهم ضرب الأمير. وفي المراد بالسحت ثلاثة أقوال: أحدها: الرُّشوة في الحكم. والثاني: الرشوة في الدين، والقولان عن ابن مسعود. والثالث: أنه كل كسب لا يحل، قاله الأخفش.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءَكُمْ فَآخِذُوا بِهِمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فيمن أريد بهذا الكلام قولان: أحدهما: اليهوديان اللذان زنيا، قاله الحسن، ومجاهد، والسدي. والثاني: رجلان من قريظة والنضير قتل أحدهما الآخر، قاله قتادة. وقال ابن زيد: كان حيي بن أخطب قد جعل للنضيريين دينين، والقرظي دية، لأنه كان من النضير، فقالت قريظة: لا نرضى بحكم حيي، ونتحاكم إلى محمد، فقال الله تعالى لنبيه: ﴿فَإِنْ جَاءَكُمْ فَآخِذُوا بِهِمْ﴾ الآية.

فصل

اختلف علماء التفسير في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها منسوخة وذلك أن أهل الكتاب كانوا إذا ترافعوا إلى النبي ﷺ كان مخيراً، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فلزمه الحكم، وزال التخير، وهذا مروى عن ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، والسدي (١). والثاني: أنها محكمة، وأن الإمام ونوابه في الحكم مخيرون إذا ترافعوا إليهم، إن شاؤوا حكموا بينهم، وإن شاؤوا أعرضوا عنهم، وهذا مروى عن الحسن، والشعبي، والنخعي، والزهري، وبه قال أحمد بن حنبل، وهو الصحيح (٢)، لأنه لا تنافي بين الآيتين، لأن إحداهما خيَّرت بين الحكم وتركه. والثانية بينت كيفية الحكم إذا كان (٣).

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَيَعِدُّهُ التَّوْرَةَ فِيهَا حُكْمٌ اللَّهُ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤)

(١) قال أبو جعفر النحاس في «الناسخ والمنسوخ» ١٢٩: وهو الصحيح من قول الشافعي. قال في كتاب «الجزية»: ولا خيار له إذا تحاكموا إليه، لقوله ﷺ: ﴿حَقٌّ يُطْرَأُ الْجَزْيَةَ مَنْ يَرَى وَتَمَّ سَوْرَتُهُ﴾ [التوبة: ٢٩] وهذا من أصلح الاحتجاجات، لأنه إذا كان معنى: «وهم صاغرون» أن تجري عليهم أحكام المسلمين، وجب ألا يردوا إلى أحكامهم، فإذا وجب هذا فالآية منسوخة، وهو أيضاً قول الكوفيين: أبي حنيفة، وزفر، وأبي يوسف، ومحمد، لا اختلاف بينهم إذا تحاكم أهل الكتاب إلى الإمام أنه ليس له أن يعرض عنهم، غير أن أبا حنيفة قال: إذا جاءت المرأة والزوج، فعمله أن يحكم بينهما بالعدل، فإن جاءت المرأة وحدها ولم يرض الزوج لم يحكم... وقال الباقون: بل يحكم.

(٢) وقد أتى بهذا القول عطاء بن أبي رباح، ومالك بن أنس. ذكر ذلك النحاس عنهما في «الناسخ والمنسوخ» ١٢٩، والقرطبي في «الأحكام» ١٨٤/٦، وإليه ذهب قتادة كما في «الطبري» ١٠/٣٣٠، وسعيد بن جبير كما ذكره المؤلف عنه في «ناسخ القرآن» الورقة ٨٣. واختاره أبو جعفر الطبري، لعدم التعارض بين الآيتين، ولأنه لم يصح به خبر عن رسول الله ﷺ، ولم يجمع عليه علماء المسلمين.

(٣) ذكر هذا الكلام المؤلف رحمه الله أيضاً في «ناسخ القرآن» الورقة: ٨٤.

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحْكَمُونَكَ وَعِدَّتُهُمُ التَّوْرَةُ﴾ قال المفسرون: هذا تعجيب من الله ﷻ لئيبه من تحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما في التوراة من حكم ما تحاكموا إليه فيه، وتقريع لليهود إذ يتحاكمون إلى من يجحدون نبوته، ويتركون حكم التوراة التي يعتقدون صحتها.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: حكم الله بالرجم، وفيه تحاكموا، قاله الحسن. والثاني: حكمه بالقود، وفيه تحاكموا، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَتَوَلَّوْكَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: من بعد حكم الله في التوراة. والثاني: من بعد تحكيمك. وفي قوله: ﴿وَمَا أَوْلَيْتَكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ قولان: أحدهما: ليسوا بمؤمنين لتحريفهم التوراة. والثاني: ليسوا بمؤمنين أن حكمك من عند الله لجحدهم نبوتك.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ آسَلُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّزِيئُونَ وَالْأَجْبَارُ بِمَا اسْتَحَفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيَّتِي شَيْئًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ قال المفسرون: سبب نزول هذه الآية: استفتاء اليهود رسول الله ﷺ في أمر الزانيين، وقد سبق. والهدى: البيان. فالتوراة مبينة صحة نبوة محمد ﷺ، ومبينة ما تحاكموا فيه إليه. و«النور»: الضياء الكاشف للشبهات، والموضح للمشكلات. وفي النبيين الذين أسلموا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الأنبياء من لدن موسى إلى عيسى، قاله الأكثرون. فعلى هذا القول في معنى «أسلموا» أربعة أقوال: أحدها: أسلموا لحكم الله، رضوا بقضائه. والثاني: انقادوا لحكم الله، فلم يكتموه كما كتم هؤلاء. والثالث: أسلموا أنفسهم إلى الله ﷻ. والرابع: أسلموا لما في التوراة ودانوا بها، لأنه قد كان فيهم من لم يعمل بكل ما فيها كعيسى ﷺ. قال ابن الأباري: وفي «المسلم» قولان: أحدهما: أنه سُمي بذلك لاستسلامه وانقياده لربه. والثاني: لإخلاصه لربه، من قوله: «وَرَجُلًا سَلَامًا لِرَجُلٍ»^(١) [الزمر: ٢٩] أي: خالصاً له. والثاني: أن المراد بالنبيين محمد ﷺ، قاله الحسن، والسدي. وذلك حين حكم على اليهود بالرجم، وذكره بلفظ الجمع كقوله: «أَرْمُوا مُحَمَّدًا بِالْحِجَابِ»^(٢) قاله الحسن، وفي قوله: «فَصَلُّوهُ» [النساء: ٥٤]. وفي الذي حكم به منها قولان: أحدهما: الرجم والقود. والثاني: الحكم بسائرهما ما لم يرد في شرعه ما يخالف. والثالث: النبي محمد ﷺ، ومن قبله من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، قاله عكرمة.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ قال ابن عباس: تابوا من الكفر. قال الحسن: هم اليهود. قال الزجاج: ويجوز أن يكون في الآية تقديم وتأخير على معنى: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور للذين هادوا يحكم بها النبيون الذين أسلموا. فاما «الربانيون» فقد سبق ذكرهم في (آل عمران). وأما «الأخبار» فهم العلماء واحدهم خبر وجبر، والجمع أخبار وحبور. وقال الفراء: أكثر ما سمعت العرب تقول في واحد الأخبار: جبر بكسر الحاء. وفي اشتقاق هذا الاسم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من الخبر وهو الأثر الحسن، قاله الخليل. والثاني: أنه من الجبر الذي يكتب به، قاله الكسائي. والثالث: أنه من الخبر الذي هو الجمال والبهاء. وفي الحديث: «يخرج رجل من النار قد ذهب جبرته وسبزه» أي: جماله وبهاؤه. فالعالم ببهو بجمال العلم، وهذا قول قطرب. وهل بين الربانيين والأخبار فرق أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: لا فرق، والكل العلماء، هذا قول الأكثرين، منهم ابن قتيبة، والزجاج. وقد روي عن مجاهد أنه قال: الربانيون: الفقهاء العلماء، وهم فوق الأخبار. وقال السدي: الربانيون العلماء، والأخبار القراء. وقال ابن زيد: الربانيون: الولاة، والأخبار: العلماء، وقيل: الربانيون: علماء النصارى، والأخبار: علماء اليهود.

قوله تعالى: ﴿بِمَا اسْتَحَفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: بما استودعوا من كتاب الله وهو التوراة. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: يحكمون بحكم ما استحفظوا. والثاني: العلماء بما استحفظوا. قال ابن جرير: «الباء» في

(١) كذا في الأصل «سالمًا» بالألف وكسر اللام اسم فاعل. وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ويعقوب؛ أي خالصاً من الشركة، ووافقهم ابن محيصن، واليزيدي، والحسن. وقرأ الباقون: بفتح السين واللام بلا ألف، مصدر وصف به للمبالغة في الخلوص من الشركة.

قوله: ﴿بِمَا اسْتَحْضَرُوا﴾ من صلة الأخبار. وفي قوله: ﴿وَكَاثُرًا عَلَيْهِ شُهَدَاءُ﴾ قولان: أحدهما: وكانوا على ما في التوراة من الرّجْم شهداء، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: وكانوا شهداء لمحمد ﷺ بما قال إنه حق. رواه العوفي عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا أُنْكَاسَ وَآخِثُونَ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، وابن عامر، والكسائي «واخشون» بغير ياء في الوصل والوقف. وقرأ أبو عمرو بياء في الوصل، وبغير ياء في الوقف، وكلاهما حسن. وقد أشرنا إلى هذا في (آل عمران). ثم في المخاطبين بهذا قولان: أحدهما: أنهم رؤساء اليهود، قيل لهم: فلا تخشوا الناس في إظهار صفة محمد، والعمل بالرّجْم، واخشوني في كتمان ذلك، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس. قال مقاتل: الخطاب لليهود المدينة، قيل لهم: لا تخشوا يهود خيبر أن تخبروهم بالرّجْم، ونعت محمد، واخشوني في كتمانهم. والثاني: أنهم المسلمون، قيل لهم: لا تخشوا الناس، كما خشيت اليهود الناس، فلم يقولوا الحق، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلًا﴾ في المراد بالآيات قولان: أحدهما: أنها صفة محمد ﷺ والقرآن. والثاني: الأحكام والفرائض. والتمن القليل المذكور في (البقرة). فأما قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وقوله تعالى بعدها: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. فاختلف العلماء فيمن نزلت على خمسة أقوال: أحدها: أنها نزلت في اليهود خاصة، رواه عبيد بن عبد الله عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثاني: أنها نزلت في المسلمين، روى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس نحو هذا المعنى. والثالث: أنها عامة في اليهود، وفي هذه الأمة، قاله ابن مسعود، والحسن، والنخعي، والسدي. والرابع: أنها نزلت في اليهود والنصارى، قاله أبو مجلز. والخامس: أن الأولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، قاله الشعبي. وفي المراد بالكفر المذكور في الآية الأولى قولان: أحدهما: أنه الكفر بالله تعالى. والثاني: أنه الكفر بذلك الحكم، وليس بكفر ينقل عن الملة. وفصل الخطاب: أن من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً له، وهو يعلم أن الله أنزله، كما فعلت اليهود، فهو كافر، ومن لم يحكم به ميلاً إلى الهوى من غير جحود، فهو ظالم وفاسق^(١). وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به فهو فاسق وظالم^(٢).

﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ نَبَاً أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذُنَ بِالْأَذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرْحَ بِالْجُرْحِ﴾ ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا﴾ أي: فرضنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود ﴿نَبَاً﴾ أي: في التوراة. قال ابن عباس: وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، فما بالهم يخالفون، فيقتلون النفسين بالنفس، ويفقؤون العينين بالعين؟ وكان على بني إسرائيل القصاص أو العفو، وليس بينهم دية في نفس ولا جرح، فخفف الله عن أمة محمد بالدية. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذُنَ بِالْأَذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾، ينصبون ذلك كله ويرفعون «والجروح» وكان نافع، وعاصم، وحزمة ينصبون ذلك كله، وكان الكسائي يقرأ: «أن النفس بالنفس» نصباً،

(١) وقد ارتضى هذا المذهب أبو جعفر الطبري في «تفسيره» ٣٥٨/١٠، فإنه قال: فكل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به، فهو باله كافر، كما قال ابن عباس، لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي. وفي «القرطبي» ١٩٠/٦: قال ابن مسعود، والحسن: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار، أي: معقداً ذلك ومستحلاً له، فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه ركب محرّم، فهو من فساق المسلمين، وأمره إلى الله تعالى، إن شاء عبده، وإن شاء غفر له. وقال إسماعيل القاضي في «أحكام القرآن»: ظاهر الآيات يدل على أن من فعل مثل ما فعلوا - يعني اليهود - واخترع حكماً يخالف به حكم الله، وجعله ديناً يعمل به، فقد لزمه مثل ما لزمهم من الوعيد المذكور حاكماً كان أو غيره.

(٢) «الطبري» ٢٥٧/١٠، وعلي بن أبي طلحة لم يسع من ابن عباس ﷺ. وروى الحاكم في «المستدرک» ٣١٣/٢ من طريق سفیان بن عيينة، عن هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس: أنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، إنه ليس ككفر ينقل عن الملة ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كفر دون كفر. ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

ويرفع ما بعد ذلك. قال أبو علي: وحجته أن الواو لعطف الجُمْل، لا للاشتراك في العامل، ويجوز أن يكون حمل الكلام على المعنى، لأن معنى: وكتبنا عليهم: قلنا لهم: النفس بالنفس، فحمل العين على هذا، وهذه حجة من رفع الجروح. ويجوز أن يكون مستأنفاً، لا أنه مما كُتِب على القوم، وإنما هو ابتداء إيجاب. قال القاضي أبو يعلى: وقوله: العين بالعين، ليس المراد قلع العين بالعين، لتعذر استيفاء المماثلة، لأننا لا نقف على الحد الذي يجب قلعه، وإنما يجب فيما ذهب ضوؤها وهي قائمة، وصفة ذلك أن تُشَدَّ عين القالع، وتُحْمَى مرأة، فتقدم من العين التي فيها القصاص حتى يذهب ضوؤها. وأما الأنف فإذا قطع المارن، وهو ما لأن منه، وتركت قصبته، ففيه القصاص، وأما إذا قطع من أصله، فلا قصاص فيه، لأنه لا يمكن استيفاء القصاص، كما لو قطع يده من نصف الساعد. وقال أبو يوسف، ومحمد: فيه القصاص إذا استوعب. وأما الأذن، فيجب القصاص إذا استوعبت، وعرف المقدار. وليس في عظم قصاص إلا في السن، فإن قلعت قلع مثلها، وإن كُسِرَ بعضها، برد بمقدار ذلك. وقوله: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ يقتضي إيجاب القصاص في سائر الجراحات التي يمكن استيفاء المثل فيها.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ يشير إلى القصاص. ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِرُّ﴾ في هاء «له» قولان: أحدهما: أنها إشارة إلى المجروح، فإذا تصدَّق بالقصاص كفر من ذنوبه، وهو قول ابن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص^(١)، والحسن، والشعبي. والثاني: إشارة إلى الجارح إذا عفا عنه المجروح، كفر عنه ما جنى، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل، وهو محمول على أن الجاني تاب^(٢) من جنايته، لأنه إذا كان مُصْرَافاً فعقوبة الإصرار باقية.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ مَائِدِهِمْ عَيْسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ مَائِدِهِمْ﴾ أي: وأتبعنا على آثار النبيين الذين أسلموا ﴿عَيْسَىٰ﴾ فجعلناه يقفو آثارهم ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي: بعثناه مُصَدِّقًا ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿وَمَا آتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ﴾ والثاني للإنجيل، لأن عيسى كان يدعو إلى التصديق بالتوراة، والإنجيل أنزل وفيه ذكر التصديق بالتوراة.

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّا يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ﴾ قرأ الأكثرون بجزم اللام على معنى الأمر، تقديره: وأمرنا أهله أن يحكموا بما أنزل الله فيه. وقرأ الأعمش، وحزمة بكسر اللام، وفتح الميم على معنى «كي»، فكانه قال: وآتينا الإنجيل لكي يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَمَلْنَا بَيْنَكُمُ بَرْعًا وَبَيْنَهُمَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَلَلَكُمْ أَنَّهُ وَجِدَةٌ وَلَكِنْ لَسُبَلُّوكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْقَصَبَ إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جِيماً فَيُنزِلُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس: يريد كل كتاب أنزله الله تعالى. وفي «المهيمن» أربعة أقوال: أحدها: أنه المؤمن^(٣) رواه التميمي^(٤) عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، والضحاك. وقال المبرد: «مهيمن» في معنى: «مؤمن» إلا أن الهاء بدل من الهمزة، كما قالوا: أرقت الماء، وهرقت، وإياك وهياك. وأرباب هذا القول يقولون: المعنى: أن القرآن

(١) قول عبد الله بن عمرو بن العاص، أخرجه الطبري ٣٦٢/١٠، والبيهقي في «السنن» ٥٤/٨، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦٣/٢ من تفسير ابن أبي حاتم من طريق الطيالسي عن شعبة، وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٢٨٨/٢ وزاد نسبه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٢) في النسخة الأحمدية «مات» وهو خطأ.

(٣) قوله: «المؤمن» كذا في الأصول المخطوطة التي بين أيدينا، وفي الطبري وسائر المراجع: «المؤمن».

(٤) هو أربعة ويقال: أريد التميمي الكوفي، روى التفسير عن ابن عباس، وروى عنه أبو إسحاق السبيعي. قال الحافظ في «التقريب»: صدوق.

مؤمن على ما قبله من الكتب، إلا أن ابن أبي نجيج روى عن مجاهد: ومُهَيِّمْنَا عَلَيْهِ^(١). قال: محمد مؤتمن على القرآن. فعلى قوله، في الكلام محذوف، كأنه قال: وجعلناك يا محمد مهيمناً عليه، فتكون هاء «عليه» راجعة إلى القرآن. وعلى غير قول مجاهد ترجع إلى الكتب المتقدمة. والثاني: أنه الشاهد، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل. والثالث: أنه المصدق على ما أخبر عن الكُتُب، وهذا قول ابن زيد، وهو قريب من القول الأول. والرابع: أنه الرقيب الحافظ، قاله الخليل^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ﴾ يشير إلى اليهود ﴿يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إليك في القرآن ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾. قال أبو سليمان: المعنى: فترجع عما جاءك. قال ابن عباس: لا تأخذ بأهوائهم في جلد المُحَصَّن.

قوله تعالى: ﴿وَكُلِّ جَمَلًا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ قال مجاهد: الشريعة: السنة، والمنهاج: الطريق. وقال ابن قتيبة: الشريعة والشريعة واحد، والمنهاج: الطريق الواضح. فإن قيل: كيف نسق «المنهاج» على «الشريعة» وكلاهما بمعنى واحد؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن بينهما فرقاً من وجهين: أحدهما: أن «الشريعة» ابتداء الطريق، والمنهاج: الطريق المستمر، قاله المبرد. والثاني: أن «الشريعة» الطريق الذي ربما كان واضحاً، وربما كان غير واضح، والمنهاج: الطريق الذي لا يكون إلا واضحاً، ذكره ابن الأنباري. فلما وقع الاختلاف بين الشريعة والمنهاج، حُسِّنَ نسق أحدهما على الآخر. والثاني: أن الشريعة والمنهاج بمعنى واحد، وإنما نسق أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظين. قال الحطيطي:

أَلَا حَبِذَا هِنْدُ وَأَرْضٌ بِهَا هِنْدُ
وهند أتى من دونها النأي والبُعد^(٣)

فنسق البُعد على النأي لما خالفه في اللفظ، وإن كان موافقاً له في المعنى، ذكره ابن الأنباري، وأجاب عنه أربابُ القول الأول، فقالوا: «النأي» كل ما قلَّ بعده أو كثر كأنه المفارقة، والبعد إنما يُستعمل فيما كثرت مسافة مفارقتة. وللمفسرين في معنى الكلام قولان: أحدهما: لكل ملة جعلنا شريعةً ومنهاجاً، فلاهل التوراة شريعة، ولأهل الإنجيل شريعة، ولأهل القرآن شريعة، وهذا قول الأكثرين. قال قتادة: الخطاب للأمم الثلاث: أمة موسى، وعيسى، وأمة محمد، فالتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة يُجِلُّ الله فيها ما يشاء، ويحرِّم [ما يشاء] بلاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن [الدين الواحد الذي لا يُقبل غيره، التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به الرسل. والثاني: أن المعنى: لكل من دخل في دين محمد جعلنا القرآن شريعةً ومنهاجاً، هذا قول مجاهد^(٤).

(١) في «تحاف فضلاء البشر» ١٢١: وعن ابن محيصن «ومهيماً» بفتح الميم الثانية «وعليه» في موضع رفع على النياية إن كان حالاً من الكتاب، فإن كان حالاً من كاف «إليك» فثابت الفاعل ضمير مستتر يعود إليه ﷺ، والجمهور على كسرهما اسم فاعل.

(٢) قال ابن كثير في «التفسير» ٢/٦٥: وقوله تعالى ﴿وَمُهَيِّبًا بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: مؤتمناً عليه، وقال: القرآن أمين على كل كتاب قبله، وروى عن عكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وعطية، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسدي، وابن زيد نحو ذلك. وقال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل. وعن ابن عباس: أي: حاكماً على ما قبله من الكتب. وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمتها وأشملها وأعظمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، ولهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريم، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّنَا الْأَكْبَرُ لَوْلَا نُحِيطُوكُمْ﴾ [الحجر: ٩] فأما ما حكاه ابن أبي حاتم عن عكرمة، وسعيد بن جبيرة، وعطاء الخراساني، وابن أبي نجيج عن مجاهد أنهم قالوا في قوله: «ومهيماً عليه»: يعني محمداً ﷺ أمين على القرآن، فإنه صحيح في المعنى، ولكن في تفسير هذا بهذا نظراً، وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضاً نظراً. وبالجملة فالصحيح الأول. وقال أبو جعفر ابن جرير بعد حكايته له عن مجاهد: وهذا التأويل بعيد من المفهوم في كلام العرب، بل هو خطأ. وذلك أن «المهيمن» عطف على «المصدق» فلا يكون إلا صلة لما كان المصدق صفة له. قال: ولو كان لأمر كما قال مجاهد، لقال: وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، مهيمناً عليه. يعني: من غير عطف.

(٣) «ديوانه» ١٤٠، و«المروشح»: ٩١ من قصيدة يمدح بها بني سعد، و«اللسان» مادة: «نأي» وفيه قول الحطيطي:

وهند أتى من دونها النأي والسبمد

إنما أراد المفارقة، ولو أراد البعد لما جمع بينهما.

(٤) قال ابن كثير في «التفسير» ٢/٦٦: ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «تحنن معاشر الأنبياء إخوة لملات ديننا واحد» يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فيه قولان: أحدهما: لجمعكم^(١) على الحق. والثاني: لجعلكم على ملّة واحدة ﴿وَلَكِنْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتب، وبين لكم من الملل. فإن قيل: إذا كان المعنى بقوله: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً﴾: نبينا محمداً مع سائر الأنبياء قبله، فمن المخاطب بقوله: ﴿يَبْتَلِيكُمْ﴾؟ فالجواب: أنه خطاب لنبينا، والمراد به سائر الأنبياء والأمم. قال ابن جرير: والعرب من شأنها إذا خاطبت غائباً، فأرادت الخبر عنه أن تغلب المخاطب، فتخرج الخبر عنهما على وجه الخطاب.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ قال ابن عباس، والضحاك: هو خطاب لامة محمد ﷺ. قال مقاتل: «والخيرات»: الأعمال الصالحة. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين. قال ابن جرير: قد بين ذلك في الدنيا بالأدلة والحجج، وغداً بينه بالمجازاة.

﴿وَأَن أُنذِرَكُمْ مِنْهُم بِمَا آتَى اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَانذَرْتُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاتَمَّ ثَأْبُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ يَبْتَلِيكُمْ ذُرِّيَّتُهُم وَإِن كَثُرُوا لَا يُضُرُّكُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَن أُنذِرَكُمْ مِنْهُم بِمَا آتَى اللَّهُ﴾ سبب نزولها: أن جماعة من اليهود منهم كعب بن أسيد^(٢)، وعبد الله بن صوريا، وشأس بن قيس، قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه، فقالوا: يا محمد، قد عرفت أننا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنا إن تبناك، اتبعت اليهود، وإن بيننا وبين قوم خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، ونزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس^(٣). وذكر مقاتل: أن جماعة من بني النضير قالوا له: هل لك أن تحكم لنا على أصحابنا أهل قريظة في أمر الدماء كما كنا عليه من قبل، ونبايعك؟ فنزلت هذه الآية. قال القاضي أبو يعلى: وليس هذه الآية تكراراً لما تقدم، وإنما نزلت في شيئين مختلفين، أحدهما: في شأن الرجم، والآخر: في التسوية في الديات حتى تحاكموا إليه في الأمرين.

قوله تعالى: ﴿وَانذَرْتُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ أي: يصرفوك ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أُنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه الرجم، قاله ابن عباس. والثاني: شأن القصاص والدماء، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ فيه قولان: أحدهما: عن حكمك. والثاني: عن الإيمان، فاعلم أن إعراضهم من أجل أن الله يريد أن يعذبهم ببعض ذنوبهم. وفي ذكر البعض قولان: أحدهما: أنه على حقيقته، وإنما يصيبهم ببعض ما يستحقونه. والثاني: أن المراد به الكل، كما يُذكر لفظ الواحد، ويراد به الجماعة، كقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا كَلَّمْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١] والمراد: جميع المسلمين. وقال الحسن: أراد ما عجله من إجلاء بني النضير وقتل بني قريظة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَثُرُوا مِنْ الثَّاغِيَةِ لَنَفْسِيْنَ﴾ قال المفسرون: أراد اليهود. وفي المراد بالفسق هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الكفر، قاله ابن عباس. والثاني: الكذب، قاله ابن زيد. والثالث: المعاصي، قاله مقاتل.

﴿أَنْتُمْ الْمُهَيَّبِيُّ يَتَوُّنُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْرِ يُؤْتُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ الْمُهَيَّبِيُّ يَتَوُّنُ﴾ قرأ الجمهور «يبتغون» بالياء، لأن قبله غيبة، وهي قوله: ﴿وَإِن كَثُرُوا مِنْ الثَّاغِيَةِ لَنَفْسِيْنَ﴾. وقرأ ابن عامر «تبتغون» بالفاء، على معنى: قل لهم. وسبب نزولها: أن النبي ﷺ لما حكم بالرجم على اليهوديين تعلق بنو قريظة ببني النضير، وقالوا: يا محمد هؤلاء إخواننا، أبونا واحد، وديننا واحد، إذا قتلوا منا قتلاً أعطونا سبعين وسقاً^(٤) من تمر، وإن قتلنا منهم واحداً أخذوا منا أربعين ومائة وسق، وإن قتلنا منهم رجلاً قتلوا به

- أُنْزِلَتْ فِي ٢٥ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاتِ﴾ [النحل: ٣٦] وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في الشريعة حراماً، ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس، وخفيفاً، فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامنة.

(١) في النسخة الأحمدية: لجمعكم.

(٢) كذا في الأصول المخطوطة «أسيد» بالياء، وفي «سيرة ابن هشام» ٥٦٧/١، والطبري ٣٩٣/١٠، وابن كثير ٦٧/٢، «والدر المنثور» ٢٩٠/٢ «كعب بن أسيد».

(٣) قلت: في سنده عند الطبري محمد مولى زيد بن ثابت لم يوثقه غير ابن حبان.

(٤) الرسق بفتح الواو وكسرهما: حمل بعير، أو ستون صاعاً، وهو مكيال لهم.

رجلين، وإن قتلنا امرأةً قتلوا بها رجلاً، فاقض بيننا بالعدل، فقال رسول الله ﷺ: «ليس لبني النضير على بني قريظة فضل في عقل ولا دم» فقال بنو النضير: والله لا نرضى بقضائك، ولا نطيع أمرك، ولناخذن بأمرنا الأول، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١). قال الزجاج: ومعنى الآية: أتطلب اليهود حكماً لم يأمر الله به، وهم أهل كتاب الله، كما تفعل الجاهلية^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ قال ابن عباس. ومن أعدل؟ وفي قوله: ﴿لَقَوْمٍ يُؤْتُونَ﴾ قولان: أحدهما: يؤقنون بالقرآن، قاله ابن عباس. والثاني: يؤقنون بالله، قاله مقاتل. وقال الزجاج: من أيقن بتبين عدل الله في حكمه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَكَّمْ بِتَوَكُّمِهِمْ فَإِنَّهُمْ يُنْفِئُونَ عَنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣)
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أبي لبابة حين قال لبني قريظة إذ رضوا بحكم سعد: إنه الذَّبْح، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهو قول عكرمة^(٤). والثاني: أن عبادة بن الصامت قال: يا رسول الله إن لي موالي من اليهود، وإني أبرأ إلى الله من ولاية يهود، فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر، ولا أبرأ إلى الله من ولاية يهود، فنزلت هذه الآية، قاله عطية العوفي^(٥). والثالث: أنه لما كانت وقعة أحد خافت طائفة من الناس أن يُدال عليهم الكفارُ، فقال رجل لصاحبه: أما أنا فالحق بفلان اليهودي، فأخذ منه أماناً، أو أنهود معه، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(٥)، ومقاتل. قال الزجاج: لا تتولاهم في الدين. وقال غيره: لا تستصروا بهم، ولا تستعينوا، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في العون والنصرة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّمْ بِتَوَكُّمِهِمْ فَإِنَّهُمْ يُنْفِئُونَ عَنْكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: من يتولاهم في الدين، فإنه منهم في الكفر. والثاني: من يتولاهم في العهد فإنه منهم في مخالفة الأمر.

﴿فَرَىٰ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ فَانٌّ خَافٌ أَن تُبَيِّنَا دَابَّةً فَمَا تَلْمِزُ النَّاسَ أَن يَأْتِيَ بِالتَّحْتِجِ أَوْ أَمْرٍ يَنْ عِنْدِيهِ فَيُصِخِّرُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَأُوا فِي أَنفُسِهِمْ تَبْدِيرِكُ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿فَرَىٰ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ قال المفسرون: نزلت في المنافقين، ثم لهم في ذلك قولان: أحدهما: أن اليهود والنصارى كانوا يميرون^(٦) المنافقين ويقرضونهم فيؤادونهم، فلما نزلت ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ قال المنافقون: كيف نقطع مودة قوم إن أصابتنا سنة وسعوا علينا، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وممن قال: نزلت في المنافقين، ولم يعين: مجاهد، وقتادة. والثاني: أنها نزلت في عبد الله بن أبي، قاله عطية العوفي. وفي المراد بالمرض قولان: أحدهما: أنه الشك، قاله مقاتل. والثاني: النفاق، قاله الزجاج. وفي قوله: «يسارعون فيهم» ثلاثة أقوال: أحدها: يسارعون في موالاتهم ومناصحتهم، قاله مجاهد، وقتادة. والثاني: في رضاهم،

(١) أبو صالح ضعيف لا يحتج به، وقد جاءت آثار عن ابن عباس أن بني النضير وبني قريظة تحاكموا إلى النبي ﷺ، وأن رسول الله ﷺ حملهم على الحق، وجعل الدية بينهم سواء. انظر «مسند أحمد» ١٤٥/٥، و«الطبري» ٣٢٧/١٠، و«ابن كثير» ٦٠/٢، و«الدر المنثور» ٢٨٤/٢.

(٢) روى البخاري ١٨٥/١٢ عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه».

(٣) أبو صالح ضعيف لا يحتج به، وقول عكرمة ذكره ابن جرير في «تفسيره» ٣٩٨/١٠.

(٤) ابن جرير ٣٩٥/١٠، وفيه عطية بن سعد العوفي، وصفه الحافظ في «التقريب» بقوله: صدوق يخطئ كثيراً، وأنه مدلس. وروى الطبري بمعنى أيضاً من طريق ابن إسحاق: حدثني والذي إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد... وسنده حسن، وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٢٩٠/٢، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» وابن عساکر. وأخرج ابن مردويه من طريق عبادة بن الوليد عن أبيه عن جده عبادة بن الصامت قال: «نزلت هذه الآية حين أتيت رسول الله ﷺ فبرأت إليه من حلف يهود، وظهرت رسول الله ﷺ والمسلمين عليهم».

(٥) «الطبري» ٣٩٧/١٠. وقوله «يدال عليهم الكفار»، الإدالة: الغلبة، يقال: أدبل لنا على أعدائنا، أي: نصرنا عليهم. ومنه حديث أبي سفيان، وهرقل: «نُذِلَ عليه ويُذال علينا، أي: تغلب مرة ويغلبنا أخرى».

(٦) أي: يجلبون لهم الطعام.

قاله ابن قتيبة. والثالث: في معاونتهم على المسلمين، قاله الزجاج: وفي المراد «بالدائرة» قولان: أحدهما: الجذب والمجاعة، قاله ابن عباس. قال ابن قتيبة: نخشى أن يدور علينا الدهر بمكروه، يعنون الجذب، فلا يبايعونا، وإنما فيهم [فلا يبيعونا]. والثاني: انقلاب الدولة لليهود على المسلمين، قاله مقاتل. وفي المراد بالفتح أربعة أقوال: أحدها: فتح مكة، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: فتح قرى اليهود، قاله الضحاك. والثالث: نصر النبي ﷺ على من خالفه، قاله قتادة، والزجاج. والرابع: الفرج، قاله ابن قتيبة. وفي «الأمر» أربعة أقوال: أحدها: إجلاء بني النضير وأخذ أموالهم، وقتل قريظة، وسبي ذراريهم، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثاني: الجزية، قاله السدي. والثالث: الخصب، قاله ابن قتيبة. والرابع: أن يؤمر النبي ﷺ بإظهار أمر المنافقين وقتلهم، قاله الزجاج. وفيما أسروا قولان: أحدهما: موالاتهم. والثاني: قولهم: لعل محمداً لا ينصر.

﴿وَقَوْلُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَآءَ الَّذِينَ آتَمَّوْا بِاللَّهِ جِهَدَ آيَاتِنِمْ إِلَيْكُمْ لَمَكَمَّ حِطَّتْ أَعْنَئَهُمْ فَأَصْبَحُوا خَيْرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوْلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ أبو عمرو، بنصب اللام على معنى: وعسى أن يقول. ورفع الباقون، فجعلوا الكلام مستأنفاً. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: يقول، بغير واو، مع رفع اللام، وكذلك في مصاحف أهل مكة والمدينة. قال المفسرون: لما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير، اشتد ذلك على المنافقين، وجعلوا يتأسفون على فراقهم، وجعل المنافق يقول لقربيه المؤمن إذا رآه جاداً في معاداة اليهود: أهذا جزاؤهم منك، طال والله ما أشبعوا بطنك؟ فلما قُتلت قريظة، لم يُطق أحدٌ من المنافقين ستر ما في نفسه، فجعلوا يقولون: أربعمائة حُصِدوا في ليلة، فلما رأى المؤمنون ما قد ظهر من المنافقين، قالوا: ﴿أَهْلَآءَ﴾ يعنون المنافقين ﴿الَّذِينَ آتَمَّوْا بِاللَّهِ جِهَدَ آيَاتِنِمْ﴾ قال ابن عباس: أغلظوا في الأيمان. وقال مقاتل: جهد أيمانهم: القسم بالله. وقال الزجاج: اجتهدوا في المبالغة في اليمين ﴿إِنَّهُمْ لَمَكَمَّ﴾ على عدوكم ﴿حِطَّتْ أَعْنَئَهُمْ﴾ بنفاقهم.

﴿يَكَايِبَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَفُ عَلَى الْكُفْرَانِ يَجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «يرتد»، بإدغام الدال الأولى في الأخرى، وقرأ نافع، وابن عامر: «يرتدد»، بدالين. قال الزجاج: «يرتدد» هو الأصل، لأن الثاني إذا سُكِّنَ مِنَ الْمُضَاعَفِ، ظهر التضعيف. فأما «يرتدد» فأدغمت الدال الأولى في الثانية، وحُرِّكت الثانية بالفتح، لالتقاء الساكنين. قال الحسن: علم الله أن قوماً يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم ﷺ، فأخبرهم أنه سيأتي بقوم يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ. وفي المراد بهؤلاء القوم ستة أقوال: أحدها: أبو بكر الصديق وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة، قاله علي بن أبي طالب، والحسن ﷺ، وقاتدة، والضحاك، وابن جريج. قال أنس بن مالك: كرهت الصحابة قتال مانعي الزكاة، وقالوا: أهل القبلة، فتقلد أبو بكر سيفه، وخرج وحده، فلم يجدوا بدأً من الخروج على أثره. والثاني: أبو بكر، وعمر، وزوي عن الحسن، أيضاً. والثالث: أنهم قوم أبي موسى الأشعري، روى عياض الأشعري^(١) أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا» يعني: أبا موسى^(٢). والرابع: أنهم أهل اليمن، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والخامس: أنهم الأنصار، قاله السدي. والسادس: المهاجرون والأنصار، ذكره أبو سليمان الدمشقي. قال ابن جرير: وقد أنجز الله ما وَعَدَ فَأَتَى بِقَوْمٍ فِي زَمَنِ عَمْرٍ كَانُوا أَحْسَنَ مَوْقِعاً فِي الْإِسْلَامِ مِمَّنْ أَرْتَد.

(١) عياض الأشعري: هو عياض بن عمرو الأشعري. مختلف في صحبته، روى عن النبي ﷺ مسلماً، وروى عن أبي موسى وامرأة أبي موسى، وروى عنه الشعبي وسماك بن حرب. قال الحافظ: وروايته عن امرأة أبي موسى عند مسلم. مترجم في «التهذيب» ٢٠٢/٨، و«الإصابة» ٥٠/٣، و«التاريخ الكبير» للبخاري ١٩/١/٤.

(٢) ابن جرير ٤١٥/١٠، و«طبقات ابن سعد» ١٠٧/٤، والحاكم في «المستدرک» ٣١٣/٣، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٦/٧، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٢٩٢/٢، وزاد نسبه لابن أبي شيبة في «مسنده»، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

قوله تعالى: ﴿أُولُو عِلْمٍ يُنْتَفَعُونَ﴾ قال علي بن أبي طالب عليه السلام: أهل رقة على أهل دينهم، أهل غلظة على من خالفهم في دينهم. وقال الزجاج: معنى «أذلة»: جانبهم لئلا على المؤمنين، لا أنهم أذلاء. ﴿يَجْتَهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ تَوْمَةً لَا تَأْتِي﴾ لأن المتأففين يراقبون الكفار، ويظهرونهم، ويخافون لومهم، فأعلم الله ﷻ أن الصحيح الإيمان لا يخاف في الله لومة لائم، ثم أعلم أن ذلك لا يكون إلا بتوقيفه، فقال: ﴿ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ يعني: محبتهم لله، ولين جانبهم للمسلمين، وشدتهم على الكافرين^(١).

﴿إِنَّا وَرَدْنَا اللَّهُ رَسُولَهُ وَالَّذِينَ مَأْمُرُوا بِالْإِيمَانِ يُؤْمِنُونَ بِرَسُولِهِ وَذُكِرُوا فِي الْكِتَابِ وَرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّالِحُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَرَدْنَا اللَّهُ رَسُولَهُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أن عبد الله بن سلام وأصحابه جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: إن قوماً قد أظهروا لنا العداوة، ولا نستطيع أن نجالس أصحابك لبعده المنازل، فنزلت هذه الآية، فقالوا: رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين، وأذن بلال بالصلاة، فخرج رسول الله ﷺ فإذا مسكين يسأل الناس، فقال رسول الله ﷺ: «هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم. قال: «ماذا؟ قال: خاتم فضة. قال: «من أعطاك؟ قال: ذاك القائم، فإذا هو علي بن أبي طالب، أعطانيه وهو راكع، فقرا رسول الله ﷺ هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٢)، وبه قال مقاتل. وقال مجاهد: نزلت في علي بن أبي طالب، تصدق وهو راكع. والثاني: أن عبادة بن الصامت لما تبرأ من حلفائه اليهود نزلت هذه الآية في حقه، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنها نزلت في أبي بكر الصديق، قاله عكرمة. والرابع: أنها نزلت فيمن مضى من المسلمين ومن بقي منهم، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذُكِرُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم فعلوا ذلك في ركوعهم، وهو تصدق علي عليه السلام بختامه في ركوعه^(٣). والثاني: أن من شأنهم إيتاء الزكاة وفعل الركوع. وفي المراد بالركوع ثلاثة أقوال: أحدها: أنه نفس الركوع على ما روى أبو صالح عن ابن عباس. وقيل: إن الآية نزلت وهم في الركوع. والثاني: أنه صلاة التطوع بالليل والنهار، وإنما أفرد الركوع بالذكر تشريفاً له، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنه الخضوع والخشوع، وأنشدوا: لا تُذِلُّ الفَقِيرَ عَظْمُكَ أَنْ تَرَى كَعَّ يَوْمًا وَالسُّهْرُ قَدْ رَنَعَا^(٤)

ذكره الماوردي. فأما «حزب الله» فقال الحسن: هم جند الله. وقال أبو عبيدة: أنصار الله^(٥). ثم فيهم قولان:

(١) قال ابن كثير في «التفسير» ٧٠/٢: وقوله ﷻ: ﴿يَجْتَهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ تَوْمَةً لَا تَأْتِي﴾ أي: لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقنات أعداءه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عدل عادل. وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: «أمرني خليلي ﷺ بسبع؛ أمرني بحب المساكين والفقير منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقني، وأمرني أن أصل الرحم وإن أهدرت، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأ، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» لئلهن من كنز تحت العرش». قلت: أخرجه أحمد في «المستد» ١٥٩/٥ وسنده حسن، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٦٥/٧، ونسبه للطبراني في «الضعيف» و«الكبير»، وقال: ورجاله رجال الصحيح غير سلام أبي المنذر وهو ثقة، ورواه البزار.

(٢) رواه ابن مردويه من طريق محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قلت: محمد بن السائب متروك، نقل الذهبي في «ميزان الاعتدال» عن البخاري أن يحيى وابن مهدي تراه، وروى عنه عن سفیان قال: قال لي الكلبي: كل ما حدثك عن أبي صالح فهو كذب، وأبو صالح ضعيف، وخاصة فيما يروي عنه الكلبي. ولذلك قال ابن كثير رحمه الله: هذا إسناد لا يفرح به، ثم قال ابن كثير: ورواه ابن مردويه من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام نفسه، وعمار بن ياسر، وأبي رافع، وليس يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدنا، وجهالة رجالها.

(٣) قال ابن كثير في «التفسير» ٧١/٢: وقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة - أي جملة: وهم راكعون - في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره، لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن تعلمه من أئمة الفتوى. ثم ساق الآثار الواهية في ذلك، وأبان عن عوارها.

(٤) قاله الأصبهني بن قريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي، شاعر جاهلي قديم، أساء قومه إليه، فانتقل عنهم إلى آخرين فعملوا كالأولين، فقال: بكل واد بنو سعد. يعني: قومه. والبيت في «البيان والتبيين» ٣٤١/٣، و«الشعر والشعراء» ٣٤٣/١، و«الأمالي» ١٠٧/١، و«حماصة ابن الشجري» ١٣٧، و«الحماصة البصرية» ١٣٤، و«زهر الآداب» ٥١٧/١، و«الأغانى» ٦٨/١٨، و«شواهد الغني» ٣٣٤/٤، و«شواهد السيوطي» ١٥٥. وقوله: لا تذلل روي: لا تُماد، وروي: لا تحقرن. وروي: لا تُهين، والأصل: لا تهين الفقير حذفت النون الخفيفة لالتقاء الساكنين، وقيت الفتحة.

(٥) وأنشد أبو عبيدة في ذلك قول رؤبة:

أحدهما: أنهم المهاجرون والأنصار، قاله ابن عباس. والثاني: الأنصار، ذكره أبو سليمان.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنكُمُ هُزُومًا وَلِيَمَّا مَنَّ اللَّهُ بِكُمُ الْكُفَّارُ أُولَئِكَ أَوْلِيَاؤُا اللَّهِ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنكُمُ هُزُومًا وَلِيَمَّا﴾ سبب نزولها: أن رفاعه بن زيد بن ثابت، وسويد بن الحارث كانا قد أظهرتا الإسلام، ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). فأما اتخاذهم الذين هُزُوا ولعباً، فهو إظهارهم الإسلام، وإخفاؤهم الكفر، وتلاعبهم بالدين. والذين أوتوا الكتاب: اليهود والنصارى، والكفار: عبدة الأوثان. قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة: «الكفار» بالتصبي على معنى: لا تتخذوا الكفار أولياء. وقرأ أبو عمرو، والكسائي: و«الكفار» خفضاً، لقرب الكلام من العامل الجار^(٢)، وأمال أبو عمرو الألف. ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ أن تولوهم.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُومًا وَلِيَمَّا ذَلِكَ يَأْتَهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن منادي رسول الله ﷺ كان إذا نادى إلى الصلاة، وقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قاموا لا قاموا، صلوا لا صلوا، على سبيل الاستهزاء والضحك، فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب^(٣). والثاني: أن الكفار لما سمعوا الأذان حسدوا رسول الله ﷺ والمسلمين على ذلك، وقالوا: يا محمد لقد أبدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم الخالية، فإن كنت تدعي النبوة، فقد خالفت في هذا الأذان الأنبياء قبلك، فما أقبح هذا الصوت، وأسمج هذا الأمر، فنزلت هذه الآية، ذكره بعض المفسرين. وقال السُّدِّي: كان رجل من النصارى بالمدينة إذ سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: حُرق الكاذب، فدخلت خادمه ذات ليلة بناز وهو نائم، وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت، فاحترق هو وأهله. والمنادة: هي الأذان، واتخاذهم إياها هزواً: تضحكهم وتغامزهم ﴿ذَلِكَ يَأْتَهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما لهم في إجابة الصلاة، وما عليهم في استهزائهم بها.

﴿قُلْ يَأْخُذُ الْكِتَابَ هَلْ تَعْلَمُونَ مِنَّا إِنَّا أَنَا بِاللهِ وَمَا أُرْسِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِ وَأَنَّ أَكْثَرَ تَسْفُوتًا ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأْخُذُ الْكِتَابَ هَلْ تَعْلَمُونَ مِنَّا﴾ سبب نزولها: أن نفرأ من اليهود أتوا رسول الله ﷺ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فذكر جميع الأنبياء، فلما ذكر عيسى، جحدوا نبوته، وقالوا: والله ما نعلم ديناً شراً من دينكم، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، قاله ابن عباس. وقرأ الحسن، والأعمش: «تَعْلَمُونَ» بفتح القاف. قال الزجاج: يقال: نَقَمْتُ على الرجل أنْفَمًا، ونَقِمْتُ عليه أنْقَمًا، والأول أجود. ومعنى «نقمت»: بالغت في كراهة الشيء، والمعنى: هل تكرهون منا إلا إيماننا، وفسقكم، لأنكم علمتم أننا على حق، وأنكم فسقتم.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَكَرَ اللهُ لَعْنَةُ اللهِ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَكَرَ اللهُ﴾ قال المفسرون: سبب نزولها قول اليهود للمؤمنين: والله ما علمنا أهل دين أقل حظاً منكم في الدنيا والآخرة، ولا ديناً شراً من دينكم. وفي قوله: ﴿بَشَرٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قاله ابن عباس. والثاني: بشرٌ مما نقمت من إيماننا، قاله الزجاج. فأما «المثوبة» فهي الثواب. قال الزجاج: وموضع «مَنْ» في قوله: «مَنْ لَعْنَةُ اللهِ» إن شئت كان رفعاً، وإن شئت كان خفضاً، فمن خفض جعله بدلاً من «شراً» فيكون المعنى: أنبئكم بمن لعنه الله؟ ومن رفع فيأصمار «هو» كأن قائلأ قال: مَنْ ذلك؟ فقيل: هو من لعنه الله. قال وأبو صالح عن ابن عباس: من لعنه الله بالجزية، وغضب عليه بعبادة العجل، فهم شر مثوبة عند الله. وروي عن ابن

هو في «ديوانه» ١٦ من أرجوزة يملح بها بلال بن أبي بردة، وأضوى: أضعف وأرق.

(١) ابن جرير الطبري: ٢٩١/١٠ ورجاله ثقات، خلا محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت فلم يوثقه غير ابن حبان.

(٢) وتقدير الآية على هذه القراءة: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الكفار أولياء.

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» ٢٩٤/٢ لليهقي في «دلائل النبوة» من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

عباس أن المسخين من أصحاب السبت: مسخ شباههم قردة، ومشايخهم خنازير. وقال غيره: القردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار مائدة عيسى. وكان ابن قتيبة يقول: أنا ظن أن هذه القردة والخنازير هي المسوخ بأعيانها توالدت. قال: واستدللت بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فدخل الألف واللام يدل على المعرفة، وعلى أنها القردة التي تعابن، ولو كان أراد شيئاً انقرض ومضى، لقال: وجعل منهم قردة وخنازير، إلا أن يصح حديث أم حبيبة في «المسوخ» فيكون كما قال عليه السلام. قلت أنا: وحديث أم حبيبة في «الصحيح» انفراد بإخراجه مسلم، وهو أن رجلاً سأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، القردة والخنازير هي مما مسخ؟ فقال النبي ﷺ: «[إن الله] لم يمسح قوماً أو يهلك قوماً، فيجعل لهم نسلًا ولا عاقبة، وإن القردة والخنازير قد كانت قبل ذلك»^(١) وقد ذكرنا في سورة (البقرة) عن ابن عباس زيادة بيان ذلك، فلا يلتفت إلى ظن ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ اللَّاتُوتُ﴾^(٢) فيها عشرون قراءة. قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، ونافع، والكسائي: «وعبد» بفتح العين والباء والدال، ونصب تاء «الطَّاغُوتِ». وفيها وجهان. أحدهما: أن المعنى: وجعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت. والثاني: أن المعنى: من لعنه الله وعبد الطاغوت. وقرأ حمزة: «وَعَبَّدَ الطَّاغُوتِ» بفتح العين والدال، وضم الباء، وخفض تاء الطاغوت. قال ثعلب: ليس لها وجه إلا أن يجمع فَعَلَ على قَعْلٍ. وقال الزجاج: وجهها أن الاسم بني على «فَعَلَ» كما تقول: عَلِمَ زيد، ورجل حَذَرَ، أي: مبالغ في الحذر. فالمعنى: جعل منهم خَدَمَةَ الطَّاغُوتِ ومن بلغ في طاعة الطَّاغُوتِ الغاية^(٣). وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، «وَعَبَّدُوا» بفتح العين والباء، ورفع الدال على الجمع «الطَّاغُوتِ». بالنصب. وقرأ ابن عباس، وابن أبي عبيدة: «وَعَبَّدَ» بفتح العين والباء والدال، إلا أنهما كسرا تاء «الطَّاغُوتِ». قال الفراء: أرادوا «عبدة» فحذفوا الهاء^(٤). وقرأ أنس بن مالك: «وَعَبَّيْدَ» بفتح العين والدال وبياء بعد الباء وخفض تاء «الطَّاغُوتِ». وقرأ أيوب، والأعمش: «وَعَبَّيْدَ»، برفع العين ونصب الباء والدال مع تشديد الباء، وكسر تاء «الطَّاغُوتِ». وقرأ أبو هريرة، وأبو رجاء، وابن السميع: «وعابدا» بألف، مكسورة الباء، مفتوحة الدال، مع كسر تاء «الطَّاغُوتِ». وقرأ أبو العالية، ويحيى بن وثَّاب: «وَعَبَّيْدَ» برفع العين والباء وفتح الدال، مع كسر تاء الطَّاغُوتِ. قال الزجاج: هو جمع عبيد، وَعَبَّيْدٌ مثل رَغِيفٍ، ورَعْفٌ، وسرير، وسُرُرٌ، والمعنى: وجعل منهم عبيد الطَّاغُوتِ. وقرأ أبو عمران الجوني، ومورق العجلي، والنخعي: «وَعَبَّيْدَ» برفع العين وكسر الباء مخففة، وفتح الدال مع ضم تاء «الطَّاغُوتِ». وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعكرمة: «وَعَبَّيْدَ» بفتح العين والدال، وتشديد الباء مع نصب تاء الطَّاغُوتِ. وقرأ الحسن، وأبو مجلز، وأبو نهيك: «وَعَبَّيْدَ» بفتح العين والدال، وسكون الباء خفيفة مع كسر تاء الطَّاغُوتِ. وقرأ قتادة، وهذيل بن شرحبيل: «وَعَبَّيْدَةَ» بفتح العين والباء والدال وتاء في اللفظ منصوبة بعد الدال «الطَّاغُوتِ» بألف وواو وياء بعد الغين على الجمع. وقرأ الضحَّاك، وعمرو بن دينار: «وَعَبَّيْدَ» برفع العين وفتح الباء والدال مع تخفيف الباء، وكسر تاء «الطَّاغُوتِ». وقرأ سعيد بن جبير، والشعبي: «وَعَبَّيْدَةَ» مثل حمزة، إلا أنهما رفعوا تاء «الطَّاغُوتِ». وقرأ يحيى بن يعمر، والجحدري: «وَعَبَّيْدَ» بفتح العين ورفع الباء والدال مع كسر تاء «الطَّاغُوتِ». وقرأ أبو الأشهب العطاردي: «وَعَبَّيْدَ» برفع العين وتسكين الباء، ونصب الدال، مع كسر تاء

(١) مسلم: ٢٠٥١/٤، ورواه الإمام أحمد في «السنن» ٢٦٠/٥.

(٢) في «معاني القرآن» للفراء ٢١٤/١: وأما قوله: «وَعَبَّيْدَ الطَّاغُوتِ» فإن تكن فيه لغة مثل: حَذَرَ وعَجَل فهو وجه، وإلا فإنه أراد - والله أعلم - قول الشاعر:

أَبْنِي أُبَيْيْسِي إِذْ أَمَحَّمُ أُمَّةٌ وَإِنَّ أَبْسَاكُمُ عُبُودُ

وهذا في الشعر يجوز لضرورة القوافي، فأما في القراءة فلا. قلت: والبيت لأوس بن حجر، وهو في «ديوانه» ٢١، «والصالح»، «واللسان» و«التاج»: عبد. قلت: ورواه ابن سيده في «المختص» ٩٥/٣: «وإن أباكم وغب».

(٣) «معاني القرآن» ٣١٤/١، وفي الطبري ٤٤١/١٠: ولو قرئ ذلك «وَعَبَّيْدَ الطَّاغُوتِ» بالكسر كان له مخرج في العربية صحيح، وإن لم أستجز اليوم القراءة بها، إذ كانت قراءة الحجة من القراءة بخلافها. ووجه جوازها في العربية أن يكون مراداً بها: عبدة الطَّاغُوتِ، ثم حذفت الهاء للإضافة كما قال الراجز: قام ولاها فسقوه صرخدًا، يريد: قام ولاتها، فحذف التاء من «ولاتها» للإضافة. قلت: وصرخد: موضع بالشام، من عمل حوران، تنسب إليه الخمر الجيدة.

«الطاغوت». وقرأ أبو السَّمَاكُ: «وَعَبْدَةٌ» بفتح العين والياء والدال وتاء في اللفظ بعد الدال مرفوعة مع كسر تاء «الطاغوت». وقرأ معاذ الفارسي: «وعابد» مثل قراءة أبي هريرة إلا أنه ضم الدال. وقرأ أبو حيو: «وَعَبَادَ» بتشديد الباء ويألف بعدها مع رفع العين، وفتح الدال. وقرأ ابن حَظَلَمٍ، وعمرو بن فائد: «وَعَبَادٌ» مثل أبي حيو إلا أن العين مفتوحة والدال مضمومة. وقد سبق ذكر «الطاغوت» في سورة (البقرة). وفي المراد به هاهنا قولان: أحدهما: الأصنام. والثاني: الشيطان.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ شِرْكٌ مِّمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين وصفناهم شر مكاناً من المؤمنين، ولا شر في مكان المؤمنين، ولكن الكلام مبني على كلام الخصم، حين قالوا للمؤمنين: لا نعرف شراً منكم، فقيل: من كان بهذه الصفة، فهو شرٌ منهم.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ قَوْلًا مِّنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ حَرَجُوا بِرَبِّهِمْ وَاللَّهُ أَغْرَىٰ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ قَوْلًا مِّنَّا﴾ قال قتادة: هؤلاء ناسٌ من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ، فيخبرونه أنهم مؤمنون بما جاء به، وهم متمسكون بضلالتهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ﴾ أي: دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، فالكفر معهم في حالتهم، ﴿وَاللَّهُ أَغْرَىٰ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ من الكفر والنفاق.

﴿وَرَوَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْتَعْرَفُونَ فِي الْآثِرِ وَالْمَدِينِ وَأَحْلَاهُمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْعُقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَوَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: اليهود ﴿يُسْتَعْرَفُونَ﴾، أي: يبادرون ﴿فِي الْآثِرِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه المعاصي، قاله ابن عباس: والثاني: الكفر، قاله السدي. فأما العدوان فهو الظلم. وفي «السحت» ثلاثة أقوال: أحدها: الرشوة في الحكم. والثاني: الرشوة في الدين. والثالث: الربا.

﴿لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الْزَيْبِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمَا أَكَلْتُمُ الشَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْعُقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الْزَيْبِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ «لولا» بمعنى: «هلا» و«الزيبانيون» المذكورون في (آل عمران)، و«الأحبار» قد تقدم ذكرهم في هذه السورة. وهذه الآية من أشد الآيات على تاركي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأن الله تعالى جمع بين فاعل المنكر وتارك الإنكار في الذم. قال ابن عباس: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ عَلَتْ أَيْدِيهِمْ وَلُؤْمَاؤُهُمْ قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُوقِفُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِزَيْدِكَ كِبِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طَبَقًا وَكُفْرًا وَاللَّيْنَتَا بَيْنَهُمُ الْعِدَّةُ وَالْبَعْضَاءُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لَمَفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: نزلت في فنحاص اليهودي وأصحابه، قالوا: يد الله مغلولة. وقال مقاتل: فنحاص وابن صلوبا^(١)، وعازر بن أبي عازر. وفي سبب قولهم هذا ثلاثة أقوال: أحدها: أن الله تعالى كان قد بسط لهم الرزق، فلما عصوا الله تعالى في أمر محمد ﷺ وكفروا به كَفَّتْ عنهم بعض ما كان بسط لهم، فقالوا: يد الله مغلولة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. والثاني: أن الله تعالى استقرض منهم كما استقرض من هذه الأمة، فقالوا: إن الله بخيل، ويده مغلولة فهو يستقرضنا، قاله قتادة. والثالث: أن النصراني لما أعانوا بختنصر المجوسي على تخريب بيت المقدس، قالت اليهود: لو كان الله صحيحاً، لمنعنا منه، فيده مغلولة، ذكره قتادة أيضاً. والمغلولة: الممسكة المنقبضة. وعن ماذا عَنُوا أنها ممسكة، فيه قولان: أحدهما: عن العطاء، قاله ابن عباس، وقاتدة، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: ممسكة عن عذابنا، فلا يعذبنا إلا تحلة القسم بقدر عبادتنا العجل، قاله الحسن. وفي قوله: ﴿عَلَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: غلت في جهنم، قاله الحسن. والثاني: أمسكت

عن الخير، قاله مقاتل. والثالث: جُعِلُوا بُخْلَاءُ، فهم أبخل قوم، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: وهذا خبر أخبر الله تعالى به الخلق أن هذا قد نزل بهم، وموضعه نصب على معنى الحال. تقديره: قالت اليهود هذا في حال حكم الله بغل أيديهم، ولعنته إياهم، ويجوز أن يكون المعنى: فغلت أيديهم، ويجوز أن يكون دعاء، معناه: تعليم الله لنا كيف ندعو عليهم، كقوله: ﴿كَتَبْنَا بِذَلِكَ آيَاتٍ لِّهَبِّ﴾ [الطَّب: ١] وقوله: ﴿لَتَنخَنَنَّ الْأَحْرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَائِيَتِكُمْ﴾ [الفتح: ٢٧]. وفي قوله: ﴿رُؤْيَا بِمَا قَالُوا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أبعدوا من رحمة الله. والثاني: عذبوا في الدنيا بالجزية، وفي الآخرة بالنار. والثالث: مُسَخَّرَا قردة وخنازير. وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «من لمن شيئاً لم يكن للبعث أهلاً رجعت اللعنة على اليهود بلعنة الله إياهم». قال الزجاج: وقد ذهب قومٌ إلى أن معنى «يد الله»: نعمته، وهذا خطأ ينقضه ﴿بَلْ يَدَايَاسُكَ بِسُوءَاتِكَ﴾ فيكون المعنى على قولهم: نعمته، ونعم الله أكثر من أن تحصى. والمراد بقوله: بل «يداهُ بِسُوءَاتِكَ»: أنه جواد ينفق كيف يشاء^(١) وإلى نحو هذا ذهب ابن الأنباري. قال ابن عباس: إن شاء وسَّع في الرزق، وإن شاء قَتَّر.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَذُرَّ كَثِيرًا مِّمَّنْ تَمَّ أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ قال الزجاج: كلما أنزل عليك شيء كفروا به، فيزيد كفرهم. «والطغيان» هاهنا: الغلو في الكفر. وقال مقاتل: وليزيدن بني النضير ما أنزل إليك من ريبك من أمر الرجم والدماء طغياناً وكفراً.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوكُم مِّنَ الْفِرْعَوْنَ وَالْمِصْرَةَ﴾ فيمن عنى بهذا قولان: أحدهما: اليهود والنصارى، قاله ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل. فإن قيل: فأين ذكر النصارى؟ فالجواب: أنه قد تقدم في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ أَوْلِيَاءَ﴾. والثاني: أنهم اليهود، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لَمَفَاكًا اللَّهُ﴾ ذُكِرَ إيقاد النار مَثَلٌ صُورِبَ لاجتهادهم في المحاربة، وقيل: إن الأصل في استعارة اسم النار للحرب أن القبيلة من العرب كانت إذا أرادت حرب أخرى أوقدت النار على رؤوس الجبال، والمواضع المرتفعة، ليعلم استعدادهم للحرب، فيتأهب من يريد إيعانتهم. وقيل: كانوا إذا تحالفوا على الجُدِّ في حربهم، أوقدوا ناراً، وتحالفوا. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: كلما جمعوا لحرب النبي ﷺ فرزقهم الله. والثاني: كلما مكروا مكرأ رده الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: بالمعاصي، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: بمحو ذكر النبي ﷺ من كتبهم، ودفع الإسلام، قاله الزجاج. والثالث: بالكفر. والرابع: بالظلم، ذكرهما الماوردي.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَخَاتِبُهُمْ وَلَا كُفْرَتُهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿ءَامَنُوا﴾ بالله وبرسوله ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَخَاتِبُهُمْ﴾ التي سلفت.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْآنِ وَالْوَاقِفِينَ وَالْأَنْصَارَ وَمِمَّنْ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْفَرُوا مِنْ تَوْفِيقِهِ وَفِي حَتِّ أَيْدِيهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَخَاتِبٌ مَا يَحْكُمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْآنِ وَالْوَاقِفِينَ﴾ قال ابن عباس: عملوا بما فيها. وفيما أنزل إليهم من ربهم قولان: أحدهما: كتب أنبياء بني إسرائيل. والثاني: القرآن، لأنهم لما خوطبوا به، كان نازلاً إليهم.

قوله تعالى: ﴿لَأَكْفَرُوا مِنْ تَوْفِيقِهِ وَفِي حَتِّ أَيْدِيهِمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: لأكفروا بقطر السماء، ونبات الأرض، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقاتل. والثاني: أن المعنى: لو سَّع عليهم، كما يقال: فلان في خير من قرنه إلى

(١) روى البخاري ٢٦٥/٨، ٣٢٧/١٣، ومسلم ٦٩١/٢ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن يمين الله ملائ لا يفيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرايتم ما أتفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يفيض ما في يمينه. قال: وعرشه على الماء وفي يده الأخرى القبض يرفع ويخفض. وقال: يقول الله تعالى: أتفق أتفق عليك». وقوله: سحاء، بفتح السين وتشديد الحاء، أي: دائم الصب والهطل بالمطاء. وقوله: لا يفيضها، أي: لا يتقصها. والليل والنهار: منصوبان على الظرف.

قدمه، ذكره الفراء، والزجاج. وقد أعلم الله تعالى بهذا أن التقوى سبب في توسعة الرزق كما قال: ﴿لَقَدْ نَحْنًا عَلَيْهِمْ بِبَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال: ﴿وَرِزْقُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَيْبُ﴾ يعني: من أهل الكتاب، وهم الذين أسلموا منهم، قاله ابن عباس، ومجاهد. وقال القرظي: هم الذين قالوا: المسيح عبد الله ورسوله. و«الاعتقاد» الاعتدال في القول والعمل من غير غلو ولا تقصير.

﴿يَأْتِيهَا أَرْسُولٌ بَلِّغُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧)

﴿يَأْتِيهَا أَرْسُولٌ بَلِّغُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت على أسباب، روى الحسن أن النبي ﷺ قال: «لما بعثني الله برسالته، ضقت بها ذرعاً، وعرفت أن من الناس من يكذبني»، وكان رسول الله ﷺ، يهاب قريشاً واليهود والنصارى، فأنزل الله هذه الآية^(١). وقال مجاهد: لما نزلت ﴿يَأْتِيهَا أَرْسُولٌ بَلِّغُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال: «يا رب كيف أصنع؟ إنا أنا وحدي يجتمع علي الناس»، فأنزل الله ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. وقال مقاتل: لما دعا اليهود، وأكثر عليهم جعلوا يستهزؤون به، فسكت عنهم، فحرض بهذه الآية. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يحرس فيرسل معه أبو طالب كل يوم رجلاً من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه الآية، فقال: «يا عمّاه إن الله قد عصمني من الجن والإنس»^(٢). وقال أبو هريرة: نزل رسول الله ﷺ ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه، فقال: يا محمد من يمنعني منك؟ فقال: «الله»، فنزل قوله: ﴿وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٣). قالت عائشة: سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقلت: ما شأنك؟ قال: «ألا رجل صالح يحرسني الليلة»، فبينما نحن في ذلك إذ سمعت صوت السلاح، فقال: «من هذا؟ فقال: سعد وحذيفة جئنا نحرسك، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيته، فنزلت ﴿وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة آدم وقال: «انصرفوا أيها الناس، فقد عصمني الله تعالى»^(٤). قال الزجاج: قوله: ﴿بَلِّغُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ معناه: بلغ جميع ما أنزل إليك، ولا تراقب أحداً، ولا تترك شيئاً منه مخافة أن ينالك مكروه، فإن تركت منه شيئاً، فما بلغت^(٥). قال ابن تقيية: يدل على هذا المحذوف قوله: ﴿وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ﴾ وقال ابن عباس: إن كتبت آية فما بلغت رسالتي. وقال غيره: المعنى: بلغ جميع ما أنزل إليك جهراً، فإن أخفيت شيئاً منه لخوف أذى يلحقك، فكأنك ما بلغت شيئاً. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «رسالته» على التوحيد. وقرأ نافع «رسالته» على الجمع.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قال ابن تقيية: أي: يمنعك منهم. وعصمة الله: منعه للعبد من المعاصي، ويقال: طعام لا يعصم، أي: لا يمنع من الجوع. فإن قيل: فأين ضمان العصمة وقد شجّ جبينه، وكسرت رباعيته، ويبلغ في أذاه؟ فعتنه جوابان: أحدهما: أنه عصمه من القتل والأسر وتلف الجملة، فأما عوارض الأذى، فلا تمنع عصمة الجملة. والثاني: أن هذه الآية نزلت بعدما جرى عليه ذلك، لأن «المائدة» من أواخر ما نزل.

(١) نسه السيوطي في «الدر المثور» ٢/٣٩٨ لأبي الشيخ.

(٢) نقل ابن كثير في «التفسير» ٢/٧٨ عن ابن مردويه خيراً بمعناه عن جابر بن عبد الله، ثم قال: وهذا حديث غريب وفيه نكارة، فإن هذه الآية مدنية، وهذا الحديث يقتضي أنها مكية؛ ثم أخرج عن ابن مردويه الحديث الذي ذكره المصنف، وقال: رواه الطبراني عن يعقوب بن فيلان العماني عن أبي كريب به، وهذا أيضاً حديث غريب، والصحيح أن هذه الآية مدنية بل هي من أواخر ما نزل بها، والله أعلم.

(٣) الخبر في «موارد الظلمة» في زوائد ابن حبان، ٤٣، ونقله ابن كثير عن ابن مردويه وابن حبان. وفي سننه مؤمل من إسماعيل المدودي وهو صدوق سيء الحفظ، وانظر ترجمته في «التهذيب» ١٠/٣٨٠.

(٤) الترمذي ٤/٩٦، والطبري ١٠/٤٦٩، والحاكم ٢/٣١٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقد حسن الحافظ في «الفتح» إسناده.

(٥) روى البخاري ٨/٢٠٦، ومسلم ١/١٥٩ عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً مما أنزل عليه، فقد كذب، والله يقول: ﴿يَأْتِيهَا أَرْسُولٌ بَلِّغُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يهديهم إلى الجنة. والثاني: لا يعينهم على بلوغ غرضهم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُتِمُّوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلِكُلِّ ذِكْرٍ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ سبب نزولها: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألسنت تؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها حق؟ قال: «بلى، ولكنكم أحدثتم وجمدتم ما فيها، فأنا بريء من إحدائكم». فقالوا: نحن على الهدى، وناخذ بما في أيدينا، ولا تؤمن بك، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. فأما أهل الكتاب، فالمراد بهم اليهود والنصارى. وقوله: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: لستم على شيء من الدين الحق حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وإقامتهما: العلم بما فيهما، ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ. وفي الذي أنزل إليهم من ربهم قولان قد سبقا، وكذلك باقي الآية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّادِقِينَ مِنَ آسَاءِ مَا لَمْ يَأْتِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَجِلَ صَلَاتُهُمْ فَهُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ﴾ قد ذكرنا تفسيرها في (البقرة). وكذلك اختلفوا في إحكامها ونسخها كما بينا هناك. فأما رفع «الصابئين» فذكر الزجاج عن البصريين، منهم الخليل، وسيبويه أن قوله: «والصابئون» محمول على التأخير، ومرفوع بالابتداء. والمعنى: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون والنصارى كذلك أيضاً، وأنشدوا:

وَالْأَفَاعِلْمُوا أَنَا وَأَنْتُمْ بُغَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقٍ^(١)

المعنى: فاعلموا أنا بغاة ما بقينا في شقاق، وأنتم أيضاً كذلك.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرَأْسَهُمْ رُسُلًا كَلَّمْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال مقاتل: أخذ ميثاقهم في التوراة بأن يعملوا بما فيها. قال ابن عباس: كان فيمن كذبوا، محمد، وعيسى، وفيمن قتلوا، زكريا، ويحيى. قال الزجاج: فأما التكذيب، فاليهود، والنصارى يشتركون فيه. وأما القتل فيختص اليهود.

﴿وَحَسِبُوا آلَ تَكْوُوتٍ قِتْنَةً فَمَا وَكَلُوا نَرًا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِعْرِهِمُ بِمَا يَصْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا آلَ تَكْوُوتٍ قِتْنَةً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: «تكون» بالنصب. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «تكون» بالرفع، ولم يختلفوا في رفع «قنتة». قال مكي بن أبي طالب: من رفع جعل «أن» مخففة من الثقيلة، وأضمر معها «الهاء»، وجعل «حسبوا» بمعنى: أيقنوا، لأن «أن» للتأكيد، والتأكيد لا يجوز إلا مع اليقين. والتقدير: أنه لا تكون قنتة. ومن نصب جعل «أن» هي الناصبة للفعل، وجعل «حسبوا» بمعنى: ظنوا. ولو كان قبل «أن» فعل لا يصلح للشك، لم يجوز أن تكون إلا مخففة من الثقيلة، ولم يجوز نصب الفعل بها، كقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ﴾ [طه: ٨٩] و﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ﴾ [المزمل: ٢٠] قال أبو علي: الأفعال ثلاثة: فعلٌ يدلُّ على ثبات الشيء واستقراره، نحو العلم والتيقن، وفعلٌ يدلُّ على خلاف الثبات والاستقرار، وفعلٌ يجذب إلى هذا مرة، وإلى هذا أخرى، فما كان معناه العلم، وقعت بعده «أن» الثقيلة، لأن معناها ثبوت الشيء واستقراره، كقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ

(١) البيت لبشر بن أبي خازم من قصيدة يهجو بها أوس بن حارثة. وهو في «ديوانه» ١٦٥، وسيبويه ٢٩٠/١، و«شواهد الحيني» ٢٧١/٢ وقيل:

إذا جـزت نـواصـسي أـك بـدر

فأدورها وأسرى في السوثاق

وقصة البيتين أن قوماً من آل بدر الفزاريين جاؤوا بني لأم من طيء، فأسرته طيء، وجزوا نواصبيهم، وقالوا: منّا عليكم ولم نقلكم، فغضب بنو فزارة، فانتصر لهم بشر للحلف الذي كان بينهم وبين بني أسد قومه. والمعنى: أدوا إلينا نواصي بني بدر، واحلوا معنا أسراهم، وإلا فإنّا وأنتم متعادون أبداً.

أَنْعَمَ الْيُسُفَىٰ ﴿النور: ٢٥﴾ ﴿أَرَيْتُمْ إِنْ آتَىٰ اللَّهُ رِيًّا﴾ [المعلق: ١٤] وما كان على غير وجه الثبات والاستقرار نحو: أطمع وأخاف وأرجو، وقعت بعده «أن» الخفيفة، كقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَكُونُوا عِدَّةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَلِفَكُمْ أَلْأَنْفُسُ﴾ [الأنفال: ٢٦] ﴿فَخَرِيبًا أَنْ يُرْفِعَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٠] ﴿أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي﴾ [الشراء: ٨٢] وما كان متردداً بين الحالين مثل حسبْتُ وظننت، فإنه يُجعلُ تارةً بمنزلة العلم، وتارةً بمنزلة أرجو وأطمع وكلتا الفراءتين في ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ قد جاء بها التنزيل. فمثل مذهب من نصب: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَعُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ [الحجاية: ٢١] ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ [المنكوت: ٤٤] ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُؤْتُوا﴾ [المنكوت: ٢٢] ومثلُ مذهب من رفع: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥٥] ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠] قال ابن عباس: ظنوا أن الله لا يعذبهم، ولا يبتليهم يقتلهم الأنبياء، وتكذيبهم الرسل.

قوله تعالى: ﴿فَسَمُوا وَصَمُوا﴾ قال الزجاج: هذا مثل تأويله: أنهم لم يعملوا بما سمعوا، ورأوا من الآيات، فصاروا كالعمي الصم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: رفع عنهم البلاء، قاله مقاتل. وقال غيره: هو ظفرهم بالأعداء، وذلك المذكور في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٦٦]. والثاني: أن معنى «تاب عليهم»: أرسل إليهم محمداً يعلمهم أن الله قد تاب عليهم إن آمنوا وصدّقوا، قاله الزجاج. وفي قوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ قولان: أحدهما: لم يتوبوا بعد رفع البلاء، قاله مقاتل. والثاني: لم يؤمنوا بعد بعثة محمد ﷺ، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: عمي وضم كثير منهم، كما تقول: جاءني قومك أكثرهم. قال ابن الأنباري: هذه الآية نزلت في قوم كانوا على الكفر قبل أن يُبعث رسول الله ﷺ، فلما بعث كذبوه بغياً وحسداً، وقَدَرُوا أن هذا الفعل لا يكون مُوبِقاً لهم، وجانبياً عليهم، فقال الله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أي: ظنوا ألا تقع بهم فتنة في الإصرار على الكفر، فعموا وصموا بمجانبة الحق. ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عرّضهم للتوبة بأن أرسل محمداً ﷺ وإن لم يتوبوا، ثم عموا وصموا بعد بيان الحق بمحمد، كثير منهم، فخص بعضهم بالفعل الأخير، لأنهم لم يجتمعوا كلهم على خلاف رسول الله ﷺ.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ آمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [٧٢]

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قال مقاتل: نزلت في نصارى نجران، قالوا ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾ أي: وقد كان المسيح قال لهم وهو بين أظهرهم: إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَلَكُّوْا وَمَا مِنَ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُوا لَكُنَّا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْهَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٧٣]

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ تَلَكُّوْا﴾ قال مجاهد: هم النصارى. قال وهب بن منبه: لما ولد عيسى لم يبق صنم إلا خراً لوجهه، فاجتمعت الشياطين إلى إبليس، فأخبروه، فذهب فطاف أقطار الأرض، ثم رجع، فقال: هذا المولود الذي ولد من غير ذكر، أردت أن أنظر إليه، فوجدت الملائكة قد حفت بأمه، فليخلف عندي اثنان من مردتكم. فلما أصبح، خرج بهما في صورة الرجال، فأتوا مسجد بني إسرائيل وهم يتحدثون بأمر عيسى، ويقولون: مولود من غير أب. فقال إبليس: ما هذا بشراً، ولكن الله أحب أن يتمثل في امرأة ليختبر العباد، فقال أحد صاحبيه: ما أعظم ما قلت، ولكن الله أحب أن يتخذ ولدأ. وقال الثالث: ما أعظم ما قلت، ولكن الله أراد أن يجعل إلهاً في الأرض، فألقوا هذا الكلام على السنة الناس، ثم تفرّقوا، فتكلم به الناس. وقال محمد بن كعب: لما رفع عيسى اجتمع مئة من علماء بني إسرائيل، وانتخبوا منهم أربعة، فقال أحدهم: عيسى هو الله كان في الأرض ما

بدا له، ثم صعد إلى السماء، لأنه لا يحيي الموتى ولا يبرئ الأكمه والأبرص إلا الله. وقال الثاني: ليس كذلك، لأننا قد عرفنا عيسى، وعرفنا أمه، ولكنه ابن الله. وقال الثالث: لا أقول كما قلتما، ولكن جاءت به أمه من عمل غير صالح. فقال الرابع: لقد قلم قبيحاً، ولكنه عبد الله ورسوله وكلمته، فخرجوا، فاتبع كل رجل منهم عُنُقٌ^(١) من الناس. قال المفسرون: ومعنى الآية: أن النصرى قالت: الإلهية مشتركة بين الله وعيسى ومريم، وكل واحد منهم إله. وفي الآية إضمار، فالمعنى: ثالث ثلاثة آلهة، فحذف ذكر الآلهة، لأن المعنى مفهوم، لأنه لا يكفر من قال: هو ثالث ثلاثة، ولم يرد الآلهة، لأنه ما من اثنين إلا وهو ثالثهما، وقد دل على المحذوف قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ﴾. قال الزجاج: ومعنى ثالث ثلاثة: أنه أحد ثلاثة. ودخلت «من» في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ للتوكيد. والذين كفروا منهم، هم المقيمون على هذا القول. وقال ابن جرير: المعنى: ليمسّن الذين يقولون: المسيح هو الله، والذين يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، وكل كافر يسلك سبيلهم، عذاب أليم.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَشْرَ رَجَائٍ﴾ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ قال الفراء: لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الأمر، كقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾

[المائدة: ٩١].

﴿مَا أَلْسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَسْمُهُ سِيذِيْقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أُنظُرْ كَيْفَ بُيِّنَتْ لَهُمُ الْآيَاتِ شُرَّ أَنْظُرْ أَنَّ يُؤْتِكُونَ﴾ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿مَا أَلْسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فيه رد على اليهود في تكذيبهم رسالته، وعلى النصرى في ادعائهم إلهيته. والمعنى: أنه ليس بإله، وإنما حكمه حكم من سبقه من الرسل. وفي قوله: ﴿وَأَسْمُهُ سِيذِيْقَةٌ﴾ رد على من نسبها من اليهود إلى الفاحشة. قال الزجاج: والصديقة: المبالغة في الصدق، وصدیق «فعل» من أبنية المبالغة، كما تقول: فلان سكت، أي: مبالغ في السكوت. وفي قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ قولان: أحدهما: أنه بين أنهما يعيشان بالغذاء، ومن لا يقيمه إلا أكل الطعام فليس بإله، قاله الزجاج. والثاني: أنه نَبَّهَ بأكل الطعام على عاقبته، وهو الحدث، إذ لا بد لأكل الطعام من الحدث، قاله ابن قتيبة. قال: وقوله: ﴿أُنظُرْ كَيْفَ بُيِّنَتْ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ من اللطف ما يكون من الكناية. و«يؤفكون»: يُصرفون عن الحق ويُعدّلون، يقال: أفك الرجل عن كذا: إذا عدل عنه، وأرض مأفوكه: محرومة المطر والنبات، كان ذلك صُرف عنها وعدل.

﴿قُلْ أَتُبَدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ شَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُبَدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال مقاتل: قل لنصارى نجران: أتعددون من دون الله، يعني عيسى ابن مريم ما لا يملك لكم ضرراً في الدنيا، ولا نفعاً في الآخرة. والله هو السميع لقولهم: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة، العليم بمقاتلتهم.

﴿قُلْ يَأْمُرُ الْكِتَابُ لَّا تَتْلُوا فِي رِيبِكُمْ عِبْدَ الْحَيِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأْمُرُ الْكِتَابُ﴾ قال مقاتل: هم نصارى نجران. والمعنى: لا تغلوا في دينكم، فتقولوا غير الحق في عيسى. وقد بينا معنى «الغلو» في آخر سورة (النساء).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال أبو سليمان: من قبل أن تضلوا. وفيهم قولان: أحدهما: أنهم رؤساء الضلالة من اليهود. والثاني: رؤساء اليهود والنصارى. والآية خطاب للذين كانوا في عصر نبينا ﷺ فهو أن يتبعوا أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم.

﴿لَمِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ في لعنهم قولان: أحدهما: أنه نفس اللعن، ومعناه: المباعدة من الرحمة. قال ابن عباس: لُعِنُوا على لسان داود، فصاروا قردة، ولعنوا على لسان عيسى في الإنجيل. قال الزجاج: وجائز أن يكون داود وعيسى أغليماً أن محمداً نبياً، ولعننا من كفر به. والثاني: أنه المسخ، قاله مجاهد، لعنوا على لسان داود فصاروا قردة، وعلى لسان عيسى، فصاروا خنازير. وقال الحسن، وقتادة: لعن أصحاب السبت على لسان داود، فإنهم لما اعتدوا، قال داود: اللهم العنهم، واجعلهم آية، فمسخوا قردة. ولعن أصحاب المائدة على لسان عيسى، فإنهم لما أكلوا منها ولم يؤمنوا؛ قال عيسى: اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت، فجعلوا خنازير.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَمَّا عَصَا﴾ أي: ذلك اللعن بمصعبتهم لله تعالى في مخالفتهم أمره ونهيه، وباعتدائهم في مجاوزة ما حده لهم.

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ التناهي: تفاعل من النهي، أي: كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر. وذكر المفسرون في هذا المنكر ثلاثة أقوال: أحدها: صيد السمك يوم السبت. والثاني: أخذ الرشوة في الحكم. والثالث: أكل الربا، وأثمان الشحوم. ويذكر المنكر منكرًا يدل على الإطلاق، ويمنع هذا الحصر، ويدل على ما قلنا، ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيراً، فإذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريبه، فلما رأى الله تعالى ذلك منهم، ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم»^(١).

قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ قال الزجاج: اللآم دخلت للقسمة والتوكيد، والمعنى: لبئس شيئاً فعلهم.

﴿كَرِهَ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وَكَأَنَّهُمْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

قوله تعالى: ﴿كَرِهَ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم المناقضون، روي عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد. والثاني: أنهم اليهود، قاله مقاتل في آخرين، فعلى هذا القول انتظام الآيات ظاهر، وعلى الأول يرجع الكلام إلى قوله: ﴿قَدَّمَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضًا يُسَيِّئُونَ فِيهِمْ﴾. وفي الذين كفروا قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله أرباب القول الأول. والثاني: أنهم مشركو العرب، قاله أرباب هذا القول الثاني.

قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: بشما قدموا لمعادهم ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: يجوز أن تكون «أن» في موضع رفع على إضمار هو، كأنه قيل: هو أن سخط الله عليهم.

﴿لَتَجِدَنَّ أُمَّدًا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَبِيلَ سَيْبِ وَوَهَبْنَا لَهُمْ أَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ زَكَرَ عَلَيْهُمْ تَقْوِيَةٌ مِنَ اللَّهِ فَعَمُوا وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَوَلَّوْنَ رِبًّا آمَنَّا فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ

قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أُمَّدًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية وما بعدها مما يتعلق بها في النجاشي وأصحابه. قال سعيد بن جبيرة: بعث النجاشي قوماً إلى رسول الله ﷺ فأسلموا، فنزلت فيهم هذه الآية والتي بعدها^(٢)، وسنذكر قصتهم فيما بعد. قال الزجاج: واللام في «لتجدن» لام القسم، والنون دخلت تفصل بين الحال والاستقبال، و«عداوة» منصوب على التمييز، واليهود ظاهروا المشركين على المؤمنين حسداً للنبي ﷺ.

(١) أحمد ٥/٢٦٨، وأبو داود ٤/١٧٢، والترمذي ٤/٩٧، وابن ماجه ٢/١٣٢٧، وابن جرير ١٠/٤٩٢ عن عبد الله بن مسعود ﷺ. قال المنطري: وأبو عبيدة لم يسع من آية فهو منقطع.

(٢) اختار الإمام أبو جعفر الطبري أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أو غيرها.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني: عبدة الأوثان. فأما الذين قالوا: إنا نصارى، فهل هذا عام في كل النصرارى، أم خاص؟ فيه قولان: أحدهما: أنه خاص، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه أراد النجاشي وأصحابه لما أسلموا، قاله ابن عباس، وابن جبير. والثاني: أنهم قوم من النصرارى كانوا متمسكين بشريعة عيسى، فلما جاء محمد ﷺ أسلموا، قاله قتادة. والقول الثاني: أنه عام. قال الزجاج: يجوز أن يراد به النصرارى، لأنهم كانوا أقل مظهرةً للمشركين من اليهود.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَبِيلٌ﴾ قال الزجاج: «القس» و«القيس»: من رؤساء النصرارى. وقال قطرب: القيس: العالم بلغة الروم، فأما «الرهبان» فهم العباد أرباب الصوامع. قال ابن فارس: الترقب: التعبد، فإن قيل: كيف مدحهم بأن منهم قسيسين وزهباناً، وليس ذلك من أمر شريعتنا؟ فالجواب: أنه مدحهم بالتمسك بدين عيسى حين استعملوا في أمر محمد ما أخذ عليهم في كتابهم، وقد كانت الرهبانية مستحسنة في دينهم. والمعنى: بأن فيهم علماء بما أوصى به عيسى من أمر محمد ﷺ. قال القاضي أبو يعلى: وربما ظن جاهل أن في هذه الآية مدح النصرارى، وليس كذلك، لأنه إنما مدح من آمن منهم، ويدل عليه ما بعد ذلك، ولا شك أن مقالة النصرارى أقيح من مقالة اليهود.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَتَكَبَّرُونَ﴾، أي: لا يتكبرون عن اتباع الحق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ قال ابن عباس: لما حضر أصحاب النبي ﷺ بين يدي النجاشي، وقرؤوا القرآن، سمع ذلك القسيسون والرهبان، فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق، فقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَبِيلٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنَ الشَّاهِدِينَ﴾. وقال سعيد بن جبير: بعث النجاشي من خيار أصحابه ثلاثين رجلاً إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليهم القرآن، فبكوا ورفقوا، وقالوا: نعرف الله، وأسلموا، وذهبوا إلى النجاشي فأخبروه فأسلم، فانزل الله فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾. وقال السدي: كانوا اثني عشر رجلاً؛ سبعة من القسيسين، وخمسة من الرهبان، فلما قرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن، بكوا وأمتوا، فنزلت هذه الآية فيهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي: مع من يشهد بالحق. وللمفسرين في المراد بالشاهدين هاهنا أربعة أقوال: أحدها: محمد وأمه، رواه علي بن أبي طلحة، وعكرمة عن ابن عباس. والثاني: أصحاب محمد ﷺ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: الذين يشهدون بالإيمان، قاله الحسن. والرابع: الأنبياء والمؤمنون، قاله الزجاج.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوَّامِينَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٤) فَأَنذَرَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَاءَتْهُمْ تَحْمِيهِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيمَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ قال ابن عباس: لا مهم قومهم على الإيمان، فقالوا هذا. وفي القوم الصالحين ثلاثة أقوال: أحدها: أصحاب رسول الله، قاله ابن عباس. والثاني: رسول الله ﷺ وأصحابه، قاله ابن زيد. والثالث: المهاجرون الأولون، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن عباس: ثواب المؤمنين.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنُوا طَيِّبَاتٍ مَا لَمْ يَلَمْ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا بِرَبِّ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَتِينَ﴾ (٨٧) وَكَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلْالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَ يَدَهُ مُؤْتُونَكَ (٨٨)

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنُوا طَيِّبَاتٍ مَا لَمْ يَلَمْ اللَّهُ لَكُمْ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، منهم عثمان بن مظعون، حرّموا اللحم والنساء على أنفسهم، وأرادوا جت أنفسهم ليتفرغوا للعبادة، فقال رسول الله: «لم أومر بذلك»، ونزلت هذه الآية، رواه العوفي عن ابن عباس. وروى أبو صالح عن ابن عباس، قال: كانوا عشرة: أبو بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وعثمان بن مظعون، والمقداد بن الأسود، وسالم مولى أبي حذيفة، وسلمان الفارسي، وأبو ذر، وعمار بن ياسر، اجتمعوا في دار عثمان بن مظعون، فتواتقوا على

ذلك، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «من رغب عن سنتي فليس مني» ونزلت هذه الآية^(١). قال السدي: كان سبب عزمهم على ذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً، فلم يزداهم على التخويف، فرق الناس، وبكوا، فعزم هؤلاء على ذلك، وحلفوا على ما عزموا عليه. وقال عكرمة: إن علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وعثمان بن مظعون، والمقداد، وسالماً مولى أبي حذيفة في أصحابه، تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح^(٢) وحرموا طيبات الطعام واللباس، إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالاختصاص، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت هذه الآية. والثاني: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ، فقال: إني إذا أكلت من هذا اللحم، أقبلت على النساء، وإني حرمته علي، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٣). والثالث: أن ضيفاً نزل بعد الله بن رواحة، ولم يكن حاضراً، فلما جاء، قال لزوجته: هل أكل الضيف؟ فقالت: انتظرتك. فقال: حبست ضيفي من أجلي؟! طعامك علي حرام. فقالت: وهو علي حرام إن لم تأكله، فقال الضيف: وهو علي حرام إن لم تأكلوه، فلما رأى ذلك ابن رواحة قال: قربي طعامك، كلوا بسم الله، ثم غدا إلى النبي ﷺ، فأخبره بذلك فقال: أحسنت، ونزلت هذه الآية، وقرأ حتى بلغ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْتِيكُمْ﴾ رواه عبد الرحمن بن زيد عن أبيه^(٤). فأما «الطيبات» فهي اللذيذات التي تشتهيها النفوس مما أبيع. وفي قوله: «ولا تعتدوا» خمسة أقوال: أحدها: لا تجبوا أنفسكم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وإبراهيم. والثاني: لا تأتوا ما نهى الله عنه، قاله الحسن. والثالث: لا تسبوا بغير سيرة المسلمين من ترك النساء، وإدامة الصيام، والقيام، قاله عكرمة. والرابع: لا تحرموا الحلال، قاله مقاتل. والخامس: لا تغصبوا الأموال المحرمة، ذكره الماوردي.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْتِيكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ مَنْ تَطْمَئِنُّونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَوْمِيًّا تِلْكَ الْأَيْمَانَ ذِكْرًا كَثْرَةً أَيْتِيكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨)

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْتِيكُمْ﴾ سبب نزولها: أنه لما نزل قوله: ﴿لَا تُحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم: يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ فنزلت هذه الآية، رواه العوفي عن ابن عباس. وقد سبق ذكر «اللغو» في سورة (البقرة).

قوله تعالى: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «عقدتم» بغير ألف، مشددة القاف. قال أبو عمرو: معناها: وكدمت. وقرأ أبو بكر، والمفضل عن عاصم: «عقدتم» خفيفة بغير ألف، واختارها أبو عبيد. قال ابن جرير: معناه: أوجبتموها على أنفسكم. وقر ابن عامر: «عاقدمت» بألف، مثل «عاهدتم». قال القاضي أبو يعلى: وهذه القراءة المشددة لا تحتل إلا عقد قول. فأما المخففة، فتحتمل عقد القلب، وعقد القول. وذكر المفسرون في معنى الكلام قولين: أحدهما: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم عليه قلوبكم في التعمد لليمين، قاله مجاهد. والثاني: بما عقدتم عليه قلوبكم أنه كذب، قاله سعيد بن جبير.

قوله تعالى: ﴿فَكَثْرَتُهُمْ﴾ قال ابن جرير: الهاء عائدة على «ما» في قوله: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمْ﴾

فصل

فأما إطعام المساكين، فروى عن ابن عمر، وزيد بن ثابت، وابن عباس، والحسن في آخرين: أن لكل مسكين

(١) ابن جرير ٥١٩/١٠ عن عكرمة بمعناه، وخرجه السيوطي في «الدر» وزاد نسبه لابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٢) المسوح: جمع مسح بكسر فسكون: وهو كساء من شعر يلبسه الرهبان.

(٣) الترمذي ٩٧/٤، وابن جرير ٥٢٠/١٠. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وروى البخاري ٢٠٧/٨ عن عبد الله بن مسعود، قال: كنا نغزو مع النبي ﷺ وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نخصي؟ فهانا عن ذلك، فرخص لنا بعد ذلك أن نتزوج المرأة بالنوب، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا كَبَيْتَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

(٤) ابن جرير ٥١٩/١٠، وزاد السيوطي في «الدر المثلث» نسبه إلى ابن أبي حاتم.

مَدْبُرٌ، وبه قال مالك، والشافعي. وروي عن عمر، وعلي، وعائشة في آخرين: لكل مسكين نصف صاع من بُرٍّ، قال عمر، وعائشة: أو صاعاً من تمر، وبه قال أبو حنيفة. ومذهب أصحابنا في جميع الكفارات التي فيها إطعام، مثل كفارة اليمين، والظهار، وفدية الأذى، والمفطرة في قضاء رمضان، مَدْبُرٌ، أو نصف صاع تمر أو شعير. ومن شرط صحة الكفارة، تملك الطعام للفقراء، فإن غُدَّاهم وعشَّاهم، لم يجزئه، وبه قال سعيد بن جبير، والحكم، والشافعي. وقال الثوري، والأوزاعي: يجزئه، وبه قال أبو حنيفة، ومالك. ولا يجوز صرف مَدْبِنٍ إلى مسكين واحد، ولا إخراج القيمة في الكفارة، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: يجوز. قال الزجاج: وإنما وقع لفظ التذكير في المساكين، ولو كانوا إنثاءً لأجزاء، لأن المغلَّب في كلام العرب التذكير. وفي قوله: ﴿مِنَ أَوْسَطِ مَا تُطْمِئُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قولان: أحدهما: من أوسطه في القدر، قاله عمر، وعلي، وابن عباس، ومجاهد. والثاني: من أوسط أجناس الطعام، قاله ابن عمر، والأسود، وعبيدة، الحسن، وابن سيرين. وروي عن ابن عباس قال: كان أهل المدينة [يقولون]: للحرِّ من القوت أكثر مما للمملوك، وللكبير أكثر ما للصغير، فنزلت ﴿مِنَ أَوْسَطِ مَا تُطْمِئُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ ليس بأفضله ولا بأخسه. وفي كسوتهم خمسة أقوال: أحدها: أنها ثوبٌ واحدٌ، قاله ابن عباس، ومجاهد، وطاووس، وعطاء، والشافعي. والثاني: ثوبانٌ، قاله أبو موسى الأشعري، وابن المسيب، والحسن، وابن سيرين، والضحاك. والثالث: إزار ورداء وقيص، قاله ابن عمر. والرابع: ثوب جامع كالمحففة، قاله إبراهيم النخعي. والخامس: كسوة تجزئ فيها الصلاة، قاله مالك. ومذهب أصحابنا: أنه إن كسا الرجل، كساه ثوباً، والمرأة ثوبين، درعاً وخماراً، وهو أدنى ما تُجزئ فيه الصلاة. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو الجوزاء، ويحيى بن يعمر: «أو كسوتهم»، بضم الكاف. وقد قرأ سعيد بن جبير، وأبو العالية، وأبو نهيك، ومعاذ القارئ^(١): «أو كاسوتهم» بهمزة مكسورة، مفتوحة الكاف، مكسورة التاء والهاء. وقرأ ابن السميع، وأبو عمران الجوني مثله، إلا أنهما فتحا الهمزة. قال المصنف: ولا أرى هذه القراءة جائزة، لأنها تسقط أصلاً من أصول الكفارة.

قوله تعالى: ﴿أَزْ تَحْرِيرِ رَقَبَةٍ﴾ تحريها: عتقها، والمراد بالرقبة: جملة الشخص. واتفقوا على اشتراط إيمان الرقبة في كفارة القتل لموضع النص. وختلفوا في إيمان الرقبة المذكورة في هذه الكفارة على قولين: أحدهما: أنه شرط، وبه قال الشافعي، لأن الله تعالى قيد بذكر الإيمان في كفارة القتل، فوجب حمل المطلق على المقيّد. والثاني: ليس بشرط، وبه قال أبو حنيفة، وعن أحمد رضي الله عنه في إيمان الرقبة المحتقة في كفارة اليمين، وكفارة الظهار، وكفارة الجماع، والمنذورة، روايتان.

قوله تعالى: ﴿مَنْ لَرَّ يَدًا﴾ اختلفوا فيما إذا لم يجده، صام، على خمسة أقوال: أحدها: أنه إذا لم يجد درهمين صام، قاله الحسن. والثاني: ثلاثة درهم، قاله سعيد بن جبير. والثالث: إذا لم يجد إلا قَدْرَ ما يكفّر به، صام، قاله قتادة. والرابع: يمتي درهم، قاله أبو حنيفة. والخامس: إذا لم يكن له إلا قدر قوته وقوت عائلته يومه وليلته، قاله أحمد، والشافعي. وفي تتابع الثلاثة أيام، قولان: أحدهما: أنه شرط، وكان أبي، وابن مسعود يقرآن: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات» وبه قال ابن عباس، ومجاهد، وطاووس، وعطاء، وقاتدة، وأبو حنيفة، وهو قول أصحابنا. والثاني: ليس بشرط، ويجوز التفريق، وبه قال الحسن، ومالك، وللشافعي فيه قولان.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ فيه إضمار تقديره: إذا حلفتم وحنثتم. وفي قوله: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أقلوا منها، ويشهد له قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ وأنشدوا:

قليل الأيا حافظ ليمينه^(٢)

والثاني: احفظوا أنفسكم من الحنث فيها. والثالث: راعوها لكي تؤدوا الكفارة عند الحنث فيها.

(١) هو معاذ بن الحارث أبو الحارث، ويقال: أبو حليلة، الأنصاري المدني المعروف بالقارئ. روى عنه نافع وابن سيرين، وحدث عنه نافع مولى ابن عمر، توفي بالحرّة سنة ثلاث وستين، وهو ابن تسع وستين. «طبقات القراء» لابن الجزري ٢/٣٠١.

(٢) وتامه: وإن سبقت منه الأية برت. والبيت لكثير عزة. «ديوانه» ٢/٢٢٠، «اللسان»: مادة «ألي»، ولم ينسبه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَسْبَابُ وَالْأَذْكَامُ يَجْسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَسْبَابُ وَالْأَذْكَامُ يَجْسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن سعد بن أبي وقاص أتى نقرأ من المهاجرين والأنصار، فأكل عندهم، وشرب الخمر قبل أن تحرم، فقال: المهاجرون خير من الأنصار، فأخذ رجلٌ لحي^(١) جمل فضربه، فجدع أنفه، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره، فنزلت هذه الآية، رواه مصعب بن سعد عن أبيه^(٢). وقال سعيد بن جبيرة: صنع رجل من الأنصار صنيعاً، فدعا سعد بن أبي وقاص، فلما أخذت فيهم الخمرة افتخروا واستبؤوا، فقام الأنصاري إلى لحي بعير، فضرب به رأس سعد، فإذا الدم على وجهه، فذهب سعد يشكو إلى النبي ﷺ، فنزل تحريم الخمر في قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَسْبَابُ وَالْأَذْكَامُ يَجْسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾^(٣). والثاني: أن عمر بن الخطاب قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت التي في (البقرة) فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت التي في النساء ﴿لَا تَقْرَبُوا السَّكَرَةَ وَآتَيْتُمْ سُكْرَى﴾ [النساء: ٤٣] فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية، رواه أبو ميسرة عن عمر^(٤). والثالث: أن أناساً من المسلمين شربوها، فقاتل بعضهم بعضاً، وتكلموا بما لا يرضاه الله من القول، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أن قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما ثملوا عبت بعضهم بعضاً، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه وبرأسه وبلحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي فلان!! والله لو كان بي رؤوفاً ما صنع بي هذا، حتى وقعت في قلوبهم الضغائن، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(٥). وقد ذكرنا الخمر والميسر في (البقرة)، وذكرنا في «النصب» في أول هذه السورة قولين، وهما اللذان ذكرهما المفسرون في الأنصاب. وذكرنا هناك «الأزلام». فأما الرجس، فقال الزجاج: هو اسمٌ لكل ما استُفْتِر من عمل، يقال: رَجَسَ الرَّجُلُ يَرْجُسُ، وَرَجِسَ يَرْجَسُ: إذا عمل عملاً قبيحاً، والرَّجْسُ بفتح الراء: شدة الصوت، فكان الرَّجْسُ، العمل الذي يقبح ذكره، ويرتفع في القبح، ويقال: رعدَ رَجَاسٌ: إذا كان شديد الصوت.

قوله تعالى: ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال ابن عباس: من تزيين الشيطان. فإن قيل: كيف نُسِبَ إليه، وليس من فعله؟ فالجواب: أن نسبته إليه مجاز، وإنما نسب إليه، لأنه هو الداعي إليه، المَزِين له، ألا ترى أن رجلاً لو أغرى رجلاً بضرب رجل، لجاز أن يقال له: هذا من عملك.

قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ قال الزجاج: اتركوه. واشتقاقه في اللغة: كونوا جانباً منه. فإن قيل: كيف ذكر في هذه الآية أشياء، ثم قال: فاجتنبوه؟ فالجواب: أن الهاء عائدة على الرجس، والرجس واقع على الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، ورجوع الهاء عليه بمنزلة رجوعها على الجمع الذي هو واقع عليه، ومنبئ عنه، ذكره ابن الأثير.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَرَسَدِكُمْ عَنْ دِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أما «الخمر» فوقع العداوة والبغضاء فيها على نحو ما ذكرنا في سبب نزول الآية من القتال والممارسة. وأما الميسر، فقال قتادة: كان الرجل يقامر على أهله وماله، فيَقْمَرُ ويبقى حزياً سلباً، فينظر إلى ماله في يد غيره، فيكسبه ذلك العداوة والبغضاء.

(١) لحي الجمل، بفتح اللام وسكون الحاء، وهما لحيان، وهما العظامان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم

(٢) ابن جرير ٥٦٩/١٠، والمسنند ٨٢/٣، ومسلم ١٨٧٧/٤، و«سنن البيهقي» ٢٨٥/٨، و«التاسخ والمنسوخ» لأبي جعفر النحاس ٤٠.

(٣) لم نجد هذا الخبر عن سعيد بن جبيرة في شيء من المراجع التي بين أيدينا.

(٤) «المسنند» ٣١٦/١، و«سنن أبي داود» ٤٤٤/٣، و«سنن النسائي» ٢٨٦/٨، و«الترمذي» ٩٨/٤، والطبري ٥٦٦/١٠، و«سنن البيهقي» ٢٨٥/٨، و«التاسخ والمنسوخ» للنحاس: ٣٩. ونقل الحافظ في «الفتح» وابن كثير في «التفسير» تصحيحه عن علي بن المديني والترمذي.

(٥) ابن جرير ٥٧١/١٠، و«سنن البيهقي» ٢٨٥/٨، والحاكم في «المستدرک» ١٤١/٤، قال الذهبي: قلت: صحيح على شرط مسلم. وخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٨/٧ وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه لفظ استفهام، ومعناه: الأمر. تقديره: انتهوا. قال الفراء: ردّد علي أعرابي: هل أنت ساكتٌ، هل أنت ساكتٌ؟ وهو يريد: اسكت، اسكت. والثاني: أنه استفهام، لا بمعنى: الأمر. ذكر شيخنا علي بن عبيد الله أن جماعة كانوا يشربون الخمر بعد هذه الآية، ويقولون: لم يحرمها، إنما قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾، فقال بعضنا: انتهينا، وقال بعضنا: لم تنته، فلما نزلت ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ﴾ [الاعراف: ٣٣] حرّمت، لأن «الإثم» اسمٌ للخمر. وهذا القول ليس بشيء والأوّل أصح.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما أمركم، واحذروا خلافهما ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عرضتم، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَّمَ رَسُولُكُمْ﴾ محمد ﴿الْبَلَّغُ الْكَلِيمُ﴾ وهذا وعيدٌ لهم، كأنه قال: فاعلموا أنكم قد استحققتم العذاب لتوليكم. ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ إِنَّمَا أَعْتَقُوا وَآمَنُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَلْبَ الْمُنْتَهَى﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ إِنَّمَا أَعْتَقُوا﴾ سبب نزولها: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ ماتوا وهم يشربون الخمر، إذ كانت مباحة، فلما حرّمت، قال ناس: كيف بأصحابنا وقد ماتوا وهم يشربونها؟ فنزلت هذه الآية، قاله البراء بن عازب^(١). و«الجناح»: الإثم. وفيما طعموا ثلاثة أقوال: أحدها: ما شربوا من الخمر قبل تحريمها، قاله ابن عباس، والجمهور. قال ابن قتيبة: يقال: لم أطمع خبزاً وأدماً ولا ماءً ولا نوماً. قال الشاعر:
فإن شئت حرّمت النساء سواكم
وإن شئت لم أطمع نفاخاً ولا بزداً^(٢)

النفاخ: الماء [البارد] الذي ينقخ الفؤاد ببرده، والبرد: النوم. والثاني: ما شربوا من الخمر وأكلوا من الميسر. والثالث: ما طعموا من المباحات. وفي قوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: اتقوا بعد التحريم، قاله ابن عباس. والثاني: اتقوا المعاصي والشرك. والثالث: اتقوا مخالفة الله في أمره. وفي قوله: ﴿وَأَمَنُوا﴾ قولان: أحدهما: آمنوا بالله ورسوله. والثاني: آمنوا بتحريمها. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال مقاتل: أقاموا على الفرائض.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ في هذه التقوى المعادة أربعة أقوال: أحدها: أن المراد خوف الله ﷻ. والثاني: أنها تقوى الخمر والميسر بعد التحريم. والثالث: أنها الدوام على التقوى. والرابع: أن التقوى الأولى مخاطبة لمن شربها قبل التحريم، والثانية لمن شربها بعد التحريم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَنُوا﴾ في هذا الإيمان المُعاد قولان: أحدهما: صدّقوا بجميع ما جاء به محمد ﷺ. والثاني: آمنوا بما يجيء من الناسخ والمنسوخ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ في هذه التقوى الثالثة أربعة أقوال: أحدها: اجتنبوا العود إلى الخمر بعد تحريمها، قاله ابن عباس. والثاني: اتقوا ظلم العباد. والثالث: توقوا الشبهات. والرابع: اتقوا جميع المحرمات. وفي الإحسان قولان: أحدهما: أحسنوا العمل بترك شربها بعد التحريم، قاله ابن عباس. والثاني: أحسنوا العمل بعد تحريمها، قاله مقاتل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّدِيقِ تَاللهُ أَلْيَدِيكُمْ وَرِمَاكُمْ لِيَمْلَأَنَّ اللَّهُ مِنْ بَاطِنِهِ بِالْقَيْبِ فَمَنْ أَعْتَدَكَ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَدَابُ أَلِيمٍ﴾

(١) «مسند الطيالسي» ١٨/٢، والطبري ٥٧٩/١٠، والترمذي ٩٨/٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٣٢٠/٢ وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبي الشيخ، وابن مردويه. وروى البخاري ٢٠٩/٨، ومسلم ١٤٨/١٣، والنسائي ٢٨٧/٨ عن أنس ﷺ قال: كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة، فنزل تحريم الخمر، فأمر منادياً فتأدى، فقال أبو طلحة: أخرج فانظر ما هذا الصوت؟ قال: فخرجت، فقلت: هذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، فقال لي: اذهب فأهرقها، قال: فجرت في سكك المدينة، قال: وكانت شمرهم يومئذ الفضيخ، فقال بعض القوم: قتل قوم وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ إِنَّمَا أَعْتَقُوا﴾. وروى أحمد ٢٤١/٤ بسند حسن عن ابن عباس قال: لما حرمت الخمر قال أناس: يا رسول الله أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها فأنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ إِنَّمَا أَعْتَقُوا﴾.

(٢) البيت لعبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان العرجي، وهو في «ديوانه» ١٠٩، و«غريب القرآن» ١٤٦، والقرطبي ١٧٨/١٩، و«اللسان» مادة: نفع.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا لَنَنْبئُكُمْ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قال المفسرون: لما كان عام الحديبية، وأقام النبي ﷺ بالتنعيم^(١)، كانت الوحوش والطير تغشاهم في رحالهم، وهم مُحْرَمُونَ، فنزلت هذه الآية^(٢)، ونهوا عنها ابتلاء. قال الزجاج: اللام في «ليبولونكم» لام القسم، ومعناه: لنختبرن طاعتكم من معصيتكم. وفي «من» قولان: أحدهما: أنها للتبويض، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه عنى صيد البرِّ دون صيد البحر. والثاني: أن عنى الصيد ما داموا في الإحرام كأن ذلك بعض الصيد. والثاني: أنها لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَأَجْكِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].
قوله تعالى: ﴿تَنَالَهُ الْيَدِ بِكُمْ وَمَا حَكَمْتُمْ﴾ قال مجاهد: الذي تناله اليد: الفراخ والبيض، وصغار الصيد، والذي تناله الرماح: كبار الصيد.

قوله تعالى: ﴿يَمْلَأُ اللَّهُ﴾ قال مقاتل: ليرى الله من يخافه بالغيب ولم يره، فلا يتناول الصيد وهو مُحْرَمٌ ﴿فَمَنْ أَتَعَدَّى﴾ فأخذ الصيد عمداً بعد النهي للمُحْرَمِ عن قتل الصيد ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: يوسع بطنه وظهره جلدًا، وتسلب ثيابه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ بِكُمْ بِهِ ذَوًّا عَدْلٍ بِكُمْ هَذَا بِبَلَى الْكَلْبِ أَوْ كَثْرَةً طَعْمًا سَلَكِينَ أَوْ عَدَلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَعَا لَأَسْرُوهَ عَمَّا آتَا سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَسْتَفِمْهُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾^(٣)
قوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ بين الله ﷻ بهذه الآية من أي وجه تقع البلوى، وفي أي زمان، وما على من قتله بعد النهي؟. وفي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: وأنتم محرمون بحج أو عمرة، قاله الأكثرون. والثاني: وأنتم في الحرم، يقال: أحرم: إذا دخل في الحرم، وأنجد: إذا أتى نجدًا. والثالث: الجمع بين القولين.
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن يتعمد قتله ذاكراً لإحرامه، قاله ابن عباس، وعطاء. والثاني: أن يتعمد قتله ناسياً لإحرامه، قاله مجاهد. فاما قتله خطأ، ففيه قولان: أحدهما: أنه كالعمد، قاله عمر، وعثمان، والجمهور. قال الزهري: نزل القرآن بالعمد، وجرت السنة في الخطأ، يعني: ألحقت المخطئ بالمتعمد في جوب الجزاء. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الضبع صيد وفيه كبش إذا قتله المحرم»^(٤) وهذا عام في العمد والمخطئ. قال القاضي أبو يعلى: أفاد تخصيص العمد بالذكر ما ذكر في أثناء الآية من الوعيد، وإنما يختص ذلك بالعمد. والثاني: أنه لا شيء فيه، قاله ابن عباس، وابن جبير، وطاووس، وعطاء، وسالم، والقاسم، وداود. وعن أحمد روايتان: أصحهما الجواب.

قوله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «فجزاءٍ ومثلٍ» مضافة وبخفض «مثل». وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «فجزاءٍ» منون «مثلٍ» مرفوع. قال أبو علي: من أضاف، فقوله: ﴿مَنْ قَتَلَ النَّعْمَ﴾ يكون صفة للجزاء، وإنما قال: مثل ما قتل، وإنما عليه جزاء المقتول لا جزاء مثله، لأنهم يقولون: أنا أكرمُ مثلك، يريدون: أنا أكرمُك، فالمعنى: جزاء ما قتل. ومَنْ رفع «المثل»، فالمعنى: فعليه جزاء من النعم مماثل للمقتول، والتقدير: فعليه جزاء. قال ابن قتيبة: النعم: الإبل، وقد يكون البقر والغنم، والأغلب عليها الإبل. وقال الزجاج: النعم في اللغة: الإبل والبقر والغنم، فإن انفردت الإبل، قيل لها: نعم، وإن انفردت البقر والغنم، لم تسم نعمًا.

فصل

قال القاضي أبو يعلى: والصيد الذي يجب الجزاء بقتله: ما كان مأكول اللحم، كالغزال، وحمار الوحش،

(١) التنعيم: موضع بين مَرْ وِصْرَف، بينه وبين مكة فرسخان، ومن التنعيم يحرم من أراد العمرة.

(٢) نسبة السيوطي في «الدر المنثور» ٢/٣٢٧ إلى ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان.

(٣) أبو داود ٣/٤٨٥، وابن ماجه ٢/١٠٣٠، والدارقطني ١/٢٦٦، والبيهقي ١/١٨٣، والحاكم ١/٤٥٢، ٤٥٣، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي. ورواه النسائي ١٩١/٥، والترمذي ١٠٤١/١ ولفظه عن ابن أبي عمير قال: سألت جابر بن عبد الله عن الضبع، فأمرني بأكلها. قلت: أصيد هي؟ قال: نعم. قلت: أسمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال في «علله الكبير»: سألت عنه البخاري فصحه، وقال البيهقي: هو حديث جيد تقوم به الحجة.

والنعامة، ونحو ذلك، أو كان متولداً من حيوان يؤكل لحمه، كالسَّمع، فإنه متولدٌ من الضبع والذئب، وما عدا ذلك من السباع كلها فلا جزاء على قاتلها؛ سواء ابتدأ قتلها، أو عدت عليه، فقتلها دفعاً عن نفسه، لأن السبع لا مثل له صورة ولا قيمة، فلم يدخل تحت الآية، ولأن النبي ﷺ أجاز للمحرم قتل الحية، والمقرب، والفريسة، والغراب، والحدأة، والكلب العقور، والسبع العادي^(١). قال: والواجب بقتل الصيد فيما له مثلٌ من الأنعام مثله، وفيما لا مثل له قيمته، وهو قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: الواجب فيه القيمة، وحمل المثل على القيمة، وظاهر الآية يردُّ ما قال، ولأن الصحابة حملوا الآية على المثل من طريق الصورة، فقال ابن عباس: المثل النظير، ففي الطيبة شاة، وفي النعامة بعير.

قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يعني بالجزاء، وإنما ذكر اثنين، لأن الصيد يختلف في نفسه، فافتقر الحكم بالمثل إلى عدلين.

قوله تعالى: ﴿يُنَكِّمُ﴾ يعني: من أهل ملتكم.

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلِغُ الْكَيْبَةِ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على الحال، والمعنى: يحكمان به مقدراً أن يهدي. ولفظ قوله «بالغ الكعبة» لفظ معرفة، ومعناه: النكرة. والمعنى: بالغاً الكعبة، إلا أن التنوين حُذف استخفافاً. قال ابن عباس: إذا أتى مكة ذبحه، وتصدق به.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَثْرَةٌ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَوْ كَثْرَةٌ﴾ منوناً ﴿طَعَامًا﴾ رفعاً. وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿أَوْ كَثْرَةٌ﴾ رفعاً غير منون «طعام مساكين» على الإضافة. قال أبو علي: من رفع ولم يصف، جعله عطفاً على الكفارة عطف بيان، لأن الطعام هو الكفارة، ولم يصف الكفارة إلى الطعام، لأن الكفارة لقتل الصيد، لا للطعام، ومن أضاف الكفارة إلى الطعام، فلأنه لما خيّر المكفّر بين الهدى، والطعام، والصيام، جازت الإضافة لذلك، فكانه قال: كفارة طعام، لا كفارة هدي، ولا صيام. والمعنى: أو عليه بدل الجزاء والكفارة، وهي طعام مساكين. وهل يعتبر في إخراج الطعام قيمة النظير، أو قيمة الصيد؟ فيه قولان: أحدهما: قيمة النظير، وبه قال عطاء، والشافعي، وأحمد. والثاني: قيمة الصيد، وبه قال قتادة، وأبو حنيفة، ومالك. وفي قدر الإطعام لكل مسكين قولان: أحدهما: مَدَانٌ من بُرٍّ، وبه قال ابن عباس، وأبو حنيفة. والثاني: مُدٌّ برٍّ، وبه قال الشافعي، وعن أحمد روايتان، كالقولين.

قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلٌ ذَلِكُمْ صِيَامًا﴾ قرأ أبو رزين، والضحاك، وقاتدة، والجحدري، وطلحة: ﴿أَوْ عَدْلٌ ذَلِكُمْ﴾ بكسر العين. وقد شرحنا هذا المعنى في (البقرة). قال أصحابنا: يصوم عن كل مُدٍّ بُرٍّ، أو نصف صاع تمر، أو شعير يوماً. وقال أبو حنيفة: يصوم يوماً عن نصف صاع في الجميع. وقال مالك، والشافعي: يصوم يوماً عن كلِّ مُدٍّ من الجميع.

فصل

وهل هذا الجزاء على الترتيب، أم على التخيير؟ فيه قولان: أحدهما: أنه على التخيير بين إخراج النظير، وبين الصيام، وبين الإطعام. والثاني: أنه على الترتيب، إن لم يجد الهدى، اشترى طعاماً، فإن كان معسراً صام، قاله ابن سيرين. والقولان مرويان عن ابن عباس، وبالأول قال جمهور الفقهاء.

(١) روى البخاري ٣٠/٤، ٣٢، ومسلم ٨٥٧/٢، والترمذي ١٠٣/١، والنسائي ١٨٨/٥، وابن ماجه ١٠٣١/٢ عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحرم، الفأرة، والمقرب، والغراب، والجدأة، والكلب العقور». ورواه البخاري ومسلم عن طريق ابن عمر مرفوعاً ولفظه: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: المقرب، والفأرة، والكلب العقور، والغراب، والحدأة» وقول المصنف «الفريسة» يريد بها الفأرة، وقد وردت اللفظة في البخاري من حديث جابر. وقوله: «السبع العادي» هو قطعة من حديث، قال الحفاظ في «التلخيص» ٢٢٤/١: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري في حديث. وفيه يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف وإن حسنه الترمذي، وفيه لفظة منكرة وهي قوله: «ويروى الغراب ولا يقتله». وأما الحية، فقد روى مسلم ٨٥٦/٢ عن عائشة مرفوعاً «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والغراب الأبع، والفأرة، والكلب العقور، والحدأة». وروى مسلم أيضاً من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ أمر بقتل حية وهو بنى.

قوله تعالى: ﴿لَيْدُونَ وَيَالَ أُبْرِيُّ﴾ أي: جزء ذنبه. قال الزجاج: «الوبال»: ثقل الشيء في المكروه، ومنه قولهم: طعامٌ ويبل، وماءٌ ويبل: إذا كانا ثقيلين. قال الله ﷻ: ﴿فَأَخَذْتَهُ أَثَدًا وَيَلًا﴾ [المزمل: ١٦] أي: ثقيلاً شديداً.

قوله تعالى: ﴿عَمَّا اللَّهُ عَمَّا سَلَفًا﴾ فيه قولان: أحدهما: ما سلف في الجاهلية، من قتلهم الصيد، وهم محرمون، قاله عطاء. والثاني: ما سلف من قتل الصيد في أول مرة، حكاه ابن جرير، والأول أصح. فعلى القول الأول يكون معنى قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ في الإسلام، وعلى الثاني: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ ثانية بعد أولى. قال أبو عبيدة: «عاد» في موضع يعود، وأنشد:

إِنْ يَسْمَعُوا رِيْبَةً طَارُوا بِهَا فَرِحًا
وَإِنْ ذُكِرَتْ بِسَوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا^(١)

قوله تعالى: ﴿فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ «الانتقام»: المبالغة في العقوبة، وهذا الوعيد بالانتقام لا يمنع إيجاب جزاء ثانٍ إذا عاد، وهذا قول الجمهور، وبه قال مالك، والشافعي، وأحمد. وقد روي عن ابن عباس، والنخعي، وداود: أنه لا جزاء عليه في الثاني، إنما وعد بالانتقام.

﴿أَيْلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَمِلْحَتُهُ مَتَمًّا لَكُمْ وَالسَّيِّئَاتُ وَمَنْ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَأَنْقُوا اللَّهَ الْوَدْعَ إِلَى تَحْشُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَيْلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ قال أحمد: يؤكل كلُّ ما في البحر إلا الضفدع والتمساح، لأن التمساح يأكل الناس يعني: أنه يَفْرُسُ. وقال أبو حنيفة، والثوري: لا يباح منه إلا السمك. وقال ابن أبي ليلي، ومالك: يباح كلُّ ما فيه من ضفدع وغيره. فأما طعامه، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما نبذه البحر ميتاً، قاله أبو بكر، وعمر، وابن عمر، وأبو أيوب، وقتادة. والثاني: أنه مليحة^(٢)، قاله سعيد بن المسيّب، وسعيد بن جبير، والسدي. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة كالقولين. واختلفت الرواية عن النخعي، فروي عنه كالقولين، وروي عنه أنه جمع بينهما، فقال: طعامه المليح وما لفظه. والثالث: أنه ما نبت بمائه من زروع البرّ، وإنما قيل لهذا: طعام البحر، لأنه ينبت بائه، حكاه الزجاج. وفي المتاع قولان: أحدهما: أنه المنفعة، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة. والثاني: أنه الحلّ، قاله النخعي. قال مقاتل: متاعاً لكم، يعني: المقيمين، وللسيارة، يعني: المسافرين.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا﴾ أما الاصطيد، فمحرم على المحرم، فإن صيد لأجله، حرم عليه أكله خلافاً لأبي حنيفة، فإن أكل فعليهِ الضمان خلافاً لأحد قولي الشافعي. فإن ذبح المُحرّم صيداً، فهو ميتة خلافاً لأحد قولي الشافعي أيضاً. فإن ذبح الحلال صيداً في الحرم، فهو ميتة أيضاً، خلافاً لأكثر الحنفيّة.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَبْشَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَيُكَلِّمُنَا لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ الْمَحْرَمِ وَالْفَدَى وَالْقَلْبُدْ ذِكْرًا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَهِيَ عَنْ الْأَيْدِي وَالْأَرْصِ وَأَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا فِي الصُّمُوتِ﴾

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَبْشَةَ﴾ جعل بمعنى: صيّر. وفي تسمية الكعبة كعبة قولان: أحدهما: لأنها مربعة، قاله عكرمة، ومجاهد. والثاني: لعلوها وتوثقها، يقال: كعبت المرأة كعابة، وهي كاعب: إذا تتأ ثديها. ومعنى تسمية البيت بأنه حرام: أنه حرمٌ يصاد عنده، وأن يختلى ما عنده من الخلا، وأن يُعْضَدَ شجره^(٣)، وعظمت حرمة. والمراد بتحريم

(١) البيت لفتن ابن أم صاحب، وهي أمه، واسم أبيه: ضمرة، أحد بني عبد الله بن غطفان، وكان في أيام الوليد بن عبد الملك، وهو من جملة أبيات قالها في أناس من قومه، كانوا يناصبونه العداوة، ويتبعون عثراته، ويشهرونها في الناس. وهو في «مجاز القرآن» ١/١٧٧، و«الحماسة» ٣/١٤٥٠، و«السمعة» ١/٣٦٢، و«الانتصاب» ٢٩٢، و«شواهد المغني» للسيوطي: ٣٢٦، و«شرح المصنوع» ٤٧٠، و«اللسان»: أذن. ورواية الشطر الثاني في المراجع التي ذكرت آتفاً عدا «مجاز القرآن»:

منّي وما سمعوا من صالح دفنوا

وبعد البيت:

وَإِنْ ذُكِرَتْ بِشَرِّ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا

صَمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ

لَبِئْسَتِ الْخُلُتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ

جَهْلًا عَلَيْنَا وَجُبْنًا عَنْ عَدُوِّهِمْ

(٢) المليح: على وزن فيل: هو المملح، يقال: سمك مليح ومملوح ومنلّح.

(٣) روى البخاري ٤/٤٠ عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، فَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحُلْ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أَحَلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَلَا يَحْتَلِي خَلَاها، وَلَا يَعْضَدُ شَجَرها، وَلَا يَنْفِرُ صَيْلها، وَلَا تَلْتَقِطُ لِقَطْعِها إِلَّا لِمَعْرُوفٍ»، قال العباس: يا رسول الله إلا الأذخر لصاغتتنا =

البيت سائر الحرم، كما قال: ﴿هَذَا بَيْتُ الْكَمْبَةِ﴾ وأراد: الحرم^(١). والقيام: بمعنى القوام. وقرأ ابن عامر: قيماً بغير ألف. قال أبو علي: وجهه على أحد أمرين، إما أن يكون جعله مصدرأ، كالشيع، أو حذف الألف وهو يريد بها، كما يُقصر الممدود. وفي معنى الكلام ستة أقوال: أحدها: قياماً للدين، ومعالم للحج، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: قياماً لأمرٍ من توجه إليها، رواه العوفي عن ابن عباس. قال قتادة: كان الرجل لو جرَّ كلَّ جريرة، ثم لجأ إليها، لم يُتناول، ولو لم يُقرب. وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام، لم يعرض له ولم يقربه، وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر، فأحمته ومنعته من الناس، كان إذا نفر تقلد قلادة من الإذخر أو من إحاء السُّمر فمَنعته من الناس حتى يأتي أهله. حواجز ألقاها الله بين الناس في الجاهلية^(٢). والثالث: قياماً لبقاء الدين، فلا يزال في الأرض دين ما حُجَّت واستُقبِلت، قاله الحسن. والرابع: قوام دنيا وقوام دين، قاله أبو عبيدة^(٣). والخامس: قياماً للناس، أي: مما أمروا أن يقوموا بالفرض فيه، ذكره الزجاج. والسادس: قياماً لمعايشهم ومكاسبهم بما يحصل لهم من التجارة عندها، ذكره بعض المفسرين. فأما الشهر الحرام، فالمراد به الأشهر الحرم، كانوا يأمن بعضهم بعضاً فيها، فكان ذلك قواماً لهم، وكذلك إذا أهدى الرجل هدياً أو قلد بغيره أمرٌ كيف تصرف، فجعل الله تعالى هذه الأشياء عصمة للناس بما جعل في صدورهم من تعظيمها.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَتَسَوَّأُ﴾ ذكر ابن الأنباري في المشار إليه بذلك أربعة أقوال: أحدها: أن الله تعالى أخبر في هذه السورة بغيوب كثيرة من أخبار الأنبياء وغيرهم، وأطلع على أشياء من أحوال اليهود والمنافقين، فقال: ذلك لتعلموا، أي: ذلك الغيب الذي أنبأتكم به عن الله يدلكم على أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض، ولا تخفى عليه خافية. والثاني: أن العرب كانت تسفك الدماء بغير حلها، وتأخذ الأموال بغير حقها، ويقتل أحدهم غير القاتل، فإذا دخلوا البلد الحرام، أو دخل الشهر الحرام، كفُّوا عن القتل. والمعنى: جعل الله الكعبة أمناً، والشهر الحرام أمناً، إذ لو لم يجعل للجاهلية وقتاً يزول فيه الخوف لهلكوا، فذلك يدل على أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض. والثالث: أن الله تعالى صرف قلوب الخلق إلى مكة في الشهور المعلومة فإذا وصلوا إليها عاش أهلها معهم، ولولا ذلك ماتوا جوعاً، لعلمه بما في ذلك من صلاحهم، وليستدلوا بذلك على أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض. والرابع: أن الله تعالى جعل مكة أمناً، وكذلك الشهر الحرام، فإذا دخل الطيبي الوحشي الحرم، أنس بالناس، ولم ينفر من الكلب، ولم يطلبه الكلب، فإذا خرجا عن حدود الحرم، طلبه الكلب، ودُغِر هو منه، والطيَّار يأنس بالناس في الحرم، ولا يزال يطير حتى يقرب من البيت، فإذا قرب منه عدل عنه، ولم يُطرَّ فوقه إجلالاً له، فإذا لحقه وجعٌ طرح نفسه على سقف البيت استشفاءً به، فهذه الأعاجيب في ذلك المكان، وفي ذلك الشهر قد دللنا على أن الله تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَمْلِكُ مَا تَدْرُونَ وَمَا تَكْفُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ في هذه الآية تهديدٌ شديد. وزعم مقاتل أنها نزلت والتي بعدها، في أمر شريح بن ضبيعة وأصحابه، وهم حجاج اليمامة حين هم المسلمون بالغارة عليه، وقد سبق ذكر ذلك في أول السورة.

وقبورنا. قال: «إلا الإذخر» قال الحافظ: وقوله: «ولا يختلي غلاماً» بالخاء المعجمة، والخلى: مقصور، وذكر ابن التين أنه وقع في رواية القاسبي بالمد، وهو الرطب من النبات، واختلاؤه: قطعه واحتشاشه. وقوله «لا يعضد» أي: لا يقطع. قوله «الإذخر» هو نبت معروف عند أهل مكة طيب الريح، له أصل متدفن، وقفيان دقاق، ينبت في السهل والحرث، وأهل مكة يسقون به البيوت بين الخشب، ويسدون الخلل بين اللبنة في القبور، ويستعملونه بدلاً من الحلفاء في الوعود.

(١) حد حرم مكة، من طريق المدينة: ثلاثة أميال عند بيوت السقيا، ويقال لها: بيوت نزار، وهي دون التميم، ويعرف الآن بمساجد عائشة. وحده من طريق اليمن: سبعة أميال عند أضاة لبن. وحده من طريق العراق: سبعة أميال على ثنية خل بالمقطع. وحده من الجعرانة: تسعة أميال في شعب عبد الله بن خالد، وحده من طريق جدة: عشرة أميال عند منقطع الأعشاش. وحده من طريق الطائف على عرفات من بطن نمر: سبعة أميال عند طرف عرفة، وحده من بطن عرفة: أحد عشر ميلاً. عن «مفيد الأنام» ٢٥٥/١.

(٢) الخبر في الطيبي ٩٣/١، والزيادة منه.

(٣) الذي في «مجاز القرآن» ١٧٧/١: «جعل الله البيت الحرام قياماً للناس» أي: قواماً. وقال حميد الأرقط: قوام دنيا وقوام دين.

وهل هذه الآية محكمة، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنها محكمة، وأنها تدل على أن الواجب على الرسول التبليغ، وليس عليه الهدى. والثاني: أنها كانت قبل الأمر بالقتال، ثم نسخت بآية السيف^(١).

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْتِيَ الْأَلْبَابَ لَكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ روى جابر بن عبد الله أن رجلاً قال: يا رسول الله إن الخمر كانت تجارتي، فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال له النبي ﷺ: «إن الله لا يقبل إلا الطيب» فنزلت هذه الآية تصديقاً لقول رسول الله ﷺ^(٢). وفي الخبيث والطيب أربعة أقوال: أحدها: الحلال والحرام، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: المؤمن والكافر، قاله السدي. والثالث: المطيع والعاصي. والرابع: الرديء والجيد، ذكرهما الماودي. ومعنى الإعجاب هاهنا: السرور بما يتعجب منه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَسْيَآءِ إِن تَبُدُّ لَكُمْ سُؤْمًا ۖ إِن تَسْأَلُوا عَنَّا جِئَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بِئِنَّ لَكُمْ عَمَّا اللَّهُ عَنَّا وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَن أَسْيَآءِ إِن تَبُدُّ لَكُمْ سُؤْمًا﴾ في سبب نزولها ستة أقوال: أحدها: أن الناس سألو النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فقام مغضباً خطيباً، فقال: «سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء ما دمت في مقامي هذا إلا بينته لكم»، فقام رجل من قريش، يقال له عبد الله بن حذافة كان إذا لاحى يُدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله من أبي؟ قال: «أبوك حذافة»، فقام آخر، فقال: أين أبي؟ قال: في النار، فقام عمر فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً، إنّا حديثو عهد بجاهلية، والله أعلم من أبائنا، فسكن غضبه، ونزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن أبي هريرة^(٣)، وقتادة عن أنس^(٤). والثاني: أن رسول الله ﷺ خطب الناس، فقال: «إن الله كتب عليكم الحج»، فقام عكاشة بن محصن، فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: «أما إني لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم، اسكتوا عني ما سكث عنكم، فإنما هلك من هلك ممن كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم»، فنزلت هذه الآية، رواه محمد بن زياد عن أبي هريرة^(٥). وقيل: إن السائل عن ذلك الأقرع بن حابس^(٦). والثالث: أن قوماً كانوا يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فنزلت هذه الآية، رواه أبو الجورية عن ابن عباس^(٧). والرابع: أن قوماً سألو رسول الله ﷺ عن البحيرة، والسائبة،

(١) القول الأول هو الصحيح، لأن الآية خبر، وهو لا يقبل النسخ، والقصر فيها إضافي يراد به تقرير أن الرسول ﷺ ليس مكلفاً بإيجاد الإيمان في قلوبهم، إذ هذا ليس في مقدور أحد سوى الله جل جلاله.

(٢) «أسباب النزول» ص ١٢٠ للواحي.

(٣) الطبري ١٠٣/١١ من طريق عبد العزيز حدثنا قيس عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة. وعبد العزيز: هو عبد العزيز بن أبان الأموي من ولد سعيد بن العاص، ذكره الذهبي في «الميزان»، وقال عنه: أحد المتروكين، وكذبه يحيى بن معين، وقال أبو حاتم: لا يكتب حديثه، وقال البخاري: فيه نظر. وقيس: هو ابن الربيع الأسدي أبو محمد الكوفي صدوق تغير لما كبر. على أن ابن كثير نقله في «تفسيره» ١٠٥/٢ عن الطبري، وقال: إسناده جيد.

(٤) البخاري ٢٢٠/١٣، ومسلم ٨٣٤/٤، وابن جرير ٧٩/١١ بالفاظ مقاربة وبأطول مما رواه المصنف. وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٣٣٤/٢ نسبه إلى ابن حميد، ولابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٥) ابن جرير ١٠٥/١١ وسنده حسن، وفيه «فقام محصن الأسدي» في الرواية الثانية «عكاشة بن محصن الأسدي». ورواه أحمد في المسند ٥٠٨/٢، ومسلم ٩٧٥/٢، والسائل رجل، ولم يبين في الخبر اسمه، وليس فيه ذكر الآية ونزولها، ولقظه «خطبنا رسول الله ﷺ»، فقال: «أبها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ نسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: فزوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه». وقد أشار الحافظ في «الفتح» ٢٢٠/١٣ إلى هذا الحديث، وما فيه من زيادة السؤال عن الحج، ثم قال: وأخرجه الدارقطني مختصراً، وزاد فيه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَسْيَآءِ إِن تَبُدُّ لَكُمْ سُؤْمًا» وله شاهد عن ابن عباس عند الطبري في «التفسير».

(٦) قال النووي في «شرح مسلم» ١٠١/٩: «هذا الرجل هو الأقرع بن حابس، كذا جاء مبيئاً في غير هذه الرواية» قلت: الرواية التي جاء فيها مبيئاً هي من حديث ابن عباس عند أحمد في «المسند» ٨٤/٤، ٢٢٤، ١٧٢/٤، ١٧٥.

(٧) البخاري: ٢١٢/٨، والطبري: ٩٨/١١، وأبو الجورية: هو حطان بن خفاف بن زهير بن عبد الله بن رمح بن عرعة الجرهمي، وثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة وغيرهم، وقال ابن عبد البر: أجمعوا على أنه ثقة.

والوصيلة، والحام، فنزلت هذه الآية، رواه مجاهد عن ابن عباس^(١)، وبه قال ابن جبير. والخامس: أن قوماً كانا يسألون الآيات والمعجزات، فنزلت هذه الآية، روي هذا المعنى عن عكرمة. والسادس: أنها نزلت في تمتيهم الفرائض، وقولهم: ودنا أن الله تعالى أذن لنا في قتال المشركين، وسؤالهم عن أحب الأعمال إلى الله، ذكره أبو سليمان الدمشقي. قال الزجاج: «أشياء» في موضع خفض إلا أنها فتحت، لأنها لا تنصرف. وتبد لكم: تظهر لكم. فأعلم الله تعالى أن السؤال عن مثل هذا الجنس لا ينبغي أن يقع، لأنه يسوء الجواب عنه. وقال ابن عباس: إن تبد لكم، أي: إن نزل القرآن فيها بتغليظ، ساءكم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ سَأَلْتُمْ عَنِهَا يَنْزِلُ الْفَرَقَانُ﴾ أي: حين ينزل القرآن فيها بفرض أو إيجاب، أو نهي أو حكم، وليس في ظاهر ما نزل دليل على شرح ما بكم إليه حاجة، فإذا سألتهم حينئذ عنها تبد لكم. وفي قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ قولان. أحدهما: أنه إشارة إلى الأشياء. والثاني: إلى المسألة. فعلى القول الأول في الآية تقديم وتأخير. والمعنى: لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤمكم، عفا الله عنها. ويكون معنى: عفا الله عنها: أمسك عن ذكرها، فلم يوجب فيها حكماً. وعلى القول الثاني، الآية على نظمها، ومعنى: عفا الله عنها: لم يؤاخذ بها.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَذِبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ في هؤلاء القوم أربعة أقوال. أحدها: أنهم الذين سألو عيسى نزول المائدة، قاله ابن عباس، الحسن. والثاني: أنهم قوم صالح حين سألو الناقة، هذا على قول السدي. وهذان القولان يخرجان على أنهما سألو الآيات. والثالث: أن القوم هم الذين سألو في شأن البقرة وذبحها، فلو ذبحوا بقرة لأجزأت، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم، قاله ابن زيد. وهذا يخرج على سؤال من سأل عن الحج، إذ لو أراد الله أن يشدد عليهم بالزيادة في الفرض لشدد. والرابع: أنهم الذين قالوا لنبي لهم: ابعت لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، وهذا عن ابن زيد أيضاً، وهو يخرج على من قال: إنما سألو عن الجهاد والفرائض تمتياً لذلك. قال مقاتل: كان بنو إسرائيل يسألون أنبياءهم عن أشياء، فإذا أخبروهم بها تركوا قولهم ولم يصدقوهم، فأصبحوا بتلك الأشياء كافرين.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَأَكْتَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ أي: ما أوجب ذلك، ولا أمر به. وفي «البحيرة» أربعة أقوال. أحدها: أنها الناقة إذا تبيحت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكراً نحروه، فأكله الرجال والنساء، وإن كان أنثى شقوا أذنها، وكانت حراماً على النساء لا يتضعن بها، ولا يذقن من لبنها، ومنافعها للرجال خاصة، فإذا ماتت، اشترك فيها الرجال والنساء، قاله ابن عباس، واختاره ابن قتيبة. والثاني: أنها الناقة تلد خمس إناث ليس فيهن ذكر، فيتعبدون إلى الخامسة، فيبيكون أذنها، قاله عطاء. والثالث: أنها ابنة السائبة، قاله ابن إسحاق، والفراء. قال ابن إسحاق: كانت الناقة إذا تابعت بين عشر إناث، ليس فيهن ذكر، سببت، فإذا تبيحت بعد ذلك أنثى، شقت أذنها، وسببت بحيرة، وخلت مع أمها. والرابع: أنها الناقة كانت إذا تبيحت خمسة أبطن، وكان آخرها ذكراً بحروا أذنها، أي: شقوها، وامتنعوا من ركوبها وذبحها، ولا تطرد عن ماء، ولا تمنع عن مرعى، وإذا لقيها لم يركبها، قاله الزجاج. فأما «السائبة»^(٢)، فهي فاعلة بمعنى: مفعولة، وهي المسيية، كقوله: ﴿بِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي مرضية. وفي السائبة خمسة أقوال. أحدها: أنها التي تسبب من الأعمام للآلهة، لا يركبون لها ظهراً، ولا يحلبون لها لبناً، ولا يجزؤون منها وبراً، ولا يحملون عليها شيئاً، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أن الرجل كان يسبب من ماله ما شاء، فيأتي به

(١) ابن جرير: ١١١/١١ من طريق خصيف عن مجاهد عن ابن عباس وخروجه السيوطي في «الدر المنثور» ٣٣٦/٢ وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر، وأبي الشيخ، وابن مردويه وخصيف: هو خصيف بن عبد الرحمن الجزري. قال الحافظ في «التقريب»: صدوق، سمى الحفظ، غلط بأخوه، رمي بالإرجاء.

(٢) روى البخاري ٢١٣/٨، ومسلم ٢١٩٢/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سبب السوائب. وروى البخاري ٢١٤/٨ عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سبب السوائب والقصب، يضم القاف وسكون الصاد المهملة: الأعماء.

خزنة الآلهة، فيطمعون ابن السبيل من ألبانه ولحومه إلا النساء فلا يطمعونهن شيئاً منه إلا أن يموت، فيشترك فيه الرجال والنساء، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال الشعبي: كانوا يهدون لألهتهم الإبل والغنم، ويتركونها عند الآلهة، فلا يشرب منها إلا رجلاً، فإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء. والثالث: أنها الناقة إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث، سببت، فلم تركب، ولم يجز لها وبر، ولم يشرب لبنها إلا ضيف أو ولدّها حتى تموت، فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء، ذكره الفراء. والرابع: أنها البعير يُسبب بنذر يكون على الرجل إن سلمه الله تعالى من مرض، أو بلغه منزله أن يفعل ذلك، قاله ابن قتيبة. قال الزجاج: كان الرجل إذا نذر شيء من هذا، قال: ناقتي سائبة، فكانت كالبحيرة في أن لا ينتفع بها ولا تمنع من ماء ومرعى. والخامس: أنه البعير يحج عليه الحجة، فيُسبب، ولا يستعمل شكراً لنجحها، حكاه الماوردي عن الشافعي. وفي «الوصيلة» خمسة أقوال: أحدها: أنها الشاة كانت إذا نُبِجَتْ سبعة أبطن، نظرُوا إلى السابغ، فإن كان أنثى، لم ينتفع النساء منها بشيء إلا أن تموت، فيأكلها الرجال والنساء، وإن كان ذكراً، ذبحوه، فأكلوه جميعاً، وإن كان ذكراً وأنثى، قالوا: وصلت أخاها، فترك مع أخيها فلا تذبح، ومنافعها للرجال دون النساء، فإذا ماتت اشترك فيها الرجال والنساء، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وذهب إلى نحوه ابن قتيبة، فقال: إن كان السابغ ذكراً، ذبح فأكل منه الرجال والنساء، وإن كان أنثى، تركت في النعم، وإن كان ذكراً وأنثى، قالوا: وصلت أخاها، فلم تذبح لمكانها، وكانت لحومها حراماً على النساء، ولبن الأنثى حراماً على النساء إلا أن يموت منها شيء فيأكله الرجال والنساء. والثاني: أنها الناقة البكر تبتكر^(١) في أول نتاج الإبل بالأنثى، ثم تتي بالأنثى، فكانوا يستبقونها لطواغيتهم، ويذعنونها الوصيلة، أي: وصلت إحداهما بالأخرى، ليس بينهما ذكر، رواه الزهري عن ابن المسيب. والثالث: أنها الشاة تنتج عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن، فيدعونها الوصيلة، وما ولدت بعد ذلك فللذكور دون الإناث، قاله ابن إسحاق. والرابع: أنها الشاة تنتج سبعة أبطن، عناقين^(٢) عناقين، فإذا ولدت في سابغها عناقاً وجدياً، قيل: وصلت أخاها، فجرت مجرى السائبة، قاله الفراء. والخامس: أن الشاة كانت إذا ولدت أنثى، فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً جعلوه لألهتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى، قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لألهتهم، قاله الزجاج. وفي «الحام» ستة أقوال: أحدها: أنه الفحل، ينتج من صلبه عشرة أبطن، فيقولون: قد حمى ظهره، فيسببونه لأصنامهم، ولا يحمل عليه، قاله ابن مسعود، وابن عباس، واختاره أبو عبيدة، والزجاج. والثاني: أنه الفحل يولد لولده، فيقولون: قد حمى هذا ظهره، فلا يحملون عليه، ولا يجزؤون وبره، ولا يمتعونه ماءً، ولا مرعى، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، واختاره الفراء، وابن قتيبة. والثالث: أنه الفحل يظهر من أولاده عشر إناث من بناته، وبنات بناته، قاله عطاء. والرابع: أنه الذي ينتج له سبع إناث متواليات، قاله ابن زيد. والخامس: أنه الذي لصلبه عشرة كلها تضرب في الإبل، قاله أبو روق. والسادس: أنه الفحل يضرب في إبل الرجل عشر سنين، فيخلى، ويقال: قد حمى ظهره، ذكره الماوردي عن الشافعي. قال الزجاج: والذي ذكرناه في البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام أثبت ما روينا عن أهل اللغة. وقد أعلم الله ﷻ في هذه الآية أنه لم يحرم من هذه الأشياء شيئاً، وإن الذين كفروا افتروا على الله ﷻ. قال مقاتل: وافترأهم: قولهم: إن الله حرمه وأمرنا به. وفي قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: وأكثرهم، يعني: الأتباع لا يعقلون أن ذلك كذب على الله من الرؤساء الذين حرموا، قاله الشعبي. والثاني: لا يعقلون أن هذا التحريم من الشيطان، قاله قتادة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَاءَلُوا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَتَدَّبَّرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني: إذا قيل لهؤلاء المشركين الذين حرموا على أنفسهم هذه الأنعام: تعالوا إلى ما أنزل الله في القرآن من تحليل ما حرمتهم على أنفسهم، قالوا: ﴿حَسْبُنَا﴾ أي: يكفينا ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الدين والمنهاج ﴿أَوَّلُوهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ من الدين ﴿وَلَا يَتَدَّبَّرُونَ﴾ له، أي: يتعمقون في خطئهم.

(١) يقال: ابتكرت الحامل، إذا ولدت بكرها، وأنت في الثاني، وثلت في الثالث.

(٢) العناق: الأنثى من ولد المعز.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَصُدُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾
 قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ كتب إلى هجر، وعليهم المنذر بن ساوي يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا فليؤدوا الجزية، فلما أتاه الكتاب، عرضه على من عنده من العرب واليهود والنصارى والمجوس، فأقرأوا بالجزية، وكرهوا الإسلام، فكتب إليهم رسول الله ﷺ: «أما العرب فلا تقبل منهم إلا الإسلام أو السيِّف، وأما أهل الكتاب والمجوس، فاقبل منهم الجزية» فلما قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ أسلمت العرب، وأعطى أهل الكتاب والمجوس الجزية، فقال منافقو مكة: عجباً لمحمد يزعم أن الله بعثه ليقاتل الناس كافة حتى يسلموا، وقد قبل من مجوس هجر، وأهل الكتاب الجزية، فهلاً أكرههم على الإسلام، وقد ردّها على إخواننا من العرب، فشق ذلك على المسلمين، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: كان رسول الله ﷺ لا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب، فلما أسلمت العرب طوعاً وكرهاً، قبلها من مجوس هجر، فطعن المنافقون في ذلك، فنزلت هذه الآية. والثاني: أن الرجل كان إذا أسلم، قالوا له: سهت آباءك وذللتهم، وكان ينبغي لك أن تنصرهم، فنزلت هذه الآية، قاله ابن زيد. قال الزجاج: ومعنى الآية: إنما ألزمكم الله أمر أنفسكم، ولا يؤاخذكم بذنوب غيركم، وهذه الآية لا توجب ترك الأمر بالمعروف، لأن المؤمن إذا تركه وهو مستطيع له، فهو ضالّ، وليس بمهتدي^(١). وقال عثمان بن عفان: لم يأت تأويلها بعد. وقال ابن مسعود: تأويلها في آخر الزمان: قولوا ما قبل منكم، فإذا غلبتم، فعليكم أنفسكم^(٢). وفي قوله: ﴿لَا يَصُدُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قولان: أحدهما: لا يضرركم من ضل بترك الأمر بالمعروف إذا هديتم أنتم للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قاله حذيفة بن اليمان، وابن المسيّب. والثاني: لا يضرركم من ضل من أهل الكتاب إذا أدوا الجزية، قاله مجاهد. وفي قوله: ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تنبيه على الجزاء.

فصل

فعلى ما ذكرنا عن الزجاج في معنى الآية، هي محكمة، وقد ذهب قوم من المفسرين إلى أنها منسوخة، ولهم في ناسخها قولان: أحدهما: أنه آية السيف. والثاني: أن آخرها نسخ أولها. روي عن أبي عبيد أنه قال: ليس في القرآن آية جمعت الناسخ والمنسوخ غير هذه، وموضع المنسوخ منها إلى قوله: ﴿لَا يَصُدُّكُمْ مَن ضَلَّ﴾ والناسخ: قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. والهدى هاهنا: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر^(٣).

(١) روى الإمام أحمد في «المسند» ٢/١، ١٧، ٣٣، ٥٢ عن قيس بن أبي حازم، قال: قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَصُدُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يممهم الله بعبابه» قال الحافظ ابن كثير في «التفسير» ١٠٩/٢: وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في «صحيحه» وغيرهم من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة عن إسماعيل بن أبي خالد به متصلاً مرفوعاً، ومنهم من رواه عنه به موقوفاً على الصديق، وقد رجح رقه الدارقطني. وقال ابن جرير ١٥٢/١١ بعد أن أورد الآثار: وأولى هذه الأقوال، وأصح التأويلات عندنا بتأويل هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق ﷺ فيها، وهو ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الزموا العمل بطاعة الله، وبما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم الله عنه ﴿لَا يَصُدُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ يقول: فإنه لا يضرركم ضلال من ضل إذا أنتم لزمتم العمل بطاعة الله، وأديتم فيمن ضل من الناس ما ألزمكم الله به فيه، من فرض الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي يركبه، أو يحاول ركوبه، والأخذ على يديه إذا رام ظمناً لمسلم أو معاهد، ومنعه منه، فأبى النزوع عن ذلك، ولا ضير عليكم في تمادي فيه بغضاله، إذا أنتم اهتديتم، وأديتم حق الله تعالى ذكره فيه. وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات في ذلك بالصواب، لأن الله تعالى ذكره، أمر المؤمنين أن يقوموا بالقسط، ويتعاونوا على البر والتقوى، ومن القيام بالقسط الأخذ على يدي الظالم، ومن التعاون على البر والتقوى، الأمر بالمعروف، وهذا مع ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو كان للناس ترك ذلك لم يكن للأمر به معنى إلا في الحال التي رخص فيه رسول الله ﷺ ترك ذلك، وهي حال المجز عن القيام به بالجوارح الظاهرة فيكون مرخصاً له تركه، إذا قام حينئذ بأداء فرض الله عليه في ذلك بقلبه. وإذا كان ما وصفنا من التأويل بالآية أولى، فينبى أنه قد دخل في معنى قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ مما قاله حذيفة وسعيد بن المسيّب من أن ذلك (إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر).

(٢) ابن جرير الطبري ١٣٩/١١، وذكر الهيثمي في «المجمع» ١٩/٧، وقال: رواء الطبراني ورجال الصحيح إلا أن الحسن البصري لم يسمع من ابن مسعود.

(٣) ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه «نواسخ القرآن» ورقة ٨٥ أربعة أشياء تدل على إحكام هذه الآية هي في إيجاز:

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ آتَاكَ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَوْبِقَةً الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْوَصِيَّةِ يُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا تَشْرَى بِهِ تَنَاقُؤًا وَكَوْكَانًا قُرْبًا وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيُّمِينَ ﴿١٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان تميم الداري، وعدي بن بدءا يختلفان إلى مكة، فصحبهما رجلٌ من قريش من بني سهم، فمات بأرض ليس فيها أحد من المسلمين، فأوصى إليهما بتركته، فلما قدما، دفعاها إلى أهله، وكتما جاماً كان معه من فضة، وكان مخوّصاً بالذهب، فقالا: لم نره، فأتى بهما إلى النبي ﷺ، فاستحلفهما بالله: ما كتما، وخلي سبيلهما. ثم إن الجام وُجد عند قوم من أهل مكة، فقالوا: ابتعناه من تميم الداري، وعدي بن بدء، فقام أولياء السهمي، فأخذوا الجام، وحلف رجلان منهم بالله: إن هذا الجام جام صاحبنا، وشهادتنا أحق من شهادتهما، وما اعتدينا، فنزلت هذه الآية، والتي بعدها^(١). قال مقاتل: واسم الميت: بُزَيْلُ بن أبي مارية مولى العاص بن وائل السهمي، وكان تميم، وعدي نصرانيين، فأسلم تميم، ومات عدي نصرانياً^(٢). فأما التفسير، فقال الفراء: معنى الآية: ليشهدكم اثنان إذا حضر أحدكم الموت^(٣). قال الزجاج: المعنى: شهادة هذه الحال شهادة اثنين، فحذف «شهادة»، ويقوم «اثنان» مقامهما. وقال ابن الأنباري: معنى الآي: ليشهدكم في سفركم إذا حضركم الموت، وأردتم الوصية اثنان. وفي هذه الشهادة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الشهادة على الوصية التي ثبتت عند الحكام، وهو قول ابن مسعود، وأبي موسى، وشريح، وابن أبي ليلى، والأوزاعي، والثوري، والجمهور. والثاني: أنها إيمان الوصي بالله تعالى إذا ارتاب الورثة بهما، وهو قول مجاهد. والثالث: أنها شهادة الوصية، أي: حضورها، كقوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣] جعل الله الوصي هاهنا اثنين تأكيداً، واستدل أرباب هذا القول بقوله: ﴿يُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ قالوا: والشاهد لا يلزمه يمين. فأما «حضور الموت» فهو حضور أسبابه ومقدماته. وقوله: ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾، أي: وقت الوصية. وفي قوله: «منكم» قولان: أحدهما: من أهل دينكم وملتكم، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وشريح، وابن سيرين، والشعبي، وهو قول أصحابنا والثاني: من عشيرتكم وقبيلتكم، وهم مسلمون أيضاً، قاله الحسن، وعكرمة، والزهري، والسدي.

قوله تعالى: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ تقديره: أو شهادة آخرين من غيركم. وفي قوله: «من غيركم» قولان: أحدهما: من غير ملتكم ودينكم، قاله أرباب القول الأول. والثاني: من غير عشيرتكم وقبيلتكم، وهم مسلمون أيضاً، قاله أرباب القول الثاني. وفي «أو» قولان: أحدهما: أنها ليست للتخيير، وإنما المعنى: أو آخران من غيركم إن لم تجدوا منكم، وبه قال ابن عباس، وابن جبير، والثاني: أنها للتخيير، ذكره الماوردي.

١ - أن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ﴾ يقتضي إغراء الإنسان بمصالح نفسه، ويضمن الإخبار بأنه لا يعاقب بضلال غيره، وليس من مقتضى ذلك ألا ينكر على غيره، وإنما غاية الأمر أن يكون ذلك مسكوتاً عنه، فيقف على الدليل.

٢ - أن الآية تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ﴾ أمر بإصلاحها وأداء ما عليها، وقد ثبت وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصار من جملة ما على الإنسان في نفسه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بدليل قوله ﷺ فيها: ﴿إِنَّمَا أَتَيْتُمْ﴾.

٣ - أن الآية قد حملها قوم على أهل الكتاب إذا أدوا الجزية، فيحتجّ لا يلزمون بغيرها.

٤ - أنه لما عابهم في تقليد آبائهم بالآية المتقدمة، أعلمهم بهذه الآية أن المكلف إنما يلزمه حكم نفسه، وأنه لا يضره ضلال غيره إذا كان مهتدياً، حتى يعلموا أنه لا يلزمهم من ضلال آبائهم شيء من الدم والمقاب قال: وإذا تلمحت هذه المناسبة بين الآيتين لم يكن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هاهنا مدخل، وهذا أحسن الوجوه في الآية.

(١) البخاري ٣٠٧/٥ - ٣٠٩، وأبو داود: ٤١٨/٣، والترمذي ١٠٠/٤، وحسنه، وابن جرير ١٨٥/١١، والبيهقي في «السنن» ١٦٥/١٠. وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٣٤٢/٢، وزاد نسبه إلى ابن المنذر والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه. والجام: إتمام من فضة. وقوله: (كان مخوّصاً بالذهب) أي: عليه صفائح من ذهب على هيئة خوص النخل وهو ورقه، والتخويس: أن يجعل على الشيء صفائح من الذهب على قدر عرض خوص النخل.

(٢) تميم الداري: هو تميم بن أوس بن خارجة اللخمي منسوب إلى جده الدار بن هانئ وقد على رسول الله ﷺ سنة تسع وأسلم، وكان نصرانياً، وأما عدي بن بدء، فكان نصرانياً، ويذكر أنه أسلم، لكن الحافظ ابن حجر صحح في «الإصابة» في ترجمته أنه مات نصرانياً.

(٣) نص كلام الفراء في «معاني القرآن» ٣٢٢ يقول: شاهدان أو وصيان، وقد اختلف فيه، ووقع الاثنان الشهادة، أي: ليشهدكم اثنان من المسلمين.

فصل

فالقائل بأن المراد بالآية شهادة مسلمين من القبيلة، أو من غير القبيلة لا يشك في إتحام هذه الآية. فأما القائل بأن المراد بقوله: ﴿أَوْ مَلَإِينَ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أهل الكتاب إذا شهدوا على الوصية في السفر، فلهم فيها قولان: أحدهما: أنها محكمة، والعمل على هذا باق، وهو قول ابن عباس، وابن المسيب، وابن جبير، وابن سيرين، وقتادة، والشعبي، والثوري، وأحمد في آخرين. والثاني: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ وهو قول زيد بن أسلم، وإليه يميل أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، قالوا: وأهل الكفر ليسوا بعدول، والأول أصح، لأن هذا موضع ضرورة كما يجوز في بعض الأماكن شهادة نساء لا رجل معهن بالحيض والنفاس والاستهلال^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا الشرط متعلق بالشهادة، والمعنى: ليشهدكم اثنان إن أنتم ضربتم في الأرض، أي: سافرتم. ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِثْلَهُ الْمَوْتِ﴾ فيه محذوف، تقديره: وقد أسندتم الوصية إليهما، ودفعتم إليهما ما لكم ﴿عَمَّيْسُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الْفَلَاحِ﴾ خطاب للورثة إذا ارتابوا. وقال ابن عباس: هذا من صلة قوله: ﴿أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، أي: من الكفار. فأما إذا كانا مسلمين، فلا يمين عليهما. وفي هذه الصلاة قولان: أحدهما: صلاة العصر، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال شريح، وابن جبير، وإبراهيم، وقتادة، والشعبي. والثاني: من بعد صلاتهما في دينهما، حكاه السدي عن ابن عباس^(٢)، وقال به. وقال الزجاج: كان الناس بالحجاز يحلفون بعد صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس. وقال ابن قتيبة: لأنه وقت يعظمه أهل الأديان.

قوله تعالى: ﴿فَيَقِيمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي: فيحلفان ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أي: شككتم يا أولياء الميت. ومعنى الآية: إذا قِيم الموصى إليهما بتركة المتوفى، فاتهمها الوارث، استحلها بعد صلاة العصر: أنهما لم يسرقا، ولم يخونا. فالشرط في قوله: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ متعلق بتجسونهما، كأنه قال: إن إرَبْتُمْ حبستموهما فاستحلتموهما، فيحلفان بالله: ﴿لَا تَشْرِي بِيَدِي﴾ أي: بأيماننا، وقيل: بتحريف شهادتنا، فالهاء عائدة على المعنى. ﴿كُنَّا﴾ أي: عرضاً من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ قَا قَرِينًا﴾ أي: ولو كان المشهود له ذا قرابة منا، وخصّ ذا القرابة، لميل القريب إلى قريبه. والمعنى: لا نحابي في شهادتنا أحداً، ولا نميل مع ذي القربى في قول الزور. ﴿وَلَا تَكْفُرُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ إنما أضيفت إليه، لأمره بإقامتها، ونبيه عن كتمانها. وقرأ سعيد بن جبير: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ بالتونين «الله» بقطع الهمزة وقصرها، وكسر الهاء، ساكنة النون في الوصل. وقرأ سعيد بن المسيب، وعكرمة «شهادة» بالتونين والوصل منصوبة الهاء. وقرأ أبو عمران الجوني «شهادة» بالتونين وإسكانها في الوصل «الله» بقطع الهمزة، ومدّها، وكسر الهاء. وقرأ أبو العالية، وعمرو بن دينار مثله، إلا أنهما نصبها الهاء. واختلف العلماء لأي معنى وجبت اليمين على هذين الشاهدين، على ثلاثة أقوال: أحدها: لكونهما من غير أهل الإسلام، روي هذا المعنى عن أبي موسى الأشعري. والثاني: لو وصية وقعت بخط الميت وقَدَّرْتُهُ بعض ما فيها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: لأن الورثة كانوا يقولون: كان مال ميتنا أكثر، فاستخانوا الشاهدين، قاله الحسن، ومجاهد.

(١) جاء في «شرح المفردات» ص ٣٣٣: إذا كان مسلم مع رفقة كفار مسافرين ولم يوجد غيرهم من المسلمين فوصى اثنان منهم قبلت شهادتهما ويستحلان بعد العصر لا نشري به ثمناً ولو كان ذا قربي ولا نكتم شهادة الله وأنها وصية الرجل بعينه، فإن حشر على أنهما استحلّا إثمًا قام آخران من أولياء الموصي فحلها بالله لشهادتنا أحت من شهادتهما ولقد خانا وكنا ويقضى لهم. قال ابن المنذر: وبهذا قال أكابر العلماء ومن قاله شريح، والنخعي، والأوزاعي ويحيى بن حمزة وقضى بذلك عبد الله بن مسعود في زمن عثمان، رواه أبو عبيدة: وقضى به أبو موسى الأشعري، رواه أبو داود، والخلال. وقال أبو حنيفة، ومالك، والشافعي: لا تقبل لأن من لا تقبل شهادته على غير الوصية لا تقبل في الوصية كالفاسق وأولى... (ولنا) قوله تعالى ﴿يَأْتِيَا إِلَيْهِ تَامِتًا فَكَيْدُهُ بَيْنَهُمَا إِذَا حَسَرَ لَمَذَكُمُ الْمَوْتَ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَشْكَلًا دَقًا عَدْلٍ يَنْكُرُ أَوْ مَلَإِينَ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ الآية، وهذا نص الكتاب وقد قضى به رسول الله ﷺ كما في حديث ابن عباس رواه أبو داود وقضى به بعده أبو موسى، وابن مسعود كما تقدم، وحمل الآية على أنه أراد من غير عشيرتكم لا يصح لأن الآية نزلت في قصة عدي وتميم بلا خلاف بين المفسرين ودلت عليه الأحاديث ولأنه لو صح ما ذكره لم تجب الأيمان لأن الشاهدين من المسلمين لا قسامة عليهما.

(٢) هذه رواية شاذة، رواها الطبري ١٧٥/١١ في قصة طويلة، ثم ردّها رداً شديداً، وجزم بأن المراد الصلاة المعروفة للمخاطبين التي كان رسول الله ﷺ يتخيرها لاستحلاف من أراد تليظ اليمين عليه، وهي صلاة العصر.

﴿إِنَّ عِزَّ عَنِّ أَنْهَمَا اسْتَحَقَّا إِنَّمَا فَآخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْصِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لِينَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِزَّ عَنِّ أَنْهَمَا اسْتَحَقَّا إِنَّمَا﴾ قال المفسرون: لما نزلت الآية الأولى، دعا رسول الله ﷺ عدياً وتيمماً، فاستحلفهما عند المنبر: أنهما لم يخونا شيئاً مما دفع إليهما، فحلفا، وحلّى سبيلهما، ثم ظهر الإناء الذي كتماه، فرفعهما أولياء الميت إلى رسول الله ﷺ، فنزلت ﴿إِنَّ عِزَّ عَنِّ أَنْهَمَا اسْتَحَقَّا إِنَّمَا﴾ ومعنى «عثر»: اطلع، أي: إن عثر أهل الميت، أو من يلي أمره، على أن الشاهدين اللذين هما آخران من غيرنا ﴿اسْتَحَقَّا إِنَّمَا﴾ لميلهما عن الاستقامة في شهادتهما ﴿فَآخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي: مقام هذين الخائنين ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «استحِق» بضم التاء، «الأوليّان» على التنثية. وفي قوله ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ قولان: أحدهما: أنهما الذمّيان. والثاني: الوليّان. فعلى الأول في معنى ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أربعة أقوال: أحدها: استحق عليهم الإيضاء، قال ابن الأنباري: المعنى: من القوم الذين استحق فيهم الإيضاء، استحقه الأوليان بالميت، وكذلك قال الزجاج: المعنى: من الذين استحققت الوصية أو الإيضاء عليه. والثاني: أنه الظلم، والمعنى: من الذين استحق عليهم ظلم الأوليان، فحذف الظلم، وأقام الأوليين مقامه، ذكره ابن القاسم أيضاً. والثالث: أنه الخروج مما قاما به من الشهادة، لظهور خيانتها. والرابع: أنه الإثم، والمعنى: استحق منهم الإثم، ونابت «على» عن «من» كقوله: ﴿عَلِ النَّبِيِّ سِتْرَةٌ﴾ [المطففين: ٢٧] أي: منهم. وقال الفراء: «على» بمعنى «في» كقوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: في ملكه، ذكر القولين أبو علي الفارسي. وعلى هذه الأقوال مفعول «استحق» محذوف مُقَدَّر. وعلى القول الثاني في معنى ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ قولان: أحدهما: استحق منهم الأوليان، وهو اختيار ابن قتيبة. والثاني: جني عليهم الإثم، ذكره الزجاج. فأما «الأوليّان»، فقال الأخفش: الأوليان: اثنان، واحدهما: الأولى، والجمع: الأولون. ثم للمفسرين فيها قولان: أحدهما: أنهما أولياء الميت، قاله الجمهور. قال الزجاج: «الأوليّان» في قول أكثر البصريين يرتفعان على البَدَلِ مما في «يقومان» والمعنى: فليقم الأوليان بالميت مقام هذين الخائنين. وقال أبو علي: لا يخلو الأوليان أن يكون ارتفاعهما على الابتداء، أو يكون خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال: فأخران يقومان مقامهما، هما الأوليان، أو يكون بدلاً من الضمير الذي في «يقومان». والتقدير: فيقوم الأوليان. والقول الثاني: أن الأوليان: هما الذمّيان، والمعنى: أنهما الأوليان بالخيانة، فعلى هذا يكون المعنى: يقومان، إلا من الذين استحق عليهم. قال الشاعر:

فليت لنا من ماء زَرْزَمٍ شَرْبَةً مُبَرَّدَةً بِأَثَثِ عُلَى طَهِيَانٍ^(١)

أي: بدلاً من ماء زمزم. وروى قرّة عن ابن كثير، وحفص وعاصم^(٢): «استحق» بفتح التاء والحاء «الأوليّان» على التنثية، والمعنى: استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها، فحذف المفعول. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: «استحق» برفع التاء، وكسر الحاء، «الأوليّان» بكسر اللام، وفتح النون على الجمع، والتقدير: من الأولين الذين استحق فيهم الإثم، أي: جني عليهم، لأنهم كانوا أولين في الذكر. ألا ترى أنه قد تقدم ﴿ذَوِي عَدْلٍ يَنْكَرُ﴾ على قوله: ﴿أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾. وروى الحلبي عن عبد الوارث «الأوليّان» بفتح الواو وتشديدها، وفتح اللام، وسكون الياء، وكسر النون، وهي تنثية: أوّل. وقرأ الحسن البصري: «استحق» بفتح التاء والحاء، «الأولان» تنثية «أوّل» على البديل من قوله: «فآخران». وقال ابن قتيبة: أشبه الأقوال بالآية أن الله تعالى أراد أن يعرفنا كيف يشهد بالوصية عند حضور الموت، فقال: ﴿ذَوِي عَدْلٍ يَنْكَرُ﴾، أي: عدلان من المسلمين [تشهدونهما على الوصية]، وعلم أن من الناس من يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين، وينزل القرية التي لا يسكنها غيرهم، ويحضره الموت، فلا يجد من يشهده من المسلمين، فقال: ﴿أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، أي: من غير أهل دينكم، ﴿وَإِذَا صَرَفْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرتُمْ ﴿فَأَمِّنْكُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ﴾ وتم الكلام. فالعدلان من المسلمين للحضر والسفر خاصة إن أمكن إسهادهما في

(١) في «اللسان الطهيان: كأنه اسم قلّة جبل، والطهيان: خشية يرد عليها الماء، ثم أنشد البيت، ونسب للأحول الكندي.

(٢) في النسخة الأحمديّة: وروى قرّة عن ابن كثير، وحفص عن عاصم.

السفر] والذميان في السفر خاصة إذا لم يوجد غيرهما [ثم قال] ﴿عَسَوْهُمَا مِنْ بَعْدِ الْكَلْبَةِ فَيَمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَيْتُمْ﴾ أراد: تحبسونهما من بعد صلاة العصر إن ارتبتم في شهادتهما، وخشيتم أن يكونا قد خانا، أو بدّلا، فإذا حلفا، مضت شهادتهما. فإن عثر [بعد هذه اليمين] أي: ظهر على أنهما استحقا إثمًا، أي: حنثا في اليمين بكذب [في قول] أو خيانة [في ودیعة]، فأخران، أي: قام في اليمين مقامهما رجلان من قرابة الميت الذين استحق منهم الأوليان، وهما الوليان، يقال: هذا الأولي بفلان، ثم يحذف من الكلام «بفلان»، فيقال: هذا الأولي، وهذان الأوليان، و«عليهم» بمعنى: «منهم». فيحلفان بالله: لقد ظهرنا على خيانة الذميين، وكذبهما، وما اعتدنا عليهما، ولشهادتنا أصح، لكفرهما وإيماننا، فيرجع على الذميين بما اختانا، وينقض ما مضى من الحكم بشهادتهما تلك^(١). وقال غيره: لشهادتنا، أي: ليمتنا أحق، وسميت اليمين شهادة، لأنها كالشهادة على ما يحلف عليه أنه كذلك. قال المفسرون: فلما نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص، والمقلّب بن أبي وداعة السهميان، فحلفا بالله، ودفع الإناة إليهما وإلى أولياء الميت.

﴿ذَلِكَ آدَعٌ أَنْ يَأْتُوا بِالْبَهْدَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ آيَتِنَاهُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ آدَعٌ﴾ أي: ذلك الذي حكمنا به من ردّ اليمين، أقرب إلى إتيان أهل الذمّة بالشهادة على وجهها، أي: على ما كانت، وأقرب أن يخافوا أن تردّ أيمان أولياء الميت بعد إيمانهم، فيحلفون على خيانتهم، فيفتضحوا، ويغرموا، فلا يحلفون كاذبين إذا خافوا ذلك. ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ أن تحلفوا كاذبين، أو تخونوا أمانة، واسمعوا الموعدة.

﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَ رُسُلِهِ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَ رُسُلِهِ﴾ قال الزجاج: نصب «يوم» محمول على قوله: «واتقوا الله»: واتقوا يوم جمعه للرسول. ومعنى مسأله للرسول توبيخ الذين أرسلوا إليهم. فاما قول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ففيه ستة أقوال: أحدها: أنهم طاشت عقولهم حين زفرت جهنم، فقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ثم تردّ إليهم عقولهم، فينتلقون بحجتهم، رواه أبو الضحى عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، والسدي. والثاني: أن المعنى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ إلا علم أنت أعلم به منا، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أن المراد بقوله: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾: ماذا عملوا بعدكم، وأحدثوا، فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، قاله ابن جريج، وفيه بُعد. والرابع: أن المعنى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ مع علمك، لأنك تعلم الغيب، ذكره الزجاج. والخامس: أن المعنى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ كعلمك، إذ كنت تعلم ما أظهر القوم وما أضمرنا، ونحن نعلم ما أظهرنا، ولا نعلم ما أضمرنا، فعلمك فيهم أنفذ من علمنا، هذا اختيار ابن الأنباري. والسادس: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بجميع أفعالهم إذ كنا نعلم بعضها وقت حياتنا، ولا نعلم ما كان بعد وفاتنا، وإنما يستحق الجزاء بما تقع به الخاتمة، حكاه ابن الأنباري. قال المفسرون: إذا ردّ الأنبياء العلم إلى الله أبليست الأمم، وعلمت أن ما أتته في الدنيا غير غائب عنه، وأن الكل لا يخرجون عن قبضته.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ قال الخطابي: العلام: بمنزلة العليم، وبناء «فعلال» بناء التكثير، فاما «الغيوب» فجمع غيب، وهو ما غاب عنك.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ إِذْ أَنْشَأْتُ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُحْمَلُ النَّاسَ فِي الْمَهْبُوتِ وَكَهَلَا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ أَخَذْتُ مِنَ الطَّيِّبِينَ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ إِذْ ذُكِرُوا بِآيَاتِي وَتَبَرَّأُوا إِلَيْكُمْ وَالْأَنْبِيَاءُ بِآيَاتِي وَإِذْ خَلَقْتُ الْمَوْتَىٰ بِآيَاتِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُمْ آيَاتِي لِقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ بَشَرٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى﴾ قال ابن عباس: معناه: وإذ يقول.

قوله تعالى: ﴿اَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ﴾ في تذكيره النعم فائدتان: إحداهما: إسماع الأمم ما خصه به من

(١) «مشكل القرآن»، ٢٩٣، وما بين معقنين منه.

الكرامة. والثانية: توكيد حجته على جاحده. ومن نعمه على مريم أنه اصطفاها وطهرها، وأتاها برزقها من غير سبب. وقال الحسن: المراد بذكر النعمة: الشكر. فأما النعمة، فلفظها لفظ الواحد، ومعناها الجمع. فإن قيل: لم قال هاهنا: ﴿تَسْتَفِئُ فِيهَا﴾ وفي (آل عمران) «فيه»؟ فالجواب: أنه جائز أن يكون ذكر الطير على معنى الجميع، وأنت على معنى الجماعة، وجاز أن يكون «فيه» للطير، و«فيها» للهينة، ذكره أبو علي الفارسي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم هاهنا، وفي (هود) والصف) ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقرأ في (يونس) ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ بالف. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، الأربعة ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ بغير ألف، فمن قرأ «سحراً» أشار إلى ما جاء به، ومن قرأ «ساحراً»، أشار إلى الشخص.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ مَا يَتُؤُونَ بِ رِيسُولِي قَالُوا مَا مَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

وفي الروحي إلى الحواريين قولان. أحدهما: أنه بمعنى الإلهام، قاله الفراء. وقال السدي: كذف في قلوبهم. والثاني: أنه بمعنى الأمر، فتقديره: أمرت الحواريين و«إلى» صلة، قاله أبو عبيدة. وفي قوله: ﴿وَأَشْهَدُ﴾ قولان: أحدهما: أنهم يعنون الله تعالى. والثاني: عيسى ﷺ. وقوله: ﴿بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون للعبادة والتوحيد. وقد سبق شرح ما أهمل هاهنا فيما تقدم.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾
قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قال الزجاج: أي: هل يقدر. وقرأ الكسائي: «هل يستطيع» بالشاء، ونصب الرب. قال الفراء: معناه: هل تقدر أن تسأل ربك. قال ابن الأنباري: ولا يجوز لأحد أن يتوهم أن الحواريين شكوا في قدرة الله، وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه: هل تستطيع تقوم معي، وهو يعلم أنه مستطيع، ولكنه يريد: هل يسهل عليك. وقال أبو علي: المعنى: هل يفعل ذلك بمسالتك إياه^(١). وزعم بعضهم أنهم قالوا ذلك قبل استحكام إيمانهم ومعرفتهم، فرد عليهم عيسى بقوله: اتقوا الله، أن^(٢) تسبوه إلى عجز، والأول أصح. فأما «المائدة» فقال اللغويون: المائدة: كل ما كان عليه من الأخوة طعام، فإذا لم يكن عليه طعام، فليس بمائدة، والكأس: كل إناء فيه شراب، فإذا لم يكن فيه شراب، فليس بكأس، ذكره الزجاج. قال الفراء: وسمعت بعض العرب يقول للطبق الذي تهدي عليه الهدية: هُوَ الْمُهْدَى، مقصور، ما دامت عليه الهدية، فإذا كان فارغاً رجع إلى اسمه إن كان طبقاً أو خواناً أو غير ذلك. وذكر الزجاج عن أبي عبيدة أن لفظها فاعلة، وهي في المعنى مفعولة، مثل ﴿عِيْدَةَ رَأَيْبِيَّةَ﴾ [الحاقة: ٢١]. قال أبو عبيدة: وهي من العطاء، والممتاد: المفتحل المطلوب منه العطاء، قال الشاعر:

إلى أمير المؤمنين الممتاد^(٣)

وَمَادَ زَيْدٌ عُمراً: إذا أعطاه. قال الزجاج: والأصل عندي في «مائدة» أنها فاعلة من: ماد يميد: إذا تحرك، فكانها تميد بما عليها. وقال ابن قتيبة: المائدة: الطعام، من: مادني يميدني، كأنها تميد الأكلين، أي: تعطيه، أو تكون فاعلة بمعنى: مفعول بها، أي: ميد بها الأكلون.

قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: اتقوه أن تسألوه البلاء، لأنها إن نزلت وكذبتم، عُذبتهم، قاله مقاتل. والثاني: أن تسألوه ما لم تسأله الأمم قبلكم، ذكره أبو عبيد. والثالث: أن تشكوا في قدرته.

﴿قَالُوا رَبُّنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنَّا وَنَلْمِمْهُ فَلَوْلَا قَوْلُنَا وَعَلَّمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَكُنَّا عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

(١) في «نسخة الرباط» ما يفعل ذلك بمسالتك إياه.

(٢) في «الأحمدية» «أي» بدل «أن» وهو خطأ.

(٣) الرجز لرؤية، وهو في «ديوانه» ٤٠، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة ١٨٣/١، و«اللسان»: مادة «ميد»، وقيل: نهدي رؤوس المتفرجين الأنداد. والمتفرون: المتعمنون المتوسعون في لذات الدنيا وشهواتها، والأنداد: جمع ند بكسر التون، وهو هنا بمعنى الضد، يقال للرجل إذا خالفك، فأردت وجهاً تذهب إليه، ونازعك في ضده: هو ندي ونديدي، حكاه قطرب كما في «الأضداد» ٦٥٦/٢ لأبي الطيب الحلبي. ويأتي أيضاً بمعنى المثل والشبيه. وانظر «الأضداد» ٢٣ لابن الأنباري. يقول: تقتل الخارجين على أمير المؤمنين، ثم نهدي إليه رؤوسهم، وهو المسؤول دون الناس.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا زَيْدٌ أَنْ تَأْكُلَ مِنَّا﴾ هذا اعتذار منهم بيّنوا به سبب سؤالهم حين نهوا عنه، وفي إرادتهم للأكل منها ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أرادوا ذلك للحاجة، وشدة الجوع، قاله ابن عباس. والثاني: ليزدادوا إيماناً، ذكره ابن الأنباري. والثالث: للتبرك بها، ذكره الماوردي. وفي قوله: ﴿وَوَسَّيْنَا قُلُوبَنَا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تطلّمتن إلى أن الله تعالى قد بعثك إلينا نبياً. والثاني: إلى أن الله تعالى قد اختارنا أعواماً لك. والثالث: إلى أن الله تعالى قد أجابك. وقال ابن عباس: قال لهم عيسى: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً، ثم لا تسألونه شيئاً إلا أعطاكم؟ فصاموا، ثم سألو المائدة. فمعنى: ﴿وَوَسَّيْنَا قُلُوبَنَا﴾ في أننا إذا صمنا ثلاثين يوماً لم نسأل الله شيئاً إلا أعطانا. وفي هذا العلم قولان: أحدهما: أنه علم يحدث لهم لم يكن، وهو قول من قال: كان سؤالهم قبل استحكام معرفتهم. والثاني: أنه زيادة علم إلى علم، ويقين إلى يقين، وهو قول من قال: كان سؤالهم بعد معرفتهم. وقرأ الأعمش: ﴿وتعلم﴾ بالياء، والمعنى: وتعلم القلوب أن قد صدقتنا. وفي قوله: ﴿وَمِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: من الشاهدين لله بالقدرة، ولك بالنبوة. والثاني: عند بني إسرائيل إذا رجعتا إليهم، وذلك أنهم كانوا مع عيسى في البرية عند هذا السؤال. والثالث: من الشاهدين عند من يأتي من قومنا بما شاهدنا من الآيات الدالة على أنك نبي. والرابع: من الشاهدين لك عند الله بأداء ما بعثت به.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ وقرأ ابن محيصن، وابن السميع، والجحدري: «ولأولنا وآخرنا» برفع الهمزة، وتخفيف الواو، والمعنى: يكون اليوم الذي نزلت فيه عيداً لنا، نعتظمه نحن ومن بعدنا، قاله قتادة، والسدي. وقال كعب: أنزلت عليهم يوم الأحد، فاتخذوه عيداً. وقال ابن قتيبة: عيداً، أي: مجمعاً. قال الخليل بن أحمد: العيد: كل يوم يجمع، كأنهم عادوا إليه. وقال ابن الأنباري: سُمي عيداً للعود من الترح إلى الفرح.

قوله تعالى: ﴿وَآيَةً مِنكَ﴾ أي: علامة منك تدل على توحيدك، وصحة نبوة نبيك. وقرأ ابن السميع، وابن محيصن، والضحاك «وأنه منك» بفتح الهمزة، وينون مشددة. وفي قوله: ﴿وَارزُقْنَا﴾ قولان: أحدهما: ارزقنا ذلك من عندك. والثاني: ارزقنا الشكر على ما أنعمت به من إجابتك لنا.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلْنَا عَلَيْكَ مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلْنَا عَلَيْكَ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر «مترلاًها» بالتشديد، وقرأ الباقون خفيفة. وهذا وعدٌ بإجابة سؤال عيسى. واختلف العلماء: هل نزلت، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها نزلت، قاله الجمهور، فروى وهب بن منبه عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي قال: لما رأى عيسى أنهم قد جدوا في طلبها لبس جبّة من شعر، ثم توضأ، واغتسل، وصفّ قدميه في محرابه حتى استويا، وألصق الكعب بالكعب، وحاذى الأصابع بالأصابع، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وطأطأ رأسه خضوعاً، ثم أرسل عينيه بالبكاء، فما زالت تسيل دموعه على خده، وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض من دموعه حيال وجهه، ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء، فبينما عيسى كذلك، هَبَطَتْ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، سفرة حمراء بين غماتين، غمامة من تحتها، وغمامة من فوقها، وعيسى يبكي ويتضرع، ويقول: إلهي اجعلها سلامة، لا تجعلها عذاباً، حتى استقرت بين يديه، والحواريون من حوله، فأقبل هو وأصحابه حتى قعدوا حولها، وإذا عليها منديلٌ مغطى، فقال عيسى: أيكم أوثق بنفسه وأقل بلاءً عند ربه فليأخذ هذا المنديل، وليكشف لنا عن هذه الآية. قالوا: يا روح الله أنت أولانا بذلك، فاكشف عنها، فاستأنف وضوءاً جديداً، وصلى ركعتين، وسأل ربه أن يأذن له بالكشف عنها، ثم قعد إليها، وتناول المنديل، فإذا عليها سمكة مشوية، ليس فيها شوك، وحولها من كل البقل ما خلا الكراث، وعند رأسها الخل، وعند ذنبها الملح، وحولها خمسة أرغفة، على رغيف تمر، وعلى رغيف زيتون، وعلى رغيف خمس رمانات. فقال شمعون رأس الحواريين: يا روح الله أمين طعام الدنيا هذا، أم من طعام الجنة؟ فقال عيسى: سبحان الله أما تتبهون! ما أخوفني عليكم. قال شمعون: لا وإله بني إسرائيل ما أردت بهذا سوءاً. قال عيسى: ليس ما ترون عليها من طعام

الدنيا، ولا من طعام الجنة، إنما هو شيء ابتدعه الله، فقال له: «كن» فكان أسرع من طرفة عين. فقال الحواريون: يا روح الله إنما نريد أن ترينا في هذه الآية آية، فقال: سبحان الله! ما اكتفيتم بهذه الآية!؟ ثم أقبل على السمكة فقال: عودي بإذن الله حية طرية، فعادت تضطرب على المائدة، ثم قال: عودي كما كنت، فعادت مشوية، فقال: يا روح الله كن أنت أول من يأكل منها، فقال: معاذ الله بل يأكل منها من سألها، فلما رأوا امتناعه، خافوا أن يكون نزولها عقوبة، فلما رأى عيسى ذلك دعا لها الفقراء والزمنى واليتامى، فقال: كلوا من رزق ربكم، ودعوة نبيكم، ليكون مهنؤها لكم، وعقوبتها علي غيركم، فأكل منها ألف وسبعمائة إنسان، يصدرون عنها شباعاً وهي كهيتها حين نزلت، فصح كل مريض، واستغنى كل فقير أكل منها، ثم نزلت بعد ذلك عليهم، فازدحموا عليها، فجعلها عيسى نوباً بينهم، فكانت تنزل عليهم أربعين يوماً، تنزل يوماً وتغيب يوماً، وكانت تنزل عند ارتفاع الضحى، فيأكلون منها حتى إذا قالوا، ارتفعت إلى السماء وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض^(١). وقال قتادة: كانت تنزل عليكم بكرة وعشية، حيث كانوا. وقال غيره: نزلت يوم الأحد مرتين. وقيل: نزلت غدوة وعشية يوم الأحد، فلذلك جعلوه عيداً. وفي الذي كان على المائدة ثمانية أقوال: أحدها: أنه خبز ولحم، روي عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ أنه قال: «نزلت المائدة من السماء خبزاً ولحمًا»^(٢). والثاني: أنها سمكة مشوية، وخمس أرغفة، وتمر، وزيتون، ورمان. وقد ذكرناه عن سلمان. والثالث: ثمر من ثمار الجنة، قاله عمار بن ياسر، وقال قتادة: ثمر من ثمار الجنة، وطعام من طعامها. والرابع: خبز، وسمك، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وأبو عبد الرحمن السلمي. والخامس: قطعة من ثريد، رواه الضحاك عن ابن عباس. والسادس: أنه أنزل عليها كل شيء إلا اللحم، قاله سعيد بن جبيرة. والسابع: سمكة فيها طعم كل شيء من الطعام، قاله عطية العوفي. والثامن: خبز أرز ويقل، قاله ابن السائب. والقول الثاني: أنها لم تنزل، روى قتادة عن الحسن أن المائدة لم تنزل، لأنه لما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَدَّ يَنْكَرُ بَدَّ يَنْكَرُ فَإِنْ أَهْبَهُ عَذَابًا لَأَ أَهْبَهُ أَحَدًا مِنَ الْمَلَكِينَ﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها. وروى ابن أبي نجیح عن مجاهد، قال: أنزلت مائدة عليها ألوان من الطعام، فعرضها عليهم، وأخبرهم أنه العذاب إن كفروا، فأبوها فلم تنزل. وروى ليث عن مجاهد قال: هذا مثل ضربه الله تعالى لخلقه، لينهاهم عن مسألة الآيات لأنبيائه، ولم ينزل عليهم شيء، والأول أصح^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَدَّ يَنْكَرُ﴾ أي: بعد إنزال المائدة. وفي العذاب المذكور قولان: أحدهما: أنه المسخ. والثاني: جنس من العذاب لم يعد به أحد سواهم. قال الزجاج: ويجوز أن يعجل لهم في الدنيا، ويجوز أن يكون في الآخرة. وفي «العالمين» قولان: أحدهما: أنه عام. والثاني: عالمو زمانهم. وقد ذكر المفسرون أن جماعة من أصحاب المائدة مسخوا. وفي سبب مسخهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أمروا أن لا يخونوا، ولا يدخروا، فخانوا وادخروا، فمسخوا قروداً وخنازير، رواه عمار بن ياسر عن النبي ﷺ. والثاني: أن عيسى خصص بالمائدة الفقراء، فتكلم الأغنياء بالقيح من القول، وشككوا الناس فيها، وارتابوا، فلما أمسى المرتابون بها، وأخذوا مضاجعهم، مسخهم الله خنازير، قاله سلمان الفارسي. والثالث: أن الذين شاهدوا المائدة، ورجعوا إلى قومهم، فأخبروهم، فضحك بهم من لم يشهد، وقالوا: إنما سحر أعينكم، وأخذ بقلوبكم، فمن أراد الله به خيراً، ثبت على بصيرته، ومن أراد به فتنة، رجع إلى كفره. فلعنهم عيسى، فأصبحوا خنازير، فمكثوا ثلاثة أيام، ثم هلكوا، قاله ابن عباس.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰٓيُوسَىٰ إِنَّ مَرِيمَ ۖ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْٓ لِنَهَائِي ۖ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي ۖ أَنۢ أُنۢزَلَ مَا يَلِيسَ

(١) ذكر الخبر بطوله الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ١١٧/٢ - ١١٨ من رواية ابن أبي حاتم، ثم قال: هذا أثر غريب جداً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٣٤٦/٢، وزاد نسبه إلى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» وأبي الشيخ في «العظمة» وأبي بكر الشافعي في «فوائده» المعروفة بـ «الغليات» عن سلمان الفارسي.

(٢) الطبري ٢٢٨/١١، والترمذي ١٠٢/٤ مرفوعاً ومرفوعاً ولفظه: «أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحمًا، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد، فخانوا وادخروا، ورفعوا لغد، فمسخوا قروداً وخنازير» وجزم بأن المرفوع أصح، وقال: ولا تعرف للحديث المرفوع أصلاً.

(٣) وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأن الله تعالى أخبر بنزوله في قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَزَّلُهَا عَلَيْكَ مِّنۢ نَّبِيٍّ مِّمَّنْ يَكْفُرُ فَإِنۢ أَهْبَهُ عَذَابًا لَّا أَهْبَهُ أَحَدًا مِّنَ الْكٰتِبِينَ﴾ قال: وعدوه ووعده حق وصدق. قال ابن كثير: وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف.

لِي يَحْيَىٰ إِنْ كُنْتَ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَلَمَّ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ في زمان هذا القول قولان: أحدهما: أنه يقوله له يوم القيامة، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج. والثاني: أنه قاله له حين رفعه إليه، قاله السدي، والأول أصح. وفي «إذ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها زائدة، والمعنى: وقال الله، قاله أبو عبيدة. والثاني: أنها على أصلها، والمعنى: وإذ يقول الله له، قاله ابن قتيبة. والثالث: أنها بمعنى: «إذا»، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا﴾ [سبا: ٥١] والمعنى: إذا. قال أبو النجم:

ثُمَّ جَزَاكَ اللَّهُ عُنِّي إِذْ جَزَىٰ جَنَاتِ عَدْنٍ فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَا^(١)

ولفظ الآية لفظ الاستفهام، ومعناها التوبيخ لمن ادعى ذلك على عيسى. قال أبو عبيدة: وإنما قال: «إلهين»، لأنهم إذ أشركوا فعل ذكر مع فعل أنى [عُلب فعل الذكر] ذكروهما. فإن قيل: فالنصارى لم يتخذوا مريم إلهاً، فكيف قال الله تعالى ذلك فيهم؟ فالجواب: أنهم لما قالوا: لم تلد بشراً، وإنما ولدت إلهاً، لزمهم أن يقولوا: إنها من حيث البضية بمثابة من ولده، فصاروا بمثابة من قاله.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ أَي: براءة لك من السوء ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُولِيَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أَي: لست أستحق العبادة، فأدعوا الناس إليها. وروى عطاء بن السائب عن مسيرة قال: لما قال الله تعالى لعيسى: ﴿هَآءَتْ قُلَّتْ لِغَائِبِ أَخِيذِي وَإِنِّي لِلْهَيَّيْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ رُعد كل مفصل منه حتى وقع مخافة أن يكون قد قاله، وما قال: إني لم أقل، ولكنه قال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ فإن قيل: ما الحكمة في سؤال الله تعالى له عن ذلك وهو يعلم أنه ما قاله؟ فالجواب: أنه تثبيت للحجة على قومه، وإكذاب لهم في ادعائهم عليه أنه أمرهم بذلك، ولأنه إقرار من عيسى بالعجز في قوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ وبالعبودية في قوله: ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَلَمَّ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ قال الزجاج: تعلم ما أضمره، ولا أعلم ما عندك علمه، والتأويل: تعلم ما أعلم وأنا لا أعلم ما تعلم.

﴿مَا قُلْتُ قُلُّ إِلَّا مَا آتَيْتَنِي بِهِ إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِدٌ ﴿١١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قال مقاتل: وحده.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا﴾^(٢) أي: على ما يفعلون ما كنت مقيماً فيهم، [وقوله] ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ فيه قولان: أحدهما: بالرفع إلى السماء. والثاني: بالموت عند انتهاء الأجل. و«الرقيب» مشروح في سورة (النساء)، و«الشهيد» في (آل عمران).

﴿إِنْ تُؤْمِنُوا فَلْيُؤْمِرُوا بِعِبَادِكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَلْيُكْفِرُوا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُؤْمِنُوا فَلْيُؤْمِرُوا بِعِبَادِكُمْ﴾ قال الحسن، وأبو العالية: إن تعذبهم، فبإقامتهم على كفرهم، وإن تغفر لهم، فببينة كانت منهم. وقال الزجاج: علم عيسى أن منهم من آمن، ومنهم من أقام على الكفر، فقال في جملتهم: ﴿إِنْ تُؤْمِنُوا﴾ أي: إن تعذب من كفر منهم فإؤمرهم بعبادك، وأنت العادل فيهم، لأنك قد أوضحت لهم الحق، فكفروا،

(١) «الأضداد» لابن الأثير: ١١٩، و«أضداد» أبي الطيب: ٢٨/١، وابن جرير: ٢٣٥/١١، والصاحبي: ١١٢، و«اللسان»: طها. وفيها: العلالى بدل «السماوات» وهي جمع «علية» بكسر العين وتشديد اللام المكسورة، والياء المشددة، وهي الفرة العالية من البيت، وأراد ذلك في (علين) المذكورة في القرآن.

(٢) روى الإمام أحمد ٣٥١/٢، والبخاري ٢١٥/٨، ومسلم ٢١٩٤/٤، وأبو داود الطيالسي ٢٢٥/٢ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حافة حرة غرلاً، ثم قال ﴿كُنَّا بَدَأْنَا أَوَّلَ حَسْبِي فَيُؤْمِرُ وَنَحْنُ عَيْنًا إِيَّاكَ فَتُعَلِّمُ...﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: «ألا وإن أول الخلائق يَكْسَى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاه برجال من أمي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِدٌ﴾ إن تُؤْمِنُوا فَلْيُؤْمِرُوا بِعِبَادِكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَلْيُكْفِرُوا﴾ قال: «فيقال لي: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم». وقوله: «غرلاً» جمع أغرل، أي: غير مختونين، أي: أنهم يحشرون كما خلقوا لا شيء معهم، ولا ينقص منهم شيء، بل يتم لهم كل ما نقص منهم.

وإن تغفر لهم، أي: وإن تغفر لمن أقلع منهم، وآمن، فذلك تفضل منك، لأنه قد كان لك أن لا تغفر لهم بعد عظيم فريتهم، وأنت في مغفرتك لهم عزيز، لا يمتنع عليك ما تريد، حكيم في ذلك. وقال ابن الأنباري: معنى الكلام: لا ينبغي لأحد أن يعترض عليك، فإن عذبتهم؛ فلا اعتراض عليك، وإن غفرت لهم - ولست فاعلاً إذا ماتوا على الكفر - فلا اعتراض عليك. وقال غيره: العفو لا ينقص عرك، ولا يخرج عن حكمك. وقد روى أبو ذر قال: قام رسول الله ﷺ قيام ليلة بأية يرددها: ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ يُعَادِلُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ﴾ (١).

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَمْ يَجْعَلْ يَوْمَ تَحْتَمِلَ الْأَنْهَارُ خَلْدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٢٠) اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَمَوْعِدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَبِيرٌ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قرأ الجمهور برفع اليوم، وقرأ نافع بنصبه على الظرف. قال الزجاج: المعنى: قال الله هذا لعيسى في يوم ينفع الصادقين صدقهم، ويجوز أن يكون على معنى: قال الله هذا الذي ذكرناه يقع في يوم ينفع الصادقين صدقهم. والمراد باليوم: يوم القيامة. وإنما خص نفع الصدق به، لأنه يوم الجزاء. وفي هذا الصدق قولان: أحدهما: أنه صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة. والثاني: صدقه في الآخرة ينفعهم هنالك. وفي هذه الآية تصديق لعيسى فيما قال.

قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: بطاعتهم، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بشوابه. وفي قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تنبيه على عبودية عيسى، وتحريض على تعلق الآمال بالله وحده.



(١) «المسند» ١٤٩/٥ ولفظه عن أبي ذر قال: صلى رسول الله ﷺ ليلة، فقرأ بأية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ يُعَادِلُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ﴾ ﴿١﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها. قال: «سألت ربي ﷻ الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله ﷻ شيئاً» ورجاله ثقات، خلا جسر بنت دجاجة العامرية، فإنه لم يوثقها سوى العجلي وابن حبان، وقال البخاري: عند جسر عجاب. انظر «تهذيب التهذيب» ٤٠٦/١٢.

سورة الأنعام

فصل في نزولها

روى مجاهد عن ابن عباس: أن (الأنعام) مما نزل بمكة. وهذا قول الحسن، وقناة، وجابر بن زيد. وروى يوسف بن مهرا عن ابن عباس قال: نزلت سورة (الأنعام) جملةً ليلاً بمكة، وحولها سبعون ألف ملك^(١). وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هي مكة، نزلت جملة واحدة، ونزلت ليلاً؛ وكتبها من ليلتهم، غير ست آيات وهي: ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الثلاث آيات [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣] وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية [الأنعام: ٩١]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ إلى آخر الآيتين [الأنعام: ٩٣، ٩٤]. وذكر مقاتل نحو هذا. وزاد آيتين: قوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَلْعَنُونَ أَنْتُمْ مَرْكُومٌ مِنْ رَبِّكَ يَلْمِزُوكَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرُقُونَهُ﴾ [الأنعام: ٢١]. وروى عن ابن عباس، وقناة قالوا: هي مكة، إلا آيتين نزلنا بالمدينة؛ قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية [الأنعام: ٩١]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَقْرُونَاتٍ وَظَهْرَ مَقْرُونَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وذكر أبو الفتح ابن شيطا أنها مكة، غير آيتين نزلنا بالمدينة ﴿قُلْ تَكَلَّوْا﴾ والتي بعدها [الأنعام: ١٥١، ١٥٢].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ ﴿

فأما التفسير، فقال كعب: فاتحة (الكهف) فاتحة (الأنعام)، وخاتمتها خاتمة (هود)؛ وإنما ذكر السموات والأرض، لأنهما من أعظم المخلوقات. والمراد «بالجعل»: الخلق. وقيل: إن «جعل» ههنا: صلة؛ والمعنى: والظلمات. وفي المراد بالظلمات والنور ثلاثة أقوال: أحدها: الكفر والإيمان، قاله الحسن. والثاني: الليل والنهار، قاله السدي. والثالث: جميع الظلمات والأنوار. قال قناة: خلق الله السموات قبل الأرض، والظلمات قبل النور، والجنة قبل النار.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: المشركين بعد هذا البيان ﴿بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ﴾، أي: يجعلون له عديلاً، فيعبدون الحجارة الموات، مع إقرارهم بأنه الخالق لما وُصف. يقال: عدلت هذا بهذا: إذا ساوته به. قال أبو عبيدة: هو مقدم ومؤخر، تقديره: يعدلون بربهم. وقال الضُّعْرُ بن شميل: الباء: بمعنى «عن».

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ ﴿

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني: آدم، وذلك أنه لما شك المشركون في البعث، وقالوا: من يحيي هذه العظام؟ أعلمهم أنه خلقهم من طين، فهو قادر على إعادة خلقهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أن الأجل الأول: أجل الحياة إلى الموت، والثاني: أجل الموت إلى البعث، روي عن ابن عباس، والحسن، وابن المسيب، وقناة، والضحاك، ومقاتل. والثاني: أن الأجل الأول: النوم الذي تُقبَضُ فيه الروح، ثم ترجع في حال اليقظة؛ والأجل المسمى عنده: أجل موت الإنسان. رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أن الأجل الأول: أجل الآخرة متى يأتي، والأجل الثاني: أجل الدنيا، قاله مجاهد في رواية. والرابع: أن الأول: خلق الأشياء في ستة أيام، والثاني: ما كان بعد ذلك إلى يوم القيامة، قاله عطاء الخراساني. والخامس: أن الأول: قضاء حين أخذ الميثاق على خلقه، والثاني: الحياة في الدنيا،

(١) ذكره ابن كثير ١٢٢/٢ عن الطبراني في «الكبير» وفيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف ضعفه ابن سعد، والإمام أحمد، وابن معين وغيرهم. وزاد السيوطي في «الدر المنثور» ٢/٣ نسبة لأبي عبيد، وابن الضريس، وابن المنذر، وابن مردويه.

قاله ابن زيد، كأنه يشير إلى أجل الذرية حين أحياهم وخاطبهم. والسادس: أن الأول: أجل من قدمات من قبل، والثاني: أجل من يموت بعد، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ أي بعد هذا البيان ﴿تَمْتَوْنَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: تشكّون، قاله قتادة، والسدي. وفيما شكوا فيه قولان: أحدهما: الوجدانية. والثاني: البعث. والثاني: يختلفون: مأخوذ من المراء، ذكره الماوردي.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: هو المعبود في السموات وفي الأرض، قاله ابن الأنباري. والثاني: وهو المتفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض، قاله الزجاج. والثالث: وهو الله في السموات، ويعلم سرهم وجهركم في الأرض، قاله ابن جرير. والرابع: أنه مقدّم ومؤخّر. والمعنى: وهو الله يعلم سرهم وجهركم في السموات والأرض، ذكره بعض المفسرين.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْمِئِينَ﴾

﴿سَبَّحُوهُ وَبِحَمْدِهِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ نزلت في كفار قريش. وفي «الآية» قولان: أحدهما: أنها الآية من القرآن. والثاني: المعجزة، مثل انشقاق القمر. والمراد بالحق: القرآن. والأنباء: الأخبار. والمعنى: سيعلمون عاقبة استهزائهم.

﴿إِنْ يَرَوْا كَمَ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَرِئُكَ لَكُرٌّ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَوْمَهُمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿كَمَ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ القرن: اسم أهل كل عصر، وسموا بذلك لاقترانهم في الوجود. وللمفسرين في المراد بالقرن سبعة أقوال: أحدها: أنه أربعون سنة، ذكره ابن سيرين عن النبي ﷺ. والثاني: ثمانون سنة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: مائة سنة، قاله عبد الله بن بشر المازني، وأبو سلمة بن عبد الرحمن. والرابع: مائة وعشرون سنة، قاله زُرارة بن أوفى، وإيباس بن معاوية. والخامس: عشرون سنة، حكاه الحسن البصري. والسادس: سبعون سنة، ذكره الفراء. والسابع: أن القرن: أهل كل مدة كان فيها نبي، أو طبقة من العلماء، قَلَّتِ السُّنُونُ، أو كثرت؛ بدليل قوله ﷺ: «خيركم قرني» يعني: أصحابي «ثم الذين يلونهم» يعني: التابعين «ثم الذين يلونهم»^(١) يعني: الذين أخذوا عن التابعين. فالقرن: مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان، فهو في كل قوم على مقدار أعمارهم؛ واشتقاق القرن: من الاقتران. وفي معنى ذلك الاقتران قولان: أحدهما: أنه سمي قرناً، لأنه المقدار الذي هو أكثر ما يقترن فيه أهل ذلك الزمان في بقائهم. هذا اختيار الزجاج. والثاني: أنه سمي قرناً، لأنه يقترن زماناً بزماناً، وأُمَّةً بأمّةٍ، قاله ابن الأنباري. وحكى ابن قتيبة عن أبي عبيدة قال: يرون أن أقل ما بين القرنين: ثلاثون سنة.

قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: أعطيناهم ما لم نُعطِكم. يقال: مَكَّنْتُهُ وَمَكَّنْتُ لَهُ: إذا أقدرتَه على الشيء بإعطاء ما يصح به الفعل من العدة. وفي هذه الآية رجوع من الخبر إلى الخطاب. فأما السماء: فالمراد بها المطر. ومعنى «أرسلنا»: أنزلنا. و «المدرار»: مفعال، من دَرَّ، يَدْرُ؛ والمعنى: نرسلها كثيرة الدَّرِّ. ومفعال: من أسماء

(١) رواه بهذا اللفظ البخاري في «صحيحه» ١٩٠/٥ بشرح «الفتح» عن عمران بن حصين ؓ، وتامه، قال عمران: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة، قال النبي ﷺ: «إن بعدكم قوماً يخوتون ولا يؤمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينزلون ولا يوفون، ويظهر فيهم السن» ورواه البخاري ١٩١/٥، ومسلم ١٩٦٣/٤ في «صحيحهما» عن عبد الله بن مسعود ؓ عنه بلفظ «خير الناس قرني»، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تنشق شهادة أحدهم بيته، ويعينه شهادته» ورواه مسلم ١٩٦٢/٤ بلفظ «خير أمي قرني». وانظر الكلام على هذا الحديث في «فتح الباري» ٥/٧.

المبالغة، كقولهم: امرأة مذكار: إذا كانت كثيرة الولادة للذكور، وكذلك مثنائ. فإن قيل: السماء مؤنثة، فلم دُكر مدرأراً؟! فالجواب: أن حكم ما تعدل من النعوت عن منهاج الفعل وبنائه، أن يلزم التذكير في كل حال، سواء كان وصفاً لمذكر أو مؤنث؛ كقولهم: امرأة مذكار، ومعطار؛ وامرأة مذكر، ومؤنث؛ وهي كفور، وشكور. ولو بُنيت هذه الأوصاف على الفعل، لقيل: كافرة، وشاكرة، ومُذَكِّرة؛ فلما عدل عن بناء الفعل، جرى مجرى ما يستغني بقيام معنى التأنيث فيه عن العلامة؛ كقولهم: النعل لبسُتها، والفأس كسرُتها، وكان إثارهم التذكير للفرق بين المبني على الفعل، والمعدول عن مثل الأفاعيل. والمراد بالمدار: المبالغة في اتصال المطر ودوامه؛ يعني: أنها تَدِرُّ وقت الحاجة إليها؛ لا أنها تدوم ليلاً ونهاراً، فنفسد، ذكره ابن الأنباري.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَسَوْهُ بِإِيدِيهِمْ لَقَالُوا أَلَيْسَ كَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِذْ يَسْمَعُونَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ﴾ سبب نزولها: أن مشركي مكة قالوا: يا محمد، والله لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة، يشهدون أنه من عند الله، وأنت رسوله، فتزلت هذه الآية، قاله ابن السائب. قال ابن قتيبة: والقرطاس: الصحيفة، يقال للرامي إذا أصاب الصحيفة: قُرْطَسَ^(١). قال شيخنا أبو منصور اللغوي: القرطاس قد تكلموا به قديماً. ويقال: إن أصله غير عربي. والجمهور على كسر قافه، وضمها أبو رزين، وعكرمة، وطلحة، ويحيى بن يعمر.

فأما قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْهُ بِإِيدِيهِمْ﴾ فهو تأكيد لنزوله، وقيل: إنما علَّقه باللمس باليد إبعاداً له عن السحر، لأن السحر يَتَحَيَّلُ في المراثيات، دون اللموسات. ومعنى الآية: إنهم يدفعون الصحيح.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَكِّةٌ لَّكُنَّا لَأَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَحْكُمُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَكِّةٌ﴾ قال مقاتل: نزلت في النضر بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل بن حُوَيْلِدٍ؛ و «الولا» بمعنى «هلا» ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا مَكِّةٌ﴾ نصده؛ ﴿وَلَوْ أُنزِلْنَا مَكِّةً﴾ فعابنوه ولم يؤمنوا، ﴿لَقَبَّيْنَا الْأَمْرَ﴾؛ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: لامتوا، ولم يؤخروا طرفة عين لتوبة، قاله ابن عباس. والثاني: لقامت الساعة، قاله عكرمة، ومجاهد. والثالث: لعجل لهم العذاب، قاله قتادة.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَكًّا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَكًّا﴾ أي: ولو جعلنا الرسول إليهم مَكًّا، لجعلناه في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون رؤية المَلَكِ عى صورته، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: لشبَّنا عليهم. يقال: ألْبَسْتُ الأمر على القوم، ألْبَسَهُ: أي: شبَّهته عليهم، وأشكلته. والمعنى: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتى يشكوا، فلا يدرون أَمَلَكُ هو، أم آدمي؟ فأضللناهم بما به ضلوا، قبل أن يُبعث المَلَكُ. وقال الزجاج: كانوا يلبسون على ضعفهم في أمر النبي ﷺ، فيقولون: إنما هذا بشر مثلكم؛ فقال تعالى: لو رأوا المَلَكُ رجلاً، لكان يلحقهم فيهِ من اللبْسِ مثلُ ما لحق ضعفهم منه. وقرأ الزهري، ومعاذ القارئ، وأبو رجاء: «وللبسنا»، بالتشديد، «عليهم ما يلبسون»، مشددة أيضاً.

﴿وَلَقَدْ أَسْمَعْتَنِي رَسُولٌ مِنْ رَبِّكَ فَحَقَّقَ بِالذِّكْرِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَحَقَّقَ بِالذِّكْرِ سَخِرُوا﴾ أي: أحاط. قال الزجاج: الحيق في اللغة: ما اشتمل على الإنسان من

(١) اختصر المؤلف رحمه الله كلام ابن قتيبة، وإليك نصه بتمامه من «غريب القرآن» ١٥٠: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ﴾ أي: صحيفة، وكذلك قوله: ﴿تَجَمَّلُوا قَرَابِيسٍ﴾ أي: صحفاً. قال المرار:

بمعد الرُّمَّانِ عرْفَتُهُ بِالْقِرْطَاسِ
عَمَّيَ الْمَنَاوِلَ غَيْرَ مِثْلِ الْأَنْفُسِ
عَمَّيَ الْكُتُبِ وَقَدْ يُرَى لَمْ يَغْمَسِي
فَوَقَفْتُ تَعْتَرِفُ الصُّحُفَةَ بَعْدَمَا
وَالْأَنْفُسُ: جمع نفس، مثل قلع وأقح وأقحاح. أراد غير مثل النفس عرنته بالقرطاس، ثم قال: «فوقفت تعترف الصحيفة» فأعلمك أن القرطاس هو الصحيفة، ومنه يقال للرامي إذا أصاب: قرطس، إنما يراد أصاب الصحيفة.

مكروه فعله، ومنه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٤٣]؛ أي: ترجع عاقبة مكروهه إلا عليهم. قال السدي: وقع بهم العذاب الذي استهزؤوا به.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المعنى: فإن أجابوك، وإلا فـ ﴿قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ قال ابن عباس: قضى لنفسه أنه أرحم الراحمين. قال الزجاج: ومعنى كتب: أوجب ذلك إيجاباً مؤكداً، وجائز أن يكون كتب في اللوح المحفوظ؛ وإنما حُوِّطَ الخلق بما يعقلون، فهم يعقلون أن تؤكد الشيء المؤخر أن يحفظ بالكتاب. وقال غيره: رحمته عامة؛ فمنها تأخير العذاب عن مستحقه، وقبول توبة العاصي.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْمعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ اللام: لام القسم، كأنه قال: والله ليجمعنكم إلى اليوم الذي أنكرتموه. وذهب قوم إلى أن «إلى» بمعنى: «في». ثم اختلفوا، فقال قوم: في يوم القيامة. وقال آخرون: في قبوركم إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَيْرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بالشرك، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لِمَا سبق فيهم من القضاء. وقال ابن قتيبة: قوله: ﴿الَّذِينَ خَيْرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ مردود إلى قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ الذين خسروا.

﴿وَلَكُمْ مَا سَكَنَ فِي الْبَيْتِ وَالْقَهَارِ وَهُوَ السَّيِّحُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ مَا سَكَنَ فِي الْبَيْتِ وَالْقَهَارِ﴾ سبب نزولها أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: قد علمنا أنه إنما يحملكم على ما تدعوننا إليه الحاجة؛ فنحن نجعل لك نصيباً في أموالنا حتى تكون من أغنانا رجلاً، وترجع عما أنت عليه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. وفي معنى «سكن» قولان: أحدهما: أنه من السكنى. قال ابن الأعرابي: «سكن» بمعنى حلّ. والثاني: أنه من السكون الذي يضاد الحركة. قال مقاتل: من المخلوقات ما يستقر بالنهار، وينتشر بالليل؛ ومنها ما يستقر بالليل، وينتشر بالنهار. فإن قيل: لم خص السكون بالذكر دون الحركة؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن السكون أعم وجوداً من الحركة. والثاني: أن كل متحرك قد يسكن، وليس كل ساكن يتحرك. والثالث: أن في الآية إضماراً؛ والمعنى: وله ما سكن وتحرك؛ كقوله: ﴿تَفِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٤٨٢] أراد: والبرد؛ فاختصر.

﴿قُلْ أَغْيَرُ اللَّهُ أَغْيَدُ وَإِلَّا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِعمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنَّي أُمِرْتُ أَنْ أُكْفِرَ مِنْ آسَافٍ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرُ اللَّهُ أَغْيَدُ وَإِلَّا﴾ ذكر مقاتل أن سبب نزولها، أن كفار قريش قالوا: يا محمد، ألا ترجع إلى دين آبائك؟ فنزلت هذه الآية. وهذا الاستفهام معناه الإنكار؛ أي: لا أتخذ ولياً غير الله أتولاه، وأعبده، وأستعنه.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الجمهور على كسر راء «فاطر». وقرأ ابن أبي عبله برفعها. قال أبو عبيدة: الفاطر، معناه: الخالق. وقال ابن قتيبة: المبتدئ. ومنه «كل مولود يولد على الفطرة»^(١) أي: على ابتداء الخلقة، وهو الإقرار بالله حين أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم. وقال ابن عباس: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر؛ فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: أنا ابتدأتها. قال الزجاج: إن قيل: كيف يكون الفطر بمعنى الخلق؟ والانفطار: الانشقاق في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت﴾ ﴿١﴾ [الانفطار: ١] فالجواب: إنما يرجعان إلى شيء واحد، لأن معنى «فطرهما»: خلقهما خلقاً قاطعاً. والانفطار، والفطور: تقطع وتشقق.

(١) البخاري (١٩٧/٣) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تتجج البهيمة، هل ترى فيها جدها»، ورواه البخاري أيضاً (١٧٦/٣) ومسلم في «صحيحه» (٢٠٤٧/٤) بلفظ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة» ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَوَلَدَتْهُ اللَّهُ أَلْبَنِي فَكُلُّ نَاسٍ مَلَكٌ لَا يُبَدِّلُ لَيْقِنَ اللَّهُ﴾ الآية. ورواه أحمد في «المستند» عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه، إما شاكراً، وإما كفوراً» وفي رواية لمسلم (٢٠٤٨/٤): «ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه، وفي رواية له أيضاً: «حتى يبين عنه لسانه».

قوله تعالى: ﴿وَمَوْ يُؤْمِرُ وَلَا يُنْعَمُ﴾ قرأ الجمهور بضم الياء من الثاني؛ ومعناه: وهو يَرْزُق ولا يُرْزُق، لأن بعض العبيد يرزق مولاه. وقرأ عكرمة والأعمش «ولا يطعم» بفتح الياء. قال الزجاج: وهذا الاختيار عند البصراء بالعربية، ومعناه: وهو يَرْزُق وَيُطْعِمُ ولا يأكل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أُوتِيتُ أَنْ أَكُونَ أَوْلَىٰ مِنْ أَسْتَدِّ أَي: أول مسلم من هذه الأمة؛ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال الأخفش: معناه: وقيل لي: لا تكوننَّ، فصارت: أمرت، بدلاً من ذلك؛ لأنه حين قال: أمرت، قد أخبر أنه قيل له.

﴿قُلْ إِنَّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٥﴾ زعم بعض المفسرين أنه كان يجب عليه أن يخاف عاقبة الذنوب، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿لِيَعْلَمَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٣] والصحيح أن الآيتين خبر، والخبر لا يدخله النسخ، وإنما هو معلق بشرط، ومثله: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَجْبَطَنَّ عَنَّا﴾ [الزمر: ٦٦].

﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ الْقَرَارُ الْأَمِينُ﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم ﴿مَنْ يَصْرِفْ﴾ بضم الياء وفتح الراء، يعنون: العذاب. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «يَصْرِفُ» بفتح الياء وكسر الراء؛ الضمير قوله: ﴿إِنَّ عَصَيْتُ رَبِّي﴾؛ ومما يحسنُ هذه القراءة قوله ﴿فَقَدْ رَحِمْنَاهُ﴾، فقد اتفق إسناد الضميرين إلى اسم الله تعالى، ويعني بقوله: ﴿يَصْرِفُ﴾ العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، يعني: يوم القيامة، ﴿وَذَلِكَ﴾ يعني: صرف العذاب.

﴿وَلَنْ يَسْتَسْكَنَ اللَّهُ يَصْرِفَ فَلَا كَافِيَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْتَسْكَنَ يَحْتَرِفْ فَوَيْلٌ لِمَنْ يَحْتَرِفُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَسْكَنَ اللَّهُ يَصْرِفَ﴾ الضم: اسم جامع لكل ما ينتفع به الإنسان. وللمفسرين في الضم والخبر قولان: أحدهما: أن الضم: السقم؛ والخير: العافية. والثاني: أن الضم: الفقر، والخير: الغنى.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْكَلِيمُ الْقَلِيدُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الغالب، والقهر: الغلبة. والمعنى: أنه قهر الخلق فصرفهم على ما أراد طوعاً وكرهاً؛ فهو المستعلي عليهم، وهم تحت التسخير والتذليل.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُذَكِّرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ إِلَيْكُمْ لِتَشْهَدُونَ أَتَىٰ مَعَ اللَّهِ الْمَاهَةَ أَخْرَجًا قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ سبب نزولها: أن رؤساء مكة أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، ما نرى أحداً يصدقك بما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد أنك رسول الله؛ فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. ومعنى الآية: قل لقريش: أي شيء أعظم شهادة؟ فإن أجابوك، وإلا فقل: الله، وهو شهيد بيني وبينكم على ما أقول. وقال الزجاج: أمره الله أن يحتج عليهم بأن شهادة الله في نبوته أكبر شهادة، وأن القرآن الذي أتى به، يشهد له أنه رسول الله، وهو قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُذَكِّرَكُمْ بِهِ﴾ ففي الإنذار به دليل على نبوته، لأنه لم يأت أحد بمثله، ولا يأتي؛ وفيه خبر ما كان وما يكون؛ ووعده فيه بأشياء، فكانت كما قال. وقرأ عكرمة، وابن السميع، والجحدري ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾ بفتح الهمزة والحاء: «القرآن» بالنصب؛ فأما «الإنذار»، فمعناه: التخويف، ومعنى ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: من بلغ إليه هذا القرآن، فإني نذير له. قال القرطبي: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ، وكلمه^(١). وقال أنس بن مالك: لما نزلت هذه الآية، كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقبصر وكل جبار يدعوهم إلى الله ﷻ.

(١) الطبري ٢٩١/١١ دون قوله: «وكلمه» وفيه: ثم قرأ ﴿وَمَنْ بَلَغَ إِلَيْكُمْ لِتَشْهَدُونَ﴾ ونسبه ابن كثير: ١٢٦/٢ إلى ابن أبي حاتم، وقال: زاد أبو خالد - وهو أحد رواة الخبر - «وكلمه».

قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ هذا استفهام معناه الإنكار عليهم. قال الفراء: وإنما قال: «أخرى» ولم يقل: «آخر» لأن الألهة جمع؛ والجمع يقع عليه التانيث، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨١] وقال: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥٢].

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَرْجُونَهُمْ كَمَا يَرْجُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ حَسَبُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ في الكتاب قولان: أحدهما: أنه التوراة والإنجيل؛ وهذا قول الجمهور. والثاني: أنه القرآن. وفي هاء «يعرفونه» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى النبي ﷺ، قاله السدي. وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن سلام: إن الله قد أنزل على نبيه بمكة ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَرْجُونَهُمْ كَمَا يَرْجُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٧، والأقسام: ٢١] فكيف هذه المعرفة؟ فقال: لقد عرفته حين رأته كما أعرف ابني، ولأننا أشد معرفة بمحمد ﷺ مني بابني. فقال عمر: وكيف ذلك؟ فقال: إني أشهد أنه رسول الله حقاً، ولا أدري ما يصنع النساء. والثاني: أنها ترجع إلى الدين والنبي. فالمعنى: يعرفون الإسلام أنه دين الله ﷻ، وأن محمداً رسول الله، قاله قتادة. والثالث: أنها ترجع إلى القرآن. فالمعنى: يعرفون الكتاب الدال على صدقه؛ ذكره الماوردي. وفي ﴿الَّذِينَ حَسَبُوا أَنفُسَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنهم مشركو مكة. والثاني: كفار أهل الكتابين.

﴿وَمَنْ أَظْلَرُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَرُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْ الظَّالِمِينَ﴾ أي: اختلق على الله الكذب في ادعاء شريك معه. وفي «آياته» قولان: أحدهما: أنها محمد والقرآن، قاله ابن السائب. والثاني: القرآن، قاله مقاتل. والمراد بالظلم المذكور في هذه الآية: الشرك.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِمْماً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِمْماً﴾ انتصب «اليوم» بمحذوف تقديره: واذكر يوم نحشرهم. قال ابن جرير: والمعنى: لا يفلحون اليوم، ولا يوم نحشرهم. وقرأ يعقوب: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ «ثُمَّ يَقُولُ» بالياء فيهما. وفي الذين عنى قولان: أحدهما: المسلمون والمشركون. والثاني: العابدون والمعبدون. وقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ﴾ سؤال توبيخ. والمراد بشركائهم: الأوثان؛ وإنما أضافها إليهم لأنهم زعموا أنها شركاء لله. وفي معنى: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ قولان: أحدهما: يزعمون أنهم شركاء مع الله. والثاني: يزعمون أنها تشفع لهم.

﴿ثُمَّ لَوْ كُنَّا يَفْقَهُنَّ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ كُنَّا يَفْقَهُنَّ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «ثم لم تكن» بالياء، «فنتنهنهم» بالرفع. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «تكن» بالياء أيضاً، «فنتنهنهم» بالنصب؛ وقد رويت عن ابن كثير أيضاً. وقرأ حمزة، والكسائي: «يكن» بالياء، «فنتنهنهم» بالنصب. وفي «الفتنة» أربعة أقوال: أحدها: أنها بمعنى الكلام والقول. قال ابن عباس، والضحاك: لم يكن كلامهم. والثاني: أنها المعذرة. قال قتادة، وابن زيد: لم تكن معذرتهم. قال ابن الأنباري: فالمعنى: اعتذروا بما هو مهلكٌ لهم، وسبب لفضيحتهم. والثالث: أنها بمعنى البلية. قال عطاء الخراساني: لم تكن بليتهم. وقال أبو عبيد: لم تكن بليتهم التي ألزمتهم الحجة، وزادتهم لائمة. والرابع: أنها بمعنى الافتتان. والمعنى: لم تكن عاقبة فتنهم. قال الزجاج: لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه، إلا أن تبرؤوا منه. ومثل ذلك في اللغة أن ترى إنساناً يحب غاوباً، فإذا وقع في هلكة تبرأ منه؛ فيقول: ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتضيت منه. قال: وهذا تأويل لطيف، لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام، وتصرفت العرب في ذلك. وقال ابن الأنباري: المعنى: أنهم افتتنوا بقولهم هذا، إذ كذبوا فيه، ونفوا عن أنفسهم ما كانوا معروفين به في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «والله

ربنا» بكسر الباء. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: بنصب الباء. وفي هؤلاء القوم الذين هذا وصفهم قولان: أحدهما:

أنهم المشركون. والثاني: المنافقون^(١). ومتى يحلفون؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا من كان مسلماً، قالوا: تعالوا نكابر عن شركنا، فحلفوا، قاله ابن عباس^(٢). والثاني: أنهم إذا دخلوا النار، ورأوا أهل التوحيد يخرجون، حلفوا [واعترضوا]، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد. والثالث: أنهم إذا سئلوا: أين شركاؤكم؟ تبرؤوا، وحلفوا: ما كنا مشركين، قاله مقاتل.

﴿أَشْزَرَ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿أَشْزَرَ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: باعتذارهم بالباطل. ﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهب ما كانوا يدعون ويختلفون من أن الأصنام شركاء الله، وشفعاؤهم في الآخرة.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَعِجِ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كَلِمًا مَّا يُؤْتُوا بِهَا حَسًّا إِذَا كَانَ لَهُمْ كَيْدٌ يُكْرَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يَهْتَمَّ عَنَّا وَيَتَوَكَّرْ عَنَّا وَإِن يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَن يَسْتَعِجِ إِلَيْكَ﴾ سبب نزلوها: أن نفرأ من المشركين، منهم عتبة، وشيبة، والنضر بن الحارث، وأميمة وأبي ابنا خلف، جلسوا إلى رسول الله ﷺ، واستمعوا إليه، ثم قالوا للنضر بن الحارث: ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعلها بيئة، ما أدري ما يقول؟ إلا أنني أرى تحرك شفتيه، وما يقول إلا أساطير الأولين، مثلما كنت أحدثكم عن القرون الماضية؛ وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. فأما «الأكثة»، فقال الزجاج: هي جمع كنان، وهو الغطاء؛ مثل عنان وأعنة. وأما: «أن يفقهوه»، فمنسوب على أنه مفعول له. المعنى: وجعلنا على قلوبهم أكثة لكرهه أن يفقهوه، فلما حذف اللام، نصبت الكراهة؛ ولما حذف الكراهة، انتقل نصبها إلى «أن». «الوقر»: يقل السمع، يقال: في أذنه وقر، وقد وقرت الأذن، تُوقر. قال الشاعر:

وكلام سبيءٍ قد وقرت

أذني عنه وما بي من صمم^(٣)

والوقر، بكسر الواو: أن يُحمّل البعير وغيره مقدار ما يطبق، يقال: عليه وقر، ويقال: نخلة موقر، وموقرة. وإنما فعل ذلك بهم مجازة لهم بإقامتهم على كفرهم، وليس المعنى أنهم لم يفقهوه، ولم يسمعه؛ ولكنهم لما عدلوا عنه، وصرفوا فكرهم عما عليهم في سوء العاقبة، كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع. ﴿وَإِن يَرَوْا كَلِمًا مَّا يُؤْتُوا بِهَا حَسًّا﴾ أي: كل علامة تدل على رسالتك، ﴿لَا يُؤْتُوا بِهَا﴾. ثم أعلم الله ﷻ مقدار احتجاجهم وجدلهم، وأنهم إنما يستعملون في الاحتجاج أن يقولوا: ﴿إِن هَذَا﴾، أي: ما هذا ﴿إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها ما سطر من أخبارهم وأحاديثهم. روى أبو صالح عن ابن عباس قال: أساطير الأولين: كذبهم، وأحاديثهم في دهرهم. وقال أبو الحسن الأخفش: يزعم بعضهم أن واحدة الأساطير: أسطورة. وقال بعضهم: أسطورة؛ ولا أراه إلا من الجمع الذي ليس له واحد، نحو عباديد، ومذاكير، وأبابل. وقال ابن قتيبة: أساطير الأولين: أخبارهم وما سطر منها، أي: ما كتب، ومنه قوله: ﴿تَ وَالْقَلْبِ وَمَا يُسْطَرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [القلم] أي: يكتبون، واحدها سطر، ثم أسطار، ثم أساطير جمع الجمع، مثل قول، وأقوال، وأقاويل^(٤). والقول الثاني: أن معنى أساطير الأولين: الترهات. قال أبو عبيدة: واحد الأساطير: أسطورة، وإسطارة، ومجازها مجاز الترهات. قال ابن الأنباري: الترهات عند العرب: طرق غامضة، ومسالك مشككة، يقول قائلهم: قد

(١) قال ابن كثير بعد أن نقل هذا القول عن ابن عباس: وفيه نظر، فإن هذه الآية مكية، والمناقفون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المناقين آية ﴿مِنْهُمْ يَسْتَعِجِ إِلَيْكَ﴾ [المجادلة: ١٨].

(٢) الطبري ٣٠٢/١١، وذكره ابن كثير ١٢٧/٧ عن ابن أبي حاتم وإسناده حسن، ونصه: عن سعيد بن جبير قال: أتى رجل ابن عباس فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا نَجْنَا تَا كَمَا مُشْرِكِينَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٤٢] قال ابن عباس: أما قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا نَجْنَا تَا كَمَا مُشْرِكِينَ﴾ فإنه لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا نجعد، فقالوا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا نَجْنَا تَا كَمَا مُشْرِكِينَ﴾ فنحن الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهُ شَيْئًا﴾ وفي رواية للطبري ٣٧٤/٨: تبين أن السائل هو نافع بن الأزرق، وكان يأتي ابن عباس ليلقي عليه من مشابه القرآن.

(٣) البيت للمصنف البغدادي من قصيدة حكيمية جيدة أثبتها صاحب «المفضليات» ٢٩٣.

(٤) «غريب القرآن» ٣٧.

أخذنا في ترهات البسباس، يعني: قد عدلنا عن الطريق الواضح إلى المشكل؛ وعمّا يعرف إلى ما لا يعرف. و«البسباس»: الصحاري الواسعة، والترّهات: طرق تشعب من الطريق الأعظم، فتكثر وتُشكّل، فجُعلت مثلاً لما لا يصح وينكشف. فإن قيل: لم عابوا القرآن بأنه أساطير الأولين، وقد سطر الأولون ما فيه علم وحكمة. وما لا عيب على قائله؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنهم نسبوه إلى أنه ليس بوحى من الله. والثاني: أنهم عابوه بالإشكال والغموض، استراحة منهم إلى البهت والباطل. فعلى الجواب الأول تكون «أساطير» من التسطير، وعلى الثاني تكون بمعنى الترهات، وقد شرحنا معنى الترهات.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَبْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن أبا طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ، ويتباعدوا عما جاء به، فنزلت فيه هذه الآية، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وهو قول عمرو بن دينار، وعطاء بن دينار، والقاسم بن مخيمرة^(١). وقال مقاتل: كان رسول الله ﷺ عند أبي طالب يدعو إلى الإسلام، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون بالنبي ﷺ سوءاً، فسألوا أبا طالب أن يدفعه إليهم فيقتلوه، فقال: ما لي عنه صبر؛ فقالوا: ندفع إليك من شبابنا من شئت مكان ابن أخيك؛ فقال أبو طالب: حين تروح الإبل، فإن حنت ناقة إلى غير فصيلها دفعته إليك، وقال:

وَاللّٰهُ لَنْ يَصِلُوْا اِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ
فَاضْدَعُ بِاَمْرِكَ مَا عَلَيْنِكَ غَضَاصَةٌ
وَعَرَضَتْ دِينًا لَا مَحَالَهٗ اَنْهٗ
لَوْ اَلَمَلَاْمَةُ اَوْ حَذَارِي سُبَّةٌ
حَتَّى اَوْسَدَ فِي التُّرَابِ دَفِينًا
وَاِبْشُرْ وَقَرَّبَ بِذَاكَ مِنْكَ عُيُونًا
مِنْ خَيْرِ اَذْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْ جَدْتَنِي سَمَحًا بِذَاكَ مُبِينًا

فنزلت فيه هذه الآية. والثاني: أن كفار مكة كانوا يبهون الناس عن اتباع النبي ﷺ، ويتباعدون بأنفسهم عنه، رواه الوابي عن ابن عباس، وبه قال ابن الحنفية، والضحاك، والسدي. فعلى القول الأول، يكون قوله: «وهم» كناية عن واحد؛ وعلى الثاني: عن جماعة. وفي هاء «عنه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى النبي ﷺ. ثم فيه قولان: أحدهما: يبهون عن أذاه. والثاني: عن أتباعه. والقول الثاني: أنها ترجع إلى القرآن، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد. بمعنى يبعدون. وفي هاء «عنه» قولان: أحدهما: أنها راجعة إلى النبي ﷺ. والثاني: إلى القرآن. قوله تعالى: ﴿وَلَا يُمَلِّكُنَّ﴾ أي: وما يهلكون ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالتباعد عنه ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يهلكونها.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُؤْتَىٰ عَلَى الْكَنْبِ فَقَالُوا لَوْلَا رَبَّنَا هَذَا الَّذِي كَذَّبَ بِآيَاتِنَا رَبَّنَا وَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُؤْتَىٰ عَلَى الْكَنْبِ﴾ في معنى «وقفوا» ستة أقوال: أحدها: حبسوا عليها، قاله ابن السائب. والثاني: غرضوا عليها، قاله مقاتل. والثالث: عاينوها. والرابع: وقفوا عليها وهي تحتهم. والخامس: دخلوا إليها ففرقوا مقدار عذابها، تقول: وقفت على ما عند فلان، أي: فهمته وتبينته، ذكر هذه الأقوال الثلاثة الزجاج، واختار الأخير. وقال ابن جرير: «على» هاهنا بمعنى «في». والسادس: جعلوا عليها وقفاً، كالوقوف المؤبدة على سبيلها، ذكره الماوردي. والخطاب بهذه الآية للنبي ﷺ، والوعيد للكفار، وجواب «لو» محذوف، ومعناه: لو رأيتم في تلك الحال، لرأيت عجباً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْذِبْ بِآيَاتِنَا رَبَّنَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم برفع الباء من «تكذب»، والنون من «تكون». قال الزجاج: والمعنى أنهم تمنوا الرد، وضمنوا أنهم لا يكذبون. والمعنى: يا ليتنا نُرد، ونحن لا نكذب بآيات ربنا، رُدُّنا أو لم نُرد، ونكون من المؤمنين، لأننا قد عاينا ما لا نكذب معه أبداً. قال: ويجوز الرفع على وجه آخر، على معنى «يا ليتنا نرد»، يا ليتنا لا نكذب، كأنهم تمنوا الرد والتوفيق للتصديق. وقال الأخفش: إذا رفعت جعلته على مثل اليمين، كأنهم قالوا: ولا نكذب - واللّه - بآيات ربنا، ونكون - والله - من المؤمنين.

(١) هو أبو عروة القاسم بن مخيمرة الهمداني الكوفي، نزيل دمشق، ثقة فاضل مترجم في «التهذيب».

وقرأ حمزة إلا العجلي^(١)، وحفص عن عاصم، ويعقوب: بنصب الباء من «نكذب»، والنون من «نكون». قال مكي بن أبي طالب: وهذا النصب على جواب التمني، وذلك بإضمار «أن»، حملاً على مصدر «نرد»، فأضمرت «أن» لتكون مع الفعل مصدرًا، فعطف بالواو مصدرًا على مصدر. وتقديره: يا ليت لنا رداً، وانتفاءً من التكذيب، وكوناً من المؤمنين.

وقرأ ابن عامر برفع الباء من «نكذب»، ونصب النون من «نكون»؛ فالرفع قد بينا علته، والنصب على جواب التمني.

﴿بَلْ بَدَأَ لَكُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٧٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَسْعُورِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَكُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ﴾ «بل»: هاهنا ردٌ لكلامهم، أي: ليس الأمر على ما قالوا من أنهم لو ردوا لآمنوا. وقال الزجاج: «بل» استدراك وإيجاب بعد نفي؛ تقول: ما جاء زيد، بل عمرو. وفي معنى الآية أربعة أقوال: أحدها: بدأ ما كان يخفيه بعضهم عن بعض، قاله الحسن. والثاني: بدأ بنطق الجوارح ما كانوا يخفون من قبل بالسنتهم، قاله مقاتل. والثالث: بدأ لهم جزاء ما كانوا يخفونه، قاله المبرد. والرابع: بدأ للاتباع ما كان يخفيه الرؤساء، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ قال ابن عباس: لعادوا إلى ما نهوا عنه من الشرك، وإنهم لكاذبون في قولهم: ﴿وَلَا تَكْذِبْ يَأْتِي رَبِّيَا وَتَكُونُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. قال ابن الأنباري: كذبهم الله في إخبارهم عن أنفسهم، أنهم إن رُدُّوا، آمنوا ولم يكذبوا، ولم يكذبهم في التمني.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ هذا إخبار عن منكري البعث. قال مقاتل: لما أخبر النبي ﷺ كفار مكة بالبعث، قالوا هذا. وكان عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول: هذا حكاية قولهم، لو ردوا لقالوه.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ النَّاسُ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ قال مقاتل: عُرِضُوا على ربهم ﴿قَالَ النَّاسُ هَذَا الْعَذَابُ بِالْحَقِّ﴾. وقال غيره: أليس هذا البعث حقاً؟ فعلى قول مقاتل: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالعذاب، وعلى قول غيره: ﴿تَكْفُرُونَ﴾ بالبعث.

﴿فَدَخَرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا إِلَهًا كَذَّبُوا إِلَهًا كَذَّبُوا إِلَهُ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بِنُتَيْهِمْ قَالُوا أَلَمْ نَحْزَنْكَ عَلَىٰ مَا قَرَّبْنَا فِيهَا وَهَمْ يَحْمِلُونَ أَوْثَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَدَخَرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا إِلَهًا كَذَّبُوا إِلَهُ﴾ إنما وُصِفُوا بالخسران، لأنهم باعوا الإيمان بالكفر، فعظم خسرانهم. والمراد بقاء الله: البعث والجزاء، والساعة: القيامة؛ والبغته: المفاجأة. قال الزجاج: كل ما أتى فجأة فقد بغت، يقال: قد بغته الأمر يَبْغُتُهُ بَغْتًا وبِغْتَةً؛ إذا أتاه فجأة. قال الشاعر:

وَلَسِكُنُّهُمْ بَأْسًاوَلَمْ أَحْسَنْ بَغْتَةً وَأَفْطَحُ شَيْءٍ حِينٍ يَفْجَأُكَ الْبَغْتُ^(٢)

قوله تعالى: ﴿يَحْزَنُونَ﴾ الحسرة: التلهف على الشيء الفاتئ، وأهل التفسير يقولون: يا ندامتنا. فإن قيل: ما معنى دعاء الحسرة، وهي لا تعقل؟ فالجواب: أن العرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن عظيم ما تقع فيه، جعلته نداءً، فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ «يا» للتنبية، والمراد تنبيه الناس لا تنبيه المنادى. ومثله قولهم: لا أرىك هاهنا، لفظه لفظ الناهي لنفسه، والمعنى للمنيه؛ ومن هذا قولهم: يا حَيْلُ الله اركبي، يراد: يا فرسان خيل الله. وقال سيبويه: إذا قلت: يا عجباه، فكأنك قلت: احضر وتعال يا عَجَبٌ، فهذا زمانك. فأما التفریط فهو: التضييع. وقال الزجاج: التفریط في اللغة: تقدمة العجز^(٣). وفي المكني عنه بقوله: «فيها» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الدنيا، فالمعنى: على ما

(١) هو أبو أحمد عبد الله بن صالح بن مسلم بن صالح العجلي الكوفي نزيل بغداد، مقرر مشهور ثقة، أخذ القراءة عرضاً عن حمزة الزيات، وعن سليم عن حمزة أيضاً، مات في حدود العشرين ومائتين.

(٢) «مجاز القرآن» ١/١٩٣، و«الكامل» ٨٧٨، و«اللسان»: بغت، وهو ليزيد بن ضبة مولى لثيف، واسم أبيه مقسم، وضبة أمه، غلبت على نسبه، لأن أباه مات وخلفه صغيراً. وهو شاعر إسلامي.

(٣) في «اللسان»: وقال الزجاج: ﴿وَكَاذِبٌ أَمْرُهُ يُرْمَى﴾، أي: كان أمره التفریط، وهو تقديم العجز.

ضيعنا في الدنيا من عمل الآخرة، قاله مقاتل. والثاني: أنها الصَّفقة، لأن الخسران لا يكون إلا في صفقة، وترك ذكرها اكتفاءً بذكر الخسران؛ قاله ابن جرير. والثالث: أنها الطاعة، ذكره بعض المفسرين. فأما الأوزار، فقال ابن قتيبة: هي الأثام، وأصل الوزر: الحمل على الظهر. وقال ابن فارس: الوزر: الثقل. وهل هذا الحمل حقيقة؟ فيه قولان: أحدهما: أنه على حقيقته. قال عمير بن هاني: يحشر مع كل كافر عمله في صورة رجل قبيح، كلما كان هُوْلُ عَظْمه عليه، وزاده خوفاً، فيقول: بشس الجليس أنت، مالي ولك؟ فيقول: أنا عمك، طالما ركبتني في الدنيا، فلا ريكك اليوم حتى أخزيك على رؤوس الناس، فيركبه ويتخطى به الناس حتى يقف بين يدي ربه، فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ وهذا قول السدي، وعمرو بن قيس الملائي^(١)، ومقاتل. والثاني: أنه مثل، والمعنى: يحملون ثقل ذنوبهم، قاله الزجاج. قال فجعل ما ينالهم من العذاب بمنزلة أثقل ما يُثَحَّمَل، ومعنى ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُونَ﴾: بشس الشيء شيئاً يزرونه، أي يحملونه.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَيْبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّ الَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَيْبٌ وَلَهْوٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: وما الحياة الدنيا في سرعة انقطاعها، وقصر عمرها، إلا كالشيء يلعب به. والثاني: وما أمر الدنيا والعمل لها إلا لعب ولهو، فأما فعل الخير، فهو من عمل الآخرة، لا من الدنيا. والثالث: وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو، لاشتغالهم عما أمروا به. واللعب: ما لا يُجدي نفعاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ اللام: لام القسم، والدار الآخرة: الجنة ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ فيعملون لها. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، «يعقلون» بالياء، في (الأنعام) و (الأعراف) و (يوسف) و (يس)، وقرؤوا في (القصص) بالتاء. وقرأ نافع كل ذلك بالياء، وروى حفص عن عاصم كل ذلك بالتاء، إلا في (يس) ﴿فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس: ٦٧)، بالياء. وقرأ ابن عامر الذي في (يس) بالياء، والباقي بالتاء.

﴿قَدْ نَعَمَ إِنَّهُمْ لَيَسُوءُونَ أَعْيُنَنَا بِكَلِمَاتِهِمْ لِيُرْجُوا النَّاسَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعَمَ إِنَّهُمْ لَيَسُوءُونَ أَعْيُنَنَا بِكَلِمَاتِهِمْ لِيُرْجُوا النَّاسَ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن رجلاً من قريش يقال له: الحارث بن عامر، قال: والله يا محمد ما كذبتنا قط فنتهمك اليوم، ولكننا إن نتبعك نتخطف من أرضنا، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: كان الحارث بن عامر يكذب النبي في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته، قال: ما محمد من أهل الكذب، فنزلت فيه هذه الآية. والثاني: أن المشركين كانوا إذا رأوا النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: إنه لنبى، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح. والثالث: أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب الذي جئت به، فنزلت هذه الآية، قاله ناجية بن كعب^(٢). وقال أبو يزيد المدني: لقي رسول ﷺ أبا جهل، فصافحه أبو جهل، فقيل له: أتصافح هذا الصابن؟ فقال: والله إني لأعلم أنه نبي، ولكن متى كنا تبعاً لبي عبد مناف؟ فأنزل الله هذه الآية. والرابع: أن الأحنس بن شريق لقي أبا جهل، فقال الأحنس: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو، أم كاذب؟ فليس هاهنا من يسمع كلامك غري. فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق، وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء، والسقاية، والحجابة، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(٣). فأما الذي يقولون، فهو التكذيب للنبي ﷺ، والكفر بالله. وفي الآية تسلية للنبي ﷺ وتعزية عما يواجهون به.

(١) هو أبو عبد الله عمرو بن قيس الملائي الكوفي، ثقة فاضل متعبد، مترجم في «التلخيص» وغيره. وقد خرج الطبري أثره ٣٢٧/١١، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٩/٣، وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وإسناد ابن أبي حاتم فيما رواه ابن كثير (١٢٩/٢): حدثنا أبو سعيد الأشج، قال: حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمرو بن قيس الملائي عن أبي مرزوق.

(٢) الطبري: ٣٣٤/١١، مرسلان عن ناجية بن كعب الأسدي، ورواه الترمذي ١٠٣/٤ عن علي، ثم رواه مرسلان من رواية ناجية بن كعب دون ذكر علي، وقال: وهذا أصح، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٣١٥/٢ موصولاً بإسناد آخر غير إسناد الترمذي، وصححه على شرط الشيخين، قال الشيخ أحمد شاکر في «عمدة التفسير» (٢٥/٥): فالواصل زيادة من ثقتين، فهي مقبولة على اليقين، وقد تعقب الذهبي تصحيح الحاكم إياه «على شرط الشيخين» بأنهما لم يخرجها لناجية شيئاً. وهذا صحيح، فإن الشيخين لم يخرجوا لناجية بن كعب الأسدي شيئاً، ولكنه تابعي ثقة، فالحديث صحيح، وإن لم يكن على شرطهما.

(٣) الطبري: ٣٢٢/١١.

قوله تعالى: ﴿يَهَيِّئْ لَنَا يَوْمَئِذٍ آلَ نُوحٍ مِثْلَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ قرأ نافع، والكسائي: «يُكْذِبُونَكَ» بالتخفيف وتسكين الكاف. وفي معناها قولان: أحدهما: لا يُقْفِرُكَ كاذباً؛ قاله ابن قتيبة. والثاني: لا يكذبون الشيء الذي جئت به، إنما يجحدون آيات الله، ويتعرضون لعقوباته. قال ابن الأنباري: وكان الكسائي يحتج لهذه القراءة بأن العرب تقول: كذبت الرجل: إذا نسبتَه إلى الكذب وصنعة الأباطيل من القول؛ وأكذبه: إذا أخبرت أن الذي يحدث به كذب، ليس هو الصانع له. قال: وقال غير الكسائي؛ يقال: أكذبت الرجل: إذا أدخلته في جملة الكذابين، ونسبته إلى صفتهم، كما يقال: أبخلت الرجل: إذا نسبتَه إلى البخل، وأجبتَه: إذا وجدته جباناً. قال الشاعر:

فَطَائِفَةٌ قَدْ أَكْفَرُونِي بِحُبِّكُمْ

وَطَائِفَةٌ قَالُوا مُسِيءٌ وَمُنْزَبٌ^(١)

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، وابن عامر: «يُكْذِبُونَكَ» بالتشديد وفتح الكاف؛ وفي معناها خمسة أقوال: أحدها: لا يكذبونك بحجة، وإنما هو تكذيب عناد ويهت، قاله قتادة، والسدي. والثاني: لا يقولون لك: إنك كاذب، لعلمهم بصدقك، ولكن يكذبون ما جئت به، قاله ناجية بن كعب. والثالث: لا يكذبونك في السر، ولكن يكذبونك في العلانية، عداوة لك، قاله ابن السائب، ومقاتل. والرابع: لا يقدر أن يقولوا لك فيما أنبأت به مما في كتبهم: كذبت. والخامس: لا يكذبونك بقلوبهم، لأنهم يعلمون أنك صادق، ذكر القولين الزجاج. وقال أبو علي: يجوز أن يكون معنى القراءتين واحداً وإن اختلفت اللفظتان، إلا أن «فعلت»: إذا أرادوا أن ينسبوه إلى أمر أكثر من «أفعلت». ويؤكد أن القراءتين بمعنى، ما حكاه سيويه أنهم قالوا: فعلت، وأقللت، وكثرت، وأكثرت بمعنى. قال أبو علي: ومعنى «لا يكذبونك»: لا يقدر أن ينسبك إلى الكذب فيما أخبرت به مما جاء في كتبهم، ويجوز أن يكون معنى الحقيقة: لا يصادفونك كاذباً، كما يقال: أحمدت الرجل: إذا أصبته محموداً، لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ كَانَتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ بالسنتهم ما يعلمونه يقيناً، لعنادهم. وفي «آيات الله» هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنها محمد ﷺ، قاله السدي. والثاني: محمد والقرآن، قاله ابن السائب. والثالث: القرآن، قاله مقاتل.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرًا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مِيذَالَ لِكَيْتِ اللَّهُ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الأَنْبِيَاءِ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذه تعزية له على ما يلقي منهم. قال ابن عباس: ﴿فَصَبْرًا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾ رجاء ثوابي،: ﴿وَأَوْدُوا﴾ حتى نُشروا بالمناسير، وحرقوا بالنار: ﴿حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا﴾ بتعذيب من كذبهم^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا مِيذَالَ لِكَيْتِ اللَّهُ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: لا حُلُفَ لمواعيده، قاله ابن عباس. والثاني: لا مبدل لما أخبر به وما أمر به، قاله الزجاج. والثالث: لا مبدل لحكوماته، وأفضيته النافذة في عبادته، فعبرت الكلمات عن هذا المعنى، كقوله: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] أي: وجب ما قضي عليهم. فعلى هذا القول والذي قبله، يكون المعنى: لا مبدل لحكم كلمات الله، ولا ناقض لما حكم به، وقد حكم بنصر أنبيائه بقوله: ﴿لَا تَعْجَبْ أَنَا وَرَسُولِي﴾ [المجادلة: ٢١]. والرابع: أن معنى الكلام معنى النهي، وإن كان ظاهره الإخبار؛ فالمعنى: لا يُبدلُ أحد كلمات الله، فهو كقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٢]. والخامس: أن المعنى: لا يقدر أحد على تبديل كلام الله، وإن زخرف واجتهد، لأن الله تعالى صانه برصين اللفظ، وقويم الحكم، أن يختلط بألفاظ أهل الزيغ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الأَنْبِيَاءِ﴾ أي: فيما صبروا عليه من الأذى فنصروا. وقيل إن: «مين»: صلة.

(١) البيت للكيميت بن زيد الأسدي من قصيدته الرائعة في مدح آل البيت.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» (٤٥٦/٦) و (١٢٦/٧) و (٢٨١/١٢) عن خباب بن الأرت ؓ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد برودة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا نستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ امْتَطَلْتَ أَنْ تَبْفِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتٍ وَكَوْشَاهُ اللَّهُ لَجْمَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ سبب نزولها: أن الحارث بن عامر أتى النبي ﷺ في نفر من قريش فقال: يا محمد، اتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات، فإن فعلت أمنا بك، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. و «كبير»: بمعنى «عظيم». وفي إعراضهم قولان: أحدهما: عن استماع القرآن. والثاني: عن اتباع النبي ﷺ. فأما «النفق»، فقال ابن قتيبة: النفق في الأرض: المدخل، وهو السرب. والسلم في السماء: المصعد. وقال الزجاج: النفق: الطريق النافذ في الأرض. والناقء، ممدود: أحد جحرة اليربوع يخرقه من باطن الأرض إلى جلدة الأرض، فإذا بلغ الجلدة أرقها، حتى إن رابه ريب، دفع برأسه ذلك المكان وخرج، ومنه سمي المناق، لأنه أبطن غير ما أظهر، كالناقء الذي ظاهره غير بين، وباطنه حفر في الأرض. و «السلم» مشتق من السلامة، وهو الشيء الذي يسلمك إلى مصعدك. والمعنى: فإن استطعت هذا فافعل، وحذف «فافعل»، لأن في الكلام دليلاً عليه. وقال أبو عبيدة: السلم: السبب والمراقبة، تقول: اتخذتني سلماً لحاجتك، أي: سبباً. وفي قوله: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتٍ﴾ قولان: أحدهما: بآية قد سألك إياها، وذلك أنهم سألوا نزول ملك، ومثل آيات الأنبياء، كعصا موسى، وناقص صالح. والثاني: بآية هي أفضل من آيتك.

قوله تعالى: ﴿وَكَوْشَاهُ اللَّهُ لَجْمَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لو شاء أن يطعهم على الهدى لطبعهم. والثاني: لو شاء لأنزل ملائكة تضطربهم إلى الإيمان، ذكرهما الزجاج. والثالث: لو شاء لأمنا كلهم، فأخبر أمنا تركوا لإيمان بمشيئته، ونافذ قضاة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا تجهل أنه لو شاء لجمعهم على الهدى. والثاني: لا تجهل أنه يؤمن بك بعضهم، ويكفر بعضهم. والثالث: لا تكونن ممن لا صبر له، لأن قلة الصبر من أخلاق الجاهلين. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَسْتَجِيبُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يجيبك من يسمع، والمراد به سماع قبول. وفي المراد بالموتى قولان: أحدهما: أنهم الكفار، قاله الحسن، ومجاهد، وقناة، فيكون المعنى: إنما يستجيب المؤمنون؛ فأما الكفار، فلا يستجيبون حتى يبعثهم الله، ثم يحشرهم كفاراً، فيجيبون اضطراراً^(١). والثاني: أنهم الموتى حقيقة، ضربهم الله مثلاً؛ والمعنى: أن الموتى لا يستجيبون حتى يبعثهم الله، فكذلك الذين لا يسمعون.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يعني: المؤمنين والكافرين، فيجازي الكل. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال ابن عباس: نزلت في رؤساء قريش. و «لولا»: بمعنى «هلاً»؛ وقد شرحناها في سورة (النساء). وقال مقاتل: أرادوا بالآية مثل آيات الأنبياء. وقال غيره: أرادوا نزول ملك يشهد له بالنبوة. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لا يعلمون بأن الله قادر على إنزال الآية. والثاني: لا يعلمون ما عليهم من البلاء في إنزالها، لأنهم إن لم يؤمنوا بها، زاد عذابهم. والثالث: لا يعلمون المصلحة في نزول الآية.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُمَّتًا لَكُم مَّا قَرَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغَ أَكْمَالَهُمْ﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يريد كل ما دب على الأرض. قال الزجاج: وذكر الجناحين توكيد، وجميع ما خلق لا يخلو إما أن يدب، وإما أن يطير.

(١) قال الطبري ٣٤١/١١: ﴿وَالْمَوْتُ يَسْتَجِيبُ اللَّهُ﴾ يقول: والكفار يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً، لا يعلمون دعاء، ولا يفقهون قولاً، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينجزون عما هم عليه من تكذيب رسول الله وخطاهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَّ أُمَّاتِكُمْ﴾ قال مجاهد: أصناف مصنفة. وقال أبو عبيدة: أجناس يعرفون الله ويعبدونه. وفي معنى «أمثالكم» أربعة أقوال: أحدها: أمثالكم في كون بعضها يفقه عن بعض، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: في معرفة الله، قاله عطاء. والثالث: أمثالكم في الخلق والموت والبعث، قاله الزجاج. والرابع: أمثالكم في كونها تطلب الغذاء، وتبني الرزق، وتتوقى المهالك، قاله ابن قتيبة. قال ابن الأنباري: وموضع الاحتجاج من هذه الآية أن الله تعالى ركب في المشركين عقولاً، وجعل لهم أفهاماً ألزمهم بها أن يتدبروا أمر النبي ﷺ ويمسكوا بطاعته، كما جعل للطير أفهاماً يعرف بها بعضها إشارة بعض، وهدى الذكّر منها لإتيان الأنثى، وفي كل ذلك دليل على نفاذ قدرة المركّب ذلك فيها.

قوله تعالى: ﴿مَا قَرَّلْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ في الكتاب قولان: أحدهما: أنه اللوح المحفوظ. روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ما تركنا شيئاً إلا وقد كتبناه في أم الكتاب، وإلى هذا المعنى ذهب قتادة، وابن زيد. والثاني: أنه القرآن. روى عطاء عن ابن عباس: ما تركنا من شيء إلا وقد بيناه لكم. فعلى هذا يكون من العام الذي أريد به الخاص، فيكون المعنى: ما فرطنا في شيء بكم إليه حاجة إلا وبيناه في الكتاب، إما نصاً، وإما مجملاً، وإما دلالة، كقوله تعالى: ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. أي: لكل شيء يحتاج إليه في أمر الدين.

قوله تعالى: ﴿شَرُّ إِلَهٍ رَيْبٌ يُشْرِكُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الجمع يوم القيامة. روى أبو ذر قال: انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال: يا أبا ذر، «أندري فيما انتطحتا؟» قلت: لا. قال: «لكن الله يدري، وسيقضي بينهما»^(١). وقال أبو هريرة: يحشر الله الخلق يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدله أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فيقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً^(٢). والثاني: أن معنى حشرها: موتها، قاله ابن عباس، والضحاك.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُوءٌ وَبِئْسَ مَا فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَكْتُمُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني ما جاء به محمد ﷺ ﴿صَمٌّ﴾ عن القرآن لا يسمعون، ﴿وَبُكْمٌ﴾ عنه لا ينطقون به، ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في الشرك والضلالة. ﴿مَنْ يَكْتُمُ اللَّهُ يُضِلُّهُ﴾ فيموت على الكفر، ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وهو الإسلام.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة: «أرايتم» و «أرايتكم» والعرب تقول: أرايتك، وهم يريدون: أخبرني. فأما عذاب الله، ففي المراد به هاهنا قولان: أحدهما: أنه الموت، قاله ابن عباس. والثاني: العذاب الذي كان يأتي الأمم الخالية، قاله مقاتل. فأما الساعة، فهي القيامة. قال الزجاج: وهو اسم للوقت الذي يصعق فيه العباد، وللوقت الذي يبعثون فيه.

قوله تعالى: ﴿أَعَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ أي: أندعون صنماً أو حجراً لكشف ما بكم؟! فاحتج عليهم بما لا يدفعون، لأنهم كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ جواب لقوله: «أرايتكم»، لأنه بمعنى أخبروا، كأنه قيل لهم: إن كنتم صادقين، فأخبروا من تدعون عند نزول البلاء بكم؟.

(١) «المسند» ١٦٢/٥ و ١٧٣، و«الطبري» ٣٤٨/١١.

(٢) الطبري ٣٤٧/١١، والحاكم ٣١٦/٢ وقال: صحح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأورده ابن كثير في «تفسيره» ١٣١/٢ ثم قال: وقد روي هذا مرفوعاً في حديث الصور، وخروجه السيوطي في «الدر المنثور» ١١/٣. وزاد نسبه لأبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وروى مسلم في «صحيحه» ١٩٩٧/٤ عن أبي هريرة مرفوعاً: «تؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». والجلحاء: الشاة إذا لم تكن ذات قرن، والقرناء: الشاة الكبيرة القرن.

﴿بَلْ يَأْتِيَنَّكَ دَعْوَانُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَسْتَوُونَ مَا تُنْكِرُونَ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ يَأْتِيَنَّكَ دَعْوَانُ﴾ قال الزجاج: أعلمهم أنهم لا يدعون في الشدائد إلا إياه؛ وفي ذلك أعظم الحجج عليهم، لأنهم عبدوا الأصنام. ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ المعنى: فيكشف الضر الذي من أجله دعوتهم، وهذا على اتساع الكلام مثل قوله: ﴿وَسَتَلِي الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية. ﴿وَتَسْتَوُونَ﴾: يجوز أن يكون بمعنى «تتروكون»؛ ويجوز أن يكون المعنى: إنكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من قد نسيتهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرُّوْنَ﴾ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ في الآية محذوف، تقديره: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلاً فخالصوهم، فأخذناهم بالبأساء؛ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الزمانة والخوف، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها البؤس، وهو الفقر، قاله ابن قتيبة. والثالث: أنها الجوع، ذكره الزجاج. وفي الضراء ثلاثة أقوال: أحدها: البلاء، والجوع، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: النقص في الأموال والأنفس، ذكره الزجاج. والثالث: الأسقام والأمراض، قاله أبو سليمان.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرُّوْنَ﴾ أي: لكي يتضرعوا. والتضرع: التذلل والاستكانة، وفي الكلام محذوف تقديره: فلم يتضرعوا.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمُرُونَ﴾ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا﴾ معناه: «فهلأ». والبأس: العذاب. ومقصود الآية: أن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ أنه قد أرسل إلى قوم قبله بلغوا من الفسوة أنهم أخذوا بالشدائد، فلم يخضعوا، وأقاموا على كفرهم، وزين لهم الشيطان ضلالتهم فأصروا عليها.

﴿فَلَمَّا سُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُثْلَبُونَ﴾ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ قال ابن عباس: تركوا ما وعظوا به. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد رخاء الدنيا وسرورها. وقرأ أبو جعفر، وابن عامر: «فتحننا» بالتشديد هنا وفي (الأعراف)، وفي (الأنبياء): «فُتِّحَتْ»، وفي (القم): «فتحننا»، والجمهور على تخفيفهن. قال الزجاج: أبواب كل شيء كان مغلقاً عنهم من الخير، حتى إذا ظنوا أن ما كان نزل بهم، لم يكن انتقاماً، وما فُتح عليهم، فاستحقاقهم، أخذناهم بغتة، أي: فاجأهم عذابنا. وقال ابن الأنباري: إنما أراد بقوله «كل شيء»: التأكيد، كقول القائل: أكلنا عند فلان كل شيء، وكنا عنده في كل سرور، يريد بهذا العموم تكثر ما يصفه والإطناب فيه، كقوله: ﴿رَأَوَيْتَ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]. وقال الحسن: من وُسِّع عليه فلم ير أنه لم يُكمر به، فلا رأي له؛ ومن قُتِر عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأي له، ثم قرأ هذه الآية، وقال: مُكْر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجاتهم ثم أخذوا^(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُثْلَبُونَ﴾ في المبلس خمسة أقوال: أحدها: أنه الأيس من رحمة الله ﷻ، رواه الضحاك عن ابن عباس؛ وقال في رواية أخرى: الأيس من كل خير. وقال الفراء: المبلس: اللئس المنقطع رجأؤه، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجة، فلا يكون عنده جواب: قد أبلس. قال العجاج:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسًا قَالَ نَعَمْ أَعْرِفُهُ! وَإِن لَسَا^(٢)

أي: لم يحجز جواباً. وقيل: المكرس: الذي قد بعرت فيه الإبل، وبولت، فيكرب بعضه بعضاً. والثاني: أنه

(١) في «تفسير المنار» ٤١٤/٧: والآية تنيد أن البأساء والضراء وما يقابلها من السراء والنعماء، مما يتربى ويتهدب به الموقنون من الناس، وإلا كانت النعم أشد وبالاً عليهم من النقم، وهذا ثابت بالاختيار، فلا خلاف في أن الشدائد مصلحة للفساد، وأجدر الناس بالاستفادة من الحوادث المومن، كما ثبت في حديث صويب مرفوعاً في «صحيح مسلم»: «حجياً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابه سره شكر فكان خيراً له، وإن أصابه ضراء صبر فكان خيراً له».

(٢) «مجاز القرآن» ١/١٩٣، و«معاني القرآن» للفراء: ٣٣٥، و«الطبري» ١١/٣٦٣، و«الكامل» ٥٣٩، و«اللسان» و«التاج»: بلس.

المفتضح. قال مجاهد: الإبلان: الفضيحة. والثالث: أنه المهلك، قاله السدي. والرابع: أنه المجهود المكروب الذي قد نزل به من الشر ما لا يستطيعه، قاله ابن زيد. والخامس: أنه الحزين النادم، قاله أبو عبيدة، وأنشد لروية: وحضرت يوم الخميس الأخماس وفي الوجوه صُفرةً وإبلان^(١) أي: اكتئاب، وكسوف، وحزن. وقال الزجاج: هو الشديد الحسرة، الحزين، اليأس. وقال في موضع آخر: المبلس: الساكت المتحير.

﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨)

قوله تعالى: ﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال ابن السائب: دابرهم: الذي يتخلف في آخرهم. والمعنى: أنهم استؤصلوا. وقال أبو عبيدة: دابرهم: آخرهم الذي يدبرهم. قال ابن قتيبة: هو كما يقال: اجثت أصلهم. قال المفسرون: وإنما حمد نفسه على قطع دابرهم، لأن ذلك إنعام على رسلم الذين كذبوهم، وعلم الحمد على كفايته شر الظالمين.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ تُصَوِّفُونَ الْآيَاتِ تَدْرَهُمْ يَصِدُّونَ﴾ (١٩)

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ أي: أذهبها، ﴿وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ حتى لا تعرفون شيئاً ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ؟﴾ في هاء «به» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تعود على الفعل، والمعنى: يأتيكم بما أخذ الله منكم، قاله الزجاج. وقال الفراء: إذا كُتبت عن الأفاعيل، وإن كثرت، وحذت الكناية، كقولك للرجل: إقبالك وإدبارك يؤذيني. والثاني: أنها تعود إلى الهدى، ذكره الفراء. فعلى هذا تكون الكناية عن غير مذكور، ولكن المعنى يشمل عليه، لأن من أخذ سمعه وبصره وختم على قلبه لم يهتد. والثالث: أنها تعود على السمع، ويكون ما عُطف عليه داخلاً معه في القصة، لأنه معطوف عليه، ذكره الزجاج. والجمهور يقرؤون: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ﴾ بكسر هاء «به». وروى المسيبي^(٢) عن نافع: «به أنظر»: بالضم. قال أبو علي: من كسر، حذف الياء التي تلحق الهاء في نحو: بهي عيب؛ ومن ضم، فعلى قول من قال: فحسبنا بهو وبدار هو الأرض، فحذف الواو.

قوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ تُصَوِّفُونَ الْآيَاتِ﴾ قال مقاتل: يعني تكون العلامات في أمور شتى، فيخوفهم بأخذ الأسماع والأبصار والقلوب، وبما صنَع بالأمم الخالية ﴿تَدْرَهُمْ يَصِدُّونَ﴾، أي: يعرضون فلا يعتبرون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٠)

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهْرَةً﴾ قال الزجاج: البعثة: المفاجأة؛ والجهرة: أن يأتيهم وهم يرونه. ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم، لأنكم كفرتم معاندين، فقد علمتم أنكم ظالمون.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الرِّسَالِ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَسْلَمَ فَلَا حَرْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُسَمِّئُهُمُ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٢٢)

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الرِّسَالِ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ أي: بالثواب؛ ومنذرين بالعقاب، وليس إرسالهم ليأتوا بما يقترحونه من الآيات. ثم ذكر ثواب من صدق، وعقاب من كذب في تمام الآية والتي بعدها. وقال ابن عباس: يفسقون: بمعنى يكفرون.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلَكَ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ لَا تُنْظَرُونَ﴾ (٢٣)

(١) «ديوانه» ٦٧، و«مجاز القرآن» ١/١٩٢، و«اللسان»: بلس، ورواية «ديوانه» و«عرفت يوم الخميس».

(٢) هو إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المسيب المدني، إمام جليل، عالم بالحديث، قيم في قراءة نافع، ضابط لها، محقق، فقيه. انظر «طبقات الفراء» ١/١٥٧.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَوْلِيَ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ سبب نزولها: أن أهل مكة قالوا: يا محمد، لو أنزل الله عليك كنزاً فتستغني به، فإنك فقير محتاج، أو تكون لك جنة تأكل منها، فإنك تجوع، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال الزجاج: وهذه الآية متصلة بقوله: ﴿وَلَا أَوْلِيَ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، فأعلمهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي، ولا يعلم الغيب فيخبرهم به إلا بوحى، ولا يقول: إنه ملك، لأن الملك يشاهد من أمور الله تعالى ما لا يشاهده البشر. وقرأ ابن مسعود، وابن جبير، وعكرمة، والجاحدي: «إني ملك» بكسر اللام. وفي الأعمى والبصير قولان: أحدهما: أن الأعمى: الكافر، والبصير: المؤمن، قاله ابن عباس وقتادة. والثاني: الأعمى: الضال والبصير: المهتدي، قاله سعيد بن جبير ومجاهد. وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قولان: إحداهما فيما بينكم لكم من الآيات الدالة على وحدانيته، وصدق رسوله. والثاني: فيما ضرب لكم من مثل الأعمى والبصير، وأنهما لا يستويان.

﴿وَأَنْذِرْ يَوْمَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ إِنَّهُمْ لَأُولِي عَذَابٍ مُّذِرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ يَوْمَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ إِنَّهُمْ لَأُولِي عَذَابٍ مُّذِرًا﴾ قال الزجاج: يعني بالقرآن، وإنما ذكر الذين يخافون الحشر دون غيرهم، وإن كان مُّذِرًا لجميع الخلق، لأن الحججة على الخائفين الحشر أظهر، لاعترافهم بالمعاد، فهم أحد رجلين: إما مسلم، فيُنذِر ليؤدّي حق الله عليه في إسلامه، وإما كفاي، فأهل الكتاب مجمعون على البعث. وذكر الولي والشفيع، لأن اليهود والنصارى ذكرت أنها أبناء الله وأحبّاءه، فأعلم ﷺ أن أهل الكفر ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع. وقال غيره: ليس لهم من دونه ولي، أي: ليس لهم غير الله ولي ولا شفيع، لأن شفاعة الشافعين بأمره. وقال أبو سليمان الدمشقي: هذه الآية متعلقة بقوله: ﴿وَأَرْسِلْ فِي هَذِهِ الْقُرْآنِ لِأَنْذِرَكُمْ يَوْمَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدُورِ وَالشَّيْءِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ روى سعد بن أبي وقاص قال: نزلت هذه الآية في ستة: فتي، وفي ابن مسعود، وصهيب، وعمار، والمقداد، وبلال. قالت قریش لرسول الله ﷺ: إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء، فاطردهم عنك. فدخل على رسول الله من ذلك ما شاء الله أن يدخل، فنزلت هذه الآية^(١). وقال خباب بن الأرت: نزلت فينا، كنا ضعفاء عند النبي ﷺ، يعلمنا بالغداة والعشي ما ينفعنا، فجاء الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، فقالا: إنا من أشرف قومنا، وإنا نكره أن يرونا معهم، فاطردهم إذا جالسناك. قال: «نعم». فقالوا: لا نرضى حتى تكتب بيننا كتاباً، فأتي بأديم ودواة، ودعا علياً ليكتب، فلما أراد ذلك، ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبريل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مَتَّأً بِمَعْصَمٍ﴾ فرمى بالصحيفة ودعانا، فأتيناه وهو يقول: ﴿سَلِّمْ عَلَيْنَكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَيَّ نَفْسِي الرَّحْمَةَ﴾. فلدنونا نه يومئذ حتى وضعنا ركبنا على ركبته^(٢). وقال ابن مسعود: مرّ الملاء من قریش على رسول الله ﷺ وعند خباب، وصهيب، وبلال، وعمار، فقالوا: يا محمد، رضيت بهؤلاء، أتريد أن نكون تبعاً لهم؟! فنزلت: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾^(٣). وقال عكرمة: جاء عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، في أشرف بني عبد مناف، إلى أبي طالب فقالوا: لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وعبيدنا كان أعظم في صدورنا، وأدنى لاتباعنا إياه، فأتاه أبو طالب فحدثه بذلك، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون، فنزلت هذه الآيات، فأقبل عمر يعتذر من مقالته^(٤). وروى أبو صالح عن ابن عباس: أن هذه

(١) رواه ابن ماجه ١٣٨٣/٢، ومسلم بنحوه مختصراً ١٨٧٨/٤، ورواه بنحوه الطبري ٣٧٨/١١، وأورده ابن كثير في «تفسيره» ١٣٥/٢ بنحوه عن سعد، وقال: رواه الحاكم في «مستدرکه» من طريق سفيان قال: على شرط الشيخين، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» من طريق المقدم بن شريح به.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» ٣٧٦/١١ بمعناه، وأورده ابن كثير في «تفسيره» (١٣٤/٢) من رواية ابن أبي حاتم وقال: وهذا حديث غريب، فإن الآية مكية، والأقرع بن حابس، وعيينة، إنما أسلما بعد الهجرة بدهر. ورواه ابن ماجه ١٣٨٣/٢.

(٣) رواه أحمد في «المستند» رقم (٣٩٨٥) وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه: إسناده صحيح، ورواه الطبري ٣٧٤/١١، ٣٧٥.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» ٣٧٩/١١، ٣٨٠ بأطول منه.

الآيات نزلت في الموالي، منهم بلال، وصهيب، وجَبَاب، وعَمَّار، ومُهَجِّج، وسلمان، وعامر بن فهيرة، وسالم مولى أبي حذيفة؛ وأن قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخَشِّرُوا إِلَىٰ نَجْمٍ﴾ نزلت فيهم أيضاً. وقد روى العوفي عن ابن عباس: أن ناساً من الأشراف قالوا للنبي ﷺ: نؤمن لك، وإذا صلينا فأخّر هؤلاء الذين معك، فليصلوا خلفنا. فعلى هذا، إنما سألوه تأخيرهم عن الصف، وعلى الأقوال التي قبله، سألوه طردهم عن مجلسه.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ في هذا الدعاء خمسة أقوال: أحدها: أنه الصلاة المكتوبة، قاله ابن عمر، وابن عباس. وقال مجاهد: هي الصلوات الخمس؛ وفي رواية عن مجاهد، وقتادة قالا: يعني صلاة الصبح والعصر. وزعم مقاتل أن الصلاة يومئذ كانت ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي؛ ثم فرضت الصلوات الخمس بعد ذلك. والثاني: أنه ذكر الله تعالى، قاله إبراهيم النخعي، وعنه كالقول الأول. والثالث: أنه عبادة الله، قاله الضحاك. والرابع: أنه تعلم القرآن غدوة وعشية، قاله أبو جعفر. والخامس: أنه دعاء الله بالتوحيد، والإخلاص له، وعبادته، قاله الزجاج. وقرأ الجمهور: «بالغدوة»؛ وقرأ ابن عامر هاهنا وفي (الكهف) أيضاً: «بالغدوة» بضم الغين وإسكان الدال وبعدها واو. قال الفراء: والعرب لا تدخل الألف واللام على «الغدوة»، لأنها معرفة بغير ألف ولام، ولا تضيفها العرب؛ يقولون: أتيتك غداة الخميس، ولا يقولون: غُدوة الخميس، فهذا دليل على أنها معرفة. وقال أبو علي: الوجه: الغداة، لأنها تستعمل نكرة، وتتعرف باللام؛ وأما غُدوة، فمعرفة. وقال الخليل: يجوز أن تقول: أتيتك اليوم غُدوة ويكرة، فجعلها بمنزلة ضحوة، فهذا وجه قراءة ابن عامر. فإن قيل: دعاء القوم كان متصلاً بالليل والنهار، فلماذا خص الغداة والعشي؟ فالجواب: أنه نبه بالغداة على جميع النهار، وبالعشي على الليل، لأنه إذا كان عمل النهار خالصاً له، كان عمل الليل أصفى.

قوله تعالى: ﴿رُبُّدُونَ وَجِبَّهٖ﴾ قال الزجاج: أي يريدون الله، فيشهد الله لهم بصحة النيات، وأنهم مخلصون في ذلك. وأما الحساب المذكور في الآية، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه حساب الأعمال، قاله الحسن. والثاني: حساب الأرزاق. والثالث: أنه بمعنى الكفاية؛ والمعنى: ما عليك من كفايتهم، ولا عليهم كفايتك.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن الأنباري؛ عظم هذا الأمر على النبي ﷺ، وخُوف بالدخول في جملة الظالمين، لأنه كان قد هم بتقديم الرؤساء على الضعفاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ يَتُولَآءُ أَوْلِيَآءَ مِنۢ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ المعنى: وكما ابتلينا قبلك الغني بالفقير، ابتلينا أيضاً بعضهم ببعض. و«فتنا» بمعنى: ابتلينا واختبرنا؛ «يَتُولَآءُ» يعني الكبراء؛ «أَوْلِيَآءَ» يعنون الفقراء والضعفاء «مِنۢ بَيْنِنَا» أي بالهدى؛ وهذا استفهام معناه الإنكار، كأنهم أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضيلة. قال ابن السائب: ابتلى الله الرؤساء بالموالي؛ فإذا نظر الشريف إلى الوضع قد آمن قبله، أنف أن يسلم، ويقول: سبقني هذا؟

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: بالذين يشكرون نعمته إذا من عليهم بالهداية. والمعنى: إنما يهدي الله من يعلم أنه يشكر. والاستفهام في «أليس»، معناه التقرير، أي: إنه كذلك.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إِذْ نَفَسَهُ الرِّحْمَةُ أَنَّهُمْ مَن عَمَلٍ يَنْكُمْ سُوءًا بِمَهَلِكَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَٰعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال: أحدها: أنها نزلت في رجال أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنباً عظيمة، فسكت عنهم رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية^(١)، قاله أنس بن مالك. والثاني: أنها نزلت في الذين نهي عن طردهم، فكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام، وقال: «الحمد لله الذي

(١) رواه الطبري في «تفسيره» ١١/٣٩٠، ٣٩١ من طريق مجمع بن سمعان قال: سمعت ماهان. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» وزاد نسبه إلى الفريابي وعبد بن حميد، ومسند، وابن المنذر، وأبي الشيخ، وابن أبي حاتم. وماهان هو أبو سالم الكوفي الأعور، ثقة عابد، روى عن ابن عباس وأم سلمة، قله الحجاج سنة ثلاث وثمانين.

جعل في أمي من أمرني أن أبدأهم بالسلام»، قاله الحسن، وعكرمة. والثالث: أنها نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وحمزة، وجعفر، وعثمان بن مظعون، وأبي عبيدة، ومصعب بن عمير، وسالم، وأبي سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعمار، وبلال، قاله عطاء. والرابع: أن عمر بن الخطاب كان أشار على رسول الله ﷺ بتأخير الفقراء، استمالة للرؤساء إلى الإسلام. فلما نزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، جاء عمر يعتذر من مقالته ويستغفر منها، فنزلت فيه هذه الآية، قاله ابن السائب. والخامس: أنها نزلت مبشرة بإسلام عمر بن الخطاب؛ فلما جاء وأسلم، تلاها عليه رسول الله ﷺ، حكاه أبو سليمان الدمشقي. فأما قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِكَائِنًا﴾ فمعناه: يصدّقون بحججنا وبراهيتنا.

قوله تعالى: ﴿نَقُلْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه أمر بالسلام عليهم تشريفاً لهم؛ وقد ذكرناه عن الحسن، وعكرمة. والثاني: أنه أمر بإبلاغ السلام إليهم عن الله تعالى، قاله ابن زيد. قال الزجاج: ومعنى السلام: دعاء للإنسان بأن يسلم من الآفات. وفي السوء قولان: أحدهما: أنه الشرك. والثاني: المعاصي. وقد ذكرنا في سورة (النساء) معنى «الجهالة». قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «إنه من عمل منكم سوءاً» «فإنه غفور» بكسر الألف فيهما. وقرأ عاصم، وابن عامر: بفتح الألف فيهما. وقرأ نافع: بنصب ألف «أنه» وكسر ألف «فإنه غفور». قال أبو علي؛ من كسر ألف «إنه» جعله تفسيراً للرحمة؛ ومن كسر ألف «فإنه غفور» فلأن ما بعد الفاء حكمه الابتداء، ومن فتح ألف «أنه» من عمل» جعل «أن» بدلاً من الرحمة، والمعنى: كتب ربكم «أنه من عمل»، ومن فتحها بعد الفاء، أضمر خبراً تقديره: «فإنه غفور رحيم» والمعنى: فله غفرانه. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَاكَ لَهُ قُرْآنًا جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٦٣]، معناه: فله أن له نار جهنم. وأما قراءة نافع، فإنه أبدل من الرحمة، واستأنف ما بعد الفاء.

﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أَلْفَيْتَيْنِ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٥٥)

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا وأعلامنا على المشركين، كذلك نبين لك حججتنا في كل حق ينكره أهل الباطل. قال ابن قتيبة؛ ومعنى تفصيلها: إتيانها متفرقة شيئاً بعد شيء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَسْتَيْنِ﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «ولتستين» بالياء، «سبيل» بالرفع. وقرأ نافع، وزيد عن يعقوب: بالياء أيضاً، إلا أنهما نصبا السبيل. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «وليستين» بالياء، «سبيل» بالرفع. فمن قرأ «ولتستين» بالياء أو التاء، فلأن السبيل تذكر وتؤنث على ما بينا في (آل عمران)، ومن نصب اللام، فالمعنى: ولتستين أنت يا محمد سبيل المجرمين. وفي سبيلهم التي بُيِّنَتْ له، قولان: أحدهما: أنها طريقهم في الشرك، ومصيرهم إلى الخزي، قاله ابن عباس. والثاني: أنها مقصودهم في طرد الفقراء عنه، وذلك إنما هو الحسد، لا إيثار مجالسته واتباعه، قاله أبو سليمان. فإن قيل: كيف انفردت لام «كي» في قوله: «ولتستين» وسبيلها أن تكون شرطاً لفعل يتقدمها أو يأتي بعدها؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري بجوابين: أحدهما: أنها شرط لفعل مضمّر، يراد به: ونفعل ذلك لكي تستبين. والثاني: أنها معطوفة على لام مضمرة، تأويله: فصل الآيات لينكشف أمرهم، ولتستين سبيلهم.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَآ أَنِجُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦)

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام. وفي معنى «تدعون» قولان: أحدهما: تدعونهم أكلة. والثاني: تعبدون؛ قاله ابن عباس. وأهواؤهم: دينهم. قال الزجاج: أراد إنما عبدتموها على طريق الهوى، لا على طريق البيّنة والبرهان. ومعنى «إذاً» معنى الشرط؛ والمعنى: قد ضللت إن عبدتها. وقرأ طلحة، وابن أبي ليلى: «قد ضللت» بكسر اللام.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عَشِدُّوا لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا يَكْفُرُونَ بِهُوَ إِلَّا بِاللَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ (٥٧)

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ سبب نزولها أن النضر بن الحارث وسائر قريش قالوا للنبي ﷺ: يا محمد اتنا بالعذاب الذي تعبدنا به، استهزاء؛ وقام النضر عند الكعبة وقال: اللهم إن كان ما يقول حقاً، فأتنا بالعذاب؛

فنزلت هذه الآية؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس. فأما البيه، فهي الدلالة التي تفصل بين الحق والباطل. قال الزجاج: أنا على أمرين، لا متبع لهوى.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِؤْتَى﴾ في هاء الكناية، ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الرب. والثاني: ترجع إلى البيان. والثالث: ترجع إلى العذاب الذي طلبوه استهزاءً.

قوله تعالى: ﴿مَا عَادَى مَا تَسْتَعْتُونَ بِهِ﴾ أي: ما بيدي. وفي الذي استعجلوا به قولان: أحدهما: أنه العذاب؛ قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: أنه الآيات التي كانوا يقرحونها؛ ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الحكم الذي يفصل به بين المختلفين بإيجاب الثواب والعقاب. والثاني: أنه القضاء بإنزال العذاب على المخالف.

قوله تعالى: ﴿يُثَمُّ الْحَقُّ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع ﴿يُثَمُّ الْحَقُّ﴾ بالصاد المشددة، من القصص؛ والمعنى: أن كل ما أخبر به فهو حق. وقرأ أبو عمرو، وابن عمر، وحمزة، والكسائي: «يقضي الحق» من القضاء؛ والمعنى: يقضي القضاء الحق.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِدَى مَا تَسْتَعْتُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ رَبِّي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨)

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِدَى مَا تَسْتَعْتُونَ بِهِ﴾ أي: من العذاب «لَقَضِيَ الْأَمْرُ رَبِّي وَبَيْنَكُمْ» قال ابن عباس: يقول: لم أمهلكم ساعة، ولأهلكتم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: إن شاء عاجلهم، وإن شاء أخر عقوبتهم. والثاني: أعلم بما يؤول إليه أمرهم، وأنه قد يهتدي منهم قوم، ولا يهتدي آخرون؛ لذلك يؤخرهم.

﴿وَعِنْدُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رِزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَكْبٌ وَلَا يَكِينٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥٩)

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ﴾ قال ابن جرير: المفاتيح: جمع مفتاح؛ يقال: مفتاح ومفتاح، فمن قال: مفتاح، جمعه: مفاتيح. ومن قال: مفاتيح، جمعه: مفاتيح. وفي «مفاتيح الغيب» سبعة أقوال: أحدها: أنها خمس لا يعلمها

إلا الله ﷻ. روى البخاري في أفراد من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله، ولا يعلم ما تغض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا تعلم نفس

بأرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى ينزل الغيث إلا الله»^(١) قال ابن مسعود: «أوتيت نبياً علم كل شيء إلا مفاتيح الغيب»^(٢). والثاني: أنها خزائن غيب السموات من الأقدار والأرزاق، قاله ابن عباس. والثالث: ما غاب عن الخلق

من الثواب والعقاب، وما تصير إليه الأمور، قاله عطاء. والرابع: خزائن غيب العذاب، متى ينزل، قاله مقاتل. والخامس: الوصلة إلى علم الغيب إذا استعلم، قاله الزجاج. والسادس: عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال. والسابع:

ما لم يكن، هل يكون، أم لا يكون؟ وما يكون كيف يكون وما لا يكون، إن كان، كيف يكون؟ فأما البر، فهو القفر. وفي البحر قولان: أحدهما: أنه الماء، قاله الجمهور. والثاني: أنه القرى، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رِزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال الزجاج: المعنى: أنه يعلمها ساقطة وثابتة، كما تقول: ما يجيئك أحد إلا وأنا أعرفه، ليس تأويله: أعرفه في حال مجيئه فقط. فأما ظلمات الأرض، فالمراد بها بطن الأرض.

(١) «المسند» ٧/٧، والبخاري: ٢١٩/٨، «وصحیح ابن حبان» ٦٩/١، ٧٠.

(٢) الطبري: ٤٠١/١١، ورواه أحمد في «المسند» ٢٤١/٥ بلفظ: «أوتيت نبياً علم كل شيء غير خمس» «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِشَيْءٍ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَيَكُنَّ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ» قال الشيخ أحمد شاکر في تعليقه على «المسند»: إسناده صحيح، وذكره ابن كثير في «التفسير» ٤٧٤/١ عن هذا الموضوع، ثم قال: «وكذا رواه عن محمد بن جعفر عن شعبة عن عمرو بن مرة به وزاد في آخره: قال: قلت له: أنت سمعت من عبد الله؟ قال: نعم أكثر من خمسين مرة، ورواه أيضاً عن وكيع عن مسعر عن عمرو بن مرة به، وهذا إسناده حسن على شرط «السنن» ولم يخرجوه». وهو أيضاً في «مجمع الزوائد» ٢٦٣/٨، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى ورجلها رجال الصحيح. ورواه أحمد أيضاً في «المسند» ٣١٧/٧ من حديث ابن عمر مرفوعاً بلفظ «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس».

وفي الرطب واليابس، خمسة أقوال: أحدها: أن الرطب: الماء، واليابس: البادية. والثاني: الرطب: ما يُنبت، واليابس: ما لا يُنبت. والثالث: الرطب: الحي، واليابس: الميت. والرابع: الرطب: لسان المؤمن يذكر الله، واليابس: لسان الكافر لا يتحرك بذكر الله. والخامس: أنهما الشيء ينتقل من إحدى الحالتين إلى الأخرى، فهو يعلمه رطباً، ويعلمه يابساً. وفي الكتاب المبين قولان: أحدهما: أنه اللوح المحفوظ؛ قاله مقاتل. والثاني: أنه علم الله المتقن؛ ذكره الزجاج. فإن قيل: ما الفائدة في إحصاء هذه الأشياء في كتاب؟ فعنه ثلاثة أجوبة، ذكرهن ابن الأنباري: أحدها: أنه أحصاها في كتاب لتقف الملائكة على نفاذ علمه. والثاني: أنه نبه بذلك عباده على تعظيم الحساب، وأعلمهم أنه لا يفوته ما يصنعون، لأن من يثبت ما لا ثواب فيه ولا عقاب، فهو إلى إثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع. والثالث: أن المراد بالكتاب: العلم؛ فالمعنى: أنها مثبتة في علمه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ إِلَهُكُمْ إِنَّكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ﴾ يريد به النوم، لأنه يقبض الأرواح عن التصرف بالنوم، كما يقبض بالموت. وقال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم. وجرحتم: بمعنى كسبتم. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ أي: يوقظكم فيه، أي: في النهار. ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لتبلغوا الأجل المسمى لانقطاع حياتكم، فدل بالقبضة بعد النوم على البعث بعد الموت.

﴿وَهُوَ الظَّاهِرُ فَرَقَ عَبَادَهُ وَرَسِلَ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أُمَّدَكُمْ أَمَوْتُمْ تَوفَّتَهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْطِنُونَ ﴿١٦٢﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَرَسِلَ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ الحفظة: الملائكة، واحدهم: حافظ، والجمع: حفظة، مثل كاتب وكتبة، وفاعل وفعله. وفيما يحفظونه قولان: أحدهما: أعمال بني آدم؛ قاله ابن عباس. والثاني: أعمالهم وأجسادهم، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿تَوفَّتَهُ رُسُلُنَا﴾ وقرأ حمزة: «توفاه رسلنا» وحجته أنه فعل مسند إلى مؤنث غير حقيقي، وإنما التأنيث للجمع، فهو مثل: ﴿وَقَالَ يَسُوفاً﴾ [يوسف: ٢٣٠]. وفي المراد بالرسل ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أعوان ملك الموت، قاله ابن عباس. وقال النخعي: أعوانه يتوفون النفوس، وهو يأخذها منهم. والثاني: أن المراد بالرسل ملك الموت وحده، قاله مقاتل. والثالث: أنهم الحفظة، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفْطِنُونَ﴾ قال ابن عباس: لا يضيعون. فإن قيل: كيف الجمع بين قوله: ﴿تَوفَّتَهُ رُسُلُنَا﴾ وبين قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾؟ [السجدة: ١١] فعنه جوابان: أحدهما: أنه يجوز أن يريد بالرسل ملك الموت وحده، وقد يقع الجمع على الواحد. والثاني: أن أعوان ملك الموت يفعلون بأمره، فأضيف الكل إلى فعله. وقيل: تَوَفَّى أعوان ملك الموت بالترج، وتَوَفَّى ملك الموت بأن يأمر الأرواح فتجيب، ويدعوها فتخرج، وتَوَفَّى الله تعالى بأن يخلق الموت في الميت.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ ۗ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ يعني العباد. وفي متولي الرُّدِّ قولان: أحدهما: أنهم الملائكة، رَدَّتْهم بالموت إلى الله تعالى. والثاني: أنه الله ﷻ، ردهم بالبعث في الآخرة. وفي معنى ردهم إلى الله تعالى، قولان: أحدهما: أنهم ردوا إلى المكان الذي لا يملك الحكم فيه إلا الله وحده. والثاني: أنهم ردوا إلى تدييره وحده؛ لأنه لما أنشأهم كان منفرداً بتدييرهم، فلما مكنتهم من التصرف صاروا في تدبير أنفسهم، ثم كفهم عنه بالموت، فصاروا مردودين إلى تدييره.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يعني القضاء. وبيان سرعة الحساب في (البقرة) (١).

(١) يعني: تقدم بيان سرعة الحساب في سورة (البقرة) عند قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ سَرِيعٌ الْحَسَابِ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿قُلْ مَنْ يُجِيرُكَ مِنَ ظُلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُوهُ ضَرْعًا وَخَفِيَةً لَنْ أَمْنَنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُجِيرُكُمْ مِنَّا وَمِنْ كُلِّ كَرِيْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُجِيرُكُمْ﴾ قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر: ﴿قُلْ مَنْ يُجِيرُكُمْ﴾ ﴿قُلْ اللَّهُ يُجِيرُكُمْ﴾، مشددين. وقرأ يعقوب، والقزاز عن عبد الوارث: بسكون النون وتخفيف الجيم. قال الزجاج: والمشددة أجود للكثرة. وظلمات البر والبحر: شدائهما؛ والعرب تقول لليوم الذي تلقى فيه شدة: يوم مظلم، حتى إنهم يقولون: يوم ذو كواكب، أي: قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل. قال الشاعر:

فَدَيْ لِبَنِي دُهَلٍ بِنِ شَيْبَانَ نَأَقْتِي إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْنَعًا^(١)

قوله تعالى: ﴿تَدْعُوهُ ضَرْعًا﴾ أي: مظهرين الضراعة، وهي شدة الفقر إلى الشيء، والحاجة.

قوله تعالى: ﴿وَخَفِيَةً﴾ قرأ عاصم إلا حفصاً: «وخفية» بكسر الخاء؛ وكذلك في (الأعراف). وقرأ الباقون بضم الخاء، وهما لغتان. قال الفراء: وفيها لغة أخرى بالواو، ولا تصلح في القراءة، خفوة، وخفوة. ومعنى الكلام، أنكم تدعون في أنفسكم، كما تدعونه ظاهراً: ﴿لَنْ أَمْنَنَا﴾، كذلك قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو: «لئن أنجيتنا»، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «لئن أنجانا» بالفتح، لمكان الغيبة في قوله: «تدعون». وكان حمزة، والكسائي، وخلف، يُميلون الجيم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ هَذِهِ﴾ يعني: في أي شدة وقعتم، قلت: ﴿لَنْ أَمْنَنَا مِنْ هَذِهِ﴾. قال ابن عباس: و«الشاكرون» هاتنا: المؤمنون. وكانت قريش تسافر في البر والبحر، فإذا ضلوا الطريق وخافوا الهلاك، دَعَوْا الله مخلصين فأنجاهم. فاما «الكر» فهو الغم الذي يأخذ بالنفس، ومنه اشتقت الكربة.

﴿قُلْ هُوَ الْفَارُّ عَنَّا أَنْ يَمِتَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَوْمِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيَذِينَ بَعْضُكُمْ بِأَسْبَغٍ أَنْظَرُ كَيْفَ تُصَرِّفُ الْأَيْدِي لِمَأْتُهُمْ بِمَقْهُوتٍ﴾ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْفَارُّ عَنَّا أَنْ يَمِتَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَوْمِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الذي فوقهم: العذاب النازل من السماء، كما حُصِب قوم لوط، وأصحاب الفيل. والذي من تحت أرجلهم: كما حُصِف بقارون، قاله ابن عباس، والسدي، ومقاتل. وقال غيرهم: ومنه الطوفان، والريح، والصيحة، والرجفة. والقول الثاني: أن الذي من فوقهم: من قِبَل أمرائهم. والذي من تحتهم: من سَفَلتهم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال في رواية أخرى: الذي من فوقهم: أئمة السوء؛ والذي من تحت أرجلهم: عبيد السوء.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا﴾ قال ابن عباس: يُبْتُ فيكم الأهواء المختلفة، فتصيرون قِرْقًا. قال ابن قتيبة: يلبسكم: من الالتباس عليهم^(٢). والمعنى: حتى تكونوا شيعاً، أي: فرقاً مختلفين. ثم يذيق بعضكم بأس بعض بالقتال والحرب. وقال الزجاج: يلبسكم، أي: يخلط أمركم خلط اضطراب، لا خلط اتفاق. يقال: لَبَسْتُ عليهم الأمر، البسه: إذا لم أَيْتِه. ومعنى شيعاً: أي يجعلكم فرقاً، فإذا كنتم مختلفين، قاتل بعضكم بعضاً.

قوله تعالى: ﴿وَيَذِينَ بَعْضُكُمْ بِأَسْبَغٍ﴾ أي: يقتل بعضكم بيد بعض. وفيمن عُنِي بهذه الآية، ثلاثة أقوال: أحدها:

(١) البيت أنشده سيويه في «الكتاب» ٢١/١، ونسبه لمقاس العائذي، واسمه مسهر بن النعمان بن عمرو بن ربيعة بن تميم بن الحارث... وهو شاعر جاهلي كما نص عليه ابن دريد في «الاشتقاق»، وذكر المرزباني أنه مخضرم: ورواية الشطر الثاني عند سيويه: «إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ أَشْنَعٌ»

وأورد بعده لعمرو بن شاس بيتاً آخر هو:

بِنَسِي أَسْدِ هَلْ تَعْلَمُونَ بِلَاءَنَا إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْنَعًا

فالمصنف لفق البيت من البيتين، قال الأعمش: أراد: وقع يوم، أو حضر يوم، ونحو ذلك مما يقتصر فيه على الفاعل، وأراد باليوم يوماً من أيام الحرب، وصفه بالشدّة، فجعله كالليل تبدو فيه الكواكب، ونسبه إلى الشبهة، إما لكثرة السلاح الصفيلة فيه، وإما لما ذكره من النجوم، ودخل بن شيان بن بني بكر بن وال، وكان مقاس نازلاً فيهم، وأصله من قريش من عائلة، وهم حي منهم.

(٢) في «غريب القرآن»: من الالتباس عليكم.

أنها في المسلمين أهل الصلاة، هذا مذهب ابن عباس، وأبي العالية، وقتادة. وقال أبي بن كعب في هذه الآية: هن أربع خلال، وكلهن عذاب، وكلهن واقع قبل يوم القيامة، فمضت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، ألبسوا شيعاً، وأذيق بعضهم بأس بعض. وثنتان واقعتان لا محالة: الخسف، والرجم^(١). والثاني: أن العذاب للمشركين، وبإتي الآية للمسلمين، قاله الحسن. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، سألته أن لا يصيبكم بعذاب أصاب به من كان قبلكم، فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليكم عدواً يستبيح ببيضتكم فأعطانيها، وسألته أن لا يلبسكم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها»^(٢). والثالث: أنها تهذّب للمشركين، قاله ابن جرير الطبري، وأبو سليمان الدمشقي.

﴿وَكَذَّبَ بِرَبِّهِ قَوْمًا وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِرَبِّهِ قَوْمًا﴾ في هاء «به» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها كناية عن القرآن. والثاني: عن تصريف الآيات. والثالث: عن العذاب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: لست حفيظاً على أعمالكم لأجازيكم بها، إنما أنا منذر، قاله الحسن. والثاني: لست حفيظاً عليكم، أخذكم بالإيمان، إنما أدعوكم إلى الله، قاله الزجاج.

فصل

وفي هذا القدر من الآية قولان: أحدهما: أنه اقتضى الاقتصار في حقهم على الإنذار من غير زيادة، ثم نسخ ذلك بآية السيف. والثاني: أن معناه: لست حفيظاً عليكم، إنما أطلبكم بالظواهر من الإقرار والعمل، لا بالأسرار؛ فعلى هذا هو محكم.

﴿لِكُلِّ نَبْرٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: لكل خبر يخبر الله به وقت يقع فيه من غير خلف ولا تأخير. قال السدي: فاستقر نبراً القرآن بما كان يعدهم من العذاب يوم بدر. وقال مقاتل: منه في الدنيا يوم بدر، وفي الآخرة جهنم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبَيِّنُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَعْقُدْ بِهِ أَغْصَانًا مَعَ الْغَوَّارِ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ فيمن أريد بهذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: المشركون. والثاني: اليهود. والثالث: أصحاب الأهواء. والآيات: القرآن. وخوض المشركين فيه: تكذيبهم به واستهزاؤهم، ويقاربه خوض اليهود، وخوض أهل الأهواء بالمراء والخصومات.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: فترك مجالستهم، حتى يكون خوضهم في غير القرآن. ﴿وَإِمَّا يُبَيِّنُكَ﴾ قرأ ابن عامر: «يُبَيِّنُكَ»، بفتح النون، وتشديد السين، والنون الثانية. ومثل هذا: عَرَّمْتُهُ وَأَعْرَمْتُهُ. وفي التنزيل: ﴿مَهَلْ الْكٰفِرِينَ أَنهَلَهُمْ﴾ [الطارق: ١٧]. والمعنى: إذا أنسك الشيطان، فعدت معهم ناسياً نَهَيْتَا لَكَ، فلا تعقد بعد الذكرى. والذكرى والذكرى: واحد. قال ابن عباس: قم إذا ذكرته؛ والظالمون: المشركون.

(١) «المسنده» ١٣٤/٥، ١٣٥، «الطبري» ٤٢٢/١١، وخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢١/٧، ثم قال: رواه أحمد ورجاله ثقات، قلت: أي الهيثمي - والظاهر أن من قوله: «فمضت اثنتان إلى آخره» من قول رفيع (يعني أبا العالية) فإن أبي بن كعب لم يتأخر إلى زمن الفتنة. وقال الحافظ في «الفتح» ٢٢٠/٨: وقد أهل هذا الحديث بأن أبي بن كعب لم يدرك سنة خمس وعشرين من الوفاة النبوية، فكان حديثه انتهى عند قوله: «لا محالة» والباقي من كلام بعض الرواة، وأهل أيضاً بأنه مخالف لحديث جابر وغيره، وأجيب بأن طريق الجمع أن الإعادة المذكورة في حديث جابر وغيره مقيدة بزمان مخصص، وهو وجود الصحابة، والقرون الفاضلة، وقد روى أحمد والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْتَدِرُ﴾ إلى آخرها فقال: أما إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعد، وهذا يحتمل أن لا يخالف حديث جابر بأن المراد بتأويلها ما يتعلق بالفتن ونحوها.

(٢) «صحيح مسلم» ٢٢١٦/٤ عن سعد بن أبي وقاص، «المسنده» ٢٤٠/٥، «ابن ماجه» ١٣٠٣/٢ عن معاذ بن جبل ؓ، وقال البوصيري في «زوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَئِنْ ذُكِّرُوا لَمَّا هُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المسلمين قالوا: لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن، وخاضوا فيه، فمنعناهم، لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام، ولا أن نظوف بالبيت، فنزلت هذه الآية. والثاني: أن المسلمين قالوا: إنا نخاف الإثم إن لم ننهم عن الخوض، فنزلت هذه الآية. والثالث: أن المسلمين قالوا: لو قمنا عنهم إذا خاضوا، فإننا نخشى الإثم في مجالستهم، فنزلت هذه الآية. هذا عن مقاتل، والأولان عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يتقون الشرك. والثاني: يتقون الخوض.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَتَّبِعْكُمْ﴾ يعني: حساب الخائضين. وفي «حسابهم» قولان: أحدهما: أنه كفرهم وآثامهم.

والثاني: عقوبة خوضهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ ذُكِّرُوا لَمَّا هُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ولكن عليكم أن تذكروهم. وفيما تذكروهم به، قولان: أحدهما: المواعظ.

والثاني: قيامكم عنهم. قال مقاتل: إذا قمت عنهم، منعهم من الخوض الحياء منكم، والرغبة في مجالستكم.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا هُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يتقون الاستهزاء. والثاني: يتقون الوعيد.

فصل

وقد ذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة، لأنها اقتضت جواز مجالسة الخائضين والاعتصار على تذكيرهم، ثم نسخت بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهَا﴾ [النساء: ١٤٠]. والصحيح أنها محكمة، لأنها خير، وإنما دلت على أن كل عبد يختص بحساب نفسه، ولا يلزمه حساب غيره.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ وَأَعْرَبْتَهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَذَكَّرْتَهُمْ بِهِ أَنْ يُؤَسِّلَ نَفْسًا يَمَّا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَوَلَّوْا كُفِّرُوا كُلٌّ عَذَابُ الْغَاوِينَ﴾ ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم الكفار. والثاني: اليهود والنصارى.

وفي اتخاذهم دينهم لعباً ولهواً، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه استهزأهم بآيات الله إذا سمعوها. والثاني: أنهم دانوا بما اشتبهوا، كما يُلَهَّوْنَ بما يشتهون. والثالث: أنهم يحافظون على دينهم إذا اشتبهوا، كما يلهون إذا اشتبهوا. قال الفراء: ويقال: إنه ليس من قوم إلا ولهم عيد، فهم يُلَهَّوْنَ في أعيادهم، إلا أمة محمد ﷺ فإن أعيادهم صلاة وتكبير وبر وخير.

فصل

ولعلماء الناسخ والمنسوخ في هذا القدر من الآية، قولان: أحدهما: أنه خرج مخرج التهديد، كقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ﴿١٦٨﴾ [المدثر: ١١] فعلى هذا، هو محكم، وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد. والثاني: أنه اقتضى المسامحة لهم والإعراض عنهم، ثم نسخ بآية السيف؛ وإلى هذا ذهب قتادة، والسدي.

قوله تعالى: ﴿وَذَكَّرْتَهُمْ بِهِ﴾ أي: عظ بالقرآن. وفي قوله: ﴿أَنْ يُؤَسِّلَ﴾ قولان: أحدهما: لثلا تبسل نفس،

كقوله: ﴿أَنْ تَسِيلُوا﴾ [النساء: ١٧٦]. والثاني: ذكَّروهم بإسالم المسلمين بجناياتهم لعلهم يخافون. وفي معنى «تبسل» سبعة أقوال: أحدها: تُسَلِّمُ، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، والسدي. وقال ابن قتيبة: تُسَلِّمُ إِلَى الهلكة. قال الشاعر:

وإيسالي بسني بفسير جُزْمٍ

أي؛ بغير جرم أجرمناه؛ والبُعُورُ: الجناية. وقال الزجاج: تُسَلِّمُ بعملها غير قادرة على التخلص. والمستبسل:

(١) البيت لعوف بن الأحوص الكلابي كما قال ابن قتيبة في «المعاني الكبير» ١١١٤/٢، وهو في «نوادير أبي زيد» ١٥١، و«مجاز القرآن» ١٩٤/١، و«غريب القرآن» ١٥٥، و«الطبري» ٤٤٥/١١، و«القرطبي» ١٦/٧، و«شواهد الكشاف» ٢٠٠، و«اللسان» و«التاج» و«بعل» و«بعر».

المستسلم الذي لا يعلم أنه يقدر على التخلص. والثاني: نُفَّضَح، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: تُدْفَع، رواه الضحاك عن ابن عباس. والرابع: تُهَلَّكُ، روي عن ابن عباس أيضاً. والخامس: تُحْبَسُ وتُؤَخَذُ، قاله قتادة، وابن زيد. والسادس: تُجْزَى، قاله ابن السائب، والكسائي. والسابع: تُرْتَهَنُ، قاله الفراء. وقال أبو عبيدة: تُرْتَهَنُ وتسلم؛ وأنشد:

هُنَالِكَ لَا أَزْجُو حَيَاةَ تَسْرُئِي سَمِيرَ اللَّيَالِي مُبَسَّلًا بِالْجَرَائِرِ^(١)

سمير الليالي: أبد الليالي. فأما الولي: فهو الناصر الذي يمنعها من عذاب الله. والعدل: الفداء. قال ابن زيد: وإن تفقد كلَّ فداء لا يقبل منها. فأما الحميم، فهو الماء الحار. قال ابن قتيبة: ومنه سمي الحَمَام.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَيْنَمَا قُلْ إِنَّكَ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَزْرَأْنَا لِيَسْلِمَ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةَ الَّتِي إِلَيْهِ مَشْرُوتٌ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أنعبد ما لا يضرنا إن لم نعبد، ولا ينفعنا إن عبدناه، وهي الأصنام. ﴿وَرُدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي: نرجع إلى الكفر: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ﴾ إلى الإسلام، فنكون ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ وقرأ حمزة: «استهواه الشياطين»، على قياس قراءته: ﴿تَوَدُّتُهُ رُسُلَنَا﴾. وفي معنى «استهواها» قولان: أحدهما: أنها هوت به وذهبت، قاله ابن قتيبة. وقال أبو عبيدة: تشبَّه له الشياطين، فيتبعها حتى تهوي به في الأرض، ففضَّله. والثاني: زينت له هواه، قاله الزجاج. قال: و«حيران» منصوب على الحال، أي؛ استهوته في حال حيرته. قال السدي: قال المشركون للمسلمين: أتبعوا سيئنا، واتركوا دين محمد، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ﴾ فنكون كرجل كان مع قوم على طريق، فضل، فحيرته الشياطين، وأصحابه على الطريق يدعون: يا فلان هلم إلينا، فإننا على الطريق، فيأبى. وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، دعاه أبوه وأمه إلى الإسلام فأبى. قال مقاتل: والمراد بأصحابه: أبواه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّكَ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ هذا رد على من دعا إلى عبادة الأصنام، وزجر عن إجابته كأنه قيل له: لا تفعل ذلك، لأن هدى الله هو الهدى، لا هدى غيره.

قوله تعالى: ﴿وَأَزْرَأْنَا لِيَسْلِمَ﴾ قال الزجاج: العرب تقول: أمرتك أن تفعل، وأمرتك لتفعل، وأمرتك بأن تفعل. فمن قال: «بأن» فالباء للإلصاق. والمعنى: وقع الأمر بهذا الفعل، ومن قال: «أن تفعل» فعلى حذف الباء؛ ومن قال: «لتفعل» فقد أخبر بالعلة التي لها وقع الأمر. قال: وفي قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وجهان: أحدهما: أمرنا لأن نسلم، ولأن نقيم الصلاة. والثاني: أن يكون محمولاً على المعنى، لأن المعنى: أمرنا بالإسلام وقيام الصلاة.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْمُصَوِّمُ النَّجِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: خلقهما للحق. والثاني: خلقهما حقاً. والثالث: خلقهما بكلامه وهو الحق. والرابع: خلقهما بالحكمة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ قال الزجاج: الأجود أن يكون منصوباً على معنى: واذكر يوم يقول كن فيكون، لأن بعده ﴿وَلَا قَالِ إِزِيدُ﴾ فالمعنى: واذكر هذا وهذا. وفي الذي يقول له كن فيكون، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوم القيامة، قاله مقاتل. والثاني: ما يكون في القيامة. والثالث: أنه الصور، وما ذكر من أمر الصور يدل عليه، قالهما الزجاج. قال: وخصَّ ذلك اليوم بسرعة إيجاد الشيء ليدل على سرعة أمر البعث.

(١) البيت للشنفرى، وهو شاعر جاهلي من مصاليك العرب وفتاكهم، وهو في «الطرائف» ٣٦، ومجاز القرآن ١/١٩٥، والشعر والشعراء ١/٢٦، والحناسة» بشرح التبرزي ٢/٦٣، وشرح المفصلية، ١٩٧، والطبري ١١/٤٤٦، «واللسان» و«التاج»: بسن. وقوله: سمير الليالي، ويرى «سميس الليالي» وهما بمعنى: ومعنى «مبسلاً بالجزائر» أنه أسلم إلى عدوه بما جنى عليهم.

قوله تعالى: ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ﴾ أي: الصدق الكائن لا محالة ﴿وَلَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾. وروى إسحاق بن يوسف الأزرق عن أبي عمرو: «نفتح» بنونين. ومعنى الكلام: أن الملوك يومئذ لا ملك لهم، فهو المنفرد بالملك وحده، كما قال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ٢١٩]. وفي «الصور» قولان: أحدهما: أنه قرن ينفخ فيه؛ روى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصور، فقال: «هو قرن ينفخ فيه»^(١). وقال مجاهد: الصور كهيئة البوق. وحكى ابن قتيبة: أن الصور: القرن، في لغة قوم من أهل اليمن، وأنشد:

نَحْنُ نَطْحَنَاهُمْ عَدَاةَ الْجَمْعَيْنِ
بِالصَّابِحَاتِ فِي عُبْرِ النَّفْعَيْنِ
نَطْحاً شَدِيداً لَا كَنَظْحِ الصُّورَيْنِ^(٢)

وأنشد الفراء:

لَوْلَا ابْنُ جَعْدَةَ لَمْ يُفْتَحْ فُهَنْدُوكُمْ
وَلَا خُرَّاسَانُ حَتَّى يُنْفَخَ الصُّورُ^(٣)

وهذا اختيار الجمهور. والثاني: أن الصور جمع صورة؛ يقال: صورة وصور، بمنزلة سورة وسور، كسورة البناء؛ والمراد نفض الأرواح في صور الناس، قاله قتادة، وأبو عبيدة. وكذلك قرأ الحسن، ومعاذ القارئ، وأبو وجلز، وأبو المتوكل «في الصور» بفتح الواو. قال ثعلب: الأجود أن يكون الصور: القرن، لأنه قال ﷺ: ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ ثم قال: «ثُمَّ يُفْخَعُ فِيهِ أَقْرَبُ»؛ ولو كان الصور، كان: ثم نُفَخَ فيها، أو فيها؛ وهذا يدل على أنه واحد؛ وظاهر القرآن يشهد أنه يُنْفَخُ في الصور مرتين. وقد روى أهل التفسير عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصور قرن يُنْفَخُ فيه ثلاث نفخات؛ الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة النيام لرب العالمين»^(٤). قال ابن عباس: وهذه النفخة المذكورة في هذه الآية هي الأولى، يعني: نفخة الصعق.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْمٌ اللَّيْبُ﴾ وهو ما غاب عن العباد مما لم يعاينوه، ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ وهو ما شاهدوه ورأوه. وقال الحسن: يعني بذلك السر والعلانية.

﴿وَأَذَى قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَاذَا آتَيْتَهُمْ أَصْنَامًا وَاللَّهِ إِنَّكَ آتِيكَ وَوَقَمَكَ فِي سَكَلِ مَيْمِنِ﴾^(٥)
قوله تعالى: ﴿وَأَذَى قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَاذَا آتَيْتَهُمْ﴾ في «آزر» أربعة أقوال: أحدها: أنه اسم أبيه، روي عن ابن عباس^(٥)، والحسن، والسدي، وابن إسحاق. والثاني: أنه اسم صنم، فأما اسم أبي إبراهيم، فتارح، قاله مجاهد. فيكون

(١) «المسند» ١٠/١٠، ١١، «الترمذي» ٢٩٥/٣، وصححه، وأبو داود في «سننه» ٣٢٦/٤، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٤٣٦/٢، ٥٠٦، ٥٦٠/٤، وصححه، وواقفه الذهبي.

(٢) الرجز في «غريب القرآن» ٢٦ بدون نسبة، والأول والثالث في «اللسان» (صور) والصابحات: الخيل الصاهلة.

(٣) البيت بدون نسبة في «معاني القرآن» للفراء ٢٤٠/١، و«المعرب» للجواليقي ٢٦٧، وابن جرير الطبري ٤٦٣/١١، ونسب قریش ٣٤٥، و«اللسان»: صور. وابن جعدة: هو عبد الله بن جعدة بن هيرة المخزومي، وكان أبو جعدة بن هيرة على خراسان ولاة علي بن أبي طالب ﷺ، والقهندز، بضم القاف والهاء وسكون التون وضم الدال من لغة خراسان، يعنون بها الحصن أو القلعة. وقد استشهد الفراء وابن جرير بالبيت على أن العرب تقول: نفخ في الصور، ونفخ الصور.

(٤) هو قطعة من حديث طويل ساقه بطوله الحافظ ابن كثير في «التفسير» ١٤٦/٢ من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني. قال الشيخ أحمد شاکر: هو حديث ظاهر النكارة، وإسماعيل بن رافع رواه فيه ابن ميمون لي بشيء، وقال أبو حاتم: هو منكر الحديث، وقال ابن جبان في كتاب «المجروحين» ص ٨٣ - ٨٤ (مخطوط مصور): كان رجلاً صالحاً إلا أنه يقبل الأخبار، حتى صار الغالب على حديثه المنكاري التي يسبق إلى القلب أنه كالمتمم لها. قلت: وروى البخاري ٤٢٤/٨، ومسلم ٢٢٧٠/٤ عن أبي هريرة ﷺ مرهوعاً عما بين النسختين أربعون؛ قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: آبيت. قال: أربعون شهراً؟ قال: آبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: آبيت. ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل. وقوله: «آبيت» قال الحافظ: معناه: امتنعت عن القول بتعيين ذلك، لأنه ليس عندي في ذلك توفيق. وقد رجح غير واحد من العلماء أنهما نفتحان فقط.

(٥) قال الشيخ أحمد شاکر: أما أن اسم والد إبراهيم «آزر» فإنه عندنا أمر قطعي الثبوت بصریح القرآن في هذه الآية بدلالة الألفاظ على المعاني. وأما التأويل والتلاعب بالألفاظ، فما هو إلا إنكار مقنع لمضمون الكلام ومعناه، وسواء أكان اسمه في قول أهل النسب نقلاً عن الكتب السابقة «تارح» أو لم يكن، فلا أثر له في وجوب الإيمان بصدق ما نص عليه القرآن، وبدلالة لفظ «أبيه» على معناه الوضعي في اللغة، والقرآن هو المهيمن على ما قبله من كتب الأديان السابقة. ثم يقطع كل شك، ويذهب بكل تأويل الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ٢٧٦/٦ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قفرة وغبرة»، فيقول له إبراهيم: ألم أتل لك: لا تعصني... إلى آخر الحديث. وليس بعد هذا النص مجال للتلاعب.

المعنى: أتخذ آزر أصناماً؟ فكانه جعل أصناماً بدلاً من آزر، والاستفهام معناه الإنكار. والثالث: أنه ليس باسم، إنما هو سب بعب، وفي معناه قولان: أحدهما: أنه المعوج، كأنه عابه بريغه وتعويجه عن الحق، ذكره الفراء. والثاني: أنه المخطئ، فكانه قال: يا مخطئ أنتخذ أصناماً؟ ذكره الزجاج. والرابع: أنه لقب لأبيه، وليس باسمه، قاله مقاتل بن حيان. قال ابن الأثيري: قد يغلب على اسم الرجل لقبه، حتى يكون به أشهر منه باسمه. والجمهور على قراءة «آزر» بالنصب. وقرأ الحسن، ويعقوب بالرفع. قال الزجاج: من نصب، فموضع «آزر» خفض بدلاً من أبيه؛ ومن رفع فعلى النداء.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: وكما أريناه البصيرة في دينه، والحق في خلاف قومه، نريه ﴿مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وقيل: «نري» بمعنى أرينا. قال الزجاج: والملكوت بمنزلة الملك، إلا أن الملكوت أبلغ في اللغة، لأن الواو والتاء يزدان للمبالغة؛ ومثل الملكوت: الرغبة والرهبة. قال مجاهد: ملكوت السموات والأرض: آياتها؛ تفرجت له السموات السبع، حتى العرش، فنظر فيهن، وتفرجت له الأرضون السبع، فنظر فيهن. وقال قتادة: ملكوت السموات: الشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض: الجبال والشجر والبحار. وقال السدي: أقيم على صخرة، وفتحت له السموات والأرض، فنظر إلى ملك الله ﷻ، حتى نظر إلى العرش، وإلى منزله من الجنة، وفتحت له الأرضون السبع، حتى نظر إلى الصخرة التي عليها الأرضون.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ هذا عطف على المعنى، لأن معنى الآية: نريه ملكوت السموات والأرض ليستدل به، وليكون من الموقنين. وفي ما يورق به ثلاث أقوال: أحدها: وحدانية الله وقدرته. والثاني: نبوته ورسالته. والثالث: ليكون موقناً بعلم كل شيء حساً، لا خبراً.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ قال الزجاج: يقال: جن عليه الليل، وأجنه الليل: إذا أظلم، حتى يستر بظلمته؛ ويقال لكل ماستر: جن، وأجن، والاختيار أن يقال: جنّ عليه الليل وأجنه الليل.

الإشارة إلى بدء قصة إبراهيم عليه السلام

روى أبو صالح عن ابن عباس قال: وُلد إبراهيم في زمن نُمرود، وكان لنمرود كَهَان، فقالوا له: يولد في هذه السنة مولود يفسد آلهة أهل الأرض، ويدعوهم إلى غير دينهم، ويكون هلاك أهل بيتك على يده، فعزل النساء عن الرجال، ودخل آزر إلى بيته، فوقع على زوجته، فحملت، فقال الكهان لنمرود: إن الغلام قد حمل به الليلة. فقال: كل من ولدت غلاماً فاقتلوه. فلما أخذ أم إبراهيم المخاض، خرجت هاربة، فوضعت في نهر يابس، ولقته في خرقة، ثم وضعت في خلفاء^(١)، وأخبرت به أباه، فاتاه، فحفر له سرباً، وسد عليه بصخرة، وكانت أمه تختلف إليه فترضعه، حتى شب وتكلم، فقال لأمه: من ربي؟ فقالت: أنا. قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك. قال: فمن رب أبي؟ قالت: أسكت. فسكت، فرجعت إلى زوجها، فقالت: إن الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغيّر دين أهل الأرض، ابنك. فاتاه، فقال له مثل ذلك. فلما جنّ عليه الليل، دنا من باب السرب، فنظر فرأى كوكباً. قرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم «رأى»، بفتح الراء والهمزة؛ وقرأ أبو عمرو: «رأى»؛ بفتح الراء وكسر الهمزة، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم. «رأى»، بكسر الراء والهمزة، واختلفوا فيها إذا لقيها ساكن، وهو أت في ستة مواضع: ﴿رَأَى الْقَمَرَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى النَّجْمَ﴾ وفي النحل ﴿وَإِذَا رَأَى الْبَيْنَ ظَلَمُوا﴾ [النحل: ٨٥] ﴿وَإِذَا رَأَى الْذُرْبَ أَشْرَكُوا﴾ [النحل: ٨٦] وفي الكهف: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣]، وفي الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأحزاب: ٢٢]. وقرأ أبو بكر عن

(١) في «اللسان» الخلفاء: ثبت أطرافه محددة، كأنها أطراف سعف النخل والخوص، يثبت في مغايض الماء والنزوز، الواحدة: حلفة، مثل قصبه وقصبا، وطرفة وطرفاء.

عاصم، وحمزة إلا العبسي، وخلف في اختياره: بكسر الراء وفتح الهمزة في الكل، وزوى العبسي كسرة الهمزة أيضاً، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو؛ وابن عامر، والكسائي: بفتح الراء والهمزة. فإن اتصل ذلك بمكني، نحو: رآك، ورآه، ورآها؛ فإن حمزة، والكسائي، وخلف، والوليد عن ابن عامر، والمفضل، وأبان، والقزاز عن عبد الوارث، والكسائي عن أبي بكر: يكسرون الراء، ويميلون الهمزة. وفي الكوكب الذي رآه قولان: أحدهما: أنه الزهرة، قاله ابن عباس، وقتادة. والثاني: المشتري، قاله مجاهد، والسدي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه على ظاهره. روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: هذا ربي، فعبده حتى غاب، وعبد القمر حتى غاب، وعبد الشمس حتى غابت؛ واحتج أرباب هذا القول بقوله: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ وهذا يدل على نوع تحيير، قالوا: وإنما قال هذا في حال طفولته على ما سبق إلى وهمه، قبل أن يثبت عنده دليل. وهذا القول لا يرتضى، والمتأهلون للنبوة محفوظون من مثل هذا على كل حال. فأما قوله: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ فما زال الأنبياء يسألون الهدى، ويتضرعون في دفع الضلال عنهم، كقوله: ﴿وَاجْتَنِبْنِي رَبِّيَ أَنْ تَبِيدَ الْأَسْمَاءَ﴾ [إبراهيم: ٢٥] ولأنه قد آتاه رشده من قبل، وأراه ملكوت السموات والأرض ليكون موقناً، فكيف لا يعصمه عن مثل هذا التحيير؟ والثاني: أنه قال ذلك استدرجاً للحجة، ليعيب آلهتهم ويربهم بغضها عند أفولها، ولا بد أن يضم في نفسه: إما على زعمكم، أو فيما تظنون، فيكون كقوله: ﴿أَيْنَ يُشْرِكُكَ﴾، وإما أن يضم: يقولون، فيكون كقوله: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧]، أي: يقولان ذلك، ذكر نحو هذا أبو بكر ابن الأنباري، ويكون مراده استدرج الحجة عليهم، كما نقل عن بعض الحكماء أنه نزل يقوم يعبدون صنماً، فأظهر تعظيمه، فأكرموه، وصدروا عن رأيه، فدهمهم عدو، فشاورهم ملكهم، فقال: ندعو إلهنا ليكشف ما بنا، فاجتمعوا يدعونه، فلم ينعف، فقال هاهنا إله ندعوه، فيستجيب، فدعوا الله، فصرف عنهم ما يحذرون، وأسلموا. والثالث: أنه قال مستهتماً، تقديره: أهذا ربي؟ فاضمرت ألف الاستهتام، كقوله: ﴿أَفَأَيْنَ مَتَّ فَهُمُ الْفَالِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣٤]، أي: أفهم الخالدون؟ قال الشاعر:

كَذَّبْتُكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِسَوَائِطٍ
عَلَسَ الظُّلَامَ مِنَ الرَّيَابِ حَيَاً^(١)

أراد: أكذبتك؟ قال ابن الأنباري: وهذا القول شاذ، لأن حرف الاستهتام لا يضم إذ كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار؛ وظاهر قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ أنه إشارة إلى الصانع. وقال الزجاج: كانوا أصحاب نجوم، فقال: هذا ربي، أي: هذا الذي يدبرني، فاحتج عليهم أن هذا الذي تزعمون أنه مدبر، لا ترى فيه إلا أثر مدبر. و«أفل» بمعنى: غاب؛ يقال: أفل النجم يأفل ويأفل أفولاً.

قوله تعالى: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِقَ﴾ أي: حبّ ربّ معبود، لأن ما ظهر وأفل كان حادثاً مدبراً.

﴿قَلَّمَا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي قَلَّمَا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوَّيْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿قَلَّمَا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ قَلَّمَا أَفَلَتْ قَالَ يَقْوَرِي إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَلَّمَا رَأَى الْقَمَرَ﴾ قال ابن قتيبة: سمي القمر قمرأ لبياضه؛ والأقمر: الأبيض؛ ولبلة قمرء، أي: مضية. فأما البازع، فهو الطالع. ومعنى ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي﴾: لئن لم يثبتني على الهدى. فإن قيل: لم قال في الشمس؛ هذا، ولم يقل: هذه؟ فتنه أربعة أجوبة: أحدها: أنه رأى ضوء الشمس، لا عينها، قاله محمد بن مقاتل. والثاني: أنه أراد: هذا الطالع ربي، قاله الأخفش. والثالث: أن الشمس بمعنى الضياء والنور، فحمل الكلام على المعنى. والرابع: أن الشمس ليس في لفظها علامة من علامات التائث، وإنما يشبه لفظها المذكر، فجاز تذكيرها. ذكره والذي قبله ابن الأنباري.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَعَجَّزْتُ قَوْمَهُ قَالَ اتَّخَذْتُمُونِي فِي اللَّهِ

(١) البيت للأخطل من قصيدة بهجو بها جريماً، وهو في «ديوانه» ٤١، ومجاز القرآن ٥٦/١، والكامل ٦١١، والطبري ٣٦١/١، والنهاية، واللسان (كذب) وشواهد المعنى ٥٢، والخزانة ٤١١/٢، ٤٥٢/٤.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ قال الزجاج: جعلت قصدي بعبادتي وتوحيدي لله رب العالمين ﷻ. وبقاى الآية قد تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَسَاجِدًا قَوْمَهُ﴾ قال ابن عباس: جادلوه في آلهتهم، وخوفوه بها، فقال منكرأ عليهم: ﴿أَتَحْتَجِرُونَ﴾. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَتَحْتَجِرُونَ﴾ و ﴿تَأْمُرُونَ﴾ [الزمر: ٩٤] بتشديد النون. وقرى نافع، وابن عامر بتخفيفها فحذفا النون الثانية لالتقاء النونين. ومعنى ﴿أَتَحْتَجِرُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: في توحيده. ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا﴾، أي: بين لي ما به اهتديت. وقرأ الكسائي: «هداني»، بإمالة الدال. والإمالة حسنة فيما كان أصله الياء، وهذا من هدى يهدي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا آخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي: لا أرهب آلهتكم، وذلك أنهم قالوا: نخاف أن تمسك آلهتنا بسوء، فقال: لا أخافها لأنها لا تضر ولا تنفع ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾. فله أخاف ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: علمه علماً تاماً.

﴿وَكَيْفَ آخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾
 ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِسْمَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ آخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي: من هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخافون أنتم أنكم أشركتم بالله الذي خلقكم ورزقكم، وهو قادر على ضرركم ونفعكم ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة. ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ أي: بأن يأمن العذاب، الموحد الذي يعبد من بيده الضر والنفع؟ أم المشرك الذي يعبد ما لا يضر ولا ينفع؟ ثم بين الأحق من هو بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِسْمَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطوه بشرك. روى البخاري، ومسلم في «صحيحهما» من حديث ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية، شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك؟ فقال: «إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» (١) للقمان: [١١٣]؟ وفيمن عنى بهذه الآية، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إبراهيم وأصحابه، وليست في هذه الأمة، قاله علي بن أبي طالب. وقال في رواية أخرى: هذه الآية لإبراهيم خاصة، ليس لهذه الأمة منها شيء. والثاني: أنه من هاجر إلى المدينة، قاله عكرمة. والثالث: أنها عامة، ذكره بعض المفسرين. وهل هي من قول إبراهيم لقومه، أم جواب من الله تعالى؟ فيه قولان.

﴿وَلَيْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٢)
 قوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ حُجَّتُنَا﴾ يعني ما جرى بينه وبين قومه من الاستدلال على حدوث الكوكب والقمر والشمس، وعيهم، إذ سوا بين الصغير والكبير، وعبدوا من لا ينطق، وإلزامه إياهم الحجة. ﴿آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أرشدناه إليها بالإلهام. وقال مجاهد: الحجة قول إبراهيم: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾؟

قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عمرو وابن عامر: ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءُ﴾، مضافاً. وقرأ عاصم، وحمزة والكسائي: ﴿دَرَجَاتٍ﴾، منوناً، وكذلك قرؤوا في (يوسف) [يوسف: ٤٧]. ثم في المعنى قولان: أحدهما: أن الرفع بالعلم والفهم والمعرفة. والثاني: بالاصطفاء للرسالة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ قال ابن جرير: حكيم في سياسة خلقه، وتلقيه أنبياءه الحجج على أممهم المكذبة ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يؤول إليه أمر الكل.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٣) وَذَكَرْنَا وَيْحَ وَيَسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلًّا مِّنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٣﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا نَّفَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٥﴾

(١) «المسند» ٢٠٧/٥، و«البخاري» ٨١/١، ٢٢١/٨، و«مسلم بشرح النووي» ١٤٢/٢، ١٤٣، و«الترمذي» ١٣٢/٢.

قوله تعالى: ﴿وَوَكَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ ولداً لصلبه ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ولداً لإسحاق: ﴿كَلَّا﴾ من هؤلاء المذكورين: ﴿هَدَيْتَنَا﴾ أي: أرشدنا.

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ دُرِّيَّتَيْنِ﴾ في «هاء الكناية»، قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى نوح؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء، ومقاتل، وابن جرير الطبري. والثاني: إلى إبراهيم، قاله عطاء. وقال الزجاج: كلا القولين جائز، لأن ذكرهما جميعاً قد جرى، واحتج ابن جرير للقول الأول بأن الله تعالى ذكر في سياق الآيات لوطاً، وليس من ذرية إبراهيم. وأجاب عنه أبو سليمان الدمشقي بأنه يحتمل أن يكون أراد: ووهبنا له لوطاً في المعاضدة والنصرة، ثم قوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَجَّرَى الْمُتْحِينِ﴾ من أبين دليل على أنه إبراهيم، لأن افتتاح الكلام إنما هو بذكر ما آتاب به إبراهيم. فأما «يوسف» فهو اسم أعجمي. قال الفراء: «يوسف». بضم السين من غير همز، لغة أهل الحجاز، وبعض بني أسد يقول: «يوسف» بالهمز، وبعض العرب يقول: «يوسف» بكسر السين، وبعض بني عُقَيْل يقول: «يوسف» بفتح السين.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَجَّرَى الْمُتْحِينِ﴾ أي: كما جزينا إبراهيم على توحيدِهِ وثباته على دينه، بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولاداً أنبياء أتقياء، كذلك نجزي المحسنين. فأما عيسى، وإلياس، واليسع، ولوطاً؛ فأسماء أعجمية، وجمهور الفراء يقرؤون «اليسع» بلام واحدة مخففاً، منهم ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر. وقرأ حمزة، والكسائي هاهنا وفي (ص): «إِلْيَسُ» بلامين مع التشديد. قال الفراء؛ وهي أشبه بالصواب، وبأسماء الأنبياء من بني إسرائيل، ولأن العرب لا تدخل على «يُعْقَلُ»، إذا كان في معنى فلان، ألفاً ولاماً، يقولون: هذا يسع قد جاء، وهذا يعمر، وهذا يزيد، فهكذا الفصحح من الكلام. وأنشدني بعضهم:

وَجَدْنَا الْوَلِيدَ بِنَ الْيَزِيدِ مَبَارِكاً
شَدِيدُ أَخْنَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلُهُ^(١)

فلما ذكر الوليد بالالف واللام، أتبعه يزيد بالالف واللام، وكل صواب. وقال مكِّي: من قرأه بلام واحدة، فالأصل عنده: يسع، ومن قرأه بلامين، فالأصل عنده: لَيْسُ، فأدخلوا عليه حرف التعريف. وباقى أسماء الأنبياء قد تقدم بيانها، والمراد بالعالمين: عالمو زمانهم.

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ آيَاتِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ «من» هاهنا للتبعيض. قال الزجاج: المعنى: هدينا هؤلاء، وهدينا بعض آبائهم وذرياتهم. ﴿وَأَخْبَيْنَاهُمْ﴾ مثل اخترناهم واصطفيناهم، وهو مأخوذ من جيب الشيء: إذا أخلصته لنفسك. وجيب الماء في الحوض: إذا جمعته فيه. فأما الصراط المستقيم، فهو التوحيد.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي يَوْمَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَكَوْا شُرَكَاءَ لِحَيْطِ عَنْهُمْ تَأْ كَاوَأَ يَمْتَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: ذلك دين الله الذي هم عليه: ﴿يَهْدِي يَوْمَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. ﴿وَكَوْا شُرَكَاءَ﴾ يعني الأنبياء المذكورين ﴿لِحَيْطِ﴾ أي: لبطل وزال عملهم، لأنه لا يقبل عمل مشرك.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالشُّرْهَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُو بِهَا يَكْفِيرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني الكتب التي أنزلها عليهم. والحكم: الفقه، والعلم ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ يعني بآياتنا. وفيمن أشير إليه بـ «هؤلاء» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أهل مكة، قاله ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وقتادة. والثاني: أنهم قريش، قاله السدي. والثالث: أمة النبي ﷺ، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا﴾ قال أبو عبيدة: فقد رزقناها قوماً. وقال الزجاج: وكلنا بالإيمان بها قوماً. وفي هؤلاء القوم أربعة أقوال: أحدها: أنهم أهل المدينة من الأنصار، قاله ابن عباس، وابن المسيب، وقتادة، والسدي. والثاني: الأنبياء والصالحون، قاله الحسن. وقال قتادة: هم النبيون الثمانية عشر المذكورون في هذا المكان. وهذا اختيار الزجاج، وابن جرير. والثالث: أنهم الملائكة، قاله أبو رجاء. والرابع: أنهم المهاجرون والأنصار.

(١) البيت من قصيدة لابن ميادة اليربوعي بن أبرد يمدح فيها أبا العباس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان. وهو في معاني القرآن: للفراء ١/٣٤٢، والمعني ٥٢، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٥٢. وقوله: «بأخناء الخلافة» فالأخناء جمع الحنو وهو الجهة والجانب، ويقال: أخناء الأسور لما تشابه منها وأشكل المخرج منه. والكاهل: اسم لما بين الكتفين، ويعبر بشدة الكاهل عن القوة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمُ آفَتُوهُ قُلْ لَا أَتَلَّكُمْ عَلَيْهِمْ آجْرًا إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْمَلَكِوتِ﴾ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ يعني النبيين المذكورين. وفي قوله تعالى: ﴿فَبِهِدْهُمُ آفَتُوهُ﴾ قولان: أحدهما: بشرائهم وبسنتهم فاعمل، قاله ابن السائب. والثاني: اقتد بهم في صبرهم، قاله الزجاج. وكان ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، يشنون الهاء من قوله: ﴿اقتده﴾ في الوصل ساكنة. وكان حمزة، وخلف، ويعقوب، والكسائي عن أبي بكر، واليزيدي في اختياره، يحدفون الهاء في الوصل. ولا خلاف في إثباتها في الوقف، وإسكانها فيه. قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَلَّكُمْ عَلَيْهِمْ آجْرًا﴾ يعني على القرآن. والذكرى: العظة. والعالمون هاهنا: الجن والإنس.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلْبَاسِ لِيَجْمَعُوهُمُ قِرَاطِيسَ يَبْدُونَهَا وَيَتَخَفُونَ كَيْفًا وَيَعْلَمُونَ مَا لَوْ تَمَلَّوْا أَنَّهُمْ وَلَا ءَابَاءَهُمْ قُلِ اللَّهُ تَعَالَى ذَرَمٌ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَمُونَ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ في سبب نزولها سبعة أقوال: أحدها: أن مالك بن الصيف رأس اليهود، أتى رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال له رسول الله ﷺ: «أنتكك بالذي أنزل التوراة على موسى، أنتكك فيها أن الله يبغض الحبر السمين؟» قال: نعم. قال «فأنت الحبر السمين». فغضب، ثم قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس؛ وكذلك قال سعيد بن جبير، وعكرمة: نزلت في مالك بن الصيف. والثاني: أن اليهود قالوا: يا محمد، أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: «نعم». قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً، فنزلت هذه الآية، رواه الواهبي عن ابن عباس. والثالث: أن اليهود قالوا: يا محمد، إن موسى جاء بألواح يحملها من عند الله، فأتنا بآية كما جاء موسى، فنزل: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٣ - ١٥٦]. فلما حدثهم بأعمالهم الخبيثة، قالوا: والله ما أنزل الله عليك ولا على موسى وعيسى، ولا على بشر، من شيء، فنزلت هذه الآية، قاله محمد بن كعب. والرابع: أنها نزلت في اليهود والنصارى، أتاهم الله علماً فلم يتفعلوا به، قاله قتادة. والخامس: أنها نزلت في فنحاص اليهودي، وهو الذي قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ قاله السدي. والسادس: أنها نزلت في مشركي قريش، قالوا: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد^(١). والسابع: أن أولها، إلى قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ في مشركي قريش. وقوله: ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ في اليهود، رواه ابن كثير عن مجاهد. وفي معنى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: ما عظموا الله حق عظمتهم، قاله ابن عباس، والحسن، والفراء، وثعلب، والزجاج. والثاني: ما وصفوه حق صفته، قاله أبو العالبي، واختاره الخليل. والثالث: ما عرفوه حق معرفته، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿يَجْمَعُونَهُمْ قِرَاطِيسَ﴾ معناه: يكتبونه في قراطيس. وقيل: إنما قال: قراطيس، لأنهم كانوا يكتبونه في قراطيس مقطعة، حتى لا تكون مجموعة، ليخفوا منها ما شاؤوا.

قوله تعالى: ﴿يَبْدُونَهَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «يجعلونه قراطيس يبدونها» و «يخفون» بالياء فيهن. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي؛ بالتاء فيهن. فمن قرأ بالياء، فلان القوم غيب، بدليل قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. ومن قرأ بالتاء، فعلى الخطاب؛ والمعنى: تبدون منها ما تحبون، وتخفون كثيراً، مثل صفة محمد ﷺ، وآية الرجم، ونحو ذلك مما كتّموه.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَوْ تَمَلَّوْا أَنَّهُمْ وَلَا ءَابَاءَهُمْ﴾ في المخاطب بهذا قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله الجمهور. والثاني: أنه خطاب للمسلمين، قاله مجاهد. فعلى الأول: علّموا ما في التوراة؛ وعلى الثاني: علّموا على لسان محمد ﷺ.

(١) رجع هذا القول ابن كثير وقال: إنه الأصح، لأن الآية مكية، واليهود لا يتكروا إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب قاطبة كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر كما قال: ﴿أَكْفَرُ الْبَاسِ عَسَا أَن يَأْتِيَنَا إِلَ بَشَرٍ يَنفَعُنَا إِن كُنَّا مِن بَنِي آدَمَ﴾ [يونس: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَخَافُ الْبَاسَ أَن يَأْتِيَنَا إِلَ بَشَرٍ يَنفَعُنَا إِن كُنَّا مِن بَنِي آدَمَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ هذا جواب لقوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ وتقديره: فإن أجابوك، وإلا فقل: الله أنزله.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَرَّزْتَهُمْ﴾ تهديد. وخوضهم: باطلهم. وقيل: إن هذا أمر بالإعراض عنهم، ثم نسخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن. قال الزجاج والمبارك: الذي يأتي من قبله الخير الكثير. والمعنى: أنزلناه للبركة والإنذار.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٢)

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب.

قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ قرأ عاصم إلا حفصاً: «ولينذر» بالياء؛ فيكون الكتاب هو المنذر. وقرأ الباقون: بالياء، على الخطاب للنبي ﷺ. فأما أم القرى، فهي مكة. قال الزجاج: والمعنى: لتنذر أهل أم القرى. وفي تسميتها بأم القرى أربعة أقوال: أحدها: أنها سميت بذلك، لأن الأرض دُحيت من تحتها، قاله ابن عباس. والثاني: لأنها أفدعها، قاله ابن قتيبة. والثالث: لأنها قبله جميع الناس، يؤمنونها. والرابع: لأنها كانت أعظم القرى شأنًا، ذكرهما الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال ابن عباس: يريد الأرض كلها.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن. والثاني: إلى النبي محمد ﷺ. والمعنى: من آمن بالآخرة آمن به؛ ومن لم يؤمن به، فليس إيمانه بالآخرة حقيقة، ولا يعتد به، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فدل على أنه أراد المؤمنين الذين يحافظون على الصلوات.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزلُ بِشَاءِ اللَّهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٩٣)

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أن أولها، إلى قوله: ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ نزل في مسلمة الكذاب. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنزلُ بِشَاءِ اللَّهِ﴾ نزل في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان قد تكلم بالإسلام، وكان يكتب لرسول الله ﷺ في بعض الأحيان؛ فإذا أملي عليه: «عزيز حكيم» كتب: «غفور رحيم» فيقول لرسول الله ﷺ: هذا وذاك سواء. فلما نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (٩٣) أملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله: ﴿خَلَقْنَا آخِرًا﴾ عجب عبد الله بن سعد، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] فقال رسول الله ﷺ: «كذا أنزلت علي، فاكتبها» فشكل، وقال: لئن كان محمد صادقاً، لقد أوحى إلي كما أوحى إليه، ولئن كان كاذباً، لقد قلت كما قال، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١). قال عكرمة: ثم رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة. والقول الثاني: أن جميع الآية في عبد الله بن سعد، قاله السدي. والثالث: أنها نزلت في مسلمة، والأسود العنسي، قاله قتادة. فإن قيل: كيف أفرد قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ وذاك مفتر أيضاً؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن الوصفين لرجل واحد، وصف بأمر بعد أمر ليدل على جرأته. والثاني: أنه خص بقوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ بعد أن عم بقوله: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾ لأنه ليس كل مفتر على الله يدعي أنه يوحى إليه، ذكرهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿سَأُنزلُ بِشَاءِ اللَّهِ﴾ أي: سأقول. قال ابن عباس: يعنون الشعر، وهم المستهزون. وقيل: هو قول عبد الله بن سعد بن أبي سرح. قال الزجاج: وهذا جواب لقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا لَقَنَّا بِشَاءِ اللَّهِ هَذَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قوم كانوا مسلمين بمكة، فأخرجهم الكفار

معهم إلى قتال بدر، فلما أبصروا قلة أصحاب رسول الله ﷺ رجعوا عن الإيمان، فنزل فيهم هذا، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم الذين قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِثْرًا﴾ قاله أبو سليمان. والثالث: الموصوفون في هذه الآية، وهم المفترون والمدعون الوحي إليهم، ومماثلة كلام الله. قال الزجاج: وجواب «لو» محذوف؛ والمعنى: لو تراهم في غمرات الموت لرأيت عذاباً عظيماً. ويقال لكل من كان في شيء كبير: قد غمر فلاناً ذلك. قال ابن عباس: غمرات الموت: سكراته. قال ابن الأنباري: قال اللغويون: سميت غمرات، لأن أهوالها يغمرن من يقعن به.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْمَلَيْكَةَ بِأَسْطَرًا أَيِّدِيهِنَّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بالضرب، قاله ابن عباس. والثاني: بالعذاب، قاله الحسن، والضحاك. والثالث: باسطوها لقبض الأرواح من الأجساد، قاله الفراء. وفي الوقت الذي يكون هذا فيه ثلاثة أقوال: أحدها: عند الموت. قال ابن عباس: هذا عند الموت، الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وملك الموت يتوقأهم. والثاني: يوم القيامة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: في النار، قاله الحسن. قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فيه إضمار «يقولون» وفي معناه قولان: أحدهما: استسلموا لإخراج أنفسكم. والثاني: أخرجوا أنفسكم من العذاب إن قدرتم.

قوله تعالى: ﴿تَجَزَّوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ قال أبو عبيدة: الهون: مضموم، وهو الهوان؛ وإذا فتحوا أوله، فهو الرفق والدعة. قال الزجاج: والمعنى: تجزؤون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَزَقْنَاكُمْ مِمَّا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ سبب نزولها: أن النضر بن الحارث قال: سوف تشفع لي اللات والعزى، فنزلت هذه الآية، قاله عكرمة. ومعنى فرادى: وحداً. وهذا إخبار من الله تعالى بما يوبخ به المشركين يوم القيامة. قال أبو عبيدة: فرادى، أي: فرد فرد. وقال ابن قتيبة: فرادى: جمع فرد. وللمفسرين في معنى «فرادى» خمسة أقوال متقاربة المعنى: أحدها: فرادى من الأهل والمال والولد، قاله ابن عباس. والثاني: كل واحد على حدة، قاله الحسن. والثالث: ليس معكم من الدنيا شيء، قاله مقاتل. والرابع: كل واحد منفرد عن شريكه في الغي وشقيقه، قاله الزجاج. والخامس: فرادى من المعبودين، قاله ابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا مال ولا أهل ولا ولد. والثاني: حفاة عراة غرلاً. والغزل: القلف. والثالث: أحياء. و«حَوَّلْنَاكُمْ»: بمعنى ملكتناكم. و«رَاءَ ظُهُورِكُمْ»: أي: في الدنيا. والمعنى: أن ما دأبتم في تحصيله في الدنيا فني، وبقي الندم على سوء الاختيار، وفي شفاعتهم، قولان: أحدهما: أنها الأصنام. قال ابن عباس: شفعاؤكم، أي: ألهتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم. و«زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ»: أي: عندكم شركاء. وقال ابن قتيبة: زعمتم أنهم لي في خلقكم شركاء. والثاني: أنها الملائكة؛ كانوا يعتقدون شفاعتها، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، وأبو بكر عن عاصم: بالرفع، وقرأ نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم: بنصب النون على الظرف. قال الزجاج: الرفع أجود، ومعناه: لقد تقطع وصلكم، والنصب جائز، ومعناه: لقد تقطع ما كنتم فيه من الشركة بينكم. وقال ابن الأنباري: التقدير: لقد تقطع ما بينكم، فحذف «ما» لوضوح معناها. قال أبو علي: الذين رفعوه، جعلوه اسماً، فأسندوا الفعل الذي هو «تقطّع» إليه؛ والمعنى: لقد تقطع وصلكم. والذين نصبوا، أضمرنا اسم الفاعل في الفعل، والمضمر هو الوصل؛ فالتقدير: لقد تقطع وصلكم بينكم. وفي الذي كانوا يزعمون قولان: أحدهما: شفاعة ألهتهم. والثاني: عدم البعث والجزاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوْءِ يُرْجِ أَمْرٌ مِنَ الْغَيْبِ وَنَحْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْبَرْحِ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوْءِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوْءِ﴾ في معنى الفلق قولان: أحدهما: أنه بمعنى الخلق، فالمعنى: خالق الحب والنوى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، ومقاتل. والثاني: أن الفلق بمعنى الشق. ثم في معنى

الكلام قولان: أحدهما: أنه فلق الحبة عن السنبله، والنواة عن النخلة، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، والسدي، وابن زيد. والثاني: أنه الشقان اللذان في الحب والنوى، قاله مجاهد، وأبو مالك. قال ابن السائب: الحب: ما لم يكن له نوى، كالبرّ والشعير؛ والنوى: مثل نوى التمر.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ أَمْثَلُ مِنَ التَّيْتِ وَيُخْرِجُ التَّيْتِ مِنَ التَّيْتِ﴾ قد سبق تفسيره في (آل عمران).

قوله تعالى: ﴿فَأَنْ تَوَكُّوْنَ﴾ أي: كيف تُصرفون عن الحق بعد هذا البيان.

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَمَلُ آيَاتِ سَكَا وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْوِيرُ الْقَرِيْبِ الْعَلِيِّ﴾

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ في معنى الفلق قولان قد سبقا. فأما الإصباح، فقال الأخفش: هو مصدر من أصبح. وقال الزجاج: الإصباح والصبح واحد. وللمفسرين في الإصباح، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه إضاءة الفجر، قاله مجاهد. وقال ابن زيد: فلق الإصباح من الليل. والثالث: أنه نور النهار، قاله الضحاك. وقرأ أنس بن مالك، والحسن، وأبو مجلز، وأيوب، والجحدري: ﴿فالقُ الأصباح﴾ بفتح الهمزة. قال أبو عبيد: ومعناه جمع صبح.

قوله تعالى: ﴿وجاعل الليل سكناً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «جاعل» بألف. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «وجعل» بغير ألف. «الليل» نصباً. قال أبو علي: من قرأ: «جاعل» فلاجل «فالق» وهم يراعون المشاكلة. ومن قرأ: «جعل» فلان فاعلاً هاهنا، بمعنى: «فعل» بدليل قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾. فأما السكن، فهو ما سكنت إليه. والمعنى: أن الناس يسكنون فيه سكون راحة. وفي الحسبان قولان: أحدهما: أنه الحساب، قاله الجمهور. قال ابن قتيبة: يقال: خذ من كل شيء بحسابه، أي: بحسابه. وفي المراد بهذا الحساب، ثلاثة أقوال: أحدها: أنهما يجريان إلى أجل يجعل لهما، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: يجريان في منازلهما بحساب، ويرجعان إلى زيادة ونقصان، قاله السدي. والثالث: أن جريانهما سبب لمعرفة حساب الشهور والأعوام، قاله مقاتل. والقول الثاني: أن معنى الحسبان؛ الضياء، قاله قتادة. قال الماوردي، كأنه أخذه من قوله تعالى: ﴿وَرَبِّبَلْ عَلَيْنَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: ٤٠] أي: ناراً. قال ابن جرير: وليس هذا من ذلك في شيء.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَمْكُونُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ النُّجُومَ﴾ جعل، بمعنى خلق. وإنما امتن عليهم بالنجوم، لأن سالكي القفار وراكبي البحار، إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَنَسَفَكُمْ وَرَدَّكُمْ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني آدم ﴿نَسَفَكُمْ﴾. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، إلا زويساً: بكسر القاف. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي: بفتحها. قال الزجاج: من كسر، فالمعنى: «فمنكم مستقر» ومن نصب، فالمعنى: «فلكم مستقر». فأما مستودع، فبالفتح لا غير. ومعناه على فتح القاف: «ولكم مستودع» وعلى كسر القاف: «منكم مستودع». وللمفسرين في هذا المستقر والمستودع تسعة أقوال: أحدها: فمستقر في الأرحام، ومستودع في الأضلاب، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، والضحاك، والنخعي، وقاتدة، والسدي، وابن زيد. والثاني: المستقر في الأرحام، والمستودع في القبر، قاله ابن مسعود. والثالث: المستقر في الأرض، والمستودع في الأضلاب، رواه ابن جبير عن ابن عباس. والرابع: المستقر والمستودع في الرحم، رواه قابوس عن أبيه عن ابن عباس. والخامس: المستقر حيث يأوي، والمستودع حيث يموت، رواه مقسم عن ابن عباس. والسادس: المستقر في الدنيا، والمستودع في القبر. والسابع: المستقر في القبر، والمستودع في الدنيا، وهو عكس الذي قبله، روي عن الحسن. والثامن: المستقر في الدنيا، والمستودع عند الله تعالى، قاله مجاهد. والتاسع: المستقر في الأضلاب، والمستودع في الأرحام، قاله ابن بحر، وهو عكس الأول.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مُخْرِجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ يَبْرُؤُا لَهَا قُتُونًا دَانِيَةً رَجَدَتْ مِنْ أَغْصَابِهَا الزُّيُوتُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالمطر. وفي قوله تعالى: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قولان: أحدهما: نبات كل شيء من الثمار، لأن كل ما ينبت، فنباته بالماء. والثاني: رزق كل شيء وغذاؤه. وفي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ قولان: أحدهما: من الماء، أي: به. والثاني: من النبات. قال الزجاج: الخضر بمعنى الأخضر؛ يقال: اخضر، فهو أخضر، وخضر، مثل عور، فهو أعور، وعور.

قوله تعالى: ﴿مُخْرِجًا مِنْهُ﴾ أي: من الخضر ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ كالسنبل والشعير. والمتراكب: الذي بعضه فوق بعض.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ يَبْرُؤُا لَهَا قُتُونًا دَانِيَةً﴾ وروى الخفاف عن أبي عمرو: «قُتوان» بضم القاف؛ وروى هارون عنه بفتحها. قال الفراء: معناه: ومن النخل ما قنوته دانية؛ وأهل الحجاز يقولون: «قُتوان» بكسر القاف؛ وقيس يضمونها؛ وضبة، وتميم يقولون: «قُتيان». وأنشدني المفضل عنهم:

فَأَثَّ أَعَالِيَهُ وَأَدَّثَ أَصُولَهُ

ويجتمعون جميعاً، فيقولون: «قُتو» ولا يقولون: «قُتي» ولا «قُني» وكلب يقولون: «ومال يقنيان». قال المصنف: والبيت لامرئ القيس؛ ورواه أبو سعيد السكري: «ومال يقنوان» مكسورة القاف مع الواو، فيه أربع لغات: قنوان، وقنوان، وقنيان، وقنيان؛ و«أثت»: كثرت؛ ومنه: شعر أثيت. و«أدت»: اشتدت. وقال ابن قتيبة: القنوان: عذوق النخل، واحدها: قنو، جمع على لفظ ثنية؛ ومثله: صنو وصنوان في الثنية، وصنوان في الجميع. وقال الزجاج: قنوان: جمع قنو، وإذا ثنيتيه فهما قنوان، بكسر النون. ودانية، أي: قريبة المتناول، ولم يقل: «ومنها قنوان بعيدة» لأن في الكلام دليلاً أن البعيدة السحيفة؛ قد كانت غير سحيفة، فاجتزئ بذكر القريبة عن ذكر البعيدة؛ كقوله تعالى: ﴿سَرَبِيلٌ يَتَكَبَّمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]. وقال ابن عباس: القنوان الدانية: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض.

قوله تعالى: ﴿رَجَدَتْ مِنْ أَغْصَابِهَا﴾ قال الزجاج: هو نسق على قوله: «خضراً» ﴿وَالزُّيُوتُ وَالرُّمَّانُ﴾ المعنى: وأخرجنا منه شجر الزيتون والرمان؛ وقد روى أبو زيد عن المفضل: «وجنات» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: مشتبهاً في المنظر، وغير متشابه في الطعم، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: مشتبهاً ورقه، مختلفاً ثمره، قاله قتادة، وهو في معنى الأول. والثالث: منه ما يشبهه بعضه بعضاً، ومنه ما يخالف. قال الزجاج: وإنما قرن الزيتون بالرمان، لأنها شجرتان تعرف العرب أن ورقهما يشتمل على العنصن من أوله إلى آخره. قال الشاعر:

بُورِكَ الْمَيْتِ الْغَرِيبِ كَمَا بُو

ومعناه: أن البركة في ورقه اشتماله على عوده كله.

قوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾، و﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، و﴿يَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ [يس: ٣٥]: بالفتح في ذلك. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: بالضم فيهن. قال الزجاج: يقال: ثَمَرَةٌ، وَثَمَرٌ، وَثِمَارٌ، وَثَمْرٌ، وَثَمْرٌ؛ فمن قرأ: «إلى ثمره» بالضم أراد جمع الجمع. وقال أبو علي: يحتمل وجهين. أحدهما هذا، وهو أن يكون الثمر جمع ثمار. والثاني: أن تكون الثمر جمع ثمرة، وكذلك: أكمة، وأكُم، وخشبة وخُشْب. قال الفراء: يقول: انظروا إليه أول ما يَغْقُد، وانظروا إلى ينعه، وهو نضجه

(١) البيت لامرئ القيس، «ديوانه» ٦٧، و«اللسان»: قنا. من قصيدته المستجادة، وهو من أولها يصف ظن المحي يشبهها بالنخل. وقوله: أنت أعاليه، أي: عظمت والتفت من ثقل حملها. وقوله: أدت، أي: تبت ومالت.

ويلوغه. وأهل الحجاز يقولون: يَنعُ، بفتح الياء، وبعض أهل نجد يضمونها. قال ابن قتيبة: يقال: يَنعُ الثمرة، وأينعت: إذا أدركت، وهو اليَنعُ واليَنعُ. وقرأ الحسن، ومجاهد، وقتادة، والأعمش، وابن محيصن: «ويُنعه» بضم الياء. قال الزجاج: الينع: النضج. قال الشاعر:

فِي قَبَابٍ حَوَّلَ دَسْكَرَةَ
حَوَّلَهَا الرِّئُوثُونَ قَدْ يَنَعَا^(١)

وبيّن الله تعالى لهم بتصريف ما خلق، ونقله من حال إلى حال لا يقدر عليه الخلق، أنه كذلك يبعثهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن عباس: يصدّقون أن الذي أخرجها النبات قادر على أن يحيي الموتى. وقال مقاتل: يصدقون بالتحديد.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْإِنِّ وَخَرَفُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ وَبَنَدَتِ بِقَوْمٍ جَلِبُوا سِحْبَانَهُمْ وَتَمَلَّكَ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١٣٠)

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْإِنِّ﴾ جعلوا، بمعنى وصفوا. قال الزجاج: نصب «الجن» من وجهين: أحدهما: أن يكون مفعولاً، فيكون المعنى: وجعلوا لله الجن شركاء؛ ويكون الجن مفعولاً ثانياً، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبُدُ الرَّحْمَنِ ابْنَتًا﴾ [الزخرف: ١٩]. والثاني: أن يكون الجن بدلاً من شركاء، ومفسراً للشركاء. وقرأ أبو المتوكل، وأبو عمران، وأبو حيوة، والجحدري: «شركاء الجن» برفع النون؛ وقرأ ابن أبي عملة، ومعاذ القارئ: «الجن» بخفض النون. وفي معنى جعلهم الجن شركاء ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أطاعوا الشياطين في عبادة الأوثان، فجعلوهم شركاء لله، قاله الحسن، والزجاج. والثاني: قالوا: إن الملائكة بنات الله فهم شركاؤه، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُنَى نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] فسمى الملائكة جنّاً لاجتنانهم، قاله قتادة، والسدي، وابن زيد. والثالث: أن الزنادقة قالوا: الله خالق النور والماء والدواب والأنعام، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب، وفيهم نزلت هذه الآية. قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ في الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الجاعلين له الشركاء، فيكون المعنى: وجعلوا للذي خلقهم شركاء لا يخلقون. والثاني: أنها ترجع إلى الجن، فيكون المعنى: والله خلق الجن، فكيف يكون الشريك لله محدثاً؟ ذكرهما الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَخَرَفُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ وَبَنَدَتِ﴾ وقرأ نافع: «وخرقوا» بالتشديد، للمبالغة والتكثير، لأن المشركين ادّعوا الملائكة بنات الله، والنصارى المسيح، واليهود عزيزاً. وقرأ ابن عباس، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: «وخرقوا» بحاء غير معجمة وتشديد الراء وبالفاء. وقرأ ابن السميع، والجحدري: «خارقوا» بألف وحاء معجمة. قال السدي: أما «البنون»، فقول اليهود عزيز ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله. وأما البنات فقول مشركي العرب: الملائكة بنات الله. قال الفراء: خرّقا، واخترقوا، وخلقوا، واختلقوا، بمعنى افتروا. وقال أبو عبيدة: خرّقا: جعلوا. قال الزجاج: ومعنى: «بغير علم»: أنهم لم يذكره من علم، إنما ذكره تكديماً.

﴿يَبِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وِلْدٌ وَكَانَ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١٣١) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ^(١٣٢)

قوله تعالى: ﴿أَنَّ يَكُونَ لَهُ وِلْدٌ﴾ قال الزجاج: أي: من أين يكون له ولد، والولد لا يكون إلا من صاحبة! واحتج عليهم في نفي الولد بقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فليس مثل خالق الأشياء، فكيف يكون الولد لمن لا مثل له! فإذا نسب إليه الولد، فقد جعل له مثل.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١٣٣)

(١) «الحيوان» ١٠/٤، و«الكامل» ٢٢٦/١، و«مجاز القرآن» ٢٠٢/١، و«الطبري» ٥٨٠/١١، و«خزانة الأدب» ٢٧٩/٣، و«اللسان»: ينع. قال المبرد: قال أبو عبيدة: هذا الشعر مختلف فيه، فبعضهم ينسبه إلى الأوحص، وبعضهم ينسبه إلى يزيد بن معاوية. وفي «اللسان» قال ابن بري: هو للأوحص، أو يزيد بن معاوية، أو عبد الرحمن بن حسان، ونسبه صاحب «اللسان» في مادة: «دمكر» إلى الأخطل. والدمكرة: بناء كالفصر، كانت الأعاجم تتخذ للشرب والملاهي.

قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ في الإدراك قولان: أحدهما: أنه بمعنى الإحاطة. والثاني: بمعنى الرؤية. وفي «الأبصار» قولان: أحدهما: أنها العيون، قاله الجمهور. والثاني: أنها العقول، رواه عبد الرحمن بن مهدي عن أبي حصين القارئ. ففي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: لا تحيط به الأبصار، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن المسيب، وعطاء. وقال الزجاج: معنى الآية: الإحاطة بحقيقته، وليس فيها دفع للرؤية، لما صح عن رسول الله ﷺ من الرؤية^(١)، وهذا مذهب أهل السنة والعلم والحديث. والثاني: لا تدركه الأبصار إذا تجلّى بنوره الذي هو نوره، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: لا تدركه الأبصار في الدنيا، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومقاتل. وبدل على أن الآية مخصوصة بالدنيا، قوله: ﴿بِحُجُوبِ بَيْتِهِ تَأْتِرُهُ﴾ [٢٢] ﴿إِنَّ رَبَّهَا تَأْتِرُهُ﴾ [٢٣] ﴿القيامة: ٢٢، ٢٣﴾ فقيّد النظر إليه بالقيامة، وأطلق في هذه الآية، والمطلق يحمل على المقيد.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فيه القولان. قال الزجاج: وفي هذا الإعلام دليل على أن خلقه لا يدركون الأبصار، أي: لا يعرفون حقيقة البصر، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينه، دون أن يبصر من غيرهما من أعضائه؛ فأعلم الله أن خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه، ولا يحيطون بعلمه؛ فكيف به ﷻ؟! فأما «اللطيف»، فقال أبو سليمان الخطابي؛ هو البرّ بعباده، الذي يلفظ بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون. قال ابن الأعرابي؛ اللطيف: الذي يوصل إليك أربك في رفق؛ ومنه قولهم: لطف الله بك؛ ويقال: هو الذي لطف عن أن يدرك بالكمية. وقد يكون اللطف بمعنى الدقة والغموض، ويكون بمعنى الصغر في نعوت الأجسام، وذلك مما لا يليق بصفات الباري سبحانه. وقال الأزهري: اللطيف من أسماء الله، معناه: الرفيق بعباده؛ والخبير: العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [٢٤]

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصائر: جمع بصيرة، وهي الدلالة التي توجب البصر بالشيء والعلم به. قال الزجاج: والمعنى: قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾. نفع ذلك ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ فعلى نفسه ضرر ذلك، لأن الله ﷻ غني عن خلقه. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي: لست آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ والوكيل، وهذا قبل الأمر بالقتال.

فصل

وذكر المفسرون أن هذه الآية نسخت بأية السيف. وقال بعضهم؛ معناها: لست رقيباً عليكم، أحصي أعمالكم؛ فعلى هذا لا وجه للنسخ.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٢٥]

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ قال الأخفش: «وكذلك» معناها: وهكذا. وقال الزجاج: المعنى: ومثل ما يتبأ فيما تلي عليك، نبين الآيات. قال ابن عباس: نصرف الآيات، أي: نبينها في كل وجه، ندعوهم بها مرة، ونخوفهم بها أخرى. ﴿وَلِيَقُولُوا﴾ يعني أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن «دارست». قال ابن الأنباري: معنى الآية: وكذلك نصرف الآيات، لنزمتهم الحجة، وليقولوا: دارست؛ وإنما صرّف الآيات ليسعد قوم بفهمها والعمل بها، ويشقى آخرون بالإعراض عنها؛ فمن عمل بها سعد، ومن قال: دارست، شقي. قال الزجاج: وهذه اللام في «ليقولوا» يسميها أهل اللغة لام الصيرورة. والمعنى: أن السبب الذي أداهم إلى أن قالوا: دارست، هو تلاوة الآيات، وهذا كقولهم: ﴿فَالنَّقَطَةُ إِذَا رَمَتْ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وهم لم يطلبوا بأخذه أن يعاديهم، ولكن كان عاقبة الأمر أن صار لهم عدواً وحزناً. ومثله أن تقول: كتب فلان الكتاب لحتفه، فهو لم يقصد أن يهلك نفسه

(١) قال ابن كثير رحمه الله في «التفسير» ١٦١/٢: تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجبر، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بته وكرمه.

بالكتاب، ولكن العاقبة كانت الهلاك. فأما «دارست» فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «دارست» بالالف وسكون السين وفتح التاء؛ ومعناها: ذاكرت أهل الكتاب. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «درست» بسكون السين وفتح التاء، من غير ألف، على معنى: قرأت كتب أهل الكتاب. قال المفسرون: معناها: تعلمت من جبر، ويسار. وسنبتن هذا في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بِسَرِّهِ﴾ [النحل: ١٠٣] إن شاء الله. وقرأ ابن عامر، ويعقوب: «درست» بفتح الراء والسين وسكون التاء من غير ألف. والمعنى: هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة قد درست. أي: قد مضت وامّحت. وجميع من ذكرنا فتح الدال في قراءته. وقد روي عن نافع أنه قال: «دُرِسَتْ» برفع الدال وكسر الراء وتخفيف التاء، وهي قراءة ابن يعمر؛ ومعناها: فُرِثَتْ. وقرأ أبي بن كعب: «دُرِسَتْ» بفتح الدال والسين وضم الراء وتسكين التاء. قال الزجاج: وهي بمعنى: «دُرِسَتْ» أي: امّحت؛ إلا أن المضمومة الراء أشد مبالغة. وقرأ معاذ القارئ، وأبو العالية، ومورق: «دُرِسَتْ» برفع الدال، وكسر الراء وتشديدها ساكنة السين. وقرأ ابن مسعود، وطلحة بن مصرف: «دُرِسَتْ» بفتح الراء والسين بلا ألف ولا تاء. وروى عصمة عن الأعمش: «دارس» بألف.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَنَبَّأُ﴾ يعني: التصريف ﴿لِيَتَوَبَّ بِعَمَلِهِ﴾ ما تبين لهم من الحق فيقبلوه.

﴿أَلَيْسَ مَا أُرْسِي إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِكَيْلٍ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال المفسرون: نسخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ فيه ثلاثة أقوال حكاهما الزجاج: أحدها: لو شاء لجعلهم مؤمنين. والثاني: لو شاء لأنزل آية تضطرهم إلى الإيمان. والثالث: لو شاء لاستأصلهم، فقطع سبب شركهم. قال ابن عباس: وبقي الآية نسخ بآية السيف.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِنْ رَبَّهُمْ تَرَجَّهُمْ وَقَبِيحُهَا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما قال للمشركين: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قالوا: لتنتهين يا محمد عن سب آلهتنا وعبئها، أو لنهجون إلهك الذي تعبده، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن المسلمين كانوا يسبون أوثان الكفار، فيردون ذلك عليهم، فناههم الله تعالى أن يستسبوا لربهم قوماً جهلة لا علم لهم بالله، قاله قتادة. ومعنى «يدعون»: يعبدون، وهي الأصنام. ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ أي: فيسبوا من أمرهم بعبئها، فيعود ذلك إلى الله تعالى، لا أنهم كانوا يصرحون بسب الله تعالى، لأنهم كانوا يقولون أنه خالقهم، وإن أشركوا به^(١).

قوله تعالى: ﴿عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: ظلماً بالجهل. وقرأ يعقوب: «عُدْوًا»، بضم العين والدال وتشديد الواو. والعرب تقول في الظلم: عدا فلان عُدْوًا وعُدْوًا وعُدْوَانًا. وعدا، أي: ظلم.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام، وطاعة الشيطان، كذلك زينا لكل جماعة اجتمعت على حق أو باطل عملهم من خير أو شر. قال المفسرون: وهذه الآية نسخت بتبني الخطاب في آية السيف.

﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ لِيَنْ جَاءَتْهُمْ مَاءٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْرِكُمْ بِهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾
قوله تعالى: ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما نزل في [الشعراء: ٤٤]: ﴿إِنْ تَنَادَى نَجْمٌ عَلَيْهِمْ مِنْ آتَاءِ آيَةٍ﴾ قال المشركون: أنزلها علينا حتى والله نؤمن بها؛ فقال المسلمون: يا رسول الله، أنزلها عليهم

(١) ومن هذا القبيل - وهو ترك المصلحة للرد مفصلة أرجح منها - ما رواه الإمام أحمد ٤٨/١٠، ٤٩، والبخاري ٣٣٨/١٠، ومسلم ٩٢/١ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم، يسب أباه، يسب أمه، يسب أمه يسب أمه».

لكي يؤمنوا؛ فنزلت هذه الآية؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن قريشاً قالوا: يا محمد، تخيرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها الحجر، فينفجر منها اثنتا عشرة عيناً، وأن عيسى كان يحيي الموتى، وأن ثمود كانت لهم ناقة، فاثنتا بمثل هذه الآيات حتى نصّدقك: فقال: «أي شيء تحبون؟» قالوا: أن تجعل لنا الصفا ذهباً. قال: «فإن فعلت تصدقوني؟» فقالوا: نعم، والله لئن فعلت لتبتعنك أجمعين. فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل فقال: إن شئت أصبح الصفا ذهباً، ولكني لم أرسل آية فلم يصدّق بها، إلا أنزلت العذاب، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله ﷺ: «اتركهم حتى يتوب تائبهم»، فنزلت هذه الآية إلى قوله: «يجهلون»، هذا قول محمد بن كعب القرظي^(١). وقد ذكرنا معنى «جهد أيبتهم» في (المائدة)؛ وإنما حلفوا على ما اقترحوا من الآيات، كقولهم: «لئن تؤيبك لك حتى تقدر لنا من الأرض يلبوعاً» [الإسراء: ٩٠].

قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ» أي: هو القادر على الإتيان بها دون أحد من خلقه. «وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا» أي: يدريك أنها. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، وخلف في اختياره: بكسر الألف، فعلى هذه القراءة يكون الخطاب بقوله: «يشعركم» للمشركين، ويكون تمام الكلام عند قوله: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ» ويكون المعنى: وما يدريك أنكم تؤمنون إذا جاءت؟ وتكون «إنها» مكسورة على الاستئناف والإخبار عن حالهم. وقال أبو علي: التقدير: وما يشعركم إيمانهم؟ فحذف المفعول. والمعنى: لوجاءت الآية التي اقترحوها، لم يؤمنوا. فعلى هذا يكون الخطاب للمؤمنين. قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا»؛ فقلت: ما معناها أن تكون كقولك: ما يدريك أنه لا يفعل؟ فقال: لا يحسن ذلك في هذا الموضع؛ إنما قال: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ» ثم ابتداء فأوجب، فقال: «إنها إذا جاءت لا يؤمنون» ولو قال: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ»؛ كان ذلك عذراً لهم. وقرأ نافع، وحفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي: «إنها»، بفتح الألف؛ فعلى هذا، المخاطب بقوله: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ» رسول الله ﷺ وأصحابه؛ ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: وما يدريك لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. وفي قراءة أبي: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. والعرب تجعل «أن» بمعنى «لعل». يقولون: اتت السوق أنك تشتري لنا شيئاً، أي: لعلك. قال عدي بن زيد:

أَعَاذُ مَا يُذِرُنِيكَ أَنْ مَنِيَّتِي إِلَى سَاعَةٍ فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضَحَى عَيْدٍ^(٢)

أي: لعل منيتي. وإلى هذا المعنى ذهب الخليل، وسيبويه، والفراء في توجيه هذه القراءة. والثاني: أن المعنى: وما يدريك أنها إذا جاءت يؤمنون، وتكون «لا» صلة؛ كقوله تعالى: «قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا سَجَدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» [الأعراف: ١١٢] وقوله تعالى: «وَحَكْرُمٌ عَلَى قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» [الأنبياء: ٩٥] ذكره الفراء ورده الزجاج واختار الأول. والأكثر على قراءة: «يؤمنون» بالياء؛ منهم ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وحفص عن عاصم؛ وقرأ ابن عامر، وحمزة، بالتاء، على الخطاب للمشركين. قال أبو علي: من قرأ بالياء، فلأن الذين أقسموا غيب، ومن قرأ بالتاء، فهو انصراف من الغيبة إلى الخطاب.

«وَتَقَلَّبَ أَعْيُنَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَوْلَّ مَرَّةً وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ»

قوله تعالى: «وَتَقَلَّبَ أَعْيُنَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ» التقليل: تحويل الشيء عن وجهه. وفي معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: لو أتيناهم بآية كما سألوا، لقلبنا أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها، وحلنا بينهم وبين الهدى، فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها، عقوبة لهم على ذلك. وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. والثاني: أنه جواب لسؤالهم في الآخرة الرجوع إلى الدنيا؛ فالمعنى: لو ردوا لحلنا بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا، روى هذا المعنى ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: وتقلب أفئدة هؤلاء وأبصارهم عن الإيمان بالآيات كما لم يؤمن أوائلهم من الأمم الخالية بما رأوا من الآيات، قاله مقاتل. والرابع: أن ذلك التقليل

(١) «الطبري» ٣٨/١٢، وقال ابن كثير بعد أن أورده: وهذا مرسل، وله شواهد من وجوه آخر.

(٢) «جمهرة أشعار العرب» ١٧٩، و«الشعر والشعراء» ١٧٨/٨، و«اللسان»: أن، وغيرها، من قصيدة له حكيمة.

في النار عقوبة لهم، ذكره الماوردي. وفي هاء «به» أربعة أقوال: أحدها: أنها كناية عن القرآن. والثاني: عن النبي ﷺ. والثالث: عما ظهر من الآيات. والرابع: عن التقلب. وفي المراد بـ «أول مرة» ثلاثة أقوال: أحدها: أن المرة الأولى: دار الدنيا. والثاني: أنها معجزات الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم. والثالث: أنها صرف قلوبهم عن الإيمان قبل نزول الآيات أن لو نزلت. والطغيان والعمه مذكوران في سورة (البقرة).

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكَلْبَكةَ وَكَلَّمَهُمُ النَّوۡكَ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمُ كُلَّ شَيْءٍ قَبۡلًا مَا كَانُوا لِيُؤۡمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَكۡثَرُهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكَلْبَكةَ﴾ سبب نزولها: أن المستهزئين أتوا رسول الله ﷺ في رهط من أهل مكة، فقالوا له: ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم: أحق ما تقول، أم باطل؟ أو أرننا الملائكة يشهدون لك أنك رسول الله، أو اثنتا بالله والملائكة قبلاً، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صلح عن ابن عباس. ومعنى الآية: ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة كما سألوا، وكلمهم الموتى، فشهدوا لك بالنبوة ﴿وَحَسَرْنَا﴾ أي: جمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الدنيا ﴿قَبۡلًا مَا كَانُوا لِيُؤۡمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، فأخبر أن وقوع الإيمان بمشيئته، لا كما ظنوا أنهم متى شاؤوا آمنوا، ومتى شاؤوا لم يؤمنوا. فأما قوله: ﴿وَقَبۡلًا﴾، فقرأ ابن عامر، ونافع: بكسر القاف وفتح الباء. قال ابن قتيبة: معناها: معاينة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿قَبۡلًا﴾ بضم القاف والياء. وفي معناها، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه جمع قبيل، وهو الصَّنْفُ؛ فالمعنى: وحسرتنا عليهم كل شيء قبلاً قبلاً، قاله مجاهد، واختاره أبو عبيدة، وابن قتيبة. والثاني: أنه جمع قبيل أيضاً، إلا أنه: الكفيل؛ فالمعنى: وحسرتنا عليهم كل شيء، فكفَّلَ بضحة ما تقول، اختاره الفراء، وعليه اعتراض، وهو أن يقال: إذا لم يؤمنوا بإنزال الملائكة، وتكليم الموتى، فلأن لا يؤمنوا بالكفالة التي هي قول، أولى. فالجواب: أنه لو كفَّلَت الأشياء المحشورة، فنطق ما لم ينطق، كان ذلك آية بينة. والثالث: أنه بمعنى المقابل، فيكون المعنى: وحسرتنا عليهم كل شيء، فقابلهم، قاله ابن زيد. قال أبو زيد: يقال: لقيت فلاناً قَبۡلًا وَقَبۡلًا وَقَبۡلًا وَقَبۡلًا، فيكون المعنى: وكله واحد، وهو للمواجهة. قال أبو علي: فالمعنى في القرآن - على ما قاله أبو زيد - واحد، وإن اختلفت الألفاظ.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ أَكۡثَرُهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يجهلون أن الأشياء لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى. والثاني: أنهم يجهلون أنهم لو أتوا بكل آية ما آمنوا.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينِ الْإِنسِ وَالۡجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ لِبَعضِهِمُ الْكَلِمَةَ لِيُوۡسِعَ رُحُوۡدَ الْقَوَلِ غُرُوۡرًا وَّلَوۡ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوۡهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي: وكما جعلنا لك ولأمتك شياطين الإنس والجن أعداء، كذلك جعلنا لمن تقدمك من الأنبياء وأمهم؛ والمعنى: كم ابتليناك بالأعداء، ابتلينا من قبلك، ليحطم الثواب عند الصبر على الأذى. قال الزجاج: «عدو»: في معنى أعداء، و«شياطين الإنس والجن»: منصوب على البدل من «عدو»، ومفسر له؛ ويجوز أن يكون: «عدواً» منصوب على أنه مفعول ثان، المعنى: وكذلك جعلنا شياطين الإنس والجن أعداء لأمهم. وفي شياطين الإنس والجن ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم مرده الإنس والجن، قاله الحسن، وقناة. والثاني: أن شياطين الإنس: الذين مع الإنس، وشياطين الجن: الذين مع الجن، قاله عكرمة، والسدي. والثالث: أن شياطين الإنس والجن: كفارهم، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿يُوحِي﴾ أصل الوحي: الإعلام والدلالة بستر وإخفاء. وفي المراد به هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: يأمر. والثاني: يوسوس. والثالث: يشير. وأما ﴿رُحُوۡدَ الْقَوَلِ﴾، فهو ما زَيَّن منه، وحُسْن، وموّه، وأصل الزخرف: الذهب. قال أبو عبيدة: كل شيء حَسَنَتُهُ وزَيَّنَتُهُ وهو باطل، فهو زخرف. وقال الزجاج: «الزخرف» في اللغة: الزينة؛ فالمعنى: أن بعضهم يزَيِّن لبعض الأعمال القبيحة؛ و«غروراً» منصوب على المصدر؛ وهذا المصدر محمول على المعنى، لأن معنى إحياء الزخرف من القول: معنى الغرور، فكانه قال: يَغُرُّونَ غُرُوۡرًا. وقال

ابن عباس: ﴿رُحُوتَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾: الأمانى بالباطل. قال مقاتل: وكَلَّ إبليسُ بالإنسِ شياطينَ يُضِلُّونَهُم، فإذا التقى شيطانُ الإنسِ بشيطانِ الجن، قال أحدهما لصاحبه: إني أضللتُ صاحبي بكذا وكذا، فأضلُّ أنت صاحبي بكذا وكذا، فذلك وحى بعضهم إلى بعض. وقال غيره: إن المؤمن إذا أعىب شيطانه، ذهب إلى متمرّد من الإنس، وهو شيطانُ الإنس، فأغراه بالمؤمن ليفتنه. وقال قتادة: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس شياطين. وقال مالك بن دينار: إن شيطانَ الإنسِ أشدُّ عليّ من شيطانِ الجن، لأنّي إذا تعرّضتُ من ذاك ذهب عني، وهذا يجزئني إلى المعاصي عياناً.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ في هاء الكناية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الوسوسة. والثاني: ترجع إلى الكفر. والثالث: إلى الغرور، وأذى النسيب.

قوله تعالى: ﴿فَدَرَبَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ قال مقاتل: يريد كفار مكة وما يفترون من الكذب. وقال غيره: فذر المشركين وما يخاصمونك به مما يوحي إليهم أولياهم، وما يختلفون من كذب، وهذا القدر من هذه الآية منسوخ بأية السيف.

﴿وَلَمَّا سَمِعَ لِآلِهِمْ شِرْكًا أَبْغَضَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا عِندَهُ عِلْمًا بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَمِعَ لِآلِهِمْ شِرْكًا﴾ أي: ولتيل؛ والهاء: كناية عن الزخرف والغرور. والأفئدة: جمع فؤاد، مثل غراب وأغربة. قال ابن الأنباري: فعلنا بهم ذلك لكي تصغى إلى الباطل أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، (وليبرضوا) الباطل، ﴿وَلِيَقْرَأُوا﴾ أي: ليكتسبوا، وليعملوا ما هم عاملون.

﴿أَفَتَعْتَبِرُوا اللَّهَ ابْتِغَاءَ حُكْمٍ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَكْفُرُونَ إِنَّهُمْ يَخْتَصِمُونَ بَيْنَهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَتَعْتَبِرُوا اللَّهَ ابْتِغَاءَ حُكْمٍ﴾ سبب نزولها: أن مشركي قريش قالوا للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكماً، إن شئت من أحبار اليهود، وإن شئت من أحبار النصارى، ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك، فنزلت هذه الآية، ذكره الماوردي. فاما الحكم، فهو بمعنى الحاكم؛ والمعنى: أغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم؟ و«الكتاب»: القرآن، و«المفصل»: المبين الذي بان فيه الحق من الباطل، والأمر من النهي، والحلال من الحرام. ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فيهم قولان: أحدهما: علماء أهل الكتابين، قاله الجمهور. والثاني: رؤساء أصحاب النبي محمد ﷺ، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأشباههم، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُونَ إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ أَنْهُمْ مُنَّوْنَ﴾ قرأ ابن عمر، وحفص عن عاصم: «منزل» بالتشديد؛ وخففها الباقون.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ونافع: «كلمات» على الجمع؛ وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي، ويعقوب: «كلمة» على التوحيد؛ وقد ذكرت العرب الكلمة، وأرادت الكثرة؛ يقولون: قال قس في كلمته، أي: في خطبته، وزهير في كلمته، أي: في قصيدته. وفي المراد بهذه الكلمات ثلاثة أقوال: أحدها: أنها القرآن، قاله قتادة. والثاني: أفضيئه وعاداته. والثالث: وعده ووعيده، وثوابه وعقابه. وفي قوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قولان: أحدهما: صدقاً فيما أخبر، وعدلاً فيما قضى وقدر. والثاني: صدقاً فيما وعد وأوعد، وعدلاً فيما أمر ونهى. وفي قوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قولان: أحدهما: لا يقدر المفترون على الزيادة فيها والتقصان منها. والثاني: لا تحلف لمواعيده، ولا مغير لحكمه.

﴿وَلَنْ نُطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِنْ يُسْئَلُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ سبب نزولها: أن الكفار قالوا للمسلمين: أنا نأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل ربكم؟ فنزلت هذه الآية، ذكره الفراء. والمراد بـ «أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ»: الكفار. وفي ماذا يطيعهم؟ فيه أربعة أقوال: أحدها: في أكل الميتة. والثاني: في أكل ما ذبحوا للأصنام. والثالث: في عبادة الأوثان. والرابع: في اتباع ملل الآباء؛ و«سبيل الله»: دينه. قال ابن قتيبة: ومعنى «يَخْرُصُونَ»: يحدسون ويوقعون؛ ومنه قيل

للحازر: خارص. فإن قيل: كيف يجوز تعذيب من هو على ظنٍّ من شركه، وليس على يقين من كفره؟! فالجواب: أنهم لما تركوا التماس الحجة، واتبعوا أهواءهم، واقتصروا على الظن والجهل، عُذِّبوا، ذكره الزجاج.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَخْتَلِعُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَخْتَلِعُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: موضع «مَنْ» رفع بالابتداء، ولفظها لفظ الاستفهام؛ والمعنى: إن ربك هو أعلم أي الناس يضل عن سبيله. وقرأ الحسن: «مَنْ يُضِلُّ» بضم الياء وكسر الضاد، وهي رواية ابن أبي شريح. قال أبو سليمان: ومقصود الآية: لا تلتفت إلى قسم من أقسم أنه يؤمن عند مجيء الآيات، فلن يؤمن إلا من سبق له القدر بالإيمان.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِنَا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ سبب نزولها: أن الله تعالى لما حرم الميتة، قال المشركون للمؤمنين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله، فما قتل الله لكم أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم، يريدون الميتة، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ قال الزجاج: المعنى: وأي شيء يقع لكم في أن لا تأكلوا؟ وموضع «أن» نصب، لأن «في» سقطت، فوصل المعنى إلى «أن» فنصبها.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «فُصِّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» مرفوعتان؛ وقرأ نافع، وحفص عن عاصم، ويعقوب، والقزاز عن عبد الوارث: «فُصِّلَ» بفتح الفاء، «مَا حُرِّمَ» بفتح الحاء، وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «فُصِّلَ» بفتح الفاء، «مَا حُرِّمَ» بضم الحاء. قال الزجاج: أي: فُصِّلَ لَكُمْ الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ، وَأَحْلَلَ لَكُمْ فِي الْاضْطِرَارِ مَا حُرِّمَ. وقال سعيد بن جبيرة: فُصِّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، يعني: ما بَيَّنَّ فِي (المائدة) مِنَ الْمَيْتَةِ، وَالْدَمِّ، إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ﴾ يعني: مشركي العرب يضلون في أمر الذبائح وغيره. قرأ ابن كثير. وأبو عمرو: «لَيُضِلُّونَ»، وفي (يونس: ٤٨٨): ﴿وَرَبَّنَا لَيُضِلُّوا﴾ وفي (إبراهيم: ٣٠): ﴿أَنْدَادًا لَيُضِلُّوا﴾ وفي (الحج: ٤٩): ﴿ثَانِي عِظْفُوهُ لَيُضِلُّ﴾ وفي (القصص: ٤٦): ﴿لَيُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وفي (الزمر: ٤٨): ﴿أَنْدَادًا لَيُضِلُّ﴾ بفتح الياء في هذه المواضع الستة؛ وضمهن عاصم، وحمزة، والكسائي. وقرأ نافع، وابن عامر: «لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ». وفي (يونس): ﴿لَيُضِلُّوا﴾ بالفتح؛ وضمًّا^(١) الأربعة الباقية. فمن فتح، أراد: أنهم هم الذين ضلوا؛ ومن ضم، أراد: أنهم أضلوا غيرهم، وذلك أبلغ في الضلال، لأن كل مُضِلٌّ ضَالٌّ؟ وليس كل ضَالٍّ مُضِلًّا.

﴿وَذَرُوا ظُلْمَةَ الْإِنْتِهَى وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِي يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَجِرُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظُلْمَةَ الْإِنْتِهَى وَبَاطِنَهُ﴾ في الإثم هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الزنا، رواه أبو صالح عن ابن عباس؛ فعلى هذا، في ظاهره وباطنه قولان: أحدهما: أن ظاهره: الإعلان به، وباطنه: الاستسار؛ قاله الضحاك، والسدي. قال الضحاك: وكانوا يرون الاستسار بالزنا حلالاً. والثاني: أن ظاهره نكاح المحرمات، كالأمهات، والبنات، وما نكح الآباء. وباطنه: الزنا، قاله سعيد بن جبيرة. والثاني: أنه عام في كل إثم. والمعنى: ذروا المعاصي، سرًّا وعلانيتها؛ وهذا مذهب أبي العالية، ومجاهد، وقتادة، والزجاج. وقال ابن الأنباري: المعنى: ذروا الإثم من جميع جهاته. والثالث: أن الإثم: المعصية^(٢)، إلا أن المراد به هاهنا أمر خاص. قال ابن زيد: ظاهره هاهنا: نزع أثوابهم؛ إذ كانوا يطوفون بالبيت عراةً، وباطنه: الزنا.

(١) أي: نافع، وابن عامر المتقدم ذكرهما.

(٢) روى الإمام أحمد في «المستند» ١٨٢/٤، ومسلم في «صحيحه» ١٩٨٠/٤ عن النواس بن سميان الأنصاري، قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكهرت، أن يطلع عليه الناس».

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا تَرَى يُذْكَرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْمِنُ إِلَىٰ آوَالِيهِمْ لِيُجَدِّلَكُمْ وَإِنْ أظْمَتُوهُمْ إِنَّكُمْ لَشُرُكُونَ﴾^(١)
 قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا تَرَى يُذْكَرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ سبب نزولها: مجادلة المشركين للمؤمنين في قولهم: أتأكلون مما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله! على ما ذكرنا في سبب قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨] هذا قول ابن عباس. وقال عكرمة: كتبت فارس إلى قريش: إن محمداً وأصحابه لا يأكلون ما ذبحه الله، ويأكلون ما ذبحوا لأنفسهم؛ فكتب المشركون إلى أصحاب النبي ﷺ بذلك، فوقع في أنفس ناسٍ من المسلمين من ذلك شيء، فنزلت هذه الآية. وفي المراد بما لم يذكر اسم الله عليه أربعة أقوال: أحدها: أنه الميتة، رواه ابن جبير عن ابن عباس. والثاني: أنه الميتة والمنخفة، إلى قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَىٰ النَّعُيبِ﴾ [المائدة: ٣] روي عن ابن عباس. والثالث: أنها ذبائح كانت العرب تذبحها لأوثانها، قاله عطاء. والرابع: أنه عام فيما لم يسم الله عند ذبحه؛ وإلى هذا المعنى ذهب عبد الله بن يزيد الخطمي، ومحمد بن سيرين.

فصل

فإن تعدت ترك التسمية، فهل يباح؟ فيه عن أحمد روايتان. وإن تركها ناسياً أبيضت. وقال الشافعي: لا يحرم في الحالين جميعاً. وقال شيخنا علي بن عبيد الله: فإذا قلنا: إن ترك التسمية عمداً يمنع الإباحة، فقد نُسخ من هذه الآية ذبائح أهل الكتاب بقوله: ﴿وَعَلَّمَ الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ حِلَّ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [المائدة: ٥] وعلى قول الشافعي: الآية محكمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ يعني: وإن أكل ما لم يُذكر عليه اسم الله لفسق، أي: خروج عن الحق والدين. وفي المراد بالشياطين هاهنا قولان: أحدهما: أنهم شياطين الجن، روي عن ابن عباس. والثاني: قوم من أهل فارس، وقد ذكرناه عن عكرمة؛ فعلى الأول: وحيهم الوسوسة، وعلى الثاني: وحيهم الرسالة. والمراد بـ«أوليائهم» الكفار الذين جادلوا رسول الله ﷺ في ترك أكل الميتة. ثم فيهم قولان: أحدهما: أنهم مشركو قريش. والثاني: اليهود؛ ﴿وَإِنَّ أظْمَتُوهُمْ﴾ في استحلال الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَشُرُكُونَ﴾

﴿أَوْ مَن كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِحَاجِجٍ يَتَّعِزُّ بِكَذَلِكَ زِينَةَ الْيَكْفِيِّنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ اختفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال: أحدها: أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وأبي جهل، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرث، وحمزة لم يؤمن بَعْدُ، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل، فأقبل حتى علا أبا جهل بالقوس، فقال له: أما ترى ما جاء به؟ سَفَّهُ عقولنا، وسبَّ ألهتنا، فقال حمزة: ومن أسفهُ منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله؟! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في عمار بن ياسر، وأبي جهل، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. والثالث: في عمر بن الخطاب، وأبي جهل، قاله زيد بن أسلم، والضحاك. والرابع: في النبي ﷺ، وأبي جهل، قاله مقاتل. الخامس: أنها عامة في كل مؤمن وكافر، قاله الحسن في آخرين. وفي قوله: ﴿كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ قولان: أحدهما: كان ضالاً فهديناه، قاله مجاهد. والثاني: كان جاهلاً، فعلمناه، قاله الماوردي. وقرأ نافع: «ميتاً» بالتشديد. قال أبو عبيدة: الميتة، مخففة: من ميتة، والمعنى واحد. وفي «النور» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الهدى، قاله ابن عباس. والثاني: القرآن، قاله الحسن. والثالث: العلم. وفي قوله: ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: يهتدي به في الناس، قاله مقاتل. والثاني: يمشي به بين الناس إلى الجنة. والثالث: ينشر به دينه في الناس، فيصير كالماشي، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُ﴾ المثل: صلة؛ والمعنى: كمن هو في الظلمات. وقيل: المعنى: كمن لو شُبَّه بشيء، كان شبيهه من في الظلمات. وقيل: المراد بالظلمات هاهنا: الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زِينَةُ الْيَكْفِيِّنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك والمعاصي.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَتَذَكَّرُوا فِيهَا وَمَا يَتَذَكَّرُونَ إِلَّا لَأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ أي: وكما زينا للكافرين عملهم، فكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها، وقيل معناه: وكما جعلنا فساق مكة أكابرها، فكذلك جعلنا فساق كل قرية أكابرها. وإنما جعل الأكابر فساق كل قرية، لأنهم أقرب إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة. وقال ابن قتبية: تقدير الآية: وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر؛ و«أكابر» لا ينصرف، وهم العظماء.

قوله تعالى: ﴿لِيَتَذَكَّرُوا فِيهَا﴾ قال أبو عبيدة: المكر: الخديعة، والحيلة، والفجور، والغدر، والخلاف. قال ابن عباس: ليقولوا فيها الكذب. قال مجاهد: أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة، ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، يقولون للناس: هذا شاعر، وكاهن.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُونَ إِلَّا لَأَنفُسِهِمْ﴾ أي: ذلك المكر بهم يحق.

﴿وَلَئِن جَاءتَهُمْ مَّيْمَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمِينَ﴾
﴿وَلَئِن جَاءتَهُمْ مَّيْمَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿رَأَىٰ جَاءتَهُمْ مَّيْمَةٌ﴾ سبب نزولها: أن أبا جهل قال: زاحمتنا بنو عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفرة سني وهان، قالوا: مئاً نبي يوحى إليه. والله لا نؤمن به ولا نتبعه أو أن يأتينا وحى كما يأتيه، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. قال الزجاج: الهاء والميم تعود على الأكابر الذين جرى ذكرهم. وقال أبو سليمان: تعود على المجادلين في تحريم الميتة. قال مقاتل: والآية: انشقاق القمر، والدخان. قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ قال: حتى يوحى إلينا، ويأتينا جبريل، فيخبرنا أن محمداً صادق. قال الضحاك: سأل كل واحد منهم أن يختص بالرسالة والوحي.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم: ﴿رِسَالَاتِهِ﴾ بنصب التاء على التوحيد؛ والمعنى: أنهم ليسوا لها بأهل، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال: والله لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك، لأنني أكبر منك سناً، وأكثر منك مالاً، فنزل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾. وقال أهل المعاني: الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل مبعضهم مطاعين في قومهم، لأن الطعن كان يتوجه عليهم، فيقال: إنما كانوا رؤساء فأتبعوا، فكان الله أعلم حيث جعل الرسالة لبيتم أبي طالب، دون أبي جهل، والوليد، وأكابر مكة.

قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ﴾ قال أبو عبيدة: الصغار: أشد الذل. وقال الزجاج: المعنى هم، وإن كانوا أكابر في الدنيا، فسيصيبهم صغار عند الله، أي: صغار ثابت لهم عند الله. وجائز أن يكون المعنى: سيصيبهم عند الله صغار. وقال الفراء: معناه: صغار من عند الله، فحذفت «من». وقال أبو زروق: صغار في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة.
﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ صَخِيبًا حَرْبًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ قال مقاتل: نزلت في رسول الله ﷺ، وأبي جهل.

قوله تعالى: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ قال ابن الأعرابي: الشرح: الفتح. قال ابن قتبية: ومنه يقال: شرحت لك الأمر، وشرحت اللحم: إذا فتحته. وقال: ابن عباس: «يشرح صدره» أي: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان. وقد روى ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، فقيل له: يا رسول الله، وما هذا الشرح؟ قال: «نور يلقفه الله في القلب، فيفتح القلب». قالوا: فهل لذلك من أمانة؟ قال: «نعم». قيل: وما هي؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»^(١).

(١) «الطبري» ١٠٠/١٢، ١٠١ من طريقتين عن عبد الله بن مسعود، وكلاهما ضعيف، وأورده ابن كثير ١٧٤/٢، بعد أن ذكره من طريق مرسل عن أبي جعفر الهاشمي، وقال: فهذه طرق لهذا الحديث مرسله ومتصلة يشد بعضها بعضاً. وانظر تعليق الأستاذ محمود شاكر على الحديث في «تفسير الطبري» ٩٩/١٢، ١٠٢.

قوله تعالى: ﴿صَبِيحًا﴾ قرأ الأكثرون بالتشديد. وقرأ ابن كثير: «صَبِيحًا»، وفي [الفرقان: ١٣]: «مَكَانًا صَبِيحًا» بتسكين الياء خفيفة. قال أبو علي: الصَّبِيحُ، والصَّبِيُّ: مثل المَيْتِ، والمَيْتِ.

قوله تعالى: ﴿حَرَجًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «حَرَجًا» بفتح الراء. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: بكسر الراء. قال الفراء: وهما لغتان.. وكذلك قال يونس بن حبيب النحوي: هما لغتان، إلا أن الفتح أكثر على السنة العرب من الكسر، ومجرهما مجرى الدَّنْفِ والدَّنِيفِ. وقال الزجاج: الحرج في اللغة: أضيح الضيق.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَاعِدُ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «يَصَاعِدُ» بتشديد الصاد والعين وفتح الصاد من غير ألف. وقرأ أبو بكر عن عاصم: «يَصَاعِدُ» بتشديد الصاد وبعدها ألف. وقرأ ابن كثير: «يَصْعَدُ» بتخفيف الصاد والعين من غير ألف والصاد ساكنة. وقرأ ابن مسعود، وطلحة: «تَصْعَدُ» بناء من غير ألف. وقرأ أبي بن كعب: «يَتصاعد» بألف وتاء. قال الزجاج: قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾. و «يَصْعَدُ»، أصله: «يتصاعد»، و «يتصعده»، إلا أن التاء تدغم في الصاد لقربها منها، والمعنى: كأنه كُفِّفَ أن يَصْعَدَ إلى السماء إذا دعي إلى الإسلام من ضيق صدره عنه. ويجوز أن يكون المعنى: كأن قلبه يصعد في السماء نُبُوًّا عن الإسلام والحكمة. وقال الفراء: ضاق عليه المذهب، فلم يجد إلا أن يصعد في السماء، وليس يقدر على ذلك. وقال أبو علي: «يَصْعَدُ» و «يَصَاعِدُ»: من المشقة، وصعوبة الشيء، ومنه قول عمر: ما تَصَعَّدَنِي شيء كما تصعدتني خطبة النكاح، أي: ما شق عليّ شيء مشقتها.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما قصصنا عليك. ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ وفيه خمسة أقوال: أحدها: أنه الشيطان، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. يعني: أن الله يسلطه عليهم. والثاني: أنه المأثم، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنه ما لا خير فيه، قاله مجاهد. والرابع: أنه العذاب، قاله عطاء، وابن زيد، وأبو عبيدة. والخامس: أنه اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة، قاله الزجاج. وهذه الآية تقطع كلام القدرية، إذ قد صرح بأن الهداية والإضلال متعلقة بإرادة الله تعالى.

﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن، قاله ابن مسعود. والثاني: التوحيد، قاله ابن عباس. والثالث: ما هو عليه من الدين، قاله عطاء. ومعنى استقامته: أنه يؤدي بسالكه إلى الفوز. قال مكي بن أبي طالب: و «مستقيماً»: نصب على الحال من «صراط»، وهذه الحال يقال لها: الحال المؤكدة، لأن صراط الله، لا يكون إلا مستقيماً، ولم يؤت بها لتفرق بين حالتين، إذ لا يتغير صراط الله عن الاستقامة أبداً، وليست هذه الحال كالحال من قولك: «هذا زيد راكباً»، لأن زيدا قد يخلو من الركوب.

﴿لَمْ دَارُ السَّكْوَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَمَا كَانُوا يَمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ دَارُ السَّكْوَةِ﴾ يعني الجنة. وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال: أحدها: أن السلام هو الله، وهي داره، قاله ابن عباس، والحسن، وقادة، والسدي. والثاني: أنها دار السلامة التي لا تنقطع، قاله الزجاج. والثالث: أن تحية أهلها فيها السلام، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، ففي ابتداء دخولهم: ﴿أَتَخْلَوْهَا بِسَلَامٍ﴾ [الحجر: ٤٦]، وبعد استقرارهم: ﴿وَاللَّيْلَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، وقوله: ﴿إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الرواقعة: ٢٦]، وعند لقاء الله ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ [آيس: ٢٥٨]، وقوله: ﴿يَمِئْتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. ومعنى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: مضمونة لهم عنده، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أي: متولي إيصال المنافع إليهم، ودفع المضار عنهم ﴿يَمَا كَانُوا يَمَلُونَ﴾ من الطاعات.

﴿يَوْمَ يَشْرَهُمْ حِيَمًا يَمْتَشِرْنَ إِلَيْهِمْ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَنْتَعْ بَعْضَنَا بَعْضًا وَكُنَّا آبِلًا أَلَيْتَ لَنَا قَالَ نَارٌ مَوْتُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيمًا﴾ يعني الجن والإنس. وقرأ حفص عن عاصم: «يشحروهم» بالياء. قال أبو سليمان: يعني: المشركين وشياطينهم الذين كانوا يوحون إليهم بالمجادلة لكم فيما حرّمه الله من الميتة.

قوله تعالى: ﴿يَتَمَشَّرُ الْإِنْسُ﴾ فيه إضمار، فيقال لهم: يا معشر؛ والمعشر: الجماعة، أمرهم واحد، والجمع: المعاشر. وقوله: ﴿فَدَا أَسْتَكْتَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي: من إخوانهم وإضلالهم. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ يعني الذين أضلهم الجن. ﴿رَبَّنَا أَسْتَنْتَعِ بَعْضَنَا بِبَعْضٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن استمتع الإنس بالجن: أنهم كانوا إذا سافروا، فنزلوا وادياً، وأرادوا ميّتا، قال أحدهم: أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر أهله؛ واستمتع الجن بالإنس: أنهم كانوا يفخرون على قومهم، ويقولون: قد سدنا الإنس حتى صاروا يعوذون بنا، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مقاتل، والفراء. والثاني: أن استمتع الجن بالإنس: طاعتهم لهم فيما يغفرونهم به من الضلالة والكفر والمعاصي. واستمتع الإنس بالجن: أن الجن زوّجت لهم الأمور التي يهوؤنها، وشهؤها إليهم حتى سهل عليهم فعلها، روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس، وبه قال محمد بن كعب، والزجاج. والثالث: أن استمتع الجن بالإنس: إغواؤهم بإهام. واستمتع الإنس بالجن: ما يتلقون منهم من السحر والكهانة ونحو ذلك. والمراد بالجن في هذه الآية: الشياطين.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا كَلِمَاتُ الْآيَةِ أَجَلَتْ لَنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: الموت، قاله الحسن، والسدي. والثاني: الحشر، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَا نَأْتِي مَوَازِينَكُمْ﴾ قال الزجاج: الموى: المقام؛ و﴿خَلِيلِي﴾ منصوب على الحال. المعنى: النار مقامكم في حال خلود دائم ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ هو استثناء من يوم القيامة، والمعنى: ﴿خَلِيلِي﴾ فيها ﴿مذ يبعثون﴾ إلا ما شاء الله ﴿من مقدار حشرهم من قبورهم، ومدتهم في محاسبتهم. ويجوز أن تكون ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يزيدهم من العذاب. وقال بعضهم: إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب؛ وقيل في هذا غير قول، ستجدها مشروحة في (هود) إن شاء الله.

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَاصِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَاصِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ في معناه أربعة أقوال: أحدها: نجعل بعضهم أولياء بعض، رواه سعيد عن قتادة. والثاني: نُتَبِّعُ بعضهم بعضاً في النار بأعمالهم من الموالاة، وهي المتابعة، رواه معمر عن قتادة. والثالث: نسلط بعضهم على بعض، قاله ابن زيد. والرابع: نكل بعضهم إلى بعض ولا نعينهم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من المعاصي.

﴿يَتَمَشَّرُ الْإِنْسُ وَالْإِنْسُ أَلَّا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ يَنْتَكُمُ بِقُصُورٍ عَلَيْكُمْ ءَأَيُّي وَرُسُلُونَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَزَّيْنَاهُمْ لِلْمِيزَةِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَمَشَّرُ الْإِنْسُ وَالْإِنْسُ أَلَّا يَأْتِيَكُمْ﴾ قرأ الحسن، وفتادة: «تأتكم» بالياء، ﴿رُسُلٌ يَنْتَكُمُ﴾. واختلّفوا في الرسالة إلى الجن على أربعة أقوال: أحدها: أن الرسل كانت تبعث إلى الإنس خاصة، وأن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى الإنس والجن، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن رسل الجن، هم الذين سمعوا القرآن، فولّوا إلى قومهم مننّرين، روي عن ابن عباس أيضاً. وقال مجاهد: الرسل من الإنس، والنور من الجن، وهم قوم يسمعون كلام الرسل، فيبذلّون الجن ما سمعوا. والثالث: أن الله تعالى بعث إليهم رسلاً منهم، كما بعث إلى الإنس رسلاً منهم، قاله الضحاك، ومقاتل، وأبو سليمان، وهو ظاهر الكلام. والرابع: أن الله تعالى لم يبعث إليهم رسلاً منهم، وإنما جاءتهم رسل الإنس، قاله ابن جريج، والفراء، والزجاج. قالوا: ولا يكون الجمع في قوله: ﴿أَلَّا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ يَنْتَكُمُ﴾ مانعاً أن تكون الرسل من أحد الفريقين، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا النَّوُورُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما هو خارج من الملح وحده. وفي دخول الجن الجنة إذا آمنوا قولان: أحدهما: يدخلونها، ويأكلون ويشربون، قاله الضحاك. والثاني: أن ثوابهم أن يجاروا من النار ويصيروا تراباً، رواه سفيان عن ليث.

قوله تعالى: ﴿بِقُصُورٍ عَلَيْكُمْ ءَأَيُّي﴾ أي: يقرؤون عليكم كتيب. ﴿رُسُلُونَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: يخوفونكم بيوم القيامة. وفي

قوله: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ قولان: أحدهما: أقرنا على أنفسنا بإنذار الرسل لنا. والثاني: شهد بعضنا على بعض بإنذار الرسل إياهم. ثم أخبرنا الله تعالى بحالهم، فقال: ﴿وَعَرَّضْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: بزيتها، وإمهالهم فيها. ﴿وَنَهَدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِم﴾ أي: أقرروا أنهم كانوا في الدنيا كافرين. وقال مقاتل: ذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ قال الزجاج: ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل، وأمر عذاب من كذب، لأنه لم يكن ربك مهلك القرى بظلم، أي: لا يهلككم حتى يبعث إليهم رسولا. قال ابن عباس: «بظلم» أي: بشرك ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ لم يأتهم رسول.

﴿وَلِكُلِّي دَرَجَتٌ مِمَّا عَصَاؤُا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّي دَرَجَتٌ مِمَّا عَصَاؤُا﴾ أي: لكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات، أي: منازل يبلغها بعمله، إن كان خيراً فخيراً، وإن كان شراً فشراً. وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط، كتفاضل الدرج.

قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قرأ الجمهور بالياء؛ وقرأ ابن عامر بالياء على الخطاب.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخَفِّفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ مُؤَخَّرِينَ﴾

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ﴾ يريد: الغني عن خلقه ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ قال ابن عباس: بأوليائه وأهل طاعته. وقال غيره: بالكل. ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالهلاك؛ وقيل: هذا الوعيد لأهل مكة؛ ﴿وَيَسْتَخَفِّفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ﴾ أي: ابتداءكم ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ مُؤَخَّرِينَ﴾ يعني: آباءهم الماضين. ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ به من مجيء الساعة والحشر ﴿لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين. قال أبو عبيدة: يقال: أعجزني كذا، أي: فاتني وسبقني.

﴿فَلْ يَقْوَمِ الْقَوْمُ عَلَىٰ كُنُوفِهِمْ إِيَّيْ عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُنُوفِهِمْ﴾ وقرأ أبو بكر عن عاصم: «مكاناتكم» على الجمع. قال ابن قتيبة: أي: على موضعكم، يقال: مكان ومكانة، ومنزل ومنزلة. وقال الزجاج: عملوا على تمكنكم. قال: ويجوز أن يكون المعنى: عملوا على ما أنتم عليه. تقول للرجل إذا أمرته أن يثبت على حال: كن على مكانتك.

قوله تعالى: ﴿إِيَّيْ عَامِلٌ﴾ أي عامل ما أمرني به ربي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «تكون» بالياء. وقرأ حمزة، والكسائي، بالياء. وكذلك خلافهم في [القصص: ١٣٧]، ووجه التأنيث، اللفظ، ووجه التذكير، أنه ليس بتأنيث حقيقي. وعاقبة الدار: الجنة. والظالمون هاهنا: المشركون. فإن قيل: ظاهر هذه الآية أمرهم بالإقامة على ما هم عليه، وذلك لا يجوز. فالجواب: أن معنى هذا الأمر المبالغة في الوعيد؛ فكانه قال: أقيموا على ما أنتم عليه، إن رضيتم بالعذاب، قاله الزجاج.

فصل

وفي هذه الآية قولان: أحدهما: أن المراد بها التهديد؛ فعلى هذا هي محكمة. والثاني: أن المراد بها ترك القتال؛ فعلى هذا هي منسوخة بآية السيف.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَأَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَفْعِيهِمْ وَكَذَلِكَ إِشْرَافِيَّتًا فَمَا كَانُوا لِيُؤْكَلِهِمْ فَلَآ يَعْسَلُونَ﴾

﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْكَلُوا بِهِنَّ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ قال ابن قتيبة: ذرأ، بمعنى خلق. ﴿وَمِنَ الْحَرْثِ﴾ وهو الزرع. ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾: الإبل والبقر والغنم. وكانوا إذا زرعوا، خطوا خطأ، فقالوا: هذا لله، وهذا لآلهتنا، فإذا حصدوا ما

جعلوه لله، فوقع منه شيء فيما جعلوه لأهنتهم، تركوه وقالوا: هي إليه محتاجة؛ وإذا حصدوا ما جعلوه لأهنتهم، فوقع منه شيء في مال الله، أعاده إلى موضعه. وكانوا يجعلون من الأنعام شيئاً لله؛ فإذا ولدت إنانها ميتاً أكلوه، وإذا ولدت أنعام أهنتهم ميتاً عظموه فلم يأكلوه. وقال الزجاج: معنى الآية: وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، جعلوا لشركائهم نصيباً، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِهِمْ﴾، فدل بالإشارة إلى النصيبين على نصيب الشركاء؛ وكانوا إذا زكا ما لله، ولم يزك ما لشركائهم، ردوا الزاكي على أصنامهم، وقالوا: هذه أحوج، والله غني؛ وإذا زكا ما للأصنام، ولم يزك ما لله، أقروه على ما به. قال المفسرون: وكانوا يصرفون ما جعلوا لله إلى الضيفان والمساكين. فمعنى قوله: ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَيْكَ اللَّهُ﴾ أي: إلى هؤلاء. ويصرفون نصيب أهنتهم في الزرع إلى النفقة على خُدَّاهم. فأما نصيبها في الأنعام، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان للنفقة عليها أيضاً. والثاني: أنهم كانوا يتقربون به، فيذبحونه لها. والثالث: أنه البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. وقال الحسن: كان إذا هلك ما لأوثانهم غرموه، وإذا هلك ما لله لم يَغْرَمُوهُ. وقال ابن زيد: كانوا لا يأكلون ما جعلوه لله حتى يذكروا عليه اسم أوثانهم، ولا يذكرون الله على ما جعلوه للأوثان. فأما قوله: «بزعمهم» فقرأ الجمهور: بفتح الزاي؛ وقرأ الكسائي، والأعمش: بضمها. وفي الزعم ثلاث لغات ضم الزاي، وفتحها، وكسرهما. ومثله: السَّقَطُ، والسَّقَطُ، والسَّقَطُ؛ والفَتْكُ، والفَتْكُ، والفَتْكُ، والرَّعْمُ، والرَّعْمُ، والرَّعْمُ. قال الفراء: فتح الزاي في الرَّعْمِ، لأهل الحجاز؛ وضمها لأسد؛ وكسرهما بعض قيس فيما يحكي الكسائي.

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُذَوِّعَهُمْ وَلِيُكَلِّسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوا فَعَدَّوهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ﴾ أي: ومثل ذلك الفعل القبيح فيما قسموا بالجهل زَيْن. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون «وكذلك» مستأنفاً، غير مشارٍ به إلى ما قبله؛ فيكون المعنى: وهكذا زَيْن. وقرأ الجمهور: «زَيْن» بفتح الزاي والياء، ونصب اللام من «قتل»، وكسر الدال من «أولادهم»، ورفع «الشركاء»؛ وجه هذه القراءة ظاهر. وقرأ ابن عامر؛ بضم زاي «زَيْن»، ورفع اللام [من «قتل»]، ونصب الدال من «أولادهم»، وخفض «الشركاء». قال أبو علي: ومعناها: قتل شركائهم أولادهم؛ ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به، وهذا قبيح، قليل في الاستعمال. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والحسن: «زَيْن» بالرفع، «قتل» بالرفع أيضاً، «أولادهم» بالجر، «شركائهم» رفعاً. قال الفراء: رَفَعَ القتل إذ لم يسم فاعله؛ ورفع الشركاء بفعل نواه، كأنه قال: زَيْنَ لهم شركائهم. وكذلك قال سيبويه في هذه القراءة؛ قال: كأنه قيل: مَنْ زَيْنُهُ؟ فقال: شركائهم. قال مكي بن أبي طالب: وقد روي عن ابن عامر أيضاً أنه قرأ بضم الزاي، ورفع اللام، وخفض الأولاد والشركاء؛ فيصير الشركاء اسماً للأولاد، لمشاركتهم للأباء في النسب والميراث والدين. وللمفسرين في المراد بشركائهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم الشياطين، قاله الحسن، ومجاهد، والسدي. والثاني: شركائهم في الشرك، قاله قتادة. والثالث: قوم كانوا يخدمون الأوثان، قاله الفراء، والزجاج. والرابع: أنهم العواة من الناس، ذكره الماوردي. وإنما أضيف الشركاء إليهم، لأنهم هم الذين اختلقوا ذلك وزعموه. وفي الذي زَيْنُوهُ لهم من قتل أولادهم قولان: أحدهما: أنه وأد البنات أحياء خيفة الفقر، قاله مجاهد. والثاني: أنه كان يحلف أحدهم أنه إن ولد له كذا وكذا غلاماً أن ينحر أحدهم، كما حلف عبد المطلب في نحر عبد الله، قاله ابن السائب، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿لِيُذَوِّعَهُمْ﴾ أي: ليهلكوهم. وفي هذه اللام قولان: أحدهما: أنها لام «كي». والثاني: أنها لام العاقبة، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ [القصص: ٨] أي: آل أمرهم إلى الردى، لا أنهم قصدوا ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُكَلِّسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: ليخلطوا. قال ابن عباس: ليُدْخِلُوا عليهم الشك في دينهم؛ وكانوا على دين إسماعيل، فرجعوا عنه بتزيين الشياطين.

قوله تعالى: ﴿فَعَدَّوهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية إذا دفنوا بناتهم قالوا: إن الله أمرنا بذلك؛

فقال: ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا بَقِيَتُوا﴾؛ أي؛ يكذبون؛ وهذا تهديد ووعيد، فهو محكم. وقال قوم: مقصوده ترك قتالهم، فهو منسوخ بآية السيف.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْتٌ وَأَنْتُمْ حِجْرٌ لَا يَطْمَعُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ رِزْقِهِمْ وَأَنْتُمْ حَرِّمْتُمْ طَهُورُهَا وَأَنْتُمْ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفَرَّكَ عَلَيْهِ سَبِّغِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْتٌ وَأَنْتُمْ حِجْرٌ لَا يَطْمَعُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ رِزْقِهِمْ وَأَنْتُمْ حَرِّمْتُمْ طَهُورُهَا وَأَنْتُمْ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفَرَّكَ عَلَيْهِ سَبِّغِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾. قال ابن قتيبة: وإنما قيل للحرام: حجر، لأنه حُجر على الناس أن يصيبوه. وقرأ الحسن، وقاتادة: «حُجر» بضم الحاء. قال الفراء: يقال: حَجِرَ، وحُجِرَ، بكسر الحاء وضمها؛ وهي في قراءة ابن مسعود: «حرج»، مثل: «جذب» و«جبد». وفي هذه الأتعام التي جعلوها للأصنام قولان: أحدهما: أنها البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. والثاني: أنها الذبائح التي للأوثان؛ وقد سبق ذكرهما.

قوله تعالى: ﴿لَا يَطْمَعُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ هو كقولك: لا يذوقها إلا من نريد. وفيمن أطلقوا له تناولها قولان: أحدهما: أنهم منَعوا منها النساء، وجعلوها للرجال، قالها بن السائب. والثاني: عكسه، قاله ابن زيد. قال الزجاج: أعلم الله تعالى أن هذا التحريم زعم منهم، لا حجة فيه ولا برهان. وفي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ حَرِّمْتُمْ طَهُورُهَا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الحام، قاله ابن عباس. والثاني: البحيرة، كانوا لا يحشون عليها، قاله أبو وائل. والثالث: البحيرة، والسائبة، والحام، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ هي قربان ألهمتهم، يذكرون عليها اسم الأوثان خاصة. وقال أبو وائل: هي التي كانوا لا يحشون عليها؛ وقد ذكرنا هذا عنه في قوله: ﴿حَرِّمْتُمْ طَهُورُهَا﴾، فعلى قوله؛ الصفتان لموصوف واحد. وقال مجاهد: كان من إيلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها في شيء؛ لا إن ركبوا، ولا إن حملوا، ولا إن حلبوا، ولا إن تبيحوا. وفي قوله: ﴿أَفَرَّكَ عَلَى اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أن ذكر أسماء أوثانهم وترك ذكر الله، هو الافتراء. والثاني: أن إضافتهم ذلك إلى الله تعالى، هو الافتراء؛ لأنهم كانوا يقولون: هو حرم ذلك.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْفُسِ إِلَّا كِبْرٌ لِيُذَكَّرُوا وَتَكْفُرًا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفَرَّكَ عَلَيْهِ سَبِّغِيهِمْ وَصَفَّيْتُمْ إِنَّهُمُ كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْفُسِ إِلَّا كِبْرٌ لِيُذَكَّرُوا وَتَكْفُرًا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفَرَّكَ عَلَيْهِ سَبِّغِيهِمْ وَصَفَّيْتُمْ إِنَّهُمُ كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾. وللمفسرين في المراد بما في بطونها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اللبن، قاله ابن عباس، وقاتادة. والثاني: الأجنّة، قاله مجاهد. والثالث: الولد واللبن، قاله السدي، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾. قال الجمهور: «خالصة» على لفظ التأنيث. وفيها أربعة أوجه: أحدها: أنه إنما أنثت، لأن الأتعام مؤنثة، وما في بطونها مثلها، قاله الفراء. والثاني: أن معنى «ما» التأنيث، لأنها في معنى الجماعة؛ فكانه قال: جماعة ما في بطون هذه الأتعام خالصة، قاله الزجاج. والثالث: أن الهاء دخلت للمبالغة في الوصف، كما قالوا: «علامة» و«نسابة». والرابع: أنه أجري مجرى المصادر التي تكون بلفظ التأنيث عن الأسماء المذكرة، كقولك: عطاؤك عافية، والرخص نعمة، ذكرهما ابن الأنباري. وقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، والضحاك، والأعمش، وابن أبي عمير: «خالص» بالرفع، من غير هاء. قال الفراء: وإنما ذكر لتذكير «ما». وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وعكرمة، وابن يعمر: «خالصه» برفع الصاد والهاء على ضمير مذكر، قال الزجاج: والمعنى: ما خلص حياً. وقرأ قاتادة: «خالصة» بالنصب. فأما الذكور، فهم الرجال، والأزواج: النساء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفَرَّكَ عَلَيْهِ سَبِّغِيهِمْ وَصَفَّيْتُمْ إِنَّهُمُ كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾. والمعنى: وإن يكن يمتنع، وذلك مردود على لفظ «ما». والمعنى: وإن يكن ما في بطون هذه الأتعام ميتة. وقرأ ابن كثير: «يكن» بالياء، «ميتة» بالرفع. وافقه ابن عامر في رفع الميتة؛ غير أنه قرأ: «تكن» بالياء. والمعنى: وإن تحدث وتقع، فجعل «كان» تامة لا تحتاج إلى خبر. وقرأ أبو بكر عن عاصم: «تكن» بالياء، «ميتة» بالنصب. والمعنى: وإن تكن الأتعام التي في البطون ميتة.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءٌ﴾ يعني الرجال والنساء. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ﴾ قال الزجاج: أراد جزاء وصفهم الذي هو كذب.

﴿قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ وقرأ ابن كثير، وابن عامر: «قتلوا» بالتشديد. قال ابن عباس: نزلت في ربيعة، ومضر، والذين كانوا يدفنون بناتهم أحياء في الجاهلية من العرب. وقال قتادة: كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم بنته مخافة السبي والفاقة، ويغدو كلبه. وقال الزجاج: وقوله: «سفهاً» منصوب على معنى اللام، تقديره: للسفه؛ تقول: فعلت ذلك حذر الشر. وقرأ ابن السميع، والجحدري، ومعاذ القاربي: «سفهاء» برفع السين وفتح الفاء والهاء وبالمد وبالنصب والهمز.

قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: كانوا يفعلون ذلك للسفه من غير أن أتاهم علم في ذلك، وحرموا ما رزقهم الله من الأنعام والحراث، وزعموا أن الله أمرهم بذلك.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرًا وَأَلْوَانًا وَأَنْشَأَ مَتَّكِرِينَ كَلْبًا مِنْ تَمْرِهِ إِذَا أَمَرَ وَأَمَّا حَقُّ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرَفُوا لَكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن المعروشات ما انبسط على وجه الأرض، فانتشر ما يعرّش، كالكرم، والقرع، والبطيخ؛ وغير معروشات: ما قام على ساق، كالنخل، والزروع، وسائر الأشجار. والثاني: أن المعروشات: ما أنبته الناس؛ وغير معروشات: ما خرج في البراري والجبال من الثمار، روي عن ابن عباس. والثالث: أن المعروشات، وغير المعروشات: الكرم، منه ما عرّش، ومنه ما لم يعرّش، قاله الضحاك. والرابع: أن المعروشات: الكروم التي قد عرّش عنها، وغير المعروشات: سائر الشجر التي لا تعرّش، قاله أبو عبيدة. والأكل: الثمر. ﴿وَالزَّرْعُ وَالرِّمَاطُ مَتَّكِرِينَ﴾، قد سبق تفسيره.

قوله تعالى: ﴿كَلْبًا مِنْ تَمْرِهِ إِذَا أَمَرَ﴾ هذا أمر بإباحة؛ وقيل: إنما قدم الأكل لينهى عن فعل الجاهلية في زروعهم من تحريم بعضها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمَّا حَقُّ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، وأبو عمرو: بفتح الحاء، وهي لغة أهل نجد، وتميم. وقرأ ابن كثير، ونافع، وحزمة، والكسائي: بكسرهما، وهي لغة أهل الحجاز، ذكره الفراء. وفي المراد بهذا الحق قولان: أحدهما: أنه الزكاة، روي عن أنس بن مالك، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن، وطاووس، وجابر بن زيد، وابن الحنفية، وقاتدة في آخرين؛ فعلى هذا، الآية محكمة. والثاني: أنه حق غير الزكاة فرض يوم الحصاد، وهو إطعام من حضر، وترك ما سقط من الزرع والثمر، قاله عطاء، ومجاهد. وهل نسخ ذلك، أم لا؟ إن قلنا: إنه أمر وجوب، فهو منسوخ بالزكاة؛ وإن قلنا: إنه أمر استحباب، فهو باقي الحكم. فإن قيل: هل يجب إيتاء الحق يوم الحصاد؟ فالجواب: إن قلنا: إنه إطعام من حضر من الفقراء، فذلك يكون يوم الحصاد؛ وإن قلنا: إنه الزكاة، فقد ذكرت عنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن الأمر بالإيتاء محمول على النخيل، لأن صدقتها تجب يوم الحصاد. فأما المزروع، فالأمر بالإيتاء منها محمول على وجوب الإخراج؛ إلا أنه لا يمكن ذلك عند الحصاد، فيؤخر إلى زمان التنقية، ذكره بعض السلف. والثاني: أن اليوم ظرف للحق، لا للإيتاء؛ فكأنه قال: وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التنقية. والثالث: أن فائدة ذكر الحصاد أن الحق لا يجب فيه بنفس خروجه وبلوغه؛ إنما يجب يوم حصوله في يد صاحبه. وقد كان يجوز أن يتوهم أن الحق يلزم بنفس نباته قبل قطعه، فأفادت الآية أن الوجوب فيما يحصل في اليد، دون ما يتلف، ذكر الجوابين القاضي أبو يعلى. وفي قوله: ﴿وَلَا تُشْرَفُوا﴾ ستة أقوال: أحدها: أنه تجاوز المفروض في الزكاة إلى حد يُحجف به، قاله أبو العالية، وابن جريج. وروي أبو صالح عن ابن عباس: أن ثابت بن قيس بن شماس صرم خمسمائة نخلة، ثم قسمها في يوم واحد، فأمسى ولم يترك لأهله شيئاً، فكره الله تعالى له ذلك، فنزلت: ﴿وَلَا تُشْرَفُوا لَكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. والثاني: أن الإسراف: منع الصدقة الواجبة، قاله سعيد بن المسيب. والثالث: أنه

الإففاق في المعصية، قاله مجاهد، والزهري. والرابع: أنه إشراك الآلهة في الحرث والأنعام، قاله عطية العوفي، وابن السائب. والخامس: أنه خطاب للسلطان لئلا يأخذ فوق الواجب من الصدقة، قاله ابن زيد. والسادس: أنه الإسراف في الأكل قبل أداء الزكاة، قاله ابن بحر.

﴿وَمِنَ الْأَمْكُرِ حَمُولَةٌ وَفَرَشًا كَلُوا مِنَّا زَرْقًا اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ تَمَنِّيَةَ أَرْوَجَ﴾
قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَمْكُرِ حَمُولَةٌ وَفَرَشًا﴾ هذا نسق على ما قبله؛ والمعنى: أنشأ جنات، وأنشأ حملة وفرشاً. وفي ذلك خمسة أقوال: أحدها: أن الحمولة: ما حل من الإبل، والفرش: صغارها، قاله ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وابن قتيبة. والثاني: أن الحمولة: ما انتفعت بظهورها، والفرش: الراعية، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أن الحمولة: الإبل، والخيل، والبغال، والحمير، وكل شيء يُحْمَلُ عليه. والفرش: الغنم؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: الحمولة: من الإبل، والفرش: من الغنم، قاله الضحاك. والخامس: الحمولة: الإبل والبقر. والفرش: الغنم وما لا يحمل عليه من الإبل، قاله قتادة. وقرأ عكرمة، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «حمولة» بضم الحاء.

قوله تعالى: ﴿كَلُوا مِنَّا زَرْقًا﴾ قال الزجاج: المعنى: لا تحرموا ما حرمتكم مما جرى ذكره: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرده. قال: وقوله: ﴿تَمَنِّيَةَ أَرْوَجَ﴾ بدل من قوله: ﴿حَمُولَةٌ وَفَرَشًا﴾. والزوج، في اللغة: الواحد الذي يكون معه آخر. قال المصنف؛ وهذا كلام يفتقر إلى تمام، وهو أن يقال: الزوج: ما كان معه آخر من جنسه، فحيتل يقال لكل واحد منهما: زوج.

﴿وَمِنَ الصَّكَاةِ أَنْثَى وَمِنَ الْمَعَزِ أَنْثَى قُلْ لِلذَّكَرَيْنِ حَرَمٌ أَرِ الْأُنثَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثَيْنِ نَيْتُونِي بِمِثْرٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ أَنْثَى وَمِنَ الْبَقَرِ أَنْثَى قُلْ لِلذَّكَرَيْنِ حَرَمٌ أَرِ الْأُنثَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَلْتُمْ اللَّهَ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُغْوِي النَّاسَ بِمِثْرٍ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الصَّكَاةِ أَنْثَى﴾ الضأن: ذوات الصوف من الغنم، والمعز: ذوات الشعر منها. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «المعز» بفتح العين. وقرأ نافع، وحزمة، وعاصم، والكسائي: بتسكين العين. والمراد بالأنثيين الذكر والأنثى. ﴿قُلْ لِلذَّكَرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز حرم الله عليكم ﴿أَرِ الْأُنثَيْنِ﴾ منها؟. المعنى: فإن كان ما حرم عليكم الذكركين، فكل الذكور حرام، وإن كان حرم الأنثيين، فكل الإناث حرام، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فهي تشتمل على الذكور، وتشتمل على الإناث، وتشتمل على الذكور والإناث، فيكون كل جنين حراماً. وقال ابن الأنباري: معنى الآية: ألحقكم التحريم من جهة الذكركين، أم من جهة الأنثيين؟ فإن قالوا: من جهة الذكركين، حرم عليهم كل ذكر، وإن قالوا: من جهة الأنثيين، حرمت عليهم كل أنثى؛ وإن قالوا: من جهة الرحم، حرم عليهم الذكر والأنثى. وقال ابن جرير الطبري: إن قالوا: حرم الذكركين، أوجبوا تحريم كل ذكر من الضأن والمعز، وهم يستمتعون بلحوم بعض الذكركان منها وظهوره، وفي ذلك فساد دعواهم. وإن قالوا: حرم الأنثيين أوجبوا تحريم لحوم كل أنثى من ولد الضأن والمعز، وهم يستمتعون بلحوم بعض ذلك وظهوره. وإن قالوا: ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فقد كانوا يستمتعون ببعض ذكورها وإناثها. قال المفسرون: فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الآية والتي بعدها، لأنهم كانوا يحرمون أجناساً من النعم، بعضها على الرجال والنساء، وبعضها على النساء دون الرجال. وفي قوله: ﴿لِلذَّكَرَيْنِ حَرَمٌ أَرِ الْأُنثَيْنِ﴾ إبطال لما حرموه من البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. وفي قوله: ﴿أَمَا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثَيْنِ﴾، إبطال قولهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَمْكُرِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِكُمْ وَعَسَىٰ عَلَىٰ أَرْوَجِكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿نَيْتُونِي بِمِثْرٍ﴾ قال الزجاج: المعنى: فسروا ما حرمتكم بعلم، أي: أنتم لا علم لكم، لأنكم لا تؤمنون بكتاب. ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي: هل شاهدتم الله قد حرم هذا، إذا كنتم لا تؤمنون برسول؟

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال ابن عباس: يريد عمرو بن لحي، ومن جاء بعده. والظالمون هاهنا: المشركون.

﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَإِغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ نبههم بهذا على أن التحريم والتحليل، إنما يثبت بالوحي. وقال طاووس، ومجاهد: معنى الآية: لا أجد محرماً مما كنتم تستحلون في الجاهلية إلا هذا. والمراد بالطعام: الأكل. ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ أي: إلا أن يكون المأكول ميتة. قرأ ابن كثير، وحمزة: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ﴾ بالياء، «ميتة» نصباً. وقرأ ابن عامر: «إلا أن تكون» بالياء، «ميتة» بالرفع؛ على معنى: إلا أن تقع ميتة، أو تحدث ميتة. ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ قال قتادة: إنما حُرِّمَ المسفوح، فأما اللحم إذا خالطه دم، فلا بأس به. قال الزجاج: المسفوح: المصبوب. وكانوا إذ ذكروا يأكلون الدم كما يأكلون اللحم. والرجس: اسم لما يقتنر، وللعذاب. ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ المعنى: أو أن يكون المأكول فسقاً. ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: رُفِعَ الصوت على ذبحه باسم غير الله، فسمي ما ذُكِرَ عليه غير الله فسقاً؛ والفسق: الخروج من الدين.

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها محكمة. ولأرباب هذا القول في سبب إحكامها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها خبر، والخبر لا يدخله النسخ. والثاني: أنها جاء جواباً عن سؤال سألوه؛ فكان الجواب بقدر السؤال، ثم حُرِّمَ بعد ذلك ما حُرِّمَ. والثالث: أنه ليس في الحيوان محرم إلا ما ذُكِرَ فيها. والقول الثاني: أنها منسوخة بما ذكر في (المائدة) من المنخقة والموقوذة، وفي السُّنَّة من تحريم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير^(١). وقيل: إن آية (المائدة) داخلية في هذه الآية، لأن تلك الأشياء كلها ميتة.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالنَّعِيرِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمْ أَوِ الْحَوَاكِبَ أَوْ مَا أَخْتَلَفَ يُظَلَّرُ ذَلِكَ جَزَائِهِمْ يَتِيمِهِمْ وَرِثَتَهُمْ وَرِثَتَهُمْ وَرِثَتَهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ وقرأ الحسن، والأعمش: «ظُفْرٍ» بسكون الفاء؛ وهذا التحريم تحريم بلوى وعقوبة. وفي ذي الظفر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما ليس بمنفرج الأصابع، كالإبل، والنعام، والإرَّز، والبط، قاله ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وقاتدة، والسدي. والثاني: الإبل فقط، قاله ابن زيد. والثالث: كل ذي حافر من الدواب، ومخلب من الطير، قاله ابن قتيبة. قال: وسمي الحافر ظفراً على الإستعارة؛ والعرب تجعل الحافر والأظلاف موضع القدم، استعارة؛ وأنشدوا:

سَأَمَنَعُهَا أَوْ سَوَفَ أَجْعَلُ أَمْرَهَا إِلَى مَلِكٍ أَظْلَافُهُ لَمْ تُشَقَّقْ^(٢)

أراد قدميه؛ وإنما الأظلاف للشاء والبقرة. قال ابن الأنباري: الظفر هاهنا، يجري مجرى الظفر للإنسان. وفيه ثلاث لغات. أعلاهن: ظُفْرٌ؛ ويقال: ظُفْرٌ، وأظفور. وقال الشاعر:

(١) روى الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، عن أبي ثعلبة الخشني، قال: «حرم رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية» وزاد أحمد: «ولحم كل ذي ناب من السباع» وقد صح النهي عن أكل لحوم الحمر الأهلية من حديث البراء بن عازب، وابن عمر، وأبي هريرة، وزاهر الأسلمي، وابن أبي أرفق. وروى الجماعة إلا البخاري والترمذي عن ابن عباس قال: «نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير» وروى مسلم في «صحيحه» ١٥٣٤/٣ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كل ذي ناب من السباع حرام».

(٢) البيت غير منسوب في «مشكل القرآن» ١١٦، و«الصناعتين» ٣٠١، و«الموازنة» ٤٤، و«الأمالي» ١٢٠/٢. وفي «السمط» ٧٤٦: البيت لعقمان بن قيس بن عاصم بن عبيد اليربوعي، وكان النعمان بن المنذر استعمل الغلاق بن عمرو الرياحي على هجائن من يلي أرضه من العرب، وكانت لعقمان هذا هجائن، فأخفاها، فظليها الغلاق، فعمد عقان بإبله حتى أتى النعمان، فأجاره ولم يأخذ منها شيئاً. فقال قصيدة منها:

سواء عليكم شؤمها وهجائنها
وإن كان فيها واضح اللون يسبرق
سامنها - البيت - وهذه من أقيح الاستعارات، وإنما يريد بقوله: أظلافه لم تشقق: أنه متمل مرتقه، فلم تشقق قدماء.

الم تر أن الموت أذرك من مَضَى
وقال الآخر:

لقد كنتُ ذا نابٍ وظُفري على العِدَى
وقال الآخر:

ما بين لُقمته الأولى إذا انحَدَرَتْ

وفي شحوم البقر والغنم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إنما حرّم من ذلك شحوم الثروب خاصة، قاله قتادة. والثاني: شحوم الثروب والكلبي، قاله السدي، وابن زيد. والثالث: كل شحم لم يكن مختلطاً بعظم، ولا على عظم، قاله ابن جريج. وفي قوله: ﴿إِلَّا مَا كَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما علق بالظهر من الشحوم، قاله ابن عباس. والثاني: الألية، قاله أبو صالح، والسدي. والثالث: ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما، قاله قتادة. فأما الحوايا، فللمفسرين فيها أقوال تتقارب معانيها. قال ابن عباس، والحسن، وابن جبير، ومجاهد، وقاتدة، والسدي، وابن قتيبة: هي المباعر. وقال ابن زيد: هي بنات اللبن، وهي المرابض التي تكون فيها الأمعاء. وقال الفراء: الحوايا: هي المباعر، وبنات اللبن. وقال الأصمعي: هي بنات اللبن، واحدها: حاوية، وحواية. قال الشاعر:

أفئلهم ولا أرى مُعاويه
الجاحِظَ العَينِ العَظيمَ الحاوية^(١)
وقال الآخر:

كأن نقيق الحَبِّ في حاوياته

وقال أبو عبيدة: الحوايا: ما تحوى من البطن، أي: ما استدار منها. وقال الزجاج: الحوايا: اسم لجميع ما تحوى من الأمعاء، أي: استدار. وقال ابن جرير الطبري: الحوايا: ما تحوى من البطن، فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن، وهي المباعر، وتسمى: المرابض، وفيها الأمعاء.

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه شحم البطن والألية، لأنهما على عظم، قاله السدي. والثاني: كل شحم في القوائم، والجنب، والرأس، والعيني، والأذنين، فهو مما اختلط بعظم، قاله ابن جريج. واتفقوا على أن ما حملت ظهورهما حلال، بالاستثناء من التحريم. فأما ما حملت الحوايا، أو ما اختلط بعظم، ففيه قولان: أحدهما: أنه داخل في الاستثناء، فهو مباح؛ والمعنى: وأبيح لهم ما حملت الحوايا من الشحم وما اختلط بعظم، هذا قول الأكثرين. والثاني: أنه نسق على ما حرّم، لا على الاستثناء؛ فالمعنى: حرّمنا عليهم شحومهما، أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم، إلا ما حملت الظهور، فإنه غير محرم، قاله الزجاج. فأما «أو» المذكورة هاهنا، فهي بمعنى الواو، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَوْ كَفُّورًا﴾ [الدمر: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ﴾ أي: ذلك التحريم عقوبة لهم على بغيتهم. وفي بغيتهم قولان: أحدهما: أنه قتلهم الأنبياء، وأكلهم الربا. والثاني: أنه تحريم ما أحل لهم.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَبِسْمِ اللَّهِ يُرَدُّ بِأَسْمِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ قال ابن عباس: لما قال رسول الله ﷺ للمشركين: «هذا ما أوحى إليّ أنّه محرّم على المسلمين وعلى اليهود»، قالوا: فإنك لم تصب، فنزلت هذه الآية. وفي المكذبين قولان: أحدهما: المشركون، قاله ابن عباس. والثاني: اليهود، قاله مجاهد. والمراد بذكر الرحمة الواسعة، أنه لا يجعل بالعقوبة. والبأس: العذاب. وفي المراد بالمجرمين قولان: أحدهما: المشركون. والثاني: المكذبون.

(١) البيت غير منسوب في «اللسان» و«أساس البلاغة»: ظفر، وروايته فيهما:

ما بين لُقمته الأولى إذا ازدردت

(٢) البيت في «اللسان»: حوي، منسوب لعلي عليه السلام.

(٣) قائله جرير، وهو في «ديوانه» ٨٣، و«معجم مقاييس اللغة» ١١٢/٢، و«اللسان»: حوى.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَقْنَا وَلَا أَبَاؤُنَا وَلَا حُرْمَتُنَا مِنْ ذَمِّهِمْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسًا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُمْ لَوْلَا أَنْ تَتَّبِعْتُمُ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا قَرْصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: إذا لزمتمهم الحجة، وتيقنوا باطل ما هم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَقْنَا﴾، فجعلوا هذا حجة لهم في إقامتهم على الباطل؛ فكانهم قالوا: لو لم يرض ما نحن عليه، لحال بيننا وبينه؛ وإنما قالوا ذلك مستهزئين، ودافعين للاحتجاج عليهم، فيقال لهم: لم تقولون عن مخالفيتكم إنهم ضالون، وإنما هم على المشيئة أيضاً؟ فلا حجة لهم، لأنهم تعلقوا بالمشيئة، وتركوا الأمر؛ ومشية الله تعم جميع الكائنات، وأمره لا يعم مراداته، فعلى العبد اتباع الأمر، وليس له أن يتعلل بالمشيئة بعد ورود الأمر.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال ابن عباس. أي: قالوا لرسولهم مثلما قال هؤلاء لك، ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسًا﴾ أي: عذابنا. ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: كتاب نزل من عند الله في تحريم ما حرّمتم ﴿إِنْ تَتَّبِعْتُمُ إِلَّا الظَّنَّ﴾ لا اليقين؛ و ﴿إِنْ﴾ بمعنى «ما». و «تخرسون»: تكذبون.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ قال الزجاج: حجته البالغة: تبيينه أنه الواحد، وإرساله الأنبياء بالحجج المعجزة. قال السدي: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمِينَ﴾ يوم أخذ الميثاق.

﴿قُلْ هَلَمْ شُهِدَ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يَرْجُونَ بَدَأَؤُنَا﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلَمْ شُهِدَ اللَّهُ﴾ قال الزجاج: زعم سيبويه أن «هلم» هاء ضمت إليها «لم»، وجعلتا كالكلمة الواحدة؛ فأكثر اللغات أن يقال: «هلم»؛ للواحد والاثنتين والجماعة؛ بذلك جاء القرآن. ومن العرب من يشي ويجمع ويؤث، فيقول للذكر: «هلم»، وللمرأة: «هلمي»، وللإثنين: «هلمنا»، وللثنتين: «هلمنا»، وللجماعة: «هلموا»، وللنساء «هلمن». وقال ابن قتيبة: «هلم»، بمعنى: «تعال» وأهل الحجاز لا يشئونها ولا يجمعونها. وأهل نجد يجعلونها من «هلمت»، فيشئون ويجمعون ويؤثون؛ وتوصل باللام، فيقال: «هلم لك»، «وهلم لكما». قال: وقال الخليل: أصلها «لم»، وزيدت الهاء في أولها. وخالفه الفراء، فقال: أصلها «هل» ضم إليها «أم»؛ والرفعة التي في اللام من همزة «أم» لما تركت انتقلت إلى ما قبلها؛ وكذلك «الهم» يرى أصلها: «يا الله أمنا بخير» فكثرت في الكلام، فاختلطت، وتركت الهمزة. وقال ابن الأنباري: معنى «هلم»: أقبل؛ وأصله: «أم يا رجل»، أي: «أقصد»، فضموا «هل» إلى «أم» وجعلوهما حرفاً واحداً، وأزالوا «أم» عن التصرف، وحوّلوا ضمة همزة «أم» إلى اللام، وأسقطوا الهمزة، فاتصلت الميم باللام. وإذا قال الرجل للرجل: «هلم»، فأراد أن يقول: لا أفعل، قال: «لا أهلم» و «لا أهلم». قال مجاهد: هذه الآية جواب قولهم: إن الله حرم البحيرة، والسائبة. قال مقاتل: الذين يشهدون أن الله حرم هذا الحرث والأنعام، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أن الله حرمه ﴿فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أي: لا تصدق قولهم.

﴿قُلْ تَمَّارًا أَتَىٰ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَانٍ فَمَنْ زُكِّنْكُمْ وَإِنَّمَا تَرَكُوا فِئْتَانًا يَلْتَمِسُونَ فِتْنًا وَأُولُو الْقُرْبَىٰ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّوْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ قَوَّلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَّارًا أَتَىٰ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ «ما» بمعنى «الذي». وفي «لا» قولان: أحدهما: أنها زائدة، كقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ [الأعراف: ١٧]. والثاني: أنها ليست زائدة، وإنما هي نافية؛ فعلى هذا القول، في تقدير الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أن يكون قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾، محمولاً على المعنى؛ فتقديره: أتى عليكم أن لا تشركوا، أي: أتى تحريم الشرك. والثاني: أن يكون المعنى: أوصيكم أن لا تشركوا، لأن قوله: ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] محمول على معنى: أوصيكم بالوالدين إحساناً، ذكرهما الزجاج. والثالث: أن الكلام تم عند قوله: ﴿حَرَّمَ رَبِّيَ﴾. ثم في قوله: «عليكم» قولان: أحدهما: أنها إغراء، كقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

فالتقدير: عليكم أن لا تشركوا، ذكره ابن الأنباري. والثاني: أن يكون بمعنى: فرض عليكم، ووجب عليكم أن لا تشركوا. وفي هذا الشرك قولان: أحدهما: أنه ادعاء شريك مع الله ﷻ. والثاني: أنه طاعة غيره في معصيته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ يريد دفن البنات أحياء. ﴿مِنْ إِمْلَائِكُمْ﴾ أي: من خوف فقر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أن الفواحش: الزنا، وما ظهر منه: الإعلان به، وما بطن الاستسار به، قاله ابن عباس، والحسن، والسدي. والثاني: أن ما ظهر: الخمر، ونكاح المحرمات. وما بطن: الزنا، قاله سعيد بن جبیر، ومجاهد. والثالث: أن ما ظهر: الخمر، وما بطن: الزنا، قاله الضحاك. والرابع: أنه عام في الفواحش. وظاهرها: علانيتها، وباطنها: سريها، قاله قتادة. والخامس: أن ما ظهر: أفعال الجوارح، وما بطن: اعتقاد القلوب، ذكره الماوردي في تفسير هذا الموضع، وفي تفسير قوله: ﴿وَدُّرُوا ظَهَرَ الْإِنْمِ وَيَاطَنَةُ﴾ [الأحكام: ١٢٠]. والنفس التي حرم الله: نفس مسلم أو معاهد. والمراد بالحق: إذن الشرع.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَتِيمَ الْإِنْسَانَ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدُوا لَكُمْ وَأَنْتُمْ قَائِدُونَ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأحكام: ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَتِيمَ الْإِنْسَانَ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدُوا لَكُمْ وَأَنْتُمْ قَائِدُونَ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأحكام: ١٢٠]. قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ إنما خص مال اليتيم، لأن الطمع فيه، لقلته مراعيه وضعف مالكة، أقوى. وفي قوله: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنه أكل الوصي المصلح للمال بالمعروف وقت حاجته، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: التجارة فيه، قاله سعيد بن جبیر، ومجاهد، والضحاك، والسدي. والثالث: أنه حفظه له إلى وقت تسليمه إليه، قاله ابن السائب. والرابع: أنه حفظه عليه، وتسميره له، قاله الزجاج. قال: «حتى» محمولة على المعنى؛ فالمعنى: احفظوه عليه حتى يبلغ أشده، فإذا بلغ أشده، فادفعوه إليه. فأما الأشد، فهو استحكام قوة الشباب والسن. قال ابن قتيبة: ومعنى الآية: حتى يتناهى في النبات إلى حد الرجال. يقال: بلغ أشده: إذا انتهى منتهاه قبل أن يأخذ في النقصان. وقال أبو عبيدة: الأشد لا واحد له منه؛ فإن أكرهوا على ذلك، قالوا: شد، بمنزلة: صبب؛ والجمع: أضب. قال ابن الأنباري: وقال جماعة من البصريين: واحد الأشد: شد، بضم الشين. وقال بعض البصريين: واحد الأشد: شدة، كقولهم: نعمة، وأنعم. وقال بعض أهل اللغة: الأشد: اسم لا واحد له. وللمفسرين في الأشد ثمانية أقوال: أحدها: أنه ثلاث وثلاثون سنة، رواه ابن جبیر عن ابن عباس. والثاني: ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أربعون سنة، روي عن عائشة ﷺ. والرابع: ثماني عشرة سنة، قاله سعيد بن جبیر، ومقاتل. والخامس: خمس وعشرون سنة، قاله عكرمة. والسادس: أربع وثلاثون سنة، قاله سفيان الثوري. والسابع: ثلاثون سنة، قاله السدي. وقال: ثم جاء بعد هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء: ٦] فكانه يشير إلى النسخ. والثامن: بلوغ الحلم، قاله زيد بن أسلم، والشعبي، ويحيى بن يعمر، وربيعة، ومالك بن أنس، وهو الصحيح. ولا أظن بالذين حكينا عنهم الأقوال التي قبله فسروا الآية بما ذكر عنهم، وإنما أظن أن الذين جمعوا التفاسير، نقلوا هذه الأقوال من تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ [يوسف: ٢٢، والقصص: ١٤] إلى هذا المكان؛ وذلك نهاية الأشد، وهذا ابتداء تمامه؛ وليس هذا مثل ذلك. قال ابن جرير: وفي الكلام محذوف، ترك ذكره اكتفاءً بدلالة ما ظهر عما حذف، لأن المعنى: حتى يبلغ أشده؛ فإذا بلغ أشده، فأنستم منه رشداً، فادفعوا إليه ماله. قال المصنف: إن أراد بما ظهر ما ظهر في هذه الآية، فليس بصحيح؛ وإنما استفيد إيناس الرشد والإسلام من آية أخرى؛ وإنما أطلق في هذه الآية ما قيد في غيرها، فحمل المطلق على المقيد.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ﴾ أي: أتموه ولا تنقصوا منه. و ﴿الْيَتِيمَ﴾ أي: ووزن الميزان. والقسط: العدل. ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: ما يسعها، ولا تضيق عنه. قال القاضي أبو يعلى: لما كان الكيل والوزن يتعدن فيهما التحديد بأقل القليل كلفنا الاجتهاد في التحري، دون تحقيق الكيل والوزن.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدُوا لَكُمْ وَأَنْتُمْ قَائِدُونَ﴾ أي: إذا تكلمتم أو شهدتم، فقولوا الحق، ولو كان المشهود له أو عليه ذا قرابة. وعهد الله يشتمل على ما عهده إلى الخلق وأوصاهم به، وعلى ما أوجه الإنسان على نفسه من نذر وغيره. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾

وَصَنَّكُمْ بِهِ لَمَلَكٌ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٣﴾ أي: لتذكروه وتأخذوا به. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] و ﴿يَذَكَّرُونَ﴾ [انعام: ١٢٦] و ﴿يَذَكِّرُ الْإِنْسَانَ﴾ [مريم: ٦٧] و ﴿أَنْ يَذَكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢]، و ﴿يَذَكِّرُوا﴾ [الإسراء: ٤١] مشدداً ذلك كله. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم، وابن عامر كل ذلك بالتشديد، إلا قوله: ﴿أَوْلَا يَذَكِّرُ الْإِنْسَانَ﴾ [مريم: ٦٧] فأنهم خففوه. روى أبان، وحفص عن عاصم: «يذكرون» خفيفة الذال في جميع القرآن. قرأ حمزة، والكسائي: «يذكرون» مشدداً إذا كان بالياء، ومخففاً إذا كان بالتاء.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَمَلَكٌ مِّنكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو: «وَأَنَّ» بفتح الألف مع تشديد النون. قال الفراء: إن شئت جعلت «أَنَّ» مفتوحة بوقوع «اتل» عليها؛ وإن شئت جعلتها خفصاً، على معنى: ذلكم وصاكم به، وبأن هذا صراطي مستقيماً. وقرأ ابن عامر بفتح الألف أيضاً، إلا أنه خفف النون، فجعلها مخففة من الثقيلة؛ وحكم إعرابها حكم تلك. وقرأ حمزة، والكسائي: بتشديد النون مع كسر الألف. قال الفراء: وكسر الألف على الاستئناف. وفي الصراط قولان: أحدهما: أنه القرآن. والثاني: الإسلام. وقد بينا إعراب قوله: «مستقيماً» أيضاً. فأما «السُّبُلُ»، فقال ابن عباس: هي الضلالات^(١). وقال مجاهد: البدع والشبهات. وقال مقاتل: أراد ما حرموا على أنفسهم من الأنعام والحرث. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: فضلكم عند يه.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَلْتَمِسُ رَبَّهُمْ رَبِّهَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ قال الزجاج: «ثم» هاهنا للعطف على معنى التلاوة؛ فالمعنى اتل ما حرم ربكم، ثم اتل عليكم ما آتاه الله موسى. وقال ابن الأنباري: الذي بعد «ثم» مقدّم على الذي قبلها في النية؛ والتقدير: ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ في قوله: «تماماً» قولان: أحدهما: أنها كلمة متصلة بما بعدها؛ تقول: أعطيتك كذا تماماً على كذا، وتماماً لكذا، وهذا قول الجمهور. والثاني: أن قوله: «تماماً» كلمة قائمة بنفسها، غير متصلة بما بعدها؛ والتقدير: آتينا موسى الكتاب تماماً، أي: في دفعة واحدة، لم نفرق إنزاله كما فرّق إنزال القرآن، ذكره أبو سليمان الدمشقي. وفي المشار إليه بقوله: «أحسن» أربعة أقوال: أحدها: أنه الله ﷻ. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: تماماً على إحسان الله إلى أنبيائه، قاله ابن زيد. والثاني: تماماً على إحسان الله تعالى إلى موسى؛ وعلى هذين القولين، يكون «الذي» بمعنى «ما». والقول الثاني: أنه إبراهيم الخليل ﷺ؛ فالمعنى: تماماً للنعمة على إبراهيم الذي أحسن في طاعة الله، وكانت ثبوتاً موسى نعمة على إبراهيم، لأنه من ولده، ذكره الماوردي. والقول الثالث: أنه كل محسن من الأنبياء، وغيرهم. وقال مجاهد: تماماً على المحسنين، أي: تاماً لكل محسن. وعلى هذا القول، يكون «الذي» بمعنى «مَنْ»، و «على» بمعنى لام الجر؛ ومن هذا قول العرب: أتم عليه، وأتم له. قال الراعي:

رِعْتَهُ أَشْهَرًا وَخَلَا عَلِيًّا^(٢)

أي: لها. قال ابن قتيبة: ومثل هذا أن تقول: أوصي بمالي للذي غزا وحج؛ تريد: للغازين والحاجين. والقول الرابع: أنه موسى. ثم في معنى: «أحسن» قولان: أحدهما: أحسن في الدنيا بطاعة الله ﷻ. قال الحسن،

(١) روى الإمام أحمد في «المسند» ١٨٢/٤، ١٨٣، والحاكم في «المستدرک» ١/٧٣ عن النواس بن سميان الأنصاري عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَبَّتِي الصراط سوران، فيها أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تموجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتح، فإني إن تفتحته تلجه، والصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة: محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم». وخرجه ابن كثير في «التفسير»، ثم قال: إنساده حسن صحيح. وقوله: «تموجوا» قال القاري في «شرح المشكاة»: بتشديد الجيم من الأعوجاج، كذا في نسخة السيد وغيره، وفي نسخة: بتشديد الواو على حذف إحدى التامين، وهو تأكيد لما قبله، أي: لا تميلوا إلى الأطراف. قلت: وقع في «المسند»: «ولا تفرجوا» وهو تحريف.

(٢) تمامه: فطار التي فيها واستغارا. وهو في «أدب الكاتب» لابن قتيبة: ٤٠١ عن أبيات يصف بها نانة ذات سمن. قال الجواليقي: رعته، أي: رعت هذه النانة هذا النبات أشهراً، وتخلت به، لم يزعزعه غيرها. وطار التي، أي: ارتفع الشحم، واستغارا، أي: هبط فيها ودخل.

وقتادة: تماماً لكرامته في الجنة إلى إحسانه في الدنيا. وقال الربيع: هو إحسان موسى بطاعته. وقال ابن جرير: تماماً لنعمنا عنده على إحسانه في قيامه بأمرنا ونهينا. والثاني: أحسنَ من العلم وكُتِبَ اللّهُ القديمة؛ وكأنه زيد على ما أحسنه من التوراة؛ ويكون «التمام» بمعنى الزيادة، ذكره ابن الأنباري. فعلى هذين القولين، يكون «الذي» بمعنى: «ما». وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو رزين، والحسن، وابن يعمر: «على الذي أحسن»، بالرفع. قال الزجاج: معناه: على الذي هو أحسن الأشياء. وقرأ عبد الله بن عمرو، وأبو المتوكل، وأبو العالية: «على الذين أحسن» برفع الهمزة وكسر السين وفتح النون؛ وهي تحتمل الإحسان، وتحتمل العلم.

قوله تعالى: ﴿وَتَنْصِلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تبياناً لكل شيء من أمر شريعتهم مما يحتاجون إلى علمه، لكي يؤمنوا بالبعث والجزاء.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مِبْرَارًا فَأَنْجِيهِمْ وَأَنْقُضْ لِمَنْ لَمَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مِبْرَارًا﴾ يعني القرآن، ﴿فَأَنْجِيهِمْ وَأَنْقُضْ﴾ أن تخالفوه ﴿لَمَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾. قال الزجاج: لتكونوا راجين للرحمة.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ إِلَهُكُمُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ سبب نزولها: أن كفار مكة قالوا: قاتل الله اليهود والنصارى، كيف كذبوا أنبياءهم؛ فوالله لو جاءنا نذير وكتاب، لكننا أهدى منهم، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. قال الفراء: «أن» في موضع نصب في مكانين: أحدهما: أنزلناه لئلا تقولوا. والآخر: من قوله: واتقوا أن تقولوا. وذكر الزجاج عن البصريين، أن معناه: أنزلناه، كراهة أن تقولوا؛ ولا يجوزون إضمار «لا». فأما الخطاب بهذه الآية، فهو لأهل مكة؛ والمراد إثبات الحجة عليهم بإنزال القرآن كي لا يقولوا يوم القيامة: إن التوراة والإنجيل أنزلا على اليهود والنصارى، وكنا غافلين عما فيهما. و«دراستهم»: قراءتهم الكتب. قال الكسائي: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ﴾ لا نعلم ما هي، لأن كتبهم لم تكن بلغتنا، فأنزل الله كتابا فبلغتهم لتقطع حججهم.

﴿أَمْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرَى الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوْءَ الْمَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصُدُّونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ قال الزجاج: إنما كانوا يقولون هذا، لأنهم مذلون بالأذهان والأفهام، وذلك أنهم يحفظون أشعارهم وأخبارهم، وهم أميون لا يكتبون. ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ أي: ما فيه البيان وقطع الشبهات. قال ابن عباس: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ أي: حجة، وهو النبي، والقرآن، والهدى، والبيان، والرحمة، والنعمة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: أكفر ﴿مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني محمداً والقرآن. ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: أعرض فلم يؤمن بها. وسوء العذاب: قبيح.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِشْرَاقُهَا لَمَّا تَحَنَّنَ مَلَأَتْ مِنْ قَبْلِ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِشْرَاقِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «تأتيهم» بالياء. وقرأ حمزة، والكسائي: «يأتيهم» بالياء. وهذا الإتيان لقبض أرواحهم. وقال مقاتل: المراد بالملائكة: ملك الموت وحده.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ قال الحسن: أو يأتي أمر ربك^(١). وقال الزجاج: أو يأتي إهلاكه وانتقامه، إما بعذاب عاجل، أو بالقيامة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ وروى عبد الوارث إلا الفزاز: بتسكين ياء «أو يأتي»، وفتحها الباقون.

(١) خرج ابن الجوزي هنا على مذهب السلف في هذا النقل.

وفي هذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أنه طلوع الشمس من مغربها، رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ^(١)، وبه قال ابن مسعود. وفي رواية زارة بن أوفى عنه، وعبد الله بن عمرو، ومجاهد، وقتادة، والسدي. وقد روى البخاري، ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورأها الناس، آمن من عليها، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»^(٢).. وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت، طُبع على كل قلب بما فيه، [و] كفي الناس العمل»^(٣). والثاني: أنه طلوع الشمس والقمر من مغربهما، رواه مسروق عن ابن مسعود. والثالث: أنه إحدى الآيات الثلاث، طلوع الشمس من مغربها، والذابة، وفتح يأجوج ومأجوج، روى هذا المعنى القاسم عن ابن مسعود. والرابع: أنه طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض، قاله أبو هريرة؛ والأول أصح. والمراد بالخير هاتنا: العمل الصالح؛ وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذٍ، لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان. وقال الضحاک: من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه، قبل منه، كما يقبل منه قبل الآية. وقيل: إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها، أن الملحده والمنجمين، زعموا أن ذلك لا يكون، فيريهم الله قدرته، ويطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق، ولتحقق عجز نمرود حين قال له إبراهيم: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فصل

وفي قوله: ﴿قُلْ أَنْتَلِّؤُكُمْ إِنَّا مَنْشُورُونَ﴾ قولان: أحدهما: أن المراد به التهديد، فهو محكم. والثاني: أنه أمر بالكف عن القتال، فهو منسوخ بآية السيف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا فِيهَا مِنْكُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا فِيهَا مِنْكُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «فَرَقُوا» مشددة. وقرأ حمزة، والكسائي: «فارقوا» بألف. وكذلك قرؤوا في [الرم: ٢٣٢]؛ فمن قرأ؛ «فَرَقُوا»، أراد: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض. ومن قرأ: «فارقوا»، أراد: باينوا. وفي المشار إليهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم أهل الضلالة من هذه الأمة، قاله أبو هريرة. والثاني: أنهم اليهود والنصارى، قاله ابن عباس، والضحاک، وقتادة، والسدي. والثالث: اليهود، قاله مجاهد. والرابع: جميع المشركين، قاله الحسن. فعلى هذا القول، دينهم: الكفر الذي يعتقدونه ديناً، وعلى ما قبله، دينهم: الذي أمرهم الله به. والشَّيْعُ: الفرق والأحزاب. قال الزجاج: ومعنى «شَيْعَتُ» في اللغة: اتبعت. والعرب تقول: شاعكم السلام، وأشاعكم، أي: تبعكم. قال الشاعر:

أَلَا يَا نَخْلَةَ مِنْ ذَاتِ عِرْقِي
بَرُّودِ الظِّلِّ شَاعَكُمْ السَّلَامُ^(٤)

وتقول: أتيتك غداً، أو شيعه، أي: أو اليوم الذي يتبعه. فمعنى الشيعة: الذين يتبع بعضهم بعضاً، وليس كلهم متفقين. وفي قوله تعالى: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ قولان: أحدهما: لست من قتالهم في شيء؛ ثم نسخ بآية السيف، وهذا مذهب السدي. والثاني: لست منهم، أي: أنت بريء منهم، وهم منك برءاء، إنما أمرهم إلى الله في جزائهم، فتكون الآية محكمة.

(١) «المسند» ٣/٣١، و«الطبري» ١٢/٢٤٧، و«التزمذي» ٢/١٣٣. وفي سننه عطية العوفي، وهو ضعيف.

(٢) «المسند» رقم (٧١٦١)، و«البخاري» ٨/٢٢٣، و«مسلم» ٢/١٩٤، و«أبو داود» ٤/١٦٣، و«ابن ماجه» ٢/٢٣٥٢. وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٣/٥٧ وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وعبد الرزاق، والنسائي، وابن المنذر، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث»، والطبراني، وابن أبي عدي.

(٣) «المسند» ٣/١٣٣، و«الطبري» ١٢/٢٥٣، وخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٢٥٠ وقال: رجال أحمد ثقات. وقال ابن كثير بعد أن ذكره ٢/١٩٥ هذا الحديث حسن الإسناد، ولم يخرج أحد من الكتب الستة.

(٤) البيت غير منسوب في «أساس البلاغة»، و«اللسان»: شيع.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وقرأ يعقوب، والقزاز عن عبد الوارث: «عَشْرًا» بالتونين، «أمثالها» بالرفع. قال ابن عباس: يريد: من عملها، كتبت له عشر حسنات. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا﴾ جزاء ﴿مِثْلَهَا﴾. وفي الحسنة والسيئة هاهنا قولان: أحدهما: أن الحسنة: قول لا إله إلا الله. والسيئة: الشرك، قاله ابن مسعود، ومجاهد، والنخعي. والثاني: أنه عام في كل حسنة وسيئة. روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر». فإن قيل: إذا كانت الحسنة كلمة التوحيد، فأي مثل لها حتى يجعل جزاء قائلها عشر أمثالها؟ فالجواب: أن جزاء الحسنة معلوم القدر عند الله، فهو يجازي فاعلها بعشر أمثاله، وكذلك السيئة. وقد أشرنا إلى هذا في (المائدة) عند قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]. فإن قيل: المثل مذكّر، فلم قال: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ والهاء إنما تسقط في عدد المؤنث؟ فالجواب: أن الأمثال خلقت حسنات مؤنثة؛ وتلخيص المعنى: فله عشر حسنات أمثالها، فسقطت الهاء من عشر، لأنها عدد مؤنث، كما تسقط عند قولك: عشر نعال، وعشر جباب.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا نِيلَةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦١﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال الزجاج: أي: دلّني على الدين الذي هو دين الحق. ثم فسّر ذلك بقوله: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «قِيَمًا» مفتوحة القاف، مشددة الياء. والقيم: المستقيم. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «قِيَمًا» بكسر القاف وتخفيف الياء. قال الزجاج: وهو مصدر، كالصَّغْر والكَبِير. وقال مكّي: من خفّفه بناء على «فَعَلَ» وكان أصله أن يأتي بالواو، فيقول: «قِيَمًا» كما قالوا: عَوْض، وجَوْل، ولكنه شذ عن القياس. قال الزجاج: ونصب قوله: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ محمول على المعنى، لأنه لما قال: «هداني» دل على عرفني دينًا؛ ويجوز أن يكون على البدل من قوله: ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فالمعنى: هداني صراطاً مستقيماً ديناً قِيَمًا. و«حنيفاً» منصوب على الحال من إبراهيم، والمعنى: هداني ملّة إبراهيم في حال حنيفيته.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَّهِ وَبِذَلِكَ بُرِّئْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْإِسْلَامِ﴾ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يريد: الصلاة المشروعة. والنسك: جمع نسكة. وفي النسك هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنها الذبائح؛ قاله ابن عباس، وسعيد بن جبیر، ومجاهد، وابن قتيبة. والثاني: الدين، قاله الحسن. والثالث: العبادة. قال الزجاج: النسك كل ما تُقَرَّب به إلى الله ﷻ، إلا أن الغالب عليه أمر الذبح. والرابع: أنه الدين، والحج، والذبائح، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ الجمهور على تحريك ياء «محيائي»، وتسكين ياء «مماتي». وقرأ نافع: بتسكين ياء «محيائي»، ونصب ياء «مماتي»، ثم المفسرين في معناه قولان: أحدهما: أن معناه: لا يملك حياتي ومماتي إلا الله. والثاني: حياتي لله في طاعته، ومماتي لله في رجوعي إلى جزائه. ومقصود الآية أنه أخبرهم أن أفعالي وأحوالي لله وحده، لا لغيره كما تشركون أنتم به.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْإِسْلَامِ﴾ قال الحسن، وقناة: أول المسلمين من هذه الأمة.

﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ أَمْ يَأْتِي رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِدُ وَرْدَهُ وَنَدَّ أُخْرَىٰ ثُمَّ لَكَ نَزِيرٌ فَتَسْتَكْبِرُ﴾ ﴿١٦٤﴾ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ ﴿١٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ أَمْ يَأْتِي رَبِّيَ﴾ سبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: ارجع عن هذا الأمر، ونحن لك الكفلاء بما أصابك من تبة، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي: لا يؤخذ سواها بعملها. وقيل: المعنى: إلا عليها عقاب معصيتها، ولها ثواب طاعتها. ﴿وَلَا نُزِدُ وَرْدَهُ وَنَدَّ أُخْرَىٰ﴾ قال الزجاج: لا تؤخذ نفس آتمة بإثم أخري. والمعنى: لا يؤخذ أحد بذنب غيره. قال أبو سليمان: ولما أدعت كل فرقة من اليهود والنصارى أو المشركين أنهم أولى بالله من

غيرهم، عرفهم أنه الحاكم بينهم بقوله: ﴿فَتَبَيَّنَّا لَكُم مَّا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ونظيره ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَلَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ رَفَعَ بِمَعْزُمِكُمْ قَوْقَ بَعْضِ دَرَجَاتٍ لِيَسْأَلَكُمْ فِي مَاءِ تَنْكُرٍ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَكَمُورٌ رَجِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَلَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ﴾ قال أبو عبيدة: الخلائف: جمع خليفة. قال الشماخ:

تُصِيبُهُمْ وَتُخَطُّنِي الْمَنَابِيا وَأَخْلَفَ فِي رُبُوعٍ عَن رُبُوعٍ^(١)

وللمفسرين فيمن خلفوه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم خلفوا الجن الذين كانوا سكان الأرض؛ قاله ابن عباس. والثاني: أن بعضهم يخلف بعضاً؛ قاله ابن قتيبة. والثالث: أن أمة محمد خلفت سائر الأمم، ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بِمَعْزُمِكُمْ قَوْقَ بَعْضِ دَرَجَاتٍ﴾ أي: في الرزق، والعلم، والشرف، والقوة، وغير ذلك ﴿لِيَسْأَلَكُمْ﴾ أي: ليختبركم، فيظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه سماه سريعاً، لأنه آتٍ، وكل آتٍ قريب. والثاني: أنه إذا شاء العقوبة، أسرع عقابه.



(١) «ديوانه» ٥٨، و«مجاز القرآن» ٢٠٩/١، و«الطبري» ٢٨٨/١٢، و«القرطبي» ١٥٨/٧، و«اللسان»، و«التاج»: ربح. والربوع: جمع ربح، وهو جماعة الناس الذين يزلون ربحاً يسكنونه، يقول: أبقى في قوم بعد قوم.

سورة الأعراف

فصل في نزولها

روى العوفي، وابن أبي طلحة، وأبو صالح عن ابن عباس، أن سورة الأعراف من المكي، وهذا قول الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، وجابر بن زيد، وقتادة. وروي عن ابن عباس، وقتادة أنها مكية، إلا خمس آيات؛ أولها قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ﴾. وقال مقاتل: كلها مكية، إلا قوله: ﴿وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٧٢] فإنهن مدنيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿التص ﴿١﴾﴾

فأما التفسير، فقوله تعالى: ﴿التص ﴿١﴾﴾ قد ذكرنا في أول سورة (البقرة) كلاماً مجملاً في الحروف المقطعة أوائل السور، فهو يعم هذه أيضاً. فأما ما يختص بهذه الآية فيه سبعة أقوال: أحدها: أن معناه: أنا الله أعلم وأفضل، رواه أبو الضحى عن ابن عباس. والثاني: أنه قَسَمَ أقسم الله به، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنها اسم من أسماء الله تعالى، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: أن الألف مفتاح اسمه «الله»، واللام مفتاح اسمه «الطيف»، والميم مفتاح اسمه «مجيد»، والصاد مفتاح اسمه «صادق»، قاله أبو العالية. والخامس: أن ﴿التص ﴿١﴾﴾ اسم للسورة، قاله الحسن. والسادس: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة. والسابع: أنها بعض كلمة. ثم في تلك الكلمة قولان: أحدهما: المصور، قاله السدي. والثاني: المصير إلى كتاب أنزل إليك، ذكره الماوردي.

﴿كَيْتُكَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذَكَّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَيْتُكَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ قال الأخفش: رفع الكتاب بالابتداء. ومذهب الفراء أن الله اكتفى في مفتتح السور ببعض حروف المعجم عن جميعها، كما يقول القائل: «اب ت ث ثمانية وعشرون حرفاً؛ فالمعنى: حروف المعجم كتاب أنزلناه إليك. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يرتفع الكتاب بإضمار: هذا الكتاب. وفي الحرج قولان: أحدهما: أنه الشك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن قتيبة. والثاني: أنه الضيق، قاله الحسن، والزجاج. وفي هاء «منه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الكتاب؛ فعلى هذا، في معنى الكلام قولان: أحدهما: لا يضيفنْ صدرك بالإبلاغ، ولا تخافنْ، قاله الزجاج. والثاني: لا تشكُنْ أنه من عند الله. والقول الثاني: أنها ترجع إلى مضمر، وقد دل عليه الإنذار، وهو التكذيب، ذكره ابن الأنباري. قال الفراء: فمعنى الآية: لا يضيفنْ صدرك أن كذبوك. قال الزجاج: وقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ بِهِ﴾ مقدم؛ والمعنى: أنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين، فلا يكن في صدرك حرج منه. ﴿وَذَكَّرَ﴾ يصلح أن يكون في موضع رفع ونصب وخفض؛ فأما النصب؛ فعلى قوله: أنزل إليك لتنذر به، وذكرى للمؤمنين، أي: ولتذكُرْ به ذكرى، لأن في الإنذار معنى التذكير. ويجوز الرفع على أن يكون: وهو ذكرى، كقولك: وهو ذكرى للمؤمنين. فأما الخفض، فعلى معنى: لتنذر، لأن معنى «لتنذر»: لأن تنذر؛ المعنى: للإنذار والذكرى، وهو في موضع خفض.

﴿أَتَيْمُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَيْمُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إن قيل: كيف خاطبه بالإفراد في الآية الأولى، ثم جمع بقوله: «اتبعوا»؟ فغنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه لما علم أن الخطاب له ولأمته، حسن الجمع لذلك المعنى. والثاني: أن الخطاب الأول خاص له؛ والثاني محمول على الإنذار، والإنذار في طريق القول، فكأنه قال: لتقول لهم منذراً: ﴿أَتَيْمُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ذكرهما ابن الأنباري. والثالث: أن الخطاب الثاني للمشركين، ذكره جماعة من

المفسرين؛ قال: والذي أنزل إليهم القرآن. وقال الزجاج: الذي أنزل: القرآن وما أتى عن النبي ﷺ، لأنه مما أنزل عليه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاكُمْ الرُّسُولَ فَحُذُّوهُ وَمَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ فَأْتُوا﴾ [الحشر: ١٧]. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ آيَاتٍ﴾ أي: لا تتولوا من عدل عن دين الحق؛ وكل من ارتضى مذهباً فهو ولي أهل المذهب. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَلَا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما: زائدة مؤكدة؛ والمعنى: قليلاً تذكرون. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «تذكرون» مشددة الذال والكاف. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «تذكرون» خفيفة الذال مشددة الكاف. قال أبو علي: من قرأ «تذكرون» بالشديد، أراد «تذكرون» فأدغم التاء في المذال، وإدغامها فيها حسن، لأن التاء مهموسة، والمذال مجهورة؛ والمجهور أزيد صوتاً من المهموس وأقوى؛ فإدغام الأنقص في الأزيد حسن. وأما حمزة ومن وافقه، فإنهم حذفوا التاء التي أدغمها هولا، وذلك حسن لاجتماع ثلاثة أحرف متقاربة. وقرأ ابن عامر: «يتذكرون» بياء وتاء، على الخطاب للنبي ﷺ؛ والمعنى قليلاً ما يتذكر هؤلاء الذين ذكروا بهذا الخطاب.

﴿وَكَمْ يَنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ يَنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ «كم» تدل على الكثرة، و«رب»: موضوعة للقلة. قال الزجاج: المعنى: وكم من أهل قرية، فحذف الأهل، لأن في الكلام دليلاً عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ محمول على لفظ القرية؛ والمعنى: فجاءهم بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له؛ إما ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم قائلون. قال ابن قتيبة: بأسنا: عذابنا. وبياتاً: ليلاً. وقائلون: من القائلة نصف النهار. فإن قيل: إنما أتاهم البأس قبل الإهلاك، فكيف يقدم الإهلاك؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن الإهلاك والبأس يقعان معاً، كما تقول: أعطيتني فأحسنت؛ وليس الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله، وإنما وقعا معاً، قاله الفراء. والثاني: أن الكون مضمر في الآية، تقديره: أهلكتنا، وكان بأسنا قد جاءها، فأضمر الكون، كما أضمر في قوله: ﴿وَأَنْبِئُوا مَا كُنْتُمْ لِيَكْتُبِينَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: ما كانت الشياطين تتلوه. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ [يوسف: ١٧٧]، أي: إن يكن سرق. والثالث: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، تقديره: وكم من قرية جاءها بأسنا بياتاً، أو هم قائلون فأهلكنا، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَكِّلٌ وَرَأْفُكَ إِنَّكَ﴾ [آل عمران: ٢٥٥]، أي: رافعك ومتوفيك، ذكرهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ قال الفراء: فيه واو مضمرة؛ والمعنى: فجاءها بأسنا بياتاً، أو هم قائلون، فاستقلوا نسقاً على نسق^(١).

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ قال اللغويون: العدوى هاهنا بمعنى الدعاء والقول. والمعنى: ما كان قولهم وتداعيتهم إذ جاءهم العذاب إلا الاعتراف بالظلم. قال ابن الأنباري: وللدعوى في الكلام موضعان: أحدهما: الإيداع. والثاني: القول والدعاء. قال الشاعر:

إِذَا مَدَّكَ رَجُلِي دَعْوَتِكَ أَشْتَفِي

﴿فَلْيَسْتَكْرِ الْزَيْتُ أَرْبِلَ لَأَتَيْتَهُمْ وَلْيَسْتَكْرِ الْرَيْسُ لَيَلْفَقَنَّ عَنْهُمْ بَعِيرٌ وَمَا كُنَّا عَلَيْهِمْ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَكْرِ الْزَيْتُ أَرْبِلَ لَأَتَيْتَهُمْ﴾ يعني: الأمم يسألون: هل بلغكم الرسل، وماذا أجبتهم؟ ويسأل الرسل: هل بلغتم، وماذا أجبتهم؟. ﴿فَلْيَلْفَقَنَّ عَنْهُمْ بَعِيرٌ﴾ أي: فلنخبرنهم بما عملوا بعلم منا ﴿وَمَا كُنَّا عَلَيْهِمْ﴾ عن الرسل والأمم. وقال ابن عباس: يوضع الكتاب، فيتكلم بما كانوا يعملون.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٤﴾ وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

(١) وتام كلام الفراء في معاني القرآن: ٣٧٢. ولو قيل لكان جائزاً، كما تقول في الكلام: أتيتني والياً، أو وأنا معزول، وإن قلت: أو أنا معزول، فانت مفسر الواو.

(٢) البيت لكثير عزة، «ديوانه»: ٢٤٥/٢، و«الطبري»: ٣٠٤/١٢، و«نهاية الأرب»: ١٢٥/٢، و«اللسان»: مذل. ومذلت رجله مذلاً بفتح وسكون، ومذت: خدرت، وكانوا يزعمون أن المرء إذا خدرت رجله، ثم دعا باسم من أحب، زال خدرها.

قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أي: العدل. وإنما قال: «موازينه» لأن «من» في معنى جميع، يدل عليه قوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾. وفي معنى «يَقْلِبُونَ» قولان: أحدهما: يجحدون. والثاني: يكفرون. قال الفراء: والمراد بموازينه: ووزنه. والعرب تقول: هل لك في درهم بميزان درهمك، ووزن درهمك، ويقولون: داري بميزان دارك، ووزن دارك؛ ويريدن: حذاء دارك. قال الشاعر:

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذَا مِزْوَةٍ عِنْدِي لِكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيزَانُهُ^(١)
يعني: مثل كلامه ولفظه.

فصل

والقول بالميزان مشهور في الحديث، وظاهر القرآن ينطق به. وأنكرت المعتزلة ذلك، وقالوا: الأعمال أعراض، فكيف توزن؟ فالجواب: أن الوزن يرجع إلى الصحائف، بدليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَسْتَخْلَصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتَسْمِينٌ سِجْلًا، كُلُّ سِجْلٍ مَدِّ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَنْتَ كَرَمٌ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمْتُكَ كِتَابِي الْحَافِظُونَ؟» فيقول: لا يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب؛ فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة؛ قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، أخرجه أحمد في «مسنده»، والترمذي^(٢). وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل الطويل الأكل والشروب، فلا يزن جناح بعوضة»^(٣)، فعلى هذا يوزن الإنسان. قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان. فأما المؤمن، فيؤتى بعمله في أحسن صورة، فيوضع في كفة الميزان، فتنتقل حسناته على سيئاته، وأما الكافر، فيؤتى بعمله في أئبح صورة، فيوضع في كفة الميزان، فيخف وزنه^(٤). وقال الحسن: للميزان لسان وكفتان. وجاء في الحديث: أن داود ﷺ سأل ربه أن يريه الميزان، فأراه إياه؛ فقال: يا إلهي، من يقدر أن يملأ كفتي حسنات؟ فقال: يا داود، إنني إذا رضيت عن عبدي، ملأتها بتمر. وقال حذيفة: جبريل صاحب الميزان يوم القيامة، فيقول له ربه: زن بينهم، ورّد من بعضهم على بعض؛ فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة. فإن لم تكن له حسنة، أخذ من سيئات المظلوم، فرد على سيئات الظالم، فيرجع وعليه مثل الجبال. فإن قيل: ليس الله يعلم مقادير الأعمال، فما الحكمة في وزنها؟ فالجواب أن فيه خمسة حكم: إحداهما: امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا. والثانية: إظهار علامة السعادة والشقاوة في الأخرى. والثالثة: تعريف العباد ما لهم من خير وشر. والرابعة: إقامة الحججة عليهم. والخامسة: الإعلام بأن الله عادل لا يظلم. ونظير هذا أنه أثبت الأعمال في كتاب، واستنسخها من غير جواز النسيان عليه.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشًا لَوْلَا مَا نَسَكَّرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه قولان: أحدهما: مكتأكم إياها. والثاني: سهلنا عليكم التصرف فيها. وفي المعايش قولان: أحدهما: ما تعيشون به من المطاعم والمشارب. والثاني: ما تتوصلون به إلى المعايش، من زراعة، وعمل، وكسب. وأكثر القراء على ترك الهمز في «معايش» وقد رواها خارجة عن نافع مهموزة. قال

- (١) في «اللسان»: والميزان: المقدار، أنشد ثعلب: قد كنت
(٢) «المسند» ١٩٧/١١، و«سنن الترمذي» ٣/٣٦٧، وابن ماجه ١/١٤٣٧، والحاكم في «المستدرک» ١/٥٢٩. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وواقفه الذهبي، وهو كما قال.
(٣) ذكره ابن كثير في «التفسير» ٣/١٠٧ من طريق ابن أبي حاتم عن أبي هريرة بلفظ: «يؤتى بالرجل الأكل والشروب العظيم فيوزن بحية فلا يزنه». وروى البخاري ٨/٣٢٤، و«مسلم» ٤/٢١٤٧ عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: «القرؤوا: ﴿لَقَدْ نَعَّمْنَا بِكُمْ بِمَنْزِلَةِ نِعْمَةِ رَبِّكُمْ﴾» [الكهف: ١٠٥].
(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» بأطول مما هنا، ونسبه إلى البيهقي في «شعب الإيمان».

الزجاج: وجميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأ، لأن الهمز إنما يكون في الياء الزائدة، نحو صحيفة وصحائف؛ فصحيفة من الصحف؛ والياء زائدة، فأما معايش، فمن العيش؛ فالياء أصلية.

قوله تعالى: ﴿لَيْلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: شكركم قليل. وقال ابن عباس: يريد أنكم غير شاكرين.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: ولقد خلقناكم في ظهر آدم، ثم صورناكم في الأرحام، رواه عبد الله بن الحارث عن ابن عباس. والثاني: ولقد خلقناكم في أصلاب الرجال، وصورناكم في أرحام النساء، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. والثالث: «ولقد خلقناكم»، يعني آدم، «ثم صورناكم»، يعني ذريته من بعده، رواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: «ولقد خلقناكم»، يعني آدم، «ثم صورناكم» في ظهره، قاله مجاهد. والخامس: «خلقناكم» نطفًا في أصلاب الرجال، وترائب النساء، «ثم صورناكم» عند اجتماع النطف في الأرحام، قاله ابن السائب. والسادس: «خلقناكم» في بطون أمهاتكم، «ثم صورناكم» فيما بعد الخلق بشق السمع والبصر، قاله معمر. والسابع: «خلقناكم»، يعني آدم خلقناه من تراب، «ثم صورناكم»، أي: صورناه، قاله الزجاج، وابن قتيبة. قال ابن قتيبة: فجعل الخلق لهم إذ كانوا منه؛ فمن قال: عنى بقوله: «خلقناكم» آدم، فمعناه: خلقنا أصلكم؛ ومن قال: صورنا ذريته في ظهره، أراد إخراجهم يوم الميثاق كهيشة الذر. والثامن: «ولقد خلقناكم» يعني الأرواح، «ثم صورناكم» يعني الأجساد، حكاه القاضي أبو يعلى في «المعتمد». وفي «ثم» المذكورة مرتين قولان: أحدهما: أنها بمعنى الواو، قاله الأخفش. والثاني: أنها للترتيب، قاله الزجاج.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا سَجِدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ آلَا سَجِدَ﴾ «ما» استفهام، ومعناها الإنكار. قال الكسائي: «لا» هاهنا زائدة. والمعنى: ما منعك أن تسجد؟. وقال الزجاج: موضع «ما» رفع. والمعنى: أي شيء منعك من السجود؟ و«لا» زائدة مؤكدة ومثله: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ آهْلَ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩]. قال ابن قتيبة: وقد تزداد «لا» في الكلام. والمعنى: طرحتها لإبائه في الكلام، أو جحد، كهذه الآية. وإنما زاد «لا» لأنه لم يسجد. ومثله: ﴿أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمُ آيَاتُنَا لَيَّاسًا لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] على قراءة من فتح «أنها»، فزاد «لا» لأنهم لم يؤمنوا؛ ومثله: ﴿وَحَرِّمْنَا عَلَى قُرَيْبِهِ أَهْلَ كِنَانِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. وقال الفراء: «لا» هاهنا جحد محض، وليست بزائدة، والمنع راجع إلى تأويل القول، والتأويل: من قال لك: لا تسجد؛ فأحل المنع محل القول، ودخلت بعده «أن» ليدل على تأويل القول الذي لم يتصرح لفظه. وقال ابن جرير: في الكلام محذوف، تقديره: ما منعك من السجود، فأحوجك أن لا تسجد؟. قال الزجاج: وسؤال الله تعالى لإبليس ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ﴾ توبيخ له، ويظهر أنه معاند، ولذلك لم ينب، وأتى بشيء في معنى الجواب، ولفظه غير جواب، لأن قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ إنما هو جواب، أي كما خير؟ ولكن المعنى: منعتني من السجود فضلي عليه. ومثله قولك للرجل: كيف كنت؟ فيقول: أنا صالح؛ وإنما الجواب: كنت صالحاً، فيجيب بما يحتاج إليه وزيادة. قال العلماء: وقع الخطأ من إبليس حين قاس مع وجود النص، وخفي عليه فضل الطين على النار؛ وفضله من وجوه: أحدها: أن من طبع النار الطيش والالتهاب والعجلة، ومن طبع الطين الهدوء والرزاقية. والثاني: أن الطين سبب الإنبات والإيجاد، والنار سبب الإعدام والإهلاك. والثالث: أن الطين سبب جمع الأشياء، والنار سبب تفريقها.

﴿قَالَ فَاقْبِطْ يَتِيمًا مَّا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاتَّخِذْ إِلَيْكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَاقْبِطْ يَتِيمًا﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهم: أنها ترجع إلى السماء، لأنه كان فيها، قاله الحسن. والثاني: إلى الجنة، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا﴾ إن قيل: فهل لأحد أن يتكبر في غيرها؟ فالجواب: أن المعنى: ما للمتكبر أن يكون فيها، وإنما المتكبر في غيرها. وأما الصاغر، فهو الدليل. والصغار: الذل. قال الزجاج: استكبر إبليس بإبائه السجود، فأعلمه الله أنه صاغر بذلك.

﴿قَالَ أَنْظِرْهُ إِلَيَّ يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْهُ﴾ أي أمهلني وأخرني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، فأراد أن يعبر قنطرة الموت وسأل الخلود، فلم يجبه إلى ذلك، وأنظره إلى النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم. وقد بين مدة إمهاله في (الحجر) بقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ﴿١٥﴾ (الحجر: ٢٨). وفي ما سأل الإمهال له قولان: أحدهما: الموت. والثاني: العقوبة. فإن قيل: كيف قيل له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ وليس أحد أنظر سواه؟ فالجواب: أن الذين تقوم عليهم الساعة منظرون إلى ذلك الوقت بأجلهم، فهو منهم.

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْتَدَنَّ لَكَ مِمَّا صَرَفْتَ لِي﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿فِيمَا أُغْوِيَنِي﴾ في معنى هذا الإغواء قولان: أحدهما: أنه بمعنى الإضلال، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنه بمعنى الإهلاك، ومنه قوله: ﴿فَسَوِّفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مریم: ٥٩]، أي: هلاكاً، ذكره ابن الأنباري. وفي معنى «فيما» قولان: أحدهما: أنها بمعنى القسم، أي: فبإغوائك لي. والثاني: أنها بمعنى الجزاء، أي فبأنك أغويتني، ولأجل أنك أغويتني ﴿لَأَقْتَدَنَّ لَكَ مِمَّا صَرَفْتَ لِي﴾. قال الفراء، والزجاج: أي على صراطك. ومثله قولهم: ضُرب زيد الظهر والبطن. وفي المراد بالصرط هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه طريق مكة، قاله ابن مسعود، والحسن، وسعيد بن جبيرة؛ كأن المراد صدهم عن الحج. والثاني: أنه الإسلام، قاله جابر بن عبد الله، وابن الحنفية، ومقاتل. والثالث: أنه الحق، قاله مجاهد.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: «من بين أيديهم» أشككهم في آخرتهم، «ومن خلفهم» أرغبهم في دنياهم، «وعن أيمنهم» أي: من قبل حسناتهم، «وعن شمائلهم» من قبل سيئاتهم، قاله ابن عباس. والثاني: مثله، إلا أنهم جعلوا «من بين أيديهم» الدنيا، «ومن خلفهم» الآخرة، قاله النخعي، والحكم بن عتيبة. والثالث: مثل الثاني، إلا أنهم جعلوا «وعن أيمنهم» من قبل الحق أصدهم عنه، «وعن شمائلهم» من قبل الباطل أردهم إليه، قاله مجاهد، والسدي. والرابع: «من بين أيديهم» من سبيل الحق، «ومن خلفهم» من سبيل الباطل، «وعن أيمنهم» من قبل آخرتهم، «وعن شمائلهم» من أمر الدنيا، قاله أبو صالح. والخامس: «من بين أيديهم» «وعن أيمنهم» من حيث يبصرون، «ومن خلفهم» «وعن شمائلهم» من حيث لا يبصرون، نقل عن مجاهد أيضاً. والسادس: أن المعنى: لأنصرفن لهم في الإضلال من جميع جهاتهم، قاله الزجاج، وأبو سليمان الدمشقي. فعلى هذا، يكون ذكر هذه الجهات، للمبالغة في التأكيد. والسابع: «من بين أيديهم» فيما بقي من أعمارهم، فلا يقدمون فيه على طاعة، «ومن خلفهم» فيما مضى من أعمارهم، فلا يتوبون فيه من معصية، «وعن أيمنهم» من قبل الغنى، فلا يفتقونه في مشكور، «وعن شمائلهم» من قبل الفقر، فلا يمتنعون فيه من محذور، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: مؤخدين، قاله ابن عباس. والثاني: شاكرين لنعمتك، قاله مقاتل. فإن قيل: من أين علم إيليس ذلك؟ فقد أسلفنا الجواب عنه في سورة (النساء).

﴿قَالَ لَنْحَبِّبَنَّهَا لِمَنْ نَشَاءُ مِنْ دُونِهَا وَلَنْ نَكْفُرَ بِهَا بِمَنْ نَشَاءُ مِنْ دُونِهَا وَلَنْ نَكْفُرَ بِهَا بِمَنْ نَشَاءُ مِنْ دُونِهَا وَلَنْ نَكْفُرَ بِهَا بِمَنْ نَشَاءُ مِنْ دُونِهَا﴾ ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ نَكْفُرُ بِهَا بِمَنْ نَشَاءُ مِنْ دُونِهَا وَلَنْ نَكْفُرَ بِهَا بِمَنْ نَشَاءُ مِنْ دُونِهَا وَلَنْ نَكْفُرَ بِهَا بِمَنْ نَشَاءُ مِنْ دُونِهَا﴾ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْحَبِّبَنَّهَا لِمَنْ نَشَاءُ مِنْ دُونِهَا﴾ وقرأ الأعمش: «مذموماً» بضم الذال من غير همز. قال الفراء: «الذُّمُّ: الذُّمُّ؛ يقال: ذُمتُ الرجلَ، أذُمتُه ذاماً؛ وذممتُه، أذمتُه ذماً؛ وذمته، أذيمته ذيماً؛ ويقال: رجل مذموم، ومذموم، ومذيم، بمعنى. قال حسان بن ثابت:

وأقاموا حتى ألبسوا جميعاً
في مقامٍ وكُلُّهم مَذْمُومٌ^(١)

(١) «سيرة ابن هشام» ١٥٠/٢، وفيها: «حتى ألبسوا... وكلهم مذموم» والبيت من قصيدة يذكر فيها عدة أصحاب اللواء يوم أحد.

قال ابن قتية: المذموم: المذموم بأبلغ الذم. والمدحور: المقصى المبعّد. وقال الزجاج: معنى المذموم كمنعنى المذموم، والمدحور: المبعّد من رحمة الله. واللام من «الأملان»: لام القسم؛ والكلام بمعنى الشرط والجزاء، كأنه قيل له: من تبعك، أعذبه، فدخلت اللام للمبالغة والتوكيد. فلام «الأملان» هي لام القسم، ولام «لمن تبعك» توطئة لها. فأما قوله: «منهم» فقال ابن الأنباري: الهاء والميم عائدتان على ولد آدم، لأنه حين قال: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِمَّ صَوْرَتِكُمْ» [الأعراف: ١١] كان مخاطباً لولد آدم، فرجع إليهم، فقال: «لَكِنَّ يَمَكَّ رَبَّنَا» فجعلهم غائبين، لأن مخاطبهم في ذا الموضوع توقع لبساً؛ والعرب ترجع من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب. ومن قال: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِمَّ صَوْرَتِكُمْ» خطاب لآدم، قال: أعاد الهاء والميم على ولده، لأن ذكره يكفي من ذكرهم؛ والعرب تكتفي بذكر الوالد من ذكر الأولاد إذا انكشف المعنى وزال اللبس. قال الشاعر:

أرى الخَطْفَى بَدَأَ الفِرْزْدُقُ شِغْرَهُ

ولكن خيراً من كُليبٍ مُجاشِعُ

أراد: أرى ابن الخطفى، فاكتفى بالخطفى من ابنه.

قوله تعالى: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ» يعني أولاد آدم المخالفين وقرناءهم من الشياطين.

«قَسْوَسَ لَنَا النَّيْبُ لَمَّا مَا وَرَى عَيْنَنَا مِنْ سَوْرَتَيْهِمَا وَقَالَ مَا تَهَكُّمًا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ

المَلَائِكَةِ»

قوله تعالى: «قَسْوَسَ لَنَا النَّيْبُ» قيل: إن الوسوسة: إخفاء الصوت. قال ابن فارس: الوسواس: صوت الحلي، ومنه وسواس الشيطان. و «لهما» بمعنى «إليهما»، أي: ليظهر لهما «مَا وَرَى عَيْنَنَا» أي: ستر. وقيل: إن لام «ليدي» لام العاقبة؛ وذلك أن عاقبة الوسوسة أدت إلى ظهور عورتهم، ولم تكن الوسوسة لظهورها.

قوله تعالى: «إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً» قال الأخفش، والزجاج: معناه: ما نهاكما إلا كراهة أن تكونوا ملكين. وقال ابن الأنباري: المعنى: إلا أن لا تكونا، فاكتفى بـ «أن» من «لا» فأسقطها. فإن قيل: كيف انقاد آدم لإبليس، مستشرفاً إلى أن يكون ملكاً، وقد شاهد الملائكة ساجدة له؟ فغنه جوابان: أحدهما: أنه عرف قريهم من الله، واجتماع أكثرهم حول عرشه، فاستشرف لذلك، قاله ابن الأنباري. والثاني: أن المعنى: إلا أن تكونا طوبلي العمر مع الملائكة: «أَوْ تَكُونَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ» لا تموتان أبداً، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقد روى يعلى بن حكيم عن ابن كثير: «أن تكونا ملكين» بكسر اللام، وهي قراءة الزهري.

«وَكَاَسَهُمَا إِلَى لَعْنَا رَبِّكَ لَمَّا لَا يَشْعُرُونَ» فَذَلِكُنَّ أَصْحَابُ الشَّجَرَةِ بَدَتْ لَنَا سَوْرَتَيْهِمَا وَطَوْفًا يَحْضَرَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَى اللَّيْتِ وَأَكَادَهُمَا رَيْبًا أَوْ أَنْهَكَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقَلَّ لَكُمَا إِلَى النَّيْبِ لَكُمَا عَدُوٌّ شَيْنٌ ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبُّنَا عَلَيْنَا أُنْتُمْ وَإِن لَّرُ تَفَرُّقًا وَرَحِمْنَا لَنْتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ أَهْوَيْتُمْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِيهَا حَيْوَةٌ وَفِيهَا مَمُوتٌ وَرَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَاهُنَا

قوله تعالى: «وَكَاَسَهُمَا» قال الزجاج: حلف لهما، فدلأهما في المعصية بأن غرهما. قال ابن عباس: غرهما باليمين، وكان آدم لا يظن أن أحداً يحلف بالله كاذباً.

قوله تعالى: «فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ» أي: فلما ذاقا ثمر الشجرة. قال الزجاج: وهذا يدل على أنها إنما ذاقها ذواقاً، ولم يبالغوا في الأكل. والسواة كناية عن الفرج، لا أصل له في تسميته. ومعنى: «وَطَوْفًا» أخذاً في الفعل؛ والأكثر: طَفِقَ يَطْفِقُ؛ وقد رويت: طَفِقَ يَطْفِقُ، بكسر الفاء، ومعنى: «يَحْضَرَانِ» يجعلان ورقة على ورقة، ومنه قيل للذي يرقع النعل: خصاف. وفي الآية دليل على أن إظهار السواة قبيح من لدن آدم؛ ألا ترى إلى قوله: «يَبْتِئُ لَمَّا مَا وَرَى عَيْنَنَا مِنْ سَوْرَتَيْهِمَا» فإنهما بادرا يستتران لقبح التكشف. وقيل: إنما سميت السواة سواة، لأن كشفها يسوء صاحبها. قال وهب بن منبه: كان لباسهما نوراً على فروجهما، لا يرى أحدهما عورة الآخر؛ فلما أصابا الخطيئة، بدت لهما سوءاتهما. وقرأ الحسن: «سوأتهما» على التوحيد؛ وكذلك قرأ: «يَخْضِفَانِ» بكسر الياء والخاء مع تشديد الصاد. وقرأ الزهري: بضم الياء وفتح الخاء مع تشديد الصاد. وفي الورق قولان: أحدهما: ورق التين، قاله

ابن عباس. والثاني: ورق الموز، ذكره المفسرون. وما بعد هذا قد سبق تفسيره إلى قوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ يعني الأرض. واختلف القراء في تاء «اتخرجون»؛ فقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو: بضم التاء وفتح الراء، هاهنا؛ وفي الروم: ﴿وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾ [الروم: ١٩]. وفي الزخرف: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾ [الزخرف: ١١]. وفي الجاثية: ﴿لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا﴾ [الجاثية: ٣٥]. وقرأهن حمزة، والكسائي: بفتح التاء وضم الراء. وفتح ابن عامر التاء في (الأعراف) فقط. فأما التي في (الروم): ﴿إِذَا أَنْشَرْتُمْ يُخْرِجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وفي ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ﴾ [المعارج: ٤٣] فمفتوحتان من غير خلاف.

﴿يَنْبِئُ مَادِمٌ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَيِّسُ سَوَاءَ لَكُمْ وَرِدْيًا وَّلِبَاسَ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ أَيْدِي اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿يَنْبِئُ مَادِمٌ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا﴾ سبب نزولها: أن ناساً من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراةً، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد. وقيل: إنه لما ذكر عري آدم، من علينا باللباس. وفي معنى ﴿أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: خلقناكم. والثاني: ألهمناكم كيفية صنعه. والثالث: أنزلنا المطر الذي هو سبب نبات ما يتخذ لباساً. وأكثر القراء قرؤوا: وريشاً. وقرأ ابن عباس، والحسن، وزر بن حبيش، وقتادة، والمفضل، وأبان عن عاصم: «وريشاً» بألف. قال الفراء: يجوز أن تكون الرياش جمع الريش. ويجوز أن تكون بمعنى الريش كما قالوا: لبس، ولباس. قال الشاعر:

فَلَمَّا كَشَفْنَ اللَّبْسَ عَنْهُ مَسَّحَتْهُ
بِأَطْرَافِ طِفْلِ زَانَ عَيْلًا مُوسِئًا^(١)

قال ابن عباس، ومجاهد: «الرياش»: المال؛ وقال عطاء: المال والنعيم. وقال ابن زيد: الريش: الجمال؛ وقال معبد الجهني: الريش: الرزق؛ وقال ابن قتيبة: الريش والرياش: ما ظهر من اللباس. وقال الزجاج: الريش: اللباس وكل ما ستر الإنسان في جسمه ومعيشته. يقال: تَرِيَشُ فلان، أي: صار له ما يعيش به. أنشد سيبويه:

رِيَاشِي مِنْكُمْ وَهَوَايَ مِنْكُمْ
وَإِنْ كَانَتْ زِيَارَتُكُمْ لِمَا^(٢)

وعلى قول الأكثرين: الريش والرياش بمعنى. قال قطرب: الريش والرياش واحد. وقال سفيان الثوري: الريش: المال، والرياش: الثياب.

قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة: «ولباس التقوى» بالرفع. وقرأ ابن عامر، ونافع، والكسائي: بنصب اللباس. قال الزجاج: من نصب اللباس، عطف به على الريش؛ ومن رفعه، فيجوز أن يكون مبتدأ، ويجوز أن يكون مرفوعاً بإضمار: هو؛ المعنى: وهو لباس التقوى، أي: وستر العورة لباس المتقين. وللمفسرين في لباس التقوى عشرة أقوال: أحدها: أنه السميت الحسن، قاله عثمان بن عفان؛ ورواه الذئبال بن عمرو عن ابن عباس. والثاني: العمل الصالح، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: الإيمان، قاله قتادة، وابن جريج، والسدي؛ فعلى هذا، سمي لباس التقوى، لأنه يقي العذاب. والرابع: خشية الله تعالى، قاله عروة بن الزبير. والخامس: الحياء، قاله معبد الجهني، وابن الأنباري. والسادس: ستر العورة للصلاة، قاله ابن زيد. والسابع: أنه الدرع، وسائر آلات الحرب، قاله زيد بن علي. والثامن: العفاف، قاله ابن السائب. والتاسع: أنه ما يَتَّقَى به الحر والبرد، قاله ابن بحر. والعاشر: أن المعنى: ما يَلْبَسُهُ المتقون في الآخرة، خير مما يلبسه أهل الدنيا، رواه عثمان بن عطاء عن أبيه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قال ابن قتيبة: المعنى: ولباس التقوى خير من الثياب، لأن الفاجر، وإن كان حسن الثوب، فهو بادي العورة: و «ذلك» زائدة. قال الشاعر في هذا المعنى:

(١) البيت لمحميد بن ثور الهلالي، «ديوانه» ١٤، و«معاني القرآن» للقرافي ١/ ٣٧٥، و«الطبري» ١٢/ ٣٦٤، و«المخصص» ٤/ ٣٥، و«اللسان»: «لبس» و«طفل». الطفل: البنان الناعم، أراد: مسحته بأطراف بنان طفل. والنيل: الساعد الريان الممتلئ. والموشم: عليه الوشم. والوشم: زينة الجاهلية، وقد أبطلها الإسلام، ولعن فاعلها.

(٢) البيت لجريز، «ديوانه» ٥٠٦ يمدح هشام بن عبد الملك، وأنشده سيبويه ٢/ ٤٥ ونسبه للراعي. والمام: الشيء اليسير، وهو أيضاً: الزيادة في الترم، وأصله من ألم بالمتزل: إذا نزل به ثم رحل.

إِنِّي كَأَنِّي أَرَى مَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ وَلَا أَمَانَةَ وَسَطَ الْقَوْمِ عُرْيَانَا

قال ابن الأنباري: ويقال: لباس التقوى، هو اللباس الأول، وإنما أعاده لما أخبر عنه بأنه خير من التعري، إذ كانوا يتعدون في الجاهلية بالتعري في الطواف.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ مَّآيَةِ اللَّهِ﴾ قال مقاتل: يعني: الثياب والمال من آيات الله وصنعه، لكي يذكروا، فيعتبروا في صنعه.

﴿يَبْقَى آدَمَ لَا يَفْنَىكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّكَ يَرُوكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوُهُمْ إِنَّ جَهَنَّمَ أَكْبَرُ مِنَ الشَّيْطَانِ أُولَئِكَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَبْقَى آدَمَ لَا يَفْنَىكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ قال المفسرون: هذا الخطاب للذين كانوا يطوفون عراة؛ والمعنى: لا يخدعكم ولا يضلّكم بغروره، فيزين لكم كشف عوراتكم، كما أخرج أبيكم من الجنة بغروره. وأضيف الإخراج ونزع اللباس إليه، لأنه السبب. وفي «لباسهما» أربعة أقوال: أحدها: أنه النور، رواه أبو صالح عن ابن عباس؛ وقد ذكرناه عن ابن منبه. والثاني: أنه كان كالظفر؛ فلما أكل، لم يبق عليهما منه إلا الظفر، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وابن زيد. والثالث: أنه التقوى، قاله مجاهد. والرابع: أنه كان من ثياب الجنة، ذكره القاضي أبو يعلى.

قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ أي: ليري كل واحد منهما سواة صاحبه. ﴿إِنَّكَ يَرُوكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ قال مجاهد: قبيله: الجن والشياطين. قال ابن عباس: جعلهم الله يجرّون من بني آدم مجرى الدم، وصدور بني آدم مساكن لهم، فهم يرون بني آدم، وبنو آدم لا يرونهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَةً لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال الزجاج: سلطناهم عليهم، يزدون في غيهم. وقال أبو سليمان: جعلناهم مواليين لهم.

﴿وَإِذَا قُمُوا فَحُتَّةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَمْلِكُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُمُوا فَحُتَّةً﴾ فيمن عني بهذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة. والفاحشة: كشف العورة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وزيد بن أسلم، والسدي. والثاني: أنهم الذين جعلوا السائبة والوصيلة والحام وتلك الفاحشة، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم المشركون؛ والفاحشة: الشرك، قاله الحسن، وعطاء. قال الزجاج: فأعلمهم عز وجل أنه لا يأمر بالفحشاء، لأن حكمته تدل على أنه لا يفعل إلا المستحسن. والقسط: العدل. والعدل: ما استقر في النفوس أنه مستقيم لا ينكره معيّر، فكيف يأمر بالفحشاء، وهي ما عظم فيحه؟!.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد، فصلّوا فيه، ولا يقولن أحدكم: أصلي في مسجدي، قاله ابن عباس، والضحاك، واختاره ابن قتبية. والثاني: توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة، قاله مجاهد، والسدي، وابن زيد. والثالث: اجعلوا سجدكم خالصاً لله تعالى دون غيره، قاله الربيع بن أنس. والرابع: اقصدوا المسجد في وقت كل صلاة، أمراً بالجماعة لها، ذكره الماوردي. وفي قوله: ﴿وَادْعُوهُ﴾ قولان: أحدهما: أنه العبادة. والثاني: الدعاء. وفي قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ قولان: أحدهما: مُفَرِّدِينَ له العبادة. والثاني: موحدّين غير مشركين. وفي قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: كما بدأكم سعداء وأشقياء، كذلك تبعثون، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والقرظي، والسدي، ومقاتل، والفراء. والثاني: كما خلقتكم بقدرته، كذلك يعيدكم، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وابن زيد، والزجاج، وقال: هذا الكلام متصل بقوله: ﴿فِيهَا حَيَوَانٌ فِيهَا تَمُوتُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]. والثالث: كما بدأكم لا تملكون شيئاً، كذلك تعودون، ذكره الماوردي.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُم أَخَذُوا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ قال الفراء: نصب الفريق بـ «تعودون». وقال ابن الأنباري: نصب «فريقاً» و «فريقاً» على الحال من الضمير الذي في «تعودون»، يريد: تعودون كما ابتدأ خلقكم مختلفين، بعضهم سعداء، وبعضكم أشقياء.

قوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: بالكلمة القديمة، والإرادة السابقة.

﴿يَنْبَغِي مَادَمَ عُدُوا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَنْبَغِي مَادَمَ عُدُوا زَيْنَتَكُمْ﴾ سبب نزولها: أن ناساً من الأعراب كانوا يطوفون بالبيت عراءً، الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تعلق على فرجها سيوراً، وتقول:

الْيَوْمَ يَنْبُدُو بَغَضُهُ أَوْ كُؤُهُ وَمَا بَدَا مِنُّهُ فَلَا أُجِلُّهُ

فنزلت هذه الآية^(١) قاله ابن عباس. وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: كانوا إذا حجوا، فأفاضوا من منى، لا يصلح لأحد منهم في دينه الذي اشترعوا أن يطوف في ثوبيه، فيلبقهما حتى يقضي طوافه، فنزلت هذه الآية. وقال الزهري: كانت العرب تطوف بالبيت عراءً، إلا الحمس، قریش وأحلافها، فمن جاء من غيرهم، وضع ثيابه وطاف في ثوبي أحمس، فإن لم يجد من يُعيره من الحمس، ألقى ثيابه وطاف عرياناً، فإن طاف في ثياب نفسه، جعلها حراماً عليه إذا قضى الطواف، فلذلك جاءت هذه الآية. وفي هذه الزينة قولان: أحدهما: أنها الثياب. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ورد في ستر العورة في الطواف، قاله ابن عباس، والحسن في جماعة. والثاني: أنه ورد في ستر العورة في الصلاة، قاله مجاهد، والزجاج. والثالث: أنه ورد في التزين بأجمل الثياب في الجمع والأعياد، ذكره الماوردي. والثاني: أن المراد بالزينة: المشط، قاله أبو رزين.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ قال ابن السائب: كان أهل الجاهلية لا يأكلون في أيام حجهم دسماً، ولا ينالون من الطعام إلا قوتاً، تعظيماً لحجهم، فنزل قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾. وفي قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أربعة أقوال: أحدها: لا تسرفوا بتحريم ما أحل لكم، قاله ابن عباس. والثاني: لا تأكلوا حراماً، فذلك الإسراف، قاله ابن زيد. والثالث: لا تشركوا، فمعنى الإسراف هاهنا: الإشراك، قاله مقاتل. والرابع: لا تأكلوا من الحلال فوق الحاجة، قاله الزجاج. ونقل أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، فقال علي: قد جمع الله تعالى الطب في نصف آية من كتابنا. قال: ما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. قال النصراني: ولا يؤثر عن نبيكم شيء من الطب، فقال: قد جمع رسولنا علم الطب في ألفاظ يسيرة. قال: وما هي؟ قال: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وعودوا كل بدن ما اعتاد»^(٢). فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً. قال المصنف: هكذا نقلت هذه الحكاية، إلا أن هذا الحديث المذكور فيها عن النبي ﷺ لا يثبت. وقد جاءت عنه في الطب أحاديث قد ذكرتها في كتاب «لقط المنافع في الطب».

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلذَّيْنِ عَامَّةٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُبَيِّنُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المشركين عيروا المسلمين، إذ

(١) مسلم في «صحيحه» ٢٢٢٠/٤ من طريق غندر عن شعبة، و«الطبري» ٣٩٠/١٢. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٣١٩/٢ - ٣٢٠ من طريق أبي داود الطيالسي عن شعبة، ولكن قال: نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾. ثم قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» وقال: لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، أو غيره. نعم عند ابن أبي الدنيا في الصمت من جهة وهب بن منبه قال: أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية، وأجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت. وللخلال من حديث عائشة: «الأم دواء، والمعدة داء، وعودوا بدنأ ما اعتاد». وأورد الغزالي في «الإحياء» من المرفوع: «البطنة أصل للداء، والحمية أصل للدواء، وعودوا كل بدن بما اعتاد». وقال مخرجها: «لم أجد له أصلاً».

لبسوا الثياب في الطواف، وأكلوا الطيبات، فنزلت، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم كانوا يُحرمون أشياء أحلها الله، من الزروع وغيرها، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: نزلت في طوافهم بالبيت عراً، قاله طاووس، وعطاء. وفي زينة الله قولان: أحدهما: أنها ستر العورة؛ فالمعنى: من حرم أن تلبسوا في طوافكم ما يستركم؟. والثاني: أنها زينة اللباس. وفي الطيبات قولان: أحدهما: أنها الحلال. والثاني: المستلذ. ثم في ما عني بها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الجواهر، والسوائل، والوصائل، والحوامي التي حرّمها، قاله ابن عباس، وقتادة. والثاني: أنه السُنن، والألبان، واللحم، وكانوا حرّموه في الإحرام، قاله ابن زيد. والثالث: الحرث، والأنعام، والألبان، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً﴾ قال ابن الأنباري: «خالصة» نصب على الحال من لام مضمرة، تقديرها: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة، وهي لهم في الآخرة خالصة، فحذفت اللام لوضوح معناها، كما تحذف العرب أشياء لا يُلِيس سقوطها. قال الشاعر:

تَقُولُ ابْنَتِي لَمَّا رَأَتْ نِيَّ شَاحِبًا كَأَنَّكَ يَخْمِنُكَ الطَّعَامَ طَبِيبُ
تَسَابِعُ أَحْدَاثٍ تَخْرُتْنَ إِخْوَتِي فَشَيْبَنَ رَأْسِي، وَالْحُطُوبُ تُشِينُ

أراد: فقلت لها: الذي أكسبني ما ترين، تتابع أحداثك، فحذف لانكشاف المعنى. قال المفسرون: إن المشركين شاركوا المؤمنين في الطيبات، فأكلوا ولبسوا ونكحوا، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للمؤمنين، وليس للمشركين فيها شيء. وقيل: خالصة لهم من ضرر أو إثم. وقرأ نافع: «خالصة» بالرفع. قال الزجاج: ورفعهما على أنه خبر بعد خبر، كما تقول: زيد عاقل لبيب: والمعنى: قل هي ثابتة للذين آمنوا في الدنيا، خالصة يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَيَّاتِ﴾ أي: هكذا نبيناها.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِقِيَرِ الْحَقِّ وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ قرأ حمزة: ﴿رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ بإسكان الياء. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أن المراد بها الزنا، ما ظهر منه: علانيته، وما بطن: سره، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير. والثاني: أن ما ظهر: نكاح الأمهات، وما بطن: الزنا، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال علي بن الحسين. والثالث: أن ما ظهر: نكاح الأبناء نساء الآباء، والجمع بين الأختين، وأن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها، وما بطن: الزنا، روي عن ابن عباس أيضاً. والرابع: أن ما ظهر: الزنا، وما بطن: العزل، قاله شريح. والخامس: أن ما ظهر: طواف الجاهلية عراً، وما بطن: الزنا، قاله مجاهد. والسادس: أنه عام في جميع المعاصي. ثم في «ما ظهر منها وما بطن» قولان: أحدهما: أن الظاهر: الغلانية، والباطن: السر، قاله أبو سليمان الدمشقي. والثاني: أن ما ظهر: أفعال الجوارح، والباطن: اعتقاد القلوب، قاله الماوردي. وفي الإثم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الذنب الذي لا يوجب الحد، قاله ابن عباس، والضحاك، والفراء. والثاني: المعاصي كلها، قاله مجاهد. والثالث: أنه الخمر، قاله الحسن، وعطاء. قال ابن الأنباري: أنشدنا رجل في مجلس ثعلب بحضرته، وزعم أن أبا عبيدة أنشده:

تَشْرَبُ الْإِثْمَ بِالصُّوَاعِ جِهَارًا وَتَرَى الْمُشْكَ بَيْنَنَا مُسْتَعَارًا^(١)

فقال أبو العباس: لا أعرفه، ولا أعرف الإثم: الخمر، في كلام العرب. وأنشدنا رجل آخر:

سَرِنْتُ الْإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذَلِكَ الْإِثْمُ تَذَهَبُ بِالْعُقُولِ

قال أبو بكر: وما هذا البيت معروفاً أيضاً في شعر من يحتج بشعره، وما رأيت أحداً من أصحاب الغريب أدخل

(١) البيت غير منسوب في «اللسان»: أنم، و«التاج»: متك. و«المك»: الأراج.

الإثم في أسماء الخمر، ولا سمّتها العرب بذلك في جاهلية ولا إسلام. فإن قيل: إن الخمر تدخل تحت الإثم، فصواب، لا لأنه اسم لها. فإن قيل: كيف فصل الإثم عن الفواحش، وفي كل الفواحش إثم؟ فالجواب: أن كل فاحشة إثم، وليس كل إثم فاحشة، فكان الإثم كل فعل مذموم؛ والفاحشة: العظيمة. فأما البغي، فقال الفراء: هو الاستطالة على الناس.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَشْرَبُوا﴾ قال الزجاج: موضع «أن» نصب؛ فالمعنى: حرّم الفواحش، وحرّم الشرك. والسلطان: الحجة.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عام في تحريم القول في الدين من غير يقين.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ سبب نزولها: أنهم سألوا النبي ﷺ العذاب، فأنزلت، قاله مقاتل. وفي الأجل قولان: أحدهما: أنه أجل العذاب. والثاني: أجل الحياة. قال الزجاج: الأجل: الوقت المؤقت. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً﴾ المعنى: ولا أقل من ساعة. وإنما ذكر الساعة، لأنها أقل أسماء الأوقات.

﴿يَبْقَىٰ آدَمَ إِذَا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِّنكُمْ يَفْسُقُونَ عِزِّيَ فَإِنِّي فَأَسْلَحُ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَتَأَلَّمُ عَذَابَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ وَإِن جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتُوبُونَ قَالُوا إِنَّا مَكَرَهُنَّ آيَاتِنَا فَتَوَلَّوْنَا وَمَا كُنَّا بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣٩﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَتَأَلَّمُ عَذَابَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ وَإِن جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتُوبُونَ قَالُوا إِنَّا مَكَرَهُنَّ آيَاتِنَا فَتَوَلَّوْنَا وَمَا كُنَّا بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ آدَمَ إِذَا يَأْتِيكُمْ رَسُولٌ مِّنكُمْ﴾ قال الزجاج: أضمر: «فأطيعوهم». وقد سبق معنى «إما» في سورة [البقرة: ٢٣٨]؛ والباقي ظاهر إلى قوله: ﴿يَتَأَلَّمُ عَذَابَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ففي معناه سبعة أقوال: أحدها: ما قدر لهم من خير وشر، رواه مجاهد عن ابن عباس. والثاني: نصيبهم من الأعمال، فيجزون عليها، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: ما كتبت عليهم من الضلالة والهدى، قاله الحسن. وقال مجاهد، وابن جبير: من السعادة والشقاوة. والرابع: ما كتب لهم من الأرزاق والأعمار والأعمال، قاله الربيع، والقرظي، وابن زيد. والخامس: ما كتب لهم من العذاب، قاله عكرمة، وأبو صالح، والسدي. والسادس: ما أخبر الله تعالى في الكتب كلها: أنه من افتري على الله كذباً، أسود وجهه، قاله مقاتل. والسابع: ما أخبر في الكتاب من جزائهم، نحو قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَلْقَىٰ﴾ ﴿١٤١﴾ [البقرة: ٢٤]، قاله الزجاج. فإذا في الكتاب خمسة أقوال: أحدها: أنه اللوح المحفوظ. والثاني: كتبت الله كلها. والثالث: القرآن. والرابع: كتاب أعمالهم. والخامس: القضاء.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أعوان ملك الموت، قاله النخعي. والثاني: ملك الموت وحده، قاله مقاتل. والثالث: ملائكة العذاب يوم القيامة. وفي قوله: «يتوفونهم» ثلاثة أقوال: أحدها: يتوفونهم بالموت، قاله الأكثرون. والثاني: يتوفونهم بالحشر إلى النار يوم القيامة، قاله الحسن. والثالث: يتوفونهم عذاباً، كما تقول: قتل فلاناً بالعذاب، وإن لم يمت، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِن مَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون ﴿بِذُنِّ اللَّهِ﴾، وهذا سؤال تبكييت وتقريع. قال مقاتل: المعنى: فليمتعوك من النار. قال الزجاج: ومعنى ﴿صَلُّوا عَلَيَّ﴾: بطلوا وذهبوا، فيعرفون عند موتهم أنهم كانوا كافرين. وقال غيره: ذلك الاعتراف يكون يوم القيامة.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ لَهَا أُخْتُهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَسَكُمُ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجُونَنَا لِرَأْسِكُمْ فَجَاءَتْكُمْ هَبْطًا وَنَسُوا خَلْفَهُمْ لَقِيَهُمُ الْعَذَابُ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ إن الله تعالى يقول لهم ذلك بواسطة الملائكة، لأن الله تعالى لا يكلم الكفار يوم القيامة. قال ابن تقيية: و«في» بمعنى: «مع». وفي قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قولان: أحدهما: مضت إلى العذاب. والثاني: مضت في الزمان، يعني كفار الأمم الماضية.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ أَهْلٌ مِّمَّةً لَمَنَّتْ أَخْبَتًا﴾ وهذه أخوة الدين والملة، لا أخوة النسب. قال ابن عباس: يلعون من كان قبلهم. قال مقاتل: كلما دخل أهل ملة، لنوا أهل ملتهم، فيلعن اليهود اليهود، والنصارى النصارى، والمشركون المشركين، والأتباع القادة، ويقولون: أنتم ألقىتمونا هذا الملقى حين أطعناكم. وقال الزجاج: إنما تلاعنوا، لأن بعضهم ضل باتباع بعض.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكَوَا﴾ قال ابن قتيبة: أي: تداركوا، فأدغمت التاء في الدال، وأدخلت الألف ليسلم السكون لما بعدها، يريد: تابعوا فيها واجتمعوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَخْرَجْتُهُنَّ لِأَوْلِيَهُنَّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: آخر أمّة لأول أمّة، قاله ابن عباس. والثاني: آخر أهل الزمان لأوليهم الذين شرعوا له ذلك الدين، قاله السدي. والثالث: آخرهم دخولا إلى النار، وهم الأتباع، لأولهم دخولا. وهم القادة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿هَتَّاءُ أَصْلُونَا﴾ قال ابن عباس: شرعوا لنا أن نتخذ من دونك إلهاً.
قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْهُمْ عَذَابًا مُّضَاعَافًا﴾ قال الزجاج: أي: عذاباً مضاعفاً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أي: عذاب مضاعف ولكن لا تعلمون. قرأ أبو بكر، والمفضل عن عاصم: «يعلمون»، بالياء. قال الزجاج: والمعنى: لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر. وقرأ الباقون: «تعلمون» بالتاء، وفيها وجهان ذكرهما الزجاج: أحدهما: لا تعلمون أيها المخاطبون ما لكل فريق من العذاب. والثاني: لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ذلك. وقيل: إنما طلب الأتباع مضاعفة عذاب القادة، ليكون أحد العذابين على الكفر، والثاني على إغرائهم به، فأجيبوا ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أي: كما كان للقادة ذلك، فلهم عذاب بالكفر، وعذاب بالاتباع. قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَيْنًا مِّنْ فَضْلٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: في الكفر، نحن وأنتم فيه سواء، قاله ابن عباس. والثاني: في تخفيف العذاب، قاله مجاهد.

﴿وَقَالَتْ أَوْلِيَهُنَّ لِأَخْرَجْتُهُنَّ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَيْنًا مِّنْ فَضْلٍ فَذَرُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال مقاتل: من الشرك والتكذيب.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَتَّبِعْ لِمَنْ أُوتِيَ السَّمَاءَ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ

نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحججنا وأعلامنا التي تدل على توحيد الله ونبوة الأنبياء، وتكبروا عن الإيمان بها ﴿لَا تَتَّبِعْ لِمَنْ أُوتِيَ السَّمَاءَ﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: «تَفْتَحُ»؛ بالتاء، وشددوا التاء الثانية. وقرأ أبو عمرو: «لَا تَفْتَحُ» بالتاء خفيفة، ساكنة الفاء. وقرأ حمزة، والكسائي: «لَا يَفْتَحُ» بالياء مضمومة خفيفة. وقرأ اليزيدي عن اختياره: «لَا تَفْتَحُ» بياء مفتوحة ﴿أُوتِيَ السَّمَاءَ﴾ بنصب الباء، فكأنه أشار إلى أفعالهم. وقرأ الحسن: بياء مفتوحة، مع نصب الأبواب، كأنه يشير إلى الله ﷻ. وفي معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك عن ابن عباس، وهو قول أبي موسى الأشعري، والسدي في آخرين، والأحاديث تشهد به^(١). والثاني: لا تفتح لأعمالهم، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم، رواه عطاء عن ابن عباس. والرابع: لا تفتح لأرواحهم ولا لأعمالهم، قاله ابن جريج، ومقاتل. وفي السماء قولان: أحدهما: أنها السماء المعروفة، وهو المشهور. والثاني: أن المعنى: لا تفتح لهم أبواب الجنة ولا يدخلونها، لأن الجنة في السماء، ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ الجملة: هو الحيوان المعروف. فإن قال قائل: كيف خص الجملة من دون سائر الدواب، وفيها ما هو أعظم منه؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن ضرب المثل بالجملة يحصل المقصود؛

(١) انظر مستند أحمد ٤/٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٦، وتفسير الطبري ١٢/٤٢٤، وابن كثير ٢/٢١٣.

والمقصود أنهم لا يدخلون الجنة، كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة، ولو ذكر أكبر منه أو أصغر منه، جاز، والناس يقولون: فلان لا يساوي درهماً، وهذا لا يعني عنك قليلاً، وإن كنا نجد أقل من الدرهم والفيل. والثاني: أن الجمل أكبر شأنًا عند العرب من سائر الدواب، فإنهم يقدمونه في القوة على غيره، لأنه يوقر بحمله فينهض به دون غيره من الدواب، ولهذا عجبهم من خلق الإبل، فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، فآثر الله ذكره على غيره لهذا المعنى. ذكر الجوابين ابن الأنباري. قال: وقد روى شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه قرأ: «حتى يلج الجملُ» بضم الجيم وتشديد الميم، وقال: هو القلس^(١) الغليظ. قال المصنف: وهي قراءة أبي رزين، ومجاهد، وابن محيصن، وأبي مجلز، وابن يعمر، وأبان عن عاصم. قال: وروى مجاهد عن ابن عباس: «حتى يلج الجملُ» بضم الجيم وفتح الميم وتخفيفها. قلت: وهي قراءة قتادة، وقد رويت عن سعيد بن جبير، وأنه قرأ: «حتى يلج الجملُ» بضم الجيم وتسكين الميم. قلت: وهي قراءة عكرمة. قال ابن الأنباري: فالجمل يحتمل أمرين: يجوز أن يكون بمعنى الجمل، ويجوز أن يكون بمعنى جملة من الجمال، قيل في جمعها: جملٌ، كما يقال: حُجرة، وحُجر، وظلمة، وظلم. وكذلك من قرأ: «الجملُ» يسوغ له أن يقول: الجملُ، بمعنى الجمل، وأن يقول: الجمل، جمع جُملة، مثل بُسرة، وبُسُر. وأصحاب هذه القراءات يقولون: الحبل والحبال، أشبه بالإبرة والخيوط من الجمال. وروى عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه قرأ: «الجملُ» بضم الجيم والميم، وبالتخفيف، وهي قراءة الضحك، والجحدري. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «الجملُ» بفتح الجيم، ويسكون الميم خفيفة.

قوله تعالى: ﴿فِي سَرَ لَيْلِيَّاتٍ﴾ السَّم فِي اللَّغَةِ: الثَّقْب. وفيها ثلاث لغات: فتح السين، وبها قرأ الأكثرون، وضمها، وبه قرأ ابن مسعود، وأبو رزين، وقتادة، وابن محيصن، وطلحة بن مصرف، وكسرها، وبه قرأ أبو عمران الجوني، وأبو نهيك، والأصمعي عن نافع. قال ابن القاسم: والخياط: المَخِيطُ، بمنزلة اللحاف والملحف، والقرام والمقرم. وقد قرأ ابن مسعود، وأبو رزين، وأبو مجلز: «في سم المَخِيطِ». وقال الزجاج: الخياط: الإبرة، وسَمُّها: ثَقْبها. والمعنى: أنهم لا يدخلون الجنة أبداً. قال ابن قتيبة: هذا كما يقال: لا يكون ذلك حتى يشيب الغراب، ويبيض القار.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك نجزي الكافرين أنهم لا يدخلون الجنة.

﴿لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وَالذِّكْرُ ءَامَتْوَا وَكَسَلُوا الْفَالِحِيَّةَ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ المهاد: الفراش. وفي المراد بالغواشي ثلاثة أقوال: أحدها: اللحف، قاله ابن عباس، والقرظي، وابن زيد. والثاني: ما يشاهم من فوقهم من اللحاف، قاله عكرمة. والثالث: غاشية فوق غاشية من النار، قاله الزجاج. قال ابن عباس: والظالمون هاهنا: الكافرون.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ مِنْ غَيْرِهِمْ أَفَئِنَّهُمْ أَعْتَدُوا لِقَائِ اللَّهِ الَّذِي هَدَيْنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَوَدُّوا أَنْ يَلِكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ يُسْتَمَوْهَا بِمَا كُنْتُمْ تَمَلُونَ﴾ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ فيمن عني بهذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أهل بدر. روى الحسن عن علي عليه السلام أنه قال: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾. وروى عمرو بن الشريد عن علي أنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا، وعثمان، وطلحة، والزبير، من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾. والثاني: أنهم أهل الأحقاد من أهل الجاهلية حين أسلموا. روى كثير النواء عن أبي جعفر قال: نزلت هذه الآية في علي، وأبي بكر، وعمر. قلت لأبي جعفر: فأي غل هو؟ قال: غل الجاهلية، كان بين بني هاشم وبني تيم وبني عدي في الجاهلية شيء، فلما أسلم هؤلاء، تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل علي يسخن يده ويكمد بها خاصرة

(١) القلس، بفتح القاف ويسكون اللام: حبل غليظ من حبال السفن.

أبي بكر، فنزلت هذه الآية. والثالث: أنهم عشرة من الصحابة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، قاله أبو صالح. والرابع: أنها في صفة أهل الجنة إذا دخلوها. روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيَجْسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا هَلَبُوا وَنَقَوْا، أُنذِرَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ. فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»^(١). وقال ابن عباس: أول ما يدخل أهل الجنة الجنة، تعرض لهم عينان، فيشربون من إحدى العينين، فيذهب الله ما في قلوبهم من غلٍّ وغيره مما كان في الدنيا، ثم يدخلون إلى العين الأخرى، فيغتسلون منها، فتشرق ألوانهم، وتصفو وجوههم، وتجري عليهم نضرة التعميم. فأما النزح، فهو قلع الشيء من مكانه. والغل: الحقد الكامن في الصدر. وقال ابن قتيبة: الغل: الحسد والعداوة.

قوله تعالى: ﴿الْمَحْدَى إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ قال الزجاج: معناه: هدانا لما صيرنا إلى هذا. قال ابن عباس: يعنون ما وصلوا إليه من رضوان الله وكرامته. وروى عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه قال: تستقبلهم الولدان كأنهم لؤلؤ منثور، فيطوفون بهم كطافتهم بالحميم جاء من الغيبة، ويبشرونهم بما أعد الله لهم، ويذهبون إلى أزواجهم فيبشرونهم، فيستخفون الفرح، فيقمن على أشكف الباب، فيقلن: أنت رأيت، أنت رأيت؟ قال: فيجيء إلى منزله فينظر في أساسه، فإذا صخر من لؤلؤ، ثم يرفع بصره، فلولا أن الله ذلله لذهب بصره، ثم ينظر أسفل من ذلك، فإذا هو بالشجر الموضونة، والفرش المرفوعة، والزرايب المبوثة، فعند ذلك قالوا: ﴿الْمَحْدَى إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ كلهم قرأ «وما كنا» بإثبات الواو، غير ابن عامر، فإنه قرأ «ما كنا لنهتدي» بغير واو، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام. قال أبو علي: وجه الاستغناء عن الواو، أن القصة ملتبسة بما قبلها، فأغنى التباسها به عن حرف العطف، ومثله ﴿رَأَيْمُهُمْ كَلِبَتهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِالنَّبِيِّ﴾ هذا قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عياناً. ﴿وَوَدِدُوا أَنْ يُكَلِّمَهُمُ الْكَلْبَةَ﴾ قال الزجاج: إنما قال «تلكم» لأنهم وعدوا بها في الدنيا، فكانه قيل لهم: هذه تلكم التي وعدتم بها. وجائز أن يكون هذا قيل لهم حين عاينوها قبل دخولهم إليها. قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر «أورثتموها» غير مدغمة. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي «أورثتموها» مدغمة، وكذلك قرؤوا في [الزخرف: ٧٢]. قال أبو علي: من ترك الإدغام، فلتباين مخرج الحرفين، ومن أدغم، فلأن التاء والتاء مهموستان متقاربتان. وفي معنى «أورثتموها» أربعة أقوال: أحدها: ما روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة»^(٢)، فذلك قوله: ﴿أورثتموها بما كُتِبَتْ تَمْلِكُونَ﴾. وقال بعضهم: لما سُمي الكفار أمواتاً بقوله: ﴿أَمَاتُوا عِدًّا أَيْسَاءًا﴾ [النحل: ٢١]. وسمى المؤمنين أحياء بقوله: «لتنذر من كان حياً»^(٣) [يس: ٧٠] أورث الأحياء الموتى. والثاني: أنهم أورثوها عن الأعمال، لأنها جعلت جزاء لأعمالهم، وثواباً عليها، إذ هي عواقبها، حكاه أبو سليمان الدمشقي. والثالث: أن دخول الجنة برحمة الله، واقتسام

(١) «البخاري» ٧٠/٥، و ٣٤٦/١١ [شرح الفتح]، و«الطبري» ٣٨/١٤، قال الحافظ ٣٤٦/١١: قوله: «والذي نفس محمد بيده» هذا ظاهره أنه مرفوع كله، وكذا في سائر الروايات، [إلا في رواية عفان عند الطبري] قال: فإنه جعل هذا من كلام قتادة، فقال بعد قوله: «ففي دخول الجنة» قال: وقال قتادة: «والذي نفسي بيده لأحدهم أهدي... الخ. وفي رواية شعيب بن إسحاق بعد قوله: «ففي دخول الجنة» قال: فوالذي نفسي بيده... الخ. فأبهم القائل، فعلى رواية عفان يكون هو قتادة، وعلى رواية غيره يكون هو النبي ﷺ، وزاد محمد بن المنهال عند الإسماعيلي: قال قتادة: كان يقال: ما يشبه بهم إلا أهل الجنة إذا انصرفوا من جمعهم، وهكذا عند عبد الوهاب وروح. وفي رواية بشر بن خالد وعفان جيمعاً عند الطبري قال: وقال بعضهم... فذكروه، وكذا في رواية شعيب بن إسحاق، ويونس بن محمد، والقائل: وقال بعضهم: هو قتادة، ولم أقف على تسمية القائل.

(٢) «الطبري» ٦/١٨ من رواية الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ؓ مرفوعاً بلفظ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان، منزل في الجنة، ومنزل في النار، وإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾. وكذلك أورده ابن كثير ٣/٢٣٩ من رواية ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً. ورواه أحمد في «المستند» بنحوه، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/٣٩٩ وذكر رواية أخرى له، ثم قال: رواه أحمد ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح.

(٣) كذا الأصل «لتنذر» بالتاء، وهي قراءة نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب، وأما قراءة حفص، فبالياء «لتنذر».

الدرجات بالأعمال. فلما كان يفَسِّرُ نيلها لا عن عوض، سميت ميراثاً. والميراث: ما أخذته عن غير عوض. والرابع: أن معنى الميراث هاهنا: أن أمرهم يؤول إليها كما يؤول الميراث إلى الوارث.

﴿وَأَذَىٰ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ **﴿١٤﴾** **﴿١٥﴾** **﴿١٦﴾** **﴿١٧﴾** **﴿١٨﴾** **﴿١٩﴾** **﴿٢٠﴾** **﴿٢١﴾** **﴿٢٢﴾** **﴿٢٣﴾** **﴿٢٤﴾** **﴿٢٥﴾** **﴿٢٦﴾** **﴿٢٧﴾** **﴿٢٨﴾** **﴿٢٩﴾** **﴿٣٠﴾** **﴿٣١﴾** **﴿٣٢﴾** **﴿٣٣﴾** **﴿٣٤﴾** **﴿٣٥﴾** **﴿٣٦﴾** **﴿٣٧﴾** **﴿٣٨﴾** **﴿٣٩﴾** **﴿٤٠﴾** **﴿٤١﴾** **﴿٤٢﴾** **﴿٤٣﴾** **﴿٤٤﴾** **﴿٤٥﴾** **﴿٤٦﴾** **﴿٤٧﴾** **﴿٤٨﴾** **﴿٤٩﴾** **﴿٥٠﴾** **﴿٥١﴾** **﴿٥٢﴾** **﴿٥٣﴾** **﴿٥٤﴾** **﴿٥٥﴾** **﴿٥٦﴾** **﴿٥٧﴾** **﴿٥٨﴾** **﴿٥٩﴾** **﴿٦٠﴾** **﴿٦١﴾** **﴿٦٢﴾** **﴿٦٣﴾** **﴿٦٤﴾** **﴿٦٥﴾** **﴿٦٦﴾** **﴿٦٧﴾** **﴿٦٨﴾** **﴿٦٩﴾** **﴿٧٠﴾** **﴿٧١﴾** **﴿٧٢﴾** **﴿٧٣﴾** **﴿٧٤﴾** **﴿٧٥﴾** **﴿٧٦﴾** **﴿٧٧﴾** **﴿٧٨﴾** **﴿٧٩﴾** **﴿٨٠﴾** **﴿٨١﴾** **﴿٨٢﴾** **﴿٨٣﴾** **﴿٨٤﴾** **﴿٨٥﴾** **﴿٨٦﴾** **﴿٨٧﴾** **﴿٨٨﴾** **﴿٨٩﴾** **﴿٩٠﴾** **﴿٩١﴾** **﴿٩٢﴾** **﴿٩٣﴾** **﴿٩٤﴾** **﴿٩٥﴾** **﴿٩٦﴾** **﴿٩٧﴾** **﴿٩٨﴾** **﴿٩٩﴾** **﴿١٠٠﴾**

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ أي: من العذاب؟ وهذا سؤال تقرير وتعبير. ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾. قرأ الجمهور بفتح العين في سائر القرآن، وكان الكسائي يكسرها. قال الأخفش: هما لعتان.

قوله تعالى: ﴿فَأَذَىٰ مَوْذُونٌ بِبَنِيهِمْ﴾ أي: نادى مناد: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير في رواية قتيل ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ خفيفة النون ساكنة. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿أَنْ﴾ بالتشديد، «لعنة الله» بالنصب. قال الأخفش: و «أَنْ» في قوله: ﴿أَنْ يَلْعَنُكَ الْجَنَّةُ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠]، و: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا﴾، هي «أَنْ» الثقيلة خفت. قال الشاعر:

فِي فِثْيَةِ كَسْبِوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا
أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَخْفَى وَيَنْتَعِلُ^(١)
وَأَشْدُ أَيْضًا:

أَكْثِيرُهُ وَأَعْلَمُ أَنْ كِلَانَا
عَلَىٰ مَا سَاءَ صَاحِبِهِ حَرِيصُ^(٢)
ومعناه: أنه كلانا؛ وتكون «أَنْ قَدْ وَجَدْنَا» في معنى: أي. قال ابن عباس: والظالمون هاهنا: الكافرون.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ سَبِيلَ اللَّهِ﴾ أي: أذن المؤذن أن لعنة الله على الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله، وهو الإسلام. ﴿وَيَتَّبِعُوا عِيسَى﴾ مفسر في [آل عمران: ٤٩]. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: وهم بكون الآخرة كافرون.

﴿وَيَتَّبِعُنَّ عِيسَى﴾ مفسر في [آل عمران: ٤٩]. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: وهم بكون الآخرة كافرون. ﴿وَيَتَّبِعُنَّ عِيسَى﴾ أي: أي بين الجنة والنار حاجز، وهو السور الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لِمَنْ أَبَى﴾ [الحديد: ١٣]، فسمي هذا السور بالأعراف لارتفاعه. قال ابن عباس: الأعراف: هو السور الذي بين الجنة والنار، له عرف كعرف الديك. وقال أبو هريرة: الأعراف: جبال بين الجنة والنار، فهم على أعرافها، يعني: على ذراها، خلقتها كخلقة عرف الديك. قال اللغويون: الأعراف عند العرب: كل ما ارتفع من الأرض وعلا؛ يقال لكل عالٍ: عُرف، وجمعه: أعراف. قال الشاعر:

كُلُّ كِنَازٍ لِحِمِّهِ نِيَافٍ
كَالْعَلَمِ الْمُوفِيِّ عَلَى الْأَعْرَافِ^(٣)
وقال الآخر:

وَرُبُّنْتَ بِنَاءِ آبَاءِ كِرَامٍ
عَلَوْا بِالْمَجْدِ أَعْرَافِ الْبِنَاءِ

وفي «أصحاب الأعراف» قولان: أحدهما: أنهم من بني آدم، قاله الجمهور. وزعم مقاتل أنهم من أمة محمد ﷺ خاصة. وفي أعمالهم تسعة أقوال: أحدها: أنهم قوم قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمتهم من دخول الجنة معصية آبائهم، ومنعهم من دخول النار قتلهم في سبيل الله، وهذا مروى عن النبي ﷺ^(٤). والثاني: أنهم قوم تساوت حسناتهم

(١) قاله الأعمش، وهو في «ديوانه» ٥٩، وسيبويه ٢٨٢/١، ٤٤٠، ٤٤٠، ٤٨٠، ١٢٣/٢، و«الطبري» ٤٤٤/١٢، و«أمالى الشجري» ٢/٢، و«الإيضاح» ٨٩، و«الخرائج» ٥٤٧/٣ - ٣٥٦/٤. وهذا البيت أشده هكذا سيبويه، وتبعه النحاة، وهو ملفق من بيتين، يقول الأعمش في قصيدته:

إِذَا تَسَرَّعْنَا حَقْنَاءَ لَا فِيمَا لَنَا
أَنْ لَيْسَ يَنْفَعُ عَنِّي فِي الْحَيْلَةِ الْجَيْلُ

(٢) البيت غير منسوب في «سيبويه» ٤٤٠/١، و«الإيضاح» لابن الأنباري: ٨٩، ١٨٣، و«أمالى ابن الشجري» ١٨٨/١. وقوله: أكاشره: أضاحكه.

(٣) البيت غير منسوب في «معجاز القرآن» ٢١٥/١، و«الطبري» ٤٥٠/١٢، و«غريب القرآن» ١٦٨، و«اللسان»: نوف. والكناز: المجتمع اللحم القوية، والنياف: الطويل، والعلم: الجبل.

(٤) «الطبري» ٥٥٨/١٢، وفيه أبو معشر نجح بن عبد الرحمن السندي المدني وهو ضعيف، وأورده ابن كثير في «التفسير» ٢/٢١٦ عن سعيد بن منصور، ثم قال: ورواه ابن مردويه، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طرق عن أبي معشر به.

وسياتهم، فلم تبلغ بهم حسناتهم دخول الجنة، ولا سيئاتهم دخول النار، قاله ابن مسعود، وحذيفة، وابن عباس، وأبو هريرة، والشعبي، وقناة. والثالث: أنهم أولاد الزنا، رواه صالح مولى التوأمة عن ابن عباس. والرابع: أنهم قوم صالحون فقهاء علماء، قاله الحسن، ومجاهد؛ فعلى هذا يكون لبثهم على الأعراف على سبيل التزهة. والخامس: أنهم قوم رضي عنهم آباؤهم دون أمهاتهم، أو أمهاتهم دون آبائهم، رواه عبد الوهاب بن مجاهد عن إبراهيم. والسادس: أنهم الذين ماتوا في الفترة ولم يبدلوا دينهم، قاله عبد العزيز بن يحيى. والسابع: أنهم أنبياء، حكاه ابن الأنباري. والثامن: أنهم أولاد المشركين، ذكره المنجوفي في تفسيره. والتاسع: أنهم قوم عملوا لله، لكنهم رأوا في عملهم، ذكره بعض العلماء. والقول الثاني: أنهم ملائكة، قاله أبو مجلز، واعترض عليه، فقيل: إنهم رجال، فكيف تقول: ملائكة؟ فقال: إنهم ذكور وليسوا بإناث. وقيل: معنى قوله: ﴿وَكَلَّ الْأَعْرَافَ بِحَالٍ﴾ أي: على معرفة أهل الجنة من أهل النار، ذكره الزجاج، وابن الأنباري. وفيه بُعد وخلاف للمفسرين.

قوله تعالى: ﴿يَمْرُؤُنَ كَلَّا يُبَيِّنُكُمْ﴾ أي: يعرف أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار. وسيما أهل الجنة: بياض الوجوه، وسيما أهل النار: سواد الوجوه، وزرقة العيون. والسيما: العلامة. وإنما عرفوا الناس، لأنهم على مكان عال يشرفون فيه على أهل الجنة والنار. ﴿وَرَادَا﴾ يعني: أصحاب الأعراف ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾. وفي قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَئِنُّونَ﴾ قولان: أحدهما: أنه إخبار من الله تعالى لنا أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطعمون في دخولها، قاله الجمهور. والثاني: أنه إخبار من الله تعالى لأهل الأعراف إذا رأوا زمرة يذهب بها إلى الجنة أن هؤلاء لم يدخلوها وهم يطعمون في دخولها، هذا قول السدي.

﴿وَرَادَا صُرِفَتْ أَبْصَرْتُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ أَصْحَابَ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَادَا صُرِفَتْ أَبْصَرْتُمْ﴾ يعني أصحاب الأعراف. والتلقاء: جهة اللقاء، وهي جهة المقابلة. وقال أبو عبيدة: تلقاء أصحاب النار، أي: حيالهم.

﴿وَرَادَا أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ رِيكًا يَمْرُؤُهُمْ يُبَيِّنُكُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَادَا أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ رِيكًا يَمْرُؤُهُمْ يُبَيِّنُكُمْ﴾ روى أبو صالح عن ابن عباس قال: ينادون: يا وليد بن المغيرة، يا أبا جهل بن هشام، يا عاص بن وائل، يا أمية بن خلف، يا أبي بن خلف، يا سائر رؤساء الكفار، ما أغنى عنكم جمعكم في الدنيا المال والولد. ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تتعظمون عن الإيمان.

﴿أَهْتَدُوا الَّذِينَ أَسْسْتُمْ لَا بِتَالِهَمُ اللَّهُ بِحَالِهِمْ إِذْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَهْتَدُوا الَّذِينَ أَسْسْتُمْ لَا بِتَالِهَمُ اللَّهُ بِحَالِهِمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن أهل النار أقسموا أن أهل الأعراف داخلون النار معنا، وأن الله لن يدخلهم الجنة، فيقول الله لأهل النار: ﴿أَهْتَدُوا﴾ يعني أهل الأعراف ﴿الَّذِينَ أَسْسْتُمْ لَا بِتَالِهَمُ اللَّهُ بِحَالِهِمْ﴾ رواه وهب بن منبه عن ابن عباس. قال حذيفة: بينا أصحاب الأعراف هنالك، أطلع عليهم ربهم فقال لهم: «ادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم»^(١). والثاني: أن أهل الأعراف يرون في الجنة الفقراء والمساكين الذين كان الكفار يستهزؤون بهم، كسلمان، وصهيب، وخباب، فينادون الكفار: ﴿أَهْتَدُوا الَّذِينَ أَسْسْتُمْ﴾ وأنتم في الدنيا ﴿لَا بِتَالِهَمُ اللَّهُ بِحَالِهِمْ﴾ قاله ابن السائب. فعلى هذا ينقطع كلام أهل الأعراف عند قوله: ﴿يَحْسَبُونَ﴾، ويكون الباقي من خطاب الله لأهل الجنة. وقد ذكر المفسرون في قوله: ﴿أَهْتَدُوا الْجَنَّةَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن يكون خطاباً من الله لأهل الأعراف، وقد ذكرناه. والثاني: [أن] يكون خطاباً من الله لأهل الجنة. والثالث: أن يكون خطاباً من أهل الأعراف لأهل الجنة، ذكرهما الزجاج. فعلى هذا الوجه الأخير، يكون معنى قول أهل الأعراف لأهل الجنة: ﴿أَهْتَدُوا الْجَنَّةَ﴾: اعلموا إلى القصور المشرفة، وارتفعوا إلى المنازل المنيفة، لأنهم قد رأوهم في الجنة. وروى مجاهد عن عبد الله بن الحارث قال: يؤتى بأصحاب الأعراف إلى نهر يقال له: الحياة، عليه قضبان الذهب مكللة

باللؤلؤ، فيُغمسون فيه، فيخرجون، فتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، ويقال لهم: تمتوا ما شئتم، ولكم سبعون ضعفاً، فهم مساكين أهل الجنة.

﴿وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ يَمْضُوا عَلَيْكَ مِنْ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ قال ابن عباس: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة، طمع أهل النار في الفرج بعد لباس، فقالوا: يا رب، إن لنا قرابات من أهل الجنة، فإذن لنا حتى نراهم ونكلمهم، فنظروا إليهم وإلى ما هم فيه من النعيم فعرفوهم. ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم، قد اسودت وجوههم وصاروا خلقاً آخر، فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم، وأخبروهم بقراباتهم، فينادي الرجل أخاه: يا أخي قد احترقت فأغشني؛ فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. قال السدي: عنى بقوله: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الطعام. قال الزجاج: أعلم الله ﷻ أن ابن آدم غير مستغن عن الطعام والشراب، وإن كان معذباً.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِيَإْتِنًا يَحْتَدِرُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ قال ابن عباس: هم المستهزون. والمعنى: أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم. وقال أبو روق: دينهم: عيدهم. وقال قتادة: ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أي: أكلاً وشرباً. وقال غيره: هو ما زينه الشيطان لهم من تحريم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، والمكأ، والتصدية، ونحو ذلك من خصال الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ﴾ قال الزجاج: أي: نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا. و«ما» نسق على «كما» في موضع جر. والمعنى: وكجحدهم. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون المعنى: فالיום نتركهم في النار على علم منا ترك ناسي غافلي كما استعملوا في الإعراض عن آياتنا وهم ذاكرون ما يستعمله من نسي وعقل.

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّئَلَّا يُؤْمِنُوا ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ﴾ يعني القرآن. ﴿فَصَلْنَاهُ﴾ أي: بيناه بليضح الحق من الباطل. وقيل: فصلناه فصلاً مرة بتعريف الحلال، ومرة بتعريف الحرام، ومرة بالوعد، ومرة بالوعيد، ومرة بحديث الأمم. وفي قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قولان: أحدهما: على علم منا بما فصلناه. والثاني: على علم منا بما يصلحكم مما أنزلناه فيه. وقرأ ابن السميع، وابن محيصن، وعاصم، والجحدري، ومعاذ القاربي: «فصلناه» بضاد معجمة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُئِلُوا مِنْ قِبَلِكُمْ قَدْ جَاءَنَا رَسُولٌ مِمَّنْ يَأْتِي بِآيَاتِنَا مِنْ شُعْمَاءَ فَتَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدِّ فَعَمَلٌ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَيْرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ قال ابن عباس: تصديق ما وعدوا في القرآن. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ وهو يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ سُئِلُوا﴾ أي: تركوه ﴿وَمِنْ قِبَلِكُمْ﴾ في الدنيا: ﴿قَدْ جَاءَنَا رَسُولٌ مِمَّنْ يَأْتِي بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالبعث بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿أَوْ نُرَدِّ﴾ قال الزجاج: المعنى: أو هل نرد. وقوله: ﴿فَعَمَلٌ﴾ منصوب على جواب الفاء للاستفهام. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ أَلْيَلُ النَّهَارِ يَبْلُغُهُ حَيْثُ وَاسَّسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجْرُومَ مُسْعِرًا بِأَمْرِهِ آلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ اختلفوا أي يوم بدأ بالخلق على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوم السبت. روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق الله ﷻ التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر [من] يوم الجمعة [في] آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل»^(١)، وهذا اختيار محمد بن إسحاق. قال

(١) «المسند» ٨٣٢٣، و«مسلم» ٢١٤٩/٤. قال الحافظ ابن كثير في «التفسير» ٦٩١ بعد أن أورده: وهذا الحديث من غرائب «صحيح مسلم»، وقد تكلم =

ابن الأنباري: وهذا إجماع أهل العلم. والثاني: يوم الأحد، قاله عبد الله بن سلام، وكعب، والضحاك، ومجاهد، واختاره ابن جرير الطبري، وبه يقول أهل التوراة. والثالث: يوم الاثنين، قاله ابن إسحاق، وبهذا يقول أهل الإنجيل. ومعنى قوله: ﴿فِي سِتْوَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في مقدار ذلك، لأن اليوم يعرف بطلوع الشمس وغروبها، ولم تكن الشمس حيثئذ. قال ابن عباس: مقدار كل يوم من تلك الأيام ألف سنة، وبه قال كعب، ومجاهد، والضحاك، ولا نعلم خلافاً في ذلك. ولو قال قائل: إنها كأيام الدنيا، كان قوله بعيداً من وجهين: أحدهما: خلاف الآثار. والثاني: أن الذي يتوهمه المتوهم من الإبطاء في ستة آلاف سنة، يتوهمه في ستة أيام عند تصفح قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٢٨]. فإن قيل: فهلاً خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة: أحدها: أنه أراد أن يقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري. والثاني: أن التثبت في تمهيد ما خلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة. والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. والرابع: أنه علم عباده التثبت، فإذا تثبت من لا يزال، كان ذو الزلل أولى بالتثبت. والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يُظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق.

قوله تعالى: ﴿لَهُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال الخليل بن أحمد: العرش: السرير؛ وكل سرير لملك يسمى عرشاً؛ وقلما يُجمع العرش إلا في اضطراب؛ واعلم أن ذكر العرش مشهور عند العرب في الجاهلية والإسلام. قال أمية بن أبي الصلت:

مَجْدُوا اللَّهَ فَهُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلٌ
بِالْبِنَاءِ الْأَعْلَى الَّذِي سَبَقَ النَّا
سَرْجَعًا لَا يَنَالُهُ نَاطِرُ الْعَيْدِ
رَبْنَا فِي السَّمَاءِ أُنْسَى كَبِيرًا
سَ وَسُوَّى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرًا
مِنْ تَرَى دُونَهُ الْمَلَائِكُ صُورًا

وقال كعب: إن السموات في العرش كالثقليل معلق بين السماء والأرض. وروى إسماعيل بن أبي خالد عن سعد الطائي قال: العرش ياقوتة حمراء. وإجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية. وقد شد قوم فقالوا: العرش بمعنى الملك. وهذا عدول عن الحقيقة إلى التجوز، مع مخالفة الأثر؛ ألم يسمعو قوله تعالى: ﴿رُكَّاتٍ عَرِّشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [مرد: ٧] أتراه كان المُلْك على الماء؟ وكيف يكون الملك ياقوتة حمراء؟ وبعضهم يقول: استوى بمعنى استولى؛ ويحتج بقول الشاعر:

حَتَّى اسْتَوَى بِشَرِّ عَلَى الْعِرَاقِ
ويقول الشاعر أيضاً:

هُمَا اسْتَوِيَا بِفَضْلِهِمَا جَمِيعًا
عَلَى عَرْشِ الْمُلُوكِ بَعْدَ زُورٍ

وهذا منكر عند اللغويين. قال ابن الأعرابي: العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى، ومن قال ذلك فقد أعظم. قالوا: وإنما يقال استولى فلان على كذا، إذا كان بعيداً عنه غير متمكن منه، ثم تمكن منه؛ والله ﷻ لم يزل مستولياً على الأشياء؛ والبيتان لا يعرف قائلهما، كذا قال ابن فارس اللغوي. ولو صحا، فلا حجة فيهما لما بيّنا من استيلاء من لم يكن مستولياً. نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة.

قوله تعالى: ﴿يُعْشَى آيِلَ النَّهَارِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «يُعْشَى» ساكنة الغين خفيفة. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «يُعْشَى» مفتوحة الغين مشددة؛ وكذلك قرؤوا في [الرمذ: ٢٣]. قال الزجاج: المعنى: أن الليل يأتي على النهار فيغظيه؛ وإنما لم يقل: ويعشي النهار الليل، لأن في الكلام دليلاً عليه؛ وقد قال في موضع آخر: ﴿يَكُونُ آيِلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارَ عَلَى آيِلٍ﴾ [الزمر: ٢٥]. وقال أبو علي: وإنما لم

= عليه علي بن المديني، والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجملوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحيار، وإنما اشبهه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً، وقد حرر ذلك البيهقي.

يقول: يغشي النهار الليل، لأنه معلوم من فحوى الكلام، كقوله: ﴿سَرِيحٌ يَتَيْكُمُ الْعَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وانتصب الليل والنهار، لأن كل واحد منهما مفعول به. فأما الحثيث، فهو السريع.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ قرأ الأكثرون: بالنصب فيهن، وهو على معنى: خلق السموات والشمس. وقرأ ابن عامر: «والشمس والقمر والنجوم مسخرات» بالرفع فيهن هاهنا وفي [النحل: ١٢]، تابعه حفص في قوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ في [النحل: ١٢] فحسب. والرفع على الاستئناف. والمسخرات: المذلللات لما يراد منه من طلوع وأقول وسير على حسب إرادة المدبر لهن.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ لأنه خلقهم ﴿وَالْأَمْرُ﴾ فله أن يأمر بما يشاء. وقيل: الأمر: القضاء. قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: تفاعل من البركة، رواه الضحاك عن ابن عباس؛ وكذلك قال القتيبي، والزجاج. وقال أبو مالك: افتعل من البركة. وقال الحسن: تجيء البركة من قبلة. وقال الفراء: تبارك: من البركة؛ وهو في العربية كقولك: تقدس ربنا. والثاني: أن تبارك بمعنى تعالى، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وكذلك قال أبو العباس: تبارك: ارتفع؛ والمتبارك: المرتفع. والثالث: أن المعنى: باسمه يُتبرك في كل شيء، قاله ابن الأنباري. والرابع: أن معنى «تبارك» تقدس، أي: تظهر، ذكره ابن الأنباري أيضاً.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ التضرع: التذلل والخضوع. والخفية: خلاف العلانية. قال الحسن: كانوا يجتهدون في الدعاء، ولا تسمع إلا همساً. ومن هذا حديث أبي موسى: «اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً^(١)». وفي الاعتداء المذكور هاهنا قولان: أحدهما: أنه الاعتداء في الدعاء. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن يدعو على المؤمنين بالشر، كالخزي واللعنة، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل. والثاني: أن يسأل ما لا يستحقه من منازل الأنبياء، قاله أبو مجلز. والثالث: أنه الجهر في الدعاء، قاله ابن السائب. والثاني: أنه مجاوزة المأمور به، قاله الزجاج.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: لا تفسدوها بالكفر بعد إصلاحها بالإيمان. والثاني: لا تفسدوها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل. والثالث: لا تفسدوها بالمعصية بعد إصلاحها بالطاعة. والرابع: لا تعصوا، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم بعد أن أصلحها بالمطر والخصب. والخامس: لا تفسدوها بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه. والسادس: لا تفسدوها بتكذيب الرسل بعد إصلاحها بالوحي. وفي قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قولان: أحدهما: خَوْفًا من عقابه، وطمَعًا في ثوابه. والثاني: خَوْفًا من الرد، وطمعاً في الإجابة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال الفراء: رأيت العرب تؤنث القرية في النسب، لا يختلفون في ذلك، فإذا قالوا: دارك منا قريب، أو فلانة منا قريب، من القرب والبعد، ذكروا وأنثوا، وذلك أنهم جعلوا القريب خلفاً من المكان، كقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الْأَطْلُيَاتِ بَعِيدٌ﴾ [هود: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لِمَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ولو أنث ذلك لكان صواباً. قال عروة:

عَشِيَّةٌ لَا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبَةٌ
فَتَذْنُو وَلَا عَفْرَاءَ مِنْكَ بَعِيدَةٌ^(٢)

(١) «البخاري» ٩٤/٦، و«مسلم» ٢٠٧٦/٤. وقوله: «اربعوا على أنفسكم». قال النووي: أي: ارققوا بأنفسكم واخفصوا أصواتكم، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان ليعد من يخاطبه ليمسعه وأنتم تعدون الله تعالى، وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب، وهو معكم بالعلم والإحاطة.

(٢) «معاني القرآن» للفراء ٣٨١/١، و«الطبري» ٤٨٨/١٢، وهو في «ديوان عروة بن حزام»، وفي «تزيين الأسواق» ٨٤/١، و«مسقط اللآلي» ٤٠١ من شعر له، صواب إنشاده على الباء:

عَشِيَّةٌ لَا عَفْرَاءَ مِنْكَ بَعِيدَةٌ
فَتَسْلُبُوا وَلَا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبَةٌ
لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْمَعْظَامِ دَبِيبَةٌ

وقال الزجاج: إنما قيل: «قريب» لأن الرحمة والغفران والعمو بمعنى واحد، وكذلك كل تأنيث ليس بحقيقي. وقال الأخفش: جازر أن تكون الرحمة هاهنا في معنى المطر.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نَّفَعْنَا سَفَنَهُ لِيَكْرِ مَيْتٍ فَأَرْزَأْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنَ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُومَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ قرأ أبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم: «الرياح» على الجمع. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: «الريح» على التوحيد. وقد يأتي لفظ التوحيد، ويراد به الكثرة، كقولهم: كثر الدرهم في أيدي الناس، ومثله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنٍ خَسِيرٍ ﴿١٧٠﴾﴾ [المصر: ٢].

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع: «نُشْرًا» بضم النون والشين؛ أرادوا جمع نشور؛ وهي الريح الطيبة الهبوب، تهب من كل ناحية وجانب. قال أبو عبيدة: النُشْرُ: المتفرقة من كل جانب. وقال أبو علي: يحتمل أن تكون النشور بمعنى المنتشر، وبمعنى الناشر؛ يقال: أنشر الله الريح، مثل أحيائها، فنشرت، أي: حيت. والدليل على أن إنشار الريح إحيائها قول الفقعي:

وهبَّتْ له رِيحُ الْجَنُوبِ وَأُخِيَّتْ

ويدل على ذلك أن الريح قد وصفت بالموت. قال الشاعر:

إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَمُوتَ الرِّيحُ نَأْقُمُ الدَّيَّانِ وَأَسْتَرْيَحُ

والرَّيْدَةُ والرَّيْدَانَةُ: الريح. وقرأ ابن عامر، وعبد الوارث، والحسن البصري: «نُشْرًا» بالنون مضمومة وسكون الشين، وهي في معنى «نُشْرًا». يقال: كُتِبَ وكُتِبَ، ورُسِّلَ ورُسِّلَ. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، والمفضل عن عاصم: «نُشْرًا» بفتح النون وسكون الشين. قال الفراء: النُشْرُ: الريح الطيبة اللينة التي تنشق السحاب. وقال ابن الأنباري: النُشْرُ: المنتشرة الواسعة الهبوب. وقال أبو علي: يحتمل النُشْرُ أن يكون خلاف الطي، كأنها كانت بانقطاعها كالمطرية. ويحتمل أن يكون معناها ما قاله أبو عبيدة في النشر: أنها المتفرقة في الوجوه؛ ويحتمل أن يكون معناها: النشر الذي هو الحياة، كقول الشاعر:

[حَتَّىٰ يَقُولَ النَّاسُ مُمًّا رَأُوا] يَا عَجَبًا لِمَيَّتِ النَّاشِرِ^(١)

قال: وهذا هو الوجه. وقرأ أبو رجاء العطاردي، وإبراهيم النخعي، ومسروق، ومروق العجلي: «نُشْرًا» بفتح النون والشين. قال ابن القاسم: وفي النُشْرُ وجهان: أحدهما: أن يكون جمعاً للنشور، كما قالوا: عَمُودٌ وَعَمَدٌ، وإِهَابٌ وَأَهَبٌ. والثاني: أن يكون جمعاً، واحده ناشر، يجري مجرى قوله: غَائِبٌ وَعَيْبٌ، وحافِدٌ وَحَفْدٌ؛ وكل القراء نَوْنُ الكلمة. وكذلك اختلافهم في [الفرقان: ٤٨] و [النمل: ٦٣]. هذه قراءات من قرأ بالنون. وقد قرأ آخرون بالياء؛ فقرأ عاصم إلا المفضل: «بُشْرِي» بالياء المضمومة وسكون الشين مثل فُعْلَى. قال ابن الأنباري: وهي جمع بشيرة، وهي التي تبشر بالمطر. والأصل ضم الشين، إلا أنهم استقلوا الضميتين. وقرأ ابن خثيم، وابن جندب مثله، إلا أنهما نَوْنًا الراء. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو عمران، وابن أبي عبيدة: بضم الباء والشين، وهذا على أنها جمع بشيرة. والرحمة هاهنا: المطر؛ سماه رحمة لأنه كان بالرحمة. و «أَقَلَّتْ» بمعنى حملت. قال الزجاج: السحاب: جمع سحابة. قال ابن فارس: سمي السحاب لانسحابه في الهواء.

قوله تعالى: ﴿يَنفَالًا﴾ أي: بالماء. وقوله تعالى: ﴿سُقْنَتُهُ﴾ ردُّ الكناية إلى لفظ السحاب، ولنظفه لفظاً واحداً. وفي قوله: ﴿يَكْرِ﴾ قولان: أحدهما: إلى بلد. والثاني: لإحياء بلد. والميِّتُ: الذي لا يُبْتَتُّ فيه، فهو محتاج إلى المطر. وفي قوله: ﴿فَأَرْزَأْنَا بِهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن الكناية ترجع إلى السحاب. والثاني: إلى المطر، ذكرهما الزجاج. والثالث: إلى البلد، ذكره ابن الأنباري. فأما هاء ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ فتحتمل الأقوال الثلاثة.

(١) البيت غير منسوب في «اللسان»: ريد، والريدة: الريح اللينة.

(٢) البيت لأعشى قيس، «ديوانه» ١٨ من قصيدة يهجو بها علقمة بن علاثة، ويمدح عامر بن الطفيل في المناقرة التي جرت بينهما.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: كما أحينا هذا البلد. وقال مجاهد: نحيي الموتى بالمطر كما أحينا البلد الميت به. قال ابن عباس: يرسل الله تعالى بين النفضتين مطراً كمني الرجال، فينبئ الناس به في قبورهم كما نبئوا في بطون أمهاتهم.

قوله تعالى: ﴿لَمَلَكُم تَدَكُّورٌ﴾ قال الزجاج: لعل ترج. وإنما خوطب العباد على ما يرجوه بعضهم من بعض؛ والمعنى: لعلكم بما بيناه لكم تستدلون على توحيد الله، وأنه يعث الموتى.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ يُادِنُ رَبَّهُ وَالَّذِي خَبَأَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِيدًا كَذَلِكَ نَضْرِبُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ يعني الأرض الطيبة التربة، ﴿يَخْرِجُ نَبَاتَهُ﴾ وقرأ ابن أبي عمير: «يُخْرِجُ» بضم الباء وكسر الراء، «نَبَاتَهُ» بضم التاء، ﴿وَالَّذِي خَبَأَ لَا يَخْرِجُ﴾ كذلك أيضاً. وقد روى أبان عن عاصم: «لا يُخْرِجُ» بضم الياء وكسر الراء. والمراد بالذي خبئ: الأرض السبخة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَكِيدًا﴾ قرأ الجمهور: بفتح النون وكسر الكاف. وقرأ أبو جعفر: «نَكِدًا» بفتح الكاف. وقرأ مجاهد، وقناة، وابن محيىن: «نَكِدًا» بإسكان الكاف. قال أبو عبيدة: قليلاً عسيراً في شدة، وأنشد:

لَا تُنَجِرُ الْوَعْدَ إِذْ وَعَدْتَ وَإِنْ
أَغْظَيْتَ أَغْظَيْتَ تَأْفِهُاً نَكِيدًا^(١)

قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر؛ فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله انتفع به وبان أثره عليه، فنبهه بالبلد الطيب الذي يُمرع ويخصب ويحسن أثر المطر عليه؛ وعكسه الكافر.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وَإِنِ اتَّخَذْتُمْ عِدَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي صَلْدٍ شِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي صَلْدٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَصْحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿عِبَادُوا اللَّهَ﴾ قال مقاتل: وحُدوه؛ وكذلك في سائر القصص بعدها.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قرأ الكسائي: «غيره» بالخفض. قال أبو علي: جعل غيراً صفة لـ «إله» على اللفظ.

قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو: «أُبَلِّغُكُمْ» ساكنة الباء خفيفة اللام. وقرأ الباقون: «أَبَلِّغُكُمْ» مفتوحة الباء مشددة اللام.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحُ لَكُمْ﴾ يقال: نصحت ونصحت له، وشكرته وشكرت له.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من مغفرتك لمن تاب، وعقوبته لمن أصر. وقال مقاتل: أعلم من نزول العذاب ما لا تعلمونه؛ وذلك أن قوم نوح لم يسمعا بقوم عُدبوا قبلهم.

﴿أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْكُرُ لِيُذِكرَكَ وَلِنَقُولَ وَلَعَلَّكَ رَحْمُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخْبَتْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَجِيبٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ عَجِبْتَ﴾ قال الزجاج: هذه واو العطف، دخلت عليها ألف الاستفهام، فبقيت مفتوحة. وفي الذكر قولان: أحدهما: الموعظة. والثاني: البيان. وفي قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْكُرُ﴾ قولان: أحدهما: أن «على» بمعنى: «مع»، قاله الفراء. والثاني: أن المعنى: على لسان رجل منكم، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿قَوْمًا عَجِيبٌ﴾ قال ابن عباس: عميت قلوبهم عن معرفة الله وقدرته وشدة بطشه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ ﴿٦٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٧﴾ أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْكُرُ لِيُذِكرَكَ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَمَعْتُمْ خُلَفَاءَهُ

(١) «مجاز القرآن» ٢١٧/١، والطبري، ٤٩٥/١٢، واللسان: نه.

مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَعْثَةٌ فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّبِعَ اللَّهَ وَنَحَدُّهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَتَّبِعُ ءَابَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا صَدَقْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّ عَادٌ﴾ المعنى: وأرسلنا إلى عاد ﴿لِنَأْتِمُّهُمُ هُودًا﴾. قال الزجاج: وإنما قيل: أخوهم، لأنه بشر مثلهم من ولد أبيهم آدم. ويجوز أن يكون أخاهم لأنه من قومهم. وقال أبو سليمان الدمشقي: وعاد قبيلة من ولد سام بن نوح؛ وإنما سماه أخاهم، لأنه كان نسيباً لهم، وهو وهم من ولد عاد بن عوص بن إرم بن سام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنُرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ قال ابن قتيبة: السفاهة: الجهل. وقال الزجاج: السفاهة: خفة الحلم والرأي؛ يقال: ثوب سفيه، إذا كان خفيفاً. ﴿وَلِئِنَّا لَنَلْقُوكَ مِنْ الْكٰذِبِينَ﴾ فكفروا به، ظانين، لا مستيقنين. ﴿قَالَ يَتْلُو لَيْسَ بِسَفَاهَةٍ﴾ هذا موضع أدب للخلق في حسن المخاطبة، فإنه دفع ما سبوه به من السفاهة بنفيه فقط.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَكُمُ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ قال الضحاك: أمين على الرسالة. وقال ابن السائب: كنت فيكم أميناً قبل اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ ذُرِّيَّتِهِمُ النَّعْمَةَ حَيْثُ أَهْلَكْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ، وَأَسْكَنْتَهُمْ مَسَاكِنَهُمْ﴾. ﴿وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَعْثَةٌ﴾ أي: طولاً وقوة. وقال ابن عباس: كان أطولهم مائة ذراع، وأقصرهم ستين ذراعاً. قال الزجاج: وآلاء الله: نعمه؛ واحدها: إلى. قال الشاعر:

أَبْيَضٌ لَا يَزْمَبُ الْهُزَالَ وَلَا
يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا «إِلْيَا»، «وَالِي».

قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَا بِمَا صَدَقْنَا﴾ أي: من نزول العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أن العذاب نازل بنا. وقال عطاء: في نبوتك وإرسالك إلينا.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أُنْجِلِيُونِي فِي أَسْمَاءِ سَبَيْتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ فَاَنْظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ السُّنْطِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجَابَتْهُ وَالَّذِي مَعَهُ رِجْسٌ مِمَّا وَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِي كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ أي: وجب ﴿عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ﴾ قال ابن عباس: عذاب وسخط. وقال أبو عمرو بن العلاء: الرجز؛ بالزاي، والرجس؛ بالسين؛ بمعنى واحد، قلبت السين زايًا.

قوله تعالى: ﴿أُنْجِلِيُونِي فِي أَسْمَاءِ سَبَيْتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾ يعني: الأصنام. وفي تسميتهم لها قولان: أحدهما: أنهم سمّوها آلهة. والثاني: أنهم سمّوها بأسماء مختلفة. والسلطان: الحجة. ﴿فَاَنْظُرُوا﴾ نزول العذاب ﴿إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ السُّنْطِرِينَ﴾ الذي يأتيكم من العذاب في تكذيبكم إياي.

﴿وَلِئِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ءَآلِهَتَكُمْ مَدِينًا قَالِ يَتَّبِعُونَ ءَآلِهَتَكُمْ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِلْمٌ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةٌ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَةٌ قَدْ رُفِعَ فِيهَا كُفْرُكُمْ وَأَكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَسْمُوهُا يُسُوءُ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ثَمَدَاتٍ مِنْ شُهُولِهَا قُصُورًا وَتَجْعَلُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَمْنُوا فِي الْأَرْضِ مُغْتَبِرًا ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِئِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ﴾ قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثمود لقباً مائها. قال ابن فارس: الثمد: الماء القليل الذي لا مادة له.

قوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَافَةٌ اللَّهُ﴾ في إضافتها إليه قولان: أحدهما: أن ذلك للتخصيص والتفضيل، كما يقال: بيت الله. والثاني: لأنها كانت بتكوينه من غير سبب.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: علامة تدل على قدرة الله؛ وإنما قال: «لكم» لأنهم هم الذين اقترحوها، وإن كانت آية لهم ولغيرهم. وفي وجه كونها آية قولان: أحدهما: أنها خرجت من صخرة ملساء، فتمخضت بها تمخض الحامل،

ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها. والثاني: أنها كانت تشرب ماء الوادي كله في يوم، وتسقيهم اللبن مكانه. قوله تعالى: ﴿ذَرُّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ قال ابن الأنباري: ليس عليكم مؤنتها وعلفها. و«تأكل» مجزوم على جواب الشرط المقدر، أي: إن تذرؤها تأكل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْوَأُوا سِوَاهُ﴾، أي: لا تصيئوها بعقر.

قوله تعالى: ﴿وَيَوِّدُكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أنزلكم؛ يقال: تبوأ فلان منزلاً: إذا نزله. ويؤأئه: أنزلته. قال الشاعر: ويؤئت في صميم منفرها
فتم في قوسها مَبْوؤوها^(١)
أي: أنزلت من الكرم في صميم النسب؛ قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿تَجِدُوكَ مِنْ سُؤْلِهِمَا قُصُورًا﴾ السهل: ضد الحزن. والقصر: ما شيد وعلا من المنازل. قال ابن عباس: اتخذوا القصور في سهول الأرض للصيف، ونقبوا في الجبال للشتاء. قال وهب بن منبه: كان الرجل منهم يبني البنيان، فتمر عليه مائة سنة، فيخرب، ثم يجده، فتمر عليه مائة سنة، فيخرب ثم يجده، فتمر عليه مائة سنة، فيخرب؛ فأضجرهم ذلك، فاتخذوا من الجبال بيوتاً.

﴿قَالَ أَمَلًا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَمَلُوكَ أَنْ صَلِيحًا مَّرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَلًا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وقرأ ابن عامر ﴿وَقَالَ لَكُلًّا﴾ بزيادة واو؛ وكذلك هي في مصاحفهم. ومعنى الآية: تكبروا عن عبادة الله. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ يزيد: المساكين. ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من قوله ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ لأنهم المؤمنون. ﴿أَتَمَلُوكَ أَنْ صَلِيحًا مَّرْسَلًا﴾ هذا استفهام إنكار.

﴿فَمَقَرُّوا النَّاقَةَ وَعَتَرًا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ اثْنَانَا يَمَا تَوَدَّانَا إِنْ كُنَّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٧) فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْمَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيين ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَقَرُّوا النَّاقَةَ﴾ أي: قتلوها. قال ابن قتبية: والعقر يكون بمعنى القتل، ومنه قوله ﴿عند ذكر الشهداء: (من عقر جواده)^(٢)﴾ وقال ابن إسحاق: كمن لها قاتلها في أصل شجرة فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها، ثم شد عليها بالسيف فكسر عرقوبها، ثم نحرها. قال الأزهري: العقر عند العرب: قطع عرقوب البعير، ثم جعل العقر نحرًا، لأن ناجر البعير يعقره ثم ينحره.

قوله تعالى: ﴿وَعَتَرًا﴾ قال الزجاج: جاوزوا المقدار في الكفر. قال أبو سليمان: عتوا عن اتباع أمر ربهم.

قوله تعالى: ﴿بِمَا تَوَدَّانَا﴾ أي: من العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْمَ﴾ قال الزجاج: الرجفة: الزلزلة الشديدة.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي: في مدينتهم. فإن قيل: كيف وحّد الدار هاهنا، وجمعها في موضع آخر، فقال: ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [مود: ٦٧]؟ فعه جوابان، ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أنه أراد بالدار: المعسكر، أي: فأصبحوا في معسكرهم. وأراد بقوله: ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾: المنازل التي ينفرد كل واحد منها بمنزل. والثاني: أنه أراد بالدار: المديار، فاكتمى بالواحد من الجمع، كقول الشاعر:

كُلُّوا فِي يَضْفِ بظنكم تعيشوا

وشواهد هذا كثيرة في هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿جثيين﴾ قال الفراء: أصبحوا رماداً جائماً. وقال أبو عبيدة: أي: بعضهم على بعض جثوم. والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للإبل. وقال ابن قتبية: الجثوم: البروك على الركب. وقال غيره: كأنهم أصبحوا

(١) البيت لإبراهيم بن مزمعة في «مجاز القرآن» ١/٢١٨، و«اللسان»: بوا، وشواهد المعنى: ٢٨٠.

(٢) رواه ابن ماجه ٩٣٤/٢ عن عمرو بن عيسى قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ قال: «من أمريق دمه وعقر جواده» ذ قال في «الزوائد»: إسناده ضعيف لضيف محمد بن ذكوان.

موتى على هذه الحال. وقال الزجاج: أصبحوا أجساماً ملقاة في الأرض كالرماد الجاثم. قال المفسرون: معنى «جاثمين»: بعضهم على بعض، أي: إنهم سقط بعضهم على بعض عند نزول العذاب.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلَيْتُمْ لَكَدْ أَنْتُمْ كُمْ رَسُولَ رَبِّي وَصَحَّتْ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ التَّصْوِيبَ ﴿٧٩﴾ وَلَوْ مَا إِذْ قَالَ يَلَيْتُمْ أَنْتُمْ لَكَدْ أَنْتُمْ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَمْرِ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِنْسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِكُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهَرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ يقول: انصرف صالح عنهم بعد عقر الناقة، لأن الله تعالى أوحى إليه أن اخرج من بين أظهرهم، فإني مهلكهم. وقال قتادة: ذكر لنا أن صالحاً أسمع قومه كما أسمع نبيكم قومه، يعني: بعد موتهم.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الفِتْحَةَ﴾ يعني إتيان الرجال. ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَمْرٍ﴾ قال عمرو بن دينار: ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا حتى كان قوم لوط. وقال بعض اللغويين: لوط: مشتق من لطت الحوض: إذا ملسته بالطين. قال الزجاج: وهذا غلط، لأنه اسم أعجمي كإسحاق، ولا يقال: إنه مشتق من السحق وهو البعد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ﴾ هذا استفهام إنكار. والمسرف: المجاوز ما أمر به. وقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ يعني لوطاً وأتباعه المؤمنين ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهَرُونَ﴾ قال ابن عباس: يتزهدون عن أديبار الرجال وأديبار النساء.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾
قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ في أهله قولان: أحدهما: ابتداء. والثاني: المؤمنون به. ﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الباقيين في عذاب الله تعالى. قال أبو عبيدة: وإنما قال: «من الكافرين» لأن صفة النساء مع صفة الرجال تُذكر إذا أشرك بينهما.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ قال ابن عباس: يعني: الحجارة. قال مجاهد: نزل جبريل، فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط، ورفعها، ثم قلبها، فجعل أعلاها أسفلها، ثم أتبعوا بالحجارة.

﴿وَإِلَآءِ مَدْيَنَ أَنهَآهُمْ شِعْبًا قَالَ يَنْقُورُ أَصْبَدُوا اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَنْفَرُوا الْكَيْلَ وَالْيَبْرَاتِ وَلَا يَخْشَوْنَ الْكَاسَ أَنهَآهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ كُنْتُمْ قُرُونًا ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَآءِ مَدْيَنَ﴾ قال قتادة: مدين: ماء كان عليه قوم شعيب، وكذلك قال الزجاج، وقال: لا ينصرف، لأنه اسم البقعة. وقال مقاتل: مدين: هو ابن إبراهيم الخليل لصلبه. وقال أبو سليمان الدمشقي: مدين: هو ابن مديان بن إبراهيم، والمعنى: أرسلنا إلى ولد مدين، فعلى هذا: هو اسم قبيلة. وقال بعضهم: هو اسم للمدينة. فالمعنى: وإلى أهل مدين. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: مدين اسم أعجمي. فإن كان عربياً، فإلياء زائدة، من قولهم: مدن بالمكان: إذا أقام به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ الْكَاسَ أَنهَآهُمْ﴾ قال الزجاج: الْبَخْسُ: النقص والقلَّة؛ يقال: بَخَسْتُ أَيْحَسُّ؛ بالسین، وبخصت عينه، بالصاد لا غير. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تعملوا فيها بالمعاصي بعد أن أصلحها الله بالأمر بالعدل، وإرسال الرسل.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ أي: مصدقين بما أخبرتكم عن الله.
﴿وَلَا تَقْسُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ قَبِيلًا تَكْفُرُونَ﴾ وأنظروا كيف كانت عاقبة الكافرين ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْسُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي: بكل طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ من آمن بشعيب بالشر، وتخوفونهم بالعذاب والقتل. فإن قيل: كيف أفرد الفعل، وأخلاه من المفعول، فهلاً قال: توعدون بكذا؟ فالجواب: أن العرب إذا أحلَّت هذا الفعل من المفعول، لم يدل إلا على شر؛ يقولون: أوعدت فلاناً. وكذلك إذا أفردوا وعدت من مفعول، لم يدل

إلا على الخير. قال الفراء: يقولون: وعده خيراً، وأوعده شراً؛ فإذا أسقطوا الخير والشراء، قالوا: وعده: في الخير، وأوعده: في الشر؛ فإذا جاؤوا بالباء، قالوا: وعده بالشر. وقال الراجز:

أَوْعَدَنِي بِاللُّجْنِ وَالْأَدَاهِمِ

قال المصنف: وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: إذا أرادوا أن يذكرُوا ما تهددُوا به مع أوعدت، جاؤوا بالباء، فقالوا: أوعده بالضرب، ولا يقولون: أوعده الضرب. قال السدي: كانوا عشارين. وقال ابن زيد: كانوا يقطعون الطريق.

قوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: تصرفون عن دين الله من آمن به. ﴿وَتَبِعُوا عِوَجًا﴾ مفسر في [آل عمران: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَفَرْتُمْ﴾ قال الزجاج: جائز أن يكون المعنى: جعلكم أغنياء بعد أن كنتم فقراء؛ وجائز أن يكون: كثر عددكم بعد أن كنتم قليلاً، وجائز أن يكونوا غير ذوي مقدرة وأقدار، فكفرهم.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِرُوا فَأَسِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾
 ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشِمِثٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِينًا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِيمِينَ﴾ ﴿٨٨﴾
 قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِرُوا﴾ أي: إن اختلفتم في رسالتي، فصرتم فريقين، مصدقين ومكذبين ﴿فَأَسِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ بتعذيب المكذبين، وإنجاء المصدقين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنه العدل الذي لا يجور.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يعنون ديننا، وهو الشرك. قال الفراء: جعل في قوله: «لتعودن» لأمأ كجواب اليمين، وهو في معنى شرط؛ ومثله في الكلام: والله لأضربنك أو تفر لي، فيكون معناه معنى: «إلا»، أو معنى: «حتى». ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِيمِينَ﴾ أي: أو تجبروننا على ملتكم إن كرهنناها؟ فإنا نقتل: كيف قالوا: «لتعودن»، وشعيب لم يكن في كفر قط، فيعود إليه؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنهم لما جمعوا في الخطاب معه من كان كافراً، ثم آمن، خاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه، وغلبوا لفظهم على لفظه، لكثرتهم، وانفراده. والثاني: أن المعنى: لتصيرن إلى ملتنا؛ فوقع العود على معنى الابتداء، كما يقال: قد عاد علي من فلان مكروه، أي: قد لحقني منه ذلك؛ وإن لم يكن سبق منه مكروه. قال الشاعر:

فإِنْ تَكُنِ الْإِيَّامُ أَحْسَنَ مَرَّةً
 إِلَيَّ فَقَدْ عَادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

وقد شرحنا هذا في قوله: ﴿وَلِلَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ في سورة البقرة: [٢١٠]، وقد ذكر معنى الجوابين الزجاج، وابن الأنباري.

﴿هُدًى أَتَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مَبَأَ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَتَخَفْنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاعِلِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَسْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُنُودًا ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا يَمُوتُونَ ﴿٩٢﴾
 ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ فَنَزَّلْنَا عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَرَوُا لَقَدْ آتَيْنَاكُمْ رَسُولًا مِّنْ رَبِّكُمْ فَكَيْفَ آمَنُوا عَلَى قَوْمِهِمْ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى: ﴿هُدًى أَتَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ وذلك أن القوم كانوا يدعون أن الله أمرهم بما هم عليه، فلذلك سمّوه ملة. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ أي: في الملة، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ قال ابن عباس: يعلم ما يكون قبل أن يكون.

قوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: فيما توعدتمونا به، وفي حراستنا عن الضلال. ﴿رَبَّنَا أَتَخَفْنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ قال أبو عبيدة: احكم بيننا، وأنشد:

أَلَا أُبْلِغُ بَنِي عُضْمِ رَسُولًا
قال الفراء: وأهل عُمان يسمون القاضي: الفاتح والفتاح. قال الزجاج: وجائز أن يكون المعنى: أظهر أمرنا حتى يفتح ما بيننا وينكشف؛ فجائز أن يكونوا سألوا بهذا نزول العذاب بقومهم ليظهر أن الحق معهم.
قوله تعالى: ﴿كَانَ لَمْ يَفْتَوْنَا فِيهَا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: كان لم يعيخوا في دارهم، قاله ابن عباس، والأخفش. قال حاتم طي:

عَيْنِنَا زَمَانًا بِالسَّغْلِكِ وَالْغِنَى
فَمَا زَادَنَا بَغِيًّا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ
قال الزجاج: معنى غنينا: عشنا. والصعلك: الفقر، والعرب تقول للفقير: الصعلوك. والثاني: كان لم يتعموا فيها، قاله قتادة. والثالث: كان لم يكونوا فيها، قاله ابن زيد، ومقاتل. والرابع: كان لم ينزلوا فيها، قاله الزجاج، قال الأصمعي: المغاني: المنازل؛ يقال: غنينا بمكان كذا، أي: نزلنا به. وقال ابن قتيبة: كان لم يقيموا فيها، ومعنى: غنينا بمكان كذا: أقمنا. قال ابن الأنباري: وإنما كرر قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا﴾ للمبالغة في ذمهم؛ كما تقول: أخوك الذي أخذ أموالنا، أخوك الذي شتم أعراسنا.

قوله تعالى: ﴿مَتَّوَلَّ عَثَمٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: عرض. والثاني: انصرف. ﴿وَقَالَ يَقْوَرٌ لَقَدْ أَبْتَلَيْتُكُمْ بِسُلَيْمِ بْنِ قَتَادَةَ﴾ قال قتادة. والثالث: كان لم يكونوا فيها، قاله ابن زيد، ومقاتل. والرابع: كان لم ينزلوا فيها، قاله الزجاج، قال الأصمعي: المغاني: المنازل؛ يقال: غنينا بمكان كذا، أي: نزلنا به. وقال ابن قتيبة: كان لم يقيموا فيها، ومعنى: غنينا بمكان كذا: أقمنا. قال ابن الأنباري: وإنما كرر قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا﴾ للمبالغة في ذمهم؛ كما تقول: أخوك الذي أخذ أموالنا، أخوك الذي شتم أعراسنا.
قوله تعالى: ﴿مَتَّوَلَّ عَثَمٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: عرض. والثاني: انصرف. ﴿وَقَالَ يَقْوَرٌ لَقَدْ أَبْتَلَيْتُكُمْ بِسُلَيْمِ بْنِ قَتَادَةَ﴾ قال قتادة. أسمع شعيب قومه، وأسمع صالح قومه؛ كما أسمع نبيكم قومه يوم بدر؛ يعني: أنه خاطبهم بعد الهلاك. ﴿وَكَيْفَ مَأْتَنَ﴾ أي: أحزن. وقال ابن إسحاق: أصاب شعيباً على قومه حزن شديد، ثم عاتب نفسه، فقال: كيف آسى على قوم كافرين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسْوَءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّوْنَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسْوَءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّوْنَ﴾ في الآية اختصار، تقديره: فكذبوه. ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسْوَءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وقد سبق تفسير البأساء والضراء في [الأنعام: ٤٤]، وتفسير التضرع في هذه السورة [الأعراف: ١٥٥]. ومقصود الآية: إعلام النبي ﷺ بسوء الله في المكذبين، وتهديد قريش.
﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَاهِبَاتُنَا السَّرَّاءُ وَالضَّرَّاءُ فَلَاحَذَتْهُمُ بُعْثَةٌ مِّنْهُم لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَقْبَلُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فَأَيُّ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن السيئة: الشدة؛ والحسنة: الرخاء، قاله ابن عباس. والثاني: السيئة: الشر؛ والحسنة: الخير، قاله مجاهد.
قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ قال ابن عباس: كثروا، وكثرت أموالهم. ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَاهِبَاتُنَا السَّرَّاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ فنحن مثلهم، يصيبنا ما أصابهم، يعني: أنهم أرادوا أن هذا داب الدهر، وليس بعقوبة. ﴿فَلَاحَذَتْهُمُ بُعْثَةٌ مِّنْهُم﴾ أي: فجاءت بنزول العذاب ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنزوله، حتى أهلكهم الله.

قوله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: المعنى: أتاهم الغيث من السماء، والنبات من الأرض، وجعل ذلك زاكياً كثيراً.

﴿أَرَأَيْتَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ فَأَيُّ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٥﴾ فَأَيُّ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٥﴾

الْخَيْرُونَ ﴿٩٦﴾

(١) مجاز القرآن/ ١/ ٢٢٠، و [إصلاح المنطق] ١١٢، و [الطبري] ١٢/ ٥٦٤، و [السمط] ٩٢٧، و [القرطبي] ١٣/ ٩٤، و [اللسان] و [التاج]: فتح. وينو عجم: رطم عمرو بن معد يكرب الزبيدي. والبيت مختلف في غزوه، انظر تعليق الراجكوتي في [سطح اللالي] ٩٢٧.

(٢) البتآن في [ديوان حاتم] ١١٩، و [الأغاني] ١٧/ ٢٩٦، و [خزانة الأدب] للبغدادي ٢/ ١٦٣.

(٣) في [الديوان]، و [الخزانة]: فَمَا زَادَنَا بَأْسًا وَالْبَأْسُ: الكبر والفخر.

قوله تعالى: ﴿أَوَ أَيْنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، ونافع: «أَوَ أَيْنَ أَهْلُ» بإسكان الواو. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحزمه، والكسائي: «أَوَ أَيْنَ» بتحريك الواو. وروى ورش عن نافع: «أَوَ أَيْنَ» بدمج الهمزة، ويلقي حركتها على الساكن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾
 ﴿لَيْسَ لَكَ الْقُرَىٰ تُنْفَسُ عَلَيْكَ مِنَ آبَائِهِمْ وَرَبِّهِمْ وَأَخِيبَتُمْ إِيَّاهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾^(١١٠)

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ وقرأ يعقوب؛ «نهيد» بالنون، وكذلك في [طه: ١٢٨]، و[السجدة: ٢٦]. قال الزجاج: من قرأ بالياء، فالمعنى: أولم يبين الله لهم. ومن قرأ بالنون، فالمعنى: أولم نبين. وقوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ ليس بمحمول على «أصبناهم»، لأنه لو حمل على «أصبناهم» لكان: ولطبعنا. وإنما المعنى: ونحن نطبع على قلوبهم. ويجوز أن يكون محمولاً على الماضي، ولفظه لفظ المستقبل، كما قال: «أَنْ لَوْ نَشَاءُ»، والمعنى: لو شئنا. وقال ابن الأنباري: يجوز أن يكون معطوفاً على: أصبنا، إذ كان بمعنى نُصِيبُ: فوضع الماضي في موضع المستقبل عند وضوح معنى الاستقبال، كما قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَبْرًا مِمَّنْ ذَكَرَ﴾ [الفرقان: ١٠]، أي: إن يشأ، يدل عليه قوله: ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُولًا﴾، قال الشاعر:

إِنْ يَسْمَعُوا رَبِّيَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا
 مِنِّي، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَقْنُوا^(١١١)
 أي: يذنفوا.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يقبلون، ومنه «سمع الله لمن حمده»، قال الشاعر:

دَعَاؤُ اللَّهِ حَيْسَى خِفْتُ أَنْ لَا
 يَكُونُ اللَّهُ يَسْمَعُ مَا أَقُولُ^(١١٢)

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما سبق في علم الله أنهم يكذبون به يوم أفروا له بالميثاق حين أخرجهم من صلب آدم، هذا قول أبي بن كعب. والثاني: فما كانوا ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا به يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من صلب آدم، فآمنوا كرهماً حيث أفروا باللسن، وأضمرنا التكذيب، قاله ابن عباس، والسدي. والثالث: فما كانوا لو رددناهم إلى الدنيا بعد موتهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم، هذا قول مجاهد. والرابع: فما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأمم الخالية، بل شاركهم في التكذيب، قاله يمان بن رباب. والخامس: فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذبوا قبل رؤيتها.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾^(١١٣)

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني؛ القرون الماضية. ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾ قال أبو عبيدة: أي: وفاء. قال ابن عباس: يريد الوفاء بالعهد الذي عاهدهم حين أخرجهم من صلب آدم. وقال الحسن: العهد هاهنا: ما عهده إليهم مع الأنبياء أن لا يشركوا به شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَا﴾ قال أبو عبيدة: وما وجدنا أكثرهم إلا الفاسقين.
 ﴿فَهُمْ بَعَثْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ نُوحًا مِمَّنْ نَبَأْنَا إِيَّاهُ فَوَعَدْنَاهُ وَأَنبَأْنَاهُ بِمَا نَأْتُرُ بِكُمْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١١٤) وَقَالَ نُوحٌ
 يَنْفِرْعَوْدُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ حَقِيقٌ عَلَيْهِ أَنْ لَا تُقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُمْ بِإِذْنِنَا مِنْ رَبِّكُمْ فَارْسِلْ مَعِيَ بَنِيَّ
 إِسْرَائِيلَ ﴿١١٦﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ حَقًّا بِمَا تَدَّعِي فَاتَّخِذْ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٧﴾ فَأَلْفَقْنَاهُ إِذْ هِيَ عُثْبَانٌ تُؤَيِّنُ ﴿١١٨﴾
 قوله تعالى: ﴿فَهُمْ بَعَثْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ يعني: الأنبياء المذكورين.

(١) البيت لقعناب ابن أم صاحب، وهي أمه، واسم أبيه ضمرة، أحد بني عبد الله بن غطفان، من شعراء العصر الأموي. وهو في «الحصاة» ١٢/٤، وشاهد المعنى للسيوطي ٣٢٦.

(٢) البيت غير منسوب في «اللسان»: سمع.

قوله تعالى: ﴿فَنَلَكُمُوهَا﴾ قال ابن عباس: فكذبوا بها. وقال غيره: فنجحدوا بها.

قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ «على» بمعنى الباء. قال الفراء: العرب تجعل الباء في موضع «على»؛ تقول: رميت بالقوس، وعلى القوس، وجئت بحال حسنة، وعلى حال حسنة. وقال أبو عبيدة: «حقيق» بمعنى؛ حريص. وقرأ نافع، وأبان عن عاصم: «حَقِيقٌ عَلَيَّ» بتشديد الباء وفتحها، على الإضافة. والمعنى: واجب عليّ.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَيْنَتٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: العصا. ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بِنْتِ إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أطلق عنهم؛ وكان قد استخدمهم في الأعمال الشاقة. ﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَأُ مُبِينٌ﴾ قال أبو عبيدة: أي: حية ظاهرة. قال الفراء: الثعبان: أعظم الحيات، وهو الذكر. وكذلك روى الضحاك عن ابن عباس: الثعبان: الحية الذكر.

﴿وَرَجَّ يَدُهُ إِذَا هِيَ بِبَيْتَةِ اللَّطِيطِينَ﴾ قال المملأ من قورٍ ورعون إنك هذا لسرٍ علم ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنَجِّكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ قالوا أئمة وأناه وأرسيل في المدائن حشرون ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ وجاءة السحرة ورعون قالوا إنك لنا لأجراً إن كنتنا نحن القليلين ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ قالوا يكومسى إنا أن تلقى وإنا أن تكون نحن الملقين ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْوَوْنَهُمْ وَجَاءَهُمْ سِحْرٌ عَظِيمٌ﴾ وأرجحنا إنك موسى أن آلي عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴿وَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَمَكُونُ﴾ فغلبوا هلاك وأنقلبوا صغرين ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾ قالوا ما منا ربنا الملقين ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَجَّ يَدُهُ﴾ قال ابن عباس: أدخل يده في جيبه، ثم أخرجها، فإذا هي تبرق مثل البرق، لها شعاع غلب نور الشمس، فخرؤا على وجوههم؛ ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت. قال مجاهد: بيضاء من غير برص.

قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ قال ابن عباس: ما الذي تشيرون به عليّ؟ وهذا يدل على أنه من قول فرعون، وأن كلام الملا انقطع عند قوله: ﴿مَنْ أَرْسَلَكُمْ﴾. قال الزجاج: يجوز أن يكون من قول الملا، كأنهم خاطبوا فرعون ومن يخصه، أو خاطبوه وحده؛ لأنه قد يقال للرئيس المطاع: ماذا ترون؟

قوله تعالى: ﴿أئمة﴾ قرأ ابن كثير «أرجهؤ» مهموز بواو بعد الهاء في اللفظ. وقرأ أبو عمرو مثله، غير أنه يضم الهاء ضمة، من غير أن يبلغ بها الواو؛ وكانا يهزمان: «مرجون» [النوبة: ١٠٦] و«ترجى» [الأحزاب: ٥١]. وقرأ قالون والمسيبي عن نافع «أرجو» بكسر الهاء، ولا يبلغ بها الباء، ولا يهزم. وروى عنه ورش: «أرجهي» يصلها بياء، ولا يهزم بين الجيم والهاء. وكذلك قال إسماعيل بن جعفر عن نافع؛ وهي قراءة الكسائي. وقرأ حمزة: «أرجه» ساكنة الهاء غير مهموز، وكذلك قرأ عاصم في غير رواية المفضل، وقد روى عنه المفضل كسر الهاء من غير إشباع ولا همز، وهي قراءة أبي جعفر، وكذلك اختلافهم في سورة [الشعراء: ٣٦]. قال ابن قتيبة أَرْجُهُ: آخره؛ وقد يهزم، يقال: أرجأت الشيء، وأرجيته. ومنه قوله: ﴿تَجِيءُ مَن تَشَاءُ يَنْهَنُ﴾ [الأحزاب: ٥١]. قال الفراء: بنو أسد تقول: أرجيت الأمر، بغير همز، وكذلك عامة قيس؛ وبعض بني تميم يقولون: أرجأت الأمر، بالهمز، والقراء مولعون بهمزها، وترك الهمز أجود.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ يعني مدائن مصر، «حشرون» أي: من يحشر السحرة إليك ويجمعهم. وقال ابن عباس: هم الشرط.

قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «سِحْرٍ»، وفي [ابن: ١٧٩]: «بِكُلِّ سِحْرِ»؛ وقرأ حمزة، والكسائي: «سِحَارٍ» في الموضعين؛ ولا خلاف في [الشعراء: ٣٧] أنها: «سِحَارٍ».

قوله تعالى: ﴿إِنك لنا لأجراً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وحفص عن عاصم: ﴿إِنك لنا لأجراً﴾ مكسورة الألف على الخبر، وفي [الشعراء: ٤١] ﴿أَيْنَ﴾ ممدودة مفتوحة الألف، غير أن حفصاً روى عن عاصم في [الشعراء: ٤١]: ﴿أَيْنَ﴾ بهمزتين. وقرأ أبو عمرو: ﴿أَيْنَ لنا﴾ ممدودة في السورتين. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن

عاصم: بهمزتين في الموضعين. قال أبو علي: الاستفهام أشبه بهذا الموضع، لأنهم لم يقطعوا على أن لهم الأجر، وإنما استفهموا عنه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَبِثُوا الْمَكَارِمَ وَالْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: ولكم مع الأجر المنزلة الرفيعة عندي.

قوله تعالى: ﴿سَكْرَتًا أُغِيَّتْ النَّاسِ﴾ قال أبو عبيدة: عَشُّوا أعين الناس وأخذوها. ﴿وَأَسْرَبُونَهُمْ﴾ أي: خوَّفوهم. وقال الزجاج: استدعوا رهبتهم حتى رهبهم الناس.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ وقرأ عاصم: ﴿تَلْقَفُ﴾ ساكنة اللام، خفيفة القاف هاهنا وفي [طه: ٦٩]، و[الشعراء: ٤٥]. وروى البرقي، وابن فليح عن ابن كثير: ﴿تَلْقَفُ﴾ بتشديد التاء. قال الفراء: يقال: لَقَفْتُ الشيء، فإنا لَقَفُهُ لَقْفًا وَلَقْفَانًا، والمعنى: يتبع. قوله تعالى: ﴿مَا يَأْكُورُنَّ أَيْ: يكذبون، لأنهم زعموا أنها حيات.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ قال ابن عباس: استبان. ﴿وَوَطَّكَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ من السحر.

(الإشارة إلى قصتهم)

اختلفوا في عدد السحرة على ثلاثة عشر قولاً: أحدها: اثنان وسبعون، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: اثنان وسبعون ألفاً، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال مقاتل. والثالث: سبعون، روي عن ابن عباس أيضاً. والرابع: اثنا عشر ألفاً، قاله كعب. والخامس: سبعون ألفاً، قاله عطاء، وكذلك قال وهب في رواية، إلا أنه قال: فاختار منهم سبعة آلاف. والسادس: سبعمائة. وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب أنه قال: كان عدد السحرة الذين عارضوا موسى سبعين ألفاً متخبرين من سبعمائة ألف، ثم إن فرعون اختار من السبعين الألف سبعمائة. والسابع: خمسة وعشرون ألفاً، قاله الحسن. والثامن: تسعمائة، قاله عكرمة. والتاسع: ثمانون ألفاً، قاله محمد بن المنكدر. والعاشر: بضعة وثلاثون ألفاً، قاله السدي: والحادي عشر: خمسة عشر ألفاً، قاله ابن إسحاق. والثاني عشر: تسعة عشر ألفاً، رواه أبو سليمان الدمشقي. والثالث عشر: أربع مائة، حكاه الثعلبي. فإما أسماء رؤسائهم، فقال ابن إسحاق: رؤوس السحرة ساتور، وعاذور، وحُطْحُط، ومُصْفَى، وهم الذين آمنوا، كذا حكاه ابن ماكولا. ورأيت عن غير ابن إسحاق: سابورا، وعازورا. وقال مقاتل: اسم أكبرهم شمعون. قال ابن عباس: القوا جبلاً غلاظاً، وخشياً طولاً، فكانت ميلاً في ميل، فألقى موسى عصاه، فإذا هي أعظم من جبالهم وعصبيهم، قد سدت الأفق، ثم فتحت فإها ثمانين ذراعاً، فابتلعت ما القوا من جبالهم وعصبيهم، وجعلت تأكل جميع ما قدرت عليه من صخرة أو شجرة، والناس ينظرون، وفرعون يضحك تجلداً، فأقبلت الحيَّة نحو فرعون، فصاح: يا موسى، يا موسى، فأخذها موسى، وعرفت السحرة أن هذا من السماء، وليس هذا بسحر، فخرُّوا سُجُداً، وقالوا: آمنا برب العالمين، فقال فرعون: إياي تعنون؟ فقالوا: ربُّ موسى وهارون، فأصبحوا سحرة، وأمسا شهداء. وقال وهب بن منبه: لما صارت ثعباناً حملت على الناس فانهمزوا منها، فقتل بعضهم بعضاً، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً. وقال السدي: لقي موسى أمير السحرة، فقال: أرايت إن غلبتك غداً، أتؤمن بي؟ فقال الساحر: لأتئين غداً بسحر لا يغلبه السحر، فوالله لئن غلبتني لأؤمنن بك. فإن قيل: كيف جاز أن يأمرهم موسى بالإلقاء، وفعل السحر كفر؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن مضمون أمره: إن كنتم محقين فالقوا. والثاني: القوا على ما يصح، لا على ما يفسد ويستحيل، ذكرهما الماوردي. والثالث: إنما أمرهم بالإلقاء لتكون معجزته أظهر، لأنهم إذا القوا، ألقى عصاه فابتلعت ذلك، ذكره الواحدي. فإن قيل: كيف قال: ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾ وإنما سجدوا باختيارهم؟ فالجواب أنه لما زالت كل شبهة بما أظهر الله تعالى من أمره، اضطرهم عظيم ما عاينوا إلى مبادرة السجود، فصاروا مفعولين في الإلقاء تصحيحاً وتعظيماً لشأن ما رأوا من الآيات، ذكره ابن الأباري. قال ابن عباس: لما آمنت السحرة، أتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا مَنَّمْ بِهِ قِيلَ أَنْ مَادَّنَ كَذَبًا إِنَّ هَذَا كَذِبٌ مِّمَّنْ كَرَّمُوا فِي الْمَدِينَةِ لِقُرْبَانًا مِنَّا أَهْلَهُمْ نَسَوْفَ نَنصُرُهُمْ ﴿١٢٥﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُدْعُونَكُمْ مِنْ جَانِبِ نَمِّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٦﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَهَ رَبِّنَا مُقْبِلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ءَأَمْتُمْ بِيَدٍ﴾ قرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو: «ءأمتمم به» بهمزة ومدة على الاستفهام. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «أمتمم به» فاستفهموا بهمزتين، الثانية ممدودة. وقرأ حفص عن عاصم: «أمتمم به» على الخبر. وروى ابن الإخريط^(١): عن ابن كثير: «قال فرعون وأمتمم به» قلب همزة الاستفهام واواً، وجعل الثانية ملبّية بين بين. وروى قنبل عن القواس مثل رواية ابن الإخريط، غير أنه كان يهزم بعد الواو. وقال أبو علي: همز بعد الواو، لأن هذه الواو منقلبة عن همزة الاستفهام، وبعد همزة الاستفهام همزة «أفعلتمم» فحققتها ولم يخفها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُنْزٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ قال ابن السائب: لصنيع صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في مصر قبل خروجكم إلى هذ الموضع لتستولوا على مصر فتخرجوا منها أهلها ﴿فَسَوْفَ تَلْمِزُونَ﴾ عاقبة ما صنعتم، ﴿لَأَقِظَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَعْيُنَكُمْ مِنْ غَلْفِ﴾ وهو قطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى. قال ابن عباس: أول من فعل ذلك، وأول من صلب، فرعون.

﴿وَمَا نَقِمْ يَتًا إِلَّا أَنْتَ ءَأَمْنَا بِإِنِّي رَبَّنَا لَنَا جَاهَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا سَبْرًا وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ﴾ وقال اللؤلؤ من قورٍ وَرَعُونَ أَنْذَرَ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَقَطِلَ آبَاءَهُمْ وَنَسَتْنِي. نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا قَوْفَهُمْ قَهْرُونَ ﴿١٢٦﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِيبُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقِمْ يَتًا﴾ أي: وما تكره منا شيئاً، ولا تطعن علينا إلا لانا آسناً. ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا سَبْرًا﴾ قال مجاهد: على القطع والصلب حتى لا نرجع كفاراً ﴿وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ﴾ أي: مخلصين على دين موسى.

قوله تعالى: ﴿أَنْذَرَ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ هذا إغراء من الملائكة لفرعون. وفيما أرادوا بالفساد في الأرض قولان: أحدهما: قتل أبناء القبط، واستحياء نسايمهم، كما فعلوا ببني إسرائيل، قاله مقاتل. والثاني: دعاؤهم الناس إلى مخالفة فرعون وترك عبادته.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ جمهور القراء على نصب الرأء؛ وقرأ الحسن برفعها. قال الزجاج: من نصب «ويذرك» نصبه على جواب الاستفهام بالواو؛ والمعنى: أيكون منك أن تذر موسى وأن يذرك؟ ومن رفعه جعله مستأنفاً، فيكون المعنى: أنذر موسى وقومه، وهو يذرك وآلهتك؟ والأجود أن يكون معطوفاً على «أنذره» فيكون المعنى: أنذر موسى، وأيذرك موسى؟ أي: أنطلق له هذا؟.

قوله تعالى: ﴿وَالْإِهْتِكُ﴾ قال ابن عباس: كان فرعون قد صنع لقومه أصناماً صغاراً، وأمرهم بعبادتها، وقال أنا ربكم ورب هذه الأصنام، فذلك قوله: ﴿إِنَّا رَبُّكُمْ الْإِهْتِكُ﴾ [النازعات: ٢٢٤]. وقال غيره: كان قومه يعبدون تلك الأصنام تقريباً إليه. وقال الحسن: كان يعبد تيساً في السر. وقيل: كان يعبد البقر سراً. وقيل: كان يجعل في عنقه شيئاً يعبده. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبو العالية، وابن محيصن: «والإهتك» بكسر الهمزة وقصرها وفتح اللام وبالف بعدها. قال الزجاج: المعنى: ويذرك وربوبيتك. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الإلاهة: العبادة؛ فالمعنى: ويذرك وعبادة الناس إياك. قال ابن قتيبة: من قرأ: «والإهتك» أراد: ويذرك والشمس التي تعبد، وقد كان في العرب قوم يعبدون الشمس ويسمونها إلهة. قال الأعشى:

فَمَا أَذْكَرُ الرَّهْبِ حَتَّى انْقَلَبْتُ قُبَيْلَ الْإِلَهَةِ مِنْهَا قَرِيبًا

يعني الشمس. والرهب: ناقته. يقول: اشتغلت بهذه المرأة عن ناقتي إلى هذا الوقت.

قوله تعالى: ﴿سَقَطِلَ آبَاءَهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «سقتل» و «يقتلون» أبناءكم» [الأعراف: ١٢٦] بالشديد، وخففها نافع. وقرأ ابن كثير: «سَقَطِلَ» خفيفة، و «يقتلون» مشددة. وإنما عدل عن قتل موسى إلى قتل الأبناء لعلمه أنه لا يقدر عليه. ﴿وَرَبَّنَا قَوْفَهُمْ قَهْرُونَ﴾ أي: عالون بالملك والسلطان. فشكا بنو إسرائيل إعادة القتل على آبائهم، فقال موسى: ﴿اسْتَعِيبُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ على ما يفعل بكم ﴿إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ

يُنَكِّهَ مِنْ عِبَادِيهِ. وقرأ الحسن، وهبيرة عن حفص عن عاصم: «يوزئها» بالتشديد. فأطمعهم موسى أن يعطيهم الله أرض فرعون وقومه بعد إهلاكهم.

قوله تعالى: ﴿وَالْعِيقَةُ لَلثِّيَابِ﴾ فيها قولان: أحدهما: الجنة. والثاني: النصر والظفر.

﴿قَالُوا أُوَيِّتْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَبِئْسَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَقْمَلُونَ﴾ ولقد أخذنا مال فرعون باليسين ونقص من الثمرات لعلهم يدكروا ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أُوَيِّتْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَبِئْسَ مَا جِئْتَنَا﴾ في هذا الأذى ستة أقوال: أحدها: أن الأذى الأول والثاني أخذ الجزية، قاله الحسن. والثاني: أن الأول ذبح الأبناء، والثاني إدراك فرعون يوم طلبهم، قاله السدي. والثالث: أن الأول أنهم كانوا يسحرون في الأعمال إلى نصف النهار، ويرسلون في بقيته يكتبون، والثاني تسخيرهم جميع النهار بلا طعام ولا شراب، قاله جوير. والرابع: أن الأول تسخيرهم في ضرب اللين، وكانوا يعطونهم التبن الذي يخلطونه في الطين؛ والثاني أنهم كلّفوا ضرب اللين وجعل التبن عليهم، قاله ابن السائب. والخامس: أن الأول قتل الأبناء، واستحياء البنات، والثاني تكليف فرعون إياهم ما لا يطيقونه، قاله مقاتل. والسادس: أن الأول استخدامهم وقتل أبنائهم واستحياء نساءهم، والثاني إعادة ذلك العذاب. وفي قوله: ﴿بِئْسَ مَا جِئْتَنَا﴾ قولان: أحدهما: تأتينا بالرسالة، ومن بعد ما جئنا بها، قاله ابن عباس. والثاني: تأتينا بعهد الله أنه سيخلصنا، ومن بعد ما جئتنا به، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ﴾ قال الزجاج: عسى: طمع وإشفاق، إلا أن ما يُطمع الله فيه فهو واجب.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ في هذا الاستخلاف قولان: أحدهما: أنه استخلاف من فرعون وقومه. والثاني: استخلاف عن الله تعالى، لأن المؤمنين خلفاء الله في أرضه. وفي الأرض قولان: أحدهما: أرض مصر، قاله ابن عباس. والثاني: أرض الشام، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿يَنْظُرَ كَيْفَ تَقْمَلُونَ﴾ قال الزجاج: أي: يراه بوقوعه منكم، لأنه إنما يجازيهم على ما وقع منهم، لا على ما علم أنه سيقع.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا مَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّيْنِ﴾ قال أبو عبيدة: مجازة: ابتليانهم بالجدوب. وآل فرعون: أهل دينه وقومه. وقال مقاتل: هم أهل مصر. قال الفراء: «بالسينين» أي: بالقحط والجدوب عاماً بعد عام. وقال الزجاج: السنون في كلام العرب: الجدوب، يقال: مستهم السنة، ومعناه: جذب السنة، وشدة السنة. وإنما أخذهم بالضراء، لأن أحوال الشدة، تُرِقُّ القلوب، وتُرْغَب فيما عند الله وفي الرجوع إليه. قال قتادة: أما السنون، فكانت في بواديهم ومواشيهم، وأما نقص الثمرات، فكان في أمصارهم وقراهم. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: يبس لهم كل شيء، وذعبت مواشيهم، حتى يبس نيل مصر. فاجتمعوا إلى فرعون فقالوا له: إن كنت رباً كما تزعم، فاملا لنا نيل مصر، فقال: غُدوة يصبحك الماء، فلما خرجوا من عنده، قال: أي شيء صنعت؟ أنا أقدر أن أحيي بالماء في نيل مصر غدوة أصبح، فيكذبوني؟! فلما كان جوف الليل، اغتسل، ثم لبس بدرعة من صوف، ثم خرج حافياً حتى أتى بطن نيل مصر فقام في بطنه، فقال: اللهم إنك تعلم أنني أعلم أنك تقدر أن تملأ نيل مصر ماءً، فاملأه، فما علم إلا بخير الماء لما أراد الله به من الهلكة. قلت: وهذا الحديث بعيد الصحة، لأن الرجل كان دهرياً لا يثبت إليها. ولو صح، كان إقراره بذلك كإقرار إبليس، وتبقى مخالفته عاداً.

﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُمُوعِدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَلْمُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ وهي الغيث والخصب وسعة الرزق والسلامة ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي: نحن مستحقوها على ما جرى لنا من العادة في سعة الرزق، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروا عليه. ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وهي

القحط والجذب والبلاء ﴿يَطْرُقُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي: يتشاءموا بهم. وكانت العرب تزجر الطير، فتشامم بالبارح، وهو الذي يأتي من جهة الشمال، وتترك بالسانح، وهو الذي يأتي من جهة اليمين.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّا طَارِبُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال أبو عبيدة: «ألا» تنبيه وتوكيد ومجاز. «طاربهم» حظهم ونصيبهم. وقال ابن عباس ﴿أَلَا إِنَّا طَارِبُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إن الذي أصابهم من الله. وقال الزجاج: المعنى: ألا إن الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وعدوا به في الآخرة، لا ما ينالهم في الدنيا.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَكُنَّ بِهَا مِمَّا مَحَنَ لَكَ بِمُؤَيَّبِكَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّمَّاجَ وَالدمَّ مَكِيدًا مُفَصَّلًا فَاسْتَكَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا﴾ قال الزجاج: زعم النحويون أن أصل «مهما» ماما، ولكن أبدل من الألف الأولى الهاء ليختلف اللفظ، ف «ما» الأولى هي «ما» الجزاء، و «ما» الثانية هي التي تزداد تأكيداً للجزاء، ودليل النحويين على ذلك أنه ليس شيء من حروف الجزاء إلا و «ما» تزداد فيه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَتَّقَنَّهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] كقولك: إن تتقنهم، وقال: ﴿وَمَا تَرْضَىٰ عَنْهُمْ﴾ [الإسراء: ٢٨]، وتكون «ما» الثانية للشرط والجزاء، والتفسير الأول هو الكلام، وعليه استعمال الناس. قال ابن الأنباري: فعلى قول من قال: إن معنى «مه» الكف، يحسن الوقف على «مه»، والاختيار أن لا يوقف عليها دون «ما» لأنها في المصحف حرف واحد. وفي الطوفان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الماء. قال ابن عباس: أرسل عليهم مطر دائم الليل والنهار ثمانية أيام، وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبيرة، وقتادة، والضحاك، وأبو مالك، ومقاتل، واختاره الفراء، وابن قتبية. والثاني: أنه الموت، روته عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم،^(١) وبه قال مجاهد، وعطاء، ووهب بن منبه، وابن كثير. والثالث: أنه الطاعون، نقل عن مجاهد، ووهب أيضاً. وفي القمل سبعة أقوال: أحدها: أنه السوس الذي يقع في الحنطة، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وقال به. والثاني: أنه الدبى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعطاء. وقال قتادة: القمل: أولاد الجراد. وقال ابن فارس: الدبى: الجراد إذا تحرك قبل أن تنبت أجنحته. والثالث: أنه دواب سود صغار، قاله الحسن، وسعيد بن جبيرة. وقيل: هذه الدواب هي السوس. والرابع: أنه الجعلان، قاله حبيب بن أبي ثابت. والخامس: أنه القمل، ذكره عطاء الخراساني، وزيد بن أسلم. والسادس: أنه البراغيث، حكاه ابن زيد. والسابع: أنه الحمنان، واحدها: حمنانة، وهي ضرب من القردان، قاله أبو عبيدة. وقرأ الحسن، وعكرمة، وابن يعمر: «القمل» برفع القاف وسكون الميم. وفي الدم قولان: أحدهما: أن ماءهم صار دماً، قاله الجمهور. والثاني: أنه رعا ف أصابهم، قاله زيد بن أسلم.

(الإشارة إلى شرح القصة)

قال ابن عباس: جاءهم الطوفان، فكان الرجل لا يقدر أن يخرج إلى ضيعته، حتى خافوا الغرق، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشفه عنا، ونؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل؛ فدعا لهم، فكشفه الله عنهم، وأبنت لهم شيئاً لم يبتئته قبل ذلك، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل ما أبنت الأرض، فقالوا: ادع لنا ربك، فدعا، فكشف الله عنهم، فأحزروا زروعهم في البيوت، فأرسل الله عليهم القمل، فكان الرجل يخرج بطحين عشرة أجرة إلى الرحي، فلا يرى منها ثلاثة أقدرة، فسألوه، فدعا لهم، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضفادع، ولم يكن شيء أشد منها، كانت تجيء إلى القدور وهي تغلي وتفور، فتلقي أنفسها فيها، فتفسد طعامهم وتطفئ نيرانهم، وكانت الضفادع بريّة، فأورثها الله تعالى برد الماء والثرى إلى يوم القيامة، فسألوه، فدعا لهم، فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الدم، فحرت أنهارهم وقلبهم دماً، فلم يقدروا على الماء العذب، وبنو إسرائيل في الماء العذب، فإذا دخل الرجل منهم يستقي من أنهار بني إسرائيل صار ما دخل فيه دماً، والماء من بين يديه ومن خلفه صافٍ عذب لا يقدر

(١) «الطبري» ٥١/١٣ وفي سنده المنهال بن خليفة العجلي وهو ضعيف، والحجاج بن أرطاة صدوق كثير الخطأ والتدليس. وخرجه ابن كثير ٢٤٠/٢ رواية ابن مردويه عن يحيى بن يمان به وقال: وهو حديث غريب.

عليه، فقال فرعون: أقسم باللهي يا موسى لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل، فدعا موسى، فذهب الدم وَعَدَبَ ماؤهم، فقالوا: والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنصَلِّتٌ﴾ قال ابن قتيبة: بين الآية والآية فصل. قال المفسرون: كانت الآية تمكث من السبت إلى السبت، ثم يقون عقيب رفعها شهراً في عافية، ثم تأتي الآية الأخرى. قال وهب بن منبه: بين كل آيتين أربعون يوماً. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: مكث موسى في آل فرعون بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم الآيات، الجراد والقمل والضفادع والدم. وفي قوله: ﴿فَأَسْتَكْبِرُوا﴾ قولان: أحدهما: عن الإيمان. والثاني: عن الانزجار.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِكْرَامًا جِئْنَا بِمَاءٍ غَدِقٍ ﴿١٣٥﴾ وَإِنَّا لَنَاقِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي: نزل بهم العذاب. وفي هذا العذاب قولان: أحدهما: أنه طاعون أهلكت منهم سبعين ألفاً، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير. والثاني: أنه العذاب الذي سلطه الله عليهم من الجراد والقمل وغير ذلك، قاله ابن زيد. قال الزجاج: «الرجز»: العذاب، أو العمل الذي يؤدي إلى العذاب. ومعنى الرجز في العذاب: أنه المقلقل لشدته قلقلة شديدة متتابعة. وأصل الرجز في اللغة: تتابع الحركات، فمن ذلك قولهم: ناقة رجزاء، إذا كانت ترتعد قوائمها عند قيامها. ومنه رجز الشعر، لأنه أقصر أبيات الشعر، والانتقال من بيت إلى بيت، سريع، نحو قوله:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَلَجْتُ
أُحِبُّ فِيهَا وَأَضْعُ

وزعم الخليل أن الرِّجْزَ ليس بشعر، وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث.

قوله تعالى: ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: بما أوصاك أن تدعوه به. والثاني: بما تقدم به إليك أن تدعوه فيجيبك. والثالث: بما عهد عندك في كشف العذاب عن آمن. والرابع: أن ذلك منهم على معنى القسم، كأنهم أقسموا عليه بما عهد عنده أن يدعو لهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ هُمْ بَلِغُهُمْ﴾ أي: إلى وقت غرقهم. ﴿إِذَا هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يقضون العهد.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: انتصرنا منهم بإحلال نعمتنا بهم، وتلك النعمة تغريقتنا إياهم في اليم. قال ابن قتيبة: اليم: البحر بالسريانية.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا عَنَّا غَافِلِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: عن الآيات، وغفلتهم: تركهم الاعتبار بها. والثاني: عن النعمة.

﴿وَأَرْزَأْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَفْتَمُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّتِي بَيْنَ رَجْمَا فِيهَا وَكَمَتَ رَبُّكَ الْحَسَنَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَاوْا عَلَى قَوْمٍ يَتَكَفَّرُونَ عَلَىٰ أَصْنَابِهِمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَرْزَأْنَا الْقَوْمَ﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَفْتَمُونَ﴾ أي: يُسْتَدْلُونَ بذبح الأبناء، واستخدام النساء، وتسخير الرجال. ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: مشارق الشام ومغاربها، قاله الحسن. والثاني: مشارق أرض الشام ومصر. والثالث: أنه على إطلاقه في شرق الأرض وغربها.

قوله تعالى: ﴿الَّتِي بَيْنَ رَجْمَا﴾ قال ابن عباس: بالماء والشجر.

قوله تعالى: ﴿وَوَكَمَتَ رَبُّكَ الْحَسَنَ﴾ وهي وعد الله لبني إسرائيل بإهلاك عدوهم، واستخلافهم في الأرض، وذلك في قوله: ﴿وَرُؤِيدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَفْتَيْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: ٥]، وقد بيَّنا علة تسمية ذلك كله في (آل عمران: ١٤٦).

قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: على طاعة الله تعالى. والثاني: على أذى فرعون.

قوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أي: أهلكتنا ﴿مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ﴾ من العمارات والمزارع. والدمار: الهلاك.

﴿مَا كَانُوا بِعِرْشِكَ﴾ أي: يبنون. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «يعرشون» بكسر الراء هاهنا وفي [النحل: ٦٨]. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: بضم الراء فيهما. وقرأ ابن أبي عيلة: «يعرشون» بالتحديد. قال الزجاج: يقال: عَرَشَ يَعْرِشُ وَيَعْرِشُ: إذا بنى.

قوله تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، ويعقوب: «يَعْكُفُونَ» بضم الكاف. وقوا حمزة، والكسائي، والمفضل: بكسر الكاف. وقرأ ابن أبي عيلة: بضم الياء وتشديد الكاف. قال الزجاج: ومعنى ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَسْوَارِ لَهُمْ﴾: يواظبون عليها ويلازمونها، يقال لكل من لزم شيئاً وواظب عليه: عَكَفَ يَعْكَفُ وَيَعْكُفُ. قال قتادة؛ كان أولئك القوم نزولاً بالرقعة، وكانوا من لحم. وقال غيره: كانت أصنامهم تماثيل البقر. وهذا إخبار عن عظيم جهلهم حيث توهموا جواز عبادة غير الله بعدما رأوا الآيات.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً مَنَعَتْكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ مَنَعَتْكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ قال ابن تقيية: مهلك. والنيار: الهلاك.

﴿قَالَ أَغْرَى اللَّهُ آبَائِكُمْ الْإِنْسَانَ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْغَالِبِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغْرَى اللَّهُ آبَائِكُمْ الْإِنْسَانَ﴾ أي: أطلب لكم، وهذا استفهام إنكار. قال المفسرون، منهم ابن عباس، ومجاهد: العالمون هاهنا: عالموا زمانهم.

﴿إِنَّ أُمَّتَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُؤُونَكُمْ فِي عَمَلِكُمْ وَيَقُولُونَ آثَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيِرُونَ فِيكُمْ﴾ وفي ذلكم بلاءٌ لمن ربكم عظيمٌ ﴿١٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أُمَّتَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُؤُونَكُمْ فِي عَمَلِكُمْ﴾ قرأ ابن عامر: «وإذ أنجاكم» على لفظ الغائب المفرد.

﴿وَوَدَّعْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ بِمِثْلِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَدَّعْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ المعنى: وعدناه انقضاء الثلاثين ليلة. قال ابن عباس: قال موسى لقومه: إن ربي وعدني ثلاثين ليلة، فلما فصل إلى ربه زاده عشراً، فكانت فتنتهم في ذلك العشر. فإن قيل: لم زيد هذا العشر؟ فالجواب: أن ابن عباس قال: صام تلك الثلاثين ليلهن ونهارهن، فلما انسلخ الشهر، كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول شيئاً من نبات الأرض فمضغه، فأوحى الله تعالى إليه: لا كلمتك حتى يعود فوك على ما كان عليه، أما علمت أن رائحة فم الصائم أحب إليّ من ريح المسك؟ وأمره بصيام عشرة أيام. وقال أبو العالية: مكث موسى على الطور أربعين ليلة، فبلغنا أنه لم يحدث حتى هبط منه. فإن قيل: ما معنى: ﴿فَنَمَّ بِمِثْلِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقد علم ذلك عند انضمام العشر إلى الثلاثين؟ فالجواب من وجوه: أحدها: أنه للتأكيد. والثاني: ليدل أن العشر، ليالٍ، لا ساعات. والثالث: ليعني تمام الثلاثين بالعشر أن تكون من جملة الثلاثين، لأنه يجوز أن يسبق إلى الوهم أنها كانت عشرين ليلة فأتمت بعشر. وقد بينا في سورة [البقرة: ٥١] لماذا كان هذا الورد.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ قال ابن عباس: مرهم بالإصلاح. وقال مقاتل: ارفق.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِيُخَبِّرَ آبَاءَهُ بِذُنُوبِهِمْ وَبَلَغَ فِيهِمْ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَالَ إِنِّي أَتَّخِذُكَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِيُخَبِّرَ آبَاءَهُ﴾ قال الزجاج، أي: للوقت الذي وقفتا له. ﴿وَبَلَغَ فِيهِمْ﴾ أسمعهم كلامه، ولم يكن فيما بينه وبين الله شيء فيما سمع أحد. ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي آيَاتِكَ﴾ أي: أرني نفسك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ نَرْبِيَ﴾ تعلق بهذا نفاة الروية وقالوا: «لن» لنفي الأبد، وذلك غلط، لأنها قد وردت وليس المراد بها الأبد في قوله: ﴿لَنْ نَسْمُوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتِمْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥] ثم أخبر عنهم بتمنيهِ في النار بقوله: ﴿يَسْأَلُكَ يَقِينٌ عَنِتَّةَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ١٧]، ولأن ابن عباس قال في تفسيرها: لن تراني في الدنيا. وقال غيره: هذا جواب لقول

موسى: «أرني»، ولم يُرد؛ أرني في الآخرة، وإنما أراد في الدنيا، فأجيب عما سأل. وقال بعضهم: لن تراني بسؤالك. وفي هذه الآية دلالة على جواز الرؤية، لأن موسى مع علمه بالله تعالى، سألها، ولو كانت مما يستحيل لما جاز لموسى أن يسألها، ولا يجوز أن يجهل موسى مثل ذلك، لأن معرفة الأنبياء بالله ليس فيها نقص، ولأن الله تعالى لم ينكر عليه المسألة وإنما منعه من الرؤية، ولو استحالت عليه لقال: «لا أرى»، ألا ترى أن نوحاً لما قال: ﴿إِنَّ آتِيَنِي مِنَ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥] أنكر عليه بقوله: ﴿إِنَّكَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]. ومما يدل على جواز الرؤية أنه علقها باستقرار الجبل، وذلك جائز غير مستحيل، فدل على أنها جائزة، ألا ترى أن دخول الكفار الجنة لما استحال علقه بمستحيل فقال: ﴿حَتَّىٰ يَبِيعَ الْبَيْتَ لِمَنْ لَمْ يَسِرْ لِيَلْبِطْ﴾ [الأعراف: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ أي ثبت ولم يتضعض.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَزَىٰ لِحُبُلِ الْزُجَاجِ﴾ قال الزجاج: ظهر، وبان. ﴿جَمَلَكُمْ دَكَّاءً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿دَكَّاءً﴾ منونة مقصورة هاهنا وفي [الكهف: ٩٨]. وقرأ عاصم: «دكأ» هاهنا منونة مقصورة، وفي [الكهف: ٩٨]: «دكاء» ممدودة غير منونة. وقرأ حمزة، والكسائي: «دكاء» ممدودة غير منونة في الموضعين، قال أبو عبيدة: «جعلته دكأ» أي: مندكأ، والدك: المستوي؛ والمعنى: مستوياً مع وجه الأرض، يقال: ناقة دكأ، أي: ذاهية السنام مستوي ظهرها. قال ابن قتيبة: كان سنامها دكأ، أي: التصق، قال: ويقال: إن أصل دككت: دقتت، فأبدلت القاف كافاً لتقارب المخرجين. وقال أنس بن مالك في قوله: ﴿جَمَلَكُمْ دَكَّاءً﴾: ساخ الجبل. قال ابن عباس: واسم الجبل: زبير، وهو أعظم جبل بمدين، وإن الجبال تطاولت ليتجلى لها، وتواضع زبير فتجلى له.

قوله تعالى: ﴿وَوَحَّرَ مَوْسَىٰ صَوْفًا﴾ فيه قولان: أحدهما: مغشياً عليه، قاله ابن عباس، والحسن، وابن زيد. والثاني: ميتاً، قاله قتادة، ومقاتل، والأول أصح، لقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ وذلك لا يقال للميت. وقيل: بقي في غشيته يوماً وليلة.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ بِنْتُ إِلَيْكَ﴾ فيما تاب منه ثلاثة أقوال: أحدها: سؤاله الرؤية، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: من الإقدام على المسألة قبل الإذن فيها. والثالث: اعتقاد جواز رؤيته في الدنيا. وفي قوله: ﴿وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قولان: أحدهما: أنك لن ترى في الدنيا، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أول المؤمنين من بني إسرائيل، رواه عكرمة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنْطَقَتِيكَ﴾ فتح ياء «إني» ابن كثير، وأبو عمرو. وقرأ ابن كثير، ونافع: «برسالتني». قال الزجاج: المعنى: اتخذتك صفة على الناس برسالاتي وبكلامي، ولو كان إنما سمع كلام غير الله لما قال: ﴿يُرْسَلَتِي وَيَكَلِمِي﴾ لأن الملائكة تنزل إلى الأنبياء بكلام الله.

﴿وَكَبَّتْنَا لَمْ فِي الْأَلْوَجِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَفْقَهُ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسِبَهَا سَأَوْرِيكَ دَارَ النَّاسِقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَبَّتْنَا لَمْ فِي الْأَلْوَجِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في ماهية الألواح سبعة أقوال: أحدها: أنها زبرجد، قاله ابن عباس. والثاني: ياقوت، قاله سعيد بن جبير. والثالث: زمرد أخضر، قاله مجاهد. والرابع: بَرَد، قاله أبو العالية. والخامس: خشب، قاله الحسن. والسادس: صخر، قاله وهب بن منبه. والسابع: زمرد وياقوت، قاله مقاتل. وفي عددها أربعة أقوال: أحدها: سبعة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: لوحان، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء. قال: وإنما سماها الله تعالى ألواحاً، على مذهب العرب في إيقاع الجمع على التثنية، كقوله: ﴿وَكُنَّا لِيَكْتُمُهُمْ شَهِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] يريد داود، وسليمان، وقوله: ﴿فَقَدْ صَمَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [التحريم: ٤]. والثالث: عشرة، قاله وهب. والرابع: تسعة، قاله مقاتل. وفي قوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قولان: أحدهما: من كل شيء يحتاج إليه في دينه من الحلال والحرام والواجب وغيره. والثاني: من الحكم والبيير.

قوله تعالى: ﴿مَوْعِظَةً﴾ أي: نهياً عن الجهل. ﴿وَتَفْصِيلاً﴾ أي: تبييناً لكل شيء من الأمر والنهي والحدود والأحكام.

قوله تعالى: ﴿فَتَذَكَّرْنَا يُقُوزَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بجذ وحزم، قاله ابن عباس. والثاني: بطاعة، قاله أبو العالية. والثالث: بشكر، قاله جوير.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ قَوْمَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ إن قيل: كأن فيها ما ليس بحسن؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن المعنى: يأخذوا بحسنا، وكلها حسن، قاله قطرب. وقال ابن الأنباري: ناب «أحسن» عن «حسن» كما قال الفرزدق: **إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا** **بِنْتًا دَعَائِمُهُ أَعْرُ وَأَطْوَلُ^(١)**

أي: عزيزة طويلة. وقال غيره: «الأحسن» هاهنا صلة، والمعنى: يأخذوا بها. والثاني: أن بعض ما فيها أحسن من بعض. ثم في ذلك خمسة أقوال: أحدها: أنهم أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر، ففعل الخير هو الأحسن. والثاني: أنها اشتملت على أشياء حسنة بعضها أحسن من بعض، كالقصاص والعفو والانتصار والصبر، فأبروا أن يأخذوا بالأحسن، ذكر القولين الزجاج. فعلى هذا القول، يكون المعنى: أنهم يتبعون العزائم والفضائل، وعلى الذي قبله، يكون المعنى: أنهم يتبعون الموصوف بالحسن وهو الطاعة، ويجتنبون الموصوف بالقيح وهو المعصية. والثالث: أحسنها: الفرائض والنوافل، وأدونها في الحسن: المباح. والرابع: أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة، فتصرف إلى الأشبه بالحق. والخامس: أن أحسنها: الجمع بين الفرائض والنوافل.

قوله تعالى: ﴿سَأُزَيِّجُكَ دَارَ النَّسِيمِ﴾ فيها أربعة أقوال: أحدها: أنها جهنم، قاله الحسن، ومجاهد. والثاني: أنها دار فرعون وقومه، وهي مصر، قاله عطية العوفي. والثالث: أنها منازل من هلك من الجابرة والعمالقة، يريهم إياها عند دخولهم الشام، قاله قتادة. والرابع: أنها مصارع الفاسقين، قاله السدي. ومعنى الكلام: سأريكم عاقبة من خالف أمري، وهذا تهديد للمخالف، وتحذير للموافق.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مَائِدًا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ في هذه الآية قولان: أحدهما: أنها خاصة لأهل مصر فيما رأوا من الآيات. والثاني: أنها عامة، وهو أصح. وفي الآيات قون: أحدهما: أنها آيات الكتب المتلوّة. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أمنعهم فهمها. والثاني: أمنعهم من الإيمان بها. والثالث: أصرفهم عن الاعتراض عليها بالإبطال. والثاني: أنها آيات المخلوقات كالسما والأرض والشمس والقمر وغيرها، فيكون المعنى: أصرفهم عن التفكير والاعتبار بما خلقت. وفي معنى يتكبرون قولان: أحدهما: يتكبرون عن الإيمان وأتباع الرسول. والثاني: يحقرّون الناس ويرون لهم الفضل عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «سبيل الرشد» بضم الراء خفيفة. وقرأ حمزة، والكسائي: «سبيل الرشد» بفتح الراء والشين مثقلة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ قال الزجاج: فعل الله بهم ذلك بأنهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، أي: كانوا في تركهم الإيمان بها والتدبر لها بمنزلة الغافلين. ويجوز أن يكون المعنى: وكانوا عن جزائها غافلين.

﴿وَأَخَذَ قَوْمٌ مَوْسَى مِنْ بَدْوِهِ بِنُجُوبِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خِوَارٌ أَنْ يَرَوُا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَدَّبَّرُهُمْ سَبِيلًا فَأَخَذَهُمْ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ قَوْمٌ مَوْسَى مِنْ بَدْوِهِ﴾ أي: من بعد انطلاقه إلى الجبل للميقات. ﴿وَمِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «من حُلِيِّهِمْ» بضم الحاء. وقرأ حمزة، والكسائي: «حُلِيِّهِمْ» بكسر الحاء. وقرأ يعقوب: بفتحها وسكون اللام وتخفيف الياء. والحلي: جمع حَلِيٍّ، مثل نذِيٍّ ونُدِيٍّ، وهو اسم لما يُتَحَسَّنُ به من

الذهب والفضة. قال الزجاج: ومن كسر الحاء من «حليهم» أتبع الحاء كسر اللام. والجسد: هو الذي لا يعقل ولا يميز، إنما هو بمعنى الجثة فقط. قال ابن الأنباري: ذكر الجسد دلالة على عدم الروح منه، وأن شخصه شخص مثال وصورة، غير منضم إليهما روح ولا نفس. فاما الثَّوَار، فهو صوت البقرة، يقال: حَارَتْ البقرة تَحْوَرُ، وَجَارَتْ تَجَارُ؛ وقد نُقِلَ عن العرب أنهم يقولون في مثل صوت الإنسان من البهائم: رَعَا البعير وَجَزَجَرَ وَهَدَرَ وَفَقَبَبَ، وَصَهَلَ الفرس وَحَمَحَمَ، وَشَهَقَ الحمار وَنَهَقَ، وَشَحَجَ البغل، وَتَعَثَ الشاة وَبَعَثَتْ، وَتَأَجَّتِ الثَّعْجَةُ، وَبَعَمَ^(١) الظبي وَنَزَبَ^(٢)، وَزَارَ الأسدُ وَنَهَتَ وَنَأَتَ، وَوَعَوَعَ الذئب، وَنَهَمَ الفيلُ، وَرَزَقَ^(٣) القردُ، وَضَبِحَ الثَّغْلُبُ، وَعَوَى الكَلْبُ وَنَبِحَ، وَمَاءُ السُّتُورِ، وَصَاتَ الفأرة، وَنَعَقَ العُرَابُ معجمة الغين، وَزَقَا الذئبُ وَسَمَعَ، وَصَفَرَ النسرُ، وَهَدَرَ الحمام وَهَدَلَ، وَنَقَّصَتِ الضَّفَادِعُ وَنَقَّتْ، وَعَزَفَتِ الجنُّ. قال ابن عباس: كان العجل إذا خار سجدوا، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم. وفي رواية أبي صالح عنه: أنه خار خورة واحدة ولم يُتبعها مثلاً، وبهذا قال وهب، ومقاتل. وكان مجاهد يقول: خواره حفيف الريح فيه؛ وهذا يدل على أنه لم يكن فيه روح. وقرأ أبو رزين العقيلي، وأبو مجلز: «له جُوراء» بجيم مرفوعة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْفِيهِمْ﴾ أي: لا يستطيع كلامهم. ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: لا يبين لهم طريقاً إلى حجة. ﴿أَتَحْكُدُوهُ﴾ يعني اتخذوه إلهاً. ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: مشركين.

﴿وَكَا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَيْن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لِنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْفًا قَالَ يَنْتَهِ سَخَطْتَنِي مِنْ بَدِيءِ مَا عَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَاللَّيَالِيُ الْأَلْوَابُ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْمَعْتُمْ وَكَادُوا يَفْتَنُونِي فَلَا شَكَّ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا يَجْعَلُنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٥٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُجْلَىٰ سَنَاءً لِمَنْ سَبَّ مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّهُ يَدْلُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ﴿١٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا. قال الزجاج: يقال للرجل الندام على ما فعل، المتحسر على ما فرط: قد سَقَطَ في يده، وأسقط في يده. وقرأ ابن السميع، وأبو عمران الجوني: «سَقَطَ» بفتح السين. قال الزجاج: والمعنى: ولما سَقَطَ الندمُ في أيديهم، شبَّه ما يحصل في القلب وفي النفس بما يُرى بالعين. قال المفسرون: هذا الندم منهم إنما كان بعد رجوع موسى.

قوله تعالى: ﴿لَيْن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «يرحمنا ربنا» ويغفر لنا» بالياء والرفع. وقرأ حمزة، والكسائي: «ترحمنا» وتغفر لنا» بالياء، «ربنا» بالنصب.

قوله تعالى: ﴿غَضَبِنَا أَيْفًا﴾ في الأييف ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحزين، قاله ابن عباس، والحسن، والسدي. والثاني: الجزع، قاله مجاهد. والثالث: أنه الشديد الغضب، قاله ابن قتيبة، والزجاج. وقال أبو الدرداء: الأسف: منزلة وراء الغضب أشد منه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي: لقومه ﴿يَنْتَهِ سَخَطْتَنِي مِنْ بَدِيءِ﴾ فصح ياء «بديء» أهل الحجاز، وأبو عمرو؛ والمعنى: بئس ما عملتم بعد فراقي من عبادة العجل. ﴿عَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ قال الفراء: يقال: عَجَلْتُ الأمر والشئ: سبقته، ومنه هذه الآية. وأعجلته: استحثته. قال ابن عباس: أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له! قال الحسن: يعني وَعَدَ الأربعين ليلة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيَالِيُ الْأَلْوَابُ﴾ التي فيها التوراة. وفي سبب إلقائه إياها قولان: أحدهما: أنه الغضب حين رآهم قد عبدوا العجل، قاله ابن عباس. والثاني: أنه لما رأى فضائل غير أمته من أمة محمد ﷺ اشتد عليه، فألقاها، قاله قتادة، وفيه بُعد. قال ابن عباس: لما رمى بالألواح فتحطمت، رُفِعَ منها ستة أسباع، وبقي سبع.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ في ما أخذ به من رأسه ثلاثة أقوال: أحدها: لحيته وذؤبته. والثاني: شعر رأسه. والثالث: أذنه. وقيل: إنما فعل به ذلك، لأنه توهم أنه عصى الله بمقامه بينهم وترك اللوح به، وتعريفه ما أحدثوا بعده

ليرجع إليهم فيتلافهم ويردهم إلى الحق، وذلك قوله: ﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَّكَ إِذْ كَانَتْهُمْ سَلْوًا ﴿١٥٣﴾ أَلَا تَتَّبِعُونَ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].
قوله تعالى: ﴿إِنِ أُمَّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «قال ابن أم» نصباً. وقرأ ابن عامر،
وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: بكسر الميم، وكذلك في [طه: ٩٤]. قال الزجاج: من فتح الميم، فلكثره
استعمال هذا الاسم، ومن كسر، أضافه إلى نفسه بعد أن جعله اسماً واحداً، ومن العرب من يقول: «يا ابن أمي»
بإثبات الياء. قال الشاعر:

يَا ابْنَ أُمِّي وَيَا شُقَيْقَ نَفْسِي

وقال أبو علي: يحتمل أن يريد من فتح: «يا ابن أم» أمًا، ويحذف الألف، ومن كسر: «ابن أمي» فيحذف الياء.
فإن قيل: لم قال: «يا ابن أم» ولم يقل: «يا ابن أب»؟ فالجواب أن ابن عباس قال: كان أخاه لأبيه وأمه، وإنما قال له
ذلك ليرفقه عليه. قال أبو سليمان الدمشقي: والإنسان عند ذكر الوالدة أرقُّ منه عند ذكر الوالد. وقيل: كان لأمه دون
أبيه، حكاة الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ﴾ يعني عبدة العجل ﴿اسْتَمْتَمُونَ﴾ أي: استدلوني. ﴿فَلَا تَشْمِتُ بِالْأَعْدَاءِ﴾ قرأ عبد الله بن
عباس، ومالك بن دينار، وابن عاصم: «فلا تَشْمِتُ» بقاء مفتوحة مع فتح الميم، «الأعداء» بالرفع. وقرأ مجاهد،
وأبو العالية، والضحاك، وأبو رجاء: «فلا تَشْمِتُ» بفتح التاء وكسر الميم، «الأعداء» بالنصب. وقرأ أبو الجوزاء، وابن
أبي عيلة مثل ذلك، إلا أنهما رفعاً «الأعداء». ويعني بالأعداء: عبدة العجل. ﴿وَلَا تَجْعَلَنِي﴾ في موجدتك وعقوبتك
لي ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهم عبدة العجل. فلما تبين له عذر أخيه ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الجزية، قاله ابن عباس. والثاني: ما أمروا به من
قتل أنفسهم، قاله الزجاج. فعلى الأول يكون ما أضيف إليهم من الجزية في حق أولادهم، لأن أولئك قتلوا ولم يؤدوا
جزية. قال عطية: وهذه الآية فيما أصاب بني قريظة والنضير من القتل والجلاء لتوليهم متخذي العجل ورضاهم به.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ قال ابن عباس: كذلك أعاقب من اتخذ إلهاً دوني. وقال مالك بن أنس: ما
من مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلَّةً، وقرأ هذه الآية. وقال سفيان بن عيينة: ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو
يجد ذلَّةً تغشاه، قال: وهي في كتاب الله تعالى. قالوا: وأين هي؟ قال: أو ما سمعتم قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُكْفِدُوا أَوْجَلَ
سَيَاتِلِهِمْ عَصَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قالوا: يا أبا محمد، هذه لأصحاب العجل خاصة، قال: كلا، اتلوا ما
بعدها. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فهي لكل مفترٍ ومبتدع إلى يوم القيامة.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الشرك. والثاني: الشرك وغيره من الذنوب. ﴿ثُمَّ
تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ يعني السيئات. وفي قوله: ﴿وَمَا آمَنُوا﴾ قولان: أحدهما: آمنوا بالله، وهو يُخْرِجُ على قول من قال: هي
الشرك. والثاني: آمنوا بأن الله تعالى يقبل التوبة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ يعني السيئات.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي سَخَابِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَدُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو عمران «سَكَّتْ» بفتح السين وتشديد الكاف
وبتاء بعدها، «الغضب» بالنصب. وقرأ سعيد بن جبير، وابن يعمر، والجحدري «سَكَّتْ» بضم السين وتشديد الكاف مع
كسرها. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة، وطلحة «سَكَّرَ» بنون. قال الزجاج: «سكت» بمعنى سكن، يقال: سكت يسكت
سَكْتًا: إذا سكن، وسكت يسكت سَكْتًا وسكوتًا: إذا قطع الكلام. قال: وقال بعضهم: المعنى: ولما سكت موسى عن

(١) البيت في «الطبري» ١٣/١٢٩، و«أمالى الزبيدي» ٩، و«جمهرة أشعار العرب» ٢٦٢، و«اللسان»: شفق، وهو لأبي زيد حرملة بن المنذر الطائي من

قصيدة يرثي ابن أخته اللجلاج، ويقال: يرثي أخاه اللجلاج، ويروي البيت:

يَا ابْنَ خَنَسَاءِ شُقَيْقَ نَفْسِي

لِجْلَاجِ خَلْبِيتِنِي لِدهِرٍ شَدِيدِ

ورواية المصنف، هي رواية النحاة جميعاً في كتبهم في «باب النداء». وقوله: «شُقَيْقُ» تصغير شقيق، وهو الأخ.

الغضب، على القلب، كما قالوا: أدخلت القلنسوة في رأسي. والمعنى: أدخلت رأسي في القلنسوة، والأول هو قول أهل العربية.

قوله تعالى: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ﴾ يعني التي كان ألقاها. وفي قوله: ﴿وَفِي نُحُوتِهَا﴾ قولان: أحدهما: وفيما بقي منها؛ قاله ابن عباس. والثاني: وفيما نُسخ فيها؛ قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَابُونَ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنه عام في الذين يخافون الله، وهو معنى قول ابن عباس. والثاني: أنهم أمة محمد ﷺ خاصة، وهو معنى قول قتادة.

﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيِّينَ أَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي لَأَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ إِنَّكَ عَلِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ المعنى: اختار من قومه، فحذف «من»، تقول العرب: اخترتك القوم، أي: اخترتك من القوم، وأنشدوا:

مِنَّا الَّذِي اخْتَارَ الرَّجَالَ سَمَاحَةً
وَجُوداً إِذَا هَبَّ الرِّيحَ الرُّعَازُغُ^(١)

هذا قول ابن قتيبة، والفراء، والزجاج. وفي هذا الميقات أربعة أقوال: أحدها: أنه الميقات الذي وَقَّعَهُ اللهُ لموسى ليأخذ التوراة، أمر أن يأتي معه سبعين، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال نوف البكالي. والثاني: أنه ميقات وَقَّعَهُ اللهُ تعالى لموسى، وأمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ليدعوا ربهم، فدعوا فقالوا: اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً قبلنا، ولا تعطيه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك، وأخذتهم الرجفة؛ رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنه ميقات وَقَّعَهُ اللهُ لموسى، لأن بني إسرائيل قالوا له: إن طائفة تزعم أن الله لا يكلمك، فخذ معك طائفة منا ليسمعوا كلامه فيؤمنوا فتذهب التهمة، فأوحى الله إليه أن اختر من خيارهم سبعين، ثم ارتق بهم على الجبل أنت وهارون، واستخلف يوشع بن نون، ففعل ذلك؛ قاله وهب بن منبه. والرابع: أنه ميقات وَقَّعَهُ اللهُ لموسى ليلقاه في ناس من بني إسرائيل، فيعتذر إليه من فغل عبدة العجل، قاله السدي. وقال ابن السائب: كان موسى لا يأتي ربه إلا بإذن منه. فأما الرجفة فهي الحركة الشديدة. وفي سبب أخذها إياهم أربعة أقوال: أحدها: أنه ادعاهم على موسى قتل هارون؛ قاله علي بن أبي طالب. والثاني: اعتداهم في الدعاء، وقد ذكرناه في رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنهم لم ينهوا عبدة العجل ولم يرضوا؛ نُقل عن ابن عباس. وقال قتادة، وابن جريج: لم يأمرهم بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، ولم يزيلوه. والرابع: أنهم طلبوا استماع الكلام من الله تعالى، فلما سمعوه قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾ [البقرة: ٥٥]؛ قاله السدي وابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي﴾ قال السدي: قام موسى يبكي ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي﴾ قال الزجاج: لو شئت أمئتهم قبل أن تبليهم بما أوجب عليهم الرجفة. وقيل: لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا وإيائي، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونني.

قوله تعالى: ﴿أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ قال المبرِّد: هذا استفهام استعطاف، أي: لا تُهلِكُنَا. وقال ابن الأنباري: هذا استفهام على تأويل الجحد، أراد: لست تفعل ذلك. و«السفهاء» هاهنا: عبدة العجل. وقال

الفراء: ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ أصحابهم العجل. وإنما أهلكوا بقولهم: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الابتلاء، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وأبو العالية. والثاني: العذاب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة.

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا﴾ أي: ناصرنا وحافظنا.

(١) البيت للفردوق، «ديوانه» ٥١٦، و«القائض» ٦٩٦، و«مسيبويه» ١٨/١، و«الكامل» ٣٢/١، و«مالي ابن السجري» ١٨٦/١، و«الخزانة» ٣/٦٦٩، و«اللسان»: خير. وعنى بهذا البيت آباء غالباً، وهو أحد أجواد بني تميم.

﴿ وَكُنْتُ لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ رِزْقَهُمْ مِنْ رَبِّكَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ قَالُوا بِهِ عَزَازَةٌ وَمُنْكَرٌ وَأَتَّبَعُوا النَّوْرَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ قَاتِلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَّبِعُوا لِمَا كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿ وَكُنْتُ لَكَ ﴾ أي: حقق لنا وأوجب ﴿ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ وهي الأعمال الصالحة ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ المغفرة والجنة ﴿ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ ﴾ أي: تبتنا، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبو العالية، وقتادة، والضحاك، والسدي. وقال ابن قتيبة: ومنه ﴿ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ [البقرة: ٦٢] كأنهم رجعوا من شيء إلى شيء. وقرأ أبو وجزة السعدي: ﴿ إِنَّا هِدْنَا بِكسر الهاء. قال ابن الأنباري: المعنى: لا نتغير؛ يقال: هاد يهود ويهيد. قوله تعالى: ﴿ قَالِ عَذَابِ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾. وقرأ الحسن البصري، والأعمش، وأبو العالية: «من أساء» بسين غير معجمة مع النصب.

قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ في هذا الكلام أربعة أقوال: أحدها: أن مخرجه عام ومعناه خاص، وتأويله: ورحمتي وسعت المؤمنين من أمة محمد ﷺ، لقوله تعالى: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ ﴾، قاله ابن عباس. والثاني: أن هذه الرحمة على العموم في الدنيا، والخصوص في الآخرة؛ وتأويلها: ورحمتي وسعت كل شيء في الدنيا، البرِّ والفاجر، وفي الآخرة هي للممتنين خاصة، قاله الحسن، وقتادة. فعلى هذا، معنى الرحمة في الدنيا للكافر أنه يُرزق ويُدفع عنه، كقوله في حق قارون: ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص: ٧٧]. والثالث: أن الرحمة: التوبة، فهي على العموم، قاله ابن زيد. والرابع: أن الرحمة تَسَعُ كل الخلق إلا أن أهل الكفر خارجون منها، فلو قَدَّر دخولهم فيها لوسعتهم، قاله ابن الأنباري: قال الزجاج: وسعت كل شيء في الدنيا^(١) ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ ﴾ في الآخرة. قال المفسرون: معنى «فسأكتبها»: فسأوجبها. وفي الذين يتقون قولان: أحدهما: أنهم الممتقون للشرك، قاله ابن عباس. والثاني: للمعاصي، قاله قتادة. وفي قوله: ﴿ وَرِزْقَهُمْ أَزْكَاةً ﴾ قولان: أحدهما: أنها زكاة الأموال، قاله الجمهور. والثاني: أن المراد بها طاعة الله ورسوله، قاله ابن عباس والحسن، ذهب إلى أنها العمل بما يزكي النفس ويظهرها. وقال ابن عباس، وقتادة: لما نزلت ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ قال إبليس: أنا من ذلك الشيء، فترعها الله من إبليس، فقال: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ وَرِزْقَهُمْ أَزْكَاةً وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فقالت اليهود: نحن نقفي، ونؤتي الزكاة، ونؤمن بآيات ربنا، فترعها الله منهم، وجعلها لهذه الأمة، فقال: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾. وقال نَوْفٌ: قال الله تعالى لموسى: أجعل لكم الأرض طهوراً ومسجداً، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم، وأجعلكم تفرؤن التوراة عن ظهور قلوبكم، يقرؤها الرجل منكم، والمرأة، والحر، والعبد، والصغير، والكبير. فأخبر موسى قومه بذلك، فقالوا: لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس والبيع، ولا أن تكون السكينة إلا في التابوت، ولا أن نقرأ التوراة إلا نظراً، فقال الله تعالى: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ ﴾ إلى قوله: «المفلحون». وفي هؤلاء المذكورين في قوله: ﴿ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ رِزْقَهُمْ أَزْكَاةً ﴾ إلى قوله: ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ قولان: أحدهما: أنهم كل من آمن بمحمد ﷺ، وتبعه، قاله ابن عباس. والثاني: أنه محمد ﷺ، قاله السدي، وقتادة. وفي تسميته بالأمي قولان: أحدهما: لأنه لا يكتب. والثاني: لأنه من أم القرى.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ ﴾ أي: يجدون نعته ونبوته.

قوله تعالى: ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قال الزجاج: يجوز أن يكون مستأنفاً، ويجوز أن يكون «يجدلونه مكتوباً عندهم»

(١) روى مسلم في «صحيحه» ٢١٠٨/٤ عن أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس، والبهائم والبهائم، فيها يتماطفون، وبها يتراحمون، وبها تمطف الوحش على ولبعها، وأثر الله تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة».

أنه يأمرهم بالمعروف. قال ابن عباس: المعروف: مكارم الأخلاق، وصلة الأرحام. والمنكر: عبادة الأوثان، وقطع الأرحام. وقال مقاتل: المعروف: الإيمان، والمنكر: الشرك. وقال غيره: المعروف: الحق، لأن العقول تعرف صحته، والمنكر: الباطل، لأن العقول تنكر صحته. وفي الطيبات أربعة أقوال: أحدها: أنها الحلال، والمعنى: يُحل لهم الحلال. والثاني: أنها ما كانت العرب تستطيعه. والثالث: أنها الشُّحوم المحرمة على بني إسرائيل. والرابع: ما كانت العرب تحرّمه من البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. وفي الخباثت ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الحرام، والمعنى: ويحرّم عليهم الحرام. والثاني: أنها ما كانت العرب تستخبه ولا تأكله، كالحيات، والحشرات. والثالث: ما كانوا يستحلونه من الميتة، والدم، ولحم الخنزير.

قوله تعالى: ﴿وَيَصَعُغُ عَنْهُمْ إصرَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي «إصرهم». وقرأ ابن عامر «أصارهم» ممدودة الألف على الجمع. وفي هذا الإصر قولان: أحدهما: أنه العهد الذي أخذ الله على بني إسرائيل أن يعملوا بما في التوراة، قاله ابن عباس. والثاني: التشديد الذي كان عليهم من تحريم السبت، وأكل الشحوم والعروق، وغير ذلك من الأمور الشاقة، قاله قتادة. وقال مسروق: لقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب، فيصيح وقد كتب على باب بيته: إن كفارته أن تنزع عينك، فنيزعهما.

قوله تعالى: ﴿وَالأَعْظَمَ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: ذكر الأغلل تمثيل، ألا ترى أنك تقول: جعلت هذا طوقاً في عنقك، وليس هناك طوق، إنما جعلت لزومه كالطوق. والأغلل: أنه كان عليهم أن لا يقبل منهم في القتل دية، وأن لا يعملوا في السبت، وأن يقروضوا ما أصاب جلودهم من البول.

قوله تعالى: ﴿فَالذَّيْبُ آمَنُوا بِهِ﴾ يعني بمحمد ﷺ ﴿وَعَزَّزُوا﴾ روى أبان «وعزروه»، بتخفيف الزاي. وفي المعنى قولان: أحدهما: نصره وأعانوه، قاله مقاتل. والثاني: عظّمه، قاله ابن قتيبة. والنور الذي أنزل معه: القرآن سماه نوراً، لأن بيانه في القلوب كبيان النور في العيون. وفي قوله «معه» قولان: أحدهما: أنها بمعنى «عليه». والثاني: بمعنى أنزل في زمانه. قال قتادة: أما نصره، فقد سبقتم إليه، ولكن خيركم من آمن به واتبع النور الذي أنزل معه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُؤْتِي بِالنَّوِّ وَكَانَتِيهِ﴾ في الكلمات قولان: أحدهما: أنها القرآن، قاله ابن عباس. وقال قتادة: كلماته: آياته. والثاني: أنها عيسى ابن مريم، قاله مجاهد، والسدي.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهُودُكَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَبْدُلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهُودُكَ بِالْحَقِّ﴾ فيه قولان: أحدهما: يدعون إلى الحق. والثاني: يعملون به. قوله تعالى: ﴿وَبِهِ يَبْدُلُونَ﴾ قال الزجاج: وبالحق يحكمون. وفي المشار إليهم بهذا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قوم وراء الصين لم تبلغهم دعوة الإسلام، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: أنهم من آمن بالنبي ﷺ مثل ابن سلام وأصحابه، قاله ابن السائب. والثالث: أنهم الذين تمسكوا بالحق في زمن أنبيائهم، ذكره الماوردي.

﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نِسِيبًا﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَمْنَا قَوْمَهُ أَنِ ابْتِغِزْ بِمِصْرِكَ الْحَبْلَ وَأَنْتَ أَخْبَثُ مِنْ كَلْبَيْتِ مَا رَدَقْتَهُمْ وَمَا ظَلَمُوا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُونُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَذَلُّوا حِيلَةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَبِّئْكُمْ لَكُمْ حَاطَاتِكُمْ سَبْرِيذُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا تَرْفِكُ السَّكَّاءَ يَمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَهُمْ﴾ يعني قوم موسى، يقول: فرقناهم: ﴿اثْنَيْ عَشَرَ نِسِيبًا﴾ يعني أولاد يعقوب، وكانوا اثني عشر ولدًا، فولد كل واحد منهم سبطاً. قال الفراء: وإنما قال «اثنتي عشرة» والسبط ذكر، لأن بعده «أمماً» فذهب بالتأنيث إلى الأم، ولو كان «اثني عشر» لتذكير السبط، كان جائزاً. وقال الزجاج: المعنى: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة، «أسباطاً» نعت «فرقة» كأنه يقول: جعلناهم أسباطاً، وفرقناهم أسباطاً، فيكون «أسباطاً» بدلاً من «اثنتي عشرة»

و «أمماً» من نعت أسباط. والأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل لِفُصْل بين ولد إسماعيل وبين ولد إسحاق. وقال أبو عبيدة: الأسباط: قبائل بني إسرائيل، واحدهم: سبط. ويقال: من أي سبط أنت؟ أي: من أي قبيلة وجنس؟ قوله تعالى: ﴿فَأَبْجَسَتْ مِنْهُ﴾ قال ابن قتيبة: انفجرت؛ يقال: تَبَجَّسَ الماء، كما يقال: تَفَجَّرَ؛ والقصة المذكورة في سورة البقرة: ٥٨ - ٦٠.

قوله تعالى: ﴿نَنْزِرُ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «نغفر لكم خطيئاتكم» بالثاء مهموزة على الجمع. وقرأ أبو عمرو ﴿نَنْزِرُ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ مثل: قضاياكم، ولا ثاء فيها. وقرأ نافع «تُغْفَرُ» بالثاء مضمومة «خطيئاتكم» بالهمز وضم الثاء، على الجمع، وافقه ابن عامر في «تُغْفَرُ» بالثاء المضمومة، لكنه قرأ «خطيئتكم» على التوحيد.

﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَمْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاثُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْهُم بِمَا كَانُوا يَسْئُرُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ﴾ يعني أسباط اليهود، وهذا سؤال تقرير وتوبيخ يقرّهم على قديم كفرهم، ومخالفة أسلافهم الأنبياء، ويخبرهم بما لا يعلم إلا بوحي. وفي القرية خمسة أقوال: أحدها: أنها أيلة، رواه ثمره عن ابن مسعود، وأبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وقاتدة، والسدي. والثاني: أنها مدين، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أنها ساحل مدين، روي عن قتادة. والرابع: أنها طبرية، قاله الزهري. والخامس: أنها قرية يقال لها: مقنا، بين مدين وعينونا، قال له ابن زيد. ومعنى: ﴿حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ مجاورة البحر وبقربه. وعلى شاطئه. ﴿إِذْ يَمْدُونَ﴾ قال الزجاج: أي: يظلمون، يقال: عدا فلان يعدو عُذْواناً وَعُدْواً وَعُدْواً: إذا ظلم، وموضع «إذ» نصب؛ والمعنى: سلّمهم عن وقت عُدْوِهِم في السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاثُهُمْ﴾ في موضع نصب أيضاً بـ «يَمْدُونَ» والمعنى: سلّمهم إذ عُدْوا في وقت الإتيان. ﴿شُرْعاً﴾ أي: ظاهرة. ﴿كَذَلِكَ بَلَّوْهُم﴾ أي: مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم بسقمهم. ويحتمل على بعد أن يكون المعنى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ كذلك، أي: لا تأتيتهم شُرْعاً؛ ويكون: ﴿بَلَّوْهُم﴾ مستأنفاً. وقرأ الحسن، والأعمش، وأبان، والمفضل عن عاصم: «يُسْبِتُونَ» بضم الياء.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ يَظُنُّونَ قَوْلًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّاكَ رَبُّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَرُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ قال المفسرون: افترق أهل القرية ثلاث فرق؛ فرقة صادت وأكلت، وفرقة نهت وزجرت، وفرقة أمسكت عن الصيد وقالت للفرقة الناهية: ﴿لِمَ يَظُنُّونَ قَوْلًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ﴾ لا موهم على موعظة قوم يعلمون أنهم غير مقلعين، فقالت الفرقة الناهية: ﴿مَعذِرَةٌ إِيَّاكَ رَبُّكَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «معدرة» رفعاً، أي: موعظتنا إياهم معدرة، والمعنى أن الأمر بالمعروف واجب علينا، فلعلنا موعظة هؤلاء عذراً إلى الله. وقرأ حفص عن عاصم: «معدرة» نصباً، وذلك على معنى نعتذر معدرة. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَرُونَ﴾ أي: وجائز أن يتنفروا بالموعظة فيتركوا المعصية.

﴿فَلَمَّا سَأَلْنَا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّؤْمِ وَأَعَدْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا يَدَابِغَ يَبِيسٍ بِمَا كَانُوا يَسْئُرُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَرَا عَنْ مَا نُفُوا عَنْهُ قَالُوا هُمْ كُونُوا فِرْدَةً حَنِينِ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُوكَ لِيَمَعَنَّ عَلَيْهِمْ إِيَّاكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسْئُرُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الرَّجْمِ ﴿١٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَأَلْنَا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: تركوا ما وعظوا به «أَجَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّؤْمِ» وهم الناهون عن المنكر. والذين ظلموا هم المعتدون في السبت.

قوله تعالى: ﴿يَدَابِغَ يَبِيسٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي؛ «ببئس» على وزن فاعيل، فالهمزة بين الباء والياء. وقرأ نافع: «ببئس» بكسر الباء من غير همز. وقرأ ابن عامر كذلك، إلا أنه همز. وروى خارجة عن نافع: «ببئس» بفتح الباء من غير همز، على وزن «فَعَلِيلٍ». وروى أبو بكر عن عاصم: «ببئس» على وزن «فَعَلِيلٍ». وقرأ

ابن عباس، وأبو رزين، وأيوب: «بَيْتِاسٍ» على وزن «فَيْعَالٍ». وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، ومعاذ القاري: «بَيْسٍ» بفتح الباء وكسر الهمزة من غير ياء على وزن «نَيْسٍ». وقرأ الضحاك، وعكرمة: «بَيْسٍ» بتشديد الباء مثل «قَيْمٍ». وقرأ أبو العالية، وأبو مجلز: «بَيْسٍ» بفتح الباء والسين وبهمزة مكسورة من غير ياء ولا ألف على وزن «فَعُولٍ». وقرأ أبو المتوكّل، وأبو رجاء: «بائِسٍ» بألف ومدة بعد الباء وبهمزة مكسورة بوزن «فَاعِلٍ». قال أبو عبيدة: البئس: الشديد، وأنشد:

حَنَقًا عَلَيَّ وَمَا تَرَى لِي فِيهِمْ أَثْرًا بَيْسًا^(١)

وقال الزجاج: يقال: بئس يئس بأساً. والعاتي: الشديد الدخول في الفساد، المتمرد الذي لا يقبل موعظة. وقال ابن جرير: «فلما عتوا» أي: تمردوا فيما نهوا عنه؛ وقد ذكرنا في سورة [البقرة: ٦٥] قصة مسخهم. وكان الحسن البصري يقول: والله ما لحوم هذه الحيتان بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكُوكُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أعلم، قاله الحسن، وابن قتبية، وقال: هو من أذنتك بالأمر. وقال ابن الأنباري: «تأذن» بمعنى أذن؛ كما يقال: تعلّم أن فلاناً قائم، أي: أعلم. وقال أبو سليمان الدمشقي: أي: أعلم أنبياء بني إسرائيل. والثاني: حتم، قاله عطاء. والثالث: وعد، قاله قطرب. والرابع: تآلى، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود، وقال مجاهد: على اليهود والنصارى بمعاصيهم. ﴿مَنْ يَسْتَوْفِيهِمْ﴾ أي: يوليهم ﴿مَوْتَهُ الْكُتَابِ﴾. وفي المبعوث عليهم قولان: أحدهما: أنه محمد ﷺ وأمه، قاله ابن عباس. والثاني: العرب، كانوا يجبونهم الخراج، قاله سعيد بن جبير، قال: ولم يجب الخراج نبي قط إلا موسى، جباه ثلاث عشرة سنة، ثم أمسك إلى النبي ﷺ. وقال السدي: بعث الله عليهم العرب يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم. وفي سوء العذاب أربعة أقوال: أحدها: أخذ الجزية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: المسكنة والجزية، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: الخراج، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير. والرابع: أنه القتال حتى يُسلموا، أو يُعطوا الجزية.

﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَصْماً مِنْهُمْ أَصْماً مِنَ الَّذِينَ صَلَّحُوا وَمِنْهُمْ ذُرِّيَّةٌ مِنْكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّيْلُ وَالنَّجْمُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَصْماً﴾ قال أبو عبيدة: فرّقناهم فرّقاً. قال ابن عباس: هم اليهود، ليس من بلد إلا وفيه منهم طائفة. وقال مقاتل: هم بنو إسرائيل. وقيل: معناه: شتات أمرهم وافتراق كلمتهم. ﴿وَمِنْهُمْ أَصْماً﴾ وهم المؤمنون بعيسى ومحمد ﷺ. ﴿وَمِنْهُمْ ذُرِّيَّةٌ مِنْكُمْ﴾ وهم الكفار. وقال ابن جرير: إنما كانوا على هذه الصفة قبل أن يُبعث عيسى، وقبل ارتدادهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ﴾ أي: اخترناهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهي الخير، والخصب، والعافية، ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وهي الجذب، والشر، والشدائد؛ فالحسنات والسيئات تحت على الطاعة، أما النعم فلطلب الزيادة منها، وخوف زوالها، والنقم فلكشفها، والسلامة منها. ﴿وَاللَّهُمَّ رَجِعْهُمْ﴾ أي: لكي يتوبوا.

﴿خَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ وَرُوَّاءُ الْكِتَابِ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَمَقُولُونَ سَيَعْبُرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَغْلِبُهُمْ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْأَخْرَجُ حَرٌّ لِلذِّبْرِكَ بَتَقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ﴾ أي: من بعد الذين وصفناهم. ﴿خَلْفٌ﴾ وقرأ الجوني، والمجدي: «خَلَفٌ» بفتح اللام. قال أبو عبيدة: الخَلْفُ والخَلْفُ واحد؛ وقوم يجعلون المحرك اللام، للصلح، والمسكن، لغير الصالح. وقال ابن قتبية: الخَلْفُ: الرديء من الناس ومن الكلام، يقال: هذا خَلْفٌ من القول. وقال ابن الأنباري: أبحر ما تستعمل العرب الخَلْفُ، بإسكان اللام، في الرديء المذموم، وفتح اللام في الفاضل الممدوح. وقد يوقع الخَلْفُ على

(١) البيت لذي الأصابع التذواني، وهو في «الأغاني» ١٠٢/٣، ١٠٣، ومجاز القرآن، لأبي عبيدة ٢٣١/١، و«الطبري» ٢٠١/١٣.

الممدوح، والخَلْفُ على المذموم؛ غير أن المختار ما ذكرناه. وفي المراد بهذا الخَلْفُ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: النصارى. والثالث: أن الخَلْفُ من أمة محمد ﷺ، والقولان عن مجاهد. فإن قيل: الخَلْفُ واحد، فكيف قال: «ياخذون» وكذلك قال في [مریم: ٥٩] «أصاعوا»؟ فقد ذكر ابن الأنباري عنه جوابين: أحدهما: أن الخَلْفُ: جمع خالف، كما أن المركب: جمع راكب، والشَّرْبُ: جمع شارب. والثاني: أن الخَلْفُ مصدر يكون للاثنتين والجميع، والمذكر والمؤنث.

قوله تعالى: ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ أي: انتقل إليهم انتقال الميراث من سلف إلى خلف، فيخرج في الكتاب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التوراة. والثاني: الإنجيل. والثالث: القرآن.

قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: هذه الدنيا، وهو ما يعرض لهم منها. وقيل: سماه عرضاً، لقله بقائه. قال ابن عباس: يأخذون ما أحبوا من حلال أو حرام. وقيل: هو الرثوة في الحكم. وفي وصفه بالأدنى قولان: أحدهما: أنه من الدنوّ. والثاني: أنه من الدناءة.

قوله تعالى: ﴿سَيُفْقَرُ لَنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: إنا لا نواخذ، تمتياً على الله الباطل. والثاني: أنه ذنب يفره الله لنا، تأميلاً لرحمة الله تعالى. وفي قوله: ﴿وَأَنْ يَأْتِيَهُمْ عَرَضٌ يُثَلِّهُ بِأَمْوَالِهِمْ﴾ قولان: أحدهما: أن المعنى: لا يشبعهم شيء، فهم يأخذون لغير حاجة، قاله الحسن. والثاني: أنهم أهل إصرار على الذنوب، قاله مجاهد. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبَدِّلُ الْكَيْتَابَ أَنْ لَمْ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال ابن عباس: وكّد الله عليهم في التوراة أن لا يقولوا على الله إلا الحق، فقالوا الباطل، وهو ما أوجبوا على الله من مغفرة ذنوبهم التي لا يتوبون منها، وليس في التوراة ميعاد المغفرة مع الإصرار.

قوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ معطوف على «ورثوا». ومعنى «درسوا ما فيه»: قرؤوه، فكأنه قال: خالفوا على علم. «وَالنَّارُ الْآخِرَةُ» أي: ما فيها من الثواب ﴿حَبِيرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفْلاً يَتَّقُونَ﴾ أن الباقي خير من الفاني. قرأ ابن عامر، ونافع، وحفص عن عاصم: بالتاء، والباقون: بالياء.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي وحفص عن عاصم «يمسكون» مشددة، وقرؤوا «ولا تسيكوا بعصم الكافرين» مخففة [المتحة: ١٠] وقرأهما أبو عمرو بالتشديد. وروى أبو بكر عن عاصم أنه خففهما. ويقال: مسكت بالشئ، وتمسكت به، واستمسكت به، وامسكت به. وهذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب الذين حفظوا حدوده ولم يحرفوه، منهم [عبد الله] بن سلام وأصحابه. قال ابن الأنباري: وخبر «الذين»: «إنا» وما بعده، وله ضمير مقدر بعد «المصلحين» تأويله: والذين يمسكون الكتاب إنا لا نضيع أجر المصلحين منهم، ولهذه العلة وَعَدَّاهُمْ حفظ الأجر بشرط، إذ كان منهم من لم يصلح. قال: وقلا بعض النحويين: المصلحون يرجعون على الذين، وتلخيص المعنى عنده: والذين يمسكون بالكتاب، وأقاموا الصلاة، إنا لا نضيع أجرهم، فأظهرت كنايةهم بالمصلحين، كما يقال: عليّ لقيت الكسائي، وأبو سعيد رويت عن الخدري، يراد: لقيته ورويت عنه. قال الشاعر:

فيا رَبِّ لَيْسَى أَنْتَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَأَنْتَ الَّذِي فِي رَحْمَةِ اللَّهِ أَظْمَعُ^(١)

أراد في رحمته، فأظهر ضمير الهاء.

﴿وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ أَنَّ أَقْرَبَهُمْ وَطَرًا إِلَى اللَّهِ وَطَرًا إِلَى اللَّهِ وَطَرًا إِلَى اللَّهِ وَطَرًا إِلَى اللَّهِ وَطَرًا إِلَى اللَّهِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ أَنَّ أَقْرَبَهُمْ وَطَرًا إِلَى اللَّهِ وَطَرًا إِلَى اللَّهِ وَطَرًا إِلَى اللَّهِ وَطَرًا إِلَى اللَّهِ وَطَرًا إِلَى اللَّهِ﴾ قال مجاهد: أخرج الجبل من الأرض، ورفع فوقهم كالأقلّة، فقيل لهم: لتؤمننّ أو ليقعنّ عليكم. وقال قتادة: نزلوا في أصل جبل، فرفع فوقهم، فقال: لتأخذنّ أمري، أو لأرمينكم به.

(١) البيت غير منسوب في (معني اللبيب) ٢١٠.

قوله تعالى: ﴿وَعَطَّرْنَا أَنَّهُ رَافِعٌ بِرَبِّهِمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الظن المعروف. والثاني: أنه بمعنى اليقين. وباقية الآية مفسر في سورة [البقرة: ٦٣].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ بَيْنَ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان» - ونعمان قريب من عرفة - ذكره ابن قتيبة «فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها، فنتروهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً، وقال: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»^(١) ومعنى الآية: وإذا أخذ ربكم من ظهور بني آدم. فقولهم: «من ظهورهم» بدل من «بني آدم». وقيل: إنما قال: «من ظهورهم» ولم يقل: من ظهر آدم، لأنه أخرج بعضهم من ظهور بعض، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لأنه قد علم أنهم بنوه، وقد أخرجوا من ظهره. وقوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي «ذُرِّيَّتَهُمْ» على التوحيد. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر «ذُرِّيَّاتِهِمْ» على الجمع. قال أبو علي: الذرية تكون جمعاً، وتكون واحداً. وفي قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أشهدهم على أنفسهم بإقرارهم، قاله مقاتل. والثاني: دلهم بخلقه على توحيد، قاله الزجاج. والثالث: أنه أشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك، قاله ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ والمعنى: وقال لهم: ألسنت بربكم؟ وهذا سؤال تقرير. قالوا: بلى شهدنا أنك ربنا. قال السدي: قوله: «شهدنا» خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم. ويحسن الوقف على قوله: «بلى» لأن كلام الذرية قد انقطع. وزعم الكلبي أن الذرية لما قالت «بلى» قال الله للملائكة: «اشهدوا» فقالوا: «شهدنا». وروى أبو العالية عن أبي بن كعب قال: جمعهم جميعاً، فجعلهم أزواجاً، ثم صورهم، ثم استنطقهم، ثم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ أنك إلهنا. قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم ﴿أَتَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ لم نعلم بهذا. وقال السدي: أجابته طائفة طائعين، وطائفة كارهين تقيّة.

قوله تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا﴾ قرأ أبو عمرو «أن يقولوا»، «أو يقولوا» بالياء فيهما. وقرأ الباقون بالياء فيهما. قال أبو علي: حجة أبي عمرو قوله: «وإذا أخذ ربك» وقوله: «قالوا بلى»، وحجة من قرأ بالياء أنه قد جرى في الكلام خطاب «ألسنت بربكم قالوا بلى شهدنا». ومعنى قوله: «يقولوا»: لثلا يقولوا، ومثله: ﴿أَن تَبَيَّنَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]. وفي قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ قولان: أحدهما: أنه إشارة إلى الميثاق والإقرار. والثاني: أنه إشارة إلى معرفة أنه الخالق. قال المفسرون: هذه الآية تذكير من الله تعالى بما أخذ على جميع المكلفين من الميثاق، واحتجاج عليهم لثلا يقول الكفار: إنا كنا عن هذا الميثاق غافلين لم نذكره، ونسيانهم لا يسقط الاحتجاج بعد أن أخبر الله تعالى بذلك على لسان النبي ﷺ الصادق. وإذا ثبت هذا بقول الصادق، قام في النفوس مقام الذكر، فالاحتجاج به قائم.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ أَفَنُهِّلُونَ بِمَا فَعَلْنَا قَبْلُ﴾ قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ فأتبعنا منهاجهم على جهل منا بالكهنتك ﴿أَفَنُهِّلُكُمْ بِمَا فَعَلْنَا قَبْلُ﴾ في دعواهم أن معك إلهاً. فقطع الله احتجاجهم بمثل هذا، إذ أذكرهم أخذ الميثاق على كل واحد منهم. وجماعة أهل العلم على ما شرحنا من أنه استنطق الذر، وركب فيهم عقولاً وأنهما عرفوا بها ما عرض

(١) «المسند» ١٥١/٤، وهو في «مجمع الزوائد» ٢٥/٧ وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. ونقله ابن كثير في «التفسير» عن أحمد وقال: وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من «سننه» عن محمد بن عبد الرحمن صاعقة عن حسين بن محمد المرزبي به، ورواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً. وأخرجه الحاكم في «مستدرکه» من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبر به، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبیر فوقفه، وكذا رواه إسماعيل بن علي، وكتب عن ربيعة بن كلثوم بن جبر عن أبيه به، وكذا رواه العوفي، وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس، فهذا أكر وأثبت.

عليهم. وقد ذكر بعضهم أن معنى أخذ الذرية: إخراجهم إلى الدنيا بعد كونهم نطفاً، ومعنى إسهادهم على أنفسهم: اضطرارهم إلى العلم بأنه خالقهم بما أظهر لهم من الآيات والبراهين. ولما عرفوا ذلك ودعاهم كل ما يرون ويشاهدون إلى التصديق، كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته، كما قال: ﴿شَهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] يريد: هم بمنزلة الشاهدين، وإن لم يقولوا: نحن كفرة، كما يقول الرجل: قد شهدت جوارحي بصدقتك، أي: قد عرفته. ومن هذا الباب قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٩] أي: بين وأعلم. وقد حكى نحو هذا القول ابن الأنباري، والأول أصح، لموافقة الآثار^(١).

﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْآيَاتِ وَلَمَّا هُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: وكما بيننا في أخذ الميثاق الآيات، ليتدبرها العباد فيعملوا بموجبها. ﴿وَلَمَّا هُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ولكي يرجعوا عما هم عليه من الكفر إلى التوحيد.

﴿وَاتَّكَلَّ عَلَيْهِمْ تَبَاؤُا إِلَهِي مَاتَيْتَهُ مَا يَنْبَغُ فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتَّكَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: هذا نسق على ما قبله، والمعنى: اتل عليهم إذ أخذ ربك، ﴿وَاتَّكَلَّ عَلَيْهِمْ تَبَاؤُا إِلَهِي مَاتَيْتَهُ مَا يَنْبَغُ﴾ وفيه ستة أقوال: أحدها: أنه رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعم بن أبر، قاله ابن مسعود. وقال ابن عباس: بلعم بن باعوراء. وروى عنه: أنه بلعام بن باعور، وبه قال مجاهد، وعكرمة، والسدي. وروى العوفي عن ابن عباس أن بلعاماً من أهل اليمن. وروى عنه ابن أبي طلحة أنه من مدينة الجبارين. والثاني: أنه أمية بن أبي الصلت، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص، وسعيد بن المسيب، وأبو روق، وزيد بن أسلم، وكان أمية قد قرأ الكتب، وعلم أن الله مرسل رسولاً، ورجا أن يكون هو، فلما بعث النبي ﷺ حسده وكفر. والثالث: أنه أبو عامر الراهب، روى الشعبي عن ابن عباس. قال: الأنصار تقول: هو الراهب الذي بُني له مسجد الشقاق، وروى عن ابن المسيب نحوه. والرابع: أنه رجل كان في بني إسرائيل، أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد، وكانت سمجة دميمة، فقالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فدعا الله لها، فلما علمت أن ليس في بني إسرائيل مثلها، رغبت عن زوجها وأرادت غيره، فلما رغبت عنه، دعا الله أن يجعلها كلبه تَبَاؤُا، فذهبت منه فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: ليس بنا على هذا صبر أن صارت أُنثا كلباً تَبَاؤُا يعبرنا الناس بها، فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها أولاً، فدعا الله، فعادت كما كانت، فذهبت فيها الدعوات الثلاث، رواه عكرمة عن ابن عباس، والذي روي لنا في هذا الحديث «وكانت سَوجَة» بكسر الميم، وقد روى سيبويه عن العرب أنهم يقولون: رجل سَمُج: بتسكين الميم، ولم يقولوا: سَمُج؛ بكسرها. والخامس: أنه المنافق، قاله الحسن. والسادس: أنه يكلم من انسلخ من الحق بعد أن أعطيه من اليهود والنصارى والحنفاء، قاله عكرمة. وفي الآيات خمسة أقوال: أحدها: أنه اسم الله الأعظم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال ابن جبير. والثاني: أنها كتاب من كتب الله ﷻ. روى عكرمة عن ابن عباس قال: هو بلعام، أوتي كتاباً فانسلك منه. والثالث: أنه أوتي النبوة، فَوَشاؤه قومه على أن يسكت، ففعل وتركهم على ما هم عليه، قاله مجاهد، وفيه بُعد، لأن الله تعالى لا يصطفي لرسالته إلا معصوماً عن مثل هذه الحال. والرابع: أنها حُجج التوحيد، وفهم أدلته. والخامس: أنها العلم بكتب الله ﷻ. والمشهور في التفسير أنه بلعام، وكان من أمره على ما ذكره المفسرون أن موسى ﷺ غزا البلد الذي هو فيه، وكانوا كفاراً، وكان هو مجاب الدعوة، فقال ملكهم: ادع على موسى، فقال: إنه من أهل ديني، ولا ينبغي لي أن أدعو عليه، فأمر الملك أن تحت خشية لصلبه، فلما رأى ذلك، خرج على أتان له ليدعو على موسى، فلما عاين عسكرهم، وقتت الأتان فضرها، فقالت: لم تضربني، وهذه نار تتوقد قد منعتني أن أمشي؟ فارجع، فارجع إلى الملك فأخبره، فقال: إما أن تدعو عليهم، وإما أن أصلبك، فدعا على موسى باسم الله الأعظم أن لا يدخل المدينة،

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٦٤ في تفسير هذه الآية.

فاستجاب الله له، فوقع موسى وقومه في التيه بدعائه، فقال موسى: يا رب، بأي ذنب وقعنا في التيه؟ فقال: بدعاء بلعم. فقال: يا رب، فكما سمعت دعاءه عليّ، فاسمع دعائي عليه، فدعا الله أن ينزع منه الاسم الأعظم، فنزع منه. وقيل: إن بلعام أمر قومه أن يزيّنوا النساء ويرسلوهنّ في العسكر ليَفْشوا الزنا فيهم، فنصروا عليهم. وقيل: إن موسى قتله بعد ذلك. وروى السدي عن أشياخه أن بلعم أتى إلى قومه متبرّعاً، فقال: لا ترهبوا بني إسرائيل، فإنكم إذا خرجتم لقتالهم، دعوتُ عليهم فهلكوا، فكان فيما شاء عندهم من الدنيا. وذلك بعد مضي الأربعين سنة التي تاهوا فيها، وكان نبيهم يوشع، لاموسى.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرج من العلم بها.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ قال ابن قتيبة: أدركه. يقال: اتَّبَعْتُ القوم: إذا لحقتهم، وتبعتهم: سرتُ في أثرهم. وقرأ طلحة بن مصرف: «فاتَّبعه» بالثشديد. وقال اليزيدي: أتبعه وأتبعه: لغتان. وكان «أتبعه» خفيفة بمعنى: قناه، و«أتبعه» مشددة: حدا حذوه. ولا يجوز أن تقول: أتبعناك، وأنت تريد: أتبعناك، لأن معناها: اقتدينا بك. وقال الزجاج: يقال: تبع الرجل الشيء وأتبعه بمعنى واحد. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعْ هَذَا﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقال: ﴿فَاتَّبَعَهُ فِرْعَوْنُ﴾ [يونس: ٩٠].

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْفَآرِثِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: من الضالين، قاله مقاتل. والثاني: من الهالكين الفاسدين، قاله الزجاج.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ في هاء الكناية في «رفعناه» قولان: أحدهما: أنها تعود إلى الإنسان المذكور، وهو قول الجمهور: فيكون المعنى: ولو شئنا لرفعنا منزلة هذا الإنسان بما علمناه. والثاني: أنها تعود إلى الكفر بالآيات، فيكون المعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بآياتنا، وهذا المعنى مروى عن مجاهد. وقال الزجاج: لو شئنا لحللنا بينه وبين المعصية.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: ركن إلى الدنيا وسكن. قال الزجاج: يقال: أخلد وخلد، والأول أكثر في اللغة. والأرض هاهنا عبارة عن الدنيا، لأن الدنيا هي الأرض بما عليها. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: أنه ركن إلى أهل الدنيا، ويقال: إنه أرضى امرأته بذلك، لأنها حملته عليه. وقيل: أرضى بني عمه وقومه. والثاني: أنه ركن إلى شهوات الدنيا؛ وقد بيّن ذلك بقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ والمعنى أنه انقاد لما دعاه إليه الهوى. قال ابن زيد: كان هواه مع قومه. وهذه الآية من أشد الآيات على أهل العلم إذا مالوا عن العلم إلى الهوى.

قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ﴾ معناه: أن هذا الكافر، إن زجرته لم ينزجر، وإن تركته لم يهتد، فالحالتان عنده سواء كحالتي الكلب، فإنه إن طرد وحُمل عليه بالطرد كان لاهثاً، وإن ترك وريض كان أيضاً لاهثاً، والتشبيه بالكلب اللاهث خاصة؛ فالمعنى: فمثله كمثل الكلب لاهثاً؛ وإنما شبهه بالكلب اللاهث، لأنه أحس الأمثال على أحسن الحالات وأبشعها. وقال ابن قتيبة: كل لاهث إنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب، فإنه يلهث في حال راحته وحال كلاله، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث، أو تركته على حاله رابضاً لهث. قال المفسرون: زَجِرَ في ميانمه عن الدعاء على بني إسرائيل فلم ينزجر، وخاطبته أتانه فلم ينته، فضرب له هذا المثل ولسائر الكفار؛ فذلك قوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ لأن الكافر إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال؛ وهو مع إرسال الرمبل إليه كمن لم يأته رسول ولا بيّنة.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْصَى الْقَصَصِ﴾ قال عطاء: قَصَصَ الذين كفروا وكذبوا أنبياءهم.

﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ وَمَن يُضِلِّلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ ﴿١٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ يقال: ساء الشيء يسوء: إذا فُحِب، والمعنى: ساء مثلاً مثل القوم، فحُذِف المضاف، فنُصِب «مثلاً» على التمييز.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ أي: يَضُرُّون بالمعصية.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئِدَةٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ﴿١٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا. قال ابن تقيية: ومنه ذرية الرجل، إنما هي الخلق منه، ولكن همزها يتركه أكثر العرب.

قوله تعالى: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ هذه اللام يسميها بعض أهل المعاني لام العاقبة، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ رَّحِيماً﴾ (القصص: ٨) ومثله قول الشاعر:

أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا

ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز يعزِّيه بموت ابنه، فقال:

تَعَزَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ

لَمَّا قَدْ تَرَى يُغَذَى الصَّغِيرُ وَيُؤَلَّدُ

وقد أخبر الله ﷻ في هذه الآية بنفاذ علمه فيهم أنهم يصيرون إليها بسبب كفرهم.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لما أعرض القوم عن الحق والتفكر فيه، كانوا بمنزلة من لم يفقه ولم يُبصر

ولم يسمع. وقال محمد بن القاسم النحوي: أراد بهذا كله أمر الآخرة، فإنهم يعقلون أمر الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ شَبَّهَهُم بالأنعام لأنها تسمع وتبصر ولا تعتبر، ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها، فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء يعلم أكثرهم أنه معاند، فيُقدِّم على النار، عن أمر الآخرة.

﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ لَلْمُسْنِ قَادِعُوهُ بِهَا وَذَرَأُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سُبْحَانَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ لَلْمُسْنِ﴾ سبب نزولها أن رجلاً دعا الله في صلاته، ودعا الرحمن، فقال أبو جهل: ليس

يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله هذه الآية، قاله مقاتل. فأما

الحسنى، فهي تأنث الأحسن. ومعنى الآية أن أسماء الله حسنى، وليس المراد أن فيها ما ليس بحسن. وذكر الماوردي

أن المراد بذلك ما مالت إليه النفوس من ذكره بالعمو والرحمة دون السخط والنقمة. وقوله: ﴿قَادِعُوهُ بِهَا﴾ أي: نادوه

بها، كقولك: يا الله، يا رحمن.

قوله تعالى: ﴿وَذَرَأُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «يَلْحَدُونَ»

بضم الياء، وكذلك في [النحل: ١٠٣] [السجدة] [الفصلت: ٤٠]. وقرأ حمزة: «يَلْحَدُونَ» بفتح الحاء والياء فيهن. ووافقه

الكسائي، وخلف في [النحل: ١٠٣]. قال الأخفش: أَلْحَدَ وَلَحَدَ: لغتان؛ فمن قرأ بهما أراد الأخذ باللغتين، فكان

الإلحاد: العدول عن الاستقامة. وقال ابن تقيية: يجورون عن الحق ويعدلون؛ [فيقولون: اللات والعزى ومناة وأشباه

ذلك] ومنه لَحَدُ القبر، لأنه في جانب. قال الزجاج: ولا ينبغي لأحد أن يدعو بما لم يسم به نفسه، فيقول: يا جواد،

ولا يقول: يا سخي؛ ويقول: يا قوي، ولا يقول: يا جلد، ويقول: يا رحيم، ولا يقول: يا رفيق، لأنه لم يصف نفسه

بذلك. قال أبو سليمان الخطابي: ودليل هذه الآية أن الغلط في أسمائه والزيغ عنها إلحادٌ، ومما يُسمع على السنة

العامية قولهم: يا سبحان، يا برهان، وهذا مهجور مستهجن لا قدوة فيه، وربما قال بعضهم: يا رب طه ويس. وقد

أنكر ابن عباس على رجل قال: يا رب القرآن. وروي عن ابن عباس أن إلحادهم في أسمائه أنهم سمَّوا بها أوثانهم،

وزادوا فيها ونقصوا منها، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان.

فصل

والجمهور على أن هذه الآية محكمة، لأنها خارجة مخرج التهديد، كقوله: ﴿ذَرَفَ وَمِنَ خَلْقِكَ وَجِدًا﴾ (١) [المنذر: ١١]، وقد ذهب بعضهم إلى أنها منسوخة بآية القتال، لأن قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلَجِدُونَ فِي أَسْتَجِبَةٍ﴾ يقتضي الإعراض عن الكفار، وهذا قول ابن زيد.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (٢)

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يعملون به، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: وبالعامل به يعدلون. وفيمن أريد بهذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان من هذه الأمة، قاله ابن عباس. وكان ابن جريج يقول: ذُكر لنا أن النبي ﷺ قال: «هذه أمي، بالحق يأخذون ويعطون ويقضون» (٣). وقال قتادة: بلغنا أن النبي ﷺ كان إذا تلا هذه الآية قال: «هذه لكم وقد أعطي القوم مثلها» (٤) ثم يقرأ: ﴿وَمِن قَوْمٍ مُّؤَسَّسَاتٌ يَّهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]. والثاني: أنهم من جميع الخلق، قاله ابن السائب. والثالث: أنهم الأنبياء. والرابع: أنهم العلماء، ذكر القولين الماوردي.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥) وَأَمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَبِينٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: هم أهل مكة. وقال مقاتل: نزلت في المستهزئين من قريش.

قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ قال الخليل بن أحمد: سنطوي أعمارهم في اغترار منهم. وقال أبو عبيدة: الاستدراج: أن يُتدرج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً ولا يُهجم عليه، وأصله من الدرّجة، وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مرقاة مرقاة؛ ومنه: دَرَجَ الكتاب: إذا طواه شيئاً بعد شيء؛ ودرج القوم: إذا ماتوا بعضهم في إثر بعض. وقال الزبيدي: الاستدراج: أن يأتيه من حيث لا يعلم. وقال ابن قتيبة: هو أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً من حيث لا يعلمون، ولا يباغتهم به ولا يجاهرهم. وقال الأزهري: سناخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون؛ وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يعبتهم به ويركونون إليه، ثم يأخذهم على غربتهم أغفل ما يكونون. قال الضحاك: كلما جدوا لنا معصية جددنا لهم نعمة. وفي قوله: ﴿وَمِن حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: من حيث لا يعلمون بالاستدراج. والثاني: بالهلكة.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَلِي لَهُمْ﴾ الإملاء: الإمهال والتأخير.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَيْدِي مَبِينٌ﴾ قال ابن عباس: إن مكري شديد. وقال ابن فارس: الكيد: المكر؛ فكل شيء عالجته فأنت تكيدُه. قال المفسرون: مكر الله وكيدُه: مجازاة أهل المكر والكيد على نحو ما بينا في سورة [البقرة: ١٥] و [آل عمران: ٥٤] من ذكر الاستهزاء والخداع والمكر.

﴿أُولَئِكَ يَنْفَكِرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧) أَوْلَكُمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ قِيَامُ يَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيُّ هَادِيٍّ لَمْ يَدْرِكْهُمُ فِي طَلْعَتِهِمْ يَعْمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنْفَكِرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ، علا على الصفا ليلة، ودعا قريشاً فخذاً فخذاً: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، فحذَّروهم بأس الله وعقابه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوت حتى الصباح، فنزلت هذه الآية (١٠)، قاله الحسن، وقاتده. ومعنى الآية: أولم يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم من جنة، أي: جنون، فحُثُّهم على التفكر في أمره ليعلموا أنه بريء من الجنون. ﴿إِنَّ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا﴾

(١) - «الطبري» ٢٨٦/١٣، وابن كثير: ٢/٢٦٩، وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٣/١٤٩، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٢) - أورده السيوطي في «الدر» ٣/١٤٩ ونسبه لابن جريج، وابن المنذر، وعبد بن حميد.

(٣) - «الطبري» ٢٨٩/١٣، وابن كثير: ٢/٢٧٠. وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبه لابن المنذر، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

يَذِيرُ أَي: مَخَوْفٌ ﴿ثُمَّ يَبِينُ طَرِيقَ الْهُدَى﴾. ثم حثهم على النظر المؤدي إلى العلم فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ليستدلوا على أن لها صناعاً مدبراً؛ وقد سبق بيان الملكوت في سورة الأنعام: [٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ﴾ قرأ ابن مسعود، وأبي، والجحدري: «آجالهم». ومعنى الآية: أولم ينظروا في الملكوت وفيما خلق الله من الأشياء كلها، وفي أن عسى أن تكون آجالهم قد قربت فيهلكوا على الكفر، ويصيروا إلى النار ﴿فِي أَيِّ حَيْثُ بَعْدَهُ يَوْمُهُنَّ﴾ يعني القرآن وما فيه من البيان. ثم ذكر سبب إعرابهم عن الإيمان، فقال: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَكَا هَادِي لَمْ يَنْدُرْهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «ونذرهم» بالنون والرفع. وقرأ أبو عمرو: بالياء والرفع. وقرأ حمزة، والكسائي: «ويُنْزِرُهُمْ» بالياء مع الجزم خفيفة. فمن قرأ بالرفع، استأنف، ومن جزم «ويُنْزِرُهُمْ» عطف على موضع الفاء. قال سيوريه: وموضعها جزم؛ فالمعنى: من يضل الله يذره؛ وقد سبق في سورة [البقرة: ١٥] معنى الطغيان والعمه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِوقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَلُثٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَأْذِنُكَ كَأَنَّكَ حَافِيٌّ عَسَاءٌ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن قوماً من اليهود قالوا: يا محمد، أخبرنا متى الساعة؟ فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أن قريشاً قالت: يا محمد، بيننا وبينك قرابة؛ فبين لنا متى الساعة؟ فنزلت هذه الآية، قاله قتادة^(١). وقال عروة: الذي سأله عن الساعة عتبة بن ربيعة. والمراد بالساعة هاهنا التي يموت فيها الخلق.

قوله تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قال أبو عبيدة: أي: متى مُرْسَاهَا؟ أي: متنهاها. ومرسا السفينة: حيث تنتهي. وقال ابن قتيبة: «أَيَّان» بمعنى: متى؛ و«متى» بمعنى: أي حين، ونرى أن أصلها: أي أوان؛ فحذفت الهمزة [والواو]، وجعل الحرفان واحداً، ومعنى الآية: متى ثبوتها؟ يقال: رسا في الأرض، أي: ثبت، ومنه قيل للجبال: رواسي. قال الزجاج: ومعنى الكلام: متى وقوعها؟

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي: قد استأثر بعلمها ﴿لَا يُحِيطُ بِوقْتِهَا﴾ أي: لا يظهرها في وقتها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ قوله تعالى: ﴿ثَلُثٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: ثقل وقوعها على أهل السموات والأرض، قاله ابن عباس، ووجهه أن الكل يخافونها، محسنهم ومسيئهم. والثاني: عظم شأنها في السموات والأرض، قاله عكرمة، ومجاهد، وابن جريج. والثالث: خفي أمرها، فلم يُعلم متى كونها، قاله السدي. والرابع: أن «في» بمعنى «على» فالمعنى: ثقلت على السموات والأرض، قاله قتادة. قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: فجأة^(٢).

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّكَ حَافِيٌّ عَسَاءٌ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه من المقدم والمؤخر، فتقديره: يسألونك عنها كأنك حفي، أي: برُّ بهم، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حَيْثُ﴾ [مریم: ٤٧]. قال العوفي عن ابن عباس، وأسباط عن السدي: كأنك صديق لهم. والثاني: كأنك حفي بسؤالهم، مجيب لهم. قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: كأنك يعجبك سؤالهم. وقال خصيف عن مجاهد: كأنك تحب أن يسألوك عنها. وقال الزجاج: كأنك قريح بسؤالهم. والثالث: كأنك عالم بها، قاله الضحاک عن ابن عباس، وهو قول ابن زيد، والفراء. والرابع: كأنك استحفيت السؤال عنها حتى علمتها، قاله ابن أبي نجیح عن مجاهد. وقال عكرمة: كأنك سؤل عنها. وقال ابن قتيبة: كأنك معني بطلب

(١) قال أبو جعفر الطبري ٢٩٣/١٣: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قوماً سألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية، وجاتز أن يكون كانوا من قريش، وجاتز أن يكون كانوا من اليهود، ولا خير بذلك عندنا يجوز قطع القول على أي ذلك كان.

(٢) روى البخاري ٧٧/١٣ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ تَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتْبَعُهُمَا وَلَا يَطْوِيَانَهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انصرفت الرجل بلين لفته فلا يطعمه، ولتقوم الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقوم الساعة وقد رفع أكله إلى فيه فلا يطعمها» وهو جزء من حديث طويل، يدل على أن الساعة تأتي بغتة. وقوله: «يلبط حوضه» يفتح أوله من الثلاثي، ويضمه من الرباعي، والمعنى: يصلحه بالطين والمدر، فيسد شقوقه، ليملاء ويستفي منه دوابه.

علمها. وقال ابن الأنباري: فيه تقديم وتأخير، تقديره: يسألونك عنها كأنك حفي بها، والحفي في كلام العرب: المعني.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا يعلمها إلا هو ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال مقاتل في آخرين: المراد بالناس هاهنا أهل مكة. وفي قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: لا يعلمون أنها كائنة، قاله مقاتل. والثاني: لا يعلمون أن هذا مما استأثر الله بعلمه، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُمْ أَعْلَمُ الْقَيْبِ لَاسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوْءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَيَسِّرْ لِقَوْمِي يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَا ضَرًّا﴾ سبب نزلها أن أهل مكة قالوا: يا محمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو، فتشتري فتربح، وبالأرض التي تريد أن تُجدب، فترتحل عنها إلى ما قد أخصب؟ فنزلت هذه الآية، روي عن ابن عباس. وفي المراد بالنفع والضرر قولان: أحدهما: أنه عام في جميع ما ينفع ويضر، قاله الجمهور. والثاني: أن النفع: الهدى، والضرر: الضلالة، قاله ابن جريج.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا ما أراد أن أملكه بتمليكه إياي؛ ومن هو على هذه الصفة فكيف يعلم علم الساعة؟

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ أَعْلَمُ الْقَيْبِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لو كنت أعلم بجدب الأرض وقحط المطر قبل كون ذلك لهيات لسنة الجذب ما يكفيها، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: لو كنت أعلم ما أربح فيه إذا اشترته لاستكثرت من الخير، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثالث: لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح، قاله مجاهد. والرابع: لو كنت أعلم ما أسأل عنه من الغيب لأجبت عنه. ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوْءُ﴾ أي: لم يلحني تكذيب، قاله الزجاج. فأما الغيب، فهو كل ما غاب عنك. ويخرج في المراد بالخير هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه العمل الصالح. والثاني: المال. والثالث: الرزق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوْءُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الفقر، قاله ابن عباس. والثاني: أنه كل ما يسوء، قاله ابن زيد. والثالث: الجنون، قاله الحسن. والرابع: التكذيب، قاله الزجاج. فعلى قول الحسن، يكون هذا الكلام مبتدأ، والمعنى: وما بي من جنون إنما أنا نذير، وعلى باقي الأقوال يكون متعلقاً بما قبله.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَشَنَّهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَتَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لَبِنَ مَا تَبَتْنَا صَليماً لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿لَمَّا آتَتْهُمَا صَليماً جَمَلاً لَمْ شُرَكَاهُ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني بالنفس: آدم، ويزوجها: حواء. ومعنى ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: لِيَأْسُ بِهَا وَيَأْوِي إِلَيْهَا. ﴿فَلَمَّا تَشَنَّهَا﴾ أي: جامعها. قال الزجاج: وهذا أحسن كناية عن الجماع. والحمل، بفتح الحاء: ما كان في بطن، أو أخرجته شجرة. والحمل، بكسر الحاء: ما يُحْمَل. والمراد بالحمل الخفيف: الماء.

قوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت به، قعدت وقامت ولم يُثقلها. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وابن عباس، والضحاك: «فاستمرت به». وقرأ أبي بن كعب، والجنوني: «استمارت به» بزيادة ألف. وقرأ عبد الله بن عمرو، والجحدري: «فمارت به» بألف وتشديد الراء. وقرأ أبو العالية، وأيوب، ويحيى بن يعمر: «فمَرَّتْ به» خفيفة الراء، أي: شكَّت وتمارت أحملت، أم لا؟ ﴿فَلَمَّا أَتَتْكَ﴾، أي: صار حملها ثقيلاً. وقال الأخفش: صارت ذا ثقل. يقال: أثمرنا، أي: صرنا ذوي ثمر.

قوله تعالى: ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا﴾ يعني آدم وحواء ﴿لَبِنَ مَا تَبَتْنَا صَليماً﴾ وفي المراد بالصالح قولان: أحدهما: أنه الإنسان المشابه لهما، وخاف أن يكون بهيمة، هذا قول الأكثرين. والثاني: أنه الغلام، قاله الحسن، وقادة.

شرح السبب في دعائهما

ذكر أهل التفسير أن إبليس جاء حواء، فقال: ما يدريك ما في بطنك، لعله كلب أو خنزير أو حمار؛ وما يدريك من أين يخرج، أيشق بطنك، أم يخرج من فيك، أو منخريك؟ فأحزنها ذلك، فدعوا الله حينئذ، فجاء إبليس فقال: كيف تجدينك؟ قالت: ما أستطيع القيام إذا قعدت، قال: أفرأيت إن دعوتُ الله، فجعله إنساناً مثلك ومثل آدم، أتسمينه باسمي؟ قالت: نعم. فلما ولدته سوياً، جاءها إبليس فقال: لم لا تُسمّيني بي كما وعدتني؟ فقالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث، فسمته: عبد الحارث، وقيل: عبد شمس برضى آدم، فذلك قوله: ﴿فَلَمَّا آتَيْنَاهُنَّ صَاحِبًا فَجَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾^(١). قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «شركاء» بضم الشين والمدّ، جمع شريك. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: «شُرُكًا» مكسورة الشين على المصدر، لا على الجمع. قال أبو علي: من قرأ «شُرُكًا» حذف المضاف، كأنه أراد: جعل له ذا شريك، وذوي شريك؛ فيكون المعنى: جعلاً لغيره شُرُكًا، لأنه إذا كان التقدير: جعل له ذوي شريك، فالمعنى: جعلاً لغيره شُرُكًا؛ وهذه القراءة في المعنى كقراءة من قرأ «شركاء». وقال غيره: معنى «شركاء»: شريكاً، فأوقع الجمع موقع الواحد كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَبَبُوا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤١٧٣]. والمراد بالشريك: إبليس، لأنهما أطاعاه في الاسم، فكان الشرك في الطاعة، لا في العبادة؛ ولم يقصدا أن الحارث ربهما، لكن قصدا أنه سبب نجاة ولدهما؛ وقد يُطلق العبد على من ليس بمملوك. قال الشاعر:

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيًا

وَمَا فِيَّ إِلَّا تِلْكَ مِنْ شَيْمَةِ الْعَبْدِ^(٢)

وقال مجاهد: كان لا يعيش لآدم ولد، فقال الشيطان: إذا وُلِدَ لَكِمْا وَلِدٌ فَسَمِيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فأطاعاه في الاسم، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَيْنَاهُمَا﴾^(٣)، هذا قول الجمهور، وفيه قول ثانٍ، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: ما أشرك آدم، إن أول الآية لشكر، وآخرها مثل ضربه الله لمن يعبد في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَيْنَاهُمَا﴾. وروى قتادة عن الحسن، قال: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهو ذروهم ونصروهم^(٤). وروى عن الحسن، وقاتدة قالاً: الضمير في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ عائد إلى النفس وزوجه من ولد آدم، لا إلى آدم وحواء. وقيل: الضمير راجع إلى الولد الصالح، وهو السليم الخلق، فالمعنى: جعل له ذلك الولد شركاء. وإنما قيل: «جعلاً» لأن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى. قال ابن الأنباري: الذين جعلوا له شركاء اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين هم أولاد آدم وحواء. فتأويل الآية: فلما آتاها صالحاً، جعل أولادَهُمَا له شركاء، فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كما قال: ﴿وَسَتَلِي الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٤٨٢]. وذهب السدي إلى أن قوله: ﴿فَعَتَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في مشركي العرب خاصة، وأنها مفصولة عن قصة آدم وحواء.

﴿أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ قال ابن زيد: هذه لآدم وحواء حيث سمّيا ولدهما عبد شمس، والشمس لا

(١) «الطبري» ٣٠٧/١٣ - ٣٠٨. ثم قال الطبري عقبه: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دعوا الله ربهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطن حواء صالحاً، ليكونان لله من الشاكرين، والصالح قد يشمل معاني كثيرة، منها الصلاح في استواء الخلق، ومنها الصلاح في الدين، والصلاح في العقل والتدبير، وإذا كان ذلك كذلك ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني الصلاح دون بعض، ولا فيه من العقل دليل، وجب أن يعم كما عمه الله فيقال: إنهما قالا: لئن آتيتنا صالحاً بجميع معاني الصلاح.

(٢) البيت للمفتح الكندي وهو في «الحمامة» ٣/ ١١٨٠، و«الأمال» ١/ ٢٧٧، ورواية الشطر الثاني فيهما: «وما شيمة لي غيرها تشبه العبد».

(٣) «الطبري» ٣١٢/١٣، وابن كثير: ٢/ ٢٧٥. وابن طريق ابن أبي حاتم عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب.

(٤) «الطبري» ٣١٥/١٣، وابن كثير: ٢/ ٢٧٥. وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم، مثل كعب أو وهب بن منبه، وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله، إلا أننا برتنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

تخلق شيئاً. وقال غيره: هذا راجع إلى الكفار حيث أشركوا بالله الأصنام، وهي لا تخلق شيئاً. وقوله: ﴿وَمَنْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: وهي مخلوقة. قال ابن الأباري: وإنما قال: «ما» ثم قال: «وهم يُخْلَقُونَ» لأن «ما» تقع على الواحد والاثنين والجميع؛ وإنما قال: «وهم» وهو يعني الأصنام، ون عابديها ادَّعَوْا أنها تعقل وتميز، فأجريت مجرى الناس، فهو كقوله: ﴿رَأَيْتُمْ لِي سَجِدَاتٍ﴾ يوسف: ٤٤، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا السَّمَلُ أَذْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]، وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، قال الشاعر:

تَمَرَّزْتُهَا وَالذِّيكُ يَذْعُو صَبَاحَهُ
وَأُنشِدُ ثَعْلَبَ لَعْبَةَ بْنِ الطَّيِّبِ:

إِذْ أَشْرَفَ الذِّيكُ يَذْعُو بَغْضَ أُسْرَتِهِ
لَمَّا جَعَلَهُ يَدْعُو، جَمَلَ الذِّيكَةَ قَوْمًا، وَجَعَلَهُمْ مَعَازِلَ، وَهَمَّ الَّذِينَ لَا سِلَاحَ مَعَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ أُسْرَةً؛ وَأُسْرَةَ الرَّجُلِ: رَهْطُهُ وَقَوْمُهُ.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَمْ نَفْرَأْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَهْتَوتُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَمْ نَفْرَأْ﴾ يقول: إن الأصنام لا تستطيع نصر مَنْ عبدها، ولا تمنع من نفسها.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمُلْدَى لَا يَسْتَعِزُّوا سِوَاةَ عَلَيْكَ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتَ صَاحِبُهَا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الأصنام، فالمعنى: وإن دعوتهم أيها المشركون أصنامكم إلى سبيل رشاد لا يتبعوكم، لأنهم لا يعقلون. والثاني: أنها ترجع إلى الكفار، فالمعنى: وإن تدع يا محمد هؤلاء المشركين إلى الهدى، لا يتبعوكم، فدعواؤكم إياهم وصمتكم عنهم سواء، لأنهم لا يتقادون إلى الحق. وقرأ نافع «لا يتبعوكم» بسكون التاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أُنْثَلِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿أَلَمْ أَنْزِلْ بِسُورَتِهِمْ آيَاتٍ يَتَّبِعُونَ بِهَا أَرْ لَمْ آيِدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ آعَيْنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَمْ آدَاثٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الْبَرَى نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام: ﴿عِبَادٌ أُنْثَلِكُمْ﴾ في أنهم مسخرون مذللون لأمر الله. وإنما قال «عباد» وقال: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾، وإن كانت الأصنام جماداً، لما بيَّنا عند قوله: ﴿وَمَنْ يُخْلَقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: فليجيبوكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن لكم عندهم نفعاً وثواباً. ﴿أَلَمْ أَنْزِلْ بِسُورَتِهِمْ آيَاتٍ يَتَّبِعُونَ بِهَا﴾ في المصالح: ﴿أَرْ لَمْ آيِدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ في دفع ما يؤذي. وقرأ أبو جعفر «يبطشون» بضم الطاء هاهنا وفي القصص: ١٩ و [الدخان: ١٦]. ﴿أَرْ لَمْ آعَيْنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ المنافع من المضار ﴿أَمْ لَمْ آدَاثٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ تضرعكم ودعاءكم؟ وفي هذا تنبيه على تفضيل العابدين على المعبودين، وتوبيخ لهم حيث عبدوا مَنْ هم أفضل منه. ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ قال الحسن: كانوا يخوفونه بالهتهم، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وهم ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تؤخروا ذلك. وكان ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي يقرأون: «ثم كيدون» بغير ياء في الوصل والوقف. وقرأ أبو عمرو، ونافع في رواية ابن حماد بالياء في الوصل. وروى ورش، وقالون، والمسيبي بغير ياء في الوصل، ولا وقف. فأما «تنظرون» فأثبت فيها الياء يعقوب في الوصل والوقف. ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ﴾ أي: ناصرني.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَهْتَوتُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأصنام ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ أي: لا يقدرّون على منعكم ممن أرادكم بسوء، ولا يمتنعون أنفسهم من سوء أريد بهم.

(١) البيت في «المفضليات» ١٤٣ من تصيدة قالها بعد وقعة القادسية حين التقى المسلمون بالفرس في وقعة بابل سنة ١٣، فهزموهم وتبعوهم إلى المدائن. والمعازيل: العزل من السلاح.

﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهَمَّ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٠١﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ في المراد بهؤلاء قولان: أحدهما: أنهم الأصنام. ثم في قوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ قولان: أحدهما: يواجهونك، تقول العرب: داري تنظر إلى دارك، ﴿وَهَمَّ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لأنه ليس فيهم أرواح. والثاني: وتراهم كأنهم ينظرون إليك، لأن لهم أعياناً مصنوعة، فأسقط كاف التشبيه، كقوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ﴾ [الحج: ٢٢] أي: كأنهم سكارى، ﴿وَهَمَّ لَا يُبْصِرُونَ﴾ في الحقيقة. وإنما أخبر عنهم بالهاء والميم، لأنهم على هيئة بني آدم. والقول الثاني: أنهم المشركون، فالعنى: وتراهم ينظرون إليك بأعينهم ولا يبصرون بقلوبهم.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأُمَّرُ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْكِبْرِيَاءِ﴾ ﴿٢٠٢﴾

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ الميسور، وقد سبق شرحه في سورة [البقرة: ٢١٩]. وفي الذي أمر بأخذ العفو منه ثلاثة أقوال: أحدها: أخلاق الناس، قاله ابن الزبير، والحسن، ومجاهد^(١) فيكون المعنى: اقبل الميسور من أخلاق الناس، ولا تستقص عليهم فتظهر منهم البغضاء. والثاني: أنه المال، وفيه قولان: أحدهما: أن المراد بعفو المال: الزكاة، قاله مجاهد في رواية الضحاك. والثاني: أنها صدقة كانت تؤخذ قبل فرض الزكاة، ثم نسخت بالزكاة، روي عن ابن عباس^(٢). والثالث: أن المراد به: مساهلة المشركين والعفو عنهم، ثم نسخ بآية السيف، قاله ابن زيد^(٣). قوله تعالى: ﴿وَأُمَّرُ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف. وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْكِبْرِيَاءِ﴾ قولان: أحدهما: أنهم المشركون، أمر بالإعراض عنه، ثم نسخ ذلك بآية السيف. والثاني: أنه عام فيمن جهل، أمر بصيانة النفس عن مقابلته على سفههم، وإن وجب عليه الإنكار عليهم. وهذه الآية عند الأكثرين كلها محكمة، وعند بعضهم أن وسطها محكم، وطرفها منسوخان على ما بيّنا.

﴿وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَامْتَسِكْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٠٣﴾ إِنَّكَ الْآيَةُ الْآتِيَةٌ إِذَا سَمَّهِمْ طَلَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَدَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٠٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ قال ابن زيد؛ لما نزلت ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال النبي ﷺ: «يا رب كيف بالغضب؟ فنزلت هذه الآية^(٤). فأما قوله: ﴿وَإِنَّمَا﴾ فقد سبق بيانه في سورة [البقرة] في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقال أبو عبيدة: ومجاز الكلام: وإما تستخفك منه خفة وغضب وعجلة. وقال السدي: النزغ: الوسوسة وحديث النفس. قال الزجاج: النزغ: أدنى حركة تكون، تقول: قد نزغته: إذا حركته. وقد سبق معنى الاستعاذة. قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: «طيف» بغير ألف. وقرأ نافع، وهاصم، وابن عامر، وحمزة: «طائف» بألف ممدوداً مهموزاً. وقرأ ابن عباس، وابن جبير، والجحدري، والضحاك: «طَيْفٌ» بتشديد الياء من غير ألف. وهل الطائف والطيف بمعنى واحد، أم يختلفان؟ فيه قولان: أحدهما: أنها بمعنى واحد، وهما ما كان كالخيال والشيء يلهم بك، حكى عن الفراء. وقال الأخفش: الطيف أكثر في كلام العرب من الطائف، قال الشاعر:

(١) «الطبري»، ٢٢٦/١٣ - ٢٢٧، وابن كثير: ٢٧٧/٢. وروى البخاري في «صحيحه» ٢٢٩/٨ عن عبد الله بن الزبير: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأُمَّرُ بِالْعُرْفِ﴾ قال: ما أنزل الله [أي هذه الآية] إلا في أخلاق الناس. وروى البخاري أيضاً ٢٢٩/٨ أن ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من نفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: يني يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لبيبه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأُمَّرُ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْكِبْرِيَاءِ﴾ ﴿٢٠٢﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان قافاً عند كتاب الله.

(٢) «الطبري» ٣٢٨/١٣.

(٣) وقال «الطبري» ٣٢٩/١٣: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس وارك الخالطة عليهم، وقال: أمر بذلك النبي ﷺ في المشركين.

(٤) «الطبري» ٢٣٣/١٣، وابن كثير: ٢٧٨/٢، وأورده السيوطي في «الدر» ١٥٤/٣ عن ابن جرير الطبري... وابن زيد: هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

أَلَا يَا لَقَوْمٍ لَطِيفِ الْخَيَالِ
والثاني: أن الطائف: ما يطوف حول الشيء، والطيّف: اللّمة والوسوسة والخُطرة، حكي عن أبي عمرو. وروي عن ابن عباس أنه قال: الطائف: اللّمة من الشيطان، والطيّف: الغضب. وقال ابن الأنباري: الطائف: الفاعل من الطيف؛ والطيّف عند أهل اللغة: اللّم من الشيطان؛ وزعم مجاهد أنه الغضب.

قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: تذكروا الله إذا همّوا بالمعاصي فتركوها، قاله مجاهد. والثاني: تفكروا فيما أوضح الله لهم من الحجة، قاله الزجاج. والثالث: تذكروا غضب الله؛ والمعنى: إذا جرّاهم الشيطان على ما لا يحل، تذكروا غضب الله، فأمسكوا، فإذا هم مبصرون لمواضع الخطأ بالتفكير.

﴿وَلِيُخَوِّثَهُمْ بِمُدْرُوتِهِمْ فِي الْآلِي تَهُ لَا يُفْصِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِيُخَوِّثَهُمْ﴾ في هذه الهاء والميم قولان: أحدهما: أنها عائدة على المشركين؛ فتكون هذه الآية مقدّمة على التي قبلها، والتقدير: وأعرض عن الجاهلين، وإخوان الجاهلين، وهم الشياطين ﴿بِمُدْرُوتِهِمْ فِي الْآلِي﴾ قرأ نافع: «يمدونهم» بضم الياء وكسر الميم. والباقون: بفتح الياء وضم الميم. قال أبو علي: عامة ما جاء في التنزيل فيما يُحمّد ويُسْتَحَب: أمددت، على أفعلت، كقوله: ﴿أَيُّدُونِي بِسَالٍ﴾ [النمل: ٣٦] ﴿أَنَّمَا يُؤَدُّرُ بِهِ مِنْ مَالٍ﴾ [المؤمنون: ٥٥] ﴿وَأَمَدَدْنَهُمْ بِفِكَهَةٍ﴾ [الطور: ٢٢]، وما كان على خلافه يجيء على: مددت؛ كقوله: ﴿وَسَلَدُومٌ فِي طَفِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]؛ فهذا يدل على أن الوجه فتح الياء، إلا أن وجه قراءة نافع بمنزلة ﴿فَقَيَّرْتَهُمْ بِسَدَابِ آلِيهِمْ﴾ [التوبة: ٣٤]. قال المفسرون: ﴿بِمُدْرُوتِهِمْ فِي الْآلِي﴾ أي: يزيئونهم لهم، ويريدون منهم لزومه؛ فيكون معنى الكلام: إن الذين اتفقوا إذا جرّهم الشيطان إلى خطيئة، تابوا منها، وإخوان الجاهلين، وهم الشياطين، يمدونهم في الني، هذا قول الأكثرين من العلماء. وقال بعضهم: الهاء والميم ترجع إلى الشياطين، وقد جرى ذكرهم لقوله: «من الشيطان»؛ فالمعنى: وإخوان الشياطين يمدونهم. والثاني: أن الهاء والميم ترجع إلى المتقين؛ فالمعنى: وإخوان المتقين من المشركين، وقيل: من الشياطين يمدونهم في الني، أي: يريدون من المسلمين أن يدخلوا معهم في الكفر، ذكر هذا القول جماعة منهم ابن الأنباري. فإن قيل: كيف قال: «وإخوانهم» وليسوا على دينهم؟ فالجواب: أنا إن قلنا: إنهم المشركون، فجائز أن يكونوا إخوانهم في النسب، أو في كونهم من بني آدم، أو لكونهم يظهرون النصح كالإخوان؛ وإن قلنا: إنهم الشياطين، فجائز أن يكونوا لكونهم مصاحبين لهم، والقول الأول أصح.

قوله تعالى: ﴿تَهُ لَا يُفْصِرُونَ﴾ وقرأ الزهري، وابن أبي عبله: «لا يقصرون» بالتشديد. قال الزجاج: يقال: أقصر يقصّر، وقصّر يقصّر. قال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تقصّر عنهم؛ فعلى هذا يكون قوله: «يقصرون» من فعل الفريقين، وهذا على القول المشهور؛ ويخرج على القول الثاني أن يكون هذا وصفاً للإخوان فقط.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ يعني به المشركين. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: إذا لم تأتهم بآية، سألوها تعنتاً. قاله ابن السائب. والثاني: إذا لم تأتهم بآية لإبطاء الوحي، قاله مقاتل. وفي قوله: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ قولان: أحدهما: هلأ افعلتها من تلقاء نفسك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، والفراء، والزجاج، وابن قتيبة في آخرين، وحكي عن الفراء أنه قال: العرب تقول: اجتبيت الكلام، واختلقتة، وارتجلته: إذا افعلته من قبل نفسك. والثاني: هلأ طلبتها لنا قبل مسألتك؟ ذكره الماوردي؛ والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي: ليس الأمر لي.
قوله تعالى: ﴿هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني القرآن. قال أبو عبيدة: البصائر بمعنى الحجج والبرهان والبيان، واحداً منها: بصيرة. وقال الزجاج: معنى البصائر: ظهور الشيء وبيانه.

(١) البيت لأمية بن عائد في شرح «أشعار الهذليين» ٤٩٤/٢، قال السكري: الطيف: ما جاء في المنام، يقول: هذا الخيال جاء من امرأة نازحة ذات دلال، والدلال: الشكل والهيئة الحسنة، والنازح: البعيد، والأرق: أن يفض عينه مرة ويفتحها أخرى، ويروي: «يؤرق» أي: يسهر فيه.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٤)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ اختلفوا في نزولها على خمسة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة المكتوبة، فقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم، فنزلت هذه الآية (١)، قاله ابن عباس. والثاني: أن المشركين كانوا يأتون رسول الله إذا صلى، فيقول بعضهم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن المسيب. والثالث: أن فتى من الأنصار كان كلما قرأ النبي ﷺ شيئاً، قرأ هو، فنزلت هذه الآية، قاله الزهري. والرابع: أنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم أول ما فرضت، فيجيء الرجل فيقول لصاحبه: كم صليتم؟ فيقول: كذا وكذا، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة. والخاص: أنها نزلت تأمر بالإنصات للإمام في الخطبة يوم الجمعة، روي عن عائشة، وسعيد بن جبير، وعطاء، ومجاهد، وعمرو بن دينار في آخرين (٢).

﴿وَأَذِّنْ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُورًا الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (١٥)

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ في هذا الذكر أربعة أقوال: أحدها: أنه القراءة في الصلاة، قاله ابن عباس؛ فعلى هذا، أمر أن يقرأ في نفسه في صلاة الإسرار. والثاني: أنه القراءة خلف الإمام سراً في نفسه، قاله قتادة. والثالث: أنه ذكر الله باللسان. والرابع: أنه ذكر الله باستدامة الفكر، لا يغفل عن الله تعالى، ذكر القولين الماوردي. وفي المخاطب بهذا الذكر قولان: أحدهما: أنه المستمع للقرآن، إما في الصلاة، وإما من الخطيب، قاله ابن زيد. والثاني: أنه خطاب النبي ﷺ، ومعناه عام في جميع المكلفين.

قوله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ التضرع: الخشوع في تواضع؛ والخيفة: الحذر من عقابه.

قوله تعالى: ﴿وَدُورًا الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الجهر: الإعلان بالشيء؛ ورجل جهير الصوت: إذا كان صوته عالياً. وفي هذا نص على أنه الذكر باللسان؛ ويحتمل وجهين: أحدهما: قراءة القرآن. والثاني: الدعاء، وكلاهما مندوب إلى إخفائه (٣)، إلا أن صلاة الجهر قد بين أدها في قوله: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَاطَبُ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]. فأما الغدو فهو جمع غُدوة؛ والآصال جمع أضل، والأصل جمع أصيل؛ فالآصال جمع الجمع، والآصال: العشيات. وقال أبو عبيدة: هي ما بين العصر إلى المغرب؛ وأنشد:

لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلِهِ وَأَقْعُدُ فِي أَنْبَاءِهِ بِالْأَصَائِلِ (٤)

وروي عن ابن عباس أنه قال؛ يعني بالغدو: صلاة الفجر؛ والآصال: صلاة العصر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (١٦)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا يتكبرون ويتعظمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾. وفي هذه العبادة قولان: أحدهما: الطاعة. والثاني: الصلاة والخضوع فيها. وفي قوله: ﴿يُسَبِّحُونَهُ﴾ قولان: أحدهما: يترهونه عن السوء. والثاني: يقولون: سبحان الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يصلون. وقيل: سبب نزول هذه الآية أن كفار مكة قالوا: أنسجد لما تأمرنا؟ فنزلت هذه الآية تخبر أن الملائكة وهم أكبر شأناً منكم، لا يتكبرون عن عبادة الله. وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله، أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار» (٥).



(١) ذكره السيوطي في «الدرر» ١٥٥/٣ عن ابن مردويه من رواية ابن عباس.

(٢) قال «الطبري» ٣٥٢/١٣: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: أمروا باستماع القرآن في الصلاة إذا قرأ الإمام وكان من خلفه ممن يأم به يسمعه، وفي الخطبة.

(٣) روى البخاري ٩٤/٦، ومسلم ٢٠٧٦/٤ عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غابياً، إنكم تدعون سميماً قريباً وهو معكم» والمفظة لسملم.

(٤) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في «ديوان الهذليين» ١٤١/١، ومجاز القرآن ٢٣٩/١، والأغاني ٥٧/٦، والخزانة ٤٧٩/٢، ٥٦٤.

(٥) رواه مسلم ٨٧/١، وابن ماجه ٣٣٤/١ عن أبي هريرة ﷺ، وأورده السيوطي في «الدرر» ١٥٨/٣ زاد نسبه لليهقي.

سورة الأنفال

وهي مدنية بإجماعهم. وحكى الماوردي عن ابن عباس أن فيها سبع آيات مكيات، أولها: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتَوُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ عَلَى الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَسْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١)
قوله تعالى: ﴿يَسْتَوُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «من قتل قتيلًا فله كذا وكذا، ومن أسر أسيرًا فله كذا وكذا»، فأما المشيخة، فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان، فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقال المشيخة للشبان: أشركونا معكم، فإننا كنا لكم رداءً؛ فأبوا، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فنزلت سورة (الأنفال)، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٢). والثاني: أن سعد بن أبي وقاص أصاب سيفاً يوم بدر، فقال: يا رسول الله، هبه لي، فنزلت هذه الآية، رواه مصعب بن سعد عن أبيه^(٣). وفي رواية أخرى عن سعد قال: قتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأتيت به رسول الله، فقال: «أذهب فاطرحه في القَبَضِ» فرجعت، وبني ما لا يعلمه إلا الله؛ فما جاوزت إلا قريباً حتى نزلت سورة (الأنفال)، فقال: «أذهب فخذ سيفك»^(٤). وقال السدي: اختصم سعد وناس آخرون في ذلك السيف، فسألوا النبي ﷺ، فأخذه النبي ﷺ منهم، فنزلت هذه الآية. والثالث: أن الأنفال كانت خالصة لرسول الله ﷺ، ليس لأحد منها شيء، فسألوه أن يعطيهم منها شيئاً، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وفي المراد بالأنفال ستة أقوال: أحدها: أنها الغنائم، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والضحاك، وأبو عبيدة، والزجاج، وابن قتيبة في آخرين. وواحد الأنفال: نَقْلٌ، قال ليبيد:

إِنَّ تَقْوَى رِيئِنَا خَيْرٌ نَقْلٌ
وَبِإِذْنِ اللَّهِ رِيئِنَا وَعَجَلٌ^(٥)

والثاني: أنها ما نَقَلَهُ رسول الله ﷺ القاتل من سلب قتيله. والثالث: أنها ما شذ من المشركين إلى المسلمين من عَبد أو دابة بغير قتال، قاله عطاء. وهذا والذي قبله مرويان عن ابن عباس أيضاً. والرابع: أنه الخمس الذي أخذه رسول الله ﷺ من الغنائم، قاله مجاهد. والخامس: أنه أنفال السرايا، قاله علي بن صالح بن حَيٍّ. وحكي عن الحسن قال: هي السرايا التي تتقدم أمام الجيوش. والسادس: أنها زيادات يُؤْتَرُ بها الإمام بعض الجيش لما يراه من المصلحة، ذكره الماوردي. وفي «عن» قولان: أحدهما: أنها زائدة، والمعنى: يسألونك الأنفال؛ وكذلك قرأ سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو العالية: «يسألونك الأنفال» بحذف «عن». والثاني: أنها أصل،

(١) «الطبري» ٣٦٨/١٣، ورواه أبو داود في «سننه» ١٠٢/٣ رقم (٢٧٣٧) مع اختلاف يسير، وكذلك البيهقي ٢٩١/٦ - ٢٩٢، والحاكم ١٣١/٢ - ١٣٢، وقال: صحيح، وأقره الذهبي. وخرجه ابن كثير في «تفسيره» ٢٨٤/٢ وزاد نسبه إلى النسائي، وابن حبان، وابن مردويه. وذكره السيوطي في «الدر» ١٥٩/٣، وزاد، نسبه إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٢) «الطبري» ٣٧٦/١٣، ورواه مسلم ٥٣/١٢ - ٥٤ بأطول منه، وخرجه ابن كثير في «تفسيره» ٢٨٣/٢، ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» ٢٩١/٦.
(٣) «المسنند» ٧٨/٣، و«الطبري» ٣٧٣/١٣، و«الأموال» لأبي عبيد (٣٠٣) وهو ضعيف لانقطاعه، فإن محمد بن عبيد الله الثقفي أبو عون لم يدرك سعداً، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام في خلال الخبر: قتلت سعيد بن العاص، وقال غيره: العاص بن سعيد. قال أبو عبيد: هذا عندنا هو المحفوظ. وفي «الإصابة» ٣٦٦/٣: وأخرجه البيهقي من طريق محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعيد قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير، وقتلت أنا سعيد بن العاص، قال الحافظ ابن حجر: كذا فيه، والصواب: العاص بن سعيد بن العاص، فإنه قتل يوم بدر كافراً، أما سعيد بن العاص بن أمية، فإنه مات قبل بدر مشركاً.

(٤) «ديوانه» ١٧٤، و«مجاز القرآن» ٢٤٠/١، و«جمهرة الأسماء» ٧، و«الطبري» ٣٦٦/١٣، و«غريب القرآن» ١٧٧، و«اللسان»: نقل. وقوله: خير نفل، هذه رواية الأصمعي، وروى أبو عبيدة: خير النفل، قال أبو الحسن: النفل: الفضل والعطية. والرئ: مصدر رثت أريت: إذا أبطأت.

والمعنى: يسألونك عن الأفعال لمن هي؟ أو عن حكم الأفعال؛ وقد ذكرنا في سبب نزولها ما يتعلق بالقولين. وذكر أنهم إنما سألوا عن حكمها لأنها كانت حراماً على الأمم قبلهم.

فصل

واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية، فقال بعضهم: إنها ناسخة من وجه، منسوخة من وجه، وذلك أن الغنائم كانت حراماً في شرائع الأنبياء المتقدمين، فنسخ الله ذلك بهذه الآية، وجعل الأمر في الغنائم إلى ما يراه الرسول ﷺ ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأَقْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ فَأَنَّ لِلَّهِ حُمُسُهُ﴾ [الأفعال: ٤١]. وقال آخرون: المراد بالأفعال شيان: أحدهما: ما يجعله الرسول ﷺ لطائفة من شجعان العسكر ومتقدميه، يستخرج به نصحبهم، ويحرضهم على القتال. والثاني: ما يفضل من الغنائم بعد قسمتها كما روي عن ابن عمر قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فغنمنا إبلاً، فأصاب كل واحد منا اثنا عشر بعيراً، ونقلنا بعيراً بعيراً؛ فعلى هذا هي محكمة، لأن هذا الحكم باقٍ إلى وقتنا هذا.

فصل

ويجوز التقلُّ قبل إحراز الغنيمة، وهو أن يقول الإمام: من أصاب شيئاً فهو له، وبه قال الجمهور. فأما بعد إحرازها، ففيه عن أحمد روايتان. وهل يستحق القاتل سلب المقتول إذا لم يشترط له الإمام؟ فيه قولان: أحدهما: يستحقه، وبه قال الأوزاعي، والليث، والشافعي. والثاني: لا يستحقه، ويكون غنيمة للجيش، وبه قال أبو حنيفة، ومالك؛ وعن أحمد روايتان كلقولين.

قوله تعالى: ﴿قُلِ الْأَفْئَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ﴾ يحكمان فيها ما أَرَادَا، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك مخالفته ﴿وَأَسْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ قال الزجاج: معنى «ذات بينكم» حقيقة وصلكم. والبين: الوصل؛ كقوله: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]. ثم في المراد بالكلام قولان: أحدهما: أن يرُدَّ القويُّ على الضعيف، قاله عطاء. والثاني: ترك المنازعة تسليماً لله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: اقبلوا ما أمرتم به في الغنائم وغيرها. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ قال الزجاج: إذا ذُكِرَتْ عظمته وقدرته وما خُوف به من عصاه، فزعت قلوبهم، قال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ
عَلَىٰ أَيِّنَا تَغْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ^(١)

يقال: وجِلَّ يُوْجَلُ ويَاجَلُ وَيَبْجَلُ وَيَبْجَلُ، هذه أربع لغات حكاها سيوريه. وأجودها: يُوْجَلُ. وقال السدي: هو الرجل يهيم بالمعصية، فيذكر الله فيتزع عنها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ﴾ أي: آيات القرآن. وفي قوله: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تصديقاً، قاله ابن عباس. والمعنى: أنهم كلما جاءهم شيء عن الله آمنوا به فيزدادوا إيماناً بزيادة الآيات. والثاني: يقيناً، قاله الضحاك. والثالث: خشية الله، قاله الربيع بن أنس. وقد ذكرنا معنى التوكل في [آل عمران: ١٢٢].

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قال ابن عباس: يعني الصلوات الخمس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يعني الزكاة. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ قال الزجاج: «حقاً» منصوب بمعنى دلت عليه الجملة، والجملة «أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ»، فالمعنى: أحق ذلك حقاً. قال مقاتل: المعنى: أولئك هم المؤمنون لا شك في إيمانهم كشك المنافقين. قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال عطاء: درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم، والرزق الكريم: ما أعد لهم فيها.

(١) البيت لمعن بن أوس في «مجاز القرآن» ١/٢٤٠، و«الاتضاب» ٤٦٣، وشرح حماسة أبي تمام للمرزوقي ٣/١١٢٦، و«الحماسة البصرية» ١٤١، و«الخرزانة» ٣/٥٠٥.

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَدْمًا بَيْنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ في متعلق هذه الكاف خمسة أقوال: أحدها: أنها متعلقة بالأنفال. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أن تأويله: امض لأمر الله في الغنائم وإن كرهوا، كما مضيت في خروجك من بيتك وهم كارهون، قاله الفراء. والثاني: أن الأنفال لله والرسول ﷺ بالحق الواجب، كما أخرجك ربك بالحق، وإن كرهوا ذلك، قاله الزجاج. والثالث: أن المعنى: يسألوك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك في خروجك، حكاه جماعة من المفسرين. والثاني: أنها متعلقة بقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ﴾، والمعنى: إن التقوى والإصلاح خير لكم، كما كان إخراج الله نبيه محمداً خيراً لكم وإن كرهه بعضهم، هذا قول عكرمة. والثالث: أنها متعلقة بقوله: ﴿ يُجَادِلُونَكَ ﴾، فالمعنى: مجادلتم إياك في الغنائم كإخراج الله إياك إلى بدر وهم كارهون، قاله الكسائي. والرابع: أنها متعلقة بقوله: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾، والمعنى: وهم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك من بينك بالحق، ذكره بعض ناقلي التفسير. والخامس: أن «كما» في موضع قسم، معناها؛ والذي أخرجك من بيتك، قاله أبو عبيدة، واحتج بأن «ما» في موضع «الذي» ومنه قوله: ﴿ وَمَا عَلَّقَ الذَّكْرَ وَأَلْفَيْهِ ﴾ [الببل: ٣] قال ابن الأنباري: وفي هذا القول بُعِدَ، لأن الكاف ليست من حروف الإقسام. وفي هذا الخروج قولان: أحدهما: أنه خروجه إلى بدر، وكره ذلك طائفة من أصحابه، لأنهم علموا أنهم لا يظفرون بالغنيمة إلا بالقتال. والثاني: أنه خروجه من مكة إلى المدينة للهجرة. وفي معنى قوله: «بالحق» قولان: أحدهما: أنك خرجت ومعك الحق. والثاني: أنك خرجت بالحق الذي وجب عليك. وفي قوله: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴾ قولان: أحدهما: كارهون خروجك. والثاني: كارهون صرف الغنيمة عنهم، وهذه كراهة الطبع لمشقة السفر والقتال، وليست كراهة لأمر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ يعني في القتال يوم بدر، لأنهم خرجوا بغير عُدَّة، فقالوا: هَلَّا أخبرتنا بالقتال لناخذ العُدَّة، فجادلوه طلباً للرخصة في ترك القتال. وفي قوله: ﴿ بَدْمًا بَيْنَ ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تبين لهم فرضه. والثاني: تبين لهم صوابه. والثالث: تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرت به. وفي «المجادلين» قولان: أحدهما: أنهم طائفة من المسلمين، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنهم المشركون، قاله ابن زيد، فعلى هذا يكون جدالهم في الحق الذي هو التوحيد، لا في القتال. فعلى الأول، يكون معنى قوله: ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ أي: في لقاء العدو ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾، لأن أشد حال من يساق إلى الموت أن يكون ناظراً إليه، وعالمماً به. وعلى قول ابن زيد: كأنما يساقون إلى الموت حين يُدْعَوْنَ إلى الإسلام لكرهتهم إياه.

﴿ وَرَأَى يَدْعُوكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنهَا لَكُمْ وَوَدَّوْكَ أَنْ عَرَّ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُوْثُ لَكُوْ وَرِيدُ اللَّهِ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَتَيْهِ وَيَقَطَّ دَائِرَ الْكُفْرِينِ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيَبْلِلَ النَّبِيْلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُعْتَدِلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَرَأَى يَدْعُوكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ قال أهل التفسير: أقبل أبو سفيان من الشام في عير لقريش، حتى إذا دنا من بدر، نزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بذلك، فخرج في جماعة من أصحابه يريدهم، فبلغهم ذلك فبعثوا عمرو بن ضمضم الغفاري إلى مكة مستغيثاً، فخرجت قريش للمنع عنها، ولحق أبو سفيان بساحل البحر، ففات رسول الله، ونزل جبريل بهذه الآية: ﴿ وَرَأَى يَدْعُوكُمْ اللَّهُ ﴾، والمعنى: اذكروا إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين. والطائفتان: أبو سفيان وما معه من المال، وأبو جهل ومن معه من قريش؛ فلما سبق أبو سفيان بما معه، كتب إلى قريش: إن كنتم خرجتم لئحزوا ركايبكم، فقد أحرزتها لكم. فقال أبو جهل: والله لا نرجع. وسار رسول الله ﷺ يريد القوم، فكره أصحابه ذلك وودوا أن لو نالوا الطائفة التي فيها الغنيمة دون القتال؛ فذلك قوله: ﴿ وَوَدَّوْكَ أَنْ عَرَّ ذَاتِ الشُّوكَةِ ﴾ أي: ذات السلاح. يقال: فلان شاكي السلاح؛ بالتخفيف، وشاكٌ في السلاح؛ بالتشديد، وشائك. قال أبو عبيدة: ومجاز الشوكة الحد؛ يقال: ما أشد شوكة بني فلان، أي: حدهم. وقال الأخفش: إنما أنت ذات الشوكة لأنه يعني الطائفة.

قوله تعالى: ﴿رَبُّيذُ اللَّهِ أَنْ يُحَيِّئَ الْحَيَّ﴾ في المراد بالحق قولان: أحدهما: أنه الإسلام، قاله ابن عباس في آخرين. والثاني: أنه القرآن، والمعنى: يُحَيِّقُ ما أنزل إليك من القرآن.

قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ أي: بعبادته التي سبقت من إعزاز الدين، كقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ١٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَقَطُّ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: يجتث أصلهم؛ وقد بيّننا ذلك في [الأنام: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿لِيُحَيِّئَ الْحَيَّ﴾ المعنى: ويريد أن يقطع دابر الكافرين كيما يحق الحق. وفي هذا الحق القولان المتقدمان. فأما الباطل، فهو الشرك؛ والمجرمون هاهنا: المشركون.

﴿إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلَطْمَإً يَدٍ لِأُولِيئِكَ وَمَا الْأَنْعَامُ إِلَّا مِن عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ﴾ سبب نزولها ما روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلاثمائة وثيف، ونظر إلى المشركين وهم ألف وزيادة، فاستقبل القبلة، ثم مَدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض أبداً» فما زال يستغث ربه ويدعوه، حتى سقط رداؤه، فأناه أبو بكر الصديق فأخذ رداءه فردّاه به، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كذاك^(١) مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك؛ وأنزل الله تعالى هذه الآية^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِذْ﴾ قال ابن جرير: هي من صلة «بيطل». وفي قوله: ﴿تَسْتَفِئُونَ﴾ قولان: أحدهما: تستنصرون. والثاني: تستجيرون. والفرق بينهما أن المستنصر يطلب الظفر، والمستجير يطلب الخلاص. وفي المستغِيثين قولان: أحدهما: أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله الزهري. والثاني: أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله السدي. فأما الإمداد فقد سبق في [آل عمران: ١٢٤]. وقوله: ﴿بِأَلْفٍ﴾ قرأ الضحّاك، وأبو رجاء: «بِأَلْفٍ» بهمزة ممدودة وبألف على الجمع. وقرأ أبو العالية. وأبو المتوكل: «بِأَلْفٍ» برفع الهمزة واللام ويواو بعدها على الجمع. وقرأ ابن حنّظلم^(٣)، والجحدري: «بِأَلْفٍ» بضم الألف واللام من غير واو ولا ألف، وقرأ أبو الجوزاء، وأبو عمران: «بِأَلْفٍ» بياء مفتوحة وسكون اللام من غير واو ولا ألف. فأما قوله: ﴿مُرَدِّفِينَ﴾ فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «مُرَدِّفِينَ» بكسر الدال. قال ابن عباس، وقتادة، والضحّاك، وابن زيد، والفراء: هم المتتابعون. وقال أبو علي: يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكونوا مردفين مثلهم، تقول: أردفت زيدا دابتي؛ فيكون المفعول الثاني محذوفاً في الآية. والثاني: أن يكونوا جاؤوا بعدهم؛ تقول العرب: بنو فلان مردوفونا، أي: هم يجيئون بعدنا. قال أبو عبيدة: مردفين جاؤوا بعداً. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: «مُرَدِّفِينَ» بفتح الدال. قال الفراء: أراد: فَعَلَ ذلك بهم، أي: إن الله أردف المسلمين بهم. وقرأ معاذ القارئ، وأبو المتوكل الناجي، وأبو مجلز: «مُرَدِّفِينَ» بفتح الراء والدال مع التشديد. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو عمران: «مُرَدِّفِينَ» برفع الراء وكسر الدال. وقال الزجاج: يقال: ردف الرجل: إذا ركب خلفه، وأردفته: إذا أركبته خلفي. ويقال: هذه دابة لا تُردف، ولا يقال: لا تُردف. ويقال: ردف الرجل: إذا جثت بعده. فمعنى «مردفين» يأتون فرقة بعد فرقة. ويجوز في اللغة: مُرَدِّفِينَ ومُرَدِّفِينَ، فالدال مكسورة مشددة على كل حال، والراء يجوز فيها الفتح والضم والكسر. قال سيبويه: الأصل مرتددين، فأدغمت التاء في الدال فصارت مُرَدِّفِينَ لأنك طرحت حركة التاء على الراء؛ وإن شئت لم تطرح حركة التاء، وسكرت الراء لالتقاء الساكنين. والذين ضموا الراء، جعلوها تابعة لضممة الميم. وقد سبق في (آل عمران) تفسير قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وكان مجاهد يقول: ما أمد الله النبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من هذه الألف التي ذُكرت في [الأفعال: ١٠]، وما ذُكر الثلاثة والخمسة إلا بشري، ولم يُمدوا بها؛ والجمهور على خلافه، وقد ذكرنا اختلافهم في عدد الملائكة في [آل عمران: ١٢٦].

(١) هكذا وقع لجماهير رواة مسلم «كذاك»، ولبعضهم: «كناك» وكل بمعنى. وفي الطبري، و«مسند أحمد»، وتفسير ابن كثير: كناك.

(٢) «الطبري» ٤٠٩/١٣، ورواه مسلم ١٣٨٤/٣ مطولاً، وأحمد في «المسند» رقم ٢٠٨ و٢٢١.

(٣) هو تميم بن حذلم الضبي أبو سلمة الكوفي.

﴿إِذْ يَبْقِيَكُمْ الْنَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَبْقِيَكُمْ الْنَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ قال الزجاج: «إذ» موضعها نصب على معنى: وما جعله الله إلا بشري، في ذلك الوقت، ويجوز أن يكون المعنى: اذكروا إذ يغشاكم النعاس. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «إذ يغشاكم» بفتح الياء وجزم الغين وفتح الشين وألف «النعاس» بالرفع. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «يُغْشِيكُمْ» بضم الياء وفتح الغين مشددة الشين مكسورة، «النعاس» بالنصب. وقرأ نافع: «يُغْشِيكُمْ» بضم الياء وجزم الغين وكسر الشين، «النعاس» بالنصب. وقال أبو سليمان الدمشقي: الكلام راجع على قوله: ﴿وَلِيُطَهِّرَنَّ بِهِ قُلُوبَكُمْ﴾ إذ يغشاكم النعاس. قال الزجاج: و «أمنة» منصوب: معقول له، كقولك: فعلت ذلك حذر الشر. يقال: أمنتُ آمنُ أماناً وأماناً وأمنةً. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو المتوكل، وأبو العالية، وابن يعمر، وابن محيصن: «أمنةً منه» بسكون الميم.

قوله تعالى: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال ابن عباس: نزل النبي ﷺ يوم بدر، وبينه وبين الماء رملة، وغلبيهم المشركون على الماء، فأصاب المسلمين الظمأ، وجعلوا يصلون محدثين، وألقى الشيطان في قلوبهم الوسوسة، يقول: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون محدثين، فأنزل الله عليهم مطراً، فشرّبوا وتطهروا، واشتد الرمل حين أصابه المطر، وأزال الله رجز الشيطان، وهو وسواسه، حيث قال: قد غلبكم المشركون على الماء. وقال ابن زيد: رجز الشيطان: كيد، حيث أوقع في قلوبهم أنه ليس لكم بهؤلاء القوم طاقة. وقال ابن الأنباري: ساءهم عدم الماء عند فقرهم إليه، فأرسل الله السماء، فزالت وسوسة الشيطان التي تكسب عذاب الله وغيظه، إذ الرجز: العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ الربط: الشد. و «على» في قول بعضهم صلة، فالمعنى: وليربط قلوبكم. وفي الذي ربط به قلوبهم وقواها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الصبر، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه الإيمان، قاله مقاتل. والثالث: أنه المطر الذي أرسله بثبت به قلوبهم بعد اضطرابها بالوسوسة التي تقدم ذكرها.

قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ في هاء «به» فلان: أحدهما: أنها ترجع إلى الماء؛ فإن الأرض كانت ريملة، فاشتدت بالمطر، وثبتت عليها الأقدام، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي في آخرين. والثاني: أنها ترجع إلى الربط، فالمعنى: وثبتت بالربط الأقدام، ذكره الزجاج.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَنْزِلُوا إِلَيْكَ فَأَنْزِلُوا إِلَيْكَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ كُمْ فَعَدُوهُمْ وَأَنْتَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَنْزِلُوا إِلَيْكَ﴾ قال الزجاج: «إذ» في موضع نصب، والمعنى: وليربط إذ يوحى. ويجوز أن يكون المعنى: واذكروا إذ يوحى. قال ابن عباس: وهذا الوحي إلهام.

قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ وهم الذين أمد بهم المسلمين. «أَنْ يَنْزِلُوا إِلَيْكَ» بالبعون والنصرة. «فَأَنْزِلُوا إِلَيْكَ» فيه أربعة أقوال: أحدها: قاتلوا معهم، قاله الحسن. والثاني: بشرهم بالنصر؛ فكان الملك يسير أمام الصف في صورة الرجل، ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم، قاله مقاتل. والثالث: نبتوهم بأشياء تُلَقِّنُونَهَا في قلوبهم تقوى بها، ذكره الزجاج. والرابع: صححوا عزائمهم ونياتهم على الجهاد، ذكره الثعلبي. فأما الرعب، فهو الخوف. قال السائب بن يسار: كنا إذا سألنا يزيد بن عامر السوائي عن الرعب الذي ألقاه الله في قلوب المشركين كيف؟ كان يأخذ الحصى فيرمي به الطست فيطن، فيقول: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا.

قوله تعالى: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ في المخاطب بهذا قولان: أحدهما: أنهم الملائكة. قال ابن الأنباري: لم تعلم الملائكة أين تقصد بالضرب من الناس، فعلمهم الله تعالى ذلك. والثاني: أنهم المؤمنون، ذكره جماعة من

المفسرين. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: فاضربوا الأعناق، و«فوق» صلة، وهذا قول عطية، والضحاك، والأخفش، وابن قتيبة. وقال أبو عبيدة: «فوق» بمعنى «على»، تقول: ضربته فوق الرأس، وضربته على الرأس. والثاني: اضربوا الرؤوس لأنها فوق الأعناق، وبه قال عكوة. وفي المراد بالبنان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الأطراف، قاله ابن عباس، والضحاك. وقال الفراء: عَلَّمَهُم مواضع الضرب، فقال: اضربوا الرؤوس والأيدي والأرجل. وقال أبو عبيدة، وابن قتيبة: البنان: أطراف الأصابع. قال ابن الأنباري: واكتفى بهذا من جملة اليد والرَّجُل. والثاني: أنه كل مَفْصِل، قاله عطية، والسدي. والثالث: أنه الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء، والمعنى: أنه أباحهم قتلهم بكل نوع، هذا قول الزجاج. قال واشتقاق البنان من قولهم: أبْنُ بالمكان: إذا أقام به، فالبنان به يُعْتَمَل كل ما يكون للإقامة والحياة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ﴾ «ذلك» إشارة إلى الضرب، و«شاقوا» بمعنى: جانبوا، فصاروا في شِقِّ غير شِقِّ المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ خطاب للمشركين؛ والمعنى: ذوقوا هذا في عاجل الدنيا. وفي فتح «أن» قولان: أحدهما: بإضمار فعل، تقديره: ذلكم فذوقوه واعلموا أن للكافرين. والثاني: أن يكون المعنى: ذلكم بأن للكافرين عذاب النار. فإذا أقيمت الباء، نصبت. وإن شئت، جعلت «أن» في موضع رفع؛ يريد: ذلكم فذوقوه، وذلكم أن للكافرين عذاب النار، هذا معنى قول الفراء.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَتْ إِلَيْكَ كَفَرُوا حَقًّا فَلَا تُؤْلَمُ الْأَذْيَارُ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّرُهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا أَوْ مُتَحَدِّثًا إِنَّ فِتْنَةَ قَدْحِ بَكَةٍ يَضْرِبُ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَأُهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَيْدُ ﴿١٦﴾﴾
قوله تعالى: ﴿إِذَا لَيْسَتْ إِلَيْكَ كَفَرُوا حَقًّا﴾ الزحف: جماعة يزحفون إلى عدوهم؛ قاله الليث. والتزاحف: التداني والتقارب، قال الأعشى:

لِمَنِ الْقَلَمَاتُ سَيَّرُهُنَّ تَزْحَفُ

قال الزجاج: ومعنى الكلام: إذا واقفتموهم للقتال فلا تدبروا ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ﴾ يوم حربهم ﴿دُبُرِهِ﴾ إلا أن يتحرف ليقاتل، أو يتحيز إلى فئة؛ ف«متحرفاً» و«متحيزاً» منصوبان على الحال. ويجوز أن يكون نصيبهما على الاستثناء؛ فيكون المعنى: إلا رجلاً متحرفاً أو متحيزاً. وأصل متحيز؛ مُتَحَيِّزٌ؛ فأدغمت الياء في الواو.
قوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مرجعه إليها؛ ولا يدل ذلك على التخليد.

فصل

اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هذه خاصة في أهل بدر، وهو مروى عن ابن عباس، وأبي سعيد الخدري، والحسن، وابن جبير، وقتادة، والضحاك. وقال آخرون: هي على عمومها في كل منهزم؛ وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً. وقال آخرون: هي على عمومها، غير أنها نسخت بقوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ سَابِرَةٌ سَابِرَةٌ يَأْتِيُوا بِالنَّارِ﴾ [الأفان: ٦٦] فليس للمسلمين أن يفروا من مثلهم، وبه قال عطاء بن أبي رباح. وروى أبو طالب عن أحمد أنه سئل عن الفرار من الزحف، فقال: لا يفر رجل من رجلين؛ فإن كانوا ثلاثة، فلا بأس. وقد نُقِلَ نحو هذا عن ابن عباس. وقال محمد بن الحسن: إذا بلغ الجيش اثني عشر ألفاً، فليس لهم أن يفروا من عدوهم، وإن كثر عددهم. ونقل نحو هذا عن مالك؛ ووجهه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما هُزِمَ قوم إذا بلغوا اثني عشر ألفاً من قلة»^(١) إذا صبروا وصدقوا.

﴿لَقَدْ تَقَاتَلْتُمْ وَكَلَّكُمُ اللَّهُ قَلْبَهُمْ وَمَا زَيَّنَّا لَهُمْ إِذْ رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَبَّنَا وَسَيِّدُنَا يُغِيثُ الْغَالِبِينَ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾﴾
ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُؤْتِي الْكُفْرِينَ ﴿٨﴾

(١) رواه أبو داود رقم (٢٦١١) عن ابن عباس بلفظ: «لن يغلِبَ اثنا عشر ألفاً من قلة» وقال: والصحيح أنه مرسل، ورواه الترمذي وقال: حسن غريب، ولم يصححه، لأنه يروى مستنداً ومرسلاً ومعضلاً. قال ابن القطان: لكن هذا ليس بجملة فالأقرب صحته.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ وقرأ ابن عامر، وأهل الكوفة إلا عاصماً «ولكن الله قتلهم» ولكن الله رمى بتخفيف النون ورفع اسم الله فيهما. وسبب نزول هذا الكلام أن أصحاب رسول الله ﷺ لما رجعوا عن بدر جعلوا يقولون: قَتَلْنَا وَقَتَلْنَا، هذا معنى قول مجاهد. فأما قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ ففي سبب نزوله ثلاثة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ قال لعلي: «ناولني كفاً من حصباء، فناوله، فرمى به في وجوه القوم، فما بقي منهم أحد إلا وقعت في عينه حصاة»^(١). وقيل: أخذ قبضة من تراب، فرمى بها، وقال: «شاهت الوجوه»؛ فما بقي مشرك إلا سُغِلَ بعينه يعالج التراب الذي فيها، فنزلت: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ وذلك يوم بدر؛ وهذا قول الأكثرين. وقال ابن الأنباري: وتأويل شاهت: قبحت؛ يقال: شاه وجهه يشوه شوهاً وشوهة، ويقال: رجل أشوه، وامرأة شوهاء؛ إذا كانا قبيحين. والثاني: أن أبي بن خلف أقبل يوم أحد إلى النبي ﷺ يريد، فاعترض له رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله ﷺ فخلوا سبيله، وطعنه النبي ﷺ بحرته، فسقط أبي عن فرسه، ولم يخرج من طعته دم، فأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور، فقالوا: إنما هو خدش، فقال: والذي نفسي بيده، لو كان الذي بي بأهل المجاز لماتوا أجمعون، فمات قبل أن يقدّم مكة؛ فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن المسيب عن أبيه. والثالث: أن رسول الله ﷺ رمى يوم خيبر بسهم، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو على فراشه، فنزلت هذه الآية، ذكره أبو سليمان الدمشقي في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ اختلفوا في معنى إضافة قتلهم إليه على أربعة أقوال: أحدها: أنه قتلهم بالملائكة الذين أرسلهم. والثاني: أنه أضاف القتل إليه لأنه تولى نصرهم. والثالث: لأنه ساقهم إلى المؤمنين، وأمكنهم منهم. والرابع: لأنه ألقى الرعب في قلوبهم. وفي قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: وما ظفرت أنت ولا أصبت، ولكن الله أظفرك وأيدك، قاله أبو عبيدة. والثاني: وما بلغ رميك كفاً من تراب أو حصى أن تملأ عيون ذلك الجيش الكثير، إنما الله تولى ذلك؛ قاله الزجاج. والثالث: وما رميت قلوبهم بالرعب إذ رميت وجوههم بالتراب؛ ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَسِّرَ الْتَوْبَةَ لِيُنْذِرَ بِلَاةٍ حَسَنًا﴾ أي: لئبعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والأجر. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَبِيحٌ﴾ لدعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ ببناتهم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ قال الزجاج: موضعه رفع: والمعنى: الأمر ذلكم. وقال غيره: «ذلكم» إشارة إلى القتل والرمي والبلاء الحسن. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ أي: واعلموا أن الله. والذي ذكرناه في فتح «أن» في قوله: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو مذكور في فتح «أن» هذه.

قوله تعالى: ﴿مُؤْمِنٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمر «مُؤْمِنٌ» بفتح الواو وتشديد الهاء منونة «كيداً» بالنصب. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «موهنٌ» ساكنة الواو، «كيداً» بالنصب. وروى حفص عن عاصم موهنٌ كيداً مضاف. والموهن: المضعف، والكيد: المكر.

﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَرُوا فَهُوَ حَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَدُّوا نَعْدًا وَلَنْ نَقُوَّ عَنْكُمْ فَيَنْتَكُمُ فَيَكَا وَكَوْ كَثَرْتَ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أن أصحاب رسول الله ﷺ استنصروا الله وسألوه الفتح، فنزلت هذه الآية؛ وهذا المعنى مروى عن أبي بن كعب، وعطاء الخراساني. والثاني: أن أبا جهل قال: اللهم أينما كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أن المشركين أخذوا بأستار الكعبة قبل خروجهم إلى بدر، فقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم القبيلتين؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله السدي. والرابع: أن المشركين قالوا: اللهم إننا لا نعرف ما جاء به محمد، فافتح بيننا وبينه

بالحق؛ فنزلت هذه الآية، قاله عكرمة. والخامس: أنهم قالوا بمكة: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَطِئِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [الأشغال: ٣٢]، فعذبوا يوم بدر، قاله ابن زيد. فخرج من هذه الأقوال أن في المخاطبين بقوله: «إن تستفتحوا» قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون. والثاني: المشركون؛ وهو الأشهر. وفي الاستفتاح قولان: أحدهما: أنه الاستنصار؛ قاله ابن عباس، والزجاج في آخرين. فإن قلنا: إنهم المسلمون، كان المعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر بالملائكة؛ وإن قلنا: إنهم المشركون؛ احتمل وجهين: أحدهما: إن تستنصروا فقد جاء النصر عليكم. والثاني: إن تستنصروا لأحب الفريقين إلى الله، فقد جاء النصر لأحب الفريقين. والثاني: أن الاستفتاح: طلب الحكم، والمعنى: إن تسألوا الحكم بينكم وبين المسلمين، فقد جاءكم الحكم؛ وإلى هذا المعنى ذهب عكرمة، ومجاهد، وقتادة. فأما قوله: ﴿وَإِنْ تَنَبَّأُوا فَهَرَّ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فهو خطاب للمشركين على قول الجماعة. وفي معناه قولان: أحدهما: إن تنهوا عن قتال محمد ﷺ، والكفر، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: إن تنهوا عن استفتاحكم، فهو خير لكم، لأنه كان عليهم، لا لهم، ذكره الماوردي. وفي قوله: ﴿وَإِنْ تَوَدُّوا نَعْدَ﴾ قولان: أحدهما: وإن تودوا إلى القتال، نُعِدْ إلى هزيمتكم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: وإن تودوا إلى الاستفتاح، نُعِدْ إلى الفتح لمحمد ﷺ، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُّنْفِقَ عَنكَ فَنَتَّكُمُ شَيْئًا﴾ أي: جماعتكم وإن كثرت، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: «وإن الله» بكسر الألف. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «وإن» بفتح الألف. فمن قرأ بكسر «إن» استأنف. قال الفراء: وهو أحب إلي من فتحها. ومن فتحها، أراد: ولأن الله مع المؤمنين. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا تولوا عن رسول الله ﷺ. والثاني: لا تولوا عن أمر رسول الله ﷺ. ﴿وَأَنَّهُ تَسْمَعُونَ﴾ ما نزل من القرآن، روي القولان عن ابن عباس.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿إِنَّ سَرَّ الذُّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ أَلَمُّ أَلْيِكُمُ الَّذِينَ لَا يَحْكُمُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في بني عبد الدار بن قصي، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: في اليهود، قريظة والنضير، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: في المنافقين، قاله ابن إسحاق، والواقدي، ومقاتل. وفي معنى الكلام قولان: أحدها: أنهم قالوا: سمعنا، ولم يتفكروا فيما سمعوا، فكانوا كمن لم يسمع، قاله الزجاج. والثاني: أنهم قالوا: سمعنا سماع من يقبل، وليسوا كذلك، حكي عن مقاتل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَرَّ الذُّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ أَلَمُّ أَلْيِكُمُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في بني عبد الدار بن قصي، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: في المنافقين، قاله ابن إسحاق، والواقدي. والذباب: اسم كل حيوان يذب؛ وقد بينا في سورة [البقرة: ١٨] معنى الصم والبكم، ولم سأمهم بذلك.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: ولو علم فيهم صدقاً وإسلاماً. والثاني: لو علم فيهم خيراً في سابق القضاء. والثالث: لو علم أنهم يضلحون. والرابع: لو علم أنهم يضغون. وفي قوله: ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لأسمعهم جواب كل ما يسألون عنه، قاله الزجاج. والثاني: لزرعهم الفهم، قاله أبو سليمان الدمشقي. والثالث: لأسمعهم كلام الموتى يشهدون بنبيوتك، حكاها الماوردي. وفي قوله: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ قولان: أحدهما: مكذبون، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: وهم معرضون عما أسمعهم لمعاندتهم، قاله الزجاج.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يُحِيلُ بَيْنَ الْمَوْتِ وَقَلْبِهِ. وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُعْرَضُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أي: اجيبوا.

قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ يعني الرسول ﴿لِمَا يَحْيِيكُمْ﴾ وفيه ستة أقوال: أحدها: أن الذي يحييكم: كل ما يدعو الرسول إليه، وهو معنى قول أبي صالح عن ابن عباس. وفي أفراد البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجه، ثم أتيتُه فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «الم يقل الله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يَحْيِيكُمْ﴾ قلت: بلى، ولا أعود إن شاء الله»^(١). والثاني: أنه الحق، رواه شيبان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد. والثالث: أنه الإيمان، رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، وبه قال السدي. والرابع: أنه أتباع القرآن، قاله قتادة، وابن زيد. والخامس: أنه الجهاد، قاله ابن إسحاق. وقال ابن قتبية: هو الجهاد الذي يحيي دينهم ويعليهم. والسادس: أنه إحياء أمورهم، قاله الفراء. فيخرج في إحيائهم خمسة أقوال: أحدها: أنه إصلاح أمورهم في الدنيا والآخرة. والثاني: بقاء الذكر الجميل لهم في الدنيا، وحياة الأبد في الآخرة. والثالث: أنه دوام نعيمهم في الآخرة. والرابع: أنه كونهم مؤمنين، لأن الكافر كالميت. والخامس: أنه يحييهم بعد موتهم، وهو على قول من قال: هو الجهاد، لأن الشهداء أحياء، ولأن الجهاد يُعزهم بعد ذلهم، فكأنهم صاروا به أحياء.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ وفيه عشرة أقوال: أحدها: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبيرة. والثاني: يحول بين المؤمن وبين معصيته، وبين الكافر وبين طاعته، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الضحاك والفراء. والثالث: يحول بين المرء وقلبه حتى لا يتركه يعقل، قاله مجاهد. قال ابن الأنباري: المعنى: يحول بين المرء وعقله، فبادروا الأعمال، فإنكم لا تأمنون زوال العقول، فتحصلون على ما قدمتم. والرابع: أن المعنى: هو قريب من المرء، لا يخفى عليه شيء من سره، كقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ مِنْ حَيْلِ الرَّبِّدِ﴾ [ق: ١٦] وهذا معنى قول قتادة. والخامس: يحول بين المرء وقلبه، فلا يستطيع إيماناً ولا كُفراً إلا بإذنه، قاله السدي. والسادس: يحول بين المرء وبين هواه، ذكره ابن قتبية. والسابع: يحول بين المرء وبين ما يتمنى بقلبه من طول العمر والنصر وغيره. والثامن: يحول بين المرء وقلبه بالموت، فبادروا الأعمال قبل وقوعه. والتاسع: يحول بين المرء وقلبه بعلمه، فلا يضر العبد شيئاً في نفسه إلا والله عالم به، لا يقدر على تغييره عنه. والعاشر: يحول بين ما يوقعه في قلبه من خوف أو أمن، فيأمن بعد خوفه، ويخاف بعد أمنه، ذكر معنى هذه الأقوال ابن الأنباري. وحكى الزجاج أنهم لما فكروا في كثرة عدوهم وقلة عددهم، فدخل الخوف قلوبهم، أعلمهم الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبده بالخوف الأمن، ويبدل عدوه بالقرّة الضعف؛ وقد أعلمت هذه الآية أن الله تعالى هو المقلب للقلوب، المتصرف فيها^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ إِتِىَ مَعْتُرَتٌ﴾ أي: للجزاء على أعمالكم.

﴿وَأَتَقُوا يَتَنَةً لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاسِئَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَتَنَةً﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أصحاب النبي ﷺ خاصة، قاله ابن عباس، والضحاك. وقال الزبير بن العوام: لقد قرأناها زماناً، وما نرى أننا من أهلها، فإذا نحن المغنيون بها. والثاني: أنها نزلت في رجلين من قريش، قاله أبو صالح عن ابن عباس، ولم يسهما. والثالث: أنها عامة، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: في هذه الآية، أمر الله المؤمنين أن لا يُقروا المنكر بين أظهرهم، فيعهم الله بالعذاب. وقال مجاهد: هذه الآية لكم أيضاً. والرابع: أنها نزلت في علي، وعمار، وطلحة، والزبير، قاله الحسن. وقال السدي: نزلت في أهل بدر خاصة، فأصابتهم يوم الجمل. وفي الفتنة هاهنا سبعة أقوال: أحدها: القتال.

(١) «البخاري» ١١٩/٨، ٢٣١ دون قوله «قلت: بلى ولا أعود إن شاء الله» وهذه الزيادة إنما وردت عند أحمد في «المستد» ٦٥/١٨ بترتيب الساعاتي، والترمذي ١١١/٢ من حديث أبي هريرة عن أبي بن كعب.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ٢٠٤٥/٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك». وروى الترمذي ٣٦٢/٢ عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقلت: يا نبي الله أما بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقبها كيف شاء». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

والثاني: الضلالة. والثالث: السكوت عن إنكار المنكر. والرابع: الاختيار. والخامس: الفتنة بالأموال والأولاد. والسادس: البلاء. والسابع: ظهور البدع. فأما قوله: ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ فقال الفراء: أمرهم، ثم نهاهم، وفيه طرف من الجزاء. وإن كان نهياً، كقوله: ﴿بِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٢٨] أمرهم، ثم نهاهم؛ وفيه تأويل الجزاء. وقال الأخفش: «لا تصيبين» ليس بجواب، وإنما هو نهى بعد نهى؛ ولو كان جواباً ما دخلت النون. وذكر ابن الأنباري فيها قولين: أحدهما: أن الكلام تأويله وتأويل الخير، إذ كان المعنى: إن لا يتقوها، تُصِيبَ الذين ظلموا، أي: وغيرهم، أي: لا تقع بالظالمين دون غيرهم، لكنها تقع بالصالحين والظالمين؛ فلما ظهر الفعل ظهور النهي، والنهي راجع إلى معنى الأمر، إذ القائل يقول: لا تقم، يريد: دع القيام، ووقع مع هذا جواباً للأمر، أو كالجواب له، فأكد له شبه النهي، فدخلت النون المعروف دخولها في النهي وما يضارعه. والثاني: أنها نهى محض، معناه: لا يقصدن الظالمون هذه الفتنة، فيهلكوا؛ فدخلت النون لتوكيد الاستقبال، كقوله: «لا يحطمتكم». وللمفسرين في معنى الكلام قولان: أحدهما: لا تصيبين الفتنة الذين ظلموا. والثاني: لا يصيبين عقاب الفتنة. فإن قيل: فما ذنب من لم يظلم؟ فالجواب: أنه بموافقته للأشْرار، أو بسكوته عن الإنكار، أو بتركه للفرار، استحق العقوبة^(١). وقد قرأ علي، وابن مسعود، وأبي بن كعب: «لتصين الذين ظلموا» بغير ألف.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتَ قِيلَ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَوَدَّكُمْ مِنَ الْظَالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتَ قِيلَ﴾ قال ابن عباس: نزلت في المهاجرين خاصة، كانت عدوتهم قليلة، وهم مقهورون في أرض مكة، يخافون أن يستلبهم المشركون. وفي المراد بالناس ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أهل مكة، قاله ابن عباس. والثاني: فارس والروم، قاله وهب بن منبه. والثالث: أنهم المشركون الذين حضروا بدرًا، والمسلمون قليلون يومئذ، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوَّكَيْكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: فأواكم إلى المدينة بالهجرة، قاله ابن عباس، والأكثر: والثاني: جعل لكم ماوى تسكنون فيه آمنين، ذكره الماوردي. وفي قوله: ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ﴾ قولان: أحدهما: قواكم بالملائكة يوم بدر، قاله الجمهور. والثاني: عضدكم بنصره في بدر وغيرها، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي قوله: ﴿وَوَدَّكُمْ مِنَ الْظَالِمِينَ﴾ قولان: أحدهما: أنها الغنائم التي أحلها لهم، قاله السدي. والثاني: أنها الخيرات التي مكنتهم منها، ذكره الماوردي.

﴿بِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْهُمْ غَوْلُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر؛ وذاك أن النبي ﷺ لما حاصر قريظة سألوه أن يصلحهم على ما صالح عليه بني النضير، على أن يسيروا إلى أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا، وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم، لأن ولده وأهله كانوا عندهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى، أنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه: إنه الذبح فلا تفعلوا، فاطاعوه، فكانت تلك خيانتة؛ قال أبو لبابة: فما زالت قدمي حتى عرفتُ أنني قد خنت الله ورسوله، ونزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس، والأكثرين. وروي أن أبا لبابة ربط نفسه بعد نزول هذه الآية إلى سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أدوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام كذلك، ثم تاب الله عليه، فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاء فحلَّه بيده، فقال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجّر دار قومي التي أصببت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال

(١) روى البخاري ٩٤/٥ - ٢١٦ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقروا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

رسول الله ﷺ: «يجزئك الثلث»^(١). والثاني: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أخرجوا إليه واكتموا»، فكتب إليه رجل من المنافقين: إن محمداً يريدكم، فخذوا حذرکم، فنزلت هذه الآية، قاله جابر بن عبد الله^(٢). والثالث: أنها نزلت في قتل عثمان بن عفان، قاله المغيرة بن شعبه. والرابع: أن قوماً كانوا يسمعون الحديث من رسول الله ﷺ، فيفشونه حتى يبلغ المشركين، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(٣). وفي خيانة اللّه قولان: أحدهما: ترك فرائضه. والثاني: معصية رسوله. وفي خيانة الرسول قولان: أحدهما: مخالفته في السرب بعد طاعته في الظاهر. والثاني: ترك سنته. وفي المراد بالأمانات ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الفرائض، قاله ابن عباس. وفي خيانتها قولان: أحدهما: تنقيصها. والثاني: تركها. والثاني: أنها الدين، قاله ابن زيد؛ فيكون المعنى: لا تُظهروا الإيمان وتُبتنوا الكفر. والثالث: أنها عامة في خيانة كل مؤتمن، ويؤكد نزولها في ما جرى لأبي لباية.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ لَكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ فَسِنَّةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنَفُّوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٩﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ لَكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ فَسِنَّةٌ﴾ قال ابن عباس: هذا خطاب لأبي لباية، لأنه كانت له أموال وأولاد عند بني قريظة. فأما الفتنة، فالمراد بها: الابتلاء والامتحان الذي يُظهر ما في النفس من أتباع الهوى أو تجنبه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ خير من الأموال والأولاد.
قوله تعالى: ﴿إِن تَنَفُّوا اللَّهَ﴾ أي: بترك معصيته، واجتناب الخيانة لله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه المخرج، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وابن قتيبة، والمعنى: يجعل لكم مخرجاً في الدين من الضلال. والثاني: أنه النجاة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والسدي. والثالث: أنه النصر، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال الفراء. والرابع: أنه هدى في قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل، قاله ابن زيد، وابن إسحاق.
﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْتُوكَ أَوْ يَخْرُجُوكَ وَيَمْكُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ حَيْثُ الْمَكْرُورِ ﴿٢٠﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه الآية متعلقة بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتَ رَقِيْلٌ﴾ فالمعنى: أذكر المؤمنين ما من الله به عليهم، واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا.

الإشارة إلى كيفية مكرهم

قال أهل التفسير: لما بوع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وأمر أصحابه أن يلحقوا بالمدينة، أشفت قريش أن يعلو أمره، وقالوا: والله لكانكم به قد كثر عليكم بالرجال، فاجتمع جماعة من أشرفهم ليدخلوا دار الندوة فيتشاوروا في أمره، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ كبير، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا شيخ من أهل نجد، سمعت ما اجتمعتم له، فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا من رأيي نصحاً، فقالوا: ادخل، فدخل معهم، فقالوا: انظروا في أمر هذا الرجل، فقال بعضهم: احبسوه في وثاق، وتربصوا به ريب المنون. فقال إبليس: ما هذا برأي، يوشك أن يشب أصحابه فأخذه من أيديكم. فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم. فقال: ما هذا برأي، يوشك أن يجمع عليكم ثم يسير إليكم. فقال أبو جهل: نأخذ من كل قبيلة غلاماً، ثم نعطي كل غلام سيفاً فيضربوه به ضربة رجل واحد، فيفرق دمه في القبائل، فما أظن هذا الحي من قريش يقوى على ضرب قريش كلها، فيقبلون العقل ونستريح. فقال إبليس: هذا والله الرأي. ففترقوا

(١) خبر أبي لباية أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ١٣٤، وأخرج بعضه الطبري ٤٨١/١٣، وابن هشام ٢٣٦/٢.

(٢) قال ابن كثير في «الضبير» بعد أن أورده عن ابن جرير: هذا حديث غريب جداً، وفي سنده وسياقه نظر.

(٣) قال أبو جعفر الطبري ٤٨٣/١٣: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله نهى المؤمنين عن خيانتهم وخيانة رسوله وخيانة أمانته، وجائز أن تكون نزلت في أبي لباية، وجائز أن تكون نزلت في غيره، ولا خبر عندنا بأي ذلك كان يجب التسليم له بصحته. وقال ابن كثير ٣٠١/٢: والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء.

عن ذلك. وأتى جبريل رسول الله ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبت في مضجعه تلك الليلة، وأمر علياً فبات في مكانه، وبات المشركون يحرسونه، فلما أصبح رسول الله ﷺ، أذن له الله في الخروج إلى المدينة، وجاء المشركون لئماً أصبحوا، فرأوا علياً، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فاقصروا أثره حتى بلغوا الجبل، فمروا بالغار، فرأوا نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخله لم يكن عليه نسج العنكبوت^(١). فأما قوله: ﴿لِيُشَوِّكَ﴾ فقال ابن قتيبة: معناه: ليحبسوك. يقال: فلان مثبت وجعاً: إذا لم يقدر على الحركة. وللمفسرين فيه قولان: أحدهما: ليثبتوك في الوثاق، قاله ابن عباس، والحسن في آخرين. والثاني: ليثبتوك في الحبس، قاله عطاء، والسدي في آخرين. وكان القوم أرادوا أن يحبسوه في بيت ويشدوا عليه بابه ويلقوا إليه الطعام والشراب، وقد سبق بيان المكر في (آل عمران: ٥٤).

﴿وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا هَذَا هُوَ الْحَقُّ بِرَأْسِهِ لَقَدْ لَقْنَا هَذَا بِرَأْسِهِ إِنْ كُنَّا إِلَّا سَاطِرِينَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ ذكر أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث بن علقمة بن كلفة، وأنه لما سمع رسول الله ﷺ يذكر قصص القرون الماضية، قال: لو شئت لقلت مثل هذا. وفي قوله: ﴿هَذَا سَيِّمًا﴾ قولان: أحدهما: قد سمعنا منك ولا نطيعك. والثاني: قد سمعنا قبل هذا مثله، وكان النضر يختلف إلى فارس تاجراً، فيسمع العبَّاد يقرؤون الإنجيل. وقد بين التحدي كذب من قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا بِمِثْلِ هَذَا﴾. وقد سبق معنى الأساطير في (الأنعام: ٢٥).

﴿وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لِمَا كُنَّا نَعْبُدُ مِن دُونِكَ فَٱمْطِرْ عَلَيْنَا حِكْمًا وَٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّهُٗ سَآءُ مَا كُنَّا نَعْبُدُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لِمَا كُنَّا نَعْبُدُ مِن دُونِكَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في النضر أيضاً، رواه جماعة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، والسدي. والثاني: أنها نزلت في أبي جهل، فهو القائل لهذا؛ قاله أنس بن مالك، وهو مخرج في «الصحاحين»^(٢). والثالث: أنها نزلت في قريش، قالوا هذا، ثم ندموا فقالوا: غفرانك اللهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ تُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾، رواه أبو معشر عن يزيد بن رومان، ومحمد بن قيس. وفي المشار إليه بقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذِهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن. والثاني: كل ما يقوله رسول الله ﷺ من الأمر بالتوحيد وغيره. والثالث: أنه إكرام محمد ﷺ بالنبوة من بين قريش.

﴿وَمَا كَانَتْ تُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ تُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْتِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ تُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ في المشار إليه قولان: أحدهما: أهل مكة. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: وما كان الله يعذبهم وأنت مقيم بين أظهرهم. قال ابن عباس: لم تُعَذَّبْ قريّة حتى يخرج نبيها والمؤمنون معه. والثاني: وما كان الله يعذبهم وأنت حي؛ قاله أبو سليمان. والثاني: أن المشار إليهم المؤمنون، والمعنى: وما كان الله يعذب المؤمنين بضرب من العذاب الذي أهلك به من قبلهم وأنت حي؛ ذكره أبو سليمان الدمشقي.

فصل

قال الحسن، وعكرمة: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْبُدُهمُ ٱللَّهُ﴾ [الأفعال: ٣٤]، وفيه بُعد، لأن النسخ لا يدخل على الأخبار. وقال ابن أبيزى: كان النبي ﷺ بمكة، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَتْ تُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فخرج

(١) «سيرة ابن هشام» ١/ ٤٨٠ - ٤٨٣ قال فيه ابن إسحاق: فحدثني من أصحابنا عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد وغيره ممن لا أنهم عن عبد الله بن عباس. ورواه أحمد في «مسنده» رقم (٣٢٥١) مختصراً، وفي سننه عثمان بن عمرو الجزري، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٧/ ٧ مختصراً أيضاً وقال: رواه أحمد، والطبراني، وفيه عثمان بن عمرو الجزري، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وفيه رجال رجال الصحيح. وأورده السيوطي في «الدر» ٣/ ١٧٩ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الدلائل»، والخطيب، وهو في «الطبري» ١٣/ ٤٩٤ و ٤٩٧ مختصراً.

(٢) «البخاري» ٨/ ٢٣٢، و«مسلم» ٤/ ٢١٥٤، وأورده السيوطي في «الدر» ٣/ ١٨٠ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن أنس بن مالك.

إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وكان أولك البقية من المسلمين بمكة يستغفرون، فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾^(١). وجميع أقوال المفسرين تدل على أن قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، كلام مبتدأ من إخبار الله ﷻ. وقد روي عن محمد بن إسحاق أنه قال: هذه الآية من قول المشركين، قالوا: والله إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر، فرد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وفي معنى هذا الكلام خمسة أقوال: أحدها: وما كان الله معذب المشركين، وفيهم من قد سبق له أن يؤمن؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، واختاره الزجاج. والثاني: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون الله، فإنهم كانوا يلبتون ويقولون: غفرانك؛ وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً، وفيه ضعف، لأن استغفار المشرك لا أثر له في القبول. والثالث: وما كان الله معذبهم، يعني المشركين، وهم - يعني المؤمنين الذين بينهم - يستغفرون؛ روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الضحاك، وأبو مالك. قال ابن الأنباري: وُصفوا بصفة بعضهم، لأن المؤمنين بين أظهرهم، فأوقع العموم على الخصوص، كما يقال: قتل أهل المسجد رجلاً، وأخذ أهل البصرة فلاناً، ولعله لم يفعل ذلك إلا رجل واحد. والرابع: وما كان الله معذبهم وفي أصلابهم من يستغفر الله، قاله مجاهد. قال ابن الأنباري: فيكون معنى تعذيبهم: إهلاكهم؛ فالمعنى: وما كان الله مهلكهم، وقد سبق في علمه أنه يكون لهم أولاد يؤمنون به ويستغفرونه؛ فوصفهم بصفة ذراريهم، وغلبوا عليهم كما غلب بعضهم على كلهم في الجواب الذي قبله. والخامس: أن المعنى: لو استغفروا لما عذبهم الله، ولكنهم لم يستغفروا فاستحقوا العذاب؛ وهذا كما تقول العرب: ما كنت لأهيتك وأنت تكرمني؛ يريدون: ما كنت لأهيتك لو أكرمتني؛ فأما إذ لست تكرمني، فإنك مستحق لإهانتني، وإلى هذا القول ذهب قتادة والسدي. قال ابن الأنباري: وهو اختيار اللغويين. وذكر المفسرون في معنى هذا الاستغفار ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الاستغفار المعروف؛ وقد ذكرناه عن ابن عباس. والثاني: أنه بمعنى الصلاة؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، ومنصور عن مجاهد، وبه قال الضحاك. والثالث: أنه بمعنى الإسلام، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد، وبه قال عكرمة.

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ هذه الآية أجازت تعذيبهم، والأولى نفت ذلك. وهل المراد بهذا: العذاب الأول، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه هو الأول، إلا أن الأول امتنع بشيئين: أحدهما: كون النبي ﷺ فيهم. والثاني: كون المؤمنين المستغفرين بينهم؛ فلما وقع التمييز بالهجرة، وقع العذاب بالباقيين يوم بدر، وقيل: بل وقع بفتح مكة. والثاني: أنهما مختلفان، وفي ذلك قولان: أحدهما: أن العذاب الثاني قُتل بعضهم يوم بدر، والأول استئصال الكل؛ فلم يقع الأول لما قد علم من إيمان بعضهم، وإسلام بعض ذراريهم، ووقع الثاني. والثاني: أن العذاب الأول عذاب الدنيا. والثاني: عذاب الآخرة؛ قاله ابن عباس. فيكون المعنى: وما كان الله معذب المشركين لاستغفارهم في الدنيا، وما لهم آلَا يعذبهم الله في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ قال الزجاج: المعنى: وهم يصدون ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وأولياؤه. وفي هاء الكناية في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى «المسجد»، وهو قول الجمهور. قال الحسن: إن المشركين قالوا: نحن أولياء المسجد الحرام، فرد الله عليهم بهذا. والثاني: أنها تعود إلى الله ﷻ، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ أي: ما أولياؤه ﴿إِلَّا الْمُنَافِقُونَ﴾ للشرك والمعاصي، ولكن أكثر أهل مكة لا يعلمون من الأولى بيت الله.

(١) «الطبري» ٥٠٩/١٣، ٥١٠، وأورده السيوطي في «الدر» ١٨١/٣ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ سبب نزولها أنهم كانوا يطوفون بالبيت ويصفقون ويصفرون ويضعون خدودهم بالأرض، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عمر. فأما المكاء، ففيه قولان: أحدهما: أنه الصفير، قاله ابن عمر، وابن عباس، وابن جبير، وقتادة، وأبو عبيدة، والزجاج، وابن قتيبة. قال ابن فارس: يقال: مكا الطائر [يمكو] مكاء: إذا صفّر، ويقال: مكيث يده [تمكى] مكى، مقصور، أي: غلظت وخشنت، ويقال: تمكى: إذا توضع. وأشدوا:

[إِتْسَكَ وَالْجَوَزَ عَلَى سَبِيلٍ]

كَالْمُتَمَكِّي بِدَمِ الْقَتِيلِ^(١)

وسئل أبو سلمة بن عبد الرحمن عن المكاء، فجمع كفيوه، وجعل يصفر فيهما. والثاني: أنه إدخال أصابعهم في أفواههم يخلطون به، وبالتصديّة على محمد ﷺ صلاته، قاله مجاهد. قال ابن الأنباري: أهل اللغة يتكرون أن يكون المكاء إدخال الأصابع في الأفواه، وقالوا: لا يكون إلا الصفير. وفي التصديّة قولان: أحدهما: أنها التصفيق، قاله [ابن] عمر، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والجمهور. قال ابن قتيبة: يقال: صدّى: إذا صفق يديه. قال الراجز:

صَدَّتْ بِحَدِّ وَجَلَّتْ عَن حَدِّ

وَأَنَا مِنْ غَرَوِ الْهَوَى أَصَدِّي^(٢)

الغرو: العجب، يقال: لا غرو من كذا، أي: لا عجب. والثاني: أن التصديّة: صدّمهم الناس عن البيت الحرام، قاله سعيد بن جبير. وقال ابن زيد: هو صدّمهم عن سبيل الله ودينه. وزعم مقاتل أن النبي ﷺ كان إذا صلى في المسجد الحرام، قام رجلاً من المشركين من بني عبد الدار عن يمينه فيصفون، ورجلاً عن يساره فيصفقان، فتختلط على النبي ﷺ صلاته وقراءته، فقتلهم الله بيدر، فذلك قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بتوحيد الله. فإن قيل: كيف سمي المكاء والتصديّة صلاة؟ فنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أنهم جعلوا ذلك مكان الصلاة، ومشهور في كلام العرب أن يقول الرجل: زرت عبد الله، فجعل جفائي صلتي، أي: أقام الجفاء مقام الصلّة، قال الشاعر:

قُلْتُ لَهُ أَظْعَمَنِي عَمِيمٌ تَمْرًا

فَكَانَ تَمْرِي كَهَرَّةٍ وَزَيْبَرًا

أي: أقام الصباح عليّ مقام التمر. والثاني: أن من كان المكاء والتصديّة صلته، فلا صلاة له، كما تقول العرب: ما لفلان عيب إلا السخاء، يريدون: من السخاء عيبه، فلا عيب له، قال الشاعر:

فَتَى كَمَلْتُ خَيْرَاتُهُ غَيْرَ أَنَّهُ

جَوَادٌ فَلَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيًا^(٣)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْمَرُونَ﴾ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في المطعميين ببدر، وكانوا اثني عشر رجلاً يطعمون الناس الطعام، كل رجل يطعم يوماً، وهم: عتبة، وشيبة، ومُنَبِّهٌ وَنُبَيْهٌ ابنا الحجاج، وأبو البختري^(٤)، والنضر بن الحارث، وأبو جهل، وأخوه الحارث، وحكيم بن حزام، وأبي بن خلف، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في أبي سفيان بن حرب، استأجر يوم أحد الفين من الأحابيش لقتال رسول الله ﷺ سوى من استجاش من

(١) البيت في «اللسان» مكا، ونسبه إلى عترة الطائي، وعترة هذا: هو عترة بن عكبرة الطائي، وعكبرة أم أمه، وبها يعرف، وهو عترة بن الأخرس بن ثعلبة بن صبيح بن معبد بن عدي بن أفلت بن سلسلة بن عمرو بن سلسلة بن غنم بن ثوب بن معن بن عتود، شاعر محسن وفارس. «المؤتلف والمختلف» ٢٢٥.

(٢) «غريب القرآن» لابن قتيبة ١٧٩. وانظر «ديوان بشار» ٢٢٢/٢ - ٢٢٣.

(٣) البيت للناطقة الجعدي، «ديوانه» ١٧٣ طبع المكتب الإسلامي، و«الحمامة» ٩٦٩/٢، و«الخزائن» ١٢/٢، و«شرح شواهد المغني» ٢٠٩.

(٤) هو سعيد بن فيروز الطائي.

العرب، قاله سعيد بن جبير^(١). وقال مجاهد: نزلت في نفقة أبي سفيان على الكفار يوم أُحد. والثالث: أنها نزلت في أهل بدر، وبه قال الضحاك. فأما سبيل الله، فهو دين الله.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: تكون عاقبة نفقتهم ندامة، لأنهم لم يظفروا.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكَبُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَالِفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر «اليميز» خفيفة. وقرأ حمزة، والكسائي «اليميز» بالشديد وهما لغتان: مِزْتُهُ وَمِيزْتُهُ. وفي لام «اليميز» قولان: أحدهما: أنها متعلقة بقوله: «فَسَيُفْقِوْنَهَا» قاله ابن الأنباري. والثاني: أنها متعلقة بقوله: «إِلَى جَهَنَّمَ يَحْشَرُونَ»، قاله ابن جرير الطبري. وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: ليميز أهل السعادة من أهل الشقاء، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال السدي، ومقاتل: يميز المؤمن من الكافر. والثاني: ليميز العمل الطيب من العمل الخبيث، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: ليميز الإنفاق الطيب في سبيله، من الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان، قاله ابن زيد، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يجمع بعضه فوق بعض، وهو قوله: ﴿فَيَرْكَبُهُ﴾. قال الزجاج: الركب؛ أن يُجْعَلَ بعض الشيء على بعض، يقال: ركمت الشيء أركمه ركماً؛ والركام؛ الاسم؛ فمن قال: المراد بالخبيث: الكفار، فإنهم في النار بعضهم على بعض؛ ومن قال: أموالهم، فله في ذلك قولان: أحدهما: أنها أُلْقِيَتْ في النار ليعذب بها أربابها، كما قال تعالى: ﴿فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]. والثاني: أنهم لما عظموا في الدنيا، أراهم هوانها بإلقائها في النار كما تُلْقَى الشمس والقمر في النار، ليرى من عبدهما ذُلُّهما.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُوَدُّوا فَلَنْ يَمُوتَ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نزلت في أبي سفيان وأصحابه، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: إن ينتهوا عن المحاربة، يُغْفَرْ لَهُمْ ما قد سلف من حربهم، فلا يُؤَاخَذُونَ به؛ وإن يعودوا إلى المحاربة، فقد مضت سنة الأولين في نصر الله أولياءه؛ وقيل: في قتل من قُتِلَ يوم بدر وأسر. والثاني: إن ينتهوا عن الكفر، يُغْفَرْ لَهُمْ ما قد سلف من الإثم؛ وإن يعودوا إليه، فقد مضت سنة الأولين من الأمم السالفة حين أخذوا بالعذاب المستأصل. قال يحيى بن معاذ في هذه الآية: إن توحيداً لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر، لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب^(٢).

﴿وَقِيلُوا هُمْ كَفَرُوا فَتَنَّا وَتَكَرَّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُؤْتُوا نَسِيحَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ بِصِيرَةٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلُوا هُمْ كَفَرُوا فَتَنَّا وَتَكَرَّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُؤْتُوا نَسِيحَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ بِصِيرَةٍ﴾ ويدل عليه قوله: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: شرك. وقال الزجاج: حتى لا يفتن الناس فتنة كفر؛ ويدل عليه قوله:

﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُكَفِّرُونَ بَأْسَهُ﴾ أي: عن الكفر والقتال، ﴿فَاتَّكَفَرُوا بِمَا كَفَرُوا﴾ وقرأ يعقوب إلا روحاً: بما تعملون، بالفاء.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الإيمان وعادوا إلى القتال ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ﴾ أي: وليكم وناصركم. قال ابن قتيبة: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: نعم الولي ﴿وَيَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: الناصر، مثل قدير وقادر، وسميع وسامع.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ ذَلِكُمْ لِلرُّسُلِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالسَّكِينِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالسَّكِينِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالسَّكِينِ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُكَفِّرُونَ بَأْسَهُ﴾

(١) الطبري ١٣/٥٣٠.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ١/١١١ عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: قلنا: يا رسول الله، أنواخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والأخر».

وروى مسلم أيضاً في «صحيحه» ١/١١٢ من حديث عمرو بن العاص ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله».

قوله تعالى: ﴿وَأَقْلَوْا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ﴾ اختلفوا، هل الغنيمة والفيء بمعنى واحد، أم يختلفان؟ على قولين: أحدهما: أنهما يختلفان. ثم في ذلك قولان: أحدهما: أن الغنيمة: ما ظهر عليه من أموال المشركين، والفيء: ما ظهر عليه من الأرضين، قاله عطاء بن السائب. والثاني: أن الغنيمة: ما أخذ عنوة، والفيء: ما أخذ عن صلح، قاله سفيان الثوري. وقيل: بل الفيء: ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، كالعشور، والجزية، وأموال المهادنة، والصلح، وما هربوا عنه. والثاني: أنهما واحد، وهما: كل ما نيل من المشركين، ذكره الماوردي. وقال الزجاج: الأموال ثلاثة أصناف؛ فما صار إلى المسلمين من المشركين في حال الحرب، فقد سماه الله تعالى: أنفالاً وغنائم؛ وما صار من المشركين من خراج أو جزية مما لم يأخذ في الحرب، فقد سماه: فيئاً؛ وما خرج من أموال المسلمين، كالزكاة، والنذر، والقرب، سماه: صدقة. وأما قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ فالمراد به: كل ما وقع عليه اسم شيء. قال مجاهد: المَحْطُط من الشيء.

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ﴾ وروى عبد الوارث: «حُمُسُهُ» بسكون الميم. وفي المراد بالكلام قولان: أحدهما: أن نصيب الله مستحق يُصرف إلى بيته. قال أبو العالية: كان يجاء بالغنيمة فيقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم، فيقسم أربعة بين الناس، ثم يجعل من السهم الخامس للكعبة؛ وهذا مما انفرد به أبو العالية فيما يقال. والثاني: أن ذكر الله هاهنا لأحد وجهين: أحدهما: لأنه المتحكّم فيه، والمالك له، والمعنى: فإن للرسول خمسة ولذي القربى، كقوله: ﴿يَتَنَزَّلُ عَلَى الْأَنْفَالِ قُلِّ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]. والثاني: أن يكون المعنى: إن الخمس مصروف في وجوه القرب إلى الله تعالى، وهذا قول الجمهور. فعلى هذا، تكون الواو زائدة، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاكَ وَلَكِنَّا لَلْحَبِيبِ﴾ [الصافات: ١٠٣] المعنى: ناديتنا، ومثله كثير.

فصل

أجمع العلماء على أن أربعة أخماس الغنيمة لأهل الحرب خاصة؛ فأما الخمس الخامس، فكيف يقسم؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يقسم منه لله وللرسول ولمن ذكر في الآية. وقد ذكرنا أن هذا مما انفرد به أبو العالية، وهو يقتضي أن يقسم على ستة أسهم. والثاني: أنه مقسوم على خمسة أسهم: سهم للرسول، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، على ظاهر الآية، وبه قال الجمهور. والثالث: أنه يقسم على أربعة أسهم. فسهم الله ﷻ وسهم رسوله عائد على ذوي القربى، لأن رسول الله ﷺ لم يكن يأخذ منه شيئاً، وهذا المعنى رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

فصل

فأما سهم الرسول ﷺ، فإنه كان يصنع فيه ما بيئاً. وهل سقط بموته، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: لم يسقط بموته، وبه قال أحمد، والشافعي في آخرين. وفيما يُصنع به قولان: أحدهما: أنه للخليفة بعده، قاله قتادة. والثاني: أنه يُصرف في المصالح، وبه قال أحمد، والشافعي. والثاني: أنه يسقط بموته كما يسقط الصفي، فيرجع إلى جملة الغنيمة، وبه قال أبو حنيفة. وأما ذوو القربى، ففيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم جميع قريش. قال ابن عباس: كنا نقول: نحن هم؛ فأبى علينا قوماً، وقالوا: قريش كلها ذوو قريش. والثاني: بنو هاشم، وبنو المطلب، وبه قال أحمد، والشافعي. والثالث: أنهم بنو هاشم فقط، قاله أبو حنيفة. وبماذا يستحقون؟ فيه قولان: أحدهما: بالقرابة، وإن كانوا أغنياء، وبه قال أحمد، والشافعي. والثاني: بالفقر، لا بالاسم، وبه قال أبو حنيفة. وقد سبق في [البقرة: ١٧٧] معنى اليتامى والمساكين وابن السبيل. وينبغي أن تُعتبر في اليتيم أربعة أوصاف: موت الأب، وإن كانت الأم باقية. والصَّغَرُ، لقوله ﷻ: ﴿لَا يَتَّمِعْ بِعَدِّ حُلْمٍ﴾^(١). والإسلام، لأنه مال للمسلمين. والحاجة، لأنه مُعَدُّ للمصالح.

(١) رواه أبو داود ١٥٦/٣ من حديث علي بن أبي طالب بلفظ: «لا يتم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل» قال المنذري: في إسناده يحيى بن محمد المدني الجاري، قال البخاري: يتكلمون فيه. وقال ابن حبان: يجب التكذب عما انفرد به من الروايات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْزَأْنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا يَوْمَ الْقُرْآنِ﴾ هو يوم بدر، فُرق فيه بين الحق والباطل بنصر المؤمنين. والذي أنزل عليه يومئذ قوله: ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ٢١] نزلت حين اختلفوا فيها، فالمعنى: إن كنتم آمنتم بذلك، فاصدروا عن أمر الرسول في هذا أيضاً.

﴿إِذْ أَنتُمْ بِالْمُدَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدَّةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيْعَادِ وَلَكِن لِّيَقَيِّنَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنَّا بَيْنَهُ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنَّا بَيْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُمْ بِالْمُدَّةِ الدُّنْيَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «بالعدوة» و«العدوة» العين فيهما مكسورة. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: بضم العين فيهما. قال الأخفش: لم يُسمع من العرب إلا الكسر. وقال ثعلب: بل الضم أكثر اللغتين. قال ابن السكيت: عُدوة الوادي وعدوته: جانبه؛ والجمع: عُدى وعُدَى. والدنيا: تأنيث الأدنى؛ وضدها: القصوى، وهي تأنيث الأقصى؛ وما كان من النعوت على «فعلَى» من ذوات الواو، فإن العرب تحوِّله إلى الياء، نحو: الدنيا، من: دنوت؛ والعليا، من: علوت؛ لأنهم يستثقلون الواو مع ضم الأول، وليس في هذا اختلاف، إلا أن أهل الحجاز قالوا: القُصوى، فأظهروا الواو، وهو نادر؛ وغيرهم يقول: القصيا. قال المفسرون: إذ أنتم بشفير الوادي الأدنى من المدينة، وعدوكم بشفيره الأقصى من مكة، وكان الجمعان قد نزلا وادي بدر على هذه الصفة، والركب: أبو سفيان وأصحابه. قال الزجاج: من نصب «أسفل» أراد: والركب مكاناً أسفل منكم، ويجوز الرفع على معنى: والركب أشد تسفلاً منكم. قال قتادة: وكان المسلمون أعلى الوادي، والمشركون أسفله. وفي قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيْعَادِ﴾ قولان: أحدهما: لو تواعدتم، ثم بلغكم كثرتهم، لتأخرتم عن الميعاد، قاله ابن إسحاق. والثاني: لو تواعدتم على الاجتماع في المكان الذي اجتمعتم فيه من عدوتي وادي بدر لاختلفتم في الميعاد، قاله أبو سليمان. وقال الماوردي: كانت تقع الزيادة والنقصان، أو التقدم والتأخر من غير قصد لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِن لِّيَقَيِّنَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وهو إعزاز الإسلام، وإذلال الشرك.

قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنَّا بَيْنَهُ﴾ وروى خلف عن يحيى: «لِيَهْلِكَ» بضم الياء وفتح اللام.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنَّا بَيْنَهُ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «من حيّ» بياء واحدة مشددة، وهذه رواية حفص عن عاصم، وقنبل عن ابن كثير. وروى شبل عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم: «حيي» بياءين، الأولى مكسورة، والثانية مفتوحة، وهي قراءة نافع. فمن قرأ بياءين، بين ولم يُدغم. ومن أدغم ياء «حيي» فلا اجتماع حرفين من جنس واحد. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: ليقتل من قُتل من المشركين عن حُجة، ويبقى من بقي منهم عن حُجة. والثاني: ليكفر من كفر بعد حُجة، ويؤمن من آمن عن حُجة.

﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَيْتَهُمْ وَكُنْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّكُمْ عَلَيْهِ إِذَاتِ السُّدُورِ﴾ ﴿١٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن نبي الله ﷺ رأى عسكر المشركين في المنام قبل لقائهم في قلة؛ قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال مجاهد: لما أخبر أصحابه بأنه رآهم في المنام قليلاً، كان ذلك تبييناً لهم. قال أبو سليمان الدمشقي: والكلام متعلق بما قبله، فالمعنى: وإن الله لسميع لما يقوله أصحابك، عليهم بما يضمرونه، إذ حدثتهم بما رأيت في منامك. والثاني: إذ يريكم الله بعينك التي تنام بها، قاله الحسن^(١). قال الزجاج: وكثير من النحويين يذهبون إلى هذا المذهب. ومعناه عندهم: إذ يريكم الله في موضع منامك، أي: بعينك؛ ثم حذف الموضع، وأقام المنام مقامه.

= وقد حسنه النووي في «الأذكار» و«الرياض». وقال المناوي: وفي رواية للبخاري «بعد حلم» كما هي رواية المصنف هنا. وفي «المقاصد الحسنة» للسخاوي: روى أبو داود عن علي في حديث، وقد أعله غير واحد، وحسنه النووي متمسكاً بسكوت أبي داود عليه، لا سيما وهو عند الطبراني في «الصغير» من وجه آخر عن علي، بل له شواهد عن جابر، وأنس وغيرهما.

(١) قال ابن كثير: ٣١٥/٢. وهذا القول غريب.

قوله تعالى: ﴿لَتَنَلَيْتَنَّ﴾ أي: لجنبتم وتأخرتم عن حربهم. وقال مجاهد: لفشل أصحابك، ولراوا ذلك في وجهك.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَنَزَعَنَّ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: لاختلفتم في حربهم، فكان ذلك من دواعي هزيمتكم، ﴿وَلَسَكِنَّ اللَّهُ سَكْمًا﴾ من المخالفة والفشل.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْمَ فِي أَهْيَبِكُمْ قَلِيْلًا يُقَالُ لِقَوْمٍ يُقِيْمُونَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(١)
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْمَ فِي أَهْيَبِكُمْ قَلِيْلًا﴾ قال مقاتل: صدق الله رؤيا رسوله التي أخبر بها المؤمنين عن قلة عدوهم قبل لقائهم، بأن قللهم وقت اللقاء في أعينهم. وقال ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا، حتى قلت لرجل إلى جاني: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة؛ حتى أخذنا رجلاً منهم، فسألناه، فقال: كئنا ألفاً. قال أبو صالح عن ابن عباس: استقل المسلمون المشركين، والمشركون المسلمين، فاجترأ بعضهم على بعض. فإن قيل: ما فائدة تكرير الرؤية هاهنا، وقد ذكرت في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ اللَّهُ؟﴾ فنه جوابان: أحدهما: أن الأولى كانت في المنام، والثانية في اليقظة. والثاني: أن الأولى للنبي ﷺ خاصة، والثانية له ولأصحابه. فإن قيل: تكثير المؤمنين في أعين الكافرين أولى، لمكان إعزازهم. فنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنهم لو كثروا في أعينهم، لم يقدموا عليهم، فلم يكن قتال، والقتال سبب النصر، فقللهم لذلك. والثاني: أنه قللهم لئلا يتأهب المشركون كل التأهب؛ فإذا تحقق القتال، وجددهم المسلمون غير مستعدين، فظفروا بهم. والثالث: أنه قللهم ليحمل الأعداء عليهم في كثرتهم، فيغلبهم المسلمون، فيكون ذلك آية للمشركين ومبتهاً على نصره الحق.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَتْ فِتْنَةٌ فَأَتَيْتُمَا وَادَّكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَمَلَكُمْ نُدُحُونَ﴾^(٢) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعُوا فَنَفْسَالُوا وَتَدَمَّبَ بِرُحَاكُمْ وَأَمْرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣)
قوله تعالى: ﴿إِذَا لَيْسَتْ فِتْنَةٌ فَأَتَيْتُمَا﴾ الفتنه: الجماعة. ﴿وَادَّكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الدعاء والنصر. والثاني: ذكر الله على الإطلاق.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَزَعُوا فَنَفْسَالُوا﴾ قد سبق ذكر التنازع والفشل آنفاً.
قوله تعالى: ﴿وَتَدَمَّبَ بِرُحَاكُمْ﴾ وروى أبان: «ويذهب» بالياء والجزم. وفيه أربعة أقوال: أحدها: تذهب شدتكم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال السدي: حدتكم وجدتكم. وقال الزجاج: صولتكم وقوتكم. والثاني: يذهب نصركم، قاله مجاهد، وقتادة. والثالث: تنقطع دولتكم، قاله أبو عبيدة. وقال ابن قتيبة: يقال هبت له ربح النصر: إذا كانت له الدولة. ويقال: له الريح اليوم، أي: الدولة. والرابع: أنها ربح حقيقة، ولم يكن نصر قط إلا يربح بيعتها الله فنضرب وجه العدو؛ ومنه قوله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكْتُ عَادَ بِالذُّبُورِ»^(٤)، وهذا قول ابن زيد، ومقاتل.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِيشًا وَالنَّاسِ أُنْصُرُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَتَمَلَّوْنَ مُحِيطٌ﴾^(٥)
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا﴾ قال المفسرون: هم أبو جهل ومن خرج معه من مكة، خرجوا ليدفعوا عن غيرهم التي كانت مع أبي سفيان، ومعهم القيان والمعازف، وهم يشربون الخمر. فلما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز ما معه، كتب إليهم: إني قد أحرزت أموالكم فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نفعل حتى نرد بدران فنقيم ثلاثاً، وننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابونا. فساروا إلى بدر، فكانت الواقعة؛ فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان. فأما البطر؛ فهو الطغيان في النعم، وترك شكرها. والرياء: العمل من أجل رؤية الناس. وسبيل الله هاهنا: دينه.

﴿وَإِذْ زَيْنٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ اعْتَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٦)

(١) . أحمد في «المستدرك» رقم (٢٩٨٤)، و«البخاري» ٤٣٢/٢، و«مسلم» ٦١٧/٢، كلهم من رواية عبد الله بن عباس ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لَهُمْ السَّيْلَانَ لَيْسَ لَكُمْ إِلَهِمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال عروة بن الزبير: لما أجمعت قريش المسير إلى بدر، ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ آلِائِيسَ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً. وفي المراد بأعمالهم هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: شركهم. والثاني: مسيرهم إلى بدر. والثالث: قتالهم لرسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقُبُورَ﴾ أي: صارتا بحيث رأت إحداهما الأخرى. وفي المراد بالفتنين قولان: أحدهما: فئة المسلمين، وفئة المشركين، وهو قول الجمهور. والثاني: فئة المسلمين، وفئة الملائكة، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ قال أبو عبيدة: رجع من حيث جاء. وقال ابن قتيبة: رجع الفهقري. قال ابن السائب: كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقه، أخذاً بيد الحارث بن هشام؛ فرأى الملائكة فنكص على عقبيه، فقال له الحارث: أفراراً من غير قتال؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾؛ فلما هُزم المشركون، قالوا: هَزَمَ النَّاسَ سِرَاقَةً، فبلغه ذلك، فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم. قال قتادة: صدق عدو الله في قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، ذُكر لنا أنه رأى جبريل ومعه الملائكة، فعلم أنه لا يد له بالملائكة، وكذب عدو الله في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له بهم. وقال عطاء: معناه: إني أخاف الله أن يهلكني. وقال ابن الأنباري: لما رأى نزول الملائكة، خاف أن تكون القيامة، فيكون انتهاء إنظاره، فيقع به العذاب. ومعنى «نكص» رجع هارباً بخزي وذل. واختلفوا في قوله: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هل هو ابتداء كلام، أو تمام الحكاية عن إبليس، على قولين.

﴿إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ قال ابن عباس: هم قوم من أهل المدينة من الأوس والخزرج. فأما الذين في قلوبهم مرض، ففيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام بمكة، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر كرهاً؛ فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين، ارتابوا وناقضوا، وقالوا: ﴿عَرَّ هَوْلَاءَ يَبْهَتُهُمْ﴾، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وإليه ذهب الشعبي في آخرين. وعدَّهم مقاتل، فقال: كانوا سبعة: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زعمة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منية بن الحجاج، والوليد بن الوليد بن المغيرة، والوليد بن عتبة بن ربيعة. والثاني: أنهم المشركون، لما رأوا قلة المسلمين، قالوا: ﴿عَرَّ هَوْلَاءَ يَبْهَتُهُمْ﴾ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن. والثالث: أنهم قوم مرتابون، لم يُظهروا عداوة النبي ﷺ، ذكره الماوردي. والمرض هاهنا: الشك، والإشارة بقوله: «هؤلاء» إلى المسلمين؛ وإنما قالوا هذا، لأنهم رأوا قلة المسلمين، فلم يشكوا في أن قريشاً تغلبهم.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِفُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرْتَهُمْ وَذُفِرُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ قرأ الجمهور «يتوفى» بالياء. وقرأ ابن عامر «تتوفى» بتاءين. قال المفسرون: نزلت في الرهط الذين قالوا: ﴿عَرَّ هَوْلَاءَ يَبْهَتُهُمْ﴾. وفي المراد، بالملائكة ثلاثة أقوال: أحدها: ملك الموت وحده، قاله مقاتل. والثاني: ملائكة العذاب، قاله أبو سليمان الدمشقي. والثالث: الملائكة الذين قاتلوا يوم بدر، ذكره الماوردي. وفي قوله: ﴿يَصْرِفُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرْتَهُمْ﴾ أربعة أقوال: أحدها: يضرِبون وجوههم بيدر لما قاتلوا، وأدبارهم لما انهزموا. والثاني: أنهم جاؤوهم من بين أيديهم ومن خلفهم، فالذين أمامهم ضربوا وجوههم، والذين وراءهم ضربوا أدبارهم. والثالث: يضرِبون وجوههم يوم القيامة إذا لقوهم، وأدبارهم إذ ساقوهم إلى النار. والرابع: أنهم يضرِبون وجوههم وأدبارهم عند الموت بسياط من نار. وهل المراد نفس الوجوه والأدبار، أم المراد ما أقبل من أبدانهم وأدبر؟ فيه قولان. وفي قوله: ﴿وَذُفِرُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ قولان: أحدهما: أنه في الدنيا؛ وفيه إضمار «يقولون»، فالمعنى: يضرِبون ويقولون، كقوله: ﴿وَإِذْ يَرْجِعُ إِزْهَعًا الْقَوَاعِدُ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا﴾ [البقرة: 127] أي: ويقولون. قال النابغة:

كَأَنَّكَ مِنْ جَمَالِ بَنِي أَقِيْشٍ يُفَعِّغُ خَلْفَ رَجُلَيْهِ بِشَنْ^(١)
والمعنى: كأنك جمل من جمال بني أقيش، هذا قول الفراء وأبي عبيدة. والثاني: أن الضرب لهم في الدنيا، فإذا وردوا يوم القيامة إلى النار، قال خزنتها: ذوقوا عذاب الحريق، هذا قول مقاتل.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْمُتَّيِّبِينَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: بما كسبتم من قبائح أعمالكم: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْمُتَّيِّبِينَ﴾^(٣) لا يظلم عباده بعقوبتهم على الكفر، وإن كان كفرهم بقضائه، لأنه مالك، فله التصرف في ملكه كما يشاء، فيستحيل نسبة الظلم إليه.

﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنَ وَآلِ فِرْعَوْنَ وَآلِ فِرْعَوْنَ وَآلِ فِرْعَوْنَ كَفَرُوا بِقَابَتِ اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ سَدِيدٌ عِقَابٍ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كعادتهم. والمعنى: كذب هؤلاء كما كذب أولئك، فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك. قال ابن عباس: أيقن آل فرعون أن موسى نبي الله فكذبوه، فكذلك هؤلاء في حق محمد ﷺ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ أي: ذلك الأخذ والعقاب بأن الله ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ بالكفران وترك الشكر. قال مقاتل: والمراد بالقوم هاهنا أهل مكة، أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، ثم بعث فيهم محمداً ﷺ، فلم يعرفوا المنعم عليهم، فغضب الله ما بهم. وقال السدي: كذبوا بمحمد، فنقله الله إلى الأنصار. قال أبو سليمان الخطابي: والقوي يكون بمعنى القادر، فمن قوي على شيء فقد قدر عليه، وقد يكون معناه: التام القوة الذي لا يستولي عليه العجز في حال، والمخلوق، وإن وصف بالقوة، فقوته متناهية، وعن بعض الأمور قاصرة.

﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنَ وَآلِ فِرْعَوْنَ وَآلِ فِرْعَوْنَ وَآلِ فِرْعَوْنَ كَفَرُوا بِقَابَتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْتَهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنَ وَآلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كذب أهل مكة بمحمد والقرآن، كم كذب آل فرعون بموسى والتوراة، وكذب من قبلهم بأنبيائهم. قال مكي بن أبي طالب: الكاف من «كذاب» في موضع نصب، نعت لمحذوف تقديره: غيرنا بهم لما غيروا تغييراً مثل عادتنا في آل فرعون، ومثلها الآية الأولى، إلا أن الأول للعادة في العذاب؛ تقديره: فعلنا بهم ذلك فعلاً مثل عادتنا في آل فرعون.

قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْتَهُمْ﴾ يعني الأمم المتقدمة، بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالريح، فكذلك أهلكنا كفار مكة بيدرس. وقال بعضهم: يعني بقوله: ﴿فَأَهْلَكْتَهُمْ﴾ الذين أهلكوا بيدرس.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٧)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: نزلت في بني قريظة من اليهود، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْزٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾^(٨)

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ في «مرز» أربعة أقوال: أحدها: أنها صلة؛ والمعنى: الذين عاهدتهم. والثاني: أنها للتبويض؛ فالمعنى: إن شر الدواب الكفار. وشرهم الذين عاهدت ونقضوا. والثالث: أنها بمعنى «مع»؛ والمعنى: عاهدت معهم. والرابع: أنها دخلت، لأن العهد أخذ منهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْزٍ﴾ أي: كلما عاهدتهم نقضوا. وفي قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾

(١) (مجاز القرآن) ٤٧/١، و«الكتاب» ٣٢٧/١، و«الكامل» ٣٣٩، و«مختار الشعر الجاهلي» ٢٠٠/١، و«اللسان»، و«التاج»: تمعق، و«الخرزاة» ٢/٣١٢. وتمعق الشيء: صوت، ويقولون: فلان يتمعق له بالشان، وهو مثل يضرب لمن يروعه ما لا حقيقة له، وبنو أقيش: فخذ من أشجع، ويقال: هم من عكل، وإبلهم غير عتاق، يضرب بنفارها المثل، فجعل عينة بن حصن المهجو كالجمال النافر لجبهه وخفته عند الفزع، والشن: الجلد البالي.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ١٩٩٤/٤ عن أبي ذر الغفاري ؓ عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...» الحديث.

قولان: أحدهما: لا يَتَّقُونَ نقض العهد. والثاني: لا يَتَّقُونَ الله في نقض العهد. قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود قريظة أن لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه، فنقضوا العهد وأعانوا عليه مشركي مكة بالسلاح، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا؛ ثم عاهدوه الثانية، فنقضوا ومالوا الكفار يوم الخندق، وكتب كعب بن الأشرف إلى مكة يوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ.

﴿فَأَمَّا تَتَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَتَرَدُّ بِهِمْ مَنْ خَلَفْتُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (٥٧)

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا تَتَقَفْتُمْ﴾ قال أبو عبيدة: مجازة: فإن تَتَقَفْتُمْ. فعلى قوله، تكون «ما» زائدة. وقد سبق بيان «فأما» في [البقرة: ٣٨]. قال ابن قتيبة: فمعنى «تتقفنهم» تطرف بهم. ﴿فَتَرَدُّ بِهِمْ مَنْ خَلَفْتُمْ﴾ أي: افعل بهم فعلاً من العقوبة والتنكيل يتفرق به من وراءهم من أعدائك. قال: ويقال: شرد بهم، أي: سمع بهم، بلغة قريش. قال الشاعر:

أَطُوفُ فِي الْأَبَاطِحِ كُلِّ يَوْمٍ مَخَافَةً أَنْ يُشْرِدَ بِي حَكِيمٌ^(١)

وقال ابن عباس: نكل بهم تنكيلاً يشرد غيرهم من ناقضي العهد، لعلهم يذكرون النكال فلا يتقضون العهد.

﴿وَأَمَّا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ (٥٨)

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ﴾ قال المفسرون: الخوف هاهنا بمعنى العلم، والمعنى: إن علمت من قوم قد عاهدتهم خيانة، وهي نقض عهد. وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة. وفي قوله: ﴿فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أربعة أقوال: أحدها: فالتى إليهم نقضك العهد لتكون وإياهم في العلم بالنقض سواء، هذا قول الأكثرين، واختاره الفراء، وابن قتيبة، وأبو عبيدة. والثاني: فانبذ إليهم جهراً غير سر، ذكره الفراء أيضاً في آخرين. والثالث: فانبذ إليهم على مهل، قاله الوليد بن مسلم. والرابع: فانبذ إليهم على عدل من غير حيف، وأنشدوا:

فَأَضْرِبْ وَجْهَ الْغُدْرِ الْأَعْدَاءِ حَتَّى يُجِيبُوكَ إِلَى السَّوَاءِ^(٢)

ذكره أبو سليمان الدمشقي.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِذْ هُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (٥٩)

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِذْ هُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «ولا تحسبن» بالثاء وكسر السين؛ إلا أن عاصماً فتح السين. وقرأ ابن عامر، وحزمة، وحفص عن عاصم: بالياء وفتح السين. وفي الكافرين هاهنا قولان: أحدهما: جميع الكفار، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم الذين انهزموا يوم بدر، ذكره محمد بن القاسم النحوي وغيره. و«سبقوا» بمعنى فاتوا. قال ابن الأباري: وذلك أنهم أشفقوا من هلكة تنزل بهم في بعض الأوقات؛ فلما سلموا منها، قيل: لا تحسبن أنهم فاتوا بسلامتهم الآن، فإنهم لا يعجزونا، أي: لا يفوتونا فيما يستقبلون من الأوقات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قرأ الجمهور بكسر الألف. وقرأ ابن عامر: بفتحها؛ وعلى قراءته اعتراض. لقائل أن يقول: إذا كان قد قرأ «يحبسن» بالياء، وقرأ «أنهم» بالفتح، فقد أقرهم على أنهم لا يعجزون؛ ومتى علموا أنهم لا يعجزون، لم يلاموا؟ فقد أجاب عنه ابن الأباري فقال: المعنى: «لا يحسبن الذين كفروا سبقوا» لا يحسبن أنهم يعجزون؛ و«لا» زائدة مؤكدة. وقال أبو علي: المعنى: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا وآباءهم سبقوا، لأنهم لا يفوتون، فهم يعجزون على كفرهم.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِيبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٦٠)

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ في المراد بالقوة أربعة أقوال: أحدها: أنها الرمي، رواه عقبه بن

(١) البيت غير منسوب في «اللسان»: شرد. وأطوف: أطوف، وحكيم: رجل من بني سليم كانت قريش ولته الأخذ على أيدي السفهاء.

(٢) البيت في «الطبري» غير منسوب ٧/١٤، والنذر بضمين، جمع غدور، مثل صبور، وهو القائد المستمر للعدو.

عامر عن رسول الله ﷺ^(١). وقال الحكم بن أبان: هي النبل. والثاني: ذكور الخيل، قاله عكرمة. والثالث: السلاح، قاله السدي، وابن قتيبة. والرابع: أنه كل ما يُتقوى به على حرب العدو من آلة الجهاد.

قوله تعالى: ﴿وَمِن زَبَايِلِ الْخَيْلِ﴾ يعني ربطها واقتناءها للغزو؛ وهو عام في الذكور والإناث في قول الجمهور. وكان عكرمة يقول: المراد بقوله: ﴿وَمِن زَبَايِلِ الْخَيْلِ﴾ إناثها.

قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ روى رويس، وعبد الوارث «تُرْهَبُونَ» بفتح الراء وتشديد الهاء، أي؛ تخيفون وترعبون به عدو الله وعدوكم، وهم مشركو مكة وكفار العرب.

قوله تعالى: ﴿وَبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ من دون كفار العرب. واختلفوا فيهم على خمسة أقوال: أحدها: أنهم الجن. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هم الجن، وإن الشيطان لا يخبل أحداً في داره فرس عتيق»^(٢). والثاني: أنهم بنو قريظة، قاله مجاهد. والثالث: أهل فارس، قاله السدي. والرابع: المنافقون، قاله ابن زيد. والخامس: اليهود، قاله مقاتل.

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنِبْهُمْ وَأْتِ الْكُفْرَانَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم «للسلم» بكسر السين. قال الزجاج: السلم: الصلح والمسالمة. يقال: سلم وسلم وسلم في معنى واحد، أي: إن مالوا إلى الصلح فويل إليه. قال الفراء: إن شئت جعلت «لها» كناية عن السلم لأنها توثق، وإن شئت جعلتها للفعلة، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَدِيهَا لَمَفْقُورٌ رَجِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢١٥٣]. فإن قيل لم قال «لها» ولم يقل: «إليها»؟ فالجواب: أن «اللام» و«إلى» تنوب كل واحدة منهما عن الأخرى. وفيمن أريد بهذه الآية قولان: أحدهما: المشركون، وأنها نسخت بآية السيف. والثاني: أهل الكتاب، فإن قيل: إنها نزلت في ترك حربهم إذا بذلوا الجزية وقاموا بشرط الذمة، فهي محكمة. وإن قيل: نزلت في موادعتهم على غير جزية، توجه النسخ لها بآية الجزية.

﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ قال مقاتل: يعني يهود قريظة: ﴿أَن يَخْدَعُوكَ﴾ بالصلح لتكف عنهم، حتى إذا جاء مشركو العرب، أعانهم عليك ﴿فَأَنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾. قال الزجاج: فإن الذي يتولى كفايتك الله ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ﴾ أي: قوّاك. وقال مقاتل: قوّاك بنصره وبالمؤمنين من الأنصار يوم بدر.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ كَلْبٍ مِّن مِّنَ الْوَالِدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ كَلْبٍ مِّن مِّنَ الْوَالِدِينَ﴾ يعني الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانت بينهم عداوة في الجاهلية، فألف الله بينهم بالإسلام. وهذا من أعجب الآيات، لأنهم كانوا ذوي أئفة شديدة؛ فلو أن رجلاً لطم رجلاً. لقتلت عنه قبيلته حتى تدرك ثاره، قال بهم الإسلام إلى أن يقتل الرجل ابنه وأباه.

﴿يَأْتِيهَا الْكُفْرُ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾

قوله تعالى: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: حسبك الله، وحسب من اتبعك، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد، ومقاتل، والأكثر. والثاني: حسبك الله ومتبعوك، قاله مجاهد. وعن الشعبي كالمقولين. وأجاز الفراء والزجاج الوجهين. وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: أسلم مع رسول الله ﷺ تسعة وثلاثون، ثم أسلم عمر فصاروا أربعين، فنزلت هذه الآية. قال أبو سليمان الدمشقي: هذا لا يحفظ، والسورة مدنية بإجماع، والقول الأول أصح.

(١) روى مسلم في «صحيحه» ١٣/٦٤ عن عتبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿رَأَيْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَلَفْتُمْ مِنْ قُرُوءِ الْإِن قُرُوءِ الرَّمِي، أَلَا إِنَّ الْقُرُوءَ الرَّمِي، أَلَا إِنَّ الْقُرُوءَ الرَّمِي.﴾ ورواه أبو داود في «سننه» رقم ٢٥١٥، وابن ماجه رقم ٢٨١٣، والحاكم ٣٢٨/٢ وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجه البخاري، ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢/٣٢٢ من رواية ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول في قول الله تعالى: ﴿وَبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: «هم الجن» ثم قال: ورواه الطبراني عن يزيد بن عبد الله بن غريب به وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لا يخبل بيت فيه عتيق من الخيل» وقال: وهذا الحديث منكر لا يصح إسناده ولا مته.

﴿يَأْتِيهَا النَّوْءُ حَرِيضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقَتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ مَسِيرُونَ يَتَلَبَّؤُا يَأْتِيَنَّ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ يَأْتِيَنَّ يَتَلَبَّؤُا النَّوْءُ مِنَ اللَّيْلِ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَفَنَ حَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ صَفْعًا إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ يَأْتِيَنَّ يَتَلَبَّؤُا يَأْتِيَنَّ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلَفَ يَتَلَبَّؤُا الْفَتْنُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حَرِيضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقَتَالِ﴾ قال الزجاج: تأويله: حُثْمهم. وتأويل التحريض في اللغة: أن يحث الإنسان على الشيء حثاً يعلم معه أنه حارص إن تخلف عنه. والحارص: الذي قد قارب الهلاك.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ مَسِيرُونَ يَتَلَبَّؤُا يَأْتِيَنَّ﴾ لفظٌ هذا الكلام لفظ الخبر، ومعناه الأمر، والمراد: يقاتلوا ماتنين، وكان هذا فرضاً في أول الأمر، ثم نسخ بقوله: ﴿أَلَفَنَ حَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ ففرض على الرجل أن يثبت لرجلين، فإن زادوا جاز له الفرار. قال مجاهد: وهذا التشديد كان في يوم بدر. واتفق القراء على قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ ففروا «يكن» بالياء، واختلفوا في قوله: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ يَأْتِيَنَّ يَتَلَبَّؤُا النَّوْءُ﴾، وفي قوله: ﴿فَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةَ صَابِرَةٍ﴾ فقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: بالياء فيها. وقرأهما عاصم، وحزمة، والكسائي: بالياء. وقرأ أبو عمرو «يكن منكم مائة يغلبوا» بالياء، «فإن تكن منكم مائة صابرة» بالياء. قال الزجاج: من أنت، فللفظ المائة؛ ومن ذكر، فلأن المائة وقعت على عدد مذكر. وقال أبو علي: من قرأ بالياء، فلأنه أريد منه المذكر، بدليل قوله: «يغلبوا»، وكذلك المائة الصابرة هم رجال، ففروها بالياء، لموضع التذكير. فأما أبو عمرو، فإنه لما رأى صفة المائة مؤنثة بقوله: «صابرة» أنت الفعل، ولما رأى «يغلبوا» مذكراً، ذكر. ومعنى الكلام: إن يكن منكم عشرون صابرون يثبتون عند اللقاء، يغلبوا ماتنين، لأن المؤمنين يحتسبون أفعالهم، وأهل الشرك يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، فإذا صدقهم المؤمنون القتال لم يثبتوا؛ وذلك معنى قوله: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَلِمَ﴾ وروى المفضل «وعلم» بضم العين «أن فيكم ضُفْعًا» بضم الضاد. وقرأ عاصم، وحزمة: بفتح الضاد. وكذلك خلافهم في [الروم: ٥٥]، قال الفراء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم. قال الزجاج: والمعنى في القراءتين واحد، يقال: هو الضَّعْفُ والضُّعْفُ، والمكث والمكث، والفقر والفقر، وفي اللغة كثير من باب فَعَلَ وفُعِلَ، والمعنى واحد. وقرأ أبو جعفر «وعلم أن فيكم ضُفْعًا» على فُعْلًا. فأما قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو إعلام بأن الغلبة لا تقع إلا بإرادته.

﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْجِحَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْجِحَ فِي الْأَرْضِ﴾ روى مسلم في أفراده من حديث عمر بن الخطاب قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وأُقتل منهم سبعون وأسير منهم سبعون، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً، فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوَّةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنتني من فلان، قريب لعمر، فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، تمكَّنَ حمزة من أخيه فلان فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادهة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوي رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلت، فأخذ منهم الفداء. فلما كان من الغد، غدوت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان. فقلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت. فقال النبي ﷺ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من الفداء. لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة، فأنزل الله ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ إلى قوله ﴿عَظِيمٌ﴾^(١). وروي عن ابن عمر قال: لما أشار عمر بقتلهم، وفاداهم رسول الله ﷺ، أنزل الله تعالى

(١) «الطبري» ٦٣/١٤ ورواه أحمد في «المستدرق» رقم ٢٠٨ و٢٢١ مطولاً، ورواه مسلم في «صحيحه» ١٣٨٣/٣ - ١٣٨٥ كذلك مطولاً، وقد رواه المؤلف من رواية مسلم مختصراً بمعناه، وروى بعضه أبو داود في «سننه» رقم ٢٦٩٠، ورواه الترمذي ١٣٤٢/٢ مختصراً، والواحد في «أسباب النزول» =

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ﴾ إلى قوله ﴿حَلَاكًا لِّبَنِيَّ﴾، فلقي النبي ﷺ عمر، فقال: «كاد يصيبنا في خلافك بلاء»^(١). فأما الأسرى، فهو جمع أسير، وقد ذكرناه في [البقرة: ٨٥]. والجمهور قرؤوا «أن يكون» بالياء، لأن الأسراء مذكرون. وقرأ أبو عمرو «أن تكون»، قال أبو علي: أنت على لفظ الأسرى، لأن الأسرى وإن كان المراد به التذكير والرجال فهو مؤنث اللفظ. والأكثرون قرؤوا «أسرى» وكذلك ﴿لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾. وقرأ أبو جعفر، والمفضل «أسارى» في الموضعين، ووافقهما أبو عمرو، وأبان في الثاني. قال الزجاج: والإثخان في كل شيء: قُوَّة الشيء وشِدَّتُه. يقال: قد أثنخه المرض: إذا اشتدت قُوَّتُه عليه. والمعنى: حتى يبالغ في قتل أعدائه. ويجوز أن يكون المعنى: حتى يتمكن في الأرض. قال المفسرون: معنى الآية: ما كان لنبي أن يحبس كافراً قدر عليه للفداء أو المن قبل الإثخان في الأرض. وكانت غزاة بدر أول قتال قاتله رسول الله ﷺ، ولم يكن قد أثنخ في الأرض بعد. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ وهو المال. وكان أصحاب النبي ﷺ قد فادوا يومئذ بأربعة آلاف أربعة آلاف. وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ قولان: أحدهما: يريد لكم الجنة، قاله ابن عباس. والثاني: يريد العمل بما يوجب ثواب الآخرة، ذكره الماوردي.

فصل

وقد روي عن ابن عباس، ومجاهد في آخرين: أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَأَمَّا مَا بَدَأْنَا مِنَّا فَدَاةٌ﴾ [محمد: ٤]، وليس للنسخ وجه، لأن غزاة بدر كانت وفي المسلمين قَلَّةٌ؛ فلما كثروا واشتد سلطانهم، نزلت الآية الأخرى، وبيّن هذا قوله: ﴿حَتَّى يُنْزِلَ فِي الْأَرْضِ﴾.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ في معناه خمسة أقوال: أحدها: لولا أن الله كتب في أم الكتاب أنه سيُجَلُّ لكم الغنائم لمسكم فيما تعجلتم من المغنم والفداء يوم بدر قبل أن تؤمروا بذلك عذاب عظيم، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. وقال أبو هريرة: تعجل ناس من المسلمين فأصابوا الغنائم، فنزلت الآية. والثاني: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب من أتى ذنباً على جهالة لعوقبتم، روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس، وابن جريج عن مجاهد. وقال ابن إسحاق: سبق أن لا أعذب إلا بعد النهي، ولم يكن نهاهم. والثالث: لولا ما سبق لأهل بدر أن الله لا يعذبهم، لعذبتم، قاله الحسن، وابن جبير، وابن أبي نجیح عن مجاهد. والرابع: لولا كتاب من الله سبق من أنه يغفر لمن عمل الخطايا ثم علم ما عليه فتاب، فذكره الزجاج. والخامس: لولا القرآن الذي اقتضى غفران الصغائر، لعذبتم، ذكره الماوردي. فيخرج في الكتاب قولان: أحدهما: أنه كتاب مكتوب حقيقة. ثم فيه قولان: أحدهما: أنه ما كتبه الله في اللوح المحفوظ. والثاني: أنه القرآن. والثاني: أنه بمعنى القضاء.

﴿تَكَلَّمُوا بِمَا عَنَّمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿تَكَلَّمُوا بِمَا عَنَّمْتُمْ﴾ قال الزجاج: الفاء للجزاء. والمعنى: قد أحلت لكم الفداء فكلوا. والحلال منصوب على الحال. قال مقاتل: إن الله غفور لما أخذتم من الغنيمة قبل حلها، رحيم بكم إذ أحلها لكم. فجعل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت يوم بدر على القبض^(٢)، وقسمها النبي ﷺ بالمدينة، وانطلق بالأسارى، فيهم العباس، وعقيل، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب. وكان مع العباس يومئذ عشرون أوقية من ذهب، فلم تحسب له من فدايه، وكلف أن يفدي ابني أخيه، فأدى عنها ثمانين أوقية من ذهب. وقال النبي ﷺ: «أضعفوا

= مطولاً ١٣٧ - ١٣٨، وأورده ابن كثير في «التفسير» ٢/٢٨٩ من رواية أحمد بطوله وقال في آخره: ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن جرير، وابن مردويه من طرق عن عكرمة بن عمار به.

(١) أورده السيوطي في «الدرر» ٣/٢٠٢ عن أبي نعيم في «الحلية» من طريق مجاهد عن ابن عمر ﷺ.

(٢) القبض بفتح القاف والياء. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: القبض: الذي تجمع عنده الغنم، وقال غيره: بمعنى المقبوض، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم.

على العباس الفداء» فأخذوا منه ثمانين أوقية، وكان فداء كل أسير أربعين أوقية. فقال العباس لرسول الله ﷺ: لقد تركتني ما حبيت أسأل قريشاً بكفّي. فقال له: «أين الذهب الذي تركته عند أم الفضل؟» فقال: أي الذهب؟ فقال: «إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث، فهو لك ولولدك» فقال: ابن أخي، من أخبرك؟ فقال: «الله أخبرني»، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم؛ وأمر ابني أخيه فأسلما. وفيهم نزلت: ﴿قُلْ لِمَنْ فِي آيَاتِكُمْ نِكْ الْأَسْرَى﴾ الآية. وروى العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في جميع من أسر يوم بدر. وقال ابن زيد: لما بُعِثَ رسول الله ﷺ أتاه رجالٌ، فقالوا: لولا أننا نخاف هؤلاء القوم لأسلمنا، ولكننا نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. فلما كان يوم بدر، قال المشركين: لا يتخلف عنا أحد إلا هدمنا داره واستحللنا ماله، فخرج أولئك القوم، فقتلت طائفة منهم وأسرت طائفة. فأما الذين قُتِلُوا، فهم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ التَّلَاقُ ظَالِمِينَ لِنَفْسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٢٨]. وأما الذين أسروا فقالوا: يا رسول الله أنت تعلم أننا كنا نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، وإنما خرجنا مع هؤلاء خوفاً منهم. فذلك قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ فِي آيَاتِكُمْ نِكْ الْأَسْرَى﴾ إلى قوله: ﴿عَلَيْدٌ حَكِيْبٌ﴾. فأما قوله: ﴿إِنْ يَسْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ حَيْرًا﴾ فمعناه إسلاماً وصدقاً ﴿وَيُؤْتِكُمْ حَيْرًا مِمَّا أَيْدِيكُمْ﴾ من الفداء. وفيه قولان: أحدهما: أكثر مما أخذ منكم. والثاني: أحل وأطيب. وقرأ الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن أبي عمير: «مما أخذ منكم» بفتح الخاء؛ يشيرون إلى الله تعالى. وفي قوله: ﴿وَيَسْفِرُ لَكَ﴾ قولان: أحدهما: يغفر لك كفركم وقتالكم رسول الله، قاله الزجاج. والثاني: يغفر لكم خروجكم مع المشركين، قاله ابن زيد في تمام كلامه الأول.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ يعني: إن أراد الأسراء خيانتك بالكفر بعد الإسلام ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ إذ كفروا به قبل أسرهم. وقال ابن زيد: فقد خانوا بخروجهم مع المشركين؛ وقد ذكرنا عنه أنها نزلت في قوم تكلموا بالإسلام. وقال مقاتل: المعنى: إن خانوك أمكنتك منهم فقتلتهم وأسرتهم كما أمكنتك بيدر. قال الزجاج: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخيانة إن خانوها، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره عليهم ومجازاته إياهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَقٍّ يُهَاجِرُوا وَإِنْ آمَنَتْكُمْ فِي الَّذِينَ تَقْبَلُكُمْ الْأَنْصَرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَبْرَأٌ وَاللَّهُ يَمَا تَمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: المهاجرين الذين هجروا ديارهم وأموالهم وقومهم في نصرة الدين. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا﴾ يعني: الأنصار، أووا رسول الله، وأسكنوا المهاجرين ديارهم، ونصروهم على أعدائهم. ﴿أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: في النصرة. والثاني: في الميراث. قال المفسرون: كانوا يتوارثون بالهجرة، وكان المؤمن الذي لم يهاجر لا يرث قريبه المهاجر، وهو معنى قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَقٍّ يُهَاجِرُوا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم، والكسائي: «ولايتهم» بفتح الواو. وقرأ حمزة: بكسر الواو. قال الزجاج: المعنى: ليس بينكم وبينهم ميراث حتى يهاجروا. ومن كسر واو الولاية، فهي بمنزلة الإمارة؛ وإذا فتحت، فهي من النصرة. وقال يونس النحوي: الولاية، بالفتح، لله ﷻ، والولاية، بالكسر، من وُلِّيت الأمر. وقال أبو عبيدة: الولاية، بالفتح، للمخالف؛ والولاية، والولاية، قال ابن الأباري: الولاية، بالفتح، مصدر الولي، والولاية: مصدر الوالي، يقال: ولت بين الولاية، ووالي بين الولاية؛ فهذا هو الاختيار؛ ثم يصلح في ذا ما يصلح في ذا. وقال ابن فارس: الولاية، بالفتح: النصرة، وقد تكسر. والولاية، بالكسر: السلطان.

فصل

وذهب قوم إلى أن المراد بهذه الولاية مولاة النصر والمودة. قالوا: ونسخ هذا الحكم بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ١٧١]. فاما القائلون بأنها ولاية الميراث، فقالوا: نسخت بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأشغال: ١٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: إن استنصركم المؤمنون الذين لم يهاجروا فانصروهم، إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم عهد، فلا تغدروا بأرباب العهد. وقال بعضهم: لم يكن على المهاجر أن ينصر من لم يهاجر إلا أن يستنصره.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ فَرْسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [٧٣] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَمْ تُغْفَرْ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: في الميراث، قاله ابن عباس. والثاني: في النصر، قاله قتادة. وفي قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ قولان: أحدهما: أنه يرجع إلى الميراث، فالمعنى: إلا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم، قاله ابن عباس. والثاني: أنه يرجع إلى التناصر. فالمعنى: إلا تعاونا وتناصروا في الدين، قاله ابن جريج. وبيانه أنه إذا لم يتوَلَّ المؤمن المؤمنَ تَوَلَّىٰ حَقًّا، ويتبرأ من الكافر جداً، أدى ذلك إلى الضلال والفساد في الدين. فإذا هجر المسلم أقرابه الكفار، ونصر المسلمين، كان ذلك أدعى لأقرابه الكفار إلى الإسلام وترك الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَرَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ قرأ أبو هريرة. وابن سيرين، وابن السميع: «كثير» بالثاء.

قوله تعالى: ﴿أَوْلِيَاءَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: هم الذين حققوا إيمانهم بما يقتضيه من الهجرة والنصرة، بخلاف من أقام بدار الشرك. والرزق الكريم: هو الحسن، وذلك في الجنة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٧٥]

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ﴾ أي: من بعد المهاجرين الأولين. قال ابن عباس: هم الذين هاجروا بعد الحديبية.

قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي: في الموارث بالهجرة. قال ابن عباس: أخى النبي ﷺ بين أصحابه، وكانوا يتوارثون بذلك الإخاء حتى نزلت هذه الآية، فتوارثوا بالنسب.

قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اللوح المحفوظ. والثاني: أنه القرآن - وقد بين لهم قسمة الميراث في سورة [النساء: ١١، ١٢]. والثالث: أنه حكم الله، ذكره الزجاج.



سورة التوبة

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

فصل في نزولها

هي مدنية بإجماعهم، سوى الآيتين اللتين في آخرها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فإنها نزلت بمكة. روى البخاري في «صحيحه» من حديث البراء قال: آخر سورة نزلت (براءة)^(١). وقد نُقل عن بعض العرب أنه سمع قارئاً يقرأ هذه السورة، فقال الأعرابي: إني لأحسب هذه من آخر ما نزل من القرآن. قيل له: ومن أين علمت؟ فقال: إني لأسمع عهداً تُنبئُ، ووصايا تُنفذُ.

فصل

واختلفوا في أول ما نزل من (براءة) على ثلاثة أقوال: أحدها: أن أول ما نزل منها قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ﴾ [التوبة: ٢٥]، قاله مجاهد. والثاني: ﴿أَنْزِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، قاله أبو الضحى، وأبو مالك. والثالث: ﴿إِلَّا نَضْرِبُهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، قاله مقاتل. وهذا الخلاف إنما هو في أول ما نزل منها بالمدينة، فإنهم قد نزلت الآيتان اللتان في آخرها بمكة.

فصل

ولها تسعة أسماء: أحدها: سورة التوبة. والثاني: براءة؛ وهذان مشهوران بين الناس. والثالث: سورة العذاب، قاله حذيفة. والرابع: المُقَشَّقِشَةُ، قاله ابن عمر. والخامس: سورة البحوث، لأنها بحثت عن سرائر المنافقين، قاله المقداد بن الأسود. والسادس: الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين، قاله ابن عباس. والسابع: المبعثرة، لأنها بعثت أخبار الناس، وكشفت عن سرائرهم، قاله الحارث بن يزيد، وابن إسحاق. والثامن: المشيرة، لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم، قاله قتادة. والتاسع: الحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، قاله الزجاج.

فصل

وفي سبب امتناعهم من كتابة التسمية في أولها ثلاثة أقوال: أحدها: رواه ابن عباس، قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى (الأنفال) وهي من المثاني، وإلى (براءة) وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما «بسم الله الرحمن الرحيم»؟ فقال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب، فيقول: «ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، وكانت (الأنفال) من أوائل ما نزل بالمدينة، و (براءة) من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها؛ وقُبض رسول الله ﷺ، ولم يُبين لنا أنها منها، فظننا أنها منها؛ فمن ثم قرئت بينهما ولم أكتب بينهما: «بسم الله الرحمن الرحيم»^(٢). وذكر نحو هذا المعنى عن أبي بن كعب. قال الزجاج: والشبه الذي بينهما، أن في (الأنفال) ذكر اليهود، وفي (براءة) نقضها. وكان قتادة يقول: هما سورة واحدة. والثاني: رواه

(١) «البخاري» ٢٢٧/٨.

(٢) «المستد» ٣٩٩/١، وأبو داود ٢٩٠/١، والترمذي ١٣٤/٢ وحسنه، وابن أبي داود في «المصاحف» ٣١، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» ١٥٨، والحاكم ٣٣٠/٢، وصححه، وخرجه السيوطي في «الدر» ٣/٢٠٧، وزاد نسبه إلى النسائي، وابن المنذر، وابن حبان، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، وقد ضعف هذا الحديث الشيخ أحمد شاكر، بل حكم عليه بأنه لا أصل له في تعليقه على «المستد»، فانظروا.

محمد بن الحنفية، قال: قلت لأبي: لم لم تكتبوا في (براءة) «بسم الله الرحمن الرحيم»؟ فقال: يا بني، إن (براءة) نزلت بالسيف، وإن «بسم الله الرحمن الرحيم» أمان. وسئل سفيان بن عيينة عن هذا، فقال: لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين. والثالث: أن رسول الله ﷺ، لما كتب في صلح الحديبية «بسم الله الرحمن الرحيم»، لم يقبلوها وردوها، فما ردها الله عليهم، قاله عبد العزيز بن يحيى المكي.

فصل

فأما سبب نزولها، فقال المفسرون: أخذت العرب تنقض عهوداً بنتها مع رسول الله ﷺ، فأمره الله تعالى بإلقاء عهودهم إليهم، فأنزل (براءة) في سنة تسع، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم ليقم للناس الحج في تلك السنة، ويحث معه صدراً من (براءة) ليقراها على أهل الموسم، فلما سار، دعا رسول الله ﷺ علياً، فقال: «اخرج بهذه القصة من صدر (براءة) وأذن في الناس بذلك» فخرج علي على ناقه رسول الله ﷺ العضاء حتى أدرك أبا بكر، فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله، أنزل في شأني شيء؟ قال: «لا، ولكن لا يبلغ عني إلا رجل مني، أما ترضى أنك كنت صاحبي في الغار، وأنتك صاحبي على الحوض»؟ قال: بلى يا رسول الله. فسار أبو بكر أميراً على الحج، وسار علي ليؤذن بـ (براءة).

فصل

وفي عدد الآيات التي بعثها رسول الله ﷺ من أول (براءة) خمسة أقوال: أحدها: أربعون آية، قاله علي ﷺ. والثاني: ثلاثون آية، قاله أبو هريرة. والثالث: عشر آيات، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: سبع آيات، رواه ابن جريج عن عطاء. والخامس: تسع آيات، قاله مقاتل.

فصل

فإن توهم متوهم أن في أخذ (براءة) من أبي بكر، وتسليمها إلى علي، تفضيلاً لعلي على أبي بكر، فقد جهل؛ لأن النبي ﷺ أجرى العرب في ذلك على عاداتهم. قال الزجاج: وقد جرت عادة العرب في عقد عهدها ونقضها، أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها؛ وجائز أن تقول العرب إذا تلا عليها نقض العهد من ليس من رهط النبي ﷺ: هذا خلاف ما نعرف فينا في نقض العهود، فأزاح النبي ﷺ العلة بما فعل. وقال عمرو بن بحر: ليس هذا بتفضيل لعلي على أبي بكر، وإنما عاملهم بعاداتهم المتعارفة في حمل العقد، وكان لا يتولى ذلك إلا السُّد منهم، أو رجل من رهطه ذبياً، كأخ، أو عم؛ وقد كان أبو بكر في تلك الحجة الإمام، وعلي يأتهم به، وأبو بكر الخطيب، وعلي يسمع. وقال أبو هريرة: بعثني أبو بكر في تلك الحجة مع المؤذنين الذين بعثهم يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان؛ فأذن معنا علي بـ (براءة) وبذلك الكلام. وقال الشعبي: بعث رسول الله ﷺ علياً يؤذن بأربع كلمات: «ألا لا يحج بعد العام مشرك، ألا ولا يطوف بالبيت عريان، ألا ولا يدخل الجنة إلا مسلم، ألا ومن كانت بينه وبين محمد مدة فأجله إلى مدته، والله بريء من المشركين ورسوله».

فصل

فأما التفسير، فقوله تعالى: ﴿بِرَاءةٍ﴾ قال الفراء: هي مرفوعة بإضمار «هذه»، ومثله: ﴿سُورَةٌ أُنزِلَتْهَا﴾ [النور: ٢٧]. وقال الزجاج: يقال: برئت من الرجل والذئب براءة، وبرئت من المرض؛ وبرأت أيضاً أبرأ أبرأ، وقد رواه: برأت أبرؤ برؤاً. ولم نجد في ما لاهم همز: فَعَلْتُ أَفْعَل، إلا هذا الحرف. ويقال: بريت القلم، وكل شيء نحتته: أبريه بزياً، غير مهموز. وقرأ أبو رجاء، ومورق، وابن يعمر: «براءة» بالنصب. قال المفسرون: والبراءة هاهنا: قطع الموالاة، وارتفاع العصمة، وزوال الأمان. والخطاب في قوله: ﴿إِلَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ لأصحاب رسول الله ﷺ، والمراد رسول الله ﷺ، لأنه هو الذي كان يتولى المعاهدة، وأصحابه راضون؛ فكانهم بالرضا عاهدوا أيضاً؛ وهذا عام في كل من عاهد رسول الله ﷺ. وقال مقاتل: هم ثلاثة أحياء من العرب: خزاعة، وبنو مدلج، وبنو جذيمة.

﴿تَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ تَحْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿تَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: انطلقوا فيها آمنين لا يقع بكم منكم مكروه. إن قال قائل: هذه مخاطبة شاهد، والآية الأولى إخبار عن غائب، فعنه جوابان: أحدهما: أنه جائز عند العرب الرجوع من الغيبة إلى الخطاب. قال عترة:

شَطَّتْ مَزَارُ الْعَاشِقِينَ فَاصْبَحْتُ

عَسِيراً عَلَيَّ طِلَابُكَ ابْنَةُ مَخْرَمٍ^(١)

هذا قول أبي عبيدة. والثاني: أن في الكلام إضماراً، تقديره: فقل لهم: سيحوا في الأرض، أي: اذهبوا فيها، وأقبلوا، وأدبروا، وهذا قول الزجاج. واختلفوا فيمن جعلت له هذه الأربعة الأشهر على أربعة أقوال: أحدها: أنها أمان لأصحاب العهد، فمن كان عهده أكثر منها، حُطَّ إليها، ومن كان عهده أقل منها، رفع إليها، ومن لم يكن له عهد، فأجله انسلاخ المحرم خمسون ليلة، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك. والثاني: أنها للمشركين كافة، من له عهد، ومن ليس له عهد، قاله مجاهد، والزهري، والقرظي. والثالث: أنها أجل لمن كان رسول الله ﷺ قد آمنه أقل من أربعة أشهر، أو كان أمانه غير محدود؛ فأما من لا أمان له، فهو حرب، قاله ابن إسحاق. والرابع: أنها أمان لمن لم يكن له أمان ولا عهد؛ فأما أرباب العهود، فهم على عهودهم إلى حين انقضاء مددهم، قاله ابن السائب. ويؤكد ما روي أن علياً نادى يومئذ: ومن كان بينه وبين رسول الله عهد، فعهد إلى مدته. وفي بعض الألفاظ: فأجله أربعة أشهر. واختلفوا في مدة هذه الأربعة الأشهر على أربعة أقوال: أحدها: أنها الأشهر الحرم: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، قاله ابن عباس. والثاني: أن أولها يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وآخرها العاشر من ربيع الآخر، قاله مجاهد، والسدي، والقرظي. والثالث: أنها شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، لأن هذه الآية نزلت في شوال، قاله الزهري. قال أبو سليمان الدمشقي؛ وهذا أضعف الأقوال، لأنه لو كان كذلك، لم يجز تأخير إعلامهم به إلى ذي الحجة، إذ كان لا يلزمهم الأمر إلا بعد الإعلام. والرابع: أن أولها العاشر من ذي القعدة، وآخرها العاشر من ربيع الأول، لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك اليوم، ثم صار في السنة الثانية في العشر من ذي الحجة، وفيها حج رسول الله ﷺ وقال: «إن الزمان قد استدار»^(٢)، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: وإن أجزئتم هذه الأربعة الأشهر فلن تفوتوا الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ تَحْزِي الْكَافِرِينَ﴾ قال الزجاج: الأجود فتح «أن» على معنى: اعلموا أن، ويجوز كسرهما على

الاستئناف. وهذا ضمان من الله نصرته المؤمنين على الكافرين.

﴿وَأَذِّنْ لِلَّهِ رَسُولِي إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ حَيْزٌ لَكُمْ وَإِنْ

تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ آتٍ﴾ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلَّهِ رَسُولِي﴾ أي: إعلام؛ ومنه أذان الصلاة. وقرأ الضحاك، وأبو المتوكل، وعكرمة،

والجحدري، وابن يعمر: «وَأَذِّنْ» بكسر الهمزة وقصرها ساكنة الذال من غير ألف.

(١) البيت في شرح القصائد السبع الطوال، ٢٩٩، ومجاز القرآن، ٢٣/١، ومختار الشعر الجاهلي، ٣٧٠ من معلقته المشهورة، وقوله: شطت مزار العاشقين، يعني: شطت عبلة مزار العاشقين، أي: بعدت من مزارهم. وفي «شرح المعلقات»: حلت بأرض الزائرين، والزائرون: الأعداء. جعلهم يزأرون زئير الأسد، شبه وعيدهم بالزئير، يقول: نزلت الحبيبة بلاد أعدائي، فمسر علياً طلبها.

(٢) الحديث في «المسنند» ٣٧/٥، والبخاري ٤٥٩/٣ و٢٤٤/٨ و٦/١٠، ومسلم رقم ١٦٧٩، وأبو داود رقم ١٩٤٧. ولفظه في البخاري ٦/١٠ عن أبي بكره ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «اليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «اليس آل البيت؟» قلنا: بلى، قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «اليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دعاءكم وأمواكم - قال محمد (ابن سيرين): - وأحسبه قال: وأهراضكم - عليكم حرام كحرمه يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أومى له من بعض من سمعه، فكان محمد (ابن سيرين) إذا ذكره قال: صدق النبي ﷺ، ثم قال (أي النبي ﷺ): «ألا هل بلغت، ألا هل بلغت».

قوله تعالى: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ أي: للناس. يقال: هذا إعلام لك، وإليك. والناس هاهنا عامٌ في المؤمنين والمشركين. وفي يوم الحج الأكبر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوم عرفة، قاله عمر بن الخطاب، وابن الزبير، وأبو جحيفة، وطاووس، وعطاء. والثاني: يوم النحر، قاله أبو موسى الأشعري، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن أبي أوفى، وابن المسيب، وابن جبير، وعكرمة، والشعبي، والنخعي، والزهري، وابن زيد، والسدي في آخرين. وعن علي، وابن عباس، كالتولين. والثالث: أنه أيام الحج كلها، فعبر عن الأيام باليوم، قاله سفيان الثوري. قال سفيان: كما يقال: يوم بعث، ويوم الجمل، ويوم صفين يراد به: أيام ذلك، لأن كل حرب من هذه الحروب دامت أياماً. وعن مجاهد، كالأقوال الثلاثة. وفي تسميته بيوم الحج الأكبر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سمّاه بذلك لأنه اتفق في سنة حج فيها المسلمون والمشركون، ووافق ذلك عيد اليهود والنصارى، قاله الحسن. والثاني: أن الحج الأكبر: هو الحج، والأصغر: هو العمرة، قاله عطاء، والشعبي. والثالث: أن الحج الأكبر: القرآن، والأصغر: الأفراد، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ﴾ وقرأ الحسن، ومجاهد، وابن يعمر: «إِنَّ اللَّهَ يَكْسِرُ الْهَمْزَةَ». ﴿بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: من عهد المشركين، فحذف المضاف ﴿وَرَسُولُهُ﴾ رفع على الابتداء، وخبره مضمرة على معنى: ورسوله أيضاً بريء. وقرأ أبو رزين، وأبو مجلز، وأبو رجاء، ومجاهد، وابن يعمر، وزيد عن يعقوب: «ورسوله» بالنصب. ثم رجع إلى خطاب المشركين بقوله: ﴿فَإِن تَبُشْتُمْ﴾ أي: رجعتن عن الشرك، ﴿وإن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإيمان.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْصُرُوا سَبِيحًا وَلَمْ يَكْفُرُوا بِعَيْتِكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْنَاهُمُ إِلَيْهِمْ وَعَاهَدُوا إِلَىٰ مَدِينَةٍ إِلَىٰ اللَّهِ يَأْتِي السَّخِيفُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: فلما قرأ علي (براءة)، قالت بنو ضمرة: ونحن مثلهم أيضاً؟ قال: لا، لأن الله تعالى قد استنحكم؛ ثم قرأ هذه الآية. وقال مجاهد: هم قوم كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ومدة، فأمر أن يفي لهم. قال الزجاج: معنى الكلام: وقعت البراءة من المعاهدين الناقضين للعهود، إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقضوكم، فليسوا داخلين في البراءة ما لم ينقضوا العهد. قال القاضي أبو يعلى: وفصل الخطاب في هذا الباب: أنه قد كان بين رسول الله ﷺ وبين جميع المشركين عهد عام، وهو أن لا يُصدَّ أحدٌ عن البيت، ولا يُخاف أحدٌ في الشهر الحرام، فجعل الله عهدهم أربعة أشهر؛ وكان بينه وبين أقوام منهم عهود إلى آجال مسماة، فأمر بالوفاء لهم، وإتمام مدتهم إذا لم يُخشَ غدرهم.

﴿وَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

﴿وَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ أي: أسروهم؛ والأخذ: الأسير. ﴿وَإِحْصُوا﴾ أي: احبسوهم؛ والحصر: الحبس. قال

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، قاله الأكثرون. والثاني: أنها الأربعة الأشهر التي جعلت لهم فيها السياحة، قاله الحسن في آخرين، فعلى هذا، سميت حُرماً لأن دماء المشركين حرمت فيها.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: من لم يكن له عهد ﴿حَيْثُ بَدَلْتُمُوهُمُ﴾ قال ابن عباس: في الحل والحرم والأشهر الحرم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلُوا لِلَّهِ﴾ أي: اسروهم؛ والأخذ: الأسير. ﴿وَإِحْصُوا﴾ أي: احبسوهم؛ والحصر: الحبس. قال ابن عباس: إن تحصنوا فاحصروهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلُوا لِلَّهِ﴾ أي: اسروهم؛ والأخذ: الأسير. قال ابن عباس: إن تحصنوا فاحصروهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلُوا لِلَّهِ﴾ أي: اسروهم؛ والأخذ: الأسير. قال ابن عباس: إن تحصنوا فاحصروهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلُوا لِلَّهِ﴾ أي: اسروهم؛ والأخذ: الأسير. قال ابن عباس: إن تحصنوا فاحصروهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلُوا لِلَّهِ﴾ أي: اسروهم؛ والأخذ: الأسير. قال ابن عباس: إن تحصنوا فاحصروهم.

نُغَالِي اللَّحْمَ لِلأَضْيَافِ نَيْحًا

وَنُرِخُصُّهُ إِذَا نَفَجَ الْقُدُورُ (١)

(١) البيت غير منسوب في «اللسان» و«أساس البلاغة» مادة غلى. قال أبو مالك: نغالي اللحم: نشربه غالباً، ثم نبخله ونطمعه إذا نفج في قدورتنا.

المعنى: نغالي باللحم، فحذف الباء كما حذف «على». وقال الزجاج: «كل مرصد» ظرف، كقولك: ذهب مذبأ، فليست تحتاج أن تقول في هذه إلا ما تقوله في الظروف، مثل: خلف، وقدام.
قوله تعالى: ﴿إِن تَابُوا﴾ أي: من شركهم. وفي قوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ قولان: أحدهما: اعترفوا بذلك. والثاني: فعلوه.

فصل

واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أن حكم الأسارى كان وجوب قتلهم، ثم نسخ بقوله: ﴿إِنَّمَا مَنَّا بَدَدٌ وَإِنَّمَا بَدَدٌ وَإِنَّمَا بَدَدٌ﴾ [محمد: ٤]، قاله الحسن، وعطاء في آخرين. والثاني: بالعكس، وأنه كان الحكم في الأسارى: أنه لا يجوز قتلهم صبراً، وإنما يجوز المن أو الفداء بقوله: ﴿إِنَّمَا مَنَّا بَدَدٌ وَإِنَّمَا بَدَدٌ﴾ ثم نسخ بقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، قاله مجاهد، وقتادة. والثالث: أن الآيتين محكمتان، والأسير إذا حصل في يد الإمام، فهو مخير، إن شاء من عليه، وإن شاء فاداه، وإن شاء قتله صبراً، أي ذلك رأى فيه المصلحة للمسلمين فعلم، هذا قول جابر بن زيد، وعليه عامة الفقهاء، وهو قول الإمام أحمد.

﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْنِغْهُ مَأْمَتَهُ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ قال المفسرون: وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتلهم استأمنك يبتغي أن يسمع القرآن وينظر فيما أمر به ونهي عنه، فأجزه، ثم أبلغه الموضع الذي يأمن فيه. وفي قوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: أن المعنى: ذلك الذي أمرناك به من أن يُعرفوا ويُجاروا لجهلهم بالعلم. والثاني: ذلك الذي أمرناك به من رده إلى أمانته إذا امتنع من الإيمان، لأنهم قوم جهلة بخطاب الله.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَحِثُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي: لا يكون لهم ذلك، ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم بنو ضمرة، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم قريش، قاله ابن عباس أيضاً. وقال قتادة: هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبي الله ﷺ زمن الحديبية، فنكثوا وظاهروا المشركين. والثالث: أنهم خزاعة، قاله مجاهد. وذكر أهل العلم بالسيرة أن رسول الله ﷺ لما صالح سهيل بن عمرو في غزوة الحديبية، كتب بينه وبينه: «هذا ما اصطاح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، اصطاحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه لا إسلال ولا إغلال، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل، وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليه رده إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه، ويدخل علينا في قابل في أصحابه فيقيم بها ثلاثاً لا يدخل علينا بسلاح، إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب» فوثبت خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ووثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل في عهد قريش وعقدها. ثم إن قريشاً أعانت بني بكر على خزاعة بالرجال والسلاح فبيتوا خزاعة ليلاً، فقتلوا منهم عشرين رجلاً. ثم إن قريشاً ندمت على ما صنعَتْ، وعلموا أن هذا نقض للعهد والمدة التي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وخرج قوم من خزاعة إلى رسول الله ﷺ فآخبروه بما أصابهم، فخرج إليهم وكانت غزاة الفتح. قال أبو عبيدة: الإسلال: السرقة، والإغلال: الخيانة. قال ابن الأعرابي: وقوله: «وأن بيننا عيبة مكفوفة» مثل: أراد: أن صلحنا مُحْكَمٌ مُسْتَوْثِقٌ منه، كأنه عيبة مشرحة. وزعم بعض المفسرين أن قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ نسخ بقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ يُؤْتِيكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَإِنَّ قُلُوبَهُمْ وَكُفْرَهُمْ فَيَسْخَرُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ قال الزجاج: المعنى: كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم، فحذف ذلك، لأنه قد سبق، قال الشاعر:

وَحَبَّرْتُ مَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَى

أي: فكيف مات وليس بقرية؟ ومثله قول الحطيئة:

فَكَيْفَ وَلَمْ أَعْلَمْهُمْ خَذَلُواكُمْ

أي: فكيف تلومونني على مدح قوم؟ واستغنى عن ذكر ذلك، لأنه قد جرى في القصيدة ما يدل على ما أضمر. وقوله: ﴿يَظْهَرُوا﴾ يعني: يقدروا ويظفروا. وفي قوله: ﴿لَا يَرْؤُهَا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لا يحفظوا. والثاني: لا يخافوا، قاله السدي. والثالث: لا يراعوا، قاله قطرب. وفي الإلّ خمسة أقوال: أحدها: أنه القرابة، رواه جماعة عن ابن عباس، وبه قال الضحّاك، والسدي، ومقاتل، والفراء، وأنشدوا:

إِنَّ الْوِشَاةَ كَثِيرٌ إِنْ أَطَعْتَهُمْ

وقال الآخر:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ

والثاني: أنه الجوار، قاله الحسن. والثالث: أنه الله تعالى، رواه ابن أبي نجيج عن مجاهد، وبه قال عكرمة. والرابع: أنه العهد، رواه خصيف عن مجاهد، وبه قال ابن زيد، وأبو عبيدة. والخامس: أنه الجلف، قاله قتادة. وقرأ عبد الله بن عمرو، وعكرمة، وأبو رجاء، وطلحة بن مصرف: «إيلاً» بياء بعد الهمزة. وقرأ ابن السميع، والجحدري: «الآ» بفتح الهمزة وتشديد اللام. وفي المراد بالذمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها العهد، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقاتدة، والضحاك في آخرين. والثاني: التذم ممن لا عهد له، قاله أبو عبيدة، وأنشد:

لَا يَرْؤُهَا بِنَا إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ

والثالث: الأمان، قاله الزبيدي، واستشهد بقوله: «ويسعى بذمتهم أدناهم»^(٤).

قوله تعالى: ﴿يَرْضَوَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يرضونكم بأفواههم في الوفاء، وتأبى قلوبهم إلا الغدر. والثاني: يرضونكم بأفواههم في العدة بالإيمان، وتأبى قلوبهم إلا الشرك. والثالث: يرضونكم بأفواههم في الطاعة، وتأبى قلوبهم إلا المعصية، ذكرهن الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَأَكْفَرُكُمْ فَسِئْرًا﴾ قال ابن عباس: خارجون عن الصدق، ناكثون للعهد.

﴿أَشْرَوْا بِعَيْتِ اللَّهِ تَمَنًّا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَيَّتُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ لَا يَرْؤُونَ فِي مَثَلٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَخَرَوُكُمْ فِي الذِّمِّ فَقَصَلْنَا أَلْبَتَّ بِقَوِيٍّ يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَشْرَوْا بِعَيْتِ اللَّهِ تَمَنًّا قَلِيلًا﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان على طعامه، قاله مجاهد. والثاني: أنهم قوم من اليهود، قاله أبو صالح. فعلى الأول، آيات الله: حججه. وعلى الثاني: هي آيات التوراة. والتمن القليل: ما حصلوه بدلاً من الآيات. وفي وصفه بالقليل وجهان: أحدهما: لأنه حرام، والحرام قليل. والثاني: لأنه من عرض الدنيا الذي بقاؤه قليل. وفي قوله: ﴿فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ثلاثة

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي من رثيته الشهيرة النبيلة في «الأصمعيات» ٩٩، و«طبقات فحول الشعراء» ١٧٦، و«أمانى القالي» ١٥١/٢، و«جمهرة أشعار العرب» ١٣٥، و«معاني القرآن» للفراء ٤٢٤/١.

(٢) «ديوانه» ١٤٠ وفيه: على موطن ولا أديمكم قذوا. وقوله: خذلوكم على معظم، قال أبو عمرو: أي: لم يخذلوكم في أمر حدث. وقوله: ولا أديمكم قذوا، أي: لم يقفوا في حسيب.

(٣) قائله حسان بن ثابت الأنصاري، «ديوانه» ٤٠٧، و«اللسان»: «ألل» وهو من آيات حجا بها أبا سفيان قبل إسلامه. والسقب: هو ولد الناقة ساعة يولد، والرأل: ولد النعام، يقول: ما قرابتك في قریش إلا قرابة الفضيل من ولد النعام، أي: لست منهم في نسب.

(٤) «المستند» رقم ٩٥٩، وأبو داود رقم ٤٥٣٠، و«السنائي» ٢٠/٨، كلهم من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو جزء من حديث طويل، وسنده صحيح.

أقوال: أحدها: عن بيته، وذلك حين منعوا النبي ﷺ بالحديبية دخول مكة. والثاني: عن دينه بمنع الناس منه. والثالث: عن طاعته في الوفاء بالعهد.

﴿وَأَن تَكْفُرًا آمَنْتَهُمْ مِن بَدِّ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَتَقِيلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُرُوا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَكْفُرًا آمَنْتَهُمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت في أبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد حين أعانوا بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله، فأمر رسول الله ﷺ أن يسير إليهم فينصر خزاعة، وهم الذين هموا بإخراج رسول الله ﷺ. فأما النكت، فمعناه: النقض. والأيمان هاهنا: اليهود. والظعن في الدين: أن يعاب، وهذا يوجب قتل الذمي إذا طعن في الإسلام، لأن المأخوذ عليه أن لا يطعن فيه.

قوله تعالى: ﴿فَتَقِيلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ قرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي «أئمة» بتحقيق الهمزتين. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: بتحقيق الأولى وتلين الثانية. والمراد بأئمة الكفر: رؤوس المشركين وقادتهم. ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ أي: لا عهود لهم صادقة؛ هذا على قراءة من فتح الألف، وهم الأكثرون. وقرأ ابن عامر «لا إيمان لهم» بالكسر^(١)؛ وفيها وجهان ذكرهما الزجاج: أحدهما: أنه وصف لهم بالكفر ونفي الإيمان، والثاني: لا أمان لهم، تقول: آمنت إيماناً، والمعنى: فقد بطل أمانكم لهم بنقضهم. وفي قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُرُوا﴾ قولان: أحدهما: عن الشرك. والثاني: عن نقض العهود. وفي «العل» قولان: أحدهما: أنها بمعنى الترجي، المعنى: ليرجى منهم الانتهاء. قاله الزجاج. والثاني: أنها بمعنى: «كي»، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَّكَرُوا آمَنْتَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوكُمْ أَوْلَكِ مَرَّةً أَتَخَشَرْتَهُمْ فَأَلَّفَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَوْهُ إِنَّ كَثْرَ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ تَقْبَلُوهُمْ يَمُدُّهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيَنْزِلُ بِهِمْ وَيُغْنِيهِمْ وِيصْرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ غِظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا﴾ قال الزجاج: هد على وجه التوبيخ، ومعناه الحض على قتالهم. قال المفسرون: وهذا نزل في نقض قريش عهد رسول الله ﷺ الذي عاهدهم بالحديبية حيث أعانوا على خزاعة. وفي قوله: ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ قولان: أحدهما: أنهم أبو سفيان في جماعة من قريش، كانوا فيمن هم بإخراج النبي ﷺ من مكة. والثاني: أنهم قوم من اليهود، غدروا برسول الله ﷺ، ونقضوا عهده وهموا بمعاونة المتناقضين على إخراجه من المدينة.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بَدُّوكُمْ أَوْلَكِ مَرَّةً﴾ فيه قولان: أحدهما: بدؤوكم بإعاتتهم على حلفائكم، قاله ابن عباس. والثاني: بالقتال يوم بدر، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَتَخَشَرْتَهُمْ﴾ قال الزجاج: أتخشون أن ينالكم من قتالهم مكروه؟ فمكروه عذاب الله أحق أن يخشى إن كنتم مصدقين بعدابه وثوابه.

قوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: يعني خزاعة.

قوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ غِظَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كرهها ووجدها بمعاونة قريش بني بكر عليها.

قوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال الزجاج: هو مستأنف، وليس بجواب «قَاتِلُوهُمْ». وفيمن عُني به قولان: أحدهما: بنو خزاعة، والمعنى: ويتوب الله على من يشاء من بني خزاعة، قاله عكرمة. والثاني: أنه عام في المشركين كما تاب على أبي سفيان، وعكرمة، وسهيل. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنيات المؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضى.

(١) قال أبو جعفر الطبري: والصواب من القراءة في ذلك الذي لا أستجيز القراءة بغيره، قراءة من قرأ بفتح الألف، دون كسرهما، لإجماع الحجة من القراءة على القراءة به، وإجماع أهل التأويل على ما ذكرت من أن تأويله: لا عهد لهم، والأيمان التي بمعنى العهد، لا تكون إلا بفتح الألف، لأنها جمع يمين كانت على عهد كان بين المتوابعين.

﴿أَر حَبِشْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَرَأَى كَيْفَ دُورِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةِ وَاللَّهِ حَوِيلًا يَمَا قَمَلُوكَ﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَر حَبِشْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ في المخاطب بهذا قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون، خوطبوا بهذا حين شق على بعضهم القتال، قاله الأكثرون. والثاني: أنهم قوم من المنافقين كانوا يسألون رسول الله ﷺ الخروج معه إلى الجهاد تعذيراً، قاله ابن عباس. وإنما دخلت الميم في الاستفهام، لأنه استفهام معترض في وسط الكلام، فدخلت لفرق بينه وبين الاستفهام المبتدأ. قال الفراء: ولو أريد به الابتداء، لكان إما بالالف، أو بـ «هل»، ومعنى الكلام: أن تُتركوا بغير امتحان يبين به الصادق من الكاذب. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ أي: ولم تجاهدوا فيعلم الله وجود ذلك منكم؛ وقد كان يعلم ذلك غيباً، فأراد إظهار ما علم ليجازي على العمل. فأما وليجة، فقال ابن قتيبة: هي البطانة من غير المسلمين، وهو أن يتخذ الرجل من المسلمين دخیلاً من المشركين وخليطاً وواذاً؛ وأصله من الولوج. قال أبو عبيدة: وكل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون في القوم وليس منهم فهو وليجة فيهم.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِ أَنْفُسِهِمْ وَالْكَافِرُ أَوْلَيْكَ حَيْثُ أَصْنَعْتَهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَلِيدُونَ﴾ ﴿١٧﴾
﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمْرٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَرَأَى كَيْفَ يَخْشَى إِلَّا اللَّهَ فَصَوَّى أَوْلَيْكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «مسجد الله» على التوحيد، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ على الجمع. وقرأ عاصم، ونافع، وابن عامر، وحزمة، والكسائي على الجمع فيهما. وسبب نزولها أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر فيهم العباس بن عبد المطلب، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فغيروهم بالشرك، وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوتنا وتكتمون محاسننا؟ فقالوا: وهل لكم من محاسن؟ قالوا: نعم، لنحن أفضل منكم أجراً؛ إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني، فنزلت هذه الآية^(١)، قاله مقاتل في جماعة. وفي المراد بالعمارة قولان: أحدهما: دخوله والجلوس فيه. والثاني: البناء له وإصلاحه؛ فكلاهما محظور على الكافر. والمراد من قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: يجب على المسلمين منهم من ذلك. قال الزجاج: وقوله: ﴿شَاهِدِينَ﴾ حال. المعنى: ما كانت لهم عمارته في حال إقرارهم بالكفر، ﴿أَوْلَيْكَ حَيْثُ أَصْنَعْتَهُمْ﴾ لأن كفرهم أذهب ثوابها. فإن قيل: كيف يشهدون على أنفسهم بالكفر، وهم يعتقدون أنهم على الصواب؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه قول اليهودي: أنا يهودي، وقول النصراني: أنا نصراني، قاله السدي. والثاني: أنهم ثبتوا على أنفسهم الكفر بعدولهم عن أمر النبي ﷺ، وهو حق لا يخفى على مميّز، فكانوا بمنزلة من شهد على نفسه. والثالث: أنهم آمنوا بأبناء شهدوا لمحمد ﷺ بالتصديق، وحرّضوا على أتباعه، فلما آمنوا بهم وكذبوه، دلوا على كفرهم، وجرى ذلك مجرى الشهادة على أنفسهم بالكفر، لأن الشهادة هي تبيين وإظهار، ذكرهما ابن الأنباري. فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمْرٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ولم يذكر الرسول، والإيمان لا يتم إلا به؟ فالجواب: أن فيه دليلاً على الرسول، لقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: الصلاة التي جاء بها الرسول، قاله. فإن قيل: ﴿فَصَوَّى﴾ ترج، وفاعل هذه الخصال مهتد بلا شك. فالجواب: أن «عسى» من الله واجبة، قاله ابن عباس. فإن قيل: قد يعمر مساجد الله من ليس فيه هذه الصفات. فالجواب: أن المراد أنه من كان على هذه الصفات المذكورة، كان من أهل عمارتها؛ وليس المراد أن من عمرها كان بهذه الصفة.

﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْمَآئِ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْقَرِيِّ كُنْ أَمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَيْكَ هُرُّ الْقَارُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ يُبَيِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَدْتُمْ لَمْ يَبَايَعْتُمْ مَيْمَنَةً وَإِنَّا لَنُؤْتِيكُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْمَآئِ﴾ في سبب نزولها ستة أقوال: أحدها: رواه مسلم في «صحيحه» من حديث

النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد [الإسلام إلا] أن أسقي الحاج، وقال الآخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد [الإسلام إلا] أن أغمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلت، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكني إذا صليت الجمعة، دخلت فاستفتيت رسول الله فيما اختلفتم فيه، فنزلت هذه الآية^(١). والثاني: أن العباس بن عبد المطلب قال يوم بدر: لئن كنتم سبقتونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعلم المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني^(٢)، فنزلت هذه الآية^(٣)، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله الحرام، والقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفتخرون بالحرَم من أجل أنهم أهله، فنزلت هذه الآية، رواه عطية العوفي عن ابن عباس. والرابع: أن علياً والعباس وطلحة - يعني سادن الكعبة - افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، بيدي مفتاحه، ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية، والقائم عليها، ولو أشاء بت في المسجد. وقال علي: ما أدري ما تقولون، لقد صليت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فنزلت هذه الآية، قاله الحسن، والشعبي، والقرظي. والخامس: أنهم لما أمروا بالهجرة قال العباس: أنا أسقي الحاج، وقال طلحة: أنا صاحب الكعبة فلا نهاجر، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، قاله مجاهد. هكذا ذكر مجاهد، وإنما الصواب عثمان بن طلحة، لأن طلحة هذا لم يسلم. والسادس: أن علياً قال للعباس: ألا تلحق بالنبي ﷺ؟ فقال: ألسْتُ في أفضل من الهجرة، ألسْتُ أسقي حاج بيت الله وأمر المسجد الحرام؟ فنزلت هذه الآية والتي بعدها، قاله مُرَّةُ الهَمْداني، وابن سيرين. قال الزجاج: ومعنى الآية: أجمعتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله؟ فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه. قال الحسن: كان يُنبذ زبيب، فيسقون الحاج في الموسم. وقال ابن عباس: عمارة المسجد: تجميره، وتخليقه، فأخبر الله أن أفعالهم تلك لا تنفعهم مع الشرك، وسماهم ظالمين لشركهم.

قوله تعالى: ﴿أَتَنْظُمُ دَبِيبَةً﴾ قال الزجاج: هو منصوب على التمييز. والمعنى: أعظم من غيرهم درجة. والفائز: الذي يظفر بأمنيته من الخير. فأما النعيم، فهو لين العيش، والمقيم: الدائم.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ إِنَّكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أنه لما أمر المسلمون بالهجرة، جعل الرجل يقول لأهله: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك، ومنهم من يتعلق به عياله وزوجته فيقولون: ننشدك الله أن تدعنا إلى غير شيء، فيرق قلبه فيجلس معهم، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه لما أمر الله المؤمنين بالهجرة، قال المسلمون: يا نبي الله، إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين، قطعنا آباءنا وعشائرتنا، وذهبت تجارتنا، وخربت ديارنا، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه لما قال العباس: أنا أسقي الحاج، وقال طلحة: أنا أحجب الكعبة فلا نهاجر، نزلت هذه الآية والتي قبلها، هذا قول قتادة، وقد ذكرناه عن مجاهد. والرابع: أن نفراً ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، فنهى الله عن ولايتهم، وأنزل هذه الآية، قاله مقاتل. والخامس: أن النبي ﷺ لما أمر الناس بالجهاز لنصرة خزاعة على قريش، قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، نعاونهم عى قومان؟ فنزلت هذه الآية، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَفْعَسُونَ كَسَادًا وَسَكَنٌ رَضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

(١) «الطبري» ١٦٩/١٤، ومسلم ٢٦/١٣، وأورده السيوطي في «الدر» ٢١٨/٣ وزاد نسبه لأبي داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) «الطبري» ١٧٠/١٤ وعلي بن أبي طلحة لم يدرك ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ الآية، في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في الذين تخلفوا مع عيالهم بمكة ولم يهاجروا، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن علي بن أبي طالب قدم مكة، فقال لقوم: ألا تهاجرون؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرننا ومساكننا، فنزلت هذه الآية، قاله ابن سيرين. والثالث: أنه لما نزلت الآية التي قبلها، قالوا: يا رسول الله، إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين، قطعنا آباءنا وعشيرتنا، وذهبت تجارتنا، وخربت ديارنا، فنزلت هذه الآية، ذكره بعض المفسرين في هذه الآية، وذكره بعضهم في الآية الأولى كما حكيناها عن ابن عباس. فاما العشيرة، فهم الأقارب الأذنون. وروى أبو بكر عن عاصم «وعشيرتكم» على الجمع. قال أبو علي: وجهه أن كل واحد من المخاطبين له عشيرة، فإذا جمعت قلت: عشيرتكم؛ وحجة من أفرده: أن العشيرة واقعة على الجمع، فاستغنى بذلك عن جمعها. وقال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة: عشيرات، إنما يجمعونها على عشائر. والاقتراف بمعنى الاكتساب. والتريص: الانتظار. وفي قوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ قولان: أحدهما: أنه فتح مكة، قاله مجاهد والاكثرون، ومعنى الآية: إن كان المقام في أهاليكم، وكانت الأموال التي اكتسبتموها ﴿وَيَحْكُمُ قَضَاؤَ كِسَادَةً﴾ لفراقكم بلدكم ﴿وَمَسْكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾ من الهجرة، فأقيموا غير مثابين حتى تفتح مكة، فيسقط فرض الهجرة. والثاني: أنه العقاب، قاله الحسن.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَادَّتْ مُدْرِيَةَ﴾ (١٩)

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: في أماكن. قال الفراء: وكل جمع كانت فيه ألف قبلها حرفان وبعدها حرفان لم يُجْرَ (١)، مثل، صوامع، ومساجد. وجرى «حنين» لأنه اسم لمذكر، وهو واد بين مكة والطائف، وإذا سُمِّيَتْ ماءً أو وادياً أو جبلاً باسم مذكر لا علة فيه، أجرته، من ذلك: حنين، ويدر، وجرأ، وبيبر، ودايق (٢). ومعنى الآية: أن الله ﷻ أعلمهم أنهم إنما يغلبون بنصر الله لا بكثرتهم. وفي عددهم يوم حنين أربعة أقوال: أحدها: أنهم كانوا ستة عشر ألفاً، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: عشرة آلاف، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: كانوا اثني عشر ألفاً، قاله قتادة، وابن زيد، وابن إسحاق، والواقدي. والرابع: أحد عشر ألفاً وخمسمائة، قاله مقاتل. قال ابن عباس: فقال ذلك اليوم سلمة بن سلامة بن وقش، وقد عجب لكثرة الناس: لن نُغَلَبَ اليوم من قلة، فسأ رسول الله ﷺ كلامه، ووكلوا إلى كلمة الرجل، فذلك قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾. وقال سعيد بن المسيب: القائل لذلك أبو بكر الصديق. وحكى ابن جرير أن القائل لذلك رسول الله ﷺ. وقيل: بل العباس. وقيل: رجل من بني بكر.

قوله تعالى: ﴿وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: برحبها. قل الفراء: والباء هاهنا بمنزلة «في» كما تقول: صافت عليكم الأرض في رحبها وبرحبها.

الإشارة إلى القصة

قال أهل العلم بالسيرة: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، تأمر عليه أشرف هوازن وثقيف، فجاؤوا حتى نزلوا أوطاس (٣)، وأجمعوا المسير إليه، فخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلما التقوا أعجبتهم كثرتهم فهزموا. وقال البراء بن عازب: لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكبنا على الغنائم، فأقبلوا بالسهم، فانكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ (٤). وبعضهم يقول: ثبت مع رسول الله ﷺ يومئذ جماعة من أصحابه منهم أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث. وبعضهم يقول: لم يبق معه سوى العباس وأبي سفيان، فجعل النبي يقول للعباس: «ناد: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة» فنادى، وكان صيئاً، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّت إلى أولادها، يقولون: يا

(١) إجراء الاسم عند الكوفيين صرفه وتوניתه، وعدم إجرائه: منع صرفه.

(٢) دايق: قرية من قرى حلب.

(٣) أوطاس: واد في ديار هوازن.

(٤) البخاري ٢٤/٨، ومسلم ١٢/١٢١.

لبيك، فنظر النبي ﷺ إلى قتالهم، فقال: «الآن حمي الوطيس، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» ثم قال للعباس: «ناولني حصيات» فناوله، فقال: «شاهت الوجوه» ورمى بها، وقال: «انهزموا ورب الكعبة»، فذف الله في قلوبهم الرعب فانهزموا^(١). وقيل: أخذ رسول الله ﷺ كفاً من تراب، فرماه به فانهزموا. وكانوا يقولون: ما بقي منا أحد إلا امتلأت عيناه بالتراب^(٢).

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُودًا لَوْ تَرَوْهَا لَأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾
﴿ثُمَّ يُتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي: بعد الهزيمة. قال أبو عبيدة: هي فِئْلَةٌ من السكون، وأنشد:

لِلَّو قَبْرٌ غَالِمًا مَاذَا يُجِنُّ
وكذلك قال المفسرون: الأمن والطمأنينة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ جُودًا لَوْ تَرَوْهَا﴾ قال ابن عباس: يعني الملائكة. وفي عددهم يومئذ ثلاثة أقوال: أحدها: ستة عشر ألفاً، قاله الحسن. والثاني: خمسة آلاف، قاله سعيد بن جبير. والثالث: ثمانية، قاله مجاهد، يعني: ثمانية آلاف. وهل قاتلت الملائكة يومئذ، أم لا؟ فيه قولان. وفي قوله: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أربعة أقوال: أحدها: بالقتل، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: بالقتل والهزيمة، قاله ابن أبيزى، ومقاتل. والثالث: بالخوف والحذر، ذكره الماوردي. والرابع: بالقتل، والأسر، وسبي الأولاد، وأخذ الأموال، ذكره بعض ناقلي التفسير.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوفقه للتوبة من الشرك.

﴿يُنَادِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بِمَدِّ عَيْبِهِمْ هَكَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ قال أبو عبيدة: معناه: فذر. قال الزجاج: يقال لكل شيء مستقذر: نجس. وقال الفراء: لا تكاد العرب تقول: نجس، إلا وقبلها رجس، فإذا أفردوها قالوا: نجس. وفي المراد بكونهم نجساً ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أنجاس الأبدان، كالكلب والخنزير، حكاه الماوردي عن الحسن، وعمر بن عبد العزيز. وروى ابن جرير عن الحسن قال: من صافحهم فليتوضأ. والثاني: أنهم كالأنجاس لتركهم ما يجب عليهم من غسل الجنابة، وإن لم تكن أبدانهم أنجاساً، قاله قتادة. والثالث: أنه لما كان علينا اجتنابهم كما تجتنب الأنجاس، صاروا بحكم الاجتناب كالأنجاس، وهذا قول الأكثرين، وهو الصحيح.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ قال أهل التفسير: يريد جميع الحرم. ﴿بِمَدِّ عَيْبِهِمْ هَكَذَا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، وهي السنة التي حج فيها أبو بكر وقرئت (براءة). وقد أخذ أحمد رضي الله عنه بظاهر الآية، وأنه يحرم عليهم دخول الحرم، وهو قول مالك، والشافعي. واختلفت الرواية عنه في دخولهم غير المسجد الحرام من المساجد، فروي عنه المنع أيضاً إلا لحاجة، كالحرم، وهو قول مالك. وروي عنه جواز ذلك، وهو قول الشافعي. وقال أبو حنيفة: يجوز لهم دخول المسجد الحرام، وسائر المساجد.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ وقرأ سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، والشعبي، وابن السميع: «عائلة». قال سعيد بن جبير: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بِمَدِّ عَيْبِهِمْ هَكَذَا﴾ شق على المسلمين، وقالوا: مَنْ يأتينا بطعامنا؟ وكانوا يقدّمون عليهم بالتجارة، فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ الآية. قال

(١) «مسند أحمد» رقم ١٧٧٥ بنحوه، ورواه مسلم ١١٥/١٢ - ١١٧ بنحوه أيضاً. وذكره الطبري ١٨٢/١٤ - ١٨٣، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٣/٣٢٧، وأورده السيوطي في «الدرر» ٢٢٤/٣ - ٢٢٥، وزاد نسبة لعبد الرزاق، وابن سعد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) «مسند أحمد» ٢٨٦/٥ عن أبي عبد الرحمن الفهري، والطبري في «التفسير» ١٨٥/١٤، وخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٨١/٦ - ١٨٢، وقال: رواه البزار، والطبراني، ورجاله ثقات.

(٣) البيت لأبي حنيفة الكلبی في «مجاز القرآن» ٢٥٥/١، و«اللسان»: سكن.

الأخفش: العيلة: الفقر. يقال: عال يعيل عيلة: إذا افتقر. وأعال إعالة فهو يعيل: إذا صار صاحب عيال. وقال أبو عبيدة: العيلة هاهنا مصدر عال فلان: إذا افتقر، وأنشد:

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل^(١)

وللمفسرين في قوله: «وإن فلان: أحدهما: أنها للشرط، وهو الأظهر. والثاني: أنها بمعنى «وإذا»، قاله عمرو بن فايد. قالوا: وإنما خاف المسلمون الفقر، لأن المشركين كانوا يحملون التجارات إليهم، ويجيئون بالطعام وغيره. وفي قوله: «فَسَوْفَ يُعْزِبُكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَكَاةً﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أنزل عليهم المطر عند انقطاع المشركين عنهم، فكثر خيرهم، قاله عكرمة. والثاني: أنه أغناهم بالجزية المأخوذة من أهل الكتاب، قاله قتادة، والضحاك. والثالث: أن أهل نجد، وجُزْش، وأهل صنعاء أسلموا، فحملوا الطعام إلى مكة على الظَّهْر، فأغناهم الله به، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس؛ عليم بما يصلحكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم في المشركين.

﴿قَدِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿قَدِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قال المفسرون: نزلت في اليهود والنصارى. قال الزجاج: ومعناها لا يؤمنون بالله إيمان الموحدين، لأنهم أقروا بأنه خالفهم وأنه له ولد، وكذلك إيمانهم بالبعث لأنهم لا يقرون بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون. وقال الماوردي: إقرارهم باليوم الآخر يوجب الإقرار بحقوقه، وهم لا يقرون بها، فكانوا كمن لا يُقِرُّ به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ قال سعيد بن جبيرة: يعني الخمر والخنزير.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ في الحق قولان: أحدهما: أنه اسم الله، فالمعنى: دين الله، قاله قتادة. والثاني: أنه صفة للدين، والمعنى: ويدِينون الدين الحق^(٣)؛ فأضاف الاسم إلى الصفة. وفي معنى «يدِينون» قولان: أحدهما: أنه بمعنى الطاعة، والمعنى: لا يطيعون الله طاعة حق، قاله أبو عبيدة. والثاني: أنه من: دان الرجل يدين كذا: إذا التزمه. ثم في جملة الكلام قولان: أحدهما: أن المعنى: لا يدخلون في دين محمد ﷺ، لأنه ناسخ لما قبله. والثاني: لا يعملون بما في التوراة من اتباع محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ قال ابن الأنباري: الجزية: الخراج المجعول عليهم؛ سميت جزية، لأنها قضاء لما عليهم؛ أخذ من قولهم: جَزَى يَجْزِي: إذا قضى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله: «ولا تجزي عن أحد بعدك»^(٤). وفي قوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ ستة أقوال: أحدها: عن قهر، قاله قتادة، والسدي. وقال الزجاج: عن قهر ودل. والثاني: أنه النقد العاجل، قاله شريك، وعثمان بن مقسم. والثالث: أنه إعطاء المبتدئ

(١) البيت لأحيحة بن الجلاح في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ٢٥٥/١، و«معاني القرآن» للفراء ٢٥٥، و«جمهرة أشعار العرب» ١٢٥، و«اللسان» و«التاج» عمل، وهو من قصيلته التي قالها في حرب بينه وبين قومه من الأوس وبنو النجار من الخزرج، قتل فيها أخوه، وكانت عنده امرأته سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية، فخذلت قومه ما جيء أحيحة وقومه من الأوس، فضربها حتى كسر يدها وطلقها، وبعد هذا البيت قرين له:

وما تلدي إذا أجمعت أمراً
بأي الأرض يدركك المقييل

(٢) قال ابن كثير ٣٤٧/٢: فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً، لقداهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، لأن جميع الأنبياء بشرى به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرح الأنبياء الأتقين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلذلك لا يفهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمتهم وأكملهم.

(٣) هو قطعة من حديث طويل، فقد روى البخاري ١٥/١٠، ومسلم ١٥٥٣/٣ واللفظ له عن البراء بن عازب ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما تبدأ به في يومنا هذا (يعني يوم عيد الأضحى) نصلي، ثم نرجع فنحرق، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن فجع، (يعني قبل صلاة العيد) فإتانا هو لحم قدمه لأهله، ليس من السك في شيء، وكان أبو بردة بن نيار (خال البراء بن عازب) قد فجع (يعني قبل الصلاة) فقال: «عندني جذعة خير من ستة» فقال: انبجها ولن تجزي عن أحد بعدك.

بالعطاء، لا إعطاء المكافئ، قاله ابن قتيبة. والرابع: أن المعنى: عن اعتراف للمسلمين بأن أيديهم فوق أيديهم. والخامس: عن إنعام عليهم بذلك، لأن قبول الجزية منهم إنعام عليهم، حكاها الزجاج. والسادس: يؤدونها بأيديهم، ولا ينفذونها مع رسلهم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ صَبَرُوا﴾ الصاغر: الدليل الحقيق. وفيما يكلفونه من الفعل الذي يوجب صغارهم خمسة أقوال: أحدها: أن يمشوا بها مُلَبَّيْنِ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن لا يُحْمَدُوا على إعطائهم، قاله سلمان الفارسي. والثالث: أن يكونوا قِيَاماً والأخذ جالساً، قاله عكرمة. والرابع: أن دفع الجزية هو الصغار. والخامس: أن إجراء أحكام الإسلام عليهم هو الصغار.

فصل

واختلف في الذين تؤخذ منهم الجزية من الكفار، فالمشهور عن أحمد: أنها لا تقبل إلا من اليهود والنصارى والمجوس، وبه قال الشافعي. ونقل الحسن بن ثواب عن أحمد: أنه من سُبِي من أهل الأديان من العرب والعجم، فالعرب إن أسلموا، وإلا السيف، وأولئك إن أسلموا، وإلا الجزية؛ فظاهر هذا أن الجزية تؤخذ من الكل، إلا من عابدي الأوثان من العرب فقط، وهو قول أبي حنيفة، ومالك.

فصل

فأما صفة الذين تؤخذ منهم الجزية، فهم أهل القتال. فأما الزَّيْمُونُ، والأعمى، والمفلوج، والشيخ الفاني، والنساء، والصبيان، والراهب الذي لا يخالط الناس، فلا تؤخذ منهم.

فصل

فأما مقدارها، فقال أصحابنا: على الموسر: ثمانية وأربعون درهماً، وعلى المتوسط: أربعة وعشرون، وعلى الفقير المعتمل: اثنا عشر، وهو قول أبي حنيفة. وقال مالك: على أهل الذهب أربعة دنانير، وعلى أهل الورق أربعون درهماً، وسواء في ذلك الغني والفقير. وقال الشافعي: على الغني والفقير دينار. وهل تجوز الزيادة والنقصان مما يؤخذ منهم؟ نقل الأثر من أحمد: أنها تزداد وتنقص على قدر طاقتهم، فظاهر هذا: أنها على اجتهاد الإمام ورأيه. ونقل يعقوب بن بختان^(١): أنه لا يجوز للإمام أن ينقص من ذلك، وله أن يزيد.

فصل

ورقت وجوب الجزية: آخر الحول، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: تجب في أول الحول. فأما إذا دخلت سنة في سنة، فهل تسقط جزية السنة الماضية؟ عندنا لا تسقط. وقال أبو حنيفة: تسقط. فأما إذا أسلم، فإنها تسقط بالإسلام. فأما إن مات؛ فكان ابن حامد يقول: لا تسقط. وقال القاضي أبو يعلى: يحتمل أن تسقط.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَنفُسِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ إِنَّهُم لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ أُنْحَكُوا أَجْرَهُمْ وَرَهْبَهُمْ أَوْ كَابًا مِن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰ ابْنُ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة: «عزير» ابن الله» بغير تنوين. وقرأ عاصم، والكسائي، ويعقوب، وعبد الوارث عن أبي عمرو: منوناً. قال مكي بن أبي طالب: من نون عزيراً رفعه على الابتداء، و «ابن» خبره. ولا يحسن حذف التنوين على هذا من «عزير» لالتقاء الساكنين. ولا تحذف ألف «ابن» من الخط، ويكسر التنوين لالتقاء الساكنين. ومن لم ينون «عزيراً» جعله أيضاً مبتدأ،

(١) هو يعقوب بن إسحاق بن بختان أحد تلامذة الإمام أحمد، ترجمته في «طبقات الحنابلة» ١/١٤٥.

و «ابن» صفة له؛ فيُحذف التنوينُ على هذا استخفافاً لالتقاء الساكنين، ولأن الصفة مع الموصوف كالشيء الواحد، وتحذف ألف «ابن» من الخط، والخير مضمّر تقديره: عزيز بن الله نبينا وصاحبنا. وسبب نزولها أن سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: كيف نَسَعَكَ وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيزاً ابن الله؟ فنزلت هذه الآية^(١)، قاله ابن عباس. وقال ابن عمر، وابن جريج: إن القائل لذلك فتخاص. فأما العزيز، فقال شيخنا أبو منصور اللغوي: هو اسم أعجمي معرب، وإن وافق لفظ العربية، فهو عبراني؛ كذا قرأته عليه. وقال مكّي بن أبي طالب: العزيز عند كل النحويين: عربي مشتق من قوله: يعزروه. وقال ابن عباس: إنما قالوا ذلك، لأنهم لما عملوا بغير الحق، أنساهم الله التوراة، ونسخها من صدورهم، فدعا عزيز الله تعالى؛ فعاد إليه الذي نُسخ من صدورهم، ونزل نور من السماء فدخل جوفه، فأذن في قومه فقال: قد آتاني الله التوراة؛ فقالوا: ما أوتيتها إلا لأنه ابن الله. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: أن يختصر لما ظهر على بني إسرائيل، وهدم بيت المقدس، وقتل من قرأ التوراة، كان عزيز غلاماً، فتركه. فلما توفي عزيز ببابل، ومكث مائة عام، ثم بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل، فقال: أنا عزيز؛ فكذبوه وقالوا: قد حدّثنا آباؤنا أن عزيزاً مات ببابل، فإن كنتَ عزيزاً فأملل علينا التوراة؛ فكتبها لهم؛ فقالوا: هذا ابن الله. وفي الذين قالوا هذا عن عزيز ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم جميع بني إسرائيل، روي عن ابن عباس. والثاني: طائفة من سلفهم، قاله الماوردي. والثالث: جماعة كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وفيهم قولان: أحدهما: فتخاص وحده، وقد ذكرناه عن ابن عمر، وابن جريج. والثاني: الذين ذكرناهم في أول الآية عن ابن عباس. فإن قيل: إن كان قول بعضهم، فلم أضيف إلى جميعهم؟ فنعته جوابان: أحدهما: أن إيقاع اسم الجماعة على الواحد معروف في اللغة، تقول العرب: جئت من البصرة على البغال، وإن كان لم يركب إلا بغلاً واحداً. والثاني: أن من لم يقل، لم ينكره.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْكُفْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ في سبب قولهم هذا قولان: أحدهما: لكونه ولد من غير ذكر. والثاني: لأنه أحى الموتى، وأبرأ الكفّة والبصر؛ وقد شرحنا هذا المعنى في [المائة: ١١٠].
قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَنبِيَائِهِمْ﴾ إن قال قائل: هذا معلوم، فما فائدته؟ فالجواب: أن المعنى: إنه قول بالغم، لا بيان فيه، ولا برهان، ولا تحته معنى صحيح، قاله الزجاج.

قوله تعالى: «يضاهون» قرأ الجمهور: من غير همز. وقرأ عاصم: ﴿يَسْبُوهُونَ﴾. قال ثعلب: لم يتابع عاصماً أحد على الهمز. قال الفراء: وهي لغة. قال الزجاج: «يضاهون» يشابهون قول من تقدّمهم من كفرتهم، وإنما قالوه اتباعاً لمقتدّميهم. وأصل المضاهاة في اللغة: المشابهة؛ والأكثر ترك الهمز؛ واشتاقه من قولهم: امرأة ضياء، وهي التي لا يثبت لها ثدي. وقيل: هي التي لا تحيض، والمعنى: أنها قد أشبهت الرجال. قال ابن الأنباري: يقال: ضاقت، وضاهات؛ إذا شبّهت. وفي ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم عبدة الأوثان، والمعنى: أن أولئك قالوا: الملائكة بنات الله، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم اليهود، فالمعنى: أن النصارى في قولهم: المسيح ابن الله، شابهوا اليهود في قولهم: عزيز ابن الله، قاله قتادة، والسدي. والثالث: أنهم أسلافهم، تابعوهم في أقوالهم تقليداً، قاله الزجاج، وابن قتيبة. وفي قوله: ﴿تَنَكَّلَهُمُ اللَّهُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: لعنهم الله، قاله ابن عباس. والثاني: قتلهم الله، قاله أبو عبيدة. والثالث: عاداهم الله، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ يُؤَذِّنُونَ﴾ أي: من أين يصرفون عن الحق.

قوله تعالى: ﴿أَتَمَكَّدُوا أَسْبَابَهُمْ﴾ قد سبق في [المائة: ٤٤] معنى الأحيار والرهبان. وقد روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن هذه الآية، فقال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلّوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه»^(٢). فعلى هذا المعنى: إنهم جعلوهم كالأرباب وإن لم يقولوا: إنهم أرباب.

(١) «الطبري» ٢٠٢/١٤، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٢٩/٢، وزاد نسبه لابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) رواه الترمذي ١٣٦٢/٢، وقال: حديث حسن غريب، لا تعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وخطيف بن أمين ليس بمعروف في الحديث.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ قال ابن عباس: اتخذوه رباً.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشِيرَ نُورُهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يخدموا دين الله بتكذيبهم، يعني؛ أنهم يكذبون به ويُعرضون عنه يريدون إطفاله بذلك. وقال الحسن وقتادة: نور الله: القرآن والإسلام. فاما تخصيص ذلك بالأفواه، فلما ذكرنا في الآية قبلها. وقيل: إن الله تعالى لم يذكر قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلا وهو زور.

قوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشِيرَ نُورُهُمْ﴾ قال الفراء: إنما دخلت «إلا» هاهنا، لأن في الإباء طرفاً من الجحد، ألا ترى أن «أبيت» كقولك: «لم أفعل»، و «لا أفعل»، فكانه بمنزلة قولك: ما ذهب إلا زيد، قال الشاعر:

فَهَلْ لِي أَمٌّ غَيْرُهَا إِنْ تَرَكْتُهَا
أَبَى اللَّهِ إِلَّا أَنْ أُكُونَ لَهَا ابْنَمَا^(١)

وقال الزجاج: المعنى: ويأبى الله كل شيء إلا إتمام نوره. قال مقاتل: «يتم نوره» أي: يظهر دينه.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿بِالْهُدَى﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التوحيد. والثاني: القرآن. والثالث: تبيان الفرائض. فاما دين الحق، فهو الإسلام. وفي قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ قولان: أحدهما: أن الهاء عائدة على رسول الله ﷺ، فالمعنى: ليعلمه شرائع الدين كلها، فلا يخفى عليه منها شيء، قاله ابن عباس. والثاني: أنها راجعة إلى الدين. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: ليظهر هذا الدين على سائر الملل^(٢). ومتى يكون ذلك؟ فيه قولان: أحدهما: عند نزول عيسى ﷺ، فإنه يتبعه أهل كل دين، وتصير الملل واحدة، فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام أو أدوا الجزية، قاله أبو هريرة، والضحاك. والثاني: أنه عند خروج المهدي، قاله السدي. والقول الثاني: أن إظهار الدين إنما هو بالحجج الواضحة، وإن لم يدخل الناس فيه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُمُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ يُسْمِنُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقَهُنَّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بَعْدَابِ آيِسٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ﴾ الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وفي الباطل أربعة أقوال: أحدها: أنه الظلم، قاله ابن عباس. والثاني: الرشا في الحكم، قاله الحسن. والثالث: الكذب، قاله أبو سليمان. والرابع: أخذه من الجهة المحظورة، قاله القاضي أبو يعلى. والمراد: أخذ الأموال، وإنما ذكر الأكل، لأنه معظم المقصود من المال. وفي المراد بسبيل الله هاهنا قولان: أحدهما: الإيمان برسول الله ﷺ، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: أنه الحق والحكم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت عامة

= ررواه «الطبري» ٢١٠/١٤ من طرق عن عدي بن حاتم، وخرجه السيوطي في «الدر» ٢٣٠/٣، وزاد نسبه لابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه».

(١) قاله الختمس، وهو في «معاني القرآن» للفراء ٤٣٣/١، من قصيدة له يرد فيها على من عير أمه مطلعها:

يَمِيرَنِي أُمِّي رَجَالٌ وَلَا أَرَى

وهي في «مختارات ابن الشجري» ٣١ وقوله: ابنا، أراد: ابناً، فزاد الميم.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ٢٢١٥/٤، عن ثوبان ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى (جمع) لي الأرض، فرأيت مشارقتها ومغارها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها». وروى الإمام أحمد في «المسنند» ١٠٣/٤، عن تميم الداري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بمن عزيز، أو بطل ذليل، عزاً يمز به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر»، وكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذلل والصغار والجزية. وروى أحمد في «المسنند» ٤/٦، عن المقداد بن الأسود ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بمن عزيز أو ذل ذليل، إما يهزمهم الله ﷻ فيجعلهم من أهلها، أو يذلهم فيلينون لها». وروى مسلم ٢٢٣٠/٤، عن عائشة ؓ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تميد اللات والمزى، فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أتزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تاماً، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريباً طيبة فتوقى كل من في قلبه مقال حية خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم».

في أهل الكتاب والمسلمين، قاله أبو ذر، والضحاك. والثاني: أنها خاصة في أهل الكتاب، قاله معاوية بن أبي سفيان. والثالث: أنها في المسلمين، قاله ابن عباس، والسدي. وفي الكنز المستحق عليه هذا الوعيد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما لم تؤدّ زكاته. قال ابن عمر: كل مال أدبث زكاته وإن كان تحت سبع أرضين فليس بكنز، وكل مال لا تؤدّي زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً على وجه الأرض^(١)، وإلى هذا المعنى ذهب الجمهور. فعلى هذا، معنى الإنفاق: إخراج الزكاة. والثاني: أنه ما زاد على أربعة آلاف، روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: أربعة آلاف نفقة، وما فوقها كنز. والثالث: ما فضل عن الحاجة، وكان يجب عليهم إخراج ذلك في أول الإسلام ثم نُسخ. فإن قيل: كيف قال: «ينفقونها» وقد ذكر شيئين؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن المعنى: يرجع إلى الكنوز والأموال. والثاني: أنه يرجع إلى الفضة، وحُذف الذهب، لأنه داخل في الفضة، قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما

عندك راضٍ والرأي مختلف^(٢)

يريد: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راضٍ، ذكر القولين الزجاج. وقال الفراء: إن شئت اكتفيت بأحد المذكورين، كقوله: «وَمَنْ يَكْسِبْ حَيْلَةً أَوْ إِنَّمَا تُدْرِي بِرَبِّكَ بِرَبِّكَ» [النساء: ١١٢]، وقوله: «وَإِذَا رَأَوْا تَحِيْرَةً أَوْ لَمَوْا أَنْفُسَهُمْ أَلْيَا» [الجمعة: ١١]، وأنشد:

إني ضمنت لمن أناني ما جئني

وأبى وكان وكنيت غير غَدور^(٣)

ولم يقل: غدورين، وإنما اكتفى بالواحد لاتفاق المعنى. قال أبو عبيدة: والعرب إذا أشركوا بين اثنين قسروا، فخبّروا عن أحدهما استغناءً بذلك، وتحقيقاً لمعرفة السامع بأن الآخر قد شاركه، ودخل معه في ذلك الخبر، وأنشد:

فمن يك أمسى بالمدينة رخله

فإنني وقيارٌ بها لغريب^(٤)

والنصب في «قيار» أجود، وقد يكون الرفع. وقال حسان بن ثابت:

إن شرخ الشباب والشعر الأسد

وَد ما لم يُعاصِرَ كان جُنونا^(٥)

ولم يقل: يعاصيا.

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَرَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذَرَوْا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: على الأموال. قال ابن مسعود: والله ما من رجل يكوى بكنز، فيوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم، ولكن يوسّع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته^(٦). وقال ابن عباس: هي حية تنطوي على جنبه وجبهته، تقول: أنا مالك الذي بخلت به.

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا كَرَزْتُمْ﴾ فيه محذوف تقديره: ويقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ﴿فَذَرَوْا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: عذاب ذلك. فإن قيل: لم خصّ الجباه والجنوب والظهور من بقية البدن؟ فالجواب: أن هذه المواضع مجوّفة، فيصل الحر إلى أجوافها، بخلاف اليد والرجل. وكان أبو ذر يقول: بشر الكنّازين بكتي في الجباه وكتي في الجنوب

(١) أثر ابن عمر رواه الطبري ٢١٨/١٤، وإسناده صحيح. ورواه بمعناه مالك في «الموطأ» ٢٥٦/١.

(٢) قائله عمرو بن امرئ القيس من بني الحارث بن الخزرج، جاهلي قديم، وهو جد عبد الله بن رواحة، والبيت في «جمهرة أشعار العرب» ٢٣٧، وسيبويه ٣٧/١ (منسوباً لقيس بن الخطيم) وهو خطأ، و«معاني القرآن» ٤٣٤/١، و«مجاز القرآن» ٢٥٨/١، و«الخرزانة» ١٩٠/٢.

(٣) البيت غير منسوب في «معاني القرآن» ٤٣٤/١، ونسبه سيبويه في «الكتاب» ٣٨/١ للفرزدق.

(٤) قائله ضايع بن الحارث اليربوعي وهو في «الأصمعيات» ١٦، و«سيبويه» ٣٨/١، و«القرطبي» ٢٤٦/٦، و«شواهد المغني» ٢٩٣، و«الخرزانة» ٢٢٣/٤، و«اللسان»، و«التاج»: قير.

(٥) «ديوانه» ٤١٣، و«مجاز القرآن» ٢٥٨/١، و«القرطبي» ١٢٨/٨، و«الجمهرة» ٢٠٧/٢، و«اللسان»: شرح، و«الشرح: الحد»، أي: غاية ارتفاعه، يعني بذلك أقصى قوته ونضارته وحنفوانه.

(٦) «الطبري» ٢٣٣/١٤، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٩/٧ - ٣٠. وقال: رواه الطبراني ورجال الصحيح. وأورده ابن كثير ٣٥٢/٢ من طريق ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً وقال: ولا يصح رفعه والله أعلم. وخرجه السيوطي في «الدرر» ٢٣٣/٣، وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

وكي في الظهور، حتى يلتقي الحرُّ في أجوافهم^(١). وجواب آخر: وهو أن الغني إذا رأى الفقير، انقبض؛ وإذا ضمه وإياه مجلس، ازورَّ عنه وولاه ظهره، قاله أبو بكر الوراق.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْقِيَامُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا بُدِّلْتُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله، وربما وقع حجهم في رمضان، وربما وقع في شوال، إلى غير ذلك؛ وكانوا يستحلون المحرم عاماً، ويحرمون مكانه صفر، وتارة يحرمون المحرم ويستحلون صفر. قال الزجاج: أعلم الله ﷻ أن عدد شهور المسلمين التي تُعبدوا بأن يجعلوه لستهم؛ اثنا عشر شهراً على منازل القمر؛ فجعل حجهم وأعيادهم على هذا العدد، فتارة يكون الحج والصوم في الشتاء، وتارة في الصيف، بخلاف ما يعتمده أهل الكتاب، فإنهم يعملون على أن السنة ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوماً وبعض يوم. وجمهور القراء على فتح عين «اثنا عشر». وقرأ أبو جعفر: «اثنا عشر»، و«أحد عشر»، و«تسعة عشر»، بسكون العين فيهن.

قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ. قال ابن عباس: في الإمام الذي عند الله، كتبه ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها رجب، وذو القعدة، وذو الحجة. والمحرّم، قاله الأكثرون. وقال القاضي أبو يعلى: إنما سماها حُرماً لمعتنين: أحدهما: تحريم القتال فيها، وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون ذلك أيضاً. والثاني: لتعظيم انتهاك المحارم فيها أشدَّ من تعظيمه في غيرها، وكذلك تعظيم الطاعات فيها. والثاني: أنها الأشهر التي أُجِّلَ المشركون فيها للسياحة، ذكره ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْقِيَامُ﴾ فيه قولان: أحدهما: ذلك القضاء المستقيم، قاله ابن عباس. والثاني: ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوي، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ اختلفوا في كناية «فيهنَّ» على قولين: أحدهما: أنها تعود على الاثني عشر شهراً، قاله ابن عباس. فعلى هذا يكون المعنى: لا تجعلوا حرامها حلالاً، ولا حلالها حراماً، كفعل أهل النسيء. والثاني: أنها ترجع إلى الأربعة الحرم، وهو قول قتادة، والفراء؛ واحتج بأن العرب تقول لما بين الثلاثة إلى العشرة: ثلاث ليالٍ خُلُون، وأيام خلون؛ فإذا جُزَّت العشرة قالوا: خلت ومضت؛ ويقولون لما بين الثلاثة إلى العشرة: هُنَّ، وهؤلاء؛ فإذا جُزَّت العشرة، قالوا: هي، وهذه؛ إرادة أن تُعرف سمة القليل من الكثير. وقال ابن الأنباري: العرب تعيد الهاء والنون على القليل من العدد، والهاء والألف على الكثير منه؛ والقلَّة: ما بين الثلاثة إلى العشرة، والكثرة: ما جاوز العشرة، يقولون: وجهت إليك أكبشاً فاذبحهنَّ، وكباشاً فاذبحها؛ فهذا قال: ﴿مِنهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾ لأنه يعني بقوله: «فيهن» الأربعة. ومن قال من المفسرين: إنه يعني بقوله: «فيهن» الاثني عشر، فإنه ممكن؛ لأن العرب ربما جعلت علامة القليل للكثير، وعلامة الكثير للقليل. وعلى قول من قال: ترجع «فيهن» إلى الأربعة؛ يُخرَج في معنى الظلم فيهن أربعة أقوال: أحدها: أنه المعاصي؛ فتكون فائدة تخصيص النهي عنه بهذه الأشهر، أن شأن المعاصي يعظم فيها أشدَّ من تعظيمه في غيرها، وذلك لفضلها على ما سواها، كقوله: ﴿وَيَجْزِيهِ وَمِيزَانٌ﴾ [البقرة: ٩٨] وإن كانا قد دخلا في جملة الملائكة، وقوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾ [البقرة: ١٩٧] وإن كانا قد دخلا في جملة الفاكهة، وقوله: ﴿فَلَا رَفَقَ وَلَا سُوءَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] وإن كانا منهيأ عنه في غير الحج،

(١) «الطبري» ٢٣٠/١٤، وفي «صحيح مسلم» ١/٦٩٠، عن الأحنف بن قيس قال: كنت في نفر من قرش، فمر أبو ذر وهو يقول: «بشر الكافرين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبهم، وبكي من قبل أفتانهم يخرج من جباههم»، قال: ثم تنحى فقعده، قال: قلت: من هذا؟ قالوا: أبو ذر، قال: فقممت إليه، فقلت: ما شيء سمعتك تقول قبيل، قال: ما قلت إلا شيئاً قد سمعت من نبيهم ﷺ. . . . وروى مسلم أيضاً ١/٦٨٢ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحس عليه في نار جهنم فيجمل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار. . . .»

وكما أمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى وإن كان مأموراً بالمحافظة على غيرها، هذا قول الأكثرين. والثاني: أن المراد بالظلم فيهنّ فعل النسيء، وهو تحليل شهر محرّم، وتحريم شهر حلال، قاله ابن إسحاق. والثالث: أنه البداية بالقتال فيهنّ؛ فيكون المعنى: فلا تظلموا أنفسكم بالقتال فيهنّ إلا أن تُبَدَّوْا بالقتال، قاله مقاتل. والرابع: أنه ترك القتال فيهنّ؛ فيكون المعنى: فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم بترك المحاربة لعدوكم، قاله ابن بحر، وهو عكس قول مقاتل. والسُرُّ في أن الله تعالى عَظَّمَ بعض الشهور على بعض، ليكون الكفُّ عن الهوى فيها ذريعة إلى استدامة الكف في غيرها تدريجاً للنفس إلى فراق مألوفها المكروه شرعاً.

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ مَا كَانَ يَنْهَى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ الجمهور على همز النسيء ومدّه وكسر سينه. وروى شبل عن ابن كثير: «النَّسِيءُ» على وزن النيسع. وفي رواية أخرى عن شبل: «النَّسِيءُ» مشددة الياء من غير همز، وهي قراءة أبي جعفر؛ والمراد بالكلمة التأخير. قال اللغويون: النسيء: تأخير الشيء. وكانت العرب تحرم الأشهر الأربعة، وكان هذا مما تمسكت به من ملة إبراهيم؛ فربما احتاجوا إلى تحليل المحرم للحرب تكون بينهم، فيؤخّرون تحريم المحرم إلى صفر، ثم يحتاجون إلى تأخير صفر أيضاً إلى الشهر الذي بعده؛ ثم تتدافع الشهور شهراً بعد شهر حتى يستدير التحريم على السنة كلّها، فكانهم يستنسون الشهر الحرام ويستقرضونه، فأعلم الله ﷻ أن ذلك زيادة في كفرهم، لأنهم أحلوا الحرام، وحرموا الحلال: ﴿ يُؤَاطِفُوا ﴾ أي: ليوافقوا ﴿ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ فلا يخرجون من تحريم أربعة، ويقولون: هذه بمنزلة الأربعة الحرم، ولا يبالون بتحليل الحرام، وتحريم الحلال. وكان القوم لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة إذا اجتمعت العرب للموسم، قال الفراء: كانت العرب في الجاهلية إذا أرادوا الصّدْرَ عن منى، قام رجل من بني كنانة يقال له: نعيم بن ثعلبة، وكان رئيس الموسم، فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ولا يردُّ لي قضاء؛ فيقولون: أنستنا شهراً؛ يريدون: أخرّ عنا حرمة المحرم، واجعلها في صفر، فيفعل ذلك. وإنما دعاهم إلى ذلك توالي ثلاثة أشهر حُرْم لا يُغيرون فيها، وإنما كان معاشهم من الإغارة، فستدير الشهور كما يتأتّى. وقيل: إنما كانوا يستحلون المحرم عاماً، فإذا كان من قابل ردّوه إلى تحريمه. قال أبو عبيد: والتفسير الأول أحب إليّ، لأن هذا القول ليس فيه استدارة. وقال مجاهد: كان أول من أظهر النسيء جنادة بن عوف الكناني، فوافقت حجة أبي بكر ذا القعدة، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل في ذي الحجة، فذلك حين قال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»^(١). وقال الكلبي: أول من فعل ذلك نعيم بن ثعلبة.

قوله تعالى: ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «يُضَلُّ» بفتح الياء وكسر الضاد، والمعنى: أنهم يكتسبون الضلال به. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «يُضَلُّ» بضم الياء وفتح الضاد، على ما لم يُسم فاعله. وقرأ الحسن البصري، ويعقوب إلا الوليد: «يُضَلُّ» بضم الياء وكسر الضاد؛ وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: يُضَلُّ الله به. والثاني: يُضَلُّ الشيطان به، ذكرهما ابن القاسم. والثالث: يُضَلُّ به الذين كفروا الناس، لأنهم الذين سنوه لهم. قال أبو علي: التقدير: يُضَلُّ به الذين كفروا تابعيهم. وقال ابن القاسم: الهاء في «به» راجعة إلى النسيء، وأصل النسيء: المنسوء، أي: المؤخّر، فينصرف عن «مفعول» إلى «فعليل» كما قيل: مطبوخ وطبيخ، ومقدور وقدير، قال: وقيل: الهاء راجعة إلى الظلم، لأن النسيء كُشِفَت تأويل الظلم، فجرى مجرى المظهر؛ والأول اختيارنا.

﴿ يَتَأْتِيَكُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلَبْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(١) رواه أحمد في «المسنَد» ٣٧/٥، والبخاري ٦/١٠، ومسلم رقم ١٦٧٩، وأبو داود رقم ١٩٤٧ عن أبي بكره ﷺ، وقد أوردنا الحديث بطوله صفحة (٥٦٧).

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ قال المفسرون: لما أمر رسول الله ﷺ بغزوة تبوك، وكان في زمن عسرة وجذب وحر شديد، وقد طابت شمار، عظم ذلك على الناس وأحبوا المقام، فنزلت هذه الآية^(١). وقوله: ﴿ما لكم﴾ استفهام معناه التوبيخ. وقوله: ﴿أنفروا﴾ معناه: اخرجوا. وأصل النفر: مفارقة مكان إلى مكان آخر لأمر هاج إلى ذلك. وقوله: ﴿أناقاتر﴾ قال ابن قتيبة: أراد: تناقستم، فأدغم التاء في التاء، وأحدث الألف ليسكن ما بعدها، وأراد: قعدتم. وفي قراءة ابن مسعود، والأعمش: «تناقستم». وفي عنى: ﴿إلى الأرض﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تناقستم إلى شهوات الدنيا حين أخرجت الأرض ثمرها، قاله مجاهد. والثاني: اطمأنتم إلى الدنيا، قاله الضحاك. والثالث: تناقستم إلى الإقامة بأرضكم، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا﴾ أي: بتعيمها من نعيم الآخرة، فما يتمتع به في الدنيا قليل بالإضافة إلى ما يتمتع به الأولياء في الجنة^(٢).

﴿إلا نفيروا بؤذنبكم عذاباً أليماً وستبدل قوماً غيركم ولا نضروهم شيئاً والله على كل شيء قدير﴾^(٣) قوله تعالى: ﴿إلا نفيروا بؤذنبكم﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما حثهم على غزو الروم تناقلوا، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. وقال قوم: هذه خاصة فيمن استنفره رسول الله ﷺ فلم ينفر. قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتناقلوا عنه، فأمسك عنهم المطر فكان عذابهم^(٤). وفي قوله: ﴿وستبدل قوماً غيركم﴾ وعيد شديد في التخلف عن الجهاد، وإعلام بأنه يستبدل لنصر نبيه قوماً غير متناقلين. ثم أعلمهم أنهم إن تركوا نصره لم يضره، كما لم يضره ذلك إذ كان بمكة. وفي هاء «تضروهم» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله، والمعنى: لا تضروا الله بترك النفيير، قاله الحسن. والثاني: أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ، فالمعنى: لا تضروه بترك نصره، قاله الزجاج.

فصل

وقد روي عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، قالوا: نُسخ قوله: ﴿إلا نفيروا بؤذنبكم عذاباً أليماً﴾ بقوله: ﴿وما كانت المؤمنون لينفروا كافة﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال أبو سليمان الدمشقي: ليس هذا من المنسوخ، إذ لا تنافي بين الآيتين، وإنما حكم كل آية قائم في موضعها. وذكر القاضي أبو يعلى عن بعض العلماء أنهم قالوا: ليس هاهنا نسخ، ومتى لم يقاوم أهل الثغور العدو، ففرض على الناس النفيير إليهم، ومتى استغفوا عن إعانة من وراءهم، عُذر القاعدون عنهم. وقال قوم: هذا في غزوة تبوك، ففرض على الناس النفيير مع رسول الله ﷺ.

﴿إلا نضروهم فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثلث اثنتين إذ هما في الفكاك إذ يقول لصحبوه لا تحزن إن الله معنا فأنزله الله سبحانه عليه وأيدته بجثوه ثم تروها وجعل كلمة الذين كفروا الضلالت وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿إلا نضروهم﴾ أي؛ بالنفيير معه: ﴿فقد نصره الله﴾ إعانة على أعدائه، ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ حين قصدوا إهلاكه على ما شرحنا في قوله: ﴿وإذ يمتكركم بالذين كفروا﴾ [الأنفال: ٣٠] فأعلمهم أن نصره ليس بهم. قوله تعالى: ﴿ثلاث اثنتين﴾ العرب تقول: هو ثاني اثنين، أي: أحد الاثنين، وثالث ثلاثة، أي: أحد الثلاثة، قال الزجاج: وقوله: ﴿ثلاث اثنتين﴾ منصوب على الحال؛ المعنى: فقد نصره الله أحد اثنين، أي: نصره منفرداً إلا من

(١) «الطبري» ٢٥٣/١٤، عن مجاهد، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٢٧/٣، وزاد نسبة لسيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» رقم (٢٨٥٨) عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبمه هذه - وأشار يحيى (أحد الرواة) بالسبابة - في اليوم، فلينظر بم ترجع»، ورواه أحمد في «المسنن» ٢٢٨/٤، والمعنى: ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها ووفاء لذاتها، ودوام الآخرة، ودوام لذتها ونعيمها، إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالأصبع إلى باقي البحر.

(٣) رواه بنحوه أبو داود في «سننه» رقم (٢٥٠٦) وفي سننه نجدة بن نفع وهو مجهول. وأورده السيوطي في «الدر» ٢٣٩/٣، وزاد نسبة لابن المنذر، وأبي الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه».

أبي بكر، وهذا معنى قول الشعبي: عاتب الله أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر. وقال ابن جرير: المعنى: أخرجوه وهو أحد الاثنين، وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر. فأما الغار، فهو ثقب في الجبل، وقال ابن فارس: الغار: الكهف، والغار: نبت طيب الريح، والغار: الجماعة من الناس، والغاران: البطن والفرج، وهما الأجوفان، يقال: إنما هو عبد غارته. قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السُّعْرَ يَزُومُ وَلَيْلَةً وَأَنَّ الْفَتَى يَسْعَى لِيَغَارِيهِ دَائِبًا^(١)

قال قتادة: وهذا الغار في جبل بمكة يقال له: ثور. قال مجاهد: مكث فيه ثلاثاً. وقد ذكرت حديث الهجرة في كتاب «الحدائق». قال أنس بن مالك: أمر الله ﷺ شجرة فنبتت في وجه رسول الله ﷺ فسترته، وأمر العنكبوت فنسجت في وجهه، وأمر حمامتين وحشيتين فوقتا في فم الغار، فلما دنوا من الغار، عجل بعضهم لينظر، فرأى حمامتين، فرجع فقال: رأيت حمامتين على فم الغار، فعلمت أنه ليس فيه أحد^(٢). وقال مقاتل: جاء القائف فنظر إلى الأقدام فقال: هذه قدم ابن أبي قحافة، والأخرى لا أعرفها، إلا أنها تشبه القدم التي في المقام. وصاحبه في هذه الآية أبو بكر، وكان أبو بكر قد بكى لما مرَّ المشركون على باب الغار، فقال له النبي ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(٣) وفي السكينة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الرحمة، قاله ابن عباس. والثاني: الوقار، قاله قتادة. والثالث: السكون والطمأنينة، قاله ابن تقيّة، وهو أصح. وفي هاء «عليه» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى أبي بكر، وهو قول علي بن أبي طالب، وابن عباس، وحبيب بن أبي ثابت. واحتج من نصر هذا القول بأن النبي ﷺ كان مطمئناً. والثاني: أنها ترجع إلى النبي ﷺ، قاله مقاتل. والثالث: أن الهاء هاهنا في معنى تثنية، والتقدير: فأنزل الله سكينة عليهما، فاكتمى بإعادة الذكر على أحدهما من إعادته عليهما، كقوله: «وَاللَّهُ رَسُوْلُهُ أَحْسَنُ أَنْ يُرْسُوْهُ» [التوبة: ٤٦٢]، ذكره ابن الأباري.

قوله تعالى: «وَأَيْتَكُمْ» أي: قوّاه، يعني النبي ﷺ بلا خلاف. «يُحْسِنُونَ لِمَ تَرَوْكَ» وهم الملائكة. ومتى كان ذلك؟ فيه قولان: أحدهما: يوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم حنين، قاله ابن عباس. والثاني: لما كان في الغار، صرفت الملائكة وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته، قاله الزجاج. فإن قيل: إذا وقع الاتفاق أن هاء الكناية في «أيده» ترجع إلى النبي ﷺ، فكيف تفارقها هاء «عليه» وهما متفتتان في نظم الكلام؟ فالجواب: أن كل حرف يردُّ إلى الأليق به، والسكينة إنما يحتاج إليها المنزعج، ولم يكن النبي ﷺ منزعجاً. فأما التأييد بالملائكة، فلم يكن إلا للنبي ﷺ ونظير هذا قوله: «لَتُرْسُوْا بِاللَّهِ رَسُوْلِهِ وَتَمْرِيْذُهُ وَتَوْقُرُوْهُ» [الفتح: ٨] يعني النبي ﷺ، «وَتَسْحِرُوْهُ» يعني الله ﷻ.

قوله تعالى: «وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى» فيها قولان: أحدهما: أن كلمة الكافرين الشرك، جعلها الله السفلى لأنها مقهورة، وكلمة الله وهي التوحيد، هي العليا، لأنها ظهرت، هذا قول الأكثرين. والثاني: أن كلمة الكافرين ما قدرُوا بينهم في الكيد به ليقتلوه، وكلمة الله أنه ناصره، رواه عطاء عن ابن عباس. وقرأ ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقاتدة، والضحاك، ويعقوب: «وكلمة الله» بالنصب.

قوله تعالى: «وَاللَّهُ عَزِيْزٌ» أي: في انتقامه من الكافرين: «حَكِيْمٌ» في تديبه. «انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»^(٤) قوله تعالى: «انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا» سبب نزولها أن المقداد جاء إلى رسول الله ﷺ، وكان عظيمًا سمينًا، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(٥). وفي معنى «خِفَافًا وَثِقَالًا» أحد عشر قولاً: أحدها: شيوخاً

(١) البيت في «اللسان» غور غير منسوب.

(٢) ابن سعد في «الطبقات» ٢٢٩/١، عن أبي مصعب المكي قال: أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة، فسمعتهم يتحدثون أن النبي ﷺ ليلة الغار: أمر الله شجرة. . . الحديث. وفي سننه ضعيف ومجهول. وفي «مستدرج أحمد» ٨٧/٥، من حديث ابن عباس: «... فمروا بالغار فرأوا على بابها نسج العنكبوت»، وفي سننه عثمان الجزري لم يوثقه غير ابن حبان.

(٣) «البخاري»: ١٠/٧، و«مسلم»: ١٨٥٤/٤، دون قوله: وكان أبو بكر قد بكى لما مرَّ المشركون على باب الغار. وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبه لابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، وأبي عوانة، وابن حبان، وابن المنذر، وابن مردويه.

(٤) «أسباب النزول» للواحدي ١٤١، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٤٦/٣، ونسبه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

وشباباً، رواه أنس عن أبي طلحة، وبه قال الحسن، والشعبي، وعكرمة، ومجاهد، وأبو صالح، وشمر بن عطية، وابن زيد في آخرين. والثاني: رجاله وركبانا، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال الأوزاعي. والثالث: نشاطاً وغير نشاط، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، ومقاتل. والرابع: أغنياء وفقراء، روي عن ابن عباس. ثم في معنى هذا الوجه قولان: أحدهما: أن الخفاف: ذوو العسرة وقلة العيال، والثقال: ذوو العيال والميسرة، قاله الفراء. والثاني: أن الخفاف: أهل الميسرة، والثقال: أهل العسرة، حكى عن الزجاج. والخامس: ذوي عيال، وغير عيال. قاله زيد بن أسلم. والسادس: ذوي ضياع، وغير ذوي ضياع، قاله ابن زيد. والسابع: ذوي أشغال، وغير ذوي أشغال، قاله الحكم. والثامن: أصحاب، ومرضى، قاله مرة الهمداني، وجوير. والتاسع: عزاباً ومتأهلين، قاله يمان بن رباب. والعاشر: خفافاً إلى الطاعة، وثقالاً عن المخالفة، ذكره الماوردي. والحادي عشر: خفافاً من السلاح، وثقالاً بالاستكثار منه، ذكره الثعلبي.

فصل

روى عطاء الخراساني عن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَسْتَفِرُّوا كَذِباً﴾^(١) [التوبة: ١٧٢]. وقال السدي: نسخت بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾^(٢) [التوبة: ٩١].

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ قال القاضي أبو يعلى: أوجب الجهاد بالمال والنفس جميعاً، فمن كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للقتال، فعليه الجهاد بماله، بأن يعطيه غيره فيغزو به، كما يلزمه الجهاد بنفسه إذا كان قوياً. وإن كان له مال وقوة، فعليه الجهاد بالنفس والمال. ومن كان معدماً عاجزاً، فعليه الجهاد بالنصح لله ورسوله، لقوله: ﴿وَلَا عَلَى الضُّعْفِ لَا يَجِدُرُ مَا يُفْقِدُ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ حَبْرٌ لَكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: ذلكم الجهاد خير لكم من تركه والثقل عنه. والثاني: ذلكم الجهاد خير حاصل لكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَلْمِزُونَ﴾ ما لكم من الثواب.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعْتُمُوهَا وَلَكِنْ بَدَدْتُمْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ لِيُخْرِجَهُمْ مَكْرَهُمْ وَيَكُونَ لَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال المفسرون: نزلت في المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك. ومعنى الآية: لو كان ما دُعوا إليه عرضاً قريباً. والعرض: كل ما عرض لك من منافع الدنيا، فالمعنى: لو كانت غنيمة قريبة، أو كان سفراً قاصداً، أي: سهلاً قريباً، لاتبعتكم طمعاً في المال ﴿وَلَكِنْ بَدَدْتُمْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ﴾ قال ابن قتيبة: الشقة: السفر؛ وقال الزجاج: الشقة: الغاية التي تقصد؛ وقال ابن فارس: الشقة: مصير إلى أرض بعيدة، تقول: شقة شاقة.

قوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ﴾ يعني المنافقين إذا رجعتهم إليهم ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾ وقرأ زائدة عن الأعمش، والأصمعي عن نافع: ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾ بضم الواو، وكذا أين وقع، مثل: ﴿لَوْ أَطْلَعْتُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف: ١٧٨]، كأنه لما احتج إلى حركة الواو، حركت بالضم لأنها أخت الواو، والمعنى: لو قدرنا وكان لنا سعة في المال. ﴿يَكُونُ أَنْفُسِهِمْ﴾ بالكذب والنفاق ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لأنهم كانوا أغنياء ولم يخرجوا.

﴿عَمَّا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ قال عمرو بن ميمون: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذة الفداء من الأسارى؛ فعاتبه الله كما تسمعون. قال مورق: عاتبه ربّه بهذا. وقال سفيان بن عيينة: انظر

(١) وقد ذهب إلى إحكام الآية ومنع النسخ جماعة، منهم ابن جرير الطبري، وأبو سليمان الدمشقي، وحكى القاضي أبو يعلى عن بعض العلماء أنهم قالوا: ليس هاتان نسخ، ومنى لم يقام أهل الثغور العدو، ففرض على الناس الثغر إليهم، ومنى استفتوا عن إعانة من وراءهم عن القاعدون عنهم.

(٢) أخرجه السيوطي في «الدرر ٢/٣٢٦»، من رواية ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن السدي.

إلى هذا اللطف، بدأ بالعفو قبل أن يعيِّره بالذنب. وقال ابن الأنباري: لم يخاطب بهذا لجرم أجرمه، لكن الله وقره ورفع من شأنه حين افتتح الكلام بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كما يقول الرجل لمخاطبه إذا كان كريماً عليه: عفا الله عنك، ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك، هلاً زرتي.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكَ الْآيَاتِ صَدَقُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: حتى تعرف ذوي العذر في التخلف ممن لا عذر له. والثاني: لو لم تأذن لهم، لقعدوا وبان لك كذبهم في اعتذارهم. قال قتادة: ثم إن الله تعالى نسخ هذه الآية بقول: ﴿فَأَذِّن لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢].

﴿لَا يَسْتَنْدِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَالِمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَنْدِكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَكَذَّبَتْ قُلُوبُهُمْ فهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَصْطَكِرُونَ ﴿٤٥﴾
قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَنْدِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قال ابن عباس: هذا تعبير للمنافقين حين استأذنوا في القعود. قال الزجاج: أعلم الله ﷻ نبيه ﷺ أنَّ علامة النفاق في ذلك الوقت الاستئذان.

فصل

وروي عن ابن عباس أنه قال: نسخت هذه الآية بقوله: ﴿لَمْ يَدْعُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا﴾ إلى آخر الآية [النور: ٦٢]. قال أبو سليمان الدمشقي: وليس للنسخ هاهنا مدخل، لإمكان العمل بالآيتين، وذلك أنه إنما عاب على المنافقين أن يستأذنوه في القعود عن الجهاد من غير عذر، وأجاز للمؤمنين الاستئذان لما يعرض لهم من حاجة، وكان المنافقون إذا كانوا معه فعرضت لهم حاجة، ذهبوا من غير استئذانه.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لِحَالِكُمْ لِيَتَّوَنَكُمْ أَلْفِتْنَةً وَّفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْقَالِبِينَ ﴿٤٧﴾
قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ يعني المستأذنين له في القعود. وفي المراد بالعدَّة قولان: أحدهما: النية، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثاني: السلاح، والمركوب، وما يصلح للخروج، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والانبعاث: الانطلاق، والتثبُّط: ردُّك الإنسان عن الشيء يفعل.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا﴾ في القائل لهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم ألهموا ذلك خذلاناً لهم، قاله مقاتل. والثاني: أن النبي ﷺ قاله غضباً عليهم. والثالث: أنه قول بعضهم لبعض، ذكرهما الماوردي. وفي المراد بالقاعدتين قولان: أحدهما: أنهم القاعدون بغير عذر، قاله ابن السائب. والثاني: أنهم القاعدون بعذر، كالنساء والصبيان، ذكره علي بن عيسى. قال الزجاج: ثم أعلم الله ﷻ لم كره خروجهم، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ والخبال: الفساد وذهاب الشيء. وقال ابن قتيبة: الخبال: الشر. فإن قيل: كان الصحابة كان فيهم خبال حتى قيل: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾؟ فالجواب: أنه من الاستثناء المنقطع، والمعنى: ما زادوكم قوَّة، لكن أوقعوا بينكم خبالاً. وقيل: سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ لما خرج، ضرب عسكره على ثنية الوداع، وخرج عبد الله بن أبي، فضرب عسكره على أسفل من ذلك؛ فلما سار رسول الله ﷺ، تخلف ابن أبي فيمن تخلف من المنافقين، فنزلت هذه الآية^(١).
قوله تعالى: ﴿وَلَا أُضْعَفُوا لِحَالِكُمْ﴾ قال الفراء: الإيضاع: السير بين القوم. وقال أبو عبيدة: لأسرعوا بينكم، وأصله من التخلل. قال الزجاج: يقال: أوضعت في السير: أسرعت.

قوله تعالى: ﴿يَتَّوَنَكُمْ أَلْفِتْنَةً﴾ قال الفراء: يبعونها لكم. وفي الفتنة قولان: أحدهما: الكفر، قاله الضحاك، ومقاتل، وابن قتيبة. والثاني: تفريق الجماعة، وشتات الكلمة. قال الحسن: لأضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات بينكم.

(١) قال السيوطي في «الدرر» ٤٤٧/٣: وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، عن الحسن البصري قال: كان عبد الله بن أبي، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد بن تابوت من عظماء المنافقين، وكانوا ممن يكيد الإسلام وأهله، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى آخر الآية، وهي الآية التي بعد هذه.

قوله تعالى: ﴿رَفِيقًا سَمْعُونَ لَكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: عيون يتقلون إليهم أخباركم، قاله مجاهد، وابن زيد. والثاني: من يسمع كلامهم ويطيعهم، قاله قتادة، وابن إسحاق.

﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْيُنُسَ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَكَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٢١)

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْيُنُسَ﴾ في الفتنة قولان: أحدهما: الشر، قاله ابن عباس. والثاني: الشرك، قاله مقاتل. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل غزوة تبوك. وفي قوله: ﴿وَكُنَّا لَكَ الْأُمُورَ﴾ خمسة أقوال: أحدها: بَعَثْنَا لَكَ الْغَوَائِلَ، قاله ابن عباس. وقيل: إن اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على طريقه ليلاً ليفتكوا به، فسلمه الله منهم. والثاني: احتالوا في تشتت أمرك وإبطال دينك، قاله أبو سليمان الدمشقي. قال ابن جرير: وذلك كانصراف ابن أبي يوم أحد بأصحابه. والثالث: أنه قولهم ما ليس في قلوبهم. والرابع: أنه ميلهم إليك في الظاهر، وممالأة المشركين في الباطن. والخامس: أنه حلفهم بالله ﴿لَوْ أَسْطَلَعْنَا لَعَرَجًا مَعَكُمْ﴾ ذكر هذه الأقوال الثلاثة الماوردي.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ يعني النصر ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني الإسلام.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَوَدْنَا لِي وَلَا نَقِيَّتِي آلَا فِي الْيُنُسِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٢٢)

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَوَدْنَا لِي﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ قال للجد بن قيس: «يا جد، هل لك في جِلاذ بني الأصفر، لعلك أن تغتم بعض بنات الأصفر»، فقال: يا رسول الله، ائذن لي فأقيم، ولا تفتني بنات الأصفر. فأعرض عنه، وقال: «قد أفنت لك»، ونزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(١). وهذه الآية وما بعدها إلى قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ فِي الْمَنَافِقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يعني المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ أَوَدْنَا لِي﴾ أي: في القعود عن الجهاد، وهو الجد بن قيس. وفي قوله: ﴿وَلَا نَقِيَّتِي﴾ أربعة أقوال: أحدها: لا تفتني بالنساء، قاله ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. والثاني: لا تكسبني الإثم بأمرك إِيَّايَ بالخروج وهو غير متيسر لي، فأثم بالمخالفة، قاله الحسن، وفتادة، والزجاج. والثالث: لا تكفرني بالزامك إِيَّايَ الخروج، قاله الضحاك. والرابع: لا تصرفني عن شغلي، قاله ابن بحر.

قوله تعالى: ﴿آلَا فِي الْيُنُسِ سَقَطُوا﴾ في هذه الفتنة أربعة أقوال: أحدها: أنها الكفر، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الحرج، قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: الإثم، قاله فتادة، والزجاج. والرابع: العذاب في جهنم، ذكره الماوردي.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَبِّحْهُ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَكَانُوا فِي سَبْحٍ﴾ (٢٣)

﴿لَنْ يُصِيبَكَ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٢٤)

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ﴾ أي: نصر وغنيمة. والمصيبة: القتل والهزيمة. ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾

أي: عملنا بالحزم فلم نخرج. ﴿وَيَقُولُوا وَهُمْ فِي سَبْحٍ﴾ بمصابك وسلامتهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما قضى علينا، قاله ابن عباس. والثاني: ما بين لنا في كتابه من أننا نظفر فيكون ذلك حسنى لنا، أو نقتل فتكون الشهادة حسنى لنا أيضاً، قاله الزجاج. والثالث: لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا من النصر الذي وعدنا، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: ناصرنا.

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِيِّ وَنَحْنُ نَرْتَضُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَرَصًا﴾

﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرِصُونَ﴾ (٢٥)

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا﴾ أي: تنتظرون. والحسنيان: النصر والشهادة. ﴿وَنَحْنُ نَرْتَضُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ﴾ في هذا العذاب قولان: أحدهما: الصواعق، قاله ابن عباس. والثاني: الموت، قاله ابن جرير.

(١) أورده السيوطي في «الدرر» ٢٤٨/٣، من رواية محمد بن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل» من طريقه عن عاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَنَّكَ﴾ يعني: القتل.

﴿قَدْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ سبب نزولها أن الجدي بن قيس قال للنبي ﷺ لما عرض عليه غزو الروم: إذا رأيت النساء افتنتت. ولكن هذا مالي أعينك به، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). قال الزجاج: وهذا لفظ أمر، ومعناه معنى الشرط والجزاء، المعنى: إن أنفقت طامعين أو مكريين لن يُتَقَبَلَ منك. ومثله في الشعر قول كثير:

أسيشي بنا أو أحسني لا ملنومة
لدينا ولا مقلية إن تَقَلَّتْ^(٢)

لم يأمرها بالإساءة، ولكن أعلمها أنها إن أساءت أو أحسنت فهو على عهدنا. قال الفراء: ومثله ﴿أَسْتَفِيرَ لَكُمْ أَوْ لَا سَتَفِيرَ لَكُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهَرُ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُؤْتُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهِنُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «تقبل» بالثاء. وقرأ حمزة، والكسائي: «يقبل» بالياء. قال أبو علي: من أُنْتُ، فلأن الفعل مسند إلى مؤنث في اللفظ؛ ومن قرأ بالياء، فلأنه ليس بتأنيث حقيقي، فجاز تذكره؛ كقوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وقرأ الجحدري: «أن يُقْبَل» بياء مفتوحة، «نفقاتهم» بكسر التاء. وقرأ الأعشى: «نفقتهم» بغير الف، مرفوعة التاء. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء: «أن يُقْبَل» بالياء «نفقتهم» بنصب التاء على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْهَرُ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ قال ابن الأنباري: «أن» هاهنا مفتوحة، لأنها بتأويل المصدر مرتفعة بـ «منعهم»، والتقدير: وما منعهم قبول النفقة منهم إلا كفرهم بالله.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ قد شرحناه في سورة [النساء: ١٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْتُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهِنُونَ﴾ لأنهم يعدون الإنفاق مغرمًا.

﴿فَلَا تُحِجُّكُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أُنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُحِجُّكُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ أي: لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد. وفي معنى الآية أربعة أقوال: أحدها: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن قتبية. فعلى هذا، في الآية تقديم وتأخير، ويكون تعذيبهم في الآخرة بما صنعوا في كسب الأموال وإنفاقها. والثاني: أنها على نظمها، والمعنى: ليعذبهم بها في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد، فهي لهم عذاب، وللمؤمنين أجر، قاله ابن زيد. والثالث: أن المعنى: ليعذبهم بأخذ الزكاة من أموالهم والنفقة في سبيل الله، قاله الحسن. فعلى هذا، ترجع الكناية إلى الأموال وحدها. والرابع: ليعذبهم بسبي أولادهم وغنيمة أموالهم، ذكره الماوردي. فعلى هذا تكون في المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَتَرْهَقَ أُنْفُسَهُمْ﴾ أي: تخرج، يقال: زهق السهم: إذا جاوز الهدف.

﴿وَيَلْبَسُونَ بِاللَّهِ لَيْسَ لَكُمْ وَمَا هُمْ بِمُتَّقِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ لَوْ يَخْتَرُكَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْتَرِبًا أَوْ مَدْخَلَ أَوْلَادًا

إِلَيْهِ وَهُمْ يَخْمَرُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ بِاللَّهِ لَيْسَ لَكُمْ﴾ أي: مؤمنون، و «يَخْرُوتُ» بمعنى يخافون. فأما الملجأ، فقال الزجاج: الملجأ واللجأ مقصور مهموز، وهو المكان الذي يُتَحَصَّنُ فيه. والمخارات: جمع مغارة، وهو الموضع الذي يغور فيه الإنسان، أي: يستتر فيه. وقرأ سعيد بن جبير، وابن أبي عمير: «أو مُغَارَات» بضم الميم؛ لأنه يقال: أغرت

(١) «الطبري»: ١٤ / ٢٩٤، وفي سننه انقطاع.

(٢) البيت لكثير عزة: «ديوانه» ١ / ٥٣، من قصيدته المشهورة، «الطبري» ٢ / ٢٩٤، و ١٤ / ٢٩٣، و «معاني القرآن» للفراء ١ / ٤٤١، يقال: فلا يقلبه قلب، فهو مقلي: كرهه وأبغضه، وتقل: تبغض، أي: استعمل من الفعل أو القول ما يدعو إلى بغضه.

وغُرت: إذا دخلت الغور. وأصل مُدْخَل: مدتخل، ولكن التاء تبدل بعد الدال دالاً، لأن التاء مهموسة، والدال مجهورة، والتاء والدال من مكان واحد، فكان الكلام من وجه واحد أخفت. وقرأ أبي، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «أو مُتَدْخَلًا» برفع الميم، وتاء ودال مفتوحين، مشددة الخاء. وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران: «مُتَدْخَلًا» بنون بعد الميم المضمومة. قرى الحسن، وابن يعمر، ويعقوب: «مدخلاً» بفتح الميم وتخفيف الدال وسكونها. قال الزجاج: من قال: «مُدْخَلًا» فهو من دخل يدخل مدخلاً؛ ومن قال: «مُدْخَلًا» فهو من أدخلته مُدْخَلًا، قال الشاعر:

الحمد لله مُنْسَانَا وَمُضْبَحَنَا
بالخير صَبَّحْنَا رُبِّي وَمَسَانَا^(١)

ومعنى مُدْخَل ومُدْخَل: أنهم لو وجدوا قومًا يدخلون في جملتهم ﴿لَرَوَّأًا﴾ إليه، أي: إلى أحد هذه الأشياء ﴿وَهُمْ يَبْتَحِرُونَ﴾ أي: يسرعون إسرَاعاً لا يرد فيه وجوههم شيء. يقال: جمح وطمح: إذا أسرع ولم يرد وجهه شيء؛ ومنه قيل: فرس جموح للذي إذا حمل لم يرده اللجام.

﴿وَيَوْمَ مَن يَلْبِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِن أُعْطُوا مِنهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطُوا مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْتَرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ مَن يَلْبِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ فيمن نزلت فيه قولان: أحدهما: أنه ذو الخويصرة التميمي، قال للنبي ﷺ يوماً: أعدل يا رسول الله، فنزلت هذه الآية^(٢). ويقال: أبو الخواصر. ويقال: ابن ذي الخويصرة. والثاني: أنه ثعلبة بن حاطب، كان يقول: إنما يعطي محمد من يشاء، فنزلت هذه الآية. قال ابن قتيبة: «يلمزمك» يعيبك ويطعن عليك. يقال: همزت فلاناً ولمزته: إذا اغتبهت وعبته؛ والأكثرون على كسر ميم «يلمزمك». وقرأ يعقوب، ونظيف عن قنبل، وأبان عن عاصم، والقزاز عن عبد الوارث: ﴿يَلْبِزُوكَ﴾ و﴿يَلْبِزُكَ﴾ و﴿وَلَا تَلْبِزُوا﴾ بضم الميم فيهن. وقرأ ابن السميع: «يلامزمك» مثل: يفاعلك. وقد رواها حماد بن سلمة عن ابن كثير. قال أبو علي الفارسي: وينبغي أن تكون فاعلت في هذا من واحد، نحو: طارقت النعل، وعافاه الله، لأن هذا لا يكون من النبي ﷺ. وقرأ الأعمش: «يلمزمك» بتشديد الميم من غير ألف، مثل: يفتلك. قال الزجاج: يقال: لمزت الرجل ألمزه وألمزه، بكسر الميم وضمها: إذا عبته، وكذلك: همزته أهمزه، قال الشاعر:

إِذَا لَقَيْتُكَ تُبْدِي لِي مَكَاثِرَةً
وَإِن تَعَيَّبْتُ كُنْتَ الْهَامِزَ اللَّمَزَةَ^(٣)

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ رَسُولَهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾
﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُعَلِّمِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلُفُوهُمُ فُلُوجُهُمْ فِي الرِّقَابِ وَالْقَدِيرِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ رَسُولَهُ﴾ أي: قنعوا بما أعطوا. ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ في الزيادة، أي: لكان خيراً لهم. وهذا جواب «لو»، وهو محذوف في اللفظ. ثم بين المستحق للصداقات بقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ اختلفوا في صفة الفقير والمسكين على ستة أقوال: أحدها: أن الفقير: المتعفف عن السؤال، والمسكين: الذي يسأل وبه رَمَقٌ، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وجابر بن زيد، والزهري، والحكم، وابن زيد، ومقاتل. والثاني: أن الفقير: المحتاج الذي به زمانة، والمسكين: المحتاج الذين لا زمانة به، قاله قتادة. والثالث: الفقير: المهاجر، والمسكين: الذي لم يهاجر، قاله الضحاك بن مزاحم، والنخعي. والرابع: الفقير: فقير المسلمين، والمسكين: من أهل الكتاب، قاله عكرمة. والخامس: أن الفقير: من له البُلْغَةُ من الشيء، والمسكين: الذي ليس له شيء، قاله أبو حنيفة، ويونس بن حبيب، ويعقوب بن السكيت، وابن قتيبة. واحتجوا بقول الراعي:

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت في «الأغاني» ١٢٩/٤، و«اللسان» مس.

(٢) «الطبري» ٣٠٣/١٤: وإسناده صحيح، وقصة ذو الخويصرة معرأة عن سبب النزول رواها البخاري في «صحيحه» ٤٥٥/٦، ومسلم ١٦٥/٧ من طريق الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري.

(٣) البيت لزيد الأعجم في «الطبري» ٣٠١/١٤، و«مجاز القرآن» ٢٦٣/١، و«شواهد الكشاف» ١٥٢، و«إصلاح المنطق» ٤٧٥، و«الجمهرة» لابن دريد ١٨/٣، و«المقاييس» ٦٦/٦، و«اللسان»: همز.

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلْوَيْتُهُ

وَفَقَّ الْعِيَالُ فَلَمْ يُشْرِكْ لَهُ سَبْدًا^(١)

فسماه فقيراً، وله حلوبة تكفيه وعياله. وقال يونس: قلت لأعرابي: أفقير أنت؟ قال: لا والله، بل مسكين؛ يريد: أنا أسوأ حالاً من الفقير. والسادس: أن الفقير أمس حاجةً من المسكين، وهذا مذهب أحمد، لأن الفقير مأخوذ من انكسار الفقار، والمسكنة مأخوذة من السكون والخشوع، وذلك أبلغ. قال ابن الأنباري: ويروى عن الأصمعي أنه قال: المسكين أحسن حالاً من الفقير. وقال أحمد بن عبيد: المسكين أحسن حالاً من الفقير، لأن الفقير أصله في اللغة؛ المفقور الذي نزع فقرة من فقر ظهره، فكأنه انقطع ظهره من شدة الفقر؛ فصرف عن مفقور إلى فقير، كما قيل: مجروح وجريح، ومطبوخ وطبيخ، قال الشاعر:

لَمَّا رَأَى لُبْدَ النَّسُورِ تَطَايَرَتْ

رَزَقَ الْقَوَادِمَ كَالْفَقِيرِ الْأَغْرَلِ^(٢)

قال: ومن الحجة لهذا القول قوله: «أَمَّا السَّقِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَمْتَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا» [الكهف: ١٧٩]، فوصف بالمسكنة من له سفينة تساوي مالاً؛ قال: وهو الصحيح عندنا. قوله تعالى: «وَالْمَكِينِ عَالِيًا» وهم السعاة لجباية الصدقة، يُعْطُونَ منها بقدر أجور أمثالهم، وليس ما يأخذونه بركة.

قوله تعالى: «وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ» وهم قوم كان رسول الله ﷺ يتألفهم على الإسلام بما يعطيهم، وكانوا ذوي شرف، وهم صنفان: مسلمون، وكافرون. فأما المسلمون، فصنفان؛ صنف كانت نيئاتهم في الإسلام ضعيفة، فتألفهم تقويةً لنيئاتهم، كمُيْتَنَةَ بن حصن، والأقرع؛ وصنف كانت نياتهم حسنة، فأعطوا تألفاً لعشائهم من المشركين، مثل عدي بن حاتم. وأما المشركون، فصنفان؛ صنف يقصدون المسلمين بالأذى، فتألفهم دفعاً لأذاهم، مثل عامر بن الطفيل؛ وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام، تألفهم بالعطية ليؤمنوا، كصفوان بن أمية. وقد ذكرت عدد المؤلفات في كتاب «التلقيح». وحكمهم باقي عند أحمد في رواية، وقال أبو حنيفة، والشافعي: حكمهم منسوخ. قال الزهري: لا أعلم شيئاً نسخ حكم المؤلفات قلوبهم.

قوله تعالى: «رَفِي الرَّقَابِ» قد ذكرناه في سورة [البقرة: ١٧٧].

قوله تعالى: «وَالْمُكْرِمِينَ» وهم الذين لزمهم الدين ولا يجدون القضاء. قال قتادة: هم ناس عليهم دينٌ من غير فساد ولا إسراف ولا تبذير، وإنما قال هذا، لأنه لا يؤمن في حق المفسد إذا قُضِيَ دَيْنُهُ أن يعود إلى الاستدانة لذلك؛ ولا خلاف في جواز قضاء دينه ودفع الزكاة إليه، ولكن قتادة قاله على وجه الكراهية.

قوله تعالى: «وَرَفِ سَبِيلِ اللَّهِ» يعني: الغزاة والمرابطين. ويجوز عندنا^(٣) أن يعطى الأغنياء منهم والفقراء، وهو قول الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يعطى إلا الفقير منهم. وهل يجوز أن يصرف من الزكاة إلى الحج، أم لا؟ فيه عن أحمد روايتان.

قوله تعالى: «وَأَبْنِ السَّبِيلِ» هو المسافر المنقطع به، وإن كان له مال في بلده؛ قاله مجاهد، وقاتدة، وأبو حنيفة، وأحمد. فأما إذا أراد أن ينشئ سفراً، فهل يجوز أن يعطى؟ قال الشافعي: يجوز، وعن أحمد مثله؛ وقد ذكرنا في سورة [البقرة: ١٧٧] فيه أقوالاً عن المفسرين.

قوله تعالى: «رَفِيضَةً مِّنَ اللَّهِ» يعني أن الله افترض هذا.

(١) «ديوانه» ٥٥، «إصلاح المنطق» ٣٢٦، «والاقتضاب» ١١٤، والحلوية: الناقة التي تحلب، وقوله: وفق العيال، أي: لها لين قدر كفايتهم لا فضل فيه عنهم. وقيل: قدر ما يقوتهم، وكل شيء طابق شيئاً فهو وفق له. والسبد: الشعر. وقيل: الوبر. فإذا قيل: ماله سبد ولا ليد، فمعناه: ماله ذو وير ولا صوف متلب، يكتب بهما عن الإبل والغنم.

(٢) البيت للبيد، «ديوانه» ٢٧٤، «واللسان»: فقر، ومعجم البلدان ٦/٢٧٨، ومعجم مقاييس اللغة ٤/٩٠، «والحيوان» ٦/٣٢٦، وقوله: كالفقير، ويروى: كالمعير، ويروى: كالكسير. والأعزل: المائل الذئب توصف به الخيل. والقوادم: أربع ريشات في مقدم الجناح، الواحدة: قادمة، والفقير: المكسور الفقار، وهي ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجب.

(٣) أي: عند الحنابلة.

فصل

وحدُّ الغنى الذي يمنع أخذ الزكاة عند أصحابنا بأحد شيئين: أن يكون مالكَ لخمسين درهماً، أو عدلها من الذهب، سواء كان ذلك يقوم بكفايته، أو لا يقوم. والثاني: أن يكون له كفاية، إما من صناعة، أو أجرة عقار، أو عروض للتجارة يقوم ربهَا بكفايته. وقال أبو حنيفة: الاعتبار في ذلك أن يكون مالكَ لئصاب تجب عليه فيه الزكاة. فأما ذوو القربى الذين تحرم عليهم الصدقة، فهم بنو هاشم، وبنو المطلب. وقال أبو حنيفة: تحرم على ولد هاشم، ولا تحرم على ولد المطلب. ويجوز أن يعمل على الصدقة من بني هاشم وبنو المطلب ويأخذ عمالته منها، خلافاً لأبي حنيفة. فأما موالي بني هاشم وبنو المطلب، فتحرم عليهم الصدقة، خلافاً لمالك. ولا يجوز أن يعطي صدقته مَنْ تلزمه نفقته؛ وبه قال مالك، والثوري. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يعطي والدًا وإن علا، ولا ولدًا وإن سفل، ولا زوجة، ويعطي مَنْ عداهم. فأما الذمي؛ فالأكثر على أنه لا يجوز إعطاؤه. وقال عبيد الله بن الحسن: إذا لم يجد مسلماً، أعطى الذمي. ولا يجب استيعاب الأصناف، ولا اعتبار عدد من كل صنف؛ وهو قول أبي حنيفة، ومالك؛ وقال الشافعي: يجب الاستيعاب من كل صنف ثلاثة. فأما إذا أراد نقل الصدقة من بلد المال إلى موضع تقصر فيه الصلاة، فلا يجوز له ذلك، فإن نقلها لم يُجزئه؛ وهو قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة؛ يكره نقلها، وتجزئه. قال أحمد: ولا يعطى الفقير أكثر من خمسين درهماً. وقال أبو حنيفة: أكره أن يعطى رجل واحد من الزكاة مائتي درهم، وإن أعطيته أجزاءً. فأما الشافعي، فاعتبر ما يدفع الحاجةً من غير حد. فإن أعطى من يظنه فقيراً، فبان أنه غني، فهل يجوز؟ فيه عن أحمد روايتان.

﴿وَمَنْ أَلْبَسَ يُؤْذَنُ النَّبِيُّ وَيُقْرَأُ﴾ هُوَ أَذْنٌ قُلْ أَذْنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحِمَهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذَنُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلْبَسَ يُؤْذَنُ النَّبِيُّ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن خذام بن خالد، والجلال بن سويد، وعبيد بن هلال في آخرين، كانوا يؤذون رسول الله ﷺ، فقال بعضهم لبعض: لا تفعلوا، فإننا نخاف أن يبلغه فيقع بنا، فقال الجللاس: بل نقول ما شئنا، وإنما محمد أذن سامعة، ثم نأتيه فيصدقنا؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن رجلاً من المنافقين يقال له: نَبْتَلُ بن الحارث، كان ينم حديث رسول الله ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل؛ فقال: إنما محمد أذن، مَنْ حَدَّثَهُ شيئاً، صدقه؛ نقول ما شئنا، ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا، فنزلت هذه الآية؛ قاله محمد بن إسحاق^(١). والثالث: أن ناساً من المنافقين منهم جلاس بن سويد، ووديعة بن ثابت، اجتمعوا، فأرادوا أن يقفوا في النبي ﷺ، وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس، فحرقوه، فتكلموا وقالوا: لئن كان ما يقوله محمد حقاً، لنحن شر من الحمير، فغضب الغلام، وقال: والله إن ما يقوله محمد حق، وإنكم لشر من الحمير؛ ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فدعاهم فسألهم، فحلفوا أن عامراً كاذب، وحلف عامر أنهم كذَّبوا، وقال: اللهم لا تفرق بيننا حتى تبيِّنَ صدق الصادق، وكذب الكاذب؛ فنزلت هذه الآية، ونزل قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْسِكُمْ﴾، قاله السدي^(٢). فأما الأذى فهو عيبه ونقل حديثه. ومعنى ﴿أَذْنٌ﴾ يقبل كل ما قيل له. قال ابن قتبية: الأصل في هذا أن الأذن هي السامعة، فقيل لكل من صدَّق بكل خير يسمعه: أذن. وجمهور القراء يقرؤون ﴿هُوَ أَذْنٌ قُلْ أَذْنٌ﴾ بالثقل. وقرأ نافع ﴿هُوَ أَذْنٌ قُلْ أَذْنٌ خَيْرٌ﴾ بإسكان الذال فيهما. ومعنى ﴿أَذْنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: أذن خير، لا أذن شر؛ يسمع الخير فيعمل به، ولا يعمل بالشر إذا سمعه. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن يعمر، وابن أبي عبيدة ﴿أَذْنٌ﴾ بالتثنية «خير» بالرفع. والمعنى: إن كان كما قلت، يسمع منكم ويصدقكم، خير لكم من أن يكذبكم. قال أبو علي: يجوز أن تطلق الأذن على الجملة، كما قال الخليل، إنما سميت الثأب من

(١) «الطبري» ٣٢٥/١٤، و «أسباب النزول» للواحدي ١٤٣، وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) «أسباب النزول» للواحدي ١٤٣ عن السدي، وورده «الطبري» ٣٢٩/١٤، ٣٣٠ عن قتادة سبباً لنزول الآية التي بعدها ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْسِكُمْ﴾.

وأورده السيوطي كذلك في «الدر» ٢٥٣/٣ عن قتادة من طريق ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وعن السدي من طريق ابن أبي حاتم.

الإبل، لمكان الناب البازل، فسُميت الجملة كلها به، فأجروا على الجملة اسم الجارحة لإرادتهم كثرة استعماله لها في الإصغاء بها. ثم بيّن ممن يقبل، فقال: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن قتيبة: الباء واللام زائدتان؛ والمعنى: يصدّق الله ويصدّق المؤمنين. وقال الزجاج: يسمع ما ينزله الله عليه، فيصدّق به، ويصدّق المؤمنين فيما يخبرونه به، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: وهو رحمة، لأنه كان سبب إيمان المؤمنين. وقرأ حمزة «ورحمته» بالخفض. قال أبو علي: المعنى: أذن خير ورحمة. والمعنى: مستمع خير ورحمة.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَكُمُ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحْسَنُ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَكُمُ﴾ قال ابن السائب: نزلت في جماعة من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع النبي ﷺ، أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم، ويحلفون ويعتلون. وقال مقاتل: منهم عبد الله بن أبي، حلف لا يتخلف عن رسول الله ﷺ، وليكننّ معه على عدوه. وقد ذكرنا في الآية التي قبلها أنهم حلفوا أنهم ما نطقوا بالعيب. وحكى الزجاج عن بعض النحويين أنه قال: اللام في «ليرضوكم» بمعنى القسم، والمعنى: يحلفون بالله لكم ليرضيتكم. قال: وهذا خطأ، لأنهم إنما حلفوا أنهم ما قالوا ما حكي عنهم ليُرضوا باليمين، ولم يحلفوا أنهم يُرضون في المستقبل. قلت: وقول مقاتل يؤكد ما أنكره الزجاج، وقد مال إليه الأخص.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحْسَنُ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: بالتوبة والإنابة. والثاني: بترك الطعن والعيب. فإن قيل؛ لم قال: «يُرْضُوهُ» ولم يقل: يرضوهما؟ فقد شرحنا هذا عند قوله: ﴿وَلَا يُفْقَهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

﴿أَلَمْ يَلْمُوا أَنْتَ مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَلْمُوا﴾ روى أبو زيد عن المفضل «الم تعلموا» بالشاء. «أَنْتَ مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ» فيه قولان: أحدهما: من يخالف الله، قاله ابن عباس. والثاني: من يعادي الله، كقولكم: من يُجَازِبُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أي: يكون في حدّ، واللّه ورسوله في حدّ.

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ قرأ الجمهور: «فإن» بفتح الهمزة. وقرأ أبو رزين، وأبو عمران، وابن أبي عملة: بكسرها. فمن كسر، فعلى الاستئناف بعد الفاء، كما تقول: فله نار جهنم. ودخلت «إن» مؤكدة. ومن قال: «فإن له» فإنما أعاد «أن» الأولى تأكيداً؛ لأنه لما طال الكلام، كان إعادتها أوكد.

﴿يَحْذَرُ الْكُفَّيْقُونَ أَنْ تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرُوا إِيَّاكَ اللَّهُ خَرَجَ مَا خَزَرَتْ﴾ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْكُفَّيْقُونَ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المنافقين كانوا يعيرون رسول الله ﷺ فيما بينهم، ويقولون: عسى الله أن لا يفشي سرنا، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد. والثاني: أن بعض المنافقين قال: لوددت أني جلدت مائة جلدة، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(١). والثالث: أن جماعة من المنافقين وقفوا للنبي ﷺ في ليلة مظلمة عند مرجعه من تبوك ليفتكوا به، فأخبره جبريل ﷺ ونزلت هذه الآية، قاله ابن كيسان. وفي قوله: ﴿يَحْذَرُ الْكُفَّيْقُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنه إخبار من الله ﷻ عن حالهم، قاله الحسن، وقاتدة، واختاره ابن القاسم. والثاني: أنه أمر من الله ﷻ لهم بالحنذر، فتقديره: ليحذر المنافقون، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: والعرب ربما أخرجت الأمر على لفظ الخبر، فيقولون: يرحم الله المؤمن، ويعذب الكافر؛ يريدون: ليرحم وليعذب، فيسقطون اللام، ويحذرونه مجرى الخبر في الرفع، وهم لا ينون إلا الدعاء؛ والدعاء مضارع للأمر.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اسْتَخِرُوا﴾ هذا وعيد خرج مخرج الأمر تهديداً. وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ اللَّهُ خَرَجَ مَا خَزَرَتْ﴾ وجهان: أحدهما: مظهر ما يُسِرُّون. والثاني: ناصر من تخلفون، ذكرهما الماوردي.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا نَحْمُسُ وَكَلَّمْتُ قُلُوبَنَا وَتَوَلَّى اللَّهُ وَارْتَدَّ وَرَسُولُهُ كَسَبَتْ سَتْرَةً وَأَنَّهَا لَا تَكْتُمُونَ كَذِبًا إِذَا سَأَلْتُمْ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ فَغَابَتْ عَنْهُمْ آلُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَمُؤَدَّبَاتُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبِبُونَ﴾ ﴿٦٩﴾

(١) «أسباب النزول» للواحدي ١٤٣.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ سَاءَ لَكُمْ مَعَهُ﴾ في سبب نزولها ستة أقوال: أحدها: أن جدَّ بن قيس، ووديعة بن خذام، والجُهَيْر بن حُمَيْر، كانوا يسبون بين يدي رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، فجعل رجلاً منهم يستهزئ برسول الله ﷺ، والثالث يضحك مما يقولان ولا يتكلم بشيء، فنزل جبريل فأخبره بما يستهزؤون، به ويضحكون؛ فقال لعنار بن ياسر: «ذهب فسلهم عما كانوا يضحكون منه، وقل لهم: أحرقكم الله» فلما سألهم، وقال: أحرقكم الله؛ علموا أنه قد نزل فيهم قرآن، فأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ، وقال الجُهَيْر: والله ما تكلمت بشيء، وإنما ضحكت تعجباً من قولهم؛ فنزل قوله: ﴿لَا تَسْتَدْرِبُوا﴾ يعني جدَّ بن قيس، ووديعة ﴿إِنَّ نَفْسَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ يعني الجُهَيْر ﴿تُضَدِّبُ طَائِفَةً﴾ يعني الجدَّ ووديعة، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس. والثاني: أن رجلاً من المنافقين قال: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، ولا أرعب بطوناً، ولا أكذب، ولا أجبين عند اللقاء؛ يعني رسول الله ﷺ وأصحابه؛ فقال له عوف بن مالك: كذبت، لكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ؛ فذهب ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه؛ ف جاء ذلك الرجل، فقال: يا رسول الله، إنا كنا نخوض ونلعب، هذا قول ابن عمر، وزيد بن أسلم، والقرظي. والثالث: أن قوماً من المنافقين كانوا يسبون مع رسول الله ﷺ، فقالوا: إن كان ما يقول هذا حقاً، لنحن شرُّ من الحمير؛ فأعلم الله نبيه ما قالوا، ونزلت: ﴿وَلَكِنَّ سَاءَ لَكُمْ مَعَهُ﴾، قاله سعيد بن جبير. والرابع: أن رجلاً من المنافقين قال: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا، وما يُدرية ما الغيب؟ فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد. الخامس: أن ناساً من المنافقين قالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات؛ فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: «أحبسوا علي الركب»، فاتاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا»، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب؛ فنزلت هذه الآية، قاله قتادة^(١). والسادس: أن عبد الله بن أبي، ورهطاً معه، كانوا يقولون في رسول الله وأصحابه ما لا ينبغي، فإذا بلغ رسول الله ﷺ قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ كَسَبُوا سَبًّا حَقًّا﴾، قاله الضحاك. فقوله: ﴿وَلَكِنَّ سَاءَ لَكُمْ مَعَهُ﴾ أي: عما كانوا فيه من الاستهزاء: ﴿لَيَقُولَنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَكَلْمًا﴾ أي: نلهو بالحديث. وقوله: ﴿تَدَّ كَفْرًا﴾ أي: قد ظهر كفرهم بعد إظهاركم الإيمان؛ وهذا يدل على أن الجدَّ واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَعْصِي عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ قرأ الأكترون ﴿إِنْ يُعْفَ بِالْيَاءِ﴾، «تُعَذِّبُ» بالطاء. وقرأ عاصم غير أبان «إِنْ نَعَفَ»، «تُعَذِّبُ»، بالتون فيهما ونصب «طائفة»، والمعنى: إن نعف عن طائفة منكم بالتوفيق للتوبة، نعذب طائفة بترك التوبة. وقيل: الطائفتان هاهنا ثلاثة؛ فاستهزأ اثنان، وضحك واحد. ثم أنكروا عليهم بعض ما سمع. وقد ذكرنا عن ابن عباس أسماء الثلاثة، وأن الضاحك اسمه الجُهَيْر، وقال غيره: هو مُحْشِي بن حُمَيْر. وقال ابن عباس ومجاهد: الطائفة: الواحد فما فوقه. وقال الزجاج: أصل الطائفة في اللغة: الجماعة؛ ويجوز أن يقال للواحد: طائفة، يراد به: نفس طائفة. قال ابن الأنباري: إذا أريد بالطائفة الواحد، كان أصلها طائفاً، على مثال: قائم وقاعد، فتدخل الهاء للمبالغة في الوصف، كما يقال: راوية، علامة، نسابة. قال عمر بن الخطاب ﷺ: ما فرغ من تنزيل (براءة) حتى ظننا أن لن يبقى منا أحد إلا سينزل فيه شيء.

﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بِأَمْرٍ مِّنَ الْمَسْكُونِ وَبِهِمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٧٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ الْكَلْبَةِ عَدَابُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ آتِوَالًا وَأُولَادًا فَاسْتَمْتَرُوا بِحُلِيِّهِمْ فَأَسْتَخْتَمْتُمْ بِحَالِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِحُلِيِّهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاسُوا أُولَئِكَ حَمَلَتْ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَصِيُّونَ ﴿٧٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يُرْسِلُونَا فَكَاَنَّ اللَّهُ يُلَاحِظُهُمْ وَلَكِنَّ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ قال ابن عباس: بعضهم على دين بعض. وقال مقاتل: بعضهم

(١) «الطبري» ٣٣٤/١٤، و «أسباب النزول» للواجدي ١٤٣ - ١٤٤، وذكره السيوطي في «الدر» ٣/ ٢٥٤ من رواية ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

أولياء بعض، ﴿بِأَسْرُورٍ بِالشُّكْرِ﴾ وهو الكفر، ﴿وَيَتَّبِعُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان. وفي قوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أربعة أقوال: أحدها: يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد. والثاني: عن كل خير، قاله قتادة. والثالث: عن الجهاد في سبيل الله. والرابع: عن رفعها في الدعاء إلى الله تعالى، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿سُوا الله فَنَسِيَهُمْ﴾ قال الزجاج: تركوا أمره، فتركهم من رحمته وتوفيقه. قال: وقوله: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: هي كفاية ذنوبهم، كما تقول: عذبتك حسب فعلك، وحسب فلان ما نزل به، أي: ذلك على قدر فعله. وموضع الكاف في قوله: ﴿كَاذِبَاتٍ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ نصب، أي: وعدكم الله على الكفر به كما وعد الذين من قبلكم. وقال غيره: رجع عن الخبر عنهم إلى مخاطبتهم، وشبههم في العدول عن أمره بمن كان قبلهم من الأمم الماضية.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَمْتُمُوا بِخَلْفَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس: استمتعوا بنصيبتهم من الآخرة في الدنيا. وقال الزجاج: بحظهم من الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُمْ﴾ أي: في الطعن على الذين وتكذيب نبيكم كما خاضوا. ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَفْئِدَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ لأنها لم تقبل منهم، وفي الآخرة، لأنهم لا يثابون عليها، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ بفوت الثواب وحصول العقاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٍ إِزْرِهِمْ﴾ قال ابن عباس: يريد نمروذ بن كنعان ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ يعني قوم شعيب. ﴿وَالْمُؤَيَّدِينَ﴾ قرى لوط. قال الزجاج: وهم جمع مؤنثكة، انثفت بهم الأرض، أي: انقلبت. قال: ويقال: إنهم جميع من أهلك، [كما] يقال للهالك: انقلبت عليه الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ﴾ يعني هذه الأمم ﴿رُشُلُهُمْ بِالْيَمِينِ﴾ فكذبوا بها، ﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْلَمَهُمْ﴾ قال ابن عباس: ليهلكهم حتى يعث فيهم نبياً ينذرهم، والمعنى أنهم أهلكوا باستحقاقهم.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَتَّبِعُونَ عَنِ الشُّكْرِ يُسْمِعُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ وَسَبَّحَ فِي جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ وِیْضُونَ مِنْ اللهُ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ﴾ أي: بعضهم يوالي بعضاً، فهم يد واحدة، يأمرون بالإيمان، وينهون عن الكفر.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ قال أبو عبيدة: في جنات عُدن، يقال: عَدَنَ فلان بأرض كذا، أي: أقام؛ ومنه: المعْدِنُ، وهو في معدن صدق، أي: في أصل ثابت. قال الأعشى:

وإن تَسْتَضِيفُوا إِلَى جِلْمِهِ تُضَافُوا إِلَى رَاجِحٍ قَدْ عَدَنَ^(١)

أي: رزين لا يُسْتَخَف. قال ابن عباس: جنات عدن، هي بُطنان الجنة، وبُطنانها: وسطها، وهي أعلى درجة في الجنة، وهي دار الرحمن ﷻ، وسقفها عرشه، خلقها بيده، وفيها عين التنعيم، والجنان حولها محذقة بها.

قوله تعالى: ﴿وِیْضُونَ مِنْ اللهُ أَكْبَرَ﴾ قال ابن عباس: أكبر مما يوصف. وقال الزجاج: أكبر مما هم فيه من النعيم. فإن قيل: لم كان الرضوان أكبر من النعيم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن سرور القلب برضى الرب نعيم يختص بالقلب، وذاك أكبر من نعيم الأكل والشرب. وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ لأهل الجنة: يا أهل الجنة، هل رضيتم؟ فيقولون: رينا وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أفلا أعطيتكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم أبداً»^(٢).

والثاني: أن الموجب للنعيم الرضوان، والموجب ثمرة الموجب، فهو الأصل.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ وَأَمْرُهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

(١) ديوانه، ١٧، ومجاز القرآن، ١/٢٦٤، والطبري، ١٤/٣٥٠، واللسان: وزن. واستضاف إليه: لجأ إليه عند الحاجة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، ١١/٣٦٣ - ٣٦٤، ومسلم، ٤/٢١٧٦.

قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أما جهاد الكفار، فبالسيف. وفي جهاد المنافقين قولان: أحدهما: أنه باللسان، قاله ابن عباس، والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس. والثاني: جهادهم بإقامة الحدود عليهم، روي عن الحسن، وقاتدة. فإن قيل: إذا كان رسول الله ﷺ قد أمر بجهادهم وهو يعلم أعيانهم، فكيف تركهم بين أظهر أصحابه فلم يقتلهم؟ فالجواب: أنه إنما أمر بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام عليها، فأما من إذا أطلع على كفره، أنكر وحلف وقال: إني مسلم، فإنه أمر أن يأخذه بظاهر أمره، ولا يبحث عن سره.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَظَ عَلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس: يريد شدة الانتهاز لهم، والنظر بالبغضة والمقت. وفي الهاء والميم من عليهم قولان: أحدهما: أنه يرجع إلى الفريقين، قاله ابن عباس. والثاني: إلى المنافقين، قاله مقاتل.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا يُبَالَوْنَ وَمَا تَقَمَّرُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يُتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَبْتَغُوا بَعْدَهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ ذكر المنافقين فعابهم؛ فقال الجلاس بن سويد: إن كان ما يقول على إخواننا حقاً، لنحن شر من الحمير. فقال عامر بن قيس: والله إنه لصق، ولأنتم شر من الحمير؛ وأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فأتى الجلاس فقال: ما قلت شيئاً، فحلفا عند المنبر، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وذهب إلى نحوه الحسن، ومجاهد، وابن سيرين. والثاني: أن عبد الله بن أبي قال: والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعرض منها الأذل، فسمعه رجل من المسلمين، فأخبر رسول الله ﷺ، فأرسل إليه، فجعل يحلف بالله ما قال، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة. والثالث: أن المنافقين كانوا إذا خلّوا، سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه، وطعنوا في الدين؛ فنقل حذيفة إلى رسول الله ﷺ بعض ذلك، فحلفوا ما قالوا شيئاً، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك. فأما كلمة الكفر، فهي سبهم رسول الله ﷺ، وطعنهم في الدين. وفي سبب قوله: ﴿وَهُمْ يَوْمًا يُبَالَوْنَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في ابن أبي حين قال: لئن رجعنا إلى المدينة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثاني: أنها نزلت فيهم حين هموا بقتل رسول الله، رواه مجاهد عن ابن عباس، قال: والذي هم رجل يقال له: الأسود. وقال مقاتل: هم خمسة عشر رجلاً، هموا بقتله ليلة العقبة. والثالث: أنه لما قال بعض المنافقين: إن كان ما يقول محمد حقاً، لنحن شر من الحمير؛ وقال له رجل من المؤمنين: لأنتم شر من الحمير، هم المنافق بقتله؛ فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَوْمًا يُبَالَوْنَ﴾، هذا قول مجاهد. والرابع: أنهم قالوا في غزوة تبوك: إذا قدمنا المدينة، عقدنا على رأس عبد الله بن أبي تاجاً نباهي به رسول الله ﷺ؛ فلم ينالوا ما هموا به.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَقَمَّرُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن قتيبة: أي: ليس ينقمون شيئاً، ولا يتعرفون من الله إلا الصنع، ومثله قول الشاعر:

مَا نَقَمَ النَّاسُ مِنْ أَمِيَّةٍ إِلَّا
وَأَنْهُمْ سَادَةُ الْمُؤَلَّوْكَ وَلَا
أَنْهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا^(١)
تَضْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ

وهذا ليس مما يُنقم، وإنما أراد، أن الناس لا ينقمون عليهم شيئاً، وكقول النابغة:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سِيَوْفَهُمْ
بِهِنَّ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ^(٢)

أي: ليس فيهم عيب. قال ابن عباس: كانوا قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في ضنك من معاشهم، فلما قدم عليهم، غنموا، وصارت لهم الأموال. فعلى هذا، يكون الكلام عاماً. وقال قتادة: هذا في عبد الله بن أبي. وقال عروة: هو

(١) البيتان لعبد الله بن قيس الرقيات «ديوانه» ٤، و«الكامل» ٦٤٨، و«طبقات فحول الشعراء» ٥٣٣، و«مجاز القرآن» ١/١٧٠، و«الأغاني» ٤/١٦٠، و«غريب القرآن» ١٩٠، و«السمط» ٢٩٥، و«شواهد المغني» ٢١١، و«الخزانة» ٣/٦٢٨.

(٢) «ديوانه» ١١، و«مختار الشعر الجاهلي» ١٦١، و«العمدة» ٤٥/٢، و«المنهاج» ٤٠٨.

الجلال بن سويد، قُتل له مولى، فأمر له رسول الله ﷺ بديته، فاستغنى؛ فلما نزلت ﴿فَإِنْ يَتُوبَا يَكَ خَيْرًا مِمَّا قَالَا﴾ قال الجلاس: أنا أتوب إلى الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتُوبَا﴾ أي: يعرضوا عن الإيمان. قال ابن عباس: كما تولى عبد الله بن أبي، ﴿يَعِدُّهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الَّذِينَ﴾ بالقتل، وفي الآخرة بالنار.

﴿وَمَنْ مَنَّ عَلَيْهِ لِنَصَدَقَ وَلَنْ تُكْرَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥)

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ مَنَّ عَلَيْهِ لِنَصَدَقَ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري، أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال: «ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطبيقه» قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ فوالذي نفسي بيده، لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة، لسارت» فقال: والذي بعثك بالحق، لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً، لأوتيت كل ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» فاتخذ غنماً، فتمت، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، ونزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواهما. ثم نمت، حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، ثم نمت، فترك الجمعة. فسأل عنه رسول الله ﷺ، فأخبر خبره، فقال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة» وأنزل الله تعالى: ﴿حُدِّثْ أَنْ تَأْتِيَنَّكَ سَدَقَةٌ﴾ [التوبة: ٩]، وأنزل فرائض الصدقة؛ فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة، وكتب لهما كتاباً يأخذان الصدقة، وقال: «مرا بشعلبة، وبفلان» رجل من بني سليم، فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ؛ فقال: ما هذا إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذا، انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلي. فانطلقا؛ فأخبر السلمي، فاستقبلهما بخيار ماله، فقالا: لا يجب هذا عليك؛ فقال: خذاه، فلئن نفسي بذلك طيبة؛ فأخذنا منه. فلما فرغا من صدقتهما، مرا بشعلبة فقال: أروني كتابكما، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية، انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا، فأخبرا رسول الله ﷺ بما كان، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فخرج إلى ثعلبة، فأخبره؛ فأتى رسول الله، وسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: «إن الله قد منعتني أن أقبل منك صدقتك» فجعل يحثو التراب على رأسه. فقال: «هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني». فرجع إلى منزله. وقبض رسول الله، ولم يقبل منه شيئاً، فلما ولي أبو بكر، سأله أن يقبل منه، فأبى. فلما ولي عمر، سأله أن يقبل منه، فأبى. فلما ولي عثمان، سأله أن يقبلها؛ فقال: لم يقبلها رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر، فلم يقبلها؛ وهلك ثعلبة في خلافة عثمان ﷺ. روى هذا الحديث القاسم عن أبي أمامة الباهلي^(١).

قال ابن عباس: مر ثعلبة على مجلس، فأشهدهم على نفسه: لئن آتاني الله من فضله، آتيت كل ذي حق حقه، وفعلت كذا وكذا. فأتاه الله من فضله، فأخلف ما وعد؛ فقص الله علينا شأنه. والثاني: أن رجلاً من بني عمرو بن عوف، كان له مال بالشام، فأبطأ عنه، فجهد له جهداً شديداً، فحلف بالله لئن آتانا من فضله، أي: من ذلك المال، لأصدقن منه، ولأصلن، فأتاه ذلك المال، فلم يفعل، فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس. قال ابن السائب: والرجل حاطب بن أبي بلتعة. والثالث: أن ثعلبة، ومعتب بن قشير، خرجا على ملأ، فقالا: والله لئن رزقنا الله لنصدقن. فلما رزقهما، بخلا به، فنزلت هذه الآية، قاله الحسن، ومجاهد. والرابع: أن نبتل بن الحارث، وجد بن قيس، وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، قالوا: لئن آتانا الله من فضله لنصدقن. فلما آتاهم من فضله بخلوا به، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاک. فأما التفسير، فقوله: ﴿وَمَنْ مَنَّ عَلَيْهِ﴾ يعني المنافقين ﴿مَنْ مَنَّ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ أي: قال: علي عهد الله ﴿لِنَصَدَقَ﴾ الأصل: لتصدقن، فأدغمت التاء في الصاد لقربتها منها. ﴿وَلَنْ تُكْرَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: لنعملن ما يعمل أهل الصلاح في أموالهم من صلة الرحم والإنفاق في الخير. وقد روى كهَمَس عن معبد بن ثابت أنه قال: إنما هو شيء نَوَّه في أنفسهم ولم يتكلموا به؛ ألم تسمع إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ؟﴾

(١) «الطبري» ١٤/٣٧١ - ٣٧٢ وخرجه الهيثمي في «المجمع» ٧/٣١ - ٣٢ وقال: رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهماني وهو متروك. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف»: رواه الطبراني، والبيهقي في «الدلائل» و«الشعب» وابن أبي حاتم، و«الطبري»، وابن مرفوعه، كلهم من طريق علي بن يزيد الألهماني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة، وقال: وهذا إسناد ضعيف جداً.

﴿فَلَمَّا آتَيْنَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جَحَلُوا بِهِمْ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَيْنَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: ما طلبوا من المال: ﴿جَحَلُوا بِهِمْ﴾ ولم يفوا بما عاهدوا ﴿وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عن عهدهم.

﴿وَأَعْقَبْتُمْ يَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْتَهُنَّ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعْقَبْتُمْ﴾ أي: صير عاقبة أمرهم النفاق. وفي الضمير في «أعقبهم» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله، فالمعنى: جازاهم الله بالنفاق، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنها ترجع إلى البخل، فالمعنى: أعقبهم ببخلهم بما نذروا نفاقاً، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ يعني المنافقين: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ وهو ما في نفوسهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ حديثهم بينهم.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما نزلت آية الصدقة جاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لعنني عن صاع هذا، فنزلت هذه الآية^(١)، قاله أبو مسعود^(٢). والثاني: أن عبد الرحمن بن عوف جاء باريعين أوقية من ذهب، وجاء رجل من الأنصار بصاع من طعام؛ فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء، وإن كان الله ورسوله لعنينا عن هذا الصاع، قاله ابن عباس^(٣). وفي هذا الأنصاري قولان: أحدهما: أنه أبو خيثمة، قاله كعب بن مالك. والثاني: أنه أبو عقيل. وفي اسم أبي عقيل ثلاثة أقوال: أحدها: عبد الرحمن بن ينجان، رواه أبو صالح عن ابن عباس؛ ويقال: ابن ينجان؛ ويقال: سِيحَان^(٤). وقال مقاتل: هو أبو عقيل بن قيس. والثاني: أن اسمه الخَبَاب، قاله قتادة. والثالث: الخَبَاب. قال قتادة: جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف، وجاء عاصم بن عدي بن العجلان بمائة وسق من تمر. و﴿يَلْمِزُونَ﴾ يعني يعيبون. و﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي: المتطوعين، قال الفراء: أدغمت التاء في الطاء، فصارت طاءً مشددة. والجهد لغة أهل الحجاز، ولغة غيرهم الجهد. قال أبو عبيدة: الجهد، بالفتح والضم سواء، ومجازه: طاقتهم. وقال ابن قتيبة: الجهد: الطاقة؛ والجهد: المشقة. قال المفسرون: عُني بالمطَّوعين عبدُ الرحمن، وعاصم، وبالذين لا يجدون إلا جهدهم: أبو عقيل. وقوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: جازاهم على فعلهم، وقد سبق هذا المعنى.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ سبب نزولها: أنه لما نزل وعيد اللامزين قالوا: يا رسول الله استغفر لنا، فنزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «سوف أستغفر لهم أكثر من سبعين، لعل الله يغفر لهم»؛ فنزل قوله: ﴿سَوْأٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٤٦]، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وظاهر قوله: «استغفر لهم» الأمر، وليس كذلك؛ إنما المعنى: إن استغفرت، وإن لم تستغفر، لا يُغفر لهم، فهو كقوله: ﴿أَنِفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [التوبة: ٥٣]، وقد سبق شرح هذا المعنى هناك، هذا قول المحققين. وذهب قوم إلى أن ظاهر اللفظ يعطي أنه إن زاد على

- (١) «الطبري» ٣٨٨/١٤، «البخاري» ٣/٢٢٤، و٨/٢٤٩، و«مسلم» ٧/١٠٥، وأسباب النزول للواحي ١٤٦، وأورده السيوطي في «الدر» ٣/٢٦٢ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وأبي نعيم في «المعرفة».
- (٢) في الأصل: ابن مسعود، وكذا جاء في «الدر» وهو خطأ، والتصويب من المراجع التي ذكرت في التعليق السابق، وأبو مسعود: هو أبو مسعود الأنصاري البديري، واسمه عقية بن عمرو بن ثعلبة، صاحب رسول الله ﷺ شهد العقبة.
- (٣) «الطبري» ٣٨٢/١٤، وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.
- (٤) انظر «فتح الباري» ٨/٢٤٩، فقد استوفى الحافظ ابن حجر الكلام على أبي عقيل هنا.

السبعين، رجي لهم الغفران. ثم نسخت بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾. فإن قيل: كيف جاز أن يستغفر لهم، وقد أخبر بأنهم كفروا؟ فالجواب: أنه إنما استغفر لقوم منهم على ظاهر إسلامهم من غير أن يتحقق خروجهم عن الإسلام، ولا يجوز أن يقال: علم كفرهم ثم استغفر. فإن قيل: ما معنى حصر العدد بسبعين؟ فالجواب: أن العرب تستكثر في الأحاد من سبعة، وفي العشرات من سبعين.

﴿تَرَجَّحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَرَجَّحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ﴾ يعني المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. والمخلف: المتروك خلف من مضى. «بمقعدهم» أي: بقعودهم. وفي قوله: ﴿خِلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: بعد رسول الله ﷺ، قاله أبو عبيدة. والثاني: أن معناه: مخالفة رسول الله ﷺ، وهو منصوب، لأنه مفعول له، فالمعنى: بأن قعدوا لمخالفة رسول الله ﷺ، قاله الزجاج. وقرأ ابن مسعود، وابن يعمر، والأعمش، وابن أبي عبيدة: «خَلَّفَ رَسُولُ اللَّهِ»، ومعناها: أنهم تأخروا عن الجهاد. وفي قوله: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قولان: أحدهما: أنه قول بعضهم لبعض، قاله ابن إسحاق، ومقاتل. والثاني: أنهم قالوه للمؤمنين، ذكره الماوردي. وإنما قالوا هذا، لأن الزمان كان حينئذ شديد الحر. ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ لمن خالف أمر الله. وقوله: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ معناه: يعلمون. قال ابن فارس: الفقه: العلم بالشيء. تقول: ففقت الحديث أفقته؛ وكل علم بشيء: فقه. ثم اختص به علم الشريعة، فقيل لكل عالم بها: فقيه. قال المصنف: وقال شيخنا علي بن عبيد الله: الفقه في إطلاق اللغة: الفهم، وفي عرف الشريعة: عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال المكلفين، بنحو التحليل، والتحرير، والإيجاب، والإجزاء، والصحة، والفساد، والغرم، والضمان، وغير ذلك. وبعضهم يختار أن يقال: الفقه: فهم الشيء. وبعضهم يختار أن يقال: علم الشيء.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ لفظه لفظ الأمر، ومعناه التهديد. وفي قلة ضحكهم وجهان: أحدهما: أن الضحك في الدنيا، لكثرة حزنها وهمومها، قليل، وضحكهم فيها أقل، لما يتوجه إليهم من الوعيد. والثاني: أنهم إنما يضحكون في الدنيا، ويقاؤها قليل. ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في الآخرة. قال أبو موسى الأشعري: إن أهل النار ليكون الدموع في النار، حتى لو أجزت السفن في دموعهم لجزت، ثم إنهم ليكون الدم بعد الدموع، فلمثل ما هم فيه فليكني.

قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من النفاق والمعاصي. ﴿إِن رَجَمَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لَمْ يَكُنْ رَجِيمًا بِالْقَوْلِ وَأَنْتَ أَوْلَىٰ بِالْحُكْمِ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ عَذِيبٌ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن رَجَمَكَ اللَّهُ﴾ أي: ردك من غزوة تبوك إلى المدينة ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ﴾ من المنافقين الذين تخلفوا بغير عذر. وإنما قال: ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ﴾ لأنه ليس كل من تخلف عن تبوك كان منافقاً. ﴿فَاسْتَدْرَكَ لَمْ يَكُنْ رَجِيمًا بِالْقَوْلِ﴾ معك إلى الغزو، ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا إِلَىٰ غَزَاةٍ﴾، ﴿إِن كُنْتُمْ رَضِيئِينَ بِالْقَوْلِ﴾ عني ﴿أَوْلَىٰ مَرَّةً﴾ حين لم تخرجوا إلى تبوك. وذكر الماوردي في قوله: ﴿أَوْلَىٰ مَرَّةً﴾ قولين: أحدهما: أول مرة دُعيتهم. والثاني: قبل استئذانكم. فأما الخالفون، فقال أبو عبيدة: الخالف: الذين خلف بعد شاخص، فقد في رحله، وهو الذي يتخلف عن القوم. وفي المراد بالخالفين قولان: أحدهما: أنهم الرجال الذين تخلفوا لأعداء، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم النساء والصبيان، قاله الحسن، وقادة.

﴿وَلَا ضَلَّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَفْسٌ عَلَىٰ قَرِيْبَةٍ مِنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمَّاوُا وَهُمْ فَكَيْفَ تُنقِضُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا ضَلَّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ سبب نزولها: أنه لما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: أعطني قميصك حتى أكفنه فيه، وصل عليه، واستغفر له. فأعطاه قميصه؛ فقال: آذني أصلي عليه، فأذنه؛ فلما

أراد أن يصلي عليه، جذبه عمر بن الخطاب، وقال: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ فقال: «أنا بين خيرتين: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾» [التوبة: ٨١] فصلى عليه، فنزلت هذه الآية^(١)، رواه نافع عن ابن عمر. قال قتادة: «ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «ما يغني عنه قميصي من عذاب الله تعالى، والله إني لأرجو أن يسلم به ألف من قومه»^(٢). قال الزجاج: فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رآه يطلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ، وأراد الصلاة عليه. فأما قوله: «منهم» فإنه يعني المنافقين. وقوله: «وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ» قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ، إذا دفن الميت، وقف على قبره ودعا له^(٣)؛ فنهى عن ذلك في حق المنافقين. وقال ابن جرير: معناه لا تتولّ دفنه؛ وهو من قولك: قام فلان بأمر فلان؛ وقد تقدم تفسيره.

﴿وَلَا تَجِدَكَ أُمَّتُكُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُدْخِلَهُمْ فِيهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَكَاذِبُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذْ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّوَلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَحَّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَأَمْهُمْ لَا يَقْفَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْحَمْدُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ عَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدَكَ أُمَّتُكُمْ﴾ سبق تفسيره [التوبة: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ هذا عام في كل سورة. وقال مقاتل: المراد بها سورة (براءة).
قوله تعالى: ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أي: بأن آمنوا. وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: استديموا الإيمان. والثاني: افعلوا فعل من آمن. والثالث: آمنوا بقلوبكم كما آمنتم بالستكم، فعلى هذا يكون الخطاب للمنافقين.

قوله تعالى: ﴿اسْتَأْذَنَكَ﴾ أي: في التخلف ﴿أُولُو الطُّوَلِ﴾ يعني الغنى، وهم الذين لا عذر لهم في التخلف. وفي «الخوالف» قولان: أحدهما: أنهم النساء، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وشمر بن عطية، وابن زيد، والبراء. وقال أبو عبيدة: يجوز أن تكون الخوالف هاهنا النساء، ولا يكادون يجمعون الرجال على تقدير فواعل، غير أنهم قد قالوا: فارس، والجميع: فوارس، وهالك [في قوم] هوالك. قال ابن الأنباري: الخوالف لا يقع إلا على النساء، إذ العرب تجمع فاعلة: فواعل؛ فيقولون: ضاربة، وضوارب، وشاتمة، وشواتم؛ ولا يجمعون فاعلاً: فواعل، إلا في حرفين: فوارس، وهوالك؛ فيجوز أن يكون مع الخوالف: المتخلفات في المنازل. ويجوز أن يكون: مع المخالفات العاصيات. ويجوز أن يكون: مع النساء العجزة اللاتي لا مدافعة عندهن. والقول الثاني: أن الخوالف: خساس الناس وأدنياؤهم؛ يقال: فلان خالفة أهله؛ إذا كان دونهم، ذكره ابن قتيبة؛ فأما «طَبَّحَ»، فقال أبو عبيدة: معناه: ختم. و«الخيرات» جمع خيرة. وللمفسرين في المراد بالخيرات ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الفاضلات من كل شيء، قاله أبو عبيدة. والثاني: الجوارى الفاضلات، قاله المبرّد. والثالث: غنائم الدنيا ومنافع الجهاد، ذكره الماوردي.

﴿وَسَيَّةَ الْمُعْذِرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَدْ آذَنَ اللَّهُ رَسُوْلُهُ سِيْصِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَيَّةَ الْمُعْذِرُونَ﴾ وقرأ ابن مسعود: «المعتذرون». وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن يعمر، ويعقوب «المُعْذِرُونَ» بسكون العين وتخفيف الذال. وقرأ ابن السميع «المعاذرون» بألف. قال أبو عبيدة: المعتذرون من يعذر وليس بجاد، وإنما يعرض بما لا يفعله، أو يظهر غير ما في نفسه. وقال ابن قتيبة: يقال؛ عذرت في الأمر؛ إذا قصرت، وأعذرت: جَدَدْت. وقال الزجاج: من قرأ «المُعْذِرُونَ» بتشديد الذال، فتأويله: المعتذرون الذين يعتذرون، كان لهم عذر، أو لم يكن، وهو هاهنا أشبه بأن يكون لهم عذر، وأنشدوا:

(١) «الطبري» ٤٠٦/١٤، والبخاري ١١٠/٣، و٢٥١/٨ - ٢٥٥، ومسلم ١٧/١٧، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٦٦/٣، وزاد نسبة لابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

(٢) «الطبري» ٤١٠/١٤، والسيوطي في «الدر» ٢٦٦/٢.

(٣) عن عثمان بن عفان ؓ قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل» رواه أبو داود رقم (٣٢٢١) وهو حديث صحيح، وفيه دلالة على مشروعية الاستغفار للميت عند الفراغ من دفنه، وسؤال التثبيت له، أي: أن يبته الله في الجواب، وفيه دلالة على سؤال القبر، وقد ورد في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة.

إلى الحَوَلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا . ومن يَبُكِ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اغْتَنَزَ (١) .
 أي: فقد جاء بعذر. ويجوز أن يكون «المعذرون» الذين يعذرون، يوهمون أن لهم عذراً، ولا عذر لهم. ويجوز
 في النحو: المعذرون؛ بكسر العين، والمُعذرون؛ بضم العين، غير أنه لم يُقرأ بهما، لأن اللفظ بهما يثقل. ومن قرأ
 «المعذرون» بتسكين العين، فتأويله: الذين أعذروا وجاؤوا بعذر. وقال ابن الأنباري: المعذرون هاهنا: المعتذرون
 بالعذر الصحيح. وأصل الكلمة عند أهل النحو: المعتذرون، فحوّلت فتحة التاء إلى العين، وأبدلت الذال من التاء،
 وأدغمت في الذال التي بعدها، فصارتنا ذالاً مشددة. ويقال في كلام العرب: اعتذر: إذا جاء بعذر صحيح، وإذا لم
 يأت بعذر. قال الله تعالى: ﴿ تَلَّ لَأَقْتَدِرُ ﴾ فدل على فساد العذر، وقال لبيد:

وَمَنْ يَبُكِ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اغْتَنَزَ

أي: فقد جاء بعذر صحيح. وكان ابن عباس يقرأ «المعذرون» ويقول: لعن الله المعذرين. يريد: لعن الله
 المقصّرين من المتناقين وغيرهم. والمعذرون: الذين يأتون بالعذر الصحيح؛ فبان من هذا الكلام أن لهم عذراً على
 قراءة من خفف. وهل يثبت لهم عذر على قراءة من شدد؟ فيه قولان. قال المفسرون: جاء هؤلاء ليؤذّن لهم في
 التخلف عن تبوك، فأذن لهم رسول الله ﷺ، وقعد آخرون من المتناقين بغير عذر وإظهار علة، جراً على الله تعالى.

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ مَا يُقِفُونَ حَرْجٌ إِذَا نَضَحُوا بِرُءُوسِهِمْ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ
 مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَيَجْلِهِنَّ فَلَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلَكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ
 مِنَ الذَّمِّ حَزًّا أَلَّا يَحِدُوا مَا يُقِفُونَ ﴿٢﴾ ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ غَشِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ
 وَطَلَاحَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَتْلُونَ ﴾ (٣)

قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في عائذ بن عمرو وغيره
 من أهل العذر، قاله قتادة. والثاني: في ابن [أم] مكتوم، قاله الضحاك. وفي المراد بالضعفاء ثلاثة أقوال: أحدها:
 أنهم الزمنى والمشايخ الكبار، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنهم الصغار. والثالث: المجانين؛ سماوا ضعافاً
 لضعف عقولهم، ذكر القولين الماوردي. والصحيح أنهم الذين يضعفون لزمانة، أو عَمَى، أو سِنًا، أو ضَعَفَ فِي
 الْجِسْمِ. والمرضى: الذين بهم أعلال مانعة من الخروج للقتال، و ﴿ الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ ﴾ هم الْمُتَوَلَّوْنَ، والحرَج: الضيق
 في القعود عن الغزو بشرط النصح لله ولرسوله، وفيه وجهان: أحدهما: أن المعنى: إذا برثوا من النفاق. والثاني: إذا
 قاموا بحفظ الذراري والمنازل. فإن قيل بالوجه الأول، فهو يعم جميع المذكورين. وإن قيل بالثاني، فهو يخص
 المقلّين. وإنما شُرط النصح، لأن من تخلف بقصد السعي بالفساد، فهو مذموم؛ ومن النصح لله: حث المسلمين على
 الجهاد، والسعي في إصلاح ذات بينهم، وسائر ما يعود باستقامة الدين.

قوله تعالى: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أي: من طريق بالعقوبة، لأن المحسن قد سد بإحسانه باب العقاب.
 قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَيَجْلِهِنَّ ﴾ نزلت في البكّائين، واختلف في عددهم وأسمائهم؛ فروى
 أبو صالح عن ابن عباس قال: من ستة: عبد الله بن معقل، وصخر بن سلمان، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وعُليّ بن
 زيد الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن عنة (٢)، أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم، فقال: ﴿ لَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلَكُمْ عَلَيْهِ ﴾
 فانصرفوا باكين (٣). وقد ذكر محمد بن سعد كاتب الواقدي مكان صخر بن سلمان: سلمة بن صخر، ومكان ثعلبة بن
 عنة: عمرو بن عنة. قال: وقيل منهم معقل بن يسار. وروى أبو إسحاق عن أشياخه أن البكّائين سبعة من
 الأنصار: سالم بن عمير، وعُليّ بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، وعمرو بن الحُمام بن الجموح، وعبد الله بن

(١) البيت للبيد: «ديوانه» ٢١٤، و«مجاز القرآن» ١٦/١، و«الطبري» ١١٩/١، و«الأغاني» ٩٨/١٤، و«مشكل القرآنة» ١٩٨، و«رسالة الغفران» ٤٢٩،
 و«العقد الفريد» ٤٩/١، و«الخرزاذقة» ٢١٧/٢، و«اللسان» عذر. وقوله اعترفت هنا، بمعنى اعترت أي: بلغ أقصى الغاية في العذر.

(٢) ضبطه الحافظ في «الإصابة» بالعين المهملة، كما في الأصل، وفي «الطبري» بالعين المعجمة.

(٣) «سيرة ابن هشام» ٥١٨/٢، بنحوه، والسيوطي في «الدرر» ٢٦٧/٢.

مغفل. وبعض الناس يقول: بل، عبد الله بن عمرو المزني، وعرباض بن سارية، وهرمي بن عبد الله أخو بني واقف. وقال مجاهد: نزلت في بني مقرن، وهم سبعة؛ وقد ذكروهم محمد بن سعد، فقال: النعمان بن عمرو بن مقرن. وقال أبو خيثمة: هو النعمان بن مقرن، وسويد بن مقرن، ومعقل بن مقرن، وسنان بن مقرن، وعقيل بن مقرن، وعبد الرحمن بن مقرن، وعبد الرحمن بن عقيل بن مقرن. وقال الحسن البصري: نزلت في أبي موسى وأصحابه. وفي الذي طلبوا من رسول الله ﷺ أن يحملهم عليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الدواب، قاله ابن عباس. والثاني: الزاد، قاله أنس بن مالك. والثالث: النعال، قاله الحسن.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَمْتَدِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ لَكُمْ سَبِيلَكُمْ رَسِيَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَسُولُهُ قَدْ تَزُورُكَ إِلَى عَلِيِّرِ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت في المنافقين، يعتذرون إليكم إذا رجعتم من غزوة تبوك، فلا تعذروهم فليس لهم عذر. فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَمْتَدِرُوا﴾ لن نصدقكم، قد أخبرنا الله أنه ليس لكم عذر ﴿رَسِيَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ إن عملتم خيراً وتبتم من تخلفكم ﴿قَدْ تَزُورُكَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَى عَلِيِّرِ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ﴾ فيخبركم بما كنتم تعملون في السر والعلانية.

﴿سَيَعْلَمُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآزِينُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ قال مقاتل: حلف منهم بضعة وثمانون رجلاً، منهم جد بن قيس، ومعتب بن قشير.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: لتصفحوا عن ذنبيهم. والثاني: لأجل إعراضكم. وقد شرحنا في [المائدة: ٩٠] معنى الرجس.

﴿يَعْلَمُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِهِمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْفَٰكِرِينَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِهِمْ﴾ قال مقاتل: حلف عبد الله بن أبي النبي ﷺ: لا أتخلف عنك، ولأكونن معك على عدوك؛ وطلب منه أن يرضى عنه، وحلف عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعمر بن الخطاب، وجعلوا يترضون النبي ﷺ وأصحابه، وكان رسول الله ﷺ قال لما قدم المدينة: ﴿لَا تَجَالِسُوهُمْ وَلَا تَكَلِّمُوهُمْ﴾^(١).

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾ قال ابن عباس: نزلت في أعراب أسد وغطفان وأعراب من حول المدينة، أخبر الله أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر أهل المدينة، لأنهم أفسى وأجفى من أهل الحضر.

قوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ قال الزجاج: «أن» في موضع نصب، لأن الباء محذوفة من «أن»، المعنى: أجدر بترك العلم. تقول: جدير أن تفعل، وجدير بأن تفعل، كما تقول: أنت خليف بأن تفعل، أي: هذا الفعل مسير فيك، فإذا حذفت الباء لم يصلح إلا بـ «أن»، وإن أتيت بالياء، صلح بـ «أن» وغيرها، فتقول: أنت جدير بأن تقوم، وجدير بالقيام. فإذا قلت: أنت جدير القيام، كان خطأ، وإنما صلح مع «أن» لأن «أن» تدل على الاستقبال، فكانها عوض من المحذوف. فاما قوله: ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فيعني به الحلال والحرام والفرائض. وقيل: المراد بالآية أن الأعم في الحرب هذا.

﴿وَرِزْقِ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذْ مَا يَبْتَغِي مَقْرَمًا وَيَرْتَضِ بِكَرِّ الدُّرَابِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرِزْقِ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذْ مَا يَبْتَغِي﴾ إذا خرج في الغزو، وقيل: ما يدفعه من الصدقة ﴿مَقْرَمًا﴾ لأنه لا يرجوه له ثواباً. قال ابن قتيبة: المغرم: هو الغرم والخسر. وقال ابن فارس: الغرم: ما يلزم أداؤه، والغرام: اللزوم، وسمي الغريم لإلحاحه. وقال غيره: الغرم: التزام ما لا يلزم.

(١) أخرجه السيوطي في «الدرر» ٢٦٨/٣، من طريق ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، عن السدي بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَبَرِّئْ﴾ أي: ويتنظر ﴿بِكُرِّ الدَّوَابِّ﴾ أي: دوائر الزمان بالمكروه، بالموت، أو القتل، أو الهزيمة. وقيل: يتنظر موت الرسول ﷺ، وظهور المشركين.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو بضم السين. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عمر، وحمزة، والكسائي: «السَّوْءِ» بفتح السين؛ وكذلك قرؤوا في سورة [الفتح: ٦]، والمعنى: عليهم يعود ما ينتظرونه لك من البلاء. قال الفراء: وفتح السين من السَّوْءِ هو وجه الكلام. فمن فتح، أراد المصدر من: سُوئُهُ سَوْءًا وَمَسَاءَةً. ومن رفع السين، جعله اسماً، كقولك: عليهم دائرة البلاء والعذاب. ولا يجوز ضم السين في قوله: ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْراً سَوْءاً﴾ [مریم: ٢٨] ولا في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَتَنَّا ظَرْبَ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ١٢] لأنه ضدُّ لقولك: رجلٌ صدَّق. وليس للسوء هاهنا معنى في عذاب ولا بلاء، فيضم.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَانًا وَعِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّا قُرْبَانٌ لَهُمْ سَبِّحُوهُمْ بِاللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ قال ابن عباس: وهم من أسلم من الأعراب، مثل جُهينة، وأسلم، وغفار. وفي قوله: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ قولان: أحدهما: في الجهاد. والثاني: في الصدقة. فأما القربان، فجمع قُرْبَةٍ، وهي: ما يقرب العبد من رضى الله ومحبه. قال الزجاج: وفي القربان ثلاثة أوجه: ضم الراء، وفتحها، وإسكانها. وفي المراد بصلوات الرسول قولان: أحدهما: استغفاره، قاله ابن عباس. والثاني: دعاؤه، قاله قتادة، وابن قتيبة، والزجاج، وأنشد الزجاج:

عليك مثل الذي صَلَّى فَاعْتَمِضِي

نَزَمًا، فَإِنَّ لِحْنِبِ الْمَرْءِ مَضْطَجَعًا^(١)

قال: إن شئت قلت: مثل الذي، ومثل الذي؛ فالأول أمرٌ لها بالدعاء، كأنه قال: ادعي لي مثل الذي دعوت. والثاني: بمعنى: عليك مثل هذا الدعاء.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّا قُرْبَانٌ لَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «قُرْبَانٌ لهم» خفيفة. وروى ورش، وإسماعيل بن جعفر عن نافع، وأبان، والمفضل عن عاصم: «قُرْبَانٌ لهم» بضم الراء. وفي المشار إليها وجهان: أحدهما: أن الهاء ترجع إلى نفقتهم وإيمانهم. والثاني: إلى صلوات الرسول.

قوله تعالى: ﴿سَبِّحُوهُمْ بِاللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ﴾ قال ابن عباس: في جنته.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ فيهم ستة أقوال: أحدها: أنهم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ، قاله أبو موسى الأشعري، وسعيد بن المسيب، وابن سيرين، وفتادة. والثاني: أنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، وهي الحديبية، قاله الشعبي. والثالث: أنهم أهل بدر، قاله عطاء بن أبي رباح. والرابع: أنهم جميع أصحاب رسول الله ﷺ، حصل لهم سبق بصحبته. قال محمد بن كعب القرظي: إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ وأوجب لهم الجنة محسنهم ومسيئهم في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾. والخامس: أنهم السابقون بالموت والشهادة، سبقوا إلى ثواب الله تعالى، ذكره الماوردي. والسادس: أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة، ذكره القاضي أبو يعلى.

قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ قرأ يعقوب: «والأنصار» برفع الراء.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ من قال: إن السابقين جميع الصحابة، جعل هؤلاء تابعي الصحابة، وهم الذين لم يصحبوا رسول الله ﷺ. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: والذين اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ إلى أن تقوم الساعة.

(١) البيت لأعشى قيس من قصيدة يمدح بها هوزة بن علي الحنفي، «ديوانه» ١٠١ «واللسان»: صلى.

ومن قال هم المتقدمون من الصحابة، قال: هؤلاء تبعوهم في طريقهم، واقتدوا بهم في أفعالهم، ففضل أولئك بالسبق، وإن كانت الصحة حاصلة للكل. وقال عطاء: اتباعهم إياهم بإحسان: أنهم يذكرون محاسنهم ويترحمون عليهم.

قوله تعالى: ﴿تَجَسَّرَ مَن تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ قرأ ابن كثير: «من تحتها» فزاد «من» وكسر التاء الثانية.

قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يعم الكل. قال الزجاج: رضي الله أفعالهم، ورضوا ما جازاهم به.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَّفِقُونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّىٰ تَقْلُمَ سَمْعَهُمْ سَمْعَهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّوهُنَّ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَّفِقُونَ﴾ قال ابن عباس: مؤمنة، ووجهية، وأسلم، وغفار، وأشجع، كان فيهم بعد إسلامهم منافقون. قال مقاتل: وكانت منازلهم حول المدينة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ قال ابن عباس: مرنوا عليه وثبتوا، منهم عبد الله بن أبي، وجَدَّ بن قيس، والجلال، ومعتب، ووخوح، وأبو عامر الراهب. وقال أبو عبيدة: عَتَوَا وَمَرَّتُوا عليه، وهو من قولهم: تَمَرَّدَ فلان، ومنه: شيطان مرید. فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا﴾، وليس يجوز في الكلام: من القوم قعدوا؟ فنه ثلثة أجوبة: أحدهن: أن تكون «من» الثانية مردودة على الأولى؛ والتقدير: ومن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون، ثم استأنف «مردوا». والثاني: أن يكون في الكلام «مَنْ» مضمراً، تقديره: ومن أهل المدينة مَنْ مَرَدُوا؛ فأضمرت «مَنْ»، للدلالة «مِنْ» عليها، كقوله: ﴿وَمَا يَنبَأُ إِلَّا لَمْ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] يريد؛ إلا مَنْ له مقام معلوم؛ وعلى هذا يتقطع الكلام عند قوله: «منافقون». والثالث: أن «مَرَدُوا» متعلق بمنافقين، تقديره: ومن أهل المدينة منافقون مَرَدُوا، ذكر هذه الأجوبة ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: لا تعلمهم أنت حتى نُعَلِّمَكَ بهم. والثاني: لا تعلم عواقبهم.

قوله تعالى: ﴿سَمِعْتَهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ فيه عشرة أقوال: أحدها: أن العذاب الأول في الدنيا، وهو فضيحتهم بالنفاق، والعذاب الثاني: عذاب القبر، قاله ابن عباس. قال: وقام رسول الله ﷺ يوم الجمعة خطيباً، فقال: «يا فلان اخرج فإنك منافق، ويا فلان اخرج»^(١) ففضحهم. والثاني: أن العذاب الأول: إقامة الحدود عليهم. والثاني: عذاب القبر؛ وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أن أحد العذابين: الزكاة التي تؤخذ منه، والآخر: الجهاد الذي يُؤمرون به، قاله الحسن. والرابع: الجوع، وعذاب القبر، رواه شبيل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، وبه قال أبو مالك. والخامس: الجوع والقتل، رواه سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد. والسادس: القتل والسبي، رواه معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد. وقال ابن قتيبة: القتل والأسر. والسابع: أنهم عُذِّبُوا بالجوع مرتين، رواه خُصَيْف عن مجاهد. والثامن: أن عذابهم في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد، وفي الآخرة بالنار، قاله ابن زيد. والتاسع: أن الأول: عند الموت، تضرب الملائكة وجوههم وأديبارهم، والثاني: في القبر بمنكر ونكير، قاله مقاتل بن سليمان. والعاشر: أن الأول بالسيف، والثاني عند الموت؛ قاله مقاتل بن حيان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَرُدُّوهُنَّ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ يعني عذاب جهنم.

﴿وَالْآخِرُونَ أَصْحَابُ عَذَابٍ مُّثْلِهِمْ خَلْفَهُمْ وَلَا يُجِزُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرُونَ أَصْحَابُ عَذَابٍ مُّثْلِهِمْ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنهم عشرة رهط تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فلما دنا رجوع رسول الله ﷺ، أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد. فلما رآهم رسول الله ﷺ، قال: «مَنْ هَؤُلَاءِ؟» قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلَّفوا عنك، فأقسموا بالله لا يطلقون أنفسهم حتى تطلقهم أنت وتعذرهم، فقال: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم، رغبوا

(١) «الطبري» ١٤/٤٤١ - ٤٤٢، وخرجه الهيثمي في «المجمع» ٣٣/٧، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقري، وهو ضعيف. وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

عني وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين» فنزلت هذه الآية^(١)، فأرسل إليهم فأطلقهم وعذرهم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وروى العوفي عن ابن عباس أن الذين تخلّفوا كانوا ستة، فأوثق أبو لبابة نفسه ورجلان معه، وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم فلما نزلت هذه الآية، أطلقهم رسول الله ﷺ وعذرهم^(٢). وروى أبو صالح عن ابن عباس أنهم كانوا ثلاثة: أبو لبابة بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن جذام الأنصاري. وقال سعيد بن جبير، ومجاهد، وزيد بن أسلم: كانوا ثمانية. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا سبعة. والثاني: أنها نزلت في أبي لبابة وحده. واختلفوا في ذنبه على قولين: أحدهما: أنه خان الله ورسوله بإشارته إلى بني قريظة حين شاوروه في النزول على حكم سعد أنه الذبيح، وهذا قول مجاهد^(٣)، وقد شرحناه في [الأنفال: ٢٧]. والثاني: أنه تخلّف عن تبوك^(٤)، قاله الزهري. فأما الاعتراف، فهو الإقرار بالشيء عن معرفة. والاعتراف بالذنب أدعى إلى صدق التوبة والقبول.

قوله تعالى: ﴿عَظُمَ عَلَيْكَ صِلَابٌ مِمَّا كُنْتُمْ تَعْتَكِبُونَ﴾ قال ابن جرير: وضع الواو مكان الباء، والمعنى: بأخر شيء، كما تقول: خلطت الماء واللبن. وفي ذلك العمل قولان: أحدهما: أن العمل الصالح: ما سبق من جهادهم، والسيء: التأخر عن الجهاد، قاله السدي. والثاني: أن العمل الصالح: توبتهم، والسيء: تخلّفهم، ذكره الفراء. وفي قوله: «عسى» قولان: أحدهما: أنه واجب من الله تعالى، قاله ابن عباس. والثاني: أنه ترديد لهم بين الطمع والإشفاق، وذلك يصد عن اللهو والإهمال.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ صَدَقَةً﴾ قال المفسرون: لما تاب الله ﷻ على أبي لبابة وأصحابه، قالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق به عنا، فقال: «ما أمرت أن أخذ من أموالكم شيئاً» فنزلت هذه الآية^(٥). وفي هذه الصدقة قولان: أحدهما: أنها الصدقة التي بذلوها تطوعاً، قاله ابن زيد، والجمهور. والثاني: الزكاة، قاله عكرمة.

قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ وقرأ الحسن «تطهّروهم بها» بجزم الراء. قال الزجاج: يصلح أن يكون قوله: «تطهّروهم» نعتاً للصدقة، كأنه قال: خذ من أموالهم صدقة مطهّرة. والأجود أن يكون للنبي ﷺ، المعنى: فإنك تطهّروهم بها ف «تطهّروهم» بالجزم، على جواب الأمر، المعنى: إن تأخذ من أموالهم، تطهّروهم. ولا يجوز في «تزكّيوهم» إلا إثبات الياء، أتباعاً للمصحف. قال ابن عباس: «تطهّروهم» من الذنوب، «وتزكّيوهم»: تصحلّمهم. وفي قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ قولان: أحدهما: استغفر لهم، قاله ابن عباس. والثاني: ادع لهم، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿إِنْ صَلَاتِكَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم «إن صلواتك» على الجمع. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم «إن صلّاتك» على التوحيد. وفي قوله: ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ خمسة أقوال: أحدها: طمأنينة لهم أن الله قد قبّل منهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال أبو عبيدة: تثبيت وسكون. والثاني: رحمة لهم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: قرينة لهم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والرابع: وقار لهم، قاله قتادة. والخامس: تزكية لهم، حكاه الثعلبي. قال الحسن، وقرّاءة: وهؤلاء سوى الثلاثة الذين تخلّفوا.

(١) «الطبري» ٤٤٧/١٤ - ٤٤٨، و «أسباب النزول» لإلواحي ١٤٨، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٧٢/٣، وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

(٢) «الطبري» ٤٤٨/١٤ - ٤٤٩، والسيوطي في «الدر» ٢٧٢/٣، وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٣) «الطبري» ٤٥١/١٤، والسيوطي في «الدر» ٢٧٢/٣، ونسبه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل» عن مجاهد مختصراً. وعن سعيد بن المسيب مطولاً ونسبه للبيهقي.

(٤) «الطبري» ٤٤٢/١٤، وقال: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال: نزلت هذه الآية في المترفين بخطأ فعلهم في تخلّفهم عن رسول الله ﷺ وتزكّهم الجهاد معه، والخروج لغزو الروم حين شخص إلى تبوك، وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة، أحدهم أبو لبابة. وقال ابن كثير ٣٨٥/٢. وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين، إلا أنها عامة في كل المنزّلين الخطائين المخلطين المتلوّثين.

(٥) «الطبري» ٤٤٤/١٤ - ٤٥٥.

﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا أَنْ اللَّهُ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٠٤﴾ وَقُلْ اتَّعَمَلُوا سِرِّيَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ رَسُولُهُ وَالْمُتَوَكِّلُونَ وَسَرِّدُونَ إِلَيَّ عَلَى النَّبِيِّ وَالشَّيْئَةِ فَيُنْفِخُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا أَنْ اللَّهُ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ قرأ الجمهور «يعلموا» بالياء. وروى عبد الوارث «تعلموا» بالتاء. وقوله: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ قال أبو عبيدة: أي: من عبده، تقول: أخذته منك، وأخذته عنك.

قوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ قال ابن قتيبة: أي يقبلها. ومثله ﴿حَدِّ الْقَوْمِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] أي: اقبله.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ اتَّعَمَلُوا﴾ قال ابن زيد: هذا خطاب للذين تابوا.

﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجُومَ اللَّهِ إِنَّمَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَإِنَّمَا يُؤْتِيهِمْ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجُومَ اللَّهِ﴾ وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي «مرجون» بغير همز. والآية نزلت في كعب بن مالك، ومرة بن الربيع، وهلال بن أمية، وكانوا فيمن تخلف عن تبوك من غير عذر، ثم لم يبالغوا في الاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه، ولم يوثقوا أنفسهم بالسوازي؛ فوقف رسول الله ﷺ أمرهم، ونهى الناس عن كلامهم ومخالطتهم حتى نزل قوله: ﴿وَعَلَّ الْكَلْبَةَ الْغَابِرَةَ يُخَلِّقُ﴾ [التوبة: ١١٨]. قال الزجاج: «وأخرون» عطف على قوله: «ومن أهل المدينة»، فالمعنى: منهم منافقون، ومنهم «أخرون مرجون» أي: مؤخرون؛ و «إما» لوقوع أحد الشيتين، والله تعالى عالم بما يصير إليه أمرهم، لكنه خاطب العباد بما يعلمون، فالمعنى: ليكن أمرهم عندكم على الخوف والرجاء.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما يؤول إليه حالهم، حكيم بما يفعله بهم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَّارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْرًا كَذَابًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِلُنَّ إِنَّ آرْتَابًا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِشَهَادَاتِهِمْ لَكَذِبُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «والذين» بواو، وكذلك هي في مصاحفهم. وقرأ نافع، وابن عامر: «الذين» بغير واو، وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة والشام. قال أبو علي: من قرأ بالواو، فهو معطوف على ما قبله، نحو قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧٥]، ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَلُوكَ﴾ [التوبة: ٥٨]، ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ [التوبة: ٦١]، والمعنى: ومنهم الذين اتخذوا مسجداً. ومن حذف الواو، فعلى وجهين: أحدهما: أن يضمر - ومنهم الذين اتخذوا - كقوله: أكفرتهم، المعنى: فيقال لهم: أكفرتهم. والثاني: أن يضمر الخبر بعد، كما أضمر في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّجِدِ الْكَرِيمِ﴾ [الحج: ٢٥]، المعنى: يُنتقم منهم ويعذبون. قال أهل التفسير: لما اتخذ بنو عمرو بن عوف مسجداً قباء، ويعثوا إلى رسول الله ﷺ، فأتاهم فصلى فيه؛ حسدهم إخوانهم بنو عثم بن عوف، وكانوا من منافقي الأنصار، فقالوا: نبني مسجداً، ونرسل إلى رسول الله ﷺ فيصلى فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام؛ وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية وتنصر، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، عاداه، فخرج إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن أعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجداً، فإني ذاهب إلى قيصر فأتي بجند الروم فأخرج محمداً وأصحابه، فبنوا هذا المسجد إلى جنب مسجد قباء؛ وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً: خذام بن خالد ومين داره أخرج المسجد، وتبئ بن الحارث، ويجاد بن عثمان، وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، وعبد بن حنيف، ووديع بن ثابت، وأبو حبيبة بن الأزعر، وجارية بن عامر، وابناه يزيد^(١) ومجمع؛ وكان مجمع إمامهم فيه، ثم صلحت حاله، وبهزج جد عبد الله بن حنيف، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «ما أردت بما أرى؟» فقال: والله ما أردت إلا الحسنى، وهو كاذب. وقال مقاتل: الذي حلف مجمع. وقيل: كانوا سبعة عشر؛ فلما فرغوا منه، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد ابتئنا مسجداً لذي العلة والحاجة والليله المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي فيه؛ فدعا بقميصه ليلسه، فنزل عليه القرآن وأخبره الله خبرهم، فدعا معن بن عدي، ومالك بن الدخشم في آخرين، وقال: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه

(١) كذا الأصل يزيد، والذي في «الطبري» و«سيرة ابن هشام»، و«ابن كثير»، و«الدرر»: «زيد».

وأحرقوه، وأمر به رسول الله ﷺ أن يتخذ كُناسة تُلقى فيها الجيف^(١). ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً. فاما التفسير، فقال الزجاج: «الذين» في موضع رفع، المعنى: ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً. و«ضراراً» انتصب مفعولاً له، المعنى: اتخذوه للضرار والكفر والتفريق والإرصاد. فلما حذفت اللام، أفضى الفعل فنصب. قال المفسرون: والضرار بمعنى المضارة لمسجد قباء، «وَكَفَرًا» بالله ورسوله «وَقَرِيبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ» لأنهم كانوا يصلون في مسجد قباء جميعاً، فأرادوا تفريق جماعتهم، والإرصاد: الانتظار، فانتظروا به مجيء أبي عامر، وهو الذي حارب الله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار. «وَكَيْفَلْنُ إِنْ أَرَدْنَا» أي: ما أردنا «إِلَّا الْحُسْنَى» أي: ما أردنا بابتناؤه إلا الحسنى؛ وفيها ثلاثة أوجه: أحدها: طاعة الله. والثاني: الجنة. والثالث: فعل التي هي أحسن من إقامة الدين والاجتماع للصلاة. وقد ذكرنا اسم الحالف.

﴿لَا تَقْرَأُ فِيهِ أَبَدًا لَمَْسْجِدٍ أُتِيَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوْلَىٰ يَوْمِ الْحَاقِّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْسِنُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّحِينَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَأُ فِيهِ﴾ أي: لا تصل فيه أبداً. «لَمَْسْجِدٍ أُتِيَ عَلَى التَّقْوَىٰ» أي: بني على الطاعة، وبناء المتقون «مِنْ أَوْلَىٰ يَوْمِ الْحَاقِّ» أي: منذ أول يوم. قال الزجاج: «يَوْمِ» في الزمان، والأصل: منذ ومد، وهو الأكثر في الاستعمال. وجائز دخول «من» لأنها الأصل في ابتداء الغاية والتبعض، ومثله قول زهير:

لِمَنْ الدِّيارُ بِثَنَّةِ الجِجْرِ أَقْوَنَ مِنْ جِجَجٍ وَمِنْ شَهْرٍ^(٣)

وقيل: معناه: من مر ججج ومن مر شهر. وفي هذا المسجد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة الذي فيه منبره وقبره. روى سهل بن سعد أن رجلين اختلفا في عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد الرسول، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «هو مسجدي هذا»^(٤) وبه قال ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، وسعيد بن المسيب. والثاني: أنه مسجد قباء، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبيرة، وقتادة، وعروة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، والضحاك، ومقاتل. والثالث: أنه كل مسجد بني في المدينة، قاله محمد بن كعب.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحْسِنُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ سبب نزولها أن رجلاً من أهل قباء كانوا يستنجون بالماء، فنزلت هذه الآية، قاله الشعبي^(٥). قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية، أتاهم رسول الله ﷺ فقال: «ما الذي أثنى الله به عليكم» فقالوا: إنا نستنجي بالماء^(٥). فعلى هذا، المراد به الطهارة بالماء. وقال أبو العالية: أن يتطهروا من الذنوب. ﴿أَتَمَنَّا أَسْمَكَ بَيْتِكُمْ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ حَرِّمَ أَمَّنْ أَسَسَ بَيْتَكُمْ عَلَى شَفَا جُرْبٍ هَكَذَا فَاتَّهَرَّ بِهِ فِي تَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿أَتَمَنَّا أَسْمَكَ بَيْتَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «أسس» بفتح الألف في الحرفين جميعاً وفتح النون فيهما. وقرأ نافع، وابن عامر «أسس» بضم الألف «بنيانه» برفع النون. والبنيان مصدر يراد به المبني. والتأسيس: إحكام أس البناء، وهو أصله، والمعنى: المؤسسة بنيانه متقياً يخاف الله ويرجو رضوانه خير، أم المؤسسة بنيانه غير متق؟ قال الزجاج: وشفا الشيء: حره وحده. والشفا مقصور، يكتب بالألف، ويشتى شفوان.

(١) «الطبري» ٤٦٨/١٤، وأورده السيوطي بنحوه في «الدر» ٢٧٧/٣.

(٢) «ديوانه» ٨٦، و«مختار الشعر الجاهلي» ٢٦٣. وروى الأصمعي: ومن دهر. قوله: من شهر، أراد: من شهر. وأقوين: خلون. والقنة: أعلى الجبل، أو هي الجبل الذي ليس بمشتر.

(٣) «الطبري» ٤٧٩/١٤، وأحمد في «المسند» ٣٣١/٥، و«مسلم» ١٠١٥/٢ بنحوه، وخرجه الهيثمي في «المجمع» ٣٤/٧ وقال: رواه كلاً أحمد، والطبراني باختصار، ورجالهما رجال الصحيح.

(٤) «الطبري» ٤٨٧/١٤، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٧٨/٣.

(٥) السيوطي في «الدر» ٢٧٨/٣ بنحوه، ونسب للطبراني، وأبي الشيخ، والحاكم، وابن مردويه.

قوله تعالى: ﴿جُرُئِي﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي «جُرْف» مثقلاً. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: «جُرْف» ساكنة الراء. قال أبو علي: فالضم الأصل، والإسكان تخفيف، ومثله: الشُّغْل والشُّغْل. قال ابن قتيبة: المعنى: على حرف جرف هائر. والجرف: ما يتجرف بالسيول من الأودية. والهاثر: الساقط. ومنه: تهوّر البناء وانهار. وإذا سقط. وقرأ ابن كثير، وحمزة «هار» بفتح الهاء. وأمال الهاء نافع، وأبو عمرو. وعن عاصم كالقراءتين.

قوله تعالى: ﴿فَأَنهَارَ بُدَيْءٍ﴾ أي: بالباقي ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾. قال الزجاج: وهذا مثل، والمعنى: أن بناء هذا المسجد كبناء على جرف جهنم يتهوّر بأهله فيها. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم حفروا فيه حفرة، فروي فيها الدخان. قال جابر: رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان.

﴿لَا يَزَالُ بُيِّنْتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُيِّنْتُهُمُ﴾ يعني: مسجد الضرار ﴿الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: شكاً ونفاقاً، لأنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون في بنائه، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: حسرة وندامة، لأنهم ندّموا على بنائه، قاله ابن السائب ومقاتل. والثالث: أن المعنى: لا يزال هدم بنيانهم حرازة وغيظاً في قلوبهم، قاله السدي، والمبرد.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قرأ الأكثرون: «إلا» وهو حرف استثناء. وقرأ يعقوب «إلى أن» فجعله حرف جر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «تَقَطَّعَ» بضم التاء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: «تَقَطَّعَ» بفتح التاء. ثم في المعنى قولان: أحدهما: إلا أن يموتوا، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة في آخرين. والثاني: إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفریطهم، ذكره الزجاج.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِيُقَاتِلَهُمْ وَيُقَاتِلُوا وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَمَافٌ فِي التَّرْزُوقِ وَالْإِجْمَالِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ سبب نزولها أن الأنصار لما بايعت رسول الله ﷺ ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلاً، قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فما لنا؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع، لا ثقل ولا نستقبل، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى﴾ الآية، قاله محمد بن كعب القرظي^(١). فأما اشتراء النفس، فبالجهاد. وفي اشتراء الأموال وجهان: أحدهما: بالإفناق في الجهاد. والثاني: بالصدقات. وذكّر الشراء هاهنا مجازاً، لأن المشتري حقيقة هو الذي لا يملك المشتري، فهو كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُعْرِضُ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. والمراد من الكلام أن الله أمرهم بالجهاد بأنفسهم وأموالهم ليجازيهم عن ذلك بالجنة، فعبّر عنه بالشراء لما تضمن من عوض ومعوض. وكان الحسن يقول: لا والله، إن في الدنيا مؤمن إلا وقد أخذت بيعته. وقال قتادة: ثابنتهم والله فأعلى لهم.

قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقَاتِلُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «فَيَقْتُلُونَ وَيُقَاتِلُونَ» فاعل ومفعول. وقرأ حمزة، والكسائي: «فَيُقَاتِلُونَ وَيَقْتُلُونَ» مفعول وفاعل. قال أبو علي: القراءة الأولى بمعنى أنهم يقتلون أولاً ويقاتلون، والأخرى يجوز أن تكون في المعنى كالأولى، لأن المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم؛ فإن لم يقدر فيه التقديم، فالمعنى: يقتل من بقي منهم بعد قتل من قُتل، كما أن قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ما وهن من بقي يقتل من قُتل. ومعنى الكلام: إن الجنة عوض عن جهادهم، قُتلوا أو قُتِلوا. ﴿وَعَدَا عَلَيْهِمْ﴾ قال

النبي ﷺ يستغفر له، فقال المسلمون: ما يمتننا أن نستغفر لآبائنا ولذوي قرباتنا، وقد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد يستغفر لعمة؟ فاستغفروا للمشركين، فنزلت هذه الآية. قال أبو الحسين بن المنادي^(١): هذا لا يصح، إنما قال النبي ﷺ لعمة: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» قبل أن يموت، وهو في السياق، فأما أن يكون استغفر له بعد الموت، فلا، فانقلب ذلك على الرواة، وبقي على انقلابه. والثاني: أن النبي ﷺ مرَّ بقبر أمه آمنة، فتوضأ وصلى ركعتين، ثم بكى، فبكى الناس لبكائه، ثم انصرف إليهم، فقالوا: ما الذي أبكاك؟ فقال: «مرت بقبر أمي فصليت ركعتين، ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها، فنهيت، فبكيت، ثم عدت فصليت ركعتين، واستأذنت ربي أن أستغفر لها، فزجرت زجراً، فأبكاني»، ثم دعا براحلته فركبها؛ فما سار إلا هنيئاً، حتى قامت الناقة لثقل الوحي؛ فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ والآية التي بعدها، رواه بريدة عن رسول الله ﷺ^(٢). والثالث: أن رجلاً استغفر لأبويه، وكانا مشركين، فقال له علي بن أبي طالب: أنتستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال: أولم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكر ذلك علي للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، رواه أبو الخليل عن علي^(٣). والرابع: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا نبي الله، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار، ويصل الرحم، ويفك العاني، ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟ فقال: «بلى، والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فنزلت هذه الآية، وبين عذر إبراهيم، قاله قتادة^(٤). ومعنى قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أُصْحَابُ الْكَيْفِ﴾ أي: من بعد ما بان أنهم ماتوا كفاراً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَنِ مَرْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن إبراهيم وعد أباه الاستغفار، وذلك قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مریم: ٤٤]، وما كان يعلم أن الاستغفار للمشركين محظور حتى أخبره الله بذلك. والثاني: أن أباه وعده أنه إن استغفر له آمن؛ فلما تبين لإبراهيم عداوة أبيه لله تعالى بموته على الكفر، ترك الدعاء له. فعلى الأول، تكون هاء الكناية في «إِيَّاهُ» عائدة على آزر، وعلى الثاني، تعود على إبراهيم. وقرأ ابن السميع، ومعاذ القارئ، وأبو نهيك: «وعدها أباه» بالباء. وفي الأوَّاه ثمانية أقوال: أحدها: أنه الخاشع الدُّعَاءُ المتضرع، رواه عبد الله بن شداد بن الهاد عن النبي ﷺ. والثاني: أنه الدُّعَاءُ، رواه زرُّ عن عبد الله، وبه قال عبيد بن عمير. والثالث: الرحيم، رواه أبو العبيد بن العامري عن ابن مسعود، وبه قال الحسن، وقتادة، وأبو ميسرة. والرابع: أنه الموقن، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والضحاك. والخامس: أنه المؤمن، رواه العوفي، ومجاهد، وابن أبي طلحة عن ابن عباس. والسادس: أنه المسبِّح، رواه أبو إسحاق عن أبي ميسرة، وبه قال سعيد بن المسيب، وابن جبير. والسابع: أنه المتأوِّه لذكر عذاب الله، قاله الشعبي. قال أبو عبيدة: مجاز آوَاهُ مجاز فَعَالَ من التأوِّه، ومعناه: متضرع شَقْفًا وَقَرَفًا ولزومًا لطاعة ربه، قال المُتَّقِبُ:

إِذَا مَا قَمْتُ أَرْحَلُهَا بَلِيلٌ نَاوُهُ آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ^(٥)

والثامن: أنه الفقيه، رواه ابن جريج عن مجاهد. فأما الحليم، فهو الصفوح عن الذنوب.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ يُرْسِلَ قَوْمًا بِمَدِّ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَكُم مِّنْكُمْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمِينٌ وَرُبِّيْتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

(١) هو أحمد بن جعفر بن محمد أبو الحسين بن المنادي (٢٥٦ - ٣٣٦ هـ) عالم بالتفسير والحديث من أهل بغداد. قال ابن الجوزي: من وقف على مصنفاة علم فضله واطلاعه، ووقف على فوائد لا توجد في غير كتبه، جمع بين الرواية والدراية، ولا حشو في كلامه، آخر من روى عنه محمد بن فارس اللغوي، من كتبه اختلاف العدد ودهاء أنواع الاستعاذات من سائر الآفات والعايات.

(٢) «الطبري» ٥١٢/١٤ مختصراً، وأحمد في «مسند» ٣٥٩/٥، و«مسلم» ٦٧١/٢، بمعناه، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٨٤/٣ عن ابن مردويه.

(٣) «الطبري» ٥١٤/١٤، ٥١٥، وأحمد في «السنن» رقم ٧٧١، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٨٢/٣ وزاد نسبه للطائفي، وابن أبي شيبة، والترمذي، والنسائي، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، والفضلاء في «المختارة».

(٤) «الطبري» ٥١٣/١٤.

(٥) البيت في «الطبري» ٥٣٤/١٤، و«المفضليات» ٢٩١، و«مجاز القرآن» ٢/٢٧٠، و«طبقات فحول الشعراء» ٢٣١، و«السمط» ٥٦، و«القرطبي» ٨/٢٧٦، و«اللسان»: أوه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا﴾ الآية، سبب نزولها: أنه لما نزلت آية الفرائض، وجاء النسخ، وقد غاب قوم وهم يعلمون بالأمر الأول مثل أمر القبلة والخمر، ومات أقوام على ذلك، سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال قوم: المعنى أنه يبين أنه لم يكن ليأخذهم بالاستغفار للمشركين قبل تحريمه، فإذا حرّمه ولم يمتنعوا عنه، فقد ضلوا. وقال ابن الأنباري: في الآية حذف واختصار، والتأويل: حتى يتبين لهم ما يتقون، فلا يتقونه، فعند ذلك يستحقون الضلال؛ فحذف ما حذف لبيان معناه، كما تقول العرب: أمرتك بالتجارة فكسبت الأموال؛ يريدون: فتجرت فكسبت.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَهْمُ رَوْفٌ رَجِيءٌ ﴿١١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال المفسرون: تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلف. وقال أهل المعاني: هو مفتاح كلام، وذلك أنه لما كان سبب توبة التائبين، ذكر معهم، كقوله: ﴿فَأَذَانٌ لِلَّهِ مُحْسَمٌ وَالرَّسُولُ﴾ [الأشاح: ٤١].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾ قال الزجاج: هم الذين اتبعوه في غزوة تبوك، والمراد بساعة العسرة: وقت العسرة، لأن الساعة تقع على كل الزمان، وكان في ذلك الوقت حرّاً شديداً، والقوم في ضيقة شديدة، كان الجمل بين جماعة يعقبون عليه، وكانوا في فقر، وربما اقتسم التمرة اثنان، وربما مص التمرة الجماعة ليشربوا عليها الماء، وربما نحروا الإبل فشربوا من ماء كروشها من الحر. وقيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن ساعة العسرة، فقال: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى إن الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع لنا. قال: «تحب ذلك؟» قال: نعم. فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء^(١)، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجد ما جاوزت العسرة^(٢).

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ قرأ حمزة، وحفص عن عاصم «كاد يزيع» بالياء. وقرأ الباقون بالياء، وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: تميل إلى التخلف عنه، وهم ناس من المسلمين هموا بذلك، ثم لحقوه، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن القلوب مالت إلى الرجوع للشدة التي لقوها، ولم ترغ عن الإيمان، قاله الزجاج. والثالث: أن القلوب كادت تزيع تلفاً بالجد والشدة، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ كرر ذكر التوبة، لأنه ليس في ابتداء الآية ذكر ذنبهم، فقدم ذكر التوبة فضلاً منه، ثم ذكر ذنبهم، ثم أعاد ذكر التوبة.

﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلٌ﴾ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وقرأ أبو رزين، وأبو مجلز، والشعبي، وابن يعمر: «خالفوا» بالفاء، وقرأ معاذ القارئ، وعكرمة، وحמיד: «خَلَّفُوا» بفتح الخاء واللام المخففة. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو العالية: «خَلَّفُوا» بفتح الخاء واللام مع تشديدها. وهؤلاء هم المرادون بقوله: ﴿وَالْأَخْرُوفُ مُتْرَجُونَ﴾ وقد تقدمت أسماؤهم [التوبة: ١٠٦]. وفي معنى «خَلَّفُوا» قولان: أحدهما: خَلَّفُوا عن التوبة، قاله ابن عباس، ومجاهد. فيكون المعنى: خَلَّفُوا عن توبة الله على

(١) قالت السماء: أي، أقبلت بالسحاب.

(٢) «الطبري» ٥٤٢ - ٥٤١/١٤، وخرجه الهيثمي في «المجمع» ١٩٤/٦ - ١٩٥. وقال: رواه البزار، والطبراني في «الأوسط»، ورجال البزار ثقات. وذكره السيوطي في «الدرر» ٢٨٦/٣ وزاد نسبة لابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي في «الدلائل»، والضياء في «المختارة».

أبي لبابة وأصحابه إذ لم يخضعوا كما خضع أولئك. والثاني: حُلفوا عن غزوة تبوك، قاله قتادة. وحديثهم مندرج في توبة كعب بن مالك^(١)، وقد رويتها في كتاب «الحدائق».

قوله تعالى: ﴿حَرَجَ إِذَا سَأَلْتَهُمُ الْأَرْضَ بِمَا رَجَبْتُمْ أَي: ضاقت مع سَعَتِهَا، وذلك أن المسلمين مُنعوا من معاملتهم وكلامهم، وأمروا باعتزال أزواجهم، وكان النبي ﷺ مُعرضاً عنهم. ﴿وَسَأَلْتَهُمْ أَنْسَهُمْ﴾ بالهمم والغم. ﴿وَطَلَبُوا﴾ أي: أيقنوا ﴿أَنْ لَا مَلْجَأَ﴾ أي: لا معتصم من الله ومن عذابه إلا هو. ﴿فَرَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أعاد التوبة تأكيداً، ﴿يَسْتَوُوا﴾ قال ابن عباس: ليستقيموا. وقال غيره: وقَّهم للتوبة ليدوموا عليها ولا يرجعوا إلى ما يبطلها. وسئل بعضهم عن التوبة النصوح، فقال: أن تضيق على التائب الأرض، وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب وصاحبيه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها نزلت في قصة الثلاثة المتخلفين. والثاني: أنها في أهل الكتاب. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في إيمانكم بمحمد ﷺ وكونوا مع الصادقين. وفي المراد بالصادقين خمسة أقوال: أحدها: أنه النبي ﷺ وأصحابه، قاله ابن عمر. والثاني: أبو بكر وعمر، قاله سعيد بن جبير، والضحاك. وقد قرأ ابن السميع، وأبو المتوكل، ومعاذ القارئ: «مع الصادقين» بفتح القاف وكسر النون على الشنية. والثالث: أنهم الثلاثة الذين حُلفوا، صدقوا النبي ﷺ عن تأخرهم، قاله السدي. والرابع: أنهم المهاجرون، لأنهم لم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ في الجهاد، قاله ابن جريج. قال أبو سليمان الدمشقي: وقيل: إن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية يوم السقيفة، فقال: يا معشر الأنصار، إن الله يقول في كتابه: ﴿لِلْفَرَقَةِ الْمُهَيَّبِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] من هم؟ قالت الأنصار: أنتم هم. قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فأمركم أن تكونوا معنا، ولم يأمرنا أن نكون معكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. والخامس: أنه عام، قاله قتادة. و«مع» بمعنى: «مين»، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود: «وكونوا من الصادقين».

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّوَّرَتْ مَوَاطِنَ أَيْسَ الْكُفَّارِ وَلَا يَنَالُونَ مِنَ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَوِيْرَةً وَلَا كَبِيْرَةً وَلَا يَقَطُّوْنَ وَإِدْبَارَ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ يَجْرِبُهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال ابن عباس: يعني: مزينة، وجهينة، وأشجع، وأسلم، وغفار، ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ في غزوة غزاهما، ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدعة ورسول الله في الحر والمشقة. يقال: رغبت بنفسي عن الشيء: إذا ترفعت عنه.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك النهي عن التخلف ﴿بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ﴾ وهو العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي المجاعة ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنَ عَدُوِّ نَيْلًا﴾ أسراً أو قتلاً أو هزيمة، فأعلمهم الله أنه يجازيهم على جميع ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَوِيْرَةً﴾ قال ابن عباس: تمره فما فوقها. ﴿وَلَا يَقَطُّوْنَ وَإِدْبَارَ﴾ مقبلين أو مدبرين ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي: أثبت لهم أجر ذلك. ﴿يَجْرِبُهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ﴾ أي: بأحسن ﴿مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾.

فصل

قال شيخنا علي بن عبيد الله: اختلف المفسرون في هذه الآية، فقالت طائفة: كان في أول الأمر لا يجوز التخلف عن رسول الله ﷺ حين كان الجهاد يلزم الكل؛ ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَأَنَّهُ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛

وقالت طائفة: فرض الله تعالى على جميع المؤمنين في زمان النبي ﷺ ممن لا عذر له الخروج معه لشيتين: أحدهما: أنه من الواجب عليهم أن يفقهه بأنفسهم. والثاني: أنه إذا خرج الرسول فقد خرج الدين كله، فأمروا بالتظاهر لثلاث يقاتل العدد، وهذا الحكم باقٍ إلى وقتنا؛ فلو خرج أمير المؤمنين إلى الجهاد، وجب على عامة المسلمين متابعتهم لما ذكرنا. فعلى هذا، الآية محكمة. قال أبو سليمان: لكل آية وجهها، وليس للنسخ على إحدى الآيتين طريق.

﴿ وَمَا كَانُ الْمُؤْمِنُونَ يُسِيرُوا كِافَّةً ۖ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانُ الْمُؤْمِنُونَ يُسِيرُوا كِافَّةً ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أنه لما أنزل الله ﷻ عيوب المنافقين في غزوة تبوك، قال المؤمنون: والله لا نتخلف عن غزوة يغزوها رسول الله ﷺ ولا سرية أبداً. فلما أرسل السرايا بعد تبوك، نفر المسلمون جميعاً، وتركوا رسول الله وحده، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن رسول الله ﷺ لما دعا على مضر، أجذبت بلادهم؛ فكانت القبيلة منهم تُقْبِلُ بأسرها إلى المدينة من الجهد، ويظهرون الإسلام وهم كاذبون؛ فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أن ناساً أسلموا، وخرجوا إلى البوادي يعلمون قومهم، فنزلت: ﴿ إِلَّا تَنْصِرُوا يَمُذِنُكُمْ ﴾ [التوبة: ٢٣٩]، فقال ناس من المنافقين: هلك من لم ينفر من أهل البوادي، فنزلت هذه الآية، قاله عكرمة. والرابع: أن ناساً خرجوا إلى البوادي يعلمون الناس ويهدونهم، ويصيبون من الحطب ما ينتفعون به، فقال لهم الناس: ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجتمتمونا؛ فأقبلوا من البادية كلهم، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد. قال الزجاج: ولفظ الآية لفظ الخبر، ومعناها الأمر، كقوله: ﴿ مَا كَانُ لِلنَّبِيِّ وَاللَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشَّارِكِينَ ﴾ [التوبة: ١١٣]، والمعنى: ينبغي أن ينفر بعضهم، ويبقى البعض، قال الفراء: ينفر وينفر، بكسر الفاء وضمها، لغتان. واختلف المفسرون في المراد بهذا النفر على قولين: أحدهما: أنه النفر إلى العدو، فالمعنى: ما كان لهم أن ينفروا بأجمعهم، بل تنفر طائفة، وتبقى مع النبي ﷺ طائفة ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ يعني الفرقة القاعدية. فإذا رجعت السرايا، وقد نزل بعدهم قرآن أو تجدد أمر، أعلموهم به وأنذروهم به إذا رجعوا إليهم، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس. والثاني: أنه النفر إلى رسول الله ﷺ، بل تنفر منهم طائفة ليضفقه هؤلاء الذين ينفرون، ولينذروا قومهم المتخلفين، هذا قول الحسن، وهو أشبه بظاهر الآية. فعلى القول الأول، يكون نفير هذه الطائفة مع رسول الله ﷺ إن خرج إلى غزاة أو مع سراياه. وعلى القول الثاني، يكون نفير الطائفة إلى رسول الله ﷺ لاقتباس العلم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً وَأَمَلُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَئِكَ يَرْوُونَ أَنَّهُمْ بَشَرٌ فِي كُلِّ غَارٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ قد أمر بقتال الكفار على العموم، وإنما يُبْتَدَأُ بالأقرب فالأقرب. وفي المراد بمن يليهم خمسة أقوال: أحدها: أنهم الروم، قاله ابن عمر. والثاني: قريظة، والنضير، وخيبر، وفدك، قاله ابن عباس. والثالث: الديلم، قاله الحسن. والرابع: العرب، قاله ابن زيد. والخامس: أنه عام في قتال الأقرب فالأقرب، قاله قتادة. وقال الزجاج: في هذه الآية دليل على أنه ينبغي أن يقاتل أهل كل نحر الذين يلونهم. قال: وقيل: كان النبي ﷺ ربما تخلف في حربه الذين يلونه من الأعداء ليكون ذلك أهدى له، فأمر بقتال من يليه لِيَسْتَرَّ بذلك. وفي الغلظة ثلاث لغات: غلظة، بكسر الغين؛ وبها قرأ الأكثرون. وغلظة، بفتح الغين، رواها جيلة عن عاصم. وغلظة، بضم الغين، رواها المفضل عن عاصم. ومثلها: جذوة وجذوة وجذوة، ووجهة ووجهة ووجهة، ورغوة ورغوة ورغوة، وريوة وريوة وريوة، وقسوة وقسوة وقسوة، وإلوة وألوة وألوة، في اليمين. وشاة لجة ولجة ولجة: قد ولَّى لبتها. قال ابن عباس في قوله «غلظة»: شجاعة. وقال مجاهد: شدة.

قوله تعالى: ﴿فَيَنْهَرُ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ هذا قول المنافقين بعضهم لبعض استهزاء بقول الله تعالى. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لأنهم إذا صدقوا بها وعملوا بما فيها، زادتهم إيماناً. ﴿وَقَرَّ سَبْتِثُرُونَ﴾ أي: يفرحون بنزولها. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمَرٌ﴾ أي: شك ونفاق. وفي المراد بالرجس ثلاثة أقوال: أحدها: الشك، قاله ابن عباس. والثاني: الإثم، قاله مقاتل. والثالث: الكفر، لأنهم كلما كفروا بسورة زاد كفرهم، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَوَّلًا يَرُونَ﴾ يعني المنافقين. وقرأ حمزة: «أو لا ترون» بالثاء على الخطاب للمؤمنين. وفي معنى: ﴿يُنْتَثِرُونَ﴾ ثمانية أقوال: أحدها: يكذبون كذبة أو كذبتين يُضَلُّونَ بها، قاله حذيفة بن اليمان. والثاني: ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: يُبْتَلَوْنَ بالغزو في سبيل الله، قاله الحسن، وفتادة. والرابع: يُفْتَنُونَ بالسَّنة والجوع، قاله مجاهد. والخامس: بالأوجاع والأمراض، قاله عطية. والسادس: يَنْقُضُونَ عهدهم مرة أو مرتين، قاله يمان. والسابع: يكفرون، وذلك أنهم كانوا إذا أخبرهم النبي ﷺ بما تكلموا به إذ خَلُّوا، علموا أنه نبي، ثم يأتيهم الشيطان فيقول: إنما بلغه هذا عنكم، فيشركون، قاله مقاتل بن سليمان. والثامن: يُفْضَحُونَ بإظهار نفاقهم، قاله مقاتل بن حيان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَأْتُونَكَ﴾ أي: من نفاقهم. ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يعتبرون ويتعظون. ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا مَا أَنْزَلْنَا سُرَّ بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ هَلْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَتَأْتِيهِمْ آيَاتُ اللَّهِ فَتُفْضِحُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُرَّ بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ قال ابن عباس: كانت إذا أنزلت سورة فيها عيب المنافقين، وخطبهم رسول الله ﷺ وعرض بهم في خطبته، شق ذلك عليهم، ونظر بعضهم إلى بعض يريدون الهرب، يقولون: ﴿هَلْ يَرِيكُمْ يَتَّخِذُونَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ قَمْتُمْ؟ فَإِنْ لَمْ يَرِهِمْ أَحَدٌ، خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: كَانَهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ إِيْمَاءً لئلا يعلم بهم أحد، ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ عن المكان، وجازئ عن العمل بما يسمعون. وقال الحسن: ثم انصرفوا على عزم التكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به.

قوله تعالى: ﴿صَرَكَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ قال ابن عباس: عن الإيمان. وقال الزجاج: أضلَّهُمْ مجازاة على فعلهم. ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قرأ الجمهور بضم الفاء. وقرأ ابن عباس، وأبو العالية، والضحاك، وابن محيصن، ومجرب عن أبي عمرو: بفتحها. وفي المضمومة أربعة أقوال: أحدها: من جميع العرب، قاله ابن عباس؛ وقال: ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله ﷺ. والثاني: ممن تعرفون، قاله فتادة. والثالث: من نكاح لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، قاله جعفر الصادق. والرابع: بشر مثلكم، فهو أكد للحجة، لأنكم تفقهون عن من هو مثلكم، قاله الزجاج. وفي المفتوحة ثلاثة أقوال: أحدها: أفضلكم خلقاً. والثاني: أشرفكم نسباً. والثالث: أكثركم طاعة لله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: شديد عليه ما شقَّ عليكم، رواه الضحاك عن ابن عباس. قال الزجاج: شديد عليه عنتمكم. والعتت: لقاء الشدة. والثاني: شديد عليه ما أنتمكم، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال الحسن: حريص عليكم أن تؤمنوا. قوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قال ابن عباس: سماه باسمين من أسمائه. وقال أبو عبيدة: «رؤوف» فعول، من الرأفة، وهي أرق من الرحمة؛ ويقال: «رؤوف»، وأنشد:

تسرى للمؤمنين عليك حقاً
كفعل الوالد الرؤوف الرحيم^(١)

وقيل: رؤوف بالمطيعين، رحيم بالمذنبين.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩)

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الإيمان ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: يكفيني ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. وقرأ ابن محيصن: «العظيم» برفع الميم. وإنما خص العرش بالذكر، لأنه الأعظم، فيدخل فيها الأصغر. قال أبي بن كعب: آخر آية أنزلت ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة^(١).



(١) «الطبري» ٥٨٨/١٤ - ٥٨٩، والحاكم في «المستدرک» ٣٣٨/٢، و«المستند» ١١٧/٥ وفي سنه علي بن زيد بن جدعان. قال الهيثمي في «المجمع» ٣٦/٧: وهو ثقة سيب الحفظ وبقية رجاله ثقات، ورواه أحمد في «المستند» ١٣٤/٥ بأطول منه عن عمر بن شقيق عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب، ورجاله ثقات خلا عمر بن شقيق فإنه مجهول.

سورة يونس

فصل في نزولها

روى عطية، وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكية، وبه قال الحسن، وعكرمة. وروى أبو صالح عن ابن عباس أن فيها من المدني قوله: ﴿وَمِنَهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَوَعَدُ اللَّهِ لَئِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ لَهَادٍ﴾ [يونس: ٤٠]. وفي رواية عن ابن عباس: فيها ثلاث آيات من المدني، أولها قوله: ﴿إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ [يونس: ٩٤] إلى رأس ثلاث آيات، وبه قال قتادة. وقال مقاتل هي مكية، غير آيتين، قوله: ﴿إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ والتي تليها [يونس: ٩٤، ٩٥]. وقال بعضهم: هي مكية إلا آيتين، وهي قوله: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ﴾ والتي تليها [يونس: ٥٨، ٥٩].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾

فأما قوله: ﴿الرَّ﴾ قرأ ابن كثير: «الر» بفتح الراء. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «الر» على الهمزة مكسورة. وقد ذكرنا في أول سورة (البقرة) ما يشتمل على بيان هذا الجنس. وقد حُصِّتْ هذه الكلمة بستة أقوال: أحدها: أن معناها: أنا الله أرى، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنا الله الرحمن، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أنه بعض اسم من أسماء الله. روى عكرمة عن ابن عباس قال: «الر» و«حم» و«ن» حروف الرحمن. والرابع: أنه قَسَمَ أقسم الله به، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والخامس: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله مجاهد، وقاتدة. والسادس: أنه اسم للسورة، قاله ابن زيد. وفي قوله: ﴿تِلْكَ﴾ قولان: أحدهما: أنه بمعنى «هذه»، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره أبو عبيدة. والثاني: أنه على أصله. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الإشارة إلى الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل، قاله مجاهد، وقاتدة؛ فيكون المعنى: هذه الأقاصيص التي تسمعونها، تلك الآيات التي وصفت في التوراة والإنجيل. والثاني: أن الإشارة إلى الآيات التي جرى ذكرها، من القرآن، قاله الزجاج. والثالث: أن «تلك» إشارة إلى «الر» وأخواتها من حروف المعجم، أي: تلك الحروف المفتحة بها السور هي «آيَاتُ الْكِتَابِ» لأن الكتاب بها يتلى، وألفاظه إليها ترجع، ذكره ابن الأنباري. قال أبو عبيدة: ﴿الْحَكِيمِ﴾ بمعنى المحكم المبيِّن الموضِّح؛ والعرب قد تضع فعيلًا في معنى مفعول؛ قال الله تعالى: ﴿مَا لَدَىٰ عِندَهُ﴾ [آ: ٢٣، ٢٤] أي: مُعَدٌّ.

﴿كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجْرٌ يُسْجَرُ فِيهِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَلِكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ سبب نزولها: أن الله تعالى لما بعث محمداً ﷺ أنكرت الكفار ذلك، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فنزلت هذه الآية^(١). والمراد بالناس هاهنا: أهل مكة، والمراد بالرجل: محمد ﷺ. ومعنى «وَمِنْهُمْ»: يعرفون نسبه، قاله ابن عباس، فأما الألف فهي للتوبيخ والإنكار. قال ابن الأنباري: والاحتجاج عليهم في كونهم عجوباً من إرسال محمد، محذوف هاهنا، وهو مبين في قوله: ﴿مَنْ قَسَمْنَا بِبَنِيهِمْ مَوَاسِعَهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: فكما وضع لكم هذا التفاضل بالمشاهدة، فلا تنكروا تفضيل الله مَنْ شاء بالنبوة؛ وإنما حذفه هاهنا اعتماداً على ما بيَّنه في موضع آخر. قال: وقيل: إنما عجوبوا من ذكر البعث والنشور، لأن الإنذار والتبشير يتصلان بهما، فكان جوابهم في مواضع كثيرة تدل على كون ذلك، مثل قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَىٰ عَيْنِي﴾ [الرم: ٢٧]،

(١) «الطبري» ١٣/١٥، وأخرجه السيوطي في «الدر» ٢٩٩/٣ زاد نسبه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس.

وقوله: ﴿يَسِيْرًا الَّذِي أَنْشَأَنَا أَوْلًا مَرَّةً﴾ [يس: ١٧٩]. وفي المراد بقوله: ﴿قَدَّمَ صِدْقِي﴾ سبعة أقوال: أحدها: أنه الثواب الحسن بما قَدَّموا من أعمالهم، رواه العوفي عن ابن عباس، وروى عنه أبو صالح قال: عمل صالح يُقَدِّمون عليه. والثاني: أنه ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأول، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. قال أبو عبيدة: سابقة صدق. والثالث: شفيع صدق، وهو محمد ﷺ يشفع لهم يوم القيامة، قاله الحسن. والرابع: سَلَفَ صدق تقدّمهم بالإيمان، قاله مجاهد، وقتادة. والخامس: مقام صدق لا زوال عنه، قاله عطاء. والسادس: أن قدم الصدق: المنزلة الرفيعة، قاله الزجاج. والسابع: أن القدم هاهنا: مصيبة المسلمين بنبيهم ﷺ وما يلحقهم من ثواب الله عند أسفهم على فقدته ومحبتهم لمشاهدته، ذكره ابن الأنباري. فإن قيل: لِمَ أثار القدم هاهنا على اليد، والعرب تستعمل اليد في موضع الإحسان؟ فالجواب: أن القدم ذكرت هاهنا للتقدم، لأن العادة جارية بتقدّم الساعي على قدميه، والعرب تجعلها كناية عن العمل الذي يُتقدّم فيه ولا يقع فيه تأخر، قال ذو الرمة:

لَكُمْ قَدَمٌ لَا يُنْكِرُ النَّاسُ أَنَّهَا مع الحَسَبِ العَادِيَّةِ طَمَّتْ عَلَى البَحْرِ^(١)

فإن قيل: ما وجه إضافة القدم إلى الصدق؟ فالجواب: أن ذلك مدح للقدم، وكل شيء أضافته إلى الصدق، فقد مدحته؛ ومثله: ﴿أَذِلِّي مُنْخَلَّ صِدْقِي وَأَفْرَجِي مَخْرَجَ صِدْقِي﴾ [الإسراء: ٨٠]، وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقِي﴾ [القمر: ٥٥]. وفي الكلام محذوف، تقديره: أوحينا إلى رجل منهم، فلما أتاهم الوحي ﴿قَالَ الْكَاذِبُونَ إِنَّا هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿لَسَا حِرٌّ﴾ بالف. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿لَسَحْرٌ﴾ بغير ألف. قال أبو علي: قد تقدم قوله: ﴿أَنْ أَوْحِيََا إِلَيَّ رَجُلٍ يَنْبَغِي﴾ فمن قال: ساحر، أراد الرجل؛ ومن قال: سحر، أراد الذي أوحى سحر، أي: الذي تقولون أنتم فيه: إنه وحي، سحر. قال الزجاج: لما أنذرهم بالبعث والنشور، فقالوا: هذا سحر، أخبرهم أن الذي خلق السموات والأرض قادر على بعثهم بقوله: ﴿إِنَّا رَجَبُكُمْ اللَّهُ﴾ وقد سبق تفسيره في [الأعراف: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿يَذْكُرُ الْأُمُورَ﴾ قال مجاهد: يقضيه. وقال غيره: يأمر به ويمضيه.

قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ بَدَأَهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يشفع أحد إلا أن يأذن له، قاله ابن عباس. قال الزجاج: لم يَجْرُ للشفيع ذكر قبل هذا، ولكن الذين خوطبوا كانوا يقولون: الأصنام شفعاؤنا. والثاني: أن المعنى: لا ثاني معه، مأخوذ من الشُّفْع، لأنه لم يكن معه أحد، ثم خلق الأشياء. فقوله: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ بَدَأَهُ﴾ أي: من بعد أمره أن يكون الخلق فكان، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ قال مقاتل: وحُدوه. وقال الزجاج: المعنى: فاعبدوه وحده. وقوله: ﴿تَذَكَّرْتُمْ﴾ معناه: تَتَعَطَّوْنَ.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مصيركم يوم القيامة ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ قال الزجاج: «وَعَدَّ اللَّهُ» منصوب على معنى: وعدكم الله وعداً، لأن قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ معناه: الوعد بالرجوع، و«حقاً» منصوب على: أحق ذلك حقاً. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ قرأه الأكثرون بكسر الألف. وقرأت عائشة، وأبو رزين، وعكرمة، وأبو العالية، والأعمش: بفتحها. قال الزجاج: من كسر، فعلى الاستئناف، ومن فتح، فالمعنى: إليه مرجعكم، لأنه يبدأ الخلق. قال مقاتل: يبدأ الخلق ولم يكن شيئاً، ثم يعيده بعد الموت. وأما القسط، فهو العدل. فإن قيل: كيف خصَّ جزاء المؤمنين بالعدل، وهو في جزاء الكافرين عادل أيضاً؟ فالجواب: أنه لو جمع الفريقين في القسط، لم يتبين في حال اجتماعهما ما يقع بالكافرين من العذاب الأليم والشرب من الحميم، ففضلهم من المؤمنين لبيان ما يجزيهم به مما هو

(١) «ديوانه» ٣٦١ طبع المكتب الإسلامي، والبيت من قصيدة في مدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، يقول بعده:

خلال النبي المصطفى عند ربه وعثمان والفاروق بعد أبي بكر

ورواية البيت في الديوان: «طمت على الفخر». والعادي القديم، وطمت: علت.

عدل أيضاً، ذكره ابن الأنباري. فأما الحميم، فهو الماء الحار. وقال أبو عبيدة: كل حار فهو حميم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَاتِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ الْآيَاتِ لَا يَرْتَوْنَ لِقَائِنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالْآيَاتِ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٦٣﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مَأْرَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٤﴾ إِنَّ الْآيَاتِ ءَامِنُوا وَعَجِلُوا الصَّالِحِينَ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِذْنِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّوَافِرِ ﴿٦٥﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَحَمِيَّتَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَجْرٌ دَعَوْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ قرأ الأكثرون: «ضياء» بهمزة واحدة. وقرأ ابن كثير: «ضياء» بهمزتين في كل القرآن، أي: ذات ضياء. ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي: ذات نور. ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ أي: قدر له، فحذف الجار، والمعنى: هيًّا ويسر له منازل. قال الزجاج: الهاء ترجع إلى «القمر» لأنه المقدر لعلم السنين والحساب. وقد يجوز أن يعود إلى الشمس والقمر، فحذف أحدهما اختصاراً. وقال الفراء: إن شئت جعلت تقدير المنازل للقمر خاصة، لأن به تعود إلى الشمس والقمر، فحذف أحدهما اختصاراً. وإن شئت جعلت التقدير لهما، فاكفني بذكر أحدهما من صاحبه، كقوله: ﴿رَأَيْتَهُمْ إِذْ يَخْرُجُونَ﴾ [التوبة: ٦٢]. قال ابن قتيبة: منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً من أول الشهر إلى ثمانين ليلة، ثم يستسر. وهذه المنازل، هي النجوم التي كانت العرب تنسب إليها الأنواء، وأسماؤها عندهم الشَّرطان، والبَطَّين، والثَّرَيَّا، والدَّبْران، والهَقْمعة، والهَنْثعة، والذَّرَاع، والثَّرة، والظَّرْف، والوجهة، والزَّيرة، والصَّرْفة، والعَوَاء، والسَّمَاك، والغَفَر، والزُّبَّانِي، والإكليل، والقلب، والشَّوْلة، والنعام، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعد، وسعد الأخبية، وفرغ الدلو المقدم، وفرغ الدلو المؤخر، والرشاء وهو الحوت.

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي للحق، من إظهار صنعه وقدرته والدليل على وحدانيته. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «يفصل» بالياء. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «نفصل الآيات» بالنون، والمعنى: نبيها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يستدلون بالآيات على قدرته.

قوله تعالى: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يتقون الشرك. والثاني: عقوبة الله. فيكون المعنى: إن الآيات لمن لم يحمله هواه على خلاف ما وضع له من الحق.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَوْنَ لِقَائِنَا﴾ قال ابن عباس: لا يخافون البعث. ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اختاروا ما فيها على الآخرة. ﴿وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ آثروها. وقال غيره: ركنوا إليها، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة. ﴿وَالْآيَاتِ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها آيات القرآن ومحمد، قاله ابن عباس. والثاني: ما ذكره في أول السورة من صنعه، قاله مقاتل. فأما قوله: ﴿غَافِلُونَ﴾ فقال ابن عباس: مكذبون. وقال غيره: مغرضون. قال ابن زيد: وهؤلاء هم الكفار.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قال مقاتل: من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِذْنِهِمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: يهديهم إلى الجنة ثواباً بإيمانهم. والثاني: يجعل لهم نوراً يمشون به بإيمانهم. والثالث: يزيدهم هدى بإيمانهم. والرابع: يشيهم بإيمانهم. فأما الهداية، فقد سبقت لهم.

قوله تعالى: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: تجري بين أيديهم وهم يرونها من علو.

قوله تعالى: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا﴾ أي: دعاؤهم. وقد شرحنا ذلك في أول [الأعراف: ٥٠]. وفي المراد بهذا الدعاء قولان: أحدهما: أنه استدعاؤهم ما يشتهون. قال ابن عباس: كلما اشتهى أهل الجنة شيئاً، قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ فيأتيهم ما يشتهون؛ فإذا طعموا، قالوا: ﴿الْحَسْبُ لِي رَبِّيَ الْعَلِيِّ﴾ فذلك آخر دعاؤهم. وقال ابن جريج: إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه، قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ فيأتيهم الملك بما اشتهو، فيسلم عليهم، فيردون عليه فذلك قوله: ﴿وَحَمِيَّتَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾. فإذا أكلوا، حمدوا ربهم؛ فذلك قوله: ﴿وَأَجْرٌ دَعَوْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾. والثاني: أنهم إذا أرادوا الرغبة إلى الله تعالى في دعاء يدعوهم به، قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَحَمِيَّتَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تحية بعضهم لبعض، وتحية الملائكة لهم، قاله ابن عباس.

والثاني: أن الله تعالى يُصَيِّبُهُم بالسَّلام. والثالث: أن التَّحِيَةَ: المُلْكُ، فالمعنى: مُلْكُهُمْ فِيهَا سَالِمٌ، ذَكَرَهُمَا المَاورِدِي.
 قوله تعالى: ﴿وَمَا جِئُوا بِدَعْوَتِهِمْ﴾ أي: دَعَاؤُهُمْ وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِرَبِّي الْكَافِرِينَ﴾. قرأ أبو مجلز، وعكرمة، ومجاهد، وابن يعمر، وقتادة، ويعقوب: «أَنَّ الحَمْدُ لله» بِشَدِيدِ التَّوَنُّ وَنَصْبِ الدَّالِ. قال الزجاج: أَعْلَمَ اللهُ أَنَّهُمْ يَبْتَدِئُونَ بِتَعْظِيمِ اللهِ وَتَنْزِيهِهِ، وَيَخْتَمُونَ بِشُكْرِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ. وقال ابن كيسان: يَفْتَتِحُونَ كَلَامَهُمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَيَخْتَمُونَهُ بِالتَّوْحِيدِ.
 ﴿وَلَوْ يَسْئَلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَنْجَلَهُمْ بِالْحَبْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ فَذَرُّوا الَّذِينَ لَا يَرْجِعُونَ لِقَاءَنَا فِي طُلُقَيْنِهِمْ﴾
 بِمَعْنَى

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَسْئَلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ ذكر بعضهم أنها نزلت في النضر بن الحارث حيث قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: ٨]. والتعجيل: تقديم الشيء قبل وقته. وفي المراد بالآية قولان: أحدهما: ولو يعجل الله للناس الشر إذا دعوا على أنفسهم عند الغضب وعلى أهلهم، واستعجلوا به كما يعجل لهم الخير، لهلكوا، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والثاني: ولو يعجل الله للكافرين العذاب على كفرهم كما عجل لهم خير الدنيا من المال والولد، لعجل لهم قضاء آجالهم ليتعجلوا عذاب الآخرة، حكاها الماوردي. ويقوي هذا تمام الآية وسبب نزولها. وقد قرأ الجمهور: ﴿لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ بضم القاف ﴿أَجَلَهُمْ﴾ بضم اللام. وقرأ ابن عامر: ﴿لَقَضَىٰ﴾ بفتح القاف ﴿أَجَلَهُمْ﴾ بنصب اللام. وقد ذكرنا في أول (سورة البقرة: ١٥) معنى الطغيان والعمه.

﴿وَإِذَا سَأَلَ الْإِنْسَانَ أَذُنًا لِحَبِيئِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ سُورَةَ مَرِّ كَأَن لَّرَّ يَدْعُنَا إِنْ سُرُّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَتَمَلَّوْنَ﴾
 قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَ الْإِنْسَانَ أَذُنًا لِحَبِيئِهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في أبي حذيفة، واسمه

هاشم بن المغيرة بن عبد الله المخزومي، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنها نزلت في عتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، قاله عطاء. و«الضر»: الجهد والسدة. واللام في قوله: ﴿لِحَبِيئِهِ﴾ بمعنى «على». وفي معنى الآية قولان: أحدهما: إذا مسه الضر دعا على جنبه، أو دعا قاعداً، أو دعا قائماً، قاله ابن عباس. والثاني: إذا مسه الضر في هذه الأحوال، دعا، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ سُورَةَ مَرِّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أعرض عن الدعاء، قاله مقاتل. والثاني: مر في العاقبة على ما كان عليه قبل أن يُتلى، ولم يُعَظْ بما يناله، قاله الزجاج. والثالث: مر طاغياً على ترك الشكر.
 قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّرَّ يَدْعُنَا﴾ قال الزجاج: «كان» هذه مخففة من الثقيلة، المعنى: كأنه لم يدعنا، قالت الخنساء:

كَأَن لَمْ يَكُونُوا جَمِيًّا يُنْقَى
 إِذِ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مَنَّ عَرًّا بَرًّا^(١)
 قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المعنى: كما زَيْنَ لهذا الكافر الدعاء عند البلاء، والإعراض عند الرِّخَاءِ، كذلك زَيْنَ للمُسْرِفِينَ، وهم المَجَاوِزُونَ الحَدَّ فِي الكُفْرِ وَالمَعْصِيَةِ، عَمَلُهُمْ.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ بَيْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَرَمَاهُمْ رَسُولُهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ تَجْرَى الْقَوْمُ الْمُجْرِمِينَ﴾
 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ بَيْلِكُمْ﴾ قال مقاتل: هذا تخويف لكفار مكة. والظلم هاهنا بمعنى الشرك. وفي قوله: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ قولان: أحدهما: أنه عائد على أهل مكة، قاله مقاتل. والثاني: على القرون المتقدمة، قاله أبو سليمان. قال ابن الأنباري: ألزهم الله ترك الإيمان لمعادنتهم الحق وإيثارهم الباطل. وقال الزجاج: جائز أن يكون جعل جزاءهم الطبع على قلوبهم، وجائز أن يكون أعلم ما قد علم منهم.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ تَجْرَى﴾ أي: تعاقب ونهلك ﴿الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني المشركين من قومك.
 ﴿فَمَنْ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَدِينِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ مِثْلَ الْأَرْضِ وَمِثْلَ الْهَرَمِ﴾ قال ابن عباس: جعلناكم يا أمة محمد خلائف، أي: استخلفناكم في الأرض. وقال قتادة: ما جعلنا الله خلائف إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا الله من أعمالكم خيراً بالليل والنهار.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا زَيْدٌ نَّجْمٌ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: أنت بشر هذا أو بؤله قل ما يكون إلا أن أبدله من تلقاى نفسى إن أتج إلا ما يؤتى إلى آياتى إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في مشركي مكة، قاله مجاهد، وقتادة. والمراد بالآيات: القرآن. و«يرجون» بمعنى: يخافون. وفي علّة طلبهم سوى هذا القرآن أو تبديله قولان: أحدهما: أنهم أرادوا تغيير آية العذاب بالرحمة، وآية الرحمة بالعذاب، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم كرهوا منه ذكر البعث والنشور، لأنهم لا يؤمنون به، وكرهوا عيب آلهتهم، فطلبوا ما يخلو من ذلك، قاله الزجاج. والفرق بين تبديله والإتيان بغيره، أن تبديله لا يجوز أن يكون معه، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه.

قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِحَٰرِكِ هَذِهِ الْبِيَةِ ابْنِ كَثِيرٍ، وَنَافِعٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَأَسْكَنُهَا الْبَاقُونَ. ﴿مِنْ تِلْقَايَ نَفْسِي﴾ حركها نافع، وأبو عمرو؛ وأسكنها الباقون، والمعنى: من عند نفسي، فالمعنى: أن الذي أتيت به من عند الله، لا من عندي فأبدله. ﴿إِنَّ آخِافًا﴾ فتح هذه البياء ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو. ﴿إِنَّ عَصِيَّتَ رَبِّي﴾ أي: في تبديله أو تغييره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني في القيامة.

فصل

وقد تكلم علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ما بيّنا في نظيرتها في [الأنعام: ١٥]. ومقصود الآيتين تهديد المخالفين؛ وأضيف ذلك إلى الرسول ليصعب الأمر فيه.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ قُرْآنًا وَلَا أَدْرَأْتُمْ بِهِ إِذْ فَتَقْدَرْتُمْ فِيكُمْ عُرْسًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُ الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ قُرْآنًا﴾ يعني القرآن؛ وذلك أنه كان لا يُنزله عليّ، فيأمرني بتلاوته عليكم. ﴿وَلَا أَدْرَأْتُمْ بِهِ﴾ أي: ولا أعلمكم الله به. قرأ ابن كثير: «وَلَا أَدْرَأْتُمْ» بلام التوكيد من غير ألف بعدها، يجعلها لاماً دخلت على «أدراكم». وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «أدركم» بالإمالة. وقرأ الحسن، وابن أبي عبيدة، وشيبة بن نصاح: «ولا أدراؤتكم» بناء بين الألف والكاف. ﴿فَقَدْ لَبِثْتُمْ فِيكُمْ عُرسًا﴾ وقرأ الحسن، والأعمش: «عُمرًا» بسكون الميم. قال أبو عبيدة: وفي العمر ثلاث لغات: عُمر، وعُمر، وعُمر. قال ابن عباس: أقمت فيكم أربعين سنة لا أحدثكم بشيء من القرآن ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أنه ليس من قبلي. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يريد: إني لم أفتّر على الله ولم أكذب عليه، وأنتم فعلتم ذلك حيث زعمتم أن معه شريكاً. والمجرمون ها هنا: المشركون.

﴿وَيَقُولُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبَهُتُمْ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: لا يضرهم إن لم يعبدوه، ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبده، قاله مقاتل، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني المشركين. ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعنون الأصنام. قال أبو عبيدة: خرجت كنياتها على لفظ كناية الأدميين. وقد ذكرنا هذا المعنى في [الاعراف: ١٩١] عند قوله: ﴿وَهُمْ يَخْلُقُونَ﴾. وفي قوله: ﴿شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: شفاعونا في الآخرة، قاله أبو صالح عن ابن عباس، ومقاتل. والثاني: شفاعونا في إصلاح معاشنا في الدنيا، لأنهم لا يُقرّون بالبعث، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتَبُوتُ اللَّهَ بِمَا لَا يَمُنُّ﴾ قال الضحاك: أتخبرون الله أن له شريكاً، ولا يعلم الله لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ قد شرحنا هذا في سورة [البقرة: ٢١٣] وأحسن الأقوال أنهم كانوا على دين واحد موحدين، فاختلَفوا وعبدوا الأصنام، فكان أول من بعث إليهم نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ولولا كلمة سبقت بتأخير هذه الأمة أنه لا يهلكهم بالعذاب كما أهلك الذين من قبلهم؛ لقضي بينهم بنزول العذاب، فكان ذلك فصلاً بينهم فيما فيه يختلفون من الدين. والثاني: أن الكلمة: أن لكل أمة أجلاً، وللدنيا مدة لا يتقدم ذلك على وقته. والثالث: أن الكلمة: أنه لا يأخذ أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه. وفي قوله: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: لقضي بينهم بإقامة الساعة. والثاني: بنزول العذاب على المكذبين.

﴿وَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ رَبِّكَ قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٢٠﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا﴾ يعني المشركين ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلاً ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ مثل العصا واليد وآيات الأنبياء. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن سؤالكم: لِمَ لم تنزل الآية؟ غيب، ولا يعلم علّة امتناعها إلا الله. والثاني: أن نزول الآية متى يكون؟ غيب، ولا يعلمه إلا الله.

قوله تعالى: ﴿فَانظُرُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: انتظروا نزول الآية. والثاني: قضاء الله بيننا بإظهار المحق على المبطل.

﴿وَإِذَا أَدَّأ النَّاسُ رَحْمَةً مِنْ بَدَدِ صَرْفَةٍ سَمَّتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي مَا يَأْتِيهِمْ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَكُرُّونَ ﴿٢١﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَدَّأ النَّاسُ رَحْمَةً﴾ سبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعا على أهل مكة بالجدب فقحطوا سبع سنين، أتاه أبو سفيان، فقال: ادع لنا بالخصب، فإن أخصبنا صدقناك، فدعا لهم، فسقوا ولم يؤمنوا، ذكره الماوردي. قال المفسرون: المراد بالناس هاهنا: الكفار. وفي المراد بالرحمة والضراء ثلاثة أقوال: أحدها: أن الرحمة: العافية والسرور، والضراء: الفقر والبلاء، قاله ابن عباس. والثاني: الرحمة: الإسلام، والضراء: الكفر، وهذا في حق المنافقين، قاله الحسن. والثالث: الرحمة: الخصب، والضراء: الجذب، قاله الضحاك. وفي المراد بالمكر هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنه الاستهزاء والتكذيب، قاله مجاهد، ومقاتل. والثاني: أنه الجحود والرد، قاله أبو عبيدة. والثالث: أنه إضافة النعم إلى غير الله، فيقولون: سقينا بنوء كذا، قاله مقاتل بن حيان. والرابع: أن المكر: النفاق، لأنه إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: جزاء على المكر. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ يعني الحفظة ﴿يَكْتُبُونَ مَا نَكُرُّونَ﴾ أي: يحفظون ذلك لمجازاتهم عليه. وقرأ يعقوب إلا رويماً وأبا حاتم، وأبان عن عاصم: «يمكرون» بالياء.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَيْثُ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجِزِينَ يَمُّ يَبِيحُ طَيْبَةً وَيَقْرَأُ بِهَا جَاهَتَهَا يَبِيحُ عَاصِفٌ وَجَاهَهُمُ التَّوَجُّ بِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَنْ أُجِيبَنَّ مِنْ هَذِهِ لَكُونُوا مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ فَلَمَّا أَجْمَعُهُمْ إِذَا هُمْ يَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَدْرِ الْعَرِيِّ يُأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِنَيْكُمُ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّا سَرَّجْنَكُمْ فَنَنْفِثْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَمَلُوكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُ﴾ أي: الله الذي هو أسرع مكرًا، هو الذي يسيركم ﴿فِي الْبَرِّ﴾ على الدواب، وفي البحر على السفن، فلو شاء انتقم منكم في البر أو في البحر. وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر: «ينشركم» بالنون والشين من النشر، وهو في المعنى مثل قوله: ﴿وَبَيْنَ يَمِينًا وَيَسَارًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٢٢]. والملك: السفن. قال الفراء: الملك تذكر وتؤنث، وتكون واحدة وتكون جمعاً، قال تعالى هاهنا: ﴿جَاهَتَهَا﴾ فأنث، وقال في [آل عمران: ٤١] ﴿فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ﴾ فذكر.

قوله تعالى: ﴿وَجِزِينَ يَمُّ﴾ عاد بعد المخاطبة لهم إلى الإخبار عنهم. قال الزجاج: كل من أقام الغائب مقام من يخاطبه جاز أن يرده إلى الغائب، قال الشاعر:

سَطَّطَ مَزَارُ العَاشِقِينَ فَاصْبَحَتْ
 قوله تعالى: ﴿رِيحٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: لَيْبَةٌ. ﴿وَوَرَّحُوا بِهَا﴾ لَيْبَتُهَا. ﴿جَاءَتْهَا﴾ يعني الفلك. قال الفراء: وإن شئت جعلتها للريح، كأنك قلت: جاءت الريح الطيبة ريح عاصف، والعرب تقول: عاصف وعاصفة، وقد عصفت الريح وأعصفت، والألف لغة لبني أسد. قال ابن عباس: الريح العاصف: الشديدة. قال الزجاج: يقال: عصفت الريح، فهي عاصف وعاصفة، وأعصفت، فهي معصف ومعصفة. ﴿وَيَمَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من كل أمكنة الموج.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّجْنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى اليقين. والثاني: أنه التوهم. وفي قوله: ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ قولان: أحدهما: دنوا من الهلكة. قال ابن قتيبة: وأصل هذا أن العدو إذا أحاط ببيلد، فقد دنا أهله من الهلكة. وقال الزجاج: يقال لكل من وقع في بلاء: قد أحيط بفلان، أي: أحاط به البلاء. والثاني: أحاطت بهم الملائكة، ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿دَعَا اللَّهُ تَحْلِيصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ دون أوثانهم. قال ابن عباس: تركوا الشرك، وأخلصوا لله الربوبية، وقالوا: ﴿لَيْنَ أُمَّيْنَا مِنْ هَذِهِ﴾ الريح العاصف ﴿تَتَكَوَّرُ مِنَ الشُّكْرَيْنِ﴾ أي: الموحدين.

قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ البغي: الترامي في الفساد. قال الأصمعي: يقال: بغى الجرح: إذا ترامى إلى فساد. قال ابن عباس: يبتغون في الأرض بالدعاء إلى عبادة غير الله والعمل بالمعاصي والفساد. ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ يعني أهل مكة. ﴿إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: جنابة مظالمكم بينكم على أنفسكم. وقال الزجاج: عملكم بالظلم عليكم يرجع.

قوله تعالى: ﴿مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ قرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وحفص، وأبان عن عاصم: ﴿مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بنصب المتاع. قال الزجاج: من رفع المتاع، فالمعنى أن ما تنالونه بهذا البغي إنما تستفنون به في الدنيا، ومن نصب المتاع، فعلى المصدر. فالمعنى: تمتعون متاع الحياة الدنيا. وقرأ أبو المتوكل، واليزيدي في اختياره، وهارون العتكي عن عاصم: «متاع الحياة» بكسر العين. قال ابن عباس: «متاع الحياة الدنيا»، أي: منفعة في الدنيا.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْغَيْثِ إِذَا سُكِرَتْ بِهِ السَّمَاءُ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا لَدَتِ الْأَرْضُ رُحْمًا وَأَوْزِنَتْ وَأَطْلَسَتْ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَزْنَانٌ يَتِلَوُّنَ أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْغَيْثِ إِذَا سُكِرَتْ بِهِ السَّمَاءُ﴾ هذا مثل ضربه الله للدنيا الفانية، فشبها بمطر نزل من السماء ﴿فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ يعني التفت النبات بالمطر، وكثر ﴿وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ من الحبوب وغيرها ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ من المرعى. ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَدَتِ الْأَرْضُ رُحْمًا﴾ قال ابن قتيبة: زينتها بالنبات. وأصل الزخرف: الذهب، ثم يقال للفتش والنور والزهر وكل شيء زُفِنَ: زخرف. وقال الزجاج: الزخرف: كمال حسن الشيء.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْزِنَتْ﴾ قرأه الجمهور «وازينت» بالتشديد. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وأبو عبد الرحمن، والحسن، وابن يعمر: بفتح الهمزة وقطعها ساكنة الزاي، على وزن: وَأَفْعَلَتْ. قال الزجاج: من قرأ «وَأَوْزِنَتْ» بالتشديد، فالمعنى: وتزينت، فأدغمت التاء في الزاي، وأسكنت الزاي فاجتلبت لها ألف الوصل؛ ومن قرأ «وَأَوْزِنَتْ» بالتخفيف على أفعلت، فالمعنى: جاءت بالزينة. وقرأ أبي، وابن مسعود: «وتزينت».

قوله تعالى: ﴿وَأَطْلَسَتْ أَهْلُهَا﴾ أي: أيقن أهل الأرض ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على ما أنبتته، فأخبر عن الأرض، والمراد النبات، لأن المعنى مفهوم. ﴿أَنَّهُمْ أَزْنَانٌ﴾ أي: قضاونا بإهلاكها ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي: محصوداً لا شيء فيها، والحصيد: المقطوع المستاصل. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ﴾ قال الزجاج: لم تعمر. والمعاني: المنازل التي

يعمرها الناس بالنزول فيها. يقال: غَيَّبْنَا بِالْمَكَانِ: إِذَا نَزَلُوا بِهِ. وقرأ الحسن: «كَأَن لَمْ يَغْرَبْ» بآلياء، يعني الحصيد. قال بعض المفسرين: تأويل الآية: أن الحياة في الدنيا سبب لاجتماع المال وما يروق من زهرة الدنيا ويعجب، حتى إذا استتم ذلك عند صاحبه، وظن أنه ممتع بذلك، سلب عنه بموته، أو بحادثة تهلكه، كما أن الماء سبب لانفاس النبات وكثرته، فإذا تزَيَّنت به الأرض، وظن الناس أنهم مستمتعون بذلك، أهلكه الله، فعاد ما كان فيها كأن لم يكن.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ لَكِ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَسْئَةٍ وَيَسَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا إِذْلَالٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ يعني الجنة. وقد ذكرنا معنى تسميتها بذلك عند قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. واعلم أن الله عمُّ بالدعوة، وخصَّ بالهداية من شاء، لأن الحكم له في خلقه. وفي المراد بالصراف المستقيم أربعة أقوال: أحدها: كتاب الله، رواه عليٌّ عن النبي ﷺ^(١). والثاني: الإسلام، رواه الثَّوَّاسُ بن سمعان عن النبي ﷺ^(٢). والثالث: الحق، قاله مجاهد، وقادة. والرابع: المخرج من الضلالات والشُّبُه، قاله أبو العالية.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ قال ابن عباس: قالوا: لا إله إلا الله. قال ابن الأنباري: الحسنى: كلمة مستغنى عن وصفها ونعتها، لأن العرب توقعها على الخَلَّة المحبوبة المرغوب فيها المفروح بها، فكان الذي تعلمه العرب من أمرها يغني عن نعتها، فكذلك المزيد عليها محمول على معناها ومتعرِّف من جهتها، يدل على هذا قول امرئ القيس:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت
هَصْرْتُ بِغَصْنِ ذِي شَمَارِيخٍ مَيَّالٍ^(٣)
فَصِرْنَا إِلَى الْحُسْنَى وَرَوَّ كَلَامُنَا
وَرُضْتُ فَلذَّتْ صَغْبَةً أَيْ إِذْلَالٍ

أي: إلى الأمر المحبوب. وهصرْتُ بمعنى مدت. والغصن كناية عن المرأة. والباء مؤكدة للكلام، كما تقول العرب: ألقى بيده إلى الهلاك، يريدون: ألقى يده. والشماريخ كناية عن الذوائب. ورضت، معناه: أذلت. ومن أجل هذا قال: أي إذلال، ولم يقل: أي رياضة. وللمفسرين في المراد بالحسنى خمسة أقوال: أحدها: أنها الجنة، روي عن رسول الله ﷺ^(٤)، وبه قال الأكثرون. والثاني: أنها الواحدة من الحسنات بواحدة، قاله ابن عباس. والثالث: النصر، قاله عبد الرحمن بن سابط. والرابع: الجزء في الآخرة، قاله ابن زيد. الخامس: الأمانة، ذكره ابن الأنباري. وفي الزيادة ستة أقوال: أحدها: أنها النظر إلى الله ﷻ. روى مسلم في «صحيحه» من حديث صهيب عن النبي ﷺ أنه قال: «الزيادة: النظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ»^(٥). وبهذا القول قال أبو بكر الصديق، وأبو موسى

(١) «الطبري» ١٧١/١ - ١٧٢ عن علي مرفوعاً، وإسناده ضعيف جداً. وقد خرج ابن كثير في «تفسيره» ٢٧/١ من رواية ابن أبي حاتم عن علي مرفوعاً، بسند ضعيف أيضاً، وخرجه السيوطي في «الدر» ١٥/١ عن علي مرفوعاً، وزاد نسبه لابن أبي شيبة، والترمذي وضعفه، وابن الأنباري في «المصاحف»، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب»، ومداره على الحارث الأعمور، قال الحافظ ابن كثير في «الفضائل» ٥: «وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما أنه تعمد الكذب في الحديث فلا، وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي ﷺ، وقد وهم بعضهم في رفعه.»

(٢) «الطبري» ١٧٦/١، وخرجه أحمد في «المسند» ١٨٢/٤ - ١٨٣، ونقله ابن كثير ٢٧/١ من رواية «المسند»، وقال: وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، من حديث الليث بن سعد به، ورواه الترمذي، والنسائي جميعاً عن علي بن حجر، عن بقة، عن جبير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن جبير بن نفير، عن الثَّوَّاسِ بن سمعان به، وهو إسناده حسن صحيح. وذكره السيوطي في «الدر» ١٥/١، وزاد نسبه لابن المنذر، وأبي الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن الثَّوَّاسِ مرفوعاً، ونص الحديث: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنيتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط فاع يدعوا يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تموجوا. وداع يدعوا من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحها فإنك إن تفتحها تلج، فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم.»

(٣) ديوانه: ٣٢. وقوله: تنازعنا الحديث، أي: حدثني وحدثتها، وأصله من النزوع بالدلو، وهو جذبها. ومعنى أسمحت: اتقادت وسهلت بعد صعوبتها وامتناعها.

(٤) «الطبري» ٦٥/١٥ بسند ضعيف جداً، وذكره ابن كثير ٤١٤/٢ من رواية ابن أبي حاتم بسنده، وخرجه السيوطي في «الدر» ٣٠٥/٣ وزاد نسبه للدارقطني في الرواية، وابن مردويه.

(٥) الحديث في «مسلم» ١٦٣/١ ولفظه: عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ». ورواه أحمد =

الأشعري، وحذيفة، وابن عباس، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، والسدي، ومقاتل. والثاني: أن الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، رواه الحكم عن علي، ولا يصح^(١). والثالث: أن الزيادة: مضاعفة الحسنه إلى عشر أمثالها، قاله ابن عباس، والحسن. والرابع: أن الزيادة: مغفرة ورضوان، قاله مجاهد. الخامس: أن الزيادة: أن ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به في القيامة، قاله ابن زيد. والسادس: أن الزيادة: ما يشتهونه، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ أي: لا يغشى ﴿وَجُوهَهُمْ فَتَرٌ﴾ وقرأ الحسن، وقتادة، والأعمش: «فَتَرٌ بِإِسْكَانِ التَّاءِ، وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه السواد. قال ابن عباس: سواد الوجوه من الكآبة. وقال الزجاج: الفتر: الغبرة التي معها سواد. والثاني: أنه دخان جهنم، قاله عطاء. والثالث: الخزي، قاله مجاهد. والرابع: الغبار، قاله أبو عبيدة. وفي اللذة قولان: أحدهما: الكآبة، قاله ابن عباس. والثاني: الهوان، قاله أبو سليمان.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا وَيُرْهِقُهُمْ إِلَهُ تَأْتِيهِمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ مَنِّ وَلَا يَنْبَغِي عَلَيْهِمْ قَوْلًا مِّنْ أَلْفِ مِثْلٍ مُّظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قال ابن عباس: عملوا الشرك. ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا﴾ في الآية محذوف، وفي تقديره قولان: أحدهما: أن فيها إضمار «لهم»، المعنى: لهم جزاء سيئة بمثلها، وأنشد ثعلب:

فَإِن سَأَلَ الْوَأَشُونَ عَنْهُ فَقُلْ لَهُمْ
مُؤَلِّمٌ يَلِينُ لِمَةً ثُمَّ إِنَّهُ
أَرَادَ هُوَ مُؤَلِّمٌ، وهذا قول الفراء.

والثاني: أن فيها إضمار «منهم»، المعنى: جزاء سيئة منهم بمثلها، تقول العرب: رأيت القوم صائم وقائم، أي: منهم صائم وقائم، أنشد الفراء:

حَتَّى إِذَا مَا أَضَاءَ الضُّبْحُ فِي عَالِسٍ
وَعُودِ الرَّبَقِ مَلْسُوبٍ وَنَحْضُودٍ

أي: منه ملوي، وهذا قول ابن الأنباري. وقال بعضهم: الباء زائدة هاهنا، و «من» في قوله: ﴿مِنْ عَاصِرٍ﴾ صلة، والمعاصم: المانع. ﴿كُلَّمَا أَفْسَحَتْ يَدَهُمْ﴾ أي: ألبست: ﴿فَطَلَعًا﴾ قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة: «فَطَلَعًا» مفتوحة الطاء، وهي جمع قطعة. وقرأ ابن كثير، والكسائي، ويعقوب: «فَطَلَعًا» بتسكين الطاء. قال ابن قتيبة: وهو اسم ما قطع. قال ابن جرير: وإنما قال: «مُظْلَمًا» ولم يقل: «مُظْلَمَةٌ» لأن المعنى: قطعاً من الليل المظلم، ثم حذفت الألف واللام من «المظلم»، فلما صار نكرة، وهو من نعت الليل، نُصِبَ عَلَى الْقَطْعِ؛ وقوم يسمون ما كان كذلك حالاً، وقوم قطعاً.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَمًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَيَرْتَمُونَ بَيْنَهُمْ وَوَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَحْبُونَ ﴿١٨﴾﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادِكُمْ لِغَفْلَةٍ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَمًا﴾ قال ابن عباس: يُجْمَعُ الْكُفْرَانُ وَالْكَهْتَمُ. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾ أي: ألهتكم. قال الزجاج: «مكانكم» منصوب على الأمر، كأنهم قيل لهم: انتظروا مكانكم حتى نفصل بينكم، والعرب تتوعد فتقول: مكانك، أي: انتظر مكانك، فهي كلمة جرت على الوعيد.

قوله تعالى: ﴿فَرْتَمْنَا بَيْنَهُمْ﴾ وقرأ ابن أبي عبله: «فَرْتَمْنَا» بالفتح، قال ابن عباس: فَرْتَمْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَلِهَتِهِمْ. وقال

١ = ٣٣٣/٦ و١٦/٦، وخرجه السيوطي في «الدرر» ٣٠٥/٣ وزاد نسبة للطيالسي، وهناد، والترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والدارقطني في الروية، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات». واللفظ الذي ساقه المؤلف «الزيادة: النظر إلى وجه الله ﷻ» ذكره السيوطي من رواية الدارقطني، وابن مردويه عن صهيب.

(١) «الطبري» ٦٩/١٥ عن الحكم بن عتيبة، عن علي، وهو ضعيف لإرساله، وخرجه السيوطي في «الدرر» ٣٠٦/٣ من طريق الحكم بن عتيبة عن علي، وزاد نسبة لسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والبيهقي في الروية.

ابن قتيبة: هو من زال يزول وأزلته. وقال ابن جرير: «إنما قال: «فزلبنا» ولم يقل: «فزلبنا» لإرادة تكرير الفعل وتكثيره. فإن قيل: كيف تقع الفرقة بينهم وهم معهم في النار، لقوله: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» [الأنبياء: ٢١٨]؟ فالجواب: أن الفرقة وقعت بتبزي كل معبود ممن عبده، وهو قوله: «وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ» قال ابن عباس: أكلتهم، يُنطق الله الأوثان، فتقول: «مَا كُنْتُمْ إِلَهَاتِنَا تَعْبُدُونَ» أي: لا نعلم بعبادتكم لنا، لأنه ما كان فينا روح، فيقول العابدون: بلى قد عبدناكم، فتقول الآلهة: «فَكُنِّي بِاللَّهِ شَيْدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلًا» لا نعلم بها. قال الزجاج: «إِنْ كُنَّا» معناه: ما كنا إلا غافلين. فإن قيل: ما وجه دخول الباء في قوله: «فَكُنِّي بِاللَّهِ شَيْدًا»؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنها دخلت للمبالغة في المدح كما قالوا: أظرف بعد الله، وأنبل بعد الرحمن، وناهيك بأخيها، وحسبك بصديقنا، هذا قول الفراء وأصحابه. والثاني: أنها دخلت توكيداً للكلام، إذ سقطها ممكن، كما يقال: خذ بالخطام، وخذ الخطام، قاله ابن الأنباري.

﴿هُنَالِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

قوله تعالى: «هُنَالِكَ تَبَلَّوْا» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «تبلى» بالباء. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وزيد عن يعقوب: «تتلو» بالياء. قال الزجاج: «هنالك» ظرف، والمعنى: في ذلك الوقت تبلى، وهو منصوب بتبلى، إلا أنه غير متمكن، واللام زائدة، والأصل: هناك، وكسرت اللام لسكونها وسكون الألف، والكاف للمخاطبة. و«تبلى» تختير، أي: تعلم. ومن قرأ «تتلو» بتاءين، فقد فسرها الأخفش وغيره: تتلو من التلاوة، أي: تقرأ. وفسروه أيضاً: تتبع كل نفس ما أسلفت. ومثله قول الشاعر:

قد جعلت دلوي تَسْتَلِيْنِي

[ولا أريدُ تَبَعِ الْقَرْنِيْنَ^(١)

أي: تستبيني، أي: من ثقلها تستدعي اتباعي إياها.

قوله تعالى: «رُدُّوْا» أي: في الآخرة «إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ» الذي يملك أمرهم حقاً، لا مَنْ جعلوا معه من الشركاء. «وَصَلَ عَنْهُمْ» أي: زال وبطل «مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» من الآلهة.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَنَنْبِئُ بِمَا فِي بُحْرِ الْغَيْبِ مِنَ الْغَيْبِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْغَيْبِ وَنَحْنُ بِمَا تَدْعُونَ الْآخِرَةَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَعَلْ أَفَلَا لَنُفَوْنَ﴾

قوله تعالى: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ» المطر، ومن الأرض النبات، «أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ» أي: خلق السمع والأبصار. وقد سبق معنى إخراج الحي من الميت، والميت من الحي لك عمران: ٢٧.

قوله تعالى: «وَمَنْ يُدِيرُ الْآخِرَةَ» أي: أمر الدنيا والآخرة «فَيَقُولُونَ اللَّهُ» لأنهم خوطبوا بما لا يقدر عليه إلا الله، فكان ذلك دليل توحيده. وفي قوله: «أَفَلَا لَنُفَوْنَ» قولان: أحدهما: أفلا تتعظون، قاله ابن عباس. والثاني: تتقون الشرك، قاله مقاتل.

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الَّذِي فَمَادَا لَمْ يَلْمِ إِلَّا أَسْلَفَ فَاِنَّكُمْ تُعْرَفُونَ﴾

قوله تعالى: «فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الَّذِي» قال الخطابي: الحق هو المتحقق وجوده، وكل شيء صح وجوده وكونه، فهو حق.

قوله تعالى: «فَاِنَّكُمْ تُعْرَفُونَ» قال ابن عباس: كيف تصرف عقولكم إلى عبادة من لا يرزق ولا يحيي ولا يميت؟ «كَذَلِكَ حَقَّتْ لِرَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا لِلَّذِي تُمْ يُبَدُّ قُلْ اللَّهُ يَسْبُدُّوا لِلَّذِي تُمْ يُبَدُّ فَاِنَّ تَوَكُّوْنَ» قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلَّذِي أَقْنَى يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَهَقُّ أَنْ يَبْعَ أَنْ لَا يَهْدِيَهُ إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ قُلْ كَيْفَ تُعْبَدُونَ»

قوله تعالى: «كَذَلِكَ حَقَّتْ لِرَبِّكَ» قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «كلمة ربك»،

(١) الرجز في اللسان: تلا، غير منسوب.

وفي آخر السورة كذلك. وقرأ نافع، وابن عامر الحرفين «كلمات» على الجمع. قال الزجاج: الكاف في موضع نصب، أي: مثل أفعالهم جازاهم ربك، والمعنى: حق عليهم أنهم لا يؤمنون. وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من ﴿كَلِمَاتٌ يَكْفُرُونَ﴾ وجائز أن تكون الكلمة حقت عليهم لأنهم لا يؤمنون، وتكون الكلمة ما وعدوا به من العقاب. وذكر ابن الأنباري في ﴿كَلِمَاتٌ﴾ قولين: أحدهما: أنها إشارة إلى مصدر «تُصرفون»، والمعنى: مثل ذلك الصرف حقت كلمة ربك. والثاني: أنه بمعنى هكذا. وفي معنى «حقت» قولان: أحدهما: وجبت. والثاني: سبقت. وفي كلمته قولان: أحدهما: أنها بمعنى وعده. والثاني: بمعنى قضائه. ومن قرأ «كلمات» جعل كل واحدة من الكلم التي توعدوا بها كلمة. وقد شرحنا معنى الكلمة في [الأعراف: ١٣٧ و ١٥٨].

قوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي: إلى الحق.

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ لَا يَهْدِي﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وورش عن نافع «يَهْدِي» بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. قال الزجاج: الأصل يهتدي، فأدغمت التاء في الدال، فطرحت فتحتها على الهاء. وقرأ نافع إلا وورشاً، وأبو عمرو: «يَهْدِي» بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال، غير أن أبا عمرو كان يُشِم الهاء شيئاً من الفتح. وقرأ حمزة، والكسائي: «يَهْدِي» بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدال. قال أبو علي: والمعنى: لا يهدي غيره إلا أن يَهْدِي هو، ولو هُدِي الضم لم يهتد، ولكن لما جعلوها كمن يعقل، أجريت مجراه. وروى يحيى بن آدم عن أبي بكر عن عاصم: «يَهْدِي» بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، وكذلك روى أبان وجبله عن المفضل وعبد الوارث، قال الزجاج: أتبعوا الكسرة الكسرة، وهي رديئة لثقل الكسرة في الياء. وروى حفص عن عاصم، والكسائي عن أبي بكر عنه: «يَهْدِي» بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، قال الزجاج: وهذه في الجودة كالمفتوحة الهاء، إلا أن الهاء كُسرَت لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن السميع: «يهتدي» بزيادة تاء. والمراد بقوله: ﴿أَنْتَ لَا يَهْدِي﴾ الصم ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾. وظاهر الكلام يدل على أن الأصنام إن هديت اهتدت، وليست كذلك، لأنها حجارة لا تهتدي، إلا أنهم لما اتخذوها آلهة، عبّر عنها كما يعبر عن من يعقل، ووصفت صفة من يعقل وإن لم تكن في الحقيقة كذلك؛ ولهذا المعنى قال في صفتها: ﴿أَنْتَ﴾ لأنهم جعلوها كمن يعقل. ولما أعطاهما حقها في أصل وضعها، قال: ﴿يَتَأْتِي لِمَنْ تَشَاءُ مَا لَا بَسْمَ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. وقال الفراء: ﴿أَنْتَ لَا يَهْدِي﴾ أي: أتعبدون ما لا يقدر أن ينتقل من مكانه إلا أن يحول؟ وقد صرف بعضهم الكلام إلى الرؤساء والمضلين، والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ قال الزجاج: هو كلام تام، كأنه قيل لهم: أي شيء لكم في عبادة الأوثان؟ ثم قيل لهم: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: على أي حال تحكمون؟ وقال ابن عباس: كيف تقضون لأنفسكم؟ وقال مقاتل: كيف تقضون بالجزور؟

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ المَلِيَّةِ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [١٣٦]

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: كلهم ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: ما يستيقنون أنها آلهة، بل يظنون شيئاً فيبصرونه. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ المَلِيَّةِ شَيْئاً﴾ أي: ليس هو كاليقين، ولا يقوم مقام الحق. وقال مقاتل: ظنهم بأنها آلهة لا يدفع عنهم من العذاب شيئاً، وقال غيره: ظنهم أنها تشفع لهم لا يغني عنهم.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا القُرْآنُ أَنْ يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٣٧]

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا القُرْآنُ أَنْ يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قال الزجاج: هذا جواب قولهم: ﴿أَنْتَ يَقْرَأُ مِنْ دُونِ هَذَا أَوْ بِدَلَّةٍ﴾ [يونس: ١٥] وجواب قولهم: ﴿أَنْتَ رَبُّنَا﴾ [الفرقان: ٤]. قال الفراء: ومعنى الآية: ما ينبغي لمثل هذا القرآن أن يقرأ من دون الله، فجاءت «أن» على معنى ينبغي. وقال ابن الأنباري: يجوز أن تكون «أن» مع «يفترى» مصدرأ، وتقديره: وما كان هذا القرآن افتراءً. ويجوز أن تكون «كان» تامة، فيكون المعنى: ما نزل هذا القرآن، وما ظهر هذا القرآن لأن يفترى، ويأن يفترى، فتُنصب «أن» بفقد الخافض في قول الفراء، وتخفص بإضمار الخافض في قول الكسائي. وقال ابن قتيبة: معنى ﴿أَنْ يَقْرَأَ﴾ أي: يضاف إلى غير الله، أو يُخْتَلَق.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تصديق الكتب المتقدمة، قاله ابن عباس. فعلى هذا، إنما قال: ﴿الَّذِي﴾ لأنه يريد الوحي. والثاني: ما بين يديه من البعث والنشور، ذكره الزجاج. والثالث: تصديق النبي ﷺ الذي بين يدي القرآن، لأنهم شاهدوا النبي ﷺ وعرفوه قبل سماعهم القرآن، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ أي: وبيان الكتاب الذي كتبه الله على أمة محمد ﷺ والفرائض التي فرضها عليهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنبِئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ قالوا: فأتوا بسورة مثل سورة منه، فذكر الجمل لأنه إنما التمس

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنبِئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ في «أم» قولان: أحدهما: أنها بمعنى الواو، قاله أبو عبيدة. والثاني: بمعنى بل، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ قال الزجاج: المعنى: فأتوا بسورة مثل سورة منه، فذكر الجمل لأنه إنما التمس شبه الجنس، ﴿وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ممن هو في التكذيب مثلكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه اختلقه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ وَلَكِن بَرَأَتْهُمُ ثَأْوِيلَهُ﴾ قاله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: بما لم يحيطوا بعلم ما فيه ذكر الجنة

والنار والبعث والجزاء. والثاني: بما لم يحيطوا بعلم التكذيب به، لأنهم شاكرون فيه. وفي قوله: ﴿وَلَكِن بَرَأَتْهُمُ ثَأْوِيلَهُ﴾ قولان: أحدهما: تصديق ما وعدوا به من الوعيد. والثأويل: ما يؤول إليه الأمر. والثاني: ولم يكن معهم علم تأويله، قاله

الزجاج. قيل لسفيان بن عيينة: يقول الناس: كل إنسان عدو ما جهل، فقال: هذا في كتاب الله. قيل: أين؟ فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ﴾. وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد في القرآن: من جهل شيئاً عاداه؟ فقال: نعم، في موضعين:

قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ سَبُّوا رَبَّهُمْ فَجَعَلْنَا أَفْئِدَتَهُمْ قَدِيدًا﴾ [الأحقاف: ١١].

﴿وَمِنْهُمْ مَن يُوْثِقُ بِهِ وَعْتَهُمْ مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يُوْثِقُ بِهِ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: قريش، قاله مقاتل بن سليمان. وفي هاء «به» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى محمد ﷺ ودينه، قاله مقاتل.

والثاني: إلى القرآن، قاله أبو سليمان الدمشقي. وهذه الآية تضمنت الإخبار عما سبق في علم الله، فالمعنى: ومنهم من سيؤمن به. وقال الزجاج: منهم من يعلم أنه حق فيصدق به ويعانده فيظهر الكفر. ﴿وَمِنْهُمْ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: يشك ولا يصدق.

قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِالْمُنْكَرِ﴾ قال عطاء: يريد المكذبين، وهذا تهديد لهم.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ رِيبُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا رِيبٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي...﴾ الآية. قال أبو صالح عن ابن عباس: نسختها آية السيف؛ وليس هذا بصحيح، لأنه لا تنافي بين الآيتين.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَعْمُونَ إِلَٰهًا أَفَانَتْ لَشِمُّهُمُ لَبِئْسَ حِجَابًا عَنِتُّوا قَالُوا لَا يُقُولُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَعْمُونَ إِلَٰهًا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: في يهود المدينة، كانوا يأتون رسول الله ويستمعون القرآن فيعجبون ويشتهونه ويغلب عليهم الشقاء، فنزلت هذه الآية. والثاني: أنها نزلت في

المستهزئين، كانوا يستمعون إلى النبي ﷺ للاستهزاء والتكذيب، فلم ينتفعوا، فنزلت فيهم هذه الآية، والقولان مرويان عن ابن عباس. والثالث: أنها نزلت في مشركي قريش، قاله مقاتل. قال الزجاج: ظاهرهم ظاهر من يستمع، وهم

لشدة عداوتهم بمنزلة الصم. ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ولو كانوا مع ذلك جهالاً. وقال ابن عباس: يريد أنهم شر من الصم، لأن الصم لهم عقول وقلوب، وهؤلاء قد أصم الله قلوبهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي السَّمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَتَّعِزُّونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: يريد متعجبين منك. ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي السَّمَىٰ﴾ يريد أن الله

أعمى قلوبهم فلا يبصرون. وقال الزجاج: ومنهم من يُقبل عليك بالنظر، وهو من بغضه لك وكرهته لما يرى من آياتك كالأعمى. وقال ابن جرير: ومنهم من يستمع قولك وينظر إلى حججك على نُبُوتك، ولكن الله قد سلبه التوفيق. وقال مقاتل: و «لو» في الآيتين بمعنى «إذا».

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٤)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ لما ذكر الدين سبق القضاء عليهم بالشقاوة، أخبر أن تقدير ذلك عليهم ليس بظلم، لأنه يتصرف في ملكه كيف شاء، وهم إذا كسبوا المعاصي فقد ظلموا أنفسهم بذلك، لأن الفعل منسوب إليهم، وإن كان بقضاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «ولكن الناس» بتخفيف النون وكسرهما، ورفع الاسم بعدها.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرُبِّهِمْ شُرَكَاءُ إِلَهًا يَلْمِزُونَهُمْ مِنْ نَحْوِ مَا يَلْمِزُونَ﴾ (١٥)

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ وقرأ حمزة: «يحشرهم» بالياء. قال أبو سليمان الدمشقي: هم المشركون.

قوله تعالى: ﴿كَانَ لَرُبِّهِمْ شُرَكَاءُ إِلَهًا يَلْمِزُونَهُمْ مِنْ نَحْوِ مَا يَلْمِزُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: كأن لم يلبثوا في قلوبهم، قاله ابن عباس. والثاني: في الدنيا، قاله مقاتل. قال الضحاك: قصر عندهم مقدار الوقت الذي بين موتهم وبعثهم، فصار كالساعة من النهار، لهول ما استقبلوا من القيامة.

قوله تعالى: ﴿يَلْمِزُونَهُمْ مِنْ نَحْوِ مَا يَلْمِزُونَ﴾ قال ابن عباس: إذا بُعثوا من القبور تعارفوا، ثم تنقطع المعرفة. قال الزجاج: وفي معرفة بعضهم بعضاً، وعلم بعضهم بإضلال بعض، التوبيخ لهم، وإثبات الحججة عليهم. وقيل: إذا تعارفوا وتبع بعضهم بعضاً، فيقول هذا لهذا: أنت أضللتني، وكسبتني دخول النار.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ هو من قول الله تعالى، لا من قولهم، والمعنى: خسروا ثواب الجنة إذ كذبوا بالبعث ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ من الضلالة.

﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَذَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهَا مَرْجِعًا نَدِيمًا﴾ (١٦)

قوله تعالى: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَذَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهَا مَرْجِعًا نَدِيمًا﴾ قال المفسرون: كانت وقعة بدر مما أراه الله في حياته من عذابهم. ﴿أَوْ تَتَذَكَّرُ﴾ قبل أن نريك ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَرْجِعًا﴾ بعد الموت، والمعنى: إن لم تنتقم منهم عاجلاً، انتقمنا أجلاً.

قوله تعالى: ﴿تَتَذَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهَا مَرْجِعًا نَدِيمًا﴾ من الكفر والتكذيب. قال الضراء: «ثم» هاهنا عطف، ولو قيل: معناها: هناك الله شهيد، كان جائزاً. وقال غيره: «ثم» هاهنا بمعنى الواو. وقرأ ابن أبي عمير: «ثم الله شهيد» بفتح التاء، يراد به: هنالك الله شهيد.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١٧)

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: إذا جاء في الدنيا بعد الإذن له في دعائهم، قضي بينهم بتعجيل الانتقام منهم، قاله الحسن. وقال غيره: إذا جاءهم في الدنيا، حُكم عليهم عند اتباعه وخلافه بالطاعة والمعصية. والثاني: إذا جاء يوم القيامة، قاله مجاهد. وقال غيره: إذا جاء شاهداً عليهم. والثالث: إذا جاء في القيامة وقد كذبوه في الدنيا، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فيه قولان: أحدهما: بين الأئمة، فأتى المحسن وعوقب المسيء. والثاني: بينهم وبين نبيهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨)

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في القائلين هذا قولان: أحدهما: الأمم المتقدمة، أخبر عنهم باستعجال العذاب لأنبيائهم، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم المشركون الذين أنذرهم نبينا ﷺ، قاله أبو سليمان. وفي المراد بالوعد قولان: أحدهما: العذاب، قاله ابن عباس. والثاني: قيام الساعة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنت وأتباعك.

﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ صَلَاةَ لِيذَكَّرْ﴾ (٤٩) ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا مَا سَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ لَّيْلٌ إِذَا جَاءَ الْبَلْهَرُ فَلَا يَسْتَعِزُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ﴾ (٥٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنزَلْنَا عَذَابَهُمُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَرًا مَادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥١) ﴿أَفَدُّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُمْ بِهِ ءَأَلْفَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥٢) ﴿قُلْ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلَّاقِ هَلْ تَحْزَنُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٥٣)

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ الآية، قد ذكرت تفسيرها في آيتين من [الأعراف: ٣٤ و ١٨٨].

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنزَلْنَا عَذَابَهُمُ بَيِّنَاتٍ﴾ قال الزجاج: البيات: كل ما كان بليلاً. وقوله: ﴿مَادَا﴾ في موضع رفع من جهتين: إحداهما: أن يكون «ذا» بمعنى الذي، المعنى: ما الذي يستعجل منه المجرمون؟ ويجوز أن يكون «ماذا» اسماً واحداً، فيكون المعنى: أي شيء يستعجل منه المجرمون؟ والهاء في «منه» تعود على العذاب. وجائز أن تعود على ذكر الله تعالى، فيكون المعنى: أي شيء يستعجل المجرمون من الله تعالى؟ وعودها على العذاب أجود، لقوله: ﴿أَفَدُّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُمْ بِهِ﴾. وذكر بعض المفسرين أن المراد بالمجرمين: المشركون، وكانوا يقولون: نكذب بالعذاب ونستعجله، ثم إذا وقع العذاب آمنّا به؛ فقال الله تعالى موثقاً لهم: ﴿أَفَدُّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُمْ بِهِ﴾ أي: هنالك تؤمنون فلا يُقبل منكم الإيمان، ويقال لكم: الآن تؤمنون؟ فأضمر: تؤمنون به مع ﴿ءَأَلْفَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مستهزئين، وهو قوله: ﴿قُلْ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: كفروا، عند نزول العذاب ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلَّاقِ﴾، لأنه إذا نزل بهم العذاب، أفصوا منه إلى عذاب الآخرة الدائم.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ﴾ (٥٤)

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: ويستعجلونك ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ يعنون البعث والعذاب. ﴿قُلْ إِي﴾ المعنى: نعم ﴿وَرَبِّ﴾، وفتح هذه الباء نافع، وأبو عمرو. وإنما أقسم مع إخباره تأكيداً. وقال ابن قتيبة: «إي» بمعنى «بل» ولا تأتي إلا قبل اليمين صلة لها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ﴾ قال ابن عباس: بسابقين. وقال الزجاج: لستم ممن يُعجز أن يجازي على كفره.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَآتَتْهُ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِنُوا بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ (٥٥) ﴿آلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ آلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَئِنْ أَكْتَرْتُمْ لَا يَغْلِبُونَ﴾ (٥٦) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ قال ابن عباس: أشركت. ﴿مَا فِي الْأَرْضِ لَآتَتْهُ بِهِ﴾ عند نزول العذاب. ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ يعني: الرؤساء أخفوها من الأتباع. ﴿وَفُتِنُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الفريقين. وقال آخرون منهم أبو عبيدة والمفضل: «أسرؤا الندامة» بمعنى أظفروا، لأنه ليس بيوم تصنع ولا تصبر، والإسرار من الأضداد؛ يقال: أسررت الشيء، بمعنى: أخفيت. وأسرته: أظفرته، قال الفرزدق:

ولما رأى الحجاج جرد سيفه

أسر الحروري الذي كان أضمر^(١)

يعني: أظفر. فعلى هذا القول: أظفروا الندامة عند إحراق النار لهم، لأن النار ألتهتهم عن التصنع والكتمان. وعلى الأول: كتموها قبل إحراق النار إياهم.

قوله تعالى: ﴿آلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ قال ابن عباس: ما وعد أولياءه من الثواب، وأعداءه من العقاب. ﴿وَلَئِنْ أَكْتَرْتُمْ﴾ يعني المشركين ﴿لَا يَغْلِبُونَ﴾

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشَقَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧)

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ﴾ قال ابن عباس: يعني قريشاً. ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ﴾ يعني القرآن. ﴿وَشَقَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: دواء لداء الجهل. ﴿وَهَدَى﴾ أي: بيان من الضلالة.

(١) البيت في «أضداد الأصمعي» ٢١، و«أضداد السجستاني» ١٥١، و«أضداد ابن السكيت» ١٧٦، و«أضداد ابن الأنباري» ١٤٦، و«أضداد أبي الطيب» ٣٥٣، و«اللسان» و«التاج»: سرر، منسوباً فيها جميعاً إلى الفرزدق، وليس في «ديوانه».

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ قَدْ جَاءَكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: أن فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة، وهلال بن يساف. وروي عن الحسن، ومجاهد في بعض الرواية عنهما، وهو اختيار ابن قتيبة. والثاني: أن فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلهم من أهل القرآن، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال أبو سعيد الخدري، والحسن في رواية. والثالث: أن فضل الله: العلم، ورحمته: محمد ﷺ، رواه الضحاك عن ابن عباس. والرابع: أن فضل الله: الإسلام، ورحمته: تزيينه في القلوب، قاله ابن عمر. والخامس: أن فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام، قاله الضحاك، وزيد بن أسلم، وابنه، ومقاتل. والسادس: أن فضل الله ورحمته: القرآن، رواه ابن أبي نجیح عن مجاهد، واختاره الزجاج. والسابع: أن فضل الله: القرآن، ورحمته: السنة، قاله خالد بن معدان. والثامن: فضل الله: التوفيق، ورحمته: العصمة، قاله ابن عيينة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قَلْبُهُمْ مَمْرُوءٌ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز، وقتادة، وأبو العالية، ورويس عن يعقوب: «فلتفرحوا» بالثاء. وقرأ الحسن، ومعاذ القارئ، وأبو المتوكل مثل ذلك، إلا أنهم كسروا اللام. وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران: «فبذلك فافرحوا». قال ابن عباس: بذلك الفضل والرحمة. ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: مما يجمع الكفار من الأموال. وقرأ أبو جعفر، وابن عامر، ورويس: «تجمعون» بالثاء. وحكى ابن الأنباري أن الباء في قوله: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ خبر لاسم مضمير، تأويله: هذا الشفاء وهذه الموعظة بفضل الله ورحمته، فبذلك التطول من الله ليفرحوا.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ بَيْنَهُمْ حُرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَرْعَبًا أَشَدَّ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ قال المفسرون: هذا خطاب لكفار قريش، كانوا يحرمون ما شاؤوا، ويحلون ما شاؤوا. و «أَنْزَلَ» بمعنى خلق. وقد شرحنا بعض مذاهبهم فيما كانوا يفعلون من البحيرة والسائبة وغير ذلك في (المائة: ١٠٣) و (الانعام: ١٣٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ﴾ أي: في هذا التحليل والتحريم.

﴿وَمَا عَلَّمُوا الْقُرْآنَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمُوا الْقُرْآنَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ في الكلام محذوف، تقديره: ما ظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حين لم يعجل عليهم بالعقوبة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تأخير العذاب عنهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَسْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: في عمل من الأعمال، وجمعه: شؤون. ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها تعود إلى الشأن. قال الزجاج: معنى الآية: أي وقت تكون في شأن من عبادة الله، وما تلوت من الشأن من قرآن. والثاني: أنها تعود إلى الله تعالى، فالمعنى: وما تلوت من الله، أي: من نازل منه من قرآن، ذكره جماعة من العلماء. والخطاب للنبي ﷺ، وأمه داخلون فيه، بدليل قوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ قال ابن الأنباري: جمع في هذا، ليدل على أنهم داخلون في الفعلين الأولين.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الهاء عائدة على العمل. قال ابن قتيبة: تفيضون بمعنى تأخذون فيه. وقال الزجاج: تتشرون فيه، يقال: أفاض القوم في الحديث: إذا انتشروا فيه وخاضوا. ﴿وَمَا يَسْرُبُ﴾ معناه: وما يبعد. وقال ابن قتيبة: ما يبعد ولا يغيب. وقرأ الكسائي «يعزب» بكسر الزاي هاهنا وفي [سبأ: ٣]. وقد بينا (مئثال ذرة) في سورة [النساء: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الراء فيهما. وقرأ حمزة، وخلف، ويعقوب، برفع

الراء فيهما. قال الزجاج: مَنْ قرأ بالفتح، فالمعنى: وما يعزب عن ربك من مثقال ذرّة، ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر، والموضع موضع خفض، إلا أنه فُتح لأنه لا ينصرف. ومن رفع، فالمعنى: وما يعزب عن ربك مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبر. ويجوز رفعه على الابتداء، فيكون المعنى: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ ثَبِينٍ﴾ قال ابن عباس: هو اللوح المحفوظ.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ روى ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكر الله»^(١). وروى عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لِأَنْسَاءٍ مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءٍ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْطِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَكَاتِهِمْ مِنَ اللَّهِ ﷻ» قالوا: يا رسول الله، مَنْ هُمْ، وما أعمالهم لعلنا نحببهم؟ قال: «هَمُّ قَوْمٍ تَحَابَبُوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتِمَاطُونَهَا، فَوَاللَّهِ إِنْ وَجَّهَهُمْ لِنُورٍ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ»، ثم قرأ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح، أو تُرى له، رواه عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وجابر بن عبد الله، وأبو هريرة عن النبي ﷺ^(٣). والثاني: أنها بشارة الملائكة لهم عند الموت، قاله الضحاك، وقتادة، والزهري. والثالث: أنها ما بشر الله به في كتابه من جنته وثوابه، كقوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥]، ﴿وَأُبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٢٣٠]، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [التوبة: ٢١]، وهذا قول الحسن، واختاره الفراء، والزجاج، واستدلا بقوله: ﴿لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس: لا خُلف لمواعيده، وذلك أن مواعيده بكلماته، فإذا لم تبدل الكلمات، لم تبدل المواعيد. فأما بشرهم في الآخرة، ففيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الجنة، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ^(٤)، واختاره ابن تينية. والثاني: أنه عند خروج الروح تبشّر برضوان الله، قاله ابن عباس. والثالث: أنها عند الخروج من قبورهم، قاله مقاتل^(٥).

﴿وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلَهُمْ إِنَّ الْمَرْءَ لِلَّهِ جَبِيماً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلَهُمْ﴾ قال ابن عباس: تكذيبهم. وقال غيره: تظاھرهم عليك بالعداوة وإنكارهم وأذاهم. وتم الكلام هاهنا. ثم ابتداء فقال: ﴿إِنَّ الْمَرْءَ لِلَّهِ جَبِيماً﴾ أي: الغلبة له، فهو ناصرك وناصر دينك، ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولهم: ﴿الْعَلِيمُ﴾ بإضمارهم، فيجازيهم على ذلك.

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْجُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِزُّونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَحْزَنُونَ ﴿٦٦﴾﴾

(١) «الطبري» ١٢٠/١٥ مرسلاً، وأورد ابن كثير في «التفسير» ٤٢٢/٢ من رواية البزار مرفوعاً عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس، وخرجه السيوطي في «الدر» ٣٠٩/٣ وزاد نسبه إلى المبارك، والحكيم الترمذي في «نواهد الأصول»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) «الطبري» ١٢١/١٥، وأبو داود رقم (٣٥٢٧)، وذكره الحافظ ابن كثير وقال: إسناده جيد، إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب، ورواه الطبري ١٢٢/١٥، وأحمد ٣٤٣/٥ مطولاً من حديث أبي مالك الأشعري، وفي سننه شهر بن حوشب. وروى معاذ بن جبل ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﷻ: المتحابون في جلاله لهم منابر من نور، يغططهم النبيون والشهداء» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) انظر رواية الحديث عن هذلول الصحابة في «الطبري» ١٥/١٥ - ١٢٥ - ١٤٠ و«الدر» ٣١١/٣ - ٣١٣.

(٤) «الطبري» ١٣١/١٥، والسيوطي في «الدر» ٣١١/٣ وزاد نسبه لأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله - تعالى ذكره - أخبر أن أوليائه المتقين البشري في الحياة الدنيا، ومن البشارة في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، ومنها بشرى الملائكة إياه عند خروج نفسه برحمة الله، ومنها بشرى الله إياه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسول الله ﷺ من الثواب الجزيل، وكل هذه المعاني من بشرى الله إياه في الحياة الدنيا بشره بها، ولم يخص الله من ذلك معنى دون معنى، فلذلك مما عه - جل ثناؤه - أن لهم البشري في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فالجنة.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّكَ لَمِنَ الَّذِينَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: «ألا» افتتاح كلام وتنبية، أي: فالذي هم له، يفعل فيهم وبهم ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْئُرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: ما يتبعون شركاء على الحقيقة، لأنهم يعدونها شركاء لله شفعاء لهم، وليست على ما يظنون. «إِن يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ» في ذلك «وَأَن هُمْ إِلَّا يَتْرُكُونَ» قال ابن عباس: يكذبون. وقال ابن قتبية: يحدسون ويحزرون.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٧٧)

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ المعنى: إن ربكم الذي يجب أن تعتقدوا ربوبيته، هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه، فيزول تعب النهار وكلاله بالسكون في الليل، وجعل النهار مبصراً، أي: مضيئاً تبصرون فيه. وإنما أضاف الإبصار إليه، لأنه قد فهم السامع المقصود، إذ النهار لا يبصر، وإنما هو ظرف يفعل فيه غيره، كقوله: ﴿بَيْنَهُ رَأْيَيْنِ﴾ [الحاقة: ٢١]، إنما هي مرضية، وهذا كما يقال: ليل نائم، قال جرير:

لقد لُئِمْنَا يَا أُمَّ غِيلَانَ فِي السُّرَى
ونمت وما ليل المطي بنائم^(١)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع اعتبار، فيعلمون أنه لا يقدر على ذلك إلا الإله القادر. ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ كُودًا سُبْحَنَهُ هُوَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَيْءٍ مِّن سُلْطَانٍ يَهْدَأُ أَقْوَابَهُمْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّ إِلَهَ الْأَرْضِ يَفْعَلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُلْحِقُونَ﴾ ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا قَوْمًا إِنَّنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٨)

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ كُودًا﴾ قال ابن عباس: يعني أهل مكة، جعلوا الملائكة بنات الله.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عما قالوا. «هُوَ الَّذِي» عن الزوجة والولد. «إِنَّ عِنْدَكُمْ» أي: ما عندكم «مِن سُلْطَانٍ» أي: حجة بما تقولون.

قوله تعالى: ﴿لَا يُلْحِقُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يبقون في الدنيا. والثاني: لا يسعدون في العاقبة. والثالث: لا يفوزون. قال الزجاج: وهذا وقف التمام، وقوله: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا﴾ مرفوع على معنى: ذلك متاع في الدنيا.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ بَنَاتُ اللَّهِ إِذْ قَالَتْ لِقَوْمِهِمْ يَقْوَمُ إِنَّ كَانِ كَبْرٌ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَمَلَأَ اللَّهُ تَوَكُّكَ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عِشَّةً ذُرًّا وَقَصْوَا إِلَيْكَ وَلَا تَنْظُرُونَ﴾ (٧٩)

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ بَنَاتُ اللَّهِ﴾ فيه دليل على نوبته، حيث أخبر عن قصص الأنبياء ولم يكن يقرأ الكتب، وتحريض على الصبر، وموعظة لقومه بذكر قوم نوح وما حلَّ بهم من العقوبة بالكذب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَانِ كَبْرٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عظم وشقٌّ ﴿عَلَيْكُمْ مَّقَامِي﴾ أي: طول مكثي. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: «مقامي» برفع الميم. «وَتَذَكَّرِي﴾ وعظي. «فَمَلَأَ اللَّهُ تَوَكُّكَ﴾ في نصرتي ودفع شركم عني. «فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ» قرأ الجمهور: «فأجمعوا» بالهمز وكسر الميم، من «أجمعت». وروى الأصمعي عن نافع: «فأجمعوا» بفتح الميم، من «جمعت». ومعنى «أجمعوا أمركم»: أحكموا أمركم واعزموا عليه. قال المؤرج: «أجمعت الأمر» أفصح من «أجمعت عليه»، وأنشد:

يَا لَيْسَتْ شِعْرِي وَالْمَنْسَى لَا تَنْفَعُ
هَلْ أَغْدُونَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُنْجَمَعُ^(٢)

فأما رواية الأصمعي، فقال أبو علي: يجوز أن يكون معناها: أجمعوا ذوي الأمر منكم، أي: رؤساءكم. ويجوز أن يكون جعل الأمر ما كانوا يجمعونه من كيدهم الذي يكيدون به، فيكون كقوله: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَفْتَرُوا صَفًّا﴾ [طه: ٤٤].

(١) «ديوانه» ٥٥٤ من قصيدة له طويلة أجاب بها الفرزدق، «الطبري» ١٤٤/١٥، «مجاز القرآن» ٢٧٩/١، «مسيوه» ٨٠/١، «الخرزاة» ٢٢٣/١.

(٢) الرجز غير منسوب في «نوادير أبي زيد» ٤٧٦، ومعاني القرآن للفراء ١٤٨/١، «الطبري» ١٤٨/١٥، «الأضداد» لابن الأثيري ٤١، «أمالي الرضوى» ٥٥٩/١، «الصالح» و«اللسان»: جمع.

قوله تعالى: ﴿وَشَرَكَاكُمْ﴾ قال الفراء وابن قتيبة: المعنى: وادعوا شركاءكم. وقال الزجاج: الواو هاهنا بمعنى «مع»، فالمعنى: مع شركائكم. تقول: لو تركت الناقة وفضيلها لرضعها، أي: مع فضيلها. وقرأ يعقوب: «وشركاؤكم» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ مِنْكُمْ عَلَيْهِ غَمَّةٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يكن أمركم مكتوماً، قاله ابن عباس. والثاني: غمّاً عليكم، كما تقول: كرب وكربة، قاله ابن قتيبة. وذكر الزجاج القولين. وفي قوله: ﴿ثُمَّ أَقْبَضُوا إِلَيْكَ﴾ قولان: أحدهما: ثم اقبضوا إليّ ما في أنفسكم، قاله مجاهد. والثاني: اقبلوا ما تريدون، قاله الزجاج، وابن قتيبة. وقال ابن الأنباري: معناه: اقبضوا إليّ بمكروهم وما توعدونني به، كما تقول العرب: قد قضى فلان، يريدون: مات ومضى.

﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا سَأَلْتُمُونَا أَنْ نَبْرِئَ مِنْكُمْ لَأَبْرَأَنَّ مِنْكُمْ آلِيَّ وَإِبْرَأْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْكَرِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ فَكَذَّبُوه فَجَبَّيْتُمْ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَمَلْتُمْ خَلْتُمْ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: اعرضتم عن الإيمان. ﴿فَمَا سَأَلْتُمُونَا أَنْ نَبْرِئَ مِنْكُمْ﴾ أي: لم يكن دعائي إياكم طمعاً في أمركم.

قوله تعالى: ﴿إِن أْبْرَأَنَّ﴾ حرّك هذه الباء ابن عامر، وأبو عمرو، ونافع، وحفص عن عاصم، وأسكنها الباقون. قوله تعالى: ﴿وَجَمَلْتُمْ خَلْتُمْ﴾ أي: جعلنا الذين نجّوا مع نوح خلفاً ممن هلك. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَبْتَيْتُمْ﴾ أي: جعلنا الذين نجّوا مع نوح خلفاً ممن هلك. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَبْتَيْتُمْ﴾ أي: جعلنا الذين نجّوا مع نوح خلفاً ممن هلك. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَبْتَيْتُمْ﴾ أي: جعلنا الذين نجّوا مع نوح خلفاً ممن هلك. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَبْتَيْتُمْ﴾ أي: جعلنا الذين نجّوا مع نوح خلفاً ممن هلك.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا﴾ يعني الذين قبلهم. والمراد: أن المتأخرين مضوا على سنن المتقدمين في التكذيب. وقال مقاتل: فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من العذاب به من قبل نزوله.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا﴾ أي: كما طبعنا على قلوب أولئك، ﴿كَذَّبُوا﴾ أي: كما طبعنا على قلوب المتجاوزين ما أمروا به.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِكْ رِزْوَانٍ وَمَلَائِكَةٍ يَأْتِينَ بِنُورٍ فَأَنشَأُوا لَكُمُ الْوَجْهَ الْغَيْرَ﴾ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ﴾ يعني الرسل الذين أرسلوا بعد نوح. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ﴾ يعني الرسل الذين أرسلوا بعد نوح. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ﴾ يعني الرسل الذين أرسلوا بعد نوح. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ﴾ يعني الرسل الذين أرسلوا بعد نوح.

قوله تعالى: ﴿أَبْتَيْتُمْ﴾ قال الزجاج: المعنى: أتقولون للحق لما جاءكم هذا اللفظ، وهو قولهم: ﴿إِن هَذَا لَيْسَ شَيْئٌ﴾. ثم قرأهم فقال: ﴿أَبْتَيْتُمْ هَذَا؟﴾ قال ابن الأنباري: إنما أدخلوا الألف على جهة تفضيح الأمر، كما يقول الرجل إذا نظر إلى الكسوة الفاخرة: أكسوة هذه؟ يريد بالاستفهام تعظيمها، وتأتي الرجل جائزة، فيقول: أحق ما أرى؟ معظماً لما ورد عليه. وقال غيره: تقدير الكلام: أتقولون للحق لما جاءكم: هو سحر؟ أم سحر هذا؟ فحذف السحر الأول اكتفاءً بدلالة الكلام عليه، كقوله: ﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُئَرُوا وَلِهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الإسراء: ٧] المعنى بعثناهم ليسوءوا وجوهكم.

قوله تعالى: ﴿أَجْمَعْنَا لِيَأْتِيَنَّكَ﴾ قال ابن قتيبة؛ لتصرفنا. قال: لفت فلاناً عن كذا: إذا صرفته. ومنه الالتفات، وهو الانصراف عما كنت مقبلاً عليه.

قوله تعالى: ﴿رَتُّكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ﴾ وروى أبان، وزيد عن يعقوب: ﴿ويكون لكما﴾ بالياء. وفي المراد بالكبرياء ثلاثة أقوال: أحدها: الملك والشرف، قاله ابن عباس. والثاني: الطاعة، قاله الضحاك. والثالث: العلو، قاله ابن زيد. قال ابن عباس: والأرض هاهنا: أرض مصر.

قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ سَجِرٍ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف «بكل سَجَارٍ» بتشديد الحاء وتأخير الألف.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا جَنَّتُمْ بِهِ السَّحْرَ﴾ قرأ الأكثرون «السحر» بغير مدّ، على لفظ الخبر، والمعنى: الذي جنتم به من الحبال والعصي، هو السحر، وهذا ردّ لقولهم للحق: هذا سحر، فتقديره: الذي جنتم به السحر، فدخلت الألف واللام، لأن النكرة إذا عادت، عادت معرفة، كما تقول: رأيت رجلاً، فقال لي الرجل. وقرأ مجاهد، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأبان عن عاصم، وأبو حاتم عن يعقوب: «السحر» بمدّ الألف، استفهاماً. قال الزجاج: والمعنى: أي شيء جنتم به؟ أسحر هو؟ على جهة التوبيخ لهم. وقال ابن الأنباري: هذا الاستفهام معناه التعظيم للسحر، لا على سبيل الاستفهام عن الشيء الذي يُجهل، وذلك مثل قول الإنسان في الخطأ الذي يستعظمه من إنسان: أخطأ هذا؟ أي: هو عظيم الشأن في الخطأ. والعرب تستفهم عما هو معلوم عندها، قال امرؤ القيس:

أغررك مني أن حُبِّكَ قاتلي
وقال قيس بن ذريح:

أراجعة يا لُبْنَ أيماننا الألى
فاستفهم وهو يعلم أنهم لا يرجعون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَبِيلُهُ﴾ أي: يهلكه، ويُظهر فضيحتكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لا يجعل عملهم نافعا لهم. ﴿وَيُحِبُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ أي: يظهره ويمكّنه، ﴿وَيَكْتُمُوهُ﴾ بما سبق من وعده بذلك.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَتِهِمْ أَن يَقْبِضَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِمَن الشُّرَيْرِينَ﴾ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَأْمَنُوا بِاللَّهِ فَاعْلَمُوا أَن كُنتُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الْفٰلِئِلِيَيْنِ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنًا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكٰفِرِيْنَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ إِسْرَءِيلَ وَيُضَعِّبُوا بَنِي إِسْرٰءِيلَ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ مَأْتِيَةٌ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ فَسَبِّحْهُم بَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَهُ عَلَقًا فَغُلَقَ ثُمَّ عَلَّمَهُ رُبُوبًا ثُمَّ عَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ فَأَسْفَهًا فَكَانَ مِنَ الْمَرْثِيْنَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ قَد أَجَبْتَ دَعْوَتَنَا فَمَا تَكْفُرُ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ لِيَّوَالِدِي إِتَّخَذَ إِلٰهًا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَلْمِزُكُمْ أَلَيْسَ لِيَّ عِندَ اللَّهِ بَدَلٌ ﴿٨٨﴾ وَجَوْرَتَنَا لِيَّ بَدَلٌ إِسْرٰءِيلَ فَاتَّبَعُهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْتُ قَالَ أَمَنتُ أَنَّمَا لَا إِلٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنتُ بِهِ بَنُو إِسْرٰءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ﴿٨٩﴾ مَا لَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ﴿٩٠﴾ فَالْيَوْمَ نَجِيْعُكَ بِيَدَيْكَ يُكْوَبُونَ لِمَن خَلَقَكَ آدَمَ وَإِنَّ كَيْدًا مِّنَ النَّاسِ عَن آدَمَ لَمَفِيْلُوتٍ ﴿٩١﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ في المراد بالذرية هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد بالذرية: القليل، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم أولاد الذين أرسل إليهم موسى، مات آباؤهم لطول الزمان، وآمنوا هم، قاله مجاهد. وقال ابن زيد: هم الذين نشؤوا مع موسى حين كَفَّ فرعون عن ذبح الغلمان. قال ابن الأنباري: وإنما قيل لهؤلاء: «ذرية» لأنهم أولاد الذين بُعث إليهم موسى، وإن كانوا بالغين. والثالث: أنهم قوم، أمهاتهم من بني إسرائيل، وآباؤهم من القبط، قاله مقاتل، واختاره الفراء. قال: وإنما سُمُّوا ذريةً كما قيل لأولاد فارس: الأبناء، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم. وفي هاء «قومه» قولان: أحدهما: أنها تعود إلى موسى، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: إلى فرعون، رواه أبو صالح عن ابن عباس. فعلى القول الأول يكون قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ أي: وملا فرعون. قال الفراء: وإنما قال: ﴿وَمَلَائِكَتِهِمْ﴾ بالجمع، وفرعون واحد، لأن الملك إذا ذُكر ذهب الوهم إليه وإلى من معه، تقول: قدم الخليفة فكر الناس، تريد: بمن معه. وقد يجوز أن يريد بفرعون: آل فرعون، كقوله: ﴿وَمَسَّكِلِ﴾

الْقَرْيَةَ [يوسف: ٨٢]. وعلى القول الثاني يرجع ذكر الملائكة إلى الذرية. قال ابن جرير: وهذا أصح، لأنه كان في الذرية من أبوه قبطي وأمه إسرائيلية، فهو مع فرعون على موسى.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ يعني فرعون، ولم يقل: يفتنهم، لأن قومه كانوا على من كان عليه. وفي هذه الفتنة قولان: أحدهما: أنها القتل، قاله ابن عباس. والثاني: التعذيب، قاله ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَى فِرْعَوْنُ لَمَلًا فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: متطاوّل في أرض مصر ﴿وَرَأَى لَمَلًا لِمَنْ أَلْمَسْتَرِينَ﴾ حين كان عبداً فأدعى الربوبية.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مَأْمَنُوا بِاللَّهِ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ كُنتُمْ كَافِرِينَ﴾ لما شكّا بنو إسرائيل إلى موسى ما يهدّهم به فرعون من ذبح أولادهم، واستحياء نساءهم، قال لهم هذا. وفي قوله: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لا تهلكننا بعداب على أيدي قوم فرعون، ولا بعداب من قبلك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم. والثاني: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، والقولان مرويان عن مجاهد. والثالث: لا تسلطهم علينا فيفتنونا بنا، لظنهم أنهم على حق، قاله أبو الضحى، وأبو مجلز.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَوَدَّ لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال المفسرون: لما أرسل موسى، أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فخرّب كلّها، ومنعوا من الصلاة، وكانوا لا يصلّون إلا في الكنائس؛ فأمر أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلّون فيها خوفاً من فرعون. و «تَوَدَّ» معناه: اتخذها، وقد شرحناه في [الأعراف: ٧٤]. وفي المراد بمصر قولان: أحدهما: أنه البلد المعروف بمصر، قاله الضحاك. والثاني: أنه الإسكندرية، قاله مجاهد. وفي البيوت قولان: أحدهما: أنها المساجد، قاله الضحاك، والثاني: القصور، قاله مجاهد. وفي قوله: ﴿وَجَعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبَلَةً﴾ أربعة أقوال: أحدها: جعلوها مساجد، رواه مجاهد، وعكرمة، والضحاك عن ابن عباس، وبه قال النخعي، وابن زيد. وقد ذكرنا أن فرعون أمر بهدم مساجدهم، فقيل لهم: جعلوا بيوتكم قبلة بدلاً من المساجد. والثاني: جعلوها قبّل القبلة، رواه العوفي عن ابن عباس. وروى الضحاك عن ابن عباس، قال: قبّل مكة. وقال مجاهد: أمروا أن يجعلوها مستقبله الكعبة، وبه قال مقاتل، وقتادة، والفراء. والثالث: جعلوها يقابل بعضها بعضاً، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً، وبه قال سعيد بن جبير. والرابع: واجعلوا بيوتكم التي بالشام قبلة لكم في الصلاة، فهي قبلة اليهود إلى اليوم، قاله ابن بحر. فإن قيل: البيوت جمع، فكيف قال: «قبلة» على التوحيد؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري، فقال: من قال: المراد بالقبلة الكعبة، قال: وحُدّت القبلة لتوحيد الكعبة. قال: ويجوز أن يكون أراد: جعلوا بيوتكم قبلاً، فاكتمى بالواحد عن الجمع، كما قال العباس بن مرداس:

فقلنا أسلموا إنا أخوكم

فقد برئت من الإحن الصدور

يريد: إنا إخوانكم. ويجوز أن يكون وحّد «قبلة» لأنه أجزاها مجرى المصدر، فيكون المعنى: واجعلوا بيوتكم إقبالاً على الله، وقصدوا لما كنتم تستعملونه في المساجد. ويجوز أن يكون وحّدها، والمعنى: واجعلوا بيوتكم شيئاً قبلة، ومكاناً قبلة، ومحلة قبلة.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال ابن عباس: أتوا الصلاة ﴿وَيَسِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنت يا محمد. قال سعيد بن جبير: بشرهم بالنصر في الدنيا، وبالجنة في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَأْتِيَةٌ وَعَرَّوْنَاكَ زِينَةً وَأَنْوَلْنَاكَ﴾ قال ابن عباس: كان لهم من لدن فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن ذهب وفضة وزبرجد وياقوت.

قوله تعالى: ﴿لِيَضْلُوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ وفي لام «لِيَضْلُوا» أربعة أقوال: أحدها: أنها لام «كي» والمعنى: آتيتهم ذلك كي يضلوا، وهذا قول الفراء. والثاني: أنها لام العاقبة، والمعنى: إنك آتيتهم ذلك فأصارهم إلى الضلال، ومثله قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا﴾ [القصص: ٨] أي: آل أمرهم إلى أن صار لهم عدواً، لا أنهم قصدوا ذلك، وهذا كما تقول للذي كسب مالا فأذاه إلى الهلاك: إنما كسب فلان لحتفه، وهو لم يكسب المال طلباً للحتف، وأنشدوا:

وللمنايا تُرَبِّي كُلَّ مُرْضِعَةٍ
وقال آخر:

وللخراب يُجِدُّ النَّاسُ عَمْرَانَا

كما لخراب الدُّور تُبْنِي الْمَسَاكِينَ

وللموتِ تَغْدُو الْوَالِدَاتُ مِخَالَهَا
وقال آخر:

فللموتِ مَا تَلِيدُ الْوَالِدَةَ

فإن يَكُنِ الْمَوْتُ أَفْنَاهِم

أراد: عاقبة الأمر ومصيره إلى ذلك، هذا قول الزجاج. والثالث: أنها لام الدعاء، والمعنى: ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك، ذكره ابن الأنباري. والرابع: أنها لام أجل، فالمعنى: آتيتهم لأجل ضلالتهم عقوبة منك لهم، ومثله قوله: «سَيَلِيُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ» [التوبة: ٩٥] أي: لأجل إعراضكم، حكاه بعض المفسرين. وقرأ أهل الكوفة إلا المفضل، وزيد، وأبو حاتم عن يعقوب: «لِيُضِلُّوا» بضم الياء، أي: ليضلوا غيرهم.

قوله تعالى: «رَبَّنَا آتِنَا» روى الحلبي عن عبد الوارث: «اطمُس» بضم الميم «عَلَّ أَنْزَلَهُمْ» وفيه قولان: أحدهما: أنها جمعت حجارة، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والضحاك، وأبو صالح، والفراء. وقال القرظي: جُمِلَ سَكْرُهُمْ حِجَارَةً. وقال ابن زيد: صار ذهبهم ودراهمهم وعدسهم وكل شيء لهم حجارة. وقال مجاهد: مسخ الله النخل والثمار والأطعمة حجارة، فكانت إحدى الآيات التسع. وقال الزجاج: تطميس الشيء: إذهابه عن صورته والانتفاع به على الحال الأولى التي كان عليها. والثاني: أنها هلكت، فالمعنى أهلك أموالهم، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، ومنه يقال: طمست عينه، أي: ذهب، وطمس الطريق: إذا عفا ودرس. وفي قوله: «وَأَشَدُّ عَلَّ قُلُوبِهِمْ» أربعة أقوال: أحدها: أطبع عليها، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مقاتل، والفراء، والزجاج. والثاني: أهلكهم كفاراً، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثالث: أشد عليها بالضلالة، قاله مجاهد. والرابع: أن معناه: قس قلوبهم، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: «فَلَا يُؤْمِنُوا» فيه قولان: أحدهما: أنه دُعاء عليهم أيضاً، كأنه قال: اللهم فلا يؤمنوا، قاله الفراء، وأبو عبيدة، والزجاج. وقال ابن الأنباري: معناه: فلا آمنوا، قال الأعشى:

فلا يَنْبَسِطُ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ مَا أَنْزَوِي

ولا تَلْقُنِي إِلَّا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ^(١)

معناه لا انبسط، ولا لقيتني. والثاني: أنه عطف على قوله: «لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ»، فالمعنى: أنك آتيتهم ليضلوا فلا يؤمنوا، حكاه الزجاج عن المبرد^(٢).

قوله تعالى: «حَتَّىٰ يَرَوْا آتَانَ الْأَكْلِمِ» قال ابن عباس: هو الغرق، وكان موسى يدعو، وهارون يؤمن، فقال الله تعالى: «فَدَّ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا»، وكان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة. فان قيل: كيف قال: «دَعْوَتُكُمَا» وهما دعوتان؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن الدعوة تقع على دعوتين وعلى دَعَوَاتٍ وكلام يطول كما بيَّنا في [الأعراف: 1٥٨] أن الكلمة تقع على كلمات، قال الشاعر:

وكان دعا دعوة قومَه

هلم إلى أمركم قد صُيرِم^(٣)

فأوقع «دعوة» على الفاظ بيَّنا آخر بيته. والثاني: أن يكون المعنى: قد أُجِيبَتْ دعواتكما، فاكثفت بالواحد من ذكر الجميع، ذكر الجوابين ابن الأنباري. وقد روى حماد بن سلمة عن عاصم أنه قرأ «دَعَوَاتُكُمَا» بالالف وفتح العين. والثالث: أن موسى هو الذي دعا، فالدعوة له، غير أنه لما آمن هارون، أشرك بينهما في الدعوة، لأن التامين على الدعوة منها. وفي قوله: «فَأَسْتَقِيمًا» أربعة أقوال: أحدها: فاستقيما على الرسالة وما أمرتكما به، قاله أبو صالح عن

(١) «ديوانه» ٥٨ من قصيدته في هجاء يزيد بن مسهر الشيباني، و«الطبري» ١٥/١٨٣.

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٥/١٨٥: والصواب من القول في ذلك، أنه في موضع جزم على الدعاء، بمعنى (فلا آمنوا)، وإنما اخترت ذلك، لأن ما قبله دعا، وذلك قوله: «رَبَّنَا آتِنَا» فالحقاق قوله: «فَلَا يُؤْمِنُوا» إذ كان في سياق ذلك بمعناه أشبه وأرلى.

(٣) البيت لأعشى قيس، «ديوانه» ٤٣، و«مجاز القرآن» ١/٢٠٨، و«الطبري» ٨/٧٧، و«القرظي» ٧/١٥٨، و«اللسان» و«التاج»: ربع.

ابن عباس. والثاني: فاستقيما على دعاء فرعون وقومه إلى طاعة الله، قاله ابن جرير. والثالث: فاستقيما في دعائكما على فرعون وقومه. والرابع: فاستقيما على ديني، ذكرهما أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُنَّ﴾ قرأ الأكثرون بتشديد تاء «تَتَّبِعَانَّ». وقرأ ابن عامر بتخفيفها مع الاتفاق على تشديد نون «تَتَّبِعَانَّ»، إلا أن النون الشديدة دخلت للنهي مؤكدة، وكُسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها، واختير لها الكسر لأنها بعد الألف، فشبهت بنون الاثنيين. قال أبو علي: ومن خفض النون أمكن أن يكون خفف النون الثقيلة، فإن شئت كان على لفظ الخبر، والمعنى الأمر، كقوله: ﴿يَرْزُقُكَ بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٨ و ٢٣٤] و ﴿لَا تُصَاكِرُ وَلاَءَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أي: لا ينبغي ذلك، وإن شئت جعلته حالاً من قوله: ﴿فَأَسْتَقِيمًا﴾ تقديره: استقيما غير متبعين. وفي المراد بسبيل الذين لا يعلمون قولان: أحدهما: أنهم فرعون وقومه، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الذين يستعجلون القضاء قبل مجيئه، ذكره أبو سليمان الدمشقي. فإن قيل: كيف جاز أن يدعو موسى على قومه؟ فالجواب: أن بعضهم يقول: كان ذلك بوحى، وهو قول صحيح، لأنه لا يُظن بنبي أن يُقدِّم على مثل ذلك إلا عن إذن من الله ﷻ، لأن دعاءه سبب للانتقام.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجَدُودُهُمْ﴾ قال أبو عبيدة. أتبعهم وتبعهم سواء. وقال ابن قتيبة: أتبعهم لحقهم. ﴿بَنِيَّ وَعَدُوِّيَّ﴾ أي: ظلماً. وقرأ الحسن «فَأَتَّبَعَهُمْ» بالتشديد، وكذلك شدوا «عَدُوِّيَّ» مع ضم العين.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ أَتْرَقَ قَالَ مَا أَتَىٰ أَنْتُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر «أنه» بفتح الألف، والمعنى: آمنت بأنه. فلما حذف حرف الجر، وصل الفعل إلى «أن» فنصب. وقرأ حمزة والكسائي «إنه» بكسر الألف، فحملوه على القول المضمر، كأنه قال: آمنت، فقلت: إنه. قال ابن عباس: لم يقبل الله إيمانه عند رؤية العذاب. قال ابن الأنباري: جنح فرعون إلى التوبة حين أغلق بابها لحضور الموت ومعاينة الملائكة، فقيل له: ﴿مَأَلَكُنَّ﴾ أي: الآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها، وكنت من المفسدين بالدعاء إلى عبادة غير الله ﷻ؟ والمخاطب له بهذا كان جبريل. وجاء في الحديث أن جبريل جعل يدسُّ الطين في فم فرعون خشية أن يُغفر له^(١). قال الضحاك بن قيس: اذكروا الله في الرِّحَاءِ يذكركم في الشدة، إن يونس ﷻ كان عبداً صالحاً، وكان يذكر الله، فلما وقع في بطن الحوت سأل الله، فقال الله: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ﴾ ﴿لَيْتَ فِي بَطْنِيهِ إِلَّا يَوْمَ يُعْتَذِرُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وإن فرعون كان عبداً طاعياً ناسياً للذكر الله تعالى، فلما أدركه الغرق قال: آمنت، فقال الله: ﴿مَأَلَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَلَيْمٌ نَّتَّجِكَ﴾ وقرأ يعقوب «نَّتَّجِكَ» مخفف. قال اللغويون منهم يونس وأبو عبيدة: نُتِّجِكَ على نجوة من الأرض، أي: ارتفاع، ليصير علماً أنه قد غرق. وقرأ ابن السميع «نَّتَّجِكَ» بحاء. وفي سبب إخراجه من البحر بعد غرقه ثلاثة أقوال: أحدها: أن موسى وأصحابه لما خرجوا، قال من بقي من المدائن من قوم فرعون: ما أغرق فرعون، ولكنه هو وأصحابه يتصيدون في جزائر البحر، فأوحى الله إلى البحر أن اللفظ فرعون عرياناً، فكانت نجاة عبدة، وأوحى الله تعالى إلى البحر: أن اللفظ ما فيك، فلفظهم البحر بالساحل، ولم يكن يلفظ غريقاً، فصار لا يقبل غريقاً إلى يوم القيامة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أن أصحاب موسى قالوا: إنا نخاف أن يكون فرعون ما غرق، ولا نؤمن بهلاكه، فدعا موسى ربه، فأخرجه حتى أيقنوا بهلاكه، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وإلى نحوه ذهب قيس بن عباد، وعبد الله بن شداد، والسدي، ومقاتل. وقال السدي: لما قال بنو إسرائيل: لم يغرق فرعون، دعا موسى، فخرج فرعون في ستمائة ألف وعشرين ألفاً عليهم الحديد، فأخذته بنو إسرائيل يمثلون به. وذكر غيره أنه إنما أخرج من البحر وحده دون أصحابه. وقال ابن جريج: كذب بعض بني إسرائيل بغرقه، فرمى به البحر على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل قُصيراً أحمر كأنه ثور. وقال أبو سليمان: عرفه بنو إسرائيل بدرج كان له من لؤلؤ لم يكن لأحد

(١) «المستد» ١٦/٤، ونقله ابن كثير في «التفسير» ٤٣٠/٢ من الطيالسي، وقال: وقد رواه أبو عيسى الترمذي أيضاً، وابن جرير أيضاً من غير وجه عن شعبة، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٣٤٠/٢ قال: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس، وواقفه الذهبي.

مثلها. فأما وجهه فقد غيرهُ سُخْطُ الله تعالى. والثالث: أنه كان يدَّعي أنه ربُّ، وكان يعبدُه قوم، فبيَّن الله تعالى أمره، فأغرقه وأصحابه، ثم أخرجهم من بينهم، قاله الزجاج. وفي قوله: ﴿يَدْعِيكَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: بجسدك من غير روح، قاله مجاهد. وذكر البدن دليل على عدم الروح. والثاني: بدرعك، قاله أبو صخر. وقد ذكرنا أنه كانت له درع من لؤلؤ، وقيل: من ذهب، فعُرف بدرعه. والثالث: نلقبك عرياناً، قاله الزجاج. والرابع: ننجيك وحلك، قاله ابن قتيبة. وفي قوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لتكون لمن بعدك في النكال آية لئلا يقولوا مثل مقالتك، فإنك لو كنت إلهاً ما غرقت، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال أبو عبيدة: «خلفك» بمعنى بعدك، والآية: العلامة. والثاني: لتكون لبني إسرائيل آية، قاله السدي. والثالث: لمن تخلف من قومه، لأنهم أنكروا غرقه على ما ذكرنا في أول الآية، فخرج في معنى الآية قولان: أحدهما: عبرة للناس. والثاني: علامة تدل على غرقه. وقال الزجاج: الآية أنه كان يدَّعي أنه ربُّ، فبان أمره، وأخرج من بين أصحابه لما غرقوا. وقرأ ابن السميع، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء ﴿لمن خلقك﴾ بالقاف.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِوَا سِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِمَّا الْطَيَّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْيَوْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أنزلناهم منزل صدق، أي منزلاً كريماً. وفي المراد ببني إسرائيل قولان: أحدهما: أصحاب موسى. والثاني: قريظة والنضير. وفي المراد بالمنزل الذي أنزلوه خمسة أقوال: أحدها: أنه الأردن، وفلسطين، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الشام، وبيت المقدس، قاله الضحاك وقاتدة. والثالث: مصر، وروي عن الضحاك أيضاً. والرابع: بيت المقدس، قاله مقاتل. والخامس: ما بين المدينة والشام من أرض يثرب، ذكره علي بن أحمد النيسابوري. والمراد بالطيبات: ما أحل لهم من الخيرات الطيبة. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ يعني بني إسرائيل. قال ابن عباس: ما اختلفوا في محمد، لم يزالوا به مصدقين، ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْيَوْمُ﴾ يعني القرآن، وروي عنه: حتى جاءهم العلم، يعني محمداً. فعلى هذا يكون العلم هاهنا: عبارة عن المعلوم. وبيان هذا أنه لما جاءهم، اختلفوا في تصديقه، وكفر به أكثرهم بغياً وحسداً بعد أن كانوا مجتمعين على تصديقه قبل ظهوره.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ﴾ في تأويل هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره من الشاكين، بدليل قوله في آخر السورة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شكٍ مِنْ رَبِّي﴾ [يونس: ١٠٥]، ومثله قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ أَنَّ اللَّهَ وَلَا يُطِيعُ الْكَاذِبِينَ وَالْمُتَوَفِّينَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَتْ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٤﴾﴾ [الاحزاب] ثم قال: ﴿يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ [الاحزاب: ٣] ولم يقل: بما تعمل، وهذا قول الأكثرين. والثاني: أن الخطاب للنبي ﷺ، وهو المراد به. ثم في المعنى قولان: أحدهما: أنه خوطب بذلك وإن لم يكن في شك، لأنه من المستفيض في لغة العرب أن يقول الرجل لولده: إن كنت ابني فبرئني، ولعبيده: إن كنت عبدي فاطعني، وهذا اختيار الفراء. وقال ابن عباس: لم يكن رسول الله ﷺ في شك، ولا سأل. والثاني: أن تكون «إن» بمعنى «ما» فالمعنى: ما كنت في شك ﴿تَسْأَلِ﴾، المعنى: لسنا نريد أن نأمرك أن تسأل لأنك شاك، ولكن لتزداد بصيرة، ذكره الزجاج. والثالث: أن الخطاب للشاكين، فالمعنى: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزل إليك على لسان محمد، فسأل، روي عن ابن قتيبة. وفي الذي أنزل إليه قولان: أحدهما: أنه أنزل إليه أنه رسول الله. والثاني: أنه مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل.

قوله تعالى: ﴿تَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وهم اليهود والنصارى. وفي الذين أمر بسؤالهم منهم قولان: أحدهما: من آمن، كعبد الله بن سلام، قاله ابن عباس، ومجاهد في آخرين. والثاني: أهل الصدق منهم، قاله الضحاك، وهو يرجع إلى الأول، لأنه لا يصدق إلا من آمن. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ هذا كلام مستأنف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ حَفَّتْ﴾ أي؛ وجبت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَاتٌ ذُرِّيَّةٌ﴾ أي؛ قوله. وبماذا حقت الكلمة عليهم، فيه أربعة أقوال: أحدها: باللعنة. والثاني: بنزول العذاب. والثالث: بالسخط. والرابع: باللقمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كَلِمٌ أَيْبٌ﴾ قال الأخفش: إنما أتت فعل «كل» لأنه أضافه إلى «آية» وهي مؤنثة.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ فَتَنَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ لَكَا مَا نَسُوا كُفْرَانَهُمْ عَذَابَ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ﴾ أي: أهل قرية. وفي «لولا» قولان: أحدهما: أنه بمعنى: لم تكن قرية أمنت ﴿فَتَنَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ أي: قُبلَ منها ﴿إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ﴾، قاله ابن عباس. وقال قتادة: لم يكن هذا لأمة أمنت عند نزول العذاب، إلا لقوم يونس. والثاني: أنها بمعنى: فهلاً، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج. قال الزجاج: والمعنى: فهلاً كانت قرية أمنت في وقت نفعها إيمانها، إلا قوم يونس؟ و«إلا» هاهنا استثناء ليس من الأول، كأنه قال: لكن قوم يونس. قال الفراء: نُصب القوم على الانقطاع مما قبله، ألا ترى أن «ما» بعد «إلا» في الجحد يتبع ما قبلها؟ تقول: ما قام أحد إلا أخوك، فإذا قلت: ما فيها أحد إلا كلباً أو حماراً، نصبت، لانقطاعهم من الجنس، كذلك كان قوم يونس منقطعين من غيرهم من أمم الأنبياء، ولو كان الاستثناء وقع على طائفة منهم لكان رفعاً. وذكر ابن الأنباري في قوله: «إلا» قولين آخرين: أحدهما: أنها بمعنى الواو، والمعنى: وقوم يونس لما آمنوا فعلنا بهم كذا وكذا، وهذا مروى عن أبي عبيدة، والفراء ينكره. والثاني: أن الاستثناء من الآية التي قبل هذه تقديره: حتى يروا العذاب الأليم إلا قوم يونس، فالاستثناء على هذا متصل غير منقطع.

قوله تعالى: ﴿كُفِّرْنَا عَنْهُمْ﴾ أي: صرفنا عنهم ﴿عَذَابَ الْخَزْيِ﴾ أي: عذاب الهوان والذل ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين آجالهم.

الإشارة إلى شرح قصتهم

ذكر أهل العلم بالسِّيَر والتفسير أن قوم يونس كانوا بـ «نينوى» من أرض الموصل، فأرسل الله ﷻ إليهم يونس يدعوهم إلى الله ويأمرهم بترك الأصنام، فأبوا، فأخبرهم أن العذاب مصيَّبهم بعد ثلاث، فلما تغشاهم العذاب، قال ابن عباس، وأنس: لم يبق بين العذاب وبينهم إلا قدر ثلثي ميل، وقال مقاتل: قدر ميل، وقال أبو صالح عن ابن عباس: وجدوا حرَّ العذاب على أكتافهم، وقال سعيد بن جبيرة: غشيهم العذاب كما يغشى الثوب القبر، وقال بعضهم: غامت السماء غيماً أسود يُظهر دخاناً شديداً، فغشي مدينتهم، واسودَّت سطوحهم، فلما أيقنوا بالهلاك لبسوا المسوح، وحثَّوا على رؤوسهم الرماد، وفرقوا بين كل والدَّة ولدها من الناس والأنعام، وعجَّوا إلى الله بالتوبة الصادقة، وقالوا: آمنا بما جاء به يونس، فاستجاب الله منهم. قال ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن تراؤوا المظالم بينهم، حتى إن كان الرجل ليأتي إلى الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقلعه، فيرده. وقال أبو الجلد^(١): لما غشيهم العذاب، مشَّوا إلى شيخ من بقية علمائهم، فقالوا: ما ترى؟ قال: قولوا: يا حيُّ حين لا حيِّ، يا حيُّ مُحيي الموتى، يا حيُّ لا إله إلا أنت، فقالوها، فكُشف العذاب عنهم. قال مقاتل: عجَّوا إلى الله أربعين ليلة، فكُشف العذاب عنهم. وكانت التوبة عليهم في يوم عاشوراء يوم الجمعة. قال: وكان يونس قد خرج من بين أظهرهم، فقيل له: ارجع إليهم، فقال: كيف أرجع إليهم فيجدوني كاذباً؟ وكان من يكذب بينهم ولا بيِّنة له يُقتل، فانصرف مغاضباً، فالتقمه الحوت. وقال أبو صالح عن ابن عباس: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: شعيا، فقيل له: ائت فلاناً المملك، فقل له يبعث إلى بني إسرائيل نبياً قوياً أميناً، وكان في مملكته خمسة من الأنبياء، فقال الملك ليونس: اذهب إليهم، فقال: ابعث غيري، فعزم عليه أن يذهب، فأتى بحر الروم، فركب سفينة، فالتقمه الحوت، فلما خرج من بطنها أمر أن ينطلق إلى قومه، فانطلق نذيراً لهم، فأبوا عليه، فوعدهم بالعذاب، وخرج، فلما تابوا رُفِع عنهم. والقول الأول أثبت عند العلماء، وأنه إنما التقمه الحوت بعد إنذاره لهم وتوبتهم. وسيأتي شرح قصته في التمام الحوت إياه في

(١) أبو الجلد، بفتح الجيم، وسكون اللام، هو جيلان بن أبي فروة الأسدي.

مكانه إن شاء الله تعالى [الصفات: ١٤٢]. فإن قيل: كيف كُشف العذاب عن قوم يونس بعد إتيانه إليهم، ولم يُكشَف عن فرعون حين آمن؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن ذلك كان خاصاً لهم كما ذكرنا في أول الآية. والثاني: أن فرعون باشره العذاب، وهؤلاء دنا منهم ولم يباشروهم، فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية، فأما الذي يعاين، فلا توبة له، ذكره الزجاج. والثالث: أن الله تعالى علم منهم صدق النيات، بخلاف مَنْ تقدّمهم من الهالكين، ذكره ابن الأنباري.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلِّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة. قال الأخفش: جاء بقوله: «جميعاً» مع «كل» تأكيداً كقوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا لِلْهَيْبَةِ اثْنِينَ﴾ [النمل: ٥١].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ قال المفسرون، منهم مقاتل: هذا منسوخ بآية السيف، والصحيح أنه ليس هاهنا نسخ، لأن الإكراه على الإيمان لا يصح، لأنه عمل القلب.

﴿وَمَا كَانَتْ لِيَقْنِي أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجَعَلَ الْيَقِينَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِيَقْنِي أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: بقضاء الله وقدره. والثاني: بأمر الله، روي عن ابن عباس. والثالث: بمشيئة الله، قاله عطاء. والرابع: إلا أن يأذن الله في ذلك، قاله مقاتل. والخامس: بعلم الله. والسادس: بتوفيق الله، ذكرهما الزجاج، وابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْيَقِينَ﴾ أي: ويجعل الله الرجس. وروي أبو بكر عن عاصم: «ونجعل الرجس» بالنون. وفيه خمسة أقوال: أحدها: أنه السخط، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: الإثم والعدوان، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنه ما لا خير فيه، قاله مجاهد. والرابع: العذاب، قاله الحسن، وأبو عبيدة، والزجاج. الخامس: العذاب والغضب، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيهِ. وقيل: لا يعقلون حججه ودلائل توحيده.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْأَيْكُتُ وَالذُّدُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال المفسرون: قل للمشركين الذين يسألونك الآيات على توحيد الله: انظروا بالتفكير والاعتبار ماذا في السموات والأرض من الآيات والعبر التي تدل على وحدانيته ونفاذ قدرته كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، وكلُّ هذا يقتضي خالقاً مدبراً. ﴿وَمَا تُعْنِي الْأَيْكُتُ وَالذُّدُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ يَوْمَ السَّنَظِيرِ ﴿١٠٤﴾ ثُمَّ نَبَّحْنَا رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا سُبْحَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني كفار قريش. ﴿إِلَّا مِثْلَ آبَائِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال ابن الأنباري: أي: مثل وقائع الله بمن سلف قبلهم، والعرب تكني بالأيام عن الشرور والحروب، وقد تقصد بها أيام الشرور والأفراح إذا قام دليل بذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَانظُرُوا﴾ هلاكي ﴿إِلَى مَعَكُمْ يَوْمَ السَّنَظِيرِ﴾ لنزول العذاب بكم. ﴿ثُمَّ نَبَّحْنَا رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ من العذاب إذا نزل، فلم يهلك قوم قط إلا نجا نبيهم والذين آمنوا معه.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا سُبْحَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقرأ يعقوب، وحفص، والكسائي في قراءته وروايته عن أبي بكر: «نتج المؤمنين» بالتخفيف. ثم في هذا الإنجاء قولان: أحدهما: نتجهم من العذاب إذا نزل بالمكذّبين، قاله الربيع بن أنس. والثاني: نتجهم في الآخرة من النار، قاله مقاتل.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُوْتِكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ ۖ وَإِنَّ أَوْفَىٰ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَعَلْتَهُ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال ابن عباس: يعني أهل مكة ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ الإسلام ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهي الأصنام ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي﴾ يقدر أن يميئتم. وقال ابن جرير: معنى الآية: لا ينبغي لكم أن تشكوا في ديني، لأنني أعبد الله الذي يميئتم وينفع ويضر، ولا تستكروا عبادة من يفعل هذا، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا وتذكروا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع. فإن قيل: لم قال: ﴿الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ﴾ ولم يقل: «الذي خلقكم»؟ فالجواب: أن هذا يتضمن تهديدهم، لأن ميعاد عذابهم الوفاة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَوْتَىٰ وَجْهَكَ﴾ المعنى: وأمرت أن أتم وجهك، وفيه قولان: أحدهما: أخلص عملك. والثاني: استقم بإقبالك على ما أمرت به بوجهك. وفي المراد بالحنيف ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المتبع، قاله مجاهد. والثاني: المخلص، قاله عطاء. والثالث: المستقيم، قاله القرظي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إن دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن تركت عبادته. و«الظالم» الذي يضع الشيء في غير موضعه.

﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرِيدُ بِشَيْءٍ فَلَا رَادَّ لِفِعْلِهِ﴾ يُصِيبُ يَوْمَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٦﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَنْتَهِىٰ لِغَيْرِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَحِثُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ﴾ أي: بشدة وبلاء ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ لذلك ﴿إِلَّا هُوَ﴾ دون ما يعبده المشركون من الأصنام. وإن يصيب بخير، أي: برحاء ونعمة وعافية، فلا يقدر أحد أن يمنعك إياه. ﴿يُصِيبُ يَوْمَ﴾ أي: بكل واحد من الضر والخير.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه القرآن. والثاني: محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَحِثُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: في منعكم من اعتقاد الباطل، والمعنى: لست بحفيظ عليكم من الهلاك كما يحفظ الوكيل المتاع من الهلاك. قال ابن عباس: وهذه منسوخة بآية القتال، والتي بعدها أيضاً، وهي

قوله: ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ لأن الله تعالى حكم بقتل المشركين، والجزية على أهل الكتاب. والصحيح: أنه ليس هاهنا نسخ. أما الآية الأولى، فقد ذكرنا الكلام عليها في نظيرتها في [الأنعام: ١٠٧]. وأما الثانية، فقد ذكرنا نظيرتها في سورة [البقرة: ١٠٩] قوله: ﴿فَاعْتَصِرُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾.



سورة هود

[عليه السلام]

فصل في نزولها

روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكية كلها، وبه قال الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وجابر بن زيد، وقتادة. وزوي عن ابن عباس أنه قال: هي مكية، إلا آية، وهي قوله: ﴿وَأَذِيرَ السَّكْوَةِ طَرَفَى النَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤]، وعن قتادة نحوه. وقال مقاتل: هي مكية كلها، إلا قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ [هود: ١٢] وقوله: ﴿أَوَّلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِرَبِّكَ﴾ [هود: ١٧] وقوله: ﴿إِنَّ أَلْسِنَتَكَ يَذُوبُ مِنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]. وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، عجل إليك الشيب، قال: «شيبتي هود وأخواتها: الحاققة، والواقعة، وعم يتساءلون، وهل أتاك حديث الغاشية»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَيْتٌ أُنْكِرْتُمْ أَيُّنْتُمْ ثُمَّ قُضِلْتُمْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾

فأما «الر» فقد ذكرنا تفسيرها في سورة (يونس). قال الفراء: و «كَيْتٌ» مرفوع بالهجاء الذي قبله، كأنك قلت: حروف الهجاء هذا القرآن، وإن شئت رفعتها بإضمار «هذا كتاب»، والكتاب: القرآن. وفي قوله: ﴿أُنْكِرْتُمْ أَيُّنْتُمْ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أحكمت فما تُنسخُ بكتاب كما تُسخت الكتب والشرائع، قاله ابن عباس، واختاره ابن قتيبة. والثاني: أحكمت بالأمر والنهي، قاله الحسن، وأبو العالية. والثالث: أحكمت عن الباطل، أي: مُنعت، قاله قتادة، ومقاتل. والرابع: أحكمت بمعنى جُمعت، قاله ابن زيد. فإن قيل: كيف عمَّ الآيات هاهنا بالإحكام، وخص بعضها في قوله: ﴿يُنْهَىٰ أَيُّنْتُمْ تُحْكَمُتُّ﴾ [آل عمران: ٢٨]؟ فغنه جوابان: أحدهما: أن الإحكام الذي عمَّ به هاهنا غير الذي خصَّ به هناك. وفي معنى الإحكام العام خمسة أقوال، قد أسلفنا منها أربعة في قوله: ﴿أُنْكِرْتُمْ أَيُّنْتُمْ﴾. الخامس: أنه إعجاز النظم والبلاغة وتضمن الحكيم المعجزة. ومعنى الإحكام الخاص: زوال اللبس، واستواء السامعين في معرفة معنى الآية. والجواب الثاني: أن الإحكام في الموضوعين بمعنى واحد. والمراد بقوله: ﴿أُنْكِرْتُمْ أَيُّنْتُمْ﴾: أحكم بعضها بالبيان الواضح ومنع الالتباس، فأوقع العموم على معنى الخصوص، كما تقول العرب: قد أكلت طعام زيد، يعنون: بعض طعامه، ويقولون: قُتِلنا وربُّ الكعبة، يعنون: قُتِل بعضنا، ذكر ذلك ابن الأنباري. وفي قوله: ﴿ثُمَّ قُضِلْتُمْ سِتَّةَ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا: قُضِلْتُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: قُضِلْتُمْ بِالثَوَابِ وَالْعِقَابِ، رواه جسر بن فرقد عن الحسن. والثالث: قُضِلْتُمْ بِالْوَعْدِ وَالْوَعْدِ، رواه أبو بكر الهذلي عن الحسن أيضاً. والرابع: قُضِلْتُمْ بمعنى فُسِّرْتُمْ، قاله مجاهد. الخامس: أنزلت شيئاً بعد شيء، ولم تنزل جملة، ذكره ابن قتيبة. والسادس: قُضِلْتُمْ بجميع ما يُحتاج إليه من الدلالة على التوحيد، وثبتت نبوة الأنبياء، وإقامة الشرائع، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: من عنده.

﴿أَلَّا تَسْبُدُوا إِلَّا إِلَى اللَّهِ إِنَّي لَكُرْمَةٌ لِيَوْمِ يُنْفَخُ الْأَسْمَانُ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةُ فِي سَحَابٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾

﴿ذِي قَبْلِ قَسَمٍ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَّامٌ لِّسِرِّهِمْ قَبِيرٌ ﴿٤﴾

(١) جامع الترمذي، ١٦٢/٢، ولفظه: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شئت، قال: شيبتي هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه. قال الحافظ ابن حجر في «تخریج أحاديث الكشاف»: ٨٧، وأطال الدارقطني في ذكره، واختلاف طرقه في أوائل كتاب «العلل». وانظر الكلام على هذا الحديث في «المقاصد الحسنة» ٢٥٥، ٢٥٦. للحافظ السخاوي.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قال الفراء. المعنى: فصلت آياته بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا﴾. و «أَنْ» في موضع النصب بالفتحة الخافض. وقال الزجاج: المعنى: آمركم أن لا تعبدوا ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ وأن استغفروا. قال مقاتل: والمراد بهذه العبادة: التوحيد. والخطاب لكفار مكة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الاستغفار والتوبة هاهنا من الشرك، قاله مقاتل. والثاني: استغفروه من الذنوب السالفة، ثم توبوا إليه من المستأنفة متى وقعت. وذكر عن الفراء أنه قال: «ثم» هاهنا بمعنى الواو.

قوله تعالى: ﴿يَنْبَغِيكُمْ مِمَّا كَسَبْتُمْ﴾ قال ابن عباس: يفضل عليكم بالرزق والسعة. وقال ابن قتبية: يُعْمَرُكُمْ. وأصل الإمتاع: الإطالة، يقال: أمتع الله بك، ومتع الله بك، إمتاعاً ومتاعاً، والشئ الطويل: ممتع، يقال: جبل ممتع، وقد متع النهار: إذا تطاول. وفي المراد بالأجل المسمى قولان: أحدهما: أنه الموت، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقناة. والثاني: أنه يوم القيامة، قاله سعيد بن جبيرة.

قوله تعالى: ﴿رَبُّونِي كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَسَلِّمْ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: ويؤت كل ذي فضل من حسنةٍ وخيرٍ فضله، وهو الجنة. والثاني: يؤتبه فضله من الهداية إلى العمل الصالح. والثاني: أنها ترجع إلى العبد، فيكون المعنى: ويؤت كل من زاد في إحسانه وطاعته ثواب ذلك الفضل الذي زاده، فيفضله في الدنيا بالمتزلة الرفيعة، وفي الآخرة بالثواب الجزيل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تُعرضوا عما أمرتم به، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو مجلز، وأبو رجاء: «وإن تَوَلَّوْا» بضم التاء. ﴿فَإِنَّ آثَامَكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فيه إضمار «قتل». واليوم الكبير: يوم القيامة.

﴿أَلَا إِنَّكُمْ لَيْتُونَ سُدُورَهُمْ لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ أَوْ حِينٍ يَسْتَفْشِنُونَ يَأْتِبُهُمْ بَلْغَمٌ مَّا يُثِيرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ ذُرِّيٰتِ الْمَشْرِيقِ﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّكُمْ لَيْتُونَ سُدُورَهُمْ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أنها نزلت في الأخنس بن شريق، وكان يجالس رسول الله ﷺ ويحلف إنه ليحبّه، ويضمر خلاف ما يُظهر له، فنزلت فيه هذه الآية^(١)، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في ناس كانوا يستحيون أن يُفضوا إلى السماء في الخلاء ومجامعة النساء، فنزلت فيهم هذه الآية، رواه محمد بن عباد عن ابن عباس^(٢). والثالث: أنها نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مرّ برسول الله ﷺ، ثنى صدره وظهره وطأ رأسه وغطى وجهه لئلا يراه رسول الله، قاله عبد الله بن شداد. والرابع: أن طائفة من المشركين قالوا: إذا أغلقنا أبوابنا وأرخبنا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثبنا صدورنا على عداوة محمد ﷺ، كيف يعلم بنا؟ فأخبر الله عما كنتموا، ذكره الزجاج. والخامس: أنها نزلت في قوم كانوا لشدة عداوتهم رسول الله ﷺ إذا سمعوا منه القرآن حنّوا صدورهم، ونكسوا رؤوسهم، وتغشوا ثيابهم ليعد عنهم صوت رسول الله ﷺ ولا يدخل أسماعهم شيء من القرآن، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَوَّنُ سُدُورَهُمْ﴾ يقال: ثبت الشيء: إذا عطفته وطوبته. وفي معنى الكلام خمسة أقوال: أحدها: يكتون ما فيها من العداوة لمحمد ﷺ، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: يتنون صدورهم على الكفر، قاله مجاهد. والثالث: يحنونها لئلا يسمعوا كتاب الله، قاله قتادة. والرابع: يتنونها إذا ناجى بعضهم بعضاً في أمر رسول الله ﷺ، قاله ابن زيد. الخامس: يتنونها حياة من الله تعالى، وهو يخرج على ما حكينا عن ابن عباس. قال ابن الأنباري: وكان ابن عباس يقرؤها: «ألا إنهم تتنوني صدورهم» وفسرها أن ناساً كانوا يستحيون أن يُفضوا إلى السماء في الخلاء ومجامعة النساء. فتَنَوَّنِي: تَفْعُولٌ، وهو فعل للصدر، معناه: المبالغة في تثني الصدور، كما تقول العرب: أحلولى الشيء، يحلّولي: إذا بالغوا في وصفه بالحلاوة، قال عنترة:

(١) «أسباب النزول» للواحدي ١٥٣، عن الكلبي.

(٢) «البخاري» ٢٦٤/٨، و«الطبري» ٢٣٦/١٥، وخرجه السيوطي في «الدرر» ٣٢٠/٣ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

أَلَا قَاتِلَ آلِهِ الطُّلُوعِ البَوَالِيَا
وَقَوْلِكَ لِلسَّيِّئِ الَّذِي لَا تَنَالُهُ

وَقَاتِلَ ذِكْرَكَ السَّنِينَ الحَوَالِيَا^(١)
إِذَا مَا هُوَ اخْلَوْلَى أَلَا لَيْتَ ذَا لِيَا

فعلى هذا القول، هو في حق المؤمنين، وعلى بقية الأقوال، هو في حق المنافقين. وقد حُجِّج من هذه الأقوال في معنى «يَتَوَنُّ صُدُورُهُمْ» قولان: أحدهما: أنه حقيقة في الصدور. والثاني: أنه كتمان ما فيها. قوله تعالى: «لِيَسْتَخْفِرُوا مِنْهُ» في هاء «منه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى. والثاني: إلى رسوله ﷺ.

قوله تعالى: «أَلَا حِينَ يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ» قال أبو عبيدة: العرب تدخل «ألا» توكيداً وإيجاباً وتنبهياً. قال ابن قتيبة: يستغشون ثيابهم أي؛ يتغشونها ويستترون بها. قال قتادة: أخفى ما يكون ابن آدم، إذا حنى ظهره، واستغشى ثيابه، وأضر منه في نفسه. قال ابن الأنباري: أعلم الله أنه يعلم سرائرهم كما يعلم مظهراتهم. قوله تعالى: «إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ السُّدُورِ» وقد شرحناه في [آل عمران: ١١٩].

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَوْدِعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿١﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَبْتَاطُكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَكِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مُعْتَدُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾

قوله تعالى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ» قال أبو عبيدة: «من» من حروف الزوائد، والمعنى: وما دابة، والدابة: اسم لكل حيوان يذب. وقوله: «إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» قال العلماء: فضلاً منه، لا وجوباً عليه. و«على» هاهنا بمعنى «من». وقد ذكرنا المستقر والمستودع في سورة [الأنعام: ٦٧].

قوله تعالى: «كُلُّ فِي كِتَابٍ» أي: ذلك عند الله في اللوح المحفوظ، هذا قول المفسرين. وقال الزجاج: المعنى: ذلك ثابت في علم الله ﷻ.

قوله تعالى: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» قال ابن عباس: عرشه: سريره، وكان الماء إذ كان العرش عليه على الريح. قال قتادة: ذلك قبل أن يخلق السموات والأرض.

قوله تعالى: «يَبْتَاطُكُمْ» أي: ليختبركم الاختبار الذي يجازي عليه، فيثيب المعتمر بما يرى من آيات السموات والأرض، ويعاقب أهل العناد.

قوله تعالى: «أَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فيه أربعة أقوال: أحدها: أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله ﷻ، وأسرع في طاعة الله، رواه ابن عمر عن رسول الله ﷺ^(٢). والثاني: أيكم أعمل بطاعة الله، قاله ابن عباس. والثالث: أيكم أتم عقلاً، قاله قتادة. والرابع: أيكم أزهّد في الدنيا، قاله الحسن وسفيان.

قوله تعالى: «إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» قال الزجاج: السحر باطل عندهم، فكأنهم قالوا: إن هذا إلا باطل بين، فأعلمهم الله تعالى أن القدرة على خلق السموات والأرض تدل على بعث الموتى.

﴿ وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذْ كَانُوا يَتَّقُونَ مَا يَخِشُهُمْ أَلَا يَوْمَ يُنْفِخُ فِيهِمُ الْبُوقَ لَيَسِّرَنَّ اللَّهُ لَهُمُ الْمَخْرَجَ وَيَخْرِجُهُمْ مِنْهَا مُسَبِّحِينَ وَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ خُذُوا زِينَتَكُمْ لِيُخْرِجَكُم مِّنْهَا أَتَى اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى: «وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ» قال المفسرون: هؤلاء كفار مكة، والمراد بالأمة المعدودة: الأجل المعلوم، والمعنى: إلى مجيء أمة وانقراض أخرى قبلها. «لَيَقُولَنَّ مَا يَجِئُهُمْ» وإنما قالوا ذلك تكديباً واستهزاءً.

(١) «ديوانه» ١٩٢، ومختار الشعر الجاهلي» ١/ ٣٨٠. وقوله: قاتل الله، تعجب، وذكرك. تذكرك. يقول: قاتل الله الطلوع ما أجلها للأحزان، وأبعتها للشرق. واحلولى: حلي في عيك وسررت به. يقول: وقاتل قولك للشيء تحبه ولا تناله: ليت هذا الشيء لي.
(٢) «الطبري» ١٥/ ٢٥٠ - ٢٥١، وهو حديث ضعيف بمره، في سننه داود بن المحبر الطائي الثقفي صاحب كتاب «العقل»، وهو صاحب مناكير، وفيه أيضاً عبد الواحد بن زيد، منكر الحديث، ضعيف بمره. وذكره السيوطي في «الدرر» ٣/ ٣٢٢ من رواية داود بن المحبر في كتاب «العقل»، وزاد نسبه لابن أبي حاتم، والمحاكم في «التاريخ»، وابن مردويه.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ وقال: ﴿لَيْسَ مَمْرُوقًا عَنْهُمْ﴾. وقال بعضهم: لا يُصْرَف عنهم العذاب إذا أتاهم. وقال آخرون: إذا أخذتهم سيوف رسول الله ﷺ لم تُغمد عنهم حتى يباد أهل الكفر وتعلو كلمة الإخلاص.

قوله تعالى: ﴿وَوَافِّيهِمْ﴾ قال أبو عبيدة: نزل بهم وأصابهم. وفي قوله: ﴿فَمَا كَانُوا يَدْرُسُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنه الرسول والكتاب، قاله أبو صالح عن ابن عباس، فيكون المعنى: حاق بهم جزاء استهزائهم. والثاني: أنه العذاب، كانوا يستهزئون بقولهم: ﴿فَمَا يَحْيِسُهُ﴾، وهذا قول مقاتل.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، قاله ابن عباس. والثاني: في عبد الله بن أبي أمية المخزومي، ذكره الواحدي. والثالث: أن الإنسان هاهنا اسم جنس، والمعنى: ولئن أذقنا الناس، قاله الزجاج. والمراد بالرحمة: النعمة، من العافية، والمال، والولد. واليؤوس: القنوط، قال أبو عبيدة: هو فعول من يئس. قال مقاتل: إنه ليؤوس عند الشدة من الخير، كفور لله في نعمه في الرخاء.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبَةٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَنَجِحُ فَخُورٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً﴾ قال ابن عباس: صحة وسعة في الرزق. ﴿بَعْدَ ضَرْبَةٍ﴾ بعد مرض وفقر. ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ يريد الضر والفقر. ﴿إِنَّهُ لَنَجِحُ﴾ أي: يَبْطُرُ ﴿فَخُورٌ﴾ قال ابن عباس: يفاخر أوليائي بما أوسعت عليه. فإن قيل: ما وجه عيب الإنسان في قوله: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾، وما وجه ذمه على الفرح، وقد وصف الله الشهداء فقال: (فرحين)؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري، فقال: إنما عابه بقوله: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ لأنه لم يعترف بنعمة الله، ولم يحمده على ما صُرف عنه. وإنما ذمه بهذا الفرح، لأنه يرجع إلى معنى المرح والتكبر عن طاعة الله، قال الشاعر:

ولا يُنْسِينِي الْحَدَثَانُ عِزِّي
ولا أَلْقِي مِنَ الْمَرْحِ الْإِزَارَ^(١)

يعني من المرح. وفرح الشهداء فرح لا يبر فيه ولا خيلاء، بل هو مقرون بالشكر فهو مستحسن.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلِيمُوا الصَّلَاةِ أَذَلُّكَ لَهُمْ مَقْرَرٌ وَأَبْرٌ كَبِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ قال الفراء: هذا الاستثناء من الإنسان، لأنه في معنى الناس، كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ﴾ [المعمر: ٢، ٣]. وقال الزجاج: هذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن الذين صبروا. قال ابن عباس: الوصف الأول للكفار، والذين صبروا أصحاب محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَافِقًا بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ أَوْ جَاءَنَا مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ سبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: ﴿أَتَيْتَ بِشْرَةٍ أَوْ بَشِيرَةٍ هَذَا أَوْ بَدِيلُهُ﴾ [يونس: ١٥]، فهم النبي ﷺ لا أن يُسمعهم عيب آلهتهم رجاء أن يتبعوه، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: فلعلك تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك من أمر الآلهة، وضائق بما كلفته من ذلك صدرك، خشية أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز. والثاني: فلعلك لعظيم ما يرد على قلبك من تخليطهم تنوهم أنهم يُزيلونك عن بعض ما أنت عليه من أمر ربك. فأما الضائق، فهو بمعنى الضيق. قال الزجاج: ومعنى ﴿أَن يَقُولُوا﴾: كراهية أن يقولوا. وإنما عليك أن تنذرهم بما يوحى إليك، وليس عليك أن تأتيهم باقتراحهم من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الحافظ. والثاني: الشهيد، وقد ذكرناه في

[آل عمران: ١٧٣].

(١) البيت لابن أحمَر في مجاز القرآن ١١١/٢، وغيره، منسوب في الكامل ٤٠، ٦٧٣ وفيه: ولا أرضي من المرح الإزار.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنزَّلَهُ الْفَلَّانُ قَالَ فَاَتُوا بِسُورٍ مِّثْلِهِ مُمْرِنِينَ﴾ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ ﴿١٣﴾ فَلَا تَمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَإِنَّ إِلَهًا إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْجِلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنزَّلَهُ﴾ «أم» بمعنى «بل»، و«افتراه» أتى به من قبل نفسه. ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ أنتم في معارضتي ﴿بِسُورٍ مِّثْلِهِ﴾ في البلاغة ﴿مُمْرِنِينَ﴾ بزعمكم ودعواكم ﴿وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إلى المعاونة على المعارضة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ﴾ في قولكم: «افتراه». ﴿فَلَا تَمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: يجيبوكم إلى المعارضة، فقد قامت الحجة عليهم لكم. فإن قيل: كيف وحّد القول في قوله: «قل فأتوا» ثم جمع في قوله: «فإن لم يستجيبوا لكم»؟ فنه جوابان: أحدهما: أن الخطاب للنبي ﷺ وحده في الموضوعين، فيكون الخطاب له بقوله: «لكم» تعظيماً، لأن خطاب الواحد بلفظ الجميع تعظيم، هذا قول المفسرين. والثاني: أنه وحّد في الأول لخطاب النبي ﷺ. وجمع في الثاني المخاطبة النبي ﷺ وأصحابه، قاله ابن الأباري.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنزله وهو عالم بإنزاله، وعالم بأنه حق من عنده. والثاني: أنزله بما أخبر فيه من الغيب، ودلّ على ما سيكون وما سلف، ذكرهما الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلَهًا إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا ذلك. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْجِلُونَ﴾ استفهام بمعنى الأمر. وفيمن خوطب به قولان: أحدهما: أهل مكة، ومعنى إسلامهم: إخلاصهم لله العباد، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ، قاله مجاهد.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نَوْفَ إِلَيْهِمْ أَصْلَحْنَاهُمْ فِيهَا وَفَزَّ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها عامة في جميع الخلق، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنها في أهل القبلة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنها في اليهود والنصارى، قاله أنس. والرابع: أنها في أهل الرياء، قاله مجاهد. وروى عطاء عن ابن عباس: من كان يريد عاجل الدنيا ولا يؤمن بالبعث والجزاء. وقال غيره: إنما هي في الكافر، لأن المؤمن يريد الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿نَوْفَ إِلَيْهِمْ أَصْلَحْنَاهُمْ﴾ أي: أجور أعمالهم ﴿فِيهَا﴾. قال سعيد بن جبير: أعطوا ثواب ما عملوا من خير في الدنيا. وقال مجاهد: مَنْ عمل عملاً من صلة، أو صدقة، لا يريد به وجه الله، أعطاه الله ثواب ذلك في الدنيا، ويدراً به عنه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَفَزَّ فِيهَا﴾ قال ابن عباس: أي في الدنيا. ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: لا يُنقصون من أعمالهم في الدنيا شيئاً. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ عملوا لغير الله ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا﴾ أي: ما عملوا في الدنيا من حسنة ﴿وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لغير الله ﴿يَعْمَلُونَ﴾

فصل

وذكر قوم من المفسرين، منهم مقاتل، أن هذه الآية اقتضت أن من أراد الدنيا بعمله، أعطي فيها ثواب عمله من الرزق والخير، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿عَمَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، وهذا لا يصح، لأنه لا يوفى إلا لمن يريد.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَوَسَّوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مَوْسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَاتِلًا تَوَعَّدُهُ فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُرْمَوْنَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ آلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ في المراد باليمنة أربعة أقوال: أحدها: أنها الدين، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها رسول الله ﷺ، قاله الضحاك. والثالث: القرآن، قاله ابن زيد. والرابع: البيان، قاله مقاتل.

وفي المشار إليه بـ «مَنْ» قولان: أحدهما: أنه رسول الله ﷺ، قاله ابن عباس والجمهور. والثاني: أنهم المسلمون، وهو يخرج على قول الضحاك. وفي قوله: «وَيَتْلُوهُ» قولان: أحدهما: يتبعه. والثاني: يقرؤه. وفي هاء «يتلوه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى النبي ﷺ. والثاني: إلى القرآن، وقد سبق ذكره في قوله: «فَأَتُوا بِحِثْرِ سُوْرٍ يُنْتَلَى مِنْفَرَيْنِ» [هود: ١٣]. وفي المراد بالشاهد ثمانية أقوال: أحدها: أنه جبريل، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم في آخرين. والثاني: أنه لسان رسول الله ﷺ الذي كان يتلو القرآن، قاله علي بن أبي طالب، والحسن، وقتادة في آخرين. والثالث: أنه علي بن أبي طالب. و«يتلوه» بمعنى يتبعه، رواه جماعة عن علي بن أبي طالب، وبه قال محمد بن علي، وزيد بن علي. والرابع: أنه رسول الله ﷺ هو شاهد من الله تعالى، قاله الحسين بن علي ﷺ. الخامس: أنه ملك يحفظه ويسدده، قاله مجاهد. والسادس: أنه الإنجيل يتلو القرآن بالتصديق، وإن كان قد أنزل قبله، لأن النبي ﷺ بشرت به التوراة، قاله الفراء. والسابع: أنه القرآن ونظمه وإعجازه، قاله الحسين بن الفضل. والثامن: أنه صورة رسول الله ﷺ ووجهه ومخايله، لأن كل عاقل نظر إليه علم أنه رسول الله ﷺ. وفي هاء «منه» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الله تعالى. والثاني: إلى النبي ﷺ. والثالث: إلى البيئة.

قوله تعالى: «وَرَيْنَ قَبْلِهِ» في هذه الهاء ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى النبي ﷺ، قاله مجاهد. والثاني: إلى القرآن، قاله ابن زيد. والثالث: إلى الإنجيل، أي: ومن قبل الإنجيل «كُتِبَ مُوسَى» يتبع محمداً بالتصديق له، ذكره ابن الأنباري. قال الزجاج: والمعنى: وكان من قبل هذا كتاب موسى دليلاً على أمر النبي ﷺ، فيكون «كُتِبَ مُوسَى» عطفاً على قوله: «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» أي: ويتلوه كتاب موسى، لأن موسى بشرًا بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل. ونصب «إماماً» على الحال. فإن قيل: كيف تتلوه التوراة، وهي قبله؟ قيل: لما بشرت به، كانت كأنها تالية له، لأنها تبعته بالتصديق له. وقال ابن الأنباري: «كُتِبَ مُوسَى» مفعول في المعنى، لأن جبريل تلاه على موسى، فارتفع الكتاب، وهو مفعول بمضمر بعده، تأويله: ومن قبله كتاب موسى كذلك، أي: تلاه جبريل أيضاً، كما تقول العرب: أكرمت أخاك وأبوك، فيرفعون الأب، وهو مكرم على الاستئناف، بمعنى: وأبوك مكرم أيضاً. قال: وذهب قوم إلى أن «كُتِبَ مُوسَى» فاعل، لأنه تلا محمداً بالتصديق كما تلاه الإنجيل.

فصل

فتلخيص الآية: أضمن كان على بيئته من ربه كمن لم يكن؟ قال الزجاج: ترك المضاد له، لأن في ما بعده دليلاً عليه، وهو قوله: «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا» [هود: ٢٤]. وقال ابن قتيبة: لما ذكر قبل هذه الآية قولاً ركنوا إلى الدنيا، جاء بهذه الآية، وتقدير الكلام: أضمن كانت هذه حاله كمن يريد الدنيا؟ فاكتمى من الجواب بما تقدم، إذ كان فيه دليل عليه. وقال ابن الأنباري: إنما حذف لانكشاف المعنى، والمحذوف المقدر كثير في القرآن والشعر، قال الشاعر:

فَأَقْسِمُ لَوْ شِئْتُ أَنَا نَا رَسُولُهُ

سِوَاكَ، وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لِكَ مَدْفَعاً^(١)

فإن قلنا: إن المراد بمن كان على بيئته من ربه، رسول الله ﷺ، فمعنى الآية: ويتبع هذا النبي شاهد، وهو جبريل ﷺ «منه» أي: من الله. وقيل: «شاهد» هو علي بن أبي طالب، «منه» أي: من النبي ﷺ. وقيل: «يتلوه» يعني القرآن، يتلوه جبريل، وهو شاهد لمحمد ﷺ أن الذي يتلوه جاء من عند الله تعالى. وقيل: ويتلو رسول الله ﷺ القرآن وهو شاهد من الله. وقيل: ويتلو لسان رسول الله ﷺ القرآن، فلسانه شاهد منه. وقيل: ويتبع محمداً شاهد له بالتصديق، وهو الإنجيل من الله تعالى. وقيل: ويتبع هذا النبي شاهد من نفسه، وهو سمته وهدية الدال على صدقه.

(١) البيت لامرئ القيس: «ديوانه» ٢٤٢، و«الطبري» ١٧٧/١٥، و«مشكل القرآن» ١٦٦، و«الخزانة» ٢٢٧/٤. قوله: لو شيء، يريد: لو أحد، وليس لـ «لو» هنا جواب، كما أمسك عن الجواب في قوله تعالى: «وَرَوَى أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ» [الرعد: ٣] فنقول: لو أحد أنا رسول الله ﷺ، ولكننا لم ندفعك عن ذلك.

وإن قلنا: إن المراد بمن كان على بيّنة من ربه المسلمون، فالمعنى: أنهم يتبعون رسول الله ﷺ وهو البيّنة، ويتبع هذا النبي شاهد له بصدقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا رَزَّحِمَةٌ﴾ إنما سماه إماماً، لأنه كان يهتدى به، «ورحمة» أي: وذا رحمة، وأراد بذلك التوراة، لأنها كانت إماماً وسبباً لرحمة من آمن به.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إشارة إلى أصحاب موسى. والثاني: إلى أصحاب محمد ﷺ. والثالث: إلى أهل الحق من أمة موسى وعيسى ومحمد. وفي هاء «به» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى التوراة. والثاني: إلى القرآن. والثالث: إلى محمد ﷺ. وفي المراد بالأحزاب هاهنا أربعة أقوال: أحدها: جميع الملل، قاله سعيد بن جبير. والثاني: اليهود والنصارى، قاله قتادة. والثالث: قريش، قاله السدي. والرابع: بنو أمية، وبنو المغيرة بن عبد الله المخزومي، وآل أبي طلحة بن عبد العزى، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْتَأَمُّ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: إليها مصيره، قال حسان بن ثابت:

أُورِدْتُمْوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ صَاحِبِيَّةً فَالْتَأَمُّ مَوْعِدُهَا وَالْمَوْتُ لِأَقْبِيهَا^(١)

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِّنْهُ﴾ قرأ الحسن، وكتادة: «مُرية» بضم الميم أين وقع. وفي المكني عنه قولان: أحدهما: أنه الإخبار بمصير الكافر به، فالمعنى: فلا تك في شك أن موعد المكذب به النار، وهذا قول ابن عباس. والثاني: أنه القرآن، فالمعنى: فلا تك في شك من أن القرآن من الله تعالى، قاله مقاتل. قال ابن عباس: والمراد بالناس هاهنا: أهل مكة.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَمْزُورُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ قال الزجاج: ذكر عرضهم توكيداً لحالهم في الانتقام منهم، وإن كان غيرهم يعرض أيضاً. فأما «الأشهاد» ففيهم خمسة أقوال: أحدها: أنهم الرسل، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الملائكة، قاله مجاهد، وكتادة. والثالث: الخلائق، روي عن قتادة أيضاً. وقال مقاتل: «الأشهاد» الناس، كما يقال: على رؤوس الأشهاد، أي: على رؤوس الناس. والرابع: الملائكة والنبيون وأمة محمد ﷺ يشهدون على الناس، والجوارح تشهد على ابن آدم، قاله ابن زيد. الخامس: الأنبياء والمؤمنون، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: وفائدة إخبار الأشهاد بما يعلمه الله: تعظيم بالأمر المشهود عليه، ودفع المجاهدة فيه.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَابًا وَمُمْ بِالْآخِرَةِ مُمْ كَفِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قد تقدم تفسيرها في [الأعراف: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَمُمْ بِالْآخِرَةِ مُمْ كَفِرُونَ﴾ قال الزجاج: ذكرت «هم» ثانية على جهة التوكيد لشأنهم في الكفر. ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِبِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضْمَعُونَ أَلَسَمَعَ وَمَا كَانُوا يَمْسُرُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِبِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: لم يُعْجِزُونِي أَنْ أَمْرَ الْأَرْضِ فَتُخَسَفَ بِهِمْ. ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا ولي لهم ممن يعبدون يمنهم مني. وقال ابن الأنباري: لما كانت عادة العرب جارية بقولهم: لا ورر لك مني ولا نقق، يعنون بالوزر: الجبل، والنقق: السرب، وكلاهما يلجأ إليه الخائف، أعلم الله تعالى أن هؤلاء الكافرين لا يسبقونه هرباً، ولا يجدون ما يحجز بينهم وبين عذابه من جميع ما يستر من الأرض ويلجأ إليه. قال: وقوله: «من أولياء» يقتضي محذوفاً، تليخيه: من أولياء يمنعونهم من عذاب الله، فحذف هذا لشهرته.

قوله تعالى: ﴿يُضْمَعُونَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِبِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في دار الدنيا، ولا لهم ولي يمنع من انتقام الله، ثم استأنف بهم. وقال الزجاج: ﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِبِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في دار الدنيا، ولا لهم ولي يمنع من انتقام الله، ثم استأنف بهم. ﴿يُضْمَعُونَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِبِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ لعظم كفرهم بنبيه وبالبعث والشور.

(١) «ديوانه» ٤٢٤. والفاضية: من الإبل والغنم: التي تشرب ضحى، وهي هنا على المثل، وحياض الموت ترشيح.

قوله تعالى: ﴿مَا كَأَنَّ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ فيمن عَنِي بهذا قولان: أحدهما: أنهم الكفار. ثم في معناه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم لم يقدرُوا على استماع الخير، وإبصار الحق، وفعل الطاعة، لأن الله تعالى حال بينهم وبين ذلك، هذا معنى قول ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أن المعنى: يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع ولا يسمعون، وبما كانوا يبصرون حُجج الله ولا يعتبرون بها، فحذف الباء، كما تقول العرب: لأجزيتك ما عملت، وبما عملت، ذكره الفراء، وأشد ابن الأباري في الاحتجاج له:

نُغَالِي اللَّحْمَ لِلأَصْيَافِ نَيْشًا

وَنَبْذُلُهُ إِذَا نَضِجَ القُدُورُ^(١)

أراد: نُغَالِي باللحم. والثالث: أنهم من شدة كفرهم وعداوتهم للنبي ﷺ ما كانوا يستطيعون أن يفهموا ما يقول، قاله الزجاج. والقول الثاني: أنهم الأصنام، فالمعنى: ما كان للألهة سمع ولا بصر، فلم تستطع لذلك السمع، ولم تكن تبصر. فعلى هذا، يرجع قوله: ﴿مَا كَأَنَّ﴾ إلى أوليائهم، وهي الأصنام، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس أيضاً. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾^(٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَحَلَمُوا الصَّالِحِينَ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣١﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْيُنِ وَالأَصْمِيرِ وَالسَّيِّعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَقَلًا نَذْرُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال ابن عباس: يريد: حقاً إنهم الأخسرون. وقال الفراء: «لاجرم» كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة، فجرت على ذلك، وكثر استعمالهم إياها حتى صارت بمنزلة «حقاً»، ألا ترى أن العرب تقول: لا جرم لأنتيك، لا جرم لقد أحسنت، وأصلها من جرمت، أي: كسبت الذنب. قال الزجاج: ومعنى «لاجرم»: «لا» نفي لما ظنوا أنه يفعلهم، كأن المعنى: لا يفهم ذلك جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون، أي: كسب لهم ذلك الفعلُ الخسران. وذكر ابن الأباري أن «لا» رد على أهل الكفر فيما قَدَرُوهُ من اندفاع الشر عنهم في الآخرة، والمعنى: لا يندفع عنهم عذابي، ولا يجدون ولياً يصرف عنهم نقمتي، ثم ابتداء مستأنفاً «جرم»، قال: وفيها قولان: أحدهما: أنها بمعنى: كسب كفرهم وما قَدَرُوا من الباطل وقوع العذاب بهم. فـ «جرم» فعل ماضٍ، معناه: كسب، وفاعله مُضمَر فيه من ذكر الكفر وتقرير الباطل. والثاني: أن معنى جرم: أحمقٌ وصَحَّحٌ، وهو فعل ماضٍ، وفاعله مضمَر فيه، والمعنى: أحمقٌ كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم، قال الشاعر^(٣):

وَلَقَدْ طَعَنْتَ أبا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً

جَرَمْتَ فَرَاةَ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا^(٣)

أراد: حقت الطعنة فزارة بالغضب. ومن العرب من يغيِّرُ لفظ «جرم» مع «لا» خاصة، فيقول بعضهم: «لاجرم»، ويقول آخرون: «لاجرم» بإسقاط الميم، ويقال: «لا إذا جرم» و«لا إذا جر» بغير ميم، و«لا إن ذا جرم» و«لا عن ذا جرم»، ومعنى اللغات كلها: حقاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: خافوا ربهم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنابوا إلى ربهم، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: تابوا إلى ربهم، قاله قتادة. والرابع: اطمأنوا، قاله مجاهد. والخامس: أخلصوا، قاله مقاتل. والسادس: تخشعوا لربهم، قاله الفراء. والسابع: تواضعوا لربهم، قاله ابن قتيبة. فإن قيل: لم أوثرت «إلى» على اللام في قوله: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾، والعادة جارية بأن يقال: أخبتوا لربهم؟ فالجواب: أن المعنى: وَجَّهُوا خَوْفَهُمْ وخشوعهم وإخلاصهم إلى ربهم، واطمأنوا إلى ربهم. قال الفراء: وربما جعلت العرب «إلى» في موضع اللام، كقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾^(٤) [الزلازل: ٥٥]، وقوله: ﴿الَّذِي هَدَيْتَنَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقد يجوز في العربية: فلان يخبت إلى الله، يريد يفعل ذلك موجهً إلى الله. قال بعض المفسرين: هذه الآية نازلة في أصحاب رسول الله ﷺ، وما قبلها نازل في المشركين. ثم ضرب للفريقين مثلاً، فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْيُنِ وَالأَصْمِيرِ﴾

(١) تقدم البيت ٥٦٨.

(٢) نسبة البطليوسي في «الافتضاب» لأبي أسماء بن الضرية، وقيل: بل هو لعطية بن عفيف.

(٣) «مجاز القرآن» ١٤٧/١، و«الافتضاب» ٣١٣، و«ميسبوه» ٤١٨/١، و«معاني القرآن» ٨٠، و«القرطبي» ٤٥/٦، و«اللسان»، و«التاج»: جرم، و«الخزائن» ٣١٠/٤، و«شواهد الكشاف» ٢٢.

قال مجاهد: الفريقان: المؤمن والكافر. فأما الأعمى والأصم فهو الكافر، وأما البصير والسميع فهو المؤمن. قال قتادة: الكافر عَمِيَ عن الحق وُصِمَّ عنه، والمؤمن أَبْصَرَ الحقَ وسمِعَهُ ثم انتفع به. وقال أبو عبيدة: في الكلام ضمير، تقديره: مثل الفريقين كمثل الأعمى. وقال الزجاج: مثل الفريقين المسلمين كالبصير والسميع، ومثلن فريق الكافرين كالأعمى والأصم، لأنهم في عداوتهم وتركهم للفهم بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستويان في المشابهة؟ والمعنى: كما لا يستويان عندكم، كذلك لا يستوي المؤمن والكافر عند الله. وقال أبو عبيدة: «هل» هاهنا بمعنى الإيجاب، لا بمعنى الاستفهام، والمعنى: لا يستويان. قال الفراء: وإنما لم يقل: «يستون» لأن الأعمى والأصم من صفة واحد، والسميع والبصير من صفة واحد، كقول القائل: مررت بالعاقل واللييب، وهو يعني واحداً، قال الشاعر:

وما أذري إذا يَمُنْتُ أرضاً أريدُ الخَيْرَ أيهما يَلِينِي^(١)

قال: أيهما. وإنما ذكر الخير وحده، لأن المعنى يُعرف، إذ المبتغي للخير متي للشر. وقال ابن الأنباري: الأعمى والأصم صفتان لكافر، والسميع والبصير صفتان لمؤمن، فَرُدُّ الفعلُ إلى الموصوفين بالأوصاف الأربعة، كما تقول: العاقل والعالم، والظالم والجاهل، حضراً مجلسي، فثبتي الخبر بعد ذكرك أربعة، لأن الموصوف بالعلم هو الموصوف بالعقل، وكذلك المنعوت بالجهل هو المنعوت بالظلم، فلما كان المنعوتان اثنين، رجع الخبر إليهما، ولم يُلتفت إلى تفریق الأوصاف، ألا ترى أنه يسوغ أن تقول: الأديب واللييب والكریم والجميل قصدي، فتوحد الفعل بعد أوصاف لعله أن الموصوف بهن واحد، ولا يمتنع عطف النعوت على النعوت بحروف العطف، والموصوف واحد، فقد قال تعالى: ﴿التَّحِيُّنُ الْكَيْدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] ثم قال: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فلم يقتض دخول الواو وقوع خلاف بين الأمرين والناهين، وقد قيل: الأمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر في حال أمره، وكان دخول الواو دلالة على الأمر بالمعروف، لأن الأمر بالمعروف لا ينفرد دون النهي عن المنكر، كما ينفرد الحامدون بالحمد دون الساتحين، والساتحون بالسياحة دون الحامدين، ويدل أيضاً على أن العرب تنسق النعت على النعت والمنعوت واحد، كقول الشاعر يخاطب سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان:

يَسْطَنُ سَعِيدٌ وابْنُ عمرو بِأَنْتِي إذا سَامَنِي ذَلًّا أَكْبُونُ به أَرْضِي

فسق ابن عمرو على سعيد، وهو سعيد.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِذْ قَامٍ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦١﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْرِ ﴿٦٢﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرْبِكَ إِلَّا يَسْرًا يَتْلُونَ مَا تَرْبِكَ أَنْتَ لَكِ الْآيَاتُ هُمْ أَأَوْلَاؤُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا رَبِّي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نُنَاقِظُكُمْ كَذِبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ يَقُولُونَ هِيَ لَكُنْ عَلَىٰ يَدَيْكَ وَإِنِّي نَجِيٌّ مِنَ عَذَابِهِ فَمُيَّبِتٌ عَلَيْكَ أَنْزِيلُهُ وَمَا أَنْتَ لَهُمْ كَارِهِونَ ﴿٦٤﴾ وَيَقُولُونَ لَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا آتَا يَطَّارِدُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْمَعُونَ رَبِّهِمْ وَلِكُلِّ قَوْمًا مَبْعُوثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِذْ قَامٍ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي «إني» بفتح الألف، والتقدير: أرسلناه بأنى، وكان الوجه بأنه لهم نذير، ولكنه على الرجوع من الإخبار عن الغائب إلى خطاب نوح قومه. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة «إني» بكسر الألف، فحملوه على القول المضمر، والتقدير: فقال لهم: إني لكم نذير.

قوله تعالى: ﴿مَا تَرْبِكَ إِلَّا يَسْرًا يَتْلُونَ﴾ أي: إنساناً مثلنا، لا فضل لك علينا. فأما الأراذل، فقال ابن عباس: هم السَّفَلَةُ. وقال ابن قتيبة: هم جمع «أرذل»، يقال: رجل رَذُلٌ، وقد رَذُلَ رذالة ورُدُولَةٌ. ومعنى الأراذل: الشرار. قوله تعالى: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ قرأ الأماشيون «بادي» بغير همز. وقرأ أبو عمرو بالهمز بعد الدال. وكلهم همز «الرأي»

غير أبي عمرو. وللعلماء في معنى «بادي» إذا لم يُهمز ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: ما نرى أتباعك إلا سفلتنا وأردالنا في بادي الرأي لكل ناظر، يعنون أن ما وصفناهم به من النقص لا يخفى على أحد فيخالفنا، هذا مذهب مقاتل في آخرين. والثاني: أن المعنى أن هؤلاء القوم أتبعوك في ظاهر ما يُرى منهم، وطوّرتهم على خلافك. والثالث: أن المعنى: اتبعوك في ظاهر رأيهم، ولم يتدبروا ما قلت، ولو رجعوا إلى التفكير لم يتبعوك، ذكر هذين القولين الزجاج. قال ابن الأنباري: وهذه الثلاثة الأقوال على قراءة من لم يهمز، لأنه من بدا، يبدو؛ إذا ظهر. فأما من همز «بادي» فمعناه: ابتداء الرأي، أي أتبعوك أول ما ابتدؤوا ينظرون، ولو فكروا لم يعدلوا عن موافقتنا في تكذيبك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا زَيْ لَكُمْ هَلِيًا مِنْ فَضْلٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من فضل في الخلق، قاله ابن عباس. والثاني: في الملك والمال ونحو ذلك، قاله مقاتل. والثالث: ما فُضِّلتم بأتباعكم نوحاً، ومخالفتكم لنا بفضيلة نتبعكم طلباً لها، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿بَلْ تَطْلُكُم كَلْبِيَّةٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: تتيقنكم، قاله الكلبي. والثاني: نحسبكم، قاله مقاتل. قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ يَتَوَكَّرُونَ﴾ أي: على يقين وبصيرة. قال ابن الأنباري: وقوله: «إن كنت» شرط لا يوجب شكاً يلحقه، لكن الشك يلحق المخاطبين من أهل الزيف، فتقديره: إن كنتُ على بينة من ربي عندهم. ﴿وَمَا لَكُنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها النبوة، قاله ابن عباس. والثاني: الهداية، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمُ الْعَيْنُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «فَعَمِيَّتْ» بتخفيف الميم وفتح العين. قال ابن قتيبة: والمعنى: عميت عنها، يقال: عمي عليّ هذا الأمر؛ إذا لم أفهمه، وعميت عنه بمعنى. قال الفراء: وهذا مما حوّلت العرب الفعل إليه، وهو في الأصل لغيره، كقولهم: دخل الخاتم في يدي، والخف في رجلي، وإنما الإصبع تدخل في الخاتم، والرجل في الخف، واستجازوا ذلك إذ كان المعنى معروفاً. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «فَعَمِيَّتْ» بضم العين وتشديد الميم. قال ابن الأنباري: ومعنى ذلك: فعَمَّها الله عليكم إذ كنتم ممن حُكِم عليه بالشقاء. وكذلك قرأ أبي بن كعب، والأعمش: «فَعَمَّها عليكم». وفي المشار إليها قولان: أحدهما: البينة. والثاني: الرحمة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَكْمُوهَا﴾ أي: أُلزَمكم قولها؟ وهذا استفهام معناه الإنكار، يقول: لا تقدر أن تُلزمكم من ذات أنفسنا. قال قتادة: والله لو استطاع نبي الله ﷺ لألزمها قومه، ولكن لم يملك ذلك. وقيل: كان مراد نوح ﷺ ردّ قولهم: ﴿وَمَا زَيْ لَكُمْ هَلِيًا مِنْ فَضْلٍ﴾ فبين فضلهم وفضل من آمن به بأنه على بينة من ربه، وقد آتاه رحمة من عنده، وسلب المكذِبون ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على نصحي ودعائي إياكم «مَالاً» فتتهموني. وقال ابن الأنباري: لما كانت الرحمة بمعنى الهدى والإيمان، جاز تذكيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَاسَأُوا﴾ قال ابن جريج: سأله طردهم أفنة منهم، فقال: لا يجوز لي طردهم، إذ كانوا يلقون الله فيجزئهم بإيمانهم، ويأخذ لهم ممن ظلمهم وصغر شؤونهم. وفي قوله: ﴿وَلَكِنِّي أَزْكُرُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ قولان: أحدهما: تجهلون أن هذا الأمر من الله تعالى، قاله ابن عباس. والثاني: تجهلون لأمركم إياي بطرد المؤمنين، قاله أبو سليمان.

﴿وَيَتَقَوَّرُونَ﴾ من يَضْرِبُ مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْبَيْتَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَوَّجُوكُمُ أَيُّنَّكُمْ اللَّهُ خَيْرًا مِنْ اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّهُ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْشُوعُ قَدْ جَدَدْنَا مَا كُنْتُمْ جَدَلْنَا فَأَنَّا يَمَّا هَدَدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا بِأَيْدِيكُمْ يُهَاجِرُ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُتَّبِعٍ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُصْحَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَتَقَوَّرُونَ﴾ أي: من يمنعني من عذاب الله إن طردهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ قال ابن الأنباري: أراد بالخزائن: علم الغيب المطوي عن الخلق،

لأنهم قالوا له: إنما أتبعك هؤلاء في الظاهر وليسوا معك، فقال لهم: ليس عندي خزائن غيوب الله فأعلم ما تنطوي عليه الضمائر. وإنما قيل للغيب: خزائن، لغموضها عن الناس واستتارها عنهم. قال سفيان بن عيينة: إنما آيات القرآن خزائن، فإذا دخلت خزنة فاجتهد أن لا تخرج منها حتى تعرف ما فيها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ قيل: إنما قال لهم هذا، لأن أرضهم أجديت، فسألوه: متى يجيء المطر؟ وقيل: بل سألوه: متى يجيء العذاب؟ فقال: ولا أعلم الغيب. وقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لِي مَلِكٌ﴾ جواب لقولهم: ﴿مَا رَبُّكَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [هود: ٢١٧]. ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: تحتقر وتستصغر المؤمنين. قال الزجاج: «تزدري» تستقل وتستخس، يقال: زريت على الرجل: إذا عبت عليه وخسست فعله، وأزريت به: إذا قصرت به. وأصل تزدري: تزتري، إلا أن هذه التاء تبدل بعد الزاي دالاً، لأن التاء من حروف الهمس، وحروف الهمس خفية، فالتاء بعد الزاي تخفى، فأبدلت منها الدال لجهرها.

قوله تعالى: ﴿لَنْ يُؤْمِنَهُمْ اللَّهُ حَتَّىٰ﴾ قال ابن عباس: إيماناً. ومعنى الكلام: ليس لي أن أطلع على ما في نفوسهم فأقطع عليهم شيء، وليس لاحترقكم إياهم يبطل أجرهم. ﴿إِنِّي إِذَا لَيِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن قلت هذا الذي تقدم ذكره، وقيل: إن طردتهم.

قوله تعالى: ﴿فَدَّ جَدَدُنَا﴾ قال الزجاج: الجدال: هو المبالغة في الخصومة والمناظرة، وهو مأخوذ من الجدل، وهو شدة القتال، ويقال للصرق: أجدل، لأنه من أشد الطير. ويُقرأ «جَدُنَا».

قوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا صَدَقْنَا﴾ قال ابن عباس: يعنون العذاب. ﴿إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنه يأتينا.

قوله تعالى: ﴿إِن أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ﴾ أي أنصحكم. وفي هذه الآية شرطان، فجواب الأول النصح، وجواب الثاني النفع.

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَوِّغَكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يُضلكم، قاله ابن عباس. والثاني: يُهلككم، حكاه ابن الأنباري. وقال: هو قول مرغوب عنه. والثالث: يضللكم ويهلككم، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي: هو أولى بكم، يتصرف في ملكه كما يشاء ﴿وَالَّذِي تُرْمَوْنَ﴾ بعد الموت.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُمْ بِمَاءٍ غَيْرِ غَيْرِمْ﴾ ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٢١٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ قال الزجاج: المعنى: أيقولون: (افتراء؟) قال ابن قتيبة: الافتراء: الاختلاق. ﴿فَمَلَكُ إِجْرَامِي﴾ أي: جرم ذلك الاختلاق إن كنت فعلت. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في التكذيب. وقرأ أبو المتوكل، وابن السميع: «فعلني إجرامي» بفتح الهمزة.

﴿وَأُرْحَىٰ إِكُّ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ فَلَا يَبْتَئِسُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُرْحَىٰ إِكُّ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ﴾ قال المفسرون: لما أوحى إليه هذا، استجاز الدعاء عليهم، فقال: ﴿لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَبَابًا﴾ [نوح: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَبْتَئِسُ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: لا تحزن. وقال الفراء، والزجاج: لا تستكن ولا تحزن.

قال أبو صالح عن ابن عباس: فلا تحزن إذا نزل بهم الغرق ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا نَحْطِيبُنِي فِي الْذِّبَنِ طَلَمَوْا إِلَيْهِمْ مُتَّفِرُونَ﴾ ﴿٢١٩﴾ وَصْنَعُ الْفُلَكِ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ سَخِرُوا مِنَّا إِنَّا نَسَخِّرُ مِنْكُمْ كَمَا سَخَّرُونَ ﴿٢٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ﴾ أي: وأعمل السفينة. وفي قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: برأى منا، قاله ابن عباس. والثاني: بحفظنا، قاله الربيع. والثالث: بعلمنا، قاله مقاتل. قال ابن الأنباري: إنما جمع على مذهب

العرب في إيقاعها الجمع على الواحد، تقول: خرجنا إلى البصرة في السفن، وإنما جمع، لأن من عادة الملك أن يقول: أمرنا ونهينا. وفي قوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ قولان: أحدهما: وأمرنا لك أن تصنعها. والثاني: وبتعليمنا إياك كيف تصنعها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: لا تسألني الصّحف عنهم. والثاني: لا تخاطبني في إهمالهم. وإنما نهي عن الخطاب في ذلك صيانة له عن سؤال لا يجاب فيه.

الإشارة إلى كيفية عمل السفينة

روى الضحاك عن ابن عباس قال: كان نوح يُضرب ثم يُلْفُ في لَبْدٍ فيُلْقَى في بيته، يُرَوَّن أنه قدم مات، ثم يخرج فيدعوهم. حتى إذا يش من إيمان قومه، جاءه رجل ومعه ابنة وهو يتوكأ على عصاً، فقال: يا بني، انظر هذا الشيخ لا يفررك، قال: يا أبت أمكني من العصا، فأخذها فضربه ضربةً شجّه مؤصحة^(١)، وسالت الدماء على وجهه، فقال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدّم، وإلا فصبّرني إلى أن تحكم، فأوحى الله إليه ﴿أَنْتَ كَنْ يُؤْتِكُ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّ﴾، قال يا رب، وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء أنتجى فيه أهل طاعتي، وأغرق أهل معصيتي، قال: يا رب، وأين الماء؟ قال: إني على ما أشاء قدير، قال: يا رب، وأين الخشب؟ قال: اغرس الشجر، فغرس الساج^(٢) عشرين سنة، وكفّت عن دعائهم، وكفّوا عنه، إلا أنهم يستهزئون به، فلما أدرك الشجر، أمره ربه، فقطعه وجفّفه ولقّفه، فقال: يا رب، كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور، رأسه كراس الطاوس، وجوّؤه كجوّؤ الطائر، وذنبه كذنب الديك، واجعلها مطبقة، وبعث الله إليه جبريل يعلمه، وأوحى الله إليه أن عجّل عمل السفينة فقد اشتد غضبي على من عصاني، فاستاجر نجارين يعملون معه، وسام، وجام، ويافت، معه ينتحون السفينة، فجعل طولها ستمائة ذراع، وعرضها ثلاثمائة وثلاثين ذراعاً، وعلوها ثلاثاً وثلاثين، وفجّر الله له عين القار تغلي غلياناً حتى طلاها. وعن ابن عباس قال: جعل لها ثلاث بطون، فحمل في البطن الأول الوحوش والسباع والهوام، وفي الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه البطن الأعلى. وروي عن الحسن أنه قال: كانت سفينة نوح طولها ألف ذراع، وماتتا ذراع، وعرضها ستمائة ذراع. وقال قتادة: كانت فيما ذكر لنا طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسمائة ذراع، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً. وقال ابن جريج: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين ومائة ذراع، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكان في أعلاها الطير، وفي وسطها الناس، وفي أسفلها السباع. وزعم مقاتل أنه عمل السفينة في أربعمئة سنة.

قوله تعالى: ﴿وَسَكَّلْنَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم رأوه يبني السفينة وما رأوا سفينة قط، فكانوا يسخرون ويقولون: صرت بعد النبوة نجاراً؟ وهذا قول ابن إسحاق والثاني: أنهم قالوا له: ما تصنع؟ فقال: أبني بيتاً يمشي على الماء، فسخروا من قوله، وهذا قول مقاتل. وفي قوله: ﴿إِنْ سَخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ خمسة أقوال: أحدها: إن تخسروا من قولنا فإننا نسخر من غفلتكم. والثاني: إن تسخروا من فعلنا عند بناء السفينة، فإننا نسخر منكم عند الغرق، ذكره المفسرون. والثالث: إن تسخروا منا في الدنيا، فإننا نسخر منكم في الآخرة، قاله ابن جرير. والرابع: إن تستجهلونا، فإننا نستجهلكم، قاله الزجاج. والخامس: إن تسخروا منا، فإن نستصنر الله عليكم، فسمى هذا سخرية، ليتفق اللفظان كما بينا في قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ﴾ [البقرة: ١٥]، هذا قول ابن الأنباري. قال ابن عباس: لم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر، فلذلك سخروا منه، وإنما مياه البحار بقية الطوفان.

﴿سَوْفَ تَلْمِزُونَ مَنْ بِإِيْدِي عَذَابٍ يُحْزِنُهُ وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَلَابٌ مُقِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَلْمِزُونَ﴾ هذا وعيد، ومعناه: فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية، ومن هو أحمد عاقبة.

قوله تعالى: ﴿مَنْ بِإِيْدِي عَذَابٍ يُحْزِنُهُ﴾ أي: يُذَلُّه، وهو الغرق. ﴿وَيَجْلُ عَلَيْهِ﴾ أي: ويجب عليه ﴿عَلَابٌ مُقِيمٌ﴾ في

الآخرة.

(١) الموصحة: الشجة التي بلغت العظم، فأوضحت عنه. ولا قصاص في شيء من الشجاج إلا في الموصحة، وفي غيرها الدبة.
(٢) الساج: شجر ينظم جداً، ويذهب طولاً وعرضاً، وله ورق أمثال التراس الدبلمية، يتنطفى الرجل بورق منه، فتكته من المعطر، وله رائحة طيبة تشابه رائحة ورق الجوز مع ريقه وتعمه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا اجْمَلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: جاء أمرنا بعدابهم وإهلاكهم. والثاني: جاء عذابنا وهو الماء، ابتداءً بجنابات الأرض فدار حولها كالإكليل، وجعل المظن ينزل من السماء كأفواه القرب، فجعلت الوحوش يطلبن وسط الأرض هرباً من الماء حتى اجتمعن عند السفينة، فحينئذ حمل فيها من كل زوجين اثنين.

قوله تعالى: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ الفور: الغليان؛ والفؤارة: ما يفور من القدر، قاله ابن فارس. قال المصنف: وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن دريد قال: التنور: اسم فارسي معرب لا تعرف له العرب اسماً غير هذا، فلذلك جاء في التنزيل، لأنهم حوطبوا بما عرفوا. وروي عن ابن عباس أنه قال: التنور، بكل لسان عربي وعجمي. وفي المراد بهذا التنور ستة أقوال: أحدها: أنه اسم لوجه الأرض، رواه عكرمة عن علي عليه السلام. وروى الضحاك عن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، قال: قيل له: إذا رأيت الماء قد علا وجه الأرض، فاركب أنت وأصحابك، وهذا قول عكرمة، والزهري. والثاني: أنه تنوير الصبح، رواه أبو جحيفة عن علي عليه السلام. وقال ابن قتيبة: التنوير عند الصلاة. والثالث: أنه طلوع الفجر، روي عن علي أيضاً، قال: «وفار التنور»: طلوع الفجر. والرابع: أنه طلوع الشمس، وهو منقول عن علي أيضاً. والخامس: أنه تنور أهله، روى العوفي عن ابن عباس قال: إذا رأيت تنور أهلك يخرج منه الماء، فإنه هلاك قومك. وروى أبو صالح عن ابن عباس: أنه تنور آدم عليه السلام، وهبه الله لنوح، وقيل له: إذا فار الماء منه، فاحمل ما أمرت به. وقال الحسن: كان تنوراً من حجارة، وهذا قول مجاهد، والفراء، ومقاتل. والسادس: أنه أعلى الأرض وأشرفها^(١). قال ابن الأنباري: شُبِّهت أعالي الأرض وأماكنها المرتفعة لعلوها، بالثانير. واختلفوا في المكان الذي فار منه التنور على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه فار من مسجد الكوفة، رواه حبة العرنبي عن علي عليه السلام. وقال زر بن حبيش: فار التنور من زاوية مسجد الكوفة اليمنى. وقال مجاهد: نبع الماء من التنور، فعلمت به امرأته فأخبرته، وكان ذلك بناحية الكوفة. وكان الشعبي يحلف بالله ما كان التنور إلا بناحية الكوفة. والثاني: أنه فار بالهند، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أنه كان في أقصى دار نوح، وكانت بالشام في مكان يقال له: عين وردة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اجْمَلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾. وروى حفص عن عاصم: «من كلِّ» بالتنوين. قال أبو علي: والمعنى: من كل شيء، ومن كل زوج زوجين، فحذف المضاف. وانتصاب «اثنين» على أنهما صفة لزوجين، وقد علم أن الزوجين اثنان، ولكنه توكيد. قال مجاهد: من كل صنف، ذكراً وأنثى. وقال ابن قتيبة: الزوج يكون واحداً، ويكون اثنين، وهو هاهنا واحد، ومعنى الآية: احمل من كل ذكر وأنثى اثنين. وقال الزجاج: المعنى: احمل زوجين اثنين من كل شيء، والزوج في كلام العرب يجوز أن يكون معه واحد، والاثنان يقال لهما: زوجان، يقال: عندي زوجان من الطير، إنما يريد ذكراً وأنثى فقط. وقال ابن الأنباري: إنما قال «اثنين» فثنى الزوج، لأنه قصد قصد الذكر والأنثى من الحيوان، وتقديره: من كل ذكر وأنثى.

قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: واحمل أهلك. قال المفسرون: أراد بأهله: عياله وولده. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: سبق عليه القول من الله بالإهلاك. قال الضحاك: وهم امرأته وابنه كنعان.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ معناه: واحمل من آمن. ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وفي عددهم ثمانية أقوال: أحدها: أنهم كانوا ثمانين رجلاً معهم أهلهم، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أن نوحاً حمل معه ثمانين إنساناً، وبنيه الثلاثة، وثلاث نسوة لبنيه، وامرأة نوح، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس. والثالث: كانوا ثمانين إنساناً، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة. والرابع: كانوا أربعين، ذكره ابن جريج عن

(١) قال ابن كثير ٤٤٥/٢ بعد أن ساق أكثر هذه الأقوال: وهذه أقوال غريبة.

ابن عباس. والخامس: كانوا ثلاثين رجلاً، رواه أبو نهيك عن ابن عباس. والسادس: كانوا ثمانية، قال الحكم بن عتيبة: كان نوح وثلاثة بنيه وأربع كنائه. قال قتادة: ذكر لنا أنه لم ينج في السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة بنين له، ونساؤهم، فجماعتهم ثمانية، وهذا قول القرظي، وابن جريج. والسابع: كانوا سبعة، نوح، و ثلاث كنان له وثلاثة بنين، قاله الأعمش. والثامن: كانوا عشرة سوى نسايتهم، قاله ابن إسحاق. وروي عنه أنه قال: الذين نَجَوْا مع نوح بنوه الثلاثة، ونساؤهم ثلاث، وستة ممن آمن به^(١).

﴿ وَقَالَ آتِكُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحِيحًا وَمُرْسَلًا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ﴾ يعني نوحاً للذين أمر بحملهم ﴿ آتِكُوا ﴾ السفينة. قال ابن عباس: ركبوها فيها لعشر مضي من رجب، وخرجوا منها يوم عاشوراء. وقال ابن جريج: رفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر مضي من رجب، فأنت موضع البيت فطافت به أسبوعاً، وكان البيت قد رُفِعَ في ذلك الوقت، ورست بباقردي^(٢) على الجودي يوم عاشوراء. قال ابن عباس: قرض الفأر حبال السفينة، فشكا نوح ذلك، فأوحى الله تعالى إليه، فمسح ذنب الأسد، فخرج سؤران، وكان في السفينة عذرة، فشكا ذلك إلى ربه، فأوحى الله تعالى إليه، فمسح ذنب الفيل، فخرج خنزيران فأكلا ذلك^(٣).

قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ جَحِيحًا وَمُرْسَلًا ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿مُجْرَاهَا﴾ بضم الميم. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿مَجْرَاهَا﴾ بفتح الميم، وكسر الراء. وكلهم قرؤوا بضم الميم من «مرساها»، إلا أن ابن كثير، وأبا عمرو، وابن عامر، وحفصاً عن عاصم، كانوا يفتحون السين. ونافع، وأبو بكر عن عاصم، كانا يقرآنها بين الكسر والتفخيم. وكان حمزة، والكسائي، وخلف، يميلونها. وليس في هؤلاء أحد جعلها نعتاً لله، وإنما جعل الوصفين نعتاً لله تعالى، الحسن، و قتادة، وحميد الأعرج، وإسماعيل بن مجالد عن عاصم، فقرؤوا ﴿مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا﴾ بضم الميم، وبياءين صحيحتين، مثل مبديها ومنشيا. وقرأ ابن مسعود: ﴿مَجْرَاهَا﴾ بفتح الميم، وإمالة الراء بعدها ألف، و﴿مُرْسَاهَا﴾ برفع الميم، وإمالة السين بعدها ألف. وقرأ أبو رزين، وأبو المتوكل: ﴿مَجْرَاهَا﴾ بفتح الميم والراء، وبألف بعدها، و﴿مُرْسَاهَا﴾ برفع الميم وفتح السين، وبألف بعدها. وقرأ أبو الجوزاء، وابن يعمر: ﴿مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ بفتح الميم فيهما جميعاً، وفتح الراء والسين، وبألف بعدهما وقرأ يحيى بن وثاب بفتح الميمين، إلا أنه أمال الراء والسين فيهما. وقرأ أبو عمران الجوني، وابن جبير، برفع الميم فيهما، وفتح الراء والسين، وبألف بعدهما جميعاً. فمن قرأ بضم الميمين، جعله من أجرى وأرسي. ومن فتحهما، جعله مصدرأ من جرى الشيء يجري مجرى، ورسي يرسي مرسى. قال الزجاج: قوله: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ أي: بالله، والمعنى: أنه أمرهم أن يسْمُوا في وقت جريها وقت استقرارها. ومن قرأ بضم الميمين، فالمعنى: بالله إجراؤها، وبالله إرساها. ومن فتحهما، فالمعنى: بالله يكون جريها، وبالله يقع إرساؤها، أي: إقرارها. وسمعت شيخنا أبا منصور اللغوي يقول: من ضم الميم في «مَجْرَاهَا» أراد: أجراها الله مجرى، ومن فتحها، أراد: جرت مجرى. وقال الضحاك: كان إذا أراد أن تجري، قال: بسم الله، فجرت. وإذا أراد أن ترسي، قال: بسم الله، فرست.

﴿ وَرَبِّي جَبْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَكَأَنَّ نُوحًا أَنبَأَهُ وَكَانَ فِي مَعْوِلٍ يَبْتَئِي آتِكَب مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ قَالَ سَاوِيَةُ إِنَّ جَبَلَ بِصَوْفِي رِبَكِ أَلْمَاءُ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعَتْ وَرَمَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَرَبِّي جَبْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ شبهه بالجبال في عظمه وارتفاعه، ويقال: إن الماء ارتفع على

(١) قال أبو جعفر الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله: ﴿ وَنَا عَائِنَ نَمُوَ إِلَّا قِيلَ ﴾ يفهم بأنهم كانوا قليلاً، ولم يحد عددهم بمقدار، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح، فلا ينبغي أن يتجاوز في ذلك حد الله، إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حد من كتاب الله، أو أثر عن رسول الله ﷺ.

(٢) ضبطه ياقوت بكسر القاف وفتح الدال، وهو موضع بالجزيرة بالقرب من جبل الجودي.

(٣) الخبر ذكره الطبري ٣٤٢/١٥ عن ابن عباس وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، وأورده ابن كثير عن ابن جرير واستغفريه، وليس يشك عاقل أن هذا الخبر من بقية أخبار بني إسرائيل، ولا يبلغ أن يكون شيئاً.

أطول جبل في الأرض أربعين ذراعاً، ويروى خمس عشرة ذراعاً. وذكر بعض المفسرين أنه ارتفع نحو السماء سبعين فرسخاً من الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَأَدَاىِ نُّوحٍ أَخْتَهُ﴾ لا يختلفون أنه كان كافراً. وفي اسمه قولان: أحدهما: كنعان، وهو قول الأكثرين. والثاني: اسمه يام، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عبيد بن عمير، وابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ المعزل: المكان المنقطع. ومعنى الغزل: التنحية. وفي معنى الكلام وجهان ذكرهما الزجاج: أحدهما: في معزل من السفينة. والثاني: في معزل من دين أبيه.

قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْ أَرْكَبَ مَعَنَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي «يا بني أركب» مضافة، بكسر الياء. وروى أبو بكر عن عاصم «يا بني» مفتوحة الياء هاهنا، وباقى القرآن مكسورة. وروى حفص عنه بالفتح في كل القرآن «يا بني» إذا كان واحداً. قال النحويون: الأصل في «بني» ثلاث ياءات، ياء التصغير، وياء بعدها هي لام الفعل، وياء بعد لام الفعل هي ياء الإضافة. فمن قرأ «يا بني» أراد: يا بني، فحذف ياء الإضافة، وترك الكسرة تدل عليها، كما يقال: يا غلام أقبل. ومن فتح الياء، أبدل من كسرة لام الفعل فتحة، استقلاً لاجتماع الياءات مع الكسرة، فانقلبت ياء الإضافة ألفاً، ثم حذف الألف كما تحذف الياء، فبقيت الفتحة على حالها. وقيل: إن المعنى: يا بني آمن واركب معنا.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ﴾ أي: ساصير وأرجع ﴿إِلَّا جِبَلِيَّ يَعْصِيْهُ﴾ أي يمعني ﴿مِنْ أَلْمَاءٍ﴾ أي: من تغريق الماء. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا مانع اليوم من أمر الله، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: لا معصوم، ومثله: ماء دافق، أي: مدفوق، وسر كاتم، وليل نائم، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَّجَعُ﴾ قال الزجاج: هذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن من رحم الله فإنه معصوم. قال مقاتل: إلا من رحم فركب السفينة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي بَيْنَهُمَا الْوَعْدُ﴾ في المكني عنهما قولان: أحدهما: أنهما ابن نوح والجبل الذي زعم أنه يعصمه، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثاني: نوح وابنه، قاله مقاتل.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْيْ مَاءَكَ وَاسْمَعْهُ أَقْبَلِي وَفِيضَ الْمَاءِ وَفِي الْأَمْرِ وَاسْتَوْتِ عَلَى الْبُرُوجِ وَقِيلَ بَعْدَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَأَدَاىِ نُّوحٍ رَّجُلًا فَقَالَ رَبِّ إِذْ أَتَى مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿قَالَ يَنْشُؤُا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَحْشُرْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْلَمُ إِنَّيْ أَعْلَمُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيْ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِيْ بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَتَّبِعْ لِيْ تَزَحَّجَنِيْ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْيْ مَاءَكَ﴾ وقف قوم على ظاهر الآية، وقالوا: إنما ابتلعت ما نبع منها، ولم تبتلع ماء السماء، فصار ذلك بحاراً وأنهاراً، وهو معنى قول ابن عباس. وذهب آخرون إلى أن المراد: ابلي ماءك الذي عليك، وهو ما نبع من الأرض ونزل من السماء، وذلك بعد أن غرق ما على وجه الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَسَمِعَهُ أَقْبَلِي﴾ أي: أمسكي عن إنزال الماء. قال ابن الأنباري: لما تقدم ذكر الماء، علم أن المعنى: أقلعي عن إنزال الماء.

قوله تعالى: ﴿وَفِيضَ الْمَاءِ﴾ أي: نقص. قال الزجاج: يقال: غاض الماء يغيض: إذا غاب في الأرض. ويجوز إشمام الضم في الغين.

قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَمْرِ﴾ قال ابن عباس: غرق من غرق، ونجا من نجا. وقال مجاهد: قضي الأمر: هلاك قوم نوح. وقال ابن قتيبة: «وقضي الأمر» أي: فرغ منه. قال ابن الأنباري: والمعنى: أحكمت هلكة قوم نوح، فلما دلت القصة على ما بيّن هلكتهم، أغنى عن نعت الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَوْتِ﴾ يعني السفينة ﴿عَلَى الْبُرُوجِ﴾ وهو اسم جبل. وقرأ الأعمش، وابن أبي عبيدة: «على الجودي» بسكون الياء. قال ابن الأنباري: وتشديد الياء في «الجودي» لأنها ياء النسبة، فهي كالياء في علوي،

وهاشمي. وقد خففها بعض القراء. ومن العرب من يخفف ياء النسبة، فيسكنها في الرفع، والخفض، ويفتحها في النصب، فيقول: قام زيد العلوي، ورأيت زيداً العلوي. قال ابن عباس: دارت السفينة بالبيت أربعين يوماً، ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه. واختلفوا أين هذا الجبل على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بالموصل، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثاني: بالجزيرة، قاله مجاهد، وقاتدة. وقال مقاتل: هو بالجزيرة قريب من الموصل. والثالث: أنه بناحية آبد، قاله الزجاج. وفي علة استوائها عليه قولان: أحدهما: أنه لم يغرق، لأن الجبال تشامت يومئذ وتناولت، وتواضع هو فلم يغرق، فأرست عليه، قاله مجاهد. والثاني: أنه لما قل الماء أُرْسَتْ عليه، فكان استوائها عليه دلالة على قلة الماء.

قوله تعالى: ﴿وَيَرْبِّدُنَا بِالْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: بُدِدَ من رحمة الله للقوم الكافرين. فإن قيل: ما ذنب من أغرق من البهائم والأطفال؟ فالجواب: أن أجالهم حضرت، فأمتوا بالفرق، قاله الضحاك، وابن جريج.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِدَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ إنما قال نوح هذا، لأن الله تعالى وعده نجاة أهله، فقال: ﴿وَأَنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَتَمُّ الْوَعْدِينَ﴾ قال ابن عباس: أعدل العادلين. وقال ابن زيد: فأنت أحكم الحاكمين بالحق. واختلفوا في هذا الذي سأل فيه نوح على قولين: أحدهما: أنه ابن نوح لصلبه، قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، والجمهور. والثاني: أنه ولد على فراشه لغير رثدة^(١) ولم يكن ابنه. روى ابن الأنباري بإسناده عن الحسن أنه قال: لم يكن ابنه، إن امرأته فجرت. وعن الشعبي قال: لم يكن ابنه، إن امرأته خائته، وعن مجاهد نحو ذلك^(٢). وقال ابن جريج: ناداه نوح وهو يحسب أنه ابنه، وكان وُلِدَ على فراشه. فعلى القول الأول، يكون في معنى قوله: ﴿إِنَّهُ كَيْسٌ مِنْ أَهْلِكَ﴾ قولان: أحدهما: ليس من أهل دينك. والثاني: ليس من أهلك الذين وعدت نجاتهم. قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط^(٣)، وإنما المعنى: ليس من أهلك الذين وعدت نجاتهم. وعلى القول الآخر: الكلام على ظاهره، والأول أصح، لموافقته ظاهر القرآن، ولاجتماع الأكثرين عليه، وهو أولى من رمي زوجة نبي بفاحشة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة: «إنه عمل» رفع منون «غير صالح» برفع الراء، وفيه قولان: أحدهما: أنه يرجع إلى السؤال فيه، فالمعنى: سؤلك إياي فيه عمل غير صالح، قاله ابن عباس، وقاتدة، وهذا ظاهر، لأنه قد تقدم السؤال فيه في قوله: «رب إن ابني من أهلي»، فرجعت الكناية إليه. والثاني: أنه يرجع إلى المسؤول فيه. وفي هذا المعنى قولان: أحدهما: أنه لغير رثدة، قاله الحسن. والثاني: أن المعنى: إنه ذو عمل غير صالح، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: من قال: هو لغير رثدة، قال: المعنى: إن أصل ابنك الذي تظن أنه ابنك عملٌ غير صالح. ومن قال: إنه ذو عمل غير صالح، قال: حذف المضاف، وأقام العمل مقامه، كما تقول العرب: عبد الله إقبال وإدبار، أي: صاحب إقبال وإدبار. وقرأ الكسائي: «عَمِلٌ» بكسر الميم وفتح اللام «غير صالح» بفتح الراء، يشير إلى أنه مشرك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «فلا تسألن» بفتح اللام، وتشديد النون، غير أن نافعاً، وابن عامر، كسرا النون، وفتحها ابن كثير، وحذفوا الياء في الوصل والوقف. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، بسكون اللام وتخفيف النون، غير أن أبو عمرو، وأبا جعفر، أثبتا الياء في الوصل، وحذفوها في الوقف، ووقف عليها يعقوب بالياء، والباقون يحذفونها في الحالين. قال أبو علي: من كسر النون، فقد عدى السؤال إلى مفعولين، أحدهما: اسم المتكلم، والآخر: الاسم الموصول، وحذفت النون المتصلة بياء المتكلم

(١) يقال: ولد لغير رثدة، أي: لغير نكاح صحيح.

(٢) قال ابن كثير ٤٤٨/٢: وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطفة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زينة، ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعبيد بن عمير، وأبي جعفر الباقر، وابن جريج.

(٣) قال ابن كثير ٤٤٨/٢: وكذا روي عن مجاهد أيضاً، وعكرمة، والضحاك، وميمون بن مهران، وثابت بن الحجاج، وهو اختيار أبي جعفر ابن جرير الطبري، وهو الصواب الذي لا شك فيه.

لاجتماع التونات. وأما إثبات الياء في الوصل فهو الأصل، وحذفها أخف، والكسرة تدل عليها، وتعلم أن المفعول مراد في المعنى. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنه نسبه إليه، وليس منه. والثاني: في إدخاله إياه في جملة أهل الذين وعده نجاتهم. والثالث: سؤاله في إنجاء كافر من العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَعْيُنَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن تكون من الجاهلين في سؤالك مَنْ ليس مِنْ حزبك. والثاني: من الجاهلين بوعدتي، لأنني وعدت بإنجاء المؤمنين. والثالث: من الجاهلين بنسبك، لأنه ليس من أهلك.

﴿وَيْلٌ لِلَّذِينَ يُبْذَرُونَ أَمْطَلًا يَسْتَكْبِرُونَ وَمِنَّا مَنْ مَلَكَ وَعَلَىٰ أُمُورٍ مِّن مَّالِكَ وَأَمَّا سَنَنْتَهُمْ فَمَا يَمْشُرُونَ وَمِنَّا عَدَاؤُكَ أَيْدٍ﴾

قوله تعالى: ﴿يُبْذَرُونَ أَمْطَلًا﴾ قال ابن عباس: يريد: من السفينة إلى الأرض ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: بسلامة.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أُمُورٍ مِّن مَّالِكَ﴾ قال ابن عباس: يريد؛ من ولدك. قال ابن الأنباري: المعنى: من ذراري من معك، والمراد: المؤمنون من ذريته. ثم ذكر الكفار، فقال: ﴿وَأَمَّا﴾ أي: من الذرية أيضاً، والمعنى: وفيمن نصفت لك أمم، وفيمن نقص عليك أمره أمم. ﴿سَنَنْتَهُمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿فَمَا يَمْشُرُونَ﴾ أي: في الآخرة. قال محمد بن كعب القرظي: لم يبق مؤمن ولا مؤمنة في أصلاب الرجال وأرحام النساء يومئذٍ إلى أن تقوم الساعة إلا وقد دخل في ذلك السلام والبركات، ولم يبق كافر إلا دخل في ذلك المتاع والعذاب.

﴿يَلِكُ مِنَ آبَاءِ النَّبِيِّ نُوحًا إِيَّاكَ مَا كُنْتَ تَمْلِكُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْقَوَّابَةَ لِلشُّنُوبِ﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يُنْفِرُونَ اتَّبِعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٥﴾ يُنْفِرُونَ لَا أَشْتَكُرُ عَلَيْكَ جَبْرًا إِنْ أُخْرِجْتَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي نَطَرْتُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٦﴾ وَيُنْفِرُونَ اسْتَفْتِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُوحًا إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ يَرْزُقُكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُرُوبِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا بَحْرِيَّاتٍ ﴿٥٧﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَّ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿يَلِكُ مِنَ آبَاءِ النَّبِيِّ﴾ في المشار إليه بـ «تلك» قولان: أحدهما: قصة نوح. والثاني: آيات القرآن، والمعنى: تلك من أخبار ما غاب عنك وعن قومك. فإن قيل: كيف قال هاهنا: «تلك»، وفي مكان آخر «ذلك»؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري، فقال: «تلك» إشارة إلى آيات القرآن، و«ذلك» إشارة إلى الخبر والحديث، وكلاهما معروف في اللغة الفصيحة، يقول الرجل: قد قدم فلان، فيقول سامع قوله: قد فرحت به، وقد سررت بها، فإذا ذُكر، عنى القُدوم، وإذا أنت، ذهب إلى القُدمة.

قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ يعني القرآن. ﴿فَاصْبِرْ﴾ كما صبر نوح على أذى قومه: ﴿إِنَّ الْقَوَّابَةَ﴾ أي: آخر الأمر بالظفر والتمكين ﴿لِلشُّنُوبِ﴾ أي: لك ولقومك كما كان لمؤمني قوم نوح.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي: ما أنتم إلا كاذبون في إشاراكم مع الله الأوثان. وما بعد هذا قد سبق تفسيره [بونس: ١٧٢] إلى قوله: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ يَرْزُقُكُمْ﴾ وهذا أيضاً قد سبق تفسيره في سورة [الأنعام: ١٦١]. والسبب في قوله لهم ذلك، أن الله تعالى حبس المطر عنهم ثلاث سنين، وأعقم أرحام نساءهم، فوعدهم إحياء بلادهم ويسط الرزق لهم إن آمنوا.

قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُرُوبِكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الولد وولد الولد، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: يزدكم شدة إلى شدتكم، قاله مجاهد، وابن زيد. والثالث: خصباً إلى خصبكم، قاله الضحاك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا بَحْرِيَّاتٍ﴾ قال مقاتل: لا تعرضوا عن التوحيد مشركين.

قوله تعالى: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحجة واضحة. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَّ﴾ يعنون الأصنام. ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: بقولك، و«الباء» و«عن» يتعاقبان.

﴿إِنْ تَتُوبْ إِلَىٰ آخِرَتِكَ بِعَشْرِ آلِهَتِنَا يَسُوءُ قَالِ إِنَّهُ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ شَهِدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْفُرُوا بِمَا جِئْتُمْ بِهِ لَا تَشْطُرُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا يَنْ دَابَّةً إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَصْبَاتِنَا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ قَوْلُ﴾ أي: ما نقول في سبب مخالفتك إيانا إلا أن بعض آلهتنا أصابك بجنون لسبب إياها، فالذي تظهر من عيبها لما لحق عقلك من التغيير. قال ابن قتيبة: يقال: عراني كذا، واعراني: إذا ألم بي. ومنه قيل لمن أتاك يطلب نائلك: عار، ومنه قول النابغة:

أَتَيْتُكَ عَارِيًّا خَلَقْتُ بِي

عَلَى حَوْزٍ تُظَنُّ بِسِي الظُّنُونِ^(١)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَشْهَدُ اللَّهَ...﴾ إلى آخر الآية. حرك ياء «إني» نافع. ومعنى الآية: إن كنتم تقولون: إن الآلهة عاقبتني لطعني عليها، فإني على يقين من عيبها والبراءة منها، وما أنا ذا أزيد في الطعن عليها، ﴿فَكِيدُونِي جِيمًا﴾ أي: احتالوا أنتم وأوثانكم في ضري، ثم لا تمهلون. قال الزجاج: وهذا من أعظم آيات الرسل، أن يكون الرسول وحدة وأُمَّته متعاونة عليه، فيقول لهم: كيدوني، فلا يستطيع أحد منهم ضره، وكذلك قال نوح لقومه: ﴿فَأَجْمِعُوا كُرْحَكُمْ وَشِرْكَاكُمْ﴾ [يونس: ٧١]. وقال محمد ﷺ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَسْبَابِهَا﴾ قال أبو عبيدة: المعنى: أنها في قبضته ومملكه وسلطانه. فإن قيل: لم خص الناصية؟ فالجواب: أن الناصية هي شعر مقدم الرأس، فإذا أخذت بها من شخص، فقد ملكت سائر بدنه، وذلك لك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال مجاهد: على الحق. وقال غيره: في الكلام إضمار، تقديره: إن ربي يدل على صراط مستقيم. فإن قيل: ما وجه المناسبة بين قوله: ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَسْبَابِهَا﴾ وبين كونه على صراط مستقيم؟ فنعته جوابان: أحدهما: أنه لما أخبر أنه أخذ بنواصي الخلق، كان معناه: أنهم لا يخرجون عن قبضته، فأخبر أنه على طريق لا يعدل عنه هارب، ولا يخفى عليه مستر. والثاني: أن المعنى: أنه وإن كان قادراً عليهم، فهو لا يظلمهم، ولا يريد إلا العدل^(٢)، ذكرهما ابن الأنباري.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُنبِئُكُمْ بِهِ إِلَهُكُمْ وَمَسَخَلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه فعل ماض، معناه: فإن عرضوا. فعلى هذا، في الآية إضمار، تلخيصه: فإن عرضوا فقل لهم قد أبلغتكم، هذا مذهب مقاتل في آخرين. والثاني: أنه خطاب للحاضرين، وتقديره: فإن تتولَّوا، فاستقلوا الجمع بين تامين متحركتين، فاقصر على إحداهما، وأسقط الأخرى، كما قال النابغة:

الْمَرْءُ يَهْوَى أَنْ يَمْعِي
تَفْنَى بِشَاشِئِهِ وَيَبُ
وَتَصَّرَّفُ الْأَيَّامُ حَشِي

شَ وَظَوُّلُ عَيْشٍ قَدْ يَضُرُّهُ^(٣)
قَى بَعْدَ حُلُوِّ الْعَيْشِ مُرَّةٌ
بَى مَا يَرَى شَيْئًا يَسُرُّهُ

أراد؛ وتتصرف الأيام، فأسقط إحدى التامين، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فيه وعيد لهم بالهلاك. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: حفيظ على أعمال العباد حتى يجازيهم بها. والثاني: أن «على» بمعنى اللام، فالمعنى: لكل شيء حافظ، فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء.

﴿وَلَكِنَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِغَيْتَاتٍ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَبِحُسْنٍ إِنَّا مِنَّا عَذَابٌ حَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: جاء عذابنا، قاله ابن عباس. والثاني: جاء أمرنا بهلاكهم.

قوله تعالى: ﴿بِحُسْنٍ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فيه قولان: أحدهما: نجيتناهم من العذاب بنعمتنا. والثاني: نجيتناهم بأن هديناهم إلى الإيمان، وعصمتناهم من الكفر، روي القولان عن ابن عباس.

(١) «ديوانه» ٩٤ بشرح ابن السكيت، و«غريب القرآن» ٢٥٥، و«اللسان»: هري.

(٢) قال ابن كثير ٤٥٠/٢: وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وعلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك والتصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

(٣) الأبيات في «أمالي القاضي» ٩/٢، و«الوحشيات» ١٥٥، و«أمالي المرتضى» ٢٦٦/١، و«حماصة البحري» ١٣٦، و«الخرزانه» ٥١٤/١.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْتَهُمْ مِنْ عَذَابِ غَلِيظٍ﴾ أي: شديد، وهو ما استحقه قوم هود من عذاب الدنيا والآخرة.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَمَدُوا بَنَاتِي رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٥٤)

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ يعني القبيلة. ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لقاتل أن يقول: إنما أرسل إليهم هود وحده، فكيف ذكر بلفظ الجمع؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه قد يذكر لفظ الجمع ويراد به الواحد، كقوله: ﴿أَمْرٌ يَحْتَسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤] والمراد به النبي ﷺ وحده. والثاني: أن من كذب رسولا واحداً فقد كذب الكل. والثالث: أن كل مرة ينذرهم فيها هي رسالة مجددة وهو بها رسول.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي: واتبع الأتباع أمر الرؤساء. والجبار: الذي طال وفات اليد. وللعلماء في الجبار أربعة أقوال: أحدها: أنه الذي يقتل على الغضب ويعاقب على الغضب، قاله الكلبي. والثاني: أنه الذي يجبر الناس على ما يريد، قاله الزجاج. والثالث: أنه المسلّط. والرابع: أنه العظيم في نفسه، المتكبر على العباد، ذكرهما ابن الأباري. والذي ذكرناه يجمع هذه الأقوال، وقد زدنا هذا شرحاً في [المائة: ٢٢]. وأما العنيد: فهو الذي لا يقبل الحق. قال ابن قتيبة: العنود، والعنيد، والعاند: المعارض لك بالخلاف عليك.

﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ﴾ (٥٥) ﴿وَإِنَّ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّرُوا عَبْدُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَفِرُّوهُ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (٥٦) ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ أَتَأْتِنَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكَ إِنَّا نَحْسَبُكَ كَذَّابًا مَقْتُوبًا﴾ (٥٧) ﴿قَالَ يَتَقَوَّرُوا أَبَشَرًا إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَإِنِّي مِنْكُمْ أَوْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٥٨) ﴿وَلَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَلَا لِلشَّجَرِ وَلَا لِلْأَنْبِيَاءِ وَلَا لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي خَلَقْنَا مِنْ نَفْسِهِمْ إِنَّمَا يَسْتَفِرُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّمَا يَسْتَفِرُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّمَا يَسْتَفِرُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّمَا يَسْتَفِرُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّمَا يَسْتَفِرُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (٥٩) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنْ رَبِّهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا سَلِّمْنَا قَالَ سَلِّمْتُكُمْ فَمَا لَكُمْ لَنْتُمْ أَنْتُمْ﴾ (٦٠) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنْ رَبِّهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا سَلِّمْنَا قَالَ سَلِّمْتُكُمْ فَمَا لَكُمْ لَنْتُمْ أَنْتُمْ﴾ (٦١) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنْ رَبِّهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا سَلِّمْنَا قَالَ سَلِّمْتُكُمْ فَمَا لَكُمْ لَنْتُمْ أَنْتُمْ﴾ (٦٢)

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ألقوا لعنة تصرف معهم. ﴿وَبِوَيْمِ الْقَيْمَةِ﴾ أي: وفي يوم القيامة لعنوا أيضاً. ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: بريهم، فحذف الباء، وأنشدوا:

أَمْرُكَ الْخَيْرَ فَاغْلَبَ مَا أَمَرْتَ بِهِ
[فقد تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبٍ] (١)

قال الزجاج: قوله: ﴿أَلَا﴾ ابتداء وتبيين، و﴿بُعْدًا﴾ منصوب على معنى: أبعدهم الله فبعدوا بعداً، والمعنى: أبعدهم من رحمة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ فيه قولان: أحدهما: خلقكم من آدم، وآدم خلق من الأرض. والثاني: أنشأكم في الأرض. وفي قوله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أعمركم فيها، أي: جعلكم ساكنيها مدة أعماركم، ومنه العمري (٢)، وهذا قول مجاهد. والثاني: أطال أعماركم، وكانت أعمارهم من ألف سنة إلى ثلاثمائة، قاله الضحاك. والثالث: جعلكم عُمَّارها، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كُنْتُمْ فِيهَا مَرْجُومًا بِئْسَ حَقِيقَةً﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يرجونه للمملكة بعد ملكهم، لأنه كان ذا حسب وثروة، قاله كعب. والثاني: أنه كان يبغض أصنامهم ويعدل عن دينهم، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما أظهر إندارهم، انقطع رجاءهم منه، وإلى نحو هذا ذهب مقاتل. والثالث: أنهم كانوا يرجون خيره، فلما أنذرهم، زعموا أن رجاءهم لخيره قد انقطع، ذكره المارودي.

(١) البيت لمعرو بن معد يكرب الزبيدي في «الكتاب» ١٧/١.

(٢) «عمري» بضم فسكون، مصدر مثل الرجعي، وأعمره الدار: جملة يسكنها مدة عمره، فإذا مات عادت إلى صاحبها، وكان ذلك من فعل الجمالية، فأطاله الله بالإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إيما رجل أعمى عمري له ولعقبه، فإنها للذي أعطيه، لا ترجع إلى الذي أعطاه، لأنه أعطى عطاة ووقت فيه الموارث» رواه مسلم في «صحيحه» ٣/١٢٤٥.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَبِئْسَ لَكَ لُغَاتٌ مِّن لُّغَاتِ قُرَيْشٍ الَّتِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَيْهَا. قَالَ الْفَرَاءُ: من قال: «إِنَّا» أخرج الحرف على أصله، لأن كناية المتكلمين «نا» فاجتمعت ثلاث نونات، نونا «إِن» والنون المضمومة إلى الألف؛ ومن قال: «إِنَّا» استثقل الجمع بين ثلاث نونان، وأسقط الثالثة، وأبقى الأولتين؛ وكذلك يقال: إني وإني، ولعلي ولعلي، وليتي وليتي، قال الله في اللغة العليا: ﴿لَعَلَّيْ أَتْلُجُ الْأَمْسَبَ﴾ [غانر: ٣٦]، وقال الشاعر في اللغة الأخرى:

أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلاً مَخْلُداً^(١)
أرىني جواداً مات هزلاً لعلني
وقال الله تعالى: ﴿يَلْبَسُنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ٧٣]، وقال الشاعر:

كُئِنِّي جَابِرٌ إِذْ قَالَ لَيْتِي
فأما التريب، فهو الموقع للريبة والنهمة. والرحمة يراد بها هاهنا: النبوة.

قوله تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ التخصير: النقصان. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: فما تزيدونني غير بَصَارَةٍ في خسارتكم، قاله ابن عباس. وقال الفراء: المعنى: فما تزيدونني غير تخسير لكم، أي: كلما اعتذرتم عندي بعلد فهو يزيدكم تخسيراً. وقال ابن الأعرابي: غير تخسير لكم، لا لي. وقال بعضهم: المعنى: فما تزيدونني بما قلتكم إلا نسيتي لكم إلى الخسارة. والقول الثاني: فما تزيدونني غير الخسران إن رجعت إلى دينكم، وهذا معنى قول مقاتل. فإن قيل: فظاهر هذا أنه كان خاسراً، فزادوه خساراً، فقد أسلفنا الجواب في قوله: ﴿لَوْ حَسَرَجُوا فِئَكُمَا زَادُوكُمُ إِلَّا حَبَالاً﴾ [التوبة: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ قد شرحناها في سورة [الأعراف: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ أي: استمتعوا بحياتكم، وعبر عن الحياة بالتمتع، لأن الحيي يكون متمتعاً بالحواش.

قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ قال المفسرون: لما عُقرت الناقة صَعِدَ فصيلها إلى الجبل، ورغا ثلاث مرات، فقال صالح: لكل رغو أجل يوم، ألا إن اليوم الأول تصبح وجوهكم مُضْمَرَةً، واليوم الثاني مُحْمَرَةً، واليوم الثالث مُسْوَدَّةً؛ فلما أصبحوا في اليوم الأول، إذا وجوههم مصفرة، فصاحوا وضجوا، وبكوا، وعزفوا أنه العذاب، فلما أصبحوا في اليوم الثاني، إذا وجوههم محمرة، فضجوا، وبكوا، فلما أصبحوا في اليوم الثالث، إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالبقار، فصاحوا جميعاً: ألا قد حضركم العذاب؛ فتكفئوا والقوا أنفسهم بالأرض، لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلما أصبحوا في اليوم الرابع، أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، فتقطعت قلوبهم في صدورهم. وقال مقاتل: حفروا لأنفسهم قبوراً، فلما ارتفعت الشمس من اليوم الرابع، ولم يأتيهم العذاب، ظنوا أن الله قد رحمهم، فخرجوا من قبورهم يدعوا بعضهم بعضاً، إذ نزل جبريل، فقام فوق المدينة فسد ضوء الشمس، فلما عينوه، دخلوا قبورهم، فصاح بهم صيحة: موتوا، عليكم لعنة الله، فخرجت أرواحهم، وتزلزلت بيوتهم فوقعت على قبورهم. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ﴾ أي: العذاب «عِزُّ مَكْدُوبٍ» أي: غير كذب.

قوله تعالى: ﴿رَبِّنَا خَزِيٍّ يَوْمِيذٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر «يومِيذٍ» بكسر الميم. وقرأ الكسائي بفتحها مع الإضافة. قال مكي: من كسر الميم، أعرب وخفض، لإضافة الخزي إلى اليوم، ولم يبيته؛ ومن فتح، بنى اليوم على الفتح، لإضافته إلى غير متمكن، وهو «إذ». وقرأ ابن مسعود «ومن خزي» بالثنونين، «يومِيذٍ» بفتح الميم. قال ابن الأباري: هذه الواو في قوله: «ومن خزي» معطوفة على محذوف، تقديره: نجيتاهم من العذاب ومن خزي يومئذ.

(١) البيت لحطاط بن يعفر، أخي الأسود بن يعفر، وهما أخوان من بني نهشل بن دارم، جاهليان، ويروى لحاتم الطائي، ولثمن بن أوس، وهو في «الشعر والشعراء» ٢٠٢، و«مجاز القرآن» ٥٥، و«الحماسة» ٢٥٤/٤، و«عيون الأخبار» ١٨١/٣، و«أمالي القالي» ٩٢/٢، و«القرطبي» ١٢٧/٢، و«اللسان»، و«التاج»: أنن، و«الخرزاتة» ١/١٩٥.

(٢) البيت لزيد الخيل، وهو في «الكتاب» ٣٨٦/١، و«اللسان»: ليت، و«الخرزاتة» ٤٤٦/٢.

قال: ويجوز أن تكون دخلت لفعل مضمر، تأويله: نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا، ونجيناهم من خزي يومئذ. قال: وإنما قال: «وَأَخَذَ» لأن الصيحة محمولة على الصباح.

قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعِدَا لَثَمُودَ﴾ اختلفوا في صرف «ثمود» وترك إجرائه في خمسة مواضع: في [هود] ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعِدَا لَثَمُودَ﴾ وفي [الفرقان: ٣٨] ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَمْصَبَ الْأَرَبِينَ﴾، وفي [المنكوت: ٣٨] ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّرَكُمُ لَكُمْ﴾، وفي [النجم] ﴿وَتَمُودًا قَالِ أَتَقْنُونَ﴾. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر بالتثنية في أربعة مواضع منها، وتركوا «أَلَا بُعِدَا لَثَمُودَ» فلم يصرفوه. وقرأ حمزة بترك هذه الخمسة الأحرف، وصرفهن الكسائي. واختلف عن عاصم، فروى حسين الجعفي عن أبي بكر عنه أنه أجرى الأربعة الأحرف مثل أبي عمرو؛ وروى يحيى بن آدم أنه أجرى ثلاثة، في [هود: ٦٨] ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا﴾، وفي [الفرقان: ٣٨] و [المنكوت: ٣٨]. وروى حفص عنه أنه لم يجز شيئاً منها مثل حمزة. واعلم أن ثموداً يراد به القبيلة تارة، ويراد به الحي تارة. فإذا أريد به القبيلة، لم يصرف، وإذا أريد به الحي، صرف. وما أخللنا به، فقد سبق تفسيره [الأحرف: ٧٣، والنوية: ٧٠] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾. والرسل هاهنا: الملائكة. وفي عددهم ستة أقوال: أحدها: أنهم كانوا ثلاثة، جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة. وقال مقاتل: جبريل، وميكائيل، وملك الموت. والثاني: أنهم كانوا اثني عشر، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: ثمانية، قاله محمد بن كعب. والرابع: تسعة، قاله الضحاك. والخامس: أحد عشر، قاله السدي. والسادس: أربعة، حكاه الماوردي. وفي هذه البشرية أربعة أقوال: أحدها: أنها البشرية بالولد، قاله الحسن، ومقاتل. والثاني: بهلاك قوم لوط، قاله قتادة. والثالث: بنبوته، قاله عكرمة. والرابع: بأن محمداً يخرج من صلبه، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾ قال ابن الأنباري: انتصب بالقول، لأنه حرف مقول، والسلام الثاني مرفوع بإضمار «عليكم». وقال الفراء: فيه وجهان: أحدهما: أنه أضمر «عليكم» كما قال الشاعر:

فَقُلْنَا السَّلَامَ فَاتَّقَتْ مِنْ أَمِيرِهَا
فَمَا كَانَ إِلَّا وَنَسْوَهَا بِالْحَوَاجِبِ^(١)

والعرب تقول: التقتنا قتلنا: سلام سلام. والثاني: أن القوم سلموا، فقال حين أنكرهم هو: سلام، فمن أنتم؟ لإنكاره إياهم. وقرأ حمزة، والكسائي: «قال سلم»، وهو بمعنى سلام، كما قالوا: جَلَّ وحلال، وجرم وحرام؛ فعلى هذا، يكون معنى «سلم»: سلام عليكم. قال أبو علي: فيكون معنى القراءتين واحداً وإن اختلف اللفظان. وقال الزجاج من قرأ: «سلم» فالمعنى: أمرنا سلم، أي: لا بأس علينا.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَيْتَ﴾ أي: ما أقام حتى جاء بعجل حنيد، لأنه ظنهم أضيافاً، وكانت الملائكة قد جاءت في صورة الغلمان الوضياء. وفي الحنيد ستة أقوال: أحدها: أنه النضيج، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة. والثاني: أنه الذي يَقَطُرُ مَائُهُ وَدَسَمُهُ وقد شوي، قاله شمر بن عطية. والثالث: أنه ما حفرت الأرض ثم غمته، وهو من فعل أهل البادية، معروف، وأصله: محتوذ، فقيل: حنيد، كما قيل: طيبخ للمطبوخ، وقتيل للمقتول. هذا قول الفراء. والرابع: أنه المشوي، قاله أبو عبيدة. والخامس: المشوي بالحجارة المحماة، قاله مقاتل، وابن قتيبة. والسادس: السميطة، ذكره الزجاج، وقال: يقال: إنه المشوي فقط، ويقال: المشوي الذي يقطر، ويقال: المشوي بالحجارة.

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيُّوبَ لَا تَسِلُّ إِلَيْهِ نَكِرَتُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَظُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا بِكُمْ قَوْمَ لُوطَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيُّوبَ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا تَسِلُّ إِلَيْهِ﴾ يعني العجل ﴿نَكِرَتُمْ﴾ أي: أنكرهم. قال أبو عبيدة: نكرهم وأنكرهم واستنكرهم، سواء، قال الأعشى:

فَأَنكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتِ
مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَةَ^(٢)

(١) «اللسان»: وما.

(٢) قاله الأشعي الكبير سيمون بن قيس من قصيدة يمدح بها هودة بن علي الحنفي: «ديوانه» ١٠١، و«الطبري» ٣٨٨/١٥، و«مجاز القرآن» ١/٢٩٣، و«القرطبي» ٦٧/٩، و«شواهد الكشاف» ١٦٩، و«المصاحف»، و«اللسان»، و«التاج»: نكر.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أضر في نفسه خوفاً. قال الفراء: وكانت شئنة في زمانهم إذا ورد عليهم القوم فأتوهم بالطعام فلم يمسه، ظنوا أنهم عدو أو لصوص، فهناك أوجس في نفسه خيفة، فراوا ذلك في وجهه، فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِيَّاكَ قَوْرًا لَوْثًا﴾ قال الزجاج: أي: أرسلنا بالعباد إليهم. قال ابن الأنباري: وإنما أضر ذلك هانئا، لقيام الدليل عليه بذكر الله تعالى له في سورة أخرى.

﴿وَأَمْرًا لَهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن دُونِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُوبَلَّحُ عَلِيٌّ وَأَنَا عَجُزٌ وَهَذَا بَعَلِي شَيْعًا إِنَّكَ هَذَا لَتَوَيْبٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا لَهُمْ قَائِمَةٌ﴾ واسمها سارة. واختلفوا أين كانت قائمة على ثلاثة أقوال: أحدها: وراء الستر تسمع كلامهم، قاله وهب. والثاني: كانت قائمة تخدعهم، قاله مجاهد، والسدي. والثالث: كانت قائمة تصلي، قاله محمد بن إسحاق. وفي قوله: ﴿فَضَحَكْتُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن الضحك هانئا بمعنى التعجب، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن معنى «ضحكت»: حاضت، قاله مجاهد، وعكرمة. قال ابن قتيبة: وهذا من قولهم: ضحكت الأرنب؛ إذا حاضت. فعلى هذا، يكون حيضها حينئذ تأكيداً للبشارة بالولد، لأن من لا تحيض لا تحمل. وقال الفراء: لم نسمع من ثقة أن معنى «ضحكت»: حاضت. قال ابن الأنباري: أنكر الفراء، وأبو عبيدة، وأبو عبيد، أن يكون «ضحكت» بمعنى حاضت، وعرفه غيرهم. قال الشاعر:

تَضَحَّكَ الضُّبُعُ لَقَتْلَى هُدَيْلٍ وَتَرَى الذُّبَّابَ لَهَا يَسْتَهْلُ^(١)

قال بعض أهل اللغة: معناه: تحيض. والثالث: أنه الضحك المعروف، وهو قول الأكثرين. وفي سبب ضحكها ستة أقوال: أحدها: أنها ضحكت من شدة خوف إبراهيم من أضيافه، وقالت: من ماذا يخاف إبراهيم، وإنما هم ثلاثة، وهو في أهله وغلماؤه؟! رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثاني: أنها ضحكت من بشارة الملائكة لإبراهيم بالولد، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً، وهب بن منبه؛ فعلى هذا، إنما ضحكت سروراً بالبشارة، ويكون في الآية تقديم وتأخير، المعنى: وأمراته قائمة فيبشرناها فضحكت، وهو اختيار ابن قتيبة. والثالث: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم، فله تنادة. والرابع: ضحكت من إمساك الأضياف عن الأكل، وقالت: عجباً لأضيافنا، نخدعهم بأنفسنا، وهم لا يأكلون طعامنا! قاله السدي. والخامس: ضحكت سروراً بالأمن، لأنها خافت كخوف إبراهيم، قاله الفراء. والسادس: أنها كانت قالت لإبراهيم: انضم إليك ابن أخيك لوطاً، فإنه سينزل العذاب بقومه، فلما جاءت الملائكة بعذابهم، ضحكت سروراً بموافقتها للصوص، ذكره ابن الأنباري. قال المفسرون: قال جبريل لسارة: أبئشري أيتها الضاحكة بولد اسمه إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فبشروها أنها تلد إسحاق، وأنها تعيش إلى أن ترى ولد الولد. وفي معنى الورا قولان: أحدهما: أنه بمعنى «بعد»، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره مقاتل، وابن قتيبة. والثاني: أن الورا: ولد الولد، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الشعبي، واختاره أبو عبيدة. فإن قيل: كيف يكون يعقوب وراء إسحاق وهو ولد لصلبه، وإنما الورا: ولد الولد؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري، فقال: المعنى: ومن وراء المنسوب إلى إسحاق يعقوب، لأنه قد كان الورا لإبراهيم من جهة إسحاق، فلو قال: ومن الورا يعقوب، لم يُعلم هذا الورا منسوب إلى إسحاق، أم إلى إسماعيل؟ فأضيف إلى إسحاق لينكشف المعنى ويزول اللبس. قال: ويجوز أن ينسب ولد إبراهيم من غير إسحاق إلى سارة على جهة المجاز، فكان تأويل الآية: من الورا المنسوب إلى سارة، وإلى إبراهيم من جهة إسحاق، يعقوب. ومن حمل الورا على «بعد» لزم ظاهر العربية. واختلف القراء في «يعقوب»، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «يعقوب» بالرفع. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: «يعقوب» بالنصب. قال الزجاج: وفي رفع «يعقوب»

وجهان: أحدهما: على الابتداء المؤخر، معناه التقديم؛ والمعنى ويعقوبُ يُحَدِّثُ لها من وراء إسحاق. والثاني: وثبت لها من وراء إسحاق يعقوبُ. ومن نصبه، حملة على المعنى، والمعنى: وهبنا لها إسحاقاً، وهبنا لها يعقوبُ. قوله تعالى: ﴿يَتَوَلَّىٰ أَوْلَادًا وَعَجُوزًا﴾ هذه الكلمة تقال عند الإيذان بورود الأمر العظيم. ولم تُرد بها الدعاء على نفسها، وإنما هي كلمة تخفَّت على السنة النساء عند الأمر العجيب. وقولها: ﴿وَأَلِدُ﴾ استفهام تعجب. قال الزجاج: و ﴿سَخَّطًا﴾ منصوب على الحال. قال ابن الأنباري: إنما أشارت بقولها هذا لتنبه على شيخوخته. واختلفوا في سن إبراهيم وسارة يومئذٍ على أربعة أقوال: أحدها: أنه كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة، وسارة بنت ثمان وتسعين سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه كان إبراهيم ابن مائة سنة، وسارة بنت تسع وتسعين، قاله مجاهد. والثالث: كان إبراهيم ابن تسعين، وسارة مثله، قاله قتادة. والرابع: كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة، وسارة بنت تسعين، قاله عبيد بن عمير، وابن إسحاق.

﴿قَالُوا أَتَسْحَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتِ اللَّهِ وَرَكْمَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَسْحَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: من قضائه وقدرته، وهو إيجاد ولد من بين كبيرين. قال السدي: قالت سارة لجبرئيل: ما آية ذلك؟ فأخذ بيده عوداً يابساً فلواه بين أصابعه فاهتز أخضر، فقالت: هو إذن لله ذبيح.

قوله تعالى: ﴿رَحِمَتِ اللَّهِ وَرَكْمَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه من دعاء الملائكة لهم. والثاني: أنه إخبار عن ثبوت ذلك لهم. ومن تلك البركات وجود أكثر الأنبياء والأسباط من إبراهيم وسارة. والحميد بمعنى المحمود. فأما المجيد، فقال ابن قتيبة: بمعنى الماجد، وهو الشريف. وقال أبو سليمان الخطابي: هو الواسع الكرم. وأصل المجد في كلامهم: السعة، يقال: رجل ماجد: إذا كان سخياً واسع العطاء. وفي بعض الأمثال: في كل شجر نار، واستمجد المرغ والعفاز^(١)، أي: استكثر منها^(٢).

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَبَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوْهٌ مُّبِينٌ ﴿٧٥﴾ بِإِبْرَاهِيمَ أُعْرِضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أُمَّرٌ رُبُّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُورٍ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ يعني الفرع الذي أصابه حين امتنعوا من الأكل. ﴿يُجَادِلُنَا﴾ فيه إضمار أخذ وأقبل يجادلنا، والمراد: يجادل رسلنا. قال المفسرون: لما قالوا له: ﴿إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [النكبت: ٢٣١]، قال: أتهلكون قرية فيها مائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أتهلكون قرية فيها خمسون مؤمناً؟ قالوا: لا. قال: أربعون؟ قالوا: لا. فما زال ينقص حتى قال: فواحد؟ قالوا: لا. فقال حينئذٍ: ﴿إِنَّكَ فِيهَا لَوْطٌ نَحْسٌ عَلَنٌ يُبِينُ فِيهَا﴾ [النكبت: ٢٣١]، هذا قول ابن إسحاق. وقال غيره: قيل له: إن كان فيهم خمسة لم تعذبهم، فما كان فيهم سوى لوط وابنتيه. وقال سعيد بن جبير: قال لهم: أتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمناً؟ قالوا: لا؛ وكان إبراهيم يعذبهم أربعة عشر مع امرأة لوط، فسكت وأطمأنت نفسه؛ وإنما كانوا ثلاثة عشر فأهلكوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوْهٌ﴾ قد فسرناه في لبراء: [١١٤]. فعند ذلك قالت الرسل لإبراهيم: ﴿بِإِبْرَاهِيمَ أُعْرِضَ عَنْ هَذَا﴾ يعنون الجدل. ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أُمَّرٌ رُبُّكَ﴾ بعدابهم. وقيل: قد جاء عذاب ربك، فليس بمرود، لأن الله قد قضى به. ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ وَصَاقٍ بِهِمْ ذَرْبًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٤﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَتَلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَرَّبُ هُنَاكَ مِنْ أُمَّهَاتِهِمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُوا فِي سَبْتِ النَّسِ يَسْكُرُ رَجُلٌ رَيْبِيذٌ ﴿٧٥﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْمَلُ مَا تَرِيدُ ﴿٧٦﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنِي شَدِيدٍ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأْتِرْ بِأَهْلِكَ بِطِغْيِ مِّنَ الْبَيْتِ وَلَا يَلْبُوثَ إِنَّكُمْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا آتْرَاكَ إِنَّهُمْ مُّصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ قال المفسرون: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فأتوها

(١) المرغ والعفاز: شجرتان فيهما نار ليس في غيرها من الشجر، ويسوى من أغصانها الزناد فيقتلح بها.
(٢) أي: من النار، كأنها أخذت من النار ما هو حسيهما فسلحا للافتتاح بهما، فشبها بمن يكثر من العطاء طلباً للمجد.

عشاء. وقال السدي عن أشياخه: أترَّهًا نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم، لقوا بنت لوط تستقي الماء لأهلها، فقالوا لها: يا جارية، هل من منزل؟ قالت: نعم، مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، فرَّقا عليهم من قومها؛ فأتت أباها، فقالت: يا أبتاه، أدرك فتياناً على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم هي أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم؛ وقد كان قومه نهَّهوا أن يضيف رجلاً؛ فجاء بهم، ولم يعلم بهم أحد إلا أهل بيت لوط؛ فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فجاؤوا يُهرعون إليه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَوْمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: ساء ظنه بقومه، قاله ابن عباس. والثاني: ساء مجيء الرسل، لأنه لم يعرفهم، وأشفق عليهم من قومه، قاله ابن جرير. قال الزجاج: وأصل «سيء بهم» سُوي بهم، من السوء، إلا أن الواو أسكنت ونقلت كسرتها إلى السين.

قوله تعالى: ﴿وَصَاقِي يَوْمَ ذَرْبًا﴾ قال ابن عباس: ضاق ذرعاً بأضيافه. قال الفراء: الأصل فيه: وضاق ذرعه بهم، فنقل الفعل عن الذرع إلى ضمير لوط، ونُصب الذرع بتحول الفعل عنه، كما قال: ﴿وَأَشْتَلَّ الرَّأْسُ مَكِيْبًا﴾ [ترجم: ٤] ومعناه: اشتعل شيب الرأس. قال الزجاج: يقال: ضاق فلان بأمره ذرعاً: إذا لم يجد من المكروه في ذلك الأمر مخلصاً. وذكر ابن الأنباري فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: وقع به مكروه عظيم لا يصل إلى دفعه عن نفسه؛ فالذرع كناية عن هذا المعنى. والثاني: أن معناه: ضاق صبره وعظم المكروه عليه؛ وأصله من ذرع فلاناً القيء: إذا غلبه وسبقه. والثالث: أن المعنى ضاق بهم؛ ونُسَّعه، فناب الذرع والذراع عن الوسع، لأن الذراع من اليد، والعرب تقول: ليس هذا في يدي، يعنون: ليس هذا في وُعيي؛ ويدل على صحة هذا أنهم يجعلون الذراع في موضع الذرع، فيقولونه: ضقت بهذا الأمر ذراعاً، قال الشاعر:

إِلَيْكَ إِلَيْكَ ضَاقَ بِهِمْ ذِرَاعًا

فأما العصب، فقال أبو عبيدة: العصب: الشديد الذي يعصب الناس بالشر، وأنشد:

يَوْمَ عَصِيبٍ يَعْصِبُ الْأَبْطَالَ
عَضِبَ الْقَوِيُّ السَّلْمَ الطَّوَالًا^(١)

وقال أبو عبيد: يقال: يوم عصب، ويوم عصبب: إذا كان شديداً.

قوله تعالى: ﴿يَهْرَعُونَ لِآيٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: «يهرعون» يسرعون. وقال الفراء، والكسائي: لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رعدة. قال ابن قتيبة: الإهراع شبيه بالردة، يقال: أهرع الرجل: إذا أسرع، على لفظ ما لم يسم فاعله، كما يقال: أردد. قال ابن الأنباري: الإهراع فعل واقع بالقوم وهو لهم في المعنى، كما قالت العرب: قد أروع الرجل بالامر، فجعلوه مفعولاً، وهو صاحب الفعل، ومثله: أردد زيد، وسهي عمرو من السهو، كل واحد من هذه الأفعال خرج الاسم معه مقدراً تقدير المفعول، وهو صاحب الفعل لا يُعرف له فاعل غيره. قال: وقال بعض التحويين: لا يجوز للفعل أن يُجعل فاعله مفعولاً، وهذه الأفعال المذكورة فاعلوها محذوفون، وتأويل «أولع زيد»: أولعه طبعه وجيئته، و«أرعد الرجل»: أرعد غضبه، و«سهي عمرو» جعله ساهياً ماله أو جهله، و«أهرع» معناه: أهرعه خوفه ورعبه؛ فلهذه العلة خرج هؤلاء الأسماء مخرج المفعول به. قال: وقال بعض اللغويين: لا يكون الإهراع إلا إسراع المذعور الخائف؛ لا يقال لكل مسرع: مهرع، حتى ينضم إلى إسرعه جزع وذعر. قال المفسرون: سبب إهراعهم، أن امرأة لوط أخبرتهم بالأضياف. ﴿وَيَنْبَغِي﴾ أي: ومن قبل مجيئهم إلى لوط ﴿كَأَنَّهُمْ يَمَلُونَ الْأَكْبَابَ﴾ يعني فعلهم المنكر. وفي قوله: ﴿هَكَذَا بَيَّانٌ﴾ قولان: أحدهما: أنهن بناته لصلبه، قاله ابن عباس. فإن قيل: كيف جمع، وقد كن اثنتين؟ فالجواب: أنه قد يقع الجمع على اثنتين، كقوله: ﴿وَكُنَّا لِفَكِّيهِمْ شُهَدَاءَ﴾ [الأنبياء: 178]. والثاني: أنه عنى نساء أمته، لأن كل نبي أبو أمته، والمعنى: أنه عرض عليهم التزويج، أو أمرهم أن يكتفوا بنسائهم، وهذا مذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج. فإن قيل: كيف عرض تزويج المؤمنات

على الكافرين؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه قد كان يجوز ذلك في شريعته، وكان جائزاً في صدر الإسلام حتى نسخ، قاله الحسن، والثاني: أنه عرض ذلك عليهم بشرط إسلامهم، قاله الزجاج، ويؤكد أنه عرضهن عليهم موقوف على عقد النكاح، فجاز أن يقف على شرط آخر.

قوله تعالى: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قل مقاتل: هن أحل من إتيان الرجال.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيه قولان: أحدهما: اتقوا عقوبته. والثاني: اتقوا معصيته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْزَوْنَ فِي ضَعْفِكُمْ﴾ حرك ياء «ضيغي» أبو عمرو، ونافع. وفي معنى هذا الخزي ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الفضيحة، قاله ابن عباس. والثاني: الاستحياء، والمعنى: لا تفعلوا بأضيافي فعلاً يلزمني الاستحياء منه، لأن المضيف يلزمه الاستحياء من كل فعل يصل إلى ضيفه. والعرب تقول: قد خزي الرجل يخزي خزيا: إذا استحيى، قال الشاعر:

مِنَ السَّيْضِ لَا تَخْزَى إِذَا الرِّيحُ أَلْصَقَتْ بِهَا مِرْطَهَا أَوْ زَائِلَ الحَلِي جِيَدَهَا

والثالث: أنه بمعنى الهلاك، لأن المعرة التي تقع بالمضيف في هذه الحال تُلزمه هلكة، ذكرها ابن الأنباري. قال ابن قتيبة: والضيف هاهنا: بمعنى الأضياف، والواحد يدل على الجميع، كما تقول: هؤلاء رسولي ووكيلي.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ بِكُمْ رِجُلٌ رَشِيدٌ﴾ في المراد بالرشيد قولان: أحدهما: المؤمن. والثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، روي عن ابن عباس. قال ابن الأنباري: يجوز أن يكون الرشيد بمعنى المرشد، فيكون المعنى: أليس منكم مرشد يعظكم ويعرفكم قبيح ما تأتون؟ فيكون الرشيد من صفة الفاعل، كالعليم، والشهيد. ويجوز أن يكون الرشيد بمعنى المرشد، فيكون المعنى: أليس منكم رجل قد أسعده الله بما منحه من الرشاد يصرفكم عن إتيان هذه المعرة؟ فيجري رشيد مجرى مفعول، كالكتاب الحكيم بمعنى المحكم.

قوله تعالى: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَيٍّ﴾ فيه قولان: أحدهما: مالنا فيهن حاجة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: لسن لنا بأزواج فنستحقهن، قاله ابن إسحاق، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَكُنَّ مَأْتُودٌ﴾ قال عطاء: وإنك لتعلم أنا نريد الرجال، لا النساء.

قوله تعالى: ﴿أَوَأَنْ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ أي: جماعة أقوى بهم عليكم. وقيل: أراد بالقوة البطش. ﴿أَوَأَوْيَ إِلَيَّ رُكْنِي شَكِيدٌ﴾ أي: أنضم إلى عشيرة وشيعة تمنعني. وجواب «لو» محذوف على تقدير: لُحُلْتُ بينكم وبين المعصية. قال أبو عبيدة: قوله: «أوي» من قولهم: أويت إليك، فأنا أوي أويتاً، والمعنى: صرت إليك وانضمت. ومجاز الركن هاهنا: العشيرة العزيزة الكثيرة المنيعة، وأنشد:

يَأْوِي إِلَيَّ رُكْنِي مِنَ الْأَرْكَانِ فِي عَدَدِ طَيْسٍ وَمَجْدِ بَنَانِي^(١)

والطَّيْسُ: الكثير، يقال: أتانا لبن طيس، وشراب طيس، أي: كثير. واختلفوا أي وقت قال هذا لوط؟ فروي عن ابن عباس أن لوطاً كان قد أغلق بابه والملائكة معه في الدار، وهو ينظرهم ويناشدهم وراء الباب، وهم يعالجون الباب ويرومون تسور الجدار؛ فلما رأت الملائكة ما يلقي من الكرب، قالوا: يا لوط إنا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم؛ ففتح الباب، فدخلوا، واستأذن جبريل ربه في عقوبتهم، فأذن له، فضرب بجناحه وجوههم فأعماهم، فانصرفوا يقولون: النجاء النجاء، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض؛ وجعلوا يقولون: يا لوط، كما أنت حتى تصبح، يوعدونه؛ فقال لهم لوط: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، قال: لو أهلكتموهم الآن، فقالوا: أليس الصبح ب قريب؟ وقال أبو صالح عن ابن عباس: إنهم لما توعدوه، قال في نفسه: ينطلق هؤلاء القوم غداً من عندي، وأبقى مع هؤلاء فيهلكوني، فقال: لو أن لي بكم قوة. قلت: وإنما يتوجه هذا إذا قلنا إنه كان قبل علمه أنهم ملائكة. وقال قوم: إنه إنما قال هذا لما كسروا بابه وهجموا عليه. وقال آخرون: لما نهاهم عن أضيافه فأبوا قال

(١) البيت غير منسوب في «الطبري» ٤٢٢/١٥، وفي «مجاز القرآن» ٢٩٤/١.

هذا. وفي الجملة، ما أراد بالركن نصر الله وعونه، لأنه لم يخل من ذلك، وإنما ذهب إلى العشيرة والأسرة. وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، وما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه»^(١).

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ قال مقاتل: فيه إضمار، تقديره: لن يصلوا إليك بسوء، وذلك أنهم قالوا للوط: إنا نرى معك رجالاً سحروا أبصارنا، فستعلم غداً ما تلقى أنت وأهلك؛ فقال له جبريل: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾. قوله تعالى: ﴿فَأَنْشُرْ بِأَهْلِكَ﴾ قرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «فأسر» بإثبات الهمز في اللفظ من أسريت. وقرأ ابن كثير، ونافع: «فأسر بأهلك» بغير همز من سریت، وهما لغتان. قال الزجاج: يقال: سریت، وأسريت: إذا سرت ليلاً، قال الشاعر:

سریت بهم حتى تكلّ مطيهم
وقال النابغة:

أسرت عليهِ مِنَ الْجَوَازِ سَارِيَةً

وقد رووه: سرت. فأما أهله، فقال مقاتل: هم امرأته وابنته، واسم ابنته: رُبْنَا وَرُغْرْنَا. وقال السدي: اسم الكبرى: ريّة، واسم الصغرى: عروبة، والمراد بأهله: ابتاه. فأما القِطْع، فهو بمعنى القطعة؛ يقال: مضى قطع من الليل، أي: قطعة. قال ابن عباس: يريد به: آخر الليل. وقال ابن قتيبة: «يقطع» أي: ببقية تبقى من آخره. وقال ابن الأنباري: ذكر القِطْع بمعنى القطعة مختص بالليل، ولا يقال: عندي قطع من الثوب، بمعنى: عندي قطعة. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْقَىٰ مِنكُمُ أَحَدٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى: لا يتخلف منكم أحد، قاله أبو صالح عن ابن عباس، والثاني: أنه الالتفات المعروف، قاله مجاهد، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمْرًا لَّكَ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بنصب التاء. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن جمتاز عن أبي جعفر برفع التاء. قال الزجاج: من قرأ بالنصب، فالمعنى: فأسر بأهلك إلا أمرًا لك. ومن قرأ بالرفع، حملة على «ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرًا لك». وإنما أمروا بترك الالتفات لثلاثين يوزاً عظيم ما ينزل بهم من العذاب. قال ابن الأنباري: وعلى قراءة الرفع، يكون الاستثناء منقطعاً، معناه: لكن أمرًا لك، فإنها تلتفت فيصيبها ما أصابهم؛ فإذا كان استثناء منقطعاً، كان التفتاتها معصية لربها، لأنه ندب إلى ترك الالتفات. قال قتادة: ذكر لنا أنها كانت مع لوط حين خرج من القرية، فلما سمعت هدة العذاب، التفتت فقالت: واقوماه، فأصابها حجر فأهلكها، وهو قوله: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدُهُمْ﴾ للعذاب ﴿الشَّحِيحُ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ الشَّحِيحُ بِقَرِيْبٍ﴾ قال المفسرون: قالت الملائكة: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الشَّحِيحُ﴾ فقال: أريد أعجل من ذلك، فقالوا له: ﴿الَّذِينَ الشَّحِيحُ بِقَرِيْبٍ؟﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَمَلْنَا عَلَيْهَا سَابِقَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا جِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ ﴿٨٢﴾ شِسْوَةً مِّن دُرٍّ وَمَا هِيَ مِنَ الْقَلْبَلِيَّتِ بِبَعِيْدٍ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أمر الله الملائكة بعذابهم. والثاني: أن الأمر بمعنى العذاب. والثالث: أنه بمعنى القضاء بعذابهم.

قوله تعالى: ﴿جَمَلْنَا عَلَيْهَا سَابِقَهَا﴾ الكناية تعود إلى المؤتفكات، وهي قرى قوم لوط، وقد ذكرناها في

(١) «الطبري» ٤١٩/١٥ - ٤٢٠، ورواه الترمذي ١٣٩/٢ وقال: حديث حسن، والحاكم ٥٦١/٢ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ورواه البخاري ٢٩٧/٦ دون قوله: فوما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه.

(٢) «ميوانه» ٤ بشرح ابن السكيت، و«مجاز القرآن» ٢٩٥/١، و«مختار الشعر الجاهلي» ١٥٠/١، و«القرطبي» ٧٩/٩، و«اللسان»، و«التاج»: سرت. وأسرت: إذا أمطرت ليلاً، وقوله: «من الجوزاء سارية» كقولك: سقينا بنوه كذا، أي: أصابه المطر ليلاً، وتزجي: تسوق وتدفع على النور جامد البرد.

[إبراء: ٧٠]، ونحن نشير إلى قصة هلاكهم هاهنا. قال ابن عباس: أمر جبريل لوطاً بالخروج، وقال: اخرج وأخرج غنمك وبقرك، فقال: كيف لي بذلك وقد أغلقت أبواب المدينة؟ فبسط جناحه، فحمله وبيتته ومالهم من شيء، فأخرجهم من المدينة، وسأل جبريل ربّه، فقال: يا رب ولّني هلاك هؤلاء القوم، فأوحى الله إليه أن تولّ هلاكهم؛ فلما أن بدا الصبح، غدا عليهم جبريل فاحتملها على جناحه، ثم صعد بها حتى خرج الطير في الهواء لا يدري أين يذهب، ثم كفّأها عليهم، وسمعوا وحبّة^(١) شديدة، فالتفتت امرأة لوط، فرماها جبريل بحجر فقتلها، ثم صعد حتى أشرف على الأرض، فجعل يثبّتهم مسافرتهم وزوّعاتهم ومنّ تحوّل عن القرية، فرماهم بالحجارة حتى قتلهم. وقال السدي: اقتلع جبريل الأرض من سبع أرضين، فاحتملها حتى بلغ بها إلى أهل السماء الدنيا، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها. وقال غيره: كانت خمس قرى، أعظمها سدوم، وكان القوم أربعة آلاف ألف. وقيل؛ كان في كل قرية مائة ألف مقاتل، فلما رفعها إلى السماء، لم يتكسر لهم إناء ولم يسقط حتى قلبها عليهم. وقيل: نجا من الخمس واحدة لم تكن تعمل مثل عملهم. وانفرد سعيد بن جبير، فقال: إن جبريل وميكائيل تولّيا قلبها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القرى. والثاني: إلى الأمة. وفي السجّل سبعة أقوال: أحدها: أنها بالفارسية سنك وكلّ، السنك: الحجر، والكل: الطين، هذا قول ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير. وقال مجاهد: أولها حجر، وآخرها طين. وقال الضحّاك: يعني الأجر. قال ابن قتيبة: من ذهب إلى هذا القول، اعتبره بقوله: ﴿حِجَارَةٌ يَنْ يَلِينُ﴾ [الذاريات: ٣٣] يعني الأجر. وحكى الفراء أنه طين قد طبخ حتى صار بمنزلة الأرحاء. والثاني: أنه بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض، ومنه نزلت الحجارة، قاله عكرمة. والثالث: أن السجّل: اسم السماء الدنيا، فالمعنى: حجارة من السماء الدنيا، قاله ابن زيد. والرابع: أنه الشديد من الحجارة الصلب، قاله أبو عبيدة، وأنشد لابن مقبل:

[وَزَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ عَنْ عُرْضٍ] ضرباً تواصت به الأبطال سيجيئاً^(٢)

ورّد هذا القول ابن قتيبة، فقال: هذا بالنون، وذاك باللام، وإنما هو في هذا البيت فعيل من سجت، أي: حبست، كأنه يثبت صاحبه. الخامس: أن قوله: «من سجّل» كقولك: من سيجلّ، أي: مما كتبت لهم أن يعدّوا به، وهذا اختيار الزجاج. والسادس: أنه من أسجلته، أي: أرسلته، فكأنها مرسله عليهم. والسابع: أنه من أسجلت: إذا أعطيت، حكى الفوليني الزجاج. وفي قوله: «متشوّب» ثلاثة أقوال: أحدها: يتبع بعضه بعضاً، قاله ابن عباس. والثاني: مصفوف، قاله عكرمة، وقناة. والثالث: نضد بعضه على بعض، لأنه طين جُمع فجعل حجارة، قاله الربيع بن أنس.

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ﴾ قال الزجاج: أي معلّمة، أخذ من السومة، وهي العلامة. وفي علامتها ستة أقوال: أحدها: بياض في حمرة، رواه الضحّاك عن ابن عباس، وبه قال الحسن. والثاني: أنها كانت مختومة، فالحجر أبيض وفيه نقطة سوداء، أو أسود وفيه نقطة بضاء، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنها المخططة بالسواد والحمرة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: عليها نضح من حمرة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع، قاله عكرمة، وقناة. والخامس: أنها كانت معلّمة بعلامة يُعرف بها أنها ليست من حجارة الدنيا، قاله ابن جريج. والسادس: أنه كان على كل حجر منها اسم صاحبه، قاله الربيع. وحكي عن بعض من رأى تلك الحجارة أنه قال: كانت مثل رأس الإبل، ومثل مبارك الإبل، ومثل قبضة الرجل. وفي قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أن المعنى: جاءت من عند ربك، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: عند ربك معدّة، قاله أبو بكر الهذلي. والثالث: أن

(١) الوجبة: صوت الشيء يسقط فيسمع له كالهذّة.

(٢) «ديوانه» ٣٣٣، و«مجاز القرآن» ٢٩٦، و«الطبري» ١٥ / ٤٣٤، و«جمهرة أشعار العرب» ١٦٢، و«منتهى الطلب» ٤٤، و«المعاني الكبير» ٩٩١، و«اللسان»: سجن.

المعنى: هذا التسويم لزم هذه الحجارة عند الله إيداناً بنفاذ قدرته وشدة عذابه، قاله ابن الأنباري. والرابع: أن معنى قوله: «عند ربك»: في خزائنه التي لا يُصْرَفُ في شيء منها إلا بإذنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الْأَلْبَابِ بِيَعِيدٍ﴾ في المراد بالظالمين هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد بالظالمين هاهنا كفار قريش، خوَّفهم الله بها، قاله الأکثرون. والثاني: أنه عام في كل ظالم؛ قال قتادة: والله ما أجاز الله منها ظالماً بعد قوم لوط، فاتقوا الله وكونوا منه على حذر. والثالث: أنهم قوم لوط، فالمعنى: وما هي من الظالمين، أي: من قوم لوط ببيعد، والمعنى: لم تكن لتُحْطَنهم، قاله الفراء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا هُنَّ أُمَّهَاتُكُمْ لَأَنَّهُنَّ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْتَبَيْنَ﴾^(٨٥) قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا هُنَّ أُمَّهَاتُكُمْ لَأَنَّهُنَّ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْتَبَيْنَ﴾^(٨٥) قد ذكرناه في [الأعراف: ٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفُصُوا الْيَتَامَى وَالْيَتَامَى﴾ أي: لا تطفئوا؛ وكانوا يطفئون مع كفرهم. قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه رُحِصَ الأسعار، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد. والثاني: سَعَةُ المال، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً، وبه قال قتادة، وابن زيد. وقال الفراء: أموالكم كثيرة، وأسعاركم رخيصة، فأي حاجة بكم إلى سوء الوزن والكيل؟! قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُم مَّطَرًا مَّهِيلاً﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه غلاء السعر، قاله ابن عباس.

وقال مجاهد: القحط والجذب والغلاء. والثاني: العذاب في الدنيا، وهو الذي أصابهم، قاله مقاتل. والثالث: عذاب النار في الآخرة، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا الْيَتَامَى وَالْيَتَامَى بِالْإِسْطِ﴾ أي: أتوا ذلك بالعدل. والإيفاء: الإتمام. ﴿وَلَا تَحْتَفِزُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِكِينَ﴾ بنقص المكيال والميزان.

﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾^(٨٦) قَالُوا يَشْعَبُ أَسْلَمْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّكِلَ مَا يَعْبُدُ مَا بَارَأْنَا أَوْ أَنْ نَقْتُلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَفْتَنُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْكَلِيمُ الرَّشِيدُ^(٨٧) قَالَ يَقْتَرُونَ أَنَّهُ يَشْرُفُ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي وَوَرَفَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَنَّكُمْ إِلَيَّ مَا أَنهَلَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَمْتَحْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ^(٨٨) وَيَقْتَرُونَ لَا يَجْرِيَنَّكُمْ يَصَافٍ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ^(٨٩) وَاسْتَفْتَرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُوِيَ إِلَيْهِ أَنْ يُرْسِلَ رَجُلًا مِنْهُمْ وَيَقْتَرُونَ أَنَّهُ يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ مِنَّا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِمُرْسِرٍ^(٩٠) قَالَ يَقْتَرُونَ أَرَأَيْتُمْ أَهْرَءُ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَأَغْنَمْتُمُوهُ وَرَأَيْتُمْ ظَهْرَنَا إِنَّا رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ^(٩١) وَيَقْتَرُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِبِكُمْ إِلَى عَمَلٍ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْسَلْنَا إِلَى مَعْصَمِ رَبِّهِمْ^(٩٢) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِنَا وَنَا وَآخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيًّا^(٩٣) كَأَن لَّمْ يَسْمُرُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِثَلَاثِينَ كَمَا بَدَدَتْ قَوْمُ^(٩٤)

قوله تعالى: ﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: ما أبقي الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن، خير من البخس، قاله ابن عباس. والثاني: رزق الله خير لكم، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال سفيان. والثالث: طاعة الله خير لكم، قاله مجاهد، والزجاج. والرابع: حظكم من الله خير لكم، قاله قتادة. والخامس: رحمة الله خير لكم، قاله ابن زيد. والسادس: وصية الله خير لكم، قاله الربيع. والسابع: ثواب الله في الآخرة خير لكم، قاله مقاتل. والثامن: مراقبة الله خير لكم، ذكره الفراء. وقرأ الحسن البصري: «تقية الله خير لكم» بالفاء.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط الإيمان في كونه خيراً لهم، لأنهم إن كانوا مؤمنين بالله ﷻ، عرفوا صحة ما يقول. وفي قوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: ما أمرتُ بقتالكم وإكراهكم على الإيمان. والثاني: ما أمرتُ بمرابقتكم عند كيلكم لثلاث تبخسوا. والثالث: ما أحفظكم من عذاب الله إن نالكم.

قوله تعالى: ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص: «أصلاتك» على التوحيد. وفي المراد بصلواته ثلاثة أقوال: أحدها: دينه، قاله عطاء. والثاني: قراءته، قاله الأعمش. والثالث: أنها الصلوات المعروفة. وكان شعيب كثير الصلاة.

قوله تعالى: ﴿أَوَ أَنْ نَقَعَلَ بِحِ أَمْوَالِكُمْ مَا نَشَاءُ﴾ قال الفراء: معنى الآية: أصلواتك تأمرُك أن تترك ما يعبد آباؤنا، أو أن تترك أن نعمل في أموالنا ما نشاء؟ وفي معنى الكلام على قراءة من قرأ بالنون قولان: أحدهما: أن فعلهم في أموالهم هو البخس والتطفيف، قاله ابن عباس؛ فالمعنى: قد تراضينا فيما بيننا بذلك. والثاني: أنهم كانوا يقطعون الدراهم والدنانير، فهناهم عن ذلك، قاله ابن زيد. وقال القرظي: عُذِّبُوا فِي قَطْعِهِمُ الدَّرَاهِمِ. قال ابن الأنباري: وقرأ الضحاك بن قيس الفهري «ما تشاء» بالتاء، ونسق «أن تفعل» على «أن تترك»، واستغنى عن الإضمار. قال سفيان الثوري: في معنى هذه القراءة أنه أمرهم بالزكاة فامتنعوا. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك، وابن أبي عبيدة: «أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء» بالتاء فيهما؛ ومعنى هذه القراءة كمعنى قراءة الفهري. وفي قوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنهم قالوه استهزاءً به، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والفراء. والثاني: أنهم قالوا له: إنك لأنت السفيه الجاهل، فكفى بهذا عن ذلك، ذكره الزجاج. والثالث: أنهم سبوه بأنه ليس بحليم ولا رشيد، فأثنى الله ﷻ عليه فقال: بل إنك لأنت الحليم الرشيد، لا كما قال لك الكافرون، حكاه أبو سليمان الدمشقي عن أبي الحسن المصيصي. والرابع: أنهم اعترفوا له بالحلم والرشد حقيقة، وقالوا: أنت حليم رشيد، فلم يتهمنا أن نعمل في أموالنا ما نشاء؟ حكاه الماوردي، وذهب إلى نحوه ابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ هَلَّا يَنْتَرُونَ مِنِّي﴾ قد تقدم تفسيره (هود: ٢٨ و ٦٣) وفي قوله: ﴿وَرَزَقْنِي مِنهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحلال؛ قال ابن عباس: وكان شعيب كثير المال. والثاني: النبوة. والثالث: العلم والمعرفة. قال الزجاج: وجواب الشرط هاهنا متروك، والمعنى: إن كنت على بينة من ربي، أتبع الضلال؟ فترك الجواب، لعدم المخاطبين بالمعنى، وقد مر مثل هذا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَلَكْتُمْ إِلَيَّ مَا أَنهَلَكْتُمْ عَنْهُ﴾ قال قتادة: لم أكن لأنهاكم عن أمر ثم ارتكبه. وقال الزجاج: ما أقصد بخلافكم القصد إلى ارتكابه.

قوله تعالى: ﴿إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِضْلَاحَ مَا اسْتَنْعَمْتُ﴾ أي: ما أريد بما أمركم به إلا إصلاح أموركم بقدر طاقتي. وقدر طاقتي: إبلاغكم لا إجباركم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَرْبِيَّتِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فتح تاء «توفيقي» أهل المدينة، وابن عامر. ومعنى الكلام: ما إصابتي الحق في محاولة صلاحكم إلا بالله. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فوضت أمري، وذلك أنهم تواعدوه بقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَيْبٍ﴾ [الأعراف: ٤٨٨]. ﴿وَالَّذِي أُولِيَ اللَّهُ﴾ أي: أرجع.

قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ حرك هذه الياء ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع. قال الزجاج: لا تكسبكم عداوتكم إياي أن تعذبوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ يَنْصُرُونَ بِعَبِيرٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم كانوا قريباً من مساكنهم. والثاني: أنهم كانوا حديثي عهد بعدذاب قوم لوط. قال الزجاج: كان إهلاك قوم لوط أقرب الإهلاكات التي عرفوها. قال ابن الأنباري: إنما وحّد بعيداً، لأنه أزاله عن صفة القوم، وجعله نعتاً مكان محذوف، تقديره: وما قوم لوط منكم بمكان بعيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ قد سبق معنى الرحيم. فأما الودود: فقال ابن الأنباري: معناه: المحب لعباده، من قولهم: وددت الرجل أودّه وودّاً ووداً، ويقال: وددت الرجل ووداداً وودادة وودادة. وقال الخطابي: هو اسم مأخوذ من الود؛ وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون فعولاً في محل مفعول، كما قيل: رجل هيبوب، بمعنى مهيب، وفرس ركوب، بمعنى مركوب، فالله سبحانه مودود في قلوب أوليائه لما يترغفونه من إحسانه إليهم. والوجه الآخر: أن

يكون بمعنى الواء، أي: أنه يودّ عباده الصالحين، بمعنى أنه يرضى عنهم بِتَقْبُلِ أعمالهم؛ ويكون معناه: أن يودّدهم إلى خلقه، كقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَكُمْ الزَّجْنَ وَدًا﴾ [مريم: ٩٦].

قوله تعالى: ﴿مَا نَقَعُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: ما نفقه صحة كثير مما تقول، لأنهم كانوا يتدبّرونه، ويجوز أن يكونوا لاستئصالهم ذلك كأنهم لا يفقهونه.

قوله تعالى: ﴿وَرِئًا لِرَبِّكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: ضريباً؛ قال ابن عباس، وابن جبير، وقتادة: كان أعمى. قال الزجاج: ويقال: إن حمير تسمى المكفوف: ضعيفاً. والثاني: ذليلاً، قاله الحسن، وأبو روق، ومقاتل. وزعم أبو روق أن الله لم يبعث نبياً أعمى، ولا نبياً به زمانة. والثالث: ضعيف البصر، قاله سفيان. والرابع: عاجزاً عن التصرف في المكاسب، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَرُوْلًا رَهْطًا لِرَجْنَتِكَ﴾ قال الزجاج: لولا عشيرتك لقتلتناك بالرجم، والرجم من سيئ القتلات، وكان رهطه من أهل ملتهم، فلذلك أظهروا الميل إليهم والإكرام لهم. وذكر بعضهم أن الرجم هاهنا بمعنى الشتم والأذى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: بكريم. والثاني: بمنتع أن تقتلك. قوله تعالى: ﴿أَرْهَطِيْ أَعْرُؤَ عَلَيَّكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ وأسكن ياء «رهطي» أهل الكوفة، ويعقوب، والمعنى: أتراعون رهطي في، ولا تراعون الله في؟

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوهُمْ رِءَاءَكُمْ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى، قاله الجمهور. قال الفراء: المعنى: رमितم بأمر الله وراء ظهوركم. قال الزجاج: والعرب تقول لكل من لا يعبا بأمر: قد جعل فلان هذا الأمر بظهر، قال الشاعر:

تَمِيمٌ بَنَ قَيْسٍ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي
وَالثَّانِي: أَنَّهَا كِنَايَةٌ عَمَّا جَاءَ بِهِ شَعِيبٌ، قَالَ مُجَاهِدٌ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّيَ بِمَا تَكْمُلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عالم بأعمالكم، فهو يجازيكم بها. وما بعد هذا قد سبق تفسيره إلى قوله: ﴿سَوَّيْتُ تَكْمُلُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣٥]. فإن قال قائل: كيف قال هاهنا «سوف» وفي سورة أخرى «سوف»؟ [الأنعام: ١١٣٥] فالجواب: أن كلا الأمرين حسن عند العرب، إن أدخلوا الفاء، دلوا على اتصال ما بعد الكلام بما قبله، وإن أسقطوها، بنوا الكلام الأول على أنه قد تم، وما بعده مستأنف، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُرُوفًا﴾ [البقرة: ٦٧]، والمعنى: فقالوا: أتتخذنا، بالفاء، فحذفت الفاء لتمام ما قبلها. قال امرؤ القيس:

فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّوِّ مَالِكُ جِيلَةٍ
وَمَا إِنْ أَرَى عَنْكَ السَّوَابِيَةَ تَنْجَلِي^(٢)
خَرَجْتُ بِهَا أَمْشِي تَجْرُ وَرَاءَنَا
عَلَى إِثْرِنَا أَدْبَالٌ مِرْطٌ مُرْحَلِ

قال ابن الأنباري: أراد: فخرجت، فأسقط الفاء لتمام ما قبلها. ويروي: فقمتم بها أمشي.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْزَقُوا إِلَى مَعَكُمْ رَيْبًا﴾ قال ابن عباس: ارتقبوا العذاب، فإني ارتقب الثواب.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ﴾ قال المفسرون: صاح بهم جبريل فماتوا في أمكتهم. قال محمد بن كعب: عذّب أهل مدين بثلاثة أصناف من العذاب، أخذتهم رجفة في ديارهم، حتى خافوا أن تسقط عليهم، فخرجوا منها فأصابهم حرٌ شديد، فبعث الله الظلّة، فتنادوا: هلم إلى الظل؛ فدخلوا جميعاً في الظلّة، فصيح بهم صيحة واحدة فماتوا كلهم. قال ابن عباس: لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد، إلا قوم شعيب وصالح، فأما قوم صالح، فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وأما قوم شعيب، فأخذتهم من فوقهم، نشأت لهم سحابة كهيئة الظلّة فيها ريح بعد أن امتعت الريح عنهم، فأثروها يستظلون تحتها فأحرقتهم.

(١) الليث تقدم ٢٤٧، وهو أيضاً في «الكامل» ٤٣٠، و«ذيل الأمامي» ٧٨، و«أضداد ابن الأنباري» ٢٥٦.

(٢) «ديوانه» ١٤، والمرط: إزار خز له علم، وإنما تجر مرطها ليخفي أثره وأثرها فلا يستدل عليهما، والمرحل: الموشى، وهو ضرب من البرود.

قوله تعالى: ﴿كَمَا بَعَدَتْ سَمُودُ﴾ أي: كما هلكت سمود. قال ابن قتيبة: يقال: بَعَدَ يَبْعُدُ: إِذَا كَانَ بَعْدَهُ هَلَكَةٌ وَبَعْدَ يَبْعُدُ: إِذَا نَأَى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ ثَمِينٍ ﴿١٧١﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَلَّوْا بِهِ فَأَرْسَلْنَا آتَمَ وَجُوهًا وَمَا آتَمُ وَجُوهٌ إِلَّا وَيَسِفُ ﴿١٧٢﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ قال الزجاج: بعلامانا التي تدل على صحة نبوته. ﴿وَسُلْطَانٍ ثَمِينٍ﴾ أي: حجة بيّنة.

قوله تعالى: ﴿فَالْبَحْرُ آتَمَ وَجُوهًا﴾ وهو ما أمرهم به من عبادته واتخاذها إلهًا. ﴿وَمَا آتَمُ وَجُوهٌ إِلَّا وَيَسِفُ﴾ أي: مرشد إلى خير.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿١٧٣﴾﴾
قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال الزجاج: يقال: قَدَمْتُ الْقَوْمَ أَقْدَمْتُهُمْ، قَدَمًا وَقُدُومًا: إِذَا تَقَدَّمْتَهُمْ؛ وَالْمَعْنَى: يَقْدِمُهُمْ إِلَى النَّارِ؛ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ قال ابن عباس: أوردهم بمعنى أدخلهم. وقال قتادة: يمضي بين أيديهم حتى يهجم بهم على النار.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ قال المفسرون: الورد: الموضع الذي ترده. وقال ابن الأنباري: الورد: مصدر معناه: الورد، تجعله العرب بمعنى الموضع المورد؛ فتلخيص الحرف: ويتس المدخل المدخول النار.

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿١٧٤﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. في هذه اللعنة قولان: أحدهما: أنها في الدنيا الخرق، وفي الآخرة عذاب النار، هذا قول الكلبي، ومقاتل. والثاني: أنها اللعنة في الدنيا من المؤمنين، وفي الآخرة من الملائكة، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿يَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ قال ابن قتيبة: الرد: العطية؛ يقول: اللعنة بس العطية؛ يقال: رَدَدْتَهُ أَرَدَدْتَهُ: إِذَا أَعْطَيْتَهُ وَأَعْتَهُ. والمرفود: المعطى.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْفُرْقَانِ نَقَّضُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٧٥﴾﴾
قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْفُرْقَانِ﴾ يعني ما تقدم من الخبر عن القرى المهلكة. ﴿نَقَّضُ عَلَيْكَ﴾ أي: نخبرك به. ﴿مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ﴾ قال قتادة: القائم: ما يرى مكانه، والحصيد: لا يرى أثره. وقال ابن قتيبة: القائم: الظاهر العين، والحصيد: الذي قد أبيض وحُصد. وقال الزجاج: القائم: ما بقيت حيطانه، والحصيد: الذي خُصِفَ به وما قد أمحى أثره.

﴿وَمَا ظَلَمْتُمْ وَلَكِنْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ عِزًّا نَسِيبِ ﴿١٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتُمْ﴾ أي: بالعباد والإهلاك. ﴿وَلَكِنْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أي: فما نفعتهم ولا دفعت عنهم شيئاً ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالهلاك. ﴿وَمَا زَادَتْهُمْ﴾ يعني الآلهة ﴿عِزًّا نَسِيبِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التخسير، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقاتدة، واختاره ابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنه الشر، قاله ابن زيد. والثالث: التدمير والإهلاك، قاله أبو عبيدة. فإن قيل: الآلهة جماد، فكيف قال: ﴿زادوهم﴾؟ فنته جوابان: أحدهما: وما زادتهم عبادتها. والثاني: أنها في القيامة تكون عوناً عليهم فتزيدهم شرّاً.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٧٧﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أي: وكما ذكر من إهلاك الأمم وأخذهم بالعذاب أخذُ ربك ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ﴾ وصف القرى بالظلم، والمراد أهلها. وقال ابن عباس: الظلم هاهنا: بمعنى الكفر.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٧٨﴾ وَمَا تَوْفِيقُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ ﴿١٧٩﴾﴾
قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني ما ذكر من عذاب الأمم وأخذهم. والآية: العبرة والعظة. ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ

لَهُ النَّاسُ ﴿١٠٥﴾ لَأَنَ الْخَلْقِ يُحْشَرُونَ فِيهِ، وَيَشْهَدُهُ الْجَبُّ وَالْفَاجِرُ، وَأَهْلَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.. ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ رَوَى زَيْدٌ عَنْ يَعْقُوبَ، وَأَبُو زَيْدٍ عَنِ الْمُفَضَّلِ: «وَمَا يُؤَخِّرُهُ بِالْيَاءِ» وَالْمَعْنَى: وَمَا نُؤَخِّرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَّا لَوْقَتٍ مَعْلُومٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. ﴿يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَيَنْهَرُ شَرِيقٌ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ سَفَقُوا فِي النَّارِ لَمْ يَكُنْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٧﴾ خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنْ رَبُّكَ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُمِدُوا فِي كَلْبَتِهِمْ خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاةٌ غَيْرَ مَحْدُودَةٍ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: «يوم يأتي» بياء في الوصل، وحذفوها في الوقف؛ غير أن ابن كثير كان يقف بالياء، ويصل بالياء. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة بغير ياء في الوصل والوقف. قال الزجاج: الذي يختاره النحويون «يوم يأتي» بإثبات الياء، والذي في المصحف وعليه أكثر القراءات بكسر التاء، وهذيل تستعمل حذف هذه الياءات كثيراً. وقد حكى الخليل، وسيبويه، أن العرب تقول: لا أدري، فتحذف الياء، وتجتزئ بالكسرة، ويزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. وقال الفراء: كل ياء ساكنة وما قبلها مكسورة، أو واو ساكنة وما قبلها مضموم، فإن العرب تحذفها وتجتزئ بالكسرة من الياء، وبالضمة من الواو، وأنشدني بعضهم:

كَفَاكَ كَفَّ مَا تَلَيْقُ دِرْهَمًا جُودًا وَأُخْرَى تُغْطِي بِالسَّيْفِ الدُّمَامَا

قال المفسرون: وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ يعني: يأتي ذلك اليوم، لا تكلم نفس إلا بإذن الله، فكل الخلائق ساكنون، إلا من أذن الله له في الكلام. وقيل: المراد بهذا الكلام الشفاعة.

قوله تعالى: ﴿فَيَنْهَرُ شَرِيقٌ﴾ قال ابن عباس: منهم من كبت عليه الشقاوة، ومنهم من كُتبت له السعادة.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الزفير كزفير الحمام في الصدر، وهو أول ما يهتق، والشهيق كشهيق الحمام في الحلق، وهو آخر ما يفرغ من نهيقه، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، ومقاتل، والفراء. وقال الزجاج: الزفير: شديد الأنين وقبيحه، والشهيق: الأنين الشديد المرتفع جداً، وهما من أصوات المكرويين. وزعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمام في النهيق، والشهيق بمنزلة آخر صوته في النهيق. والثاني: أن الزفير في الحلق، والشهيق في الصدور، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال أبو العالية، والربيع بن أنس. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: الزفير: الصوت الشديد، والشهيق: الصوت الضعيف. وقال ابن فارس: الشهيق ضد الزفير، لأن الشهيق ردُّ النَّفْسِ، والزفير إخراج النَّفْسِ. وقال غيره: الزفير: الشديد، مأخوذ من الزُّفر، وهو الحَمَلُ على الظهر لشده؛ والشهيق: النَّفْسُ الطويل الممتد، مأخوذ من قولهم: جبل شاهق، أي: طويل. والثالث: أن الزفير زفير الحمام، والشهيق شهيق البغال، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ المعروف فيه قولان: أحدهما: أنها السموات المعروفة عندنا، والأرض المعروفة؛ قال ابن قتيبة، وابن الأنباري: للعرب في معنى الأبد ألفاظ؛ تقول: لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار، وما دامت السموات والأرض، وما اختلفت الحجر والديرة^(١)، وما أطت الإبل^(٢)، في أشباه لهذا كثيرة، ظناً منهم أن هذه الأشياء لا تتغير، فخطبهم الله بما يستعملون في كلامهم. والثاني: أنها سموات الجنة والنار وأرضهما.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في الاستثناء المذكور في حق أهل النار سبعة أقوال: أحدها: أن الاستثناء في حق الموحدين الذين يخرجون بالشفاعة، قاله ابن عباس، والضحاك. والثاني: أنه استثناء لا يفعله، تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وعزيمتك على ضربه، ذكره الفراء، وهو معنى قول أبي صالح عن ابن عباس: «إلا ما شاء ربك» قال: فقد شاء أن يخلدوا فيها. قال الزجاج: وفائدة هذا، أنه لو شاء أن يرحمهم لرحمهم، ولكنه أعلمنا

(١) الحجر: ما يخرج البحر من بطنه ليضعه ثم يبتلعه، والديرة: كثرة اللبن وسيلانه، واختلفت: تسفل إلى الرجلين، والحجر: تملو إلى الرأس.

(٢) يقال: أطت الإبل تصط أطيطاً: أنت تعباً وحنيناً أو رزمة. وفي المثل: «لا أفعل ذلك ما أطت الإبل».

أنهم خالدون أبداً. والثالث: أن المعنى: خالدين فيها أبداً، غير أن الله تعالى يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم، ثم يجدد خلقهم، فيرجع الاستثناء إلى تلك الحال، قاله ابن مسعود. والرابع: أن «إلا» بمعنى «سوى»، تقول: لو كان معنا رجل إلا زيد، أي: سوى زيد؛ فالمعنى: خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود والزيادة، وهذا اختيار الفراء. قال ابن قتيبة: ومثله في الكلام أن تقول: لأسكننك في هذه الدار حولاً إلا ما شئت؛ تريد: سوى ما شئت أن أزيدك. الخامس: أنهم إذا حُشروا ويُسعوا، فهم في شروط القيامة؛ فالاستثناء واقع في الخلود بمقدار موقفهم في الحساب، فالمعنى: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا مقدار موقفهم للحاسبة، ذكره الزجاج. وقال ابن كيسان: الاستثناء يعود إلى مكثهم في الدنيا والبرزخ والوقوف للحساب؛ قال ابن قتيبة: فالمعنى: خالدين في النار وخالدين في الجنة دوام السماء والأرض إلا ما شاء ربك من تعميمهم في الدنيا قبل ذلك، فكأنه جعل دوام السماء والأرض بمعنى الأبد على ما كانت العرب تستعمل، وإن كانتا قد تتغيران. واستثنى المشيئة من دوامهما، لأن أهل الجنة والنار قد كانوا في وقت من أوقات دوام السماء والأرض في الدنيا، لا في الجنة، ولا في النار. والسادس: أن الاستثناء وقع على أن لهم فيها زفيراً وشهيقاً، إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي لم تُذكر؛ وكذلك لأهل الجنة نعيم مما ذكر، ولهم مما لم يُذكر ما شاء ربك، ذكره الزجاج أيضاً. والسابع: أن «إلا» بمعنى «كما»، ومنه قوله: ﴿وَلَا تَكْبُرُوا مَا كُنْتُمْ أَبَاؤَكُمْ بِرَبِّ السَّمَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، ذكره الثعلبي. فأما الاستثناء في حق أهل الجنة، ففيه ستة أقوال: أحدها: أنه استثناء لا يفعله. والثاني: أن «إلا» بمعنى «سوى». والثالث: أنه يرجع إلى وقوفهم للحساب وليتهم في القبور. والرابع: أنه بمعنى: إلا ما شاء أن يزيدهم من النعيم الذي لم يُذكر. والخامس: أن «إلا» كـ «ما»، وهذه الأقوال قد سبق شرحها. والسادس: أن الاستثناء يرجع إلى لبث من لبث في النار من الموحدين، ثم أدخل الجنة، قاله ابن عباس، والضحاك، ومقاتل. قال ابن قتيبة؛ فيكون الاستثناء من الخلود مُكث أهل الذنوب من المسلمين في النار، فكأنه قال: إلا ما شاء ربك من إخراج المذنبين إلى الجنة، وخالدين في الجنة إلا ما شاء ربك من إدخال المذنبين النار مدةً. واختلف القراء في «سعدوا» فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم؛ «سعدوا» بفتح السين. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بضمها، وهما لغتان.

قوله تعالى: ﴿عَلَمَ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ نُصِبَ عطاء بما دل عليه الكلام، كأنه قال: أعطاهم النعيم عطاءً. والمجدوذ: المقطوع؛ قال ابن قتيبة: يقال: جذذت، وجددت، وجذفت، وجدفت: إذا قطعت.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَبْعُثُ هَؤُلَاءَ مَا يَحْكُمُونَ إِلَّا كَمَا بَعَثْنَا آبَاءَهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوُفُّوهُمْ نَصِيْبَهُمْ غَيْرَ مُنْقَرِبِينَ﴾^(١)
قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: فلا تك يا محمد في شك ﴿مِمَّا يَبْعُثُ هَؤُلَاءَ﴾ المشركون من الأصنام، أنه باطل وضلال، إنما يقلدون آباءهم، ﴿وَإِنَّا لَمَوُفُّوهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما قدر لهم من خير وشر، قاله ابن عباس. والثاني: نصيبهم من الرزق، قاله أبو العالية. والثالث: نصيبهم من العذاب، قاله ابن زيد. وقال بعضهم: لا يقصهم من عذاب آبائهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ وَاوَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَعْنَىٰ عَلَيْهِمْ وَإِنَّهُمْ لَكُفْرٌ مِّنْكَ مَرِيْبٌ﴾^(٢)
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿فَاتَّخِذْ فِيهِ﴾ فمن مصدق به ومكذب كما فعل قومك بالقرآن. قال المفسرون: وهذه تعزية للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ قال ابن عباس: يريد؛ إني أخرت أمتك إلى يوم القيامة، ولولا ذلك لعجلت عقاب من كذبك. وقال ابن قتيبة: لولا نظرة لهم إلى يوم الدين لَقُضِيَ بينهم في الدنيا. وقال ابن جرير: سبقت من ربك أنه لا يجعل على خلقه بالعذاب، لقضي بين المصدق منهم والمكذب بإهلاك المكذب وإنجاه المصدق^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكُفْرٌ مِّنْكَ مَرِيْبٌ﴾ أي: من القرآن ﴿مَرِيْبٌ﴾ أي: موقع للريب.

(١) نص ابن جرير في «التفسير»: ولولا كلمة سبقت يا محمد من ربك بأنه لا يجعل على خلقه بالعذاب، ولكن يئتي حتى يبلغ الكتاب أجله ﴿لَعْنَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: لقضي بين المكذب منهم به والمصدق بإهلاك الله المكذب به منهم، وإنجاه المصدق به.

﴿وَإِنَّ كَلَّا لَلْأَلْفِ يَوْمَئِذٍ سَعِيدٌ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَلَّا﴾ يشير إلى جميع من قصّ قصته في هذه السورة. وقال مقاتل: يعني به كفار هذه الأمة. وقيل: المعنى: وإن كلاً لخلق أو بشر ﴿يُؤْتِيهِمُ﴾. قرأ أبو عمرو، والكسائي «وإن» مشددة النون، «لما» خفيفة. واللام في «لما» لام التوكيد، دخلت على «ما» وهي خبر «إن». واللام في «ليؤتيهم» اللام التي يتلقى بها القسم، والتقدير: والله ليؤتيهم، ودخلت «ما» للفصل بين اللامين. قال مكي بن أبي طالب: وقيل: إن «ما» زائدة، لكن دخلت لتفصل بين اللامين اللذين يتلقىان القسم، وكلاهما مفتوح، ففصل بـ «ما» بينهما. وقرأ ابن كثير «وإن» بالتخفيف، وكذلك «لما». قال سيبويه: حدثنا من نثق به أنه سمع من العرب من يقول: إن عمراً لمنطلق، فيخففون «إن» ويعملونها، وأنشد:

وَرَجِحُ حَسَنِ النَّحْرِ
كَأَنْ تَذِيْبُهُ حُفَّانٌ^(١)

وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: «وإن» خفيفة، «لما» مشددة، والمعنى: وما كلاً إلا؛ وهذا كما تقول: سألتك لما فعلت، ولأ فعلت، ومثله قوله: ﴿إِنْ كَلَّ نَسِيًّا عَلَيَّا حَاطِطٌ ﴿١١٢﴾﴾ [الطارق: ٤٤]. وقرأ حمزة، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «وإن» بالتشديد، «لما» بالتشديد أيضاً. قال أبو علي: هذه قراءة مشككة، لأنه كما لا يحسن: إن زيدا إلا منطلق، كذلك لا يحسن تثقيب «إن» وتثقيب «لما». وحكي عن الكسائي أنه قال: لا أعرف وجه التثقيب في «لما»، ولم يُعِد فيما قال. وقال مكي بن أبي طالب: الأصل فيها «لمن ما» ثم أدغمت النون في الميم، فاجتمعت ثلاث ميمات في اللفظ، فحذفت الميم المكسورة؛ والتقدير: وإن كلاً لمن خلقت ليؤتيهم. قال: وقيل: التقدير: «لمن ما» بفتح الميم في «من» فتكون «ما» زائدة، وتحذف إحدى الميمات لتكرير الميم في اللفظ؛ والتقدير: لخلقت ليؤتيهم، ومعنى الكلام: ليؤتيهم جزاء أعمالهم.

﴿فَأَسْتَوِيَتْ كَأَنَّ أُمْرَتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفَرُ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَوِيَتْ كَأَنَّ أُمْرَتَ﴾ قال ابن عيينة: استقم على القرآن. وقال ابن قتيبة: امض على ما أمرت به.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ قال ابن عباس: من تاب معك من الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْفَرُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا تطغوا في القرآن، فتحلوا وتحرموا ما لم آمركم به، قاله ابن عباس. والثاني: لا تعصوا ربكم ولا تخالفوه، قاله ابن زيد. والثالث: لا تخلطوا التوحيد بشك، قاله مقاتل.

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَنَسِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ آوِيَةٍ تَدْرُ لَكُمْ نُصْرَتَ ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ روى عبد الوارث عن أبي عمرو: «تركنوا» بفتح التاء وضم الكاف، وهي قراءة قتادة. وروى هارون عن أبي عمرو «تركنوا» بفتح التاء وكسر الكاف. وروى محبوب عن أبي عمرو: «تركنوا» بكسر التاء وفتح الكاف. وقرأ ابن أبي عبيدة «تركنوا» بضم التاء وفتح الكاف على ما لم يُسم فاعله. وفي المراد بهذا الركوب أربعة أقوال: أحدها: لا تميلوا إلى المشركين، قاله ابن عباس. والثاني: لا ترضوا أعمالهم، قاله أبو العالية. والثالث: لا تلحقوا بالمشركين، قاله قتادة. والرابع: لا تُداهنوا الظلمة، قاله السدي، وابن زيد. وفي قوله: ﴿فَتَنَسِكُمُ النَّارُ﴾ وجهان: أحدهما: فتصيبكم النار، قاله ابن عباس. والثاني: فيتعدى إليكم ظلمهم كما تتعدى النار إلى إحراق ما جاورها، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ آوِيَةٍ﴾ أي: ليس لكم أعوان يمنعونكم من العذاب.

﴿وَأَقْبِرَ السَّلَوةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَذُلْفَا مِنْ أَلِيلٍ إِنْ أَلَسْتَنْتَ يَدَيْهِنَ الشَّيْقَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبِرَ السَّلَوةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ أما سبب نزولها، فروى علقمة والأسود عن ابن مسعود أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إني أخذت امرأة في البستان فقبلتها، وضممتها إلي، وياشرتها، وفعلت بها كل شيء، غير أنني لم أجامعها؛

(١) البيت غير منسوب في «سبويه» ٢٨١/١، و«أما لي ابن السجري» ٢٣٧/١، و«الخرائفة» ٣٥٨/٤.

فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقْرِبَ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْبُكَّارِ...﴾ الآية، فدعا الرجل فقراها عليه، فقال عمر: أهي له خاصة، أم للناس كافة؟ قال: «لا، بل للناس كافة»^(١). وفي رواية أخرى عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى رسول الله، فذكر ذلك له، فنزلت هذه الآية، فقال الرجل: ألي هذه الآية؟ فقال: «لمن عمل بها من أمتي»^(٢). وقال معاذ بن جبل: كنت قاعداً عند رسول الله ﷺ، ففجأ رجل، فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل أصاب من امرأة ما لا يحل له، فلم يدع شيئاً يصيبه الرجل من امرأته إلا أصابه منها، غير أنه لم يجامعها؟ فقال له النبي ﷺ: «توضاً وضوءاً حسناً، ثم قم فصل»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال معاذ: أهي له خاصة، أم للمسلمين عامة؟ فقال: «بل هي للمسلمين عامة»^(٣). واختلفوا في اسم هذا الرجل، فقال أبو صالح عن ابن عباس: هو عمرو بن غزوة الأنصاري، وفيه نزلت هذه الآية، كان يبيع التمر، فأتته امرأة تبتاع منه تمراً، فأعجبته، فقال: إن في البيت تمراً أجود من هذا، فانطلقني معي حتى أعطيك منه؛ فذكر نحو حديث معاذ^(٤). وقال مقاتل: هو أبو مقبل عامر بن قيس الأنصاري. وذكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب الحافظ أنه أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري^(٥). وذكر في الذي قال للنبي ﷺ: أله خاصة؟ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أبو اليسر صاحب القصة. والثاني: معاذ بن جبل. والثالث: عمر بن الخطاب. فأما التفسير، فقولُه: ﴿وَأَقْرِبَ الصَّلَاةَ﴾ أي: أتم ركوعها وسجودها. فأما طرفا النهار، ففي الطرف الأول قولان: أحدهما: أنه صلاة الفجر، قاله الجمهور. والثاني: أنه الظهر، حكاه ابن جرير. وفي الطرف الثاني ثلاثة أقوال: أحدها: أنه صلاة المغرب، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: العصر، قاله قتادة. وعن الحسن كالقولين. والثالث: الظهر، والعصر، قاله مجاهد، والقرظي. وعن الضحاك كالأقوال الثلاثة.

قوله تعالى: ﴿رُؤُفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ وقرأ أبو جعفر، وشيبة: «رُؤْفًا» بضم اللام. قال أبو عبيدة: الرُؤْف: الساعات، واحدها: رُؤْفَةٌ، أي: ساعة ومنزلة وقربة، ومنه سميت المزدلفة، قال العجاج:

نَاجٍ طَوَاهِ الْأَيْنُ مِمَّا أَوْجَفَا
سَمَاوَةَ الْهَيْلَالِ حَيْثُ اخْتَرُوقَفَا^(٦)

قال ابن قتيبة: ومنه يقال أزلفني كذا عندك، أي: أدناني؛ والمزالف: المنازل والدرج، وكذلك الرُؤْف. وفيها للمفسرين قولان: أحدهما: أنها صلاة العتمة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وعوف عن الحسن، وابن أبي نجيح عن مجاهد، وبه قال ابن زيد. والثاني: أنها صلاة المغرب والعشاء، روي عن ابن عباس أيضاً، ورواه يونس عن الحسن، ومنصور عن مجاهد، وبه قال قتادة، ومقاتل، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْسِنَتَك يَدْبِهِنَّ الشَّيَاطِينُ﴾ في المراد بالحسنات قولان: أحدهما: أنها الصلوات الخمس، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وابن المسيب، ومسروق، ومجاهد، والقرظي، والضحاك، والمقاتلان: ابن سليمان،

(١) «الطبري» ٥١٦/١٥ عن علقمة والأسود عن ابن مسعود، ورواه أحمد في «المستند» رقم (٤٢٥٠) و(٤٢٩٠)، ومسلم في «صحيحه» ٢١١٦/٤، وأبو داود في «سننه» رقم (٤٤٦٨)، والترمذي ١٣٩/٢.

(٢) «الطبري» ٥١٩/١٥، والمستند أحمد رقم (٣٦٥٣) و(٤٠٩٤)، ورواه البخاري ٢٦٨/٨ - ٢٦٩، ومسلم ٢١١٥/٤، والترمذي ١٣٩/٢، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) «الطبري» ٥٢٠/١٥ - ٥٢٢، ورواه الترمذي ١٣٩/٢ من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل، وقال: هذا حديث ليس إسناده متصل، عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ بن جبل، ومعاذ بن جبل مات في خلافة عمر، وقتل عمر وعبد الرحمن بن أبي ليلى غلام صغير ابن ست، وقد روى عن عمر ورأه، وروى شعبة هذا الحديث عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن النبي ﷺ مرسلًا، والحديث بمعنى الذي قبله.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٦٩/٨: وأما قصة ابن غزوة، فأخرجها ابن منده من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِبَ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْبُكَّارِ﴾ قال: نزلت في عمرو بن غزوة وكان يبيع التمر، فأتته امرأة تبتاع تمراً فأعجبته... الحديث ا هـ. والكلبي وأبو صالح: ضعيفان.

(٥) لقد فصل الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٦٨/٨، ٢٦٩ القول في اسم هذا الرجل، فارجع إليه إن شئت.

(٦) «ديوانه» ٨٤/١، و«الطبري» ٧٧/١٢، و«اللسان»: حقف، و«الكامل» للمبرد ١/١٢٩، ٨٣٤/٣. وسماوة الهلال: أعلاه. واحقوقف: يريد: اعوج، وإنما هو افعول، من الحقف، والحقف: التقا من الرمل يعوج ويدق، يريد: طواه الأين كما طورت الليالي سماوة الهلال.

وابن حيان. والثاني: أنها سبحانه الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، رواه منصور عن مجاهد. والأول أصح، لأن الجمهور عليه، وفيه حديث مسند عن رسول الله ﷺ، رواه عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ أنه توضعاً، وقال: «من توضعاً وضوئي هذا، ثم صلى الظهر، عُفِرَ له ما كان بينها وبين صلاة الصبح، ومن صلى العصر، عُفِرَ له ما بينها وبين صلاة الظهر، ومن صلى المغرب، عُفِرَ له ما بينها وبين صلاة العصر، ثم صلى العشاء، عُفِرَ له ما بينها وبين صلاة المغرب، ثم لعله أن يبيت ليلته يتمرغ، ثم إن قام فتوضعاً وصلى الصبح، عُفِرَ له ما بينه وبين صلاة العشاء، وهن الحسنات يلذهبن السيئات»^(١). فأما السيئات المذكورة هاهنا، فقال المفسرون: هي الصغائر من الذنوب. وقد روى معاذ بن جبل، قال: قلت: يا رسول الله، أوصني؛ قال: «اتق الله حيثما كنت»، قال: قلت: زدني؛ قال: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»، قلت: زدني؛ قال: «خالق الناس بخلق حسن»^(٢).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ في المشار إليه بـ «ذلك» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن. والثاني: إقام الصلاة. والثالث: جميع ما تقدم من الرصية بالاستقامة، والنهي عن الطغيان، وترك الميل إلى الظالمين، والقيام بالصلاة. وفي المراد بالذكري قولان: أحدهما: أنه بمعنى التوبة. والثاني: بمعنى العظة.

﴿وَأَسْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْبِرْ﴾ فيما أمر بالصبر عليه قولان: أحدهما: لما يلقاه من أذى قومه. والثاني: الصلاة. وفي المراد بالمحسينين ثلاثة أقوال: أحدهما: المصلون، قاله ابن عباس. والثاني: المخلصون، قاله مقاتل. والثالث: أنهم المحسنون في أعمالهم، قاله أبو سليمان.

﴿تَذَكَّرُوا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْبَتَا مِنْهُمُ وَإِنَّجِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرْتُمَا فِيهِمْ وَكَانُوا مَجْرُمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرُوا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ قال ابن عباس، والفراء: المعنى: فلم يكن. وقال ابن قتيبة: المعنى: فهلأ كان من القرون من قبلكم أولوا بقية. وروى ابن جزم عن أبي جعفر «أولوا بقية» بكسر الباء وسكون القاف وتخفيف الياء. وفي معنى «أولوا بقية» ثلاثة أقوال: أحدها: أولوا دين، قاله ابن عباس. قال ابن قتيبة: يقال: قوم لهم بقية، وفيهم بقية: إذا كانت بهم مُسَكَّة وفيهم خير. والثاني: أولوا تمييز. والثالث: أولوا طاعة، ذكرهما الزجاج، وقال: إذا قلت: فلان فيه بقية، فمعناه: فيه فضل.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء منقطع، أي: لكن قليلاً ممن أنجبنا منهم ممن نهى عن الفساد. قال مقاتل: لم يكن من القرون من نهى عن المعاصي والشرك إلا قليلاً ممن أنجبنا من العذاب مع الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّجِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرْتُمَا فِيهِمْ﴾ أي: اتبعوا مع ظلمهم ما أتروا فيه مع استدامة نعيمهم، فلم يقبلوا ما ينقص من ترفهم. قال الفراء: آتروا اللذات على أمر الآخرة. قال: ويقال: اتبعوا ذنوبهم السيئة إلى النار.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ يُهْلِكُ الشَّرَّ يُظْلِمُ وَأَقْلَمَهَا مُضِلُّوهُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ يُهْلِكُ الشَّرَّ يُظْلِمُ﴾ فيه قولان: أحدهما: بغير جرم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: بشرك، ذكره ابن جرير، وأبو سليمان. وفي قوله: ﴿وَأَقْلَمَهَا مُضِلُّوهُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها:

(١) «الطبري» ٥١٢/١٥، ورواه أحمد في «المسند» رقم (٥١٣) وفي آخره زيادة، «قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات يا عثمان؟ قال: «هن: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله» وخرجه الهيثمي في «المجمع» ٢٩٧/١ بنحو حديث أحمد، وهو حديث صحيح.

(٢) هذا الحديث خرجه أحمد في «المسند» ٢٢٨/٥ عن معاذ بن جبل، وخرجه أيضاً ١٥٣/٥ عن أبي ذر الغفاري، وخرجه الترمذي ٢٠/٢ عن أبي ذر، ومعاذ، ولفظه عند الترمذي: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» وقال: هذا حديث حسن صحيح، وفي بعض النسخ: حسن. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٥٤/١ عن أبي ذر بلفظ الترمذي، ورواه عن معاذ بلفظ «فقال: يا رسول الله أوصني، قال: اهد الله ولا تشرك به شيئاً، قال: يا رسول الله زدني، قال: إذا أسأت فأحسن، قال: يا رسول الله زدني، قال: استقم، ولتحسن خلقك» قال: صحيح الإسناد من رواية البصريين، ولم يخرجاه، ورواه الذهبي. وقد روي عن النبي ﷺ أنه أوصى بهذه الرصية معاذاً وأبا ذر من وجوه أخر.

ينتصف بعضهم من بعض، رواه قيس بن أبي حازم عن جرير. قال أبو جعفر الطبري: فيكون المعنى: لا يهلكهم إذا تناصفوا وإن كانوا مشركين، وإنما يهلكهم إذا تظالموا. والثاني: مصلحون لأعمالهم، متمسكون بالطاعة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: مؤمنون، قاله مقاتل.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُونَ مَخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ وَلِلذَّالِكَ خَلْفُهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَنَّ لَدُنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال ابن عباس: لو شاء أن يجعلهم كلهم مسلمين لفعل. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرَاؤُونَ مَخْتَلِفِينَ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم أهل الحق وأهل الباطل، رواه الضحاك عن ابن عباس؛ فيكون المعنى: إن هؤلاء يخالفون هؤلاء. والثاني: أنهم أهل الأهواء لا يزالون مختلفين، رواه عكرمة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ﴾ قال ابن عباس: هم أهل الحق. وقال الحسن: أهل رحمة الله لا يختلفون. قوله تعالى: ﴿وَالذَّالِكَ خَلْفُهُمْ﴾ في المشار إليه بذلك أربعة أقوال: أحدها: أنه يرجع إلى ما هم عليه. قال ابن عباس: خلقهم فريقين، فريقاً يُرحم فلا يختلف، وفريقاً لا يُرحم يختلف. والثاني: أنه يرجع إلى الشقاء والسعادة، قاله ابن عباس أيضاً، واختاره الزجاج، قال: لأن اختلافهم مؤديهم إلى سعادة وشقاوة. قال ابن جرير: واللام في قوله: «ولذلك» بمعنى «على». والثالث: أنه يرجع إلى الاختلاف، رواه مبارك عن الحسن. والرابع: أنه يرجع إلى الرحمة، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة؛ فعلى هذا يكون المعنى: ولرحمته خلق الذين لا يختلفون في دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: وجب قول ربك: ﴿لَأَنزَلَنَّ جَهَنَّمَ﴾ من كفار الجنة، وكفار الناس. ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾﴾ قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ﴾ قال الزجاج: «كلاً» منصوب بـ «نقص»، المعنى: كل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقص عليك. و«ما» منصوبة بدلاً من كل، المعنى: نقص عليك ما نُبِّئُ به فؤادك؛ ومعنى تثبيت الفؤاد تسكين القلب هائناً، ليس للشك، ولكن كلما كان البرهان والدلالة أكثر، كان القلب أثبت.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ في المشار إليه بـ «هذه» أربعة أقوال: أحدها: أنها السورة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، ورواه شيبان عن قتادة. والثاني: أنها الدنيا، فالمعنى: وجاءك في هذه الدنيا، رواه سعيد عن قتادة؛ وعن الحسن كالقولين. والثالث: أنها الأقاوص المذكورة. والرابع: أنها هذه الآية بعينها، ذكر القولين ابن الأنباري. وفي المراد بالحق هائناً ثلاثة أقوال: أحدها: أنها البيان. والثاني: صدق القصص والأنباء. والثالث: النبوة. فإن قيل: أليس قد جاءه الحق في كل القرآن، فلم خص هذه السورة؟ فالجواب أنا إن قلنا: إن الحق النبوة، فالإشارة بـ «هذه» إلى الدنيا، فيكون المعنى: وجاءك في هذه الدنيا النبوة، فيرتفع الإشكال. وإن قلنا: إنها السورة، فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أن المراد، بالحق البيان، وهذه السورة جمعت من تبیین إهلاك الأمم، وشرح مآلهم، ما لم يجمع غيرها، فبان أثر التخصيص، وهذا مذهب بعض المفسرين. والثاني: أن بعض الحق أركد من بعض في ظهوره عندنا وخفائه علينا، ولهذا يقول الناس: فلان في الحق: إذا كان في الموت، وإن لم يكن قبله في باطل، ولكن لتعظيم ما هو فيه، فكان الحق المبين في هذه السورة أجلى من غيره، وهذا مذهب الزجاج. والثالث: أنه خص هذه السورة بذلك لبيان فضلها، وإن كان في غيرها حق أيضاً، فهو كقوله: ﴿وَالصَّكْوَةُ الرُّسُلِ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقوله: ﴿يَجِيرُوكَ وَيَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وهذا مذهب ابن الأنباري. والرابع: أن المعنى: وجاءك في هذه السورة الحق مع ما جاءك من سائر السور، قاله ابن جرير الطبري.

قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يتعظون إذا سمعوا هذه السورة وما نزل بالأمم فتلين قلوبهم. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢٠﴾ وَأَنْتُمْ رَوَّاءٌ إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ هذا تهديد ووعيد، والمعنى: اعملوا ما أنتم عاملون، فستعلمون عاقبة أمركم، ﴿وَأَنْظِرُوا﴾ ما يعدكم الشيطان ﴿إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ ما يعدنا ربنا.

فصل

قال المفسرون: وهذه الآية اقتضت تركهم على أعمالهم، والافتناع بإنذارهم، وهي منسوخة بآية السيف. واعلم أنه إذا قلنا: إن المراد بالآية التهديد، لم يتوجه نسخ.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: علم ما غاب عن العباد فيهما. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ قرأ نافع، وحفص عن عاصم ﴿يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ بضم الياء. وقرأ الباقون، وأبو بكر عن عاصم «يرجع» بفتح الياء، والمعنى: إن كل الأمور ترجع إليه في المعاد. ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أي: وحده. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: ثق به. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم «تعملون» بالثاء. وقرأ الباقون بالياء. قال أبو علي: فمن قرأ بالياء، فالمعنى: قل لهم: وما ربك بغافل عما يعملون. ومن قرأ بالثاء، فالخطاب للنبي ﷺ ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، فهو أعم من الياء، وهذا وعيد، والمعنى: إنه يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. قال كعب: خاتمة التوراة خاتمة «هود».



سورة يوسف [عليه السلام]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾

فصل في نزولها

هي مكة بالإجماع. وفي سبب نزولها قولان: أما القول الأول، فروي عن سعد بن أبي وقاص قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فنلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، فأنزل الله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿تَمَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فنلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا نَثَانِي﴾^(١) [الزمر: ٢٣] كل ذلك يؤمرون بالقرآن. وقال عون بن عبد الله: ملأ أصحاب رسول الله ﷺ ملة، فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا نَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣]، ثم إنهم ملأوا ملة أخرى، فقالوا: يا رسول الله، فوق الحديث، ودون القرآن، يعنون القصص، فأنزل الله ﷻ: ﴿تَمَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فأراد الحديث، وأرادوا القصص، فدلهم على أحسن القصص^(٢). والثاني: رواه الضحاك عن ابن عباس قال: سألت اليهود النبي ﷺ، فقالوا: حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف، فأنزل الله ﷻ: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴿١﴾ وذلك أن التوراة بالعبرانية، والإنجيل بالسريانية، وأتم قوم عرب، ولو أنزلته بغير العربية ما فهمتموه. وقد بينا تفسير أول هذه السورة في أول (يونس)، إلا أنه قد ذكر ابن الأنباري زيادة وجه في هذه السورة، فقال: لما لحق أصحاب رسول الله ﷺ ملأ وسامة، فقالوا له؛ حدثنا بما يزيل عنا هذا الملل، فقال: «تلك الأحاديث التي تقدرون الانتفاع بها وانصراف الملل، هي آيات الكتاب المبين». وفي معنى «المبين» خمسة أقوال: أحدها: البين حلاله وحرامه، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: المبين للحروف التي تسقط عن ألسن الأعاجم، رواه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل. والثالث: البين هداة ورشده، قاله قتادة. والرابع: المبين للحق من الباطل. الخامس: البين إعجازه فلا يعارض، ذكرهما الماوردي.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ قد ذكرنا معنى القرآن واشتقاقه في سورة [النساء: ٨٢]. وقد اختلف الناس، هل في القرآن شيء بغير العربية، أم لا، فمذهب أصحابنا أنه ليس فيه شيء بغير العربية. وقال أبو عبيدة: من زعم أن في القرآن لساناً سوى العربية فقد أعظم على الله القول، واحتج بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] وروي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة أن فيه من غير لسان العرب، مثل «سجيل» و«المشكاة» و«اليم» و«الطور» و«أباريق» و«إستبرق» وغير ذلك. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: قال أبو عبيد^(٣): وهؤلاء أعلم من أبي عبيدة،

(١) «الطبري» ٥٥٣/١٥، والحاكم في «المستدرک» ٣٤٥/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وخرجه السيوطي في «الدر» ٣/٤ وزاد نسبة إلى إسحاق بن راهويه، والبخاري، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبي الشيخ، وابن مردويه.
(٢) «الطبري» ٥٥٢/١٥، وخرجه السيوطي في «الدر» ٣/٤ من طريق عون بن عبد الله عن ابن مسعود، فهو مرسل. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٥٥.
(٣) في الأصل: أبو عبيدة، وهو خطأ، لأن الكلام الآتي كلام أبي عبيد القاسم بن سلام يرد به على شيخه أبي عبيدة، وانظر «المعرب»: ٥ للجواليقي.

ولكنهم ذهبوا إلى مذهب، وذهب هو إلى غيره، وكلاهما مصيب إن شاء الله، وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل، فقال: أولئك على الأصل، ثم لفظت به العرب بالستها فعرته فصار عربياً بتعريبها إياه، فهي عربية في هذه الحالة، أعجمية الأصل، فهذا القول يصدق الفريقين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿لَمَلَكُمْ مَقُولٌ﴾ ﴿١﴾ قال ابن عباس: لكي تفهموا.

﴿تَحْنُ نَقْصٌ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿تَحْنُ نَقْصٌ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قد ذكرنا سبب نزولها في أول الكلام. وقد حُصت بسبب آخر، فروي عن سعيد بن جبيرة قال: اجتمع أصحاب محمد ﷺ إلى سلمان، فقالوا: حدثنا عن التوراة فإنها حسن ما فيها، فأنزل الله تعالى: ﴿تَحْنُ نَقْصٌ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ يعني: قصص القرآن أحسن مما في التوراة. قال الزجاج: والمعنى نحن نبين لك أحسن البيان، والخاص: الذي يأتي بالقصة على حقيقتها. قال وقوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بوحينا إليك هذا القرآن.

قال العلماء: وإنما سميت قصة يوسف أحسن القصص، لأنها جمعت ذكر الأنبياء، والصالحين، والملائكة، والشياطين، والأنعام، وسير الملوك، والمماليك، والتجار، والعلماء، والرجال، والنساء، وحيلهن، وذكر التوحيد، والفقه، والسر، وتعبير الرؤيا، والسياسة، والمعاشرة، وتدبير المعاش، والصبر على الأذى، والحلم، والعز، والحكم، إلى غير ذلك من العجائب.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُ فِي «إِنْ» قَوْلَانِ.

أحدهما: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ قال ابن عباس: من قبل نزول القرآن. ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن علم خبر يوسف وما صنع به إخوته.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِني رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ ﴿١﴾ قَالَ يَبْنُؤُ لَا تَقْصُصْ رُءُوسَكَ

عَنْ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ في «إِذْ» قَوْلَانِ.

أحدهما: أنها صلة للفعل المتقدم، والمعنى: نحن نقص عليك إذا قال يوسف. والثاني: أنها صلة لفعل مضمر، تقديره؛ اذكر إذ قال يوسف، ذكرهما الزجاج، وابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ﴾ قرأ أبو جعفر، وابن عامر بفتح التاء، ووقفاً بالتاء، وافقهما ابن كثير في الوقف بالتاء، وقرأ الباقر بكسر التاء. فمن فتح التاء، أراد: يا أبنا، فحذف الألف كما تحذف الياء، فبقيت الفتحة دالة على الألف، كما أن الكسرة تبقى دالة على الياء. ومن وقف على التاء، فلأن تاء التانيث تبدل منها التاء في الوقف. وقرأ أبو جعفر أحد عشر، وتسعة عشر، بسكون العين فيهما. وفي ما رآه يوسف قولان: أحدهما: أنه رأى الشمس والقمر والكواكب، وهو قول الأكثرين. قال الفراء: وإنما قال: «رأيتهم» على جمع ما يعقل، لأن السجود فعل ما يعقل، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْعُوا سَمَكِكُمْ﴾ [النمل: ٢١٨]. قال المفسرون: كانت الكواكب في التأويل إخوته، والشمس أمه، والقمر أباه، فلما قصها على يعقوب أشفق من حسد إخوته. وقال السدي: الشمس أبوه، والقمر خالته، لأن أمه كانت قد ماتت. والثاني: أنه رأى أبويه وإخوته ساجدين له، فكنى عن ذكرهم، وهذا مروى عن ابن عباس، وقاتدة. فأما تكرار قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ فقال الزجاج: إنما كرره لَمَّا طال الكلام توكيداً. وفي سن يوسف لما رأى هذا المنام ثلاثة أقوال: أحدها: سبع سنين. والثاني: اثنتا عشرة سنة. والثالث: سبع عشرة سنة. قال المفسرون: علم يعقوب أن إخوة يوسف يعلمون تأويل رؤياه، فقال: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءُوسَكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، قال ابن قتيبة: يحتالوا لك حيلة ويغتلوك. وقال غيره: اللام صلة، والمعنى: فيكيدوك. والعدو الميسين: الظاهر العداوة.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْهَلُونَ رَيْكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ بِمِصْرَ عَلَيْنِكَ وَعَلَى مَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ

وَأَسَمَىٰ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَكذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَيْكَ﴾ قال الزجاج، وابن الأنباري: ومثل ما رأيتم من الرفعة والحال الجليلة، يختارك ريك ويصطفيك من بين إخوتك. وقد شرحنا في [الإنعام: ٨٧] معنى الاجتباء. وقال ابن عباس: يصطفيك بالنبوة.

قوله تعالى: ﴿رَيْبُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تعبير الرؤيا، قاله ابن عباس ومجاهد، وقاتدة، فعلى هذا سمي تأويلاً لأنه بيان ما يؤول أمر المنام إليه. والثاني: أنه العلم والحكمة، قاله ابن زيد. والثالث: تأويل أحاديث الأنبياء والأمم والكتب، ذكره الزجاج. قال مقاتل: و «من» هاهنا صلة.

قوله تعالى: ﴿وَيُزَيِّرُ يَمَتُّهُ عَلَيْكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بالنبوة، قاله ابن عباس. والثاني: بإعلاء الكلمة. والثالث: بأن أحوج إخوته إليه حتى أنعم عليهم، ذكرهما الماوردي. وفي «أَلِ يَتَّقُونَ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم ولده، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: يعقوب وامرأته وأولاده الأحد عشر، أتم عليهم نعمته بالسجود ليوسف، قاله مقاتل.

والثالث: أهله، قاله أبو عبيدة، واحتج بأنك إذا صغرت الآل، قلت: أهيل. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا أَنْتَهَا عَلَيَّ أَبُويَكَ مِنْ قَبْلِ إِذْهُمْ وَرِثَاقٌ﴾ قال عكرمة: فنعمته على إبراهيم أن نجاه من النار، ونعمته على إسحاق أن نجاه من الذبح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ أي: عليم حيث يضع النبوة «حَكِيمٌ» في تدبير خلقه.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَةٌ﴾ أي: في خير يوسف وقصة إخوته (آيات) أي: عبر لمنم سأل عنهم، فكل حال من أحواله آية. وقرأ ابن كثير «آية». قال المفسرون: وكان اليهود قد سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فأخبرهم بها كما في التوراة، فعجبوا من ذلك. وفي وجه هذه الآيات خمسة أقوال.

أحدها: الدلالة على صدق محمد ﷺ حين أخبر أخبار قوم لم يشاهدهم، ولا نظر في الكتب. والثاني: ما أظهر الله في قصة يوسف من عواقب البغي عليه. والثالث: صدق رؤياه وصحة تأويله. والرابع: ضبط نفس وقهر شهوته حتى قام بحق الأمانة. والخامس: حدوث السرور بعد اليأس.

فإن قيل: لم خص السائلين، ولغيرهم فيها آيات أيضاً؟ فعنه جوابان.

أحدهما: أن المعنى: للسائلين وغيرهم، فاكتمى بذكر السائلين من غيرهم، كما اكتفى بذكر الحر من البرد في قوله: ﴿تَبَدُّدُ الْحَرِّ﴾ [النحل: ٨١].

والثاني: أنه إذا كان للسائلين عن خبر يوسف آية، كان لغيرهم آية أيضاً؛ وإنما خص السائلين، لأن سؤالهم نتج الأعجوبة وكشف الخبر.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحْسَبُ إِلَٰهَ آيَاتِنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَاءَنَا لَفِي سَلَٰكِلِ ثُبُيِّنٍ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ يعني إخوة يوسف. «لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ» يعنون ابن يامين. وإنما قيل له: ابن يامين، لأن أمه ماتت نفساء. ويامين بمعنى الرجوع، وكان أخاه لأمه وأبيه. والباقون إخوته لآبيه دون أمه.

فأما العصبية، فقال الزجاج: هي في اللغة الجماعة الذين أمرهم واحد يتابع بعضهم بعضاً في الفعل، ويتعصب بعضهم لبعض.

وللمفسرين في العصبية ستة أقوال.

أحدها: أنها ما كان أكثر من عشرة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنها ما بين العشرة إلى الأربعين، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال قادة. والثالث: أنها ستة أو سبعة، قاله سعيد بن جبيرة والرابع: أنها من عشرة إلى خمسة عشر، قاله مجاهد. والخامس: الجماعة، قاله ابن زيد، وابن قتيبة، والزجاج. والسادس: عشرة، قاله مقاتل.

وقال الفراء: العصبية عشرة فما زاد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ آبَاءَنَا لَفِي سَلَٰكِلِ ثُبُيِّنٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: لفي خَطَلًا من رأيه، قاله ابن زيد. والثاني: في شَقَاءٍ، قاله مقاتل؛ والمراد به عناء الدنيا. والثالث: لفي ضلال عن طريق الصواب الذي يقتضي تعديل المحبة بيننا، لأن نفعنا له أعمى. قال الزجاج: ولو نسبوه إلى الضلال في الدين كانوا كفاراً، إنما أرادوا: إنه قَدَّمَ ابنتين صغيرين علينا في المحبة ونحن جماعة نفعنا أكثر.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْحَلُ لَكُمْ وَبِهِ آيَاتُكُمْ وَكَوْنُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (١١)

قوله تعالى: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ قال أبو علي: قرأ ابن كثير، ونافع، والكسائي: «مبِينٌ اَقْتُلُوا» بضم التنوين، لأن تحريكه يلزم لالتقاء الساكنين، فحركوه بالضم لِيَتَّبِعُوا الضمَّة الضمَّة، كما قالوا: «مَدٌّ» و«ظُلُمَات». وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، بكسر التنوين، فلم يتبعوا الضمَّة كما قالوا: «مَدٌّ» و«ظُلُمَات». قال المفسرون: وهذا قولهم بينهم: ﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ قال الزجاج: نصب «أَرْضًا» على إسقاط «في»، وأفضى الفعل إليها؛ والمعنى: أو اطرحوه أرضاً يبعد بها عن أبيه. وقال غيره: أرضاً تأكله فيها السباع.

قوله تعالى: ﴿يَبْحَلُ لَكُمْ وَبِهِ آيَاتُكُمْ﴾ أي: يفرغ لكم من الشغل بيوسف. ﴿وَكَوْنُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: صالحين بالتوبة من بعد قتله، قاله ابن عباس. والثاني: يصلح حالكم عند أبيكم، قاله مقاتل. وفي قصتهم نكتة عجيبة، وهو أنهم عزموا على التوبة قبل الذنب، وكذلك المؤمن لا ينسى التوبة وإن كان مرتكباً للخطايا.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا نَفَعْنَا يُوسُفَ وَالْقَوْمُ فِي غِيبَتِ الْجُبِّ يَلْقَظُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١٢) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَيُّ يُّوسُفَ وَإِنَّا لَمَّا نَلْسُحُونَ (١٣) أَرْسَلَهُ مَمَّا عَدَا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَمَّا لَحِنَطُونَ (١٤) قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذَهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٥) قَالُوا لَنْ أَكْثَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَيْرُونَ (١٦)

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يهودا، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال وهب بن منبه، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنه شمعون، قاله مجاهد. والثالث: روبيل، قاله قتادة، وابن إسحاق. فأما غيبة الجب، فقال أبو عبيدة: كل شيء غيَّبَ عنك شيئاً فهو غيبة، والجب: الرُكبة التي لم تطو. وقال الزجاج: الغيبة: كل ما غاب عنك، أو غيَّبَ شيئاً عنك، قال المنخَّل:

فإن أنا يؤمأ غيَّبَتنِي غيَابَتي فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

والجب: البئر التي لم تطو؛ سميت جباً من أجل أنها قُطعت قطعاً، ولم يحدث فيها غير القطع من طي وما أشبهه. وقال ابن عباس: ﴿فِي غِيبَتِ الْجُبِّ﴾ أي: في ظلماته. وقال الحسن: في قعره. وقرأ نافع: «غيابات الجب» فجعل كل منه غيبة. وروى خارجة عن نافع: «غيابات» بتشديد الياء. وقرأ الحسن، وقاتدة، ومجاهد: «غيبية الجب» بغير ألف مع إسكان الياء. وأين كان هذا الجب، فيه قولان: أحدهما: بأرض الأردن، قاله وهب. وقال مقاتل: هو بأرض الأردن على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب. والثاني: ببيت المقدس، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿يَلْقَظُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ قال ابن عباس: يأخذه بعض من يسير. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إن أضمرتم له ما تريدون. وأكثر القراء قرووا «يلتقطه» بالياء. وقرأ الحسن، وقاتدة، وابن أبي عبله بالناء. قال الزجاج: وجميع النحويين يجيزون ذلك، لأن بعض السيارة سيارة، فكأنه قال: تلتقطه سيارة بعض السيارة. وقال ابن الأنباري: من قرأ بالناء، فقد أتت فعل بعض، وبعض مذكر، وإنما فعل ذلك حملاً على المعنى، إذ التأويل: تلتقطه السيارة، قال الشاعر:

رأت مَرَّ السُّنَيْنِ أَخَذَنُ مني

أراد: رأت السنين، وقال الآخر:

طَوَّلَ اللَّيَالِي أَسْرَعَتْ فِي نَقْضِي

طَوُّنَ طَوُّلي وَطَوُّنَ عَرَضِي (١٧)

(١) البيت لجرير، «ديوانه» ٤٢٦، و«مجاز القرآن» ٩٨/١، و«الطبري» ٥٦٧/١٥، و«الكامل» للمبرد ٤٨٦، والسرار: آخر ليلة من الشهر يستمر فيها الهلال، أي: يخفي.

(٢) البيت للمجاج في ملحق ديوانه ٨١، و«الكتاب» ١٩/١، و«مجاز القرآن» ٩٩/١، و«الطبري» ٨٧/٧، و«البيان والتبيين» ٦٠/٤، و«شواهد المغني» ٢٩٧، و«المغني» ٣٩٥/٣، و«الخرزانه» ١٦٨/٢.

أراد: اللبالي أسرع، وقال جرير:

لَمَّا أَتَى حَبْرُ الرُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ

أراد: تواضعت المدينة، وقال الآخر:

وَتَشْرُقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَدْعُهُ

أراد: كما شرقت القناة.

قال المفسرون: فلما عزم القوم على كيد يوسف، قال: لأبيه: (مالك لا تأمنّا قرأ الجماعة «تأمنّا» بفتح الميم وإدغام النون الأولى في الثانية والإشارة إلى إعراب النون المدغمة بالضم؛ قال مكي: لأن الأصل «تأمنّا» ثم أدمغت النون أوولى، وبقي الإشمام يدل على ضمّه النون الأولى. والإشمام: هو ضم شفتيك من غير صوت يُسمع، فهو بعد الإدغام وقبل فتحه النون الثانية. وابن كيسان يسمي الإشمام الإشارة، ويسمى الرّوم إشماماً؛ والرّوم: صوت ضعيف يُسمع خفياً. وقرأ أبو جعفر «تأمنّا» بضم الميم. وقرأ ابن مقسم «تأمنّا» بنونين على الأصل، والمعنى: مالك لا تأمنّا على يوسف فترسله معنا، فإنه قد كبير ولا يعلم شيئاً من أمر المعاش ﴿وَرِثَا لَهُ لَنَصْحُونُ﴾ فيما أشرنا به عليك؛ «أزبيلُهُ مَمَّا عَدَا» إلى الصحراء. وقال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وذلك أنهم قالوا له: أرسله معنا، فقال: إني ليخزني أن تذهبوا به، فقالوا: مالك لا تأمنّا.

قوله تعالى: ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو «يرتع ويلعب» بالنون فيهما، والعين ساكنة؛ وافقه زيد عن يعقوب في «يرتع» فحسب.

وفي معنى «يرتع» ثلاثة أقوال.

أحدها: نَلُّه، قاله الضحاك. والثاني: نَسَّح، قاله قتادة. والثالث: نَأْكَل؛ يقال: رتعت الإبل: إذا رعت، وأرتعتها: إذا تركتها ترعى. قال الشاعر:

وَخَبِيبٌ لِي إِذَا لَأَقَيْتُهُ

وإذا يَخْلُو لَهُ لَخْمِي رَتَّعٌ^(١)

أي: أكله، هذا قول ابن الأنباري، وابن قتيبة. وقرأ عاصم، وحزمة والكسائي: «يرتع ويلعب» بالياء فيهما وجزم العين والباء، يعنون «يوسف». وقرأ نافع: «يرتع» بكسر العين من «يرتع» من غير بلوغ إلى الياء. قال ابن قتيبة: ومعناها: نتحارس، ويرعى بعضنا بعضاً، أي يحفظ؛ ومنه يقال: رعاك الله، أي: حفظك. وقد رويت عن ابن كثير أيضاً «يرتعي» بإثبات ياء بعد العين في الوصل والوقف. وقرأ أنس، وأبو رجاء «يرتّع» بنون مرفوعة وكسر التاء وسكون العين، و«يلعب» بالنون. قال أبو عبيدة: أي: يرتع إبلنا.

فأما قوله: ﴿وَيَلْعَبُ﴾ فقال ابن عباس: نلهو.

فإن قيل: كيف لم ينكر عليهم يعقوب ذكر اللعب؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنهم لم يكونوا حينئذ أنبياء، قاله أبو عمرو بن العلاء. والثاني: أنهم عتوا بمباح اللعب، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَيَخْزِيَنَّكَ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي: يحزنني ذهابكم به، لأنه يفارقني فلا أراه. ﴿وَأَكَاثُ أَنْ يَأْكُلَهُ

الذَّئْبُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحزمة: «الذئب» بالهمز في الثلاثة المواضع. وقرأ الكسائي، وأبو جعفر، وشيبة بغير همز. قال أبو علي: «الذئب» مهموز في الأصل. يقال: تذاءبت الريح: إذا جاءت من كل جهة كما يأتي الذئب. وفي علة تخصيص الذئب بالذكر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه رأى في منامه أن الذئب شد

(١) «ديوانه» ٣٤٥، و«مجاز القرآن» ١٩٧/١، و«التنقيض» ٩٦٩، و«الكتاب» ١٩/١، ٢٥، و«الكامل» للمبرد ٤٨٦، و«الطبري» ١٧/٢، و«الأضداد» ٢٩٦ لابن الأنباري، و«اللسان» و«التاج» سورة: و«الخرزانة» ١٦٦/٢.

(٢) البيت للأعشى الكبير ميمون بن قيس، ديوانه: ١٢٣، و«اللسان» شرق، ومعنى تشرق: تغص، وصدر القناة: أعلاها.

(٣) البيت لسويد بن أبي كاهل اليشكري من قصيدة في «المفضليات» ١٩٠ - ٢٠٢، تعد من أغلى الشعر وأنفسه، وقد فضلها الأصمعي، وقال: كانت العرب تفضلها وتقدمها وتعدّها من حكمها، وكانت في الجاهلية تسميها اليتيمة لما اشتملت عليه من الأمثال. وهو أيضاً في «الشعر والشعراء» ٣٨٤، و«الخرزانة» ٥٤٧/٢، ورواية الشطر الأول فيها: «ويحيي إذا لاقته».

على يوسف، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن أرضهم كانت كثيرة الذئب، قاله مقاتل. والثالث: أنه خافهم عليه فكنى بذكر الذئب، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: غافلون في اللعب. والثاني: مشتغلون برعيكم.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة نرى الذئب قد قصده ولا نرد عنه ﴿إِنَّا إِذَا كُنَّا لِلْغَيْرِ حَرُونَ﴾ أي: عاجزون. قال ابن الأنباري: ومن قرأ «عصبة» بالنصب، فتقديره: ونحن نجتمع عصبة.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ لَتَبْتَنَّهُمْ بَابْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ في الكلام اختصار وإضمار، تقديره: فأرسله معهم فلما ذهبوا. ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ أي: عزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب.

الإشارة إلى قصة ذهابهم

قال المفسرون: قالوا ليوسف: أما تشتاق أن تخرج معنا فتلعب وتتصيد؟ قال: بلى، قالوا: فسل أباك أن يرسلك معنا، قال: أفعل، فدخلوا بجماعتهم على يعقوب، فقالوا: يا أبانا إن يوسف قد أحب أن يخرج معنا، فقال: ما تقول يا بني؟ قال: نعم يا أبت، قد أرى من إخوتي اللين واللطف، فأنا أحب أن تأذن لي، فأرسله معهم، فلما أصرحوا، أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة، وأغلظوا له القول، وجعل يلجأ إلى هذا، فيضربه، وإلى هذا، فيؤذيه، فلما فطن لما قد عزموا عليه، جعل ينادي: يا أبتاه، يا يعقوب، لو رأيت يوسف وما ينزل به من إخوته لأخزنتك ذلك وأبكاك، يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك، وضيعوا وصيتك، وجعل يبكي بكاء شديداً. قال الضحاك عن ابن عباس: فأخذه روبيل فجلد به الأرض، ثم جثم على صدره وأراد قتله، فقال له يوسف: مهلاً يا أخي لا تقتلني، قال: يا ابن راحيل صاحب الأحلام، قل لرؤياك تخلصك من أيدينا، ولوى عنقه ليكرها، فنادى يوسف: يا يهوذا اتق الله في، وخل بيني وبين من يريد قتلي، فأدرسته له رحمة، فقال يهوذا: يا إخوتاه، ألا أدلكم على أمرٍ هو خير لكم وأرفق به؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: تلقونه في هذا الجب فيلتقطه بعض السيارة، قالوا: نفعل؛ فانطلقوا به إلى الجب، فخلعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه، لِمَ نزعتم قميصي؟ ردوه عليّ أستر به عورتِي ويكون كفنًا لي في مماتي؛ فأخرج الله له حجراً في البئر مرتفعاً من الماء، فاستقرت عليه قدماء. وقال السدي: علوا يدلونه في البئر، فيتعلق بشفير البئر؛ فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه، ردوا عليّ قميصي أتورى به، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً، فدلوه في البئر، حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها؛ فلما ألقوه في الجب جعل يبكي، فنادوه، فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة، فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام. وقال كعب: جمعوا يديه إلى عنقه ونزعوا قميصه، بعث الله إليه ملكاً، فحلَّ عنه وأخرج له حجراً من الماء، فقمعد عليه؛ وكان يعقوب قد أدرج قميص إبراهيم الذي كساه الله إياه يوم ألقى في النار في قصبة، وجعلها في عنق يوسف، فألبسه إياه الملك حيثنذ، وأضاء له الجب. وقال الحسن: ألقى في الجب، فعدَّب ماؤه، فكان يغنيه عن الطعام والشراب؛ ودخل عليه جبريل، فأنس به، فلما أمسى، نهض جبريل ليذهب، فقال له يوسف: إنك إذا خرجت عني استوحشت، فقال: إذا رهبت شيئاً فقل: يا صريح المستصرخين، ويا غوث المستغيثين، ويا مفرج كرب المكروبين، قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفي عليك شيء من أمري. فلما قالها حفته الملائكة، فاستأنس في الجب ومكث فيه ثلاثة أيام، وكان إخوته يرفعون حول الجب. وقال محمد بن مسلم الطائفي: لما ألقى يوسف في الجب، قال: يا شاهدأ غير غائب، ويا قريباً غير بعيد، ويا غالباً غير مغلوب، اجعل لي فرجاً بما أنا فيه؛ قال: فما بات فيه.

وفي مقدار سنه حين ألقى في الجب أربعة أقوال.

أحدها: اثنتا عشرة سنة، قاله الحسن. والثاني: ست سنين، قاله الضحاك. والثالث: سبع عشرة، قاله ابن السائب، وروي عن الحسن أيضاً. والرابع: ثمان عشرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ فيه قولان.

أحدهما: أنه إلهام، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه وحي حقيقة. قال المفسرون: أوحى إليه لتخبرن إخوتك بأمرهم، أي: بما صنعوا بك وأنت عالٍ عليهم. وفي قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قولان.

أحدهما: لا يشعرون أنك يوسف وقت إخبارك لهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مقاتل.

والثاني: لا يشعرون بالوحي، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد. فعلى الأولى يكون الكلام من صلة «للتبنيهم»؛ وعلى الثاني من صلة «وأوحينا إليه». قال حميد: قلت للحسن: أيحسد المؤمن المؤمن؟ قال: لا أبالك، مانسك بني يعقوب؟.

﴿وَجَاءَهُ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَانَا فَاكْفُؤْهُ لَنَا وَادْعُ إِلَيْنَا إِنْ كُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ وقرأ أبو هريرة، والحسن، وابن السميع، والأعمش: «عشاء» بضم العين.

قال المفسرون: جاؤوا وقت العتمة ليكونوا أجراً في الظلمة على الاعتذار بالكذب، فلما سمع صوتهم فزع، وقال: ما لكم يا بني، هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما أصابكم؟ وأين يوسف؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: نتضل، قاله ابن عباس، وابن قتيبة، قال: والمعنى، يسابق بعضنا بعضاً في الرمي. والثاني: نشد، قاله السدي. والثالث: نتصيد، قاله مقاتل. فيكون المعنى على الأول: نستبق في الرمي لننظر أين سبق سهماً؛ وعلى الثاني: نستبق على الأقدام؛ وعلى الثالث: للصيد.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَانَا﴾ أي: ثيابنا. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ أي: بمصدق. وفي قوله: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ قولان: أحدهما: أن المعنى: وإن كنا قد صدقنا، قاله ابن إسحاق. والثاني: لو كنا عندك من أهل الصدق لانهمتنا في يوسف لمحبتك إياه، وظننت أنا قد كذبتك، قاله الزجاج.

﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال اللغويون: معناه: بدم مكذوب فيه، والعرب تجعل المصدر في كثير من الكلام مفعولاً، فيقولون للكذب مكذوب، وللعقل معقول، وللجلد مجلود، قال الشاعر:

حَتَّى إِذَا لَمْ يَشْرُكُوا لِعِظَامِهِ
لَحْماً وَلَا لِسُؤَادِهِ مَفْعُولاً^(١)
أراد: عقلاً. وقال الآخر:

قد والذي سَمَكَ السَّمَاءَ بِقُدْرَةٍ
بُلُغَ الْعَرَاءِ وَأَدْرَكَ الْمَجْلُودُ

يريد: أدرك الجلد. ويقولون: ليس لفلان عقد رأي، ولا معقود رأي، ويقولون: هذا ماء سكب، يريدون: مسكوباً، وهذا شراب صب، يريدون: مصبوباً، وماء غور، يعنون: غائراً، ورجل صوم، يريدون: صائماً، وامرأة نوح، يريدون: نائحة؛ وهذا الكلام مجموع قول الفراء، والأخفش، والزجاج، وابن قتيبة في آخرين. قال ابن عباس: أخذوا جدياً فذبحوه، ثم غمسوا قميص يوسف في دمه، وأتوه به وليس فيه خرق، فقال: كذبتم، لو كان أكله الذئب لخرق القميص. وقال قتادة: كان دم طيبة. وقرأ ابن أبي عمير: «بدم كذباً» بالنصب. وقرأ ابن عباس، والحسن، وأبو العالية: «بدم كذب» بالبدال غير معجة، أي: بدم طري.

قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زَيَّتْ ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ غير ما تصفون ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال الخليل: المعنى: فشاني

(١) البيت للراعي النميري من قصيدة له يملح بها عبد الملك بن مروان ويشكو من السعاة، «ديوانه» ١٣٧، «وأساس البلاغة» عقل.

صبر جميل، والذي اعتقده صبر جميل. وقال الفراء: الصبر مرفوع، لأنه عزى نفسه وقال: ما هو إلا الصبر، ولو أمرهم بالصبر، لكان نصباً. وقال قطرب: المعنى: فصبري صبر جميل. وقرأ ابن مسعود، وأبي، وأبو المتوكل: «فصبراً جميلاً» بالنصب. قال الزجاج: والصبر الجميل، لا جزع فيه، ولا شكوى إلى الناس.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ السَّمِيعُ عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: على ما تصفون من الكذب. والثاني: على احتمال ما تصفون.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَبِئْسَ الْيَوْمَ الْجَزَاءُ لِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: قوم يسيرون ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ قال الأخفش: أنت السيارة وذكر الوارد، لأن السيارة في المعنى للرجال. وقال الزجاج: الوارد: الذي يَرِدُ الماء ليستقي للقوم. وفي اسم هذا الوارد قولان: أحدهما: مالك بن دُعر بن يؤيب بن عيفا بن مين بن إبراهيم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: مجلت بن رعويل، قاله وهب بن منبه.

قوله تعالى: ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ أي: أرسلها. قال الزجاج: يقال: أدليت الدلو: إذا أرسلتها لتملأها، ودلوتها: إذا أخرجتها. ﴿قال يا بشراي﴾ قرأه ابن كثير، ونافع، وأبو عمر، وابن عامر: «يا بشراي» بفتح الياء وإثبات الألف. وروى ورش عن نافع «بشراي» و «محيائي» [الأنعام: ١٦٢] و «مثواي» [يوسف: ٢٣] بسكون الياء. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي «يا بشري» بألف بغير ياء. وعاصم بفتح الراء، وحمزة، والكسائي يميلانها. قال الزجاج: من قرأ «يا بشراي» فهذا النداء تنبيه للمخاطبين، لأن البشري لا تجيب ولا تعقل؛ فالمعنى: أبشروا، ويا أيها البشري هذا من أوانك، وكذلك إذا قلت: يا عجباه، فكأنك قلت: اعجبوا، ويا أيها العجب هذا من حينك؛ وقد شرحنا هذا المعنى [عمد: ٦٩ و ٧٤]. فأما قراءة من قرأ ﴿يَبِئْسَ الْيَوْمَ الْجَزَاءُ﴾ فيجوز أن يكون المعنى: يا من حضر، هذه بشري. ويجوز أن يكون المعنى: يا بشري هذا أوانك، على ما سبق بيانه من تنبيه الحاضرين. وذكر السدي أنه نادى بذاك أحدهم وكان اسمه بشري. وقال ابن الأنباري: يجوز فيه هذه الأقوال، ويجوز أن يكون اسم امرأة. وقرأ أبو رجاء، وابن أبي عبيدة: «يا بُشْرِي» بتشديد الياء وفتحها من غير ألف. قال ابن عباس: لما أدلى دَلْوَهُ؛ تعلق يوسف بالحبل فنظر إليه فإذا غلام أحسن ما يكون من الغلمان، فقال لأصحابه: البشري، فقالوا: ما وراءك؟ قال: هذا غلام في البئر، فأقبلوا يسألونه الشركة فيه، واستخرجوه من الجُبِّ، فقال بعضهم لبعض: اكتنموه عن أصحابكم لئلا يسألونكم الشركة فيه، فإن قالوا: ما هذا؟ فقولوا: استبضعناه أهل الماء لئيبه لهم بمصر؛ فجاء إخوة يوسف فطلبوه فلم يجدوه في البئر، فنظروا، فإذا هم بالقوم ومعهم يوسف، فقالوا لهم: هذا غلام أبق منا، فقال مالك بن ذعر: فأننا أشتريه منكم، فباعوه بعشرين درهماً وحلّةً ونعلين، وأسرهم مالك بن ذعر من أصحابه، وقال: استبضعناه أهل الماء لئيبه لهم بمصر.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً﴾ قال الزجاج: «بضاعة» منصوب على الحال، كأنه قال: وأسروه جاعليه بضاعة. وقال ابن قتيبة: أسروا في أنفسهم أنه بضاعة وتجارة. وفي الفاعلين لذلك قولان: أحدهما: أنهم واردو الجب، أسروا ابتياعه عن باقي أصحابهم، وتواصوا أنه بضاعة استبضعهم إياها أهل الماء؛ وقد ذكرنا هذا المعنى عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثاني: أنهم إخوته، أسروا أمره، وباعوه، وقالوا: هو بضاعة لنا، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس أيضاً^(١).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ يَمَّا يَمْلُوكُ﴾ يعم الباعة والمشتريين.

﴿وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً يَبِئْسَ الْيَوْمَ الْجَزَاءُ لِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَوْهُ﴾ هذا حرف من حروف الأضداد، تقول: شريت الشيء، بمعنى بعته: وشريت، بمعنى

(١) قال ابن جرير الطبري ١٦٩/١٢، طبع الباهي الحلبي: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: وأسروا القوم المدلي دلوه ومن معه من أصحابه من رفقة السيارة أمر يوسف أنهم اشتروه بخفيه منهم أن يستشركوهم، وقالوا لهم: هو بضاعة أبضعها معنا أهل الماء، وذلك أنه عقيب الخبر عنه، فلأن يكون ما وليه من الخبر خيراً عنه، أشبه من أن يكون خيراً ممن هو بالخبر عنه غير متصل.

اشترته. فإن كان بمعنى باعوه، ففيهم قولان: أحدهما: أنهم إخوته، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنهم السيارة، ولم يبعه إخوته، قاله الحسن، وقتادة. وإن كان بمعنى اشتروه، فإنهم السيارة.

قوله تعالى: ﴿يَمْسِكُ بِخَيْسٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحرام، قاله ابن عباس، والضحاك، وقتادة في آخرين. والثاني: أنه القليل، قاله عكرمة، والشعبي. قال ابن قتيبة البخس: الخسيس الذي يُخس به البائع. والثالث: الناقص، وكانت الدراهم عشرين درهماً في العدد، وهي تنقص عن عشرين في الميزان، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً﴾ قال الفراء: إنما قيل: «معدودة» لِيُسْتَدَلَّ بها على القلّة. وقال ابن قتيبة: أي: سيرة، سهل عددها لقلّتها، فلو كانت كثيرة لثقل عددها. وقال ابن عباس: كانوا في ذلك الزمان لا يَزُونُونَ أقل من أربعين درهماً، وقيل: إنما لم يَزُونوها لزهدهم فيه. وفي عدد تلك الدراهم خمسة أقوال: أحدها: عشرون درهماً، قاله ابن مسعود، وابن عباس في رواية، وعكرمة في رواية، ونوف الشامي، ووهب بن منبه، والشعبي، وعطية، والسدي، ومقاتل في آخرين. والثاني: عشرون درهماً وحلّة، ونعلان، وروي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: اثنان وعشرون درهماً، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والرابع: أربعون درهماً، قاله عكرمة في رواية، وابن إسحاق. الخامس: ثلاثون درهماً، ونعلان، وحلّة، وكانوا قالوا له بالعبرانية: إما أن نُقرّر لنا بالعبودية، وإما أن نأخذك منهم فقتلك، قال: بل أقرّ لكم بالعبودية، ذكره إسحاق بن بشر عن بعض أشياخه. قال المفسرون: اقتسموا ثمنه، فاشترّوا به نعالاً وخفافاً. وكان بعض الصالحين يقول: والله ما يوسف - وإن باعه أعداؤه - بأعجب منك في بيعك نفسك بشهوة ساعة من معاصبك.

قوله تعالى: ﴿وَكَاثُرًا فِيهِ مِنَ الرَّهِيئَاتِ﴾ الزهد: قلّة الرغبة في الشيء. وفي المشار إليه قولان: أحدهما: أنهم إخوته، قاله ابن عباس؛ فعلى هذا، في هاء «فيه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى يوسف، لأنهم لم يعلموا مكانه من الله تعالى، قاله الضحاك، وابن جريج. والثاني: أنها ترجع إلى الثمن. وفي علّة زهدهم قولان: أحدهما: رداً عنه. والثاني: أنهم قصدوا بُعد يوسف، لا الثمن. والثاني: أنهم السيارة الذين اشتروه. وفي علّة زهدهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم ارتابوا لقلّة ثمنه. والثاني: أن إخوته وصفوه عندهم بالخيانة والإباق. والثالث: لأنهم علموا أنه حر.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَوْلَاهُ سَئِئَ مَا يَفْعَلُونَ لَوْلَا أَنَّ تَنَحَّدُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَثَ يُوسُفُ فِي الْأَرْضِ وَتَعَلَّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ قال وهب: لما ذهبت به السيارة إلى مصر، وقفوه في سوقها يعرضونه للبيع، فتزايد الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً، وزنه ورقاً، وزنه حبراً، فاشتراه بذلك الثمن رجل يقال له: قطفير، وكان أمين فرعون وخازنه، وكان مؤمناً. وقال ابن عباس: إنما اشتراه قطفير من مالك بن ذعر بعشرين ديناراً، وزوجي نعل، وثوبين أبيضين، فلما رجع إلى منزله قال لامرأته: أكرمي مولاها. وقال قوم: اسمه أطفير. وفي اسم المرأة قولان: أحدهما: راعيل بنت راعيل، قاله ابن إسحاق. والثاني: أزيلخا بنت تملیخا، قاله مقاتل. قال ابن قتيبة: ﴿أَكْرِمِي مَوْلَاهُ﴾ يعني أكرمي منزله ومقامه عندك، من قولك: ثويت بالمكان: إذا أقمت به. وقال الزجاج: أحسني إليه في طول مقامه عندنا. قال ابن مسعود؛ أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرّس في يوسف، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَوْلَاهُ سَئِئَ مَا يَفْعَلُونَ﴾، وابنة شعيب حين قالت: ﴿يَأْتِي أَسْتَجْرَةٌ﴾ [التقصير: ٢٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر. وفي قوله: ﴿سَئِئَ مَا يَفْعَلُونَ﴾ قولان: أحدهما: يكفينا إذا بلغ أمورنا. والثاني: بالربح في ثمنه.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَنَحَّيْهُمْ وَلَدًا﴾ قال ابن عباس: نبتّاه. وقال غيره: لم يكن لهما ولد، وكان العزيز لا يأتي النساء. قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَثَ يُوسُفُ﴾ أي: وكما أنجينا من إخوته وأخرجناه من ظلمة الجُبِّ، مكثاً له في الأرض، أي: ملكناه في أرض مصر فجعلناه على خزانها. ﴿وَتَعَلَّمَهُ﴾ قال ابن الأنباري: إنما دخلت الواو في «وتعلّمه» لفعل مضمر هو المجتلب للام، والمعنى: مكثاً ليوسف في الأرض، واختصاصه بذلك لكي نعلمه من تأويل

الأحاديث. وقد سبق تفسير «تأويل الأحاديث» [يوسف: ٦]. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله، فالمعنى: أنه غالب على ما أراد من قضائه، وهذا معنى قول ابن عباس. والثاني: أنها ترجع إلى يوسف، فالمعنى: غالب على أمر يوسف حتى يبلغه ما أراد له، وهذا معنى قول مقاتل. وقال بعضهم: والله غالب على أمره حيث أمر يعقوب يوسف أن لا يقصص رؤياه على إخوته، فعلموا بها، ثم أراد يعقوب أن لا يكيدوه، فكادوه، ثم أراد إخوة يوسف قتلَه، فلم يقدر لهم، ثم أرادوا أن يلتقطه بعض السيارة فيندرس أمره، فعلا أمره، ثم باعوه ليكون مملوكاً، فغلب أمره حتى ملك، وأرادوا أن يعطفوا أباهم، فأباهم، ثم أرادوا أن يغفروا يعقوب بالبكاء والدم الذي ألقوه على القميص، فلم يخف عليه، ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين، فنسوا ذنبهم إلى أن أقرؤا به بعد سنين فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]، ثم أرادوا أن يمحووا محبته من قلب أبيه، فإزدادت، ثم أرادت أزيلخا أن تلقي عليه التهمة بقولها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ آذَى بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: ٢٥]، فغلب أمره، حتى شهد شاهد من أهلها، وأراد يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقى، فسي الساقى حتى لبت في السجن بضع سنين.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قد ذكرنا معنى الأشد في [الأنعام: ٢١٥٢]، واختلف العلماء في المراد به هاهنا على ثانية أقوال: أحدها: أنه ثلاث وثلاثون سنة، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة. والثاني: ثماني عشرة سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. والثالث: أربعون سنة، قاله الحسن. والرابع: بلوغ الحلم، قاله الشعبي، وربيعه، وزيد بن أسلم، وابنه. الخامس: عشرون سنة، قاله الضحاك. والسادس: أنه من نحو سبع عشرة سنة إلى نحو الأربعين، قاله الزجاج. والسابع: أنه بلوغ ثمان وثلاثين سنة، حكاه ابن قتيبة. والثامن: ثلاثون سنة، ذكره بعض المفسرين^(١).

قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الفقه والعقل، قاله مجاهد. والثاني: النبوة، قاله ابن السائب. والثالث: أنه جعل حكيماً، قاله الزجاج، قال: وليس كل عالم حكيماً، إنما الحكيم: العالم المستعمل علمه، الممتنع به من استعمال ما جهل فيه. والرابع: أنه الإصابة في القول، ذكره الثعلبي. قال اللغويون: الحكم عند العرب ما يصرف عن الجهل والخطأ، ويمنع منهما، ويردُّ النفس عما يشينها ويعدو عليها بالضرر، ومنه: حكمة الدابة. وأصل أحكمت في اللغة: منعت، وسمي الحاكم حاكماً، لأنه يمنع من الظلم والزيغ. وفي المراد بالعلم هاهنا قولان: أحدهما: الفقه. والثاني: علم الرؤيا.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ومثل ما وصفنا من تعليم يوسف وحراسته، نثيب من أحسن عمله، واجتنب المعاصي، فننجيه من الهلكة، ونستنقذه من الضلالة فتجعله من أهل العلم والحكمة كما فعلنا بيوسف. وفي المراد بالمحسنيين هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الصابرون على النوائب. والثاني: المهتدون، روي عن ابن عباس. والثالث: المؤمنون. قال محمد بن جرير: هذا، وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن، فالمراد به محمد ﷺ، والمعنى: كما فعلت بيوسف بعد ما لقي من البلاء فمكنته في الأرض وآتيته العلم، كذلك أعمل بك وأنجيك من مشركي قومك.

﴿وَرَوَدَتْهُ الْآيَةُ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَقِيِّهِ وَعَلَّقَتْ الْأُثْرُبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُغْلِبُهُ أَكْظَلِمُونَ﴾ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الْآيَةُ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَقِيِّهِ﴾ أي: طلبت منه الموافقة، وقد سبق اسمها. قال

(١) قال ابن جرير الطبري ١٧٧/١٢: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه آتني يوسف - لما بلغ أشده - حكماً وعلماً. والأشد: هو انتهاء قوته وشبابه، وجائز أن يكون آتاه ذلك وهو ابن ثماني عشرة سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن عشرين سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، ولا دلالة في كتاب الله ولا أثر عن رسول الله ﷺ، ولا في إجماع الأمة على أي ذلك كان، وإذا لم يكن ذلك موجوداً من الوجه الذي ذكرت، فالصواب أن يقال فيه كما قال ﷺ حتى تثبت حجة بوضحة ما قيل في ذلك من الوجه الذي يجب التسليم له، فيسلم لها حيث.

الزجاج: المعنى: راودته عما أرادته مما يريد النساء من الرجال. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ قرأ ابن كثير: «هَيْتُ لَكَ» بفتح الهاء وتسكين الياء وضم التاء. وقرأ نافع، وابن عامر: «هَيْتُ لَكَ» بكسر الهاء وتسكين الياء وفتح التاء، وهي مروية عن علي بن أبي طالب. وروى الخُلَوَانِي عن هشام عن ابن عامر مثله، إلا أنه همزه. قال أبو علي الفارسي: هو خطأ. وروي عن ابن عامر: «هَيْتُ لَكَ» بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء، وهي قراءة ابن عباس، وأبي الدرداء، وقتادة. قال الزجاج: هو من الهيئة، كأنها قالت: تهيأت لك. وعن ابن محيصن، وطلحة بن مصرف مثل قراءة ابن عباس؛ إلا أنها بغير همز. وعن ابن محيصن بفتح الهاء وكسر التاء، وهي قراءة أبي رزین، وحמיד. وعن الوليد بن عتبة بكسر الهاء والتاء مع الهمز، وهي قراءة أبي العالية. وقرأ ابن خثيم مثله، إلا أنه لم يهمز. وعن الوليد بن مسلم عن نافع بكسر الهاء وفتح التاء مع الهمز. وقرأ ابن مسعود، وابن السميع، وابن يعمر، والجحدري: «هَيْتُ لَكَ» برفع الهاء والتاء وبياء مشددة مكسورة بعدها همزة ساكنة. وقرأ أَبِي بِن كَعْب: «ها أنا لك». وقرأ الباقون بفتح الهاء والتاء بغير همز. قال الزجاج: وهو أجود اللغات، وأكثرها في كلام العرب، ومعناها: هلم لك، أي: أقبل على ما أدعوك إليه، وقال الشاعر:

أَبْلُغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخَا السَّرَاقِ إِذَا أَتَيْتَنَا^(١)
أَنَّ السَّرَاقَ وَأَهْلَهُ عُنُقُ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

أي: فأقبل وتعال. وقال ابن قتيبة: يقال: هَيْتُ فلان لفلان: إذا دعاه وصاح به، قال الشاعر:

قَد رَابَسِي أَنَّ الْكَرِيَّ أَسْكَتَا
لَوْ كَانَ مَغْنِيًّا بِهَا لَهَيْتَا^(٢)

أي: صار ذا سكوت. واختلف العلماء في قوله: «هَيْتُ لَكَ» بأي لغة هي، على أربعة أقوال: أحدها: أنها عربية، قاله مجاهد. وقال ابن الأنباري: وقد قيل: إنها من كلام قريش، إلا أنها مما درس وقل في أفواههم آخرًا، فأتى الله به، لأن أصله من كلامهم، وهذه الكلمة لا مصدر لها، ولا تصرف، ولا تثنية، ولا جمع، ولا تانيث، يقال لاثنين: هيت لكما، وللجميع: هيت لكم، وللنسوة: هيت لكنن. والثاني: أنها بالسرانية، قاله الحسن. والثالث: بالحوارانية، قاله عكرمة، والكسائي. وقال الفراء: يقال: إنها لغة لأهل حوران، سقطت إلى أهل مكة فتكلموا بها. والرابع: أنها بالقطبية، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: هو مصدر، والمعنى: أعوذ بالله أن أفعل هذا، يقال: عدت عيادًا ومعاذًا ومعادة. ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ أي: إن العزيز صاحبي ﴿أَحْسَنَ مَثَوَى﴾، قال: ويجوز أن يكون ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ يعني الله ﷻ ﴿أَحْسَنَ مَثَوَى﴾ أي: تولا في طول مُقَامِي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَمْلِكُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: إن فعلت هذا فختت في أهله بعدما أكرمني فأنا ظالم. وقيل: الظالمون هاهنا: الزناة.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُوهُمْ يَهَا لَوْلَا أَنْ دَمَا بَرَهْنَانَ رَبُّوهُ كَذَلِكَ يَتَصَرَّفُ عِنْدَ الشَّوْءِ وَالْفَتْحَاءِ إِنَّهُ مِنْ عِبَادَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُوهُمْ﴾ الهم بالشيء في كلام العرب: حديث المرء نفسه بمواقفته ما لم يواقع. فأما هم أزيلها، فقال المفسرون: دعت إلى نفسها واستلقت له. واختلفوا في همها على خمسة أقوال: أحدها: أنه كان من جنس همها، فلولا أن الله تعالى عصمه لفعل، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، والسدي، وهو قول عامة المفسرين المتقدمين، واختاره من المتأخرين جماعة منهم ابن جرير، وابن الأنباري. وقال ابن قتيبة: لا يجوز في اللغة: هممت بفلان، وهم بي، وأنت تريد: اختلاف الهمين. واحتج من نصر هذا القول بأنه مذهب الأكثرين من السلف والعلماء الأكابر، ويدل عليه ما سنذكره من أمر البرهان الذي رآه. قالوا: ورجوعه عما هم به من ذلك خوفًا من الله تعالى يمحو عنه سبب الهم، ويوجب له علو المنازل، ويدل على هذا الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: أن

(١) البيتان في مجاز القرآن ١/٣٥٠، والطبري ١٢/١٧٩، والقرطبي ٩/١٦٤، والصحاح، واللسان، والتاج: هيت. وقوله: عنق، أي: ماثلون إليك ومتنظرونك.

(٢) البيت غير منسوب في «غريب القرآن» ٢١٥، واللسان: هيت، والقرطبي ٩/١٦٥، والشرط الثاني في «الصحاح»: هيت. والكري: المستاجر.

ثلاثة خرجوا فلجؤوا إلى غار، فانطبقت عليهم صخرة، فقالوا: ليذكر كل واحد منكم أفضل علمه. فقال أحدهم: اللهم إنك تعلم أنه كانت لي بنت عم فراودتها عن نفسها فأبت إلا بمائة دينار، فلما أتيها بها وجلست منها مجلس الرجل من المرأة، أرعدت وقالت: إن هذا لعمل ما عملته قط، فممت عنها وأعطيتها المائة دينار، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا، فزال ثلث الحجر. والحديث معروف^(١)، وقد ذكرته في «الحدائق»، فعلى هذا نقول: إنما همت، فترقت همتها إلى العزيمة، فصارت مصرّة على الزنى. فأما هو، فعارضه ما يعارض البشر من خَطَرَاتِ القلب، وحديث النفس، من غير عزم، فلم يلزمه هذا الهمُّ ذنباً، فإن الرجل الصالح قد يخطر بقلبه وهو صائم شرب الماء البارد، فإذا لم يشرب لم يؤاخذ بما هجس في نفسه، وقد قال ﷺ: «عفي لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل»^(٢) وقال ﷺ: «هلك المصرون»، وليس الإصرار إلا عزم القلب، فقد فرّق بين حديث النفس وعزم القلب. وسئل سفيان الثوري: أيواخذ العبد بالهمة؟ فقال: إذا كانت عزمًا. ويؤيده الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: إذا همَّ عبدي بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبها عليه سيئة»^(٣). واحتج القاضي أبو يعلى على أن همته لم تكن من جهة العزيمة، وإنما كانت من جهة دواعي الشهوة بقوله: «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَجِيٌّ» وقوله: «كَذَلِكَ نَصَرَفَ عَنْهُ النَّوْهُ وَالْفَحْشَاءُ» وكل ذلك إخبار ببراءة ساحته من العزيمة على المعصية. فإن قيل: فقد سوى القرآن بين الهمتين، فلم فرقتهم؟ فالجواب: أن الاستواء وقع في بداية الهمة، ثم ترقّت همتها إلى العزيمة، بدليل مرادتها واستلقاتها بين يديه، ولم تعدد همتها مقامها، بل نزلت عن رتبتها، وانحل معقودها، بدليل هربه منها، ويقول: «معاذ الله»، وعلى هذا تكون همته مجرد خاطر لم يخرج إلى العزم. ولا يصح ما يروى عن المفسرين أنه حلّ السراويل وقعد منها مقعد الرجل، فإنه لو كان هذا، دل على العزم، والأنبياء معصومون من العزم على الزنى. والقول الثاني: أنها همت به أن يفترشها، وهمّ بها، أي: تمنّاها أن تكون له زوجة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والقول الثالث: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، فلما رأى البرهان، لم يقع منه الهم، فقدمّ جواب «لولا» عليها، كما يقال: قد كنت من الهالكين، لولا أن فلاناً خلّصك، لكنت من الهالكين، ومنه قول الشاعر:

فَلَا يَدْعُنِي قَوْمِي صَرِيحًا لِحُرَّةٍ لئن كنت مَفْتُولًا وَتَسَلَّمَ عَامِرُ

أراد: لئن كنت مقتولًا وتسلم عامر، فلا يدعني قومي، فقدم الجواب. وإلى هذا القول ذهب قطرب، وأنكره قوم، منهم ابن الأنباري، وقالوا: تقديم جواب «لولا» عليها شاذ مستكره، لا يوجد في فصيح كلام العرب، فأما البيت المستشهد به فمن اضطراب الشعراء، لأن الشاعر يضيّق الكلام به عند اهتمامه بتصحيح أجزاء شعره، فيضع الكلمة في غير موضعها، ويقدم ما حكمه التأخير، ويؤخر ما حكمه التقديم، ويعدل عن الاختيار إلى المستقيح للضرورة، قال الشاعر:

جَزَى رِيَّهُ عَنِّي عَدِيٌّ بَنَ حَاتِمٍ جَزَى رِيَّهُ عَنِّي عَدِيٌّ بَنَ حَاتِمٍ جَزَى رِيَّهُ عَدِيٌّ بَنَ حَاتِمٍ

تقديره: جزى عني عدِيٌّ بن حاتم رِيَّهُ، فاضطر إلى تقديم الرب. وقال الآخر:

لَمَّا جَفَا إِخْوَانُهُ مُضْعَبًا أَدَى بِذَلِكَ الْبَيْعِ صَاعًا بِصَاعٍ

أراد: لما جفا مصعباً إخوانه، وأنشد الفراء:

طَلَبًا لِعُرْفِكَ يَا ابْنَ يَحْيَى بَعْدَمَا تَنَقَّطَتْ بِي دُونَكَ الْأَسْبَابُ

فزاد تاء على «تنقطعت» لا أصل لها ليصلح وزن شعره، وأنشد ثعلب:

(١) هو في صحيح البخاري ٣٤٠/٤ و ٣٦٩ و ١٢/٥ و ٣٦٧/٦، ومسلم ٢٠٩٩/٤، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) رواه البخاري ١١٦/٥ و ٤٧٨/١١ ولغظه: «إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم»، ورواه مسلم ١١٧/١ ولغظه: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به». ورواه أيضاً أصحاب السنن الأربعة، كلهم عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) رواه مسلم ١١٢/١.

إِنَّ شَكْلِي وَإِنْ شَكَّلَكَ شَيْئِي

فَالزَّمِي الْخَفْضَ وَإِنَّمَا تَنبِيضِي^(١)

فزاد ضاداً لا أصل لها لتكامل أجزاء البيت، وقال الفرزدق:

هُمَا تَفَلَا فِي فِيٍّ مِنْ فَمَوَيْهِمَا

عَلَى النَّايِحِ الْعَاوِي أَشَدُّ لَجَامِيَا

فزاد واواً بعد الميم ليصلح شعره. ومثل هذه الأشياء لا يحمل عليها كتاب الله النازل بالفصاحة، لأنها من ضرورات الشعراء. والقول الرابع: أنه همّ أن يضربها ويدفعها عن نفسه، فكان البرهان الذي رآه من ربه أن الله أوقع في نفسه أنه إن ضربها كان ضربه إياها حجة عليه، لأنها تقول: راودني فمعتته فضربني، ذكره ابن الأنباري. والقول الخامس: أنه همّ بالفرار منها، حكاة الثعلبي، وهو قول مردول، أفتراه أراد الفرار منها، فلما رأى البرهان، أقام عندها؟! قال بعض العلماء: كان همّ يوسف خطيئة من الصغائر الجائزة على الأنبياء، وإنما ابتلاهم بذلك ليكونوا على خوف منه، وليعرفهم مواقع نعمته في الصفح عنهم، وليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء الرحمة. قال الحسن: إن الله تعالى لم يقصص عليكم ذنوب الأنبياء تعبيراً لهم، ولكن لثلاث تقنطوا من رحمته. يعني الحسن: أن الحجة للأنبياء ألزم، فإذا قبل التوبة منهم، كان إلى قبولها منكم أسرع. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من أحد يلقى الله تعالى إلا وقد همّ بخطيئة أو عملها، إلا يحيى بن زكريا، فإنه لم يهم ولم يعملها»^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَمَا بُرْهَانَ رَبِّي﴾ جواب «لولا» محذوف. قال الزجاج: المعنى: لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما همّ به. قال ابن الأنباري: لزنا، فلما رأى البرهان كان سبب انصراف الزنى عنه. وفي البرهان ستة أقوال: أحدها: أنه مثل له يعقوب. روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: نُودِي: يا يوسف، أتزني فتكون مثل الطائر الذي تفت ريشه فذهب يطير فلم يستطع؟ فلم يعط على النداء شيئاً، فنودي الثانية، فلم يعط على النداء شيئاً، فتمثل له يعقوب فضرب صدره، فقام، فخرجت شهوته من أنامله. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: رأى صورة أبيه يعقوب في وسط البيت عاصباً على أنامله، فأدبر هارباً، وقال: وحقك يا أبت لا أعود أبداً. وقال أبو صالح عن ابن عباس: رأى مثال يعقوب في الحائط عاصباً على شفتيه. وقال الحسن: مثل له جبريل في صورة يعقوب في سقف البيت عاصباً على إبهامه أو بعض أصابعه. وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، وابن سيرين، والضحاك في آخرين. وقال عكرمة: كل ولد يعقوب، قد ولد له اثنا عشر ولداً، إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولداً، فنقص بتلك الشهوة ولداً. والثاني: أنه جبريل ﷺ. روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: مثل له يعقوب فلم يزدجر، فنودي: أتزني فتكون مثل الطائر تفت ريشه؟! فلم يزدجر حتى ركضه جبريل في ظهره، فوثب. والثالث: أنها قامت إلى صنم في زاوية البيت فسترته بثوب، فقال لها يوسف: أي شيء تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني على هذه السوءة، فقال: أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع، ولا أستحي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت؟ فهو البرهان الذي رأى، قاله علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، والضحاك. والرابع: أن الله بعث إليه ملكاً، فكتب في وجه المرأة بالدم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّكُمْ كَأَنْ تَحْسَبُوا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٣) قاله الضحاك عن ابن عباس. وروي عن محمد بن كعب القرظي: أنه رأى هذه الآية مكتوبة بين عينيه، وفي رواية أخرى عنه، أنه رآها مكتوبة في الحائط. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: بدت فيما بينهما كف ليس فيها عضد ولا معصم، وفيها مكتوب: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّكُمْ كَأَنْ تَحْسَبُوا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٤) [الإسراء: ٣٢] فقام هارباً، وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فلما قعد إذا بكف قد بدت فيما بينهما فيها مكتوب: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فَيُدْخِلُهُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨١] فقام هارباً، فلما عاد، قال الله تعالى لجبريل: أدرك عبيدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحط جبريل عاصباً على كفه أو أصبعه

(١) البيت في «مشكل القرآن» ٢٣٥، و«الطبري» ٢١٤/١، و«أمالى ابن السجري» ١٩٧/١، و«اللسان»: يفض، خفض.

(٢) الحديث في «الطبري» ٣٧٧/٦، ٣٧٨ موقوفاً ومرفوعاً بألفاظ مختلفة، وأورده ابن كثير ٣٦١/١ من رواية ابن أبي حاتم مرفوعاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وموقوفاً، ووصف المرفوع بأنه غريب جداً، وقال بعد أن ذكر الموقوف: فهذا موقوف أصح إسناداً من المرفوع. وذكره السيوطي في «الدرر» ٢/٢٢ مرفوعاً وموقوفاً أيضاً، وقال: وهو أقوى إسناداً من المرفوع.

وهو يقول: يا يوسف، أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء؟! وقال وهب بن منبه: ظهرت تلك الكف وعليها مكتوب بالعبرانية: ﴿أَمَتٌ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الزمر: ٢٢] فانصرفا، فلما عادا رجعت وعليها مكتوب: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَظِيمِينَ﴾ [١٦] كِرَامًا كَثِيرِينَ﴾ [١١] [الأنعام: ١٠، ١١]، فانصرفا، فلما عادا عادت وعليها مكتوب: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ الآية، فعاد، فعادت الرابعة وعليها مكتوب: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْمَعُونَ فَبِئْسَ إِلَى اللَّهِ﴾، فولى يوسف هارباً. والخامس: أنه سيده العزيز دنا من الباب، رواه ابن إسحاق عن بعض أهل العلم. وقال ابن إسحاق: يقال: إن البرهان خيال سيده، رآه عند الباب فهرب. والسادس: أن البرهان أنه عليم ما أحل الله مما حرم الله، فرأى تحريم الزنى، روي عن محمد بن كعب القرظي. قال ابن قتيبة: رأى حجة الله عليه، وهي البرهان، وهذا هو القول الصحيح، وما تقدمه فليس بشيء، وإنما هي أحاديث من أعمال القصاص، وقد أشرت إلى فسادها في كتاب «المعنى في التفسير». وكيف يُظن بنبي الله كريم أنه يخوف ويرعب ويُضطر إلى ترك هذه المعصية وهو مصر؟! هذا غاية القبح^(١).

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كذلك أرنا البرهان ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّرُوكَ﴾ وهو خيانه صاحبه ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ ركوب الفاحشة. ﴿إِنَّهُم مِّنْ عِبَادِنَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بكسر اللام، والمعنى: إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بفتح اللام، أرادوا: من الذين أخلصهم الله من الأسواء والفواحش. وبعض المفسرين يقول: السوء: الزنى، والفحشاء: المعاصي.

﴿وَأَسْتَبَقُوا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَمُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ يُعَذَّبَ﴾ [١٥] قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصَمُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهِيَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [١٦] وَإِنْ كَانَ قَيْصَمُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهِيَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [١٧]

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقُوا الْبَابَ﴾ يعني يوسف والمرأة، تبادرا إلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه، وأراد يوسف أن يسبق ليفتح الباب ويخرج، وأرادت هي إن سبقت إمسك الباب لثلا يخرج، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلف، فجدبته إليها، فقدت قميصه من دبر، أي: قطعته من خلفه، لأنه كان هو الهارب وهي الطالبة له. قال المفسرون: قطعت قميصه نصفين، فلما خرجا، ألقيا سيدهما، أي: صادقا زوجها عند الباب، فحضرها في ذلك الوقت كيد، فقالت سابقة بالقول مبرقة لنفسها من الأمر: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ قال ابن عباس: تريد الزنى ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ أي: ما جزاؤه إلا السجن ﴿أَوْ يُعَذَّبَ﴾ أي: أو عذاب أليم، تعني الضرب بالسياط، فغضب يوسف حينئذ وقال: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي﴾. وقال وهب بن منبه: قال له العزيز حينئذ: أختنتي يا يوسف في أهلي، وغدرت بي، وغررتني بما كنت أرى من صلاحك؟ فقال حينئذ: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وذلك أنه لما تعارض قولاهما، احتاجا إلى شاهد يُعلم به قول الصادق. وفي ذلك الشاهد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان صبياً في المهد، رواه عكرمة عن ابن عباس، وشهر بن حوشب عن أبي هريرة، وبه قال سعيد بن جبير، والضحاك، وهلال بن يساف في آخرين. والثاني: أنه كان من خاصة الملك، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس. وقال أبو صالح عن ابن عباس: كان ابن عم لها، وكان رجلاً حكيماً، فقال: قد سمعنا الاشتداد والجلبة من وراء الباب، فإن كان شئ القميص من قدامه فأنبت صادقة وهو كاذب، وإن كان من خلفه فهو صادق وأنت كاذبة. وقال بعضهم: كان ابن خالة المرأة. والثالث: أنه شئ القميص، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد، وفيه ضعف، لقوله: «من أهلها». فإن قيل: كيف وقعت شهادة الشاهد هاهنا معلقة بشرط، والشرائط غير عالم بما يشرطه؟ فتنه جوابان ذكرهما ابن الأثيري: أحدهما: أن الشاهد شاهد بأمر قد علمه، فكانه سمع بعض كلام

(١) قال أبو جعفر بن جرير الطبري ١٢/١٩١: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن هم يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آية من آيات الله زجرته عن ركوب ما هم به يوسف من الفاحشة، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنى، ولا حجة للعذر قاطعة بأي ذلك من أي، والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالِمه.

يوسف وأزليخا، فعلم، غير أنه أوقع في شهادته شرطاً ليلزم المخاطبين قبول شهادته من جهة العقل والتمييز، فكانه قال: هو الصادق عندي، فإن تدبرتم ما أشرطه لكم، عقلتكم قولي. ومثل هذا قول الحكماء: إن كان القدر حقاً، فالحرص باطل، وإن كان الموت يقيناً، فالطمأنينة إلى الدنيا حمق. والجواب الثاني: أن الشاهد لم يقطع بالقول، ولم يعلم حقيقة ما جرى، وإنما قال ما قال على جهة إظهار ما يسخ له من الرأي، فكان معنى قوله: «وشهد شاهد»: أعلم ويؤمن. فقال: الذي عندي من الرأي أن نقيس القميص ليوقف على الخائن. فهذان الجوابان يدلان على أن المتكلم رجل. فإن قلنا: إنه صبي في المهد، كان دخول الشرط مصححاً لبراءة يوسف، لأن كلام مثله أعجوبة ومعجزة لا يبقى معها شك.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ﴾ في هذا الرائي والقائل: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ قولان: أحدهما: أنه الزوج. والثاني: الشاهد. وفي هاء الكناية في قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى تمزيق القميص، قاله مقاتل. والثاني: إلى قولها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾، فالمعنى: قولك هذا من كيدكن، قاله الزجاج. والثالث: إلى السوء الذي دعت إليه، ذكره الماوردي. قال ابن عباس: «إن كيدكن» أي: عملكن «عظيم» تخلطن البريء والسقيم.

﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَفْرَى لِذُنُوبِكُ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ﴿وَقَالَ يَسُوهُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ المعنى: يا يوسف أعرض. وفي القائل لهذا قولان: أحدهما: أنه ابن عمها وهو الشاهد، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الزوج، ذكره جماعة من المفسرين. قال ابن عباس: أعرض عن هذا الأمر فلا تذكره لأحد، واكتمه عليها. وروى الحلبي عن عبد الوارث: «يوسف أعرض عن هذا» بفتح الراء على الخبر. قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْرَى لِذُنُوبِكُ﴾ فيه قولان: أحدهما: استعفى زوجك لثلاث يعاقبك، قاله ابن عباس. والثاني: توبى من ذنبك فإنك قد أئمت. وفي القائل لهذا قولان: أحدهما: ابن عمها. والثاني: الزوج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: من المذنبين. قال المفسرون: ثم شاع ذلك الحديث في مصر حتى تحدث بذلك النساء، وهو قوله: ﴿وَقَالَ يَسُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾، وفي عددهن قولان: أحدهما: أنهن كن أربعاً: امرأة ساقى الملك، وامرأة صاحب دواته، وامرأة خبازه، وامرأة صاحب سجنه، قاله ابن عباس. والثاني: أنهن خمس: امرأة الخباز، وامرأة الساقى، وامرأة السجان، وامرأة صاحب الدواة، وامرأة الأذن، قاله مقاتل. فأما العزيز، فهو بلغتهم الملك، والفتى بمعنى العبد. قال الزجاج: كانوا يسمون المملوك فتى. وإنما تكلم النسوة في حقها، طعناً فيها، وتحقيقاً لبراءة يوسف.

قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: بلغ حبه شغاف قلبها. وفي الشغاف أربعة أقوال: أحدها: أنه جلدة بين القلب والفضاد، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أنه غلاف القلب، قاله أبو عبيدة. قال ابن قتيبة: ولم يُرد الغلاف، إنما أراد القلب، يقال: شغفت فلاناً: إذ أصبت شغافه، كما يقال: كبدته: إذا أصبت كبده، وبطنته: إذا أصبت بطنه. والثالث: أنه حبة القلب وسويداؤه. والرابع: أنه داء يكون في الجوف في الشراسيف، وأنشدوا:

وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ دَاخِلٌ
دُخُولُ الشَّغَافِ تَبْتِغِيهِ الْأَصَابِعُ^(١)

ذكر القولين الزجاج. وقال الأصمعي: الشغاف عند العرب: داء يكون تحت الشراسيف في الجانب الأيمن من البطن، والشراسيف: مفاظ رؤوس الأضلاع، واحدها: شرسوف. وقرأ عبد الله بن عمرو، وعلي بن الحسين، والحسن

(١) البيت للناطقة اللبباني، «ديوانه» ٧٩، و«مجاز القرآن» ٣٠٨/١، و«الطبري» ١١٠/١٢، و«الأمالي» للقاتي ٢٠٥/١، و«السمعة» ٤٨٩، و«الصاحح»، و«اللسان»، و«التاج»: شغف، و«القرطبي» ١٧٦/٩، و«الخرزانه» ٤٢٩/١.

البصري، ومجاهد، وابن محيصن، وابن أبي عبيدة: «قد شعفها» بالعين. قال الفراء: كأنه ذهب بها كل مذهب، والشَّعْف: رؤوس الجبال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي صَلَاتِ شَيْبٍ﴾ أي: عن طريق الرشد، لحبها إياه. والمبين الظاهر. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ رَجُلٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونُنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ يعني: امرأة العزيز، ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه قولهن وعيبنها لها، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن قتيبة. قال الزجاج: وإنما سمي هذا القول مكرراً، لأنها كانت أطلعتهم على أمرها، واستكتمتهم، فمكرون وأفشين سرها. والثاني: أنه مكر حقيقة، وإنما قلن ذلك مكرراً بها لترهين يوسف، قاله ابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ قال الزجاج: أعلت من العتاد، وكل ما اتخذته عُدَّةً لشيء فهو عتاد، والعتاد: الشيء الثابت اللازم. وقال ابن قتيبة: أعتدت بمعنى أعدت. فأما المتكأ، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المجلس؛ فالمعنى: هيأت لهن مجلساً، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنه الوسائد اللاني يتكئن عليها، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال الزجاج: المتكأ: ما يُتَّكأ عليه لطعام أو شراب أو حديث. والثالث: أنه الطعام، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة. قال ابن قتيبة: يقال: اتكأنا عند فلان: إذا طعمنا، قال جميل بن معمر:

قَطَّعْنَا فِي نَعْمَةٍ وَأَتَّكْنَا وَشَرَبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَيْلَةٍ^(١)

والأصل في هذا أن من دعَّوته ليطعم، أعدت له التُّكَاة للمقام والطمأنينة، فسمي الطعام متكأً على الاستعارة. قال الأزهري: إنما قيل للطعام: متكأ، لأن القوم إذا قعدوا على الطعام اتكؤوا، ونُهيبت هذه الأمة عن ذلك^(٢). وقرأ مجاهد «متكأ» بإسكان التاء خفيفة، وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الأترج، قاله ابن عباس، ومجاهد، ويحيى بن يعمر في آخرين، ومنه قول الشاعر:

لِنَشْرَبُ الْإِنَّمِ بِالضُّوَاعِ جَهَارًا
وترى المُتَّكَّ بَيْنَنَا مُسْتَعَارًا^(٣)

يريد: الأترج. والثاني: أنه الطعام أيضاً، قاله عكرمة. والثالث: أنه كل شيء يُحْرُجُ بالسكاكين، قاله الضحاك. والرابع: أنه الرُّمَّارِدُ^(٤)، روي عن الضحاك أيضاً. وقد روي عن جماعة أنهم فسروا المتكأ بما فسروا به المتك، فرؤي عن ابن جريج أنه قال: المتكأ: الأترج، وكل ما يُحْرُجُ بالسكاكين. وعن الضحاك قال: المتكأ: كل ما يُحْرُجُ بالسكاكين. وفرق آخرون بين القراءتين، فقال مجاهد: من قرأ «متكأ» بالثقل، فهو الطعام، ومن قرأ بالتخفيف، فهو الأترج. قال ابن قتيبة: من قرأ «متكأ» فإنه يريد الأترج، ويقال: الرُّمَّارِدُ. وأياً ما كان، فإني لا أحسبه سمي متكأً إلا بالقطع، كأنه مأخوذ من البتْكَ، فأبدلت الميم منه باء، كما يقال: سَمَدُ رَأْسِهِ وَسَبَدَهُ إِذَا اسْتَأْصَلَهُ، وشر لازم، ولازب، والميم تبدل من الباء كثيراً، لقرب مخرجيهما.

قوله تعالى: ﴿وَآتَتْ كُلَّ رَجُلٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ إنما فعلت ذلك، لأن الطعام الذي قدمت لهن يحتاج إلى السكاكين. وقيل: كان مقصودها افتضاحهن بتقطيع أيديهن كما فضحنها. قال وهب بن منبه: ناولت كل واحدة منهن أترجةً وسكيناً، وقالت لهن: لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن، ثم قالت ليوسف: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾. قال الزجاج: إن شئت ضممت التاء من قوله: «وقالت»، وإن شئت كسرت، والكسر الأصل لسكون التاء والخاء، ومن ضم التاء، فلثقل

(١) «ديوانه» ١٨٨، و«مشكل القرآن» ١٣٨، و«أساس البلاغة»: قلل، و«الأغاني» ٩٧/٧، و«القرطبي» ١٧٨/٩، و«شرح شواهد المعنى» ١٢٦.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أكل وأنا متكأ».

(٣) البيت غير منسوب في «القرطبي» ١٧٨/١٢، و«اللسان»: أنم، و«التاج»: متك.

(٤) الزموردي: الرقاق الملفوف باللحم، وغيره، أو هو شيء يشبه الأترج. وفي «الطبري»: البزموردي، بدل: الزموردي.

الضممة بعد الكسرة. ولم يمكنه أن لا يخرج، لأنه بمنزلة العبد لها. وذكر بعض أهل العلم أنها إنما قالت: «أخرج» وأضمرت في نفسها «عليهن»، فأخبر الحق عما في النفس كأن اللسان قد نطق به، ومثله ﴿إِنَّمَا تَلَوْتُمْ لُوحِيْنَ اَللّٰهُ...﴾ الآية [الإنسان: ٢٩]، لم يقولوا ذلك، إنما أضمره، ويدل على صحة هذا أنها لو قالت له وهو شاب مستحسن: أخرج على نسوة من طبعهن الفتنة، ما فعل. وفي قوله: ﴿اَكْبَرُ﴾ قولان: أحدهما: أعظمتُه، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وابن أبي نجيب عن مجاهد، وبه قال قتادة، وابن زيد. والثاني: حِضْنٌ، رواه الضحاك عن ابن عباس. وروى علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: حِضْنٌ مِنَ الْفَرْحِ، قال: وفي ذلك يقول الشاعر:

نَأْتِي النِّسَاءَ لَدَى اَطْهَارِهِنَّ وَلَا نَأْتِي النِّسَاءَ إِذَا اَكْبَرْنَ اِكْبَارًا^(١)

وقد روى هذا المعنى ليث عن مجاهد، واختاره ابن الأباري، وردّه بعض اللغويين، فروي عن أبي عبيدة أنه قال: ليس في كلام العرب «أكبرن» بمعنى «حِضْنٌ»، ولكن عسى أن يكن من شدة ما أعظمته حِضْنٌ، وكذلك روي عن الزجاج أنه أنكره.

قوله تعالى: ﴿وَقَلَّعْنَ اَيْدِيَهُنَّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: حَزَزْنَ اَيْدِيَهُنَّ، وكن يحسبن أنهن يقطعن طعاماً، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: قطعن أيديهن حتى ألقينها، قاله مجاهد، وفتادة. والثالث: كَلَمْنَ الْاَكْفُفَ وَأَبْنَ الْاَنَاْمَلِ، قاله وهب بن منبه.

قوله تعالى: ﴿وَقَلَّعْنَ حَشَّ لَدِي﴾ قرأ أبو عمرو «حاشا» بألف في الوصل في الموضعين، واتفقوا على حذف الألف في الوقف، وأبو عمرو جاء به على التمام والأصل، والباقون حذفوا. وهذه الكلمة تستعمل في موضعين: أحدهما: الاستثناء. والثاني: التبرئة من الشر. والأصل «حاشا» وهي مشتقة من قولك: كنت في حشا فلان، أي في ناحيته. والحشا: الناحية، وأنشدها:

بِأَيِّ الْحَشَا أُمْسَى الْخَلِيْطُ الْمُبَايِنُ

أي: بأي النواحي، والمعنى: صار يوسف في حشاً من أن يكون بشراً، لفرط جماله. وقيل: صار في حشاً مما عرفته به امرأة العزيز. وقال ابن عباس، ومجاهد: «حاش لله» بمعنى: معاذ الله. قال الفراء: و«بشراً» منصوب، لأن الباء قد استعملت فيه، فلا يكاد أهل الحجاز ينطقون إلا بالباء، فلما حذفوها أجروا أن يكون لها أثر فيما خرجت منه، فنصبوا على ذلك، وكذلك قوله: ﴿مَا هُمُكُ اَنْهَيْتُهُمْ﴾ [المجادة: ٢٢]، وأما أهل نجد فيتكلمون بالباء وبغير الباء، فإذا أسقطوها، رفعوا، وهو أقوى الوجهين في العربية. قال الزجاج: قوله: الرفع أقوى الوجهين، غلط، لأن كتاب الله أقوى اللغات، ولم يقرأ بالرفع أحد. وزعم الخليل، وسيبويه، وجميع النحويين القدماء أن «بشراً» منصوب، لأنه خبر «ما»، و«ما» بمنزلة «ليس». قلت: وقد قرأ أبو المتوكل، وأبو نهيك، وعكرمة، ومعاذ القارئ في آخرين: «ما هذا بشر» بالرفع. وقرأ أبي بن كعب، وأبو الجوزاء، وأبو السَّوَّارِ، «ما هذا بشري» بكسر الباء والشين مقصوراً منوناً. قال الفراء: أي: ما هذا بمشترى. وقرأ ابن مسعود: «بشراء» بالمد والهزم مخفوضاً منوناً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا اِلَّا مَلَكٌ﴾ قرأ أبي، وأبو رزين، وعكرمة، وأبو حيوة، والجحدري: «ملك» بكسر اللام. قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ قال المفسرون: لما ذهلت عقولهن فقطعن أيديهن، قالت لهن ذلك. فإن قيل: كيف أشارت إليه وهو حاضر بقولها: «فذلكن»؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأباري: أحدهما: أنها أشارت بـ «ذلكن» إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس. والثاني: أن في الكلام إضمار «هذا» تقديره: فهذا ذلكن. ومعنى «لمتني فيه» أي: في حبه. ثم أقرت عندهن، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِ﴾ قال الزجاج: القراءة الجيدة تخفيف «وليكونن» والوقف عليها بالألف، لأن النون الخفيفة تبدل منها في الوقف الألف، تقول: اضربن زيدا، وإذا وقفت قلت: اضربا. وقد قرئت «وليكونن» بتشديد

(١) البيت غير منسوب في «الطبري» ٢٠٥/١٢، و«القرطبي» ١٨٠/١٢، و«اللسان»: كبر.

النون، وأكرمها، لخلاف المصحف، لأن الشديدة لا يبدل منها شيء والصاغرون: المذلولون.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا صَرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنَّ مِنَ الْبَاطِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ قال وهب بن منبه: لما قالت: «فذلكن الذي لمتنني فيه» قلن: لا لوم عليك، قالت: فاطلبن إلى يوسف أن يسعفني بحاجتي، فقلن: يا يوسف افعل، فقالت: لئن لم يفعل لأخلدنه السجن، فعند ذلك قال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾. وقرأ يعقوب: «السَّجْن» بفتح السين هاهنا فحسب. قال الزجاج: من كسر سين «السجن» فعلى اسم المكان، فيكون المعنى: نزول السجن أحب إلي من ركوب المعصية، ومن فتح، فعلى المصدر، المعنى: أن أسجن أحب إلي. ﴿وَإِلَّا صَرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أي: إلّا تعصمني ﴿أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ أي: أمل إليهن. يقال: صبا إلى اللهو يصبو صبواً وصبواً وصباءً: إذا مال. وقال ابن الأنباري: ومعنى هذا الكلام: اللهم اصرف عني كيدهن، ولذلك قال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾. قال: فإن قيل: إنما كادته امرأة العزيز وحدها، فكيف قال: «كيدهن»؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن العرب توقع الجمع على الواحد، فيقول قائلهم: خرجت إلى البصرة في السفن، وهو لم يخرج إلا في سفينة واحدة. والثاني: أن المكتبي عنه امرأة العزيز والنسوة اللاتي عاضدنها على أمرها. والثالث: أنه عنى امرأة العزيز وغيرها من نساء العالمين اللاتي لهن مثل كيدها.

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسُئْتُهُ حَتَّى جِيءَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسُئْتُهُ حَتَّى جِيءَ﴾ في المراد بالآيات ثلاثة أقوال: أحدها: أنها شق القميص، وقضاء ابن عمها عليها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها قد القميص، وشهادة الشاهد، وقطع الأيدي، وإعظام النساء إياه، رواه مجاهد عن ابن عباس. والثالث: جماله وعفته، ذكره الماوردي. قال وهب بن منبه: فأشار النسوة عليها بسجنه رجاء أن يستهويه حين يخلو لهن في السجن، وقلن: متى سجتبه قطع ذلك عنك قالة الناس التي قد شاعت، ورأوا أنك تبغضينه، وبذله السجن لك، فلما انصرفن عادت إلى مراودته فلم يزد إلا بعداً عنها، فلما يشت، قالت لسيدها: إن هذا العبد قد فضحني، وقد أبغضت رؤيته، فائذن لي في سجنه، فأذن لها، فسجته وأضرّت به. وقال السدي: قالت: إما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر بعذري، وإما أن تحبسه كما حبستني، فظهر للعزيز وأصحابه من الرأي حبس يوسف. قال الزجاج: كان العزيز أمر بالإعراض فقط، ثم تغير رأيه عن ذلك. قال ابن الأنباري: وفي معنى الآية قولان: أحدهما: «ثم بدا لهم» أي: ظهر لهم بالقول والرأي والفكر سجنه. والثاني: ثم بدا لهم في يوسف بدءاً، فقالوا: والله لنسجته، فاللام جواب يمين مضمرة. فأما الحين، فهو يقع على قصير الزمان وطويله. وفي المراد به هاهنا للمفسرين خمسة أقوال: أحدها: خمس سنين، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: سنة، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: سبع سنين، قاله عكرمة. والرابع: إلى انقطاع القالة، قاله عطاء. الخامس: أنه زمان غير محدود، ذكره الماوردي، وهذا هو الصحيح، لأنهم لم يعزموا على حبسه مدة معلومة، وإنما ذكر المفسرون قدر ما لبث.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُورِثُ كَثِيرًا أَرَأَيْتَ إِن كُنَّا لِنَقْتُلَهُمَا لَنَعْتَصِبَ مِنْهُمَا كَثِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ قال الزجاج: فيه دليل على أنه حبس، وإن لم يُذكر ذلك. و«فتيان» جائر أن يكونا حداثين أو شيخين، لأنهم يسمون المملوك فتى. قال ابن الأنباري: إنما قال: «فتيان» لأنهما كانا مملوكين، والعرب تسمي المملوك فتى، شاباً كان أو شيخاً. قال المفسرون: عُمر ملك مصر فملّوه، فدسوا إلى خبازه وصاحب شراهبه أن يسماه، فبلغه ذلك فحبسهما، فكان يوسف قال لأهل السجن: إني أعبر الأحلام، فقال أحد الفتين: هلم فلنجرّب هذا العبد العبراني. واختلفوا هل كانت رؤياهما صادقة، أم لا؟ على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها كانت كذباً، وإنما سألاه تجريباً، قاله ابن مسعود، والسدي. والثاني: أنها كانت صدقاً، قاله مجاهد، وابن إسحاق. والثالث: أن الذي صُلب منهما كان كاذباً، وكان الآخر صادقاً، قاله أبو مجلز.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ يعني الساقى ﴿إِنِّي أَرِنُوكَ﴾ أي: في النوم ﴿أَنْصُرُ حَبْرًا﴾ أي: عنباً. وفي تسمية العنب خمراً ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سماه باسم ما يؤول إليه، لأن المعنى لا يلتبس، كما يقال: فلان يطبخ الأجر ويعمل الدبس، وإنما يطبخ اللين ويصنع التمر، وهذا قول أكثر المفسرين. قال ابن الأنباري: وإنما كان كذلك، لأن العرب توقع بالفرع ما هو واقع بالأصل، كقولهم: فلان يطبخ آجرًا. والثاني: أن الخمر في لغة أهل عُمان اسم للعنب، قاله الضحاك، والزجاج. قال ابن القاسم: وقد نطقت قريش بهذه اللغة وعرفتها. والثالث: أن المعنى: أعصر عنب خمر، وأصل خمر، وسبب خمر، فحذف المضاف، وخلفه المضاف إليه، كقوله: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. قال أبو صالح عن ابن عباس: رأى يوسف ذات يوم الخباز والساقى مهمومين، فقال: ما شأنكما؟ قالا: رأينا رؤيا، قال: قُصَّاهَا عَلَيَّ، قال الساقى: إني رأيت كأنني دخلت كرمًا فجنيت ثلاثة عناقيد عنب، فعصرتهن في الكأس، ثم أتيت به الملك فشربه، وقال الخباز: رأيت أني خرجت من مطبخ الملك أحمل فوق رأسي ثلاث سلال من خبز، فوقع طير على أعلاهن فأكل منها، ﴿نَبْتًا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: أخبرنا بتفسيره. وفي قوله: ﴿إِنَّا نُرَاكَ مِن الْخَمِيرِ﴾ خمسة أقوال: أحدها: أنه كان يعود المرضى ويداويهم ويعزّي الحزين، رواه مجاهد عن ابن عباس. والثاني: إنا نراك محسنًا إن أنبأتنا بتأويله، قاله ابن إسحاق. والثالث: إنا نراك من العالمين قد أحسنت العلم، قاله الفراء. قال ابن الأنباري: فعلى هذا يكون مفعول الإحسان محذوفًا، كما حُذف في قوله: ﴿وَفِيهِ بَعْضٌ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] يعني العنب والسمسم. وإنما علموا أنه عالم، لنشره العلم بينهم. والرابع: إنا نراك ممن يحسن التأويل، ذكره الزجاج. والخامس: إنا نراك محسنًا إلى نفسك بلزومك طاعة الله، ذكره ابن الأنباري.

﴿قَالَ لَا يَايَتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَاتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَايَتِيكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمْنَا رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَيْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَرَبِّ الْآلَمِينَ﴾ [يوسف: ٣٧] يعني العنب والسمسم. قاله ابن عباس: لا يايتيكم طعام ترزقانه في اليقظة إلا أخبرتكما به قبل أن يصل إليكما، لأنه كان يخبر بما غاب كعيسى عليه السلام، وهو قول الحسن. والثاني: لا يايتيكم طعام ترزقانه في المنام إلا نباتكما بتأويله قبل أن يايتيكم في اليقظة، هذا قول السدي. قال ابن عباس: فقلا له: وكيف تعلم ذلك، ولست بساحر، ولا عراف، ولا صاحب نجوم؛ فقال: ﴿ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمْنَا رَبِّي﴾. فإن قيل: هذا كله ليس بجواب سؤالهما، فأين جواب سؤالهما؟ فعه أربعة أجوبة: أحدها: أنه لما علم أن أحدهما مقتول، دعاها إلى نصيبهما من الآخرة، قاله قتادة. والثاني: أنه عدل عن الجواب لما فيه من المكروه لأحدهما، قاله ابن جريج. والثالث: أنه ابتداء بدعائهما إلى الإيمان بتوفيق الله. ﴿وَرَبِّ الْآلَمِينَ﴾ يعني المؤمنين بأن دلهم على دينه. وقال ابن عباس: ذلك من فضل الله علينا، أن جعلنا أنبياء ﴿وَرَبِّ الْآلَمِينَ﴾ أن بعثنا إليهم، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧] لا يشكرون نعم الله فيؤخدونه.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال ابن عباس: يريد: أن الله عصمنا من الشرك. ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أتبعنا الإيمان بتوفيق الله. ﴿وَرَبِّ الْآلَمِينَ﴾ يعني المؤمنين بأن دلهم على دينه. وقال ابن عباس: ذلك من فضل الله علينا، أن جعلنا أنبياء ﴿وَرَبِّ الْآلَمِينَ﴾ أن بعثنا إليهم، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧] لا يشكرون نعم الله فيؤخدونه.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: أعظم صفة في المدح ﴿أَرِ اللَّهُ الْوَجْدَ الْقَهَّارَ﴾ يعني أنه أحق بالإلهية من الأصنام؟ فأما الواحد، فقال الخطابي: هو الفرد الذي لم يزل وحده، وقيل: هو المنقطع القرين، المعدوم الشريك والنظير، وليس كسائر الأحاد من الأجسام المؤلفة، فإن كل شيء سواء يُدعى واحداً من جهة، غير واحد من جهات، والواحد لا يتنى من لفظه، لا يقال: واحداً. والقهار: الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة، وقهر الخلق كلهم بالموت. وقال غيره: القهار: الذي قهر كل شيء فذلَّه، فاستسلم وذلَّ له.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَبَّيْتُمَا أُتِرَ وَإِنَّا لَكُم مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْكُفْرُ إِلَّا يَهُوَ أَمَرٌ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِنُمْ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَجِي السَّجِنَ إِنَّا أَحَدَكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا وَإِنَّا الْآخِرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ النَّفْرُ مِنْ رَأْسِهِ. فَيُضَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ وإنما جمع في الخطاب لهما، لأنه أراد جميع من شاركهما في شركهما. وقوله: ﴿من دونه﴾ أي: من دون الله ﴿إِلَّا أَسْمَاءَ﴾ يعني: الأرباب والآلهة، ولا يصح معاني تلك الأسماء للأصنام، فكانها أسماء فارغة، فكانهم يعبدون الأسماء لأنها لا تصح معانيها. ﴿مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة لعبادتها. ﴿إِنْ الْكُفْرُ إِلَّا يَهُوَ﴾ أي: ما القضاء والأمر والنهي إلا له. ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِنُمْ﴾ أي: المستقيم، يشير إلى التوحيد. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يعلمون أنه لا يجوز عبادة غيره. والثاني: لا يعلمون ما للمطيعين من الثواب وللعاصين من العقاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَحَدَكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا﴾ الرب هاهنا: السيد. قال ابن السائب: لما قص الساقى رؤياه على يوسف، قال له: ما أحسن ما رأيت! أما الأغصان الثلاثة، فثلاثة أيام، يبعث إليك الملك عند انقضائها، فيردك إلى عملك، فتعود كأحسن ما كنت فيه، وقال للخباز: بش ما رأيت، السلال الثلاث، ثلاثة أيام، ثم يبعث إليك الملك عند انقضائها، فيقتلك ويصلبك ويأكل الطير من رأسك، فقالا: ما رأينا شيئاً، فقال: ﴿فَيُضَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: فرغ منه، وسيقع بكما، صدقتما أو كذبتما. فإن قيل: لم حتم على وقوع التأويل، وربما صدق تأويل الرؤيا وكذب؟ فنه جوابان: أحدهما: أنه حتم ذلك لوجي آتاه من الله، وسبيل المنام المكذوب فيه أن لا يقع تأويله، فلما قال: ﴿فَيُضَى الْأَمْرُ﴾ دل على أنه بوجي. والثاني: أنه لم يحتم، بدليل قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾، قال أصحاب هذا الجواب: معنى «قضي الأمر»: قطع الجواب الذي التمسناه من جهتي، ولم يعن أن الأمر واقع بكما. وقال أصحاب الجواب الأول: الظن هاهنا بمعنى العلم.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أذْكَرُنِي إِعْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ وَكَّرَ رَبُّهُ فَلَيْتَ فِي السَّجِنِ بِضَعِ سَيِّئَةٍ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ يعني الساقى. وفي هذا الظن قولان: أحدهما: أنه بمعنى العلم، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الظن الذي يخالف اليقين، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿أذْكَرُنِي إِعْدَ رَبِّكَ﴾ أي: عند صاحبك، وهو الملك، وقل له: إن في السجن غلاماً حُبس ظلماً. واسم الملك: الوليد بن الرِيَّان.

قوله تعالى: ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ وَكَّرَ رَبُّهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: فأنسى الشيطان الساقى ذكر يوسف لربه، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال ابن إسحاق. والثاني: فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه، وأمره بذكر الملك ابتغاء الفرج من عنده، قال مجاهد، ومقاتل، والزجاج، وهذا نسيان عمد، لا نسيان سهو، وعكسه القول الذي قبله.

قوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِي السَّجِنِ بِضَعِ سَيِّئَةٍ﴾ أي: غير ما كان قد لبث قبل ذلك، عقوبة له على تعلُّقه بمخلوق. وفي البضع تسعة أقوال: أحدها: ما بين السبع والتسع، روى ابن عباس أن أبا بكر لما ناحب^(١) قريشاً عند نزول: ﴿لَمَّا فَصَّيْتُ الْأَرْوَمَ ﴿١﴾﴾ [الروم: ١، ٢]، قال له رسول الله ﷺ: «ألا احتطت، فإن البضع ما بين السبع إلى التسع^(٢)». والثاني: اثنتا عشرة سنة، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثالث: سبع سنين، قاله عكرمة. والرابع: أنه ما بين الخمس إلى السبع، قاله الحسن. والخامس: أنه ما بين الأربع إلى التسع، قاله مجاهد. والسادس: ما بين الثلاث إلى التسع، قاله الأصمعي، والزجاج. والسابع: أن البضع يكون بين الثلاث والتسع والعشر، قاله قتادة. والثامن: أنه ما دون العشرة، قاله الفراء، وقال الأخفش: البضع: من واحد إلى عشرة. والتاسع: أنه ما لم يبلغ العقد ولا نصفه، قاله أبو عبيدة. قال ابن قتيبة: يعني ما بين الواحد إلى الأربعة. وروى الأثرم عن أبي عبيدة: البضع: ما بين ثلاث

(١) ناحب: راهن، والمناجحة: المراهنة. قال الجمعي: وذلك قبل أن يكون تحريم ذلك (أي: الرهان).

(٢) «المستند» ١٦٨/٤ وإسناده صحيح، و«الطبري» ١٧/٢١، والترمذي ١٥٠/٢، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وخمس. وفي جملة ما لبث في السجن ثلاثة أقوال: أحدها: اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. والثاني: أربع عشرة، قاله الضحاك. والثالث: سبع سنين، قاله قتادة. قال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقى: «أَذْكَرْتَنِي عِنْدَ رَبِّكَ»، قيل له: يا يوسف، أتخذت من دوني وكيلاً؟ لأطيلن حبسك، فبكى، وقال: يا رب، أنسى قلبي كثرة البلوى، فقلت كلمة، فويل لإخوتي.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ إِنِّي أُرَى فِي رُؤْيَايَ أَنْ أَنُوتِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُ لِلرُّؤْيَا قَبُولًا﴾ (٤٣)

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ يعني ملك مصر الأكبر ﴿إِنِّي أَرَى﴾ يعني في المنام، ولم يقل: رأيت، وهذا جائز في اللغة أن يقول القائل: أرى، بمعنى رأيت. قال وهب بن منبه: لما انقضت المدة التي وقتها الله تعالى ليوسف في حبسه، دخل عليه جبريل إلى السجن، فبشّره بالخروج وملك مصر ولقاء أبيه، فلما أمسى الملك من ليلته، رأى سبع بقرات سمان خرجن من البحر، في آثارهن سبع عجاف، فأقبلت العجاف على السمان، فأخذن بأذنابهن فأكلنهن إلى القرنين، ولم يزد في العجاف شيء، ورأى سبع سنبلات خضر وقد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن حتى آتين عليهن، ولم يزد في اليابسات شيء، فدعا أشرف قومه فقصها عليهم، فقالوا: «أَصْنَعْتُمْ أَكْثَرَ». قال الزجاج: والعجاف: التي قد بلغت في الهزال الغاية. والملا: الذين يُرجع إليهم في الأمور ويقتدى برأيهم، واللام في قوله: ﴿لِلرُّؤْيَا﴾ دخلت على المفعول للتيبين، المعنى: إن كنتم تعبرون. ثم بين باللام فقال: «الرؤيا». ومعنى عبرت الرؤيا وعبرتها: أخبرت بآخر ما يؤول إليه أمرها، واشتقاقه من عبر النهر، وهو شاطئ النهر، فتأويل عبرت النهر: بلغت إلى عبره، أي: إلى شطه، وهو آخر عرضه. وذكر ابن الأنباري في اللام قولين: أحدهما: أنها للتوكيد. والثاني: أنها أفادت معنى «إلى» والمعنى: إن كنتم توجهون العبارة إلى الرؤيا.

﴿قَالُوا أَصْنَعْتَ أَكْثَرَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ (٤٤)

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَصْنَعْتَ أَكْثَرَ﴾ قال أبو عبيدة: واحدا ضغث، مكسورة، وهي ما لا تأويل له من الرؤيا تراه جماعات، تُجمع من الرؤيا كما يُجمع الحشيش، فيقال: ضغث، أي: ملء كف منه. وقال الكسائي: الأضغاث: الرؤيا المختلطة. وقال ابن قتيبة: «أضغاث أحلام» أي: أخلاط مثل أضغاث النبات يجمعها الرجل، فيكون فيها ضروب مختلفة. وقال الزجاج: الضغث في اللغة: الحزمة والباقة من الشيء، كالبلق وما أشبهه، فقالوا له: رؤياك أخلاط أضغاث، أي: حزم أخلاط، ليست برؤيا بيّنة، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أي: ليس للرؤيا المختلة عندنا تأويل. وقال غيره: وما نحن بتأويل الأحلام الذي هذا وصفها بالعلمين. والأحلام جمع حلم، وهو ما يراه الإنسان في نومه مما يصح وما يبطل.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتِزَعُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥) ﴿بُوشُفُ أَيُّهَا الضَّيِّقُ أَنتَنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لِمَ لَهُمْ بِمَلَكُوتِكَ﴾ (٤٦) ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَاكًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٤٧) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا حَصَرْتُمْ﴾ (٤٨)

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ يعني الذي تخلص من القتل من الفتيين، وهو الساقى، ﴿وَوادَّكر﴾ أي: تذكر شأن يوسف وما وصّاه به. قال الزجاج: وأصل أدكر: ادتكر، ولكن التاء أبدلت منها الدال، وأدغمت الدال في الدال. وقرأ الحسن: وادَّكر بالذال المشددة. وقوله: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد حين، وهو الزمان الذي لبثه يوسف بعده في السجن، وقد سبق بيانه. وقرأ ابن عباس، والحسن «بعد أمة» أراد: بعد نسيان. فإن قيل: هذا يدل على أن الناسي في قوله: ﴿فَأَسْنَسُهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّي﴾ هو الساقى، ولا شك أن من قال: إن الناسي يوسف يقول: لم ينس الساقى. فالجواب: أن من قال: إن يوسف نسي، يقول: معنى قوله: «وادَّكر» ذكر، كما تقول العرب: احتلب بمعنى حلب، واغتندى بمعنى غدا، فلا يدل إذاً على نسيان سيقه. وقد روى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال: إنما لم يذكر الساقى خبر يوسف للملك حتى احتاج الملك إلى تأويل رؤياه، خوفاً من أن يكون ذكره ليوسف سبباً لذكره الذنب الذي من أجله حبس، ذكر هذا الجواب ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿أَنَا أَنبَأْتُكُمْ بِتَارِيحِهِ﴾ أي: من جهة يوسف ﴿فَأَرْسَلُونِي﴾ أثبت الياء فيها وفي ﴿وَلَا تَقْرَبُونِي﴾ [يوسف: ٦٠] ﴿أَنْ تَقْتَدِرُوا﴾ [يوسف: ٩٤] يعقوب في الحالين، فخطاب الملك وحده بخطاب الجميع، تعظيماً، وقيل: خاطبه وخاطب أتباعه. وفي الكلام اختصار، المعنى: فأرسلوه فأتى يوسف فقال: يا يوسف يا أيها الصديق. والصديق: الكثير الصدق، كما يقال فسّيق، وسكّير، وقد سبق بيانه [النساء: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿لَمَّا أَتَىٰ جُوعٌ إِلَى النَّاسِ﴾ يعني الملك وأصحابه والعلماء الذين جمعهم لتعبير رؤياه. وفي قوله: ﴿لَمَّا هَمَّ بِمَلَكُوتِهِ﴾ قولان: أحدهما: يعلمون تأويل رؤيا الملك. والثاني: يعلمون بمكانك فيكون سبب خلاصك. وذكر ابن الأنباري في تكرير «العلل» قولين: أحدهما: أن «لعل» الأولى متعلقة بالإفتاء، والثانية مبنية على الرجوع، وكلتاها بمعنى «كي». والثاني: أن الأولى بمعنى «عسى»، والثانية بمعنى «كي» فاعيدت لاختلاف المعنيين، وهذا هو الجواب عن قوله: ﴿لَمَّا هَمَّ بِمَقْرُوفَتِهَا إِذَا أَنْفَكَبَا إِنَّ أَهْلَهُمْ لَمَلَكُهُمْ بِرَجْمَتِهِ﴾ [يوسف: ٦٣]. قال المفسرون: كان سيده العزيز قد مات، واشتغلت عنه امرأته. وقال بعضهم: لم يكن العزيز قد مات، فقال يوسف للساقى: قل للملك: هذه سبع سنين مُخْصِبَات، ومن بعدهن سبع سنين شداد، إلا أن يُحْتَالَ لهن، فانطلق الرسول إلى الملك فأخبره، فقال له الملك: ارجع إليه فقل له: كيف يُصْنَع؟ فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «دأباً» ساكنة الهمزة، إلا أن أبا عمرو كان إذا أدرج القراءة لم يهزها. وروى حفص عن عاصم «دأباً» بفتح الهمزة. قال أبو علي الأكثر في «دأب» الإسكان، ولعل الفتح لغة، ومعنى «دأباً» أي: زراعة متوالية على عادتكم، والمعنى: تزرعون دائبين. فتاب «دأب» عن «دائبين». وقال الزجاج: المعنى: تدأبون دأباً، ودل على تدأبون «تزرعون» والدأب: الملازمة للشيء والعادة. فإن قيل: كيف حكم بعلم الغيب، فقال: «تزرعون» ولم يقل: إن شاء الله؟ فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أنه كان بروحي من الله ﷻ. والثاني: أنه بنى على علم ما علمه الله من التأويل الحق، فلم يشك. والثالث: أنه أضمر «إن شاء الله» كما أضمر إخوته في قولهم: ﴿وَيَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٥]، فأضمروا الاستثناء في نياتهم، لأنهم على غير ثقة مما وعدوا، ذكره ابن الأنباري. والرابع: أنه كالآمر لهم، فكانه قال: ازرعوا.

قوله تعالى: ﴿فَدَرَوْهُ فِي سُبُلِهِ﴾ فإنه أبقى له، وأبعد من الفساد. والشُّداد: المجذبات التي تشتد على الناس. ﴿يَأْكُلْنَ﴾ أي: يُذهبن ما قدمت لهن في السنين المخصبات، فوصف السنين بالأكل، وإنما يؤكل فيها، كما يقال: ليل نائم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا قَمَرْتُمْ﴾ أي: تحرزون وتدخرون.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعْصِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ﴾ إن قيل: لِمَ أشار إلى السنين وهي مؤنثة بـ «ذلك»؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن القاسم: أحدهما: أن السبع مؤنثة، ولا علامة للتأنيث في لفظها، فأشبهت المذكر، كقوله: ﴿الْأَسْمَاءُ سُفِيْرٌ بِؤَةٍ﴾ [المزمل: ١٨] فذكر منظرًا لِمَا لم يكن في السماء علم التأنيث، قال الشاعر:

فلا مُزْنَةٌ وَذَقْتُ وَذَقَهَا وَلَا أَرْضٌ أَبْقَلَ إِنْ قَالَهَا^(١)

فذكر «أبقل» لما وصفنا. والثاني: أن «ذلك» إشارة إلى الجذب، وهذا قول مقاتل، والأول قول الكلبي. قال قتادة: زاده الله علم عام لم يسألوه عنه.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ فيه قولان: أحدهما: يصيبهم الغيث، قاله ابن عباس. والثاني: يثاثرن بالخصب. ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «يعصرون» بالياء. وقرأ

(١) البيت من شعر عامر بن جوين الطائي في «سبويه» ٢٤٠/١، و«معاني القرآن» ١٢٧/١، و«الكامل» ٦٦٠/١، و«شرح شواهد المغني» ٣١٩، و«الخراتة» ٢١/١، ٢٢.

حمزة، والكسائي بالتاء، فوجَّها الخطاب إلى المستفتين. وفي قوله: «يعصرون» خمسة أقوال: أحدها: يعصرون العنب والزيت والتمرات، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والجمهور. والثاني: «يعصرون» بمعنى يحتلبون، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وروى ابن الأنباري عن أبيه عن أحمد بن عبيد قال: تفسير «يعصرون» يحتلبون الألبان لِسَعَةِ خَيْرِهِمْ وَأَسَاعِ خَصِيمِهِمْ، واحتج بقول الشاعر:

فَمَا عِضْمَةُ الْأَعْرَابِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ

طَعَامٌ وَلَا دَرٌّ مِنَ الْمَالِ يُفَصِّرُ

أي: يُحَلِّبُ. والثالث: ينجون، وهو من العَصْر، والعَصْر: النجاء، والعُصْرَة: المنجاة. ويقال: فلان في عُصْرَة: إذا كان في حصن لا يُقَدَّرُ عليه، قال الشاعر:

صَادِيحًا يَسْتَنْغِيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ

وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ الْمَنْجُودِ^(١)

أي: غِيَاثًا لِلْمَغْلُوبِ الْمُقْهَرِ، وقال عدي:

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ حَلَقِي سَرِقٌ

كُنْتُ كَالغَصَّانِ بِالمَاءِ اغْتِصَارِي^(٢)

هذا قول أبي عبيدة. والرابع: يصيبون ما يحبون، روي عن أبي عبيدة أيضاً أنه قال: المعتصر: الذي يصيب الشيء ويأخذه، ومنه هذه الآية. ومنه قول ابن أحرر:

فَإِنَّمَا الْعَيْشُ بِرِيَاذِهِ

وَأَنْتَ مِنْ أَفْسَانِيهِ مُغْتَصِرٌ

والخامس: يعطون ويفضلون لِسَعَةِ عَيْشِهِمْ، رواه ابن الأنباري عن بعض أهل اللغة. وقرأ سعيد بن جبير: «يُعَصِّرُونَ» بضم الياء وفتح الصاد. وقال الزجاج: أراد: يُمَطَّرُونَ من قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُجَابًا﴾ [النبا: ١٤].

﴿وَقَالَ لِلِكِ الْكَلْبِ أَتَنُورِي يَدِي فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ مَسْئَلُهُ مَا بِأَلِ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ لِي يَدَيَّ إِنِّي رَبِّي كَيِّدِي هَلْ عَلِمَ﴾^(٣) قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِي قُلْتُ حَسْبُ لِي مَا عَلِمْنَا عَلَيْكَ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أَمْرًاكَ الْعَزِيزُ الْفَنِّ حَصَّحَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُنذِرِينَ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلِكِ الْكَلْبِ أَتَنُورِي يَدِي﴾ قال المفسرون: لما رجع الساقى إلى الملك وأخبره بتأويل رؤياه، وقع في نفسه صحة ما قال، فقال: اتنوني بالذي عبرت رؤياي، فجاءه الرسول، فقال: أجب الملك، فأبى أن يخرج حتى تبين براءته مما قُرف به، فقال: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني الملك ﴿مَسْئَلُهُ مَا بِأَلِ النَّسْوَةِ﴾ وقرأ ابن أبي عبيدة: «النسوة» بضم النون، والمعنى: فاسأل الملك أن يتعرف ما شأن تلك النسوة وحالهن ليعلم صحة براءتي، وإنما أشفق أن يراه الملك بعين مشكوك في أمره أو متهم بفاشحة، وأحب أن يراه بعد استقرار براءته عنده. وظاهر قوله: ﴿إِنِّي رَبِّي كَيِّدِي هَلْ عَلِمَ﴾ أنه يعني الله تعالى، وحكى ابن جرير الطبري أنه أراد به سيده العزيز، والمعنى: أنه يعلم براءتي. وقد روي عن نبينا ﷺ أنه استحسَنَ حَزْمَ يَوْسُفَ وَصَبْرَهُ عَنِ التَّسَرُّعِ إِلَى الْخُرُوجِ، فقال ﷺ: «إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ [ابن الكريم] يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، لَوْلَيْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يَوْسُفُ، ثُمَّ جَاءَنِي الدَّاهِي لِأَجِبْتُ»^(٥). وفي ذكره للنسوة دون امرأة العزيز أربعة أقوال: أحدها: أنه خلطها بالنسوة، لحسن عشرة فيه وأدب، قاله الزجاج. والثاني: لأنها زوجة ملك، فصانها. والثالث: لأن النسوة شاهدات عليها له. والرابع: لأن في ذكره لها نوع تهمة، ذكر الأقوال الثلاثة الماوردي. قال المفسرون: فرجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف، فدعا الملك النسوة وفيهن امرأة العزيز، فقال: ﴿مَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: ما شأنكن وقصتنكن ﴿إِذْ رَوَدْتَنِي يُوسُفُ﴾. فإن قيل: إنما راودته واحدة، فلم جمعهن؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه جمعهن في السؤال ليعلم عين المراودة. والثاني: أن أزيلها راودته على نفسه، وراوده باقي النسوة على القبول منها. والثالث: أنه

(١) البيت لأبي زيد الطائي من قصيدة يرثي بها اللجج ابن أخته وكان من أحب الناس إليه، وهو في «الطبري» ٢٣٣/١٢، ومجاز القرآن ٣١٣/١، واللائقصاب ٣٩٠، والقرطبي ٢٠٥/٩، واللسان: عصر.

(٢) البيت لمعدي بن زيد، في «الكتاب» ٤٦٢/١، ومجاز القرآن ٣١٤/١، والجمهرة ١٥٤/٢، واللسان، والناج: عصر، والعيني ٤٤٥/٤، وشواهد المعنى ٢٥٥، والخرنوبة ٥٩٤/٣، والفرج ٤٦٠/٤، ٥٢٤.

(٣) «الترمذي» ١٣٩/٢ من حديث أبي هريرة، وقال: حديث حسن. ورواه البخاري ٢٧٧/٨، عن أبي هريرة بهذا الصدد بلفظ: «لولايت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداهي». ورواه مسلم ١٣٣/١ و١٨٣٩/٤ بنحو حديث البخاري.

جمعهن في الخطاب، والمعنى لواحدة منهن، لأنه قد يوقع على النوع وصف الجنس إذا أمن من اللبس، يدل عليه قول النبي ﷺ للنساء: «إنكن أكثر أهل النار»^(١)، فجمعهن في الخطاب والمعنى لبعضهن، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿قُلْتُ حَسْبُ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: قرأ الحسن بتسكين الشين، ولا اختلاف بين النحويين أن الإسكان غير جائز، لأن الجمع بين ساكنين لا يجوز، ولا هو من كلام العرب. فأعلم النسوة الملك براءة يوسف من سوء، فقالت امرأة العزيز: ﴿الْفَن حَصَمَ الْحَقُّ﴾ أي: برز وتبين، واشتقاقه في اللغة من الحصّة، أي: بانة حصّة الحق وجهته من حصّة جهة الباطل. وقال ابن القاسم: «ححصص» بمعنى وضع وانكشف، تقول العرب: ححصص البعير في بروكه: إذا تمكن، وأثر في الأرض، وفرّق الحصى. وللمفسرين في ابتداء أوليخا بالإقرار قولان: أحدهما: أنها لما رأت النسوة قد برّأته، قالت: لم يبق إلا أن يُقيلن عليّ بالترقية، فأقرت، قاله الفراء. والثاني: أنها أظهرت التوبة وحقت صدق يوسف، قاله الماوردي.

﴿ذَلِكَ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْفَائِزِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال مقاتل: «ذلك» بمعنى هذا. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: هذا وذلك يصلحان في هذا الموضوع وأشباهه، لقرب الخير من أصحابه، فصار كالمشاهد الذي يشار إليه بهذا، ولما كان متقضياً، أمكن أن يشار إليه بذلك، ون المتقضي كالعائب. واختلفوا في القائل لهذا على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوسف، وهو من أغمض ما يأتي من الكلام أن تحكي عن شخص شيئاً ثم تصله بالحكاية عن آخر، ونظير هذا قوله: ﴿رُبَيْدٌ أَنْ يُحَرِّكَ بَيْنَ أُنْحُكُمْ﴾ [الاعراف: ١١٠] هذا قول الملا: ﴿مَتَادًا تَأْمُرُونَ﴾ قول فرعون. ومثله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةً أَهْلِهَا آيَةً﴾ [النمل: ٣٤] هذا قول بلقيس: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْهَمُونَ﴾ قول الله تعالى. ومثله: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْفِدَانًا﴾ [يس: ٥٢] هذا قول الكفار، فقالت الملائكة: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ وإنما يجوز مثل هذا في الكلام، لظهور الدلالة على المعنى واختلفوا، أين قال يوسف هذا؟ على قولين: أحدهما: أنه لما رجع الساقى إلى يوسف فأخبره وهو في السجن بجواب امرأة العزيز والنسوة للملك، قال حينئذ: «ذلك ليعلم»، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال ابن جريج. والثاني: أنه قاله بعد حضوره مجلس الملك، رواه عطاء عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَعْلَمُ﴾ أي: ذلك الذي فعلت من ردّي رسول الملك، ليعلم. واختلفوا في المشار إليه بقوله: «ليعلم» وقوله: ﴿لَمْ أَخُنْهُ﴾ على أربعة أقوال: أحدها: أنه العزيز، والمعنى: ليعلم العزيز أنني لم أخنه في امرأته ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: إذا غاب عني، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، وقتادة، والجمهور. والثاني: أن المشار إليه بقوله: «ليعلم» الملك، والمشار إليه بقوله: «لم أخنه» العزيز، والمعنى: ليعلم الملك أنني لم أخن العزيز في أهله بالغيب، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أن المشار إليه بالشيئين، الملك، فالمعنى: ليعلم الملك أنني لم أخنه، يعني الملك أيضاً، بالغيب. وفي وجه خيانة الملك في ذلك قولان: أحدهما: لكون العزيز وزيره، فالمعنى: لم أخنه في امرأة وزيره، قاله ابن الأنباري. والثاني: لم أخنه في بنت أخته، وكانت أوليخا بنت أخت الملك، قاله أبو سليمان الدمشقي. والرابع: أن المشار إليه بقوله: «ليعلم» الله، فالمعنى: ليعلم الله أنني لم أخنه، روي عن مجاهد، قال ابن الأنباري: نَسَبَ العلم إلى الله في الظاهر، وهو في المعنى للمخلوقين، كقوله: ﴿حَسْبُ نَجَّارِ النَّجَّاهِينَ سَكْرًا﴾ [محمد: ٣١]. فإن قيل: إن كان يوسف قال هذا في مجلس الملك، فكيف قال: «ليعلم» ولم يقل: لتعلم، وهو يخاطبه؟ فالجواب: أنا إن قلنا: إنه كان حاضراً عند الملك، فإنما أثر الخطاب بالياء توقيراً للملك، كما يقول

(١) هذه قطعة من حديث طويل رواه البخاري ٣٤٥/١ من حديث أبي سعيد الخدري، بلفظ: «إني أرى أكثر أهل النار»، ومسلم ٨٦/١ من حديث عبد الله بن عمر، ولفظ مسلم بتمامه: «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الاستغفار، فإني أرى أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جزلة (ذات عقل وراي): وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن المشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي لب متكبر» قالت: يا رسول الله! وما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان العقل، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهنا نقصان العقل، وتمتكت اللبالي ما تصلي، وتظفر في رمضان، فهنا نقصان الدين».

الرجل للوزير: إن رأى الوزير أن يوقّع في قصتي. وإن قلنا: إنه كان غائباً، فلا وجه لدخول التاء، وكذلك إن قلنا: إنه عنى العزيز، والعزيز غائب عن مجلس الملك حينئذ. والقول الثاني: أنه قول امرأة العزيز، فعلى هذا يتصل بما قبله، والمعنى: ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته الآن بالكذب عليه. والثالث: أنه قول العزيز، والمعنى: ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب، فلم أغفل عن مجازاته على أمانته، حكى القولين الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال ابن عباس: لا يَصُوبُ عمل الزناة، وقال غيره: لا يرشد من خان أمانته ويفضحه في عاقبه.

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِوَهِّ اسْتَحْلَفُهُ لِتَقِيَّ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَجْمَلُنِي عَلَيَّ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَوِيضٌ عَلَيْكَ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ مُصِيبًا بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ﴾ في القائل لهذا ثلاثة أقوال، وهي التي تقدمت في الآية قبلها. فالذين قالوا: هو يوسف، اختلفوا في سبب قوله لذلك على خمسة أقوال: أحدها: أنه لما قال: ﴿يَلْمَزُ أَيُّ لَمْ أُشْهَدَ بِالغَيْبِ﴾ غمزه جبريل، فقال: ولا حين هممت؟ فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الأكثرون. والثاني: أن يوسف لما قال: «لم أخنه» ذكر أنه قد همّ بها فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنه لما قال ذلك، خاف أن يكون قد زغى نفسه، فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، قاله الحسن. والرابع: أنه لما قاله، قال له الملك الذي معه: اذكر ما هممت به، فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، قاله قتادة. والخامس: أنه لما قاله، قالت امرأة العزيز: ولا يوم حللت سراويلك؟ فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، قاله السدي. والذين قالوا: هذا قول امرأة العزيز، فالمعنى: وما أبرئ نفسي أني كنت راودته. والذين قالوا: هو العزيز، فالمعنى: وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف، لأنه قد خطر لي.

قوله تعالى: ﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ قرأ ابن عامر، وأهل الكوفة، ويعقوب إلا رويساً: «بالسوء إلا» بتحقيق الهمزتين. وقرأ أبو عمرو، وابن شيبوذ عن قبل بتحقيق الثانية وحذف الأولى. وروى نضيف عن قبل بتحقيق الأولى وقلب الثانية ياءً. وقرأ أبو جعفر، وورش، ورويس بتحقيق الأولى وتلين الثانية بين بين، مثل: «السُّوءَ عَلَاً». وروى ابن فليح بتحقيق الثانية وقلب الأولى وواو، وأدغها في الروا التي قبلها، فتصير وواو مكسورة مشددة قبل همزة «إلا».

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ قال ابن الأنباري: قال اللغويون: هذا استثناء منقطع، والمعنى: إلا أن رحمة ربي عليها المعتمد. قال أبو صالح عن ابن عباس: المعنى: إلا من عصم ربي. وقيل: «ما» بمعنى «من». قال الماوردي: ومن قال: هو قول امرأة العزيز، فالمعنى: إلا من رحم ربي في قهره لشهوته، أو في نزعها عنه. ومن قال: هو قول العزيز، فالمعنى: إلا من رحم ربي بأن يكفّيه سوء الظن، أو يشبّهه، فلا يعجل. قال ابن الأنباري: والقول بأن هذا قول يوسف، أصح، لوجهين: أحدهما: لأن العلماء عليه. والثاني: لأن المرأة كانت عابدة وثن، وما تضمنته الآية، أليق أن يكون قول يوسف من قول من لا يعرف الله ﷻ. وقال المفسرون: فلما تبين الملك عذر يوسف وعلم أمانته، قال: ﴿أَتُؤْتِنِي بِوَهِّ اسْتَحْلَفُهُ لِتَقِيَّ﴾ أي: أجعله خالصاً لي، لا يشركني فيه أحد. فإن قيل: فقد رويتم في بعض ما مضى أن يوسف قال في مجلس الملك: «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب»، فكيف قال الملك: «أتؤتوني به» وهو حاضر عنده؟! فالجواب: أن أرباب هذا القول يقولون: أمر الملك بإحضاره ليقفده الأعمال في غير المجلس الذي استحضره فيه لتعبير الرؤيا. قال وهب: لما دخل يوسف على الملك، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، كان كلما كلمه بلسان، أجابه يوسف بذلك اللسان، فعجب الملك، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة، فقال: إني أحب أن أسمع رؤياي منك شيئاً، فذكرها له، قال: فما ترى أيها الصديق؟ قال: أرى أن تزوج زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتجمع الطعام، فيأتيك الناس فيمتارون، وتجمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد، فقال الملك: ومن لي بهذا؟ فقال يوسف: ﴿أَجْمَلُنِي عَلَيَّ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾. قال ابن عباس: ويريد بقوله: ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: قد مكنتك في ملكي واتممتك فيه. وقال مقاتل: المكين: الوجه، والأمين: الحافظ.

قوله تعالى: ﴿اجْتَلَى عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي: خزائن أرضك. وفي المراد بالخزائن قولان: أحدهما: خزائن الأموال، قاله الضحاك، والزجاج. والثاني: خزائن الطعام فحسب، قاله ابن السائب. قال الزجاج: وإنما سأل ذلك، لأن الأنبياء بُعثوا بالعدل، فعلم أنه لا أحد أقوم بذلك منه. وفي قوله: ﴿إِنِّي حَفِيفٌ عَلَيْهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: حفيظ لِمَا وَلِّيتَنِي، عليم بالمجاعة متى تكون، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: حفيظ لما استودعتني، عليم بهذه السنين، قاله الحسن. والثالث: حفيظ للحساب، عليم بالألسن، قاله السدي، وذلك أن الناس كانوا يَرُدُّون على الملك من كل ناحية فيتكلمون بلغات مختلفة. واختلفوا، هل ولَّاه الملك يومئذٍ، أم لا؟ على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ولَّاه بعد سنة، روى الضحاك عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل: اجعلني على خزائن الأرض، لاستعمله من ساعته، ولكنه أحر ذلك سنة». وذكر مقاتل أن النبي ﷺ قال: «لو أن يوسف قال إني حفيظ عليم إن شاء الله، لملك من وقته». قال مجاهد: أسلم الملك على يد يوسف. وقال أهل السَّير: أقام في بيت الملك سنة، فلما انصرفت، دعاه الملك، فتوجَّه، وردَّاه بسيفه، وأمر له بسرير من ذهب، وضرب عليه كِلَّةٌ^(١) من إستربق، فجلس على السرير كالقمر، ودانت له الملوك، ولزم الملك بيته، وفوَّض أمره إليه، وعزل قُطَيفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه، ثم إن قُطَيفير هلك في تلك الليالي، فزوَّج الملكُ يوسفَ بامرأة قُطَيفير، فلما دخل عليها، قال: أليس هذا خيراً مما تريدني؟ فقالت: أيها الصَّدِيقُ لا تلمني، فإني كنت امرأة حسنة في مُلكٍ ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، فغلبتني نفسي، فلما بنى بها يوسف وجدها عنراء، فولدت له ابنتين، إفرائيم، وميشا، واستوسق له ملك مصر. والقول الثاني: أنه ملكه بعد سنة ونصف، حكاه مقاتل عن ابن عباس. والثالث: أنه سلَّم إليه الأمر من وقته، قاله وهب، وابن السائب. فإن قيل: كيف قال يوسف: ﴿إِنِّي حَفِيفٌ عَلَيْهِ﴾ ولم يقل: إن شاء الله؟ فغنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن ترك الاستثناء أوجب عقوبة بأن أحر تملكه، على ما ذكرنا عن النبي ﷺ. والثاني: أنه أضمر الاستثناء، كما أضمره في قولهم: ﴿وَيَبْرَأُ أَهْلَنَا﴾. والثالث: أنه أراد أن حفطي وعلمي يزيدان على حفظ غيري وعلمه، فلم يحتج هذا إلى الاستثناء، لعدم الشك فيه، ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري. فإن قيل: كيف مدح نفسه بهذا القول، ومن شأن الأنبياء والصالحين التواضع؟ فالجواب: أنه لما خلا مدحُه لنفسه من بغي وتكبر، وكان مراده به الوصول إلى حق قيمه وعدل يحييه وجور يبطله، كان ذلك جميلاً جائزاً، وقد قال نبينا ﷺ: «أنا أكرم ولد آدم على ربه»^(٢)، وقال علي بن أبي طالب ﷺ: «والله ما من آية إلا وأنا أعلم أليل نزلت، أم بنهار». وقال ابن مسعود: لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته. فهذه الأشياء، خرجت مخرج الشكر لله، وتعريف المستفيد ما عند المفيد، ذكر هذا محمد بن القاسم. قال القاضي أبو يعلى: في قصة يوسف دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وأنه ليس من المحظور في قوله: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ في الكلام محذوف، تقديره: اجعلني على خزائن الأرض، قال: قد فعلت، فحذف ذلك، لأن قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ يدل عليه، والمعنى: ومثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا عليه في دفع المكروه عنه، وتخليصه من السجن، وتقريبه من قلب الملك، أقدرناه على ما يريد في أرض مصر ﴿يَتَّبِعُوا مِنهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ قال ابن عباس: ينزل حيث أراد. وقرأ ابن كثير، والمفضل: «حيث نشاء» بالنون.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ أي: نختص بنعمتنا من النبوة والنجاة ﴿مَنْ شَاءَ وَلَا يَشِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المؤمنين. يقال: إن يوسف باع أهل مصر الطعام بأموالهم، وحلَّيهم، ومواشيهم، وعقارهم، وعبيدهم، ثم بأولادهم، ثم برقابهم، ثم قال للملك: كيف ترى صنَّع ربي؟ فقال الملك: إنما نحن لك تبع، قال: فإني أشهدك الله وأشهدك أنني قد اعتقت أهل مصر ورددت عليهم أملاكهم. وكان يوسف لا يشيع في تلك الأيام، ويقول: إني أخاف أن أنسى الجائع.

(١) الكِلَّةُ: ستر رقيق يخاط شبه البيت يتوقى فيه من البعوض.

(٢) رواه الترمذي في «جامعه» ٢٠١/٢ عن أنس بن مالك ﷺ بلفظ: «أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر» وقال: هذا حديث حسن غريب، وهو جزء من حديث طويل. وفي سننه الحسين بن يزيد الكوفي. قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: لين الحديث.

﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧)

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ﴾ المعنى: ما نُعطي يوسف في الآخرة، خير مما أُعطيناه في الدنيا، وكذلك غيره من المؤمنين ممن سلك طريقه في الصبر.

﴿وَجَاةٌ إِخْرَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُسْكِرُونَ﴾ (٥٨)

قوله تعالى: ﴿وَجَاةٌ إِخْرَهُ يُوسُفَ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس قال: لما فُؤص الملك إلى يوسف أمر مصر، تلطف يوسف للناس، ولم يزل يدعوهم إلى الإسلام، فأمنوا به وأحبوه، فلما أصاب الناس القحط، نزل ذلك بأرض كنعان، فأرسل يعقوبُ ولده للميرة، وذاع أمر يوسف في الآفاق، وانتشر عدله ورحمته ورافته. فقال يعقوب: يا بني، إنه قد بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً، فانطلقوا إليه وأقروته مني السلام، وانتسبوا له لعله يعرفكم، فانطلقوا فدخلوا عليه، فعرفهم وأنكروه، فقال: من أين أقبلتم؟ قالوا: من أرض كنعان، ولنا شيخ يقال له: يعقوب، وهو يقرئك السلام، فبكي وعصر عينيه وقال: لعلكم جواسيس جتتم تنظرون عورة بلدي، فقالوا: لا والله، ولكننا من كنعان، أصابنا الجهد، فأمرنا أبونا أن تأتيك، فقد بلغه عنك خير، قال: فكم أنتم؟ قالوا: أحد عشر أخاً، وكنا اثني عشر فأكل أحدنا الذئب، قال: فمن يعلم صدقكم؟ اتنوني بأخيكم الذي من أبيكم. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: لما دخلوا عليه كلموه بالعبرانية، فأمر الترجمان فكلمهم ليشبه عليهم، فقال للترجمان: قل لهم: أنتم عيون، بعثكم ملككم لتتظروا إلى أهل مصر فتخبرونه فيأتينا بالجنود، فقالوا: لا، ولكننا قوم لنا أب شيخ كبير، وكنا اثني عشر، فهلك منا واحد في الغنم، وقد خلفنا عند أبنائنا أخاً له من أمه، فقال: إن كنتم صادقين، فخلّفوا عندي بعضكم رهناً، واتنوني بأخيكم، فحبس عنده شمعون. واختلّفوا بماذا عرفهم يوسف على قولين: أحدهما: أنه عرفهم برؤيتهم، قاله ابن عباس. والثاني: أنه ما عرفهم حتى تعرّفوا إليه، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُ مُسْكِرُونَ﴾ قال مقاتل: لا يعرفونه. وفي علّة كونهم لم يعرفوه قولان: أحدهما: أنه جاؤوه مقدّرين أنه ملك كافر، فلم يتأملوا منه ما يزول به عنهم الشك. والثاني: أنهم عاينوا من زيه وحليته ما كان سبباً لإنكارهم. وقد روى أبو صالح عن ابن عباس أنه كان لابساً ثياب حرير، وفي عنقه طوق من ذهب. فإن قيل: كيف يخفى من قد أعطي نصف الحسن، وكيف يشبهه بغيره؟ فالجواب: أنهم فارقه طفلاً ورأوه كبيراً، والأحوال تتغير، وما توهموا أنه ينال هذه المرتبة. وقال ابن قتيبة: معنى كونه أعطي نصف الحسن، أن الله جعل للحسن غاية وحدّاً، وجعله لمن شاء من خلقه، إما للملائكة، أو للحرور، فجعل ليوسف نصف ذلك الحسن، فكأنه كان حسناً مقارباً لتلك الوجوه الحسنة، وليس كما يزعم الناس من أنه أعطي هذا الحسن، وأعطي الناس كلهم نصف الحسن.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنَ إِيْكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٥٩) فَإِنَّ لَرَأَى تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (٦٠)

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾ يقال: جهّزت القوم تجهيزاً: إذا هيات لهم ما يصلحهم، وجهاز البيت: متاعه. قال المفسرون: حمل لكل رجل منهم بغيراً، وقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ﴾ أي: أنتم ولا أبخس، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يعني: المضيفين، وذلك أنه أحسن ضيافتهم. ثم أوعدهم على ترك الإتيان بأخيهم، فقال: ﴿فَإِنَّ لَرَأَى تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه يعني به؛ فيما بعد، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنه منعهم الكيل في الحال، قاله وهب بن منبه.

﴿قَالُوا سَوَّيْهِ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَنَقُولُونَ﴾ (٦١)

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَوَّيْهِ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: نطلبه منه، والمرادة: الاجتهاد في الطلب. وفي قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَقُولُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: وإنا لجاوؤوك به، وضامنون لك المجيء به، هذا مذهب الكلبي. والثاني: أنه توكيد، قاله الزجاج، فعلى هذا، يكون الفعل الذي ضمّنه عائداً إلى المرادة، فيصح معنى التوكيد. والثالث: وإنا لمديمون المطالبة به لأبينا، ومتابعون المشورة عليه بتوجيهه، وهذا غير المرادة، ذكره ابن الأنباري. فإن قيل: كيف جاز

ليوسف أن يطلب أخاه، وهو يعلم ما في ذلك من إدخال الحزن على أبيه؟ فعنه خمسة أجوبة: أحدها: أنه يجوز أن يكون ذلك بأمر عن الله تعالى زيادة لبلاء يعقوب ليعظم ثوابه، وهذا الأظهر. والثاني: أنه طلبه لا ليحبسه، فلما عرفه قال: لا أفارقك يا يوسف، قال: لا يمكنني حبسك إلا أن أنسبك إلى أمر فظيع، قال: افعل ما بدا لك، قاله كعب. والثالث: أن يكون قصد تنبيه يعقوب بذلك على حال يوسف. والرابع: ليتضاعف سرور يعقوب برجوع ولديه. والخامس: ليعجّل سرور أخيه باجتماعه به قبل إخوته. وكل هذه الأجوبة مدخولة، إلا الأولى، فإنه الصحيح. ويدل عليه ما روينا عن وهب بن منبه، قال: لما جمع الله بين يوسف ويعقوب، قال له يعقوب: بيني وبينك هذه المسافة القريبة، ولم تكتب إليّ تعرفني؟! فقال: إن جبريل أمرني أن لا أعرفك، فقال له: سل جبريل، فسأله، فقال: إن الله أمرني بذلك، فقال: سل ربك، فسأله، فقال: قل ليعقوب: خفت عليه الذنب، ولم تؤمّني؟.

﴿وَقَالَ لِفَتِيِّنِهِ اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ فِي رِجَالِكُمْ لَمَلَهُمْ بِعَرُوفَتِنَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَمَلَهُمْ بِرَجْعَتِمْ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وقال لفتيته﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «لفتيته». وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿لِفَتِيِّنِهِ﴾. قال أبو علي: الفتية جمع فتى في العدد القليل، والفتيان في الكثير. والمعنى: قال لغلمانهم: ﴿اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ﴾ وهي التي اشتروا بها الطعام ﴿فِي رِجَالِكُمْ﴾، والرحل: كل شيء يُعَدُّ للرحيل. ﴿لَمَلَهُمْ بِعَرُوفَتِنَا﴾ أي: ليعرفوها ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ أي: رجعوا ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَمَلَهُمْ بِرَجْعَتِمْ﴾ أي: لكي يرجعوا. وفي مقصوده بذلك خمسة أقوال: أحدها: أنه تخوّف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى، فجعل دراهمهم في رحالهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه أراد أنهم إذا عرفوها، لم يستحلّوا إمساكها حتى يردّوها، قاله الضحاك. والثالث: أنه استقبح أخذ الثمن من والده وإخوته مع حاجتهم إليه، فردّه عليهم من حيث لا يعلمون سبب رده تكراً وتفضلاً، ذكره ابن جرير الطبري، وأبو سليمان الدمشقي. والرابع: ليعلموا أن طلبه لتؤدبهم لم يكن طمعاً في أموالهم، ذكره الماوردي. والخامس: أنه أراهم كرمه وبرّه ليكون ادعى إلى عؤدبهم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مِنَّا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَكُلِّفْنَا لَكُنْفُوتُونَ ﴿٦٧﴾﴾ قَالَ هَلْ آمَنَتْكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنَتْكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ سَبِيرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ﴾ قال المفسرون: لما عادوا إلى يعقوب، قالوا: يا أبانا، قَدِمْنَا على خير رجل، أنزلنا، وأكرمنا كرامة، لو كان رجلاً من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته. وفي قوله: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ قولان قد تقدما في قوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ [يوسف: ٦١]. فإن قلنا: إنه لم يكَل لهم، فلفظ «منع» بَيْن. وإن قلنا: إنه خوّفهم منع الكيل، ففي المعنى قولان: أحدهما: حُكِم علينا بمنع الكيل بعد هذا الوقت، كما تقول للرجل: دخلت والله النار بما فعلت. والثاني: أن المعنى: يا أبانا يُمنع منا الكيل إن لم ترسله معنا، فتاب «منع» عن «يُمنع» كقوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَةٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الهمزة: ٣] أي: يخلده وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ الْأَنْرِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسُفُ﴾ [المائدة: ١١٦] أي: وإذ يقول، ذكرهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مِنَّا أَخَانًا نَكْتَلُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «نكتل» بالنون. وقرأ حمزة، والكسائي، والبايع. والمعنى: إن أرسلته معنا اكتلنا، وإلا فقد مُنعتنا الكيل. قوله تعالى: ﴿هَلْ آمَنَتْكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: لا آمنكم إلا كأماني على يوسف، يريد أنه لم ينفعه ذلك الأمن إذ خانوه. ﴿فَالله خير حفظاً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «حفظاً»، والمعنى: خير حفظاً من حفظكم. وقرأ حمزة والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿سَبِيرٌ حَفِظًا﴾ بالف. قال أبو علي: ونصبه على التمييز دون الحال.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَنَعَهُمْ وَجَدُوا بِعِصْمَتِهِمْ تَدَاتِ لَيْتَهُمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِضَعْتَنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا وَبَدَّيْرُ أَهْلِنَا وَحَفِظْنَا أَخَانًا وَوَزَادَ كَيْلَ بَدَّيْرِ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٩﴾﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْفِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتِيَ بِهٖ إِلَآ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْفِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٧٠﴾﴾ وَقَالَ يَبْنَؤُ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِن الْبَابِ مُتَفَرِّقِينَ وَمَا أَفْضَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

شَيْءٌ إِنْ الْحَكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ قَلْبِي وَلَنْ أَتَوَكَّلَ عَلَى الْبَشَرِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْشَوْنَ فَضَلُّوا وَلَهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ يعني أوعية الطعام ﴿وَجَدُوا بِضَاعَهُمْ﴾ التي حملوها ثمناً للطعام ﴿رُودَتْ﴾. قال الزجاج: الأصل «رُودت»، فأدغمت الدال الأولى في الثانية، وبقيت الراء مضمومة. ومن قرأ بكسر الراء جعل كسرتها منقولة من الدال، كما فعل ذلك في: قيل، وبيع، ليدل على أن أصل الدال الكسر.

قوله تعالى: ﴿مَا نَبِيٌّ﴾ في «ما» قولان: أحدهما: أنها استفهام، المعنى: أي شيء نبغي وقد رُودت بضاعتنا إلينا؟ والثاني: أنها نافية، المعنى: ما نبغي شيئاً، أي: لسنا نطلب منك دراهم نرجع بها إليه، بل تكفيننا هذه في الرجوع إليه، وأرادوا بذلك تطيب قلبه ليأذن لهم بالعود. وقرأ ابن مسعود، وابن يعمر، والجحدري، وأبو حيوة: «ما تبغي» بالياء، على الخطاب ليعقوب.

قوله تعالى: ﴿وَيَذِيرُ أُمَّتَنَا﴾ أي: نجلب لهم الطعام. قال ابن قتيبة: يقال: مار أهله يميهرهم ميراً، وهو مائر لأهله: إذا حمل إليهم أقواتهم من غير بلده.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْفَظُ أُمَّتَنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: نحفظ أختانا بنيامين الذي ترسله معنا، قاله الأكثرون. والثاني: ونحفظ أختانا شمعون الذي أخذه رهينة عنده، قاله الضحاك عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ﴾ أي: وثر بعير، يعنون بذلك نصيب أخيهم، لأن يوسف كان لا يعطي الواحد أكثر من جمل بعير.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ سِيرٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ذلك كيل سريع، لا حيس فيه، يعنون: إذا جاء معنا، عجل الملك لنا الكيل، قاله مقاتل. والثاني: ذلك كيل سهل على الذي نمضي إليه، قاله الزجاج. والثالث: ذلك الذي جنتك به كيل يسير لا يقنعنا، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوُفِّيَنَا بِرَبِّكَ اللَّهُ﴾ أي: تعطوني عهداً أثق به، والمعنى: حتى تحلفوا لي بالله ﴿لَتَأْتِيَ بِوَهِّ﴾ أي: لتزُدَّنَّ إلي. قال ابن الأنباري: وهذه اللام جواب لمضمر، تلخيصه: وتقولوا: والله لتأتيني به.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن يهلك جميعكم، قاله مجاهد. والثاني: أن يُحال بينكم وبينه فلا تقدرن على الإتيان به، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْفِقَهُمْ﴾ أي: أعطوه العهد، وفيه قولان: أحدهما: أنهم حلفوا له بحق محمد ﷺ ومنزلته من ربه، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنهم حلفوا بالله تعالى^(١)، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الشهيد. والثاني: كفيل بالوفاء، رُوي عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدٍ﴾ قال المفسرون: لما تجهزوا للرحيل، قال لهم يعقوب: «لا تدخلوا» يعني مصر «من باب واحد». وفي المراد بهذا الباب قولان: أحدهما: أنه أراد باباً من أبواب مصر، وكان لمصر أربعة أبواب، قاله الجمهور. والثاني: أنه أراد الطرق لا الأبواب، قاله السدي، وروى نحوه أبو صالح عن ابن عباس. وفي ما أراد بذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أنه خاف عليهم العين، وكانوا أولي جمال وقوة، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنه خاف أن يُغتالوا لما ظهر لهم في أرض مصر من التهمة، قاله وهب بن منبه. والثالث: أنه أحب أن يلقوا يوسف في خلوة، قاله إبراهيم النخعي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ رِزْقَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لن أدفع عنكم شيئاً قضاه الله، فإنه إن شاء أهلككم متفرقين، ومصدقه في الآية التي بعدها ﴿مَا كَانَتْ يَتَنَّىٰ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْشَوْنَ﴾ وهي إرادته أن

(١) وهو الذي عليه أكثر المفسرين.

يكون دخولهم كذلك شفقة عليهم. قال الزجاج: «إلا حاجة» استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها. قال ابن عباس: «قضاها» أي: أبداها وتكلم بها.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ لَدُوٌّ عِلْوٌ لَمَّا عَلَنَتْكُمْ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: إنه حافظ لما علمناه، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: وإنه لدو علم أن دخولهم من أبواب متفرقة لا يغني عنهم من الله شيئاً، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثالث: وإنه لعامل بما علم، قاله قتادة. وقال ابن الأنباري: سمي العمل علماً، لأن العلم أول أسباب العمل. والرابع: وإنه لمتيقن لوعدها، قاله الضحاك. والخامس: وإنه لحافظ لوصيتنا، قاله ابن السائب. والسادس: وإنه لعالم بما علمناه أنه لا يصيب بنه إلا ما قضاه الله، قاله مقاتل. والسابع: وإنه لدو علم لتعليمنا إياه، قاله الفراء.

﴿وَكَلَّمَ دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ فَأُوتِيَ إِلَيْهِمْ أَخَاهُ قَالَ إِنَّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ يعني إخوته ﴿فَأُوتِيَ إِلَيْهِمْ أَخَاهُ﴾ يعني بنيامين، وكان أخاه لأبيه وأمه، قاله قتادة، وضمه إليه وأنزله معه. قال ابن قتيبة: يقال: أوتيت فلاناً إليّ، بمد الألف: إذا ضمته إليك، وأوتيت إلى بني فلان، بقصر الألف: إذا لجأت إليهم. وفي قوله: ﴿قَالَ إِنَّي أَنَا أَخُوكَ﴾ قولان: أحدهما: أنهم لما دخلوا عليه حبسهم بالباب، وأدخل أخاه، فقال له: ما اسمك؟ فقال: بنيامين، قال: فما اسم أمك؟ قال: راحيل بنت لاوي، فوثب إليه فاعتقه، فقال: «إني أنا أخوك»، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وكذلك قال ابن إسحاق: أخبره أنه يوسف. والثاني: أنه لم يعترف له بذلك، وإنما قال: أنا أخوك مكان أخيك الهالك، قاله وهب بن منبه. وقيل: إنه أجلسهم كل اثنين على مائدة، فبقي بنيامين وحيداً يبكي، وقال: لو كان أخي حياً لأجلستني معه، فضمه يوسف إليه، وقال: إني أرى هذا وحيداً، فأجلسه معه على مائدته. فلما جاء الليل، نام كل اثنين على منام، فبقي وحيداً، فقال يوسف: هذا ينام معي. فلما خلا به، قال: هل لك أخ من أمك؟ قال: كان لي أخ من أمي فهلك، فقال: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ فقال: أيها الملك، ومن يجد أحماً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف، وقام إليه فاعتقه، وقال: ﴿إِنَّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ قال قتادة؛ لا تأس ولا تحزن، وقال الزجاج: لا تحزن ولا تستكين. قال ابن الأنباري: «تبتس»: فتتل، من البؤس، وهو الضرُّ والشدة، أي: لا يلحقنك بؤس بالذي فعلوا.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يعيرون يوسف وأخاه بعبادة جدهما أبي أمهما للأصنام، فقال: لا تبتئس بما كانوا يعملون من التعيير لنا، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: لا تحزن بما سيعملون بعد هذا الوقت حين يسرقونك، فتكون «كانوا» بمعنى «يكونون» قال الشاعر:

فَأَذْرَكْتُ مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلِي وَكَمْ أَدْعُ

لِمَنْ كَانَ بَعْدِي فِي الْقَصَائِدِ مَضْنَعًا

وقال آخر:

وَأَنْصَحُ جَوَانِبَ قَبْرِهِ بِدَمَائِهَا

فَلَقَدْ يَكُونُ أَحَادِمَ وَدَبَائِحَ

أراد: فقد كان، وهذا مذهب مقاتل. والثالث: لا تحزن بما عملوا من حسدنا، وحرصوا على صرف وجه أبنينا

عنا، وإلى هذا المعنى ذهب ابن إسحاق.

﴿فَلَمَّا جَهَرَّتْ بِهِمُ السَّقَايَةُ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَدْنَى مُؤَدُّنُ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَادًّا

تَقْدِيرُ ﴿٧٠﴾ قَالُوا تَقْدِيرُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلَيْسَ جَاءَ بِهِ جَمَلٌ بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَرَّتْ بِهِمُ السَّقَايَةُ﴾ قال المفسرون: أوفى لهم الكيل، وحمل لـ «بنيامين» بعبيراً باسمه كما حمل لهم، وجعل السقاية في رحل أخيه، وهي الصواع، فهما اسمان واقعان على شيء واحد، كالبز والحنطة، والمائدة والحوان. وقال بعضهم: الاسم الحقيقي: الصواع، والسقاية وصف، كما يقال: كوز، وإناء، فالاسم الخاص: الكوز. قال المفسرون: جعل يوسف ذلك الصاع مكيالاً لئلا يكال بغيره. وقيل: كال لإخوته بذلك، إكراماً لهم. قالوا: ولما ارتحل إخوة يوسف وأمعنوا، أرسل الطلب في أثرهم، فأدركوا وحبسوا، ﴿ثُمَّ أَدْنَى مُؤَدُّنُ﴾ قال الزجاج: أعلم مُعْلَم، يقال: آذنته بالشيء، فهو مؤذن به، أي: أعلمته، وأذنت: أكثرت الإعلام بالشيء، يعني: أنه إعلام بعد إعلام. ﴿إِنَّهَا

الْعَيْرُ﴾ يريد: أهل العير، فأنت لأنه جعلها للعير. قال الفراء: لا يقال: عير، إلا لأصحاب الإبل. وقال أبو عبيدة: العير: الإبل المرحولة المركوبة. وقال ابن قتيبة: العير: القوم على الإبل. فإن قيل: كيف جاز ليوسف أن يُسرق من لم يسرق؟ فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أن المعنى: إنكم لسارقون يوسف حين قطعتموه عن أبيه وطرحتموه في الجب، قاله الزجاج. والثاني: أن المنادي نادى وهو لا يعلم أن يوسف أمر بوضع السقاية في رحل أخيه، فكان غير كاذب في قوله، قاله ابن جرير. والثالث: أن المنادي نادى بالتسريق لهم بغير أمر يوسف. والرابع: أن المعنى: إنكم لسارقون فيما يظهر لمن لم يعلم حقيقة أخباركم، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَوِيذُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] أي: عند نفسك، لا عندنا، وقول النبي ﷺ: ﴿كذب إبراهيم ثلاث كذبات﴾^(١) أي: قال قولاً يشبه الكذب، وليس به.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: على المؤذن وأصحابه. والثاني: أقبل المنادي ومن معه على إخوة يوسف بالدعوى. ﴿مَاذَا تَقُولُونَ﴾ ما الذي ضل عنكم؟ ﴿قَالُوا نَقُودُ صَوَاعِ الْمَلِكِ﴾ قال الزجاج: الصواع هو الصاع بعينه، وهو يذكر ويؤنث، وكذلك الصاع يذكر ويؤنث. وقد قرئ: «صياح» بياء، وقرئ: «صَوْع» بغين معجمة، وقرئ: «صَوْع» بعين غير معجمة مع فتح الصاد، وضمها، وقرأ أبو هريرة: «صاع الملك» وكل هذه لغات ترجع إلى معنى واحد، إلا أن الصَوْع، بالغين المعجمة، مصدر صغت، وُصف الإناء به، لأنه كان مصوغاً من ذهب. واختلفوا في جنسه على خمسة أقوال: أحدها: أنه كان قدحاً من زبرجد. والثاني: أنه كان من نحاس، روي عن ابن عباس. والثالث: أنه كان شربة من فضة مرصعة بالجواهر، قاله عكرمة. والرابع: كان كأساً من ذهب، قاله ابن زيد. والخامس: كان من مس^(٢)، حكاه الزجاج. وفي صفته قولان: أحدهما: أنه كان مستطيلاً يشبه المكوك. والثاني: أنه كان يشبه الطاس.

قوله تعالى: ﴿وَلَمِنَ جَاةٍ يَوْمَ﴾ يعني الصواع ﴿جَمَلٍ بَيْعٍ﴾ من الطعام ﴿وَأَنَا يَوْمَ زَعِيمٌ﴾ أي: كفييل لمن ردّه بالجمل، يقوله المؤذن.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا بِتَقْيِيدٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ نُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قال الزجاج: «تالله» بمعنى: والله، إلا أن التاء لا يقسم بها إلا في الله ﷻ. ولا يجوز تالرحمن لأفعلن، ولا: تربي لأفعلن. والتاء تُبدل من الواو، كما قالوا في وراث: تراث، وقالوا: يترن، وأصله: يوترن، من الوزن. قل ابن الأنباري: أبدلت التاء من الواو، كما أبدلت في التخمة والتراث والشجاه، وأصلهن من الوخمة والوراث والوجاه، لأنهن من الوخامة والوراثة والوجه. ولا تقول العرب: تالرحمن، كما قول: تالله، لأن الاستعمال في الإقسام كثر بالله، ولم يكن بالرحمن، فجاءت التاء بدلاً من الواو في الموضع الذي يكثر استعماله.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ يعنون يوسف ﴿مَا جِئْتَنَا بِتَقْيِيدٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لنظلم أحداً أو نسرق. فإن قيل: كيف حلفوا على علم قوم لا يعرفونهم؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: أحدها: أنهم قالوا ذلك، لأنهم ردوا الدراهم ولم يستحلوها، فالمعنى: لقد علمتم أننا رددنا عليكم دراهمكم وهي أكثر من ثمن الصاع، فكيف نستحل صاعكم، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثاني: لأنهم لما دخلوا مصر كعموا^(٣) أفواه إبليس وحميرهم حتى لا تتناول شيئاً، وكان غيرهم لا يفعل ذلك، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أن أهل مصر كانوا قد عرفوهم أنهم لا يظلمون أحداً.

قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ المعنى: قال المنادي وأصحابه: فما جزاؤه. قال الأخفش: إن شئت رددت الكناية إلى السارق، وإن شئت رددتها إلى السرق.

(١) انظر حديث الشفاعة الطويل، البخاري ٣٠٠/٨، ومسلم ١٨٤/١. والكذبات الثلاث، قوله: ﴿نَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ﴾ وقوله: ﴿بَلْ نَمَكَ كَيْفُكُمْ هَذَا﴾ وقوله في سارة وزوجه: «أختي».

(٢) في «اللسان»: المس: النحاس.

(٣) كم البعير: شد فاه، وقيل: شد فاه في هياجه لتلا بعض أو يأكل، والكمام: ما كعمه به.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي: في قولكم: ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾. ﴿قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿جَزَاءُ مَنْ يُجَدِّ فِي رَحْلِهِ فَهَوَ جَزَاؤُ﴾ أي: يُستعبد بذلك. قال ابن عباس: وهذه كانت سُنَّةَ آلِ يعقوب.

﴿بَدَأَ بِأَرْبَعِيهِمْ قَبْلَ وَعَاةِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاةِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن شَاءَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَدَأَ بِأَرْبَعِيهِمْ﴾ قال المفسرون: انصرف بهم المؤذن إلى يوسف، وقال: لا بد من تفتيش أمتعتكم، ﴿بَدَأَ﴾ يوسف ﴿بِأَرْبَعِيهِمْ قَبْلَ وَعَاةِ أَخِيهِ﴾ لإزالة التهمة، فلما وصل إلى وعاء أخيه، قال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نبرح حتى ننظر في رحله، فهو أطيب لنفسك. فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ وفي هاء الكناية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى السرقة، قاله الفراء. والثاني: إلى السقاية، قاله الزجاج. والثالث: إلى الصواع على لغة من أثنه، ذكره ابن الأنباري. قال المفسرون: فأقبلوا على بنيامين، وقالوا: أي شيء صنعت؟! فضحتنا وأزريت بأبيك الصديق، فقال: وضع هذا في رحلي الذي وضع الدرهم في رحالكم، وقد كان يوسف أخبر أخاه بما يريد أن يصنع به.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: كذلك صنعنا له، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثاني: احتلنا له، والكيد: الحيلة، قاله ابن قتيبة. والثالث: أردنا ليوسف، ذكره ابن القاسم. والرابع: دبرنا له بأن ألهمناه ما فعل بأخيه ليتوصل إلى حبسه. قال ابن الأنباري: لما دبر الله ليوسف ما دبر من ارتفاع المنزلة وكمال النعمة على غير ما ظن إخوته، شُبَّ بالكيد من المخلوقين، لأنهم يسترون ما يكيدون به عنمن يكيدونه.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ في الرماد بالدين هاهنا قولان: أحدهما: أنه السلطان، فالمعنى: في سلطان الملك، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه القضاء، فالمعنى: في قضاء الملك، لأن قضاء الملك أن من سرق إنما يُضْرَبُ وَيُعْرَمُ، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وبيانه أنه لو أجرى أخاه على حكم الملك ما أمكنه حبسه، لأن حكم الملك الغرم والضرب فحسب، فأجرى الله على السنة إخوته أن جزاء السارق الاسترقاق، فكان ذلك مما كاد الله ليوسف لطفاً حتى أظفره بمراده بمشيئة الله، فذلك معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. وقيل: إلا أن يشاء الله إظهار علة يستحق بها أخاه.

قوله تعالى: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن شَاءَ﴾ وقرأ يعقوب «يرفع درجات من يشاء» بالياء فيها. وقرأ أهل الكوفة «درجات» بالتونين، والمعنى: نرفع الدرجات بصنوف العطاء، وأنواع الكرامات، وأبواب العلوم، وقهر الهوى، والتوفيق للهدى، كما رفعنا يوسف. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي: فوق كل ذي علم رفعه الله بالعلم من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى، والكمال في العلم معدوم من غيره. وفي مقصود هذا الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: يوسف أعلم من إخوته، وفوقه من هو أعلم منه. والثاني: أنه نبه على تعظيم العلم، وبيّن أنه أكثر من أن يحاط به. والثالث: أنه تعليم للعالم التواضع للعلماء لئلا يعجب.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ قَالُوا يَأْتِيهَا الْمَرْزُوقُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْئًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْهُوَ إِنَّا إِذَا نَالِمُوكَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف: ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ يعنون بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون يوسف. قال المفسرون: عوقب يوسف ثلاث مرات، قال للساقى: ﴿أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فلبث في السجن بضع سنين، وقال للمعزير: ﴿يَسْمَعُ أَلَمْ يَأْتِ أَخْتَهُ بِالْقَبِيِّ﴾، فقال له جبريل: ولا حين هممت؟ فقال: ﴿وَمَا أُرِيُّ نَفْسِي﴾، وقال لإخوته: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، فقالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾. وفي ما عنوا بهذه السرقة سبعة أقوال: أحدها: أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه في سني المجاعة، فيطعمه للمساكين، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: أنه سرق مكحلة لخالته، رواه أبو مالك عن ابن عباس. والثالث: أنه سرق صنماً لجدته أبي أمه، فكسره وألقاه

في الطريق، فعيره إخوته بذلك، قاله سعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وقتادة. والرابع: أن عمه يوسف - وكانت أكبر ولد إسحاق - كانت تحضن يوسف تحبه حباً شديداً، فلما ترعرع، طلبه يعقوب، فقالت: ما أقدر أن يغيب عني، فقال: والله ما أنا بتاركة، فعمدت إلى منطقة إسحاق، فربطتها على يوسف تحت ثيابه، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها، فوجدوها مع يوسف، فأخبرت يعقوب بذلك، وقالت: والله إنه لي أصنع فيه ما شئت، فقال: أنت وذاك، فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت، فذاك الذي عيره به إخوته، رواه ابن أبي نجیح عن مجاهد. والخامس: أنه جاءه سائل يوماً، فسرق شيئاً، فأعطاه السائل، فعيره بذلك. وفي ذلك الشيء ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان بيضة، قاله مجاهد. والثاني: أنه شاة، قاله كعب. والثالث: دجاجة، قاله سفيان بن عيينة. والسادس: أن بني يعقوب كانوا على طعام، فنظر يوسف إلى عرق، فخبأه، فعيره بذلك، قاله عطية العوفي، وإدريس الأودي. قال ابن الأنباري: وليس في هذه الأفعال كلها ما يوجب السرقة، لكنها تشبه السرقة، فعيره إخوته بذلك عند الغضب. والسابع: أنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه، قاله الحسن. وقرأ أبو رزين، وابن أبي عمير: «فقد سُرِق» بضم السين وكسر الراء وتشديدها.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرَرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ في هاء الكناية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الكلمة التي ذكرت بعد هذا، وهي قوله: ﴿أَنْتَ سَرٌّ مَكَانًا﴾، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنها ترجع إلى الكلمة التي قالوها في حقه، وهي قولهم: ﴿فَقَدْ سَرَّكَ أَحْ لَمْ يَنْ بَيْلٌ﴾، وهذا معنى قول أبي صالح عن ابن عباس، فعلى هذا يكون المعنى: أسر جواب الكلمة فلم يجبهم عليها. والثالث: أنها ترجع إلى الحجة، المعنى: فأسر الاحتجاج عليهم في ادعائهم عليه السرقة، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ سَرٌّ مَكَانًا﴾ فيه قولان: أحدهما: شرٌ صنيعاً من يوسف لما قدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم، قاله ابن عباس. والثاني: شرٌ منزلة عند الله، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: تقولون، قاله مجاهد. والثاني: بما تكذبون، قاله قتادة. قال الزجاج: المعنى: والله أعلم أسرق أخ له، أم لا. وذكر بعض المفسرين أنه لما استخرج الصواع من رحل أخيه، نقر الصواع، ثم أدناه من أذنه، فقال: إن صواعي هذا يخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً، وأنكم انطلقتم بأخ لكم فبجتموه، فقال بنيامين: أيها الملك، سل صواعك عن أخي، أحي هو؟ ففقره، ثم قال: هو حي، وسوف تراه، فقال: سل صواعك، من جعله في رحلي؟ ففقر، وقال: إن صواعي هذا غضبان، وهو يقول: كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت؟ فغضب روبيل، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا، فإذا مس أحدهم الآخر ذهب غضبه، فقال: والله أيها الملك لثرتكنا، أو لأصيحن صيحة لا يبقى بمصر امرأة حامل إلا ألقت ما في بطنها، فقال يوسف لابنه: قم إلى جنب روبيل فامسه، ففعل الغلام، فذهب غضبه، فقال روبيل: ما هذا؟! إن في هذا البلد من ذرية يعقوب؟ قال يوسف: ومن يعقوب؟ فقال: أيها الملك، لا تذكر يعقوب، فإنه إسرائيل الله ابن ذبيح الله ابن خليل الله. فلما لم يجدوا إلى خلاص أخيهم سبيلاً، سأله أن يأخذ منهم بديلاً به، فذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْزُوقُ إِنَّ لَكَ أباً شَيْخاً كَبِيراً﴾ أي: في سنه، وقيل: في قدره، ﴿فَخَذَ أَحَدًا مَكَانَهُ﴾ أي: تستعبده بدلاً عنه ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: فيما مضى. والثاني: إن فعلت. ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ قد سبق تفسيره [يوسف: ٢٣]، والمعنى: أعوذ بالله أن ناخذ بربناً بسقيم.

﴿فَلَمَّا أَنْتَبَسُوا مِنْهُ خَلَعُوا يُجِيئًا قَالَ كَيْفَ هُمْ أَلَمْ تَسْمَعُوا أَنَا أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا قَرَّلْتُمْ فِي يَوْسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ آيَاتِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرٌّ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْتَبَسُوا مِنْهُ﴾ أي: أسوا. وفي هاء «منه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى يوسف، فالمعنى: يسوا من يوسف أن يخلي سبيل أخيه. والثاني: إلى أخيه، فالمعنى: يسوا من أخيه.

قوله تعالى: ﴿خَلَعُوا يُجِيئًا﴾ أي: اعتزلوا الناس ليس معهم غيرهم، يتناجون ويتناظرون ويتشاورون، يقال: قوم نجى، والجمع أنجىة، قال الشاعر:

إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنجِيَنِي

وَاضْطَرَبْتُ أَغْتَأَقُهُمْ كَالْأَرْشِيَةِ^(١)

وإنما وُحِدَ «نجياً» لأنه يجري مجرى المصدر الذي يكون للثنتين والجمع والمؤنث بلفظ واحد. وقال الزجاج: انفردوا متجاجين فيما يعملون في ذهابهم إلى أبيهم وليس معهم أخوهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه كبيرهم في العقل، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه يهوذا، ولم يكن أكبرهم سناً، وإنما كان أكبرهم سناً روبييل، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، ومقاتل. والثاني: أنه شمعون، قاله مجاهد. والثاني: أنه كبيرهم في السن وهو روبييل، قاله قتادة، والسدي.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكَلَّمُوا أَنَا أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَافِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ في حفظ أخيكم وردّه إليه ﴿وَمِن قَبْلِ مَا قَرَّطَشْتَ فِي يُوْسُفَ﴾ قال الفراء: «ما» في موضع رفع، كأنه قال: ومن قبل هذا تفریطكم في يوسف، وإن شئت جعلتها نصباً، المعنى: ألم تعلموا هذا، وتعلموا من قبل تفریطكم في يوسف. وإن شئت جعلت «ما» صلة، كأنه قال: ومن قبل قرطمت في يوسف. قال الزجاج: وهذا أجود الوجوه، أن تكون «ما» لغواً.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَبْرَجَ الْأَرَضِينَ﴾ أي: لن أخرج من أرض مصر، يقال: بَرَجَ الرجل بَرَاخاً: إذا تنحى عن موضعه. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ رَبِّي﴾ قال ابن عباس: حتى يبعث إليّ أن أتبه، ﴿أَوْ يَخْتَكِمَ اللَّهُ إِلَيَّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أو يحكم الله لي، فبرئ أخي عليّ. والثاني: يحكم الله لي بالسيف، فأحارب من حبس أخي. والثالث: يقضي في أمري شيئاً، ﴿وَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أعدلهم وأفضلهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ سَرَقٌ﴾ وقرأ ابن عباس، والضحاك، وابن أبي سريج عن الكسائي: «سُرِقٌ» بضم السين وتشديد الراء وكسرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمنا، لأننا رأينا المسروق في رحله، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: وما شهدنا عند يوسف بأن السارق يؤخذ بسرقة إلا بما علمنا من دينك، قاله ابن زيد. وفي قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْقَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ثمانية أقوال: أحدها: أن الغيب هو الليل، والمعنى: لم نعلم ما صنع بالليل، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وهذا يدل على أن التهمة وقعت به ليلاً. والثاني: ما كنا نعلم أن ابنك يسرق، رواه ابن أبي نجيج عن مجاهد، وبه قال عكرمة، وقاتدة، ومكحول. قال ابن قتيبة: فالمعنى: لم نعلم الغيب حين أعطيناك الموثق لنا أتيتك به أنه يسرق فيؤخذ. والثالث: لم نستطع أن نحفظه فلا يسرق، رواه عبد الوهاب عن مجاهد. والرابع: لم نعلم أنه سرق للملك شيئاً، ولذلك حكمنا باسترقاق السارق، قاله ابن زيد. والخامس: أن المعنى: قد رأينا السرقة قد أخذت من رحله، ولا علم لنا بالغيب فلعلمهم سرّقه، قاله ابن إسحاق. والسادس: ما كنا نغيب ابنك حافظين، إنما نقدر على حفظه في محضره، فإذا غاب عنا، خفيت عنا أموره. والسابع: لو علمنا من الغيب أن هذه البلية تقع بابنك ما سافرنا به، ذكرهما ابن الأنباري. والثامن: لم نعلم أنك تُصَابُ به كما أصبت يوسف، ولو علمنا لم نذهب به، قاله ابن كيسان.

﴿وَسَقَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدُوقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَقَلِ الْقَرْيَةَ﴾ المعنى: قولوا لأبيكم: سل أهل القرية ﴿الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: وأهل العير، وكان قد صاحبهم قوم من الكنعانيين. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون المعنى: وسل القرية والعير فإنها تعقل عنك لأنك نبي، والأنبياء قد تخاطبهم الأحجار والبهائم، فعلى هذا تسلم الآية من إضمار.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

(١) البيت لسحيم بن وثيل اليربوعي، كما في «اللسان»: نجا، وروايته فيه: «واضطرب القوم اضطراب الأرشية»، وهو غير منسوب في «شكل القرآن» ٢٢٠، والقرطبي ٢٤١/٩. قال ابن بري: حكى القاضي الجرجاني عن الأصمعي وغيره: أنه يصف قوماً أتبعهم السير والسفر، فوجدوا على ركابهم، واضطربوا عليها، وشد بعضهم على ناقته حذار سقوطه من عليها. وقيل: إنما ضربه مثلاً لنزول الأمر المهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ في الكلام اختصار، والمعنى: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ذلك، فقال لم هذا، وقد شرحناه في أول السورة (يوسف: ١٨). واختلفوا لأي علة قال لهم هذا القول، على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ظن أن الذي تخلف منهم، إنما تخلف حيلة ومكرًا ليصدفهم، قاله وهب بن منبه. والثاني: أن المعنى: سؤلت لكم أنفسكم أن خروجكم بأخيكم يجلب نفعاً، فجرّ ضرراً، قاله ابن الأنباري. والثالث: سؤلت لكم أنه سرق، وما سرق. قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعني: يوسف وبنيامين وأخاهما المقيم بمصر. وقال مقاتل: أقام بمصر يهوذا وشمعون، فأراد بقوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ يعني: الأربعة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أي: بشدة حزني، وقيل: بمكانهم، ﴿الْمَكِيمُ﴾ فيما حكم علي.
﴿وَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَعْدُ عَلَى يَوْسُفَ وَأَيُّضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَاطِمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن ولده أن يطيل معهم الخطب، وانفرد بحزنه، وهيج عليه ذكر يوسف ﴿وَقَالَ يَا سَعْدُ عَلَى يَوْسُفَ﴾ قال ابن عباس: يا طول حزني على يوسف. قال ابن قتيبة: الأسف: أشد الحسرة. قال سعيد بن جبیر: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم يُعْطَ الأنبياء قبلهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَلِنَا إِلَيْهِ رُجُوعٌ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ولو أعطيها الأنبياء لأعطيها يعقوب؛ إذ يقول: ﴿يَا سَعْدُ عَلَى يَوْسُفَ﴾. فإن قيل: هذا لفظ الشكوى، فأين الصبر؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه شكاً إلى الله تعالى، لا يئنه. والثاني: أنه أراد به الدعاء، فالمعنى: يا رب ارحم أسفي على يوسف. وذكر ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال: نداء يعقوب الأسف في اللفظ من المجاز الذي يُعنى به غير المظهر في اللفظ، وتلخيصه: يا إلهي ارحم أسفي، أو أنت راء أسفي، وهذا أسفي، فنأدى الأسف في اللفظ، والمنادى في المعنى سواء، كما قال: ﴿يا حسرتنا﴾ والمعنى: يا هؤلاء تنبهوا على حسرتنا، قال: والحزن ونفور النفس من المكروه والبلاء لا عيب فيه ولا مأمث إذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم ولم يشك إلا إلى ربه، فلما كان قوله: ﴿يا أسفي﴾ شكوى إلى ربه، كان غير ملوم. وقد روي عن الحسن أن أخاه مات، فجزع الحسن جزعاً شديداً، فعوتب في ذلك، فقال: ما وجدت الله عاب على يعقوب الحزن حيث قال: ﴿يا أسفي على يوسف﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أي: انقلبت إلى حال البياض. وهل ذهب بصره، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه ذهب بصره، قاله مجاهد. والثاني: ضعف بصره لبياض تغشاه من كثرة البكاء، ذكره الماوردي. وقال مقاتل: لم يُبصر بعينه ست سنين. قال ابن عباس: وقوله: ﴿من الحزن﴾ أي: من البكاء، يريد أن عينيه ابيضتا لكثرة بكائه، فلما كان الحزن سبباً للبكاء، سمي البكاء حزناً. وقال ثابت البناني: دخل جبريل على يوسف، فقال: أيها الملك الكريم على ربه، هل لك علم بيعقوب؟ قال: نعم. قال: ما فعل، قال: ابيضت عيناه، قال: ما بلغ حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى، قال: فهل له على ذلك من أجر؟ قال: أجر مائة شهيد. وقال الحسن البصري: ما فارق يعقوب الحزن ثمانين سنة، وما جفت عينه، وما أحد يومئذ أكرم على الله منه حين ذهب بصره.

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَاطِمٌ﴾ الكظيم بمعنى الكاطم، وهو الممسك على حزنه فلا يظهره، قاله ابن قتيبة. وقد شرحنا هذا عند قوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَمًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ قَالَتْ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ بَيْنِي وَأَهْبُوتًا مَفْسُوسًا مِنْ يَوْسُفَ وَأَجِيبُوهُ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يَوْسُفَ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: والله، وجواب هذا القسم «لا» المضمرة التي تأويلها: تالله لا تفتأ، فلما كان موضعها معلوماً خُفَّ الكلام بسقوطها من ظاهره، كما تقول العرب: والله أقصدك أبداً، يعنون: لا أقصدك، قال امرؤ القيس:

فَقُلْتُ بِمِيزِ اللَّوْ أَبْرَحُ قَاعِدًا
وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي^(١)

(١) «ديوانه» ٣٢، و«الطبري» ٤٢/١٣، و«تأويل مشكل القرآن» ١٧٤، و«الصناعتين» ١٣٨، و«القرطبي» ٢٤٩/٩، و«اللسان»: يمن.

يريد: لا أبرح، وقالت الخنساء:

فَأَقْسَنْتُ أُسَىٰ عَلَىٰ هَالِكٍ

أَوْ أَسْأَلُ نَائِحَةً مَّالَهَا^(١)

أرادت: لا أُسَى، وقال الآخر:

لَمْ يَشْعُرِ التُّغْشُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الدِّ

عُزْفٍ وَلَا الْحَايِلُونَ مَا حَمَلُوا

تَالَهُ أَنْسَىٰ مُصِيبَتِي أَبَدًا

مَا أَسْمَعْتَنِي حَزِينَتَهَا الْإِبِلُ

وقرأ أبو عمران، وابن محيصن، وأبو حيوة: «قالوا بالله» بالباء، وكذلك كل قَسَم في القرآن. وأما قوله: «فتفتأ» فقال المفسرون وأهل اللغة: معنى «فتفتأ» تزال، فمعنى الكلام: لا تزال تذكر يوسف، وأنشد أبو عبيدة:

فَمَا فَتَيْتُ خَيْلٌ تُثُوبٌ وَتَدْعِي

وَيَلْحَقُ مِنْهَا لِأَجْحَقِّ وَتَقْطَعُ^(٢)

وأنشد ابن القاسم:

فَمَا فَتَيْتُ مِنَّا رِعَالًا كَأَنَّهَا

رِعَالُ الْقَطَا حَتَّىٰ اخْتَوَيْنَ بَنِي صَخْرِ

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرْصًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الدِّئِب، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال ابن قتبية: يقال: أحرضه الحزن، أي: أدنفه. قال أبو عبيدة: الحرض: الذي قد أذابه الحزن أو الحُب، وهي في موضع مُخْرَض. وأنشد:

إِنِّي امْرُؤٌ لَسَجٌ بِي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي

حَتَّىٰ بَلَيْتُ وَحَتَّىٰ شَفَّنِي السَّقَمُ^(٣)

أي: أذابني. وقال الزجاج: الحرض: الفاسد في جسمه، والمعنى: حتى تكون مدنفًا مريضاً. والثاني: أنه الذاهب العقل، قاله الضحاك عن ابن عباس. وقال ابن إسحاق: الفاسد العقل. قال الزجاج: وقد يكون الحرض: الفاسد في أخلاقه. والثالث: أنه الفاسد في جسمه وعقله، يقال: رجل حارص وحرض، فحارص يثنى ويُجمع ويؤنث، وحرض لا يُجمع ولا يثنى، لأنه مصدر، قاله الفراء. والرابع: أنه الهرم، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يعنون: الموتى. فإن قيل: كيف حلفوا على شيء يجوز أن يتغير؟ فالجواب: أن في الكلام إضماراً، تقديره: إن هذا في تقديرنا ووطننا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي﴾ قال ابن قتبية: البثُّ: أشد الحزن، سمي بذلك، لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يئس.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ المعنى: إني لا أشكو إليكم، وذلك لما عَفَّوه بما تقدم ذكره. وروى الحاكم أبو عبد الله في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كان ليعقوب أخ مؤاخ، فقال له ذات يوم: يا يعقوب، ما الذي أذهب بصرك؟ وما الذي قَوَّسَ ظهرك؟ قال: أمَّا الذي أذهب بصري، فالبكاء على يوسف، وأما الذي قَوَّسَ ظهري، فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل، فقال: يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أما تستحي أن تشكو إلى غيري؟ فقال: إنما أشكو بَثِّي وحزني إلى الله، فقال جبريل: الله أعلم بما تشكو، ثم قال يعقوب: أي رب، أما ترحم الشيخ الكبير؟ أذهبت بصري، وقَوَّستَ ظهري، فاردد عليَّ ريحاني أشمه شمة قبل الموت، ثم اصنع بي يا رب ما شئت، فأتاه جبريل، فقال: يا يعقوب، إن الله يقرأ عليك السلام ويقول: أبشر، فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك، اصنع طعاماً للمساكين، فإن أحب عبادي إليَّ المساكين، وتدرني لم أذهبتُ بصرك، وقَوَّستَ ظهرك، وصنع إخوة يوسف بيوسف ما صنعوا؟ لأنكم ذبحتم شاة، فأتاكم فلان المسكين وهو صائم، فلم تطعموه منها. فكان يعقوب بعد

(١) «ديوانه» ١٢٠.

(٢) البيت لأوس بن حجر التميمي: «ديوانه» ٥٨ وقد استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن» ٣١٦/١، و«الطبري» ٣٩/١٣، و«شواهد الكشاف» ١٦٨.

(٣) البيت لعبد الله بن عمر بن عبد الله العرجي في «مجاز القرآن» ٣١٧/١، و«الطبري» ٤٢/١٣، و«القرطبي» ٢٥٠/٩، و«الاشتقاق» ٤٨، و«السمط» ٤٢٢، و«الصاحح»، و«اللسان»: حرض.

ذلك إذا أراد الغداء أمر منادياً فنادى: ألا من أراد الغداء من المساكين فليتنعذ مع يعقوب، وإذا كان صائماً، أمر منادياً فنادى: من كان صائماً فليُنظر مع يعقوب^(١). وقال وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إلى يعقوب: أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة؟ قال: لا، قال: لأنك شويت عناقاً وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه. وذكر بعضهم أن السبب في ذلك أن يعقوب ذبح عجل بقرة بين يديها، وهي تخور، فلم يرحمها. فإن قيل: كيف صبر يوسف عن أبيه بعد أن صار ملكاً؟ فقد ذكر المفسرون عنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه يجوز أن يكون ذلك عن أمر الله تعالى، وهو الأظهر. والثاني: لئلا يظن الملك بتعجيل استدعائه أهله، شدة فاقتهم. والثالث: أنه أحب بعد خروجه من السجن أن يدرج نفسه إلى كمال السرور. والصحيح أن ذلك كان عن أمر الله تعالى، ليرفع درجة يعقوب بالصبر على البلاء. وكان يوسف يلاقي من الحزن لأجل حزن أبيه عظيماً، ولا يقدر على دفع سببه.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأنا سنسجد له، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أعلم من سلامة يوسف ما لا تعلمون. قال ابن السائب: وذلك أن ملك الموت أتاه، فقال له يعقوب: هل قبضت روح ابني يوسف؟ قال: لا. والثالث: أعلم من رحمة الله وقدرته ما لا تعلمون، قاله عطاء. والرابع: أنه لما أخبره بنوه بسيرة العزيز، طمع أن يكون هو يوسف، قاله السدي، قال: ولذلك قال لهم: ﴿أَذْهَبُوا فَحَسَبُوا﴾. وقال وهب بن منبه: لما قال له ملك الموت: ما قبضت روح يوسف، تباشر عند ذلك، ثم أصبح، فقال لبنيه: ﴿أَذْهَبُوا فَحَسَبُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾. قال أبو عبيدة: «تحسسوا» أي: تخبروا والتجسوا في المظان. فإن قيل: كيف قال: «من يوسف» والغالب أن يقال: تحسست عن كذا؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأباري: أحدهما: أن المعنى: عن يوسف، ولكن نابت عنها «من» كما تقول العرب: حدثني فلان من فلان، يعنون عنه. والثاني: أن «من» أوثرت للتبعض، والمعنى: تحسسوا خيراً من أخبار يوسف.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَجْعِ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من رحمة الله، قاله ابن عباس، والضحاك. والثاني: من فرج الله، قاله ابن زيد. والثالث: من توسة الله، حكاه ابن القاسم. قال الأصمعي: الروح: الاستراحة من غم القلب. وقال أهل المعاني: لا تياسوا من الروح الذي يأتي به الله، ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأن المؤمن يرجو الله في الشدائد.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا أَشْرُّ رَحْمَتًا يَضَعُوهُ مُرَجَحَةً فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَصَدَقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا قَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتَ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَأْتِكَ لَأَنْتَ يُوْسُفَ قَالَ أَنَا يُوْسُفَ وَهَذَا أُخِي قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ بَنِي وَيَسَّرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيغُ أَجْرَ الْمُتَحِينِينَ (٩٠) قَالُوا فَاللَّهُ لَقَدْ مَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِلِينَ (٩١) قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) أَذْهَبُوا بِفِعْمِي هَذَا فَالْقَوْمَ عَلَى رَيْبٍ أَبِي يَأْتِ بِصَبْرٍ وَأَتُوفِ بِأَمْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ في الكلام محذوف، تقديره: فخرجوا إلى مصر، فدخلوا على يوسف، فـ ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ وكانوا يسمون ملكهم بذلك، ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا أَشْرُّ﴾ يعنون الفقر والحاجة ﴿رَحْمَتًا يَضَعُوهُ مُرَجَحَةً﴾. وفي ماهية تلك البضاعة سبعة أقوال: أحدها: أنها كانت دراهم، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنها كانت متاعاً رقيقاً كالحبل والغرارة^(٢)، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس. والثالث: كانت أقطاً^(٣) قاله الحسن. والرابع: كنت

(١) الحاكم في المستدرک ٣٤٨/٢ وقال: هكذا في سماعي بخط يد حفص بن عمر بن الزبير، وأظن الزبير وهماً من الراوي، فإنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري ابن أخي أنس بن مالك، فإن كان كذلك فالحديث صحيح، وقد رواه إسحاق بن راهويه مرسلأ هـ. وذكره ابن كثير في التفسير ٤٨٨/٢ من رواية ابن أبي حاتم، وقال: وهذا حديث غريب فيه تكارة. وخرجه الهيثمي في «المجمع» ٤٠/٧، وقال: رواه الطبراني في «الصغير» والأوسط، عن شيخه محمد بن أحمد الباهلي البصري وهو ضعيف جداً. وأورده السيوطي في «الدر» ٣٢/٤، وزاد نسبه لابن أبي الدنيا في كتاب «الفرج بعد الشدة»، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) الغرارة، بكسر الغين: الجوّالقي، واحدة الغرائر، وربما كان معرباً. (٣) الأقط؛ اللبن المجفف الذي لم يترع زبده.

نعلاً وأدمًا، رواه جوير عن الضحاك. والخامس: كانت سوق المقل^(١)، روي عن الضحاك أيضاً. والسادس: حبة الخضراء وصنوبر، قاله أبو صالح. والسابع: كانت صوفاً وشيثاً من سمن، قاله عبد الله بن الحارث. وفي المزجاة خمسة أقوال: أحدها: أنها القليلة. روى العوفي عن ابن عباس قال: دراهم غير طائفة، وبه قال مجاهد، وابن إسحاق، وابن قتيبة. قال الزجاج: تأويله في اللغة أن الترجية: الشيء الذي يدافع به، يقال: فلان يزجي العيش، أي: يدفع بالقليل ويكتفي به، فالمعنى: جئنا ببضاعة إنما ندافع بها ونتقوت، وليست مما يتسع به، قال الشاعر:

الزَاهِبُ الْمَاءَةُ الْهَجَانَ وَعَبْدَهَا عُوْدًا تُزْجِي خَلْفَهَا أَطْفَالَهَا^(٢)

أي: تدفع أطفالها. والثاني: أنها الرديئة، رواه الضحاك عن ابن عباس. قال أبو عبيدة: إنما قيل للرديئة: مزجاة، لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها، قال: وهي من الإجزاء، والإجزاء عند العرب: السُّوق والدفع، وأنشد:

لِيَبْنِكَ عَلَى يَلْحَانَ ضَيْفٌ مُدْفَعٌ وَأَزْمَلَةٌ تُزْجِي مَعَ اللَّئِيلِ أَزْمَلًا^(٣)

أي: تسوقه. والثالث: الكاسدة، رواه الضحاك أيضاً عن ابن عباس. والرابع: الرثة، وهي المتاع الخلق، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس. والخامس: الناقصة، رواه أبو حصين عن عكرمة.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْزِي نَا الْكَيْلَ﴾ أي: أتمه لنا ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ عَيْنًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: تصدَّق علينا بما بين سعر الجياد والرديئة، قاله سعيد بن جبيرة، والسدي. قال ابن الأنباري: كان الذي سأله من المسامحة يشبه التصدَّق، وليس به. والثاني: بردٌ أختنا، قاله ابن جريج، قال: وذلك أنهم كانوا أنبياء، والصدقة لا تحل للأنبياء. والثالث: وتصدَّق علينا بالزيادة على حفتنا، قاله ابن عيينة، وذهب إلى أن الصدقة قد كانت تحل للأنبياء قبل نبينا ﷺ، حكاه عنه أبو سليمان الدمشقي، وأبو الحسن الماوردي، وأبو يعلى بن الفراء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي: بالثواب. قال الضحاك: لم يقولوا: إن الله يجزيك إن تصدقت علينا، لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن.

قوله تعالى: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَؤُسُفَ وَأَخِيهِ﴾ في سبب قوله لهم هذا، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أخرج إليهم نسخة الكتاب الذي كتبه على أنفسهم بييعه من مالك بن زعر، وفي آخر الكتاب: «وكتب يهوذا» فلما قرؤوا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا: هذا كتاب كتبناه على أنفسنا عند بيع عبدٍ كان لنا، فقال يوسف عند ذلك: إنكم تستحقون العقوبة، وأمر بهم ليقتلوا، فقالوا: إن كنت فاعلاً، فإذهب بأمعتنا إلى يعقوب، ثم أقبل يهوذا على بعض إخوته، وقال: قد كان أبونا متصل الحزن لفقده واحد من ولده، فكيف به إذا أخبر بهلكنا أجمعين؟ فرق يوسف عند ذلك وكشف لهم أمره، وقال لهم هذا القول، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم لما قالوا: ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الْفُرُّ﴾ أدركته الرحمة، فقال لهم هذا، قاله ابن إسحاق. والثالث: أن يعقوب كتب إليه كتاباً: إن رددت ولدي، وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك، فبكى، وقال لهم هذا. وفي «هل» قولان: أحدهما: أنها استفهام لتعظيم القصة لا يراد به نفس الاستفهام. قال ابن الأنباري: والمعنى: ما أعظم ما ارتكبتم، وما أسمح ما آثرتهم من قطيعة الرحم وتضييع الحق، وهذا مثل قول العربي: أتدري من عصيت؟ هل تعرف من عاديت؟ لا يريد بذلك الاستفهام، ولكن يريد تفتيح الأمر، قال الشاعر:

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي

(١) السوق: طعام يتخذ من دقيق الشعير أو الحنطة المقلو، ويقال لسويق المقل: الحنّي، ولسويق النبق: القنّي، وقال امرئ القيس: هو عدة المسافر، وطعام المجلان، وبلغة المريض.

(٢) البيت للأعشى في «ديوانه» ٢٩ من قصيدة يمدح بها قيس بن معد يكرب، والهجان: جمع هجين، وهو الأبيض الكريم، يقال: إبل هجان، والعوذ: الحديبات الناتج، وزجي الشيء: دفعه برفق، يقول: إن الممدوح يهب المائة من الإبل وعبدها، تتبعها أطفالها تسمى خلفها.

(٣) البيت في «اللسان»: رمل، أنشده ابن بري شاهداً على أن الأرملة: المرأة التي لا زوج لها.

لم يرد الاستفهام، إنما أراد أن هذا غير مرجو عندهم. قال: ويجوز أن يكون المعنى: هل علمتم عبي ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم الله لهما من المكروه؟ وهذه الآية تصديق قوله: ﴿لَتَنبِتَنَّهُمْ يَأْتِرَهُمْ﴾. والثاني: أن «هل» بمعنى «قد» ذكره بعض أهل التفسير. فإن قيل: فالذي فعلوا بيوسف معلوم، فما الذي فعلوا بأخيه، وما سَعَوْا في حسبه ولا أرادوه؟ فالجواب من وجوه: أحدها: أنهم فرّقوا بينه وبين يوسف، فنَعَصُوا عيشه بذلك. والثاني: أنهم آذَوْه بعد فقد يوسف. والثالث: أنهم سَبَوْه لما قُذِف بسرقة الصاع. وفي قوله: ﴿إِذْ أَنتَرْتَهُمْ جَهْلُوتَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: إذ أنتم صبيان، قاله ابن عباس. والثاني: مذنبون، قاله مقاتل. والثالث: جاهلون بعقوق الأب، وقطع الرحم، وموافقة الهوى. والرابع: جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف، ذكرهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو جعفر، وابن محيصن: «إنك» على الخبر، وقراه آخرون بهمزتين محقتين، وأدخل بعضهم بينها ألفاً^(١). واختلف المفسرون، هل عرفوه، أم شبّهوه؟ على قولين: أحدهما: أنهم شبّهوه بيوسف، قاله ابن عباس في رواية. والثاني: أنهم عرفوه، قاله ابن إسحاق. وفي سبب معرفتهم له ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تبسم، فشبهوا ثناياه بثنايا يوسف، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنه كانت له علامة كالشامة في قرنه، وكان ليعقوب مثلها، ولإسحاق مثلها، وللسارة مثلها، فلما وضع التاج عن رأسه، عرفوه، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أنه كشف الحجاب، فعرفوه، قاله ابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ قال ابن الأنباري: إنما أظهر الاسم، ولم يقل: أنا هو، تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته، فكانه قال: أنا المظلوم المستحل منه، المراد قتله، فكفى ظهور الاسم من هذه المعاني، ولهذا قال: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ وهم يعرفونه، وإنما قصد: وهذا المظلوم كظلمي.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ نَسَبٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بخير الدنيا والآخرة. والثاني: بالجمع بعد الفرقة. والثالث: بالسلامة ثم بالكرامة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ قرأ ابن كثير في رواية قنبل: «من يتقي ويصبر» بياء في الوصل والوقف، وقرأ الباقون بغير ياء في الحالين. وفي معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: من يتق الزنى ويصبر على البلاء. والثاني: من يتق الزنى ويصبر على العزبة. والثالث: من يتق الله ويصبر على المصائب، رويت هذه الأقوال عن ابن عباس. والرابع: يتق معصية الله ويصبر على السجن، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿فَلَيْكَ اللَّهُ لَا يُصْبِحُ أَجْرَ الْمُتَّبِعِينَ﴾ أي: أجر من كان هذا حاله. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّكَ اللَّهُ عَلَىٰ نَسَبٍ﴾ أي: اختارك وفضلك. وبماذا عنوا أنه فضلّه فيه؟ أربعة أقوال: أحدها: بالملك، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثاني: بالصبر، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: بالحلم والصفح عنا، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والرابع: بالعلم والعقل والحسن وسائر الفضائل التي أعطاه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ قال ابن عباس: لمدننين آثمين في أمرك. قال ابن الأنباري: ولهذا اختير «خاطئين» على «مخطئين»، وإن كان «أخطأ» على «السن» أكثر من «خطئ» يخطأ» لأن معنى خطئ يخطأ، فهو خاطئ: آثم، ومعنى أخطأ يخطئ، فهو مخطئ: ترك الصواب ولم يأثم، قال الشاعر:

عَبَاذُكَ يَخْطُأُونَ وَأَنْتَ رَبُّ
بِكَفِّئِكَ الْمَنَائِبِ وَالْحُحُومِ^(٢)

أراد: يأثمون. قال ويجوز أن يكون أثر «خاطئين» على «مخطئين» لموافقة رؤوس الآيات، لأن «خاطئين» أشبه بما قبلها. وذكر الفراء في معنى «إن» قولين: أحدهما: وقد كنا خاطئين. والثاني: وما كنا إلا خاطئين.

(١) قال أبو جعفر ابن جرير الطبري ٥٥/١٢: والصواب من القراءة في ذلك عندنا، قراءة من قرأ بالاستفهام، لإجماع الجماعة من القوله عليه. وقال ابن كثير ٤٨٩/٢: والقراءة المشهورة هي الأولى، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يرددون إليه من ستين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكرم نفسه، فلها قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أَوَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟﴾

(٢) البيت غير منسوب في «اللسان»: خطأ.

قوله تعالى: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومًا﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: لا أعيركم بعد اليوم بهذا أبداً. قال ابن الأنباري: إنما أشار إلى ذلك اليوم، لأنه أول أوقات العفو، وسبيل العافي في مثله أن لا يراجع عقوبة. وقال ثعلب: قد تَرِبَ فلان على فلان: إذا عدَّد عليه ذنوبه. وقال ابن قتيبة: لا تعبير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتم، وأصل التريب: الإفساد، يقال: تَرِبَ علينا: إذا أفسد، وفي الحديث: «إِذَا زَنَتِ أُمَّةٌ أَحَدَكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يَتْرِبْ»^(١) أي: لا يعيرها بالزنى. قال ابن عباس: جعلهم في جِلِّ، وسأل الله المغفرة لهم. وقال السدي: لما عرّفهم نفسه، سألهم عن أبيه، فقالوا: ذهبت عيناه، فأعطاهم قميصه، وقال: «أَذْهَبُوا بِمِصْبِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِبَصِيرَةٍ» وهذا القميص كان في فضة معلقاً في عنق يوسف لما ألقى في الجب، وكان من الجنة، وقد سبق ذكره ليوسف: ١٨، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِبَصِيرَةٍ﴾ قال أبو عبيدة: يعود مبصراً. فإن قيل: من أين قطع على الغيب؟ فالجواب: أن ذلك كان بالوحي إليه، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزِلْ بِأَيْدِيكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال الكلبي كان أهله نحرأ من سبعين إنساناً.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنَّهُ تُفِيدُونِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي: خرجت من مصر متوجهة إلى كنعان. وكان الذي حمل القميص يهوذا. قال السدي: قال يهوذا ليوسف: أنا الذي حملت القميص إلى يعقوب بدم كذب فأحزنته، وأنا الآن أحمل قميصك لأسره، فجمله، قال ابن عباس: فخرج حافياً حاسراً يعدو، ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَبْوَهُمْ﴾ يعني يعقوب لمن حضره من أهله وقربائه وولد ولده ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. ومعنى أجد: أشم، قال الشاعر:

وَلَيْسَ صَرِيرُ الشُّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ
وَلَيْسَ قَتِيقُ الْمَسْكِ مَا تَجِدُونَهُ

فإن قيل: كيف وجد يعقوب ريحه وهو بمصر، ولم يجد ريحه من الجب وبعد خروجه منه، والمسافة هناك أقرب؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن الله تعالى أخفى أمر يوسف على يعقوب في بداية الأمر لتقع البلية التي يتكامل بها الأجر، وأوجده ريحه من المكان النازح عند تقضي البلاء ومجيء الفرج. والثاني: أن هذا القميص كان في قصبه من فضة معلقاً في عنق يوسف على ما سبق بيانه، فلما نشره فاحت روائح الجنان في الدنيا فاتصلت بيعقوب، فعلم أن الرائحة من جهة ذلك القميص. قال مجاهد: هبت ريح فضربت القميص، ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة، فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فمن ثم قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. وقيل: إن ريح الصبا استأذنت ربه في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل البشير فأذن لها، فلذلك يستروح كل محزون إلى ريح الصبا، ويجد المكروبون لها رَوْحاً، وهي ريح لينة تأتي من ناحية المشرق، قال أبو صخر الهذلي:

إِذَا قُلْتُ هَذَا حِينَ أَسْلُو يَهْنِجُنِي
نَسِيمُ الصَّبَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ الْفَجْرُ^(٢)

قال ابن عباس: وجد ريح قميص يوسف من مسيرة ثمان ليال ثمانين فرسخاً.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنَّهُ تُفِيدُونِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: تُجْهَلُونَ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثاني: تَسْفُهُونَ، رواه عبد الله بن أبي الهذيل عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وقتادة، ومجاهد في رواية. وقال في رواية أخرى: لولا أن تقولوا: ذهب عقلك. والثالث: تكذبون، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، والضحاك. والرابع: تَهْرَمُونَ، قاله الحسن، ومجاهد في رواية. قال ابن فارس: القَنْدُ: إنكار العقل من هرم.

(١) البخاري ٤/٣١٠، ومسلم ٣/١٣٢٨ من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) «شرح أشعار الهذليين» ٩٥٧.

والخامس: تعجزون، قاله ابن قتيبة. وقال أبو عبيدة: تسفّهون وتعجزون وتلومون، وأنشد:

يَا صَاحِبِي دَعَا لَوْ مِي وَتَفَنِّي دِي
فَلَيْسَ مَا فَاتَ مِنْ أَمْرِ بِمَرْدُودٍ^(١)

قال ابن جرير: وأصل التنييد: الإفساد، وأقوال المفسرين تتقارب معانيها، وسمعت الشيخ أبا محمد بن الخشاب يقول: قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تَفَنَّدِينَ﴾ فيه إضمار، تقديره: لأخبرتكم أنه حي.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾^(٣) قال ابن عباس: بنو بنيه خاطبوه بهذا، وكذلك قال

السدي: هذا قول بني بنيه، لأن بنيه كانوا بمصر. وفي معنى هذا الضلال ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بمعنى الخطأ، قاله

ابن عباس، وابن زيد. والثاني: أنه الجنون، قاله سعيد بن جبير. والثالث: الشقاء والعناء، قاله مقاتل، يريد بذلك

شقاء الدنيا.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤) قَالُوا يَا بَنِيَّ

أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ^(٥) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ^(٦)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه يهودا، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال

وهب بن منبه، والسدي، والجمهور. والثاني: أنه شمعون، قاله الضحاك. فإن قيل: ما الفرق بين قوله هاهنا: ﴿فَلَمَّا أَنْ

جَاءَ﴾ وقال في موضع: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ٨٩]؟ فالجواب: أنهما لغتان لقريش خاطبهم الله بهما جميعاً، فدخل

«أن» لتوكيد مضمي الفعل، وسقوطها للاعتماد على إيضاح الماضي بنفسه، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿أَلْفَهُ﴾ يعني القميص «عَلَى وَجْهِهِ» يعني يعقوب ﴿فَارْتَدَّ بِصِيرًا﴾، الارتداد: رجوع الشيء إلى حال

قد كان عليها. قال ابن الأنباري: إنما قال: ارتد، ولم يقل: رُدَّ، لأن هذا من الأفعال المنسوبة إلى المفعولين،

كقولهم: طالت النخلة، والله أطالها، وتحركت الشجرة، والله حركها. قال الضحاك: رجع إليه بصره بعد العمى، وقوته

بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم، وسروره بعد الحزن. وروى يحيى بن يمان عن سفیان قال: لما جاء البشير يعقوب،

قال: على أي دين تركت يوسف؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه أقوال قد سبق ذكرها قبل هذا بقليل.

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ سأله أن يستغفر لهم ما أتوا، لأنه نبيّ مجاب الدعوة. ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ

لَكُمْ رَبِّي﴾ في سبب تأخيره لذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أخرهم لانتظار الوقت الذي هو مِظَنَّةُ الإجابة، ثم فيه ثلاثة

أقوال: أحدها: أنه أخرهم إلى ليلة الجمعة، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(٧). قال وهب: كان يستغفر لهم كل

ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة. والثاني: إلى وقت السحر، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود،

وابن عمر، وقناة، والسدي، ومقاتل. قال الزجاج: إنما أراد الوقت الذي هو أخلق لإجابة الدعاء، لا أنه صَنَّ عليهم

بالاستغفار، وهذا أشبه بأخلاق الأنبياء ﷺ. والقول الثاني: أنه دفعهم عن التعجيل بالوعد. قال عطاء

الخراساني: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ، ألا ترى إلى قول يوسف: ﴿لَا تَرْتَبِئْ عَلَيْنَا الْيَوْمَ﴾

وإلى قول يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾. والثالث: أنه أخرهم ليسأل يوسف، فإن عفا عنهم، استغفر لهم، قاله

الشعبي. وروى عن أنس بن مالك أنهم قالوا: يا أبا ناس إن عفا الله عنا، وإلا فلا قوة عين لنا في الدنيا، فدعا يعقوب

وأمن يوسف، فلم يُجب فيهم عشرين سنة، ثم جاء جبريل فقال: إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك، وعفا ما صنعوا

به، واعتقد موافقهم من بعد على النبوة. قال المفسرون: وكان يوسف قد بعث مع البشير إلى يعقوب جهازاً وماتني

(١) البيت لهاين بن شكيم العدوي في «مجاز القرآن» ٣١٨/١، و«الطبري» ٥٩/١٣، و«القرطبي» ٢٦٠/٩.

(٢) «الطبري» ٦٥/١٣ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قد قال أخي يعقوب: سوف استغفر لكم ربي، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة». وسنده

ضعيف، وقد أورده ابن كثير في «تفسيره» ٤٩٠/٢ وقال: وهذا غريب من هذا الوجه، وفي رفعه نظر، والله أعلم.

راحلة، وسأله أن يأتيه بأهله وولده. فلما ارتحل يعقوب ودنا من مصر، استأذن يوسف المليك الذي فوقه في تلقى يعقوب، فأذن له، وأمر الملا من أصحابه بالركوب معه، فخرج في أربعة آلاف من الجند، وخرج معهم أهل مصر. وقيل: إن الملك خرج معهم أيضاً. فلما التقى يعقوب ويوسف، بكيا جميعاً، فقال يوسف: يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك، أما علمت أن القيامة تجمعني وإياك؟ قال: أي بني، خشيت أن تسلب دينك فلا نجتمع. وقيل: إن يعقوب ابتداءً بالسلام، فقال: السلام عليك يا مذهب الأحزان.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ مِصْرَ ۚ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ عَمَلِكُمْ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ يعني: يعقوب وولده. وفي هذا الدخول قولان: أحدهما: أنه دخول أرض مصر، ثم قال لهم: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ يعني البلد. والثاني: أنه دخول مصر، ثم قال لهم: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ أي: استوطنوها. وفي قوله: ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قولان: أحدهما: أبوه وخالته، لأن أمه كانت قد ماتت، قاله ابن عباس والجمهور. والثاني: أبوه وأمه، قاله الحسن، وابن إسحاق. وفي قوله: ﴿إِنَّ شَاءَ اللَّهُ عَمَلِكُمْ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أن في الكلام تقديمًا وتأخيراً، فالمعنى: سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله، إنه هو الغفور الرحيم، هذا قول ابن جريج. والثاني: أن الاستثناء يعود إلى الأمن. ثم فيه قولان: أحدهما: أنه لم يثق بانصراف الحوادث عنهم. والثاني: أن الناس كانوا فيما خلا يخافون ملوك مصر، فلا يدخلون إلا بجوارهم. والثالث: أنه يعود إلى دخول مصر، لأنه قال لهم هذا حين تلقاهم قبل دخولهم، على ما سبق بيانه. والرابع: أن «إن» بمعنى: «إذ» كقوله: ﴿إِنَّ آيَةَ رَبِّكَ إِذْ قَالَ لِيُوسُفَ اذْهَبْ بِعَصَاكَ فَإِنَّهَا تَكُونُ لَكَ آيَةً ۖ وَأَنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. قال ابن عباس: دخلوا مصر يومئذ وهم ثيف وسبعون من ذكر وأثني. وقال ابن مسعود: دخلوا وهم ثلاثة وتسعون، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكَ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْمُبِينُ ۖ﴾

﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكَ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْمُبِينُ ۖ﴾

﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكَ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْمُبِينُ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ في «أبويه» قولان قد تقدما في الآية التي قبلها. والعرش هاهنا: سرير المملكة، أجلس أبويه عليه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ يعني: أبويه وإخوته. وفي هاء «له» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى يوسف، قاله الجمهور. قال أبو صالح عن ابن عباس: كان سجودهم كهنة الركوع كما يفعل الأعاجم. وقال الحسن: أمرهم الله بالسجود لتأويل الرؤيا. قال ابن الأنباري: سجدوا له على جهة التحية، لا على معنى العبادة، وكان أهل ذلك الدهر يحيي بعضهم بعضاً بالسجود والاحتناء، فحضره رسول الله ﷺ، فروى أنس بن مالك قال: «قال رجل: يا رسول الله، أحدهم يلقى صديقه، أينحي له؟ قال: لا»^(١). والثاني: أنها ترجع إلى الله، فالمعنى: وخرؤوا لله سجداً، رواه عطاء والضحاك عن ابن عباس، فيكون المعنى: أنهم سجدوا لشكراً لله إذ جمع بينهم وبين يوسف.

قوله تعالى: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ أي: تصديق ما رأيت، وكان قد رآهم في المنام يسجدون له، فأراه الله ذلك في اليقظة. واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها على سبعة أقوال: أحدها: أربعون سنة، قاله سلمان الفارسي، وعبد الله بن شداد بن الهاد، ومقاتل. والثاني: اثنان وعشرون سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: ثمانون سنة، قاله الحسن، والفضيل بن عياض. والرابع: ست وثلاثون سنة، قاله سعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي. والخامس: خمس وثلاثون سنة، قاله قتادة. والسادس: سبعون سنة، قاله عبد الله بن شوذب. والسابع: ثمانون سنة، قاله ابن إسحاق. قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ أي: إلي. والتأويل: البسط من الأرض. وقال ابن عباس: البدو: البادية، وكانوا أهل عمود وماشية.

(١) روى الترمذي في «جامعه» ٩٧/٢، وابن ماجه في «سننه» ١٢٢: ٢، عن أنس بن مالك ؓ قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه، أينحي له؟ قال: «لا» قال: أفيلتمه ويقبله؟ قال: «لا» قال: فيأخذه بيده ويصافحه؟ قال: «نعم». وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرَجَّ الشَّيْطَانُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِخْوَتَهُ﴾ أي: أفسد بيننا. قال أبو عبيدة: يقال: نزع بينهم ينزغ، أي: أفسد وهيج، وبعضهم يكسر زاي ينزغ. ﴿إِنَّ رَجِي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أي: عالم بدقائق الأمور. وقد شرحنا معنى «اللطيف» في [الانعام: ١٠٢]. فإن قيل: قد تواتر على يوسف نعم خمسة، فما اقتصره على ذكر السجن، وهلاً ذكر الجُبِّ، وهو أصعب؟ فالجواب من وجوه: أحدها: أنه ترك ذكر الجُبِّ تكريماً، لئلا يذُكر إخوته صنيعهم، وقد قال: ﴿لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْمَرْبُومَ﴾. والثاني: أنه خرج من الجُبِّ إلى الرق، ومن السجن إلى الملك، فكانت هذه النعمة أوفى. والثالث: أن طول لبثه في السجن كان عقوبة له، بخلاف الجُبِّ، فشكر الله على عفوهِ. قال العلماء بالسَّير: أقام يعقوب بعد قدومه مصر أربعاً وعشرين سنة. وقال بعضهم: سبع عشرة سنة في هنا عيش، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يُحمَل إلى الشام حتى يدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل به ذلك، وكان عمره مائة وسبعاً وأربعين سنة، ثم إن يوسف تاق إلى الجنة، وعلم أن الدنيا لا تدوم فتمنَّى الموت، قال ابن عباس، وقناة: ولم يتمنَّ الموت نبيَّ قبله، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ يعني: ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وقد سبق تفسيرها يوسف: [٦]. وفي «ميز» قولان: أحدهما: أنها صلة، قاله مقاتل. والثاني: أنها للتبعض، لأنه لم يؤث كلَّ الملك، ولا كلَّ تأويل الأحاديث.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قد شرحناه في [الانعام: ٦]. ﴿أَنْتَ وَلِيُّ﴾ أي: الذي تلي أمري. ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ قال ابن عباس: يريد: لا تسليني الإسلام حتى تتوفاني عليه. وكان ابن عقيل يقول: لم يتمنَّ يوسف الموت، وإنما سأل أن يموت على صفة، والمعنى: توفي إذا توفيتي مسلماً، قال الشيخ: وهذا الصحيح.

قوله تعالى: ﴿وَالْحَقِيقَ بِالْمَلَكِئِيلِ﴾ والمعنى: الحقني بدرجاتهم، وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أهل الجنة، قاله عكرمة. والثاني: أباه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، قاله الضحاك، قالوا: فلما احتضر يوسف، أوصى إلى يهوذا، ومات، فنتشأ الناس في دفنه، كلُّ يُحب أن يُدفن في محلته رجاء البركة، فاجتمعوا على دفنه في النيل ليمر الماء عليه ويصل إلى الجميع، فدفنوه في صندوق من رخام، فكان هنالك إلى أن حمله موسى حين خرج من مصر ودفنه بأرض كنعان. قال الحسن: مات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة. وذكر مقاتل أنه مات بعد يعقوب بستين.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: ذلك الذي قصصنا عليك من أمر يوسف وإخوته من الأخبار التي كانت غائبة عنك، فأنزله الله عليك دليلاً على نبوتك. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: عند إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي: عزموا على إلقاءه في الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسف، وفي هذا احتجاج على صحة نبوة نبينا ﷺ، لأنه لم يشاهد تلك القصة، ولا كان يقرأ الكتاب، وقد أخبر عنها بهذا الكلام المعجز، فدلَّ على أنه أخبر بوحي.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن الأنباري: إن قريشاً واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته، فشرحها شرحاً شافياً، وهو يؤمل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم، فخالفوا ظنه، فعزى رسول الله ﷺ، فعزاه الله تعالى بهذه الآية. قال الزجاج: ومعناها: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم. ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن وتلاوته وهدايتك إياهم ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ لَمْ يَلْمِزْهُمْ فِيهِ صِلَاحُهُمْ وَنَجَاتُهُمْ﴾.

﴿وَكَايُنَ مِنْ مَاءِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِمُرُوتٍ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَايُنَ﴾ أي: وكم ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ أي: علامة ودلالة تدلهم على توحيد الله، من أمر السموات والأرض، ﴿بِمُرُوتٍ عَلَيْهَا﴾ أي: يتجاوزونها غير متفكرين ولا معتبرين.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿فِيهِمْ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ، ثُمَّ فِي

معناها المتعلق بهم قولان: أحدهما: أنهم يؤمنون بأن الله خالقهم ورازقهم وهم يشركون به، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، والشعبي، وقتادة. والثاني: أنها نزلت في تلبية مشركي العرب، كانوا يقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنهم النصارى، يؤمنون بأنه خالقهم ورازقهم، ومع ذلك يشركون به، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنهم المنافقون، يؤمنون في الظاهر رثاء الناس، وهم في الباطن كافرون، قاله الحسن. فإن قيل: كيف وصف المشرك بالإيمان؟ فالجواب: أنه ليس المراد به حقيقة الإيمان، وإنما المعنى: أن أكثرهم، مع إظهارهم بالإيمان بالستهم، مشركون.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٠٧)

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمُ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ قال ابن قتيبة: الغاشية: المججلة تغشاهم. وقال الزجاج: المعنى: يأتيهم ما يغمرهم من العذاب. والبعثة: الفجأة من حيث لم تتوقع.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنْتُمْ مَنِ اتَّبَعْتُمْ وَرَحِمَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨)

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ﴾ المعنى: قل يا محمد للمشركين: هذه الدعوة التي أَدْعُو إليها، والطريقة التي أنا عليها، سبيلي، أي: سُتِّي ومنهجي. والسبيل تذكّر وتؤنث، وقد ذكرنا ذلك في [آل عمران: ١٩٥]. ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي: على يقين. قال ابن الأنباري: وكل مسلم لا يخلو من الدعاء إلى الله ﷻ، لأنه إذا تلا القرآن، فقد دعا إلى الله بما فيه. ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، ثم ابتداء فقال: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَحِمَنَ اللَّهُ﴾ المعنى: وقل: سبحانه الله تنزيهاً له عما أشركوا.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَا يَسِيرُونَ﴾ (١٠٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ هذا نزل من أجل قولهم: هَلَّا بعث الله ملكاً، فالمعنى: كيف تعجبوا من إرسالنا إياك، وسائر الرسل كانوا على مثل حالك «يوحى إليهم»؟ وقرأ حفص عن عاصم: «نوحى» بالنون. والمراد بالقرى: المداين. وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً من أهل البادية، ولا من الجن، ولا من النساء، قال قتادة: لأن أهل القرى أعلم وأحلم من أهل العمود.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَسِيرُونَ﴾ يعني: المشركين المنكرين نبوتك ﴿فَيَسْأَلُونَكَ﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة فيعتبروا بذلك. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ يعني: الجنة ﴿حَتَّىٰ﴾ من الدنيا ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك. قال الفراء: أضيفت الدار إلى الآخرة، وهي الآخرة، لأن العرب قد تضيف الشيء إلى نفسه إذا اختلف لفظه، كقوله: ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٦] والحق: هو اليقين، وقولهم: أتيتك عام الأول، ويوم الخميس.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ قرأ أهل المدينة، وابن عامر، وحفص، والمفضل، ويعقوب: «تعلمون» بالياء، وقرأ الآخرون بالياء، والمعنى: أفلا يعلمون هذا فيؤمنوا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَوَلَّوْا أَنْفُسَهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا مِنْ رَبِّكَ فَتَنَىٰ مِنْ نَشَأٍ وَلَا يَرُدُّ بِأَسَاءٍ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١١٠)

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾ المعنى متعلق بالآية الأولى، فتقديره: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، فدعوا قومهم، فكذبوهم، وصبروا وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى إذا استياس الرسل، وفيه قولان: أحدهما: استياسوا من تصديق قومهم، قاله ابن عباس. والثاني: من أن نعدب قومهم، قاله مجاهد. ﴿وَوَلَّوْا أَنْفُسَهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «كُذِّبُوا» مشددة الذال مضمومة الكاف، والمعنى: وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم، فيكون الظن هاهنا بمعنى اليقين، هذا قول الحسن، وعطاء، وقتادة. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «كُذِّبُوا» خفيفة، والمعنى: ظن قومهم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا به من النصر، لأن الرسل لا يظنون ذلك. وقرأ أبو رزين، ومجاهد، والضحاك: «كُذِّبُوا» بفتح الكاف والذال خفيفة، والمعنى: ظن قومهم أيضاً أنهم قد كذبوا، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرًا﴾ يعني: الرسل «فمنجي من نساء» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «فنجي» بنونين، الأولى مضمومة والثانية ساكنة والياء ساكنة. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر، وحفص، جميعاً عن عاصم، ويعقوب: «فَنَجَّى» مشددة الجيم مفتوحة الياء بنون واحدة، يعني: المؤمنين، نَجْوًا عند نزول العذاب.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: في خبر يوسف وإخوته. وروى عبد الوارث كسر القاف، وهي قراءة قتادة، وأبي الجوزاء. ﴿عِبْرَةً﴾ أي: عظة ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: لذوي العقول السليمة، وذلك من وجهين: أحدهما: ما جرى ليوسف من إعزازه وتمليكه بعد استعباده، فإنَّ من فَعَلَ ذلك به، قادر على إعزاز محمد ﷺ وتعليه كلمته. والثاني: أن من تفكَّر، علم أن محمداً ﷺ مع كونه أمياً، لم يأت بهذه القصة على موافقة ما في التوراة مِنْ قِبَل نفسه، فاستدل بذلك على صحة نبوته.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ في المشار إليه قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله قتادة. والثاني: ما تقدم من القصص، قاله ابن إسحاق. فعلى القول الأول، يكون معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ولكن كان تصديقاً لما بين يديه من الكتب ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحتاج إليه من أمور الدين ﴿وَهُدًى﴾ بياناً ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدِّقون بما جاء به محمد ﷺ. وعلى القول الثاني: وتفصيل كل شيء من نبأ يوسف وإخوته^(١).



(١) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٤٩٨/٢: وتفصيل كل شيء من تحليل وتحريم، ومحجوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات، وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المجملية والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلماذا كان هدىً ورحمة لقوم يؤمنون، تهدي به قلوبهم من النغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويتفون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة ويوم يفوز بالريح الميضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة.

سورة الرعد

فصل في نزولها

اختلفوا في نزولها على قولين: أحدهما: أنها مكية، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وعطاء، وقتادة. وروى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية، إلا آيتين منها، قوله: ﴿وَلَا يَرَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيْبَهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً﴾ إلى آخر الآية [الرعد: ٣١]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣]. والثاني: أنها مدنية، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وبه قال جابر بن زيد. وروى عن ابن عباس أنها مدنية، إلا آيتين نزلتا بمكة، وهما قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ إلى آخرها [الرعد: ٣١]. وقال بعضهم: المدني منها قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الذَّرْعَ﴾ إلى قوله: ﴿لَمْ دَعَا لَنَفْسِهِ﴾ [الرعد: ١٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِحَبْرٍ عَمِيدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْرَوْنَ عَلَى الْعُرْوِجِ وَسَحَرَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفْعِلُ الْآيَاتِ لِمَنْ يَلْقَاهُ لِيَعْلَمَ بِمَا رُبِّكُمْ تُوَفَّقُونَ ﴿٢﴾﴾ قوله تعالى: ﴿الَّذِي﴾ قد ذكرنا في سورة (البقرة) جملة من الكلام في معاني هذه الحروف. وقد روي عن ابن عباس في تفسير هذه الكلمة ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناها: أنا الله أعلم وأرى، رواه أبو الضحى عنه. والثاني: أنا الله أرى، رواه سعيد بن جبير عنه. والثالث: أنا الله الملك الرحمن، رواه عطاء عنه.

قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ في «تلك» قولان، وفي «الكتاب» قولان قد تقدمت في أول (يونس).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ يعني: القرآن وغيره من الوحي ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني: أهل مكة. قال الزجاج: لما ذكر أنهم لا يؤمنون، عرف الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِحَبْرٍ عَمِيدٍ﴾ قال أبو عبيدة: العمد: متحرك الحروف بالفتحة، وبعضهم يحركها بالضمة، لأنها جمع عمود، وهو القياس، لأن كل كلمة هجاؤها أربعة أحرف الثالث منها ألف أو ياء أو واو، فجميعه مضموم الحروف، نحو رسول، والجمع: رسل، وحمار، والجمع: حُمُر، غير أنه قد جاءت أسامي استعمالوا جميعها بالحركة والفتحة، نحو عمود، وأديم، وإهاب، قالوا: آدم، وأهب. ومعنى «عميد»: سوار، ودعائم، وما يعمد البناء. وقرأ أبو حيوة: «بغير عُمُد» بضم العين والميم. وفي قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ قولان: أحدهما: أن هاء الكناية ترجع إلى السموات، فالمعنى: ترونها بغير عمد، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، والجمهور. وقال ابن الأنباري: «ترونها» خبر مستأنف، والمعنى: رفع السموات بلا دعامة تمسكها، ثم قال: «ترونها» أي: ما تشاهدون من هذا الأمر العظيم، يفنيكم عن إقامة الدلائل عليه. والثاني: أنها ترجع إلى العمد، فالمعنى: إنها بعدد لا ترونها، رواه عطاء، والضحاك عن ابن عباس، وقال: لها عمد على قاف، ولكنكم لا ترون العمد، وإلى هذا القول ذهب مجاهد، وعكرمة، والأول أصح^(١).

قوله تعالى: ﴿وَسَحَرَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذللهما لما يراد منهما ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت معلوم،

(١) قال ابن جرير الطبري ٩٤/١٣: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِحَبْرٍ عَمِيدٍ﴾ فهي مرفوعة بغير عمد نراها، كما قال زينا جل ثناؤه، ولا خبر بغير ذلك، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواء. وقال ابن كثير ٤٩٩/٢ بعد أن ذكر قول إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿وَيُخَيِّلُ الْكَوْكَبَ أَنْ تَنَاقَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا يَأْتِيهِمْ﴾، فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة.

وهو فناء الدنيا. ﴿يَذَرُ الْأَثَرَ﴾ أي: يصرفه بحكمته. ﴿يُفْضِلُ الْأَيْتَ﴾ أي: يبين الآيات التي تدل أنه قادر على البعث لكي توقعوا بذلك. وقرأ أبو رزين، وقتادة، والنخعي: «ندبر الأمر بفضل الآيات» بالنون فيها.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوَاجِينَ حَثِيثًا وَبَشَى الْأَرْضَ الْغَرَابُ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس: بسطها على الماء.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ قال الزجاج: أي جبالاً ثوابت، يقال: رسا الشيء يرسو رسواً، فهو راس؛ إذا ثبت. و ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوَاجِينَ حَثِيثًا﴾ أي: نوعين. والزواج: الواحد الذي له قرين من جنسه. قال المفسرون: ويعني بالزواجين: الحلو والحامض، والعذب والملح، والأبيض والأسود.

قوله تعالى: ﴿بَشَى الْأَرْضَ الْغَرَابُ﴾ قد شرحناه في [الأعراف: ٥٤].

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ شُجُورَاتٌ وَحِجَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفُضِلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ شُجُورَاتٌ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الأرض السبخة، والأرض العذبة، تنبت هذه، وهذه إلى جنبها لا تنبت، هذا قول ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، والضحاك. والثاني: أنها القرى المتجاورات، قاله قتادة، وابن قتيبة، وهو يرجع إلى معنى الأول.

قوله تعالى: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٌ﴾ رفعاً في الكل. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان» خفضاً في الكل. قال أبو علي؛ من رفع، فالمعنى: وفي الأرض قطع متجاورات وجنات، وفي الأرض زرع، ومن خفض حمله على الأعناب، فالمعنى: جنات من أعناب، ومن زرع، ومن نخيل.

قوله تعالى: ﴿صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ﴾ هذا من صفة النخيل. قال الزجاج: الصنوان: جمع صنو وصُنُو، ومعناه: أن يكون الأصل واحداً وفيه النخلتان والثلاث والأربع. وكذلك قال المفسرون: الصنوان: النخل المجتمع وأصله واحد، وغير صنوان: المتفرق. وقرأ أبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، وابن جبير، وقتادة: «صنوان» بضم الصاد. قال الفراء: لغة أهل الحجاز «صنوان» بكسر الصاد، وتميم وقيس يضمون الصاد.

قوله تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «تسقى» بالياء، و«نُفُضِلٌ» بالنون. وقرأ حمزة، والكسائي «تسقى» بالياء أيضاً، لكنهما أمالا القاف. وقرأ الحسن «ويُفْضِلُ» بالياء. وقرأ عاصم، وابن عمر «يُسْقَى» بالياء، و«نُفُضِلُ» بالنون، وكلهم كسر الضاد. وروى الحلبي عن عبد الوارث ضمَّ الياء من «يُفْضِلُ» وفتح الضاد، «بعضها» برفع الضاد. وقال الفراء: من قرأ «تُسْقَى» بالياء ذهب إلى تأنيث الزرع، والجنات، والنخيل، ومن كسر ذهب إلى النبت، وذلك كله يُسْقَى بماء واحد، وأكله مختلف حاوِض وحلو، ففي هذا آية. قال المفسرون: الماء الواحد: ماء المطر، والأكل: الثمر، بعضه أكبر من بعض، وبعضه أفضل من بعض، وبعضه حامض وبعضه حلو، إلى غير ذلك، وفي هذا دليل على بطلان قول الطبايعين، لأنه لو كان حدوث الثمر على طبع الأرض والهواء، والماء، وجب أن يتفق ما يحدث لاتفاق ما أوجب الحدوث، فلما وقع الاختلاف، دلَّ على مدبر قادر، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أنه لا تجوز العبادة إلا لمن يقدر على هذا.

﴿وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَوَدَا كَمَا تَرَأَى أَوْنَا لِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَوَّلَيْكَ أَلَيْكَ كَتَبْنَا بِرَبِّمِمْ وَأَوَّلَيْكَ الْأَعْظَمُ فِي أَعْنَافِهِمْ وَأَوَّلَيْكَ أَحْسَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَجَّبَ﴾ أي: من تكذيبهم وعبادتهم ما لا ينفع ولا يضر بعدما رأوا من تأثير قدرة الله عز وجل في خلق الأشياء، فإنكارهم البعث موضع عجب. وقيل: المعنى: وإن تعجب بما وقفت عليه من القِطْع المتجاورات وقدرة ربك في ذلك، فعجب جحدهم البعث، لأنه قد بان لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل في القدرة.

قوله تعالى: ﴿أَوَدَا كُنَّا تَرَبًّا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «أَيَذَا كُنَّا تَرَبًّا أَيَّئًا» جميعاً بالاستفهام، غير أن أبا عمرو يمدُّ الهمزة ثم يأتي بالياء ساكنة، وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مدِّ. وقرأ نافع «أَيَذَا» مثل أبي عمرو، واختلف عنه في المدِّ، وقرأ «إِنَّا لَفِي خَلْقٍ» مكسورة على الخبر. وقرأ عاصم، وحزمة «إِذَا كُنَّا» «إِنَّا» بهزتين فيهما. وقرأ ابن عامر «إِذَا كُنَّا تَرَبًّا» مكسورة الألف من غير استفهام، «إِنَّا» بهز ثم يمدُّ ثم بهز على وزن: عاعنًا. وروي عن ابن عامر أيضاً «إِذَا» بهزتين لا ألف بينهما. والأغلال جمع غُلٍّ، وفيها قولان: أحدهما: أنها أغلال يوم القيامة، قاله الأكثرون. والثاني: أنها الأعمال التي هي أغلال. قاله الزجاج.

﴿وَيَسْتَجِيبُكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَعْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَنَ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿١١﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿١٢﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا يُبَيِّنُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَرْدَادُ ﴿١٣﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿١٤﴾ عِنْدَ الْقَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمَتَعَالِ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في كفار مكة، سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب، استهزاءً منهم بذلك، قاله ابن عباس. والثاني: في مشركي العرب، قاله قتادة. والثالث: في النصر بن الحارث حين قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، قاله مقاتل. وفي السيئة والحسنة قولان: أحدهما: بالعذاب قبل العافية، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: بالشر قبل الخير، قاله قتادة. فأما: ﴿الْمَثَلَتُ﴾ فقرأ الجمهور بفتح الميم. وقرأ عثمان، وأبو رزين، وأبو مجلز، وسعيد بن جبير، وقاتدة، والحسن، وابن أبي عبله برفع الميم. ثم في معناها قولان: أحدهما: أنها العقوبات، قاله ابن عباس. وقال الزجاج: المعنى: قد تقدم من العذاب ما هو مثله وما فيه نكال، لو أنهم اتعظوا. وقال ابن الأنباري: المثلثة: العقبة التي تبقى في المعاقب شيئاً بتغيير بعض خلقه، من قولهم: مثل فلان بفلان، إذا شان خلقه بقطع أنفه أو أذنيه، أو سمل عينيه ونحو ذلك. والثاني: أن المثلات: الأمثال التي ضربها الله ﷻ لهم، قاله مجاهد، وأبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَعْفِرٌ لِلنَّاسِ عَلَنَ ظُلْمِهِمْ﴾ قال ابن عباس: لدو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا، وإنه لشديد العقاب للمصرين على الشرك. وقال مقاتل: لدو تجاوز عن شركهم في تأخير العذاب، وإنه لشديد العقاب إذا عذب.

فصل

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، والمحققون على أنها محكمة^(١).

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ «لولا» بمعنى هلاً، والآية التي طلبوها، مثل عصا موسى وناقاة صالح. ولم يقنعوا^(٢) بما رأوا، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ أي: مخوف عذاب الله، وليس لك من الآيات شيء. وفي قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ستة أقوال: أحدها: أن المراد بالهادي: الله ﷻ، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، والنخعي، فيكون المعنى: إنما إليك الإنذار، والله الهادي. والثاني: أن الهادي: الداعي، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أن الهادي: النبي ﷺ، قاله الحسن، وعطاء، وقاتدة، وابن زيد، فالمعنى: ولكل قوم نبي ينذرهم. والرابع: أن الهادي: رسول الله ﷺ أيضاً، قاله عكرمة، وأبو الضحى، والمعنى: أنت منذر، وأنت هادٍ. والخامس: أن الهادي: العمل، قاله أبو العالية. والسادس: أن الهادي: القائد إلى الخير أو إلى الشر، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقد روى المفسرون من طرق ليس فيها ما يثبت

(١) وهو الصحيح، فإنه وإن كان معنى «الظلم» كما يتبادر من سياق الآية هو الشرك، ولكن لا يترتب على هذا التفسير قبول دعوى النسخ، ذلك أن الله ﷻ وصف نفسه في الآية بأنه «شديد العقاب» كما وصف نفسه بأنه «ذو مغفرة» ومعنى هذا أنه إنما يغفر لمن رجع عن الشرك، وأتاب إلى الله، أما المصرون على الكفر، فإنه شديد العقاب لهم على كفرهم.

(٢) في نسخة: «يقنعوا».

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية، وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، فقال: «أنا المنذِرُ»، وأوماً بيده إلى منكب عليّ، فقال: «أنت الهادي يا عليّ بك يهتدي من بعدي»^(١). قال المصنف: وهذا من موضوعات الرافضة. ثم إن الله تعالى أخبرهم عن قدرته، رداً على منكري البعث، فقال: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ» من علقه أو مُضغته، أو زائد أو ناقص، أو ذَكَرٍ أو أُنْثَىٰ، أو واحد أو اثنين أو أكثر، «وَمَا يَفِيضُ الْأَرْحَامُ» أي: وما تنقص، أشهر، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، والضحاك، ومقاتل، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: وما تغيض: بالسُّقْطِ الناقص، وما تزاد: بالولد التام، رواه العوفي عن ابن عباس، وعن الحسن كالمولين. والثالث: وما تغيض: بإراقة الدم في الحُمْلِ حتى يتضاءل الولد، وما تزاد: إذا أمسكتِ الدَّمُ فيعظم الولد، قاله مجاهد. والرابع: ما تغيض الأرحام: مَنْ ولدته من قبل، وما تزاد: مَنْ تلده من بعد، روي عن قتادة، والسُّدِّي.

قوله تعالى: «وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» أي: بقدر. قال أبو عبيدة: هو مفعولٌ من القَدْرِ. قال ابن عباس: عَلِمَ كُلُّ شَيْءٍ فَقَدْرَهُ تَقْدِيرًا.

قوله تعالى: «عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» قد شرحنا ذلك في [الانعام: ٦]. و«الْكَبِيرُ» بمعنى: العظيم. ومعناه: يعود إلى كبر قدره واستحقاقه صفات العلو، فهو أكبر من كُلِّ كبير، لأن كل كبير يصغر بالإضافة إلى عظمته. ويقال: «الكبير» الذي كَبُرَ عن مشابهة المخلوقين. فأما «الْمُتَكَالِ» فقرأ ابن كثير «المتعالي» بياء في الوصل والوقف، وكذلك روى عبد الوارث عن أبي عمرو، وأثبتها في الوقف دون الوصل ابنُ سُنُبُوذٌ عن قُتَيْبِ، والباقون بغير بياء في الحالين. والمتعالي هو المنتزَعُ عن صفات المخلوقين، قال الخطابي: وقد يكون بمعنى العالي فوق خَلْفِهِ. وروي عن الحسن أنه قال: المتعالي عمّا يقول المشركون.

«سَوَاءٌ يَنْكُرُ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالْأَيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ»

قوله تعالى: «سَوَاءٌ يَنْكُرُ» قال ابن الأنباري: ناب «سواء» عن مُسْتَوٍ، والمعنى: مستوٍ منكم «مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ» أي: أخفاه وكنمه «وَمَنْ جَهَرَ بِهِ» أعلنه وأظهره، والمعنى: أن السرَّ والجهر سواء عنده.

قوله تعالى: «وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالْأَيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ» فيه قولان: أحدهما: أن المستخفي: هو المستتر المتواري في ظلمة الليل، والسارب بالنهار: الظاهر المتصرف في حوائجه. يقال: سَرَبَتِ الإِبِلُ تَسْرِبٌ: إذا مضت في الأرض ظاهرةً، وأنشدوا:

أرى كُلَّ قَوْمٍ قَارَبُوا قَيْدَهُ فَخَلَّيْهِمْ وَنَحْنُ خَلَفْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ

أي: ذاهب. ومعنى الكلام: أن الظاهر والخفي عنده سواء، هذا قول الأكثرين. وروي العوفي عن ابن عباس: «وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ» قال: صاحب رِيبةٍ بالليل، فإذا خرج بالنهار، أرى الناس أنه بريء من الإثم. والثاني: أن المستخفي بالليل؛ الظاهر، والسارب بالنهار: المستتر، يقال: انسرب الوحش: إذا دخل في كِنَابِهِ، وهذا قول الأخفش، وذكره قطرب أيضاً، واحتج له ابن جرير بقولهم: حَفَيْتُ الشَّيْءَ: إذا أظهرته، ومنه «أَكَادُ أَخْفِيًا» [طه: ١٥] بفتح الألف، أي: أظهرها، قال: وإنما قيل للمتواري؛ سارِبٌ، لأنه صار في السَرِبِ مستخفياً.

(١) ابن جرير الطبري ١٠٨/١٣ وفي سننه الحسن بن الحسين العوفي الكوفي، قال أبو حاتم: لم يكن يصدق عندهم، وقال ابن عدي: لا يشبه حديثه حديث الثقات، وقال ابن حبان: يأتي عن الأثبات بالملاقات، ويروي المقلوبات. وقد ساق الذهبي هذا الحديث في ترجمته، وعده من منكراته، ثم قال: رواه ابن جرير في «تفسيره» عن أحمد بن يحيى عن الحسن بن معاذ، ومعاذ نكرة لفلن الآفة منه، وقال في ترجمة معاذ بن مسلم: مجهول وله عن عطاء بن السائب خير باطل سقاه في الحسن بن الحسين. وذكره ابن كثير ٥٠٢/٢ من رواية ابن جرير وقال: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة.

(٢) البيت من قصيدة في «المفضليات» ٢٠٨، و«منتهى الطلب» ٢٩٥، و«الحمامسة» بشرح المرزوقي ٧٢٨، و«اللسان»: سرب. للأخفش بن شهاب بن شريق بن ثمامة بن أرقم بن عدي بن معاوية بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل، وهو فارس المصا، والمصا فرسه، وهو شاعر جاهلي قديم قبل الإسلام بدهر. وقوله: فهو سارب، أي: توجه للمرعى، يريد أن الناس أقاموا في موضع لا يجترون على النقلة إلى غيره، ونحن أعزاء نذهب حيث شئنا لا يقدر أحد على منعتنا.

﴿لَمْ مَعَّيْتُمْ مَنِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُبَدِّلُوا مَا بَأْسِهِمْ وَإِذًا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ مَعَّيْتُمْ﴾ في هاء «له» أربعة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس. والثاني: إلى الملك من ملوك الدنيا، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثالث: إلى الإنسان، قاله الزجاج. والرابع: إلى الله تعالى، ذكره ابن جرير، وأبو سليمان الدمشقي. وفي المعقبات قولان: أحدهما: أنها الملائكة، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والحسن، وقتادة في آخرين. قال الزجاج: والمعنى: للإنسان ملائكة يعقبون، يأتي بعضهم يعقب بعض. وقال أكثر المفسرين: هم الحَفَظَةُ، اثنان بالنهار واثنان بالليل، إذا مضى فريق، خلف بعده فريق، ويجتمعون عند صلاة المغرب والفجر^(١). وقال قوم، منهم ابن زيد: هذه الآية خاصة في رسول الله ﷺ، عزم عامر بن الطفيل وأربيد بن قيس على قتله، فمنعه الله منهما، وأنزل هذه الآية. والقول الثاني: أن المعقبات حُرَّاس الملوك الذين يتعاقبون الحرس، وهذا مروى عن ابن عباس، وعكرمة. وقال الضحاك: هم السلاطين المشركون المحترسون من الله تعالى. وفي قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ سبعة أقوال: أحدها: يحرسونه من أمر الله ولا يقدرون، هذا على قول من قال: هي في المشركين المحترسين من أمر الله. والثاني: أن المعنى: حَفَظَهُمْ له من أمر الله، قاله ابن عباس، وابن جبير، فيكون تقدير الكلام: هذا الحفظ مما أمرهم الله به. والثالث: يحفظونه بأمر الله، قاله الحسن، ومجاهد، وعكرمة. قال اللغويون: والباء تقوم مقام «من»، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. والرابع: يحفظونه من الجن، قاله مجاهد، والنخعي. وقال كعب: لولا أن الله تعالى وكل بكم ملائكة يذُبُّونَ عنكم في مطعمكم ومشربكم وعَوْرَاتِكُمْ، إِذَا لَتَخَطَّفْتُمْكُمُ الجن. وقال مجاهد: ما من عبْدٍ إِلَّا وَمَلَكٌ مَوْكَلٌ به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فإذا أَرَادَهُ شيء، قال: وراءك وراءك، إِلَّا شيء قد قضي له أن يصيبه. وقال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى عليّ ﷺ، فقال: احترس، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدِّر، فإذا جاء القدر خَلِيَا بينه وبينه، وإن الأجل جُتِيَ حَصِينَةً. والخامس: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، والمعنى: له معقبات من أمر الله يحفظونه، قاله أبو صالح، والفراء. والسادس: يحفظونه لأمر الله فيه حتى يُسَلِّمُوهُ إلى ما قَدَّر له، ذكره أبو سليمان الدمشقي، واستدل بما روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: يحفظونه من أمر الله، حتى إذا جاء القَدْرُ خَلَّوْا عنه. وقال عكرمة: يحفظونه لأمر الله. والسابع: يحفظون عليه الحسنات والسيئات، قاله ابن جريج. قال الأخفش: وإنما أنث المعقبات لكثرة ذلك منها، نحو النسابة، والعلامة، ثم ذكَّر في قوله: «يحفظونه» لأن المعنى مذكَّر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ أي: لا يسلبهم نِعْمَهُ ﴿حَتَّىٰ يُبَدِّلُوا مَا بَأْسِهِمْ﴾ فيعملوا بمعاصيه. قال مقاتل: ويعني بذلك كفار مكة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه العذاب. والثاني: البلاء. قوله تعالى: ﴿فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ أي: لا يردُّه شيء ولا تنفعه المعقبات. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ أي: من ولي يدفع عنهم العذاب والبلاء.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآزْفَ حَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآزْفَ حَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم،

(١) روى البخاري ٢٨/٢، ومسلم ٤٣٩/١ عن أبي هريرة ؓ، أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يرجع اللين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عيادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون». قال ابن كثير ٥٠٣/٢ أي: للبعد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل، وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، فإثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه يحرسانه، واحد من رواه، وآخر من قدامه. فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكتابتان.

قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال قتادة: فالمسافر خاف أذاه ومشقته والمقيم يرجو منفعة. والثاني: خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال الحسن. والثالث: خوفاً للبلد الذي يخاف ضرر المطر وطمعاً لمن يرجو الانتفاع به، ذكره الزجاج. والرابع: خوفاً من العقاب وطمعاً في الثواب، ذكره الماوردي. وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد يقول: إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ السَّحَابُ الثَّقَالَ﴾ أي: ويخلق السحاب الثقال بالماء. قال الفراء: السحاب، وإن كان لفظه واحداً، فإنه جمع واحده سحابة، جعل نعتة على الجمع، كما قال: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَقَرِي خَضِرَ وَعَبْرِي جَسَانِ﴾ [الرحمن: ٧٦] ولم يقل: أخضر، ولا حسن.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خَيْفِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِقَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه اسم الملك الذي يزجر السحاب، وصوته: تسيحه، قاله مقاتل. والثاني: أنه الصوت المسموع. وإنما حُص الرعد بالتسيح، لأنه من أعظم الأصوات. قال ابن الأنباري: وإخباره عن الصوت بالتسيح مجاز، كما يقول القائل: قد غمّني كلامك.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خَيْفِهِ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله ﷻ، وهو الأظهر. قال ابن عباس: يخافون الله، وليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله شيء. والثاني: أنها ترجع إلى الرعد، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أريد بن قيس، وعامر بن الطفيل، أتيا إلى رسول الله ﷺ يريدان الفتك به، فقال: «اللهم اكفنيهما بما شئت»، فأما أريد فأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائف صاح فأحرقته، وأما عامر فأصابته عذبة فهلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، هذا قول الأكثرين، منهم ابن جريج^(١)، وأريد هو أخو لبيد بن ربيعة لأمه. والثاني: أنها نزلت في رجل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: حدّثني يا محمد عن إلهك، أياقوت هو؟ أذهب هو؟ فنزلت على السائل صاعقة فأحرقته، ونزلت هذه الآية، قاله عليّ^(٢). قال مجاهد: وكان يهودياً. وقال أنس بن مالك: بعث رسول الله ﷺ إلى بعض فراعنة العرب يدعوه إلى الله تعالى، فقال للرسول: وما الله، أين ذهب هو، أم من فضة، أم من نحاس؟ فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ارجع إليه فادعه»، فرجع، فأعاد عليه الكلام، إلى أن رجع إليه ثالثة، فبينما هما يتراجعان الكلام، إذ بعث الله سحابة حبال رأسه، فرعدت ووقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه، ونزلت هذه الآية^(٣). والثالث: أنها في رجل أنكر القرآن وكذب رسول الله ﷺ فأرسل الله عليه صاعقة فأهلكته، ونزلت هذه الآية، قاله قتادة^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: يكذبون بعظمة الله، قاله ابن عباس. والثاني: يخاصمون في الله، حيث قال قائلهم: أهو من ذهب، أم من فضة؟ على ما تقدم بيانه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحِقَابِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: شديد الأخذ، قاله عليّ^(٥). والثاني: شديد المكر،

(١) «الطبري» ١٣/١٢٦، بنحوه، عن ابن جريج، والواحد في «أسباب النزول» ١٥٦، ١٥٧ عن ابن عباس في رواية أبي صالح وابن جريج وابن زيد، وذكره السيوطي في «الدر» ٤/٥٢، وزاد نسبه لأبي الشيخ عن ابن جريج، وذكره ابن كثير ٢/٥٠٦ من رواية الطبراني مطولاً بنحوه، وفي سننه عبد العزيز بن عمران الزهري المدني، قال البخاري: لا يكتب حديثه، وقال النسائي وغيره: متروك.

(٢) «الطبري» ١٣/١٢٥.

(٣) «الطبري» ١٣/١٢٥، والواحد في «أسباب النزول» ١٥٦، وفي سننه علي بن أبي سارة الشيباني، قال أبو داود: تركوا حديثه، وقال البخاري: في حديثه نظر، وقال أبو حاتم: ضعيف، وذكره الهشمي في «المجمع» ٧/٤٢، وقال: رواه أبو يعلى، والبيزار، والطبراني في «الأوسط»، ورجال البيزار رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة، وفي رجال أبي يعلى والطبراني علي بن أبي سارة وهو ضعيف.

(٤) «الطبري» ١٣/١٢٦، وأورده السيوطي في «الدر» ٤/٥٢، وزاد نسبه للخراطي.

شديد العداوة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: شديد العقوبة، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وقال مجاهد في رواية عنه: شديد الانتقام. وقال أبو عبيدة: شديد العقوبة والمكر والنكال، وأشد للأعشى:

فَرِحُ نَبْعٍ يَهْتَرُ فِي غُضْنِ الْمَجْدِ
إِنْ يُعَاقِبَ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُفِدْ
د، غزيرُ التُّدَى، شديدُ المِحَالِ
حَطَّ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي^(١)

وقال ابن قتيبة: شديد المكر واليد، وأصل المحال: الحيلة. والرابع: شديد القوة، قاله مجاهد. قال الزجاج: يقال: ما حلته محالاً: إذا قاوته حتى تبين له أيكما الأشد، والمحل في اللغة: الشدة. والخامس: شديد الحقد، قاله الحسن البصري فيما سمعناه عنه مسنداً من طرق، وقد رواه عنه جماعة من المفسرين منهم ابن الأنباري، والنقاش، ولا يجوز هذا في صفات الله تعالى. قال النقاش: هذا قول مُتَكَرِّرٌ عند أهل الخبر والنظر في اللغة لا يجوز أن تكون هذه صفة من صفات الله ﷻ. والذي اختاره في هذا ما قاله عليّ ﷺ: شديد الأخذ، يعني: أنه إذا أخذ الكافر والظالم لم يفله من عقوباته.

﴿لَمْ دَعَوْهُ لَنَلِّيْ وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُوْنَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفْتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَتَلَفَّ فَإِنَّهُ لَا يَدْعَاهُ الْكٰفِرِيْنَ إِلَّا فِي سَكَلٍ﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ دَعَوْهُ لَنَلِّيْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها كلمة التوحيد، وهي: لا إله إلا الله، قاله عليّ، وابن عباس، والجمهور، فالمعنى: له من خلقه الدعوة الحق، فأضيفت الدعوة إلى الحق، لاختلاف اللفظين. والثاني: أن الله ﷻ هو الحق، فمن دعاه دعا الحق، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: الأصنام يدعونها آلهة. قال أبو عبيدة: المعنى: والذين يدعون غيره من دونه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَجِيبُوْنَ لَهُمْ﴾ أي: لا يجيبونهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبَسِطَ كَفْتَهُ إِلَى الْمَاءِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه العطشان يمدُّ يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغته، قاله عليّ ﷺ، وعطاء. والثاني: أنه الرجل العطشان قد وضع كفيه في الماء وهو لا يرفعهما، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنه العطشان يرى خياله في الماء من بعيد، فهو يريد أن يتناوله فلا يقدر عليه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أنه الرجل يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً، قاله مجاهد. والخامس: أنه الباسط كفيه ليقبض على الماء حتى يؤدّيه إلى فيه، لا يتم له ذلك، والعرب تقول: من طلب ما لا يجد فهو القابض على الماء، وأشدوا:

وَأَنِّي وَإِيَّاكُمْ وَسَوْقاً إِلَيْكُمْ
أَي: لم تحمله، والوسق: الجمل، وقال آخر:
فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْسِنِي وَبَيْسِنَهَا
هذا قول أبي عبيدة، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿رِمَا دُمَاءَ الْكٰفِرِيْنَ إِلَّا فِي سَكَلٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: وما دعاء الكافرين ربهم إلا في ضلال، لأن أصواتهم محجوبة عن الله، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: وما عبادة الكافرين الأصنام إلا في خسران وباطل، قاله مقاتل.

(١) «ديوانه» ٧، ٩، «ومجاز القرآن» ١/٣٢٥، «المسطح» ٩٠٧، «القرطبي» ٩/٢٩٩، «اللسان» و«التاج»: محل. وقال ابن جرير بعد أن أورد البيت الأول: هكذا كان ينشد معمر بن المثنى فيما حدثت عن علي بن المغيرة عنه، وأما الرواية بعد فإنهم ينشدون:

فَرِحُ نَبْعٍ يَهْتَرُ فِي غُضْنِ الْمَجْدِ
د كثير التُّدَى عَظِيْمِ الْمِحَالِ
وفسر ذلك معمر بن المثنى، وزعم عنه أنه به: العقوبة والمكر والنكال.

(٢) البيت لضابن بن الحارث البرجمي، «الطبري» ١٣/١٢٩، «ومجاز القرآن» ١/٣٢٧، «اللسان»: وسق، و«الخزانة» ٤/٨٠.

(٣) البيت غير منسوب في «الطبري» ١٣/١٢٩، «ومجاز القرآن» ١/٣٢٧، «القرطبي» ٩/٣٠٠.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدْوَىٰ وَالْأَمْصَالِ﴾ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: من الملائكة، ومن في الأرض من المؤمنين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. وفي معنى سجود الساجدين كرهاً ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سجود من دخل في الإسلام بالسيف، قاله ابن زيد. والثاني: أنه سجود ظل الكافر، قاله مقاتل. والثالث: أن سجود الكاره تذلله وانقياده لما يريد الله منه من عافية ومرض وغنى وفقر.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي: وتسجد ظلال الساجدين طوعاً وكرهاً، وسجودها: تمايلها من جانب إلى جانب، وانقيادها للتسخير بالطول والقصر. قال ابن الأنباري: قال اللغويون: الظل ما كان بالعدوات قبل انبساط الشمس، والفيء ما كان بعد انصراف الشمس، وإنما سُمي فيئاً، لأنه فاء، أي: رجع إلى الحال التي كان عليها قبل أن تنبسط الشمس، وما كان سوى ذلك فهو ظلٌّ، نحو ظل الإنسان، وظل الجدار، وظل الثوب، وظل الشجرة، قال حميد بن ثور:

فلا الظلُّ من برد الضحى تستطيعه

وقال ليبد:

بينما الظلُّ ظليلٌ مُؤنقٌ

وقال آخر:

أيا أثلاث القاع من بطن توضح

حنيذني إلى أظلالك طویل^(١)

وقيل: إن الكافر يسجد لعبر الله، وظله يسجد لله. وقد شرحنا معنى العُدْوَى والأصال في [الأعراف: ٧].

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَشْيِهِمْ شَيْئًا وَلَا صِرَاطٌ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ اللَّطْفُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ إنما جاء السؤال والجواب من جهة، لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء، فلما لم ينكروا، كان كأنهم أجابوا. ثم الزمهم الحجة بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: الأصنام توليتهم وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، فكيف لغيرهم؟ ثم ضرب مثلاً للذي يعبد الأصنام والذي يعبد الله بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ يعني المشرك والمؤمن ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «تستوي» بالياء. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «يستوي» بالياء. قال أبو علي: التأنيت حسن، لأنه فعل مؤنث، والتذكير سائح، لأنه تأنيت غير حقيقي. ويعني بالظلمات والنور: الشرك والإيمان. ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، فتشابه خلق الله بخلق هؤلاء؟ وهذا استفهام إنكار، والمعنى: ليس الأمر على هذا، بل إذا فكروا علموا أن الله هو المنفرد بالخلق، وغيره لا يخلق شيئاً.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال الزجاج: قُلْ ذلك وبينه بما أخبرت به من الدلالة في هذه السورة مما يدل على أنه خالق كل شيء، وقد ذكرنا في [يوسف: ٣٩] معنى الواحد القهار.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَيْضِ الْأَحْمَقِ كَذَلِكَ يُصْرَبُ اللَّهُ الْحَقُّ وَالظُّلْمُ فَمَا أَزِيدُ فَذَهَبَ جُفَاءً وَأَمَا مَا بَقِيَ النَّاسُ فَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَصْرَبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ ﴿٧٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا

(١) «ديوانه» ٤٠، و«اللسان»: فياً.

(٢) «ديوانه» ١٨١، وروايته فيه:

طال قزْنُ السُّنْسِ لَمَّا طَلَعَتْ

فإذا ما حَضَرَ اللَّيْلُ اضْمَحَلَّ

(٣) البيت لمجون ليلى: «ديوانه» ٢٢١، وبعض الأعراب في «الزهر» ٢٦٦، وليحيى بن أبي طالب في «الأمالي» ١/١٢٣، و«مصارع المشاق» ٢٩٤/١، و«معجم البلدان»: قرقرى.

لِرَبِّهِمُ الْحَسَنُ وَالذَّرِيرُ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ لَرَأَوْهُمُ كَافِرِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ وهي جمع وادٍ، وهو كل منفرج بين جبلين يجتمع إليه ماء المطر فيسيل ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: بمبلغ ما تحمل، فإن صَعُرَ الوادي، قل الماء، وإن هو اتسع، كَثُرَ. وقرأ الحسن، وابن جبير، وأبو العالية، وأيوب، وابن يعمر، وأبو حاتم عن يعقوب: «بِقَدَرِهَا» بإسكان الدال. وقوله: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ» توسع في الكلام، والمعنى: سالت مياهها، فحُذِفَ المضاف، وكذلك قوله: «بِقَدَرِهَا» أي: بقدر مياهها. ﴿فَأَخَذَتِ الْأَرْضُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي: عاليًا فوق الماء، فهذا مثل ضربه الله ﷻ. ثم ضرب مثلاً آخر، فقال: ﴿رَبِّمَآ يُرِيدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «تُورِدُونَ عليه» بالتاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم بالياء. قال أبو علي: من قرأ بالتاء، فليما قبله من الخطاب، وهو قوله: «أفأخذتم»، ويجوز أن يكون خطاباً عامّاً للكتابة، ومن قرأ بالياء فلأن ذكر الغيبة قد تقدم في قوله: «أم جعلوا الله شركاء». ويعني بقوله: ﴿رَبِّمَآ يُرِيدُونَ عَلَيْهِ﴾ ما يدخل إلى النار فيُذاب من الجواهر «أَبْيَافَهُ جَلِيَّةٌ» يعني: الذهب والفضة «أَوْ مَتَّعَ» يعني: الحديد والصفير والنحاس والرصاص تُتخذ منه الأواني والأشياء التي يُنتفع بها، ﴿زَبَدٌ مِّثْلُ نَيْلٍ﴾ أي: له زَبَدٌ إذا أذيب مثل زَبَدِ السَّيْلِ، فهذا مثل آخر. وفيما ضرب له هذان المثلان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن، شُبِّهَ نزوله من السماء بالماء، وشُبِّهَ قلوبُ الجبابرة بالأودية تحمل منه على قدر اليقين والشك، والعقل والجهل، فيستكن فيها، فينتفع المؤمن بما في قلبه كانضاع الأرض التي يستقر فيها المطر، ولا ينتفع الكافر بالقرآن لمكان شكّه وكفره، فيكون ما حصل عنده من القرآن كالزبد وكخبث الحديد لا يُنتفع به. والثاني: أنه الحق والباطل، فالحق شُبِّهَ بالماء الباقي الصافي، والباطل مشبّه بالزبد الذاهب، فهو وإن علا على الماء فإنه سيمحق، كذلك الباطل، وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال، فإن الله سيطلبه. والثالث: أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فمثل المؤمن واعتقاده وعمله كالماء المنتفع به، ومثل الكافر واعتقاده وعمله كالزبد.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما ذكر هذا، يضرب الله مثل الحق والباطل، وقال أبو عبيدة: كذلك يمثل الله الحق ويمثل الباطل. فأما الجفَاء، فقال ابن قتيبة: هو ما رمى به الوادي إلى جنباته، يقال: أجبأت القِدْرُ بزبدِها: إذا ألقته عنها. قال ابن فارس: الجفَاء: ما نفاه السيل، ومنه اشتقاق الجفَاء. وقال ابن الأنباري: «جفَاء» أي: بالياً متفرقاً. قال ابن عباس: إذا مُسَّ الزُّبْدُ لم يكن شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَبْتَغِ الْكَافِرُ﴾ من الماء والجواهر التي زال زَبَدُهَا ﴿فَيَسْتَكُنُّ فِي الْأَرْضِ﴾ فيُنتفع به ﴿كَذَلِكَ﴾ يبقى الحق لأهله.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ يعني: المؤمنين، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: الكفار. قال أبو عبيدة: استجبت لك واستجبتك سواء، وهو بمعنى: أجت. وفي الحُسنى ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الجنة، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنها الحياة والرزق، قاله مجاهد. والثالث: كل خير من الجنة فما دونها، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿لَأَنْقَذُوا يَوْمَ﴾ أي: ليجعلوه فداء أنفسهم من العذاب، ولا يُقبل منهم. وفي سوء الحساب ثلاثة أقوال: أحدها: أنها المناقشة بالأعمال، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس. وقال النخعي: هو أن يحاسب بذنبه كله، فلا يُغفر له منه شيء. والثاني: أن لا تُقبل منهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. والثالث: أنه التوبيخ والتقريع عند الحساب.

﴿أَنْتَ يَوْمَ تَأْتِيكُمُ الْمَوْتُ مِنْ أَيْنَ لَا تَشْعُرُ وَأَنْتَ يَوْمَ تَأْتِيكُمُ الْمَوْتُ مِنْ أَيْنَ لَا تَشْعُرُ﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ يَوْمَ تَأْتِيكُمُ الْمَوْتُ مِنْ أَيْنَ لَا تَشْعُرُ﴾ قال ابن عباس: نزلت في حمزة، وأبي جهل. ﴿إِنَّمَا يَذُكُّرُ﴾ أي: إنما يُعظ ذو العقول. والتذكُّر: الاتعاظ.

﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (١٦) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾
قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ في هذا العهد قولان: أحدهما: أنه ما عاهدكم عليه حين استخراجهم من ظهر آدم. والثاني: ما أمرهم به وفرضه عليهم. وفي الذي أمر الله به، ﴿١٦﴾، أن يوصل، ثلاثة أقوال قد نسبناها إلى قائلها في أول سورة البقرة: [٢٧]، وقد ذكرنا سوء الحساب آنفاً.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَمْ عُفَى آلِدَارِ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ يَصِلُوا إِلَىٰ صَالِحٍ مِّنَ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٨﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَدَقْتُمْ فِيمَ عَنَىٰ آلِدَارِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على ما أمروا به ﴿ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: طلباً لرضاه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أتموها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال في طاعة الله. قال ابن عباس: يريد بالصلاة: الصلوات الخمس، وبالإفناق: الزكاة.
قوله تعالى: ﴿وَيَدْرُؤُونَ﴾ أي: يدفعون ﴿وَالْحَسَنَةَ النَّيِّتَةَ﴾. وفي المراد بهما خمسة أقوال: أحدها: يدفعون بالعمل الصالح الشَّرُّ من العمل، قاله ابن عباس. والثاني: يدفعون بالمعروف المنكر، قاله سعيد بن جبیر. والثالث: بالعضو الظلم، قاله جُوَيْر. والرابع: بالحلم السفة، كأنهم إذا سُفِه عليهم حَلُمُوا، قاله ابن قتيبة. والخامس: بالتوبة الذنب، قاله ابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ عُفَىٰ آلِدَارِ﴾ قال ابن عباس: يريد: عقابهم الجنة، أي: تصير الجنة آخر أمرهم.
قوله تعالى: ﴿وَمِنَ صَالِحٍ﴾ وقرأ ابن أبي عمير: «صَلِح» بضم اللام. ومعنى «صالح»: آمن، وذلك أن الله تعالى ألحق بالمؤمن من أهله المؤمنين إكراماً له، لتقرَّ عينه بهم. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ قال ابن عباس: بالتحية من الله والتحفة والهدايا.

قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزجاج: أضمم القول هاهنا، لأن في الكلام دليلاً عليه. وفي هذا السلام قولان: أحدهما: أنه التحية المعروفة، يدخل الملك فيسلم وينصرف. قال ابن الأنباري: وفي قول المسلم: سلام عليكم، قولان: أحدهما: أن السلام: اللُّهُ ﷻ، والمعنى: الله عليكم، أي: على حفظكم. والثاني: أن المعنى: السلامة عليكم، فالسلام جمع سلامة. والثاني: أن معناه: إنما سلمكم الله تعالى من أهوال القيامة وشُرِّها بصبركم في الدنيا. وفيما صبراً عليه خمسة أقوال: أحدها: أنه أمر الله، قاله سعيد بن جبیر. والثاني: فضول الدنيا، قاله الحسن. والثالث: الدين. والرابع: الفقر، روي عن أبي عمران الجوني. والخامس: أنه فقد المحبوب، قاله ابن زيد.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ نَصْرٌ ﴿٢٠﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ قد سبق تفسيره في سورة البقرة: [٢٧]. وقال مقاتل: نزلت في كفار أهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ نَصْرٌ﴾ أي: عليهم.
﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢١﴾﴾
قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع على من يشاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيِّق. ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: يريد مشركي مكة، فرحوا بما نالوا من الدنيا فطغوا وكذبوا الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: بالقياس إليها ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي: كالشيء الذي يُتَمَتَع به، ثم يفنى (١).
﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي. قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾
قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نزلت في مشركي مكة حين طلبوا من رسول الله ﷺ مثل آيات الأنبياء.. ﴿قُلْ إِنَّ

(١) روى الإمام أحمد في «المستند» ٢٢٩/٤ عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه فيه في اليوم، فلينظر بم يرجع، وأشار إلى السبابة»، ورواه مسلم في «صحيحه» ٢١٩٣/٤.

اللَّهُ يُبْدِلُ مَنْ يُشَاءُ ﴿٢٨﴾ أي: يرؤه عن الهدى كما ردكم بعدما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى الحق، وإنما يرجع إلى الحق من شاء الله رجوعه، فكانه قال: ويهدي من يشاء.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿٢٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَنَبَّأَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا بدل من قوله: ﴿أَنَابَ﴾، والمعنى: يهدي الذين آمنوا، ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ في هذا الذكر قولان: أحدهما: أنه القرآن. والثاني: ذكر الله على الإطلاق. وفي معنى هذه الطمأنينة قولان: أحدهما: أنها الحب له والأنس به. والثاني: السكون إليه من غير شك، بخلاف الذين إذا ذُكر الله اشمازت قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: «ألا» حرف تنبيه وابتداء، والمعنى: تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين، لأن الكافر غير مطمئن القلب.

قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: أنه اسم شجرة في الجنة. روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ «أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»^(١)، وقال أبو هريرة: طوبى: شجرة في الجنة، يقول الله ﷻ لها: تفتقي لعبدي عما شاء، فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها، وعن الإبل بأزمتها، وعمًا شاء من الكسوة^(٢). وقال شهر بن حوشب: طوبى: شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها أغصانها، من وراء سور الجنة، وهذا مذهب عطية، وشمر بن عطية، ومغيث بن سمي، وأبي صالح. والثاني: أنه اسم الجنة بالحشية، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. قال المصنف: وقرأت على شيخنا أبي منصور عن سعيد بن مسجوح قال: طوبى: اسم الجنة بالهندية، وممن ذهب إلى أنه اسم الجنة عكرمة، وعن مجاهد كالتولين. والثالث: أن معنى طوبى لهم: فرح وفرقة عين لهم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أن معناه: نعى لهم، قاله عكرمة في رواية، وفي رواية أخرى عنه: نعم ما لهم. الخامس: غبطة لهم، قاله سعيد بن جبيرة، والضحاك. والسادس: أن معناه: خير لهم، قاله النخعي في رواية، وفي أخرى عنه قال: الخير والكرامة اللذان أعطاهم الله. وروى معمر عن قتادة قال: يقول الرجل للرجل: طوبى لك، أي: أصبت خيراً، وهي كلمة عربية. والسابع: حسنى لهم، رواه سعيد عن قتادة عن الحسن. والثامن: أن المعنى: العيش الطيب لهم. و«طوبى» عند النحويين: فعلى من الطيب، هذا قول الزجاج. وقال ابن الأنباري: تأويلها: الحال المستطابة والحالة المستلذذة، وأصلها: «طَيِّبِي» فصارت الياء وأوا لسكونها وانضمام ما قبلها كما صارت في «موقن» والأصل فيه «مُيقن» لأنه مأخوذ من اليقين، فغلبت الضمة فيه الياء فجعلتها وأوا.

قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ مَا تَنَبَّأَ﴾ والمرجع والمقلَّب.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: كما أرسلنا الأنبياء قبلك.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ لما قال لكفار قريش: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن؟ فنزلت هذه الآية، وقيل لهم: إن الرحمن الذي أنكرتم هو ربي، هذا قول الضحاك عن ابن عباس^(٣). والثاني: أنهم لما أرادوا كتاب الصلح يوم الحديبية، كتب علي ﷺ: بسم الله الرحمن

(١) «الطبري» ١٤٩/١٣، ورواه الإمام أحمد في «مسنده»، وابن حبان من حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد، وخرجه السيوطي في «الدر» ٥٩/٤ وزاد نسبة لأبي يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والخطيب في «تاريخه».

(٢) «الطبري» ١٤٧/١٣ من حديث شهر بن حوشب عن أبي هريرة. وذكره ابن كثير في «التفسير» ٥١٣/٢، وأورده السيوطي في «الدر» ٥٩/٤ وزاد نسبة لعبد الرزاق، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) «أسباب النزول» للواحدي ١٥٧ بدون سند.

الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: ما تعرف الرحمن إلا مسيلمة، فنزلت هذه الآية^(١)، قاله قتادة، وابن جريج، ومقاتل. والثالث: أن رسول الله ﷺ كان يوماً في الحجر يدعو، وأبو جهل يستمع إليه وهو يقول: يا رحمن، فولى مُذْبِراً إلى المشركين فقال: إن محمداً كان ينهانا عن عبادة الألهة وهو يدعو إليهن! فنزلت هذه الآية، ذكره علي بن أحمد النيسابوري.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَنَابٍ﴾ قال أبو عبيدة: هو مصدر بُت إليه.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بِلِ اللَّهِ الْآمَنُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِصَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ مُرْسِلٌ مِّن قِبَالِكَ فَأَتَيْتَ الَّذِينَ كَفَرُوا تَمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ سبب نزولها أن مشركي قريش قالوا للنبي ﷺ: لو وسَّعت لنا أودية مكة بالقرآن، وسيَّرت جبالها فاحترناها، وأحييت من مات منا، فنزلت هذه الآية^(٢)، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال الزبير بن العوام: قالت قريش لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً فنزرع، أو يحيي لنا موتانا فنكلهم، أو يصير هذه الصخرة ذهباً فتغنيننا عن رحلة الشتاء وال الصيف فقد كان للأنبياء آيات، فنزلت هذه الآية، ونزل قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]. ومعنى قوله: ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ أي: شققت فجعلت أنهاراً، ﴿أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ أي: أحيوا حتى كلّموا. واختلفوا في جواب «لو» على قولين: أحدهما: أنه محذوف. وفي تقدير الكلام قولان: أحدهما: أن تقديره: لكان هذا القرآن، ذكره الفراء، وابن قتيبة. قال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم. والثاني: أن تقديره: لو كان هذا كله لما آمنوا ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ...﴾ [إلى آخر الآية [الأنعام: ١١١]، قاله الزجاج. والثاني: أن جواب «لو» مقدّم، والمعنى: وهم يكفرون بالرحمن، ولو أنزلنا عليهم ما سألوا، ذكره الفراء أيضاً.

قوله تعالى: ﴿بِاللَّهِ الْآمَنُ جَمِيعًا﴾ أي: لو شاء أن يؤمنوا لآمنوا، وإذا لم يشأ، لم ينفع ما اقترحوا من الآيات. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِئِصَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أفلم يتبين، رواه العوفي عن ابن عباس، وروى عنه عكرمة أنه كان يقرؤها كذلك، ويقول: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس، وهذا قول مجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، ومقاتل. والثاني: أفلم يعلم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، و قتادة، وابن زيد. وقال ابن قتيبة: ويقال: هي لغة للتحع^(٣) «يأس» بمعنى «يعلم»، قال الشاعر:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشُّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَ نِسِي

أَلَمْ تَيَأْسُوا أَنِّي ابْنُ قَارِسٍ زُهَدَمٌ^(٤)

وإنما وقع اليأس في مكان العلم، لأن في علمك الشيء وتيقنك به يأسك من غيره. والثالث: أن المعنى: قد يس الذين آمنوا أن يهدوا واحداً، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً، قاله أبو العالية. والرابع: أفلم ييأس الذين آمنوا أن يؤمن هؤلاء المشركون، قاله الكسائي. وقال الزجاج: المعنى عندي: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون، لأنه لو شاء لهدى الناس جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم جميع الكفار، قاله ابن السائب. والثاني: كفار مكة، قاله مقاتل. فأما القارعة، فقال الزجاج: هي في اللغة: النازلة الشديدة تنزل بأمر عظيم. وفي المراد بها هاهنا قولان: أحدهما: أنها عذاب من السماء، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: السرايا والطلائع التي كان يُفْذِها

(١) «أسباب النزول» للواحد ١٥٧ بدون سند. وانظر ابن كثير ٥١٥/٢.

(٢) «الطبري» ١٥١/١٣ وسنده ضعيف، وأوده ابن كثير ٥١٥/٢ من رواية ابن أبي حاتم، وفي سنده بشر بن عمارة، وعطية العوفي، وهما ضعيفان.

(٣) قال الطبري ١٥٣/١٣: وذكر عن ابن الكلبي أن ذلك لغة لهم من النسخ يقال لهم: وقيل.

(٤) البيت لسحيم بن وثيل البريوعي في «الطبري» ١٥٣/١٣، ومجاز القرآن ٣٣٢/١، و«القرطبي» ٣٢٠/٩، و«اللسان». و«التاج»: يس، و«شواهد

الكشاف» ٢٦٨، وانظر الاختلاف في عزو البيت في «اللسان»، و«التاج»: يس. وزهدم: فرس لعوف جد سحيم.

رسول الله ﷺ، قاله عكرمة. وفي قوله: ﴿أَوْ تَحُلْ قَرْيَا مِّن دَارِهِمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه رسول الله ﷺ، فالمعنى: أو تحل أنت يا محمد، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة. والثاني: أنها القارعة، قاله الحسن. وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: فتح مكة، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: القيامة، قاله الحسن.

﴿أَمَنَ هُوَ قَائِدٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَوْهُمْ أَمْ تَتَّبِعُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْطِئُونَ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ رُؤِينَا لَلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يَضِلَّ اللَّهُ فَا لَمْ يَنْ هَادٍ﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَنَ هُوَ قَائِدٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يعني: نفسه ﷺ. ومعنى القيام هاهنا: التولي لأمر خلقه، والتدبير لأرزقهم وآجالهم، وإحصاء أعمالهم للجزاء، والمعنى: أَمَنَ هو مجازي كل نفس بما كسبت، يثيبها إذا أحسنت، ويأخذها بما جنت، كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام؟ قال الفراء: فترك جوابه، لأن المعنى معلوم، وقد بيَّنه بعد هذا بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ كأنه قيل: كشركانهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سَوْهُمْ﴾ أي: بما يستحقونه من الصفات وإضافة الأفعال إليهم إن كانوا شركاء لله كما يُسمى الله بالخالق، والرازق، والمحيي، والمميت، ولو سَوَّهم بشيء من هذا لكدبوا.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا استفهام منقطع مما قبله، والمعنى: فإن سَوَّهم بصفات الله، فقل لهم: أتنبئونه، أي: أنخبرونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلم لنفسه شريكاً، ولو كان لَعَلِمَهُ؟ قوله تعالى: ﴿أَمْ يَبْطِئُونَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أم بظن من القول، قاله مجاهد. والثاني: يباطل، قاله قتادة. والثالث: بكلام لا أصل له ولا حقيقة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ رُؤِينَا لَلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ قال ابن عباس: زين لهم الشيطان الكفر. قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «وَصَدُّوا» بفتح الصاد، ومثله في: «حم المؤمن» [غافر: ٣٧]. وقرأ عاصم، وحمرزة، والكسائي: «وَصَدُّوا» بالضم فيهما. فمن فتح، أراد: صَدُّوا المسلمين، إما عن الإيمان، أو عن البيت الحرام. ومن ضم، أراد صدهم الله عن سبيل الهدى.

﴿لَّمَّ عَذَابٌ فِي الْمَكْرَةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَّهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ قوله تعالى: ﴿لَّمَّ عَذَابٌ فِي الْمَكْرَةِ الدُّنْيَا﴾ وهو القتل، والأسر، والسقم، فهو لهم في الدنيا عذاب، وللمؤمنين كفارة، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي: أشد ﴿وَمَا لَّهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: مانع يقبهم عذابه. ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي: صفتها أن الأنهار تجري من تحتها، هذا قول الجمهور. وقال ثعلب: خير المثل مُضَمَّرٌ قبله، والمعنى: فيما نصف لكم مثل الجنة، وفيما نقضه عليكم خير الجنة ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ قال الحسن: يريد أن ثمارها لا تنقطع كثمار الدنيا ﴿وَرِظْلُهَا﴾ لأنه لا يزول ولا تنسخه الشمس.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: عاقبة أمرهم المصير إليها. ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُبَكِّرُ بَعْضُهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُرِيتُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ إِلَهُو ادْعُوا وَإِلَهُ مَنَابٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم مسلمو اليهود، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: هم عبد الله بن سلام وأصحابه. والثاني: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ. قاله قتادة. والثالث: مؤمنو أهل الكتابين من اليهود والنصارى، ذكره الماوردي. والذي أنزل إليه: القرآن، فرح به المسلمون وصدَّقوه، وفرح به مؤمنو أهل الكتاب، لأنه صدَّق ما عندهم. وقيل: إن عبد الله بن سلام ومن آمن معه من أهل الكتاب، ساءهم قِلَّةُ ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكوره في التوراة، فلما نزل ذكره فرحوا، وكفر المشركون به، فنزلت هذه الآية. فاما

الأحزاب، فهم الكفار الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالمعاداة، وفيهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم اليهود والنصارى، قاله قتادة. والثاني: أنهم اليهود والنصارى والمجوس، قاله ابن زيد. والثالث: بنو أمية وبنو المغيرة وآل أبي طلحة بن عبد المزى، قاله مقاتل. والرابع: كفار قريش، ذكره الماوردي. وفي بعضه الذي أنكروه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ذكر الرحمن والبعث ومحمد ﷺ، قاله مقاتل. والثاني: أنهم عرفوا بعثة الرسول في كتبهم وأنكروا نبوته. والثالث: أنهم عرفوا صدقه، وأنكروا تصديقه، ذكرهما الماوردي.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ رَحْمَةٍ وَلَا رَاقِبٍ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: وكما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلغاتهم، أنزلنا عليك القرآن ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ قال ابن عباس: يريد ما فيه من الفرائض. وقال أبو عبيدة: ديناً عربياً.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: في صلاتك إلى بيت المقدس: ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلْمِ﴾ أن قبلتك الكعبة، قاله ابن السائب. والثاني: في قبول ما دعوك إليه من ملة آبائك، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ أي: ما لك من عذاب الله من قريب ينفك ﴿وَلَا رَاقِبٍ﴾ يقبل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَحَمَلْنَا لَهُمْ أَنْزِيلًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ...﴾ الآية، سبب نزولها أن اليهود عيروا رسول الله ﷺ بكثرة التزويج، وقالوا: لو كان نبياً كما يزعم، شغلته النبوة عن تزويج النساء، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. ومعنى الآية: أن الرسل قبلك كانوا بشراً لهم أزواج، يعني النساء، وذريته، يعني: الأولاد. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره، وهذا جواب للذين اقترحوا عليه الآيات.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لكل أجل من آجال الخلق كتاب عند الله، قاله الحسن. والثاني: أنه من المقدم والمؤخر، والمعنى: لكل كتاب ينزل من السماء أجل، قاله الضحاك والفراء. والثالث: لكل أجل قدره الله ﷻ، ولكل أمر قضاء، كتاب أثبت فيه، ولا تكون آية ولا غيرها إلا بأجل قد قضاءه الله في كتاب، هذا معنى قول ابن جرير.

﴿يَتَمَحَّرُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُتَيْتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَمَحَّرُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُتَيْتُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: «ويشبت» ساكنة التاء خفيفة الباء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: «ويشبت» مشددة الباء مفتوحة التاء. قال أبو علي: المعنى: ويشبته، فاستغنى بتعدية الأول من الفعلين عن تعدية الثاني. واختلف المفسرون في المراد بالذي يمحو ويشبت على ثمانية أقوال: أحدها: أنه عام، في الرزق، والأجل، والسعادة. والشقاوة، وهذا مذهب عمر، وابن مسعود، وأبي وائل، والضحاك، وابن جريج. والثاني: أنه الناسخ والمنسوخ، فيمحو المنسوخ، ويشبت الناسخ، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبيرة، وقاتادة، والقرظي، وابن زيد. وقال ابن قتيبة: «يمحو الله ما يشاء» أي: ينسخ من القرآن ما يشاء «ويشبت» أي: يدهه ثابتاً لا ينسخه، وهو المحكم. والثالث: أنه يمحو ما يشاء، ويشبت، إلا الشقاوة والسعادة، والحياة والموت، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، ودليل هذا القول، ما روى مسلم في «صحيحه»^(١) من حديث حذيفة بن أسيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مضت على النطفة خمس وأربعون ليلة، يقول الملك الموكل: أذكر أم أنثى؟ فيقضي الله تعالى، ويكتب الملك، فيقول: أشقي، أم سعيد؟ فيقضي الله، ويكتب الملك، فيقول: عمله وأجله؟ فيقضي الله، ويكتب الملك، ثم تطوى الصحيفة، فلا يزداد فيها ولا ينقص منها». والرابع: يمحو ما يشاء ويشبت، إلا الشقاوة والسعادة لا يتغيران، قاله مجاهد. والخامس: يمحو من جاء أجله، ويشبت من لم يجره أجله، قاله الحسن. والسادس: يمحو من ذنوب عباده ما يشاء فيغفرها، ويشبت ما يشاء فلا يغفرها، روى عن سعيد بن جبيرة.

(١) مسلم ٢٠٣٧/٤ ورواية المصنف هنا بالمعنى.

والسابع: يمحو ما يشاء بالتوبة، ويثبت مكانها حسنات، قاله عكرمة. والثامن: يمحو من ديوان الحفظه ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب، قاله الضحاك، وأبو صالح. وقال ابن السائب: القول كله يكتب، حتى إذا كان في يوم الخميس، طُرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلتُ، شربت، دخلت، خرجت، ونحوه، وهو صادق، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب^(١).

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال الزجاج: أصل الكتاب. قال المفسرون: وهو اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما يكون ويحدث^(٢). وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى في ثلاث ساعات ييقن من الليل ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت»^(٣). وروى عكرمة عن ابن عباس قال: هما كتابان، كتاب سوى أم الكتاب يمحو منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب لا يغير منه شيء.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نُوَدُّهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نُوَدُّهُمْ﴾ أي: من العذاب وأنت حي ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك ذلك، فليس عليك إلا أن تبليغ، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ قال مقاتل: يعني الجزاء. وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أن قوله: ﴿فَلَمَّا عَلِكَ الْبَلْغُ﴾ نسخ بأية السيف وفرض الجهاد، وبه قال قتادة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَكْتُبُ لَكُمْ لِمَا تَعْبَثُونَ وَهِيَ سَكِينٌ لَكُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه ما يفتح الله على نبيه من الأرض، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، والضحاك. قال مقاتل: «أولم يروا» يعني: كفار مكة «أنا نأتي الأرض» يعني: أرض مكة «ننقصها من أطرافها» يعني: ما حولها. والثاني: أنها القرية تخرب حتى تبقى الأبيات في ناحيتها، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. والثالث: أنه نقص أهلها وبركتها، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال الشعبي: نقص الأنفس والشمرات. والرابع: أنه ذهب فقهاؤها وخيار أهلها، رواه عطاء عن ابن عباس. والخامس: أنه موت أهلها، قاله مجاهد، وعطاء، وقاتادة^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ لَكُمْ لِمَا تَعْبَثُونَ﴾ قال ابن قتيبة: لا يتعقبه أحد بتغيير ولا نقص. وقد شرحنا معنى سرعة الحساب في سورة [البقرة: ٢٠٢].

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا بِمَا لَمْ يَكْتُِبْ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَ الْعَرْشُ لِمَنْ عَشَى الْآلَارِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفار الأمم الخالية، مكروا بأبيائهم يقصدون قتلهم، كما مكرت قريش برسول الله ﷺ ليقتلوه. ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ يعين: أن مكر الماكرين مخلوق له، ولا يضر إلا بإرادته؛ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ وتسكين له. ﴿بِمَا لَمْ يَكْتُِبْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر، ولا يقع ضرر إلا بإذنه. ﴿وسيعلم الكافر﴾

(١) قال أبو جعفر بن جرير الطبري ١٧٠/١٣: وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بتأويل الآية، وأشبهها بالصواب، القول الذي ذكرناه عن الحسن، ومجاهد، وذلك أن الله تعالى ذكره، توعد المشركين الذين سألوا رسول الله ﷺ للآيات بالعقوبة، وتهدم بها، وقال لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِكَلِمَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَهْلِ كِتَابٍ﴾ يعلمهم بذلك أن لقضاه فيهم اجلاً ميثاقاً في كتاب، هم مؤخرون إلى وقت محي ذلك الأجل، ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل، يحيي الله بما شاء ممن قد دنا أجله وانقطع رزقه أو حان هلاكه، أو اتضاعه من رفعة، أو هلاك مال، فيقضي ذلك في خلقه، فذلك محوه، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه وأكله، فيتركه على ما هو عليه فلا يمحوه.

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٧١/١٣: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: وعنده أصل الكتاب وجملته، وذلك أنه تعالى ذكره، أخبر أنه يمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء، ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فكان بيناً أن معناه: وعنده أصل الميثاق منه والمحو، وجملته في كتاب لديه.

(٣) الطبري ١٧٠/١٣: وفي سننه زيادة بن محمد الأنصاري، قال البخاري والنسائي: منكر الحديث، وأورده السيوطي في «الدر» ٦٥/٤ زاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني.

(٤) قال ابن جرير الطبري ١٧٤/١٣: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بظهور المسلمين من أصحاب محمد ﷺ عليها، وقهرهم أهلها، أفلا يعتبرون بذلك فيخافون ظهورهم على أرضهم وقهرهم ليأبهم، وذلك أن الله توعد الذين سألوا رسوله الآيات من مشركي قومه بقوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نُوَدُّهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ثم ويخهم تعالى ذكره بسوء اعتبارهم بما يعانين من فعل أهل بضرائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بقهر أهلها والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها، وهم لا يعتبرون بما يرون من ذلك.

قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «وسيعلم الكافر». قال ابن عباس: يعني: أبا جهل. وقال الزجاج: الكافر هاهنا: اسم جنس. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «الكفار» على الجمع.

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ عَنَى الدَّارِ﴾ أي: لمن الجنة آخر الأمر.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود والنصارى. والثاني: كفار قريش. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: شاهداً ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بما أظهر من الآيات، وأبان من الدلالات على نبوتي.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: أنهم علماء اليهود والنصارى، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه عبد الله بن سلام، قاله الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وابن زيد، وابن السائب، ومقاتل. والثالث: أنهم قوم من أهل الكتاب كانوا يشهدون بالحق، منهم عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري، قاله قتادة. والرابع: أنه جبريل عليه السلام، قاله سعيد بن جبيرة. والخامس: أنه علي بن أبي طالب، قاله ابن الحنفية. والسادس: أنه بنيامين، قاله شمر. والسابع: أنه الله تعالى، روي عن الحسن، ومجاهد، واختاره الزجاج واحتج له بقراءة من قرأ: «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» وبه قراءة ابن السميع، وابن أبي عمير، ومجاهد، وأبي حنيفة. ورواية ابن أبي سريج عن الكسائي: «وَمَنْ» بكسر الميم «عِنْدَهُ» بكسر الدال «عِلْمُ» بضم الميم وكسر اللام وفتح الميم «الْكِتَابِ» بالرفع. وقرأ الحسن «وَمَنْ» بكسر الميم «عِنْدَهُ» بكسر الدال «عِلْمُ» بكسر العين وضم الميم «الْكِتَابِ» مضاف، كأنه قال: أنزل من علم الله تعالى.



سورة إبراهيم

[عليه السلام]

وهي مكية من غير خلاف علمناه بينهم، إلا ما روي عن ابن عباس، وقتادة أنهما قالا: سوى آيتين منها، وهما (١) قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ والتي بعدها [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَيْتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾
قوله تعالى: ﴿الرَّ﴾ قد سبق بيانه [يونس: ٤١]. وقوله: ﴿كَيْتَبٌ﴾ قال الزجاج: المعنى: هذا كتاب، والكتاب: القرآن. وفي المراد بالظلمات والنور ثلاثة أقوال: أحدها: أن الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أن الظلمات: الضلالة، والنور: الهدى، قاله مجاهد، وقتادة. والثالث: أن الظلمات: الشك، والنور: اليقين، ذكره الماوردي. وفي قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: بأمر ربهم، قاله مقاتل. والثاني: بتوفيق ربهم، قاله أبو سليمان. والثالث: أنه الإذن نفسه، فالمعنى: بما أذن لك من تعليمهم، قاله الزجاج، قال ثم بين ما الثور، فقال: ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ قال ابن الأنباري: وهذا مثل قول العرب: جلست إلى زيد، إلى العاقل الفاضل، وإنما تعاد «إلى» بمعنى التعظيم للأمر، قال الشاعر:

إِذَا حَدِيثَ رَجُلِي تَذَكَّرْتُ مَنْ لَهَا
دَعَوْتُ الَّتِي لَوْ أَنَّ نَفْسِي تُطِيعُنِي

فأعاد «دعوت» لتفخيم الأمر.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «الحميد اللو» على البدل. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبان، والمفضل: «الحميد. الله» رفعا على الاستئناف، وقد سبق بيان ألفاظ الآية.

﴿الَّذِينَ يَسْتَجِبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي صُلْحٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يَلْسَنُ قَوْمِهِ. لِئِنِّي أَخْرَجْتُ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَرِهْتُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ إِتٍ فِي ذَلِكَ لَأَيُّ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ مَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوكُمْ سِوَةَ الْعَذَابِ وَيَدْعُوكُمْ آيَاتِهِ كُمْ وَيَسْتَجِيبُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَجِبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: يؤثرونها ﴿عَلَى الْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس: يأخذون ما تعجل لهم منها تهاونا بأمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ﴾ أي: يمنعون الناس من الدخول في دينه، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ قد شرحناه في [آل عمران: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي صُلْحٍ﴾ أي: في ذهاب عن الحق «بعيد» من الصواب.

(١) في الأصل: وهي.

(٢) البيتان لقيس لبي: «ديوانه» ٦٩، و«الأغاني» ٩/١٩٣، و«تزيين الأسواق» ٤٨.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا يَلْسَانَ قَوْتِهِ﴾ أي: بلغتهم. قال ابن الأنباري: ومعنى اللغة عند العرب: الكلام المنطوق به، وهو مأخوذ من قولهم: لغنا الطائر يُلغُو: إذا صَوَّت في الغلس. وقرأ أبو رجاء، وأبو المتوكل، والجحدري: ﴿إِلَّا يَلْسُنُ قَوْمِهِ﴾ برفع اللام والسين من غير ألف. وقرأ أبو الجزاء، وأبو عمران: ﴿يَلْسُنُ قَوْمِهِ﴾ بكسر اللام وسكون السين من غير ألف.

قوله تعالى: ﴿إِيَّتَيْكَ لَمْ﴾ أي: الذي أرسل به فيفهمونه عنه. وهذا نزل، لأن قريشاً قالوا: ما بال كتب كلها أعجمية، وهذا عربي!

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ أَخْرَجْتَ قَوْمَكَ﴾ قال الزجاج: «أن» مفسر، والمعنى قلنا له: أخرج قومك. وقد سبق بيان الظلمات والنور (البقرة: ٢٥٧). وفي قوله: ﴿وَذَكَرْتَهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نعم الله، رواه أبي بن كعب عن النبي ﷺ^(١)، وبه قال مجاهد، وقتادة، وابن قتيبة. والثاني: أنها وقائع الله في الأمم قبلهم، قاله ابن زيد، وابن السائب، ومقاتل. والثالث: أنها أيام نعم الله عليهم وأيام يقمهم ممن كفر من قوم نوح وعاد وثمود، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: التذكير: ﴿لَا يَتَّبِعُ لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على طاعة الله وعن معصيته: ﴿شُكْرٍ﴾ لأنثمه. والصَّابِرُ: الكثير الصبر، والشُّكُورُ: الكثير الشُّكر، وإنما خص بالآيات، لانقضاء بها. وما بعد هذا مشروح في سورة (البقرة: ٤٩).

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيحِكُمْ لِينِ شِكْرَتِكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَلَمَّا قَالَ اللَّهُ لَنِيَّ حَبِيدٌ ﴿٨﴾ أَنْتُمْ بَأْسَكُمْ تَبَوَّأُوا الْأَرْضَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي آفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِيَّاهُ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِدَعْوَتِكُمْ لِيُغْفَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ لِكُلِّ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانَتِ بَعْدُ آبَاؤُنَا فَاتَّبِعْنَاهُ عَلَىٰ مَا بُدِّلُوا مِنْ دِينِهِمْ إِيَّاكُمْ يَغْفِرَ لَكُمْ مِمَّا كُفَرْتُمْ وَرُسُلُهُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا كُنَّا إِلَّا نُنَادِيكُمْ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَبْنَا سُبُلَنَا وَنَصَرَيْنَا عَلَىٰ مَا آذَيْنُمُنَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ نَعْتَدَنَّكُمْ فِي بِلَدٍ فَأَرْجِئْنَا الَّذِينَ رَهْمَ لَهُمْ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ مُدَدَيْنٌ وَنُحِبُّ الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَقَابُ اللَّهِ وَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ فَخْرًا لَئِنِ جَاءَتْكُمْ آيَاتٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَقِيلَ لَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا أَمْ لَا يَلْمِزُوكَ إِذْ جَاءَكَ السُّورَةُ قُلْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَنُحِبُّ الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَقَابُ اللَّهِ وَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ فَخْرًا لَئِنِ جَاءَتْكُمْ آيَاتٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَقِيلَ لَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا أَمْ لَا يَلْمِزُوكَ إِذْ جَاءَكَ السُّورَةُ قُلْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيحِكُمْ﴾ مذكور في (الأعراف: ١٦٧). وفي قوله: ﴿لَئِنْ شِكْرَتِكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لئن شكرتم نعمي لأزيدنكم من طاعتي، قاله الحسن. والثاني: لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي، قاله الربيع. والثالث: لئن وحدتموني لأزيدنكم خيراً في الدنيا، قاله مقاتل. وفي قوله: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه كفر بالتوحيد. والثاني: كفران النعم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَالَ اللَّهُ لَنِيَّ حَبِيدٌ﴾ أي: غني عن خلقه، محمود في أفعاله، لأنه إما مفضل بفعله، أو عادل.

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال ابن الأنباري: أي: لا يحصي عددهم إلا هو، على أن الله تعالى أهلك أمماً من العرب وغيرها، فانقطعت أخبارهم، وعفت آثارهم، فليس يعلمهم أحد إلا الله.

قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي آفْوَاهِهِمْ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: أنهم عضوا أصابعهم غيظاً، قاله ابن مسعود، وابن زيد. وقال ابن قتيبة: «في» هاهنا بمعنى: «إلى»، ومعنى الكلام: عضوا عليها حقاً وغيظاً، كما قال الشاعر:

يَرُدُّونَ فِيهِ غَشْرَ الْحَسُودِ^(٢)

يعني: أنهم يغيظون الحسود حتى يعضّ على أصابعه العشر، ونحوه قول الهذلي:

(١) «الطبري» ١٨٤/١٣، «المسنند» ١٢١/٥، وذكره ابن كثير من رواية أحمد ٥٣٢/٢، ثم قال: ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث محمد بن أبان به، ورواه عبد الله ابنه أيضاً موقوفاً، وهو أشبه. وذكره السيوطي في «الدر» ٧٠/٤، وزاد نسبه للنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) ذكره ابن قتيبة غير منسوب في «المعاني الكبير» ٨٣٤، و«غريب القرآن» ٢٣٠، وشرحه بقوله: يعني أصابع يديه العشر بعضها غيظاً عليهم وحقاً، وفي «تفسير القرطبي» ٣٤٦/٩:

قَدْ أَفْنَى أَنْامِلَهُ أَرْزُمُهُ فَأَصْحَى يَعْضُّ عَلَيَّ الْوَظِيفَا^(١)

يقول: قد أكل أصابعه حتى أفناها بالعض، فأضحى يعضُّ عليّ وظيف الذراع. والثاني: أنهم كانوا إذا جاءهم الرسول فقال: إني رسول، قالوا له: اسكت، وأشاروا بأصابعهم إلى أفواه أنفسهم، ردّاً عليه وتكديباً، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم لما سمعوا كتاب الله، عجزوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، رواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: أنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل. ردّاً لقولهم، قاله الحسن. والخامس: أنهم كذبوهم بأفواههم، وردّوا عليهم قولهم، قاله مجاهد، وقتادة. والسادس: أنه مثلٌ، ومعناه: أنهم كفّوا عما أمروا بقبوله من الحق، ولم يؤمنوا به. يقال: ردّ فلان يده إلى فمه، أي أمسك فلم يُجب، قاله أبو عبيدة. والسابع: ردّوا ما لو قبّلوه لكان نعماً وأيادي من الله^(٢)، فتكون الأيدي بمعنى: الأيادي، و«في» بمعنى: الباء، والمعنى: ردّوا الأيادي بأفواههم، ذكره الفراء، وقال: قد وجدنا من العرب من يجعل «في» موضع الباء، فيقول: أدلك الله بالجنة، يريد: في الجنة، وأنشدني بعضهم: وأرغبُ فيها عن لقيبطٍ ورهطِهِ

لكنني عن سننيسٍ لستُ أرغبُ^(٣)

فقال: أرغب فيها، يعني: بتأله، يريد: أرغب بها، وسننيس: قبيلة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: على زعمكم أنكم أرسلتم، لا أنهم أقرؤا بإرسالهم. وباقي الآية قد سبق تفسيره (عود: ٦٢). ﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ شَافِكًا﴾ هذا استفهام إنكار، والمعنى: لا شك في الله، أي: في توحيدهم ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ بالرسول والكتب ﴿لِيُفَيِّرَ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: «من» زائدة، كقوله: ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ كَلِمَةٍ حَرِيصِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]، قال أبو ذؤيب:

جَزَيْتُكَ ضِعْفَ الْحَبِّ لَمَّا شَكَّرْتَهُ

وما إن جزاك الضغف من أحد قبلي^(٤)

أي: أحد. وقوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو الموت، والمعنى: لا يعاجلكم بالعذاب. ﴿قَالُوا﴾ للرسول: ﴿إِن آتَيْتَنَا بِبَشَرٍ مِّثْلِكَ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: ليس لكم علينا فضل، والسلطان: الحجة. قالت الرسل: ﴿إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فاعترفوا لهم بذلك، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُزُّ عَنِ مَن يَشَاءُ﴾ يعنون: بالنبوة والرسالة، ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ليس ذلك من قبل أنفسنا.

قوله تعالى: ﴿وَوَدَّ هَدَيْنَا سُبُلَنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: بين لنا رشدنا. والثاني: عرفنا طريق التوكل. وإنما قص

هذا وأمثاله على نبينا ﷺ ليقنتدي بمن قبله في الصبر وليعلم ما جرى لهم.

قوله تعالى: ﴿لَتَلْبِثَنَّ أَظْلَمِينَ﴾ يعني: الكافرين بالرسول. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد هلاكهم. ﴿ذَلِكَ﴾ الإسكان ﴿لَمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ قال ابن عباس: خاف مقامه بين يدي. قال الفراء: العرب قد تضيف أفعالها إلى أنفسها، وإلى ما أوقعت عليه، فتقول: قد ندمت على ضربي إياك، وندمت على ضربك، فهذا من ذلك، ومثله ﴿وَتَحْمَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ [الواقعة: ٤٢] أي: رزقي إياكم.

قوله تعالى: ﴿رَمَاتٌ وَبِيدٌ﴾ أثبت ياء «وعيدي» في الحاليين يعقوب، وتابعه ورش في الرُّضَل.

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَتَابَ كُلٌّ جِنَارٍ عَبِيدٍ﴾ تَبَّ مِنْ رَبَّائِهِمْ جَهَنَّمَ وَشَقَّ مِنْ مَاءٍ صَكِيدٍ ﴿١١﴾ يَجْرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يَسْمِعُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ رَبَّائِهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ يعني: استنصروا. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وحמיד،

(١) البيت لصخر النبي، كما في «ديوان الهذليين» ٧٣/٢، و«المعاني الكبير» لابن تقيّة ٨٣٤، و«غريب القرآن» ٢٣١. و«الأزم»: العض الشديد، و«الوظيف»: الذراع. يقول: «قد أفنى أصابعه فهو يعض على مفصل بين الساعد والكف».

(٢) قال أبو جعفر الطبري: وأشبه هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل الآية، القول الذي ذكرناه عن عبد الله بن مسعود - أي القول الأول - أنهم ردوا أيديهم في أفواههم، فعضوا عليها غليظاً على الرسل، كما وصف الله ﷺ به إخوانهم من المنافقين فقال: ﴿وَإِذَا كَلَّمَا عَسَاوَا عَلَيْكُمْ الْكَلِمَةَ﴾، فهذا هو الكلام المعروف، والمعنى المفهوم من رد اليد إلى الفم.

(٣) «الطبري» ١٨٩/١٣، غير منسوب.

(٤) «مجاز القرآن» ٤٩/١، «ديوان الهذليين» ٣٥/١، و«شرح أشعار الهذليين» ٨٨/١.

وابن مُحَيِّصِن: «واستفتِحُوا» بكسر التاء على الأمر. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الرسل، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنهم الكفار، واستفتحهم: سألهم العذاب، كقولهم: ﴿رَبَّنَا نَجِّنَا مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقولهم: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ...﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، هذا قول ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَتَابَ كُلُّ جُنَّاحٍ لِنَبِيِّهِ﴾ قال ابن السائب: خسر عند الدعاء، وقال مقاتل: خسر عند نزول العذاب، وقال أبو سليمان الدمشقي: يش من الإجابة. وقد شرحنا معنى الجُبَّار والعنيد في [مرد: ٥٩].

قوله تعالى: ﴿بَيْنَ رِجْلَيْهِ جَهَنَّمَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى القُدَّام، قال ابن عباس، يريد؛ أمامه جهنم. وقال أبو عبيدة: «من ورائه» أي: قُدَّامة وأمامه، يقال: الموت من ورائك، وأنشد:

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي
وَالثَّانِي: أنها بمعنى: «بَعْد»، قال ابن الأنباري: «من ورائه» أي: من بعد يأسه، فدلَّ «خَاب» على اليأس، فكنى عنه، وحملت «وراء» على معنى: «بَعْد» كما قال النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِبَةً
وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّوِّ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ^(١)
أراد: ليس بَعْدَ الله مذهب. قال الزجاج: والوراء يكون بمعنى الخَلْفِ والقُدَّام، لأن ما بين يديك وما قُدَّامك إذا توارى عنك فقد صار ورائك، قال الشاعر:

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي
وَلَيْسَ الْوَرَاءُ مِنَ الْأَضْدَادِ كَمَا يَقُولُ بَعْضُ أَهْلِ اللَّغَةِ. وسئل ثعلب: لم قيل: الوراء للأمام؟ فقال: الوراء: اسم لما توارى عن عينك، سواء أكان أمامك أو خلفك. وقال الفراء: إنما يجوز هذا في المواقيت من الأيام والليالي والدهر، تقول: ورائك برد شديد. وبين يديك برد شديد. ولا يجوز أن تقول للرجل وهو بين يديك: هو ورائك، ولا للرجل ورائك: هو بين يديك.

قوله تعالى: ﴿رُسُومًا مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ قال عكرمة، ومجاهد، واللغويون: الصديد: القيقح والدَّم، قاله قتادة، وهو ما يخرج من بين جلد الكافر ولحمه. وقال القرظي: هو غُسالَةُ أهل النار، وذلك ما يسيل من فروج الزناة. وقال ابن قتيبة: المعنى: يُسقى الصديد مكانَ الماء، قال: ويجوز أن يكون على التشبيه، أي: ما يُسقى ماءً كأنه صديد^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُمْ﴾ والتجرجع: تناول المشروب جُرعة جُرعة، لا في مرة واحدة، وذلك لشدة كراهته له، وإنما يُكره على شربه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسْمِنُ﴾ قال الزجاج: لا يقدر على ابتلاعه، تقول: ساغ لي الشيء، وأسغته، وروى أبو أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُقْرَبُ إِلَيْهِ فَيُكْرَهُهُ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاء حتى يخرج من دبره»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْتَوْتُ﴾ أي: همُّ الموت وكربه وألمه ﴿بَيْنَ كُلِّ مَكَانٍ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: من كل شعرة في جسده، رواه عطاء عن ابن عباس. وقال سفيان الثوري: من كل عِرْق. وقال ابن جريج: تتعلق نفسه عند

(١) البيت من كلمة لسوار بن المضرب في «الكامل» ٤٤٥، وهو في «مجاز القرآن» ٣٣٧/١، و«الطبري» ١/١٦، و«الجمهرة» ١/١٧٧، و ٤٩٥/٣، و«القرظي» ٣٥/١١، و«اللسان»، و«التاج»: «ورى».

(٢) «ديوانه» ١٢، و«مختار الشعر الجاهلي» ١٧٥ من قصيدة يعتذر بها إلى النعمان بن المنذر ويمدحه.

(٣) البيت لليد بن ربيعة العامري: «ديوانه» ١٧٠.

(٤) كذا الأصل، والذي في «غريب القرآن» لابن قتيبة ٢٣١: أي: يسقى ماءً كأنه صديد.

(٥) «الطبري» ١٣/١٩٦، و«المسنند» ٥/٢٦٥، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٢٦/٢، من رواية أحمد في «المسنند» وقال: وهكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن المبارك، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث بقة بن الوليد عن صقر بن عمرو به. وذكره السيوطي في «الدر» ٤/٧٢ وزاد نسبته للترمذي، والنسائي، وابن أبي الدنيا في «صفة النار»، وأبي يعلى، وابن المنذر، والطبراني، وأبي نعيم في «الحلية» وضححه، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث والنشور».

حجرته، فلا تخرج من فيه فتموت، ولا ترجع إلى مكانها فتجد راحة. والثاني: من كل جهة، من فوقه وتحتة، وعن يمينه وشماله، وخلفه وقُدَّامه، قاله ابن عباس أيضاً. والثالث: أنها البلايا التي تصيب الكفار في النار، سماها موتاً، قاله الأخفش.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِحَيَاتٍ﴾ أي: موتاً تنقطع معه الحياة. ﴿وَيَوْمَ رَأَيْهِ﴾ أي: من بعد هذا العذاب. قال ابن السائب: من بعد الصديد ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾. وقال إبراهيم التيمي: بعد الخلود في النار. والغليظ: الشديد.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْوُ الْبَعِيدُ﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ قال الفراء: أضاف المثل إليهم، وإنما المثل للأعمال، فالمعنى: مثل أعمال الذين كفروا. ومثله: ﴿وَيَوْمَ الْيَوْمِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، أي: ترى وجوههم. وجعل العُصُوف تابعاً لليوم في إعرابه، وإنما العُصُوف للريح، وذلك جائز على جهتين: إحداهما: أن العُصُوف، وإن كان للريح، فإن اليوم يوصف به، لأن الريح فيه تكون، فجاز أن تقول: يوم عاصف، كما تقول: يوم بارد، ويوم حار. والوجه الآخر: أن تريد: في يوم عاصف الريح، فتحذف الريح، لأنها قد ذُكرت في أول الكلام، كما قال الشاعر:

وَيُضْحِكُ عِرْفَانُ الدُّرُوعِ جُلُودَنَا

إِذَا كَانَ يَوْمٌ مُّظْلِمُ الشَّمْسِ كَاسِفٌ

يريد: كاسف الشمس. وروي عن سيبويه أنه قال: في هذه الآية إضمار، والمعنى: ومما نقص عليك مثل الذين كفروا، ثم ابتداء فقال: «أعمالهم كرماد». وقرأ النخعي، وابن يعمر، والجحدري: «في يوم عاصف» بغير تنوين اليوم. قال المفسرون: ومعنى الآية: أن كل ما يتقرب به المشركون يخبط لا ينتفعون به، كالرماد الذي سَفَتَهُ الريح فلا يُقدَّر على شيء منه، فهم لا يقدرون مما كسبوا في الدنيا على شيء في الآخرة، أي: لا يجدون ثوابه، ﴿ذَلِكَ هُوَ الصَّلْوُ الْبَعِيدُ﴾ من النجاة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ إن بَشَأَ يُدْهِبِكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٨﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: ألم تُخَبِّر، قاله ابن السائب. والثاني: ألم تعلم، قاله مقاتل، وأبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ قال المفسرون: أي: لم يخلقهن عبثاً، وإنما خلقهن لأمر عظيم. ﴿إِن بَشَأَ يُدْهِبِكُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد: يميتهم يا معشر الكفار ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع، وهذا خطاب لأهل مكة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بمتعنت متعذر.

﴿وَيَبْرُرُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالِ الصَّمْعَتَوُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّثْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدَنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُمُ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحْجِبٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَبْرُرُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لفظه لفظ الماضي، ومعناه المستقبل، والمعنى: خرجوا من قبورهم يوم البعث، واجتمع التابع والمتبوع، ﴿فَقَالِ الصَّمْعَتَوُا﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم المتبوعون: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ قال الزجاج: هو جمع تابع، يقال: تابع وتبع، ومثل: غائب وغيب، والمعنى: تبعناكم فيما دعوتونا إليه.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُّثْنُونَ عَنَّا﴾ أي: دافعون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾. قال القادة: ﴿لَوْ هَدَدَنَا اللَّهُ﴾ أي: لو أرشدنا في الدنيا لأرشدناكم، يريدون: أن الله أضلنا فدعوناكم إلى الضلال، ﴿سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا﴾ قال ابن زيد: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا نبكي ونضرع، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكاهم وتضرعهم، فَبَكَرُوا وتضرعوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم، قالوا: تعالوا نصبر، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، فصبروا صبراً لم يُر مثله قط، فلم ينفعهم ذلك، فعندها قالوا: ﴿سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحْجِبٍ﴾. وروى مالك بن أنس

عن زيد بن أسلم قال: جَزَعُوا مائة سنة، وصبروا مائة سنة. وقال مقاتل: جزعوا خمسمائة عام، وصبروا خمسمائة عام. وقد شرحنا معنى المحيص في سورة [النساء: ١٢١].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَدَّعَاكُمْ فَأَلْفَلَقْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْمُوا أُنْفُسَكُمْ فَإِنِّي بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِينَ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ قال المفسرون: يعني به إبليس، ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فُرغ منه، فدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فحينئذ يجتمع أهل النار باللوم على إبليس، فيقوم فيما بينهم خطيباً ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾ أي: وعدكم كَوْن هذا اليوم فَصَدَّقكم ﴿وَوَدَّعَاكُمْ﴾ أنه لا يكون ﴿فَأَلْفَلَقْتُمْ﴾ الوعد ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما أظهرت لكم حُجَّةً على ما ادَّعيت. وقال بعضهم: ما كنت أملككم فأكرهكم ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ وهذا من الاستثناء المنقطع، والمعنى: لكن دعوتكم ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْمُوا أُنْفُسَكُمْ﴾ حيث أجبتوني من غير برهان، ﴿فَمَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ﴾ أي: بمغيبكم ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِينَ﴾ أي: بمغيبتي. قرأ حمزة ﴿بِمُصْرِحِي﴾ فحرك الياء إلى الكسر، وحركها الباقون إلى الفتح. قال قطرب: هي لغة في بني يربوع؛ يعني: قراءة حمزة. قال اللغويون: يقال: استصرخني فلان فأصرخته، أي: استغاثني فأغثته. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ اليوم بإشراككم إياي في الدنيا مع الله في الطاعة، ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين.

قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمر ربهم. وقوله: ﴿يُحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ قد ذكرناه في [يونس: ٤١]. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوِّقَ أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَصْرِيْبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لِمَأْهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ قال المفسرون: ألم تر بعين قلبك فتعلم بإعلامي إياك كيف ضرب الله مثلاً. أي: بيّن شَبَهًا، ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال ابن عباس: هي شهادة أن لا إله إلا الله. ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: طيبة الثمرة، فترك ذكر الثمرة اكتفاءً بدلالة الكلام عليه. وفي هذه الشجرة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها النخلة، وهو في «الصحيحين» من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ^(١)، وقد رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود، وأنس بن مالك، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك في آخرين. والثاني: أنها شجرة في الجنة، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس. والثالث: أنها المؤمن، وأصله الثابت أنه يعمل في الأرض ويبلغ عمله السماء. وقوله: ﴿تُوِّقَ أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ﴾ فالمؤمن يذكر الله كل ساعة من النهار، رواه عطية عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: في الأرض، ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أعلاها عَالٍ ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي: نحو السماء، وأكلها. ثمها. وفي الحين هاهنا ستة أقوال: أحدها: أنه ثمانية أشهر، قاله علي عليه السلام. والثاني: ستة أشهر، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعكرمة، وقتادة. والثالث: أنه بُكْرَة وعشية، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس. والرابع: أنه السنة، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال مجاهد، وابن زيد. والخامس: أنه شهران، قاله سعيد بن المسيب. والسادس: أنه عُدْوَة وعشية وكلّ ساعة، قاله ابن جرير. فمن قال: ثمانية أشهر، أشار إلى مُدَّة حملها باطناً وظاهراً، ومن قال: ستة أشهر، فهي مدة حملها إلى حين صرامها، ومن قال: بُكْرَة وعشية، أشار إلى الاجتناء منها، ومن قال: سنة، أشار إلى أنه لا تحمل في السنة إلا مرة، ومن قال: شهران، فهو مدة صلاحها. قال

(١) البخاري ١٣٠/١، ومسلم ٤/٢٦٦٥، ولفظه عندهما: عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فعدوثني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: وقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: فقال: «هي النخلة». قال العلماء: شبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام، فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يركل منه حتى يبس، وبعد أن يبس يتخذ منه منافع كثيرة، ومن خشبها وورقها وأغصانها، فيستعمل جذوها وحطباً وعصياً ومخاصر وحبالاً وأواني وغير ذلك، ثم آخر شيء منها نواها، ويتنفع به علناً للليل، ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها، فهي منافع كلها، وخير وجمال، كما أن المؤمن خير كله، من كثرة طاعاته ومكارم أخلاقه.

ابن المسيب: لا يكون في النخلة أَكْلُهَا إِلَّا شهرين. ومن قال: كل ساعة، أشار إلى أن ثمرتها تؤكل دائماً. قال قتادة: تؤكل ثمرتها في الشتاء والصيف. قال ابن جرير: الطلع في الشتاء من أكلها، والبلح والبُسْر والرطب والتمر في الصيف. فأما الحكمة في تمثيل الإيمان بالنخلة، فمن أوجه: أحدها: أنها شديدة الثبوت، فشبه ثبات الإيمان في قلب المؤمن بثباتها. والثاني: أنها شديدة الارتفاع، فشبه ارتفاع عمل المؤمن بارتفاع فروعها. والثالث: أن ثمرتها تأتي في كل حين، فشبه ما يكسب المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بشمرتها المجتناة في كل حين على اختلاف صنوفها، فالمؤمن كلما قال: لا إله إلا الله، صعدت إلى السماء، ثم جاءه خيرها ومنفعتها. والرابع: أنها أشبه الشجر بالإنسان، فإن كل شجرة يقطع رأسها تشعب غضونها من جوانبها، إلا هي، إذا قُطع رأسها يبست، ولأنه لا تحمل حتى تُلَقَّح، ولأنها فضلة تربة آدم ﷺ فيما يُروى^(١).

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّبَةٍ كَتَجَرَةٌ خَيِّبَةٌ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (١٧)

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّبَةٍ﴾ قال ابن عباس: هي الشُّرك. وقوله: ﴿كَتَجَرَةٌ خَيِّبَةٌ﴾ فيها خمسة أقوال: أحدها: أنها الحنظلة، رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ^(٢)، وبه قال أنس، ومجاهد. والثاني: أنها الكافر، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وروى العوفي عنه أنه قال: الكافر لا يُقبل عمله، ولا يصعد إلى الله تعالى، فليس له أصل في الأرض ثابت، ولا فرع في السماء. والثالث: أنها الكُشُوفَى^(٣) رواه الضحاك عن ابن عباس. والرابع: أنه مَثَلٌ، وليست بشجرة مخلوقة، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس. والخامس: أنها التوم، روي عن ابن عباس أيضاً.

قوله تعالى: ﴿اجْتُثَّتْ﴾ قال ابن قتيبة: استؤصلت وقُطعت. قال الزجاج: ومعنى اجْتُثَّتْ الشيء في اللغة: أخذت جثته بكمالها. وفي قوله: ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ قولان: أحدهما: ما لها من أصل، لم تُضرب في الأرض عرقاً. والثاني: ما لها من ثبات. ومعنى تشبيه الكافر بهذه الشجرة أنه لا يصعد للكافر عمل صالح، ولا قول طيب، ولا لقوله أصل ثابت.

﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٨)

قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ينبتهم على الحق بالقول الثابت، وهو شهادة أن لا إله إلا الله. قوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الحياة الدنيا: زمان الحياة على وجه الأرض، والآخرة: زمان المساءلة في القبر، وإلى هذا المعنى ذهب البراء بن عازب، وفيه أحاديث تعضده^(٤). والثاني: أن الحياة الدنيا: زمن السؤال في القبر، والآخرة: السؤال في القيامة، وإلى هذا المعنى ذهب طاووس، وقاتدة. قال المفسرون: هذه الآية وردت في فتنة القبر، وسؤال الملكين، وتلقين الله تعالى للمؤمنين كلمة الحق عند السؤال، وتشبيته إياه على الحق. ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين، يضلهم عن هذه الكلمة، ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من هداية المؤمن وإضلال الكافر.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا مَنَئِمَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَعَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآبَارِ ﴿١٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَصُّونَ الْقَرَارَ﴾ (١٨)

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا مَنَئِمَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ في المشار إليهم سبعة أقوال: أحدها: أنهم الأفجران من قریش: بنو أمية، وبنو المغيرة، روي عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب. والثاني: أنهم منافقو قریش، رواه أبو الطفيل عن علي. والثالث: بنو أمية، وبنو المغيرة، ورؤساء أهل بدر الذين ساقوا أهل بدر إلى بدر، رواه أبو صالح

(١) هو حديث ضعيف ولنظرة: «أكرموا عنكم النخلة، فإنها خلقت من فضلة طينة إبيكم آدم». رواه أبو يعلى في «مسنده»، وابن أبي حاتم، والعقيلي في «الضعفاء»، وابن عدي في «الكامل»، وابن السني وأبو نعيم معاً في «الطب»، وابن مردويه من طريق مسرور بن سعيد التميمي عن الأوزاعي عن عروة بن رويم عن علي مرفوعاً. ومسرور بن سعيد التميمي غمزه ابن حبان، وقال العقيلي: حديثه غير محفوظ ولا يعرف إلا به، وقال ابن عساکر: حروة لم يدرك علماً، والحديث غريب، والتميمي مجهول.

(٢) «الطبري» ٢١٢/١٣، من حديث حماد بن سلمة عن شعيب بن الحباب عن أنس بن مالك، وإسناده صحيح.

(٣) الكشوثي: نبت يتعلق بالأغصان ولا عرق له في الأرض.

(٤) انظر في «الطبري» ٢١٢/١٣ - ٢١٨، وابن كثير ٥٣١/٢ - ٥٣٨ الأحاديث الواردة في ذلك، عند تفسير هذه الآية.

عن ابن عباس. والروابع: أهل مكة، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والخامس: المشركون من أهل بدر، قاله مجاهد، وابن زيد. والسادس: أنهم الذين قُتلوا ببدر من كفار قريش، قاله سعيد بن جبير، وأبو مالك. والسابع: أنها عامة في جميع المشركين، قاله الحسن. قال المفسرون: وتبدلهم نعمة الله كفرة، أن الله أنعم عليهم برسوله، وأسكنهم حرمه، فكفروا بالله ورسوله، ودعوا قومهم إلى الكفر به، فذلك قوله: ﴿وَأَعْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾ أي: الهلاك. ثم فسر الدار بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا﴾ أي يقاسون حرها: ﴿وَيُنسَ الْقِرَارُ﴾ أي: بس المقر هي.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا﴾ قد بيَّناه في سورة [البقرة: ٢٢]، واللام في «لِيُضِلُّوا» لام العاقبة، وقد سبق شرحها [يونس: ٨٨]، ومن قرأ «لِيُضِلُّوا» بضم الياء، أراد: لِيُضِلُّوا الناس عن دين الله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ أي: في حياتكم الدنيا، وهذا وعيد لهم. قال ابن عباس: لو كان الكافر مريضاً لا ينام، جائعاً لا يأكل ولا يشرب، لكان هذا نعيماً يتمتع به بالقياس إلى ما يصير إليه من العذاب، ولو كان المؤمن في نعم عيش، لكان بؤساً عندما يصير إليه من نعيم الآخرة.

﴿قُلْ لِيَبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُحْسِنُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَعْجَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٢٧﴾﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٢٨﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٢٩﴾ وَآتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفَطْلُونٌ ﴿٣٠﴾ كَفَّارٌ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَةً وَاجْعَلْنِي مِّنْ عِبْدِكَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٢﴾ رَبِّ إِنِّي سَأَلْتُكَ لِيَكُنَ مِنِّي ذُرِّيَّةٌ مِّنْكَ فَاجْعَلْهَا لِي مِن يَمِينٍ وَغَدَّ عَنِ الْيَمِينِ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِيَبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أسكن ابن عامر، وحمزة، والكسائي ياء «عبادي».

قوله تعالى: ﴿يُحْسِنُوا الصَّلَاةَ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: قل لعبادي: أقيموا الصلاة وأنفقوا، يقيموا وينفقوا، فحذف الأمران، وترك الجوابان، قال الشاعر:

فبأي امرئ أنت أي امرئ

إذا قيل في الحرب من يُقدم

أراد: إذا قيل: من يُقدم تُقدم. ويجوز أن يكون المعنى: قل لعبادي أقيموا الصلاة، وأنفقوا، فصرف عن لفظ الأمر إلى لفظ الخبر. ويجوز أن يكون المعنى: قل لهم ليقيموا الصلاة، ولينفقوا، فحذف لام الأمر، لدلالة «قل» عليها. قال ابن قتيبة: والخلال مصدر خاللت فلاناً خللاً ومخاللةً، والاسم الخلة، وهي الصداقة.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآنْهَارَ﴾ أي: ذلَّلها، تجري حيث تريدون، وتركبون فيها حيث تشاؤون. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوءهما. ﴿دَائِبِينَ﴾ في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، لا يفتران. ومعنى الدؤوب: مرور الشيء في العمل على عادة جارية فيه. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ لتنتفعوا بمعاشكم، ﴿وَآتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ وفيه خمسة أقوال: أحدها: أن المعنى: من كل الذي سألتموه، قاله الحسن، وعكرمة. والثاني: من كل ما سألتموه، لو سألتموه، قاله الفراء. والثالث: وآتاكم من كل شيء سألتموه شيئاً، فأضمر الشيء، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أي، من كل شيء في زمانها شيئاً، قاله الأخفش. والرابع: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، لأنكم لم تسألوا شمساً ولا قمرًا ولا كثيراً من النعم التي ابتدأكم بها، فاكفئي بالآول من الثاني، كقوله: ﴿سُرَّيْلٌ يُقَيِّمُ الْآخِرَ﴾ [النحل: ٨١]، قاله ابن الأنباري. والخامس: على قراءة ابن مسعود، وأبي رزين، والحسن، وعكرمة، وقناة، وأبان عن عاصم، وأبي حاتم عن يعقوب: من كل ما بالتونين من غير إضافة، فالمعنى: آتاكم من كل ما لم تسألوه، قاله قتادة، والضحاك.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: إنعامه ﴿لَا تحْصُوهَا﴾ لا تطبقوا الإتيان على جميعها بالعد لكثرتها.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ﴾ قال ابن عباس: يريد أبا جهل. وقال الزجاج: الإنسان اسم للجنس يُقصد به الكافر خاصة.

قوله تعالى: ﴿لَطَلُّومٌ كَفَّارٌ﴾ الظلوم هاهنا: الشاكر غير من أنعم عليه، والكفار: الجحود لنعيم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَاتًا﴾ قد سبق تفسيره في سورة [البقرة: ١٧٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَجْنِبِي رِيْبًا﴾ أي: جَنَّبِي وإِيَاهِم، والمعنى: ثَبَّنِي على اجتناب عبادتها. ﴿رَبِّ إِيْتَنَّا أَضَلَّكَ كَثِيرًا مِنَّا﴾ يعني: الأصنام، وهي لا توصف بالإضلال ولا بالفعل، ولكنهم لما ضلوا بسببها، كانت كأنها أضلتهم. ﴿فَمَن يَتِمَعِي﴾ أي: على ديني التوحيد ﴿فَأَلِّهِمْ مِيًّا﴾ أي: فهو على مِلَّتِي، ﴿وَمِن عَصَاكِ فَإِنَّكَ عُفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ومن عصاني ثم تاب فإنك عفور رحيم، قاله السدي. والثاني: ومن عصاني فيما دون الشرك، قاله مقاتل بن حيان. والثالث: ومن عصاني فكفر فإنك عفور رحيم أن تتوب عليه فتهديه إلى التوحيد، قاله مقاتل بن سليمان. وقال ابن الأنباري: يحتمل أن يكون دعا بهذا قبل أن يعلمه الله تعالى أنه لا يغفر الشرك كما استغفر لأبيه.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكُتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَّا الْتَائِبِينَ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْتُفِعْهُمْ مِنْ غَضَبِكُمْ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكُتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ في «مِنْ» قولان: أحدهما: أنها للتبعض، قاله الأخفش، والفراء. والثاني: أنها للتوكيد، والمعنى: أسكنت ذريتي، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ يعني: مكة، ولم يكن فيها حرث ولا ماء. عند ﴿بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إنما سمي محرماً، لأنه يحرم استحلال حرماته والاستخفاف بحقه. فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ ولم يكن هناك بيت حينئذ، إنما بناه إبراهيم بعد ذلك بمدة؟ فالجواب من ثلاثة وجوه: أحدها: أن الله تعالى حرّم موضع البيت منذ خلق السموات والأرض، قاله ابن السائب. والثاني: عند بيتك الذي كان قبل أن يُرْفَع أيام الطوفان. والثالث: عند بيتك الذي قد جرى في سابق علمك أنه يحدث هاهنا، ذكرهما ابن جرير. وكان أبو سليمان الدمشقي يقول: ظاهر الكلام يدل على أن هذا الدعاء إنما كان بعد أن بُني البيت وصارت مكة بلداً. والمفسرون على خلاف ما قال. وروى ابن أبي نجیح عن مجاهد أن إبراهيم خرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل وأمه هاجر ومعه جبريل حتى قدم مكة وبها ناس يقال لهم: العماليق، خارجاً من مكة، والبيت يومئذ ريوه حمراء، فقال إبراهيم لجبريل: أهاطنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم؛ فانزلهما في مكانٍ من الحجر، وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشاً، ثم قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكُتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ الآية. وفتح أهل الحجاز، وأبو عمرو ياء «إِنِّي أسكنت».

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ في متعلق هذه اللام قولان: أحدهما: أنها تتعلق بقوله: ﴿وَأَجْنِبِي رِيْبًا﴾ أن تَسْبُدَ الْأَسْتِمَامَ، فالمعنى: جنّبهم الأصنام ليقيموا الصلاة، هذا قول مقاتل. والثاني: أنها تتعلق بقوله: ﴿أَسْكُتُ﴾، فالمعنى: أسكتهم عند بيتك ليقيموا الصلاة، لأن البيت قبلة الصلوات، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَّا الْتَائِبِينَ﴾ أي: قلوب جماعة من الناس. قال ابن الأنباري: وإنما عبّر عن القلوب بالأفتداء، لقرب القلب من الفؤاد ومجاورته، قال امرؤ القيس:

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ أَصَابَ الْفُؤَادَ
غَدَاةَ الرَّجِيلِ فَلَمْ أَنْتَصِرْ^(١)

وقال آخر:

كَأَنَّ فُؤَادِي كَلَّمَا مَرُّ زَاكِبٍ
جَنَاحُ غُرَابٍ رَامَ نَهْضًا إِلَى وَغْرِ

وقال آخر:

وَأَنَّ فُؤَادًا قَادَنِي لَصَبَابَةٍ
إِلَيْكَ عَلَى طُولِ الْهَوَى لَصَبُورُ

يعنون بالفؤاد: القلب.

قوله تعالى: ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس؛ تَجَنُّ إِلَيْهِمْ. وقال قتادة: تنزع إليهم. وقال الفراء: تريدهم، كما تقول: رأيت فلاناً يهوي نحوك، أي: يريذك. وقرأ بعضهم: «تهوى إليهم» بمعنى: تهواهم، كقوله: ﴿رَدِّفْ لَكُمْ﴾

(١) «ديوانه» ١٥٥. وقوله: رمتني سهم، أي نظرت إلي نظرة فلم انتصر، أي: لم يبلغ حبي من قلبها ما بلغ حبا من قلبي. وقال الطوسي: سهمها هاهنا: عينها.

النمل: ٧٢]، أي: ردفكم. و «إلى» توكيد للكلام. وقال ابن الأنباري: «تهوى إليهم»: تنحط إليهم وتنحدر. وفي معنى هذا الميل قولان: أحدهما: أنه الميل إلى الحج، قاله الأکثرون. والثاني: أنه حُبُّ سُكْنَى مَكَّة، رواه عطية عن ابن عباس. وروى سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: لو كان إبراهيم قال: فاجعل أئمة الناس تهوي إليه، لحبَّه اليهود والنصارى، ولكنه قال: من الناس.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمْ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلَمُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمْ مَا نَخْفِي﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: ما نخفي من الوجود بمفارقة إسماعيل، وما نعلم من الحُبِّ له. قال المفسرون: إنما قال هذا لما نزل إسماعيل الحرم، وأراد فراقه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُسِيمَةَ الصَّلَاةِ وَمِن دُرِّيِّ رَبِّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أي: بعد الكبر ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ قال ابن عباس: وُلد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثني عشرة سنة.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَائِي﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، وهبيرة عن حفص عن عاصم: «وتقبل دعائي» بياء في الوصل. وقال البزري عن ابن كثير: يصل ويقف بياء. وقال قنبل عن ابن كثير: يُشِمُّ البياء في الوصل، ولا يشتمها، ويقف عليها بالالف. الباقون: «دعاء» بغير ياء في الحالين. قال أبو علي: الوقف والوصل بياء هو القياس، والإشمام جائز، لدلالة الكسرة على البياء.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ قال ابن الأنباري: استغفر لأبويه وهما حيّان، طمعاً في أن يهدبها إلى الإسلام. وقيل: أراد بوالديه: آدم، وحواء. وقرأ ابن مسعود، وأبي، والنخعي، والزهري: «ولولدي» يعني: إسماعيل وإسحاق، يدل عليه ذكرهما بل ذلك. وقرأ مجاهد: «ولوالدي» على التوحيد. وقرأ عاصم الجحدري: «ولولدي» بضم الواو. وقرأ يحيى بن يعمر، والجنوني: «ولولدي» بفتح الواو وكسر الدال على التوحيد. «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ» أي: يظهر الجزاء على الأعمال. وقيل: معناه: يوم يقوم الناس للحساب، فاكثفي بذكر الحساب من ذكر الناس إذ كان المعنى مفهوماً.

﴿وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعَاتٌ مُقْبِلَاتٌ رُؤُوسُهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَّا لِيَوْمٍ نَطْفِئُهُمْ وَأَفْنِدُهُمْ هَوَاهُ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ابن عباس: هذا وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو رزين، وقناة: «نؤخرهم» بالنون، أي: يؤخر جزاءهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: تشخص أبصار الخلاق لظهور الأحوال فلا تغتمض.

قوله تعالى: ﴿مُهْطِعَاتٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الإهطاع: النظر من غير أن يظرف الناظر، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والضحاك، وأبو الضحى. والثاني: أنه الإسراع، قاله الحسن، وسعيد بن جبیر، وقناة، وأبو عبيدة. وقال ابن قتيبة: يقال: أهطع البعير في سيره، واستهطع: إذا أسرع. وفي ما أسرعوا إليه قولان: أحدهما: إلى الداعي، قاله قتادة. والثاني: إلى النار، قاله مقاتل. والثالث: أن المهطع: الذي لا يرفع رأسه، قاله ابن زيد. وفي قوله: ﴿مُقْبِلَاتٌ رُؤُوسُهُمْ﴾ قولان: أحدهما: رافعي رؤوسهم، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وقناة، وأبو عبيدة، وأنشد أبو عبيدة:

أَنْفَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَفْنَعَا كَأَمَّا أَبْصَرَ شَيْئاً أَظْمَعَا^(١)

(١) البيت غير منسوب في «الطبري» ١٣/٢٣٨، و«الطبري» ٩/٣٧٧. وأنفض رأسه: حركة كالمتمب، وأفنعه: رفعه، يقول: هز رأسه نحوي، ورفعه يثاني كما يثامل شيئاً فيه مطع له، وهو شامد على أن الإفناع: هو الرفع.

وقال ابن قتيبة: المقنع رأسه: الذي رفعه وأقبل بطرفه على ما بين يديه. وقال الزجاج: رافعي رؤوسهم، ملتصقة بأعناقهم. و﴿مُهَيَّيَاتٌ مُّغْبِيَاتٌ رُّؤُوسِهِمْ﴾ نصبٌ على الحال، المعنى: ليوم تشخص فيه أبصارهم مهطعين. والثاني: ناكسي رؤوسهم، حكاه الماوردي عن المؤرج.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، فهي شاخصة. قال ابن قتيبة: والمعنى: أن نظرهم إلى شيء واحد. وقال الحسن: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء، لا ينظر أحد إلى أحد.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفِدْتُمْ هَوَاءً﴾ الأفئدة: مساكن القلوب. وفي معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: أن القلوب خرجت من مواضعها فصارت في الحناجر، رواه عطاء عن ابن عباس. وقال قتادة: خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم، فأفئدتهم هواءً ليس فيها شيء. والثاني: وأفئدتهم ليس فيها شيء من الخير، فهي كالخزبة، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: وأفئدتهم منخرقة لا تعي شيئاً، قاله مرة بن شراحيل. وقال الزجاج: متخرقة لا تعي شيئاً من الخوف. والرابع: وأفئدتهم جوف لا عقول لها، قاله أبو عبيدة، وأشد لحسان:

أَلَا أَبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخِبٌ هَوَاءً^(١)

فعلى هذا يكون المعنى: أن قلوبهم خلت عن العقول، لِمَا رَأَوْا مِنَ الْهَوْلِ. والعرب تسمي كل أجوف خاو: هواءً. قال ابن قتيبة: ويقال: أفئدتهم منخرقة من الخوف والجبن.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْمَدَابُحُ﴾ يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِتَنَا إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَسْجُدُ الرَّسُلُ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَتَمْتُمْ يَنْ قَبْلَ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أي: خوفهم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْمَدَابُحُ﴾ يعني به: يوم القيامة؛ وإنما خصه بذكر العذاب، وإن كان فيه ثواب، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للمصاة. قال ابن عباس: يريد بالناس هاهنا: أهل مكة.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿رَبَّنَا أَخْرِتَنَا إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: أمهلنا مئةً يسيرة. وقال مقاتل: سألوا الرجوع إلى الدنيا، لأن الخروج من الدنيا قريب. ﴿يُحِبُّ دَعْوَتَكَ﴾ يعني: التوحيد، فيقال لهم: ﴿أَوْلَمْ تَكُونُوا أَتَمْتُمْ يَنْ قَبْلَ﴾ أي: حلفتم في الدنيا أنكم لا تبغثون ولا تتقلون من الدنيا إلى الآخرة.

﴿وَسَكَّنتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَيَبْغُوكُمْ كَيْفَ فَكَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَكَّنتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: نزلتم في أماكنهم وقراهم، كالحجر ومدين، والقرى التي عذب أهلها. ومعنى «ظلموا أنفسهم» أي: ضرروها بالكفر والمعصية. ﴿وَيَبْغُوكُمْ لَكُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو المتوكل الناجي (وثنيين) بضم التاء. ﴿كَيْفَ فَكَلْنَا بِهِمْ﴾ يعني: كيف عذبناهم، يقول: فكان ينبغي لكم أن تنزجروا عن المخالفة اعتباراً بمساكنهم بعدما علمتم فعلنا بهم، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ قال ابن عباس: يريد الأمثال التي في القرآن.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَنْزِلُوا فِيهِ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخْلِفُ وَعْدَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ في المشار إليهم أربعة أقوال: أحدها: أنه نمرود الذي حاح إبراهيم في ربه، قال: لا أنتهي حتى أنظر إلى السماء، فأمر بفرخي نسر فزبياً حتى سما واستعلجا، ثم أمر بتابوت فحُت، ثم جعل في وسطه خشبة، وجعل على رأس الخشبة لحماً شديد الحمرة، ثم جوعها وربط أرجلها بأوتار إلى قوائم التابوت. ودخل هو وصاحب له في التابوت وأغلق بابه، ثم أرسلهما، فجعلا يريدان اللحم، فصعدا في السماء ما شاء الله، ثم قال لصاحبه: افتح وانظر ماذا ترى؟ ففتح، فقال: أرى الأرض كأنها الدخان، فقال له: أغلق، ثم صعد ما شاء الله،

(١) «ديوانه» ٧، و«مجاز القرآن» ١/٣٤٤، و«الطبري» ١٣/٢٤١، و«القرطبي» ٩/٣٧٧، و«اللسان»، و«التاج»: هوا، جوف. والمجوف: الخالي الجوف، يريد به الجبان، وكذلك النخب والهواء.

ثم قال: افتح فانظر، ففتح، فقال: ما أرى إلا السماء، وما نزداد منها إلا بُعداً، قال: فصوب خشبتك، فصوبها، فانقضت النور تريد اللحم، فسمعت الجبال هدتها، فكادت تزول عن مراتبها. هذا قول علي بن أبي طالب. وفي رواية عنه: كانت النور أربعة. وروى الشَّيْخُ عن أشياخه: أنه ما زال يصعد إلى أن رأى الأرض يحيط بها بحر، فكانها قلعة في ماء، ثم صعد حتى وقع في ظلمة، فلم يرَ ما فوقه ولم يرَ ما تحته، ففزع، فصوب اللحم، فانقضت النور، فلما نزل أخذ في بناء الصرح. وروي عن ابن عباس أنه بنى الصرح، ثم صعد منه مع النور، فلما لم يقدر على السماء، اتخذ حصناً، فأتى الله بنيانه من القواعد. وقال عكرمة: كان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والشَّاب، فرمى بسهم فعاد إليه ملطخاً بالدم، فقال: كُفِّتَ إِلَهَ السماء، وذلك من دم سمكة في بحر معلق في الهواء، فلما هاله الارتفاع، قال لصاحبه: صوب الخشبة، فصوبها، فانحطت النور فظنت الجبال أنه أمر نزل من السماء فزالت عن مواضعها. وقال غيره: لما رأت الجبال ذلك، ظنه أنه قيام الساعة، فكادت تزول، وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبیر، وأبو مالك. والقول الثاني: أنه يختصر، وأن هذه القصة له جرت، وأن النور لما ارتفعت تطلب اللحم إلى حيث شاء الله، نودي: يا أيها الطاغية، أين تريد؟ ففرق، ثم سمع الصوت فوقه، فنزل، فلما رأت الجبال ذلك، ظنت أنه قيام الساعة فكادت تزول، وهذا قول مجاهد. والثالث: أن المشار إليهم الأمم المتقدمة. قال ابن عباس، وعكرمة: مكرهم: شركهم. والرابع: أنهم الذين مكروا برسول الله ﷺ حين هموا بقتله وإخراجه. وفي قوله: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه محفوظ عنده حتى يجازيهم به، قاله الحسن، وفتادة. والثاني: وعند الله جزاء مكرهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾ وقرأ أبو بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي، وابن عباس، وعكرمة، وأبو العالية: ﴿وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ﴾ بالذال. ﴿لَيَتَزَوَّلَنَّ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾. وقرأ الأكثرون ﴿لَيَتَزَوَّلَنَّ﴾ بكسر اللام الأولى من «لتزول» وفتح الثانية. أراد: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، أي: هو أضعف وأوهن، كذلك فسرها الحسن البصري. وقرأ الكسائي ﴿لَتَزَوَّلَنَّ﴾ بفتح اللام الأولى وضم الثانية، أراد: قد كادت الجبال تزول من مكرهم، كذلك فسرها ابن الأنباري. وفي المراد بالجبال قولان: أحدهما: أنها الجبال المعروفة، قاله الجمهور. والثاني: أنها ضربت مثلاً لأمر النبي ﷺ، وثبوت دينه كثبوت الجبال الراسية، والمعنى: لو بلغ كيدهم إلى إزالة الجبال، كما زال أمر الإسلام، قاله الزجاج. قال أبو علي؛ ويدل على صحة هذا قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخَلَّفَ وَوَعْدِهِ رُشْلَةً﴾ أي: فقد وعدك الظهور عليهم. قال ابن عباس: يريد بوعده: النصر والفتح وإظهار الدين. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع ﴿ذُو أَيْقَانٍ﴾ من الكافرين، وهو أن يجازيهم بالعقوبة على كفرهم.

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عِزَّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عِزَّ الْأَرْضِ﴾ وروى أبان «يوم تبديل» بالنون وكسر الدال «الأرض» بالنصب، «والسموات» بخفض التاء، ولا خلاف في نصب «غير». وفي معنى تبديل الأرض قولان: أحدهما: أنها تلك الأرض، وإنما يزداد فيها ويُنقص منها، وتذهب أكامها وجبالها وأوديتها وشجرها، وتُمدد مدَّ الأديم، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس. وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «يوم تبديل الأرض غير الأرض، قال: يبسطها ويمدها مدَّ الأديم»^(١). والثاني: أنها تبديل بغيرها. ثم فيه أربعة أقوال: أحدها: أنها تبديل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمل عليها خيطية،

(١) الطبري ٢٥٢/١٣، وفي سننه جهالة، وهو جزء من حديث الصور المشهور، وقد ذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ١٤٦/٢ من رواية أبي القاسم الطبراني، وقال في آخره: ثم ذكره بطوله، ثم قال: هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة. وقد اختلف فيه، فممن من وثقه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل، وابن أبي حاتم، وعمرو بن أبي الفلاس، ومنهم من قال فيه: هو متروك الحديث. وقال ابن عدي: أحاديث كلها فيها نظر، إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء. قلت (أي ابن كثير): وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجه كثيرة قد أفردتها في جزء على حدة. وأما سياقه فغريب جداً. ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياتاً واحداً فأنكر عليه بسبب ذلك. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، والله أعلم.

رواه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود، وعطاء عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثاني: أنها تُبدل ناراً، قاله أبي بن كعب. والثالث: أنها تُبدل بأرض من فضة، قاله أنس بن مالك. والرابع: تُبدل بخبزة بيضاء، فيأكل المؤمن من تحت قدميه، قاله أبو هريرة، وسعيد بن جبير، والقرظي؛ وقال غيرهم: يأكل منها أهل الإسلام حتى يُفرغ من حسابهم. فأما تبديل السموت، ففيه ستة أقوال: أحدها: أنها تُجعل من ذهب، قاله علي رضي الله عنه. والثاني: أنها تصير جناناً، قاله أبي بن كعب. والثالث: أن تبديلها: تكوير شمسها وتناثر نجومها، قاله ابن عباس. والرابع: أن تبديلها: اختلاف أحوالها، فمرة كالمُهمل، ومرة تكون كالدَّهان، قاله ابن الأنباري. والخامس: أن تبديلها أن تطوى كطَي السَّجَل للكتاب. والسادس: أن تنشق فلا تُظَلُّ، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ الرَّحِيمَ الْقَهَّارَ﴾ أي: خرجوا من القبور.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٤٩) سَرَائِبُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَنْتَنِي وَجُوهَهُمْ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: الكفار ﴿مُّقْرَنِينَ﴾ يقال: قرنت الشيء إلى الشيء: إذا وصلته به. وفي معنى «مُقرنين» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم يُقرنون مع الشياطين، قاله ابن عباس. والثاني: أن أيديهم وأرجلهم قرنت إلى رقابهم، قاله ابن زيد. والثالث: يُقرن بعضهم إلى بعض، قاله ابن قتيبة. وفي الأصفاد ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الأغلال، قاله ابن عباس، وابن زيد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج، وابن الأنباري. والثاني: القيود والأغلال، قاله قتادة. والثالث: القيود، قاله أبو سليمان الدمشقي. فأما السرايل، فقال أبو عبيدة: هي القمص، واحدها سربال. وقال الزجاج: السربال: كل ما لبس. وفي القَطْرَانِ ثلاث لغات: فتح القاف وكسر الطاء، وفتح القاف مع تسكين الطاء، وكسر القاف مع تسكين الطاء. وفي معناه قولان: أحدهما: أنه النحاس المذاب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه قَطْرَانِ الإبل، قاله الحسن، وهو شيء يتحلَّب من شجر تُهَنَّا به الإبل (٤٩). قال الزجاج: وإنما جعل لهم القَطْرَانِ، لأنه يبالغ في اشتعال النار في الجلود، ولو أراد الله تعالى المبالغة في إحراقهم بغير ذلك لَقَدَّرَ، ولكنه حذَّهم ما يعرفون حقيقته. وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو مجلز، وعكرمة، وقتادة، وابن أبي عبيدة، وأبو حاتم عن يعقوب: «مِنْ قَطْرٍ» بكسر القاف وسكون الطاء والتنوين «أَنْ» بقطع الهمزة وفتحها ومدّها. والقَطْرُ: النحاس، وأن: قد انتهى حرُّه.

قوله تعالى: ﴿وَتَنْتَنِي وَجُوهَهُمْ النَّارُ﴾ أي: تعلوها. واللام في ﴿يَجْزِيَ﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَيَرْزُقُوا﴾

﴿هَذَا بَلَدٌ لِّلنَّاسِ لِيَسْأَلُوا بِهِ وَيَسْأَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَجِدْ وَيَذْكُرُوا الْأَوْلَادَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٥١)

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَدٌ لِّلنَّاسِ﴾ في المشار إليه قولان: أحدهما: أنه القرآن. والثاني: الإنذار. والبلاغ: الكفاية. قال مقاتل: والمراد بالناس: أهل مكة.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُوا بِهِ﴾ أي: أنزل لِيَسْأَلُوا به، وليعملوا بما فيه من الحجج ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَجِدْ وَيَذْكُرُوا﴾

أي: وليتعض ﴿أَوْلَادَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾



سورة الحجر

وهي مكية كلها من غير خلاف نعلمه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قد سبق بيانه [يونس: ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن القرآن هو الكتاب، جُمع له بين الاسمين. والثاني: أن الكتاب: هو التوراة والإنجيل، والقرآن: كتابنا. وقد ذكرنا في أول (يوسف) معنى المبين.

﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي «رُبَّمَا» مشددة. وقرأ نافع، وعاصم، وعبد الوارث «رُبَّمَا» بالتخفيف. قال الفراء: أسد وتميم يقولون: «رُبَّمَا» بالتشديد، وأهل الحجاز وكثير من قيس يقولون: «رُبَّمَا» بالتخفيف. وتيمم الزيات يقولون: «رُبَّمَا» بفتح الراء. وقيل: إنما قرئت بالتخفيف، لما فيها من التضعيف، والحروف المضاعفة قد تحذف، نحو «إِن» و«لكن» فإنهم قد خَفَّفوها. قال الزجاج: يقولون: رُبُّ رُجُلٍ جاءني، ورُبُّ رُجُلٍ جاءني، وأنشد:

أزهير إن يثيب السدال فإنني
هذا البيت لأبي كبير الهذلي^(١)، وفي ديوانه:

رُبُّ هَيْضَلٍ مَرَسٍ لَقَفْتُ بِهِيْضَلٍ

رُبُّ هَيْضَلٍ لَجِبٍ لَقَفْتُ بِهِيْضَلٍ

والهَيْضَلُ: جمع هَيْضَلَة، وهي الجماعة يُغزى بهم، يقول: لففتهم بأعدائهم في القتال. و«رُبُّ» كلمة موضوعة للتقليل، كما أن «كم» للتكثير، وإنما زيدت «ما» مع «رُبُّ» ليلها الفعل، تقول: رُبُّ رجل جاءني، وربما جاءني زيد. وقال الأخفش: أدخل مع «رُبُّ» ما، لئتكلم بالفعل بعدها، وإن شئت جعلت «ما» بمنزلة «شيء»، فكانت قلت: رُبُّ شيء، أي: رُبُّ وَدَّ يَوَدُّه الذين كفروا. وقال أبو سليمان الدمشقي: «ما» هاهنا بمعنى «حين»، فالمعنى: رُبُّ حين يَوَدُّون فيه. واختلف المفسرون متى يقع هذا من الكفار، على قولين: أحدهما: أنه في الآخرة. ومتى يكون ذلك؟ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم مَنْ شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها؛ فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك الكفار، قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنُخْرِجَ كما أخرجوا، رواه أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ^(٢)، وذهب إليه ابن عباس في رواية وأنس بن مالك، ومجاهد، وعطاء، وأبو العالية، وإبراهيم. والثاني: أنه ما يزال الله يرحم ويشفَعُ حتى يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة، فذلك حين يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين، رواه مجاهد عن ابن عباس^(٣). والثالث: أن

(١) ديوان الهذليين: ٨٩/٢.

(٢) «الطبري» ٢/١٤، وفي سننه خالد بن نافع الأشعري، قال الذهبي في «الميزان»: ضعفه أبو زرعة والنسائي. وقال أبو حاتم: ليس بقوي يكتب حديثه، وقال أبو داود: متروك الحديث. قال الذهبي: وهذا تجاوز في الحد، فإن الرجل قد حدث عنه أحمد بن حنبل، ومسدد، فلا يستحق الترك. والحديث ذكره ابن كثير ٥٤٦/٢ عن الطبراني من حديث خالد بن نافع الأشعري. وأورده السيوطي في «الدر» ٩٢/٤، وزاد نسبه لابن أبي عاصم في «السنن»، وابن أبي حاتم، والحاكم ومصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث والنشور».

(٣) الطبري ٣/١٤.

الكفار إذا عاينوا القيامة، وُدُّوا لو كانوا مسلمين، ذكره الزجاج. والرابع: أنه كلما رأى أهل الكفر حالاً من أحوال القيامة يعذب فيها الكافر ويسلم من مكروهها المؤمن، وُدُّوا ذلك، ذكره ابن الأنباري. والقول الثاني: أنه في الدنيا، إذا عاينوا وتبين لهم الضلال من الهدى وعلموا مصيرهم، وُدُّوا ذلك، قاله الضحاك. فإن قيل: إذا قلت: إن «رَبِّ» للتقليل، وهذه الآية خارجة مخرج الوعيد، فإنما يناسب الوعيد تكثير ما يُتوعد به؟ فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها ابن الأنباري: أحدهن: أن «ربما» تقع على التقليل والتكثير، كما يقع الناهل على العطشان والريّان، والجؤن على الأسود والأبيض. والثاني: أن أحوال القيامة وما يقع بهم من الأحوال تكثر عليهم، فإذا عادت إليهم عقولهم، وُدُّوا ذلك. والثالث: أن هذا الذي حُوفوا به، لو كان مما يؤدُّ في حال واحدة من أحوال العذاب، أو كان الإنسان يخاف الندم إذا حصل فيه ولا يتقنه، لوجب عليه اجتنابه. فإن قيل: كيف جاء بعد «ربما» مستقبل، وسبيلها أن يأتي بعدها الماضي، تقول: ربما لقيت عبد الله؟ فالجواب: أن ما وعد الله حقاً، فمستقبله بمنزلة الماضي، يدل عليه قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُوحَىٰ آيَاتٍ مُّزْمَزَةٍ﴾ [المائدة: ١١٦] وقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَحْسَبَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فُرِضُوا فَلا قُوَّةَ﴾ [سبا: ٥١]، على أن الكسائي والفراء حكيا عن العرب أنهم يقولون: ربما يندم فلان، قال الشاعر:

رُبَّمَا تَجَزَّعَ النِّفْسُ مِنَ الْأَمْرِ

﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَعْتَبُوا وَيَتْلَمَّوْنَ﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا﴾ أي: دع الكفار يأخذوا حظوظهم في الدنيا، ﴿وَيَتْلَمَّوْنَ﴾ أي: ويشغلهم ما يأملون في الدنيا عن أخذ حظهم من الإيمان والطاعة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا وردوا القيامة وبأل ما صنعوا، وهذا وعيد وتهديد، وهذه الآية عند المفسرين منسوخة بآية السيف.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَهِيَ كَكَاْبٍ مَّعْلُوْمٍ﴾ ﴿٢﴾ مَا تَسْبِيْ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُوْنَ﴾ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَهِيَ كَكَاْبٍ مَّعْلُوْمٍ﴾ أي: ما عذبنا من أهل قرية ﴿إِلَّا وَهِيَ كَكَاْبٍ مَّعْلُوْمٍ﴾ أي أجل موقت لا يتقدم ولا يتأخر عنه. ﴿مَا تَسْبِيْ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ «من صِلَة، والمعنى: ما تتقدم وقتها الذي قدر لها بلوغه، ولا تستأخر عنه. قال الفراء: إنما قال: «أجلها» لأن الأمة لفظها مؤنث، وإنما قال: «يستأخرون» إخراجاً له على معنى الرجال.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿٤﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ ﴿٥﴾ مَا نُنزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا نَظَرُوْنَ﴾ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ قال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية، والنضر بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة. قال ابن عباس: والذكر: القرآن. وإنما قالوا هذا استهزاء، لو أيقنوا أنه نزل عليه الذكر، ما قالوا: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾. قال أبو علي الفارسي: وجواب هذه الآية في سورة أخرى في قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِمُتَّبِعِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿١﴾ [القلم: ٢].

قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا﴾ قال الفراء: «لو ما» و «لو لا» لغتان معناهما: هلاً، وكذلك قال أبو عبيدة: هما بمعنى واحد، وأنشد لابن مقبل:

لَوْ مَا الْحَيَاءُ وَلَوْ مَا الدِّينُ عِبْنُكُمَا

بِبَغْضِ مَا فِيكُمْ إِذْ عِشْتُمَا عَوْرِي^(١)

قال المفسرون: إنما سألوا الملائكة ليشهدوا له بصدقه، وأن الله أرسله، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿مَا نُنزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر «ما تنزل» بالتاء المفتوحة «الملائكة» بالرفع. وروى أبو بكر عن عاصم «ما تنزل» بضم التاء على ما لم يُسم فاعله. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وحُفَلَفَ «ما تنزل» بالنون والزاي مشددة «الملائكة» نصباً. وفي المراد بالحق أربعة أقوال: أحدها: أنه العذاب إن لم يؤمنوا، قاله الحسن. والثاني: الرسالة، قاله مجاهد. والثالث: قبض الأرواح عند الموت، قاله ابن السائب. والرابع: أنه القرآن، حكاه الماوردي.

(١) «ديوانه» ٧٦، و«الطبري» ١٦/١٤، و«مجاز القرآن» ٣٤٦/١، و«القرطبي» ٤/١٠، و«البحر» لأبي حيان ٤٤٢/٥، و«شواهد الكشاف» ١٢٦، و«اللسان»: بعض.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ يعني: المشركين ﴿إِذَا مُنْظَرُونَ﴾ أي: عند نزول الملائكة إذا نزلت.
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ من عادة الملوك إذا فعلوا شيئاً، قال أحدهم: نحن فعلنا، يريد نفسه وأتباعه، ثم صار هذا عادة للملك في خطابه، وإن انفرد بفعل الشيء، فخطبت العرب بما تعقل من كلامها. والذِّكر: القرآن، في قول جميع المفسرين. وفي هاء «له» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الذِّكر، قاله الأكثرون. قال قتادة: أنزله الله ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلاً، ولا ينقص منه حقاً. والثاني: أنها ترجع إلى النبي ﷺ، فالمعنى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من الشياطين والأعداء، لقولهم: «إنك لمجنون»، هذا قول ابن السائب، ومقاتل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: رسلاً، فحُذِفَ المفعول، لدلالة الإرسال عليه. والشَّيْع: الفرق، وحكي عن الفراء أنه قال: الشيعة: الأمة المتابعة بعضها بعضاً فيما يجتمعون عليه من أمر.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذا تعزية للنبي ﷺ، والمعنى: إن كل نبي قبلك كان مبتلى بقومه كما أثبتت.

﴿كَذَلِكَ نَسَلَكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسَلَكُهُمْ﴾ في المشار إليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الشُّرك، قاله ابن عباس، والحسن، وابن زيد. والثاني: أنه الاستهزاء، قاله قتادة. والثالث: التكذيب، قاله ابن جريج، والفراء. ومعنى الآية: كما سلكتنا الكفر في قلوب شيع الأولين، نُدْخِلُ في قلوب هؤلاء التكذيب فلا يؤمنوا. ثم أخبر عن هؤلاء المشركين، فقال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. وفي المشار إليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الرسول. والثاني: القرآن. والثالث: العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: مضت سنة الله في إهلاك المكذبين. والثاني: مضت سنتهم بتكذيب الأنبياء.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُؤُونَ﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: كفار مكة ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُؤُونَ﴾ أي يصعدون، يقال: ظل يفعل كذا: إذا فعله بالنهار. وفي المشار إليهم بهذا الصعود قولان: أحدهما: أنهم الملائكة، قاله ابن عباس، والضحاك، فالمعنى: لو كُشِفَ عن أبصار هؤلاء فرأوا باباً مفتوحاً في السماء والملائكة تصعد فيه، لما آمنوا به. والثاني: أنهم المشركون، قاله الحسن، وقتادة، فيكون المعنى: لو وصلناهم إلى صعود السماء، لم يستشعروا إلا الكفر، لعنادهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ قرأ الأكثرون بتشديد الكاف. وقرأ ابن كثير، وعبد الوارث بتخفيفها. قال الفراء: معنى القراءتين متقارب، والمعنى: حُبِسَتْ، من قولهم: سُكَّرَتِ الرِّيحُ: إذا سكنت وركدت. وقال أبو عمرو بن العلاء: معنى «سُكَّرَتْ» بالتخفيف، مأخوذ من سُكَّرَ الشَّرَابُ، يعني: أن الأبصار حارت، ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرجل السكران من تغيير العقل. قال ابن الأنباري: إذا كان هذا معنى التخفيف، فَسُكَّرَتْ، بالتشديد، يراد به وقوع هذا الأمر مرة بعد مرة. وقال أبو عبيد: «سُكَّرَتْ» بالتشديد، من السُّكُور التي تمنع الماء الجريئة، فكان هذه الأبصار منعت من النظر كما يمنع السُّكْرُ الماء من الجري. وقال الزجاج: «سُكَّرَتْ» بالتشديد، فسروها: أغشيت، و«سُكَّرَتْ» بالتخفيف: تحيرت وسكنت عن أن تنظر، والعرب تقول: سُكَّرَتِ الرِّيحُ تَسْكُرُ: إذا سكنت. وروى العوفي عن ابن عباس: «إنما سُكَّرَتْ أبصارنا» قال: أخذنا بأبصارنا وشبه علينا، وإنما سُكَّرْنَا. وقال مجاهد: «سُكَّرَتْ» سُدَّتْ بالسُّحْر، فيتمائل لأبصارنا غير ما ترى.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِقَهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ

ثِينٌ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ في البروج ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بروج الشمس والقمر، أي: منازلها، قاله ابن عباس، وأبو عبيدة في آخرين. قال ابن قتيبة: وأسمائها: الحَمَل، والثَّور، والجُوزاء، والسَّرَطان، والأسد، والسُّنْبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدِّي، والدلو، والحوت. والثاني: أنها قصور، روي عن ابن عباس أيضاً. وقال عطية: هي قصور في السماء فيها الحرس. وقال ابن قتيبة: أصل البروج: الحصون. والثالث: أنها الكواكب، قاله مجاهد، وقناة، ومقاتل. قال أبو صالح: هي النجوم العظام. قال قتادة: سُميت بروجاً، لظهورها.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهَا﴾ أي: حَسَنَّاها بالكواكب. وفي المراد بالناظرين قولان: أحدهما: أنهم المبصرون. والثاني: المعتبرون.

قوله تعالى: ﴿وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أي: حَفَظْنَاهَا أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا شَيْطَانٌ أَوْ يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهَا شَيْئاً إِلَّا اسْتِرَاقاً، ثم يتبعه الشهاب. والرجيم مشروح في (آل عمران: ٣٦). واختلف العلماء: هل كانت الشياطين تُرمى بالنجوم قبل مبعث نبينا ﷺ، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها لم تُرْمَ حتى بُعث ﷺ، وهذا المعنى مذكور في رواية سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. وقد أخرج في «الصحاحين» من حديث سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب^(١)، وظاهر هذا الحديث أنها لم تكن قبل ذلك. قال الزجاج: ويدل على أنها إنما كانت بعد مولد رسول الله ﷺ أن شعراء العرب الذين يمثلون بالبرق والأشياء المسرعة، لم يوجد في أشعارها ذكر الكواكب المنقضة، فلما حدث بعد مولد نبينا ﷺ، استعملت الشعراء ذكرها، فقال ذو الرمة:

كأته كوكبٌ في إثرِ عَفْرِيةٍ مُسَوِّمٌ في سوادِ الليلِ مُنْقَضِبٍ^(٢)

والثاني: أنه قد كان ذلك قبل نبينا ﷺ، فروى مسلم في «صححه» من حديث علي بن الحسين عن ابن عباس قال: بينا النبي ﷺ جالس في نفر من أصحابه، إذ رمي بنجم، فاستنار، فقال: «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول: يموت عظيم، أو يولد عظيم، قال: «فإنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن رُئنا إذا قضى أمراً، سُبِحَ حَمَلَةُ العرشِ، ثم سُبِحَ أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء، ثم يستخبر أهل السماء السابعة حَمَلَةَ العرشِ: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ثم يستخبر أهل كل سماءٍ أهل سماءٍ، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن ويُرْمونَ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرِّفون فيه ويزيدون»^(٣). وروي عن ابن عباس أن الشياطين كانت لا تُحجَب عن السموات، فلما وُلد عيسى، مُنعت من ثلاث سموات، فلما وُلد رسول الله ﷺ، مُنعوا من السموات كلها. وقال الزهري: قد كان يرمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله، ولكنها غُلِظت حين بُعث ﷺ، وهذا مذهب ابن قتيبة، قال: وعلى هذا وجدنا الشعر القديم، قال بشر بن أبي خازم، هو جاهلي:

(١) البخاري ٢/٢١٠ و ٨/٥١٣، ومسلم ١/٣٣١، ولقظه في البخاري بتمامه: «عن ابن عباس ﷺ قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدي إلى الرشاد فآمننا به، ولن نشرك بربنا أحداً، فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ قول الجن﴾. ورواه الترمذي ١٦٧/٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأورده ابن كثير ١٦٢/٢ من رواية البيهقي في «دلائل النبوة».

(٢) «ديوانه» ٣٦ طبع المكتب الإسلامي، و«مجاز القرآن» ٢/٩٥، و«الكامل للمبردة» ٨٣٣، و«الأمالي» للقاللي ٣/٦٥، و«اللسان»: قضب، و«القرطبي» ١٣/٢٠٣. وقوله: في إثر عفرية: أي: شيطان، وقوله: مسوم، أي: معلم، من السومة، وهي العلامة. ومعنى البيت: كان النور كوكب مسوم منقضب في إثر عفرية في سواد الليل.

(٣) مسلم ٤/١٧٥٠ - ١٧٥١، وقد رواه المصنف بالمعنى، ورواه أحمد في «المسند» من حديث ابن عباس رقم (١٨٨٢، ١٨٨٣)، ولقظه المصنف قريب من لفظ أحمد.

وَالْعَيْرُ يَرْهَقُهَا الْغُبَارُ وَجَحَشُهَا
وقال أوس بن حجر، وهو جاهلي:

يَنْقُضُ خَلْفَهُمَا انْقِضَاضَ الْكَوْكَبِ^(١)

فانقض كالدرّي يتبعه

نقع يشور تخالؤه طنبا^(٢)

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي: اختطف ما سمعه من كلام الملائكة. قال ابن فارس: استرق السمع: إذا سمع مستخفياً. ﴿فَاتَّبَعَهُ﴾ أي: لحقه ﴿شَهَابٌ مُّبِينٌ﴾ قال ابن قتيبة: كوكب مضيء. وقيل: «مين» بمعنى: ظاهر يراه أهل الأرض. وإنما يسترق الشيطان ما يكون من أخبار الأرض، فأما وحى الله ﷻ، فقد صانه عنهم. واختلفوا، هل يقتل الشهاب، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه يُحرق ويخبّل ولا يُقتل، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنه يُقتل، قاله الحسن. فعلى هذا القول، هل يُقتل الشيطان قبل أن يخبر بما سمع، فيه قولان: أحدهما: أنه يُقتل قبل ذلك، فعلى هذا، لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء. قال ابن عباس: ولذلك انقطعت الكهانة. والثاني: أنه يُقتل بعد إلقائه ما سمع إلى غيره من الجن، ولذلك يعودون إلى الاستراق، ولو لم يصل، لقطعوا الاستراق.

﴿وَالْأَرْضُ مَدَدَتْهَا وَأَلْقَيْتَا فِيهَا رَسُولِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدَتْهَا﴾ أي: بسطناها على وجه الماء ﴿وَأَلْقَيْتَا فِيهَا رَسُولِيَ﴾ وهي الجبال الثوابت ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ في المشار إليها قولان: أحدهما: أنها الموزون، قاله الأثرون. والثاني: الجبال، قاله الفراء. وفي قوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ قولان: أحدهما: أن الموزون: المعلوم، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبيرة، والضحاك. وقال مجاهد، وعكرمة في آخرين: الموزون: المقدور. فعلى هذا يكون المعنى: معلوم القدر كأنه قد وُزن، لأن أهل الدنيا لما كانوا يعلمون قدر الشيء بوزنه، أخبر الله تعالى عن هذا أنه معلوم القدر عنده بأنه موزون. وقال الزجاج: المعنى: أنه جرى على وُزن من قدر الله تعالى، لا يجاوز ما قدره الله تعالى عليه، ولا يستطيع خلُق زيادةً فيه ولا نقصاناً. والثاني: أنه عني به الشيء الذي يُوزن كالذهب، والفضة، والرصاص، والحديد، والكحل، ونحو ذلك، وهذا المعنى مروى عن الحسن، وعكرمة، وابن زيد، وابن السائب، واختاره الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا﴾ في المشار إليها قولان: أحدهما: أنها الأرض. والثاني: أنها الأشياء التي أنبتت. والمعاش جمع معيشة. والمعنى: جعلنا لكم فيها أرزاقاً تعيشون بها. وفي قوله: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنه الدواب والأنعام، رواه ابن أبي نجیح عن مجاهد. والثاني: الوحوش، رواه منصور عن مجاهد. وقال ابن قتيبة: الوحش، والطير، والسياب، وأشباه ذلك مما لا يرزقه ابن آدم. والثالث: العبيد والإماء، قاله الفراء. والرابع: العبيد، والأنعام، والدواب، قاله الزجاج. قال الفراء: و «مَنْ» في موضع نصب، فالمعنى: جعلنا لكم فيها المعاش، والعبيد، والإماء. ويقال: إنها في موضع خفض، فالمعنى: جعلنا لكم فيها معاش ولمن لستم له برازقين. وقال الزجاج: المعنى: جعلنا لكم الدواب، والعبيد، وكفيتهم مؤونة أرزاقها. فإن قيل: كيف قلت: إن «مَنْ» هاهنا للوحوش والدواب، وإنما تكون لمن يعقل؟ فالجواب: أنه لما وُصف الوحوش وغيرها بالمعاش الذي الغالب عليه أن يوصف به الناس، فيقال: للآدمي معاش، ولا يقال: للفرس معاش، جرت مجرى الناس، كما قال: ﴿يَكْفَيْهَا أَكْتَلُ أَذْخُلُوا مَسْكِنَكُمُ﴾ [النمل: ٤١٨]، وقال: ﴿رَأَيْتُمْ لِي سَجِيدًا﴾ [يوسف: ٤٤]، وقال: ﴿كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبُحُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وإن قلنا: أريد به العبيد، والوحوش، فإنه إذا اجتمع الناس وغيرهم، عُلب الناس على غيرهم، لفصيلة العقل والتمييز.

﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾ ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾ ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾

(١) «ديوانه» ٣٧، و «تأويل مشكل القرآن» ٣٣٣، و «المعاني الكبير» ٧٣٩/٢، و «الحيوان» ٢٧٩/٦. شبه الحمار والجحش بالكوكب المنقض في سرعة وبياضه، وقال الجاحظ في «الحيوان» ٢٧٩/٦: وقد طعت الرواة في هذا الشعر الذي اخفتوه إلى بشر بن أبي خازم من قوله: «والعير يرهقها... البيت، فزعموا أنه ليس من عادتهم أن يصفوا عدو الحمار بانقضاض الكوكب، وقالوا: في شعر بشر مصنوع كثير مما قد احتمله كثير من الرواة على أنه من صحيح شعره.

(٢) «ديوانه» ٣، و «المعاني الكبير» ٧٣٨/٢، و «غريب القرآن» ٣٣٤، و «الحيوان» ٢٧٤/٦، و «اللسان»: درأ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وما من شيء ﴿إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ وهذا الكلام عام في كل شيء. وذهب قوم من المفسرين إلى أن المراد به المطر خاصة، فالمعنى عندهم: وما من شيء من المطر إلا عندنا خزائنه، أي: في حكمنا وتدبيرنا، ﴿وَمَا نَزَّلْنَاهُ﴾ كل عام ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ لا يزيد ولا ينقص، فما من عام أكثر مطراً من عام، غير أن الله تعالى يصرفه إلى من يشاء، ويمتنع من يشاء.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ مَحْمُومًا فَآتَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَيَّبْنَاكُمْ وَمَا أَسْتَشْرِكُمْ بِمَحْدَرِهِمْ لَنْ يَحْمَدُوا إِلَّا أَنَّهُمْ﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُؤْتِيهِمْ مَوْتًا وَحَيَاةً وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ مَحْمُومًا﴾ وقرأ حمزة؛ وخلف: «الريح». وكان أبو عبيدة يذهب إلى أن «لواح» بمعنى ملاقح، فسقطت الميم منه، قال الشاعر:

لِيُبْنِكَ يَزِيدُ بَائِسٌ لِضِرَاعَةٍ وَأَشْعَثُ وَمَنْ طَوَّحَتْهُ الطَّوَائِحُ ^(١)

أراد؛ المطاوح، فحذف الميم، فمعنى الآية عنده: وأرسلنا الرياح ملقحة، فيكون هاهنا فاعل بمعنى مفعول، كما أتى فاعل بمعنى مفعول، كقوله: ﴿تَلَوَّ ذَاقِي﴾ [الطارق: ٦] أي: مدفوق، و ﴿يَسْبِقُهُ رَأَيْبِي﴾ [الحاقة: ٢١ والقارعة: ٧] أي: مَرُصِيَّةٌ، وكقولهم: ليل نائم، أي: مَنُومٌ فيه، ويقولون: أبقل النبات، فهو باقل، أي: مُبِقِلٌ. قال ابن قتيبة: يريد أبو عبيدة أنها تُلقح الشجر، وتُلقح السحاب كأنها تُنتجه. ولست أدري ما اضطره إلى هذا التفسير بهذا الاستكراه وهو يجد العرب تسمي الرياح لواحٍ، والريح لاقحاً، قال الطِّرِمَاحُ، وذكر بُرْدًا مَدَّهُ على أصحابه في الشمس يستظلون به:

قَلِيْقٌ لَأَفْنَانِ الرِّيحِ ح لِبَلَّاحٍ مِنْهَا وَحَائِلٌ ^(٢)

فاللاقح: الجنوب، والحائل: الشمال، ويسمون الشمال أيضاً: عقيماً، والعقيم: التي لا تحمل، كما سُموا الجنوب لاقحاً، قال كثير:

وَمَرَّبُ سَفَسِ التَّرَابِ عَقِيمٌ ^(٣)

يعني: الشمال. وإنما جعلوا الريح لاقحاً، أي: حاملاً، لأنها تحمل السحاب وتقلبه وتصرفه، ثم تحله فينزل، فهي على هذا حامل، ويدل على هذا قوله: ﴿حَرَجٌ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا﴾ [الاعراف: ٥٧] أي: حملت. قال ابن الأنباري: شبه ما تحمله الريح من الماء وغيره، بالولد الذي تشتمل عليه الناقة، وكذلك يقولون: حرب لاقح، لما تشتمل عليه من الشر، فعلى قول أبي عبيدة، يكون معنى «لواح» أي: ملقحة لغيرها، وعلى قول ابن قتيبة: أنها لاقحة نفسها، وأكثر الأحاديث تدل على القول الأول ^(٤). قال عبد الله بن مسعود: يبعث الله الرياح لتلقح السحاب، فتحمل الماء، فتمجبه ثم تمره، فيدرُّ كما تدرُّ اللقحة. وقال الضحاك: يبعث الله الرياح على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماءً. قال النخعي: تلقح السحاب ولا تلقح الشجر. وقال الحسن في آخرين: تلقح السحاب والشجر، يعنون أنها تلقح السحاب حتى يُمطر والشجر حتى يُثمر ^(٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعين السحاب ﴿مَاءً﴾ يعني المطر ﴿فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ﴾ أي: جعلناه سقياً لكم. قال الفراء: العرب مجتمعون على أن يقولوا: سقيت الرجل، فأنا أسقيه: إذا سقيته لسقته، فإذا أجروا للرجل نهراً

(١) البيت لنهشل بن حري على الأصح، شاعر مخضرم، وقد ينسب إلى غيره، وصوب البغدادي نسبه إلى نهشل. وهو في «الكتاب» ١/١٤٥، و«الطبري» ٢١/١٤، و«مجاز القرآن» ١/٣٩٩، و«الشمري» ١/١٤٥، و«اللسان»، و«التاج»: طبع. و«العيني» ٤٤٣، و«شواهد الكشاف» ٦٥.

(٢) البيت للطرماح «غريب القرآن» ٢٣٦.

(٣) غريب القرآن» ٢٣٧، و«اللسان»: سفف.

(٤) وقد روى ابن جرير الطبري ٢٢/١٤ حديثاً مرفوعاً من حديث عيسى بن ميمون عن أبي المهزوم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «الريح الجنوب من الجنة، وهي الريح اللواقح، وهي التي ذكر الله تعالى في كتابه، وفيها منافع للناس»، وسنده ضعيف.

(٥) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي أن الريح لواقح كما وصفها به جل ثناؤه وإن كانت قد تلقح السحاب والأشجار، فهي لاقحة ملقحة، ولقحها: حملها الماء، وإلقاحها السحاب والشجر: عملها فيه.

[قالوا: أسقيته وسقيته، وكذلك السُّقيا من الغيث، قالوا فيها: سقيت وأسقيت^(١)]. وقال أبو عبيدة: كل ما كان من السماء، فيه لغتان: أسقاه الله، وسقاه الله، قال لبيد:

سَقَى قَوْمِي بِنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى

فجاء باللغتين. وتقول: سقيت الرجل ماءً وشراباً من لبن وغيره، وليس فيه إلا لغة واحدة بغير ألف، إذا كان في الشِّفة؛ وإذا جعلت له شرباً، فهو: أسقيته، وأسقيت أرضه، وإبله، ولا يكون غير هذا، وكذلك إذا استسقيت له، كقول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى رَسْمٍ لِمَيْةٍ نَأَقَتِي

وَأَسْقِيَةَ حَتَّى كَادَ وَمَا أُبْنُهُ

فإذا وهبت له إهاباً ليجعله سقاءً، فقد أسقيته إياه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَشْرَكُ لَكُمْ﴾ يعني: الماء المُنزَّل ﴿بِحَدْرَيْنِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: بحافظين، أي: ليست خزائنه بأيديكم، قاله مقاتل. والثاني: بمانعين، قاله سفيان الثوري.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْنُ الْوَارِثُونَ﴾ يعني: أنه الباقي بعد فناء الخلق.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِمَشْرِحِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ يقال: استقدم الرجل، بمعنى: تقدم، واستأخر، بمعنى: تأخر. وفي سبب نزولها قولان: أحدهما: أن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ، فكان بعضهم يستقدم حتى يكون في أول الصفِّ لثلاث يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في آخر صفِّ، فإذا ركع نظر من تحت إبطه، فنزلت هذه الآية، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس^(٢). والثاني: أن النبي ﷺ حَضَّ على الصفِّ الأول، فازدحموا عليه، وقال قوم بيوتهم قاصية عن المدينة: لنبيعن دورنا، ولنشتري دوراً قريبة من المسجد حتى ندرِك الصفِّ المتقدم، فنزلت هذه الآية؛ ومعناها: إنما تُجْزَوْنَ على النيات، فاطمأنوا وسكنوا، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وللمفسرين في معنى المستقدمين والمستأخرين ثمانية أقوال: أحدها: لتقدم في الصفِّ الأول، والتأخر عنه، وهذا على القولين المذكورين في سبب نزولها، فعلى الأول: هو التقدُّم للتقوى، والتأخر للخيانة بالنظر، وعلى الثاني: هو التقدم لطلب الفضيلة، والتأخر للعذر. والثاني: أن المستقدمين: من مات، والمستأخرين: من هو حي لم يموت، رواه العوفي عن ابن عباس، وحُصِفَ عن مجاهد، وبه قال عطاء، والضحاك، والقرظي. والثالث: أن المستقدمين: من خرج من الخلق وكان. والمستأخرين: الذين في أصلاب الرجال، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. والرابع: أن المستقدمين: من مضى من الأمم، والمستأخرين: أمة محمد ﷺ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد. والخامس: أن المستقدمين: المتقدمون في الخير، والمستأخرين: المثبطون عنه، قاله الحسن، وقناة. والسادس: أن المستقدمين في صفوف القتال، والمستأخرين عنها، قاله الضحاك. والسابع: أن المستقدمين: من قُتِلَ في الجهاد، والمستأخرين: من لم يُقْتَل، قاله القرظي. والثامن: أن المستقدمين: أول الخلق، والمستأخرين: آخر الخلق، قاله الشعبي.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ يَءٍ حَمَلٍ مَسْئُورٍ﴾ ﴿١٦﴾ وَاللَّمَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَلْبٍ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ﴿١٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ يَءٍ حَمَلٍ مَسْئُورٍ ﴿١٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِدِينَ ﴿١٩﴾

(١) وفي هامش الأصل ما نصه: هنا سقط من الأصل، لأنه مكتوب بخط جديد، كان سقط منه ورقة، والحقت، ولعله غلط فأسقط ما بين «لا» إلى «»، وهو الذي وضعناه بين معقفيين.

(٢) «ديوانه» ٩٣، و«مجاز القرآن» ٣٥٠/١، و«نوار أبي زيد» ٢١٣، و«الشمري» ٢٣٥/٢، و«اللسان»، و«التاج»: سقى.

(٣) «ديوانه» طبع المكتب الإسلامي ٥٢، و«مجاز القرآن» ٣٥٠/١، و«نوار أبي زيد» ٢١٣، و«الطبري» ٢٢/١٤، و«التاج»: سقى.

(٤) «الطبري» ٢٦/١٤، وذكره ابن كثير من رواية ابن جرير الطبري ٥٤٩/٢، وقال: حديث غريب جداً، وفيه نكارة شديدة. وأورده السيوطي في «الدرا» ٩٦/٤، وزاد نسبه للطيبالسي، وسعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني آدم ﴿مِنْ صَلْصَلٍ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الطين اليابس الذي لم تُصبه نار، فإذا نقرته صَلَّ، فسمعت له صلصلة، قاله ابن عباس، وقتادة، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. والثاني: أنه الطين المتنن، قاله مجاهد، والكسائي، وأبو عبيد. ويقال: صَلَّ اللحمُ: إذا تغيرت رائحته. والثالث: أنه طين خُلط برمل، فصار له صوت عند نقره، قاله الفراء. فأما الحمأ، فقال أبو عبيدة: هو جمع حَمَاءَ، وهو الطين المتغير. وقال ابن الأنباري: لا خلاف أن الحمأ: الطين الأسود المتغير الريح. وروى السدي عن أشياخه قال: بُلُّ الترابِ حتى صار طيناً، ثم تُرْك حتى أنتن وتغيَّر. وفي المسنون أربعة أقوال: أحدها: المتنن أيضاً، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة في آخرين. قال ابن قتيبة: المسنون: المتغير الرائحة. والثاني: أنه الطين الرطب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنه المصبوب، قاله أبو عمرو بن العلاء، وأبو عبيد. والرابع: أنه المحكوك، ذكره ابن الأنباري، قال: فمن قال: المسنون: المتنن، قال: هو من قولهم: قد تَسَّنَى الشيءُ: إذا أنتن، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمْ يَبْسُكُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وإنما قيل له: مسنون، لتقدم السنين عليه. ومن قال: الطين الرطب، قال: سمي مسنوناً، لأنه يسيل وينبسط، فيكون كالماء المسنون المصبوب. ومن قال: المصبوب، احتج بقول العرب: قد سنتت عليَّ الماء: إذا صبته. ويجوز أن يكون المصبوب على صورة ومثال، من قوله: رأيت سُنَّةَ وجهه، أي: صورة وجهه، قال الشاعر:

تُرِيكَ سُنَّةً وَجْهِهِ غَيْرَ مُقَرَّرَةٍ مَلَسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَدْبٌ^(١)

ومن قال: المحكوك، احتج بقول العرب: سنتت الحجر على الحجر: إذا حككته عليه. وسمي الجِسْنُ وسنّاً، لأن الحديد يُحْكُ عليه. قال: وإنما كُرِّرَتْ «مِنْ» لأن الأولى متعلقة بـ «خلقنا»، والثانية متعلقة بالصلصال، تقديره: ولقد خلقنا الإنسان من الصلصال الذي هو من حمأ مسنون.

قوله تعالى: ﴿وَالجَانُّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مسيخ الجن، كما أن القردة والخنازير مسيخ الإنس^(٢)، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أنه أبو الجن، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وروى عنه الضحاك أنه قال: الجانُّ أبو الجن، وليسوا بشياطين، والشياطين ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس، والجن يموتون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر. والثالث: أنه إبليس، قاله الحسن، وعطاء، وقتادة، ومقاتل. فإن قيل: ليس أبو الجن هو إبليس؟ فنه جوابان: أحدهما: أنه هو، فيكون هذا القول هو الذي قبله. والثاني: أن الجانُّ أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين، فيبينهما إذا فرق على ما ذكرنا عن ابن عباس. قال العلماء: وإنما سمي جانّاً، لتوازيه عن العيون.

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَلَلٍ﴾ يعني: قبل خَلَقَ آدم: ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾^(٣)، وقال ابن مسعود: من نار الريح الحارّة، وهي جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم^(٤). والسّموم في اللغة: الريح الحارّة وفيها نار، قال ابن السائب: وهي نار لا دخان لها.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ إِنَّهُ كَانَ كَفُورًا ﴿١٦﴾ قَالَ يَا أَيْدِي مَا لَكَ أَلَّا تَكُونِ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿١٧﴾

(١) البيت لذي الرّمة، «ديوانه» طبع المكتب الإسلامي ٨، و«القرطبي» ٢٢/١٠. والسنة: الصورة، والندب: الأثر من الجراح والقروح. وقوله: غير مقرّفة، أي: غير هجينة، عفيفة، كريمة. وخال: شامة.

(٢) روى أحمد في «المسند» رقم (٢٧٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لم يمسح شيئاً فيدع له نسلأ أو عاقبة، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك»، وهو حديث صحيح. وروى مسلم في «صحيحه» ٢٠٥١/٤، ٢٠٥٢، عن عبد الله بن مسعود قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله القردة والخنازير، هي مما مسح؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله ﷻ لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلأ، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك». وروى مسلم أيضاً ٢٠٥١/٤، من حديث ابن مسعود قال: ذكرت عند رسول الله ﷺ القردة - قال مسمر وأراء قال: والخنازير - من مسح، فقال ﷺ: «إن الله لم يجعل لمسح نسلأ ولا عقبأ، وقد كان القردة والخنازير قبل ذلك» أي: قبل مسح بني إسرائيل، فدل ذلك على أنها ليست من المسح.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» ٢٢٩٤/٤، عن عائشة ؓ قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

(٤) روى البخاري ٢٣٨/٦، ومسلم ٢١٨٤/٤ عن أبي هريرة ؓ، ولفظ البخاري: أن النبي ﷺ قال: «فإنكم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». قيل: يا رسول الله إن كانت لكافية، قال: «فضلت عليهن بسعة وتسعين جزءاً كلهن مثل حرها».

قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِسَيِّدٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرَجْنَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِنَّكَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكَ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَلْزِمَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ لِأَغْوَيْتَنِي أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَوْتٌ﴾ أي: عدلت صورته، وأتممت خلقته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ هذه الروح هي التي يحيى بها الإنسان، ولا تعلم ماهيتها، وإنما أضافها إليه، تشريفاً لآدم، وهذه إضافة ملك. وإنما سمي إجراء الروح فيه نفخاً، لأنها جرت في بدنه على مثل جري الريح فيه.

قوله تعالى: ﴿فَقَرَأْ﴾ أمر من الوقوع. وقوله: ﴿كَلَّمْتُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال فيه سيبويه والخليل: هو توكيد بعد توكيد. وقال المبرد: «أجمعون» يدل على اجتماعهم في السجود، فالمعنى: سجدوا كلهم في حالة واحدة. قال ابن الأنباري: وهذا، لأن «كلاماً» تدل على اجتماع القوم في الفعل، ولا تدل على اجتماعهم في الزمان. قال الزجاج: وقول سيبويه أجود، لأن «أجمعين» معرفة، ولا تكون حالاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ قال المفسرون: معناه: يلعنك أهل السماء والأرض إلى يوم الحساب. قال ابن الأنباري: وإنما قال: ﴿إِنَّكَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ لأنه يوم له أول وليس له آخر، فجرى مجرى الأبد الذي لا يفنى، والمعنى: عليك اللعنة أبداً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ يعني: المعلوم بموت الخلائق فيه، فأراد أن يذيقه ألم الموت قبل أن يذيقه العذاب الدائم في جهنم.

قوله تعالى: ﴿لَأَلْزِمَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ مفعول التزيين محذوف، والمعنى: لأزيمين لهم الباطل حتى يقعوا فيه. ﴿وَأَغْوَيْتَنَّهُمْ﴾ أي: ولأضلنهم. والمخلصون: الذين أخلصوا دينهم لله عن كل شائبة تناقض الإخلاص. وما أخللنا به من الكلمات هاهنا، فقد سبق تفسيرها في [الأعراف: ١٦] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ اختلفوا في معنى هذا الكلام على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يعني بقوله هذا: الإخلاص، فالمعنى: إن الإخلاص طريق إليّ مستقيم، و«عليّ» بمعنى «إليّ». والثاني: هذا طريق عليّ جوازه، لأنني بالمرصاد، فأجازيهم بأعمالهم؛ وهو خارج مخرج الوعيد، كما تقول للرجل تخاصمه: طريقك عليّ، فهو كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [النجر: ١٤]. والثالث: هذا صراط عليّ استقامته، أي: أنا ضامن لاستقامته بالبيان والبرهان. وقرأ قتادة، ويعقوب: «هذا صراطٌ عليّ» بكسر اللام ورفع الياء وتوניהا، أي: رفيع.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٢﴾ لَمَّا سَعَى أَبُو بَكْرٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءًا مَفْسُومًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ فيهم أربعة أقوال^(١): أحدها: أنهم المؤمنون. والثاني: المعصومون، رُوي عن قتادة. والثالث: المخلصون، قاله مقاتل. والرابع: المطيعون، قاله ابن جرير. فعلى هذه الأقوال، تكون الآية من العام الذي أريد به الخاص. وفي المراد بالسلطان قولان: أحدهما: أنه الحجة، قاله ابن جرير، فيكون المعنى: ليس لك حجة في إغوائهم. والثاني: أنه القهر والغلبة؛ إنما له أن يُغَرَّ وَيُزَيَّنَ، قاله أبو سليمان الدمشقي. ومثل سفيان بن عيينة عن هذه الآية، فقال: ليس لك عليهم سلطان أن تلقهم في ذنُبٍ يضيق عفوي عنه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: الذين أتبعوه.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا سَعَى أَبُو بَكْرٍ﴾ وهي دركاتها بعضها فوق بعض، قال علي رضي الله عنه: أبواب جهنم ليست كأبوابكم هذه، ولكنها هكذا وهكذا وهكذا بعضها فوق بعض، ووصف الراوي عنه بيده وفتح أصابعه. قال ابن جرير: لها سبعة أبواب، أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقال الضحاك: هي سبعة

(١) وفي نسخة: فيه أربعة أقوال، ويكون الضمير عائداً على القول.

أدراك بعضها فوق بعض، فأعلاها فيه أهل التوحيد يعذبون على قدر ذنوبهم ثم يُخَرَّجون، والثاني فيه النصارى، والثالث فيه اليهود، والرابع فيه الصابئون، والخامس فيه المجوس، والسادس فيه مشركو العرب، والسابع فيه المنافقون. قال ابن الأباري: لما اتصل العذاب بالباب، وكان الباب من سببه، سمي باسمه للمجاورة، كتسميتهم الحدث غائطاً.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ يَنْتَهُمُ﴾ أي: من أتباع إبليس ﴿جُرْزُ مَقْسُورٌ﴾ والجزء: بعض الشيء.

﴿إِنَّ الْمُنْتَهِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾ ١٦٠ ﴿أَدْخَلُوهَا يَسْكُرًا وَأَيُّنَ﴾ ١٦١ ﴿وَرَزَقْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَلِّبِينَ﴾ ١٦٧ ﴿لَا يَسْتَهْتُمُ فِيهَا نَسَبٌ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ﴾ ١٦٨

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْتَهِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾ ١٦٠ قد شرحنا في سورة [البقرة: ٢ و ٢٥] معنى التقوى والجنات. فأما العيون، فهي عيون الماء، والخمر، والسلسيل، والتسنيم، وغير ذلك مما ذُكر أنه من شراب الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَدْخَلُوهَا يَسْكُرًا﴾ المعنى: يقال لهم: ادخلوها بسلام، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: بسلامة من النار. والثاني: بسلامة من كل آفة. والثالث: بتحية من الله. وفي قوله: ﴿وَأَيُّنَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: آمنين من عذاب الله. والثاني: من الخروج. والثالث: من الموت. والرابع: من الخوف والمرض.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ قد ذكرنا تفسيرها في سورة [الأعراف: ٤٣] فإن المفسرين ذكروا ما هناك ها هنا من تفسير وسبب نزول.

قوله تعالى: ﴿إِخْوَانًا﴾ منصوب على الحال، والمعنى: أنهم متوادون. فإن قيل: كيف نصب «إخواناً» على الحال، فأوجب ذلك أن التأخي وقع مع نزع الغلِّ، وقد كان التأخي بينهم في الدنيا؟ فقد أجاب عنه ابن الأباري: فقال: ما مضى من التأخي قد كان تشويه صفاتهن وشحناء، وهذا التأخي بينهم الموجود عند نزع الغلِّ هو تأخي المصافاة والإخلاص، ويجوز أن يتصب على المدح، المعنى: اذكر إخواناً. فأما السرر فجمع سرير، قال ابن عباس: على سرر من ذهب مكلَّلة بالزبرجد والذُّرُّ والياقوت، السرير مثل ما بين عدن إلى أيلة^(١)، ﴿مُتَقَلِّبِينَ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض، حينما التفت رأى وجهاً يجبه يقابله.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَهْتُمُ فِيهَا نَسَبٌ﴾ أي: لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب.

﴿نَبِيٌّ يَبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ١٦١ ﴿وَأَنَّ عَدَايَ هُوَ الْمَدَابِغُ الْأَلْيَسُ﴾ ١٦٢ ﴿وَنَبَتْهُمْ عَنْ صَنِيفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ١٦٣ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَّمْنَا قَالَ إِنَّا يَنْتَحِبُونَ عَلَيْكُمْ رَجُلُونَ﴾ ١٦٤ ﴿قَالُوا لَا تَزُولَ إِيَّانَا يَبْنَظُكَ يَظْلِمُ عَلِيمٌ﴾ ١٦٥

قوله تعالى: ﴿نَبِيٌّ يَبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ سبب نزولها ما روى ابن المبارك بإسناد له عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: طلع علينا رسول الله من الباب الذي يدخل منه بنو شيبعة، ونحن نضحك، فقال: «ألا أراكم تضحكون؟» ثم أدير، حتى إذا كان عند الحجر، رجع إلينا القهقري، فقال: «إني لما خرجت، جاء جبريل ﷺ، فقال: يا محمد، يقول الله تعالى: لم تقط عبادي؟ نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم^(٢)». وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو بتحريك ياء «عبادي» وياء «أني أنا»، وأسكنها الباقون.

قوله تعالى: ﴿وَنَبَتْهُمْ عَنْ صَنِيفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ١٦٣ قد شرحنا القصة في [هود: ٦٩] وبيننا هنالك معنى الصنيف والسبب في خوفه منهم، وذكرنا معنى الرَجَل في [الأنفال: ٢].

قوله تعالى: ﴿يَظْلِمُ عَلِيمٌ﴾ أي: إنه يبلغ ويعلم.

﴿قَالَ ابْتَرْمُونِي لَعَلَّ أَنْ سَأَلْتُ الْعَبَّادَ بِسَمْعِ بَشَرُونَ﴾ ١٦٤ ﴿قَالُوا بَشَرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ ١٦٥ ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ

(١) أيلة: مدينة على شاطئ البحرين الفسطاط ومكة تعد من بلاد الشام.

(٢) «الطبري» ٣٩/١٤ وسنده ضعيف، وذكره ابن كثير في «التفسير» ٥٣/٢ من رواية ابن أبي حاتم مرسلًا، وأورده السيوطي في «الدر» ١٠٢/٤، وزاد نسبتة لابن مردويه. وجاء في «صحيح مسلم» ٢١٠٩/٤ حديث بصد هذه الآية دون سبب النزول، عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجهنم أحد، ولو يعلم الكفار ما عند الله من الرحمة ما قط من جهنم أحد».

رَحْمَةً رَبِّهِ إِلَّا الصَّالَاتُ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْفَالِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ يَحْسَبُكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَسْتَمِرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْتَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمَكِيدُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَتَى بِأَهْلِكَ يَفْطَعُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَأَتَى ابْنَةَ زَيْنَبَ وَمَكَرَ أَعْدُوهُمَا فَتَبَوَّأَا فِئْتَانًا مِنْ أَدْنَى الْوَادِ لِيُتْرِكَ لَوْتَ وَيَذَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءَ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَسْأَلُكَ﴾ أي: بالولد ﴿عَلَى أَنْ مَسَّيَ الْكِبَرَ﴾ أي: على حالة الكبر والهرم ﴿فِيهِ تَبَيَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «تَبَيَّرُونَ» بفتح النون. وقرأ نافع بكسر النون، ووافقه ابن كثير في كسرهما، لكنه شدها. وهذا استفهام تعجب، كأنه عجب من الولد على كبره. ﴿قَالُوا بَشَّرْتَكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بما قضى الله أنه كائن ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَالِقِينَ﴾ يعني: الآيسين. ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: «ومن يقنط» بفتح النون في جميع القرآن. وقرأ أبو عمرو، والكسائي: «يقنط» بكسر النون. وكلهم قرؤوا ﴿وَمَنْ يَسْتَدِيمَا قَنْطَرًا﴾ [الشورى: ٢٧٨] بفتح النون. وروى خارجة عن أبي عمرو «ومن يقنط» بضم النون. قال الزجاج: يقال: قنط يقنط، وقنط يقنط، والقنوط بمعنى اليأس، ولم يكن إبراهيم قانطاً، ولكنه استبعد وجود الولد. ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: ما أمركم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ أي: بالعذاب. وقوله: ﴿إِلَّا آءَالَ لُوطٍ﴾ استثناء ليس من الأول. فأما آل لوط، فهم أتباعه المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «المنجوهم» مشددة الجيم. وقرأ حمزة، السكائي «المنجوهم» خفيفة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ﴾ المعنى: إنا لمنجوهم إلا أمراته ﴿قَدَرْنَا﴾ وروى أبو بكر عن عاصم «قَدَرْنَا» بالتخفيف، والمعنى واحد، يقال: قَدَرْتُ وَقَدَرْتُ، والمعنى: قضينا ﴿إِنَّا لَمِنَ الْفَالِقِينَ﴾ يعني: الباقين في العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ﴾ يعني: لا أعرفكم، ﴿قَالُوا بَلْ يَحْسَبُكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَسْتَمِرُونَ﴾ يعنون: العذاب، كانوا يشكون في نزوله. ﴿وَأَتَيْتَكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمر الذي لا شك فيه من عذاب قومك.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَى ابْنَةَ زَيْنَبَ وَأَتَى ابْنَ مَرْكَمَ جَبْرِيلَ﴾ وفي المكان الذي أوتوا بالمضي إليه قولان: أحدهما: أنه الشام، قاله ابن عباس. والثاني: قرية من قرى قوم لوط، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي: أوحينا إلي ذلك الأمر، أي: الأمر بهلاك قومه. قال الزجاج: فسّر: ما الأمر بباقي الآية، والمعنى: وقضينا إليه أن دابر هولاء مقطوع مصبحين. فأما الدابر، فقد سبق تفسيره [الأنعام: ٤٥]، والمعنى: إن آخر من يبقى منكم يهلك وقت الصبح.

﴿وَمَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبِيرُونَ﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَلُّوا فَلا تَفْضَحُونِ ﴿٦٧﴾ وَاقْرَأُوا لِلَّهِ وَلَا تَحْزَنُوا ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكُ عَنِ الْمَعْلُومِ ﴿٦٩﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ إِنْ كُنْتُمْ نَبِيًّا ﴿٧٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ وهم قوم لوط، واسمها سدوم، ﴿يَسْتَبِيرُونَ﴾ بأضياف لوط، طمعاً في ركوب الفاحشة، فقال لهم لوط: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَلُّوا فَلا تَفْضَحُونِ﴾ أي: بقصدكم إياهم بالسوء، يقال: فضّحه يفضّحه: إذا أبان من أمره ما يلزمه به العار. وقد أثبت يعقوب ياء «تفضحون»، «ولا تحزون» في الوصل والوقف.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَمْ تَنْهَكُ عَنِ الْمَعْلُومِ﴾ أي: عن ضيافة العالمين. قوله تعالى: ﴿بَنَاتٌ إِنْ كُنْتُمْ نَبِيًّا﴾ حرك ياء «بناتي» نافع، وأبو جعفر.

﴿لَمَسَّكَ إِيْتَهُمْ لَبِئْسَ سَكْرَتِيْنٌ يَعْهَدُونَ ﴿٧١﴾ فَأَعْتَدْتُمُ الْمَوْتِْمَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٢﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ جِمَارًا مِّنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْتَرَعِينَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ ﴿٧٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْتَرَعِينَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَمَسَّكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: وحياتك يا محمد، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس. والثاني: لَعَيْشُكَ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الأخفش، وهو يرجع إلى معنى الأول. والثالث: أن معناه: وحقك على أمتك، تقول العرب: لَعَمْرُكَ اللهُ لا أقوم، يعنون: وحق الله، ذكره ابن الأنباري. قال: وفي العنبر

ثلاث لغات: عَمْرٌ وَعُمْرٌ وَعُمُرٌ، وهو عند العرب: البقاء. وحكى الزجاج أن الخليل وسيبويه وجميع أهل اللغة قالوا: العَمْرُ والعُمْرُ في معنى واحد، فإذا استعمل في القسم، فُتِحَ لا غير، وإنما آثروا الفتح في القسم، لأن الفتح أخف عليهم، وهم يؤكدون القسم بـ «العَمْرِي» و «العَمْرُك»، فلما كثر استعمالهم إياه، لزموا الأخف عليهم، قال: وقال النحويون: ارتفع «لعَمْرُك» بالابتداء، والخبر محذوف، والمعنى: لَعَمْرُكُ قَسَمِي، ولَعَمْرُكُ ما أَقْسِمُ به، وحُذِفَ الخبر، لأن في الكلام دليلاً عليه. المعنى: أقسم ﴿إِنَّهُمْ لَبِنٌ سَكْرَتِيمٌ يَمَهُونَ﴾. وفي المراد بهذه السكرة قولان: أحدهما: أنها بمعنى الضلالة، قاله قتادة. والثاني: بمعنى الغفلة، قاله الأعمش. وقد شرحنا معنى العَمْرَ في سورة [البقرة: ١٥]. وفي المشار إليهم بهذا قولان: أحدهما: أنهم قوم لوط، قاله الأكثرون. والثاني: قوم نينا ﷺ، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتَهُمُ النَّارَ﴾ يعني: صيحة العذاب وهي صيحة جبريل ﷺ. ﴿ثُمَّ رَوَّاهُ﴾ قال الزجاج: يقال: أشرقتا، فنحن مُشْرَقون: إذا صادفوا شروق الشمس، وهو طلوعها، كما يقال: أصبحنا: إذا صادفوا الصبح، يقال: شَرَقَتِ الشمس: إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت وصَفَّت، هذا أكثر اللغة. وقد قيل: شَرَقَتِ وأشرقت في معنى واحد، إلا أن «مُشْرَقين» في معنى مصادفين لطلوع الشمس.

قوله تعالى: ﴿فَجَمَلًا عَلَيْهِمَا سَائِهَا﴾ قد فسرنا الآية في سورة [هود: ٨٢]. وفي المتوسمين أربعة أقوال: أحدها: أنهم المتفلسون، روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُنْذِرِينَ﴾^(١) قال: المتفلسين، وبهذا قال مجاهد، وابن قتيبة. قال ابن قتيبة: يقال: توسمت في فلان الخير، أي: تبيته. وقال الزجاج: المتوسمون، في اللغة: النُّظَّارُ المُنْتَبِهُونَ في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سِمة الشيء، يقال: توسمت في فلان كذا، أي: عرفت وسم ذلك فيه. وقال غيره: المتوسم: الناظر في السِّمة الدالة على الشيء. والثاني: المعتبرون، قاله قتادة. والثالث: الناظرون، قاله الضحاك. والرابع: المتفكرون، قاله ابن زيد، والفراء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنبَأَهَا﴾ يعني: قرية قوم لوط ﴿لَيْسِيلَ ثَمِيمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: لِبَطْرِيقِ واضح، رواه نهشل عن الضحاك عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والزجاج. وقال ابن زيد: لِبَطْرِيقِ مَتِينٍ. والثاني: لبهالك. رواه أبو زؤق عن الضحاك عن ابن عباس، والمعنى: إنها بحال هلاكها لم تُعْمَرِ حتى الآن، فالاعتبار بها ممكن، وهي على طريق قريش إذا سافروا إلى الشام.

﴿وَأَن كَانَ أَحَصَبُ الْأَيْكَةِ لَطَلَّابِينَ﴾ ﴿فَأَنفَقْنَا مِنْهُمْ وَأَنبَأْنَا لِيَامِ ثَمِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَن كَانَ أَحَصَبُ الْأَيْكَةِ لَطَلَّابِينَ﴾ قال الزجاج: معنى «إِنْ» واللام: التوكيد، والأيك: الشجر الملفف، فالفصل بين واحده وجمعه، الهاء. فالمعنى: أصحاب الشجرة. قال المفسرون: هم قوم شعيب، كان مكانهم ذا شجر، فكذبوا شعيباً فأهلكوا بالحر كما بيّنا في سورة [هود: ٨٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَنبَأْنَا﴾ في المكنى عنهما قولان: أحدهما: أنهما الأيكة ومدينة قوم لوط، قاله الأكثرون. والثاني: لوط وشعيب، ذكره ابن الأنباري. وفي قوله: ﴿لِيَامِ ثَمِيمٍ﴾ قولان: أحدهما: لبطريق ظاهر، قاله ابن عباس. قال ابن قتيبة: وقيل للبطريق: إمام، لأن المسافر يأتّم به حتى يصير إلى الموضع الذي يريد. والثاني: لفي كتاب مستبين، قاله السدي. قال ابن الأنباري: «وإنهما» يعني: لوطاً وشعيباً بطريق من الحق يؤتم به.

﴿وَأَلْقَى كَذَّبَ أَحَصَبَ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَأَنبَأْتَهُمْ آيَاتِنَا فَكَأَنُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى كَذَّبَ أَحَصَبَ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني بهم ثمود. قال ابن عباس: كانت منازلهم بالحجر بين المدينة والشام. وفي الحجر قولان: أحدهما: أنه اسم الوادي الذي كانوا به، قاله قتادة، والزجاج. والثاني: اسم

(١) «الطبري» ٤٦/١٤، ورواه الترمذي ١٤٠/٢ من حديث عمرو بن قيس الملائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وذكره ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم ٥٥٥/٢، وابن جرير، وأوردته السيوطي في «الدر» ١٠٣/٤ وزاد في نسخته للبخاري في «التاريخ»، وابن السني وأبي نعيم معاً في الطب، وابن مردويه، والخطيب. وانظر الكلام على هذا الحديث في «المقاصد الحسنة» ١٩، و«فيض القدير» ١٤٤/١.

مدينتهم، قاله الزهري، ومقاتل. قال المفسرون: والمراد بالمسلمين: صالح وحده، لأنه من كَذَبَ نَبِيًّا فقد كَذَبَ الْكُلَّ. والمراد بالآيات: الناقة، قال ابن عباس: كان فيها آيات: خروجها من الصخرة، ودنوّ نواجها عند خروجها، وعِظْمُ خَلْقِهَا فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً، ﴿كَانُوا عَنْهَا مُنْمَرِينَ﴾ لم يفكروا فيها ولم يستدلوا بها.

﴿وَكَانُوا يَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَ تَأْتِي سَائِبًا مِّنَ السَّمَاءِ مَطَرًا مَّحِيلاً ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَفْقَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّوبَ فَأَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَبِيلِ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَ﴾ قد شرحناه في [الأعراف: ٧٤]. وفي قوله: ﴿سَائِبًا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: آمنين أن تقع عليهم. والثاني: آمنين من خرابها. والثالث: من عذاب الله ﷻ. وفي قوله: ﴿فَمَا أَفْقَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قولان: أحدهما: ما كانوا يعملون من نحت الجبال. والثاني: ما كانوا يكسبون من الأموال والأنعام.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: للحق ولإظهار الحق، وهو ثواب المصدق وعقاب المكذب. ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّوبَ﴾ أي: وإن القيامة لآتي، فيجازى المشركون بأعمالهم، ﴿فَأَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَبِيلِ﴾ عنهم، وهو الإعراض الخالي من جنح وثُحش. قال المفسرون: وهذا منسوخ بآية السيف. فأما: ﴿الْخَلَّاقُ﴾ فهو خالق كل شيء. و ﴿الْعَلِيمُ﴾ قد سبق شرحه [البقرة: ٢٩].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبَاطًا مِنَ التَّنَازُكِ وَالْفَرَاكِ الْعَلِيمِ ﴿٨٧﴾ لَا تَدْعُ عِبْدَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبَاطًا مِنَ التَّنَازُكِ﴾ سبب نزولها أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البزّ والطيب والجواهر، فقال: المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقربنا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله هذه الآية، وقال: أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع القوافل، ويدل على صحة هذا قوله: ﴿لَا تَدْعُ عِبْدَكَ...﴾ الآية، قاله الحسين بن الفضل^(١). وفي المراد بالسبع المثاني أربعة أقوال: أحدها: أنها فاتحة الكتاب، قاله عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود في رواية، وابن عباس في رواية الأكثرين عنه، وأبو هريرة، والحسن، وسعيد بن جبيرة في رواية، ومجاهد في رواية، وعطاء، وقتادة في آخرين. فعلى هذا، إنما سُميت بالسبع، لأنها سبع آيات. وفي تسميتها بالمثاني سبعة أقوال: أحدها: لأن الله استثنائها لأمة محمد ﷺ، فلم يعطها أمة قبلهم، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: لأنها تُتلى في كل ركعة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال ابن الأنباري: والمعنى: آتيك السبع الآيات التي تُتلى في كل ركعة، وإنما دخلت «وإن» للتوكيد، كقوله: ﴿وَلَمْ يَبَأْ مِنْ كُلِّ الْقَرْيَةِ﴾ [محمد: ١٥]. وقال ابن قتيبة: سمي «الحمد» مثاني، لأنها تُتلى في كل صلاة. والثالث: لأنها ما أُنشئ به على الله تعالى، لأن فيها حمد الله وتوحيده وذكر مملكته، ذكره الزجاج. والرابع: لأن فيها «الرحمن الرحيم» مرتين، ذكره أبو سليمان الدمشقي عن بعض اللغويين، وهذا على قول من يرى التسمية منها. والخامس: لأنها مقسومة بين الله تعالى وبين عبده، ويدل عليه حديث أبي هريرة «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي»^(٢). والسادس: لأنها نزلت مرتين، ذكره الحسين بن الفضل. والسابع: لأن كلماتها مثناة، مثل: الرحمن الرحيم، إياك إياك، الصراط صراط، عليهم عليهم، غير غير^(٣). ذكره بعض المفسرين. ومن أعظم فضائلها أن الله تعالى جعلها في

(١) الواحدي: ١٨٩.

(٢) وهو حديث قدسي رواه مسلم في «صحيحه» ٢٩٦/١، وهو بتمامه عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدي عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال الله تعالى: أنشئ علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدي عبدي - (وقال مرة: فوض إلي عبدي) - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ إِلَيْكَ أَنْتَ عَلَيْنَمْ غَيْرَ الْمَضْرُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: هذا لعبي ولعبي ما سأل.

(٣) لعله اعتبر تفسير «ولا الضالين» بمعنى: وفي الضالين، فكلمة «غير» مكررة بموجب ذلك.

حَيِّزٍ، والقرآن كله في حَيِّزٍ، وامتننَّ عليه بها كما امتننَّ عليه بالقرآن كله. والقول الثاني: أنها السبع الطُّول، قاله ابن مسعود في رواية، وابن عباس في رواية، وسعيد بن جبير في رواية، ومجاهد في رواية، والضحاك. فالسبع الطُّول هي: (البقرة)، و (آل عمران)، و (النساء)، و (المائدة)، و (الأنعام)، و (الأعراف)، وفي السابعة ثلاثة أقوال: أحدها: (يونس)، قاله سعيد بن جبير. والثاني: (براءة) قاله أبو مالك. والثالث: (الأنفال) و (براءة) جميعاً، رواه سفيان عن مسعر عن بعض أهل العلم. قال ابن قتيبة: وكانوا يرون (الأنفال) و (براءة) سورة واحدة، ولذلك لم يفصلوا بينهما. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: هي الطُّول، ولا تَقْلُها بالكسر، فعلى هذا، في تسميتها بالمثنائي قولان: أحدهما: لأن الحدود والفرائض والأمثال تُثَبَّتُ فيها، قاله ابن عباس. والثاني: لأنها تجاوز المائة الأولى إلى المائة الثانية، ذكره الماوردي. والقول الثالث: أن السبع المثنائي سبع معانٍ أنزلت في القرآن: أمر، ونهي، وبشارة، وإنذار، وضرب الأمثال، وتعداد النعم، وأخبار الأمم، قاله زياد بن أبي مريم. والقول الرابع: أن المثنائي: القرآن كله، قاله طاووس، والضحاك، وأبو مالك، فعلى هذا، في تسمية القرآن بالمثنائي أربعة أقوال: أحدها: لأن بعض الآيات يتلو بعضاً، فشئى الآخرة على الأولى، ولها مقاطع تفصل الآية بعد الآية حتى تنقضي السورة، قاله أبو عبيدة. والثاني: أنه سمي بالمثنائي لما يتردَّد فيه من الثناء على الله ﷻ. والثالث: لما يتردَّد فيه من ذِكر الجنة، والنار، والشواب، والعقاب. والرابع: لأن الأفاضل، والأخبار، والمواعظ، والآداب، تُثَبَّتُ فيه، ذكرهن ابن الأنباري. وقال ابن قتيبة: قد يكون المثنائي سور القرآن كله، قصارها وطوالها، وإنما سمي مثنائي، لأن الأنبياء والقصص تُثَبَّتُ فيه، فعلى هذا القول، المراد بالسبع: سبعة أسباع القرآن، ويكون في الكلام إضمار، تقديره: وهي القرآن العظيم. فأما قوله: ﴿يَنْ الْمَثَانِي﴾ ففي «من قولان: أحدهما: أنها للتبعض، فيكون المعنى: آيتناك سبعاً من جملة الآيات التي يُثَبَّتُ بها على الله تعالى، وآيتناك القرآن. والثاني: أنها للصفة، فيكون السبع هي المثنائي، ومنه قول: ﴿فَأَحْكَبُوا الرِّسْمَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] لا أن بعضها رجس، ذكر الوجهين الزجاج، وقد ذكرنا عن ابن الأنباري قريباً من هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ يعني: العظيم القدر، لأنه كلامُ الله تعالى، ووحيه. وفي المراد به هاهنا قولان: أحدهما: أنه جميع القرآن، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والضحاك. والثاني: أنه الفاتحة أيضاً، قاله أبو هريرة، وقد روينا فيه حديثاً في أول تفسير (الفاتحة). قال ابن الأنباري: فعلى القول الأول، يكون قد نسق الكلُّ على البعض، كما يقول العربي: رأيت جدار الدار والدار، وإنما يصلح هذا، لأن الزيادة التي في الثاني من كثرة العدد أشبه بها ما يغاير الأول، فجوز ذلك عطفه عليه. وعلى القول الثاني، نُثَبَّتُ الشيء على نفسه لما زيد عليه معنى المدح والثناء، كما قالوا: روي ذلك عن عمر، وابن الخطاب. يريدون بابن الخطاب: الفاضل العالم الرفيع المنزلة، فلما دخلته زيادة، أشبه ما يغاير الأول؛ فحُطِفَ عليه. ولما ذكر الله تعالى منته عليه بالقرآن، نهاء عن النظر إلى الدنيا ليستغني بما آتاه من القرآن عن الدنيا، فقال: ﴿لَا مَدَدَ عَيْنِكَ إِلَّا مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً من اليهود والمشركين، والمعنى: أنه نهاء عن الرغبة في الدنيا. وفي قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ﴾ قولان: أحدهما: لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا. والثاني: لا تحزن بما أنعمت عليهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَانِحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ألن جانبك لهم. وخفض الجناح: عبارة عن السكون وترك التصعب والإيذاء. قال ابن عباس: ارفق بهم ولا تغلظ عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِيَّاكَ أَنَا الْغَيْرُ الْكَبِيرُ﴾ [١٣١] ﴿حَرْكُ يَاءِ إِيَّاكَ﴾ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع. وذكر بعض المفسرين أن معناها منسوخ بآية السيف.

﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [١٣٢] الَّذِينَ جَمَلُوا الثَّرَوَانَ عِزِينَ [١٣٣] فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلْتَهُمْ آخِيَمِينَ [١٣٤] عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٣٥] ﴿قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ في هذه الكاف قولان: أحدهما: أنها متعلقة بقوله: ﴿وَقَدْ مَاتَتْكَ سَيِّئًا مِنَ الْمَثَانِي﴾. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أن المعنى: ولقد آتيناك سبعاً من المثنائي، كما أنزلنا الكتب على

المقتسمين، قاله مقاتل. والثاني: أن المعنى: ولقد شرفناك وكرمناك بالسبع المثاني، كما شرفناك وأكرمناك بالذي أنزلناه على المقتسمين من العذاب، والكاف بمعنى «مثل»، و«ما» بمعنى «الذي»، ذكره ابن الأنباري. والثاني: أنها متعلقة بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ﴾، والمعنى: إني أنا النذير، أنذرتكم مثل الذي أنزل على المقتسمين من العذاب، وهذا معنى قول الفراء. فخرج في معنى «أنزلنا» قولان: أحدهما: أنزلنا الكتب، على قول مقاتل. والثاني: العذاب، على قول الفراء. وفي «المقتسمين» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود والنصارى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد. فعلى هذا، في تسميتهم بالمقتسمين ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم آمنوا ببعض القرآن، وكفروا ببعضه، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: أنهم اقتسموا القرآن، فقال بعضهم: هذه السورة لي، وقال آخر: هذه السورة لي، استهزاء به، قاله عكرمة. والثالث: أنهم اقتسموا كتبهم، فأمن بعضهم ببعضها وكفر ببعضها، وآمن آخرون بما كفر به غيرهم، قاله مجاهد. والثاني: أنهم مشركو قريش، قاله قتادة، وابن السائب. فعلى هذا، في تسميتهم بالمقتسمين قولان: أحدهما: أن أقوالهم تقسمت في القرآن، فقال بعضهم: إنه سحر، وزعم بعضهم أنه كهانة، وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين، منهم الأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، وعدي بن قيس السهمي، والعاص بن وائل، قاله قتادة. والثاني: أنهم اقتسموا على عقاب مكة، قال ابن السائب: هم رهط من أهل مكة اقتسموا على عقاب مكة حين حضر الموسم، قال لهم الوليد بن المغيرة: انطلقوا ففترقوا على عقاب مكة حيث يمرُّ بكم أهل الموسم، فإذا سالوكم عنه، يعني: رسول الله ﷺ، فليقل بعضهم: كاهن، وبعضكم: ساحر، وبعضكم: شاعر، وبعضكم: غاي، فإذا انتهوا إليَّ صدقتكم، ومنهم حنظلة بن أبي سفيان، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والعاص بن هشام، وأبو قيس بن الوليد، وقيس بن الفاكه، وزهير بن أبي أمية، وهلال بن عبد الأسود، والسائب بن صيفي، والنضر بن الحارث، وأبو الحخري بن هشام، وزمعة بن الحجاج، وأمّية بن خلف، وأوس بن المغيرة. والثالث: أنهم قوم صالح الذين تقاسموا بالله: ﴿لَتَبَيِّنَنَّ وَأَهْلِكَنَّ﴾ [النمل: ٤٩]، فكفاه الله شهرهم، قاله عبد الرحمن بن زيد. فعلى هذا، هو من القسَم، لا من القِسمة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَمَلُوا الشَّرْهَانَ عَيْنِينَ﴾ ﴿١١﴾ في المراد بالقرآن قولان: أحدهما: أنه كتابنا، وهو الأظهر، وعليه الجمهور. والثاني: أن المراد به: كتب المتقدمين قبلنا. وفي «عصين» قولان: أحدهما: أنه مأخوذ من الأعضاء. قال الكسائي، وأبو عبيدة: اقتسموا بالقرآن وجعلوه أعضاء. ثم في ما فعلوا فيه قولان: أحدهما: أنهم عضّوه أعضاء، فأمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه. والمعصية: المرفوق. والتعضية: تجزئة الذبيحة أعضاء. قال علي ؑ: لا تُعْصِيَةَ فِي مِيرَاثٍ، أراد: تفريق ما يوجب تفريقه ضرباً على الورثة كالسيف ونحوه. وقال رؤبة:

وَلَيْسَ ذِيْنُ اللّٰهِ بِالْمُعْصِيِ (١)

وهذا المعنى في رواية سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: أنهم عضّوا القول فيه، أي: فرّقوا، فقالوا: شعر، وقالوا: سحر، وقالوا كهانة، وقالوا: أساطير الأولين، وهذا المعنى في رواية ابن جريج عن مجاهد، وبه قال قتادة، وابن زيد. والثاني: أنه مأخوذ من العَصْوِ. والعَصْوُ، بلسان قريش: السحر، ويقولون للساحرة: عاصهة. وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لعن العاصهة والمستعصمة^(٢)، فيكون المعنى جعلوه سيحراً، وهذا المعنى في رواية عكرمة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، والفراء.

قوله تعالى: ﴿قَوْرَيْكَ لَسْتَ لَّهُنَّ آمِجِينَ﴾ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَمَلُونَ ﴿١٣﴾ هذا سؤال توبيخ، يُسألون عما عملوا في ما أمروا به من التوحيد والإيمان، فيقال لهم: لم عصيتم وتركتم الإيمان؟ فتظهر فضيحتهم عند تعدُّر الجواب. قال

(١) «ديوانه» ٨١ من أرجوزة له يمدح بها تيمناً وسعداً ونفسه، مطلعها:

دَابِيْنَتِ اَرْوَى وَالِدِيْبُوْنَ تَقْضِي

وهو في «مجاز القرآن» ٣٥٥/١، «والطبري» ٦٥/١٤، و«اللسان»: عضا.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في تخريج «الكشاف»: رواه أبو يعلى، وابن عدي، من حديث ابن عباس، وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، وهما ضعيفان. وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء. ١-هـ.

أبو العالية: يُسأل العبادُ كلُّهم يوم القيامة عن خَلَّتَيْن: عما كانوا يعبدون، وعما أجاوبوا المرسلين. فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿فَوَيْلٌ لَّ الَّذِينَ لَا يُكَلِّمُونَ اللَّهَ بِذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ لَكَاذِبِينَ﴾ [الرحمن: ٣٢٩]؟ فنه جوابان: أحدهما: أنه لا يسألهم: هل علمتم كذا؟ لأنه أعلم، وإنما يقول: لم علمتم كذا؟ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنهم يسألون في بعض مواطن القيامة، ولا يسألون في بعضها، رواه عكرمة عن ابن عباس.

﴿فَأَصْدَعُ يَا تُومُرُ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعُ يَا تُومُرُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فامض لما تومر، قاله ابن عباس. والثاني: أظهر أمرك، رواه ليث عن مجاهد. قال ابن قتيبة: ﴿فَأَصْدَعُ يَا تُومُرُ﴾ أي: أظهر ذلك. وأصله: الفَرْقُ والفتح، يريد: اصدع الباطل بحقك. وقال الزجاج: أظهر بما تومر به، أخذ ذلك من الصديق، وهو الصبح، قال الشاعر:

كَأَنَّ بِيضًا ضَغْرَتَهُ صَدِيدِ

وقال الفراء: إنما لم يقل: بما تومر به، لأنه أراد؛ فاصدع بالأمر. وذكر ابن الأنباري أن «به» مضمرة، كما تقول: مررت بالذي مررت. والثالث: أن المراد به: الجهر بالقرآن في الصلاة، رواه ابن أبي نجیح عن مجاهد. قال موسى بن عبيدة: ما زال رسول الله ﷺ مستخفياً حتى نزلت هذه الآية، فخرج هو وأصحابه. وفي قوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: اكف عن حربهم. والثاني: لا تبال بهم، ولا تلتفت إلى لومهم على إظهار أمرك. والثالث: أعرض عن الاهتمام باستهزائهم. وأكثر المفسرين على أن هذا القدر من الآية منسوخ بأية السيف.

﴿إِنَّا كُنَّاكَ السُّتَهْزِئِينَ﴾ [الذِّرِّتِ يَجْمَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ سَوْفَ يَكْفُرُونَ] ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ نَقُولُ إِنَّكَ بَصِيرٌ ﴿١٦﴾ وَكَذَلِكَ نَقُولُ إِنَّكَ بَصِيرٌ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّاكَ السُّتَهْزِئِينَ﴾ [المعنى: فاصدع بأمري كما كفتك المستهزئين، وهم قوم كانوا يستهزئون به وبالقرآن. وفي عددهم قولان: أحدهما: أنهم كانوا خمسة: الوليد بن المغيرة، وأبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس، قاله ابن عباس. واسم أبي زمعة: الأسود بن المطلب. وكذلك ذكرهم سعيد بن جبیر، إلا أنه قال مكان الحارث بن قيس: الحارث بن غيطلة، قال الزهري: غيطلة أمه، وقيس أبوه، فهو واحد. وإنما ذكرت ذلك، لثلاثيظن أنه غيره. وقد ذكرت في كتاب «التلقيح» من يُنسب إلى أمه من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وسميت آبائهم ليعرفوا إلى أي الأبوين تُسبوا. وفي رواية عن ابن عباس مكان الحارث بن قيس: عدي بن قيس. والثاني: أنهم كانوا سبعة، قاله الشعبي، وابن أبي بزة، وعددهم ابن أبي بزة، فقال: العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، والحارث بن عدي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، وأصرم وبعكك ابنا عبد الحارث بن السباق. وكذلك عددهم مقاتل، إلا أن قال مكان الحارث بن عدي: الحارث بن قيس السهمي، وقال: أصرم وبعكك ابنا الحجاج بن السباق.

ذَكَرَ مَا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِهِ وَكَفَىٰ رَسُولَهُ ﷺ أَمْرَهُمْ

قال المفسرون: أتى جبريلُ رسولُ الله ﷺ، والمستهزئون يطوفون بالبيت، فمر الوليد بن المغيرة، فقال جبريل: يا محمد، كيف تجد هذا؟ فقال: «بئس عبد الله»، قال: قد كفت، وأوما إلى ساق الوليد، فمر الوليد برجلٍ يريش نبلاً له، فتعلقت شظية من نبل بإزاره، فمنعه الكبرُ أن يطامن لينزعها، وجعلت تضرب ساقه، فمرض ومات. وقيل: تعلقت سهم بثوبه فأصاب أكله قطعه، فمات. ومر العاص بن وائل، فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: «بئس عبد الله»، فأشار إلى أحمص رجله، وقال: قد كفت، فدخلت شوكة في أحمصه، فانتفخت رجله ومات. ومر الأسود بن المطلب، فقال: كيف تجد هذا؟ قال: «عبد سوء»، فأشار بيده إلى عينه، فعمي وهلك. وقيل: جعل ينطح برأسه الشجر ويضرب وجهه بالشوك، فاستغاث بغلامه، فقال: لا أرى أحداً يصنع بك هذا غير نفسك، فمات وهو يقول: قتلني ربُّ محمد. ومر الأسود بن عبد يغوث، فقال جبريل: كيف تجد هذا؟ فقال: «بئس عبد الله»، فقال: قد كُفيت، وأشار إلى بطنه، فسقى بطنه، فمات. وقيل: أصاب عينه شوكة، فسالت حدقتاه. وقيل: خرج عن أهله فأصابه

السُّموم، فاسودَّ حتى عاد حيشياً، فلما أتى أهله لم يعرفوه، فأغلقوا دونه الأبواب حتى مات. ومر به الحارث بن قيس، فقال: كيف تجد هذا؟ فقال: «عبدٌ سوء»، فأوماً إلى رأسه، وقال: قد كُفيت، فانتفخ رأسه فمات، وقيل: أصابه العطش، فلم يزل يشرب الماء حتى انقَدَّ بطنه. وأما أصرم وبعكك، فقال مقاتل: أخذت أحدهما الدُّبيلة^(١) والآخر ذات الجنب، فماتا جميعاً. قال عكرمة؛ هلك المستهزون قبل بدر. وقال ابن السائب: أهلكوا جميعاً في يوم وليلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَوَلَّوْا أَنْتَ وَيَسِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(٢) فيه قولان: أحدهما: أنه التكذيب. والثاني: الاستهزاء. قوله تعالى: ﴿فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: قل: سبحان الله وبحمده، قاله الضحاك. والثاني: فصلٌ بأمر ربك، قاله مقاتل. وفي قوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ قولان: أحدهما: من المصلين. والثاني: من المتواضعين، روي عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الموت، قاله ابن عباس، ومجاهد، والجمهور. وسمي يقيناً، لأنه موقن به. وقال الزجاج: معنى الآية: اعبد ربك أبداً، ولو قيل: اعبد ربك، بغير توقيت، لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون مطيعاً، فلما قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أمر بالإقامة على العبادة ما دام حياً^(٣). والثاني: أنه الحق الذي لا ريب فيه من نصرك على أعدائك، حكاه الماوردي.



(١) الدُّبيلة: داء يجتمع في الجوف.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٢/٥٦٠ عند تفسير هذه الآية: ويستدل بهذه الآية الكريمة، وهي قول: ﴿رَأَيْدُ رَبِّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(١) على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في «صحيح البخاري»، عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». ويستدل بها على تخلفها من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء صلى الله عليهم وسلم كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين هاهنا الموت كما قدمناه، والله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية وعلية الاستماعة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم.

سورة النحل

فصل في نزولها

روى مجاهد، وعطيّة، وابن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها مكية، وكذلك روي عن الحسن، وعكرمة، وعطاء: أنها مكية [كلها]. وقال ابن عباس في رواية: إنه نزل منها بعد قتل حمزة: ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُ لَمَّا يَلْمِزُ مَا عُوِّضَ بِهِ﴾ [النحل: ١٧٦]، وقال في رواية: هي مكية إلا ثلاث آيات نزلن بالمدينة، وهي قوله: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿يَسْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٥، ٩٧]. وقال الشعبي: كلها مكية إلا قوله: ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُ﴾ إلى آخر الآيات [النحل: ١٧٦ - ١٧٨]. وقال قتادة: هي مكية إلا خمس آيات: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا﴾ [النحل: ٩٥، ٩٦]، ومن قوله: ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُ﴾ إلى آخرها [النحل: ١٧٦]. وقال ابن السائب: هي مكية إلا خمس آيات: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ الآية [النحل: ٤١]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ لَآتِيكَ لِحَاكِمَاتٌ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُضِيَ﴾ [النحل: ١١٠] وقوله: ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُ﴾ إلى آخرها [النحل: ١٧٦]. وقال مقاتل: مكية إلا سبع آيات، قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ لَآتِيكَ لِحَاكِمَاتٌ هَاجَرُوا﴾ الآية [النحل: ١١٠]، وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ الآية [النحل: ١٠٦]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ الآية [النحل: ٤١]، وقوله: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَتِيلَةً كَانَتْ مِثْلَ مَائِدَةٍ﴾ الآية [النحل: ١١٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُ﴾ إلى آخرها [النحل: ١٧٦]. قال جابر بن زيد: أنزل من أول النحل أربعون آية بمكة وبقيتها بالمدينة. وروى حماد عن علي بن زيد قال: كان يقل لسورة النحل: سورة النعم؛ يريد لكثرة تعداد النعم فيها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْزِلُوا أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾
 قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ﴾ قرأ حمزة، والكسائي بالإمالة. سبب نزولها: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿اتَّقَوْنِي السَّاعَةَ﴾ [الفر: ١]، فقال الكفار بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن القيامة قد اقتربت، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء؛ قالوا: ما نرى شيئاً فأنزل الله تعالى: ﴿اتَّقَوْنِي لِلنَّاسِ حِكْمُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] فأشفقوا، وانتظروا قرب الساعة، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به، فأنزل الله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ﴾، فوثب رسول الله ﷺ، ورفع الناس رؤوسهم، فنزل: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا، قاله ابن عباس^(١). وفي قوله: ﴿أَنَّهُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أتى بمعنى: يأتي، كما يقال: أتاك الخير فابشر، أي: سيأتيك، قاله ابن قتيبة، وشاهدته: ﴿وَمَا كُنْزُ الْعِلْمِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَى﴾ [السناء: ١١٦] ونحو ذلك. والثاني: أتى بمعنى: قُرب، قال الزجاج: أعلم الله تعالى أن ذلك في قربه بمنزلة ما قد أتى. والثالث: أن «أتى» للماضي، والمعنى: أتى بعض عذاب الله، وهو: الجذب الذي نزل بهم، والجوع. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فينزل بكم مستقبلاً كما نزل ماضياً، قاله ابن الأنباري. وفي المراد بـ «أمر الله» خمسة أقوال: أحدها: أنها الساعة، وقد يخرج على قول ابن عباس الذي قدمناه، وبه قال ابن قتيبة. والثاني: خروج رسول الله ﷺ، رواه الضحاك عن ابن عباس، يعني: أن خروجه من أمارات الساعة. وقال ابن الأنباري: أتى أمر الله من أشراف الساعة، فلا تستعجلوا قيام الساعة. والثالث: أنه الأحكام والفرائض، قاله الضحاك^(٢). والرابع: عذاب الله، ذكره ابن الأنباري. والخامس: وعيد المشركين، ذكره الماوردي.

(١) «أسباب النزول» للواحي ١٥٩ بدون سند، ورواه بمعناه ابن جرير ٧٥/١٤ عن ابن جريج.

(٢) رد هذا القول ابن جرير في «تفسيره»، فقال: لا نعلم أحداً استعمل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها، بخلاف العذاب، فإنهم استعملوه قبل كونه، استبعاداً وتكديفاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْمَعُوا لَهُ﴾ أي: لا تطلبوه قبل حينه، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيه له وبراءة من السوء عما يشركون به من الأصنام.

قوله تعالى: ﴿يُنزِلُ الْمَلَكُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «يُنزِلُ» بإسكان النون وتخفيف الزاي. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عمر، وحمزة، والكسائي: ﴿يُنزِّلُ﴾ بالشديد، وروى الكسائي عن أبي بكر عن عاصم: ﴿نَزَّلَ﴾ بالثاء مضمومة، وفتح الزاي مشددة. «المَلَائِكَةُ» رفع. قال ابن عباس: يريد بالملائكة جبريل ﷺ وحده. وفي المراد بالروح ستة أقوال: أحدها: الرُوح، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه النبوة، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أن المعنى: تنزل الملائكة بأمره، رواه العوفي عن ابن عباس. فعلى هذا يكون المعنى: أن أمر الله كلُّه روح. قال [الزجاج]: الروح ما كان فيه من أمر الله حياة النفوس بالإرشاد. والرابع: أنه الرحمة. قاله الحسن، وقتادة. والخامس: أن أرواح الخلق: لا ينزل ملك إلا ومعهم روح، قاله مجاهد. والسادس: أنه القرآن، قاله ابن زيد. فعلى هذا سماه روحاً، لأن الدين يحيا به، كما أن الروح تُحيي البدن. وقال بعضهم: الباء في قوله: ﴿يَأْرُوحُ﴾ بمعنى: مع، فالتقدير: مع الروح، ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي: بأمره، ﴿عَلَّ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني: الأنبياء، ﴿أَن أُنزِرُوا﴾ قال الزجاج: والمعنى: أنزروا أهل الكفر والمعاصي ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: مُروهم بتوحيدي، وقال غيره: أنذروا بأنه لا إله إلا أنا، أي: مروهم بالتوحيد مع تخويفهم إن لم يُبَرُّوا.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قال المفسرون: أخذ أبي بن خلف عظماً رميمياً، فجعل يفتته ويقول: يا محمد كيف يبعث الله هذا بعدما رُم؟ فنزلت فيه هذه الآية^(١). والخصيم: المخاصم، والمبين: الظاهر الخصومة. والمعنى: أنه مخلوق من نطفة، وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث، أفلا يستدل بأوله على آخره، وأن من قدر على إيجاده أولاً، يقدر على إعادته ثانياً؟! وفيه تنبيه على إنعام الله عليه حين نقله من حال ضعف النطفة إلى القوة التي أمكنه معها الخصام^(٢).

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ﴿وَتَحْمِلُ أَسْفَاكُكُمْ إِنَّ كَلِمَةَ تَكُونُوا بِلِسَانِهِ إِلَّا يُشْفِقُ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ رَبُّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ الأنعام: الإبل، والبقرة، والغنم.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه ما استدفع به من أوبارها تتخذ ثياباً. وأخيه، وغير ذلك. روى العوفي عن ابن عباس أنه قال: يعني بالدفء: اللباس، وإلى هذا المعنى ذهب الأكثرون. والثاني: أنه نسلها. روى عكرمة عن ابن عباس: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال: الدفء: نسل كل دابة، وذكر ابن السائب قال: يقال: الدفء أولادها، ومن لا يحمل من الصغار، وحكى ابن فارس اللغوي عن الأموي، قال الدفء عند العرب: نتاج الإبل وألبانها.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْعٌ﴾ أي: سوى الدفء من الجلود، والألبان، والنسل، والركوب، والعمل عليها، إلى غير ذلك، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: من لحوم الأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: زينة، ﴿حِينَ تُرْجَعُونَ﴾ أي: [حين] تردونها إلى مراحمها، وهو المكان الذي تاوي إليه، فترجع عظام الضروع والأشيمة، فيقال: هذا مال فلان، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾: ترسلونها بالغدأة إلى مراعيها. فإن قيل: لم قدم الرواح وهو مؤخر؟ فالجواب: أنها في حال الرواح تكون أجمل؛ لأنها قد رعت، وامتألت ضروعها، وامتدت أسمنتها.

(١) ذكر ذلك ابن كثير في تفسير الآية: ٧٧ من سورة (يس) عن مجاهد، وعكرمة، وعروة بن الزبير، والسدي، وقتادة.

(٢) روى أحمد ٢١٠/٤، وابن ماجه رقم (٢٧٠٧) والحاكم عن بسر بن جعاش، قال: يصف رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يقول الله تعالى: ابن آدم! أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنتحت حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة!».

قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِيلُ أَنْفَالِكُمْ﴾ الإشارة بهذا إلى ما يطبق الحمل منها، والأنتقال: جمع ثقل، وهو متاع المسافر. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَلَدَكُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه عام في كل بلد يقصده المسافر، وهو قول الأكثرين. والثاني: أن المراد به: مكة، قاله عكرمة، والأول أصح، والمعنى: أنها تحملكم إلى كل بلد لو تكلفتم أنتم بلوغه لم تبلغوه ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾. وفي معنى «شِقِّ الأنفس» قولان: أحدهما: أنه المشقة، قاله الأكثرون. قال ابن قتيبة: يقال: نحن بشق من العيش، أي: بجهد؛ وفي حديث أم زرع: «وجدني في أهل عُثَيْمَةَ بِشِقِّ»^(١). والثاني: أن الشَّق: النُّصْف، فكان الجهد ينقص من قوة الرجل ونفسه كأنه قد ذهب نصفه، ذكره الفراء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوِّفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: حين مَنَّ عليكم بالنعمة التي فيها هذه المرافق.

﴿وَاللَّيْلَ وَالنَّهَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَرَبِّنَا وَمِمَّا مَلَآ تَلْمُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ﴾ أي: وخلق الخيل ﴿وَالنَّهَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَرَبِّنَا﴾ قال الزجاج: المعنى: وخلقها زينة.

فصل

ويجوز أكل لحم الخيل، وإنما لم يُذكر في الآية، لأنه ليس هو المقصود، وإنما معظم المقصود بها: الركوب والزينة، وبهذا قال الشافعي. وقال أبو حنيفة، ومالك: لا تؤكل لحوم الخيل^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا مَلَآ تَلْمُونَ﴾ ذكر قوم من المفسرين: أن المراد به عجائب المخلوقات في السموات والأرض التي لم يُطلع عليها، مثل ما يروي: أن لله ملكاً من صفته كذا، وتحت العرش نهر من صفته كذا. وقال قوم: هو ما أعد الله لأهل الجنة فيها، ولأهل النار. وقال أبو سليمان الدمشقي: في الناس من كره تفسير هذا الحرف. وقال الشعبي: هذا الحرف من أسرار القرآن.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَهْوَى ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُثْمِتُ كُرْمَ إِذْيَاقِ الزَّيْتُونِ وَالزَّيْتُونَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّكُمُ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ القصد: استقامة الطريق، يقال: طريق قصد وقاصد: إذا قصد بك ما تريد.

قال الزجاج: المعنى: وعلى الله تبيين الطريق المستقيم، والدعاء إليه بالحجج والبرهان.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ قال أبو عبيدة: السبيل لفظه لفظ الواحد، وهو في موضع الجمع، فكأنه قال: ومن السبيل سبيل جائز. قال ابن الأنباري: لما ذكر السبيل، دلَّ على السبيل، فلذلك قال: ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ كما دلَّ الحدَثان على الحوادث في قول العبدى:

وَلَا يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ حَيٌّ

فَهَلْ يَبْقَى عَلَيْهِنَّ السَّلَامُ

أراد: فهل يبقى على الحوادث، والسلام: الصخور، قال: ويجوز أن يكون إنما قال: ﴿وَمِنْهَا﴾، لأن السبيل توثت وتذكر، فالمعنى: من السبيل جائز. وقال ابن قتيبة: المعنى: ومن الطرق جائز لا يهتدون فيه، والجائز: العادل عن القصد، قال ابن عباس: ومنها جائز الأهواء المختلفة. وقال ابن المبارك: الأهواء والبعد.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ وهو ما تشربونه، ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ذكر ابن الأنباري في معناه قولين: أحدهما: ومنه سقى شجر، وشرب شجر، فخلق المضاف إليه المضاف، كقوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَيْجَلَ﴾ [البقرة: ٤٩٣]. والثاني: أن المعنى: ومن جهة الماء شجر، ومن سقيه شجر، ومن ناحيته شجر، فحذف الأول، وخلقه الثاني، قال زهير:

(١) هو قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري في «صحيحه» ١٧٤/٢٠ بشرح العيني، ومسلم ١٨٩٦/٤ عن عائشة رضي الله عنها. وقوله: «بشق» قال أبو عبيد: هو بالفتح، والمحدَثون يكسرونه، قال: وهو موضع، وقال ابن الأنباري: هو بالكسر والفتح، وهو موضع. وقال ابن أبي أوس وابن حبيب: يعني بشق: جبل لقلتهم وقلة غنمهم، وشق الجبل: ناحيته، وتفسير ابن قتيبة الذي نقله المصنف عنه، رجحه القاضي عياض واختاره غيره.

(٢) والأحاديث الصحيحة تدل على جواز أكل لحوم الخيل.

[لَمِنَ الدِّيَارِ بِقُنَّةِ الحِجْرِ] أفونن من حجج ومن شهر^(١)
 أي: من مر حجج. قال ابن قتيبة: والمراد بهذه الشجر: المرعى. وقال الزجاج: كل ما نبت على الأرض فهو شجر، قال الشاعر يصف الخيل:

بَعْلِفَهَا اللّخْمَ إِذَا عَزَّ الشَّجَرُ
 والخَيْلُ فِي إِطْعَامِهَا اللّخْمَ صَرَزُ
 يعني: أنهم يسقون الخيل اللبن إذا أجدبت الأرض. و «ثِيْمُونَ» بمعنى: تَرَعُونَ، يقال: سامت الإبل فهي سائمة: إذا رعت، وإنما أخذ ذلك من السومة، وهي: العلامة، وتأويلها: أنها تؤثر في الأرض برعيها علامات.
 قوله تعالى: «يَبِئْتُ لَكَ بِهَذَا الزَّيْعِ» وروى أبو بكر عن عاصم: «نبيت» بالنون. قال ابن عباس: يريد الحبوب، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: «وَالنَّجْمِ مَسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ» قال الأخفش: المعنى: وجعل النجوم مسحرات، فجاز إضمار فعل غير الأول، لأن هذا المضمرة في المعنى مثل المظهر، وقد فعل العرب أشد من هذا، قال الراجز:

تَسْمَعُ فِي أَجْوَافِهِنَّ صَرَكَ
 وفي السَيِّدِينَ جُشَاءً وَيَدَا^(٢)
 المعنى: وترى في البيدين. والجُشَاءُ: اليبس. واليَدَدُ: السعة. وقال غيره: قوله تعالى: «مَسْحَرَاتٍ» حال مؤكدة، لأن تسخيرها قد عرف بقوله تعالى: «وَسَحَّرَ». وقرأ ابن عامر: والشمس والقمر والنجوم مسحرات، رفعا كله، وروى حفص عن عاصم: بالنصب، كالجمهور، إلا قوله تعالى: «وَالنَّجْمِ مَسْحَرَاتٍ» فإنه رفعا.
 «وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مِثْلًا الرَّثَّةِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًا وَلَبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَمَّا لَكُمْ فَتْكُ اللَّيْلِ ﴿١٧﴾ وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ رَوِيكَ أَنْ تَبِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَكَ بِكُمُ اللَّيْلُ ﴿١٨﴾ وَعَلَّمَكُمُ اللَّيْلُ ﴿١٩﴾»
 قوله تعالى: «وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ» أي: وسخر ما ذرا لكم. وذرا بمعنى: خلق. و «سخر البحر» أي: ذلله للركوب والغوص فيه «لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا» يعني: السمك «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًا وَلَبَسُونَهَا» يعني: الدر، واللؤلؤ، والمرجان، وفي هذا دلالة على أن حالفاً لو حلف: لا يلبس حلياً، فليس لؤلؤاً، أنه يحنث، وقال أبو حنيفة: لا يحنث.

قوله تعالى: «وَتَرَى الْفُلْكَ» يعني: السفن. وفي معنى «مَوَاجِرَ» قولان: أحدهما: جوارى، قاله ابن عباس. قال اللغويون: يقال: مخرت السفينة مخرأ؛ إذا شقت الماء في جريانها. والثاني: المواقر، يعني: المملوءة، قاله الحسن. وفي قوله تعالى: «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» قولان: أحدهما: بالركوب فيه للتجارة ابتغاء الرياح من فضل الله. والثاني: بما تستخرجون من حليته، وتصيدون من حيتانه. قال ابن الأنباري: وفي دخول الواو في قوله تعالى: «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» وجهان: أحدهما: أنها معطوفة على لام محذوفة، تقديره: وترى الفلك مواجر فيه لتبتغوا بذلك ولتبتغوا. والثاني: أنها دخلت لفعل مضمرة، تقديره: وفعل ذلك لكي تبتغوا.

قوله تعالى: «وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ رَوِيكَ» أي: نصب فيها جبلاً ثوابت «أَنْ تَبِيدَ» أي: لثلاً تميد، وقال الزجاج: كراهة أن تميد، يقال: ماد الرجل يميد مَيْدًا: إذا أدير به، وقال ابن قتيبة: المبد: الحركة والمَيْلُ، يقال: فلان يميد في مشيته، أي: يتكفأ.

قوله تعالى: «وَأَنْهَكَ» قال الزجاج: المعنى: وجعل فيها سُبلاً، لأن معنى «القي»: «جعل»، فأما السبل، فهي الطرق. «وَلَمَّا لَكُمْ فَتْكُ اللَّيْلِ» أي: لكي تهتدوا إلى مقاصدكم.

قوله تعالى: «وَعَلَّمَكُمُ اللَّيْلُ» فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها معالم الطرق بالنهارة، «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» بالليل، رواه

(١) تقدم البيت ٦٠٦.

(٢) أنشده الطبري ٩٠/١٤، وروايته فيه:

العوفى عن ابن عباس. والثاني: أنها النجوم أيضاً، منها ما يكون علامة لا يهتدى به، ومنها ما يهتدى به، قاله مجاهد، وقتادة، والنخعي. والثالث: الجبال، قاله ابن السائب، ومقاتل. وفي المراد بالنجم أربعة أقوال: أحدها: أنه الثريا، والفرقدان، وبنات نعش، والجدي، قاله السدي. والثاني: أنه الجدي، والفرقدان، قاله ابن السائب. والثالث: أنه الجدي وحده لأنه أثبت النجوم كلها في مركزه، ذكره الماوردي. والرابع: أنه اسم جنس، والمراد جميع النجوم، قاله الزجاج. وقرأ الحسن، والضحاك، وأبو المتوكل، ويحيى بن وثاب: «وبالنَّجْمِ» بضم النون وإسكان الجيم، وقرأ الجحدري: «وبالنَّجْمِ» بضم النون والجيم، وقرأ مجاهد: «وبالنجوم» بواو على الجمع. وفي المراد بهذا الاهداء قولان: أحدهما: الاهداء إلى القبلة. والثاني: إلى الطريق في السفر.

﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَمَا يُشِئُ وَمَا يُشِئُ كَمَنْ لَا يُشِئُ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ يعني: الأوثان، وإنما عبّر عنها بـ «مَنْ»، لأنهم نحلوها العقل والتمييز، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ يعني: المشركين، يقول: أفلا تعظون كما تعظ المؤمنون؟ قال الفراء: وإنما جاز أن يقول: ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾، لأنه ذُكر مع الخالق، كقوله: ﴿فَيَتَّبِعُهُمُ الْغَايِبُ عَلَىٰ غَيْبِهِمْ وَيَتَّبِعُهُمُ الْغَايِبُ عَلَىٰ غَيْبِهِمْ﴾ [النور: ٤٥]، والعرب تقول: اشتبه عليّ الراكب وجمله، فما أدري مَنْ ذا مِنْ ذَا، لأنهم لما جمعوا بين الإنسان وغيره، صلحت «مَنْ» فيهما جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَهَا﴾ قد فسرناه في [إبراهيم: ٣٤].
قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ﴾ أي: لِمَا كَانَ مِنْكُمْ مِنْ تَقْصِيرِكُمْ فِي شُكْرِ نِعْمَةِ ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم إذ لم يقطعها عنكم بتقصيركم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَمَا يُشِئُ وَمَا يُشِئُ كَمَنْ لَا يُشِئُ﴾ روى عبد الوارث، إلا القزاز «يسرون» و«يعلون» بالياء.
﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخَلَّفُونَ ﴿١٥﴾ أَمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ دَعَوْا إِلَى اللَّهِ لِيَأْتِيَهُمُ الْكُفْرَانُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قرأ عاصم: يدعون، بالياء.
قوله تعالى: ﴿أَمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: الأصنام. قال الفراء: ومعنى الأموات هاهنا: أنها لا روح فيها. قال الأخفش: وقوله: ﴿غَيْرَ لَحِيَابٍ﴾ توكيد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ «أَيَّانَ» بمعنى: متى. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنها الأصنام، عبّر عنها كما يُعبّر عن الأدميين. قال ابن عباس: وذلك أن الله تعالى يبعث الأصنام لها أرواح ومعها شياطينها، فيتبرؤون من عبادتهم، ثم يُؤمر بالشياطين والذين كانوا يعبدونها إلى النار. والثاني: أنهم الكفار، لا يعلمون متى بعثهم، قاله مقاتل.

﴿إِنَّ الْكُفْرَانَ يَخِئُ إِلَهُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٦﴾ لَا جَرَءَ أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَمَا يُشِئُ وَمَا يُشِئُ كَمَنْ لَا يُشِئُ ﴿١٧﴾﴾
﴿إِنَّهُمْ لَا يَخِئُ السُّتَكْبَرِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رِجَالًا قَالُوا أَسْطِجِلُ الْأَوْلِيَاءِ ﴿١٧﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَانَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَانِ الْذُرِّيِّاتِ يُضَلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُورُونَ ﴿١٨﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآفَ اللَّهُ بِنِعْمَتِهِمْ مِنَ الْقَوَائِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْرِجُهُمْ وَيَقُولُ بَيْنَ يَدَيْهِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكُفْرَانَ يَخِئُ إِلَهُ رَبِّكَ﴾ قد ذكرناه في سورة [البقرة: ١٦٣].
قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: بالبعث والجزاء ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ أي: جاحدة لا تعرف التوحيد ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ممتنعون من قبول الحق.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَءَ﴾ قد فسرناه في [هود: ٢٢]، ومعنى الآية: أنه يجازيهم بسرهم وغلنهم، لأنه يعلمه. والمستكبرون: المتكبرون عن التوحيد والإيمان. وقال مقاتل: ﴿مَا يُشِئُونَ﴾ حين يعثوا في كل طريق مَنْ يصدُّ الناس عن رسول الله ﷺ، ﴿وَمَا يُشِئُونَ﴾ حين أظهروا العداوة لرسول الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني: المستكبرين: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على محمد ﷺ؟ قال الزجاج: «ماذا» بمعنى «ما الذي». و «أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ» مرفوعة على الجواب، كأنهم قالوا: الذي أنزل: أساطيرُ الأولين، أي: الذي تذكرون أنتم أنه منزل: أساطير الأولين. وقد شرحنا معنى الأساطير في [الانعام: ٢٥]. قال مقاتل: الذين بعثهم الوليد بن المغيرة في طرق مكة يصدّون الناس عن الإيمان، ويقول بعضهم: إن محمداً ساحر، ويقول بعضهم: شاعر، وقد شرحنا هذا المعنى في [الحجر: ٩٠] في ذكر المقتسمين.

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ هذه لام العاقبة، وقد شرحناها في غير موضع، والأوزار: الآثام، وإنما قال: كاملة، لأنه لم يُكفّر منها شيء بما يُصيبهم من نكبة، أو بليّة، كما يُكفّر عن المؤمن^(١)، ﴿وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: أنهم أضلّوهم بغير دليل، وإنما حملوا من أوزار الأنبياء، لأنهم كانوا رؤساء يفتدى بهم في الضلالة، وقد ذكر ابن الأنباري في «مِنْ» وجهين: أحدهما: أنها للتبعض، فهم يحملون ما شروكهم فيه، فأما ما ركه أولئك باختيارهم من غير تزيين هؤلاء، فلا يحملونه، فيصح معنى التبعض. والثاني: أن «مِنْ» مؤكدة، والمعنى: وأوزار الذين يضلّونهم. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾ أي: بش ما حملوا على ظهورهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال المفسرون: يعني به النمرود بن كنعان، وذلك أنه بنى صرحاً طويلاً. واختلفوا في طوله، فقال ابن عباس: خمسة آلاف ذراع، وقال مقاتل: كان طوله فرسخين، قالوا: ورام أن يصعد إلى السماء ليقاتل أهلها بزعمه. ومعنى «المكر» هاهنا: التدبير الفاسد. وفي الهاء والميم من «قبلهم» قولان: أحدهما: أنها للمقتسمين على عقاب مكة، قاله ابن السائب. والثاني: لكفار مكة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَأَنفِ اللَّهُ بَيْنَهُمُ يَمِينَ الْقَوَائِدِ﴾ أي: من الأساس. قال المفسرون: أرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر، وخرّ عليهم الباقي. قال السدي: لما سقط الصرح، تَبَلَّثَ أَلْسُنُ النَّاسِ مِنَ الْفَرْعِ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً، فلذلك سميت «بابل»، وإنما كان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية، وهذا قول مردود، لأن التَّبَلُّلَ يُوجِبُ الاختلاط والتكلم بشيء غير مستقيم، فأما أن يوجب إحداث لغة مضبوطة الحواشي، فباطل، وإنما اللغات تعليم من الله تعالى. فإن قيل: إذا كان الماكر واحداً، فكيف قال: «الذين» ولم يقل: «الذي»؟، فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه كان الماكر ملكاً له أتباع، فأدخلوا معه في الوصف. والثاني: أن العرب توقع الجمع على الواحد، فيقول قائلهم: خرجت إلى البصرة على البغال، وإنما خرج على بغل واحد. والثالث: أن «الذين» غير موقع على واحد معين، لكنه يراد به: قد مكر الجبارون الذين من قبلهم، فكان عاقبة مكرهم رجوع البلاء عليهم، ذكر هذه الأجوبة ابن الأنباري. قال: وذكر بعض العلماء: أنه إنما قال: «من فوقهم»، لينبه على أنهم كانوا تحته، إذ لو لم يقل ذلك، لاحتمل أنهم لم يكونوا تحته، لأن العرب تقول: سقط علينا البيت، وخرّ علينا الحانوت، وتداعت علينا الدار، وليسوا تحته ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَتْنَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث ظنوا أنهم آمنون فيه. قال السدي: أخذوا من مأمّنهم. وروى عطية عن ابن عباس قال: خرّ عليهم عذاب من السماء. وعامة المفسرين على ما حكيناه من أنه بنيان سقط. وقال ابن قتبية: هذا مثّل، والمعنى: أهلكهم الله، كما هلك من هُدِمَ مسكنه من أسفله، فخر عليه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْرِجُهُمْ﴾ أي: يذلّهم بالعذاب. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِكُمْ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحمرزة، والكسائي، «شركائِي الذين» بهمزة وفتح الياء، وقال البرزّي عن ابن كثير: «شركائي» مثل: هداي، والمعنى: أين شركائي على زعمكم؟ هلأ دفعوا عنكم! ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ أي: تخالفون المسلمين فتعبدونهم وهم يعبدون الله، وقرأ نافع: «تشافون» بكسر النون، أراد: تشافونني، فحذف النون الثانية، وأبقى الكسرة تدل عليها، والمعنى: كتتم تنازعوني فيهم، وتخالقون أمري لأجلهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ أَوْفُوا أَلِيمَةً﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الملائكة، قاله ابن عباس. والثاني: الحفظة

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها».

من الملائكة، قاله مقاتل. والثالث: أنهم المؤمنون. فأما «الجزى» فقد شرحناه في مواضع [آل عمران: ١٩٢] و «السوء» هاهنا: العذاب.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ التَّلَاقَ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا النَّارَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوْرٍ بَلَّ إِذََّ اللهُ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧٨﴾ فَادْخُلُوا أَقْرَبَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ التَّلَاقَ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ﴾ قال عكرمة: هؤلاء قوم كانوا بمكة أقرؤا بالإسلام ولم يُهاجروا، فأخرجهم المشركون كرهاً إلى بدر، فقتل بعضهم. وقد شرحنا هذا في سورة [النساء: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿فَأَلْفَوْا النَّارَ﴾ قال ابن قتيبة: اتقادوا واستسلموا، والتسلم: الاستسلام. قال المفسرون: وهذا عند الموت يتبرؤون من الشرك، وهو قولهم: «مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوْرٍ» وهو الشرك، فترد عليهم الملائكة فتقول: «بلى». وقيل: هذا ردُّ خزنة جهنم عليهم ﴿بَلَّ إِذََّ اللهُ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك والتكذيب. ثم يقال لهم: ادخلوا أبواب جهنم، وقد سبق تفسير لفظ الآية [النساء: ٩٧] و[الحجر: ٤٤].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرُونَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَلَّا لَبِئْسَ اللَّهُ الْبَاطِلُونَ ﴿١٨١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ التَّلَاقَ ظَالِمِينَ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ روى أبو صالح عن ابن عباس أن مشركي قريش بعثوا ستة عشر رجلاً إلى عِقاب^(١) مكة أيام الحج على طريق الناس، ففرقوهم على كل عَقَبَةٍ أربعة رجال، ليصدوا الناس عن رسول الله ﷺ وقالوا لهم: مَنْ أتاكم من الناس يسألكم عن محمد فليقلِّ بعضكم: شاعراً، وبعضكم: كاهناً، وبعضكم: مجنوناً، وألَّا تزوه ولا يراكم خَيْرٌ لكم، فإذا انتهوا إلينا، صدقناكم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث إلى كل أربعة منهم أربعة من المسلمين، فيهم عبد الله بن مسعود، فأمرؤا أن يكذبوهم، فكان الناس إذا مروا على المشركين، فقالوا ما قالوا، ردَّ عليهم المسلمون، وقالوا: كذبوا، بل يدعو إلى الحق، ويأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر، ويدعو إلى الخير، فيقولون: وما هذا الخير الذي يدعو إليه؟ فيقولون: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا خَبَرًا﴾ أي: أنزل خيراً، ثم فسّر ذلك الخير فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ قالوا: لا إله إلا الله، وأحسنوا العمل ﴿حَسَنَةً﴾ أي: كرامة من الله تعالى في الآخرة، وهي الجنة، وقيل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ في الدنيا وهي ما رزقهم من خيرها وطاعته فيها، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ يعني: الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ قولان: أحدهما: أنها الجنة، قاله الجمهور. قال ابن الأنباري: في الكلام محذوف، تقديره: ولنعم دار المتقين الآخرة، غير أنه لما ذُكرت أولاً، عرف معناها آخرأ، ويجوز أن يكون المعنى؛ ولنعم دار المتقين جناتٌ عَدْنٌ. والثاني: أنها الدنيا. قال الحسن: ولنعم دار المتقين الدنيا، لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ قد شرحناه في [إبراءة: ١٧٢].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ التَّلَاقَ﴾ وقرأ حمزة «يتوفاهم» بياء مع الإمالأة. وفي معنى «طَبَّيْن» خمسة أقوال: أحدها: مؤمنين. والثاني: طاهرين من الشرك. والثالث: زاكية أفعالهم وأقوالهم. والرابع: طيبة فأنهم، سهلٌ خروج أرواحهم. والخامسة: طيبة أنفسهم بالموت، ثقة بالثواب.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا﴾ يعني الملائكة ﴿سَلِّمْ عَلَيْنَا﴾. وفي أي وقت يكون هذا [السلام]؟ فيه قولان: أحدهما: عند الموت. قال البراء بن عازب: يسلم عليه ملك الموت إذا دخل عليه. وقال القرظي: ويقول له: الله ﷻ يقرأ عليك

(١) العقاب: جمع عَقَبَةٍ، وهي طريق في الجبل وعر.

السلام، ويشره بالجنة^(١). والثاني: عند دخول الجنة. قال مقاتل: هذا قول خزنة الجنة لهم في الآخرة، يقولون: سلام عليكم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢١٠﴾ فَأَمَّا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي «يأتيهم» بالياء، وهذا تهديد للمشركين، وقد شرحناه في [البقرة: ٢١٠] وآخر [الانعام: ١٥٨]. وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ قولان: أحدهما: أمر الله فيهم، قاله ابن عباس. والثاني: العذاب في الدنيا، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يريد: كفار الأمم الماضية، كذبوا كما كذب هؤلاء. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإهلاكهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك، ﴿فَأَمَّا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: جزاؤها، قال ابن عباس: جزاء ما عملوا من الشرك، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ قد بيناه في [الانعام: ١٠]، والمعنى: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَتَرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَدَلْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ النَّبِيِّ ﴿٢١٢﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاةَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴿٢١٣﴾ إِنْ تَحْسَبْ عَلَن هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَتَرَكُوا﴾ يعني: كفار مكة ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَدَلْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: الأصنام، أي: لو شاء ما أشركتنا ولا حرمتنا من دونه من شيء من البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، والحرث، وذلك أنه لما نزل: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المر: ٣٠] قالوا هذا، على سبيل الاستهزاء، لا على سبيل الاعتقاد، وقيل: معنى كلامهم: لو لم يأمرنا بهذا وبؤده منا، لم نأته.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من تكذيب الرسل وتحريم ما أحل الله، ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ النَّبِيِّ﴾ يعني: ليس عليهم إلا التبليغ، فأما الهداية، فهي إلى الله تعالى، وبين ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ أي: كما بعثناك في هؤلاء ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: وحدوه ﴿وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاةَ﴾ وهو الشيطان ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: أرشده ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي: وجبت في سابق علم الله، فاعلم الله ﷻ أنه إنما بعث الرسل بالأمر بالعبادة، وهو من وراء الإضلال والهداية، ﴿فسيروا في الأرض﴾ أي: معتبرين بآثار الأمم المكذبة. ثم أكد أن من حققت عليه الضلالة لا يهتدي، فقال: ﴿إِنْ تَحْسَبْ عَلَن هُدَاهُمْ﴾ أي: [إن] تطلب هداهم بجهدك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، «لا يهدي» برفع الياء وفتح الدال، والمعنى: من أضله، فلا هادي له، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «يهدى» بفتح الياء وكسر الدال، ولم يختلفوا في «يُضِلُّ» أنها بضم الياء وكسر الضاد، وهذه القراءة تحتل معنيين، ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: لا يهدي من طبعه ضالاً، وخلقته شقياً. والثاني: لا يهدي، أي: لا يهتدي من أضله، أي: من أضله الله لا يهتدي، فيكون معنى يهدي: يهتدي، تقول العرب: قد هدي فلان الطريق، يريدون: اهتدى.

﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ لَا يَبْتَغِ اللَّهُ مِنْ يَمِينٍ بَلَى وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١٥﴾ يُبَيِّنُ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَيَسِّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٢١٦﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ يَكُونُ ﴿٢١٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَدَى مَا ظَلَمُوا لَيُبَوِّغَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢١٨﴾ الَّذِينَ صَدَقُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ﴾ سبب نزولها أن رجلاً من المسلمين كان له على رجل من المشركين

(١) رواه ابن جرير ١٠١/١٤، وخرجه السيوطي في [الدر: ١١٧/٤] وزاد نسه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في [العظمة]، وأبي القاسم بن مند في كتاب [الأحوال]، والبيهقي في [شعب الإيمان].

ذِينَ، فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت، فقال المشرك: وإنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت؟! فأقسم بالله ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾، فنزلت هذه الآية، قاله أبو العالية. و﴿جَهَدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مفسر في [المائة: ٤٥٣]. وقوله: ﴿يَكَلِّمْهُمْ رُدُّ عَلَيْهِمْ﴾، قال الفراء: والمعنى: ﴿يَكَلِّمْهُمْ لِيُبْعَثَهُمْ وَرَدُّاً عَلَيْهِمْ حَتَّى﴾

قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّنُ لَهُمُ الْوُجُوهَ الَّتِي يَخْتَلِفُونَ فِيهَا﴾ قال الزجاج: يجوز أن يكون متعلقاً بالبعث، فيكون المعنى: بلى يبعثهم فيبين لهم، ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ. وللمفسرين في قوله: ﴿لِيُؤَيِّنَ لَهُمُ﴾ قولان: أحدهما: أنهم جميع الناس، قاله قتادة. والثاني: أنهم المشركون، يبين لهم بالبعث ما خالفوا المؤمنين فيه.

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ كَافِرًا كَافِرِينَ﴾ أي: فيما أقسموا عليه من نفي البعث. ثم أخبر بقدرته على البعث بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤٥﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وخمزة «فيكون» رفعا، وكذلك في كل القرآن. وقرأ ابن عامر، والكسائي «فيكون» نصبا. قال مكي بن إبراهيم: من رفع، قطعه عمّا قبله، والمعنى: فهو يكون، ومن نصب، عطفه على «يقول»، وهذا مثل قوله: ﴿وَإِذَا قَمَعْتُمْ أُمَّةً فَأَنَّا يَقُولُ لَهُمْ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقد فسرناه في [البقرة: ٤١٧]. فإن قيل: كيف سمي الشيء قبل وجوده شيئا؟ فالجواب: أن الشيء وقع على المعلوم عند الله قبل الخلق، لأنه بمنزلة ما قد عُيِّنَ وشُوهِدَ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في ستة من أصحاب رسول الله ﷺ، بلال، وعمار، وصهيب، وخبّاب بن الأرت، وعائش وجبر مولىان لقريش، أخذهم أهل مكة فجعلوا يُعذّبونهم، ليردوهم عن الإسلام، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في أبي جندل بن سهيل بن عمرو، قاله داود بن أبي هند. والثالث: أنهم جميع المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ، قاله قتادة. ومعنى «هاجروا في الله»، أي: في طلب رضاه وثوابه ﴿بِمَا بَدَأَ مَا عَلِمْنَا﴾ بما نال المشركون منهم، ﴿لَنُؤَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وفيها خمسة أقوال: أحدها: لتنزّلهم المدينة، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، والشعبي، وقاتدة، فيكون المعنى: لَنُؤَيِّنَنَّ لَهُمْ دَارًا حَسَنَةً وَبَلَدًا حَسَنَةً. والثاني: لنرزقهم في الدنيا الرزق الحسن، قاله مجاهد. والثالث: النصر على العدو، قاله الضحاك. والرابع: أنه ما بقي بعدهم من الثناء الحسن، وصار لأولادهم من الشرف، ذكره الماوردي، وقد روي معناه عن مجاهد، فروى عنه ابن أبي نجيع أنه قال: ﴿لَنُؤَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال: لسان صادق. والخامس: أن المعنى: لنحسبهم في الدنيا، قال بعض أهل المعاني: فتكون على هذه الأقوال «لنؤيّنهم»، على سبيل الاستعارة، إلا على القول الأول.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْرُ الْأَخْرَةَ الْأَكْبَرُ﴾ قال ابن عباس: يعني: الجنة، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: أهل مكة. ونقل عن عمر بن الخطاب ﷺ، أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه، قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ذخرك في الآخرة أفضل، ثم يتلو هذه الآية^(١). ثم إن الله أثنى عليهم ومدحهم بالصبر فقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على دينهم، لم يتركوه لأذى نالهم، وهم في ذلك واثقون بربهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَقْمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَاللَّيْنَتِ وَالزُّبُرِ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ قال المفسرون: لما أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكن رسوله بشرا، فهلأ بعث إلينا ملكا! فنزلت هذه الآية، والمعنى: أن الرسل كانوا مثلك آدميين، إلا أنهم يُوحى إليهم. وقرأ حفص عن عاصم: «نوحى» بالنون وكسر الحاء. ﴿فَتَلَوْنَا﴾ يا معشر المشركين ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ وفيهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم أهل التوراة والإنجيل، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أهل التوراة، قاله

مجاهد. والثالث: أهل القرآن، قاله ابن زيد. والرابع: العلماء بأخبار من سلف، ذكره الماوردي. وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَقْمُونَ﴾ قولان: أحدهما: لا تعلمون أن الله تعالى بعث رسولاً من البشر. والثاني: لا تعلمون أن محمداً رسول الله، فعلى القول الأول، جائز أن يسأل من آمن برسول الله ومن كفر، لأن أهل الكتاب والعلم بالسيرة متفقون على أن الأنبياء كلهم من البشر، وعلى الثاني إنما يسأل من آمن من أهل الكتاب، وقد روي عن مجاهد ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ قال: عبد الله بن سلام، وعن قتادة، قال: سلمان الفارسي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هُمْ﴾ في هذه «الباء» قولان: أحدهما: أن في الكلام تقديم وتأخيراً، تقديره: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً أرسلناهم بالبينات. والذُّبُرُ: الكتب. وقد شرحنا هذا في (آل عمران: ١٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ وهو القرآن بإجماع المفسرين ﴿لِتُذَكِّرَ النَّاسَ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [فيه] من حلال وحرام، ووعده ووعيد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ في ذلك فيعتبرون.

﴿أَمَّا الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْبِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٧)﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قال المفسرون: أراد مشركي مكة. ومكرهم السيئات: شركهم وتكديبهم، وسمي ذلك مكرأ، لأن المكر في اللغة: السعي بالفساد، وهذا استفهام إنكار، ومعناه: ينبغي أن لا يأمنوا العقوبة، وكان مجاهد يقول: عنى بهذا الكلام نمرود بن كنعان.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيهِمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: في أسفارهم، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثاني: في منامهم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: في ليلهم ونهارهم، قاله الضحاك، وابن جريج، ومقاتل. والرابع: أنه جميع ما يتقلبون فيه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: على تنقُّص، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك. قال ابن قتيبة: التَّخَوُّفُ: التَّنْقِصُ، ومثله التَّخُونُ. يقال: تخوفته الدهور وتخوته: إذا نقصته وأخذت من ماله وجسمه. وقال الهيثم بن عدي: التَّخَوُّفُ: التَّنْقِصُ، بلغة أزد شنوءة. ثم في هذا التَّنْقِصُ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تنقُّص من أعمالهم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أخذ واحد بعد واحد، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: تنقُّص أموالهم وثمارهم حتى يهلكهم، قاله الزجاج. والثاني: أنه التخوف نفسه، ثم فيه قولان: أحدهما: يأخذهم على خوف أن يعاقب أو يتجاوز، قاله قتادة. والثاني: أنه يأخذ قرية لتخاف القرية الأخرى، قاله الضحاك. وقال الزجاج: يأخذهم بعد أن يخيفهم بأن يهلك قرية فتخاف التي تليها، فعلى هذا، خوْفهم قبل هلاكهم، فلم يتوبوا، فاستحقوا العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إذ لم يعجل بالعقوبة، وأمهل للثبوت.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ نَفْسٍ يَنْفَخُ فِيهَا ظُلُمًا لَّيْلًا عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (١٨) وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَاتٍ عَالِمَةٍ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُرْبِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٢٠)﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «أولم يروا» بالياء، وقرأ حمزة، والكسائي: «تروا» بالياء، واختلف عن عاصم.

قوله تعالى: ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ نَفْسٍ﴾ أراد من شيء له ظل، من جبل، أو شجر، أو جسم قائم ﴿يَنْفَخُ فِيهَا﴾ قرأ الجماعة بالياء، وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالياء ﴿ظُلُمًا لَّيْلًا﴾ وهو جمع ظل، وإنما جمع وهو مضاف إلى واحد، لأنه واحد يُراد به الكثرة، كقوله تعالى: ﴿لَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣]. قال ابن قتيبة: ومعنى يتفياً ظلاله: يدور ويرجع من جانب إلى جانب، والفيء: الرجوع، ومنه قيل للظل بالعشي: فيء، لأنه فاء عن المغرب إلى المشرق. قال المفسرون: إذا طلعت الشمس وأنت متوجه إلى القبلة، كان الظل قدامك، فإذا ارتفعت كان عن يمينك، فإذا كان بعد ذلك كان خلفك، وإذا دنت للغروب كان على يسارك، وإنما وحد اليمين، والمراد به: الجمع، إيجازاً في اللفظ كقوله

تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الذُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، ودلّت «الشمائِل» على أن المراد به الجميع، وقال الفراء: إنما وحد اليمين، وجمع الشمائِل، ولم يقل: الشمال، لأن كل ذلك جائز في اللغة، وأنشد:

السَّوَادُؤُنُ وَتَنِيْمٌ فِي ذَرَى سَبَلٍ
قد عَضَّ اعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيْسِ (١)

ولم يقل: جلود، ومثله:

كُلُّوا فِي نِضْفٍ بَطْنِيكُمْ تَعِيْشُوا
فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيْضٌ (٢)

وإنما جاز التوحيد، لأن أكثر الكلام يواجه به الواحد. وقال غيره: اليمين راجعة إلى لفظ ما، وهو واحد، والشمائِل راجعة إلى المعنى.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ قال ابن قتيبة: مستسلمة، منقادة، وقد شرحنا هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَلَطَّلَهُمْ يَأْتِدُوْنَ وَالْأَسْبَابَ﴾ [الرمع: ١٥]. وفي قوله تعالى: ﴿وَهُزْ ذُرِّيْرًا﴾ قولان: أحدهما: والكفار صاغرون. والثاني: وهذه الأشياء داخرة مجبولة على الطاعة. قال الأخفش: إنما ذكر من ليس من الإنس، لأنه لما وصفهم بالطاعة أشبهوا الإنس في الفعل.

قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ يَسْبُجُ مَا فِي السَّمَكِيْنَ﴾ الآية. الساجدون على ضربين: أحدهما: من يعقل، فسجوده عبادة. والثاني: من لا يعقل، فسجوده بيان أثر الصنعة فيه، والخضوع الذي يدل على أنه مخلوق، هذا قول جماعة من العلماء، واحتجوا في ذلك بقول الشاعر:

بِحَيْثُ تَضِلُّ الْبُلُقُ فِي حَجْرَاتِهِ
تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ (٣)

قال ابن قتيبة: حَجْرَاتُهُ، أي: جوانبه، يريد أن حوافر الخيل قد قلمت الأكم ووطئتها حتى خشعت وانخفضت. فأما الشمس والقمر والنجوم، فألحقها جماعة بمن يعقل، فقال أبو العالية: سجودها حقيقة، ما منها غارب إلا حَرَّ ساجداً بين يدي الله ﷻ، ثم لا ينصرف حتى يُؤذَنَ له، ويشهد لقول أبي العالية، حديث أبي ذر قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس، فقال: «يا أبا ذر! تدري أين ذهب الشمس»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها ﷻ، فتستأذن في الرجوع، فيؤذن لها، فكانها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فترجع إلى مطلعها فذلك مستقرها، ثم قرأ: ﴿وَاللَّسْتُ جَرِي لِمُسْتَقَرِّ لَهَا﴾ [يس: ٢٨]. أخرجه البخاري ومسلم (٤). وأما النبات والشجر، فلا يخلو سجوده من أربعة أشياء: أحدها: أن يكون سجوداً لا تعلمه، وهذا إذا قلنا: إن الله يُودعه فهماً. والثاني: أنه تفتؤ ظلاله. والثالث: بيان الصنعة فيه. والرابع: الانقياد لما سُحِرَ له.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكِيَّةُ﴾ إنما أخرج الملائكة من الدواب، لخروجهم بالأجنحة عن صفة الدبيب. وفي قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْكُرُونَ﴾ [يخافون ربهم من فوقهم ويقتلون ما يؤمرون] قولان: أحدهما: أنه من صفة الملائكة خاصة، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثاني: أنه عام في جميع المذكورات، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي قوله: ﴿وَمِن قَوْفِيَّتِهِ﴾ قولان ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أنه ثناء على الله تعالى، وتعظيم لشأنه، وتلخيصه: يخافون ربهم عالياً ربيعاً عظيماً. والثاني: أنه حال، وتلخيصه: يخافون ربهم معظمين له عالمين بعظيم سلطانه.

(١) البيت في «الطبري» ١١٧/١٤، وهو في «معاني القرآن» للفراء ٣٠٨/١ لجريم من قصيدة في هجاء تيم بن قيس، من بكر بن وائل، وهو في «ديوانه» ٣٢٥.

(٢) تقدم البيت ٤٠ وهو غير منسوب في «سبويه» ١٥٨/١، و«الخرائفة» ٣/٣٧٩، و«الطبري» ١/٣٦١.

(٣) قائله زيد الخيل، وهو في «تأويل مشكل القرآن» ٣٢٢، و«الكمال» ٥٥١، و«المعاني الكبير» ٨٩٠، و«أضداد ابن الأنباري» ٢٩٥، و«حماسة ابن الشجري» ١٩، و«مجموعة المعاني» ١٩٢، والباء في قوله بجيش، متعلقة ببيت سالف هو:

بني عامر هل تعرفون إذا غدا
والبلق، جمع أبلق، ويلقاء: الفرس يرتفع تجميلها إلى الفخذين، والأكم، جمع إكام، وإكام، واحدة: أكمة، وهي تل يكون أشد ارتفاعاً مما حوله، دون الجبل، غليظ فيه حجارة. قال ابن قتيبة في «المعاني الكبير»: يقول: إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف، فغيرها أخرى أن يضل، يصف كثرة الجيش، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر.

(٤) البخاري ٤١٦/٨، ومسلم ١٣٩/١.

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا لِلنَّهْيَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَجِدٌ فَلِأَيِّ قَوْمٍ تَارَهُونَ ﴾ (١) ﴿ وَكَلِمَاتُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَلِمَاتُ الَّذِينَ أُنزِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَذَخَّرُونَ ﴾ (٢) ﴿ وَإِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَجِدٌ ﴾ (٣) ﴿ وَاللَّهُ نَفَقُونَ ﴾ (٤) ﴿

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَذَخَّرُوا لِلنَّهْيَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ سبب نزولها: أن رجلاً من المسلمين دعا الله في صلاته، ودعا الرحمن، فقال رجل من المشركين: ليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. قال الزجاج: ذُكر الإثنين توكيد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَجِدٌ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَكَلِمَاتُ الَّذِينَ أُنزِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَذَخَّرُونَ ﴾ في المراد بالذخيرة أقوال: أحدها: أنه الإخلاص، قاله مجاهد. والثاني: العبادة، قاله سعيد بن جبير. والثالث: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقامة الحدود، والفرائض، قاله عكرمة. والرابع: الطاعة، قاله ابن قتيبة. وفي معنى «واصباً» أربعة أقوال: أحدها: دائماً، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، والثوري، واللغويون. قال أبو الأسود الدؤلي:

لا أَبْتَدِي الحِمْدَ القَلِيلَ بِنَاقِئِهِ
بِوَمَا يَدْمُ الدَّهْرِ أَجْمَعِ وَأَصِيباً (١)

قال ابن قتيبة: معنى الكلام: أنه ليس من أحدٍ يُدَانُ له ويُطَاعُ إلا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلكة. غير الله ﷻ، فإن الطاعة تدوم له. والثاني: واجباً، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: خالصاً، قاله الربيع بن أنس. والرابع: وله الدين موصباً، أي: متعباً، لأن الحق ثقيل، وهو كما تقول العرب: همُّ ناصب، أي: مُنْصَبٌ، قال النابغة:

كَلَيْسِي لِهَمِّ بَا أُنَيْمَةُ نَاصِبٍ
وَلَيْلِ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ (٢)

ذكره ابن الأباري. قال الزجاج: ويجوز أن يكون المعنى: له الدين، والطاعة، رضي العبد بما يُؤمَرُ به وسهل عليه، أو لم يسهل، فله الدين وإن كان فيه الوصب، والوصب: شدة التعب.

﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِكُمْ يَوْمَ يَمُنُّ بِإِنَّ اللَّهَ إِذَا مَنَّكُمْ الْفُتُورَ فَإِلَيْهِ تَجَنَّبُونَ ﴾ (٣) ﴿ ثُمَّ إِذَا كُفِّرَتْ عَنْكُمْ إِذَا فُرِقَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ يَشْرِكُونَ ﴾ (٤) ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمُوتُوا فَسَوَفَ تَلْمِزُونَ ﴾ (٥) ﴿

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِكُمْ يَوْمَ يَمُنُّ ﴾ قال الزجاج: المعنى: ما حل بكم من نعمة، من صحة في جسم، أو سعة في رزق، أو متاع من مال وولد ﴿ وَمِنَ اللَّهِ ﴾ وقرأ ابن أبي عبلق: ﴿ فَمَنْ اللَّهُ ﴾ بتشديد النون.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَنَّكُمْ الْفُتُورَ ﴾ قال ابن عباس: يريد الأسقام، والأمراض، والحاجة. قوله تعالى: ﴿ فَإِلَيْهِ تَجَنَّبُونَ ﴾ قال الزجاج: «تجارون»: ترفعون أصواتكم إليه بالاستغاثة، يقال: جار يجار جواراً، والأصوات مبنية على «فُعَالٍ» و«فُعِيلٍ»، فأما «فُعَالٌ» فنحو «الصُّرَاخِ» و«الحُورِ»، وأما «الفُعِيلُ» فنحو «العربيل» و«الزئير»، والفُعَالُ أكثر.

قوله تعالى: ﴿ إِذَا فُرِقَ بَيْنَكُمْ ﴾ قال ابن عباس: يريد أهل النفاق. قال ابن السائب: يعني الكفار.

قوله تعالى: ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ ﴾ قال الزجاج: المعنى: ليكفروا بأننا أنعمنا عليهم، فجعلوا نعمتنا سبباً إلى الكفر، وهو كقولهم تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ رِعْذُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ [يونس: ١٨٨]، ويجوز أن يكون «ليكفروا»، أي: ليجحدوا نعمة الله في ذلك.

قوله تعالى: ﴿ فَتَمُوتُوا ﴾ تهديد، ﴿ فَسَوَفَ تَلْمِزُونَ ﴾ عاقبة أمركم. ﴿ وَيَجْمَلُونَ لِمَا لَا يَلْمِزُونَ نَبِيًّا مِمَّا رَفَعْتَهُمْ تَأَلَّفُوا لَتَشْفَعَنَّ عَمَّا كَفَرْتُمْ تَفَرُّونَ ﴾ (٦) ﴿ وَيَجْمَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَ لَهُمْ لِمَا يَشْتَرُونَ ﴾ (٧) ﴿ وَإِذَا بَشَّرْنَا أَحَدَهُمْ بِالذَّكَرِ يَتَلَوَّنُ وُجْهَهُ سُوءًا وَهُوَ كَاطِمٌ ﴾ (٨) ﴿ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُنْظِرُ عَلَىٰ حُوبٍ أَمْ يُخَفِّئُ فِي الْأَرْبَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٩) ﴿

قوله تعالى: ﴿ وَيَجْمَلُونَ لِمَا لَا يَلْمِزُونَ ﴾ يعني: الأوثان. وفي الذين لا يعلمون قولان: أحدهما: أنهم

(١) «مجاز القرآن» ٣٦١/١، «الطبري» ١١٨/١٤، «القرطبي» ١١٤/١٠.

(٢) «ديوانه» ٩، «مختار الشعر الجاهلي» ١٥٩، «مجاز القرآن» ١٨٤/٢، وقد نُسِرَ قوله: «ناصر» أي: ذو نصب، وبمعنى: منصب.

الجاعلون، وهم المشركون، والمعنى: لما لا يعلمون لها ضراً ولا نفعاً؛ فمفعول العلم محذوف، وتقديره: ما قلنا، هذا قول مجاهد، وقاتدة. والثاني: أنها الأصنام التي لا تعلم شيئاً، وليس لها حس ولا معرفة، وإنما قال: يعلمون، لأنهم لما نحلوها الفهم، أجزاها مجرى مَنْ يعقل على زعمهم، قاله جماعة من أهل المعاني. قال المفسرون: وهؤلاء مشركو العرب جعلوا لأوثانهم جزءاً من أموالهم، كالبجيرة والسائبة وغير ذلك مما شرحناه في [الأنعام: ١٣٩].

قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَأُنْتَبِهُنَّ﴾ رجوع عن الإخبار عنهم إلى الخطاب لهم، وهذا سؤال توبيخ.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ لَكَ الْبُتْنَ﴾ قال المفسرون: يعني: خزاعة وكنانة، زعموا أن الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزه عما زعموا. ﴿وَالَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: البنين. قال أبو سليمان: المعنى: ويتمنون لأنفسهم الذكور.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمُ بِالْأُنثَىٰ﴾ أي: أخبر بأنه قد وُلد له بنت ﴿عَظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوِداً﴾ قال الزجاج: أي: متغيراً تغير مغتم، يقال لكل من لقي مكروهاً: قد اسود وجهه غمّاً وحزناً.

قوله تعالى: ﴿رَوْفٌ كَرِيمٌ﴾ أي: يكظم شدة وجدي، فلا يظهره، وقد شرحناه في سورة [يوسف: ٨٤].

قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال المفسرون: وهذا صنيع مشركي العرب، كان أحدهم إذا ضرب امرأته المخاض، تورى إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً، سر به، وإن كانت أنثى، لم يظهر أياماً يُدَبَّرُ كيف يصنع في أمرها، وهو قوله: ﴿أَيْسِيكُلُ عَلَىٰ هُوبٍ﴾ فإلهاء ترجع إلى ما في قوله: ﴿مَا يَنْزِلُ بِهِ﴾، والهون في كلام العرب: الهوان. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة، والجحدري: «على هوان»، والدس: إخفاء الشيء في الشيء، وكانوا يدفنون البنات وهي حية ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إذ جعلوا لله البنات اللاتي محلهن منهم هذا، ونسوهن إلى الولد، وجعلوا لأنفسهم البنين.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ وَاللَّهُ الْمَسْئَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْمَرْيُومُ الْحَكِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ﴾ أي: صفة السوء من احتياجهم إلى الولد، وكراهتهم للإناث، خوف الفقر والعار. ﴿وَاللَّهُ الْمَسْئَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الصفة العليا من تنزهه وبراهته من الولد.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بشرتهم ومعاصيهم، كلما وجد شيء منهم أخذوا به ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا﴾ يعني: الأرض، وهذه كناية عن غير مذكور، غير أنه مفهوم، لأن الدواب إنما هي على الأرض. وفي قوله: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه عنى جميع ما يدب على وجه الأرض، قاله ابن مسعود. قال قاتدة: وقد فعل ذلك في زمن نوح عليه السلام، وقال السدي: المعنى: لأتحط المطر فلم تبق دابة إلا هلكت، وإلى نحوه ذهب مقاتل. والثاني: أنه أراد من الناس خاصة، قاله ابن جريج. والثالث: من الإنس والجن، قاله ابن السائب، وهو اختيار الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ﴾ وهو منتهى آجالهم، وباقي الآية قد تقدم [الأعراف: ٣٤].

﴿وَيَعْمَلُونَ لَكَ مَا يَكْفُرُونَ وَصِفَتْ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبُ أَنَّ لَهُمُ لُغْتٌ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّقْرَّبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ لَكَ مَا يَكْفُرُونَ﴾ المعنى: ويحكمون له بما يكرهونه لأنفسهم، وهو البنات، ﴿وَصِفَتْ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبُ﴾ أي: تقول الكذب، وقرأ أبو العالية، والنخعي، وابن أبي عبلة: «الكذب» بضم الكاف والذال. ثم فسّر ذلك الكذب بقوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ لُغْتٌ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها البنون، قاله مجاهد، وقاتدة، ومقاتل. والثاني: أنها الجزاء الحسن من الله تعالى، قاله الزجاج. والثالث: [أنها] الجنة، وذلك أنه لما وعد الله المؤمنين الجنة، قال المشركون: إن كان ما تقولونه حقاً، لندخلنّها قبلكم، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قد شرحناها فيما مضى [مرء: ٢٢]. وقال الزجاج: «لا» ردّ لقولهم، والمعنى: ليس ذلك ما وصفوا «جرم» أن لهم النار، المعنى: جرم فعلهم، أي: كسب فعلهم هذا ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّقْرَّبُونَ﴾ وفيه أربعة أوجه، قرأ الأكثرون: «مُقْرَّبُونَ» بسكون الفاء وتخفيف الراء وفتحها، وفي معناها قولان: أحدهما: مُتْرَكُونَ، قاله ابن عباس. وقال الفراء: منسيون في النار. والثاني: مُعْجَلُونَ، قاله ابن عباس أيضاً. وقال ابن قتيبة: مُعْجَلُونَ إلى

النار. قال الزجاج: معنى «الفرط» في اللغة: المتقدم، فمعنى «مفرتون»: مقدّمون إلى النار، ومَنْ فسرها «مُتْرُكُونَ» فهو كذلك [أيضاً]، أي: قد جعلوا مقدّمين إلى العذاب أبداً، متروكين فيه. وقرأ نافع، ومحبوب^(١) عن أبي عمرو، وقتيبة^(٢) عن الكسائي «مُفْرَطُونَ» بسكون الفاء وكسر الراء وتخفيفها، قال الزجاج: ومعناها: أنهم أفرطوا في معصية الله. وقرأ أبو جعفر وابن أبي عمير «مُفْرَطُونَ» بفتح الفاء وتشديد الراء وكسرهما، قال الزجاج: ومعناها: أنهم فرطوا في الدنيا فلم يعملوا فيها للأخرة، وتصدق هذه القراءة «بِحَسْرَتِكَ عَلَى مَا قَرَطْتَ فِي حَسْبِ اللَّهِ» [الزمر: ٥٦]. وروى الوليد بن مسلم عن ابن عامر «مُفْرَطُونَ» بفتح الفاء والراء وتشديدها، قال الزجاج: وتفسيرها كتفسير القراءة الأولى، فالمفْرَط والمفْرَط بمعنى واحد.

﴿ثُمَّ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لِمَ أَسْلَيْتُنَّ أَعْمَلَهُمْ فَبُهِتَ الَّذِينَ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فِئْتَابًا لَّنَّ كَذِبًا﴾ [١٦٠] وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا يُشَبِّهُنَّ لِمَ أَلَيْتُنَّ أَعْمَلَهُمْ فِيهِ وَهَلْ كُنَّا بِقَوْمِهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٦١﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ قال المفسرون: هذه تعزية للنبي ﷺ ﴿فَرَيْنَ لِمَ أَسْلَيْتُنَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ الخبيثة حتى عصوا وكذبوا، ﴿فَبُهِتَ الَّذِينَ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فِئْتَابًا لَّنَّ كَذِبًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه يوم القيامة، قاله ابن السائب، ومقاتل، كأنهما أرادا: فهو وليهم يوم تكون لهم النار. والثاني: أنه الدنيا، فالمعنى: فهو مواليهم في الدنيا ﴿وَلَكُمَّ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا يُشَبِّهُنَّ لِمَ﴾ يعني: الكفار ﴿الَّذِي أَعْمَلُوا فِيهِ﴾ أي: ما خالفوا فيه المؤمنين من التوحيد والبعث والجزاء، فالمعنى: أنزلناه بياناً لما وقع فيه الاختلاف.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَرَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَّبِعُونَ﴾ [١٦١] وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّئَلَّا تُفَكِّرُوا فِي مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَأَخْفَىٰ، وَلَمْ تَكُن لَّهُمْ فِتْنَةٌ أَلَّا يَسْتَدْرِيبُوا ﴿١٦٢﴾ وَمِنْ تَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأعنَابِ لِيَخْبِرُنَّ عَنْهُ سَكْرًا وَرَوَاقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَخْيَرَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد يبسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَّبِعُونَ﴾ أي: يعتبرون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّئَلَّا تُفَكِّرُوا﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي: «نُسْقِيكُمْ» بضم النون، ومثله في [المؤمنين: ٢١]. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «نُسْقِيكُمْ» بفتح النون فيهما. وقرأ أبو جعفر: «تسقيكم» ببناء مفتوحة، وكذلك في [المؤمنين: ٢١] وقد سبق بيان الأنعام. وذكرنا معنى «العبرة» في [آل عمران: ١٣]، والفرق بين «سقى» و«أسقى» في [الحجر: ٢٢]. فاما قوله: ﴿بِمَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ فقال الفراء: النعم والأنعام شيء واحد، وهما جمعان، فرجع التذكير إلى معنى «النعم» إذ كان يؤدي عن الأنعام، أنشدني بعضهم:

وَطَّرَابَ الْأَبَانِ اللَّفَّاحِ وَيَرُدُّ^(٤)

فرجع إلى اللين، لأن اللين والألبان في معنى؛ قال: وقال الكسائي: أراد: نسقيكم مما في بطون ما ذكرنا، وهو صواب، أنشدني بعضهم:

مِنْ أَلْبَانِ الْفَرَاخِ تُبَيِّتُ حَوَاصِلَهُ^(٤)

وقال المبرِّد: هذا فاشٍ في القرآن، كقوله للشمس: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨] يعني: هذا الشيء الطالع، وكذلك ﴿وَلِيٍّ مَّرْسَلَةٍ إِلَيْهِمْ بِهِدْيَةٍ﴾ ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سَلْبَانٌ﴾ [النمل: ٣٥، ٣٦] ولم يقل: «جاءت» لأن المعنى: جاء الشيء الذي

(١) هو محمد بن الحسن بن هلال بن أبي زنب، فيروز، أبو جعفر، أو أبو الحسن، لقبه محبوب، حدث عنه أحمد بن حنبل، ومحمد بن سنان القزاز، وأخرج له البخاري، وقال ابن معين: لا بأس به.

(٢) هو أبو عبد الرحمن قتبية بن مهران الأذفاني (قرية من أصبهان) إمام مقرب صالح ثقة، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن الكسائي، روي عنه أنه قال: قرأت القرآن من أوله إلى آخره على الكسائي، وقرأ الكسائي القرآن من أوله إلى آخره علي، وقال: صحبت الكسائي إحدى وخمسين سنة، وشاركته في عامة أصحابه.

(٣) الرجز غير منسوب في «الطبري» ١٤/١٣١، و«اللسان»: كند.

(٤) «الطبري» ١٤/١٣٢، و«اللسان»: نعم.

ذكرنا، وقال أبو عبيدة: الهاء في «بطونه» للبعض، والمعنى: نُسقيكم مما في بطون البعض الذي له لبن، لأنه ليس لكل الأنعام لبن، وقال ابن قتيبة: ذهب بقوله: «مما في بطونه» إلى النَّعْم، والنَّعْم تذكُّر وتؤنث، والفَرْث: ما في الكرش، والمعنى: أن اللبن كان طعاماً، فخلص من ذلك الطعام دم، وبقي منه فرث في الكرش، وخلص من ذلك الدم ﴿بِنَا حَالِصًا سَائِبًا لِلشَّرْبِ﴾ أي: سهلاً في الشرب لا يشجى به شارب، ولا يَغْصُ. وقال بعضهم: سائغاً، أي: لا تعافه النفس وإن كان قد خرج من بين فرث دم، وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: إذا استقر العلف في الكرش، طحنه، فصار أسفله فرثاً، وأعله دماً، وأوسطه لبناً، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة، فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث في الكرش.

قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَنْثَبِ﴾ تقدير الكلام: ولكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكرًا. والعرب تضمّر «ما» كقوله: ﴿وَلَيْذَا رَأَيْتَ قَوْمًا﴾ [الإنسان: ٢٠] أي: ما نَمَّ. والكناية في «منه» عائدة على «ما» المضمرة. وقال الأخفش: إنما لم يقل: منهما؛ لأنها أصغر الشيء، كأنه قال: ومنها شيء تتخذون منه سكرًا. وفي المراد بالسُّكر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الخمر، قاله ابن مسعود، وابن عمر، والحسن، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وإبراهيم ابن أبي ليلى، والزجاج، وابن قتيبة. وروى عمرو بن سفيان عن ابن عباس قال: السُّكْرُ: ما حرِّم من ثمرتها، وقال هؤلاء المفسرون: وهذه الآية نزلت إذ كانت الخمرة مباحة، ثم نسخ [ذلك] بقوله: ﴿فَأَجْنِبُوا﴾ [المائدة: ٩٠] وممن ذكر أنها منسوخة، سعيد بن جبيرة، ومجاهد، والشعبي، والنخعي. والثاني: أن السُّكْرَ: الخل، بلغة الحبشة، رواه العوفي عن ابن عباس. قال الضحاك: هو الخل، بلغة اليمن. والثالث: أن «السُّكْر» الطُّعْم، يقال: هذا له سُّكْر، أي: طُعْم، وأنشدوا:

جَمَعْتُ عَيْبَ الْأَكْمَرِ مِثْنَ سَكْرًا^(١)

قاله أبو عبيدة. فعلى هذين القولين، الآية محكمة. فأما الرزق الحسن، فهو ما أُجِلَّ منهما، كالتمر والعنب، والزبيب، والخل، ونحو ذلك.

﴿وَأَرْسَىٰ رُكْبَكَ إِلَىٰ أَهْلِي أَنْ أَدَّبْتَهُ مِنَ اللَّيَالِ يَوْمًا وَمَا يَعْرِشُونَ﴾ ثم كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ النَّخِيلِ فَاسْتَلْكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا تَرَابٌ تَحْتَلِفُ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ ﴿١٧١﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَىٰ رُكْبَكَ إِلَىٰ أَهْلِي﴾ في هذا الوحي قولان: أحدهما: أنه إلهام، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والضحاك، ومقاتل. والثاني: أنه أمر، رواه العوفي عن ابن عباس. وروى ابن مجاهد عن أبيه قال: أرسل إليها. والنحل: زنابير العسل، واحدها نحلة. و«يعرشون» يجعلونه عريشاً. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم «يَعْرِشُونَ» بضم الراء، وهما لغتان، يقال: «يعرش» و«يعرش» مثل «يعكف» و«يعكف». ثم فيه قولان: أحدهما: ما يعرشون من الكروم، قاله ابن زيد. والثاني: أنها سقوف البيوت، قاله الفراء. وقال ابن قتيبة: كل شيء عُرِش، من كرم، أو نبات، أو سقف، فهو عُرْش، ومعروش. وقيل: المراد بـ «مما يعرشون»: مما بينون لهم من الأماكن التي تلقي فيها العسل، ولولا التسخير، ما كانت تأوي إليها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ النَّخِيلِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: من الثمرات، و«كل» هاهنا ليست على العموم، ومثله قوله: ﴿تَذَكَّرُ كُلُّ قَوْمٍ﴾ [الحافات: ٢٥]. قال الزجاج: فهي تأكل الحامض، والمر، وما لا يوصف طعمه، فيحيل الله ﴿كَلِمَةً مِنْ ذَلِكَ عَسَلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَلْكَ سُبُلَ رَبِّكَ﴾ السُّبُلُ: الطُّرُق، وهي التي يطلب فيها الرعي. و«الذُّلُلُ» جمع ذُلُول. وفي الموصوف بها قولان: أحدهما: أنها السُّبُلُ، فالمعنى: اسلكي السُّبُلَ مُدْلَلَةً لِيك، فلا يتوَعَّرَ عليها مكان سلكته، وهذا قول مجاهد، واختيار الزجاج. والثاني: أنها النحل، فالمعنى: إنك مُدْلَلَةٌ بالتسخير لبني آدم، وهذا قول قتادة، واختيار ابن قتيبة.

(١) «مجاز القرآن» ١/٣٣٣، «الطبري» ١٤/١٣٨، «القرطبي» ١٠/١٢٩، و«اللسان»، و«التاج»: سكر.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ طُورِهَا سَرَابٌ﴾ يعني: العسل: ﴿تَخْلُفُ الْوَيْهَةَ﴾ قال ابن عباس: منه أحمر، وأبيض، وأصفر. قال الزجاج: [يخرج] من بطونها، إلا أنها تلقيه من أفواهها، وإنما قال: من بطونها، لأن استحالة الأظعمة لا تكون إلا في البطن، فيخرج كالريق الدائم الذي يخرج من فم ابن آدم.

قوله تعالى: ﴿يَبِيضُ شِفَاءً لِلنَّاسِ﴾ في هاء الكناية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى العسل، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود. واختلفوا، هل الشفاء الذي فيه يختص بمرض دون غيره، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه عام في كل مرض. قال ابن مسعود: العسل شفاء من كل داء. وقال قتادة: فيه شفاء للناس من الأدوية. وقد روى أبو سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فسقاه، ثم أتى فقال: قد سقيته فلم يزد إلا استطلاقاً، قال: «اسقه، عسلاً»، فذكر الحديث... إلى أن قال: فَشَفِي، إما في الثالثة، وإما في الرابعة، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك» أخرجه البخاري، ومسلم^(١). ويعني بقوله: «صدق الله»: هذه الآية. والثاني: فيه شفاء للأوجاع التي شفاؤها فيه، قاله السدي. والصحيح أن ذلك خرج مخرج الغالب. قال ابن الأنباري: الغالب على العسل أنه يعمل في الأدوية، ويدخل في الأدوية، فإذا لم يوافق أحاد المرضي، فقد وافق الأكثرين، هذا كقول العرب: الماء حياة كل شيء، وقد نرى من يقتله الماء، وإنما الكلام على الأغلب. والثاني: أن الهاء ترجع إلى الاعتبار. والشفاء: بمعنى الهدى، قاله الضحاك. والثالث: أنها ترجع إلى القرآن، قاله مجاهد.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَبْرِؤُكُمْ وَيَرْزُقُكُمْ مِنْ رِزْقٍ وَإِلَآهَ الْآخِرُ لَكُمْ لَا يَمَلُّكُمْ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيرٌ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَبْرِؤُكُمْ وَيَرْزُقُكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ أي: أوجدكم ولم تكونوا شيئاً ﴿ثُمَّ يَبْرِؤُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿وَيَرْزُقُكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ أَرْزَلُ الْمُتْرَمِلُ وهو أردؤه، وأذوته، وهي حالة الهرم. وفي مقداره من السنين ثلاثة أقوال: أحدها: خمس وسبعون سنة، قاله علي بن أبي طالب. والثاني: تسعون سنة، قاله قتادة. والثالث: ثمانون سنة، قاله قطرب.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ لَا يَمَلُّكُمْ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ قال الفراء: لكي لا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً. وقال ابن قتيبة: أي: حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئاً، لشدة هرمه. وقال الزجاج: المعنى: أن منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرقاً، فيصير بعد أن كان عالماً جاهلاً، ليرىكم من قدرته، كما قيل على إمامته وإحيائه، أنه قادر على نقله من العلم إلى الجهل. وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال: ليس هذا في المسلمين، المسلم لا يزداد في طول العمر والبقاء إلا كرامة عند الله، وعقلاً، ومعرفة. وقال عكرمة: من قرأ القرآن، لم يُرَدَّ إلى أرذل العمر.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْيِ رَبِّهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَمَلِهِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ يعني: فضل السادة على المماليك ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ يعني: السادة ﴿بِرَأْيِ رَبِّهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فعبيرت «ما» عن «من» لأنه موضع إبهام، تقول: ما في الدار؟ فيقول المخاطب: رجلان أو ثلاثة، ومعنى الآية: أن المولى لا يرده على ما ملكت يمينه من ماله حتى يكون المولى والمملوك في المال سواء، وهو مثل ضربه الله تعالى للمشركين الذين جعلوا الأصنام شركاء له، والأصنام ملكاً له، يقول: إذا لم يكن عبيدكم معكم في المملك سواء، فكيف جعلون عبيدي معي سواء، وترضون لي ما تأنفون لأنفسكم منه؟ وروى العوفي عن ابن عباس، قال: لم يكونوا أشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟ وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت في نصارى نجران حين قالوا: عيسى ابن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَمَلِهِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «تَجْحَدُونَ» بالتاء. وفي هذه النعمة قولان: أحدهما: حُجَّتْ به وهدايته. والثاني: فضله ورزقه.

﴿وَاللَّهُ جَمَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنْزِلًا رَبَّعَلَّ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَمَنْعَهُمْ رَزَقَكُمْ مِنَ الْبَلْبَلِ يُؤْتُونَ وَيَمْتَنُ اللَّهُ لَكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَلِيمُونَ ﴿٧٢﴾ فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَمَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنْزِلًا﴾ يعني النساء. وفي معنى «من أنفسكم» قولان: أحدهما: أنه خلق آدم، ثم خلق زوجته منه، قاله قتادة. والثاني: «من أنفسكم»، أي: من جنسكم من بني آدم، قاله ابن زيد. وفي الحفدة خمسة أقوال: أحدها: أنهم الأصهار، أختان الرجل على بناته، قاله ابن مسعود، وابن عباس في رواية، ومجاهد في رواية، وسعيد بن جبير، والنخعي، وأنشدوا من ذلك:

لَوْ أَنَّ نَفْسِي طَاوَعْتَنِي لِأَضْبَحَتْ لَهَا حَفْدٌ مِمَّا يُعَدُّ كَثِيرٌ
وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ عَلَيَّ أَيْبَةٌ عَيُوفٌ لِأَصْهَارِ اللَّئِمَامِ قَدُورٌ^(١)

والثاني: أنهم الخدم، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في رواية الحسن، وطاووس وعكرمة في رواية الضحاك، وهذا القول يحتمل وجهين: أحدهما: أنه يراد بالخدم: الأولاد، فيكون المعنى: أن الأولاد يخدمون. قال ابن قتيبة: الحفدة: الخدم والأعوان، فالمعنى: هم بنون، وهم خدم. وأصل الحفد: مداركة الخطو والإسراع في المشي، وإنما يفعل الخدم هذا، ف قيل لهم: حفدة. ومنه يقال في دعاء الوتر: «وإليك نسعى ونحفد». والثاني: أن يراد بالخدم: المماليك، فيكون معنى الآية: وجعل لكم من أزواجكم بنين، وجعل لكم حفدة من غير الأزواج، ذكره ابن الأنباري. والثالث: أنهم بنو امرأة الرجل من غيره، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والرابع: [أنهم] ولد الولد، رواه مجاهد عن ابن عباس. والخامس: أنهم: كبار الأولاد، والبنون: صغارهم، قاله ابن السائب، ومقاتل. قال مقاتل: وكانوا في الجاهلية تخدمهم أولادهم. قال الزجاج: وحقيقة هذا الكلام أن الله تعالى جعل من الأزواج بنين، ومن يعاون على ما يحتاج إليه بسرعة وطاعة.

قوله تعالى: ﴿رَزَقَكُمْ مِنَ الْبَلْبَلِ﴾ قال ابن عباس: يريد: من أنواع الثمار والحبوب والحيوان.

قوله تعالى: ﴿أَفِيَابِلِ يُؤْتُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الأصنام، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الشريك والصاحبة والولد، فالمعنى: يصدقون أن الله ذلك!؟ قاله عطاء. والثالث: أنه الشيطان، أمرهم بتحريم البحيرة والسائبة، فصدقوا. وفي المراد بـ «نعمة الله» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها التوحيد، قاله ابن عباس. والثاني: القرآن، والرسول. والثالث: الحلال الذي أحله الله لهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ وفي المشار إليه قولان: أحدهما: أنها الأصنام، قاله قتادة. والثاني: الملائكة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿بَيْنَ السَّمَوَاتِ﴾ يعني: المطر، ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ﴾ النبات، والثمر.

قوله تعالى: ﴿شَيْئًا﴾ قال الأخفش: جعل «شيئاً» بدلاً من الرزق، والمعنى: لا يملكون رزقاً قليلاً ولا كثيراً، ﴿وَلَا يَسْتَلِيمُونَ﴾ أي: لا يقدرُونَ على شيء. قال الفراء: وإنما قال في أول الكلام: «يملك» وفي آخره: «يستطيعون»؛ لأن «ما» في مذهب: جمع لأهنتهم، فوحد «يملك» على لفظ «ما» وتوحيدها، وجمع في «يستطيعون» على المعنى، كقوله: ﴿وَيَتَمَّمْنَ مِنْ يَسْتَعِيمُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تشبهوه بخلقهم، لأنه لا يُشبه شيئاً، ولا يُشبه شيء، فالمعنى: لا تجعلوا له شريكاً. وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: يعلم ضرب المثل، وأنتم لا تعلمون ذلك، قاله ابن السائب. والثاني: يعلم أنه ليس له شريك، وأنتم لا تعلمون أنه ليس له شريك، قاله مقاتل. والثالث: يعلم خطأ ما تضربون من الأمثال، وأنتم لا تعلمون صواب ذلك من خطئه. والرابع: يعلم ما كان

ويكون، وأنتم لا تعلمون قدر عظمته حين أشركتم به، ونسبتموه إلى العجز عن بعث خلقه.

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَيْنًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ لِمَنْعَدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: بينَ شَبَهًا فيه بيان المقصود، وفيه قولان: أحدهما: أنه مَثَلٌ للمؤمن والكافر. فالذي ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ هو الكافر، لأنه لا خير عنده، وصاحب الرزق هو المؤمن، ابن لما عنده من الخير، هذا قول عباس، وقاتدة. والثاني: أنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى لنفسه وللأوثان، لأنه مالك كل شيء، وهي لا تملك شيئاً، هذا قول مجاهد، والسدي. وذكر في التفسير أن هذا المثل ضُربَ يقوم كانوا في زمن رسول الله ﷺ، وفيهم قولان: أحدهما: أن المملوك: أبو المملوك: (١)، وصاحب الرزق الحسن: سيده هشام بن عمرو، رواه عكرمة عن ابن عباس. وقال مقاتل: المملوك: أبو الحواجر. والثاني: أن المملوك: أبو جهل بن هشام، وصاحب الرزق الحسن: أبو بكر الصديق ﷺ، قاله ابن جريج. فأما قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ ولم يقل: يستويان، لأن المراد: الجنس. وقال ابن الأنباري: لفظ «مَنْ» لفظ توحيد، ومعناها معنى الجمع، ولم يقع المَثَلُ بعبد معين، ومالك معين، لكن عُنيَ بهما جماعةً عبيد، وقومٌ مالكون، فلما فارق من تأويل الجمع، جمع عائدها لذلك.

قوله تعالى: ﴿لِمَنْعَدُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المستحق للحمد، لأنه المنعم، ولا نعمة للأصنام، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الحمد لله. قال العلماء: وصف أكثرهم بذلك، والمراد: جميعهم.

قوله تعالى: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ قد فسرنا «البكم» في [البقرة: ١٨]. ومعنى ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: من الكلام، لأنه لا يفهم ولا يفهم عنه. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ قال ابن قتيبة: أي: يُثقل على وليه وقرباته. وفيمن أريد بهذا المَثَلُ أربعة أقوال: أحدها: أنه مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالكافر هو الأبكم، والذي يأمر بالعدل [هو] المؤمن، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في عثمان بن عفان، هو الذي يأمر بالعدل، وفي مولى له كان يكره الإسلام وينهى عثمان عن التفقه في سبيل الله، وهو الأبكم، رواه إبراهيم بن يعلى بن مئني عن ابن عباس. والثالث: أنه مثل ضربه الله تعالى لنفسه، وللوثن. فالوثن: هو الأبكم، والله تعالى: هو الأمر بالعدل، وهذا قول مجاهد، وقاتدة، وابن السائب، ومقاتل. والرابع: أن المراد بالأبكم: أبيُّ بن خلف، وبالذي يأمر بالعدل: حمزة. وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون، قاله عطاء. فيخرج على هذه الأقوال في معنى «مولاه» قولان: أحدهما: أنه مولى حقيقة، إذا قلنا: إنه رجل من الناس. والثاني: أنه بمعنى الولي، إذا قلنا: إنه الصنم، فالمعنى: وهو يُثقل على وليه الذي يخدمه ويزينه. ويخرج في معنى «أينما توجَّه» قولان. إن قلنا: إنه رجل، فالمعنى: أينما يرسله. والتوجيه: الإرسال في وجه من الطريق. وإن قلنا: إنه الصنم، ففي معنى الكلام قولان: أحدهما: أينما يدعو، لا يجيبه، قاله مقاتل. والثاني: أينما توجَّه تأميله إياه ورجاه له، لا يأتيه ذلك بخير، فحذف التأميل، وخلفه الصنم، كقوله: ﴿مَا وَعَدْنَا عَلَىٰ رَسُولِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] أي: على السنة رسلك. وقرأ البيزي عن ابن محيصن «أينما توجَّه» بالياء على الخطاب. فأما قوله: ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ فإن قلنا: هو رجل، فإنما كان كذلك، لأنه لا يفهم ما يقال له، ولا يفهم عنه، إما لكفره وجحوده، أو لبيكم به. وإن قلنا: إنه الصنم، فلكونه جماداً. ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ أي: هذا الأبكم ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: ومن هو قادر على التكلم، ناطق بالحق.

﴿وَلِلَّهِ عِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْخِ نَفْسٍ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَهِ اللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قد ذكرناه في آخر [مؤد: ١٢٣] وسبب نزول هذه الآية أن كفار مكة سألوا رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ فنزلت هذه، قاله مقاتل. وقال ابن السائب: المراد بالغيب هاهنا: قيام الساعة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ يعني: القيامة: ﴿إِلَّا كَنَفْخِ نَفْسٍ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَهِ اللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والمعنى: إن القيامة

في سرعة قيامها وبعث الخلائق، كلمح العين، لأن الله تعالى يقول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ قال مقاتل: بل هو أسرع. وقال الزجاج: ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكنه يصف سرعة القدرة على الإتيان بها متى شاء.

﴿وَاللَّهُ أَقْرَبُكُمْ مِنْ بَطْنِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَقْلُبُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفِيدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَقْرَبُكُمْ مِنْ بَطْنِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قرأ حمزة «إمهايتكم» بكسر الألف والميم، وقرأ الكسائي بكسر الألف وفتح الميم، والباقون بضم الألف وفتح الميم، وكذلك في [النور: ٦١] و [الزمر: ٦١] و [النجم: ٢٢]، ولا خلاف بينهم في الابتداء بضم الهمزة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لفظه لفظ الواحد، والمراد به الجميع، وقد بيّنا علة ذلك في أول [البقرة: ٤٧]. ﴿وَالْأَفِيدَةَ﴾: جمع فؤاد. قال الزجاج: مثل: غراب وأغربة، ولم يجمع «فؤاد» على أكثر العدد، لم يقل فيه: «فؤادان» مثل غراب وغريان. وقال أبو عبيدة: وإنما جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة قبل أن يخرجهم، غير أن العرب تقدم وتؤخر، وأنشد:

صَحْمٌ تُعَلَّقُ أَشْنَأُ الدِّيَاتِ بِهِ إِذَا الْمِؤُودُ أَيْرَتْ فَوْقَهُ حَمَلًا^(١)

[الشَّئِقُ: ما بين الفريضتين]. والمؤودون أعظم من الشئق، فبدأ بالآقل قبل الأعظم. قال المفسرون: ومقصود الآية: أن الله تعالى أبان نعمه عليهم حيث أخرجهم جهالاً بالأشياء، وخلق لهم الآلات التي يتوصلون بها إلى العلم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الظَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسَّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ﴾ قال الزجاج: هو الهواء البعيد من الأرض. قوله تعالى: ﴿مَا يُمَسَّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: ما يمسكهن عند قبض أجنحتهن وبسطها أن يقعن على الأرض إلا الله، قاله الأكثرون. والثاني: ما يمسكهن أن يرسلن الحجارة على شرار هذه الأمة، كما فعل بغيرهم، إلا الله، قاله ابن السائب.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُدُرِ الْأَنْفَادِ يَوْمًا تُنْقَضُوهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْمَا إِلَى حَيْثُ ﴿٨٣﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٤﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٨٥﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفُرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي: موضعاً تسكنون فيه، وهي المساكن المتخذة من الحجر والمدر تستر العورات والحرم^(٢). وذلك أن الله تعالى خلق الخشب والمدر والآلة التي بها يمكن بناء البيت وتسقيفه، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُدُرِ الْأَنْفَادِ يَوْمًا﴾ وهي القباب والخيم المتخذة من الأدم ﴿تُنْقَضُوهَا﴾ أي: يخفّ عليكم حملها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ قرأ ابين كثير، ونافع، وأبو عمرو «ظعنكم» بفتح العين. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بتسكين العين، وهما لغتان، كالشعر والشعر، والنهر والنهر، والمعنى: إذا سافرتهم، ﴿وَيَوْمَ إِقَامِكُمْ﴾ أي: لا تثقل عليكم في الحالين. ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾ يعني: الضأن ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ يعني: الإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ يعني: المعز. الأثاث: الفراء: الأثاث: المتاع، لا واحد له، كما أن المتاع لا واحد له. والعرب تقول: جمع المتاع أمتعة، ولو جمعت الأثاث، لقلت: ثلاثة أثاث، وأث: مثل أعة وعث لا غير. وقال ابن قتيبة: الأثاث: متاع البيت من الفرش والأكسية. قال أبو زيد: واحد الأثاث: أثانة. وقال الزجاج: يقال: قد أثَّ يَأْثُ أَثًا. إذا صار ذا أثاث. وروي عن الخليل أنه قال: أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض، ومنه: شَرَّ أثيث. فأما قوله: ﴿وَمِثْمَا﴾ فقييل: إنما جمع بينه

(١) البيت للأخطل: «ديوانه» ١٤٣، «ومجاز القرآن» ١/٣٦٤، «واللسان»: شئق، وفيه: وصفه بتحمل الديات وما دون الديات، فيؤبىها ليصلح بين العائثر ويحقن الدماء. وانظر رد ابن قتيبة على تفسير أبي عبيدة للأشناق في «اللسان».

(٢) حُرْم الرُّجُل: عياله ونسائه وما يحمي.

وبين الأثاث، لاختلاف اللفظين. وفي قوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ قولان: أحدهما: أنه الموت، والمعنى: ينتفعون به إلى حين الموت، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنه إلى حين البلى، فالمعنى: إلى أن يبلى ذلك الشيء، قاله مقاتل. قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مَتَاعًا حَلَالًا﴾ أي: ما يقيكم حر الشمس، وفيه خمسة أقوال: أحدها: أنه ظلال الغمام، قاله ابن عباس. والثاني: ظلال البيوت، [قاله ابن السائب. والثالث: ظلال الشجر، قاله قتادة، والزجاج. والرابع: ظلال الشجر والجبال] (١)، قاله ابن قتيبة. والخامس: أنه كل شيء له ظل من حائط، وسقف، وشجر، وجبل، وغير ذلك، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتًا﴾ أي: ما يَكُنُّكُمْ من الحرِّ والبرد، وهي الغيران والأسراب. وواحد الأكنان «كِنٌّ» وكل شيء وقى شيئاً وستره فهو «كِنٌّ». ﴿وَجَعَلَ لَكُم سُرُبِيلًا﴾ وهي القميص ﴿وَيَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ ولم يقل: البرد، لأن ما وقى من الحرِّ، وقى من البرد، وأنشد:

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمُمْتُ أَرْضًا
أُرِيدُ الْحَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي (٢)

وقال الزجاج: إنما خص الحرِّ، لأنهم كانوا في مكاناتهم أكثر معاناةً له من البرد، وهذا مذهب عطاء الخراساني.

قوله تعالى: ﴿وَسَرَّيْلٍ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ يريد الدروع التي يَتَّقُونَ بها شدة الطعن والضرب في الحرب. قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَنْتَهِ نَسَمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: مثلما أنعم الله عليكم بهذه الأشياء، يتم نعمته عليكم في الدنيا ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والخطاب لأهل مكة، وكان أكثرهم حينئذ كفاراً، ولو قيل: إنه خطاب للمسلمين، فالمعنى: لعلكم تدمون على الإسلام، وتقومون بحقه. وقرأ ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وأبو رجاء: «لعلكم تَسَلِّمُونَ» يفتح التاء واللام، على معنى: لعلكم إذا لبستم الدروع تَسَلِّمُونَ من الجراح في الحرب.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عرضوا عن الإيمان ﴿فَأَنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ وهذه عند المفسرين منسوخة بأية السيف. قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ وفي هذه النعمة قولان: أحدهما: أنها [المساكن] نعم الله ﷻ عليهم في الدنيا. وفي إنكارها ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم يقولون: هذه ورثنا [عن آبائنا]. روى ابن أبي نجیح عن مجاهد قال: نعم الله: المساكن، والأنعام، وسراويل الثياب، والحديد، يعرفه كفار قريش، ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لأبائنا ورثناه عنهم، وهذا عن مجاهد. والثاني: أنهم يقولون: لولا فلان، لكان كذا، فهذا إنكارهم، قاله عون بن عبد الله. والثالث: يعرفون أن النعم من الله، ولكن يقولون: هذه بشفاعة ألهتنا، قاله ابن السائب، والقراء، وابن قتيبة. والثاني: أن المراد بالنعمة هاهنا: محمد ﷺ يعرفون أنه نبيٌّ ثم يكذبونه، وهذا مروى عن مجاهد، والسدي، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُمْ أَكْفَرَهُمْ أَكْفَرَهُمْ﴾ قال الحسن: وجميعهم كفار، فذكر الأكثر، والمراد به الجميع. ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤَدُّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يَسْتَمْتِنُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ قَالِقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ الشَّهَادَةُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: يوم القيامة، وشاهد كل أمة نبيها يشهد عليها بتصديقها وتكذيبها، ﴿ثُمَّ لَا يُؤَدُّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار ﴿وَلَا هُمْ يَسْتَمْتِنُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى ما أمر الله به، لأن الآخرة ليست بدار تكليف.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿الْمَنَابِ﴾ يعني: النار ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يؤخرون، ولا يمهلون. ﴿وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ يعني: الأصنام التي جعلوها شركاء لله في

(١) ما بين المعقفين، سقط من نسخة الرباط، واستدركناه من نسخة مكتبة راغب باشا باسطنبول.

(٢) البيت للمصنف البغدادي، وقد تقدم ١٠٥، ٢١٨، وهو في «الطبري» ١٤/١٥٧، و«القرطبي» ١٠/١٦٠.

العبادة، وذلك أن الله يبعث كل معبود من دونه، فيقول المشركون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا﴾ أي: نعبد من دونك. فإن قيل: فهذا معلوم عند الله تعالى، فما فائدة قولهم: «هؤلاء شركاؤنا»؟ فتنه جوابان: أحدهما: أنهم لما كتّموا الشرك في قولهم: واللّه ما كنا مشركين، عاقبهم الله تعالى بإصمات ألسنتهم، وإنطاق جوارحهم، فقالوا عند معاينة آلهتهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا﴾ أي: قد أقرنا بعد الجحد، وصدّقنا بعد الكذب، التماساً للرحمة، وفراراً من الغضب، وكان هذا القول منهم على وجه الاعتراف بالذنب، لا على وجه إعلام من لا يعلم. والثاني: أنهم لما حايثوا عظم غضب الله تعالى قالوا: هؤلاء شركاؤنا، تقدير أن يعود عليهم من هذا القول روح، وأن تلزم الأصنام إجرامهم، أو بعض ذنوبهم إذ كانوا يدعون لها العقل والتمييز، فأجابتهم الأصنام بما حسم طمعهم.

قوله تعالى: ﴿فَالْتَمُوا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ﴾ أي: أجابوهم وقالوا لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ قال الفراء: ردت عليهم آلهتهم قولهم. وقال أبو عبيدة: «فالتقوا»، أي: قالوا لهم. يقال: ألقيت إلى فلان كذا، أي: قلت له. قال العلماء: كذبوهم في عبادتهم إياهم، وذلك أن الأصنام كانت جماداً لا تعرف عابديها، فظهرت فضيحتهم يومئذ إذ عبدوا من لم يعلم بعبادتهم، وذلك كقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِبَادِيَتِهِمْ﴾ [مرم: ٨٣].

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ إِلَى اللَّهِ يُؤَمِّدُ النَّاسَ﴾ المعنى: أنهم استسلموا له. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون، قاله الأثرون. ثم في معنى استسلامهم قولان: أحدهما: أنهم استسلموا [له] بالإقرار بتوحيده وربوبيته. والثاني: أنهم استسلموا لعذابه. والثاني: أنهم المشركون والأصنام كلهم. قال الكلبي^(١): والمعنى: أنهم استسلموا لله مقادين لحكمه.

قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: بطل قولهم أنها تشفع لهم. والثاني: ذهب عنهم ما زين لهم الشيطان أن الله شريكاً وولداً.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْمَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [٣١] وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَرَزَقْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [٣٢] قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: منعوا الناس من طاعة الله والإيمان بمحمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْمَذَابِ﴾ إنما نكر العذاب [الأول]، لأنه نوع خاص لقوم بأعيانهم، وعرف العذاب الثاني، لأنه العذاب الذي يعذب به أكثر أهل النار، فكان في شهرته بمنزلة النار في قول القائل: نعوذ بالله من النار، وقد قيل: إنما زيدوا هذا العذاب على ما يستحقونه من عذابهم، بصدّهم عن سبيل الله. وفي صفة هذا العذاب الذي زيدوا أربعة أقوال: أحدها: أنها عقارب كأمثال النخل الطوال، رواه مسروق عن ابن مسعود. والثاني: أنها حيّات كأمثال الفيّلة، وعقارب كأمثال البغال، رواه زرّ عن ابن مسعود. والثالث: أنها خمسة أنهار من صُفْرٍ مُذَابٍ تسيل من تحت العرش يعذبون بها، ثلاثة على مقدار الليل، واثنان على مقدار النهار، قاله ابن عباس. والرابع: أنه الزمهرير، ذكره ابن الأباري. قال الزجاج: يخرجون من حرّ النار إلى الزمهرير، فيتبادرون من شدة برده إلى النار.

قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم قوم، قاله ابن عباس. والثاني: أمته، قاله مقاتل. وتم الكلام هاهنا. ثم قال: ﴿وَرَزَقْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ﴾ قال الزجاج: التبيان: اسم في معنى البيان. فأما قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فقال العلماء بالمعاني: يعني: لكل شيء من أمور الدين، إما بالنص عليه، أو بالإحالة على ما يوجب العلم، مثل بيان رسول الله ﷺ أو إجماع المسلمين.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١٦] وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ

مَا تَعْلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَّسَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَنْكُنَّا نَتَّخِذُكَ آمِنًا دَخَلَا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِرُءُوسِهِمْ وَلَكِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ يَكُونُ فِيهِ لَكُمُ فِيهِ تَمَلُّفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُبَدِّلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَالشَّكَّانُ عَمَّا كُنْتُمْ تَمَلُّونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأُمْرٍ بِالْمَدَلِّ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه شهادة أن لا إله إلا الله، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه الحق، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه استواء السريرة والعلانية في العمل لله تعالى، قاله سفيان بن عيينة. والرابع: أنه القضاء بالحق، ذكره الماوردي. قال أبو سليمان: العدل في كلام العرب: الإنصاف، وأعظم الإنصاف: الاعتراف للمنعيم بنعمته. وفي المراد بالإحسان خمسة أقوال: أحدها: أنه أداء الفرائض، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: العفو، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: الإخلاص، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: أن تعبد الله كأنك تراه، رواه عطاء عن ابن عباس. والخامس: أن تكون السريرة أحسن من العلانية، قاله سفيان بن عيينة. فأما قوله تعالى: ﴿وَلِيَأْتِي ذِي الشَّرَفِ﴾ فالمراد به: صلة الأرحام. وفي الفحشاء قولان: أحدهما: أنها الزنى، قاله ابن عباس. والثاني: المعاصي، قاله مقاتل. وفي ﴿الْمُشْكِرِ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنه الشرك، قاله مقاتل. والثاني: أنه ما لا يُعرف في شريعة ولا سُنَّة. والثالث: أنه ما وعد الله عليه النار، ذكرهما ابن السائب. والرابع: أن تكون علانية الإنسان أحسن من سريرته، قاله سفيان بن عيينة. فأما: ﴿الْبَيْنِ﴾ فقال ابن عباس: هو الظلم، وقد سبق شرحه في مواضع [البقرة: ١٧٣، والأعراف: ٣٣، ويونس: ٢٣، ٩٠].

قوله تعالى: ﴿يَطْلُقْكُمْ﴾ قال ابن عباس: يؤذّبكم، وقد ذكرنا معنى الوعظ في [سورة النساء: ٥٨]. و ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بمعنى: تتعظون. قال ابن مسعود: هذه الآية أجمع آية في القرآن لخير أو لشر. وقال الحسن: والله ما ترك العدل والإحسان شيئاً من طاعة [الله] إلا جمعاه، ولا تركت الفحشاء والمنكر والبغي شيئاً من معصية الله إلا جمعه. قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في حلف أهل الجاهلية، قاله مجاهد، وقناة. والثاني: أنها نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ. قال المفسرون: العهد الذي يجب الوفاء به، هو الذي يحسن فعله، فإذا عاهد العبد عليه، وجب الوفاء به، والوعد من العهد. ﴿وَلَا تُقْضُوا الْآيَاتِ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد تغليظها وتشديدها بالعزم والعقد على اليمين، بخلاف لغو اليمين، ووكدت الشيء توكيداً، لغة أهل الحجاز. فأما أهل نجد، فيقولون: أكدته تأكيداً. وقال الزجاج: يقال: وكدت الأمر، وأكدت، لغتان جيدتان، والأصل الواو، والهمزة بدل منها.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْنَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْلًا﴾ أي: بالوفاء، وذلك أن من حلف بالله، فكانه أكفل الله بالوفاء بما حلف عليه. وللمفسرين في معنى «كَيْلًا» ثلاثة أقوال: أحدها: شهيداً، قاله سعيد بن جبير. والثاني: وكيلاً، قاله مجاهد. والثالث: حفيظاً مراعياً لعقدكم، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَّسَتْ غَزَلَهَا﴾ قال مجاهد: هذا فعل نساء أهل نجد، تنقض إحداهن حبلها، ثم تنفسه، ثم تخلطه بالصوف فتغزله. وقال مقاتل: هي امرأة من قريش تسمى «رَيْطَةَ» بنت عمرو بن كعب، كانت إذا غزلت، نقضته. وقال ابن السائب: اسمها «رَائِطَةُ» وقال ابن الأنباري: اسمها «رَيْطَةُ» بنت عمرو المرمية، ولقبها الجعراء، وهي من أهل مكة، وكانت معروفة عند المخاطبين، فغرفوها بوصفها، ول يكن لها نظير في فعلها ذلك، كانت متناهية الحمق، تغزل الغزل من القطن أو الصوف فحكيمة، ثم تأمر جاريتها بتقطيعه. وقال بعضهم: كانت تغزل هي وجواريتها، ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن، فضربها الله مثلاً لناقضي العهد. و «نقضت»، بمعنى: تنقض، كقوله: ﴿وَأَنذَرْتُ أَصْحَابَ الْبَيْتِ﴾ [الأعراف: ٤٣] بمعنى: وينادي. وفي المراد بالغزل قولان: أحدهما: أنه الغزل المعروف، سواء كان من قطن أو صوف أو شعر، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنه الخبل، قاله مجاهد. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ قال قناة: من بعد إبرام، وقوله: ﴿أَنْكُنَّا﴾ أي: أنقضاً. قال ابن قتيبة: الأنكث: ما نُقض من غزل الشَّعر وغيره.

وواحدتها: نَكْتُ. يقول: لا تؤكدوا على أنفسكم الأيمان والعهود، ثم تنقضوا ذلك وتحثوا فيه، فتكونوا كامراً غزلت ونسجت، ثم تنقضت ذلك النسيج، فجعلته أنكاثاً.

قوله تعالى: ﴿تَنَقُّذُونَ أَيُّنَّكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: دغلاً، ومكراً، وخديعة، وكل شيء دخله عيب، فهو مدخول، وفيه دَخْلٌ.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونُ أُمَّةٌ﴾ قال ابن قتيبة: لأن تكون أمة، ﴿هِيَ أُمَّةٌ﴾ أي: هي أغنى ﴿وَمِنْ أُمَّةٍ﴾ وقال [الزجاج]: المعنى: بأن تكون أمة هي أكثر، يقال: ربا الشيء يربو: إذ كثر. قال ابن الأنباري: قال اللغويون: «أرى»: أزيد عدداً. قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك، فنهوا عن ذلك. وقال الفراء: المعنى لا تغلبوا بقوم لقلتهم وكثرتكم، أو قَلَّتكم وكثرتهم وقد غررتهم بالأيمان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ يَوْمَ﴾ في هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الكثرة، قاله سعيد بن جبير، وابن السائب، ومقاتل، فيكون المعنى: إنما يختبركم الله بالكثرة، فإذا كان بين قومين عهد، فكثر أحدهما، فلا ينبغي أن يفسخ الذي بينه وبين الأقل. فإن قيل: إذا كنى عن الكثرة، فهلا قيل بها؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري، بأن الكثرة ليس تأنيهاً حقيقياً، فحملت على معنى التذكير، كما حملت الصيحة على معنى الصياح. والثاني: أنها ترجع إلى العهد، فإنه لدلالة الأيمان عليه، يجري مجرى المظهر، ذكره ابن الأنباري. والثالث: أنها ترجع إلى الأمر بالوفاء، ذكره بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قد فسرناه في آخر [مود: ١١٨].
قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ صريح في تكذيب القدرية، حيث أضاف الإضلال والهداية إليه، وعلَّقهما بمشيئته.

﴿وَلَا تَلْحَدُوا أَيْنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَدَّ ثُبُوتَهَا وَتَدَوَّرُوا السَّوَةَ يَمَا سَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُرَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾
﴿وَلَا تَشْرَبُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنْ نُجْزِيَ الَّذِينَ صَدَرُوا أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْحَدُوا أَيْنَكُمْ دَخَلًا﴾ هذا استئناف للنهي عن إيمان الخديعة. ﴿فَزَلَ قَدَمٌ بَدَّ ثُبُوتَهَا﴾ قال أبو عبيدة: هذا مَثَلٌ يقال لكل مبتلى بعد عافية، أو ساقط في ورطة بعد سلامة: زَلَّتْ به قَدَمُهُ. قال مقاتل: ناقض العهد يَزِلُّ في دينه كما تَزِلُّ قَدَمُ الرَّجُلِ بعد الاستقامة. قال المفسرون: وهذا نهى للذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ونصرة الدين عن نقض العهد، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَتَدَوَّرُوا السَّوَةَ﴾ يعني: العقوبة ﴿يَمَا سَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يريد أنهم إذا نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، صدوا الناس عن الإسلام، فاستحقوا العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُرَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: في الآخرة. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَشْرَبُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: نزلت في رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ في أرض، يقال لأحدهما: «عيدان بن أشوع» وهو صاحب الأرض، وللآخر: «امرؤ القيس» وهو المدعى عليه، فهَمَّ امرؤ القيس أن يحلف، فأخبره رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية. وذكر أبو بكر الخطيب أن اسم صاحب الأرض «ربيعة بن عبدان»، وقيل: «عيدان»، ففتح العين وباء معجمة باثنتين. ومعنى الآية: لا تنقضوا عهودكم، تطلبون بنقضها عَرَضاً يسيراً من الدنيا، إن ما عند الله من الثواب على الوفاء هو خير لكم من العاجل. ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ أي: يَفْنَى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿بَاقٍ﴾ وقف بالياء ابن كثير في رواية عنه، ولا خلاف في حذفها في الوصل. ﴿وَلَنْ نُجْزِيَ الَّذِينَ صَدَرُوا﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «وَلَنْ نُجْزِيَنَّ» بالياء. وقرأ ابن كثير، وعاصم: «وَلَنْ نُجْزِيَنَّ» بالنون. ولم يختلفوا في ﴿وَلَنْ نُجْزِيَنَّ أَجْرَهُمْ﴾ أنها بالنون، ومعنى هذه الآية: ولن نُجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَدَرُوا على أمره أجْرهم بأحسن ما كانوا يعملون في الدنيا، ويتجاوز عن سيئاتهم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن امرأ القيس المتقدم ذكره أقر بالحق الذي كان هم أن يحلف عليه، فنزلت فيه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾، وهو إقراره بالحق، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن ناساً من أهل التوراة، وأهل الإنجيل، وأهل الأوثان، جلسوا، فتفاضلوا، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح.

قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ اختلفوا أين تكون هذه الحياة الطيبة على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها في الدنيا، رواه العوفي عن ابن عباس. ثم فيها للمفسرين تسعة أقوال: أحدها: أنها القناعة، قاله علي عليه السلام، وابن عباس في رواية، والحسن في رواية، ووهب بن منبه. والثاني: أنها الرزق الحلال، رواه أبو مالك عن ابن عباس. وقال الضحاك: يأكل حلالاً ويلبس حلالاً. والثالث: أنها السعادة، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أنها الطاعة، قاله عكرمة. والخامس: أنها رزق يوم بيوم، قاله قتادة. والسادس: أنها الرزق الطيب، والعمل الصالح، قاله إسماعيل بن أبي خالد. والسابع: أنها حلاوة الطاعة، قاله أبو بكر الوراق. والثامن: العافية والكفاية. والتاسع: الرضى بالقضاء، ذكرهما الماوردي. والثاني: أنها في الآخرة، قاله الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقاتدة، وابن زيد، وذلك إنما يكون في الجنة. والثالث: أنها في القبر، رواه أبو غسان عن شريك.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَكَ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطٰنُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَكَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا سَأَلْتَهُمْ مَتٰعًا فَنَقَلُوهُنَّ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِمْ سَكٰتًا ءَابِئُوْا بِاللّٰهِ اَسْلَمُوا بِمَا يَدْعُوْنَ قَالَوْا اِنَّمَا اَنْتَ مُنْفَرٌ بَلْ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴿٢١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوْحُ الْقُدُسِ مِنۢ رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُنشِئَ لِّلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا هُدًى وَبُشْرٰى لِّلْمُسْلِمِيْنَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: فإذا أردت القراءة فاستعد، ومثله ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتَهُمْ مَتٰعًا فَنَقَلُوهُنَّ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وقوله: ﴿إِذَا تَنَبَّأْتُمُ الرُّسُلَ فَقَدْمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُرُودِكُمْ سَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢]. ومثله في الكلام: إذا أكلت، فقل: باسم الله، هذا قول عامة العلماء واللغويين. والثاني: أنه على ظاهره، وأن الاستعاذة بعد القراءة. روي عن أبي هريرة، وداود. والثالث: أنه من المقدم والمؤخر، فالمعنى: فإذا استعدت بالله فاقراً، قاله أبو حاتم السجستاني، والأول أصح.

فصل

والاستعاذة عند القراءة سنة في الصلاة وغيرها. وفي صفتها عن أحمد روايتان: إحداهما: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم، رواها أبو بكر المروزي. والثانية: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم، رواها حنبل. وقد بينا معنى «أعوذ» في أول الكتاب (ص: ٤٧)، وشرحنا اشتقاق الشيطان في (البقرة: ١٤)، والرجيم في (آل عمران: ٣٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَكَ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في المراد بالسلطان قولان: أحدهما: أنه التسلط. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ليس له عليهم سلطان بحال، لأن الله صرف سلطانه عنهم بقوله: ﴿إِنَّ يَدَايَ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰوِيْنَ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٤٢]. والثاني: ليس له عليهم سلطان، لاستعاذتهم منه. والثالث: ليس له قدرة على أن يحملهم على ذنب لا يُعْفَرُ. والثاني: أنه الحُجَّةُ. فالمعنى: ليس له حُجَّةٌ على ما يدعونهم إليه من المعاصي، قاله مجاهد. فأمّا قوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَكَ﴾ معناه: يطيعونه. وفي هاء الكناية في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى، قاله مجاهد، والضحاك. والثاني: أنها ترجع إلى الشيطان، فالمعنى: الذين هم من أجله مشركون بالله، وهذا كما يقال: صار فلان بك عالماً، أي: من أجلك، هذا قول ابن قتيبة. وقال ابن الأنباري: المعنى: والذين هم بإشراكهم إبليس في العبادة، مشركون بالله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ سبب نزولها أن الله تعالى كان ينزل الآية، فيعمل بها مدة، ثم ينسخها، فقال كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، ويأتيهم غداً بما هو أهون عليهم منه، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والمعنى: إذا نسخنا آية بآية، إما نسخ الحكم والتلاوة، أو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا يُرَكَّبُ﴾ من ناسخ ومنسوخ، وتشديد وتخفيف، فهو عليم بالمصلحة في ذلك ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: كاذب: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يعلمون أن الله أنزله. والثاني: لا يعلمون فائدة النسخ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ يعني: القرآن ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني: جبريل. وقد شرحنا هذا الاسم في [البقرة: ٨٧].

قوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: من كلامه ﴿وَالْحَقُّ﴾ أي: بالأمر الصحيح ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما فيه من اليقينة فيزدادوا يقيناً.

﴿وَلَقَدْ تَمَّمْنَا آيَاتِنَا بِمَا يُرَكَّبُ﴾ يعني: قريشاً ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّسَانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ لأن الذين لا يؤمنون يكذبون الله لا يهديهم الله ولا لهم عذاب أليم ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَمَّمْنَا آيَاتِنَا بِمَا يُرَكَّبُ﴾ يعني: قريشاً ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ أي: آدمي، وما هو من عند الله. وفيمن أرادوا بهذا البشر تسعة أقوال: أحدها: أنه كان لبني المغيرة غلام يقال له «يعيش» يقرأ التوراة، فقالوا: منه يتعلم محمد، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس. وقال عكرمة في رواية: كان هذا الغلام لبني عامر بن لؤي، وكان رومياً. والثاني: أنه فتى كان بمكة يسمى «بلعام» وكان نصرانياً أعجمياً، وكان رسول الله ﷺ يعلمه، فلما رأى المشركون دخوله إليه وخروجه، قالوا ذلك، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنه نزلت في كاتب كان يكتب لرسول الله ﷺ، فيملي عليه «سمع عليم» فيكتب هو «عزیز حكيم» أو نحو هذا، فقال له رسول الله ﷺ: «أي ذلك كتبت فهو كذلك»، فافتن، وقال: إن محمداً يبكل ذلك إليّ فأكتب ما شئت، روي عن سعيد بن المسيب^(١). والرابع: أنه غلام أعجمي لامرأة من قريش يقال له: «جابر»، وكان جابر يأتي رسول الله ﷺ فيتعلم منه، فقال المشركون: إنما يتعلم محمد من هذا، قاله سعيد بن جبير. والخامس: أنهم عنوا سلمان الفارسي، قاله الضحاك؛ وفيه بُعد من جهة أن سلمان أسلم بالمدينة، وهذه [الآية] مكية. والسادس: أنهم عنوا به رجلاً حداداً كان يقال له «حُخْس»^(٢) النُّصْراني، قاله ابن زيد. والسابع: أنهم عنوا به غلاماً لعامر بن الحضرمي، وكان يهودياً أعجمياً، واسمه «يسار»، ويكنى «أبا فكيهة»، قاله مقاتل. وقد روي عن سعيد بن جبير نحو هذا، إلا أنه لم يقل: إنه كان يهودياً. والثامن: أنهم عنوا غلاماً أعجمياً اسمه «عاش»، وكان مملوكاً لحويطب، وكان قد أسلم، قاله الفراء، والزجاج. والتاسع: أنهما رجلان، قال عبد الله بن مسلم الحضرمي: كان لنا عبدان من أهل عين التمر، يقال لأحدهما: «يسار» وللآخر «جير» وكانا يصنعان السيوف بمكة، ويقرآن الإنجيل، وربما مرَّ بهما النبي ﷺ وهما يقرآن، فيقف يستمع، فقال المشركون: إنما يتعلم منهما. قال ابن الأباري: فعلى هذا القول، يكون البشر واقعاً على اثنين، والبشر من أسماء الأجناس، يعبر عن اثنين، كما يعبر «أحد» عن الاثنين والجميع، والمذكر والمؤنث.

قوله تعالى: ﴿لِّسَانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «يُلْحِدُونَ» بضم الياء وكسر الحاء، وقرأ حمزة، والكسائي: «يَلْحِدُونَ» بفتح الياء والحاء. فأما القراءة الأولى، فقال ابن قتيبة: «يُلْحِدُونَ» أي: يميلون إليه^(٣)، ويزعمون أنه يعلمه، وأصل الإلحاد الميل، وقال

(١) قال ابن كثير ٥٨٧/٢: قال الزهري عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين، رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتد بعد ذلك عن الإسلام، واقرئ هذه المقالة قبحه الله.

(٢) كذا في نسخة الرباط بإهمال الحرف الأول، وفي نسخة واغب باشا الاسطنبولية: بحسن، والذي في «البحر المبيحط» ٥٣٦/٥: عنس. والله تعالى أعلم.

(٣) في الأصل: يؤمنون إليه، والتصحيح من «غريب القرآن» لابن قتيبة ٢٤٩.

الفراء: «يُلْجِدُونَ» بضم الياء: يعترضون، ومنه قوله: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُطْلَمِ» [الحج: ٢٥] أي: باعترض، و«يَلْحَدُونَ» بفتح الياء: يميلون. وقال الزجاج: يَلْحَدُونَ إليه، أي: يُميلون القول فيه أنه أعجمي. قال ابن قتيبة: لا يكاد عوام الناس يفرقون بين العجمي والأعجمي، والعربي والأعرابي، فالأعجمي: الذي لا يفصح وإن كان نازلاً بالبادية، والعجمي: منسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً؛ والأعرابي: هو البدوي، والعربي: منسوب إلى العرب وإن لم يكن بدوياً.

قوله تعالى: «وَهَذَا لِسَانٌ» يعني: القرآن، «عَكَرْتُ» قال الزجاج: أي: أن صاحبه يتكلم بالعربية.

قوله تعالى: «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» أي: الذين إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله، كذبوا بها، «وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» أي: أن الكذب نعت لازم لهم، وعادة من عاداتهم، وهذا رد عليهم إذ قالوا: «إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ» [النحل: ١٠١]. وهذه الآية من أبلغ الزجر عن الكذب، لأنه حُصِرَ به مَنْ لا يؤمن.

«مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [١٠١] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَمَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَتَيْهِمْ وَأَصْرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰٔسِقُونَ ﴿١٠٣﴾ لَا جَرَءَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰٔسِرُونَ ﴿١٠٤﴾ ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّنَا لِلَّذِينَ هٰجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتُنَا ثُمَّ جٰٔهُدُوا وَصَبَرُوا إِنَّكَ بِبَعْدِهَا لَعٰٔوُدٌ رَءِيسٌ ﴿١٠٥﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مَحْدِلًا عَنِ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [١٠٥]

قوله تعالى: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ» قال مقاتل: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي، وبقيس بن صُبابَة، وعبد الله بن أنس بن حَظَل، وطعمة بن أبيرق، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وقيس بن الفاكه المخزومي. فأما قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ» فاختلفوا فيمن نزل على أربعة أقوال: أحدها: أنه نزل في عمار بن ياسر، أخذه المشركون فعذبوه، فأعطاهم ما أرادوا بلسانه، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثاني: أنه لما نزل قوله: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفٰٔلِكَةَ ظٰٔلِمِينَ أَنفُسِهِمْ» إلى آخر الآيتين اللتين في [سورة النساء: ٩٦، ٩٧] كتب بها المسلمون الذين بالمدينة إلى مَنْ كان بمكة، فخرج ناس ممن أقرَّ بالإسلام، فاتَّبِعَهُمُ المشركون، فأدركوهم، فأكروههم حتى أعطوا الفتنة، فنزل «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ»، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثالث: أنه نزل في عياش بن أبي ربيعة، كان قد هاجر فحلفت أمه ألا تستظل ولا تشبع من طعام حتى يرجع، فرجع إليها، فأكرهه المشركون حتى أعطاهم بعض ما يريدون، قاله ابن سيرين. والرابع: أنه نزل في جبر، غلام ابن الحضرمي، كان يهودياً فأسلم، فضربه سيده حتى رجع إلى اليهودية، قاله مقاتل. وأما قوله: «وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا» فقال مقاتل: هم النفر المسمون في أول الآية. فأما التفسير، فاختلف النحاة في قوله: «مَنْ كَفَرُ» وقوله: «وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ» فقال الكوفيون: جوابهما جميعاً في قوله: «فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ»، فقال البصريون: بل قوله: «مَنْ كَفَرُ» مرفوع بالرد على «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ». قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون خبرُ «مَنْ كَفَرُ» محذوفاً، لووضح معناه، تقديره: من كفر بالله، فإله عليه غضبان.

قوله تعالى: «وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» أي: ساكن إليه راض به. «وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا» قال قتادة: من أتاه بإيثار واختيار. وقال ابن قتيبة: من فتح له صدره بالقبول. وقال أبو عبيدة: المعنى: من تابعته نفسه، وانبسط إلى ذلك، يقال: ما ينشرح صدري بذلك، أي: ما يطيب. وجاء قوله: «فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ» على معنى الجميع، لأن «مَنْ» تقع على الجميع.

فصل

الإكراه على كلمة الكفر يبيح النطق بها. وفي الإكراه المبيح لذلك عن أحمد روايتان: إحداهما: أنه يخاف على نفسه أو على بعض أعضائه التلف إن لم يفعل ما أمر به. والثانية: أن التخويف لا يكون إكراهاً حتى يُتَالَ بعدذاب. وإذا

ثبت جواز «التَّيِّبَةِ» فالأفضل ألا يفعل^(١)، نص عليه أحمد، في أسير خَيْرٍ بين القتل وشرب الخمر، فقال: إن صبر على القتل فله الشرف، وإن لم يصبر، فله الرخصة، فظاهر هذا، الجواز. وروى عنه الأثرم أنه سئل عن التَّيِّبَةِ في شرب الخمر فقال: إنما التَّيِّبَةُ في القول. فظاهر هذا أنه لا يجوز له ذلك. فأما إذا أكرهه على الزنى، لم يجز له الفعل، ولم يصح إكراهه، نص عليه أحمد. فإن أكرهه على الطلاق، لم يقع طلاقه، نص عليه أحمد، وهو قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: يقع.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ في المشار إليه بذلك قولان: أحدهما: أنه الغضب والعذاب، قاله مقاتل. والثاني: أنه شرح الصدر للكفر. و«استحبوا» بمعنى: أحبوا الدنيا واختاروها على الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ أَنتَ أَهْلٌ أَيْ: وَيَأْنُ اللَّهُ لَا يَرِيدُ هِدَايَتَهُمْ. وما بعد هذا قد سبق شرحه [البقرة: ٧، والنساء: ١٥٥، والمائدة: ٦٧] إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ففيه قولان: أحدهما: الغافلون عما يراد بهم، قاله ابن عباس. والثاني: عن الآخرة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قد شرحناها في [هود: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبِّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنَّا بَعْدَ مَا قُضِيَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت فيمن كان يُقْتَنُ بمكة من أصحاب رسول الله ﷺ، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: أن قومًا من المسلمين خرجوا للهجرة، فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزل فيهم ﴿وَيَنْ أَلْبَانِ مَن يَقُولُ مَا نَكَرَ اللَّهُ فَرَادًا أَوْ ذِي فِي اللَّهِ جَمَلٌ يَنْتَهَى النَّاسِ كَذَابِ اللَّهِ﴾ [المنكوبت: ١٠]، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا، وأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقُتِلَ من قتل، فنزلت فيهم هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أنها نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان الشيطان قد أزلَّه حتى لحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يُقْتَلَ يوم الفتح، فاستجار له عثمان بن عفان، فأجاره رسول الله ﷺ، وهذا مروى عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وفيه بُعد، لأن المشار إليه وإن كان [قد] عاد إلى الإسلام، فإن الهجرة انقطعت بالفتح. والرابع: أنها نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل بن عمرو، وعبد الله بن أسيد الثقفي، قاله مقاتل. فأما قوله تعالى: ﴿مِنَّا بَعْدَ مَا قُضِيَ﴾ فقرأ الأكثرون: «فقتلوا» بضم الفاء وكسر التاء، على معنى: من بعد ما فتنهم المشركون عن دينهم. قال ابن عباس: فقتلوا بمعنى: غلبوا. وقرأ عبد الله بن عامر: «فقتلوا» بفتح الفاء والتاء، على معنى: من بعد ما فتنوا الناس عن دين الله، يشير إلى من أسلم من المشركين. وقال أبو علي: من بعد ما فتنوا أنفسهم بإظهار ما أظهرها للتقية، لأن الرخصة لم تكن نزلت بعد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاهِدُوا﴾ أي: قاتلوا مع رسول الله ﷺ ﴿وَصَبَرُوا﴾ على الدين والجهاد. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنَّا بَعْدَهَا﴾ في المكتبي عنها أربعة أقوال: أحدها: الفتنة، وهو مذهب مقاتل. والثاني: الفعلة التي فعلوها، قاله الزجاج. والثالث: المجاهدة، والمهاجرة، والصبر. والرابع: المهاجرة. ذكرهما واللذين قبلهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ قال الزجاج: هو منصوب على أحد شيئين، إما على معنى: إن ربك لغفور يوم تأتي، وإما على معنى: اذكر يوم تأتي. ومعنى ﴿تُجَدِّدُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي: عنها. والمراد: أن كل إنسان يجادل عن نفسه. وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال لكعب الأحبار: يا كعب خوفنا، فقال: إن لجهنم زفرة ما يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا وقع جاثياً على ركبته، حتى إن إبراهيم خليل الرحمن ليدلي بالخلعة فيقول: يا رب أنا خليلك إبراهيم، لا أسألك إلا نفسي، وإن تصديق ذلك في كتاب الله ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَدِّدٌ عَنْ نَفْسِهَا﴾^(٢). وقد شرحنا معنى «المجدال» في [هود: ٣٢].

(١) قال الحافظ بن كثير: والأولى والأفضل أن يبيت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتل.

(٢) ذكره السيوطي في «الدرر» ٤/ ١٣٣ ونسبه إلى ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهدة»، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن كعب الأحبار.

﴿وَرَبَّ اللَّهِ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ ءَامِيَةً مُطْمِئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَعَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَّرَتْ بِأَنعْمِ اللَّهِ فَأَدْفَقَهَا اللَّهُ لِيَأْسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّ اللَّهِ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ ءَامِيَةً﴾ في هذه القرية قولان: أحدهما: أنها مكة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والجمهور، وهو الصحيح. والثاني: أنها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز، فبعث الله عليهم الجوع حتى كانوا يأكلون ما يقعدون^(١)، قاله الحسن. فأما ما يروى عن حفصة أنها قالت: هي المدينة، فذلك على سبيل التمثيل، لا على وجه التضسير، وبيانه: ما روى سليم بن عنز، قال: صدرنا من الحج مع حفصة، وعثمان محصور بالمدينة، فرأت راكبين فسألتهما عنه، فقالا: قُتِلَ، فقالت: والذي نفسي بيده إنها للقرية، تعني المدينة التي قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَرَبَّ اللَّهِ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ ءَامِيَةً مُطْمِئِنَّةً﴾، تعني حفصة: أنها كانت على قانون الاستقامة في أيام النبي ﷺ، وأبي بكر وعمر ؓ، ﴿فَكَفَّرَتْ بِأَنعْمِ اللَّهِ﴾ عند قتل عثمان ؓ. ومعنى ﴿كَانَتْ ءَامِيَةً﴾ أي: ذات أمن يأمن فيها أهلها أن يُغَارَ عليهم، ﴿مُطْمِئِنَّةً﴾ أي: ساكنة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها لخوف أو ضيق. وقد شرحنا معنى الرغد في (البقرة: ٣٥، ٥٨). وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يجلب إليها من كل بلد، وذلك كله بدعوة إبراهيم ؑ، ﴿فَكَفَّرَتْ بِأَنعْمِ اللَّهِ﴾ بتكذيبهم رسول الله ﷺ. وفي واحد الأنعم قولان: أحدهما: أن واحدهما «نُعْمٌ» قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة. والثاني: «نُعْمَةٌ» قاله الزجاج. قال ابن قتيبة: ليس قول من قال: هو جمع «نعمة» بشيء، لأن «فُعْلَةٌ» لا تجمع على «أفعلٍ»، وإنما هو جمع «نُعْمٍ»، يقال: يوم نُعْمٍ، ويوم بُؤْسٍ، ويجمع «أنعمًا» و«أبؤسًا».

قوله تعالى: ﴿فَأَدْفَقَهَا اللَّهُ لِيَأْسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ وروى عبيد بن عقيل، وعبد الوارث عن أبي عمرو: «والخوف» بنصب الفاء. وأصل الدُّوق إنما هو بالفم، وهذا استعارة منه، وقد شرحنا هذا المعنى في (آل عمران: ١٠٦، ١١٨٥). وإنما ذكر اللباس هاهنا تجوُّزًا، لما يظهر عليهم من أثر الجوع والخوف، فهو كقوله: ﴿وَلِيَأْسَ الْقَرَوَى﴾ (الأعراف: ٢٦) وذلك لما يظهر على المتقي من أثر التقوى. قال المفسرون: عدَّبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام المحترقة. فأما الخوف فهو خوفهم من رسول الله ﷺ ومن سراياه التي كان يبعثها حولهم. والكلام في هذه الآية خرج على القرية، والمراد أهلها، ولذلك قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعني به: بتكذيبهم لرسول الله ﷺ وإخراجهم إياه وما هموا به من قتله.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني: محمداً ﷺ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه الجوع، قاله ابن عباس. والثاني: القتل بيدر، قاله مجاهد. قال ابن السائب: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: كافرون.

﴿فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا لِعَمَتِ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِنبَاءَهُ تَشْكُرُونَ ﴿١١٩﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْسَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أُمِّلَ لِغَيْرِ اللَّهِ يَوْمَ فَمَنِ امْتَطَرَ غَيْرَ بَاعٍ وَلَا عَادِيَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ في المخاطبين بهذا قولان: أحدهما: أنهم المسلمون، وهو قول الجمهور. والثاني: أنهم أهل مكة المشركون، لما اشتدت مجاعتهم، كلَّم رؤسائهم رسول الله ﷺ فقالوا: إن كنت عاديَّ الرجال، فما بال النساء والصبيان؟! فأذن رسول الله ﷺ للناس أن يحملوا الطعام إليهم، حكاة الثعلبي، وذكر نحوه الفراء، وهذه الآية والتي تليها مفسرتان في (البقرة: ١٧٢، ١٧٣).

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا صِفَتْ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّمَقَرُّوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢١﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَادُوا إِلَيْهِ ﴿١٢٢﴾﴾

(١) كذا الأصل: «حتى كانوا يأكلون ما يقعدون» ولعله يقصد: ما يقعدون عليه، كالجلود، وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ قال ابن الأنباري: اللام في «لما» بمعنى من أجل، وتلخيص الكلام: ولا تقولوا: هذه الميتة حلال، وهذه البحيرة حرام، من أجل كذبكم، وإقدامكم على الوصف، والتخريف لما لا أصل له، فجرت اللام هاهنا مجراها في قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَيَحِبُّونَ عُقْبَىٰ أَفْئِدٍ شَدِيدَةٍ﴾ [المايات: ٤٨] أي: وإنه من أجل حب الخير لبخيل، و «ما» بمعنى المصدر، والكذب منصوب بـ «تصف»، والتلخيص: لا تقولوا لوصف المستكتم الكذب. وقرأ ابن أبي عبله: «الكَذْبُ»، قال ابن القاسم: هو نعت الألسنة، وهو جمع كذوب. قال المفسرون: والمعنى: أن تحليلكم وتحريمكم ليس له معنى إلا الكذب. والإشارة بقوله: ﴿هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ إلى ما كانوا يُحِلُّونَ ويحرمون، ﴿لَيَقْفَرُوا عَلَىٰ اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ وذلك أنهم كانوا ينسبون ذلك التحليل والتحريم إلى الله تعالى، ويقولون: هو أمرنا بهذا. وقوله: ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: متاعهم بهذا الذي فعلوه قليل.

﴿وَعَلَىٰ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَعْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلَ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذَّيِّقِ عِوَالًا الشَّوَةِ يَجْهَلُونَ ثُمَّ قَائِلًا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَعْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلَ﴾ يعني به ما ذكر في [الأنعام: ١٢٦] وهو قوله: ﴿وَعَلَىٰ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُلْفَرٍ﴾، ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ بتحريمنا ما حرمنا عليهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالبغي والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذَّيِّقِ عِوَالًا الشَّوَةِ يَجْهَلُونَ﴾ قد شرحناه في سورة [النساء: ٤١٧]، وشرحنا في [البقرة: ١٦٠] التوبة والإصلاح، وذكرنا معنى قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ آنفًا.
﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِيهِ أَجْتَنَبَتْهُ وَهَدَتْهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿وَمَا يَتَّبِعُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال ابن الأنباري: هذا مثل قول العرب: فلان رحمة، وفلان علامة، ونسابة، ويقصدون بهذا التانيث قصد التناهي في المعنى الذي يصفونه، والعرب قد توقع الأسماء المبهمة على الجماعة، وعلى الواحد، كقوله: ﴿فَتَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٤٣٩]، وإنما ناداه جبريل وحده. وللمفسرين في المراد بالأمة هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن الأمة: الذي يعلم الخير، قاله ابن مسعود، والفراء، وابن قتيبة. والثاني: أنه المؤمن وحده في زمانه، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثالث: أنه الإمام الذي يقتدى به، قاله قتادة، ومقاتل، وأبو عبيد، وهو في معنى القول الأول. فأما القانت فقال ابن مسعود: هو المطيع. وقد شرحنا [القنوت] في [البقرة: ١١٦، ٢٣٨] وكذلك الحنيف [البقرة: ١٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال الزجاج: أصلها: لم يكن، وإنما حذف التون عند سبويه، لكثرة استعمال هذا الحرف، وذكر الجلة من البصرين أنها إنما احتملت الحذف، لأنه اجتمع فيها كثرة الاستعمال، وأنها عبارة عن كل ما يمضي من الأفعال وما يستأنف، وأنها قد أشبهت حروف اللين، وأنها تكون علامة كما تكون حروف اللين علامة، وأنها عنة تخرج من الأنف، فلذلك احتملت الحذف.

قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِيهِ﴾ انتصب بدلاً من قوله: ﴿أُمَّةً قَانِتًا﴾ وقد ذكرنا واحد الأنعم آنفًا، وشرحنا معنى [الاجتباء] في [الأنعام: ٨٧]. قال مقاتل: والمراد بالصرط المستقيم هاهنا: الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ فيها ستة أقوال: أحدها: أنها الذكر الحسن، قاله ابن عباس. والثاني: النبوة، قاله الحسن. والثالث: لسان صدق، قاله مجاهد. والرابع: اجتماع الجليل على ولايته، فكلهم يتولونه ويرضونه، قاله قتادة. والخامس: أنها الصلاة عليه مقرونة بالصلاة على محمد ﷺ، قاله مقاتل بن حيان. والسادس: الأولاد الأبرار على الكبير، حكاه الثعلبي. وباقي الآية مفسر في [البقرة: ١٣٠].

﴿ثُمَّ أَرْحَمْنَا إِلَيْكَ أَنْ أُنَبِّئَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْحَمْنَا إِلَيْكَ أَنْ أُنَبِّئَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ملته: دينه. وفيما أمر باتباعه من ذلك قولان: أحدهما: أنه

أمر باتباعه في جميع ملته، إلا ما أمر بتركه، وهذا هو الظاهر. [والثاني: اتباعه في التبرؤ من الأوثان، والتدين بالإسلام، قاله أبو جعفر الطبري^(١)]. وفي هذه الآية دليل على جواز اتباع المفضول، لأن رسولنا أفضل الرسل، وإنما أمر باتباعه، لسبقه إلى القول بالحق.

﴿إِنَّمَا جِئِلُ السَّبْتِ عَلَى الَّذِينَ اختلفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جِئِلُ السَّبْتِ﴾ أي: إنما فرض تعظيمه وتحريمه، وقرأ الحسن، وأبو حيوه: «إِنَّمَا جَعَلَ» بفتح الجيم والعين «السبت» بنصب التاء ﴿عَلَى الَّذِينَ اختلفُوا فِيهِ﴾ والهاء ترجع إلى السبت. وفي معنى اختلافهم فيه قولان: أحدهما: أن موسى قال لهم: تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوماً، فاعبدوه في يوم الجمعة، ولا تعملوا فيه شيئاً من صنعكم، فأبوا أن يقبلوا ذلك، وقالوا: لا نبتغي إلا اليوم الذي فرغ فيه من الخلق، وهو يوم السبت، فجعل ذلك عليهم، وشدد عليهم فيه، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: لما أمرهم موسى بيوم الجمعة، قالوا: نتفرغ يوم السبت، فإن الله لم يخلق فيه شيئاً، فقال: إنما أمرت بيوم الجمعة، فقال أحبارهم: انتهوا إلى أمر نبيكم، فأبوا، فذلك اختلافهم، فلما رأى موسى حرصهم على السبت، أمرهم به، فاستحلوا فيه المعاصي. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: رأى موسى رجلاً يحمل قصباً يوم السبت، فضرب عنقه، وعكفت عليه الطير أربعين صباحاً. وذكر ابن قتيبة في «مختلف الحديث»: أن الله تعالى بعث موسى بالسبت، ونسخ السبت بالمسيح. والثاني: أن بعضهم استحلّه، وبعضهم حرّمه، قاله قتادة.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَعْوَدَةِ الْخَسَنَةِ وَبَدِّلْهُم بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلََّ عَنْ سَبِيلَيْهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: نزلت مع الآية التي بعدها، وسنذكر هناك السبب. فأما السبيل، فقال مقاتل: هو دين الإسلام. وفي المراد ﴿بِالْحُكْمِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها القرآن، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الفقه، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثالث: النبوة، ذكره الزجاج. وفي: ﴿وَالْمَعْوَدَةِ الْخَسَنَةِ﴾ قولان: أحدهما: مواضع القرآن، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الأدب الجميل الذي يعرفونه، قاله الضحاك عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَبَدِّلْهُم﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم أهل مكة، قاله أبو صالح. والثاني: أهل الكتاب، قاله مقاتل. وفي قوله: ﴿بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: جادلهم بالقرآن. والثاني: بـ «لا اله إلا الله»، روي القولان عن ابن عباس. والثالث: جادلهم غير فظ ولا غليظ، وألّن لهم جانبك، قاله الزجاج. وقال بعض علماء التفسير: وهذا منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ المعنى: هو أعلم بالفريقين، فهو يأمرك فيهما بما فيه الصلاح.

﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُ لَمَقَافٍ يُمَثِّلُ مَا عُوِثَتْ بِهِ وَيَلِينُ صَبْرَهُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِلصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٧٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِأَلْتِي وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُ لَمَقَافٍ يُمَثِّلُ مَا عُوِثَتْ بِهِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رسول الله ﷺ أشرف على حمزة، فرآه صريعاً، فلم ير شيئاً كان أوجع لقلبه منه، فقال: «والله لأمثلن بسبعين منهم»، فنزل جبريل، والنبي ﷺ واقف، بقوله: ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُ...﴾ إلى آخرها، فصبر رسول الله وكفر عن يمينه، قاله أبو هريرة^(٢). وقال ابن عباس: رأى رسول الله ﷺ حمزة قد شق بطنه، وجُدعت أذناه، فقال: «لولا أن تحزن النساء؛ أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطيور، ولاقتلن مكانه سبعين رجلاً منهم»، فنزل قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى

(١) ما بين المعقنين سقط من نسخة الرباط، واستدركتاه من النسخة الاسطنبولية.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٩٢/٢ من طريق البزار، وقال: وهذا إسناد فيه ضعف، لأن صالحاً هو ابن بشير المري ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث.

قوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وروى الضحاك عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يومئذ: «لَيْسَ ظَفَرْتُ بِقَاتِلِ حِمْرَةَ لِأَمَثَلُنَّ بِهِ مِثْلَةَ تَتَحَدَّثُ بِهَا الْعَرَبُ»، وكانت هند وآخرون معها قد مثلوا به، فنزلت هذه الآية. والثاني: أنه أصيب من الأنصار يوم أحد أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة، ومثلوا بقتلاهم، فقالت الأنصار: لَيْسَ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، لتزيدن على عدتهن مرتين، فنزلت هذه الآية، قاله أبي بن كعب^(١). وروى أبو صالح عن ابن عباس أن المسلمين قالوا: لَيْسَ أَمَكُنَّا اللَّهُ مِنْهُمْ، لنمثلن بالأحياء فضلاً عن الأموات، فنزلت هذه الآية. يقول: إن كنتم فاعلين، فمثلوا بالأموات، كما مثلوا بأموالكم. قال ابن الأنباري: وإنما سمي فعل المشركين معاقبة وهم ابتدؤوا بالمثلة، ليزدوج اللفظان، فيخف على اللسان، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

فصل

واختلف العلماء، هل هذه [الآية] منسوخة، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها نزلت قبل (براءة) فأمر رسول الله ﷺ أن يقاتل من قاتله، ولا يبدأ بالقتال، ثم نسخ ذلك، وأمر بالجهاد، قاله ابن عباس والضحاك. فعلى هذا يكون المعنى: ﴿وَلَيْسَ صَبْرُكُمْ﴾ عن القتال، ثم نسخ هذا بقوله: ﴿فَاتَّقُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. والثاني: أنها محكمة، وإنما نزلت فيمن ظلم ظلاماً، فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما ناله الظالم منه، قاله مجاهد، والشعبي، والنخعي، وابن سيرين، والثوري، وعلى هذا يكون المعنى: ولئن صبرتم عن المثلة، لا عن القتال. قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بتوقيه ومعونته. وهذا أمر بالعزيمة. وفي قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ قولان: أحدهما: على كفار مكة إن لم يسلموا، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: ولا تحزن على قتلى أحد، أنهم أفضوا إلى رحمة الله، ذكره علي بن أحمد النيسابوري.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ قرأ الأكثرون بنصب الضاد، وقرأ ابن كثير: «في ضيق» بكسر الضاد هاهنا وفي [النمل: ٧٠]. قال الفراء: الضيق بفتح الضاد: ما ضاق عنه صدرك، والضيق: ما يكون في الذي يضيق ويتسع، مثل الدار والثوب وأشياء ذلك. وقال ابن قتيبة: الضيق: تخفيف ضيق، مثل: هين ولين، وهو، إذا كان على هذا التأويل: صفة، كأنه قال: لا تك في أمر ضيق من مكرهم. قال: ويقال: مكان ضيق وضيق، بمعنى واحد، كما يقال: رَظَلٌ وَرَظْلٌ، وهذا أعجب إلي. فأما مكرهم المذكور هاهنا، فقال أبو صالح عن ابن عباس: فعلهم وعملهم. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ما نهاهم عنه، وأحسنوا فيما أمرهم به، بالعون والنصر.



(١) أورده السيوطي في «الدره» ١٣٣/٤ وقال: أخرجه الترمذي وحسنه، وعبد الله في «زوائد المستند»، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الدلائل».

سورة بني إسرائيل

فصل في نزولها

هي مكة في قول الجماعة، إلا أن بعضهم يقول: فيها مدني، فروي عن ابن عباس أنه قال: هي مكة إلا ثمان آيات: من قوله: ﴿وَلَمَّا كَادُوا لِيَقتُلُوكَ﴾ إلى قوله: ﴿فَصَبْرًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥]، وهذا قول قتادة. وقال مقاتل: فيها من المدني: ﴿وَقُلْ رَبِّيَ أَدخِلَنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ [الإسراء: ١٠٧] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَمَّا كَانَ بِالنَّارِينِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وقوله: ﴿وَلَمَّا كَادُوا لِيَقتُلُوكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] وقوله: ﴿وَلَمَّا كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٦] وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن نَّتَيْنَاكَ﴾ والتي تليها [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَوْا حَوْلَهُ لِيُرِيَهُ مِنَ الْأَيْمَانِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾ روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن تفسير: «سبحان الله»، فقال: «تنزيه لله عن كل سوء»، وقد ذكرنا هذا المعنى في [البقرة: ٣٢].

قال الزجاج: «وأسرى»: بمعنى: سبر عبده، يقال: أسريت وسريت: إذا سرت ليلًا. وقد جاءت اللغتان في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ إِذْ أَسْرَى﴾ [الفجر: ٤]. وفي معنى التسييح هاهنا قولان: أحدهما: أن العرب تسح عند الأمر المعجب، فكان الله تعالى عجب العباد مما أسدى إلى رسوله من النعمة. والثاني: أن يكون خرج مخرج الرد عليهم، لأنه لما حدثهم بالإسراء، كذبوه، فيكون المعنى: تنزه الله أن يتخذ رسولا كذابا. ولا خلاف أن المراد بعده هاهنا: محمد ﷺ. وفي قوله: ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قولان: أحدهما: أنه أسري به من نفس المسجد، قاله الحسن، وقاتدة، ويسنده حديث مالك بن صعصعة، وهو في «الصحاحين»^(١) «بيننا أنا في الحطيم» وربما قال بعض الرواة: «في الحجر». والثاني: أنه أسري به من بيت أم هانئ^(٢)، وهو قول أكثر المفسرين، فعلى هذا يعني بالمسجد الحرام: الحرم. والحرم كله مسجد، ذكره القاضي أبو يعلى وغيره. فأما «الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا» فهو بيت المقدس، وقيل له: الأقصى، لبعد المسافة بين المسجدين. ومعنى ﴿بَنَوْا حَوْلَهُ﴾: أن الله أجرى حوله الأنهار، وأنبث الثمار. وقيل: لأنه مقرُّ الأنبياء، ومهبط الملائكة. واختلف العلماء، هل دخل بيت المقدس، أم لا، فروى أبو هريرة أنه دخل بيت المقدس، وصلى فيه بالأنبياء^(٣)، ثم خرج به إلى السماء. وقال حذيفة بن اليمان: لم يدخل بيت المقدس ولم يصل فيه، ولا نزل عن البراق حتى خرج به. فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وأنتم تقولون: صعد إلى السماء؟ فالجواب: أن الإسراء كان إلى هنالك، والمعراج كان من هنالك. وقيل: إن الحكمة في ذكر ذلك، أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بدء الحديث، لاشتد إنكارهم، فلما أخبر ببيت المقدس، وبأن لهم صدقه فيما أخبرهم به من العلامات الصادقة، أخبر بمعراجه.

(١) البخاري ١٥٤/٧، ومسلم ١٥٠/١، وخرجه السيوطي في «الدرة» ١٤٠/٤ وزاد نسبه إلى أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه. وقوله: «وربما قال بعض الرواة: في الحجر» قال الحافظ ابن حجر: هو شك من قتادة كما بينه أحمد عن عفان عن همام، ولفظه: «بيننا أنا نائم في الحطيم، وربما قاله قتادة: في الحجر».

(٢) حديث أم هانئ، رواه محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح، والكلبي متروك بمره ساقط، ورواه الطبراني في «الكبير» وفيه عبد الأعلى بن أبي المساور. قال الهيثمي في «المجمع» ٧٦/١: متروك كذاب.

(٣) حديث أبي هريرة، رواه مسلم ١٥٧/١، وفي «مسند أحمد»، ومسلم ١٤٥/١، من حديث أنس بن مالك قال: «فركبته حتى أتيت بيت المقدس» قال: «فرطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء» قال: «ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين...».

قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ يعني: ما رأى، أي: تلك الليلة من العجائب التي أخبر بها الناس. ﴿إِنَّهُمْ هُوَ السَّبِيحُ﴾ لمقالة قريش، ﴿الْبَصِيرُ﴾ بها. وقد ذكرنا في كتابنا المسمى «الحدائق» أحاديث المعراج، وكرهنا الإطالة ها هنا.

﴿وَمَا تَبَيَّنَّا مُوسَى الْكِنْبَ وَحَمَلْتُهُ هُنَى لَيْحِ إِسْرَوِيلَ أَلَّا تَنْخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ۝١١ ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عِبَادًا شَاكِرًا ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَبَيَّنَّا مُوسَى الْكِنْبَ﴾ لما ذكر في الآية الأولى إكرام محمد ﷺ، ذكر في هذه كرامة موسى. و﴿الْكِنْبُ﴾: التوراة. ﴿وَحَمَلْتُهُ هُنَى لَيْحِ إِسْرَوِيلَ﴾ أي: دللناهم به على الهدى. ﴿أَلَّا تَنْخِذُوا﴾ قرأ أبو عمرو: «يتخذوا» بالياء، والمعنى: هديناهم لثلاث يتخذوا. وقرأ الباقون بالياء، قال أبو علي: وهو على الانصراف إلى الخطاب بعد اللغية، مثل: ﴿الْحَسَدُ لِلَّهِ﴾ ثم [قال]: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَيْلًا﴾ قال مجاهد: شريكاً. وقال الزجاج: رباً. قال ابن الأنباري: وإنما قيل للرب: وكيل، لكفايته وقيامه بشأن عباده، من أجل أن الوكيل عند الناس قد علم أنه يقوم بشؤون أصحابه، وتفقد أمورهم، فكان الرب وكيلاً من هذه الجهة، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل وانحطاط أمر الوكيل.

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا﴾ قال مجاهد: هو نداء: يا ذرية من حملنا. قال ابن الأنباري: من قرأ: «ألا تتخذوا» بالياء، فإنه يقول: بعد الذرية مضمراً حذفت اعتماداً على دلالة ما سبق، تلخيصه: يا ذرية من حملنا مع نوح لا تتخذوا وكيلاً، ويجوز أن يستغني عن الإضمار بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانَتْ عِبَادًا شَاكِرًا﴾ لأنه بمعنى: اشكروني كشكركه. ومن قرأ: «لا يتخذوا» بالياء، جع النداء متصلاً بالخطاب، و«الذرية» تنتصب بالنداء، ويجوز نصبها بالاتخاذ على أنها مفعول ثانٍ، تلخيص الكلام: أن لا يتخذوا ذرية من حملنا مع نوح وكيلاً. قال قتادة: الناس كلهم ذرية من أنجى الله في تلك السفينة.

قال العلماء: ووجه الإنعام على الخلق بهذا القول، أنهم كانوا في صلب من نجا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانَتْ عِبَادًا شَاكِرًا﴾ قال سلمان الفارسي: كان إذا أكل قال: «الحمد لله» وإذا شرب قال: «الحمد لله»^(١). وقال غيره: كان إذا لبس ثوباً قال: «الحمد لله» فسماه الله عبداً شاكراً.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَوِيلَ فِي الْكِنْبِ لِنُفَيْدُ فِي الْأَرْضِ مَرْثِيَيْنَ وَلِنَعْلَنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝١٣ إِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَشَّرْنَا عَلَىٰ كَيْفِمْ يَءَاكُلُونَ أَولَىٰ هَؤُلَاءِ شَدِيدِ جِقَاسُوا جَلَلِ الْوَيْبِ وَكَانَتْ وَعْدًا مَقْمُولًا ۝١٤ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ فَلَبِيتُمْ بِهَا مُتَبَرِّكِينَ وَجَمَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَوِيلَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أخبرناهم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: قضينا عليهم، رواه العوفي عن ابن عباس. وبه قال قتادة، فعلى الأول: تكون «إلى» على أصلها، ويكون الكتاب: التوراة، وعلى الثاني: تكون «إلى» بمعنى «على»، ويكون الكتاب: الذكر الأول.

قوله تعالى: ﴿لِنُفَيْدُ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: أرض مصر ﴿مَرْثِيَيْنَ﴾ بالمعاصي ومخالفة التوراة. وفي مَنْ قتلوه من الأنبياء في الفساد الأول قولان: أحدهما: زكريا، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: شعيا، قاله ابن إسحاق. فأما المقتول من الأنبياء في الفساد الثاني: فهو يحيى بن زكريا. قال مقاتل: كان بين الفسادين مائتا سنة وعشر سنين. فأما السبب في قتلهم زكريا، فأنهم اتهموه بمرم، وقالوا: منه حملت، فهرب منهم، فانفتحت له شجرة فدخل فيها وبقي من رذاته هذب، فجاءهم الشيطان فدلهم عليه، فقطعوا الشجرة بالمنشار وهو فيها. وأما السبب في قتلهم «شعيا»، فهو أنه قام فيهم برسالة من الله ينهاهم عن المعاصي. وقيل: هو الذي هرب منهم فدخل في الشجرة

(١) ابن جرير ١٩/١٥، وخرجه السيوطي في «الدرر» ١٦٢/٤ وزاد نسبه إلى القرطبي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان». وروى الإمام أحمد في «المسند» ١٠٠/٣، ومسلم ٢٠٩٥/٤، والترمذي، والنسائي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشرية فيحمد الله عليها.

حتى قطعوه بالمنشار، وأن زكريا مات حتف أنفه. وأما السبب في قتلهم يحيى بن زكريا، ففيه قولان. أحدهما: أن ملكهم أراد نكاح امرأة لا تحلُّ له، فنهاه عنها يحيى. ثم فيها أربعة أقوال. أحدها: أنها ابنة أخيه، قاله ابن عباس. والثاني: ابنته، قاله عبد الله بن الزبير. والثالث: أنها امرأة أخيه، وكان ذلك لا يصلح عندهم، قاله الحسين بن علي عليه السلام. والرابع: ابنة امرأته، قاله السدي عن أشياخه، وذكر أن السبب في ذلك: أن ملك بني إسرائيل هوي بنت امرأته، فسأل يحيى عن نكاحها، فنهاه، فحنقت أمها على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها، وعمدت إلى ابنتها فزيتها وأرسلتها إلى الملك حين جلس على شرابه، وأمرتها أن تسقيه، وأن تعرض له، فإن أرادها على نفسها، أبت حتى يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طست، ففعلت ذلك، فقال: ويحك سليمان غير هذا، فقالت: ما أريد إلا هذا، فأمر، فأُتي برأسه والرأس يتكلم ويقول: لا تحلُّ لك، لا تحلُّ لك. والقول الثاني: أن امرأة الملك رأت يحيى عليه السلام وكان قد أعطي حسناً وجمالاً، فأزادته على نفسه، فأبى، فقالت لابنتها: سلي أباك رأس يحيى، فأعطاها ما سألت، قاله الربيع بن أنس. قال العلماء بالسَّير: ما زال دم يحيى يغلي حتى قتل عليه من بني إسرائيل سبعون ألفاً، فسكن، وقيل: لم يسكن حتى جاء قاتله، فقال: أنا قتله، فقُتِل، فسكن.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اتَّبَعُوا مِنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَالِبُ عَلَيْهِمْ وَمَنِ اتَّبَعْتُ فَلْيُتَّبِعْنِي أَتَّبِعْهُ وَأُوَلِّهِ أَتَّوَلَّهِ﴾ أي: لتعظّمَن عن الطاعة ولتبعنَّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَاءَ وَعَدُ أُولَئِنَّمَا أُولَى الْمَرْتِنَ بَعَثْنَا﴾ أي: عقوبة أولى المرتين **بَعَثْنَا** أي: أرسلنا **عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا** وفيهم خمسة أقوال: أحدها: أنهم جالوت وجنوده، قاله ابن عباس، وقتادة. والثاني: **بُخْتَنَصْر**^(١)، قاله سعيد بن المسيب، واختاره الفراء، والزجاج. والثالث: العمالقة، وكانوا كفاراً، قاله الحسن. والرابع: سنحاريب^(٢)، قاله سعيد بن جبيرة. والخامس: قوم من أهل فارس، قاله مجاهد. وقال ابن زيد: سلط [الله] عليهم سابور ذا الأكتاف^(٣) من ملوك فارس.

قوله تعالى: ﴿أُولَى بَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ذوي عدد وقوة في القتال. وفي قوله: ﴿فَجَاسُوا خَلَلِ الدِّيَارِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: مشوا بين منازلهم، قاله ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال مجاهد: يتجسسون أخبارهم، ولم يكن قتال. وقال الزجاج: طافوا خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه؟ **والجوس**: طلب الشيء باستقصاء. والثاني: قتلوه بين بيوتهم، قاله الفراء، وأبو عبيدة. والثالث: عاثوا وأفسدوا، يقال: جاسوا وحاسوا، فهم يجوسون ويحوسون إذا فعلوا ذلك، قاله ابن قتيبة.

فأما الخلال: فهي جمع خَلَل، وهو الانفراج بين الشيئين. وقرأ أبو رزين، والحسن، وابن جبيرة، وأبو المتوكّل: **«خَلَلِ الدِّيَارِ»** بفتح الخاء واللام من غير ألف. **«وَكَاكَ وَعَدَا مَفْعُولًا»** أي: لا بد من كونه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أظفرناكم بهم. والكرّة، معناها: الرجعة والدولة، وذلك حين قتل داود جالوت وعاد ملكهم إليهم. وحكى الفراء أن رجلاً دعا على **«بختنصر»**؛ فقتله الله، وعاد ملكهم إليهم. وقيل: غزوا ملك بابل فأخذوا ما كان في يده من المال والأسرى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَوْبًا﴾ أي: أكثر عدداً وأنصاراً منهم. قال ابن قتيبة: التّفير والنافر واحد، كما يقال: قدير وقادر، وأصله: مَنْ يَنْفِرُ مع الرجل من عشيرته وأهل بيته.

﴿إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِن جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَوُجْهَكُمْ وَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأَ مَا عَلَوُا تَتَبَرَّأَ﴾ **عَنِ رَبِّكَ** أَنْ يَرْحَمَكَ وَإِن عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِن أَحْسَنْتُمْ﴾ أي: وقلنا لكم إن أحسنتم فأطعتم الله **«أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ»** أي: عاقبة الطاعة لكم **«وَإِن أَسَأْتُمْ»** بالفساد والمعاصي **«فَلَهَا»** وفيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى: فإليها. والثاني: فعليةا. **«إِنَّا جَاءَ وَعَدُ**

(١) هو ملك الكلدانيين، أغار بحملته على مصر وفتح القدس، وأحرقها وأجلى بني إسرائيل إلى بابل.

(٢) هو ملك آشور بن سنجر وخليفته، حمل على بلاد الكلدانيين واليهودية وأرمينية.

(٣) لقب بذلك، لأنه أمر بئكَ أكتاف أسرى الحرب، حارب العرب أحلاف الروم.

الْآخِرَةَ ﴿ جواب: «فإذا» محذوف، تقديره: فإذا جاء وعد عقوبة المرة الآخرة من إفسادكم، بعثناهم ليسوؤوا وجوهكم، وهذا الفساد الثاني، هو قتلهم يحيى بن زكريا، وقصدهم قتل «عيسى» فرفع، وسلط الله عليهم ملوك فارس والروم قتلوهم وسبؤهم، فذلك قوله: ﴿لِيَسْتَوُوا رُجُوهَكُمْ﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿لِيَسْتَوُوا﴾. بآليات على الجمع والهمز بين الواوين، والإشارة إلى المبعوثين. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: «ليسوء» وجوهكم» على التوحيد؛ قال أبو علي: فيه وجهان. أحدهما: ليسوء الله ﷻ. والثاني: ليسوء البعث. وقرأ الكسائي: «لنساء» بالنون، وذلك راجع إلى الله تعالى. وفيمن بعث عليهم في المرة الثانية قولان: أحدهما: بختنصر، قاله مجاهد، وقتادة. وكثير من الرواة يأبى هذا القول، ويقولون: كان بين تخريب «بختنصر» بيت المقدس، وبين مولد يحيى بن زكريا زمان طويل. والثاني: أنطاخوس الرومي، قاله مقاتل. ومعنى ﴿لِيَسْتَوُوا رُجُوهَكُمْ﴾ أي: ليدخلوا عليكم الحزن بما يفعلون من قتلكم وسببكم، وخصت المساءة بالوجوه، والمراد: أصحاب الوجوه، لما يبدو عليها من أثر الحزن والكآبة.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَدْخُلُوا آلَ مَدْيَنَ﴾ يعني: بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ في المرة الأولى ﴿وَالْيَسْتَوُوا﴾ أي: ليدمروا ويخربوا. قال الزجاج: يقال لكل شيء ينكسر من الزجاج والحديد والذهب: تير. ومعنى ﴿مَا عَلَا﴾ أي: ليدمروا في حال علوهم عليكم.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبْنَا نَجْمًا أَنْ يَزَعَكُمُ﴾ هذا مما وُعدوا به في التوراة. و«عسى» من الله واجبة، فرحمهم [الله] بعد انتقامه منهم، وعمر بلادهم، وأعاد نعمهم بعد سبعين سنة. ﴿وَرَأَى عُدَّتَهُمْ﴾ إلى معصيتنا ﴿فَعَدَّ﴾ إلى عقوبتهم. قال المفسرون: ثم إنهم عادوا إلى المعصية، فبعث الله عليهم ملوكاً من ملوك فارس والروم. قال قتادة: ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم محمداً ﷺ، فهم في عذاب إلى يوم القيامة، فيعطون الجزية عن يد وهم صافرون.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ فيه قولان: أحدهما: سجنًا، قاله ابن عباس، والضحاك، وقتادة. وقال مجاهد: يحصرون فيها. وقال أبو عبيدة، وابن قتيبة: محبسًا، وقال الزجاج: «حصيرًا»: حبسًا، أخذ من قولك: حصرت الرجل، إذا حبسته، فهو محصور، وهذا حصيره، أي: محبسه، والحصير: المنسوج، سمي حصيرًا، لأنه حصرت طاقاته بعضها مع بعض، ويقال للجنب: حصير، لأن بعض الأضلاع محصور مع بعض. وقال ابن الأنباري: حصيرًا: بمعنى: حاصرة، فصرف من حاصرة إلى حصير، كما صرف «مؤلم» إلى أليم. والثاني: فراشًا ومهادًا، قاله الحسن. قال أبو عبيدة: ويجوز أن تكون جهنم لهم مهادًا بمنزلة الحصير، والحصير: البساط الصغير.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّلَاةَ أَنْ لَمْ يَجْرُ كَيْدًا﴾ ١٠ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَتَدْنَا لَمْ عَدَا أَلَيْسَا﴾ ١١ ﴿

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ قال ابن الأنباري: «التي» وصف للجمع، والمعنى: يهدي إلى الخصال التي هي أقوم الخصال. قال المفسرون: وهي توحيد الله والإيمان به ورسالته والعمل بطاعته، ﴿وَيُبَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّلَاةَ أَنْ لَمْ يَجْرُ﴾ أي: بأن لهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ وهو الجنة، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: ويبشرهم بالعذاب لأعدائهم، وذلك أن المؤمنين كانوا في أذى من المشركين، فعجل الله لهم البشري في الدنيا بعقاب الكافرين. ﴿وَيَهْدِي الْإِنْسَانَ بِالنَّجْمِ دَعَاةً بِالنَّجْمِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ ١٢ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي الْإِنْسَانَ بِالنَّجْمِ﴾ وذلك أن الإنسان يدعو في حال الضجر والغضب على نفسه وأهله بما لا يجب أن يستجاب له كما يدعو لنفسه بالخير. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ يعجل بالدعاء بالشر عند الغضب والضجر فعجله بالدعاء بالخير. وفي المراد بالإنسان هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اسم جنس يراد به الناس، قاله الزجاج وغيره. والثاني: آدم، فافتنى بذكره من ذكر ولده، ذكره ابن الأنباري. والثالث: أنه النضر بن الحارث حين قال: ﴿فَأَنْطَرُ عَلَيْنَا

جِبَارَةٌ مِنْ النَّكَوِّ ﴿الأنفال: ٣٢﴾، قاله مقاتل. وقال سلمان الفارسي: أول ما خلق الله من آدم رأسه، فجعل ينظر إلى جسده كيف يخلق، قال: فبقيت رجلاه، قال: يا رب عَجِّلْ، فذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(١).

﴿وَجَعَلْنَا آيَلَهُ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَحَوَّنَا آيَةَ آيَلٍ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَلُوا فَمَلَأْنَا مِنْ رِزْقِكَ وَلِتَعْلَمُوا عَكْدَةَ آيَاتِنَا وَالْحِسَابَ رُكُلٌ شَيْءٌ فَصَلَّاتُهُ تَفْصِيلًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَلَهُ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ أي: علامتين يدلان على قدرة خالقهما. ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ آيَلٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن آية الليل: القمر، ومحوها: ما في بعض القمر من الاسوداد. وإلى هذا المعنى ذهب علي رضي الله عنه، وابن عباس في آخرين. والثاني: آية الليل محيت بالظلمة التي جعلت ملازمةً لليل؛ فنسب المحو إلى الظلمة إذ كانت تمحو الأنوار وتبطلها، ذكره ابن الأنباري. ويروى أن الشمس والقمر كانا في النور والضوء سواء، فأرسل الله جبريل فأمر جناحه على وجه القمر وطمس عنه الضوء.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ﴾ يعني: الشمس ﴿مُبْصِرَةً﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: منيرة، قاله قتادة. قال ابن الأنباري: وإنما صلح وصف الآية بالإبصار على جهة المجاز، كما يقال: لعب الدهر ببني فلان. والثاني: أن معنى «مبصرة»: مبصرًا بها، قاله ابن قتيبة. والثالث: أن معنى «مبصرة» مُبْصِرَةٌ، فجرى «مُفْعِلٌ» مجرى «مُفْعَلٌ»، والمعنى: أنها تُبْصِرُ الناس، أي: تُرِيهم الأشياء، قاله ابن الأنباري. ومعاني الأقوال تتقارب.

قوله تعالى: ﴿لِنَبْتَلُوا فَمَلَأْنَا مِنْ رِزْقِكَ﴾ أي: لتبصروا كيف تتصرفون في أعمالكم وتطلبون رزقكم بالنهار ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَكْدَةَ آيَاتِنَا وَالْحِسَابَ﴾ بمحو آية الليل، ولولا ذلك، لم يعرف الليل من النهار، ولم يُتَيَّن العدد. ﴿وَرُكُلٌ شَيْءٌ﴾ أي: ما يحتاج إليه، ﴿فَصَلَّاتُهُ تَفْصِيلًا﴾ بيانه تبيينًا لا يلبس معه غيره.

﴿وَرُكُلٌ إِسْنِ الْأَزْمَنَةِ طَيْرٌ فِي عُنُقِهِ وَخُرْجٌ لَوْ يَوْمَ الْيَمِينِ كَتَبْنَا بَلْقَهُ مَشُورًا ﴿١٢﴾ أقرأ كَتَبَكَ كَفَى بِشَفِيكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرُكُلٌ إِسْنِ﴾ وقرأ ابن أبي عجلة «وكل» برفع اللام. وقرأ ابن مسعود، وأبي، والحسن «الزَّمَنَةُ طَيْرُهُ» بياء ساكنة من غير ألف. وفي الطائر أربعة أقوال. أحدها: شقارته وسعادته، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال مجاهد: ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي، أو سعيد. والثاني: عمله، قاله الفراء، وعن الحسن كالقولين. والثالث: أنه ما يصيبه، قاله خصيف. وقال أبو عبيدة: حَظُّهُ. قال ابن قتيبة: والمعنى فيما أرى - والله أعلم -: أن لكل امرئ حظًا من الخير والشر قد قضاه الله [عليه]، فهو لازم عنقه، والعرب تقول: لكل ما لزم الإنسان: قد لزم عنقه، وهذا لك عليّ وفي عنقي حتى أخرج منه، وإنما قيل للحظ من الخير والشر: «طائر» لقول العرب: جرى له الطائر بكذا من الخير، وجرى له الطائر بكذا من الشر، على طريق الفأل والطَّيرَة، فحاطبهم الله بما يستعملون، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر، هو الذي يلزمه أعناقهم. وقال الأزهري: الأصل في هذا أن الله تعالى لما خلق آدم، علم المطيع من ذريته، والمعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى سعادة من علمه مطيعاً، وشقاوة من علمه عاصياً، فصار لكل منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه، فذلك قوله: ﴿الزَّمَنَةُ طَيْرٌ فِي عُنُقِهِ﴾. والرابع: أنه ما يُطَيَّرُ من مثله من شيء عمله، وذُكِرَ العنق عبارة عن اللزوم له، كلزوم الفلاة العنق من بين ما يلبس، هذا قول الزجاج. وقال ابن الأنباري: الأصل في تسميتهم العمل طائراً، أنهم كانوا يطَيِّرون من بعض الأعمال.

قوله تعالى: ﴿وُخْرَجٌ لَوْ﴾ قرأ أبو جعفر: «وُخْرَجُ» بياء مضمومة وفتح الراء. وقرأ يعقوب، وعبد الوارث: بالياء مفتوحة وضم الراء. وقرأ قتادة، وأبو المتوكل: «وُخْرَجُ» بياء مرفوعة وكسر الراء. وقرأ أبو الجوزاء، والأعرج: «وَتَخْرُجُ» بئاء مفتوحة ورفع الراء، ﴿يَوْمَ الْيَمِينِ كَتَبْنَا﴾ وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: «كتاب» بالرفع، ﴿بَلْقَهُ﴾ وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر: «يُلْقَاهُ» بضم الباء وتشديد القاف. وأمال حمزة والكسائي القاف. قال

(١) ابن جرير الطبري ٤٨/١٥، عن سلمان الفارسي، ورواه أيضاً عن ابن عباس.

المفسرون: هذا كتابه الذي فيه ما عمل. وكان أبو السَّوَّارِ العَدَوِيُّ إذا قرأ هذه الآية قال: نشرتان وطِيَّة، أمَّا ما حَيَّتْ يا ابن آدم، فصحيفتك منشورة، فأُتِلَ فيها ما شئت، فإذا مُتُّ، طُويت، ثم إذا بُعثت، نُشرت.

قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ وقرأ أبو جعفر: «اقرأ» بتخفيف الهمزة، وفيه إضمار، تقديره، فيقال له: اقرأ كتابك. قال الحسن: يقرؤه أُمياً كان أو غير أُمي، ولقد عدل عيك من جعلك حسب نفسك. وفي معنى ﴿حَيِّباً﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: محابياً. والثاني: شاهداً. والثالث: كافيأ، والمعنى: أن الإنسان يفوض إليه حسابه، ليعلم عدل الله بين العباد، ويرى وجوب حجة الله عليه، واستحقاقه العقوبة، ويعلم أنه إن دخل الجنة، فبفضل الله، لا بعمله، وإن دخل النار، فبذنبه. قال ابن الأنباري: وإنما قال: ﴿حَيِّباً﴾، والنفس مؤنثة، لأنه يعني بالنفس: الشخص، أو لأنه لا علامة للتأنيث في لفظ النفس، فشُبِّهت بالسماء والأرض، قال تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ يَوْمَ﴾ [الزمر: ٢١٨]، قال الشاعر:

[فلا مُزْنَةً وَدَقَّتْ وَذَقَهَا] ولا أرض أبقل إبقالها^(١)

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَلَمَّا يَتَّبِعِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ سَلَ فَلَمَّا يُضِلْ عَلَيْهَا وَلَا نُزْرًا وَلَا نُزْرًا وَيَذَرُ أَخْرَجَ اللَّهُ مِمَّا كَانُ مَمْدِينٍ حَتَّىٰ تَبْتَكَ رَسُولًا﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَلَمَّا يَتَّبِعِ لِنَفْسِهِ﴾ أي: له ثواب اهتدائه، وعليه عقاب ضلاله.

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُزْرًا وَلَا نُزْرًا﴾ أي: نفس وازرة ﴿وَيَذَرُ أَخْرَجَ اللَّهُ مِمَّا كَانُ مَمْدِينٍ﴾ قال ابن عباس: إن الوليد بن المغيرة قال: أتبعوني وأنا أحمل أوزاركم، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا نُزْرًا وَلَا نُزْرًا وَيَذَرُ أَخْرَجَ اللَّهُ مِمَّا كَانُ مَمْدِينٍ﴾، والمعنى: ولا تأثم أئمة إثم أخرى. قال الزجاج: يقال: يَزُرُ، فهو وازر، ووزراً، ووزرة، ومعناه: إثم إثمأ. وفي تأويل هذه الآية وجهان: أحدهما: أن الأثم لا يؤخذ بذنب غيره. والثاني: أنه لا ينبغي أن يعمل الإنسان بالإثم، لأن غيره عمَلَه، كما قال الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مَشْرَقٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]. ومعنى ﴿حَتَّىٰ تَبْتَكَ رَسُولًا﴾ أي: حتى تُبَيِّنَ ما به نعدب، وما من أجله نُدخل الجنة.

فصل

قال القاضي أبو يعلى: في هذا دليل على أن معرفة الله لا تجب عقلاً، وإنما تجب بالشرع، وهو بعثة الرسل، وأنه لو مات الإنسان قبل ذلك، لم يقطع عليه بالنار. قال: وقيل معناه: أنه لا يعدب في ما طريقه السمع إلا بقيام حجة السمع من جهة الرسول، ولهذا قالوا: لو أسلم بعض أهل الحرب في دار الحرب ولم يسمع بالصلاة والزكاة ونحوها، لم يلزمه قضاء شيء منها، لأنها لم تلزمه إلا بعد قيام حجة السمع، والأصل فيه قصة أهل قُباء حين استداروا إلى الكعبة ولم يستأنفوا، ولو أسلم في دار الإسلام ولم يعلم بفرض الصلاة، فالواجب عليه القضاء، لأنه قد رأى الناس يصلون في المساجد بأذان وإقامة، وذلك دعاء إليها.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدَّرْنَاهَا تَدِيرًا﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَدَلِ نوحٍ وَكُنَّا بِرَبِّكَ يَذُوبٌ حَيِّبًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ في سبب إرادته لذلك قولان: أحدهما: ما سبق لهم في قضاؤه من الشقاء. والثاني: عنادهم الأنبياء وتكذيبهم إياهم.

قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قرأ الأكثرون: «أمرنا» مخففة، على وزن «فَعَلْنَا»، وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من الأمر، وفي الكلام إضمار، تقديره: أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا، هذا مذهب سعيد بن جبيرة. قال الزجاج: ومثله في الكلام: أمرتك ففصيتي، فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر. والثاني: «كثرتنا» يقال: أمرت الشيء وأمرته، أي: كثرت، ومنه قولهم: مُهْرَةٌ مأمورة، أي: كثيرة النتائج، يقال: أمر بنو فلان يأمرن أماً: إذا كثروا، هذا قول أبي عبيدة، وابن

(١) قاله عامر بن جوين؛ شاعر جاهلي، كان خليعاً فانكأ، وشريفاً وفياً، والبيت في «الكتاب» ١/ ٢٥٥، ومجاز القرآن ٢/ ٦٧، و«الطبري» ١٨/ ١٥٣، و«القرطبي» ١٢/ ٢٨٩، و«السيني» ٢/ ٤٦٤، وشواهد المغني» ٣١٣، و«الخرائفة» ١/ ٢١. والشاهد فيه حذف التاء من «أبقلت» لأن الأرض بمعنى المكان، فكانت قال: ولا مكان أبقل إبقالها، والمزنة: السحابة، والودق: المطر.

قتيبة. والثالث: أن معن «أمرنا»: «أمرنا»، يقال: أمرت الرجل، بمعنى: أمرته، والمعنى: سلطنا مترفياً بالإمارة، ذكره ابن الأنباري. وروى خارجة عن نافع: «أمرنا» ممدودة، مثل «أمتنا»، وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير، وهي قراءة ابن عباس، وأبي الدرداء، وأبي رزين، والحسن، والضحاك، ويعقوب. قال ابن قتيبة: وهي اللغة العالية المشهورة، ومعناها: كثرتنا، أيضاً. وروى ابن مجاهد أن أبا عمرو قرأ: «أمرنا» مشددة الميم، وهي رواية أبان عن عاصم، وهي قراءة أبي العالية، والنخعي، والجحدري. قال ابن قتيبة: المعنى: جعلناهم أمراء. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن يعمر: «أمرنا» بفتح الهمزة مكسورة الميم مخففة. فأما المترفون، فهم المتشبهون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش، والمفسرون يقولون: هم الجبارون والمسئطون والملوك، وإنما خص المترفين بالذكر، لأنهم الرؤساء، ومن عداهم تبع لهم.

قوله تعالى: ﴿فَسَقُوا رَبَّكُمْ أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: تمردوا في كفرهم، لأن الفسق في الكفر: الخروج إلى أفضحه. وقد شرحنا معنى «الفسق» في [البقرة: ٢٦، ١٩٧].

قوله تعالى: ﴿نَحْوَ عَلِيٍّ الْفَازِلِ﴾ قال مقاتل: وجب عليها العذاب. وقد ذكرنا معنى «التدمير» في [الأعراف: ١٣٧].
قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنِّي الْقُرُونُ﴾ وهو جمع قرون. وقد ذكرنا اختلاف الناس فيه في [الأنعام: ٦]، وشرحنا معنى «الخبير» و«البصير» في [البقرة]. قال مقاتل: وهذه الآية تخويف لأهل مكة.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالِجَةَ عَطَلْنَا لَمْ يَفْعَلْ مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَمْ جَهَنَّمَ يَصَلِّهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾ [١٨] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا [١٩]

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالِجَةَ﴾ يعني: من كان يريد بعمله الدنيا، فعبر بالنعى عن الاسم، ﴿عَطَلْنَا لَمْ يَفْعَلْ مَا نَشَاءُ﴾ من عراض الدنيا، وقيل: من البسط والتفتير، ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ فيه قولان: أحدهما: لمن نريد هلكته، قاله أبو إسحاق الفزاري. والثاني: لمن نريد أن نعجل له شيئاً، وفي هذا ذم لمن أراد بعمله الدنيا، وبيان أنه لا ينال مع ما يقصده منها إلا ما قُدِّرَ له، ثم يدخل النار في الآخرة. وقال ابن جرير: هذه الآية لمن لا يوقن بالمعاد. وق ذكرنا معنى «جهنم» في [البقرة: ٢٠٦]، ومعنى: «يصلها» في سورة [النساء: ١٠]، ومعنى «مذموماً مذحوراً» في [الأعراف: ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ يعني: الجنة ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: عمل لها العمل الذي يصلح لها، وإنما قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الإيمان شرط في صحة الأعمال، ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ أي: مقبولاً. وشكر الله عز وجل لهم: ثوابه إياهم، وثناؤه عليهم.

﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهُنُوًا مِن عَطَاةٍ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاةَ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [٢٠] أَنْظَرُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ بِالْآخِرَةِ أَكْبَرَ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرَ تَفْضِيلًا [٢١] لَا يَحْصُلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ [٢٢]

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا﴾ قال الزجاج: «كلاً» منصوب بـ«نمِدُّ»، «هؤلاء» بدل من «كل»، والمعنى: نمِدُّ هؤلاء وهؤلاء «وَمِن عَطَاةٍ رَبِّكَ». قال المفسرون: كلاً تعطي من الدنيا، البرّ والفاجر، والعطاء هاهنا: الرزق، والمحظور: الممنوع، والمعنى: أن الرزق يعم المؤمن والكافر، والآخرة للمتقين خاصة. ﴿أَنْظَرُ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ﴾ وفيما فضلوا فيه قولان: أحدهما: الرزق، منهم مقل، ومنهم أكثر. والثاني: الرزق والعمل، فمنهم موقف لعمل صالح، ومنهم ممنوع من ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْصُلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى عام لجميع المكلفين. والمخذول: الذي لا ناصر له، والخذلان: ترك العون. قال مقاتل: نزلت حين دعوا رسول الله ﷺ إلى ملة أبائه.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا بِلَيْعِنَ عِنْدَكَ الْكَبِيرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا أُوِي وَلَا تَبْهَرْهُمَا وَقُلْ لِمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [٢٣] وَأَخْفِضْ لِهَٰمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّانِي صَبِيرًا [٢٤] رَبُّكَ أَنْظَرُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأُولَئِكَ عَذَابًا [٢٥]

قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: أمر ربك. ونقل عنه الضحاك أنه قال: إنما

هي «ووصى ريك» فالتصقت إحدى الواوين بـ«الصاد»^(١)، وكذلك قرأ أبيُّ بن كعب، وأبو المتوكل، وسعيد بن جبير: «ووصى»، وهذا على خلاف ما انعقد عليه الإجماع، فلا يلتفت إليه. وقرأ أبو عمران، وعاصم الجحدري، ومعاذ القارئ: «وقضاء ريك» بقاف وضاد بالمد والهمز والرفع وخفض اسم الرب. قال ابن الأنباري: هذا القضاء ليس من باب الحتم والوجوب، لكنه من باب الأمر والفرض، وأصل القضاء في اللغة: قطع الشيء بإحكام وإتقان، قال الشاعر يرثي عمر:

قضيت أموراً ثم غادرت بعدها

بوائق في أكمامها لم تفتق^(٢)

أراد: قطعها محكماً لها.

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحساناً، وهو البرُّ والإكرام، وقد ذكرنا هذا في [البقرة: ٤٨٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَيِّنُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «بيِّنُونَ» على التوحيد. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «بيْلغانٌ» على التنية. قال الفراء: جعلت «بيْلغن» فعلاً لأحدهما وكَرَّتَ عليهما «كلاهما». ومن قرأ «بيْلغانٌ» فإنه ثنى، لأن الوالدين قد ذُكِرَا قبل هذا، فصار الفعل على عددهما، ثم قال: «أَدَّهُمَا أَوْ كَلَامًا» على الاستئناف، كقوله: ﴿فَمَسُوا مَكَّةَ﴾ [المائدة: ٧١] ثم استأنف فقال: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا آتَى﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «أَتْ» بالكسر من غير تنوين. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب، والمفضل: «أَفْ» بالفتح من غير تنوين، وقرأ نافع، وحفص عن عاصم: «أَفْ» بالكسر والتنوين. وقرأ أبو الجوزاء، وابن يعمر: «أَفْ» بالرفع والتنوين وتشديد الفاء. وقرأ معاذ القارئ، وعاصم، الجحدري، وحميد بن قيس: «أَفَا» مثل «تعسا». وقرأ أبو عمران الجوني، وأبو السماك العدوي: «أَفْ» بالرفع من غير تنوين مع تشديد الفاء، وهي رواية الأصمعي عن أبي عمرو. وقرأ عكرمة، وأبو المتوكل، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: «أَفْ» بإسكان الفاء وتخفيفها؛ قال الأخفش: وهذا لأن بعض العرب يقول: أفْ لك، على الحكاية والرفع قبيح، لأنه لم يجز بعده لام. وقرأ أبو العالية، وأبو حصين الأسدي: «أَفِي» بتشديد الفاء وبياء. وروى ابن الأنباري أن بعضهم قرأها: «إِفْ» بكسر الهمزة^(٣). وقال الزجاج: فيها سبع لغات، الكسر بلا تنوين، ويتنوين، والضم بلا تنوين، ويتنوين، والفتح بلا تنوين، ويتنوين، واللغة السابعة لا تجوز في القراءة: «أَفِي» بالياء، هكذا قال الزجاج. وقال ابن الأنباري: في «أَفْ» عشرة أوجه. «أَفْ» لك، بفتح الفاء، و«أَفْ» بكسرها، و«أَفْ»، و«أَفَا» لك بالنصب والتنوين على مذهب الدعاء كما تقول: «وَيْلًا» للكافرين، و«أَفْ» لك، بالرفع والتنوين، وهو رفع باللام، كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطفون: ٤١] و«أَفُو» لك، بالخفض والتنوين، تشبيهاً بالأصوات، كقولك: «صُو» و«مُو»، و«أَفَهَا» لك، على مذهب الدعاء أيضاً، و«أَفِي» لك، على الإضافة إلى النفس، و«أَفْ» لك، بسكون الفاء، تشبيهاً بالأدوات، مثل: «كَمْ» و«هَلْ» و«بَلْ»، و«إِفْ» لك، بكسر الألف. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللخوي، قال: وتقول: «أَفِي» منه، و«أَفْ»، و«أَفْ»، و«أَفِي»، و«أَفَا»، و«أَفْ»، و«أَفِي» مضاف، و«أَفَهَا»، و«أَفَا» بالألف، ولا تقل: «أَفِي» بالياء فإنه خطأ.

فأما معنى «أَفْ» ففيه خمسة أقوال: أحدها: أنه وسخ الظفر، قاله الخليل. والثاني: وسخ الأذن، قاله الأصمعي.

(١) الخبر رواه ابن جرير ٦٣/١٥ عن الضحاك، وفي سننه أبو إسحاق الكوفي، وهو عبد الله بن مسيرة الحارثي، ضحفه ابن معين، وأحمد بن حنبل، والنسائي، والدارقطني، وقال ابن أبي حاتم: ليس بشيء، وقال ابن حبان: لا يحل الاحتجاج بخبره، وهشم الراوي عن أبي إسحاق هذا - وإن كان ثقة - موصوف بالتلبس وقد عنت في هذا الخبر.

(٢) البيت من قصيدة تروى للشماخ كما في «حماسة أبي تمام» ٣/١٠٩٠ بشرح التبريزي، و«زهر الآداب» ٩٨٦، وتروى أيضاً لمزرد بن ضرار كما في «البيان والبيان» ٣/٣٦٤، وتروى لجزء بن ضرار. قال التبريزي: وقال أبو ريش: الذي عندي أنه لمزرد أخيه، وفي «الأغاني» ٩/١٥٩: أن هذا الشعر للجن قاله قبل أن يقتل عمر بثلاث، فكان ذلك نعيلاً له قبل أن يقتل. والبواقي: جمع باقعة وهي الداهية والبليبة، وفي «الحماسة»: بوانج، وهي رواية «اللسان»: بوج. والبوانج: البواقي.

(٣) في «القرطبي» ١٥/٢٤٣: وإفْ لك، بكسر الهمزة.

والثالث: قلامة الظفر، قاله ثعلب. والرابع: أن «الأف» الاحتقار والاستصغار، من «الأف» والأفب عند العرب: القلّة، ذكره ابن الأنباري. والخامس: أن «الأف» ما رفعت من الأرض من عود أو قصبه، حكاه ابن فارس اللغوي. وقرأت على شيخنا أبي منصور قال: معنى «الأف»: الثنن، والتضجر، وأصلها: فخذك الشيء ينسقط عليك من تراب ورماد، وللمكان تريد إماطة الأذى عنه، فقيلت لكل مستقل. قال المصنف: وأما قولهم: «أف»، فقد جعلها قوم بمعنى «أف»، فروي عن أبي عبيد أنه قال: أصل «الأف» و«الثف»: الوسخ على الأصابع إذا فلتت. وحكى ابن الأنباري فرقا، فقال: قال اللغويون: أصل «الأف» في اللغة: وسخ الأذن. و«الثف»: وسخ الأظفار، فاستعملتها العرب فيما يكره ويستقذر ويضجر منه. وحكى الزجاج فرقا آخر، فقال: قد قيل: إن «أف»: وسخ الأظفار، و«الثف»: الشيء الحقيق، نحو وسخ الأذن، أو الشظية تؤخذ من الأرض، ومعنى «أف»: الثنن، ومعنى الآية: لا تقل لهما كلاماً تبرمّ فيه بهما إذا كبراً وأسأ، فينبغي أن تتولى من خدمتهما مثل الذي توليا من القيام بشأنك وخدمتك، «وَلَا نَهْرُهُمَا» أي: لا تكلمهما ضجراً صائحاً في وجوههما. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تنفض يدك عليهما، يقال: نَهَرْتُهُ أَنْهَرَهُ نَهْرًا، وانتَهَرْتُهُ انتَهَارًا، بمعنى واحد. وقال ابن فارس: نهرت الرجل وانتهرته، مثل: زجرته. قال المفسرون: وإنما نهى عن أذاهما في الكبر، وإن كان منياً عنه على كل حالة، لأن حالة الكبر يظهر فيها منهما ما يُضجر ويؤذي، وتكثر خدمتهما.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: لئنا لطيفاً أحسن ما تجد. وقال سعيد بن المسيّب: قول العبد المذنب للسيد للفظ.

قوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: ألن لهما جانبك متذلاً لهما من رحمتك إياهما. وخفض الجناح قد شرحناه في [الحجر: ٨٨]. قال عطاء: جناحك: يداك، فلا ترفعهما على والديك. والجمهور يضمنون الذال من «الذل». وقرأ أبو رزين، والحسن، وسعيد بن جبير، وقناة، وعاصم الجحدري، وابن أبي عبله: بكسر الذال. قال الفراء: الذل: أن تتذلل لهما، من الذل، والذل: أن تتذلل ولست بذليل في الخدمة، والذل والذلة: مصدر الذليل، والذل، بالكسر: مصدر الذلول، مثل الدابة والأرض. قال ابن الأنباري: من قرأ «الذل»، بكسر الذال، جعله بمعنى الذل، بضم الذال، والذي عليه كبراء أهل اللغة أن الذل من الرجل: الذليل، والذل من الدابة: الذلول.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَا صَغِيرًا﴾ أي: مثل رحمتها إياي في صغري حتى رباني. وقد ذهب قوم إلى أن هذا الدعاء المطلق نُسَخ منه الدعاء لأهل الشرك بقوله: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالرَّسُولِ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلنَّاسِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، ومقاتل. قال المصنف: ولا أرى هذا نسخاً عند الفقهاء، لأنه عام دخله التخصيص، وقد ذكر قريباً مما قلته ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿رَبِّكَ أَكْبَرُ مِنَّا فِي تَوَسُّعِكُمْ﴾ أي: بما تضمرون من البرّ والمعوق، فمن بدرت منه بادرة وهو لا يضجر المعوق، غفر له ذلك، وهو قوله: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي: طائعين لله، [وقيل]: بآرين، وقيل: توابين، ﴿فَلَيْتَ كَانَ لِلأَرَبِينَ غَنُورًا﴾، في الآواب عشرة أقوال: أحدها: أنه المسلم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنه التواب، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وأبو عبيدة. وقال ابن قتيبة: هو التائب مرة بعد مرة. وقال الزجاج: هو التواب المُفْلِح عن جميع ما نهاه الله عنه، يقال: قد أب يؤوب أوباً، إذا رجع. والثالث: أنه المسبّح، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والرابع: أنه المطيع لله تعالى، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والخامس: أنه الذي يذكر ذنبه في الخلاء، فيستغفر الله منه، قاله عبيد بن عمير. والسادس: أنه المُقْبَل إلى الله تعالى بقلبه وعمله، قاله الحسن. والسابع: المصلّي، قاله قتادة. والثامن: هو الذي يصلّي بين المغرب والعشاء، قاله ابن المنكبر. والتاسع: الذي يصلّي صلاة الضحى، قاله عون العُقيلي. والعاشر: أنه الذي يُذنب سراً ويتوب سراً، قاله السدي.

﴿وَمَا تَدَا أَلْفَرَقِ حَقَّهُ وَالْيَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا بُدْرَ تَبَدْرًا﴾ إِنَّ الْمَدِينَةَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِمْ كُفُورًا ﴿٧٧﴾ وَإِنَّمَا تَرَضَىٰ عَنْهُمْ آيَاتُهُ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ تَجَرَّهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْ سَوَابِغِ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَذَا الْقُرْبَىٰ حَتَّىٰ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه قرابة الرجل من قِبَلِ أبيه وأُمِّه، قاله ابن عباس، والحسن، فعلى هذا في حقهم ثلاثة أقوال. أحدها: أن المراد به: يرْهُم وصِلَتْهُم. والثاني: التَّفَقُّع الواجبة لهم وقت الحاجة. والثالث: الوصية لهم عند الوفاة. والثاني: أنهم قرابة الرسول، قاله علي بن الحسين عليه السلام، والسدي. فعلى هذا، يكون حقهم: إعطاؤهم من الخُمس، ويكون الخطاب للوَلَاة.

قوله تعالى: ﴿وَالْيَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قال القاضي أبو يعلى: يجوز أن يكون المراد: الصدقات الواجبة، يعني: الزكاة، ويجوز أن يكون الحق الذي يُلْزَمُه إعطاؤه عند الضرورة إليه. وقيل: حق المسكين، من الصدقة، وابن السبيل، من الضيافة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْزُرُ تَبْيَرًا﴾ في التبذير قولان: أحدهما: أنه إنفاق المال في غير حق، قاله ابن مسعود^(١)، وابن عباس^(٢). وقال مجاهد: لو أنفق الرجل ماله كله في حق، ما كان مَبْذَرًا، ولو أنفق مُدًّا في غير حق، كان مَبْذَرًا. قال الزجاج: التبذير: النفقة في غير طاعة الله، وكانت الجاهلية تنحر الإبل وتبذّر الأموال تطلب بذلك الفخر والشُّمعة، فأمر الله ﷻ بالنفقة في وجهها فيما يقرب منه. والثاني: أنه الإسراف المتلّف للمال، ذكره الماوردي. وقال أبو عبيدة: المَبْذَرُ: هو المُسْرِف المُفْسِد العاث.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَعْدُونَ كَأَنَّهُمْ إِخْوَانُ الشَّيْطَانِ﴾ لأنهم يوافقونهم فيما يدعونهم إليه، ويشاكلونهم في معصية الله، ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي: جاحداً لِنِعْمَةِ. وهذا يتضمن أن المسرف كفور للنعيم.

قوله تعالى: ﴿رَبَّانًا تَرْضَىٰ عَنْهُمْ﴾ في المشار إليهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم الذين تقدّم ذكْرُهُم من الأقارب والمساكين وأبناء السبيل، قاله الأكثرون، فعلى هذا في علّة هذا الإعراض قولان: أحدهما: الإعسار، قاله الجمهور. والثاني: خوف إنفاقهم ذلك في معصية الله، قاله ابن زيد. وعلى هذا في الرحمة قولان. أحدهما: الرزق، قاله الأكثرون. والثاني: أنه الصلاح والتوبة، هذا على قول ابن زيد. والثاني: أنهم المشركون، فالمعنى: وإما تعرضن عنهم لتكذيبهم، قاله سعيد بن جبير. فتحتمل إذا الرحمة وجهين: أحدهما: انتظار النصر عليهم. والثاني: الهداية لهم. والثالث: أنهم ناس من مُزينة جاؤوا يستحملون رسول الله ﷺ، فقال: ﴿لَا أجد ما أحملكم عليه﴾، فبكوا، فنزلت هذه الآية، قاله عطاء الخراساني. والرابع: أنها نزلت في خبّاب، وبلال، وعمّار، ومهجع، ونحوهم من الفقراء، كانوا يسألون رسول الله ﷺ فلا يجد ما يعطيهم، فيعرض عنهم ويسكت، قاله مقاتل. فعلى هذا القول والذي قبله تكون الرحمة بمعنى الرزق.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا نَبِيْرًا﴾ قال أبو عبيدة: لَيْتًا هَيْئًا، وهو من اليُسْر. وللمفسرين فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه العذبة الحسنة، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد. والثاني: أنه القول الجميل، مثل أن يقول: رزقنا الله وإياك، قاله ابن زيد؛ وهذا على ما تقدّم من قوله. والثالث: أنه المداراة لهم باللسان، على قول من قال: هم المشركون، قاله أبو سليمان الدمشقي؛ وعلى هذا القول، تحتمل الآية النسخ.

﴿وَلَا تَجْمَلْ يَدَكَ مَمْلُوءَةً إِيَّ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ ﴿٣١﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَتَّىٰ إِذَا مَاتُوا لَكُمْ تَرْتُوبَةً وَأَنَّكُمْ لِيَوْمِكُمْ هَٰذَا لَكَاظِمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْمَلْ يَدَكَ مَمْلُوءَةً إِيَّ عُنُقِكَ﴾ سبب نزولها: أن غلاماً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال، إن أمي تسالك كذا وكذا، قال: ﴿ما عندنا اليوم شيء﴾، قال: فتقول لك: اكسني قميصك، قال: فخلع قميصه فدفعه إليه، وجلس في البيت حاسراً، فنزلت هذه الآية، قاله ابن مسعود^(٣). وروى جابر بن عبد الله نحو هذا، فزاد فيه: فأذن بلال للصلاة،

(١) «الأدب المفرد» للبخاري ٥٣٣/١، وابن جرير ٧٣/١٥، والحاكم ٣٦١/٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وخرجه السيوطي في «الدر» ١٧٧/٤ وزاد نسبه إلى الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) «الأدب المفرد» ٥٣٤/١، وابن جرير: ٧٣/١٥.

(٣) نسبه السيوطي في «الدر» ١٧٨/٤ لابن جرير، ولم نقف عليه.

وانتظروه فلم يخرج، فشغل قلوب الصحابة، فدخل عليه بعضهم، فأروه عُرْبَانًا، فنزلت هذه الآية، والمعنى: لا تمسك يدك عن البذل كل الإمساك حتى كأنها مقبوضة إلى عنقك، ﴿وَلَا تَسْطِطْ عَلَى الْبَسَطِ﴾ في الإعطاء والنفقة ﴿فَتَقَعَّدَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك ويلومك الناس، ﴿مَحْسُورًا﴾ قال ابن قتيبة: تَحْسِيرُكَ العَطِيَّةُ وتقطعك كما يَحْسِيرُ السفر البعير فيبقى منقطعاً به. قال الزجاج: المحسور: الذي قد بلغ الغاية في التعب والإعياء، فالمعنى: فتقعد وقد بلغت في الحَمَل على نفسك وحالك حتى صيرت بمنزلة من قد حَسَرَ. قال القاضي أبو يعلى: وهذا الخطاب أريد به غير رسول الله ﷺ، لأنه لم يكن يَدْحِرُ شيئاً لغد، وكان يجوع حتى يشد الحَجَرَ على بطنه، وقد كان كثير من فضلاء الصحابة ينفقون جميع ما يملكون، فلم ينههم الله، لصحة يقينهم، وإنما نهى من يخيف عليه التحسر على ما خرج من يده، فأما من وثق بوعد الله تعالى، فهو غير مراد بالآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء ويضيّق، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُبَادُونَ خَيْرًا يَبِيرًا﴾ حيث أجرى أرزاقهم على ما علم فيه صلاحهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ قد فسره في [الأنعام: ١٥١].

قوله تعالى: ﴿كَانَ خَطَاً كَبِيراً﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «خِطَاءً». مكسورة الخاء ساكنة الطاء مهموزة مقصورة. وقرأ ابن كثير، وعطاء: «خِطَاءً» مكسورة الخاء ممدودة مهموزة. وقرأ ابن عامر: «خَطَأً» بنصب الخاء والطاء وبالهززة من غير مد. وقرأ أبو رزين كذلك، إلا أنه مد، وقرأ الحسن، وقتادة: «خِطَاءً» بفتح الخاء وسكون الطاء مهموز مقصور. وقرأ الزهري، وحמיד بن قيس: «خِطَأً» بكسر الخاء وتنوين الطاء من غير همز ولا مد. قال الفراء: الخِطَاءُ: الإثم، وقد يكون في معنى «خَطَأً» كما قالوا: «وَقَتَّبَ» و«حَدَّرَ» و«نَجَسَ» و«نَجَسَ»، والخِطَاءُ، والخِطَاءُ، ممدود: لغات. وقال أبو عبيدة: خِطِئْتُ وَأَخْطَأْتُ، لغتان. وقال أبو علي: قراءة ابن كثير «خِطَاءً»، يجوز أن تكون مصدر «خاطأ» وإن لم يسمع «خاطأ» ولكن قد جاء ما يدل عليه، أنشد أبو عبيدة:

الـخِـطـاءُ والـخِـطـاءُ والـخِـطـاءُ

وقال الأخفش: خِطِئَ يَخْطِئُ بمعنى «أَذْنَبَ» وليس بمعنى «أَخْطَأَ»، لأن «أَخْطَأَ»: فيما لم يصنعه عمداً، تقول فيما أتيت عمداً: «خِطِئْتُ»، وفيما لم تتعمده: «أَخْطَأْتُ». وقال ابن الأنباري: «الخِطَاءُ»: الإثم، يقال: قد خِطِئَ يَخْطِئُ: إذا أثم، وأَخْطَأَ يُخْطِئُ: إذا فارق الصواب. وقد شرحنا هذا في [يوسف: ٩١] عند قوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخِطِئِينَ﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِثْمًا كَانَ فِتْنَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَنَ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا سُلْطَانًا فَلَا يَتُوبُ فِي الْقَتْلِ إِثْمًا كَانَ مَنصُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ﴾ وقرأ أبو رزين، وأبو الجوزاء، والحسن: بالمد. قال أبو عبيدة: وقد يمد «الزنا» في كلام أهل نجد، قال الفرزدق:

أَبَا حَاضِرٍ مَن يَزُنُّ يُعْرِفُ زِنَاؤَهُ
وَمَن يَشْرِبُ الحُرْطُومَ يُضْبِحُ مُسَكَّرًا^(١)

وقال أيضاً:

أَخْضِبَتْ فِعْلَكَ لِلزَّنَاءِ وَلَمْ تَكُنْ
وقال آخر:

[كانت فريضة ما نقول] كَمَا
كَانَ الزَّنَاءُ فَرِيضَةً الرَّجْمِ^(٢)

(١) «مجاز القرآن» ٣٧٧/١، «الجمهرة» ٣/٢٢٥، «واللسان» و«التاج»: زني.

(٢) «مجاز القرآن» ٣٧٧/١.

(٣) البيت للشائفة الجمدي: «دبوانه» ٢٣٥ طبع المكتب الإسلامي، و«مجاز القرآن» ٣٧٨/١، و«أمالي المرتضى» ٢١٦/١، و«الإبصار» في مسائل الخلاف» ١٦٥، و«اللسان» ٣٦٨/١، و«اللسان»: زني. وقوله: «كان الزنا فريضة الرجم» مقلوب، والأصل: كان الرجم فريضة الزنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قد ذكرناه في [الأنعام: ١٥١].

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا﴾ قال الزجاج: الأجود إدغام الدال مع الجيم، والإظهار جيد بالغ، إلا أن الجيم من وسط اللسان، والدال من طرف اللسان، والإدغام جائز، لأن حروف وسط اللسان تقرب من حروف طرف اللسان. ووليّه: الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه، فإن لم يكن له وليّ، فالسُلطان وليّه. وللمفسرين في السُلطان قولان: أحدهما: أنه الحُجّة، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الوالي، والمعنى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِرُؤَيْبِهِ سُلْطَنًا﴾ ينصره ويُصِفُه في حقّه، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: «فلا يسرف» بالياء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: بالتاء. وفي المشار إليه في الآية قولان: أحدهما: أنه وليّ المقتول. وفي المراد بإسرافه خمسة أقوال: أحدها: أن يقتل غير القاتل، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: أن يقتل اثنين بواحد، قاله سعيد بن جبير. والثالث: أن يقتل أشرف من الذي قُتل، قاله ابن زيد. والرابع: أن يمئّل، قاله قتادة. والخامس: أن يتولى هو قتل القاتل دون السلطان، ذكره الزجاج. والثاني: أن الإشارة إلى القاتل الأول، والمعنى: فلا يسرف القاتل بالقتل تعدياً وظلماً، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكًا﴾ أي: مُعاناً عليه. وفي هاء الكناية أربعة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الولي، فالمعنى: إنه كان منصوراً بتمكينه من القود، قاله قتادة، والجمهور. والثاني: أنها ترجع إلى المقتول، فالمعنى: إنه كان منصوراً بقتل قاتله، قاله مجاهد. والثالث: أنها ترجع إلى الدم، فالمعنى: إن دم المقتول كان منصوراً، أي: مطلوباً به. والرابع: أنها ترجع إلى القتل، ذكر القولين الفراء.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّبَاَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرُؤَيْبِهِ سُلْطَنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مُشْرِكًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْرُوكًا ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ قد شرحناه في [الأنعام: ١٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ وهو عام فيما بين العبد وبين ربه، وفيما بينه وبين الناس. قال الزجاج: كلُّ ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد.

قوله تعالى: ﴿كَانَتْ مَشْرُوكًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: مسؤولاً عنه.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي: أتموه ولا تبخسوا منه.

قوله تعالى: ﴿رَبْرَبًّا بِالْقِسْطَيْنِ﴾ فيه خمس لغات: أحدها: «قسطاس»، بضم القاف وسينين، وهذه قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي بكر عن عاصم هاهنا وفي [الشعراء: ١٨٢]. والثانية: كذلك، إلا أن القاف مكسورة، وهذه قراءة حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم. قال الفراء: هما لفتان. والثالثة: «قسطاص»، بصادين. والرابعة: «قسطاس»، بصاد قبل الطاء وسين بعدها، وهاتان مرويتان عن حمزة. والخامسة: «قسطان»، بالنون. قرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن دريد قال: القسطاس: الميزان، روميّ معرّب، ويقال: «قسطاس» و«قسطاس».

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حَرِّمٌ﴾ أي: ذلك الوفاء خير عند الله وأقرب إليه، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: عاقبة في الجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ قال الفراء: أصل «تَنَفُّ» من القيافة، وهي: تتبّع الأثر، وفيه لفتان: قَفَا يَقْفُو، وقاف يقوف، وأكثر القراء يجعلونها من «قفوت»، فيحرك الفاء إلى الواو ويجزم القاف كما تقول: لا تَدْعُ. وقرأ معاذ القارئ: «لا تَنَفُّ»، مثل: تَنَلُّ، والعرب تقول: قَفْتُ أثره، وقَفُوت، ومثله: عاث وعثا، وقَاعَ الجملُ الناقية، وقعاها: إذا ركبها. قال الزجاج: من قرأ بإسكان الفاء وضم القاف من: قاف يقوف، فكانه مقلوب من قفا يقفو، والمعنى واحد، تقول: قفوت الشيء أفقوه فقواً: إذا تبعت أثره. وقال ابن قتيبة: «لا تنف»، أي: لا تتبّعه الظنون والحَدَسُ، وهو من القفاء مأخوذ، كأنك تقفوا الأمور، أي: تكون في أفتائها وأواخرها تتبّعها، والقائف: الذي

يعرف الآثار ويتبعها، فكانه مقلوب عن القافي. وللمفسرين في المراد به أربعة أقوال: أحدها: لا ترم أحدًا بما ليس لك به علم، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: لا تقل: رأيتُ، ولم تَرَ، ولا سمعتُ، ولم تسمع. رواه عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثالث: لا تُشرك بالله شيئاً، رواه عطاء أيضاً عن ابن عباس. والرابع: لا تشهد بالزور، قاله محمد بن الحنفية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ﴾ قال الزجاج: إنما قال: ﴿كُلُّ﴾، ثم قال: ﴿كَانَ﴾، لأن كلاً في لفظ الواحد، وإنما قال: ﴿أُولَئِكَ﴾ لغير الناس، لأن كلُّ جمع أشرتُ إليه من الناس وغيرهم من الموات، تشير إليه بلفظ: «أولئك» قال جرير:

ذُمَّ الْمَنَازِلُ بَعْدَ مَنزِلَةِ الْوَيْ
وَالعَيْشُ بَعْدَ أَوْلِيكَ الْآيَامِ^(١)

قال المفسرون: الإشارة إلى الجوارح المذكورة، يُسأل العبد يوم القيامة فيما إذا استعملها، وفي هذا زجر عن النظر إلى ما لا يحلُّ، والاستماع إلى ما يحرم، والعزم على ما لا يجوز.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرِحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْبِلَادَ طُولًا﴾ ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَرْحَمَ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْمَلْ مَعَ اللَّهِ بِمَا هَمَزَ فَتَلْفُظَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرِحًا﴾ وقرأ الضحاک، وابن يعمر: «مَرِحًا» بكسر الراء، قال الأخفش: والكسر أجود، لأن «مَرِحًا» اسم الفاعل؛ قال الزجاج: وكلاهما في الجودة سواء، غير أن المصدر أؤكد في الاستعمال، تقول: جاء زيد ركضاً، وجاء زيد راكضاً، فراكضاً أؤكد في الاستعمال، لأنه يدل على توكيد الفعل، وتأويل الآية: لا تمش في الأرض مختلاً فخوراً، والمرح: الأشر والبطر. وقال ابن فارس: المرح: شدة الفرح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لن تقطعها إلى آخرها. والثاني: لن تنفذها وتنقُبها. قال ابن عباس: لن تخرق الأرض يكبرك، ولن تبلغ الجبال طولاً بعظمتك. قال ابن قتيبة: والمعنى: لا ينبغي للمعجز أن يتدخَّل ويستكبر.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «سَيِّئُهُ» منوناً غير مضاف، على معنى: كان خطيئة، فعلى هذا يكون قوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى المنهية عنه من المذكور فقط. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «سَيِّئُهُ» مضافاً مذكراً، فتكون لفظه «كل» يُشار بها إلى سائر ما تقدم ذكره. وكان أبو عمرو لا يرى هذه القراءة. قال الزجاج: وهذا غلط من أبي عمرو، لأن في هذه الأفاصيص سَيِّئًا وحسنًا، وذلك أن فيها الأمر يبرُّ الرالدين، وإتناء ذي القربى، والوفاء بالعهد، ونحو ذلك، فهذه القراءة أحسن من قراءة مَنْ نصب السَيِّئَةَ، وكذلك قال أبو عبيدة: تدبرت الآيات من قوله تعالى: ﴿وَقَصَّ رَبُّكَ...﴾ فوجدت فيها أموراً حسنة. وقال أبو علي: من قرأ «سَيِّئُهُ» رأى أن الكلام انقطع عند قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، وأن قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ لا حُسْنَ فيه^(٣).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَرْحَمَ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ يشير إلى ما تقدم من الفرائض والسنن، ﴿مِنَ الْحِكْمَةِ﴾، أي: من الأمور المُحكَّمة والأدب الجامع لكل خير. وقد سبق معنى «المدحور» [الأعراف: ٤١٨].

﴿أَفَأَسْفَحْتُمْ رُءُوسَ الْيَتِيمِ وَأَخَذْتُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنشَاءً لِّئَلَّا تُقَالُوا قَوْلًا عَظِيمًا﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿أَفَأَسْفَحْتُمْ رُءُوسَ الْيَتِيمِ﴾ قال مقاتل: نزلت في مشركي العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الرحمن. وقال أبو عبيدة: ومعنى «أفأسفحتم» : اختصمكم. وقال المفضل: أخلصكم. وقال الزجاج: اختار لكم صفوة الشيء. وهذا توبيخ للكفار، والمعنى: اختار لكم البنين دونه، وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه، فاخصمكم بالأعلى وجعل نفسه الأدون؟!

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾^(٥)

(١) «ديوانه» ٥٥١، «القائض» ٢٥٦/١، «الطبري» ٨٧/١٥، «القرطبي» ٢٦٠/١٠.

(٢) أي: ليس معطوفاً على الحسن في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، بل هو نهي عن تتبع أثر ما لا تعلم، فيكون ابتداء كلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ معنى التصريف هاهنا: التبیین، وذلك أنه إنما يصرف القول ليبيّن. وقال ابن تيبة: «صرفنا» بمعنى: وجهنا، وهو من قولك: صرفت إليك كذا، أي: عدلت به إليك، وشُدّد للتكثير، كما تقول: فتَحَّتْ الأبواب.

قوله تعالى: ﴿يَلِدُكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «يَلِدُكُمْ» مشدّد. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «يَلِدُكُمْ» مخفف، وكذلك قرؤوا في [الفرقان: ٥٠]. والتذكّر: الاتعاظ والتدبر. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تصرفنا وتذكرنا ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ قال ابن عباس: يفرون من الحق، ويتبعون الباطل.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَقُوا إِلَيَّ مِنَ الْمَآءِ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ سَبَّحْتَهُ وَتَكَلَّمَ عَنَّا يَقُولُونَ عَلْوًا كَبِيرًا ﴿١٦﴾ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٧﴾﴾
قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «يقولون» بالياء. وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم: «يقولون» بالياء.

قوله تعالى: ﴿إِذَا لَبِثُوا إِلَيَّ مِنَ الْمَآءِ سَبِيلًا﴾ فيه قولان. أحدهما: لا يتقوا سبيلاً إلى ممانعته وإزالة ملكه، قاله الحسن، وسعيد بن جبير. والثاني: لا يتقوا سبيلاً إلى رضاه، لأنهم دونه، قاله قتادة.
قوله تعالى: ﴿عَنَّا يَقُولُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر، وحفص عن عاصم: «يقولون» بالياء. وقرأ حمزة، والكسائي: بالياء.

قوله تعالى: ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «تسبح» بالياء. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «يسبح» بالياء. قال الفراء: وإنما حسنت «الياء» هاهنا، لأنه عدد قليل، وإذا قلّ العدد من المؤنث والمذكر، كانت الياء فيه أحسن من التاء، قال سفيان في المؤنث القليل: ﴿وَقَالَ يَسْوَةٌ﴾ [يوسف: ٢٠]، وقال في المذكر: ﴿إِذَا اسْتَسْقَى الْأَشْهُرُ الْكُرْمُ﴾ [التوبة: ٥٠]. قال العلماء: والمراد بهذا التسبيح: الدلالة على أنه الخالق القادر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ﴾ «إن» بمعنى «فما». وهل هذا على إطلاقه، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه على إطلاقه، فكل شيء يسبحه حتى الثوب والطعام وصرير الباب، قاله إبراهيم النخعي. والثاني: أنه عام يراذ به الخاص. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كل شيء في الروح، قاله الحسن، وقاتدة، والضحاك. والثاني: أنه كل ذي روح، وكل نام من شجر أو نبات؛ قال عكرمة: الشجرة تسبح، والأسطوانة لا تسبح. وجلس الحسن على طعام فقدموا الخوان، فقيل له: أيسبح هذا الخوان؟ فقال: قد كان يسبح مرة. والثالث: أنه كل شيء لم يغيّر عن حاله، فإذا تغيّر انقطع تسبيحه؛ روى خالد بن معدان عن المقدم بن معدني كرب قال: إن التراب ليسبح ما لم يبتل، فإذا ابتل ترك التسبيح، وإن الورقة تسبح ما دامت على الشجرة، فإذا سقطت تركت التسبيح، وإن الثوب ليسبح ما دام جديداً، فإذا تومض ترك التسبيح. فأما تسبيح الحيوان الناطق، فمعلوم، وتسبيح الحيوان غير الناطق، فجازز أن يكون بصوته، وجازز أن يكون بدلالته على صانعه. وفي تسبيح الجمادات ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تسبيح لا يعلمه إلا الله. والثاني: أنه خضوعه وخشوعه لله. والثالث: أنه دلالة على صانعه، فيوجب ذلك تسبيح مُبْصِرِهِ. فإن قلنا: إنه تسبيح حقيقة، كان قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لجميع الخلق؛ وإن قلنا: إنه دلالة على صانعه، كان الخطاب للكفار، لأنهم لا يستدلون، ولا يعتبرون. وقد شرحنا معنى «الحليم» و«الغفور» في [البقرة: ٢٢٥].

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْمِعْ يَنبَغُ عَلَيْكَ مِنْهُ ذِكْرٌ لِيَذَرُوكَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَلَغَتْ فِي الْقُرْآنِ رَعْدًا وَتُؤَلِّقُ عَلَى أذُنَيْهِمْ نَوْجًا ﴿١٦﴾ مَنُّنٌ أَعْلَىٰ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَعْتَمِدُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿١٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَقَالُوا أَوَآدَاكُمْ أَوْآدُنَا وَعَدْنَا أَنَا لَمَبْرُؤُونَ خَلَقْنَا جَدِيدًا ﴿١٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَابَةً أَوْ حِدِيدًا ﴿٢٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْصِفُونَ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْتًا وَمَقُولُوكُمْ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِمْ وَتَقُولُونَ إِن لَّبِثْنَا إِلَّا نَجْوَىٰ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الحجاب: هو الأكنة على قلوبهم، قاله قتادة. والثاني: أنه حجاب يستره فلا ترونه؛ وقيل: إنها نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن؛ قال الكلبي: وهم أبو سفيان، والنضر بن الحارث، وأبو جهل، وأم جميل امرأة أبي لهب، فحجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن، فكانوا يأتونه ويمرؤون به، ولا يرونه. والثالث: أنه منْعُ الله ﷻ إياهم عن آذاه، حكاه الزجاج. وفي معنى ﴿مَسْتُورًا﴾ قولان: أحدهما: أنه بمعنى ساتر؛ قال الزجاج: وهذا قول أهل اللغة. قال الأخفش: وقد يكون الفاعل في لفظ المفعول، كما تقول: إنك مشووم علينا، وميمون علينا، وإنما هو شائم ويامن، لأنه من «شَأَمَهُمْ» و«يَمَنَّهُمْ». والثاني: أن المعنى: حجاباً مستوراً عنكم لا ترونه، ذكره الماوردي. وقال ابن الأنباري: إذا قيل: الحجاب: هو الطبع على قلوبهم، فهو مستور عن الأبصار، فيكون «مستوراً» باقياً على لفظه.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ قد شرحناه في [الأنعام: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَلِإِنَّا ذَكَّرْتُمْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَكُمْ﴾ يعني: قلت: لا إله إلا الله، وأنت تتلو القرآن ﴿وَلَوْ أَنَّ عَلَى الَّذِينَ يَدْعُونَ أَبْرَاحَ بْنَ عَلِيٍّ﴾ أبو عبيدة: أي: على أعقابهم، ﴿نُفُورًا﴾ وهو: جمع نافر، بمنزلة قاعد وقعود، وجالس وجلوس. وقال الزجاج: تحتل مذهبيين: أحدهما: المصدر، فيكون المعنى: ولأولاً نافرين نفوراً. والثاني: أن يكون «نفوراً» جمع نافر. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الشياطين، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم المشركون، وهذا مذهب ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظَلُّوا بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ قال المفسرون: أمر رسول الله ﷺ علياً عليه السلام أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين، ففعل ذلك، ودخل عليهم رسول الله ﷺ فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى التوحيد، وكانوا يستمعون ويقولون فيما بينهم: هو ساحر، هو مسحور، فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ أَظَلُّوا بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾، أي: يستمعونه، والباء زائدة. ﴿إِنَّهُمْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ قال أبو عبيدة: هي مصدر من «ناجَيْتُ» واسم منها، فوصف القوم بها، والعرب تفعل ذلك، كقولهم: إنما هو عذاب، وأنتم غم، فجاءت في موضع «متناجين». وقال الزجاج: والمعنى: وإذ هم ذرور نجوى، وكانوا يستمعون من رسول الله ﷺ، ويقولون بينهم: هو ساحر، وهو مسحور، وما أشبه ذلك من القول.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: أولئك المشركون ﴿إِن تَنْصُرْتَنَا﴾ أي: ما تتبعون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الذي سحر فذهب بعقله، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: مخدوعاً مغروراً، قاله مجاهد. والثالث: له سحر، أي: رثة؛ وكل دابة أو طائر أو بشر يأكل فهو: مسحور ومسحر، لأن له سحراً، قال لبيد:

فإن نسألينا فيم نخن فلئنا
عصافير من هذا الأنام المسحر^(١)

وقال امرؤ القيس:

أرانا مُرْصَلِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ
وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَالسَّرَابِ^(٢)

أي: نخن، لأن أهل السماء لا يأكلون، فأراد أن يكون ملكاً. فعلى هذا يكون المعنى: إن تتبعون إلا رجلاً له سحر، خلقه الله كخلقكم، وليس بملك، وهذا قول أبي عبيدة.

قال ابن قتيبة: والقول قول مجاهد، [أي: مخدوعاً]، لأن السحر حيلة وخديعة، ومعنى قول لبيد «المسحر»: المعلل، وقول امرئ القيس: «وَنُسْحَرُ» أي: نُعلل، وكأننا نُخدع، والناس يقولون: سحرنتي بكلامك، أي: خدعتني، ويدل عليه قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾، لأنهم لو أرادوا رجلاً ذا رثة، لم يكن في ذلك مثلاً ضربه، فلما أرادوا مخدوعاً - كأنه بالخديعة سحر - كان مثلاً ضربه، وكانهم ذهبوا إلى أن قوما يعلمونه ويخدعونهم.

(١) «ديوانه» ٥٦، و«مجاز القرآن» ٣٨١/١، و«البيان والتبيين» ١٨٩/١، و«الحیوان» ٢٢٩/٥، و«الطبري» ٩٦/١٥، و«القرطبي» ٣٧٣/١٠، و«اللسان»: سحر.

(٢) «ديوانه» ٩٧، و«مجاز القرآن» ٣٨٢/١، و«البيان والتبيين» ١٨٩/١، و«الحیوان» ٢٢٩/٥، و«الطبري» ٩٦/١٥، و«إسماعيل المرتضى» ٥٧٧/١، و«اللسان»: سحر. وفي «الديوان»: «أرانا موضعين... والإيضاح: ضرب من السير السريع.

قال المفسرون: ومعنى ﴿صَرَبُوا لَكَ الْأَمْتَالَ﴾ بَيَّنَّا لَكَ الْأَشْيَاءَ، حتى شَبَّهُوا السَّاحِرَ وَالشَّاعِرَ وَالْمَجْنُونَ ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الحق، ﴿فَلَا يَسْتَلِيمُونَ سَبِيلًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يجدون سبيلاً إلى تصحيح ما يعيبونك به. والثاني: لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى، لأننا طبعنا على قلوبهم. والثالث: لا يأتون سبيل الحق، لثقله عليهم؛ ومثله قولهم: لا أستطيع أن أنظر إلى فلان، يعنون: أنا مِبْغُضٌ لَهُ، فنظري إليه يثقل، ذكرهن ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا﴾ قرأ ابن كثير: «أَيْدَا» بهمزة ثم يأتي بياء ساكنة من غير مدِّ، «أَيْدَا» مثله، وكذلك في كل القرآن. وكذلك روى قالون عن نافع، إلا أن نافعاً كان لا يستهضم في «أَيْدَا»، كان يجعل الثاني خبراً في كل القرآن، وكذلك مذهب الكسائي، غير أنه يهزم الأولى همزتين. وقرأ عاصم، وحزمة بهمزتين في الحرفين جميعاً، وقرأ ابن عامر: «إِذَا كُنَّا» بغير استهظام بهمزة واحدة «أَتْنَا» بهمزتين يمد بينهما مدة.

قوله تعالى: ﴿رُفَاتًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه التراب، ولا واحد له، فهو بمنزلة الدُّقَاقِ وَالْحُطَامِ، قاله الفراء، وهو مذهب جاهد. والثاني: أنه العظام ما لم تتحطم، والرُّفَاتُ: الحُطَامُ، قاله أبو عبيدة. وقال الزجاج: الرُّفَاتُ: التراب. والرُّفَاتُ: كل شيء حُطِمَ وكُسِرَ، و﴿حَلَقًا جَبِيدًا﴾ في معنى مجدداً.

قوله تعالى: ﴿أَوْ حَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الموت، قاله ابن عمر، وابن عباس، والحسن، والأشكون. والثاني: أنه السماء والأرض والجبال، قاله مجاهد. والثالث: [أنه] ما يكبر في صدوركم، من كل ما استعظموه من خلق الله تعالى، قاله قتادة. فإن قيل: كيف قيل لهم: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَبِيدًا﴾ وهم لا يقدرُونَ على ذلك؟ فنه جوابان: أحدهما: إن قدرتم على تغيير حالاتكم، فكونوا حجارة أو أشد منها، فإننا نمتكم، وننقذ أحكامنا فيكم، ومثل هذا قولك للرجل: اصعد إلى السماء فإنني لاحقك. والثاني: تصوِّروا أنفسكم حجارة أو أصلب منها، فإننا سنبيدكم، قال الأحوص:

إِذَا كُنْتَ عَزَاهَاً عَنِ اللَّيْهِ وَالصُّبِي

معناه: فتصوِّر نفسك حَجَرًا، وهؤلاء قوم اعترفوا أن الله خالقهم، وجعلوا البعث، فأعلموا أن الذي ابتدأ خلقهم هو الذي يحييهم.

قوله تعالى: ﴿فَسَيَنْصَرُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾ قال قتادة: يحركونها تكذيباً واستهزاءً. قال الفراء: يقال: أنغض رأسه: إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل. وقال ابن قتيبة: المعنى: يحركونها، كما يحرك الأيس من الشيء والمسبعتُ [له] رأسه، يقال: نَغَضْتُ يَمِيْنَهُ إِذَا تَحَرَّكَ.

قوله تعالى: ﴿وَيُثْرُونَكَ مَقَىٰ هُوَ﴾ يعنون البعث ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب. ثم بيَّن متى يكون فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ يعني: من القبور بالنداء الذي يُسمِعكم، وهو النفخة الأخيرة ﴿فَسَنَجِيئُونَ﴾ أي: تجيئون. قال مقاتل: يقوم إسماعيل على صخرة بيت المقدس يدعو أهل القبور في قرن، فيقول: أيتها العظام البالية، وأيتها اللحوم المتمزقة، وأيتها الشعور المتفرقة، وأيتها المروق المتقطعة، اخرجوا إلي فصل القضاء لتُجَزَّوا بأعمالكم، فيسمعون الصوت، فيسعون إليه. وفي معنى ﴿يَحْكُدُوهُ﴾ أربعة أقوال: أحدها: بأمره، قاله ابن عباس، وابن جريج، وابن زيد. والثاني: يخرجون من القبور وهم يقولون: سبحانك وبحمدك، قاله سعيد بن جبير. والثالث: أن معنى ﴿يَحْكُدُوهُ﴾: بمعرفته، وطاعته، قاله قتادة: قال الزجاج: تستجيبون مُقَرِّين أنه خالقكم. والرابع: تجيئون بحمد الله لا بحمد أنفسكم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَيَنْظُرُونَ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في هذا الظن قولان: أحدهما: أنه بمعنى اليقين. والثاني: أنه على أصله. وأين ينظرون أنهم لبثوا قليلاً؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بين التفخيتين، ومقداره أربعون سنة، ينقطع في ذلك

(١) البيت في «الأغاني» ١٥/١٠٠، و«طبقات ابن سلام» ٥٣٩، و«الشعر والشعراء» ٥٠١، و«زهر الآداب» ١/٣٥٠، و«مصارع المشاق» ٦٢، ورجل مهزاة وهزاهة: وهو الذي لا يقرب النساء ويتقبض عنهن ويعرض، من زهو أو كبير، أو ألق من الضعف والاستكانة لعين أو سطرتهن على الرجال، وصخرة جلمد: شديدة مجتمعة صلبة.

العذاب عنهم، فيرون لبثهم في زمان الراحة قليلاً، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: في الدنيا، لعلمهم بطول اللبث في الآخرة، قاله الحسن. والثالث: في القبور، قاله مقاتل. فعلى هذا إنما قصر اللبث في القبور عندهم، لأنهم خرجوا إلى ما هو أعظم عذاباً من عذاب القبور. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية خطاب للمؤمنين، لأنهم يجيبون المنادي وهم يحمدون الله على إحسانه إليهم، ويستقلون مدة اللبث في القبور، لأنهم كانوا غير معذبين.

﴿وَقُلْ لِمَا دَى يَقُولُوا أَنَّى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِمَا دَى يَقُولُوا أَنَّى هِىَ أَحْسَنُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن المشركين كانوا يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بمكة، بالقول والفعل، فشكوا ذلك إلى رسو الله ﷺ، فنزلت هذه الآية. قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن رجلاً من الكفار شتم عمر بن الخطاب، فهم به عمر رضي الله عنه، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل؛ والمعنى: وقل لعبادي المؤمنين يقولوا الكلمة التي هي أحسن. واختلفوا فيمن تقال له هذه الكلمة على قولين: أحدهما: أنهم المشركون، قال الحسن: تقول له: يهديك الله، وما ذكرنا من سبب نزول هذه الآية يؤيد هذا القول. وذهب بعضهم إلى أنهم أمروا بهذه الآية بتحسين خطاب المشركين قبل الأمر بقتالهم، ثم نسخت هذه الآية بآية السيف. والثاني: أنهم المسلمون، قاله ابن جرير. والمعنى: وقل لعبادي يقول بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاوراة والمخاطبة. وقد روى مبارك عن الحسن قال: «التي هي أحسن» أن يقول له مثل قوله، ولكن يقول له: يرحمك الله، ويغفر الله لك. قال الأخفش: وقوله: ﴿يَقُولُوا﴾ مثل قوله: ﴿يُؤَيِّمُوا الصَّلَاةَ﴾، وقد شرحنا ذلك في سورة إبراهيم: ٤٣١.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يُفسد ما بينهم، والعدو المبين: الظاهر العداوة.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ فيمن خوطب بهذا قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: ﴿إِنْ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ﴾ فينجيكم من أهل مكة، ﴿إِنْ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فيسلطهم عليكم، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: إن يشأ يرحمكم بالتوبة، أو يعذبكم بالإقامة على الذنوب، قاله الحسن. والثاني: أنهم المشركون. ثم في معنى الكلام قولان. أحدهما: إن يشأ يرحمكم، فيهديكم للإيمان، أو إن يشأ يعذبكم، فيميتكم على الكفر، قاله مقاتل. والثاني: أنه لما نزل اللقط بالمشركين فقالوا: ﴿رَبَّنَا كَيْفَ عَنَّا الْمَدَائِكُ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الدخان: ١١٢] قال الله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من الذي يؤمن، ومن [الذي] لا يؤمن، ﴿إِنْ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ﴾ فيكشف القحط عنكم ﴿أَوْ إِنْ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فيتركه عليكم، ذكره أبو سليمان الدمشقي. قال ابن الأنباري: و«أو» هاهنا دخلت لسعة الأمرين عند الله تعالى، وأنه لا يرده عنهما، فكانت ملحقة ب«أو» المبيحة في قولهم: جالس الحسن، أو ابن سيرين، يعنون: قد وسعنا لك الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: كفيلاً تُؤخذ بهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: حافظاً وريئاً، قاله الفراء. والثالث: كفيلاً بهدایتهم وقادراً على إصلاح قلوبهم، ذكره ابن الأنباري. وذهب بعض المفسرين إلى أن هذا منسوخ بآية السيف.

﴿وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنه خالقهم، فهدى من شاء، وأضل من شاء، وكذلك فضل بعض النبيين على بعض، وذلك عن حكمة منه وعلم، فخلق آدم بيده، ورفع إدريس، وجعل الذرية لنوح، واتخذ إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وجعل عيسى روحاً، وأعطى سليمان ملكاً جسيماً، ورفع محمداً ﷺ فوق السموات، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ويجوز أن يكون المفضلون أصحاب الكتب، لأنه ختم الكلام بقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾. وقد شرحنا معنى «الزبور» في سورة [النساء: ١٦٣].

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا جُوعِيلاً ﴿٥٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن نفرأ من العرب كانوا يعبدون نفرأ من الجن، فأسلم الجن والنفر من العرب لا يشعرون، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، روي عن ابن مسعود. والثاني: أن المشركين كانوا يعبدون الملائكة، ويقولون: هي تشفع لنا عند الله، فلما ابتلوا بالقحط سبع سنين، قيل لهم: «ادعوا الذين زعمتم»، قاله مقاتل، والمعنى: قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة، ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ له إلى غيركم.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ في المشار إليهم به «أولئك» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الجن الذين أسلموا^(١). والثاني: الملائكة. وقد سبق بيان القولين. والثالث: أنهم المسيح، وعزير، والملائكة، والشمس، والقمر، قاله ابن عباس. وفي معنى «يدعون» قولان: أحدهما: يعبدون، أي: يدعونهم آلهة، وهذا قول الأكثرين. والثاني: أنه بمعنى يتضرعون إلى الله في طلب الوسيلة. وعلى هذا يكون قوله: «يدعون» راجعاً إلى «أولئك»، ويكون قوله: «يبتغون» تاماً للكلام. وعلى القول الأول: يكون «يدعون» راجعاً إلى المشركين، ويكون قوله: «يبتغون» وصفاً له «أولئك» مستأنفاً. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن: «تدعون» بالثاء. قال ابن الأنباري: فعلى هذا، الفعل مردود إلى قوله: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾. ومن قرأ «يدعون» بالياء، قال العرب: تنصرف من الخطاب إلى الغيبة إذا أمن اللبس. ومعنى «يدعون»: يدعونهم آلهة. وقد فسرنا معنى «الوسيلة» في [المائدة: ٣٥]. وفي قوله: ﴿أَنَّهُمْ آوَيْنَ﴾ قولان ذكرهما الزجاج: أحدهما: أن يكون «أيهم» مرفوعاً بالابتداء، وخبره «أقرب»، ويكون المعنى: يطلبون الوسيلة إلى ربهم، ينظرون أيهم أقرب إليه فيتوسلون إلى الله به. والثاني: أن يكون «أيهم أقرب» بدلاً من الواو في «يبتغون»، فيكون المعنى: يتغني أيهم هو أقرب الوسيلة إلى الله، أي: يتقرب إليه بالعمل الصالح.

﴿وَلَنْ يَنْزِلَ إِلَهُكُمْ إِلَّا أَنْ تَهْتِكُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْزِلَ إِلَهُكُمْ إِلَّا أَنْ تَهْتِكُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ «إن» بمعنى «ما»، والقرية الصالحة هلاكها بالموت، والعاصية بالعذاب، والكتاب: اللوح المحفوظ، والمسطور: المكتوب.

﴿وَمَا مَنَّ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَّ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِالْآيَاتِ﴾ سبب نزولها فيه قولان: أحدهما: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعوا^(٢)، فقبل له: إن شئت أن تستاني بهم لعلنا نجتبي منهم، وإن شئت نؤتيمهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من كان قبلهم، قال: «لا، بل أستاني بهم»، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(٣). والثاني: قد ذكرناه عن الزبير في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]، ومعنى الآية: وما مَنَّنا إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيب الأولين، يعني: أن هؤلاء سألوا الآيات التي استوجب بتكذيبها الأولون العذاب، فلم يرسلها لئلا يكذب بها هؤلاء، فيهلكوا^(٤) كما هلك أولئك، وسئت الله في الأمم أنهم إذا سألوا الآيات ثم كذبوا بها عذبهم.

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ﴾ قال ابن قتيبة: أي: بيئته، يريد: مُبصراً بها. قال ابن الأنباري: ويجوز أن

(١) روى البخاري ٣٠١/٨، ومسلم ٢٣٢٦/٤ من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يَدْعُونَ يَدْعُونَ إِلَى نَهْوِهِ الرَّبِّ عَلَيْهِ قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ، فَاسْلَمَ الْجِنُّ وَتَمَسَكَ هَوْلًا يَدِينُهُمْ. قال الحافظ ابن حجر: أي: استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن، والجن لا يرضون بذلك لكونهم أسلموا، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة. وروى الطبري من وجه آخر عن ابن مسعود، فزاد فيه: والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، وهذا هو المعتمد في تفسير هذه الآية. اهـ.

(٢) في الأصل: فيزرعون.

(٣) «مسند أحمد» ٩٦/٤ وإسناده صحيح، وفيه: «وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعون» بدل «فيزرعون». وذكره ابن كثير في «التفسير» ٤٧/٣، و«التاريخ» ٣/٥٢ وقال: وهكذا رواه السائي عن جرير.

(٤) في الأصل: فيهلكون.

تكون مبصرة، ويصلح أن يكون المعنى: مُبصر مشاهدوها، فنسب إليها فعل غيرها تجوؤاً، كما يقال: لا أرىك هاهنا، فأدخل حرف النهي على غير المنهي عنه، إذ المعنى: لا تحضر هاهنا، حتى إذا جئت لم أرك فيه. ومن قرأ: «مبصرة» بفتح الميم والصاد، فمعناه: المبالغة في وصف الناقة بالتيان، كقولهم: «الولد مجبنة».

قوله تعالى: ﴿فَقَلَّمُوا بِهَا﴾ قال ابن عباس: فجحذوا بها. وقال الأخفش: بها كان ظلمهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا رُئِيَ بِالْأَيْدِي إِلَّا تَهْوِيفًا﴾ أي: نخوف العباد ليتعظوا. وللمفسرين في المراد بهذه الآيات أربعة أقوال: أحدها: أنها الموت الذريع^(٢)، قاله الحسن. والثاني: معجزات الرسل جعلها الله تعالى تخويفاً للمكذبين. والثالث: آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي. والرابع: تقلب أحوال الإنسان من صغر إلى شباب، ثم إلى كهولة، ثم إلى مشيب، ليعتبر بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره، ذكر هذه الأقوال الثلاثة الماودي، ونسب القول الأخير منها إلى إمامنا أحمد رحمه الله.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أُرْتَبِكُ إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُوحِيهِمْ مَّا بُرِيدُ لَهُمْ إِلَّا لَعْنَتَنَا كَبِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أحاط علمه بالناس، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الربيع بن أنس. وقال مقاتل: أحاط علمه بالناس، يعني: أهل مكة، أن يفتحها لرسوله ﷺ. والثاني: أحاطت قدرته بالناس، فهم في قبضته، قاله مجاهد. والثالث: حال بينك وبين الناس أن يقتلوك، لتبلغ رسالته، قاله الحسن، وقتادة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أُرْتَبِكُ إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ في هذه الرؤيا قولان: أحدهما: أنها رؤيا عين، وهي ما رأى ليلة أسري به من العجائب والآيات. روى عكرمة عن ابن عباس قال: هي رؤيا عين رآها ليلة أسري به، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، ومسروق، والشنخي، وقتادة، وأبو مالك، وأبو صالح، وابن جريج، وابن زيد في آخرين. فعلى هذا يكون معنى الفتنة: الاختبار، فإن قوماً آمنوا بما قال، وقوماً كفروا. قال ابن الأنباري: المختار في هذه الرؤية أن تكون يقظة، ولا فرق بين أن يقول القائل: رأيت فلاناً رؤية، ورأيت رؤيا، إلا أن الرؤية يقل استعمالها في المنام، والرؤيا يكثر استعمالها في المنام، ويجوز كل واحد منهما في المعنيين. والثاني: أنها رؤيا منام^(٣). ثم فيها قولان: أحدهما: أن رسول الله ﷺ كان قد أرى أنه يدخل مكة، هو وأصحابه، وهو يومئذ بالمدينة، فحجل قبل الأجل، فردّه المشركون، فقال أناس: قد ردّد، وكان حدثنا أنه سيدخلها، فكان رجوعهم ففتنهم، رواه العوفي عن ابن عباس^(٤). وهذا لا ينافي حديث المعراج، لأن هذا كان بالمدينة، والمعراج كان بمكة. قال أبو سليمان الدمشقي: وإنما ذكره ابن عباس على وجه الزيادة في الإخبار لنا أن المشركين بمكة افتتنوا برؤيا عينه، والمنافقين بالمدينة افتتنوا برؤيا نومه. والثاني: أنه أرى بني أمية على المنابر، فساء ذلك، فقيل له: إنها الدنيا يُعْطَرُونَهَا، فسُرِّي عنه^(٥). فالفتنة هاهنا: البلاء، رواه علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب، وإن كان مثل هذا لا يصح، ولكن قد ذكره عامة

(١) وما روي من أنه ﷺ قال: «الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة ميخلة محزنة» فهو ضعيف، رواه أبو يعلى، والبيزار، قال المناوي: قال الزين العراقي، وتبعه الهيثمي: وفيه عطية العوفي، وهو ضعيف.

(٢) الموت الذريع: أي: السريع الفاشي، لا يكاد الناس يتدافعون.

(٣) روى البخاري ٣٠١/٨ من ابن عباس رضي الله عنه «وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أُرْتَبِكُ إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ» قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به. قال الحافظ ابن حجر ٣٠٢/٨: زاد سعيد بن منصور عن سفيان في آخر الحديث: وليست رؤيا منام. وقال أبو جعفر بن جرير الطبري ١١٣/١٥: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني به رؤيا رسول الله ﷺ ما أرى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس ليلة أسري به. قال: وإنما قلنا: ذلك أولى بالصواب، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن هذه الآية إنما نزلت في ذلك، وإياه عني الله ﷻ بها. فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وما جعلنا رؤياك التي أرىك ليلة أسرينا بك من مكة إلى بيت المقدس، إلا فتنة للناس، يقول: إلا بلاء للناس الذين ارتدوا عن الإسلام لما أخبروا بالرؤيا التي رآها عليه الصلاة والسلام، وللمشركين من أهل مكة الذين ازدادوا لسماحهم ذلك من رسول الله ﷺ تمادياً في غيهم، وكفراً إلى كفرهم.

(٤) والعوفي ضعيف. قال ابن كثير ٤٩/٣: وهو غريب ضعيف.

المفسرين. وروى ابن الأنباري أن سعيد بن المسيب قال: رأى رسول الله ﷺ يوماً على منابر، فسُق ذلك عليه، وفيه نزل: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾، قال: ومعنى قوله: ﴿إِلَّا بِلَاءَ لِلنَّاسِ﴾: قال ابن الأنباري: فمن ذهب إلى أن الشجرة رجال رآهم النبي ﷺ في منامه يصعدون على المنابر، احتج بأن الشجرة يكتن بها عن المرأة لتأنيها، وعن الجماعة لاجتماع أغصانها. قالوا: ووقعت اللعنة بهؤلاء الذين كنى عنهم بالشجرة. قال المفسرون: وفي الآية تقديم وتأخير، تقديره: وما جعلنا الرؤيا والشجرة إلا فتنة للناس. وفي هذه الشجرة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها شجرة الرُّقُوم، رواه عكرمة عن ابن عباس^(١)، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومسروق، والنخعي، والجمهور. وقال مقاتل: لما ذكر الله تعالى شجرة الرُّقُوم، قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمداً يخوفكم بشجرة الرُّقُوم، أستم تعلمون أن النار تحرق الشجر؟ ومحمد يزعم أن النار تنبت الشجر، فهل تدرون ما الرُّقُوم؟ فقال عبد الله بن الزُّبَيْرِ: إن الرُّقُوم بلسان بَرَيْرٍ: التمر والرُّبْد، فقال أبو جهل: يا جارية ابغينا تمراً وُربداً، فجاءته به، فقال لمن حوله: تَرَقُّمُوا من هذا الذي يخوفكم به محمداً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾. قال ابن قتيبة: كانت فتنتهم بالرؤيا قولهم: كيف يذهب إلى بيت المقدس، ويرجع في ليلة؟ وبالشجرة قولهم: كيف يكون في النار شجرة؟^(٢). وللعلماء في معنى «الملعونة» ثلاثة أقوال: أحدها: المذمومة، قاله ابن عباس. والثاني: الملعون أكلها؛ ذكره الزجاج وقال: إن لم يكن في القرآن لعننا ففيه لعن أكلها؛ قال: والعرب تقول لكل طعام مكروه وضار: ملعون؛ فاما قوله: ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ فالمعنى: التي ذكرت في القرآن، وهي مذكورة في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الرُّقُومِ ﴿٣١﴾ طَعَامٌ الْأَشْيَرِ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤]. والثالث: أن معنى «الملعونة»: المُبْعَدَةُ عن منازل أهل الفضل، ذكره ابن الأنباري. والقول الثاني: أن الشجرة الملعونة هي التي تلتوي على الشجر، يعني: الكُشُوثي^(٣)، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أن الشجرة كناية عن الرجال على ما ذكرنا عن سعيد بن المسيب.

قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُهُمْ﴾ قال ابن الأنباري: مفعول «بخوفهم» محذوف، تقديره: ونخوفهم العذاب، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: فما يزيدهم التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا﴾؛ وقد ذكرنا معنى الطغيان في [البقرة: ١٥]، وذكرنا هناك تفسير قوله: ﴿وَرَأَوْا قُلُوبَهُمْ لِيَتَكَبَّرَ فِيهَا فَمَا رَجَعُوا لَآئِدًا فَسَجَدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿وَرَأَوْا قُلُوبَهُمْ لِيَتَكَبَّرَ فِيهَا فَمَا رَجَعُوا لَآئِدًا فَسَجَدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قَالَ آدَمُ إِنَّكَ عَلَىٰ آلِهِ سِدْقٌ وَرَأَىٰ عَادَ كِبْرًا وَكِبْرًا بِآيَاتِنَا ﴿٣١﴾ قَالَ آدَمُ إِنَّكَ عَلَىٰ آلِهِ سِدْقٌ وَرَأَىٰ عَادَ كِبْرًا وَكِبْرًا بِآيَاتِنَا ﴿٣٢﴾ قَالَ آدَمُ إِنَّكَ عَلَىٰ آلِهِ سِدْقٌ وَرَأَىٰ عَادَ كِبْرًا وَكِبْرًا بِآيَاتِنَا ﴿٣٣﴾ قَالَ آدَمُ إِنَّكَ عَلَىٰ آلِهِ سِدْقٌ وَرَأَىٰ عَادَ كِبْرًا وَكِبْرًا بِآيَاتِنَا ﴿٣٤﴾ قَالَ آدَمُ إِنَّكَ عَلَىٰ آلِهِ سِدْقٌ وَرَأَىٰ عَادَ كِبْرًا وَكِبْرًا بِآيَاتِنَا ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَسْجُدْ﴾ قرأه الكوفيون: بهزتين. وقرأه الباقون: بهززة مطوَّلة؛ وهذا استفهام إنكار، يعني: به: لم أكن لأفعل.

قوله تعالى: ﴿لَمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ قال الزجاج: «طينا» منصوب على وجهين: أحدهما: التمييز، المعنى: لمن خلقته من طين. والثاني: على الحال، المعنى: أنشأته في حال كونه من طين. ولفظ ﴿قَالَ آدَمُ إِنَّكَ﴾ جاء هاهنا بغير حرف عطف، لأن المعنى: قال أسجد لمن خلقته طيناً، وأرايتك، وهي في معنى: أخبرني، والكاف ذكرت في المخاطبة

(١) روى البخاري ٣٠٢/٨ عن ابن عباس: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ قال: شجرة الرُّقُوم. قال الحافظ ابن حجر: وهذا هو الصحيح، وقوله ابن أبي حاتم عن بضعة عشر نفساً من التابعين. وقال أبو جعفر بن جرير الطبري: وأولى القولين في ذلك عندنا قول من قال: عنى بها شجر الرُّقُوم، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك. ونصبت (الشجرة الملعونة) عطفاً بها على الرؤيا، فتأويل الكلام إذئذ: وما جعلنا الرؤيا التي أرايتك، والشجرة الملعونة في القرآن، إلا فتنة للناس، فكانت فتنهم في الرؤيا ما ذكرت من ارتداده من ارتدته وتباعد أهل الشرك في شركهم حين أخبرهم رسول الله ﷺ بما أراه الله في مسيره إلى بيت المقدس ليلة أسري به، وكانت فتنهم في الشجرة الملعونة ما ذكرنا من قول أبي جهل والمشركين معه: يخبرنا محمد أن في النار شجرة نابتة، والنار تأكل للشجر، فكيف تنبت فيها؟!

(٢) قال الجوهري: الكشوث: نبت يتعلق بأغصان الشجر، من غير أن يضرب بعرق في الأرض، قال الشاعر:

هو الكشوث فلا أضل ولا ورؤ
ولا تسينيم ولا ظل ولا تسمر

توكيداً، والجواب محذوف، والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كَرَّمْتُ عَلَيَّ، لم كَرَّمْتَهُ عَلَيَّ وقد خلقتني من نار وخلقته من طين!؟ فحذف هذا، لأن في الكلام دليلاً عليه.

قوله تعالى: ﴿لَيْنَ أَخْرَجْنِي إِلَى بَوْرِ الْقَيْنَمَةِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمر: «أخرتني» بياء في الوصل. ووقف ابن كثير بالياء. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي بغير ياء في وصل ولا في وقف^(١).

قوله تعالى: ﴿لَا حَتِيكَنَّ دُرَيْتَمٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لأستولين عليهم، قاله ابن عباس، والفراء. والثاني: لأضليلهم، قاله ابن زيد. والثالث: لأستاصلتهم؛ يقال: اختنك الجراد ما على الأرض: إذا أكله؛ واختنك فلان ما عند فلان من العلم: إذا استقصاه، فالمعنى: لأفودنهم كيف شئت، هذا قول ابن قتيبة. فإن قيل: من أين علم الغيب. فقد أجبنا عنه في سورة [النساء: ١١٩].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال ابن عباس: هم أولياء الله الذين عصمهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ هذا اللفظ يتضمن إنظاره؛ ﴿فَمَنْ يَكَعُّ﴾، أي: تبع أمرك منهم، يعني: ذرية آدم. والموفور: الموفور. قال ابن قتيبة: يقال: وفرت ماله عليه، ووفرتُه، بالتخفيف والتشديد.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْرِزُّ مَنِ اسْتَمْتَمَتْ مِنْهُمُ﴾ قال ابن قتيبة: استخف، ومنه تقول: استفرتني فلان. وفي المراد بصوته قولان: أحدهما: أنه كل داغ دعا إلى معصية الله، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الغناء والمزامير، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَ عَثِيمٌ﴾ أي: صبح «بخيلك ورجلك» واحشهم عليهم بالإغراء؛ يقال: أجلب القوم وجلبوا: إذا صاحوا. وقال الزجاج: المعنى: اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكائيدك؛ فعلى هذا تكون الباء زائدة.

قال ابن قتيبة: والرجل: الرجالة؛ يقال: راجلٌ ورجلٌ، مثل تاجر وتجر، وصاحب وصحب. قال ابن عباس: كل خيل تسير في معصية الله، وكل رجُل يسير في معصية الله^(٢). وقال قتادة: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس. وروى

حفص عن عاصم: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾ بكسر الجيم، وهي قراءة ابن عباس، وأبي رزين، وأبي عبد الرحمن السلمي. قال أبو زيد: يقال: رجلٌ رجُلٌ للراجل، ويقال: جاءنا حافياً رجلاً. وقرأ ابن السميع، والجحدري: «بخيلك ورجالك» برفع الراء وتشديد الجيم مفتوحة ويألف بعدها. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعكرمة: «ورجالك» بكسر

الراء وتخفيف الجيم مع ألف.

قوله تعالى: ﴿وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنها ما كانوا يحرمونه من أنعامهم، رواه عطية عن ابن عباس. والثاني: الأموال التي أصيبت من حرام، قاله مجاهد. والثالث: التي أنفقوها في معاصي الله، قاله

الحسن. والرابع: ما كانوا يذبحون لألهتهم، قاله الضحاك. فأما مشاركته إياهم في الأولاد، ففيها أربعة أقوال: أحدها: أنهم أولاد الزنا، رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبيرة، ومجاهد، والضحاك. والثاني: المؤودة

من أولادهم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنه تسمية أولادهم عبيداً لأوثانهم، كعبد شمس، وعبد العزى، وعبد مناف، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: ما حصصوا وهودوا ونصروا، وصحبوا من أولادهم

غير صبغة الإسلام، قاله الحسن، وقاتدة.

قوله تعالى: ﴿وَعِدْتُهُمْ﴾ قد ذكرناه في قوله: ﴿بِيَدِهِمْ وَيَمِينِهِمْ...﴾ إلى آخر الآية [النساء: ١٢٠]. وهذه الآية لفظها لفظ الأمر، ومعناها التهديد، ومثلها في الكلام أن تقول للإنسان: اجهد جهدك فستري ما ينزل بك. قال الزجاج: إذا

تقدم الأمر نهياً عما يؤمر به، فمعناه التهديد والوعيد، تقول للرجل: لا تدخلن هذه الدار؛ فإذا حاول أن يدخلها قلت: ادخلها وأنت رجل، فلست تأمره بدخلها، ولكنك توعدته وتهذبه، ومثله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [التصل: ٤٠]، وقد

نُهِوا أن يعملوا بالمعاصي. وقال ابن الأنباري: هذا أمر معناه التهديد، تقديره: إن فعلت هذا عاقبتك وعذبناك، فنقل إلى لفظ الأمر عن الشرط، كقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُزَيْنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

(١) أي: بغير ياء في الوصل والوقف.

(٢) في الطبري: عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَتَيْنَ عَثِيمٌ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾ قال: خيله: كل راكب في معصية الله؛ ورجله: كل راجل في معصية الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ شُلُوعٌ﴾ قد شرحناه في [الحجر: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّفَ بِرَبِّكَ وَسِيْلًا﴾ قال الزجاج: كلف به وكيفا وأولياته يعصمهم من القبول من إبليس.

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُرِيكُمْ لَكُمْ أَلْفَاكًا فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَيْبًا﴾ ﴿١٧﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا فَلَا يَمْتَكِنُ إِلَى الْفَرْقِ أَغْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَافِرًا ﴿١٨﴾ أَفَأَنْتُمْ أَنْ تَخِيفَ بِيَكُمُ الْبَحْرَ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا تَدَّ لَا يَحْدُوا لَكُمْ وَسِيْلًا ﴿١٩﴾ أَمْ أَنْتُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ فِيهِ نَارًا أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ فَيُفَوِّقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَحْدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيًّا ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيْلًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُرِيكُمْ لَكُمْ أَلْفَاكًا﴾ أي: يسيرها. قال الزجاج: يقال: زجيت الشيء، أي: قدمته^(١).

قوله تعالى: ﴿لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في طلب التجارة. وفي «من» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها زائدة. والثاني: أنها للتبعض. والثالث: أن المفعول محذوف، والتقدير: ليتبعوا من فضله الرزق والخير، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَيْبًا﴾ هذا الخطاب خاص للمؤمنين، ثم خاطب المشركين فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ يعني: خوف العرق «ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ» أي: يفضل من يدعو من الآلهة، إلا الله تعالى. ويقال: ضل بمعنى غاب، يقال: ضل الماء في اللبث: إذا غاب، والمعنى: أنكم أخلصتم الدعاء [لله]، ونسيتم الأنداد. وقرأ مجاهد، وأبو المتوكل: «ضَلَّ مَنْ يَدْعُونَ» بالياء. «فَلَا يَمْتَكِنُ إِلَى الْفَرْقِ أَغْرَضْتُمْ» عن الإيمان والإخلاص «وَكَانَ الْإِنْسَانُ» يعني الكافر «كَافِرًا» بنعمة ربه. «أَفَأَنْتُمْ» إذا خرجتم من البحر «أَنْ تَخِيفَ بِيَكُمُ» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «نخسف بكم» أو نرسل «أَنْ نَعِيدَكُمْ» فنرسل «فَنُفَرِّقْكُمْ» بالنون في الكل. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، بالياء في الكل. ومعنى «تَخِيفَ بِيَكُمُ الْبَحْرَ» أي: نغيبكم ونذهبكم في ناحية البر، والمعنى: إن حكيم ناقد في البر نفوذه في البحر، «أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الحاصب: حجارة من السماء، قاله قتادة. والثاني: أنه الريح العاصف تحصب، قاله أبو عبيدة، وأنشد للفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الرِّيحِ تَضْرِبُهُمْ
بِحَاصِبِ كَثِيْفِ القُطْنِ مَنُشُورِ^(٢)

وقال ابن قتيبة: الحاصب: الريح، سميت بذلك لأنها تَحْصِبُ، أي: ترمي بالحصباء، وهي الحصى الصغار. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الحاصب: الريح التي فيها الحصى. وإنما قال في الريح: «حاصباً» ولم يقل: «حاصبة» لأنه وصف لزم الريح ولم يكن لها مذکر تنتقل إليه في حال، فكان بمنزلة قولهم: «حائض» للمرأة، حين لم يُقَلْ: رجل حائض. قال: وفيه جواب آخر، وهو أن نعت الريح عُرِي من علامة التأنيث، فأشبهت بذلك أسماء المذكر، كما قالوا: السماء امطر، والأرض أنبت. والثالث: أن الحاصب: التراب الذي فيه حصباء، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿تَدَّ لَا يَحْدُوا لَكُمْ وَسِيْلًا﴾ أي: مانعاً وناصراً.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْتُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ فِيهِ نَارًا أُخْرَى﴾ أي: مرة أخرى، والجمع: تارات. «فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ» قال أبو عبيدة: هي التي تقصف كل شيء. قال ابن قتيبة: القاصف: [الريح التي] تقصف الشجر، أي: تكسره.

قوله تعالى: ﴿فَيُفَوِّقْكُمْ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو جعفر، وشيبة، ورويس: «فتفرقكم» بالياء، وسكون الغين، وتخفيف الراء. وقرأ أبو الجوزاء، وأيوب: «فيفرقكم» بالياء، وفتح الغين، وتشديدها^(٣). وقرأ أبو رجاء مثله، إلا أنه بالياء، «بِمَا كَفَرْتُمْ»، أي: بكفركم حيث نجوتهم في المرة الأولى، «ثُمَّ لَا يَحْدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيًّا» قال ابن

(١) كذا الأصل، «قدمته» والذي في كتب اللغة والتفسير «دفعته برفق»، وانظر ما ذكره المؤلف عند قوله تعالى: ﴿تَوَحَّشًا يَضَعُوا تُرْبَتَهُمْ﴾ ٧١٥.

(٢) «ديوانه» ٢٦٢، و«مجاز القرآن» ١/٣٨٥، و«الكامل» ٢/٧٧٢ و«الطبري» ١٥/١٢٤، و«القرطبي» ١٠/٢٩٢.

(٣) أي: تشديد الراء.

قتيبة: أي: من يتبع بدمائكم، أي: يطالبنا. قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: ربح العذاب أربع، اثنتان في البر، واثنتان في البحر، فاللثان في البر: الصرصر، والعقيم، واللثان في البحر: العاصف، والقاصف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي مَادٍ﴾ أي: فضلناهم. قال أبو عبيدة: «وكرّمنا» أشد مبالغة من «أكرمنا». وللمفسرين فيما فضلوا به أحد عشر قولاً: أحدها: أنهم فضلوا على سائر الخلق غير طائفة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملّك الموت، وأشباههم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. فعلى هذا يكون المراد: المؤمنون منهم، ويكون تفضيلهم بالإيمان. والثاني: أن سائر الحيوان يأكل بفيه، إلا ابن آدم فإنه يأكل بيده، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس. وقال بعض المفسرين: المراد بهذا التفضيل: أكلهم بأيديهم، ونظافة ما يقتاتونه، إذ الجن يقتاتون العظام والروث. والثالث: فضلوا بالعقل، روي عن ابن عباس. والرابع: بالنطق والتميز، قاله الضحاك. والخامس: بتعديل القامة وامتدادها، قاله عطاء. والسادس: بأن جعل محمداً صلى الله عليه وسلم منهم، قاله محمد بن كعب. والسابع: فضلوا بالمطاعم واللذات في الدنيا، قاله زيد بن أسلم. والثامن: بحسن الصورة، قاله يمان. والتاسع: بتسليطهم على غيرهم من الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم، قاله محمد بن جرير. والعاشر: بالأمر والنهي، ذكره الماوردي. والحادي عشر: بأن جعلت اللّحي للرجال، والدواب للنساء، ذكره الثعلبي. فإن قيل: كيف أطلق ذكر الكرامة على الكل، وفيهم الكافر المهان؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه عامل الكل معاملة المكرّم بالنعم الوافرة. والثاني: أنه لما كان فيهم من هو بهذه الصفة، أجرى الصفة على جماعتهم، كقوله: ﴿كُنْتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَحَلَّلْنَا فِي الْبَرِّ﴾ على أكباد رطبة، وهي: الإبل، والخيول، والبغال، والحمير، (و) في ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على أعواد يابسة، وهي: السفن. ﴿وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ فيه قولان: أحدهما: الحلال. والثاني: المستطاب في الذوق.

قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه على لفظه، وأنهم لم يفضلوا على سائر المخلوقات. وقد ذكرنا عن ابن عباس أنهم فضلوا على سائر الخلق غير طائفة من الملائكة. وقال غيره: بل الملائكة أفضل. والثاني: أن معناه: وفضلناهم على جميع من خلقنا. والعرب تضع الأكثر والكثير في موضع الجمع، كقوله: ﴿يُقْرَبُونَ السَّمْعَ وَأَكْرَمَهُمْ كِدْبَرُكَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]. وقد روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «المؤمن أكرم على الله صلى الله عليه وسلم من الملائكة الذين عنده»^(١).

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ يَسِيرُهُ فَأَتَيْنَهُمْ بِقَرُونٍ مِّمَّنْ هُمْ أَهْلٌ لَّهَا وَفِي شِعْبِ الْكَافِرِينَ﴾^(٧١) وَنَمَّاءُ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٧٢)

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا﴾ قال الزجاج: هو منصوب على معنى: اذكر ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ والمراد به: يوم القيامة. وقرأ الحسن البصري: «يوم يدعوا» بالياء ﴿كُلُّ﴾ بالنصب. وقرأ أبو عمران الجوني: «يوم يدعى» بياء مرفوعة، وفتح العين، وي بعدها ألف، «كل» بالرفع. وفي المراد بإمامهم أربعة أقوال: أحدها: أنه رئيسهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وروي عنه سعيد بن جبيرة أنه قال: إمام هدى، أو إمام ضلالة. والثاني: عملهم، رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وأبو العالية. والثالث: نبيهم، قاله أنس بن مالك، وسعيد بن جبيرة، وقناة، ومجاهد في رواية. والرابع: كتابهم، قاله عكرمة، ومجاهد في رواية. ثم فيه قولان: أحدهما: أنه كتابهم الذي فيه أعمالهم، قاله قناة، ومقاتل. والثاني: كتابهم الذي أنزل عليهم، قاله الضحاك، وابن زيد. فعلى القول الأول يقال: يا متبوعي موسى، يا متبوعي عيسى، يا متبوعي محمداً؛ ويقال: يا متبوعي رؤساء الضلالة. وعلى الثاني: يا من عمل كذا وكذا. وعلى الثالث: يا أمة موسى، يا أمة عيسى، يا أمة محمد. وعلى الرابع: يا أهل التوراة، يا أهل الإنجيل، يا أهل القرآن. أو يا صاحب الكتاب الذي فيه عمل كذا وكذا.

(١) عزاه الحافظ في «تخریج أحاديث الكشاف» ١٠٠ للبيهقي في «الشعب» من رواية حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة موقوفاً. وأبو المهزم بتشديد الزاي المكسورة التميمي البصري، اسمه يزيد، وقيل: عبد الرحمن بن سفيان، قال الحافظ في «التقريب»: متروك. ورواه ابن ماجه ٢/ ١٣٠١، من طريق أبي المهزم عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «المؤمن أكرم على الله صلى الله عليه وسلم من بعض ملائكته»، وهو ضعيف، لضعف أبي المهزم.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَاكَ بِقُرْآنِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ﴾ معناه: يقرؤون حسانتهم، لأنهم أخذوا كتبهم بأيامهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَّلُونَ قَبِيلًا﴾ أي: لا يتقصون من ثوابهم بقدر القليل، وقد بيّناه في سورة [النساء: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْيُنٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿أَعْيُنٌ هُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْيُنٌ﴾ مفتوحتي الميم. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم بكسر الميمين. وقرأ أبو عمرو: «في هذه أعمى» بكسر الميم، «فهو في الآخرة أعمى» بفتحها. وفي المشار إليها بهذه قولان: أحدهما: أنها الدنيا، قاله مجاهد. ثم في معنى الكلام خمسة أقوال: أحدها: من كان في الدنيا أعمى عن معرفة قدرة الله في خلق الأشياء، فهو عمًا وُصِفَ له في الآخرة أعمى، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: من كان في الدنيا أعمى بالكفر، فهو في الآخرة أعمى، لأنه في الدنيا تُقبَلُ توبته، وفي الآخرة لا تُقبَلُ، قاله الحسن. والثالث: من عمي عن آيات الله في الدنيا، فهو عن الذي غُيِبَ عنه من أمور الآخرة أشدَّ عمى. والرابع: من عمي عن نعم الله التي بيّنها في قوله: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُرِيكُمْ لَكُمْ آفَافِكُمْ فِي الْبَحْرِ﴾ إلى قوله: ﴿تَفْصِيلًا﴾ فهو في الآخرة أعمى عن رشاده وصلاحه، ذكرهما ابن الأنباري. والخامس: من كان فيها أعمى عن الحجّة، فهو في الآخرة أعمى عن الجنة، قاله أبو بكر الورّاق. والثاني: أنها النعم. ثم في الكلام قولان. أحدهما: من كان أعمى عن النعم التي تُرى وتُشاهد، فهو في الآخرة التي لم تُر أعمى، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: من كان أعمى عن معرفة حق الله في هذه النعم المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ولم يؤدِّ شكرها، فهو فيما بينه وبين الله مما يُتقَرَّبُ به إليه أعمى ﴿وَأَسْكَلُ سَيْلًا﴾، قاله السدي. قال أبو علي الفارسي: ومعنى قوله: ﴿هُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْيُنٌ﴾ أي: أشدَّ عمى، لأنه كان في الدنيا يمكنه الخروج عن عمّاه بالاستدلال، ولا سبيل له في الآخرة إلى الخروج من عمّاه. وقيل: معنى العمى في الآخرة: أنه لا يهتدي إلى طريق الثواب، وهذا كله من عمى القلب. فإن قيل: لم قال: ﴿هُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْيُنٌ﴾ ولم يقل: أشدَّ عمى، لأن العمى خلقة بمنزلة الحمرة، والمزرة، والعرب تقول: ما أشدَّ سواد زيد، وما أبيض زرق عمرو، ولما يقولون: ما أسود زيداً، وما أزرق عمراً؟ فالجواب: أن المراد بهذا العمى عمى القلب، وذلك يتزايد ويحدث منه شيء بعد شيء، فيخاف الخلق اللّامة التي لا تزيد، نحو عمى العين، والبياض، والحمرة، ذكره ابن الأنباري.

﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَتَّبِعَنَّكَ عَنِ الْيَمِينِ أَوْ شِمَاكَ إِيَّاكَ لِنَفَرٍ عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَأَخَذُوكَ خِيَلًا ﴿٧٣﴾ وَوَلَا أَنْ تَبْنَتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُّنَ إِلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ بِيَمِينِ الْحَبْرَةِ وَصَفَّ السَّمَاتِ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُوا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ بِمَا كُنْتُمْ خَالِفِينَ وَإِذَا لَا يَلْمِزُونَكَ خِلْفَكَ إِلَّا قِيلَ ﴿٧٦﴾ سِنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَتَّبِعَنَّكَ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن وفد ثقيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: متّعتنا باللات سنة، وحرّم وادينا كما حرّمت مكة، فأبى ذلك، فاقبلوا يُكثرون مسألتهم، وقالوا: إنا نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم، فإن خشيت أن يقول العرب: أعطيتهم ما لم تعطنا، فقل: الله أمرني بذلك؛ فأمسك رسول الله ﷺ [عنهم]، وداخلهم الطمع، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس. وروى عطية عن ابن عباس أنهم قالوا: أجلنا سنة، ثم نُسلم ونكسر أصنامنا، فهم أن يؤجلهم، فنزلت هذه الآية^(١). والثاني: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: لا نكف عنك إلا بأن تُدِّمَ بالكهنتا، ولو بأطراف أصابعك، فقال رسول الله ﷺ: «ما عليّ لو فعلت والله يعلم إني لكاره»؟ فنزلت هذه الآية. قاله سعيد بن جبير، وهذا باطل لا يجوز أن يُظنَّ برسول الله ﷺ، ولا ما ذكرنا عن عطية من أنه هم أن يُنظروهم سنة، وكل ذلك مُحال في حَقِّه وفي حق الصحابة أنهم رَوَوْا عنه. والثالث: أن قريناً خلّوا برسول الله ليلة إلى الصباح يكلمونه ويفضحونه، ويقولون: أنت سيدنا وابن سيدنا، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، ونزلت هذه الآية، قاله قتادة. والرابع: أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: اطرد عنك سقّاط الناس، ومواليهم، وهؤلاء الذين راححتهم راحة الضأن، وذلك أنهم كانوا يلبسون الصوف، حتى نجاسك

(١) ابن جرير الطبري ١٣٠/١٥ بسند ضعيف جداً.

وتَسْمَعُ مِنْكَ، فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَسْتَدْعِي بِهِ إِسْلَامَهُمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَاتُ، حِكَاةِ الزَّوْجِاجِ؛ قَالَ: وَمَعْنَى الْكَلَامِ: كَادُوا يَفْتَنُونَكَ، وَدَخَلْتَ «إِنَّ» وَاللَّامَ لِلتَّوَكُّيدِ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: وَإِنَّمَا قَالَ: «لِيَفْتَنُونَكَ»، لِأَنَّ فِي إِعْطَائِهِمْ مَا سَأَلُوا مَخَالَفَةَ لِحْكَمِ الْقُرْآنِ.

قوله تعالى: ﴿لِيَفْتَنَنَّكَ﴾ أي: لتختلقنَّ عَلَيْنَا عَيْرًا وهو قولهم: قل الله أمرني بذلك، ﴿وَإِذَا﴾ لو فعلت ذلك ﴿لَأَخَذُواكَ خَيْلًا﴾ أي: والوَكَّ وصافوك.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ بُنِنَاكَ﴾ على الحق، لِعِصْمَتِنَا يَاكَ ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أي: هممت وقاربت أن تميل إلى مرادهم ﴿سَيِّئًا قِيلًا﴾ قال ابن عباس: وذلك حين سكت عن جوابهم، والله أعلم بنيته. وقال ابن الأنباري: الفعل في الظاهر للنبي ﷺ، وفي الباطن للمشركين، وتقديره: لقد كادوا يُركنونك إليهم، وينسبون إليك ما يشتهونه مما تكرهه، فنسب الفعل إلى غير فاعله عند أمن اللبس، كما يقول الرجل للرجل: كدت تقتل نفسك اليوم، يريد: كدت تفعل فعلاً يقتلك غيرك من أجله؛ فهذا من المجاز والانتساع. وشبيه بهذا قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقول القاتل: لا أريتك في هذا الموضع.

قوله تعالى: ﴿إِذَا لَأَذَنَّاكَ﴾ المعنى: لو فعلت ذلك الشيء القليل ﴿لَأَذَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَبِيبَةِ﴾ أي: ضعف عذاب الحياة ﴿وَضِعْفَ﴾ عذاب ﴿الْمَمَاتِ﴾، ومثله قوله الشاعر:

[نُبُئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدَتْ] وَاسْتَبَّ بِعَذَابِكَ يَا كَلْبِيبُ الْمَجْلِسِ^(١)

أي: أهل المجلس. وقال ابن عباس: ضِعْفُ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعْصُومًا، وَلَكِنَّ تَخْوِيفَ لِأُمَّتِهِ، لِثَلَاثِ يَرْكُنِ أَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رسول الله ﷺ لما قَدِمَ الْمَدِينَةَ، حَسَدَتْهُ الْيَهُودُ عَلَى مَقَامِهِ بِالْمَدِينَةِ، وَكَرِهُوا قُرْبَهُ، فَاتُّوهُ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَنْبِيَّ أَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالُوا: فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَذِهِ بَارِضُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْ أَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ الشَّامِ، فَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا فَاتِّبِ الشَّامِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٢). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَسْخَصَّ عَنِ الْمَدِينَةِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَنَمٍ: لَمَّا قَالَتْ لَهُ الْيَهُودُ هَذَا، صَدَّقَ مَا قَالُوا، وَغَزَا غَزْوَةَ تَبُوكَ لَا يَرِيدُ إِلَّا الشَّامَ، فَلَمَّا بَلَغَ تَبُوكَ، نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ^(٣). وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ أَهْلَ مَكَّةَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْخُرُوجِ، وَأَنْزَلَ هَذِهِ آيَةَ إِخْبَارًا عَمَّا هَمُّوا بِهِ، قَالَ الْحَسَنُ، وَمَجَاهِدٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هَمَّ أَهْلُ مَكَّةَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ مَكَّةَ، وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ مَا نُظِرُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ كَفَّهُمْ عَنْ إِخْرَاجِهِ حَتَّى أَمَرَ بِالْخُرُوجِ. وَقِيلَ: مَا لَبِثُوا بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ بَدْرًا. فَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، الْمَشَارِ إِلَى يَهُودِ: الْيَهُودِ، وَالْأَرْضُ: الْمَدِينَةُ. وَعَلَى الثَّانِي: هُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَالْأَرْضُ: مَكَّةَ. وَقَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى «الاستفزاز» آنفًا [الإسراء: ٦٤]، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا: الْقَتْلَ، لِإِخْرَاجِهِ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهَا، رَوَى عَنْ الْحَسَنِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «خَلْفَكَ». وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَحِمَزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ، وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ: «خِلَافَكَ». قَالَ الْأَخْفَشُ «خِلَافَكَ» فِي مَعْنَى خَلْفِكَ، وَالْمَعْنَى: لَا يَلْبَثُونَ بَعْدَ خُرُوجِكَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي: لَوْ أَخْرَجُوكَ لِاسْتِصْلَاحِنَا بَعْدَ خُرُوجِكَ بِقَلِيلٍ، وَقَدْ جَاوَزَاهُمْ اللَّهُ عَلَى مَا هَمُّوا

(١) البيت لعدي بن ربيعة في «الأنما» ٩٥/١، و«الحامسة» ٩٢٩/٢، ومعنى قوله: «نبئت أن النار بعدك أوقدت»: أنه كان لا توجد بحضرته نار، لعظم ناره وعمومه بطعامه، وقيل: إنه أراد نار الحرب التي كانت تارت بينهم بقتل كليب فركدت أحقاباً.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في «التفسير» ٥٣/٣: وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك.

(٣) قال الحافظ ابن كثير بعد أن ذكر خبر عبد الرحمن بن عَنَمٍ عن اليهقي: وفي هذا الإسناد نظر، والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي ﷺ لم يَغْزِ تَبُوكَ عَنْ قَوْمِ الْيَهُودِ، وَإِنَّمَا غَزَاهَا امْتِنَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ مُسَبِّحُونَ﴾، وَغَزَاهَا لِيَقْتَصَّ وَيَسْتَمَّ مِنْ قَتْلِ أَهْلِ مَوْتَةَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

به، فقتل صنائيد المشركين بيدر، وقتل من اليهود بني قريظة، وأجلى النضير. وقال ابن الأنباري: معنى الكلام: لا يَلْبَثُونَ على خلافك ومخالفتك، فسقط حرف الخفض. وقرأ أبو رزين، وأبو المتوكل: «خُلَافُكَ» بضم الخاء، وتشديد اللام، ورفع الفاء.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ قال الفراء: نصب السُّنَّة على العذاب المُضْمِر، أي: يعذبون كسُنَّتْنَا فيمن أَرْسَلْنَا. وقال الأخفش: المعنى: سَنَّا سُنَّةً. وقال الزجاج: انتصب بمعنى «لا يلبثون» وتأويله: إِنَّا سَنَّا هذه السُّنَّة فيمن أَرْسَلْنَا قبلك أنهم إذا أخرجوا نبيهم أو قتلوه، لم يلبث العذاب أن ينزل بهم.

﴿أَيُّ الصَّلَاةِ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٧﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَظِيمٍ أَن يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَيُّ الصَّلَاةِ﴾ أي: أَدْعَا «لِدُلُوكِ الشَّمْسِ» أي: عند دُلُوكها. وذكر ابن الأنباري في «اللام» قولين: أحدهما: أنها بمعنى «في». والثاني: أنها مؤكدة، كقوله: ﴿رَوْقٌ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٧]. وقال أبو عبيدة: دُلُوكها: من عند زوالها إلى أن تغيب. وقال الزجاج: مِثْلُهَا وقت الظهيرة دُلُوك، ومِثْلُهَا للغروب دُلُوك. وقال الأزهري: معنى «الدُّلُوك» في كلام العرب: الزوال، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، وإذا أفلت: دالكة، لأنها في الحالين زائلة. وللمفسرين في المراد بالدُّلُوك هاهنا قولان: أحدهما: أنه زوالها نصف النهار. روى جابر بن عبد الله قال: دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه، فطعموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج رسول الله ﷺ وقال: «أخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس»^(١)؛ وهذا قول ابن عمر، وأبي برزة، وأبي هريرة، والحسن، والشعبي، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعبيد بن عمير، وقتادة، والضحاك، ومقاتل، وهو اختيار الأزهري. قال الأزهري: لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس، فيكون المعنى: أتم الصلاة من وقت زوال الشمس إلى غسق الليل، فدخل فيها الأولى، والعصر، وصلاتا غسق الليل، وهما العشاءان، ثم قال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾، فهذه خمس صلوات. والثاني: أنه غروبها، قاله ابن مسعود^(٢)، والنخعي، وابن زيد، وعن ابن عباس كالقولين. قال الفراء: ورأيت العرب تذهب في الدُّلُوك إلى غيبوبة الشمس، وهذا اختيار ابن قتيبة، قال: لأن العرب تقول: دَلَّكَ النجم: إذا غاب؛ قال ذو الرمة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا نُجُومٌ وَلَا بِالْأَفْلَاتِ الدُّوَالِكِ^(٣)

وتقول في الشمس: دلكت بَرَّاح^(٤)، يريدون: غربت، والناظر قد وضع كفه على حاجبه ينظر إليها، قال الشاعر:

وَالشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ تَكُونُ دَنَفًا أَذْفَعَهَا بِالرَّاحِ كَنِي تَرَخَّلَفًا^(٥)

فشيها بالمريض [في] الدَّنَف، لأنها قد هَمَّتْ بالغروب كما قارب الدَّنَف الموت، وإنما ينظر إليها من تحت

(١) رواه الطبري: ١٣٧/١٥، عن ابن أبي ليلى عن رجل عن جابر بن عبد الله، ورواه أيضاً عن نُبَيْح العَنَزِي عن جابر بن عبد الله، ونبیح العنزى: مجهول.

(٢) رواه ابن جرير ١٣٤/١٥، والحاكم ٣٦٣/٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٥١/٧ وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وخرجه السيوطي في «الدرر» ١٩٥/٤ وزاد نسبه إلى عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن مردويه، من طرق عن ابن مسعود.

(٣) «ديوانه» ٥١١ طبع المكتب الإسلامي، و«غريب القرآن» ٢٦٠، و«تفسير القرطبي» ٣٠٣/١٠، و«البحر المحيط» ٦٨/٦، و«اللسان»، و«التاج»: ذلك. مصابيح: يعني الإبل تصبح في مباركتها، والأفلات: الغائبات، يقال: أفل النجم: إذا غاب، والدوالك: يقال: دلكت الشمس: إذا غابت أو دنت للمغيب.

(٤) براح، بفتح الباء: اسم للشمس، ومن كسر الباء، فإنه يعني أنه يضع الناظر كفه على حاجبه من شعاعها لينظر.

(٥) البيت للمعراج، «ديوانه» ٨٢، و«تهذيب الألفاظ» ٣٩٣، و«مجاز القرآن» ٣٨٨/١، و«غريب القرآن» ٢٦٠، و«الطبري» ١٣٧/١٥، و«تفسير القرطبي» ٣٠٣/١٠. و«الجمهرة» ٢١٨/٢، وفي «اللسان»: زحلف. يقال للشمس إذا مالت للمغيب، وزالت عن كبد السماء نصف النهار: قد تزحلت.

الكف ليعلم كم بقي لها إلى أن تغيب، ويتوقى الشعاع بكفه. فعلى هذا، المراد بهذه الصلاة: المغرب. فأما غسق الليل، فظلامه. وفي المراد بالصلاة المتعلقة بغسق الليل ثلاثة أقوال: أحدها: العشاء، قاله ابن مسعود. والثاني: المغرب، قاله ابن عباس. قال القاضي أبو يعلى: فيحتمل أن يكون المراد بيان وقت المغرب، أنه من غروب الشمس إلى غسق الليل. والثالث: المغرب والعشاء، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ المعنى: وأقم قراءة الفجر. قال المفسرون: المراد به: صلاة الفجر. قال الزجاج: وفي هذا فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة، حين سميت الصلاة قرآناً. قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَهَجَّدَ بِهِ﴾ قال ابن عباس: فَصَّلُ بِالْقُرْآنِ. قال مجاهد، وعلقمة، والأسود: التهجد بعد النوم. قال ابن قتيبة: تهجدت: سهرت، وهجدت: نمت. وقال ابن الأنباري: التهجد هاهنا بمعنى: التيقظ والسهر، واللغويون يقولون: هو من حروف الأضداد؛ يقال للنائم: هاجد ومتهجد، وكذلك للساهر، قال النابغة:

وَلَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَسْمَطَ رَاهِبٍ
لَرْنَا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا
يعني بالمتهجد: الساهر، وقال ليبي:

قَالَ هَجَّدْنَا فَقَدْ طَالَ السُّرَى
[وَقَدَرْنَا إِنْ خَنَا الدَّهْرَ عَمَلًا]^(٣)
أي: نؤمنا. وقال الأزهري: المتهجد: القائم إلى الصلاة من النوم. وقيل له: متهجد، لإلقائه الهجود عن نفسه، كما يقال: تَحْرَجُ وتَأْتُم.

قوله تعالى: ﴿نَافِلَةٌ لِلَّهِ﴾ النافلة في اللغة: ما كان زائداً على الأصل. وفي معنى هذه الزيادة في حقه قولان: أحدهما: أنها زائدة فيما فرض عليه، فيكون المعنى: فريضة عليك، وكان قد فرض عليه قيام الليل، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير. والثاني: أنها زائدة على الفرض، وليست فرضاً؛ فالمعنى: تطوعاً وفضيلة. قال أبو أمامة، والحسن، ومجاهد: إنما النافلة للنبي ﷺ خاصة. قال مجاهد: وذلك أنه قد غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فما زاد على فرضه فهو نافلة له وفضيلة، وهو لغيره كفارة^(٤). وذكر بعض أهل العلم؛ أن صلاة الليل كانت فرضاً عليه في الابتداء، ثم رخص له في تركها، فصارت نافلة. وذكر ابن الأنباري في هذا قولين: أحدهما: يقارب ما قاله مجاهد، فقال: كان رسول الله ﷺ إذا تنفل لا يقدر له أن يكون بذلك ماحياً للذنوب، لأنه قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر، وغيره إذا تنفل كان راجياً، ومقدراً محو السيئات عنه بالتنفل، فالنافلة لرسول الله ﷺ زيادة على الحاجة، وهي لغيره

(١) «المسند» ٢٣٨/١٣، وابن ماجه ٢٢٠/١، والنسائي ٢٤١/١، «الترمذي» ١٤١/٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وروى الإمام أحمد في «المسند» ١٧٢/١٢، و«البخاري» ٣٠٢/٨، و«مسلم» ٤٥٠/١ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تفضل صلاة في الجميع على صلاة الرجل وحده خمساً وعشرين درجة» قال: «تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر» قال أبو هريرة: اتروا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

(٢) «ديوانه» ٣١، و«مختار الشعر الجاهلي» ١٨٦/١، و«أضداد ابن الأنباري» ٥٢. والأشعث: الذي دب في رأسه الشيب، والضرورة: الذي لم يذب مطلقاً، أو الذي لم يزوج.

(٣) «ديوانه» ١٨٢، و«اللاقتضاب» ١٨٤، و«الخرزانه» ٢٨/٢، و«أضداد ابن الأنباري» ٥١، و«أضداد ابن السكيت» ١٩٤، و«أضداد الحلبي» ٦٧٩، و«اللسان»: هجد، وسرى، وصله البيت قبله:

وَمَجْرُودٌ مِّنْ سَبَابَاتِ الْكُرَى
عاطف التُّمْرُوقِ صَسْدَقِ الْمُؤَبِّدِ
والمجود: الذي يجهد من التعاس وغيره، وقوله: عاطف التمرق؛ يريد عطف نمرقه وثناها فنام، وصدق المتبدل، أي: جلد قوي لا يغير عند ابتداله نفسه ولا يسقط. قال ابن السدي في شرح البيتين: وصف نفسه بالجلد في السفر، وكثرة السهر حتى يتأذى رقيقه بذلك، فيقول له: خلنا ننام ونستريح... قد قدرنا على ما نريد، ووصلنا إلى ما نحب، إن غفل عنا الدهر ولم يفسد علينا أمرنا، فِيمَ نَجْهَدُ أَنْفُسَنَا بطول السرى، ونمنع أعيننا للذئب الكرى؟

(٤) «المسند» ٢٩١/٣، «الترمذي» ١٤٢/٢، وقال: حديث حسن صحيح، ونقله ابن كثير في «تفسيره» ٥٨/٣، وأقر تصحيح الترمذي إياه، وصححه أيضاً الشيخ أحمد شاكر. وفي سننه قابوس بن أبي ظبيان الجني، ليه الحافظ في «التقريب».

مفتقر إليها، ومأمول بها دفع المكروه. والثاني: أن النافلة للنبي ﷺ وأمه، والمعنى: ومن الليل فتهدوا به نافلة لكم، فخرطب النبي ﷺ بخطاب أمته.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ﴾ «عسى» من الله واجبة، ومعنى «يبعثك» يقيمك ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وهو الذي يحمده لأجله جميع أهل الموقف. وفيه قولان: أحدهما: أنه الشفاعة للناس يوم القيامة، قاله ابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وابن عمر، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله، والحسن، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد^(١). والثاني: يجلسه على العرش يوم القيامة. روى أبو وائل عن عبد الله أنه قرأ هذه الآية، وقال: يُقعد على العرش، وكذلك روى الضحاك عن ابن عباس، وليث عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّيَ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ وقرأ الحسن، وعكرمة، والضحاك، وحميد بن قيس، وقاتدة، وابن أبي عبيدة بفتح الميم في «مدخل» و«مخرج». قال الزجاج: المدخل، بضم الميم: مصدر أدخلته مُدْخَلًا، ومن قال: مدخل صدق، فهو على أدخلته، فدخل مدخل صدق، وكذلك شرح «مخرج» مثله. وللمفسرين في المراد بهذا المدخل والمخرج أحد عشر قولاً: أحدها: أدخلني المدينة مدخل صدق، وأخرجني من مكة مخرج صدق. روى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فنزلت عليه هذه الآية. وإلى هذا المعنى ذهب الحسن في رواية سعيد بن جبير، وقاتدة، وابن زيد. والثاني: أدخلني القبر مدخل صدق، وأخرجني منه مخرج صدق، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أدخلني المدينة، وأخرجني إلى مكة، يعني: لفتحها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: أدخلني مكة مدخل صدق، وأخرجني منها مخرج صدق، فخرج منها آمناً من المشركين، ودخلها ظاهراً عليها يوم الفتح، قاله الضحاك. والخامس: أدخلني مدخل صدق الجنة، وأخرجني مخرج صدق من مكة إلى المدينة، رواه قاتدة عن الحسن. والسادس: أدخلني في النبوة والرسالة، وأخرجني منها مخرج صدق، قاله مجاهد، يعني: أخرجني مما يجب عليّ فيها. والسابع: أدخلني في الإسلام، وأخرجني منه، قاله أبو صالح؛ يعني: من أداء ما وجب عليّ فيه إذا جاء الموت. والثامن: أدخلني في طاعتك، وأخرجني منها، أي: سالماً غير مقصّر في أداؤها، قاله عطاء. والتاسع: أدخلني الفار، وأخرجني منه، قاله محمد بن المنكدر. والعاشر: أدخلني في الدين، وأخرجني من الدنيا وأنا على الحق، ذكره الزجاج. والحادي عشر: أدخلني مكة، وأخرجني إلى حنين، ذكره أبو سليمان الدمشقي. وأما إضافة الصدق إلى المدخل والمخرج، فهو مدح لهما. وقد شرحنا هذا المعنى في سورة (يونس: ٢).

قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْمَلْ لِي مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: من عندك ﴿سُلْطَنًا﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التسلط على الكافرين بالسيف، وعلى المنافقين بإقامة الحدود، قاله الحسن. والثاني: أنه الحجة البيّنة، قاله مجاهد. والثالث: المُلْك العزیز الذي يفتقر به العصاة، قاله قاتدة. وقال ابن الأنباري: وقوله: ﴿تَمِيمًا﴾ يجوز أن يكون بمعنى مُنْصَرًّا، ويصلح أن يكون تأويله ناصراً.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن الحق: الإسلام، والباطل: الشرك، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن الحق: القرآن، والباطل: الشيطان، قاله قاتدة. والثالث: أن الحق: الجهاد، والباطل: الشرك، قاله ابن جريج. والرابع: الحق: عبادة الله، والباطل: عبادة الأصنام، قاله مقاتل. ومعنى «زهق»: بظُلٍ وضمحل. وكلُّ شيء هلك وبطل فقد زَهَقَ. وَزَهَقَتْ نَفْسُهُ: تلفت. وروى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ

(١) في «صحيح البخاري» عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جنًا، كل أمة تتبع نبيها، تقول يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يمته الله المقام المعمود. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف»: وفي الباب عن أنس عند البخاري في التوحيد، وعن ابن مسعود عند النسائي والحاكم، وله طريق آخر عند أحمد والحاكم مطولاً، وعن كعب بن مالك عند الحاكم، وأصله عند مسلم، وعن جابر عند أحمد والحاكم، واختلف في وصله وإرساله عن الزهري عن علي بن الحسين، وعن أبي سعيد عند الترمذي وابن ماجه، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن مردويه.

دخل مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنهما ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»^(١).
فإن قيل: كيف قلت: إن «زهق» بمعنى بطل، والباطل موجود معمول عليه عند أهله؟ فالجواب: أن المراد من بطلانه وهلكته: وضوح عيبه، فيكون هالكاً عند المتدبر الناظر.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ «من» هاهنا لبيان الجنس، فجميع القرآن شفاء. وفي هذا الشفاء ثلاثة أقوال: أحدها: شفاء من الضلال، لما فيه من الهدى. والثاني: شفاء من السقم، لما فيه من البركة. والثالث: شفاء من البيان للفرائض والأحكام. وفي «الرحمة» قولان: أحدهما: النعمة. والثاني: سبب الرحمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني المشركين ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ لأنهم يكفرون به، ولا ينتفعون بمواعظه، فيزيد خسارهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَاضًا وَنَا بِحَمَلِيَّتِهِ وَإِنَّا سَمُّهُ أَشْرُّ كَانَ يَتُوسَّأُ﴾ ﴿٨٨﴾ قُلْ كُلُّ يَمَلُّ عَلَى شَاكِلِيهِ فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾ قال ابن عباس: الإنسان هاهنا: الكافر، والمراد به الوليد بن المغيرة. قال المفسرون: وهذا الإنعام: سعة الرزق، وكشف البلاء. ﴿وَنَا بِحَمَلِيَّتِهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «ونأى» على وزن «نعمى» يفتح النون والهمزة. وقرأ ابن عامر: «نأ» مثل «باع». وقرأ الكسائي، وخلف عن سليم عن حمزة: «وناء» بإمالة النون والهمزة. وروى خلاد عن سليم: «نئي» يفتح النون، وكسر الهمزة؛ والمعنى: تباعد عن القيام بحقوق النعم، وقيل: تعظم وتكبر. ﴿وَإِنَّا سَمُّهُ أَشْرُّ﴾ أي: نزل به البلاء والفقر ﴿كَانَ يَتُوسَّأُ﴾. أي: قنوطاً شديداً اليأس، لا يرجو فضل الله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَمَلُّ عَلَى شَاكِلِيهِ﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: على ناحيته، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة. قال الفراء: الشاكلة: الناحية، والجديلة، والطريقة، سمعت بعض العرب يقول: وعبد الملك إذ ذاك على جديلته، وابن الزبير على جديلته، يريد: على ناحيته. وقال أبو عبيدة: على ناحيته وخليقتة. وقال ابن قتيبة: على خليقتة وطبيعته، وهو من الشكل. يقال: لست على شكلي، ولا شاكلي. وقال الزجاج: على طريقته، وعلى مذهبه. والثاني: على نيته؛ قاله الحسن، ومعاوية بن قرة. وقال الليث: الشاكلة من الأمور: ما وافق فاعله. والثالث: على دينه، قاله ابن زيد. وتحرير المعنى أن كل واحد يعمل على طريقته التي تشاكل أخلاقه، فالكافر يعمل ما يشبه طريقته من الإعراض عند النعم واليأس عند الشدة، والمؤمن يعمل ما يشبه طريقته من الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء، والله يجازي الفريقين. وذكر أبو صالح عن ابن عباس: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]. وليس بشيء.

﴿وَسَأَلْتَهُم مَّا لَكُمْ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يَتْلُونَ كَذِبًا إِنَّهُمْ يَخفَوْنَ عَلَيْهِمْ قُلُوبَهُمْ إِذْ يَقُولُونَ سَمِعْنَا عَلَيْهِمْ تِجَارَةً يَتْلُونَ آيَاتِهِ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُم مِّمَّا كَفَرْتُمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُم مَّا لَكُمْ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يَتْلُونَ كَذِبًا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رسول الله ﷺ مرَّ بناس من اليهود، فقالوا: سلوه عن الروح؟ فقال بعضهم: لا تسألوه، فيستقبلكم بما تكرهون. فأتاه نفر منهم، فقالوا: يا أبا القاسم: ما تقول في الروح؟ فسكت، ونزلت هذه الآية، قاله ابن مسعود^(٢). والثاني: أن اليهود قالت لقريش: سلوا محمداً عن

(١) البخاري ٣٠٣/٨، ومسلم ١٤٠٨/٣، والترمذي ١٤٢/٢ من طرق عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود...

(٢) «المسنده» ٢٥٤/٥، والبخاري ٣٠٣/٨، ومسلم ٢١٥٢/٤، والترمذي ١٤٢/٢، وانظر ابن كثير ٦٠/٣ في الكلام على سبب نزول هذه الآية. وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن حبان وصححه عن ابن عباس ﷺ قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل؟ فقال: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: ﴿وَسَأَلْتَهُم مَّا لَكُمْ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يَتْلُونَ كَذِبًا إِنَّهُمْ يَخفَوْنَ عَلَيْهِمْ قُلُوبَهُمْ إِذْ يَقُولُونَ سَمِعْنَا عَلَيْهِمْ تِجَارَةً يَتْلُونَ آيَاتِهِ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُم مِّمَّا كَفَرْتُمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ مِثْلَ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوراة: ١٧٠].

ثلاث، فإن أخبركم عن اثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي؛ سلوه عن فتية فُقدوا، وسلوه عن ذي القرنين، وسلوه عن الروح. فسألوه عنها، ففسّر لهم أمر الفتية في الكهف، وفسر لهم قصة ذي القرنين، وأمسك عن قصة الروح، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس. وفي المراد بالروح هاهنا ستة أقوال: أحدها: أنه الروح الذي يحيا به البدن، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس. وقد اختلف الناس في ماهية الروح، ثم اختلفوا هل الروح النفس، أم هما شيان فلا يحتاج إلى ذكر اختلافهم لأنه لا برهان على شيء من ذلك وإنما هو شيء أخذوه عن الطب والفلاسفة؟ فأما السلف، فإنهم أمسكوا عن ذلك، لقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، فلما رأوا أن القوم سألوا عن الروح فلم يُجابوا، والوحي ينزل، والرسول حي، علموا أن السكوت عما لم يُحظ بحقيقة علمه أولى. والثاني: أن المراد بهذا الروح: ملك من الملائكة على خلقه هائلة، روي عن عليّ عليه السلام، وابن عباس، ومقاتل. والثالث: أن الروح: خلق من خلق الله ﷻ صورهم على صور بني آدم، رواه مجاهد عن ابن عباس. والرابع: أنه جبريل عليه السلام، قاله الحسن، وقتادة. والخامس: أنه القرآن، روي عن الحسن أيضاً. والسادس: أنه عيسى ابن مريم، حكاه الماوردي. قال أبو سليمان الدمشقي: قد ذكر الله تعالى الروح في مواضع من القرآن، فغالب ظني أن الناقلين نقلوا تفسيره من موضعه إلى موضع لا يليق به، وظنوه مثله، وإنما هو الروح الذي يحيى به ابن آدم. وقوله: ﴿وَمِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من علمه الذي منع أن يعرفه أحد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ أَلَيْهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا كَيْلًا﴾ في المخاطبين بهذا قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله الأكثرون. والثاني: أنهم جميع الخلق، علمهم قليل بالإضافة إلى علم الله عز وجل، ذكره الماوردي. فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أَوْقَىٰ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]؟ فالجواب: أن ما أوتيه الناس من العلم، وإن كان كثيراً، فهو بالإضافة إلى علم الله قليل.

﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنذَهَبَنَّ بِالْآيَةِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكَيْلًا﴾ (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنذَهَبَنَّ بِالْآيَةِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ قال الزجاج: المعنى: لو شئنا لمحوناه من القلوب والكتب، حتى لا يوجد له أثر، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكَيْلًا﴾ أي: لا تجد من يتوكل [علينا] في رد شيء منه، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ هذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن الله رحمتك فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين. وقال ابن الأنباري: المعنى: لكن رحمة من ربك تمنع من أن تُسلب القرآن، وكان المشركون قد خاطبوا نساءهم من المسلمين في الرجوع إلى دين آبائهم، فهدّهم الله ﷻ بسلب النعمة، فكان ظاهر الخطاب للرسول، ومعنى التهديد للامة. وقال أبو سليمان: ﴿ثم لا تجد لك به﴾ أي: بما نفعله بك، من إذهاب ما عندك «وكيلاً» يدفعنا عما نزيد بك. وروي [عن] عبد الله بن مسعود أنه قال: يسرى على القرآن في ليلة واحدة، فيجئ جبريل من جوف الليل، فيذهب به من صدورهم ومن بيوتهم، فيصبحون لا يقرؤون آية، ولا يحسبونها^(١). ورد أبو سليمان الدمشقي صحة هذا الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً»^(٢)، وحديث ابن مسعود مروى من طريق جسان، فيحتمل أن يكون النبي ﷺ أراد بالعلم ما سوى القرآن، فإن العلم ما يزال ينقرض حتى يكون رفع القرآن آخر الأمر^(٣).

- (١) ذكره الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٣/١٣ من رواية الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال: «وليزعن القرآن من بين أظهركم، يسرى عليه ليلاً، فيلبس من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء»، وقال الحافظ: وسنده صحيح، لكنه موقوف.
- (٢) البخاري ١٧٤/١، ومسلم ٢٠٥٨/٤ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، ولقظه في البخاري: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ للناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».
- (٣) روى ابن ماجه رقم (٤٠٤٩) بسند قوي عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فيدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، ويُيسرى على كتاب الله ﷻ في ليلة للابيض في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير، والمجنون، يقولون: أدركنا آياتنا على هذه الكلمة: «لا إله إلا الله» فنحن نقولها، فقال له صلة: ما تنغي عنهم «لا إله إلا الله» وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة، فأعرض عنه حذيفة، ثم ردما عليه ثلاثاً، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلة، تنجيهم من النار، ثلاثاً. قال في «الزوائد»: إسناده صحيح.

﴿قُلْ لِيِنِ اجْتَمَعَتِ آيَاتِي وَالَّذِينَ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِيِنِ اجْتَمَعَتِ آيَاتِي وَالَّذِينَ عَلَيَّ﴾ قال المفسرون: هذا تكذيب للنضر بن الحارث حين قال: «لو شئنا قلنا مثل هذا». والجمل الذي طُلبَ منهم: كلام له نظم كنظم القرآن، في أعلى طبقات البلاغة. والظهير: المعين.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ سُبُورًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَصِنْبٍ فَنَفْخَرُ الْأَنْهَارَ جِلْجَالًا تَنْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بآلِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ قِيَالًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ قد فسرناه في هذه السورة [الإسراء: ٤١]، والمعنى: من كل مثل من الأمثال التي يكون بها الاعتبار ﴿فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني أهل مكة ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جحدوا للحق وإنكاراً.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ سُبُورًا ﴿٩٠﴾﴾ سبب نزول هذه الآية وما يتبعها، أن رؤساء قريش، كعتبة، وشيبة، وأبي جهل، وعبد الله بن أبي أمية، والنضر بن الحارث في آخرين، اجتمعوا عند الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشرف قومك قد اجتمعوا ليكلّموك، فجاهم سريعاً، وكان حريصاً على رشدكم، فقالوا: يا محمد، إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومك ما أدخلت على قومك، لقد شمت الآباء، وعبت الدين، وسفّهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فإن كنت إنما جئت بهذا لتطلب مالاً، جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سؤدناك علينا، وإن كان هذا الرئي الذي يأتيك قد غلب عليك، بذلنا أموالنا في طلب الطّب لك حتى نُبرئك منه، أو نُعذّر فيك. فقال رسول الله ﷺ: «إن تقبلوا مِنِّي [ما جئتكم به]، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه^(١) عليّ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل مِنّا ما عرضنا، فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيّق بلاداً ولا أشدّ عيشاً مِنّا، سل لنا ريك يُسيّر لنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا، ويُجري لنا أنهاراً، ويبعث من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول: أحق هو؟ فإن فعلت صدقناك، فقال رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، وقد ابغلتكم ما أرسلت به؟» قالوا: فسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك، وسله أن يجعل لك جناناً، وكنوزاً، وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك؛ قال: «ما أنا بالذي يسأل ربه هذا؟» قالوا: فأسقط^(٢) السماء [علينا] كما زعمت بأن ربك إن شاء فعل؛ فقال: «ذلك إلى الله ﷻ»؛ فقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، وقال عبد الله بن أبي أمية: لا أؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلماً، وترقى فيه وأنا أنظر، وتأتي بنسخة منشورة معك، ونفر من الملائكة يشهدون لك، فانصرف رسول الله ﷺ حزينا لِمَا رَأَى مِنْ مَبَاعَدَتِهِمْ إِيَّاهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ...﴾ الآيات، رواه عكرمة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَنْزِلَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «حتى تُفَجَّرَ» بضم التاء، وفتح الفاء، وتشديد الجيم مع الكسرة. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «حتى تُفَجَّرَ» بفتح التاء، وتسكين الفاء، وضم الجيم مع التخفيف. فمن نُقِلَ، أراد كثرة الانفجار من البينوع، ومن خُفِّفَ، فلأن البينوع واحد. فأما البينوع: فهو عين ينوع الماء منها؛ قال أبو عبيدة: هو يفعل، من نبع الماء، أي: ظهر وفار.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي: بستان ﴿فَنَفْخَرُ الْأَنْهَارَ﴾ أي: تفتحها وتجربها ﴿جِلْجَالًا﴾ أي: وسط تلك الجنة. قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا﴾ وقرأ مجاهد، وأبو مجلز، وأبو رجاء، وحميد، والجحدري: «أو تسقط» بفتح التاء، ورفع القاف «السما» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿كِسْفًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «كسفا» بتسكين السين في جميع القرآن إلا

(١) في الأصل: تردوا. في الأصل: فنسقط، والتصحيح من «الطبري»، و«ابن كثير»، و«الدر».

(٢) في الأصل: تردوا.

في [الروم: ٤٨] فَإِنَّهُمْ حَرَكُوا السِّينَ. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم بتحريك السين في الموضعين، وفي باقي القرآن بالتسكين. وقرأ ابن عامر هاهنا بفتح السين، وفي باقي القرآن بتسكينها. قال الزجاج: من قرأ «كسفاً» بفتح السين، جعلها جمع كسفة، وهي: القطعة، ومن قرأ «كسفاً» بتسكين السين، فكانهم قالوا: أسقطها طبقاً علينا؛ واشتقاقه من كسفت الشيء: إذا غطيته، يعنون: أسقطها عليها قطعة واحدة. وقال ابن الأنباري: من سَكَنَ قال: تأويله: سترأ وتغطية، من قولهم: قد انكسفت الشمس: إذا غطاها ما يحول بين الناظرين إليها وبين أنوارها.

قوله تعالى: ﴿أَزَّ تَأْتَىٰ بِاللهِ وَالْمَلَكِ وَبَيْنَا﴾ فيه ثلاثة أقوال. أحدها: عياناً، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال قتادة، وابن جريج، ومقاتل. وقال أبو عبيدة: معناه. مقابلة، أي: معاينة، وأنشد للأعشى:

نُصَالِحُكُمْ حَتَّىٰ تَبُؤُوا بِمِثْلِهَا كَصَرَخَةِ حُبْلَىٰ يَسْرَتُهَا قَبِيلُهَا^(١)

أي: قابليتها. ويروى: وجَّهتها [يعني بدل: يسرتها]. والثاني: كفيلاً أنك رسول الله، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء، قال: القبيل، والكفيل، والزعيم، سواء؛ تقول: قبلت، وكفلت وزعمت. والثالث: قبيلة قبيلة، كل قبيلة على جدتها، قاله الحسن، ومجاهد. فأما الزخرف، فالمراد به الذهب، وقد شرحنا أصل هذه الكلمة في [يونس: ٢٤]، و«ترقى»: بمعنى «تصعد»؛ يقال: رقيت أرقى رقياً.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُزِّلَ عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ قال ابن عباس: كتاباً من رب العالمين إلى فلان يصبح عند كل واحد منا يقرؤه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ قرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «قل». وقرأ ابن كثير، وابن عامر: «قال»، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة والشام، ﴿قُلْ كُنْتُ إِلَّا بِنُورٍ رَسُولًا﴾، أي: أن هذه الأشياء ليست في قوى بشر. فإن قيل: لِمَ اقتصَر على حكاية «قالوا» من غير إيضاح الرد؟ فالجواب: أنه لما خصهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِيِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ فلم يكن في وسعهم، عاجزهم، فكانه يقول: قد أوضحت لكم بما سبق من الآيات ما يدل على نبوتي، ومن ذلك التحدي بمثل هذا القرآن، فأما عنتكم فليس في وسعي، ولأنهم الشُوا عليه في هذه الأشياء، ولم يسألوه أن يسألوا ربه، فرد قولهم بكونه بشراً، فكفى ذلك في الرد.

﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَتَ اللهُ بَنَّا رَسُولًا﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَشْفُونَ مَطْمَئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٠٠﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِبَابِهِ حَسِيبًا ﴿١٠١﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ قال ابن عباس: يريد أهل مكة. قال المفسرون: ومعنى الآية: وما منعهم من الإيمان ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ وهو البيان والإرشاد في القرآن ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ [أي: إلا] قولهم في التعجب والإنكار: ﴿أَبَتَ اللهُ بَنَّا رَسُولًا؟﴾ وفي الآية اختصار، تقديره: هلا بعث الله ملكاً رسولاً، فأجيبوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَشْفُونَ مَطْمَئِينَ﴾ أي: مستوطنين الأرض. ومعنى الطمأنينة: السكون؛ والمراد من الكلام أن رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا﴾ قد فسرناه في [الرعد: ٤٣] ﴿إِنَّهُ كَانَ بِبَابِهِ حَسِيبًا﴾ قال مقاتل: حين اختص الله محمداً بالرسالة.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَبُغَىٰ وَوَمَنْ يَشَاءِ اللهُ فَلَنْ نُجِدَ لَهُمْ سَبِيلًا مِّنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنَّا وَنَجْزِيهِمْ عَنَّا وَنَجْزِيهِمْ جَهَنَّمَ كَمَا جَزَيْتُمْ سَوِيحًا ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَوْدَانًا كَمَا عَلَّمْنَا وَرَبَّنَا أَوْدَانًا لَمْ يَمُوتُوا خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٠٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَلَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفْرًا ﴿١٠٣﴾ قُلْ لَوْ أَنَّمْ تَمَلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَسْكُمُ خَشِيَةَ الْإِيمَانِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَبُغَىٰ وَوَمَنْ يَشَاءِ اللهُ فَلَنْ نُجِدَ لَهُمْ سَبِيلًا مِّنْ دُونِهِ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو بالياء في الوصل، وحذفاً في الوقف. وأثبتها

(١) «الطبري» ١١٢/١٥. وهو في ملح (ديوان الأعشى) ٢٥٦ برواية (شواهد الكشاف) ٢٤٧، و«اللسان»: قبل. وعجز البيت في «الإصلاح» ١٦٠، و«فتح الباري» ٢٩٨/٨.

يعقوب في الوقف، وحذفها الأثرون في الحاليتين. «من يهد الله» قال ابن عباس: من يرد الله هداه ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَرَن يُضِلُّ فَلَن يَحْدِلَ لَكُمْ أَوْلِيَاءَ يَنْزِلُ مِنْ دُونِهِ﴾ يهدونهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يمشيهم على وجوههم، وشاهده ما روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» من حديث أنس بن مالك أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «إن الذي أمشاه على رجله في الدنيا، قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»^(١). والثاني: أن المعنى: ونحشرهم مسحوبين على وجوههم، قاله ابن عباس. والثالث: نحشرهم مسرعين مبادرين، فعبر بقوله: «على وجوههم» عن الإسراع، كما تقول العرب: قد مرَّ القوم على وجوههم: إذا أسرعوا، قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿عَمِيًّا وَبِكْمًا وَصَمًّا﴾ فيه قولان: أحدهما: عمياً لا يرون شيئاً يَسْرُهُمْ، وبكماً لا ينطقون بحجة، وصماً لا يسمعون شيئاً يَسْرُهُمْ، قاله ابن عباس. وقال في رواية: عمياً عن النظر إلى ما جعل لأوليائه، وبكماً عن مخاطبة الله، وصماً عما مدح به أوليائه، وهذا قول الأكثرين. والثاني: أن هذا الحشر في بعض أحوال القيامة بعد الحشر الأول. قال مقاتل: هذا يكون حين يقال لهم: ﴿أَحْسَرُوا فِيهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فيصرون عمياً بكماً صماً لا يرون ولا يسمعون ولا ينطقون بعد ذلك.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا حَبَتْ﴾ قال ابن عباس: أي: سكنت. قال المفسرون: وذلك أنها تأكلهم، فإذا لم تبق منهم شيئاً وصاروا فحماً ولم تجد شيئاً تأكله، سكنت، فيعادون خلقاً جديداً، فتعود لهم. وقال ابن قتيبة: يقال: حبت النار: إذا سكن لهبها. فاللهب يسكن، والجمر يعمل، فإن سكن اللهب، ولم يُطْفَأَ الجمر، قيل: حَمَدَتْ تَحْمُدُ حُمُوداً، فَإِنْ طُفَّتْ ولم يبق منها شيء، قيل: حَمَدَتْ تَهْمُدُ هُمُوداً. ومعنى ﴿وَزِدْنَهُمْ سَوِيرًا﴾: ناراً تسعر، أي: تلهب. وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الإسراء: ٤٩] إلى قوله: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: على أن يخلقهم مرة ثانية، وأراد به «مثلهم» إياهم، وذلك أن مثل الشيء مساو له، فجاز أن يعبر به عن نفس الشيء، يقال: مثلك لا يفعل هذا، أي: أنت، ومثله قوله: ﴿فَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذْ يَبْتَلِي مَا ءَأْمَنْتُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقد تم الكلام عند قوله: ﴿مِثْلَهُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلَ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ يعني: أجل البعث ﴿فَأَيُّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفْرًا﴾ أي: جحوداً بذلك الأجل.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ قال الزجاج: المعنى: لو تملكون أنتم، قال المثلثس:

وَلَوْ غَيْرُ أَحْوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي نَصَبْتُ لَهُمْ قُوَّةَ الْعِرَانِينَ وَيَسْمَا^(٢)

المعنى: لو أراد غير أخوالي. وفي هذه الخزائن قولان: أحدهما: خزائن الأرزاق. والثاني: خزائن النعم، فيخرج في الرحمة قولان: أحدهما: الرزق. والثاني: النعمة. وتحريير الكلام: لو ملكتم ما يملكه الله ﷻ لأمسكنكم عن الإنفاق خشية الفاقة. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ يعني: الكافر ﴿كَنُورًا﴾ أي: بخيلاً مُنْسِكًا؛ يقال: قَتَرَ يَقْتَرُ، وَقَتَرَ يَقْتَرُ: إذا قَصَرَ في الإنفاق. وقال الماوردي: لو ملك أحد من المخلوقين من خزائن الله تعالى، لما جاد كجود الله تعالى، لأمرين: أحدهما: أنه لا بد أن يُمَسِكَ منه لنفقه ومنفعته. والثاني: أنه يخاف الفقر، والله تعالى منزه في جوده عن الحالين. ثم إن الله تعالى ذكر إنكار فرعون آيات موسى، تشبيهاً بحال هؤلاء المشركين، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها بمعنى المعجزات والدلالات، ثم اتفق جمهور المفسرين على سبع آيات منها، وهي: يده، والعصا، والظوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، واختفوا في الآيتين الأخريتين على ثمانية أقوال. أحدها: أنهما لسانه والبحر الذي فلق له، رواه العوفي عن ابن عباس؛ يعني بلسانه: أنه كان فيه عقدة فحلها الله تعالى له. والثاني: البحر والجبل الذي نُتِقَ فوقهم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: السُّنُونُ ونقص الثمرات، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والشعبي، وعكرمة، وقتادة. وقال الحسن: السُّنُونُ ونقص الثمرات آية واحدة. والرابع: البحر والموت أرسل عليهم، قاله الحسن، وهوب. والخامس: الحَجَرُ والبحر، قاله سعيد بن جبير. والسادس: لسانه وإلقاء العصا مرتين عند فرعون، قاله الضحاك. والسابع: البحر والسُّنُونُ، قاله محمد بن كعب. والثامن: ذكره [محمد بن إسحاق عن] محمد بن كعب أيضاً،

(٢) البيت في «اللسان»: نقص.

(١) البخاري ٣٧٨/٨، ومسلم ٢١٦١/٤.

فذكر السبع الآيات الأولى، إلا أنه جعل مكان يده البحر، وزاد الطمسة والحجر، يعني قوله: ﴿أَلَيْسَ عَلَيَّ أَمْرًا لِيَهَيَّأَ لِيَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ [يونس: ٤٨٨]. والثاني: أنها آيات الكتاب، روى أبو داود السجستاني من حديث صفوان بن عسال، أن يهودياً قال لصاحبه: تعال حتى نسأل هذا النبي، فقال الآخر لا تقل: إنه نبي، فإنه لو سمع ذلك، صارت له أربعة أعين؛ فأتياه، فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تأكلوا الرِّبا، ولا تمشوا بالبريء إلى السلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تقذفوا المحصنات، ولا تقفروا من الرِّحف، وعليكم خاصة يهود ألا تغدوا في السبت»، قال: فقَبَلَا يده، وقالوا: نشهد أنك نبي^(١).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ سِتْرَ مَا يَشَاءُ لِيَمْلِكَ بِقَوْمِ فَارْعُونَ إِنَّ لَكَ فِي عَيْنِنَا كُتُوبًا ۝١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَآ أُنزِلَ هَذِهِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصِيرٌ وَإِنِّي لَأُنذِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَفْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۝١٠٣﴾ وَقَلْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ لِقَبَّ إِسْرَائِيلَ أَنْتَكُمُ الْأَرْضُ وَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةُ مِنَّا لَمِيقًا ۝١٠٤﴾

قوله تعالى: ﴿سَتَلَّ بِقَبِّ إِسْرَائِيلَ﴾ قرأ الجمهور: «فاسأل» على معنى الأمر لرسول الله ﷺ. وإنما أمر أن يسأل من آمن منهم عما أخبر [به] عنهم، ليكون حجة على من لم يؤمن منهم. وقرأ ابن عباس: «فَسَأَلَ بني إسرائيل»، [على معنى] الخبر عن موسى أنه سأل فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل. ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ أَيُّهُمُ السَّابِغُ وَالثَالِثُ سَاحِرًا، فَوَضِعْ مَفْعُولًا فِي مَوْضِعٍ فَاعِلٍ، هَذَا مَرُوي عَنِ الْفَرَاءِ، وَأَبِي عبيدة. فقال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء. وقرأ علي ﷺ بضمها، وقال: والله ما علم عدو الله، ولكن موسى هو الذي علم، فبلغ ذلك ابن عباس، فاحتج بقوله تعالى: ﴿وَمَعَدُوا بِهَا وَأَسْبَغْنَاهَا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النمل: ١٤]. واختار الكسائي وثعلب قراءة علي ﷺ وقد رويت عن ابن عباس، وأبي رزين، وسعيد بن جبير، وابن يعمر. واحتج من نصرها بأنه لما نَسَبَ موسى إلى أنه مسحور، أعلمه بصحة عقله بقوله: «لقد علمت»، والقراءة الأولى أصح، لاختيار الجمهور، ولأنه قد أبان موسى من المعجزات ما أوجب علم فرعون بصدقه، فلم يردّ عليه إلا بالتعلل والمدافعة، فكانه قال: لقد علمت بالدليل والحجة ما أنزل هؤلاء، يعني الآيات. وقد شرحنا معنى «البصائر» في [الأعراف: ٢٠٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأُنذِرُكُمْ﴾ قال أكثر المفسرين: الظن هاهنا بمعنى العليم، على خلاف ظن فرعون في موسى، وسوى بينهما بعضهم، فجعل الأول بمعنى العليم أيضاً. وفي الميثور ستة أقوال: أحدها: أنه الملعون، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاک. والثاني: المغلوب، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: الناقص العقل، رواه يميم بن مهرا عن ابن عباس. والرابع: المُهْلِكُ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة، وابن قتيبة. قال الزجاج: يقال: نُبِرَ الرجل، فهو مثير؛ إذا هلك. والخامس: الهالك، قاله مجاهد. والسادس: الممنوع من الخير؛ تقول العرب: ما تيرك عن هذا، أي: ما منعك، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: فرعون أراد أن يستفز بني إسرائيل من أرض مصر. وفي معنى «يستفزهم» قولان: أحدهما: يستأصلهم، قاله ابن عباس. والثاني: يستخفهم حتى يخرجوا، قاله ابن قتيبة. وقال الزجاج: جائز أن يكون استفزازهم إخراجهم منها بالقتل أو بالتنحية. قال العلماء: وفي هذه الآية تنبيه على نصرة رسول الله ﷺ، لأنه لما خرج موسى فطلبه فرعون، هلك فرعون وملك موسى، وكذلك أظهر الله نبيه بعد خروجه من مكة حتى رجع إليها ظاهراً عليها.

(١) كذا ذكر المؤلف الحديث من رواية أبي داود السجستاني عن صفوان بن عسال، ولم نره في «سنن أبي داود» عن صفوان، بل هو في «مسند أحمد» ٤/٢٣٩، و«سنن الترمذي» ٩٨/٢، والنسائي، وابن ماجه رقم (٣٧٠٥). ولفظه في الترمذي: فقبلوا يديه ورجليه، وقالوا: نشهد أنك نبي، قال: «فما منعكم أن تتبعوني؟» قالوا: إن داود ﷺ دعا ربه أن لا يزال من ذرية نبي، وإنا نخاف إن تبعناك أن تقتلنا اليهود. وقال الترمذي في آخره: هذا حديث حسن صحيح. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٦٧/٣: وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة - أحد الرواة - في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالمشركلمات، فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجّة على فرعون، والله أعلم. اهـ. وأما الذي في «سنن أبي داود» فهو من حديث ابن عمر في قصة رقم (٢٦٤٧): فدوننا - يعني من النبي ﷺ - قبلنا يده، وجاء مختصراً برقم (٥٢٣٣)، وهو في «سنن أبي داود» أيضاً رقم (٥٢٢٥) من حديث زارع وكان في وفد عبد القيس قال: لما قدمنا المدينة، فجعنا تبادر من رواحلنا فقبل يد النبي ﷺ ورجله... الحديث.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا بَدِيعَ آدَمَ خُذْ زِينَتَكَ﴾ أي: من بعد هلاك فرعون ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَكَ﴾، وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: فلسطين والأردن، قاله ابن عباس. والثاني: أرض وراء الصَّين، قاله مقاتل. والثالث: أرض مصر والشام. قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةَ﴾ يعني: القيامة ﴿جَسَدًا يَكْفُرُ لِيُبَيِّنَ﴾ أي: جسيماً، قاله ابن عباس، ومجاهد، وابن قتيبة. وقال الفراء: ليفياً، أي: من هاهنا ومن هاهنا. وقال الزجاج: اللفيف: الجماعات من قبائل شتى. ﴿وَيُلَقِّقُ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: يزوجهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿وَوَدَّاعًا فَفَقَّنَهُ وَقَرَّاهُ﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلَّمَهُ الْبُرْجَانَ﴾ ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي: لا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِالَّذِينَ آتَيْنَا أَوْثَارَ الْيَوْمِ مِنْ قَبْلِهِ إِنْكَارًا يَسْتَكْبِرُونَ عَلَيْهِمْ يَجْزُونَ لِلَّذِينَ كَانُوا يُسَبِّحُونَ ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ ﴿وَيُزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُلَقِّقُ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الهاء كناية عن القرآن، والمعنى: أنزلنا القرآن بالأمر الثابت والذَّين المستقيم، فهو حقٌّ، ونزوله حق، وما تضمنه حق. وقال أبو سليمان الدمشقي: «وبالحق أنزلناه» أي: بالتوحيد، «وبالحق نزل» يعني: بالوعد والوعيد، والأمر والنهي.

قوله تعالى: ﴿وَوَدَّاعًا فَفَقَّنَهُ﴾ قرأ علي عليه السلام، وسعد بن أبي وقاص، وأبي بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس: وأبو رزين، ومجاهد، والشعبي، وقتادة، والأعرج، وأبو رجاء، وابن محيصة: «فقرَّناه» بالتشديد. وقرأ الجمهور بالتخفيف. فأما قراءة التخفيف، ففي معناها ثلاثة أقوال: أحدها: بيَّنَّا حلاله وحرامه، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: فرقنا فيه بين الحق والباطل، [قاله الحسن]. والثالث: أحكمناه وفصلناه، كقوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا يَفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الاحقاف: ٤]، قاله الفراء. وأما المشددة، فمعناها: أنه أنزل متفرقاً، ولم ينزل جملة واحدة. وقد بيَّنَّا في أول كتابنا هذا مقدار المدة التي نزل فيها.

قوله تعالى: ﴿لَقَرَّاهُ عَلَيَّ الْبُرْجَانَ﴾ قرأ أنس، والشعبي، والضحاك، وقتادة، وأبو رجاء، وأبان عن عاصم، وابن محيصة: بفتح الميم، والمعنى: على ثُودَةٍ وترسل ليتدبروا معناه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ هذا تهديد لكفار [أهل] مكة، والهاء كناية عن القرآن. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْيَوْمَ الْوَيْلَ﴾ وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم ناس من أهل الكتاب، قاله مجاهد. والثاني: أنهم الأنبياء عليهم السلام، قاله ابن زيد. والثالث: طلاب الذَّين، كأبي ذر، وسلمان، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، قاله الواحدي. وفي هاء الكناية في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن، والمعنى: من قبل نزوله. والثاني: ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قاله ابن زيد. فعلى الأولى: ﴿إِنَّا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ القرآن. وعلى قول ابن زيد: ﴿إِنَّا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ما أنزل إليهم من عند الله.

قوله تعالى: ﴿يَجْزُونَ لِلَّذِينَ كَانُوا يُسَبِّحُونَ﴾ اللام هاهنا بمعنى «على». قال ابن عباس: قوله «للَّذِينَ كَانُوا يُسَبِّحُونَ» للوجه. قال الزجاج: الذي يَجْزُو وهو قائم، إنما يَجْزُو لوجهه، والذَّفن: مُجْتَمِعُ اللَّحْيَيْنِ، وهو عضو من أعضاء الوجه، فإذا ابتدأ يَجْزُو، فأقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض الذفن. وقال ابن الأنباري: أول ما يلقى الأرض من الذي يَجْزُو قبل أن يصبوب جبهته ذفته، فلذلك قال: «للَّذِينَ كَانُوا يُسَبِّحُونَ». ويجوز أن يكون المعنى: يَجْزُونَ للوجه، فاكتمى بالذفن من الوجه كما يكتمى بالبعض من الكلِّ، وبالنوع من الجنس.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ نَزَّهوا الله تعالى عن تكذيب المكذِّبين بالقرآن، وقالوا: ﴿إِنْ كَان وَعَدُّ رَبِّنَا﴾ بإنزال القرآن وبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم، واللام دخلت للتوكيد. وهؤلاء قوم كانوا يسمعون أن الله باعثٌ نبيّاً من العرب، ومُنزِلٌ عليه كتاباً، فلما عاينوا ذلك، حمدوا الله تعالى على إنجاز الوعد، ﴿وَيَجْزُونَ لِلَّذِينَ كَانُوا يُسَبِّحُونَ﴾ كَرَّرَ القول ليدل على تكرار الفعل منهم. ﴿وَيُزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي: يزيدهم القرآن تواضعاً. وكان عبد الأعلى التيمي يقول: من أوتي من العم ما لا يُكْفِيه، لخليق أن لا يكون أوتي علماً يفضله، لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: «إِنَّ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ...» إلى قوله: «يكون».

﴿هُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ أي: ما نَدْعُوا اللَّهَ الْأَسْمَاءَ الْمُسَمَّوْنَ وَلَا نَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا نَخَافُ بِهَا وَابْتِغَى بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿وَقُلْ لِمَسْئُومٍ إِلَيْهِ لَمْ يَخُذْ لَنَا وَكَانَ يَكْفُرُ فِي الشَّرِكِ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِزْرٌ مِنْ الْأَلْهِامِ وَكَرِهًا كَثِيرًا﴾ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿هُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ...﴾ الآية. هذه الآية نزلت على سببين. نزل أولها إلى قوله: ﴿لِمَسْئُومٍ﴾

على سبب، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ تهجد ذات ليلة بمكة، فجعل يقول في سجوده: «يا رحمن، يا رحيم»، فقال المشركون: كان محمد يدعو إلهاً واحداً، فهو الآن يدعو إلهين اثنين: الله، والرحمن، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون: مسيلمة، فأنزل الله هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). والثاني: أن رسول الله ﷺ كان يكتب في أول ما أوحى إليه: باسمك اللهم، حتى نزل: ﴿إِنَّهُ مِنْ شَيْئِنَ وَإِنَّهُ يُسِرُّهُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [النمل: ٣٠]، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال مشركو العرب: هذا الرحيم نعرفه، فما الرحمن؟ فنزلت هذه الآية، قاله ميمون بن مهران. والثالث: أن أهل الكتاب قالوا لرسول الله ﷺ: إنك لتقول ذكر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك. فأما قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ فنزل على سبب، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بالقرآن بمكة، فيسب المشركون القرآن ومن أتى به، فخفض رسول الله ﷺ صوته بعد ذلك حتى لم يسمع أصحابه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقرائك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافُ يَهَا﴾ عن أصحابك، فلا يسمعون، قاله ابن عباس^(٢). والثاني: أن الأعرابي كان يجهر في التشهد ويرفع صوته، فنزلت هذه الآية، هذا قول عائشة. والثالث: أن رسول الله ﷺ كان يصلي بمكة عند الصفا، فجهر بالقرآن في صلاة الغداة، فقال أبو جهل: لا تفتري على الله، فخفض النبي ﷺ صوته، فقال أبو جهل للمشركين: ألا ترون ما فعلت يا ابن أبي كبشة؟! رددته عن قراءته، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. فأما التفسير، فقله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ المعنى: إن شئتم فقولوا: يا الله، وإن شئتم فقولوا: يا رحمن، فإنهما يرجعان إلى واحد، ﴿أَبَا مَا تَدْعُوا﴾ المعنى: أي أسماء الله تدعوا؛ قال الفراء: و«ما» قد تكون صلة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيبَهُمْ نَوَابِغٌ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، وتكون في معنى: «أي» معادة لما اختلف لفظهما.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها الصلاة الشرعية. ثم في المراد بالكلام ستة أقوال: أحدها: لا تجهر بقرائك، ولا تخافت بها، فكأنه نهي عن شدة الجهر بالقراءة، وشدة المخافتة، قاله ابن عباس. فعلى هذا في تسمية القراءة بالصلاة قولان ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أن يكون المعنى: فلا تجهر بقراءة صلاتك. والثاني: أن القراءة بعض الصلاة، فنابت عنها، كما قيل لعيسى: كلمة الله، لأنه بالكلمة كان. والثاني: لا تصل وراءه للناس، ولا تدعها مخافة الناس، قاله ابن عباس أيضاً. والثالث: لا تجهر بالتشهد في صلاتك، روي عن عائشة في رواية، وبه قال ابن سيرين. والرابع: لا تجهر بفعل صلاتك ظاهراً، ولا تخافت بها شديد الاستتار، قاله عكرمة. والخامس: لا تحيى علانيتها، وتيسى سريرتها، قاله الحسن. والسادس: لا تجهر بصلاتك كلها، ولا تخافت بجمعها، فاجهر في صلاة الليل، وخافت في صلاة النهار، على ما أمرناك به، ذكره القاضي أبو يعلى. والقول الثاني: أن المراد بالصلاة: الدعاء، وهو قول عائشة، وأبي هريرة، ومجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَافُ يَهَا﴾ المخافتة: الإخفاء، يقال: صوت خفيت. ﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: اسلك بين الجهر والمخافتة طريقاً. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: نُسخَت هذه الآية بقوله: ﴿وَأَلْأَكْرَمُ رَيْكَ فِي نَفْسِكَ قَضْرًا وَخِفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال ابن السائب: نُسخَت بقوله: ﴿فَأَصْلِحْ بِمَا تَوَمَّرُ﴾ [الحجر: ٩٤]؛ وعلى التحقيق، وجود النسخ هاهنا بعيد.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وطلحة بن مصرف: «في الملك» بكسر الميم. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ وَلِيٌّ مِنَ الَّذِينَ﴾ قال مجاهد: لم يحالف أحداً، ولم يبتغ نصر أحد؛ والمعنى: أنه لا يحتاج إلى موالة أحد لئلا يلحقه، فهو مستغن عن الولي والنصير. ﴿وَكَبِيرَةٌ تَبْكُهَا﴾ أي: عظيمة تعظيماً تاماً.



(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٨٢/١٥ عن مكحول أن النبي ﷺ كان يتعهد بمكة... إلخ، وهو مرسل.

(٢) الطبري ١٨٤/١٥، وأحمد في «المستند» ٢١٥/١، والبخاري ٣٠٧/٨، ومسلم.

سورة الكهف

فصل في نزولها

روى أبو صالح عن ابن عباس أن سورة (الكهف) مكية، وكذلك قال الحسن، ومجاهد، وقتادة. وهذا إجماع المفسرين من غير خلاف نعلمه، إلا أنه قد روي عن ابن عباس، وقتادة أن منها آية مدنية، وهي قوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال مقاتل: من أولها إلى قوله تعالى: ﴿صَعِيدًا جُرُودًا﴾ [الكهف: ٨] مدني، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨] الآيتان. مدنية، وبأقيها مكي. وروى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حفظ عشر آيات من أول (الكهف) ثم أدرك الدجال لم يضره، ومن حفظ خواتيم سورة (الكهف) كانت له نوراً يوم القيامة»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ لَبِثْنَا لَكُمْ آيَاتٍ أَلْوَدَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْعُوا بِهِمْ وَيَقُولُوا صَدُقُوا عَلَيْنَا لَقَدْ هَمَمْنَا بِالْحَافِيَةِ﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨] الآية. وقد شرحناه في أول «الفتاححة». والمراد بعبيده هاهنا: محمد ﷺ، وبالكتاب: القرآن، تملح بإنزاله، لأنه إنعام على الرسول خاصة، وعلى الناس عامة. قال العلماء باللغة والتفسير: في هذه الآية تقديم وتأخير، تقديرها: أنزل على عبده الكتاب ﴿فِيمَا﴾ أي: مستقيماً عدلاً. وقرأ أبو رجاء، وأبو المتوكّل، وأبو الجوزاء، وابن يعمر، والنخعي، والأعمش: ﴿فِيمَا﴾ بكسر القاف، وفتح الياء، وقد فسرناه في [الأنعام: ١٦١].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْمًا﴾ أي: لم يجعل فيه اختلافاً، وقد سبق بيان العوج في [آل عمران: ٩٩]. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا لَكُمْ آيَاتٍ أَلْوَدَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْعُوا بِهِمْ وَيَقُولُوا صَدُقُوا عَلَيْنَا لَقَدْ هَمَمْنَا بِالْحَافِيَةِ﴾ أي: عذاباً شديداً، «وإن لُدُّهُ» أي: من عنده، ومن قبله، والمعنى: لينذر الكافرين ﴿وَيُنذِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَمْ﴾ أي: بأن لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الجنة. ﴿مَتَّكِينَ﴾ أي: مقيمين، وهو منصوب على الحال. ﴿وَيُنذِرُ﴾ بعذاب الله ﴿الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وهم اليهود حين قالوا: عزيز ابن الله، والنصارى حين قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون حين قالوا: الملائكة بنات الله، ﴿مَا لَمْ يَكُنْ﴾ أي: بذلك القول ﴿وَمِنْ عِبْرَةٍ﴾ لأنهم قالوا: افترى على الله، ﴿وَلَا يَلْبِثُهُمْ﴾ الذين قالوا ذلك، ﴿كَبْرٌ﴾ أي: عظمت ﴿كَلِمَةٌ﴾ الجمهور على النصب. وقرأ ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وأبو رزين، وأبو رجاء، ويحيى بن يعمر، وابن محيصن، وابن أبي عتبة: «كلمة» بالرفع. قال الفراء: من نصب، أضمر: كُبريت تلك الكلمة كلمة، ومن رفع، لم يضم شيئاً، كما تقول: عظّم قولك. وقال الزجاج: من نصب، فالمعنى: كبرت مقالتهم: اتخذ الله ولداً كلمة، و«كلمة» منصوب على التمييز. ومن رفع، فالمعنى: عظمت كلمة هي قولهم: اتخذ الله ولداً.

ذَكَرَهُ بِهَذَا اللفظ السيوطي في «الدرر» ٢٠٩/٤ من رواية أبي عبيد، وابن مردويه، عن أبي الدرداء ﷺ. وروى أحمد في «المسنَد» ٤٤٩/٤، ومسلم في (صحيحه) ٥٥٥/١، وأبو داود في «سننه» رقم (٤٣٣٣) عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة (الكهف) عصم من الدجال» ورواه أحمد ٤٤٦/٤ عن أبي الدرداء بلفظ: «من قرأ عشر آيات من آخر الكهف...» ورواه مسلم وأبو داود من حديث قتادة به، ورواه الترمذي ١١٢/٢ عن أبي الدرداء بلفظ: «من قرأ ثلاث آيات من أول (الكهف) عصم من فتنة الدجال» وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(١) ذكره بهذا اللفظ السيوطي في «الدرر» ٢٠٩/٤ من رواية أبي عبيد، وابن مردويه، عن أبي الدرداء ﷺ. وروى أحمد في «المسنَد» ٤٤٩/٤، ومسلم في (صحيحه) ٥٥٥/١، وأبو داود في «سننه» رقم (٤٣٣٣) عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة (الكهف) عصم من الدجال» ورواه أحمد ٤٤٦/٤ عن أبي الدرداء بلفظ: «من قرأ عشر آيات من آخر الكهف...» ورواه مسلم وأبو داود من حديث قتادة به، ورواه الترمذي ١١٢/٢ عن أبي الدرداء بلفظ: «من قرأ ثلاث آيات من أول (الكهف) عصم من فتنة الدجال» وقال: هذا حديث حسن صحيح.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْ قَرْيَتِهِمْ﴾ أي: إنها قول بالفم لا صحة لها، ولا دليل عليها، ﴿إِنْ يَقُولُ﴾ أي: ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾. ثم عاتبه على حُرْزِهِ لقوت ما كان يرجو من إسلامهم، فقال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَقَسَكَ﴾ وقرأ سعيد بن جبير، وأبو الجوزاء، وقاتلة: «باخع نفسك» بكسر السين، على الإضافة. قال المفسرون واللغويون: فلعلك مهلك نفسك، وقاتل نفسك، وأنشد أبو عبيدة لذي الرمة:

أَلَا أَيُّهَذَا الْبَاخِعُ الْوَجِدُ نَفْسَهُ لِشَيْءٍ نَحَشَهُ عَنِ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ^(١)

أي: نحته. فإن قيل: كيف قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَقَسَكَ﴾ والغالب عليها الشك، والله عالم بالأشياء قبل كونها؟ فالجواب: أنها ليست بشك، إنما هي مقدرة تقدير الاستفهام الذي يعني به التقرير، فالمعنى: هل أنت قاتل نفسك؟! لا ينبغي أن يطول أساك على إعراضهم، فإن من حكمتنا عليه بالشقوة لا تجدي عليه الحسرة، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ أي: من بعد توليهم عنك ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿أَسْفًا﴾ وفيه أربعة أقوال. أحدها: حزنًا، قاله ابن عباس، وابن تينية. والثاني: جزعًا، قاله مجاهد. والثالث: غصبا، قاله قتادة. والرابع: ندما، قاله السدي. وقال أبو عبيدة: ندما وتلثفا وأسى. قال الزجاج: الأسف: المبالغة في الحزن، أو الغضب، يقال: قد أسف الرجل، فهو أسيف، قال الشاعر:

أَرَىٰ رَجُلًا مِنْهُمْ أَسِيفًا كَأَنَّمَا يَضُمُّ إِلَىٰ كَشْحِيهِ كَفًّا مُخَضَّبًا^(٢)

وهذه الآية يشير بها إلى نهي رسول الله ﷺ عن كثرة الحرص على إيمان قومه لئلا يؤدي ذلك إلى هلاك نفسه بالأسف.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَسْلُوهُمُ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَسْلُوهُمُ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنهم الرجال، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: العلماء، رواه مجاهد عن ابن عباس. فعلى هذين القولين تكون «ما» في موضع «من» لأنها في موضع إبهام، قاله ابن الأنباري. والثالث: أنه ما عليها من شيء، قاله مجاهد. والرابع: النبات والشجر، قاله مقاتل. وقول مجاهد أمم، يدخل فيه النبات، والماء، والمعادن، وغير ذلك. فإن قيل: قد نرى بعض ما على الأرض سميحاً وليس بزينة. فالجواب: أنا إن قلنا: إن المراد [به] شيء مخصوص، فالمعنى: إنا جعلنا بعضها على الأرض زينة لها، فخرج مخرج العموم، ومعناه الخصوص. وإن قلنا: هم الرجال أو العلماء، فلعبادتهم أو لدلائتهم على خالقهم. وإن قلنا: النبات والشجر، فلأنه زينة لها تجري مجرى الكسوة والحلية. وإن قلنا: إنه عام في كل ما عليها، فلكونه دالاً على خالقه، فكأنه زينة الأرض من هذه الجهة.

قوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي: لنختبر الخلق، والمعنى: لتعاملهم معاملة المبلى، قال ابن الأنباري: من قال: إن «ما على الأرض» يعني به النبات، قال: الهاء والميم ترجع إلى سكان الأرض المشاهدين للزينة، ومن قال: «ما على الأرض» الرجال، ردّ الهاء والميم على «ما» لأنها بتأويل الجميع، ومعنى الآية: لنبلوهم فنرى أيهم أحسن عملاً، هذا، أم هذا. قال الحسن: أيهم أزهدي في الدنيا. وقد ذكرنا في هذه الآية أربعة أقوال في سورة [هود: ٤٧]. ثم أعلم الخلق أنه يفني جميع ذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا﴾ قال الزجاج: الصعيد: الطريق الذي لا نبات فيه. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الصعيد: التراب، ووجه الأرض. فأما الجُرُزُ، فقال الفراء: أهل الحجاز يقولون: أرض جُرُزٌ، وجُرُزٌ. وأسد تقول: جرُزٌ، وجُرُزٌ، وتميم تقول: أرض جُرُزٌ، وجُرُزٌ، بالتخفيف، وقال أبو عبيدة: الصعيد الجُرُزُ: الغليظ الذي لا يُنْبِتُ شيئاً. ويقال للسنة المُجْبِية: جُرُزٌ، ويسون أجزا، لجديوتها، وقلة مطرها، وأنشد:

(١) ديوانه طبع المكتب الإسلامي صفحة (٣٣٨)، والطبري ١٥/١٩٤، ومجاز القرآن ١/٣٩٣، والقرطبي ١٠/٣٤٨، والصحاح والراغب والاساس واللسان والنتاج: بضع، وفتح الباري ٨/٣٠٨.

(٢) قاتله الأعشى الكبير ميمون بن قيس: «ديوانه» ١١٥، واللسان: أسف. والأسف: الحزين والغضبان ولا يكاد يسمن، لأن الحقد يأكله.

فَلَمَّا جَرَ فَرْقَهُنَّ الْأَجْرَارُ^(١)

وقال الزجاج: الجزز: الأرض التي لا ينبت فيها شيء، كأنها تأكل النبات أكلاً. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الجزز: [الأرض] التي لا يبقى بها نبات، تحرق كل نبات يكون بها. وقال المفسرون: وهذا يكون يوم القيامة، يجعل الله الأرض مستوية لا نبات فيها ولا ماء.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ١٠﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ١١﴾ فَضَرَبْنَا عَلَيْهِمْ أَذَانَهُمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ١٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْسَنُ لِمَا لَبِئْتُمْ أُحَدِّثًا ١٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ نزلت على سبب قد ذكرناه عند قوله تعالى: ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقال ابن قتيبة: ومعنى «أم حسبت»: أحسبت. فأما «الكهف» فقال المفسرون: هو المغارة في الجبل، إلا أنه واسع، فإذا صغر، فهو غار. قال ابن الأنباري: قال اللغويون: الكهف بمنزلة الغار في الجبل. فأما الرقيم، ففيه ستة أقوال: أحدها: أنه لوح من رصاص كانت فيه أسماء الفتية مكتوبة ليعلم من اطلع عليهم يوماً من الدهر ما قصتهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال وهب بن منبه، وسعيد بن جبيرة في رواية، ومجاهد في رواية. وقال السدي: الرقيم: صخرة كُتِبَ فيها أسماء الفتية، وجُعِلت في سُورِ المدينة. وقال مقاتل: الرقيم: كتاب كتبه رجلان صالحان، وكانا يكتمان إيمانهما من الملك الذي فرّ منه الفتية، كتبا أمر الفتية في لوح من رصاص، ثم جعلاه في تابوت من نحاس، ثم جعلاه في البناء الذي سدّوا به باب الكهف، فقالوا: لعل الله أن يُظَلِّعَ على هؤلاء الفتية أحداً، فيعلمون أمرهم إذا قرؤوا الكتاب. وقال الفراء: كُتِبَ في اللوح أسماءهم، وأنسابهم، ودينهم، وممن كانوا. قال أبو عبيدة، وابن قتيبة: الرقيم: الكتاب، وهو فعيل بمعنى مفعول، ومنه: كتاب مرقوم، أي: مكتوب. والثاني: أنه اسم القرية التي خرجوا منها، قاله كعب. والثالث: اسم الجبل، قاله الحسن، وعطية. والرابع: أن الرقيم: الدواة، بلسان الروم، قاله عكرمة ومجاهد في رواية. والخامس: اسم الكلب، قاله سعيد بن جبيرة. والسادس: اسم الوادي الذي فيه الكهف، قاله قتادة، والضحاك.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ قال المفسرون: معنى الكلام: أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا!؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم، فإن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم. وقال ابن عباس: الذي آتيتك من الكتاب والسنة والعلم، أفضل من شأنهم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ قال الزجاج: معنى: أووا إليه: صاروا إليه، وجعلوه مأواهم. والفتية: جمع فتى، مثل غلام وغِلْمَة، وصبي وصبيّة. و«فِعْلَة» من أسماء الجمع، وليس ببناء يقاس عليه؛ لا يجوز غراب وغرْبَة، ولا غنْيَة وغنْيَة. وقال بعض المفسرين: الفتية: بمعنى الشبان. وقد ذكرنا عن القتيبي أن الفتى: بمعنى الكامل من الرجال، ويُنْتَاهِ في قوله تعالى: ﴿وَيُنْفِثْكُمْ الْوَيْسِثَ﴾ [النساء: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي: من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ أي: رزقاً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾ أي: أصلح لنا ﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: أرشدنا إلى ما يقرّبنا منك. والمعنى: هيئ لنا من أمرنا ما نصيب به الرشد. والرشد والرشد، والرشاد: نقيض الضلال.

تلخيص قصة أصحاب الكهف

اختلف العلماء في بُدُو أمرهم، وسبب مصيرهم إلى الكهف، على ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم هربوا ليلاً من ملكهم حين دعاهم إلى عبادة الأصنام، فمروا براح له كلب، فتبعهم على دينهم، فأووا إلى الكهف يتعبدون، ورجل منهم يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة، إلى أن جاءهم يوماً فأخبرهم أنهم قد ذُكِرُوا، فبُكُوا وتعوذوا بالله من الفتنة،

فضرب الله تعالى على آذانهم، وأمر الملك فسد عليهم الكهف، وهو يظنهم أيقاظاً، وقد توفى الله أرواحهم وفاة النّوم، وكلبهم قد غشيه ما غشيههم. ثم إن رجلين مؤمنين يكتمان إيمانهما كتباً أسماءهم وأنسابهم وخبرهم في لوح من رصاص، وجعلاه في تابوت من نحاس في البنيان، وقالوا: لعل الله يُطلع عليهم قوماً مؤمنين، فيعلمون خبرهم، هذا قول ابن عباس. وقال عبيد بن عمير: فقدمهم قومهم فطلبوهم، فعَمَى الله عليهم أمرهم، فكتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح: فلان وفلان أبناء ملوكتنا ففقدناهم في شهر كذا، في سنة كذا، في مملكة فلان، ووضعوا اللوح في خزانة الملك، وقالوا: ليُكوننَّ لهذا شأن. والثاني: أن أحد الحواريين جاء إلى مدينة أصحاب الكهف، فأراد أن يدخلها، فقيل له: إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلا سجد له، فكره أن يدخلها، فأتى حَمَاماً قريباً من المدينة، فكان يعمل فيه بالأجر، وعلقه فتية من أهل المدينة، فجعل يخبرهم عن خبر السماء والأرض، وخبر الآخرة، فآمَنُوا به وصدَّقوه، حتى جاء ابن الملك يوماً بامرأة، فدخل معها الحَمَام، فأنكر عليه الحواريُّ ذلك، فسبّه ودخل، فمات وماتت المرأة في الحمام، فأتى الملك، فقيل له: إن صاحب الحمام قتل ابنك، فالتمسُ فهرب، فقال: من كان يصحبه؟ فسُمي له الفتية، فالتمسوا فخرجوا من المدينة، فمروا على صاحب لهم في زرع، وهو على مثل أمرهم، فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف، فدخلوه فقالوا: نبئت هاهنا، ثم نصيح إن شاء الله فترَوْن رأيكم، فضرب الله على آذانهم فناموا؛ وخرج الملك، وأصحابه يتبعونهم، فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فكلما أراد رجل أن يدخل [الكهف] أربع، فقال قائل للملك: أليس قلت: إن قدرتُ عليهم قتلتهم؟ قال: بلى، قال: فابن عليهم باب الكهف حتى يموتوا جوعاً وعطشاً، ففعل، هذا قول وهب بن منبّه. والثالث: أنهم كانوا أبناء عظماء المدينة وأشرفهم، خرجوا فاجتمعوا وراء المدينة على غير معاد، فقال رجل منهم، هو أسنهم: إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أحداً يجده، فقالوا: ما تجد؟ قال: أجد في نفسي أن ربي ربُّ السموات والأرض، فقاموا جميعاً فقالوا: ربُّنا ربُّ السموات والأرض، فأجمعوا أن يدخلوا الكهف، فدخلوا، فلبثوا ما شاء الله، هذا قول مجاهد. وقال قتادة: كانوا أبناء ملوك الروم، ففتردوا بدينهم في الكهف، فضرب الله على آذانهم.

فصل

فأما سبب بعث أصحاب الكهف من نومهم، فقال عكرمة: جاءت أمة مسلمة، وكان ملكهم مسلماً، فاختلّفوا في الروح والجسد، فقال قائل: يُبعث الروح والجسد. وقال قائل: يبعث الروح وحده، والجسد تأكله الأرض فلا يكون شيئاً، فسق اختلافهم على الملك، فانطلق فلبس المسوح، وقعد على الرماد، ودعا الله أن يبعث لهم آية تبيّن لهم، فبعث الله أصحاب الكهف. وقال وهب بن منبّه: جاء راعٍ قد أدركه المطر إلى الكهف، فقال: لو فتحت هذا الكهف، وأدخلته غنمي من المطر، فلم يزل يعالجه حتى فتحه، ورد الله إليهم أرواحهم حين أصبحوا من الغد. وقال ابن السائب: احتاج صاحب الأرض التي فيها الكهف أن يبني حظيرة لغنمه، فهدم ذلك السد، فبنى به، فانفتح باب الكهف. وقال ابن إسحاق: ألقى الله في نفس رجل من أهل البلد أن يهدم ذلك البنيان فيبني به حظيرة لغنمه، فاستأجر عاملين ينزعان تلك الحجارة، فنزعاها، وفتحا باب الكهف، فجلسوا فرحين، فسلم بعضهم على بعض لا يرون في وجوههم ولا أجسادهم شيئاً يكرهونه، إنما هم على هيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن ملكهم في طلبهم، فصلّوا، وقالوا ليمليخا صاحب نفقتهم: انطلق فاستمع، ما نُذكر به، وابتغ لنا طعاماً، فوضع ثيابه، وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها، وخرج فرأى الحجارة قد نزعَت عن باب الكهف، فعجب، ثم مرَّ مستخفياً متخوفاً أن يراه أحد فيذهب به إلى الملك، فلما رأى باب المدينة رأى عليه علامة تكون لأهل الإيمان، فعجب، وحُيِّل إليه أنها ليست بالمدينة التي يعرف، ورأى ناساً لا يعرفهم، فجعل يتعجب ويقول: لعلِّي نائم؛ فلما دخلها رأى قوماً يحلفون باسم عيسى، فقام مسنداً ظهره إلى جدار، وقال في نفسه: والله ما أدري ما هذا، عشية أمس لم يكن على [وجه] الأرض من يذكر عيسى إلا قُتل، واليوم أسمعهم يذكرونه، لعل هذه ليست المدينة التي أعرف، والله ما أعرف مدينة قرب مدينتنا، فقام كالحيران، وأخرج ورَقاً

فأعطاه رجلاً وقال: بعني طعاماً، فنظر الرجل إلى نقشه فعجب، ثم ألقاه إلى آخر، فجعلوا يتطارحونه بينهم، ويتعجبون، ويتشاورون، وقالوا: إن هذا قد أصاب كنزاً، ففَرَّقَ منهم، وظنَّهم قد عرفوه، فقال: أمسكوا طعامكم فلا حاجة بي إليه، فقالوا له: من أنت يا فتى؟ والله لقد وجدت كنزاً وأنت تريد أن تخفيه، شاركنا فيه وإلا أتينا بك إلى السلطان فيقتلك، فلم يدر ما يقول، فطرحوا كساءه في عنقه وهو يبكي ويقول: فُرق بيني وبين إخوتي، يا ليتهم يعلمون ما لقيتُ، فأتوا به إلى رجلين كانا يدبران أمر المدينة، فقالوا: أين الكنز الذي وجدت؟ قال: ما وجدت كنزاً، ولكن هذه وِرقٌ آبائي، ونقش هذه المدينة وضربها، ولكن والله ما أدري ما شأني، ولا ما أقول لكم، قال مجاهد: وكان وِرق أصحاب الكهف مثل أخفاف الإبل، فقالوا: من أنت، وما اسم أبيك؟ فأخبرهم، فلم يجدوا من يعرفه، فقالوا له أحدهما: أظن أنك تسخر منَّا وخزائن هذه البلدة بأيدينا، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار؟! إني سأمر بك فتعذَّب عذاباً شديداً ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز، فقال يملixa: أنبئوني عن شيء أسألكم عنه، فإن فعلتم صدقتكم، قالوا: سل، قال: ما فعل الملك دقيانوس؟ قالوا: لا نعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً يسمى دقيانوس، وإنما هذا ملك كان منذ زمان طويل، وهلكت بعده قرون كثيرة، فقال: والله ما يصدِّقني أحد بما أقوله، لقد كُنَّا فتيةً، وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت، فهرينا منه عشية أمس فمنا، فلما انتبهنا خرجتُ اشتري لأصحابي طعاماً، فإذا أنا كما ترون، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي، فانطلقوا معه وسائر أهل المدينة، وكان أصحابه قد ظنوا لإبطائه عليهم أنه قد أخذ، فبينما هم يتخفون ذلك، إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل، فظنوا أنهم رُسل دقيانوس، فقاموا إلى الصلاة، وسلَّم بعضهم على بعض، فسبق يملixa إليهم وهو يبكي، فبكوا معه، وسأله عن شأنه، فأخبرهم خبره، وقصَّ عليهم النبأ كلَّه، فعرفوا أنهم كانوا نياماً بأمر الله تعالى، وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس، وتصديقاً للبعث؛ ونظر الناس في المسطور الذي فيه أسماؤهم وقصتهم، فعجبوا، وأرسلوا إلى ملكهم، فجاء، واعتنق القوم، وبكى، فقالوا له: نستودعك الله ونقرأ عليك السلام، حفظك الله، وحفظ ملكك، فبينما الملك قائم، رجعوا إلى مضاجعهم، وتوفَّى الله عزَّ وجلَّ أنفسهم، فأمر الملك أن يجعل لكل واحد منه تابوت من ذهب، فلما أمسوا رأهم في المنام، فقالوا: إنا لم نُخلِّق من ذهب وفضة، ولكن خُلِّقنا من تراب، فتركنا كما كُنَّا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله ﷻ منه، وحجبههم الله عز وجل حين خرجوا من عندهم بالرُّعب، فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم، وأمر الملك فجُعل على باب الكهف مسجدٌ يصلَّى فيه، وجعل لهم عيداً عظيماً يوتى كل سنة. وقيل: إنه لما جاء يملixa ومعه الناس، قال: دعوني أدخل إلى أصحابي فأبشروهم، فإنيهم إن رأوكم معي أربعتومهم، فدخل فبشروهم، وقبض الله روحه وأرواحهم، فدخل الناس، فإذا أجساد لا ينكرون منها شيئاً، غير أنها لا أرواح فيها، فقال الملك: هذه آية بعثنا الله لكم.

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ قال الزجاج: المعنى: أنماهم ومنعتهم السمع، لأن النائم إذا سمع انتبه. و﴿عَدَدًا﴾ منصوب على ضربين: أحدهما: على المصدر، المعنى: تُعدُّ عدداً. والثاني: أن يكون نعتاً للستين، المعنى: ستين ذات عدد، والفائدة في ذِكْر العدد في الشيء المعدود، تأكيد كثرة الشيء، لأنه إذا قلَّ فهم مقداره، وإذا كَثُر احتيج إلى أن يُعدَّ العدد الكثير. ﴿فَوُتِّرَ بِمَنَّتِهِمْ﴾ من نومهم، يقال لكلُّ مَنْ خرج من الموت إلى الحياة، أو من النوم إلى الانتباه، مبعوث، لأنه قد زال عنه ما كان يحبسُه عن التصرف والانبعاث. وقيل: معنى ﴿بَيْنَيْكَ عَدَدًا﴾: أنه لم يكن فيها شهور ولا أيام، إنما هي كاملة، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿يَنْتَهَرُ أَيْ لِحْزِينَ﴾ قال المفسرون: أي: لنرى. وقال بعضهم: المعنى: لتعلموا أنتم. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو عمران، والنخعي: «لِيُعْلَمَ» بضم الياء، على ما لم يُسمِّ فاعله «أَيُّ الْحَزْبِينَ»، ويعني بالحزبين: المؤمنين والكافرين من قوم أصحاب الكهف. ﴿أَخَصَّنَا لِمَا لَمْ نَكُنْ لَنَا آسَاءُ﴾ أي: لنعلم أهؤلاء أحصى للأمد أو هؤلاء، فكانه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف بعد خروجهم من بينهم، فبعثهم الله ليبين ذلك ويظهر. قال قتادة: لم يكن للفريقين علم بلبثهم، لا لمؤمنيهم، ولا لكافريهم. قال مقاتل: لما بُعثوا زال الشك وعُرفت حقيقة

اللبث. وقال القاضي أبو يعلى: معنى الكلام: بعثناهم ليظهر المعلوم في اختلاف الحزين في مدة لبثهم، لما في ذلك من العبرة.

﴿هَٰؤُلَاءِ نِعْمَ الْعِبَادُ ۖ إِنَّهُمْ فِي سَبِيلِ رَبِّهِمْ كَذٰبًا ۝١٣﴾ وَرَبَّنَا عَلٰى قُلُوْبِهِمْ اِذْ قَامُوْا فَقَالُوْا رَبَّنَا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ لَنْ نَّدْعُوْهُ مِنْ دُوْنِهٖۤ اِلٰهًا لَقَدْ قُلْنَا اِذَا سَلَطْنَا ۝١٤ هٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِهٖۤ اِلٰهَةً لَّوْلَا بَأْتُوْكَ عَلَيْهِمْ يَسُلٰطِنُ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰتَيْنٰهُمُ الْاَنْبِيَاۡءَ عَلٰى اَنْفُسِهِمْ كَذٰبًا ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ نِعْمَ الْعِبَادُ ۖ إِنَّهُمْ فِي سَبِيلِ رَبِّهِمْ كَذٰبًا﴾ أي: خبر الفتية ﴿وَالْحَقُّ﴾ أي: بالصدق.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّنَا عَلٰى قُلُوْبِهِمْ﴾ أي: ثبنتناهم على الإيمان، ﴿وَرَبَّنَا عَلٰى قُلُوْبِهِمْ﴾ أي: ألهمناها الصبر ﴿اِذْ قَامُوْا﴾ بين يدي ملكهم دقيانوس ﴿فَقَالُوْا رَبَّنَا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ وذلك أنه كان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، فعصم الله هؤلاء حتى عصوا ملكهم. وقال الحسن: قاموا في قومهم فدعوهم إلى التوحيد. وقيل: هذا قولهم بينهم لما اجتمعوا خارج المدينة على ما ذكرنا في أول القصة. فأما الشطط، فهو الجؤر. قال الزجاج: يقال: شَطَّ الرجل، وأَشَطَّ: إذا جار. ثم قال الفتية: ﴿هٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ يعنون الذين كانوا في زمن دقيانوس ﴿اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِهٖۤ اِلٰهَةً﴾ أي: عبدوا الأصنام ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هلا ﴿بَأْتُوْكَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على عبادة الأصنام ﴿يَسُلٰطِنُ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰتَيْنٰهُمُ الْاَنْبِيَاۡءَ﴾ أي: بِحُجَّةٍ. وإنما قال: «عليهم» والأصنام مؤنثة، لأن الكفار نحلوها العقل والتمييز، فجرت مجرى المذكورين من الناس.

قوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ نِعْمَ الْعِبَادُ ۖ إِنَّهُمْ فِي سَبِيلِ رَبِّهِمْ كَذٰبًا﴾ فزعم أن له شريكاً؟!

﴿اِذْ اَعْتَلْتُمُوْهُمۡ وَمَا يَتَّبِعُوْكَ اِلَّا اللّٰهُ فَاَوَّاۤ اِلَى الْكُهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَّحْمَتِهٖۤ وَيَهَيِّۤئْ لَكُمْ مِنْ اَمْرِكُمْ مَّرْفَقًا ۝١٤﴾ وَرَبِّيَ اَلْسَمَسُ اِذَا طَلَعَتْ تَرْوَرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِيْنِ وَاِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُۤ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ اٰيٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿اِذْ اَعْتَلْتُمُوْهُمۡ﴾ قال ابن عباس: هذا [قول] يملیخا، وهو رئيس أصحاب الكهف، قال لهم: وإذ اعتزلتموهم، أي: فارقتموهم، يريد: عبدة الأصنام، ﴿وَمَا يَتَّبِعُوْكَ اِلَّا اللّٰهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: واعتزلتم ما يعبدون، إلا الله، فإن القوم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه آلهة، فاعتزل الفتية عبادة الآلهة، ولم يعتزلوا عبادة الله، هذا قول عطاء الخراساني، والفراء. والثاني: وما يعبدون غير الله؛ قال قتادة: هي في مصحف عبد الله: «وما يعبدون من دون الله»، وهذا تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿فَاَوَّاۤ اِلَى الْكُهْفِ﴾ أي: اجعلوه ماواكم، ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَّحْمَتِهٖۤ﴾ أي: يسيط عليكم من رزقه، ﴿وَيَهَيِّۤئْ لَكُمْ مِنْ اَمْرِكُمْ مَّرْفَقًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «مرفقاً» بكسر الميم، وفتح الفاء. وقرأ نافع، وابن عامر: «مرفقاً» بفتح الميم، وكسر الفاء. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: «مرفقاً» بفتح الميم وكسر الفاء، في كل مرفق ارتفعت به، ويكسرون مرفق الإنسان، والعرب قد يكسرون الميم منهما جميعاً. قال ابن الأنباري: معنى الآية: ويهيئ لكم بدلاً من أمركم الصَّعب مرفقاً، قال الشاعر:

فَلَيْتَ لَنَا مِنْ مَّاءٍ زَمَزَمَ شَرِيَةً مُبَرَّدَةً بَاتَتْ عَلَى ظَهْرِيَّانٍ^(١)

معناه: فليت لنا بدلاً من ماء زمزم. قال ابن عباس: «ويهيئ لكم»: يسهل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه ويأتيكم باليسر والرفق واللطف.

قوله تعالى: ﴿وَرَبِّيَ اَلْسَمَسُ اِذَا طَلَعَتْ﴾ المعنى: لو رأيته لرأيت ما وصفنا. ﴿تَرْوَرُّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «تَرْوَرُّ» بتشديد الزاي. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «تَرْوَرُّ» خفيفة. وقرأ ابن عامر: «تَرْوَرُّ» مثل: «تَحْمَرُّ». وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز، وأبو رجاء، والجحدري: «تَرْوَرُّ» بإسكان الزاي، وبألف ممدودة بعد الواو من غير همزة، مشددة الراء. وقرأ ابن مسعود، وأبو المتوكل، وابن السميعف: «تَرْوَرُّ» بهمزة قبل الراء،

(١) البيت للأحول الكندي في «اللسان» و«التاج»: طها، و«البحر» ١٠٧/٦، و«روح المعاني» ٢٠٤/١٥.

مثل: «تَزَوَّرُ» وقرأ أبو الجوزاء، وأبو السماك: «تَزَوَّرُ» بفتح التاء والزاي وتشديد الواو المفتوحة خفيفة الراء، مثل: «تَكْوَرُ»، أي: تميل وتعدل. قال الزجاج: أصل «تزاور»: تتزاور، فأدغمت التاء في الزاي، و﴿تَقْرِضُهُمْ﴾ أي: تعدل عنهم وتركهم، وقال ذو الرمة:

إِلَى طُلُوعِنَ يَقْرِضُنَ أَجْوَارَ مُشْرِفٍ شِمَالاً وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْقَوَارِسُ^(١)

يقرضن: يتركن. وأصل القرض: القطع والتفرقة بين الأشياء، ومنه قولك: أقرضني درهماً، أي: اقطع لي من مالك درهماً. قال المفسرون: كان كهفهم بإزاء بنات نعش في أرض الروم، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربةً لا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرّها وتغير ألوانهم. ثم أخبر أنهم كانوا في متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح، ونسيم الهواء، فقال: ﴿وَمَتَّ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ قال أبو عبيدة: أي: [في] مُتَّسِعٍ، والجميع: فَجَوَاتٍ، وفيجاء، بكسر الفاء. وقال الزجاج: إنما صرّف الشمس عنهم آيةً من الآيات، ولم يرض قول من قال: كان كهفهم بإزاء بنات نعش.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ مَّآيَتِ اللَّهِ﴾ يشير إلى ما صنعه بهم من اللطف في هدايتهم، وصرف أذى الشمس عنهم، والرعب الذي ألقى عليهم حتى لم يقدر الملك الظالم ولا غيره على أذاهم. «من آيات الله» أي: من دلائله على قدرته ولطفه. ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَكِبُ﴾ هذا بيان أنه هو الذي تولّى هداية القوم، ولولا ذلك لم يهتدوا.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتِنَا وَهُمْ رَفُودٌ وَقِيلَ لَهُمْ ذَلِكَ أَلِيمٌ ذَلِكَ الشِّمَالُ وَكَانَ بَيْتُهُمْ بِسَيْطِ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَاتٍ مِنْهُمْ رِيسًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتِنَا﴾ أي: لو رأيتهم لحسبتهم آياتنا. قال الزجاج: الأيقاظ: المنتبهون، واحدهم: يَقِظٌ، وَيَقْظَانٌ، والجميع: أيقاظ؛ والرُقود: النيام. قال الفراء: واحد الأيقاظ: يَقْظٌ، وَيَقْظٌ. قال ابن السائب: وإنما يحسبون آياتنا، لأن أعينهم مفتحة وهم نيام. وقيل: لتقلبهم يميناً وشمالاً. وذكر بعض أهل العلم: أن وجه الحكمة في فتح أعينهم، أنه لو دام ظنّبها لذابت.

قوله تعالى: ﴿وَتَقْلِبُهُمْ﴾ وقرأ أبو رجاء: «وتقلّبهم» بناءً مفتوحة، وسكون القاف، وتخفيف اللام المكسورة. وقرأ أبو الجوزاء، وعكرمة: «وتقلّبهم» مثلها، إلا أنه بالنون. ﴿ذَلِكَ أَلِيمٌ﴾ أي: على إيمانهم وعلى شمائلهم. قال ابن عباس: كانوا يقبلون في كل عام مرتين، ستة أشهر على هذا الجنب، وستة أشهر على هذا الجنب، لئلا تأكل الأرض لحومهم. وقال مجاهد: كانوا ثلاثمائة عام على شقّ واحد، ثم قُلبوا تسع سنين.

قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَسيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أخبر أن الكلب كان على مثل حالهم في النوم، وهو في رأي العين منتبه. وفي الوصيد أربعة أقوال: أحدها: أنه الفئاء فناء الكهف، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والفراء. قال الفراء: يقال: الوَصِيدُ والأَصِيدُ لغتان، مثل الإكفاف والوكاف. وأرخت الكتاب وورّخت، ووكدت الأمر وأكّدت؛ وأهل الحجاز يقولون: الوَصِيدُ، وأهل نجد يقولون: الأَصِيدُ، وهو: الحظيرة والفئاء. والثاني: أنه الباب، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال السدي. وقال ابن قتيبة: فيكون المعنى: وكلهم باسط ذراعيه بالباب، قال الشاعر:

بِأَرْضِ فِضَاءٍ لَا يَسُدُّ وَصِيدُهَا عَلِيٍّ وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرٍ^(٢)

والثالث: أنه الصعيد، وهو التراب، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد في رواية عنهما. والرابع: أنه عتبة الباب، قاله عطاء. قال ابن قتيبة: وهذا أعجب إليّ، لأنهم يقولون: أوصد بابك، أي: أغلقه، ومنه قوله: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ﴾ [الهمزة: ٤٨]، أي: مُطَبَّقَةٌ مُتَّخِذَةٌ، وأصله أن تلتصق الباب بالعتبة إذا أغلقت، ومما يوضح هذا أنك إذا جعلت الكلب بالفئاء، كان خارجاً من الكهف، وإن جعلته بعتبة الباب،

(١) ديوانه طبع المكتب الإسلامي ٤٠٣، «مجاز القرآن» ٣٩٦/١، «الطبري» ٢١١/١٥، و«مشرف والفوارس»: موضعان بنجد كما في «معجم ما استعجم».

(٢) البيت لسعيد بن وهب العسبي، وهو في «غريب القرآن» ٢٦٥، و«البحر المحيط» ٩٣/٦، و«القرطبي» ٣٥١/١٠، ٣٧٣.

أمكن أن يكون داخل الكهف، والكهف وإن لم يكن له باب وعتبة، فإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت، فاستعير.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَلْمَعَتْ عَلَيَّمْ﴾ [وقرأ الأعمش، وأبو حصين: «لَوْ اطَّلَعَتْ» بضم الراء] ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ رهبة لهم ﴿وَلَمَّيْتُمْ﴾ قرأ عاصم، وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «وَلَمَّيْتُمْ» خفيفة مهموزة. وقرأ ابن كثير، ونافع: «وَلَمَّيْتُمْ» مشددة مهموزة، ﴿رُضِبَا﴾ [أي]: فرعاً وخوفاً، وذلك أن الله تعالى منعهم بالربح لثلاث يدخل إليهم أحد. وقيل: إنهم طالت شعورهم وأظفارهم جداً، فلذلك كان الرائي لهم لو رآهم هرب مرعوباً، حكاة الزجاج.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِينَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْتِغُوا مِنْكُمْ رِبْزِيكُمْ هَذَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّكُمْ أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدْنَا﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: وكما فعلنا بهم ما ذكرنا، بعثناهم من تلك النوم ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾ أي: ليكون بينهم تساؤل وتنازع واختلاف في مدة لبثهم، فيفيد تساؤلهم اعتبار المعترين بحالهم. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: كم مرر علينا منذ دخلنا هذا الكهف؟ ﴿قَالُوا لَبِينَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أنهم دخلوا غدوة، وبعثهم الله في آخر النهار، فلذلك قالوا: «يوماً»، فلما رأوا الشمس قالوا: «أو بعض يوم» ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ قال ابن عباس: القائل لهذا يملخوا رئيسهم، رد علم ذلك إلى الله تعالى. وقال في رواية أخرى: إنما قاله مكلمينا، وهو أكبرهم. قال أبو سليمان: وهذا يوجب أن تكون نفوسهم قد حدثتهم أنهم قد لبثوا أكثر مما ذكروا. وقيل: إنما قالوا ذلك، لأنهم رأوا أظفارهم وأشعارهم قد طالت جداً.

قوله تعالى: ﴿فَابْتِغُوا مِنْكُمْ﴾ قال ابن الأنباري: إنما قال: «أحدكم»، ولم يقل: واحدكم، لثلاث يلتبس البعض بالمدح المعظم، فإن العرب تقول: رأيت أحد القوم، ولا يقولون: رأيت واحد القوم، إلا إذا أرادوا المعظم، فأراد بأحدكم: بعضهم، ولم يُرد شريفهم.

قوله تعالى: ﴿بِرِزْقِكُمْ﴾، قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿بِرِزْقِكُمْ﴾ الرءاء مكسورة خفيفة. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم ساكنة الرءاء. وعن أبي عمرو: ﴿بورقكم﴾ مدغمة يُشِيئُهَا شيئاً من التثقيل؛ قال الزجاج: تصير كافاً خالصة. قال الفراء: الوريق لغة أهل الحجاز، وتميم يقولون: الوريق، وبعض العرب يكسرون الواو، فيقولون: الوريق. قال ابن قتيبة: الوريق: الفضة، دراهم كانت أو غير دراهم، يدل ذلك على ذلك حديث عَرْفَجَةَ أَنَّهُ اتَّخَذَ أَنْفًا مِنْ وَرِقٍ^(١).

قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ يعنون التي خرجوا منها، واسمها دقوس، ويقال: هي اليوم طرسوس. قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرُوا أَيُّكُمْ أَزْكَى طَعَامًا﴾ وللمفسرين في معناه ستة أقوال: أحدها: أحل ذبيحة، قاله ابن عباس، وعطاء، وذلك أن عامة أهل بلادهم كانوا كفاراً، فكانوا يذبحون للطواغيت، وكان فيهم قوم يُخفون إيمانهم. والثاني: أحل طعاماً، قاله سعيد بن جبيرة؛ قال الضحاك: وكانت أكثر أموالهم غصباً. وقال مجاهد: قالوا لصاحبهم: لا تتبغ طعاماً فيه ظلم ولا غضب. والثالث: أكثر، قاله عكرمة. والرابع: خير، أي: أجود، قاله قتادة. والخامس: أطيب، قاله ابن السائب، ومقاتل، والسادس: أرخص، قاله يمان بن رباب. قال ابن قتيبة: وأصل الزكاء: النماء والزيادة.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي: بما تأكلونه. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: ليُدقِّق النظر فيه، وليحتل لثلاث يُطَّلَع عليه. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ﴾ أي: ولا يُخبرن أحداً بمكانكم. ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يَطَّلَعُوا وَيُشْرِفُوا عَلَيْكُمْ، ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾

(١) رواه أبو داود في «سننه» رقم (٤٢٣٢)، والنسائي ١٦٣/٨، والترمذي في «جامعه» ٢٠٩/١ عن عرفجة بن سعد قال: أصيب أنفي يوم الكلاب في الجاهلية، فاتخذت أنفاً من وريق، فأتني عليٌّ، فأمرني رسول الله ﷺ أن أخذ أنفاً من ذهب. قال الترمذي: هذا حديث حسن، وقد روي عن غير واحد من أهل العلم أنهم شدوا أمتانهم بالذهب، وفي هذا الحديث حجة لهم. اهـ.

وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: يقتلوكم، قاله ابن عباس. وقال الزجاج: يقتلوكم بالرجم. والثاني: يرموكم بأيديهم، استنكاراً لكم، قاله الحسن. والثالث: بالسنتهم شتماً لكم، قاله مجاهد، وابن جريج.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُبَدِّلُكُمْ فِي دِينِهِمْ﴾ أي: يردوكم في دينهم، ﴿وَلَنْ نُقَلِّعُوا إِذَا أَبَا﴾ أي: إن رجعتم في دينهم، لم تسعدوا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَسْتَرْعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَوْفَىٰ بِمَا قَالَتِ الْكَاذِبَةُ عَلَيَّوَا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنْتَجِدَنَّ عَلَيْهِمْ مُسْجِدًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾ أي: وكما أنماهم ويعشانهم، أطلعنا وأظهرنا عليهم. قال ابن قتبية: وأصل هذا أن من عثر بشيء وهو غافل، نظر إليه حتى يعرفه، فاستعير العثار مكان التبيين والظهور، ومنه قول الناس: ما عثرت على فلان بسوء قط، أي: ما ظهرت على ذلك منه.

قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ في المشار إليهم بهذا العلم قولان: أحدهما: أنهم أهل بلدهم حين اختصموا في البعث، فبعث الله أهل الكهف ليعلموا ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ وأن القيامة لا شك فيها، هذا قول الأكثرين. والثاني: أنهم أهل الكهف، بعشانهم ليرؤوا بعد علمهم أن وعد الله حق، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْتَرْعُونَ﴾ يعني: أهل ذلك الزمان. قال ابن الأنباري: المعنى: إذ كانوا يتنازعون، ويجوز أن يكون المعنى: إذ تنازعوا. وفي ما تنازعوا فيه خمسة أقوال: أحدها: أنهم تنازعوا في البنیان، والمسجد. فقال المسلمون: بنى عليهم مسجداً، لأنهم على ديننا؛ وقال المشركون: بنى عليهم بنياناً، لأنهم من أهل سُنَّتِنَا، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم تنازعوا في البعث، فقال المسلمون: بُعثت الأجساد والأرواح، وقال بعضهم: بُعثت الأرواح دون الأجساد، فأراه الله تعالى بعث الأرواح والأجساد ببعثه أهل الكهف، قاله عكرمة. والثالث: أنهم تنازعوا ما يصنعون بالفتية، قاله مقاتل. والرابع: أنهم تنازعوا في قدر مكثهم. والخامس: تنازعوا في عددهم، ذكرهما الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا﴾ أي: استروهم من الناس بأن تجعلوهم وراء ذلك البنیان. وفي القائلين أهذا قولان: أحدهما: أنهم مشركو ذلك الزمان، وقد ذكرناه عن ابن عباس. والثاني: أنهم الذين أسلموا حين رأوا أهل الكهف، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ ظَلَمُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ قال ابن قتبية: يعني المطاعين والرؤساء، قال المفسرون، وهم الملك وأصحابه المؤمنون اتخذوا عليهم مسجداً. قال سعيد بن جبیر: بنى عليهم الملك بيعة.

﴿سَيَقُولُونَ لَوْلَا رَبُّهُمْ كَلِمَةٌ وَيَقُولُونَ حَسْبُ سَادِسْتُمْ كَلِمَةٌ رَحْمًا بِالْقَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَرَأَيْتُمْ كَلِمَةً قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِبَادِهِمْ مَا يَلْمَهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا ﴿١٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَرْ رَبَّكَ إِذَا قَسَيْتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا وَمَسْأَلَةٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لَوْلَا رَبُّهُمْ كَلِمَةٌ﴾ قال الزجاج: «ثلاثة» مرفوع بخبر الابتداء، المعنى: سيقول الذين تنازعوا في أمرهم: [هم] ثلاثة. وفي هؤلاء القائلين قولان: أحدهما: أنهم نصارى نجران، ناظروا رسول الله ﷺ في عِدَّةِ أَهْلِ الكهف، فقالت الملكية: هم ثلاثة رابعهم كلبهم، وقالت اليعقوبية: هم خمسة سادسهم كلبهم، وقالت النسبورية: هم سبعة وثامنهم كلبهم، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنهم أهل مدينتهم قبل ظهورهم عليهم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿رَحْمًا بِالْقَيْبِ﴾ أي: ظناً غير يقين، قال زهير:

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ

فأما دخول الواو في قوله: ﴿وَرَأَيْتُمْ كَلِمَةً﴾ ولم تدخل فيما قبل هذا، ففيه أربعة أقوال: أحدها: أن دخولها

وخروجها واحد، قاله الزجاج. والثاني: أن ظهور الواو في الجملة الثامنة^(١) دلالة على أنها مرادة في الجملتين المتقدمتين، فأعلم بذكرها هاهنا أنها مرادة فيما قبل، وإنما حذفت تخفيفاً، ذكره أبو نصر في «شرح اللمع». والثالث: أن دخولها يدل على انقطاع القصة، وأن الكلام قد تمّ، ذكره الزجاج أيضاً، وهو قول مقاتل بن سليمان، فإن الواو تدل على تمام الكلام قبلها، واستئناف ما بعدها؛ قال الثعلبي: فهذه واو الحكم والتحقيق، كأن الله تعالى حكى اختلافهم، فتم الكلام عند قوله: ﴿وَقَوْلُوكَ سَبْعَةً﴾، ثم حكم أن ثامنهم كلبهم. وجاء في بعض التفسير أن المسلمين قالوا عند اختلاف النصارى: هم سبعة، فحَقَّقَ اللهُ قول المسلمين. والرابع: أن العرب تعطف بالواو على السبعة، فيقولون: ستة، سبعة، وثمانية، لأن العقد عندهم سبعة، كقوله: ﴿التَّيْمُونِ الْكَبِيرِ...﴾ إلى أن قال في الصفة الثامنة: ﴿وَالْكَاهُونِ عَنِ النَّبِيِّ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقوله في صفة الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وفي صفة النار: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١-٧٣]، لأن أبواب النار سبعة، وأبواب الجنة ثمانية، ذكر هذا المعنى أبو إسحاق الثعلبي. وقد اختلف العلماء في عددهم على قولين: أحدهما: أنهم كانوا سبعة، قاله ابن عباس. والثاني: ثمانية، قاله ابن جريج، وابن إسحاق. وقال ابن الأنباري: وقيل: معنى قوله: ﴿وَتَأْمِنُهُمُ كَلْبُهُمْ﴾: صاحب كلبهم، كما يقال: السخاء حاتم، والشعر زهير، أي: السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر زهير. وأما أسماؤهم، فقال هُثَيْمٌ: مكسلمينا، ويمليخا، وطرينوس، وسدينوس، وسرينوس، وتواسس، ويرانوس، وفي التفسير خلاف في أسمائهم فلم أطل به. واختلفوا في كلبهم لمن كان على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان لراع مرّوا به فتبعهم الراعي والكلب، قاله ابن عباس. والثاني: أنه كان لهم يتصيدون عليه، قاله عبيد بن عمير. والثالث: أنهم مرّوا بكلب فتبعهم، فطردوه، فعاد، ففعلوا ذلك به مراراً، فقال لهم الكلب: ما تريدون مني؟! لا تخشوا جانبي أنا أحبُّ أجباءَ الله، فناموا حتى أحرسكم، قاله كعب الأحبار. وفي اسم كلبهم أربعة أقوال: أحدها: قطمير، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: اسمه الرقيم، وقد ذكرناه عن سعيد بن جبيرة. والثالث: قطمور، قاله عبد الله بن كثير. والرابع: حُمران، قاله شعيب الجبائي. وفي صفته ثلاثة أقوال: أحدها: أحمر، حكاه الثوري. والثاني: أصفر، حكاه ابن إسحاق. والثالث: أحمر الرأس، أسود الظهر، أبيض البطن، أبلق الذنب، ذكره ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَنْتُمْ بَعْدَهُمْ﴾ حرك الياء ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأسكنها الباقون.

قوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس. قال عطاء: يعني بالقليل: أهل الكتاب. قال ابن عباس: أنا من ذلك القليل، هم سبعة، إن الله عدّهم حتى انتهى إلى السبعة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ﴾ قال ابن عباس، وقتادة: لا تُحَارِبْ أَحَدًا، حسبك ما قصصتُ عليك من أمرهم. وقال ابن زيد: لا تُحَارِبْ فِي عِدَّتِهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا أَنْ تَقُولَ لَهُمْ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ، لَيْسَ كَمَا تَعْلَمُونَ: وقيل: «إلا مِرَاءً ظَاهِرًا» بحجة واضحة، حكاه الماوردي. والمِرَاءُ في اللغة: الجِدَالُ؛ يقال: مَارَى يُمَارَى مُمَارَاةً وَمِرَاءً، أي: جَادَلَ. قال ابن الأنباري: معنى الآية: لا تجادل إلا جدال متيقن عالم بحقيقة الخير، إذ الله تعالى ألقى إليك ما لا يشوبه باطل. وتفسير المِرَاءِ في اللغة: استخراج غضب المجادل، من قولهم: مَرَيْتُ الشاةَ: إذا استخرجت لبنها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ أي: في أصحاب الكهف، ﴿مِنْهُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني: من أهل الكتاب. قال الفراء: أتاه فريقان من النصارى، نسطوري، ويعقوبي، فسألهم النبي ﷺ عن عددهم، فنهى عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢١﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ سبب نزولها أن قريشاً سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين، وعن الرُّوح، وعن أصحاب الكهف، فقال: غداً أخبركم بذلك، ولم يقل: إن شاء الله، فأبطل عليه جبريل خمسة عشر يوماً لتركه الاستثناء، فشق ذلك عليه، ثم نزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. ومعنى الكلام: ولا تقولن لشيء: إني فاعل ذلك غداً، إلا أن تقول: إن شاء الله، فحذف القول.

(١) أي في قوله تعالى: ﴿وَتَأْمِنُهُمُ كَلْبُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَأَيْدُكَ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتُ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: واذكر ربك بعد تقضي النسيان، كما تقول: اذكر لعبد الله - إذا صلى - حاجتك، أي: بعد انقضاء الصلاة. وللمفسرين في معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت، فقل: إن شاء الله، ولو كان بعد يوم أو شهر أو سنة، قاله سعيد بن جبير، والجمهور. والثاني: أن معنى «إذا نسيت»: إذا غضبت، قاله عكرمة، قال ابن الأنباري: وليس بعيد، لأن الغضب يُتبع النسيان. والثالث: إذا نسيت الشيء فاذكر الله ليذكرك إياه، حكاه الماوردي.

فصل

وفائدة الاستثناء أن يخرج الحالف من الكذب إذا لم يفعل ما حلف عليه، كقوله في قصة موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، ولم يصبر، فسلم من الكذب لوجود الاستثناء في حقه. ولا تختلف الرواية عن أحمد أنه لا يصح الاستثناء في الطلاق والعتاق، وأنه إذا قال: أنت طالق إن شاء الله، وأنت حر إن شاء الله، أن ذلك يقع، وهو قول مالك؛ وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يقع شيء من ذلك. وأما اليمين بالله تعالى؛ فإن الاستثناء فيها يصح، بخلاف الطلاق، وكذلك الاستثناء في كل ما يكفر، كالظهار، والنذر، لأن الطلاق والعتاق لفظه لفظ إيقاع، وإذا علقت به المشيئة، علمنا وجودها، لوجود لفظ الإيقاع من جهته، بخلاف سائر الأيمان، لأنها ليست بموجبات للحكم، وإنما تتعلق بأفعال مستقبلية. وقد اختلف في الوقت الذي يصح فيه الاستثناء على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لا يصح الاستثناء إلا موصولاً بالكلام، وقد روي عن أحمد نحو هذا، وبه قال أكثر الفقهاء. والثاني: أنه يصح ما دام في المجلس، قاله الحسن وطاووس، وعن أحمد نحوه. والثالث: أنه لو استثنى بعد سنة، جاز، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، وقال ابن جرير الطبري: الصواب للإنسان أن يستثنى ولو بعد حثه في يمينه، فيقول: إن شاء الله، ليخرج بذلك مما ألزمه الله في هذه الآية، فيسقط عنه الحرج، فأما الكفارة فلا تسقط عنه بحال، إلا أن يكون الاستثناء موصولاً بيمينه، ومن قال: له ثيابا ولو بعد سنة، أراد سقوط الحرج الذي يلزمه بترك الاستثناء دون الكفارة.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو: «يهديني ربي» بياء في الوصل [دون] الوقف. وقرأ ابن كثير بياء في الحالين. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي بغير ياء في الحالين. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: عسى أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب في الرشد وأدلى من قصة أصحاب الكهف، ففعل الله له ذلك، وآتاه من علم غيوب المرسلين ما هو أوضح في الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف، هذا قول الزجاج. والثاني: أن قريشاً لما سألت رسول الله ﷺ أن يخبرهم خبر أصحاب الكهف، قال: «غداً أخبركم» كما شرحنا في سبب نزول هذه الآية^(١)، فقال الله تعالى له: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي﴾ أي: عسى أن يعرفني جواب مسألتكم قبل الوقت الذي حدّدته لكم، ويعجل لي من جهته الرشد، هذا قول ابن الأنباري.

﴿لَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَبِيرُ بِهِمْ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ بَيْنَ دُونِهِ مِنْ قَوْلٍ وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «ثلاثمائة سنين» متوئناً. وقرأ حمزة، والكسائي: «ثلاثمائة سنين» مضافاً غير متوئناً. قال أبو علي: العدد المضاف إلى الأحاد قد جاء مضافاً إلى الجمع، قال الشاعر:

وَمَا زَوْدُونِي غَيْرَ سَخِقِ عِمَامَةٍ وَخَمْسِيٍّ مِنْهَا قِسِيٍّ وَزَانِفٍ^(٢)

وفي هذا الكلام قولان: أحدهما: أنه حكاية عما قال الناس في حقهم، وليس بمقدار لبثهم، قاله ابن عباس، واستدل عليه فقال: لو كانوا لبثوا ذلك، لما قال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾، وكذلك قال قتادة، وهذا قول أهل الكتاب.

(١) أورده ابن كثير في «تفسيره» ٣/٧١ من رواية محمد بن إسحاق مطولاً.

(٢) البيت لمزود كما في «الصحاح» و«اللسان»: ماي، و«جمع البيان» ١٥/١٤٤.

والثاني: أنه مقدار ما لبثوا، قاله عبيد بن عمير، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد؛ والمعنى: لبثوا هذا القدر من يوم دخلوه إلى أن بعثهم الله وأطلع الخلق عليهم.

قوله تعالى: ﴿سِنِينَ﴾ قال الفراء، وأبو عبيدة، والكسائي، والزجاج: التقدير: سنين ثلاثمائة. وقال ابن قتيبة: المعنى: أنها لم تكن شهوراً ولا أياماً، وإنما كانت سنين. وقال أبو علي الفارسي: «سنين» بدل من قوله: «ثلاثمائة». قال الضحاك: نزلت: ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ فقالوا: أياماً، أو شهوراً، أو سنين؟ فنزلت: «سنين» فذلك قال: «سنين»، ولم يقل: سنة.

قوله تعالى: ﴿وَأَزْدُوا قِيَامًا﴾ يعني: تسع سنين، فاستغنى عن ذكر السنين بما تقدم من ذكرها. ثم أعلم أنه أعلم بقدر مدة لبثهم من أهل الكتاب المختلفين فيها، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ قال ابن السائب: قالت نصارى نجران: أما الثلاثمائة، فقد عرفناها، وأما التسع، فلا علم لنا بها، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إن للفتية منذ دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلاثمائة وتسع سنين، فرد الله تعالى عليهم ذلك، وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ بعد أن قبض أرواحهم إلى يومكم هذا، لا يعلم ذلك غير الله. وقيل: إنما زاد التسع، لأنه تفاوت ما بين السنين الشمسية والسنين القمرية، حكاة الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ يَدَيَّ وَأَسْمِعْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه على مذهب التعجب، فالمعنى: ما أسمع الله به وأبصر، أي: هو عالم بقصة أصحاب الكهف وغيرهم، هذا قول الزجاج، وذكر أنه إجماع العلماء. والثاني: أنه في معنى الأمر، فالمعنى: أبصر يديين الله وأسمع، أي: بصر بهدى الله وسمع، فترجع الهاء إما على الهدى، وإما على الله ﷻ، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: ليس لأهل السموات والأرض من دون الله من ناصر، ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ولا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم به، وليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه فيكون شريكاً لله ﷻ في حكمه. وقرأ ابن عامر: «ولا تشرك» جزماً بالفاء، والمعنى: لا تشرك أيها الإنسان.

﴿وَأَنْتَ مَا أَرْسِلْ مِنْ سَكَابِ رِيحٍ وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَتِهِمْ وَلَنْ نَجِدَ مِنْ دُونِهِ مَلْجَأًا﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالَّذِينَ يَرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْبَانًا ﴿١١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ مَا أَرْسِلْ مِنْ سَكَابِ رِيحٍ﴾ في هذه التلاوة قولان: أحدهما: أنها بمعنى القراءة. والثاني: بمعنى الاتباع. فيكون المعنى على الأول: اقرأ القرآن، وعلى الثاني: اتبعه واعمل به. وقد شرحنا في «الأنعام: ١١٥» معنى ﴿لَا مَبْدِلَ لِكَلِمَتِهِمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نَجِدَ مِنْ دُونِهِ مَلْجَأًا﴾ قال مجاهد، والفراء: ملجأ. وقال الزجاج: مغلداً عن أمره ونهيه. وقال غيرهم: موضعاً تميل إليه في الالتجاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ سبب نزولها أن المؤلفَةَ قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وذوهم، فقالوا: يا رسول الله: لو أنك جلست في صدر المجلس، ونحيت هؤلاء عتاً، - يعنون سلمان وأبا ذرٍّ وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف - جلسنا إليك، وأخذنا عنك، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾، فقام رسول الله ﷺ يلمسهم، حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله، قال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمّتي، معكم المحيا ومعكم الممات» هذا قول سلمان الفارسي^(١). ومعنى قوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: احبسها معهم على أداء الصلوات ﴿وَالْقُدُورِ وَالَّذِينَ﴾. وقد فسرنا هذه الآية في «الأنعام: ٥٢» إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تصرف بصرك

(١) «الطبري» ٢٣٦/١٥، وأسباب النزول: للواحدى ١٧١، «القرطبي» ٣٩١/١٠، «الدر» ٢١٩/٤، وذكره ابن كثير في «التفسير» ٨١/٣ من رواية الطبراني، وقد تقدم الحديث بنحوه ٤٤٠ فارجع إليه.

إلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف؛ وكان ﷺ حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم، ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قط، فأمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمَنَ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ سبب نزولها أن أمية بن خلف الجمحي، دعا رسول الله ﷺ إلى طرد الفقراء عنه، وتقريب صناديد أهل مكة، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس^(١). وفي رواية أخرى عنه أنه قال: هو عبيدة وأشباهه. ومعنى: «أغفلنا قلبه»: جعلناه غافلاً. وقرأ أبو مجلز: «من أغفلنا» بفتح اللام، ورفع باء القلب. «عن ذكْرنا»: عن التوحيد والقرآن والإسلام، «وَأَنْجَحَ هَوْنَهُ» في الشرك. «وَكَاثَ أَمْرُهُ فُرُوكًا» فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه أفرط في قوله، لأنه قال: إنا رؤوس مضر، وإن نُسِلِمُ يُسَلِمُ الناس بعدنا، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: ضياعاً، قاله مجاهد. وقال أبو عبيدة: سَرَفًا وتضييعاً. والثالث: نَدَمًا، حكاه ابن قتيبة عن أبي عبيدة. والرابع: كان أمره التفريط، والتفريط: تقديم العجز، قاله الزجاج.

﴿وَقُلِ الْخَوْفُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَفِيضُوا يَفِئُوا بِمَا كَانُوا يَشْرُونَ أَلَمْ يَجْعَلْ لِكُلِّ شَيْءٍ مَرْتَفَعًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْخَوْفُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال الزجاج: وقل الذي أتيتكم به، الحق من ربكم. قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فمن شاء الله فليؤمن، روي عن ابن عباس^(٢). والثاني: أنه عيد وإنذار، وليس بأمر، قاله الزجاج. والثالث: أن معناه: لا تنفعون الله بإيمانكم، ولا تضرونه بكفركم، قاله الماوردي. وقال بعضهم: هذا إظهار للغنى، لا إطلاق في الكفر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي: هيئنا، وأعدنا، وقد شرحناه في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ نَشَاءُ﴾ يونس: [٣١]. فأما الظالمون، فقال المفسرون: هم الكافرون. وأما السُرَادِقُ، فقال الزجاج: السُرَادِقُ: كلُّ ما أحاط بشيء، نحو الشقَّة في المضرب، أو الحائط المشتمل على الشيء. وقال ابن قتيبة: السُرَادِقُ: الحُجْرَة التي تكون حول الفسطاط. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: السُرَادِقُ فارسي معرَّب، وأصله بالفارسية سَرَادَاژ، وهو الدهليز، قال الفرزدق:

تَمَنَّيْتَهُمْ حَتَّى إِذَا مَا لَقَيْتَهُمْ
تَرَكْتُ لَهُمْ قَبْلَ الضَّرَابِ السُّرَادِقَا^(٣)

وفي المراد بهذا السُرَادِقُ قولان: أحدهما: أنه سُرَادِقُ من نار، قاله ابن عباس. روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «السُرَادِقُ النار أربعة جُدُرٍ كُنْتُ، كلُّ جدار منها مسيرة أربعين سنة»^(٤). وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس، قال: السرادق: لسان من النار، يخرج من النار فيحيط بهم حتى يفرغ من حسابهم. والثاني: أنه دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الظلُّ ذو ثلاث شعب الذي ذكره الله تعالى في [المسرات: ٣٠]، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَفِيضُوا﴾ أي: مما هم فيه من العذاب وشدة العطش ﴿يَفِئُوا بِمَا كَانُوا يَشْرُونَ﴾ وفيه سبعة أقوال: أحدها: أنه ماء غليظٌ كزبدٍ الزيت، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه كل شيء أذيب حتى انماح، قاله ابن مسعود. وقال أبو عبيدة، والزجاج: كل شيء أذبه من نحاس أو رصاص أو نحو ذلك، فهو مُهَل. والثالث: قيق ودم أسود كعكر الزيت، قاله مجاهد. والرابع: أنه الفضة والرصاص يذابان، روي عن مجاهد أيضاً. والخامس: أنه الذي انتهى حره، قاله سعيد بن جبيرة. والسادس: [أنه] الصديد، ذكره ابن الأنباري. قال مُعَيْثُ بن سُمَي: هذا الماء هو ما يسيل من عَرَقِ أهل الموقف في الآخرة ويكائهم، وما يجري منهم من دم وقيح، يسيل ذلك إلى وإد في جهنم، فتنبطخ جهنم، فيكون أول ما يُغَاث به أهل النار. والسابع: أنه الرماد الذي يُنْفَضُ عن الحُبْزَة إذا خرجت من الثُّور، حكاه ابن الأنباري.

(١) «أسباب النزول» ١٧٢، و«القرطبي» ٣٩٢/١٠، و«الدر» ٢٢٠/٤.

(٢) قال ابن جرير الطبري: عن ابن عباس: فمن شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء الله له الكفر كفر.

(٣) «ديوانه» ٥٨٦/٢، و«المعرب» ٢٠٠.

(٤) رواه أحمد في «المستد» ٢٩٩/٣ من حديث دراج أبي السمح عن أبي الهيثم، ورواه الترمذي في «جامعه» ٨٢/٢، وابن جرير الطبري في «تفسيره» ١٥/

٢٣٩ من حديث رشدين بن سعد عن دراج عن أبي الهيثم، ورشدين بن سعد ضعيف، ودراج عن أبي الهيثم ضعيف.

قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُ الْجُوهِيَ﴾ قال المفسرون: إذا قرّبه إليه سقطت فروة وجهه فيه. ثم ذمّه، فقال: ﴿وَسَكَ الشَّرَابُ وَمَلَأَتْ النارَ مُرْتَفَقًا﴾ وفيه خمسة أقوال: أحدها: منزلاً، قاله ابن عباس. والثاني: مجتمعاً، قاله مجاهد. والثالث: مثكاً. قاله أبو عبيدة، وأنشد لأبي ذؤيب:

إني أرقّت فيث اللئيل مُرْتَفَقاً
كأنّ عيني فيها الصّابُ مَذْبُوحٌ^(١)

وذبحه: انفجاره؛ قال الزجاج: «مرتفقاً» منصوب على التمييز؛ ومعنى مرتفقاً: مثكاً على اليرفوق. والرابع: ساءت مجلساً؛ قاله ابن قتيبة. والخامس: ساءت مطلباً للرفق، لأن من طلب رفقاً من جهتها، غدّمه، ذكره ابن الأبياري. ومعاني هذه الأقوال تتقارب. وأصل اليرفوق في اللغة: ما يُرْتَفَقُ به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (١٥) ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتْ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يَجْرُونَ فِيهَا مِنْ سَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خَمْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ يَوْمَ الثَّوَابِ وَسَعَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (١٦)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال الزجاج: خبر «إن» هاهنا على ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون على إضمار: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ منهم، ولم يحتاج إلى ذكر: «منهم» لأن الله تعالى قد أعلمنا أنه محبط عمل غير المؤمنين. والثاني: أن يكون خبر «إن»: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتْ عَدْنٍ﴾، فيكون قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ قد فصل به بين الاسم وخبره، لأنه يحتوي على معنى الكلام الأول، لأن من أحسن عملاً بمنزلة الذين آمنوا. والثالث: أن يكون الخبر: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، بمعنى: إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ. قال المفسرون: ومعنى ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي: لا نترك أعماله تذهب ضياعاً، بل نُجَازِيهِ عَلَيْهَا بِالثَّوَابِ. فأما الأساور، فقال الفراء: في الواحد منها ثلاث لغات: إسوار، ويسوار، وسوار؛ فمن قال: إسوار، جمعها أساور، ومن قال: سوار أو سُوار، جمعها أسورة، وقد يجوز أن يكون واحد أسورة وأساور: سوار؛ وقال الزجاج: الأساور جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، يقال: سوار اليد، بالكسر، وقد حكى: سوار. قال المفسرون: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور في اليد والتيجان على الرؤوس، جعل الله ذلك لأهل الجنة. قال سعيد بن جبيرة: يُحَلَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِثَلَاثَةِ^(٢) مِنَ الْأَسَاوِرِ، وَوَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَوَاحِدٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَوَاحِدٌ مِنْ لَوْلُؤٍ وَيَاقِوتِ. فأما: «السُّنْدُسُ» و«الاستبرق»، فقال ابن قتيبة: السُّنْدُسُ: رقيق الديداج، والإستبرق ثخينه. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: السُّنْدُسُ: رقيق الديداج، لم يختلف أهل اللغة في أنه معرّب، قال الراجز:

وليلة من الليالي جنديس
لون حواشيها كلون السنديس

والإستبرق: غليظ الديداج، فارسي معرّب، وأصله إستبرقة. وقال ابن دريد: إستبرقة، ونقل من العجمية إلى العربية، فلو حُقِرَ «إستبرق»، أو كُسِرَ، لكان في التحقير «أبّيرق»، وفي التكسير «أبارق» بحذف السين، والتاء جميعاً.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِينَ فِيهَا﴾ الاتكاء: التحامل على الشيء. قال أبو عبيدة: والأرائك: الفُرُشُ في الجِجَالِ، ولا تكون الأريكة إلا بحجّلة وسرير. وقال ابن قتيبة: الأرائك: السُّرُرُ في الجِجَالِ، واحدها: أريكة. وقال ثعلب: لا تكون الأريكة إلا سريراً في قبة عليه شواره ومتاعه؛ قال ابن قتيبة: السُّورُ، مفتوح الشين، وهو متاع البيت. وقال الزجاج: الأرائك: الفُرُشُ في الجِجَالِ. قال: وقيل: إنها الفُرُشُ، وقيل: الأريّة، وهي على الحقيقة: الفُرُشُ كانت في جِجَالِ لَهِمْ.

﴿وَأَشْرَبَتْ لَمْ تَمَلَأْ رَجُلَيْنِ جَمَلًا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتَنِيَّا وَبَتَّلَ وَجَمَلَنَا رَبَّعًا﴾ (١٧) ﴿كُنَّا لَمَجْنُونِينَ ءَأَمَّتْ أَكْلَهَا وَلَدَّرَ تَطْلِيلُ رِنَّةٍ سَبِيحًا وَفَمَّرْنَا جَلَلَهُمَا تَهْرًا﴾ (١٨) ﴿وَكَانَ لَهُمْ نَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْسًا﴾ (١٩) ﴿وَوَحَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٢٠) ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُؤِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٢١)

(١) «ديوان الهذليين» ١/١٠٤، و«شرح أشعار الهذليين» ١/١٢٠، و«مجاز القرآن» ١/٤٠٠، و«الطبري» ١٥/٢٤١، و«القرطبي» ١٠/٣٩٥، و«الكشاف» ٢/٢٨٩، و«الصاحح» و«اللسان» و«التاج»: صوب، و«شواهد المغني» ٧٢. و«الصاب: شجرة مّرة.

(٢) في الأصل: ثلاثة.

قوله تعالى: ﴿ وَأَصْرَبَ كَمْ مَثَلًا خَلَّيْنِ ﴾ روى عطاء عن ابن عباس، قال: هما ابنا ملك كان في بني إسرائيل توفّي وتركهما، فاتخذ أحدهما الجنان والقصور، وكان الآخر زاهداً في الدنيا، فكان إذا عمل أخوه شيئاً من زينة الدنيا، أخذ مثل ذلك فقدمه لآخرته، حتى نؤد ماله، فضربهما الله ﷻ مثلاً للمؤمن والكافر الذي أبطرته النعمة. وروى أبو صالح عن ابن عباس: أن المسلم لما احتاج، تعرّض لأخيه الكافر، فقال الكافر: أين ما ورثت عن أبيك؟ فقال: أنفقته في سبيل الله، فقال الكافر: لكنني ابتعت به جناناً وغنماً، وقرأ، والله لا أعطيتك شيئاً أبداً حتى تتبع ديني، ثم أخذ بيد المسلم فأدخله جنانه يطوف به فيها، ويرغبه في دينه. وقال مقاتل: اسم المؤمن يملixa، واسم الكافر قرطس، وقيل: قرطس، وقيل: هذا المثل [ضرب] لعينة بن حصن وأصحابه، ولسلمان وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿ وَصَفَّيْنَا بِنَحْلٍ الْحَفَّ: الإحاطة بالشيء، ومنه قوله: ﴿ حَافِرَاتٍ مِنَ حَوْلِ الْمَرْثِيِّ ﴾ [الزمر: ١٧٥]. والمعنى: جعلنا النحل مطيفاً بها. وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا رِزْقًا ﴾ إعلام أن عمارتهما كاملة.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ بَأْتَنَ أَكْهًا ﴾ قال الفراء: أتنا، لأن «كلتا» ثنان لا تُفرد واحدتهما، وأصله: «كُلٌّ»، كما تقول للثلاثة: «كُلٌّ»، فكان القضاء أن يكون للثنتين ما كان للجمع، وجاز توحيد على مذهب «كُلٌّ»، وتأنيشه جائز للتأنيث الذي ظهر في «كلتا»، وكذلك فاعل ب«كلا» و«كلتا»، وإذا أضفتَهُنَّ إلى معرفة وجاء الفعل بعدهن، فوُجِدَ واجمع، فمن التوحيد قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَهُمْ أَيُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْنًا ﴾ [مريم: ٩٦]، ومن الجمع: ﴿ وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَاخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧]، والعرب قد تفعل ذلك أيضاً في «أي» فيؤثنون ويذكرون، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [القمان: ٣٤]، ويجوز في الكلام «بأيت أرض»، وكذلك ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٨]، ويجوز في الكلام «في أيّ»، قال الشاعر:

بأي بلاءٍ أم بأية نعمةٍ تقدّم قبلي مسلمٌ والمهلبُ

قال ابن الأنباري: «كلتا» وإن كان واقعاً في المعنى على اثنتين، فإن لفظه لفظ واحدة مؤنثة، فغلب اللفظ، ولم يستعمل المعنى ثقةً بمعرفة المخاطب به؛ ومن العرب من يؤثر المعنى على اللفظ، فيقول: «كلتا الجنتين أتتا أكْهًا»، ويقول آخرون: «كلتا الجنتين أتى أكْهًا»، لأن «كلتا» تفيد معنى «كُلٌّ»، قال الشاعر:

وكلتاها قد خطّ لي في صحيفتي فلا الموت أهواه ولا العيش أروح

يعني: وكلّهما قد خط لي، وقد قالت العرب: كلكم ذاهب، وكلكم ذاهبون. فوُجِدُوا لَلْفِظِ «كُلٌّ» وجمعوا لتأويلها. وقال الزجاج: لم يقل «أتتا»، لأن لفظ «كلتا» لفظ واحدة، والمعنى: كل واحدة منهما أتت أكْهًا ﴿ وَكَلَّ تَطْلِيلًا ﴾ أي: لم تنقص ﴿ وَنَهْ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴾ فأعلمنا أن شربهما كان من ماء نهر، وهو من أغزر الشرب. وقال الفراء: إنما قال: «فَجَّرْنَا» بالتشديد، وهو نَهْرٌ واحد، لأن النهر يمتد، فكان التضجّر فيه كَلَّهُ. قرأ أبو رزّين، وأبو مجلز، وأبو العالية، وابن يعمر، وابن أبي عبلة: «وَفَجَّرْنَا» بالتخفيف. وقرأ أبو مجلز، وأبو المتوكل: «خللها». وقرأ أبو العالية، وأبو عمران: «نهرًا» بسكون الهاء.

قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ لَكُمْ ﴾ يعني: للأخ الكافر ﴿ ثَمْرًا ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «وكان له ثمر»، «وأحيط بثمره» بضمّتين. وقرأ عاصم: «وكان له ثمر»، «وأحيط بثمره» بفتح التاء والميم فيهما. وقرأ أبو عمرو: «ثُمْرًا» وبضمّته «ببُضْمَةٍ واحدة وسكون الميم». قال الفراء: الثُمْرُ، بفتح الشاء والميم: المأكول، ويضمها: المال. وقال ابن الأنباري: الثُمْرُ، بالفتح: الجمع الأول، والثُمْرُ، بالضم: جمع الثُمْرُ، يقال: ثَمَرَ، وثُمِرَ، كما يقال: أسد، وأسُد، ويصلح أن يكون الثُمْرُ جمع الثُمَار، كما يقال: جِمارٌ وحُمُرٌ، وكتابٌ وكُتُبٌ؛ فمن صَمَّ، قال: الثُمْرُ أعم، لأنها تحتل الثمار المأكولة، والأموال المجموعة. قال أبو علي الفارسي: وقرءة أبي عمرو: «ثُمْرًا» يجوز أن تكون جمع ثمار، ككتاب، وكُتُبٌ، فتخفف، فيقال: كُتِبَ، ويجوز أن يكون «ثُمْرًا» جمع ثَمْرَة، كَبَدَنَة وبُذَن، وخَشْبَة، وخُشْب. ويجوز أن يكون «ثُمْرًا» واحداً، كعُنُقٍ، وطُئِب. وقد ذكر المفسرون في قراءة من ضم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المال الكثير من صنوف الأموال، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الذهب، والفضة، قاله مجاهد. والثالث:

أنه جمع ثمرة، قال الزجاج: يقال: ثَمْرَةٌ، وثَمَارٌ، وثمر. فإن قيل: ما الفائدة في ذِكْرِ الثَّمَرِ بعد ذِكْرِ الْجَنَّتَيْنِ، وقد عُلِمَ أن صاحب الجنة لا يخلو من ثمر؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه لم يكن أصل الأرض ملكاً له، وإنما كانت له الثمار، قاله ابن عباس. والثاني: أن ذِكْرَ الثَّمَرِ دليل على كثرة ما يملك من الثمار في الجنتين وغيرهما، ذكره ابن الأنباري. والثالث: إنا قد ذكرنا أن المراد بالثمر الأموال من الأنواع، وذكرنا أنها الذهب، والفضة، وذلك يخالف الثمر المأكول؛ قال أبو علي الفارسي: من قال: هو الذهب، والوَرِقُ، وإنما قيل لذلك: ثُمُرٌ على التناوُل، لأن الثمر نماء في ذي الثمر، وكونه هاهنا بالجنى أشبه من الذهب والفضة. ويقوي ذلك: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَسْبَحَ بِحَمْدِ اللَّهِ عَنَّا مَا أَتَقَى فِيهَا﴾، والإنفاق من الوَرِقِ، لا من الشجر.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ﴾ يعني الكافر ﴿لِمَسْكُودٍ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ بِحَاوِيَةٍ﴾ أي: يراجعه الكلام ويجاوبه. وفيما تحاورا فيه قولان: أحدهما: أنه الإيمان والكفر. والثاني: طلب الدنيا، وطلب الآخرة. فأما «النفر» فهم الجماعة، ومثلهم: القوم والرهط، [ولا واحد لهذه الألفاظ من لفظها. وقال ابن فارس اللغوي]: «النفر: عدة رجال من ثلاثة إلى العشرة. وفيمن أراد بغيره ثلاثة أقوال: أحدها: عبيده، قاله ابن عباس. والثاني: ولده، قاله مقاتل. والثالث: عشيرته ورهطه، قاله أبو سليمان.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ يعني: الكافر ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالكفر؛ وكان قد أخذ بيد أخيه فأدخله معه؛ ﴿قَالَ مَا أَطْرُقُ أَنْ يَبْدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ أنكر فناء الدنيا، وفناء جنته، وأنكر البعث والجزاء بقوله: ﴿وَمَا أَطْرُقُ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وهذا شك [منه] في البعث، ثم قال: ﴿وَلَكِنْ رُودَتْ إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي: كما تزعم أنت. قال [ابن عباس]: يقول: إن كان البعث حقاً ﴿لَأَجِدَنَّ حَبْرًا بَيْنَهُمَا﴾ قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «خيراً منهما»، وكذلك هي في مصاحف أهل البصرة والكوفة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «خيراً منهما» بزيادة ميم على الشنية، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة والمدينة والشام. قال أبو علي: الأفراد أولى، لأنه أقرب إلى الجَنَّةِ المفردة في قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾، والشنية لا تمتنع، لتقدم ذِكْرَ الْجَنَّتَيْنِ.

قوله تعالى: ﴿مُتَقَلِّبًا﴾ أي: كما أعطاني هذا في الدنيا، سيعطيني في الآخرة أفضل منه.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رِيلاً ﴿٣٧﴾ لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَا أَلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَعَلَٰ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَسَمِعَ رَبِّيَ أَنْ يُؤَيِّنُ حَبْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلُ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَيحَةً زَلْقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَاؤًا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لِمَ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ يعني: المؤمن ﴿وَهُوَ بِحَاوِيَةٍ﴾ الكافر ﴿بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني: خلق أباك آدم ﴿ثُمَّ مِنْ نَظْفٍ﴾ يعني: ما أنشئ هو منه، فلما شك في البعث كان كافراً.

قوله تعالى: ﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وقالون عن نافع: «لكنن» هو الله ربِّي، بإسقاط الألف في الوصل، وإثباتها في الوقف. وقرأ نافع في رواية المُسَيَّبِيِّ بإثبات الألف وصلًا ووقفًا. وأثبت الألف ابن عامر في الحالين. وقرأ أبو رجاء: «لكنن» بإسكان النون خفيفة من غير ألف في الحالين. وقرأ ابن يعمر: «لكنن» بتشديد النون من غير ألف في الحالين. وقرأ الحسن: «لكنن أنا هو الله ربِّي» بإسكان نون «لكنن» وإثبات «أنا». قال الفراء: فيها ثلاث لغات: لكتنا، ولكنن، ولكنه بالهاء، أنشدني أبو ثروان:

وتزْمِينِنِي بِالطَّرْفِ أَي أَنْتَ مَذْنِبٌ وَتَغْلِيْنِنِي لَكِنِّ إِيَّاكَ لَا أَقْلِي^(١)

وقال أبو عبيدة: مجازه: لكن أنا هو الله ربِّي، ثم حُذِفَتِ الألف الأولى، وأدغمت إحدى النونين في الأخرى فشُدَّت. قال الزجاج: وهذه الألف تُحذَفُ في الوصل، وتُثَبِتُ في الوقف، فأما من أثبتتها في الوصل كما ثبتت في الوقف، فهو على لغة من يقول: أنا قمْتُ، فأثبت الألف، قال الشاعر:

(١) البيت غير منسوب في «القرطبي» ٤٠٥/١٠، و«البحر» ١٢٨/٦، و«روح المعاني» ٢٥٥/١٥.

أَنَا سَيْفُ الْعَاشِرَةِ فَاغْرِفُونِي

[حَمِيداً قَدْ تَذَرَيْتُ السَّنَامَا] (١)

وهذه القراءة جيدة، لأن الهمزة قد حذفت من «أنا»، فصار إثبات الألف عوضاً من الهمزة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ﴾ أي: وهلاً؛ ومعنى الكلام التوبيخ. قال الفراء: ﴿مَا سَأَلَ اللَّهُ﴾ في موضع رفع، إن شئت رفعته بإضمار هو، يريد: [هو] ما شاء الله؛ وإن شئت أضمرت فيه: ما شاء الله كان؛ وجاز طرح جواب الجزاء، كما جاز في قوله: ﴿إِنِ اسْتَكْمَلْتَ أَنْ تَبْنَئَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٤٣٥]، ليس له جواب، لأنه معروف. قال الزجاج: وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ الاختيار النصب بغير تنوين على النفي، كقوله: ﴿لَا رَبَّ إِلَّا هُوَ﴾ [الكهف: ٢٦]، ويجوز: «لا قوة إلا بالله» على الرفع بالابتداء، والخبر «بالله»، المعنى: لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى، ولا يكون له إلا ما شاء الله.

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَىٰ﴾ قرأ ابن كثير: «إن ترني أنا» و«يؤتيني خيراً» بياء في الوصل والوقف. وقرأ نافع، وأبو عمرو بياء في الوصل. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، بحذف الياء فيهما وصلًا ووقفًا. ﴿أَنَا أَقْلٌ﴾ وقرأ ابن أبي عبلة: «أنا أقل» برفع اللام. قال الفراء: «أنا» هاهنا عماد إن نصبت «أقل»، واسم إذا رفعت «أقل» (٢)، والقراءة بهما جائز.

قوله تعالى: ﴿فَمَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْيِيَنِي حَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ أي: في الآخرة، ﴿وَوَيْسَلٌ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه العذاب، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والضحاك. وقال أبو صالح عن ابن عباس: ناراً من السماء (٣). والثاني: قضاء من الله يقضيه، قاله ابن زيد. والثالث: مرامي من السماء، واحدها: حسبانة، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة. قال الثَّضْرَبِيُّ شَمِيلٌ: الحُسيان: سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبه تُتْرَعُ في القوس، ثم يرمي بعشرين منها دفعة، فعلى هذا القول يكون المعنى: ويرسل عليها مرامي من عذابه، إما حجارة أو برداً أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب. والرابع: أن الحُسيان: الحساب، كقوله: ﴿الْحَمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] أي: بحساب، فيكون المعنى: ويرسل عليها عذاب حساب ما كسبت يدها، هذا قول الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَتَصِيحٌ صَعِيدًا رَلَقًا﴾ أو يُصَيحُ مَاؤُهُا غَوْرًا قال ابن قتيبة: الصعيد: الأملس المستوي، والرَّلَقُ: الذي تَزَلُّ عنه الأقدام، والغَوْرُ: الغائر، فجعل المصدر صفة، يقال: ماء غَوْرٌ، ومياه غَوْرٌ، ولا يثنى، ولا يجمع، ولا يؤنث، كما يقال: رجل نَوْمٌ، ورجل صَوْمٌ، ورجل فظُر، ورجل نَوْمٌ، [ونساء نَوْمٌ]، ونساء صَوْمٌ. ويقال للنساء إذا نُحِنَ: نُوحٌ، والمعنى: يذهب ماؤها غائراً في الأرض، أي: ذاهباً فيها. ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَكُمْ طَلَبًا﴾ فلا يبقى له أثر تطلبه به، ولا تناله الأيدي ولا الأزضية. وقال ابن الأنباري: «غوراً» إذا غَوْرَ، فسقط المضاف، وحلّفه المضاف إليه، والمراد بالطلب هاهنا: الوصول، فقام الطلب مقامه لأنه سببه. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو المتوكل: «غَوْرًا» برفع الغين والواو [الأولى] جميعاً، [وواو بعدها].

﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَنْسَجَ يَدَيْكَ كَتَبَهُ عَلَٰنَ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ حَارِيَةٌ عَلَٰنَ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَرَأْسِكَ رَبِّيَ أَعْمَا﴾ [٤١] وَلَمْ تَكُنْ لَكَ فِتْنَةً يَصْرُوفًا مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرِّمًا﴾ [٤٢] هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ نَّوَابًا وَخَيْرٌ عَقْبًا﴾ [٤٣]

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ أي: أحاط الله العذاب بشمره، وقد سبق معنى الشمر. ﴿فَأَنْسَجَ يَدَيْكَ كَتَبَهُ﴾ أي: يضرب بيد على يد، وهذا فعل النادم، ﴿عَلَانَ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ أي: في جنته، و«في» هاهنا بمعنى «على». ﴿وَهِيَ حَارِيَةٌ﴾ أي: خالية ساقطة ﴿عَلَانَ عُرُوشِهَا﴾ والعروش: السقوف؛ والمعنى: أن حيطانها قائمة والسقوف قد تهدمت فصارت في قرارها، فصارت الحيطان كأنها على السقوف. ﴿وَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَرَأْسِكَ رَبِّيَ أَعْمَا﴾ فأخبر الله تعالى أنه لما سلبه ما أنعم به عليه، وحقق ما أئذره [به] أخوه في الدنيا، ندم على شركه حين لا تنفعه الندامة. وقيل: إنما يقول هذا في

(١) «الطبري» ٢٤٧/١٥، «القرطبي» ٤٠٥/١٠، و«خزانة الأدب» ٣٩٠/٢.

(٢) وكذلك قال الطبري ٢٤٨/١٥.

(٣) في نسخة الرباط: نازل من السماء.

القيامه ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: «ولم تكن» بالفاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «ولم يكن» بالياء. والفتحة. الجماعة ﴿يَصْرُوفَهُ﴾ أي: يمنونه من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم: «الولاية» بفتح الواو ﴿وَاللَّهُ الْحَقُّ﴾ خفضاً. وقرأ حمزة: «الولاية» بكسر الواو، والله الحق» بكسر القاف أيضاً. وقرأ أبو عمرو بفتح الواو، ورفع «الحق»، ووافق الكسائي في رفع القاف، لكنه كسر «الولاية»، قال الزجاج: معنى الولاية في [مثل] تلك الحال: تبين نصرة ولي الله. وقال غيره: هذا الكلام عائد إلى ما قبل قصة الرجلين. فأما من فتح واو «الولاية» فإنه أراد الموالة والنصرة، ومن كسر، أراد السلطان والملك على ما شرحنا في آخر [الأنفال: ١٧٢]. فعلى قراءة الفتح، في معنى الكلام قولان: أحدهما: أنهم يتولون الله تعالى في القيامة، ويؤمنون به، ويتبرؤون مما كانوا يعبدون، قاله ابن قتيبة. والثاني: هنالك يتولى الله أمر الخلائق، فينصر المؤمنين ويخذل الكافرين. وعلى قراءة الكسر، يكون المعنى: هنالك السلطان لله. قال أبو علي: من كسر قاف «الحق»، جعله من وصف الله ﷻ، ومن رفعه جعله صفة للولاية. فإن قيل: لم نعت الولاية وهي مؤنثة بالحق وهو مصدر؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أن تأنيثها ليس حقيقياً، فحملت على معنى النصر؛ والتقدير: هنالك النصر لله الحق، كما حملت الصبيحة على معنى الصباح في قوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٦٧]. والثاني: أن الحق مصدر يستوي في لفظه المذكر والمؤنث والاثنتان والجمع، فيقال: قولك حق، وكلمتك حق، وأقولكم حق. ويجوز ارتفاع الحق على المدح للولاية، وعلى المدح لله تعالى بإضمار «هو».

قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: هو أفضل ثواباً ممن يُرجى ثوابه، وهذا على تقدير أنه لو كان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل.

قوله تعالى: ﴿وَحَزْرٌ عُقْبًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «عُقْبًا» مضمومة القاف. وقرأ عاصم، وحمزة: «عُقْبًا» ساكنة القاف. قال أبو علي: ما كان [على] «فُعْلٌ» جاز تخفيفه، كالعُنُق، والظُّنْب. قال أبو عبيدة: العُقْب، والعُقْب، والعُقْبِي، والعاقبة، بمعنى، وهي الآخرة، والمعنى: عاقبة طاعة الله خير من عاقبة طاعة غيره.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا لِّلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَلَئِن لَّمْ يَرَوْهُ إِلَّا نَادِيًا مُّقْتَدِرًا﴾ (١٥)

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا لِّلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: في سرعة نفاذها وذهابها، وقيل: في تصرف أحوالها، إذ مع كل فرحة تَرُوحه، وهذا مفسر في سورة يونس: [٢٤] إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾. قال الفراء: الهشيم: كل شيء كان رطباً فيس. وقال الزجاج: الهشيم: النبات الجاف. وقال ابن قتيبة: الهشيم من النبات: المتفتت، وأصله من هشمت الشيء: إذا كسرت، ومنه سمي الرجل هاشماً. و﴿تَذَرُوهُ الرِّيحَ﴾ تنسفه. وقرأ أبي، وابن عباس، وابن أبي عجلة: «تَذَرُوهُ» برفع التاء وكسر الراء بعدها ياء ساكنة وهاء مكسورة. وقرأ ابن مسعود كذلك، إلا أنه فتح التاء. والمقتدر: مُفْتَعِل، من قَدَرْتُ. قال المفسرون: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿مُقْتَدِرًا﴾

﴿أَمَّا الْوَالِدُونَ زِينَةً الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَالْبَنَاتُ اللَّحِيظَاتُ أَخْلَافُ حَيْرٍ عِنْدَ رَبِّكَ تَوَاتَا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (١٦)
قوله تعالى: ﴿أَمَّا الْوَالِدُونَ زِينَةً الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ هذا ردٌ على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أن ذلك مما يُتَزَيَّن به في الدنيا، [لا] مما ينفع في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَالْبَنَاتُ اللَّحِيظَاتُ﴾ فيها خمسة أقوال: أحدها: أنها «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»؛ روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن عجزتم عن الليل أن تكابده، وعن العدو أن تجاهده، فلا تعجزوا عن قول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإِنَّهُنَّ الباقيات الصالحات» (١)، وهذا قول

ابن عباس في رواية عطاء، وبه قال مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والضحاك. وسئل عثمان بن عفان رضي الله عنه عن الباقيات الصالحات، فقال هذه الكلمات، وزاد فيها: «ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(١). وقال سعيد بن المسيب، ومحمد بن كعب القرظي مثله سواء. والثاني: «أنها لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، ولا قوة إلا بالله»، رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢). والثالث: أنها الصلوات الخمس، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود، ومسروق، وإبراهيم. والرابع: الكلام الطيب، رواه العوفي عن ابن عباس. والخامس: هي جميع أعمال الحسنات، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أفضل جزاءً ﴿خَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: خير مما تؤملون، لأن آمالكم كواذب، وهذا أمل لا يكذب.

﴿يَوْمَ تُسِيرُ الْجِبَالُ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْتَهُمْ فَمَنْ تَنَادَوْا مِنْهُمْ أَعْمَى﴾ (٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَمًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَحْمَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٨﴾ وَوَضِعَ الْكُتُبَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُسْفِينٍ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رِبِّكَ أَعْمَى ﴿٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَأْسُ لِلْفَالِغِيِّينَ بَدَلًا ﴿١٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعِدِّينَ عِضْدًا ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُسِيرُ الْجِبَالُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «ويوم تُسِيرُ» بالياء «الجبال» رفعاً. وقرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «نُسِيرُ» بالنون «الجبال» نصباً. وقرأ ابن محيصن: «ويوم تُسِيرُ» بفتح التاء وكسر السين وتسكين الياء «الجبال» بالرفع. قال الزجاج: «ويوم» منصوب على معنى: اذكر، ويجوز أن يكون منصوباً على: والباقيات الصالحات خير يوم تُسِيرُ الجبال. قال ابن عباس: تُسِيرُ الجبال عن وجه الأرض، كما يُسِيرُ السحاب في الدنيا، ثم تكسر فتكون في الأرض كما خرجت منها.

قوله تعالى: ﴿وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ وقرأ عمرو بن العاص، وابن السميع، وأبو العالية: «وترى الأرض بارزة» برفع التاء والضاد. وقرأ أبو رجاء العطاردي كذلك، إلا أنه فتح ضاد «الأرض». وفي معنى «بارزة» قولان: أحدهما: [ظاهرة] فليس عليها شيء من جبل أو شجر أو بناء، قاله الأكثرون. والثاني: بارزاً أهلها من بطنها، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْتَهُمْ﴾ يعني المؤمنين والكافرين ﴿فَمَنْ تَنَادَوْا﴾ قال ابن قتيبة: أي: فلم نُخَلِّف، يقال: غادرْتُ كذا: إذا خَلَفْتَهُ، ومنه سمي الغدير، لأنه ماء تُخَلِّفُهُ السيول. وروى أبان: «فلم تغادر» بالياء.

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَمًّا﴾ إن قيل: هذا أمر مستقبل، فكيف عُبرَ [عنه] بالماضي؟ فالجواب: أن ما قد علم الله وقوعه، يجري مجرى المعايين، كقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الاعراف: ٤٣]. وفي معنى قوله: ﴿صَمًّا﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنه بمعنى: جميعاً، كقوله: ﴿فَمَنْ أَتَىٰ صَمًّا﴾ [طه: ٦٤]، قاله مقاتل. والثاني: أن المعنى: وعُرِضُوا على ربك مصفوفين، هذا مذهب البصريين. والثالث: أن المعنى: وعُرِضُوا على ربك صفوفاً، فتاب الواحد عن الجميع، كقوله: ﴿فَمَنْ تَحَرَّمَكُمْ لِطِفْلًا﴾ [الحج: ٥]. والرابع: أنه لم يَغِبْ عن الله منهم أحد، فكانوا كالصف الذي تسهل الإحاطة بجملته، ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري. وقد قيل: إن كل أمة وزمرة صفٌ.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ فيه إضمار «فيقال لهم». وفي المخاطبين بهذا قولان: أحدهما: أنهم الكل. والثاني: الكفار، فيكون اللفظ عامّاً، والمعنى خاصّاً. وقوله: ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مفسر في [الأنعام: ٩٤]. وقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتَ﴾ خطاب للكفار خاصة، والمعنى: زعمتم في الدنيا ﴿أَنَّ تَحْمَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ للبعث، والجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكُتُبَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الكتاب الذي سَطُرَ فيه ما تعمل الخلاق قبل وجودهم،

(١) أورده السيوطي في «الدر» ٢٢٥/٤ من رواية أحمد، وابن جرير، وابن المنذر عن عثمان رضي الله عنه.(٢) أورده السيوطي في «الدر» ٢٢٥/٤ من رواية ابن مردويه عن علي رضي الله عنه.

قاله ابن عباس. والثاني: أنه الحساب، قاله ابن السائب. والثالث: كتاب الأعمال، قاله مقاتل. وقال ابن جرير: وضع كتاب أعمال العباد في أيديهم، فعلى هذا، الكتاب اسم جنس.

قوله تعالى: ﴿فَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ قال مجاهد: [هم] الكافرون. وذكر بعض أهل العلم أن كل مجرم ذُكر في القرآن. فالمراد به: الكافر.

قوله تعالى: ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين ﴿يَمَّا فِيهِ﴾ من الأعمال السيئة ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَلَنَّا﴾ هذا قول كل واقع في هلكة. وقد شرحنا هذا المعنى في قوله: ﴿يَحْسَرُنَا﴾ [الأنعام: ٣١].

قوله تعالى: ﴿لَا يَبَادِرُ صَبْرَهُ وَلَا كِبْرَهُ إِلَّا أَحْسَنَهَا﴾ هذا على ظاهره في صغير الأمور وكبيرها؛ وقد روى عكرمة عن ابن عباس، قال: الصغيرة: التيسم، والكبيرة: الفقهية. وقد يُتوهم أن المراد بذلك صفات الذنوب وكبائرها، وليس كذلك، إذ ليس الضحك والتيسم، مجردهما من الذنوب، وإنما المراد أن التيسم من صفات الأفعال، والضحك فعل كبير، وقد روى الضحاك عن ابن عباس، قال: الصغيرة: التيسم والاستهزاء بالمؤمنين، والكبيرة: الفقهية بذلك؛ فعلى هذا يكون ذنباً من الذنوب لمقصود فاعله، لا لنفسه. ومعنى «أحساها»: عدّها وأثبتها، والمعنى: وُجِدَتْ مُحْصَاةً. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاطِرًا﴾ أي: مكتوباً مُثَبَّتاً في الكتاب، وقيل: رأوا جزاءه حاضراً. وقال أبو سليمان: الصحيح عند المحققين أن صفات المؤمنين الذين وعدوا العفو عنها إذا اجتنبوا الكبائر، إنما يعنى عنها في الآخرة بعد أن يراها صاحبها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطِيرُ رَيْكَ أَمَلًا﴾ قال أبو سليمان: لا تنقص حسنات المؤمن، ولا يزداد في سيئات الكافر. وقيل: إن كان للكافر فعل خير، كعتق رقبة، وصدقة، خُفِّفَ عنه به من عذابه، وإن ظلمه مسلم، أخذ الله من المسلم، فصار الحق لله. ثم إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يذكر هؤلاء المتكبرين عن مجالسة الفقراء قصة إيليس وما أورثه الكِبْر، فقال: ﴿وَلَا تَلْنَا﴾ أي: اذكر ذلك. وفي قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ قولان: أحدهما: أنه من الجن حقيقة، لهذا النص؛ واحتج قائلوا هذا بأن له ذرية - وليس للملائكة ذرية - وأنه كَفَرَ، والملائكة رسل الله، فهم معصومون من الكفر. والثاني: أنه كان من الملائكة، وإنما قيل: «من الجن»، لأنه كان من قبيل من الملائكة يقال لهم: الجن، قاله ابن عباس؛ وقد شرحنا هذا في [البقرة: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: خرج عن طاعة ربه، تقول العرب: فسقت الرُّطبة من قشرها: إذا خرجت منه، قاله الفراء، وابن قتيبة. والثاني: أتاه الفسق لما أمر فعصى، فكان سبب فسقه عن أمر ربه، قال الزجاج: وهذا مذهب الخليل وسيبويه، وهو الحق عندنا. والثالث: فسق عن ردّ أمر ربه، حكاه الزجاج عن قطرب.

قوله تعالى: ﴿أَفَنَنْتَهُنَّ وَدُرَيْتَهُنَّ أُولِيكَهٗ مِنْ دُونِي﴾ [أي]: توالونهم بالاستجابة لهم؟! قال الحسن، وقتادة: ذريته: أولاده، وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. قال مجاهد: ذريته: الشياطين، ومن ذريته زَنْبُور صاحب راية إيليس بكل سوق، وثبر، وهو صاحب المصائب، والأعور صاحب الرياء، وميسوط صاحب الأخبار يأتي بها فيطرحها على أفواه الناس، فلا يوجد لها أصل، وداسم صاحب الإنسان إذا دخل بيته ولم يسلم ولم يذكر اسم الله، فهو يأكل معه إذا أكل، قال بعض أهل العلم: إذا كانت خطيئة الإنسان في كِبْر فلا تَرْجُحُه، وإن كانت في شهوة فارجه، فإن معصية إيليس كانت بالكِبْر، ومعصية آدم بالشهوة.

قوله تعالى: ﴿يَتَسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بسس الاتخاذ للظالمين بدلاً. والثاني: بسس الشيطان. والثالث: بسس الشيطان والنورية، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿مَا أَنبَدْتُمُوهُمْ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقرأ أبو جعفر، وشيبة: «ما أشهدناهم» بالنون والألف. وفي المشار إليهم أربعة أقوال: أحدها: إيليس وذريته. والثاني: الملائكة. والثالث: جميع الكفار. والرابع: جميع الخلق؛ والمعنى: إني لم أشاورهم في خلقهم؛ وفي هذا بيان للغناء عن الأعوان، وإظهار كمال القدرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا خَلْقَ أَشْيِهِمْ﴾ أي: ما أشهدت بعضهم خَلْقَ بعض، ولا استعنت ببعضهم على إيجاد بعض.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُخَدِّعُ الَّذِينَ الظَّالِمِينَ﴾ [يعني: الشياطين] ﴿عَضُدًا﴾ أي: أنصاراً وأعواناً. والعَضُدُ يستعمل كثيراً في معنى العون، لأنه قوام [اليد]، قال الزجاج: والاعتضاد: التقويُّ وطلب المعونة، يقال: اعتضدت بفلان، أي: استعنت به. وفي ما نفى اتخاذهم عضداً فيه قولان: أحدهما: أنه الولايات، والمعنى: ما كنت لأولي المضلِّين، قاله مجاهد. والثاني: أنه خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، قاله مقاتل. وقرأ الحسن، والجحدري، وأبو جعفر: «وما كنتُ» بفتح التاء.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥١﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرَفًا ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ وقرأ حمزة: «نقول» بالنون، يعني: يوم القيامة ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ أضاف الشركاء إليه على زعمهم، والمراد: نادوهم لدفع العذاب عنكم، أو الشفاعة لكم، ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: زعمتموهم شركاء ﴿فَلَمَّا دَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي: لم يجيبوهم، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون والشركاء. والثاني: أهل الهدى وأهل الضلالة. وفي معنى (مَوْبِقًا) ستة أقوال: أحدها: مَهْلِكًا، قاله ابن عباس، وقاتدة، والضحاك. وقال ابن قتيبة: مَهْلِكًا بينهم وبين ألهتهم في جهنم، ومنه يقال: أوبقته ذنوبه، [أي: أهلكته]. قال الزجاج: [المعنى]: جعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم، أي: يهلكهم، فالمَوْبِقُ^(١): المهلك، يقال: وَبِقَ، يَبِيقُ، وَيَابِقُ، وَيَقَا، وَيُوقَا، وَيُوقَا، فهو وابق؛ وقال الفراء: جعلنا توأصلهم في الدنيا مَوْبِقًا، أي: مَهْلِكًا لهم في الآخرة، فالْبِيقُ، على هذا القول؛ بمعنى التواصل، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] على قراءة من ضم النون. والثاني: أن المَوْبِقُ: واد عميق يُفَرَّقُ به بين أهل الضلالة وأهل الهدى، قاله عبد الله بن عمرو. والثالث: أنه واد في جهنم، قاله أنس بن مالك، ومجاهد. والرابع: أن معنى المَوْبِقُ: العداوة، قاله الحسن. والخامس: أنه المَحْجِسُ، قاله الربيع بن أنس. والسادس: أنه المَوْعِدُ، قاله أبو عبيدة. قال ابن الأباري: إن قيل: لم قال: «مَوْبِقًا» ولم يقل: «مَوْعِدًا»، بضم الميم، إذ كان معناه عذاباً مَوْعِدًا؟ فالجواب: أنه اسم موضوع لمَحْجِسٍ في النار، والأسماء لا تؤخذ بالقياس، فُيَعْلَمُ أن «مَوْبِقًا»: مَفْعِلٌ، من أوبقه الله: إذا أهلكه، فتفتح الميم، كما تفتح في «مَوْعِد» و«مَوْلِد» و«مُخْتِد» إذا سميت الشخص بهنَّ.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ أي: عاينوها وهي تتغيظ حقاً عليهم. والمراد بالمجرمين: الكفار. ﴿فَظَنُّوا﴾ أي: أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا﴾ أي: داخلوها. ومعنى الواقعة: ملابسة الشيء بشدة ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرَفًا﴾ أي: مغدلاً؛ والمَصْرَفُ: الموضع الذي يُصْرَفُ إليه، وذلك أنها أحاطت بهم من كل جانب، فلم يقدرُوا على الهَرَبِ.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥١﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَسَتَفَرُّوهُ رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ قد فسرتها في [بني إسرائيل: ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ فيمن نزلت قولان: أحدهما: أنه النَّصْرُ بن الحارث، وكان جداله في القرآن، قاله ابن عباس. والثاني: أبي بن خلف، وكان جداله في البعث حين أتى بعظم قد رَمَّ، فقال: أيقدر الله على إعادة هذا؟! قاله ابن السائب. قال الزجاج: كل ما يعقل من الملائكة والجن يجادل، والإنسان أكثر هذه الأشياء جدلاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ قال المفسرون: يعني: أهل مكة ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ وهو: محمد ﷺ، والقرآن، والإسلام ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهو: أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال:

(١) في الأصل: «فالموضع» بدلاً من كلمة «فالموبق»، ولعله سهو من الناسخ.

أحدها: ما منعهم من الإيمان إلا طلب أن تأتيهم سُنَّةُ الأولين، قاله الزجاج. والثاني: وما منع الشيطان الناس أن يؤمنوا إلا لأن تأتيهم سُنَّةُ الأولين، أي: منعهم رُشدَهُم لكي يقع العذاب بهم، ذكره ابن الأنباري. والثالث: ما منعهم إلا أنني قد قَدَّرت عليهم العذاب. وهذه الآية فيمن قُتل بيدر وأُحد من المشركين، قاله الواحدي.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْمَذَابُ﴾ ذكر ابن الأنباري في «أوه» [هاهنا] ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بمعنى الواو. والثاني: أنها لوقوع أحد الشيتين، إذا لا فائدة في بيانه. والثالث: أنها دخلت للتبويض، أي: أن بعضهم يقع به هذا، وهذه الأقوال الثلاثة قد أسلفنا بيانها في قوله ﷻ: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قوله تعالى: ﴿قَبْلًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «قَبْلًا» بكسر القاف وفتح الباء. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «قَبْلًا» بضم القاف والباء. وقد بيَّنا علَّةَ القراءتين في [الانعام: ١١١]. وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: «قَبْلًا» بوزن قَبِيل. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو المتوكل «قَبْلًا» بفتح القاف من غير ياء، قال ابن قتيبة: أراد استثنافاً. فإن قيل: إذا كان المراد بسُنَّةِ الأولين العذاب، فما فائدة التكرار بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْمَذَابُ﴾؟ فالجواب: أن سُنَّةَ الأولين أفادت عذاباً مبهماً يمكن أن يتراخى وقته، وتختلف أنواعه، وإتيان العذاب قُبْلًا أفاد القتل يوم بدر. قال مقاتل: «سُنَّةُ الأولين»: عذاب الأمم السالفة؛ «أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قَبْلًا»، أي: عياناً قتلاً بالسيف يوم بدر.

﴿وَمَا تُرِيدُ الْقُرَيْشَ إِلَّا مَبْشِرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجُنُودَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ يُدْحِضُوا بِهِ الْقَوْلَ وَأَخَذُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَمَا أُذِرُوا هَرُونَ﴾ [٥٦] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّهَا جَمَلَةٌ لَّهُمْ لَكُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آفَاتِهِمْ وَقَرَأَ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَايِسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَلَّ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْجِلًا ﴿٥٨﴾ وَيَتْلُكَ الْقُرْآنَ أَفَلَتَكْتُمُ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَمَلْنَا لَهَا كَيْدَهُمْ مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَجُنُودَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ﴾ قال ابن عباس: يريد: المستهزئين والمقتسمين وأتباعهم. وجدالهم بالباطل: أنهم ألزموه أن يأتي بالآيات على أحوالهم ﴿يُدْحِضُوا بِهِ الْقَوْلَ﴾ أي: ليُبْطِلُوا ما جاء به محمد ﷺ. وقيل: جدالهم: قولهم: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرِفْقًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، ﴿أَوَدَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]، ونحو ذلك ليبطلوا به ما جاء في القرآن من ذُكر البعث والجزاء. قال أبو عبيدة: ومعنى «يُدْحِضُوا» لِيُرِيَلُوا ويذهبوا، يقال: مكان ذخض، أي: مَزَلَّ لا يثبت فيه قدم ولا حافر.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني القرآن ﴿وَمَا أُذِرُوا﴾ أي: خُوفوا به من النار والقيامة ﴿هُرُونَ﴾ أي: مهزوءاً به. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ قد شرحنا هذه الكلمة في [البقرة: ١١٤]. و﴿ذُكِّرَ﴾ بمعنى: وُعِظَ. وآياتِ رَبِّهِ: القرآن، وإعراضه عنها: تهاونهُ بها. ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ﴾ أي: ما سلف من ذنوبه؛ وقد شرحنا ما بعد هذا في [الانعام: ٢١] إلى قوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾ وهو: الإيمان والقرآن ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾ هذا إخبار عن علمه فيهم.

قوله تعالى: ﴿رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ إذ لم يعاجلهم بالعقوبة. ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ للبعث والجزاء ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْجِلًا﴾ قال الفراء: الموجل: المنجى، وهو الملجأ في المعنى، لأن المنجى ملجأ، والعرب تقول: إنه كَيُؤَاتِلُ إلى موضعه، أي: يذهب إلى موضعه، قال الشاعر:

لَا وَاةَ لَتْ نَفْسُكَ خَلِيَّتَهَا

يريد: لا نجت نفسك، وأنشد أبو عبيدة للأعشى:

وَقَدْ أَخَالِسُ رَبِّ الْبَيْتِ غَفْلَتَهُ

أي: ما ينجو. وقال ابن قتيبة: الموجل: الملجأ. يقال: وأل فلان إلى كذا: إذا لجأ. فإن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن تأخير العذاب عن الكفار برحمة الله، ومعلوم أنه لا نصيب لهم في رحمته. فعنه جوابان: أحدهما: [أن]

(١) البيت غير منسوب في «الطبري» ٢٦٩/١٥، و«القرطبي» ٨/١١، و«اللسان»: وأل.

(٢) ديوانه بشرح الدكتور محمد حسين ص ٥٩، و«الطبري» ٢٦٩/١٥، و«مجاز القرآن» ٤٠٨/١، و«القرطبي» ٨/١١.

الرحمة هاهنا بمعنى النعمة، ونعمة الله لا يخلو منها مؤمن ولا كافر. فأما الرحمة التي هي الغفران والرضى، فليس للكافر فيها نصيب. والثاني: أن رحمة الله محظورة على الكفار يوم القيامة، فأما في الدنيا، فإنهم ينالون منها العافية والرزق.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَلِكِ الْقُرْآنُ﴾ يريد: التي قصصنا عليك ذكرها، والمراد: أهلها، ولذلك قال: ﴿أَفَلَا تَكْتُمُهَا﴾ والمراد: قوم هود، وصالح، ولوط، وشعيب. قال الفراء: قوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ معناه: بعدما ظلموا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ﴾ قرأ الأكثرون بضم الميم وفتح اللام؛ قال الزجاج: وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون مصدرًا، فيكون المعنى: وجعلنا لإهلاكهم. والثاني: أن يكون وقتًا، فالمعنى: لوقت هلاكهم. وقرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الميم واللام، وهو مصدر مثل الهلاك. وقرأ حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام، ومعناه: لوقت إهلاكهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْنَهُ لَا أَسْبَحُ حَتَّىٰ أَنْبِغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا بَرَخُوا فَاصْخَرُوا فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاؤَا قَالَ لِقَتْنُهُ إِنَّا غَدَاؤُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿١٧﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْكُوتَ وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا السَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَ وَاصْخَرُوا سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿١٨﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١٩﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءِتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِبْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْنَهُ...﴾، الآية، سبب خروج موسى ﷺ في هذا السفر، ما روى ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يردِّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك؛ قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكثل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم. فانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة، وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكثل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جزية الماء، فصار عليه مثل الطاق^(١). فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتانا غداً لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، فقال فتاه: «أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ...» إلى قوله: ﴿عَجَبًا﴾، قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً، فقال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا هو مسجى بشوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام^(٢)! من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أنتيك لتعلمني مما علمت رشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى، إني على علم من علم الله لا تعلمه علمي، وأنت على علم من علم الله علمك لا أعلمه؛ فقال موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً؛ فقال له الخضر: فإن أتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أخبرك منه ذكراً؛ فانطلقا يمشيان على الساحل، فمرت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم، فعفروا الخضر فحملوه بغير نزل^(٣)؛ فلما ركبا في السفينة لم يبق إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدم، فقال له موسى: قوم قد حملونا بغير نزل عمدت إلى سفينتهم «أَخْرَجْتَهَا لِيُنْفِقْ أَهْلَهَا...» إلى قوله: ﴿عَجَبًا﴾؟! قال: وقال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً»، وجاء عصفور فوق على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله، فقال له موسى: «أَفَلَيْتَ نَفْسًا رَكِيَةً» إلى قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ نَبْقِصَ﴾ فقال الخضر بيده [هكذا]^(٤)،

(١) الطاق: عقد البناء، وجمعه: طيقان، وأطواق - وهو الأزعج (بيت بيني طولاً، أو السقف) - وما عقد أعلاه من البناء وبقي ما تحته خالياً.

(٢) أي: من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام. قال العلماء: «أنى» تأتي بمعنى: أين، ومتى، وحيث، وكيف.

(٣) أي: بغير أجر، والنزل والنوال: المطاء.

(٤) قوله: فقال الخضر بيده هكذا، أي: أشار بيده فأقامه، وهذا تمييز بالنعل عن القول، وهو شائع.

فأقامه، فقال موسى: قوم أتيناكم فلم يطعمونا، ولم يضيّفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَلَخَدْتَ ظَهْرَ آجُرَ﴾! ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ...﴾ الآية. هذا حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم في «الصحیحین»^(١)، وقد ذكرنا إسناده في كتاب «الحدائق» فآثرنا الاختصار هاهنا. فأما التفسير، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ والمعنى: واذكر ذلك. وفي موسى قولان: أحدهما: أنه موسى بن عمران، قاله الأثرون. ويدل عليه ما روي في «الصحیحین» من حديث سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نَوْفًا الْبِكَالِيّ يزعم أن موسى بن إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر، قال: كذب عدو الله^(٢)، أخبرني أبي بن كعب... فذكر الحديث الصحيح الذي قدمناه آنفاً^(٣). والثاني: أنه موسى بن ميثا، قاله ابن إسحاق، وليس بشيء، للحديث الصحيح الذي ذكرناه. فأما فتاه فهو يوشع بن نون من غير خلاف. وإنما سمي فتاه، لأنه كان يلازمه، ويأخذ عنه العلم، ويخدمه. ومعنى ﴿لَا آبْرَحُ﴾: لا أزال. وليس المراد به: لا أزول، لأنه إذا لم يُزَلْ لم يقطع أرضاً، فهو مثل قولك: ما برحت أناظر عبد الله، أي: ما زلت، قال الشاعر:

إذا أنتَ لم تبرخ توذي أمانةً
وتحملُ أخرى أفرحتك الودائع^(٤)

أي: أنقلتك، والمعنى: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، أي: ملتقاهما، وهو الموضع الذي وعده الله بلقاء الخضر فيه، قال قتادة: بحر فارس، وبحر الروم، فبحر الروم نحو المغرب، وبحر فارس نحو المشرق. وفي اسم البلد الذي بمجمع البحرين قولان: أحدهما: إفريقية، قاله أبي بن كعب. والثاني: طنجة، قاله محمد بن كعب القرظي.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَنْخِوْ حُفْبًا﴾ وقرأ أبو رزين، والحسن، وأبو مجلز، وقتادة، والجحدري، وابن يعمر: «حُفْبًا» بإسكان الكاف. قال ابن قتيبة: الحُفْبُ: الدَّهْرُ، والجُفْبُ: السُّنُونُ، واحدتها جُفْبَةٌ، ويقال: حُفْبٌ وحُفْبٌ، كما يقال: قُفْلٌ وقُفْلٌ، وهُزْؤٌ وهُزْؤٌ، وكُفْؤٌ وكُفْؤٌ، وأكُلٌ وأكُلٌ، وسُحْتُ وسُحْتُ، ورُغْبٌ ورُغْبٌ، ونُكْرٌ ونُكْرٌ، وأُذُنٌ وأُذُنٌ، وسُحْقٌ وسُحْقٌ، وبُعْدٌ وبُعْدٌ، وشُغْلٌ وشُغْلٌ، وثُلْثٌ وثُلْثٌ، وعُذْرٌ وعُذْرٌ، ونُذْرٌ ونُذْرٌ، وعُغْمَرٌ وللمفسرين في المراد بالحُفْبُ هاهنا ثمانية أقوال: أحدها: أنه الدَّهْرُ، قاله ابن عباس. والثاني: ثمانون سنة، قاله عبد الله بن عمرو، وأبو هريرة. والثالث: سبعون ألف سنة، قاله الحسن. والرابع: سبعون سنة، قاله مجاهد. والخامس: سبعة عشر ألف سنة، قاله مقاتل بن حيان. والسادس: أنه ثمانون ألف سنة. كل يوم ألف سنة من عدد الدنيا. والسابع: أنه سنة بلغة قيس، ذكرهما الفراء. والثامن: الحُفْبُ عند العرب وقت غير محدود، قاله أبو عبيدة. ومعنى الكلام: لا أزال أسير، ولو احتجت أن أسير حُفْبًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ يعني: موسى وفتاه ﴿جَمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ يعني: البحرين ﴿نَسِيًا حَوْتَهُمَا﴾ وكانا قد تزودا حوتاً مالحاً في زَبِيلٍ^(٥) فكانا يصيبان منه عند الغداء والعشاء، فلما اتفها إلى الصخرة على ساحل البحر وضع فتاه المكتل، فأصاب الحوت بلل البحر. وقيل: توضع يوشع من عين الحياة فانضخ على الحوت الماء، فعاش، فتحرك في المكتل، فانسرب في البحر، وقد كان قيل لموسى: تزود حوتاً مالحاً، فإذا فقدته وجدت الرجل. وكان موسى حين ذهب الحوت في البحر قد مضى لحاجة، فعزم فتاه أن يخبره بما جرى فنسي. وإنما قيل: «نسيا حوتهما» توسعاً في الكلام، لأنهما جميعاً تزودا، كما يقال: نسي القوم زادهم، وإنما نسيه أحدهم. قال الفراء: ومثله قوله: ﴿يَسْحَجُ بَيْنَهُمَا الذُّرُؤُ وَالْمَرْحَاتُ﴾^(٦) [الرحن: ٢٢]، وإنما يخرج ذلك من الملح، لا من العذب. وقيل: نسي يوشع أن يحمل الحوت، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء، فلذلك أضيف النسيان إليهما.

(١) البخاري ١٥٣/١، ٣٠٨/٦، ٣١٠/٨، ومسلم ١٨٤٧/٤، ورواه الترمذي ١٤٣/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) قوله: كذب عدو الله، قال العلماء: هو على وجه الإغلاظ والزجر عن مثل قوله، لا أنه يعتقد أنه عدو الله حقيقة، إنما قاله مبالغة في إنكار قوله: لمخالفة قول رسول الله ﷺ، وكان ذلك في حال غضب ابن عباس، لشدة إنكاره، وحال الغضب تطلق الألفاظ ولا تتراد بها حقائقها.

(٣) البخاري ٣١٠/٨، ومسلم ١٨٤٧/٤.

(٤) البيت لبهس العذري في «اللسان»: فرح.

(٥) الزبيل: الفقة، والجمع: زبيل ومثله الزبيل، والزبيل، والجمع: زبائيل.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: مسلكاً ومذهباً. قال ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا ييس حتى يكون صخرة. وقال قتادة: جعل لا يسلك طريقاً إلا صار الماء جامداً. وقد ذكرنا في حديث أبي بن كعب أن الماء صار مثل الطاق على الحوت.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ ذلك المكان الذي ذهب فيه الحوت، أصابهما ما يصيب المسافر من النَّصَب، فدعا موسى بالطعام، فقال: ﴿هَإِنَّمَا عَدَاةُ نَآءٍ﴾ وهو الطعام الذي يؤكل بالغداء. والنَّصَب: الإعياء. وهذا يدل على إباحة إظهار مثل هذا القول عندما يلحق الإنسان من الأذى والتعب، ولا يكون ذلك شكوى. ﴿قَالَ﴾ يوشع لموسى: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ أي: حين نزلنا هناك ﴿فَإِنِّي فَيِّثُ الْحَوْتَ﴾ فيه قولان: أحدهما: نسيئتُ أن أخبرك خبر الحوت. والثاني: نسييت حمل الحوت.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْئَلُكُمْ﴾ قرأ الكسائي: «أنسانيه» بإمالة السين [مع كسر الهاء]. وقرأ ابن كثير: «أنسانيه» بإثبات ياء في الوصل بعد الهاء. وروى حفص عن عاصم: «أنسانيه إلا» بضم الهاء [في الوصل].

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ الهاء في السبيل ترجع إلى الحوت. وفي المُتَّخِذُ قولان. أحدهما: أنه الحوت، ثم في المخبر عنه قولان: أحدهما: أنه الله ﷻ، ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: فاتخذ سبيله في البحر يُري عجباً، ويُحدث عجباً. والثاني: أنه لما قال الله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾، قال: اعجبوا لذلك عجباً، وتنبهوا لهذه الآية. والثالث: أن إخبار الله تعالى انقطع عند قوله: «في البحر» فقال موسى: عجباً، لما شوهد من الحوت. ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري. والثاني: [أن] المُخْبِرُ عن الحوت يوشع، وصف لموسى ما فعل الحوت. والقول الثاني: أن المتخذ موسى، اتخذ سبيل الحوت في البحر عجباً، فدخل في المكان الذي مرَّ فيه الحوت، فرأى الخضر. وروى عطية عن ابن عباس قال: رجع موسى إلى الصخرة فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب في البحر، ويتبعه موسى، حتى انتهى به إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقى الخضر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ يعني: موسى ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ أي: ذلك الذي نطلب من العلامة الدالة على مطلوبنا، قرأ ابن كثير: «تبغي» بياء في الوصل والوقف. وقرأ نافع، وأبو عمرو، والكسائي، بياء في الوصل. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، بحذف الباء في الحاليين.

قوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا﴾ قال الزجاج: أي: رجعا في الطريق الذي سلكاه، يقصان الأثر، والقصص: أتباع الأثر.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني: الخضر. وفي اسمه أربعة أقوال: أحدها: اليسع، قاله وهب، ومقاتل. والثاني: الخضر بن عاميا. والثالث: أرميا بن حلفيا، ذكرهما ابن المنادي. والرابع: بليا بن ملكان، ذكره علي بن أحمد النيسابوري. فأما تسميته بالخضر، ففيه قولان: أحدهما: أنه جلس في فروة بيضاء فاخضرت، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ^(١). والفروة: الأرض اليابسة. والثاني: أنه كان إذا جلس اخضراً ما حوله، قاله عكرمة. وقال مجاهد: كان إذا صلى اخضراً ما حوله. وهل كان خضر نبياً، أم لا؟ فيه قولان، ذكرهما أبو بكر بن الأنباري، وقال: كثير من الناس يذهب إلى أنه كان نبياً^(٢)، وبعضهم يقول: كان عبداً صالحاً. واختلف العلماء هل هو باقي إلى يومنا هذا، على قولين حكاهما الماوردي، وكان الحسن يذهب إلى أنه مات، وكذلك كان ابن المنادي من أصحابنا

(١) روى الإمام أحمد في «المستدرج» عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في الخضر قال: «إنما سمي خضراً، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من تحته خضراء» وجاء في «صحيح البخاري» ٣٠٩/٦ عن همام عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمي الخضر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء». قال ابن كثير: والمراد بالفروة هاهنا: الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات.

(٢) قال ابن كثير ٩٩/٣ عند قوله تعالى على لسان الخضر ﷺ: ﴿وَمَا كَلَّمَهُ عَنْ أَمْرِهِ﴾: وما فعلته عن أمري، لكني أمرت به، ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر ﷺ، مع ما تقدم من قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا لَّهُ نَسَمَةٌ لِيِّنْ عِبَادَتِنَا وَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْغَالِبِينَ﴾. وقال الآلوسي في «روح المعاني» ٢٩٣/١٥: الجمهور على أنه نبي.

يقول، ويقبح قول من يرى بقاءه، ويقول: لا يثبت حديث في بقاءه^(١). وروى أبو بكر النقاش أن محمد بن إسماعيل البخاري سئل عن الخضر والياس: هل هما في الأحياء؟ فقال: كيف يكون ذلك وقد قال النبي ﷺ: «لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»؟^(٢).

قوله تعالى: ﴿مَائِنَةُ رَحْمَةٍ بَيْنَ عَيْنَيْنَا﴾ في هذه الرحمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها النبوة، قاله مقاتل. والثاني: الرقة والحزب على من يستحقه، ذكره ابن الأنباري. والثالث: النعمة، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿عِلْمًا﴾ قال ابن عباس: أعطاه علماً من علم الغيب. ﴿قَالَ لَمْ مَوْسَىٰ هَلْ آتَيْتَكَ عَلَيَّ أَن تُلْمِينَ مِنِّي مَا ظَلَمْتُ رُشْدًا﴾ قال ابنك أن تستطيع معي صبراً ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا تَرَىٰ تُحِطُ بِهِ خَيْرٌ﴾ قال سجدت في إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴿﴾

قوله تعالى: ﴿أَن تُلْمِينَ﴾ قرأ ابن كثير: «تعلمني مما» بإثبات الياء في الوصل والوقف. وقرأ نافع، وأبو عمرو بياء في الوصل. وقرأ ابن عامر، وعاصم بحذف الياء في الحالين.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا ظَلَمْتُ رُشْدًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «رُشْدًا» بضم الراء، [وإسكان الشين] خفيفة. وقرأ أبو عمرو: «رُشْدًا» بفتح الراء والشين. وعن ابن عامر بضمهما. والرُشد، والرُشد: لغتان، كالتخل والتخل، والمُجم والعجم، والعُرب والعرب، والمعنى: أن تعلمني علماً ذا رشد. وهذه القصة قد حرّضت على الرحلة في طلب العلم، وأتباع المفضول للفاضل طلباً للفضل، وحثت على الأدب والتواضع للمصحب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال ابن عباس: لن تصبر على صبري، لأنني علمت من غيب علم ربي. وفي هذا الصبر وجهان: أحدهما: على الإنكار. والثاني: عن السؤال.

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا تَرَىٰ تُحِطُ بِهِ خَيْرٌ﴾ الخبر: علمك بالشيء؛ والمعنى: كيف تصبر على أمر ظاهره مُنكر، وأنت لا تعلم باطنه؟!

قوله تعالى: ﴿سَجِدْ لِرَبِّكَ إِن شَاءَ اللَّهُ سَابِغًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال ابن الأنباري: نفي العصيان منسوق على الصبر^(٣). والمعنى: سجدتني صابراً ولا أعصي إن شاء الله.

﴿قَالَ فَإِنِ ابْتَدَيْتَ فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قال سجدت في السيفنة خرقتها قال أخرقتها إنقرق أهلها لقد جئت حيناً أمراً ﴿﴾ قال أنر أقل إنك أن تستطيع معي صبراً ﴿﴾ قال لا تؤاخذني بما نسيك ولا ترفني من أمري عشراً ﴿﴾ قال سجدت في إذا نيا علمنا فنقله قال أفنك نسا ريكمة بقير نقرى لند جئت حيناً لكر ﴿﴾ قال أنر أقل لك إنك أن تستطيع معي صبراً ﴿﴾ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصبحني قد كنت من لذي عذرك ﴿﴾ قال سجدت في إذا نيا أهل قرية استعلمنا أهلها فأبوا أن يُصِفُوهُمَا فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينفذ فأقامهم قال لو شئت لخذت عليه أجراً ﴿﴾ قال هذا فراق بيني وبينك سألنيك يتأويل ما تر تستطيع عليه صبراً ﴿﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «فلا تسألني» ساكنة اللام. وقرأ نافع: «فلا تسألني» مفتوحة اللام مشددة النون. وقرأ ابن عامر في رواية الداجوني: «فلا تسألن عن شيء» بتحريك اللام من غير ياء، والنون مكسورة. والمعنى: لا تسألني عن شيء مما أفعله ﴿حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتى أكون أنا الذي أبيتك لك، لأن علمه قد غاب عنك.

قوله تعالى: ﴿خَرَقَهَا﴾ أي: شققها. قال المفسرون: قلع منها لوحاً، وقيل: لوحين مما يلي الماء، فحشاها موسى

(١) ومن جزم بأنه غير موجود الآن، البخاري، وإبراهيم الحربي، وأبو يعلى بن الفراء، وأبو طاهر العبادي، وأبو بكر بن العربي، وطائفة، وصدقتهم الحديث الآتي: «لا يبقى على رأس مائة سنة... إلخ. والأخبار التي تدل على بقاءه، ضعيفة.

(٢) البخاري ١/١٨٨، ومسلم ٤/١٩٦٥، باختلاف يسير في الفاظه.

(٣) أي: معطوف على الصبر، والتحريرين يسمون حروف العطف: حروف النسق.

بثوبه وأنكر عليه ما فعل بقوله: ﴿أَحْرَقْنَا لِيُتْرَقَ أَهْلُهَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «لَتُحْرَقَ» بالثاء «أهلها» بالنصب. وقرأ حمزة، والكسائي: «لِيُحْرَقَ» بالياء «أهلها» برفع اللام. ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: منكر، قاله مجاهد. وقال الزجاج: عظيماً من المنكر. والثاني: عجباً، قاله قتادة، وابن قتيبة. والثالث: داهية، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَيِّدُنِي بِمَا نَيْبْتُ﴾ في هذا النسيان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه على حقيقته، وأنه نسي، روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «أن الأولى كانت نسياناً من موسى»^(١). والثاني: أنه لم ينس، ولكنه من معاريض الكلام، قاله أبي بن كعب، وابن عباس. والثالث: أنه بمعنى التُّرك. فالمعنى: لا تؤاخذني بما تركته مما عاهدتك عليه، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُرَفِّقْ﴾ قال الفراء: لا تُعجلني. وقال أبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج: لا تُغشني. قال أبو زيد: يقال: أرفقته عسراً: إذا كلفته ذلك. قال الزجاج: والمعنى: عاملني باليسر، لا بالعسر. قوله تعالى: ﴿فَأَطْلَقْنَا﴾ يعني: موسى والخضر. قال الماوردي: يحتمل أن يوشع تأخر عنهما، لأن الإخبار عن اثنين، ويحتمل أن يكون معهما ولم يذكر لأنه تَبَّحَ لموسى، فاقصر على حكم المتبوع.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَبَّيَّا عَلَيْنَا﴾ اختلفوا في هذا الغلام هل كان بالغاً، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه لم يكن بالغاً، قاله ابن عباس، ومجاهد، والأكثر. والثاني: أنه كان شاباً قد قبض على لحيته، حكاه الماوردي عن ابن عباس أيضاً، واحتج بأن غير البالغ لم يُجْر عليه قلم، فلم يستحق القتل. وقد يُسَمَّى الرجلُ غلاماً، قالت ليلي الأخيلية تمدح الحجاج:

[شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ العُضَالِ الذي بها]

غُلامٌ إذا هَزَّ القنَاةَ سقاها^(٢)

وفي صفة قتله له ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اقتلع رأسه، وقد ذكرناه في حديث أبي. والثاني: كسر عنقه، قاله ابن عباس. والثالث: أضجعه وذبحه بالسكين، قاله سعيد بن جبير.

قوله تعالى: ﴿أَمَلَّتْ نَفْسًا رَكِيَةً﴾ قرأ الكوفيون، وابن عامر: «زكيَّة» بغير ألف، والياء مشددة. وقرأ الباقون بالألف من غير تشديد. قال الكسائي: هما لغتان بمعنى واحد، وهما بمنزلة القاسية، والقسيَّة. وللمفسرين فيها ستة أقوال: أحدها: أنها الثابتة، روي عن ابن عباس أنه قال: الزكية: الثابتة، [وبه] قال الضحاک. والثاني: أنها المسلمة، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنها الزكية التي لم تبلغ الخطايا، قاله سعيد بن جبير. والرابع: أنها الزكية النامية، قاله قتادة. وقال ابن الأنباري: القويمة في تركيبها. والخامس: أن الزكية: المطهرة، قاله أبو عبيدة. والسادس: أن الزكية: البريئة التي لم يظهر ما يوجب قتلها، قاله الزجاج. وقد فُرق بعضهم بين الزاكية، والزكيَّة، فروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: الزاكية: التي لم تذب قط، والزكية: التي أذنبت ثم تابت. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: الزاكية في البدن، والزكية في الدين.

قوله تعالى: ﴿يَعْبُرُونَ نَهْرَيْنِ﴾ أي: بغير قتل نفس ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «نُكْرًا» خفيفة في كل القرآن، إلا قوله: ﴿إِلَّا شَيْءٌ نُكْرٌ﴾ [النمر: ٦٦]، وخفف ابن كثير أيضاً: «إلى شيء نُكْر». وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «نُكْرًا» و«إلى شيء نُكْر» مثقل. والمخفف إنما هو من المثقل، كالعنق، والعنق، والنُكْر، والنُكْر، قال الزجاج: والمعنى: لقد آتيت شيئاً نُكْرًا. ويجوز أن يكون معناه: جئت بشيء نكر، فلما حذف الباء، أفضى الفعل فنصب نُكْرًا، و«نُكْرًا» أقل منكرًا من قوله: «إمرًا» لأن تغريق مَنْ في السفينة كان عنده أنكر من قتل نفس واحدة.

(١) هذه قطعة من الحديث الطويل الذي تقدم سابقاً في ٨٥٩ - ٨٦٠.

(٢) الأغاني طبع الدار ٢٤٨/١١، والرازي ٢١/١١، والبحر المحيط ١٥٠/٦، و«روح المعاني» ٣١٠/١٥، وقوله:

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضاً تنبُّع أقصمى دائها فشفاها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ لَكَ﴾. إن قيل: لم ذكر «لك» هاهنا، واختزله من الموضع الذي قبله؟ فالجواب: أن إثباته للتوكيد، واختزله لوضوح المعنى، وكلاهما معروف عند الفصحاء. تقول العرب: قد قلت لك: اتق الله. وقد قلت لك: يا فلان اتق الله، وأنشد ثعلب.

قد كنتَ حَذَرْتُكَ آلَ الْمُضْطَلِّقِ
وقلْتُ: يا هَذَا أَطْعَمَنِي وَأَنْطَلِقُ
فقوله: يا هذا، توكيد لا يختل الكلام بسقوطه. وسمعت الشيخ أبا محمد الخشاب يقول: وقره في الأول، فلم يواجهه بكاف الخطاب، فلما خالف في الثاني، واجهه بها.

قوله تعالى: ﴿إِنْ سَأَلْتَهُ عَن شَيْءٍ﴾ أي: سؤال توبيخ وإنكار ﴿بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المسألة ﴿فَلَا تُصِجْنِي﴾ وقرأ كذلك معاذ القارئ، وأبو نهيك، وأبو المتوكل، والأعرج، إلا أنهم شدّدوا النون. قال الزجاج: ومعناه: إن طلبتُ صحبتك فلا تتابعني على ذلك. وقرأ أبي بن كعب، وابن أبي عبله، ويعقوب: «فلا تصحيني» بفتح التاء من غير ألف. وقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، والأعمش كذلك، إلا أنهم شدّدوا النون. وقرأ أبو رجاء، وأبو عثمان النهدي، والنخعي، والجحدري: «تُصِجْنِي» بضم التاء، وكسر الحاء، وسكون الصاد والباء. قال الزجاج: فيهما وجهان: أحدهما: لا تتابعني في شيء ألتسمه منك. يقال: قد أصحب المهر: إذا انقاد. والثاني: لا تصحيني علماً من علمك. ﴿فَدَلَّتْ مِن لَدُنِّي﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «من لدني» مثقل. وقرأ نافع: «من لدني» بضم الدال مع تخفيف النون. وروى أبو بكر عن عاصم: «من لدني» بفتح اللام مع تسكين الدال. وفي رواية أخرى عن عاصم: «لدني» بضم اللام وتسكين الدال. قال الزجاج: وأجودها تشديد النون، لأن أصل «لدن» الإسكان، فإذا أضفتها إلى نفسك زدت نوناً، ليسلم سكون النون الأولى، تقول: من لدن زيد، فتسكن النون ثم تضيف إلى نفسك، فتقول: من لدني، كما تقول: عن زيد وعني. فأما إسكان دال «لدني» فإنهم أسكنوها، كما تقول في عُد: عُد، فيحذفون الضم. قال ابن عباس: يريد: إنك قد أعذرت فيما بيني وبينك، يعني: أنك قد أخبرتني أنني لا أستطيع معك صبراً.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها أنطاكية، قاله ابن عباس. والثاني: الأبلّة، قاله ابن سيرين. والثالث: باجروان، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَسْتَظْلَمَ أَهْلُهَا﴾ أي سألهم الضيافة ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ روى المفضل عن عاصم: «يُضَيِّفُوهُمَا» بضم الياء الأولى وكسر الضاد وتخفيف الياء الثانية. وقرأ أبو الجوزاء كذلك، إلا أنه فتح الياء [الأولى] وقرأ الباقون: «يُضَيِّفُوهُمَا» بفتح الضاد وتشديد الياء الثانية وكسرها. قال أبو عبيدة: ومعنى يضيّفوهما: ينزلوهما منزل الأضياف، يقال: ضيفت أنا، وأضافني الذي يُنزلني. وقال الزجاج: يقال: ضيف الرجل: إذا نزلت عليه، وأضفته: إذا أنزلته وقرئته. وقال ابن قتيبة: [يقال]: ضيفت الرجل: إذا أنزلته منزلة الأضياف، ومنه هذه الآية، وأضفته: أنزلته، وضيّفته: نزلت عليه. وروى أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: «كانوا أهل قرية لثاماً»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا﴾ أي: حائطاً. قال ابن فارس: وجمعه جُدْر، والجدر: القصر. حديث الزبير: «ثم دع الماء يرجع إلى الجدر»^(٢)، والجدر: القصر.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَّ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو رجاء: «ينقاض» بألف ممدودة، وضاد معجمة؛ وقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، وأبو عثمان النهدي: «ينقاض» بألف ومدة وضاد غير معجمة، وكله بلا تشديد. قال الزجاج: فمعنى: ينقض: يسقط بسرعة، وينقاض - غير معجمة: ينشق طولاً، يقال: انقضت سبته: إذا انشئت. قال ابن مقسم: انقضت سبته، وانقاضت - بالصاد، والضاد - على معنى واحد. فإن قيل: كيف نسبت الإرادة إلى ما لا يعقل؟ فالجواب: أن هذا على وجه المجاز تشبيهاً بمن يعقل، ويريد: لأن هيئته في التهويل للوقوع قد ظهرت كما يظهر

(١) رواه مسلم ١٨٥٢/٤ بلفظ «حتى إذا أتى أهل قرية لثاماً» وهو قطعة من حديث طويل.

(٢) في البخاري ٢٢٧/٥: «استق يا زبير ثم اجس حتى يبلغ الجدر» وهو في «النسائي» ١٣٩/٨، وهو جزء من حديث طويل.

من أفعال المريدین القاصدين، فوصف بالإرادة إذ كانت الصورتان واحدة، وقد أضافت العرب الأفعال إلى ما لا يعقل تجوزاً، قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، والغضب لا يسكت، وإنما يسكت صاحبه، وقال: ﴿فَإِنَّا عَرَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١]، وأنشدوا من ذلك:

إِنْ دَفَرَأُ يَلْفُ شَمْلِي بِجُنْهِ
وَقَالَ آخَرُ:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَنْزَ أَبِي بَرَاءِ
وَقَالَ آخَرُ:

ضَحَكُوا وَالدهرُ عَنْهُمْ سَاكِتٌ
وَقَالَ آخَرُ:

يَشْكُو إِلَيَّ جَمْلِي طَوْلَ الشُّرَى
وهذا كثير في أشعارهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْصَمْتُمْ أَي: سَوَاهُ، لأنه وجده مائلاً. وفي كيفية ما فعل قولان: أحدهما: أنه دفعه بيده فقام. والثاني: هدمه ثم قعد بينه، روي القولان عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «لَتَّخَذْتَ» بكسر الخاء، غير أن أبا عمرو كان يدغم الذال، وابن كثير يظهرها. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «لَا تَتَّخَذْتَ» وكلهم أدغم، إلا حفصاً عن عاصم، فإنه لم يدغم مثل ابن كثير. قال الزجاج: يقال: تَخَذَ يَتَّخَذُ في معنى: اتَّخَذَ يَتَّخِذُ. وإنما قال له هذا، لأنهم لم يضيفوهما.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ يعني: الخضر ﴿هَذَا﴾ يعني: الإنكار عَلَيَّ ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي: هو المَفْرُقُ بيننا. قال الزجاج: المعنى: هذا فِرَاقُ بَيْنِنَا، أي: فراق اتصالنا، وكرر «بين» توكيداً، ومثله في الكلام: أخزى اللُّهُ الكاذب مني ومنك. وقرأ أبو رزين، وابن السميع، وأبو العالية، وابن أبي عبله: «هذا فِرَاقُ» بالتونين «بيني وبينك» نصب النون.

قال ابن عباس: كان قول موسى في السفينة والغلام، لرثه، وكان قوله في الجدار، لنفسه، لطلب شيء من الدنيا ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَمْلِكُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدْتُ أَنْ أُبَيِّبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٦٧﴾ وَأَمَّا الْفُلُّ فَكَانَ آوَاءَهُ مُؤْتَيْنِ فَخَشِيْنَا أَنْ يُرْفِعَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٦٨﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّنَا صَخْرًا يُتْرَكُ لِمَنْ يَشَاءُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَأَنَّ الْفُلَّ كَانَ لِيُكَلِّمَ الَّذِينَ يَتِيمِينَ فِي الْبَرِّيَّةِ وَأَنَّ الْيَتِيمَ كَفَرَ لَهَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَرَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا قُلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْمَعُوا عَلَيْهِ صَخْرًا ﴿٦٩﴾﴾

﴿كَانَتْ لِمَسْكِينٍ﴾ في المراد بمسكنتهم قولان: أحدهما: أنهم كانوا ضعفاء في أكسابهم. والثاني: في أبدانهم. وقال كعب: كانت لعشرة إخوة، خمسة زمنى، وخمسة يعملون في البحر.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْدْتُ أَنْ أُبَيِّبَهَا﴾ أي: أجعلها ذات عيب، يعني بخرقها، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أمامهم، قاله ابن عباس، وقتادة، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: «وكان أمامهم ملك». والثاني: خلفهم؛ قال الزجاج: وهو أجود الوجيين. فيجوز أن يكون رجوعهم في طريقهم كان عليه، ولم يعلموا بخبره، فأعلم الله تعالى الخضر خبره.

(١) البيت غير منسوب في «تأويل مشكل القرآن» ١٠٠، و«الطبري» ٢٨٩/١٥، و«القرطبي» ٢٦/١١، و«أمالي المرتضى» ٥٥/٤، و«الصناعتين» ٢١٤، و«اللسان» و«التاج»: دهر، وقد نسب الألويسي في «روح المعاني» ٦/١٦ إلى حسان بن ثابت ولم نجده في ديوانه.

(٢) البيت في «تأويل مشكل القرآن» ١٠٠، و«مجاز القرآن» ٤١٠/١، ونسبه محققه للمجاشعي، و«الطبري» ٢٨٩/١٥، و«الصناعتين» ٢١٢، و«اللسان»: رود، و«القرطبي» ٢٦/١١، ونسبه الزمخشري في «الكشاف» ٣٩٨/٢ للراعي.

(٣) الرجز غير منسوب في «مجاز القرآن» ٣٠٣/١، و«تأويل مشكل القرآن» ٧٩، و«الطبري» ٢٨٩/١٥، و«القرطبي» ١٥٢/٩، و«اللسان» و«التاج»: شكا.

قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: كل سفينة سالحة. وفي قراءة أبيّ [بن كعب]: «كُلُّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٌ». قال الخضر: إنما خرقتها، لأن الملك إذا رآها منخرقة تركها ورقعها أهلها فانتعروا بها.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْفُلُّ﴾ روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً». وروي أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طفيلاناً وكفراً»^(١). قال الربيع بن أنس: كان الغلام على الطريق لا يمرُّ به أحدٌ إلا قتله أو غصبه، فیدعو ذلك عليه وعلى أبويه. وقال ابن السائب: كان الغلام لصاً، فإذا جاء من يطلبه حلف أبواه أنه لم يفعل.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْشِيَنَا﴾ في القائل لهذا قولان: أحدهما: الله عز وجل. ثم في معنى الخشية المضافة إليه قولان: أحدهما: أنها بمعنى: العلم. قال الفراء: معناه: فعلنا. وقال ابن عقيل: المعنى: فعلنا فعل الخاشي. والثاني: الكراهة، قاله الأخفش، والزجاج. والثاني: أنه الخضر، فتكون الخشية بمعنى الخوف للأمر المتهوم، قاله ابن الأنباري. وقد استدل بعضهم على أنه من كلام الخضر بقوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾. قال الزجاج: المعنى: فأراد الله، لأن لفظ الخبر عن الله تعالى هكذا أكثر من أن يحصى. ومعنى ﴿يُرْهِقُهُمَا﴾: يغشيها. قال سعيد بن جبيرة: خشينا أن يحملهما حبه على أن يدخلنا في دينه. وقال الزجاج: فرحا به حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فرضي امرؤ بقضاء الله^(٢)، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره، خير له من قضائه فيما يحب.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم: «أَنْ يُبْدِلَهُمَا» بالتخفيف. وقرأ نافع، وأبو عمرو بالتشديد.

قوله تعالى: ﴿حَيْرًا يَنْتَهِيَنَّ ذِكْوَةً﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ديناً، قاله ابن عباس. والثاني: عملاً، قاله مقاتل. والثالث: صلاحاً، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «رُحْمًا» ساكنة الحاء، وقرأ ابن عامر: «رُحْمًا» مثقلة. وعن أبي عمرو كالقراءتين. وقرأ ابن عباس، وابن جبيرة، وأبو رجاء: «رُحْمًا» بفتح الراء، وكسر الحاء. وفي معنى الكلام قولان. أحدهما: أوصل للرحم وأبّر للوالدين، قاله ابن عباس، وقتادة. وقال الزجاج: أقرب عطفًا، وأمسّ بالقرابة. ومعنى الرُحْم والرُّحْم في اللغة: العطف والرحمة، قال الشاعر:

وكيف بظلم جاريةٍ ومنها اللين والرُّحْم^(٣)

والثاني: أقرب أن يُرْحَمَ به، قاله الفراء. وفيما يُدَلَّاه قولان: أحدهما: جارية، قاله الأکثرون. وروي عطاء عن ابن عباس، قال: أبدلها به جارية ولدت سبعين نبيًا. والثاني: غلام مسلم، قاله ابن جريج.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْبَلَدُ فَأَنَّ الْفُلْمَيْنِ يَسْتَمِينَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يعني: القرية المذكورة في قوله: ﴿أَيُّهَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، قال مقاتل: واسمها: أصرم، وصريم.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ نَحْتٍ كَتَرْتَهُمَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان ذهباً وفضة، رواه أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ^(٤). وقال الحسن، وعكرمة، وقتادة: كان مالاً. والثاني: أنه كان لوحاً من ذهب، فيه مكتوب: عجياً لمن أيقن بالقدر ثم هو يتنصب، عجياً لمن أيقن بالنار كيف يضحك، عجياً لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، عجياً لمن يوقن بالرزق كيف يتعب، عجياً لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، عجياً لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها،

(١) رواه مسلم في «صحيحه» ٢٠٥٠/٤، وأبو داود في «سننه» رقم (٤٧٠٥)، والترمذي في «جامعه» ١٤٤/٢، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٣٧/٤ وزاد نسبه لعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، وابن مردويه.

(٢) في «الطبري»، وابن كثير عن قتادة: فليرض امرؤ بقضاء الله.

(٣) البيت غير منسوب في «مجاز القرآن» ٤١٣/١، و«القرطبي» ٣٧/١١، و«اللسان» و«التاج»: رحم.

(٤) رواه الترمذي: ١٤٤/٢ من حديث مكحول عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، ورواه الحاكم أيضاً عن أبي الدرداء.

أنا الله الذي لا إله إلا أنا، محمد عبدي ورسولي؛ وفي الشق الآخر: أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي، خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير وأجرته على يديه، والويل لمن خلقته للشر وأجرته على يديه، رواه عطاء عن ابن عباس. قال ابن الأنباري: فسُمِّيَ كثرًا من جهة الذهب، وجعل اسمه هو المغلب. والثالث: كثر علم، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال مجاهد: صُحِفَ فيها عِلْمٌ، وبه قال سعيد بن جبير، والسدي. قال ابن الأنباري: فيكون المعنى على هذا القول: كان تحته مثل الكنز، لأنه يُتَعَجَّلُ من نفعه أفضل مما يُنَالُ من الأموال. قال الزجاج: والمعروف في اللغة: أن الكنز إذا أُفرد، فمعناه: المال المدفون المدخر، فإذا لم يكن المال، قيل: عنده كثر علم، وله كثر فهم، والكنز هاهنا بالمال أشبه، وجائز أن يكون الكنز كان مالا، مكتوب فيه علم، على ما روي، فهو مال وعلم عظيم.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قال ابن عباس: حُفِظَا بِصِلَاحِ أَبِيهِمَا، ولم يذكر منهما صلاحًا. وقال جعفر بن محمد رضي الله عنه: كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سبعة آباء. وقال مقاتل: كان أبوهما ذا أمانة.

قوله تعالى: ﴿فَارَادَ رَبُّكَ﴾ قال ابن الأنباري: لما كان قوله: «فأردت» و«أردنا» كل واحد منهما يصلح أن يكون خبراً عن الله تعالى، وعن الخضر، أتبعهما بما يحصر الإرادة عليه، ويزيلها عن غيره، ويكشف البُغْيَةَ من اللفظتين الأوليين. وإنما قال: «فأردت» «فأردنا» «فأراد ربك»، لأن العرب تؤثر اختلاف الكلام على اتِّفَاقِهِ مع تساوي المعاني، لأنه أَعَذَّبَ على الألسن، وأحسن موقعاً في الأسماع، فيقول الرجل: قال لي فلان كذا، وأنا بئني بما كان، وخبرني بما نال. فاما «الأشد» فقد سبق ذكره في مواضع [الإنعام: ١٥٢، ويوسف: ٢٢، والإسراء: ٢٤] ولو أن الخضر لم يُقِمِ الحائط لَنُقِصَ وأخذ ذلك الكنز قبل بلوغهما.

قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ أي: رحمهما الله بذلك. ﴿وَمَا قَلَّمْتُ عَنْ أَمْرِي﴾ قال قتادة: كان عبداً مأموراً (١).

فأما قوله: ﴿قَطَّعَ﴾ فإن «استطاع» و«اسطاع» بمعنى واحد.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَلْتُوُكُمْ عَنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَنَأْتَيْنَهُ مِن كُلِّ ثَلَاثٍ سَبْعًا ﴿٨٤﴾ فَأَنجَى سَيِّئًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ النَّمِيمِ وَبَدَّهَا قَرْيَةً فِي عَرَبٍ حَنَزَةٍ وَرَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قَلِيلًا بَدَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَن تَعَذَّبَ وَإِنَّمَا أَن تُنَجِّدَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَنَا مَن ظَلَمَ سَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَيْ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ لَمْ نَسْأَلْ لَهُ مِن مَّأْمُونًا ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا نَزَّلْنَاكَ عَلَى ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ قد ذكرنا سبب نزولها عند قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا نَزَّلْنَاكَ عَلَى ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ (٢)

[الإسراء: ٨٥]. واختلفوا في اسم ذي القرنين على أربعة أقوال: أحدها: عبد الله، قاله علي رضي الله عنه، وروي عن ابن عباس أنه عبد الله بن الضحاك. والثاني: الإسكندر، قاله وهب. والثالث: عيَّاش، قاله محمد بن علي بن الحسين. والرابع: الصعب بن جابر بن القلمس، ذكره ابن أبي خيثمة. وفي علَّة تسميته بذِي الْقُرْنَيْنِ عشرة أقوال: أحدها: أنه دعا قومه إلى الله تعالى، فضربوه على قرنه فهلك، فغير زماناً، ثم بعثه الله، فدعاهم إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فهلك، فذاتك قرناه، قاله علي رضي الله عنه. والثاني: أنه سمي بذِي الْقُرْنَيْنِ، لأنه سار إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس. والرابع: لأنه رأى في المنام كأنه امتد من السماء إلى الأرض وأخذ بقربي الشمس، فقص ذلك على قومه، فسُمِّيَ بذِي الْقُرْنَيْنِ. والخامس: لأنه مَلِكُ الرُّومِ وفارس. والسادس: لأنه كان في رأسه شبه القرنين، رويت هذه الأقوال الأربعة عن وهب بن منبه. والسابع: لأنه كانت له غديرتان من شعر، قاله الحسن. قال ابن الأنباري: والعرب تسمي الضفيريَّتين من الشعر غديرتين، وجميرتين، وقرنين؛ قال: ومن قال: سمي بذلك لأنه ملك فارس والروم، قال: لأنهما عاليان على جانبيين من الأرض يقال لهما: قرنان. والثامن: لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذوي شرف. والتاسع: لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس، وهو حي. والعاشر: لأنه سلك الظلمة والنور، ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو إسحاق الثعلبي. واختلفوا هل كان

(١) وهذا يدل على أنه كان نبياً، وأن ما صدر منه كان بوحي من الله تعالى. قال الطبري: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلته، عن رأيي ومن تلقاه نفسي، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به.

(٢) انظر القول الثاني في الصفحة (٨٢٩).

نبيّاً، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه كان نبياً، قاله عبد الله بن عمرو، والضحاك بن مزاحم. والثاني: أنه كان عبداً صالحاً^(١)، ولم يكن نبياً، ولا ملكاً، قاله علي عليه السلام. وقال وهب: كان ملكاً، ولم يوح إليه. وفي زمان كونه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من القرون الأولى من ولد يافث بن نوح، قاله علي عليه السلام. والثاني: أنه كان بعد ثمود، قاله الحسن. ويقال: كان عمره ألفاً وستمائة سنة. والثالث: [أنه] كان في الفترة بين عيسى ومحمد عليه السلام، قاله وهب.

قوله تعالى: ﴿سَأَلْنَا عَنْكُمْ رَبَّنَا بِمَا أَتَى فِي الْأَرْضِ الْكُفْرَ﴾ أي: خبراً يتضمن ذكره. ﴿وَإِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سَهَّلْنَا عَلَيْهِ السَّبِيلَ فِيهَا. قال علي عليه السلام: إنه أطاع الله، فسُخِّرَ لَهُ السَّحَابَ فَحَمَلَهُ عَلَيْهِ، وَمَدَّ لَهُ فِي الْأَسْبَابِ، وَبَسَطَ لَهُ الثَّوْرَ، فَكَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عَلَيْهِ سَوَاءً. وقال مجاهد: مَلَكَ الْأَرْضَ أَرْبَعَةَ مُؤْمِنَانَ، وَكَافِرَانَ؛ فَالْمُؤْمِنَانَ: سَلِيمَانَ بْنِ دَاوُدَ، وَذُو الْقَرْنَيْنِ؛ وَالكَاْفِرَانَ: النَّمْرُودَ، وَيُخْتَصِرُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغُ مِنْ كُلِّ مَثْوٍ سَبِيحًا﴾ قال ابن عباس: عَلِمْنَا بِتَسَبُّبِ بِهِ إِلَى مَا يَرِيدُ. وقيل: هو العِلْمُ بِالنَّطْقِ وَالمَسَالِكِ.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعِ سَبِيحًا﴾ ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيحًا﴾ ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيحًا﴾ ثم أتبع سبياً مشددة التاء. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيحًا﴾ ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيحًا﴾ ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيحًا﴾ مقطوعات. قال ابن الأنباري: من قرأ ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيحًا﴾ فمعناه: قفا الأثر، ومن قرأ: ﴿فَاتَّبَعَ﴾ فمعناه: لحق؛ يقال: اتَّبَعَنِي فلان، أي: تَبِعَنِي، كما يقال: اتَّخَفَنِي فلان، بمعنى: لَحَقَنِي. وقال أبو علي: ﴿اتَّبَعَ﴾ تقديره: اتَّبَعَ سَبِيحًا سَبِيحًا، فَاتَّبَعَ مَا هُوَ عَلَيْهِ سَبِيحًا، وَالسَّبِيحُ: الطَّرِيقُ، وَالمَعْنَى: تَبِعَ طَرِيقًا يُؤَدِّيهِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ. وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَخَذَ مِنْهُمْ جَيْشًا فَسَارَ بِهِمْ إِلَى غَيْرِهِمْ.

قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُ بِمَا تَدَّعَى فِي عَيْنِ حَمِيمٍ﴾ ﴿قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو: «فَاتَّبَعَ سَبِيحًا» وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ: «حَمِيمَةً»، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَرَأَ ابْنُ عَمْرٍو، وَحَمْزَةً، وَالمَكْسَائِي، وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ: «حَامِيَةً»، وَهِيَ قِرَاءَةُ عَمْرٍو، وَعَلِيٍّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَالزُّبَيْرِ، وَمَعَاوِيَةَ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَالمَحْسَنِ، وَعَكْرَمَةَ، وَالنَّخَعِي، وَقَتَادَةَ، وَأَبِي جَعْفَرٍ، وَشَيْبَةَ، وَابْنَ مَحْيِصَنَ، وَالمَاعِشَ، كُلَّهُمْ لَمْ يَهْمِزُ. قَالَ الزُّجَّاجُ: فَمَنْ قرأ: «حَمِيمَةً» أراد فِي عَيْنِ ذَاتِ حَمَاءَةٍ. يُقَالُ: حَمَأْتُ البِئْرَ: إِذَا أَخْرَجْتَ حَمَأَتَهَا؛ وَأَحْمَأْتُهَا: إِذَا لَقَيْتَ فِيهَا الحَمَاءَةَ. [وَحَمِمْتُ] فِيهَا حَمِيمَةٌ: إِذَا صَارَتْ فِيهَا الحَمَاءَةُ. وَمَنْ قرأ: «حَامِيَةً» بغير هَمْزٍ، أراد: حَاذَةً. وَقَدْ تَكُونُ حَاذَةً ذَاتِ حَمَاءَةٍ. وَرَوَى قَتَادَةُ عَنِ المَحْسَنِ، قَالَ: وَجَدَهَا تُغْرَبُ فِي مَاءٍ يَغْلِي كغَلْيَانِ القُدُورِ ﴿وَوَجَدَهَا عِنْدَهَا قَرِيبًا﴾ لِباسهم جلود السباع، وليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس من الدواب إذا غربت نحوها، وما لفظت العين من الحيطان إذا وقعت فيها الشمس. وقال ابن السائب: وجد عندها قوماً مؤمنين وكافرين، يعني عند العين. وربما توهم متوهم أن هذه الشمس على عظيم قدرها تغوص بذاتها في عين ماء، وليس كذلك. فإنها أكبر من الدنيا مراراً، فكيف تسعها عين [ماء]؟ وقيل: إن الشمس بقدر الدنيا مائة وخمسين مرة، وقيل: بقدر الدنيا مائة وعشرين مرة، والقمر بقدر الدنيا ثمانين مرة. وإنما وجدها تغرب في العين كما يرى راكب البحر الذي لا يرى طرفه أن الشمس تنيب في الماء، وذلك لأن ذا القرنين انتهى إلى آخر البنيان فوجد عيناً حميمة ليس بعدها أحد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا يَدَّا الْأَرْضَيْنِ﴾ ﴿فَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ نَبِيٌّ، قَالَ: هَذَا القَوْلُ وَحِيٌّ؛ وَمَنْ قَالَ: لَيْسَ بِنَبِيٍّ، قَالَ: هَذَا إِلَهُامٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَنْ تَمُدُّبَةً﴾ قَالَ المَفْسُورُونَ: إِذَا أَنْ تَقْتَلِمُهُمْ إِنْ أَبَوْا مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَنْ تَأْسِرَهُمْ، فَتَبْصِرُهُمْ الرُّشْدَ. ﴿فَقَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أَي: أَشْرَكَ ﴿فَسَوْفَ نُؤَدَّبُهُ﴾ بِالقِتْلِ إِذَا لَمْ يَرْجِعْ عَنِ الشُّرْكِ. وَقَالَ المَحْسَنِ: كَانَ يَطْبِخُهُمْ فِي القُدُورِ، ثُمَّ يَرُدُّ إِيَّكَ رَبِّي. ﴿فَعَذَابُ عَذَابًا لَكْرًا﴾ بِالنَّارِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَزَاةً لَسْتَنِّي﴾ ﴿قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَابْنُ عَمْرٍو، وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ: «جَزَاءُ الحَسَنِ» بِرَفْعٍ مَضَافٍ. قَالَ الفَرَّاءُ: «الحسنى»: الجِئنةُ، وَأَضْيِفُ الجَزَاءِ إِلَيْهَا، وَهِيَ الجَزَاءُ، كقَوْلِهِ: ﴿رَبِّانِي لَعَنَ النَّبِيِّينَ﴾ ﴿٥٠﴾

(١) ذكر ابن جرير الطبري عن أبي الطفيل قال: سمعت علياً وسأله عن ذي القرنين: أنبيأ كان؟ قال: كان عبداً صالحاً.

[الحاقة: ٥١] و«وَيْثُ الْقَيْمَةِ» [البينة: ٥] «وَلَدَارُ الْآخِرَةِ» [النحل: ٣٠] قال أبو علي الفارسي: المعنى: فله جزاء الخلال الحسنی، لأن الإيمان والعمل الصالح خلال. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف، ويعقوب: «جزاء» بالنصب والتنوين؛ قال الزجاج: وهو مصدر منصوب على الحال، المعنى: فله الحسنی مُجْزِئاً بها جزاء. وقال ابن الأنباري: وقد يكون الجزاء غير الحسنی إذا تأوّل الجزاء بأنه الثواب؛ والحسنی: الحسننة المكتسبة في الدنيا، فيكون المعنى: فله ثواب ما قدّم من الحسنات.

قوله تعالى: ﴿وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرًا يَسْرًا﴾ أي: نقول له قولاً جميلاً.

﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَبِيًّا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا يَتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَبِيًّا ﴿٨٩﴾﴾ أي: طريقاً آخر يوصله إلى المشرق. قال قتادة: مضى يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلا من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسرابٍ عراء، ليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس إذا طلعت، فإذا توسطت السماء خرجوا من أسرابهم في طلب معاشهم مما أحرقت الشمس. وبلغنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنیان، فيقال: إنهم الزنج. قال الحسن: كانوا إذا غربت الشمس خرجوا يتراعون كما يتراعى الوحش. وقرأ الحسن، ومجاهد، وأبو مجلز، وأبو رجاء، وابن محيصن: «مَطْلِعُ الشَّمْسِ» بفتح اللام. قال ابن الأنباري: ولا خلاف بين أهل العربية في أن المَطْلِع، والمَطْلَع كلاهما يعني بهما المكان الذي تطلع منه الشمس. ويقولون: ما كان على فَعَلٍ يُفْعَل، فالمصدر واسم الموضع يأتيان على المَفْعَل، كقولهم: المَذْحَل، للدخول، والموضع الذي يُدْخَل منه، إلا أحد عشر حرفاً جاءت مكسورة إذا أريد بها المواضع، وهي: المَطْلَع، والمَسْكِن، والمَنْسِك، والمَشْرِق، والمَغْرِب، والمسْجِد، والمَنْبِت، والمَجْزِر، والمَفْرِق، والمَسْفِط، والمَهْبِل، الموضع الذي تضع فيه الناقة؛ وخمسة من هؤلاء الأحد عشر حرفاً سُمع فيهن الكسر والفتح: المَطْلَع، والمَطْلَع. والمَنْسِك، والمَنْسِك. والمَجْزِر، والمَجْزِر. والمَسْكِن، والمَسْكِن. والمَنْبِت، والمَنْبِت؛ فقرأ الحسن على الأصل من احتمال المَفْعَل الوجهين الموصوفين [بفتح العين وكسرها]، وقراءة العامة على اختيار العرب وما كثر على ألسنتها، وخصت المَوْضِع بالكسر، وآثرت المصدر بالفتح. قال أبو عمرو: المَطْلِع، بالكسر: الموضع الذي تطلع فيه؛ والمَطْلَع، بالفتح: الطَّلوع؛ قال ابن الأنباري: هذا هو الأصل، ثم إن العرب تسع فتجعل الاسم نائباً عن المصدر، فيقروون: «حَتَّىٰ مَطْلِعِ الْفَجْرِ» [القدر: ٥] بالكسر وهم يعنون الطَّلوع؛ ويقرأ من قرأ «مَطْلِعُ الشَّمْسِ» بالفتح على أنه موضع بمنزلة المدخل الذي هو اسم للموضع الذي يدخل منه.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها. والثاني: أتبع سبياً كما أتبع سبياً. والثالث: كما وجد أولئك عند مغرب الشمس وحكم فيهم، كذلك وجد هؤلاء عند مطلعها وحكم فيهم. والرابع: أن المعنى: كذلك أمرهم كما قصصنا عليك؛ ثم استأنف فقال: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ أي: بما عنده ومعه من الجيوش والعدد. وحكى أبو سليمان الدمشقي: «بما لديه» أي: بما عند مطلع الشمس. وقد سبق معنى الحُبْر [الكهف: ٦٨].

﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَبِيًّا ﴿٩١﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٢﴾ قَالُوا يَا نَدَّ الْقُرْبَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُّغْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَيْرًا عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٣﴾ قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَمْسِرُ بِنُورِ أَعْمَلٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٤﴾ مَا تَوْفِي رَبِّي لَلْمُؤْمِنِينَ إِذَا سَأَلُوا بَيْنَ السَّدَّيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ مَا تَوْفِي أُنْفُخِ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴿٩٥﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٦﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دُخَانًا وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَبِيًّا ﴿٨٩﴾﴾ أي: طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ» قال وهب بن منبه: هما جبلان منيفان في السماء، من ورائهما البحر، ومن أمامهما البلدان، وهما بمنقطع أرض الشرك مما يلي بلاد أرمينية. وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس قال: الجبلان من قِبَل أرمينية وأذربيجان. واختلفت القراءة في «السدين»

فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم بفتح السين. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وحمزة، والكسائي بضمها. وهل المعنى واحد، أم لا؟ فيه قولان: أحدها: أنه واحد. قال ابن الأعرابي: كل ما قابلك فسد ما وراءه، فهو سدٌّ، وسدٌّ نحو: الضَّعْف، والضَّعْف، والفَقْر والفَقْر. قال الكسائي، وثعلب: السدُّ والسدُّ لغتان بمعنى واحد، وهذا مذهب الزجاج. والثاني: أنهما يختلفان. وفي الفرق بينهما قولان: أحدهما: أن ما هو من فعل الله تعالى فهو مضموم، وما هو من فعل الآدميين فهو مفتوح، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو عبيدة. قال الفراء: وعلى هذا رأيت المشيخة وأهل العلم من النحويين. والثاني: أن السدَّ، بفتح السين: الحاجز بين الشيتين، والسدُّ، بضمها: الغشاوة في العين، قاله أبو عمرو بن العلاء.

قوله تعالى: ﴿وَيَدَّ يَدًا دُونَهَا﴾ يعني: أمام السدين ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «يَفْقَهُونَ قَوْلًا» بفتح الياء، أي: لا يكادون يفهمونه. قال ابن الأنباري: قال اللغويون: معناه أنهم يفهمون بعد إبطاء، وهو كقوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]. قال المفسرون: وإنما كانوا كذلك لأنهم لا يعرفون غير لغتهم. وقرأ حمزة، والكسائي: «يَفْقَهُونَ» بضم الياء، أراد: يُفْهِمُونَ غيرهم. وقيل: كلَّم ذا القرنين عنهم مترجمون ترجموا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَأْجُجَ وَيَأْجُجَ﴾ هما: اسمان أعجميان، وقد همزهما عاصم. قال الليث: الهمز لغة رديئة. قال ابن عباس: يأجوج رجل، ومأجوج رجل، وهما ابنا يافث بن نوح ﷺ، فأجوج ومأجوج عشرة أجزاء، وولد آدم كلهم جزء، وهم شبر وشبران وثلاثة أشبار. وقال عليّ ﷺ: منهم من طوله شبر، ومنهم من هو مُفْرَط في الطول، ولهم من الشعر ما يواريه من الحرِّ والبرِّد. وقال الضحاك: هم جبل من الثُّرك. وقال السدي: الثُّرك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت تُغِير، فجاء ذو القرنين فضرب السدَّ، فبقيت خارجه. وروى شقيق عن حذيفة، قال: سألت رسول الله ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال: «يأجوج أمة، ومأجوج أمة، كل أمة أربعمائة [ألف] أمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر بين يديه من ضلِّبه كلُّ قد حمل السلاح؛ قلت: يا رسول الله، صِفْهُم لنا، قال: «هم ثلاثة أصناف، صنف منهم أمثال الأرز؛ قلت: يا رسول الله: وما الأرز؟ قال: شجر بالشام، طول الشجرة عشرون ومائة ذراع في السماء؛ وصنف منهم عرضه وطوله سواء، عشرون ومائة ذراع، وهؤلاء الذين لا يقوم لهم جبل ولا حديد، وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه، ويلتحف بالأخرى ولا يمزون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدّمهم بالشام، وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية»^(١).

قوله تعالى: ﴿مَنْيُوتُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ في هذا الفساد أربعة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يفعلون فعل قوم لوط، قاله وهب بن منبّه. والثاني: أنهم كانوا يأكلون الناس، قاله سعيد بن عبد العزيز. والثالث: يُخْرِجون إلى الأرض الذين سُكِّتُوا منهم أيام الربيع، فلا يدعون شيئاً أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه إلى أرضهم، قاله ابن السائب. والرابع: كانوا يقتلون الناس، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ جَعَلَ لَكَ خَرَجًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «خَرَجًا» بغير ألف. وقرأ حمزة، والكسائي: «خراجاً» بألف. وهل بينهما فرق؟ فيه قولان: أحدهما: أنهما لغتان بمعنى واحد، قاله أبو عبيدة، والليث. والثاني: أن الخَرَجَ: ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أداؤه، قاله أبو عمرو بن العلاء. قال المفسرون: المعنى: هل نُخرج إليك من أموالنا شيئاً كالجعل لك؟

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَكِّيٌّ﴾ وقرأ ابن كثير: «مَكَّنِّي» بنونين، وكذلك هي في مصاحف مكة. قال الزجاج: من قرأ: «مَكَّنِّي» بالتشديد، أدم النون في النون لاجتماع النونين. ومن قرأ: «مَكَّنِّي» أظهر النونين، لأنهما من كلمتين،

(١) أورده السيوطي في «الدرر» ٤/ ٢٥٠ من رواية ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عدي، وابن عساکر، وابن النجار عن حذيفة ﷺ.

الأولى من الفعل، والثانية تدخل مع الاسم المضمر. وفي الذي أراد بتمكينه منه قولان: أحدهما: أنه العَلْمُ بالله؛ وطلب ثوابه. والثاني: ما ملك من الدنيا. والمعنى: الذي أعطاني الله خيراً مما تبذلون لي.

قوله تعالى: ﴿فَأَيْسُرُوقِي سُبُورِي﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الرجال، قاله مجاهد، ومقاتل. والثاني: الآلة، قاله ابن السائب. فأما الرُّذْمُ، فهو: الحاجز؛ قال الزجاج: والرُّذْمُ في اللغة أكبر من السدِّ، لأن الرُّذْمَ: ما جُعِلَ بعضه على بعض، يقال: ثوب مُرْدَمٌ: إذا كان قد رَفَعَ رقعة فوق رقعة.

قوله تعالى: ﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قرأ الجمهور: «ردماً أتوني» أي: أعطوني. وروى أبو بكر عن عاصم: «ردم إيتوني» بكسر التنوين، أي: جيئوني بها. قال ابن عباس: أحملوها إليّ. وقال مقاتل: أعطوني. وقال الفراء: المعنى: إيتوني بها، فلما أُلقيت الياء زيدت ألف. فأما الزُّبُرُ، فهي: القِطْعُ، واحدها: زُبْرَةٌ؛ والمعنى: فاتَّوَه بها فبناه، ﴿حَقٌّ إِذَا سَأَلْتَهُ﴾ وروى أبان «إذا سَوَى» بتشديد الواو من غير ألف. قال الفراء: ساوى وسَوَى سواء. واختلف القراء في ﴿الصَّدْفَيْنِ﴾ فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «الصَّدْفَيْنِ» بضم الصاد والذال، وهي: لغة جَمِيْرٌ. وروى أبو بكر والمفضل عن عاصم: «الصَّدْفَيْنِ» بضم الصاد وتسكين الذال. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف، بفتح الصاد والذال جميعاً، وهي لغة تميم، واختارها ثعلب. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء؛ وابن يعمر: «الصَّدْفَيْنِ» بفتح الصاد ورفع الذال. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو عمران، والزهري، والجحدري برفع الصاد وفتح الذال. قال ابن الأنباري: ويقال: صُدْفٌ، على مثال نُحْرٌ، وكل هذه لغات في الكلمة. قال أبو عبيدة: الصَّدْفَانُ: جُنْبَا الجبل. قال الأزهري: يقال لجانبى الجبل: صَدْفَانٌ، إذا تحاذيا، لتصادفهما، أي: لتتلاقهما. قال المفسرون: حشا ما بين الجبلين بالحديد، ونسج بين طبقات الحديد الحطب والفحم، ووضع عليها المنافخ، ثم ﴿فَالِ أَنْفُخُوا﴾ فنفخوا ﴿حَقٌّ إِذَا جَلَلَهُ﴾ يعني: الحديد، وقيل: الهاء ترجع إلى ما بين الصدفين ﴿نَارًا﴾ أي: كالنار، لأن الحديد إذا أحمي بالفحم والمنافخ صار كالنار، ﴿فَالِ مَا تَوَقَّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «أتوني» ممدودة، والمعنى: أعطوني. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: «إيتوني» مقصورة؛ والمعنى: جيئوني به أفرغه عليه. وفي القِطْرُ أربعة أقوال: أحدها: أنه النحاس، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقادة، والفراء، والزجاج. والثاني: أنه الحديد الذائب، قاله أبو عبيدة. والثالث: الصُّفْرُ المُذَابِ، قاله مقاتل. والرابع: الرصاص، حكاه ابن الأنباري. قال المفسرون: أذاب القِطْرُ ثم صبَّه عليه، فاختلف والتصق بعضه ببعض حتى صار جبلاً صلباً من حديد وقِطْرٍ. قال قتادة: فهو كالبرد المحبر، طريقة سوداء وطريقة حمراء.

قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ أصله: فما «استطاعوا» فلما كانت التاء والطاء من مخرج واحد أحيوا التخفيف فحذفوا. قال ابن الأنباري: إنما تقول العرب: استطاع، تخفيفاً، كما قالوا: سوف يقوم، وسيقوم، فاستقوا الفاء.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوه؛ يقال: ظهر فلان فوق البيت: إذا علاه، والمعنى: ما قدروا أن يعلوه لارتفاعه وإملاسه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُمْ نَبَأٌ﴾ من أسفله، لشدته وصلابته. وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرن السدَّ كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا، فستحفرونه غداً، فيعودون إليه، فيرونه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله ﷻ أن يبعثهم على الناس، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا، فستحفرونه غداً إن شاء الله، ويستثنى، فيعودون إليه وهو كهيبته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس» وذكر باقي الحديث^(١)؛ وقد ذكرت هذا الحديث بطوله وأشباهه في كتاب «الحدائق» فكرهت التطويل هاهنا.

(١) رواه الإمام أحمد في «سننه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، وتتمه الحديث: «فيشرفون الماء، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهية الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغماً (دود يكون في أنوف الإبل والغنم) في رقايمهم فيقتلهم بها، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرأ من لحومهم ودمائهم»، ورواه الترمذي في «جامعه» ١٤٤/٢ وقال: هذا حديث حسن غريب، وإنما نعرفه من هذا الوجه مثل هذا، ورواه ابن ماجه في «سننه» رقم (٤٠٨٠) قال في =

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا نِعْمَةٌ مِن رَّبِّي﴾ لَمَّا فرغ ذو القرنين من بنيانه قال هذا. وفيما أشار إليه قولان: أحدهما: أنه الرُّدْم، قاله مقاتل؛ قال: فالمعنى: هذا نِعْمَةٌ من رَّبِّي على المسلمين لثلا يخرجوا إليهم. والثاني: أنه التمكين الذي أدرك به عمل السد، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي﴾ فيه قولان: أحدهما: القيامة. والثاني: وعده لخروج يأجوج ومأجوج.

قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «دَكَّاءً» متوناً غير مهموز ولا ممدود. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «دكَّاء» ممدودة مهموزة بلا تنوين. وقد شرحنا معنى الكلمة في [الأعراف: ١٤٣].
قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: بالثواب والعقاب.

﴿وَرَزَّكْنَا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ يَوْمَئِذٍ فِي يَوْمٍ نَّبْتَلِيهِمْ فِي شُؤْرِهِمْ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿١٥٣﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَلَاظِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَزَّكْنَا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ يَوْمَئِذٍ فِي يَوْمٍ﴾ في المشار إليهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم يأجوج ومأجوج. ثم في المراد بـ«يومئذ» قولان. أحدهما: أنه يوم انقضى أمر السد، تركوا يموج بعضهم في بعض من ورائه مختلطين لكثرتهم؛ وقيل: ماجوا متعجبين من السد. والثاني: أنه يوم يخرجون من السد تركوا يموج بعضهم في بعض. والثاني: أنهم الكفار. والثالث: أنهم جمع الخلائق: الجن والإنس يموجون حيارى. فعلى هذين القولين، المراد باليوم المذكور يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الشُّؤْرِ﴾ هذه نفخة البعث. وقد شرحنا معنى «الشُّور» في [الأنعام: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي: أظهرناها لهم حتى شاهدوها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ يعني: أعين قلوبهم ﴿فِي غَلَاظِهِمْ﴾ أي: في غفلة ﴿عَن ذِكْرِي﴾ أي: عن توحيدى والإيمان بي وكتابي ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ هذا لعداوتهم وعنادهم وكراحتهم ما يُنذرون به، كما تقول لمن يكره قولك: ما تقدر أن تسمع كلامي.

﴿أَنصَبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِ آلِهَاتٍ إِنَّا أَنفَعْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾

قوله تعالى: ﴿أَنصَبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أفضَّلُ المشركون ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ في هؤلاء العباد ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الشياطين، قاله ابن عباس. والثاني: الأصنام، قاله مقاتل. والثالث: الملائكة والمسيح وعزير وسائر المعبودات من دونه، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿بِئْسَ دُونٌ﴾ فتح هذه الباء نافع، وأبو عمرو. وجواب الاستفهام في هذه الآية محذوف، وفي تقديره قولان: أحدهما: أنفسبوا أن يتخذوهم أولياء، كلا بل هم أعداء لهم يتبرؤون منهم. والثاني: أن يتخذوهم أولياء ولا أغضب ولا أعاقبهم. وروى أبان عن عاصم، وزيد عن يعقوب: «أَفْحَسْبُ» بتسكين السين وضم الباء، وهي قراءة علي عليه السلام، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وابن يعمر، وابن محيصن؛ ومعناها: أفيكفيهم أن يتخذوهم أولياء؟ فاما التزلُّ ففيه قولان: أحدهما: أنه ما يُهَيِّأُ للضيف والعسكر، قاله ابن قتبية. والثاني: أنه المنزل، قاله الزجاج.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الَّذِينَ سَدَّ سَمْعِهِمْ فِي لِقَاؤِ الذَّنْبِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ أَنفُسَهُمْ مِنَ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكِيدُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ فِيهِمْ قَوْلَانِ: أحدهما: أنهم القسيسون والرهبان، قاله علي عليه السلام، والضحاك. والثاني: اليهود والنصارى، قاله سعد بن أبي وقاص.

[الزوائد]: عنه: إسناده صحيح، ورجاله ثقات. وروى البخاري ومسلم في (صحيحهما) عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فرمأ يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها، فقالت زينب: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبيث». وانظر (صحيح مسلم) ٢٢٥٤/٤ وما ذكر فيه من فتنة يأجوج ومأجوج.

قوله تعالى: ﴿أَعْمَلًا﴾ منصوب على التمييز، لأنه لما قال: «بالأخسرين» كان ذلك مبهماً لا يدل على ما خسروه، فيبين ذلك في أي نوع وقع.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ سَكَتَ سَعْيُهُمْ﴾ أي: بطل عملهم واجتهادهم في الدنيا، وهم يظنون أنهم محسنون بأفعالهم، فرؤساؤهم يعلمون الصحيح، ويؤثرون الباطل لبقاء رئاستهم، وأتباعهم مقلدون بغير دليل. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ رَبَّهُمْ﴾ جحدوا دلائل توحيده، وكفروا بالبعث والجزاء، وذلك أنهم بكفروهم برسول الله ﷺ والقرآن، صاروا كافرين بهذه الأشياء ﴿خَطَبْتُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: بطل اجتهدهم، لأنه خلا عن الإيمان ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ وقرأ ابن مسعود، والجحدري: «فلا يُقيم» بالياء. وفي معناه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إنما يثقل الميزان بالطاعة، وإنما توزن الحسنات والسيئات، والكافر لا طاعة له. والثاني: أن المعنى: لا تُقيم لهم قُدراً. قال ابن الأعرابي في تفسير هذه الآية: يقال: ما لفلان عندنا وزن، أي: قُدْر، لخسسته. فالمعنى: أنهم لا يُعتدُّ بهم، ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة. وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل الطويل الأكل والشروب فلا يزن جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾»^(١). والثالث: أنه قال: «فلا تقيم لهم» لأن الوزن عليهم لا لهم؛ ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ﴾ أي: الأمر ذلك الذي ذكرت من بطلان عملهم وخسرة قدرهم، ثم ابتداء فقال: ﴿جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ﴾، وقيل: المعنى: ذلك التصغير لهم، وجزاؤهم جهنم، فأضمرت واو الحال.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: بكفروهم واتخاذهم ﴿مَائِنًا﴾ التي أنزلتها ﴿وَرَسُولِي هُزْأًا﴾ أي: مهزوءاً به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٣١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَغْوُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ قال ابن الأنباري: كانت لهم في علم الله قبل أن يخلقوا. وروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «جَنَاتُ الْفِرْدَوْسِ أَرْبَعٌ، ثِنْتَانِ مِنْ ذَهَبٍ حَلِيَّتُهُمَا وَأَبْيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَثِنْتَانِ مِنْ فِضَّةٍ حَلِيَّتُهُمَا وَأَبْيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَلَيْسَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِءَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»^(٢). وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، الفردوس أعلاها، ومنها تفجر أنهار الجنة، فإذا سألتهم الله تعالى فاسألوه الفردوس»^(٣). قال أبو أمامة: الفردوس سرّة الجنة. قال مجاهد: الفردوس: البستان بالرومية. وقال كعب، والضحاك: «جَنَاتُ الْفِرْدَوْسِ»: جَنَاتُ الْأَعْنَابِ. قال الكلبي، والفراء: الفردوس: البستان الذي فيه الكرم. وقال المبرد: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب: الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب. وقال ثعلب: كل بستان يحوِّط عليه فهو فردوس، قال عبد الله بن رواحة:

في جنات الفردوس ليس يخافو

ن خسروها ولا تحويلا

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: قال الزجاج: الفردوس أصله رومي أعرب، وهو البستان، كذلك جاء في التفسير، وقد قيل: الفردوس تعرفه العرب، وتسمى الموضع الذي فيه كرم: فردوساً. وقال أهل اللغة: الفردوس

(١) ذكره الحافظ في «الفتح» ٣٢٤/٨ من رواية ابن مردويه عن أبي هريرة ﷺ بلفظ «الطويل العظيم الأكل والشروب». وأورده السيوطي في «الدرر» ٤/ ٢٥٤ من رواية ابن عدي، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليُؤتى يوم القيامة بالطويل العظيم الأكل والشروب، فلا يزن عند الله تبارك وتعالى جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾». ورواه البخاري ٣٤٢/٨، ومسلم ٢١٤٧/٤ عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾».

(٢) لفظه في البخاري ٤٧٩/٨، ومسلم ١٦٣/١ من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «جَنَاتُ الْفِرْدَوْسِ أَرْبَعٌ، ثِنْتَانِ مِنْ ذَهَبٍ... الخ»^(١)، و«جَنَاتُ الْفِرْدَوْسِ» ما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رءاء الكبر على وجهه في جنة عدن». قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وفي رواية الحارث بن عبيد عن أبي عمران الجوني في أول هذا الحديث: «جَنَاتُ الْفِرْدَوْسِ أَرْبَعٌ، ثِنْتَانِ مِنْ ذَهَبٍ... الخ».

(٣) أخرجه أحمد في «المسنند»، والترمذي ٧٦/٢، وأورده السيوطي في «الدرر» وزاد نسبتها لابن أبي شيبعة، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم، والبيهقي في «البعث»، وابن مردويه. ورواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة بلفظ: «إذا سألتهم الله الجنة، فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة».

مذَّكَّر، وإنما أنت في قوله تعالى: ﴿يَرْفُؤْنَ آلَهُمْ فِيهَا يَخِلُّوْنَ﴾ [المؤمنون: ١١] لأنه عنى به الجنة. وقال الزجاج: وقيل: الفردوس: الأودية التي تنبت ضرورياً من النبات، وقيل: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، قال: والفردوس أيضاً بالسريانية كذا لفظه: فردوس، قال: ولم نجد في أشعار العرب إلا في شعر حسان، وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين، لأنه عند أهل كل لغة كذلك، وبيت حسان:

فَإِنَّ نَوَابِ اللُّهُ كُلَّ مُوَحَّدٍ
جِنَانٌ مِنَ الْفِرْدَوْسِ فِيهَا يُخَلَّدُ^(١)

وقال ابن الكلبي بإسناده: الفردوس: البستان بلغة الروم، وقال الفراء: وهو عربي أيضاً، والعرب تسمي البستان الذي فيه الكرم فردوساً. وقال السدي: الفردوس أصله بالنبطية «فرداسا». وقال عبد الله بن الحارث: الفردوس: الأعتاب. وقد شرحنا معنى قوله: ﴿نُزُلًا﴾ آنفاً^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَا يَخْتَوْنَ عَنْهَا جِوَلًا﴾ قال الزجاج: لا يريدون عنها تحوُّلاً، يقال: قد حال من مكانه جِوَلًا، كما قالوا في المصادر: صَغَّرَ صَغْرًا، وَعَظَّمَ عِظْمًا، وعادني حُبُّها عِوْدًا؛ قال: وقد قيل أيضاً: إن الجِوَل: الحيلة، فيكون المعنى: لا يحتالون مُنْزِلًا غيرها. فإن قيل: قد علم أن الجنة كثيرة الخير، فما وجه مدحها بأنهم لا يبتغون عنها جِوَلًا؟ فالجواب: أن الإنسان قد يجد في الدار الأنيقة معنى لا يوافق، فيحب أن ينتقل إلى دار أخرى، وقد يمل، والجنة على خلاف ذلك.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْلًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِرَيْلِهِ مِثْلًا﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْلًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ سبب نزولها أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْوَالِدِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] قالت اليهود: كيف وقد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء؟ فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. ومعنى الآية: لو كان ماء البحر مداداً يُكْتَبُ به. قال مجاهد: [والمعنى]: لو كان البحر مداداً للقلم، والقلم يكتب. وقال ابن الأنباري: سمي المداد مداداً لإمداده الكاتب، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء. وقرأ الحسن، والأعمش: «مداداً لكلمات ربي» بغير ألف.

قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾، قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: «تنفد» بالياء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: «ينفد» بالياء. قال أبو علي: التانيث أحسن، لأن المُسْتَدَّ إليه الفعلُ مؤنث، والتذكير حسن، لأن التانيث ليس بحقيقي، وإنما لم تنفد كلمات الله، لأن كلامه صفة من صفات ذاته، ولا يتطرق على صفاته النفاذ، ﴿وَلَوْ جِثَا بِرَيْلِهِ﴾ أي: بمثل البحر «مِثْلًا» أي: زيادة؛ والمدد: كل شيء زاد في شيء. فإن قيل: لم قال في أول الآية: «مداداً» وفي آخرها: «مداداً» وكلاهما بمعنى واحد، واشتقاقهما غير مختلف؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال: لما كان الثاني آخر آية، وأواخر الآيات هاهنا أنت على الفعل، والفعل، كقوله: ﴿نُزُلًا﴾ «هُزُؤًا» «جِوَلًا» كان قوله: «مِثْلًا» أشبه بهؤلاء الألفاظ من المداد، واتفق المقاطع عند أواخر الآي، وانقضاء الأبيات، وتام السجع والشتر، أخف على الألسن، وأحلى موقعاً في الأسماع، فاختلفت اللفظتان لهذه [العلة]. وقد قرأ ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبو رجاء، وقتادة، وابن محيصن: «ولو جثنا بمثله مداداً» فحملوها على الأولى، ولم ينظروا إلى المقاطع. وقرأه الأولين آيين حُجَّة، وأوضح منهاجاً.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ قال ابن عباس: علم الله تعالى رسوله التواضع لثلاث يزهى على خلقه، فأمره أن يُقَرَّ على نفسه بأنه آدمي كغيره، إلا أنه أكرم بالوحي.

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ سبب نزولها أن جندب بن زهير الغامدي^(٣) قال لرسول الله ﷺ: إني أعمل

(١) «ديوانه» ١٥٠، و«البحر» ١٦٨/٦، و«روح المعاني» ٤٧/١٦، و«اللسان» و«التاج»: فردس.

(٢) قد مر تفسيره.

(٣) في الأصل و«الطبري»: «العامري» وما أبتناه من «الإصابة»، و«أسباب النزول» للواحدي، وكتب التفسير.

العمل [لله تعالى] فإذا أُطِّع عليه سرّني، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، ولا يقبل ما روئي فيه» فنزلت فيه هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). وقال طاووس: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحب الجهاد [في سبيل الله] وأحب أن يرى مكاني، فنزلت هذه الآية^(٢). وقال مجاهد: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني أتصدق، وأصل الرحم، ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى، فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرّني ذلك وأعجب به، فسكت رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية^(٣). وفي قوله: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا» قولان: أحدهما: يخاف، قاله ابن قتيبة. والثاني: يأمل، وهو اختيار الزجاج. وقال ابن الأنباري: المعنى: فمن كان يرجو لقاء ثواب ربه. قال المفسرون: وذلك يوم البعث والجزاء. «فَلْيَمْلِكْ عَمَلًا صَالِحًا» لا يرائي به «وَلَا يَنْفِرْكَ بِيَدَا رَبِّهِ أَهْدًا» قال سعيد بن جبیر: لا يرائي. قال معاوية بن أبي سفيان: هذه آخر آية نزلت من القرآن^(٤).



(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن ابن عباس ١٧٢ بدون سند.

(٢) وكذلك ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٧٢ عن طاووس بدون سند. وقد ذكره الطبري في «تفسيره» ٤٠/١٦ من حديث معمر عن عبد الكريم الجزري عن طاووس مرسلًا، وذكره ابن كثير في «التفسير» ١٠٨/٣ من رواية ابن حاتم عن طاووس مرسلًا بنحوه، وأورده السيوطي في «الدر» ٤/٢٥٥ كذلك عن طاووس مرسلًا، وزاد نسبه لعبد الرزاق، وابن أبي الدنيا في «الإخلاص»، والطبراني، والحاكم. وقال السيوطي في آخره: وأخرجه الحاكم وصححه، والبيهقي، موصولاً عن طاووس عن ابن عباس.

(٣) الواحدي ١٧٢ عن مجاهد بدون سند.

(٤) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ١١٠/٣: وهذا أثر مشكّل، فإن هذه الآية، آخر سورة (الكهف) و(الكهف) كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم.

سورة مريم

وهي مكية بإجماعهم من غير خلاف علمناه. وقال مقاتل: هي مكية غير سجدتها، فإنها مدنية. وقال هبة الله المفسر: هي مكية غير آيتين منها، قوله: ﴿فَطَلَّ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفٌ﴾ والتي تليها [مريم: ٥٩، ٦٠].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيْصَ ۝ ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكَرِيَّا ۝ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاهُ خَوْفًا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِكَ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرَبُّنِي وَيَرْبُّ مِنْ أَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿كَهَيْصَ ۝﴾ قرأ ابن كثير: «كهيعص ذُكِرَ» بفتح الهاء والياء وتبيين الدال التي في هجاء «صاد». وقرأ أبو عمرو: «كهيعص» بكسر الهاء وفتح الياء ويدغم الدال في الدال، وكان نافع يلفظ بالهاء والياء بين الكسر والفتح، ولا يدغم الدال التي في هجاء «صاد» في الدال من «ذُكِرَ». وقرأ أبو بكر عن عاصم، والكسائي، بكسر الهاء والياء، إلا أن الكسائي لا يبين الدال، وعاصم يبينها. وقرأ ابن عامر، وحزمة، بفتح الهاء وكسر الياء ويدغمان. وقرأ أبي بن كعب: «كهيعص» برفع الهاء وفتح الياء. وقد ذكرنا في أول «البقرة» ما يشتمل على بيان هذا الجنس. وقد خص المفسرون هذه الحروف المذكورة هاهنا بأربعة أقوال: أحدها: أنها حروف من أسماء الله تعالى، قاله الأكثرون. ثم اختلف هؤلاء في الكاف من أي اسم هو، على أربعة أقوال: أحدها: أنه من اسم الله الكبير. والثاني: من الكريم. والثالث: من الكافي، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والرابع: أنه من الملك، قاله محمد بن كعب. فأما الهاء، فكلهم قالوا: هي من اسمه الهادي إلا القرظي فإنه قال: من اسمه الله. وأما الياء، ففيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها من حكيم. والثاني: من رحيم. والثالث: من أمين، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. فأما العين، ففيها أربعة أقوال: أحدها: أنها من عليم. والثاني: من عالم. والثالث: من عزيز، رواها أيضاً سعيد [بن جبيرة] عن ابن عباس. والرابع: أنها من عدل، قاله الضحاك. وأما الصاد، ففيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها من صادق. والثاني من صدوق، رواهما سعيد [بن جبيرة] أيضاً عن ابن عباس. والثالث: من الصمد، قاله محمد بن كعب. والقول الثاني: أن «كهيعص» قَسَمَ أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وروي عن علي عليه السلام أنه قال: هو اسم من أسماء الله تعالى. وروي عنه أنه كان يقول: [يا] كهيعص اغفر لي. قال الزجاج: والقَسَمَ بهذا والدعاء لا يدل على أنه اسم واحد، لأن الداعي إذا علم أن الدعاء بهذه الحروف يدل على صفات الله فدعا بها، فكأنه قال: يا كافي، يا هادي، يا عالم، يا صادق، وإذا أقسم بها، فكأنه قال: والكافي الهادي العالم الصادق، وأسكنت هذه الحروف لأنها حروف تهج، النية فيها الوقف. والثالث: أنه اسم للسورة، قاله الحسن، ومجاهد. والرابع: اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة. فإن قيل: لم قالوا: هايا، ولم يقولوا في الكاف: كا، وفي العين: عا، وفي الصاد: صا، لتتفق المباني كما اتفقت العلل؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري، فقال: حروف المعجم التسعة والعشرون تجري مجرى الرسالة والخطبة، فيستقبحون فيها اتفاق الألفاظ واستواء الأوزان، كما يستقبحون ذلك في خطبهم ورسائلهم، فيغيرون بعض الكلم ليختلف الوزن وتتغير المباني، فيكون ذلك أعذب على الألسن وأحلى في الأسماع.

قوله تعالى: ﴿ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ قال الزجاج: الذُكُر مرفوع بالمضمر، المعنى: هذا الذي نلتو عليك ذُكُر رحمة ربك عبده. قال الفراء: وفي الكلام تقديم وتأخير؛ المعنى: ذُكِرَ ربك عبده بالرحمة، و«زكريا» في موضع نصب. قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ النداء هاهنا بمعنى الدعاء. وفي علة إخفائه لذلك ثلاثة أقوال: أحدها: ليبعد عن

الرياء، قاله ابن جريج. والثاني: لثلا يقول الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكبر، قاله مقاتل. والثالث: لثلا يعاديه بنو عمه، ويظنون أنه كره أن يلوا مكانه بعده، ذكره أبو سليمان الدمشقي. وهذه القصة تدل على أن المستحب إسرار الدعاء، ومنه الحديث: «إنكم لا تدعون أصم»^(١).

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي» وقرأ معاذ القارئ، والضحاك: «وَهْنٌ بضم الهاء، أي: ضَعْفٌ. قال الفراء وغيره: وَهْنُ العظم، وَهْنٌ، بفتح الهاء وكسرهما؛ والمستقبل على الحالين كليهما: يَهِنُ. وأراد أن قُوَّةَ عظامه قد ذهبت لِكَبَرِهِ؛ وإنما خصَّ العظم، لأنه الأصل في التركيب. وقال قتادة: شكا ذهاب أضراسه.

قوله تعالى: «وَأَسْتَعَلَّ الرَّأْسُ شَيْبًا» يعني: انتشر الشيب فيه، كما ينتشر شعاع النار في الحطب، وهذا من أحسن الاستعارات. «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ» أي: بدعائي إياك «رَبِّ شَيْبًا» أي: لم أكن أتعب بالدعاء ثم أخيب، لأنك قد عودتني الإجابة؛ يقال: شقي فلان بكذا: إذا تعب بسببه، ولم ينل مراده.

قوله تعالى: «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ» يعني: الذين يلونه في النسب، وهم بنو العم والعصبة «بَيْنَ وَرَأْيِ» أي: من بعد موتي، وفي ما خافهم عليه قولان: أحدهما: أنه خاف أن يرثوه، قاله ابن عباس. فإن اعترض عليه معترض، فقال: كيف يجوز لني أن يَنْفَسَ على قراباته بالحقوق المفروضة لهم بعد موته؟ فعنه جوابان. أحدهما: أنه لما كان نبياً، والني لا يرث، خاف أن يرثوا ماله فيأخذوا ما لا يجوز لهم. والثاني: أنه غلب عليه طبع النشر، فأحب أن يتولَّى ماله ولده، وذكرهما ابن الأنباري. قلت: وبيان هذا أنه لا بد أن يتولَّى ماله وإن لم يكن ميراثاً، فأحب أن يتولاه ولده. والقول الثاني: أنه خاف تضييعهم للدين ونبذهم إياه، ذكره جماعة من المفسرين. وقرأ عثمان، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، وابن جبير، ومجاهد، وابن أبي شريح عن الكسائي: «خَفَّتْ» بفتح الخاء وتشديد الفاء على معنى «قَلَّتْ»؛ فعلى هذا يكون إنما خاف على علمه ونبوته ألا يورثا فيموت العلم. وأسكن ابن شهاب الزهري ياء «الموالي».

قوله تعالى: «بَيْنَ وَرَأْيِ» أسكن الجمهور هذه الياء، وفتحها ابن كثير في رواية قنبل. وروى عنه شبيل: «ورائي» مثل «عصاي».

قوله تعالى: «فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ» أي: من عندك «وَلِيًّا» أي: ولداً صالحاً يتولاني.

قوله تعالى: «يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنِّي» قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة: «يَرِثُنِي وَيَرِثُ» برفعهما. وقرأ أبو عمرو، والكسائي: «يَرِثُنِي وَيَرِثُ» بالجزم فيهما. قال أبو عبيدة: من قرأ بالرفع، فهو على الصفة للولي؛ فالمعنى: هب لي ولياً وارثاً، ومن جزم، فعلى الشرط والجزاء، كقولك: إن وهبته لي ورثني. وفي المراد بهذا الميراث أربعة أقوال: أحدها: يرثني مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال أبو صالح. والثاني: يرثني العلم، ويرث من آل يعقوب المُلْكُ، فأجابه الله تعالى إلى وراثة العلم دون المُلْكِ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً. والثالث: يرثني نبوتي وعلمي، ويرث من آل يعقوب النبوة أيضاً، قاله الحسن. والرابع: يرثني النبوة، ويرث من آل يعقوب الأخلاق، قاله عطاء. قال مجاهد: كان زكريا من ذرية يعقوب، وزعم الكلبي أن آل يعقوب كانوا أخواله، وأنه ليس بيعقوب أبي يوسف. وقال مقاتل: هو يعقوب بن ماثان، وكان يعقوب هذا وعمران - أبو مريم - أخوين. والصحيح: أنه لم يرد ميراث المال لوجوه: أحدها: أنه قد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»^(٢). والثاني: [أنه] لا يجوز أن يتأسف نبي الله على مصير ماله بعد موته إذا

(١) هو جزء من حديث رواه البخاري في «صحيحه» ٩٤/٦، ومسلم ٢٠٧٦/٤ عن أبي موسى الأشعري ﷺ مرفوعاً، ولفظه في البخاري: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنه معكم، إنه سمع قريب». ومعنى «اربعوا على أنفسكم»: ارفقوا بأنفسكم، واخفصوا أصواتكم، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه لسمعه، وأنتم تدعون الله تعالى، وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سمع قريب.

(٢) رواه البخاري ٤/١٢، ومسلم ١٣٧٩/٣ بلفظ: «لا نورث ما تركناه صدقة». ورواه الترمذي باللفظ الذي ذكره المؤلف: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وصل إلى وارثه المستحق له شرعاً. والثالث: أنه لم يكن ذا مال. وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ «أن زكريا كان نجاراً»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَجْمَلَهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ قال اللغويون: أي: مرضياً، فُضِّفَ عن مفعول إلى فَعِيل، كما قالوا: مقتول وقتيل.

﴿يَزْكُرِيْنَا إِنَّا نَبِّئُكَ بِفَلْيُرَ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ تَكُ شَيْئًا ٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْسَالِ سَوِيًّا ١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١﴾

قوله تعالى: ﴿يَزْكُرِيْنَا إِنَّا نَبِّئُكَ﴾ في الكلام إضمار، تقديره: فاستجاب الله له فقال: «يا زكريا إنا نبشرك». وقرأ حمزة: «نَبِّشْرُك» بالتخفيف. وقد شرحنا هذا في (آل عمران: ٢٣٩).

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لم يُسَمَّ يحيى قبله، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وقتادة، وابن زيد، والأكثر. فإن اعترض معترض، فقال: ما وجه المِدْحَة باسم لم يُسَمَّ به أحد قبله، ونرى كثيراً من الأسماء لم يُسَبَّحْ إليها؟ فالجواب: أن وجه الفضيلة أن الله تعالى تولَّى تسميته، ولم يكلِّ ذلك إلى أبويه، فسماه باسم لم يُسَبَّحْ إليه. والثاني: لم تلد العواقر مثله ولدًا، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. فعلى هذا يكون المعنى: لم نجعل له نظيراً. والثالث: لم نجعل له من قبل مثلاً وشبهًا، قاله مجاهد. فعلى هذا يكون عدم الشَّبه من حيث أنه لم يعص ولم يهَمْ بمعصية. وما بعد هذا مفسر في (آل عمران: ٢٣٩) إلى قوله: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾. وفي معنى «كانت» قولان: أحدهما: أنه توكيد للكلام، فالمعنى: وهي عاقرة، كقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ (آل عمران: ١١٠) أي: أنتم. والثاني: أنها كانت منذ كانت عاقراً، لم يحدث ذلك بها، ذكرهما ابن الأنباري، واختار الأول.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «عَتِيًّا» و«بُكِيًّا» [مریم: ٥٨] و«صَلِيًّا» [مریم: ٧٠] بضم أوائلها. وقرأ حمزة، والكسائي، بكسر أوائلها، وافقهما حفص عن عاصم، إلا في قوله: «بُكِيًّا» فإنه ضم أوله. وقرأ ابن عباس، ومجاهد: «عُتِيًّا» بالسین. قال مجاهد: «عَتِيًّا» هو فُحُولُ الْعَظْم. وقال ابن قتيبة: أي: يُسَأ؛ يقال: عَتَا وَعَسَا بمعنى واحد. قال الزجاج: كل شيء انتهى، فقد عَتَا يَعْتُو عَتِيًّا، وَعَتُوًّا، وَعَسُوًّا، وَعُتِيًّا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر كما قيل لك من هبة الولد على الكِبَرِ ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أي: خَلَقَ يحيى عليَّ سَهْلًا. وقرأ معاذ القاربي، وعاصم الجحدري: «هَيْنٍ» بإسكان الياء. ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أوجدتكَ. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «خَلَقْنَاكَ». وقرأ حمزة، والكسائي: «خَلَقْنَاكَ» بالنون والألف. ﴿وَلَوْ تَكُ شَيْئًا﴾ المعنى: فخلق الولد، كخلقك. وما بعد هذا مفسر في (آل عمران: ٢٣٩)، إلى قوله: ﴿تَلَكَّتْ لَيْسَالِ سَوِيًّا﴾ قال الزجاج: «سَوِيًّا» منصوب على الحال، والمعنى: تُمَنَعُ عن الكلام وأنت سَوِيٌّ. قال ابن قتيبة: أي: سليماً غير أخرس. قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ وهذا في صبيحة الليلة التي حملت فيها امرأته ﴿مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي: من مصلاه، وقد ذكرناه في (آل عمران: ٢٣٩).

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه كتب إليهم في كتاب، قاله ابن عباس. والثاني: أوماً برأسه ويديه، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ أي: صلُّوا ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قد شرحناه في (آل عمران: ٢٣٩)، والمعنى: أنه كان يخرج إلى قومه فيأمرهم بالصلاة بُكْرَةً وَعَشِيًّا، فلما حملت امرأته أمرهم بالصلاة إشارة.

(١) رواه أحمد في «المستند» رقم (٧٩٣٤)، ومسلم في «المسند» رقم (١٨٤٧/٤)، وابن ماجه رقم (٢١٥٠).

﴿يَبْحَثُ خِذُّ الْمَكْتَبِ يَقُورُ وَآيَاتِنَا أَلْحَمَكُمُ صَيِّبًا ﴿١٦﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَتْ تَقِيًّا ﴿١٧﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُنْ جَبَارًا عَصِيًّا ﴿١٨﴾ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَبْحَثُ﴾ قال الزجاج: المعنى: فوهبنا له يحيى، وقلنا له: يا يحيى ﴿خِذُّ الْمَكْتَبِ﴾ يعني: التوراة، وكان مأموراً بالتمسك بها. وقال ابن الأنباري: المعنى: اقبل كُتُبَ الله كُلِّهَا إيماناً بها واستعمالاً لأحكامها. وقد شرحنا في [البقرة: ٦٣] معنى قوله: ﴿يَقُورُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّتِنَا أَلْحَمَكُمُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الفهم، قاله مجاهد. والثاني: اللب، قاله الحسن، وعكرمة. والثالث: العلم، قاله ابن السائب، والرابع: حفظ التوراة وعلمها، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقد زدنا هنا شرحاً في سورة [يوسف: ٢٣]. وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن [من] قبل أن يحتلم، فهو ممن أوتي الحكم صيباً. فاما قوله: ﴿صَيِّبًا﴾ ففي سنة يوم أوتي الحكم قولان: أحدهما: أنه سبع سنين، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(١). والثاني: ثلاث سنين، قاله قتادة، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ قال الزجاج: أي: وآتيناه حناناً. وقال ابن الأنباري: المعنى: وجعلناه حناناً لأهل زمانه. وفي الحنان ستة أقوال: أحدها: أنه الرحمة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعكرمة، وقاتدة، والضحاك، والفراء، وأبو عبيدة: وأنشد:

تَحَنُّنٌ عَلَيَّ هَذَاكَ الْمَلِيكَ

قال: وعامة ما يُسْتَعْمَلُ في المنطق على لفظ الاثنين، قال طرفة:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتِ فَاسْتَبَقِي بَعْضَنَا

قال ابن قتيبة: ومنه يقال: تحنن عليّ، وأصله من حنين الناقة على ولدها. وقال ابن الأنباري: لم يختلف اللغويون أن الحنان: الرحمة، والمعنى: فعلنا ذلك رحمةً لأبويه، وتزكيةً له. والثاني: أنه التعطف من ربّه عليه، قاله مجاهد. والثالث: أنه اللين، قاله سعيد بن جبيرة. والرابع: البركة، وروى عن ابن جبيرة أيضاً. والخامس: المحبة، قاله عكرمة، وابن زيد. والسادس: التعظيم، قاله عطاء بن أبي رباح. وفي قوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنها العمل الصالح، قاله الضحاك، وقاتدة. والثاني: أن معنى الزكاة: الصدقة، فالتقدير: إن الله تعالى جعله صدقة تصدق بها على أبويه، قاله ابن السائب. والثالث: أن الزكاة: التطهير، قاله الزجاج. والرابع: أن الزكاة: الزيادة، فالمعنى: وآتيناه زيادة في الخير على ما وُصف ودُكر، قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ تَقِيًّا﴾ قال ابن عباس: جعلته يتقيني، ولا يعدل بي غيري. قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أي: وجعلناه براً بوالديه، والبرُّ بمعنى: البار؛ والمعنى: لطيفاً بهما، محسناً إليهما. والعصبيُّ بمعنى: العاصي. وقد شرحنا معنى الجبار في [هود: ٥٩].

قوله تعالى: ﴿وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه السلام المعروف من الله تعالى. قال عطاء: سلام عليه ومُنَى في هذه الأيام؛ وهذا اختيار أبي سليمان. والثاني: أنه بمعنى: السلامة، قاله ابن السائب. فإن قيل: كيف خصّ التسليم عليه بالأيام، وقد يجوز أن يولد ليلاً ويموت ليلاً؟ فالجواب: أن المراد باليوم الجين والوقت، على ما بينا في قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ وَيَتَكَّمُ﴾ [المائدة: ٣]. قال ابن عباس: وسلام عليه حين وُلِدَ. وقال الحسن البصري: التقى يحيى وعيسى، فقال يحيى لعيسى: أنت خير مني، فقال عيسى ليحيى: بل أنت خير مني، سلّم الله عليك، وأنا سلّمْتُ على

(١) أورده السيوطي في «الدرر» ٤/ ٢٦٠ من رواية أبي نعيم، وابن مردويه، والديلمي عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّتِنَا أَلْحَمَكُمُ صَيِّبًا﴾ قال: أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين.

(٢) البيت للخطيب، «ديوانه» ٢٢٢، و«الكامل» ٣٤٨، و«مجاز القرآن» ٣/ ٢، و«القرطبي» ١١/ ٨٨، و«الطبري» ١٦/ ٣٨، و«البحر المحيط» ٦/ ١٧٧، و«اللسان» و«التاج»: حنن.

(٣) «ديوانه» ٢٠٨، و«مجاز القرآن» ٣/ ٢، و«الكتاب» ١٤٦، و«الكامل» ٣٤٨، و«الطبري» ١٦/ ٣٨، و«الجمهرة» ٣/ ٤٤٩، و«الشتنمري» ١/ ١٧٤، و«القرطبي» ١١/ ٨٧، و«البحر المحيط» ٦/ ١٧٧، و«اللسان» و«التاج»: حنن.

نفسى. وقال سعيد بن جبير مثله، إلا أنه قال: أثنى الله عليك، وأنا أثبت على نفسى. وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن، يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر لم يره، فخص الله تعالى يحيى فيها بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة.

﴿وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا﴾ ﴿١٦﴾ فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْمِكُمُ آيَةٌ لِلنَّاسِ وَرَحْمَةٌ مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ﴾ يعني: القرآن ﴿مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ قال أبو عبيدة: نتخت واعتزلت ﴿مَكَانًا شَرِيفًا﴾ مما يلي المشرق، وهو عند العرب خير من الغربي.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ﴾ يعني: أهلها ﴿حِجَابًا﴾ أي: ستراً وحاجزاً وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ضربت ستراً، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن الشمس أظلمتها، فلم يرها أحد منهم، وذلك مما سترها الله به، و[روى] هذا المعنى عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنها اتخذت حجاباً من الجدران، قاله السدي عن أشياخه. وفي سبب انفرادها عنهم قولان: أحدهما: [أنها] انفردت لتظهر من الحيض وتمتشط، قاله ابن عباس. والثاني: لتفلي رأسها، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريل في قول الجمهور. وقال ابن الأنباري: صاحب روحنا، وهو جبريل. والرُّوح بمعنى: الرُّوح والفرح، ثم تضم الراء لتحقيق مذهب الاسم، وإبطال طريق المصدر، ويجوز أن يُراد بالرُّوح هاهنا: الوحي وجبريل صاحب الوحي. وفي وقت مجيئه إليها ثلاثة أقوال: أحدها: وهي تغتسل. والثاني: بعد فراغها، ولبسها الثياب. والثالث: بعد دخولها بيتها. وقد قيل: المراد بالروح هاهنا: [الروح] الذي خلق منه عيسى، حكاه الزجاج، والماوردي، وهو مضمون كلام أبي بن كعب فيما سنذكره عند قوله: ﴿فَعَمَلَتْهُ﴾. قال ابن الأنباري: وفيه بُعد، لقوله: ﴿تَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، والمعنى: تصوّر لها في صورة البَشَر التام الخُلقة. وقال ابن عباس: جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد ققط حين طرّ شاربه. وقرأ أبو نهيك: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ بفتح الراء، من الرُّوح.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ ﴿١٨﴾ المعنى: إن كنت تتقي الله، فستنتهي بتعوذي منك، هذا هو القول عند المحققين. وحكي عن ابن عباس أنه كان في زمانها رجل اسمه تقي، وكان فاجراً، فظنته إياه، ذكره ابن الأنباري، والماوردي. وفي قراءة عليّ ؑ، وابن مسعود، وأبي رجاء: «إلا أن تكون تقيّاً».

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: فلا تخافي ﴿لِيَهَبَ لَكِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «لأهب لك» بالهمز. وقرأ أبو عمرو، وورش عن نافع: «ليهب لك» بغير همز. قال الزجاج: من قرأ «ليهب» فالمعنى: أرسلني ليهب، ومن قرأ «لأهب» فالمعنى: أرسلت إليك لأهب لك. وقال ابن الأنباري: المعنى: أرسلني يقول لك: أرسلت رسولي إليك لأهب لك.

قوله تعالى: ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ أي: طاهراً من الذنوب. والبيغي: الفاجرة الزانية. قال ابن الأنباري: وإنما لم يقل: «بغيّة» لأنه وصف يغلب على النساء، فقلماً تقول العرب: رجل بغيّ، فيجري مجرى حائض، وعافر. وقال غيره: إنما لم يقل: «بغيّة» لأنه مصروف عن وجهه، فهو «فعليل» بمعنى: «فاعل». ومعنى الآية: ليس لي زوج، ولستُ بزانية، وإنما يكون الولد من هاتين الجهتين. ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ قد شرحناه في قصة زكريا، والمعنى: أنه يسير عليّ أن أهب لك غلاماً من غير أب. ﴿وَلَنَجْمِكُمُ آيَةٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: دلالة على قدرتنا كونه من غير أب. قال ابن الأنباري: إنما دخلت الواو في قوله: ﴿وَلَنَجْمِكُمُ﴾ لأنها عاطفة لما بعدها على كلام مضمّر محذوف، تقديره: قال ربُّك خَلَقَهُ عَلَيَّ هَيْنَ لِنْتَفَعُ بِهِ، ولنَجْمَهُ عِبْرَةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: لمن تبعه وآمن به ﴿وَكَاثَ أُنثَرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: وكان خلقه أمراً محكوماً به، مفروغاً عنه، سابقاً في علم الله تعالى كونه.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَاصِيًّا﴾ ١٣١ ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِئِجِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا﴾ ١٣٢ ﴿فَأَنذَرَهَا مِنْ نَفْسِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحَاكُمَ سُورِكَا﴾ ١٣٣ ﴿وَهَرِيضٌ إِلَيْكَ يَجْنَعُ النَّخْلَةَ سَلْقِطٌ عَلَيْكَ رَطْبًا حَبِيًّا﴾ ١٣٤ ﴿فَكُلِّي وَأَسْرُبِي وَفَرِي عَيْبًا فَايْمًا تَرِيهِ مِنَ الْبَشَرِ لِمَا قَالُوا لِي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ ١٣٥

قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ يعني: عيسى. وفي كيفية حملها له قولان: أحدهما: أن جبريل نفخ في جيب درعها، فاستمر بها حملها، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. قال السدي: نفخ في جيب درعها وكان مشقوقاً من قدامها، فدخلت النفخة في صدرها فحملت من وقتها. والثاني: الذي خاطبها هو الذي حملته، ودخل من فيها، قاله أبي بن كعب. وفي مقدار حملها سبعة أقوال. أحدها: أنها حين حملت وضعت، قاله ابن عباس، والمعنى: أنه ما طال حملها، وليس المراد أنها وضعت في الحال، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ﴾، وهذا يدل على أن بين الحمل والوضع وقتاً يحتمل الانتباض به. والثاني: أنها حملته تسع ساعات، ووضعت من يومها، قاله الحسن. والثالث: تسعة أشهر، قاله سعيد بن جبيرة. وابن السائب^(١). والرابع: ثلاث ساعات، حملته في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعت في ساعة، قاله مقاتل بن سليمان. والخامس: ثمانية أشهر، فعاش، ولم يعيش مولود قط لثمانية أشهر، فكان في هذا آية، حكاه الزجاج. والسادس: في ستة أشهر، حكاه الماوردي. والسابع: في ساعة واحدة، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿فَانْتَبَدَّتْ بِهِ﴾ يعني بالتحمل ﴿مَكَانًا قَاصِيًّا﴾ أي: بعيداً. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عمير: «قاصياً». قال ابن إسحاق: مشت ستة أميال. قال الفراء: القاصي والقاصي بمعنى واحد. وقال غير الفراء: القاصي والقاصي بمنزلة الشهيد والشاهد. وإنما بُدلت، فراراً من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج.

قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ وقرأ عكرمة، وإبراهيم النخعي، وعاصم الجحدري: «المخاض» بكسر الميم. قال الفراء: المعنى: فجاء بها المخاض، فلما أُلقيت الباء، جُعِلت في الفعل ألفاً، ومثله: ﴿إِنَّا غَدَاةً نَا﴾ [الكهف: ٦٢] أي: بغدائنا، ومثله: ﴿مَا أَتَىٰ نَبِيًّا مِنَ الْبَشَرِ إِلَّا لِيُحْذِرَهُ﴾ [الكهف: ٩٦] أي: بزبر الحديد. قال أبو عبيدة: أفلحها من جاءت هي، وأجاءها غيرها. وقال ابن قتيبة: المعنى: جاء بها، وألجأها، وهو من حيث يقال: جاءت بي الحاجة إليك، وأجاءتني الحاجة إليك، والمخاض: الحمل. وقال غيره: المخاض: وجع الولادة. ﴿إِلَىٰ جِئِجِ النَّخْلَةِ﴾ وهو ساق النخلة، وكانت نخلة يابسة في الصحراء، ليس لها رأس ولا سنف. ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ اليوم، أو هذا الأمر. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وخلف، وحفص: «ميت» بكسر الميم. وفي سبب قولها هذا قولان: أحدهما: أنها قالت حياة من الناس. والثاني: لتلا يأتوا بقذفها.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، بكسر النون، وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: «نسيّاً» بفتح النون. قال الفراء: وأصحاب عبد الله يقرؤون: «نسيّاً» بفتح النون، وسائر العرب بكسرها، وهما لغتان، مثل الجسر والجسر، والوتر والوتر، والفتح أحب إليّ. قال أبو علي الفارسي: الكسر على اللغتين. وقال ابن الأنباري: من كسر النون قال: النسي: اسم لما يُنسى، بمنزلة البغض اسم لما يُبغض، والسب اسم لما يُسب. والنسي بفتح النون: اسم لما يُنسى أيضاً على أنه مصدر ناب عن الاسم، كما يقال: الرجل ذيف، وذئف. فالمكسور: هو الوصف الصحيح، والمفتوح: مصدر سدّ مسدّ الوصف. ويمكن أن يكون النسي والنسي اسمين لمعنى، كما يقال: الرطل والرطل. وللمفسرين في قوله تعالى: ﴿نَسِيًّا مَّسِيًّا﴾ خمسة أقوال: أحدها: ياليتني لم أكن شيئاً، قاله الضحاك عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وابن زيد. والثاني: «وكننت نسيّاً منسياً» أي: دم حيضة ملقاة، قاله مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة. قال الفراء: النسي: ما تلقيه المرأة من خرق

(١) قال ابن كثير في «تفسيره» ١١٦/٣: المشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر.

اعتلالها. وقال ابن الأنباري: هي خرق الحيض تليقها المرأة فلا تطلبها ولا تذكرها. والثالث: [أنه من] السقط، قاله أبو العالية، والربيع. والرابع: أن المعنى: يا ليتني لا يُدري من أنا، قاله قتادة. والخامس: أنه الشيء التافه يرتحل عنه القوم، فيهون عليهم فلا يرجعون إليه، قاله ابن السائب. وقال أبو عبيدة: النسي، والمنسي: ما ينسى من إداوة وعصا. يعني أنه ينسى في المنزل، فلا يرجع إليه لاحترار صاحبه إياه. وقال الكسائي: معنى الآية: ليتني كنت ما إذا ذكر لم يُطلب.

قوله تعالى: ﴿فَأَدْنَاهَا مِنْ حَمِيهَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «مَنْ تحتها» بفتح الميم، والتاء. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «مِنْ تحتها» بكسر الميم، والتاء. فمن قرأ بكسر الميم، ففيه وجهان: أحدهما: ناداها الملك من تحت النخلة. وقيل: كانت على نَشْر، فناداها الملك أسفل منها. والثاني: ناداها عيسى لما خرج من بطنها. قال ابن عباس: كلُّ ما رفعت إليه طرفك، فهو فوقك، وكلُّ ما خفضت إليه طرفك، فهو تحتك. ومن قرأ بفتح الميم، ففيه الوجهان المذكوران. وكان الفراء يقول: ما خاطبها إلا الملك على القراءتين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿فَدَّ جَمَلٌ رَبِّيَّ حَمِيَّ سَرِيًّا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه النهر الصغير، قاله جمهور المفسرين، واللغويون، قال أبو صالح، وابن جريج: هو الجدول بالسريانية. والثاني: أنه عيسى كان سرياً من الرجال، قاله الحسن، وعكرمة، [وابن زيد]. قال ابن الأنباري: وقد رجح الحسن عن هذا القول إلى القول الأول، ولو كان وصفاً لعيسى، كان غلاماً سرياً أو سويماً من الغلمان، وقلماً تقول العرب: رأيت عندك نبيلاً، حتى يقولوا: رجلاً نبيلاً. فإن قيل: كيف ناسب تسليتها أن قيل: لا تحزني. فهذا نهر يجري؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنها حزنت لجذب مكانها الذي ولدت فيه، وعدم الطعام والشراب والماء الذي تنطهر به، فقيل: لا تحزني قد أجرينا لك نهراً، وأطلعنا لك رطباً، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها حزنت لما جرى عليها من ولادة ولد عن غير زوج، فأجرى الله تعالى لها نهراً، فجاءها من الأردن، وأخرج لها الرطب من الشجرة اليابسة، فكان ذلك آية تدل على قدرة الله تعالى في إيجاد عيسى، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَهَزَبَ إِلَيْكَ﴾ الهزُّ: التحريك. والباء في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ أَلْتَحْوَى﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها زائدة مؤكدة، كقوله تعالى: ﴿تَلِيمَدُّ بِسَبِّ إِلَى السَّكَاةِ﴾ [الحج: ١٥] قال الفراء: فليمدد سبباً. والعرب تقول: هزّه، وهزّه به، وخذ الخطام، وخذ بالخطام، وتعلّق زيداً، وتعلّق به. وقال أبو عبيدة: هي مؤكدة، كقول الشاعر:

نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرْجِ^(١)

والثاني: أنها دخلت على الجذع لتلصقه بالهزِّ، فهي مفيدة للإلصاق، قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿سُقُوطٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «تَسَاقُطٌ» بالتاء مشددة السين. وقرأ حمزة، وعبد الوارث: «تَسَاقُطٌ» بالتاء مفتوحة مخففة السين. وقرأ حفص عن عاصم: «تَسَاقُطٌ» بضم التاء وكسر القاف مخففة السين. وقرأ يعقوب، وأبو زيد عن المفضل: «يَسَاقُطٌ» بالياء مفتوحةً وتشديد السين وفتح القاف. فهذه القراءات المشاهير. وقرأ أبيُّ بن كعب، وأبو حيوة: «تَسَقُطٌ» بفتح التاء وسكون السين ورفع القاف. وقرأ عبد الله بن عمرو، وعائشة، والحسن: «يَسَاقُطٌ» بألف وتخفيف السين ورفع الياء وكسر القاف. وقرأ الضحاک، وعمرو بن دينار: «يُسْقِطٌ» برفع الياء وكسر القاف مع سكون السين وعدم الألف. وقرأ عاصم الجحدري، وأبو عمران الجوني مثله، إلا أنه بالتاء. وقرأ معاذ القارئي، وابن يعمر مثله، إلا أنه بالنون. وقرأ أبو رزين العقيلي، وابن أبي عبة: «يَسْقُطٌ» بالياء مفتوحة مع سكون السين ورفع القاف. وقرأ أبو السماك العدوي، وابن حزام: «تساقط» بتاءين مفتوحين وبألف. وقال الزجاج: من قرأ «يساقط» فالمعنى: يتساقط، فأدغمت التاء في السين. ومن قرأ «تساقط»، فكذلك أيضاً، وأنت لأن لفظ النخلة يؤنث. ومن قرأ «تساقط» بالتاء والتخفيف، فإنه حذف من «تساقط» اجتماع

(١) هذا الشطر من الرجز لراجز من بني جعدة، وهو في «الاقضاب» ٤٥٨، و«شواهد المغني» ١١٤٠، و«الغزاة» ١٥٩/٤.

التأمين. ومن قرأ «يساقط» ذهب إلى معنى: يساقط الجذع عليك. ومن قرأ «نُسَاقَطُ» بالنون، فالمعنى: نحن نُسَاقَطُ عليك، فنجعله لك آية، والنحويون يقولون: إن «رطباً» منصوب على التمييز إذا قلت: يسَاقط أو يتساقط، المعنى: يتساقط الجذع رطباً. وإذا قلت: تسَاقط بالياء، فالمعنى: تساقط النخلة رطباً.

قوله تعالى: ﴿جِيئًا﴾ قال الفراء: الجِيئِي: المجتئى، وقال ابن الأنباري: هو الطريُّ، والأصل: مجئو، صُرف من مفعول إلى فعيل، كما يقال: قديد، وطبيخ. وقال غيره: هو الطريُّ بغيره: هو الطريُّ بغيره: ولم يكن لتلك النخلة رأس، فأنبته الله تعالى، فلما وضعت يدها عليها، سقط الرطب رطباً. وكان السلف يستحبون للنساء الرطب من أجل مریم ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَكُلِي﴾ أي: من الرطب ﴿وَأَشْرَبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بولادة عيسى ﷺ. قال الزجاج: يقال: قررت به عيناً أقر، بفتح القاف في المستقبل، وقررت في المكان أقر، بكسر القاف، و«عيناً»: منصوب على التمييز. وروى ابن الأنباري عن الأصمعي أنه قال: معنى «وقري عيناً»، وتبرد دمعك، لأن دمعة الفرح باردة، ودمعة الحزن حارة. واشتقاق «قري» من القُرور، وهو الماء البارد. وقال لنا أحمد بن يحيى: تفسير «قري عيناً» بلغت غاية أملك حتى تقر عينك من الاستشراق إلى غيره، واحتج بقول عمرو بن كلثوم:

بِیومِ کَرِهَةٍ ضَرِباً وَطَعْناً
أَقْرَبَهُ مَوَالِیکَ الْعِیُونَا^(۱)

أي: ظفروا وبلغوا منتهى أمتيهم، فقرت عينهم من تطلع إلى غيره.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا تَرِينٌ﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو مجلز، وابن السمين، والضحاك، وأبو العالية، وعاصم الجحدري: «تَرِينٌ» بهجمة مكسورة من غير ياء. أي: إن رأيت من البشر أحداً فقولي؛ وفيه إضمار تقديره: فسألك عن أمر ولدك ﴿فَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ فيه قولان: أحدهما: صمتاً، قاله ابن عباس، وأنس بن مالك، والضحاك؛ وكذلك قرأ أبي بن كعب، وأنس بن مالك، وأبو رزين العقيلي: «صمتاً» مكان قوله: «صوماً». وقرأ ابن عباس: صياماً^(۲). والثاني: صوماً عن الطعام والشراب والكلام، قاله قتادة. وقال ابن زيد: كان المجتهد من بني إسرائيل يصوم عن الكلام كما يصوم عن الطعام، إلا من ذكر الله ﷻ. قال السدي: فأذن لها أن تتكلم بهذا القدر ثم تسكت. قال ابن مسعود: أمرت بالصمت، لأنها لم تكن لها حجة عند الناس، فأمرت بالكف عن الكلام ليكيفيها الكلام ولذا مما يُبرئ به ساحتها. وقيل: كانت تكلم الملائكة ولا تكلم الإنس. قال ابن الأنباري: الصوم في لغة العرب على أربعة معانٍ، يقال: صوم لترك الطعام والشراب، وصوم للصمت، وصوم لضرب من الشجر، وصوم لذوق النعام. واختلف العلماء في مقدار سنِّ مریم يوم ولادتها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ولدت وهي بنت خمس عشرة سنة، قاله وهب بن منبه. والثاني: بنت اثنتي عشرة سنة، قاله زيد بن أسلم. والثالث: بنت ثلاث عشرة سنة، قاله مقاتل.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً﴾ قَالُوا يَبْرَأُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٧٧﴾ يَأْتِخَتْ هَدْرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْوٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْتًا ﴿٧٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٧٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي بَيْتًا ﴿٨٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْإِسْلَامِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٨١﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: أنتهم به بعد أربعين يوماً حين طهرت من نفاسها. وقال في رواية الضحاك: انطلق قومها يطلبونها، فلما رأتهم حملت عيسى فتلقتهم به، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً﴾. فإن قيل: «أتت به» يعني عن «تحمله» فلا فائدة للتكرير. فالجواب: أنه لما ظهرت منه آيات، جاز أن يتوهم السامع «فأتت به» أن يكون ساعياً على قدميه، فيكون سعيه آية كمنطقه، فقطع ذلك التوهم، وأعلم أنه كسائر الأطفال، وهذا يمثل قول العرب: نظرت إلى فلان بعيني، فنفرنا بذلك نظر العطف؛ والرحمة، وأثبتوا [أنه] نظر عين. وقال ابن السائب: لما دخلت على قومها بكواً، وكانوا قوماً صالحين؛ و﴿قَالُوا يَبْرَأُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ وفيه ثلاثة أقوال:

(۱) «مختار الشعر الجاهلي» ۲/ ۳۶۲، «اللسان»: قرر.

(۲) وفي النسخة الإستانبولية: وقرأ ابن مسعود: «وصياماً»، والذي في «البحر المحيط» و«روح المعاني»: وقرأ زيد بن علي «صياماً».

أحدها: شيئاً عظيماً، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الفراء: الفريُّ: العظيم، والعرب تقول: تركته يفري الفريُّ، إذا عمل فأجاد العمل ففُضِّلَ الناس، قيل هذا فيه، قال النبي ﷺ: «فما رأيت عبقرياً يفري فُريَّ عمر»^(١). والثاني: عَجَباً فافقاً، قاله أبو عبيدة. والثالث: شيئاً مصنوعاً، ومنه يقال: فريت الكذب، وافتريته، قاله الزبيدي.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَخَّتُ هُنُورٌ﴾ في المراد بهارون هذا خمسة أقوال: أحدها: أنه أخ لها من أمها، وكان من أمثل فتى في بني إسرائيل، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال الضحاك: كان من أبيها وأمها. والثاني: أنها كانت من بني هارون، قاله الضحاك عن ابن عباس. وقال السدي: كانت من بني هارون أخي موسى ﷺ، فُنُسبت إليه، لأنها من ولده. والثالث: أنه رجل صالح كان في بني إسرائيل، فشبَّهوها به في الصلاح، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً، وقتادة، ويدل عليه ما روى المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فقالوا: ألستم تقروون؟ ﴿يَتَأَخَّتُ هُنُورٌ﴾ وقد علمتم ما كان بين موسى وعيسى؟ فلم أدِرْ ما أجيبهم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «إلا أخبرتهم أنهم كانوا يسئون بأبيائهم والصالحين قبلهم»^(٢). والرابع: أن قوم هارون كان فيهم فُسَّاقٌ وزُنَّاءٌ، فنسبوا إليهم، قاله سعيد بن جبيرة. والخامس: أنه رجل من فُسَّاقِ بني إسرائيل شبَّهوها به، قاله وهب بن منبه. فعلى هذا يخرج في معنى «الأخت» قولان: أحدهما: أنها الأخت حقيقة. والثاني: المشابهة، لا المناسبة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُرِيهِمْ مِنَ آيَاتِي إِلَّا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤٨].

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ يعنون: عمران «أَمراً سَوَّوْ» أي: زانياً «وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ حَنَةً» أي: زانية، فمن أين لك هذا الولد؟!

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ﴾، أي: أومات ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى عيسى فتكلَّم. وقيل المعنى: أشارت إليه أن كلموه. وكان عيسى قد كلمها حين أنت قومها، وقال: يا أمه ابشري فإنني عبد الله ومسيحه، فلما أشارت أن كلموه، تعجَّبوا من ذلك، ﴿وَقَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَتْ﴾ وفيها^(٣) أربعة أقوال: أحدها: أنها زائدة، فالمعنى: كيف نكلِّم صبيّاً في المهد؟! والثاني: أنها في معنى: وقع، وحدث. والثالث: أنها في معنى الشرط والجزاء، فالمعنى: من يكن في المهد صبيّاً، فكيف نكلِّمه؟! حكاهما الزجاج، واختار الأخير منها؛ قال ابن الأنباري: وهذا كما تقول: كيف أعظ من كان لا يقبل مواعظتي؟! أي: من يكن لا يقبل، والماضي يكون بمعنى المستقبل في الجزاء. والرابع: أن «كان» بمعنى: صار، قاله قطرب. وفي المراد بالمهد قولان: أحدهما: حجُّها، قاله نوف، وقتادة، والكلبي، والثاني: سرير الصبي المعروف، حكاه الكلبي أيضاً. قال السدي: فلما سمع عيسى كلامهم، لم يزد على أن ترك الرُّضَاع، وأقبل عليهم بوجهه، فقال: إني عبد الله. قال المفسرون: إنما قدَّم ذكر العبودية، لِيُبَيِّنَ قول من ادَّعى فيه الربوبية. وفي قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِي إِلَّا كِتَابٌ﴾ أسكن هذه الياه حمزة. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: أنه آتاه الكتاب وهو في بطن أمه، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقيل: علم التوراة والإنجيل وهو في بطن أمه. والثاني: قضى أن يؤتيني الكتاب، قاله عكرمة. وفي «الكتاب» قولان: أحدهما: أنه التوراة. والثاني: الإنجيل.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي يَتِيمًا﴾ هذا وما بعده إخبار عما قضى الله له وحكم له به ومنحه إياه مما سيظهر ويكون. وقيل: المعنى: يؤتيني الكتاب ويجعلني نبياً إذا بلغت؛ فحلَّ الماضي محلَّ المستقبل، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُوحَىٰ﴾ [المائدة: ١١٦]. وفي وقت تكليمه لهم قولان: أحدهما: أنه كلمهم بعد أربعين يوماً. والثاني: في يومه. وهو مبنية على ما ذكرنا من الزمان الذي غابت عنهم فيه مریم.

(١) البخاري ٣٦٧/٤، ومسلم ١٨٦٢/٤، ومعناه: لم أر سيداً يعمل عمله ويقطع قطعه.

(٢) وعلى هامش نسخة الرباط: أخرجه مسلم في «صحيحه» ومن طريقه البخاري في «شرح السنة» في كتاب الاستئذان في باب التسمية باسم النبي ﷺ اهـ. وهو في مسلم في كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم ويان ما يستحب من الأسماء (١٨٦٥/٣) بمعناه، ورواه أحمد في «المسند» ٤/٢٥٢، ولفظه قريب من رواية المصنف، ورواه الترمذي في «التفسير» (١٤٤/٢)، وأورده السيوطي في الدر المنثور «زاد نسبه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

(٣) أي: لفظة «كان».

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَبَارَكًا إِنَّ مَا كُنْتُمْ﴾ روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ في هذه الآية قال: «نفاهاً حيثما توجهت»^(١). وقال مجاهد: معلماً للخير. وفي المراد «بالزكاة» قولان: أحدهما: زكاة الأموال، قاله ابن السائب. والثاني: الطهارة، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿رَبِّرًا بِلَوْلَايَ﴾ قال ابن عباس: لَمَّا قَالَ هَذَا، وَلَمْ يَقُلْ: «بِوَالِدِي» عَلِمُوا أَنَّهُ وُلِدٌ مِنْ غَيْرِ بَشَرٍ. قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنَا جَبَّارًا﴾ أي: متعظماً «شَقِيحًا» عاصياً لربه ﴿وَأَسْلَمْنَا عَلَى يَوْمِ وُلْدَتِكَ﴾ قال المفسرون: السلامة علي من الله يوم وُلِدْتُ حتى لم يضُرني شيطان. وقد سبق تفسير الآية لمريم: ٤١٥. فإن قيل: لم ذكر هاهنا «السلام» بألف ولام، وذكره في قصة يحيى بلا ألف ولام؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه لَمَّا جَرَى ذِكْرُ السَّلَامِ قَبْلَ هَذَا الْمَوْضِعِ بِغَيْرِ أَلْفٍ وَوَلَامٍ، كَانَ الْأَحْسَنُ أَنْ يَرِدَ ثَانِيَةً بِأَلْفٍ وَوَلَامٍ، هَذَا قَوْلُ الزَّجَاجِ. وَقَدْ اعْتَرَضَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، فَقِيلَ: كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَعْطَفَ هَذَا وَهُوَ قَوْلُ عَيْسَى، عَلَى الْأَوَّلِ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ؟! وَقَدْ أَجَابَ عَنْهُ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فَقَالَ: عَيْسَى إِنَّمَا يَتَعَلَّمُ مِنْ رَبِّهِ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ سَمِعَ قَوْلَ اللَّهِ فِي يَحْيَى، فَبَنَى عَلَيْهِ وَأَلْصَقَهُ بِنَفْسِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ ﷻ عَرَفَ السَّلَامَ الثَّانِي لِأَنَّهُ أَتَى بَعْدَ سَلَامٍ قَدْ ذَكَرَهُ، وَأَجْرَاهُ عَلَيْهِ غَيْرَ قَاصِدٍ بِهِ اتِّبَاعِ اللَّفْظِ الْمُحْكَمِيِّ، لِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ، لَهُ أَنْ يَغْيُرَ بَعْضَ الْكَلَامِ الَّذِي يَحْكِيهِ، فَيَقُولُ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَنَا رَجُلٌ مُنْصَفٌ، يَرِيدُ: قَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ: أَنْتَ رَجُلٌ مُنْصَفٌ. وَالْجَوَابُ الثَّانِي: أَنْ سَلَامًا وَالسَّلَامَ لِغَتَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، ذَكَرَهُ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢٢) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢٣) وَلَئِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٢٤)

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قال الزجاج: أي، ذلك الذي قال: إني عبد الله، هو ابن مريم، لا ما تقول النصراني: أنه ابن الله، وأنه إله.

قوله تعالى: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وحزمة، والكسائي: «قَوْلُ الْحَقِّ» برفع اللام. وقرأ عاصم، وابن عامر، ويعقوب: بنصب اللام. قال الزجاج: من رفع «قَوْلُ الْحَقِّ» فالمعنى: هو قَوْلُ الْحَقِّ، يعني هذا الكلام؛ ومن نصب، فالمعنى: أقول قول الحق. وذكر ابن الأنباري في الآية وجهين: أحدهما: أنه لما وُصِفَ بِالْكَلِمَةِ جاز أن يُنْعَتَ بِالْقَوْلِ. والثاني: أن في الكلام إضماراً، تقديره: ذلك نَبَأُ عَيْسَى، ذلك النَبَأُ قَوْلُ الْحَقِّ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكون. قال قتادة: امترت اليهود فيه والنصارى، فزعم اليهود أنه ساحر، وزعم النصارى أنه ابن الله وثالث ثلاثة. قرأ أبو مجلز، ومعاذ القارئ، وابن يعمر، وأبو رجاء: «تمترون» بالتاء.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ قال الزجاج: المعنى: أن يتخذ ولداً. و«مين» مؤكدة تدل على نفي الواحد والجماعة، لأن للقاتل أن يقول: ما اتخذت فرساً، يريد: اتخذت أكثر من ذلك، وله أن يقول: ما اتخذت فرسين ولا أكثر، يريد: اتخذت فرساً واحداً؛ فإذا قال: ما اتخذت من فرس، فقد دلل على نفي الواحد والجميع.

قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقرأ أبو عمران الجوني، وابن أبي عبيدة: «فيكون» بالنصب، وقد ذكرنا وجهه في [البقرة: ١١٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «وَأَنَّ اللَّهَ» بنصب الألف. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «وَأَنَّ اللَّهَ» بكسر الألف. وهذا من قول عيسى؛ فمن فتح، عطفه على قوله: ﴿وَأَوْسَيْنِي بِالْقَوْلِ وَالرُّكُوعِ﴾ و«بأن الله ربِّي» ومن كسر، ففيه وجهان: أحدهما: أن يكون معطوفاً على قوله: ﴿إِنِّي عَبْدٌ أَنِيبٌ﴾ والثاني: أن يكون مستأنفاً.

﴿فَأَخْلَفَ الْأَخْرَابَ مِنْ بَنِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢٧) أَمْسَحَ يَوْمَ وَأَبْصَرَ يَوْمَ يَا تَوْنَتًا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالِي مُبِينٍ﴾ (٢٨) وَأَبْذَرَهُ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٩) إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا بِرُحْمَتِنَا﴾ (٣٠)

(١) في «الطبري» وابن كثير» عن مجاهد: نفاهاً. وقال السيوطي في «الدرر»: ٢٧٠/٤: أخرج الإسماعيلي في «معجمه» وأبو نعيم في «الحلية» وابن لال في «مكارم الأخلاق»، وابن مردويه، وابن النجار في «تاريخه» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قوله عيسى ﷺ: وجعلني مباركاً أينما كنت، قال: جعلني شافعاً للناس أين اتجهت».

قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ قال المفسرون: «من» زائدة، والمعنى: اختلفوا بينهم. وقال ابن الأنباري: لما تمسك المؤمنون بالحق، كان اختلاف الأحزاب بين المؤمنين مقصوراً عليهم. وفي الأحزاب قولان: أحدهما: أنهم اليهود والنصارى، فكانت اليهود تقول: إنه لغير رِشْدَةٍ^(١)، والنصارى تدعي فيه ما لا يليق به. والثاني: أنهم فرق النصارى، قال بعضهم: هو الله، وقال بعضهم: ابن الله، وقال بعضهم: ثالث ثلاثة.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بقولهم في المسيح ﴿مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: من حضورهم ذلك اليوم للجزاء. قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن لفظه لفظ الأمر، ومعناه الخبر؛ فالمعنى: ما أسمعه وأبصرهم يوم القيامة، سمعوا وأبصروا حين لم يسمعهم ذلك لأنهم شاهدوا من أمر الله ما لا يحتاجون معه إلى نظر وفكر فعلموا الهدى وأطاعوا، هذا قول الأكثرين. والثاني: أسمع بحدثهم اليوم، وأبصر كيف يصنع بهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَ﴾، قاله أبو العالية.

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الْفَالِقِينَ﴾ يعني: المشركين والكفار ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني: في الدنيا ﴿فِي سَكَلٍ لَّيِّنٍ﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ أي: خوف كَثْرًا مكة ﴿يَوْمَ لَمَسَتْ﴾ يعني: يوم القيامة يتحسر المسيء إذ لم يُحْسِن، والمقصر إذ لم يُرَدِّد من الخير. وموجبات الحسرة يوم القيامة كثيرة، فمن ذلك ما روى أبو سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قيل: يا أهل الجنة، فيشربون^(٢) وينظرون، وقيل: يا أهل النار، فيشربون وينظرون، فيجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: هذا الموت، فيُدْبَح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت؛ ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ لَمَسَتْ إِذْ فُئِيَ الْأَمْرُ وَمَنْ فِي غَفْلَةٍ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ﴾^(٣). قال المفسرون: فهذه هي الحسرة إذا دُبِح الموت، فلو مات أحد فرحاً مات أهل الجنة، ولو مات أحد حزناً مات أهل النار. ومن موجبات الحسرة، ما روى عدي بن حاتم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يؤتى يوم القيامة بناسٍ إلى الجنة، حتى إذا دَنَوْا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها، نودوا: أن اصرفوهم عنها، لا نصب لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رَجَعُ الْأَوْلُونَ بمثلها، فيقولون: يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن تُرِينَا ما أرينا كان أهون علينا؛ قال: ذلك أردت بكم، كنتم إذا خلَّوْتُمْ بارزتموني بالعظام، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مختبين، تراؤون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم، هبتم الناس ولم تهابوني، وأجللتهم الناس ولم تُجَلُّوني، تركتم للناس ولم تتركوا لي، فالיום أذيقكم العذاب مع ما حرمتكم من الثواب^(٤). ومن موجبات الحسرة ما روي عن ابن مسعود قال: ليس من نفس يوم القيامة إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة، وبيت في النار، ثم يقال: يعني لهؤلاء: لو عملتم، ولأهل الجنة: لولا أن منَّ الله عليكم. ومن موجبات الحسرة: قطع الرجاء عند إطباق النار على أهلها.

قوله تعالى: ﴿إِذْ فُئِيَ الْأَمْرُ﴾ قال ابن الأنباري: «قضي» في اللغة بمعنى: أقرن وأحكم، وإنما سمي الحاكم قاضياً، لإتقانه وإحكامه ما يفتد. وفي الآية اختصار، والمعنى: إذ قضي الأمر الذي فيه هلاكهم. وللمفسرين في الأمر قولان: أحدهما: أنه ذبح الموت، قاله ابن جريج، والسدي. والثاني: أن المعنى: قضي العذاب لهم، قاله مقاتل. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: هم في الدنيا في غفلة عما يصنع بهم ذلك اليوم ﴿وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ﴾ بما يكون في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ﴾ أي: نُسِيت سَكَّانَهَا فنرثها ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت. فإن قيل: ما

(١) يقال: هذا ولد رِشْدَةٍ: إذا كان لكناح صحيح، ويقال في ضده: ولد زينة.

(٢) يشربون: يرفعون رؤوسهم إلى المتادي.

(٣) رواه أحمد في «المسنَد» ٩/٣، والبخاري ٣٢٥/٨، ومسلم ٢١٨٨/٤، والترمذي ١٤٤/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٧١/٤ وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والنسائي، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه.

(٤) ذكره الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» باب الترهيب من الرياء من رواية الطبراني في «الكبير» والبيهقي، عن عدي بن حاتم ﷺ.

الفائدة في «نحن» وقد كفت عنها «إنا»؟ فالجواب: أنه لما جاز في قول المعظم: «إنا نعمل» أن يوهم أن أتباعه فعلوا، أبانت «نحن» بأن الفعل مضاف إليه حقيقة. فإن قيل: فلم قال: «ومن عليها» وهو يرث الأدميين وغيرهم؟! فالجواب: أن «من» تختص أهل التمييز، وغير المميزين يدخلون في معنى الأرض ويجرون مجراها، ذكر الجوابين عن السؤالين ابن الأنباري.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿١١﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿١٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَبْسُطَ عَذَابِي مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ لِيَلِيًّا ﴿١٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْبَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ نُرِيَ نَسْوًا لَكَ مِنْهُمَا وَمَأْوَجُنِي مِثْلًا ﴿١٤﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿١٥﴾ وَأَعْرَضَ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ آلَا أَكُونَ بِدَعْوَةِ رَبِّي شَيْئًا ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَعْرَضَكُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمُ اسْمَاحًا وَيَعْقُوبَ وَكَوَلَّا جَمَلًا يُبَيِّنُا ﴿١٧﴾ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَمَلْنَا لَمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلَيْنَا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: اذكر لقومك قصته. وقد سبق معنى الصديق (في النساء: ٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ أي: لا يدفع عنك ضرراً.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ﴾ بالله والمعرفة ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطعه فيما يأمر به من الكفر والمعاصي. وقد شرحنا معنى «كان» آنفاً.

﴿عَصِيًّا﴾ أي: عاصياً، فهو «فعليل» بمعنى «فاعل».

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَبْسُطَ عَذَابِي مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ قال مقاتل: في الآخرة؛ وقال غيره: في الدنيا، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ لِيَلِيًّا﴾ أي: قريباً في عذاب الله، فجرت المقارنة مجرى الموالاة. وقيل: إنما طمع إبراهيم في إيمان أبيه، لأنه حين خرج من النار قال له: نِعْمَ الْإِلَهَ إِلَهَكَ يَا إِبْرَاهِيمَ، فحينئذ أقبل يعظه، فأجابه أبوه: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْبَةِ يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: أتارك عبادتها أنت؟! ﴿لَنْ نُرِيَ نَسْوًا﴾ عن عيبتها وشتمها ﴿لَكَ مِنْهُمَا﴾ وفيه قولان: أحدهما: بالشتم والقول، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: بالحجارة حتى تتباعد عني، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَأَهْجُرْني مِثْلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: اهجرني طويلاً، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس، وبه قال الحسن، والفرّاء، والأكثرين. قال ابن قتيبة: اهجرني حيناً طويلاً، ومنه يقال: تَمَلَّيت حبيبك. والثاني: اجتنبني سالمياً قبل أن تصيبك عقوبتي، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والضحاك؛ فعلى هذا يكون من قولهم: فلان ملئ بكذا وكذا: إذا كان مضطرباً به، فالمعنى: اهجرني وعرضك وافر، وأنت سليم من أذاي، قاله ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ أي: سلمت من أن أصيبك بمكرهه، وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: سأسال الله لك توبةً تنال بها مغفرته. والثاني: أنه وعده الاستغفار وهو لا يعلم أن ذلك محظور في حق المُصْرَبِينَ على الكفر، ذكرهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لطيفاً، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد، والزجاج. والثاني: رحيماً، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: باراً عودني منه الإجابة إذا دعوته، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرَضَ لَكُمْ﴾ أي: وأتخى عنكم، ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام. وفي معنى «تَدْعُونَ» قولان: أحدهما: تَعْبُدُونَ. والثاني: أن المعنى: وما تدعون رباً، ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: وأعبده ﴿عَسَىٰ آلَا أَكُونَ بِدَعْوَةِ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي: أرجو أن لا أشقى بعبادته كما شقيتم بعبادة الأصنام، لأنها لا تنفعهم ولا تُجيب دعاءهم ﴿فَلَمَّا أَعْرَضَكُمْ﴾ قال المفسرون: هاجر عنهم إلى أرض الشام، فوهب الله له إسحاق ويعقوب، فأنس الله وحشته عن فراق قومه بأولاد كرام. قال أبو سليمان: وإنما وهب له إسحاق ويعقوب بعد إسماعيل.

قوله تعالى: ﴿وَكَوَلَّا﴾ أي: وكلاً من هذين. وقال مقاتل: «وكلاً» يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿جَمَلْنَا يُبَيِّنُا﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ قال المفسرون: المال والولد والعلم والعمل، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: ذكراً حسناً في الناس مرتفعاً، فجميع أهل الأديان يتولون إبراهيم وذريته ويثنون عليهم، فوضع اللسان مكان القول، لأن القول يكون باللسان^(١).

﴿وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَتَدْبِيرُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا آتَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والمفضل عن عاصم: «مُخْلِصًا» بكسر اللام. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم بفتح اللام. قال الزجاج: المُخْلِص، بكسر اللام: الذي وحّد الله، وجعل نفسه خالصة في طاعة الله غير دسيسة، والمُخْلِص، بفتح اللام: الذي أخلصه الله، وجعله مختاراً خالصاً من الدُّسَس.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ قال ابن الأنباري: إنما أعاد «كان» لتضخيم شأن النبي المذكور.

قوله تعالى: ﴿وَتَدْبِيرُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ أي: من ناحية الطُّور، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زبير. قال ابن الأنباري: [إنما] خاطب الله العرب بما يستعملون في لغتهم، ومن كلامهم: عن يمين القيلة وشمالها، يعنون: مما يلي يمين المستقبل لها وشماله، فقلوا الوصف إلى ذلك أتساعاً عند انكشاف المعنى، لأن الوادي لا يد له فيكون له يمين. وقال المفسرون: جاء النداء عن يمين موسى، فلهذا قال: «الأيمن»، ولم يُرد به يمين الجبل.

قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ قال ابن الأنباري: معناه: مناجياً، فعبر «فَعِيل» عن «مُفَاعِل» كما قالوا: فلان خليطي وعشيري: يعنون: مخالطي ومُعاشري. وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس في قوله: «وقربناه» قال: حتى سمع صريف القلم حين كتب له في الألواح.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أي: من نعمتنا عليه إذا أجبنا دعاءه حين سأل أن نجعل معه أخاه وزيراً له.

﴿وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ هذا عام فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين الناس. وقال مجاهد: لم يعد ربه بوعد قط إلا وفى له به. فإن قيل: كيف حُصِّصَ بصدق الوعد إسماعيل، وليس في الأنبياء من ليس كذلك؟ فالجواب: أن إسماعيل عانى [في الوفاء] بالوعد ما لم يعاناه غيره من الأنبياء، فأثني عليه بذلك. وذكر المفسرون: أنه كان بينه وبين رجل ميعاد، فأقام ينتظره مدة فيها لهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أقام حَوْلًا، قاله ابن عباس. والثاني: اثنين وعشرين يوماً، قاله الرقاشي. والثالث: ثلاث أيام، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ إلى قومه، وهم جُرْهُم. ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ قال مقاتل: يعني: قومه. وقال الزجاج: أهله: جميع أمته. فأما الصلاة والزكاة، فهما العبادتان المعروفتان.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه في السماء الرابعة، روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث مالك بن صعصعة عن رسول الله ﷺ في حديث المعراج: أنه رأى إدريس في السماء الرابعة^(٢)، وبهذا قال أبو سعيد الخدري، ومجاهد، وأبو العالية. والثاني: أنه في السماء السادسة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك^(٣). والثالث: أنه في الجنة، قاله زيد بن أسلم، وهذا يرجع إلى الأول، لأنه قد روي أن

(١) في عبارة الأصل هنا تقديم وتأخير، وهذا نصها: [﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾ أي: ذكراً حسناً في الناس مرتفعاً، فجميع أهل الأديان يتولون إبراهيم وذريته ويثنون عليهم، فوضع اللسان مكان القول، لأن القول يكون باللسان. أمّا وابن قتيبة لم يقل سوى هذه العبارة: «أي: ذكراً حسناً في الناس مرتفعاً»، فنقدنا جملة «قال ابن قتيبة» على قوله، حتى تستقيم العبارة.

(٢) البخاري ٢١٧/٦، ومسلم ١٥٠/١.

(٣) وعلى هامش نسخة الرباط بخط مغربي: أخرج الحاكم في «المستدرک» - وقال الذهبي: إنساده مظلم لا تقوم به حجة - عن الحسن بن سمره أنه قال: كان نبي الله إدريس أبيض طويلاً، ضخم البطن، عريض الصدر، قليل شعر الجسد، كثير شعر الرأس، وكانت إحدى عينيه أعظم من

الجنة في السماء الرابعة. والرابع: أنه في السماء السابعة، حكاه أبو سليمان الدمشقي^(١). وفي سبب صعوده إلى السماء ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان يصعد له من العمل مثلاً ما يصعد لجميع بني آدم؛ فأحبه ملك الموت، فاستأذن الله في خلته، فأذن له، فهبط إليه في صورة آدمي، وكان يصحبه، فلما عرفه، قال: إني أسألك حاجة، قال: ما هي؟ قال: تذيقي الموت، فلعلني أعلم ما شدته فأكون له أشد استعداداً؛ فأوحى الله إليه أن اقبض روحه ساعة ثم أرسله، ففعل، ثم قال: كيف رأيت؟ قال: كان أشد مما بلغني عنه، وإني أحب أن ترى النار، قال: فحملة، فأراه إياها؛ قال: إني أحب أن ترى الجنة، فأراه إياها، فلما دخلها وطاف فيها، قال له ملك الموت: اخرج، فقال: والله لا أخرج حتى يكون الله تعالى يُخرجني؛ فبعث الله ملكاً فحكم بينهما، فقال: ما تقول يا ملك الموت؟ فقص عليه ما جرى؛ فقال: ما تقول يا إدريس؟ قال: إن الله تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقد ذُفقت، وقال: ﴿وَلَنْ يَنْزِلَ إِلَّا وَرَائَهُ﴾ [مریم: ٧١]، وقد وردتها، وقال لأهل الجنة: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، فوالله لا أخرج حتى يكون الله يُخرجني؛ فسمع هاتفاً من فوقه يقول: بإذني دخل، وبأمري فعل، فخل سبيله؛ هذا معنى ما رواه زيد بن أسلم مرفوعاً إلى النبي ﷺ^(٢). فإن سأل سائل فقال: من أين لإدريس هذه الآيات، وهي في كتابنا؟! فقد ذكر ابن الأباري عن بعض العلماء، قال: كان الله تعالى قد أعلم إدريس بما ذكر في القرآن من وجوب الورد؛ وامتاع الخروج من الجنة، وغير ذلك، فقال ما قاله بعلم. والثاني: أن ملكاً من الملائكة استأذن ربه أن يهبط إلى إدريس، فأذن له، فلما عرفه إدريس، قال: هل بينك وبين ملك الموت قرابة؟ قال: ذاك أخي من الملائكة، قال: هل تستطيع أن تنفني عند ملك الموت؟ قال: سأكلّمه فيك، فيفترق بك، اركب بين جناحي، فركب إدريس، فصعد به إلى السماء، فلقى ملك الموت، فقال: إن لي إليك حاجة، قال: أعلم ما حاجتك، تكلمني في إدريس وقد محي اسمه من الصحيفة ولم يبق من أجله إلا نصف طرفه عين؟! فمات إدريس بين جناحي الملك، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٣). وقال أبو صالح عن ابن عباس: فقبض ملك الموت روح إدريس في السماء السادسة. والثالث: أن إدريس مشى يوماً في الشمس، فأصابه وهجها، فقال: اللهم خفف ثقلها عمن يحملها، يعني به الملك الموكّل بالشمس، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرّها ما لا يعرف، فسأل الله ﷻ عن ذلك، فقال: إن عبيدي إدريس سألتني أن أخفف عنك حملها وحرّها، فأجبتّه، فقال: يا رب اجمع بيني وبينه، واجعل بيننا خلّة، فأذن له، [فأتاه]، فكان مما قال له إدريس: اشفع لي إلى ملك الموت ليؤخّر أجلي، فقال: إن الله لا يؤخّر نفساً إذا جاء أجلها، ولكن أكلمه فيك، فما كان مستطيعاً أن يفعل بأحد من بني آدم فعل بك، ثم حملة الملك على جناحه، فرفعه إلى السماء، فوضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت فقال: إن لي إليك حاجة صديق لي من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخّر أجله، قال: ليس ذاك إليّ، ولكن إن أحببت أعلمته متى يموت، فنظر في ديوانه، فقال: إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً، ولا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس، فقال: إني أتيتك وتركته هناك، قال: انطلق، فما أراك تجده إلا ميتاً، فوالله ما بقي من أجله شيء، فرجع الملك فرأه ميتاً. وهذا المعنى مروى عن ابن عباس وكعب في آخرين^(٤). فهذا القول والذي قبله يدلان على أنه ميت، والقول الأول يدل على أنه حي.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِنَّا نُنتَلِ بِعَلِيمٍ ؕ إِنَّكَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ حَرُورًا سَجْدًا وَبِكَيْدٍ ۝ ٥٨ ۝ ٥٩﴾ ﴿وَرَبُّكَ مَنَّكَ يَا ۝﴾، فهذا يدل على فرض صحته أنه رفع حياً، والله أعلم أتى ذلك كان. اهـ. والحديث في «المستدرک» ٥٤٩/٢.

- (١) والقول الأول هو الصحيح.
- (٢) ذكر السيوطي في «الدر» ٢٧٤/٤ بهذا المعنى خيراً طويلاً، من رواية ابن المنذر عن عمر مولى غفرة يرفع الحديث إلى النبي ﷺ، والله أعلم بصحته.
- (٣) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٧٤/٤ من رواية ابن أبي حاتم عن ابن عباس.
- (٤) قال ابن كثير بعد أن ذكر نحوه: هذا من أخبار كعب من الإسرائيليات، وفي بعضه نكارة، والله أعلم.

وَأَمَّا وَعِلٌّ صَلَاحًا فَأَلْتَمَسْنَا لَكَ لِيُخَلِّقَ لَكَ لَبَنَةً وَلَا يَطْلُمُونَ شَيْئًا ﴿٦٥﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُ مَأْتِيًا ﴿٦٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجُهُمْ فِيهَا بَكَرَةٌ وَعَشِيًّا ﴿٦٣﴾ تِلْكَ لَبَنَةُ الَّتِي تَوْرُثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ يَتَّقِيًا ﴿٦٢﴾ وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا ﴿٦١﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَلِبْ لَيْدِيهِ هَلْ تَلَاؤُكُمْ شَيْئًا ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّارِ﴾ يعني الذين ذكرهم من الأنبياء في هذه السورة ﴿بَيْنَ دُورَيْهِ آدَمَ﴾ يعني إدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يعني إبراهيم، لأنه من ولد سام بن نوح ﴿وَمِنَ دُورَيْهِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يريد: إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَأَبْرَاهِيمَ﴾ يعني: ومن ذرية إسرائيل، وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: هؤلاء كانوا ممن أُرشدنا، ﴿وَأَجْمَعِيًّا﴾ أي: واصطفيينا.

قوله تعالى: ﴿خَرُوءًا سَجْدًا﴾ قال الزجاج: «سُجِّدًا» حال مقدرة، المعنى: خَرُوءًا مَقْدَرِينَ السُّجُودَ، لأن الإنسان في حال خروجه لا يكون ساجدًا، ف«سُجِّدًا» منصوب على الحال، وهو جمع ساجد ﴿وَرَبِّكَ﴾ معطوف عليه، وهو: جمع بائك، فقد بين الله تعالى أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله سجدوا ويكروا من خشية الله.

قوله تعالى: ﴿فَطَلَفَ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفٌ﴾ قد شرحناه في [الأعراف: ١٦٩]. وفي المراد بهذا الخلف ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: اليهود والنصارى، قاله السدي. والثالث: أنهم من هذه الأمة، يأتون عند ذهاب صالح أمة محمد ﷺ يتبارزون بالزنا، يتزو بعضهم على بعض في الأزقة زناة، قاله مجاهد، وفتادة.

قوله تعالى: ﴿أَسْمَاعُورُ الْكَلْبَةِ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو رزين العقيلي، والحسن البصري: «الصلوات» على الجمع. وفي المراد بإضاعتهم إياها قولان: أحدهما: أنهم أخروها عن وقتها، قاله ابن مسعود، والنخعي، وعمر بن عبد العزيز، والقاسم بن مخيمرة. والثاني: تركوها، قاله القرظي، واختاره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا الشُّهُوبَ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: وذلك مثل استماع الغناء، وشرب الخمر، والزنا، واللهو، وما شاكل ذلك مما يقطع عن أداء فرائض الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ليس معنى هذا اللقاء مجرد الرؤية، وإنما المراد به الاجتماع والملازمة مع الرؤية. وفي المراد بهذا الغي ستة أقوال: أحدها: أنه وادٍ في جهنم، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(١)، وبه قال كعب. والثاني: أنه نهر في جهنم، قاله ابن مسعود. والثالث: أنه الخسران، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أنه العذاب، قاله مجاهد. والخامس: أنه الشر، قاله ابن زيد، وابن السائب. والسادس: أن المعنى: فسوف يلقون مجازاة الغي، كقوله: ﴿يَلْقَوْنَ آسَافًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أي: مجازاة الآثام، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ فيه قولان: أحدهما: تاب من الشرك، وآمن بمحمد ﷺ، قاله مقاتل. والثاني: تاب من التصير في الصلاة، وآمن من اليهود والنصارى.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ وقرأ أبو رزين العقيلي، والضحاك، وابن يعمر، وابن أبي عبيدة: «جَنَاتٍ» برفع التاء. وقرأ الحسن البصري، والشعبي، وابن السميع: «جَنَّةٌ عَدْنٌ» على التوحيد مع رفع التاء. وقرأ أبو مجلز، وأبو المتوكل الناجي: «جَنَّةٌ عَدْنٌ» على التوحيد مع نصب التاء. وقوله: ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: وعدهم بها، ولم يروها، فهي غائبة عنهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُ مَأْتِيًا﴾ فيه قولان: أحدهما: آتياً، قال ابن قتيبة: وهو «مفعول» في معنى «فاعل»، وهو قليل أن يأتي الفاعل على لفظ المفعول به. وقال الفراء: إنما لم يقل: آتياً، لأن كل ما أتاك، فأتت تاتيه؛ ألا ترى أنك تقول: أتيت على خمسين سنة، وأتت علي خمسون سنة؟ والثاني: مبلوغاً إليه، قاله ابن الأنباري. وقال ابن جريج: «وعده» هاهنا: موعوده، وهو الجنة، و«مأتياً»: يأتيه أولياؤه.

(١) ذكره السيوطي في «الدرر» ٤/ ٢٧٨ من رواية ابن مردويه من طريق نهشل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه التخالف عند شرب الخمر، قاله مقاتل. والثاني: ما يلغى من الكلام ويؤثم فيه، قاله الزجاج. وقال ابن الأنباري: اللغو في العربية: الفاسد المطروح.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ قال أبو عبيدة: السلام ليس من اللغو، والعرب تستثنى الشيء بعد الشيء وليس منه، وذلك أنها تضمير فيه، فالمعنى: إلا أنهم يسمعون فيها سلاماً. وقال ابن الأنباري: استثنى السلام من غير جنسه، وفي ذلك تأكيد للمعنى المقصود، لأنهم إذا لم يسمعوا من اللغو إلا السلام، فليس يسمعون لغواً البتة، وكذلك قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ لِقَاءً﴾ [الشعراء: ٧٧]، إذا لم يخرج من عداوتهم لي غير رب العالمين، فكُلُّهُم عدو. وفي معنى هذا السلام قولان: أحدهما: أنه تسليم الملائكة عليهم، قاله مقاتل. والثاني: أنهم لا يسمعون إلا ما يسلمهم، ولا يسمعون ما يؤثمهم، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَيْشًا﴾ قال المفسرون: ليس في الجنة بكرة ولا عيشة، ولكنهم يُؤْتُونَ برزقهم - على مقدار ما كانوا يعرفون - في الغداة والعشي. قال الحسن: كانت العرب لا تعرف شيئاً من العيش أفضل من الغداء والعشاء، فذكر الله لهم ذلك. وقال قتادة: كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء أعجب به، فأخبر الله أن لهم في الجنة رزقهم بكرة وعيشاً على قدر ذلك الوقت، وليس ثمَّ ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وروى الوليد بن مسلم، قال: سألت زهير بن محمد عن قوله تعالى: ﴿بِكْرَةً وَعَيْشًا﴾ فقال: ليس في الجنة ليل ولا نهار، هم في نور أبداً، ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحُجُب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ الإشارة إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾

قوله تعالى: ﴿تُورِثُ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، والشعبي، وقاتدة، وابن أبي عبله: بفتح الواو وتشديد الراء. قال المفسرون: ومعنى «تورث»: نعطي المساكن التي كانت لأهل النار - لو أمتوا - للمؤمنين. ويجوز أن يكون معنى «تورث»: نعطي، فيكون كالميراث لهم من جهة أنها تملك مستأنف. وقد شرحنا هذا في [الأعراف: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وقرأ ابن السميع، وابن يعمر: «وما ينزل» بياء مفتوحة. وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ قال: «يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا»، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(١). والثاني: أن الملك أبطأ على رسول الله ﷺ ثم أتاه، فقال: لعلي أبطأ، قال: «قد فعلت»، قال: وما لي لا أفعل، وأنتم لا تتسوكون، ولا تقصون أظفاركم، ولا تتفون براجمكم، فنزلت الآية، قاله مجاهد. قال ابن الأنباري: البراجم عند العرب: الفصوص التي في فصول ظهور الأصابع، تبدو إذا جمعت، وتغضض إذا بسطت. والرواجب: ما بين البراجم، بين كل برجمتين راجبة. والثالث: أن جبريل احتبس عن النبي ﷺ حين سأله [قومه] عن قصة أصحاب الكهف، وذوي القرنين، والروح، فلم يدر ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب، فأبطأ عليه، فشق على رسول الله ﷺ مشقة شديدة، فلما نزل جبريل قال له: «أبطأت عليّ - حتى ساء ظني، واشتقت إليك»، فقال جبريل: «إني كنت أشوق، ولكنني عبدٌ مأمور، إذا بُعثت نزلتُ، وإذا حُبِسْتُ احتبسْتُ، فنزلت هذه الآية، قاله عكرمة، وقاتدة، والضحاك^(٢)». وفي سبب احتباس جبريل عن رسول الله ﷺ قولان: أحدهما: لامتناع أصحابه من كمال النظافة، كما ذكرنا في حديث مجاهد. والثاني: لأنهم سألوه عن قصة أصحاب الكهف، فقال: «غدأ أخبركم»، ولم يقل: إن شاء الله؛ وقد سبق هذا في سورة [الكهف: ٢٤]. وفي مقدار احتباسه عنه خمسة أقوال: أحدها: خمسة عشر يوماً؛ وقد ذكرناه في [الكهف] عن ابن عباس. والثاني: أربعون يوماً، قاله عكرمة، ومقاتل. والثالث: اثنتا عشرة ليلة،

(١) رواه أحمد في «المستدرك» رقم (٢٠٤٣)، والبخاري ٣٢٦/٨، والترمذي ١٤٥/٢، وذكره السيوطي في «الدرر» ٢٧٨/٤ وزاد نسبه لمسلم، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس^(١)، وعند أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم زيادة في آخر الحديث: «فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ ولم نجد الحديث في «صحيح مسلم» كما قال السيوطي.

(٢) «أسباب النزول» للواحد ١٧٣، وذكره ابن كثير ١٣٠/٣ مختصراً من رواية ابن أبي حاتم عن عكرمة، وقال: هو غريب.

قاله مجاهد. والرابع: ثلاثة أيام، حكاه مقاتل. والخامس: خمسة وعشرون يوماً، حكاه الشعبي. وقيل: إن سورة (الضحى) نزلت في هذا السبب. والمفسرون على أن قوله: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ قول جبريل. وحكى الماوردي: أنه قول أهل الجنة إذا دخلوها، فالمعنى: ما ننزل هذه الجنان إلا بأمر الله. وقيل: ما ننزل موضعاً من الجنة إلا بأمر الله. وفي قوله: ﴿وَمَا بَكَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا﴾ قولان: أحدهما: ما بين أيدينا: الآخرة، وما خلفنا: الدنيا، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبیر، وقتادة، ومقاتل. والثاني: ما بين أيدينا: ما مضى من الدنيا، وما خلفنا: من الآخرة، فهو عكس الأول، قاله مجاهد. وقال الأخفش: ما بين أيدينا، قبل أن نُخْلَقَ، وما خلفنا: بعد الفناء. وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَبْكُ ذَلِكَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: ما بين الدنيا والآخرة، قاله سعيد بن جبیر. والثاني: ما بين الفخيتين، قاله مجاهد، وعكرمة، وأبو العالية. والثالث: حين كَوْنُنَا، قاله الأخفش. قال ابن الأنباري: وإنما وحّد ذلك، والإشارة إلى شيئين، أحدهما: «ما بين أيدينا» والثاني: «ما خلفنا»، لأن العرب توقع ذلك على الاثنين والجمع.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَبِيًّا﴾ النسيء، بمعنى الناسي. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: ما كان تاركاً لك منذ أبطأ الوحى عنك، قاله ابن عباس. وقال مقاتل: ما نسيك عند انقطاع الوحى عنك. والثاني: أنه عالم بما كان ويكون، لا ينسى شيئاً، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿تَاعِبُدْهُ﴾ أي: وخذ، لأن عبادته بالشرك ليست عبادة، ﴿وَاصْطَلِبْ لِيَذْبَلَكُمُ الْيَهُودُ﴾ أي: اصبر على توحيده؛ وقيل: على أمره ونهيه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَكُنْ لَمْ سَيِّئًا﴾ روى هارون عن أبي عمرو أنه كان يُدغم «هل تعلم»، وجهه أن سببويه يجيز إدغام اللام في التاء والتاء والذال والزاي والسين والصاد والطاء، لأن آخر مخرج من اللام قريب من مخارجهن. قال أبو عبيدة: إذا كان بعد «هل» تاء، ففيه لغتان، بعضهم يُبين لام «هل»، وبعضهم يدغمها. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: مثلاً وشبهاً، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبیر، ومجاهد، وقتادة. والثاني: هل تعلم أحداً يسمّى «اللّه» غيره، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: هل تعلم أحداً يستحق أن يقال له: خالق وقادر، إلا هو، قاله الزجاج.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ أَلَمْ نَأْتِكَ مَاتَ لَسَوْفَ نُخْرِجُكَ حَيًّا﴾ ١٧١ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن قَبْلٍ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ ١٧٢ ﴿فَوَيْلٌ لَّكَ لِخَشْرَتِهِمُ وَالشَّيْطَانِ ثُمَّ لَنَحْضُرَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا﴾ ١٧٣ ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِينًا﴾ ١٧٤ ﴿ثُمَّ لَنَعْنَأَنَّ الَّذِينَ هُم أَكْثَرُ بِمَا جِيئًا﴾ ١٧٥ ﴿وَلَكِن يَنْكُرُونَ إِلَّا وَارِدَهَا كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ حَتَاً مَقْضِيًّا﴾ ١٧٦ ﴿ثُمَّ نُنزِلُ الَّذِينَ أَتَقَفُوا وَنُدُّوهُمُ الْغَالِيِينَ﴾ ١٧٧ ﴿يَا جِيئًا﴾ ١٧٨

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ سبب نزولها أن أبي بن خلف أخذ عظماً بالياً، فجعل يفتنه بيده ويذريه في الريح ويقول: زعم لكم محمد أن الله يبعثنا بعد أن نكون مثل هذا العظم البالي، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١). وروى عطاء عن ابن عباس: أنه الوليد بن المغيرة.

قوله تعالى: ﴿لَسَوْفَ نُخْرِجُكَ حَيًّا﴾ إن قيل: ظاهره ظاهر سؤال، فأين جوابه؟ فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها ابن الأنباري: أحدها: أن ظاهر الكلام استفهام، ومعناه معنى جحد وإنكار، تلخيصه: لستُ مبعوثاً بعد الموت. والثاني: أنه لما استفهم بهذا الكلام عن البعث، أجابه الله ﷻ بقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾، فهو مشتمل على معنى: نعم، وأنت مبعوث. والثالث: أن جواب سؤال هذا الكافر في [يس: ١٧٨] عند قوله تعالى: ﴿وَصَرَّيْنَا لَنَا مَثَلًا﴾، ولا يُنكر بعد الجواب، لأن القرآن كلّه بمنزلة الرسالة الواحدة، والسورتان مكيتان.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: بفتح الذال مشددة الكاف. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر: «يَذْكُرُ» ساكنة الذال خفيفة. وقرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل الناجي: «أَوَلَا يَنْذُرُ الْإِنْسَانَ» بياء وتاء. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن: «يَذْكُرُ» بياء من غير تاء ساكنة

(١) «أسباب النزول» الواحدي ١٧٣ من الكلي.

الذال مخففة مرفوعة الكاف، والمعنى: أولاً يتذکر هذا الجاحد أول خلقه، فيستبدل بالابتداء على الإعادة؟ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ يعني: المكذبين بالبعث ﴿وَالشَّيْطَانِ﴾ أي: مع الشياطين، وذلك أن كل كافر يُحشَر مع شيطانه في سلسلة، ﴿فَدُمُّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ قال مقاتل: أي: في جهنم، وذلك أن حول الشيء يجوز أن يكون داخله، تقول: جلس القوم حول البيت: إذا جلسوا داخله مطيفين به. وقيل: يجثون حولها قبل أن يدخلوها. فأما قوله: ﴿جَنَّتَا﴾ فقال الزجاج: هو جمع جاث، مثل قاعد وقعود، وهو منصوب على الحال، والأصل ضم الجيم، وجاء كسرهما إتباعاً لكسرة الثاء. وللمفسرين في معناه خمسة أقوال: أحدها: قعوداً، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: جماعات جماعات، روي عن ابن عباس أيضاً. فعلى هذا هو جمع جثوة^(۱) وهي المجموع من التراب والحجارة. والثالث: جثياً على الرُكْب، قاله الحسن، ومجاهد، والزجاج. والرابع: قياماً، قاله أبو مالك. والخامس: قياماً على رُكْبِهِم، قاله السدي، وذلك لضيق المكان بهم.

قوله تعالى: ﴿لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِئْمَةٍ﴾ أي: لناخذن من كل فرقة وأمة وأهل دين ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ أي: أعظمهم له معصية، والمعنى: أنه يبدأ بتعذيب الأعتى فالأعتى، وبالأكابر جُرماً، والرؤوس القادة في الشر. قال الزجاج: وفي رفع «أيهم» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه على الاستئناف، ولم تعمل: «لننزعن» شيئاً، هذا قول يونس. والثاني: أنه على معنى الذي يقال لهم: أيهم أشدُّ على الرحمن عتياً؟ قاله الخليل، واختاره الزجاج، وقال: التأويل: لننزعن الذي من أجل عتوه يقال: أي هؤلاء أشدُّ عتياً؟ وأنشد:

وَلَقَدْ أَيَّبْتُ عَنِ الْفَتَاةِ بِمَنْزِلٍ
فَأَبَيْتَ لَا حَرَجَ وَلَا مَحْرُومٍ^(۲)

المعنى: أبيت بمنزلة الذي يقال له: لا هو حرج ولا محروم. والثالث: أن «أيهم» مبنية على الضم، لأنها خالفت أخواتها، فالمعنى: أيهم هو أفضل. وبيان خلافها لأخواتها أنك تقول: اضرب أيهم أفضل، ولا يحسن: اضرب من أفضل، حتى تقول: من هو أفضل، ولا يحسن: كل ما أطيب، حتى تقول: ما هو أطيب، ولأخذ ما أفضل، حتى تقول: الذي هو أفضل، فلما خالفت «ما» و«من» و«الذي» بُنيت على الضم، قاله سيويه.

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَوْلَىٰ بِمَا صِلِيًّا﴾ يعني: أن الأولى بها صلياً الذين هم أشدُّ عتياً، فيبتدأ بهم قبل أتباعهم. و«صلياً»: منصوب على التفسير، يقال: صلي النار يصلها: إذا دخها وقاسى حرها.

قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ نَكْرًا إِلَّا وَارِدًا﴾ في الكلام إضمار تقديره: وما منكم أحد إلا وهو واردها. وفيمن غني بهذا الخطاب قولان: أحدهما: أنه عام في حق المؤمن والكافر، هذا قول الأكثرين. وروي عن ابن عباس أنه قال: هذه الآية للكفار. وأكثر الروايات عنه كالأقول الأول. قال ابن الأنباري: ووجه هذا أنه لما قال: «لنحضرنهم»، وقال: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ كان التقدير: وإن منهم، فأبدلت الكاف من الهاء، كما فعل في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْجَاءَ﴾ [الإنسان: ۲۲] المعنى: كان لهم، لأنه مردود على قوله: ﴿وَسَوَّيْتُمْ رَبِّهِمْ﴾ [الإنسان: ۲۱]، وقال الشاعر:

سَطَّتْ مَزَارَ الْعَاشِقِينَ فَأَصْبَحْتُ
عَسِيراً عَلَيَّ طَلُوبِكِ ابْنَةُ مَحْرُومٍ^(۳)

أراد: طلابها. وفي هذا الورد خمسة أقوال: أحدها: أنه الدخول. روى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الورد: الدخول لا يبقى بز ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للئار - أو قال: لجهنم - ضجيجاً من بردهم»^(۴). وروي عن ابن عباس أنه سأله نافع بن الأزرق عن هذه الآية، فقال:

(۱) مثلثة الجيم.

(۲) البيت في «القرطبي» ۱۱/ ۱۳۳، و«روح المعاني» ۱۶/ ۱۱۰ وروايته فيهما: ولقد أبيت من الفتاة، ولفظه في نسخة الرباط:

ولقد أبيت على الفتاة بمنزل
فأبیت لا حرج ولا محروم

المعنى: أتيت... إلخ.

(۳) البيت تقدم ۳۹۳.

(۴) أخرجه أحمد في «المسند» عن جابر رضي الله عنه، قال الحافظ ابن كثير: غريب ولم يخرجوه، وذكر السيوطي في «الدر» ۴/ ۲۸۰ وزاد نسبه لعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث».

له: «أنا أنا وأنت فسندخلها، فانظر أخرجنا الله ﷻ منها، أم لا؟ فاحتج بقوله تعالى: ﴿فَأَرْزُقْهُمْ النَّارَ﴾ [مؤد: ٩٨] ويقول تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرُودُكُمْ﴾ [الانبيا: ٩٨]. وكان عبد الله بن رواحة يبكي ويقول: أنبت أني وارد، ولم أبتأ أني صادر. وحكى الحسن البصري: أن رجلاً قال لأخيه: يا أخي هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم؛ قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا؛ قال: فميم الضحك؟! وقال خالد بن معدان: إذا دخل أهل الجنة الجنة، قالوا: ألم يعدنا ربنا أن نرد النار؟ فيقال لهم: بلى، ولكن مررتم بها وهي خامدة. ومن ذهب إلى أنه الدخول: الحسن في رواية، وأبو مالك. وقد اعترض على أرباب هذا القول بأشياء. فقال الزجاج: العرب تقول: وردت بلد كذا، ووردت ماء كذا: إذا أشرفوا عليه وإن لم يدخلوا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ١٣٣]، والحجة القاطعة في هذا القول قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ مَنَّا مَبْعُودُونَ﴾ لا يَسْمُوتُ حَسِيهَا [الانبيا: ١٠١، ١٠٢]، وقال زهير:

فَلَمَّا وَرَدْنَا الْمَاءَ رُزْقًا جَمَامًا
وَصَعْنٌ عِصِي الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ^(١)

أي: لما بلغن الماء قمن عليه. قلت: وقد أجاب بعضهم عن هذه الحجج، فقال: أما الآية الأولى، فإن موسى لما أقام حتى استقى الماء وسقى الغنم، كان بلبثه ومباشرته كأنه دخل؛ وأما الآية الأخرى: فإنها تضمنت الإخيار عن أهل الجنة حين كونهم فيها، وحينئذ لا يسمعون حسيها. وقد روينا أنفاً عن خالد بن معدان أنهم يمرؤون بها، ولا يعلمون. والثاني: أن الورد: الممر عليها، قاله عبد الله بن مسعود، وقاتدة. وقال ابن مسعود: يرد الناس النار، ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس^(٢) [ثم كالراكب في رحله]، ثم كشد الرحل، ثم كمشيه^(٣). والثالث: أن ورودها: حضورها، قاله عبيد بن عمير. والرابع: أن ورود المسلمين: المرور على الجسر، وورود المشركين: دخولها. قاله ابن زيد. والخامس: أن ورود المؤمن إليها: ما يصيبه من الحمى في الدنيا، روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَأَرْدُهَا﴾ فعلى هذا من حُم من المسلمين، فقد وردها.

قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَ رَبِّكَ﴾ يعني: الورد ﴿حَسْبًا﴾ والحثم: إيجاب القضاء، والقطع بالأمر. والمقضي: الذي قضاه الله تعالى، والمعنى: إنه حتم ذلك وقضاه على الخلق.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو مجلز، وابن يعمر، وابن أبي ليلى، وعاصم الجحدري: «ثم» بفتح التاء. وقرأ الكسائي، ويعقوب: «تنجي» مخففة. وقرأت عائشة، وأبو بحرية، [وأبو الجوزاء الربيعي: «ثم يُنَجِّي» بياء مرفوعة قبل النون خفيفة الجيم مكسورة. وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز، وابن السميع، وأبو رجاء: «ننحي» بحاء غير معجمة مشددة. وهذه الآية يحتج بها القائلون بدخول جميع الخلق، لأن النجاة: تخلص الواقع في الشيء، ويؤكد قوله تعالى: ﴿وَنُذِرُوا الْقَالِينَ فِيهَا﴾ ولم يقل: ونُدخلهم؛ وإنما يقال: نذر وتترك لمن قد حصل في مكانه. ومن قال: إن الورد للكفار خاصة، قال: معنى هذا الكلام: نخرج المتقين من جملة من يدخل النار. والمراد بالمتقين: الذين اتقوا الشرك، وبالظالمين: الكفار. وقد سبق معنى قوله تعالى: ﴿يُنَجِّي﴾ [مریم: ٦٨].

﴿وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِئْسَ مَا كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَوِيًّا﴾ ﴿٧٣﴾ وَكَرَّ أَمَلْنَا قَلْبَهُمْ مِنْ قَرِينٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا وَرَبِّيَا ﴿٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ يعني المشركين ﴿آيَاتُنَا﴾ يعني: القرآن ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: مشركي قريش ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لفقراء المؤمنين ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر، وحفص عن عاصم [مقاماً] بفتح الميم وقرأ ابن كثير بضم الميم. قال أبو علي الفارسي: المقام: اسم المثوى، إن فُتحت الميم أو ضُمَّت.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ نَوِيًّا﴾ والتدبُّ والتنادي: مجلس القوم ومجتمعهم. وقال الفراء: التدبُّ والتنادي، لغتان.

(١) شرح ديوان زهير، ١٣، «القرطبي» ١١/١٣٧، «اللسان» و«التاج»: ورق.

(٢) أي: كعدو الفرس.

(٣)

وقد روي مرفوعاً وموقوفاً.

ومعنى الكلام: نحن خير، أم أنتم؟ فافتخروا عليهم بالمساكن والمجالس، فأجابهم الله تعالى فقال: ﴿وَرَكَّ أَعْلَانَا قَلْبَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ وقد بينا معنى القرن في [الأنعام: ٦] وشرحنا الأثاث في [النحل: ٨٠]. فأما قوله تعالى: ﴿وَرِيًّا﴾ فقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «ورياً» بهمة بين الراء والياء في وزن: «رعيًا»؛ قال الزجاج: ومعناها: منظراً من «رأيت». وقرأ نافع، وابن عامر: «ريّاً» بياء مشددة من غير همز، قال الزجاج: لها تفسيران: أحدهما: أنها بمعنى الأولى. والثاني: أنها من الرِّيِّ، فالمعنى: منظريهم مرتو من النعمة، كأن النعيم بيّن فيهم. وقرأ ابن عباس، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن أبي سريج عن الكسائي: «زِيّاً» بالزاي المعجمة مع تشديد الياء من غير همز. قال الزجاج: ومعناها: حسن هيئتهم.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَتًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْمَذَابَ رِيًّا فَسَيَمْلُؤُونَ مِنْهُ شَرًّا مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيْتُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أي: في الكفر والعمى عن التوحيد ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ قال ابن الأنباري: خاطب الله لفظ أمر، ومعناه الخبر، والمعنى: أن الله تعالى جعل جزاء ضلّالته أن يتركه فيها. قال ابن الأنباري: خاطب الله العرب بلسانها، وهي تقصد التوكيد للخبر بذكر الأمر، يقول أحدهم: إن زارنا عبد الله فلنكرمه، يقصد التوكيد، ويثبته على أني أكرم نفسي إكرامه؛ ويجوز أن تكون اللام لام الدعاء على معنى: قل يا محمد: مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَاللَّهُمَّ مَدِّ لَهُ فِي النَّعْمِ مَدًّا^(١). قال المفسرون: ومعنى مَدُّ اللّٰهُ تَعَالَى لَهُ: إمهاله في العي. ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ يعني الذين مَدَّهُمْ فِي الضَّلَالَةِ. وإنما أخبر عن الجماعة، لأن لفظ «مَنْ» يصلح للجماعة. ثم ذكر ما يوعدون فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَذَابُ﴾ يعني: القتل، والأسر ﴿وَرِيًّا النَّسَاءُ﴾ يعني: القيامة وما وُعدوا فيها من الخلود في النار ﴿فَسَيَمْلُؤُونَ مِنْهُ شَرًّا مَّكَانًا﴾ في الآخرة، أهم، أم المؤمنون؟ لأن مكان هؤلاء الجنة، ومكان هؤلاء النار، ﴿وَيَعْلَمُونَ بِالنَّصْرِ وَالْقِتْلِ مِنْ أَضْعَفُ جُنْدًا﴾ جندهم، أم جند رسول الله ﷺ. وهذا ردٌ عليهم في قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نِيًّا﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: يزيد الله الذين اهتدوا بالتوحيد إيماناً. والثاني: يزيدهم بصيرةً في دينهم. والثالث: يزيدهم زيادة الوحي إيماناً، فكلما نزلت سورة زاد إيمانهم. والرابع: يزيدهم إيماناً بالناسخ والمنسوخ. والخامس: يزيد الذين اهتدوا بالمنسوخ هدى بالناسخ. قال الزجاج: المعنى: إن الله تعالى يجعل جزاءهم أن يزيدهم يقيناً، كما جعل جزاء الكافر أن يمدّه في ضلّالته. قوله تعالى: ﴿وَالْبَيْتُ الصَّلَاحُ﴾ قد ذكرناها في سورة [الكهف: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَرِيًّا مَرَدًّا﴾ المراد هاهنا مصدر مثل الرد، والمعنى: وخير ردّاً للثواب على عاملها، فليست كأعمال الكفار التي خسروها فبطلت.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ ﴿٧٧﴾ أَلَمَلَعَ النَّيْبُ أَرَأَيْتَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: ما روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث مسروق عن حَبَّابِ [بن الأرت] قال: كنت رجلاً قَيْتًا [أي: حداداً] وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أنقاضاه، فقال: [لا] والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت، ثم تَبِعْتُ. قال: فإني إذا مِتُّ ثم بُعِثْتُ جِئْتَنِي وَلِي ثَمَّ مَالٌ وَوَلَدٌ، فأعطيتك، فنزلت فيه هذه الآية، إلى قوله تعالى: ﴿فَكَرَدًا﴾^(٢). والثاني: أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، وهذا مروى عن الحسن. والمفسرون على الأول.

قوله تعالى: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم، وابن عامر: بفتح الواو. وقرأ حمزة، والكسائي: بضم الواو. وقال الفراء: وهما لغتان، كالعدم، والعدم، وليس يجمع، وقيس تجعل الولد جمعاً،

(١) في النسخة الاستبوابية: فاللهم مدّه في العمر مدّاً.

(٢) «البخاري» ٣٢٦/٨، و«مسلم» ٢٥٣/٤، ورواه أحمد في «المستد» ١١٠/٥، و«الترمذي» ١٤٥/٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والوَلَدِ، بفتح الواو، واحداً. وأين زعم هذا الكافر أن يؤتى المال والولد؟ فيه قولان: أحدهما: أنه أراد في الجنة على زعمكم. والثاني: في الدنيا. قال ابن الأنباري: وتقدير الآية: أرايته مصيباً!؟

قوله تعالى: ﴿الْمَلْعَ اللَّيْبِ﴾ قال ابن عباس في رواية: أَعْلِمَ ما غاب عنه حتى يعلم أفي الجنة هو، أم لا؟ وقال في رواية أخرى: أَنْظَرَ في اللوح المحفوظ!؟

قوله تعالى: ﴿أَبَرِ أَفْعَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أم قال: لا إله إلا الله، فأرحمه بها!؟ قاله ابن عباس. والثاني: أم قَدَّمَ عملاً صالحاً، فهو يرحوه!؟ قاله قتادة. والثالث: أم عهد إليه أنه يدخله الجنة!؟ قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر على ما قال من أنه يؤتى المال والولد. ويجوز أن يكون معنى «كَلَّا» أي: إنه لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الله عهداً. ﴿سَنَكُنُّ مَا يَقُولُ﴾ أي: سنأمر الحفظة بإثبات قوله عليه لنجازه به، ﴿وَنُنَدُّ لِمِ الْآذَانِ مَدًّا﴾ أي: نجعل بعض العذاب على إثر بعض. وقرأ أبو العالية الرياحي، وأبو رجاء العطاردي: «سيتكتب» ويرثه» بياء مفتوحة.

قوله تعالى: ﴿وَتَرْتَبُّهُ مَا يَقُولُ﴾ فيه قولان: أحدهما: نرثه ما يقول أنه له في الجنة، فنجعله لغيره من المسلمين، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء. والثاني: نرث ما عنده من المال، والولد، ياهلاكنا إياه، وإبطال ملكه، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً، وبه قال قتادة. قال الزجاج: المعنى: سنسلبه المال والولد، ونجعله لغيره.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّنَا قَرَدًا﴾ أي: لا مال ولا ولد.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهاتٌ لِيَكُونُوا لَكُمْ عِزًّا﴾ ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِادِيَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكُفْرِيِّينَ فَوَزَّهُمْ أَمَّا﴾ ﴿فَلَا تَعْمَلْ مَطَلِبَهُمْ إِنَّمَّا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهاتٌ﴾ يعني: المشركين عابدي الأصنام ﴿لِيَكُونُوا لَكُمْ عِزًّا﴾ قال الفراء: ليكونوا لهم شفعا في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما قَدَرُوا، ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ يعني الأصنام بجحد عبادة المشركين، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا بِإِيْمَانٍ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [النص: ٦٣] لأنها كانت جماداً لا تعقل العبادة، ﴿وَيَكُونُونَ﴾ يعني: الأصنام ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعني: المشركين ﴿ضِدًّا﴾ أي: أعواناً عليهم في القيامة، يكذبونهم ويلعنونهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾ قال الزجاج: في معنى هذا الإرسال وجهان: أحدهما: حَلَيْنَا بين الشياطين وبين الكافرين فلم نعصمهم من القبول منهم. والثاني: وهو المختار: سَلَطْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ، وَتَيَضَّنَاهُمْ لَهُمْ بكفرهم. ﴿فَوَزَّهُمْ أَمَّا﴾ أي: تزعجهم إزعاجاً حتى يركبوا المعاصي. وقال الفراء: تزعجهم إلى المعاصي، وتغريهم بها. قال ابن فارس: يقال: أَرَّه على كذا: إذا أغراه به، وَأَرَّثَ الْقَيْدُ: عَلَثَ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْمَلْ مَطَلِبَهُمْ﴾ أي: لا تعجل بطلب عذابهم. وزعم بعضهم أن هذا منسوخ بآية السيف، وليس بصحيح. ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ في هذا المعدود ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أنفاسهم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال طاووس، ومقاتل. والثاني: الأيام، والليالي، والشهور، والسنون، والساعات، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنها أعمالهم، قاله قطرب.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدًّا﴾ ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِبِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًّا﴾ ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنِ أَذْنًا عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ قال بعضهم: هذا متعلق بقوله: «ويكونون عليهم ضداً، يوم نحشر المتقين» وقال بعضهم: تقديره: اذكر لهم يوم نحشر المتقين، وهم الذين اتَّقُوا الله بطاعته واجتناب معصيته. وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني: «يوم يحشُر» بياء مفتوحة ورفع الشين «وَيَسُوقُ» بياء مفتوحة ورفع السين. وقرأ أبي بن كعب، والحسن البصري، ومعاذ الفارئ، وأبو المتوكل الناجي: «يوم يُحشِر» بياء مرفوعة وفتح الشين «المتقون» رفعاً «وَيَسَاقُ»

بألف وياء مرفوعة «المجرمون» بالواو على الرفع. والوفد: جمع وافد، مثل: ركب، وزاكب، وضخب، وصاحب. قال ابن عباس، وعكرمة، والفراء: الوفد: الركب. قال ابن الأنباري: الركب: عند العرب: ركب الإبل. وفي زمان هذا الحشر قولان: أحدهما: أنه من قبورهم إلى الرحمن، قاله علي بن أبي طالب. والثاني: أنه بعد الحساب، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَسُقَى الْمَجْرِمِينَ﴾ يعني: الكافرين ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ قال ابن عباس، وأبو هريرة، والحسن: عطاشاً. قال أبو عبيدة: الورد: مصدر الورد. وقال ابن قتيبة: الورد: جماعة يردون الماء، يعني: أنهم عطاش، لأنه لا يرد الماء إلا العطشان. وقال ابن الأنباري: معنى قوله: «ورداً»: واردين. قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ﴾ أي: لا يشفعون، ولا يشفع لهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال الزجاج: جائز أن يكون «من» في موضع رفع على البدل من الواو والنون، فيكون المعنى: لا يملك الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً؛ وجائز أن يكون في موضع نصب على استثناء ليس من الأول، فالمعنى: لا يملك الشفاعة المجرمون، ثم قال: «إلا» على معنى «لكن» ﴿مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ فإنه يملك الشفاعة. والعهد هاهنا: توحيد الله والإيمان به. وقال ابن الأنباري: تفسير العهد في اللغة: تقدمه أمر يُعلم ويُحفظ، من قولك: عهدت فلاناً في المكان، أي: عرفته، وشهدته.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ٨٨ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ٨٩ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرُنَّ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَغَضَبَ الْجِبَالُ هَذَا﴾ ٩٠ ﴿أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ٩١ ﴿وَمَا يَبْنِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ٩٢ ﴿إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ٩٣ ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ ٩٤

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ يعني: اليهود، والنصارى، ومن زعم من المشركين أن الملائكة بنات الله ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ أي: شيئاً عظيماً من الكفر. قال أبو عبيدة: الإذ، والتكر: الأمر المتناهي العظم.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرُنَّ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: «تكاد» بالناء. وقرأ نافع، والكسائي: «يكاد»، بالياء. وقرأ جميعاً: «ينفطرن» بالياء والناء مشددة الطاء، وافقهما ابن كثير، وحفص عن عاصم في «ينفطرن»، وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «ينفطرن» بالنون. وقرأ حمزة، وابن عامر في (مريم) مثل أبي عمرو، وفي [عسق]: «ه» مثل ابن كثير. ومعنى: «ينفطرن منه»: يقاربن الانشقاق من قولكم. قال ابن قتيبة: وقوله تعالى: ﴿هَذَا﴾ أي: سقوطاً.

قوله تعالى: ﴿أَن دَعَا﴾ قال الفراء: من أن دعوا، ولأن دعوا. وقال أبو عبيدة: معناه: أن جعلوا، وليس هو من دعاء الصوت، وأشد:

أَلَا رَبُّ مَنْ تَدْعُو نَصِيحاً وَإِن تَغِيبَ تَجِدْهُ بِغَيْبٍ غَيْرِ مُنْتَصِحِ الصَّنَدِ (١)
قوله تعالى: ﴿وَمَا يَبْنِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ٩٢ أي: ما يصلح له، ولا يليق به اتخاذ الولد، لأن الولد يقتضي مجانسة، وكل متخذ ولد يتخذ من جنسه، والله تعالى منزّه عن أن يجانس شيئاً، أو يجانسه، فمحال في حقه اتخاذ الولد، ﴿إِن كُلُّ﴾ أي: ما كل ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ﴾ يوم القيامة ﴿عَبْدًا﴾ ذليلاً خاضعاً. والمعنى: أن عيسى وعزيراً والملائكة عبيد له. قال القاضي أبو يعلى: وفي هذا دلالة على أن الوالد إذا اشترى ولده، لم يبق ملكه عليه، وإنما يعتق بنفس الشراء، لأن الله تعالى نفى البتة لأجل العبودية، فدل على أنه لا يجتمع بتوة ورفق.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ﴾ أي: علم عددهم ﴿وَعَدَّاهُمْ عَدًّا﴾ فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم مع كثرتهم ﴿وَكُلَّاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ ٩٤ بلا مال، ولا نصير يمنعه. فإن قيل: لأية علة وحّد في «الرحمن» و«آتيه» وجمع في العائد في

(١) «الطبري» ١٦/١٣١، و«مجاز القرآن» ١٢/٢، و«اللسان»: دعا.

«أحصاهم»، و«عدهم». فالجواب: أن لكل لفظ توحيد، وتأويل جمع، فالتوحيد محمول على اللفظ، والجمع مصروف إلى التأويل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْتَهُ لِيَسِّرَكَ لِيُنزِلَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنزِلَ بِهِ وَمَا لَنَا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرِينٍ هَلْ نَحْسُ بَيْنَهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال ابن عباس: نزلت في علي عليه السلام، وقال معناه: يحبهم، ويحببهم إلى المؤمنين. قال قتادة: يجعل لهم وُدًّا في قلوب المؤمنين. ومن هذا حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أحب الله عبداً قال: يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبوه، فينادي جبريل في السموات: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيلقى حبه على أهل الأرض فيحبُّه، وذكر في البغض مثل ذلك»^(١). وقال هرم بن حيان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله صلى الله عليه وسلم، إلا أقبل الله صلى الله عليه وسلم بقلوب أهل الإيمان إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم.

قوله تعالى: ﴿فَأِنَّمَا يَسَّرْتَهُ لِيَسِّرَكَ﴾ يعني: القرآن. قال ابن قتيبة: أي، سهَّلناه، وأنزلناه بلغتك. واللُّدُّ، جمع أَلْدِّ، وهو الحَصِمُ الجَدِيل.

قوله تعالى: ﴿وَرَكْرَأَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ هذا تخويف لكفار مكة ﴿هَلْ نَحْسُ بَيْنَهُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾ قال الزجاج: أي: هل ترى، يقال: هل أحسست صاحبك، أي: هل رأيته؟ والرُّكْرُ: الصوت الخفي؛ وقال ابن قتيبة: الصوت الذي لا يُفْهَم، وقال أبو صالح: حركة، [والله تعالى أعلم].



(١) «البخاري» ٢٢٠/٦، ٣٨٦/١٠، وليس فيه ذكر البغض مثل ذلك، ورواه «مسلم» ٢٠٣٠/٤، ولفظه عنده بتمامه: «إن الله إذا أحب عبداً، دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً، فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض الله عبداً، دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى ﴿٣﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٤﴾ لَمْ يَلَمْسْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٥﴾ وَإِنْ يُجَهَر بِالصَّوْتِ فَإِنَّهُ يَظُنُّ أَلَيْسَ بِأَخْفَى ﴿٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٧﴾ ﴿٨﴾

وهي مكية كلها بإجماعهم. وفي سبب نزول (طه) ثلاثة أقوال. أحدها: أن رسول الله ﷺ كان يراوح بين قدميه، يقوم على رجل، حتى نزلت هذه الآية، قاله [علي] ^(١). والثاني: أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلى هو وأصحابه فأطال القيام، فقالت قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك ^(٢). والثالث: أن أبا جهل، والنضر بن الحارث، والمطعم بن عدي، قالوا لرسول الله ﷺ: إنك لتشقى بترك ديننا، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل ^(٣). وفي «طه» قراءات. قرأ ابن كثير، وابن عامر: «طه» بفتح الطاء والهاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: بكسر الطاء والهاء. وقرأ نافع: «طه» بين الفتح والكسر، وهو إلى الفتح أقرب؛ كذلك قال خلف عن المسيبي. وقرأ أبو عمرو: بفتح الطاء وكسر الهاء، وروى عنه عباس مثل حمزة. وقرأ ابن مسعود، وأبو رزين العقيلي، وسعيد بن المسيب، وأبو العالية: بكسر الطاء وفتح الهاء. وقرأ الحسن: «طه» بفتح الطاء وسكون الهاء. وقرأ الضحاك، ومورق: «طه» بكسر الطاء وسكون الهاء. واختلفوا في معناها على أربعة أقوال: أحدها: أن معناها: يا رجل، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة؛ واختلف هؤلاء بأي لغة هي، على أربعة أقوال: أحدها: بالنبطية، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبيرة في رواية، والضحاك. والثاني: بلسان عك، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: بالسريانية، قاله عكرمة في رواية، وسعيد بن جبيرة في رواية، وقتادة. والرابع: بالحبيشية، قاله عكرمة في رواية. قال ابن الأنباري: ولغة قريش وافقت هذه اللغة في المعنى. والثاني: أنها حروف من أسماء. ثم فيها قولان: أحدهما: أنها من أسماء الله تعالى. ثم فيها قولان: أحدهما: أن الطاء من اللطيف، والهاء من الهادي، قاله ابن مسعود، وأبو العالية، والثاني: أن الطاء افتتاح اسمه «طاهر» و«طبيب» والهاء افتتاح اسمه «هادي» قاله سعيد بن جبيرة. والقول الثاني: أنها من غير أسماء الله تعالى. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الطاء من طابة، وهي مدينة رسول الله ﷺ، والهاء من مكة، حكاه أبو سليمان الدمشقي. والثاني: أن الطاء: طرب أهل الجنة، والهاء: هوان أهل النار. والثالث: أن الطاء في حساب الجمل تسعة، والهاء خمسة، فتكون أربعة عشر. فالمعنى: يا أيها البدر ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، حكى القولين الثعلبي. والثالث: أنه قَسَمَ أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقد شرحنا معنى كونه اسماً في فاتحة (مريم). وقال القرطبي: أقسم الله بظوله وهديته؛ وهذا القول قريب المعنى من الذي قبله. والرابع: أن معناه: طأ الأرض بقدميك، قاله مقاتل بن حيان ^(٤). ومعنى قوله ﴿لِتَشْقَى﴾: لتعب وتبلغ من الجهد ما قد بلغت، وذلك أنه اجتهد في العبادة وبالغ، حتى إنه كان يراوح بين قدميه لطول القيام، فأمر بالتخفيف.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٨٨/٤ من رواية البزار عن علي ^(١).

(٢) «أسباب النزول» للواحدى ١٧٤، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٨٩/٤ من رواية ابن أبي حاتم عن الضحاك.

(٣) «أسباب النزول» للواحدى ١٧٤.

(٤) قال أبو جعفر بن جرير الطبري: والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه، قول من قال: معناه: يا رجل، لأنها كلمة معروفة في عك فيما بلغني، وأن معناها فيهم: يا رجل.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذَكَّرَ﴾ قال الأخفش: هو بدل من قوله: «لنشقى»، ما أنزلناه إلا تذكرة، أي: عظة.

قوله تعالى: ﴿تَزِيلًا﴾ قال الزجاج: المعنى: أنزلناه تنزيلاً، و﴿أَنْزَلْنَا﴾ جمع العُلْيَا، تقول: سماء عُلْيَا، وسموات عُلَى، مثل الكُبْرَى، والكُبَيْر. فأما «الثرى» فهو التراب الندي، والمفسرون يقولون: أراد الثرى الذي تحت الأرض السابعة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَجْهَرٌ بِالْقَوْلِ﴾ أي: ترفع صوتك ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ أَسْرًا﴾ والمعنى: لا تجهد نفسك برفع الصوت، فإن الله يعلم السر. وفي المراد بالسر وأخفى، خمسة أقوال: أحدها: أن السر: ما أسره الإنسان في نفسه، وأخفى: ما لم يكن بعدد وسيكون، رواه جماعة عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثاني: أن السر: ما حدثت به نفسك، وأخفى: ما لم تلفظ به، قاله سعيد بن جبير. والثالث: أن السر: العمل الذي يُبْرِئُهُ الإنسان من الناس، وأخفى منه: الوسوسة، قاله مجاهد. والرابع: أن معنى الكلام: يعلم إسرار عباده، وقد أخفى سره عنهم فلا يُعْلَم، قاله زيد بن أسلم، وابنه. والخامس: يعلم ما أسره الإنسان إلى غيره، وما أخفاه في نفسه، قاله الفراء.

﴿وَهَلْ أُنْتَلِكُ حَيْثُ مَوْجٍ ۝١﴾ إِذْ رَمَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلَّ بَيْنَكُمْ يَتَنَبَّأُونَ بِأَعْيُنِكُمْ حَتَّىٰ تَبْلُغُوا النَّارَ هُكًى ۝٢ فَلَمَّا أَنهَا تُودِي بِمَوْجٍ ۝٣ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْيَكُمْ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝٤ وَإِنَّا آنَفَرْنَا لَنسْتَعِمُّ لِمَا يُوحَىٰ ۝٥ إِنِّي أَنَا أَنَّةُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝٦ إِذْ السَّكَعَةُ مَابِيَهُ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِشَجَرِي كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۝٧ فَلَا يُصَدِّقُكَ عَمَّا مِنَّا لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَكَزَىٰ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنْتَلِكُ حَيْثُ مَوْجٍ ۝١﴾ هذا استفهام تقرير، ومعناه: قد أتاك. قال ابن الأنباري: وهذا معروف عند اللغويين أن تأتي «هل» معبرة عن «قد»، فقد قال رسول الله ﷺ وهو أفصح العرب: «اللهم هل بلغت؟»^(١)، يريد: قد بلغت. قال وهب بن منبه: استأذن موسى شعبياً ﷺ في الرجوع إلى والدته، فأذن له، فخرج بأهله، فولد له في الطريق في ليلة شتية، ففدح فلم يُور الزناد، فبينما هو في مزاوله ذلك، أبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق؛ وقد ذكرنا هذا الحديث بطوله في كتاب «الحدائق» فكرهنا إطالة التفسير بالقصص، لأن غرضنا الاقتصار على التفسير ليسهل حفظه^(٢). قال المفسرون: رأى نوراً، ولكن أخبر بما كان في ظن موسى. ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ يعني: امرأته ﴿امْكُثُوا﴾ أي: أقيموا مكانكم. وقرأ حمزة: ﴿لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ بضم الهاء هاهنا وفي [القصص: ٢٩]. ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ قال الفراء: إني وجدت، يقال: هل آنستُ أحداً، أي: وجدت؟ وقال ابن قتيبة: «آنست» بمعنى أبصرت. فأما القَبَسُ، فقال الزجاج: هو ما أخذته من النار في رأس عود أو في رأس فتيلة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُكًى﴾ قال الفراء: أراد: هادياً، فذكره بلفظ المصدر. قال ابن الأنباري: يجوز أن تكون: «على» هاهنا بمعنى «عند»، وبمعنى «مع»، وبمعنى الباء. وذكر أهل التفسير أنه كان قد ضلَّ الطريق، فلمع أن النار لا تخلو من مؤقذ. وحكى الزجاج: أنه ضل عن الماء، فرجا أن يجد من يهديه الطريق أو يده له على الماء.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنهَا تُودِي بِمَوْجٍ﴾ يعني: النار ﴿تُودِي بِمَوْجٍ ۝٣﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴿١﴾ إِنَّمَا كُرَّ الكِنَايَةُ، لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإزالة الشبهة، ومثله ﴿وَبِئْسَ أَنَا كَذَّابٌ كَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٨٩]. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: «أني» بفتح الألف والياء. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «أني» بكسر الألف، إلا أن نافعاً فتح الياء. قال الزجاج: من قرأ: «أني أنا» بالفتح، فالمعنى: نودي [بأني أنا ربك، ومن قرأ بالكسر، فالمعنى: نودي] يا موسى، فقال الله: إِنِّي أَنَا رَبُّكَ.

(١) روى البخاري في «صحيحه» ٤٥٨٣ عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: «يا أيها الناس أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، قال: «فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: «فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، فأعادها مراراً، ثم رفع رأسه فقال: «اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت»، قال ابن عباس ؓ: فوالذي نفسي بيده، إنها لوصيته إلى أمته، فليبلغ الشاهد الغائب لا ترجموا بعدي كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض»، ورواه أحمد في «المسند» ومسلم بلفظ آخر.

(٢) ذكره بطوله السيوطي في «الدرر» ٤/٢٩٠ من رواية أحمد في «الزهدي»، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ تَمَائِكَ﴾ في سبب أمره بخلعهما قولان: أحدهما: أنهما كانا من جلد حمار ميت، رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ^(١)، وبه قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعكرمة. والثاني: أنهما كان من جلد بقرة دُكِّيت، ولكنه أمر بخلعهما ليباشر تراب الأرض المقدسة، فتناله بركتها، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ فيه قولان قد ذكرناهما في [المائة: ٢١] عند قوله: ﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ قوله تعالى: ﴿طَوًى﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «طوى وأنا» غير مُجْزأة^(٢). وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «طَوًى مُجْزأة^(٣)»؛ وكلُّهم ضم الطاء. وقرأ الحسن، وأبو حنيفة: «طَوًى» بكسر الطاء مع التنوين. وقرأ علي بن نصر عن أبي عمرو: «طَوًى» بكسر الطاء من غير تنوين. قال الزجاج: في «طَوًى» أربعة أوجه: طَوًى، بضم أوله من غير تنوين ويتنوين. فمن نَوَّنه، فهو اسم للوادي. وهو مذكَّر سمي بمذكَّر على فُعَلٍ نحو حُطِّمَ وضُرِّدَ، ومن لم ينوَّنه ترك صرفه من جهتين: لإحداهما: أن يكون معدولاً عن طَوًى، فيصير مثل «عَمَرَ» المعدول عن عامر، فلا ينصرف كما لا ينصرف «عَمَرَ». والجهة الثانية: أن يكون اسماً للبقعة، كقوله: ﴿فِي الْبَقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ [التقصير: ٣٠]، وإذا كُسر ونوَّن فهو مثل يعى. والمعنى: المقدَّس مرَّةً بعد مرَّةً، كما قال عدي بن زيد:

أَعَاذِلْ، إِنَّ اللَّوْمَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ
عَلِيَّ طَوًى مِنْ غَيْرِكَ الْمُتَرَدِّدِ^(٤)

أي: اللوم المكرر عليّ؛ ومن لم ينوَّن جعله اسماً للبقعة. [وللمفسرين في معنى «طَوًى» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اسم الوادي، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أن معنى «طَوًى»: طِا الوادي، رواه عكرمة عن ابن عباس، وعن مجاهد كالقولين. والثالث: أنه قدَّس مرتين، قاله الحسن، وقتادة.]

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَنْتَرَكْتُ﴾ أي: اصطفيك. وقرأ حمزة، والمفضل: «وَأَنَا» بالنون المشددة «اخترناك» بآلف. ﴿فَأَسْتَمِعْ لِمَا يُرْسَخُ﴾ أي: للذي يوحي. قال ابن الأنباري: الاستماع هاهنا محمول على الإنصات، المعنى: فأنصت لوحيي، والوحي هاهنا قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ أي: وحُدني، ﴿وَأَقْرِبْ أَلْسِنَةَ يَزْكَرِي﴾ فيه قولان: أحدهما: أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة، سواء كنت في وقتها أو لم تكن، هذا قول الأكثرين. وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفار لها غير ذلك، وقرأ: ﴿وَأَقْرِبْ أَلْسِنَةَ يَزْكَرِي﴾»^(٥). والثاني: أقم الصلاة لتذكركني فيها، قاله مجاهد. وقيل: إن الكلام مردود على قوله: ﴿فَأَسْتَمِعْ﴾، فيكون المعنى: فاستمع لما يوحي، واستمع ليزكري. وقرأ ابن مسعود: وأبي بن كعب، وابن السميع: «وأقم الصلاة للتذكُّر» بلامين وتشديد الذال.

قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أكثر القراء على ضم الألف. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أكاد أخفيها من نفسي، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد في آخرين. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن علي: أكاد أخفيها من نفسي، قال القراء: المعنى: فكيف أظهركم عليها؟ قال الميرد: وهذا على عادة العرب، فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء: كتمته حتى مِنْ نَفْسِي، أي: لم أطلع عليه أحداً. والثاني: أن الكلام تم عند قوله: «أَكَادُ»، ويعدده مضمير تقديره: أكاد أتى بها، والابتداء: أخفيها، قال ضايع البرجمي:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْسَنِي
تَرَكْتُ عَلَى عُمَانَ تَبْكِي حَلَالِيْلَةَ^(٦)

أراد: كدت أفعل. والثالث: أن معنى «أَكَادُ»: أريد، قال الشاعر:

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٦/١ وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج، وحميد هو ابن علي الأعرج الكوفي، منكر الحديث، وذكره الطبري ١٤٤/١٦ وقال: في إسناده نظر يجب الثبوت فيه.

(٢) أي: غير مصروقة.

(٣) «الطبري» ١٤٥/١٦، و«مجاز القرآن» ١٦/٢، و«اللسان»: طوى، و«التاج»: نسي.

(٤) رواه البخاري في كتاب «مواقيت الصلاة»، باب من نسي صلاة فليصل، ورواه مسلم ٤٧٧/١، وأبو داود رقم (٤٤٢).

(٥) «الطبري» ١٥٢/١٦، و«القرطبي» ١٨٣/١١، و«البحر» ٢٣٣/٦.

كَادَتْ وَكَذُتْ وَتَلَكَ خَيْرُ إِزَادَةٍ لَوْ عَادَ مِنْ لَهْوِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى (١)

معناه: أرادت وأردت، ذكرهما ابن الأنباري. فإن قيل: فما فائدة هذا الإخفاء الشديد؟ فالجواب: أنه للتحذير والتخويف، ومن لم يعلم متى يهجم عليه عدوه كان أشد حذراً. وقرأ سعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، وأبو رجاء العطاردي، وحמיד بن قيس: «أخفيها» بفتح الألف. قال الزجاج: ومعناه: أكاد أظهرها، قال امرؤ القيس:

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لَا نَخْفُوهُ وَإِنْ تَتَّبِعُوا الحَرْبَ لَا نَنْفُذُ (٢)

أي: إن تدفنوا الداء لا نظهره. قال: وهذه القراءة أبين في المعنى، لأن معنى: «أكاد أظهرها»: قد أخفيها وكادت أظهرها. «لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى» أي: بما تعمل. و«لِيُجْزَى» متعلق بقوله: «إن الساعة آتية» لتجزي، ويجوز أن يكون على «أقم الصلاة للذكرى» لتجزي.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ أي: عن الإيمان بها ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي: من لا يؤمن بكونها؛ والخطاب للنبي ﷺ خطاب لجميع أمته، ﴿وَأَنبِئْهُمُ﴾ أي: مُرَادُهُ وخالف أمر الله ﷻ، ﴿فَكَذَّبُوا﴾ أي: فَتَهْلِكُ؛ قال الزجاج: يقال: رَدِي يَرُدِّي: إذا هلك.

﴿وَمَا تَلَكَ يَسْمِينِكَ يَمْوَسِي﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَوَكَّزْتُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى عَنِي وَلِي فِيهَا مَرَاتِبٌ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلَيْهَا يَمْوَسِي (١٩) فَالْقَلْبُهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَصَفَّ سَوْيِدَمَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَأَسْمُكَ يَدُكَ إِلَى جَانِحِكَ مَخْرُجٌ بَيْعَةً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آتِيَةٍ أُخْرَى (٢٢) لِزَيْدِكَ مِنْ بَيْنِنَا الْكَبْرَى (٢٣)

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَكَ يَسْمِينِكَ﴾ قال الزجاج: «تلك» اسم مبهم يجري مجرى «التي»، والمعنى: ما التي ييمينك؟

قوله تعالى: ﴿أَوَكَّزْتُ عَلَيْهَا﴾ التوكؤ: التحامل على الشيء ﴿وَأَهْشُ بِهَا﴾ قال الفراء: أصرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقه فترعاه غنمي: قال الزجاج: واشتقاقه من أتى أحيل الشيء إلى الهشاشة والإمكان. والمأرب: الحاجات، واحدها: مَأْرِبَةٌ ومَأْرِبَةٌ. وروى قتيبة، وورش: «مأرب» بإمالة الهمزة. فإن قيل: ما الفائدة في سؤال الله تعالى له: «وما تلك ييمينك» وهو يعلم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن لفظه لفظ الاستفهام، ومجره مجرى السؤال، ليجيب المخاطب بالإقرار به، فثبت عليه الحجة باعترافه فلا يمكنه الجحد، ومثله في الكلام أن تقول لمن تخاطبه وعندك ماء: ما هذا؟ فيقول: ماء، فتضع عليه شيئاً من الصبغ، فإن قال: لم يزل هكذا، قلت له: ألست قد اعترفت بأنه ماء؟ فثبت عليه الحجة، هذا قول الزجاج. فعلى هذا تكون الفائدة أنه قرّر موسى أنها عصا لما أراد أن يريه من قدرته في انقلابها حيّة، فوقع المُعْجِزُ بها بعد التثبيت في أمرها. والثاني: أنه لما أطلع الله تعالى على ما في قلب موسى من الهيبة والإجلال حين التكليم، أراد أن يوانسه ويخفف عنه يُقَلِّ ما كان فيه من الخوف، فأجرى هذا الكلام للاستئناس، حكاة أبو سليمان الدمشقي. فإن قيل: قد كان يكفي في الجواب أن يقول: «هي عصاي»، فما الفائدة في قوله: «أتوكأ عليها» إلى آخر الكلام، وإنما يُشْرَحُ هذا لمن لا يعلم فوائدها؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه أجاب بقوله: «هي عصاي»، فقيل له: ما تصنع بها؟ فذكر باقي الكلام جواباً عن سؤال ثانٍ، قاله ابن عباس، وهب. والثاني: أنه إنما أظهر فوائدها، وبين حاجته إليها، خوفاً [من] أن يأمره بإلقائها كالنملين، قاله سعيد بن جبير. والثالث: أنه بين منافعها لئلا يكون عابثاً بحملها، قاله الماوردي. فإن قيل: فلم اقتصر على ذكر بعض منافعها ولم يُبَيِّنِ الشرح؟ فعنه [ثلاثة] أجوبة: أحدها: أنه كره أن يشغل عن كلام الله بتعداد منافعها. والثاني: استغنى بعلم الله فيها عن كثرة التعداد. والثالث: أنه اقتصر على اللازم دون العارض. وقيل: كانت تضيء له بالليل، وتدفع عنه الهوام، وتثمر له إذا اشتمى الشمار (٣). وفي جنسها

(١) البيت غير منسوب في «الطبري» ١٥١/١٦، و«القرطبي» ١٨٤/١١، و«اللسان» و«التاج»: كود.

(٢) البيت لامرؤ القيس، «ديوانه» ١٨٦، و«الطبري» ١٥٠/١٦، و«مجاز القرآن» ١٧/٢، و«القرطبي» ١٨٢/١١، و«اللسان» و«التاج»: خفا. وقوله: لا نَخْفُوهُ، بفتح النون: أي: لا نظهره، وكذا قرئ قوله تعالى: ﴿أَكَاذِبُنِي﴾ أي: أظهرها.

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» ١٤٥/٣: وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المأرب التي أبهت، فقيل كانت تضيء بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام،

قولان: أحدهما: أنها كانت من آس الجنة، قاله ابن عباس. والثاني: [أنها] كانت من عوسج. فإن قيل: المآرب جمع، فكيف قال: «أخرى» ولم يقل: «أخر»؟ فالجواب: أن المآرب في معنى جماعة، فكأنه قال: جماعة من الحاجات أخرى، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْهَا يَتَوَسَّنَ﴾ قال المفسرون: ألقاها، ظناً منه أنه قد أمر برفضها، فسمع حساً فالتفت فإذا هي كأعظم ثعبان تمر بالصخرة العظيمة فتبتلعها، فهرب منها. وفي وجه الفائدة في إظهار هذه الآية ليلة المخاطبة قولان: أحدهما: لتلا يخاف منها إذا ألقاها بين يدي فرعون. والثاني: ليريه أن الذي أبعثك إليه دون ما أريتك، فكما دلت لك الأعظم وهو الحية، أدل لك الأدنى. ثم إن الله تعالى أمره بأخذها وهي على حالها حيّة، فوضع يده عليها فعادت عصاً، فذلك قوله: ﴿سَمِعْتُمْهَا سِيرَتَهَا الْأُورُونَ﴾ قال الفراء: طريقته، يقول: تردّها عصى كما كانت. قال الزجاج: و«سيرتها» منصوبة على إسقاط الخافض وإفشاء الفعل إليها، المعنى: سئيدها إلى سيرتها. فإن قيل: إنما كانت العصا واحدة، وكان إلقاؤها مرّة، فما وجه اختلاف الأخبار عنها، فإنه يقول في الأعراف: [١٠٧]: ﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَأَنَّ مُبِينٌ﴾، وهانذا: «حية»، وفي مكان آخر: ﴿كَأَنَّهَا جَاءَتْ﴾ [النمل: ٢٠]، والجاءت ليست بالعظيمة، والثعبان أعظم الحيات؟ فالجواب: أن صفتها بالجان عبارة عن ابتداء حالها، وبالثعبان إخبار عن انتهاء حالها، والحية اسم يقع على الصغير والكبير والذكر والأنثى. وقال الزجاج: خلّفها خلقت الثعبان العظيم، واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفتها. قوله تعالى: ﴿وَأَسْمُهُ يَذَكُ إِلَىٰ جَنْبِكَ﴾ قال الفراء: الجناح من أسفل العَضُد إلى الإبط. وقال أبو عبيدة: الجناح ناحية الجنب، وأنشد:

أَسْمُهُ لَلصَّذْرِ وَالْجَنَاحِ^(١)

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ بَيْضَةً مِنْ فَرْجِ سَوْءٍ﴾ أي: من غير برص ﴿آيَةٌ أُخْرَى﴾ أي: دلالة على صدق سوى العصا. قال الزجاج: ونصب «آية» على معنى: آتينك آية، أو نؤتيك [آية].

قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَنَّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾. إن قيل: لِمَ لم يقل: «الكُبرى» فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه كقوله: ﴿مَتَابِرُ أُخْرَى﴾ وقد شرحناه، هذا قول الفراء. والثاني: أن فيه إضمار تقديره: لتريك من آياتنا الآية الكبرى. وقال أبو عبيدة: فيه تقديم وتأخير، تقديره: لتريك الكبرى من آياتنا. والثالث: إنما كان ذلك لوفاق رأس الآي، حكى القولين الثعلبي.

﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ قَالَ رَبِّ آتِنِي لِي صَدْرِي ﴿١٥﴾ وَيَرِيَّ أَمْرِي ﴿١٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ بَيْنَ يَسَاكِينِ ﴿١٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿١٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿١٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٢٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ﴿٢١﴾ وَأَنْفِرْكَ فِي أَمْرِي ﴿٢٢﴾ كَيْ سَمِعَكَ كَيْبَرًا ﴿٢٣﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَيْبَرًا ﴿٢٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ يَتًا بَيْبَرًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي: جاوز الحد في العصيان.

قوله تعالى: ﴿آتِنِي لِي صَدْرِي﴾ قال المفسرون: ضاق موسى صدرًا بما كلّف من مقاومة فرعون وجنوده، فسأل الله تعالى أن يؤسّع قلبه للحق حتى لا يخاف فرعون وجنوده. ومعنى قوله: ﴿وَيَرِيَّ أَمْرِي﴾: سهّل عليّ ما بعثتني له. ﴿وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ بَيْنَ يَسَاكِينِ﴾ قال ابن تقيّة: كانت فيه رثّة^(٢). قال المفسرون: كان فرعون قد وضع موسى في حجره وهو صغير، فجر^(٣) لحية فرعون بيده، فهمّ بقتله، فقالت له آسية: إنه لا يعقل، وسأريك بيان ذلك، قدّم إليه جمرتين ولؤلؤتين، فإن اجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، فأخذ موسى جمره فوضعتها في فيه فأحرقت لسانه وصار فيه عقدة،

= ويفرّسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى ﷺ صبرورثها ثعباناً، فما كان يفرّ منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية، وكذلك قول بعضهم: إنها كانت لآدم ﷺ، وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة.

(١) الرجز غير منسوب في: «الطبري» ١٦/١٥٧، و«مجاز القرآن» ٢/١٨، و«القرطبي» ١١/١٩١.

(٢) الرثّة، بالضم: عجلة في الكلام، وقيل: أناة، وقيل: هو أن يقب اللام ياء.

(٣) في الأصل: فمد، وسنأتي بعد قليل «جر».

فسأل خَلْفَهَا ليفهموا كلامه^(١). وأما الوزير، فقال ابن قتيبة: أصل الوِزَارَة من الوِزْر وهو الجَمَل، كأن الوزير قد حمل عن السلطان الثُّقُل. وقال الزجاج: اشتقاقه من الوِزْر، والوَزْر: الجبل الذي يُعْتَصَم به لِيُنَجى من الهلكة، وكذلك وزير الخليفة، معناه: الذي يعتمد عليه في أموره ويلتجئ إلى رأيه. ونصب «هارون» من جهتين: إحداهما: أن تكون «اجعل» تعدى إلى مفعولين، فيكون المعنى: اجعل هارون أخي وزيري، فينتصب «وزيراً» على أنه مفعول ثانٍ. ويجوز أن يكون «هارون» بدلاً من قوله: «وِزيراً»، فيكون المعنى: اجعل لي وزيراً من اهلي، [ثم] أبدل هارون من وزير؛ والأول أجود. قال الماوردي: وإنما سأل الله تعالى أن يجعل له وزيراً، لأنه لم يُرد أن يكون مقصوراً على الوزارة حتى يكون شريكاً في النبوة، ولولا ذلك لجاز أن يستوزر من غير مسألة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بفتح ياء «أخي».

قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ بِؤْسَ آزْرَى﴾ قال الفراء: هذا دعاء من موسى، والمعنى: أشدُّ به يا ربُّ آزري، وأشركه يا ربُّ في أمري. وقرأ ابن عامر: «أشدد» بالالف مقطوعة مفتوحة، «وأشركه» بضم الألف، وكذلك يبتدئ بالالفين. قال أبو علي: هذه القراءة على الجواب والمجازاة، والوجه الدعاء دون الإخبار، لأن ما قبله دعاء، ولأن الإشراك في النبوة لا يكون إلا من الله ﷻ. قال ابن قتيبة: والأزْر: الظهر، يقال: آزرت فلاناً على الأمر، أي: قوّيته عليه وكنت له فيه ظهراً.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكُوا فِي أَمْرِي﴾ أي: في النبوة معي ﴿كَيْ سَجِدَ﴾ أي: نصلي لك ﴿وَنَذْكُرَكَ﴾ بالسنتنا حامدين لك على ما أوليتنا من نِعْمِكَ ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَعِيرًا﴾ أي: عالماً إذ خصصتنا بهذه النعم.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مَوْسَى﴾ ولقد منّا عليك مرّة أخرى ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى﴾ أي: أن آتيناك في الأنبياء قائلين في البير قائلين آيم بالساحل يأخذهُ عدوٌ لي وعدوٌ لهم والقيت عليك محبةً مني ولصنع علي عبيتي ﴿إِذْ تَتَذَكَّرُ أَنَّكَ أَكْرَمُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ فرجعتك إلى أمك كي ففر عينا ولا تحزن وقلنا نفساً فنجيناك من الغم وقتك فوفاً فليت سين في أهل مدين ثم جئت على قدر يمشي ﴿وَأَمَلَمْتَهُ لِنَفْسِي﴾ أذهب أنت وكفوك ياتي ولا نينا في ذكري ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: طلبتكَ، وهو: «فعل» من «سألت»، أي: أعطيت ما سألت.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ﴾ أي: أنعمنا عليك ﴿مَرَّةً أُخْرَى﴾ قبل هذه المرّة. ثم بين متى كانت بقوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى﴾ أي: الهمتها ما يلهم مما كان سبباً لنجاتك، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿أَنْ آتَيْنَاهُ فِي الْآثَابِيتِ﴾ وقذف الشيء: الرمي به. فإن قيل: ما فائدة قوله: «ما يوحى» وقد علم ذلك؟ فقد ذكر عنه ابن الأنباري جوابين: أحدهما: أن المعنى: أوحينا إليها الشيء الذي يجوز أن يوحى إليها، إذ ليس كل الأمور يصلح وحيه إليها، لأنها ليست بنبي، وذلك أنها ألهمت. والثاني: أن «ما يوحى» أفاد توكيداً، كقوله: ﴿فَنَسْنَاهَا مَا عَشْنُ﴾ [النجم: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ آيَمٌ﴾ قال ابن الأنباري: ظاهر هذا الأمر، ومعناه معنى الخبر، وتأويله: يلقيه [اليم]، ويجوز أن يكون البحر مأموراً بآلة ركبها الله تعالى فيه، فسمع وعقل، كما فعل ذلك بالحجارة والأشجار. فأما الساحل، فهو: شط البحر. ﴿يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُمْ﴾ يعني: فرعون. قال المفسرون: اتخذت أمه تابوتاً وجعلت فيه قطناً محلوجاً، ووضعت فيه موسى وأحكمت بالقار شقوق التابوت، ثم ألقت في النيل، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون، فبينما هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية، إذا بالتابوت، فأمر الغلمان والجواري بأخذه، فلما فتحوه رأوا صبياً من أصبح الناس وجهها؛ فلما رآه فرعون أحبه حباً شديداً، فذلك قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾، قال أبو عبيدة: ومعنى «القيت عليك» أي: جعلت لك محبةً مني. قال ابن عباس: أحبه وحبه إلى خلقه، فلا يلقاه أحد إلا أحبه من مؤمن وكافر. وقال قتادة: كانت في عينه ملاحه، فما رآه أحد إلا حبه.

قوله تعالى: ﴿وَلِصْنَعِ عَلِيٍّ عِيتِي﴾ وقرأ أبو جعفر: «ولصنع» بسكون اللام والعين والإدغام. قال قتادة: لشغدي على

(١) وقد استجاب الله له ذلك في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مَوْسَى﴾.

محبتي وإرادتي. قال أبو عبيدة: على ما أريد وأجب. قال ابن الأنباري: هو من قول العرب: غُذِيَ فلان على عيني، أي: على المحبة مني. وقال غيره: لثُرْبِي وتغذي بمرأى مني، يقال: صنع الرجل جاريته، إذا ربَّاهَا؛ وصنع فرسه: إذا داوم على علفه ومراعاته، والمعنى: ولتضع على عيني، فذُرنا مشي أختك وقولها: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ لأن هذا كان من أسباب تربيته على ما أراد الله ﷻ. فأما أخته، فقال مقاتل: اسمها مريم. قال الفراء: وإنما اقتصر على ذكر المشي، ولم يذكر أنها مشت حتى دخلت على آل فرعون فدلَّتهم على الظنر^(١)، لأن العرب تجتزئ بحذف كثير من الكلام، ويقلبه، إذا كان المعنى معروفاً، ومثله قوله: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَارِيحِهِ فَأَرْسِلُون﴾ [يوسف: ٤٥]، ولم يقل: فأرسل حتى دخل على يوسف. قال المفسرون: سبب مشي أخته أن أمه قالت لها: فُضِّيه، فأتبعت موسى على أثر الماء، فلما التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة، فقالت لهم أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ أي: يُرْضِعُه ويضمه إليه، فقبل لها: ومن هي؟ فقالت: أمي، قالوا: وهل لها لبن؟ قالت: لبن أخي هارون، وكان هارون أسراً من موسى بثلاث سنين، فأرسلوها، فجاءت بالأم فقبل ثديها، فذلك قوله: ﴿وَرَجَعْتَا إِلَىٰ أُمَّكَ﴾ أي: رددناك إليها ﴿كَيْ نَقَرَ عَيْنَهَا بِكَ وَبِرَبِّتِكَ﴾. ﴿وَقَلَّتْ نَفْسًا﴾ يعني: القبطي الذي وكزه قضى عليه، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ وكان مغموماً مخافة أن يُقتل به، فنجاه الله بأن هرب إلى مَدْيَنَ، ﴿وَوَفَّقْنَاكَ فُرُوقًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: اختبرناك اختباراً، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أخلصناك إخلاصاً، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثالث: ابتليناك ابتلاءً، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة. وقال الفراء: ابتليناك بنم القتل ابتلاءً. وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: الفتون: وقوعه في محنة بعد محنة خلَّصه الله منها، أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم اللقاء في البحر، ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم جرَّه لحيه فرعون حتى همَّ بقتله، ثم تناوله الجمره بدل الدرة، ثم قتله القبطي، ثم خروجه إلى مَدْيَنَ خائفاً؛ وكان ابن عباس يقصُّ هذه القصص على سعيد بن جبيرة، ويقول له عند كل ثلاثة: وهذا من الفُتُونِ يا ابن جبيرة؛ فعلى هذا يكون «فَتْنَاكَ» خلَّصناك من تلك المحن كما يُقْتَنُ الذهب بالنار فيخلص من كل خيب. والفتون: مصدر.

قوله تعالى: ﴿تَلَيْتُ سِينًا﴾ تقدير الكلام: فخرجت إلى أهل مدين. ومدين: بلد شعيب، وكان عى ثمان مراحل من مصر، فهرب إليه موسى. وقيل: مدين: اسم رجل، وقد سبق هذا [الأعراف: ٤٨٦]. وفي قدر لبشه هناك قولان: أحدهما: عشر سنين؛ قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: ثمان وعشرون سنة، عشر منهن مهر امرأته، وثمان عشرة أقام حتى وُلد له، قاله وهب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتُكَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي: جئت لميقات قدرته لمجيئك قبل خلقك، وكان ذلك على رأس أربعين سنة، وهو الوقت الذي يوحى فيه إلى الأنبياء، هذا قول الأكثرين. وقال الفراء: «على قدرٍ» أي: على ما أراد الله به من تكليمه.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَطْنٰكَ لَيْسَىٰ﴾ (١١) أي: اصطفيتك واختصصتك، والاصطناع: اتخاذ الصنعة، وهو الخير تسديه إلى إنسان. وقال ابن عباس: اصطفيتك لرسالتى ووحىي ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَحْرَجَ بِكَائِي﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها العصا واليد. وقد يُذكر الاثنان بلفظ الجمع. والثاني: العصا واليد وحلُّ العقدة التي ما زال فرعون وقومه يعرفونها، ذكرهما ابن الأنباري. والثالث: الآيات التسع. والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنبَأُ﴾ قال ابن قتيبة: لا تضعفا ولا تفتراً؛ يقال: ونى بني في الأمر؛ وفيه لغة أخرى: ونى، يونى. وفي المراد بالذكر هاهنا قولان: أحدهما: أنه الرسالة إلى فرعون. والثاني: أنه القيام بالفرائض والتسبيح والتهليل.

﴿أَذْهَبًا لِكَيْ فَرَعُونَ إِنَّهُ طَعَنَ﴾ (١٢) فقولاً لَمْ قَوْلًا لِنَا لَمَلَمْ يَذْكُرْ أَوْ يَحْشَى (١٣) قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرَبَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَ (١٤) قَالَ لَا نَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (١٥) فَأَيُّهَا فَعَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالنِّسَاءُ عَلَيْنَا مَنِ اسْتَبَحَّ الْمَلَكَةَ (١٦) إِنَّا قَدْ أَرْجَىٰ إِنِنَّا أَنْ الْمَدَابَّ عَلَيْنَا مَن كَذَّبَ وَوَكَّلَ (١٧)

(١) الظنر: العاطفة على ولد غيرها المرعضة له في الناس وغيرهم للذكر والأُنثى.

قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ﴾ فائدة تكرار الأمر بالذهاب، التوكيد. وقد فسرنا قوله: ﴿إِنَّهُ طَفَنٌ﴾ [طه: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ وقرأ أبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «لئنا» بإسكان الياء، أي: لطيفاً رفيقاً. وللمفسرين فيه خمسة أقوال: أحدها: قولاً له: قل: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، رواه خالد بن معدان عن معاذ، والضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنه قوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ۗ وَأَهْدِيكَ إِلَيْكَ رَبِّكَ فَتَنَّتْ ۗ﴾ [الزاعات]، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثالث: كئيباً، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال السدي. فأما اسمه، فقد ذكرناه في [البقرة: ٤٩]. وفي كنيته أربعة أقوال: أحدها: أبو مُرَّة، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أبو مصعب، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والثالث: أبو العباس. والرابع: أبو الوليد، حكاهما الثعلبي. والقول الرابع: قولاً له: إِنْ لَكَ رَبِّيًا، وَإِنْ لَكَ مَعَادًا، وَإِنْ بَيْنَ يَدَيْكَ جَنَّةٌ وَنَارًا، قاله الحسن. والخامس: أن القول اللين: أن موسى أتاه، فقال له: تؤمن بما جئتُ به وتعبد ربَّ العالمين، على أن لك شبابك فلا تهرم، وتكون مَلِكًا لَا يُنْرَعُ مِنْكَ حَتَّى تَمُوتَ، فَإِذَا مَتَّ دَخَلْتَ الْجَنَّةَ، فَأَعْجِبْ ذَلِكَ؛ فَلَمَّا جَاءَ هَامَانَ، أَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ مُوسَى، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَرَى أَنَّ لَكَ رَأْيًا، أَنْتَ رَبُّ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ مَرْبُوبًا؟! فقلبه عن رأيه، قاله السدي. وحكي عن يحيى بن معاذ أنه قرأ هذه الآية، فقال: إلهي هذا رفقتك بمن يقول: أنا إله، فكيف رفقتك بمن يقول: أنت إله.

قوله تعالى: ﴿لَلَّهِ يَذَّكَّرُ أَوْ يَخْتَضِرُ﴾ قال الزجاج: «لَلَّ» في اللغة: ترجَّ وطمع، تقول: لَلَّيْتُ أَصِيرَ إِلَى خَيْرٍ، فخطب الله ﷻ العباد بما يعقلون. والمعنى عند سيويه: اذها على رجائكما وطمعكما. والعلم من الله تعالى من وراء ما يكون، وقد عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَتَذَكَّرُ وَلَا يَخْشَى، إِلَّا أَنَّ الْحُجَّةَ إِنَّمَا تَجِبُ عَلَيْهِ بِالْآيَةِ وَالْبِرْهَانِ، وَإِنَّمَا تُبْعَثُ الرِّسَالُ وَهِيَ لَا تَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا تَدْرِي أَيْقُبَلُ مِنْهَا، أَمْ لَا، وَهَمَّ يَرْجُونَ وَيَطْمَعُونَ أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ، وَمَعْنَى «لَلَّ» مَتَّصِرٌ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَى تَصَوُّرِ ذَلِكَ تَقُومُ الْحُجَّةُ. قال ابن الأنباري: ومذهب الفراء في هذا: كي يتذكَّر. وروى خالد بن معدان عن معاذ قال: والله ما كان فرعون ليخرج من الدنيا حتى يتذكَّرَ أَوْ يَخْشَى، لِهَذِهِ الْآيَةِ، وَإِنَّهُ تَذَكَّرَ وَخَشِيَ لَمَّا أَدْرَكَهُ الْغُرُقُ. وقال كعب: والذي يحلفُ به كعب، إنه لمكتوب في التوراة: فقولا له قولاً لئنا، وسأقسي قلبه فلا يؤمن. قال المفسرون: كان هارون يومئذ غائباً بمصر، فأوحى الله تعالى إلى هارون أن يتلقَى موسى، فتلقاه على مرحلة، فقال له موسى: إِنْ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرُنِي أَنْ آتِيَّ فِرْعَوْنَ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَكَ مَعِي؛ فَعَلَى هَذَا يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حِينَ التَّقِيَا قَالَا: رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون القائل لذلك موسى وحده؛ وأخبر الله عنه بالثنية لَمَّا ضَمَّ إِلَيْهِ هَارُونَ، فَإِنَّ الْعَرَبَ قَدْ تَوَقَّعُ الثَّنِيَّةَ عَلَى الْوَاحِدِ، فَتَقُولُ: يَا زَيْدُ قَوْمَا، يَا حَرَسِيَّ اضْرِبَا عَقْبَهُ.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْكَ﴾ وقرأ عبد الله بن عمرو، وابن السميع، وابن يعمر، وأبو العالية: «أَنْ يُفْرَطَ» برفع الياء وكسر الراء. وقرأ عكرمة، وإبراهيم النخعي: «أَنْ يُفْرَطَ» بفتح الياء والراء. وقرأ أبو رجاء العطاردي، وابن محييين: «أَنْ يُفْرَطَ» برفع الياء وفتح الراء. قال الزجاج: المعنى، أن يبادر بعقوبتنا، يقال: قد فَرَطَ مِنْهُ أَمْرٌ، أَي: قَدْ بَدَّرَ؛ وَقَدْ أَفْرَطَ فِي الشَّيْءِ: إِذَا اشْتَطَقَ فِيهِ؛ وَفَرَطَ فِي الشَّيْءِ: إِذَا قَصَّرَ؛ وَمَعْنَاهُ كَلُّهُ فِي التَّقَدُّمِ فِي الشَّيْءِ، لِأَنَّ الْفَرَطَ فِي اللُّغَةِ: الْمَتَّقَدُّمُ، وَمَنْ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ»^(١).

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَنْ يَفْطَنَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يستعصي، قاله مقاتل. والثاني: يجاوز الحدَّ في الإساءة إلينا. قال ابن زيد: نخاف أن يعجل علينا قبل أن نبلغه كلامك وأمرك.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالنصرة والعون «أَتَيْتُ» أقوالكم «وَأَرَأَيْتُمْ» أفعالكم. قال الكلبي: أسمع جوابه لكما، وأرى ما يفعل بكما.

(١) رواه أحمد في «المسند» ٣١٣/٤، والبخاري ٤١٤/١١، ومسلم ١٧٩٢/٤ من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، وله روايات أخرى بأطول منه في «الصحيحين» من حديث سهل، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي سعيد الخدري وغيرهم، والفرط والفاط: هو الذي يتقدم الواردين ليصلح لهم الحياض والدلاء ونحوها من أمور الاستقاء. فمعنى فرطكم على الحوض: سابقكم إليه كالمهيج له.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: خلّ عنهم ﴿وَلَا تَعَذِّبْهُمْ﴾ وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة، ﴿قَدْ جَحَنَّاكَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال ابن عباس: هي العصا. قال مقاتل: أظهر اليد في مقام، والعصا في مقام.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْسَمَكُمْ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ قال مقاتل: على من آمن بالله. قال الزجاج: وليس يعني به التحية، وإنما معناه: أن من اتبع الهدى، سلّم من عذاب الله وسخطه، والدليل على أنه ليس بسلام، أنه ليس بابتداء لقاء وخطاب.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ أي: بما جثنا به وأعرض عنه.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَتُوسَىٰ﴾ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴿٥١﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥٢﴾ قَالَ يَعْلَمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ﴿٥٣﴾ الَّذِي جَمَعَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّاكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِن السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن تَبَاتٍ شَقَىٰ ﴿٥٤﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنفُسَكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٥﴾ مِنَّا خَلَقْنَكُمْ وَمِمَّا نُفِيدُكُمْ وَمِمَّا نُضِرُّكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ في الكلام محذوف معناه معلوم، وتقديره: فأتياه فأذيا الرسالة. قال الزجاج: وإنما لم يقل: فأتياه، لأن في الكلام دليلاً على ذلك، لأن قوله: «فمن ربكما» يدل على أنهما أتياه وقالاه.

قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أعطى كل شيء صورته، فخلق كل جنس من الحيوان على غير صورة جنسه، فصورة ابن آدم لا كصورة البهائم، وصورة البعير لا كصورة الفرس، روى هذا المعنى الضحاک عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبیر. والثاني: أعطى كل ذكر زوجته، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال السدي، فيكون المعنى: أعطى كل حيوان ما يشاكله. والثالث: أعطى كل شيء ما يضلّجه، قاله قتادة. وفي قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: هدى كيف يأتي الذکر الأنثى، رواه الضحاک عن ابن عباس، وبه قال ابن جبیر. والثاني: هدى للمنكح والمطعم والمسكن، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: هدى كل شيء إلى معيشته، قاله مجاهد. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن عباس، والأعمش، وابن السميعف، ونصير عن الكسائي: «أعطى كل شيء خلقه» بفتح اللام. فإن قيل: ما وجه الاحتجاج على فرعون من هذا؟ فالجواب: أنه قد ثبت وجود خلق وهداية، فلا بد من خالتي وهادي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ اختلفوا فيما سأل عنه من حال القرون الأولى على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سأل عن أخبارها وأحاديثها، ولم يكن له بذلك علم، إذ التوراة إنما نزلت عليه بعد هلاك فرعون، فقال: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾، هذا مذهب مقاتل. وقال غيره: أراد: إني رسول، وأخبار الأمم علم غيب، فلا علم لي بالغيب. والثاني: أن مراده من السؤال عنها: لم عبّدت الأصنام، ولم لم يُعبّد الله إن كان الحق ما وصفت؟! والثالث: أن مراده: ما لها لا تبعث ولا تحاسب ولا تجازي؟! فقال: علمها عند الله، أي: علم أعمالها. وقيل: الهاء في «علمها» كناية عن القيامة، لأنه سأل عن بعث الأمم، فأجاب بذلك. وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ﴾ أراد: اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ﴾ وقرأ عبد الله بن عمرو^(١)، وعاصم الجحدري، وقاتة، وابن محيصن: «لا يضلُّ» بضم الياء وكسر الضاد، أي: لا يضيئه. وقرأ أبو المتوكّل، وابن السميعف: «لا يضلُّ» بضم الياء وفتح الضاد. وفي هذه الآية تأكيد للجزاء على الأعمال، والمعنى: لا يخطئ ربي ولا ينسى ما كان من أمرهم حتى يجازيهم بأعمالهم. وقيل: أراد: لم يجعل ذلك في كتاب لأنه يضل وينسى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «مهاداً». وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «مهداً» بغير ألف. والمهاد: الفراش، والمهد: الفرش. ﴿وَسَلَّاكُمْ لَكُمْ﴾ أي: أدخل لأجلكم في الأرض طرقاتاً تسلكونها، ﴿وَأَنزَلَ مِن السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر. وهذا آخر الإخبار عن موسى. ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ يعني: بالماء ﴿أَزْوَاجًا مِّن تَبَاتٍ شَقَىٰ﴾ أي: أصنافاً مختلفة في الألوان والطعوم، كل صنف

منها زوج. و«شتى» لا واحد له من لفظه. ﴿كُلُوا﴾ أي: مما أخرجنا لكم من الثمار ﴿وَارْعَوْا أَنفُسَكُمْ﴾ يقال: رعى الماشية، يرعاها: إذا سرحها في المرعى. ومعنى هذا الأمر: التذكير بالتعم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعِبْرَةٍ لِّمَنْ يَخْتَلِفُ الْأَلْوَانَ وَالطَّعُومَ ﴿لَأُولِي الْأَلْبَانِ﴾ قال الفراء: لدوي المقول، يقال للرجل: إنه لذو نَهْيَةٍ: إذا كان ذا عقل. قال الزجاج: واحد النُهْي: نُهْيَةٌ، يقال: فلان ذو نُهْيَةٍ، أي: ذو عقل ينتهي به عن المقايح، ويدخل به في المحاسن؛ قال: وقال بعض أهل اللغة: ذو النُهْيَةِ: الذي يُنتهى إلى رأيه وعقله، وهذا حسن أيضاً.

قوله تعالى: ﴿بَيْنَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني: الأرض المذكورة في قوله: ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾. والإشارة بقوله: «خلقناكم» إلى آدم، والبشر كلهم منه. ﴿وَفِيهَا تُبَدِّلُكُمْ﴾ بعد الموت ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً﴾ أي: مرّة ﴿أُخْرَى﴾ بعد البعث، يعني كما أخرجناكم منها أولاً عند خلق آدم من الأرض.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥١﴾ قَالَ أَهَيْئًا يُخْرِجُنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَأَجْمَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ مَنُّ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٣﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ ضَحَى ﴿٥٤﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٥٥﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَرَبُّكُمْ لَا تَقْعُدُوا عَلَى اللَّهِ كَعْدًا يُفْسِدُكُمْ بِعَدَابِهِ وَقَدْ خَابَ مِنْ آفَاتِنَا ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا نَزَّوْا أَمْرَهُمُ يَنْتَهَرُوا نُحُورًا فَالتَّجْوَى ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذِهِ لَسِحْرَانِ بَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِمَا وَيَذْهَبَا بِطُرُقَيْتِكُمُ الْكَلْبُ ﴿٥٨﴾ فَأَجْمَلْ كَعْدَكُمْ ثُمَّ آتَيْنَا صَفًا وَقَدْ أَقْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَمَلَّ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ كُلَّهَا﴾ يعني: فرعون ﴿بَيْنَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني: التسع الآيات، ولم ير كل آية لله، لأنها لا تُحصى، ﴿فَكَذَّبَ﴾ أي: نسب الآيات إلى الكذب، وقال: هذا سحر ﴿وَأَبَى﴾ أن يؤمن ﴿قَالَ أَهَيْئًا يُخْرِجُنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ يعني: مصر ﴿بِسِحْرِكَ﴾ أي: تريد أن تغلب على ديارنا بسحرك فتملكها وتخرجنا منها ﴿فَلَمَّا آتَيْنَاكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: فلنقابل ما جئت به من السحر بمثله ﴿فَأَجْمَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: اضرب بيننا وبينك أجلاً وميعاتاً ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾ أي: لا نجاوزه ﴿مَنْ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا﴾ وقيل: المعنى: اجعل بيننا وبينك موعداً مكاناً نتواعد لحضورنا ذلك المكان، ولا يقع منا خلاف في حضوره. ﴿سُوًى﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي بكسر السين. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة، وخلف، ويعقوب: «سُوًى» بضمها. وقرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل؛ وابن أبي عبله: «مكاناً سَوَاءً» بالمد والهمز والنصب والتنوين وفتح السين. وقرأ ابن مسعود مثله، إلا أنه كسر السين. قال أبو عبيدة: هو اسم للمكان النصف فيما بين الفريقين، والمعنى: مكاناً تستوي مسافته على الفريقين، فتكون مسافة كل فريق إليه كمسافة الفريق الآخر. ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ قرأ الجمهور برفع الميم. وقرأ الحسن، ومجاهد، [وقتادة]، وابن أبي عبله، وبهيرة عن حفص بنص الميم. وفي هذا اليوم أربعة أقوال: أحدها: يوم عيد لهم، رواه أبو صالح عن ابن عباس، والسدي عن أشياخه، وبه قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد. والثاني: يوم عاشوراء، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثالث: يوم النيروز، ووافق ذلك يوم السبت أول يوم من السنة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والرابع: يوم سوق لهم، قاله سعيد بن جبير. وأما رفع اليوم، فقال البصريون: التقدير: وقت موعدكم يوم الزينة، فتاب الموعد عن الوقت، وارتفع به ما كان يرتفع بالوقت إذا ظهر. فأما نصبه، فقال الزجاج: المعنى: موعدكم يقع يوم الزينة، ﴿وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ﴾ موضع «أن» رفع، المعنى: موعدكم حشر الناس ﴿ضَحَى﴾ أي: إذا رأيتم الناس قد حُشروا ضحى. ويجوز أن تكون «أن» في موضع خفض عطفاً على الزينة، المعنى: موعدكم يوم الزينة ويوم حشر الناس ضحى. وقرأ ابن مسعود، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: «وَأَنْ تُحَشِّرَ» ببناء مفتوحة ورفع الشين ونصب «الناس». وعن ابن مسعود، والنخعي: «وَأَنْ يُحَشِّرَ» بالياء المفتوحة ورفع الشين ونصب «الناس». قال المفسرون: أراد بالناس: أهل مصر، وبالضحى: ضحى اليوم، وإنما علّقه بالضحى، ليتكامل ضوء الشمس واجتماع الناس، فيكون أبلغ في الحجة وأبعد من الريبة. ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: تولى عن الحق الذي أمر به. والثاني: أنه انصرف إلى منزله لاستعداد ما يلقي به موسى، ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي: مكره وحيلته ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أي: حضر الموعد. ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى﴾ أي: للسحرة. وقد ذكرنا عددهم في [الأعراف: ١١٤].

قوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على «الزكمكم الله ويلاً» ويجوز أن يكون على النداء، كقوله تعالى: ﴿يَوَيْلًا مِّنْ بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قال ابن عباس: لا تشركوا معه أحداً.

قوله تعالى: ﴿فَيْسْحِكْكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «فَيْسْحِكْكُمْ» بفتح الياء، من «سحت». وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «فَيْسْحِكْكُمْ» بضم الياء، من «أسحت». قال الفراء: وسُحِتْ أكثر، وهو الاستئصال، والعرب تقول: سحته الله، وأسحته، قال الفرزدق:

وَعَضَّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدْعُ
مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجْلَفًا^(١)

هكذا أنشد البيت الفراء، والزجاج. ورواه أبو عبيدة: «إِلَّا مُسْحَتٌ أَوْ مُجْلَفٌ» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿فَنَنْزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ يعني: السحرة تناظروا فيما بينهم في أمر موسى، وتشاوروا ﴿وَأَسْرُوا النَّجْرِيَّ﴾ أي: أخفوا كلامهم من فرعون وقومه. وقيل: من موسى وهارون. وقيل: «أسرؤا» هاهنا بمعنى «أظهروا». وفي ذلك الكلام الذي جرى بينهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قالوا: إن كان هذا ساحراً، فإننا سنغلبه، وإن يكن من السماء كما زعمتم، فله أمره، قاله قتادة. والثاني: أنهم لما سمعوا كلام موسى قالوا: ما هذا بقول ساحر، ولكن هذا كلام الرب الأعلى، فعرفوا الحق، ثم نظروا إلى فرعون وسلطانه، وإلى موسى وعصاه، فنكسوا على رؤوسهم، وقالوا إن هذان لساحران، قاله الضحاك، ومقاتل. والثالث: أنهم ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ...﴾ الآيات، قاله السدي. واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ﴾ فقرأ أبو عمرو ابن العلاء: «إِنَّ هَٰذَيْنِ» على إعمال «إِنَّ» وقال: إني لأستحيي من الله أن أقرأ «إِنَّ هَٰذَانِ». وقرأ ابن كثير: «إِنَّ» خفيفة «هَٰذَانِ» بتشديد النون. وقرأ عاصم في رواية حفص: «إِنَّ» خفيفة «هَٰذَانِ» خفيفة أيضاً. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «إِنَّ» بالتشديد «هَٰذَانِ» بألف ونون خفيفة. فأما قراءة أبي عمرو، فاحتجاجة في مخالفة المصحف بما روي عن عثمان وعائشة، أن هذا من غلط الكاتب على ما حكيناه في قوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِينَ الصَّٰلِحِينَ﴾^(٢) في سورة [النساء: ١٦٢]. وأما قراءة عاصم، فمعناها: ما هذان إلا ساحران، كقوله تعالى: ﴿وَرَأَىٰ لُطْفَكَ لِيَنِ الْكَذِبِينَ﴾ [النساء: ١٨٦] أي: ما نظنك إلا من الكاذبين، وأنشدوا في ذلك:

نكلكم أمك إن قتلت لمُسلماً
حلت عليه عُقوبة المُتعمدِ

أي: ما قتلت إلا مسلماً. قال الزجاج: ويشهد لهذه القراءة، ما روي عن أبي بن كعب أنه قرأ: «ما هذان إلا ساحران»، وروي عنه: «إن هذان إلا ساحران»، ورويت عن الخليل: «إن هذان» بالتخفيف، والإجماع على أنه لم يكن أحد أعلم بالنحو من الخليل. فأما قراءة الأكثرين بتشديد «إِنَّ» وإثبات الألف في قوله: «هَٰذَانِ» فروى عطاء عن ابن عباس أنه قال: هي لغة بلحارث بن كعب. وقال ابن الأنباري: هي لغة لبني الحارث بن كعب، وافقتها لغة قريش. قال الزجاج: وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب، وهو رأس من رؤوس الرواة: أنها لغة لكنانة، يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد، يقولون: أتاني الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان، وأنشدوا:

فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ وَكُوْرَأَى
مَسَاغًا لِنَبَاهِ الشُّجَاعِ لَصَمًا^(٣)

(١) «ديوانه» ٥٥٦، و«الطبري» ١٧٨/١٦، و«مجاز القرآن» ٢١/٢، و«شرح المفصلات» ٣٩٦، و«الجمهرة» ١٠٧/٢، و«اللسان» و«الناج»: جلف، سحت، و«القرطبي» ٢١٥/١١، و«الخرائفة» ٣٤٧/٢، ويروى «إلا مسحت أو مجلف» كما في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة. ومن رواه كذلك، جعل معنى «لم يدع»: لم يتعاز، أو يقر، أو يستقر، ومن رواه «إلا مسحتاً» جعل «لم يدع» بمعنى: لم يترك، لم يبق، ورفع قوله: «أو مجلف» بإضمار، كأنه قال: أو هو مجلف. ومال مسحت، ومسحت: مُدْعَب به، مهلك. والمجلف: الذي بقيت منه بقية. يريد: لم يترك إلا شيئاً مستاصلاً هالكاً، أو شيئاً بقيت منه بقية.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ: ﴿إِنَّ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ﴾ لحن، وأن عثمان رضي الله عنه قال: إن في المصحف لحناً ستمته العرب بألسنتها، وهذا خبر باطل لا يصح من وجوه. انظر الجزء (٢٥٢/٢ - ٢٥٣) من هذا التفسير، فإنك تجد في التعليق على هذا الخبر كلاماً طويلاً، لشيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ السخاري، والطبري، وغيرهم، في رد ما نُسب إلى عثمان رضي الله عنه.

(٣) البيت للمتلسم، وهو في «الطبري» ١٨٠/١٦، و«القرطبي» ٢١٧/١١، و«اللسان»: صمم، ومعنى: أطرق: سكت فلم يتكلم وأرعى عينيه ينظر إلى =

ويقول هؤلاء: ضربه بين أذناه. وقال النحويون القدماء: هاهنا هاء مضمرة، المعنى: إنه هذان لساحران. وقالوا أيضاً: إن معنى «إن»: نعم «هذان لساحران»، وينشدون:

وَيَقْلُنَّ شَيْبٌ قَدَ عَلَا
كَ وَقَدْ كَبِرَتْ فَقَلْتُ إِنَّهُ^(١)

قال الزجاج: والذي عندي، وكنت عرضته على عالما محمد بن يزيد، وعلى إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن زيد، فقبلاه، وذكرنا أنه أجود ما سمعناه في هذا، وهو أن «إن» قد وقعت موقع «نعم»، والمعنى: نعم هذان لهما الساحران، وبلي هذا في الجودة مذهب بني كنانة. وأستحسن هذه القراءة، لأنها مذهب أكثر القراء، وبها يُقرأ. وأستحسن قراءة عاصم، والخليل، لأنهما إمامان، ولأنهما وافقا أبي بن كعب في المعنى. ولا أجيز قراءة أبي عمرو لخلاف المصحف. وحكى ابن الأنباري عن الفراء قال: «الف» «هذان» هي ألف «هذا» والنون فرقت بين الواحد والثنية، كما فرقت نون «الذين» بين الواحد والجمع.

قوله تعالى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَيْكُمُ﴾ وقرأ أبان عن عاصم: «ويذهبا» بضم الباء وكسر الهاء. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمرو، وأبو رجاء العطاردي: «ويذهبا بالطريقة» بألف ولام، مع حذف الكاف والميم. وفي الطريقة قولان: أحدهما: بدينكم المستقيم، رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال أبو عبيدة: بسنتكم وبيدكم وما أنتم عليه، يقال: فلان حسن الطريقة. والثاني: بأمثلكم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال مجاهد: بأولي العقل، والأشراف، والأسنان. وقال الشعبي: يصرفان وجوه الناس إليهما. قال الفراء: الطريقة: الرجال الأشراف، تقول العرب للقوم الأشراف: هؤلاء طريقة قومهم، وطرائق قومهم. فأما «المثلى» فقال أبو عبيدة: هي تأنيث الأمثل. تقول في الإناث: خذ المثلى منهما، وفي الذكور: خذ الأمثل. وقال الزجاج: ومعنى المثلى والأمثل: ذو الفضل الذي به يستحق أن يقال: هذا أمثل قومه؛ قال: والذي عندي أن في الكلام محذوفاً، والمعنى: يذهبا بأهل طريقتكم المثلى، وقول العرب: هذا طريقة قومه، أي: صاحب طريقتهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ قرأ الاكثرون: «فأجمعوا» بقطع الألف من «أجمعت». والمعنى: ليكن عزمكم مجمعاً عليه، لا تختلفوا فيختل أمركم. قال الفراء: والإجماع: الإحكام والعزيمة على الشيء، تقول: أجمعت على الخروج، وأجمعت الخروج، تريد: أزمعت، قال الشاعر:

يَا لَيْتَ شِغْرِي وَالْمُنَى لَا تَنْفَعُ
هَلْ أَغْدُونَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعُ^(٢)

يريد: قد أحكم وعزم عليه. وقرأ أبو عمرو: «فأجمعتوا» بفتح الميم من «جمعت»، يريد: لا تدعوا من كيدكم شيئاً إلا جتم به. فأما كيدهم، فالمراد به: سحرهم، ومكرهم.

قوله تعالى: ﴿هُمْ أَتْرَابًا صَفًّا﴾ أي: مُضْطَفِّينَ مَجْمَعِينَ، ليكون أنظم لأمرهم، وأشدَّ لهيبتهم. قال أبو عبيدة: «صفاً» أي: صفوفاً. وقال ابن تقيية: «صفاً» بمعنى: جمعاً. قال الحسن: كانوا خمسة وعشرين صفاً، كلُّ ألف ساحر صفٌّ. قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُنْفِخَ الْيَوْمَ مِنَ اسْتَعْلَانِ﴾ قال ابن عباس: فاز من غلب.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَبْرُئِينَ إِيَّا أَنْ تَلْفَى وَإِنَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مِنْ أَلْفَىٰ﴾ قَالَ بَلْ أَلْفَا فَاذًا جَاهِلْتُمْ وَعَصِيْتُمْ يَحْيَىٰ لِلَّهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَنَفَّىٰ ﴿١٦﴾ فَأَرْجَسَ فِي تَقِيهِهِ جِيْفَةَ مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿١٨﴾ وَأَلَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَعَّرَا إِنَّا صَعَّرُوا كَيْدَ سِحْرِهِمْ وَلَا يَبْلُغُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَنْ ﴿١٩﴾ فَالْتَمَىٰ السَّحْرَةَ مَجْهَلًا قَالُوا مَا مَاتَا رَبِّبَ هُرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ مَا مَاتَتْ لَهْ قَبْلَ أَنْ مَادَتْ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْدِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ الْيَحْرُفَ فَلَأَقْبِضَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَيْتِكُمْ فِي جُدُوعِ السَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٢١﴾

= الأرض، والشجاع: ضرب من الحيات. ومساغاً: اسم مكان، من ساغ يسوغ: إذا دخل ونفذ. وصمم: عض ونيب فلم يرسل ما عض. والبيت جارٍ على لغة بني الحارث بن كعب، ومن لك لثهم. والشاهد فيه أن قوله: «لناياه» متى مجرور اللام، وقد جاء بالألف.

(١) البيت لعبد الله بن قيس الرقيات، وهو في «القرطبي» ٢١٨/١١، و«روح المعاني» ٢٠١/١٦، و«اللسان»: أن، وقيل.

بَكَرَتْ عَلَيَّ عَوَالِي

أي: إنه قد كان كما تظن.

(٢) البيت في «معاني القرآن» للفراء ٤٧٣/١ غير منسوب، وهو في «الطبري» ١٨٣/١٦، و«القرطبي» ٢٢١/١١، و«اللسان»: جمع.

﴿بَلِ الْقَوْمِ﴾ قال ابن الأنباري: دخلت «بل» لمعنى: جحد في الآية الأولى، لأن الآية الأولى إذا تَوَلَّمَتْ وُجِدَتْ مشتملة على: إما أن تلقي، وإما أن لا تلقي.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتَهُمْ﴾ قرأ الحسن، وأبو رجاء العطاردي، وأبو عمران الجوني، وأبو الجوزاء: «وَعَصَيْتَهُمْ» برفع العين.

قوله تعالى: ﴿يَخِيلُ لِرَبِّهِ﴾ وقرأ أبو رزین العقيلي، وأبو عبد الرحمن السُّلَمِي، والحسن، وقتادة، والزهري، وابن أبي عمير: «تَخِيلُ» بالثاء، «إليه» أي: إلى موسى. يقال: خُيِّلَ إليه: إذا شُبِّهَ له. وقد استدلل قوم بهذه الآية على أن السحر ليس بشيء. وقال: إنما خُيِّلَ إلى موسى، فالجواب: أنا لا ننكر أن يكون ما رآه موسى تخيلاً، وليس بحقيقة، فإنه من الجائز أن يكونوا تركوا الزئبق في سلوخ الحيات حتى جرت، وليس ذلك بحيات. فأما السحر، فإنه يؤثِّر، وهو أنواع. وقد سَجَّرَ رسولُ الله ﷺ حتى أثر فيه^(١)،

(١) فقد روى البخاري في «صحيحه» ١٩٢/١٠، ومسلم في «صحيحه» ١٧١٩/٤ عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله ﷺ من يهود بني زريق يقال له: لبيد بن الأعصم، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - دعا رسول الله ﷺ، ثم دعا، ثم دعا، ثم قال: يا عائشة، أشعرت أن الله أفناني فيما استفتيتني فيه! جاءني رجلان، فقمعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوع (أي: مسحور) قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر، قال: وابن هو؟ قال: في يثر ذروان، قالت: فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه - ثم قال: يا عائشة والله لكان ماها نفاحة الحناء، ولكن نخلها رؤوس الشياطين، قالت: فقلت: يا رسول الله أفلا أحرقته؟ قال: لا، أما أنا فقد عفاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شراً، فأمرت بها فلنفتت. وفي رواية للبخاري ١٩٩/١٠: «حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن» بدل «حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله»، وهي موضحة ومبيّنة لما قبلها. وحديث السحر هذا، رواه أحمد في «المسند»، والنسائي، وابن سعد، والحاكم، وعبد بن حميد، وابن مردويه، والبيهقي في «دلائل النبوة»، وغيرهم. وقال الإمام ابن القيم في «بدائع الفوائد» بما حاصله: وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقن بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته، وقد أنكره كثير من أهل الكلام، وقابلوه بالكذب، وقولهم هذا مسرود عند أهل العلم، وقد اتفق أصحاب «الصحاحين» على تصحيحه، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنة والحديث والتاريخ، والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين. ثم قال ابن القيم: وقد دل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ سِحْرِ الْأَنْكَبُوتِ فِي الْقَعْدِ﴾ وحديث عائشة (المتقدم ذكره) على تأثير السحر، وأن له حقيقة، وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة، وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك، وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة، والسلف، واتفق عليه الفقهاء، وأهل التفسير والحديث...

ثم قال: والسحر الذي أصابه ﷺ كان مرضاً من الأمراض عارضاً - أصابه به بدنه - شفاء الله منه، ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوز على الأنبياء. اهـ.

قال الإمام النووي في «شرح مسلم» ١٧٤/١٤: قال المازري رحمه الله: مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات حقيقة السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة، خلافاً لمن أنكره ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها، وقد ذكره الله في كتابه، وذكر أنه مما يُعَلِّمُ، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يُكْفَرُ به، وأنه يفرق بين المرء وزوجه، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له، وهذا الحديث أيضاً مصرح بإثباته، وأنه أشياء دفنت وأخرجت، وهذا كله يبطل ما قاله، فإحالة كونه من الحقائق محال - ثم قال -: وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر، فزعم أنه يحط منصب النبوة، ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة، وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل، لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك، وتجوز ما قام الدليل بخلافه باطل، فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يعمت بسببها، ولا كان مفضلاً من أجلها، وهو مما يعرض للبشر، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له.

قال النووي: قال القاضي عياض: وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده، ويكون معنى قوله في الحديث: «حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهن» - ويروى «يخيل إليه» - أي: يظهر له من نشاطه ومتقدم عاده القدرة عليهن، فإذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور، وكل ما جاء من الروايات من أنه يخيل إليه فعل شيء لم يفعله، ونحوه، فمحمول على التخيل بالبصر، لا لخلل تطرق إلى العقل، وليس في ذلك ما يدخل كبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الفضالة، والله أعلم. اهـ.

وقد نقل نحو كلام الإمام النووي الحافظ ابن حجر في «فتح الباري شرح صحيح البخاري» ١٨٨/١٠، ثم قال عند قوله تعالى: ﴿يَخِيلُ لِرَبِّهِ مِنْ سِحْرِهِمْ مَا كُنَّ﴾ ١٩١/١٠: هذه الآية عمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل، ولا حجة له بها، لأن هذه الآية وردت في قصة سحرة فرعون، وكان سحروهم كذلك (أي تخيلاً) ولا يلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل. اهـ.

وقال الحافظ أيضاً في «الفتح» ١٩٣/١٠: ووقع في مرسل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد: فقالت أخت لبيد بن الأعصم: إن يكن نبياً فسُخِّرَ، وإلا فسُيْذَلُّه هذا السحر حتى يذهب عقله. قال الحافظ: فوقع الشق الأول كما في الحديث الصحيح، (وهو أنه أخير)، قال: واستدل ابن القصار =

ولعن العاضهة^(١)، وهي الساحرة.

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَحْنَا فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّؤَيَّنَةً﴾ قال ابن قتيبة: أضر في نفسه خوفاً. وقال الزجاج: أصلها «خِوْفَةٌ» ولكن الواو قبلت ياءً لانكسار ما قبلها. وفي خوفه قولان: أحدهما: أنه خوف الطبع البشري. والثاني: أنه لما رأى سحرهم من جنس ما أراهم في العصا، خاف أن يلتبس على الناس أمره، ولا يؤمنوا، فقيل له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ عليهم بِالظَّفَرِ وَالنَّبَلَةِ. وهذا أصح من الأول.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي بَيْبِنِكَ﴾ يعني: العصا ﴿تَلَقَّفَ﴾ وقرأ ابن عامر: «تَلَقَّفَ مَا» برفع الفاء وتشديد القاف. وروى حفص عن عاصم: «تلقف» خفيفة. وكان ابن كثير يشدّد الناء من «تلقف» يريد: «تلقف». وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وسعيد بن جبيرة، وأبو رجاء: «تلقم» بالميم. وقد شرحناها في [الأعراف: ١١٧]، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «كيد سحر». وقرأ الباقر: «كيد ساحر» بألف، والمعنى: إن الذي صنعوا كيد ساحر، أي: عمل ساحر. وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني: «إنما صنعوا كيد» بنصب الدال. ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ قال ابن عباس: لا يسعد حينما كان. وقيل: لا يفوز. وروى جندب بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أخذتم الساحر فاقتلوه، ثم قرأ ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ قال: لا يأمن حيث وجد»^(٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَأْتَمَّرٌ لَّهُ﴾ قرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم، وورش عن نافع: «أمتم له» على لفظ الخبر. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «أمتم له» بهززة ممدودة. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «أمتم له» بهزتين الثانية ممدودة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد معلّمكم. قال الكسائي: الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلّمه، قال: جئت من عند كبير.

بأن الذي أصابه من السحر كان من جنس المرض بقوله ﷺ في الحديث: «أما أنا فقد شفاني الله». وقال الحافظ: ولم ينقل عنه ﷺ في خبر من الأخبار أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به. اهـ.

فقد تبين مما سبق من كلام العلماء أن السحر له حقيقة، وإلا لما أمر الله تعالى بالاستعاذة منه في سورة (الفلق) بقوله: ﴿وَمِن سَكْرَاتِنَا فِي الْمَكِيدِ﴾ وهي السواحر الآتية يسحر ويثقل في القعد كما قال المفسرون، وأنه مرض تسلط على جسده كبقية الأمراض، وقد مرض رسول الله ﷺ مرضاً شديداً حتى اغمى عليه، وكان يقول - كما «الصحاحين» -: «إني أروعك كما يروعك رجلان منكم»، وقد ابتلي في قومه، وقاسى صنوفاً من الأذى. فإن احتج أحد على منع السحر بقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنَّهُ يَمْشِيكَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فنه جوابان كما قال المصنف ابن الجوزي رحمه الله، أحدهما: أنه عصمه من القتل والأسر وتلف الجملة، فاما عوارض الأذى، فلا تمنع عصمة الجملة. والثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ يَمْشِيكَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أواخر ما نزل بالمدينة. وقد سحر وأوذى قبل نزول هذه الآية. وإن احتج آخر بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا تَحْمِلُكُمْ﴾ فذلك مقالة الظالمين، ومرادهم: من سحر حتى جن وأصبح زائل العقل لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع، هو الذي فسده عقله بحيث لا يدري ما يقوله، فهو المجنون - والمسلمون لا يقولون بمقالة الظالمين المقتربين - فأما من أصيب في بطنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وقولهم: سحر الأنبياء يتنافى مع حماية الله لهم، مردود، فإنه سبحانه وتعالى كما يحميهم ويصونهم يبتليهم ويختبرهم، فيزيدهم ذلك رغبة في درجاتهم، وينزل كرامتهم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ منناه: لا يسعد الساحر حيث كان، ولا يفوز، وليس معنى «لا يفلح»: لا يستطيع السحر، بل إذا سحر فلا يفلح، ولا يأمن حيث وجد، فذلك عدم فلاحه. هذا ما عليه جمهور المسلمين، من المفسرين والمحدثين، والفقهاء المحققين، وهو أنه عليه الصلاة والسلام، سحر وأثر في جسده، ولم يؤثر في عقله، وذلك لا يقدح في مقام النبوة والرسالة.

ومن الناس من يحاول أن يرد بعض النصوص الصحيحة - لتصور فهمه - ظناً منه أنه بذلك لا يدع مجالاً للطعن في رسالة النبي ﷺ، ولكن العلماء المحققين تلقوا هذه النصوص بالقبول، ويثبتوا وجه الحق فيها بعد علم ودراية، وتمحيص وتحقيق، فعلى المسلم أن يرجع في تفسير النصوص إلى أربابها، والمحققين من أصحابها، مخافة أن تزول به القدم، والله تعالى تكفل بحفظ شريعته، ورسالة نبيه، فقال في كتابه: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا لِرَبِّنَا لَكُمْ الْحِيطُونَ﴾ ويقض لهننا الدين أناساً قال في حقه رسول الله ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»، والله تعالى ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

(١) تقدم ٧٦٧ عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ سَكْرَاتِنَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قول المصنف: وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ «لعن العاضهة والمستضبهة»، وهو حديث ضعيف. قال الحافظ ابن حجر في «تخریج الكشاف» ٩٤: رواه أبو يعلى، وابن عدي من حديث ابن عباس، وفي إسناده زعمة بن صالح عن سلمة بن هرام، وهما ضعيفان، وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء. اهـ كلام ابن حجر. ومعنى العاضهة والمستضبهة: الساحرة والمستحسرة.

(٢) ذكره ابن كثير ١٥٨/٣ من رواية ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله البجلي، وقال: وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوفاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَيْتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ «في» بمعنى «على»، ومثله: ﴿أَمْ لَمْ سَأَلْ بِسْتِعْمُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨].
 ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أيها السحرة ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ حَذًّا﴾ لكم ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: أدوم، أنا على إيمانكم، أو ربُّ موسى على تركهم الإيمان به؟ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْذِرَكَ﴾ أي: لن نخشاك ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ آيَاتِنَا﴾ يعنون اليد والعصا. فإن قيل: لم نسبوا الآيات إلى أنفسهم بقولهم: «جاءنا» وإنما جاءت عامة لهم وغيرهم. فالجواب: أنهم لما كانوا بأبواب السحر ومذاهب الاحتيال أعرف من غيرهم، وقد علموا أن ما جاء به موسى ليس بسحر، كان ذلك في حق غيرهم أيقن وأوضح، وكانوا هم لمعرفة أخص. وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾ وجهان ذكرهما الفراء، والزجاج: أحدهما: أن المعنى: لن نؤثرك على ما جاءنا من البيئات، وعلى الذي فطرنا. والثاني: أنه قسم، تقديره: وحق الذي فطرنا.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: فاصنع ما أنت صانع. وأصل القضاء: عمل بإحكام ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ قال الفراء: «إنما» حرف واحد، فلهذا نصب: «الحياة الدنيا». ولو قرأ قارئ برفع «الحياة» لجاز، على أن يجعل «ما» في مذهب «الذي»، كقولك: إن الذي تقضي هذه الحياة الدنيا. وقرأ ابن أبي عبيدة، وأبو المتوكّل: «إنما تقضي» بضم التاء على ما لم يُسمِّ فاعله، «الحياة» برفع التاء. قال المفسرون: والمعنى: إنما سلطانك ومملكك في هذه الدنيا، لا في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لِيَقْرَأُوا﴾ يعنون الشرك ﴿وَمَا أَرْهَبْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: والذي أكرهنا عليه، أي: ويغفر لنا إكراهك إنما على السحر. فإن قيل: كيف قالوا: أكرهنا، وقد قالوا: «إن لنا لأجراً»، وفي هذا دليل على أنهم فعلوا السحر غير مكروهين؟ فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أن فرعون كان يكره الناس على تعلّم السحر، قاله ابن عباس. قال ابن الأنباري: كان يطالب بعض أهل مملكته بأن يعلموا أولادهم السحر وهم لذلك كارهون، وذلك لشغفه بالسحر، ولما خامر قلبه من خوف موسى، فالإكراه على السحر، هو الإكراه على تعلّمه في أول الأمر. والثاني: أن السحرة لما شاهدوا موسى بعد قولهم ﴿إِنَّا لَنَأْتِيَنَّكَ﴾ ورأوا ذكره الله تعالى وسلوكه منهاج المتقين، جزعوا من ملاقاته بالسحر، وحذروا أن يظهر عليهم فيطّلع على ضعف صناعتهم، ففسد معيشتهم، فلم يقنع فرعون منهم إلا بمعارضة موسى، فكان هذا هو الإكراه على السحر. والثالث: أنهم خافوا أن يُعلّبوا في ذلك الجمع، فيفقد ذلك في صنعتهم عند الملوك والسُّوق^(١)، وأكرههم فرعون على فعل السحر. والرابع: أن فرعون أكرههم على مفارقة أوطانهم، وكان سبب ذلك السحر، ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّهَ خَيْرٌ﴾ أي: خير منك ثواباً إذا أطيع ﴿وَأَبْقَى﴾ عقاباً إذا عُصي، وهذا جواب قوله: ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ حَذًّا وَأَبْقَى﴾؛ وهذا آخر الإخبار عن السحرة.

﴿إِنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ رَبِّهِمْ يَحْزَنُونَ﴾ لَمْ يَهْتُمْ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٦﴾ وَمَنْ يَأْتِيهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الَّتِي كَسَبُوا ﴿٧٧﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ رَبِّهِمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني: مشركاً ﴿وَإِنَّ لَمْ يَهْتُمْ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾. فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة تنفعه. [أنشد ابن الأنباري في مثل هذا المعنى قوله:

أَلَا مَنْ لِنَفْسٍ لَا تَمُوتُ فَيَنْقُضِي شَقَاهَا وَلَا تَحْيَا حَيَاةً لَهَا طَعْمُ^(٢)

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ قال ابن عباس: قد أدى الفرائض، ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الَّتِي كَسَبُوا﴾ يعني: درجات الجنة، وبعضها أعلى من بعض. والعلی، جمع العليا، وهو تأنيث الأعلى. قال ابن الأنباري: وإنما قال: «فأولئك»، لأن «من» تقع بلفظ التوحيد على تأويل الجمع. فإذا غلب لفظها، وحُدِّدَ الراجح إليها، وإذا بُيِّنَ تأويلها، جُمع المصروف إليها.

(١) السُّوق: جمع سوقة، وهم بمنزلة الرعية التي تسوسها الملوك، ومن لم يكن ذا سلطان.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من النسخة الإستانبولية، والبيت في «القرطبي» ١١/٢٢٧. و«اللسان»: طعم.

قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ﴾ يعني الثواب ﴿جَزَاءَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: تطهر من الكفر والمعاصي.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِيَاكُوبَ فَأَمْرِبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ٧٧﴾ فَأَتَيْنَهُمْ فَرَعُونَ بِمُوسَىٰ فَغَشِبَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِبَهُمْ ٧٨ وَأَصْلُ فَرَعُونَ قَوْمَهُ وَمَا هَذَا ٧٩ بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ قَدْ أَفْتِنَكَ مِنْ مَدُونِكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَزَعْنَا عَلَيْكَ اللَّيْلَ وَالسَّلْوَىٰ ٨٠ كُلُّوْا مِنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْمَئِنُّوْا بِهِ فَيَحْبِلَ عَلَيْكُمْ وَعَصَىٰ وَمَنْ يَحْبِلْ عَلَيْهِ عَصَىٰ فَقَدْ هَوَىٰ ٨١ وَإِلَىٰ لَقْفَارٍ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَحَمَلَ صَالِحًا تُمْ أَحْتَدَىٰ ٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِيَاكُوبَ﴾ أي: سُرَّ بهم ليلاً من أرض مصر ﴿فَأَمْرِبَ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي: اجعل لهم طريقاً ﴿فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ قرأ أبو المتوكّل، والحسن، والنخعي، «يَبَسًا» بإسكان الباء. وقرأ الشعبي، وأبو رجاء، وابن السمين: «يابساً» بالفتح. قال أبو عبيدة: اليبس، متحرك الحروف، بمعنى اليابس، يقال: شاة يبس، أي: يابسة ليس لها لبن. وقال ابن قتيبة: يقال لليابس: ييس، وييس.

قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفُ﴾ قرأ الأمثرون بالفتح. وقرأ أبان، وحمزة عن عاصم: «لا تخف». قال الزجاج: من قرأ «لا تخاف»، فالمعنى: لست تخاف، ومن قرأ «لا تخف»، فهو نهي عن الخوف. قال الفراء: قرأ حمزة: «لا تخف» بالجزم، ورفع «ولا تخشى» على الاستئناف، كقوله تعالى: ﴿يُؤَلِّمُ الْوِلْدَانَ تِمْنًا أَنْ لَا يُخْرَجُوا﴾ [آل عمران: ١١١] استأنف بهم، فهذا مثله، ولو نوى حمزة بقوله: «ولا تخش» الجزم وإن كانت فيه الياء، كان صواباً. قال ابن قتيبة: ومعنى ﴿دَرَكًا﴾ لاحقاً. قال المفسرون: قال أصحاب موسى: هذا فرعون قد أدركننا، وهذا البحر بين أيدينا، فأنزل الله على موسى ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا﴾ أي: من فرعون ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ غرقاً في البحر.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَهُمْ فَرَعُونَ﴾ قال ابن قتيبة: لحقهم. وروى هارون عن أبي عمرو: «فأتبعهم» بالتشديد. وقال الزجاج: تبع الرجل الشيء، وأتبعه، بمعنى واحد. ومن قرأ بالتشديد، ففيه دليل على أنه أتبعهم ومعه الجنود. ومن قرأ «فأتبعهم»، فمعناه: ألحق جنوده بهم، وجائز أن يكون معهم على هذا اللفظ، وجائز أن لا يكون، إلا أنه قد كان معهم. ﴿فَغَشِبَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِبَهُمْ﴾ أي: فغشبهم من ماء البحر ما غرّفهم. وقال ابن الأنباري: ويعني بقوله: «ما غشبهم» البعض الذي غشبهم، لأنه لم يغشهم كل ماؤه. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة، وأبو رجاء، والأعمش: «فغشاهم من اليم ما غشاهم» بالفتح فيهما مع تشديد الشين وحذف الياء.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْلُ فَرَعُونَ قَوْمَهُ﴾ أي: دعاهم إلى عبادته ﴿وَمَا هَذَا﴾ أي: [ما] أرشدهم حين أوردهم موارد الهلكة. وهذا تكذيب له في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غانر: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ لأخذ التوراة. وقد ذكرنا في [مریم: ٥٢] معنى: «الأيمن»، وذكرنا في [البقرة: ٥٧] «المن والسلوى».

قوله تعالى: ﴿كُلُّوْا﴾ أي: وكلنا لهم: كلوا].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْمَئِنُّوْا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا تطمئروا في نعمي [فتظلموا]. والثاني: لا تجحدوا نعمي فتكونوا طاغين. والثالث: لا تدخروا منه لأكثر من يوم وليلة.

قوله تعالى: ﴿فَيَحْبِلْ عَلَيْكُمْ عَصَىٰ﴾ أي: فنجب لكم عقوتي. والجمهور قرؤوا «فيحبل» بكسر الحاء ﴿وَمَنْ يَحْبِلْ﴾ بكسر اللام. وقرأ الكسائي: «فيحل» بضم الحاء «ومن يحل» بضم اللام. قال الفراء: والكسر أحب إليّ، لأن الضم من الحلول، ومعناه: الوقوع، و«يحل» بالكسر، يجب، وجاء التفسير بالوجوب، لا بالوقوع.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي: هلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ لَقْفَارٍ﴾ القفار: الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى، فكلما تكررت ذنوبهم تكررت مغفرته، وأصل الغفر: الستر، وبه سمي [زَبْر] الثوب: غفراً، لأنه يستر سداه. فالغفار: الستار للذنوب عباده، المسبل عليهم ثوب عطفه.

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ تَابَ﴾ قال ابن عباس: لمن تاب من الشرك ﴿وَأَمَّا﴾ أي: وهد الله وصدّته، ﴿وَعَجَلَ صَالِحًا﴾

أدَّى الفرائض. وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ ثمانية أقوال: أحدها: علم أن لعمله هذا ثواباً، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: لم يشكك، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: علم أن ذلك توفيق من الله [له]، رواه عطاء عن ابن عباس. والرابع: لزم السنة والجماعة، قاله سعيد بن جبيرة. والخامس: استقام، قاله الضحاك. والسادس: لزم الإسلام حتى يموت عليه، قاله قتادة. والسابع: اهتدى كيف يعمل، قاله زيد بن أسلم. والثامن: اهتدى إلى ولاية بيت النبي ﷺ، قاله ثابت البناني.

﴿وَمَا أَصْغَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْؤِسِي﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاةٌ عَلَيَّ أَثْرَى وَعَصَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٣﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلُّمُ السَّابِرِيُّ ﴿٨٤﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقُولُونَ لَا مُبْدِيكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَنْطَلَقَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٥﴾ قَالُوا مَا أَنْطَلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّابِرِيُّ ﴿٨٦﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خِرَافٌ جَسَدًا لَمْ يَخْرُفْ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهٗ مُوسَى قَتَلَهُ قَوْمُهُ ﴿٨٧﴾ أَفَلَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصْغَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْؤِسِي﴾ قال المفسرون: لما نجى الله تعالى بني إسرائيل وأغرق فرعون، قالوا: يا موسى، لو أتيتنا بكتاب من عند الله، فيه الحلال والحرام والفرائض، فأوحى الله [إليه يبعده] أنه ينزل عليه ذلك في الموضوع الذي كلمه فيه، فاختار سبعين، فذهبوا معه إلى الطور لأخذ التوراة، فعجل موسى من بينهم شوقاً إلى ربه، وأمرهم بلحاقه، فقال الله تعالى له: ما الذي حملك على العجلة عن قومك، ﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاةٌ﴾ أي: هؤلاء ﴿عَلَيَّ أَثْرَى﴾، وقرأ أبو رزين العقيلي، وعاصم الجحدري: «على إثري» بكسر الهمزة وسكون الشاء. وقرأ عكرمة، وأبو المتوكل، وابن يعمر، برفع الهمزة وسكون الشاء. وقرأ أبو رجاء، وأبو العالية: بفتح الهمزة وسكون الشاء. والمعنى: هم بالقرب مني يأتون بعدي ﴿وَعَصَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أي: لتزداد رضى، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ قال الزجاج: ألقيناهم في فتنة ومحنة، واختبرناهم.

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي: من بعد انطلاقتك من بينهم ﴿وَأَضَلُّمُ السَّابِرِيُّ﴾ أي: كان سبباً لإضلالهم. وقرأ معاذ القارئ، وأبو المتوكل، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «وأضلهم» برفع اللام. وقد شرحنا في [البقرة: ٥٢] سبب اتخاذ السامري العجل، وشرحنا في [الأعراف: ١٥٠] معنى قوله تعالى: ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْعُدُونَ رَبَّهُمْ وَعَدَّا حَسَنًا﴾ أي: صدقاً، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: إعطاء التوراة. والثاني: قوله: ﴿لَئِنْ أَقْبَمْتُمْ الْعِجْلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا كُفْرَانَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾ الآية. [المائدة: ١١٣]، وقوله: ﴿وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لَئِنْ كَانُ﴾ [طه: ٨٢]. والثالث: النصر والظفر.

قوله تعالى: ﴿أَنْطَلَقَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ﴾ أي: مدة مفارقتي إياكم ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أن تصنعوا صنيعاً يكون سبباً لغضب ربكم ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ أي: عهدي، وكانوا قد عاهدوه أنه إن فكهم الله من ملكة آل فرعون، أن يعبدوا الله ولا يشركوا به، وقيموا الصلاة، ويتصروا الله ورسله. ﴿قَالُوا مَا أَنْطَلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: بكسر الميم، وقرأ نافع، وعاصم: بفتح الميم. وقرأ حمزة، والكسائي: بضم الميم. قال أبو علي: وهذه لغات. وقال الزجاج: المُلْكُ، بالضم: السلطان والقدرة. والمُلْكُ، بالكسر: ما حوته اليد. والمُلْكُ، بالفتح: المصدر، يقال: ملكت الشيء أملكه ملكاً. وللمفسرين في معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: ما كنا نملك الذي أتخذ منه العجل، ولكنها كانت زينة آل فرعون، فقذفناها، قاله ابن عباس. والثاني: بطاقتنا، قاله قتادة، والسدي. والثالث: لم نملك أنفسنا عند الوقوع في البلية، قاله ابن زيد. والرابع: لم يملك مؤمنونا سفهاءنا، ذكره الماوردي. فيخرج فيمن قال هذا لموسى قولان: أحدهما: أنهم الذين لم يعبدوا العجل. والثاني: عابده.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَوْزَارًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «حُمُلْنَا» بضم الحاء وتشديد الميم. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «حملنا» خفيفة. والأوزار: الأثقال. والمراد بها: حلي آل فرعون الذي كانوا استعاروه منهم قبل خروجهم من مصر. فمن قرأ «حُمُلْنَا» بالتشديد،

فالمعنى: حَمَلْنَا [ها] موسى، أمرنا باستعارتها من آل فرعون، ﴿فَقَدَّفْتَهَا﴾ أي: طرحناها في الحفيرة. وقد ذكرنا سبب قذفهم إياها في سورة البقرة: [٥٢].

قوله تعالى: ﴿مَكَانِكَ أَلَىٰ السَّامِرِيِّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه ألقى حلياً كما ألقوا. والثاني: ألقى ما كان معه من تراب حافر فرس جبريل. وقد سبق شرح القصة في [البقرة: ٥٢]، وذكرنا في [الأعراف: ١٤٨] معنى قوله تعالى: ﴿عَجَلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ﴾ هذا قول السامري ومن وافقه من الذين افْتَنُوا.

قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ في المشار إليه بالنسيان قولان: أحدهما: أنه موسى. ثم في المعنى ثلاثة أقوال: أحدها: هذا إلهكم وإله موسى فنسي موسى أن يخبركم أن هذا إلهه، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: فنسي موسى الطريق إلى ربه، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: فنسي موسى إلهه عندهم، وخالفه في طريق آخر، قاله قتادة. والثاني: أنه السامري، والمعنى: فنسي السامري إيمانه وإسلامه، قاله ابن عباس. وقال مكحول: فنسي، أي: ترك السامري ما كان عليه من الدين. وقيل: فنسي أن العجل لا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً. فعلى هذا القول، يكون قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ من إخبار الله ﷻ عن السامري. وعلى ما قبله، فيمن قاله قولان: أحدهما: أنه السامري. والثاني: بنو إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ﴾ قال الزجاج: المعنى: أفلا يرون أنه لا يرجع ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَتَقَوَّرُوا إِنَّمَا قُنْتُمْ بِرِيءٌ وَإِنَّكُمْ الرَّحَمَٰنَ فَآلِيُونِ وَأَلِيمُوا أَمْرِي﴾ ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عِدَابَ رَبِّكَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَّكَ إِذْ دَأَيْتُم مَسَلُومًا﴾ ﴿أَلَا تَتَّعِبْتُمْ أَفْصَيْتَ أَمْرِي﴾ ﴿قَالَ يَبْنَومُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قبل أن يأتي موسى ﴿يَتَقَوَّرُوا إِنَّمَا قُنْتُمْ بِرِيءٌ﴾ أي: ابتليتم ﴿وَرَأَىٰ رَبَّكَ الرَّحْمَٰنَ﴾ لا العجل، ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عِدَابَ رَبِّكَ﴾ أي: لن نزال مقيمين على عبادة العجل ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فلما رجع موسى ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَّكَ إِذْ دَأَيْتُم مَسَلُومًا﴾ بعبادة العجل ﴿أَلَا تَتَّعِبْتُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿ألا تتبعني﴾ بياء في الوصل ساكنة، ويقف ابن كثير بالياء، وأبو عمرو بغير ياء. وروى إسماعيل بن جعفر عن نافع: ﴿ألا تتبعني أفصيت﴾ بياء منصوبة. وروى قالون عن نافع مثل أبي عمرو سواء. وقرأ أعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: بغير ياء في الوصل، والوقف. والمعنى: ما منعتك من اتباعي. و﴿ألا﴾ كلمة زائدة. وفي المعنى ثلاثة أقوال: أحدها: تسيير ورائي بمن معك من المؤمنين، وتفارقههم. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: أن تناجزهم القتال، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: في الإنكار عليهم، قال مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَفْصَيْتَ أَمْرِي﴾ وهو قوله في وصيته إياه: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِيحُ﴾ قال المفسرون: ثم أخذ برأس أخيه ولحيته غضباً منه عليه. وهذا وإن لم يذكر هاهنا، فقد ذكر في [الأعراف: ١٥٠] فأكثفي بذلك، وقد شرحنا هناك معنى «يا ابن أم» واختلاف القراء فيها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرَأُونِي﴾ أي: بشعر رأسي. وهذا الغضب كان لله ﷻ، لا لنفسه، لأنه وقع في نفسه أن هارون عصى الله بترك اتباع موسى.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ أي: إن فارقتهم وابتعتك ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: باتباعي إياك ومن معي من المؤمنين. والثاني: بقثالي لبعضهم بعض. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ قولان: أحدهما: لم ترقب قولي لك: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِيحُ﴾. والثاني: لم تنتظر أمري فيهم.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْكِرِيُّ﴾ ﴿قَالَ بَمَرَّتْ بِمَا لَمْ يَجْمُرُوا بِهِ فَبَضْتُ فَبَضْتُ مِنْ أَمْرِ الرَّسُولِ فَسَبَّحْتُهَا وَكَذَلِكَ سَأَلْتُ لِي نَفْسِي﴾ ﴿قَالَ فَأَدَّاهَبَ فَإِنَّكَ لَكِ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسَ وَإِنَّكَ لَكِ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَعَنَّ وَأَنْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ مَأْكُوفًا لَنْ نَحْنُرَنَّهُ ثُمَّ لَنْ نَنسِفَهُ فِي الْبَئْرِ نَسْفًا﴾ ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا مَرْيَمُ﴾ أي: ما أمرك وشأنك الذي دعاك إلى ما صنعت؟! قال ابن الأنباري: وبعض اللغويين يقول: الخطب مشتق من الخطاب. المعنى: ما أمرك الذي تخاطب فيه؟! واختلفوا في اسم السامري على قولين: أحدهما: موسى أيضاً، قاله وهب بن منبه، وقال: كان ابن عم موسى بن عمران. والثاني: ميخا، قاله ابن السائب. وهل كان من بني إسرائيل، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: لم يكن منهم، قاله ابن عباس. والثاني: كان من عظامهم، وكان من قبيلة تسمى «سامرة»، قاله قتادة. وفي بلده قولان: أحدهما: كرمان، قاله سعيد بن جبير. والثاني: باجرما، قاله وهب.

قوله تعالى: ﴿بَصُرَتْ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «تَبَصَرُوا»، بالثاء. فعلى قراءة الجمهور أشار إلى بني إسرائيل، وعلى هذه القراءة خاطب الجميع. قال أبو عبيدة: علمت ما لم تعلموا. قال: وقوم يقولون: بصرت، وأبصرت سواء، بمنزلة أسرعت، وسرعت. وقال الزجاج: يقال: بصر الرجل يبصر: إذا صار عليمًا بالشيء، وأبصر يبصر: إذا نظر. قال المفسرون: فقال له موسى: وما ذاك؟ قال: رأيت جبريل على فرس، فألقي في نفسي: أن اقبض من أثرها ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾، وقرأ أبي بن كعب، والحسن، ومعاذ القارئ: «قبصة» بالصاد. وقال الفراء: والقبض بالكف كلها، والقبصة - بالصاد - بأطراف الأصابع. قال ابن قتيبة: ومثل هذا: الخضم بالضم كله، والقبض بأطراف الأسنان، والنضج أكثر من النضج، والرجز: العذاب، والرجس: التنن، والهلاس في البدن، والسلاس في العقل، والغلط في الكلام، والغلت في الحساب، والخصر: الذي يجد البرد، والخرص: الذي يجد البرد، والجوع، والنار الخامدة: التي قد سكن لهبها ولم يطفأ جمرها، والهامة: التي طفتت فذهبت البتة، والشكد: العطاء ابتداءً، فإن كان جزءاً فهو شكم، والمائح: الذي يدخل فيملاً الدر، والمائح: الذي يتزعا.

قوله تعالى: ﴿فَنبَذْنَاهُ﴾ أي: فقدفتها في العجل. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف: «فنبذنا» بالإدغام ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما حدثك ﴿سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أي: زينت لي ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَتَمَنَّا﴾ أي: من بيننا ﴿فَأَلَيْكَ لَكْ فِي الْحَيَاةِ﴾ أي: ما دمت حياً ﴿أَنْ نَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا أمس ولا أمس، فصار السامري يهيم في البرية مع الوحش والسباع، لا يمس أحداً، ولا يمس أحداً، ولا يمس أحداً، عاقبه الله بذلك، وألهمه أن يقول: «لا مساس»، وكان إذا لقي أحداً يقول: لا مساس، أي: لا تقربني، ولا تمسني، وصار ذلك عقوبة لولده، حتى إن بقاياهم اليوم، فيما ذكر أهل التفسير، بأرض الشام يقولون ذلك. وحكي أنه إن مس واحد من غيرهم واحداً منهم، أخذتهما الحمى في الحال.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: لعذابك يوم القيامة ﴿أَنْ تُخَلَّفَ﴾ أي: لن يتأخر عنك. ومن كسر لام «تخلف» أراد: لن تغيب عنه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: العجل ﴿الَّذِي ظَلَمْتَ﴾ قال ابن عباس: معناه: أقمته عليه. وقال الفراء: معنى «ظلمت»: فعلته نهاراً. وقرأ أبي بن كعب، وأبو الجوزاء، وابن يعمر: «ظلمت» برفع الظاء. وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء، والأعمش، وابن أبي عبيدة: «ظلمت» بكسر الظاء. وقال الزجاج: «ظلمت» و«ظلمت» بفتح الظاء، وكسرهما، فمن فتح، فالأصل فيه: «ظلمت» ولكن اللام حذفت لثقل التضخيم والكسر، وبقيت الظاء على فتحها، ومن قرأ: «ظلمت» بالكسر، حوّل كسرة اللام على الظاء. ومعنى ﴿عَاكِفًا﴾ مقيماً، ﴿لنُحْرِقَنَّ﴾ قرأ الجمهور: «لنحرقته» بضم النون وفتح الحاء وتشديد الراء، وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو رزين، وابن يعمر: «لنحرقته» بفتح النون وسكون الحاء ورفع الراء مخففة. وقرأ أبو هريرة، والحسن، وقتادة: «لنحرقته» برفع النون وإسكان الحاء وكسر الراء مخففة. قال الزجاج: إذا شدد، فالمعنى: نحرقه مرة بعد مرة. وتأويل «لنحرقته»: لنبردنه، يقال: حرقت أحرق وأحرق: إذا بردت الشيء. والنسف: التدزية. وجاء في التفسير: أن موسى أخذ العجل فذبحه، فسال منه دم، لأنه كان قد صار لحماً ودماً، ثم أحرقه بالنار، ثم ذراه في البحر، ثم أخبرهم موسى عن إلههم، فقال: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الذي يستحق العبادة، لا العجل، ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: وسع علمه كل شيء.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿خَلِيلِينَ

فِيهِ وَسَاءَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَلَاءٌ ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَخْفَتُونَ يَتَّبِعُهُمُ الْيَأْسُ إِنَّ لَبِئْسَ آلَاءَ عَمَلِكُمْ ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَشْلَتْنَاهُمْ طَرِيقَةَ رَبِّكَ إِنَّ لَبِئْسَ لِرَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَنْصُرُ عَلَيْكَ﴾ أي: كما قصصنا عليك يا محمد من نبأ موسى وقومه، نقص عليك ﴿مِنْ آيَاتِهِ مَا قَدَّ سَبَقَ﴾ أي: من أخبار من مضى، والذُّرُّ هاهنا: القرآن ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فلم يؤمن، ولم يعمل بما فيه ﴿وَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قرأ عكرمة، وأبو المتوكل، وعاصم الجحدري: ﴿يُحْمَلُ﴾ برفع الياء وفتح الحاء وتشديد الميم، ﴿وَرُزُّكَ﴾ أي: إنما ﴿حَلِيلِينَ فِيهِ﴾ أي: في عذاب ذلك الوزر ﴿وَسَاءَ لَكُمْ﴾ قال الزجاج: المعنى: وساء الوزر لهم يوم القيامة ﴿حَمَلًا﴾، و﴿حَمَلًا﴾ منصوب على التمييز.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ قرأ أبو عمرو: «انفخ» بالنون، وقرأ الباقون من السبعة: «ينفخ» بالياء، على ما لم يسم فاعله. وقرأ أبو عمران الجوني: «يوم ينفخ» بياء مفتوحة ورفع الفاء، وقد سبق بيانه. و﴿نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو الجوزاء، وطلحة بن مصرف: «ويحشر» بياء مفتوحة ورفع الشين. وقرأ ابن مسعود، والحسن، وأبو عمران: «ويحشر» بياء مرفوعة وفتح الشين «المجرمون» بالواو. قال المفسرون: والمراد بالمجرمين: المشركون. ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ وفيه قولان: أحدهما: عُمياً، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال ابن قتيبة: يبيض العيون من العمى، قد ذهب السواد، والناظر. والثاني: زُرْقُ العيون من شدة العطش، قاله الزهري. والمراد: أنه يشوه خَلْقَهُمْ بسواد الوجوه، وزرق العيون.

قوله تعالى: ﴿يَتَخَفَتُونَ يَتَّبِعُهُمُ الْيَأْسُ﴾ أي: يسار بعضهم بعضاً ﴿إِنَّ لَبِئْسَ﴾ أي: ما لبستم إلا عشر ليال. وهذا على طريق التقليل، لا على وجه التحديد. وفي مرادهم بمكان هذا اللبث قولان: أحدهما: القبور. ثم فيه قولان: أحدهما: أنهم عَتَوْا طول ما لبثوا فيها، روى أبو صالح عن ابن عباس: إن لبستم بعد الموت إلا عشراً. والثاني: ما بين الفختين، وهو أربعون سنة، فإنه يخفف عنهم العذاب حينئذ، فيستقلون مدة لبثهم لهول ما يعاينون، حكاه علي بن أحمد النيسابوري. والقول الثاني: أنهم عَتَوْا لبثهم في الدنيا، قاله الحسن، وفتادة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَشْلَتْنَاهُمْ طَرِيقَةَ رَبِّكَ﴾ أي: أعقلهم، وأعدلهم قولاً ﴿إِنَّ لَبِئْسَ لِرَبِّكَ يَوْمَئِذٍ﴾ فنسي القوم مقدار لبثهم لهول ما عاينوا.

﴿وَسَتَلَوُكَّ عَنِ الْجِبَالِ فَقَدْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا سَمْعَ لَهُ إِلَّا هَسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ آذَنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَوْمَئِذٍ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عَلِمًا ﴿١١٠﴾ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ لَكُمْ الْيَوْمَ الْقَبْرِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَسْمَلْ مِنَ الظَّالِمِينَ لَنْ يَكُونَ مِنْكُمْ مَرْبُوتٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْكَلِمَةَ الْحَقَّ وَلَا تَعْلَمُ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَتَلَوُكَّ عَنِ الْجِبَالِ﴾ سبب نزولها أن رجالاً من ثقيف أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد! كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١).

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ قال المفسرون: النسف: التذرية. والمعنى: يصيرها رمالاً تسيل سبلاً، ثم يصيرها كالصوف المنفوش، تطيرها الرياح فتستأصلها ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: يدع أماكنها من الأرض إذا نسفها ﴿قَاعًا﴾ قال ابن قتيبة: القاع من الأرض: المستوي الذي يعلوه الماء، والصفصاف: المستوي أيضاً، يريد: أنه لا نبت فيها.

قوله تعالى: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ في ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد بالعوَج: الأودية، وبالأمت: الروابي، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وكذلك قال مجاهد: العوج: الانخفاض، والأمت، الارتفاع، وهذا مذهب الحسن. وقال ابن قتيبة: الأمت: التَبَكُّ. والثاني: أن العوج: التميل، والأمت: الأثر مثل الشراك، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أن العوج: الصدع، والأمت، الأكمة.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٣٧٤/٤ من رواية ابن المنذر عن ابن جريج قال: قالت قريش: يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت: ﴿وَسَتَلَوُكَّ عَنِ الْجِبَالِ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْمُوكَ الدَّاعِيَ﴾ قال الفراء: أي: يتبعون صوت الداعي للحشر، لا عوج لهم عن دعائه: لا يقدر أن لا يتبعوا.

قوله تعالى: ﴿وَرَحَّصَتِ الْأَمْوَالَ﴾ أي: سكنت وخفيت ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَسَاءً﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: وطاء الأقدام، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد في رواية، واختاره الفراء، والزجاج. والثاني: تحريك الشفاه بغير نطق، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثالث: الكلام الخفي، روي عن مجاهد. وقال أبو عبيدة: الصوت الخفي.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ﴾ يعني: لا تنفع أحداً ﴿إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ أي: إلا شفاعته من أذن له الرحمن، أي: أذن أن يُشْفَعَ له، ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي: ورضي للمشفوع فيه قولاً، وهو الذي كان في الدنيا من أجل: ﴿لا إله إلا الله﴾. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الكناية راجعة إلى الذين يتبعون الداعي. وقد شرحنا هذه الآية في سورة [البقرة: ٢٥٥]. وفي هاء «به» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى، قاله مقاتل. والثاني: إلى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ قال الزجاج: «عنت» في اللغة: خضعت، يقال: عنا يعنو: إذا خضع، ومنه قيل: أخذت البلاد عنوة: إذا أخذت غلبة، وأخذت بخضوع من أهلها. والمفسرون على أن هذا في يوم القيامة، إلا ما روي عن طلق بن حبيب: هو وضع الجبهة والأنف والكفين والرُكبتين وأطراف القدمين على الأرض للسجود. وقد شرحنا في آية الكرسي معنى ﴿أَلْحَى الْقِيَوْمُ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَدَدَّ حَابِبٌ مِّنْ حَمَلٍ طَلْمًا﴾ قال ابن عباس: حَسَرَ من أشرك بالله.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلِكُ مِنَ الصَّلَاحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ «من» هاهنا للجنس. وإنما شرط الإيمان، لأن غير المؤمن لا يُقْبَلُ عمله، ولا يكون صالحاً، ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أي: فهو لا يخاف. وقرأ ابن كثير: «فلا يخف» على النهي.

قوله تعالى: ﴿طَلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لا يخاف أن يُظْلَمَ فيزاد من دُئِبَ غيره، ولا أن يهضم من حسناته، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: لا يخاف أن يُظْلَمَ فيزاد من دُئِبَ غيره، ولا أن يهضم من حسناته، قاله قتادة. والثالث: أن لا يخاف أن يواخذ بما لم يعمل، ولا ينتقص من عمله الصالح، قاله الضحاك. والرابع: لا يخاف أن لا يُجْزَى بعمله، ولا أن يُنْقَصَ من حَقِّه، قاله ابن زيد. قال اللغويون: الهضم؛ النقص، تقول العرب: هضمتُ لك من حَقِّي، أي: حططتُ، ومنه: فلان هضم الكشْحَيْنِ، أي: ضامر الجنبين، ويقال: هذا شيء يهضم الطعام، أي: ينقص ثقله. وفرق بعض المفسرين بين الظلم والهضم، فقال: الظلم: منع الحق كله، والهضم: منع البعض، وإن كان ظلماً أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: وكما بيئنا في هذه السورة، أنزلناه، أي: أنزلنا هذا الكتاب ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي: بيئنا فيه ضروب الوعيد. قال قتادة: يعني: وقائعه في الأمم المكذبة.

قوله تعالى: ﴿لَمَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ليكون سبباً لاتقائهم الشرك بالاتعاظ بمن قبلهم ﴿أَرَأَيْتُمْ لَمَّمْ﴾ أي: يجدد لهم القرآن، وقيل: الوعيد ﴿ذِكْرًا﴾ أي: اعتباراً، فيذكروا به عقاب الأمم، فيعتبروا. وقرأ ابن مسعود، وعاصم الجحدري: «أو نُخِذْتُ» بنون مرفوعة.

قوله تعالى: ﴿تَمَتَّلَى اللَّهُ﴾ أي: جَلَّ عن إلحاد الملحدين وقول المشركين في صفاته، ﴿أَلَمَّاكَ﴾ الذي بيده كل شيء، ﴿أَلْحَقُّ﴾ وقد ذكرناه في يونس: ٣٢.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْفَرَزَانِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن جبريل كان يأتي النبي ﷺ بالسورة والآي فيتلوها عليه، فلا يفرغ جبريل من آخرها حتى يتكلم رسول الله ﷺ بأولها مخافة أن ينساها، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١). والثاني: أن رجلاً لطم امرأته، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تطلب القصاص، فجعل

(١) قال السيوطي في «الدرر»: ٣٠٩/٤: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْفَرَزَانِ﴾ بِن قَيْدٍ أَنْ يَمْتَنِعَ إِلَيْكَ رَحِيمَتِي يَقُولُ: لا تجعل حتى تبيته لك.

رسول الله ﷺ بينهما القصاص، فنزلت هذه الآية، فوقف رسول الله ﷺ حتى نزل قوله تعالى: ﴿الْجِبَالُ قَوَاصِدٌ عَلَى النَّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، قاله الحسن البصري (١).

قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفَصِّحَ إِلَيْكَ وَحْيَهُ﴾ وقرأ ابن مسعود، والحسن، ويعقوب: «تَقْضِي» بالنون وكسر الضاد وفتح الياء «وَحْيَهُ» نصب الياء. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبريل من تلاوته تخاف نسيانه (٢)، هذا على القول الأول. والثاني: لا تُقرئ أصحابك حتى نبين لك معانيه، قاله مجاهد، وقتادة. والثالث: لا تسأل إنزاله قبل أن يأتيك الوحي، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: زِدْنِي قرآنًا (٣)، قاله مقاتل. والثاني: فهمًا. والثالث: حفظًا، ذكرهما الثعلبي.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسْوٍ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (٤) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَنْ تَقُلْنَا يَتَّكُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى (٥) إِنَّ لَكَ الْأَجْمُوعَ فِيهَا وَلَا تَمَرًا (٦) وَأَنَّكَ لَا تَظُنُّوْنَ فِيهَا وَلَا تَضَعْنَ (٧) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّكُمُ هَلْ أَذُنُكَ عَلَىٰ مَجْرَجِ الْعُقَدِ وَإِنَّكَ لَا تَبْصُرُ (٨) فَاسْكَلَا مِنهَا قِدَّتْ لَهَا سَوْدُهُمَا وَطِيفَا بِحَيْثُمَا طَلَبَا مِنْ رَبِّي لَعْنَةُ وَعَصَىٰ آدَمَ رَبَّهُ فَكَوَىٰ (٩) ثُمَّ ابْتِغَىٰ رَبُّهُ نَارَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٠) قَالَ أَمِطَا مِنْهَا جِيْمًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١١) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي فَسَأَلَ لَهَ مَيْمِشَةً سَنَكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٣) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسىٰ (١٤) وَكَذَلِكَ نُجزي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِنَا رَبِّيَ وَالْعَذَابُ الْأَخْرَجُ أَشَدُّ وَأَلَمٌ (١٥)

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ أي: أمرناه وأوصيناه أن لا يأكل من الشجرة ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدي وتركوا الإيمان بي، وهم الذين ذكرهم في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، والمعنى: أنهم إن نقضوا العهد، فإن آدم قد عهدنا إليه ﴿فَنَسِيَ﴾ وفي هذا النسيان قولان: أحدهما: أنه التَّرك، قاله ابن عباس، ومجاهد، والمعنى: ترك ما أمر به. والثاني: أنه من النسيان الذي يخالف الذُّكْر، حكاه الماوردي. وقرأ معاذ القاري، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «فَنَسِيَ» برفع النون وتشديد السين.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ العَزْمُ في اللغة: توطيئُ النفس على الفعل. وفي المعنى أربعة أقوال: أحدها: لم نجد له حفظًا، رواه العوفي عن ابن عباس، والمعنى: لم يحفظ ما أمر به. والثاني: صبرًا، قاله قتادة، ومقاتل، والمعنى: لم يصبر عزمًا نهي عنه. والثالث: حزمًا، قاله ابن السائب. قال ابن الأنباري: وهذا لا يُخرج آدم من أولي العزم، وإنما لم يكن له عزم في الأكل فحسب. والرابع: عزمًا في العزود إلى اللُّتْب، ذكره الماوردي. وما بعد هذا قد تقدم تفسيره (البقرة: ٣٤) إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى﴾ قال المفسرون: المراد به نَصَبُ الدُّنْيَا وتبعها من تكلف الحرث والزرع والعجن والخَبْز وغير ذلك. قال سعيد بن جبير: أهبط إلى آدم ثور أحمر، فكان يعتمل عليه ويمسح العرق عن جبينه، فذلك شقاؤه. قال العلماء: والمعنى: فتشقيًا؛ وإنما لم يقل: فتشقيًا، لوجهين: أحدهما: أن آدم هو المخاطب، فاكتفى به، ومثله: ﴿عَنِ الْيَتِيمِ وَالنَّارِ الْيُسْفَىٰ﴾ [ق: ١٧]، قاله الفراء. والثاني: أنه لما كان آدم هو الكاسب، كان التعب في حَقِّه أكثر، ذكره الماوردي.

(١) «الطبري» ٥٨/٥، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٠٩/٤ وزاد نسبه إلى الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) قال ابن كثير ١٦٧/٣: وقوله: ﴿وَلَا تَمْتَلِ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفَصِّحَ إِلَيْكَ وَحْيَهُ﴾ كقولُه تعالى في سورة: (لا أقسم بيوم القيامة): ﴿لَا تَقْرَأُ بِهِ إِلَهُكَ لِتَسْكُنَ بِهِ﴾ [١] ﴿إِنَّ مَنَّا جِئْمٌ ذُرِّيَّتُهُ﴾ [٢] ﴿فَمَا قَرَأَهُ نَالِيٌّ فَرَأَاهُ﴾ [٣] ثُمَّ يَدَّ مَنَّا يَدَّهُ النَّارُ﴾ [٤] قال: وثبت في «الصحیح» عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يعني أنه ؓ، كان إذا جاء جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لتلا يشق عليه، فقال: ﴿لَا تَقْرَأُ بِهِ إِلَهُكَ لِتَسْكُنَ بِهِ﴾ [٥] ﴿إِنَّ مَنَّا جِئْمٌ ذُرِّيَّتُهُ﴾ [٦] ﴿فَمَا قَرَأَهُ نَالِيٌّ فَرَأَاهُ﴾ [٧] أي: أن نجتمع في صدرك، ثم نقرأه على الناس من غير أن ننسى منه شيئًا، ثم قال: وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَمْتَلِ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفَصِّحَ إِلَيْكَ وَحْيَهُ﴾ أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاتراه بعده.

(٣) قال ابن كثير ١٦٧/٣: قال ابن عيينة رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله ﷻ. وقال الألوسي في «روح المعاني»: واستدل بالآية على فضل العلم حيث أمر ﷺ بطلب زيادته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ ﴿١١٥﴾ قرأ أبي بن كعب: «لا تُجَاع ولا تُعْرَى» بالتاء المضمومة والألف. «وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «وَأَنَّكَ» مفتوحة الألف. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: «وَأَنَّكَ» بكسر الألف. قال أبو علي: من فتح، حملة على أن لك أن لا تجوع، وأن لك أن لا تظما، ومن كسر، استأنف.

قوله تعالى: ﴿لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾ أي: لا تعطش. يقال: ظمى الرجل ظمًا، فهو ظمآن، أي: عطشان. ومعنى ﴿وَلَا تَصْحَى﴾ لا تبرز للشمس فيصيبك حرها، لأنه ليس في الجنة شمس.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغَدَاةِ﴾ أي: على شجرة من أكل منها لم يمُت ﴿وَمَلِكٍ لَا يَمُوتُ﴾ جديده ولا يفنى. وما بعد هذا مفسر في [الأعراف: ٢٢]. وفي قوله تعالى: ﴿فَنُوحِيَ﴾ قولان: أحدهما: ضلَّ طريق الخلود حيث أراد من قبل المعصية. والثاني: فسد عليه عيشه، لأن معنى الغي: الفساد. قال ابن الأثيري: وقد غلظ بعض المفسرين، فقال: معنى «غوى»: أكثر مما أكل من الشجرة حتى بشم، كما يقال: غوى الفصيل: إذا أكثر من لبن أمه فيشم فكاد يهلك، وهذا خطأ من وجهين: أحدهما: أنه لا يقال من البشم: غوى يغوي، وإنما يقال: غوي يغوي. والثاني: أن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَأَمَّرَ النَّجْدُ﴾ [الأعراف: ٢٢] يدل على أنهما لم يكثرا، ولم تتأخر عنهما العقوبة حتى يصلا إلى الإكثار. قال ابن قتيبة: فنحن نقول في حق آدم: عصى وغوى كما قال الله ﷻ، ولا نقول: آدم عاصٍ وغاٍ، كما تقول لرجل قطع ثوبه وخاطه: قد قطعه وخاطه، ولا نقول: هذا خياط، حتى يكون معاوداً لذلك الفعل، معروفاً به.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَنَبَهُ رَبُّهُ﴾ قد بينا الاجتناء في [الانعام: ٨٧] ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ﴾ أي: هداه للتوبة. ﴿قَالَ أَهَيْطًا﴾ في المشار إليهما قولان: أحدهما: آدم وإبليس، قاله مقاتل. والثاني: آدم وحواء، قاله أبو سليمان الدمشقي. ومعنى قوله تعالى: ﴿بِمُكْرٍ يُعَيِّنُ عَدُوًّا﴾ آدم وذريته، وإبليس وذريته، والحية أيضاً^(١)؛ وقد شرحنا هذا في [البقرة: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ أي: رسولي وكتابي ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ قال ابن عباس: من قرأ القرآن واتبع ما فيه، هداه الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب، ولقد ضمن الله لمن أتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ قال عطاء: عن موعظتي. وقال ابن السائب: عن القرآن ولم يؤمن به ولم يتبعه. قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال أبو عبيدة: معناه: معيشة ضيقة، والضنك يوصف به الأثني والذكر بغير هاء، وكل عيش أو مكان أو منزل ضيق، فهو ضنك، وأنشد:

وإن نزلوا بضنك فأنزل^(٢)

وقال الزجاج: الضنك أصله في اللغة: الضيق والشدة. وللمفسرين في المراد بهذه المعيشة خمسة أقوال: أحدها: أنها عذاب القبر، روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتدرون ما المعيشة الضنك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون ثقيلاً ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة^(٣).» وممن ذهب إلى أنه عذاب القبر ابن مسعود، وأبو سعيد الخدري، والسدي. والثاني: أنه ضغطة القبر حتى تختلف أضلاعه فيه، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: شدة عيشه في النار، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال

(١) انظر التعليق الذي في الصفحة ٥٦.

(٢) هذا جزء من عجز بيت لمترة بن عمرو بن شداد العسبي، وهو في «مجاز القرآن» ٣٢/٢، و«الطبري» ٢٢٥/١٦، و«القرطبي» ٢٥٨/١١، ومختار الشعر الجاهلي» ٣٨٨/١، والبيت بتمامه:

إن يُلْحَقُوا أَكْرَزُ وَإِنْ يُسَلِّحُوا
وفي «اللسان» مادة «ضنك»: الضنك: الضيق من كل شيء، والذكر والأثني فيه سواء، ومعيشة ضنك: ضيقة، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، أي: غير حلال.

(٣) «الطبري» ٢٢٨/١٦، وأسباب النزول» للواحدي ١٧٤، وأوردته السيوطي في «الدر» ٣١١/٤، وهو حديث ضعيف، وذكره ابن كثير ١٦٩/٣ وقال: رفعه منكر جداً.

الحسن، وفتادة، وابن زيد. قال ابن السائب: وتلك المعيشة من الضريع والزقوم. والرابع: أن المعيشة الضنك: كسب الحرام، روى الضحاك عن ابن عباس قال: المعيشة الضنك: أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها، وله معيشة حرام يركض فيها. قال الضحاك: فهذه المعيشة هي الكسب الخيث، وبه قال عكرمة. والخاص: أن المعيشة الضنك: المال الذي لا يتقي الله صاحبه فيه، رواه العوفي عن ابن عباس. فخرج في مكان المعيشة ثلاثة أقوال: أحدها: القبر. والثاني: الدنيا. والثالث: جهنم. وفي قوله تعالى: ﴿وَتَحْسُرُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «أعمى» ﴿لِمَ حَسْرَتِي أَعْمَى﴾ بفتح الميمين. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم بكسرهما. وقرأ نافع بين الكسر والفتح. ثم في هذا العمى للمفسرين قولان: أحدهما: أعمى البصر، روى أبو صالح عن ابن عباس قال: إذا أخرج من القبر خرج بصيراً، فإذا سيق إلى المحشر عمي. والثاني: أعمى عن الحجّة، قاله مجاهد، وأبو صالح. قال الزجاج: معناه: فلا حجّة له يهتدي بها، لأنه ليس للناس على الله حجّة بعد الرسل.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك كما ترى ﴿أَنْتَكَ آيَاتِنَا نَسِيحًا﴾ أي: فتركناها ولم تؤمن بها؛ وكما تركتها في الدنيا تترك اليوم في النار. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما ذكرنا ﴿تَجْرِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ أي: أشرك، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ﴾ من عذاب الدنيا ومن عذاب القبر ﴿وَأَنزِلُ﴾ لأنه يدوم.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا لَكُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَامِ وَإِجْلِ مُسَمًّى﴾ ﴿فَأَسْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَمَلَكٌ لِّمَلَكٍ رَّزَقٍ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا لَكُمْ﴾ أي: أفلم يتبين لكفار مكة إذا نظروا آثار من أهلكنا من الأمم؛ وكانت قريش تتجر وتري مساكن عاد وثمود وفيها علامات الهلاك، فذلك قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾. وروى زيد عن يعقوب: «أفلم تهدي بالنون.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عن هؤلاء الكفار إلى يوم القيامة، وقيل: إلى يوم بدر، وقيل: إلى انقضاء آجالهم ﴿لَكَانَ لِزِمَامًا﴾ أي: لكان العذاب لازماً، أي: لازماً لهم. والزم: مصدر وُصف به العذاب. قال الفراء وابن قتيبة: في هذه الآية تقديم وتأخير، والمعنى: ولولا كلمة وأجل سمى لكان لازماً. قوله تعالى: ﴿فَأَسْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ﴾ أمر الله تعالى نبيه بالصبر على ما يسمع من أذاهم إلى أن يحكم الله فيهم، ثم حكم فيهم بالقتل، ونسخ بآية السيف إطلاق الصبر.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صل له بالحمد له والثناء عليه ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يريد الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: العصر ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ الآناء: الساعات، وقد بيناها في [ال عمران: ١١٣]، ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فصل. وفي المراد بهذه الصلاة أربعة أقوال: أحدها: المغرب والعشاء، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال فتادة. والثاني: جوف الليل، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: العشاء، قاله مجاهد، وابن زيد. والرابع: أول الليل وأوسطه وآخره، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ المعنى: وسبح أطراف النهار. قال الفراء: إنما هما طرفان، فخرجا مخرج الجمع، كقوله تعالى: ﴿إِنْ نَوَّأْنَا إِلَى اللَّهِ فَدَدَّ صَفَتْ فَلَوْ كُنَّا﴾ [التحریم: ٤]. وللمفسرين في المراد بهذه الصلاة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الظهر، قاله فتادة؛ فعلى هذا، إنما قيل لصلاة الظهر: أطراف النهار، لأن وقتها عند الزوال، فهو طرف النصف الأول وطرف النصف الثاني. والثاني: أنها صلاة المغرب وصلاة الصبح، قاله ابن زيد؛ وهذا على أن الفجر في ابتداء الطرف الأول، والمغرب في انتهاء الطرف الثاني. والثالث: أنها الفجر والظهر والعصر؛ فعلى هذا يكون الفجر من الطرف الأول، والظهر والعصر من الطرف الثاني، حكاها الفراء.

قوله تعالى: ﴿لَمَلَكٌ رَّزَقٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: «ترضى» بفتح التاء. وقرأ الكسائي، وأبو بكر عن عاصم بضمها. فمن فتح، فالمعنى: لملك ترضى ثواب الله الذي يعطيك. ومن ضمها، ففيه وجهان: أحدهما: لملك ترضى بما تعطى. والثاني: لعل الله أن يرضاك.

﴿وَلَا تَمُدَّدْ عَيْنَيْكَ إِلَّا مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ لُحْيٍ لَدُنَّا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقًا رَبِّكَ حَرِيْرًا وَبَقِيْرًا ﴿١٣١﴾ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْتَكْبِرْ رِزْقًا مِمَّنْ رَزَقْنَاكَ وَالْعَنِيْبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّدْ عَيْنَيْكَ﴾ سبب نزولها، ما روى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، قال: نزل ضيف برسول الله ﷺ، فدعاني فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً، فقال: قل له: إن رسول الله ﷺ يقول: «بمعنى كذا وكذا من الدقيق، أو أسلفني إلى هلال رجب»، فأتيت فقلت له ذلك، فقال اليهودي: والله لا أبيع ولا أسلفه إلا برهن، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «والله لو باعني أو أسلفني لقضيت»، وإني لأمين في السماء أمين في الأرض، اذهب بدرهمي الحديد إليه، فنزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا^(١). قال أبي بن كعب: من لم يتعزَّ بعزاء الله تقطعت نفسه حسرات على الدنيا. وقد مضى تفسير هذه الآية في آخر [الحجر: ١٨٨].

قوله تعالى: ﴿زَهْرَةَ لُحْيٍ لَدُنَّا﴾ وقرأ ابن مسعود، والحسن، والزهري، ويعقوب: «زَهْرَةَ» بفتح الهاء. قال الزجاج: وهو منصوب بمعنى «مَتَّعْنَا»، لأن معنى «مَتَّعْنَا»: جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة، ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنجعل ذلك فتنة لهم. وقال ابن قتيبة: لنختبرهم. قال المفسرون: زهرة الدنيا: بهجتها وغمضارتها وما يروق الناظر منها عند رؤيته، وهو من زهرة النبات وحسنه.

قوله تعالى: ﴿وَرِزْقًا رَبِّكَ حَرِيْرًا وَبَقِيْرًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه ثوابه في الآخرة. والثاني: القناعة. قوله تعالى: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ قال المفسرون: المراد بأهله: قومه ومن كان على دينه، ويدخل في هذا أهل بيته. قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا فِي الصَّلَاةِ﴾ أي: واصبر على الصلاة ﴿لَا تَسْتَكْبِرْ رِزْقًا﴾ أي: لا تكلفك رزقاً لنفسك ولا لخلقنا، إنما نامرك بالعبادة ورزقك علينا، ﴿وَالْعَنِيْبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: وحسن العاقبة لأهل التقوى. وكان بكر بن عبد الله المزني إذا أصاب أهله خصاصةً قال: قوموا فصلوا، ثم يقول: بهذا أمر الله تعالى ورسوله، ويتلو هذه الآية.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مِنْ رَبِّهِ أَوْلَمَ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنَخْرَجَ ﴿١٣٣﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرَضُوا فَرِصًا مِّمَّنْ سَمِعُوا مِّنْ أَحْسَبِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني: المشركين ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ محمد ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: كآيات الأنبياء، نحو الناقة والمصا، ﴿أَوْلَمَ تَأْتِيهِمْ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «تأتهم» بالياء. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «يأتهم» بالياء.

قوله تعالى: ﴿بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ أي: أولم يأتهم في القرآن بيان ما في الكتب من أخبار الأمم التي أهلكتها لما سألوا الآيات ثم كفروا بها، فما يؤمنهم أن تكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك؟! ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يعني: مشركي مكة ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ﴾ في الهاء قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الكتاب، قاله مقاتل. والثاني: إلى الرسول، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿لَقَالُوا﴾ يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يدعوننا إلى طاعتك ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ أي: نعمل بمقتضاها ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ﴾ بالعذاب ﴿وَنَخْرَجَ﴾ في جهنم. وقرأ ابن عباس، وابن السميع، وأبو حاتم عن يعقوب: «نُذِلَ» و«نُخْرِي» برفع النون فيهما، وفتح الدال. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿كُلُّ﴾ منا ومنكم ﴿مُرْتَضٍ﴾ أي: نحن نترص بكم العذاب في الدنيا، وأنتم تترصبون بنا الدوائر ﴿فَرِصًا﴾ أي: فانتظروا ﴿مَسْمَعُونَ﴾ إذا جاء أمر الله ﴿مَنْ أَحْسَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي: الذين المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ من الضلالة، أنحن، أم أنتم؟ وقيل: هذه منسوخة بآية السيف، وليس بشيء.



(١) «الطبري» ٢٣٥/١٦، وأورده السيوطي في «الدرر» ٣١٢/٤ وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وابن راهويه، والبخاري، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والخراطي في «مكارم الأخلاق»، وأبي نعيم في «المعروف» عن أبي رافع.

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَقْبِضُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْ أَعْيُنُنَا أَمْ لَمْ يَأْتِنَا بِالْحَقِّ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِينٍ أَهْلَكْنَاهُمْ أَنفُهُمْ يُفْشِرُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَقْلُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَانِهِمُ الْمُعَذَّبُونَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

وهي مكية بإجماعهم من غير خلاف نعلمه.

قوله ﴿اقْتَرَبَ﴾: اقترع، من القرب، يقال: قَرَبَ الشيء، واقترب. وهذه الآية نزلت في كفار مكة. وقال الزجاج: اقترب للناس وقت حسابهم. وقيل: اللام في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ بمعنى «من». والمراد بالحساب: محاسبة الله لهم على أعمالهم. وفي معنى قُرْبِهِ قولان: أحدهما: أنه آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ. والثاني: لأن الزمان - لكثرة ما مضى وقلة ما بقي - قريبٌ.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: عمّا يفعل الله بهم ذلك اليوم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن التأهب له. وقيل: «اقترب للناس» عامٌّ، والغفلة والإعراض خاص في الكفار، بدلالة قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ﴾، وفي هذا الذِّكْر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن، قاله ابن عباس: فعلى هذا تكون الإشارة بقوله: ﴿مُحَدَّثٍ﴾ إلى إنزاله له، لأنه أنزل شيئاً بعد شيء. والثاني: أنه ذِكر من الأذكار، وليس بالقرآن، حكاه أبو سليمان الدمشقي. وقال النقاش: هو ذِكر من رسول الله، وليس بالقرآن. والثالث: أنه رسول الله، بدليل قوله في سياق الآية: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ﴾، قاله الحسن بن الفضل. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ﴾ قال ابن عباس: يستمعون القرآن مستهزئين.

قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: غافلة عما يُراد بهم. قال الزجاج: المعنى: إلا استمعوه لابعين لاهية قلوبهم؛ ويجوز أن يكون منصوباً بقوله: «يلعبون». وقرأ عكرمة، وسعيد بن جبير، وابن أبي عبيدة: «لاهيّة» بالرفع. قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَأَ النَّجْوَى﴾ أي: تناجوا فيما بينهم، يعني المشركين. ثم بيّن من هم فقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا بالله. «والذين» في موضع رفع على البدل من الضمير في «وأسرؤا». ثم بيّن سرهم الذي تناجوا به فقال: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: آدمي، فليس بملك؛ وهذا إنكار لنبوته. وبعضهم يقول: «أسرؤا» هاهنا بمعنى: أظهروا، لأنه من الأضداد.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ أي: افتقبلون السحر ﴿وَأَنْتُمْ تَقْلُونَ﴾ أنه يسخر؟! يعنون أن متابعة محمد ﷺ متابعة السحر. ﴿قُلْ رَبِّي﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «قل ربي». وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «قال ربي»، وكذلك هي في مصاحب الكوفيين، وهذا على الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: يعلم القول، أي: لا يخفى عليه شيء يقال في السماء والأرض، فهو عالم بما أسررتهم. ﴿بَلْ قَالُوا﴾ قال الفراء: رَدٌّ «بل» على معنى تكذيبهم، وإن لم يظهر قبله الكلام بجحودهم، لأن معناه الإخبار عن الجاحدين، وأعلم أن المشركين كانوا قد تحيروا في أمر رسول الله ﷺ، فاختلفت أقوالهم فيه، فبعضهم يقول: هذا الذي يأتي به يسخر، وبعضهم يقول: أضغاث أحلام، وهي الأشياء المختلطة تُرى في المنام؛ وقد شرحناها في [يوسف: ٤٤]، وبعضهم

يقول: افتراء، أي: اختلقه، وبعضهم يقول: هو شاعر فليأتنا بآية كالناقة والعصا، فاقترحوا الآيات التي لا إمهال بعدها.

قوله تعالى: ﴿هَآءَا مَا نَتَّبَعْتُمْ قَبْلَهُمْ﴾ يعني: مشركي مكة ﴿مِن قَرِيْبَةٍ﴾ وصف القرية، والمراد أهلها، والمعنى: أن الأمم التي أهلكت بتكذيب الآيات، لم يؤمنوا بالآيات لما أنتمم، فكيف يؤمن هؤلاء؟! وهذه إشارة إلى أن الآية لا تكون سبباً للإيمان، إلا أن يشاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِسَالًا﴾ هذا جواب قولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَيْحٌ لِلَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ﴾ قرأ الأكترون: «ويوحى» بالياء. وروى حفص عن عاصم: «تُوحى» بالنون. وقد شرحنا هذه الآية في (النحل: ٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ﴾ يعني الرسل ﴿جَسَدًا﴾ قال الفراء: لم يقل: أجساداً، لأنه اسم الجنس. قال مجاهد: وما جعلناهم جسداً ليس فيهم روح. قال ابن قتيبة: ما جعلنا الأنبياء قبله أجساداً لا تأكل الطعام ولا تموت فنجعله كذلك. قال المبرد وثعلب جميعاً: العرب إذا جاءت بين الكلام بجحدين، كان الكلام إخباراً، فمعنى الآية: إنما جعلناهم جسداً لياكلوا الطعام. قال قتادة: المعنى: وما جعلناهم جسداً إلا لياكلوا الطعام.

قوله تعالى: ﴿فَمَا جَعَلْنَاهُمْ أَوْعَدَ﴾ يعني: الأنبياء أنجزنا وعدهم الذي وعدهم بإنجائهم وإهلاك مكذبيهم ﴿فَأَجْسِنُهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ وهم الذين صدقوهم ﴿وَأَهْلَكْنَا السُّرْفِينِ﴾ يعني: أهل الشرك؛ وهذا تخويف لأهل مكة. ثم ذكر مثله عليهم بالقرآن فقال: ﴿إِنَّمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: فيه شرفكم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: فيه وينكم، قاله الحسن، يعني: فيه ما تحتاجون إليه من أمر دينكم. والثالث: فيه تذكرة لكم لما تلقونه من رجة أو عذاب، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَقُولُونَ﴾ ما فضلناكم به على غيركم.

﴿وَكَمْ فَصَنَّا مِنْ قَرِيْبَةٍ كَانَتْ طَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ﴾ ﴿لَا تَرْكَبُوا وَأَرْجَعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ﴾ ﴿لَهُمْ كِتَابٌ شَتْرُونَ﴾ ﴿قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَمِيمًا خَضِيْبِينَ﴾

ثم حوِّفهم فقال: ﴿وَكَمْ فَصَنَّا﴾ قال المفسرون واللغويون: معناه: وكم أهلكتنا، وأصل القصم: الكسر. وقوله: ﴿كَانَتْ طَالِمَةً﴾، أي: كافرة، والمراد: أهلها ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ أي: رأوا عذابنا بحاسة البصر ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ﴾ أي: يعدون، وأصل الركب: تحريك الرجلين؛ يقال: ركضت الفرس؛ إذا أغديته بتحريك رجليك فعدا.

قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكَبُوا﴾ قال المفسرون: هذا قول الملائكة لهم: ﴿وَأَرْجَعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾، أي: إلى نعمكم التي أترفتمكم، وهذا توبيخ لهم. وفي قوله: ﴿لَهُمْ كِتَابٌ شَتْرُونَ﴾ قولان: أحدهما: تُسألون من دنياكم شيئاً، استهزاء بهم، قاله قتادة. والثاني: تُسألون عن قتل نبيكم، قاله ابن السائب. فلما أيقنوا بالعذاب ﴿قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بكفرنا، وقيل: بتكذيب نبينا. ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾، أي: ما زالت تلك الكلمة التي هي ﴿قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ قولهم يُردُّونها ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَمِيمًا خَضِيْبًا﴾ بالعذاب، وقيل: بالسيوف ﴿خَضِيْبِينَ﴾، أي: ميتين كخمود النار إذا طُفِئَتْ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِيْمِينَ﴾ ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْزِعَ لَهَا لَآخِذَتْنَا مِنْ لَدُنَّآ إِنْ كُنَّا نَعْلَمُونَ﴾ ﴿بَلْ نَقْدِفُ إِلَيْهِ عَلَى الْبَطْلِ قِيْدَمَتُهُ لَإِذَا هُوَ رَاقِبٌ لَكُمْ الْوَيْلُ وَمَا نَعْمُونَ﴾ ﴿وَلَوْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ بَيْنَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿يَسْتَحْسِرُونَ الْبَلَّ وَالنَّهَارَ لَا يَقْرَءُونَ﴾ ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا خَلَقْنَا مِنَ الْإِنْسَانِ مِنْ نَجْدٍ أَوْ كَانَتْ نَهْمًا إِلَهًا إِلَّا اللَّهُ لَقَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ عَمَّا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَعْمَلُ وَهُمْ يَسْتَأْتُونَ﴾ ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا خَلَقْنَا مِنَ الْإِنْسَانِ مِنْ نَجْدٍ أَوْ كَانَتْ نَهْمًا إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَن قَبْلُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿يَوْمَ تَحْمِلُونَ أَرْصَادَهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِيْمِينَ﴾ أي: لم نخلق ذلك عبثاً، إنما خلقناها دلالة على قدرتنا ووحدانيتنا ليعتبر الناس بحُلقه، فيعلموا أن العبادة لا تصلح إلا لخالقه، لنجازي أوليائنا، ونعذب أعدائنا.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن المشركين لما قالوا: الملائكة بنات الله والآلهة بناته، نزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن نصارى نجران قالوا: إن عيسى ابن الله، فنزلت هذه الآية. قاله مقاتل. وفي المراد باللهو ثلاثة أقوال: أحدها: الولد، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال السدي. قال الزجاج: المعنى: لو أردنا أن نتخذ ولدًا ذا لهو نلَّهَى به. والثاني: المرأة، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقناة. والثالث: اللعب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذْتَهُ مِنْ لُدُنَّا﴾ قال ابن جريج: لا نتخذنا نساءً أو ولدًا من أهل السماء، لا من أهل الأرض. قال ابن قتيبة: وأصل اللهو: الجماع، فكُنِّي عنه باللهو، كما كُنِّي عنه بالسُّر، والمعنى: لو فعلنا ذلك لا نتخذناه من عندنا، لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده، لا عند غيره. وفي قوله: ﴿إِنْ كُنَّا فَعَلِينِ﴾ قولان: أحدهما: أن «إِنْ» بمعنى «مَا»، قاله ابن عباس، والحسن، وقناة. والثاني: أنها بمعنى الشرط. قال الزجاج: والمعنى: إن كنا نفضل ذلك، ولسنا ممن يفعله؛ قال: والقول الأول قول المفسرين، والثاني قول النحويين، وهم يستجيدون القول الأول أيضاً، لأن «إِنْ» تكون في موضع النفي، إلا أن أكثر ما تأتي مع اللام، تقول: إن كنت لصالِحاً، معناه: ما كنت إلا صالحاً.

قوله تعالى: ﴿بَلْ﴾ أي: دع ذاك الذي قالوا، فإنه باطل ﴿تَقْرِئُ بِأَلْسِنَةٍ﴾ أي: نسلط الحق وهو القرآن ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ وهو كذبهم ﴿فَيَدْمَغُهُمْ﴾ قال ابن قتيبة: أي: يكسره، وأصل هذا إصابة الدماغ بالضرب، وهو مقتل ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: زائل ذاهب. قال المفسرون: والمعنى: إننا نبطل كذبهم بما نبين من الحق حتى يضمحل، ﴿وَلَكُمْ أَلْوَالِيٌّ مِمَّا نَمُوتُونَ﴾ أي: من وصفكم الله بما لا يجوز ﴿وَلَكُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ يعني: هم عبيده ومُلْكُهُ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني: الملائكة. وفي قوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْيِرُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لا يرجعون، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: لا يقطعون، قاله مجاهد. وقال ابن قتيبة: لا يعيرون، والحير: المنقطع الواقف إعياء وكلالاً. والثالث: لا يملؤون، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿لَا يَقْتُرُونَ﴾ قال قناة: لا يسأمون. وسئل كعب: أما يسألهم شأن؟ أما تسألهم حاجة؟ فقال للسائل: يا ابن أخي، جعل لهم التسييح كما جعل لكم النَّسْ، ألسنت تَأْكُلُ وتشرب وتقوم وتجلس وتجيء وتذهب وتتكلم وأنت تتنفس؟! فكذلك جعل لهم التسييح. ثم إن الله تعالى عاد إلى توبيخ المشركين فقال: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَتَّخِذُوا إِلَهَهُمْ مِنْ الْأَرْضِ﴾ لأن أصنامهم من الأرض هي، سواء كانت من ذهب أو فضة أو خشب أو حجارة ﴿هُمْ﴾ يعني: الآلهة ﴿يُشْرُونَ﴾ أي: يُحْيُونَ الموتى. وقرأ الحسن: «يُنشرون» بفتح الياء وضم الشين. وهذا استفهام بمعنى المجدد، والمعنى: ما اتخذوا آلهة تنشر ميتاً. ﴿لَوْ كَانَتْ فِيهَا﴾ يعني: السماء والأرض ﴿إِلَهَةٌ﴾ يعني: معبودين ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ قال الفراء: سوى الله. وقال الزجاج: غير الله.

قوله تعالى: ﴿لَنَسْتَأْتِيَنَّ﴾ أي: لخبرنا ويطلنا وهلك من فيهما، لوجود التمانع بين الآلهة، فلا يجري أمر العالم على النظام، لأن كل أمر صدر عن اثنين فصاعداً لم يسلم من الخلاف.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَلِ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ أي: عما يَحْكُمُ في عباده من هدي وإضلال، وإعزاز وإذلال، لأنه المالك للخلق، والخلق يسألون عن أعمالهم؛ لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم. ولَمَّا أبطل ﴿لَنْ﴾ أن يكون إله سواه من حيث العقل بقوله: ﴿لَنَسْتَأْتِيَنَّ﴾، أبطل ذلك من حيث الأمر فقال: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ وهذا استفهام إنكار وتوبيخ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما تقولون، ﴿هَذَا يَكْفُرُ مَنْ تَبِعِيَ﴾ يعني: القرآن خبر من معي على ديني ممن يتبعني إلى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ﴿وَرَبُّكُمْ مَنْ قَبْلِي﴾ يعني: الكتب المنزلة، والمعنى: هذا القرآن، وهذه الكتب التي أنزلت قبله، فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه؟ فبطل بهذا البيان جواز اتخاذ معبود غيره من حيث الأمر به. قال الزجاج: قيل لهم: هاتوا برهانكم بأن رسولاً من الرسل أخبر أمته بأن لهم إلهاً غير الله!.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْذَبْتُمْ﴾ يعني: كفار مكة ﴿لَا يَتْلُونَ الْكُتُبَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله ابن عباس. والثاني: التوحيد، قاله مقاتل ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن التفكر والتأمل وما يجب عليهم من الإيمان.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿١٧﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٩﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهٌ مِنْ دُونِي فَذَلِكَ نَجْزِي جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «الإلا نوحى» بالنون؛ والباقون بالياء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٢٠﴾ في القائلين لهذا قولان: أحدهما: أنهم مشركو قريش، قاله ابن عباس. وقال ابن إسحاق: القائل لهذا النضر بن الحارث. والثاني: أنهم اليهود، قالوا: إن الله صاهر الجن فكانت منهم الملائكة، قاله قتادة. فعلى القولين، المراد بالولد: الملائكة، وكذلك المراد بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾، والمعنى: بل عباد أكرمهم الله واصطفاهم، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾، أي: لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به. وقال ابن قتبية: لا يقولون حتى يقول، ثم يقولون عنه، ولا يعملون حتى يأمرهم.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما قدموا من الأعمال ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما هم عاملون، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ يوم القيامة، وقيل: لا يستغفرون في الدنيا ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ أي: لمن رضي عنه، ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي: من خشيتهم منه، فأضيف المصدر إلى المفعول، ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون. وقال الحسن: يرتعدون. ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي: من الملائكة. قال الضحاك في آخرين: هذه خاصة لإبليس، لم يذع أحد من الملائكة إلى عبادة نفسه سواه؛ قال أبو سليمان الدمشقي: وهذا قول من قال: إنه من الملائكة، فإن إبليس قال ذلك للملائكة الذين هبطوا معه إلى الأرض، ومن قال: إنه ليس من الملائكة^(١)، قال: هذا على وجه التهديد، وما قال أحد من الملائكة ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ يَمْسُدَ بِهَيْمٌ وَجَعَلْنَا فِيهَا جِبَالًا شُكُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْعًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أولم يعلموا. وقرأ ابن كثير: «ألم ير الذين كفروا» بغير واو بين الألف واللام، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة، ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ قال أبو عبيدة: السموات جمع، والأرض واحدة، فخرجت صفة لفظ الجمع على لفظ صفة الواحد والعرب تفعل هذا إذا أشركوا بين جمع وبين واحد؛ والرتق مصدر يوصف به الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث سواء، ومعنى الرتق: الذي ليس فيه ثقب. قال الزجاج: المعنى: كانتا ذاتي رتق، فجعلهما ذات فتق، وإنما لم يقل: «رتقتين» لأن الرتق مصدر. وللمفسرين في المراد به ثلاثة أقوال: أحدها: أن السموات كانت رتقاً لا تُنظر، وكانت الأرض رتقاً لا تُنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، رواه عبد الله بن دينار عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وعكرمة، ومجاهد في رواية، والضحاك في آخرين. والثاني: أن السموات ولأرض كانتا ملتصقتين، ففتقهما الله تعالى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وقاتدة. والثالث: أنه فتق من الأرض ست أرضين فصارت سبعاً، ومن السماء ست سموات فصارت سبعاً، رواه السدي عن أشياخه، وابن أبي نجيع عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ وقرأ معاذ القارئ، وابن أبي عبله، وحמיד بن قيس: «كل شيء حيًّا» بالنصب. وفي هذا الماء قولان: أحدهما: أنه الماء المعروف، والمعنى: جعلنا الماء سبباً لحياة كل حي، قاله الأكثرون. والثاني: أنه النطفة، قاله أبو العالية.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَرَبَّانَا إِلَهُكُمُ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَارٍ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخَلَقَ أَدَمَ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَمْ يَكُنْ إِبْلِيسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ طَرَفَةَ عَيْنٍ نَفْءٌ، وَإِنَّ لِأَصْلِ الْجَنِّ، كَمَا أَنَّ أَدَمَ ﷺ أَصْلَ الْبَشَرِ.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ قد فسرناه في [النحل: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الرواسي ﴿وَجِبَالًا﴾، قال أبو عبيدة: هي المسالك. قال الزجاج: الفيجاج جمع فَج، وهو كل منحرق بين جبلين، ومعنى ﴿سُبُلًا﴾ طرقا. قال ابن عباس: جعلنا من الجبال طُرُقًا كي تهتدوا إلى مقاصدكم في الأسفار. قال المفسرون: وقوله: ﴿سِبَالًا﴾ تفسير للفيجاج، ويبان أن تلك الفيجاج نافذة مسلوكه، فقد يكون الفَج غير نافذ. ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا﴾ أي: هي للأرض كالسقف. وفي معنى ﴿مَحْفُوظًا﴾ قولان: أحدهما: بالنجوم من الشياطين، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: محفوظًا من الوقوع إلا بإذن الله، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ يعني: كفار مكة ﴿عَن آيَاتِنَا﴾ أي: شمسها وقمرها ونجومها، قال الفراء: وقرأ مجاهد: ﴿عَن آيَاتِنَا﴾ فوحده، فجعل السماء بما فيها آية؛ وكلُّ صواب.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ يعني: الطوالع ﴿فِي فَلَكٍ﴾ قال ابن قتيبة: الفلك: مدار النجوم الذي يضمها، وسماه فلَكًا، لاستدارته. ومنه قيل: فلَكة المِعْزَل، وقد فلَكْتُ نَدِي المِراءة. قال أبو سليمان: وقيل: إن الفلك - كهية الساقية من ماء - مستديرة دون السماء وتحت الأرض، فالأرض وسطها، والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار يجرون في الفلك، وليس الفلك يُديرها. ومعنى ﴿يَسْبَحُونَ﴾: يَجْرُونَ. قال الفراء: لَمَّا كانت السِّبَاحَة من أفعال الآدميين، ذُكِرَتْ بالنون، كقوله: ﴿رَأَيْتُمْ لِي سَجِدَاتٍ﴾ يوسف: ٤٤، لأن السجود من أفعال الآدميين.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَضْعَافًا مِّنْ فَهْمِ الْخَالِدِينَ﴾ ﴿١٣﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَيَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْحَيْرِ وَشَنَاءِ وَإِنَّا لَرْحِيمُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا رَمَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَبْصُرُونَ الرَّحْمَنَ هُم كَاذِبُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِن قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾ سبب نزولها أن ناسًا قالوا: إن محمدًا لا يموت، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. ومعنى الآية: ما خلدنا قبلك أحدًا من بني آدم؛ والخلد: البقاء الدائم. ﴿أَفَأَيْنَ يَتَّخِذُونَ﴾ يعني: مشركي مكة، لأنهم قالوا: ﴿نَرَىٰ بِرَبِّكَ الْمُنْتَوِينَ﴾ [الطور: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَيَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْحَيْرِ﴾ قال ابن زيد: نختبركم بما تحبون لننظر كيف شكركم، وبما تكرهون لننظر كيف صبركم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لِيرْجُونَ﴾ [قرأ ابن عامر: «ترجعون» بناء مفتوحة. وروى ابن عباس عن أبي عمرو: «يرجعون»] بياء مضمومة. وقرأ الباقون ببناء مضمومة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَمَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال ابن عباس: يعني المستهزئين، وقال السدي: نزلت في أبي جهل، مرَّ به رسول الله، فضحك وقال: هذا نبيُّ بني عبد مناف. وإن «معنى» مله. ومعنى ﴿هُزُوءًا﴾ مهزوءًا به ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: يعيب أصنامكم، وفيه إضمار «يقولون»، ﴿وَهُمْ يَبْصُرُونَ الرَّحْمَنَ هُم كَاذِبُونَ﴾ وذلك أنهم قالوا: ما نعرف الرحمن؛ فكفروا بالرحمن.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ سَأؤِيرِكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْتَلُونِ﴾ ﴿١٦﴾ وَقَوْلُوكَ مَقَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِم النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُصْرَفُونَ ﴿١٨﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ رَبِّهِمْ فَلَا يَسْتَبِينَ رَدًّا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَدْ أَسْتَهْزِئُوا بِرُسُلِنَا مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ وقرأ أبو رزين العقيلي، ومجاهد، والضحاك: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» بفتح الخاء واللام ونصب النون. وهذه الآية نزلت حين استعجلت قريش بالعذاب. وفي المراد بالإنسان هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: النضر بن الحارث، وهو الذي قال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِن عِبَادِكَ...﴾ الآية [الأنفال: ٢٢]، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: آدم ﷺ، قاله سعيد بن جبيرة، والسدي في آخرين. والثالث: أنه اسم جنس، قاله علي بن أحمد النيسابوري؛ فعلى هذا يدخل النضر بن الحارث وغيره في هذا وإن كانت الآية نزلت فيه. فأما من قال: أريد به آدم، ففي معنى الكلام قولان: أحدهما: أنه خُلِقَ عَجُولًا، قاله الأكثرون. فعلى هذا

يقول: لما طُبع آدم على هذا المعنى، وُجد في أولاده، وأورثهم العَجَل، والثاني: خُلِقَ بِعَجَلٍ، استعجل بحلقة قبل غروب الشمس من يوم الجمعة، وهو آخر الأيام الستة، قاله مجاهد. فأما من قال: هو اسم جنس، ففي معنى الكلام قولان: أحدهما: خُلِقَ عَجُولاً؛ قال الزجاج: خوطبت العرب بما تعقل، والعرب تقول للذي يكثُر منه اللعب: إنما خُلقت من لعب، يريدون المبالغة في وصفه بذلك. والثاني: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، والمعنى: خُلقت العجلة في الإنسان، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ فيه قولان: أحدهما: ما أصاب الأمم المتقدمة؛ والمعنى: إنكم تسافرون فترون آثار الهلاك في الماضين، قاله ابن السائب. والثاني: أنها القتل ببدء. قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ أثبت الباء في الحاليين يعقوب.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُواكَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعنون: القيامة. ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جوابه محذوف، والمعنى: لو علموا صدق الوعد ما استعجلوا، ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ﴾ أي: لا يدفعون ﴿عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾ إذا دخلوا ﴿وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ لإحاطتها بهم ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ أي: يُمنعون مما نزل بهم، ﴿قُلْ تَأْتِيهِمْ﴾ يعني: الساعة ﴿بِغَتَّةٍ﴾ فجأة ﴿فَتَجِبْتَهُمْ﴾ تحيرهم؛ وقد شرحنا هذا عند قوله: ﴿فَبَهَّتِ الذُّلَىٰ كَفْرًا﴾ [البقرة: 2٥٨]، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: صرفها عنهم، ولا هم يُمهلون لتوبة أو معذرة. ثم عزى نبيه، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَسْرَيْنَا لِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: كما فعل بك قومك ﴿فَتَنَّا﴾ أي نزل ﴿بِالَّذِينَ سَخَّرْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من الرسل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني: العذاب الذي كانوا استهزؤوا به.

﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِأَيْلٍ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ١٩ ﴿أَرَأَيْتُمْ مَتَىٰ تَأْتِي السَّحَابُ نَقْصًا مِنْ أَرْضِهَا أَمْ أَهْلُ الْقُلُوبِ﴾ ٢٠ ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ٢١ ﴿لَكِنَّ مَسْتَهْزِئَةً مِّنْ عَدَابِ رَبِّكَ يُقَالُونَ يَتُوبْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ٢٢

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ﴾ المعنى: قل لهؤلاء المستعجلين بالعذاب: من يحفظكم من بأس الرحمن إن أراد إنزاله بكم؟ وهذا استفهام إنكار، أي: لا أحد يفعل ذلك، ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: عن كلامه ومواعظه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون ولا يعتبرون. ﴿أَرَأَيْتُمْ مَتَىٰ تَأْتِي السَّحَابُ نَقْصًا مِنْ أَرْضِهَا﴾ أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم؟ وهانئا تم الكلام. ثم وصف آلهتهم بالضعف، فقال: ﴿لَا يَسْتَلِيمُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ والمعنى: من لا يقدر على نصر نفسه عما يُراد به، فكيف ينصر غيره؟ ١٩.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الكفار، وهو قول ابن عباس. والثاني: أنهم الأصنام، قاله قتادة. وفي معنى ﴿يُضْحِكُونَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: يُجَارُونَ، رواه العوفي عن ابن عباس. قال ابن قتيبة: والمعنى: لا يجيرهم من أحد، لأن المجير صاحب لجاره. والثاني: يُمنعون، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: يُنصرون، قاله مجاهد. والرابع: لا يُضحون بخير، قاله قتادة. ثم بين اغترارهم بالإمهال، فقال: ﴿بَلْ مَتَىٰ هُوَ آتٍ وَبَاءَهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْمُرُءُ﴾ فاعتروا بذلك، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قد شرحناه في [الرعد: ٢١]، ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي: مع هذه الحال، وهو نقص الأوض، والمعنى: ليسوا بغالبيين، ولكنهم المغلوبون. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم﴾ أي: أخوفكم ﴿بِالْوَحْيِ﴾ أي: بالقرآن، والمعنى: إنني ما جنث به من تلقاء نفسي، إنما أبرئت فبلغت، ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ وقرأ ابن عامر: «ولا يُسمع» بالتاء مضمومة «الصُّمُّ» نصيباً. وقرأ ابن يعمر، والحسن: «ولا يُسمع» بضم الياء وفتح الميم «الصُّمُّ» بضم الميم. شبه الكفار بالصُّمِّ الذين لا يسمعون نداء مناديبهم؛ ووجه التشبيه أن هؤلاء لم يتفوعوا بما سمعوا، كالصُّمِّ لا يفيدهم صوت مناديبهم. ﴿لَكِنَّ مَسْتَهْزِئَةً﴾ أي: أصابتهم ﴿فَتَحَّةٌ﴾ قال ابن عباس: طرف. وقال الزجاج: المراد أدنى شيء من العذاب، ﴿يَقُولُونَ يَتُوبْنَا﴾ والويل يتادي به كل من وقع فيهلكة.

﴿وَنَسَحَ الْمَرْزُوقَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ٢٣

قوله تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ قال الزجاج: المعنى: ونضع الموازين ذوات القسط، والقسط: العدل، وهو مصدر يوصف به، يقال: ميزان قسط، وميزانان قسط، وموازين قسط. قال الفراء: القسط من صفة الموازين وإن كان موحدًا، كما تقول: أنتم عدل، وأنتم رضى. وقوله: ﴿يُؤَيِّرُ الْقَلْبَ الْهَيِّجَ﴾ وفي يوم القيامة: سواء. وقد ذكرنا الكلام في الميزان في أول [الأعراف: ٨]. فلن قيل: إذا كان الميزان واحدًا، فما المعنى بذكر الموازين؟ فالجواب: أنه لما كانت أعمال الخلائق توزن وزنة بعد وزنة، سميت موازين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقص محسن من إحسانه، ولا يزداد مسيء على إساءته ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ أي: وزن حبة. وقرأ نافع: ﴿مِثْقَالٌ﴾ برفع اللام. قال الزجاج: ونصب «مِثْقَالٌ» على معنى: وإن كان العمل مِثْقَال حبة. وقال أبو علي الفارسي: وإن كان الظلامة مِثْقَال حبة، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾. قال: ومن رفع، أسند الفعل إلى المِثْقَال، كما أسند في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ بِهَا﴾ أي: جنتا بها. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحמיד: «أَيْنَا» ممدودة، أي: جازينا: بها. قوله تعالى: ﴿وَكَلَّىٰ يَسَا حَسِيْبٍ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على وجهين: أحدهما: التمييز. والثاني: الحال. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ سَفِيحُونَ ﴿٤٥﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التوراة التي فرّق بها بين الحلال والحرام، قاله مجاهد، وقتادة، والثاني: البرهان الذي فرق به بين حق موسى وباطل فرعون، قاله ابن زيد. والثالث: النصر والنجاة لموسى، وإهلاك فرعون، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَضِيَاءً﴾ روى عكرمة عن ابن عباس أنه كان يرى الواو زائدة؛ قال الزجاج: وكذلك قال بعض النحويين أن المعنى: الفرقان ضياء، وعند البصريين: أن الواو لا تزاد ولا تأتي إلا بمعنى العطف، فهي هاهنا مثل قوله تعالى: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]. قال المفسرون: والمعنى هم استضاءوا بالتوراة حتى اهتدوا بها في دينهم. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾ أنهم يذكرونه ويعملون بما فيه. ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: يخافونه ولم يروه، قاله الجمهور. والثاني: يخشون هذابه ولم يروه، قاله مقاتل. والثالث: يخافونه من حيث لا يراهم أحد، قاله الزجاج. والرابع: يخافونه إذا غابوا عن أعين الناس كخوفهم إذا كانوا بين الناس، قاله أبو سليمان الدمشقي. ثم عاد إلى ذكر القرآن، فقال: ﴿وَهَذَا﴾ يعني: القرآن ﴿وَذَكَرْنَا﴾ لمن تذكّر به، وعظة لمن اتعظ ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي: كثير الخير ﴿أَفَأَنْتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: جاحدون؟! وهذا استهتام توبيخ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ ﴿٤٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٤٧﴾ قَالُوا وَبَدَلًا مَا بَدَلْنَا مَا بَدَلْنَا مَا لَمْ يَكُنْ لَنَا بِهِ نِفْسٌ قُلْنَا سَمِعْنَا مِنْكَ لَمْعَ الْكَلِمَاتِ وَأَبَاؤُنَا فِي صُلْحٍ مُبِينٍ ﴿٤٨﴾ قَالُوا اجْعَلْنَا مِثْلَهُ لَمَّا قُلْنَا لَنْ يُجْعَلَ لَكُم مِثْلُهُ لَقَدْ كُنتُمْ أَهْلَ عَاكِفٍ عَلَى الْغُرِّ ﴿٤٩﴾ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٠﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴿٥١﴾ فَبَجَلْهُمْ جُذَاءً إِلَّا كَبِيرًا لَمْ تَلْمَهُمْ إِلَيْهِ يُرْجَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أي: هُدهاه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: من قبل بلوغه، قاله أبو صالح عن ابن عباس، والثاني: آتيته ذلك في العِلْم السابق، قاله الضحّاك عن ابن عباس. والثالث: مِنْ قَبْل موسى وهارون، قاله الضحّاك. وقد أشرنا إلى قصة إبراهيم في [الأنعام: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ﴾ أي: علمنا أنه موضع لإتياء الرشد. ثم بيّن متى آتاه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ يعني: الأصنام. والتماثل: اسم للشيء المصنوع مشبهًا بخلق من خلق الله تعالى، وأصله من مثلت الشيء بالشيء: إذا شَبَّهته به. وقوله: ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا﴾ أي: على عبادتها ﴿عَاكِفُونَ﴾ أي: مقيمون، فأجابوه أنهم رأوا آباءهم يعبدونها فاتقدروا بهم، فأجابهم بأنهم فيما فعلوا وآباءهم في ضلال مبين، ﴿قَالُوا اجْعَلْنَا مِثْلَهُ لَمَّا قُلْنَا لَنْ يُجْعَلَ لَكُم مِثْلُهُ لَقَدْ كُنتُمْ أَهْلَ عَاكِفٍ عَلَى الْغُرِّ﴾ يعنون: أجادًا أنت، أم لاعب؟!.

قوله تعالى: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ الكيد: احتيال الكائد في ضرر المكيد. والمفسرون يقولون: لأكيدنها بالكسر ﴿بَعْدَ أَنْ تَزُولُوا﴾ أي: تذهبوا عنها، وكان لهم عيد في كل سنة يخرجون إليه ولا يخلفون بالمدينة أحدًا، فقالوا لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق، قال: إني سقيم، وألقى نفسه، وقال يبرأ منهم: ﴿وَقَالُوا لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾، فسمعه رجل منهم، فأشاه عليه، فرجع إلى بيت الأصنام، وكانت - فيما ذكره مقاتل بن سليمان - اثنين وسبعين صنماً من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب، فكسرها، ثم وضع الفأس في عنق الصنم الكبير، فذلك قوله: ﴿فَجَاءَهُمْ جُذَاءٌ﴾ قرأ الأكثرون: «جُذَاءٌ» بضم الجيم. وقرأ أبو بكر الصديق، وابن مسعود، وأبو رزين، وقتادة، وابن محيصن، والأعمش، والكسائي: «جُذَاءٌ» بكسر الجيم. وقرأ أبو رجاء العطاردي، وأيوب السخيتاني، وعاصم الجحدري: «جُذَاءٌ» بفتح الجيم. وقرأ الضحاك، وابن يعمر: «جُذَاءٌ» بفتح الجيم من غير ألف. وقرأ معاذ القارئ، وأبو حيوة، وابن وثاب: «جُذَاءٌ» بضم الجيم من غير ألف. قال أبو عبيدة: أي: مستأصلين، قال جرير:

بَنِي الْمَهْلَبِ جَدُّ اللَّهْ دَابِرُهُمْ
أَمَسُوا رَمَاداً فَلَا أَصْلَ وَلَا طَرَفٌ^(١)

أي: لم يبقَ منهم شيء، ولفظ «جُذَاءٌ» يقع على الواحد والاثنتين والجميع من المذكر والمؤنث. وقال ابن قتيبة: «جُذَاءٌ» أي: فُتَاتًا، وكلُّ شيء كسرته فقد جُدِّدته، ومنه قيل للسويق: الجذيد. وقرأ الكسائي: «جُذَاءٌ» بكسر الجيم على أنه جمع جذيد، مثل ثَقِيلٍ وثِقَالٍ، وَخَفِيفٍ وَخِفَافٍ. والجذيد بمعنى: المجذوذ، وهو المكسور. ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّمْ﴾ أي: كسر الأصنام إلا أكبرها. قال الزجاج: جائز أن يكون أكبرها في ذاته، وجائز أن يكون أكبرها عندهم في تعظيمهم إياه، ﴿لَمَلَهُمْ إِلَيْهِ رُجُوعٌ﴾، في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الصنم. ثم فيه قولان. أحدهما: لعلهم يرجعون إليه فيشاهدونه، هذا قول مقاتل. والثاني: لعلهم يرجعون إليه بالتهمة، حكاة أبو سليمان الدمشقي. والثاني: أنها ترجع إلى إبراهيم. والمعنى: لعلهم يرجعون إلى دين إبراهيم بوجوب الحُجَّةِ عليهم، قاله الزجاج.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُٗ إِبرَاهِيمُ ﴿١٧﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ عَتِيقِ النَّاسِ لَمَلَهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبرَاهِيمُ ﴿١٩﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَنُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَظُنُّونَ ﴿٢٠﴾

فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٦﴾ أي: قد فعل ما لم يكن له فعله، فقال الذي سمع إبراهيم يقول: «لأكيدن أصنامكم»: ﴿سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدْعُهُمْ﴾ قال الفراء: أي: يعييبهم؛ تقول للرجل: لئن ذكرتني لتندمن، تريد: بسوء.

قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ عَتِيقِ النَّاسِ﴾ أي: بمرأى منهم، لا تأثروا به خفية. قال أبو عبيدة: تقول العرب إذا أظهر الأمر وشهر: كان ذلك على أعين الناس.

قوله تعالى: ﴿لَمَلَهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يشهدون أنه قال لآلهتنا ما قال، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة. والثاني: يشهدون أنه فعل ذلك، قاله السدي. والثالث: يشهدون عقابه وما يصنع به، قاله محمد بن إسحاق. قال المفسرون: فانطلقوا به إلى نمرود، فقال له: ﴿ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبرَاهِيمُ﴾ ﴿١٩﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴿٢٠﴾ غضب أن تُعَبِّدَ معه الصغار، فكسرها، ﴿فَتَنُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَظُنُّونَ﴾ من فعله بهم؟! وهذا إلزام للحجة عليهم بأنهم جماد لا يقدر على النطق. واختلف العلماء في وجه هذا القول من إبراهيم عليه السلام على قولين: أحدهما: أنه وإن كان في صورة الكذب، إلا أن المراد به التنبيه على أن من لا قدرة له، لا يصلح أن يكون إلهًا، ومثله قول الملكين لداود: ﴿إِنَّ هَذَا أَيْسٌ﴾ ولم يكن أخاه ﴿لَهُ يَنْعُ وَتَسُونُ نَجْمَهُ﴾

وَلَيْ حِجَّةٌ ﴿٢٣﴾، ولم يكن له شيء، فجزى هذا مجرى التنبيه لداود على ما فعل، وأنه هو المراد بالفعل والمَثَل المضروب؛ ومثل هذا لا تسميه العرب كذباً. والثاني: أنه من معارض الكلام؛ فروي عن الكسائي أنه [كان] يقف عند قوله تعالى: ﴿بَلْ فَكَّرَكُمْ﴾ ويقول معناه: فعله مَنْ فعله، ثم يبتدئ ﴿كَبُرْتُمْ هَذَا﴾. قال الفراء: وقرأ بعضهم: «بل فعله» بتشديد اللام، يريد: فلعله كبيرهم هذا. وقال ابن قتيبة: هذا من المعارض، ومعناه: إن كانوا ينطقون، فقد فعله كبيرهم، وكذلك قوله: ﴿إِنِّي سَوِّمٌ﴾ [الصفات: ٨٩] أي: سأسقم، ومثله ﴿إِنَّكَ بَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٢٠] أي: ستموت، وقوله: ﴿لَا تَوَلَّيْتَنِي يَمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٤٧٤] قال ابن عباس: لم ينس، ولكنه من معارض الكلام، والمعنى: لا تَوَاخَلْنِي بنسياني، ومن هنا قصة الخصمين ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْيَحْرَابَ﴾ [مريم: ٢١]، ومثله ﴿وَأَيُّهَا أَوْ يَأْكُكُمْ لَمَلَى هُنَى﴾ [سبا: ٢٤]، والعرب تستعمل التعريض في كلامها كثيراً؛ فتبلغ إرادتها بوجه هو اللف من الكشف وأحسن من التصريح. وروي أن قوماً من الأعراب خرجوا يمتارون، فلما صدروا، خالف رجل في بعض الليل إلى عكْم صاحبه، فأخذ منه بُرّاً وجعله في عكْمه، فلما أراد الرحلة وقاما يتعاكمان، رأى عكْمه يشول، وعكْم صاحبه يثقل، فأنشأ يقول:

عكْم تغشى بعض أعكام القوم لَمْ أَرِ عَكْمًا سَارِقًا قَبْلَ الْيَوْمِ

فخون صاحبه بوجه هو اللف من التصريح. قال ابن الأنباري: كلام إبراهيم كان صدقاً عند البحث، ومعنى قول النبي ﷺ: «كذب إبراهيم ثلاث كليات»^(١): قال قولاً يشبه الكذب في الظاهر، وليس بكذب. قال المصنف: وقد ذهب جماعة من العلماء إلى هذا الوجه، وأنه من المعارض، والمعارض لا تُذم، خصوصاً إذا احتيج إليها، روى عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في المعارض لمنسوحة عن الكذب»^(٢) وقال عمر بن الخطاب ﷺ: ما يسرني أنّ لي بما أعلم من معارض القول يثل أهلي ومالي، وقال النخعي: لهم كلام يتكلمون به إذا خشوا من شيء يدرون به عن أنفسهم. وقال ابن سيرين: الكلام أوسع من أن يكذب ظريف، وقد قال رسول الله ﷺ لعجوز: «إن الحجة لا تدخلها المعاجز»^(٣)، أراد قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثًا﴾ [الرومان: ٣٥]، وروي عنه ﷺ أنه كان يمازح بلالاً، فيقول: «ما أخت خالك منك؟»، وقال لامرأة: «مَنْ زَوْجُكَ؟ فسَمَّته له، فقال: «الذي

(١) رواه البخاري ٢٧٧/٦، ومسلم ١٤٠/٤، ولفظه عند مسلم تمامه: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي ﷺ قط إلا ثلاث - كليات، ننتين في ذات الله، وقوله: ﴿إِنِّي سَوِّمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ نَكَرَكُ كَبُرْتُمْ هَذَا﴾، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعها سارة وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبره أنك اختي فإنك اختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل أرضه وأما بعض أهل الجبار، أتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينفي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأثي بها، فقام إبراهيم ﷺ إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن يسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك، ففعلت، فعاد، فقبضت أيد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد، فقبضت أيد من القبضتين الأولىين، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي، فلك الله أن لا أضرك، ففعلت وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني شيطاناً ولم تأتي بئسان، فأخرجها من أرضي، وأعطها هاجر. قال: فأبليت نفسي، فلما رأها إبراهيم ﷺ انصرف، فقال لها: مهيم؟ قالت: خيراً، كف الله يد الفاجر، وأخدم خادماً، قال أبو هريرة: فتلك أممك يا بني ماء السماء. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٨٠/٦: وفي الحديث مشروعية أخوة الإسلام، وإباحة المعارض، والرخصة في الانقياد للظالم والغاصب، وقبول صلة الملك الظالم، وقبول هدية المشرك، وإجابة الدعاء بإخلاص التبة، وكفاية الرب لمن أخلص في الدعاء بعمله الصالح. اهـ.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» ٣٣٤/٢ من طريق قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال: صحبت عمران بن حصين إلى البصرة، فما أتى علينا يوم إلا أنشدنا فيه الشعر، وقال: إن في معارض الكلام لمنسوحة عن الكذب. قال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة»: قال البيهقي: رواه داود بن الزريقان عن عمران بن حصين مرفوعاً، قال: والموقوف هو الصحيح، وكذا هو المرفوع ابن عدي. قال البيهقي: وروي من وجه آخر ضعيف - يعني جداً - مرفوعاً. ثم قال: وبالجملة فقد حسن العراقي هذا الحديث، ورد على الصغاني حكمه عليه بالوضع. اهـ. والمعارض: ما حاد عن الكذب، والمنسوحة: السعة.

(٣) رواه عبد بن حميد عن الحسن مرسلاً، ورواه الترمذي في «المشائل» عن عبد بن حميد عن الحسن أيضاً، وذكره السيوطي في «الدر» ٦/١٥٨ عن الحسن، وزاد نسبه لابن المنذر، والبيهقي في «اللبث»، وأورده أيضاً من رواية البيهقي في «الشعب»، والطبراني في «الأوسط» عن عائشة ﷺ.

في عينيه بياض»^(١)، وقال لرجل: «إنا حاملوك على ولد ناقة»^(٢)، وقال له العباس: ما ترجو لأبي طالب؟ فقال: «كل خير أرجوه من ربي»، وكان أبو بكر حين خرج من الغار مع رسول الله ﷺ إذا سأله أحد: من هذا بين يديك؟ يقول: هاد يهديني. وكانت امرأة ابن رواحة قد رآته مع جارية له، فقالت له: وعلى فراشي أيضاً؟! فجدد، فقالت له: فاقرا القرآن، فقال:

وَفِينَا رَسُولَ اللَّهِ يَسْأَلُو كِتَابَهُ
يَسِيبُتْ يُجَافِي جُنْبَهُ عَنِ فِرَاشِهِ
إِذَا انشَقَّ مشهورٌ مِنَ السُّبْحِ طَالِعِ
إِذَا استثقلتْ بالكافرين المصانعِ

فقلت: آمنت بالله، وكذبت بصري، فأتى رسول الله ﷺ، فأخبره، فضحك وأعجبه ما صنع. وعرض شريح ناقة لبييعها فقال له المشتري: كيف لبنيها؟ قال: احلب في أي إناء شئت، قال: كيف الوطاء؟ قال: افرش ونم، قال: كيف نجاؤها^(٣)؟ قال: إذا رأيتها في الإبل عرفت مكانها، علق سوطك وسيز، قال: كيف قونها؟ قال: احمل على الحائط ما شئت؛ [فاستصراها] فلم ير شيئاً مما وصف، فرجع إليه، فقال: لم أر فيها شيئاً مما وصفتها به، قال: ما كذبتك، قال: ألقني، قال: نعم، وخرج شريح من عند زياد وهو مريض، فقيل له: كيف وجدت الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهى، فقيل له: ما معنى يأمر وينهى؟ قال: يأمر بالوصية، وينهى عن النوح. وأخذ محمد بن يوسف حجراً المدري فقال: العن علياً، فقال: إن الأمير أمرني أن العن علياً محمد بن يوسف، فالعنوه، لعنه الله. وأمر بعض الأمراء صعصعة بن صوحان بلعن علي، فقال: لعن الله من لعن الله ولعن علي، ثم قال: إن [هذا] الأمير قد أبي إلا أن العن علياً، فالعنوه، لعنه الله. وامتحن الخوارج رجلاً من الشيعة، فجعل يقول: أنا من علي ومن عثمان بري. وخطب رجل امرأة وتحتة أخرى، فقالوا: لا تزوجك حتى تطلق امرأتك، فقال: اشهدوا أنني قد طلقت ثلاثاً، فزوجوه، فأقام مع المرأة الأولى، فادعوا أنه قد طلق، فقال: أما تعلمون أنه كان تحتني فلانة فطلقتها، ثم فلانة فطلقتها، ثم فلانة فطلقتها؟ قالوا: بلى، قال: فقد طلقت ثلاثاً. وحكي أن رجلاً عثر به الطائف ليلة، فقال له: من أنت؟ فقال:

أنا ابنُ الذي لا يُنزلُ الدهرَ قدره
تري الناسَ أفواجاً إلى ضوءِ ناره
وإن نزلت يوماً فسوف تعود
فمنهم قيام حولها وقعود

فظنَّ الطائف أنه ابن بعض الأشراف بالبصرة، فلما أصبح سأل عنه، فإذا هو ابن باقلاني. ومثل هذا كثير.

﴿فَرَحِمُوا إِلَهَ أَنْسِيهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾^(١) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤْسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ أَتَعْتَبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٧﴾ أَوَلَمْ لَكُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ قوله تعالى: ﴿فَرَحِمُوا إِلَهَ أَنْسِيهِمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: رجع بعضهم إلى بعض. والثاني: رجع كلُّ منهم إلى نفسه متفكراً.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: حين عبدتم من لا يتكلم، قاله ابن عباس. والثاني: حين تترون آلهتكم وحدها، وتذهبون، قاله وهب بن منبه. والثالث: في عبادة هذه الأصاغر مع هذا الكبير، روي عن وهب أيضاً. والرابع: لإبراهيم حين أتهمتموه والفأس في يد كبير الأصنام، قاله ابن إسحاق، ومقاتل. والخامس: أنتم ظالمون لإبراهيم حين سألتموه، وهذه أصنامكم حاضرة، فأسألوها، ذكره ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤْسِهِمْ﴾ وقرأ أبو رزين العقيلي، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة: «نكسوا» برفع النون وكسر الكاف مشددة. وقرأ سعيد بن جبير، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: «نكسوا» بفتح النون والكاف مخففة. قال أبو عبيدة: «نكسوا»: قُلبوا، تقول: نكستُ فلاناً على رأسه: إذا قهرته وعلوته. ثم في المراد بهذا الانقلاب ثلاثة

(١) ذكره ملا علي القاري في «شرح الشامل» للترمذي من رواية ابن أبي حاتم وغيره من حديث عبد الله بن مسم النخعي.

(٢) رواه الترمذي في «الشامل» عن أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً استحل رسول الله ﷺ، فقال: «إني حاملك على ولد الناقة» فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد الناقة؟ فقال: «وهل تلد الإبل إلا التوق؟».

(٣) الشجاء: السرعة في السير.

أقوال: أحدها: أدركتهم حيرة، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا هَؤُلَاءِ يَتَّبِعُونَ﴾، قاله قتادة. والثاني: رجعوا إلى أول ما كانوا يعرفونها به من أنها لا تتطق، قاله ابن قتيبة. والثالث: انقلبوا على إبراهيم يحتجرون عليه بعد أن أقروا له ولاموا أنفسهم في تهمة، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْت﴾ إضمار «قالوا»، وفي هذا إقرار منهم بعجز ما يعبدونه عن التطق، فحينئذ توجهت لإبراهيم الحجة، فقال موبخاً لهم: ﴿أَنْتُمْ تَدْعُونَ إِلَهًا مَا لَا يَفْعَلُكُمْ﴾ أي: لا يرزقكم ولا يعطيكم شيئاً ﴿وَلَا يَصْرُوكُمْ﴾ إذا لم تعبدوه، وفي هذا حث لهم على عبادة من يملك النفع والضّر، ﴿أَفَبَى لَكُمْ﴾ قال الزجاج: معناه: التّن لكم؛ فلما أزمهم الحجة غضبوا، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾. وذكر في التفسير أن نمرود استشارهم، بأيّ عذاب أعدّبه، فقال رجل: حرّقه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿لَقَدْ بَدَأْنَا بَشَرًا مِنْ نَجْوَىٰ بَرَاءٍ وَمَسَلَّمًا عَلَىٰ إِلَٰهَيْهِ﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿وَيَخِينُكَ وَيُوْطِئُ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِآمِنًا وَأَرْحَمِينَ إِلَيْهِمْ فَعَلَّ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَاصْرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ أي: بتحرّقه، لأنه يعيها ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: ناصريها.

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل التفسير أنهم حسبوا إبراهيم ﷺ في بيت ثم بنوا له خيراً طول جداره ستون ذراعاً إلى سفح جبل منيف، ونادى منادي الملك: أيها الناس احتطبوا لإبراهيم، ولا يتخلفن عن ذلك صغير ولا كبير، فمن تخلف ألقى في تلك النار، ففعلوا ذلك أربعين ليلة، حتى إن كانت المرأة لتقول: إن ظفرت بكذا لأحتطب نار إبراهيم، حتى إذا كاد الحطب يساوي رأس الجدار سدوا أبواب الخبز وقذفوا فيه النار، فارتفع لهبها، حتى إن كان الطائر ليمرّ بها فيحترق من شدة حرّها، ثم بنوا بيتاناً شامخاً، وبنوا فوقه منجنيقاً، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، فرقع إبراهيم رأسه إلى السماء، فقال: اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري، حسبي الله ونعم الوكيل؛ فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة: ربنا إبراهيم يُحرق فيك، فائذن لنا في نصرته؛ فقال: أنا أعلم به، وإن دعاكم فأغيثوه؛ فقفوه في النار وهو ابن ست عشرة سنة، وقيل: ست وعشرين، فقال: ﴿حسبي الله ونعم الوكيل﴾^(١). فاستقبله جبريل، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال جبريل: فسل ربك، فقال: ﴿حسبي من سؤالي علمه بحالي﴾^(٢)، فقال الله ﷻ: ﴿بَشَرًا كَوْنِي بَرًّا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِلَٰهَيْهِ﴾، فلم تبق نار على وجهه الأرض يومئذ إلا طفت وطئت أنها غنيت. وزعم السدي أن جبريل هو الذي ناداه. وقال ابن عباس: لو لم يُبع بردها سلاماً ل مات إبراهيم من بردها. قال السدي: فأخذت الملائكة بضبعي^(٣) إبراهيم فأجلسوه على الأرض، فإذا عين من ماء عذب، وورد أحمر، ونرجس. قال كعب ووهب: فما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه، وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام، وقال غيرهما: أربعين أو خمسين يوماً، فنزل جبريل بقميص من الجنة وطفنسة من الجنة، فألبسه القميص، وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه. وإن أزر أتى نمرود فقال: ائذن لي أن أخرج عظام إبراهيم فأدفنها، فانطلق نمرود ومعه الناس، فأمر بالحائط فنقب، فإذا إبراهيم في روضة تهترأ وثيابه تندی، وعليه القميص وتحت الطنفسة والملك إلى جنبه، فناداه نمرود: يا إبراهيم، إن إلهك الذي بلغت قدرته هذا كبير، هل تستطيع أن تخرج؟ قال: نعم، فقام إبراهيم يمشي

(١) روى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ فَاغْلِبْهُمْ تَوَكُّبًا وَكَلْبًا حَسَبًا اللَّهُ وَمَتَّ الْأَوَكِيلَ﴾. وفي رواية للبخاري عن ابن عباس ﷺ قال: كان آخر قول إبراهيم ﷺ حين ألقى في النار: حسبي الله ونعم الوكيل.

(٢) حديث: ﴿حسبي من سؤالي علمه بحالي﴾ رواه ابن جرير مختصراً، وفي سننه جهالة، وذكره المجلوني في «كشف الخفاء» من رواية البهوي عن كعب الأسيار، ورواه كثير من المفسرين عن أبي بن كعب موقفاً، ولعله من الإسرائيليات، ولا أصل له في المرفوع، وقال ابن عراق في «تنزيه الشريعة» ١/ ٢٥٠: قال ابن تيمية: موضوع اه. وهذا الخبر لا يصح، لأنه يشير إلى ترك الدعاء، مع أن الدعاء عبادة، وقد جاءت الآيات والأحاديث بالأمر به، والحض عليه.

(٣) الضَّيْح، يسكنون الباء: العضد.

حتى خرج، فقال: من الذي رأيت معك؟ قال: ملك أرسله إليّ ربّي ليؤنسيني، فقال نمرود: إني مقرب لإلهك قرباناً لما رأيت من قدرته، فقال: إذن لا يقبل الله منك ما كنت على دينك، فقال: يا إبراهيم، لا أستطيع ترك ملكي، ولكن سوف أذبح له، فذبح القربان وكفّ عن إبراهيم. قال المفسرون: ومعنى ﴿كُونِ بَرًّا﴾ أي: ذات برد ﴿وَسَلْمًا﴾ أي: سلامة. ﴿وَأَرَادُوا بِوَيْهِ كَيْدًا﴾ وهو التحريق بالنار ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ وهو أن الله تعالى سلط البعوض عليهم حتى أكل لحومهم وشرب دماءهم، ودخلت واحدة في دماغ نمرود حتى أهلكته، والمعنى: أنهم كادوه بسوء، فانقلب السوء عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَقِيتَهُ﴾ أي: من نمرود وكيدته ﴿وَلُوطًا﴾ وهو ابن أخي إبراهيم، وهو لوط بن هاران بن تارح، وكان قد آمن به، فهاجرا من أرض العراق إلى الشام. وكانت سارة مع إبراهيم في قول وهب. وقال السدي: إنما هي ابنة ملك حرّان، لقيها إبراهيم فتزوجها على أن لا يغيرها، وكانت قد طعنت على قومها في دينهم. فأما قوله تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، ففيها قولان: أحدهما: أنها أرض الشام، وهذا قول الأكثرين. وبركتها: أن الله عزّ وجل بعث أكثر الأنبياء منها، وأكثر فيها الخصب والثمار والأنهار. والثاني: أنها مكة، رواه العوفي عن ابن عباس. والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ يعني: إبراهيم ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، وفي معنى النافلة قولان: أحدهما: أنها بمعنى الزيادة، والمراد بها: يعقوب خاصة، فكانه سال واحداً، فأعطي اثنين، وهذا مذهب ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، والفراء. والثاني: أن النافلة بمعنى العطية، والمراد بها: إسحاق ويعقوب، وهذا مذهب مجاهد، وعطاء.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. قال أبو عبيدة: «كُلُّ» يقع خبره على لفظ الواحد، لأن لفظه لفظ الواحد، ويقع خبره على لفظ الجميع، لأن معناه معنى الجميع.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً﴾ أي: رؤوساً يُقتدى بهم في الخير ﴿بِهَدْيِكُمْ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون الناس إلى ديننا بأمرنا يأتهم بذلك ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ قال ابن عباس: شرائع النبوة. وقال مقاتل: الأعمال الصالحة، ﴿وَإِيمَانَ الصَّلَاةِ﴾ قال الزجاج: حذف الهاء من «إقامة الصلاة» قليل في اللغة، تقول: أقام إقامة، والحذف جائز، لأن الإضافة عوض من الهاء.

﴿وَلُوطًا ءَآيَتُنْهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَمَقِيتَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفِسْقَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَمِيقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَآيَتُنْهُ حُكْمًا﴾ قال الزجاج: انتصب «لوط» بفعل مضمر، لأن قبله فعلاً، فالمعنى: وأوحينا إليهم وآتينا لوطاً. وذكر بعض النحويين: أنه منصوب على «واذكر لوطاً»، وهذا جائز، لأن ذكر إبراهيم قد جرى، فحمل لوط على معنى: واذكر. قال المفسرون: لما هاجر لوط مع إبراهيم، نزل إبراهيم أرض فلسطين، ونزل لوط بالمؤتفة على مسيرة يوم وليلة أو نحو ذلك من إبراهيم، فبعثه الله نبياً. فأما «الحكم» فيه قولان: أحدهما: أنه النبوة، قاله ابن عباس. والثاني: الفهم والعقل، قاله مقاتل. وقد ذكرنا فيه أقوالاً في سورة (يسف: ٢٢). وأما «القرية» هاهنا، فهي سدوم، والمراد أهلها، والخبائث: أفعالهم المنكرة، فمنها إتيان الذكور وقطع السبيل، إلى غير ذلك مما قد ذكره الله ﷻ عنهم في مواضع (مود: ٧٨، والحجر: ٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي: بانجائه من بينهم. ﴿وَتُومًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتُومًا﴾ المعنى: واذكر نوحاً، وكذلك ما يأتيك من ذكر الأنبياء ﴿إِذْ نَادَى﴾ أي: دعا على قومه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إبراهيم ولوط. فأما الكرب العظيم، فقال ابن عباس: هو الغرق وتكذيب قومه. قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: منعناه منهم أن يصلوا إليه بسوء. وقيل: «من» بمعنى «على».

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُتَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُنَّا
ءَايَاتِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحِصِنَكُمْ مِنْ
بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي لِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمَنْ
الضَّالِّطِينَ مَنْ يَبْغُضُونَ لَوْ رَمَضُواكَ عَمَلًا ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُتَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه كان عنياً، قاله ابن مسعود،
ومسروق، وشريح. والثاني: كان زرعاً، قاله قتادة. ﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: رَعَتْ لِيلاً،
يقال: نَفَسَتْ الغنمُ بالليل، وهي إبِلُ نَفَسَتْ وَنَفَاشٌ وَنَفَاشٌ، والواحد: نَافِشٌ، وَسَرَحَتْ وَسَرَبَتْ بالنهار. قال
قتادة: النَّفْسُ بالليل، والهَمَلُ بالنهار. وقال ابن السكيت: النَّفْسُ: أن تتشر الغنم بالليل ترعى بلا راع.

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل التفسير أن رجلين كانا على عهد داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فتفَلَّتت
الغنم فوقعت في الحرث فلم يُبَيِّن منه شيئاً، فاخصموا إلى داود، فقال لصاحب الحرث: لك رقاب الغنم، فقال
سليمان: أو غير ذلك؟ قال: ما هو؟ قال: يطلق أصحاب الحرث بالغنم فيصيون من ألبانها ومنافعها، ويُقْبَل أصحاب
الغنم على الكرم، حتى إذا كان كليلة نفست فيه الغنم، دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم،
فقال داود: قد أصبغت القضاء، ثم حكم بذلك، فذلك قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وفي المشار إليهم
قولان: أحدهما: داود وسليمان، فذكرهما بلفظ الجمع، لأن الاثنين جمع، هذا قول الفراء. والثاني: أنهم داود
وسليمان والخصوم، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن أبي عبيدة: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمَا﴾ على
التثنية. ومعنى «شاهدين»: أنه لم يَبَيِّن عنّا من أمرهم شيء. ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ يعني: القضية والحكومة. وإنما كنى
عنها، لأنه قد سبق ما يدل عليها من ذِكر الحكم، ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمَا﴾ وقد سبق بيانه. قال الحسن: لولا هذه
الآية لرأيت أن القضاة قد هلكوا، ولكنه أثنى على سليمان لصوابه، وعذّر داود باجتهاده.

فصل

قال أبو سليمان الدمشقي: كان قضاء داود وسليمان جميعاً من طريق الاجتهاد، ولم يكن نصّاً، إذ لو كان نصّاً ما
اختلفا. قال القاضي أبو يعلى: وقد اختلف الناس في الغنم إذا نفست ليلاً في زرع رجل فأفسدته، فمذهب أصحابنا أن
عليه الضمان، وهو قول الشافعي، وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا ضمان عليه ليلاً ونهاراً، إلا أن يكون صاحبها هو
الذي أرسلها، فظاهر الآية يدل على قول أصحابنا، لأن داود حكم بالضمان، وشرع مَنْ قَبَلْنَا شَرَعَ لَنَا ما لم يُبَيِّن
نَسْخَهُ. فإن قيل: فقد ثبت نسخ هذا الحكم، لأن داود حكم بدفع الغنم إلى صاحب الحرث، وحكم سليمان له
بأولادها وأصوافها، ولا خلاف أنه لا يجب على من نفست غنمه في حرث رجل شيء من ذلك؛ قيل: الآية تضمنت
أحكاماً، منها وجوب الضمان وكيفيته، فالنسخ حصل على كيفيته، ولم يحصل على أصله، فوجب التعلق به، وقد روى
حرام بن محيصة عن أبيه: أن ناقه للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت، فقاضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل الأموال حفظها
بالنهار، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل^(١).

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ تقدير الكلام: وَسَخَّرْنَا الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ مَعَ دَاوُدَ. قال أبو هريرة: كان
إذا سَبَّح أجابته الجبال والطير بالسبح والدُّكْرُ، وقال غيره: كان إذا وجد فترةً، أمر الجبال فسبّحت حتى يشتاق هو فيسبِّح.
قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: لذلك. قال الزجاج: المعنى: وكُنَّا نقدر على ما نريده.

(١) رواه أحمد في «المسنَد» ٤/٢٩٥، وأبو داود في «سننه» رقم (٣٥٦٩ - ٣٥٧٠)، وابن ماجه في «سننه» رقم (٢٣٣٢). قال ابن كثير: وقد علل هذا الحديث، قال: وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب «الأحكام»، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ في المراد باللُّبوس قولان: أحدهما: الدُّرُوع، كانت قبل ذلك صفائح، وكان داود أول من صنع هذه الحلق وسرد، قاله قتادة. والثاني: أن اللُّبوس: السلاح كله من درع إلى رمح، قاله أبو عبيدة. وقرأ أبو المتوكل، وابن السميع: «لبوس» بضم اللام.

قوله تعالى: ﴿لِيُخَصِّصْكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «لِيُخَصِّصْكُمْ» بالياء. وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: «لِيُخَصِّصْكُمْ» بالتاء. وروى أبو بكر عن عاصم: «لِيُخَصِّصْكُمْ» بالنون خفيفة. وقرأ أبو الدرداء، وأبو عمران الجوني، وأبو حيوه: «لِيُخَصِّصْكُمْ» بتاء مرفوعة وفتح الحاء وتشديد الصاد. وقرأ ابن مسعود، وأبو الجوزاء، وحميد بن قيس: «لِيُخَصِّصْكُمْ» بتاء مفتوحة مع فتح الحاء وتشديد الصاد مع ضمها. وقرأ أبو رزين العقيلي، وأبو المتوكل، ومجاهد: «لِيُخَصِّصْكُمْ» بنون مرفوعة وفتح الحاء وكسر الصاد مع تشديدها. وقرأ معاذ القارئ، وعكرمة، وابن يعمر، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «لِيُخَصِّصْكُمْ» بياء مرفوعة وسكون الحاء وكسر الصاد مشددة النون. فمن قرأ بالياء، ففيه أربعة أوجه. قال أبو علي الفارسي: أن يكون الفاعل اسم الله، لتقدم معناه، ويجوز أن يكون اللباس، لأن اللبوس بمعنى اللباس من حيث كان ضرباً منه، ويجوز أن يكون داود، ويجوز أن يكون التعليم، وقد دل عليه «علمناه». ومن قرأ بالتاء، حمله على المعنى، لأنه الدرع. ومن قرأ بالنون، فلتقدم قوله: «وعلَّمناه». ومعنى «لِيُخَصِّصْكُمْ»: يُخَرِّجُكُمْ وتمنعكم ﴿مِنَ آبَائِكُمْ﴾ يعني: الحرب.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَلَّمْنَا إِلَيْكَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو عمران الجوني، وأبو حيوه الحضرمي: «الرِّيَّاحُ» بألف مع رفع الحاء. وقرأ الحسن، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء: بالالف ونصب الحاء، والمعنى: وسخرنا سليمان الريح ﴿عاصفة﴾ أي: شديدة الهبوب ﴿تَجْرِي بِأَمْرِي﴾ يعني: بأمر سليمان ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام، وقد مرَّ بيان بركتها في هذه السورة (الأنبياء: ٧٢)؛ والمعنى: أنها كانت تسير به إلى حيث شاء، ثم تعود به إلى منزله بالشام.

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ علمنا أن ما نُعطي سليمان يدعوه إلى الخضوع لربِّه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يُوَسْوِسُ لَكُم﴾ قال أبو عبيدة: «مَن» تقع على الواحد والاثنين والجمع من المذكر والمؤنث. قال المفسرون: كانوا يغوصون في البحر، فيستخرجون الجواهر، ﴿وَيَسْمُرُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ قال الزجاج: معناه: سوى ذلك، ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أن يفسدوا ما عملوا. وقال غيره: أن يخرجوا عن أمره.

﴿وَأَرْوِبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَفَفْنَا مَا يَمِينُ مِنْ سُبُرِّ وَاعْتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مِمَّا رَحِمْنَا رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْمُذِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَاسْمِعِلْ لِإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَرْوِبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أي: دعا ربه ﴿أِنِّي﴾ وقرأ أبو عمران الجوني: «إني» بكسر الهمزة، ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ وقرأ حمزة: «مَسَّنِي» بتسكين الياء، أي: أصابني الجهد، ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: أكثرهم رحمة، وهذا تعريض منه بسؤال الرحمة إذ أتى عليه بأنه الأرحم وسكت.

الإشارة إلى قصته

ذكر أهل التفسير أن أيوب عليه السلام كان أغنى أهل زمانه، وكان كثير الإحسان. فقال إبليس: يا رب سلطني على ماله وولده - وكان له ثلاثة عشر ولداً - فإن فعلت رأيت كيف يطعني ويعصيك، فقبل له: قد سلطتك على ماله وولده، فرجع إبليس فجمع شياطينه ومردته، فبعث بعضهم إلى دوابه ورعاته، فاحتملوها حتى قدفوها في البحر، وجاء إبليس في صورة قيّمه، فقال: يا أيوب ألا أراك تصلّي وقد أقبلت ريح عاصف فاحتملت دوابك ورعاتها حتى قدفتها في البحر؟ فلم يردّ عليه شيئاً حتى فرغ من صلاته، ثم قال: الحمد لله الذي رزقني ثم قبله مني، فانصرف خائباً، ثم أرسل بعض الشياطين إلى جنانه وزروعه، فأحرقوها، وجاء فأخبره، فقال مثل ذلك، فأرسل بعض الشياطين فلزلوا

منازل أيوب وفيها ولده وخدمه، فأهلكوهم، وجاء فأخبره، فحمد الله، وقال لإبليس وهو يظنه قِيَمُه في ماله: لو كان فيك خير لقبضك معهم، فانصرف خائباً، فقيل له: كيف رأيت عبدي أيوب؟ قال: يا رب سلطني على جسده فسوف ترى، قيل له: قد سلطتك على جسده، فجاء فنفخ في إبهام قدميه، فاشتعل فيه مثل النار، ولم يكن في زمانه أكثر بكاء منه خوفاً من الله تعالى، فلما نزل به البلاء لم يبك مخافة الجزع، وبقي لسأله للذكر، وقلبه للمعرفة والشكر، وكان يرى أمعاءه وعروقه وعظامه، وكان مرضه أنه خرج في جميع جسده نأكيل كاليات الغنم، ووقعت به حكة لا يملكها، فحك بأظفاره حتى سقطت، ثم بالمسوح، ثم بالحجارة، فأتت جسده وتقطع، وأخرجته أهل القرية فجعلوا له عريشاً على كُناسة، ورفضه الخلق سوى زوجته، واسمها رحمة بنت إفرايم بن يوسف بن يعقوب، فكانت تختلف إليه بما يصلحه^(١). وزوى أبو بكر القرشي عن الليث بن سعد، قال: كان ملك يظلم الناس، فكلمه في ذلك جماعة من الأنبياء، ومكت عنه أيوب لأجل خيل كانت له في سلطانه، فأوحى الله إليه: تركت كلامه من أجل خيلك؟! لأطيلن بلاءك^(٢). واختلفوا في مدة لبثه في البلاء على أربعة أقوال: أحدها: ثماني عشرة سنة، رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ^(٣)، والثاني: سبع سنين، قاله ابن عباس، وكعب، ويحيى بن أبي كثير. والثالث: سبع سنين وأشهر، قاله الحسن. والرابع: ثلاث سنين، قاله وهب، وفي سبب سؤاله العافية ستة أقوال: أحدها: [أنه] اشتهى إداماً، فلم تُصبه امرأته حتى باعت قرناً من شعرها، فلما علم ذلك، قال: ﴿سَقَى الْفَرْثَ﴾، رواه الضحاك عن ابن عباس، والثاني: أن الله تعالى أنساه الدعاء مع كثرة ذكره الله، فلما انتهى أجل البلاء، يسر له الدعاء، فاستجاب له، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أن نفرأ من بني إسرائيل نفروا به، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم، فعند ذلك قال: ﴿سَقَى الْفَرْثَ﴾، قاله نوف البكالي. وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان له أخوان، يوماً فوجدا ريحاً، فقالا: لو كان الله علم منه خيراً ما بلغ به كل هذا، فما سمع شيئاً أشد عليه من ذلك، فقال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم أبت ليلة شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدقتي، فصدق وهما يسمعان، ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم ألبس قميصاً وأنا أعلم مكان عارٍ فصدقتي، فصدق وهما يسمعان، فخرَّ ساجداً، ثم قال: اللهم لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي، فكشف الله ﷻ ما به. والرابع: أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة، فقال: ليذبح أيوب هذه لي وقد برأ، فجاءت فأخبرته، فقال: إن شفاني الله لأجلدك مائة جلدة، أمرتني أن أذبح لغير الله؟! ثم طردها عنه، فذهبت، فلما رأى أنه لا طعام له ولا شراب ولا صديق، خرَّ ساجداً وقال: ﴿سَقَى الْفَرْثَ﴾، قاله الحسن. والخامس: أن الله تعالى أوحى إليه وهو في عفوان شبابه: إني مبتليك، قال: يا رب، وأين يكون قلبي؟ قال: عندي، فصب عليه من البلاء ما سمعته، حتى إذا بلغ البلاء منتهاه، أوحى إليه أي معافيك، قال: يا رب، وأين يكون قلبي؟ قال: عندك، قال: ﴿سَقَى الْفَرْثَ﴾، قاله إبراهيم بن شيان القرميسي فيما حدثنا به عنه. والسادس: أن الوحي انقطع عنه أربعين يوماً، فخاف هجران ربه، فقال: ﴿سَقَى الْفَرْثَ﴾، ذكره الماوردي، فإن قيل: أين الصبر، وهذا لفظ الشكوى؟ فالجواب: أن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما المذموم الشكوى إلى الخلق^(٤)، ألم تسمع قول يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. قال سفيان بن عيينة: وكذلك من شكوا إلى الله تعالى، فهو في شكواه راضٍ بقضاء الله، لم يكن ذلك جزءاً، ألم تسمع قول رسول الله ﷺ لجبريل في مرضه: «أجلدني مغموماً وأجلدني مكروباً»، وقوله: «بل أنا وإرأساه»^(٥).

- (١) روى هذا الخبر وهب بن منبه في قصة طويلة ساقها ابن جرير الطبري في «التفسير» ٦٥/١٧. قال ابن كثير ١٨٨/٣: وقد روي عن وهب بن منبه في خبره قصة طويلة ساقها ابن جرير، وابن أبي حاتم بالسند عنه، وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين، وفيها غرابة.
- (٢) ذكر نحو هذا الخبر السيوطي في «الدرر» ٣٢٧/٤. من رواية ابن عساكر عن أبي إدريس الخولاني، ولعله من الإسرائيليات.
- (٣) ذكره ابن كثير ١٨٩/٣ من رواية ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك وقال: رفع هذا الحديث غريب جداً.
- (٤) من المتفق عليه أن أيوب ﷺ كان غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك، وقد ابتلي في ماله وولده وجسده، فصرير والتجأ إلى الله تعالى، فذلك قول الله فيه: ﴿وَأَرْبَبْ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيُّ سَقَى الْفَرْثَ وَأَلَّتْ أَرْحَامُ الرَّحِيمِ﴾ فكشف الله تعالى ما به.
- (٥) رواه البخاري في «صحيحه» ١٠٥/١٠ من حديث عائشة ﷺ، وهو جزء من حديث طويل.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُ أَهْلَهُ﴾ يعني: أولاده ﴿وَيَثْلُغُهُمْ مَمَهْرًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن الله تعالى أحيا له أهله بأعيانهم، وآتاه مثلهم معهم في الدنيا، قاله ابن مسعود والحسن، وقادة. وروى أبو صالح عن ابن عباس: كانت امرأته ولدت له سبعة بنين وسبع بنات، فثيروا له، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات. والثاني: أنهم كانوا قد عُيِّبوا عنه ولم يموتوا، فآتاه إياهم في الدنيا ومثلهم معهم في الآخرة، رواه هشام عن الحسن، والثالث: آتاه الله أجور أهله في الآخرة، وآتاه مثلهم في الدنيا، قاله نوف، ومجاهد. والرابع: آتاه أهله ومثلهم معهم في الآخرة، حكاه الزجاج.

قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أي: فعلنا ذلك به رحمةً من عندنا، ﴿وَوَكَّرْنَا﴾ أي: عظة ﴿لِلْمُعْتَدِينَ﴾ قال محمد بن كعب: من أصابه بلاء فليذكر ما أصاب أيوب، فليقل: إنه قد أصاب من هو خيرٌ مني.

قوله تعالى: ﴿وَدَا أَلْكُفْلَ﴾ اختلفوا هل كان نبياً، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه لم يكن نبياً، ولكنه كان عبداً صالحاً، قاله أبو موسى الأشعري، ومجاهد. ثم اختلف أرباب هذا القول في علته تسميته بذى الكفل على ثلاثة أقوال: أحدها: أن رجلاً كان يصلي كل يوم مائة صلاة فتوفي، فكفل بصلاته، فسُمي: ذا الكفل، قاله أبو موسى الأشعري. والثاني: أنه تكفل للنبى بقومه أن يكفيه أمرهم وقيامه ويقضي بينهم بالعدل، ففعل، فسُمي: ذا الكفل، قاله مجاهد. والثالث: أن ملكاً قُتل في يوم ثلاثمائة نبى، وفرَّ منه مائة نبى، فكفلهم ذو الكفل، يطعمهم ويسقيهم حتى أفلتوا، فسُمي: ذا الكفل، قاله ابن السائب. والقول الثاني: أنه كان نبياً، قاله الحسن، وعطاء^(١). قال عطاء: أوحى الله تعالى [إلى] نبي من الأنبياء: إني أريد قبض روحك، فأعرض ملكك على بني إسرائيل، فمن تكفل لك بأنه يصلي الليل لا يفتتر، ويصوم النهار لا يقطر، ويقضي بين الناس ولا يغضب، فادفع ملكك إليه، ففعل ذلك، فقام شاب فقال: أنا أتكفل لك بهذا، فتكفل به، فوفى، فشكر الله له ذلك، ونبأه، وسُمي: ذا الكفل. وقد ذكر الثعلبي حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ في الكفل: «أنه كان رجلاً لا ينزع عن ذنب، وأنه خلا بامرأة ليفجر بها، فبكت، وقالت: ما فعلت هذا قط، فقام عنها تائباً، ومات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل؟» والحديث معروف^(٢)، وقد ذكرته في «الحدائق»، فجعله الثعلبي أحد الوجوه في بيان ذى الكفل، وهذا غلط، لأن ذلك اسمه الكفل، والمذكور في القرآن يقال له: ذو الكفل، ولأن الكفل مات في ليلته التي تاب فيها، فلم يمض عليه زمان طويل يعالج فيه الصبر عن الخطايا. وإذا قلنا: إنه نبى، فإن الأنبياء معصومون عن مثل هذا الحال. وذكرنا هذا لشيخنا أبي الفضل بن ناصر رحمه الله تعالى، فوافقتي، وقال: ليس هذا بذلك.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: على طاعة الله وترك معصيته، ﴿وَأَدَّخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ في هذه الرحمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الجنة، قاله ابن عباس. والثاني: النبوة، قاله مقاتل. والثالث: النعمة والموالة، حكاه أبو سليمان الدمشقي.

﴿وَدَا التُّورَ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحٰنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَجِئْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْاٰمُوْرِيْنَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَا التُّورَ﴾ يعني: يونس بن متى. والنون: السمكة؛ أضيف إليها لاتبلاعها إياه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا﴾ قال ابن قتبية: المغاضبة: مفاعلة، وأكثر المفاعلة من اثنين، كالمناظرة والمجادلة والمخاصمة، وربما تكون من واحد، كقولك: سافرت، وشارفت الأمر، وهي هاهنا من هذا الباب. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «مُغْتَضِبًا» بإسكان الغين وفتح الصاد من غير ألف. واختلفوا في مغاضبته لمن كانت؟ على قولين: أحدهما: أنه غضب على قومه، قاله ابن عباس، والضحاك. وفي سبب غضبه عليهم ثلاثة أقوال: أحدها: أن الله تعالى أوحى إلى نبي يقال له: شعيا: أن ائت فلاناً الملك، فقل له: بيعت نبياً أميناً إلى

(١) قال ابن كثير ١٩٠/٣: وأما ذو الكفل، فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي.

(٢) رواه أحمد في «المستند» من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، قال الحافظ ابن كثير ١٩١/٣: وهذا الحديث لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، وإسناده غريب.

بني إسرائيل، وكان قد غزا بني إسرائيل ملك، وسبى منهم الكثير، فأراد النبي والملك أن يبعثا يونس إلى ذلك الملك ليكلمه حتى يرسلهم، فقال يونس لشعيا: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا، قال: فهل سماني لك؟ قال: لا، قال: فهانئا غيري من الأنبياء، فألحقوا عليه، فخرج مغاضباً للنبي والملك ولقومه، هذا مروى عن ابن عباس؛ وقد زدناه شرحاً في (يونس: ٩٨). والثاني: أنه عاني من قومه أمراً صعباً من الأذى والتكذيب، فخرج عنهم قبل أن يؤمنوا صبراً، وما ظنُّ أن هذا الفعل يوجب عليه ما جرى من العقوبة، ذكره ابن الأنباري، وقد روي عن وهب بن منبه، قال: لما حُملت عليه أثقال النبوَّة، ضاق بها ذراً ولم يصبر، فقذفها من يده وخرج هارباً^(١). والثالث: أنه لما أوعدهم العذاب، فتابوا ورفَّع عنهم، قيل له: ارجع إليهم، فقال: كيف أرجع فيجدوني كاذباً؟ فانصرف مغاضباً لقومه، عاتياً على ربِّه. وقد ذكرنا هذا في (يونس: ٩٨). والثاني: أنه خرج مغاضباً لربِّه، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، والشعبي، وعروة. وقال أبو بكر النقاش: المعنى: مغاضباً من أجل ربِّه، وإنما غضب لأجل تمرُّدهم وعصيانهم. وقال ابن قتيبة: كان مغيظاً عليهم لطول ما عاناه من تكذيبهم، مشتتاً أن ينزل العذاب بهم، فعاقبه الله على كراهيته العفو عن قومه.

قوله تعالى: ﴿فَظَنُّ أَنْ أَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ وقرأ يعقوب: ﴿يُقَدِّرُ﴾ بضم الباء وتشديد الدال وفتحها. وقرأ سعيد بن جبير، وأبو الجوزاء، وابن أبي لیلی: ﴿يُقَدِّرُ﴾ بياء مرفوعة مع سكون القاف وتخفيف الدال وفتحها. وقرأ أبو عمران الجوني: ﴿يُقَدِّرُ﴾ بياء مفتوحة وسكون القاف وكسر الدال خفيفة. وقرأ الزهري، وابن يعمر، وحמיד بن قيس: ﴿تُقَدِّرُ﴾ بتون مرفوعة وفتح القاف وكسر الدال وتشديدها. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن لن نقضي عليه بالعقوبة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحاك. قال الفراء: معنى الآية: فظن أن لن نقدر عليه ما قدرنا من العقوبة، والعرب تقول: قَدَّر، بمعنى: قَدَّر، قال أبو صخر:

ولا عائدًا ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تُقَدِّرُ كُنْ وَلَكَ الشُّكْرُ^(٢)

أراد: ما تقدر، وهذا مذهب الزجاج. والثاني: فظن أن لن نصيب عليه، قاله عطاء. قال ابن قتيبة: يقال: فلان مُقَدَّرٌ عليه، ومُقَدَّرٌ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [النجم: ١٦] أي: صَيَّقَ عليه فيه. قال النقاش: والمعنى: فظن أن لن يضيَّقَ عليه الخروج، فكأنه ظن أن الله قد وسَّع له، إن شاء أن يقيم، وإن شاء أن يخرج، ولم يؤدِّن له في الخروج. والثالث: أن المعنى: فظن أنه يعجز ربه، فلا يقدر عليه، رواه عوف عن الحسن. وقال ابن زيد، وسليمان التيمي: المعنى: أظنُّ أن لن تُقَدِّرَ عليه؛ فعلى هذا الوجه يكون استفهاماً قد حُدِّثَ ألفه؛ وهذا الوجه يدل على أنه من القدرة، ولا يتصوَّر إلا مع تقدير الاستفهام، ولا أعلم له وجهاً إلا أن يكون استفهام إنكار، تقديره: ما ظنُّ عجزنا، فأين يهرب منا؟

قوله تعالى: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، قاله سعيد بن جبير، وقتادة، والأكثر. والثاني: أن حوتاً جاء فابتلع الحوت الذي هو في بطنه، فنادى في ظلمة حوت، ثم في ظلمة حوت، ثم في ظلمة البحر، قاله سالم بن أبي الجعد. والثالث: أنها ظلمة الماء، وظلمة معى السمكة، وظلمة بطنها، قاله ابن السائب. وقد روى سعد بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه، كلمة أخي يونس: فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين﴾^(٣). قال الحسن: وهذا اعتراف [من] يونس بذنبه وتوبه من خطيئته.

(١) لعله من الإسرائيليات التي نقلها وهب بن منبه، وقد تقدم أمثال ذلك.

(٢) شرح أشعار الهذليين ٩٥٨/٢، والقرطبي ١١/٣٣٢.

(٣) رواه بهذا اللفظ ابن السني عن أبي يعلى، وفي سننه عمرو بن الحصين، وهو ضعيف جداً، ورواه أحمد، والترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه، بلطف «دعوة ذي النون، إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت»: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له، وهو حديث حسن.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ﴾ أي: أجبناه ﴿وَقَيَّضْنَا يَنَ الْفَرِّ﴾ أي: من الظلمات ﴿وَكذَلِكَ نُجِيبُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا دعونا. وروى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ: «نُجِيبُ الْمُؤْمِنِينَ» بنون واحدة مشددة الجيم؛ قال الزجاج: وهذا لُحْنٌ لا وجه له، وقال أبو علي الفارسي: غلط الراوي عن عاصم، ويدل على هذا إسكانه الباء من «نُجِيبُ» ونصب «المؤمنين»، ولو كان على ما لم يُسَم فاعله ما سكن الباء ولفع «المؤمنين».

﴿وَرَكِبْنَا إِذِ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَسْلَمْنَا لَهُ زَوْجَكُمُ إِهْتَمُّ كَانُوا يَسْتَعْرِضُونَ فِي الْعَجَزَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَبِّعَا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعُونَ ﴿٩٠﴾ وَاللَّيْلِ أَحْمَصَتِ رُجْحَا فَتَنَمَّكَ فِيهَا مِنْ رُجْحَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رِجْعُوكُ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُمْ كَنُيُونُ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي: وحيداً بلا ولد ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: أفضل من بقي حياً بعد ميت.
قوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ زَوْجَكُمُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أصلحت للولد بعد أن كانت عقيماً، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وقتادة. والثاني: أنه كان في لسانها طول، وهو: البذاء، فأصلحت، قاله عطاء. وقال السدي: كانت سليطة فكف عن لسانها. والثالث: أنه كان خُلُقها سيئاً، قاله محمد بن كعب (١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْتَعْرِضُونَ فِي الْعَجَزَاتِ﴾ أي: يبادرون في طاعة الله. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: زكريا، وامرأته، ويحيى. والثاني: جميع الأنبياء المذكورين في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَكَ رَبِّعَا وَرَهْبًا﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن محيصن: «ويدعوننا» بنون واحدة.
قوله تعالى: ﴿رَبِّعَا وَرَهْبًا﴾ أي: رغباً فيما عندنا، ورهباً منا. وقرأ الأعمش: «رُغْبًا وَرُهْبًا» بضم الراءين وجرم الغين والهاء، وهما لغتان مثل النُحْل، والنَحْل، والسُّقْم، والسَّقْم، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعُونَ﴾ أي: متواضعين.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ أَحْمَصَتِ رُجْحَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه مخرج الولد، والمعنى: منعت مما لا يحل. وإنما وُصِفَتْ بالعفاب لأنها قُدِّفَتْ بالزنا. والثاني: أنه جيب درعها. ومعنى الفرج في اللغة: كل فرجة بين شيئين، وموضع جيب درع المرأة مشقوق، فهو يسمى فرجاً. وهذا أبلغ في الشناء عليها، لأنها إذا منعت جيب درعها، فهي لنفسها أمنع.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَمَّكَ فِيهَا﴾ أي: أمرنا جبريل، فنفخ في درعها، فأجرنا فيها روح عيسى كما تجري الرياح بالنفخ. وأضاف الروح إليه إضافة الملك، للتشريف والتخصيص ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً﴾ قال الزجاج: لما كان شأنهما واحداً، كانت الآية فيهما آية واحدة، وهي ولادة من غير فحل. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عمير: «آيتين» على التثنية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ قال ابن عباس: المراد بالأمَّة هاهنا: الدين. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم أمة محمد ﷺ، وهو معنى قول مقاتل. والثاني: أنهم الأنبياء ﷺ، قاله أبو سليمان الدمشقي. ثم ذكر أهل الكتاب، فذمهم بالاختلاف، فقال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلفوا في الدين، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: شيئاً من الفرائض وأعمال البر ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ﴾ أي: لا تجحد ما عمل، قاله ابن قتيبة، والمعنى: أنه يقبل منه، ويثاب عليه ﴿وَإِنَّا لَهُمْ كَنُيُونُ﴾ ذلك، نأمر الحفظة أن يكتبوه لنجازته به.

﴿وَكُرْهُمُ عَلَى قُرْبَىٰ أَمْلَكْنَاهَا إِنَّهُمْ لَا رِجْعُوكُ﴾ ﴿٩٥﴾ حَوَّحَ إِذَا فُيِّحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُوكُ ﴿٩٦﴾ وَأَقْرَبَ الرَّعْدِ الْقَعُوقُ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِئْسَ لَنَا قَدْ كُنَّا فِي عَقْلٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّا كُنَّا وَمَا تَسْمُدُونَ مِنْ دُرِّهِ اللَّهُ حَسْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آيَةً مَّا رَدُّوهُمَا وَكُلُّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرِيْبِهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «وحرام» بالالف. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «وَحَرَّمَ» بكسر الحاء من غير ألف، وهما لغتان. يقال: حَرَّمَ حَرْمًا وحرام. وقرأ معاذ القارئ، وأبو المتوكل، وأبو عمران الجوني: «حَرَّمَ» بفتح الحاء وسكون الراء من غير ألف والميم مرفوعة منوثة. وقرأ سعيد بن جبير: «وَحَرَّمَ» بفتح الحاء وسكن الراء وفتح الميم من غير تنوين ولا ألف. وقرأ أبو الجوزاء، وعكرمة، والضحاك: «وَحَرَّمَ» بفتح الحاء وكسر الراء من غير تنوين ولا ألف. وقرأ سعيد بن المسيب، وأبو مجلز، وأبو رجاء: «وَحَرَّمَ» بفتح الحاء وضم الراء ونصب الميم من غير ألف. وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ﴾ قولان: أحدهما: واجب، قاله ابن عباس، وأنشدوا في معناه:

فإنَّ حَرَامًا لَا أَرَى الدَّفْرَ بَآكِيًا عَلَى شَجْوِهِ إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى عَمْرٍو^(١)

أي: واجب. والثاني: أنه بمعنى العزم، قاله سعيد بن جبير. وقال عطاء: حتم من الله. والمراد بالقرية: أهلها. ثم في معنى الآية أربعة أقوال: أحدها: واجب على قرية أهلكتها أنهم لا يتوبون، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: واجب عليها أنها إذا أهلكت لا ترجع إلى دنياها، هذا قول قتادة؛ وقد روي عن ابن عباس نحوه. والثالث: أن «لا» زائدة؛ والمعنى: حرام على قرية مهلكة أنهم يرجعون إلى الدنيا، قاله ابن جريج، وابن قتيبة في آخرين. والرابع: أن الكلام متعلق بما قبله، لأنه لما قال: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدٍ﴾ أعلمنا أنه قد حَرَّمَ قبول أعمال الكفار؛ فمعنى الآية: وحرام على قرية أهلكتها أن يُتَقَبَّلَ منهم عمل، لأنهم لا يتوبون، هذا قول الزجاج. فإن قيل: كيف يصح أن يحرم على الإنسان ما ليس من فعله، ورجوعهم بعد الموت ليس إليهم؟ فالجواب: أن المعنى: مُنِعُوا من ذلك، كما يُمنع الإنسان من الحرام وإن قدر عليه، فكان التشبيه بالتحريم للحالتين من حيث المنع.

قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾^(٢) وقرأ ابن عامر: «فُتِحَتْ» بالشديد، والمعنى: فُتِحَ الردم عنهم ﴿وَهُمْ بَيْنَ كَيْفٍ حَدْبٍ﴾ قال ابن قتيبة: من كل نشز من الأرض وأكمة ﴿بِئْسَلُونَ﴾ من النسلان: وهو مقاربة الخطو مع الإسراع، كمشي الذئب إذا بادر، والنسلان مثله. وقال الزجاج: الحدْبُ: كل أكمة، و«بِئْسَلُونَ»: يُسرعون. وقرأ أبو رجاء المطاردي، وعاصم الجحدري: «بِئْسَلُونَ» بضم السين. وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه إشارة إلى يأجوج ومأجوج، قاله الجمهور؛ والثاني: إلى جميع الناس؛ فالمعنى: وهم يُحَسَّرُونَ إلى الموقف، قاله مجاهد. والأول أصح. فإن قيل: أين جواب «حتى»؟ ففيه قولان: أحدهما: أنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ والواو في قوله تعالى: «واقترب» زائدة، قاله الفراء. قال: ومثله ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَا وَقَدْ بَعَثْنَا لَبِيْحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣، ١٠٤]، والمعنى: نادينا. وقال عبد الله بن مسعود: الساعة من الناس بعد يأجوج ومأجوج، كالحامل المتئم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً. والثاني: أنه قول محدوف في قوله: ﴿بِئْسَلُونَ﴾، فالمعنى: حتى إذا فُتِحَتْ يأجوج ومأجوج واقترب الوعد، قالوا: يا ويلنا. قال الزجاج: هذا قول البصريين. فأما ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ فهو القيامة.

(١) البيت لعبد الرحمن بن جمانة المحاربي الجاهلي، كما في «اللسان»: حرم، وهو في «غريب القرآن» ٢٨٨، ونسب للخنساء في «تفسير القرطبي» ٣٤٠/١١، و«البحر المحيط» ٣٣٩/٦، و«فروع المغاني» ٨٤/١٧، وفيها جميعاً: بكيت على صخر، ولا يوجد البيت في «ديوانها».

(٢) تقدم الكلام على يأجوج ومأجوج في سورة (الكهف: ٩٤). قال ابن كثير: وهم من سلالة آدم ﷺ، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث، أي أبي الترك، والترك شُرْفة منهم تُركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين، قال: وقد حكى النووي في «شرح مسلم» عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلف بالتراب فخلقوا من ذلك، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء، قال: وهذا قول غريب جداً، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد هاهنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة، والله أعلم. وهم إذا خرجوا من السد يعيشون في الأرض فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية، انظر «تفسير ابن كثير» ١٩٥/٣ - ١٩٧.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا هِيَ﴾ في «هي» أربعة أقوال: أحدها: أن «هي» كناية عن الأبصار، والأبصار تفسير لها، كقول الشاعر:

لَعَمْرُو أَبِيهَا لَا تَقُولُ ظَعِينَتِي
فذكر الظعينة، وقد كنى عنها في «العمرو أبيها». والثاني: أن «هي» [ضمير فصل، و] ^(٢) عماد، ويصلح في موضعها «هو»، ومثله قوله: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ [النمل: ٩]، وقوله: ﴿فَلْيَأْتِكُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ﴾ [الحج: ٤٦]، وأنشدوا:

بِشَوِّبٍ وَدِينَارٍ وَشَاةٍ وَدَرَاهِمٍ
فَهَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ بِمَا هَا هُنَا رَأْسٌ ^(٣)
ذكرهما الفراء. والثالث: أن يكون تمام الكلام عند قوله: «هي» على معنى: فإذا هي بارزة واقفة، يعني: من قريبها، كأنها آتية حاضرة، ثم ابتداء فقال: ﴿شَخْصَةً﴾، ذكره الثعلبي. والرابع: أن «هي» كناية عن القصة، والمعنى: القصة أن أبصارهم شاخصة في ذلك اليوم، ذكره علي بن أحمد النيسابوري. قال المفسرون: تشخص أبصار الكفار من هول يوم القيامة، ويقولون: ﴿يَبُولُنَا قَدْ كُنَّا﴾ أي: في الدنيا ﴿فِي عَقْلِكَ يَنْ هَذَا﴾ أي: عن هذا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أنفسنا يكفرنا ومعاصينا. ثم خاطب أهل مكة فقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو العالية، وعمر بن عبد العزيز: «حَظْب» بالطاء. وقرأ ابن عباس، وعائشة، وابن السميع: «حَضْب» بالضاد المعجمة المفتوحة. وقرأ عروة، وعكرمة، وابن يعمر، وابن أبي عبيدة: «حَضْب جهنم» بإسكان الضاد المعجمة. وقرأ أبو المتوكل، وأبو حيوة، ومعاذ الفارسي: «حَضْب» بكسر الحاء مع تسكين الضاد المعجمة. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، وابن محيصن: «حَضْب» بفتح الحاء وبضاد غير معجمة ساكنة. قال الزجاج: من قرأ «حَضْب جهنم» فمعناه: كل ما يرمى به فيها، ومن قرأ «حطب» فمعناه: ما تؤخذ به، ومن قرأ بالضاد المعجمة، فمعناه: ما تهيج به النار وتذكي به. قال ابن قتيبة: الحَضْب: ما ألقي فيها، وأصله من الحَضْبَاء، وهو: الحصى، يقال: حَصَبْتُ فلاناً: إذا رميته، حَضْباً، بتسكين الصاد، وما رَمَيْتَ به فهو حَضْب، بفتح الصاد.

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ﴾ يعني: العابدين والمعبودين ﴿لَهَا وَرَدَّتْ﴾ أي: داخلون. ﴿كُلٌّ كَاتٌ هَتُولَاءٌ﴾ يعني: الأصنام ﴿الْإِلَهَةِ﴾ على الحقيقة ﴿مَّا وَرَدَّهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إشارة إلى الأصنام، والمعنى: لو كانوا آلهة ما دخلوا النار. والثاني: أنه إشارة إلى عابديها، فالمعنى: لو كانت الأصنام آلهة، منعت عابديها دخول النار. والثالث: أنه إشارة إلى الآلهة وعابديها، بدليل قوله تعالى: ﴿رَكْعَلٌ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني: العابد والمعبود.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوَاجٌ﴾ قد شرحنا معنى الزفير في آهود: [١٠٦]. وفي علّة كونهم لا يسمعون ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوضع في مسامعهم مسامير من نار، ثم يُقَدَّفون في توابيت من نار مقلدة عليهم، رواه أبو أمامة عن رسول الله ﷺ في حديث طويل. وقال ابن مسعود: إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى، فلا يسمعون شيئاً، ولا يرى أحدهم أن في النار أحداً يعذب غيره ^(٤). والثاني: أن السماع أنس، والله لا يحب أن يؤنسهم، قاله عون بن عمارة. والثالث: إنما لم يسمعوا لشدة غلبان جهنم، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ ﴿١٠٦﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا أَنتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الزَّلْزَلَةُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمُ اللَّاتِيكَةَ هَذَا يَوْمَكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَ تَطْرَى السَّكَاةُ كُلِّي السَّجِلَ لِكَعْشِبٍ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ حَلْقِي نُبِيدُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ كُنَّا فِي الزُّبُرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ السَّالِحُونَ ﴿١١٠﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَلْبَلَاءَ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١١١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾﴾

(١) البيت غير منسوب في «الطبري» ٩٢/١٧، و«البحر» ٣٤٠/٦، و«القرطبي» ٣٤٢/١١، و«روح المعاني» ٨٥/١٧.

(٢) ما بين المعقفين، زيادة من «روح المعاني».

(٣) البيت غير منسوب في «معاني القرآن» للفراء ٥٢/١، و«الطبري» ٩٣/١٧، و«البحر» ٣٤٠/٦، و«روح المعاني» ٨٥/١٧.

(٤) «الطبري» ٩٥/١٧، وذكره السيوطي في «الدرر» وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا في «صفة النار»، و«الطبراني»، و«البيهقي» في «البعث» عن عبد الله بن مسعود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾: سبب نزولها أنه لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ﴾ شق ذلك على قريش، وقالوا: شتم آلهتنا، فجاء ابن الزبير، فقال: ما لكم؟ قالوا: شتم آلهتنا، قال: وما قال؟ فأخبروه، فقال: ادعوه لي، فلما دعى رسول الله ﷺ، قال: يا محمد، هذا شيء لآلهتنا خاصة، أو لكل من عبد من دون الله؟ قال: «لا، بل لكل من عبد من دون الله»، فقال ابن الزبير: خصمت ورب هذه البنية، ألسنت تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عزيزاً عبد صالح، فهذه بنو مليح يعبدون الملائكة، وهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيزاً، فضج أهل مكة، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). وقال الحسين بن الفضل: إنما أراد بقوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ الأصنام دون غيرها، لأنه لو أراد الملائكة والناس، لقال: «وَمَنْ»، وقيل: «إِنَّ» بمعنى: «إِلَّا»، فتقديره: إلا الذين سبقت لهم منّا الحسنى، وهي قراءة ابن مسعود، وأبي نهيك، فأئتما قرءا: «إلا الذين». وروى عن علي بن أبي طالب أنه قرأ هذه الآية، فقال: أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن^(٢). وفي المراد «بالحسنى» قولان: أحدهما: الجنة، قاله ابن عباس، وعكرمة. والثاني: السعادة، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَنَّا﴾ أي: عن جهنم، وقد تقدم ذكرها ﴿تَعْبُدُونَ﴾ والبعد: طول المسافة، والحسيس: الصوت تسمعه من الشيء إذا مرّ قريباً منك. قال ابن عباس: لا يسمع أهل الجنة حسيس أهل النار إذا نزلوا منازلهم من الجنة.

قوله تعالى: ﴿لَا يُخْزِنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وقرأ أبو رزين، وقتادة، وابن أبي عبلة، وابن محيصن، وأبو جعفر الشيزري عن الكسائي: «لَا يُخْزِنُهُمْ» بضم الياء وكسر الزاي. وفي الفزع الأكبر أربعة أقوال: أحدها: أنه النفخة الأخيرة، رواه العوفي عن ابن عباس؛ وبهذه النفخة يقوم الناس من قبورهم، ويدل على صحة هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَنُلَقِّنُهَا لَهَا تَكْوِينًا﴾. والثاني: أنه إطباق النار على أهلها، رواه سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثالث: أنه ذبح الموت بين الجنة والنار، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً، وبه قال ابن جريج. والرابع: أنه حين يؤمر بالعبد إلى النار، قاله الحسن البصري. وفي مكان تلقى الملائكة لهم قولان: أحدهما: إذا قاموا من قبورهم، قاله مقاتل. والثاني: على أبواب الجنة، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ فيه إضمار: «يقولون» هذا يومكم ﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيه الجنة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾^(٣) وقرأ أبو العالية، وابن أبي عبلة، وأبو جعفر: «نَطْوِي» بقاء مضمومة «السما» بالرفع؛ وذلك بمحو رسوماها، وتكدير نجومها، وتكوير شمسها، ﴿كَلَّمَا السَّجَلِ لِلْكَتُبِ﴾ قرأ الجمهور: «السَّجَلِ» بكسر السين والجميم وتشديد اللام. وقرأ الحسن، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، ومحيب عن أبي عمرو: «السَّجَلِ» بكسر السين وإسكان الجيم خفيفة. وقرأ أبو السماك كذلك، إلا أنه فتح الجيم.

قوله تعالى: «الكتاب» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «الكتاب». وقرأ حمزة، والكسائي وحفص عن عاصم: «للكتب» على الجمع. وفي السجل أربعة أقوال: أحدها: أنه ملك، قاله علي بن أبي طالب، وابن عمر، والسدي. والثاني: أنه كاتب كان لرسول الله ﷺ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس^(٤). والثالث: أن السجل

(١) «أسباب النزول» للواحدي ١٧٥، و«الطبري» ٩٧/١٧، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٣٨/٤، وزاد نسبه لأبي داود في «ناسخه»، وابن المنذر، وابن مردويه، والطبراني من وجه آخر عن ابن عباس. قال ابن كثير: وهذا الذي قاله ابن الزبير خطأ كبير، لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقيماً وتوبيخاً لعابديها، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ﴾ فكيف يورد على هذا المسح والعزيز وتوحيها ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده؟! وقد أسلم ابن الزبير بعد ذلك، واعتبر عما كان يهاجي به المسلمين أولاً.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» من زواية ابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن مردويه عن النعمان بن بشير.

(٣) روى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السموات بيمينه».

(٤) رواء الطبري ١٧/١٠٠، ورواه أبو داود، والنسائي، وغيرهما، قال ابن كثير ٣/٢٠٠ لا يصح، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه، وإن كان =

بمعنى: الرجل، روى أبو الجوزاء عن ابن عباس، قال: السجل، هو الرجل. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: وقد قيل: «السجل» بلغة الحبشة: الرجل. والرابع: أنه الصحيفة. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والفراء، وابن قتيبة^(١). وقرأت على شيخنا أبي منصور، قال: قال أبو بكر، يعني - ابن دريد -: السجل: الكتاب، والله أعلم؛ ولا ألثفت إلى قولهم: إنه فارسي معرب، والمعنى: كما يطوى السجل على ما فيه من كتاب. و«اللام» بمعنى «على». وقال بعض العلماء: المراد بالكتاب: المكتوب، فلما كان المكتوب ينطوي بانطواء الصحيفة، جعل السجل كأنه يطوي الكتاب. ثم استأنف، فقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ الخلق هاهنا مصدر، وليس بمعنى المخلوق. وفي معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاةً غراًةً غراًةً، كذلك نعيدهم يوم القيامة؛ روي عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يحشر الناس يوم القيامة عراًةً حفاةً غراًةً غراًةً كما خلقتهم يوم خلقوا؛ كما بدأنا أول خلق نعيدهم»^(٢)؛ وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد. والثاني: أن المعنى: إنا نُهلك كل شيء كما كان أول مرة، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أن السماء تمطر أربعين يوماً كمني الرجال، فينبتون بالمطر في قبورهم، كما ينبتون في بطون أمهاتهم، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: أن المعنى: قُدرتنا على الإعادة قُدرتنا على الابتداء، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَعَدْنَا﴾ قال الزجاج: هو منصوب على المصدر، لأن قوله تعالى: «نعيده» بمعنى: وعدنا هذا وعداً، ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْلَمُونَ﴾ أي: قادرين على فعل ما نشاء. وقال غيره: إنا كنا فاعلين ما وعدنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن الزبور جميع الكتب المنزلة من السماء، و«الذِّكْرُ»: أم الكتاب الذي عند الله، قاله سعيد بن جبیر في رواية، ومجاهد، وابن زيد، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية ابن جبیر، فإنه قال: الزبور: التوراة والإنجيل والقرآن، والذِّكْرُ: الذي في السماء. والثاني: أن الزبور: الكتب، والذِّكْرُ: التوراة، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أن الزبور: القرآن، والذِّكْرُ: التوراة والإنجيل، قاله سعيد بن جبیر في رواية. والرابع: أن الزبور: زبور داود، والذِّكْرُ: ذِكر موسى، قاله الشعبي. وفي الأرض المذكورة هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنها أرض الجنة، رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس، وبه قال الأكترون. والثاني: أرض الدنيا، وهو منقول عن ابن عباس أيضاً. والثالث: الأرض المقدسة، قاله ابن السائب. وفي قوله تعالى: ﴿يَرُثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أمة محمد ﷺ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وفي رواية: ترث أمة محمد أرض الدنيا بالفتوح. والثاني: بنو إسرائيل، قاله ابن السائب. والثالث: أنه عام في كل صالح، قاله بعض فقهاء المفسرين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ يعني: القرآن ﴿لَبَدْعًا﴾ أي: لكفاية؛ والمعنى: أن من اتبع القرآن وعمل به، كان القرآن بلاغه إلى الجنة. وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ عَصِيْبٍ﴾ قال كعب: هم أمة محمد ﷺ الذين يصلون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣) قال ابن عباس: هذا عامٌ للبرِّ والفاجر، فمن آمن به تمت

(١) في «سنن أبي داود»، منهم شيخنا الحافظ المزي، قال: وقد تصدَّى ابن جرير للإتكار على هذا الحديث، وردّه أتم ردّه، وقال: لا يعرف في الصحابة أحد اسمه السجل، وكتاب النبي ﷺ معرووفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، قال: وصدق رحمه الله في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث، قال: والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة.

(٢) وهو الصواب، كما ذكر ابن كثير.

(٣) روى البخاري ٢٧٥/٦، ومسلم ٢١٩٤/٤، ولفظه عند مسلم: عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تمشرون إلى الله حفاةً غراًةً غراًةً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدْنَا عَلَيْكُمُ الْحِسَابَ﴾». وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حفاةً غراًةً غراًةً غراًةً، قلت: يا رسول الله: النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال ﷺ: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

(٤) روى مسلم في «صحيحه» ٢٠٠٧/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة».

له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن كفر به صُرفت عنه العقوبة إلى الموت والقيامة^(١). وقال ابن زيد: هو رحمة لمن آمن به خاصة.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيْكَ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿إِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنِ آذَيْتَ أَقْرَبُ أَمْ يُبَيِّدُ مَا تُعْبُدُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾ ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿١١٠﴾ ﴿وَإِنِ آذَىٰ لَعَلَّهُمْ فَتَنَةٌ لَّكَرًا وَمُنْتَعٍ إِلَيْكَ جِيئَ﴾ ﴿١١١﴾ ﴿قُلْ رَبِّيَ أَحْسَنُ بِمَلَأْتُ رَبِّي الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال ابن عباس: فهل أنتم مخلصون له العبادة؟ قال أهل المعاني: هذا استفهام بمعنى الأمر.

قوله تعالى: ﴿إِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: أعرضوا ولم يؤمنوا ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ في معنى الكلام قولان: أحدهما: نابذتكم وعاديتكم وأعلمتكم ذلك، فصرت أنا وأنتم على سواءٍ قد استوتينا في العلم بذلك، وهذا من الكلام المختصر، قاله ابن قتية. والثاني: أعلمتكم بالوحي إلي لتستروا في الإيمان به، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ آذَيْتَ﴾ أي: وما أدرى ﴿أَقْرَبُ أَمْ يُبَيِّدُ مَا تُعْبُدُونَ﴾ بنزول العذاب بكم. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ﴾ وهو ما يقولونه للنبي ﷺ: ﴿مَنْ هَذَا الرَّعْدُ﴾ [يس: ٤٨]، و﴿مَا تَكْتُمُونَ﴾ إسرارهم أن العذاب لا يكون.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ فَتَنَةٌ لَّكَرًا﴾ في هاء «لَعَلَّهُ» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى ما آذنتهم به، قاله الزجاج. والثاني: إلى العذاب؛ فالمعنى: لعل تأخير العذاب عنكم فتنة، قاله ابن جرير، وأبو سليمان الدمشقي. ومعنى الفتنة

هاهنا: الاختبار، ﴿وَمُنْتَعٍ إِلَيْكَ جِيئَ﴾ أي: تستمتعون إلى انقضاء آجالكم. ﴿قُلْ رَبِّيَ﴾ وروى حفص عن عاصم: ﴿قال رَبِّيَ﴾

﴿أَحْسَنُ﴾ قرأ أبو جعفر: ﴿رَبِّي أَحْسَنُ﴾ بضم الباء. وروى زيد عن يعقوب: ﴿رَبِّيَ﴾ بفتح الياء «أَحْسَنُ» يقطع الهمزة وفتح الكاف ورفع الميم. ومعنى ﴿أَحْسَنُ بِمَلَأْتُ رَبِّيَ﴾ أي بعذاب كفار قومي الذي نزوله حق، فحكم عليهم بالقتل في يوم بدر وفيما

بعده من الأيام؛ والمعنى على هذا: افضل بيني وبين المشركين بما يظهر به الحق. ومعنى ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: من كذبكم وباطلكم^(٢). وقرأ ابن عامر، والمفضل عن عاصم: «يصفون» بالياء. فإن قيل: فهل يجوز على الله أن يحكم بغير الحق؟ فالجواب: أن المعنى: احكم بحكمك الحق، كأنه استعجل النصر عليهم.



= روى الدارمي ٩/١ عن أبي صالح مرسلاً قال: كان النبي ﷺ يناديهم يقول: «يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهلهلة وقد وصله الحاكم ٣٥/١ عن أبي هريرة ﷺ وصححه، وواقفه الذهبي.

(١) ذكر ابن كثير ٢٠٢/٣ من رواية الطبراني عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾ قال: من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يتلى به سائر الأمم من الخسف والمسح والظلف.

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٠٩/١٧: وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّيَ الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يقول جل ثناؤه: «قل يا محمد: وربنا الذي يرحم عباده ويجمعهم بينهم، الذي استعنته عليهم فيما تقولون وتصفون من قولكم لي فيما أتيتكم به من عند الله: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَتَىٰكُمُ الْغَيْبُ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وقولكم: ﴿بَلِ آفَاتِنَا بَلٌ مِّمَّنْ شَاءَ﴾ وفي كذبكم على الله جل ثناؤه، وقيلكم: ﴿أَتَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، فإنه حين عليه تغيير ذلك، وفصل ما بيني وبينكم بتعجيل العقوبة لكم على ما تصفون من ذلك.

سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَرٌّ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَعْرِ عَلَيْهِ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلَّهُمْ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

فصل في نزولها

روى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية كلها، غير آيتين نزلتا بالمدينة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، والتي تليها [الحج: ١٢، ١٣]. وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنها مدنية إلا أربع آيات نزلت بمكة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ...﴾ إلى آخر الأربع [الحج: ٥٣ - ٥٧]. وقال عطاء بن يسار: نزلت بمكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: ﴿هَذَانِ حَصَّانٌ﴾ و﴿وَيُنِيرُ الْمُحْضِينَ﴾ [الحج: ٢٨] وسائرهما مكي. وقال الثعلبي: هي مكية غير ست آيات نزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿هَذَانِ حَصَّانٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿الْمُيَبِّدِ﴾ [الحج: ٢٠ - ٢٥]. وقال هبة الله بن سلامة: هي من أعاجيب سور القرآن، لأن فيها مكيًا، ومدنيًا، وحضريًا، وسفريًا، وحربيًا، وسلميًا، وليلياً، ونهارياً، وناسخاً، ومنسوخاً؛ فأما المكي، فمن رأس الثلاثين منها إلى آخرها. وأما المدني، فمن رأس خمس وعشرين إلى رأس ثلاثين. وأما الليلي، فمن أولها إلى آخر خمس آيات. وأما النهاري، فمن رأس خمس [آيات] إلى رأس تسع. وأما السفري، فمن رأس تسع إلى اثني عشرة. وأما الحضري، فإلى رأس العشرين [منها]، نسب إلى المدينة، لقرب مدته.

قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ أي: احذروا عقابه ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ الزلزلة: الحركة على الحالة الهائلة. وفي وقت هذه الزلزلة قولان: أحدهما: أنها يوم القيامة بعد النشور. روى عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ أنه قرأ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَرٌّ عَظِيمٌ﴾ وقال: تدرؤن أي يوم ذلك؟ فإنه يوم ينادي الرَّبُّ ﷻ آدم ﷺ: ابعث بعثاً إلى النار، فذكر الحديث^(١). وروى أبو سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم: قم، فابعث بعث النار، فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، فحيثما يشيب المولود، وتضع كل ذات حمل حملها، وقرأ الآية^(٢). وقال ابن عباس: زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ: قِيَامُهَا، يعني أنها تُقَارِبُ قِيَامَ السَّاعَةِ، وتكون معها. وقال الحسن، والسدي: هذه الزلزلة تكون يوم القيامة^(٣). والثاني: أنها تكون في الدنيا قبل القيامة، وهي من أشراط الساعة، قاله علقمة، والشعبي، وابن جريج. وروى أبو العالية عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قال: ست آيات قبل القيامة، بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تائرت النجوم، فبينما هم كذلك

(١) رواه أحمد في «المسند» ٤/٤٣٢، والترمذي ٢/١٤٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الطبري ١٧/١١١، وأورده السيوطي في «الدر» ٤/٤٣٣، وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين ﷺ.

(٢) رواه أحمد في «المسند»، والبخاري ٨/٣٣٥، ومسلم ١/٢٠١، وله بقية عندهما، ورواه الطبري ١٧/١١٢، وأورده السيوطي في «الدر» ٤/٣٤٤، وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) واختار ذلك ابن جرير الطبري وغيره، واحتجوا على ذلك بأحاديث، انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٠٤ - ٢٠٥ عند تفسير هذه الآية، فقد ذكر الأحاديث التي تدل على أن الزلزلة تكون يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور.

إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت، واضطربت، ففرع الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب، والطيور، والوحش، فماج بعضهم في بعض، فقالت الجن للإنس: نحن نأتكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحور، فإذا هي نار تَأْجج، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض إلى الأرض السابعة، والسماء إلى السماء السابعة، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فماتوا^(١). وقال مقاتل: هذه الزلزلة قبل النفخة الأولى، وذلك أن منادياً ينادي من السماء: يا أيها الناس أتى أمر الله، فيفزعون فرعاً شديداً فيشيب الصغير، وتضع الحوامل.

قوله تعالى: ﴿شَوْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لا يوصف لعظمه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا﴾ يعني الزلزلة ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ فيه قولان: أحدهما: تسلر عن ولدها، وتركه، قاله ابن قتيبة. والثاني: تُشْغَلُ عنه، قاله قطرب، ومنه قول ابن رواحة:

ويذهل الخليل عن خليله

وقرأ أبو عمران الجوني، وابن أبي عملة: ﴿تَذْهَلُ﴾ برفع التاء وكسر الهاء «كُلُّ» بنصب اللام. قال الأخفش: وإنما قال: «مرضعة»، لأنه أراد - والله أعلم - الفعل، ولو أراد الصفة فيما نرى، لقال: «مرضع». قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام، وهذا يدل على أن الزلزلة تكون في الدنيا، لأن بعد البعث لا تكون حبل.

قوله تعالى: ﴿وَرَى الَّذِينَ سُكَّرُوا﴾ وقرأ عكرمة، والضحاك، وابن يعمر، «وثرى» بضم التاء ومعنى «يسكاري»: من شدة الخوف ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَّرٍ﴾ من الشراب، والمعنى: ترى الناس كأنهم سكارى من ذهول عقولهم، لشدة ما يمرُّ بهم، يضطربون اضطراب السكاران من الشراب. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «سُكَّرُوا» وما هم بِسُكَّرٍ وهي قراءة ابن مسعود. قال الفراء: وهو وجه جيد، لأنه بمنزلة الهلكي والجرحى. وقرأ عكرمة، والضحاك، وابن السميع: «سكاري وما هم بسكاري» بفتح السين والراء وإثبات الألف، ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فيه دليل على أن سكرهم من خوف عذابه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُبَدِّلُ فِي اللَّهِ﴾ قال المفسرون: نزلت في الضر بن الحارث^(٢). وفيما جادل فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان كلما نزل شيء من القرآن كذب به، قاله ابن عباس. والثاني: أنه زعم أن الملائكة بنات الله، قاله مقاتل. والثالث: أنه قال: لا يقدر الله على إحياء الموتى، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعِ عِلْمٌ﴾ أي: إنما يقوله بإغواء الشيطان، لا بعلم ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ ما يسؤل له ﴿كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٌ﴾ وقد ذكرنا معنى «المريد» في سورة النساء: [١١٧].

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ «كُتِبَ» بمعنى: قُضِيَ والهاء في «عليه» وفي «تولاه» كناية عن الشيطان. ومعنى الآية: قضى على الشيطان أنه يُضِلُّ مَن اتَّبَعَهُ. وقرأ أبو عمران الجوني: «كُتِبَ» بفتح الكاف «أنه» بفتح الهمزة [فإنه] بكسر الهمزة. وقرأ أبو مجلز، وأبو العالية، وابن أبي ليلى، والضحاك، وابن يعمر: «إنه» بكسر الهمزة فيهما. وقد يتنا معنى «السعير» في سورة النساء: [١١٠].

﴿يَكْتَابُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ اللَّعْنَةِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَصَيْرَ مُخَلَّفَةٍ لِّسَبِّحٍ لَّكُمْ وَنِعْمٌ فِي الْأَنْصَارِ مَا نَسَّاهُ إِنَّكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ نُحْرِمُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتِي وَيُمْسِكُمْ مَّنْ يُرِيدُ إِنَّكَ أَزْدَلُّ الْعُشْرَى لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَائِلَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ رِزْقٍ يَبْهِيجُ ۝ ذَٰلِكَ يَأْنِ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ الْقَلْبِ وَنَأْمُوحِي الْمَوْقُوتَ وَلَنَنْهَىٰ عَنِ كُلِّ فَنٍ وَنُؤَيِّرُ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ۝﴾

(١) رواه ابن جرير الطبري ٦٣/٣٠ عند قوله تعالى: ﴿وَرَأَى النَّاسَ انكفرت﴾، وفي سننه الحسين بن واقد. قال الحافظ في «التقریب»: ثقة له أوهام، وذكره ابن كثير ٤٧٥/٤ من رواية ابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) «أسباب النزول» للسيوطي ١٥٠ من رواية ابن أبي حاتم، و«الدرر» ٣٤٤/٤.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ يعني: أهل مكة ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ﴾ أي: في شك من القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ يعني: خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ. يعني: خَلَقَ وَلَدَهُ، والمعنى: إن شككتكم في بعثكم فتدبروا أمر خلقكم وابتدائكم، فإنكم لا تجدون في القدرة فرقا بين الابتداء والإعادة. فأما النطفة، فهي المني. والعلاقة: دم عبيط جامد. وقيل: سميت علاقة لرطوبتها وتعلقها بما تمرُّ به، فإذا جفَّت فليست علاقة. والمضغة: لحمة صغيرة. قال ابن قتيبة: وسميت بذلك، لأنها بقدر ما يُمضغ، كما قيل: غرفة لقدر ما يُغرف.

قوله تعالى: ﴿مُخَلَّفَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّفَةٍ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أن المخلَّفة: ما خُلِقَ سَوِيًّا، وغير المخلَّفة: ما ألقته الأرحام من النطفة، وهو دم قبل أن يكون خَلْفًا، قاله ابن مسعود. والثاني: أن المخلَّفة: ما أكمل خَلْفَهُ بنفخ الروح فيه^(١)، وهو الذي يولد حيًّا لتمام، وغير المخلَّفة: ما سقط غير حيٍّ لم يكمل خَلْفَهُ بنفخ الروح فيه، هذا معنى قول ابن عباس. والثالث: أن المخلَّفة: المصوَّرة، وغير المخلَّفة: غير مصوَّرة، قاله الحسن. والرابع: أن المخلَّفة وغير المخلَّفة: السقط، تارة يسقط نطفة وعلاقة، وتارة قد صُوِّرَ بعضه، وتارة قد صُوِّرَ كلُّه، قاله السدي. والخامس: أن المخلَّفة: التامة، وغير المخلَّفة: السقط، قاله الفراء، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: خلقناكم لنبيِّن لكم ما تأتون وما تدرن. والثاني: لنبيِّن لكم في القرآن بُدُوَ خَلْقِكُمْ، وتنقُلَ أحوالكم. والثالث: لنبيِّن لكم كمال حكمتنا وقدرتنا في تغليب أحوال خلقكم. والرابع: لنبيِّن لكم أن البعث حق. وقرأ أبو عمران الجوني، وابن أبي عبله: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بالياء.

قوله تعالى: ﴿وَيُنْفِرُ فِي الْأَصْحَارِ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء: ﴿وَيُقَرُّ﴾ بياء مرفوعة وفتح القاف ورفع الراء. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو إسحاق السبيعي: ﴿وَيُقَرُّ﴾ بياء مرفوعة ويكسر القاف ونصب الراء. والذي يُقَرُّ في الأرحام، هو الذي لا يكون سقطاً، ﴿إِنَّ أَجَلَ سُئِي﴾ وهو أجل الولادة ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ قال أبو عبيدة: هو في موضع «أطفال»، والعرب قد تضع لفظ الواحد في معنى الجميع، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ كَأَنَّهَا كَلْبٌ إِذَا كَفَأَتْ فَكَبَأَتْ إِلَى يَمَنِّهَا فَأَوْتَتْ﴾ وأنشد:

فَقُلْنَا اسْلِمُوا إِنَّا أَحْوَكُم
فَدَبَّرْتُمْ مِنَ الْإِحْنِ الصَّدُورُ^(٢)
وأنشد أيضاً:

فِي خَلْقِكُمْ عَظْمٌ وَقَدْ شَجِينَا^(٣)

وقال غيره: إنما قال: «طفلاً» فوحد، لأن الميم في قوله تعالى: ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ قد دلَّت على الجميع، فلم يحتج إلى أن يقول: أطفالاً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَسْأَلُوا﴾ فيه إضمار، تقديره: ثم نَعْمُرْكُمْ لتبليغوا أشدكم، وقد سبق معنى «الأشد» [الإنعام: ١٥٣]، ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتِي﴾ من قبل بلوغ الأشدَّ ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَيْكَ أَرْذَلَ الْأَمْرِ﴾ وقد شرحناه في [النحل: ٧٠] ثم إن الله تعالى دلَّهم على إحيائه الموتى بإحيائه الأرض، فقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ كَالهَيْدَةِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: ميتة يابسة، ومثله: همدت النار: إذا طفت فذهبت.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ يعني: المطر ﴿أَمْهَرَتْ﴾ أي: تحركت للنبات، وذلك أنها ترتفع عن النبات

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علاقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٢) البيت للعباس بن مرداس، وهو في «مجاز القرآن» ٧٩/١، ٤٤/٢، والأغاني ٦٢/١٣، والإصابة رقم (٤٥١١)، والاستيعاب ١٠١/٣، والخواتم ٧٣/١، والشعر ١٠١/٢.

(٣) تقدم ٢٩٩، فانظره هناك.

إذا ظهر، فهو معنى قوله تعالى: ﴿وَوَرَّتْ﴾ أي: ارتفعت وزادت. وقال الميرد: أراد: اهتز نباتها وربا، فحذف المضاف. قال الفراء: وقرأ أبو جعفر المدني: «وربات» بهزمة مفتوحة بعد الباء. فإن كان ذهب إلى الربيبة الذي يحرس القوم، أي: أنه يرتفع، وإلا، فهو غلط.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَبْرِجُ﴾ قال ابن قتيبة: من كل جنس حسن يهيج، أي: يسر، وهو فاعيل في معنى فاعل.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ قال الزجاج: المعنى: الأمر ذلك كما وصف لكم. والأجود أن يكون موضع «ذلك» رفعاً، ويجوز أن يكون نصباً على معنى: فعل الله ذلك بأنه هو الحق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ أي: ولتعلموا أن الساعة «مآية»

﴿وَمَنْ آتَيْنَا مِنْ يُونُسَ فِي اللَّهِ بِعَبْرٍ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿فَأَنَّى عَظَمَهُ﴾ ﴿يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ مُتَدْرِفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَضِلُّرَ لِّلْمُجِدِّ﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ آتَيْنَا مِنْ يُونُسَ﴾ قد سبق بيانه. وهذا مما نزل في النضر أيضاً. والهدى: البيان والبرهان.

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى عَظَمَهُ﴾ العطف: الجانب. وعظفا الرجل: جانباه عن يمين وشمال، وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان ويلويه عند إعراضه عن المشي. قال الزجاج: «ثاني» منصوب على الحال، ومعناه: التثوين، معناه: ثانياً عطفه. وجاء في التفسير: أن معناه: لاوياً عنقه، وهذا يوصف به المتكبر، والمعنى: ومن الناس من يجادل بغير علم متكبراً.

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ﴾ أي: ليصير أمره إلى الضلال، فكأنه وإن لم يقدر أنه يضل، فإن أمره يصير إلى ذلك، «لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ» وهو ما أصابه يوم بدر، وذلك أنه قُتل. وما بعد هذا قد سبق تفسيره آيوس: ١٧٠ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ آتَيْنَا مِنْ يُونُسَ﴾ وفي سبب نزول هذه الآية قولان: أحدهما: أن ناساً من العرب كانوا يأتون رسول الله ﷺ، فيقولون: نحن على دينك، فإن أصابوا معيشة، وتنجت خيولهم، وكذلك نساؤهم الغلمان اطمأنوا وقالوا: هذا دين حق، وإن لم ينجر الأمر على ذلك قالوا: هذا دين سوء، فيقبلون عن دينهم، فنزلت هذه الآية، هذا معنى قول ابن عباس^(١)، وبه قال الأكثرون. والثاني: أن رجلاً من اليهود أسلم فذهب بصره وماله وولده، فنشام بالإسلام، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: أقلني فقال: «إن الإسلام لا يقال». فقال: إني لم أصب في ديني هذا خيراً، أذهب بصري ومالي وولدي، فقال: «يا يهودي: إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب»، فنزلت هذه الآية، رواه عطية عن أبي سعيد الخدري^(٢).

﴿وَمَنْ آتَيْنَا مِنْ يُونُسَ﴾ ﴿فَأَنَّى عَظَمَهُ﴾ ﴿يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ مُتَدْرِفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَضِلُّرَ لِّلْمُجِدِّ﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿عَلَى حَرْوٍ﴾ قال مجاهد، وقتادة: «على شك»، قال أبو عبيدة: كل شاك في شيء فهو على حرف لا يثبت ولا يدم. وبيان هذا أن القائم على حرف الشيء غير متمكن منه، فشبه به الشاك، لأنه قلوب في دينه على غير ثبات، ويوضحه قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى عَظَمَهُ﴾ أي: رخاء وعافية «أَطْمَأَنَّ يَوْمَهُ» على عبادة الله «وَأَنَّ أَصَابَتَهُ فَنَزَلَتْ» اختصاراً بجذب وقلة مال «أَنْفَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ». أي: رجع عن دينه إلى الكفر. والمعنى: انصرف إلى وجهه الذي توجه منه، وهو الكفر^(٣)، «خَيْرَ الدُّنْيَا» حيث لم يظفر بما أراد منها، «و» خسر «الأجر» بارتداده عن الدين. وقرأ أبو رزين

(١) رواه البخاري ٣٣٦/٨، والطبري ١٧٢/١٧، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٤٦/٤ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) أسباب النزول للواحدي ١٧٦ عن عطية عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٤٦/٤ عن ابن مردويه من طريق عطية عن أبي سعيد الخدري.

(٣) قال ابن كثير ٢٠٩/٣: وقال عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم: هو المتناق إن صلحت له دنياه، أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه، وتغيرت،

العقبلي، وأبو مجلز، ومجاهد، وطلحة بن مصرف، وابن أبي عبيدة، وزيد عن يعقوب: «خاتمة الدنيا» بألف قبل السين، وينصب الراء «والآخرة» بخفض التاء. «يَدْعُوا» هذا المرتد، أي: يعبد ﴿مَا لَا يَصُرُّهُ﴾ إن لم يعبده و﴿لَا يَفْعَمُهُ﴾ إن أطاعه ﴿ذَلِكَ﴾ الذي فعل ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن الحق ﴿يَدْعُوا لَمَنْ صَرَّهُ﴾ قال بعضهم: اللام صلة، والمعنى: يدعو من صره. وحكى الزجاج عن البصريين والكوفيين أن اللام معناها التأخير، والمعنى: يدعو من لصره ﴿أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾، قال: وشرح هذا أن اللام لليمين والتوكيد، فحُفِّها أن تكون أول الكلام، فقدِّمت لتجعل في حَقِّها، قال السدي: صره في الآخرة بعبادته إياه أقرب من نفعه. فإن قيل: فهل للنفع من عبادة الصنم وجه؟ فالجواب: أنه لا نفع من قِبَلِهِ أصلاً، غير أنه جاء على لغة العرب، وهم يقولون في الشيء الذي لا يكون: هذا بعيد.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ قال ابن قتيبة: المولى: الولي، والعشير: الصاحب، والخليل.

﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَصْرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ سَبَبَ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لَيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَذْهَبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَحِطُّ﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالنَّبَوِيَّةَ وَاللَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَصْرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال مقاتل: نزلت في نفر من أسد، وغطفان، قالوا: إنا نخاف أن لا يُنصَرَ محمدٌ، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود^(١) وإلى نحو هذا ذهب أبو حمزة الثمالي، والسدي. وحكى أبو سليمان الدمشقي أن الإشارة بهذه الآية إلى الذين انصرفوا عن الإسلام، لأن أرزاقهم ما اتَّسَعَتْ، وقد شرحنا القصة في قوله تعالى: ﴿وَيَنْزِلُ السَّمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَيَخْرُجُ مِنْهُ شَجَرٌ تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهِ سُلُوكٌ﴾ وفي هاء «ينصره» قولان: أحدهما: أنها ترجع على «مَنْ»، والنصر: بمعنى الرزق، هذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء، وبه قال مجاهد. قال أبو عبيدة: وقف علينا سائل من بني بكر، فقال: مَنْ ينصرني نصره الله، أي: من يعطيني أعطاه الله، ويقال: نصر المطر أرض كذا، أي: جادها، وأحياها، قال الراعي:

إذا أدير الشهر الحرام فردعي
بلاد تميم وأئسوري أرض عابري^(٢)

والثاني: أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ^(٣)، فالمعنى: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً، رواه التميمي عن ابن عباس^(٤)، وبه قال عطاء، وقادة. قال ابن قتيبة: وهذه كناية عن غير مذکور، وكان قوم من المسلمين لشدة حقنهم على المشركين يستبشثون ما وعد الله رسوله من النصر، وآخرون من المشركين، يريدون اتباعه، ويخشون أن لا يتم أمره، فقال هذه الآية للفریقین. ثم في معنى [هذا] النصر قولان: أحدهما: أنه الغلبة، قاله أبو صالح عن ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنه الرزق، حكاه أبو سليمان الدمشقي.

= انقلب، فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابه فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر اه. نعوذ بالله من ذلك.

(١) ذكره الطبري ١٢٨/١٧ بدون سند.

(٢) «مجاز القرآن» ٤٦/٢، و«الجمهرة» ٣٥٩/٢، و«اللسان» و«التاج»: نصر.

(٣) قال ابن جرير الطبري ١٢٨/١٧: وأولى ذلك بالصواب عندي في تأويل ذلك، قول من قال: الهاء من ذُكِرَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ودينه، وذلك أن الله تعالى ذُكِرَهُ، ذكر قوماً يعبدونه على حرف، وأنهم يطمنون بالدين إن أصابوا خيراً في عبادتهم إياه، وأنهم يرتدون عن دينهم لشدة تسميهم فيها، ثم أتبع ذلك هذه الآية، فمعلوم أنه إنما أتبعه إياها تريباً لهم على ارتدادهم عن الدين، أو على شكهم فيه نفاقهم، استبطاء منهم السعة في العيش، أو السبوغ في الرزق، وإذا كان الواجب أن يكون ذلك عقيب الخير عن نفاقهم، فمعنى الكلام إذن إذ كان ذلك كذلك: من كان يحسب أن لن يرزق الله محمداً ﷺ وأمه في الدنيا، فيوسع عليهم من فضله فيها، ويرزقهم في الآخرة من سني عطايها وكرامتها، استبطاء منه فعل الله ذلك به وبهم، فليمدد بحل إلى سماء فوقه، إما سقف بيت، أو غيره مما يعلق به السبب من فوقه، ثم يختنق إذا اغتاض من بعض ما قضى الله فاستعجل انكشاف ذلك عنه، فليظن هل يذهب كيد - اختناقه كذلك - ما يحيط، فإن لم يذهب ذلك غيظه حتى يأتي الله بالفرج من عنده فيذهب، فكذلك استعجال نصر الله محمداً ودينه، لن يؤخر ما قضى الله له من ذلك عن ميقاته، ولا يبجل قبل حينه. اه.

(٤) رواه الطبري ٢٢٦/١٧. وقال ابن كثير بعد أن نقل كلام ابن عباس هذا ورجحه: وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم، فإن المعنى: من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاتِ بِمَا لَمْ يُؤْمَرُوا بِالْإِسْلَامِ﴾ الآية. ولهذا قال: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذَوِّبُنَا كَيْدُهُ مَا يَحِطُّ﴾ يعني: من شأن محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ في المراد بالسماء قولان: أحدهما: سقف بيته، والمعنى: فليشد حبلًا في سقف بيته، فليختنق به ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ الحبل ليموت مختنقًا، هذا قول الأكثرين. ومعنى الآية: ليصور هذا الأمر في نفسه لا بأنه يفعل، لأنه إذا اختنق لا يمكنه النظر والعلم. والثاني: أنها السماء المعروفة، والمعنى: فليقطع الوحي عن رسول الله ﷺ إن قدر، قاله ابن زيد^(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن عمرو، وابن عامر: «ثم ليقطع» [الحج: ٢٩] بكسر اللام. زاد ابن عامر «وليوفوا» [الحج: ٢٩] «وليطوفوا» [الحج: ٢٩] بكسر اللام أيضاً. وكسر ابن كثير لام «ثم ليقضوا» فحسب. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: بسكون هذه اللامات، وكذلك في كل القرآن إذا كان قبلها واو أو فاء [أو] ثم، قال الفراء: من سکن فقد خفف، وكل لام أمر وصلت بواو أو فاء، فأكثر كلام العرب تسكينها، وقد كسرهما بعضهم. قال أبو علي: الأصل الكسر، لأنك إذا ابتدأت قلت: ليقم زيد.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَدْرِيْنَ كَيْدَهُمْ﴾ قال ابن قتيبة: المعنى: هل تُذهبن حيلته غيظه، والمعنى: ليجهد جهده. قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك الذي تقدم من آيات القرآن ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ﴾ أي: يقضي ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بينهم بإدخال المؤمنين الجنة، والآخريين النار ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أعمالهم ﴿شَهِيدٌ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُمْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّجَرُ وَالْحِجَارُ وَالنَّجْمُ وَاللَّيَالِ وَالشَّجَرُ وَالنُّوَابِ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَمَّا لَمْ يَنْشُرْهُ مِنْ تُكْرُمِهِ إِذْ لَمْ يَفْعَلْ مَا بَشَرًا﴾ [٢٧]

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُمْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّجَرُ وَالْحِجَارُ وَالنَّجْمُ وَاللَّيَالِ وَالشَّجَرُ وَالنُّوَابِ﴾ أي: ألم تعلم. وقد بيّننا في سورة [النحل: ٤٩] معنى السجود في حق من يعقل، ومن لا يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني: الموحدين الذين يسجدون لله. وفي قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ قولان: أحدهما: أنهم الكفار، وهم يسجدون، وسجودهم سجود ظلمهم، قاله مقاتل. والثاني: أنهم لا يسجدون؛ والمعنى: وكثير من الناس أبى السجود، فحق عليه العذاب، لتركه السجود، هذا قول الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي: من يُشْفِقه الله فما له من مُسْجِدٍ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ في خلقه من الكرامة والإهانة^(٢).

﴿كَذَلِكَ حَصَّنَ الْفِرْعَوْنَ فِي رِيحِهِ فَأَلْزَمَهُ الْكِبْرُوتُ فَطَعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [٢٨] يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٨﴾ وَلَمْ يَنْصُرُوا مِنْ حَبِيبٍ ﴿٢٩﴾ كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَنْجُوُوا بِهَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَأَعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا حَقَابَ الْحَرِيقِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَصَّنَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في النفر الذين تبارزوا للقتال يوم بدر، حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، هذا قول أبي ذر^(٣). والثاني: أنها نزلت في أهل الكتاب، قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله، وأقدم منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله، أمنا بمحمد، وأمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون نبينا، ثم كفرتم به حسداً، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(٤)، وقتادة. والثالث: أنها في جميع المؤمنين، والكفار، وإلى هذا المعنى ذهب

(١) «الطبري» ١٢٦/١٧، و«الدر» ٣٤٧/٤.

(٢) قال ابن كثير: أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن عبد الله أنه قيل له: إن هاتين رجلًا يتكلم في المشية، فقال له علي: يا عبد الله خلقك الله كما يشاء، أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء، أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء، أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيدخلك حيث شئت، أو حيث شاء؟ قال: بل حيث يشاء، قال: والله لو قلت غير ذلك لعزيت الذي فيه عيبك بالسيف.

(٣) البخاري ٣٣٧/٨، و«الطبري» ١٣١/١٧، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٤٨/٤ وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الذلال».

(٤) «الطبري» ١٣٢/١٧، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٤٨/٤ وزاد نسبه لابن مردويه.

الحسن، وعطاء، ومجاهد^(١). والرابع: أنها نزلت في اختصام الجنة والنار، فقالت النار: خلقتني الله لعقوبته، وقالت الجنة: خلقتني الله لرحمته، قاله عكرمة^(٢). فأما قوله تعالى: ﴿مَذَانٌ﴾ وقرأ ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وابن كثير: «هاذان» بتشديد النون «خصمان»، فمعناه: جمعان، وليسا برجلين، ولهذا قال تعالى: ﴿أَخْصَصُوا﴾ ولم يقل: اختصما؛ على أنه قرأ ابن مسعود، وابن أبي عبيدة: «اختصما». وفي خصوصتهم ثلاثة أقوال: أحدها: في دين ربهم، وهذا على القولين الأولين. والثاني: في البعث، قاله مجاهد. والثالث: أنه خصام مفاخرة، على قول عكرمة. قوله تعالى: ﴿قُلِّمَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ﴾ أي: سُويَتْ وجُعِلت لباساً. قال ابن عباس: قُمص من نار. وقال سعيد بن جبير: المراد بالنار هاهنا: النحاس. فأما «الحميم» فهو الماء الحارُّ ﴿يُضْمَرُ بِهِ﴾ قال الفراء: يذاب به، يقال: صهرت الشحم بالنار. قال المفسرون: يذاب بالماء الحارُّ ﴿هَذَا فِي بَطُونِهِمْ﴾ من شحم أو معى حتى يخرج من أديبارهم، وتنضج الجلود فتساقط من حره، ﴿وَكُم مَّقْبِئٌ﴾ قال الضحاك: هي المطارق. وقال الحسن: إن النار ترميهم بلهبها، حتى إذا كانوا في أعلاها، ضُربوا بمقامع فَهَوُوا فيها سبعين خريفاً، فإذا انتهوا إلى أسفلها، ضربهم زفير لهبها، حتى إذا ساءت ساعة. قال مقاتل: إذا جاشت جهنم، أقتهم في أعلاها، فيريدون الخروج، فتتلقاهم خزنة جهنم بالمقامع، فيضربونهم، فيهوي أحدهم من تلك الضربة إلى قعرها. وقال غيره: إذا دفعتم النار، ظنوا أنها ستدفعهم خارجاً منها، فتعيدهم الزبانية بمقامع الحديد.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكْرَمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا وَيَأْتِيهِمْ فِيهَا كَأْسٌ كَرِيمٌ ﴿١٦﴾ وَهَدُوءًا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوءًا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلُؤًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «ولؤلؤ» بالخفض. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: «ولؤلؤا» بالنصب. قال أبو علي: من خفض، فالمعنى: يحلون أساور من ذهب ومن لؤلؤ؛ ومن نصب قال: ويحلون لؤلؤا^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَهَدُوءًا﴾ أي: أرشدوا في الدنيا ﴿إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه «لا إله إلا الله، والحمد لله» قاله ابن عباس. وزاد ابن زيد: «والله أكبر». والثاني: القرآن، قاله السدي. والثالث: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حكاه المارودي. فأما «صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فقال ابن عباس هو طريق الإسلام:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالشَّجِرَاتِ الْكَارِئَةِ جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي وَمَنْ يُؤِدَّ فِيهِ بِأَلْحَاكِمْ يَتْلَمَّزُ نَفْسَهُ مِنَ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعون الناس من الدخول في الإسلام. قال الزجاج: ولفظ «يصدون» لفظ مستقبل عطف به على لفظ الماضي، لأن معنى «الذين كفروا»: الذين هم كافرون، فكانه قال: إن الكافرين والصدادين؛ فأما خبر «إن» فمحذوف، فيكون المعنى: إن الذين هذه صفتهم هلكوا. وفي «المسجد الحرام» قولان: أحدهما: جميع الحرم. روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: كانوا يرون الحرم كله مسجداً. والثاني: نفس المسجد، حكاه المارودي.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ هذا وقف التمام. وفي معناه قولان: أحدهما: جعلناه للناس كلهم، لم نخص به بعضهم دون بعض، هذا على أنه جميع الحرم. والثاني: جعلناه قبلة لصلاتهم، ومنسكاً لحجهم، وهذا على أنه نفس المسجد. وقرأ إبراهيم النخعي، وابن أبي عبيدة، وحفص عن عاصم: «سواء» بالنصب، فيترجمه الوقف على «سواء»، وقد وقف بعض القراء كذلك. قال أبو علي الفارسي: أبدل العاكف والبادي من الناس من حيث كانا كاشامل لهم، فصار المعنى: الذي جعلناه للعاكف والبادي سواء. فأما العاكف: فهو المقيم، والبادي: الذي يأتيه من غير أهله، وهذا من قولهم: بدا القوم: إذا خرجوا من الحضرة إلى الصحراء، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «البادي» بالياء، غير أن

(٢) «الطبري» ١٣٢/١٧.

(١) «الطبري» ١٣٢/١٧.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» ٢١٩/١ عن أبي هريرة ؓ قال: سمعت خليلي ؓ يقول: «تبليغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

ابن كثير وقف بيباء، وأبو عمرو بغير ياء. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، والمسيبي عن نافع بغير ياء في الحاليتين. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أن العاكف والبادي يستويان في سكنى مكة والنزول بها، فليس أحدهما أحق بالمنزل من الآخر، غير أن لا يُخْرَج أحدٌ من بيته، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة؛ وإلى نحو هذا ذهب أبو حنيفة وأحمد؛ ومذهب هؤلاء أن كراء دور مكة وبيعها حرام، هذا على أن المسجد: الحرم كله. والثاني: أنهما يستويان في تفضيله وحرمة وإقامة المناسك به، هذا قول الحسن، ومجاهد. و[منهم] من أجاز بيع دور مكة، وإليه يذهب الشافعي، وعلى هذا يجوز أن يراد بالمسجد الحرم، ويجوز أن يراد نفس المسجد.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكَامِ﴾ الإلحاد في اللغة: العدول عن القصد، والباء زائدة، كقوله تعالى: ﴿تَلَبَّتْ بِالدَّهْنِ﴾ [المومنون: ٢٠] وأنشدوا:

بِوَادِ يَمَانٍ يُنْبِتُ السُّتَّ صَدْرُهُ
المعنى: وأسفله ينبت المرخ؛ وقال آخر:

هُنَّ الْحَرَائِرُ لَارِيَاتٌ أُخْمِرَةٌ
وقال آخر:

نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَرِيَابُ الْفَلَجِ

هذا قول جمهور اللغويين. قال ابن قتيبة: والباء قد تزداد في الكلام، كهذه الآية، وكقوله تعالى: ﴿أَتَرَأَى بِأَسِيرِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٤] ﴿وَبِأَيْمِكُمُ الْكُفْرُوتُ﴾ [القلم: ٦] ﴿تَلَقُّوهُ بِالْمَوْدَّةِ﴾ [المتحنة: ١] ﴿عِنَّا يَتَرَبَّعِيهَا﴾ [الإنسان: ٦] أي: يشربها؛ وقد تزداد «من»، كقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ [النار: ٥٧]، وتزداد «اللام» كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَهْتَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، والكاف، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، و«عن»، كقوله تعالى: ﴿يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣]، و«إن»، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، و«إن» الخفيفة، كقوله تعالى: ﴿فِيمَا إِنْ تَكْتَكُمُ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، و«ما»، كقوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصِحُنَّ نَدِيرِينَ﴾ [المومنون: ٤٠]، و«الواو»، كقوله تعالى: ﴿وَتَكَلَّمُ لِلَّذِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣، ١٠٤]. وفي المراد بهذا الإلحاد خمسة أقوال: أحدها: أنه الظلم، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال مجاهد: هو عمل سيئة؛ فعلى هذا تدخل فيه جميع المعاصي، وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: لا تحتكروا الطعام بمكة، فإن احتكار الطعام بمكة إحداد يظلم^(١). والثاني: أنه الشرك، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة. والثالث: الشرك والقتل، قاله عطاء. والرابع: أنه استحلال محظورات الإحرام، وهذا المعنى محكي عن عطاء أيضاً. والخامس: استحلال الحرام تعمداً، قاله ابن جريج. فإن قيل: هل يؤاخذ الإنسان إن أراد الظلم بمكة، ولم يفعلها؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه إذا همَّ بذلك في الحرم خاصة، عوقب، هذا مذهب ابن مسعود، فإنه قال: لو أن رجلاً همَّ بخطيئة، لم تكتب عليه ما لم يعملها، ولو أن رجلاً همَّ بقتل مؤمن عند البيت، وهو ب «عَدَنِ آتِينَ»، أذاقه الله في الدنيا من عذاب أليم. وقال الضحاك: إن الرجل ليهمَّ بالخطيئة بمكة وهو بأرض أخرى، فتكتب عليه ولم يعملها. وقال مجاهد: تضاعف السيئات بمكة، كما تضاعف الحسنات. وسئل الإمام أحمد: هل تكتب السيئة

(١) البيت للأحول الشكري واسمه يعلى، وهو في «مجاز القرآن» ٤٨/٢، و«الطبري» ٧٢/١٦ و١٣٨/١٧ و«الجمهرة» ٤٥/١، ٤١٤/٣، و«اللسان»: شت، شب، و«الانتصاب» ص ٤٥٧، و«القرطبي» ٣٦/١٢، والشت: ضرب من الشجر، والمرخ: شجر كثير الوري سريع، والشبان: نبت يشبه الشام، أو ضرب من المضاء، والشاهد في البيت زيادة الباء في كلمة «المرخ».

(٢) هو في «مجاز القرآن» ٤/١، و«الجمهرة» ٤١٤/٣، و«الصحاح»، و«اللسان»، و«التاج»: سور، و«القرطبي» ١٥٨/١، و«شواهد المغني» ١١٦ و«الخرائفة» ٦٦٨/٣.

(٣) البيت لراجز من بني جملة، وهو في «مجاز القرآن» ٥٦/٢، و«الانتصاب» ص ٤٥٨، و«شواهد المغني» ص ١١٤، و«الخرائفة» ١٥٩/٤.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» ٣٥١/٤ من رواية سعيد بن منصور، والبخاري في «تاريخه»، وابن المنذر عن عمر رضي الله عنه موقوفاً بلفظ: «احتكار الطعام بمكة إحداد يظلم».

أكثر من واحدة؟ فقال: لا، إلا بمكة لتعظيم البلد. وأحمد على هذا يرى فضيلة المجاورة بها؛ وقد جاور جابر بن عبد الله، وكان ابن عمر يقيم بها. والثاني: أن معنى: «ومن يرد»: من يعمل. قال أبو سليمان الدمشقي: هذا قول سائر من حفظنا عنه.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِرُكُ مِنْ كُلِّ فَيْحٍ عَمِيْقٍ ﴿٣٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَثَارِ مَنَاطِعِهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيْمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْفُرُوا بِهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ الْغَفِيْرَ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا فَتْحَهُمْ وَلِيَبْشُرُوا تُوْبَهُمْ وَلِيَبْطَرُوا بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ قال ابن عباس: جعلنا. وقال مقاتل: دللناه عليه. وقال ثعلب: وإنما أدخل اللام، على أن «بؤانا» في معنى: جعلنا، فيكون بمعنى «رَدِّكُمْ» [النمل: ٧٢] أي: ردفكم. وقد شرحنا كيفية بناء البيت في [البقرة: ١٢٩].

قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ فِي شَيْءٍ﴾ المعنى: وأوحينا إليه ذلك^(١) ﴿وَلَطَمَرَ بَيْنِي﴾ حرك هذه الباء، نافع وحفص عن عاصم. وقد شرحنا الآية في [البقرة: ١٢٥]. وفي المراد بـ «القائمين» قولان: أحدهما: القائمون في الصلاة، قاله عطاء، والجمهور. والثاني: المقيمون بمكة، حكى عن قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ قال المفسرون: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، أمره الله تعالى أن يؤذن في الناس بالحج، فقال إبراهيم: يا رب، وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن، وعليّ البلاغ، فعلا على جبل أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس! إن ربكم قد بنى بيتاً، فحجُّوه، فاسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء ممن سبق في علم الله أن يحج، فأجابوه: لبيك اللهم لبيك^(٢). والأذان بمعنى النداء والإعلام، والمأمور بهذا الأذان، إبراهيم في قول الجمهور، إلا ما روي عن الحسن أنه قال: المأمور به محمد ﷺ. والناس هاهنا: اسم يعم جميع بني آدم عند الجمهور، إلا ما روى العوفي عن ابن عباس أنه قال: عنى بالناس أهل القبلة. واعلم أن من أتى البيت الذي دعا إليه إبراهيم، فكأنه قد أتى إبراهيم، لأنه أجاب نداءه. وواحد الرجال هاهنا: راجل، مثل صاحب، وصحاب، والمعنى: يأتوك مشاةً. وقد روي أن إبراهيم وإسماعيل حجَّا ماشيين، وحج الحسن بن علي خمساً وعشرين حجة ماشياً من المدينة إلى مكة، والنجائب تقاد معه. وحج الإمام أحمد ماشياً مرتين أو ثلاثاً^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ركبناً على ضمير من طول السفر. قال الفراء: «ويأتين» فعل للنوق. وقال الزجاج: «يأتين» على معنى الإبل. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عمير: «يأتون» بالواو.

قوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ فَيْحٍ عَمِيْقٍ﴾ أي: طريق بعيد. وقد ذكرنا تفسير الفَيْح عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجَالًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ أي: ليحضروا ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: التجارة، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: منافع الآخرة، قاله سعيد بن المسيب، والزجاج في آخرين. والثالث: منافع الدارين جميعاً، قاله مجاهد. وهو أصح، لأنه لا يكون القصد للتجارة خاصة، وإنما الأصل قصد الحج، والتجارة تبع. وفي الأيام المعلومات ستة أقوال: أحدها: أنها أيام العشر^(٤)، رواه مجاهد عن ابن عمر، وسعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال

(١) قال ابن كثير: هذا فيه تبرع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البعثة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له.

(٢) قال ابن كثير: هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف، والله أعلم، قال: وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة. اهـ.

(٣) من المتفق عليه أن الحج جائز ركباً ومشياً، وقد اختلف في الأفضل منهما، فقال بعضهم: المشي أفضل، وقال جمهور الفقهاء: الركوب أفضل، اقتداءً بالنبي ﷺ، ولأنه أعون على القيام بوظائف مناسك الحج، فمن هنا تعلم أن من حج بالطائرة مثلاً، ووجد الراحة، وقام بالمناسك كاملة، أفضل ممن ذهب إلى الحج ماشياً وحصلت له مشقة، فضرر، أو لم يستطع القيام بالمناسك على الوجه الكامل.

(٤) أي عشر ذي الحجة، وقد قال رسول الله ﷺ في فضلها: «ما من أيام الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام» (يعني عشر ذي الحجة) قالوا: =

الحسن، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والشافعي. والثاني: تسعة أيام من العشر، قاله أبو موسى الأشعري. والثالث: يوم الأضحى وثلاثة أيام بعده، رواه نافع عن ابن عمر، ومقسم عن ابن عباس. والرابع: أنها أيام التشريق، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال عطاء الخراساني، والنخعي، والضحاك. والخامس: أنها خمسة أيام، أولها يوم التروية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والسادس: ثلاثة أيام، أولها يوم عرفة، قاله مالك بن أنس. وقيل: إنما قال: «معلومات»، ليحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها. قال الزجاج: والدُّكْر هاهنا يدل على التسمية على ما يُنْحَر، لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنَ بَيْحَمَةِ الْأَنْعَامِ﴾؛ قال القاضي أبو يعلى: ويحتمل أن يكون الدُّكْر المذكور هاهنا: هو الذُّكْر على الهدايا الواجبة، كالدَّم الواجب لأجل التمتع والقران، ويحتمل أن يكون الذُّكْر المفعول عند رمي الجمار وتكبير التشريق، لأن الآية عامّة في ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنِّي﴾ يعني: الأنعام التي تُنْحَر؛ وهذا أمر إباحة. وكان أهل الجاهلية لا يستحلُّون أكل ذبائحهم، فأعلم الله ﷻ أن ذلك جائز، غير أن هذا إنما يكون في الهدى المتطوِّع به، فأما دم التمتع والقران، فعندنا^(١) أنه يجوز أن يأكل منه، وقال الشافعي: لا يجوز^(٢)، وقد روى عطاء عن ابن عباس أنه قال: من كل الهدى يؤكل، إلا ما كان من فداء أو جزاء أو نذر^(٣). فأما «البائس» فهو ذو البؤس، وهو شدة الفقر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَتَمَّتْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: حلق الرأس، وأخذ الشارب، وشف الإبط، وحلق العانة، وقص الأظفار، والأخذ من العارضين، ورمي الجمار، والوقوف بعرفة، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: مناسك الحج، رواه عكرمة عن ابن عباس، وهو قول ابن عمر. والثالث: حلق الرأس، قاله مجاهد. والرابع: الشعر والظفر، قاله عكرمة. والقول الأول أصح، لأن التفت: الوسخ، والقذارة: من طول الشعر والأظفار والشعث. وقضاؤه: نقضه، وإذها به. والحاج معتبر شعث لم يدهن، ولم يستحد، فإذا قضى نسكه، وخرج من إحرامه بالخلق، والقلم، وقص الأظفار، ولبس الثياب، ونحو ذلك، فهذا قضاء تفته. قال الزجاج: وأهل اللغة لا يعرفون التفت إلا من التضير، وكأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال.

قوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْتُوا ذُبُوحَهُمْ﴾ وروى أبو بكر عن عاصم: «وليؤتوا» بتسكين اللام وتشديد الفاء. قال ابن عباس: هو نحر ما نذروا من البُدن. وقال غيره: ما نذروا من أعمال البرِّ في أيام الحج، فإن الإنسان ربما نذر أن يتصدق إن رزقه الله رؤية الكعبة، وقد يكون عليه نذور مطلقة، فالأفضل أن يؤدِّيها بمكة.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْطَرُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هذا هو الطواف الواجب، لأنه أمر به بعد الذبح، والذبح إنما يكون في يوم النحر، فدل على أنه الطواف المفروض. وفي تسمية البيت عتيقاً أربعة أقوال: أحدها: لأن الله تعالى أعتقه من الجابرة. روى عبد الله بن الزبير، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمي الله البيت العتيق، لأن الله أعتقه من الجابرة، فلم يظهر عليه جبَّار قط»^(٤) وهذا قول مجاهد، وقتادة. والثاني: أن معنى العتيق: القديم، قاله الحسن، وابن زيد.

= يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء» رواه البخاري في «صحيحه» ٣٨٢/٢، وأبو داود رقم (٢٤٣٨) واللفظ له.

- (١) أي: معاشر الحنابلة.
- (٢) وكذلك قال الإمام النووي في «الروضة» ٣/١٩١ طبع المكتب الإسلامي، لأنه دم واجب، ولكن الحنابلة - كما ذكر المصنف - أجازوا أن يأكل من هدى التمتع والقران، وهو قول الحنفية بناءً على أصلهم أن دم التمتع والقران، دم نسك، لا دم جبران. وقد صح أن أزواج النبي ﷺ تمتعن معه في حجة الوداع، وأدخلت عائشة ﷺ الحج على العمرة حين حاضت فصارت قارئة، ثم ذبح ﷺ عنهن البقر فأكلن من لحمها، وثبت أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام أمر من كل بدنة بفضة فجعلت في قدر فأكل ﷺ هو وعلي بن أبي طالب ﷺ من لحمها، وشربا من مرقها. قال الشوكاني في «نيل الأوطار» ٥/١٩٢: والظاهر أنه يجوز الأكل من الهدى من غير فرق بين ما كان منه تطوعاً وما كان فرضاً، لمعوم قوله تعالى: ﴿تَسْتَطِرُوا﴾ ولم يفصل.
- (٣) في البخاري تعليقاً عن ابن عمر ﷺ: لا يؤكل من جزاء الصيد والنذر، ويؤكل مما سوى ذلك، قال الحافظ ابن حجر: ووصله ابن أبي شيبة بمعناه.
- (٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، ثم رواه من وجه آخر عن الزهري مرسلًا. قال ابن كثير: وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن سهل المحاربي =

والثالث: لأنه لم يملك قط، قاله مجاهد في رواية، وسفيان بن عيينة. والرابع: لأنه أعتق من الغرق زمان الطوفان، قاله ابن السائب. وقد تكلمنا في هذه السورة في «ليقضا» و«وليوفوا» و«وليطوفوا».

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآثِمَةُ إِلَّا مَا يَسَلُ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حَفَاةَ اللَّهِ عَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ السَّمَاءُ فَتَخَفَتْهُ الْعُقُبُ أَوْ نَهَى يَدَ الرِّجِّ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْكُورَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُرٍّ فِيهَا مَنَفِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلَاهَا إِلَى الْبَيْتِ الْمَقِيِّ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، يعني: ما ذكر من أعمال الحج ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ فيجتنب ما حرم الله عليه في الإحرام تعظيماً لأمر الله. قال الليث: الحرمة: ما لا يحل انتهاكه. وقال الزجاج: الحرمة: ما وجب القيام به، وحرم التفریط فيه.

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ﴾ يعني: التعظيم ﴿خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ في الآخرة ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآثِمَةُ﴾ وقد سبق بيانها (المائدة: ١) ﴿إِلَّا مَا يَسَلُ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه، يعني [به]: ما ذكر في (المائدة: ٢٣) من المنخقة وغيرها. وقيل: وأحلت لكم الأنعام في حال إحرامكم، إلا ما يتلى عليكم في الصيد، فإنه حرام.

قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ أي: دعوه جانباً، قال الزجاج: و«من» هاهنا، لتخليص جنس من أجناس، المعنى: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن. وقد شرحنا معنى الرجس في (المائدة: ٩٠). وفي المراد بقول الزور أربعة أقوال: أحدها: شهادة الزور، قاله ابن مسعود. والثاني: الكذب، قاله مجاهد. والثالث: الشرك، قاله أبو مالك. والرابع: أنه قول المشركين في الأنعام: هذا حلال، وهذا حرام، قاله الزجاج، قال: وقوله تعالى: ﴿حَفَاةَ اللَّهِ﴾ منصوب على الحال، وتأويله: مسلمين لا يُتَسَبَّونَ إلى دين غير الإسلام. ثم ضرب الله مثلاً للمشرك، فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿سَجِيٍّ﴾، والسحيق: البعيد. واختلفوا في قراءة «فتخطفه» فقرأ الجمهور: «فتخطفه» بسكون الخاء من غير تشديد الطاء. وقرأ نافع: بتشديد الطاء. وقرأ أبو المتوكل، ومعاذ القاري: بفتح التاء والخاء وتشديد الطاء ونصب الفاء. وقرأ أبو رزين، وأبو الجوزاء، وأبو عمران (الجوني): بكسر التاء والخاء وتشديد الطاء ورفع الفاء. وقرأ الحسن، والأعمش: بفتح التاء وكسر الخاء وتشديد الطاء ورفع الفاء. وكلهم فتح الطاء. وفي المراد بهذا المثل قولان: أحدهما: أنه شبه المشرك بالله في بعده عن الهدى وهلاكه، بالذي يَجْرُؤُ من السماء، قاله قتادة. والثاني: أنه شبه حال المشرك في أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفع ضر يوم القيامة، بحال الهاري من السماء، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الذي ذكرناه ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْكُورَ اللَّهِ﴾ قد شرحنا معنى الشعائر في (البقرة: ١٥٨). وفي المراد بها هاهنا قولان: أحدهما: أنها البدن. وتعظيمها: استحسانها، واستسمانها ﴿لَكُرٍّ فِيهَا مَنَفِعٌ﴾ قبل أن يُسَمِّيَهَا صاحبها هدياً، أو يشعرها ويوجبها، فإذا فعل ذلك لم يكن له من منافعها شيء، روى هذا المعنى مقسم عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحاك. وقال عطاء بن أبي رباح: لكم في هذه الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هدايا إذا احتجتم إلى شيء من ذلك أو اضطررتم إلى شرب ألبانها ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وهو أن تُنَحَرَ. والثاني: أن الشعائر: المناسك ومشاهدة مكة؛ والمعنى: لكم فيها منافع بالتجارة إلى أجل مسمى، وهو الخروج من مكة، رواه أبو رزين عن ابن عباس. وقيل: لكم فيها منافع من الأجر والثواب في قضاء المناسك إلى أجل مسمى، وهو انقضاء أيام الحج.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا﴾ يعني الأفعال المذكورة، من اجتناب الرجس وقول الزور، وتعظيم الشعائر. وقال الفراء: «فإنها» يعني الفعلة ﴿مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، وإنما أضاف التقوى إلى القلوب، لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحْلَاهَا﴾ أي: حيث يحل نحرها ﴿إِلَى الْبَيْتِ﴾ يعني: عند البيت، والمراد به: الحرم كله، لأنها

عن عبد الله بن صالح به، وقال: إن كان صحيحاً. وذكره السيوطي في «الدر» ٣٥٧/٤، وزاد نسبه للبخاري في «تاريخه»، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

نعلم أنها لا تذبح عند البيت، ولا في المسجد، هذا على القول الأول؛ وعلى الثاني، يكون المعنى: ثم مَجَّلَ الناس من إحرامهم إلى البيت، وهو أن يطوفوا به بعد قضاء المناسك.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَاتِهِ الْأَنْهَارِ فِالْهَيْكَلِ إِلَهَ وَجَدَ فَلَهُ اسْتَلِمُوا وَيَشْرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُيَسِّرِينَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْتَهُمْ يُفْقِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وبعض أصحاب أبي عمرو بكسر السين، وقرأ الباقون بفتحها. فمن فتح أراد المصدر، من نَسَكَ يَنْسُكُ، ومن كسر أراد مكان النَّسَكِ كالمجلس والمطبخ. ومعنى الآية: لكل جماعة مؤمنة من الأمم السالفة جعلنا ذبح القرابين ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَاتِهِ الْأَنْهَارِ﴾، وإنما خص ببيمة الأنعام، لأنها المشروعة في القُرب. والمراد من الآية: أن الذبائح ليست من خصائص هذه الأمة، وأن التسمية عليها كانت مشروعة قبل هذه الأمة.

قوله تعالى: ﴿فِالْهَيْكَلِ إِلَهَ وَجَدَ﴾ أي: لا ينبغي أن تذكروا على ذبائحكم سواء ﴿فَلَهُ اسْتَلِمُوا﴾ أي: انقادوا واخضعوا. وقد ذكرنا معنى الإخبار في [مرد: ٢٣] وكذلك ألفاظ الآية التي تلي هذه.

﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكَ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكَ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَّعْتُمْ جُوهِبَهَا فَكَلُّوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْفَاقَهُ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَمْلِكُمُ تُنْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالَهُ النَّفْسَ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكْفِرُوا اللَّهُ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَيَشْرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ وقرأ الحسن، وابن يعمر برفع الدال. قال الفراء: يقال: بُذِنَ وبُذِنَ، والتخفيف أجود وأكثر، لأن كل جمع كان واحده على «فَعَلَةٌ» ثم صُمَّ أول جمعه، حُفِّفَ، مثل أَكَمَةٌ وأَكْمٌ، وأَجَمَةٌ وأَجْمٌ، وَخَشَبَةٌ وَخُشْبٌ. وقال الزجاج: «الْبُذْنُ» منصوبة بفعل مُضمر يفسره الذي ظهر، والمعنى: وجعلنا البُذْنَ؛ وإن شئت رفعتها على الاستئناف، والنصب أحسن؛ ويقال: بُذِنَ وبُذِنَ، وبُذِنَتْه، مثل قولك: نُثِرَ ونُثِرَ ونُثِرَةٌ؛ وإنما سُمِّيت بُذْنَةً، لأنها تُبْذَنُ، أي: تسمن. وللمفسرين في البُذْن قولان: أحدهما: أنها الإبل والبقر، قاله عطاء. والثاني: الإبل خاصة، حكاها الزجاج، وقال: الأول قول أكثر فقهاء الأمصار. قال القاضي أبو يعلى: البذنة: اسم يختص الإبل في اللغة، والبقرة تقوم مقامها في الحكم، لأن النبي ﷺ جعل البذنة عن سبعة والبقرة عن سبعة^(١).

قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لَكَ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ﴾ أي: جعلنا لكم فيها عبادة لله، من سَوْفِهَا إلى البيت، وتقليدها، وإشعارها، ونحرها، والإطعام منها، ﴿لَكَ فِيهَا خَيْرٌ﴾ وهو النفع في الدنيا والأجر في الآخرة، ﴿فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: على نحرها، ﴿صَوَافَّ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة: «صَوَافِنَ» بالنون. وقرأ الحسن، وأبو مجلز، وأبو العالية، والضحاك، وابن يعمر: «صَوَافِي» بالياء. قال الزجاج: «صَوَافٍ» منصوبة على الحال، ولكنها لا تنوِّن لأنها لا تنصرف؛ أي: قد صَفَّتْ قوائمها، والمعنى: اذكروا اسم الله عليها في حال نحرها، والبعير يُنْحَرُ قائماً، وهذه الآية تدل على ذلك. ومن قرأ: «صَوَافِنَ» فالصافن: التي تقوم على ثلاث، والبعير إذا أرادوا نحره، تُعْقَل إحدى يديه، فهو الصافن، والجميع: صوافن. هذا ومن قرأ: «صَوَافِي» بالياء وبالفتح بغير تنوين، فتفسيره: خوالص، أي: خالصة لله لا تشركوا به في التسمية على نحرها أحداً. ﴿فَإِذَا وَجَّعْتُمْ جُوهِبَهَا﴾ أي: إذا سقطت إلى الأرض، يقال: وَجَّعَ الحائط وججَةً، إذا سقط. وَوَجَّعَ القلب وججياً؛ إذا تحرك من فزع. واعلم أن نحرها قياماً سُنَّةً، والمراد بوقوعها على جنوبها: موتها، والأمر بالأكل منها أمر إباحة، وهذا في الأضاحي.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا أَلْفَاقَهُ وَالْمُعْتَرَّ﴾ وقرأ الحسن: «وَالْمُعْتَرَّ» بكسر الراء خفيفة. وفيهما ستة أقوال: أحدها: أن الفانق: الذي يسأل، والمعتَر: الذي يتعرض ولا يسأل، رواه بكر بن عبد الله عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير،

(١) روى مسلم في «صحيحه» ٩٥٥/٢ عن جابر رضي الله عنه قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البذنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة. وفي رواية لأحمد، والترمذي، وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ فنحضر الأضحية، فذبحنا البقرة عن سبعة، والبعير عن عشرة. قال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١٨٥/٥: ويشهد له ما في «الصحيحين» من حديث رافع بن خديج أنه ﷺ قسم ففعل عشرًا من الغنم ببعير.

واختاره الفراء. والثاني: أن القانع: المتعفف، والمعتر: السائل، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والنخعي. وعن الحسن كالقولين. والثالث: أن القانع: المستغني بما أعطيته وهو في بيته، والمعتر: الذي يتعرض لك ويُلِمُّ بك ولا يسأل، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال مجاهد: القانع: جارك الذي يقنع بما أعطيته، والمعتر: الذي يتعرض ولا يسأل، وهذا مذهب القرظي. فعلى هذا يكون معنى القانع: أن يقنع بما أعطي. ومن قال: هو المتعفف، قال: هو القانع بما عنده. والرابع: القانع: أهل مكة، والمعتر: الذي يعتر بهم من غير أهل مكة، رواه خصيف عن مجاهد. والخامس: القانع الجار وإن كان غنياً، والمعتر: الذي يعتر بك، رواه ليث عن مجاهد. والسادس: القانع: المسكين السائل، والمعتر: الصديق الزائر، قاله زيد بن أسلم. قال ابن قتيبة: يقال: قَنَعَ يَقْنَعُ قُنْعاً: إذا سأل، وقَنَعَ يَقْنَعُ قَنَاعَةً: إذا رضي، ويقال في المعتر: اعترني واعتراني وعتراني. وقال الزجاج: مذهب أهل اللغة أن القانع: السائل، يقال: قَنَعَ يَقْنَعُ قُنْعاً: إذا سأل، فهو قانع، قال الشماخ:

لَمَّا لَ الْمَرْءُ يُضْلِحُهُ فَيُعْنِي مَفَاوِرُهُ أَعْفُفٌ مِّنَ الْقُنُوعِ^(١)

أي: من السؤال؛ ويقال: قَنَعَ قَنَاعَةً: إذا رضي، وهو قَنِعٌ، والمعترُ والمعترِي واحد.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما وصفنا من نحرها قائمة ﴿سَخَّرْنَا لَكُمُ﴾ نعمة منا عليكم لتمكنوا من نحرها على الوجه المسنون ﴿لَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا.

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومًا﴾ وقرأ عاصم الجحدري، وابن يعمر، وابن أبي عمير، ويعقوب: «لَنْ تَنَالَ اللَّهُ لِحُومَهَا» بالتاء، ولكن تنالهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ» بالتاء أيضاً. سبب نزولها أن المشركين كانوا إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء ينضحون بها نحو الكعبة، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(٢). قال المفسرون: ومعنى الآية: لن تُرفع إلى الله لحومها ولا دماؤها، وإنما يُرفع إليه التقوى؛ وهو ما أريد به وجهه منكم. فمن قرأ «تناله التقوى» بالتاء، فإنه أنت للفظ التقوى. ومن قرأ: «يناله» بالياء، فلان التقوى والتقى واحد. والإشارة بهذه الآية إلى أنه لا يقبل اللحوم والدماء إذا لم تكن صادرة عن تقوى الله، وإنما يتقبل ما يتقونه به، وهذا تنبيه على امتناع قبول الأعمال إذا عريت عن نيَّةٍ صحيحة.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا﴾ قد سبق تفسيره [الحج: ٣٧]، ﴿لِكَبِيرًا اللَّهُ عَلَيَّ مَا هَدَيْتُمْ﴾ أي: على ما بين لكم وأرشدكم إلى معالم دينه ومناسك حجِّه، وذلك أن يقول: الله أكبر على ما هداانا. ﴿وَيَبِّرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني: الموحدين.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُلْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَوْبٍ﴾ ﴿١٧﴾ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُنْتَزِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَيَّ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَأَسْفَلُ السُّجُودِ وَنَحْنُ نَعْتَدُ لِلَّذِينَ آمَنُوا ثَوَابَ كَثِيرًا وَكَانَ اللَّهُ لِقَوْمٍ عَوِيذًا ﴿١٩﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَحْسَنُ الْمَكَانِ وَأَتَوْا الزُّكُوفَ وَأَمْسَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَظِيمُ الْأُمُورِ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُلْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «يدفع» «ولولا دفع الله» بغير ألف، وهذا على مصدر «دَفَع». وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «إن الله يدافع» بالف «ولولا دفع» بغير ألف، وهذا على مصدر «دافع»، والمعنى: يدفع عن الذين آمنوا غائلة المشركين بمنعهم منهم ونصرهم عليهم. قال الزجاج: والمعنى: إذا فعلتم هذا وخالفتم الجاهلية فيما يفعلونه من نحرهم وإشراكهم، فإن الله يدفع عن حزبه. وال «خَوَّانٍ» فقال من الخيانة، والمعنى: أن مَنْ ذكر غير اسم الله، وتقرب إلى الأصنام بديحته، فهو خَوَّانٌ.

قوله تعالى: ﴿أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُنْتَزِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «أُوذِنَ» بفتح الألف. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو بكر، وحفص عن عاصم: «أُوذِنَ» بضمها.

(١) «مجاز القرآن» ٥١/٢، «الطبري» ١٦٨/١٧، «القرظي» ٦٤/١٢، «واللسان»: قنع.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ٣٦٣/٤ من رواية ابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿لَّذِينَ يَنْتَكِرُونَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: بكسر التاء. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: بفتحها. قال ابن عباس: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فيقول لهم: «اصبروا، فإني لم أؤمر بالقتال» حتى هاجر رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وهي أول آية أنزلت في القتال^(١). وقال مجاهد: هم ناس خرجوا من مكة مهاجرين، فأدركهم كفار قريش، فأذن لهم في قتالهم. قال الزجاج: معنى الآية: أذن للذين يقاتلون أن يقاتلوا. ﴿يَأْتَهُمْ ظُلْمًا﴾ أي: بسبب ما ظلموا. ثم وعدهم النصر بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَهْيِهِ لَشَدِيدٌ﴾ ولا يجوز أن تقرأ بفتح «إن» هذه من غير خلاف بين أهل اللغة، لأن «إن» إذ كانت معها اللام، لم تفتح أبداً. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ معناها: أخرجوا للتوحيدهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ قد فسرناه في [البقرة: ٢٥٥].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هَدَىٰ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع: «الهُدَمْتُ» خفيفة، والباقون بتشديد الدال. فأما الصوامع، ففيها قولان: أحدهما: أنها صوامع الرهبان، قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وابن زيد. والثاني: أنها صوامع الصابئين، قاله قتادة، وابن قتيبة. فأما البيع، فهي جمع بيعة، وهي بيع النصارى. وفي المراد بالصلوات قولان: أحدهما: مواضع الصلوات. ثم فيها قولان: أحدهما: أنها كنائس اليهود، قاله قتادة، والضحاك، وقرأت على شيخنا أبي منصور اللخوي، قال: قوله: ﴿وَصَلَاتُ﴾ هي كنائس اليهود، وهي بالعبرانية «صلوتا». والثاني: أنها مساجد الصابئين، قاله أبو العالية. والقول الثاني: أنها الصلوات حقيقة، والمعنى: لولا دفع الله عن المسلمين بالمجاهدين، لانقطعت الصلوات في المساجد، قاله ابن زيد. فأما المساجد، فقال ابن عباس: هي مساجد المسلمين. وقال الزجاج: معنى الآية: لولا دفع بعض الناس ببعض لهدمت في زمن موسى الكناني، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد المساجد. وفي قوله: ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أن الكناية ترجع إلى جميع الأماكن المذكورة، قاله الضحاك. والثاني: إلى المساجد خاصة، لأن جميع المواضع المذكورة، الغالب فيها الشرك، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ مَن يَصْرُوهُ﴾ أي: من ينصر دينه وشرعه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: هذه صفة ناصريه. قال المفسرون: التمكين في الأرض: نصرتهم على عدوهم، والمعروف: لا إله إلا الله، والمنكر: الشرك. قال الأكرهون: وهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ. وقال القرظي: هم الولاة.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَّ عِبَادَةِ الْأُمُورِ﴾ أي: إليه مرجعها، لأن كل ملك يتطل سوى ملكه.

﴿وَإِنْ يَكْفُرْكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَلْبَهُمْ قَوْمٌ تُرِجُ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿١٧﴾ وَقَوْمٌ إِزْمِيمٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ ﴿١٨﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَلْمَتْهُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٩﴾ فَكَايِنَ بَيْنَ قَرِينٍ أَمَلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرُؤُا مُعْتَلَّةٌ وَقَصِيرٌ مَّشِيدٌ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ أي: بالعذاب ﴿كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أثبت الياء في «نكير» يعقوب [في الحالين]، ووافقه ورش في إثباتها في الوصل، والمعنى: كيف [أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالإهلاك]؟ والمعنى: [إني] أنكرت عليهم أبلغ إنكار، وهذا استهزاء معناه التقرير.

قوله تعالى: ﴿أَمَلَكْنَاهَا﴾ قرأ أبو عمرو: «أهلكتناها» بالفاء، والباقون: «أهلكتناها» بالنون.

قوله تعالى: ﴿وَيَبْرُؤُا مُعْتَلَّةٌ﴾ قرأ ابن كثير، [وعاصم]، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «ويشرو» مهموز. وروى ورش عن نافع بغير همزة، والمنهني: «وكم بشر معطلة»، أي: متبركة ﴿وَقَصِيرٌ مَّشِيدٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: مجصص، قاله ابن عباس، وعكرمة. قال الزجاج: أصل الشيد: الجص والثورة، وكل ما بني بهما

(١) «أسباب النزول» للواحد ص ١٧٧ بدون سند، وذكره كثير من المفسرين هكذا بدون سند. وذكره ابن كثير في «البلدية والنهاية» ١٦٤/٣ في بيعة العقب الثانية من رواية ابن إسحاق عن عبد الله بن كعب بن مالك.

أو بأحدهما فهو مَشِيد. والثاني: طويل، قاله الضحاك، ومقاتل. وفي الكلام إضمار، تقديره: وقصر مشيد معطل أيضاً ليس فيه ساكن.

﴿أَنْزَلَ يَسِيرًا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آفَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَسَتَجِيبُكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَن مِّن قَرِيبٍ آتَيْنَا لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَّمْ يَأْمُرْنَا بِالْمَعْبُوتِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ يَسِيرًا﴾ قال المفسرون: أفلم يسير قومك في أرض اليمن والشام ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ إذا نظروا آثار من هلك ﴿أَوْ آفَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأمم المكذبة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ قال الفراء: الهاء في قوله: ﴿فإنها﴾ عماد، والمعنى: أن أبصارهم لم تعم، وإنما عميت قلوبهم. وأما قوله: ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ فهو توكيد، لأن القلب لا يكون إلا في الصدر. ومثله: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ﴿يَطِيرُ بِمِخَابِدٍ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ﴿يَتَوَلَّوْكَ بِأَقْوَابِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

قوله تعالى: ﴿وَسَتَجِيبُكَ بِالْعَذَابِ﴾ قال مقاتل: نزلت في النضر بن الحارث القرشي. وقال غيره: هو قولهم له: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [الملك: ٢٥] ونحوه من استعجالهم، ﴿وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ في إنزال العذاب بهم في الدنيا، فأنزله بهم يوم بدر، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: من أيام الآخرة ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيام الدنيا. قرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «تَعُدُّونَ» بالياء. وقرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي: «يَعُدُّونَ» بالياء. فإن قيل: كيف انصرف الكلام من ذكّر العذاب إلى قوله: ﴿وإن يوماً عند ربك﴾؟ فعنه جوابان. أحدهما: أنهم استعجلوا العذاب في الدنيا، فقيل لهم: لن يخلف الله وعده في إنزال العذاب بكم في الدنيا، وإن يوماً من أيام عذابكم في الآخرة كآلف سنة من سنتي الدنيا، فكيف تستعجلون بالعذاب؟! فقد تضمنت الآية وعدهم بعذاب الدنيا والآخرة، هذا قول الفراء. والثاني: وإن يوماً عند الله وألف سنة سواء في قدرته على عذابهم، فلا فرق بين وقوع ما يستعجلونه وبين تأخيره في القدرة، إلا أن الله تفضل عليهم بالإمهال، هذا قول الزجاج.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا آتَاكُمْ لِكُلِّ نَفْسٍ نَّيْرٌ شَهِيدٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني به [الرزق] الحَسَن في الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ أي: عملوا في إبطالها ﴿مُعْجِزِينَ﴾ قرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «مُعْجِزِينَ» بغير ألف. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «مُعَاجِزِينَ» بألف. قال الزجاج: «مُعَاجِزِينَ» أي: طائفتين أنهم يُعْجِزُونَا، لأنهم ظنوا أنهم لا يُعْثُونَ وأنه لا جنة ولا نار. قال: وقيل في التفسير: مُعَاجِزِينَ: مُعَاجِزِينَ، وليس هو بخارج عن القول الأول؛ و«معجزين» تأويلها: أنهم كانوا يعجزون من أتبع النبي ﷺ ويشطونهم عنه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّاهُ أَلَمْنَا الشَّيْطَانَ فِي سَبِيلِهِ، فَيُخَلِّقُ اللَّهُ لَهُ مَا يَشَاءُ اللَّهُ مَا يَلْفِظُ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ يُصْبِحُ بِكُمْ اللَّهُ يَأْتِيكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كَيْدٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْزَلَ مَا يَلْفِظُ الشَّيْطَانُ فَنَسَنَهُ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقِ بَيْسٍ ﴿٥٣﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيبٍ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ الآية. قال المفسرون: سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه سورة (النجم) قرأها حتى بلغ قوله: ﴿أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ وَالْحَقُّ﴾ وَمَنْزُورَةَ الْآخِرَةِ ﴿٥٢﴾ فألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى؛ فلما سمعت قریش بذلك فرحوا، فاتاه جبريل، فقال: ماذا صنعت؟ تلوت على الناس ما لم آتتك به عن الله، فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً، فنزلت هذه الآية تطيباً لقلبه، وإعلاماً له أن

الأنبياء قد جرى لهم مثل هذا. قال العلماء المحققون: وهذا لا يصح^(١)، لأن رسول الله ﷺ معصوم عن مثل هذا، ولو صح، كان المعنى أن بعض شياطين الإنس قال تلك الكلمات، فإنهم كانوا إذا تلا لغطوا، كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَىٰ أَيْوَمًا﴾ [فصلت: ٢٦]. قال: وفي معنى «تمنى» قولان: أحدهما: تلا، قاله الأكثرون^(٢)، وأشدوا:

تَمَنَّى كِتَابَ اللّٰهِ اَوَّلَ لَيْلِهِ
وَأَخْرَجَهُ لَأَقَى حَمَامَ الْمَقَادِيرِ^(٣)
وقال آخر:

تَمَنَّى كِتَابَ اللّٰهِ آخِرَ لَيْلِهِ
تَمَنَّى دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِشْلِ^(٤)

والثاني: أنه من الأمنية، وذلك أن رسول الله ﷺ تمنى يوماً أن لا يأتيه من الله شيء ينفر عنه به قومه، فالتقى الشيطان على لسانه لما كان قد تمناه، قاله محمد بن كعب القرظي^(٥).

قوله تعالى: ﴿فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ﴾ أي: يُبْطِله وَيُدْهَبه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُ﴾ قال مقاتل: يُحْكِمُهَا مِنَ الْبَاطِلِ.

قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ اللّٰمَ مُتَعَلِّقَةً بِقَوْلِهِ﴾ «اللقى الشيطان» والفتنة هاهنا بمعنى البلية والمحنة. والمرض: الشك والنفاق. ﴿وَالْقَائِسَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: الجافية عن الإيمان. ثم أعلمه أنهم ظالمون وأنهم في شقاق دائم، والشقاق: غاية العداوة.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ﴾ وهو التوحيد والقرآن، وهم المؤمنون. وقال السدي: التصديق بنسخ الله.

(١) قال ابن كثير ٢/٢٢٩: قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرائيق، ولكنها من طرق مرسلة، ولم أرها مستندة من وجه صحيح، والله أعلم، وسرد ابن كثير بعض الروايات في هذه القصة، ثم قال في آخرها: وكلها مرسلات، ومقطعات والله أعلم. اهـ. والحق أن روايات هذه القصة معلة بالإرسال والضعف والجهالة، وليس فيها رواية صحيحة تصلح للاحتجاج، بل فيها ما لا يليق بمقام النبوة والرسالة، وذكر في معظمها أن الشيطان تكلم على لسان رسول الله ﷺ بما فيه مدح لأصنام المشركين بهذه الجملة الباطلة: «تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتهن لرتجى» وكيف يكون مثل ذلك مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله ﷺ؟! وذلك مما يدل على عدم صحة مثل هذه الروايات سنداً ومتناً. ومن تكلم من العلماء على هذه القصة وبين بطلانها بكلام طويل، القاضي أبي بكر ابن العربي، والقاضي عياض، والشوكاني، والألوسي، وغيرهم.

(٢) قال الإمام ابن القيم في «إغاثة اللهفان» ١/٩٣ في فصل الاستعادة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن - بعد أن عدّد وجوهاً -: ومنها أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي، إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، ثم قال: والسلف كلهم على أن المعنى: إلا إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، ثم قال: فإذا كان هذا فعلة مع الرسل ﷺ، فكيف بغيرهم؟! ولهذا يغلط القارئ تارة، ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخطئ عليه لسانه، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة، لم يعد منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعها له، فكان من أهم الأمور الاستعادة بالله تعالى منه. اهـ. وقال الإمام ابن جرير الطبري في «التفسير» ١٧/١٩٠ بعد ما ذكر عن الضحاك أن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾: التلاوة والقراءة: وهذا القول أشبه بتأويل الكلام، بدلالة قوله تعالى: ﴿فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُ﴾ على ذلك، لأن الآية التي أخبر الله جل ثناؤه أنه يحكمها لا شك أنها آيات تنزيله، فمعلوم أن الذي ألقى فيه الشيطان، هو ما أخبر الله تعالى ذكره أنه نسخ ذلك منه وأبطله، ثم أحكمه بنسخه ذلك منه، فتأويل الكلام إذن: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا كتاب الله قرأ، أو حدّث وتكلم، ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقراه، أو في حديثه الذي حدّث وتكلم ﴿فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ﴾، يقول تعالى: يُدْهَبُ اللَّهُ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ وَيَبْطِله. اهـ.

فهذا هو المعنى المراد من الآية الكريمة، وليس فيها إلا أن الشيطان يلقي عند تلاوة النبي ﷺ للقرآن ما يفتن به الذين به قلوبهم مرض، ولكن أعداء الإسلام ما فتتوا دائماً يمدسون في هذا الدين ما ليس منه، وما لم يقله رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام، فيذكرون ما لا يليق بمنصب النبوة ومقام الرسالة، كما فعلوا في كثير من الآيات الواردة في غير نبينا محمد ﷺ، كيوسف، وأيوب، وداود، وسليمان، فيذكرون في تفسيرها من الإسرائيليات التي لا يجوز نسبتها لأحد الناس، فضلاً عن نبي مرسل، أو رسول مقدم، فليتنبه المسلمون لذلك، وليأخذوا التفسير من العلماء المحققين حتى لا يرموا الأنبياء والمرسلين فيما هم منه معصومون.

(٣) «مجاز القرآن» ٢/٥٤، «واللسان»، «والناج»: مني.

(٤) «مجاز القرآن» ٢/٥٤، «واللسان»، «والناج»: مني.

(٥) هذه الرواية من جملة الروايات التي تكلم عليها العلماء المحققون، وبينوا بطلانها، وأنه لا يجوز نسبتها إلى أحد الناس، فضلاً عن رسول الله ﷺ المعصوم. وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي: تأملوا فتح الله أغلاق النظر عنكم إلى قول الرواة - الذين هم بجهلهم أعداء على الإسلام أكثر ممن صرح بعداوته - إن النبي ﷺ لما جلس مع قريش تمنى أن لا ينزل عليه من الوحي، فكيف يجوز لمن معه أدنى مسكة أن يخطر بباله أن النبي ﷺ آثر وصل قومه على وصل ربه، وأراد أن لا يقطع أنه بهم بما ينزل عليه من عند ربه من الوحي الذي كان حياة جسده وقلبه، وأسس وحشته، وغاية أمنيته، وكان رسول الله ﷺ أجود الناس، فإذا جاءه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة، أفؤثر على هذا مجالسته للأعداء؟!.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَآتَىٰ نَسْخًا مَّا يَلْقَى الشَّيْطَانُ؛ فَاَلْمَعْنَى: لِيَعْلَمُوا أَنَّ نَسْخَ ذَلِكَ وَإِبْطَالَهُ حَقٌّ مِنْ اللَّهِ ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ بالنسخ ﴿فَتَحَيَّتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخضع وتذل. ثم بيَّن بباقي الآية أن هذا الإيمان والإخبارات إنما هو بلطف الله وهدايته.

قوله تعالى: ﴿فِي رِزْقِهِ مَنَّةٌ﴾ أي: في شك. وفي هاء «منه» أربعة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى قوله: تلك الغرائيق العلى^(١). والثاني: أنها ترجع إلى سجوده في سورة (النجم). والقولان عن سعيد بن جبير، فيكون المعنى: إنهم يقولون: ما باله ذكر كهتنا ثم رجع عن ذكرها؟! والثالث: أنها ترجع إلى القرآن، قاله ابن جريج. والرابع: أنها ترجع إلى الذين، حكاه الثعلبي^(٢).

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّلَاطَةُ﴾ وفيها قولان: أحدهما: القيامة تأتي مَنْ تقوم عليه من المشركين، قاله الحسن. والثاني: ساعة موتهم، ذكره الواحدي.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه يوم بدر، روي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي. والثاني: أنه يوم القيامة، قاله عكرمة، والضحاك. وأصل العقم في الولادة، يقال: امرأة عقيم لا تلد، ورجل عقيم لا يولد له، وأنشدوا:

عُقِمَ النِّسَاءُ فَلَا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ
إِنَّ النِّسَاءَ بِمَثَلِ عُقْمِ^(٣)

وسميت الريح العقيم بهذا الاسم، لأنها لا تأتي بالسحاب الممطر، فقيل لهذا اليوم: عقيم، لأنه لم يأت بخير. فعلى قول من قال: هو يوم بدر، في تسميته بالعقيم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لم يكن فيه للكفار بركة ولا خير، قاله الضحاك. والثاني: لأنهم لم يُنظروا فيه إلى الليل، بل قُتلوا قبل المساء، قاله ابن جريج. والثالث: لأنه لا مثل له في عظم أمره، لقتال الملائكة فيه، قاله يحيى بن سلام. وعلى قول من قال: هو يوم القيامة، في تسميته بذلك قولان: أحدهما: لأنه لا ليلة له، قاله عكرمة. والثاني: لأنه لا يأتي المشركين بخير ولا فرج، ذكره بعض المفسرين.

﴿الْمَلَأَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَمِينُكُمْ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُمْ خَيْرٌ رَازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْمَلَأَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لِلَّهِ﴾ من غير منازع ولا مدع ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المسلمين والمشركين؛ وحكمه بينهم بما ذكره في تمام الآية وما بعدها. ثم ذكر فضل المهاجرين فقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: من مكة إلى المدينة. وفي الرزق الحسن قولان: أحدهما: أنه الحلال، قاله ابن عباس. والثاني: رزق الجنة، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ وقرأ ابن عامر: «قُتِلُوا» بالتشديد. قوله تعالى: ﴿لِيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخَلَ﴾ [وقرأ نافع بفتح الميم] ﴿رِضْوَانِهِ﴾ يعني: الجنة. والمدخل يجوز أن يكون مصدرًا، فيكون المعنى: ليدخلنهم إدخالًا يكرمون به فيرضونه؛ ويجوز أن يكون بمعنى المكان. و«مدخلًا» بفتح الميم على تقدير: فيدخلون مدخلًا. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بآياتهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عنهم.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُعِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ عَفُوفٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ

(١) مضى الكلام على قصة الغرائيق قبل قليل، وأنها باطلة.

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٧/١٩٢: وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هي كناية من ذكر القرآن الذي أحكم الله آياته، وذلك أن ذلك من ذكر قوله: ﴿وَيَسْمَعُ الْوَيْلَ أَوْ أَوَّلَ الْوَيْلِ إِنَّهُ الْوَيْلُ مِنَ الْوَيْلِ﴾ أقرب منه من ذكر قوله: ﴿فَتَسَخَّ اللَّهُ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ﴾ والهاء من قوله: «إنه» من ذكر القرآن، فالحاق الهاء في قوله: ﴿فِي رِزْقِهِ مَنَّةٌ﴾ بالهاء من قوله: ﴿إِنَّهُ الْوَيْلُ مِنَ الْوَيْلِ﴾ أولى من إلحاقها بـ «ما» التي في قوله: ﴿مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ﴾ مع بعد ما بينهما. اهـ.

(٣) «اللسان»، و«التاج»: عقم.

يُؤَلِّجُ النِّسْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِيكَ اللَّهُ هُوَ الْعَقْبُ وَأَنْتَ مَا يَكْتُمُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَزِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ قال الزجاج: المعنى: الأمر ذلك، أي: الأمر ما قصصنا عليكم ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ والعقوبة: الجزاء؛ والأول ليس بعقوبة، ولكنه سمي عقوبة، لاستواء الفعلين في جنس المكروه، كقوله: ﴿وَيَحْرُكُونَ سَيِّئَةَ سِنِّيَّةٍ بِسِنِّيَّتِهَا﴾ [الشورى: ٤٠] لما كانت المجازاة إساءة بالمفعول به سميت سيئة، ومثله: ﴿اللَّهُ يَسْتَوِيئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ٤١٥]، قاله الحسن. ومعنى الآية: من قاتل المشركين كما قاتلوه ﴿ثُمَّ يُغِيْ عَلَيْهِ﴾ أي: ظلم بإخراجه عن منزله. وزعم مقاتل أن سبب نزول هذه الآية أن مشركي مكة لقوا المسلمين لليلة بقيت من المحرم، فقاتلوه، فنأشدهم المسلمون أن لا يقاتلوه في الشهر الحرام، فأبوا إلا القتال، فثبت المسلمون، ونصرهم الله على المشركين، ووقع في نفوس المسلمين من القتال في الشهر الحرام، فنزلت هذه الآية^(١)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَعُورٌ﴾ عنهم ﴿عَفُورٌ﴾ لقتالهم في الحرام.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك النصر ﴿يَأْنِ اللَّهُ﴾ القادر على ما يشاء. فمن قدرته أنه ﴿يُؤَلِّجُ النِّسْلَ فِي النَّهَارِ﴾ و﴿يُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعاء المؤمنين ﴿بَصِيرٌ﴾ بهم حيث جعل فيهم الإيمان والتقوى، ﴿ذَلِكَ﴾ الذي فعل من نصر المؤمنين ﴿يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي: هو الإله الحق ﴿وَأَنْتَ مَا يَكْتُمُونَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «يدعون» بالياء. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: بالناء، والمعنى: وأن ما يعبدون ﴿مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّكُونِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات. وحكى الزجاج عن الخليل أنه قال: معنى الكلام التنبيه، كأنه قال: أسمع، أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا. وقال ثعلب: معنى الآية عند الفراء خير، كأنه قال: اعلم أن الله ينزل من السماء ماء فتصبح، ولو كان استفهاماً والفاء شرطاً لنصبه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي: باستخراج النبات من الأرض رزقاً لعباده ﴿خَبِيرٌ﴾ بما في قلوبهم عند تأخير المطر. وقد سبق معنى الغني الحميد في [البقرة: ٢٦٧].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَكَرِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَمِمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ مُمِيزًا لَكُمْ لِكْفُورٍ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ يريد البهائم التي تُركب ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ قال الزجاج: كراهة أن تقع. وقال غيره: لثلاث تقع ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَكَرِيمٌ﴾ فيما سَخَّرَ لهم وفيما حبس عنهم من وقوع السماء عليهم. ﴿وَمِمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ بعد أن كنتم نطفاً ميتة ﴿ثُمَّ يُمِيزُكُمْ﴾ عند آجالكم ﴿ثُمَّ يُمِيزُكُمْ﴾ للبعث والحساب ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ يعني: المشرك ﴿لَكَفُورٌ﴾ لنعم الله إذ لم يوحد.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُبَدِّلُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَلِكٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدَلْتَهُ فَقُلْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ قد سبق بيانه في هذه السورة [الحج: ٣٤] ﴿فَلَا يُبَدِّلُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: في الذبائح^(٢)، وذلك أن كفار قريش وخزاعة خاصمو رسول الله ﷺ في أمر الذبيحة، فقالوا: كيف تأكلون ما قتلتم ولا

(١) ذكره السيوطي في الدرر ٣٦٩/٤ من رواية ابن أبي حاتم عن مقاتل.

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٧/١٩٩: يقول تعالى ذكره: فلا يبايعنكم هؤلاء المشركون بالله يا محمد في ذبحك ومنسكك بقولهم: أأناكلون ما قتلتم، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله؟ فإنك أولى بالحق منهم، لأنك محق وهم مبطون.

تأكلون ما قتلته الله^(١) ١٤ يعنون: الميتة. فإن قيل: إذا كانوا هم المنازعين له، فكيف قيل: «فلا يُنازِعَنَّكَ في الأمر»؟ فقد أجاب عنه الزجاج، فقال: المراد: النهي له عن منازعتهم، فالمعنى: لا تنازعهم، كما تقول للرجل: لا يخاصمك فلان في هذا أبداً، وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا من اثنين، لأن المجادلة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين، فإذا قلت: لا يجادلنك فلان، فهو بمنزلة: لا تجادلنّه، ولا يجوز هذا في قولك: لا يضربنك فلان وأنت تريد: لا تضربنّه، [ولكن] لو قلت: لا يضاربنك فلان، لكان كقولك: لا تضاربن، ويدل على هذا الجواب قوله: ﴿وَإِنْ جَدَلْتَهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعِزُّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى دينه والإيمان به^(٢). و«جادولك» بمعنى: خصاموك في أمر الذبائح، ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا تَكْفُرُونَ﴾ من التكذيب، فهو يجازيكم به. ﴿اللَّهُ يَخْتَلِفُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يقضي بينكم ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين، أي: تذهبون إلى خلاف ما ذهب إليه المؤمنون؛ وهذا أدب حسن علمه الله عباده ليرثوا به من جادل على سبيل التعنت، ولا يجيئوه، ولا يناظروه.

فصل

قال أكثر المفسرين: هذا نزل قبل الأمر بالقتال، ثم نسخ بأية السيف. وقال بعضهم: هذا نزل في حق المنافقين، كانت تظهر من أقوالهم وأفعالهم فلتات تدل على شركهم، ثم يجادلون على ذلك، فوكل أمرهم إلى الله تعالى، فالآية على هذا محكمة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا استفهام يراد به التقرير؛ والمعنى: قد علمت ذلك، ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ يعني ما يجري في السموات والأرض ﴿فِي كِتَابٍ﴾ يعني: اللوح المحفوظ^(٣)، ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي: علم الله بجميع ذلك ﴿عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل لا يتعذر عليه العلم به.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَرْزُقْ بِهِ سُلْطَنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَتَّبِعُونَ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السُّكْرَ بَكَدُورٍ يَسْطُورُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِسِرِّ قَوْمِكُمْ الَّذِينَ أُنزِلَ وَعَدَمًا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسِّرُ الْمَصِيرَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ يعني: كفار مكة ﴿مَا لَمْ يَرْزُقْ بِهِ سُلْطَنًا﴾ أي: حجة ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أنه آله، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: مانع من العذاب. ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ يعني القرآن؛ والمنكر هاهنا بمعنى الإنكار، فالمعنى: أثر الإنكار من الكراهة، وتعبس الوجوه، معروف عندهم. ﴿بِكَادُورٍ يَسْطُورُ﴾ أي: يبطشون ويوقعون بمن يتلو عليهم القرآن من شدة الغيظ، يقال: سطا عليه، وسطا به: إذا تناوله بالعنف والشدّة. ﴿قُلْ لَهُم يَا مُحَمَّد: ﴿أَفَأَنْتُمْ بِسِرِّ قَوْمِكُمْ﴾ أي: بأشدّ عليكم وأكره إليكم من سماع القرآن، ثم ذكر ذلك فقال: ﴿النَّارُ﴾ أي: هو النار.

﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ حُرْبٍ مِّثْلَ مَا فَتَنُوا لَكُمْ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْتَأْذِنُوا لَلذُّبَابِ سَيِّئًا لَا يَسْتَدِئُوهُ مِنْهُ مِثْفَ الْطَالِبِ وَالظَّلُوبِ﴾ ﴿مَا كَفَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ عَزِيزٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ حُرْبٍ مِّثْلَ﴾ قال الأخفش: إن قيل: أين المثل؟ فالجواب: أنه ليس هاهنا مثل، وإنما

(١) رواء الطبري بنحوه ١٦/٨، ١٧، وذكره السيوطي في «الدر» ٤٢/٣، في سورة [الأنعام] ١٢٢ عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا رَزَقَ بِغَيْرِ إِحْسَانٍ﴾

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٧/١٩٩: يقول تعالى ذكره: وادع يا محمد منازعك من المشركين بالله في نسكك وذبحك إلى اتباع أمر ربك في ذلك بالأكل إلا ما ذبحوه بعد اتباعك، وبعد التصديق بما جتهدت به من عند الله، وتجنبوا الذبح للآلهة والأوثان، وتبرؤوا منها، إنك لعلى طريق مستقيم، غير زائل عن محجة الحق والصواب في نسكك الذي جعله لك ولأملاك ربك، وهم الضلال عن قصد السبيل، لمخالفتهم أمر الله في ذبائحهم ومطاعمهم وعبادتهم الآلهة.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» ٤/٢٠٤٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: - وعرشه على الماء».

المعنى: يا أيها الناس ضُرب لي مَثَل، أي: شَبَّت بي الأوثان ﴿فَاسْتَمِعُوا﴾ لهذا المثل. وتاويل الآية: جعل المشركون الأصنام شركائي فعبدها معي فاستمعوا حالها؛ ثم بين ذلك بقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهِيكُمْ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وابن أبي عبلة: «يدعون» بالياء المفتوحة. وقرأ ابن السميع، وأبو رجاء وعاصم الجحدري: «يُدْعُونَ» بضم الياء وفتح العين، يعني: الأصنام، ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ والذباب واحد، والجمع القليل: أذِبَّة، والكثير: الذَّبَاب، مثل: غُرَابٌ وَأَغْرِبَةٌ وَغُرْبَانٌ؛ وقيل: إنما خص الذباب لمهائته واستقداره وكثرته. ﴿وَلَوْ أَحْتَمُوا﴾ يعني: الأصنام ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ أي: لخالقها، ﴿وَإِنْ يَسْتَهْمُوا﴾ يعني: الأصنام؛ قال ابن عباس: كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران فيجفت، فيأتي الذباب فيختلسه. وقال ابن جريج: كانوا إذا طيَّبوا أصنامهم عجنوا طيبهم بشيء من الحلواء، كالعسل ونحوه، فيقع عليها الذباب فيسلبها إياه، فلا تستطيع الآلهة ولا مَنْ عَبدَها أن يمنعه ذلك. وقال السدي: كانوا يجعلون للآلهة طعاماً، فيقع الذباب عليه فيأكل منه. قال نعلب: وإنما قال: ﴿لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ﴾ فجعل أفعال الآلهة كأفعال آدميين، إذ كانوا يعظمونها ويذبحون لها وتُحاطب، كقوله: ﴿يَتَأَيَّمُوا أَنَسَلُوا أَذْعُلُوا مَسَكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨] لما خاطبهم جعلهم كالآدميين، ومثله: ﴿رَأَيْتُمْ لِي سَجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقد بيَّنا هذا المعنى في [الأعراف: ١٩١] عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْلُقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿صُمِّفَ الظَّالِمُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: الطالب: الذباب يطلب ما يسلبه من الطيب الذي على الصنم، والمطلوب: الصنم يطلب الذباب منه سَلَبَ ما عليه، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: الطالب: عابد الصنم يطلب التقرب بعبادته، والمطلوب: الصنم، هذا معنى قول الضحاک، والسدي^(١).

قوله تعالى: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ﴾ أي: ما عظموه حق عظمتهم، إذ جعلوا هذه الأصنام شركاء له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ لا يقهر ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يرام. ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي بِنُورِ الْمَلَكِكَةِ رُشْلًا وَمَنْ أَلْتَأَمَّ إِلَهُكَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي بِنُورِ الْمَلَكِكَةِ رُشْلًا﴾ كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت، ﴿وَمَنْ أَلْتَأَمَّ إِلَهُكَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمقالة العباد «بصيرٌ» بمن يتخذة رسولاً. وزعم مقاتل أن هذه الآية نزلت حين قالوا: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْنَا الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الإشارة إلى الذين اصطفاهم؛ وقد بيَّنا معنى ذلك في آية الكرسي [البقرة: ٢٥٥].

﴿يَتَأَيَّمُوا إِلَهُكُمْ﴾ مَاتُوا أَرْكَعُوا وَأَسْجَدُوا وَأَعْبَدُوا وَرَكَّبُوا وَأَنَعَلُوا الْخَيْرَ لَمَلَكْتُمْ تَقْلِحُونَ ﴿٧٦﴾ وَتَجَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا لِمَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَرْكَعُوا وَأَسْجَدُوا﴾ قال المفسرون: المراد صلوا، لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود، ﴿وَأَعْبَدُوا وَرَكَّبُوا﴾ أي: وحده ﴿وَأَنَعَلُوا الْخَيْرَ﴾ يريد: أبواب المعروف ﴿لَمَلَكْتُمْ تَقْلِحُونَ﴾ أي: لكي تسعدوا وتبقوا في الجنة.

(١) قال ابن جرير الطبري ٢٠٣/١٧: والصواب من القول في ذلك عندنا، ما ذكرته عن ابن عباس من أن معناه: وعجز الطالب، وهو الآلهة، أن تستقد من الذباب ما سلبها إياه، وهو الطيب وما أشبهه، والمطلوب: الذباب.

قال: وإنما قلت: هذا القول أولى بتاويل ذلك، لأن ذلك في سياق الخبر عن الآلهة والذباب، فإن يكون ذلك خيراً عما هو به متصل، أشبه من أن يكون خيراً عما هو عنه منقطع، وإنما أخبر جل ثناؤه عن الآلهة بما أخبر به عنها في هذه الآية من ضعفها ومهانتها، تقريباً منه بذلك عبيدتها من مشركي قريش، يقول تعالى ذكره: كيف يجعل لي مثل في العبادة، ويشرك فيها معي ما لا قدرة له على خلق ذباب، وإن أخذ له الذباب فسلبه شيئاً عليه، لم يقدر أن يمنع منه ولا ينتصر، وأنا الخالق ما في السموات والأرض، ومالكٌ جميع ذلك، والمحيي من أردت، والمميت ما أردت ومن أردت؟! إن فاعل ذلك لا شك أنه في غاية الجهل.

فصل

لم يختلف أهل العلم في السجدة الأولى من (الحج) واختلفوا في هذه السجدة الأخيرة؛ فروي عن عمر، وابن عمر، وعمار، وأبي الدرداء، وأبي موسى، وابن عباس، أنهم قالوا: في (الحج) سجدتان، وقالوا: فضلت هذه السورة على غيرها بسجديتين، وبهذا قال أصحابنا، وهو مذهب الشافعي رحمته الله. وروي عن ابن عباس أنه قال: في (الحج) سجدة، وبهذا قال الحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبيرة، وإبراهيم، وجابر بن زيد، وأبو حنيفة وأصحابه، ومالك؛ ويدل على الأول ما روى عقبه بن عامر، قال: قلت: يا رسول الله أفي (الحج) سجدتان؟ قال: نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما^(١).

فصل

اختلف العلماء في عدد سجود القرآن، فروي عن أحمد روايتان، إحداهما: أنها أربع عشرة سجدة. وبه قال الشافعي. والثانية: أنها خمس عشرة، فزاد سجدة [ص: ٢٤]. وقال أبو حنيفة: هي أربع عشرة، فأخرج التي في آخر (الحج) وأبدل منها سجدة [ص: ٢٤].

فصل

وسجود التلاوة سنة، وقال أبو حنيفة: واجب. ولا يصح سجود التلاوة إلا بتكبير الإحرام والسلام، خلافاً لأصحاب أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي. ولا يجزئ الركوع عن سجود التلاوة، وقال أبو حنيفة: يجزئ. ولا يسجد المستمع إذا لم يسجد التالي، نص عليه أحمد رحمته الله. وتكره قراءة السجدة في صلاة الإخفات، خلافاً للشافعي. قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ في هذا الجهاد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه فعل جميع الطاعات، هذا قول الأكثرين. والثاني: أنه جهاد الكفار، قاله الضحاك. والثالث: أنه جهاد النفس والهوى، قاله عبد الله بن المبارك. فأما حق الجهاد، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الجد في المجاهدة، واستيفاء الإمكان فيها. والثاني: أنه إخلاص النية لله تعالى. والثالث: أنه فعل ما فيه وفاء لحق الله تعالى.

فصل

وقد زعم قوم أن هذه الآية منسوخة، واختلفوا في ناسخها على قولين: أحدهما: قوله: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمًا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. والثاني: قوله: ﴿تَاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ مَأْسُومٌ﴾ [التغابن: ١٦]. وقال آخرون: بل هي مُحْكَمَةٌ، ويؤكد القولان الأولان في تفسير حق الجهاد، وهو الأصح، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَحَبُّنَاكُمْ﴾ أي: اختاركم واصطفاكم لدينه. والحرج: الضيق، فما من شيء وقع الإنسان فيه إلا وجد له في الشرع مخرجاً بتوبة أو كفارة أو انتقال إلى رخصة ونحو ذلك. وروي عن ابن عباس أنه قال: الحرج: ما كان على بني إسرائيل من الإصر والشدائد، وضعه الله عن هذه الأمة.

قوله تعالى: ﴿بَلَّةٌ أَيْكُمْ﴾ قال الفراء: المعنى: وسع عليكم كملة أبيكم، فإذا أقيمت الكفاة نصبت، ويجوز النصب على معنى الأمر بها، لأن أول الكلام أمر وهو قوله: ﴿أَرْكَبُوا وَأَسْجُدُوا﴾ والزموا ملء أبيكم. فإن قيل: هذا

(١) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، من حديث عبد الله بن لهيعة به، وقال الترمذي: ليس بقوي. قال ابن كثير: وفي هذا نظر، فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع، وأكثر ما تقدموا عليه تدليس، ثم قال ابن كثير: وقد رواه أبو داود في «المراسيل» عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجديتين»، ثم قال أبو داود: وقد أسند هذا، يعني من غير هذا الوجه، ولا يصح. قال ابن كثير: وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثني ابن أبي داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن غياث، حدثني نافع، قال: حدثني أبو الجهم أن عمر سجد سجدتين في الحج وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجديتين، قال: وروى أبو داود، وابن ماجه، من حديث الحارث بن سعيد العنقي عن عبد الله بن مثنى بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان، قال ابن كثير: فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً.

الخطاب للمسلمين، وليس إبراهيم أباً لكلّهم. فالجواب: أنه إن كان خطاباً عاماً للمسلمين، فهو كالآب لهم، لأن حرمة وحقّه عليهم كحق الوالد، وإن كان خطاباً للعرب خاصة، فإبراهيم أبو العرب قاطبة، هذا قول المفسرين. والذي يقع لي أن الخطاب لرسول الله ﷺ، لأن إبراهيم أبوه، وأمة رسول الله ﷺ داخلة فيما خوطب به رسول الله.

قوله تعالى: ﴿هُوَ سَنَكُمُ السَّلِيلِينَ﴾ في المشار إليه قولان: أحدهما: أنه الله ﷻ، قاله ابن عباس، ومجاهد، والجمهور؛ فعلى هذا في قوله: ﴿بَيْنَ قَبْلٍ﴾ قولان: أحدهما: من قبل إنزال القرآن سَمَّاكُمْ بهذا في الكتب التي أنزلها. والثاني: ﴿بَيْنَ قَبْلٍ﴾ أي: في أم الكتاب، وقوله: ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: في القرآن. والثاني: أنه إبراهيم ﷺ حين قال: ﴿وَبَيْنَ دُرَيْبَيْنَا أَنَّهُ مُسَلِّمَةٌ لَكَ﴾ [البقرة: ١٧٨]؛ فالمعنى: من قَبْلُ هذا الوقت، وذلك في زمان إبراهيم ﷺ، وفي هذا الوقت حين قال: ﴿وَبَيْنَ دُرَيْبَيْنَا أَنَّهُ مُسَلِّمَةٌ﴾، هذا قول ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿يَكُونُ الرَّسُولُ﴾ المعنى: اجتياكم وسَمَّاكُمْ ليكون الرسول، يعني محمداً ﷺ ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة أنه قد بلغكم؛ وقد شرحنا هذا المعنى في [البقرة: ١٤٣] إلى قوله: ﴿وَأَتَاكَ الزَّكَاةُ﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ قال ابن عباس: سَلُوهُ أَنْ يَعْصِمَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا يُسْخِطُ وَيُكْرَهُ. وقال الحسن: تَمَسَّكُوا بدين الله^(١). وما بعد هذا مشروح في [الأنفال: ٤٠].



(١) قال ابن كثير: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ أي: اعتضدوا بالله، وتركوا عليه، وتأيدوا به، ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: حافظكم، وناصركم، ومظفركم على أعدائكم، ﴿يَوْمَ الْقَوْلِ نَضَرَ الْكٰفِرِينَ﴾ يعني: نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء. وقال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْقَوْلِ نَضَرَ الْكٰفِرِينَ﴾: فنعّم الولي الله لمن فعل ذلك منكم، فأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وجاهد في سبيل الله حتى جهاده، واعتصم به، ونعم النصير، يقول: ونعم الناصر هو له على من بغاه بسوء.

سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَاطُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَمَنَّ رَبَّكَ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ذُرْعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

سورة المؤمنون مكية في قول الجميع.

روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لقد أنزلت علينا عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾» إلى عشر آيات، رواه الحاكم أبو عبد الله في «صحيحه»^(١). وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله تعالى حاط حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وخرس خرسها بيده فقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال لها: طوبى لك منزل الملوك»^(٢). قال الفراء: «قد» هاهنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين، ويجوز أن تكون تقريباً للماضي من الحال، لأن «قد» تقرب الماضي من الحال حتى تلحقه بحكمه، ألا تراهم يقولون: قد قامت الصلاة، قبل حال قيامها، فيكون معنى الآية: إن الفلاح قد حصل لهم وإنهم عليه في الحال. وقرأ أبي بن كعب، وعكرمة، وعاصم الجحدري، وطلحة بن مصرف: «قد أفلح» بضم الألف وكسر اللام وفتح الحاء، على ما لم يُسمِّ فاعله. قال الزجاج: ومعنى الآية: قد نال المؤمنون البقاء الدائم في الخير. ومن قرأ: «قد أفلح» بضم الألف، كان معناه قد أصبحوا إلى الفلاح. وأصل الخشوع في اللغة: الخضوع والتواضع. وفي المراد بالخشوع في الصلاة أربعة أقوال: أحدها: أنه النظر إلى موضع السجود. روى أبو هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ﴾ فنكس رأسه^(٣). وإلى هذا المعنى ذهب مسلم بن يسار، وقتادة، والثاني: أنه ترك الالتفات في الصلاة، وأن تلين كتفك للرجل المسلم، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. والثالث: أنه السكون في الصلاة، قاله مجاهد، وإبراهيم، والزهري. والرابع: أنه الخوف، قاله الحسن. وفي المراد باللغو هاهنا خمسة أقوال: أحدها: الشُّرك، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الباطل، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: المعاصي، قاله الحسن. والرابع: الكذب، قاله السدي. والخامس: الشتم والأذى الذي كانوا يسمعون من الكفار، قاله مقاتل. قال الزجاج: واللغو: كل لعب ولهو، وكل معصية فهي مطرحة مُلغاة. فالمعنى: شغلهم الجِدُّ فيما أمرهم الله به عن اللغو.

(١) هو جزء من حديث طويل رواه الحاكم ٣٩٢/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي فقال: سئل عبد الرزاق (أحد الرواة) عن شيخه ذا وهو يونس بن سليم فقال: أظنه لا شيء، والحديث رواه أحمد في «المسند»، والترمذي في «الضبير» ١٤٦/٢، والنسائي، وهو ضعيف، لأن في سننه عندهم، يونس بن سليم، هو مجهول. وقد ذكر هذا الحديث السيوطي في «الدرر» ٢/٥ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والعقيلي، والبيهقي في «الدلائل»، والضياء في «المختارة» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن كثير ٢٣٨/٣ من رواية البزار عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، قال ابن كثير: ثم قال البزار: لا نعلم أحداً رفعه إلا عدي بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ مقدم الموت.

(٣) رواه الحاكم ٣٩٣/٢ وقال: هذا حديث صحيح لولا خلاف فيه على محمد (يعني محمد بن سيرين) فقد قيل عنه مرسلأ، ولم يخرجاه. وتعبه الذهبي فقال: الصحيح أنه مرسل، ورواه ابن جرير الطبري ٢/١٨ عن محمد بن سيرين وعطاء بن أبي رباح مرسلأ.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلُونَ﴾ أي: مؤذون، فعبر عن التأدية بالفعل، لأنه فعل.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ قال الفراء: «على» بمعنى «من». وقال الزجاج: المعنى: أنهم يلامون في إطلاق ما حُظر عليهم وأمروا بحفظه، إلا على أزواجهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فإنهم لا يلامون^(١).

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَيْتَنَ﴾ أي: طلب ﴿رَزَاةَ ذَلِكَ﴾ أي: سوى الأزواج والمملوكات ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ يعني الجائرين الظالمين، لأنهم قد تجاوزوا إلى ما لا يحل، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير: «لأمانتهم» وهو اسم جنس، والمعنى: للأمانات التي ائتمنوا عليها، فتارة تكون الأمانة بين العبد وبين ربه، وتارة تكون بينه وبين جنسه، فعليه مراعاة الكل. وكذلك العهد. ومعنى ﴿رَعُونَ﴾: حافظون. قال الزجاج: وأصل الرعي في اللغة: القيام على إصلاح ما يتولاه الراعي من كل شيء.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «صلواتهم» على الجمع. وقرأ حمزة، والكسائي: «صلاتهم» على التوحيد، وهو اسم جنس. والمحافظة على الصلوات: أداؤها في أوقاتها.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ذكر السدي عن أشياخه أن الله تعالى يرفع للكفار الجنة، فينظرون إلى بيوتهم فيها لو أنهم أطاعوا، ثم تقسم بين المؤمنين فيرثونهم، فذلك قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وقد شرحنا هذا في [الأعراف: ٤٣] عند قوله: ﴿أُورِثُوهُمْ﴾، وشرحنا معنى الفردوس في [الكهف: ١٠٧].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ ﴿١١﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكَ بِمَعْدَدِكِ لَسَيُّرَةٌ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ تُنْفَخَةٌ﴾ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه آدم ﷺ. وإنما قيل: «من سُلالة» لأنه استل من كل الأرض، هذا مذهب سلمان الفارسي، وابن عباس في رواية، وقاتدة. والثاني: أنه ابن آدم، والسُلالة: النطفة استل من الطين، والطين: آدم ﷺ، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(٢). قال الزجاج: والسُلالة: فُعالة، وهي القليل مما يُنسل، وكل مبنِي على «فُعالة» يراد به القليل، من ذلك: الفُضالة، والنُخالة، والقُلامة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ يعني: ابن آدم ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ﴾ وهو الرَّجْم ﴿مَكِينٍ﴾ أي: حريز، قد هُمِيَ لاستقراره فيه. وقد شرحنا في سورة [الحج: ٥] معنى النُطفة والعلقة والمُضغَة.

قوله تعالى: ﴿مَكَفَلْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿عِظْمًا فَكَسْنَا الْعِظْمَ﴾ على الجمع. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «عظماً فكسونا العظم» على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ وهذه الحالة السابعة. قال علي ﷺ: لا تكون مؤرودة حتى تمر على التارات السبع. وفي محل هذا الإنشاء قولان: أحدهما: أنه بطن الأم. ثم في صفة الإنشاء قولان: أحدهما: أنه نفخ الروح فيه، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال أبو العالية، والشعبي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك في آخرين. والثاني: أنه جعله ذكراً أو أنثى، قاله الحسن. والقول الثاني: أنه عد خروجه من بطن أمه. ثم في صفة هذا الإنشاء أربعة أقوال: أحدها: أن ابتداء ذلك الإنشاء أنه استهل، ثم دُلَّ على الثدي، وعُلِّم كيف يبسط رجله إلى أن قعد، إلى أن قام على رجله، إلى أن مشى، إلى أن قطم، إلى أن بلغ الحُلُم، إلى أن تقلب في البلاد، رواه العوفي عن ابن

(١) قال ابن كثير ٢٣٩/٣: وقد استدلل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكَ بِمَعْدَدِكِ لَسَيُّرَةٌ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ تُنْفَخَةٌ﴾ ﴿١٥﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن القسنيين، وقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ أَيْتَنَ رَزَاةَ ذَلِكَ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ﴿١٣﴾ اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري ٨/١٨: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: ولقد خلقنا ابن آدم من سلالة آدم، وهي صفة مائه، وآدم هو الطين، لأنه خلق منه.

عباس. والثاني: أنه استواء الشباب، قاله ابن عمر، ومجاهد. والثالث: أنه خروج الأسنان والشعر، قاله الضحاك، فقيل له: أليس يوكد وعلى رأسه الشعر؟ فقال: وأين العانة والإبط؟ والرابع: أنه إعطاء العقل والفهم، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: استحق التعظيم والثناء. وقد شرحنا معنى «تبارك» في [الأعراف: ٥٤]، ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: المصوِّرين والمقدِّرين. والخلق في اللغة: التقدير. وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية وعنده عمر، إلى قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا آخَرَ﴾، فقال عمر: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال رسول الله ﷺ: «لقد خُتِمَ بما تكلمت به يا ابن الخطاب»^(١). فإن قيل: كيف الجمع بين قوله: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]؟ فالجواب: أن الخلق يكون بمعنى الإيجاد، ولا موجد سوى الله، ويكون بمعنى التقدير، كقول زهير:

[ولأنت تُفْرِي ما خَلَقْتَ] وَغَـ
ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ لِمَ لَا يَفْرِي^(٢)

فهذا المراد هاهنا، أن بني آدم قد يصوِّرون ويقدِّرون ويصنعون الشيء، فالله خير المصوِّرين والمقدِّرين. وقال الأخفش: الخالقون هاهنا هم الصانعون، فالله خير الخالقين.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا زَكَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد ما ذُكِرَ من تمام الخلق ﴿لَيْتُونَ﴾ عند انقضاء آجالكم. وقرأ أبو زرين العجلي، وعكرمة، وابن أبي عبيدة: «لمائتون» بألف. قال الفراء: والعرب تقول لمن لم يمِت: إنك مائت عن قليل، وميت، ولا يقولون للميت الذي قد مات: هذا مائت، إنما يقال في الاستقبال فقط، وكذلك يقال: هذا سيِّد قومه اليوم، فإذا أخبرت أنه يسودهم عن قليل، قلت: هذا سائد قومه عن قليل، وكذلك هذا شريف القوم، وهذا شارف عن قليل، وهذا الباب كلُّه في العربية على ما وصفت لك.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَكُهُ فِي الْأَرْضِ رِيًّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ ﴿١٧﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُم فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٨﴾ وَسَجَّرَ لَكُمْ مِنْ أَلْطَرِيفِ سَيْتَاءَ تَنْبُتٍ بِالنَّهْرِ وَمَصِيعَ الْإِبْرَةِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ يعني: السموات السبع، قال الزجاج: كل واحدة طريقة. وقال ابن تيبة: إنما سميت «طرائق» بالطارق، لأن بعضها فوق بعض، يقال: طارقت الشيء: إذا جعلت بعضه فوق بعض. قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما غفلنا عنهم إذ بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب. والثاني: ما كنا تاركين لهم بغير رزق، فأَنْزَلْنَا المطر. والثالث: لم نغفل عن حفظهم من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ يعلمه الله، وقال مقاتل: بقدر ما يكفيهم للمعيشة^(٣). قوله تعالى: ﴿وَسَجَّرَ﴾ هي معطوفة على قوله: ﴿جَنَّاتٍ﴾. وقرأ أبو مجلز، وابن يعمر، وإبراهيم النخعي: «وشجرة» بالرفع. والمراد بهذه الشجرة: شجرة الزيتون. فإن قيل: لماذا خص هذه الشجرة من بين الشجر؟ فالجواب من أربعة أوجه: أحدها: لكثرة انتفاعهم بها، فذكَّروهم من نعيمها ما يعرفون، وكذلك خص النخيل والأعناب في الآية الأولى، لأنها كانتا جُلَّ ثمار الحجاز وما والاها، وكانت النخيل لأهل المدينة، والأعناب لأهل الطائف.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٦/٥ من رواية ابن أبي شيبعة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن صالح أبي الخليل قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ مِّنْ طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَنْشَأْنَا خَلْقًا آخَرَ﴾ قال عمر: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ قال: «والذي نفسي بيده إنها ختمت بالذي تكلمت يا عمر».

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في «شرح ديوان زهير» ٩٤، و«مختار الشعر الجاهلي» ٢٦٥/١، و«الطبري» ١١/١٨، و«القرطبي» ١١٠/١٢، و«اللسان» و«التاج»: خلق.

(٣) قال ابن كثير: يذكر تعالى نعمته على عبده التي لا تعد ولا تحصى، في إزاله القطر من السماء بقدر، أي: بحسب الحاجة، لا كثير فيفسد الأرض والممران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه والسقي والشرب والانتفاع به، حتى أن الأرض التي تحتاج ماء كثيراً لزروعها، ولا تحتمل دميتها إزاله المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، ثم قال: فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور. وقال ابن جرير الطبري في تمام الآية: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ يقول جل ثناؤه: وإنما على الماء الذي أسكنناه في الأرض لقادرون أن نذهب به فتهلكوا أيها الناس عطشاً وتغرب أرضوكم فلا تنبت زرعاً ولا غرساً، وتهلك مواشيكم، يقول: فمن نعمتي عليكم تركي ذلك لكم في الأرض جأرياً.

والثاني: لأنهم لا يكادون يتعاهدونها بالسقي، وهي تُخرج الثمرة التي يكون منها الدهن. والثالث: أنها تثبت بالماء الذي هو ضد النار، وفي ثمرتها حياة للنار ومادة لها. والرابع: لأن أول زيتونة نبتت بذلك المكان فيما زعم مقاتل. قوله تعالى: ﴿طُورٍ سَيْنَاءَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «طور سيناء» مكسورة السين. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، مفتوحة السين، وكلهم مذهباً. قال الفراء: العرب تقول: سَيْنَاء، بفتح السين في جميع اللغات، إلا بني كنانة، فإنهم يكسرون السين. قال أبو علي: ولا تنصرف هذه الكلمة، لأنها جُعِلت اسماً لبقعة أو أرض، وكذلك «سينين»، ولو جُعِلت اسماً للمكان أو للمنزل أو نحو ذلك من الأسماء المذكرة لُصِرَتْ، لأنك كنت قد سميت مذكرةً بمدكر. والطور: الجبل. وفي معنى «سَيْنَاء» خمسة أقوال: أحدها: أنه بمعنى الحسن، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال الضحاك: «الطور»: الجبل بالسرانية، و«سَيْنَاء»: الحسن بالنبطية. وقال عطاء: يريد: الجبل الحسن. والثاني: أنه المبارك، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنه اسم حجارة بعينها، أضيف الجبل إليها لوجودها عنده، قاله مجاهد. والرابع: أن طور سيناء: الجبل المشجر، قاله ابن السائب. والخامس: أن سيناء: اسم المكان الذي به هذا الجبل، قاله الزجاج؛ قال الواحدي: وهو أصح الأقوال؛ قال ابن زيد: وهذا هو الجبل الذي نودي منه موسى، وهو بين مصر وأيلة^(١).

قوله تعالى: ﴿تَثَبَّتْ بِالذَّهْنِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «تَثَبَّتْ» برفع التاء وكسر الباء. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: بفتح التاء وضم الباء. قال الفراء: وهما لغتان: نبتت، وأنبتت، وكذلك قال الزجاج: يقال: نبت الشجر وأنبت في معنى واحد، قال زهير:

رَأَيْتُ ذَوِي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ
قَطِيناً لَهُمْ حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْلُ^(٢)

قال: ومعنى «تَثَبَّتْ بِالذَّهْنِ»: تثبت ومعها دهن، كما تقول: جاءني زيد بالسيف، أي: جاءني ومعه السيف. وقال أبو عبيدة: معنى الآية: تثبت الدهن، والباء زائدة، كقوله: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُلْطَأُ﴾ [الحج: ٢٥] وقد بيَّنا هذا المعنى هناك.

قوله تعالى: ﴿وَصَبِغٌ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن يعمر، وإبراهيم النخعي، والأعمش: «صِبْغاً» بالنصب. وقرأ ابن السميع: «وَصِبَاغٌ» بألف مع الخفض. قال ابن قتيبة: الصبغ يثقل الصباغ، كما يقال: دَبِغٌ وَدِبَاغٌ، وَلَيْسَ وَلِيَّاسٌ. قال المفسرون: والمراد بالصبغ هاهنا: الزيت، لأنه يلوّن الخبز إذا غُمس فيه، والمراد أنه إدام يصبغ به.

﴿وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَةً تَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ وَهِيَ تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَةً تَسْقِيكُمْ﴾ وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «تَسْقِيكُمْ» بفتح النون. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بضمها. وقد شرحنا هذا في [النحل: ٦٦] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ﴾ يعني: في ظهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها ﴿وَعَلَيْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من لحومها وأولادها والكسب عليها.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ يعني: الإبل خاصة ﴿وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ﴾ فالإبل تحمل في البر، والسفن تحمل في البحر. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّي عَدُوٌّ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَوَدَّ سَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَدْعُو حَتَّىٰ فَرَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ جِئَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ امْضُ بِنَا كَذَّبُوا﴾ ﴿فَأَرْجِنَا إِلَىٰ أَنْ أَسْنَعَ فَالِكٌ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَّيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾

(١) قال ابن جرير الطبري ١٤/١٨: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن سيناء اسم أضيف إليه الطور، يعرف به، كما قيل: جبال طبع، فأضيفا إلى طبع، ولو كان القول في ذلك كما قال من قال: معناه: جبل مبارك، أو كما قال من قال: معناه: حسن، لكان الطور متوناً، وكان قوله: «سيناء» من نعمته، على أن سيناء بمعنى: مبارك وحسن غير معروف في كلام العرب فيجعل ذلك من نعت الجبل، ولكن القول في ذلك إن شاء الله كما قال ابن عباس من أنه جبل عرف بذلك، وأنه الجبل الذي نودي منه موسى ﷺ، وهو مع ذلك مبارك، لا أن معنى سيناء معنى مبارك.

(٢) البيت في «شرح ديوان زهير بن أبي سلمى» ١١١، و«مختار الشعر الجاهلي» ٢٣٩/١، و«الطبري» ١٤/١٨، و«القرطبي» ١١٦/١٢، و«اللسان»، و«التاج»: نبت.

وَقَارَ الشُّرُورَ فَاسْتَلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَجَايَئٍ تَتَّبِعُونَ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ مُتَفَرِّقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنَّا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَاحِ فَقُلْ نُتَدَبَّرُ بِلِوِّ الْقَوْلِ نَحْنًا مِنَ الْقَوَامِ الْفَالِغِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَرْزُقْنِي كَمَا تُبَارِكُ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَبَشِيرِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَدِيدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ الْآخِرَةِ وَأُزِفْنَا لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلُكُمْ إِذْكَرُوا لَكُمْ لَحْمِيرُوتَ ﴿٣٤﴾ أَيْبَدُكُمْ أَكْثَرَ إِنَّا وَمِثْمُ وَكُنْتُمْ تُرَابًا رِيعًا لَمَّا أَكْرَمْتُمْ خَيْرًا ﴿٣٥﴾ هِيَآتْ هِيَآتٌ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ مِنْ إِلا حِسَابَنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلا رَجُلٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصِحِّحَنَّ نَدِيمِينَ ﴿٤٠﴾ فَخَلَدْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَعَمَلْتَهُمْ غَسَقَةً فَبَعَدَا لِلْقَوْمِ الْفَالِغِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَدِيدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَهْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَهُمْ رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَاهُمْ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوسًا إِكْرِيمِيَّةً﴾ قال المفسرون: هذا تعزية لرسول الله ﷺ بذكر هذا الرسول الصابر ليتأسى به في صبره، وليعلم أن الرسل قبله قد كُذِّبوا.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يعلوكم بالفضيلة، فيصير متبوعاً، ﴿وَلَوْ سَأَلَ اللَّهُ﴾ أن لا يُعبد شيء سواه ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ تبلغ عنه أمره، لم يرسل بشراً ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الذي يدعوننا إليه نوح من التوحيد ﴿فِي مَا بَيْنَنَا وَالْأَوَّلِينَ﴾. فاما الجنة فمعناها: الجنون. وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ جِئَ﴾ قولان: أحدهما: أنه الموت، فتقديره: انتظروا موته. والثاني: أنه وقت منكر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ وقرأ عكرمة، وابن محيصن: ﴿قال رب﴾ بضم الباء، وفي القصة الأخرى [المؤمنون: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿يَمَّا كَذَّبْتَنِي﴾ وقرأ يعقوب: «كذبوني» بياء، وفي القصة التي تليها أيضاً: «فاتقوني» [المؤمنون: ٥٢] أن يَحْضُرُونِي [المؤمنون: ٩٨] «رَبِّ ارْجِعُونِي» [المؤمنون: ٩٩] «وَلَا تَكْلُمُونِي» [المؤمنون: ١٠٨] أثبتهم في الحالين يعقوب، والمعنى: انصُرْنِي بتكذيبهم، أي: انصُرْنِي بإهلاكهم جزاء لهم بتكذيبهم. ﴿فَأَرْجِحْنَا لِيَوْمِهِ﴾ قد شرحناه في [مود: ٢٧] إلى قوله: ﴿فَاسْتَلَفَ فِيهَا﴾ أي: أدخل في سفينتك ﴿مِنْ كُلِّ زَجَايَئٍ تَتَّبِعِينَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «من كل» بكسر اللام من غير تنوين. وقرأ حفص عن عاصم: «من كل» بالتنوين. قال أبو علي: قراءة الجمهور إضافة «كل» إلى «زوجين»، وقراءة حفص تؤول إلى زوجين، لأن المعنى: من كل الأزواج زوجين.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْزُقْنِي كَمَا تُبَارِكُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «مُنْزَلًا» بضم الميم. وروى أبو بكر عن عاصم فتحها. والمنزَّل، بفتح الميم: اسم لكل ما نزلت به، والمنزَّل، بضمها: المصدر بمعنى الإنزال؛ تقول: أنزلته إنزالاً ومُنْزَلاً. وفي الوقت الذي قال فيه نوح ذلك قولان: أحدهما: عند نزوله في السفينة. والثاني: عند نزوله من السفينة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في قصة نوح وقومه ﴿لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا﴾ أي: وما كنا ﴿لَبَشِيرِينَ﴾ أي: لمختبرين إياهم بإرسال نوح إليهم. ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَدِيدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ يعني عاداً ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وهو هود، هذا قول الأكثرين؛ وقال أبو سلمان الدمشقي: هم ثمود، والرسول صالح. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿أَيْبَدُكُمْ أَكْثَرَ﴾ قال الزجاج: موضع «أنكم» نصب على معنى: أَيْبَدُكُمْ [أنكم] مخرجون إذا مِثْمُ، فلما طال الكلام أعيد ذكر «أن» كقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ حِكَاوِدِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَأَنْتَ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [النور: ٦٣].

قوله تعالى: ﴿هِيَآتْ هِيَآتٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «هيات هيات» بفتح التاء فيهما في الوصل، وإسكانها في الوقف. وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز، وهارون عن أبي عمرو: «هياتاً هياتاً» بالنصب والتنوين. وقرأ ابن مسعود، وعاصم الجحدري، وأبو حيوة

الحضرمي، وابن السميع: «هيئات هيئات» بالرفع والتنوين. وقرأ أبو العالية، وقاتدة: «هيئات هيئات» بالخفض والتنوين. وقرأ أبو جعفر: «هيئات هيئات» بالخفض من غير تنوين، وكان يقف بالهاء. وقرأ أبو المتوكل الناجي، وسعيد بن جبير، وعكرمة: «هيئات هيئات» بالرفع من غير تنوين، وقرأ معاذ القارئي، وابن يعمر، وأبو رجاء، وخارجة عن أبي عمرو: «هيئات هيئات» بإسكان التاء فيها. وفي «هيئات» عشر لغات قد ذكرنا منها سبعة عن القراء، والثامنة: «إيهات»، والتاسعة: «إيهان» بالنون، والعاشرة: «إيهاء» بغير نون، ذكرهن ابن القاسم؛ وأنشد الأحوص في الجمع بين لغتين منهن:

تذكُرُ أياماً مَضَيْنِ مِنَ الصُّبَا وهيئات هيئاتاً إليك رجوعها^(١)

قال الزجاج: فأما الفتح، فالوقوف فيه بالهاء، تقول: «هيها» إذا فتحت ووقفت بعد الفتح، فإذا كسرت ووقفت على التاء كنت ممن يتوّن في الوصل، أو كنت ممن لا يتوّن، وتأويل «هيئات»: البُعد لما توعدون. وإذا قلت: «هيئات ما قلت»، فمعناه: بعيد ما قلت. وإذا قلت: «هيئات لما قلت»، فمعناه: البعد لما قلت. ويقال: «أيهات» في معنى «هيئات»، وأنشدا:

وأيهات أيهات العقيقُ ومن به وأيهات وصل بالعقيق نواصله^(٢)

قال أبو عمرو بن العلاء: إذا وقفت على «هيئات» فقل: «هيها». وقال الفراء: الكسائي يختار الوقف بالهاء، وأنا أختار التاء.

قوله تعالى: ﴿لِمَا تُوَدُّونَ﴾ قرأ ابن مسعود، وابن أبي عيلة: «ما تُوعَدُونَ» بغير لام. قال المفسرون: استبعد القوم بعثهم بعد الموت إغفالاً منهم للتفكير في بدو أمرهم وقُدرة الله على إيجادهم، وأرادوا بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبداً، ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يعنون: ما الحياة إلا ما نحن فيه، وليس بعد الموت حياة. فإن قيل: كيف قالوا: ﴿تَمُوتُ وَحَيَاتِكُمْ﴾ وهم لا يقرؤون بالبعث؟ فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها الزجاج: أحدها: نموت ويحيا أولادنا، فكأنهم قالوا: يموت قوم ويحيا قوم. والثاني: نحيا ونموت، لأن الواو للجمع، لا للترتيب. والثالث: ابتداءنا مات في أصل الخلق، ثم نحيا، ثم نموت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ﴾ يعنون الرسول. وقد سبق تفسير ما بعد هذا [مود: ٧، النحل: ٣٨] إلى قوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ قال الزجاج: معنا: عن قليل، و«ما» زائدة بمعنى التوكيد.

قوله تعالى: ﴿يَصْبِحُونَ نَرِييْنَ﴾ أي: على كفرهم، ﴿فَلَاخَذْتُمُ النَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ أي: باستحقاقهم العذاب بكفرهم. قال المفسرون: صاح بهم جبريل صيحة رجفت لها الأرض من تحتم، فصاروا لشدة غناء. قال أبو عبيدة: الغناء: ما أشبه الرُيد وما ارتفع على السيل. ونحو ذلك مما لا يُنتقع به في شيء. وقال ابن قتيبة: المعنى: فجعلناهم هلكى كالغناء، وهو ما علا السيل من الرُيد والقَمْش^(٣)، لأنه يذهب ويتفرق. وقال الزجاج: الغناء: الهالك والبالى من ورق الشجر الذي إذا جرى السيل رأيت مخالطاً رُيدَه. وما بعد هذا قد سبق شرحه [الحجر: ٥] إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: «تترى كلُّما» منونة والوقف بالألف. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: بلا تنوين، والوقف عند نافع وابن عامر بالألف. وروى هبيرة، وحفص عن عاصم، أنه يقف بالياء؛ قال أبو علي: يعني بقوله: يقف بالياء، أي: بالياء مُمالة. قال الفراء: أكثر العرب على ترك التنوين، ومنهم من نوّن. قال ابن قتيبة: والمعنى: تتابع بفترة بين كل رسولين، وهو من التواتر، والأصل: وتُرى، فقُلبت الواو تاءً كما قلبوها في التَّقوى والتخمة. وحكى الزجاج عن الأصمعي أنه قال: معنى واترث الخبر: أتبعْتُ بعضه بعضاً، وبين الخبرين هَيْبَةٌ. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: ومما ترضه العامة غير موضعه قولهم: تواترث كُتبي إليك، يعنون: اتصلت من غير انقطاع، فيضمون التواتر في موضع الاتصال، وذلك غلط، إنما التواتر مجيء الشيء ثم انقطاعه ثم مجيئه، وهو

(١) «القرطبي» ١٢٢/١٢، و«اللسان»: هـ.

(٢) «القرطبي»: الرديء من كل شيء، وما كان على وجه الأرض من فئات الأشياء، ويقال لرذالة الناس: قماش.

(٣) «القرطبي» ١٢٢/١٢، وفيه: ... وأيهات جمل بالمعنى نواصله.

التفاعل من الوتر، وهو الفرد، يقال: اترت الخبر، أتبعته بعضه بعضاً، وبين الخبرين هنيئة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ أصلها «وترى» من الموازنة، فأبدلت التاء من الواو، ومعناها: متقطعة متفاوتة، لأن بين كل نبيين دهرًا طويلاً. وقال أبو هريرة: لا بأس بقضاء رمضان تترى، أي: منقطعاً. فإذا قيل: واطر فلان كتبه، فالمعنى: تابعها، وبين كل كتابين فترة.

قوله تعالى: ﴿فَأَيُّهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ أي: أهلكنا الأمم بعضهم في إثر بعض ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ قال أبو عبيدة: أي: يتمثل بهم في الشرِّ؛ ولا يقال في الخير: جعلته حديثاً.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٥٠﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَعَلٰٓئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عٰلِينَ ﴿١٥١﴾ فَقَالُوا أَتُؤْتُونَ بِآيٰتِنَا حِكْمًا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عٰبِدُونَ ﴿١٥٢﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَكَرُّوهُ﴾ أي: عن الإيمان بالله وعبادته ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عٰلِينَ﴾ أي: قاهرين للناس بالبغي والتجاوز عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عٰبِدُونَ﴾ أي: مطيعون. قال أبو عبيدة: كل من دان لمملك فهو عابد له.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتٰبَ لِمْحَدِّثٍ يُؤَدُّهُ ءَايَةً وَآيٰتِنَاهُمْ ءَلَّا يَذَّوِّبُوا ذٰلِكَ قُرْءَانٌ وَعِوِيٌّ ﴿١٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتٰبَ﴾ يعني: التوراة، أعطيها جملة واحدة بعد غرق فرعون ﴿لَمْحَدِّثٍ﴾ يعني: بني إسرائيل، والمعنى: لكي يبتدوا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ ءَايَةً﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبيدة: «آيتين» على الشنئية، وهذا كقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً﴾ [الانباء: ٩١] (١). وقد سبق شرحه.

قوله تعالى: ﴿وَأَوٰٓءَيْنَاهُمَا أَيٰوِيًّا﴾ أي: جعلناهما أيوايان ﴿إِلَىٰ رِبْوَةٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «رُبوة» بضم الراء. وقرأ عاصم، وابن عامر: بفتحها. وقد شرحنا معنى الربوة في [البقرة: ٢٦٥]، ﴿ذٰلِكَ قُرْءَانٌ﴾ أي: مستوية يستقر عليها ساكنوها، والمعنى: ذات موضع قرار. وقال الزجاج: أي: ذات مستقر ﴿وَعِوِيٌّ﴾ وهو الماء الجاري من العيون. وقال ابن قتيبة: «ذات قرار» أي: يُستقرُّ بها للعمارة، «وعيين» هو الماء الظاهر، ويقال: هو مُعْمُول من العين، كأن أصله معيون، كما يقال: ثوب مَخِيْط، وِبُرٌّ مَكِيْل. واختلف المفسرون في موضع هذه الربوة الموصوفة على أربعة أقوال: أحدها: أنها دمشق، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال عبد الله بن سلام، وسعيد بن المسيب. والثاني: أنها بيت المقدس، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال قتادة. وعن الحسن كالقولين. والثالث: أنها الرملة من أرض فلسطين، قاله أبو هريرة. والرابع: مصر، قاله وهب بن منبه، وابن زيد، وابن السائب (٢). فأما السبب الذي لأجله أُوتِيَ إلى الربوة، فقال أبو صالح عن ابن عباس: فَرَّتْ مريم بآبئها عيسى من ملكهم، ثم رجعت إلى أهلها بعد اثنتي عشرة سنة. قال وهب بن منبه: وكان الملك أراد قتل عيسى.

﴿بِآيٰتِنَا أَرْسَلْنَا كُلًّا مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صٰلِحًا ءَلَّا يَسٰءَلْتُمْ عِلْمِيَّ ﴿١٥٦﴾ وَإِن هٰذِهِ ءَايٰتُنَا لَمُنْذِرَةٌ وَأَنَّا نَبُحِّثُكُمْ فَاذْكُرُونِ ﴿١٥٧﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْهٰرَهُم بِبَيْنِهِمْ ذُرًّا مِّنْ كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحٰوْنٌ ﴿١٥٨﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَمْرِيَّتِهِمْ حَتَّىٰ جِيءَ ﴿١٥٩﴾ بِمَعْسُونٍ أَمَّا يُذِئِدُهُم بِهٖ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٌ ﴿١٦٠﴾ تَسٰجِعٌ لِّمَن فِي الْفِرْيٰدِ يَلَّ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بِآيٰتِنَا أَرْسَلْنَا﴾ قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقاتدة في آخرين: يعني بالرسول هاهنا محمداً ﷺ

(١) قال ابن كثير ٢٤٦/٣: يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ أنه جعلهما آية للناس، أي: حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. اهـ.

(٢) قال الطبري: وأولى الأقوال بتأويل ذلك أنها مكان مرتفع ذو استواء وماء ظاهر، وليس كذلك صفة الرملة، لأن الرملة لا ماء بها معين، والله تعالى يذِّكُّه وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومعين. وقال ابن كثير عن القول الرابع الذي قاله وهب بن منبه: وهو بعيد جداً. ثم قال: وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العمري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَوٰٓءَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رِبْوَةٍ نَّاتٍ قَلْبٍ وَبَيْنِ﴾ قال: المعين: الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿فَدَّجَلَ رَبِّي نَهْرًا فَيَجْرِي فِيهِ سُرًّا﴾ وكذا قال الضحاك وقاتدة ﴿إِلَىٰ رِبْوَةٍ نَّاتٍ قَلْبٍ وَبَيْنِ﴾: هو بيت المقدس، فهنا - والله أعلم - هو الأظهر، لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

وحده، وهو مذهب العرب في مخاطبة الواحد خطاب الجميع، ويتضمن هذا أن الرسل جميعاً كذا أمروا، وإلى هذا المعنى ذهب ابن قتيبة، والزجاج^(١)، والمراد بالطيبات: الحلال. قال عمرو بن شرحبيل: كان عيسى ﷺ يأكل من غَزَلِ أُمِّهِ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «وَأَنَّ» بالفتح وتشديد النون. وافق ابنُ عامر في فتح الألف، لكنه سَكَنَ النون. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «وَأَنَّ» بكسر الألف وتشديد النون. قال الفراء: من فتح، عطف على قوله: ﴿إِنِّي يَمَّا تَمَلُّونَ عَلَيْهِ﴾ وبأَنَّ هذه أُمَّتُكُمْ، فموضعها خفض لأنها مردودة على «ما»؛ وإن شئت كانت منصوبة بفعل مضمر، كأنك قلت: واعلموا هذا؛ ومن كسر استأنف. قال أبو علي الفارسي: وأما ابن عامر، فإنه خفف النون المشددة، وإذا خُفِّتْ تعلق بها ما يتعلّق بالمشددة. وقد شرحنا معنى الآية والتي بعدها في [الأنبياء: ٩٢] إلى قوله: ﴿زُبُرًا﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو عمران الجوني: «زُبُرًا» برفع الزاي وفتح الباء. وقرأ أبو الجوزاء، وابن السميع: «زُبُرًا» برفع الزاي وإسكان الباء. قال الزجاج: من قرأ «زُبُرًا» بضم الباء، فتأويله: جعلوا دينهم كُتُبًا مختلفة، جمع زُبُور. ومن قرأ «زُبُرًا» بفتح الباء، أراد قطعاً.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: بما عندهم من الدين الذي ابتدعوه مُعْجِبُونَ، يرون أنهم على الحق. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم أهل الكتاب، قاله مجاهد. والثاني: أنهم أهل الكتاب ومشركو العرب، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي فَرِحَينَ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب: «في غمراتهم» على الجمع. قال الزجاج: في غمائمهم وخيرتهم، «حَقَّ حِينٍ» أي: إلى حين يأتيهم ما وعدوا به من العذاب. قال مقاتل: يعني كفار مكة.

فصل

وهل هذه الآية منسوخة، أم لا؟ فيها قولان: أحدهما: أنها منسوخة بآية السيف. والثاني: أن معناها التهديد، فهي محكمة.

قوله تعالى: ﴿أَيُّسِبُونَ أَنَّمَا يُنذِرُ بِدِينِهِ﴾ وقرأ عكرمة، وأبو الجوزاء: «يُؤمِّدُهُم» بالياء المرفوعة وكسر الميم. وقرأ أبو عمران الجوني: «نَمُدُّهُمْ» بتون مفتوحة ورفع الميم. قال الزجاج: المعنى: أيحسبون أن الذي نمدهم به «بِئْسَ نَالٍ وَبِئْسَ» مجازاة لهم! إنما هو استدراج، «تُنَادِي لَكُمْ فِي النَّفِيرِ» أي: نسارع لهم به في الخيرات. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وأيوب السخيتاني: «يُسَارِعُ» بياء مرفوعة وكسر الراء. وقرأ معاذ القارئ، وأبو المتوكل مثله، إلا أنهما فتحا الراء. وقرأ أبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «يُسْرِعُ» بياء مرفوعة وسكون السين ونصب الراء من غير ألف.

قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لَآ يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن ذلك استدراج لهم.

(١) ذكر الطبري أن المراد بقوله تعالى: ﴿بِئْسَ لَآ يَشْكُرُونَ﴾ عيسى ابن مريم ﷺ، كما تقول في الكلام للرجل الواحد: كلُّوا عنا أذاكم، وكما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّكُمْ يَرُدُّونَ أَدْبَارَكُمُ﴾ والمراد رجل واحد. وقال القرطبي: قال بعض العلماء: والخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ وأنه أقامه مقام الرسل، وقال: قال الزجاج: هذه مخاطبة للنبي ﷺ، ودل الجمع على أن الرسل كلُّهم كذا أمروا، أي: كلوا من الحلال. وقال ابن كثير: يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء ﷺ بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً، ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً، قال: وقال الحسن البصري في قوله: ﴿بِئْسَ لَآ يَشْكُرُونَ﴾ قال: أما والله ما أمركم بأصغركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه.

(٢) وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة مرفوعاً: دعا بعث الله نبياً إلا وهى الغنم قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم» وأنا كنت أرحاها على قرابيط لأهل مكة. وفي «الصحيح» أيضاً أن داود ﷺ كان يأكل من كسب يده. وفي «صحيح مسلم» ٧٠٣/٢ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿بِئْسَ لَآ يَشْكُرُونَ﴾ كذا أمروا، أي: كلوا من الحلال» وقال: «بِئْسَ لَآ يَشْكُرُونَ» ما زلت أرى من كسب يده، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وهذلي بالحرام، فإني يستجاب للفقير!.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْتُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَبَالَةٌ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْمَكْرِاتِ وَهُمْ لَمْ يَسْمُخُوا ﴿٦١﴾﴾

ثم ذكر المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وقد شحرننا هذا المعنى في قوله: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (١) [الأنبياء: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا﴾ وقرأ عاصم الجحدري: «يأتون ما أتوا» بقصر همزة «أتوا». وسألت عائشة رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقالت: يا رسول الله، أهم الذين يؤتوني وهم مشفقون؟ فقال: «لا، بل هم الذين يصلون وهم مشفقون، ويصومون وهم مشفقون، ويتصدقون وهم مشفقون أن لا يتقبل منهم» (٢). قال الزجاج: فمعنى «يؤتون» يعطون ما أعطوا وهم يخافون أن لا يتقبل منهم، «أَتَتْهُمُ إِلَى رَبِّهِمْ رُجُوعًا» أي: لأنهم يوقنون أنهم يرجعون. ومعنى «يأتون»: يعملون الخيرات وقلوبهم خائفة أن يكونوا مع اجتهادهم مقصرين، «أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْمَكْرِاتِ» وقرأ أبو المتوكل، وابن السميعف: «يسرعون» برفع الياء وإسكان السين وكسر الراء من غير ألف. قال الزجاج: يقال: أسرعت وسارعت في معنى واحد، إلا أن «سارعت» أبلغ من «أسرعت»، «وَهُمْ لَمْ يَسْمُخُوا» أي: من أجلها، وهذا كما تقول: أنا أكرم فلاناً لك، أي: من أجلك. وقال بعض أهل العلم: الرجل المذكور هاهنا واقع على مُضْمَر.

﴿وَلَا تَكُنْ لِقَاسٍ إِلَّا سَمِعْتَهَا وَدَلَّكَ كِتَابٌ يَلْقَىٰ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يَظْلُمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عِثْرُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا جَعْرَؤَا الْيَوْمَ لِأَنَّ يَوْمًا لَا تَصْرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكَثَّرْتُمْ عَلَيْكُمْ آفَاقِكُمْ تَنكَبُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْتَجِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَلَّكَ كِتَابٌ﴾ يعني: اللوح المحفوظ ﴿يَلْقَىٰ بِالْحَقِّ﴾ قد أثبت فيه أعمال الخلق، فهو ينطق بما يعملون ﴿وَهُوَ لَا يَظْلُمُونَ﴾ أي: لا يُنْقِصُونَ من ثواب أعمالهم. ثم عاد إلى الكفار، فقال: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ مِنْ هَذَا﴾ قال مقاتل: في غفلة عن الإيمان بالقرآن. وقال ابن جرير: في عمى عن هذا القرآن. قال الزجاج: يجوز أن يكون إشارة إلى ما وصف من أعمال البر في قوله: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْمَكْرِاتِ﴾، فيكون المعنى: بل قلوب هؤلاء في عماية من هذا؛ ويجوز أن يكون إشارة إلى الكتاب، فيكون المعنى: بل قلوبهم في غمرة من الكتاب الذي ينطق بالحق وأعمالهم مُخَصَّصَةٌ فِيهِ. فخرج في المشار إليه بـ«هذا» ثلاثة أقوال: أحدها: القرآن. والثاني: أعمال البر. والثالث: اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْمَلُوا مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أعمال سيئة دون الشرك، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: خطايا من دون ذلك الحق، قاله مجاهد. وقال ابن جرير: من دون أعمال المؤمنين وأهل التقوى والخشية. والثالث: أعمال غير الأعمال التي ذكروا بها سيعملونها، قاله الزجاج. والرابع: أعمال - من قبل الحين الذي قدر الله تعالى أنه يعذبهم عند مجيئه - من المعاصي، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿هُمُ لَهَا عِثْرُونَ﴾ إخبار بما سيعملونه من أعمالهم الخبيثة التي كُتبت عليهم لا بد لهم من عملها (٣).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ أي: أغنياءهم ورؤساءهم، والإشارة إلى قريش. وفي المراد «بالعذاب» قولان: أحدهما: ضرب السيوف يوم بدر، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك. والثاني: الجوع الذي عُذِّبُوا بِهِ سَبْعَ سِنِينَ، قاله ابن السائب. و«يَجْعَرُونَ» بمعنى: يصيحون. ﴿لَا جَعْرَؤَا الْيَوْمَ﴾ أي: لا تستغيثوا من العذاب ﴿إِنَّكُمْ يَوْمًا لَا

(١) قال ابن كثير ٣/٣٤٨: أي: هم مع إيمانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله، خائفون منه، ورجلون من مكروه بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وثقفة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً.

(٢) رواه أحمد في «المستند»، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وذكره السيوطي في «الدر» ١١/٥ وزاد نسبه للفرابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي الدنيا في «فتن الخافضين»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عائشة ؓ.

(٣) قال ابن كثير: أي: قد كُتبت عليهم الأعمال السيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحقق عليهم كلمة العذاب. اهـ.

فَصْرُونَ» أي: لا تمنعون من عذابنا. ﴿فَدَّ كَأَنَّ عَائِي تُلْتَمَسُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: القرآن ﴿فَكُنْتُ عَلَا أَتَقَلِّبُكُمْ نَكُصُونَ﴾ أي: ترجعون وتتأخرون عن الإيمان بها، ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ منصوب على الحال. وقوله: ﴿بِهِ﴾ الكناية عن البيت الحرام، وهي كناية عن غير مذكور؛ والمعنى: إنكم تستكبرون وتفخرون بالبيت والحرم، لأنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم. تقولون: نحن أهل الحرم فلا نخاف أحداً، ونحن أهل بيت الله وولائته، هذا مذهب ابن عباس وغيره. قال الزجاج: ويجوز أن تكون الهاء في «به» للكتاب، فيكون المعنى: تُحَدِّثْ لَكُمْ تِلَاوَتَهُ عَلَيْكُمْ اسْتِكْبَاراً.

قوله تعالى: ﴿سَمِيرًا﴾ قال أبو عبيدة: معناه: تَهْجُرُونَ سَمَاراً، والسامر بمعنى السَّمَار، بمنزلة طفل في موضع أطفال، وهو من سَمَرَ الليل. وقال ابن قتيبة: «سامراً» أي: متحدثين ليلاً، والسَمَر: حديث الليل. وقرأ أبي بن كعب، وأبو العالية، وابن محيصن: «سَمْرًا» بضم السين وتشديد الميم وفتحها، جمع سامر. وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري: «سَمَاراً» برفع السين وتشديد الميم وألف بعدها.

قوله تعالى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «تَهْجُرُونَ» بفتح التاء وضم الجيم. وفي معناها أربعة أقوال: أحدها: تهجرون ذَكَرَ الله والحق، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: تهجرون كتاب الله تعالى ونبيه ﷺ، قاله الحسن. والثالث: تهجرون البيت، قاله أبو صالح. وقال سعيد بن جبیر: كانت قريش تُسَمِّرُ حول البيت، وتفخر به ولا تطوف به. والرابع: تقولون هُجْرًا من القول، وهو اللغو والهذيان، قاله ابن قتيبة. قال الفراء: يقال: قد هَجَرَ الرجل في منامه: إذا هذى، والمعنى: إنكم تقولون في رسول الله ﷺ ما ليس فيه وما لا يَصْرُهُ. وقرأ ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وقتادة، وابن محيصن، ونافع: «تَهْجُرُونَ» بضم التاء وكسر الجيم. قال ابن قتيبة: وهذا من الهُجْر، وهو السَّبُّ والإفحاش من المنطق^(١)، يريد سبهم للنبي ﷺ ومن أتبعه. وقرأ أبو العالية، وعكرمة، وعاصم الجحدري، وأبو نهيك: «تَهْجُرُونَ» بتشديد الجيم ورفع التاء؛ قال ابن الأبياري: ومعناها معنى قراءة ابن عباس.

﴿أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَمْ لَمْ يَسْمَعُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴿٦٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْبَرْتُمْ لِحَقِّ كُرْهُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ يعني: القرآن، فيعرفوا ما فيه من الدلالات والعيبر على صدق رسولهم ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ المعنى: ليس قد أرسل الأنبياء إلى أممهم كما أرسل محمد ﷺ؟! ﴿أَمْ لَمْ يَسْمَعُوا رَسُولَهُمْ﴾ هذا توبيخ لهم، لأنهم عرفوا نبيه وصدقه وأمانته صغيراً وكبيراً ثم أعرضوا عنه. والجنَّة: الجنون، ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ يعني القرآن.

﴿وَلَوْ أَنَّبَحَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ بَلْ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ لَّيَسَّرَنَّا عَلَيْكُمْ خَرَجَهُنَّ ﴿٧٠﴾ فَخَرَجُوا مِنْكُمْ خَيْرَ خَيْرِ الْأَرْبَابِ ﴿٧١﴾ وَإِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّبَحَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ في المراد بالحق قولان: أحدهما: أنه الله ﷻ، قاله مجاهد، وابن جريج، والسدي في آخرين. والثاني: أنه القرآن، ذكره الفراء، والزجاج. فعلى القول الأول يكون المعنى: لو جعل الله لنفسه شريكاً كما يحبون. وعلى الثاني: لو نزل القرآن بما يحبون من جعل شريك لله ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ بَلْ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ لَّيَسَّرَنَّا عَلَيْكُمْ خَرَجَهُنَّ ﴿٧٠﴾ أي: بما فيه شرفهم وفخرهم، وهو القرآن ﴿فَهَمُّرٌ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُنْجِسُونَ﴾ أي: قد تولوا عما جاءهم من شرف الدنيا والآخرة. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: ﴿بَلْ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ لَّيَسَّرَنَّا عَلَيْكُمْ خَرَجَهُنَّ﴾ بضم الخاء وفتحها، أي: قد تولوا عما جاءهم من ذكراهم مُغْرَضُونَ، بألف فيهما. ﴿أَمْ تَتْلُوهُنَّ﴾ عما جنتهم به ﴿خَرَجًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: «خَرَجًا» بغير ألف [«فخراج» بألف]. وقرأ ابن عامر: «خَرَجًا فخرج» بغير ألف في الحرفين. وقرأ حمزة، والكسائي: «خراجاً» بألف [«فخراج» بألف في الحرفين. ومعنى «خَرَجًا»: أجراً ومالاً، ﴿فَخَرَجُ رَبِّكَ﴾ أي: فما يُعطيك

(١) في «غريب القرآن»: وهو السب والإفحاش في المنطق.

رُبِّكَ من أجره وثوابه ﴿حَبِطَ وَيَوْمَ هَبَّتْ الَّرِّيْحُ﴾ أي: أفضل من أعطى؛ وهذا على سبيل التنبية لهم أنه لم يسألهم أجراً، لا أنه قد سألهم. والتائب: العادل؛ يقال: نكَبَ عن الطريق، أي: عدَل عنه.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّتُنَّهُمْ ﴿٧٤﴾ وَكَوَّ رَحْمَتُهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ شَرِّ اللَّعْنَةِ فِي طُعْنَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴿٧٥﴾ وَكَفَدْنَا لَهُمُ الْعَذَابَ مَا اسْتَغَارُوا لَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿٧٦﴾ حَقَّ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَوَّ رَحْمَتُهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ شَرِّ﴾ قال ابن عباس: الضَّرَّ هاهنا: الجوع الذي نزل بأهل مكة حين دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم أعطني على قريش بسنين كسني يوسف»^(١)، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه الضَّرَّ، وأنهم قد أكلوا القِدَّ^(٢) والعظام، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، وهو العذاب المذكور في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوم بدر، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه الجوع الذي أصابهم، قاله مقاتل. والثالث: بابٌ من عذاب جهنم في الآخرة، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو المتوكل، وأبو نهبك، ومعاذ القارئ: «مبلسون» بفتح اللام. وقد شرحنا معنى المُبلس في [الأنعام: ٤٥].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا يَسْقُونَ ﴿٨١﴾ بَلْ قَالُوا يَسْقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا أَوَآدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَاكِمًا وَعَطَمْنَا أَوْآدًا لَسْمُورًا ﴿٨٣﴾ لَقَدْ وَجَدْنَا حَمْرًا وَبَابًا هَذَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأُولَى ﴿٨٤﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ قال المفسرون: يريد أنهم لا يشكرون أصلاً.

قوله تعالى: ﴿ذَكَرَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم من الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: هو الذي جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما ترون من صنعه! وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ﴾ أي: قل لأهل مكة المكذبين بالبعث: لِمَنِ الْأَرْضُ ﴿وَمَنْ فِيهَا﴾ من الخلق ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بحالها، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو: «الله» بغير ألف هاهنا، وفي اللذين بعدها بالف. وقرأ الباقون: «الله» في المواضع الثلاثة. وقرأه أبي عمرو على القياس. قال الزجاج: ومن قرأ: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ» فهو جواب السؤال، ومن قرأ «الله» فحجيد أيضاً، لأنك إذا قلت: مَنْ صاحب هذه الدار؟ فقيل: لزيد، جاز، لأن معنى «مَنْ صاحب هذه الدار؟»: لمن هي؟ وقال أبو علي الفارسي: من قرأ «الله» في الموضوعين الآخرين، فقد أجاب على المعنى دون ما يقتضيه اللفظ. وقرأ سعيد بن جبير، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ» «الله» «الله» بالف فيهن كلهن. قال أبو علي الأهوازي: وهو في مصاحف أهل البصرة بالف فيهن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتداءً، أقدر على إحياء الأموات!؟

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٨﴾ قُلْ مَنْ يَمْلِكُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيبُ وَلَا يَحْصُرُ عَلَيْهِ إِذْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: تتقون عبادة غيره. والثاني: تخشون عذابه. فاما الملكوت، فقد

شرحناه في [الأنعام: ٧٥].

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ١٧٩، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٢/٥، وأصله في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استمعوا فقال: «اللهم أمني عليهم ببع كسيع يوسف».

(٢) قال في «اللسان»: القِدُّ: السير الذي يقدُّ من الجلد، وذكر كثير من المفسرين أنهم أكلوا العليز، وهو الوبر والدم.

قوله تعالى: ﴿وَمُرُّ يَجْرِ وَلَا يَجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: يمنع [من] السوء من شاء، ولا يمنع منه من أراد به سوء، يقال: أجزت فلاناً أي: حميته، وأجزت عليه أي: حميت عنه.

قوله تعالى: ﴿فَأَن تَسْحُرُون﴾ قال ابن قتيبة: أتى تُخَذَعُونَ وتُضَرَفُونَ عن هذا؟
﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنَ الْإِلَهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّاهُمْ عَلَى بَعْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَمَلَّكَ عَمَّا يَشْرَكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالتوحيد والقرآن ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يُضيفون إلى الله من الولد والشريك: ثم نفاهما عنه بما بعد هذا إلى قوله: ﴿إِنَّا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ﴾ أي: لا نفرد بخلقِه ولم يرض أن يُضاف خلقُه وإنعامه إلى غيره، ولمنع الإله الآخر عن الاستيلاء على ما خلق ﴿وَلَمَّا لَبَّاهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: غلب بعضهم بعضاً.

قوله تعالى: ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «عالم» بالخفض. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «عالم» بالرفع. قال الأخفش: الجرُّ أجود، ليكون الكلام من وجه واحد، والرفع، على أن يكون خبر ابتداء محذوف، ويقويه أن الكلام الأول قد انقطع.

﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا رَسَّيَ مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَإِنَّا عَلَيَّ أَنْ تُرِيكَ مَا تَدْعُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ ﴿أَدْعُ بِأَلْفِي مِنْ أَحْسَنِ السَّنِيئَةِ عَمَّنْ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا رَسَّيَ﴾ وقرأ أبو عمران الجوني، والضحاك: «تركتي» بالهمز بين الراء والنون من غير ياء. والمعنى: إن أرئتني ما يوعدون من القتل والعذاب، فاجعلني خارجاً عنهم ولا تُهلكني بهلاكهم؛ فأراه الله تعالى ما وعدهم بيدر وغيرها، ونجاه ومن معه.

قوله تعالى: ﴿أَدْعُ بِأَلْفِي مِنْ أَحْسَنِ السَّنِيئَةِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: ادفع إساءة المسيء بالصفح، قاله الحسن. والثاني: ادفع الفُحش بالسلام، قاله عطاء، والضحاك. والثالث: ادفع الشرك بالتوحيد، قاله ابن السائب. والرابع: ادفع المنكر بالموعظة، حكاها الماوردي. وذكر بعض المفسرين أن هذا منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿عَمَّنْ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يقولون من الشرك والتكذيب؛ والمعنى: إِنَّا نجازيهم على ذلك. ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ﴾ أي: الجأ وامتنع ﴿بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ قال ابن قتيبة: هو نَحْسُهَا وَطَعْنُهَا، ومنه قيل للعائب: هَمَزَةٌ، كأنه يطعن ويتنحس إذا عاب. وقال ابن فارس: الهَمْزُ كالعَضْر، يقال: همزت الشيء في كَفْي، ومنه الهَمْزُ في الكلام، لأنه كأنه يضغط الحرف، وقال غيره: الهَمْزُ في اللغة: الدَّفْعُ، وهَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ: دَفْعُهُم بِالْإِغْوَاءِ إِلَى الْمَعَاصِي.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي: أن يشهدون؛ والمعنى: أن يصيبوني بسوء، لأن الشيطان لا يحضر ابن آدم إلا بسوء. ثم أخبر أن هؤلاء الكفار المنكرين للبعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند الموت بالآية التي تلي هذه، وقيل: هذا السؤال منهم للملائكة الذين يقبضون أرواحهم. فإن قيل: كيف قال: «ارجعون» وهو يريد: «ارجعني»؟، فالجواب: أن هذا اللفظ تعرفه العرب للعظيم الشأن، وذلك أنه يخبر عن نفسه [فيه] بما تخبر به الجماعة، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ ﴿ق: ٤٣﴾، فجاء خطابه كإخباره عن نفسه، هذا قول الزجاج.

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿لَمَّا أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ مَرُّ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْحٌ﴾ ﴿إِنْ يَرَوْهُ يُحِبُّونَ﴾ ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ ﴿مَنْ تَلَّكَ مَرْزِقًا فَإِنَّكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَمَنْ حَفَّ مَرْزِقًا فَإِنَّكَ الْبَائِسُ الْخَائِبُ﴾ ﴿تَلَّحَّ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَمَنْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَمَّا أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال ابن عباس: فيما مضى من عمري؛ وقال مقاتل: فيما تركت من العمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يرجع إلى الدنيا ﴿إِنَّهَا﴾ يعني: مسألته الرجعة ﴿كَلِمَةٌ مَرُّ قَائِلُهَا﴾ أي: هو كلام لا

فائدة له فيه ﴿وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم وبين أيديهم ﴿بِرِزْقٍ﴾ قال ابن قتيبة: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، وكل شيء بين شيئين فهو برزخ. وقال الزجاج: البرزخ في اللغة: الحاجز، وهو هاهنا: ما بين موت الميت وبعثه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ في هذه النفخة قولان: أحدهما: أنها النفخة الأولى، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: أنها الثانية، رواه عطاء عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في الكلام محذوف، تقديره: لا أنساب بينهم يومئذ يتفاخرون بها أو يتقاطعون بها، لأن الأنساب لا تنقطع يومئذ، إنما يُرْفَعُ التواصل والتفاخر بها. وفي قوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لا يتساءلون بالأنساب أن يترك بعضهم لبعض حقّه. والثاني: لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه، لاشتغال كل واحد بنفسه. والثالث: لا يسأل بعضهم بعضاً من أي قبيل أنت، كما تفعل العرب لتعرف النسب فتعرف قدر الرجل. وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الأعراف: ٨] إلى قوله: ﴿تَلَفَّحَ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ قال الزجاج: تلفح وتنفح بمعنى واحد، إلا أن التلفح أعظم تأثيراً، والكالغ: الذي قد تشمّرت شفته عن أسنانه، نحو ما ترى [من] (١) رؤوس الغنم إذا برزت الأسنان وتشمّرت الشفاه. وقال ابن مسعود: قد بدت أسنانهم وتقلّصت شفاههم كالرأس المشيط بالنار. وروى أبو عبد الله الحاكم في «صحيحه» من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية: «تشويه النار فتقلّص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرّته» (٢).

﴿أَلَمْ تَكُنْ مِّنَ الَّذِينَ نَتَلَقُ عَلَيْكَ كَثُورًا كَثُورًا﴾ ﴿١٥٦﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا سِقُونًا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٥٧﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٥٨﴾ قَالَ أَسْتَشْرُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا يَفْقَهُونَ ﴿١٦٠﴾ وَأَنْتَ حَزِينٌ الرَّبِّينَ ﴿١٦١﴾ فَأَخَذْتَهُمْ صِغْرًا حَتَّى أَصْرَقُوا ذُرِّيَّ وَكُنْتُم مِّنْهُمْ تَضْحِكُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاقِرُونَ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ المعنى: ويقال لهم: ألم تكن ﴿مِّنَ الَّذِينَ نَتَلَقُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: القرآن. ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا سِقُونًا﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «سِقُونًا» بكسر الشين من غير ألف، وقرأ عمرو بن العاص، وأبو رزين العقيلي، وأبو رجاء العطاردي كذلك، إلا أنه بفتح الشين. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، والأعمش، وحمزة، والكسائي: «سِقَاوُنًا» بألف مع فتح الشين والقاف؛ وعن الحسن، وقتادة كذلك، إلا أن الشين مكسورة. قال المفسرون: أقرّ القوم بأن ما كتبت عليهم من الشقاء منهم الهدى.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من النار. قال ابن عباس: طلبوا الرجوع إلى الدنيا ﴿فَإِن عُدْنَا﴾ أي: إلى الكفر والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿أَسْتَشْرُوا﴾ قال الزجاج: تباعدوا تباعد سخط، يقال: خَسَأْتُ الكلب أَحْسَوْهُ: إذا زجرته ليتباعد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ أي: في رفع العذاب عنكم. قال عبد الله بن عمرو: إن أهل جهنم يدعون مالكا أربعين عاماً، فلا يجيبهم، ثم يقول: ﴿إِنَّكَ تَكْفُرُونَ﴾ [الزخرف: ١٧]، ثم ينادون ربّهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ فيدعهم مثل عمر الدنيا، ثم يقول: ﴿إِنَّكَ تَكْفُرُونَ﴾ ثم ينادون ربّهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ فيدعهم مثل عمر الدنيا، ثم يردّ عليهم ﴿أَسْتَشْرُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان، إلا الزفير والشهيق. ثم بيّن الذي لأجله أخسأهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «أَنَّهُ» بفتح الهمزة ﴿كَانَ قَوْمًا يَفْقَهُونَ﴾ قال ابن عباس: يريد المهاجرين.

(١) زيادة من «اللسان».

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» ٣٩٥/٢ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهو من رواية أبي السمع دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال الحافظ في «التقريب» عن دراج أبي السمع: صدوق في حديثه، عن أبي الهيثم ضعيف. والحديث رواه أحمد في «المسند»، والترمذي وقال: حسن غريب. وذكره السيوطي في «الدرر» ١٦/٥ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «صفة النار»، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الحلية».

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ﴾ قال الزجاج: الأجود إدغام الذال في التاء لقرب المخرجين، وإن شئت أظهرت، لأن الذال من كلمة والتاء من كلمة، وبين الذال والتاء في المخرج شيء من التباعد.

قوله تعالى: ﴿يَسْخَرُونَ﴾ قرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وأبو حاتم عن يعقوب: «سُخْرِيًّا» بضم السين هاهنا وفي [ص: ٦٣]، تابعهم المفضل في [ص: ٢٢]. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: بكسر السين في السورتين. ولم يختلف في ضم السين في الحرف الذي في [الزخرف: ٣٢]. واختار الفراء الضم، والزجاج الكسر. وهل هما بمعنى؟ فيه قولان: أحدهما: أنهما لغتان ومعناهما واحد، قاله الخليل، وسيبويه، ومثله قول العرب، بحر نُجِّيٍّ وليجِّيٍّ، وكوكبٌ دُرِيٌّ ودُرِيٌّ. والثاني: أن الكسر بمعنى الهمز، والضم بمعنى: السُخْرَةُ والاستعباد، قاله أبو عبيدة، وحكاه الفراء، وهو مروى عن الحسن، وقاتدة. قال أبو علي: قراءة من كسر أرجح من قراءة من ضم، لأنه من الهزة، والأكثر في الهزة كسر السين. قال مقاتل: كان رؤوس كفار قريش كأبي جهل وعقبة [والوليد] قد اتخذوا فقراء أصحاب رسول الله ﷺ كعمَّار وبلال وخبَّاب وصهيب يسخرئون بهم ويضحكون منهم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ أَشْرَكْتُمْ ذِكْرِي﴾ أي: أنساكم الاشتغال بالاستهزاء بهم ذكري، فنسب الفعل إلى المؤمنين وإن لم يفعلوه، لأنهم كانوا السبب في وجوده، كقوله: ﴿إِنِّي أَنشَأَنَّ كَبِيرًا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَّوْا﴾ أي: على أذاكم واستهزائكم «أَنَّهُمْ» قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «أَنَّهُمْ» بفتح الألف. وقرأ حمزة، والكسائي: «إِنَّهُمْ» بكسرها. فمن فتح «أَنَّهُمْ» فالمعنى: جزيتهم بصبرهم الفؤاد، ومن كسر «إِنَّهُمْ»، استأنف.

﴿قُلْ كَمْ يَبْتَئِرُ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِيبَةٍ﴾ ﴿قَالُوا لَيْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ قَسَتِ الْعَايِنِ﴾ ﴿قُلْ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِنَّتُمْ لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَمْ يَبْتَئِرُ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «قال كم لبستم» وهذا سؤال الله تعالى للكافرين. وفي وقته قولان: أحدهما: أنه يسألهم يوم البعث. والثاني: بعد حصولهم في النار. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: «قل كم لبستم» وفيها قولان: أحدهما: أنه خطاب لكل واحد منهم، والمعنى: قل يا أيها الكافر. والثاني: أن المعنى: قولوا، فأخرجه مخرج الأمر للواحد، والمراد الجماعة، لأن المعنى مفهوم. وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي يدغمون ثاء «لبستم»، والباقيون لا يدغمونها؛ فمن أدغم، فلتقارب مخرج التاء والتاء، ومن لم يدغم، فلتباين المخرجين. وفي المراد بالأرض قولان. أحدهما: أنها القبور، والثاني: الدنيا. فاحترق القوم ما لبثوا لما عاينوا من الأهوال والعذاب فقالوا: ﴿لَيْنًا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ﴾ قال الفراء: والمعنى: لا ندري كم لبثنا. وفي المراد بالعائدين قولان: أحدهما: الملائكة، قاله مجاهد. والثاني: الحُساب، قاله قاتدة. وقرأ الحسن، والزهري، وأبو عمران الجوني، وابن يعمر: «العائدين» بتخفيف الدال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ لَيْتُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «قال إن لبستم». وقرأ حمزة، والكسائي: «قل إن لبستم» على معنى: قل أيها السائل عن لبثهم. وزعموا أن في مصحف أهل الكوفة «قل» في الموضعين، فقراهما حمزة، والكسائي على ما في مصاحفهم، أي: ما لبثتم في الأرض ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأن مكثهم في الأرض وإن طال، فإنه مُتَّوًّا، ومكثهم في النار لا يتناهى. وفي قوله: ﴿لَوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: لو علمتم قدر لبثكم في الأرض. والثاني: لو علمتم أنكم إلى الله ترجعون، فعملتم لذلك.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أي: أفظننتم ﴿أَنمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: للعب؛ والعبث في اللغة: اللعب، وقيل: هو الفعل لا لغرض صحيح، ﴿وَأَنْكُمْ إِنَّتُمْ لَا تُرْجَعُونَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: «لا تُرْجَعُونَ» بضم التاء. وقرأ حمزة، والكسائي بفتحها. ﴿فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ﴾ عمًا يصفه به الجاهلون من الشُّرك والولد، ﴿الْمَلِكُ﴾ قال الخطابي: هو التام

المَلِكُ الجامع لأصناف المملوكات. وأما المالك: فهو الخالص المَلِكُ. وقد ذكرنا معنى «الحق» في (يونس: ٣٢).
 قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَرْثِينَ الْكَرِيمُ﴾ والكريم في صفة الجماد بمعنى: الحسن. وقرأ ابن محيصن: «الكرِيمُ» برفع
 الميم، يعني الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿لَا بُرْهَانَ لَكُمْ بِهِ﴾ أي: لا حُجَّةَ له به ولا دليل؛ وقال بعضهم: معناه: فلا برهان له به.
 قوله تعالى: ﴿فَأَنمَّا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: جزاؤه عند ربِّه^(١).



(١) قال ابن جرير الطبري في تفسير تمام السورة: ﴿إِنَّهُ لَا يُسَلِّحُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول: إنه لا ينجح أهل الكفر بالله عنده، ولا يدركون الخلود والبقاء في النعيم، ﴿وَقُلْ رَبِّيَ أَغْفِرُ وَأَرْحَمُ وَأَنَّى عِزٌّ الرَّزِيقِينَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وقل يا محمد: رب استر عليّ ذنوبي بعفوك عنها، وارحمني بقبول توبتك وترك عقابي على ما اجترمت، وأنت خير الراحمين، يقول: وقل: أنت يا رب خير من رحم ذا ذنب، فقبل توبته، ولم يعاقبه على ذنبه. اهـ.

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَّسْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَكْفِيهِ إِلَّا زَانِيَةٌ أَوْ مُشْرِكَةٌ وَالزَّانِيَةُ لَا يَكْفِيهَا إِلَّا ذَانٌ أَوْ مُشْرِكَةٌ وَسِعِمَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾
وهي مدنية كلها بإجماعهم.

روى أبو عبد الله الحاكم في «صحيحه» من حديث عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا تُنْزَلُوهُنَّ الْغُرَفَ وَلَا تَعْلَمُوهُنَّ الْكِتَابَةَ، وَعَلِمُوهُنَّ الْمَغْزَلَ»^(١) و«سورة النور»^(٢)، يعني: النساء.

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ﴾ قرأ الجمهور بالرفع. وقرأ أبو رزین العقيلي، وابن أبي عبيدة، ومحبوب بن أبي عمرو: «سورة» بالنصب. قال أبو عبيدة: من رفع، فعلى الابتداء. وقال الزجاج: هذا قبيح، لأنها نكرة، و﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ صفة لها، وإنما الرفع على إضمار: هذه سُورَةٌ، والنصب على وجهين، أحدهما على معنى: أنزلنا سورةً، وعلى معنى: أنزل سورةً.

قوله تعالى: ﴿وَفَرَّسْنَاهَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتشديد. وقرأ ابن مسعود، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وعكرمة، والضحاك، والزهري، ونافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وابن يعمر، والأعمش، وابن أبي عبيدة بالتخفيف. قال الزجاج: من قرأ بالتشديد، فعلى وجهين: أحدهما: على معنى التذكير، أي: إننا فرضنا فيها فروضاً، والثاني: على معنى: بيئاً وفضلنا ما فيها من الحلال والحرام؛ ومن قرأ بالتخفيف، فمعناه: الزمناكم العمل بما فُرض فيها. وقال غيره: مَنْ شَدَّدَ، أَرَادَ: فَضَّلْنَا فَرَائِضَهَا، وَمَنْ خَفَّفَ، فَمَعْنَاهُ: فَضَّلْنَا مَا فِيهَا.

قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ القراءة المشهورة بالرفع. وقرأ أبو رزین العقيلي، وأبو الجوزاء، وابن أبي عبيدة، وعيسى بن عمر: «الزانية» بالنصب. واختار الخليل وسيبويه الرفع اختيار الأكرين. قال الزجاج: والرفع أقوى في العربية، لأن معناه: من زنى فاجلدوه، فتأويله الابتداء، ويجوز النصب على معنى: اجلدوا الزانية. فأما الجلد، فهو ضرب الجلد؛ يقال: جلدته: إذا ضربت جلده، كما يقال: بطنته: إذا ضربت بطنه. قال المفسرون: ومعنى الآية: الزانية والزاني إذا كانا حُرَيْنِ بِالْعَيْنِ بِحُرَيْنِ، ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.

(١) في الأصل: وعلموهن الغزل، والتصحيح من «المستدرک» للحاكم الذي نقل عنه المؤلف.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» ٣٩٦/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي فقال: قلت: بل موضوع، وأفته عبد الوهاب بن الضحاك، قال أبو حاتم: كذاب. وهذا الخبر رواه أيضاً ابن حبان في «صحيحه»، وفي سننه محمد بن إبراهيم الشامي، وهو منكر الحديث ومن الرضاين، وقد ذكر المصنف هذا الحديث في «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» وقال: لا يصح، محمد بن إبراهيم الشامي كان يضع الحديث، وقد ألف العلامة المحدث شمس الحق العظيم أبادي رسالة سماها «عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان» طبعها المكتب الإسلامي، ذكر فيها مؤلفها أن القول المحقق جواز تعليم الكتابة للنسوان، وذكر أحاديث عدم الجواز، منها حديث الحاكم، وابن حبان، اللذين تقدم ذكرهما، وغيرهما، ونقل أقوال العلماء فيها، ثم قال: وأحاديث النهي عن الكتابة كلها من الأباطيل والموضوعات، ولم يصحح العلماء واحداً منها، ما عدا الحاكم أباً عبد الله، وتساهله في التصحيح معروف، وتصحيحه متعقب عليه، ولا يؤخذ كلامه في التصحيح إلا إذا وافق الحفاظ الآخرون في تصحيحه، ثم قال: وخلاصة الكلام أنه لا ريب في جواز تعليم الكتابة للنساء البالغات المشتهيات بواسطة النساء الأخريات، أو بواسطة محارمهن، أما البنات غير البالغات وغير المشتهيات فيتعلمن ممن شئن. ومن أراد الزيادة في ذلك، فليرجع إلى رسالة «عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان»، فإن المؤلف وفي الموضوع حقه فيها.

فصل

قال شيخنا علي بن عبيد الله: هذه الآية تقتضي وجوب الجَلْدِ على البِكرِ والثَّيبِ. وقد روي عن رسول الله ﷺ في حق البِكرِ زيادة على الجَلْدِ بتغريب عام، وفي حق الثَّيبِ زيادة على الجلد بالرجم بالحجارة. فروى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «البِكرُ بالبِكرِ جَلْدُ مائة وتغريب عام، والثَّيبُ بالثَّيبِ جلد مائة ورجم بالحجارة»^(١). وممن قال بوجوب النَّفْيِ في حق البِكرِ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن عمر، وممن بعدهم عطاء، وطاووس، وسفيان، ومالك، وابن أبي ليلى، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وممن قال بالجمع بين الجلد والرجم في حق الثَّيبِ عليُّ بن أبي طالب، والحسن البصري، والحسن بن صالح، وأحمد، وإسحاق. قال: وذهب قوم من العلماء إلى أن المراد بالجَلْدِ المذكور في هذه الآية: البِكرُ، فأما الثَّيبُ، فلا يجب عليه الجَلْدُ، وإنما يجب الرجم، روي عن عمر، وبه قال النخعي، والزهرى، والأوزاعي، والثوري، وأبو حنيفة، ومالك، وروي عن أحمد رواية مثل قول هؤلاء.

قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْكُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو رزين، والضحاك، وابن يعمر، والأعمش: «يَأْخُذْكُمْ» بالياء، ﴿بِمَا رَأَيْتُمْ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «رَأَيْتُمْ» بإسكان الهمزة. وقرأ أبو المتوكل، ومجاهد، وأبو عمران الجوني، وابن كثير: بفتح الهمزة وقصرها على وزن رَعَفَةٌ. وقرأ سعيد بن جبير، والضحاك، وأبو رجاء العطاردي: «رَأَيْتُمْ» مثل سَأَمَةٌ وكأبَةٍ. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: لا تأخذكم بهما رَأْفَةٌ، فتخففوا الضرب، ولكن أوجعهما، قاله سعيد بن المسيب، والحسن، والزهرى، وقتادة. والثاني: لا تأخذكم بهما رَأْفَةٌ فتعطلوا الحدود ولا تقيموها، قاله مجاهد، والشعبي، وابن زيد في آخرين.

فصل

اختلف العلماء في شدة الضرب في الحدود، فقال الحسن البصري: ضرب الزنى أشد من القذف، والقذف أشد من الشُّرب، ويضرب الشارب أشد من ضرب التعزير، وعلى هذا مذهب أصحابنا. وقال أبو حنيفة: التعزير أشد الضرب، وضرب الزنى أشد من ضرب الشارب، وضرب الشارب أشد من ضرب القذف. وقال مالك: الضرب في الحدود كلها سواء غير مبرِّح.

(١) رواه أحمد في «المستند» ١٣/٥، ومسلم ١٣١٦/٣، وأبو داود رقم (٤٤١٥)، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، كلهم من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، ولفظه عند مسلم: عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «خلوا عني، خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثَّيبُ بالثَّيبِ جلد مائة والرجم». قال ابن كثير: وللعلماء فيه تفصيل ونزاع، فإن الزاني لا يخلو، إما أن يكون بكراً، وهو الذي لم يتزوج، أو محصناً، وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حرٌّ بالغ عاقل، فأما إذا كان بكراً لم يتزوج، فإن حده مائة جلدة، كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يغرب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام، إن شاء غرب، وإن شاء لم يغرب، وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، إن ابني هذا كان سعيفاً (يعني أجيماً) على هذا، فزني بامرأته، فاندت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى، الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام، واغد يا أنيس (لرجل من أسلم) إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها فاعترفت فرجمها، قال: وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج.

وقال ابن كثير أيضاً: وأما إذا كان محصناً وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حرٌّ بالغ عاقل، فإنه يرجم، وذلك للأحاديث الواردة في «الصحيحين» وغيرهما في الرجم، ثم قال: وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير، قال: ورجم رسول الله ﷺ ماعزاً، والغامدية، وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدتم قبل الرجم، وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ بالاعتصار على رجمهم، وليس فيها ذكر الجلد، ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، ورجمهم الله. وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية، والرجم للسنّة، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ لما أتى بسراجة وكانت قد زنت وهي محصنة، فجلدها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، فقال: جلدها بكتاب الله، ورجمها بسنة رسول الله ﷺ. قال الإمام النووي في «شرح مسلم» ١٨٩/١١: وقال جماهير العلماء: الواجب الرجم وحده، ثم قال: قالوا: وحديث الجمع بين الجلد والرجم وهو حديث عبادة المتقدم منسوخ، فإنه كان أول الأمر. اهـ.

فصل

فأما ما يُضْرَبُ من الأعضاء، فنقل الميموني عن أحمد في جلد الزاني، قال: يجرد، ويعطى كل عضو حقّه، ولا يضرب وجهه ولا رأسه. ونقل يعقوب بن بختان^(١): لا يُضْرَبُ الرأس ولا الوجه ولا المذاكير، وهو قول أبي حنيفة. وقال مالك: لا يُضْرَبُ إلا في الظهر. وقال الشافعي: يُتَّقَى الفرج والوجه.

قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فيه قولان. أحدهما: في حكمه، قاله ابن عباس. والثاني: في طاعة الله، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَشَهَدَ عَلَيْهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الزجاج: القراءة بإسكان اللام، ويجوز كسرهما. والمراد بعدايبهما ضربهما. وفي المراد بالطائفة هاهنا خمسة أقوال: أحدها: الرجل فما فوقه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. وقال النخعي: الواحد طائفة. والثاني: الاثنان فصاعداً، قاله سعيد بن جبير، وعطاء، وعن عكرمة كالقولين. قال الزجاج: والقول الأول على غير ما عند أهل اللغة، لأن الطائفة في معنى جماعة، وأقل الجماعة اثنان. والثالث: ثلاثة فصاعداً، قاله الزهري. والرابع: أربعة، قاله ابن زيد. والخامس: عشرة، قاله الحسن البصري.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَّ يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ قال عبد الله بن عمرو: كانت امرأة تسافح، وتشترط للذي يتزوجها أن تكفيه النفقة فأراد رجل من المسلمين أن يتزوجها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية^(٢). وقال عكرمة: نزلت في بغايا، كُنْ بِمَكَّةَ، ومنهن تسع صواحب رايات، وكانت يبوتهن تسمى في الجاهلية: المواخير، ولا يدخل عليهن إلا زانٍ من أهل القبيلة، أو مشرك من أهل الأوثان، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن، فنزلت هذه الآية^(٣). قال المفسرون: ومعنى الآية: الزاني من المسلمين لا يتزوج من أولئك البغايا إلا زانية ﴿أَوْ شَرِكَةً﴾ لأنهن كذلك كن ﴿وَالزَّانِيَةَ﴾ منهن ﴿لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾^(٤)، ومذهب أصحابنا أنه إذا زنى بامرأة، لم يجز له أن يتزوجها إلا بعد التوبة منهما^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ذَٰلِكَ﴾ وقرأه أبي بن كعب، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «وَحَرَّمَ اللهُ ذَٰلِكَ» بزيادة اسم الله ﷻ مع فتح حروف «حَرَّمَ». وقرأ زيد بن علي: «وَحَرَّمَ ذَٰلِكَ» بفتح الحاء وضم الزاء مخففة. ثم فيه قولان. أحدهما: أنه نكاح الزواني، قاله مقاتل. والثاني: الزنا، قاله الفراء.

﴿وَالَّذِينَ يَزُونُ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَلْيَلِدُوا فِيئِنَّهُنَّ جُلَدٌ وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَدَةٌ أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ

يَأْتُونَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزُونُ الْمُحْصَنَاتِ﴾ شرائط الإحصان في الزنى الموجب للرجم عندنا أربعة: البلوغ، والحرية، والعقل، والوطء في نكاح صحيح. فأما الإسلام، فليس بشرط في الإحصان، خلافاً لأبي حنيفة، ومالك. وأما شرائط إحصان القذف فأربع: الحرية، والإسلام، والبعث، وأن يكون المقذوف ممن يجامع مثله. ومعنى الآية: يرمون المحصنات بالزنا، فاكتفى بذكره المتقدم عن إعادته. ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ على ما رمَوْهُنَّ به ﴿بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ﴾ عدول يشهدون أنهم رأوهنَّ يفعلن ذلك ﴿فَلْيَلِدُوا فِيئِنَّهُنَّ﴾ يعني القاذفين.

(١) هو يعقوب بن إسحاق بن بختان، أبو يوسف، سجع من الإمام أحمد، ترجمته في «طبقات الحنابلة» ١/٤١٥.

(٢) رواه أحمد في «المستند»، والثنائي، والطبري، والحاكم وصححه، وذكره السيوطي في «الدر» ١٦/٥ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه»، وأبي داود في «تاسخه».

(٣) ذكره بنحوه الطبري عن ابن عباس.

(٤) قال ابن جرير الطبري ١٨/٧٥: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عنى بالنكاح في هذا الموضع: الوطء، وأن الآية نزلت في البغايا المشركات ذوات الرايات، وذلك لقيام الحججة على أن الزانية من المسلمات حرام على كل مشرك، وأن الزاني من المسلمين حرام عليه كل مشركة من عبدة الأوثان، فمعلوم إذا كان ذلك كذلك، أنه لم يُعْنِ بالآية أن الزاني من المؤمنين لا يعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات، ولا ينكح إلا بزانية أو مشركة، وإذا كان ذلك كذلك، فبين أن معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانية لا تستحل الزنا، أو بمشركة تستحلها. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تاب، صح العقد عليها، وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة، لقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. اهـ.

فصل

وقد أفادت هذه الآية أنّ على القاذف إذا لم يُقَمِّ البينة الحدَّ وردَّ الشهادة وثبوت الفسق. واختلفوا هل يُحكّم بفسقه وردَّ شهادته بنفس القذف، أم بالحدِّ؟ فعلى قول أصحابنا: إنه يُحكّم بفسقه وردَّ شهادته إذا لم يُقَمِّ البينة، وهو قول الشافعي. وقال أبو حنيفة، ومالك: لا يُحكّم بفسقه، وتقبل شهادته ما لم يُقَمِّ الحدَّ عليه.

فصل

والتعريض بالقذف - كقوله لمن يخاصمه: ما أنت بزبان، ولا أمك زانية - يوجب الحدَّ في المشهور من مذهبننا. وقال أبو حنيفة: لا يوجب الحدَّ. وحدُّ العبد في القذف نصف حدِّ الحرِّ، وهو أربعون، قاله الجماعة، إلا الأوزاعي فإنه قال: ثمانون. فأما قاذف المجنون، فقال الجماعة: لا يُحدُّ. وقال الليث: يُحدُّ. فأما الصبيِّ، فإن كان مثله يجامع أو كانت صبيّة مثلها يجامع، فعلى القاذف الحدُّ. وقال مالك: يُحدُّ قاذف الصبيّة التي يجامع مثلها، ولا يُحدُّ قاذف الصبيِّ. وقال أبو حنيفة، والشافعي: لا يُحدُّ قاذفهما. فإن قذف رجل جماعةً بكلمة واخدة، فعلى حدِّ واحد، وإن أفرد كلَّ واحد بكلمة، فعليه لكل واحد حدٌّ، وهو قول الشعبي، وابن أبي ليلى؛ وقال أبو حنيفة وأصحابه: عليه حدٌّ واحد، سواء قذفهم بكلمة أو بكلمات.

فصل

وحدُّ القذف حقٌّ لآدمي، يصح أن يبرئ منه، ويعفو عنه. وقال أبو حنيفة: هو حقٌّ لله. وعندنا [أنه] لا يستوفى إلا بمطالبة المقدوف، وهو قول الأكثرين. وقال ابن أبي ليلى: يحده الإمام وإن لم يطالب المقدوف.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: من القذف ﴿وَلَسَلُوا﴾ قال ابن عباس: أظهروا التوبة؛ وقال غيره: لم يعودوا إلى قذف المُخْصَنَات. وفي هذا الاستثناء قولان: أحدهما: أنه نسخ حدِّ القذف وإسقاط الشهادة معاً، وهذا قول عكرمة، والشعبي، وطاوس، ومجاهد، والقاسم بن محمد، والزهري، والشافعي، وأحمد. والثاني: أنه يعود إلى الفسق فقط، وأما الشهادة، فلا تُقبل أبداً، قاله الحسن، وشريح، وإبراهيم، وقتادة. فعلى هذا القول انقطع الكلام عند قوله: «أبدأ»؛ وعلى القول الأول وقع الاستثناء على جميع الكلام، وهذا أصح، لأن المتكلم بالفاحشة لا يكون أعظم جرماً من راجبها، فإذا قُبِلت شهادة المقدوف بعد ثبوته، فالرامي أيسر جرماً، وليس القاذف بأشدَّ جرماً من الكافر، فإنه إذا أسلم قُبِلت شهادته^(١).

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَكُرَّ كَلِمَةً شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحْيَاهُمْ أَيْعَ شَهَادَاتِ وَاللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَتِ أَعْلَمُ﴾^(٢) وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا بِذُنُوبِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَيَذَرُوا عَنَّا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَيْعَ شَهَادَاتِ وَاللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَتِ أَعْلَمُ﴾^(٣) وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا بِذُنُوبِ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ﴾ سبب نزولها أن هلال بن أمية وجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينه وسمع بأذنه، فلم يُهنجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: إنني جئت أهلي، فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، ففكره رسول الله ﷺ ما جاء به، واشتد عليه، فقال سعد بن عباد: الآن يضرب رسول الله ﷺ هلالاً ويُبطل شهادته، فقال هلال: والله إنني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه [إذ] نزل عليه الوحي، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٤). وفي حديث آخر أن الرجل الذي قذفها به

(١) قال ابن كثير: واختلف العلماء في هذا الاستثناء، هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط، فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ وأما الجدل فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف. قال: فذهب الإمام أحمد، ومالك، والشافعي إلى أنه إذا تاب قُبِلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق، ونص عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً. وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط، فيرتفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة أبداً. قال: ومن ذهب إليه من السلف، القاضي شريح، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبیر، ومكحول، وعبد الرحمن بن زيد بن جابر. وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب، إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته، والله أعلم. اهـ.

(٢) رواه أحمد في «المستند»، وهو في «الطبري» ٨٢/٨٢، ٨٣، وأسباب النزول للواحي» ١٨٠. قال ابن كثير: ورواه أبو داود عن الحسن بن علي عن =

شريك بن سحماء، وأن رسول الله ﷺ قال لهلال حين قذفها: «اتنني بأربعة شهداء، وإلا فحدّ في ظهرك»، فنزلت هذه الآية^(١)، فسُخِحَ حكم الجلد في حق الزوج القاذف.

فصل في بيان حكم الآية

إذا قذف الرجل زوجته بالزنا، لزمه الحدّ، وله التخلّص منه بإقامة البيّنة، أو باللّعان، فإن أقام البيّنة لزمها الحدّ، وإن لاعنها، فقد حَقَّقَ عليها الزنا، ولها التخلّص منه باللّعان؛ فإن نكل الزوج عن اللعان، فعليه حدّ القذف، وإن نكلت الزوجة، لم تحدّ، وحُبست حتى تُلاعِنَ أو تُقَرَّرَ بالزنا في إحدى الروايتين، وفي الأخرى: يُخَلَّى سبيلها. وقال أبو حنيفة: لا يُحدُّ واحد منهما، ويُحبس حتى يُلاعِنَ. وقام مالك، والشافعي: يجب الحدّ على الناكل منهما.

فصل

ولا تصح الملاعة إلا بحضرة الحاكم. فإن كانت المرأة خفّرة، بعث الحاكم من يُلاعِنَ بينهما. وصفة اللعان أن يبدأ الزوج فيقول: أشهد بالله إنني لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا، أربع مرات، ثم يقول في الخامسة: ولعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم تقول الزوجة أربع مرات: أشهد بالله لقد كذب فيما رماني به من الزنا، ثم تقول: وغضب الله عليها إن كان من الصادقين. والسنة أن يتلاعنا قياماً، ويقال للزوج إذا بلغ اللعنة: اتق الله فإنها المؤجبة، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وكذلك يقال للزوجة إذا بلغت إلى الغضب. فإن كان بينهما ولد، اقتصر فيه عن الأب إلى ذكره في اللعان، فيزيد في الشهادة: وما هذا الولد ولدي، وتزيد هي: وإن [هذا] الولد ولده.

فصل

واختلف الفقهاء في الزوجين اللذين يجري بينهما اللعان، فالمشهور عن أحمد كل زوج صح قذفه صح لعانه، فيدخل تحت هذا المسلم والكافر والحرّ والعبد، وكذلك المرأة، وهذا قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يجوز اللعان بين الحرّ والأمة، ولا بين العبد والحرّة، ولا بين الذميين، أو إذا كان أحدهما ذمياً؛ ونقل حرب عن أحمد نحو هذا، والمذهب هو الأول. ولا تختلف الرواية عن أحمد أن فرقة اللعان لا تقع بلعان الزوج وحده. واختلف هل تقع بلعانهما من غير فرقة الحاكم على روايتين. وتحريم اللعان مؤبد، فإن أكذب الملاعن نفسه لم تحلّ له زوجته أيضاً، وبه قال عمر، وعلي، وابن مسعود؛ وعن أحمد روايتان، أصحهما: هذا، والثانية: يجتمعان بعد التكذيب، وهو قول أبي حنيفة.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّ يَكْفُرُ لَمْ شَهَدَهُ إِلَّا أَنْتُمْ﴾ وقرأ أبو المتوكل. وابن يعمر، والنخعي: «تكن» بالفاء.

قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «أربع» بفتح العين. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: برفع العين. قال الزجاج: من رفع «أربع»، فالمعنى: فشهادة أحدهم التي تدرأ حدّ القذف أربع؛ ومن نصب، فالمعنى: فعليهم أن يشهد أحدهم أربع.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَسِيئَةُ﴾ قرأ حفص عن عاصم: «والخامسة» نصباً، حملاً على نصب «أربع شهادات».

قوله تعالى: ﴿أَنْ لَعَنَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ قرأ نافع، ويعقوب، والمفضل: «أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ» و«أَنْ غَضِبَ اللَّهُ» بتخفيف النون فيهما وسكونهما ورفع الهاء من «لعنة» والباء من «غضب» إلا أن نافعاً كسر الضاد من «غَضِبَ» وفتح الباء.

قوله تعالى: ﴿وَيَذُرُّهُنَّ عَنْهَا﴾ أي: ويدفع عنها «الْعَذَابَ» وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: [أنه] الحدّ. والثاني: الحبس.

ذكرهما ابن جرير. والثالث: العار.

= يزيد بن هارون به مختصراً، ثم قال: ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة، وذكر منها الحديث الذي ذكره المصنف بعد هذا. والحديث ذكره السيوطي في «الدر» ٢١/٥ وزاد نسبه لعبد الرزاق، والطيالسي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

(١) البخاري ٣٤١/٨، والترمذي ١٤٨/٢، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٢/٥ وزاد نسبه لابن ماجه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: ستره ونعمته. قال الزجاج: وجواب «لولا» هاهنا، متروك؛ والمعنى: لولا ذلك لنال الكاذب منكم عذاب عظيم. وقال غيره: لولا فضل الله لبين الكاذب من الزوجين فأقيم عليه الحد، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يعود على من رجع عن المعاصي بالرحمة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرض من الحدود^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَلٌّ مِنْ حَبْرِ كَلِّمْ إِنَّكَ لَكَلِمٌ لَطِيفٌ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ وَأُولَئِكَ يَأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّكَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَبْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْعَافٍ شَهَادَةً فَإِنَّ لَمْ يَأْتُوا بِالْبُحْثِ فَسَبَّحْتَ بِمَنْزِلِكَ اللَّهُمَّ الْكَاذِبُونَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكَ فِي مَا أَفْسَرْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿إِذْ تَقَرَّبْتُمْ إِلَى نَجْمِكُمْ وَتَقُولُونَ يَا قَرَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿يَعْظَمُكَ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِيُنَالَهُ أَجْدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿وَيَسِّرْ اللَّهُ لَكُمْ الْأَيْتَاتِ وَاللَّهُ عِلْمُهُ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجِيرُونَ أَنْ تَبْسُجَ الْفَلْحَمَةُ فِي الْأَيْتِ مَأْمُونًا لَمْ يَكُنْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَهَّابٌ رَجِيمٌ﴾ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أجمع المفسرون؛ أن هذه الآية وما يتعلّق بها بعدها نزلت في قصة عائشة. وفي حديث الإفك أن هذه الآية إلى عشر آيات نزلت في قصة عائشة. وقد ذكرنا حديث الإفك في كتاب «الحدائق» وفي كتاب «المغني في التفسير» فلم نطل بذكره، لأن غرضنا اختصار هذا الكتاب ليُحفظ^(٢). فأما الإفك، فهو الكذب، والعُصبة: الجماعة. ومعنى قوله: ﴿يَنْكُرُوا﴾ أي: من المؤمنين. وروى عروة عن عائشة أنها قالت: هم أربعة: حسان بن ثابت، وعبد الله بن أبيّ [بن سلول]، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش، وكذلك عدّهم مقاتل^(٣).

قوله تعالى: ﴿لَا تَصْبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ قال المفسرون: هذا خطاب لعائشة وصفوان بن المعطل، وقيل: لرسول الله ﷺ وأبي بكر وعائشة؛ والمعنى: إنكم تؤجرون فيه^(٤)، ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ يَنْبَغُ﴾ يعني: من العُصبة الكاذبة ﴿مَّا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِفْكِ﴾ أي: جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه، ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ يَتَّبِعْهُ﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وعكرمة، ومجاهد، وابن أبي عبيدة، والحسن، ومحبوب عن أبي عمرو، ويعقوب: «كِبْرَهُ» بضم الكاف. قال الكسائي: وهما لغتان. وقال ابن قتيبة: كِبْرُ الشيء: مُعْظَمُهُ^(٥)، ومنه هذه الآية. قال قيس بن الخطيم يذكر امرأة:

(١) قال ابن جرير الطبري ٨٦/١٨: يقول تعالى ذكره: ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنه عوّاد على خلقه بلطفه وظلّله، حكيم في تدبيره إياهم وسياسة لهم، لمجالكم بالمقربة على معاصيكم، وفضح أهل الذنوب منكم بذنوبهم، ولكنه ستر عليكم ذنوبكم، وترك فضيحتكم بها عاجلاً، رحمةً منه بكم، وتفصلاً عليكم، فاشكروا نعمه، وانتهوا عن التقدّم عما عنه نهاكم من معاصيه، وترك الجواب في ذلك اكتفاء بمعرفة السامع المراد منه. اهـ.

(٢) حديث الإفك مشهور، رواه أحمد في «المستد»، والبخاري ومسلم في «صحيحهما»، والترمذي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن عائشة ؓ، وهو حديث طويل، وهذه الآيات العشر نزلت في شأن عائشة ؓ حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قاله من الكذب البحت والفرية التي غار الله ﷻ لها ولبنيتها ؓ فأنزل الله تعالى برأتها في القرآن صيانة لمرض الرسول ﷺ، وكان الذين جاؤوا بالإفك عصبة، يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، والذي تحمل معظم ذلك الإثم والإفك منهم، هو الذي بدأ بالخوض فيه، وهو عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوفيه ويلبسه ويشيعه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وجوزوه آخرون منهم، وفي الأمر كذلك قريباً من شهر وعائشة ؓ تقول: ﴿فَصَبَّرَ جَبَلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ حتى نزل القرآن ببرأتها، فقال رسول الله ﷺ لعائشة: «أبشري فقد أنزل الله برأتك» وكانت السيدة عائشة الصديقة تقول: «والله ما كنت أظن أن الله أنزل في شأنِي شيئاً يئس، ولشأنِي في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يئس، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها». وقد روى قصة الإفك مطولة الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٣٤٢/٨ - ٣٧٥، وابن كثير في «التفسير» ٢٦٨/٣، وغيرهما.

(٣) وفي «صحيح البخاري» ٣٤٣/٨ عن عروة عن عائشة ؓ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾، قالت: عبد الله بن أبيّ بن سلول. اهـ. وهو الذي بدأ بالخوض فيه، وأذاعه وأشاعه، فله عذاب عظيم على ذلك.

(٤) قال ابن كثير: ﴿لَا تَصْبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾، أي: يا آل أبي بكر، بل هو خير لكم، أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا، ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين ؓ حيث أنزل الله برأتها في القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس ؓ وعنها وهي في سياق الموت قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحكّم ولم يتزوج بكرةً غيرك، ونزلت برأتك من السماء. اهـ.

(٥) نقل في «اللسان» هذا القول عن ابن السكيت، وفي «غريب القرآن»: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ أي: عَظْمُهُ.

تَنَامُ عَنْ كِبَرِ شَأْنِهَا فِإِذَا قَامَتْ رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْعَرِفُ^(١)

وفي المتوَلَّى لذلك قولان: أحدهما: أنه عبد الله بن أبي، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وعروة عن عائشة، وبه قال مجاهد، والسدي، ومقاتل. قال المفسرون: هو الذي أشاع الحديث، فله عذاب عظيم بالنار. وقال الضحاك: هو الذي بدأ بذلك. والثاني: أنه حسان^(٢)؛ روى الشعبي أن عائشة قالت: ما سمعت أحسن من شعر حسان، وما تملكت به إلا رجوت له الجنة؛ فقيل: يا أم المؤمنين، أليس الله يقول: ﴿وَالَّذِي قَوْلُكَ كَثُرَ مِنْهُمْ لَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ فقالت: أليس قد ذهب بصره؟ وروى عنها مسروق أنها قالت: وأيُّ عذاب أشد من العمى، ولعلَّ الله أن يجعل ذلك العذاب العظيم، ذهاب بصره، تعني: حسان بن ثابت. ثم إن الله عز وجل أنكر على الخائضين في الإفك بقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: هلاً إذ سمعتم أيُّها العُصبة الكاذبة ذُذت عائشة ﴿طَنْ آتَيْنِي﴾ من العُصبة الكاذبة، وهم حسان ومسطح و﴿وَالْمُؤَيَّنَّتْ﴾ وهي: حمنة بنت جحش ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: بأسمائهم. والثاني: بأخواتهم. والثالث: بأهل دينهم، لأن المؤمنين كتنس واحدة، ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كذب بيبن. وجاء في التفسير أن أبا أيوب الأنصاري قالت له أمه: ألا تسمع ما يقول الناس في أمر عائشة؟! فقال: هذا إفك مبين، أكنيت يا أمه فاعلته؟ قالت: معاذ الله، قال: فعائشة والله خير منك؛ فنزلت هذه الآية^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا جَاءُوا﴾ أي: هلاً جاءت العُصبة الكاذبة على قذفهم [عائشة] ﴿بِأَرْبَعٍ شَهْلَةٍ﴾ وقرأ الضحاك، وعاصم الجحدري: «بأربعة» متونة؛ والمعنى: يشهدون بأنهم عابوا ما رموها به ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾. ثم ذكر القاذفين فقال: ﴿وَلَوْلَا قَسَدَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: لولا ما منَّ [الله] به عليكم، ﴿لَسَكَّرَ﴾ أي: لأصابكم ﴿فِي مَا أَنْفَسْتُمْ﴾ أي: أخذتم وخضتم ﴿فِيهِ﴾ من الكذب والقذف ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة^(٤). ثم ذكر الوقت الذي لولا فضله لأصابهم فيه العذاب فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوهُ﴾ وكان الرجل منهم يلتقى الرجل فيقول: بلغني كذا، فيتلقاه بعضهم من بعض. وقرأ عمر بن الخطاب: «إذ تلقونه» بناء واحدة خفيفة مرفوعة وإسكان اللام وقاف منقوطة بنقطين مرفوعة خفيفة؛ وقرأ معاوية، وابن السميع مثله، إلا أنهما فتحا التاء والقاف. وقرأ ابن مسعود: «تَلَقَّوهُ» بناءين مفتوحتين مع نصب اللام وتشديد القاف. وقرأ أبي بن كعب، وعائشة، ومجاهد، وأبو حيوه: «تَلَقَّوهُ» بناءً واحدة خفيفة مفتوحة وكسر اللام ورفع القاف. وقال الزجاج: «تَلَقَّوهُ»: يُلْقِيه بعضهم إلى بعض وتَلَقَّوهُ؛ ومعناه: إذ تُسرعون بالكذب، يقال: وَلَقَى يَلْقَى: إذا أسرع في الكذب وغيره، قال الشاعر:

جاءت به عننس من الشام تَلِقُ^(٥)

أي: تُسرع. وقال ابن قتيبة: «تَلَقَّوهُ» أي: تَقْبَلُونَهُ، ومن قرأ: «تَلَقَّوهُ» أخذه من الوَلَق، وهو الكذب.

(١) ديوانه ١٧، و«مختار الشعر الجاهلي» ٥٦٤/٢، و«غريب القرآن» ٣٠١، و«اللسان» و«التاج»: كبر، قال يعقوب: معناه: تنتشى، وقيل: معناه: تنقص من وقته خصرها.

(٢) قال ابن جرير الطبري ٨٩/١٨: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: الذي تولى كبره من عصبة الإفك، كان عبد الله بن أبي، وذلك أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسيرة، أن الذي بدأ بذكر الإفك وكان يجمع أهله ويحدثهم، عبد الله بن أبي بن سلول، وفعله ذلك على ما وصفت، كان تولى كبر ذلك الأمر. اهـ. وقال ابن كثير ٣/٢٧٢: والأكثر على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي بن سلول قبحه الله تعالى ولعنه، وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث، وقال ذلك مجاهد وغير واحد. اهـ.

(٣) قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين ﷺ، فإن الذي وقع لم يكن ريبه، وذلك أن منجبه أم المؤمنين رابحة جبهة على راحلة صفوان بن المطلب في وقت الظهيرة والجيش بكمله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريب، لم يكن هذا جبهة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستورا، فتبين أن ما جاء به أهل الإفك مما رَمَوْا به أم المؤمنين، هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعدة الفاحشة الفاجرة، والصفة الخاسرة. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة، كمسطح، وحسان، وحمنة بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازته أو يرجح عليه. اهـ.

(٥) الرجز في «الطبري» ٩٨/١٨، و«القرطبي» ٢٠٤/١٢، و«اللسان»: ولق.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: من غير أن تعلموا أنه حق ﴿وَتَحْسَبُونَهُ﴾ يعني: ذلك الكذب ﴿هَيئًا﴾ أي: سهلاً لا إثم فيه ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر^(١). ثم زاد عليهم في الإنكار فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا﴾ أي: ما يجعل وما ينبغي لنا ﴿أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ﴾ وهو يحتمل التنزيه والتعجب. وروى عائشة أن امرأة أبي أيوب الأنصاري قالت له: ألم تسمع ما يتحدث الناس!؟ فقال: ﴿لما يكون لنا أن نتكلم بهذا...﴾ الآية، فنزلت الآية. وقد روينا آنفاً أن أمه ذكرت له ذلك، فنزلت الآية المتقدمة. وروى عن سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ لما سمع ذلك قال: سبحانك هذا بهتان عظيم، فقيل للناس: هلا قلتم كما قال سعد!؟

قوله تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ﴾ أي: ينهاكم الله ﴿أَنْ تَعُدُّوا لِيْلِهِ﴾ أي: إلى مثله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأن من شرط الإيمان ترك قذف المحصنة. ﴿وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ الْأَيْتَاتِ﴾ في الأمر والنهي. ثم هدد القاذفين بقوله: ﴿لَنْ أَلْبِسَ ظُلْمَ الْيَاسْرِ﴾ أي: ينجح الفحشاء. أي: يحبون أن يقسوا القذف بالفحشاء، وهي الزنى ﴿فِي الْأَيْتَاتِ﴾ أمثلاً لهم عذاب آليم في الدنيا. يعني: الجلد ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ عذاب النار. وروى عمرة عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ على المنبر، فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة، فضربوا حدهم^(٢). وروى أبو صالح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جلد عبد الله بن أبي، ومسطح بن أثانة، وحسان بن ثابت، وحنمة بنت جحش^(٣)، فأما الثلاثة فتابوا، وأما عبد الله فمات مناقفاً؛ وبعض العلماء ينكر صحة هذا، ويقول: لم يضرب أحداً.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ سرّاً ما خُصتم فيه وما يتضمن من سخط الله ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك^(٤)، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ جوابه محذوف، تقديره: لعاقبكم فيما قلتم لعائشة. قال ابن عباس: يريد: مسطحاً، وحسان، وحنمة. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالنَّكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ لَمَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: تزيينه لكم قذف عائشة. وقد سبق شرح «خطوات الشيطان» وبيان «الفحشاء والمنكر» [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

قوله تعالى: ﴿مَا زَكَا مِنْكُمْ﴾ وقرأ الحسن، ومجاهد، وقتادة: «ما زكى» بتشديد الكاف. وفيمن خوطب بهذا قولان: أحدهما: أنه عام في الخلق. والثاني: أنه خاص للمتكلمين في الإفك. ثم في معناه أربعة أقوال: أحدها: ما اهتدى، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: ما أسلم، قاله ابن زيد. والثالث: ما صلح، قاله مقاتل. والرابع: ما طهر، قاله ابن قتبية.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي: يطهر من يشاء من الإثم بالتوبة والغفران؛ فالمعنى: وقد شئت أن أتوب عليكم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ علم ما في نفوسكم من التوبة والندامة. ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْأَفْضَالِ مِنْكُمْ وَالسَّكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَمْعُرُوا وَيَصْغَرُوا أَلَّا يُجِبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ﴾ وقرأ الحسن، وأبو العالية، وأبو جعفر، وابن أبي عبلة: «ولا يتأل» بهمزة مفتوحة بين التاء واللام وتشديد اللام على وزن يَتَعَلَّ. قال المفسرون: سبب نزولها أن أبا بكر الصديق كان ينفق على مسطح لقرابته وفقره، فلما خاض في أمر عائشة قال أبو بكر: والله لا أتفق عليه [شيئاً] أبداً، فنزلت هذه الآية^(٥).

(١) وفي «الصحيحين»: إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب.

(٢) رواه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة. (٣) رواه أبو داود في «سننه» رقم (٤٤٧٥).

(٤) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: والله يعلم كذب الذين جاؤوا بالإفك من صدقهم، وأنتم أيها الناس لا تعلمون ذلك، لأنكم لا تعلمون الغيب، وإنما يعلم ذلك علم الغيب، يقول: فلا ترووا ما لا علم لكم به من الإفك على أهل الإيمان بالله، ولا سيما على حلال رسول الله ﷺ فهلكوا. اهـ.

(٥) روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت عندما نزلت الآيات العشر في برامتها: فلما أنزل الله هذا في برامتي، قال أبو بكر ﷺ وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقرابته وفقره: والله لا أتفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْأَفْضَالِ مِنْكُمْ﴾

فأما الفضل، فقال أبو عبيدة: هو الفضل، والسعة: الجدة. قال المفسرون: والمراد به: أبو بكر.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ قال ابن قتيبة: معناه: أن لا يؤتوا، فحذف «لا». فأما قوله: ﴿أُولَى الْقُرْبَى﴾ فإنه يعني بسطحاً، وكان ابن خالدة أبي بكر، وكان مسكيناً، وكان مهاجراً. قال المفسرون: فلما سمع أبو بكر ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: بلى يا رب، وأعاد نفقته على مسطح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْثُونَ الْمُخَسَّاتِ الْمُنْفِكَاتِ لَيَسُوْنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَمْ عَدَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُؤْمَرُ بَرِيءُهُمْ اللَّهُ وَبَيْنَهُمُ الْحَقُّ وَبَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْثُونَ الْمُخَسَّاتِ﴾ يعني: العائفاء ﴿الْمُنْفِكَاتِ﴾ عن الفواحش، ﴿لَيَسُوْنَ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: عذبوا بالجلد، وفي الآخرة بالنار. واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في عائشة خاصة. قال خصيف: سألت سعيد بن جبير عن هذه الآية، فقلت: من قذف محصنة لعنه الله؟ قال: لا، إنما أنزلت هذه الآية في عائشة خاصة^(١). والثاني: أنها في أزواج النبي ﷺ خاصة، قاله الضحاك^(٢). والثالث: أنها في المهاجرات. قال أبو حمزة الثمالي: بلغنا أن المرأة كانت إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة، قذفها المشركون من أهل مكة، وقالوا: إنما خرجت تفجر، فنزلت هذه الآية. والرابع: أنها عامّة في أزواج النبي ﷺ وغيرهن، وبه قال قتادة، وابن زيد^(٣). فإن قيل: لم اقتصر على ذكر المحصنات دون الرجال؟ فالجواب: [أن] من رمى مؤمنة فلا بد أن يرمي معها مؤمناً، فاستغني عن ذكر المؤمنين، ومثله: ﴿سَرَّيْلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [الحمل: ٨١] أراد: والبرد، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «يشهد» بالياء؛ وهو إقرارها بما تكلموا به من الفرية. قال أبو سليمان الدمشقي: وهؤلاء غير الذين يُحْتَم على أفواههم. وقال ابن جرير: المعنى: أن ألسنة بعضهم تشهد على بعض.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْمَرُ بَرِيءُهُمْ اللَّهُ وَبَيْنَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: حسابهم العدل، وقيل: جزاءهم الواجب. وقرأ مجاهد، وأبو الجوزاء، وحميد بن قيس، والأعمش: «دينهم الحق» برفع القاف ﴿وَبَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن عبد الله بن أبي كان يشك في الدين، فإذا كانت القيامة علم حيث لا يتفهم.

﴿الْقَيْنِثِيُّ لِلْخَيْثِ وَالْخَيْثِ لِلْخَيْثِ وَالْطَّيِّبِ لِلطَّيِّبِ وَالطَّيِّبِ لِلطَّيِّبِ أُولَئِكَ مُّؤْمِنُونَ وَمِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْقَيْنِثِيُّ لِلْخَيْثِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: الكلمات الخيثات لا يتكلم بها إلا الخيث من الرجال والنساء، والكلمات الطيبات لا يتكلم بها إلا الطيبون من الرجال والنساء. والثاني: الكلمات الخيثات إنما تلصق بالخيثين من الرجال والنساء، فأما الطيبات والطيبون، فلا يصلح أن يقال في حقهم إلا الطيبات. والثالث: الخيثات من النساء للخيثين من الرجال، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال. والرابع: الخيثات من الأعمال للخيثين من الناس، والخيثون من الناس للخيثات من الأعمال، وكذلك الطيبات. يعني: عائشة وصفوان ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ أي: منزهون ﴿وَمِمَّا يَقُولُونَ﴾ من الفرية ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَلَمَّا ءَاذِنُوا عَلَيْ أَهْلِهَا ءَلَيْكُمْ حُرٌّ لَكُمْ لَمَّا تَذَكَّرْتُمْ ﴿٣٧﴾﴾

وَأَمَّا أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ لَكَرَّ اللَّهُ عُنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان يتفق عليه وقال: والله لا أنزعها عنه أبداً.

(١) الطبري ١٠٣/١٨، وذكره السيوطي في «الدرر» ٣٥/٥ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، والطبراني.

(٢) الطبري ١٠٤/١٨، وذكره السيوطي في «الدرر» ٣٥/٥ وزاد نسبه لعبد بن حميد.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: نزلت هذه الآية في شأن عائشة، والحكم بها عام في كل من كان بالصفة التي وصفه الله بها فيها. اهـ. وقال ابن كثير: وهو الصحيح، ويعضد الموموم ما جاء في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموقعات» قيل: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

لَرَّجِدُوا فِيهَا آهَكَا فَلَآ تَدْخُلُوهُمَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمَّ وَإِن قِيلَ لَكُمَّ اٰرْجِعُوْا فَاٰرْجِعُوْا هُوَ اَرْكَىٰ لَكُمْ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ عَلِيْمٌ ﴿١٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَنْ تَدْخُلُوْا بُيُوْتًا غَيْرَ مَسْكُوْنَةٍ فِيْهَا مَتَعَ لَكُمْ وَاللّٰهُ بِمَا تَبَدَّدْتُمْ وَمَا تَكْتُمُوْنَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ ذكر أهل التفسير أن سبب نزولها أن امرأة من الأنصار جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، فلا يزال يدخل علي رجل من أهلي، فنزلت هذه الآية^(١)؛ فقال أبو بكر بعد نزولها: يا رسول الله، أفرأيت الخانات والمسكن التي ليس فيها ساكن، فنزل قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ...﴾ الآية^(٢). ومعنى قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوتاً ليست لكم. واختلف القراء في باء البيوت، فقرأ بعضهم بضمها، وبعضهم بكسرهما. وقد بينا ذلك في [البقرة: ٤١٨٩].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ قَسَتْآئِرُهَا﴾ قال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: حتى تسلموا وتستأنسوا. قال الزجاج: «وتستأنسوا» في اللغة، بمعنى تستأذنوا، وكذلك هو في التفسير، والاستئذان: الاستعلام، تقول: أذنته بكذا، أي: أعلمته، وأنست منه كذا، أي: علمت منه، ومثله: ﴿فَإِن مَّأْسَأْتُمْ مِنْهُمْ نُفْسًا﴾ [النساء: ٦] أي: علمتم. فمعنى الآية: حتى تستعلموا، يريد أهلها أن تدخلوا، أم لا؟ قال المفسرون: وصفة الاستعلام أن تقول: السلام عليكم، أدخل؟ ولا يجوز أن تدخل بيت غيرك إلا بالاستئذان، لهذه الآية، ﴿ذَلِكُمْ حَيْثُ لَكُمْ﴾ من أن تدخلوا بغير إذن ﴿لَمَلِكُ نَذْرُونَ﴾ أن الاستئذان خير فتأخذون به، قال عطاء: قلت لابن عباس: استأذن على أمي وأختي ونحن في بيت واحد؟ قال: أيسرُك أن ترى منهن عورة؟ قلت: لا، قال: فاستأذن.

قوله تعالى: ﴿إِن لَّرَّجِدُوا فِيهَا آهَكَا﴾ أي: إن وجدتموها خالية ﴿فَلَآ تَدْخُلُوهُمَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمَّ وَإِن قِيلَ لَكُمَّ اٰرْجِعُوْا فَاٰرْجِعُوْا﴾ أي: إن ردوكم فلا تقفوا على أبوابهم وتلازموا، ﴿هُوَ اَرْكَىٰ لَكُمْ﴾ يعني: الرجوع خير لكم وأفضل ﴿وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ من الدخول بإذن وغير إذن ﴿عَلِيْمٌ﴾^(٣).

فصل

وهل هذه الآية منسوخة، أم لا؟ فيها قولان: أحدهما: أن حكمها عام في جميع البيوت، ثم نسخت منها البيوت التي ليس لها أهل يُستأذنون بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾، هذا مروى عن الحسن، وعكرمة. والثاني: أن الآيتين محكمتان، فالاستئذان شرط في الأولى إذا كان للدار أهل، والثانية وردت في بيوت لا ساكن لها، والإذن لا يتصور من غير آذن، فإذا بطل الاستئذان، لم تكن البيوت الخالية داخلة في الأولى، وهذا أصح.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ فيها خمسة أقوال: أحدها: أنها الخانات والبيوت المنيئة للسابلة لياؤها، ويؤووا أمتعتهم، قاله قتادة. والثاني: أنها البيوت الخرية، والمتاع: قضاء الحاجة فيها من الغائط والبول، قاله عطاء. والثالث: أنها بيوت مكة، قاله محمد بن الحنفية. والرابع: حوانيت التجار التي بالأسواق، قاله ابن زيد. والخامس: أنها جميع البيوت التي لا ساكن لها، لأن الاستئذان إنما جعل لأجل الساكن، قاله ابن جريج. فيخرج في معنى «المتاع» ثلاثة أقوال: أحدها: الأمتعة التي تباع وتشترى. والثاني: إلقاء الأذى من الغائط والبول. والثالث: الانتفاع بالبيوت لانتقاء الحر والبرد.

(١) «الطبري» ١٨/١١١، و«أسباب النزول» للواحدي ١٨٦، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٨/٥ وزاد نسبه للقرطبي.

(٢) ذكره الوحدى في «أسباب النزول» ١٦٨ بدون سند.

(٣) قال ابن كثير: هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان، أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنا قبل الدخول ويسلموا بعده، قال: وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له، وإلا انصرف، كما ثبت في «الصحیح» أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن تيسر يستأذن؟ ائذنا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما أرجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليصرف».

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَحَفَظُوا فُرُجَهُنَّ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَحَفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُجُوبِهِنَّ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ الَّذِينَ فِي بَيْتِهِنَّ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَلَدِ الَّذِي لَرَبِّهِنَّ لِيُظَاهَرُوا عَلَى عَرَاتِهِنَّ الْبِغْيَةَ وَالْيَحْيَاءَ وَالْأَعْيُنَ وَأَنْ يَحْفَظْنَ مَا بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَهُنَّ وَتُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الدُّنْيَا لَمَّا كُنْتُمْ تُقْلِحُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ في «من» قولان: أحدهما: أنها صلة. والثاني: أنها أصل، لأنهم لم يؤمروا بالفض مطلقاً، وإنما أمروا بالفض عما لا يحل. وفي قوله: ﴿ وَحَفَظُوا فُرُوجَهُنَّ ﴾ قولان: أحدهما: عما لا يحل لهم، قاله الجمهور. والثاني: عن أن تُرى، فهو أمر لهم بالاستتار، قاله أبو العالية، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الغض وحفظ الفروج ﴿ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أي: خير وأفضل ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ في الأبصار والفروج (٣١). ثم أمر النساء بما أمر به الرجال.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ أي: لا يظهرونها لغير محرم. وزينتهن على ضربين. خفية كالسوارين والقُرطين والدَّمْلج والقلائد ونحو ذلك، وظاهرة وهي المشار إليها بقوله: ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ وفيه سبعة أقوال: أحدها: أنها الثياب، رواه أبو الأحوص عن ابن مسعود؛ وفي لفظ آخر قال: هو الرداء. والثاني: أنها الكفُّ والخاتم والوجه. والثالث: الكُحْل والخاتم، رواهما سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والرابع: القُلبان، وهما السَّواران والخاتم والكُحْل، قاله المسور بن مخرمة. والخامس: الكُحْل والخاتم والخضاب، قاله مجاهد. والسادس: الخاتم والسَّوار، قاله الحسن. والسابع: الوجه والكفان، قاله الضحاك. قال القاضي أبو يعلى: والقول الأول أشبه (٣٢)، وقد نص عليه أحمد، فقال: الزينة الظاهرة: الثياب، وكل شيء منها عورة حتى الظفر (٣٣)، ويفيد هذا تحريم النظر إلى شيء من الأجنبيات لغير عذر، فإن كان لعذر مثل أن يريد أن يتزوجها أو يشهد عليها، فإنه ينظر في الحالين إلى وجهها خاصة؛ فأما النظر إليها لغير عذر، فلا يجوز لا لشهوة ولا لغيرها، وسواء في ذلك الوجه والكفان وغيرهما من البدن. فإن قيل: فلم لا تبطل الصلاة بكشف وجهها؟! فالجواب: أن في تغطيته مشقة، فمُفي عنه.

قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ ﴾ وهي جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، والمعنى: ويُليقن مَقَانِعَهُنَّ ﴿ عَلَى جُجُوبِهِنَّ ﴾ ليسترن بذلك شعورهن وقرطنهن وأعناقهم. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وإبراهيم النخعي، والأعمش: ﴿ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ بكسر الجيم، ﴿ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ يعني: الخفية، وقد سبق بيانها ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس: لا يَضَعْنَ الجلباب والخمار إلا لأزواجهن.

(١) قال ابن كثير: هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يفضوا من أبصارهم عما حُرِّم عليهم، فلا ينظروا إلا ما أباح لهم النظر إليه، وأن يحمضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعاً، كما روى مسلم في «صحيحه» عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر النجاة، فأمرني أن أصرف بصري. وروى أبو داود عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة». وفي «الصحيح» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس اجلسوا على الطرقات، قالوا: يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أبيتُم فأهطوا الطريق حقه» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «فرض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك الوجه والكفان، يدخل في ذلك - إذا كان كذلك -: الكحل، والخاتم، والسوار، والخضاب.

(٣) وقال غيره من الأئمة: الوجه والكفان ليسا بعورة، فيجوز للمرأة أن تظهرهما، وهذا مقيد بما إذا لم يكن على الوجه والكفين شيء من الزينة، أما ما يضعه النساء في زماننا من الأصباغ على وجوههن وأكفهن بقصد التجمل، ويظهن به أمام الرجال في الطرقات، فلا شك في تحريمه عند جميع الأئمة. ثم الوجه والكفان وإن لم يكونا عورة عند بقية الأئمة، فليس معنى ذلك أنه يجب كشفهما عندهم، أو أنه سنة وسترهما بدعة، بل معناه أنه يجوز كشفهما، وذلك إذا امتن الفتنة. ثم إن سترهما مشروع وهو الأحسن والأكمل، وخاصة في مثل زماننا، فإننا لا نرى ذلك المجتمع المهذب الذي يصفي لقله تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَحَفَظُوا فُرُوجَهُنَّ ﴾ والكثير من الناس لا يدرك معنى قوله صلى الله عليه وسلم لجرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه عندما سأله عن نظر النجاة: «أصرف بصرك وقوله لعلي رضي الله عنه: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة» والاحتياط في مثل هذا الأمر أفضل، صوتاً للنساء، وحفظاً لعفانهن، وأن يستغفن خير لهن.

قوله تعالى: ﴿أَوْ سَاقِينَ﴾ يعني: المُسلمات. قال أحمد: لا يَحِلُّ للمسلمة أن تكشف رأسها عند نساء أهل اللذمة^(١)، واليهودية والنصرانية لا تقبلان المسلمة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ قال أصحابنا: المراد به: الإماء دون العبيد. وقال أحاب الشافعي: يدخل فيه العبيد، فيجوز للمرأة عندهم أن تُظهِر لمملوكها ما تُظهِر لمحارمها، لأن مذهب الشافعي أنه مَحْرَمٌ لها، وعندنا أنه ليس بمحرم، ولا يجوز أن ينظر إلى غير وجهها وكفها، وقد نص أحمد على أنه لا يجوز أن ينظر إلى شعر مولاته. قال القاضي أبو يعلى: وإنما ذكر الإمام في الآية، لأنه قد يظن الظانُّ أنه لا يجوز أن تبدي زيتتها للإماء، لأن الذين تقدّم ذكروهم أحراراً، فلما ذكر الإماء زال الإشكال.

قوله تعالى: ﴿أَوْ الثَّيِّبَاتِ﴾ وهم الذين يتبعون القوم ويكونون معهم لإرفاقهم إياهم، أو لأنهم نَشَؤُوا فيهم. وللمفسرين في هذا التابع ستة أقوال: أحدها: أنه الأحمق الذي لا تشبهه المرأة ولا يغار عليه الرجل، قاله قتادة، وكذلك قال مجاهد: هو الأبله الذي يريد الطعام ولا يريد النساء. والثاني: أنه العتّين، قاله عكرمة. والثالث: المخنث كان يتبع الرجل يخدمه بطعامه، ولا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن^(٢)، قاله الحسن. والرابع: أنه الشيخ الفاني. والخامس: أنه الخادم، قاله ابن السائب. والسادس: أنه الذي لا يكثر بالنساء، إما لِكِبَرٍ أو لهرم أو لصغر، ذكره ابن المنادي من أصحابنا. قال الزجاج: «غَيْرِ» صفة للتابعين. وفيه دليل على أن قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ معناه: «غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ» والمعنى: ولا يبدلين زينتهن لمماليكهن، ولا لثبّاعهن، إلا أن يكونوا غير أولي الإربة، والإربة: الحاجة، ومعناه: غير ذوي الحاجات إلى النساء.

قوله تعالى: ﴿أَوْ الْأَطْفَالِ﴾ قال ابن قتيبة: يريد الأطفال، بدليل قوله: ﴿لَرَّ يَظْهَرُونَ عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي: لم يعرفوها^(٣). قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: بإحدى الرجلين على الأخرى ليضرب الخللخال الخللخال فيعلم أن عليها خلخالين^(٤).

(١) قال ابن كثير: يعني تظهر بزيتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل اللذمة لئلا تصفهن رجالهن، وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء، إلا أنه في نساء أهل اللذمة أشد، فإنهن لا ينعهن من ذلك مانع، فاما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتتجرع عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تبأثر المرأة المرأة تمتعاً لزوجهما كأنه ينظر إليها» أخرجه في «الصححين» عن عبد الله بن مسعود.

(٢) وفي الصحيح من حديث الزهري عن عائشة ؓ أن مختناً كان يدخل على أهل رسول الله، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة، يقول: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما هاتنا لا يدخلن عليك» فأخرجه، فكان بالبديء يدخل كل يوم جمعة ليستطعم. وروى الإمام أحمد في «المستد» عن أم سلمة أنها قالت: دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث، وعندها عبد الله بن أبي أمية - يعني أخاه - والمخنث يقول: يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف هدأ، فعليك بابتة خيلان لأنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال: فسمعه رسول الله ﷺ، فقال لأم سلمة: «لا يدخلن هذا عليك» وهو في «الصححين» من حديث هشام بن عروة. ورواه أحمد بنحوه عن عائشة ؓ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أرى هذا يعلم ما هاتنا، لا يدخلن عليكم هذا» فحجبه، ورواه مسلم، وأبو داود، والنسائي عن أم سلمة ؓ.

(٣) قال ابن كثير: يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهم الرخيم، وتعطفهن في المشية، وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك، فلا بأس بدخوله، فاما إذا كان مراهماً أو قريباً منه بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرق بين الشوهاء والحسنة، فلا يمكن من الدخول على النساء، وقد ثبت في «الصححين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والدخول على النساء» قيل: يا رسول الله، فأقرب الحموم؟ قال: «الحموم الموت».

(٤) قال ابن كثير: كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها، ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك إذا كان شيء من زيتنها مستوراً فتحررت بحركة لتظهر ما هو خفي، دخل في هذا النهي، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ إلى آخره، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها، قال: وقد روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «كل حين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا» يعني زانية، قال: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديث حسن صحيح، ورواه أبو داود، والنسائي من حديث ثابت بن عماره به. وقال: ومن ذلك أيضاً أنهم ينهاون عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج. اهـ. وقال ابن كثير في تمة الآية: وقوله: ﴿وَوَدَّوْا إِلَى اللَّهِ جِيحًا أَبَةً اللَّهُنَّ تَلَكَّرَ تَلَكَّرُوتُ﴾ أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة، والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى عنه، والله تعالى هو المستعان. اهـ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَإِن يُكُونُوا قَرَابَةً بَيْنَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ وَلَيْسَتَيْنِ
الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُنْبِئَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ الْكِنَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ لَكَابِتُهُمْ إِن عَدِلْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَثَرُهُمْ بَيْنَ
مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ وَلَا تَحْكُمُوا فِي تَبْيِئِكُمْ عَلَى الْيَمَلِ إِذْ أَرَدْنَا نَحْنُ لِنُتَقِرَ عَنْهُ مِنَ الْبَرِّ الدُّنْيَا وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ
عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَقَدْ أُنزِلَ إِلَيْكَ مَا لَيْتَ مُبَيِّنًا وَمَنكَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم الذين لا أنواع لهم من الرجال والنساء، يقال: رجل أيم وامرأة أيم، ورجل
أرمل وامرأة أرملة، ورجل بكر وامرأة بكر: إذا لم يتزوجا، وامرأة ثيب ورجل ثيب: إذا كانا قد تزوجا، ﴿وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ
الْكِنَابَ﴾ أي: من عبيدكم، يقال: غبذ وعباد وعبيد، كما يقال: كلب وكلاب وكلب. وقرأ الحسن، ومعاذ القارئ: «من
عبيدكم». قال المفسرون: والمراد بالآية النذب^(١). ومعنى الصلاح هاهنا: الإيمان. والمراد بالعباد: (المملوكون،
فالمعنى: زوجوا المؤمنين من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿إِن يُكُونُوا قَرَابَةً بَيْنَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾
فأخبرهم أن النكاح سبب لنفي الفقر^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: وليطلب الحق من الزنى والحرام من لا يجد ما ينكح به من
صداق ونفقة. وقد زوى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر الشباب عليكم بالباءة، فمن لم يجد فعليها
بالصيام فإنه له وجاء»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ الْكِنَابَ﴾ أي: يطلبون المكاتب من العبيد والإماء على أنفسهم، ﴿لَكَابِتُهُمْ﴾ فيه قولان:
أحدهما: أنه مندوب إليه، قاله الجمهور. والثاني: أنه واجب، قاله عطاء، وعمرو بن دينار. وذكر المفسرون: أنها
نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له: صبيح، سأل مولاة الكتابة فأبى عليه، فنزلت هذه الآية، فكاتبه
حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين ديناراً^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِن عَدِلْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: إن علمتم لهم مالا، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه
قال مجاهد، وعطاء، والضحاك. والثاني: إن علمتم لهم حيلة، يعني: الكسب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.
والثالث: إن علمتم فيهم ديناً، قاله الحسن. والرابع: إن علمتم أنهم يريدون بذلك الخير، قاله سعيد بن جبيرة.
والخامس: إن أقاموا الصلاة، قاله عبيدة السلماني. والسادس: إن علمتم لهم صدقاً ووفاء، قاله إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿وَأَثَرُهُمْ بَيْنَ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه خطاب للأغنياء الذين تجب عليهم
الزكاة، أمروا أن يعطوا المكاتبين من سهم الرقاب، روى عطاء عن ابن عباس في هذه الآية قال: هو سهم الرقاب
يُعطى منه المكاتبون. والثاني: أنه خطاب للسادة، أمروا أن يعطوا مكاتبهم من كتابتهم شيئاً. قال أحمد
والشافعي: الإيتاء واجب، وقدره أحمد بربع مال الكتابة. وقال الشافعي: ليس بمقدّر. وقال أبو حنيفة ومالك: لا
يجب الإيتاء. وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه كاتب غلاماً له يقال له: أبو أمية، فجاءه بنجمه حين حل؛

(١) قال ابن كثير: اشتملت هذه الآيات الكريمات العبيية، على جمل من الأحكام المحكمة، والأوامر المبرمة، فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ إلى
آخره، هذا أمر التزويج، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه، واحتجوا بظاهر قوله عليه الصلاة والسلام: «يا معشر الشباب
من استطاع منكم البائة فليتزوج، فإنه أحسن للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعلي بالصوم فإنه له وجاء» أخرجه في «الصحيحين» من حديث ابن
مسعود. وقد جاء في «السنن» من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «تزوجوا الولود، تناسلوا فإني ما يؤمكم بالأم يوم القيامة». اهـ.

(٢) روى الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه بسند حسن من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله
عولهم: المكاتب الذي يريد الأذى، والفاصح الذي يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله».

وروى ابن جرير الطبري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿إِن يُكُونُوا قَرَابَةً بَيْنَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾. وقال
الطبري في تمام الآية: ﴿وَأَثَرُهُمْ بَيْنَ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ يقول جل ثناؤه: والله واسع الفضل، جواد بعباياه، فزوجوا إماءكم، فإن الله واسع يوسع عليهم من فضله
إن كانوا فقراء، عليم، يقول: هو ذو علم بالفقير منهم والغني، لا يخفي عليه حال خلقه في شيء وتديبرهم. اهـ.

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ بلفظ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم البائة فليتزوج فإنه أحسن للبصر وأحصن للفرج، فمن لم يستطع
فعلية بالصوم فإنه له وجاء».

(٤) الواحدي في «أسباب النزول»، ١٨٦، وذكره السيوطي في «الدرر» ٥/٤٥ من رواية ابن السكن في «معرفة الصحابة».

فقال: اذهب يا أبا أمية فاستعن به في مكاتبتك، قال: يا أمير المؤمنين لو أحرته حتى يكون في آخر النجوم، فقال: يا أبا أمية: إني أخاف أن لا أدرك ذلك، ثم قرأ: ﴿وَأَنفُوسٌ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾^(١)، قال عكرمة: وكان ذلك أول نجم أدي في الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْيَلَةِ﴾ روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي سفيان عن جابر، قال: كان عبد الله بن أبي يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً، فنزلت هذه الآية^(٢). قال المفسرون: وكان له جارتان، مُعَاذَةُ ومُسَيِّكَةُ، فكان يكرههما على الزنا، ويأخذ منهما الضريبة، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية، يؤاجرون إماءهم، فلما جاء الإسلام قالت مُعَاذَةُ لمسيكة: إن هذا الأمر الذي نحن فيه إن كان خيراً فقد استكثرنا منه، وإن كان شراً فقد آن لنا أن ندعه، فنزلت هذه الآية^(٣). وزعم مقاتل أنها نزلت في ست جوارٍ كُنَّ لعبد الله بن أبي، مُعَاذَةُ، ومُسَيِّكَةُ، وأميمة، وقَتِيلَةُ، وعمرة، وأروى. فأما الفتيات، فهن الإمامة. والبغاء: الزنا. والتحصن: التعفف. واختلفوا في معنى ﴿إِن أَرَدَنَ نَحْصًا﴾ على أربعة أقوال: أحدها: أن الكلام ورد على سبب، وهو الذي ذكرناه، فخرج النهي عن صفة النهي عن صفة السبب، وإن لم يكن شرطاً فيه. والثاني: إنه إنما شرط إرادة التحصن، لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن، فأما إذا لم ترد المرأة التحصن، فإنها تبغي بالطبع. والثالث: أن «إن» بمعنى «إذا»، ومثله: ﴿وَدَرُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. والرابع: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، تقديره: ﴿وَأَيْكُفُّوا أَلْبَاسَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَلْبَسِكُمْ﴾ ﴿إِن أَرَدَنَ نَحْصًا﴾ ولا تُكْرِهُوا فتياتكم على البغاء ﴿لِيُنْفِقُوا ذُرِّيَّتَهُنَّ الَّذِيْنَ لَهُنَّ وَأَبْوَهُنَّ﴾ وهو كسبهن وبيع أولادهن ﴿وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ بِنِكَاحِ إِكْرَاهِهِنَّ عُتُقَرٌ لِلْمُكْرَهَاتِ﴾ ﴿حَرِّمٌ﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو عمران الجوني، وجعفر بن محمد: «من بعد إكراههن لهن غفور رحيم».

قوله تعالى: ﴿عَائِدَتِ مَيْبِنَتٍ﴾ قرأ ابن عامر، وأهل الكوفة غير أبي بكر، وأبان: «مبئنات» بكسر الياء في الموضعين في هذه السورة [النور: ٤٣، ٤٦]، وآخر سورة [الطلاق: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي: شبيهاً من حالهم بحالكم أيها المكذبون، وهذا تخويف لهم أن يلحقهم ما لحق المكذبين قبلهم.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي بَحْرٍ مُّضِيحٍ فِي بَحْرٍ مُّضِيحٍ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه قولان: أحدهما: هادي أهل السموات والأرض، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال أنس بن مالك، وبيان هذا أن النور في اللغة: الضياء، وهو الذي تصل به الأبصار إلى مبصراتها، فورد النور مضافاً إلى الله تعالى، لأنه هو الذي يهدي المؤمنين ويبين لهم ما يهتدون به، والخلائق بنوره يهتدون^(٥). والثاني: مدبر السموات والأرض، قاله مجاهد، والزجاج. وقرأ أبو بكر، وأبو المتوكل، وابن السمين: «اللَّهُ نُورٌ» بفتح النون والواو وتشديدها ونصب الراء «السموات» بالخفض «والأرض» بالنصب.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ في هاء الكناية أربعة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الله ﷻ، قال ابن عباس: مَثَلُ هَذَا فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ. والثاني: أنها ترجع إلى المؤمن، فتقديره: مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ، قاله أبي ابن كعب. وكان أبي وابن

(١) ذره السيوطي في «الدر» ٤٦/٥ من رواية عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٧، والسيوطي في «الدر» ٤٦/٥، وزاد نسبه لابن أبي شيبه، وسعيد بن منصور، والبزار، والدارقطني، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مرفويه، من طريق أبي سفيان، عن جابر ﷺ.

(٣) هكذا ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٧ بدون سند، وذكره السيوطي في «الدر» ٤٦/٥ ونسبه لسعيد بن منصور، والفريايبي، وعبد بن حميد، وابن جرير عن عكرمة.

(٤) وفي «الصحيحين» عن ابن عباس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن... الحديث».

مسعود يقرآن: «مثل نُور مَنْ آمَنَ بِهِ». والثالث: أنها ترجع إلى محمد ﷺ، قاله كعب. والرابع: أنها ترجع إلى القرآن، قاله سفيان. فأما المشكاة، ففيها ثلاثة أقوال: أحدها أنها في موضع الفتيلة من القنديل الذي هو كالأنبوب، والمصباح: الضوء، قاله ابن عباس. والثاني: أنها القنديل، والمصباح: الفتيلة، قاله مجاهد. والثالث: أنها الكوة التي لا منفذ لها، والمصباح: السراج، قاله كعب، وكذلك قال الفراء: المشكاة: الكوة التي ليست بنافذة. وقال ابن قتيبة: المشكاة: الكوة بلسان الحبشة. وقال الزجاج: هي من كلام العرب^(١)، والمصباح: السراج. وإنما ذكر الزُّجاجة، لأن الثُّور في الزُّجاج أشد ضوءاً منه في غيره. وقرأ أبو رجاء العطاردي، وابن أبي عمير: «في زُّجاجة الزُّجاجة» بفتح الزاي فيهما. وقرأ معاذ القارئ، وعاصم الجحدري، وابن يعمر: بكسر الزاي فيهما. قال بعض أهل المعاني: معنى الآية: كمثل مصباح في مشكاة، فهو من المقلوب. فأما الدُّرِّيُّ، فقرأ أبو عمرو، والكسائي، وأبان عن عاصم «دُرِّيٌّ» بكسر الدال وتخفيف الياء ممدوداً مهموزاً. قال ابن قتيبة: المعنى على هذا: إنه من الكواكب الدُّراريء، وهي اللاتي يَدْران عليك، أي: يظلمن. وقال الزجاج: هو مأخوذ من درأ يدرأ: إذا اندفع منقضاً فتضاعف نوره، يقال: تدارأ الرجلان: إذا تدافعا. وروى المفضل عن عاصم كسر الدال وتشديد الياء من غير همز ولا مد، وهي قراءة عبد الله بن عمر، والزهرري. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «دُرِّيٌّ» بضم الدال وكسر الراء وتشديد الياء من غير مد ولا همز، وقرأ عثمان بن عفان، وابن عباس، وعاصم، الجحدري: «دُرِّيٌّ» بفتح الدال وكسر الراء ممدوداً مهموزاً. وقرأ أبي كعب، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وقتادة، وابن يعمر: بفتح الدال وكسر الراء مهموزاً مدً ولا همز. وقرأ ابن مسعود، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وقتادة، وابن يعمر: بفتح الدال وكسر الراء مهموزاً مقصوراً. قال الزجاج: الدُّرِّيُّ: منسوب إلى أنه كالذُّرِّ في صفاته وحسنه. وقال الكسائي: الدُّرِّيُّ: الذي يشبه الذُّرَّ، والدُّرِّيُّ: جارٍ، والدُّرِّيُّ: يلتصق، وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم، والوليد بن عتبة عن ابن عامر: بضم الدال وتخفيف الياء مع إثبات الهمزة والمد، قال الزجاج: فالنحويون أجمعون لا يعرفون الوجه في هذا؛ وقال الفراء: ليس هذا بجائز في العربية، لأنه ليس في الكلام «فُعِيل» إلا أعجمي، مثل مُرَيْق، وما أشبهه. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي: المُرَيْق: العُضْفُر، أعجمي معرَّب، وليس في كلامهم اسم على زنة فُعَيْل. قال أبو علي: وقد حكى سيبويه عن أبي الخطاب: كوكب دُرِّيٌّ: من الصفات، ومن الأسماء: المُرَيْق: العُضْفُر.

قوله تعالى: «تَوَقَّدَ» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: بالتاء المفتوحة وتشديد القاف ونصب الدال، يريدان المصباح، لأنه هو الذي يوقد. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «يُوقَدُ» بالياء مضمومة مع ضم الدال، يريدون المصباح أيضاً. وقرأ حمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «تَوَقَّدَ» بضم التاء والدال، يريدون الزجاج، قال الزجاج: والمقصود: مصباح الزجاج، فحذف المضاف.

قوله تعالى: «بِن شَجَرَةٍ» أي: من زيت شجرة، فحذف المضاف، يدلُّك على ذلك قوله: «بِكَادُ زَيْتِنًا يَنْوِيءُ»؛ والمراد بالشجرة هاهنا: شجرة الزيتون، وِبَرَكَّتْهَا من وجوه، فإنها تجمع الأُذْمَ والدَّهْنَ والوَقُودَ، فيوقد بحطب الزيتون، وَيُغَسَّلُ برماده الإبريسم، وَيُسْتَجْرَجُ دهنه أسهل استخراج، ويورق غصنه من أوله إلى آخره. وإنما حُصِّتْ بالذكر هاهنا دون غيرها، لأن دهنها أصفى وأضوأ.

قوله تعالى: «لَا شَرِيفَ وَلَا غَرِيْبَ» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بين الشجر، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك مثل ضربة الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به، فقال: مثل نور الله الذي أثار به لعباده سبيل الرشاد الذي أنزله إليهم فآمنوا به وصدّقوا بما فيه، في قلوب المؤمنين، مثل إشكاة، وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة، وذلك هو نظير الكوة التي في الحيطان التي لا منفذ لها، وإنما جعل ذلك العمود مشكاة، لأنه غير نافذ، وهو أجوف مفتوح الأعلى، فهو كالكوة التي في الحائط التي لا تنفذ، ثم قال: «بِنًا يَنْوِيءُ» وهو السراج، وجعل السراج وهو المصباح مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات المبينات، ثم قال: «الْيَسِيْبُ فِي كَيْبَةٍ» يعني أن السراج الذي في المشكاة: في القنديل، وهو الزجاج، وذلك مثل القرآن، يقول: القرآن الذي في قلب المؤمن الذي أثار الله قلبه في صدره، ثم مثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله والشك فيه، واستنارته بنور القرآن، واستنصاته بآيات ربه المبينات ومواظفه فيها، بالكوكب الدرّي، فقال: «الْيَسِيْبُ» وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه «كَيْبًا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ». اهـ.

الشمس، قاله أبي بن كعب، ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: أنها في الصحراء لا يُظلمها جبل ولا كهف، ولا يواربها شيء، فهو أجود لزيته، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والزجاج. والثالث: أنها من شجر الجنة، لا من شجر الدنيا، قاله الحسن^(١).

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ أي: يكاد من صفائه يُضيء قبل أن تصيبه النار بأن يوقد به. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قال مجاهد: النار على الزيت. وقال ابن السائب: المصباح نور، والزجاجة نور. وقال أبو سليمان الدمشقي: نور النار، ونور الزيت، ونور الزجاجة^(٢)، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لنور القرآن. والثاني: لنور الإيمان. والثالث: لنور محمد ﷺ. والرابع: لدينه الإسلام^(٣).

فصل

فأما وجه هذا المثل، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه شبه نور محمد ﷺ بالمصباح النير؛ فالمشكاة جوف رسول الله ﷺ، والمصباح النور الذي في قلبه، والزجاجة قلبه، فهو من شجرة مباركة، وهو إبراهيم عليه السلام، سماه شجرة مباركة، لأن أكثر الأنبياء من صلبه ﴿لَا شَرْقِيَّ وَلَا غَرْبِيَّ﴾ لا يهودي ولا نصراني، يكاد محمد ﷺ يتبين للناس أنه نبي ولو لم يتكلم. وقال القرظي: المشكاة: إبراهيم، والزجاجة: إسماعيل، والمصباح: محمد، صلى الله عليه وعليهم وسلم. وقال الضحاك: شبه عبد المطلب بالمشكاة، وعبد الله بالزجاجة، ومحمداً ﷺ بالمصباح^(٤). والثاني: أنه شبه نور الإيمان في قلب المؤمن بالمصباح، فالمشكاة: قلبه، والمصباح: نور الإيمان فيه. وقيل: المشكاة: صدره، والمصباح: القرآن والإيمان اللذان في صدره، والزجاجة: قلبه، فكانه مما فيه من القرآن والإيمان كوكب مضيء توفد من شجرة، وهي الإخلاص، فمثل الإخلاص عنده كشجرة لا تصيبها الشمس، فكذلك هذا المؤمن قد احتسب من أن تصيبه الفتن، فإن أعطي شكر، وإن ابتلي صبر، وإن قال صدق، وإن حكم عدل، فقلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدئاً على هدئٍ كما يكاد هذا الزيت يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته اشتد نوره، فالمؤمن كلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور يوم القيامة. والثالث: أنه شبه القرآن بالمصباح يُستضاء به ولا ينقص، والزجاجة: قلب المؤمن، والمشكاة: لسانه وفمه، والشجرة المباركة: شجرة الوحي، تكاد حُجج القرآن تتضح وإن لم تُقرأ. وقيل: تكاد حُجج الله تضيء لمن فكر فيها وتدبرها ولو لم ينزل القرآن، ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي: القرآن نور من الله لخلقه مع ما قد قام لهم من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: وبيّن الله الأشباه للناس تقريباً إلى الأفهام وتسهيلاً لسبل الإدراك.

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك قول من قال: إنها شرقية غربية، وقال: ومعنى الكلام: ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالمشي دون الغداة، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب، فهي شرقية غربية، وإنما قلنا: ذلك أولى بمعنى الكلام، لأن الله إنما وصف الزيت الذي يوقد على هذا المصباح بالصفاء والجمود، فإذا كان شجرة شرقياً غربياً، كان زيت لا شك أجود وأصفى وأضوأ. اهـ. وقال ابن كثير بعد أن سرد عدة أقوال: وأولى هذه الأقوال أنها في مستوى من الأرض في مكان فسح باو ظاهر ضاح للشمس تفرقه من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيته والطف، كما قال غير واحد، قال: ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَنَسَسْ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني لضوء إشراق الزيت. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: نور النار ونور الزيت حين اجتماعهما، ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعهما فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يقول تعالى ذكره: يوقد الله لاتباع نوره، وهو هذا القرآن من يشاء من عباده. اهـ. فعلى هذا الضمير يعود على القرآن، وهو الصواب.

(٤) هذا تأويل، وليس تفسيراً لظاهر الآيات. قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: ويمثل الله الأمثال والأشياء للناس، كما مثل لهم مثل هذا القرآن في قلب المؤمن بالمصباح في المشكاة وما من ما في هذه الآية من الأمثال، ﴿وَاللَّهُ يَكْفِي سَمَوَاتِهِمَا﴾ يقول: والله يضرب الأمثال وغيرها من الأشياء كلها، ذو علم. وقال ابن كثير: وقوله: ﴿وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكْفِي سَمَوَاتِهِمَا﴾: لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداة في قلب المؤمن، ختم الآية بقوله: ﴿وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكْفِي سَمَوَاتِهِمَا﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الاضلال. اهـ.

﴿ فِي بُيُوتِ أَوْلِيَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبَّحُ لَمْ فِيهَا بِالْعُدْوِ وَالْأَصَالِ ﴾ (١) يَسْأَلُ لَا تُلْهِمُهُمْ مِحْرَةً وَلَا يَسْبِغَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَرَأَى الْمَسْكَةَ وَإِلَيْهِ الرُّكُودُ بِمَا نَقَلْنَا فِيهِ الْقَلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٢﴾ يَجْرِمُهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ بَرُّكَ مَنْ يَنْكَأَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتِ ﴾ قال الزجاج: «في» من صلة قوله: «كمشكاة»، فالمعنى: كمشكاة في بيوت؛ ويجوز أن تكون متصلة بقوله: «يسبغ له فيها» فتكون فيها تكريماً على التوكيد؛ والمعنى: يسبغ الله رجال في بيوت. فإن قيل: المشكاة إنما تكون في بيت واحد، فكيف قال: «في بيوت»؟ فغنه جوابان: أحدهما: أنه من الخطاب المتلون الذي يفتح بالتوحيد ويختتم بالجمع، كقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا مَلَئَتُنَّ النِّسَاءَ ﴾ [الطلاق: ٤١]. والثاني: أنه راجع إلى كل واحد من البيوت، فالمعنى: في كل بيت مشكاة. وللمفسرين في المراد بالبيوت هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنها المساجد، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: بيوت أزواج رسول الله ﷺ (١)، قاله مجاهد. والثالث: بيت المقدس، قاله الحسن (٢). فأما ﴿ أَوْلِيَ ﴾ فمعناه: أمر. وفي معنى ﴿ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ قولان: أحدهما: أن تعظم، قاله الحسن، والضحاك. والثاني: أن تبنى، قاله مجاهد، وقناة. وفي قوله: ﴿ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ ﴾ قولان: أحدهما: توحيده؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: يُتلى فيها كتابه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ يُسَبَّحُ ﴾ قرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم، ونافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «يُسَبَّحُ» بكسر الباء، وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: بفتحها. وقرأ معاذ القارئ، وأبو حيوه: «تُسَبَّحُ» بقاء مرفوعة وكسر الباء ورفع الحاء. وفي قوله: ﴿ يُسَبَّحُ لَمْ فِيهَا ﴾ قولان: أحدهما: أنه الصلاة. ثم في صلاة العُدْوِ قولان: أحدهما: أنها صلاة الفجر، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: صلاة الضحى، روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: إن صلاة الضحى لفي كتاب الله، وما يغوص عليها إلا غواص، ثم قرأ ﴿ يُسَبَّحُ لَمْ فِيهَا بِالْعُدْوِ وَالْأَصَالِ ﴾. وفي صلاة الأصال قولان: أحدهما: أنها صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، قاله ابن السائب. والثاني: صلاة العصر، قاله أبو سليمان الدمشقي. والقول الثاني: أنه التسيح المعروف، ذكره بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُ لَا تُلْهِمُهُمْ ﴾ أي: لا تشغلهم ﴿ مِحْرَةً وَلَا يَسْبِغَ ﴾ (٣) قال ابن السائب: الشُّجَارُ: الجلابون، والباعة: المقيمون. وقال الواقدي: التجارة هاهنا بمعنى الشراء. وفي المراد بذكر الله ثلاثة أقوال: أحدها: الصلاة المكتوبة، قاله ابن عباس، وعطاء. وروى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقت حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت ﴿ يَسْأَلُ لَا تُلْهِمُهُمْ مِحْرَةً وَلَا يَسْبِغَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ والثاني: عن القيام بحق الله، قاله قناة. والثالث: عن ذكر الله باللسان، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمَسْكَةَ ﴾ أي: أداؤها لوقتها وإتمامها. فإن قيل: إذا كان المراد بذكر الله الصلاة، فما معنى إعادتها؟ فالجواب: أنه بين أنهم يقيمونها بأدائها في وقتها.

قوله تعالى: ﴿ نَقَلْنَا فِيهِ الْقَلُوبَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ في معناه ثلاثة أقوال: أحدها: أن من كان قلبه مؤمناً بالبعث والنشور، ازداد بصيرة برؤية ما وعد به؛ ومن كان قلبه على غير ذلك، رأى ما يوقن معه بأمر القيامة، قاله الزجاج.

(١) وهذا أيضاً تأويل، فإن المقصود من البيوت هنا: المساجد.

(٢) والمقول الأول هو الصواب. قال ابن كثير: لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقد من زيت طيب، وذلك كالتنديل، مثلاً، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوت التي يُعبد فيها وتُؤخذ، فقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتِ أَوْلِيَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ أي: أمر الله تعالى بتعظيمها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها. اهـ. وقد ورد في فضل بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطهيرها وتبخيرها أحاديث كثيرة، منها ما أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة»، وروى ابن ماجه في «سننه» بسند صحيح عن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من بنى مسجداً له كمنهض قطاة أو أصغر بنى الله له بيتاً في الجنة»، والأحاديث في ذلك كثيرة.

(٣) قال ابن كثير: يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاد بينها وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم، لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَا تُلْهِمُهُمْ مِحْرَةً وَلَا يَسْبِغَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَرَأَى الْمَسْكَةَ وَإِلَيْهِ الرُّكُودُ ﴾ أي: يقدمون طاعتهم ورامدهم ومحبتهم على مرادهم ومحبتهم. اهـ.

والثاني: أن القلوب تتقلب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك، والأبصار تتقلب، تنظر من أين يؤتون كتبهم، أين قبل اليمين، أم من قبل الشمال؟ وأي ناحية يؤخذ بهم، ذات اليمين، أم ذات الشمال؟ قاله ابن جرير.

والثالث: تتقلب القلوب فتبلغ إلى الحناجر، وتتقلب الأبصار إلى الزرق بعد الكحل والعمى بعد النظر.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهمُ﴾ المعنى: يسبحون الله ليجزيهم ﴿أَحَبَّنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي: ليجزيهم بحسناتهم. فأما مساوئهم فلا يجزيهم بها ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ ما لم يستحقوه بأعمالهم ﴿وَاللَّهُ يَزِدُّ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قد شرحناه في لآل عمران: [٢٧].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كِرَالِيًّا يَمْسُوكَ أَلْظَمَانَ مَاءٍ حَرِّجَ إِذَا جَاءَهُ لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَقَّعَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أو كطلعت في بحر ليجي يتشبه موج من فوقه، موج من فوقه، سحاب طلعت بعضها فوق بعض إذا أخرج يكد لويكد يرها ون يجعل الله لهما تورا فما لهما من نور ﴿١٥﴾

ثم ضرب الله مثلاً للكفار فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كِرَالِيًّا﴾ قال ابن قتيبة: السراب: ما رأيته من الشمس كالماء نصف النهار، والآل: ما رأيته في أول النهار وآخره، وهو يرفع كل شيء، والقيعة والقاع واحد. وقرأ أبي بن كعب، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «بقيعات». وقال الزجاج: القيعة جمع قاع، مثل جار وجيرة، والقيعة والقاع: ما انبسط من الأرض ولم يكن فيه نبات، فالذي يسير فيه يرى كأن فيه ماء يجري، وذلك هو السراب، والآل مثل السراب، إلا أنه يرتفع وقت الضحى - كالماء - بين السماء والأرض يحسبه الظمان - وهو الشديد العطش - ماء، حتى إذا جاء إلى موضع السراب رأى أرضاً لا ماء فيها، فأعلم الله أن الكافر الذي يظن أن عمله قد نفعه عند الله - كظن الذي يظن السراب ماء - وعمله قد حبط.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾ أي: قد علم الله ﴿فَوَقَّعَهُ حِسَابَهُ﴾ أي: جازاه بعمله؛ وهذا في الظاهر خبر عن الظمان، والمراد به الخير عن الكافر.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ مفسر في [البقرة: ٢٠٢].

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَطَلْعَتٍ﴾ في هذا المثل قولان: أحدهما: أنه لعمل الكافر، قاله الجمهور، واختاره الزجاج. والثاني: أنه مثل لقلب الكافر في أنه لا يتقبل ولا يتصبر، قاله الفراء. فأما اللجتي، فهو العظيم اللجة، وهو العميق ﴿يَتَشَبَّهُ﴾ أي: يعلو ذلك البحر ﴿مَوْجٍ مِّن فَوْقِهِ﴾ أي: من فوق الموج موج، والمعنى: يتبع الموج موج، حتى كان بعضه فوق بعض، ﴿مِن فَوْقِهِ﴾ أي؛ من فوق ذلك الموج ﴿سَحَابٌ﴾. ثم ابتداء فقال: ﴿ظَلَمْتَ﴾ يعني: ظلمة البحر، وظلمة الموج [الأول، وظلمة الموج] الذي فوق الموج، وظلمة السحاب. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن: «سحاب ظلمات» مضافاً ﴿إِذَا أخرج يكد﴾ يعني: إذا أخرجها مخرج، ﴿لَوْ يكد يرها﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه لم يرها، قاله الحسن، واختاره الزجاج. قال: لأن في دون هذه الظلمات لا يرى الكف؛ وكذلك قال ابن الأنباري: معناه: لم يرها البتة، لأنه قد قام الدليل عند وصف تكاثف الظلمات على أن الرؤية معدومة، فبان بهذا الكلام أن «يكد» زائدة للتوكيد، بمنزلة «ما» في قوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصِحِّحُنَّ لِيَدِين﴾ [المؤمنون: ٤٠]. والثاني: أنه لم يرها إلا بعد الجهد، قاله المبرد. قال الفراء: وهذا كما تقول: ما كدت أبلغ إليك، وقد بلغت، قال الفراء: وهذا وجه العربية.

فصل

فأما وجه المثل، فقال المفسرون: لما ضرب الله للمؤمن مثلاً بالتور، ضرب^(١) للكافر هذا المثل بالظلمات؛ والمعنى: أن الكافر في حيرة لا يهتدي لرشد. وقيل: الظلمات: ظلمة الشرك وظلمة المعاصي. وقال بعضهم: ضرب الظلمات مثلاً لعمله، والبحر اللجتي قلبه، والموج لما يغشى قلبه من الشرك والجهل والحيرة، والسحاب للزين والختم على قلبه، فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة.

(١) في الأصل: وضرب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَرَّ يَجْمَلُ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ فيه قولان. أحدهما: ديناً وإيماناً، قاله ابن عباس، والسدي والثاني: هداية، قاله الزجاج.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّيْتُ كُلَّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَرَبُّكَ تِلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيُّ اللَّهِ الْأَصْبَرُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قد تقدم تفسيره [البقرة: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرِ﴾ أي: وتسبح له الطير ﴿صَفَّيْتُ﴾ أي: باسطات أجنحتها في الهواء. وإنما خصص الطير بالذكر، لأنها تكون بين السماء والأرض إذا طارت، فهي خارجة عن جملة مَنْ في السموات والأرض.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ﴾ أي: من الجملة التي ذكرها ﴿قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ﴾ قال المفسرون: الصلاة، لبني آدم، والتسبيح، لغيرهم من المخلوق. وفي المشار إليه بقوله: ﴿قد علم﴾ قولان. أحدهما: أنه الله تعالى، والمعنى: قد علم الله صلاة المصلّي وتسبيحه، قاله الزجاج. والثاني: أنه المصلّي والمسبح. ثم فيه قولان: أحدهما: قد علم المصلّي صلاة الله والمسبح نفسه وتسبيحه، أي: قد عرف ما كلف من ذلك. والثاني: قد علم المصلّي صلاة الله وتسبيحه، أي: علم أن ذلك لله تعالى وحده. وقرأ قتادة، وعاصم الجحدري، وابن يعمر: ﴿كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ﴾ برفع العين وكسر اللام «صلاته وتسبيحه» بالرفع فيها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُعَلِّمُهُمْ رِكَاظًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْتَضُّ مِنْ خَلْفِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرِّ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٢﴾ يَلْبَسُ اللَّهُ الْبَيْتَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِي سَحَابًا﴾ أي: يسوقه ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يضم بعضه إلى بعض، فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة. والسحاب لفظه لفظ الواحد، ومعناه الجمع، فلهذا قال: ﴿يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُعَلِّمُهُمْ رِكَاظًا﴾ أي: يجعل بعض السحاب فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ﴾ وهو المطر. قال الليث: الودق: المطر كله شديدته وهيته.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والضحاك: «من خَلْفِهِ». والخلال: جمع خَلَل، مثل: جبال وجبل. ﴿وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ مفعول الإنزال محذوف، تقديره: وينزل من السماء من جبال فيها من بَرِّ برداً، فاستغنى عن ذكر المفعول للدلالة عليه. «وَمِنْ» الأولى، لابتداء الغاية، لأن ابتداء الإنزال من السماء، والثانية: للتبعيض، لأن الذي ينزله الله بعض تلك الجبال، والثالثة، لتبيين الجنس، لأن جنس تلك [الجبال] جنس البرد؛ قال المفسرون: وهي جبال في السماء مخلوقة من برد. وقال الزجاج: معنى الكلام: وينزل من السماء من جبال برد فيها، كما تقول: هذا خاتم في يدي من حديد، المعنى: هذا خاتم حديد في يدي.

قوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالبرد ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ فيضربه في زرعه وثمره. والسنا: الضوء، ﴿يَذْهَبُ﴾ وقرأ مجاهد، وأبو جعفر: ﴿يُذْهِبُ﴾ بضم الياء وكسر الهاء. ﴿يَلْبَسُ اللَّهُ الْبَيْتَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: يأتي بهذا، ويذهب بهذا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التقلب ﴿لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: دلالة لأهل البصائر والمقول على وحدانية الله وقدرته.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ خَلَقَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: «والله خالِقُ كُلِّ دَابَّةٍ من ماء» وفي الماء قولان: أحدهما: أن الماء أصل كل دابَّة. والثاني: أنه النطفة، والمراد به: جميع الحيوان المشاهد في الدنيا. وإنما قال: «فمنهم» تغليبا لما يعقل. وإنما لم يذكر الذي يمشي على أكثر من أربع، لأنه في رأي العين كالذي يمشي على أربع، وقيل: لأنه يعتمد في المشي على أربع. وإنما سُمي السائر على بطنه ماشياً، لأن كل سائر مستمر يقال له: ماشٍ وإن لم يكن حيواناً، حتى إنه يقال: قد مشى هذا الأمر، هذا قول الزجاج. وقال أبو عبيدة: إنما هذا على سبيل التشبيه بالماشي، لأن المشي لا يكون على البطن، إنما يكون لمن له قوائم، فإذا خلطوا ماله قوائم بما لا قوائم له، جاز ذلك، كما يقولون: أكلت خبزاً ولبناً، ولا يقال: أكلت لبناً.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١﴾ وَيَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَىٰ رَسُولِهِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوَلِّيكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ لِيَأْخُذُوا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٣﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَّكُمْ لَمَنٌ يَأْتُواكُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحُكْمِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَتَأْتُواكُم بِالْبُيُوتِ الَّتِي بَنَى اللَّهُ لَكُمْ وَآبَائِكُمْ ثَوَابًا وَإِن تُرِيدُوا عِلْمَ ذَلِكَ فَذُكِّرُوا بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ ﴿١٤﴾ وَإِن تُرِيدُوا عِلْمَ ذَلِكَ فَذُكِّرُوا بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ وَإِن تُرِيدُوا عِلْمَ ذَلِكَ فَذُكِّرُوا بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ ﴿١٦﴾ وَإِن تُرِيدُوا عِلْمَ ذَلِكَ فَذُكِّرُوا بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ قال المفسرون: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: بشر كان بينه وبين يهودي حكومة، فدعا اليهودي المنافق إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما، فقال المنافق لليهودي: إن محمداً يَجِيفُ علينا، ولكن بيني وبينك كعب بن الأشرف، فنزلت هذه الآية^(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني المنافقين ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد قولهم: آمنا ﴿وَمَا أُوَلِّيكَ﴾ يعني: المُعْرِضِينَ عن حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى كتابه ﴿وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الرسول ﴿إِنَّا كَانُوا يُعْرِضُونَ﴾ ومعنى الكلام: أنهم كانوا يُعْرِضُونَ عن حُكْمِ الرَّسُولِ عَلَيْهِمْ. لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ؛ وَإِنْ كَانَ الْحَقُّ لَهُمْ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، أَسْرَعُوا إِلَىٰ حُكْمِهِ مَذْعَبِينَ، لِثِقَتِهِمْ أَنَّهُ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ. قال الزجاج: والإذعان في اللغة: الإسراع مع الطاعة، تقول: قد أذعن لي، أي: قد طوعني إما كنتُ أتمسه منه.

قوله تعالى: ﴿إِن قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي: كفر ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَفَرُوا فِي الْقُرْآنِ؟﴾ وهذا استفهام ذم وتوبيخ، والمعنى: إنهم كذلك، وإنما ذكره بلفظ الاستفهام ليكون أبلغ في ذمهم، كما قال جرير في المدح:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا [وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونٌ رَاحٌ]^(٢)

أي: أنتم كذلك. فاما الحَئِيفُ، فهو: المَيْلُ فِي الْحُكْمِ؛ يُقَالُ: حَافٌ فِي قَضِيَّتِهِ، أَي: جَارٌ، ﴿بَلْ أُوَلِّيكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يُظَلِّمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَدًا، بَلْ هُمُ الظَّالِمُونَ لِأَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ، وَالْإِعْرَاضُ عَن حُكْمِ الرَّسُولِ. ثم نعت المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الفراء: ليس هذا بخبر ماضٍ، وإنما المعنى: إنما كان ينبغي أن يكون قول المؤمنين إذا دعوا أن يقولوا سمعنا. وقرأ الحسن، وأبو الجوزاء: «إنما كان قول المؤمنين» بضم اللام. وقرأ أبو جعفر، وعاصم الجحدري، وابن أبي [اليلى]: «ليُحْكَمَ بَيْنَهُمْ» برفع الياء وفتح الكاف. وقال المفسرون والمعنى: سمعنا قول رسول الله ﷺ وأطعنا أمره، وإن كان ذلك فيما يكرهونه.

قوله تعالى: ﴿وَيَخْتَصِمَنَّ اللَّهُ﴾ أي: فيما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقَهُ﴾ فيما بعد أن يعصيه. وقر ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ورورش عن نافع: «ويَتَّقَهُ» موصولة بياء. وروى قالون عن نافع: «ويَتَّقَهُ فأولئك» بكسر الهاء لا يبلغ بها الياء. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «ويَتَّقَهُ» جزمًا.

﴿وَأَسْمَأُ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ لِيَنْزِلَ عَلَيْهِمْ لِيُخْرِجَهُمْ قُلُوبَهُمْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوا تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْبَلِيغُ﴾ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْمَأُ بِاللَّهِ﴾ قال المفسرون: لما نزل في هؤلاء المنافقين ما نزل من بيان كراهتهم لحكم الله، قالوا للنبي ﷺ: والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا، فكيف لا نرضى حكمك؟ فنزلت هذه الآية^(٣). وقد بيَّنا معنى ﴿جَهْدَ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٣]، ﴿لِيَنْزِلَ عَلَيْهِمْ لِيُخْرِجَهُمْ﴾ من أموالهم وديارهم، وقيل: ليخرجن إلى الجهاد ﴿قُلْ لَا تَقْسِمُوا﴾ هذا تمام الكلام؛ ثم قال: ﴿طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ﴾ قال الزجاج: المعنى: أمثل من قَسَمِكُمُ الَّذِي لَا تَصَدِّقُونَ فِيهِ طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ. قال ابن قتيبة: وبعض النحويين يقول: الضمير فيها: لتكون منكم طاعة معروفة، أي: صحيحة لا نفاق فيها.

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٨ سبباً لنزول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ والتي بدلها بدون سند.

(٢) «ديوانه» ٩٨، و«مجاز القرآن» ١١٨/٢، و«القرطبي» ٢٩٤/١٢.

(٣) ذكره نحوه مختصراً السيوطي في «الدرر» ٥٤/٥ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿كَانَ تَوْرًا﴾ هذا خطاب لهم، والمعنى: فإن تتولوا، فحذف إحدى التاءين. ومعنى التولي: الإعراض عن طاعة الله ورسوله، ﴿فَلَمَّا طَوَّيْ﴾ يعني: الرسول ﴿مَا حُلِّ﴾ من التبليغ ﴿وَمَلَٰئِكُمْ مَا جُمِعْتُمْ﴾ من الطاعة؛ وذكر بعض المفسرين أن هذا منسوخ بآية السيف، وليس بصحيح.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ يعني: رسول الله ﷺ ﴿تَهْتَدُوا﴾، وكان بعض السلف يقول: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالبدعة، لقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِن قَبْلِهِمْ وَبِمَنِّهِمْ أَتَى الْأَرْضَ حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَىٰ وَجْهٌ مِّنَ الْأَرْضِ عَادِيَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ روى أبو عبد الله الحاكم في «صحيحه» من حديث أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآواهم الأنصار، رمثهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا في أمتهم، فقالوا: أترون أننا نعيش حتى نبني أمتين مطمئنين لا نخاف إلا الله ﷻ؟! فنزلت هذه الآية^(١). قال أبو العالية: لما أظهر الله ﷻ رسوله على جزيرة العرب، وضعوا السلاح وأمنوا، ثم قبض الله نبيه، فكانوا آمنين كذلك في إماره أبي بكر، وعمر، وعثمان، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا بالنعمة، فأدخل الله ﷻ عليهم الخوف، فغيروا، فغيّر الله تعالى ما بهم^(٢). وروى أبو صالح عن ابن عباس: أن هذا الوعد وعده الله أمة محمد في التوراة والإنجيل. وزعم مقاتل أن كفار مكة لما صدوا رسول الله ﷻ والمسلمين عن العمرة عام الحديبية، قال المسلمون: لو أن الله تعالى فتح علينا مكة، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ أي: ليجعلنهم يخلفون من قبلهم، والمعنى: ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها وسكانها. وعلى قول مقاتل: المراد بالأرض مكة.

قوله تعالى: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقرأ أبو بكر عن عاصم: «كما استخلف» بضم التاء وكسر اللام؛ يعني: بني إسرائيل، وذلك أنه لما هلكت الجبابرة بمصر، أورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَسْخَرَنَّ لَهُمْ مِنِّيهِمْ﴾ وهو الإسلام، وتمكينه: إظهاره على كل دين، ﴿وَلَيَكْفُرَنَّ لَهُمْ﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو بكر، وأبان، ويعقوب: «وَلَيُؤَيِّدُنَّهُمْ» بسكون الباء وتخفيف الدال ﴿بِمَنِّهِمْ أَنَّىٰ﴾ لأنهم كانوا مظلومين مقهورين^(٣)، ﴿يَسْبُدُونِي﴾ هذا استئناف كلام في الثناء عليهم، ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بهذه النعم، أي: من جحد حقها. قال المفسرون: وأول من كفر بهذه النعم قتلة عثمان.

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» ٤٠١/١ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وذكره السيوطي في «الدر» ٥٥/٥، وزاد نسيه لابن المنذر، والطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، والضياء في «المختارة» عن أبي بن كعب ﷺ.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٨، وذكره السيوطي في «الدر» ٥٥/٥ عن عبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

(٣) قال ابن كثير: هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، بأنه سيجعل أمة خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس، والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام، وهاده هرقل ملك الروم وصاحب مصر وإسكندرية، وهو المقوقس، وملوك حثمان، والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحابه رحمة الله وأكرمه. ثم لما مات رسول الله ﷺ، واختار له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلم شعث ما وهى بعد موته ﷺ، وأخذ جزيرة العرب ومهدّها، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ﷺ، ففتحوا طرفاً منها وقتلوا خلقاً من أهلها، وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة ﷺ، ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص ﷺ إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليقها من أراضي حوران وما والاها، وتوفاه الله ﷻ، واختار له ما عنده من الكرامة، ومن على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكاملها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدر إلى القسطنطينية، وأنتق أموالهما في سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة. ثم لما كانت الدولة العثمانية (دولة عثمان بن عفان ﷺ) امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك =

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا شِعْجِرَكَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نُهُمُ أَنَّ تَأْتِيَهُمُ الْحِسْبَةُ﴾ (٥٧)

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأ ابن عامر، وحزمة عن عاصم: «لا يحسبن» بالياء وفتح السين. وقرأ

الباقون: بالياء وكسر السين.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَسْتَفْتِكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمُ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُوا أَلْهَمُوا لَكُمْ وَيَنْكُرُ لَكُمْ ذَلِكَ رَبُّنَا الَّذِي أَلْهَمَنَا أَن نَبْذُرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِمَا بَعَدَهَا أَلَمْ نَجْعَلِ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (٥٨) ﴿وَمَا بَلَغَ الْأَقْدَالَ بِكُمْ الْمُلَأَمُ فَلْيَسْتَنْدُوا كَمَا اسْتَنْدَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٩) وَالْقُرْآنُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي لَا يَرْجُونَ بِيَعَابٍ عَلَيْكُمْ جَنَاحُ أَنْ يَبْغُضَ عَلَيْكُمْ عَيْرٌ مِمَّنْ جَعَلْتُمْ بَيْنَهُمْ وَأَنْ يَسْتَفْتِيَهُمْ خَيْرٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦٠)

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتِكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رسول الله ﷺ وجه غلاماً من الأنصار يقال له: مُذَلِّجُ بن عمرو إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر على حالة كره عمر رؤيته عليها، فقال: يا رسول الله، وددت لو أن الله أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). والثاني: أن أسماء بنت مرثد^(٢) كان لها غلام، فدخل عليها في وقت كرهته، فأنت رسول الله ﷺ، فقالت: إن خدمنا وغلماطنا يدخلون علينا في حالة نكرها، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(٣). ومعنى الآية: ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم؛ وفيهم قولان. أحدهما: أنه أراد الذكور دون الإناث، قاله ابن عمر. والثاني: الذكور والإناث، رواه أبو حصين عن أبي عبد الرحمن^(٤). ومعنى الكلام: ليستأذنكم ممالئكم في الدخول عليكم. قال القاضي أبو يعلى: والأظهر أن يكون المراد: المعيد الصغار والإماء الصغار، لأن العبد البالغ بمنزلة الحر البالغ في تحريم النظر إلى مولاته، فكيف يضاف إلى الصبيان الذين هم غير مكلفين؟!

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُوا أَلْهَمُوا لَكُمْ﴾ وقرأ عبد الوارث: «الْهَلْمُ» بإسكان اللام ﴿يَنْكُرُ﴾ أي: من أحراركم من الرجال والنساء ﴿تِلْكَ مَرْئِي﴾ أي: ثلاثة أوقات؛ ثم بيئها فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ وذلك لأن الإنسان قد يبيت عرباناً، أو على حالة لا يحب أن يُطَّلَعَ عليه فيها ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ حين يأوي الرجل إلى زوجته، ﴿تِلْكَ عَوْرَتِي﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «ثلاث عورات» برفع الثاء من «ثلاث»، والمعنى: هذه الأوقات هي ثلاث عورات، لأن الإنسان يضع فيها ثيابه، فربما بدت عورته. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «ثلاث عورات» بنصب الثاء؛ قال أبو علي: وجعلوه بدلاً من قوله: «ثلاث مَرَاتٍ» والأوقات ليست عورات، ولكن المعنى: أنها أوقات ثلاث عورت، فلما حذف المضاف أعرب [بإعراب المحذوف]. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وسعيد بن جبير، والأعمش: «عَوْرَاتٍ» بفتح الواو، ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: المؤمنين الأحرار ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: الخدم والغلمان ﴿جَنَاحُ﴾ أي: حرج ﴿بَعْدَهُمْ﴾ أي: بعد مضي هذه

١ = الأندلس وقبرص وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وولد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجي الجراج من المشرق والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك بركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارفها ومغاريبها، وسيلغ ملك أممي ما زوي لي منها» قال ابن كثير: فما نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فسأل الله الإيمان به ورسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا. اهـ.

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٩ عن ابن عباس بدون سند.

(٢) في الأصل: أسماء بنت مرثد، وما أثبتناه من «الإصابة» وبعض كتب التفسير.

(٣) وكذلك ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٩ عن مقاتل بدون سند، وخرجه بنحو السيوطي في «الدرر» ٥٥/٥ من رواية ابن أبي خاتم عن مقاتل بن حيان.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عني به الذكور والإناث، لأن الله عم بقوله: ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ جميع أملاك إيماننا، ولم يخص منهم ذكراً ولا أنثى، فذلك على جميع من عمه ظاهر التفسير. اهـ.

الأوقات في أن لا يستأذنوا، فرفع الحرج عن الفريقين، ﴿طَوُّوْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هم طوافون عليكم ﴿بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يطوف بعضهم وهم المماليك على بعض وهم الأحرار.

فصل

وأكثر علماء المفسرين على أن هذه الآية محكمة، وممن روي عنه ذلك ابن عباس، والقاسم بن محمد، وجابر بن زيد، والشعبي. وحكي عن سعيد بن المسيب أنها منسوخة بقوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾؛ والأول أصح، لأن معنى هذه الآية: وإذا بلغ الأطفال منكم، أو من الأحرار الحلم، فليستأذنوا، أي: في جميع الأوقات في الدخول عليكم ﴿كَعَمَا اسْتَأْذَنَ الْيَتِيمَ مِنْ قِبَلِهِمْ﴾ يعني: كما استأذن الأحرار الكبار، الذين هم قبلهم في الوجود، وهم الذين أمروا بالاستئذان على كل حال؛ فالبالغ يستأذن في كل وقت، والطفل والمملوك يستأذنان في العورات الثلاث.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال ابن قتيبة: يعني: العَجَزُ، واحدها: قاعدٌ، ويقال: إنما قيل لها: قاعدٌ، لعودها عن الحيض والولد، وقد تقعدت عن الحيض والولد ومثلها يرجو النكاح، ولا أراها سميت قاعداً إلا بالعود، لأنها إذا أسنت عجزت عن التصرف وكثرة الحركة، وأطالت القعود، فقيل لها: «قاعد» بلا هاء، ليدل حذف الهاء على أنه قعود كبير، كما قالوا: «امرأة حامل»، ليدلوا بحذف الهاء على أنه حمل خبل، وقالوا في غير ذلك: قاعدٌ في بيتها، وحاملةٌ على ظهرها.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَبْسُطَ يَدَيْهِ﴾ أي: عند الرجال؛ ويعني بالثياب: الجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار، هذا المراد بالثياب، لا جميع الثياب، ﴿مَنْ مَتَّجَتِ بِرِيسَةٍ﴾ أي: من غير أن يُرَدَّنَ بوضع الجلباب أن^(١) ترى زينة؛ والتبرج: إظهار المرأة محاسنها، ﴿وَأَنْ يَسْتَفِيفَنَّ﴾ فلا يصفن تلك الثياب ﴿عَبْرَ لَهْرٍ﴾، قال ابن قتيبة: والعرب تقول: امرأة واضعٌ إذا كبرت فوضعت الخمار، ولا يكون هذا إلا في الهرمة. قال القاضي أبو يعلى: وفي هذه الآية دلالة على أنه يُباح [للعجوز] كشف وجهها ويديها بين يدي الرجال، وأما شعرها، فيحرم النظر إليه كشعر الشابة.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَنْفُسِ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمِيكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَمَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيفًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَشِّرَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعُمى والعرج، وقالوا: الطعام أفضل الأموال، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل، والأعمى لا يُبصر موضع الطعام الطيب، والمريض لا يستوفي الطعام، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(٢). والثاني: أن ناساً كانوا إذا خرجوا مع رسول الله ﷺ، وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم، وكانوا يأمرتهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا، فكانوا يتقون أن يأكلوا منها، ويقولون: نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة، فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن المسيب^(٣). والثالث: أن العرجان والعُميان كانوا يمتنعون عن مؤاكلة الأصحاء، لأن الناس يتقَدرونهم، فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبير، والضحاك^(٤). والرابع: أن قوماً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا لم يكن عندهم ما يُطعمون المريض والزمن، ذهبوا به إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم وبعض من سمى الله ﷻ في هذه الآية، فكان أهل الزمانة

(١) في الأصل: أي.

(٢) «الطبري» ١٨/١٦٨، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٩ عن ابن عباس بدون سند. وخرجه السيوطي في «الدر» ٥/٥٨ من رواية ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس.

(٣) «أسباب النزول» للواحدى ١٩٠، وذكره السيوطي بنحوه في «الدر» ٥/٥٨ من رواية عبد بن حميد.

(٤) ذكره بنحوه الطبري ١٨/١٦٨ عن الضحاك، وهو عند الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٩ بدون سند.

يتحرّجون من أكل ذلك الطعام لأنه أطعمهم غير مالكة، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد^(١). والخامس: أنها نزلت في إسقاط الجهاد عن أهل الرّمانة المذكورين في الآية، قاله الحسن، وابن زيد. فعلى القول الأول يكون معنى الآية: ليس عليكم في الأعمى حرج أن تأكلوا معه، ولا في الأعرج، وتكون «على» بمعنى «في»، ذكره ابن جرير. وكذلك يخرج [معنى الآية] على كل قول بما يليق به. وقد كان جماعة من المفسرين يذهبون إلى أن آخر الكلام «ولا على المريض حرج» وأن ما بعده مستأنف لا تعلق له به، وهو يقوّي قول الحسن، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُرِّيَكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بيوت الأولاد. والثاني: البيوت التي يسكنونها وهم فيها عيال غيرهم، فيكون الخطاب لأهل الرجل وولده وخادمه ومن يشتمل عليه منزله، ونسبها إليهم لأنهم سكانها. والثالث: أنها بيوتهم، والمراد أكلهم من مال عيالهم وأزواجهم، لأن بيت المرأة كبيت الرجل. وإنما أباح الأكل من بيوت القربان المذكورين، لجريان العادة ببذل طعامهم لهم؛ فإن كان الطعام وراء جرز، لم يجز هتك الحرز.

قوله تعالى: ﴿أَزْ مَا مَلَكَتْهُ مَخْلَبَةً﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الوكيل، لا بأس أن يأكل اليسير، وهو معنى قول ابن عباس. وقرأها سعيد بن جبير، وأبو العالية: «مَلَكْتُمْ» بضم الميم وتشديد اللام مع كسرهما على ما لم يسم فاعله، وفسّرها سعيد فقال: يعني القهرمان الذي بيده المفاتيح. وقرأ أنس بن مالك، وقتادة، وابن يعمر: «وَمَفْتَاخَهُ» بكسر الميم على التوحيد. والثاني: بيت الإنسان الذي يملكه، وهو معنى قول قتادة. والثالث: بيوت العبيد، قاله الضحاك.

قوله تعالى: ﴿أَزْ صَدِيقِكُمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه في الحارث بن عمرو، خرج مع رسول الله ﷺ غازياً، وحلّف مالك بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهوداً، فقال: تحرّجت أن أكل من طعامك بغير إذنك، فنزلت هذه الآية^(٢). وكان الحسن وقتادة يريان الأكل من طعام الصديق بغير استئذان جائزاً.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً﴾ في سبب نزول هذه [الآية] ثلاثة أقوال: أحدها: أن حياً من بني كنانة يقال لهم: بتوليث كانوا يتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده؛ فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة والضحاك^(٣). والثاني: أن قوماً من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم، فنزلت هذه الآية، ورخص لهم أن يأكلوا جميعاً أو أشتاتاً، قاله عكرمة^(٤). والثالث: أن المسلمين كانوا يتحرّجون من مؤاكلة أهل الضّرّ خوفاً من أن يستأثروا عليهم، ومن الاجتماع على الطعام، لاختلاف الناس في مآكلهم وزيادة بعضهم على بعض؛ فوسّع عليهم، وقيل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً﴾ أي: مجتمعين ﴿أَوْ أَشْتَاتاً﴾ أي: متفرّقين، قاله ابن قتبية.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بيوت أنفسكم، فسلموا على أهاليكم وعيالكم، قاله جابر بن عبد الله، وطاوس، وقتادة. والثاني: أنها المساجد، فسلموا على من فيها، قاله ابن عباس. والثالث: بيوت الغير؛ فالمعنى: إذ دخلتم بيوت غيركم فسلموا عليهم، قاله الحسن^(٥).

(١) «الطبري» ١٦٩/١٨، وهو عند الواحدي في «أسباب النزول» بدون سند، وذكره السيوطي في «الدر» بنحو ٨٥/٥.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ٥٨/٥ من رواية التلمي عن ابن عباس ؓ.

(٣) «أسباب النزول» للواحدي عن قتادة والضحاك بدون سند، وذكره الطبري عن قتادة، والسيوطي في «الدر» من رواية عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٤) «الطبري» ١٧٢/١٨، و«أسباب النزول» للواحدي ١٩٠، وذكره السيوطي في «الدر» ٥٨/٥ وزاد نسبة لابن المنذر.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: فإذا دخلتم بيوتاً من بيوت المسلمين، فليسلم بعضكم على بعض، قال: وإنما قلنا: ذلك أولى بالصواب، لأن الله جل ثناؤه قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ ولم يخص من ذلك بيتاً دون بيت، وقال: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم على بعض، فكان معلوماً إذ لم يخص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنه معني به جميعها، مساجدها وغير مساجدها. اهـ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ﴾ قال الزجاج: هي منصوبة على المصدر، لأن قوله: ﴿فَسَلِّمُوا﴾ بمعنى: فحيوا وليحيي^(١) بعضكم بعضاً تحيةً، ﴿وَمِنَ عِندِ اللَّهِ﴾ قال مقاتل: مباركة بالأجر، ﴿وَلِيَحْيِيَّ﴾ أي: حسنة.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا مِنِّي إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِيَعِزَّ شَأْنُهُمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لِمَن اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ يعني: مع رسول الله ﷺ ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: على أمر طاعة يجتمعون عليها، نحو الجهاد والجمعة والعيد ونحو ذلك ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا﴾ قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر، لم يخرج حتى يقوم يحيي رسول الله ﷺ حيث يراه، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن، فيأذن لمن شاء منهم، فالأمر إليه في ذلك. قال مجاهد: وإذا الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لِمَن اللَّهُ﴾ أي: لخروجهم عن الجماعة إن رأيت لهم عذراً.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنكُمْ لِرَادَّةِ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمُ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿إِلَّا إِنَّكَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِوِجْرَةٍ تُوْحِتُونَ إِلَيْهِ فَيَنْشِئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه نهي عن التعرض لإسقاط رسول الله ﷺ، فإنه إذا دعا على شخص فدعوته موجبة، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم أمروا أن يقولوا: يا رسول الله، ونهوا أن يقولوا: يا محمد، قاله سعيد بن جبير، وعلقمة، والأسود، وعكرمة، ومجاهد. والثالث: أنه نهي لهم عن الإبطاء إذا أمرهم وبالتأخير إذا دعاهم، حكاه الماوردي، وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وأبو المتوكل، ومعاذ القاري: «دعاء الرسول نبيكم» بياء مشددة ونون قبل الباء.

قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ﴾ التسلل: الخروج في خفية. واللؤاذ: أن يستتر بشيء مخالفة من يراه. والمراد بقوله «قد يعلم» التهديد بالمجازاة. قال الفراء: كان المنافقون يشهدون الجمعة فيذكرهم رسول الله ﷺ ويعيهم بالآيات التي أنزلت فيهم، فإن خفي لأحدهم القيام قام، فذلك قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنكُمْ لِرَادَّةِ﴾ أي: يلوذ هذا بهذا، أي: يستتر ذا بذا^(٢). وإنما قال: «لرؤاذ» لأنها مصدر «لاؤذت»، ولو كان مصدراً لـ «لؤذت» لقلت: لؤذت لرباداً، كما تقول: فؤئت قياماً. وكذلك قال ثعلب: وقع البناء على لاؤذ ملاءؤذة، ولو بني على لاؤذ يلوذ، لقلت: لباداً. وقيل: هذا كان في حفر الخندق، كان المنافقون ينصرفون عن غير أمر رسول الله ﷺ مخفين.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله ﷻ، قاله مجاهد. والثاني: إلى رسول الله ﷺ، قاله قتادة. وفي «عن» قولان: أحدهما: [أنها] زائدة، قاله الأخفش. والثاني: أن معنى «يخالفون»: يعرضون عن أمره. وفي الفتنة هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الضلالة، قاله ابن عباس. والثاني: بلاء في الدنيا، قاله مجاهد. والثالث: كفر، قاله السدي، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: القتل في الدنيا. والثاني: عذاب جهنم في الآخرة^(٣).

(١) في الأصل: تحيوا ويحيي.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى وذكره: إنكم أيها المنصرفون عن نبيكم بغير إذنه تستراً وخفية منه، وإن خفي أمر من يفعل ذلك منكم على رسول الله ﷺ، فإن الله يعلم ذلك، ولا يخفى عليه، فليقت من يفعل ذلك منكم - الذين يخالفون أمر الله في الانصراف عن رسول الله ﷺ إلا بإذنه - أن تصيبهم فتنة من الله، أو يصيبهم عذاب أليم فيقطع على قلوبهم فيكفروا بالله. اهـ.

(٣) قال ابن كثير في قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشرعيته، فتوزن الأقوال =

قوله تعالى: ﴿قَدْ يَلْمُ مَا أَنْشَرْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: ما في أنفسكم، وما تنطوي عليه ضمائركم من الإيمان والنفاق؛ وهذا تنبيه على الجزاء على ذلك^(١).



= والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قيل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، كما ثبت في «الصححين» وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رده» أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً ﴿إِنْ تُبَيِّنْهُمْ قِسْمًا﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ عَذَابَ آيَاتٍ﴾ أي: في الدنيا يقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك. اهـ.

وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم في «صحيحه» ١٧٩٠/٤ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلني ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفرأش يقعن فيها وهو يلذهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم من النار وأنتم تفلتون من يدي».

(١) قال ابن جرير الطبري: ﴿قَدْ يَلْمُ مَا أَنْشَرْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم من ذلك. ثم قال ابن جرير في تكملة السورة: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَوْنَ﴾ يقول: ويوم يرجع إلى الله الذين يخالفون عن أمره ﴿فَيُنْفِثُهُمْ﴾ يقول: فيخبرهم حينئذ ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ثم يجازيهم على ما أسلفوا فيها من خلافهم على ربهم ﴿وَأَنَّهٗ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول: والله ذو علم بكل شيء عملتموه أنتم وهم وغيركم، وغير ذلك من الأمور، لا يخفى عليه شيء، بل هو محيط بذلك كله، وهو موافق كل عامل منكم أجر عمله يوم ترجعون إليه. اهـ.

سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ نَسْتَجِذُ وَكَذَٰلِكَ نُكْفَىٰ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيٰوةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة في آخرين: هي مكية. وحكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا: إلا ثلاث آيات مها نزلت بالمدينة، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَخْشَوْنَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿عَفْوًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ قد شرحناه في [الأعراف: ٥٤]. والفرقان: القرآن، سمي فرقاناً، لأنه فُرق به بين الحق والباطل. والمراد بعبد: محمد ﷺ، ﴿يَكُونُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه كناية عن عبده، قاله الجمهور. والثاني: عن القرآن، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني الجن والإنس ﴿نَذِيرًا﴾ [أي]: مخوفاً من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿قَدْرًا﴾ فيه ثلاث أقوال. أحدها: سؤاؤه وهيباه لما يصلح له، فلا خلل فيه ولا تفاوت. والثاني: قَدَّرَ له ما يصلحه ويُقيمه. والثالث: قَدَّرَ له تقديراً من الأجل والرُزق. ثم ذكر ما صنعه المشركون، فقال: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يعني: الأصنام ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: وهي مخلوقة ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ أي: دفع ضرر، ولا جبر نفع، لأنها جماد لا قدرة لها، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ أي: لا تملك أن تُميت أحداً، ولأن تحيي أحداً، ولا أن تبعث أحداً من الأموات؛ والمعنى: كيف يعبدون ما هذه صفته، ويتركون عبادة مَنْ يقدر على ذلك كله؟ ١٩.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوتٌ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولِيكَ أَكْتَبَهَا فِيهِ نَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفْوًا رَحِيمًا ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: مشركي قريش؛ وقال مقاتل: هو قول النَّضْر بن الحارث من بني عبد الدار ﴿إِنْ هٰذَا﴾ أي: ما هذا، يعنون القرآن ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ أي: كذب ﴿افْتَرْتَهُ﴾ أي: اختلقه من تلقاء نفسه ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوتٌ﴾ قال مجاهد: يعنون اليهود؛ وقال مقاتل: أشاروا إلى عداس مولى حويطب، ويسار غلام عامر بن الحضرمي، وجبر مولى لعامر أيضاً، وكان الثلاثة من أهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ قال الزجاج: المعنى: فقد جاؤوا بظلم وزور، فلما سقطت الباء، أفضى الفعل فنصب، والزور: الكذب. ﴿وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولِيكَ﴾ المعنى: وقالوا: الذي جاء به أساطير الأولين؛ وقد بيننا ذلك في [الأنعام: ٢٥]. قال المفسرون: والذي قال هذا هو النضر بن الحارث. ومعنى ﴿أَكْتَبَهَا﴾ أمر أن تُكْتَبَ له. وقرأ ابن مسعود، وإبراهيم النخعي، وطلحة بن مصرف: «أَكْتَبَهَا» برفع التاء الأولى وكسر الثانية، والابتداء على قراءتهم برفع الهمزة، ﴿فِيهِ نَمَلٌ عَلَيْهِ﴾ أي: تُفْرَأُ عليه ليحفظها لا ليكتبها، لأنه لم يكن كاتباً، ﴿بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾ أي: عُدوة وعشياً. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَنْزَلَهُ﴾ يعني: القرآن ﴿الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء ﴿فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعْمَ وَيَنْتَشِي فِي الْأَشْرَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكْتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنَزِّلُ إِلَيْنَا كِتَابًا أَوْ تُكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني المشركين ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعْمَ﴾ أنكروا أن يكون الرسول بشراً يأكل الطعام ويمشي في الطُّرُق كما يمشي سائر الناس يطلب المعيشة؛ والمعنى: أنه ليس بملك ولا ملك، لأن الملائكة لا تأكل، والملوك لا تتبدل في الأسواق، فعبجوا أن يكون مساوياً للبشر لا يتميّز عليهم بشيء؛ وإنما جعله الله بشراً ليكون مجانساً للذين أرسل إليهم، ولم يجعله ملكاً يمتنع من المشي في الأسواق، لأن ذلك من فعل الجبابرة، ولأنه أمر بدعائهم، فاحتاج أن يمشي بينهم.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ﴾ وذلك أنهم قالوا له: سل ربك أن يعث معك ملكاً يصدقك ويجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً، فذلك قوله: ﴿أَوْ يُنَزِّلُ إِلَيْنَا كِتَابًا﴾ أي: ينزل إليه كتر من السماء ﴿أَوْ تُكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: بستان يأكل من ثماره. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ بالياء، يعنون النبي ﷺ. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿ناكل﴾ بالنون، قال أبو علي: المعنى: يكون له علينا مزية في الفضل بأكلنا من جنته. وباقى الآية مفسر في [بني إسرائيل: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿أَنْظَرَ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ حين مثلك بالمسحور، وبالكاهن والمجنون والشاعر ﴿فَضَلُّوا﴾ بهذا عن الهدى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يستطيعون مخرجاً من الأمثال التي ضربوها، قاله مجاهد، والمعنى أنهم كذبوا ولم يجدوا على قولهم حجة وبرهاناً. وقال الفراء: لا يستطيعون في أمرك حيلة. والثاني: سبيلاً إلى الطاعة، قاله السدي.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ جَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٥﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنَ الْعَذَابِ عَذَابًا أَشَدًّا ﴿١٦﴾ إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ تَكَايُفٍ يَبِيرُونَ سَوِيرًا ﴿١٧﴾ إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ تَكَايُفٍ يَبِيرُونَ سَوِيرًا ﴿١٨﴾ وَإِذَا أَلْفَاؤُا مِنْهَا مَكَانًا صَبِيحًا مُقَرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٩﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَرَجُلًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

ثم أخبر أنه لو شاء لأعطاه خيراً مما قالوا في الدنيا، وهو قوله: ﴿خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ يعني: لو شئت لأعطيتك في الدنيا خيراً مما قالوا، لأنه قد شاء أن يعطيه ذلك في الآخرة. ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿ويجعل لك قصوراً﴾ برفع اللام. وقرأ أبو عمرو، ونافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿ويجعل﴾ بجزم اللام. فمن قرأ بالجزم، كان المعنى: إن يشأ يجعل لك جنات ويجعل [لك] قصوراً. ومن رفع، فعلى الاستئناف [المعنى]: ويجعل لك قصوراً في الآخرة. وقد سبق معنى ﴿أَعْتَدْنَا﴾ [النساء: ٢٣٧] ومعنى ﴿السَّوِيرِ﴾ [النساء: ١٠].

قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ تَكَايُفٍ يَبِيرُونَ﴾ قال السدي عن أشياخه: من مسيرة مائة عام. فإن قيل: السعير مذكر، فكيف قال: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾؟ فالجواب: أنه أراد بالسعير النار.

قوله تعالى: ﴿سَبِيرًا مَكَانًا تَغِيظًا﴾ فيه قولان: أحدهما: غلبان تغيط، قاله الزجاج. قال المفسرون: والمعنى أنها تغيط عليهم، فيسمعون صوت تغيطها وزفيرها كالغضببان إذا غلا صدره من الغيظ. والثاني: يسمعون فيها تغيط المعذبين وزفيرهم، حكاه ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْفَاؤُا مِنْهَا مَكَانًا صَبِيحًا مُقَرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٩﴾﴾ قال المفسرون: تضيق عليهم كما يضيق الرُّجُح^(١) على الرُّمَح، وهم قد قرنوا مع الشياطين والثُّبور: الهلكة. وقرأ عاصم الجحدري، وابن السميع: ﴿ثُبُورًا﴾ بفتح الشاء.

قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ قال الزجاج: الثُبُور مصدر، فهو للقليل والكثير على لفظ الواحد، كما تقول: ضربته ضرباً كثيراً، والمعنى: هلاكهم أكثر من أن يدعوا مرة واحدة. وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يُكسى من أهل النار يوم القيامة إبليس، يُكسى حُلَّةً من النار يضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريئته خلفه وهو يقول: واثبوا، واثبوا، وهم ينادون: يا ثبورهم، حتى يقفوا على النار، فينادي: يا ثبوا، وينادون: يا ثبورهم، فيقول الله ﷻ: ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَّادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾»^(١).

﴿قُلْ أُولَئِكَ حَيْرٌ أَمْ جِنَّةٌ أَلْخَلِدُوا أَلَيْ وَايُومَ الْعَذَابِ كَانَتْ لَكُمْ جَزَاءً وَصِيرًا﴾ ﴿١٥﴾ لَمْ فِيهَا مَا يَشْكُرُونَ مَلَكًا عَلَى رَبِّكَ وَعَدَا مَسْئَلًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُولَئِكَ﴾ يعني: السعير ﴿حَيْرٌ أَمْ جِنَّةٌ أَلْخَلِدُوا﴾ وهذا تنبيه على تفاوت ما بين المنزلتين، لا على أن في السعير خيراً. وقال الزجاج: قد وقع التساوي بين الجنة والنار في أنهما منزلان، فلذلك وقع التفضيل بينهما^(٢).
قوله تعالى: ﴿كَانَتْ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي: ثوابا ﴿وَصِيرًا﴾ أي: مَرَجِعًا.

قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ﴾ المشار إليه، إما الدخول، وإما الخلود ﴿وَعَدَا﴾ وعدمه الله إياه على السنة الرسل. وفي معنى «مسئولاً» قولان: أحدهما: مطلوباً. وفي الطالب له قولان. أحدهما: أنهم المؤمنون، سألوا الله في الدنيا إنجاز ما وعدهم [به]. والثاني: أن الملائكة سألته ذلك لهم، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَنْظِرْهُمْ جَنَّةٍ وَعْدَتِ لَأَبَى وَعَدَّتْهُمْ﴾ [غافر: ١٨]. والثاني: أن معنى المسئول: الواجب.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَسْتُدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُوا مَأْتِنَا أَهْلَكْتُمْ عِبَادِي هَذِهِ أَمْ هُمْ صَالُوا السَّبِيلِ﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَهَمَّكْتُمْ حَتَّى سَأَلُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٧﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ فَمَا تَسْتَظِمُّونَ صَرَفًا وَلَا تَصْمُرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكُم نَبِّئْهُ عَذَابًا كَثِيرًا ﴿١٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهَمُ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ يَئِسًا وَنَجَسًا وَأَنْصُرُوا لَكُمْ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم: «يحشرهم» فيقول: «بالياء فيهما. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «نحشرهم» بالنون فيقول: «بالياء. وقرأ ابن عامر: «نحشرهم» فنقول: بالتون فيهما جميعاً، يعني: المشركين ﴿وَمَا يَسْتُدُّونَ﴾ قال مجاهد: يعني عيسى وعزيراً والملائكة. وقال عكرمة، والضحاك: يعني الأصنام، فيأذن الله للأصنام في الكلام، ويخاطبها ﴿فَيَقُولُوا مَأْتِنَا أَهْلَكْتُمْ عِبَادِي﴾ أي: أمرتهم بعبادتهم ﴿أَمْ هُمْ صَالُوا السَّبِيلِ﴾ أي: أخطأوا الطريق. ﴿قَالُوا﴾ يعني الأصنام: «سُبْحَانَكَ نَزَّهًا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ ﴿مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾» والمعنى: ما كان ينبغي لنا أن نعبد نحن غيرك، فكيف ندعو إلى عبادتنا؟! فدل هذا الجواب على أنهم لم يأمرُوا بعبادتهم^(٣). وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وابن جبيرة، والحسن، وقادة، وأبو جعفر، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: «أَنْ نَتَّخِذَ» برفع النون وفتح الخاء. ثم ذكروا سبب تركهم الإيمان، فقالوا: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ﴾ أي: أطلت لهم العمر وأوسعت لهم الرزق ﴿حَتَّى سَأَلُوا الذِّكْرَ﴾

(١) رواه أحمد في «المستند»، والطبري ١٨/١٨٨، وذكره السيوطي في «الدر» ٥/٦٤ وزاد نسبة لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث» عن أنس ﷺ.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: يا محمد هذا الذي وصفنا لك من حال الأتقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم فتلقاهم بوجه عبوس وتنظيف وزفير، ويلقون في أمكنتها الضيق مقرين لا يستطيعون حراكاً ولا استنصاراً ولا فكاً ما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي أعدها لهم وجعلها لهم جزاءً ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا وجعل ما لهم إليها ﴿لَمْ فِيهَا مَا يَشْكُرُونَ﴾ من الملاذ، من مأكول ومشروب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء، ولا يبعثون عنها حولاً، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعَدَا مَسْئَلًا﴾ أي: لا بد أن يقع وأن يكون. اهـ.

(٣) كما قال تعالى في حق عيسى ﷺ: ﴿وَرَأَى قَالَ اللَّهُ يُعِيسِي ابْنَ مَرْيَمَ مَا لَكَ لَلَّذِي نَفَّسْتُمْ فِيهَا مِنْ رُوحِي أَنْ تُخَدِّعُوا عَيْنَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَهَمَّكْتُمْ حَتَّى سَأَلُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٧﴾ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَهَمَّكْتُمْ حَتَّى سَأَلُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٧﴾

أي: تركوا الإيمان بالقرآن والاتعاط به ﴿وَكَاثِرًا قَوْمًا بُورًا﴾ قال ابن عباس: هَلَكِي. قوال في روايه أخرى، البُور: [في] لغة أزد عُمان: الفاسد. قال ابن قتيبة: هو من بار بُيور: إذا هلك ويظل، يقال: بار الطعام: إذا كَسَد، وبارت الأيِّم: إذا لم يُرْعَبْ فيها، وكان رسول الله ﷺ يتعوذ من بُور الأيِّم، قال: وقال أبو عبيدة: يقال: رجل بُورٌ، وقوم بُور، لا يُجَمِّع ولا يُثَنَّى، واحتج بقول الشاعر:

يَا رَمُوكَ الْمَلِيكَ إِنَّ لِسَانِي
رَأَيْتُ مَا فَتَّخْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ^(١)

وقد سمعنا بـ [رجل بائر] ورأيناها ربما جمعوا «فاعلاً» على «فعل»، نحو عائذ وعُوذ، وشارِب وشُرِب. قال المفسرون: فيقال للكفار حينئذٍ ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي: فقد كذَّبكم المعبودون في قولكم: إنهم آلهة. وقرأ سعيد بن جبير، ومجاهد، ومعاذ القارئ، وابن شنيوذ عن قتيل: «بما يقولون» بالياء؛ والمعنى: كذَّبوكم بقولهم: ﴿سَبَّحْتَكَ مَا كَانَ يَلْبَنِي لَنَّا...﴾ الآية؛ هذا قول الأكثرين. وقال ابن زيد: الخطاب للمؤمنين؛ فالمعنى: فقد كذَّبكم المشركون بما تقولون: إن محمداً رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ قرأ الأكثرون بالياء. وفيه وجهان: أحدهما: فما يستطيع المعبودون صرفاً للعذاب عنكم ولا نصراً لكم. والثاني: فما يستطيع الكفار صرفاً لعذاب الله عنهم ولا نصراً لأنفسهم. وقرأ حفص عن عاصم: «تستطيعون» بالياء؛ والخطاب للكفار. وحكى ابن قتيبة عن يونس البصري أنه قال: الصَّرْف: الحيلة من قولهم: إنه ليتصرف.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ يَنْصِبْكُمْ﴾ أي: بالشُّرك ﴿يَذِقُهُ﴾ في الآخرة. وقرأ عاصم الجحدري، والضحاك، وأبو الجوزاء [وقناة]: «يذقه» بالياء ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي: شديداً. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال الزجاج: في الآية محذوف، تقديره: وما أرسلنا قبلك رُسلًا من المرسلين، فحذفت «رسلاً» لأن قوله: ﴿وَمَنْ يَنْصِبْكُمْ﴾ يدل عليها.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ لِيََأْكَلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: إنهم كانوا على مثل حالك، فكيف تكون يدعاً منهم!؟ فإن قيل: لم كُسرَتْ «إنهم» هاهنا، وفتحت في قوله: ﴿أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ﴾ [براءة: ٥٤] فقد بيَّنا هنالك غِلَّةً فتح تلك؛ فأما كسر هذه، فذكر ابن الأنباري فيه وجهين: أحدهما: أن تكون فيها واو حال مضمره، فكسرت بعدها «إن» للاستئناف، فيكون التقدير: إلا وإنهم لياكلون الطعام، فأضمرت الواو هاهنا كما أضمرت في قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ قَالُوا﴾ [الاحراف: ٤]، والتأويل: أو وهم قائلون. والثاني: أن تكون كُسرَتْ لإضمار «من» قبلها، فيكون التقدير: وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا من إنهم لياكلون، قال الشاعر:

فَظَلُّوا وَمِنْهُمْ دَمْعُهُ سَابِقٌ لَهُ
وَأَخْرُ يَشْنِي دَمْعَةَ الْعَيْنِ بِالْمَهْمَلِ^(٢)

أراد: من دمعته.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَّنَّا بِمَعَكُمْ لِيَتَرَى الْفِتْنَةَ﴾ الابتلاء والاختبار. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنه افتتان الفقير بالعتي، يقول: لو شاء لجعلني غنياً، والأعمى بالصير، والسقيم بالصحيح، قاله الحسن. والثاني: ابتلاء الشريف بالوضيع، والعربي بالمولى، فإذا أراد الشريف أن يُسلم فرأى الوضيع قد سبقه بالإسلام أنف فأقام على كفره، قاله ابن السائب. والثالث: أن المستهزئين من قريش كانوا إذا رأوا فقراء المؤمنين، قالوا: انظروا إلى أتباع محمد من موالينا وژدالتنا، قاله مقاتل. فعلى الأول: يكون الخطاب بقوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ لأهل البلاء. وعلى الثاني: للرؤساء، فيكون المعنى: أنصبرون على سبق الموالي والأتباع. وعلى الثالث: للفقراء؛

(١) البيت لعبد الله بن الزُّبَيْرِ السُّهْمِيّ قاله حين أسلم عند فتح مكة، وهو في «مجاز القرآن» ٧٣/٢، و«غريب القرآن» ٣١١، و«الطبري» ١٨/١٩١، و«القرطبي» ١١/١٣، و«اللسان» و«التاج»: بور.

(٢) المهمل: التؤدة والسكنية، والبيت لذي الرمة وهو في «معاني القرآن» ٣٨٤، وروايته في «ديوانه» طبع المكتب الإسلامي ص ٥٧٠. فظَلُّوا وَمِنْهُمْ دَمْعُهُ غَالِبٌ لَهُ وَأَخْرُ يَشْنِي عُبْرَةَ الْعَيْنِ بِالْمَهْمَلِ

فالمعنى: أتصبرون على أذى الكفار واستهزائهم، والمعنى: قد علمتم ما وعد الصابرون، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمن يصبر وبمن يجزع^(١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يُرَوَّنَ الْمَلَائِكَةُ لَا يَشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِبْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَلَجَعَلْنَاهُ نَجْمًا كَبِيرًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يخافون البعث ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فكانوا رُسلًا إلينا وأخبرونا بصدقك، ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيخبرنا أنك رسول، ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: تكبروا حين سألوها هذه الآيات ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ قال الزجاج: العتوُّ في اللغة: مجاوزة القدر في الظلم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُرَوَّنَ الْمَلَائِكَةُ﴾ فيه قولان: أحدهما: عند الموت. والثاني: يوم القيامة. قال الزجاج: وانتصب اليوم على معنى: لا بشرى للمجرمين يوم يرون الملائكة، و«يَوْمَئِذٍ» مؤكّد لـ «يَوْمَ يُرَوَّنَ الْمَلَائِكَةُ»؛ والمعنى أنهم يمتعون البشري في ذلك اليوم؛ ويجوز أن يكون «يوم» منصوباً على معنى: اذكر يوم يرون الملائكة، ثم أخير فقال: ﴿لَا يَشْرَىٰ﴾، والمجرمون هاهنا: الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِبْرًا مَّحْجُورًا﴾ وقرأ قتادة، والضحاك، ومعاذ القارئ: «حُجْرًا» بضم الحاء. قال الزجاج: وأصل الحجر في اللغة: ما حجرت عليه، أي: منعت من أن يوصل إليه، ومنه حَجَر القضاة على الأيتام. وفي الفاتلين لهذا قولان: أحدهما: أنهم الملائكة يقولون للكفار: حَجْرًا محجوراً، أي: حراماً محرماً. وفيما حرّموه عليهم قولان: أحدهما: البشري، فالمعنى: حرام محرّم أن تكون لكم البشري، قاله الضحاك، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أن تدخلوا الجنة، قاله مجاهد. والثاني: أنه قول المشركين إذا عابوا العذاب، ومعناه الاستعانة من الملائكة، روي عن مجاهد أيضاً. وقال ابن فارس: كان الرَّجُل إذا لقي مَنْ يخافه في الشهر الحرام، قال: حَجْرًا، أي: حرام عليك أذائي، فإذا رأى المشركون الملائكة يوم القيامة، قالوا: حَجْرًا محجوراً، يظنون أنه ينفعهم كما كان ينفعهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا﴾ قال ابن قتيبة: أي: قَصَدْنَا وَعَمَدْنَا، والأصل أَنَّ من أراد القُدوم إلى موضع عمَد له وقصده.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ﴾ [أي] من أعمال الخير ﴿فَجَعَلْنَاهُ نَجْمًا كَبِيرًا﴾ لأن العمل لا يُقْبَل مع الشُّرك^(٢). وفي الهباء خمسة أقوال: أحدها: أنه ما رأيته يتطاير في الشمس التي تدخل من الكوة مثل الغبار، قاله عليّ عليه السلام، والحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، واللغويون؛ والمعنى أَنَّ الله أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء. والثاني: أنه الماء المُهراق، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنه ما تنسفه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس. والرابع: أنه الشُّر الذي يطير من النار إذا أضرمت، فإذا وقع لم يكن شيئاً، رواه عطية عن ابن عباس. والخامس: أنه ما يسطع من حوافر الدَّواب، قاله مقاتل. والمشور: المتفرّق.

قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: يوم القيامة، ﴿أفضل منزلاً من المشركين﴾

(١) قال ابن كثير: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لعلت، ولكني قد أردت أن أبني العباد بهم وأبنيكم بهم، وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني مبتليكم ومبتلي بك». وفي «المستند» عن رسول الله ﷺ: «لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة». وفي «الصحيح» أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: أخبر الله تعالى أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً فتكون أبعد من القبول حينئذ. اهـ.

قال الزجاج: المَقِيلُ المُقَامُ وقت القائلة، وهو النوم نصف النهار. وقال الأزهري: القيلولة عند العرب: الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن مع ذلك نوم. وقال ابن مسعود، وابن عباس: لا يتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءَ بِالنِّفْمِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلاً ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَكُ بَوْمَئِذٍ الْهَاقُ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَكْفُرُ بِكَيْفِيَّتِي أَمَحَّدْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ لِيَنِّي لَرَأَيْتُمْ فَلَئِمًا خَلِيلاً ﴿١٨﴾ لَقَدْ أَصَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءَ بِالنِّفْمِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلاً ﴿١٥﴾﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وَيَوْمَ بَرَزَ الْمَلَائِكَةُ﴾، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «تَشْقَى» بالتشديد، فأدغموا التاء في الشين، لأن الأصل: تتشقق. قال الفراء: المعنى: تتشقق السماء عن الغمام، وتنزل فيه الملائكة، و«على» و«عن» و«الباء» في هذا الموضع بمعنى واحد، لأن العرب تقول: رميت عن القوس، وبالقوس، وعلى القوس؛ والمعنى واحد. وقال أبو علي الفارسي: المعنى: تتشقق السماء وعليها غمام، كما تقول: ركب الأمير سلاحه، وخرج بثيابه، وإنما تتشقق السماء لنزول الملائكة. قال ابن عباس: تتشقق السماء عن الغمام، وهو غمام أبيض كههيئة الضباب، وتنزل الملائكة في الغمام. وقال مقاتل: المراد بالسماء: السموات، تتشقق عن الغمام، وهو غمام أبيض كههيئة الضباب، فتنزل الملائكة عند انشاقها. وقرأ ابن كثير: «وَنَزَلُ» بنونين، الأولى مضمومة، والثانية ساكنة، واللام مضمومة، و«الملائكة» نصباً. وقرأ عاصم الجحدري، وأبو عمران الجوني: «وَنَزَلُ» بنون واحدة مفتوحة ونصب الزاي وتشديدها وفتح اللام ونصب «الملائكة». وقرأ ابن يعمر: «وَنَزَلُ» بفتح النون واللام والزاي والتخفيف «الملائكة» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُ بَوْمَئِذٍ الْهَاقُ لِلرَّحْمَنِ﴾ قال الزجاج: المعنى: المُلْكُ الذي هو المُلْكُ حقاً للرحمن^(١). فأما العسير، فهو الصعب الشديد يشند على الكفار، ويهون على المؤمنين فيكون كمقدار صلاة مكتوبة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن أبي بن خلف كان يحضر [عند] رسول الله ﷺ ويجالسه من غير أن يؤمن به، فزجره عُقبة بن أبي مُعيط عن ذلك، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس^(٢). والثاني: أن عُقبة دعا قوماً فيهم رسول الله ﷺ لطعام فأكلوا، وأبى رسول الله ﷺ أن يأكل، وقال: «لا أكل حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»، فشهد بذلك عُقبة، فبلغ ذلك أبي بن خلف، وكان خليلاً له، فقال: صبوت يا عُقبة؟ فقال: لا والله، ولكنه أبي أن يأكل حتى قلت ذلك، وليس من نفسي، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد^(٣). والثالث: أن عُقبة كان خليلاً لأمية بن خلف، فأسلم عُقبة، فقال أمية: وجي من وجهك حرام إن تابعت محمداً، فكفر وارتد لرضى أمية، فنزلت هذه الآية، قاله الشعبي^(٤). فأما الظالم [المذكور] هاهنا، فهو الكافر، وفيه قولان: أحدهما: أنه أبي بن خلف، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: عُقبة بن أبي مُعيط، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، وقناة. قال عطاء: يأكل يديه حتى تذهبها إلى المرفقين، ثم تنبتان، فلا يزال هكذا كلما نبت يده أكلها ندامة على ما فعل.

قوله تعالى: ﴿بِكَيْفِيَّتِي أَمَحَّدْتُ﴾ الأكثرون يسكنون «يا ليتني»، وأبو عمرو يحركها؛ قال أبو علي: والأصل التحريك، لأنها بإزاء الكاف التي للخطاب، إلا أن حرف اللين تكره فيه الحركة، ولذلك أسكن من أسكن؛ والمعنى: ليتني أتبعته فاتخذت معه طريقاً إلى الهدى.

(١) وفي «الصحیح»: «أن الله تعالى يطوي السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض، أين الجبارون، أين المتكبرون».

(٢) «الطبري» ٨/١٩، وأسباب النزول للواحي ١٩١، وذكره السيوطي في «الدر» ٦٨/٥ وزاد نسبة لابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) «الطبري» ٨/١٩، وذكره السيوطي في «الدر» ٦٩/٥ وزاد نسبة للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٤) «الطبري» ٨/١٩، وأسباب النزول للواحي ١٩١.

قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ لِرَبِّكَ الْبُرْهَانَ﴾ في المشار إليه أربعة أقوال: أحدها: أنه عن أبي بن خلف، قاله ابن عباس. والثاني: عقبة بن أبي معيط، قاله أبو مالك. والثالث: الشيطان، قاله مجاهد. والرابع: أمية بن خلف، قاله السدي. فإن قيل: إنما يكنى من يخاف المبادأة أو يحتاج إلى المداجاة، فما وجه الكناية؟ فالجواب: أنه أراد بالظالم: كل ظالم، وأراد بفلان: كل من أطيع في معصية الله وأرضى بسخط الله، وإن كانت الآية نزلت في شخص، قاله ابن قتيبة. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ الذِّكْرِ﴾ أي: صرفني عن القرآن والإيمان به ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ مع الرسول، وهاهنا تم الكلام. ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ النَّبِيُّ لِلْإِنْسَانِ﴾ يعني: الكافر ﴿مَعْدُومًا﴾ يتبرأ [منه] في الآخرة.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿٣٠﴾ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًا من المجرمين وكفى بربك هاديًا ونصيرًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ يعني محمداً ﷺ، وهذا عند كثير من العلماء أنه يقوله يوم القيامة؛ فالمعنى: ويقول الرسول يومئذ. وذهب آخرون، منهم مقاتل، إلى أن الرسول قال ذلك شاكياً من قومه إلى الله تعالى حين كذبوه^(١). وقرأ ابن كثير، ونافع، ولأبو عمرو: «إن قومي اتخذوا» بتحريك الباء؛ وأسكنها عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي. وفي المراد بقوله: ﴿مَهْجُورًا﴾ قولان: أحدهما: متروكاً لا يلتفتون إليه ولا يؤمنون به، وهذا معنى قول ابن عباس، ومقاتل. والثاني: هَجَرُوا فِيهِ، أي: جعلوه كالهديان، ومنه يقال: فلان يهجر في منامه، أي: يهذي، قاله ابن قتيبة. وقال الزجاج: الهجر: عمّا لا يتنفع به من القول. قال المفسرون: فعزاه الله ﷻ، فقال: ﴿وَكذلكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي: كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك، جعلنا لكل نبي عدوًا من كفار قومه؛ والمعنى: لا يكبرن هذا عليك، فلنك بالأنبياء أسوة، ﴿وَكفى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ يمنعك من عدوك. قال الزجاج: والباء في قوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ زائدة؛ فالمعنى: كفى ربك هاديًا ونصيرًا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِسَلْطَنٍ إِلَّا يَجْتَنِبُكَ بِالْحَقِّ وَآمَنَ سَبِيحًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ أَنْ يَهْتَمَّ إِلَيْكَ شَرْرٌ مَكَانًا وَأَسْأَلَ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: كما أنزل التوراة والإنجيل والزبور، قال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: أنزلناه كذلك متفرقًا، لأن معنى ما قالوا: لِمَ نُزِّلَ عَلَيْهِ متفرقًا؟ فقول: إنما أنزلناه كذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: لتقوي به قلبك فتزداد بصيرة، وذلك أنه كان يأتيه الوحي في كل أمر وحادثة، فكان أقوى لقلبه وأنور لبصيرته وأبعد لاستيحاشه، ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: أنزلناه على الترتيل، وهو التمثث الذي يُضَادُّ الْعَجَلَةَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ يعني المشركين ﴿بِسَلْطَنٍ﴾ يضربونه لك في مخاصمتك وإبطال أمرك ﴿إِلَّا يَجْتَنِبُكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالذي هو الحق لتزد به كيدهم ﴿وَآمَنَ سَبِيحًا﴾ من مثلهم؛ والتفسير: البيان والكشف. قال مقاتل: ثم أخبر بمستقرهم في الآخرة، فقال: ﴿الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا: إن محمداً وأصحابه شر خلق الله، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿أُرْتَلِّكَ شَرًّا مَكَانًا﴾ أي: منزلاً ومصيراً ﴿وَأَسْأَلَ سَبِيلًا﴾ ديناً وطريقاً من المؤمنين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الضُّمِيرَ وَجَعَلْنَا مَمِّهُ آخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ ﴿٣٥﴾ فَقَلْنَا أذْعَبًا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمٌ نَوْجٌ لَنَا كَذَّبُوا الرَّسُولَ أَفْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَنَمُودًا وَأَصْحَابَ الْمَيْمَنِ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كِبِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَسْوَاطَ وَكَلَّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٩﴾

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿يَدْرِبُ إِذْ قَمِي، اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وذلك أن المشركين كانوا لا يصفون للقرآن ولا يستمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ فِي أَسْمَاءٍ﴾ [فصلت: ٢٦]، فكانوا إذا نلي عليهم القرآن أكثروا للفظ والكلام في غيره حتى لا يسمعونه، فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به وترك تصديقه، من هجرانه، وترك تسميته وفهمه، من هجرانه، وترك العمل به وامتناع أوامره واجتناب زواجره، من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره، من هجرانه. قال: فنسال الله الكريم المتان، القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما بسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آتاه الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه إنه كريم وهاب. اهـ.

قوله تعالى: ﴿أَذْعَبَ إِلَى الْقَوْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾. إن قيل: إنما عاينوا الآيات بعد [وجود] الرسالة، فكيف يقع التأكيد منهم قبل وجود الآيات؟ فالجواب: أنهم كانوا مكذِّبين أنبياء الله وكُتِبَ المتكذِّمة، ومن كَذَّبَ نبياً فقد كَذَّبَ سائر الأنبياء، ولهذا قال: ﴿وَقَمَّ نُوحٌ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾، وقال الزجاج: يجوز أن يكون المراد به نوحٌ وحده، وقد ذُكِرَ بلفظ الجنس، كما يقال: فلان يركب الدواب، وإن لم يركب إلا دابة واحدة؛ وقد شرحنا هذا في [مورد: ٥٩] عند قوله: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُمْ﴾. وقد سبق معنى التدمير [الأعراف: ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿رَأَصَّبَ الرِّسَّ﴾ في الرِّسِّ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بشر كانت تسمى الرِّسَّ، قاله ابن عباس في رواية العوفي. وقال في رواية عكرمة: هي بشر بأذربيجان. وزعم ابن السائب أنها بشر دون اليمامة. وقال السدي: بشر بأنطاكية. والثاني: أن الرِّسَّ قرية من قرى اليمامة، قاله قتادة. والثالث: أنها المَعْدِن، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة. وفي تسميتها بالرِّسِّ قولان: أحدهما: أنهم رَسُّوا نبيهم في البئر، قاله عكرمة. قال الزجاج: رَسُّوه، أي: دَسُّوه فيها. والثاني: أن كل رَكِيَّة لم تطو فهي رَسٌّ، قاله ابن قتيبة. واختلفوا في أصحاب الرِّسِّ على خمسة أقوال: أحدها: أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة، فبعث الله تعالى إليهم نبياً من ولد يهوذا بن يعقوب، فحفروا له بئراً وألقوه فيها، فهلكوا، قاله علي عليه السلام. والثاني: أنهم قوم كان لهم نبي يقال له: حنظلة بن صفوان، فقتلوا نبيهم فأهلكهم الله، قاله سعيد بن جبيرة. والثالث: أنهم كانوا أهل بئر يزلون عليها، وكانت لهم مواشٍ، وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم شعبياً، فتمادوا في طغيانهم، فانهارت البئر، فحُصِفَ بهم وبمنازلهم، قاله وهب بن منبه. والرابع: أنهم الذين قتلوا حبيباً النجار، قتلوه في بئر لهم، وهو الذي قال: ﴿يَنْقَرُونَ اثْبَعُوا الْمُرْسِكِينَ﴾ [يس: ٢٠]، قاله السدي. والخامس: أنهم قوم قتلوا نبيهم وأكلوه، وأول من عمل السحر نساؤهم، قاله ابن السائب ^(١).

قوله تعالى: ﴿وَفُرُونًا﴾ المعنى: وأهلكنا قرونًا ﴿بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: بين عاد وأصحاب الرِّسِّ. وقد سبق بيان القرن [الأنعام: ٢٦]. وفي هذه القصص تهديد لقريش.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: أَعَدْنَا إِلَيْهِ بِالْمَوْعِظَةِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ ﴿وَكَلَّا تَرَى﴾ قال الزجاج: التَّبِير: التدمير، وكل شيء كسرته وفتته فقد تَبَّرْتَهُ، وكُسِّرْتَهُ: التَّبْر، ومن هذا قيل لمكسور الزجاج: التَّبْر، وكذلك تَبْر الذهب.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُنطِرَتْ مَطَرًا سَوِيًّا أَلَكَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ حُسْرًا إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْبُرْهُنَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿١١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَمْلِكُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَةً فَأَنَّتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴿١٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَعْرِفَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَخْفَوْنَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ يعني كفار مكة ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُنطِرَتْ مَطَرًا سَوِيًّا﴾ يعني قرية قوم لوط التي رُميت بالحجارة ﴿أَلَكَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في أسفارهم فيعتبروا ١٢! ثم أخبر بالذي جرَّاهم على التأكيد، فقال: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ حُسْرًا﴾ أي: لا يخافون بعثاً، هذا قول المفسرين. وقال الزجاج: الذي عليه أهل اللغة أن الرجاء ليس بمعنى الخوف، وإنما المعنى: بل كانوا لا يرجون ثواب عمل الخير، فركبوا المعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا رَأَوْهُ إِلَّا يَتَّخِذُونَهُ﴾ أي: ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُؤًا﴾ أي: مهزوءاً به. ثم ذكر ما يقولون من الاستهزاء: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿١١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي: ليصرفنا عن عبادة آلِهَتِنَا ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: على عبادتها؛ قال الله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَمْلِكُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ في الآخرة ﴿مَنْ أَضَلَّ﴾ أي: من أخطأ طريقاً عن الهدى، أهم، أم المؤمنون. ثم عَجَّبَ نبيهم من جهلهم حين عبدوا ما دعاهم إليه الهوى، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَةً﴾ قال ابن عباس: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر. وقال قتادة: هو الكافر لا يهوى شيئاً إلا ركب. وقال ابن قتيبة: المعنى: يتَّبِعُ هَوَاهُ وَيَدَعُ الْحَقَّ، فهو له كالإله.

(١) واختار ابن جرير الطبري أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: حفيظا يحفظه من أتباع هواه. وزعم الكلبي أن هذه الآية منسوخة بآية القتال.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْفَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ يعني أهل مكة؛ والمراد: يسمعون سماع طالب الإفهام ﴿أَوْ يَقُولُونَ﴾ ما يعاينون من الحجج والأعلام ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ وفي وجه تشبيههم بالأنعام قولان: أحدهما: أن الأنعام تسمع الصوت ولا تفقه القول. والثاني: أنه ليس لها هم إلا المأكل والمشرب.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَصْحَابُ سَكِينَةٍ﴾ لأن البهائم تهتدي لمراعياها وتنفذ لأربابها وتقبل على المحسن إليها، وهم على خلاف ذلك.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٥٦﴾ ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِيَّانَا فَبَضًّا يَجِيرًا ﴿٥٧﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَوا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٥٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٥٩﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيًا كَثِيرًا ﴿٦٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا ﴿٦١﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ ظُلُمًا ﴿٦٢﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَحَدَّثَهُمْ بِهِ جِهَادًا كَثِيرًا ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: إلى فعل ربك. وقال الزجاج: معناه: ألم تعلم، فهو من رؤية القلب، ويجوز أن يكون من رؤية العين؛ فالمعنى: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك؟ والظل من وقت طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: ثابتاً دائماً لا يزول ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فالشمس دليل على الظل، فلولا الشمس ما عرف أنه شيء، كما أنه لولا النور ما عرفت الظلمة، فكل الأشياء تُعرف بأضدادها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِيَّانَا﴾ يعني: الظل ﴿قَبْضًا يَجِيرًا﴾ وفيه قولان: أحدهما: سريعاً، قاله ابن عباس. والثاني: خفياً، قاله مجاهد. وفي وقت قبض الظل قولان: أحدهما: عند طلوع الشمس يقبض الظل وتُجمع أجزاءه المنسطة بتسليط الشمس عليه حتى تنسخه شيئاً فشيئاً. والثاني: عند غروب الشمس تقبض أجزاء الظل بعد غروبها، ويخلف كل جزء منه جزءاً من الظلام.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَوا﴾ أي: سائراً بظلمته، لأن ظلمته تغشى الأشخاص وتشتغل عليها اشتغال اللباس على لابس، ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: راحة، ومنه يوم السبت، لأن الخلق اجتمع يوم الجمعة، وكان الفراغ منه في يوم السبت، فقل لبني إسرائيل: استريحوا في هذا اليوم ولا تعملوا فيه شيئاً، فسمي يوم السبت، أي: يوم الراحة^(١)، وأصل السبت: التَّمدُّد، ومن تمَّدَّ استراح. وقال ابن الأنباري: أصل السبت: القَطْع؛ فالمعنى: وجعلنا النوم قطعاً لأعمالكم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ فيه قولان: أحدهما: تنتشرون فيه لابتغاء الرزق، قاله ابن عباس. والثاني: تُنشَرُ الرُّوح باليقظة كما تُنشَرُ بالبعث، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ قد شرحناه في [الأعراف: ٥٧] إلى قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ يعني: المطر. قال الأزهرى: الطَّهُّورُ في اللغة: الطاهر المَطْهَرُ. والطَّهُّورُ ما يُطَهَّرُ به، كالرَّضْوَةِ الذي يُتَوَضَّأُ به، والفَطُّور الذي يُفَطَّرُ عليه.

قوله تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو جعفر: «مَيِّتًا» بالتشديد. قال الزجاج: لفظ البلدة مؤنث، وإنما قيل: «ميتاً» لأن معنى البلدة والبلد سواء. وقال غيره: إنما قال: «ميتاً»، لأنه أراد بالبلدة المكان. وقد سبق معنى صفة البلدة بالموت [الأعراف: ٥٧]، ومعنى: ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ [الحجر: ٢٤]. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، والضحاك، والأعمش، وابن أبي عبيدة: «وَنُسْقِيَهُ» بفتح النون. فأما الأناسي، فقال الزجاج: هو جمع

(١) الذي في «صحيح مسلم» ٤/٢١٤٩: «خلق التربة يوم السبت». الحديث. وقال الحافظ المناوي في شرحه لهذا الحديث: وفيه ردُّ زعم اليهود أنه ابتداء في خلق العالم يوم الأحد، وفرغ يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، قالوا: ونحن نستريح كما استراح الرب، وهذا من غباوتهم وجهلهم، إذ التعب لا يتصور إلا على حادث، ﴿إِنَّا تَوَلَّيْنَا لَيْلَهُ إِذَا أَرَدْتَهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ يَكُونُ﴾ (٥٦) - اهد...

إنسي، مثل كرسبي وكراسي؛ ويجوز أن يكون جمع إنسان، وتكون الباء بدلاً من النون، الأصل: أناسين مثل سراحين^(١). وقرأ أبو مجلز، والضحاك، وأبو العالية، وعاصم الجحدري: «وأناسي» بتخفيف الياء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ يعني المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ مرة لهذه البلدة، ومرة لهذه ﴿يَذْكُرُوا﴾ أي: ليتذكروا في نعم الله عليهم فيحمده. وقرأ حمزة، والكسائي: «لِيَذْكُرُوا» خفيفة الذال. قال أبو علي: يَذْكُرُ في معنى يَنْذُرُ، ﴿فَأَنزَلْنَا أَكْثَرَ مِنَ الْمَاءِ﴾ وهم الذين يقولون: مُطَرْنَا بنوء كذا وكذا، كفروا بنعمة الله^(٢). ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ المعنى: إنا بعثناك إلى جميع القرى لعظّم كرامتك، ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكٰفِرِينَ﴾، وذلك أن كفار مكة دعّوه إلى دين آباؤهم، ﴿وَحَيَّاهُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: تآتًا شديداً.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَهَذَا مِلْحٌ إِنَّهُمَا يَبْتَغِيَانِ الْيُسْرَىٰ وَيَجْرَا جَجْرًا تَجْتَمِعُورًا﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ قال الزجاج: أي: خلّى بينهما؛ تقول: مرّجت الدابة وأمرجتها: إذا خلّيتها ترعى، ومنه الحديث: «مَرَجَتْ عهودهم وأماناتهم»^(٣) أي: اختلطت. قال المفسرون: والمعنى أنه أرسلهما في مجاريهما، فما يلتقيان، ولا يختلط المَلْحُ بالعذب، ولا العذب بالمَلْح، وهو قوله: ﴿هَذَا﴾ يعني: أحد البحرين ﴿عَذْبٌ﴾ أي: طيب؛ يقال: عَذْبُ الماء يَعْذُبُ عُذْبِيَّةً، فهو عَذْبٌ. قال الزجاج: والفرات صفة للعذب، وهو أشد الماء عُذْبِيَّةً، والأجاج صفة للملح، وهو: المرُّ الشديد المرارة. وقال ابن قتيبة: هو أشد الماء ملوحة، وقيل: هو الذي يُخالطه مرارة، ويقال: ماءٌ مِلْحٌ، ولا يقال: مالح، والبرزخ: الحاجز. وفي هذا الحاجز قولان: أحدهما: أنه مانع من قدرة الله تعالى، قاله الأثرون. قال الزجاج: فهما في مرأى العين مختلطان، وفي قدرة الله مفضلان لا يختلط أحدهما بالآخر. قال أبو سليمان الدمشقي: ورأيت عند عبّادان من سواد البصرة الماء العذب يتحدّر في دجلة نحو البحر، ويأتي المَدُّ من البحر، فيلتقيان، فلا يختلط أحد المائين بالآخر، يُرى ماء البحر إلى الخضرة الشديدة، وماء دجلة إلى الحمرة الخفيفة، فيأتي المستقي فيغرف من ماء دجلة عذبا لا يخالطه شيء، وإلى جانبه ماء البحر في مكان واحد. والثاني: أن الحاجز: الأرض واليَس، وهو قول الحسن؛ والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا تَجْوَرًا﴾ قال الفراء: أي: حراماً محرّماً أن يغلب أحدهما صاحبه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ أي: من التُّطْفَةِ بَشَرًا، أي: إنساناً ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: ذا نسب وِصْهِرٍ. قال علي رضي الله عنه: النَّسَبُ: ما لا يحل نكاحه، والِصْهِرُ: ما يحلُّ نكاحه. وقال الضحاك: النسب سبع، وهو قوله: ﴿حَرَمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِي﴾، والِصْهِرُ خمس، وهو قوله: ﴿وَأَهْلَابُكُمْ الْأَخِيَّ أَرْحَمْتُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿مِن أُمَّلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. وقال طاووس: الرِّضَاعَةُ من الِصْهِرِ. وقال ابن قتيبة: «نَسَبًا» أي: قرابة النَّسَبِ، «وِصْهِرًا» أي: قرابة النكاح. وكل شيء من قِبَلِ الزوج، مثل الأب والأخ، فهم الأحماء، واحدهم حمأ، مثل: قفأ، وحمو مثل أبو، وحمّة مهموز ساكن الميم، وحمّ مثل أب. وحمّة المرأة: أم زوجها، لا لغة فيها غير هذه وكل شيء من قِبَلِ المرأة، فهم الأختان. والِصْهِرُ يجمع ذلك كلّه. وحكى ابن فارس عن الخليل، أنه قال: لا يقال لأهل بيت الرجل إلا أختان، ولأهل بيت المرأة إلا أصهار. ومن العرب من يجعلهم

(١) سراحين جمع سرحان، وهو الذئب.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بالله كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

(٣) هو جزء من حديث طويل، أخرجه أبو داود في «سننه» رقم (٤٣٤٢)، وابن ماجه في «سننه» رقم (٣٩٥٧)، والحاكم في «مستدرکه» ٤/٢٣٥، وصححه، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يوشك أن يأتي زمان يمر على الناس غريبة، ويبقى حثالة من الناس قد مَرَجَتْ عهودهم وأماناتهم (أي فسدت) واختلطوا فكانوا هكذا» - وشبك بين أصابعه - قالوا: فكيف تأمرنا يا رسول الله، قال: «تأخذون ما تعرفون، وتدعون ما تتكرون، وتقولون على أمر خاضتكم، وتدعون أمر عانتكم».

أصهاراً كلهم. والصَّهْرُ: إذابة الشيء. وذكر الماوردي أن المناكح سُمِّيَتْ صِهْرًا، لاختلاط الناس بها كما يختلط الشيء إذا صهر.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: مُعِينًا للشيطان على ربه، لأن عبادته للأصنام معارضة للشيطان. والثاني: مُعِينًا للمشركين على أن لا يوحدوا الله تعالى. والثالث: مُعِينًا على أولياء ربه. والرابع: وكان الكافر على ربه هِينًا ذليلاً، من قولك: ظَهَرْتُ بفلان، إذا جعلته وراء ظهرك ولم تلتفت إليه. قالوا: والمراد بالكافر هاهنا أبو جهل.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيْكَ رِبًّا سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَقَوَّلَ عَلَىٰ الْعَرَبِ أَلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَحَّ بِمَدِينِهِ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عَدَاوَةِ خَيْرِكُمْ ﴿٥٨﴾ أَلَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَبَّحْ بِحَمْدِهِ خَيْرِكُمْ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن وتبليغ الرحي «مِنْ أَجْرٍ» وهذا توكيد لصدقه، لأنه لو سألهم شيئاً من أموالهم لأتهموه، ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾ معناه: لكن من شاء ﴿أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيْكَ رِبًّا سَبِيلًا﴾ بإنفاق ماله في مرضاته، فَعَلَّ ذلك، فكانه قال: لا أسألكم لنفسي. وقد سبق تفسير الكلمات التي تلي هذه (إك عمران: ١٥٩، البقرة: ٣٠، الأعراف: ٥٤) إلى قوله: ﴿فَسَبَّحْ بِحَمْدِهِ خَيْرِكُمْ﴾، و«به» بمعنى: «عنه» قال [عَلَمَةُ بن عَبْدِة]:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَمِائِنِي
بَصِيرٌ بِأَذْوَاءِ النِّسَاءِ طَيِّبٌ^(١)

وفي هاء «به» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الله ﷻ. والثاني: إلى اسمه الرحمن، لأنهم قالوا: لا نعرف الرَّحْمَنَ. والثالث: إلى ما ذكر من خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وغير ذلك. وفي «الخير» أربعة أقوال: أحدها: أنه جبريل، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الله ﷻ، والمعنى: سلني فانا الخير، قاله مجاهد. والثالث: [أنه] القرآن، قاله شمر. والرابع: مُسْلِمَةُ أهل الكتاب، قاله أبو سليمان، وهذا يخرج على قولهم: لا نعرف الرَّحْمَنَ، فقيل: سَلُوا مُسْلِمَةَ أهل الكتاب، فإن الله تعالى خاطب موسى في التوراة باسمه الرحمن، فعلى هذا، الخطاب للنبي ﷺ والمراد سواه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ قال المفسرون: إنهم قالوا: لا نعرف الرَّحْمَنَ إلا رحمن البمامة، فأنكروا أن يكون من أسماء الله تعالى، ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: «يَأْمُرُنَا» بالياء، أي: لِمَا يَأْمُرُنَا به محمد، وهذا استفهام إنكار، ومعناه: لا نسجد للرَّحْمَنِ الذي تأمرنا بالسجود له، ﴿وَزَادَهُمْ﴾ ذكر الرحمن ﴿نُفُورًا﴾ أي: تباعداً من الإيمان.

﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَمَعَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَمَعَ فِيهَا سُرُجًا وَمِثْلَ نُسُوفٍ مُنِيرًا﴾ (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَمَعَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَمَعَ فِيهَا سُرُجًا﴾ قد شرحناه في [الحجر: ١٦]. والمراد بالسراج: الشمس. وقرأ حمزة، والكسائي: «سُرُجًا» بضم السين والراء وإسقاط الألف. قال الزجاج: أراد: الشمس والكواكب العظام؛ ويجوز «سُرُجًا» بتسكين الراء، مثل رُسُلٍ وَرُسُلٍ. قال الماوردي: لما اقترن بضوء الشمس وهج حرها، جعلها لأجل الحرارة سراجاً، ولما عدم ذلك في القمر جعله نوراً.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً﴾ فيه قولان: أحدهما: أن كل واحد منهما يخالف الآخر في اللون، فهذا أبيض، وهذا أسود، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس، وابن أبي نجيع عن مجاهد، وبه قال قتادة. والثاني: أن كل واحد منهما يَخْلُفُ صاحبه، رواه عمرو بن قيس الملائي عن مجاهد، وبه قال ابن زيد وأهل اللغة، وأنشدوا قول زهير:

(١) «ديوانه» ١١، و«مشكل القرآن» ٤٢٧، و«القرطبي» ٦٣/١٣، و«أدب الكاتب» ٥٠٥، و«الأدواء» جمع داء.

بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَنْشِيبِينَ خَلْفَةً
أي: إذا ذهب طائفة جاءت طائفة^(١).

قوله تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَقِرْ﴾ أي: يتعظ ويعتبر باختلافهما. وقرأ حمزة: «يَذْكُرُ» خفيفة النال مضمومة الكاف، وهي في معنى: يتذكر، «أَوْ أَرَادَ» شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمَا.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٢) وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ مَدَابِهُمَا كَانَ غَرَامًا^(٣) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا^(٤) وَالَّذِينَ إِذَا أَفْقَرُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا^(٥)

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ﴾ وقرأ عليّ، وأبو عبد الرحمن السلمي، وابن السميع: «يُتَشَوْنَ» برفع الياء وفتح الميم والشين وبالتشديد. وقال ابن قتيبة: إنما نسبهم إليه لاصطفائه إياهم، كقوله: «نَاقَةُ اللَّهِ» [الأعراف: ٧٣] ومعنى «قَوَامًا»: مشياً رويداً^(٦). ومنه يقال: أَخِيْبَ حَبِيْبُكَ هَوْنًا مَا^(٧). وقال مجاهد: يمشون بالوقار والسكينة. «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» أي: سداداً. وقال الحسن: لا يجهلون على أحد، وإن جهل عليهم حُكْمُوا^(٨). وقال مقاتل بن حيان: «قَالُوا سَلَامًا» أي: قولاً يَسْلَمُونَ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ. وهذه الآية محكمة عند الأكثرين. وزعم قوم أن المراد بها أنهم يقولون للكفار: ليس بيننا وبينكم غير السلام، ثم نُسِخَتْ بِآيَةِ السِّيفِ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ قال الزجاج: كل من أدركه الليل فقد بات، نام أو لم ينام؛ يقال: بات فلان قَلَقًا، إنما المبيت إدراك الليل.

قوله تعالى: ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ فيه خمسة أقوال متقارب معانيها: أحدها: دائماً، رواه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ^(٩). والثاني: موجعاً، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: مُلِحِحًا، قاله ابن السائب؛ وقال ابن جريج: لا يفارق. والرابع: هلاكاً، قاله أبو عبيدة: والخامس: أن الغرام في اللغة: أشدُّ العذاب، قال الشاعر:

وَيَزُومُ النَّسَارَ وَيَزُومُ الْجِفَا
رَكَائِنَا عَذَابًا وَكَائِنَا غَرَامًا^(١٠)
قاله الزجاج:

قوله تعالى: ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ أي: بش موضع الاستقرار وموضع الإقامة هي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَفْقَرُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «يَقْتُرُوا» مفتوحة الياء مكسورة

(١) شرح ديوان زهير: ٥، وغريب القرآن: ٣١٤، ومجاز القرآن: ٨٠/٢، والطبري: ٣٢/١٩، والقرطبي: ٦٥/١٣، واختار الشعر الجاهلي: ١/٢٢٨، واللسان: «التاج»: خلف. واللين؛ جمع أعين وعيناء: بقر الوحش، سميت بذلك لسعة أعينها. والأرام: جمع رثم، وهو الظبي المخلص البياض. وخلفة: يخلّف بعضها بعضاً. والأطلاء: جمع الغلاء، وهو الولد من ذوات الظلف. والمجتم: المرض.

(٢) قال ابن كثير: أي: جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عبادة له ﷻ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسِطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ سَيِّئَةَ النَّهَارِ، وَيَسِطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ سَيِّئَةَ اللَّيْلِ». اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءً، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من سبب، وكأنما الأرض تطوى له. قال: وقد كره بعض السلف المشي بتصنع وتصنع، قال: وإنما المراد بالهون هنا: السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَنْتَمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوها وَأَنْتُمْ تَسْمُونَ، وَاتَّوَعَا وَطَلِعْتُمُ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ، فَمَا أَحْرَكْتُمْ مِنْهَا فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَاتَمُوا» اهـ، والحديث متفق عليه.

(٤) هو من كلام علي بن أبي طالب ﷺ كما في «الأدب المفرد» للبخاري: «أحب حبيبك هوناً ما، حتى أن يكون نبيك يوماً ما، وأبغض نبيك هوناً ما، حتى أن يكون حبيبك يوماً ما» ولم يثبت في المرفوع، وإضافة «ما» إلى الهون تقييد التقليل، والمعنى: أحب حبيبك حباً مقتصدًا لا إفراط فيه، أي: لا تسرف في الحب والبغض، فمضى أن يصير الحبيب بغضاً، والبغض حبياً، فلا تكن مسرفاً في الحب فتندم، ولا في البغض فتأسف.

(٥) روى الإمام أحمد في «المسنن» ٤٤٥/٥ عن النعمان بن مقرن قال: قال رسول الله ﷺ: «سب رجل رجلاً عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا لِمَلِكًا بَيْنَكُمَا يَلْبَسُ عَنْكَ، كُلَّمَا شَمَعْتَ هَذَا قَالَ لَه: بَلِ أَنْتَ وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ، وَإِذَا قَالَ لَه: عَلَيْكَ السَّلَامَ، قَالَ: لَا، بَلِ لَكَ، أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ»، قال ابن كثير: وإسناده حسن.

(٦) ذكره السيوطي في «الدرر» ٧٧/٥ من رواية عبد بن حميد عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٧) البيت لبشر بن أبي خازم كما في «مجاز القرآن» ٨٠/٢، «الطبري»: ٣٦/١٩، «البحر» ٥١٣/٦، «درواح المعاني» ٤١/١٩، «اللسان»، و«التاج»: غرم. ونسبه في «اللسان» للطرماح.

التاء. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «يَقْتَرُوا» بفتح الياء وضم التاء. وقرأ نافع، وابن عامر: «يَقْتَرُوا» بضم الياء وكسر التاء. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: أن الإسراف: مجاوزة الحد في النفقة، والإقتار: التقصير عما لا بُد منه، ويدل على هذا قول عمر بن الخطاب: كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما اشتهى. والثاني: [أَنَّ] الإسراف: الإنفاق في معصية الله وإن قَلَّ، والإقتار: منع حق الله تعالى، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ﴾ يعني الإنفاق ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: بين الإسراف والإقتار ﴿قَوَامًا﴾ أي: عدلاً؛ قال ثعلب: القوام، بفتح القاف: الاستقامة والعدل، وكسرهما: ما يدوم عليه الأمر ويستقر^(١).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْكًا ﴿٦٨﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ أيُّ الذُّنْبِ أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لَه نِدَاءً وَهُوَ خَلْقُكَ»، قلتُ: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قلتُ: ثم أي؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»، فأنزل الله تعالى تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا... آخَرَ﴾ الآية^(٢). والثاني: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تُخبرنا أن لِمَا عَمِلْنَا كَفَارَةً، فنزلت هذه الآية، إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾، أخرجه مسلم من حديث سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(٣). والثالث: أن وحشياً أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرتني حتى تسمع كلام الله، فقال رسول الله ﷺ: «قد كنت أحب أن أراك على غير جوار، فأما إذا أتيتني مستجيراً فأنت في جوارني حتى تسمع كلام الله»، قال: فإني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وزينت، فهل يقبل الله مني توبة؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية، فتلاها عليه، فقال: أرى شرطاً، فعلي لا أعمل صالحاً، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فدعاه فتلاها عليه، فقال: ولعلي ممن لا يشاء [الله]، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ أَفْسِهِمْ لَا تَقْتُلُوا رِجَالَهُمْ﴾ الآية [الزمر: ٥٣]، فقال: نعم، الآن لا أرى شرطاً، فأسلم، رواه عطاء عن ابن عباس^(٤)؛ وهذا وحشي هو قاتل حمزة؛ وفي هذا الحديث المذكور عنه نظر، وهو بعيد الصحة، والمحفوظ في إسلامه غير هذا، وأنه قديم مع رسل الطوائف فأسلم من غير اشتراط^(٥). وقوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ معناه: يُعْبَدُونَ. وقد سبق بيان قتل النفس بالحق في [الأنعام: ١٥١].

قوله تعالى: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ وقرأ سعيد بن جبيرة، وأبو المتوكل: «يَلْقَى» برفع الياء وفتح اللام وتشديد القاف مفتوحة. قال ابن عباس: يَلْقَى جزاء. وقال مجاهد، وعكرمة: هو وادٍ في جهنم. وقال ابن قتبية: يَلْقَى عقوبة، وأنشد:

جَزَى اللهُ ابْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى
غُفُوقًا [وَالْمُعْتُوقُ لَهُ أَثَامٌ]^(٦)

قال الزجاج: وقوله: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ جزماً على الجزاء. قال أبو عمرو الشيباني: يقال: قد لقيت أثام ذلك، أي: جزاء ذلك، وسيبويه والخليل يذهبان إلى أن معناه: يلقى جزاء الأثام. قال سيبويه: وإنما جزم ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ لأن مضاعفة العذاب لُقي الأثام، فلذلك جزمت، كما قال الشاعر:

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك قول من قال: الإسراف في النفقة الذي عناه الله في هذا الموضع: ما جاوز الحد الذي أباحه الله لعباده إلى ما فوقه، والإقتار: ما قصر عما أمر الله به، والقوام بين ذلك، قال: وإنما قلنا: إن ذلك كذلك، لأن المسرف والمقتصر كذلك، ولو كان الإسراف والإقتار في النفقة مرخصاً فيهما، ما كانا مذمومين، ولا كان المسرف ولا المقتصر مذمومين، لأن ما أذن الله في فعله، فغير مستحق فاعله الذم. اهـ.

(٢) رواه البخاري ٣٧٨/٨، ومسلم ٩٠/١.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان ١١٣/١، ورواه البخاري ٤٢٢/٨ سبباً لنزول قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ أَفْسِهِمْ...﴾ [الزمر: ٥٣].

(٤) هكذا ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٩٣.

(٥) انظر البخاري بشرح «الفتح» ٢٨٤/٧.

(٦) البيت لبعاة بن قيس الكندي، كما في «تقريب القرآن» ٣١٥، و«مجاز القرآن» ٨١/٢، و«الطبري» ٤٠/١٩، و«اللسان»: أثم، ونسبه إلى شافع الليثي.

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَظْبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجَجًا^(١)
 لأن الإتيان هو الإمام، فجزم «تُلْمِمُ» لأنه بمعنى «تأتي». وقرأ الحسن: «يُضَعَفُ»، وهو جيد بالغ؛ تقول: ضاعفت الشيء وضَعَفْتُهُ. وقرأ عاصم: «يُضَاعَفُ» بالرفع على تفسير «يَلْتَقِ أُنَامًا» كأن قائلًا قال: ما لَقِي الأنام؟ فقيل: يُضَاعَفُ للأنام العذاب. وقرأ أبو المتوكل، وقتادة، وأبو حيوه: «يُضَعَفُ» برفع الياء وسكون الضاد وفتح العين خفيفة من غير ألف. وقرأ أبو حصين الأسدي، والعمري عن أبي جعفر مثله، إلا أن العين مكسورة، و«العذاب» بالنصب.
 قوله تعالى: ﴿وَيُخَلِّدُ﴾ وقرأ أبو حيوه، وقتادة، والأعمش: «ويُخَلِّدُ» برفع الياء وسكون الخاء وفتح اللام مخففة. وقرأ عاصم الجحدري، وابن يعمر، وأبو المتوكل مثله، إلا أنهم شددوا اللام.

فصل

ولعلماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية قولان: أحدهما: أنها منسوخة؛ وفي ناسخها ثلاثة أقوال. أحدها: أنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]، قاله ابن عباس. وكان يقول: هذه مكية، والتي في «النساء» متنية. والثاني: أنها نسخت بالثانية، وهي قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾. والقول الثاني: أنها محكمة؛ والخلود إنما كان لانضمام الشرك إلى القتل والزنا. وفساد القول الأول ظاهر، لأن القتل لا يوجب تخليدًا عند الأكثرين؛ وقد بيّناه في سورة [النساء: ٩٣]، والشرك لا يُغْفَرُ إذا مات المشرك عليه، والاستثناء ليس بنسخ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ قال ابن عباس: قرأنا على عهد رسول الله سنتين: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ثم نزلت ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ فما رأيت رسول الله ﷺ فرح بشيء فرحه بها، ود ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٢) [الفتح: ١].

قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْعُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ اختلفوا في كيفية هذا التبديل وفي زمان كونه، فقال ابن عباس: يبذل الله شركهم إيمانًا، وقتلهم إسماعًا، وزناهم إحصانًا؛ وهذا يدل على أنه يكون في الدنيا، وممن ذهب إلى هذا المعنى سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد. والثاني: أن هذا يكون في الآخرة، قاله سلمان رضي الله عنه، وسعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين. وقال عمرو بن ميمون: يبذل الله سيئات المؤمن إذا غفرها له حسنات، حتى إن العبد يتمنى أن تكون سيئاته أكثر مما هي. وعن الحسن كالفوليين. وروي عن الحسن أنه قال: ودَّ قومٌ يوم القيامة أنهم كانوا في الدنيا استكثروا من الذنوب؛ فقيل: من هم؟ قال: هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْعُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، ويؤكد هذا القول حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فتعرض عليه صغار ذنوبه وتنحى عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا، وكذا، وهو مقرٌّ لا يُنكر، وهو مُشْفِقٌ من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة»، أخرجه مسلم في «صحيحه»^(٣).

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَبُذُّ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾^(٤) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا^(٥)

(١) البيت غير منسوب في «القرطبي» ٧٧/١٣، و«مجمع البيان» ١٢٢/١٩، و«البحر» ٥١٥/٦، و«روح المعاني» ٤٤/١٩.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ٧٩/٥ من رواية ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه. وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٨٤: رواه الطبراني من رواية علي بن زيد عن يوسف بن مهران، وقد وثق، وفيها ضعف، وبقية رجاله ثقات. وقد جاء في صحيح البخاري ٤٤٨/٨ أن رسول الله ﷺ قال عندما نزلت سورة [الفتح]: «لقد أنزلت علي الليلة سورة لم يكن أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، ورواه أحمد في «المستد» والترمذي، والنسائي من طرق عن مالك رحمه الله.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» ١٧٧/١ ولفظه بتمامه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها، رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، وكذا كذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها هاهنا» فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه. ورواه الطبري ٤٧/١٩، وذكره السيوطي في «الدر» ٧٩/٥، وزاد نسبه لأحمد، و«مناهج» والترمذي، والبيهقي في «الاسماء والصفات» عن أبي ذر رضي الله عنه.

وَأَلْبِيبٌ إِذَا ذُكِرُوا بِكَابِتٍ رَبِّهِمْ لَمْ يَعْرِفُوا عَلَيْهَا سُمًّا وَعَمِيًّا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَنْزِلِكُمْ وَدُرِّيَّاتًا قَرَّةً أَعْرَبَ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ ظاهر هذه التوبة أنها عن الذنوب المذكورة. وقال ابن عباس: يعني: ممن لم يقتل ولم يزن، ﴿وَعَجِلَ صَلِيحًا﴾ فَإِنِّي قَدْ قَدَّمْتُهُمْ وَفَضَّلْتُهُمْ عَلَيَّ مِنْ قَاتِلِ نَبِيِّي وَاسْتَحْلُ مَحَارِمِي.

قوله تعالى: ﴿فَأِنَّهُ يُؤْتِي إِلَى اللَّهِ مَنَابًا﴾ قال ابن الأنباري: معناه: من أراد التوبة وقصد حقيقتها، فينبغي له أن يُريد الله بها ولا يخلط بها ما يُفسدها؛ وهذا كما يقول الرجل: من تجر فإنه يتجر في البرء. ومن تاطر فإنه يناظر في النحو، أي: من أراد ذلك، فينبغي أن يقصد هذا الفن؛ قال: ويجوز أن يكون معنى [هذه] الآية: ومن تاب وعمل صالحاً، فإن ثوابه وجزاءه يعظمان له عند ربِّه الذي أراد بتوبته، فلما كان قوله: ﴿فَأِنَّهُ يُؤْتِي إِلَى اللَّهِ مَنَابًا﴾ يُؤدِّي عن هذا المعنى، كفى منه، وهذا كما يقول الرجل للرجل: إذا تكلمت فاعلم أنك تكلم الوزير، أي: تكلم من يعرف كلامك ويجازيك، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَانَ كَبِيرٌ عَلَيْكَ مَقَامِي وَيَكْبَرِي عَلَيْكَ أَوْ قَلَّ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١]، أي: فَإِنِّي أَتَوَكَّلُ عَلَى مَنْ يَنْصُرُنِي وَلَا يُسْلِمُنِي. وقال قوم: معنى الآية: فإنه يرجع إلى الله مرجعاً يقبله منه.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْبِيبٌ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: أنه الصنم؛ روى الضحاك عن ابن عباس أن الزُّور صنم كان للمشركين. والثاني: أنه الغناء؛ قاله محمد بن الحنفية، ومكحول؛ وروى ليث عن مجاهد قال: لا يسمعون الغناء. والثالث: الشُّرك، قاله الضحاك، وأبو مالك. والرابع: لعب كان لهم في الجاهلية، قاله عكرمة. والخامس: الكذب، قاله قتادة، وابن جريج. والسادس: شهادة الزور، قاله علي بن أبي طلحة. والسابع: أعياد المشركين، قاله الربيع بن أنس. والثامن: مجالس الخنا، قاله عمرو بن قيس^(١). وفي المراد باللغو هاتنا خمسة أقوال: أحدها: المعاصي، قاله الحسن. والثاني: أذى المشركين إياهم، قاله مجاهد. والثالث: الباطل، قاله قتادة. والرابع: الشُّرك، قاله الضحاك. والخامس: إذا ذكروا النكاح كنوا عنه، قاله مجاهد. وقال محمد بن علي: إذا ذكروا الفروج كنوا عنها.

قوله تعالى: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: مَرُّوا حُلْمَاءَ، قاله ابن السائب. والثاني: مَرُّوا مُعْرِضِينَ عنه، قاله مقاتل. والثالث: أن المعنى: إذا مَرُّوا باللغو جازوه، قاله الفراء^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْبِيبٌ إِذَا ذُكِرُوا﴾ أي: وُعِظُوا ﴿بِكَابِتٍ رَبِّهِمْ﴾ وهي القرآن ﴿لَمْ يَعْرِفُوا عَلَيْهَا سُمًّا وَعَمِيًّا﴾ قال ابن قتيبة: لم يتفألوا عنها كأنهم صُمُّ لم يسمعوها، عمي لم يروها. وقال غيره من أهل اللغة: لم يشبوا على حالتهم الأولى كأنهم لم يسمعوها ولم يروها، وإن لم يكونوا حَرًّا حقيقة؛ تقول العرب: شتمت فلاناً فقام يبكي، وقعد يندب، وأقبل يعتذر، وظلَّ يتحير، وإن لم يكن قام ولا قعد.

قوله تعالى: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَنْزِلِكُمْ وَدُرِّيَّاتًا قَرَّةً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿وَدُرِّيَّاتًا﴾ على الجمع. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿وَدُرِّيَّاتًا﴾ على التوحيد، وقرأ ابن

(١) قال ابن جرير الطبري: وأصل الزور: تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يخل إلى من يسمعه أو يراه أنه خلاف ما هو به، والشرك قد يدخل في ذلك، لأنه محسن لأهله حتى قد ظنوا أنه حق، وهو باطل، ويدخل فيه الغناء، لأنه أيضاً مما يحسنه ترجيح الصوت حتى يستحلي سامعه سماعه، والكذب أيضاً قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه حتى يظن صاحبه أنه حق، فكل ذلك مما يدخل في معنى الزور. قال: فإذا كان ذلك كذلك، فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئاً من الباطل، لا شركاً، ولا غناءً، ولا كذباً، ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور، لأن الله عم في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخص من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها من خير أو عقل. اهـ. وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن أبي بكر: **قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك بالله، وحقق الولدين، وكان متكناً فجلس فقال: «ألا وقرول الزور، ألا وشهادة الزور» فما زال يكرها حتى قلنا: ليه سكت.**

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً، واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل. لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقيح، فسب الإنسان الإنسان بالباطل الذي لا حقيقة له، من اللغو، وذكر النكاح بصريح اسمه مما يستقيح في بعض الأماكن، فهو من اللغو، وكذلك تنظيم المشركين لهم من الباطل الذي لا حقيقة لما عظموه على نحو ما عظموه، وسماع الغناء مما هو مستقيح في أهل الدين، فكل ذلك يدخل في معنى اللغو، فلا وجه. إذا كان كل ذلك يلزمه اسم اللغو. أن يقال: عُني به بعض ذلك دون بعض، إذ لم يكن لخصوص ذلك دلالة من خير أو عقل. اهـ.

مسعود، وأبو حيوية: «قُرَاتٌ أَعْيُنٌ» يعنون: من يعمل بطاعتك فتقرّ به أعيننا في الدنيا والآخرة. وسئل الحسن عن قوله: «قُرَّةٌ أَعْيُنٌ» في الدنيا، أم في الآخرة؟ قال: لا، بل في الدنيا، وأي شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وولده يطيعون الله، والله ما طلب القوم إلا أن يطاع الله فتقرّ أعينهم. قال الفراء: إنما قال: «قُرَّةٌ» لأنها فعل، والفعل لا يكاد يُجمع، ألا ترى إلى قوله: «وَأَدْعُوا نُجُورًا كَثِيرًا» [الفرقان: ١٤] فلم يجمعه؛ والقُرَّةُ مصدر، تقول: قرّرت عينه قُرَّةً، ولو قيل: قُرَّةٌ عين أو قُرَاتٌ أعين كان صواباً. وقال غيره: أصل القُرَّةُ من البرّد، لأن العرب تتأذى بالحرّ، وتستروح إلى البرّد.

قوله تعالى: «وَأَجْعَلَنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا» فيه قولان: أحدهما: اجعلنا أئمة يُقتدى بنا، قاله ابن عباس. وقال غيره: هذا من الواحد الذي يراد به الجمع، كقوله: «إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْمَلْأَيْنِ» [الشعراء: ١٦]، وقوله: «وَأَنبَأَهُمْ عَذْرَ إِبْرَاهِيمَ» [الشعراء: ٧٧]. والثاني: اجعلنا مؤتمنين بالمؤمنين مقتدين بهم، قاله مجاهد؛ فعلى هذا يكون الكلام من المقلوب، فيكون المعنى: واجعل المؤمنين لنا إماماً^(١).

﴿أَوْلَيْتَكَ بِحَبْرَةَ الْفُرْقَةِ يَا صَبْرًا وَيَلْقُونَ فِيهَا حَيْبَةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ حَلِيلِيكَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَسْبُؤُا بِكَ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَانًا ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: «أَوْلَيْتَكَ بِحَبْرَةَ الْفُرْقَةِ» قال ابن عباس: يعني الجنة. وقال غيره: الغرفة: كل بناء عالٍ مرتفع، والمراد غرف الجنة، وهي من الزُّرْجِدِ والدُّزِّ والياقوت، «يَا صَبْرًا» على دينهم وعلى أذى المشركين.

قوله تعالى: «وَيَلْقُونَ فِيهَا» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «وَيَلْقُونَ» بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «وَيَلْقُونَ» بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف، «حَيْبَةً وَسَلَامًا» قال ابن عباس: يُحَيِّي بعضهم بعضاً بالسلام، ويرسل إليهم الرِّبِّ ﷻ بالسلام. وقال مقاتل: «تحية» يعني السلام، «وسلاماً» أي: سلم الله لهم أمرهم وتجاوز عنهم^(٢).

قوله تعالى: «قُلْ مَا يَسْبُؤُا بِكَ رَبِّي» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما يصنع بكم! قاله ابن عباس. والثاني: أي وزن يكون لكم عنده؛ تقول: ما عبأ فلان، أي: ما كان له عندي وزن ولا قدر، قاله الزجاج. والثالث: ما يعبا بعبأبكم، قاله ابن قتيبة. وفي قوله: «لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» أربعة أقوال: أحدها: لولا إيمانكم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: لولا عبادتكم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: لولا دعاؤه إيتاكم لتعبده، قاله مجاهد؛ والمراد نفع الخلق، لأن الله تعالى غير محتاج. والرابع: لولا توحيدهم، حكاه الزجاج. وعلى قول الأكثرين ليس في الآية إضمار؛ وقال ابن قتيبة: فيها إضمار تقديره: ما يعبا بعبأبكم لولا ما تدعونه من الشريك والولد، ويوضح ذلك [قوله]: «سَوْفَ يَكُونُ لِزَانًا» يعني: العذاب، ومثله قول الشاعر:

مَنْ شَاءَ دَلَّى السُّفْسَفَ فِي هُوَّةٍ
صَنَعْنَا وَلَكِنْ مَنْ لُهُ بِالْمَضِيقِ^(٣)

أي: بالخروج من المضيق. وهل هذا خطاب للمؤمنين، أو للكفار؟ فيه قولان. فأما قوله تعالى: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ» فهو خطاب لأهل مكة حين كذبوا رسول الله ﷺ، «سَوْفَ يَكُونُ» يعني: تكذيبكم «لِزَانًا» أي: عذاباً لازماً [لكم]؛ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قتلهم يوم بدر فقتلوا يومئذ، واتصل بهم عذاب الآخرة لازماً لهم، وهذا مذهب ابن مسعود، وأبي بن كعب، ومجاهد في آخرين. والثاني: أنه الموت، قاله ابن عباس. والثالث: أن اللزأم: القتال، قاله ابن زيد.



(١) قال ابن كثير: وقال غيره: اجعلنا هداة مهتدين دعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هدايم متعبداً إلى هيرهم بالنفع، وذلك أكثر نوابها وأحسن مآبها. اهـ. وقد ثبت في (صحيح مسلم) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ تَقَطَّعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

(٢) قال ابن كثير: أولئك يبيدونها فيها بالنحية والإكرام، ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب: «سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَّحُوا بِكُمْ عَلَيْهِمْ وَتَمَّ عَلَى الْآلَاءِ».

(٣) مشكل القرآن: ٣٣٩، «واللسان»: دلا، وأيضا في «اللسان» و«التاج»: ضيق، ورواية الشطر الأول فيهما: مَنْ شَاءَ يَدَلِّي النَّفْسَ فِي هُوَّةٍ.

سورة الشعراء

وهي مكية كلها، إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة، من قوله: ﴿وَالشَّعْرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ ﴿الشعراء: ٢٢٤﴾ إلى آخرها، قاله ابن عباس، وقناة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓرٓ﴾ ١ تَاءَ مَائِكَ الْكَتَبِ الْبَيِّنِ ٢ لَمَلَكٍ بَرَّحَ تَشْتَكُ الْآ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصِيصِينَ ٤ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُعَدِّدًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٦ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ نَبْعٍ كَيْبَرٍ ٧ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٩

قوله تعالى: ﴿طسٓرٓ﴾ ﴿١﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «طسّم» بفتح الطاء وإدغام النون من هجاء «سين» عند الميم. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وأبان، والمفضل: «طسّم» و«طيس» بإمالة الطاء فيهما. وأظهر النون من هجاء «سين» عند الميم حمزة هاهنا وفي (القصص). وفي معنى «طسّم» أربعة أقوال: أحدها: أنها حروف من كلمات، ثم فيها ثلاثة أقوال: أحدها: [ما] رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما نزلت «طسّم» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الطاء: طور سيناء، والسين: الاسكندرية، والميم: مكة»^(١). والثاني: [أن] الطاء: طيبة، وسين: بيت المقدس، وميم: مكة، [رواه الضحّاك عن ابن عباس]. والثالث: الطاء: شجرة طوبى، والسين: سدرة المنتهى، والميم: محمد صلى الله عليه وسلم، قاله جعفر الصادق. والثاني: أنه قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله تعالى، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقد بيّنا كيف يكون مثل هذا من أسماء الله تعالى في فاتحة مريم. وقال القرظي: أقسم الله بظوله وسنائه وملكه. والثالث: أنه اسم للسورة قاله مجاهد. والرابع: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة، وأبو روق^(٢). وما بعد هذا قد سبق تفسيره [المائدة: ١٥، الكهف: ٦٦] إلى قوله: ﴿الآ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى: لعنك قاتل نفسك لتركهم الإيمان. ثم أخبر أنه لو أراد أن ينزل عليهم ما يضطرمهم إلى الإيمان لفضل، فقال: ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ﴾ وقرأ أبو رزين، وأبو المتوكل: ﴿إِنْ يَشَأْ يُنْزِلْ﴾ بالياء فيهما، ﴿عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصِيصِينَ﴾ جعل الفعل أولاً للأعناق، ثم جعل «خاضعين» للرجال، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون. وقيل: لما وصف الأعناق بالخضوع، وهو من صفات بني آدم، أخرج الفعل مخرج الأدميين كما بيّنا في قوله: ﴿وَالسَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأْيُهُمْ لِي سَيُجِيبُكَ﴾ [يوسف: ٤٤]، وهذا اختيار أبي عبيدة. وقال الزجاج: قوله: «فَظَلَّتْ» معناه: فَتَنَّتْ، لأن الجزء يقع فيه لفظ الماضي في معنى المستقبل، كقولك: إن تأتي أكرمك، معناه: أكرمك؛ وإنما قال: «خاضعين» لأن خضوع الأعناق هو خضوع أصحابها، وذلك أن الخضوع لئاً لم يكن إلا بخضوع الأعناق، جاز أن يخبر عن المضاف إليه، كما قال الشاعر:

رَأَتْ مَرَّ السَّنِينِ أَخَذْنَ مِنِّْي
كَمَا أَخَذَ السَّرَاوُ مِنْ الْهِلَالِ^(٣)

(١) لم يذكر المفسرون أن معنى هذه الحروف ورد في المرفوع، إلا ما ذكر الطبرسي من علماء الإمامية الشيعية في تفسيره «مجمع البيان» حيث قال: وروي عن ابن الحنفية عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ... فذكره من غير سند، فعمل المصنف نقل هذا المعنى عنه أو ممن نقل عنه. وقد نقل القرظي هذا المعنى من كلام عبد الله بن محمد بن عقيل، ولم يذكره مرفوعاً، وذكر السيوطي في «الدرر» ٨٢/٥ عن محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿طسٓرٓ﴾ قال: الطاء من ذي الطول، والسين من القدس، والميم من الرحمن، وكذلك ذكر الألوسي في «تفسيره» ٥٢/١٩.

(٢) قال ابن كثير عن الحروف التي في أوائل السور: وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضة بطله، هذ مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يخاطبون بها، قال: وقد حكى هذا المذهب الرازي في «تفسيره» عن المبرد وجمع من المحققين، قال: وحكى القرظي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في «كشافه» ونصره آثم نصر، قال: وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحكاه لي من ابن تيمية. اهـ.

(٣) البيت لجبر، «ديوانه» ٤٢٦، و«مجاز القرآن» ٨٣/٢ و«الطبري» ٦٢/١٩، و«اللسان»: خضع. و«السرار»: الليلة يخفى فيها الهلال آخر الشهر.

فلما كانت السنون لا تكون إلا بمرء، أخبر عن السنين، وإن كان أضاف إليها المرور. قال: وجاء في التفسير أنه يعني بالأعناق كبراءهم ورؤساءهم. وجاء في اللغة أن أعناقهم جماعاتهم؛ يقال: جاءني عُقْنُ من الناس، أي: جماعة. وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الآياء: ٢٢] إلى قوله: ﴿أَوْتَمَّ بَرًّا إِلَى الْأَرْضِ﴾ يعني المكذِّبين بالبعث ﴿كَرَّ أُنْتُنَا بِهَا﴾ بعد أن لم يكن فيها نبات ﴿مِنْ كُلِّ رَجْعٍ كَثِيرٍ﴾ قال ابن قتيبة: من كل جنس حسن. وقال الزجاج: الزوج: النوع، والكريم: المحمود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ تدل على وحدانية الله وقدرته ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما كان أكثرهم يؤمن في علم الله، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنتقم من أعدائه ﴿الكَرِيمُ﴾ بأوليائه.

﴿وَإِنَّ نَادِيَّ رَبِّكَ مُرَوِّعٌ أَوْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قَوْمٌ فَرَعُونَ أَلَّا يَنْفُتُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْلُغُنِي إِسْمَاعِي فَأَرْسِلْ لِي نَادِيًّا ﴿١٣﴾ وَلَمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِإِيتَانِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَيُّا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَمِثْنَا فِينَا مِنْ عَمَلِكُمْ سِينًا ﴿١٨﴾ وَقَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ لَكِنِّي فَعَلْتُ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ لَمَلْنَاهَا إِنَّا وَانَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَنَا خُنُفًا وَمَعَهَا لِي رَبِّي مَخْلُكًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ رَبِّكَ يَسْمَعُ تَتَابَعًا عَنْ أَنْ عَدَدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ نَادِيَّ﴾ والمعنى: واطل هذه القصة على قومك.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُكَذِّبُونَ﴾ ياء «يُكَذِّبُونَ» محذوفة، ومثلها «أَنْ يَقْتُلُونَ» [الشعراء: ١٤] «سَيِّبِينَ» [الشعراء: ٦٢] «فَهَوَّ يَهْرِينَ» [الشعراء: ٧٨] «وَسَيِّبِينَ» [الشعراء: ٧٩] «فَهَوَّ يَشْفِيهِ» [الشعراء: ٨٠] «فَتَرَّ يَحْيِيْنَ» [الشعراء: ٨١] «كَلْبُونِ» [الشعراء: ١١٧] «وَأَلْيُطُونَ» [الشعراء: ١٠٨] فهذه ثمان آيات أثبتهن في الحالين يعقوب^(١).

قوله تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ أي بتكذيبهم إياي ﴿وَلَا يَبْلُغُنِي إِسْمَاعِي﴾ لللعقدة التي كانت بلسانه. وقرأ يعقوب: «ويَضِيقُ» «ولا يَبْلُغُنِي» ينصب القاف فيها، «فَأَرْسِلْ لِي نَادِيًّا» والمعنى: ليُعيني، فحذف، لأن في الكلام دليلاً عليه. ﴿وَلَمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ وهو القتل الذي وكزه ففُضِيَ عليه؛ والمعنى: ولهم عليّ دعوى ذنب ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به. ﴿قَالَ كَلَّا﴾ وهو ردع وزجر عن الإقامة على هذا الظن؛ والمعنى: لن يقتلوك لأنني لا أسطهم عليك، ﴿فَاذْهَبَا﴾ يعني: أنت وأخوك ﴿بِإِيتَانِنَا﴾ وهي: ما أعطاهما من المعجزة ﴿إِنَّا﴾ يعني نفسه ﴿مَعَكُمْ﴾ فأجراهما مجرى الجماعة ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ نسمع ما تقولان وما يجيبونكما به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن قتيبة: الرسول يكون بمعنى الجميع، كقوله: ﴿هَذَا كَلِمَتِي﴾ [الحجر: ٦٨] وقوله: ﴿مَنْ تَحْمِيكُمْ فَلَاكُ﴾ [الحج: ٥]. وقال الزجاج: المعنى: إِنَّا رسالُهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أي: ذوو رسالة ربِّ العالمين، قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَّبَ الْوَأَشُونَ مَا بُحْتُ عَنْهُمْ
بِسْرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ^(٢)

أي: برسالة.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلَ﴾ المعنى: بأن أرسل ﴿مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أظلفهم من الاستعباد، فاتياه فبلغاه الرسالة، ف ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ أي: صبيًا صغيراً ﴿وَلَمِثْنَا فِينَا مِنْ عَمَلِكُمْ سِينًا﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: ثمان عشرة سنة، قاله ابن عباس. والثاني: أربعون سنة، قاله ابن السائب. والثالث: ثلاثون سنة، قاله مقاتل، والمعنى: فجازيتنا على أن ربيناك أن كفرت نعمتنا، وقتلت منا نفساً، وهو قوله: ﴿وَقَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ﴾ وهي قتل النفس. قال الفراء: وإنما نُصِبَتْ الفاء، لأنها مرة واحدة، ولو أريد بها مثل الجلسة والوشية جاز كسرهما. وفي قوله: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قولان: أحدهما: من الكافرين لنعمتي، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء، والضحاك، وابن زيد. والثاني: من الكافرين بالهلك، كتبت معنا على ديننا الذي تعيب، قاله الحسن، والسدي. فعلى الأول: وأنت من الكافرين الآن.

(١) عبارة ابن الجزري في كتاب «النشر في القراءات العشر» ٢/٣٢٣: «أثبت الياء في جميعها يعقوب في الحالين».

(٢) البيت لكثير عزة، وهو في «مجاز القرآن» ٢/٨٤، و«غريب القرآن» ٣١٦، و«الطبري» ١٩/٦٥، و«القرطبي» ١٣/٩٣، و«اللسان» و«التاج»: رسل.

وعلى الثاني: وكنت. وفي قوله: ﴿أَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: من الجاهلين، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة. وقال بعض المفسرين: المعنى: إني كنت جاهلاً لم يأتي من الله شيء. والثاني: من الخاطئين؛ والمعنى: إني قتلت النفس خطأ، قاله ابن زيد. والثالث: من الناسين؛ ومثله: ﴿إِن تَبَيَّلَ بِمَنِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ أي: ذهبت من بينكم ﴿فَمَا جَعَلْنَا لِقَابَ إِسْرَائِيلَ﴾ على نفسي إلى مَدِينٍ، وقرأ عاصم الجحدري، والضحاك، وابن يعمر: ﴿لِمَا بَكَرَ اللّٰمُ وَتَخْفِيفِ المِيمِ، ﴿وَرَهَبَ لِى رِبِّىْ شَكْكَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: النبوة، قاله ابن السائب. والثاني: العلم والفهم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَتَاكَ يَسْتَسْتَأْذِنُ عَلَى﴾ يعني الترية ﴿فَإِنْ عَدَّتْ بَيْنَ إِسْرَائِيلَ﴾ أي: اتخذتهم عبيداً؛ يقال: عَدْتُ فلاناً وأعدته واستعدته؛ إذا اتخذته عبداً^(١). وفي «أن» وجهان: أحدهما: أن تكون في موضع رفع على البدل من «يُسْتَأْذِنُ». والثاني: أن تكون في موضع نصب بنزع الخافض، تقديره: لأن عَدْتُ، أو لتعبيدك. واختلف العلماء في تفسير الآية، ففسرها قوم على الإنكار، وقوم على الإقرار. فمن فسرها على الإنكار قال معنى الكلام: أو تلك نعمة إلهية على طريق الاستفهام، ومثله ﴿فَكَذَّبَ رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦]، وقوله: ﴿فَهُمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣٤]، وأنشدوا:

لَمْ أَنَسَ يَوْمَ الرَّحِيلِ وَقَفَّتْهَا
وَجَفْنَهَا مِنْ دَمِوعِهَا شَرِقُ^(٢)
وَقَوْلُهَا وَالرَّكَابُ سَائِرَةٌ
تَسْرِكُنَا هَكَذَا وَتَسْرُقُ

وهذا قول جماعة منهم. ثم لهم في معنى الكلام ووجهه أربعة أقوال: أحدها: أن فرعون أخذ أموال بني إسرائيل واستعبدهم وأنفق على موسى منها، فأبطل موسى النعمة لأنها أموال بني إسرائيل، قاله الحسن. والثاني: أن المعنى: إنك لو كنت لا تقتل أبناء بني إسرائيل لكفنتي أهلي، وكانت أمي تستغني عن قلبي في اليم، فكانك تمنى عليّ بما كان بلاؤك سبباً له، وهذا قول المبرد، والزجاج، والأزهري. والثالث: أن المعنى: تمنى عليّ بإحسانك إليّ خاصة، وتنسى إساعتك بتعبيدك بني إسرائيل؟ قاله مقاتل. والرابع: أن المعنى: كيف تمنى عليّ بالتربة وقد استعبدت قومي؟ ومن أهدى قومه فقد ذل، فقد حبط إحسانك إليّ بتعبيدك قومي، حكاه الثعلبي. فأما من فسرها على الإقرار، فإنه قال: عدّها موسى نعمة حيث ربّاه ولم يقتله ولا استعبده. فالمعنى: هي لعمري نعمة إذ ربّيتني ولم تستعبدني كاستعبادك بني إسرائيل، ف «أن» تدل على المحذوف، ومثله في الكلام - أن تضرب عبيدك وتترك الآخر، فيقول المتروك -: هذه نعمة عليّ أن ضربت فلاناً وتركتني، ثم تحذف «وتركتني» لأن المعنى معروف، هذا قول الفراء.

﴿قَالَ رِزْقُونَ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ آلَ سَمْعُونَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ الْآرَائِنِ﴾ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَجَنُّونٌ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ ﴿قوله تعالى: ﴿قَالَ رِزْقُونَ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿سأله عن ماهية مَنْ لا ماهية له، فأجاب به بما يدل عليه من مصنوعاته^(٣). وفي قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ قولان: أحدهما: أنه خلق السموات والأرض. والثاني: إن كنتم موقنين

(١) قال ابن كثير في قوله: ﴿فَتَاكَ يَسْتَسْتَأْذِنُ عَلَى أَنْ عَدَّتْ بَيْنَ إِسْرَائِيلَ﴾ أي: وما أحسنت إليّ وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وعملاً تصرفهم في أعمالك ومشاق رحيتك، أقيمت إحسانك إلى رجل واحد فتمم بما أسأت إلى مجموعهم إلهية: ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم. اهـ.

(٢) البطر الأول من هذا البيت زيادة من النسخة الاستبوية، وأثبت البيت بتمامه من القرطبي.

(٣) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِكُمْ﴾ ﴿فَأَسْحَبُ قَوْلَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ وكانوا يجعلون الصانع جلا وعلا، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ قال ابن كثير: هكذا فسره علماء السلف وأمة الخلف حتى قال السدي: هذه الآية كقولها تعالى: ﴿قَالَ كَذَبْتُمْ رَبِّيَ كَذِبًا يُكُونُ﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أُنزِلَ مِنْ سَمَاءٍ غَلَقَتْ عَنْ هَذِهِ﴾ قال: ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم هذا سؤال عن ماهية، فقد غلط، فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن ماهية، بل كان جاحلاً بالكلية فيما يظهر وإن كانت المحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه =

أن ما تعابونه كما تعابونوه، فكذلك^(١)، فأيقنوا أن^(٢) رَبِّ الْعَالَمِينَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. ﴿قَالَ﴾ يعني: فرعون ﴿لَيْتَ
حَوْلَهُ﴾ من أشراف قومه ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ معجباً لهم. فإن قيل: فأين جوابهم؟ فالجواب: أنه أراد: ألا تستمعون قول
موسى؟ فردّ موسى، لأنه المراد بالجواب، ثم زاد في البيان بقوله: ﴿رَبِّكَ رَبِّيَ مَا بَيْنَكُمْ الْأَرْضَيْنِ﴾، فأعرض فرعون عن
جوابه ونسبه إلى الجنون، فلم يخلع موسى بقول فرعون، واشتغل بتأكيد الحجّة، ف ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَوْمَ
كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: إن كنتم ذوي عقول، لم يخف عليكم ما أقول.

﴿قَالَ لَيْتَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرَ لِحَبْلِكَ مِنَ السَّمْعِينِ ﴿٣٩﴾﴾ قَالَ أَوْلَتْ جَنَّتِكَ يَنْفَعُو ثِيْبِي ﴿٤٠﴾ قَالَ فَأَبِ يَوْمَ إِنْ كُنْتُ مِنَ
السَّمْعِينِ ﴿٤١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبًا مُبِينٌ ﴿٤٢﴾ وَرَجَّعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ ﴿٤٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرُ عَلِيمٍ ﴿٤٤﴾ يُرِيدُ
أَنْ يُفْتَحَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٤٥﴾ قَالُوا أَرْجَاهُ وَالنَّهْأُ وَالنَّهْأُ فِي اللَّذَائِنِ خَيْرٌ ﴿٤٦﴾ يَأْتُوهُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ
﴿٤٧﴾ فَجَمَعَ السَّحَابَ لِيبْقِيَ بَرٌّ مَمْلُوءٌ ﴿٤٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٤٩﴾ لَمَلْنَا نَبْعَ السَّحَابِ إِنْ كَانُوا هُمْ الْقَائِلِينَ ﴿٥٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ
السَّحَابُ قَالُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ الْفُلْيَاقِ ﴿٥١﴾ قَالَ نَسَمَ وَإِنْ لَمِنَ الْقَوْمِ ﴿٥٢﴾ قَالَ لَمَنْ مَوْجَ الْقَوْمِ مَا أَنْتُمْ تُلْقُونَ ﴿٥٣﴾
فَأَلْقَا جِهَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بَعْرَةٌ فَرَعُونَ إِنَّا لَنَعْنُ الْفُلْيَاقِ ﴿٥٤﴾ فَأَلْقَى مَوْجَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَابَ
سَجْدِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْفُلْيَاقِ ﴿٥٧﴾ رَبِّ مَوْجِي وَعَدْوَى ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْلَتْ جَنَّتِكَ يَنْفَعُو ثِيْبِي﴾ أي: بأمر ظاهر تعرف به صدقي أنسجني؟! وما بعد هذا مفسر في
[الأعراف: ١٠٧] إلى قوله: ﴿فَجَمَعَ السَّحَابَ لِيبْقِيَ بَرٌّ مَمْلُوءٌ﴾ وهو يوم الزينة، وكان عيداً لهم، ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ يعني
أهل مصر. وذهب ابن زيد إلى أن اجتماعهم كان بالاسكندرية.

قوله تعالى: ﴿لَمَلْنَا نَبْعَ السَّحَابِ﴾ قال الأكثرون: أرادوا سحرة فرعون؛ فالمعنى: لعلنا نتبعهم على أمرهم.
وقال بعضهم: أرادوا موسى وهارون، وإنما قالوا ذلك استهزاء. قال ابن جرير: «ولعل» هاهنا بمعنى «كي».
وقوله^(٣): ﴿بَعْرَةٌ فَرَعُونَ﴾ أي: بعظته^(٤).

﴿قَالَ مَأْمُورٌ لَمْ يَبَلْ أَنْ يَدَّكَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ الْبَحْرَ فَسَوَّفَ تَمَلُّونَ لِأَفْطَمَةَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَالْمُهَيْتَكُمُ
أَجْمَعُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قَالُوا لَا حَبْرَ لَنَا إِنْ كُنَّا مُقْبِلِينَ ﴿٦٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغِيْرَ لَنَا رَبُّنَا حَطَلِينَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾﴾
قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ تَمَلُّونَ﴾ قال الزجاج: اللام دخلت للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿لَا حَبْرَ﴾ أي: لا ضرر. قال ابن قتيبة: هو من ضارّه يَضُورُه ويَضِيرُه؛ بمعنى: ضره. والمعنى: لا
ضرر علينا فيما يتلنا في الدنيا، لأننا نتقلب إلى ربنا في الآخرة مؤمّلين غفرانه.

قوله تعالى: ﴿أَنْ كُنَّا﴾ أي: لأن كنا ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بآيات موسى في هذه الحال.
﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِنْ مَوْجَ أَنْ أَسْرَ يَمَادِي إِنْ كُنْتُمْ مُشْعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فَأَرْسَلَ فَرَعُونَ فِي الْمَلَأِ خَيْرِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّ هَذَا لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلَةٌ ﴿٦٤﴾ وَأَرْجُلَكُمْ
لَأَقَابُونَ ﴿٦٥﴾ رَبَّنَا تَسْبِحْ حُدُودَنَا ﴿٦٦﴾ فَتَقَرَّبْنَاهُمْ مِنْ حَبَّتِ وَبُيُوتِهِ ﴿٦٧﴾ وَكُرُورٍ وَمَقَابِرِ كَرِيمٍ ﴿٦٨﴾ كَذَلِكَ وَأَرْسَلْنَا بِحَقِّ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾
قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُشْعُونَ﴾ أي: يتبعكم فرعون وقومه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَشِرْذِمَةٌ﴾ المعنى: وقال فرعون إن هؤلاء، يعني بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ قال ابن قتيبة: أي: طائفة.
قال الزجاج: والشِرْذِمَةُ في كلام العرب: القليل. قال المفسرون: وكانوا ستمائة ألف، وإنما استقلّهم بالإضافة إلى
جنده، وكان جنده لا يحصى.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ لَأَقَابُونَ﴾ تقول: غاظني الشيء، إذا أغضبك. قال ابن جرير: وذكر أن غيظهم كان لقتل

= وإله لا شريك له، هو الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات الثابتات، والعالم السفلي وما فيه من بحار
وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون ﴿إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كانت لكم قلوب موفقة، وأبصار نافذة. اهـ.

(١) في نسخة الرباط: «أن ما تعابونه كما يعابونه فكذلك» وفي نسخة الإستانبولية: «أن ما تعابونه فكذلك» والتصحيح من «الطبري».

(٢) في الأصل: أنه.

(٣) في الأصل: بقوله.

(٤) أقسموا بعزة فرعون، وهي من إيمان الجاهلية.

الملائكة من قتلت من أبقارهم. قال: ويحتمل أن غيظهم لذهابهم بالعواري التي استعاروها من حُلَيْم، ويحتمل أن يكون لفراقهم إياهم وخروجهم من أرضهم على كُرهِ منهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِيعُ حَذِرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «حذرون» بغير الف. وقرأ الباقون: «حاذرون» بالف. وهل بينهما فرق؟ فيه قولان: أحدهما: أن الحاذر: المستعد، والحذر: المتيقظ. وجاء في التفسير أن معنى حاذرين: مُؤدُون، أي: ذُوو أداة، وهي السلاح، لأنها أداة الحرب. والثاني: أنهما لغتان معناهما واحد؛ قال أبو عبيدة: يقال: رجل حَذِرٌ وحَذِرٌ وحاذِرٌ. والمقام الكريم: المنزل الحسن. وفي قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ قولان. أحدهما: كذلك أفعل بمن عصاني، قاله ابن السائب. والثاني: الأمر كذلك، أي: كما وصفنا، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿رَأَوْنَهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وذلك أن الله تعالى رَدَّمهم إلى مصر بعد غرق فرعون، وأعظامهم ما كان لفرعون وقومه من المساكن والأموال. وقال ابن جرير الطبري: إنما جعل ديار آل فرعون مُلكاً لبني إسرائيل ولم يَرُدُّهم إليها لكنه جعل مساكنهم الشام.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ ثُغْرِيبَ﴾ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانَ قَالِ اصْحَبْ مُوسَى إِنَّا لَنَذْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٥٩﴾ فَأَرْحَبْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِصَاحِكِ الْبَحرِ فَانْفَلِقْ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾ وَأَرْزَلْنَا نَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦١﴾ وَأَجْبَنَّا مُوسَى وَنَّ مَعَهُ أَجْمِينَ ﴿٦٢﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٥﴾
قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾ قال ابن قتيبة: لحقوهم ﴿ثُغْرِيبَ﴾ أي: حين شَرَقَت الشمس، أي: طلعت، يقال: أَشْرَقْنَا: دخلنا في الشروق، كما يقال: أمسينا وأصبحنا. وقرأ الحسن، وأيوب السخيتاني: «فَاتَّبَعُوهُمْ» بالثشديد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانَ﴾ وقرأ أبو رجاء، والنخعي، والأعمش: «تَرَاى» بكسر الراء وفتح الهمزة، أي: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لن يدركونا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيدلني على طريق النجاة.
قوله تعالى: ﴿فَانْفَلِقْ﴾ فيه إضمار «فضرِب فانفلق»، أي: انشق الماء اثني عشر طريقاً ﴿فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ﴾ أي: كل جزء انفرق منه. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعاصم الجحدري: «كُلُّ فِرْقٍ» باللام، «كَالطُّورِ» وهو الجبل.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْزَلْنَا نَمَّ الْآخَرِينَ﴾ ﴿٦١﴾ أي: قَرَّبْنَا الْآخَرِينَ مِنَ الْغُرُقِ، وهم أصحاب فرعون. وقال أبو عبيدة: «أرزلنا» أي: جمعنا. قال الزجاج: وكلا القولين حسن، لأن جمعهم تقريب بعضهم من بعض، وأصل الرِّزْلَى في كلام العرب: الفُرْبَى. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو رجاء، والضحاك، وابن يعمر: «أَرْزَلْنَا» بقاء، وكذلك قرأوا: «وَأَرْزَلْتِ الْجِنَّةُ» [الشعراء: ٩٠] بقاء [أيضاً].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: في إهلاك فرعون وقومه عبرة لمن بعدهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لم يكن أكثر أهل مصر مؤمنين، إنما آمنت آسية، وجريل^(١) مؤمن آل فرعون، وفَتَةُ الماشطة، ومريم - امرأة دَلَّت موسى على عظام يوسف -، هذا قول مقاتل. وما أخللنا به من تفسير كلمات في قصة موسى، فقد سبق بيانها، وكذلك ما يُقَدِّد ذكره في مكان، فهو إما أن يكون قد سبق، وإما أن يكون ظاهراً، فتنبه لهذا.

﴿وَأَتَى عَلَيْهِمْ تَبَأُ إِزْرِهِمْ﴾ ﴿٦٢﴾ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ قَالُوا تَبَدُّ أَسْنَانًا فَظَلَّلْ لِمَا عَنكُمِينَ ﴿٦٤﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦٥﴾ أَوْ يَفْقَهُونَكُمْ أَوْ يَصُورُونَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آيَاتِنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٦٨﴾ أَنْتُمْ وَمَبَاكُكُمْ الْأَقْنَامُونَ ﴿٦٩﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْمَلَائِكِينَ ﴿٧٠﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧١﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٢﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٧٣﴾ وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجْبِينِي ﴿٧٤﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ﴾ والمعنى: هل يسمعون دعاءكم. وقرأ سعيد بن جبيرة، وابن يعمر، وعاصم

(١) قال الألوسي في «روح المعاني» ٥٧/٢٤: واسمه، قيل: شمعان، بشين معجمة، وقيل: جريل، بخاء معجمة مكسورة وراء هملة ساكنة، وقيل: حزيل، بحاء هملة وزاي معجمة، وقيل: حبيب.

الجحدري: «هل تُسمعونكم» بضم الياء وكسر الميم، «إِذْ تَدْعُونَهُ» قال الزجاج: إن شئت بيّنت الذال، وإن شئت أدغمتها في التاء وهو أجود في العربية، لقرب الذال من التاء.

قوله تعالى: «أَوْ يَفْقُرُوكُمْ» أي: إن عبدتموهم «أَوْ يَفْقُرُونَ» إن لم تعبدوهم؟ فأخبروا عن تقليد آبائهم.

قوله تعالى: «إِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي» فيه وجهان: أحدهما: أن لفظه لفظ الواحد والمراد به الجميع؛ فالمعنى: فإنهم أعداء لي. والثاني: فإن كلَّ معبود لكم عدو لي. فإن قيل: ما وجه وصف الجماد بالعداوة؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أن معناه: فإنهم عدو لي يوم القيامة إن عبدتهم. والثاني: أنه من المقلوب؛ والمعنى: فإنني عدو لهم، لأن مَنْ عاديتَه عاداك، قاله ابن قتيبة^(١). وفي قوله: «إِلَّا رَبَّ الْمَلَكِينَ» قولان: أحدهما: أنه استثناء من الجنس، لأنه عليم أنهم كانوا يعبدون الله مع الهتهم، قاله ابن زيد. والثاني: أنه من غير الجنس؛ والمعنى: لكن رب العالمين [ليس كذلك]^(٢)، قاله أكثر النحويين.

قوله تعالى: «الَّذِي خَلَقَ فَهوَ يُحْيِيهِ» أي: إلى الرشد، لا ما تعبدون، «وَالَّذِي هُوَ يُطِيمُنِي وَيَسِينِي» أي: هو رازقي الطعام والشراب^(٣). فإن قيل: لم قال: «مرضت»، ولم يقل: «أمرضني»؟ فالجواب: أنه أراد التناء على ربه فأضاف إليه الخير المحض، لأنه لو قال: «أمرضني» لعدَّ قومه ذلك عيباً، فاستعمل حُسن الأدب؛ ونظيره قصة الخضر حين قال في العيب: «تَأْرَدْتُ» [الكهف: ٤٧٩]، وفي الخير المحض: «فَأَرَادَ رَبُّكَ» [الكهف: ٤٨٢]. فإن قيل: فهذا يرده قوله: «وَالَّذِي يُسِينِي». فالجواب: أن القوم كانوا لا يُنكرون الموت، وإنما يجعلون له سبباً سوى تقدير الله ﷻ، فأضافه إبراهيم إلى الله ﷻ، وقوله: «تُدْرِي حَيِّينَ» يعني للبعث، [وهو]^(٤) أمر لا يُقرُّون به، وإنما قاله استدلالاً عليهم؛ والمعنى: أن ما وافقتموني عليه موجب لإصحاح قلبي فيما خالفتموني فيه.

قوله تعالى: «وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغَيِّرَ لِي حَاطِيَّتِي» يعني: ما يجري على مثلي من الزلزل؛ والمفسرون يقولون: إنما عنى الكلمات الثلاث التي ذكرناها في [الأنبياء: ٦٣]، «يَوْمَ الدُّرَيْبِ» يعني: يوم الحشر والحساب؛ وهذا احتجاج على قومه أنه لا تصلح الإلهية إلا لمن فعل هذه الأفعال.

«رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّلَاتِينَ» وَأَجْمَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ [١٨] وَتَجَمَّلْ لِي مِنْ رِزْقِ جَنَّةِ الْغَيْبِ [١٩] وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْعَابِلِينَ [٢٠] وَلَا تُخَيِّرْ بَيْنَ يَوْمَيْ يَوْمِ يَوْمٍ [٢١] يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ [٢٢] إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [٢٣]

قوله تعالى: «هَبْ لِي حُكْمًا» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: النبوة؛ قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: اللب^(٥)، قاله عكرمة. والثالث: الفهم والعلم، قاله مقاتل. وقد بيّنا قوله: «وَالْحَقِيقِي بِالصَّلَاتِينَ» في سورة يوسف: [١٠١]، وبيّنا معنى «لِسَانَ صِدْقٍ» في [إرم: ٥٠]. والمراد بالآخرين: الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: «وَأَغْفِرْ لِي ذُنُوبِي» قال الحسن: بلغني أن أمه كانت مسلمة على دينه، فلذلك لم يذكرها. فإن قيل: فقد قال: «وَأَغْفِرْ لِي ذُنُوبِي» [إبراهيم: ٤١]. قيل أكثر الذُّكر إنما جرى لأبيه، فيجوز أن يسأل الغفران لأمه وهي مؤمنة، فأما أبوه فلا شك في كفره. وقد بيّنا سبب استغفاره لأبيه في [إبراهيم: ٤١]، وذكرنا معنى الخزي في [آل عمران: ١٩٢].

قوله تعالى: «يَوْمَ يَحْشُرُونَ» يعني: الخلائق.

قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» فيه ستة أقوال: أحدها: سليم من الشُّرك، قاله الحسن، وابن زيد. والثاني: سليم من الشُّك، قاله مجاهد. والثالث: سليم، أي: صحيح، وهو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قاله سعيد بن المسيب. والرابع: أن السُّليم في اللغة: اللديغ، فالمعنى: كاللديغ من خوف الله تعالى، قاله

(١) قال ابن كثير: أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً، ولها تأثير، فلتخلص إليَّ بالمساءة، فإنني عدو لها لا أبالي بها ولا أفكر فيها. اهـ.

(٢) زيادة من «روح المعاني».

(٣) قال ابن كثير: أي: هو خالقي ورازقي بما سخر ويُسّر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المزن، وأنزل الماء وأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عنها زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسٍ كثيراً. اهـ.

(٤) زيادة ليست في الأصل.

(٥) أي: العقل.

الجنيّد. والخامس: سليم من آفات المال والبنين، قاله الحسين بن الفضل. والسادس: سليم من البدعة، مُظْمَشَن على السُّنَّة، حكاها الثعلبي.

﴿وَأَرْزَلَيْ لِبَنَّةَ النَّسْتَيْنِ ﴿١٥﴾ وَرَزَيْتَ لِحَيْمِ لِقَاوَيْنِ ﴿١٦﴾ وَقِيلَ لَمْ إِزْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرُوكُمْ أَوْ يَنْصَرُونَ ﴿١٨﴾ فَكَيْبُكُوا بِهَا مُمْ وَالْقَائِدَ ﴿١٩﴾ وَحَوَّوْهُ إِلَى سِ أَمْجُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا وَمَعْمَ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٢١﴾ تَأَلَّوْهُ إِنْ كُنَّا لِنَى صَكَلِي تَيْبِينَ ﴿٢٢﴾ إِذْ سُرَيْكُم رَيْبِ الْعَلِيَيْنِ ﴿٢٣﴾ وَمَا أَهْلْنَا إِلَّا الْمُجْرُونَ ﴿٢٤﴾ فَسَا لَنَا مِنْ شَيْعِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَا صَدِيحِ جِيمِ ﴿٢٦﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ الرَّعِيزِ الرَّجِدِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَرْزَلَيْ لِبَنَّةَ النَّسْتَيْنِ ﴿١٥﴾﴾ أي: قُرْبَتْ إِلَيْهِمْ حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهَا، ﴿وَرَزَيْتَ لِحَيْمِ﴾ أي: أَظْهَرْتَ ﴿لِقَاوَيْنِ﴾ وَهَمِ الضَّالُّونَ، ﴿وَقِيلَ لَمْ إِزْنَ﴾ عَلَى وَجْهِ التَّوْبِيخِ ﴿إِنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرُوكُمْ، أي: يَمْنَعُونَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، أَوْ يَمْتَنِعُونَ مِنْهُ.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْبُكُوا﴾ قَالَ السَّدْيِيُّ: هُمُ الْمُشْرِكِينَ. قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: أَلْقُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ، وَأَصْلُ الْحَرْفِ «كَيْبُوا» مِنْ تَوْلِكَ: كَيْبَتْ الْإِنَاءُ، فَأَبْدَلَ مِنَ الْبَاءِ الْوَسْطَى كَأَفَاءَ، اسْتِغْفَالًا لِاجْتِمَاعِ ثَلَاثِ بَاءَاتٍ، كَمَا قَالُوا: «كَمْكُمُوا» مِنْ «الْكُمَّة»، وَالْأَصْلُ: «كُمُّوا». وَقَالَ الزَّجَاجُ: مَعْنَاهُ: طُرِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَحَقِيقَةُ ذَلِكَ فِي اللُّغَةِ تَكْرِيرُ الْإِنْكَابِ، كَانَهُ إِذَا أَلْفَى يَنْكَبُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ حَتَّى يَسْتَقِرَّ فِيهَا. وَفِي الْغَاوِينَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: الْمُشْرِكُونَ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: الشَّيَاطِينُ، قَالَه قَتَادَةُ، وَمَقَاتِلُ. وَالثَّلَاثُ: الْأَلْهَةُ، قَالَه السَّدْيِيُّ. ﴿وَحَوَّوْهُ إِلَى سِ أَمْجُونَ﴾ اتَّبَاعَهُ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ. ﴿قَالُوا وَمَعْمَ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ يَعْنِي: هُمُ وَالْهَتَمُ، ﴿تَأَلَّوْهُ إِنْ كُنَّا﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: لَقَدْ كُنَّا. وَقَالَ الزَّجَاجُ: مَا كُنَّا إِلَّا فِي ضَلَالٍ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ سُرَيْكُم﴾ أَي: نَحَلُّوكُمْ بِاللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ، ﴿وَمَا أَهْلْنَا إِلَّا الْمُجْرُونَ﴾ فِيهِمْ قَوْلَانُ: أَحَدُهُمَا: الشَّيَاطِينُ. وَالثَّانِي: أَوْلَاهُمُ الَّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِمْ، قَالَ عِكْرِمَةُ: إِبْلِيسُ وَابْنُ آدَمَ الْقَاتِلُ.

قوله تعالى: ﴿فَسَا لَنَا مِنْ شَيْعِينَ ﴿٢٥﴾﴾ هَذَا قَوْلُهُمْ إِذَا شَفَعَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ. وَرَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ يَقُولُ فِي الْجَنَّةِ: مَا فَعَلَ صَدِيقِي فَلَانُ؟ وَصَدِيقُهُ فِي الْجَحِيمِ، يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: أَخْرَجُوا لَهُ صَدِيقَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، يَقُولُ مَنْ بَقِيَ [فِي النَّارِ]: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ؟»^(١). وَالْحَمِيمُ: الْقَرِيبُ الَّذِي تَوَدَّهِ وَيُؤَدِّكُ وَالْمَعْنَى: مَا لَنَا مِنْ ذِي قَرَابَةٍ يُهَيِّمُهُ أَمْرَنَا، ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أَي: رَجَعْنَا إِلَى الدُّنْيَا ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لِتَحَلُّ لَنَا الشَّفَاعَةُ كَمَا حَلَّتْ لِلْمُؤْمِنِينَ.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ شُجِ الْمُرْسِيِّنِ ﴿١٥﴾ إِذْ قَالَ لَمْ نُؤْمَرْ فُجِ أَلَّا نَنْفُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ شُجِ﴾ قَالَ الزَّجَاجُ: الْقَوْمُ مَذْكُورُونَ؛ وَالْمَعْنَى: كَذَّبَتْ جَمَاعَةُ قَوْمِ نُوحٍ. قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَمْ نُؤْمَرْ فُجِ أَلَّا نَنْفُونَ﴾ كَانَتْ الْأُخُوَّةُ مِنْ جِهَةِ النَّسَبِ بَيْنَهُمْ، لَا مِنْ جِهَةِ الدِّينِ. ﴿أَلَّا نَنْفُونَ﴾ عَذَابُ اللَّهِ بِتَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، ﴿إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾﴾ عَلَى الرِّسَالَةِ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ رَبِّكُمْ^(٢). ﴿وَمَا أَهْلَكْكُمْ طَوْقًا مِنْ آخِرٍ﴾ أَي: عَلَى الدُّعَاءِ إِلَى التَّوْحِيدِ.

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنْ حَسِبْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَرَّتْ نَتْنِي بَشْرُجُ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُجْرَبِينَ ﴿١٦﴾﴾

(١) هَذَا الْحَدِيثُ ذَكَرَهُ الطَّبْرِسِيُّ مِنَ الْإِمَامِيَّةِ الشِّيعَةِ فِي تَفْسِيرِ «مَجْمَعِ الْبَيَانِ» وَلَمْ يَعْزُوهَ لِأَحَدٍ، بَلْ قَالَ: وَفِي الْخَبَرِ الْمَأْثُورِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ... فَذَكَرَهُ، وَاسْتَدْرَكْنَا الزِّيَادَةَ الَّتِي بَيْنَ الْقَوْمَيْنِ مِنْهُ، وَلَعَلَّ الْمَصْنَفَ رَحِمَهُ اللَّهُ نَقَلَهُ عَنِ الطَّبْرِسِيِّ أَوْ مِمَّنْ نَقَلَهُ عَنْهُ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَهُ الْفَرَطِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» عَنْ جَابِرٍ وَلَمْ يَعْزُوهَ لِأَحَدٍ، وَلَمْ نَرَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ ﷺ، وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَمَا عَبَدَتِ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ نَاهِيًا عَنْ ذَلِكَ وَمَحْذَرًا مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ، فَكَذَبَهُ قَوْمُهُ فَاسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْفِعَالِ الْخَبِيثَةِ فِي عِبَادَتِهِمْ أَصْنَامَهُمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَكْذِيبُهُمْ لَهُ مِنْزِلَةً تَكْذِيبُهُمْ جَمِيعَ الرُّسُلِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ شُجِ الْمُرْسِيِّنِ ﴿١٥﴾﴾ إِذْ قَالَ لَمْ نُؤْمَرْ فُجِ أَلَّا نَنْفُونَ ﴿١٦﴾ أَي: أَلَا تَخَافُونَ اللَّهَ فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرِهِ؟ ﴿إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾﴾ أَي: إِنِّي رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، أَمِينٌ فِيمَا بَعْثَنِي اللَّهُ بِهِ، أَبْلَغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَا أَزِيدُ فِيهَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهَا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقرأ يعقوب بفتح الهمزة وتسكين التاء وضم العين: «وَأَبَاغَكَ الْأَرْدَلُونَ»، وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها: الحاكّة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: الحاكّة والأساكفة؛ قاله عكرمة. والثالث: المساكين الذين ليس لهم مال ولا عزٌّ، قاله عطاء. وهذا جهل منهم، لأن الصناعات لا تضرُّ في باب الديانات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلِي بِمَا كَانُوا يَمَلُونَ﴾ أي: لم أعلم أعمالهم وصنائعهم، ولما أكلف ذلك، إنما كلفُ أن ادعَوْهم، ﴿إِنْ حَسَابُهُمْ﴾ فيما يعملون ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشَاءُونَ﴾ بذلك ما عبتهم في صنائعهم، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْكُفَّيْنَ﴾ أي: ما أنا بالذي لا أقبل إيمانهم لزعمكم أنهم الأردلون. وفي قوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ مِنَ الْمُتَّوْبِينَ﴾ ثلاثة أقوال. أحدها: من المشومين، قاله الضحاك. والثاني: من المضروبين بالحجارة، قاله قتادة. والثالث: من المقتولين بالرَّجم، قاله مقاتل.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ﴿فَاتَّعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ قَتْمًا وَبَحْثِي وَنَمَّي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَأَجَبْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَيْنَ الْبَاقِينَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قوله تعالى: ﴿فَاتَّعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾ أي: افرض بيني وبينهم قضاء، يعني: بالعذاب ﴿وَبَحْثِي وَنَمَّي﴾ من ذلك العذاب. والفُلك قد تقدم بيانه [البقرة: 1٦٤]. والمشحون: المملوء، يقال: شحنتُ الإناء؛ إذا ملأته؛ وكانت سفينة نوح قد ملئت من الناس والطير والحيوان كلُّه، ﴿ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بعد نجات نوح ومن معه ﴿الْبَاقِينَ﴾.

﴿كَتَبَتْ عَادَ التَّرْسِيلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ نُوحٌ هُوَذَا لَا تَقْعُونَ ﴿١٥٠﴾ إِلَىٰ لِكْرٍ رَسُولِ آيِينَ ﴿١٥١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَوْمُونَ ﴿١٥٢﴾ وَمَا اسْتَلْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ جُرْئٍ لَنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٣﴾ أَتَيْتُونِ بِكُلِّ رِيحٍ حَايَةٍ تُسْئَلُونَ ﴿١٥٤﴾ وَمَتَّجِدُونَ مِمَّا كُنْتُمْ تُخَالِدُونَ ﴿١٥٥﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٥٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَوْمُونَ ﴿١٥٧﴾ وَأَتَقُوا الذِّبْنَ أَمَّا ذِكْرُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٨﴾ أَمَّا ذِكْرُ بِأَنْتُمْ وَبَيْنَ ﴿١٥٩﴾ وَخَلَّتْ عَصَا نُونٍ ﴿١٦٠﴾ إِلَىٰ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦١﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَيْتُونِ بِكُلِّ رِيحٍ﴾ وقر عاصم الجحدري، وأبو حيوة، وابن أبي عجلة: «بِكُلِّ رِيحٍ» بفتح الراء. قال الفراء: هما لغتان. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المكان المرتفع؛ روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: بكل شرف. قال الزجاج: هو في اللغة: الموضع المرتفع من الأرض. والثاني: أنه الطريق، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثالث: الفج بين الجبلين، قاله مجاهد. والآية: العلامة. وفيما أراد بهذا البناء ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أراد: تبون مالا تسكنون، رواه عطاء عن ابن عباس؛ والمعنى أنه جعل بناءهم ما يستغنون عنه عبثاً. والثاني: بروج الحمام، قاله سعيد بن جبيرة، ومجاهد. والثالث: أنهم كانوا يبنون في المواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة فيسخرها منهم ويتعبوا بهم، وهو معنى قول الضحاك.

قوله تعالى: ﴿وَمَتَّجِدُونَ مِمَّا كُنْتُمْ تُخَالِدُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: قصور مشيدة، قاله مجاهد. والثاني: مصانع الماء تحت الأرض، قاله قتادة. والثالث: بروج الحمام، قاله السدي^(١). وفي قوله: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تُخَالِدُونَ﴾ قولان: أحدهما: كأنكم تخذلون؛ قاله ابن عباس، وأبو مالك. والثاني: كيما تخذلوا، قاله الفراء، وابن قتيبة. وقرأ عكرمة، والنخعي، وقاتدة، وابن يعمر: «تُخَالِدُونَ» برفع التاء وتسكين الخاء وفتح اللام مخففة. وقرأ عاصم الجحدري، وأبو حصين: «تُخَالِدُونَ» بفتح الخاء وتشديد اللام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ المعنى: إذا ضربتم ضربتم بالسياط ضرب الجبارين، وإذا عاقبتم قتلتم؛ وإنما أنكر عليهم ذلك، لأنه صدر عن ظلم، إذ لو ضربوا بالسيف أو بالسوط في حق ما ليموا. وفي قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قولان: أحدهما: ما عذبوا به في الدنيا. والثاني: عذاب جهنم.

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن المصانع جمع مُصْنَعَة، والعرب تسمي كل بناء مصنعاً، وجازت أن يكون ذلك البناء كان قصوراً وحصوناً مشيدة، وجازت أن يكون كان مأخذ للماء، ولا خبر يقطع العذر بأي ذلك كان، ولا هو مما يدرك من جهة العقل، فالصواب أن يقال فيه ما قاله الله أنهم كانوا يتخذون مصانع. اهـ.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوْتَعْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَارِثِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمَسْمُومِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطُرُوقِهَا ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنْ لَكُمْ رِسَالَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاطْلُقُوا إِلَهِكُمْ وَأَيْلَهُمْ ﴿١٤٣﴾ وَمَا اسْتَلْقَاكُمْ عَلَيْهِ مِنْ آجَرٍ إِذْ آجَرِي إِلا عَلَى رَبِّ الْمَلَكِيِّتِ ﴿١٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: «خُلُقٍ» بفتح الخاء وتسكين اللام؛ قال ابن قتيبة: أرادوا اختلاقتهم وكذبهم، يقال: خَلَقْتُ الحديثَ اختلقته، أي: افتعلته، قال الفراء: والعرب تقول للخرفات: أحاديثُ الخُلُقِ. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة، [وخلف، ونافع]: «خُلُقِ الأولين» بضم الخاء واللام. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وعاصم الجحدري: «خُلُقٍ» برفع الخاء وتسكين اللام؛ والمعنى: عاداتهم وشأنهم. قال قتادة: قالوا [له]: هكذا كان الناس يعيشون ما عاشوا، ثم يموتون، ولا بعث لهم ولا حساب.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْمُومِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ أي: على ما فعله في الدنيا.

﴿أَنْتَرَكُونَهُ فِي مَا هَمَّآ مَائِيكَ ﴿١٤١﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْوُونَ ﴿١٤٢﴾ وَزِدَّعَ وَخَلَّيَ طَلْمَهَا هَضِيمًا ﴿١٤٣﴾ وَتَنَجَّحُونَ مِنْكَ الْجِبَالِ بِيُوكَ قَدْرِيهِنَ ﴿١٤٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٥﴾ وَلَا تَطِيعُوا أُمَّةَ النَّسْرِيِّينَ ﴿١٤٦﴾ أَلَيْسَ يُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِّحُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْتَرَكُونَهُ فِي مَا هَمَّآ ﴿١٤١﴾﴾ أي: فيما أعطاكم الله في الدنيا ﴿مَائِيكَ﴾ من الموت والعذاب.

قوله تعالى: ﴿طَلْمَهَا هَضِيمًا ﴿١٤٣﴾﴾ الطَّلَعُ: الثمر. وفي الهضيم سبعة أقوال. أحدها: أنه الذي قد أبيع وبلغ، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه الذي يتهشم تهشماً، قاله مجاهد. والثالث: أنه الذي ليس له نوى، قاله الحسن. والرابع: أنه المذنب من الرطب، قاله سعيد بن جبيرة. والخامس: اللين، قاله قتادة، والفراء. والسادس: أنه الخمل الكثير الذي يركب بعضه بعضاً، قاله الضحاك. والسابع: أنه الطَّلَعُ قبل أن ينشئ عنه [القشرا] وينفتح، يريد أنه منضمٌّ مُكْتَبَرٌ، ومنه قيل: رجل أهضم الكشْحَيْنِ، إذا كان مُنْضَمَّهما، قاله ابن قتيبة^(١).

قوله تعالى: ﴿وَتَنَجَّحُونَ مِنْكَ الْجِبَالِ بِيُوكَ قَدْرِيهِنَ ﴿١٤٤﴾﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «قَدْرِيهِنَ». وقرأ الباقون: «فَارِيهِنَ» بالفتح. قال ابن قتيبة: «قَدْرِيهِنَ»: أشيرين يطيرين، ويقال: الهاء فيه مبدلة من حاء، أي: فَرَجِينِ، و«الفَرْحُ» قد يكون السورور، وقد يكون الأشر، ومنه قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] أي: الأشيرين، ومن قرأ: «فَارِيهِنَ» فهي لغة أخرى، يقال: قَرَّةٌ وفَارَةٌ، كما يقال: فَرِحٌ وفَارِحٌ، ويقال: «فَارِيهِنَ» أي: حادِّقِين؛ قال عكرمة: حادِّقِين بنحتها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطِيعُوا أُمَّةَ النَّسْرِيِّينَ ﴿١٤٦﴾﴾ قال ابن عباس: يعني: المشركين. وقال مقاتل: هم التسعة الذي عرفوا الناقة.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴿١٣٧﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣٨﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لِمَا شِئْتُمْ وَلَكُمْ يَوْمَ ثَمُودٍ يَوْمَ تَمَلُّوهُ ﴿١٣٩﴾ وَلَا تَسْمَوْهَا يَسْمَوْ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿١٤٠﴾ فَمَقْرُومًا فَأَصْبَحُوا نَدِيبِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٣﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ النَّسْرِيِّينَ ﴿١٤٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٥﴾ إِنْ لَكُمْ رِسَالَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاطْلُقُوا إِلَهِكُمْ وَأَيْلَهُمْ ﴿١٤٦﴾ وَمَا اسْتَلْقَاكُمْ عَلَيْهِ مِنْ آجَرٍ إِذْ آجَرِي إِلا عَلَى رَبِّ الْمَلَكِيِّتِ ﴿١٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ قال الزجاج: أي: ممن له سحر، والسحر: الرثة، والمعنى: أنت شر مثلنا. وجاءت أن يكون من المفعلين من السحر؛ والمعنى: ممن قد سحر مرة بعد مرة^(٢).

قوله تعالى: ﴿لِمَا شِئْتُمْ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: حظٌ من الماء. قال ابن عباس: لها شرب معروف لا تحضره معها، ولكم شرب

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: الهضيم: هو المتكسر من لينة ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان حقه: إذا انتفضه وتغيته، فكذلك الهضم في الطلع، إنما هو التفض من رطوبته ولينه، إما بمس الأيدي، وإما بركوب بعضه بعضاً، وأصله مفعول صرف إلى فاعل. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي أن معناه: إنما أنت من المخلوقين الذين يعملون بالطعام والشراب مثلنا، ولست ربياً ولا ملكاً فطيمك وتعلم أنك صادق فيما تقول، قال: والمسحر: المفعول من السحرة، وهو الذي له سحرة. اهـ.

لا تحضر معكم، فكانت إذا كان يومهم حضروا الماء فاقتموه، وإذا كان يومها شربت الماء كله. وقال قتادة: كانت إذا كان يوم شربها، شربت ماءهم أول النهار، وسقتهم اللبن آخر النهار. وقرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن أبي عتبة: «لها شرب» بضم الشين.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْصَبُوا نَدِيمًا﴾ قال ابن عباس: ندموا حين رأوا العذاب على عقرها، وعذابهم كان بالصيحة. ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالِيَيْنِ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَبُلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ ﴿رَبِّ يَحْيَىٰ وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عَجْرًا فِي الْفَتَيَيْنِ﴾ ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا سَمًّا مَلِينًا﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِدٌ مُرْتَبِّئٌ﴾ ﴿الرَّحِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ وهو جمع ذكر ﴿بَيْنَ الْعَالِيَيْنِ﴾ أي: من بني آدم، ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [قال الزجاج: وقرأ ابن مسعود: «ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم»] يعني به الفروج. وقال مجاهد: تركتم أقبال النساء إلى أديار الرجال.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: ظالمون معتدون. ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَبُلُوطُ﴾ أي: لئن لم تسكت عن نهينا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من بلدنا. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ﴾ يعني: إتيان الرجال ﴿بَيْنَ الْقَالِينَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: من المُبغضين، يقال: قَلَيْتُ الرجل: إذا أبغضته.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ يَحْيَىٰ وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عقوبة عملهم، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وقد ذكرناهم في [هود: ٨٠]، ﴿إِلَّا عَجْرًا﴾ يعني: امرأته ﴿فِي الْفَتَيَيْنِ﴾ أي: الباقيين في العذاب. ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ ﴿أَهْلِكَنَاهُمْ بِالْخَسْفِ وَالْحَصْبِ﴾ وهو قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ يعني الحجارة.

﴿كَذَّبَ أَحْسَبُ لَيْكُوَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُ﴾ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ ﴿وَمَا اسْتَأْذَنَّاكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالِيَيْنِ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَحْسَبُ لَيْكُوَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «أصحاب لَيْكَةَ هاهنا، وفي [ص: ١٣] بغير همز والتاء مفتوحة؛ وقرأ الباقون: «الأيكة» بالهمز فيهما والألف. وقد سبق هذا الحرف [الحجر: ٧٨]. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ إن قيل: لِمَ لم يقل: أخوهم، كما قال في [الأعراف: ٨٥]؟ فالجواب: أن شعيباً لم يكن من نسل أصحاب الأيكة، فلذلك لم يقل: أخوهم، وإنما أرسل إليهم بعد أن أرسل إلى مدين، وهو من نسل مدين، فلذلك قال هناك: أخوهم، هذا قول مقاتل بن سليمان. وقد ذكرنا في سورة [هود: ٩٤] عن محمد بن كعب القرظي، أن أهل مدين عذبوا بعدذاب الطَّلَّة، فإن كانوا غير أصحاب الأيكة كما زعم مقاتل، فقد تساؤروا في العذاب، وإن كان أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة^(١)، وهو مذهب ابن جرير الطبري كان حذف ذكر الأخ تخفيفاً، والله أعلم.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿وَوَفُوا بِالْقِسْطِ الَّتِي كُنْتُمْ تُكْسِبُونَ﴾ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْنَطُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَىٰ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: من الناقصين للكَيْل، يقال: أخسرت الكَيْل والوزن: إذا نقصته. وقد ذكرنا القسطن في [بني إسرائيل: ٣٥].

(١) قال ابن كثير: هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هاهنا: أخوهم شعيب، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتق كالنخلة، كانوا يعبدونها، فلها لما قال: ﴿كَذَّبَ أَحْسَبُ لَيْكُوَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، إنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ قطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسباً. قال: ومن الناس من لم يظن لهذه النكتة فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً بعث الله إلى أمثين، ومنهم من قال: ثلاث أمم. اهـ.

فأهل مدين، وأصحاب الرس، وأصحاب الأيكة، هم قوم شعيب، وما ذكر في بعض الأحاديث أن أصحاب الأيكة وقوم مدين اثنتان بعث الله إليهما شعيباً، قال ابن كثير: هو غريب، وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء، وأمر بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل على أنهم أمة واحدة. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ﴾ أي: خلق الجبيلة. وقيل: المعنى: واذكروا ما نزل بالجبيلة ﴿الْأَوَّلِينَ﴾. وقرأ الحسن، وأبو مجلز، وأبو رجاء، وابن يعمر، وابن أبي عبله: «والجبيلة» برفع الجيم والباء جميعاً مشددة اللام. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك، وعاصم الجحدري: بكسر الجيم وتسكين الباء وتخفيف اللام. قال ابن قتيبة: الجبيلة: الخلق، يقال: جبيل فلان على كذا، أي: خلق، قال الشاعر:

والمموت أعظمُ حادثٍ مَمَّا يُمُرُّ على الجبيلة^(١)

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿فَأَسْوِطَ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يُّورِ الْفُلُوكَ﴾ ﴿وَلَكِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَكِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَسِطَ عَلَيْنَا كَيْفًا﴾^(٢) قال ابن قتيبة: أي قطعة ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾، و«كسفت» جمع «كسفة» [كما] يقال: يقطع ويقطعة.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: من نقصان الكيل والميزان؛ والمعنى: إنه يُجازيكم إن شاء، وليس عذابكم بيدي، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يُّورِ الْفُلُوكَ﴾ قال المفسرون: بعث الله عليه حراً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة أظلتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً، ونادى بعضهم بعضاً. حتى إذا اجتمعوا تحتها، أرسل الله عليهم ناراً، فكان ذلك من أعظم العذاب. والظلة: السحابة التي أظلتهم.

﴿وَلَقَدْ لَتَنِيبَ رَبِّ النَّبِيِّينَ﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ لَتِيَ نُبِّ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ يَكُونُ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَمْشُوا مُطَمَّئِنِينَ بِآيَةِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجِينَ﴾ ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ يعني القرآن ﴿لَتَنِيبَ رَبِّ النَّبِيِّينَ﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ لَتِيَ نُبِّ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ يَكُونُ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَمْشُوا مُطَمَّئِنِينَ بِآيَةِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجِينَ﴾ ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ﴾
وحفص عن عاصم: «نزل به» خفيفاً «الروح الأمين»، بالرفع. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «نزل» مشددة الزاي «الروح الأمين» بالنصب. والمراد بالروح الأمين: جبريل، وهو أمين على وحي الله تعالى إلى أنبيائه، ﴿عَلَّ قَلْبِكَ﴾ قال الزجاج: معناه: نزل عليك فوعاه قلبك، فثبت، فلا تنساه أبداً.

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: ممن أنذر بآيات الله المكذبين، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ قال ابن عباس: بلسان قريش ليفهموا ما فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ لَتِيَ نُبِّ الْأَوَّلِينَ﴾ وقرأ الأعمش: «لزير» بتسكين الباء. وفي هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن؛ والمعنى: وإن ذكر القرآن وخبره، هذا قول الأكثرين^(٣). والثاني: أنها تعود إلى رسول الله ﷺ، قاله مقاتل. والزير: الكذب.

قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ يَكُونُ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَمْشُوا مُطَمَّئِنِينَ بِآيَةِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجِينَ﴾ ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ﴾
والكسائي: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ يَكُونُ لَهُمْ آيَةٌ﴾ بالياء «آية» بالنصب. وقرأ ابن عامر، وابن أبي عبله: «تكن» بالياء «آية» بالرفع. وقرأ أبو عمران الجوني، وقتادة: «تكن» بالياء «آية» بالنصب قال الزجاج: إذا قلت: «يكن» بالياء، فلاختيار نصب «آية» ويكون «أن» اسم كان، ويكون «آية» خبر كان، المعنى: أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل أن النبي ﷺ حق، وأن نبوته حق؟! «آية» أي: علامة موضحة، لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل وجدوا ذكر النبي ﷺ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. ومن قرأ «أو لم تكن» بالياء «آية» جعل «آية» هي الاسم، «وأن يعلمه» خبر «تكن». ويجوز أيضاً «أو

(١) البيت غير منسوب في «غريب القرآن» ٣٢٠، و«مجمع البيان» ١٧٨/١٩، «القرطبي» ١٢٦/١٣ وفيه «فيما» بدل «ما».

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٦١/١٥: اختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿كَيْفًا﴾ فقرأته عامة قراء الكوفة والبصرة بسكون السين، وقرأ ذلك عامة قراء أهل المدينة وبعض الكوفيين ﴿كَيْفًا﴾ بفتح السين، ثم قال: وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندي قراءة من قرأه بسكون السين، لأن الذين سألو رسول الله ﷺ ذلك، لم يقصدوا في مسألتهم إياه ذلك أن يكون بحذ معلوم من القطع، إنما سألوا أن يسقط عليهم السماء قطعاً، وبذلك جاء التأويل أيضاً عن أهل التأويل. اهـ.

(٣) وهو الصواب.

لم تكن؛ بالتاء آيةً بالنصب، كقوله: ﴿ثُمَّ لَوْ كُنَّا فَتَنَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٢٣] وقرأ الشعبي، والضحاك، وعاصم الجحدري: «أَنْ تَعْلَمَهُ» بالتاء. قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ فقالوا: إن هذا لزمأنه، وإننا لنجد في التوراة صفته، فكان ذلك آية لهم على صدقه (١).

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَيْضِ الْأَحْيَيْنَ﴾ قال الزجاج: هو جمع أعجم، والأنثى عجماء، والأعجم: الذي لا يُفصح، وكذلك الأعجمي؛ فاما العجمي: فالذي من جنس العجم، أفصح أول لم يُفصح.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لو قرأه عليهم أعجمي لقالوا: لا نفقه هذا، فلم يؤمنوا.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٦﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٥٧﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥٨﴾ يَتْلُوهُ هَلْ حَسَنٌ مَّنْظُورٌ ﴿١٥٩﴾ أَلَيْسَ لَنَا بِمَسْعُومِينَ ﴿١٦٠﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١٦١﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦٢﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا لَمَّا مَنذُرُونَا ﴿١٦٤﴾ وَذَكَرْنَا وَمَا عَلَّمْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ قد شرحناه في [الحجر: ١١٢]. والمجرمون هاهنا: المشركون.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ قال الفراء: المعنى: كي لا يؤمنوا. فاما العذاب الاليم، فهو عند الموت.

﴿يَتْلُوهُ﴾ عند نزول العذاب ﴿هَلْ حَسَنٌ مَّنْظُورٌ﴾ أي: مؤخرون لنؤمن ونصدق. قال مقاتل: فلما أوعدهم رسول الله ﷺ بالعذاب، قالوا: فمتى هو؟ تكذيباً به (٢)، فقال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ لَنَا بِمَسْعُومِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ قال عكرمة: عُمُر الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب. ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿إِلَّا لَمَّا مَنذُرُونَا﴾ يعني: رسلاً تنذرهم العذاب. ﴿وَذَكَرْنَا﴾ أي: موعظة وتذكيراً.

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وَمَا يَبْنِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٦١﴾ إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُولُونَ ﴿١٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ سبب نزولها أن قريشاً قالت: إنما تجيء بالقرآن الشياطين فثقله على [لسان] محمد، فتزلت هذه الآية، قاله مقاتل (٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَبْنِي لَهُمْ﴾ أي: أن ينزلوا بالقرآن ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يأتوا به من السماء، لأنهم قد جيل بينهم وبين السَّمْعِ بالمتلاثة والشُّهْبِ. ﴿إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ أي: عن الاستماع للوحي من السماء ﴿لَمْعَرُولُونَ﴾ فكيف ينزلون به؟ وقال عطاء: عن سماع القرآن لمحجوبون، لأنهم يُزجَمون بالنجوم.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَّ فَتَكُونَ مِنَ الْعَادِينَ﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٦١﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِإِنِّ أَمْرَكَ مِنَ الْأَنْزِيلِ ﴿١٦٢﴾ فَإِنَّ عَصْرَكَ قَدْ أَقْبَلَ بِرَبِّهِ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْمَرْزِقِ الرَّحِيمِ ﴿١٦٤﴾ الَّذِي يَرِيكَ جِئْنَ تَقَوْمٌ ﴿١٦٥﴾ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿١٦٦﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَّ﴾ قال ابن عباس: يحذّر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق عليّ، ولو اتّخذت من دوني إلهاً لعذبتيك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: «يا معشر قريش: اشترؤا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفيّة عمّة رسول الله لا أغني

(١) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: أو لم يكن لهؤلاء المعرضين عما أتيتك يا محمد من ذكر ربك دلالة على أنك رسول رب العالمين، أن يعلم حقيقة ذلك وصحته علماء بني إسرائيل. وقال ابن كثير: أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك، أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد: المدلول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي ممن أدركه منهم ومن شاكرهم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ مَكُونُوا مِنْهُمْ فِي الرَّزِيَّةِ وَالْإِجَابِ...﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. اهـ.

(٢) في [مجمع البيان] للطبرسي: «تكلّياً له» ولعل المصنف رحمه الله نقل قول قتادة هنا من الطبرسي، أو ممن نقل عنه الطبرسي.

(٣) وهو كذلك في [مجمع البيان] للطبرسي.

عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت ما أغيث عنك من الله شيئاً»^(١). وفي بعض الألفاظ: «سألوني من مالي ما شئتم»^(٢). وفي لفظ: «غير أن لكم رَجْماً سَابِئُهَا بِبِلَالِهَا»^(٣). ومعنى قوله: «عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبُونَ»: رهطك الأدينين. «فَإِنَّ عَصْرَكَ» يعني: العشيبة «فَقُلْ لِي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ» من الكفر. «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ»^(٤): أي: ثق به وفوض أمرك إليه، فهو عزيز في نعمته، رحيم لم يعجل بالعقوبة. وقرأ نافع، وابن عامر: «فَتَوَكَّلْ بِالْفَاءِ»، وكذلك [هوا] في مصاحف أهل المدينة والشام. «الَّذِي يَرْبِكُ بَيْنَ يَدَيْكَ قِيَمٌ نَقُومٌ»^(٥) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: حين تقوم إلى الصلاة، قاله ابن عباس، ومقاتل، والثاني: حين تقوم من مقامك، قاله أبو الجوزاء. والثالث: حين تخلو، قاله الحسن.

قوله تعالى: «وَتَقَبَّلْكَ»^(٦): أي: ونرى تقبلتك «فِي السَّجْدِ» وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: وتقبلتك في أصلاب الأنبياء حتى أخرجك، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: وتقبلتك في الركوع والسجود والقيام مع المصلين في الجماعة؛ والمعنى: يراك وحدك ويراك في الجماعة، وهذا قول الأكثرين منهم قتادة. والثالث: وتصرفك في ذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين، قاله الحسن^(٥).

«هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ»^(٧) تَنَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧١﴾ يُلقُونَ السَّمْعَ وَأَكْبَرَهُمْ كِذِبُوتٌ ﴿٧٢﴾ قوله تعالى: «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ»^(٧) هذا ردٌ عليهم حين قالوا: إنما يأتيه بالقرآن الشياطين. فأما الأفاك فهو الكذاب، والأثيم: الفاجر؛ قال قتادة: وهم الكهنة.

قوله تعالى: «يُلْقُونَ السَّمْعَ»^(٨): أي: يلقون ما سمعوه من السماء إلى الكهنة. وفي قوله: «وَأَكْبَرَهُمْ كِذِبُوتٌ» قولان: أحدهما: أنهم الشياطين. والثاني: الكهنة.

«وَالشَّعْرَةَ يَبْغُمُومُ الْفَأْوَنَةَ»^(٩) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٧٥﴾ وَأَنْتُمْ بِمُؤْمُوتٍ مَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ وَأَسْتَوُوا بِيَوْمِهِمْ أَتَىٰ مَقْلَبًا وَمِيقَاتِهِمُ الْيَوْمَ الْمُغَلَّبُونَ ﴿٧٧﴾ قوله تعالى: «وَالشَّعْرَةَ يَبْغُمُومُ الْفَأْوَنَةَ»^(٩) وقرأ نافع: «يَتَّبِعُهُمْ» بسكون التاء؛ والوجهان حسنان، يقال: تَبِعْتُ وَأَتَّبَعْتُ، مثل حقرت واحتقرت. وروى العوفي عن ابن عباس، قال: كان رجلاً على عهد رسول الله ﷺ قد تهاجبا، فكان مع كل واحد منهما غُوة من قومه، فقال الله: «وَالشَّعْرَةَ يَبْغُمُومُ الْفَأْوَنَةَ»^(١٠). وفي رواية أخرى عن ابن عباس، قال: هم شعراء المشركين. قال مقاتل: منهم عبد الله بن الزُّبَيْرِ، وأبو سفيان بن حرب، وهيرة بن أبي وهب المخزومي في آخرين، قالوا: نحن نقول مثل قول محمد، وقالوا الشعر، فاجتمع إليهم غُوة من قومهم يستمعون أشعارهم ويروون عنهم^(٧). وفي الفاوين ثلاثة أقوال: أحدها: الشياطين، قاله مجاهد، وقاتدة. والثاني: السُّفهاء، قاله الضحاك. والثالث: المشركون، قاله ابن زيد.

(١) رواه البخاري ٣٨٦/٨، ومسلم ١/١٩٢، والطبري ١١٩/١٩، وذكره السيوطي في «الدر» ٩٥/٥ وزاد نسبه لأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» وفي «الدلائل».

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» بهذا اللفظ ١٩٢/١.

(٣) رواه مسلم أيضاً بهذا اللفظ ١٩٢/١، قال الإمام النووي في «شرح مسلم» ٨٠/٣: «ببلاها» ضبطناه بفتح الباء الثانية وكسرهما، وهما وجهان مشهوران ذكرهما جماعات من العلماء، وقال: قال القاضي عياض: رويته بالكسر، قال: ورويت للخطابي أنه بالفتح، وقال صاحب «المطالع»: رويته بكسر الباء وفتحها، من بَلَّه يَبْلُوهُ، والبلال الماء. ومعنى الحديث: ساقطها، شبهت قطعة الرحم بالحرارة، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة، قال: ومنه: بُلُوا أرحامكم، أي: صلواها. اهـ.

(٤) زيادة من «القرطبي».

(٥) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بتأويله، قول من قال: تأويله: ويرى تقبلتك مع الساجدين في صلاتهم معك، حين تقوم معهم وترتك وتسجد، لأن ذلك هو الظاهر من معناه، ثم قال: فتأويل الكلام إذن: وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك، ويرى تقبلتك في المومنين بك فيها بين قيام وركوع وسجود وجلوس. ثم قال في تنمة الآية: وقوله: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْغَلِيمُ» يقول تعالى ذكره: إن ريك هو السميع ثلاثتك يا محمد وذكرك في صلاتك ما تتلو وتذكر، العليم بما تعمل فيها ويعمل فيها من يقبل فيها معك مؤتماً بك، يقول: فرتل فيها القرآن، وأقم حدودها، فإنك برأى من ريك ومسبح. اهـ.

(٦) الطبري ١٢٧/١٩، وذكره السيوطي في «الدر» ٩٩/٥ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٧) ذكر قول مقاتل هذا الطبرسي في «مجمع البيان». وعبد الله بن الزبير أسلم بعد ذلك، وكذلك أبو سفيان.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١٥﴾﴾ هذا مثل بمن يهيم في الأودية؛ والمعنى أنهم يأخذون في كل فن من لغو وكذب وغير ذلك؛ فيمدحون بباطل ويذمّون بباطل، ويقولون: فعلنا، ولم يفعلوا^(١).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال ابن عباس: لما نزل ذمّ الشعراء، جاء كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، فقالوا: يا رسول الله، أنزل الله هذا وهو يعلم أنا شعراء، فنزلت هذه الآية^(٢). قال المفسرون: وهذا الاستثناء لشعراء المسلمين الذين مدحوا رسول الله ﷺ وذمّوا من هجاه^(٣)، ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ولم يجعلوا الشعر همهم. وقال ابن زيد: وذكروا الله في شعرهم. وقيل: المراد بالذكر: الشعر في طاعة الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنصَرُوا﴾ أي: من المشركين ﴿وَمِن بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ لأن المشركين بدؤوا بالهجاء. ثم أوعد شعراء المشركين، فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا وهجوا رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْفَلِتُونَ﴾^(٤) قال الزجاج: «أي» منصوبة بقوله: «ينقلبون» لا بقوله: «سيعلم»، لأن «أيًا» وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها. ومعنى الكلام: إنهم ينقلبون إلى نار يخلّدون فيها. وقرأ ابن مسعود، ومجاهد عن ابن عباس، وأبو المتوكل، وأبو رجاء: «أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْفَلِتُونَ» بناءً من مفتوحين وبقافين على كل واحدة منهما نقطتان وتشديد اللام فيها. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس، وأبو العالية، وأبو مجلز، وأبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْفَلِتُونَ» بالفاء فيها وبنونين ساكنين وبتاءين. وكان شريح يقول: سيعلم الظالمون حظّ من نقصوا، إنّ الظالم ينتظر العقاب، وإنّ المظلوم ينتظر النصر.



- (١) قال ابن كثير: قال الحسن البصري: قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها، مرة في شتية فلان، ومرة في مديحة فلان. قال: قال قتادة: الشاعر يمدح قومًا بباطل، ويذم قومًا بباطل. اهـ.
- (٢) قال ابن كثير: هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات في شعراء الأنصار؟! وفي ذلك نظر، ولم يتقدم - أي في سبب النزول - إلا مراسلات لا يعتمد عليها، والله أعلم. اهـ.
- (٣) قال ابن كثير: ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم حتى يدخل فيه من كان مثلبًا من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحًا وذكر الله كثيرًا في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ - فإن الحسنات يذهبن السيئات - وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه، كما قال عبد الله بن الزبير حين أسلم:

يا رسول المليك إن لسانني
راتق ما فتقك إذ أنا ببور
بي ومن مال ميله مشبور

- قال: وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وهو ابن عمه، وأكثرهم له هجوعًا، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعدما كان يهجو، ويتولاه بعدما كان قد عاداه، ثم قال ابن كثير: ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَصَلُّوا أَنفُسِهِمْ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في كلامهم، وقيل: في شعرهم، قال: وكلاهما صحيح مكفّر لما سبق. اهـ.
- (٤) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقول تعالى ذكره: وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم بالله من أهل مكة ﴿أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْفَلِتُونَ﴾ يقول: أي مرجع يرجعون إليه، وأي معاد يعودون إليه بعد مماتهم، فإنهم يصيرون إلى نار لا يطفأ سعيها، ولا يسكن لهبها. اهـ. وقال ابن كثير: والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم. اهـ. وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

سورة النمل

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هَذَى وَبَشَرًا لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُبَشِّرُونَ الصَّالَةَ وَيُنذِرُونَ الزَّكَرَةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ يَنصَهُونَ ﴿٤﴾ لَوْلَيْكَ الَّذِينَ هُمْ سَوَاءُ الْمَكَّابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِزُونَ
﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَكَلِمَةُ الْفُرْقَاتِ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا مَكِّيَّةً بِئْسَ الْبَيْتُ الَّذِي يُعْبَدُ فِيهَا مِنْكُمْ بِشَاهِبٍ قَبِيحٍ لَمَلَكُوا
تَصَلُّوهُ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا قُورَىٰ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسَخَّرَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿طَسَّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قسم أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وفي رواية أخرى عنه، قال: هو اسم الله الأعظم. والثاني: اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة. والثالث: الطاء من اللطيف، والسين من السميع، حكاه الثعلبي^(١).

قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو عمران، وابن أبي عبيدة: «وكتاب مبين» بالرفع فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَبَشَرًا﴾ أي: بشرى بما فيه من الثواب للمصدقين^(٢).

قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: حببنا إليهم قبيح فعلهم. وقد بينا حقيقة التزيين والمعنى في [البقرة: ١٥، ٢١٢]. وسوء العذاب: شديده.

قوله تعالى: ﴿هُمْ الْآخِزُونَ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم وصاروا إلى النار.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَكَلِمَةُ الْفُرْقَاتِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: يُلقَى عليك ففتتلقاه أنت، أي: تأخذه. ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى﴾ المعنى: اذكر إذ قال موسى.

قوله تعالى: ﴿بِشَاهِبٍ قَبِيحٍ﴾ قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب إلا زيدياً؛ «بشهاب» بالتنوين. وقرأ الباقون على الإضافة غير متوّن. قال الزجاج: من نَوَّن الشهاب، جعل القبس من صفة الشهاب، وكل أبيض ذي نور، فهو شهاب. فأما من أضاف، فقال الفراء: هذا مما يضاف إلى نفسه إذا اختلفت الأسماء، كقوله: ﴿وَلَمَّا زَاغَ الْآخِرَةُ﴾ [يوسف: ١٠٩]. قال ابن قتيبة: الشَّهَابُ: النار، والقَبْسُ: النار تُقْبَسُ، يقال: قَبِسْتُ النَّارَ قَبْسًا، واسم ما قَبِسَتْ: قَبْسٌ. قوله تعالى: ﴿تَصَلُّوهُ﴾ أي: تستدفنون، وكان الزمان شتاء.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا قُورَىٰ﴾ أي: جاء موسى النار، وإنما كان نوراً فاعتقده ناراً، ﴿قُورَىٰ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: قُدِّسَ مَنْ فِي النَّارِ، وهو الله ﷻ، قاله ابن عباس، والحسن، والمعنى: والمعنى: قُدِّسَ مَنْ نَادَاهُ مِنَ النَّارِ، لا أن الله ﷻ يُحَلُّ فِي شَيْءٍ. والثاني: أن «مَنْ» زائدة؛ والمعنى: بوركت النار، قاله مجاهد. والثالث: أن المعنى: بُورِكَ عَلَى مَنْ فِي النَّارِ، أو فيمن في النار؛ قال الفراء: والعرب تقول: باركه الله، وبارك عليه، وبارك فيه، بمعنى واحد، والتقدير: بُورِكَ مِنْ فِي تَلْبِ النَّارِ، وهو موسى، فحذف المضاف. وهذه تحية من الله تعالى لموسى بالبركة، كما حَيَّى إبراهيم بالبركة على السنة الملائكة حين دخلوا عليه، فقالوا: ﴿رَبِّحْتَ اللَّهُ وَرَكَّبْتَهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْآيَاتِ﴾ [عبود: ١٣]. فخرج في قوله: ﴿بُورِكَ﴾ قولان: أحدهما: قُدِّسَ. والثاني: مِنَ الْبِرْكََةِ. وفي قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ثلاثة

(١) انظر التلويح الذي في أول سورة (الشعراء) وما قاله العلماء عن الحروف التي في أوائل السور.

(٢) قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿هَذَى وَبَشَرًا لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به وأتبعه وصدقه وحمل بما فيه وأقام الصلاة المكتوبة وآتى الزكاة المفروضة وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرا وشرها والجنة والنار. اهـ.

أقوال: أحدها: الملائكة، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: موسى والملائكة، قاله محمد بن كعب. والثالث: موسى؛ فالمعنى: بُورك فيمن يطلبها وهو قريب منها.

﴿يَتُوسَّعُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) وَأَلَيْ عَصَاكَ لَمَّا رَأَاهَا هَبَّتْ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَى مُؤْتَبِرًا يَبْكُونَ لَا تَنْفَكُ مِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْكَ الْمُرْسَلُونَ (٢) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي صَفْوَةٌ رَحِيمٌ (٣) وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ مَيْسَرَةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي نَيْعِ أَيْدِيكَ إِلَى رِجْلَيْهِ وَفُورَةٍ مِنْهُمُ كَأُورًا قَوْمًا مُفْسِقِينَ (٤) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبِينَةٌ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٥) وَحَمَدُوا بِهَا - وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِقِينَ (٦)

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ الهاء عماد في قول أهل اللغة؛ وعلى قول السدي: هي كناية عن المنادي، لأن موسى قال: مَنْ هذا الذي يناديني؟ فقيل: «إنه أنا الله».

قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْ عَصَاكَ﴾ في الآية محذوف، تقديره: فآلقاها فصارت حية، ﴿لَمَّا رَأَاهَا هَبَّتْ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ قال الفراء: الجان: الحية التي ليست بالعظيمة ولا بالصغيرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَبْقُ﴾ فيه قولان: أحدهما: لم يلتفت، قاله قتادة. والثاني: لم يرجع، قاله ابن قتيبة، والزجاج. قال ابن قتيبة: وأهل النظر يرون أنه مأخوذ من العقب.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْكَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لا يخافون عندي. وقيل: المراد: في الموضع الذي يوحى إليهم فيه، فكانه نبيه على أن من آمنه الله بالنبوة من عذابه لا ينبغي أن يخاف من حية. وفي قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه استثناء صحيح، قاله الحسن، وقاتدة، ومقاتل، والمعنى: إلا من ظلم منهم فإنه يخاف. قال ابن قتيبة: علم الله تعالى أن موسى مُسْتَشْعِرٌ خِيفَةٌ مِنْ ذَنْبِهِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي وَكَّرَهُ، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا﴾ أي: توبة وندماً، فإنه يخاف، وإني غفور رحيم. والثاني: أنه استثناء منقطع؛ والمعنى: لكن من ظلم فإنه يخاف، قاله ابن السائب، والزجاج^(١). وقال الفراء: «مَنْ» مستثناة من الذين تُرِكُوا فِي الْكَلَامِ، كأنه قال: لا يخاف لدي المرسلون، إنما الخوف على غيرهم، إلا من ظلم، فتكون «مَنْ» مستثناة. وقال ابن جرير: في الآية محذوف، تقديره: إلا من ظلم، فمن ظلم ثم بدل حسناً. والثالث: أن «إِلَّا» بمعنى الواو، فهو كقوله: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، حكاه الفراء عن بعض النحويين، ولم يرضه. وقرأ أبي بن كعب، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، وعاصم الجحلي، وابن يعمر: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ» بفتح الهمزة وتخفيف اللام. وللمفسرين في المراد بالظلم هاهنا قولان: أحدهما: المعاصي. والثاني: الشرك. ومعنى «حُسْنًا»: توبة وندماً. وقرأ ابن مسعود، والضحاك، وأبو رجاء، والأعمش، وابن السميع، وعبد الوارث عن أبي عمرو: «حَسَنًا» بفتح الحاء والسين. ﴿بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي: بعد إساءة. وقيل: الإشارة بهذا إلى أن موسى وإن كان [قد] ظلم نفسه بقتل القبطي، فإن الله يغفر له، لأنه ندم على ذلك وتاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ الْجَيْبُ حَيْثُ جَيْبٌ مِنَ الْقَمِيصِ، أَي: قُطِع. قال ابن جرير: إنما أمر بإدخاله يده في جيبه، لأنه كان عليه حينئذٍ مِذْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ لَيْسَ لَهَا كُفٌّ. وَالسُّوءُ: الْبَرِّصُ.

قوله تعالى: ﴿فِي نَيْعِ أَيْدِيكَ﴾ (١) قال الزجاج: «في» مِنْ صِلَةِ قَوْلِهِ: «وَأَدْخَلَ يَدَكَ»، فَالتَّوْبِيلُ أَظْهَرَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي تِسْعِ آيَاتٍ. وَ«فِي» بِمَعْنَى «مِنْ» فَتَأْوِيلُهُ: مِنْ تِسْعِ آيَاتٍ؛ قَوْلُهُ: خَذْ لِي عَشْرًا مِنَ الْإِبْلِ فِيهَا فَحْلَانِ، أَي: مِنْهَا فَحْلَانِ. وَقَدْ شَرَحْنَا الْآيَاتِ فِي [بني إسرائيل: ١٠١].

(١) قال ابن كثير: هذا استثناء منقطع، وفيه إشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيء، ثم أقطع عنه ورجع وتاب وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلِي تَلَذُّ لِيْنَ كَابٍ وَرَأَى وَجِلٌ مِثْلًا ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلِكُ سُوءًا أَوْ يَكْلِمُ نَفْسَهُ﴾... [النساء: ١١٠]، والآيات في هذا كثيرة جدًا. اهـ.

(٢) قال ابن كثير عن الآيات التسع: وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والشعمي: هي: يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والظوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ثم قال: وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي. اهـ. وقد ذكر الله ﷻ في هذه الآيات آيتين من تسع آيات، وهما العصا واليد، وَبَيْنَ الْآيَاتِ الْبَاقِيَاتِ فِي سُورَةِ [الأعراف: ١٣٣] وَفَضَّلَهَا.

قوله تعالى: ﴿إِن رَّعَوْنَ وَفَوَيْدَهُ﴾ أي: مُرْسَلًا إلى فرعون وقومه، فحذف ذلك لأنه معروف. ﴿فَمَا جَعَلْنَاهُمْ مِّثْلَنَا مَبِيعَةً﴾ أي: بَيْتَةً واضحة، وهو كقولهم: ﴿وَمَا آتَيْنَا نُوحًا مِّنْ دُونِ الثَّاقَةِ مِثْرًا﴾ [الإسراء: ٥٩] وقد شرحناه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا هَذَا﴾ أي: هذا الذي نراه عياناً ﴿مِثْرًا مِّثْرًا﴾. ﴿وَمَعَدُوا بِهَا﴾ أي: أنكروها ﴿وَأَسْبَغْتُنَّهَا أَنفُسَهُمْ﴾ أنها من عند الله، ﴿ظَلَمْنَا﴾ أي: شركاً ﴿وَعَلَّوْا﴾ أي: تكبراً. قال الزجاج: المعنى: وجحدوا بها ظلمًا وغلواً، أي: ترفعاً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى وهم يعلمون أنها من عند الله.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ لِمَسَدُ لِيهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَدَّعْنَا دَاوُدَ وَقَالَ يَتَّخِذُ الْإِنسَانُ عِلْمًا مَّنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُرِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الَّذِي ﴿١٦﴾ وَخَيْرٌ لِّسُلَيْمَانَ جُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهَمْ يُؤَدَّبُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا آتَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا التَّمْلُ أُدْخِلُوا سِتْرَكُمُ لَا يَحِيطَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَخُودُهُ وَمَنْ لَا يَشْعُرْ ﴿١٨﴾ نَبَسَرَ حَاجِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْعِظِي أَن تَشْكُرِي يَتَذَكَّرُ لِي وَأَنْتُمْ لَأَنْتُمْ عَلَىٰ وَعَلَىٰ وَإِن كُنْتُمْ لَأَنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْكُمْ لِي عِبَادِي الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ قال المفسرون: علماً بالقضاء وبكلام الطير والدواب وتسيح الجبال ﴿وَقَالَ لِمَسَدُ لِيهِ الَّذِي فَضَّلْنَا﴾ بالنبوة والكتاب وإلانة الحديد وتسخير الشياطين والجن والإنس ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال مقاتل: كان داود أشد تعبدًا من سليمان، وكان سليمان أعظم ملكًا منه وأظن.

قوله تعالى: ﴿وَوَدَّعْنَا دَاوُدَ﴾ أي: ورث نبوته وعلمه وملكه، وكان لداود تسعة عشر ذكراً، فخص سليمان بذلك، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده فيها سواء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ يعني سليمان لبني إسرائيل ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ عِلْمًا مَّنَظِقَ الطَّيْرِ﴾ قرأ أبي بن كعب: «علّمنا» بفتح العين واللام. قال القراء: «مَنْظِقَ الطَّيْرِ»: كلام الطير كالمناطق إذا فهم، قال الشاعر:

عَجِبْتُ لَهَا أَنَّى يَكُونُ غِنَاوَهَا فَصَبِحًا وَلَمْ تَفْتَعِرْ بِمَنْظِقِهَا فَمَا^(١)

ومعنى الآية: فهنا ما تقول الطير. قال قتادة: والنمل من الطير. ﴿وَأُرِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال الزجاج: أي: من كل شيء يجوز أن يوتاه الأنبياء والناس. وقال مقاتل: أعطينا الملك والنبوة والكتاب والرياح ومَنْظِقَ الطَّيْرِ، وسُخِّرَتْ لَنَا الْجِنَّ وَالشَّيَاطِينَ. وروى جعفر بن محمد عن أبيه، قال: أعطي سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سبعمئة سنة وستة أشهر، وملك أهل الدنيا كلهم من الجن والإنس والشياطين والدواب والطيور والسباع، وأعطي علم كل شيء ومنطق كل شيء، وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة، فذلك قوله: ﴿عِلْمًا مَّنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُرِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني: الذي أعطينا ﴿هُوَ الْفَضْلُ الَّذِي﴾ أي: الزيادة الظاهرة على ما أعطي غيرنا. ﴿وَخَيْرٌ لِّسُلَيْمَانَ جُودُهُ﴾ أي: جمع له كل صنف من جنده على حدة، وهذا كان في مسير له، ﴿فَهُمْ يُؤَدَّبُونَ﴾ قال مجاهد: يُحْبَسُ أَوْلَهُمْ عَلَىٰ آخِرِهِمْ. قال ابن قتيبة: وأصل الوَزْعُ: الكَفُّ والمنع. يقال: وَرَعَتْ الرَّجُلُ، أي كفته، ووازع الجيش: الذي يكفهم عن التفرق، ويردُّ مَنْ شَدَّ مِنْهُمْ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آتَا﴾ أي: أشرفوا ﴿عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ وفي موضعه قولان: أحدهما: أنه بالظائف، قاله كعب والثاني: بالشام، قاله قتادة^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمَلَةٌ﴾ وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري، وطلحة بن مصرف: «نَمَلَةٌ» بضم الميم؛ أي: صاحبت بصوت، فلما كان ذلك الصوت مفهوماً عبّر عنه بالقول؛ ولما نطق النمل كما ينطق بنو آدم، أُجْرِيَ

(١) البيت لحُميد بن ثور، وهو في «اللسان» و«التاج»: فغراً ويعني بالمنطق بكاءها.

(٢) ذكر هذا المعنى الطبرسي في «مجمع البيان» عن الواحدي، من طريق محمد بن جعفر بن محمد عن أبيه، وذكره السيوطي أيضاً في «الدرر» ١٠٣/٥ ونسبه للحاكم ثم قال: قال الذهبي: هذا باطل.

(٣) قال ابن كثير: ومن قال من المفسرين: إن هذا الروادي كان بأرض الشام أو بغيره وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب أو غير ذلك من الأقاويل فلا حاصل لها.

مجرى الآدميين، فقيل: ﴿أَنْخَلُوا﴾، وألهم الله تلك النملة معرفة سليمان مُعْجِزاً له، وقد ألهم الله النمل كثيراً من مصالحها تزيد به على الحيوانات، فمن ذلك أنها تكسر كل حبة تدخرها قطعتين لثلاثاً تَنْبُت، إلا الكُزْبِرَة فإنها تكسرها أربع قطع، لأنها تَنْبُت إذ كُسرت قطعتين، فسبحان من ألهمها هذا! وفي صفة تلك النملة قولان: أحدهما: أنها كانت كهيئة النعجة، قال نوف الشامي^(١): كان النمل في زمن سليمان بن داود كأمثال الذئب. والثاني: كانت نملة صغيرة. ﴿أَنْخَلُوا سَنَكْنِكُمْ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل، وعاصم الحدري: «مَسَكْنِكُمْ» على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿لَا يَخْطَمَنَّكَمُ﴾ الحظم الكَسْر. وقرأ أبي بن كعب، وأبو رجاء: «لَيَخْطَمَنَّكُمْ» بغير ألف بعد اللام. وقرأ ابن مسعود: «لَا يَخْطَمَنَّكُمْ» بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف الطاء وسكون الميم وحذف النون. وقرأ عمرو بن العاص، وأبان: «يَخْطَمَنَّكُمْ» بفتح الياء وسكون الحاء والنون ساكنة أيضاً والطاء خفيفة. وقرأ أبو المتوكل، وأبو مجلز: «لَا يَخْطَمَنَّكُمْ» بفتح الياء وكسر الحاء وتشديد الطاء والنون جميعاً. وقرأ ابن السميع، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: «يُخْطَمَنَّكُمْ» برفع الياء وسكون الحاء وتخفيف الطاء وتشديد النون. والْحَطْمُ: الكَسْر، والحُطَامُ: ما تحطّم. قال مقاتل: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال. وفي قوله: ﴿وَمَنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قولان: أحدهما: وأصحاب سليمان لم يشعروا كلام النملة، قاله ابن عباس. والثاني: وأصحاب سليمان لا يَشْعُرُونَ بمكانكم، لأنها علمت أنه ملك لا يبغي فيه، وأنهم لو علموا بالنمل ما تَوَطَّوْهُم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّ سَاجِداً﴾ قال الزجاج: «ساحكاً» منصوب، حال مؤكدة، لأن «تبسم» بمعنى «ضحك». قال المفسرون: تبسم تعجباً ممّا قالت، وقيل: من ثنائها عليه. وقال بعض العلماء: هذه الآية من عجائب القرآن، لأنها بلفظة «يا» نادت «أيها» نبهت «النمل» عيّنت «ادخلوا» أمرت «مساكنكم» نصّت «لا يحطمنكم» حذرت «سليمان» خصّت «وجنوده» عمّت «وهم لا يشعرون» عذرت.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي﴾ قال ابن قتيبة: ألهمني، أصل الإيزاج: الإغراء بالشيء، يقال: أوزعته بكذا، أي: أغريته به، وهو مُوزَعٌ بكذا، ومُوزَعٌ بكذا. وقال الزجاج. تأويله في اللغة: كُنْفي عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك؛ والمعنى: كُنْفي عمّا يُباعدُ منك، ﴿وَأَنْ أَمَلُ﴾ أي: وألهمني أن أعمل ﴿صَلِحاً رَضِيئاً﴾ قال المفسرون: إنما شكر الله ﷻ لأن الريح أبلغت إليه صوتها ففهم ذلك.

﴿وَتَمَقَّدَ الظَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاسِيَيْنِ﴾ ﴿لَأَعْلَبَنَّهٗ عَدَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَنْجِبَنَّهٗ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ حُطِّ بِهِ. وَرَجَسَتْكَ مِنْ سَبِيلِ رَبِّكَ يَقِينٍ﴾ ﴿إِنِّي وَبَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ وَأُرَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَوَلَا عَرَشَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿وَتَبَدَّتْهَا وَوَقَمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْيَابَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْغَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُكَلِّمُونَ﴾ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَمَقَّدَ الظَّيْرَ﴾ التَّمَقَّدُ: طلب ما غاب عنك؛ والمعنى أنه طلب ما فقد من الطير؛ والظَّيْرُ اسم جامع للجنس، وكانت الظَّيْرُ تصحب سليمان في سفره تُظَلِّه بأجنحتها ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، والكسائي: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ﴾ بفتح الياء. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة بالسكون، والمعنى: ما للهدهد [لا أراه]؟ تقول العرب: ما لي أراك كئيباً، أي: ما لك؟ فهذا من المقلوب الذي معناه معلوم. قال المفسرون: لما فَصَّلَ سليمان عن وادي النمل، وقع في قفر من الأرض، فعضش الجيش فسألوه الماء، وكان الهدهد يدهد على الماء، فإذا قال له: ها هنا الماء، شَقَّتْ الشياطين الصَّخْرَ وَفَجَّرَتِ العيون قبل أن يضربوا آبئتهم، وكان الهدهد يرى الماء في الأرض كما يرى الماء في الزجاج، فطلبه يومئذ فلم يجده. وقال بعضهم: إنما طلبه لأن الظَّيْرُ كانت تُظَلِّه من الشمس، فأخَلَّ الهدهد بمكانه، فطلعت الشمس عليهم من الخلل.

(١) هو نوف بن فضالة الحبيري البجلي، إمام أهل دمشق في عصره، من رجال الحديث، ورد ذكره في «الصحيحين»، وكان راوياً للقصص، وهو ابن

قوله تعالى: ﴿أَمْ كَانُ﴾ قال الزجاج: معناه: بل كان.

قوله تعالى: ﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: نتف ريشه، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: نتفه وتشميسه، قاله عبد الله بن شداد. والثالث: شد رجله وتشميسه، قاله الضحاک. والرابع: أن يطليه بالقطران ويشمسه، قاله مقاتل بن حيان. والخامس: أن يودعه القفص. والسادس: أن يفرق بينه وبين إلفه، حكاهاما الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنَّ﴾ وقرأ ابن كثير: ﴿لِيَأْتِيَنَّ﴾ بنونين، وكذلك هي في مصاحفهم. فأما السلطان، فهو الحُجَّة، وقيل: العُدْر. وجاء في التفسير أن سليمان لما نزل في بعض مسيره، قال الهدد: إنه قد اشتغل بالنزول فارتفع أنا إلى السماء فأنظر إلى طول الدنيا وعرضها، فارتفع فرأى بستاناً لبقيس، فمال إلى الخُصرة فوقع فيه، فإذا هو بهدهد قد لقيته، فقال: من أين أتيت؟ قال: من الشام مع صاحبي سليمان، فمن أين أنت؟ قال: من هذه البلاد، وملكها امرأة يقال لها: بلقيس، فهل أنت مُطلق معي حتى ترى مُلكها؟ قال: أخاف أن يتفقدي سليمان وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء، قال: إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه المُلِكة، فانطلق معه، فنظر إلى بلقيس وملكها، ﴿فَكَتَّ عَيْرَ بَيْبِرٍ﴾ قرأ الجمهور بضم الكاف، وقرأ عاصم بفتحها، وقرأ ابن مسعود: ﴿فتمكَّتْ﴾ بزيادة تاء؛ والمعنى: لم يلبث إلا يسيراً حتى جاء، فقال سليمان: ما الذي أبطأ بك؟ ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ﴾ أي: علمت شيئاً من جميع جهاته مما لم تعلم [به] ﴿وَرِحْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿سَبَأً﴾ نصباً غير مصروف، وقرأ الباقون خفضاً منوَّناً. وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أن سبأ رجل من العرب^(١). وقال قتادة: هي أرض باليمن يقال لها: مأرب. وقال أبو الحسن الأخفش: إن شئت صرفت ﴿سَبَأً﴾ فجعلته اسم أبيهم، أو اسم الحي، وإن شئت لم تصرف فجعلته اسم القبيلة، أو اسم الأرض. قال الزجاج: وقد ذكر قوم من النحويين أنه اسم رجل. وقال آخرون: الاسم إذا لم يُدْرَ ما هو لم يُصرف؛ وكلا القولين خطأ، لأن الأسماء حقها الصِّرف، وإذا لم يُعلم هل الاسم للمذكر أم للمؤنث، فحقه الصِّرف حتى يُعلم أنه لا ينصرف، لأن أصل الأسماء الصِّرف. وقول الذين قالوا، هو اسم رجل: غلط، لأن سبأ هي مدينة تُعرف بمأرب من اليمن، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، فمن لم يصرفه جعله اسم مدينة، ومن صرفه فلأنه اسم البلد، فيكون مذكراً سمي بمذکر.

قوله تعالى: ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: بخبر صادق، ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَتْلُوهُمْ﴾ يعني بلقيس ﴿وَأَوَّيْتُ مِنْ حَكْلِ ثَمْرٍ﴾ قال الزجاج: معناه: من كل شيء يعطاه الملوك ويؤتاه الناس. والعرش: سرير الملك. قال قتادة: كان عرشها من ذهب، قوائمها من جوهر مكلل بالؤلؤ، وكان أحد أبويها من الجن، وكان مؤخر أحد قدميها مثل حافر الدابة. وقال مجاهد: كان قدمها كحافر الحمار. وقال ابن السائب: لم يكن يقدمها شيء، إنما وقع الجن فيها عند سليمان بهذا القول، فلما جعل لها الصرح بان له كذبهم. قال مقاتل: كان ارتفاع عرشها ثمانين ذراعاً في عرض ثمانين، وكانت أمها من الجن. قال ابن جرير: وإنما صار هذا الخير عُذراً للهدد، لأن سليمان كان لا يرى لأحد في الأرض مملكة سواه، وكان مع ذلك يحبُّ الجهاد، فلما دلَّه الهدد على مملكةٍ لغيره، وعلى قومٍ كفَّره يجاهدهم، صار ذلك عُذراً له.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ قرأ الاكثرون: ﴿أَلَا﴾ بالتشديد. قال الزجاج: والمعنى: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا، أي: قصدهم ثلثاً يسجدوا. وقرأ ابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، والزهري، وقاتدة، وأبو العالية، وحديد الأعرج، والأعمش، وابن أبي عبيدة، والكسائي: ﴿ألا يسجدوا﴾ مخففة، على معنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا، فيكون في الكلام إضمار «هؤلاء» ويكتفى منها بـ «يا»، ويكون الوقف «ألا يا» والابتداء «اسجدوا»؛ قال الفراء: فعلى هذه القراءة هي سجدة، وعلى قراءة من شدد لا ينبغي لها أن تكون سجدة. وقال أبو عبيدة: هذا أمر من الله مستأنف، يعني: ألا يا أيها الناس اسجدوا. وقرأ ابن مسعود، وأبيُّ: «هؤلاء يسجدوا» يهاؤ.

(١) روى الترمذي في «سننه» ١٥٤/٢ عن فروة بن مسيك المرادي قال: قال رجل: يا رسول الله! وما سبأ، أرض أو امرأة؟ قال: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب... الحديث». قال الترمذي: هذا حديث غريب حسن. ورواه الطبري ٧٦/٢٢. وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» في ترجمة فروة بن مسيك عن هذا الحديث: وأخرجه ابن سعد، وأبو داود، والترمذي، وابن السكن مطوَّلاً ومختصراً.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ الْعَنَبِ فِي السَّمَكِيِّ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: المُسْتَرِّ فِيهِمَا، وهو من خَبَأَتِ الشَّيْءَ: إِذَا أَحْفَيْتَهُ، ويقال: خَبَأَتِ السَّمَاوَاتُ: المَطَرُ، وَخَبَأَتِ الأَرْضُ: النَبَاتُ. وقال الزجاج: كل ما خَبَأْتَهُ فهو خَبْءٌ، فَالْحَبُّ: كُلُّ مَا غَابَ؛ فَالمَعْنَى: يَعْلَمُ الغَيْبَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. وقال ابن جرير: «في» بمعنى «مِنْ»، فَتَقْدِيرُهُ: يُخْرِجُ الحَبَّ مِنَ السَّمَاوَاتِ.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَنَا سَمِعْتُمْ﴾ قرأ حفص [عن] عاصم، والكسائي بالتاء فيهما. وقرأ الباقون بالياء. قال ابن زيد: من قوله: ﴿أَحَطْتُ﴾ إلى قوله: ﴿الطَّيْرِ﴾ كلام الهدهد. وقرأ الضحاك، وابن محيصن: «العظيم» برفع الميم.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَكَذَا فَالْقَيْهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿١٥﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّ إِلَيْنَا لِكَبَيْدٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ إِنَّهُ مِنْ سَيِّئِينَ وَوَلَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١٧﴾ أَلَا تَتْلُوا عَلَيَّ وَأَتُوقِ سُلَيْمِينَ ﴿١٨﴾

فلما فرغ الهدهد من كلامه ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ﴾ فيما أخبرتنا به ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما قلت ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وإنما شك في خبره، لأنه أنكر أن يكون لغيره في الأرض سلطان. ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد وقال: ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَكَذَا فَالْقَيْهُ إِلَيْهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي: «فالقهي» موصولة بباء. وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وحمزة: «فالقيه» بسكون الهاء، وروى قالون عن نافع كسر الهاء من غير إشباع؛ ويعني إلى أهل سبأ، ﴿ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أغرض. والثاني: انصرف، ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ماذا يردون من الجواب. فإن قيل: إذا تولى عنهم فكيف يعلم جوابهم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن المعنى: ثم تولى عنهم مستتراً من حيث لا يرونك، فانظر ماذا يردون من الجواب، وهذا قول وهب بن منبه. والثاني: أن في الكلام تقدماً وتأخيراً، تقديره: فانظر ماذا يرجعون ثم تولى عنهم، وهذا مذهب ابن زيد. قال قتادة: أتاهما الهدهد وهي نائمة فألقى الكتاب على نحرها فقرأته وأخبرت قومها. وقال مقاتل: حمله في متقارحه حتى وقف على رأس المرأة، فرفرف ساعة والناس ينظرون، فرفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها، فلما رأت الخاتم أزعجت وخضعت وخضع من معها من الجنود. واختلفوا لأي علة سمته كريماً على سبعة أقوال: أحدها: لأنه كان مختماً، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: لأنها ظنته من عند الله ﷻ، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أن معنى قولها: «كريم»: حسن ما فيه، قاله قتادة، والزجاج والرابع: لكرم صاحبه، فإنه كان ملكاً، ذكره ابن جرير. والخامس: لأنه كان مهيباً، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والسادس: لتسخير الهدهد لحمله، حكاه الماوردي. والسابع: لأنها رأت في صدره «بسم الله الرحمن الرحيم»، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سَيِّئِينَ﴾ أي: إن الكتاب من عنده ﴿وَوَلَّهُ﴾ أي: وإن المكتوب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَا تَتْلُوا عَلَيَّ﴾ أي: لا تكبروا. وقرأ ابن عباس: «تتلوا» بغين معجمة ﴿وَأَتُوقِ سُلَيْمِينَ﴾ أي: منقادين طامعين. ثم استشارت قومها، ف ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ يعني الأشراف، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر قائداً، كل رجل منهم على عشرة آلاف. وقال ابن عباس: كان معها مائة ألف قيل^(١)، مع كل قبيل مائة ألف. وقيل: كانت جنودها ألف ألف ومائتي ألف.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَنتُمُ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَائِلَةً أَنْتُمْ حَتَّى تَتَّهَدُونَ﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَبْنِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا مَكَرُوا فَرَقَا أَقْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِيهَا أُولَاءَ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدْيِي فَانظُرْ يَوْمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ فِي أَمْرِي﴾ أي: بينوا لي ما أفعل، وأشيروا علي. قال الفراء: جعلت المشورة فنياً، وذلك جائز لسعة اللغة.

قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُ قَائِلَةً أَنْتُمْ﴾ أي: فاعلته ﴿حَتَّى تَتَّهَدُونَ﴾ أي: تحضرون؛ والمعنى: إلا بحضوركم

(١) القيل، بفتح فسكون: ملك من ملوك جعتر دون الملك الأعظم، وجمعه أقوال، وأقبال.

ومشورتكم. ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم أرادوا القُوَّةَ في الأبدان. والثاني: كثرة العدد والبأس والشجاعة في الحرب. وفيما أرادوا بذلك القول قولان: أحدهما: تفويض الأمر إلى رأيها. والثاني: تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم. ثم قالوا: ﴿وَالْأَثَرُ إِلَيْهِ﴾ أي: في القتال وتركه. ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ قال الزجاج: المعنى: إذا دخلوها عتوة عن قتال وغلبة.

قوله تعالى: ﴿أَسْكُدُوا﴾ أي: خربوها ﴿وَجَمَعُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي: أهانوا أشرفها ليستقيم لهم الأمر. ومعنى الكلام: أنها حذرتهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادها.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه من تصديق الله تعالى لقولها، قاله الزجاج. والثاني: من تمام كلامها؛ والمعنى: وكذلك يفعل سليمان وأصحابه إذا دخلوا بلادنا، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُمْ مِرْيَةَ إِلَيْهِمْ بِهَدْيِهِ﴾ قال ابن عباس: إنما أرسلت الهدية لتعلم أنه إن كان نبياً لم يرد الدنيا، وإن كان ملكاً فيرضى بالحمل، وأنها بعثت ثلاث لبنات من ذهب في كل لينة مائة رطل؛ وياقوتة حمراء طولها شبر مثقوبة، وثلاثين وصيفاً وثلاثين وصيفة، والبسنتهم لباساً واحداً حتى لا يعرف الذكر من الأنثى، ثم كتبت إليه: إني قد بعثت إليك بهديتي فاقبلها، وبعثت إليك بياقوتة طولها شبر، فأدخل فيها خيطاً واختم على طرفي الخيط بخاتمك، وقد بعثت إليك ثلاثين وصيفاً وثلاثين وصيفة، فميز بين الجواري والغلمان؛ فجاء أمير الشياطين فأخبره بما بعثت إليه، فقال له: انطلق فافرش على طريق القوم من باب مجلسي ثمانية أميال في ثمانية أميال [لبنات] من الذهب؛ فانطلق، فبعث الشياطين، فقطعوا اللبن من الجبال وطلوه بالذهب وفرشوه، ونصبوا في الطريق أساطين الياقوت الأحمر، فلما جاء الرسل، قال بعضهم لبعض: كيف تدخلون على هذا الرجل بثلاث لبنات، وعنده ما رأيتم؟ فقال رئيسهم: إنما نحن رسل، فدخلوا عليه، فوضعوا اللبن بين يديه، فقال: أتيتونني بما؟ ثم دعا ذرة^(١) فربط فيها خيطاً وأدخلها في ثقب الياقوتة حتى خرجت من طرفها الآخر^(٢)، ثم جمع بين طرفي الخيط فختم عليه ودفعها إليهم، ثم ميز بين الغلمان والجواري، هذا كله مروى عن ابن عباس^(٣). وقال مجاهد: جعلت لباس الغلمان للجواري ولباس الجواري للغلمان، فميزهم ولم يقبل هديتها. وفي عدد الوصائف والوصفاء خمسة أقوال: أحدها: ثلاثون وصيفاً وثلاثون وصيفة، وقد ذكرناه عن ابن عباس. والثاني: خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، قاله وهب. والثالث: مائتا غلام ومائتا جارية، قاله مجاهد. والرابع: عشرة غلمان وعشر جوار، قاله ابن السائب. والخامس: مائة وصيف ومائة وصيفة، قاله مقاتل. وفي ما ميزهم به ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أمرهم بالوضوء، فبدأ الغلام من مرفقه إلى كفه، وبدأت الجارية من كفها إلى مرفقها، فميزهم بذلك، قاله سعيد بن جبير. والثاني: أن الغلمان بدؤوا بغسل ظهور السواعد قبل بطونها، والجواري على عكس ذلك، قاله قتادة. والثالث: أن الغلام اغترف بيده، والجارية أفرغت على يدها، قاله السدي. وجاء في التفسير أنها أمرت الجواري أن يكلمن سليمان بكلام الرجال، وأمرت الرجال أن يكلموه كلام النساء، وأرسلت قَدْحاً تسأله أن يملأها ماءً ليس من [ماء] السماء ولا من ماء الأرض، فأجرى الخيل وملأه من عرقها^(٤).

قوله تعالى: ﴿فَنَاطِرَةٌ يَمْ رِيحُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: بقبول أم برد. قال ابن جرير: وأصل «يم» بما، وإنما أسقطت الألف لأن العرب إذا كانت «ما» بمعنى «أي» ثم وصلوها بحرف خافض، أسقطوا ألفها، تفريقاً بين الاستفهام والخبر، كقوله: ﴿مَمَّ يَسْأَلُونَ﴾؟ [النبا: ١] ﴿قَالُوا يَم كُنْتُمْ؟﴾ [النساء: ٩٧]، وربما أثبتوا فيها الألف كما قال الشاعر:

(١) الذرُّ: صغار النمل، واحده ذرة.

(٢) وفي بعض التفاسير: فجاءت الأرضة فأخذت شرة في فيها ودخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر.

(٣) قال ابن كثير: والله أعلم أكان ذلك، أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات، والظاهر أن سليمان ﷺ لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه.

(٤) قال الألويسي عن مثل هذه الأخبار: وكل ذلك أخبار لا يدرى صحتها ولا كذبها، ولعل في بعضها ما يعيل القلب إلى القول بكذبه، والله أعلم.

عَلَى مَا قَامَ يَسْتُمْنَا لَنِيمِ ﴿٤٠﴾ كَخُنْزِيرٍ تَمَرَّغٌ فِي رَمَادٍ؟ ﴿٤١﴾
 ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتَيْدُونَنِي بِسَالٍ مِمَّا آتَيْنِي بِهِ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ بِهِ أَمْ أَنْتُمْ جَدِّتُكُمْ فَرَحُونَ ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتُمْ لَوْلَا أَنِّي لَأَتَيْتُكُمْ بِمَشْرُورٍ لَا يَمْلِكُ بِهِ قَوْلُ أَنْ تَقُولَ مِنْ مَقَالِكَ وَإِلَى عَلَيْهِ لَقَوْلِي أَمِينٌ ﴿٤٣﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوكَ مَا فَكَّرُكُمْ أَمْ أَكْفَرْتُمْ وَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ ﴿٤٤﴾ قَالَ الزَّجَاجُ: لَمَّا جَاءَ رَسُولُهَا، وَبِجُوزٍ: فَلَمَّا جَاءَ بِرُّهَا.

قوله تعالى: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِسَالٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «أَتَيْدُونَنِي» بنونين وياء في الوصل. وروى المسيبي عن نافع: «أَتَيْدُونِي» بنون واحدة خفيفة وياء في الوصل والوقف. وقرأ عاصم، وابن عامر، والكسائي: «أَتَيْدُونَنِي» بغير ياء في الوصل والوقف. وقرأ حمزة: «أَتَيْدُونِي بمال» بنون واحدة مشددة ووقف على الياء.
 قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَيْنِي بِهِ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «فَمَا آتَانِ اللَّهُ» بكسر النون من غير ياء. وقرأ أبو عمرو، ونافع، وحفص عن عاصم: «آتَانِي» بفتح الياء. وكلهم فتحوا التاء غير الكسائي، فإنه أمالها من «آتاني الله»، وأمال حمزة: «أنا آتيتك به» أشمَّ النون شيئاً من الكسر، والمعنى: فما آتاني الله، أي: من النبوة والملك ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ﴾ من المال ﴿بَلْ أَنْتُمْ جَدِّتُكُمْ فَرَحُونَ﴾ يعني إذا أهدى بعضهم إلى بعض فرح، فأما أنا فلا، ثم قال للرسول: ﴿أَرَأَيْتُمْ لَوْلَا أَنِّي لَأَتَيْتُكُمْ بِمَشْرُورٍ لَا يَمْلِكُ بِهِ قَوْلُ أَنْ تَقُولَ مِنْ مَقَالِكَ﴾ يعني بلدتهم. فلما رجعت رسلها إليها بالخبر، قالت: قد علمت أنه ليس بملك وما لنا به طاقة، فبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما تدعو إليه، ثم أمرت بعرشها فجعل وراء سبعة أبواب، ووكَّلت به حرساً يحفظونه، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف ملك، تحت يدي كل ملك منهم ألوف. وكان سليمان مهيباً لا يُتَدَأُ بشيء حتى يسأل عنه، فجلس يوماً على سرير ملكه فرأى رهجاً قريباً منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس قد نزلت بهذا المكان، وكان قدر فرسخ، وقد كان بلغه أنها احتاطت على عرشها قبل خروجها، ف ﴿قَالَ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ إِلَيْكُمْ بِأَتِينٍ بِعَرِيضَةٍ﴾، وفي سبب طلبه له خمسة أقوال: أحدها: ليعلم صدق الهدمه، قاله ابن عباس. والثاني: ليجعل ذلك دليلاً على صدق نبوته، لأنها خلفته في دارها واحتاطت عليه، فوجدته قد تقدَّمها، قاله وهب بن منبه^(١). والثالث: ليختبر عقلها وفطنتها، أتعرفه أم تُنكره، قاله سعيد بن جبيرة. والرابع: لأن صفته أعجبته، فخشي أن تُسَلِّمَ فيحرم عليه مالها، فأراد أخذه قبل ذلك، قاله قتادة. والخامس: ليربها قدرة الله تعالى وعظم سلطانه، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال أبو عبيدة: العفريت من كل جنٍّ أو إنس: الفائق المبالغ الرئيس. وقال ابن قتيبة: العفريت: الشديد الوثيق. وقال الزجاج: العفريت: النافذ في الأمر، المبالغ فيه مع حُبِّت ودهاء. وقرأ أبي بن كعب، والضحاك، وأبو العالية، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: «قال عفريت» بفتح العين وكسر الراء. وروى ابن أبي شريح عن الكسائي: «عِفْرِيَّةٌ» بفتح الياء وتخفيفها؛ وروي عنه أيضاً تشديدها وتنوين الهاء على التانيث. وقرأ ابن مسعود، وابن السميع: «عِفْرَاةٌ» بكسر العين وفتح الراء وبألف من غير ياء.

قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُولَ مِنْ مَقَالِكَ﴾ أي: من مجلسك؛ ومثله ﴿فِي مَقَارِ أَيْمِينَ﴾ [الدخان: ٥١]. وكان سليمان يجلس للقضاء بين الناس من وقت الفجر إلى طلوع الشمس، وقيل: إلى نصف النهار. ﴿وَإِلَى مَلِيٍّ﴾ أي: على حمله ﴿لَقَوْلِي﴾. وفي قوله: ﴿أَمِينٌ﴾ قولان: أحدهما: أمين على ما فيه من الجوهر والدَّرُّ وغير ذلك، قاله ابن السائب. والثاني: أمين لا آتيتك بغيره بدلاً منه، قاله ابن زيد. قال سليمان: أريد أسرع من ذلك. ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهل هو إنسي أم ملك؟ فيه قولان: أحدهما: إنسي، قاله ابن عباس، والضحاك، وأبو صالح. ثم فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه رجل من بني إسرائيل، واسمه أصف بن برخيا، قاله مقاتل. قال ابن عباس: دعا أصف - وكان أصف يقوم

(١) البيت لحسان بن ثابت، «ديوانه» ١٤٣، و«الطبري» ١٥٦/١٩، و«القرطبي» ٢٠٠/١٣.

(٢) وهذا هو أولى الأقوال بالصواب كما قال ابن جرير الطبري.

على رأس سليمان بالسيف - فبعث الله الملائكة فحملوا السرير تحت الأرض يَحُدُّون الأرض حُدًّا، حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان. والثاني: أنه سليمان ﷺ، وإنما قال له رجل: أنا أتيتك به قبل أن يرتد إليك طَرفك، فقال: هات، قال: أنت النبيُّ ابن النبيِّ، فإن دعوت الله جاءك، فدعا الله فجاءه، قاله محمد بن المنكدر. والثالث: أنه الخضر، قاله ابن لهيعة^(١). والرابع: أنه عابد خرج يومئذٍ من جزيرة في البحر فوجد سليمان فدعا فأَتَى بالعرش، قاله ابن زيد. والقول الثاني: أنه من الملائكة. ثم فيه قولان: أحدهما: أنه جبريل ﷺ. والثاني: مَلَكٌ من الملائكة أَيْد الله به سليمان، حكاهما الثعلبي. وفي العَلَم الذي عنده من الكتاب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اسم الله الأعظم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقادة، والجمهور. والثاني: أنه عَلِمَ كتاب سليمان إلى بلقيس. والثالث: أنه عَلِمَ ما كتب الله لبني آدم، وهذا على أنه مَلَكٌ، حكى القولين الماوردي. وفي قوله: ﴿قِيلَ لَنْ رِيَدَ إِلَيْكَ طَرْفَكَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: قيل أن يأتيك أقصى ما تنظر إليه، قاله سعيد بن جبيرة. والثاني: قيل أن ينتهي طرفك إذا مددته إلى مداه، قاله وهب. والثالث: قيل أن يرتد طرفك حسيراً إذا أدمت النظر، قاله مجاهد. والرابع: بمقدار ما تفتح عينك ثم تطرف، قاله الزجاج. قال مجاهد: دعا فقال: يا ذا الجلال والإكرام. وقال ابن السائب: إنما قال: يا حيُّ يا قيُّوم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ﴾ في الكلام محذوف، تقديره: فدعا الله [فأتى] به، فلما رآه، يعني: سليمان مُسْتَعْرِضاً عِنْدَهُ أَي: نابتاً بين يديه ﴿قَالَ هَذَا﴾ يعني: التمكن من حصول المراد.

قوله تعالى: ﴿أَشْكُرُكُمْ أَمْ أَكْفَرُكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أشكر على السرير إذ أتيت به، أم أكفر إذا رأيته من هو دوني في الدنيا أعلم مني، قاله ابن عباس. والثاني: أشكر ذلك من فضل الله عليّ، أم أكفر نعمته بترك الشكر له، قاله ابن جرير.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظَرُ أَسْمَاءُ أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا سُلَيْمِينَ ﴿١٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَشُدُّ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْنِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَفَّتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ قال المفسرون: خافت الشياطين أن يتزوج سليمان بلقيس فتفشي إليه أسرار الجن، لأن أمها كانت جنية، فلا يفتكون من تسخير سليمان وذريته بعده، فأسأوا الشاء عليها وقالوا: إن في عقلها شيئاً، وإن رجلها كحافر الحمار، فأراد سليمان [أن] يختبر عقلها بتكبير عرشها، وينظر إلى قديمها ببناء الصرح. قال ابن قتيبة: ومعنى «نكروا»: غيروا، يقال: نكرت الشيء فتنكر، أي: غيرته فتغير. وللمفسرين في كيفية تغييره ستة أقوال: أحدها: أنه زيد فيه ونقص منه، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنهم جعلوا صفائح الذهب التي كانت عليه مكان صفائح الفضة، وصفائح الفضة مكان صفائح الذهب، والياقوت مكان الزبرجد، والذُرُّ مكان اللؤلؤ، وقائمتي الزبرجد مكان قائمتي الياقوت، قاله ابن عباس أيضاً. والثالث: أنهم نزعوا ما عليه من فصوصه وجواهره، روي عن ابن عباس أيضاً. والرابع: أنهم جعلوا ما كان منه أحمر أخضر، وما كان أخضر أحمر، قاله مجاهد. والخامس: أنهم جعلوا أسفله أعلاه، ومُؤَخَّرَه مُؤَخَّرَه، وزادوا فيه، ونقصوا منه، قاله قتادة. والسادس: أنهم جعلوا فيه تماثيل السمك، قاله أبو صالح. وفي قوله: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ قولان: أحدهما: أنها لما رآته جعلت تعرف وتُنكر، ثم قالت في نفسها: من أين يخلص إلى ذلك وهو في سبعة آيات والحرس حوله؟! ثم قالت: كأنه هو، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال قتادة: شبهته بعرشها. وقال السدي: وجدت فيه ما تعرفه فلم تُنكر، ووجدت فيه ما تُنكره فلم تُسبت، فلذلك قالت: كأنه هو. والثاني: أنها عرفته، ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا [عليها]، فلو أنهم قالوا: هذا عرشك، لقلت: نعم، قاله مقاتل. قال المفسرون: فقيل لها: فإنه عرشك، فما أغنى عنك إغلاق الأبواب؟! وفي قوله: ﴿وَأُوتِينَا

(١) قال ابن كثير عن هذا القول: وهو غريب جداً.

أَلَيْسَ ﴿٤٥﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قول سليمان، قاله مجاهد. ثم في معناه قولان: أحدهما: وأوتينا العِلمَ بالله وقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة. والثاني: وأوتينا العِلمَ بإسلامها ومجيئها طائفة من قبل مجيئها وكُنَّا مُسْلِمِينَ لله. والقول الثاني: أنه من قول بلقيس، فإنها لما رأت عرشها، قالت: قد عرفتُ هذه الآية، وأوتينا العِلمَ بصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة، تعني أمر الهدهد والرُّسُل التي بُعثت من قبل هذه الآية، وكُنَّا مُسْلِمِينَ منقادين لأمرِك قبل أن نجيء. والثالث: أنه من قول قوم سليمان، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَقَا مَا كَانَتْ تُبَدِّ مِنْ تُونِ اللَّهِ﴾ قال الفراء: معنى الكلام: هي عاقلة، إنما صدَّها عن عبادة الله عبادتها الشمس والقمر، وكان عادة من دين آبائها؛ والمعنى: وصدَّها أن تعبد الله ما كانت تعبد، قال: وقد قيل: صدَّها سليمان، أي: منعها ما كانت تعبد. قال الزجاج: المعنى: صدَّها عن الإيمان العادة التي كانت عليها، لأنها نشأت ولم تعرف إلا قوماً يعبدون الشمس، ويبين عبادتها بقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وقرأ سعيد بن جبيرة، وابن أبي عبله: «أنها كانت» بفتح الهززة.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَمَّا أَهْوَى السَّرْحُ﴾ قال المفسرون: أمر الشياطين فبنوا له صرحاً كهيئة السطح من زجاج. وفي سبب أمره بذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أراد أن يريها ملكاً هو أعزُّ من ملكها، قاله وهب بن منبه. والثاني: أنه أراد أن ينظر إلى قدمها من غير أن يسألها كشفها، لأنه قيل له: إن رجلها كحافر الحمار، فأمر أن يهَيَّأ لها بيت من قوارير فوق الماء، ووضع سرير سليمان في صدر البيت، هذا قول محمد بن كعب القرظي. والثالث: أنه فعل ذلك ليختبرها كما اختبرته بالوصائف، والوصفاء، ذكره ابن جرير. فأما الصَّرح، فقال ابن قتيبة: هو القصر، وجمعه: صُروح، ومنه قول الهذلي:

[على طُرقِ كَنحور الرُّكَا
بِ] تَحَسَّبُ أَعْلَامَهُنَّ الصُّرُوحَا^(١)

قال: ويقال: الصَّرحُ بلاطٌ أُتخذ لها من قوارير، وجعل تحتها ماءً وسمك. قال مجاهد: كانت بركة من ماء ضرب عليها سليمان قوارير. وقال مقاتل: كان قصرًا من قوارير بني على الماء وتحتها السمك.

قوله تعالى: ﴿حَبَبَتُهُ لَجَّةٌ﴾ وهي: معظم الماء ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ لدخول الماء، فناداها سليمان ﴿إِنَّهُ مَرَجٌ مُرْمَرٌ﴾ أي: مملسٌ ﴿وَمِنْ قَوَارِيرٍ﴾ أي: من زجاج؛ فعلمت حينئذ أن ملك سليمان من الله تعالى، فـ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بعبادة غيرك^(٢). وقيل: ظلمت في سليمان أنه يريد تغريقها في الماء، فلما علمت أنه صرح ممرّد قالت: ربِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الظَّنِّ، وأسلمت مع سليمان، ثم تزوجها سليمان. وقيل: إنه ردّها إلى مملكتها وكان يزورها في كل شهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام، وأنها ولدت منه. وقيل: إنه زوّجها ببعض الملوك ولم يتزوجها هو^(٣).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَنَاهُمْ صَلِّعًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالَ يَنْفَوِرَ لِمَ سَتَعْمَلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا سَتَعْمَلُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ قَالُوا أَلَكُنَّا بِكَ وَوَمِن مَّعَلِّكَ قَالَ طَعْنَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُتَعَمِّدُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ أي: مؤمن وكافر ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه قولهم: ﴿أَتَمَلُّوكَ أَنْتَ صَلِّعًا مُرْمَرًا مِنْ رَبِّهِ...﴾ ﴿٤٨﴾ الآيات [الأعراف: ٧٥-٨٠]. والثاني: أنه قول كل فريق منهم: الحقُّ معي.

قوله تعالى: ﴿لِمَ سَتَعْمَلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وذلك حين قالوا: إن كان ما آتينا به حقًا فائتنا بالعذاب. وفي السيئة

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في «ديوان الهذليين» ١٣٦/١، و«غريب القرآن» ٣٢٥، و«اللسان» و«التاج»: صرح.

(٢) قال ابن كثير في «التفسير»: والغرض أن سليمان ﷺ اتخذ قصرًا عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة ليربها عظمة سلطانه وتمكّنه، فلما رأت ما أتاه الله وجلالة ما هو فيه، وتبصّرت في أمره، انقادت لأمر الله تعالى، وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله ﷻ وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سَيِّئَتِنِ لِرَبِّ كَاتِلِينَ﴾ أي: متابعة لدين سليمان في عبادة الله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً. اهـ.

(٣) قال ابن كثير في «البداية والنهاية» ٢٤/٢ بعد أن ذكر القولين: والأول أشهر وأظهر. وقال الألويسي في «روح المعاني» ١٨٩/١٩: والمشهور أنه ﷺ تزوجها، وإليه ذهب جماعة من أهل الأخبار.

والحسنة قولان: أحدهما: أن السيئة: العذاب، والحسنة: الرحمة، قاله مجاهد. والثاني: [أن] السيئة؛ البلاء، والحسنة: العافية، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا﴾ أي: هلاً ﴿سَتَقْبِرُونَ اللَّهَ﴾ من الشرك ﴿لَمَّا كُمُ تَرْمُونَ﴾ فلا تعذبون. ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا﴾ قال ابن قتيبة: المعنى: تطيّرنا وتشاءنا ﴿بِإِكِّ﴾، فأدغمت التاء في الطاء، وأثبتت الألف، ليسلم السكون لِمَا بعدها. وقال الزجاج: الأصل: تطيّرنا، فأدغمت التاء في الطاء، واجتلبت الألف لسكون الطاء؛ فإذا ابتدأت قلت: اطَّيّرنا، وإذا وصلت لم تذكر الألف وتسقط لأنها ألف وصل، [وإنما] تطيّرنا به، لأنهم قحطوا وجاعوا، ف ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مَلَأَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقد شرحنا هذا المعنى في [الأعراف: ٤١٣١]. وفي قوله: ﴿تَقْتَبِرُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تُحْتَبِرُونَ بالخير والشّر، قاله ابن عباس. والثاني: تُصرفون عن دينكم، قاله الحسن. والثالث: يُتَلَوْنَ بالطاعة والمعصية، قاله قتادة.

﴿وَكَانَ فِي آلِ يَدْيَةَ يَمَنَةً رَهْطٍ يَمِيدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ﴾ ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿مَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَمَنْ لَا يَشْعُرْ﴾ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ﴾ ﴿فَبَلَكَ يَوْمَهُمْ خَاوِبَةً بَمَّا ظَلَمُوا رَبَّكَ فِي ذَلِكَ لَكِبَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَأَمِينًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي آلِ يَدْيَةَ﴾ وهي الحجر التي نزلها صالح ﴿يَمَنَةً رَهْطٍ يَمِيدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يريد: في أرض الحجر، وفسادهم؛ كفرهم ومعاصيهم، وكانوا يسفكون الدماء ويبيون على الأموال والفروج، وهم الذين عملوا في قتل الناقة. وروى عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح قالا: كان فسادهم كسر الدراهم والدنانير، ﴿قَالُوا﴾ فيما بينهم ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: احلّفوا بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ أي: لنقتلنّ صالحاً ﴿وَأَهْلَهُ﴾ ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: «لنبيئته وأهله ثم لنقولنّ» بالتاء فيهما. وقرأ مجاهد، وأبو رجاء، وحמיד بن قيس: «لنبيئته» بياء وتاء مرفوعتين ثم ليقولنّ» بياء مفتوحة وقاف مرفوعة وواو ساكنة ولام مرفوعة ﴿لِوَلِيِّهِ﴾ أي: لوليّ دمه إن سألنا عنه ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ أي: ما حضرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ قرأ الأكترون بضم الميم وفتح اللام؛ والمهْلِكُ يجوز أن يكون مصدرًا بمعنى الإهلاك، ويجوز أن يكون الموضع. وروى أبو بكر، وأبان عن عاصم: بفتح الميم واللام، يريد الهلاك؛ يقال: هَلَكَ يَهْلِكُ مَهْلَكًا. وروى عنه حفص، والمفضل: بفتح الميم وكسر اللام، وهو اسم المكان، على معنى: ما شهدنا موضع هلاكهم؛ فهذا كان مكرمهم، فجازاهم الله عليه فأهلكهم. وفي صفة إهلاكهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم أتوا دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمّتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم، [قاله ابن عباس]. والثاني: رماههم الله بصخرة فقتلتهم، قاله قتادة. والثالث: أنهم دخلوا غاراً ينتظرون مجيء صالح، فبعث الله صخرة سدّت باب الغار، قاله ابن زيد. والرابع: أنهم نزلوا في سفح جبل ينتظر بعضهم بعضاً ليأتوا دار صالح، فجثم عليهم الجبل فأهلكهم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «أنا دمّرناهم» بفتح الألف. وقرأ الباقون بكسرها. فمن كسر استأنف، ومن فتح، فقال أبو علي: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون بدلاً من ﴿عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾^(١). والثاني: أن يكون محمولاً على مبتدأ مضمّر، كأنه قال: هو أنا دمّرناهم.

قوله تعالى: ﴿فَبَلَكَ يَوْمَهُمْ خَاوِبَةً﴾ قال الزجاج: هي منصوبة على الحال؛ المعنى: فانظر إلى بيوتهم خاوية. ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنِّي لَأَنْذِرُكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْبِئْسَةِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالَ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَلْطَهُونَ﴾ ﴿فَأَمِينَةً وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ فَعَدَّزْنَاهَا مِنَ الْغَيِّبِ﴾ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا سَاءَةً مَطَرًا السُّنْدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَنَّا أَنْذَرْتُ الْفَلَجَةَ وَأَنْتُمْ تُجِيرُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: وأنتم تعلمون أنّها فاحشة. والثاني: وبعضكم يبصر بعضاً.

(١) في الأصل: عاقبة امرم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِخُلُوبِكُمْ﴾ قال ابن عباس: تجهلون القيامة وعاقبة العيصان.

قوله تعالى: ﴿فَلْتَرْزُقْنَاهَا﴾ خفيفة، وهي في معنى المشددة. وباقى القصة قد تقدم تفسيره [عرد: ٧٧].

عاصم: ﴿فَلْتَرْزُقْنَاهَا﴾ خفيفة، وهي في معنى المشددة. وباقى القصة قد تقدم تفسيره [عرد: ٧٧].

﴿قُلْ لِمَنْدُ اللَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ ﴿١٠١﴾ أَمْ نَحْنُ الْكَافِرُونَ وَالْأَرْضُ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاكَ بِهَجْرَةٍ مِمَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ يَلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ بِمِثْلُونَ ﴿١٠٢﴾ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْنَا خِلَافَهَا أَهْنًا وَجَعَلْنَا لَهَا رِيسًا وَجَعَلْنَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ يَلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَلَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْدُ اللَّهِ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ، أمر أن يحمّد الله على هلاك الأمم الكافرة، وقيل: على جميع نعمه، ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ فيهم أربعة أقوال: أحدها: الرسل، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وروى عنه عكرمة، قال: اصطفى إبراهيم بالخلّة، وموسى بالكلام، ومحمدًا بالرؤية^(١). والثاني: أنهم أصحاب محمد ﷺ، رواه أبو مالك عن ابن عباس، وبه قال السدي. والثالث: أنهم الذين وحّدوه وآمنوا به، رواه عطاء عن ابن عباس. والرابع: أنه محمد ﷺ، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ﴾ قال أبو عبيدة: مجازة: أو ما يشركون^(٢)، وهذا خطاب للمشركين؛ والمعنى: الله خير لمن عبده، أم الأصنام لعابديها؟ ومعنى الكلام: أنه لما قضّ عليهم قصص الأمم الخالية، أخبرهم أنه نجّى عابديه، ولم تُفني الأصنام عنهم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ الْكَافِرُونَ﴾ تقديره: أمّا يشركون خبير، ﴿أَمْ نَحْنُ الْكَافِرُونَ وَالْأَرْضُ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاكَ بِهَجْرَةٍ﴾؟ فأما الحدائق، فقال ابن قتيبة: هي البساتين، واحدها: حديقة، سميت بذلك لأنه يُحَدَّقُ عليها، أي: يُحْطَرُ، والبهجة: الحسن.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي: ما ينبغي لكم ذلك [لأنكم] لا تقدرتون عليه. ثم قال مستفهماً مُتَّكِرًا عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَلَمْ أَنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ﴾ أي: ليس معه إله ﴿بَلَّ هُمْ﴾ يعني: كفار مكة ﴿قَوْمٌ بِمِثْلُونَ﴾ وقد شرحناه في فاتحة (الأنعام). ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مُسْتَقَرًّا لا تُمِيدُ بأهلها ﴿وَجَعَلْنَا خِلَافَهَا﴾ أي: فيما بينها ﴿أَهْنًا وَجَعَلْنَا لَهَا رِيسًا﴾ أي: جبالاً ثوابت ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: مانعاً من قدرته بين العذب والمِلْح أن يختلطاً، ﴿بَلَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَدَّرَ عَظْمَةَ اللَّهِ.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْنَا خِلَافَهَا أَهْنًا وَجَعَلْنَا لَهَا رِيسًا وَجَعَلْنَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ يَلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَلَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَدَّرَ عَظْمَةَ اللَّهِ.

(١) رواه ابن جرير ٤٨/٢٧ عن عكرمة عن ابن عباس، وذكره السيوطي في "الدرر" ٢/ ٢٣٠ وزاد نسبه للطبراني في "السنن" عن ابن عباس. وهذا رأي ابن عباس، وقد روى مسلم في "صحيحه" ١٥٨/١ عن ابن عباس قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قال: رأى جبريل ﷺ له ستماعة جناح، وروى مسلم ١٥٨/١ عن أبي هريرة: ﴿وَلَقَدْ رَأَى تِلْكَ لَأَنَّى﴾ قال: رأى جبريل. قال ابن كثير: وكان ابن عباس ﷺ يثبت الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية، وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة والتابعين وغيرهم، قال ابن كثير: وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية ﴿وَلَقَدْ رَأَى تِلْكَ لَأَنَّى﴾ عند يَدَيْهِ النَّصِيِّينَ قال: قال رسول الله ﷺ: فرأيت جبريل وله ستماعة جناح... الحديث، ثم قال: وهذا إسناده جيد قوي. اهـ. وروى الإمام مسلم في "صحيحه" ١٥٩/١ عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما من؟ قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أم المؤمنين انظري ولا تعجلي، ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَأَى تِلْكَ لَأَنَّى﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منبسطاً من السماء ساداً عظيم خلقه ما بين السماء إلى الأرض، فقالت: أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾؟ أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْحِقَهُ اللَّهُ إِلَّا وَسْئَرًا أَوْ مِنْ وَجْهِ جِبَابٍ أَوْ رِيحٍ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾؟ قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتبت شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿بِأَيِّ آيَاتِهِ يُؤْمِنُ مَا آوَّلُ إِلَيْكَ مِنْ ذِكْرِهِ وَإِنْ لَمْ تُحْمَلْ مَا كُنْتَ تَكْفُرُ﴾؟ قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُلْ لَا يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ فِتْنَةِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَّا اللَّهُ﴾ وانظر «فتح الباري شرح صحيح البخاري» للحافظ ابن حجر العسقلاني ٤٦٦/٨، ٤٦٩.

(٢) كذا الأصل، وفي «مجاز القرآن» ٢/ ٩٥: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ﴾ مجازة: أم ما تشركون، أي: أم الذي تشركون به، فأدغمت اليم في اليم فقلّت.

فِي ظِلْمَتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَدَّلَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَنْتُمْ يَدْرَأُونَ لِمَالِكٍ تَدْرُؤُهُمْ وَمَنْ يَرْفُكْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ مَا تَأْتُوا بِهِنَّ كُنْتُمْ سَوَافِكٌ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَمَلِكُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ النَّيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَتَّبِعُهُ أَتَانٌ يُعْتَبَرُ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادْرَاكُ عِلْمِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَدَلٌ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِمَّا بَدَلُ لَهُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَنْبَاءَ كَذِبٍ أُولَئِكَ لَمُجْرِمُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَدَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَاَنْزَلْنَا كَيْفَ كَانَ عَقِيبُهُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٦٩﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَوْقٌ لَكُمْ يَنْصُرُ الْآلِيَّ سَتَعْجِلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٣﴾ وَمَا مِنْ عَلِيمٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ يُجِبُ الظُّلْمَ﴾ وهو: المكروب المجهود؛ ﴿وَكَيْفَ الشُّؤْبَ﴾ يعني الضَّرَّ^(١) ﴿وَيَجْمَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: يهلك قرناً وينشئ آخرين^(٢)، و﴿تَدْرِكُونَ﴾ بمعنى تتعطلون. وقرأ أبو عمرو بالياء، والباقون بالياء. ﴿أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يُرشدكم إلى مقاصدكم إذا سافرتم ﴿فِي ظِلْمَتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ وقد بيَّناها في [الانعام: ٦٣، ٩٧] وشرحنا ما يليها من الكلمات فيما مضى [الاعراف: ٥٧، يونس: ٤] إلى قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُهُ﴾ يعني مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿أَتَانٌ يُعْتَبَرُ﴾ أي: متى يعيرون بعد موتهم.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ادْرَاكُ عِلْمِهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿بَلِ ادْرَاكُ﴾ قال مجاهد: ﴿بَلِ﴾ بمعنى «أم» والمعنى: لم يُدركْ عِلْمُهُمْ، وقال الفراء: المعنى: هل أدرك عِلْمُهُمْ عِلْمَ الْآخِرَةِ؟ فعلى هذا يكون المعنى: إنهم لا يقفون في الدنيا على حقيقة العِلْمِ بِالْآخِرَةِ. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿بَلِ ادْرَاكُ﴾ على معنى: بل تدارك، أي: تتابع وتلاحق، فأدغمت التاء في الدال. ثم في معناها قولان: أحدهما: بل تكامل عِلْمُهُمْ يوم القيامة لأنهم مبعوثون، قاله الزجاج. وقال ابن عباس: ما جهلوه في الدنيا، عِلْمُوهُ فِي الْآخِرَةِ. والثاني: بل تدارك ظَنُّهُمْ وَحُدُسُهُمْ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْآخِرَةِ، فتارة يقولون: إنها كائنة، وتارة يقولون: لا تكون، قاله ابن قتيبة. وروى أبو بكر عن عاصم: ﴿بَلِ ادْرَاكُ﴾ على وزن افتعل من أدركت.

قوله تعالى: ﴿بَدَلُ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِمَّا بَدَلُ لَهُمْ مِنْهَا﴾ أي: بل هم اليوم في شك من القيامة ﴿بَدَلُ لَهُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: من عِلْمِهَا. وما بعد هذا قد سبق بيانه [النمل: ١٢٧، المؤمنون: ٣٥، ٤٢] إلى قوله: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعنون: العذاب الذي تعدنا. ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَوْقٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: قُرْبٌ لَكُمْ. وقال ابن قتيبة: تَبَعُكُمْ، واللام زائدة، كأنه قال: رَوْقُكُمْ. وفي ما تبعمم ممَّا استعجلوه قولان: أحدهما: يوم بدر. والثاني: عذاب القبر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال مقاتل: على أهل مكة حين لا يعجل عليهم بالعذاب. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ما تخفيه ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بالسنتهم من عداوتك وخلافك؛ والمعنى أنه يجازيهم عليه. ﴿وَمَا مِنْ عَلِيمٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ؛ والمعنى: إنَّ عِلْمَ مَا يَسْتَعْجِلُونَهُ مِنَ الْعَذَابِ بَيِّنٌ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنْ غَابَ عَنِ الْخَلْقِ.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْصُرُ عَلَى بَوِّجِ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الْآلِيَّ مِمَّ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَمُدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْبِضُ

(١) قال ابن كثير: بيَّنه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَمُدُّكَ الْمُدَى وَالْحَبْرُ لَمُدُّكَ الْحَبْرَ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُدُّنَا إِلَيْكُمْ الْحَبْرَ﴾ وهكذا قال هاهنا: ﴿أَنْتُمْ يُجِبُ الظُّلْمَ إِيَّاهُمْ﴾ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكتشف شر المشركين سواه؟

(٢) قال ابن كثير: أي: أمه بعد أمه وجيلاً بعد جيل وقوماً بعد قوم، ولو شاء لأوجدتهم كلهم في وقت واحد ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يبيت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، لكانت تفتيق عنهم الأرض وتضييق عليهم معاشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمة وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة ويهدأهم في الأرض ويجعلهم قروناً بعد قرون وأماماً بعد أمم حتى ينفضي الأجل وتفرغ البرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى وكما أحصاهم وعلمهم عدداً، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله، ولهذا قال: ﴿أَنْتُمْ يُجِبُ الظُّلْمَ إِيَّاهُمْ وَيَكْتُمُ الشُّؤْبَ وَيَجْمَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: يقدر على ذلك، أو إله مع الله بعد هذا، وقد علم أن الله هو المفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له [١٢٩].

يَتَّبِعُهُمْ بِحُكْمِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّاسِخُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ النَّصِيحِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ السَّمْعَ وَلَا تَرَى الْأَعْيُنَ وَإِنَّا نَظُنُّكَ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي السُّعْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِنَّا نَقَعُ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ اتِّخَافًا لَمْ دَأَبْنَا مِنْ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

﴿وَإِنَّا نَقَعُ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ اتِّخَافًا لَمْ دَأَبْنَا مِنْ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه، فلو أخذوا به لسلموا. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ يعني بين بني إسرائيل ﴿بِحُكْمِهِ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «بِحُكْمِهِ» بكسر الحاء وفتح الكاف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ السَّمْعَ﴾ قال المفسرون: هذا مثلٌ ضربه الله للكفار فشبههم بالموتى.

قوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُ السَّمْعَ الْأَعْمَى﴾ وقرأ ابن كثير: «ولا يسمع الصم» بفتح ميم «يسمع»، وضم ميم «الصم».

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا نَظُنُّكَ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: أن الصم إذا أدبروا عنك ثم ناديتهم لم يسمعون، فكذلك الكافر. ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي السُّعْيِ﴾ أي: [ما أنت] بمرشيد من أعماه الله عن الهدى، ﴿إِنْ تَسْمَعُ﴾ إسماع إفهام ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا نَقَعُ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ اتِّخَافًا لَمْ دَأَبْنَا مِنْ الْأَرْضِ﴾ «وقع» بمعنى «وجب». وفي المراد بالقول ثلاثة أقوال: أحدها: العذاب، قاله ابن عباس. والثاني: الغضب، قاله قتادة. والثالث: الحجّة، قاله ابن قتيبة. ومتى ذلك؟ فيه قولان: إذا لم يأمرنا بمعروف، ولم ينهنا عن منكر، قاله ابن عمر، وأبو سعيد الخدري. والثاني: إذا لم يُرج صلاحهم، حكاه أبو سليمان الدمشقي، وهو معنى قول أبي العالية. والإشارة بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إلى الكفار الذين تخرج الدابة عليهم. وللمفسرين في صفة الدابة أربعة أقوال: أحدها: أنها ذات وبر وريش، رواه حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ^(١). وقال ابن عباس: ذات زغب وريش لها أربع قوائم. والثاني: أن رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن إبل^(٢)، وصدورها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرة، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً، رواه ابن جريج عن أبي الزبير. والثالث: أن وجهها وجه رجل، وسائر خلقها كخلق الطير، قاله وهب. والرابع: أن لها أربع قوائم وزغباً وريشاً وجناحين، قاله مقاتل. وفي المكان الذي تخرج منه خمسة أقوال: أحدها: من الصفا. روى حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ [أنه] قال: «بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون، تضطرب الأرض تحتهم، وينشق الصفا ممناً يلي المسمى، وتخرج الدابة من الصفا، أول ما يبدو منها رأسها، ملئمة ذات وبر وريش، لن يدركها طالب، ولن يفوتها هارب»^(٣). وفي حديث آخر عن النبي ﷺ أنه قال: «طولها ستون ذراعاً»^(٤)، وكذلك قال ابن مسعود: تخرج من الصفا. وقال ابن عمر: تخرج من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام وما خرج ثلثها. وقال عبد الله بن عمر: تخرج الدابة فيمس رأسها السحاب ويرجلاها في الأرض ما خرجتا. والثاني: أنها تخرج من شئب أجداد، روي عن النبي ﷺ^(٥)، وعن ابن عمر مثله. والثالث: تخرج من بعض أردية تهامة، قاله ابن عباس. والرابع: من بحر سدوم، قاله وهب بن منبه. والخامس: أنها تخرج بتهامة بين الصفا والمروة، حكاه الزجاج. وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «تخرج الدابة معها خاتم سليمان، وعصا موسى، فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم، حتى إن أهل البيت ليجتمعون، فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر»^(٦). وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «تقسم المؤمن بين عينيه وتكتب بين عينيه: مؤمن، وتسم الكافر

(١) «الطبري» ١٥/٢٠، قال ابن كثير: ورواه ابن جرير من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً، وأن ذلك في زمن عيسى ابن مريم وهو يطوف بالبيت، ثم قال: وإسناده لا يصح.

(٢) بكسر الهمزة وضمها: ذكر الأوهال.

(٣) هو الحديث الذي تقدم من رواية ابن جرير الطبري الذي قال فيه ابن كثير: إسناده لا يصح.

(٤) ذكره الطبرسي في «مجمع البيان» عن حذيفة مرفوعاً ولم يذكر من رواه، والله أعلم.

(٥) ذكره السيوطي في «الدرر» ١١٧/٥ من رواية ابن مردويه، والبيهقي في «البعث» عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) رواه الطبري: ١٥/٢٠ وفي سننه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. ورواه الترمذي ١٥٠/٢ وحسنه، وذكره السيوطي في «الدرر» ١١٦/٥ وزاد نسبه لأحمد، وأبي داود الطيالسي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث» عن أبي هريرة ﷺ.

بين عينيه وتكتب بين عينيه: كافر^(١)، وتصرخ ثلاث صرخات يسميها من بين الخافقين^(٢)، وقال حذيفة بن أسيد: إن للدابة ثلاث خرجات، خرجة في بعض البوادي ثم تنكتم، وخرجة في بعض القرى ثم تنكتم، فبينما الناس عند أشرف المساجد - يعني المسجد الحرام - إذ ارتفعت الأرض، فانطلق الناس هرباً، فلا يفوتونها، حتى إنها لتأتي الرجل وهو يصلي، فتقول: أنتعود بالصلاة، والله ما كنت من أهل الصلاة، فتخطمته، وتجلو وجه المؤمن^(٣). وقال عبد الله بن عمرو: إنها تنكث في وجه الكافر نكتة سوداء تفسو في وجهه فيسود وجهه، وتنكث في وجه المؤمن نكتة بيضاء تفسو في وجهه حتى يبيض وجهه، فيعرف الناس المؤمن والكافر، ولكأني بها قد خرجت في عقب ركب من الحاج^(٤).

قوله تعالى: ﴿تَكَلَّمُهُمْ﴾ قرأ الأكترون بتشديد اللام، فهو من الكلام. وفيما تكلمهم به ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، قاله قتادة، والثاني: تكلمهم بطلان الأديان سوى دين الإسلام، قاله السدي. والثالث: تقول: هذا مؤمن، وهذا كافر، حكاه الماوردي. وقرأ ابن أبي عبله، والجحدري: بتسكين الكاف وكسر اللام [وفتح التاء]، فهو [من] الكلم؛ قال ثعلب: والمعنى: تجرحهم. وسئل ابن عباس عن القراءتين، فقال: كل ذلك والله فعله، تكلم المؤمن، وتكلم الفاجر والكافر، أي: تجرحه.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ قرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بفتح الهمزة، وكسرهما الباقون؛ فمن فتح أراد: تكلمهم بأن الناس، وهكذا قرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني: «تكلمهم بأن الناس» بزيادة باء مع فتح الهمزة؛ ومن كسر، فلأن معنى «تكلمهم»: تقول لهم: إن الناس، والكلام قول.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَلِّمُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوقِنُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمْنَا أَنَّمَا كُنْتُمْ تَمْسَلُونَ ﴿١٨﴾ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَبْطِقُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِنُشْكَرُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ الفوج: الجماعة من الناس كالزمرة، والمراد به: الرؤساء والمتبعون في الكفر، حُشروا وأقيمت الحجة عليهم. وقد سبق معنى ﴿يُوقِنُونَ﴾ [التمل: ١٧]. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو﴾ إلى موقف الحساب ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهم: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي؟!﴾ هذا استفهام إنكار عليهم ووعيد لهم، ﴿وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمْنَا﴾ فيه قولان. أحدهما: لم تعرفوها حتى معرفتها. والثاني: لم تحيطوا علماً بطلانها. والمعنى: إنكم لم تفكروا في صحتها، ﴿أَنَّمَا كُنْتُمْ تَمْسَلُونَ﴾ في الدنيا فيما أمرتكم به ونهيتمكم عنه!؟

قوله تعالى: ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ قد شرحناه آنفاً [التمل: ١٨] ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بما أشركوا ﴿فَهُمْ لَا يَبْطِقُونَ﴾ بحجة عن أنفسهم. ثم احتج عليهم بالآية التي تلي هذه. ومعنى قوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: يبيصر فيه لابتغاء الرزق.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَرَىٰ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهُ دَاخِرِينَ﴾ وَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَائِدَةً وَهِيَ تُرْمَرُ مِنَ السَّمَاءِ صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْعَمَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا وَهُمْ مِنْ فَوْجٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِئُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتٌ يُعْرَفُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُحْزَنُونَ ﴿٢٣﴾ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ قال ابن عباس: هذه النفخة الأولى.

(١) ذكره الطبرسي في «مجمع البيان» من رواية حذيفة مرفوعاً بهذا اللفظ، ولم ينسبه لأحد، ورواه الطبري من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً بلفظ: نسيتم الناس: مؤمن، وكافر، أما المؤمن فترك وجهه كأنه كوكب دري، وتكتب بين عينيه: مؤمن، وأما الكافر فتكتب بين عينيه نكتة سوداء: كافر، وإسناده لا يصح، كما قال ابن كثير.

(٢) ذكره السيوطي في «الدرر» ١١٧/٥ من رواية ابن مردويه، والبيهقي في «البعث» عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) رواه الطبري ١٤/٢٠ من طريقين عن حذيفة بن أسيد مرفوعاً، ورواه أبو داود الطيالسي مرفوعاً من حديث حذيفة بن أسيد، وذكره السيوطي في «الدرر» ١١٦/٥ من حديث حذيفة بن أسيد مرفوعاً، وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث».

(٤) رواه الطبري ١٥/٢٠ بمعناه عن عبد الله بن عمر مرفوعاً وروى الفقرة الأخيرة منه، وهي قوله: «ولكأني بها قد خرجت في عقب ركب من الحاج» عن عبد الله بن عمرو، وذكره السيوطي في «الدرر» بمعناه ١١٥/٥ من رواية عبد بن حميد عن عبد الله بن عمرو.

قوله تعالى: ﴿فَنَفِّحْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [قال المفسرون: المعنى: فيفزع مَنْ في السموات ومن في الأرض]، والمراد أنهم ماتوا، بلغ بهم الفزع إلى الموت. وفي قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الشهداء، قاله أبو هريرة، وابن عباس، وسعيد بن جبير. والثاني: جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت، ثم إن الله تعالى يميّتهم بعد ذلك، قاله مقاتل. والثالث: أنهم الذين في الجنة من الحور وغيرهن، وكذلك مَنْ في النار، لأنهم خلّقوا للبقاء، ذكره أبو إسحاق ابن شاقلا من أصحابنا^(١).

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ﴾ أي: من الأحياء الذين ماتوا ثم أحيوا «آتَوْهُ» وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: «آتَوْهُ» بفتح التاء مقصورة، أي: يأتون الله يوم القيامة «ذَخِيرَةً» قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صاغرين. قال أبو عبيدة: «كُلُّ» لفظه لفظ الواحد، ومعناه يقع على الجميع، فهذه الآية في موضع جمع.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَى الْجِبَالَ﴾ قال ابن قتيبة: هذا يكون إذا نفخ في الصور، تُجَمَعُ الجبال وتُسَيَّرُ، فهي لكثرتها تُحَسَبُ «جَابِدَةً» أي: واقفة «وَيْهِ تَمُرٌّ» أي: تسير سير السحاب، وكذلك كلُّ جيش عظيم يحسبه الناظر من بعيد واقفاً وهو يسير، لكثرت، قال الجعديّ يصف جيشاً:

بِأَرْعَافٍ وَبِشَلِّ الطُّرُودِ تُحَسَّبُ أَنَّهُمْ

قوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على المصدر، لأن قوله: ﴿وَرَزَى الْجِبَالَ تَحْسَبًا جَابِدَةً﴾ دليل على الصنعة، فكانه قال: صنع الله ذلك صنعا، ويجوز الرفع على معنى: ذلك صنَع الله. فأما الإيقان، فهو في اللغة: إحكام الشيء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَمَلُّونَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «يفعلون» بالياء. وقرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي بالتاء.

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ قد شرحنا الحسنة والسيئة في آخر [الأنعام: ١٦٠].

قوله تعالى: ﴿لَلَّهِ خَيْرٌ نِتَانًا﴾ فيه قولان: أحدهما: فله خير منها يصل إليه، وهو الثوب، قاله ابن عباس، والحسن، وعكرمة. والثاني: فله أفضل منها، لأنه يأتي بحسنة فيعطى عشر أمثالها، قاله زيد بن أسلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْزِعْ يَوْمَئِذٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «مَنْ فَرَعَ يَوْمَئِذٍ» مضافاً. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «مَنْ فَرَعَ» بالتثنية «يومئذٍ» بفتح الميم. وقال الفراء: الإضافة أعجب إليّ في العربية، لأنه فرع معلوم، ألا ترى إلى قوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فصيرَه معرفة، فإذا أضفت مكان المعرفة كان أحب إليّ. واختار أبو عبيدة قراءة التثنية وقال: هي أعمُّ التأويلين، فيكون الأمن من جميع فرع ذلك اليوم. قال أبو علي الفارسي: إذا نَوَّنَ جاز أن يُعْنَى به فرعٌ واحدٌ، وجاز أن يُعْنَى به الكثرة، لأنه مصدر، والمصادر تدل على الكثرة وإن كانت مفردة الألفاظ، كقوله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ اللَّيْلِ﴾ [لقمان: ١٩]، وكذلك إذا أُضِيفَ جاز أن يُعْنَى به فرع واحد، وجاز أن يُعْنَى به الكثرة؛ وعلى هذا القول، القراءتان سواء، فإن أريد به الكثرة، فهو شامل لكل فرع يكون يوم القيامة، وإن أريد به الواحد، فهو المشار إليه بقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وقال ابن السائب: إذا أطبقت النَّارُ على أهلها فَرَعُوا فَرَعَةً لم يفزعوا مثلها، وأهل الجنة آمنون من ذلك الفرع.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ قال المفسرون: هي الشُّرْكُ «فَكَبَّتْ وَجْهَهُمْ» يقال: كَبَيْتُ الرجل: إذا ألقيته لوجهه؛ وتقول لهم حَزَنَةٌ جهنم: «هَلْ تُحْزَنُونَ» إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَمَلُّونَ» أي: إِلَّا جِزَاءَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشُّرْكِ.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ هَيِّجَ رَيْبَ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَمَهَا وَلَكِنْ كُلُّ مَنْ هُوَ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَأَنْ أَتَلَوْا الْقُرْآنَ فَمَنْ

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن شاقلا البزار الحنبلي المتوفى (٣٦٩ هـ) ترجمته في «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى ٢/ ١٢٨.

(٢) البيت للثابتة الجعدي. وهو في «مشكل القرآن» ٥، و«الطبري» ٢٠/ ٢١، و«مجمع البيان» ٢٠/ ٢٥٧، و«القرطبي» ١٣/ ٢٤٢، و«البحر» ٧/ ١٠٠.

أَفْتَدَىٰ فَلَمَّا بَيَّنَّوْا يَنفِذِي لِقَابِي رَبِّي ﴿٩٢﴾ وَقُلْ لِّمَن كَانَ عَدُوًّا لِّبَنِي إِدْرِيصَ فَتَعَفَّرُونَهَا وَمَا رَّبُّكَ بِفَاعِلٍ مِّمَّنْ عَمَّا تَصَلَوْنَ ﴿٩٣﴾
 قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ المعنى: قل للمشركين: إنما أمرت ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّكَ هَٰذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني: «التي حرّمها»، وهي مكة، وتحريمها: تعظيم حرمتها بالمنع من القتل فيها والسبي والكف عن صيدها وشجرها^(١)، ﴿وَلَمْ كُنْ شَيْئًا﴾ لأنه خالقه ومالكه، ﴿وَأَمْرَتْ أَنْ أَكُونَ مِنَ السُّلَاطِينِ﴾ أي: من المخْلِصين لله بالتوحيد، ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ عليكم ﴿فَمَنْ أَفْتَدَىٰ فَلَمَّا بَيَّنَّوْا يَنفِذِي لِقَابِي﴾ أي: فله ثواب اهتدائه ﴿وَمَنْ صَلَّىٰ﴾ أي: أخطأ [طريق] الهدى ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: ليس عليّ إلا البلاغ؛ وذكر المفسرون أن هذا منسوخ بآية السيف. ﴿وَقُلْ لِّمَن كَانَ عَدُوًّا لِّبَنِي إِدْرِيصَ﴾ أي: قُلْ لِمَنْ ضَلَّ: الحمد لله الذي وَقَفْنَا لِقَبُولِ مَا امْتَنَعْتُمْ مِنْهُ ﴿سَبْرِيكُمْ مَائِدَةٍ﴾. ومتى يريهم؟ فيه قولان: أحدهما: في الدنيا. ثم فيها^(٢) ثلاثة أقوال: أحدها: أن منها الدخان وانشقاق القمر، وقد أراههم ذلك، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: سيركم آياته [فتعرفونها]^(٣) في السماء، وفي أنفسكم، وفي الرزق، قاله مجاهد. والثالث: القتل بيد، قاله مقاتل. والثاني: سيركم آياته في الآخرة فتعرفونها على ما قال في الدنيا، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِفَاعِلٍ مِّمَّنْ عَمَّا تَصَلَوْنَ﴾^(٤) وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «تعملون» بالياء، على معنى: قل لهم. وقرأ الباقون بالياء، على أنه وعيد لهم بالجزاء على أعمالهم.



(١) قال ابن كثير: وقوله: ﴿الَّتِي حَرَّمَهَا﴾ أي: الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها، كما ثبت في «الصحاحين» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعصده شوكه، ولا يضر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يُختلى خلالها...» الحديث بتمامه. اهـ. وهو في «البيخاري» ٤٢/٤، و«مسلم» ٩٨٦/٢. ومعنى «لا يعصده»: لا يقطع، وقوله: «ولا يُختلى خلالها» الخلا: الرطب من النبات، واختلاؤه: قطعه واحتشاشه.

(٢) أي: الآيات. (٣) زيادة من الطبري.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِفَاعِلٍ مِّمَّنْ عَمَّا تَصَلَوْنَ﴾: يقول تعالى ذكروه: وما ربك يا محمد بغافل عما يعمل هؤلاء المشركون، ولكن لهم أجل هم بالغزوه، فإذا بلغوه فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قال: يقول تعالى ذكروه لئيب ﷻ: فلا يحزنك تكذيبهم إياك، فإني من وراء إهلاكهم، وإني لهم بالمرصاد، فأيقن لنفسك بالنصر، وللدوك بالذل والخزي. اهـ.

سورة القصص

وهي مكِّيَّة كلها غير آية منها، وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [القصص: ٨٥] فإنها نزلت عليه وهو بالبحُفَّة في وقت خروجه للهجرة، هذا قول ابن عباس. وروي عن الحسن، وعطاء، وعكرمة: أنها مكِّيَّة كلها. وزعم مقاتل: أن فيها من المدني ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ [القصص: ٥٧] إلى قوله: ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]. وفيها آية ليست بمكبية ولا مدنية وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [القصص: ٨٥] نزلت بالبحُفَّة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿مَسَّ ١﴾ عَلَ كَابِثُ الْكَلْبِ الْبَيْنِ ٢ ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَحْوِ مَوْسَى وَفِرْعَوْنَ وَالْحَقَّ لِقَوْمِ يُؤْتُونَ ٣﴾ ١ ﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيكًا يَسْتَضِئُ مِنْ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ يُدَبِّحُ بِحَنَائِهِمْ وَوَسَخَى بِيَتْلَاهُمْ إِنَّه كَانَتْ مِنَ الْغَافِقِينَ ٤﴾ ٢ ﴿وَرِيدٌ أَنْ تَنْزَلَ عَلَى الْأَرْضِ أَسْخَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ آيَةً وَيَجْعَلُهُمُ الزُّبُرِ ٥﴾ ٣ ﴿وَمَكَرَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَوَرَى وَفِرْعَوْنَ وَوَسَخَى وَجَعَلَهُمْ آيَةً ٦﴾ ٤ ﴿ثُمَّ كَانُوا يَحْذَرُونَ ٧﴾ ٥

قوله تعالى: ﴿مَسَّ ١﴾ قد سبق تفسيره [الشعراء].

قوله تعالى: ﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: طغى وتجبَّر في أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيكًا﴾ أي: فرقًا وأصنافًا في خدمته ﴿يَسْتَضِئُ مِنْ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل، واستضعافه إياهم: استعبادهم، ﴿إِنَّه كَانَتْ مِنَ الْغَافِقِينَ﴾ بالقتل والعمل بالمعاصي. ﴿يُدَبِّحُ بِحَنَائِهِمْ﴾ وقرأ أبو رزين، والزهري، وابن محيصن، وابن أبي عمير: ﴿يُدَبِّحُ﴾ بفتح الياء وسكون الذال خفيفة.

قوله تعالى: ﴿وَرِيدٌ أَنْ تَنْزَلَ﴾ أي: تنجم ﴿عَلَى الْأَرْضِ أَسْخَعُوا﴾ وهم بنو إسرائيل، ﴿وَجَعَلَهُمْ آيَةً﴾ يقتدى بهم في الخير؛ وقال قتادة: ولاة وملوكًا ﴿وَجَعَلَهُمُ الزُّبُرِ﴾ لملك فرعون بعد غرقه.
قوله تعالى: ﴿وَوَرَى وَفِرْعَوْنَ وَوَسَخَى﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «ويرى» بياء مفتوحة وإمالة الألف التي بعد الراء «فرعون وهامان وجنودهما» بالرفع. ومعنى الآية: أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدي رجل من بني إسرائيل، فكانوا على وجل منهم، فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَهُ أُرْمُوزَ أَنْ أَرْضِيهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ كَفَائِهِ فِي آيَةٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْقَرَمِطِ ٧﴾ ٥ ﴿فَالْقَلْبُ مَالٍ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ٨﴾ ٦ ﴿وَقَالَ أَمْرًا فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٩﴾ ٧

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَهُ أُرْمُوزَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الهام، قاله ابن عباس. والثاني: أن جبريل أتاهما بذلك، قاله مقاتل. والثالث: أنه كان رؤيا منام، حكاه الماوردي. قال مقاتل: واسم أم موسى «يوحابد».

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْضِيهِ﴾ قال المفسرون: كانت امرأة من القوابل مصافية لأم موسى، فلما وضعته تولت أمرها ثم خرجت فراها بعض العيون فجأوا ليدخلوا على أم موسى، فقالت أخته: يا أمها هذا الحرس بالباب، قلقت موسى في خرقه ووضعه في التَّنُور وهو مُسَجَّرٌ فدخلوا ثم خرجوا، فقالت لأخته: أين الصبي، قالت: لا أدري، فسمعت بكاءه من التَّنُور فاطلعت وقد جعل الله عليه النَّارَ بَرْدًا وسلامًا^(١)، فأرضعته بعد ولادته ثلاثة أشهر، وقيل: أربعة أشهر، فلما

(١) هذه القصة ذكرها بعض المفسرين مصدرة بكلمة «روي»، ولم يذكروا من خرجها ولا عن رويت عنه، ولعلها من الإسرائيليات، والله أعلم.

خافت عليه صنعت له التابوت^(١). وفي قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ قولان: أحدهما: إذا خِفْتِ عليه القتال، قاله مقاتل. والثاني: إذا خِفْتِ [عليه] أن يصيح أو يبكي فيسمع صوته، قاله: ابن السائب. وفي قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ قولان: أحدهما: أن يفرق، قاله ابن السائب. والثاني: أن يضيع، قاله مقاتل^(٢). وقال الأصمعي: قلت لأعرابية: ما أفصحك! فقالت: وأبعد هذه الآية فصاحة وهي قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُلْنَاكَ وَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَكَلِّبِي فِي آيَةِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ بِكَ الزَّاسِكِينَ﴾ جمع فيها بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين!^{١٩}

قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ الالتقاط: إصابة الشيء من غير طلب. والمراد بال فرعون: الذين تولوا أخذ التابوت من البحر. وفي الذين التقطوه ثلاثة أقوال: أحدها: جوارى امرأة فرعون، قاله السدي. والثاني: ابنة فرعون، قاله محمد بن قيس. والثالث: أعوان فرعون، قاله ابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿يَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ أي: ليصير بهم الأمر إلى ذلك، لا أنهم أخذوه لهذا، وهذه اللام تسمى لام العاقبة، وقد شرحناها في [يونس: ٢٨٨]. وللمفسرين في معنى الكلام قولان: أحدهما: ليكون لهم عدوًّا في دينهم وحرزًا لِمَا يصنعه بهم. والثاني: عدوًّا لرجالهم وحرزًا على نساءهم، فقتل الرجال بالفرق، واستعبد النساء. ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وهي آسية بنت مزاحم، وكانت من بني إسرائيل تزوجها فرعون: ﴿فَرَأَتْ عَيْنًا﴾ قال الزجاج: رفع ﴿قُرَّةَ عَيْنٍ﴾ على إضمار «هو». قال المفسرون: كان فرعون لا يولد له إلا البنات، فقالت: ﴿عَيْنٌ أَنْ يَفْعَمَنَا﴾ فنصيب منه خيراً ﴿أَوْ نَنجِدَهُمُ وَوَدَّكَ﴾، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لا يشعرون أنه عدوٌّ لهم، قاله مجاهد. والثاني: أن هلاكهم على يديه، قاله قتادة. والثالث: لا يشعر بنو إسرائيل أن التقطناه، قاله محمد بن قيس. والرابع: لا يشعرون أني أفعل ما أريد لا ما يريدون، قاله محمد ابن إسحاق^(٣).

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَ فَرِيحًا﴾ إن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَظُنَّاكَ عَلَىٰ قَلْبِنَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُنْزَوِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأَخِيهِ قُصَيْبٍ فَصَرَّتْ بِهِ عَنْ جُثِيٍّ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلَ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ بَيْتٍ يَكْفُلُونَ لَكُمْ وَهُمْ لَكُمْ نَصِيرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آيَتِهِ كَمَا نَفَرْنَا مِنْهَا وَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَحْزَنِي وَوَدَّكَ وَأَعْبَدَ اللَّهَ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَ فَرِيحًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقاتدة، والضحاك. والثاني: أصبح فؤادها فرحاً، رواه الضحاك عن ابن عباس، وهي قراءة أبي رزين، وأبي العالية، والضحاك، وقاتدة، وعاصم الجحدري، فإنهم قرؤوا: «فَرِحًا» بزاي معجمة. والثالث: فارغاً من وحيناً بنسيانه، قاله الحسن، وابن زيد. والرابع: فارغاً من الحزن، لِعِلْمِهَا أَنَّهُ لَمْ يُقْتَلْ، قاله أبو عبيدة. قال ابن قتيبة: وهذا من أعجب التفسير، كيف يكون كذلك والله يقول: ﴿لَوْلَا أَنْ رَظُنَّاكَ عَلَىٰ قَلْبِنَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُنْزَوِينَ!﴾ وهل يُرَبِّطُ إِلَّا على قلب الجازع المحزون!

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ في هذه الهاء قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى موسى. ومتى أرادت هذا؟ فيه ثلاثة أقوال. أحدها: أنه حين فارقه؛ روى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس [أنه] قال: كادت تقول: يا بُنَيَّاه. قال قتادة: وذلك من شدة وجدها. والثاني: حين حَمَلَتْ لِرِضَاعِهِ ثُمَّ كادت تقول: هو ابني، قاله السدي. والثالث: أنه لما كَبُرَ وَسَمِعَتِ النَّاسَ يَقُولُونَ: موسى بن فرعون، كادت تقول: لا بل هو ابني، قاله ابن السائب. والقول الثاني: أنها ترجع إلى الوحي؛ والمعنى: إن كادت لتُبْدِي بالوحي، حكاه ابن جرير.

(١) والفته في اليم - أي البحر - وهو النيل. قال ابن جرير الطبري: وأولى قول قيل في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر موسى أن ترضعه، فإذا خافت عليه من عدو الله فرعون وجنده، أن تلقته في اليم، وجاز أن تكون خافتهم عليه بعد أشهر من ولادها إياه، وأي ذلك كان، فقد فعلت ما أوصى الله إليها فيه، ولا خبر قامت به حجة، ولا فطرة في العقل لبيان أي ذلك كان من أي، فأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال جل ثناؤه. قال: واليم الذي أمرت أن تلقيه فيه هو النيل. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ يقول: لا تخافي على ولدك من فرعون وجنده أن يقتلوه، ولا تحزني لفراقه.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك قول من قال: معنى ذلك: وفرعون وآله لا يشعرون بما هو كائن من هلاكهم على يديه.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّمَ قَلْبَهَا﴾ قال الزجاج: المعنى: لولا ربطنا على قلبها، والربط: إلهام الصبر وتشديد القلب وتقويته.

قوله تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْزِيهِينَ﴾ أي: من المصدقين بوعده الله. ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ قال ابن عباس: قضي أثره واطلبيته هل تسمعين له إذ نرأ، [أي]: أحي هو، أو قد أكلته الدواب؟ ونسيت الذي وعدنا الله فيه. وقال وهب: إنما قالت لأخته: قصيهِ، لأنها سمعت أن فرعون قد أصاب صبياً في تابوت. قال مقاتل: واسم أخته: مريم. قال ابن قتيبة: ومعنى «قصيهِ»: قضي أثره واتبعيه ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُحِيِّ﴾ أي: عن بُعد منها عنه وإعراض، لئلا يظنوا، والمجانبة من هذا. وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز: ﴿عَنْ جَنَابٍ﴾ بفتح الجيم والنون وبالف بعدها. وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني: ﴿عَنْ جَانِبٍ﴾ بفتح الجيم وكسر النون وبينهما ألف. وقرأ قتادة، وأبو العالية، وعاصم الجحدري: ﴿عَنْ جَنْبٍ﴾ بفتح الجيم وإسكان النون من غير ألف.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: وهم لا يشعرون أنه عدو لهم، قاله مجاهد. والثاني: لا يشعرون أنها أخته، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْكُرَاحِيَةَ﴾ وهي جمع مُرْضِعٍ ﴿بِإِنِّي لَأَنْزِلُ﴾ أي: من قبل أن تُرُدَّهُ على أمه، وهذا تحريم منع، لا تحريم شرع. قال المفسرون: بقي ثمانية أيام ولياليهن، كلما أتى بمرضِع لم يقبل ثديها، فأهمهن ذلك واشتد عليهن ﴿فَقَالَتْ﴾ لهم أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ آلِهَةٍ يَتَّبِعُونَ لَكُمْ﴾ فقالوا لها: نعم، من تلك؟ فقالت: أمي، قالوا: وهل لها لبن؟ قالت: لبن هارون. فلما جاءت قبل ثديها. وقيل: إنها لما قالت: ﴿وَهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا﴾ قالوا: لعلك تعرفين أهله، قالت: لا، ولكني إنما قلت: وهم للملك ناصحون.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آيَاتِهِ﴾ قد شرحناه في [طه: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا كَرِهَ آتَاكَ وَعَدَّاكَ﴾ بردٌ ولدها ﴿حَقٌّ﴾ وهذا علم عيان ومشاهدة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله وعدنا أن يرده إليها.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَوَحَّلَ الْمُنِيَّةَ عَلَىٰ بَيْنَ عَقَلِهِ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنْتَاهُ الَّتِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّتِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُؤْمِنٌ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَتَمَمْتُ حَلَّ لَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قد فسرنا هذه الآية في سورة [يوسف: ٢٢]، وكلام المفسرين في لفظ الآيتين متقارب، إلا أنهم فرّقوا بين بلوغ الأشد وبين الاستواء؛ فأما بلوغ الأشد، فقد سلف بيانه [الانعام: ١٥٢]. وفي مدة الاستواء لهم قولان: أحدهما: أنه أربعون سنة، قاله مجاهد، وقاتدة، وابن زيد. والثاني: ستون سنة، ذكره ابن جرير. قال المفسرون: مكث عند أمه حتى فطمته، ثم رده إليهم، فنشأ في حجر فرعون وامرأته واتخذاه ولداً.

قوله تعالى: ﴿وَوَحَّلَ الْمُنِيَّةَ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها مصر. والثاني: مدينة بالقرب من مصر. قال السدي: ركب فرعون يوماً وليس عنده موسى، فلما جاء موسى ركب في إثره فأدركه المقييل في تلك المدينة. وقال غيره: لما توهم فرعون في موسى أنه عدوه أمر بإخراجه من مدينته، فلم يدخل إلا بعد أن كبر، فدخلها يوماً ﴿عَلَىٰ بَيْنَ عَقَلِهِ مِنْ أَهْلِهَا﴾ وفي ذلك الوقت أربعة أقوال: أحدها: أنه كان يوم عيد لهم، وكانوا قد اشتغلوا فيه بلهوهم، قاله علي بن أبي طالب. والثاني: أنه دخل نصف النهار، رواه جماعة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير. والثالث: بين المغرب والعشاء، قاله وهب بن منبه. والرابع: أنهم لما أخرجوه لم يدخل عليهم حتى كبر، فدخل على حين غفلة عن ذكره، لأنه قد نسي أمره، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي: من أصحابه من بني إسرائيل ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي: من أعدائه من القبط، والعدو يذكّر للواحد وللجمع. قال الزجاج: وإنما قيل في الغائب: «هذا» و«هذا»، على جهة الحكاية للحضرة؛

والمعنى: أنه إذا نظر إليهما الناظر قال: هذا من شيعته، وهذا من عدوه. قال المفسرون: وإن القبطي كان قد سخر الإسرائيلي أن يحمل حطباً إلى مطبخ فرعون ﴿بَاتَسْتَنْتَهُ﴾ أي: فاستنصره، ﴿فَوَكَرَهُ﴾ قال الزجاج: الوكر: أن يضربه بجميع كفه^(١). وقال ابن قتيبة: فوكزه، أي: لكرهه، يقال: وكزته وكزته ولهزته، إذا دفعته، ﴿فَقَعَنَ عَلَيْهِ﴾ أي: قتله؛ وكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه. وللمفسرين فيما وكزه به قولان: أحدهما: كفه، قاله مجاهد. والثاني: عصله، قاله قتادة.. فلما مات القبطي ندم موسى لأنه لم يرد قتله، و﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: هو الذي هيج غضبي حتى ضربت هذا، ﴿إِنَّكَ عَدُوٌّ لِابْنِ آدَمَ﴾ أي: لميل له ﴿ثُمَّ﴾ عداوته. ثم استغفر ف ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بقتل هذا، ولا ينبغي لنبى أن يقتل حتى يؤمر. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْتَ عَلِيمٌ﴾ بالمغفرة ﴿فَلَنْ أَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عباس: عوناً للكافرين. وهذا يدل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافراً.

﴿فَأَسْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّى فَإِذَا أَرَىٰ أَسْتَصِرَّ بِالْأَمِينِ بِسَمْعِهِمْ قَالَ لَمْ أُؤَمِّرْكُمْ يَأْتِكُمْ لِقَاءُ رَبِّكُمْ فَمَنْ كَانَ مِنْ آلِ آدَمَ وَسَاءَ لَبِئْسَ مَا أَفَعَى الْمُنْتَلِبِينَ﴾ قال يونس: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَهِىَ بِالْبَدْيِ هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَهُوسُفُ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمِينِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْتَعِينُ قَالَ يَهُوسُفُ إِنَّكَ الْمَلَأُ بِأَيُّورُونَ بِكَ يَقْتُلُوكَ فَأَخْرِجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ الْمَدِينَةِ﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَسْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ وهي التي قتل بها القبطي ﴿خَائِفاً﴾ على نفسه ﴿يَتَرَقَّى﴾ أي: ينتظر سوءاً يتاله منهم ويخاف أن يقتل به ﴿فَإِذَا أَرَىٰ أَسْتَصِرَّ بِالْأَمِينِ﴾ وهو الإسرائيلي ﴿بِسَمْعِهِمْ﴾ أي: يستغيث به على قبطي آخر أراد أن يسخره أيضاً ﴿قَالَ لَمْ أُؤَمِّرْكُمْ﴾ في هاء الكتابة قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القبطي. والثاني: إلى الإسرائيلي، وهو أصح. فعلى الأول يكون المعنى: ﴿إِنَّكَ لَتَوَيْءٌ﴾ بتسخيرك وظلمك. وعلى الثاني فيه قولان: أحدهما: أن يكون العوي بمعنى المغوي، كالإيم والوجيع بمعنى المؤلم والموجع؛ والمعنى: إنك لمضلل حين قتلت بالأمس رجلاً بسببك، وتدعوني اليوم إلى آخر. والثاني: أن يكون العوي بمعنى العاوي؛ والمعنى: إنك عاوي في قتالك من لا تطيق دفع شره عنك.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَهِىَ بِالْبَدْيِ هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أي: بالقبطي ﴿قَالَ يَهُوسُفُ﴾ هذا قول الإسرائيلي من غير خلاف علمناه بين المفسرين؛ قالوا: لما رأى الإسرائيلي غضب موسى عليه حين قال [له]: ﴿إِنَّكَ لَتَوَيْءٌ مُّبِينٌ﴾ ورأه قد هم أن ينتطش بالفرعوني، ظن أنه يريد فخاف على نفسه ف ﴿قَالَ يَهُوسُفُ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي﴾ وكان قوم فرعون لم يعلموا من قاتل القبطي، إلا أنهم اتوا إلى فرعون فقالوا: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً منا فخذ لنا بحقنا، فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه لأخذ لكم حككم، فبينما هم يطوفون ولا يدرون من القاتل، وقعت هذه الخصومة بين الإسرائيلي والقبطي في اليوم الثاني، فلما قال الإسرائيلي لموسى: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمِينِ﴾ انطلق القبطي إلى فرعون فأخبره أن موسى هو الذي قتل الرجل، فأمر بقتل موسى، فلم يذك بذلك رجل من شيعه موسى فاتاه فأخبره، فذلك قوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْتَعِينُ﴾. فأما الجبار، فقال السدي: هو القتال، وقد شرحناه في [مرء: ٥٩]، وأقصى المدينة: آخرها وأبعدها، ويسعى، بمعنى يسرع. قال ابن عباس: وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون، وسيأتي الخلاف في اسمه في سورة [المومن: ٢٧٨]. فأما الملا، فهم الوجوه من الناس والأشراف. وفي قوله: ﴿بِأَيُّورُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: يتشاورون فيك ليقتلوك، قاله أبو عبيدة. والثاني: يهيمون بك، قاله ابن قتيبة. والثالث: يأمر بعضهم بعضاً بقتلك، قاله الزجاج.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّى قَالَ رَبِّ يَتَّبِعُنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَلَكٌ قَالَ عَنِ رَبِّكَ أَنْ يَهْدِيَنَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَقِرُّونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْبُ حَتَّىٰ يَصْدِرَ الرِّجَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿سَمِعْنَا لَهْمًا تُرَدُّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ﴿لَمَّا تَهُتَّ إِحْدَاهُمَا تَمَسَّتْ عَلَىٰ آسْتِجِيَاوُ قَالَتْ إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا لَمَّا جَاءَهُمْ وَوَضَعَ عَلَيْهِ الْفَقَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَحْوَتَ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ النَّبِيُّ الْأَمِينُ﴾ ﴿قَالَ إِنَّهُ أُرِيدُ أَنْ أَمْكُمُكَ﴾

(١) كذا الأصل، والذي في اللسان عن الزجاج: الوكر: أن يضرب بجمع كفه، وهو كذلك في كتب اللغة.

إِخْدَى ابْنَتَهُ هَتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَنِّيَ حَيْجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَنِي وَيَسَّاتُكُ أَيُّهَا الْأَجْلَلِينَ فَصَبِئْتُ فَلَا تُدْرِكُ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا تَقُولُ وَكَيْدٌ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي: من مصر ﴿عَائِلًا﴾ وقد مضى تفسيره [التقصير: ٢١٨].

قوله تعالى: ﴿بَنِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني المشركين أهل مصر. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَا مَلِيكًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: تجاه مَدْيَنَ ونحوها، وأصله: اللقاء، وزيدت فيه التاء، قال الشاعر:

[أَمَلْتُ حَيْبَرَكَ هَلْ تَأْتِي مَوَاعِدُهُ] فالسبب قَصَرَ عَنِ تَلْقَائِكَ الْأَمَلُ^(١)

أي: عن لقاءك. قال المفسرون: خرج خائفاً بغير زاد ولا ظهر^(٢)، وكان بين مصر ومدْيَنَ مسيرة ثمانية أيام، ولم يكن له بالطريق علم، ف ﴿قَالَ عَمَّن رَوَيْتَ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: فُضِّدَهُ. قال ابن عباس: لم يكن له علم بالطريق إلا حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ. وقال السدي: بعث الله له ملكاً فدلَّهُ، قالوا: ولم يكن له في طريقه طعام إلا ورق الشجر، فورد ماء مَدْيَنَ وحُضْرَةُ البقل تتراعى في بطنه من الهُزَالِ؛ والأُمَّة: الجماعة، وهم الرعاة، ﴿يَسْتَوُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَيَجِدُ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي: مِنْ سِوَى الْأُمَّةِ ﴿أَمْرَاتَيْنِ﴾ وهما ابنتا شعيب؛ قال مقاتل: واسم الكبرى: صبوراً^(٣) والصغرى: عبراً ﴿تَدْوُونَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: تَكْفَانُ غَنَمَهُمَا، فحذف الغنم اختصاراً. قال المفسرون: وإنما فَعَلْنَا ذَلِكَ لِيُفْرَخَ النَّاسُ وتخلو لهما البئر، قال موسى: ﴿مَا حَطْبُكُمْ؟﴾ أي: ما شأنكما لا تسقيان؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو الجوزاء، وابن يعمر، وابن السميع: ﴿لَا نَسْقِي﴾ برفع النون ﴿حَتَّى يُسَدِّرَ الرِّجَاءُ﴾ وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: ﴿يُضَلُّرُ﴾ بفتح الياء وضم الدال، أي: حتى يرجع الرعاء. وقرأ الباقون: ﴿يُضَلُّرُ﴾ بضم الياء وكسر الدال، أرادوا: حتى يَرُدُّ الرعاء غنمهم عن الماء. والرعاء: جمع راع، كما يقال: صاحب وصحاب. وقرأ عكرمة، وسعيد بن جبيرة، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: ﴿الرِّعَاءُ﴾ بضم الراء، والمعنى: نحن امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرجال ﴿وَأَبْرُكَا صَبِيحَ صَبِيحٍ﴾ لا يُقَدِّرُ أَنْ يَسْقِي مَا شِئْتَهُ مِنَ الْكِبَرِ؛ فلذلك اِخْتَجْنَا نحن إلى أن نسقي، وكان على تلك البئر صخرة عظيمة، فإذا فرغ الرعاء مِنْ سَقِيهِمْ أَعَادُوا الصَّخْرَةَ، فتأتي المرأتان إلى فضول حياض الرعاء فَتَسْقِيَانِ غَنَمَهُمَا. ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ موسى. وفي صفة ما صنع قولان: أحدهما: أنه ذهب إلى بئر أخرى عليها صخرة لا يقتلها إلا جماعة من الناس، فاقتلها وسقى لهما، قاله عمر بن الخطاب^(٤)، وشريح. والثاني: أنه زاحم القوم على الماء، وسقى لهما، قاله ابن إسحاق، والمعنى: سقى غنمهما لأجلهما. ﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾ أي: انصرف ﴿إِلَى الْأَيْلِيلِ﴾ وهو ظل شجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَكَلْتُ اللَّامَ بِمَعْنَى إِلَى، ففتقديره: إِنِّي إِلَى مَا أَتَزَلَّتْ إِلَيَّ مِنْ حَبْرٍ قَبِيرٍ﴾ وأراد بالخير: الطعام^(٥). وحكى ابن جرير أنه أسمع المرأتين هذا الكلام تعريضاً أن تُطْلَعَا. ﴿فَمَاءَهُمْ إِمْدَهُمَا﴾ المعنى: فلما شربت غنمهما رَجَعَتَا إِلَى أَبِيهِمَا فأخبرتاها خبر موسى، فبعث إحداهما تدعو موسى. وفيها قولان: أحدهما: الصغرى. والثاني: الكبرى. فجاءته ﴿تَمَشِي عَلَى أَسْتَيْحِيَاوٍ﴾ قد سترت وجهها بِكُمِّ ذِرْعِهَا. وفي سبب استحياها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان من صفتها الحياء، فهي تمشي مشي مَنْ لَمْ يَعْتَدِ الْخُرُوجَ وَالِدُخُولَ. والثاني: لأنها دعت له لتكافئه، وكان الأجل عندنا أن تدعوه من غير مكافأة. والثالث: لأنها رسول أبيها.

(١) البيت للراعي النيمري، وهو في «غريب القرآن» ٣٣١، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: لقي.

(٢) الظُّهْر: الدابة التي يُرَكَّبُ ظَهْرُهَا مِنْ جَمَلٍ وَنَحْوِهِ.

(٣) في الألويسي: صفوراء، وقيل: صفوريا. وفي «الكشاف» اسم الكبرى: صفراء، واسم الصغرى: صفيراء، والله أعلم بذلك، ولا يتعلق بمعرفة اسمها حكم شرعي.

(٤) قال السيوطي في «الدرر» ١٢٤/٥: أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة في «المصنف» وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رقعها إلا عشرة رجال، فإذا هو يامرأتين، قال: ما خطبكما، فحدثنا، فأتى الصخرة فرفعها وحده، ثم استقى، فلم يسق إلا دلوً واحداً حتى رويت الغنم... الحديث بطوله، وقد ذكره ابن كثير في «تفسيره» من رواية ابن أبي شيبة مختصراً هكذا، وقال: إسناده صحيح.

(٥) قال ابن كثير: قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه لاصق بظهوره من الجوع، وإن حُضْرَةَ البقل لثرى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق ثمره.

قوله تعالى: ﴿يَجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ قال المفسرون: لما سمع موسى هذا القول كرهه وأراد أن لا يتبعها، فلم يجد بَدْءًا للجَهْد الذي به من أتباعها، فتيبها، فكانت الريح تضرب ثوبها فيصف بعض جسدها، فناداها: يا أمة الله، كوني خلفي وذلني الطريق^(١) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: جاء موسى شعيباً ﴿وَوَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: أخبره بأمره من حين وُلد والسبب الذي أخرجه من أرضه ﴿قَالَ لَا تَخَفْ بَنَاتُ بَنِي الْقَوْرِ أَتَقْلِبِينَ﴾ أي: لا سلطان لفرعون بأرضنا ولسنا في مملكته. ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ وهي الكبرى: ﴿يَتَأْتِي أَسْتَجِرَّتِي﴾ أي: اتَّخَذَهُ أَجِيرًا ﴿إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوْرِ الْأَجِينَ﴾ أي: خير من استعملت على عملك من قَوِيٍّ على عملك وأدَّى الأمانة؛ وإنما سمَّته قوياً، لرفعه الحجر عن رأس البئر، وقيل: لأنه استقى بدلو لا يُقْلَهُ إلا العدد الكثير من الرجال، وسمَّته أميناً، لأنه أمرها أن تمشي خلفه. وقال السدي: قال لها شعيب: قد رأيت قوَّته، فما يُدريك بأمانته؟ فحدثته. قال المفسرون: فرغب فيه شعيب، فقال له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِمَكَ﴾ أي: أزوجك ﴿إِحْدَى ابْنَتِي هُنَّيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَنِّي جِجَجٌ﴾ قال الفراء: تأجرني وتأجرني، بضم الجيم وكسرهما، لغتان. قال الزجاج: والمعنى: تكون أجيراً لي ثماني سنين ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: فذلك تفضل منك، وليس بواجب عليك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ﴾ أي: في العشر ﴿سَعِدَيْتَ إِنْ سَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: في حُسن الصُّحبة والوفاء بما قلت. ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: ذلك الذي وصفت وشرطت عليّ فلك، وما شرطت لي من تزويج إحداهما فلي، فالأمر كذلك بيننا. وتم الكلام هاهنا. ثم قال: ﴿أَيُّهَا الْأَجَلِيُّنِ﴾ يعني: الثماني والعشر. قال أبو عبيدة: «ما» زائدة.

قوله تعالى: ﴿فَصَبَّيْتُ﴾ أي: أتممت^(٢) ﴿فَلَا تُدْرِكُ عَلَيَّ﴾ أي: لا سبيل عليّ؛ والمعنى: لا تعدد عليّ بأن تُزْمنني أكثر منه ﴿وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا قَوْلُ وَكِيلٍ﴾ قال الزجاج: أي: والله شاهدنا على ما عقد بعضنا على بعض. واختلف العلماء في هذا الرجل الذي استأجر موسى على أربعة أقوال: أحدها: أنه شعيب نبي الله ﷺ، وعلى هذا أكثر أهل^(٣) التفسير، وفيه أثر عن النبي ﷺ يدل عليه^(٤)، وبه قال وهب، ومقاتل. والثاني: أنه صاحب مَدْيَن، واسمه يثرى، قاله ابن عباس. والثالث: رجل من قوم شعيب، قاله الحسن. والرابع: أنه يثرون ابن أخي شعيب، رواه عمر بن مرّة عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، وبه قال ابن السائب^(٥). واختلفوا في التي تزوجها موسى من الابنتين على قولين: أحدهما: الصغرى، روي عن ابن عباس. والثاني: الكبرى، قاله مقاتل. وفي اسم التي تزوجها ثلاثة أقوال: أحدها: صفوريا، حكاه أبو عمران الجوني. والثاني: صفورة، قاله شعيب الجبائي. والثالث: صبورا، قاله مقاتل.

(١) قال السيوطي في تمة الحديث الذي تقدم من رواية الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب ؓ: «فرجعت المرأتان إلى أبيهما، فحدثتا، وتولّى موسى ﷺ إلى الظل فقال: ﴿رَبِّي إِنْ لِيَا أَرْزَأَ إِنَّ مِنْ خَيْرٍ قَوِيٍّ﴾ قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ تَمَنَّى عَلَيَّ أَسْتَجِرَّتِي وَوَصَّ عَلَيَّ الْقَصَصَ وَوَصَّ عَلَيَّ الْقَصَصَ﴾ واضعة ثوبها على وجهها ليست بسلع من الناس خُرَاجَة ولاجَة، ﴿قَالَتْ إِنَّكَ أَيُّ تَبْعَرُكَ يَجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فقام معها موسى ﷺ، فقال: امشي خلفي وانتمي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك نصف جسديك... الخ. وذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم مختصراً إلى قوله: خُرَاجَة ولاجَة، وقال: هذا إسناد صحيح. وقال: قال الجوهري: السلف من الرجال: الجسور، ومن النساء: الجريئة السليطة، ومن النوق: الشديدة. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: هذا وقد دلّ الدليل على أن موسى ﷺ إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما، قال: وقال البخاري: عن سعيد بن جبيرة قال: سألت يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على خير العرب فأسأله، فقدمت على ابن عباس ؓ فسأله، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. اهـ.

(٣) زيادة ليست في الأصل. (٤) من رواية ابن أبي حاتم عن عتبة بن المنذر، وسنده ضعيف.

(٥) قال ابن كثير: وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو على أقوال: أحدها: أنه شعيب النبي ﷺ الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء. قال: وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، قال: وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى ﷺ بعمدة طويلة، لأنه قال لقومه: ﴿رَبَّنَا قَدْ لُوِيَ بِنَيْبِكُمْ يَبِيبٌ﴾ وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ﷺ بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى ﷺ مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة كما ذكره غير واحد، قال: وما قيل: إن شعيباً عاش مدة طويلة، إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال، ثم من المعوّذ لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى، لم يصح إسناده، قال: ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه يثرون، والله أعلم. اهـ.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي مَأْتِيكُمْ بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُورٌ مِنْ شَطِئِ الْأَوْدِ الْأَيْتِي فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٠٢﴾ وَأَنْ أَلَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَازِلُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقِبُ يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي حَبِيبِكَ فَتَرَىٰ يَصْطَفَىٰ مِنْ غَيْرِ سُوِّ وَاسْتَمَّ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّقَبِ فَذَلِكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ رُضْوَتِكَ وَمَلَائِكَةُ إِلَيْهِمْ كَانُوا قَوْمًا فَصِيقًا ﴿١٠٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَلِمَ أَتَانِي أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٠٥﴾ وَأَخَىٰ هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْنَا مَعَهُ رِدْءًا يُصَدِّقُ إِنَّ لَنَا أَنْفًا أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٠٦﴾ قَالَ سَتُنَدُّ عَصَاكَ بِأَخِيكَ وَتَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِتَأْيِينِنَا أَنتَ وَمَنْ آمَنَكُمَا الْفَالِقُونَ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ ﴾ روى ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل: أي الأجلين قضى موسى، قال: «أوقاهما وأطيهما»^(١). قال مجاهد: مكث بعد قضاء الأجل عندهم عشراً آخر^(٢). وقال وهب بن منبه: أقام عندهم بعد أن أدخل عليه امرأته سنين^(٣)، وقد سبق تفسير هذه الآية [ط: ١٠] إلى قوله: ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «جذوة» بكسر الجيم. وقرأ عاصم بفتحها. وقرأ حمزة، وخلف، والوليد عن ابن عامر بضمها، وكلها لغات. قال ابن عباس: الجذوة: قطعة حطب فيها نار، وقال أبو عبيدة: قطعة غليظة من الحطب ليس فيها لهب، وهي مثل الجذمة من أصل الشجرة، قال ابن مقبل:

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَىٰ يَلْتَمِسْنَ لَهَا
وَالذَّعْرُ الَّذِي قَدْ نَجَرَ، وَمَنْ رَجُلٌ دَاعِرٌ، أَي: فاسد.

قوله تعالى: ﴿ نُورٌ مِنْ شَطِئِ الْأَوْدِ ﴾ وهو: جانبه ﴿ الْأَيْتِي ﴾ وهو الذي عن يمين موسى ﴿ فِي الْبُقْعَةِ ﴾ وهي القطعة من الأرض ﴿ الْمُبْرَكَةِ ﴾ بتكليم الله موسى فيها ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ أي: من ناحيتها، وفي تلك الشجرة قولان: أحدهما: [أنها] شجرة العنَّاب، قاله ابن عباس. والثاني: عوسجة، قاله قتادة، وابن السائب، ومقاتل. وما بعد هذا قد سبق بيانه [النمل: ١١٠] إلى قوله: ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ أي: من أن ينالك مكروه.

قوله تعالى: ﴿ أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ ﴾ أي: أدخلها، ﴿ وَأَسْتَمَّ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ قد فسرنا الجناح في [ط: ٢٢] إلا أن بعض المفسرين خالف بين تفسير اللفظين، فشرحناه. وقال ابن زيد: جناحه: الذراع والعضد والكف. وقال الزجاج: الجناح هاهنا: العضد، ويقال لزيد كلُّها: جناح. وحكى ابن الأنباري عن الفراء أنه قال: الجناح هاهنا: العصا. قال ابن الأنباري: الجناح للإنسان مشبهٌ بالجناح للطائر، ففي حال تشبُّه العربُ رجُلِي الإنسان بجناحي الطائر، فيقولون: قد مضى فلان طائراً في جناحيه، يعنون ساعياً على قدميه، وفي حال يجعلون العضد منه بمنزلة جناحي الطائر، كقوله: ﴿ وَأَسْتَمَّ بِذَلِكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾، وفي حال يجعلون العصا بمنزلة الجناح، لأن الإنسان يدفع بها عن نفسه كدفع الطائر عن نفسه بجناحه، كقوله: ﴿ وَأَسْتَمَّ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّقَبِ ﴾، وإنما يوقع الجناح على هذه الأشياء تشبيهاً واستعارة، كما يقال: قد قُصَّ جناح الإنسان، وقد قُطعت يده ورجله: إذا وقعت به جائحة أبطلت تصرفه؛ ويقول الرجل للرجل: أنت يدي ورجلي، أي: أنت من به أصلٌ إلى محايي، قال جرير:

سَأَسْأَلُكَ أَنْ رَدَدْتَ إِلَيَّ رِيَشِي
وَأَنْبَتَ الْقَوَادِمَ فِي جَنَاحِي^(٥)

(١) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: قضى أكثرهما وأطيهما، إن رسول الله إذا قال فعل. وذكره السيوطي في «الدرر» ١٢٦/٥ وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في «المصنف» وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنه. قال ابن كثير: وقد يضاه هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ ﴾ أي: الأكل منها، والله أعلم.

(٢) قال ابن كثير: وهذا القول لم أره لغيره، وقد حكاه عنه ابن أبي حاتم، وابن جرير، فآله أعلم. وذكره السيوطي في «الدرر» ١٢٧/٥، وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٣) في النسخة الاستنبولية: ستين.

(٤) البيت في «مجاز القرآن» ١٠٣، و«الطبري» ٧٠/٢٠، و«مجمع البيان» ٢٨٤/٢٠، و«القرطبي» ٢٨١/١٣، و«اللسان» و«التاج»: دعر. والجذا جمع جذوة.

(٥) ديوانه ٩٨.

وقالت امرأة من العرب ترثي زوجها الأغر:

يا عصمتي في النَّائبات ويا
لا ضننتُ وجهاً كنتُ ضانته

رُكْنِي [الأغر] ويا يدي اليمنى
أبدأ ووجهك في الشرى يبلى

فأما الرَّهَب، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «مِنَ الرَّهَبِ» بفتح الراء والهاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «من الرَّهَبِ» بضم الراء وسكون الهاء. وقرأ حفص [وأبان] عن عاصم: «من الرَّهَبِ» بفتح الراء وسكون الهاء [وهي قراءة ابن مسعود، وابن السميع]. وقرأ أبي بن كعب، والحسن، وقتادة: بضم الراء والهاء. قال الزجاج: الرَّهَبُ، والرَّهَبُ بمعنى واحد، مثل الرُّشد، والرَّشْد. وقال أبو عبيدة: الرَّهَبُ والرَّهْبَةُ بمعنى الخوف والفرق. وقال ابن الأنباري: الرَّهَبُ، والرَّهَبُ، والرَّهَبُ، مثل الشُّغْل، والشُّغْل، والشُّغْل، والشُّغْل، والبُخْل، والبُخْل، وتلك لغات ترجع إلى معنى الخوف والفرق. وللمفسرين في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لما هرب من الحيَّة أمره الله أن يَضُمَّ إليه جناحه ليذهب عنه الفزع. قال ابن عباس: المعنى: اضمم يدك إلى صدرك من الخوف ولا خوف عليك. وقال مجاهد: كلُّ مَنْ فزع فضمَّ جناحه إليه ذهب عنه الفزع. والثاني: أنه لما هاله بياض يده وشعاعها، أمر أن يُدْخِلَهَا في جيبه، فعادت إلى حالتها الأولى. والثالث: أن معنى الكلام: سَكَنَ رَوْعَكَ، وثَبَّتْ جَأَشَكَ. قال أبو علي: ليس يراد به الضَّمُّ بين الشيتين، إنما أمر بالعزم [على ما أمر به] والجد فيه، ومثله: اشدد حيازيمك للموت.

قوله تعالى: ﴿ذَانِك﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «فَذَانِكُ» بالتحديد. وقرأ الباقون: «فَذَانِكُ» بالتخفيف. قال الزجاج: التشديد تشية «ذلك»، والتخفيف تشية «ذاك»، فجعل اللام في «ذلك» بدلاً من تشديد النون في «ذَانِكُ»، ﴿وَذَانِكُ﴾ أي: بيانان اثنان. قال المفسرون: «فَذَانِكُ» يعني العصا واليد، حُجَّتَانِ مِنَ اللَّهِ لِمُوسَى عَلَى صِدْقِهِ، ﴿إِنْ فَرَعُونَ﴾ أي: أرسلنا بهاتين الآيتين إلى فرعون^(١). وقد سبق تفسير ما بعد هذا [الشعراء: ١٤] إلى قوله: ﴿هُوَ أَقْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ أي: أحسنُ بيانا، لأنَّ موسى كان في لسانه أثر الجمره التي تناولها، ﴿فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ قرأ الأكثرون: «رِدْءًا» بسكون الدال وبعدها همزة. وقرأ أبو جعفر: «ردا» بفتح الدال وألف بعدها من غير تنوين ولا همز؛ وقرأ نافع كذلك إلا أنه نون. وقال الزجاج: الرِّدْءُ: العون، يقال: رداؤه أردوه رِدْءًا: إذا اعنته.

قوله تعالى: ﴿يُصِدِّقُنِي﴾ قرأ عاصم، وحمزة: «يُصِدِّقُنِي» بضم القاف. وقرأ الباقون بسكون القاف. قال الزجاج: من جزم «يُصِدِّقُنِي» فعلى جواب المسألة: أُرْسِلُهُ يُصِدِّقُنِي؛ ومن رفع، فالمعنى: رِدْءًا مُصِدِّقًا لِي. وأكثر المفسرين على أنه أشار بقوله: «يُصِدِّقُنِي» إلى هارون؛ وقال مقاتل بن سليمان: لكي يُصِدِّقُنِي فرعون.

قوله تعالى: ﴿هَسْتَدُّ عَضْدَكَ بِأَيْحِكَ﴾ قال الزجاج: المعنى: سَعْنِيكَ بِأَيْحِكَ، ولفظ التَضُدُّ على جهة المثل، لأن اليد قوامها عَضْدُهَا، وكلُّ مُعِينٍ فَهُوَ عَضْدٌ، ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حُجَّةً بَيِّنَةً. وقيل للزيت: السَّلِيطُ، لأنه يُسْتَضَاءُ به؛ والسُّلْطَانُ: آيِنُ الحُجْجِ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي: يقتل ولا أذى. وفي قوله: ﴿بِأَيَّتِنَا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: تمتنعان منهم بآياتنا وحُجَّتِنَا فلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا. والثاني: أنه متعلق بما بعده، فالمعنى: بآياتنا أنتما ومن أتبعمكما الغالبون، أي: تَغْلِبُونَ بآياتنا. والثالث: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، تقديره: ونجعل لكم سلطاناً بآياتنا فلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا.

﴿لَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا كُنَّا بِهِ كَارِهِينَ الْأُولَئِينَ﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَهُ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ النَّارِ إِنَّهُ لَا يُغْلِبُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾
قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى﴾ أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر افتريته من قِبَلِ نَفْسِكَ ولم تُبْعَثْ به

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿ذَانِكُ يُؤْتِيكَ بَيْنَ يَدَيْكَ﴾ يعني إلقاء العصا وجعلها حية تسعى، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، دليلاً قاطعاً واضحاً على قدرة الفاعل المختار وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ رَبُّكَ يُؤْتِيكَ مِنْ يَدَيْهِ﴾ أي: وقومه من الرؤساء والكبراء والأبواب، ﴿يَمُوتُ كَمَا مَاتَ قَوْمُ لُوطٍ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه. اهـ.

﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ بِهَذَا فِي مَا بَيْنَنَا الْأَوَّلِينَ، ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ ﴾ وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ: « قَالَ مُوسَى بِلَا وَاوٍ، وَكَذَلِكَ هِيَ فِي مَصَاحِفِهِمْ ﴿ يَمُنْ جَاءَ بِالْهَدَى ﴾ أَي: هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُحِقِّ مَنَّا، ﴿ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ النَّاسِ ﴾ وَقَرَأَ حَمْزَةً، وَالْكَسَانِي، وَخَلْفَ، [وَالْمُفْضَلُ]: «يَكُونُ» بَالِيَاءَ، وَبِالْقَوْنِ بِالتَّاءِ.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ فَأَوْذِي لِي يَهْدِنِي عَلَى الطَّيِّبِ فَأَجْمَلُ لِي صَرِيحًا لَمْ يَكُنِ الْأَلْبَلُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٧﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَوَعْدُوهُ فِي الْأَرْضِ يَفْتَرِ الْحَقُّ وَطَرًّا أَنَّهُمْ إِنَّمَا لَا يُرْعَفُونَ ﴿١٨﴾ فَأَعَدَّكَ وَوَعْدُوهُ فَصَدَّقْتَهُمْ فِي الْبَيْتِ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْتَهُمْ آيَةً بَكَفَرُوا إِلَى الْكَافِرِ وَيَوْمَ الْيَوْمِ لَا يُصْرُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَتَّبَعْتَهُمْ فِي هَذَا الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْيَوْمِ هُمْ مِنَ الْمَقْتُولِينَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿ فَأَوْذِي لِي يَهْدِنِي عَلَى الطَّيِّبِ ﴾ قال ابن قتيبة: المعنى: اصنع لي الأجر ﴿ فَأَجْمَلُ لِي صَرِيحًا ﴾ أي: قصرًا عاليًا. وقال الزجاج: الصَّرح: كلُّ بناءٍ مَتَّسِعٍ مرتفع. وجاء في التفسير أنه لَمَّا أمر هامان - وهو وزيره - ببناء الصَّرح، جمع العمَّال والفعلة حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع، فرفعه وشيِّدوه حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بيتان أحد قط، فلَمَّا تَمَّ ارتقى فرعون فوقه، وأمر بنشأته فرمى بها نحو السماء، فَرُدَّتْ وهي متلطخة بالدم، فقال: قد قتلت إله موسى ^(١)، فبعث الله تعالى جبريلَ فضربه بجناحه ^(٢) فقطعه ثلاث قطع، فوَقَعَتْ قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل، ووقعت قطعة أخرى في البحر، وأخرى في المغرب ^(٣).

قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ الْأَلْبَلُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى ﴾ أي: أصدد إليه وأشرف عليه ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ ﴾ يعني موسى ﴿ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ في ادِّعَائِهِ إِلَهُاً غَيْرِي. وقال ابن جرير: المعنى: أظنُّ موسى كاذباً في ادِّعَائِهِ أَنْ فِي السَّمَاءِ رَبًّا أَرْسَلَهُ. ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَوَعْدُوهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني أرض مصر ﴿ يَفْتَرِ الْحَقُّ ﴾ أي: بالباطل والظلم ﴿ وَطَرًّا أَنَّهُمْ إِنَّمَا لَا يُرْعَفُونَ ﴾ بالبعث للجزاء. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿ فِرْعَوْنُ ﴾ برفع الياء؛ وقرأ نافع، وحَمْزَةٌ، وَالْكَسَانِي: بفتحها.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْتَهُمْ آيَةً ﴾ أي: في الدنيا ﴿ آيَةً ﴾ أي: قاعة في الكفر يأتهم بهم العتاة ﴿ بَكَفَرُوا إِلَى الْكَافِرِ ﴾ لَانِ مِنْ أَطَاعِهِمْ دَخَلُوا؛ وَ﴿ يُصْرُونَ ﴾ بمعنى: يُؤْتَمِنُونَ مِنَ الْعَذَابِ. وما بعد هذا مفسر في [مرود: ٦٠، ٦١].

قوله تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: من المُبْعِدِينَ الملعونين؛ قال أبو زيد: يقال: قَبِحَ اللهُ فلاناً، أي: أبعده من كل خير. وقال ابن جريج: معنى الآية: وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة لعنةً أخرى، ثم استقبل الكلام، فقال: هم من المقيوحين ^(٤).

﴿ وَكَذَلِكَ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ النَّوِيٍّ إِذْ فَصَّلْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمَرُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًّا وَتِ أَهْلِ مَدْيَنَ تَنَلُّوْا عَلَيْهِمْ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٢٤﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ يُخَشِرُ قَوْمًا مَا أُنْتَهُمْ مِنْ تَدْبِيرِ رَبِّكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمَتْ آيَاتِهِمْ لَفَقَرْنَا لَوْلَا أَرْسَلْنَا رَسُولًا فَتُنَبِّئُكَ مَا فِيكَ وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ يعني قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: ليصروا به ويهتدوا.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ النَّوِيٍّ ﴾ قال الزجاج: أي: وما كنت بجانب الجبل الغربي. قوله تعالى: ﴿ إِذْ فَصَّلْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ أي: أَخَذْنَا الْأَمْرَ مَعَهُ بِرِسَالِهِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

(١) ذكر هذا الخبر بنحو القرطبي في «تفسيره»، ولم يعزه لأحد، وذكره الطبري مختصراً عن السدي، وكذلك السيوطي من رواية ابن أبي حاتم عن السدي.
 (٢) أي: فضرب الصرح بجناحه.
 (٣) قال القرطبي بعد أن ذكره: والله أعلم بصحة ذلك.
 (٤) قال ابن كثير: أي: وشيخ الله لعنتهم ولعنة ملوكهم فرعون على السنة المؤمن من عباده المُتَّبِعِينَ لرسوله، كما أنهم في الدنيا ملعونون على السنة الأنبياء وأتباعهم، كذلك ﴿ وَيَوْمَ الْيَوْمِ هُمْ مِنَ الْمَقْتُولِينَ ﴾.

لذلك الأمر؛ وفي هذا بيان لصحة نبوة نبيينا ﷺ، لأنهم يعلمون أنه لم يقرأ الكتب، ولم يشاهد ما جرى، فلولا أنه أوحى إليه ذلك، ما علم^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا أَنْتَانَا قُرُونًا﴾ أي: خَلَقْنَا أُمَّماً من بعد موسى ﴿فَلَمَّا وَرَاكَ عَلَيْهِمُ الْمُرُءُ﴾ أي: طال إمهالهم فنسوا عهد الله وتركوا أمره، وهذا يدل على أنه قد عُهد إلى موسى وقومه عهد في أمر محمد ﷺ، وأمروا بالإيمان به، فلَمَّا طال إمهالهم، أعرضوا عن مراعاة العهود، ﴿وَمَا كُنْتُمْ نَارِيًا﴾ أي: مقيماً ﴿وَتِ أَهْلِي مَدِينَةٍ﴾ فتعلم خبر موسى وشعب وابتنيه فقتلوا ذلك على أهل مكة^(٢) ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أرسلناك إلى أهل مكة وأخبرناك خبر المتقدمين، ولولا ذلك ما علمته. ﴿وَمَا كُنْتُمْ بِحَايِبِي الطُّورِ﴾ أي: بناحية الجبل الذي كَلَّمَ عليه موسى ﴿إِذْ نَادَيْتَا﴾ موسى وكَلَمْنَاهُ، هذا قول الأكثرين؛ وقال أبو هريرة: كان هذا النداء: يا أُمَّة محمد، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وأستجيب لكم قبل أن تدعوني^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَكِن رَّحِمَةٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الزجاج: المعنى: لم تُشاهد قصص الأنبياء، ولكننا أوحيناها إليك وقصصناها عليك، رحمةً من ربك.

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمُ مُّصِيبَةٌ﴾ جواب «لولا» محذوف، تقديره: لولا أنهم يحتجّون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة. وقيل: لولا ذلك لم نُخْتَجَّ إلى إرسال الرسل ومؤاترة الاحتجاج.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِّن سَمَوَاتِكُمْ وَإِن نَّظُنُّكُمْ أَنكُمْ لَأَنْبِيَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١﴾ ﴿إِن لَّا تَرْجِعُوا كَيْدِي إِلَى اللَّهِ فَاظْهَرْنَا أَلَّا نَبِيْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَّا كُنْتُمْ لَمَّامِينَ فِي الْعَذَابِ وَإِن تُنصِرُوهُمْ فَيَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَاظْهَرْنَا أَلَّا نَبِيْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَّا كُنْتُمْ لَمَّامِينَ فِي الْعَذَابِ وَإِن تُنصِرُوهُمْ فَيَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَاظْهَرْنَا أَلَّا نَبِيْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَّا كُنْتُمْ لَمَّامِينَ فِي الْعَذَابِ وَإِن تُنصِرُوهُمْ فَيَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَاظْهَرْنَا أَلَّا نَبِيْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٥﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَّا كُنْتُمْ لَمَّامِينَ فِي الْعَذَابِ وَإِن تُنصِرُوهُمْ فَيَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَاظْهَرْنَا أَلَّا نَبِيْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٦﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَّا كُنْتُمْ لَمَّامِينَ فِي الْعَذَابِ وَإِن تُنصِرُوهُمْ فَيَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَاظْهَرْنَا أَلَّا نَبِيْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٧﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَّا كُنْتُمْ لَمَّامِينَ فِي الْعَذَابِ وَإِن تُنصِرُوهُمْ فَيَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَاظْهَرْنَا أَلَّا نَبِيْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٨﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَّا كُنْتُمْ لَمَّامِينَ فِي الْعَذَابِ وَإِن تُنصِرُوهُمْ فَيَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَاظْهَرْنَا أَلَّا نَبِيْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَّا كُنْتُمْ لَمَّامِينَ فِي الْعَذَابِ وَإِن تُنصِرُوهُمْ فَيَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَاظْهَرْنَا أَلَّا نَبِيْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وهو محمد ﷺ والقرآن ﴿قَالُوا لَوْلَا﴾ أي: هَلَّا ﴿أُنزِلَ﴾ محمد من الآيات ﴿وَمِن مَّا أُنزِلَ مَوْجُودٌ﴾ كالعصا واليد. قال المفسرون: أمرت اليهود قريشاً أن تسأل محمداً مثل ما أوتيت موسى، فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ أي: فقد كفروا بآيات موسى، و﴿قَالُوا﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: اليهود. والثاني: قريش. ﴿وَيَحْرُكُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «ساحران» ﴿تَظَاهَرُوا﴾ أي: تعاونوا. وروى العباس الأنصاري عن أبي عمرو: «تَظَاهَرُوا» بتشديد الظاء. وفيمن عَنُوا ثلاثة أقوال: أحدها: موسى ومحمد، قاله ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبيرة؛ فعلى هذا هو من قول مشركي العرب.

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب العاضية خيراً كان سامعه شامداً وراءه لما تقدّم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ لَهَا بِشُرَكَاءَ آلِهَتِكُمْ أَفَلَمْ تَكُنْ مِنْهَا حَاضِرَةً إِذْ يَخْتَصِمُونَ...﴾ الآية، أي: وما كنت حاضرأ لذلك، ولكن الله أرحام إليك، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه، ثم قال تعالى: ﴿وَتَلَكَّ مِنَ آلِهَةِ التَّيْبِ تُجِيبًا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَكْتُمُكَ أَتَى وَلَا تَوَكَّلْ عَلَىٰ قَوْمٍ بَدَّلُوا قَوْمًا أَتَىٰ يَوْمَهُمُ الْقَوْلُ لَمَّامِينَ فِي الْعَذَابِ وَإِن تُنصِرُوهُمْ فَيَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَاظْهَرْنَا أَلَّا نَبِيْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الآية، وقال في آخر السورة: ﴿وَتَلَكَّ مِنَ آلِهَةِ التَّيْبِ تَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وقال بعد ذكر قصة يوسف: ﴿وَتَلَكَّ مِنَ آلِهَةِ التَّيْبِ تُجِيبُ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ تَكْتُمُكَ أَتَىٰ يَوْمَهُمُ الْقَوْلُ لَمَّامِينَ فِي الْعَذَابِ وَإِن تُنصِرُوهُمْ فَيَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَاظْهَرْنَا أَلَّا نَبِيْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الآية، وقال هاهنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف كان ابتداء إحياء الله إليه وتكليمه له: ﴿وَمَا كُنْتُمْ بِحَايِبِي الطُّورِ إِذْ نَادَيْتَنَا إِلَىٰ مَوْسَىٰ الْأَكْبَرِ﴾ يعني: ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي ﴿وَمَا كُنْتُمْ بِحَايِبِي الطُّورِ﴾ لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدنا ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه، ولكن نحن أوحينا إليك ذلك.

(٣) رواه الطبري والنسائي، وفي سننه حمزة الزيات، قال الحافظ ابن حجر عنه: صدوق زاهد ربما وهم، وذكره السيوطي في «الدرر» وزاد نسبه للقرائبي، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، وأبي نعيم والبيهقي معاً في «الدلائل».

والثاني: موسى وهارون، قاله مجاهد؛ فعلى هذا هو من قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة. والثالث: محمد وعيسى^(١)، قاله قتادة؛ فعلى هذا هو من قول اليهود الذين لم يؤمنوا بنبينا. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «سِخْرَان» وفيه ثلاثة أقوال. أحدها: التوراة والفرقان، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: الإنجيل والقرآن، قاله قتادة. والثالث: التوراة والإنجيل، قاله أبو مجلز، وإسماعيل ابن أبي خالد. ومعنى الكلام: كلُّ سِخْرٍ منهما يقوِّي الآخر، فنُسب التظاهر إلى السخرين توسعاً في الكلام، «وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفٍ لَّكُنَّا مِنْكُمْ لَنُؤْمِنُ بِمَا كُنَّا نَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ» يعنون ما تقدّم ذكره على اختلاف الأقوال، فقال الله لنبيه «قُلْ لَكُمْ مَكَّةٌ مَكَّةٌ فَتَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَمْتًا مِمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» أي: من التوراة والقرآن، «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» أي: فإن آثر يستجيروا لله» أي: فإن لم يأتوا بمثل التوراة والقرآن، «فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُعْمِرُكُمْ أَهْوَاءُكُمْ» أي: أن ما ركبه من الكفر لم يحملهم عليه حجة، وإنما آثروا فيه الهوى «وَمَنْ أَضَلُّ» أي: ولا أحد أضل «مَنْ أَتَى حَيْثُ مَوَدَّةٌ يَغْتَابِ مُؤْمِنًا» أي: بغير رشاد ولا بيان جاء «بِرِسْوَ اللَّهِ». «وَلَقَدْ رَسَلْنَا مِنْ أَمْتِ الْقُرْآنِ» وقرأ الحسن، وأبو المتوكل، وابن يعمر: «وَصَلَّانَا» بتخفيف الصاد. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم قريش، قاله الأكترون، منهم مجاهد. والثاني: اليهود، قاله رفاعة القرظي. والمعنى: أنزلنا القرآن يتبع بعضه بعضاً، ويُخبر عن الأمم الخالية كيف عُذِّبوا لعلمهم يتعظون. «الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ» وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم مؤمنو أهل الكتاب، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثاني: مسلمو أهل الإنجيل، روى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أن أربعين من أصحاب النجاشي قِيموا على رسول الله ﷺ فشهدوا معه أحداً، فنزلت فيهم هذه الآية^(٢). والثالث: مسلمو اليهود، كعبد الله بن سلام وغيره، قاله السدي.

قوله تعالى: «مِنْ قَبْلِهِ» أي: من قبل القرآن «مِمَّ يَدُ» في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى محمد ﷺ، لأن ذكره كان مكتوباً [عندهم] في كتبهم، فأمنوا به، والثاني: إلى القرآن. قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ» يعني القرآن «قَالُوا إِنَّا آمَنَّا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ» أي: من قبل نزول القرآن «مُسْلِمِينَ» أي: مُخْلِصِينَ لِهَيْبَةِ اللَّهِ مُصَدِّقِينَ بِمُحَمَّدٍ، وذلك لأن ذكره كان في كتبهم فأمنوا به «أَوَّلَتْكَ يَدُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ» في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم مؤمنو أهل الكتاب، وهذا قول الجمهور، وهو الظاهر^(٣)، وفيما صبروا عليه قولان: أحدهما: أنهم صبروا على الكتاب الأول، وصبروا على أتباعهم محمداً، قاله قتادة، وابن زيد. والثاني أنهم صبروا على الإيمان بمحمد قبل أن يُبْعَثَ، ثم على أتباعه حين بُعث، قاله الضحاك. والقول الثاني: أنهم قوم من المشركين أسلموا، فكان قومهم يؤذونهم، فصبروا على الأذى، قاله مجاهد.

قوله تعالى: «وَيَذَرُونَهُمْ بِالْحَسَنَةِ أَلَيْسَتْ بِالْحَسَنَةِ» فيه أقوال قد شرحناها في [الرمذ: ٢٢].

قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا سِخْرِيَّ الْقُرْآنِ» فيه ثلاثة أقوال: أحدهما: الأذى والسب، قاله مجاهد. والثاني: الشرك، قاله الضحاك. والثالث: أنهم قوم من اليهود آمنوا، فكانوا يسمعون ما غير اليهود من صفة رسول الله ﷺ فيكروهون ذلك ويُعْرِضُونَ عَنْهُ، قاله ابن زيد. وهل هذا منسوخ، أم لا؟ فيه قولان. وفي قوله: «وَقَالُوا إِنَّا آمَنَّا بِكُمْ وَأَنَّكُمْ لَسِخْرِيٌّ» قولان: أحدهما: لنا ديننا ولكم دينكم. والثاني: لنا جلدنا ولكم سفهكم. «سَلِّمْ عَلَيْهِمْ» قال الزجاج: لم يريدوا التحية، وإنما أرادوا: بيننا وبينكم المُتَارَكَة، وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال. وذكر المفسرون أن هذا منسوخ بآية السيف. وفي قوله: «لَا تَبْنِي الْجَاهِلِينَ» ثلاثة أقوال: أحدها: لا تبني دين الجاهلين. والثاني: لا تطلب مجاورتهم. والثالث: لا تريد أن تكون جُهالاً.

(١) قال ابن كثير: وهذا فيه بُعْدٌ، لأن عيسى لم يجر له ذكر هاهنا، والله أعلم. اهـ.

(٢) قال السيوطي في «أسباب النزول» ٢١٠: رواه الطبراني في «الأوسط» بسند فيه من لا يُعرف عن ابن عباس ﷺ.

(٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به وأتبعه وصدقه، فله أجران، وعبد مملوك أتى حق الله تعالى وحق سيده، فله أجران، ورجل كانت له إمة فلغناها فأحسن غلامها، ثم أتبعها فأحسن أعبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران» متفق عليه، والملفظ لمسلم. وذكره السيوطي في «الدرر» ١٣٣/٥، وزاد نسبه لأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) وَقَالُوا إِن نَّبِئَكَ الْكَذِبَ مَكَ تَنْخَلِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُسَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا مَائِنًا يَبِيحُ إِلَيْهِ فَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبٍ مِمَّا بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا فَيَا لَكَ مَسْكِنُهُمْ لَوْ شِئْنَا لَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا وَإِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا عَنْ الزَّوْرَيْنِ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ قد ذكرنا سبب نزولها عند قوله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالرِّبِّ مَأْتُوا أَنْ يَسْتَفْتِرُوا لِلشُّرِكِينَ﴾ (التوبة: ١١٣)، وقد روى مسلم فيما انفرد به عن البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعنه: «قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة»، فقال: لولا أن تُعيرني نساء قريش، يقلن: إنما حملة على ذلك الجزع، لأفرت بها عينك، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (١). قال الزجاج: أجمع المفسرون أنها نزلت في أبي طالب. وفي قوله: ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ قولان: أحدهما: من أحببت هدايته. والثاني: من أحببته لقرابته. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يُرْسِدُ لِدِينِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: من قدر له الهدى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِئَكَ الْكَذِبَ مَكَ﴾ قال ابن عباس في رواية العوفي. هم ناس من قريش قالوا ذلك (٢). وقال في رواية ابن أبي مليكة: إن الحارث بن عامر بن نوفل قال ذلك (٣). وذكر مقاتل أن الحارث بن عامر قال لرسول الله ﷺ: إنا لنعلم أن الذي تقول حق، ولكن يمنعنا أن ننبئ [الهدى] معك مخافة أن تتخطفنا العرب من أرضنا (٤)، يعنون مكة. ومعنى الآية: إن أتبعناك على دينك خِفْنَا العرب لمخالفتنا إياها. والتخطف: الانتزاع بسرعة؛ فردَّ الله عليهم قولهم، فقال: ﴿أَوْلَمْ تُسَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا﴾ أي: أو لم نسكنهم حرمًا ونجعله مكانًا لهم، ومعنى «مأينًا»: ذو أمن يأمن فيه الناس، وذلك أن العرب كان يُغيّر بعضها على بعض، وأهل مكة آمنون في الحرم من القتل والسبي والغارة، أي: فكيف يخافون إذا أسلموا وهم في حرم آمن؟ ﴿يَبِيحُ﴾ [قرأ نافع: «تُجبي» بالتمام]، أي: تُجْمَعُ إليه وتُحْمَلُ من [كل] النواحي الشمرات، ﴿رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: مِنْ عِنْدِنَا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أن الله هو الذي فعل بهم ذلك فيشكرونه. ومعنى الآية: إذا كنتم آمنين في حرمي تأكلون رزقي وتعبدون غيري، فكيف تخافون إذا عبَدتموني وأستم بي؟ ثم خوفهم عذاب الأمم الخالية فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبٍ مِمَّا بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا﴾ قال الزجاج: «معيشتها» منصوبة بإسقاط «في»، والمعنى: بَطَرْتُ في معيشتها، والبطر: الطغيان في التعمه. قال عطاء: عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام.

قوله تعالى: ﴿فَيَا لَكَ مَسْكِنُهُمْ لَوْ شِئْنَا لَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا وَإِلَّا قَلِيلًا﴾ قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافرون ومازَّ الطريق يوماً أو ساعة، والمعنى: لم تُسَكِّنْ من بعدهم إلا سُكُونًا قَلِيلًا ﴿وَكُنَّا عَنْ الزَّوْرَيْنِ﴾ أي: لم يخلفهم أحد بعد هلاكهم في منازلهم، فبقيت خراباً غير مسكونة.

(١) رواه مسلم في «صحيحه» ٥٥/١، ولقظه: «لولا أن تُعيرني قريش، يقولون: إنما حملة على ذلك الجزع لأفرت بها عينك» وليس عند مسلم كلمة «نساء». وذكره السيوطي في «الدرر» ١٣٣/٥، وزاد نسبه لعبد بن حميد، والترمذي، وابن أبي حاتم، وإن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، وقد انفرد مسلم بروايته بهذا اللفظ مختصراً، ورواه البخاري في «صحيحه» ٣٨٩/٨، ومسلم في «صحيحه» ٥٤/١ بأطول منه باختلاف يسير في روايتهما: عن سعيد بن المسيب عن أبيه: قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: «أي هم قل لا إله إلا الله كلمة أسأج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليها ويُعيدانه تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «فوالله لأستغفرن لك ما لم أكن أشهدك» فأنزل الله ﷻ ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالرِّبِّ مَأْتُوا أَنْ يَسْتَفْتِرُوا لِلشُّرِكِينَ...﴾ وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، واللفظ للبخاري. وأورده السيوطي في «الدرر» ٢٨٢/٣ وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

(٢) رواه الطبري ٩٤/٢٠، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٣٤/٥، وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٣) رواه الطبري ٩٤/٢٠، وأورده السيوطي في «الدرر» ١٣٤/٥، وزاد نسبه للنسائي، وابن المنذر. وذكر الحافظ ابن كثير عن رواية النسائي عن ابن

أبي مليكة، قال: قال عمرو بن شعيب عن ابن عباس، ولم يسمه منه.

(٤) ذكر هذا المعنى الطبرسي في «مجمع البيان» ولم ينسبه لمقاتل ولا غيره، بل ذكره بلفظ «وقيل». وذكره القرطبي عن ابن عباس، ولم يذكر من رواه عنه، والله أعلم.

قال المفسرون: خفيت عليهم الحجج، وسميت آباء، لأنها أخبار يُخبر بها. قال ابن قتيبة: والمعنى: عَمُوا عنها - من شدة الهول - فلم يُحيوا، والـآباء هاهنا: الحجج.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجّة، قاله الضحاك. والثاني: أن المعنى: سكتوا فلا يتساءلون في تلك الساعة، قاله الفراء. والثالث: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه شيئاً من ذنوبه، حكاه الماوردي. ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ من الشُّرك ﴿وَأَمَّنْ﴾ أي: صدّق بتوحيد الله ﴿وَعَزَلَ صَليكاً﴾ أدى الفرائض ﴿فَتَمَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ و«عسى» من الله واجب.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَدْ أَرَادَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَكَهَ الْحُكْمِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ روى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ قال: كانوا يجعلون لألهتهم خبير أموالهم في الجاهلية. وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِي بَيْنَ الْقَرَبَتَيْنِ عَظِيمِ﴾^(١) [الزعرور: ٣١]؛ والمعنى أنه لا تُبْعَثُ الرسل باختيارهم. قال الزجاج: والوقف الجيد على قوله: «ويختار» وتكون «ما» نفيًا؛ والمعنى: ليس لهم أن يختاروا على الله؛ ويجوز أن تكون «ما» بمعنى «الذي»، فيكون المعنى: ويختار الذي لهم فيه الخيرة ممّا يتعبد لهم به ويدعوهم إليه^(٢)؛ قال الفراء: والعرب تقول لِمَا تختاره: أعطني الخيرة والخيرة والخيرة، قال ثعلب: كلها لغات.

قوله تعالى: ﴿مَا تَكُنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ما تُخفي من الكفر والعداوة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بالسُّتْم. قوله تعالى: ﴿لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [أي]: يَحْمَدُه أُوليَاؤُه في الدنيا وَيَحْمَدُونَه في الجنة ﴿وَكَهَ الْحُكْمِ﴾ وهو الفصل بين الخلائق. والسُّرْم: الدائم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا لَأَكْبَرُ الْفَيْدَةَ مِنَ الْإِلَهِ عَزَّ اللَّهُ بِأَيْكُمُ بِضِيَاءِ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا لَأَكْبَرُ الْفَيْدَةَ مِنَ الْإِلَهِ عَزَّ اللَّهُ بِأَيْكُمُ بِلَيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٩﴾ وَمَنْ حَمَلَهُ جَمَلٌ لُكْرًا أَوْ نَهَارًا لِنَسْكَوْا فِيهِ وَلَيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِنَسْكَوْا فِيهِ وَلَيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لَيَكْفُرُنَّ بِمَا يَكْفُرُونَ ﴿٨٠﴾ وَرَزَقْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّوْا عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ أي: سماع فهم وقبول فتستدلوا بذلك على وحدانية الله تعالى؟! ومعنى ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾: تستريحون من الحركة والنَّصَبِ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة؟! ثم أخبر أن الليل والنهار رحمة منه. وقوله: ﴿لِنَسْكَوْا فِيهِ﴾ يعني في الليل ﴿وَلَيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لتلتمسوا من رزقه بالمعاش في النهار ﴿وَلَمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِنَسْكَوْا فِيهِ﴾ الذي أنعم عليكم بهما.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: أخرجنا من كل أمة رسولها الذي يشهد عليها بالتبليغ ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم على ما كنتم تعبدون من دوني ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: علموا أنه لا إله إلا هو ﴿وَصَلَّوْا عَلَيْهِمْ﴾ أي: بطل في الآخرة ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من الشركاء.

﴿إِنَّ قُرْآنَكَ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَتَبَيَّنَ مِنْ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاضِعَهُ لَنُورًا بِالْمُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْحَشْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٨﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِقِينَ ﴿٧٩﴾﴾

(١) ذكره السيوطي في «أسباب النزول» ١٩٣ من رواية ابن المنذر عن قتادة، والله أعلم.

(٢) قال ابن كثير: وقد اخبر ابن جرير أن «ما» هاهنا بمعنى الذي، تقديره: ويختار الذي لهم فيه خيرة، قال: وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح، ثم قال ابن كثير: والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره أيضاً، فإن المقام في بيان انفراد تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً. اهـ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرَيْشَ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: من عشيرته؛ وفي نسبه إلى موسى ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان ابن عمه، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال عبد الله بن الحارث، وإبراهيم، وابن جريج. والثاني: ابن خالته، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أنه كان عمّ موسى، قاله ابن إسحاق^(١). قال الزجاج: «قارون» اسم أعجمي لا ينصرف، ولو كان «فاعولاً» من العربية من «قرنت الشيء» لانصرف.

قوله تعالى: ﴿قَبِيحٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه جعل لِيُنْفِي جُغْلًا على أن تقذف موسى بنفسها، ففعلت، فاستحلفها موسى على ما قالت، فأخبرته بقصتها، فكان هذا بغية، قاله ابن عباس. والثاني: أنه بغى بالكفر بالله تعالى، قاله الضحاك. والثالث: بالكِبْر، قاله قتادة. والرابع: أنه زاد في طول ثيابه شبراً، قاله عطاء الخراساني، وشهر بن حوشب. والخامس: أنه كان يخدم فرعون فتعلّى على بني إسرائيل وظلمهم، حكاه الماوردي. وفي المراد بمفاته حوشب. قولان: أحدهما: أنها مفاتيح الخزائن التي تفتح بها الأبواب، قاله مجاهد، وفتادة. وروى الأعمش عن خيشمة قال: كانت مفاتيح قارون وقرستين بغلاً، وكانت من جلود، وكل مفتاح مثل الأصبع. والثاني: أنها خزائنه، قاله السدي، وأبو صالح، والضحاك. قال الزجاج: وهذا الأشبه أن تكون مفاته خزائن ماله؛ وإلى نحو هذا ذهب ابن قتيبة. قال أبو صالح: كانت خزائنه تُحمل على أربعين بغلاً.

قوله تعالى: ﴿لَتَنْوَأَنَّ بِالْمُصْبِرِينَ﴾ أي: تُثقلهم وتُميلهم. ومعنى الكلام: لَتُنْفِي العصبية، فلمّا دخلت الباء في «العُصبة» انفتحت التاء، كما تقول: هذا يذهب بالابصار، وهذا يُذهب الأبصار، وهذا اختيار الفراء، وابن قتيبة، والزجاج في آخرين. وقال بعضهم: هذا من المقلوب، وتقديره: ما إن العصبية لتتوَأ بمفاته، كما يقال: إنها لتتوَأ بها عجيزتها، أي: هي تتوَأ بعجيزتها، وأنشدوا:

فَدَيْتُ بِنَفْسِي وَمَالِي وَمَا أَلْسُوكَ إِلَّا مَا أُطِيسُ^(٢)

أي: فديتُ بنفسي وبمالي نفسه، وهذا اختيار أبي عبيدة، والأخفش. وقد بيّنا معنى العُصبة في سورة (يوسف: ٨)، و[في] المراد بها [هاهنا] ستة أقوال: أحدها: أربعون رجلاً، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: ما بين الثلاثة إلى العشرة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: خمسة عشر، قاله مجاهد. والرابع: فوق العشرة إلى الأربعين، قاله فتادة. والخامس: سبعون رجلاً، قاله أبو صالح. والسادس: ما بين الخمسة عشر إلى الأربعين، حكاه الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ في القائل له قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون من قومه، قاله السدي. والثاني: أنه قول موسى له، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ قال ابن قتيبة: المعنى: لا تأشُرْ، ولا تَبَطِّزْ، قال الشاعر:

وَلَسْتُ بِمَفْرَاحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّتَنِي وَلَا جَسَازٍ مِنْ صَرْفِهِ الْمُتَحَوَّلِ^(٣)

أي: لسْتُ بأشِيرٍ، فأما السرورُ، فليس بمكروه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ وقرأ أبو رجاء، وأبو حيو، وعاصم الجحدري، وابن أبي عبيدة: «الفارجين» [بألف].

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا أَمَّاكَ اللَّهُ﴾ أي: اطلب فيما أعطاك الله من الأموال. وقرأ أبو النخول، وابن السميع: «وأتبع» بتشديد التاء وكسر الباء بعدها وعين ساكنة غير معجمة «أَلَدَّارَ الْآخِرَةِ» وهي: الجنة؛ وذلك يكون بإنفاقه في رضى الله تعالى وشكر المُتَمِّعِ به «وَلَا تَنَسْ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن يعمل في الدنيا للآخرة، قاله ابن عباس، ومجاهد، والجمهور. والثاني: أن يُقَدِّمَ الفضل ويُمسك ما يُغنيه، قاله الحسن. والثالث: أن يستغني بالحلال عن الحرام، قاله فتادة. وفي معنى: «وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ» ثلاثة أقوال حكاه

(١) قال ابن كثير: قال ابن جريج: وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه، والله أعلم.

(٢) البيت في «مجاز القرآن» ٧٩/٢، و«الطبري» ١٠٨/٢٠.

(٣) البيت لهذبة بن حشْرَمَ المُدْرِي، وهو في «غريب القرآن» ٣٣٥، و«البحر المحیط» ١٣٢/٧، و«القرطبي» ٣١٣/١٣، و«الكامل» ١٢٤٨/٣، و«عيون

الأخبار» ١٧٦/٢ و٢٨١، و«حماة البحري» ١٢٠، و«حماة ابن الشجري» ١٣٧.

الماوردي: أحدها: أعط فضل مالك كما زادك على قدر حاجتك. والثاني: أخير فيما افترض عليك كما أحسن في إنعامه إليك. والثالث: أحسن في طلب الحلال كما أحسن إليك في الإحلال^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخِ الْأَمْثَالَ فِي الْأَرْزَاقِ﴾ فتعمل فيها بالمعاصي. **﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ حِلِّهِ عَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْفَرُوقِ مَن مَّا أُنشِئْتُمْ بِهِ قُوَّةً وَأَكْتَرُ جَمًّا وَلَا يُحِثُّ عَلَيْهُنَّ الْمُتَكِبُونَ﴾**

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ يعني المال **﴿عَلَىٰ حِلِّهِ عَسَىٰ﴾** فيه خمسة أقوال: أحدها: على علم عندي بصنعة الذهب، رواه أبو صالح عن ابن عباس؛ قال الزجاج: وهذا لا أصل له، لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له. والثاني: برضى الله عني، قاله ابن زيد^(٢). والثالث: على خير عِلْمَةٍ الله عندي، قاله مقاتل. والرابع: إنما أعطيته لفضل علمي، قاله الفراء. قال الزجاج: ادعى أنه أعطني المال لعلمه بالترواة. والخامس: على علم عندي بوجوده المكاسب، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَسْتَمِعُونَ﴾ يعني قارون **﴿أَنَّ اللَّهَ قد أَخْلَقَهُ﴾** بالعذاب **﴿مِن قَبْلِهِ مِنَ الْفَرُوقِ﴾** في الدنيا حتى كتبوا رسلهم **﴿مَنْ مَّا أُنشِئْتُمْ بِهِ قُوَّةً وَأَكْتَرُ جَمًّا﴾** للاموال. وفي قوله: **﴿وَلَا يُحِثُّ عَلَيْهُنَّ الْمُتَكِبُونَ﴾** ثلاثة أقوال: أحدها: لا يسألون ليُعْلَمَ ذلك: يرفق قلوبهم وإن سئلوا سؤال توبيخ. قاله الحسن. والثاني: أن الملائكة تعرفهم بسيماهم فلا تسألهم عن ذنوبهم، قاله مجاهد. والثالث: يدخلون النار بغير حساب، قاله قتادة. وقال السدي: يعذبون ولا يسألون عن ذنوبهم.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا لِلَّهِ أَكْثَرُونَ﴾ وفي قوله: **﴿وَلَا يُحِثُّ عَلَيْهُنَّ الْمُتَكِبُونَ﴾** قوله تعالى: **﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾** قال الحسن: في ثياب حمر وصفر؛ وقال عكرمة: في ثياب مُعَصْفَرَةٍ. وقال وهب بن منبه: خرج على بغلة شبيهة عليها سرج أحمر من أزجوان، ومعه أربعة آلاف مقاتل، وثلاثمائة وصيفة عليهن الحلبي والزينة على بغال بيض. قال الزجاج: الأزجوان في اللغة: صبح أحمر.

قوله تعالى: **﴿لَدُو حَظًّا﴾** أي: لُدو نصيب واخر من الدنيا. [وقوله]: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْمَالَم﴾** قال ابن عباس: يعني الأبحار من بني إسرائيل، وقال مقاتل: الذين أوتوا العلم بما وعد الله في الآخرة قالوا للذين تمتموا ما أوتى [قارون]: **﴿وَلِلَّكُمْ قَوَابُ اللَّهِ﴾** أي: ما عنده من الجزاء **﴿حَيْرَ لَيْنَ مَأْسَم﴾** مما أعطى قارون^(٣).

قوله تعالى: **﴿وَلَا يُلْقِنَهَا﴾** قال أبو عبيدة: لا يوقن لها ويؤزقها. وقرأ أبي بن كعب، وابن أبي عمير: **﴿وَلَا يُلْقَاهَا﴾** بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف. وفي المشار إليها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الأعمال الصالحة، قاله مقاتل. والثاني: أنها الجنة، والمعنى: لا يعطاها في الآخرة إلا الصابرون على أمر الله، قاله ابن السائب. والثالث: أنها الكلمة التي قالوها، وهي قولهم: **﴿قَوَابُ اللَّهِ حَيْرَ﴾**، قاله الفراء^(٤).

(١) قال ابن جرير الطبري: وأحسن في الدنيا إتيان مالك الذي آتاك الله في وجهه وسئله، كما أحسن الله إليك فوسع عليك منه ووسط ليح فيها. وقال ابن كثير: أي: أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك.

(٢) قال ابن كثير: وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله: **﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ حِلِّهِ عَسَىٰ﴾** لولا رضى الله عني ومعرفة بقضائي، ما أعطاني هذا المال، وقرأ **﴿أُولَئِكَ يَسْتَمِعُونَ﴾** أن الله قد أخلف بين قلوبهم من الفرق من مَن مَّا أُنشِئْتُمْ بِهِ قُوَّةً وَأَكْتَرُ جَمًّا... الآية، قال: وهكذا يقول من نقل حله إذا راقى من مَن مَّا أُوتِيَ اللهُ عَلَيْهِ، لولا أن يسمعون ذلك لنا. أعطي... وقال ابن جرير الطبري: ولو كان الله يوقن الاموال بين يديه لفضل فيه وخير عنده، ورضاه عنه، لم يكن يهلك من أهلك من أرباب الاموال الذين كانوا أكثر منه مالا، لأن من كان الله عنه راضياً، فمحال يهلكه الله وهو عنه راض، وإنما يهلك من كان عليه ساعطاً. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما تزود، قال: كما جله في الحديث الصحيح: **﴿يَهْوِلُ إِلَهُ تَعَالَى: أَعَدَّتْ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْن رَأَتْ وَلَا أُذُن سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ﴾**، فرؤوا إن شئتم: **﴿كَلِمَاتٍ مَّا تَأْتِيَنَّكُمْ مِن قِبَلِهِ يَخْتَارُ﴾**، اهـ.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وقوله: **﴿وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾** يقول: ولا يلقيها، أي: لا يوقن لقبيل هذه الكلمة، وهي قوله: **﴿حَيْرَ لَيْنَ مَأْسَم﴾** وتقول =

﴿تَسْتَفْتَا بِهِ وَيُدَارُوْا الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ قَضَىٰ بَصُرَتِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ التَّنْصِيهِ ۗ ﴿٧٦﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّنَا مَكَانَهُ بِالْأَيْمِيْنِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِسُلْطَانِ الرَّزْقِ لِمَنْ يَنْشَأُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَكَانَتْ لَا يَبْلُغُ الْكَافِرُونَ ۗ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَسْتَفْتَا بِهِ وَيُدَارُوْا الْأَرْضَ﴾^(١) لما أمر قارونَ البغييِّ بقذف موسى على ما سبق شرحه للقصص: ٤٧٦ غضب موسى فدعا عليه، فأوحى الله تعالى إليه: إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فَمُرَّهَا؛ فقال موسى: يا أرض خذيه، فأخذته حتى غيبت سريره، فلما رأى ذلك ناشده بالرَّحْم، فقال: خذيه، فأخذته حتى غيبت قدميه؛ فما زال يقول: خذيه، حتى غيبتَه، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى ما أفطكت، وعزيتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته^(٢). قال ابن عباس: فحسفت به الأرض إلى الأرض السفلى. وقال سُمْرَةُ بن جُنْدَب: إنَّه يُحْسَفُ به كلُّ يومِ قامة، فيبلغ به الأرض السفلى يوم القيامة^(٣). وقال مقاتل: فلما هلك قارون قال بنو إسرائيل: إنما أهلكه موسى ليأخذ ماله وداره، فحسفت الله بداره وماله بعده بثلاثة أيام.

قوله تعالى: ﴿بَصُرَتِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعونه من الله ﴿وَمَا كَانَتْ مِنَ التَّنْصِيهِ﴾ أي: من الممتنعين ممَّا نزل به. ثم أعلمنا أن الممتنعين مكانه ندموا على ذلك التمنيِّ بالآية التي تلي هذه. وقوله: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ الأكثرون على ضم الخاء وكسر السين. وقرأ يعقوب، والوليد عن ابن عامر، وحفص، وأبان عن عاصم: بفتح الخاء والسين. فأما قوله: ﴿وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِالرَّزْقِ﴾ معناه: ألم تر، وكذلك قال أبو عبيدة والكسائي: وقال الفراء: ﴿وَيَكَذِّبُ اللَّهُ﴾ في كلام العرب تقريظاً، يحقِّقون الرجل: أما ترى إلى صنع الله وإحسانه، أنشدني بعضهم:

وَيْكَ أَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَسْبٌ يُخْرُ
بَبٌ وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعْشُرْ عَيْشَ حُرُرٍ

وقال ابن الأنباري: في قوله: ﴿وَيْكَ أَنْهَ﴾ ثلاثة أوجه. إن شئت قلت: ﴿وَيْكَ﴾ حرف، و﴿أنه﴾ حرف؛ والمعنى: ألم تر أنه، والدليل على هذا قول الشاعر:

سَأَلْتَانِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأَيْتَانِي
وَيْكَ أَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَسْبٌ يُخْرُ

والثاني: أن يكون ﴿وَيْكَ﴾ حرفاً، و﴿أنه﴾ حرفاً. والمعنى: وبيك أعلم أنه، فحذفت اللام، كما قالوا: قم لا أباك، يريدون: لا أبالك، وأنشدوا:

أَبَا لَمْزُتِ الَّذِي لَا بُدَّ لِي
مُلاقِي لَا أَبَاكَ تُحَوِّفِينِي^(٤)

أراد: لا أبالك، فحذفت اللام. والثالث: أن يكون ﴿وَيْكَ﴾ حرفاً، و﴿كأنه﴾ حرفاً، فيكون معنى ﴿وَيْكَ﴾ التَّعَجُّبُ، كما تقول: وَيَّي لِمَ فعلت كذا وكذا، ويكون معنى ﴿كأنه﴾: أَطْنَهَ وأعلمه، كما تقول في الكلام: كأنك بالفرج قد أقبِل؛ فمعناه: أَطْنُ الْفَرْجِ مُقْبِلاً. وإنما وصلوا الياء بالكاف في قوله: ﴿وَيُكَأْنَهُ﴾ لأنَّ الكلام بهما كُثِّرَ، كما جعلوا ﴿يَبْتَوِّمُ﴾ في

حَكِيمِيًّا. قال: زهير واليه والألف كناية عن الكفاية وقال: ﴿إِلَّا الْكَمُودُ﴾ يعني بذلك: الذين صبروا عن طلب زينة الحياة الدنيا، وآثروا ما هناه الله من بجزيل برهانه على الخساعات للأصنام، على لذات الدنيا وشهواتها، فجأوا في طاعة الله، ورفضوا للحياة الدنيا.

(١) وفي «صحيح البخاري» ١/٦/٢٨١: عن حماد بن الخطيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجر إزاره من الغيلاء، يمشي به فهو يتجملج في الأرض إلى يوم القيامة. وفي صحيح مسلم» ٣/١٦٥٩: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي، يمشي في برديه قدمه أصعبته فتنه، فحسفت الله به الأرض. فهو يتجملج فيها إلى يوم القيامة».

(٢) رواه الطبري بنحو ١١٧/٢٠ وفي سننه رجل مجهول، وذكر نحوه السيوطي في «الدرر» مطولاً من رواية عبد الوزاق وابن جاتم عن عبد الله بن الحارث، ومختصره من رواية أحمد بن زيد عن ابن جاتم من طريق قتادة عن سفره بن جندب. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: «ورواه الطبري في «الطويخ» عن طريق سفيان بن أبي عازبة عن قتادة قال: فذكر لنا... فذكره».

(٣) البتان يزيد بن عمرو بن نقيل القرشي، وهما في «مجاز القرآن» ١/٢/١١٢، و«الطبري» ٢/١٢٠، و«القرطبي» ١٣/٣١٨، و«سبويه» ١/٤٩٠، والبيت الثاني في: «مشكل القرآن» ٤٨٨: وفي «الصحيح» و«اللسان» و«التاج»: «زياً، ونسبت فيها يزيد بن عمرو، أو بنسبته بن الحجاج».

(٤) البيت لأبي حنيفة الثوري، وهو في: «الصحيح» و«اللسان» و«التاج»: «أبي حنيفة بن زيد بن جندب».

المصحف حرفاً واحداً، وهما حرفان [طه: ١٩٤]. وكان جماعة منهم يعقوب، يقفون على «وَيْكَ» في الحرفين، ويتدوون «آن» وأنته في الموضوعين. وذكر الزجاج عن الخليل أنه قال: «وَيْ» مفصولة من «كأن»، وذلك أن القوم تندموا فقالوا: «وَيْ» متندمين على ما سلف منهم، وكلُّ مَنْ نَدِمَ فَاظْهَرَ نَدَامَتَهُ قَالَ: وَيٌّ. وحكى ابن قتيبة عن بعض العلماء أنه قال: معنى «ويكأن»: رحمة لك، بلغة جَمِيرٍ^(١).

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: بالرحمة والمعافة والإيمان ﴿لَمَكَّسَفَ بِنَا﴾.

﴿بِنَا﴾ أي: بِنَاؤِ الْأَخْرَجَةِ بِمَعْمَلِهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْمُؤَيَّةُ لِلْمُؤَيِّنِ ﴿٢٧﴾ مَن جَاءَ بِالْمَسْئَةِ فَلَهُ حِزْبٌ مِّمَّهَا وَمَنْ جَاءَ بِالْإِسْخَابِ فَلَا يُجْزَى إِلَيْكَ عَمَلُهُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿بِنَا﴾ أي: بِنَاؤِ الْأَخْرَجَةِ يعني الجنة ﴿بِمَعْمَلِهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ وفيه خمسة أقوال: أحدها: أنه البغي، قاله سعيد بن جبيرة. والثاني: الشرف والعز، قاله الحسن. والثالث: الظلم، قاله الضحاك. والرابع: الشرك، قاله يحيى بن سلام. والخامس: الاستكبار عن الإيمان، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ فيه قولان: أحدهما: العمل بالمعاصي، قاله عكرمة. والثاني: الدُّعَاءُ إِلَى غَيْرِ عِبَادَةِ اللَّهِ قَالَه ابْنُ السَّائِبِ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَيَّةُ لِلْمُؤَيِّنِ﴾ أي: العاقبة المحمودة لهم.

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْمَسْئَةِ﴾ قد فسرها في سورة [النمل: ٢٨٩].

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَيْكَ عَمَلُهُ السَّيِّئَاتِ﴾ يريد الذين أشركوا ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ أي: إلا جزاء عملهم من الشُّرْكِ، وجزاؤه النَّارُ.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا مَعَهُ قُلْ رَبِّهِ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَهُ بِالْهَدْيِ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ عَابِدِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْوَعْدَ إِلَى رَّبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَّبِعْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ قال مقاتل: خرج رسول الله ﷺ من الغار ليلاً، فمضى من وجهه إلى المدينة فسار في غير الطريق مخافة الطلب؛ فلما أَمِنَ رَجَعَ إِلَى الطَّرِيقِ فَتَزَلَّ الْجُحْفَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، فَعَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَى مَكَّةَ، فَاشْتَاقَ إِلَيْهَا، وَذَكَرَ مَوْلَدَهُ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: أَشْتَاقُ إِلَى بَلَدِكَ وَمَوْلَدِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا مَعَهُ﴾، فنزلت هذه الآية بالـجُحْفَةِ^(٣). وفي معنى ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: فرض عليك العمل بالقرآن، قاله عطاء بن أبي رباح، وابن قتيبة. والثاني: أعطاك القرآن، قاله

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، أن معناه: ألم تر، ألم تعلم، ثم قال: وأذ كان ذلك هو الصواب، فتأويل الكلام: وأصبح الذين تمثروا مكان قارون وموضع من الدنيا بالأسس، يقولون لما عابنوا ما أحل الله به من نعمته: ألم تر يا هنا أن الله يسطر الرزق لمن يشاء من عباده فيوضع عليه لا لفضل منزلته عنده ولا لكرامته عليه، كما كان بسط من ذلك لقارون، لا لفضله ولا لكرامته عليه ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ يقول: ويفضين على من يشاء من خلقه ذلك ويعتبر عليه لا لهوانه ولا لسخطه عمله. اهـ. وقد ضف ابن جرير قول من قال: معناه: «ويك أعلم أن»، وقال ابن كثير: والظاهر أنه قوي، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف مصلة «ويكأن» وقال: والكتابة أمر وضي اصطلاحي، والمرجع إلى اللفظ العربي، والله أعلم. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: يخبر تعالى أن الدار الآخرة وتعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً في الأرض، أي: ترعفاً على خلق الله وتماظماً عليهم وتجبُّراً بهم، ولا فساداً فيهم. اهـ، وروى ابن جرير الطبري عن علي ﷺ قال: إن الرجل ليعجب من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه، فيدخل في قوله: ﴿بِنَاؤِ الْأَخْرَجَةِ بِمَعْمَلِهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْمُؤَيَّةُ لِلْمُؤَيِّنِ ﴿٢٧﴾﴾. اهـ. قال ابن كثير: وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره، فإن ذلك ممنوم، كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل، فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب أن يكون رداي حسناً، ونعلي حسنة، أمنن الكثير ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال».

(٣) ذكر ذلك القرطبي في «تفسيره» عن مقاتل أيضاً، وخرجه السيوطي في «الدرر» ١٣٩/٥ من رواية ابن أبي حاتم عن الضحاك بنحوه. وقال ابن كثير بمد أن أورد رواية ابن أبي حاتم عن الضحاك: وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكياً، والله أعلم. اهـ.

مجاهد. والثالث: أنزل عليك القرآن، قاله مقاتل، والفراء، وأبو عبيدة. وفي قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أربعة أقوال: أحدها: إلى مكة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في رواية، والضحاك. قال ابن قتيبة: مَعَادُ الرَّجُل: بلده، لأنه يتصرف في البلاد ويتصرف في الأرض^(١) ثم يعود إلى بلده. والثاني: إلى معادك من الجنة، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٢)، وبه قال الحسن، والزهري. فإن اعترض على هذا فقيل: الرُّدُّ يقتضي أنه قد كان فيما رُدُّ إليه؛ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه لما كان أبوه آدم في الجنة ثم أخرج، كان كأنَّ ولده أُخرج منها، فإذا دخلها فكأنه أُعيد. والثاني: أنه دخلها ليلة المعراج، فإذا دخلها يوم القيامة كان ردًّا إليها، ذكرهما ابن جرير. والثالث: أن العرب تقول: رجع الأمر إلى كذا، وإن لم يكن له كَوْنٌ فيه قط، وأنشدوا:

[وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشُّهَابِ وَضَوْؤِهِ] يَحُورُ زَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ^(٣)

وقد شرحنا هذا في قوله: ﴿وَاللَّهُ تَرْجِيحُ الْأُمُورِ﴾ [البقرة: ٢١٠]. والثالث: لَرَأَدُكَ إِلَى الْمَوْتِ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال أبو سعيد الخدري^(٤). والرابع: لَرَأَدُكَ إِلَى الْقِيَامَةِ بِالْبَعثِ، قاله الحسن، والزهري، ومجاهد في رواية، والزجاج^(٥). ثم ابتداء كلاماً يَرُدُّ به على الكفار حين نسبوا النبي ﷺ إلى الضلال، فقال: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَهُ بِالْهُدَى﴾؛ والمعنى: قد علم أنني جئت بالهدى، وأنكم في ضلال مبين. ثم ذكروه نَعْمَةً، فقال: ﴿وَمَا كُنْتُ تَرْجُوَ أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: أن تكون نبياً وأن يوحى إليك القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ قال الفراء: هذا استثناء منقطع، والمعنى: إلا أن ربك رحمتك فأنزله عليك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: عوناً لهم على دينهم، وذلك أنهم دعوه إلى دين آباءه فأمر بالاحتراز منهم؛ والخطاب بهذا وأمثاله له، والمراد أهل دينه لئلا يظاهروا الكفار ولا يوافقوهم. قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: إلا ما أريد به وجهه، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال الثوري. والثاني: إلا هو، قاله الضحاك، وأبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي: الفصل بين الخلائق في الآخرة دون غيره ﴿وَاللَّهُ يَرْجِعُ الشُّعُوبَ﴾ في الآخرة^(٦).



(١) زيادة من «مشكل القرآن».

(٢) رواه الطبري: ١٢٤/٢٠ وفي سننه ضعف.

(٣) البيت للبيد بن ربيعة العامري، وهو في «ديوانه» ١٦٩، و«البحر» ٤٤٤/٨، و«اللسان» و«التاج»: حور.

(٤) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندني قول من قال: لرادك إلى عادتك من الموت، أو إلى عادتك حيث وُلدت. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: وجه الجمع بين هذه الأقوال، أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجل النبي ﷺ، كما فسر ابن عباس سورة ﴿إِنَّا جَاءَكُمُ اللَّهُ بِحَقِّهِ الْوَعْدُ﴾ إلى آخر السورة: أنه أجل رسول الله ﷺ نعمي إليه، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ﷺ، ووافقه عمر على ذلك وقال: لا أعلم منها غير الذي تعلم، ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاء ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين: الإنس والجن، ولأنه أكمل خلق الله، وأفضح خلق الله، وأشرف خلق الله على الإطلاق. اهـ.

(٦) قال ابن جرير الطبري: وإليه تردون من بعد مماتكم فيفرض بينكم بالعدل فيجازي مؤمنكم جزاءهم، وكفاركم ما وعدهم. اهـ.

سورة العنكبوت

فصل في نزولها

روى العوفي عن ابن عباس أنها مكية، وبه قال الحسن، وقيادة، وعطاء، وجابر بن زيد، ومقاتل، وفي رواية عن ابن عباس أنها مدنية. وقال هبة الله [ابن سلامة] المفسر: نزل من أولها إلى رأس العشر بمكة، وبقاها بالمدينة. وقال غيره عكس هذا: نزل العشر بالمدينة، وبقاها بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَن يُبْرَكُوا أَن يُؤْتُوا أَمْثَلًا مِّمَّا كَانُوا عَلَىٰ فِتْنَةٍ ۖ وَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْفُحُوا سَٰكَةً مَّا يَحْكُمُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَن يُبْرَكُوا﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لما أمر بالهجرة، كتب المسلمون إلى إخوانهم بمكة أنه لا يقبل منكم إسلامكم حتى تُهاجروا، فخرجوا نحو المدينة فأدركهم المشركون فردوهم، فأنزل الله ﷻ من أول هذه السورة عشر آيات، فكتبوا إليهم يخبرونهم بما نزل فيهم، فقالوا: نخرج، فإن أتبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قُتل، ومنهم من نجا، فأنزل الله ﷻ فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ [النحل: ١١٠]، هذا قول الحسين، والشعبي^(١). والثاني: أنها نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعدب في الله ﷻ، قاله عبد الله بن عبيد بن عمير^(٢). والثالث: أنها نزلت في يهجع مولى عمر بن الخطاب حين قُتل بيدر، فجزع عليه أبواه وامراته، فأنزل الله تعالى في أبويه وامراته هذه الآية^(٣).

قوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ﴾ قال ابن عباس: يريد بالناس: الذين آمنوا بمكة، كعباش بن أبي ربيعة، وعمار بن ياسر، وسلمة بن هشام، وغيرهم. قال الزجاج: لفظ الآية استخبار، ومعناه معنى التقرير والتوبيخ؛ والمعنى: أحسب الناس أن يُبركوا بأن يقولوا: آمنا، ولأن يقولوا: آمنا، أي: أحسبوا أن يُفتن منهم بأن يقولوا: إنا مؤمنون، فقط، ولا يُمتحنون بما يبين حقيقة إيمانهم ﴿وَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا يُحْتَبِرُونَ بما يُعلم به صدق إيمانهم من كذبهم. وللمفسرين فيه قولان: أحدهما: لا يُتَنَوَّنُون في أنفسهم بالقتل والتعذيب، قاله مجاهد. والثاني: لا يُتَنَلَّوْنَ بالأوامر والنواهي.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ابتليناهم واختبرناهم، ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فليرين الله الذين صدقوا في إيمانهم عند البلاء إذا صبروا لقضائه، وليرين الكاذبين في إيمانهم إذا شكوا عند البلاء، قاله مقاتل. والثاني: فلَيُمَيِّزَنَّ، لأنه [قد] عَلِمَ ذلك من قبل، قاله أبو عبيدة. والثالث: فلَيُظْهِرَنَّ ذلك حتى يوجد معلوماً، حكاه الثعلبي^(٤). وقرأ علي بن أبي طالب، وجعفر بن محمد: ﴿فَلَيُعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ و﴿لَيُعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ الذين آمنوا و﴿لَيُعْلَمَنَّ المنافقين﴾ [العنكبوت: ١١] بضم الياء وكسر اللام.

(١) رواه ابن جرير الطبري ١٢٩/٢٠ عن الشعبي، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٤١/٥، وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الشعبي.

(٢) «الطبري» ١٢٩/٢٠، وأورده السيوطي في «الدرر» ١٤١/٥، وزاد نسبه لابن سعد، وابن أبي حاتم، وابن عساکر.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٩٥ عن مقاتله، بدون سند. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٢٧: ذكره الثعلبي عن مقاتل، قال: وسنده إلى مقاتل في أول كتابه.

(٤) قال ابن كثير: ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى لا يد أن يبطل عباده المؤمنين بحسب ما غلبهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: ﴿لَيْسَ لِلنَّاسِ بِلَاءٌ أَثْبَاهُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يَبْتَلِي الرَّجُلَ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَإِن كَانَ فِي دِينِهِ صَلَاحٌ زَادَ لَهُ فِي بِلَايِهِ، قَالَ: وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنزِ حَسِبَنَّ أَن تَدْعُلُوا الْحَيَّةَ وَكَمَا يَدْعُو أَنَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا بِرَبِّكُمْ وَيَتَّوَمَّ الْفٰكِرِينَ﴾ قال: ومنها في سورة «بؤساء». وقال في سورة «البقرة»: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْعُلُوا الْحَيَّةَ وَكَمَا يَدْعُو الْفٰكِرِينَ عَلَّمَا مِن قَبْلِكُمْ مَثَلَهُمْ الْفٰكِرَةَ أَذَكَرْتُمْ إِنذَارًا وَتُلُوا أَرْسُلًا وَأَلْبِنُوا حَتَّىٰ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] -

قوله تعالى: ﴿مَنْ حَبِيبٌ﴾ أي: أَيَحْسَبُ الَّذِينَ يَمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴿عَنِ الشَّرِّ﴾ ﴿أَنْ يَسْقُونَا﴾ أي: يَفُوتُونَا وَيُعْجِزُونَا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بِسْمَا حُكْمِهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ حِينَ ظَنُّوا ذَلِكَ. قال ابن عباس: عنى بهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والعاص بن هشام، وغيرهم.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ عَنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَمَلُونَ﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ قد شرحناه في آخر (الكهف) ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ يعني الأجل المضروب للبعث؛ والمعنى: فليعمل لذلك اليوم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقول ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يعمل. ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: إن ثوابه إليه يرجع.

قوله تعالى: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: لَنَبْطَلَنَّهَا حَتَّى تَصِيرَ بِمَنْزِلَةِ مَا لَمْ يُعْمَلْ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَمَلُونَ﴾ أي: بأحسن أعمالهم، وهو الطاعة، ولا نجزيهم بمساوي أعمالهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِنَّ مَرْجِعَكُمْ لِإِلَىٰ رَبِّكَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز: وعاصم الجحدري: «إحساناً» بألف. وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء: «حسناً» بفتح الحاء والسين. روى أبو عثمان التَّهْدِي عن سعد بن أبي وقاص، قال: في أنزلت هذه الآية، كنت رجلاً برّاً بأبي، فلما أسلمتُ قلت: يا سعدا ما هذا الدين الذي قد أحدثت، لتدع عن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال: يا قاتل أمه، قلت: لا تفعل يا أمه، إنني لا أدع ديني هذا لشيء، قال: فمكثت يوماً وليلة لا تأكل، فأصبحت قد جهدت، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لا تأكل، فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين والله يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، فكلني، وإن شئت لا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت، فأنزلت هذه الآية^(١). وقيل: إنها نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة، وقد جرى له مع أمه نحو هذا^(٢). وذكر بعض المفسرين أن هذه الآية، والتي في [لقمان: ١٥] وفي [الأحاف: ١٥] نزلت في قصة سعد^(٣). قال الزجاج: مَنْ قرأ: «حسناً» فمعناه: ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يحسن، ومن قرأ: «إحساناً» فمعناه: ووصينا الإنسان أن يُحسِنَ إلى والديه، وكان «حسناً» أعم في البرِّ. ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ قال أبو عبيدة: مجاز هذا الكلام المختصر الذي فيه ضمير، والمعنى: وقتلنا له: وإن جاهداك.

قوله تعالى: ﴿تُشْرِكْ بِي﴾ معناه: لتشرك بي شريكاً لا تعلمه لي وليس لأحد بذلك علم، ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي: في زُمرَةِ الصَّالِحِينَ فِي الْجَنَّةِ. وقال مقاتل: «في» بمعنى «مع».

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ إِلَهُهُ وَلَئِن جَاءَهُ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿٢١﴾

= قال: ولهذا قال هاتنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاتب في قوله ودعوا. والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان، وما لم يكن، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة. اهـ.

(١) رَوَاهُ بِهَذَا السِّيَاقِ الْوَاحِدِي فِي «أَسْبَابِ النُّزُولِ» ١٩٥ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي عُمَانَ التَّهْدِي عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، وَفِي سَنَدِهِ ضَعْفٌ، وَذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي سُورَةِ (لُقْمَانَ) مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيِّ، وَفِي سَنَدِهِ ضَعْفٌ وَانْقِطَاعٌ، وَأُورِدَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرَرِ» ١٦٥/٥ فِي سُورَةِ (لُقْمَانَ) زِيَادَ نِسْبَتِهِ لِأَبِي يَعْلى، وَابْنَ مَرْدُودِيهِ، وَابْنَ عَسَاكِرٍ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ حِينَ تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ فِي سُورَةِ (الْمُنْكَبُوتِ) ١٥٠/٢ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ: أَنْزَلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ، فَذَكَرَ قِصَّتَهُ، وَقَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالْبِرِّ، وَاللَّهُ لَا أَطْعِمُ طِعْمَاناً، وَلَا أَشْرَبُ شَرَاباً حَتَّى أَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ، قَالَ: فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَطْعَمُوهَا شَجَرُوا فَاغَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي...﴾ الْآيَةَ. وَمَعْنَى: شَجَرُوا فَاغَا: فَتَحَوْهَ، وَهَذَا الْحَدِيثُ قَالَ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَرَوَاهُ بِنَعْوِهِ أَحْمَدُ، وَمُسْلِمٌ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتَّسَانِيُ.

(٢) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «تَرْخِيصِ الْكُشَافِ» ٤٧: ذَكَرَ الْقِصَّةَ بِطَوَّلِهَا الْعَلَمِيُّ بِدُونِ سَنَدٍ، وَالوَاحِدِيُّ عَنْ ابْنِ الْكَلْبِيِّ، وَالتَّبْرِيْزِيُّ عَنِ السُّلَيْمِيِّ.

(٣) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «تَرْخِيصِ الْكُشَافِ» ١٢٧: ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ، وَالتَّسَانِيُ، وَالرَّوَادِيُّ هَكَذَا بِغَيْرِ سَنَدٍ، وَالْقِصَّةُ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ بِغَيْرِ هَذَا السِّيَاقِ. اهـ. يَتَنَبَّهُ بِهِ الْحَدِيثُ الَّذِي تَقَدَّمَ: أَنْزَلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ...

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ النَّاسِ مَن يُقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ اختفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون إلى بدر فارتدوا، رواه عكرمة عن ابن عباس^(١). والثاني: نزلت في قوم كانوا يؤمنون بالسنتهم، فإذا أصابهم بلاءٌ من الله أو مصيبة في أنفسهم وأموالهم افتتوا، قاله مجاهد^(٢). والثالث: نزلت في ناس من المنافقين بمكة، كانوا يؤمنون، فإذا أودوا وأصابهم بلاءٌ من المشركين رجعوا إلى الشرك، قاله الضحاك^(٣). والرابع: أنها نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة، كان أسلم، فخاف على نفسه من أهله وقومه، فخرج من مكة هارباً إلى المدينة، وذلك قبل قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجزعت أمه فقالت لأخويه أبي جهل والحارث ابني هشام - وهما أخواه لأمه -: والله لا أوي بيتاً ولا أكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تأتياي به، فخرجا في طلبه فظفرا به، فلم يزالا به حتى تابعهما وجاء به إليهما، فقيدته، وقالت: والله لا أحلُّك من وثاقت حتى تكفر بمحمد، ثم أقبلت تجلِّد بالسياط وتعذِّبه حتى كفر بمحمد ﷺ جَزَعاً من الضَّرْب، فنزلت [فيه] هذه الآية، ثم هاجر بعدُ وحَسُنَ إسلامه، هذا قول ابن السائب، ومقاتل. وفي رواية عن مقاتل أنهما جلداه في الطريق ماتت جلدة، فتراها من دين محمد، فنزلت هذه الآية^(٤).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَرَادَىٰ فِي اللَّهِ﴾ أي: ناله أذى أو عذاب بسبب إيمانه ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي: ما يصيبه من عذابهم في الدنيا ﴿كَذَّابِ اللَّهِ﴾ في الآخرة، وإنما ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله تعالى لِمَا يَرُجُو من ثوابه^(٥) ﴿وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني دولة للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ يعني المنافقين للمؤمنين ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ على دينكم، فكذبهم الله ﷻ وقال: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْكَافِرِينَ﴾ من الإيمان والنفاق. وقد فسرنا الآية التي تلي هذه في أول السورة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ﴾ **﴿١٣﴾** ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالَهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ يعنون: ديننا. قال مجاهد: هذا قول كفار قريش لمن آمن من أهل مكة، قالوا لهم: لا تبعث نحن ولا أنتم فأتبعونا، فإن كان عليكم شيء فهو علينا.

قوله تعالى: ﴿وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾ قال الزجاج: هو أمر في تأويل الشرط والجزاء، يعني: إن أتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم. وقال الأخفش: كأنهم أمروا أنفسهم بذلك. وقرأ الحسن: ﴿وَلنَحْمِلُ﴾ بكسر اللام. قال ابن قتيبة: الواو زائدة، والمعنى: لنحمل خطاياكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما ضمنوا من حمل خطاياهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: أوزار أنفسهم ﴿وَأَنْفَالَهُمْ﴾ أي: أوزاراً مع أوزارهم، وهي أوزار الذين أضلَّوهم، وهذا كقوله: ﴿لَيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] ﴿وَلَيَسْتَنَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سؤال توبيخ وتقريع ﴿عَمَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ﴾ من الكذب على الله ﷻ، وقال مقاتل: عن قولهم: نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله ﷻ.

(١) ذكره الواحدي بدون سند ١٩٦، وهو في «الطبري» بأطول منه ١٣٣/٢٠ عن عكرمة عن ابن عباس مستنداً، وذكره السيوطي في «أسباب النزول» بنحو رواية الطبري ٢٠٥/٢، وزاد نسبة لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس.

(٢) «الطبري» ١٣٢/٢٠، وذكره السيوطي في «الدر» ١٤٢/٥، وزاد نسبة للفرغاني، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) «الطبري» ١٣٢/٢٠.

(٤) قال المحافظ ابن حجر في «تخریج الكشاف» ٤٧: ذكر القصة بطولها الثعلبي بدون سند، والواحدي عن ابن الكلبي، ورواها الطبري من طريق أسباط عن السدي بتفسير يسير ولم يسم الحارث، فقال: ومعه رجل من بني عامر.

(٥) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بالسنتهم ولم يثبت في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا، اعتضدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ النَّاسِ مَن يُقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهُمْ فِتْنَةٌ عَلَى النَّاسِ﴾ ثم قال: قال ابن عباس: يعني فتنة أن يرتد عن دينه إذا أودى في الله، وكذا قال غيره من علماء السلف. اهـ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمِيلًا ۗ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ عَلِيمُونَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ وَأَصْحَابُ السُّفِينِ وَجَمَلْنَاهَا نَجَاتٍ لِّلْمَلِكِ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ في هذه القصة تسلية للنبي ﷺ حيث أعلم أن الأنبياء قد ابتلوا قبله، وفيها وعيد شديد لمن أقام على الشرك، فإنهم وإن أهلوا، فقد أهل قوم نوح أكثر ثم أخذوا.

قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمِيلًا﴾ اختلفوا في عمر نوح على خمسة أقوال: أحدها: بُعث بعد أربعين سنة، وعاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، رواه يوسف بن مهراز عن ابن عباس^(١). والثاني: أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد ذلك سبعين عاماً، فكان مبلغ عُمره ألف سنة وعشرين سنة، قاله كعب الأحبار. والثالث: أنه بُعث وهو ابن خمسين وثلاثمائة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة، قاله عون بن أبي شداد^(٢). والرابع: أنه لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة، [ودعاهم ثلاثمائة سنة]^(٣) ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، قاله قتادة^(٤). وقال وهب بن منبه: بُعث لخمسين سنة. والخامس: أن هذه الآية بيّنت مقدار عُمره كلّه، حكاه الماوردي^(٥). فإن قيل: ما فائدة قوله: ﴿إِلَّا حَمِيلًا﴾، فهلاً قال: تسعمائة وخمسين؟ فالجواب: أن المراد به تكثير العدد، وذُكر الألف أفخم في اللفظ، وأعظم للعدد. قال الزجاج: تأويل الاستثناء في كلام العرب: التوكيد، تقول: جاءني إختوك إلا زيدا، فتؤكد أن الجماعة جاؤا، وتنقص زيدا. واستثناء نصف الشيء قبيح جداً لا تتكلم به العرب، وإنما تتكلم بالاستثناء كما تتكلم بالنقصان، تقول: عندي درهم يتقص قيراطاً، فلو قلت: يتقص نصفه، كان الأولى أن تقول: عندي نصف درهم، ولم يأت الاستثناء في كلام العرب إلا قليل من كثير.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ قال: «الموت»^(٦). والثاني: المطر، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وقاتدة. قال ابن قتيبة: هو المطر الشديد. والثالث: الغرق، قاله الضحاك. قال الزجاج: الطوفان من كل شيء: ما كان كثيراً مطيفاً بالجماعة كلها، فالغرق الذي يشتمل على المدن الكثيرة: طوفان، وكذلك القتل الذريع، والموت الجارف: طوفان.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلِيمُونَ﴾ قال ابن عباس: كافرون.

قوله تعالى: ﴿وَجَمَلْنَاهَا﴾ يعني السفينة، قال قتادة: أبقاها الله آية للناس بأعلى الجودي. قال أبو سليمان الدمشقي: وجائر أن يكون أراد: الفعلة التي فعلها بهم من الغرق ﴿عَابَةً﴾، أي عبرة ﴿لِّلْمَلِكِ﴾ [بعدهم].

﴿وَلَا إِلَهَ إِذًا قَالَ لِقَوْمِهِ اهْبُتُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۚ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا صَبَدْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَصَفَلْتُمْ ۖ إِنَّكُمْ إِلَيْنَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُ لَكُمْ رَيْفًا فَلِئَلْقَائِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ تُرْزَقُونَ ﴿١٨﴾ وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٩﴾ وَإِن كَذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَّ الرَّسُولُ إِلَّا الْبَلْغُ الْأَمِيثُ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا إِلَهَ﴾ قال الزجاج: هو معطوف على نوح، والمعنى: أرسلنا إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ يعني عبادة الله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من عبادة الأوثان، ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما هو خير لكم

(١) قال السيوطي في الدرر ١٤٣/٥: أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ قال: بعث الله نوحاً وهو ابن أربعين سنة، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا.

(٢) قال ابن كثير عن هذا القول: غريب رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

(٣) زيادة من تفسير ابن كثير.

(٤) قال ابن كثير: وهذا قول غريب، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً.

(٥) قال ابن كثير: وقول ابن عباس أقرب، والله أعلم اهـ. يريد به القول الأول هنا.

(٦) رواه الطبري: ٥١/١٣، وفي سننه المنهال بن خليفة العجلي، وهو ضعيف، وفيه الحجاج بن أرطاة، وهو صدوق كثير الخطأ والتدليس، والحديث ذكره ابن كثير ٢٤٠/٢ من رواية ابن مردويه بنحوه، وقال عنه: حديث غريب. اهـ.

مما هو شر لكم؛ والمعنى: ولكنكم لا تعلمون. ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ قال الفراء: «إنما» في هذا الموضع حرف واحد، وليست على معنى «الذي»، وقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْئَكًا﴾ مردود على «إنما»، كقولك: إنما تفعلون كذا، وإنما تفعلون كذا. وقال مقاتل: الأوثان: الأصنام. قال ابن قتيبة: واحدها وثن، وهو ما كان من حجارة أو حصن.

قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْئَكًا﴾ وقرأ ابن السميع، وأبو المتوكل: «وتختلقون» بزيادة تاء. ثم فيه قولان: أحدهما: تختلقون كذباً في زعمكم أنها آلهة. والثاني: تصنعون الأصنام^(١)؛ والمعنى: تعبدون أصناماً أنتم تصنعونها. ثم بين عجزهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي: لا يقدرن على أن يرزقوكم ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي: فاطلبوا من الله، فإنه القادر على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ هذا تهديد لقريش ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ والمعنى: فأهلكوا. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿يُعَلِّمُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَكْفُرُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ﴿وَمَا أَشْرَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ كُفْرًا يَبْتَاطِبُونَ اللَّهُ وَنَسَآئِهِمُ أَوْلِيَّاهُ يَسُوءُوا بَيْنَ رَحْمَتِي وَأَوْلِيَّتِكَ لَمَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر (يَرَوًا)] بالياء وقرأ حمزة، والكسائي: بالياء. [وعن عاصم كالقراءتين]. وعنى بالكلام كنفار مكة ﴿كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ أي: كيف يخلقهم ابتداء من تطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة إلى أن يتم الخلق ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: ثم هو يُعيدُه في الآخرة عند البعث. وقال أبو عبيدة: مجازة: أو لم يروا كيف استأنف الله الخلق الأول ثم يعيده. وفيه لثنان: أبداً وأعاد، وكان مُبدئاً ومُعِيداً، وبدأ وعاد، وكان بادئاً وعائداً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني الخلق الأول والخلق الثاني. قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: انظروا إلى المخلوقات التي في الأرض، وابتحثوا عنها هل تجدون لها خالقاً غير الله، فإذا علموا أنه لا خالق لهم سواه، لزمهم الحجة في الإعادة، وهو قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي: ثم الله ينشئهم عند البعث نشأة أخرى. وأكثر القراء قرووا: «النشأة» بتسكين الشين وترك المد. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «النشأة» بالمد.

قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُ مَن يَشَاءُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه في الآخرة بعد إنشائهم. والثاني: أنه في الدنيا. ثم فيه خمسة أقوال حكاهما الماوردي: أحدها: يعذب من يشاء بالحرص، ويرحم من يشاء بالقناعة. والثاني: يعذب بسوء الخلق ويرحم بحسن الخلق. والثالث: يعذب بمتابعة البدعة، ويرحم بملزمة السنة. والرابع: يعذب بالانقطاع إلى الدنيا، ويرحم بالإعراض عنها. والخامس: يعذب من يشاء بغيض الناس له، ويرحم من يشاء بحب الناس له.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي: تُردُّون. ﴿وَمَا أَشْرَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه قولان حكاهما الزجاج: أحدهما: وما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا أهل السماء بمعجزين في السماء. والثاني: وما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا لو كنتم في السماء. وقال قطرب: هذا كقولك: ما يفوتني فلان لا هاهنا ولا بالبصرة، أي: ولا بالبصرة لو صار إليها. قال مقاتل: والخطاب لکنفار مكة؛ والمعنى: لا تسبقون الله حتى يجزيكم بأعمالكم السيئة. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: قريب ينفعكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعكم من الله.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ كُفْرًا يَبْتَاطِبُونَ اللَّهُ وَنَسَآئِهِمُ أَوْلِيَّاهُ﴾ أي: بالقرآن والبعث ﴿أَوْلِيَّتِكَ يَسُوءُوا بَيْنَ رَحْمَتِي﴾ في الرحمة قولان: أحدهما: الجنة، قاله مقاتل. والثاني: العفو والمغفرة، قاله أبو سليمان. قال ابن جرير: وذلك في الآخرة عند رؤية العذاب.

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك قول من قال: معناه: وتصنعون كذباً.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَجَبَهُ اللَّهُ بِرَبِّ النَّارِ لَيْلٍ فِي ذَلِكَ لَأَيُّدِي لِقَوْمِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾﴾ وَقَالَ
إِنَّمَا أَخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْثًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْمُنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ
وَمَا أَرْثَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴿١٥﴾

ثم عاد الكلام إلى قصة إبراهيم، وهو قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أي: حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وهذا بيان لسفه أحلامهم حين قابلوا احتجاجة عليهم بهذا. قوله تعالى: ﴿فَأَجَبَهُ اللَّهُ﴾ المعنى: فحرّقه فأنجاه الله ﴿بِرَبِّ النَّارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْلٍ فِي ذَلِكَ﴾ يشير إلى إنجائه إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ يعني إبراهيم ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْثًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ بالرفع والإضافة. قال الزجاج: ﴿مَوَدَّةٌ﴾ مرفوعة باضمار «هي»، كأنه قال: تلك مَوَدَّةٌ بينكم، أي: ألفتكم واجتماعكم على الأصنام مَوَدَّةٌ بينكم؛ والمعنى: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ هَذِهِ الْأَرْثَانَ لِتَتَوَادَّرُوا بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. ويجوز أن تكون «ما» بمعنى الذي. وقرأ ابن عباس، وسعيد بن المسيّب، وعكرمة، وابن أبي عمير: ﴿مَوَدَّةٌ﴾ بالرفع ﴿بَيْنِكُمْ﴾ بالنصب. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ﴾ قال أبو علي: المعنى: اتَّخَذْتُمْ الْأَصْنَامَ لِلْمَوَدَّةِ، وَبَيْنَكُمْ نَصَبٌ عَلَى الظرف، والعامل فيه المودة. وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: ﴿مَوَدَّةٌ بَيْنِكُمْ﴾ بنصب ﴿مَوَدَّةٌ﴾ مع الإضافة، وهذا على الاتساع في جعل الظرف اسماً لما أضيف إليه. قال المفسرون: معنى الكلام: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمُوهَا لِتَتَّصِلَ الْمَوَدَّةُ بَيْنَكُمْ وَاللِّقَاءَ وَالاجْتِمَاعَ عِنْدَهَا، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَا تَنْضُرُ وَلَا تَنْفَعُ، ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: يتبرأ القادة من الأتباع ﴿وَيَلْمُنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ يلعن الأتباع القادة لأنهم زبوا لهم الكفر.

﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْمَكِيدُ ﴿١٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْفَاحِشُونَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحْسَنِ نَبِيٍّ مِنَ الْمَلَكِيِّينَ ﴿١٨﴾ أَيُّكُمْ لَأَنْتُمْ الرِّجَالُ وَتَقَطِّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي تَكَايِبِكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ﴾ أي: صدّق بإبراهيم ﴿وَقَالَ﴾ يعني إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ فيه قولان: أحدهما: إلى رضا ربّي. والثاني: إلى حيث أمرني ربّي، فهاجر من سواد العراق إلى الشام وهجر قومه المشركين. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ بعد إسماعيل ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ من إسحاق ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وذلك أن الله تعالى لم يعط نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: الذّكر الحسن، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: الثناء الحسن والولد الصالح، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: العافية والعمل الحسن والثناء، فلست تلقى أحداً من أهل الليل إلا يتولّاه، قاله قتادة، والرابع: أنه أرى مكانه من الجنة، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قد سبق بيانه [البقرة: ١٣٠] قال ابن جرير: له هناك جزاء الصّالحين غير منقوص من الآخرة بما أعطى في الدنيا من الأجر. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأعراف: ٨٠] إلى قوله: ﴿وَتَقَطِّعُونَ السَّبِيلَ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يعترضون من مرّ بهم لعملهم الخبيث، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم كانوا إذا جلسوا في مجالسهم يرمون ابن السبيل بالحجارة، فيقطعون سبيل المسافر، قاله مقاتل. والثالث: أنه قطع النسل للعدول عن النساء إلى الرجال، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي تَكَايِبِكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال ابن قتيبة: النادي: المجلس، والمنكر يجمع الفواحش من القول والفعل. وللمفسرين في المراد بهذا المنكر أربعة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم، فذلك المنكر، روته أم هانئ بنت أبي طالب عن رسول الله ﷺ^(١). وقال عكرمة، والسدي: كانوا يَحْذِفُونَ كُلَّ

(١) رواه أحمد في «المستدرك» ٣٤١/٦، و«الطبري» ١٤٥/٢٠، والترمذي ١٥٠/٢ وحسنه، وأورده السيوطي في «الدر» ١٤٤/٥، وزاد نسبه للفريابي، =

مَنْ مَرَّ بِهِمْ. والثاني: لَثَّفَ القميص على اليد، وجرُّ الإزار، وحلُّ الأزرار، والحذف والرمي بالبندق، ولعب الحمام، والصفير، في خصال أخر رواها ميمون بن مهران عن ابن عباس. والثالث: أنه الضُّرط، رواه عروة عن عائشة، وكذلك فسره القاسم بن محمد. والرابع: أنه إتيان الرجال في مجالسهم، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد^(١). وهذه الآية [تدل] على أنه لا ينبغي للمجتمعين أن يتعاشروا إلا على ما يقرب من الله ﷻ، ولا ينبغي أن يجتمعوا على الهزء واللعب^(٢).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾ أي: بتصديق قولي في العذاب.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافِكْ بِهِمْ ذُرِّيًّا وَقَالُوا لَا تَحْفَ وَلَا تُحَنَّنْ إِنَّكَ مَنجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَيْكَ آهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ بَشَرًا مِمَّن السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَسْتُفْسِقُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَدْ رُكِّنَا بِهَا آيَةً يَتَذَكَّرُ لَوْ كُنَّا يُبْقَوْنَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعنون قرية لوط.

قوله تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾ و«إِنَّا مُنَجُّوكَ» بتشديد الحرفين، وخففهما حمزة، والكسائي. وروى أبو بكر عن عاصم «لَنُنَجِّيَنَّهُ» مشددة، و«إِنَّا مُنَجُّوكَ» مخففة ساكنة النون. وقد سبق شرح ما أخللنا بذكره (عود: ٧٧) إلى قوله: ﴿إِنَّا مُنَزِّلُونَ عَلَيْكَ آهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ بَشَرًا﴾ وهو الخضب والخسف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رُكِّنَا بِهَا آيَةً﴾ في المكني عنها قولان: أحدهما: أنها الفعلة التي فعل بهم؛ فعلى هذا في الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الحجارة التي أدركت أوائل هذه الأمة، قاله قتادة. والثاني: الماء الأسود على وجه الأرض، قاله مجاهد. والثالث: الخبر عما صنع بهم. والثاني: أنها القرية؛ فعلى هذا في المراد بالآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها آثار منازلهم الحرية، قاله ابن عباس. والثاني: أن الآية في قريتهم إلى الآن أن أساسها أعلاها وسقفها أسفلها، حكاه أبو سليمان الدمشقي. والثالث: أن المعنى: تركناها آية، تقول: إن في السماء آية، تريد أنها هي الآية، قاله الفراء.

﴿وَلَمَّا مَنَّكَ عَلَيْهِمْ بِبُشْرَى فَتَالَ بِنْفِؤِهِمْ أَتَيْدُوا اللَّهَ وَرَجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَخَذَقْتُمْ الرَّحْمَةَ فَأَمْسَكُوا فِي دَارِهِمْ جُنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قال المفسرون: اخشوا البعث الذي فيه جزاء الأعمال.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ بَيَّنَّا لَكُم مِّن مَّسَكِينِهِمْ وَرَزَقْنَا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَنفُسَهُمْ فَوَسَّوهُمْ فِئْتَابَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبِيرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَدَّرْنَا فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيتِينَ ﴿٣٩﴾ نَكَلًا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ مَن نَّزَّلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا مِّنْ أَعْدَانِهِ فَاصْبَحُوا سَوْجَدًا وَمِنهُم مَّنْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مَنَّا وَهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَمِنهُم مَّنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانُوا اللَّهُ يُظَاهِرُهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ قال الزجاج: المعنى: وأهلكتنا عاداً وثموداً، لأن قبل هذا ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّحْمَةَ﴾

= وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا في كتاب «السمت»، وابن المنذر، والشاشي في «مسنده»، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وابن عساکر، عن أم هانئ بنت أبي طالب ﷺ. وفي «المسنده» والترمذي «يخذفون»، بالخاء المعجمة، وكذلك هو في «الدرر»، وفي الأصل «يخذفون» بالخاء المهملة، والحذف يستعمل في الرمي والضرب معاً، والحذف - بالخاء المعجمة - رميك حصاة أو نواة تأخذها بين سبائكك وترمي بها، أو تتخذ مخذقة من خشب ثم ترمي بها الحصاة بين إبهامك والسبابة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحذف - بالخاء المعجمة - وقال عنه: «إنه لا يقتل الصيد، ولا يتكلم العبد»، وإنه يفتق العين ويكسر السر، متفق عليه.

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأنوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: وتخذفون في مجالسكم المائة بكم، وتسخرون منهم، لما ذكرنا من الرواية بذلك عن رسول الله ﷺ. اهـ. يريد به حديث أم هانئ.

(٢) في النسخة الاستنبولية: ولا ينبغي أن يجتمعوا على الهزل واللعب.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ﴾ أي: ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالجحاز اليمن آية في هلاكهم، ﴿وَكَاثُرًا مُتَّبِعِينَ﴾ قال الفراء: أي: ذوي بصائر. وقال الزجاج: أتوا ما أتوه وقد تبين لهم أن عاقبته عذابهم. وقال غيره: كانوا عند أنفسهم مستبصرين، يظنون أنهم على حق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا سَافِرِينَ﴾ أي: ما كانوا يفوتون الله أن يفعل بهم ما يريد.

قوله تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: عاقبتنا بتكذيبه ﴿فَيَنْهَمُ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني قوم لوط ﴿وَيَنْهَمُ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني ثموداً وقوم شعيب ﴿وَيَنْهَمُ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ يعني قارون وأصحابه ﴿وَيَنْهَمُ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني قوم نوح وفرعون ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّةٌ يَطْلُبُهُمْ﴾ فيعذبهم على غير ذنب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالإقامة على المعاصي.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْفَكْرِينِ أَخَذَتْ يَتِيمًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَيَبْتَئُ الْمَنكُوبُونَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (١٢) ﴿وَقَالَ الْأَمْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (١٣)

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني الأصنام يتخذها المشركون أولياء يرجون نفعها ونصرها، فمثلهم في ضعف احتيالهم ﴿كَمَثَلِ الْفَكْرِينِ أَخَذَتْ يَتِيمًا﴾ (١١) قال ثعلب: والعنكبوت أنثى، وقد يذكرها بعض العرب، قال الشاعر:

عَلَى هَطَالِهِمْ مِنْهُمْ بُيُوتٌ] كَأَنَّ الْعَنْكَبُوتَ هُوَ ابْنَتَاهَا (١٢)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: هو عالم بما عبده من دونه، لا يخفى عليه ذلك؛ والمعنى أنه يجازيهم على كفرهم. ﴿وَقَالَ الْأَمْتَلُ﴾ يعني أمثال القرآن التي شبه بها أحوال الكفار؛ وقيل: «تلك» بمعنى «هذه»، و﴿الْعَالِمُونَ﴾: الذين يعقلون عن الله ﷻ.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤) ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَأَ الصَّلَاةَ﴾ (١٥) ﴿إِنَّكَ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (١٦) ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: للحق، ولإظهار الحق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الصَّلَاةَ تَتْلُو عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ في المراد بالصلاة قولان: أحدهما: أنها الصلاة المعروفة، قاله الأكثرون. وروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا» (١٧). والثاني: أن المراد بالصلاة: القرآن، قاله ابن عمر؛ ويدل على هذا قوله: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وقد شرحنا معنى الفحشاء والمنكر فيما سبق [البقرة: ١٦٨، النحل: ٩٠]. وفي معنى هذه الآية

(١) قال ابن كثير: هلا مثل غيره الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويمسكون بهم في الشداد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهته، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما أخذوا من دون الله أولياء، وهلا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك بحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه يتمسك بالبررة التوفى لا انقسام لها لقوتها وثباتها. اهـ.

(٢) البيت غير منسوب في «مجمع البيان» ٣٦٣/٢٠، و«البحر المحيط» ١٥٢/٧، و«روح البيان» ١٤٠/٢٠، و«اللسان» و«التاج»: عنكب. قال في «التاج»: هطال: جبل.

(٣) هذا الحديث رواه الطبراني، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق ليث بن أبي سليم عن عطاء عن ابن عباس مرفوعاً، وهو حديث ضعيف، من أجل ليث بن أبي سليم، وقد أخرجه الطبري من رواية ابن عباس موقوفاً عليه، ومن رواية ابن مسعود موقوفاً عليه أيضاً، وهو الصواب. قال ابن كثير: والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وقنادة، والأعمش، وغيرهم. اهـ. فالحديث إذن ضعيف السند في المرفوع. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض فتاويه: هذا الحديث ليس بثابت عن النبي ﷺ، لكن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما ذكر الله في كتابه، ويكفل حال الصلاة لا تزيد صاحبها بعبادته، بل الذي يعطي خير من الذي لا يعطي وأقرب إلى الله من وإن كان فاسقاً. اهـ. فكانه يشير إلى تضعيفه منته أيضاً. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ لما قيل له: إن فلاناً يعطي الليل كله، فإذا أصبح سرق، فقال: «سبته ما تقول» أو قال: «استمنته صلواته» رواه أحمد، والبخاري، وابن حبان، وغيرهم، وسنده صحيح. يريد عليه الصلاة والسلام أن الصلاة إذا كانت على الوجه الأكمل، تنهى صاحبها عن الفحشاء، ولا تزيد بعبادته، بل تزيد قرباً منه.

للعلماء ثلاثة أقوال: أحدها: أن الإنسان إذا أدّى الصلاة كما ينبغي وتدبّر ما يتلو فيها، نهته عن الفحشاء والمنكر، هذا مقتضاها وموجبها. والثاني: أنها تنهاه ما دام فيها. والثالث: أن المعنى: ينبغي أن تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر.

قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: ولذِكْرُ اللَّهِ إِيَّاكُمْ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ، رواه ابن عمر عن رسول الله ﷺ^(١)، وبه قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد في آخرين. والثاني: ولذِكْرُ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ، وهذا مذهب أبي الدرداء، وسلمان، وقناة. والثالث: ولذِكْرُ اللَّهِ فِي الصَّلَاةِ أَكْبَرُ مِمَّا نَهَاكَ عَنْهُ مِنَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، قاله عبد الله بن عون. والرابع: ولذِكْرُ اللَّهِ الْعَبْدَ - مَا كَانَ فِي صَلَاتِهِ - أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِ الْعَبْدِ لِلَّهِ، قاله ابن قتيبة.

﴿ وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَرَبُّكُمْ لَمْ يَمْلِكُوا ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ في التي هي أحسن ثلاثة أقوال: أحدها: أنها لا إله إلا الله، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنها الكف عنهم إذا بدلوا الجزية، فإن أبوا قوتلوا، قاله مجاهد. والثالث: أنها القرآن والدعاء إلى الله بالآيات والحجج.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ وهم الذين نصبوا الحرب وأبوا أن يؤدوا الجزية، فجادلوا هؤلاء بالسيف حتى يُسَلِّمُوا أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴿ وَقُولُوا ﴾ لِمَنْ أَدَى الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ إِذَا أَخْبِرَكُمْ بِشَيْءٍ مِمَّا فِي كِتَابِهِمْ ﴿ آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ [الآية]. وقد روى أبو هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تَصَدَّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ ﴾ ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ [الآية]^(٣).

فصل

واختلف في نسخ هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها نسخت بقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] قاله قتادة، والكلبي. والثاني: أنها ثابتة بالحكم، وهو مذهب ابن زيد.

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾^(٤) ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَنفَرُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَقْلُوبٍ يَبَيِّنُكُمْ إِذَا لَزَمْتَابِ السُّبُلُونَ ﴾^(٥) ﴿ بَلْ هُمْ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي سُذُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ وَمَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْقَلِيلُونَ ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي: وكما أنزلنا الكتاب عليهم ﴿ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾

(١) ذكره السيوطي في «الدرر» ١٤٦/٥ من رواية ابن السني، وابن مردويه، والديلمي عن ابن عمر ﷺ مرفوعاً، والله أعلم. وذكر الطبري هذا المعنى في «التفسير» من قول ابن عباس. قال ابن كثير: وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس، وروي أيضاً عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وغيرهم، واختاره ابن جرير. اهـ.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» ١٢٩/٨. قال ابن كثير: إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه، فهنا لا تقدم على تكذيبه، لأنه قد يكون حقاً، ولا تصديقه، فلمله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملًا معلقاً على شرط، وهو أن يكون منزلاً، لا مبدلاً ولا مؤولاً. وقال أيضاً: ثم ليؤمن أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان، لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل، وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحاً. اهـ. وقال ابن كثير: قال البخاري عن ابن عباس: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث تقرؤونه محضاً لم يَسْبِ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكثروا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من المعلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم. وقال ابن كثير أيضاً: قال البخاري: وقال أبو اليمان: أخبرنا شعيب عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رجلاً من قريش بالمدينة وذكر كتب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحذئين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبول عليه الكذب، قال ابن كثير: معناه: أنه يقع منه الكذب لفة من غير قصد، لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة، ومكذوبة، لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون بهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لا يعلمها إلا الله ﷻ، ومن منحه الله تعالى علماً بذلك كل بحسبه، والله الحمد والمنة. اهـ.

يعني مؤمني أهل الكتاب ﴿وَمَنْ هَكَذَا﴾ يعني أهل مكة ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وهم الذين أسلموا ﴿وَمَا يَجْعَلُ يَتَابِعَتَنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ قال قتادة: إنما يكون الجحد بعد المعرفة. قال مقاتل: وهم اليهود.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَشْتَرُونَ بِقُلُوبِكُمْ مِنْ كِتَابٍ﴾ قال أبو عبيدة: مجازته: ما كنت تقرأ قبله كتاباً، «ومين» زائدة. فأما الهاء في «قِيلَ» فهي عائدة إلى القرآن. والمعنى: ما كنت قارئاً قبل الوحي ولا كاتباً، وهكذا كانت صفته في التوراة والإنجيل أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب^(١)، وهذا يدل على أن الذي جاء به من عند الله تعالى. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: لو كنت قارئاً كاتباً لشك اليهود فيك، ولقالوا: ليست هذه صفته في كتابنا. والمُبتلون: الذين يأتون بالباطل، وفيهم هاهنا قولان: أحدهما: كفار قريش، قاله مجاهد. والثاني: كفار اليهود، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ في المكي عنه قولان: أحدهما: أنه النبي محمد ﷺ، ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أن المعنى: بل وجدنا أهل الكتاب في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يكتب ولا يقرأ، وأنه أمي، آيات بيّنات في صدورهم، وهذا مذهب ابن عباس، والضحاك، وابن جريج. والثاني: أن المعنى: بل محمد ذو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، لأنهم يجدونه بنعته وصفته، قاله قتادة. والثاني: أنه القرآن، والذين أوتوا العلم: المؤمنون الذين حملوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ وحملوه بعده. وإنما أعطي الحفظ هذه الأمة، وكان من قبلهم لا يقرؤون كتابهم إلا نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه سوى الأنبياء، وهذا قول الحسن. وفي المراد بالظالمين هاهنا قولان: أحدهما: المشركون، قاله ابن عباس. والثاني: كفار اليهود، قاله مقاتل.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتٌ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمِكْتَبَ وَشِئْنَ عَلَيْهِمْ لِكُفْرِهِمْ فِي ذَلِكَ أَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ قُرْبَىٰ وَوَضَعْنَا الْقُرْبَىٰ لِلزُّكُورِ ﴿٥٢﴾ قُلْ كَفَرَ بِاللَّهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ سِوَايَ سُلَيْمَانَ وَدَاوُدَ وَاللَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَنْبَغُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني كفار مكة ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «آيات» على الجمع. وقرأ ابن كثير، وحذرة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «آية» على التوحيد، وإنما أرادوا: كآيات الأنبياء ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: هو القادر على إرسالها، وليست بيدي، وزعم بعض علماء التنجيس أن قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ منسوخ بآية السيف. ثم بين الله ﷻ أن القرآن يكفي من الآيات التي سألوها بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتٌ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمِكْتَبَ﴾ ١٩ وذكر يحيى بن جعدة أن نامساً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكتب قد كتبوها، فيها بعض ما يقول اليهود، فلما نظر إليها ألقاها وقال: «كفى بها حمالة قوم، أو ضلالة قوم، أن يرغبوا عما جاء به نبئهم إلى قوم غيرهم»، فتزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتٌ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمِكْتَبَ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ قال المفسرون: لما كذبوا بالقرآن نزلت: ﴿قُلْ كَفَرَ بِاللَّهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ سِوَايَ سُلَيْمَانَ وَدَاوُدَ وَاللَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَنْبَغُونَ﴾ وشهادة الله له: إثبات المعجزة له بإنزال الكتاب عليه، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن عباس: بغير الله. وقال مقاتل: عبادة الشيطان.

(١) قال ابن كثير: ومن زعم من متأخري الفقهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه ﷺ كتب يوم الحديبية: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله»، وإنما حمله على ذلك رواية في «صحيح البخاري»: «ثم أخذ فكتب»، وهذه محمولة على الرواية الأخرى: «ثم أمر فكتب»، ولهذا اشدت الكثير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه. ثم قال ابن كثير: وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمض ﷺ حتى تعلم الكتابة، فضعف لا أصل له. اهـ.

(٢) روى الطبري ٧/٢١، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكتاب»: ١٢٨: رواه الطبري، وأبو داود في «العمريين» من طريق يحيى بن جعدة. وقال ابن حجر في «التقريب» عن جعدة: ثقة وقد أرسل عن ابن مسعود بنحوه. وذكر هذا الخبر السيوطي في «الدر» ١٤٨/٥، وزاد نسبه للدارمي، وابن المنذر: وابن أبي حاتم، عن يحيى بن جعدة ﷺ، وأورده السيوطي في «الدر» أيضاً من رواية الإسماعيلي في «معجمه»، وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة ﷺ بنحوه.

﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ أَوْلَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَهَنَّمَ الْعَذَابُ وَيَأْتِيهِمْ بِنَتْنَةٍ لَا يَسْمُرُونَ ﴿٥٣﴾ وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ أَوْلَىٰ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَشْفَعُ الْمُعَذَّبُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَيَقُولُ دُفُوعًا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾
 قوله تعالى: ﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ﴾ قال مقاتل: نزلت في النضر بن الحارث حين قال: ﴿فَأَمْلِئْ عَلَيْنَا حِجَاكَةً بَيْنَ السَّكَاةِ﴾ [الأنفال: ٣٢].^(١)

وفي [الأجل] المسمى أربعة أقوال: أحدها: أنه يوم القيامة، قاله سعيد بن جبير. والثاني: أجل الحياة إلى حين الموت، وأجل الموت إلى حين البعث، قاله قتادة. والثالث: مُدَّة أعمارهم، قاله الضحاك. والرابع: يوم بدر، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِمْ﴾ يعني العذاب. وقرأ معاذ القاري، وأبو نهيك، وابن أبي عبله، «وَلتَأْتِيَنَّهُمْ» بالياء «بِنَتْنَةٍ وَهَمَّ لَا يَسْمُرُونَ» بإتيانه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: جامعة لهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ دُفُوعًا﴾ قرأ ابن كثير: بالنون. وقرأ نافع: بالياء. فمن قرأ بالياء، أراد الملك الموكل بعذابهم؛ ومن قرأ بالنون، فلأن ذلك لما كان بأمر الله تعالى جاز أن يُنسب إليه. ومعنى «مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أي: جزاء ما علمتم من الكفر والتكذيب.

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَرِيعَةً لِّأُنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ لِمَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ بَيْنَ الْجَنَّةِ نَهْرًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَسْمِعُ تَسْمِيرَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيُّ مَن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّا كَآئِمٌ بِكُمْ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: «يا عبادي» بتحرك الياء. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي: بإسكانها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَرِيعَةً﴾ وقرأ ابن عامر وحده: «أرضي» بفتح الياء. وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه خطاب لِمَن آمن [بين] أهل مكة، قيل لهم: «إن أرضي» يعني المدينة «واسعة»، فلا تجاوروا الظلمة في أرض مكة، قاله أبو صالح عن ابن عباس؛ وكذلك قال مقاتل: نزلت في ضُعفاء مُسلمي مكة، [أي]: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان، فأرض المدينة واسعة. والثاني: أن المعنى: إذا عمل بالمعاصي في أرض فأخرجوا منها، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال عطاء. والثالث: إن رزقي لكم واسع، قاله مطرف بن عبد الله.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ أثبت فيها الياء يعقوب في الحاليين، وحذفها الباقون. قال الزجاج: أمرهم بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله إلى حيث تنهياً لهم العبادة؛ ثم خوفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة، فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ المعنى: فلا تُقيموا في دار الشرك خوفاً من الموت ﴿ثُمَّ لِمَا تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت فنجزىكم بأعمالكم، والأكثر قرؤوا: «تُرْجَعُونَ» بالياء على الخطاب؛ وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء.

قوله تعالى: ﴿لَنُؤْتِيَنَّهُمْ﴾ [قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «لَنُؤْتِيَنَّهُمْ» بالياء، أي: لَنُؤْتِيَنَّهُمْ. وقرأ حمزة، والكسائي، [وخلف]: «لَنُؤْتِيَنَّهُمْ» بالياء، [وهو] من: نويتُ بالمكان: إذا أقمت به. قال الزجاج: [يقال]: ثوى الرجل: إذا أقام، وأثوته: إذا أنزلته منزلاً يُقيم فيه.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيُّ مَن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ قال ابن عباس: لما أمرهم رسول الله ﷺ بالخروج إلى المدينة، قالوا: يا رسول الله، نخرجُ إلى المدينة وليس لنا بها عِقَار ولا مال؟! فمن يؤننا ويطمعنا؟ فنزلت هذه الآية^(٢). قال

(١) الطبري ١/٢٢٢ من سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء. وروى البخاري عن أنس قال: قال أبو جهل: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ مَنَا قَرَأَ الْقُرْآنَ بَيْنَ يَدَيْكَ فَاتَمِيزْ عَلَيْنَا حِجَاكَةً بَيْنَ السَّكَاةِ لَوْ اتَّقَيْنَا بِسَبَابِ الْيَوْمِ» فنزلت: ﴿وَمَا كَسَاكَ اللَّهُ يَوْمَهُمْ وَأَنْتَ يَوْمَ مَا كَسَاكَ اللَّهُ يَوْمَهُمْ وَهَمَّ يَسْتَفْتِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

(٢) ذكر ذلك بعض المفسرين بدون سند، والله أعلم. وقد ذكر المفسرون في سبب نزولها حديثاً ضعيفاً عن ابن عمر، وقد أورده السيوطي في «الدر» ١٤٩/٥ قال: أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساکر بسند ضعيف عن ابن عمر ﷺ قال: خرجت مع -

ابن قتيبة: ومعنى الآية: كم من دابة لا ترفع شيئاً لغد، قال ابن عيينة: ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والفأرة والنملة. قال المفسرون: وقوله: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أي: حيثما توجهت ﴿وَأَيُّكُمْ﴾ أي: ويرزقكم إن هاجرتم إلى المدينة ﴿وَوَعُوَ التَّصْبِيحُ﴾ لقولكم: لا نجد ما نثق بالمدينة ﴿الصلية﴾ بما في قلوبكم.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعني كفار مكة، وكانوا يُؤثرون بأنه الخالق والرازق؛ وإنما أمره أن يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقرارهم، لأن ذلك يلزمهم الحجة فيوجب عليهم التوحيد ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ توحيد الله مع إقرارهم بأنه الخالق. والمراد بالأكثر: الجميع.

﴿وَمَا هِيَ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿إِنَّمَا دَعَا فِي الدُّنْيَا دَعْوَا اللَّهِ خَلَصِينَ لَهُ الْآيِينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِنْ أَلْبَسْتَهُمْ لَعْنَةً إِذَا هُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلَيَسْمَعَنَّ سَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ والمعنى: وما الحياة في هذه الدنيا إلا غرور ينقضي عن قليل ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ يعني الجنة ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ قال أبو عبيدة: اللام في ﴿لَهِيَ﴾ زائدة للتوكيد، والحيوان والحياة واحد؛ والمعنى: لهي دار الحياة التي لا موت فيها، ولا تنغيص يشوبها كما يشوب الحياة في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو علموا لرغبوا عن الفاني في الباقي، ولكنهم لا يعلمون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا دَعَا فِي الدُّنْيَا دَعْوَا اللَّهِ خَلَصِينَ لَهُ الْآيِينَ﴾ يعني المشركين ﴿دَعَا اللَّهُ خَلَصِينَ لَهُ الْآيِينَ﴾ أي: أفردوه بالدعاء. قال مقاتل: والذين بمعنى التوحيد؛ والمعنى أنهم لا يدعون من يدعوهم شريكاً له ﴿فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ﴾ أي: خلصهم من أهوال البحر، وأفضوا ﴿إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يَشْكُرُونَ﴾ في البر، وهذا إخبار عن عنادهم. ﴿يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ هذه لام الأمر، ومعناه التهديد والوعيد كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [نصت: ٤٠]؛ والمعنى: ليحسدوا نعمة الله في إنجائه إياهم ﴿وَلَيَسْمَعَنَّ سَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي بإسكان اللام على معنى الأمر؛ والمعنى: ليعتصروا بباقي أعمارهم ﴿سَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم. وقرأ الباقون بكسر اللام في ﴿لَيَسْمَعَنَّ سَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، فجعلوا اللامين بمعنى «كي»، فتقديره: لكي يكفروا، ولكي يمتنعوا، فيكون معنى الكلام: إذا هم يشكرون ليكفروا وليمتنعوا، أي: لا فائدة لهم في الإشراك إلا الكفر والتمتع بما يتمتعون به في العاجلة من غير نصيب لهم في الآخرة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَمَإً مَائِيًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَيُّهَا الْبَاطِلُ يُؤْمِنُونَ وَيَعْتَمِدُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني كفار مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَمَإً مَائِيًا﴾ يعني مكة؛ وقد شرحنا هذا المعنى في [النصم: ٥٧] ﴿وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي: أن العرب ينسب بعضهم بعضاً وأهل مكة آمنون ﴿أَيُّهَا الْبَاطِلُ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: الشرك، قاله قتادة. والثاني: الأصنام، قاله ابن السائب. والثالث: الشيطان، قاله مقاتل. قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعاصم الجحدري: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ وينعمة الله تكفرون» بالباء فيهما.

= رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فحمل يلتقط من التمر، ويأكل، فقال لي: يا ابن عمر مالك لا تأكل؟ قلت: لا أشتهي يا رسول الله، قال: «لكني أشتهي، وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً، ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبؤون رزق ستمهم ويضعف اليقين؟» قال: فوالله ما برحنا ولا برحنا حتى نزلت: ﴿وَكَلِمَاتٍ بَيْنَ يَدَيْهَا رِزْقُهَا اللَّهُ يُرْزِقُهَا وَيَأْتِيهَا وَمَنْ يَرْزُقُهَا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات، إلا وإني لا أكثر ديناراً ولا درهماً، ولا أدرج رزقاً لغد». قال ابن كثير: وهذا حديث غريب، وأبو المطوف الجزري ضعيف اه، يعني أحد رجال السنن، وهو الجراح بن منهل الجزري.

قوله تعالى: ﴿وَبِعَمَّةِ اللَّهِ﴾ يعني: محمداً والإسلام؛ وقيل: بإنعام الله عليهم حين أطعمهم وأمنهم ﴿يَكْفُرُونَ﴾؛
 ﴿وَمَنْ أَلَدَمَ وَمَنْ أَقْبَضَ عَلَى اللَّهِ حُكْمًا﴾ أي: زعم أن له شريكاً وأنه أمر بالفواحش ﴿أَنْزَلَ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ يعني
 محمداً والقرآن ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾! وهذا استفهام بمعنى التقرير، كقول جرير: *يا كافر*
 أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
 لَأَوْنَدِي الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحٍ
 ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي: قاتلوا أعداءنا لأجلنا ﴿لَنَهَيَّيْتُمْ سُبُلًا﴾ أي: لَنُوقِفْتَهُمْ لِإِصَابَةِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ؛
 وقيل: لَنَزِيدَهُمْ هِدَايَةَ ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْكَاهِنِينَ﴾ بالنصرة والعون. قال ابن عباس: يريد بالمُخْسِنِينَ: الموحدين؛ وقال
 غيره: يريد المجاهدين. وقال ابن المبارك: من اعتاضت عليه مسألة، فليسأل أهل الثُّغُور عنها، لقوله: ﴿لَنَهَيَّيْتُمْ سُبُلًا﴾.



قوله تعالى: ﴿وَبِعَمَّةِ اللَّهِ﴾ يعني: محمداً والإسلام؛ وقيل: بإنعام الله عليهم حين أطعمهم وأمنهم ﴿يَكْفُرُونَ﴾؛
 ﴿وَمَنْ أَلَدَمَ وَمَنْ أَقْبَضَ عَلَى اللَّهِ حُكْمًا﴾ أي: زعم أن له شريكاً وأنه أمر بالفواحش ﴿أَنْزَلَ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ يعني
 محمداً والقرآن ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾! وهذا استفهام بمعنى التقرير، كقول جرير: *يا كافر*
 أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
 لَأَوْنَدِي الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحٍ
 ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي: قاتلوا أعداءنا لأجلنا ﴿لَنَهَيَّيْتُمْ سُبُلًا﴾ أي: لَنُوقِفْتَهُمْ لِإِصَابَةِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ؛
 وقيل: لَنَزِيدَهُمْ هِدَايَةَ ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْكَاهِنِينَ﴾ بالنصرة والعون. قال ابن عباس: يريد بالمُخْسِنِينَ: الموحدين؛ وقال
 غيره: يريد المجاهدين. وقال ابن المبارك: من اعتاضت عليه مسألة، فليسأل أهل الثُّغُور عنها، لقوله: ﴿لَنَهَيَّيْتُمْ سُبُلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبِعَمَّةِ اللَّهِ﴾ يعني: محمداً والإسلام؛ وقيل: بإنعام الله عليهم حين أطعمهم وأمنهم ﴿يَكْفُرُونَ﴾؛
 ﴿وَمَنْ أَلَدَمَ وَمَنْ أَقْبَضَ عَلَى اللَّهِ حُكْمًا﴾ أي: زعم أن له شريكاً وأنه أمر بالفواحش ﴿أَنْزَلَ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ يعني
 محمداً والقرآن ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾! وهذا استفهام بمعنى التقرير، كقول جرير: *يا كافر*
 أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
 لَأَوْنَدِي الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحٍ
 ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي: قاتلوا أعداءنا لأجلنا ﴿لَنَهَيَّيْتُمْ سُبُلًا﴾ أي: لَنُوقِفْتَهُمْ لِإِصَابَةِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ؛
 وقيل: لَنَزِيدَهُمْ هِدَايَةَ ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْكَاهِنِينَ﴾ بالنصرة والعون. قال ابن عباس: يريد بالمُخْسِنِينَ: الموحدين؛ وقال
 غيره: يريد المجاهدين. وقال ابن المبارك: من اعتاضت عليه مسألة، فليسأل أهل الثُّغُور عنها، لقوله: ﴿لَنَهَيَّيْتُمْ سُبُلًا﴾.

١- قوله تعالى: ﴿وَبِعَمَّةِ اللَّهِ﴾ يعني: محمداً والإسلام؛ وقيل: بإنعام الله عليهم حين أطعمهم وأمنهم ﴿يَكْفُرُونَ﴾؛
 ﴿وَمَنْ أَلَدَمَ وَمَنْ أَقْبَضَ عَلَى اللَّهِ حُكْمًا﴾ أي: زعم أن له شريكاً وأنه أمر بالفواحش ﴿أَنْزَلَ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ يعني
 محمداً والقرآن ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾! وهذا استفهام بمعنى التقرير، كقول جرير: *يا كافر*
 أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
 لَأَوْنَدِي الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحٍ
 ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي: قاتلوا أعداءنا لأجلنا ﴿لَنَهَيَّيْتُمْ سُبُلًا﴾ أي: لَنُوقِفْتَهُمْ لِإِصَابَةِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ؛
 وقيل: لَنَزِيدَهُمْ هِدَايَةَ ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْكَاهِنِينَ﴾ بالنصرة والعون. قال ابن عباس: يريد بالمُخْسِنِينَ: الموحدين؛ وقال
 غيره: يريد المجاهدين. وقال ابن المبارك: من اعتاضت عليه مسألة، فليسأل أهل الثُّغُور عنها، لقوله: ﴿لَنَهَيَّيْتُمْ سُبُلًا﴾.

سورة الرُّوم

وهي مَكِّيَّة كُتِبَتْ بِأَجْمَاعِهِمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرُّومُ﴾ ﴿عَلِيَّتِ الرُّومُ﴾ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِينَ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ ظَلْمِهِمْ سَيَقِيلُونَ﴾ ﴿فِي بَيْضِ بَيْتِكَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْسَحُ الْمَوْتُونَ﴾ ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ بِنَصْرِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿عَلِيَّتِ الرُّومُ﴾ ذكر أهل التفسير في سبب نزولها أنه كان بين فارس والروم حرب فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، فشق ذلك عليهم، وفرح المشركون بذلك، لأن فارس لم يكن لهم كتاب وكانوا يجحدون البعث ويعبدون الأصنام، والروم أصحاب كتاب، فقال المشركون لأصحاب رسول الله ﷺ: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، فإن قاتلتمونا لنظَهَرَنَّ عليكم، فنزلت هذه الآية، فخرج بها أبو بكر الصديق إلى المشركين، فقالوا: هذا كلام صاحبك، فقال: الله أنزل هذا، فقالوا لأبي بكر: نراهنك على أن الروم لا تغلب فارس، فقال أبو بكر: البِضْعُ ما بين الثلاث إلى التسع، فقالوا: الوسط من ذلك ست، فوضعوا الرهان، وذلك قبل أن يُحْرَمَ الرهان، فرجع أبو بكر إلى أصحابه فأخبرهم، فلاموه وقالوا: هَلَّا أقررتَها كما أقرها الله! لو شاء أن يقول. ستاً، لقال! فلَمَّا كانت سنة ست، لم تظهر الروم على فارس، فأخذوا الرهان، فلَمَّا كانت سنة سبع ظهرت الروم على فارس^(١). وروى ابن عباس قال: لَمَّا نزلت: ﴿الرُّومُ﴾ ﴿عَلِيَّتِ الرُّومُ﴾ ﴿ناحب^(٢) أبو بكر قريشاً، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا احتطت، فإن البِضْع ما بين السبع^(٣) والتسع^(٤)». وذكر بعضهم أنهم ضربوا الأجل خمس سنين^(٥)، وقال بعضهم: ثلاث سنين، فقال رسول الله ﷺ: «إنما البِضْع ما بين الثلاث إلى التسع»، فخرج أبو بكر فقال لهم: أزايدكم في الخطر وأمد في الأجل إلى تسع سنين، ففعلوا، فقهرهم أبو بكر، وأخذ رهانهم^(٦). وفي الذي توَلَّى وضع الرهان من المشركين قولان: أحدهما: أبي بن خلف، قاله قتادة والثاني: أبو سفيان بن حرب، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِينَ﴾ وقرأ أبي بن كعب، والضحاك، وأبو رجاء، وابن السميع: «في أداني الأرض» بألف مفتوحة الدال؛ أي: أقرب الأرض أرض الروم إلى فارس. قال ابن عباس: وهي طرف الشام. وفي اسم هذا المكان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الجزيرة، وهي أقرب أرض الروم إلى فارس، قاله مجاهد. والثاني، أذرعَات وكَسْكِر^(٧)، قاله عكرمة. والثالث: الأردن وفلسطين، قاله السدي.

(١) ذكره بنحوه الترمذي في التفسير ١٥٠/٢ عن نيار بن مكرم، والطبري ١٧/٢١ عن عكرمة، وذكره البغوي والخازن، وأورده السيوطي في «الدرر» ٥/١٥ وعزاه إلى الترمذي، وزاد نسبه للدارقطني في «الأقراء»، والطبراني، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الدلائل»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن نيار بن مكرم الأسلمي.

(٢) المناحية: المخاطرة والمراعاة.

(٣) كذا الأصل: «فإن البِضْع ما بين السبع والتسع» والذي في «الطبري»، و«الترمذي»: «فإن البِضْع ما بين الثلاث إلى التسع».

(٤) ذكره بنحوه الطبري ١٧/٢١، و«الترمذي» ١٥٠/٢، عن ابن عباس ؓ. وقال الترمذي: هذا حديث حسن قريب من هذا الوجه، من حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس. ورواه الطبري عن عبد الله بن عمرو من قوله، والله أعلم.

(٥) ذكر ذلك الطبري ١٦/٢١. (٦) ذكره بنحوه الطبري ١٨/٢١.

(٧) قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: كَسْكِرُ: معناه: عامل الزرع، وهي كورة واسعة تنسب إليها الفراريج الكسكورية، لأنها تكثر بها جداً، وقال: نصبتها اليوم «وأسطح القصبه التي بين الكوفة والبصرة»، وكانت نصبتها قبل أن يَمْضِرَ الحجاج أسطفاً. خسرو سابور. قال: وسميت كسكِر بكسكِر بن طهمورت الملك الذي هو أصل الفرس، وقال آخرون: معنى كسكِر: بلد الشعير، بلغة أهل هراة.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ يعني الروم ﴿بِمَدِّ عَلَيْهِمْ﴾ وقرأ أبو الدرداء، وأبو رجاء، وعكرمة، والأعمش: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بتسكين اللام؛ أي: من بعد غلبة فارس إياهم. والعَلَبُ والغَلْبَةُ لغتان، ﴿سَكَيْتُونَ﴾ فارس ﴿فِي يَضْعَ سَيْتٍ﴾ في اليَضْعِ تسعة أقوال قد ذكرناها في [يوسف: ٤٢] قال المفسرون: وهي هاهنا سبع سنين، وهذا من علم الغيب الذي يدل على أن القرآن حق، ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَدْدُ﴾ أي: من قبل أن تُغلب الروم ومن يُغد ما غلبت؛ والمعنى أن غلبة الغالب وخذلان المغلوب، بأمر الله وقضائه ﴿وَيُؤَيِّدُ﴾ يعني يوم غلبت الروم فارس ﴿بِقَرْحِ الْمُؤَيَّدِينَ﴾ ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ للروم. وكان النقاء الفريقين في السنة السابعة من غلبة فارس إياهم، فغلبتهم الروم، وجاء جبريل يُخبر بنصر الروم على فارس، فوافق ذلك يوم بدر، وقيل: يوم الحديبية.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِمَّا خَبَوْا عَنْ آخِرَتِهِمْ وَمِمَّا عَنِ الْقَوْمِ مِنَ الْآخِرَةِ هُمْ غَنِيُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ ﴿٨﴾ قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ أي: وعد الله ذلك وعداً ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ﴾ أن الروم يظهرون على فارس ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله لا يُخْلِفُ وعده في ذلك. ثم وصف كفار مكة، فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِمَّا خَبَوْا عَنْ آخِرَتِهِمْ﴾ قال عكرمة: هي المعاش. وقال الضحاك: يعلمون ببيان قصورها وتشويق أنهارها. وقال الحسن: يعلمون متى زرعهم وامتى حصادهم، ولقد بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينثر الدرهم بظفره فيخبرك بوزنه ولا يحسن يصلي.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَنِيُونَ﴾ لأنهم لا يؤمنون بها. قال الزجاج: وذكروهم ثانية يجري مجرى التوكيد، كما تقول: زيد هو عالم، وهو أوكد من قولك: زيد عالم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ قال الزجاج: معناه: أو لم يتفكروا فيعلموا، فحذف [فيعلموا] لأن في الكلام دليلاً [عليه]. ومعنى ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: إلا للحق، أي: لإقامة الحق ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقت الجزاء ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ المعنى: لكافرون بقاء ربهم، فقدمت الباء، لأنها متصلة بـ [كافرون]، وما اتصل بخبر [إن] جاز أن يقدم قبل اللام، ولا يجوز أن تدخل اللام بعد مضي الخبر من غير خلاف بين النحويين، لا يجوز أن تقول: إن زيدا كافر لبا، لأن اللام حقه أن تدخل على الابتداء أو الخبر، أو بين الابتداء والخبر، لأنها تؤكد الجملة. وقال مقاتل في قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: للسموات والأرض أجل ينتهيان إليه، وهو يوم القيامة، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿بِلِقَائِي رَبِّهِمْ﴾ أي: البعث ﴿لَكٰفِرُونَ﴾

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٩﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا الْأَرْضَ وَعَصَوْنَا أَكْرَهًا وَمَا عَصَوْهَا وَمَا تَبِعْتُمْ إِنَّهَا بِإِذْنِنَا فَتَنَّا كَانَتْ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُظْلِمُهُمْ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَرَأْتُوا السَّوَآتِ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٢﴾ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أو لم يسافروا فينظروا مصارع الأمم قبلهم كيف أهلكوا بتكذيبهم فيعتبروا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْأَرْضَ﴾ أي: قلبوها للزراعة، ومنه قيل للبقرة: مشيرة. وقرأ أبي بن كعب، ومعاذ القارئ، وأبو حنيفة: «وَأَنزَلْنَا الْأَرْضَ» بمد الهمزة وفتح الثاء مرفوعة الراء، ﴿وَعَصَوْنَا أَكْرَهًا وَمَا عَصَوْهَا﴾ أي: أكثر من عمارة أهل مكة، لطول أعمار أولئك وشدة قوتهم ﴿وَمَا تَبِعْتُمْ إِنَّهَا بِإِذْنِنَا فَتَنَّا كَانَتْ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ﴾ بتعديهم على غير ذنب ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَظْلِمُهُمْ﴾ بالكفر والتكذيب؛ ودل هذا على أنهم لم يؤمنوا فأهلكوا. ثم أخبر عن عاقبتهم فقال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَرَأْتُوا السَّوَآتِ﴾ يعني الخلة السيئة؛ وفيها قولان: أحدهما: أنه العذاب، قاله الحسن. والثاني: جهنم، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿أَن كَذَّبُوا﴾ قال الفراء: معناه: لأن كذبوا فلما أُلقيت اللام كان نصباً. وقال الزجاج: لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم. وقيل: السَّوَآتِ مصدر بمنزلة الإساءة؛ فالعنى: ثم كان التكذيب آخر أمرهم، أي: ماتوا على

ذلك، كأن الله تعالى جازاهم على إساءتهم أن طبع على قلوبهم حتى ماتوا على التكذيب عقوبة لهم. وقال مكي بن أبي طالب النحوي: «عاقبة» اسم كان، و«السوأي» خبرها، و«أن كذبوا» مفعول من أجله؛ ويجوز أن يكون «السوأي» مفعولة بـ «أساؤوا»، و«أن كذبوا» خبر كان؛ ومن نصب «عاقبة» جعلها خبر «كان»، و«السوأي» اسمها، ويجوز أن يكون «أن كذبوا» اسمها. وقرأ الأعمش: «أساؤوا السوء» برفع «السوء».

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: يخلقهم أولاً، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «تُرْجَعُونَ» بالياء؛ فعلى هذا يكون الكلام عائداً من الخبر إلى الخطاب. وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: بالياء، لأن المتقدم ذكره غيبة، والمراد بذكر الرجوع: الجزاء على الأعمال، والخلق بمعنى المخلوقين، وإنما قال: «يُعِيدُهُ» على لفظ الخلق.

﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِي السُّعْيُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُرْمَى بِنَقْرُورٍ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُبْلِي السُّعْيُونَ﴾ قد شرحنا الإيلاس في [الانعام: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ أي: [من] أولئهم التي عبدوها ﴿شُفَعَاتٌ﴾ في القيامة ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يتبرؤون منها وتبرأ منهم.

قوله تعالى: ﴿يُرْمَى بِنَقْرُورٍ﴾ وذلك بعد الحساب ينصرف قوم إلى الجنة، وقوم إلى النار.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ الروضة: المكان المخضر من الأرض؛ وإنما خص الروضة، لأنها كانت أعجب الأشياء إلى العرب؛ قال أبو عبيدة: ليس شيء عند العرب أحسن من الرياض المُعْتَبَةِ ولا أطيّب ربحاً، قال الأعشى:

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزْنِ مُعْتَبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَاطِلٌ
يَوْمًا بِأَطْيَبِ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ وَلَا بِأَخْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الْأُصْلُ ﴿١﴾

قال المفسرون: والمراد بالروضة: رياض الجنة. وفي معنى «يُحْبَرُونَ» أربعة أقوال: أحدها: يُكْرَمُونَ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: يُنْعَمُونَ، قاله مجاهد، وقتادة. قال الزجاج: والخبرة في اللغة: كل نعمة حسنة. والثالث: يفرحون، قاله السدي. وقال ابن قتيبة: «يُحْبَرُونَ»: يُسْرُونَ، والخبرة: السرور. والرابع: أن الخبر: السماع في الجنة، فإذا أخذ أهل الجنة في السماع، لم تبق شجرة إلا وُردت، قاله يحيى بن أبي كثير. ومثل يحيى بن معاذ: أي الأصوات أحسن؟ فقال: مزامير أنس، في مقاصير قدس، بألحان تحميد، في رياض تمجيد ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدَّرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القدر: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: هم حاضرون العذاب أبداً لا يخفف عنهم.

﴿فَسَبَّحْنِ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ وَالنَّهَارَ مِنَ اللَّيْلِ وَيَخْتَارُ ﴿١٩﴾﴾

ثم ذكر ما تُدْرِكُ به الجنة ويُتَبَاعَدُ به من النار فقال: ﴿فَسَبَّحْنِ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ﴾ قال المفسرون: المعنى: فصلوا لله حين تُمسون، أي: حين تدخلون في المساء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي: تدخلون في الصباح، و﴿تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون في الظهيرة، وهي وقت الزوال، و﴿وَعَشِيًّا﴾ أي: وسبحوه عشياً. وهذه الآية قد جمعت الصلوات الخمس، فقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يعني [به] صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ يعني به صلاة الفجر، و﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر، و﴿حِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظُّهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يَحْمَدُهُ أهل السموات وأهل الأرض ويصلون له.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ اللَّيْلُ مِنَ النَّيْتِ﴾ فيه أقوال قد ذكرناها في [الك صران: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿رَوَى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يجعلها مُنْبِتة بعد أن كانت لا تُنْبِت، وتلك حياتها ﴿وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «تُخْرِجُونَ» بضم التاء، وفتحها حمزة والكسائي؛ والمراد: تخرجون يوم القيامة من الأرض، أي: كما أحيأ الأرض بالنبات يُحييكم بالبعث.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بِبَشَرٍ تَنْتَبِرُونَ ﴿١٧﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَرَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَخْلَفَ بَيْنَكُمْ وَالزُّبُرَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمَعْلَمِينَ ﴿١٩﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآيَاتُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ حَوَاقِمًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَشِيرًا وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ إِلَّا أَنْتُمْ قَائِلِينَ ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عِلْمَهُ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ صَبَّ لَكُمْ مِنْ سَمَاءٍ مَقْدَرًا مِنْ مَاءٍ مَحْكَمٍ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَعَاوَنْتُمْ كَيْفَ يَكْفِيكُمْ أَنْفُسُكُمْ كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ أي: من دلائل قدرته ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني آدم، لأنه أصل البشر ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بِبَشَرٍ﴾ من لحم ودم، يعني ذريته ﴿تَنْتَبِرُونَ﴾ أي: تنبسطون في الأرض.

قوله تعالى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه يعني بذلك آدم، خلق حواء من ضلعه، وهو معنى قول قتادة. والثاني: أن المعنى: جعل لكم آدميات مثلكم، ولم يجعلهن من غير جنسكم، قاله الكلبي. وقوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي: لتأوا إلى الأزواج ﴿وَرَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وذلك أن الزوجين يتوادان ويتراحمان من غير رجم بينهما ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكره من صنعه ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ في قدرة الله وعظمته.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْلَفَ بَيْنَكُمْ﴾ يعني اللغات من العربية والعجمية وغير ذلك ﴿وَالزُّبُرَ﴾ لأن الخلق بين أسود وأبيض وأحمر، وهم ولد رجل واحد وامرأة واحدة. وقيل: المراد باختلاف الألسنة: اختلاف النعمات والأصوات، حتى إنه لا يشبه صوت أخوين من أب وأم، والمراد باختلاف الألوان: اختلاف الضوور، فلا تشبه صورتان مع التشاكل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمَعْلَمِينَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، [والكسائي]، وأبو بكر عن عاصم: «للعالَمين» بفتح اللام. وقرأ حفص عن عاصم: «للعالَمين» بكسر اللام.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: نومكم. قال أبو عبيدة. المنام من مصادر النوم، بمنزلة قام يقوم قياماً ومقاماً، وقال يقول مقالاً. قال المفسرون: وتقدير الآية: منامكم بالليل ﴿وَآيَاتُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو طلب الرزق بالنهار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سماع اعتبار [وتدكر] وتدبّر. ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ قال اللغويون: إنما حذف «أن» لدلالة الكلام عليه، وأنشدوا:

وما السَّفَرُ إلا تارتان فتارة

ومعناه: فتارة أموث فيها، وقال طرفة:

ألا أيهَذَا الرَّاجِرِي أَحْضَرَ الوَعْسَى

أموث وأخرى ابتغى العيش أكدح^(١)

[وأن أشهد اللذات هل أنت مُخْلِدي]^(٢)

أراد: أن أحضر. وقد شرحنا معنى الخوف والطمع في رؤية البرق في سورة [الرم: ١٢].

(١) البيت لتسيم بن مقبل، وقد سبق تخريجه ٢٨٨، وهو أيضاً في «الطبري» ٣٣/٢١، و«البحر» ١٦٧/٧، و«روح المعاني» ٢٩/٢١، و«اللسان» و«التاج»: كـلح.

(٢) البيت لطرفة بن عبد البركي من معلقته، وهو في «الطبري» ٣٣/٢١، و«روح المعاني» ٢٩/٢١، و«مختار الشعر الجاهلي» ٣١٧/١.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: تدوما قائمتين ﴿يَأْمُرِيهِ﴾، ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ وهي نفخة إسرائيل الأخرية في الصور بأمر الله ﷻ ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: من قبوركم ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ منها. وما بعد هذا قد سبق بيانه [البقرة: ١١٦، المنكوت: ١٩] إلى قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ والثاني: أن «أهون» بمعنى «هين»، فالمعنى: وهو هين عليه، وقد يوضع «أفعل» في موضع «فاعل»، ومثله قولهم في الأذان: الله أكبر، أي: الله كبير، قال الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا
وقال معن بن أوس المزني:

لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَأَوْجِلُ
أي: وإني لوجل، وقال غيره:

أَصْبَحْتُ أَمْنُحُكَ الصُّدُودَ وَإِنِّي
وأشدوا أيضاً:

تَمَنَّى رَجَالًا أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أُمْتُ
أي: بواحد، هذا قول أبي عبيدة، وهو مروى عن الحسن، وقتادة. [وقد قرأ أبي بن كعب، وأبو عمران

الجوني، وجعفر بن محمد: «وهو هين عليه». والثالث: أنه خاطب العباد بما يعقلون، فأعلمهم أنه يجب أن يكون عندهم البحث أسهل من الابتداء في تقديرهم وحكمهم، فمن قلر على الإنشاء كان البحث أهون عليه، هذا اختيار الفراء، والمبرد، والزجاج، وهو قول مقاتل. وعلى هذه الأقوال الثلاثة تكون الهاء في «عليه» عائدة إلى الله تعالى. والرابع: أن الهاء تعود على المخلوق، لأنه خلقه نطفة ثم علقه ثم مضغه، ويوم القيامة يقول له كن فيكون، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهو اختيار قطرب.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ قال المفسرون: أي: له الصفة العليا ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهي أنه لا إله غيره. قوله تعالى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا﴾ سبب نزولها أن أهل الجاهلية كانوا يثبون فيقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل^(٥). ومعنى الآية: بين لكم أيها المشركون شبهاً، وذلك الشبه ﴿مِنَ أَنْفُسِكُمْ﴾، ثم بيته فقال: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: من عبيدكم ﴿مِنَ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْتَكُمْ﴾ من المال والأهل والعبيد، أي: هل يشارككم عبيدكم في أموالكم ﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: أنتم وشركاؤكم من عبيدكم سواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: كما تخافون أمثالكم من الأحرار، وأقرباءكم كالآباء والأبناء؟ قال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً؟ وقال غيره: تخافونهم أن يقاسموكم أموالكم كما يفعل الشركاء؟ والمعنى: هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء الأحرار؟ فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم، فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟ ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما بيئتاً هذا المثل ﴿فَنَقِصْ

(١) «ديوانه» ٧١٤، و«مجاز القرآن» ١٢١/٢، و«الطبري» ٣٧/٢١، و«الكامل» ٦٩٧.

(٢) البيت في «الطبري» ٣٧/٢١، و«الحماسة البصرية» ١٤٢، و«الكامل» ٦٩٦، و«لباب الآداب» ٣٩٩. قال الشيخ أحمد محمد شاعر في تعليقه على «لباب الآداب»: «وتندو» بالفين المعجمة في الروايات كلها، وحكى التبريزي أن في رواية: «تندو» بالعين المهملة. اهـ.

(٣) البيت للأحوص، وهو في «مجاز القرآن» ١٢١/٢، و«القرطبي» ٢١/١٤، و«الخرزانه» ٢٤٨/١، و«الكتاب» ١٩٠/١، و«السطح» ٢٥٩. وكان الشطر الثاني من البيت في الأصل: «قسم إليك مع الصدود لأميل». قال الشتتري في «الكتاب» في تعليقه على البيت: الشاهد فيه نصب قوله: «قسماً» ونصبه على المصدر المؤكد لما قبله من الكلام الدال على القسم، لأنه لما قال: «إني لأمنحك الصدود، وإني إليك لأميل» علم أنه محقق مقسم، فقال: «قسماً» مؤكداً لذلك. اهـ.

(٤) البيت في «مجاز القرآن» ١٦٦/٢، و«الطبري» ٣٧/٢١، و«القرطبي» ٢١/١٤، و«التاج»: وحده.

(٥) ذكره ابن كثير من رواية أبي القاسم الطبراني عن ابن عباس ﷺ، وفي سننه ضعف، وأورده السيوطي في «الدر» ١٥٥/٥ وزاد نسبه لابن مردويه عن ابن عباس ﷺ.

الَّذِينَ لَقَرُوا لِقَوْمٍ يَعْبُودُونَ ﴿٣٠﴾ عن الله. ثم بين أنهم إنما اتبعوا الهوى في إشرابهم، فقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا بالله ﴿أَمْوَالَهُمْ بِبَيْتِ عَلِيِّ قَسٍ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وهذا يدل على أنهم إنما أشركوا بإضلال الله إليهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ أي: مانعين من عذاب الله.

﴿فَأَفَرَّقَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فطرت الله التي فطر الناس عليها لا بديل لخلق الله ذلك الذبث القبيح ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٣١﴾ مبيين إليه وأتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكتفوا من المشركين ﴿٣٢﴾ من الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴿٣٣﴾ وإذا من الناس من دعوا منهم ثيبين إليه ثم إذا آذاهم بيته رحمة إذا فارق منهم بريهم يشركون ﴿٣٤﴾ يكفروا بما آتاهم فتمنعوا فسوف تعلمون ﴿٣٥﴾ أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴿٣٦﴾ وإذا آذنا الناس رحمة فرحوا بها وإن نصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقطون ﴿٣٧﴾ أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿٣٨﴾ فكان ذا الفؤاد حنفاً واليسكين وأن السبيل ذلك خير للذين يريدون رحمة الله وأولئك هم المفلحون ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَفَرَّقَ وَجْهَكَ﴾ قال مقاتل: أخلص دينك الإسلام ﴿الَّذِينَ﴾ أي: للتوحيد. وقال أبو سليمان الدمشقي: استقم بدينك نحو الجهة التي وجهك الله إليها. وقال غيره: سد عملك. والوجه: ما يتوجه إليه، وعمل الإنسان ودينه: ما يتوجه إليه لتسديده وإقامته.

قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ قال الزجاج: الحنيف: الذي يميل إلى الشيء ولا يرجع عنه، كالحنيفة في الرجل، وهو ميلها إلى خارجها خلقه، لا يقدر الأحنف أن يرد حنيفة. وقوله: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ﴾ منصوب، بمعنى: أتبع فطرة الله، لأن معنى «فأفرك وجهك»: أتبع الدين القيم، وأتبع فطرة الله، أي: دين الله. والفطرة: الخلقة التي خلق الله عليها البشر. وكذلك قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»^(١)، أي: على الإيمان بالله. وقال مجاهد في قوله: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهِ﴾ قال: الإسلام، وكذلك قال قتادة. والذي أشار إليه الزجاج أصح، وإليه ذهب ابن قتيبة، فقال: فرق ما بيننا وبين أهل القدر في هذا الحديث، أن الفطرة عندهم: الإسلام، والفطرة عندنا: الإقرار بالله والمعرفة به، لا الإسلام، ومعنى الفطرة: ابتداء الخلقة، والكل أقرأ حين قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولست واجداً أحداً إلا وهو مقرب بأن له صناعاً ومدبراً وإن عبد شيئاً دونه وسماه بغير اسمه؛ فمعنى الحديث: إن كل مولود في العالم على ذلك العهد وذلك الإقرار الأول، وهو الفطرة، ثم يهود اليهود أبناءهم، أي: يعلمونهم ذلك، وليس الإقرار الأول مما يقع به حكم ولا ثواب؛ وقد ذكر نحو هذا أبو بكر الأثرم، واستدل عليه بأن الناس أجمعوا على أنه لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم، ثم أجمعوا على أن اليهودي إذا مات له ولد صغير ورثه، وكذلك النصراني والمجوسي، ولو كان معنى الفطرة الإسلام، ما ورثه إلا المسلمون، ولا دُفن إلا معهم؛ وإنما أراد بقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» أي: على تلك البداية التي أقرأ له فيها بالوحدانية حين أخذهم من صلب آدم، فمنهم من جحد ذلك بعد إقراره^(٢). ومثل هذا الحديث حديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ: إني خلقت عبادي

(١) رواه البخاري في «صحيحه» ١٩٧/٣ من أبي هريرة ﷺ، ولفظه بتامه: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدها»، وذكره السيوطي في «الجامع الصغير» بلفظ: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يمرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه» وعزاه لأبي يعلى في «سنن»، والطبراني في «الكبير» والبيهقي في «السنن» عن الأسود بن سريح. ورواه البخاري ١٧٦/٣، ومسلم ٢٠٤٧/٤ من أبي هريرة ﷺ بلفظ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة... الحديث، ولفظه في «مسلم» بتامه: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة: واقروا إن شئتم: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهِ﴾ لا بديل لخلق الله... الآية. وأوردته السيوطي في «الدرر» بهذا اللفظ ١٥٥/٥، وزاد نسبه، لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٩٧/٣: وقد اختلف السلف في المراد بالفطرة في هذا الحديث على أقوال كثيرة، ثم قال: وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة: الإسلام، قال: ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهِ﴾: الإسلام، واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهِ﴾، وبحديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالهم الشياطين عن دينهم... الحديث، وقد رواه غيره فزاد فيه «حنفاء مسلمين» ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ﴾، لأنها إضافة مدح، وقد أمر نبيه بلزومها، فعلم أنها الإسلام. وقال الحافظ: وقد قال أحمد: من مات أبواه =

حفاه»^(١)، وذلك أنه لم يدعهم يوم الميثاق إلا إلى حرف واحد، فأجابوه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَدْبِرُ لِحَاكِي اللَّهِ﴾ لفظه لفظ النفي، ومعناه النهي؛ والتقدير: لا تبدلوا خلق الله. وفيه قولان: أحدهما: أنه خصاء البهائم، قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والثاني: دين الله، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، والنخعي في آخرين. وعن ابن عباس وعكرمة كالمقولين.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي كَفَرْنَا﴾ يعني التوحيد المستقيم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله.

قوله تعالى: ﴿ثُبِينٌ إِلَيْهِ﴾ قال الزجاج: زعم جميع النحويين أن معنى هذا: فأقيموا وجوهكم منيبين، لأن مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم تدخل معه فيها الأمة. ومعنى «منيبين»: راجعين إليه في كل أمر، فلا يخرجون عن شيء من أمره. وما بعد هذا قد سبق تفسيره [البقرة: ٣، الأنعام: ١٥٩] إلى قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرًّا دَعَوْا رَبَّهُمْ ثُبِينٌ إِلَيْهِ ثَرًّا إِذَا أَذَاهُمْ يَبُوءُ رَحْمَةً﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه القحط، والرحمة: المطر. والثاني: أنه البلاء، والرحمة: العافية، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ وهم المشركون. والمعنى: إن الكل يلتجئون إليه في شدائدهم، ولا يلتفت المشركون حيثئذ إلى أوثانهم.

قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ﴾ قد شرحناه في آخر [النكوت: ٦٧]، وقوله: ﴿فَقَتَّمُوا﴾ خطاب لهم بعد الإخبار عنهم. قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء المشركين ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: حُجَّةً وكتاباً من السماء ﴿فَهُوَ يَكْفِكُمْ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ﴾ أي: يأمرهم بالشرك؟! وهذا استفهام إنكار، معناه: ليس الأمر كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ﴾ قال مقاتل: يعني كفار مكة ﴿رَحْمَةً﴾ وهي المطر. والسيئة: الجوع والقحط. وقال ابن قتيبة: الرحمة: النعمة، والسيئة: المصيبة. قال المفسرون: وهذا الفرح المذكور هاهنا، هو فرح البطر الذي لا شُكر فيه، والقنوط: اليأس من فضل الله، وهو خلاف وصف المؤمن، فإنه يشكر عند النعمة، ويرجو عند الشدة؛ وقد شرحناه في [بني إسرائيل: ٢٦] إلى قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني إعطاء الحق ﴿حَرًّا﴾ أي: أفضل من الإمساك ﴿لَلَّذِينَ يَرِيدُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ أي: يطلبون بأعمالهم ثواب الله.

﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ رَبِّا لِيُرِيُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوُا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ دَكَّوْرٍ يَرُدُّوْنَ رَبَّهُ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْحِكُونَ﴾ سورة النجم: ١٠ أَلَيْسَ خَلْقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعْسِكُمْ ثُمَّ يُعْجِبُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ مَا تَعْبُدُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ سورة النجم: ١٤

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ رَبِّا﴾ في هذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أن الربا هاهنا: أن يهدي الرجل للرجل الشيء يقصد أن يثيبه عليه أكثر من ذلك، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وطاوس، [والضحاك]، وقتادة، والقرظي. قال الضحاك: فهذا ليس فيه أجر ولا وزر. وقال قتادة: ذلك الذي لا يقبله الله ولا يجزي به، وليس فيه وزر. والثاني: أنه الربا المحرم، قاله الحسن البصري. والثالث: أن الرجل يُعطي قرابته المال ليصير به غنياً، لا يقصد بذلك ثواب الله تعالى، قاله إبراهيم النخعي. والرابع: أنه الرجل يُعطي من يخدمه لأجل خدمته، لا لأجل الله تعالى، قاله الشعبي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ رَبِّا لِيُرِيُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ وقرأ نافع، ويعقوب: [«لَتُرَبُّوا»] بالفاء وسكون الواو، أي: [في] اجتلاب أموال الناس، واجتذابها ﴿فَلَا يَرِيوُا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا يزكو ولا يضاعف، لأنكم قصدتم زيادة

وهما كافران حكم بإسلامه، واستدل بحديث الباب، فدل على أنه فسر الفطرة بالإسلام، قال: وحكى محمد بن نصر أن آخر قولني أحمد، أن المراد بالفطرة: الإسلام، ثم قال: وقال ابن القيم: سبب اختلاف العلماء في معنى الفطرة في هذا الحديث، أن القدرية كان يحتجون به على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله، بل مما ابتدأ الناس إحدائه، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الإسلام، ولا حاجة لذلك، لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلا الإسلام، ولا يلزم من حملها على ذلك موافقة مذهب القدرية، لأن قوله: «فأبوا يهوداته... الخ،» محمول على أن ذلك يقع بتقدير الله تعالى، ومن ثم احتج عليهم مالك بقوله في آخر الحديث: «الله أعلم بما كانوا عاملين». اهـ.

(١) هو جزء من حديث طويل رواه مسلم في «صحيحه» ٢١٩٧/٤ عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبه: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جعلتكم يومئذ يومي هذا: كل مال نحلته عبداً، حلال (أي: قال الله: كل مال... الخ) وإني خلقت عبادي حفاه كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهن عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عزبهم وعجبهم، إلا بقايا من أهل الكتاب (المراد بهم: الباقون على التمسك لدينهم الحق من غير تبديل)، وقال: إنما بعثتك لأبليك وأبئني بك... الحديث».

الِعَوْضِ، وَلَمْ تَقْضُوا الْقُرْبَةَ. ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ كَفَّارٍ﴾ أَي: مَا أُعْطِيتُمْ مِنْ صَدَقَةٍ لَا تَطْلُبُونَ بِهَا الْمَكَافَأَةَ، إِنَّمَا تَرِيدُونَ بِهَا مَا عِنْدَ اللَّهِ، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: الَّذِينَ يَجِدُونَ التَّضْعِيفَ وَالزِّيَادَةَ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَي: ذُو الْأَضْعَافِ مِنَ الْحَسَنَاتِ، كَمَا يُقَالُ: رَجُلٌ مُقْوٍ، أَي: صَاحِبُ قُوَّةٍ، وَمُؤَمَّرٌ: صَاحِبُ يَسَارٍ.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ١١ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ ١٢ ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْعَقُونَ﴾ ١٣ ﴿

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فِي هَذَا الْفَسَادِ أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ: أَحَدُهَا: نَقْصَانُ الْبِرِّكَةِ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: ارْتِكَابُ الْمَعَاصِي، قَالَه أَبُو الْعَالِيَةِ. وَالثَّلَاثُ: الشُّرْكُ، قَالَه قَتَادَةُ، وَالسَّادِسُ: وَالرَّابِعُ: قَطْعُ الْمَطَرِ، قَالَه عَطِيَّةٌ. فَمَا الْبَرُّ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْبَرُّ: الْبَرِّيَّةُ الَّتِي لَيْسَ عِنْدَهَا نَهْرٌ. وَفِي الْبَحْرِ قَوْلَانٌ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مَا كَانَ مِنَ الْمَدَائِنِ وَالقُرَى عَلَى شَطِّ نَهْرٍ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: لَا أَقُولُ: بِحَرْكَمِ هَذَا، وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَامِرَةٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْمُرَادُ بِالْبَرِّ: أَهْلُ الْبُؤَادِي، وَبِالْبَحْرِ: أَهْلُ الْقُرَى. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْمُرَادُ بِالْبَحْرِ: مَدَنُ الْبَحْرِ الَّتِي عَلَى الْأَنْهَارِ، وَكُلُّ ذِي مَاءٍ فَهُوَ بَحْرٌ. وَالثَّانِي: أَنَّ الْبَحْرَ: الْمَاءَ الْمَعْرُوفَ. قَالَ مُجَاهِدٌ: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ: قَتْلُ ابْنِ آدَمَ أَخَاهُ، وَفِي الْبَحْرِ: مَلِكٌ جَائِرٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضَبًا^(١). وَقِيلَ لِعَطِيَّةٍ: أَيُّ فَسَادٍ فِي الْبَحْرِ؟ فَقَالَ: إِذَا قُلَّ الْمَطَرُ قَلَّ الْغَوْصُ.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أَي: بِمَا عَمِلُوا مِنَ الْمَعَاصِي ﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيُّ، وَعِكْرَمَةُ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ مَحِيصَنٍ، وَرُوْحٌ [عَنْ يَعْقُوبَ]، وَقَتَبِلَ عَنْ ابْنِ كَثِيرٍ: «لِيُذِيقَهُمْ» بِالنُّونِ ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أَي: جَزَاءَ بَعْضِ أَعْمَالِهِمْ؛ فَالْقَطْعُ جَزَاءٌ، وَنَقْصَانُ الْبِرِّكَةِ جَزَاءٌ، وَوُقُوعُ الْمَعْصِيَةِ مِنْهُمْ جَزَاءٌ مَعْجَلٌ لِمَعَاصِيهِمْ أَيْضًا.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فِي الْمَشَارِ إِلَى الْبِهِمُ قَوْلَانٌ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ الَّذِينَ أُذِيقُوا الْجَزَاءَ. ثُمَّ فِي مَعْنَى رَجُوعِهِمْ قَوْلَانٌ. أَحَدُهُمَا: يَرْجِعُونَ عَنِ الْمَعَاصِي، قَالَه أَبُو الْعَالِيَةِ. وَالثَّانِي: يَرْجِعُونَ إِلَى الْحَقِّ، قَالَه إِبْرَاهِيمُ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمُ الَّذِينَ يَأْتُونَ بِعَدْمِهِمْ؛ فَالْمَعْنَى: لَعَلَّهُ يَرْجِعُ مِنْ بَعْدِهِمْ، قَالَه الْحَسَنُ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَكُمْ؛ وَالْمَعْنَى: انظُرُوا إِلَى مَسَاكِنِهِمْ وَأَثَارِهِمْ ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ الْمَعْنَى: فَأَهْلَكُوا بِشُرْكِهِمْ^(٢). ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أَي: أَقِمْ قِصْدَكَ لِاتِّبَاعِ الدِّينِ ﴿الْقَدِيمِ﴾ وَهُوَ الْإِسْلَامُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يَعْنِي [يَوْمَ] الْقِيَامَةِ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَدِّ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَضَى كَوْنَهُ ﴿يَوْمَئِذٍ يُصْعَقُونَ﴾ أَي: يَتَفَرَّقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ يَمْهَدُونَ﴾ ١٢ ﴿يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ١٣ ﴿

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أَي: جَزَاءُ كُفْرِهِ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ يَمْهَدُونَ﴾ أَي: يُؤْتَوْنَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَسْؤُونَ الْمَضَاجِعَ فِي الْقُبُورِ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: «مَنْ» يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْأَثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ مِنَ الْمَذْكَرِ وَالْمُؤنَّثِ، وَمَجَازًا هَاهُنَا مَجَازُ الْجَمِيعِ، وَيَمْهَدُ بِمَعْنَى يَكْتَسِبُ وَيَعْمَلُ وَيَسْتَعِدُّ.

﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَتَجَرَّى الْكَلِمَ بِأَمْرِهِ وَأِيْتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَيْكُمْ لِيُذِيقَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَمَنَّا مِنْ الَّذِينَ جَازَمُوا وَكَانَتْ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٤ ﴿

(١) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ: وَأَوَّلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ، أَخْبَرَ أَنَّ الْفَسَادَ قَدْ ظَهَرَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالْبَرُّ عِنْدَ الْعَرَبِ: الْأَرْضُ الْقَفَارُ، وَالْبَحْرُ بَحْرَانُ: بَحْرٌ مَلْحٌ، وَبَحْرٌ عَذْبٌ، فَهَذَا جَمِيعًا عِنْدَهُمْ بَحْرٌ، وَلَمْ يَخْصُصْ جُلَّ نِثَاءَهُ الْخَيْرَ عَنِ ظَهْوَرِ ذَلِكَ فِي بَحْرِ دُونَ بَحْرٍ، فَذَلِكَ عَلَى مَا وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ بَحْرٍ، عَذْبًا كَانَ أَوْ مَلْحًا، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، دَخَلَ الْقُرَى الَّتِي عَلَى الْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ، فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذْنُ: إِذْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا وَصَفَتْ، ظَهَرَتْ مَعَاصِي اللَّهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ بَرٍّ وَبَحْرٍ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ، أَي: بِذُنُوبِ النَّاسِ، وَانْتَشَرَ الظُّلْمُ فِيهَا. اهـ.

(٢) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ: يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ مِنْ تَوْمَكٍ: سِيرُوا فِي الْبِلَادِ، فَانظُرُوا إِلَى مَسَاكِنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، كَيْفَ كَانَ آخِرُ أَمْرِهِمْ وَعَاقِبَةُ تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ اللَّهِ وَكُفْرَهُمْ، أَلَمْ نَهْلِكْهُمْ بِعَذَابِ مَنْ، وَنَجْعَلُهُمْ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ؟ كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مُشْرِكِينَ، يَقُولُ: فَعَلْنَا ذَلِكَ بِهِمْ، لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ بِاللَّهِ مِثْلَهُمْ. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبْرِئِينَ﴾ تبشّر بالمطر ﴿وَلِيُدَبِّرُكُنَّ رَحْمَتِهِ﴾ وهو الغيث والخصب ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ في البحر بتلك الرياح ﴿وَيَأْمُرَهُ﴾ ﴿وَلِتَنْبُؤُنَا﴾ بالتجارة في البحر ﴿مِنْ فَيْضِهِ﴾ وهو الرزق؛ وكلُّ هذا بالرياح.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالْبَيْتِ﴾ أي: بالدلالات على صدقهم ﴿فَأَنْتَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أُجْرَمُوا﴾ أي: عدبنا الذين كذبوهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي: واجباً هو أوجه على نفسه ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إنجازهم مع الرُّسل من عذاب المكذِّبين.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا يَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَحْمِلُهُ كَيْفَ فَتَرَى الْوَدَّ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ إِذَا آسَابَ بِهِ مِنْ بَيْنَافِهِ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ وإن كانوا من قبل أن يُرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ لَمَلِيكٍ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَى مَا نُقِرَ رَحِمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُجِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنِجِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفًا لَطَّلُوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا كَلَّمُوا مَلَائِكَةً ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْمُنَى عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ نُقِيمُ السَّاعَةَ بِقِسْرِ الْمُجْرِمُونَ مَا لِشَرِّهَا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَثُرُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَاسِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَاسِ وَلَكِن كُنْتُمْ كَثُرَ لَا تَلْمِزُونَ ﴿٥٦﴾ قِيَوْمٍ لَا يُنْفَعُ الذُّلْمُ ظُلْمًا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلَ الرِّيحَ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء، والنخعي، وطلحة بن مصرف، والأعمش: يُرْسِلُ الرُّيحَ بغير ألف.

قوله تعالى: ﴿فَتُبْرِئُ سَحَابًا﴾ أي: تُزججه ﴿يَبْسُطُهُ﴾ الله ﴿فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ إن شاء بسطه مسيرة يوم أو يومين أو أقل أو أكثر ﴿وَيَحْمِلُهُ كَيْفَ﴾ أي: قطعاً متفرقة. والأكثرون فتحوا سين ﴿كَيْفًا﴾؛ وقرأ أبو رزين، وقتادة، وابن عامر، وأبو جعفر، وابن أبي عبيدة: بتسكينها؛ قال أبو علي: يمكن أن يكون مثل مبدرة وسدر، فيكون معنى القراءتين واحداً [النور: ٤٣] ﴿فَإِذَا آسَابَ بِهِ﴾ أي: بالوَدِّ؛ ومعنى ﴿يَسْتَشِيرُونَ﴾ يفرحون بالمطر، ﴿وَلَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾ المطر ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ وفي هذا التكرير ثلاثة أقوال: أحدها: أنه للتأكيد، كقوله: ﴿سَجَدَ لِلتَّلَاحِكِ كَمَا كَلَّمَهُمْ جَعُونَ﴾ [المجر: ٣٠]، قاله الأخفش في آخرين. والثاني: أن «قَبْلَ» الأولى للتنزيل، والثانية للمطر، قاله قطرب. قال ابن الأنباري: والمعنى: من قَبْلِ نزول المطر، ومن قَبْلِ المطر، وهذا مثلما يقول القائل: أتيتك من قبل أن تتكلم، من قبل أن تطمئن في مجلسك، فلا تُنكر الإعادة، لاختلاف الشيتين. والثالث: أن الهاء في قوله: «مِنْ قَبْلِهِ» ترجع إلى الهدى وإن لم يتقدم له ذِكْرٌ، فيكون المعنى: كانوا يَقْتَضُونَ من قبل نزول المطر، من قبل الهدى، فلما جاء الهدى والإسلام زال القنوط، ذكره ابن الأنباري عن أبي عُمر الدُّوري وأبي جعفر بن قادم. والمبلسون: الآيسون. وقد سبق الكلام في هذا [الأنعام: ٤٤]. ﴿فَانظُرْ إِلَى مَا نُقِرَ رَحِمَتِ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «إلى أثر». وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «إلى آثار» على الجمع. والمراد بالرحمة هاهنا: المطر، وأثرها: النبات؛ والمعنى: انظر إلى حسن تأثيره في الأرض ﴿كَيْفَ يُجِي الْأَرْضَ﴾ أي: كيف يجعلها تُنبِت بعد أن لم يكن فيها نبت. وقرأ عثمان بن عفان، وأبو رجاء، وأبو عمران الجوني، وسليمان التيمي: «كيف تُحْيِي» بقاء مرفوعة مكسورة الياء «الأرض» بفتح الضاد.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ [أي: ريحاً] باردة مُضِرَّةً، والريح إذا أتت على لفظ الواحد أريد بها العذاب، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول عند هبوب الريح: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها رياحاً» ^(١) ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفًا﴾ يعني

(١) قال الإمام النووي في «الأذكار»: وروى الإمام الشافعي رحمه الله في كتابه «الأم» بإسناده عن ابن عباس ؓ قال: ما هبَّت الريح إلا جئت النبي ﷺ على ركبتيه وقال: «اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها هدأباً، اللهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها رياحاً». وقال الشيخ محمد بن حلان الصديقي الشافعي في كتابه «الفتوحات الربانية على الأذكار النووية» في هذا الحديث: قال الحافظ: (أي ابن حجر) بعد تخريج: هذا حديث حسن. أخرجه البيهقي في «المعرفة»، قال: وشيخ الشافعي ما عرفته، وكنت أظنه ابن يحيى، لكن لم يذكره في الرواة عن العلاء بن راشد، والعلاء موقوف، قال الحافظ: لابن عباس حديث آخر، ثم أخرج من طريق الطبراني في كتاب «الدعاء» أيضاً عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا هاجت الريح استقبلها وجهاً على ركبتيه وقال: «اللهم اجعلها... إلخ» فذكر الحديث مثله إلى قوله: «ريحاً» وزاد: «اللهم إني أسألك من خير هذه الريح، وخير ما تُرْسَلُ به، وأعوذ بك

النبت، والهاء عائدة إلى الأثر. قال الزجاج؛ المعنى: فرأوا النبت قد اصفرّ وجفّ ﴿لَطَلُوا مِنْ بَعْدِهِ يُكْفَرُونَ﴾ ومعناه: كَيْظَلَّنْ، لأن معنى الكلام الشرط والجزاء، فهم يستبشرون بالغيث، ويكفرون إذا انقطع عنهم الغيث وجف النبت. وقال غيره: المراد برحمة الله: المطر. و﴿ظَلُّوا﴾ بمعنى صاروا «من بعده» أي: من بعد اصفرار النبت يجحدون ما سلف من النعمة. وما بعد هذا مفسّر في سورة [النمل: ٨٠، ٨١] إلى قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ وقد ذكرنا الكلام فيه في [الأنفال: ٦٦]، قال المفسرون: المعنى: خلقكم من ماءٍ ذي ضَعْفٍ، وهو المنيّ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ يعني ضعف الطفولة قوّة الشباب، ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ بَعْدِ قوّة الشباب ضعف الكبر، وشيبة، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: من ضعف وقوّة وشباب وشيبة ﴿وَهُوَ الْغَلِيظُ﴾ بتدبير خلقه ﴿الْقَلِيلُ﴾ على ما يشاء. ﴿وَيَوْمَ نُقَمُ السَّاعَةَ﴾ قال الزجاج: الساعة في القرآن على معنى الساعة التي تقوم فيها القيامة، فلذلك لم تُعرف أيّ ساعة هي.

قوله تعالى: ﴿يُسِرُّ الْمَجْرُومُونَ﴾ أي: يَخْلِفُ المشركون ﴿مَا لَيْسُوا﴾ في القبور ﴿عَبْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ قال ابن قتيبة: يقال: أُنك الرجل: إذا عُدل به عن الصدق، فالمعنى أنهم قد كذّبوا في هذا الوقت كما كذّبوا في الدنيا. وقال غيره: أراد الله تعالى أن يفضحهم يوم القيامة بين المؤمنين، فحلفوا على شيء يبين للمؤمنين كذبهم فيه، ويستدلّون على كذبهم في الدنيا. ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا إِلِيمًا وَالْإِيمَانُ﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم الملائكة. والثاني: المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله والإيمان بالله، قاله ابن جريج في جماعة من المفسرين. والثاني: أنه على نظمه. ثم في معناه قولان: أحدهما: لقد لَيْسَتْ في علم الله، قاله الفراء. والثاني: لقد لَيْسَتْ في خَبَرِ الكتاب، قاله ابن قتيبة. قوله تعالى: ﴿فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ﴾ أي: اليوم الذي كنتم تُنكرونه ﴿وَلِلَّيْكُنْكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ في الدنيا أنه يكون. ﴿فَيُؤَيِّدُ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعِذَتَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «لا تَنْفَعُ» بالثاء. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي. بالياء، لأن التانيث غير حقيقي. قال ابن عباس: لا يُقْبَلُ من الذين أشركوا عُذر ولا توبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يُطلب منهم العتبي والرجوع في الآخرة. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتَ إِلَّا مُبْتَطَلُونَ ﴿٥٧﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي: كعصا موسى ويده ﴿يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتَ﴾ أي: ما أنتم يا محمد وأصحابك ﴿إِلَّا مُبْتَطَلُونَ﴾ أي: أصحاب أباطيل، وهذا بيان لعنادهم. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما طبع على قلوبهم حتى لا يصدّقون الآيات ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله؛ فالسبب في امتناع الكفار من التوحيد، الطَّبْعُ على قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرك وإظهارك على عدوك ﴿حَقٌّ﴾. ﴿وَلَا يَسْتَخِفُّكَ﴾ وقرأ يعقوب إلا روحاً وزيداً: ﴿يَسْتَخِفُّكَ﴾ بسكون النون. قال الزجاج: لا يَسْتَفْتِنُكَ عن دينك ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: هم ضلال شاكّون. وقال غيره: لا يُؤْمِنُونَ بالبعث والجزاء^(١). وزعم بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة.



من شرها وما تُرسل به، قال الحافظ: أخرجه مسند في «مسند الكبير»، وفي سننه جبر بن عبد الله، وهو ضعيف، وجده عبيد الله - بالتصغير - ابن العباس، وفي نسخة من «المسند»: حسين بن قيس أبو علي المرجي، وهو ضعيف أيضاً، وقد اعتضد بالمعاصرة. اهـ. والحديث في «مسند الشافعي» (٤٧) وفيه ابن أبي يحيى، وهو إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي الذي يروي عن العلاء بن راشد، منهم.

(١) قال ابن كثير: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه، وليس فيما سواه هدى يُتَّبَعُ، بل الحق كله منحصر فيه. اهـ.

سورة لقمان

وهي مكية في قول الأكثرين. وروي عن عطاء أنه قال: هي مكية سوى آيتين منها نزلنا بالمدينة، وهما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ والتي بعدها [لقمان: ٢٧، ٢٨]؛ وروي عن الحسن أنه قال: إلا آية نزلت بالمدينة، وهي قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [لقمان: ٤٤]، لأن الصلاة والزكاة مدينتان^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿المر﴾ ١ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ٢ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ٣ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ٤ ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٥ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ٦ ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلا يَنْصُرُهُمْ كَقَدْرٍ أَتَى فِي آذَانِهِمْ وَقُرْآنًا فَيَسْتَرْفِعُ عَدَابُ اللَّهِ إِنْ يَأْتِيهِمْ آيَاتُنَا وَمَعَالِمُ الْمَلَائِكَةِ لَمَّا جُنَّتِ الصَّيْحُ ٧ ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْمُحْكِمُ﴾ ٨ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَدَدٍ رُوحَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوِيًا أَنْ يَنْبِذَ بِكُمْ رِيثًا فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَلَجٍ كَرِيمٍ﴾ ٩ ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِمْ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ١٠ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ١١ ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنَيْهِ: وَهُوَ يُعْطِيهِمْ يَتَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ١٢

قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ وقرأ حمزة وحده: «ورحمة» بالرفع. قال الزجاج: القراءة بالنصب على الحال؛ والمعنى تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة؛ ويجوز الرفع على إضمار «هو هدى ورحمة» وعلى معنى: «تلك هدى ورحمة». وقد سبق تفسير مفتتح هذه السورة [البقرة: ١ - ٥] إلى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رجل اشترى جارية مغنية^(٢). وقال مجاهد: نزلت في شراء القيان والمغنيات^(٣). وقال ابن السائب ومقاتل: نزلت في النَّضْر بن الحارث، وذلك أنه كان تاجراً إلى فارس، فكان يشتري أخبار الأعاجم فيحدث بها قريشاً ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن، فنزلت فيه هذه الآية^(٤). وفي المراد بلهو الحديث أربعة أقوال: أحدها: [أنه] الغناء. كان ابن مسعود يقول: هو الغناء والذي لا إله إلا هو، يُردُّها ثلاث مرات^(٥)؛ وبهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وقناة. وروي ابن أبي نجيح عن مجاهد، قال: اللهو: الطبل^(٦). والثاني: أنه ما ألهى عن الله، قاله الحسن، وعنه مثل القول الأول. والثالث: أنه الشُّرك، قاله الضحاك. والرابع: الباطل، قاله عطاء^(٧). وفي معنى «يشترى» قولان: أحدهما: يشتري بماله؛ وحديث النضر

(١) من المعلوم أن الصلاة فرضت بمكة ليلة الإسراء، كما في «صحيح البخاري» وغيره، والزكاة فرضت بالمدينة، فلعل القائل بذلك يريد أن يجابها بما تحقق بالمدينة، أو أنها فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم زيدت بعد الهجرة، إلا الصحيح، فكان ذلك تمام فرضيتها.

(٢) «الطبري» ٦٣/٢١ من رواية العوفي عن ابن عباس بمعناه، وذكره السيوطي في «الدر» ١٥٩/٥، وزاد نسبة للقرطبي، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) «الطبري» ٦٢/٢١ عن مجاهد بمعناه، وذكره السيوطي في «الدر» ١٦٠/٥، وزاد نسبة لآدم، والبيهقي في «سننه» عن مجاهد.

(٤) «أسباب النزول» للواحدي ١٩٧ عن الكلبي ومقاتل بدون سند.

(٥) «الطبري» ٦١/٢١، وذكره السيوطي في «الدر» ١٥٩/٥ مختصراً، وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٦) «الطبري» ٦٣/٢١ عن مجاهد.

(٧) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: عنى به كل ما كان من الحديث ملهياً عن سبيل الله مما نهى الله عن استماعه، أو رسوله، لأن الله تعالى عمُّ بقوله: (لهو الحديث) ولم يخص بعضاً دون بعض، فذلك على عمومته، حتى يأتي ما يدل على خصوصه، والغناء والشرك من ذلك. اهـ.

بعضه. والثاني: يختار ويستحب، قاله قتادة، ومطر^(١). وإنما قيل لهذه الأشياء: لهُو الحديث، لأنها تُلهي عن ذِكْرِ الله.

قوله تعالى: «يُضِلُّ» المعنى: ليصير أمره إلى الضلال. وقد بيَّنَّا هذا الحرف في [الحج: ٢٩]. وقرأ أبو رزين، والحسن، وطلحة بن مصرف، والأعمش، وأبو جعفر: «يُضِلُّ» بضم الياء، والمعنى: يُضِلُّ غيره، وإذا أَضَلَ غيره فقد ضَلَّ هو أيضاً.

قوله تعالى: «وَوَيْدَهَا» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «وَوَيْدَهَا» برفع الذال. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بنصب الذال. قال أبو علي: من نصب عطف على «يُضِلُّ» «وَوَيْدَهَا» ومن رفع عطفه على «من يشتري» «وويتخذ». وفي المشار إليه بقوله: «وَوَيْدَهَا» قولان: أحدهما: أنها الآيات. والثاني: السبيل. وما بعد هذا مفسر في مواضع قد تقدَّمت [الإسراء: ٤٦، الأنعام: ٢٥، البقرة: ٢٥، الرعد: ٢، النحل: ١٥، الشعراء: ٧]، إلى قوله: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ» وفيها قولان: أحدهما: الفهم والعقل، قاله الأكثرون. والثاني: النبوة. وقد اختلف في نبوته على قولين: أحدهما: أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً، قاله سعيد بن المسيب، ومجاهد، وقاتدة. والثاني: أنه كان نبياً، قاله الشعبي، وعكرمة، والسدي. هكذا حكاه عنهم الواحدي، ولا يعرف إلا أن هذا ممَّا تفرَّد به عكرمة؛ والقول الأول أصح^(٢). وفي صناعته ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان خياطاً، قاله سعيد بن المسيب. والثاني: راعياً، قاله ابن زيد. والثالث: نجاراً، قاله خالد الربيعي. فاما صفته، فقال ابن عباس: كان عبداً حبشياً. وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان أسود من سودان مصر. وقال مجاهد: كان غليظ الشفتين مشقَّق القدمين، وكان قاضياً على بني إسرائيل.

قوله تعالى: «إِنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ» المعنى: وقلنا له: أن اشكر لله [على] ما أعطاك من الحكمة «وَمَنْ يَنْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ» أي: إنما يفعل لنفسه «وَمَنْ كَفَرَ» الثُّعْمَة، فإن الله لغني عن عبادة خلقه.

«وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَلَمَةً أُمَّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَضَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْهِ إِلَى الصَّبَرِ» وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِنِّي أَلْقَيْتُكُمْ فَاتَّبِعُوا لِي بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ بَيِّنٌ إِنَّمَا إِنْ تَكُ شَقَّالَ حَبْرٌ مِّنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِينِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَكَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٨﴾ بَيِّنٌ أَوَّلُ الْفَصَلَةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الشُّكْرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَسْأَلُكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ» قال مقاتل: نزلت في سعد بن أبي وقاص، وقد شرحنا ذلك في [المنكوت: ٨].

قوله تعالى: «حَلَمَتَهُ أُمَّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ» وقرأ الضحَّاك، وعاصم الجحدري: «وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ» بفتح الهاء فيهما. قال الزجاج: أي: ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ. والمعنى: لزمها بحملها إِيَّاهُ أَنْ تَضَعُفَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. وموضع «أَنْ» نصب بـ «وَصَّيْنَا»؛ والمعنى: ووصَّينا الإنسان أن أشكر لي ولوالديك، أي: وصَّيناه بشكرنا وشكر والديه.

قوله تعالى: «وَفَضَّلَهُ فِي عَامَيْنِ» أي: فَطَامَهُ يَقَعُ فِي انْقِضَاءِ عَامَيْنِ. وقرأ إبراهيم النخعي، وأبو عمران، والأعمش: «وَفَضَّلَهُ» بفتح الفاء. وقرأ أبي بن كعب، والحسن، وأبو رجاء، وطلحة بن مصرف، وعاصم

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى التأويلين عندي بالبراب تأويل من قال: معناه: الشراء الذي هو بالثمن، وذلك أن ذلك هو أظهر معنيته، قال: فإن قال قائل: وكيف يشتري لهُو الحديث؟ قيل: يشتري ذات لهُو الحديث، أو ذا لهُو الحديث، فيكون مشترياً لهُو الحديث. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: اختلف السلف في لقمان، هل كان نبياً، أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني (يعني أنه لم يكن نبياً) ثم ذكر بعض الآثار، منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبياً، ومنها ما هو مشعر بذلك، وفي بعضها ما يشعر أنه كان عبداً قد مسَّه الرق، فقال: وكونه عبداً قد مسَّه الرق يتنافى كونه نبياً، لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها، قال: ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، قال: وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة إن صح السند إليه، قال: فإنه رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة، قال: كان لقمان نبياً، قال: وجابر هذا، هو ابن يزيد الجمعي، وهو ضعيف، والله أعلم. ثم قال ابن كثير: والذي رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ» أي: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً، ولم يوح إليه. اهـ، فهذا يدل على أنه كان عبداً صالحاً، ولم يكن نبياً.

الجحدري، وقناة؛ «وَقَضَلُهُ» بفتح الفاء وسكون الصاد من غير ألف. والمراد: التنبية على مشقة الوالدة بالرضاع بعد الحمل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَدَدَكَ﴾ قد فسرنا ذلك في سورة [المنكبوت: ٨] إلى قوله: ﴿وَصَاحِبَتُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ قال الزجاج: أي: مُصَاحِبًا معروفًا، تقول صاحبه مُصَاحِبًا وَمُصَاحِبَةً؛ والمعروف: ما يُستحسن من الأفعال.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَجَّ سَيْبِلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي: مَنْ رَجَعَ إِلَيَّ؛ وأهل التفسير يقولون: هذه الآية نزلت في سعد، وهو المخاطب بها. وفي المراد بمن أناب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أبو بكر الصديق، قيل لسعد: أتبع سبيله في الإيمان، هذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء^(١). وقال ابن إسحاق: أسلم على يدي أبي بكر [الصديق]: عثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. والثاني: أنه رسول الله ﷺ، قاله ابن السائب. والثالث: مَنْ سلك طريق محمد وأصحابه، ذكره الثعلبي^(٢). ثم رجع إلى الخبر عن لقمان فقال: ﴿يَيْتِي﴾. وقال ابن جرير: وجه اعتراض هذه الآيات بين الخبرين عن وصية لقمان أن هذا مما أوصى به لقمان ابنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِنْ تَكُ يَنْقَالَ حَبَّةٌ﴾ وقرأ نافع وحده: «وَيُنْقَالُ حَبَّةٌ» برفع اللام. وفي سبب قول لقمان لابنه هذا قولان: أحدهما: أن ابن لقمان قال لأبيه: أرايت لو كانت حبة في قعر البحر أكان الله يعلمها؟ فأجاب بهذه الآية، قاله السدي. والثاني: أنه قال: يا أبت إن عملك الخطيئة حيث لا يراني أحد، كيف يعلمها الله؟ فأجاب بهذا، قاله مقاتل. قال الزجاج: من قرأ برفع المثقال مع تأنيث «تَكُ» فلا نُقَالُ حَبَّةٌ من خردل» راجع إلى معنى: خردلة، فهي بمنزلة: إِنْ تَكُ حَبَّةٌ من خردل؛ ومن قرأ: «مَثْقَالُ حَبَّةٍ» فعلى معنى: إن التي سألتني عنها إن تَكُ مَثْقَالُ حَبَّةٍ، وعلى معنى: إِنْ فَعَلَهُ الْإِنْسَانُ وَإِنْ صَغُرَتْ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ. وقد بيَّنا معنى ﴿وَيُنْقَالُ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ في [الأنبياء: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ قال قتادة: في جبل. وقال السدي: هي الصخرة التي تحت الأرض السابعة، ليست في السموات ولا في الأرض^(٣). وفي قوله: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: يعلمها الله، قاله أبو مالك. والثاني: يُظهرها، قاله ابن تينية. والثالث: يأت بها الله في الآخرة للجزاء عليها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ قال الزجاج: لطيف باستخراجها ﴿حَبِيرٌ﴾ بمكانها. وهذا مثل لأعمال العباد. والمراد أن الله تعالى يأتي بأعمالهم يوم القيامة، مَنْ يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرِبَ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ﴾ أي: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأذى. وباقى الآية مفسر في [آل عمران: ١٨٦].

﴿وَلَا تُصَيِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسِرْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ ﴿٧٧﴾ وَأَقْبِدْ فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ النَّحِيرِ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَيِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: «تُصَيِّرُ» بتشديد العين من غير ألف. وقرأ نافع، [وأبو عمرو]، وحمزة، والكسائي: بألف من غير تشديد. قال الفراء: هما لغتان، ومغناهما: الإعراض عن الكبر. وقرأ أبي بن كعب، وأبو رجاء، وابن السمين، وعاصم الجحدري: «وَلَا تُصَيِّرُ» بإسكان الصاد وتخفيف العين من غير ألف. وقال الزجاج: معناه: لا تُعْرِضْ عن الناس تكبراً؛ يقال: أصاب البعير صَعَرَ: إذا أصابه داء يَلْوِي منه عُنُقُهُ. وقال ابن عباس: هو الذي إذا سَلِمَ عليه لوى عُنُقَهُ كالمستكبر. وقال

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٩.

(٢) قال الألوسي في «روح المعاني»: والظاهر هو الميم. وقال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَأَنْتَجَّ سَيْبِلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يقول: واسلك طريق من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام، واتبع محمداً ﷺ. ام.

(٣) قال ابن كثير: وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع، قال: وذكره السدي بإسناده ذلك المطروق عن ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة إن صح ذلك، ويروي هذا عن عطية العوفي وأبي مالك والثوري واليمنال بن عمرو، وغيرهم، وهذا - والله أعلم - كأنه متلقى من الإسرائيليات التي لا تصلُق ولا تكذُب، والظاهر - والله أعلم - أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة، فإن الله سيديها ويظهرها بلطف علمه. ام.

أبو العالية: ليكن الغني والفقير عندك في العلم سواء. وقال مجاهد: هو الرجل يكون بينه وبين أخيه الجنة^(١)، فيراه فيعرض عنه. وباقى الآية بعضه مفسر في [ابن إسرائيل: ٣٧] وبعضه في سورة [النساء: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبِدْ فِي مَتْنِكَ﴾ أي: ليكن مشيك قصداً، لا تخيلاً ولا إسراعاً. قال عطاء: امش بالوقار والسكينة.

قوله تعالى: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي: انقص منه. قال الزجاج: ومنه قولهم: غضضت بصري، وفلان يغض من فلان، أي: يقصر به. ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وابن أبي عبيدة: «أَنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ» بفتح الهمزة. ومعنى «أنكر»: أقبح؛ نقول: أتاناً فلان بوجه منكر، أي: قبيح. وقال المبرد: تأويله: أن الجهر بالصوت ليس بمحمود، وأنه داخل في باب الصوت المنكر. وقال ابن قتيبة: عَرَفَهُ فُجِحَ رَفِعَ الْأَصْوَاتِ فِي الْمَخَاطَبَةِ وَالْمُلَاحَاةِ^(٢) بقبح أصوات الحمير، لأنها عالية. قال ابن زيد: لو كان رفع الصوت خيراً، ما جعله الله للحمير. وقال سفيان الثوري: صياح كل شيء تسبيح لله ﷻ، إلا الحمار، فإنه ينهق بلا فائدة. فإن قيل: كيف قال: «لأصوت» ولم يقل: «لأصوات الحمير»؟ فالجواب: أن لكل جنس صوتاً، فكأنه قال: إن أنكر أصوات الأجناس صوت هذا الجنس.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا نَجِدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا كَمَا الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أوسع وأكمل ﴿نِعْمَهُ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «نِعْمَتُهُ»، أرادوا جميع ما أنعم به. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «نِعْمَتُهُ» على التوحيد. قال الزجاج: هو ما أعطاهم من توحيده. وروى الضحاك عن ابن عباس، قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! ما هذه النعمة الظاهرة والباطنة؟ فقال: «أما ما ظهر: فالإسلام، وما سوى الله من خلقك، وما أفضل عليك من الرزق. وأما ما بطن: فستر مساوي عملك، ولم يفضحك»^(٣). وقال الضحاك: الباطنة: المعرفة، والظاهرة: الحسن الصورة، وامتداد القامة، وتسوية الأعضاء.

قوله تعالى: ﴿أَوَّلُوا كَمَا الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ هو متروك الجواب، تقديره: أفتبعونه؟ ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عِيقَةُ الْأُمُورِ ﴿٣٨﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُمْ إِنَّا مَرْمَعُهُمْ فَتَيْبُهُمْ يَوْمَ عِلْوًا إِنَّ اللَّهَ عليمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٩﴾ نَعْتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَنْظُرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْمَلَأْتُ لَكُمْ مِنْ بَنِيكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ الْكَاذِبِينَ ﴿٤١﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرٍ أَفَلَدْنَا وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ مَا نَفِدْنَا كَلِمَتَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو العالية، وقتادة: «ومن يسلم» بفتح السين وتشديد اللام. وذكر المفسرون أن قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُمْ﴾ منسوخ بآية السيف، ولا يصح، لأنه تسلية عن الحزن، وذلك لا يتنافى الأمر بالقتال. وما بعد هذا قد تقدم تفسير ألفاظه في مواضع [همود: ٤٨، النبوت: ٦١، البقرة: ٢٦٧] إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرٍ أَفَلَدْنَا﴾ وفي سبب نزولها قولان: أحدهما: أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: أرايت قول الله ﷻ: ﴿وَمَا أُرِيْتُمْ مِنْ آلِهَةٍ إِلَّا لِيَالِهَةٍ إِلَّا لِيَالِهَةٍ﴾ [الاسراء: ٤٨٥]، إيانا يريد، أم قومك؟ فقال: «كَلَّا»،

(١) قال في «تاج العروس»: «أجن»: الجنة بالكسر لغة في الإجنة، وقد أنكرها الأصمعي والفراء وابن الفرج، وفي «الصالح»: ولا تقل: جنة، قال الزبيدي: قلت: والحق أنها لغة قليلة. اهـ. والإجنة: الحقد.

(٢) الملاحاة: المخاصمة والمنازعة.

(٣) ذكره السيوطي في «الدرر» ١٦٧/٥ من رواية البيهقي في «شعب الإيمان» عن عطاء عن ابن عباس بمعناه، ومن رواية ابن مردويه، والبيهقي، والديلمي، وابن النجار عن ابن عباس، والله أعلم. وذكره الطبري في تفسيره عن ابن عباس من قوله، أنه قرأها ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا﴾ وفسرها بالإسلام، وذكر البغوي والخازن نحو هذا المعنى موقوفاً على ابن عباس. وقال الألويسي في «روح المعاني» بعد أن ذكر هذين الحديثين مرفوعين: فإن صح ما ذكر، غير جازم بهما، والله أعلم.

فقالوا: ألسنت تلتو فيما جاءك أننا قد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شيء؟ فقال: «إنها في علم الله قليل»، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(١). والثاني: أن المشركين قالوا في القرآن: إنما هو كلام [يوشك أن] ينقذ وينقطع، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة^(٢). ومعنى الآية: لو كانت شجر الأرض أقلاماً، وكان البحر ومعه سبعة أبحر يداود - وفي الكلام محذوف تقديره: فكتب بهذه الأقلام وهذه البحور كلمات الله - لتكسرت الأقلام ونفذت البحور، ولم تنفذ كلمات الله، أي: لم تنقطع^(٣). فاما قوله: «وَالْبَحْرُ» فقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «وَالْبَحْرُ» بالرفع، ونصبه أبو عمرو. وقال الزجاج: من قرأ: «وَالْبَحْرُ» بالنصب، فهو عطف على «ما»؛ والمعنى: ولو أن ما في الأرض، ولو أن البحر؛ والرفع حسن على معنى: والبحر هذه حاله. قال البيهقي: ومعنى «يَمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ»: يزيد فيه؛ يقال: مَدَّ قِرْدَكَ، أي: زد في ماها، وكذلك قال ابن قتيبة: «يَمُدُّ» من المداد، لا من الإمداد، يقال: مَدَدْتُ دَوَاتِي بِالْمَدَادِ، وأمددته بالمال والرجال.

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْتَكُمُ إِلَّا كَفْتَنِينَ وَجِدَّةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٣١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَيْهَ لِمَلٍّ لِمَا تَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ عَثِيمٌ كَاظِمٌ لِدَعْوَى اللَّهِ مَحْضِيحًا لَهُ الَّذِينَ قَالُوا لِمَ نَدْعُوهُ إِذَا دَعَا اللَّهُ تَحْمِيصًا وَمَا يَحْضُدُ بِعَائِدِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: «مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْتَكُمُ إِلَّا كَفْتَنِينَ وَجِدَّةً» سبب نزولها أن أبي بن خلف في آخرين من قريش قالوا للنبي ﷺ: إن الله خلقنا أطواراً: نطفة، علقه، مضغة، عظماً، لحماً، ثم تزعم أننا نبعث خلقاً جديداً جميعاً في ساعة واحدة؟! فنزلت هذه الآية^(٤) ومعناها: ما خلقكم أيها الناس جميعاً في القدرة إلا كخلق نفس واحدة، ولا يعتكم جميعاً في القدرة إلا كبعث نفس واحدة، قاله مقاتل. وما بعد هذا قد تقدم تفسيره (آل عمران: ٢٧، الرعد: ٢، الحج: ٦٢) إلى قوله: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ» قال ابن عباس: من نعمه جريان الفلك «لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ» أي: ليُرِيَكُمْ من صنعته عجائبه في البحر، وابتغاء الرزق «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ» قال مقاتل: أي: لكل صبور على أمر الله «شَكُورٍ» في نعمه.

قوله تعالى: «وَإِذْ عَثِيمٌ كَاظِمٌ لِدَعْوَى اللَّهِ» يعني الكفار؛ وقال بعضهم: هو عام في الكفار والمسلمين «كَاظِمٌ» قال ابن قتيبة: وهي جمع قُظَّة، يراد أن بعضه فوق بعض، فله سوادٌ من كثرته.

(١) «الطبري» ٨١/٢١ وفي سنده رجل مجهول، وذكره ابن كثير من رواية ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، ومحمد بن أبي محمد، شيخ لعبد الرزاق، مجهول، كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب». قال ابن كثير: وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية، لا مكية، والمشهور أنها مكية، والله أعلم. اهـ. والحديث أورده السيوطي في «الدر» ١٦٧/٥، وزاد نسبه لابن أبي حاتم.

(٢) «الطبري» ٨١/٢١، وأورده السيوطي في «الدر» ١٦٨/٥ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة»، وأبي نصر السجزي في «الإبانة» عن قتادة.

(٣) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبرياته وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فقال تعالى: «وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَحْرُ يَدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ بَحْرٍ مَا نُفِدَتْ كُنُوزُ اللَّهِ» أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداً، وأمد سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله، لتكسرت الأقلام ونفذت ماء البحر ولو جاء أمثالها مداً، قال: وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر، ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم كما يقوله من تلقاه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: «فَلَوْ أَنَّ كَانِ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكُتِبَتْ رَبِّي لَقَدِ الْبَحْرُ قَلَّ أَنْ تَنْدُ كُنُوزِي رَبِّي وَرُوِّحَتَا يَبْتَلِيهِ مَدَا» ﴿٣٥﴾، فليس المراد بقوله: «بمثلته» آخر فقط، بل بمثلته ثم بمثلته ثم هلم جراً، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته. اهـ.

(٤) قال الألوسي في «روح المعاني» ٩١/٢١: وعن مقاتل أن كفار قريش قالوا: إن الله خلقنا أطواراً: نطفة، علقه، مضغة، لحماً، فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة؟! فنزلت، قال: وذكر النقاش أنها نزلت في أبي بن خلف، وأبي الأسود، ونبيه ومنه ابني الحجاج، وذكر في سبب نزولها فيهم نحو ما ذكر، ثم قال الألوسي: وعلى كون سبب النزول ذلك قيل: المعنى أنه تعالى سمع بقولهم ذلك، بصير بما يضررونه، وهو كما ترى. اهـ. وذكر مثل هذا القول الطبرسي في «مجمع البيان» عن مقاتل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَدَعَا اللَّهُ تِلْكَ الْجِبَّاتِ﴾ وقد سبق شرح هذا [يونس: ٢٢]؛ والمعنى أنهم لا يذكرون أصنامهم في شداقدهم إنما يذكرون الله وحده. وجاء في الحديث أن عكرمة بن أبي جهل لما هرب يوم الفتح من رسول الله ﷺ ركب البحر فأصابتهم ريح عاصف، فقال أهل السفينة: أخليصوا، فإن ألهتكم لا تُغني عنكم شيئاً هاهنا، فقال عكرمة: ما هذا الذي تقولون؟ فقالوا: هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله، فقال: هذا إله محمد الذي كان يدعونإ إليه، لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره، ارجعوا بنا، فرجع فأسلم^(١).

قوله تعالى: ﴿فَيَنْهَمُ مُنْتَهِدٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: مؤمن، قاله الحسن. والثاني: مقتصد في قوله، وهو كافر، قاله مجاهد. يعني أنه يعترف بأن الله وحده القادر على إنجائه وإن كان مضميراً للشرك. والثالث: أنه العادل في الوفاء بما عاهد الله عليه في البحر من التوحيد، قاله مقاتل. فأما «الْحَتَّارُ» فقال الحسن: هو الغدَّار. قال ابن قتيبة: الحَتْرُ: أقيح الغدر وأشدُّه.

﴿يَكَايِبُ النَّاسُ أَنْفُورًا رِيكًا﴾ وَكَخَشَا يَوْمًا لَا يَجْرِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَنُكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَمْرَنُكُمْ بِاللَّهِ الْعَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرَكِّبُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَكَايِبُ النَّاسُ أَنْفُورًا رِيكًا﴾ قال المفسرون: هذا خطاب للكفار مكة. وقوله: ﴿لَا يَجْرِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي: لا يقضي عنه شيئاً من جنايته ومظالمه. قال مقاتل: وهذا يعني به الكفار. وقد شرحنا هذا في [البقرة: ٤٨]. قال الزجاج: وقوله: ﴿هُوَ جَارٍ﴾ جاءت في المصاحف بغير ياء، والأصل «جازي» بضمه وتوين. وذكر سيويه والخليل أن الاختيار في الوقف هو «جازي» بغير ياء، هكذا وقف الفصحاء من العرب ليعلموا أن هذه البياء تسقط في الوصل. وزعم يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقف بياء، ولكن الاختيار أتباع المصحف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: بالبعث والجزاء ﴿فَلَا تَعْرَنُكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ بزيئتها عن الإسلام والتزود للأخرة ﴿وَلَا يَمْرَنُكُمْ بِاللَّهِ﴾ أي: بحلمه وإمهاله «الْعَرُورُ» يعني: الشيطان، وهو الذي من شأنه أن يغرر. قال الزجاج: «الْعَرُورُ» على وزن الفَعُول، وقُوم من أسماء المبالغة، يقال: فلان أكول: إذا كان كثير الأكل، وضروب: إذا كان كبير الضرب، فقيل للشيطان: عَرُور، لأنه يغرر كثيراً. وقال ابن قتيبة: العَرُور بفتح الغين: الشيطان، وبضمها: الباطل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ سبب نزولها أن رجلاً من أهل البادية جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي حُبلى، فأخبرني ماذا تُلِد؟ وبلدنا مُجَلِب، فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى وُلِدَتْ، فأخبرني متى أموت، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد^(٢). ومعنى الآية: «إن الله ﷻ عنده علم الساعة» متى تقوم، لا يعلم سواه ذلك ﴿يُنزَلُ الْغَيْثُ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر: «وَيُنزَلُ» بالتشديد، فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، أليلاً أم نهاراً ﴿وَيَمْرَأُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ لا يعلم سواه ما فيها، أذكراً أم أنثى، أبيض أم أسود ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أخيراً أم شراً ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: بأي مكان^(٣). وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن أبي عبيدة: «بأيّة أرض» بشاء

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» في ترجمة عكرمة: وقد أخرج قصة مجيء موصولة، الدارقطني، والحاكم، وابن مردويه من طريق أسباط بن نصر عن السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: ... فذكرها. اهـ.

(٢) «الطبري» ٨٧/٢١، وأورده السيوطي في «الدرر» ١٦٩/٥، وزاد نسبة للقرطبي، وابن أبي حاتم عن مجاهد، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٩٩ بدون سند، وكذلك البيهقي في «الضمير» وغيره.

(٣) قال ابن كثير: هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلانه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل، ولا ملك مقرب ﴿لَا يَكِينُ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا هُوَ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواء، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شقياً أو سعيداً، علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه، وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلد أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك، قال: وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ سَمَائِكُمُ الْكَيْبِ لَا تَعْلَمُونَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية. ثم قال: وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب، قال: فروى الإمام أحمد عن ابن عمر ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ﴾

مكسورة. والمعنى: ليس أحد يعلم [أين] مضجعه من الأرض حتى يموت، أفي برّ أو سهل أو جبل. وقال أبو عبيدة: [يقال]: بأيّ أرض كنت، وبأية أرض كنت، لغتان. قال الفراء: من قال: بأيّ أرض، اجتزأ بتأنيث الأرض من أن يظهر في «أيّ» تأنيثاً آخر. قال ابن عباس: هذه الخمس لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل [مصطفى]. قال الزجاج: فمن ادّعى أنه يعلم شيئاً من هذه كفر بالقرآن لأنه خالفه^(١).



= الله عِنْدَهُ وَهَلُمَّ السَّاعَةَ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَنَزَلَ مَا فِي الْأَكْمَادِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَتَى تَأْتِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَكُونُ إِذَ اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ قال: ورواه البخاري. اهـ.

(٢) قال الألويسي في تمة الآية: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ» مبالغ في العلم، فلا يعزب عن علمه سبحانه شيء من الأشياء، «خَبِيرٌ» يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها، قال: فالجمع بين الوصفين للإشارة إلى التسوية بين علم الظاهر والباطن عنده ﷻ. اهـ.

سورة السجدة

وتسمى سورة المضاجع، وهي مكية بإجماعهم

وقال الكلبي: فيها من المدني ثلاث آيات، أولها قوله: ﴿أَمَّنْ كَانَ مَرْيُومًا...﴾ [السجدة: ١٨] وقال مقاتل: فيها آية مدنية، وهي قوله: ﴿تَنجَافِي جُؤُوبُهُمْ...﴾ الآية [السجدة: ١٦]. وقال غيرهما: فيها خمس آيات مدنيات، أولها ﴿تَنجَافِي جُؤُوبُهُمْ...﴾ [السجدة: ١٦] (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾ (١) أَمْ يَقُولُونَ أَفَنزَّلَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِشِدْرَ قَوْمًا مَّا أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ قال مقاتل: المعنى: لا شك فيه أنه تنزيل ﴿مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾. ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون، يعني المشركين ﴿أَفَنزَّلَهُ﴾ محمد من تلقاء نفسه، ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِشِدْرَ قَوْمًا مَّا أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني العرب الذين أدركوا رسول الله ﷺ لم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ. وما بعده قد سبق تفسيره [الأعراف: ٥٤] إلى قوله: ﴿مَّا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعني الكفار؛ يقول: ليس لكم من دون عذابه من وليٍّ، أي: قريب منكم فيردُّ عذابه عنكم ﴿وَلَا شَيْعٍ﴾ يشفع لكم ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتؤمنوا.

﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤) ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٦﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِ رَبِّهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ في معنى الآية قولان: أحدهما: يقضي القضاء من السماء فينزله مع الملائكة إلى الأرض ﴿ثُمَّ يَرْجِعُ﴾ الملك ﴿إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ من أيام الدنيا، فيكون الملك قد قطع في يوم واحد من أيام الدنيا في نزوله وصعوده مسافة ألف سنة من مسيرة الأدمي. والثاني: يذير أمر الدنيا مدة أيام الدنيا، فينزّل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض ﴿ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ﴾ أي: يعود إليه الأمر والتدبير حين ينقطع أمر الأمراء وأحكام الحكام وينفرد الله تعالى بالأمر ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وذلك في [يوم] القيامة، لأن كل يوم من أيام الآخرة كألف سنة. وقال مجاهد: يقضي أمر ألف سنة في يوم واحد، ثم يلقيه إلى الملائكة، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى، ثم كذلك أبدأ. وللمفسرين في المراد بالأمر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الوحي، قاله السدي. والثاني: القضاء، قاله مقاتل. والثالث: أمر الدنيا. و«يعرج» بمعنى يصعد. قال الزجاج: يقال: عَرَجْتُ فِي السَّلْمِ أَعْرَجٌ، وَعَرَجَ الرَّجُلُ يَعْرَجُ: إِذَا صَارَ أَعْرَجًا. وقرأ معاذ القارئ، وابن السميغ، وابن أبي عبيدة: «ثُمَّ يَعْجُرُ إِلَيْهِ» بياء مرفوعة وفتح الراء. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «يَعْجُرُ» بياء مفتوحة وكسر الراء. وقرأ أبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «ثُمَّ تَعْجُرُ» بياء مفتوحة ورفع الراء.

(١) روى البخاري في «صحيحه» في كتاب الجمعة عن أبي هريرة ؓ قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾ [السجدة: ١] ﴿وَقَدْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾، ورواه مسلم أيضاً.

(٢) قال في «المصباح»: عَرَجَ فِي شَيْءٍ عَرَجًا مِنْ بَابِ تَعَبٍ: إِذَا كَانَ مِنْ عِلَّةٍ لَازِمَةٍ، فَهُوَ أَعْرَجٌ، وَالْأُنثَى عَرَجَاءٌ، فَإِنْ كَانَ مِنْ عِلَّةٍ غَيْرِ لَازِمَةٍ، بَلْ مِنْ شَيْءٍ أَصَابَهُ حَتَّى غَمَزَ فِي شَيْءٍ، قِيلَ: عَرَجَ يَعْجُرُ، مِنْ بَابِ قَتْلٍ، فَهُوَ عَارِجٌ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: جعله حسناً. والثاني: أحكم كل شيء، روى عن ابن عباس، وبالأول قال قتادة، وبالثاني: قال مجاهد. والثالث: أحسنه، لم يتعلمه من أحد، كما يقال: فلان يُحسِن كذا: إذا علمه، قاله السدي، ومقاتل. والرابع: أن المعنى: ألهم خَلَقَهُ كُلَّ ما يحتاجون إليه، كأنه أعلمهم كل ذلك وأحسنهم، قاله الفراء. والخامس: أحسن إلى كل شيء خَلَقَهُ، حكاه الماوردي. وفي قوله: «خَلَقَهُ» قراءة ثان: قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «خَلَقَهُ» ساكنة اللام. وقرأ الباقون بتحريك اللام. وقال الزجاج: فتحها على الفعل الماضي، وتسكينها على البدل، فيكون المعنى: أحسن خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ. وقال أبو عبيدة: المعنى: أحسن خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، والعرب تفعل مثل هذا، يقدمون ويؤخرون.

قوله تعالى: ﴿وَبِأَنَّ خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ يعني آدم، ﴿فَرَجَمَلٌ نَسَلَهُ﴾ أي: ذريته وولده؛ وقد سبق شرح الآية للمؤمنين: [١٢]. ثم رجع إلى آدم فقال: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وقد سبق بيان ذلك [الحجر: ٢٩]. ثم عاد إلى ذريته فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي: بعد كونكم نطفاً.

﴿وَقَالُوا أَوَآءَا صَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ أَوْآءَا لَبِي خَلَقِي جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿قُلْ يَبَوِّفُكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثَمَّ إِلَيْ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّجَعْنَا نَعْمَلْ صَلِيلًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني منكري البعث ﴿أَوَآءَا صَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، وجعفر بن محمد، وأبو رجا، وأبو مجلز، وحמיד، وطلحة: «صَلَّلْنَا» بصاد معجمة مفتوحة وكسر اللام الأولى. قال الفراء: صَلَّلْنَا وَصَلَّلْنَا لَغْتَانِ، والمعنى: إذا صارت عظامنا ولحومنا تراباً كالأرض؛ تقول: صَلَّ الْمَاءُ فِي اللَّيْنِ، وضم الشيء في الشيء: إذا أخفاه وغلب عليه. وقرأ أبو نهيك، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو حيوة، وابن أبي عمير: «صَلَّلْنَا» [بضم] الضاد المعجمة وتشديد اللام الأولى وكسرها. وقرأ الحسن، وقاتدة، ومعاذ القارئ: «صَلَّلْنَا» بصاد غير معجمة مفتوحة، وذكر لها الزجاج معنيين: أحدهما: أَنتَنَّا وَتَغَيَّرْنَا وَتَغَيَّرَتْ صُورُنَا؛ يقال: صَلَّ اللَّحْمُ وَأَصَلَّ: إذا أنتن وتغير. والثاني: صرنا من جنس الصلَّة، وهي الأرض اليابسة.

قوله تعالى: ﴿أَوْآءَا لَبِي خَلَقِي جَدِيدٍ﴾!؟ هذا استفهام إنكار.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ﴾ أي: بقبض أرواحكم ﴿ثُمَّ إِلَيْ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يوم الجزاء. ثم أخبر عن حالهم في القيامة فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ أي: مطأطئوها حياةً وندماً، ﴿رَبَّنَا﴾ فيه إضمار «يقولون ربنا» ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: عَلِمْنَا صِحَّةَ مَا كُنَّا بِهِ مُكذِّبِينَ ﴿فَاتَّجَعْنَا﴾ إلى الدنيا؛ وجواب «لو» متروك، تقديره: لو رأيت حالهم لرأيت ما يُعتبر به، ولشاهدت العَجَب.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿تَتَخَفَى حُنُوفُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي: وجب وسبق؛ والقول هو قوله لإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنِّي وَمَنْ يَمَكُ مِنِّي أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ [ص: ٨٥].

قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من كفار الفريقين. ﴿فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ قال مقاتل: إذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة: ذوقوا العذاب. وقال غيره: إذا اضطرحوا فيها قيل لهم: ذوقوا بما نسيتم، أي: بما تركتم العمل للقاء يومكم هذا، ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي: تركناكم من الرحمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي: وعظوا بها ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي: سقطوا على وجوههم ساجدين. وقيل: المعنى: إِنَّمَا يُؤْمِنُ بفرائضنا من الصلوات الخمس الذين إذا ذُكِّرُوا بِهَا بالأذان والإقامة خَرُّوا سُجَّدًا.

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ اختلفوا فيمن نزلت وفي الصلاة التي تتجافى لها جنوبهم على أربعة أقوال: أخذها: أنها نزلت في المتهجدين بالليل؛ روى معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ في قوله: «تتجافى جنوبهم» قال: «قيام العبد من الليل»^(١). وفي لفظ آخر أنه قال لمعاذ: «إن شئت أنبأتك بأبواب الخير»، قال: قلت: أجل يا رسول الله، قال: «الصَّومُ جُتَّةٌ، والصدقة تكفر الخطيئة، وقيام الرُّجُلِ في جوف الليل يبتني وجه الله»، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾^(٢). وكذلك قال الحسن، ومجاهد، وعطاء، وأبو العالية، وقتادة، وابن زيد أنها في قيام الليل. وقد روى العوفي عن بن عباس قال: تتجافى جنوبهم لذكر الله، كلما استيقظوا ذكروا الله، إما في الصلاة، وإما في قيام، أو في ععود، أو على جنوبهم، فهم لا يزالون يذكرون الله ﷻ. والثاني: أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يصلُّون ما بين المغرب والعشاء، قاله أنس بن مالك. والثالث: أنها نزلت في صلاة العشاء [كان أصحاب رسول الله ﷺ لا ينامون حتى يصلُّوها، قاله ابن عباس. والرابع: أنها صلاة العشاء] والصبح في جماعة، قاله أبو الدرداء، والضحاك. ومعنى «تتجافى»: ترتفع. والمضاجع جمع مضجع، وهو الموضع الذي يُضطجع عليه. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ من عذابه ﴿وَوَلَمَعًا﴾ في رحمته [وثوابه] ﴿وَمِمَّا زَكَّاهُمْ يَتَّقُونَ﴾ في الواجب والتطوع. ﴿فَلَا تَمَلَّمْ قَسًّا مَّا أَخْفَى لَهُمْ﴾ وأسكن ياء «أخفي» حمزة، ويعقوب. قال الزجاج: في هذا دليل على أن المراد بالآية التي قبلها: الصلاة في جوف الليل، لأنه عمل يستسرُّ الإنسان به، فجعل لفظ ما يُجَازَى به «أخفي» لهم، فإذا فتحت ياء «أخفي»، فعلى تأويل الفعل الماضي، وإذا أسكتها، فالمعنى: ما أخفي أنا لهم، إخبار عن الله تعالى؛ وكذلك قال الحسن البصري: أخفي لهم، بالخفية خفية، وبالعلاية علانية. وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَمَلَّمْ قَسًّا مَّا أَخْفَى لَهُمْ﴾»^(٣).

قوله تعالى: ﴿مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وقرأ أبو الدرداء، وأبو هريرة، وأبو عبد الرحمن السلمي، والشعبي، وقتادة: «من قُرَاتٍ أَعْيُنٍ» [بألف] على الجمع.

(١) رواه أحمد في «المستدرك» ٢٢٢/٥ من حديث حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن شهر بن حوشب عن معاذ بن جبل ﷺ، وفي سننه ضعف. قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: ورواية شهر بن حوشب عن معاذ مرسله بيقيناً. وكذلك رواه الطبري ١٠٣/٢١ به، وأورده السيوطي في «الدرر» ١٧٥/٥ وزاد فيه لابن مردويه عن معاذ ﷺ. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٣١: رواه أحمد، وابن أبي شيبه، وإسحاق، والحاكم من رواية أبي وائل عن معاذ في أثناء حديث مرفوع قال: «وصلاة الرجل في جوف الليل» ثم قرأ «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ». اهـ. يريد به الرواية التي بعد هذه، وأبو وائل لم يثبت سماعه من معاذ.

(٢) هو جزء من حديث طويل، رواه بهذا اللفظ الحاكم في «المستدرك» ٤١٣/٢ من حديث حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتيبة، عن ميمون بن أبي شيبه عن معاذ بن جبل ﷺ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم»: وميمون بن أبي شيبه لم يسمع من معاذ. والحديث رواه الطبري ١٠٢/٢١ مختصراً كما ساقه المؤلف عن ميمون بن أبي شيبه عن معاذ، ورواه مطولاً بنحو رواية الحاكم أحمد في «المستدرك» ٢٣١/٥، والترمذي في «جامعه» ٨٦/٢، وابن ماجه في «سننه» رقم (٣٩٧٣) من رواية معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهذا الحديث هو الحديث التاسع والعشرون من «الأربعين النووية» وقد قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في شرحه لهذا الحديث في كتابه «جامع العلوم والحكم»: وفيما قاله الترمذي رحمه الله نظر من وجهين، أحدهما: أنه لم يثبت سماع أبي وائل من معاذ وإن كان قد أدركه بالسُّرِّ، والثاني: أنه قد رواه حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن شهر بن حوشب عن معاذ، خرجه الإمام أحمد مختصراً - يريد به الحديث الذي قبل هذا - ثم قال: قال الدارقطني: وهو أشبه بالصواب، لأن الحديث معروف من رواية شهر على اختلاف عليه فيه، قلت - أي الحافظ ابن رجب الحنبلي -: رواية شهر عن معاذ مرسله بيقيناً، وشهر مختلف في توثيقه وتضعيفه، قال: وقد خرجه الإمام أحمد من رواية شهر عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ، وخرجه الإمام أحمد أيضاً من رواية عروة بن الزُّرَّال أو الزُّرَّال بن عروة، وميمون بن أبي شيبه، كلاهما عن معاذ، ولم يسمع عروة ولا ميمون من معاذ، قال: وله طرق أخرى عن معاذ كلها ضعيفة، والحديث ذكره السيوطي في «الدرر» ١٧٥/٥ وزاد نسبه لابن نصر في كتاب الصلاة، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن معاذ بن جبل ﷺ. اهـ. وليمض فقرات الحديث شواهد، والله أعلم.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» ٣٩٦/٨، ومسلم في «صحيحه» ٢١٧٤/٤، ورواه الترمذي ١٥١/٢ قال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن جرير الطبري في «التفسير» ١٠٥/٢١، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٧٦/٥ وزاد نسبه، لابن أبي شيبه، وأحمد وهناد كلاهما في «التهذه»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن الأباري عن أبي هريرة ﷺ.

﴿أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَايِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُفِعُوا فِي النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِنَا إِلَيْهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَايِقًا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن الوليد بن عتبة بن أبي مُطيط قال لعلي بن أبي طالب: أنا أحدُ منك سناناً، وأبسط منك لساناً، وأملأ للكعبة منك، فقال له علي: اسكت فإنما أنت فاسق، فنزلت هذه الآية^(١)، فعنى بالمؤمن علياً، وبالفاسق الوليد، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال عطاء بن يسار، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ومقاتل. والثاني: أنها نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل، قاله شريك.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ قال الزجاج: المعنى: لا يستوي المؤمنون والكافرون^(٢)؛ ويجوز أن يكون لاثنتين، لأن معنى الاثنتين جماعة؛ وقد شهد الله بهذا الكلام لعلي عليه السلام بالإيمان وأنه في الجنة، لقوله: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾. وقرأ ابن مسعود، وطلحة بن مصرف: «جنة المأوى» على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾ وقرأ الحسن، والنخعي، والأعمش، وابن أبي عبيدة: «نُزُلًا» بتسكين الزاي. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الحج: ٢٢] إلى قوله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ وفيه ستة أقوال: أحدها: أنه ما أصابهم يوم بدر، رواه مسروق عن ابن مسعود، وبه قال قتادة، والسدي. والثاني: سنون أخذوا بها، رواه أبو عبيدة عن ابن مسعود، وبه قال النخعي. وقال مقاتل: أخذوا بالجوع سبع سنين. والثالث: مصائب الدنيا، قاله أبي بن كعب، وابن عباس في رواية ابن أبي طلحة، وأبو العالية، والحسن، وقاتدة، والضحاك. والرابع: الحدود، رواه عكرمة عن ابن عباس. والخامس: عذاب القبر، قاله البراء. والسادس: القتل والجوع، قاله مجاهد^(٣).

قوله تعالى: ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي: قبل العذاب الأكبر؛ وفيه قولان: أحدهما: أنه عذاب يوم القيامة، قاله ابن مسعود. والثاني: أنه القتل ببدر، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿لَأَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال أبو العالية: لعلمهم يتوبون. وقال ابن مسعود: لعلَّ مَنْ بقي منهم يتوب. وقال مقاتل: لكي يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ قد فسرناه في [الكهف: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾ قال زيد بن رفيع^(٤): هم أصحاب القدر. وقال مقاتل: هم كفاز مكة انتقم الله منهم بالقتل ببدر، وضربت الملائكة وجوههم وأبدانهم، وعجل أرواحهم إلى النار.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي رَيْبٍ مِّنْ لِّقَابِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَدُّوْنَ بِأَمْثَلِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفِعْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمَّا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠٠، عن ابن عباس عليه السلام، وفي سننه ضعف. وقال السيوطي في «أسباب النزول» ١٧٤: وأخرج ابن عدي، والخليل في «تاريخه» من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله، وذكره ابن جرير الطبري في «التفسير» ١٠٧/٢١ عن عطاء بن يسار بمثله، وفي سننه جهالة. وذكره السيوطي عن عطاء بن يسار، وزاد نسبة لابن إسحاق. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٣١ بعد أن خرج من رواية ابن مردويه والراحي عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. اهـ.

(٢) وكذلك قال أكثر المفسرين.

(٣) قال ابن جرير الطبري ١١٠/٢١: وأولى الأقوال في ذلك أن يقال: إن الله وعد هؤلاء الفسقة المكذبين بوعده في الدنيا العذاب الأدنى أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر، والعذاب: هو ما كان في الدنيا من بلاء أصابهم، إما شدة من مجاعة، أو قتل، أو مصائب يصابون بها، فكل ذلك من العذاب الأدنى، ولم يخص الله تعالى ذكره إذ وعدهم ذلك أن يعذبهم بنوع من ذلك دون نوع، وقد عليهم بكل ذلك في الدنيا، بالقتل، والجوع، والشدائد، والمصائب في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى: مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتهما وما يحل بأهلها مما يبطل الله به عباده ليتوبوا إليه. اهـ.

(٤) كذا الأصل، والذي في «الطبري»، و«البحر»: «يزيد بن رفيع».

أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿١٦٨﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦٩﴾ وَتَوَلَّوْا مَعَىٰ هَذَا الْفَتْحِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٠﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٧١﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ شَتَطَرُونَ ﴿١٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿فَلَا تَكُن فِي سِرِّينَ مِنْ لِقَائِهِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: فلا تكون في مرية من لقاء موسى ربّه، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(١). والثاني: من لقاء موسى ليلة الإسراء، قاله أبو العالية، ومجاهد، وقتادة، وابن السائب. والثالث: فلا تكن في شك من لقاء الأذى كما لقي موسى، قاله الحسن. والرابع: لا تكن في مرية من تلقّي موسى كتاب الله بالرضى والقبول، قاله السدي. قال الزجاج: وقد قيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب، فتكون الهاء للكتاب. وقال أبو علي الفارسي: المعنى: من لقاء موسى الكتاب، فأضيف المصدر إلى ضمير الكتاب، وفي ذلك مدح له على امتثاله ما أمر به، وتنبية على الأخذ بمثل هذا الفعل. وفي قوله: ﴿وَوَعَلَلْنَا هَذِي﴾ قولان: أحدهما: الكتاب، قاله الحسن. والثاني: موسى، قاله قتادة. ﴿وَوَعَلَلْنَا يَنْتَهَمُ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أَيُّمَةً﴾ أي: قادة في الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون الناس إلى طاعة الله ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ [قرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ بفتح اللام وتشديد الميم. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿لَمَّا﴾ بكسر اللام خفيفة. وقرأ ابن مسعود: ﴿بِمَا﴾ بياء مكان اللام؛ والمراد: صبرهم] على دينهم وأذى عدوهم ﴿وَكَاثِرًا بِكَآيَتِنَا يُوَفُّونَ﴾ أنها من الله ﷻ؛ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم الأنبياء. والثاني: أنهم قوم صالحون سوى الأنبياء. وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أطعتم جعلتكم أئمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يقضي ويحكم؛ وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الأنبياء وأممهم. والثاني: المؤمنون والمشركون. ثم خوّف كفار مكة بقوله: ﴿أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿نَهْدِ﴾ بالنون. وقد سبق تفسيره في [طه: ١٢٨]. ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ يعني المطر والسييل ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ وهي التي لا تثبت - وقد ذكرناها في أول [الكهف: ٨] - فإذا جاء الماء أنبت فيها ما يأكل الناس والأنعام. ﴿وَتَوَلَّوْا مَعَىٰ هَذَا الْفَتْحِ﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه ما فتح يوم بدر؛ روى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال: يوم بدر فتح للنبي ﷺ، فلم ينعف الذين كفروا إيمانهم بعد الموت. والثاني: أنه يوم القيامة، وهو يوم الحكم بالثواب والعقاب، قاله مجاهد. والثالث: أنه اليوم الذي يأتيهم فيه العذاب في الدنيا؛ قاله السدي. والرابع: فتح مكة، قاله ابن السائب، والفراء، وابن قتيبة^(٢)؛ وقد اعترض على هذا القول، فقيل: كيف لا ينعف الكفار إيمانهم يوم الفتح، وقد أسلم جماعة منهم وقبِلَ إسلامهم يومئذ؟! فعنه جوابان: أحدهما: لا ينعف من قتل من الكفار يومئذ إيمانهم بعد الموت؛ وقد ذكرناه عن ابن عباس. وقد ذكر أهل السير أنَّ خالدًا دخل يوم الفتح من غير الطريق التي دخل منها رسول الله ﷺ، فلقيه صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو في آخرين فقاتلوه، فصاح خالد في أصحابه وقاتلهم، فقتل أربعة وعشرين من قريش، وأربعة من هذيل، وانهمزوا، فلما ظهر رسول الله ﷺ قال: ﴿ألم أنه عن القتال؟﴾ فقيل: إن خالدًا قوتل فقاتل^(٣). والثاني: لا ينعف الكفار ما أعطوا من الأمان، لأن النبي ﷺ قال: ﴿مَنْ أَهْلَقَ

(١) رواه الطبري ١١٢/٢١ مطولاً من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس مرفوعاً، وذكره ابن كثير في «التفسير» ٤٦٣/٣ من رواية الطبراني به مرفوعاً، وأورده السيوطي في «الدر» ١٧٩/٥ وزاد نسبة للضياء في «المختارة» عن ابن عباس عن النبي ﷺ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك قول من قال: معناه: ويقولون: متى يجيء هذا الحكم بيننا وبينكم؟ يعنون العذاب، يدل على أن ذلك معناه قوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾^(١)، ولا شك أن الكفار قد كان جعل الله لهم التوبة قبل فتح مكة وبعده، ولو كان معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ هَذَا الْفَتْحِ﴾ على ما قاله من قال: يعني به فتح مكة، لكان لا توبة لمن أسلم من المشركين بعد فتح مكة، ولا شك أن الله قد تاب على كثير من المشركين بعد فتح مكة، ونفعهم بالإيمان به وبرسوله، فمعلوم بذلك صحة ما قلنا من التأويل وفساد ما خالفه. قال: وقوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾ يقول لنبية محمد ﷺ: قل لهم يا محمد: يوم الحكم ومجيء العذاب لا ينعف من كفر بالله وبياتة إيمانهم الذي يُحدثونه في ذلك الوقت. وقال: وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يقول: ولا هم يؤخرون للتوبة والمراجعة. اهـ.

(٣) ذكره ابن هشام ٤٠٧/٢ عن ابن إسحاق بدون سند، وذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ٢٩٧/٤ من رواية الطبراني بنحوه.

بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن^(١). قال الزجاج: يقال: آمنتُ فلاناً إيماناً، فعلى هذا يكون المعنى: لا يدفع هذا الأمانُ عنهم عذابَ الله. وهذا القول الذي قد دافعنا عنه ليس بالمختار، وإنما بيتاً وجهه لأنه قد قيل. وقد خرج بما ذكرناه في الفتح قولان: أحدهما: أنه الحكم والقضاء، وهو الذي نختاره. والثاني: فتح البلد. قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْتَظِرُّهُمْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ بك حوادث الدهر^(٢). قال المفسرون: وهذه الآية منسوخة بآية السيف.



(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ١٤٠٨/٣ بلفظ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابَه فهو آمن» وأخرجه ابن هشام في «السيرة» عن ابن إسحاق معضلاً، ولكن وصله ابن جرير الطبري، ورواه أبو داود عن ابن إسحاق بإسناد آخر له عن ابن عباس، وفي سننه رجل مجهول، وله عن أبي داود إسناد ثالث ورجاله ثقات، لكن لم يصرح فيه ابن إسحاق بالسماع، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٦/١٦٦ وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) قال ابن كثير: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْتَظِرُّهُمْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ أي: أعرض عن هؤلاء المشركين، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، وانتظر فإن الله سينزل بك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ أي: أنت منتظر وهم منتظرون، ويترصون بكم الدوائر، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله في نصرك وتأييدك، وسيجدون غيباً ما ينتظرون فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل. اهـ.

سورة الأحزاب

وهي مدنيّة بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلَاحِظُوا الَّذِينَ يَنفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا لَكُمْ اللَّهُ كَاتِبًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَيْنَا مَا يُحِبُّكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنتَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ أَلْفَى تُظَاهِرُونَ مَنَّهُمْ أَمْهَنَكُمْ وَمَا جَعَلَ أَعْيُنَكُمْ أَسْمَاءَكُمْ ذَلِكَ مَن قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سبب نزولها أن أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي، قَدِمُوا على رسول الله ﷺ في المواعدة التي كانت بينهم، فنزلوا على عبد الله بن أبي، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس؛ فتكلموا فيما بينهم، وأتوا رسول الله ﷺ فدعوه إلى أمرهم وعرضوا عليه أشياء كرهها، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال مقاتل: سألو رسول الله ﷺ أن يرفض ذكر اللات والعزى ويقول: إن لها شفاعة، فكَرِهَ ذلك، ونزلت [هذه] الآية^(١). وقال ابن جرير: ﴿وَلَا تُلَاحِظُوا الَّذِينَ يَنفَرُونَ﴾ الذين يقولون: اطرد عنا أتباعك من ضعفاء المسلمين، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فلا تقبل منهم رأياً. فإن قيل: ما الفائدة في أمر الله تعالى رسوله بالتقوى، وهو سيّد المتقين؟! فَعَنَ ثلاثة أجوبة: أحدها: أن المراد بذلك استدامة ما هو عليه. والثاني: الإكثار مما هو فيه. والثالث: أنه خطاب ووجه به، والمراد أمته. قال المفسرون: وأراد بالكافرين في هذه الآية: أبا سفيان، وعكرمة، وأبا الأعور، وبالمناققين: عبد الله بن أبي، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطعمة بن أبيرق. وما بعد هذا قد سبق بيانه [النساء: ٨١] إلى قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ وفي سبب نزولها قولان: أحدهما: أن المناققين كانوا يقولون: لمحمد قلبان، قلب معنا، وقلب مع أصحابه، فأكذبهم الله تعالى، ونزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(٢). والثاني: أنها نزلت في جميل بن مَعْمَرِ الفهري - كذا نسبة جماعة من المفسرين. وقال الفراء: جميل بن أسد، ويكنى: أبا مَعْمَر. وقال مقاتل: أبو مَعْمَرِ بن أنس الفهري - وكان لبيباً حافظاً لِمَا سَمِعَ، فقالت قريش: ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان في جوفه، وكان يقول: إن لي قلبين بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فلَمَّا كان يوم بدر وهُزِمَ المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر، تلقاه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده، والأخرى في رجله، فقال له: ما حال الناس؟ فقال: انهزموا، قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال: ما شعرت إلا أننيما في رجلتي، فعرفوا [يومئذ] أنه لو كان له قلبان لَمَّا نسي نعله في يده^(٣)؛ وهذا قول جماعة من المفسرين. وقد قال الزهري في هذا قولاً عجيباً، قال: بلَغْنَا أن ذلك في زيد بن حارثة ضُرب له مثل يقول: ليس ابنُ رجلٍ آخر ابنك^(٤). قال الأخفش: «من» زائدة في قوله: «من قلبين». قال الزجاج: أكذب الله ﷻ هذا الرجل الذي قال: لي

(١) رواه الواحدى في «أسباب النزول» ٢٠١ بغير سند، وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٣٢: هكذا ذكره الثعلبي والواحدى بغير سند.

(٢) «الطبري» ١١٨/٢١، وفي سنده قابوس بن أبي طيبان، قال الحافظ ابن حجر عنه في «التقريب»: فيه لين. ورواه الترمذي في «جامعه» ١٥١/٢ وقال: حديث حسن، وفي سنده أيضاً قابوس بن أبي طيبان، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٤١٥/٢، وضححه، ولكن قال الذهبي في تعقيبه عليه: قلت: قابوس ضعيف. وأورد الحلبي السيوطي في «الدر» ١٨٠/٥، وزاد نسبة لأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس ﷺ.

(٣) ذكره الواحدى في «أسباب النزول» ٢٠١ بدون سند، وذكره الطبري ١١٨/٢١، مختصراً عن ابن عباس أنها نزلت في رجل من قريش يسمى من كعبه: ذا القلنين، وذكر عن مجاهد أن رجلاً من بني فهر قال: إن في قلبي جوفين... الخ، وذكره السيوطي في «الدر» ١٨٠/٥، من رواية ابن أبي حاتم مختصراً عن السدي أنها نزلت في رجل من قريش من بني جمح يقال له: جميل بن معمر.

(٤) ذكره الطبري ١١٩/٢١، عن الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن الزهري. وأورده السيوطي في «الدر» ١٨١/٥ من

قلبان، ثم قرر بهذا الكلام ما يقوله المشركون وغيرهم ممّا لا حقيقة له، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَلْفِي تَطْلُهُرُونَ يَتَنُّنْ أَهْتِيكُمْ﴾ فأعلم الله تعالى أن الزوجة لا تكون أمّاً، وكانت الجاهلية تطلق بهذا الكلام، وهو أن يقول لها: أنت عليّ كظهر أمي، وكذلك قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أُمَّتَكُمْ﴾ أي: ما جعل من تدعونه ابناً - وليس يولد في الحقيقة - ابناً ﴿ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي: نسب من لا حقيقة لنسبه قول بالفم لا حقيقة تحته ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي: لا يجعل غير الابن ابناً ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي: للسبيل المستقيم^(١). وذكر المفسرون أن قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَلْفِي تَطْلُهُرُونَ يَتَنُّنْ﴾ نزلت في أوس بن الصامت وامرأته خولة بنت ثعلبة. ومعنى الكلام: ما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهنّ كأمهاتكم في التحريم، إنّما قولكم معصية، وفيه كفارة، وأزواجكم لكم حلال؛ وسنشرح هذا في سورة (المجادلة) إن شاء الله. وذكروا أن قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أُمَّتَكُمْ﴾ نزل في زيد بن حارثة، اعتقه رسول الله ﷺ وتبناه قبل الوحي، فلما تزوّج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش قال اليهود والمنافقون: تزوّج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عنها، فنزلت هذه الآية^(٢).

﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَمْلِكُوا أَبَاءَهُمْ فَاخْرُجُوا فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١﴾﴾ أَلْفِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَفْسِهِمْ وَأَرْوَاحُهُمْ أَهْتِيكُمْ وَأَرْوَاحُ الْأَحْزَابِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا كَمَا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ سَوَابِرًا ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ قال ابن عمر: ما كنّا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، حتى نزلت ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ أي: أعدل، ﴿فَإِنْ لَمْ تَمْلِكُوا أَبَاءَهُمْ﴾ أي: إن لم تعرفوا آباءهم ﴿فَاخْرُجُوا﴾ أي: فهم إخوانكم، فليقل أحدكم: يا أخي، ﴿وَمَوْلَاكُمْ﴾ قال الزجاج: أي: بنو عمكم. ويجوز أن يكون «موااليكم» أولياءكم في الدين. ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فيما أخطأتم به قبل النهي، قاله مجاهد؛ والثاني: في دعائكم من تدعونه إلى غير أبيه وأنتم تزوّنه كذلك، قاله قتادة. والثالث: فيما سهوتم فيه، قاله حبيب بن أبي ثابت. فعلى الأول يكون معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: بعد النهي. وعلى الثاني والثالث: ما تعمدت في دعاء الرجل إلى غير أبيه.

= رواية عبد الرزاق، وابن جرير الطبري عن الزهري، وكذا قال مجاهد، وقاتة، وابن زيد: إنها نزلت في زيد بن حارثة ﷺ. قال الطبري: وأولى الأتوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك تكذيب من الله تعالى قول من قال: لرجل في جوفه قلبان يعقب بهما، على النحو الذي روي عن ابن عباس، وجائز أن يكون ذلك تكديبا من الله لمن وصف رسول الله ﷺ بذلك، وأن يكون تكديبا لمن سمي القرشي الذي ذكر أنه سُمي ذا القلبين من ذفيه، وأي الأمرين كان، فهو نفي من الله عن خلقه من الرجال أن يكونوا بتلك الصفة. اهـ.

(١) قال ابن كثير في هذه الآيات: ﴿جَعَلَ اللَّهُ لِزَيْلِ بْنِ قَلْبَيْبٍ فِي جَوْفِهِ...﴾ إلى آخره: يقول تعالى موطناً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسيّاً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا تصير زوجته التي يظهر منها بقوله: أنت عليّ كظهر أمي أمّاً له، كذلك لا يصير الدعي ولداً للرجل إذا تبناه فدعا ابناً له، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِزَيْلِ بْنِ قَلْبَيْبٍ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَلْفِي تَطْلُهُرُونَ يَتَنُّنْ أَهْتِيكُمْ﴾ كقوله ﷺ: ﴿مَا هُمُ أَهْتِيكُمْ إِلَّا أَلْفِي وَلَدَهُمْ...﴾ الآية، ثم قال: وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أُمَّتَكُمْ﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة ﷺ مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة فكان يقال له: زيد بن محمد، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أُمَّتَكُمْ﴾ كما قال تعالى في أثناء السورة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١﴾﴾ وقال هانئ: ﴿ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يعني: تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ قال سعيد بن جبيرة: «يقول الحق» أي: العدل، وقال قتادة: «وهو يهدي السبيل» أي: الصراط المستقيم. اهـ.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠١ بدون سند، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٨١/٥، من رواية الفريابي، وابن أبي شيبه، وابن المنذر، عن مجاهد ﷺ.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» ٣٩٧/٨، ومسلم في ١٨٨٤/٤، وأخرجه الترمذي، والنسائي، من طرق، ورواه الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠١، وأوردته السيوطي في «الدرر» ١٨١/٥ وزاد نسبه لابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أحق، فله أن يحكم فيهم بما يشاء، قال ابن عباس: إذا دعاهم إلى شيء، ودعتهم أنفسهم إلى شيء، كانت طاعته أولى من طاعة أنفسهم؛ وهذا صحيح، فإن أنفسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، والرسول يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَرْزِقْنَهُنَّ مِنْهُمْ﴾ أي: في تحريم نكاحهن على التأيد، ووجوب إجلالهن وتعظيمهن؛ ولا تجري عليهن أحكام الأمهات في كل شيء، إذ لو كان كذلك لَمَا جاز لأحد أن يتزوج بناتهن، ولَوَثُنَ المسلمون، ولجازت الخلوة بهن^(٢). وقد روى مسروق عن عائشة أن امرأة قالت: يا أمّاه، فقالت: لسْتُ لِكَ بَأْمٍ؛ إِنَّمَا أَنَا أُمُّ رِجَالِكُمْ^(٣)؛ فبان بهذا الحديث أن معنى الأمومة تحريم نكاحهن فقط. وقال مجاهد: ﴿وَأَرْزِقْنَهُنَّ مِنْهُمْ﴾ وهو أب لهم. وما بعد هذا مفسر في آخر (الأنفال) إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ والمعنى أن ذوي القربات بعضهم أولى بميراث بعض من أن يَرثُوا بالإيمان والهجرة كما كانوا يفعلون قبل النسخ^(٤) ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لَكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [وهذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن فعلمكم إلى أولياتكم معروفاً] جائز، وذلك أن الله تعالى لَمَا نسخ التوارث بالحلف والهجرة، أباح الوصية للمعاقدن، فلإنسان أن يوصي لمن يتولاه بما أحب من ثلثه. فالمعروف هاهنا: الوصية.

قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ يعني نسخ الميراث بالهجرة وردّه إلى ذوي الأرحام ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ يعني اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ أي: مكتوباً.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَآخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ ﴿لَسْتَلَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا يَمَّةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ المعنى: واذكر إذا أخذنا ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: عهدهم؛ وفيه قولان: أحدهما: أخذ ميثاق النبيين: أن يصدّق بعضهم بعضاً، وأن ينصحووا لقومهم، قاله مقاتل. وهذا الميثاق أخذ منهم حين أخرجوا من ظهر آدم كالدُّرِّ. قال أبي بن كعب: لَمَا أخذ ميثاق الخلق خصّ النبيين بميثاق آخر^(٥). فإن قيل: لِمَ خصّ الأنبياء الخمسة بالذكر دون غيرهم من الأنبياء؟ فالجواب: أنه نبّه بذلك على فضلهم، لأنهم أصحاب الكتب والشرائع؛ وقدم نبينا ﷺ بيانا لفضله عليهم.

(١) قال ابن كثير: قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم كان مقفلاً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَعْيُنُهُمْ تَوَّجَعِلْنَ خِيَابًا وَأَعْيُنُهُمْ كَصَوَابٍ رَّغِيبٍ﴾ قال: وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين» قال: وفي «الصحيح» أيضاً أن عمر ﷺ قال: يا رسول الله! والله أنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» قال: يا رسول الله! والله لانت أحب إليّ من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر» ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. قال: وقال البخاري عند هذه الآية الكريمة: عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقروا إن شئتم: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا فليتره حصته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضيعاً فليأتي فأنما مولاه» اهـ.

(٢) قال ابن كثير: ﴿وَأَرْزِقْنَهُنَّ مِنْهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمي بعض العلماء بناتهن: أخوات المؤمنن، كما هو منصوص الشافعي ﷺ في «المختصر» وهو من باب إطلاق العبارة، لا إثبات الحكم، ثم قال: وهل يقال لمعاوية وأمّاله: خال المؤمنن؟ فيه قولان للعلماء ﷺ، ونصر الشافعي ﷺ على أنه لا يقال ذلك، وهل يقال لهن: أمهات المؤمنات فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليباً؟ فيه قولان، صح عن عائشة ﷺ أنها قالت: لا يقال ذلك، وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي ﷺ. اهـ.

(٣) أورده السيوطي في «الدرر» ١٨٢/٥ بنحوه من رواية ابن سعد، وابن المنذر، والبيهقي في «سننه» عن عائشة ﷺ.

(٤) قال ابن كثير: أي القربات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، قال: وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمواخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قرباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين) وبقيّة الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق. اهـ.

قال قتادة: كان نبينا أول النبيين في الخلق^(١). وقوله: ﴿يَتَّبِعُوا عَلِيًّا﴾ أي: شديداً على الوفاء بما حُمِّلوا. وذكر المفسرون أن ذلك العهد الشديد: اليمين بالله ﷺ. ﴿لَيْسَتْ لَكَ مِيثَاقُهُمْ﴾ يقول: أخذنا ميثاقهم لكي نسأل الصادقين، وهم الأنبياء ﴿عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ في تبليغهم. ومعنى سؤال الأنبياء - وهو يعلم صدقهم - تكبيت مكذبيهم. وهاهنا تم الكلام. ثم أخبر بعد ذلك عمّا أعدّ للكافرين بالرسول.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُودٌ﴾ وهم الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ أيام الخندق.

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل العلم بالسيرة أن رسول الله ﷺ لمّا أجلى بني النضير، ساروا إلى خيبر، فخرج نفر من أشرفهم إلى مكة فألبوا قريشاً ودعّوهم إلى الخروج لقتاله، ثم خرجوا من عنده فأتوا غطفان وسُليم، ففارقوهم على مثل ذلك. وتجهزت قريش ومن تبعهم من العرب، فكانوا أربعة آلاف، وخرجوا يقودهم أبو سفيان، ووافتهم بنو سُليم بـ «مر الظهران»، وخرجت بنو أسد، وفزارة، وأشجع، وبنو مرة، فكان جميع من وافى الخندق من القبائل عشرة آلاف، وهم الأحزاب؛ فلما بلغ رسول الله ﷺ خروجهم من مكة، أخبر الناس خبرهم، وشاورهم، فأشار سلمان بالخندق، فأعجب ذلك المسلمون، وعسكر بهم رسول الله ﷺ إلى سفح «سُلْع»^(٢)، وجعل سلماً خلف ظهره؛ ودسّ أبو سفيان بن حرب حبيّ ابن أخطب إلى بني قريظة يسألهم أن يقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ويكونوا معهم عليه، فأجابوا، واشتد الخوف، وعظّم البلاء، ثم جرت بينهم مناوشة وقتال، وحُصِر رسول الله ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة حتى خلس إليهم الكرب، وكان نعيم بن مسعود الأشجعي قد أسلم، فمشى بين قريش وقريظة وغطفان فخدّل بينهم، فاستوحش كل منهم من صاحبه، واعتلّت قريظة بالسبت فقالوا: لا نقاتل فيه، وهبّت ليلة السبت ريح شديدة، فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله لستم بدار مقام، لقد هلك الخُفّ والحافر، وأجذب الجناب^(٣)، وأخلفتنا قريظة، ولقينا من الريح ما ترون، فارتجلوا فإني مرتجل؛ فأصبحت العساكر قد أفسّحت كلها^(٤). قال مجاهد: والريح التي أرسلت عليهم هي الصّبا^(٥)، حتى أكفأت قدورهم، ونزعت فساطيطهم. والجنود: الملائكة، ولم تقاتل يومئذ^(٦). وقيل: إن الملائكة جعلت تغلّب أوتادهم وتطفئ نيرانهم وتكبر في جوانب عسكرهم، فاشتدت عليهم، فانهزموا من غير قتال.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَزُوهَا﴾ وقرأ النخعي، والجحدري، والجوني، وابن السميع: «لم يَزُوهَا» بالياء «وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ بَصِيرًا» وقرأ أبو عمرو: «[يعملون]» بالياء.

(١) هذا الكلام ذكره بعضهم عن قتادة موقوفاً عليه، ورواه ابن جرير الطبري ١٢٥/٢١، من طريق سعيد بن بشير الأزدي عن قتادة مرسلًا قال: ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث» وسعيد بن بشير الأزدي، ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»، والحديث ذكره ابن كثير ٤٦٩/٣، من رواية ابن أبي حاتم من حديث بشير بن سعيد قال: حدثني قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث، فبدأ بي بلهيم» ثم قال ابن كثير: وسعيد بن بشير فيه ضعف، قال: ورواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلًا، وهو الأشبه، قال: ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً، والله أعلم. وقال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة»: حديث «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث» رواه أبو نعيم في «الدلائل»، وابن أبي حاتم في «تفسيره» وابن لال، ومن طريقه الديلمي، كلهم من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة به مرفوعاً. اهـ. وسعيد بن بشير ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر، وللحديث رواية أخرى من حديث مسيرة الفجر بلفظ: «كنت نبياً وأدم بين الروح والجسد» وهو صحيح الإسناد، أخرجه أحمد، والبخاري في «تاريخه» وأبو نعيم في «الحلية» والحاكم وصححه، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. ولكن ليس معناه كما يتوهم بعض الناس أن نبينا محمداً ﷺ كان موجوداً بذاته قبل آدم، وأن ذاته خلقت قبل الدوات، ومن يقول بذلك فإنما يعتمد على أحاديث غير صحيحة في هذا الموضوع.

(٢) قال في «معجم البلدان»: سُلْعٌ: جبل يسوق المدينة.

(٣) قال في «الصالح»: الجناب، بالفتح: الفناء، وما قرّب من محلّه القوم، والجمع أخبئة.

(٤) أفسّح القومُ وتفسّحوا وانتشعروا: ذهبوا وافترقوا.

(٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «فصُرّت بالصّبا وأهلكت هاذ بالذّبور» رواه أحمد، والبخاري، ومسلم. والصّبا: الريح تهب من مطلع الشمس، والذّبور: الريح تهب من جهة المغرب، تقابل الصّبا.

(٦) انظر تفسير ابن كثير ٤٧٠/٣، وسيرة ابن هشام ٢١٤/٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٩٢/٤.

﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوبًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي: من فوق الوادي ومن أسفله ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: مالت وعذلت، فلم تنظر إلى شيء إلا إلى عدوها مقيلاً من كل جانب ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ وهي جمع حَنْجَرَةٍ. والحَنْجَرَةُ: جوف الحُلُقُومِ. قال قتادة: شَخَصَتْ عن مكانها، فلولا أَنَّهُ ضاق الحُلُقُومُ عنها أن تَخْرُجَ لخَرَجَتْ. وقال غيره: المعنى أَنَّهُمْ جَبُنُوا وَجَزَعُ أَكْثَرِهِمْ؛ وَسَبِيلُ الْجَبَانِ إِذَا اشْتَدَّ خَوْفُهُ أَنْ تَتَفَخَّرَ رِثَتُهُ فَيَرْفَعُ حَيْثُ نَزَلَ الْقَلْبُ إِلَى الْحَنْجَرَةِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَرْوِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْفَرَّاءِ. وَذَهَبَ ابْنُ قَتَيْبَةَ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى: كَادَتْ الْقُلُوبُ تَبْلُغُ الْخُلُقُومَ مِنَ الْخَوْفِ وَقَالَ ابْنُ الْأَبَارِيِّ: «كَادَ» لَا يُضَمَّرُ وَلَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ إِذَا لَمْ يُنْطَقْ بِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾ قال الحسن: اختلفت ظنونهم، فظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون، وظن المؤمنون أنه يُنْصَرُ. قرأ ابن كثير، والكسائي، وحفص عن عاصم: «الظَّنُونَا» والرسولوا [الأحزاب: ٦٦] «والسَّيْلَا» [الأحزاب: ٦٧] بألف إذا وقفوا عليهن، وبطرحها في الوصل. وقال هيبيرة عن حفص عن عاصم: وصل أو وقف بألف. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: بالألف فيهن وصلًا ووقفًا. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: بغير ألف في وصل ولا وقف. قال الزجاج: والذي عليه حُذَّاقُ النَحْوِيِّينَ وَالْمَتَّبِعُونَ السُّنَّةَ مِنْ قُرَّائِهِمْ أَنْ يَقْرَأُوا: «الظَّنُونَا» ويقفون على الألف ولا يوصلون؛ وإنما فعلوا ذلك، لأن أواخر الآيات عندهم فواصل يُبْتَدَأُ فِي آخِرِهَا الْأَلْفُ فِي الْوَقْفِ.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: عند ذلك ﴿ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: اخْتَبِرُوا بِالْقِتَالِ وَالْحَصْرِ لِيُبَيِّنَ الْمُخْلِصِينَ مِنَ الْمُنَافِقِ ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أي: أزعجوا وحركوا بالخوف، فلم يوجدوا إلا صابرين. وقال الفراء: حُرِّكُوا إِلَى الْفِتْنَةِ تَحْرِيكًا، فَغَضِمُوا. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الشُّرْكُ، قاله الحسن. والثاني: النفاق، قاله قتادة، ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوبًا﴾ قال المفسرون: قالوا يومئذ: إن محمداً يعدنا أن نفتح مدائن كسرى وقيصر وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله! هذا والله الغرور. وزعم ابن السائب أن قائل هذا معتب بن قُشَيْرٍ.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَالِبَةُ إِنَّهُمْ بِكَ آهْلٌ يَرْتَبُ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَسَتَبَدِّلُنَّ فَسِيقٌ مِنْهُمْ أَلْفًا يَمْوُلُونَ لَنَا بِمِائَةِ عَوْدَةٍ وَمَا مِنْ يَمِينَةٍ إِذْ يُرِيدُونَ إِلَّا إِرَاكًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ نَحِطْتَ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَفْطَارِهِمَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِئْتَةَ لَأَذَتْهُنَّ وَأَمَّا نَبْتَلُوهَا بِهَا إِلَّا يَبِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتُوا الْآيَاتِ الْكُبْرَىٰ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَشْهُورًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِذْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تَتَّعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَتَّبِعُكَ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوًّا أَوْ آرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِيطُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَالِبَةُ إِنَّهُمْ بِكَ آهْلٌ يَرْتَبُ﴾ يعني من المنافقين. وفي القائلين لهذا منهم قولان: أحدهما: عبد الله بن أبي وأصحابه، قاله السدي. والثاني: بنو سالم من المنافقين، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿بِكَ آهْلٌ يَرْتَبُ﴾ قال أبو عبيدة: يَتْرَبُ: اسم أرض، ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها^(١). قوله تعالى: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ وقرأ حفص عن عاصم: «لَا مَقَامَ» بضم الميم. قال الزجاج: من ضمَّ الميم، فالمعنى: لا إقامة لكم؛ ومن فتحها، فالمعنى: لا مكان لكم تُقِيمُونَ فِيهِ. وهؤلاء كانوا يَطُّونَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. قوله تعالى: ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي: إلى المدينة، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج بالمسلمين حتى عسكروا بـ «سَلْعٍ»، وجعلوا الخندق بينهم وبين القوم، فقال المنافقون للناس: ليس لكم هاهنا مقام، لكثرة العدو، وهذا قول الجمهور. وحكى

(١) قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: يترب: قال أبو القاسم الزجاجي: مدينة رسول الله ﷺ، وقال: وقال آخرون: بل يترب ناحية من مدينة النبي ﷺ. وقال ابن كثير في «الضبير» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَالِبَةُ إِنَّهُمْ بِكَ آهْلٌ يَرْتَبُ﴾ يعني المدينة، كما جاء في «الصحیح»: «أريت دار هجرتك، أرض بين حرتين، فلعب زفلي (وهي واحقادي) أنها هجر، فإذا هي يترب، وفي لفظ «المدينة»، ثم قال: فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن البراء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمي المدينة يترب فليستغفر الله تعالى، إنما هي طابة، إنما هي طابة»، تفرد به الإمام أحمد، وفي إسناده ضعف، والله أعلم، قال: ويقال: إنما كان أصل تسميتها يترب برجل نزلها من العماليق يقال له: يترب. - اد.

الماوردي قولين [آخريين]: أحدهما: لا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى دين مشركي العرب، قاله الحسن. والثاني: لا مقام لكم على القتال، فارجعوا إلى طلب الأمان، قاله الكلبي.

قوله تعالى: ﴿وَسَتَنذِرُكَ فِرْقًا مِّنْهُمْ النَّارَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم بنو حارثة، قاله ابن عباس. وقال مجاهد: بنو حارثة بن الحارث بن الخزرج. وقال السدي: إنما استأذنه رجلان من بني حارثة. والثاني: بنو حارثة، وبنو سلمة بن جشم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَبُوتًا عَوْرَةً﴾ قال ابن قتيبة: أي: خالية، فقد أمكن من أراد دخولها، وأصل العورة: ما ذهب عنه السر والحافظة، فكان الرجال يسترّ وحفظ للبيوت، فإذا ذهبوا أغورت البيوت، تقول العرب: أغور منزلي: إذا ذهب يستره، أو سقط جداره، وأغور الفارس: إذا بان منه موضع خلل للضرب والظعن، يقول الله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله يحفظها، ولكن يريدون الفرار. وقال الحسن، ومجاهد: قالوا: بيوتنا ضائعة نخشى عليها السراق. وقال قتادة: قالوا: بيوتنا ممّا يلي العدو، ولا نأمن على أهلنا، فكذبهم الله وأعلم أنّ قصدهم الفرار.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِمَا﴾ يعني المدينة؛ والأقطار: النواحي والجوانب، واحدها: قُطر، ﴿ثُمَّ سِئَلُوا الْفِتْنَةَ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب عليه السلام، والضحاك، والزهري، وأبو عمران، وأبو جعفر، وشيبة: «ثم سئلوا» برفع السين وكسر الياء من غير همز. وقرأ أبي بن كعب، ومجاهد، وأبو الجوزاء: «ثم سئلوا» برفع السين ومدّ الواو بهمة مكسورة بعدها. وقرأ الحسن، وأبو الأشهب: «ثم سئلوا» برفع السين وسكون الواو من غير مدّ ولا همز. وقرأ الأعمش، وعاصم الجحدري: «ثم سئلوا» بكسر السين ساكنة الياء من غير همز ولا واو. ومعنى: «سئلوا الفتنة»، أي: سئلوا فعلها؛ [والفتنة: الشرك، ﴿لَا تَوْهًا﴾] قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «لَا تَوْهًا» بالقصر، أي: لقصدها، ولفعلوها. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «لَا تَوْهًا» بالمد، أي: لأعطوها. قال ابن عباس في معنى الآية: لو أن الأحزاب دخلوا المدينة ثم أمرهم بالشرك لأشركوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بِيَوْمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: وما احتسبوا عن الإجابة إلى الكفر إلا قليلاً، قاله قتادة. والثاني: وما تلبثوا بالمدينة بعد الإجابة إلا يسيراً حتى يعذبوا، قاله السدي. وحكى أبو سليمان الدمشقي في الآية قولاً عجيباً، وهو أن الفتنة هانتا: الحرب، والمعنى: ولو دخلت المدينة على أهلها من أقطارها، ثم سئل هؤلاء المنافقون الحرب لأتوها مباشرين، وما تلبثوا - يعني الجيوش الداخلة عليهم بها - إلا قليلاً حتى يُخرجهم منها؛ وإنما منعهم من القتال معك ما قد تداخلهم من الشك في دينك^(١)؛ قال: وهذا المعنى حَفِظْتُهُ من كتاب الواقدي^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَكَ مِنْ قَبْلُ﴾ في وقت معاهدتهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم ناس غابوا عن وقعة بدر، فلمّا علموا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة قالوا: لئن شهدنا قتالاً لَنُقَاتِلَنَّ، قاله قتادة. والثاني: أنهم أهل العقبة، وهم سبعون رجلاً بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على طاعة الله ونصرة رسوله، قاله مقاتل. والثالث: أنه لما نزل بالمسلمين يوم أحد ما نزل، عاهد الله معتب بن قشير وثعلبة بن حاطب: لا نولّي دُبُرًا قطّ، فلمّا كان يوم الأحزاب نافقا، قاله الواقدي، واختاره أبو سليمان الدمشقي، وهو أليقّ ممّا قبله. وإذا كان الكلام في حق المنافقين، فكيف يُطلَقَ القول على أهل العقبة كلهم!

(١) روى ابن جرير الطبري عن قتادة أن الفتنة: الشرك، وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد أن الفتنة: الشرك، وكذلك قال البيهقي والهازمي، وقال ابن كثير: الفتنة: هي الدخول في الكفر. وقال الشوكاني في «فتح القدير» الفتنة هنا: إما القتال في المصيبة كما قال الضحاك، أو الشرك بالله والرجعة إلى الكفر الذي يبطونه ويظهرون خلافه كما قاله الحسن. وقال الألبوسي في «روح المعاني»: الفتنة: أي القتال كما قال الضحاك، ثم قال: كأنه شبه الفتنة المطلوب اتباعهم فيها بأمر نفيس يطلب منهم بدله، ونزل إيطاعتهم واتباعهم بمنزلة بدل ما سئلوه وإعطاه، ثم قال: والمراد: أنهم لو سألهم غيرك القتال وهم في أشد حال وأعظم بلبال، لأسرعوا جداً، فضلاً عن التصلل باختلال بيوتهم مع سلامتها كما فعلوا الآن، قال: والحاصل أن طلبهم الإذن في الرجوع ليس لاختلال بيوتهم، بل لثقافتهم وكراهتهم نصرتك. اهـ.

(٢) الواقدي: هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي المدني أبو عبد الله الواقدي، من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم، ومن حفاظ الحديث، قال الحافظ ابن حجر عنه في «التقريب»: متروك مع سعة علمه. له تصنيف كثيرة، منها «تفسير القرآن».

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي: يُسألون عنه في الآخرة. ثم أخبر أن الفرار لا يزيد في آجالهم، فقال: ﴿قُلْ لَنْ يَمَكُّمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْعَمُونَ﴾ بعد الفرار في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو باقِي آجالكم. ثم أخبر أن ما قدره عليهم لا يُدفع، بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكَ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: يجيركم ويمنعكم منه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ وهو الإهلاك والهزيمة والبلاء ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ وهي النصر والعافية والسلامة ﴿وَلَا يَحِذُونَ لَهُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ اللَّهِ وَإِنَّمَا يَحِذُونَ مَوَالِيًا وَلَا نَاصِرًا يَمْنَعُهُمْ مِنْ مُرَادِ اللَّهِ فِيهِمْ﴾.

﴿قَدْ بَعَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَاقْتَالَيْنَا إِخْوَانَهُمْ حَلَمٌ لَيْسَ لَنَا بِمَنْعٍ أَنْ نَكْفُرَ بِكُمْ وَلَا بِأَتُونَ آبَاءَنَا وَإِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْكُفْرُ رَأَوْهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدْرَأُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذُهِبَ الْكُفْرُ سَلَفْتُمْ بِالْمُنَةِ جَدَارًا أَيْحَةَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمَرُوا فَاحْتَبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَسْتَوُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَحْزَابِ يَسْتَأْذِنُ بَدَأْتُمْ عَنْ آبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ بَعَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رجلاً انصرف من عند رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، فوجد أخاه لأمه وأبيه وعنده شواء ونبيذ، فقال له: أنت هاهنا ورسول الله بين الرماح والسيوف؟! فقال: هلم إلي، لقد أحبط بك وبصاحبك؛ والذي يُخلفك به لا يستقبلها محمداً أبداً، فقال له: كذبت، والذي يُخلفك به، أما والله لأخبرن رسول الله ﷺ بأمرك، فذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجده قد نزل جبريل بهذه الآية إلى قوله: ﴿يَسِيرًا﴾، هذا قول ابن زيد^(١). والثاني: أن عبد الله بن أبي مُعْتَب بن قُصَيْرِ والمنافقين الذين رجعوا من الخندق إلى المدينة، كانوا إذا جاءهم منافق قالوا له: ويحك اجلس فلا تخرج، ويكثبون بذلك إلى إخوانهم الذين في العسكر أن اتونا بالمدينة فإننا نتنظرهم - يبطونهم عن القتال - وكانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بدءاً، فيأتون العسكر ليرى الناس وجوههم، فإذا عُفِل عنهم عادوا إلى المدينة، فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب^(٢). والمعوق: المشط؛ تقول: عاقني فلان، واعتاقني، وعوقني: إذا منعك عن الوجه الذي تريده. وكان المنافقون يعوقون عن رسول الله ﷺ نُضَارَهُ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَاقْتَالَيْنَا إِخْوَانَهُمْ حَلَمٌ لَيْسَ لَنَا بِمَنْعٍ أَنْ نَكْفُرَ بِكُمْ وَلَا بِأَتُونَ آبَاءَنَا وَإِلَّا قَلِيلًا﴾ قال لأخيه ما ذكرناه في قول ابن زيد. والثاني: أنهم اليهود دعوا إخوانهم من المنافقين إلى ترك القتال، قاله مقاتل. والثالث: أنهم المنافقون دعوا المسلمين إليهم عن رسول الله ﷺ، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ آبَاءَنَا﴾ أي: لا يحضرون القتال في سبيل الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ للرياء والشمعة من غير احتساب، ولو كان ذلك [القليل]^(٤) لله لكان كثيراً.

قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على الحال. المعنى: لا يأتون الحرب إلا تعذيراً^(٥)، بخلاء عليكم. وللمفسرين فيما شحوا به أربعة أقوال: أحدها: أشحة بالخير، قاله مجاهد. والثاني: بالنفقة في سبيل

(١) ذكره الطبري ١٣٩/٢١، عن ابن زيد، وأورده السيوطي في «الدر» ١٨٨/٥، من رواية ابن أبي حاتم عن ابن زيد.

(٢) ذكره الألويسي في «تفسيره» مختصراً عن ابن السائب بدون سند.

(٣) قال الشوكاني في «فتح القدير»: قال الواحدي: قال المفسرون: هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يبطون أنصار النبي ﷺ. اهـ. يقال: أنصار، ونضار، كما في «اللسان».

(٤) زيادة من «تفسير البغوي».

(٥) قال في «اللسان»: والتعذير في الأمر: التقصير فيه، وأعذر: قصر ولم يبلغ وهو يُرَى أنه مبالغ. وعذر الرجل فهو معذّر: إذا اعتذر ولم يأت بعذر. وقوله ﷺ: ﴿رَبَّةَ السُّؤْدَاتِ مِنَ الْأَحْرَابِ﴾ هم الذين لا عذر لهم ولكن يتكفون عذراً، قال: قال الأزهري: ويكون المعذرون بمعنى المقصّرين على مفغلين من التعذير وهو التقصير. اهـ. وقال ابن جرير الطبري: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾، قال: يقول تعالى ذكروه للمؤمنين: ولو كانوا أيضاً فيكم ما نفعوكم، وما قاتلوا المشركين إلا قليلاً، يقول: إلا تعذيراً، لأنهم لا يقاتلون حسبة ولا رجاء ثواب. اهـ.

الله. والثالث: بالغنيمة، روي عن قتادة. وقال الزجاج: بِالظَّفَرِ والغنيمة. والرابع: بالقتال معكم، حكاه المارودي^(١). ثم أخبر عن جُبْنِهِمْ فقال: ﴿إِنَّمَا جَاءَ الْكُفْرَ﴾ أي: إذا حضر القتال ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ﴾ أي: كدوران عين الذي يُغْتَنَبُ عليه من الموت، وهو الذي دنا موته وغشيته أسبابه، فإنه يخاف ويذهل عقله ويشخص بصره فلا يَظْفِرُ، فكذلك هؤلاء، لأنهم يخافون القتال. ﴿إِنَّمَا ذَهَبَ الْكُفْرُ سَلْوَكُمْ﴾ قال الفراء: أذوكم بالكلام في الأمن ﴿بِأَلْسِنَةٍ جِدَادٍ﴾ سليطة ذرية^(٢)، والعرب تقول: صَلَفُوكُمْ، بالصاد، ولا يجوز في القراءة؛ وهذا قول الفراء. وقد قرأ بالصاد أبي بن كعب، وأبو الجوزاء، وأبو عمران الجوني، وابن أبي عبيدة في آخرين. وقال الزجاج: معنى «سلفوكم»: خاطبوكم أشدَّ مخاطبةً وأبلغها في الغنيمة، يقال: خطب بـسَلَقٍ: إذا كان بليغاً في خطبته ﴿أَشِيحَةً عَلَى الْغَيْرِ﴾ أي: خاطبوكم وهم أشحَّة على المال والغنيمة. قال قتادة: إذا كان وقت قسمة الغنيمة، بسطوا السنتهم فيكم، يقولون: أعطونا فلستم أحقَّ بها منَّا؛ فأما عند البأس، فأجبن قوم وأخذله للحق، وأما عند الغنيمة، فأشحُّ قوم. وفي المراد بالخير هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الغنيمة. والثاني: على المال أن يُنْفَقوه في سبيل الله تعالى. والثالث: على رسول الله ﷺ بظفروه.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَصُومُوا﴾ أي: هم وإن أظهروا الإيمان فليسوا بمؤمنين، لنفاقهم ﴿فَأَسْبَطَ اللَّهُ أَعْيُنَهُمْ﴾ قال مقاتل: أبطل جهادهم، لأنه لم يكن في إيمان ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾. ثم أخبر عنهم بما يدل على جُبْنِهِمْ، فقال: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي: يحسب المنافقون من شدة خوفهم وجُبْنِهِمْ أن الأحزاب بعد انهزامهم وذهابهم لم يذهبوا، ﴿وَكِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ﴾ [أي]: يرجعوا إليهم كرتة ثانية للقتال ﴿يُودُّوْنَ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَعْرَابِ﴾ أي: يتمنوا لو كانوا في بادية الأعراب من خوفهم، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَعْرَابِ﴾ أي: ودوا لو أنهم بالبعد منكم يسألون عن أخباركم، فيقولون: ما فعل محمد وأصحابه، ليعرفوا حالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة، قرأاً وجُبناً؛ وقيل: بل يسألون شماتة بالمسلمين وفرحاً بِنِكَبَاتِهِمْ ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ﴾ أي: لو كانوا يشهدون القتال معكم ﴿مَتَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: إلا رمية بالحجارة، قاله ابن السائب. والثاني: إلا رياء من غير احتساب، قاله مقاتل. ثم عاب من تخلف بالمدينة بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: فُدوة صالحة. والمعنى: لقد كان لكم به اقتداء لو اقتديتم به في الصبر [مع] كما صبر يوم أُحُد حتى كُتِبَتْ رِبَاعِيَّتُهُ وَشُجَّ جَيْبُهُ وَقُتِلَ عُمُهُ، وأساكم مع ذلك بنفسه. وقرأ عاصم: «أسوة» بضم الألف؛ والباقون بكسر الألف؛ وهما لغتان. قال الفراء: أهل الحجاز وأسد يقولون: «إسوة» بالكسر، وتميم وبعض قيس يقولون: «أسوة» بالضم. وحصَّ الله تعالى بهذه الأسوة المؤمنين، فقال: ﴿لَكِنْ كَانَ رِجْؤُ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ والمعنى أن الأسوة برسول الله إنما كانت لمن كان يرجو الله [واليوم الآخر]؛ وفيه قولان: أحدهما: يرجو ما عنده من الثواب والنعيم، قاله ابن عباس. والثاني: يخشى الله ويخشى البعث، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾ أي: ذكراً كثيراً، لأن ذاكراً الله متبوع لأوامره، بخلاف الغافل عنه^(٣). ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب، فقال: ﴿وَلَمَّا رَمَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وفي ذلك الوعد قولان: أحدهما: أنه قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ...﴾ الآية، [البقرة: ٢١٤] فلما عاينوا البلاء يومئذ قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، قاله ابن عباس، وقاتلة في آخرين. والثاني: أن رسول الله ﷺ وعدهم النصر والظهور على مدائن كسرى وقصور الجيرة، ذكره المارودي وغيره.

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله وصف هؤلاء المنافقين بالجبن والشح، ولم يخص وصفهم من معاني الشح بمعنى دون معنى، فهم كما وصفهم الله به أشح على المؤمنين بالغنيمة، والخير، والنفقة في سبيل الله على أهل مسكنة المسلمين. اهـ.

(٢) أي: فاحشة. وفَرْبُ اللسان: حدته.

(٣) قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة أصل كبير في التماسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطه ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه ﷻ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، قال: ولهذا قال تعالى للذين تغلبوا وتضعضعوا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لَكِنْ كَانَ رِجْؤُ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ يعني ما رآوه ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بوعده الله ﴿وَسَلِيمًا﴾ لأمره.

﴿يَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ ﴿١٧﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَنْتَ إِذْ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٨﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْتُوا عَهْدًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَاتَبَ اللَّهُ فَوْثًا عَزِيمًا ﴿١٩﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٠﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَدِيَّتَهُمْ وَآمَنَكُمُ وَالرِّسَالَ لَمْ تُلْطُوا بِهَا وَأَكْبَرُ اللَّهُ عَلَى كَيْدِ قَوْمٍ قَلِيلٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿يَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في أنس بن النضر، قاله أنس بن مالك. وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فلما قُدم قال: غِبْتُ عن أوَّل قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين، لئن أشهدني الله ﷻ قتالاً لَكِرِينَ اللهُ ما أصنع^(١)؛ فلما كن يوم أُحُد انكشف الناس^(٢)، فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، يعني المشركين، واعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين^(٣)؛ ثم مشى بسيفه، فلقبه سعد بن معاذ، فقال: أي سعد، والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أُحُد، وأها لريح الجنة^(٤). قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع؛ قال أنس: فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة، من ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، قد مثلوا به؛ قال: فما عرفناه حتى عرفته أخته بِنانته؛^(٥) قال أنس: فكنا نقول: أنزلت هذه الآية ﴿يَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ فيه وفي أصحابه^(٦). والثاني: أنها نزلت في طلحة بن عبيد الله. روى النزال بن سبرة عن علي ﷺ أنهم قالوا له: حدثنا عن طلحة، قال: ذاك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ﴾ لا حساب عليه فيما يستقبل^(٧). وقد جعل بعض المفسرين هذا القدر من الآية في طلحة، وأولها في أنس. قال ابن جرير: ومعنى الآية: وقَّض الله بما عاهدوه عليه. وفي ذلك أربعة أقوال: أحدها: أنهم عاهدوا ليلة العقبة على الإسلام والنصرة. والثاني: أنهم قوم لم يشهدوا بدرًا، فعاهدوا الله أن لا يتأخروا بعدها. والثالث: أنهم عاهدوا أن لا يفروا إذا لاقوا، فصدَّقوا. والرابع: أنهم عاهدوا على البأس والضراء وحين البأس.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فمنهم من مات، ومنهم من ينتظر الموت، قاله ابن عباس. والثاني: فمنهم من قضى عهده قُتل أو عاش. ومنهم من ينتظر أن يقضيه بقتال أو صدق لقاء،

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٧/ ٢٧٤: ومراده أن يبلغ في القتال ولو زهقت روحه، قال: وقال أنس في رواية ثابت: وخشي أن يقول غيرها، أي غير هذه الكلمة، وذلك على سبيل الأدب منه، والخوف، لتلا يعرض له عارض فلا يبي بما يقول، فيصير كمن وعد فأخلف. اهـ. ولفظ مسلم «بئراي الله ما أصنع»، قال الإمام النووي في «شرح مسلم» ويكون «ما أصنع» بدلًا من الضمير في «بئراي» أي: لئري الله ما أصنع.

(٢) في البخاري ٦/ ٢٦٦ «وانكشف المسلمون» وفيه: ٧/ ٢٧٤ «فهزم الناس».

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٦/ ١٨: قال الزين ابن المنير: من أبلغ الكلام وأفضحه قول أنس بن النضر في حق المسلمين: اعتذر إليك، وفي حق المشركين: أبرأ إليك، فأشار إلى أنه لم يرض الأمرين جميعاً مع تباينهما في المعنى.

(٤) وأها لريح الجنة، قال الإمام النووي: «وأها» كلمة تحتن وتلتهف. اهـ.

(٥) قال الحافظ ابن حجر: في رواية ثابت، فقالت عمتي الربيع بنت النضر اخته: فما عرفت أخي إلا بِنانته، قال: زاد النسائي من هذا الوجه: وكان حسن البنان، قال: والبنان: الأصيح، وقيل: طرف الأصبع. اهـ.

(٦) البخاري ٦/ ١٦، ومسلم ٣/ ١٥١٢، ورواه البخاري في «المغازي» ٧/ ٢٧٤، ولم يذكر سبب النزول، ورواه أيضاً في «الضمير» ٨/ ٣٩٨ مقتضراً على سبب النزول، ورواه الترمذي ٢/ ١٥١، وقال: هنا حديث حسن صحيح، ورواه أيضاً أحمد في «المسند»، وابن جرير في «الضمير» ٢١/ ١٤٧، وذكره السيوطي في «الدرر» ٥/ ١٩٠، وزاد نسبه لابن سعد، والنسائي، والبخاري في «معجمه»، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «الدلائل».

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٦/ ١٧: وفي قصة أنس بن النضر من الفوائد: جواز بلك النفس في الجهاد، وفضل الوفاء بالعهود ولو شق على النفس حتى يصل إلى إهلاكها، وأن طلب الشهادة في الجهاد لا يتناول النهي عن الإلقاء إلى التهلكة، قال: وفيه فضيلة ظاهرة لأنس بن النضر، وما كان عليه من صفة الإيمان وكثرة الترقى والتورع وقوة اليقين. اهـ.

(٧) أورده السيوطي في «الدرر» ٥/ ١٩١ من رواية أبي الشيخ، وابن حساكر عن علي ﷺ. والله أعلم. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢١/ ٣٩٧: ثبت عن عائشة ﷺ أن طلحة دخل على النبي ﷺ فقال: «أنت يا طلحة ممن قضى نجبته»، وقال: أخرجه ابن ماجه، والحاكم، اهـ. ورواه الطبري بنحوه ٢١/ ١٤٧.

قاله مجاهد والثالث فمَنعهم من قضي نذر الذي كان نذر، قاله أبو عبيدة. فيكون الثَّخْبُ على القول الأول: الأجل؛ وعلى الثاني: العهد؛ وعلى الثالث: الثُّبُور. وقال ابن قتيبة: «قضى نحبه» أي: قُتِل، وأصل الثَّخْبُ: الثُّدْر، كان قوماً نذروا^(١) أنهم إن لَقُوا العدو قاتلوا حتى يُقْتَلوا أو يَفْتَحَ اللهُ عليهم، فقتلوا، فقيل: فلان قضي نحبه، أي: قُتِل، فاستعير الثَّخْبُ مكان الأجل، لأن الأجل وقع بالثَّخْب، وكان الثَّخْبُ سبباً له، ومنه قيل للعطية: «مَنٌّ»، لأن من أعطى فقد مَنٌّ. قال ابن عباس: مَنٌّ قضي نحبه: حمزة بن عبد المطلب، وأنس بن النَّضْر وأصحابه. وقال ابن إسحاق: «فَمَنَّهُمْ مَن قَضَى نَحْبَهُ» من استشهد يوم بدر وأُحُد، «وَمَنَّهُمْ مَن يَنْظُرُ» ما وعد الله من نصره، أو الشهادة على ما مضى عليه أصحابه «وَمَا جَدُّوا» أي: ما غَيَّرُوا العهد الذي عاهدوا ربهم عليه، كما غَيَّرَ المنافقون.

قوله تعالى: «لِيَخْبِئَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ» وهم المؤمنون الذين صدقوا فيما عاهدوا [الله] عليه «وَيُؤَدِّبَ الْمُتَّقِينَ» بنقض العهد «إِنْ سَكَةً» وهو أن يخبتهم على نفاقهم «أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» في الدنيا، فيخرجهم من النفاق إلى الإيمان، فيغفر لهم. «وَرِءَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا» يعني الأحزاب، صدَّهم ومنعهم عن الظفر بالمسلمين «بِعَيْتِهِمْ» أي: لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا «أَوْ يَتَأَلَّوْا حِزْبًا» أي: لم يظفروا بالمسلمين؛ وكان ذلك عندهم خيراً، فخطبوا على استعمالهم «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ لِقَاءَ» بالربيع والملائكة^(٢)، «وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ» أي: عاونوا الأحزاب، وهم بنو قريظة، وذلك أنهم نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وصاروا مع المشركين يداً واحدة.

وهذه الإشارة إلى قصتهم

ذكر أهل العِلْمُ بالسيرة أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الخندق وضع عنه اللأمة واغتسل، فتبدَّى له جبريل، فقال: ألا أراك وضعت اللأمة، وما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة؟ إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة فأني عامد إليهم فمززل بهم حصونهم^(٣)؛ فدعا علياً فدفع لواءه إليه، وبعث بلالاً فنادى في الناس: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن لا تصلوا العصر إلا ببني قريظة^(٤)، ثم سار إليهم فحاصرهم خمسة عشر يوماً أشد الحصار، وقيل عشرين ليلة^(٥)، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: أُرْسِلْ إِلَيْنَا أبا لُبَابَةَ بن عبد المنذر، فأرسله إليهم، فشاوروه في أمرهم، فأشار إليهم بيده: إنه الذَّبِيعُ، ثُمَّ ندم فقال: جَنَّتْ اللهُ ورسوله، فانصرف فارتبط في المسجد حتى أنزل الله توبته^(٦)، ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بهم رسول الله محمد بن مسلمة، وكُتِفُوا، ونَحُوا ناحية، وجُعِلَ النساءُ والذُّرِيَّةُ ناحية. وكَلَّمْتُ الأوسَ رسولَ الله ﷺ أن يَهَبَهُمْ لهم، وكانوا حلفاءهم، فجعل رسول الله ﷺ الحُكْمَ فيهم إلى سعد بن معاذ؛

(١) الذي في «غريب القرآن»: وكان قوم نذروا.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تبارك وتعالى: «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ لِقَاءَ»، أي: لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده، ونصر عبده، وأمر جنده، قال: ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأمر جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده» أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وفي «الصحاحين» عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم». قال ابن كثير: وفي قوله رضي الله عنه: «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ لِقَاءَ» إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يزعهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم، قال ابن كثير في تسمية الآية: قوله تعالى: «وَكَفَى اللَّهُ قَوْمًا كُفْرًا» أي: بحوله وقوته وقدم خائنين لم يتألوا خيراً، وأمر الله الإسلام وأهله، وصدق وعده، ونصر رسوله وعبده، فله الحمد والمنة. اهـ.

(٣) ذكره بنحوه ابن هشام في «السيرة» ٢/٢٣٢، وذكره ابن كثير في «النبأية والنهاية» بنحوه ٤/١١٦ من رواية محمد بن إسحاق. وأمر جبريل للنبي ﷺ بالمسير ثابت في «الصحاح البخاري» ٧/٣١٣ من حديث عائشة رضي الله عنها. ورواه أحمد في «المسنند» ٦/٥٦٦، ١٣١، ١٤١، ٢٤١، ٢٨٠ من حديث عائشة أيضاً.

(٤) رواه البخاري في «الصحاح» ٨/٣١٣، ومسلم ٨/١٣٩١ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ولفظ مسلم: نادى فينا رسول الله ﷺ يترجم انصرف الأحزاب: «أن لا يصلح أحد الظفر إلا في بني قريظة». الحديث.

(٥) الذي في «مسند أحمد» «الطبري»، وأخبره ابن هشام: أن رسول الله ﷺ حاصرهم خمساً وعشرين ليلة.

(٦) ذكر هذا الخبر بنحوه الطبري في «التفسير»، وابن هشام في «السيرة» ٢/٢٣٦، ٢٣٧، وابن كثير في «التفسير» ٢/٣٠٠ من رواية الزهري مرسلان، وانظر «الليالي» وللنهاية لابن كثير ٤/١٢.

هكذا ذكر محمد بن سعد^(١). وحكى غيره: أنهم نزلوا أولاً على حكم سعد بن معاذ، وكان بينهم وبين قومه حلف، فَرَجُوا أن تأخذهم فيههم هودة، فحكم فيهم أن يُقتل كلُّ مَنْ جَرَّت عليه المَواصي^(٢)، وتُسبي النساء والذُراري، وتُقسم الأموال. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»^(٣)؛ وانصرف رسول الله ﷺ، وأمر بهم فأدخلوا المدينة، وحُفر لهم أحدود في السوق، وجلس رسول الله ﷺ ومعه أصحابه، وأخرجوا إليه فُضريت أعتاقهم، وكانوا ما بين الستائة إلى السبعائة.

قوله تعالى: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة: من حصونهم؛ قال ابن قتيبة: وأصل الصيَاصي: قرون البقر، لأنها تمتنع بها، وتدفع عن أنفسها؛ فقيل للحصون: الصيَاصي، لأنها تمتنع، وقال الزجاج: كل قرن صيصية، وصيدية الديك: شوكه يتحصن بها.

قوله تعالى: ﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّيبَ﴾ أي: ألقى فيها الخوف ﴿فَرِيقًا نَقَّسْتُوهُ﴾ وهم المُقاتلة ﴿وَأَیْرُوتَ﴾ وقرأ ابن يعمر، وابن أبي عبله: «وتأسرون» برفع السين ﴿فَرِيقًا﴾ وهم النساء والذُراري، ﴿وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَيَتْرُكُهُمْ﴾ يعني عقارهم ونخيلهم ومنازلهم ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ من الذهب والفضة والحُلِيِّ والعبيد والإماء ﴿وَأَرْسَالًا لَمْ تَكْتُفِهَا﴾ أي: لم تطوِّرها بأقدامكم بَعْدُ، وهي مما سنتفحها عليكم؛ وفيها أربعة أقوال: أحدها: أنها فارس والروم، قاله الحسن. والثاني: ما ظهر عليه المسلمون إلى يوم القيامة، قاله عكرمة. والثالث: مكة، قاله قتادة. والرابع: خيبر، قاله ابن زيد، وابن السائب، وابن إسحاق، ومقاتل^(٤).

﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلُوبًا لَّازِدِيكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِيثَهَا فَمَا لَبِثَ أَمَّتْكُمْ وَأَمْرُكُمْ سَرَكًا جَمِيلًا﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالنَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِزْكًا لَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦﴾ يَبْسُطُ إِلَيْكَ مِنَ يَدَيْهِ مِزْكًا بِمَقْدَرٍ مُمْتَنِّةٍ يَضَعُفَ لَهَا الْعَدَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ عَلَى اللَّهِ سَبِيرًا ﴿١٧﴾ وَمَنْ يَنْتَ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَمَلَّ صَاحِبًا نَزَّهَا لَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ رَفَا كَرِيمًا ﴿١٨﴾ يَبْسُطُ إِلَيْكَ لَسَنًا كَأَحْرَمٍ مِنَ النَّسَاءِ إِنْ أَتَيْتَهُ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿١٩﴾ وَفَرَنْ يَبْرُكُنَّ وَلَا تَبْرَحْنَ تَبَاجُحَ الْجَهَنَّمِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٢٠﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَنْتَلِي فِي يَوْمِكُمْ مِنْ بَابِ اللَّهِ وَاللَّيْلَةَ إِذْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلُوبًا لَّازِدِيكَ...﴾ الآية، ذكر أهل التفسير أن أزواج النبي ﷺ سألته شيئاً من عرض الدنيا، وطلبن منه زيادة النفقة، وأذنبه بغيرة بعضهم على بعض، فألى رسول الله ﷺ منهن شهرًا^(٥)، وصعد إلى غرفة له فمكث فيها، فنزلت هذه الآية، وكُنَّ أزواجه يومئذ تسعاً: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وضيئة الخبيرية، وميمونة الهلالية، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث، فنزل رسول الله ﷺ فعرض الآية عليهن، فبدأ بعائشة، فاخترت الله ورسوله، ثم قالت: يا رسول الله لا تُخبر أزواجك أنني اخترتك؛ فقال: «إن الله بعثني مُبَلِّغًا ولم يبعثني متعتًا» وقد ذكرت حديث التخيير في كتاب «الحدائق» وفي «المغني» بطوله^(٦). وفي ما خيَّرن في قولان:

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن منبج الزهري، صاحب طبقات الصحابة المشهورة بـ «طبقات ابن سعد» مؤرخ ثقة، صدوق فاضل، من حفاظ الحديث، (١٦٨ - ٢٣٠ هـ).

(٢) قال في «اللسان» مادة موسى: من جرت عليه المواصي، أي: مَنْ نبتت عانته، لأن المواصي إنما تجري على من أُنبت، أراد: مَنْ بَلَغَ الحُلُمَ مِنَ الحُفَّارِ.

(٣) أخرجه ابن إسحاق، وعنه ابن هشام ٢٤٠/٢ عن علقمة بن وقاص الليثي مرسلًا، لكن أخرجه الشيخان في «صحيحهما» عن أبي سعيد الخدري دون قوله: «من فوق سبعة أرقعة» والأرقعة: السموات، الواحدة: رقيم، فجاء به على لفظ التذكير، كأنه ذهب به إلى السفك.

(٤) قال ابن جرير الطبري: والصبوب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنه أورد المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ أرض بني قريظة، وديارهم وأموالهم، وأرضاً لم يطوِّها يومئذ، ولم تكن مكة ولا خيبر ولا أرض فارس والروم ولا اليمن مما كان طوَّوه يومئذ، ثم طوَّوا ذلك بعد وأورثهموه الله، وذلك كله داخل في قوله: ﴿وَأَرْسَالًا لَمْ تَكْتُفِهَا﴾ لأنه تعالى ذكره، لم يخص من ذلك بعضاً دون بعض. اهـ.

(٥) قال في «اللسان» «ألا»: ألى من نسائه شهرًا، أي: حلف لا يدخل عليهن، وإنما عدها بـ «مِن» حملًا على المعنى، وهو الامتناع من الدخول، وهو يتعدى بـ «مِن».

(٦) روى مسلم في «صحيحه» ١١٠٤/٢ عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً يباهه لم يؤذن لأحدٍ -

أحدهما: أنه خيرهن بين الطلاق والمقام معه، هذا قول عائشة رضي الله عنها. والثاني: أنه خيرهن بين اختيار الدنيا فيفارقهن، أو اختيار الآخرة فيمسكهن، ولم يغيرهن في الطلاق، قاله الحسن، وفتادة. وفي سبب تخييره إياهن ثلاثة أقوال: أحدها: أنهن سألته زيادة الثقة. والثاني: أنهن آذنه بالغيرة. والقولان مشهوران في التفسير. والثالث: أنه لما خُير بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختار الآخرة، أمر بتخيير نسائه ليكن على مثل حاله، حكاه أبو القاسم الصيمري. والمراد بقوله: ﴿أَمْسِكْنَ﴾: مُتَمَعَةُ الطَّلَاقِ. والمراد بالسُّرَّاحِ: الطَّلَاقِ، وقد ذكرنا ذلك في [البقرة: ٢٣١]. والمراد بالدار الآخرة. الجنة. والمُخْسِنَاتُ: المؤثرات للآخرة. قال المفسرون: لما اخْتَرَنَهُ أَتَاهُنَّ اللهُ ﷻ ثلاثة أشياء: أحدها: التفضيل على سائر النساء بقوله: ﴿أَلَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾، والثاني: أن جعلهن أمهات المؤمنين، والثالث: أن حظر عليه طلاقهن والاستبدال بهن بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءَ مِنْ بَعْدُ﴾ [الأحزاب: ٥٧]. وهل أبيع له بعد ذلك التزويج عليهن؟ فيه قولان سيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ أي: بمعصية ظاهرة. قال ابن عباس: يعني النشوز وسوء الخلق ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي: يجعل عذاب جرمها في الآخرة كعذاب جرمين، كما أنها تُؤْتَى أجرها على الطاعة مرتين. وإنما ضعف عقابهن، لأنهن يشاهدن من الزواجر الرأفة ما لا يشاهد غيرهن، فإذا لم يمتنعن استحققن تضييف العذاب، ولأن في معصيتهن أذى لرسول الله ﷺ؛ وجرم من آذى رسول الله ﷺ أكبر من جرم غيره.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: وكان عذابها على الله هيناً. ﴿وَمَنْ يَنْتَهِ﴾ أي: تُطع، ﴿وَرَاهِدَنَا﴾ قد سبق بيانه [النساء: ٣٧]، والرزق الكريم: الحسن، وهو الجنة. ثم أظهر فضيلتهن على النساء بقوله: ﴿أَلَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ قال الزجاج: لم يقل: كواحدة من النساء، لأن «أحداً» نفي عام للمذكر والمؤنث والواحد والجماعة. قال ابن عباس: يريد: ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، أنتن أكرم علي، وثوابكن أعظم ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾، فشرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا بنفس اتصالهن برسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا تليين بالكلام ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: فُجور؛ والمعنى: لا تَقْلُنَّ قولاً يجد به منافق أو فاجر سبيلاً إلى موافقتك له؛ والمرأة مندوبة إذا خاطبت الأجنبي إلى الخلطة في المقالة، لأن ذلك أبعد من الطمع في الرية. ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: صحيحاً عفيفاً لا يطمع فاجراً^(١). ﴿وَقُرْآنَ فِ بُيُوتِكُنَّ﴾ قرأ نافع، وعاصم إلا أبان، وهبيرة، والثوليد بن مسلم عن ابن عامر: «وَقُرْآنَ» بفتح القاف، وقرأ الباقون بكسرها. قال الفراء: من قرأ بالفتح، فهو من قُرُوتٍ في المكان، فحُفَّتْ، كما قال: ﴿ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧]، ومن قرأ بالكسر، فهو من الوَاقِر، يقال: قُرِيَ في منزلك. وقال ابن قتيبة: من قرأ بالكسر، فهو من الوَاقِر، يقال: وَقَرَ في منزله يَقِرُّ وَقُوراً. ومن قرأ بنصب القاف جعله من القوار. وقرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل: «وَأَقْرُونَ» بإسكان القاف وبراءين الأولى مفتوحة والثانية ساكنة. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبله مثله، إلا أنهما كسرا الراء الأولى. قال المفسرون: ومعنى الآية: الأمر لهن بالتوقر والسكون في بيوتهن وأن لا يخرجن^(٢).

منهم، قال: فأذن لابي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالساً، حوله نسائه، واجماً، ساكناً، قال: فقال: لآولن شيئاً أصحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة (بريد زوجته) سألتني النفقة، فقلت إليها فوجات عنقها (طعنت عنقها) فضحك رسول الله ﷺ. وقال: فمن حولي كما ترى يسألني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلن شهراً، أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قال: فبدأ بعائشة فقال: «يا عائشة إنني أريد أن أمرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبيوك» قالت: وما هو يا رسول الله، فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أباي؟! بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نساءك بالذي قلت، قال: «لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني مُعْتَباً ولا متعتاً (أي: لم يبعثني مشدداً على الناس ولا طالباً لذمتهم) ولكن بعثني معلماً ميسراً». ولقد ورد هذا الحديث السيوطي في «الدر» ١٩٤/٥، وزاده نسبتاً لأحمد، والنسائي، وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه. وانظر «صحيح مسلم» باب الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن ١١٥/٢ - ١١١٣.

(١) قال ابن كثير: ومعنى هذا أنها تخاطب الأجنبي بكلام ليس فيه تزخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجنبي كما تخاطب زوجها. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ فِ بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزَّمْنَ بُيُوتِكُنَّ فلا تخرجن لغير حاجة، قال: ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه =

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَحْ﴾ قال أبو عبيدة: التبرُّج: أن يُبرِّزَ محاسنهن. وقال الزجاج: التبرُّج: إظهار الزينة وما يُستدعى به شهوة الرجل. وفي «الجهلية الأولى» أربعة أقوال. أحدها: أنها كانت بين إدريس ونوح، وكانت ألف سنة، رواه عكرمة عن ابن عباس^(١). والثاني: أنها كانت على عهد إبراهيم عليه السلام، وهو قول عائشة رضي الله عنها. والثالث: بين نوح وآدم، قاله الحكم. والرابع: ما بين عيسى ومحمد ﷺ، قاله الشعبي^(٢). قال الزجاج: وإنما قيل: «الأولى»، لأن كل متقدم أول، وكل متقدم أول، فتأويله: أنهم تقدموا أمة محمد ﷺ. وفي صفة تبرُّج الجاهلية الأولى ستة أقوال. أحدها: أن المرأة كانت تخرج فتمشي بين الرجال، فهو التبرُّج، قاله مجاهد. والثاني: أنها مشية فيها تكسُّر وتفتُّج، قاله قتادة. والثالث: أنه التبختر، قاله ابن أبي نجيح. والرابع: أن المرأة منهن كانت تتخذ اللُّرُج من اللؤلؤ فتلبسه ثم تمشي وسط الطريق ليس عليها غيره، وذلك في زمن إبراهيم عليه السلام، قاله الكلبي. والخامس: أنها كانت تُلقي الخمار عن رأسها ولا تشده، فيرى قُرطها وفلاتها، قاله مقاتل. والسادس: أنها كانت تلبس الثياب تبلغ المال، لا توراري جسدها، حكاه الفراء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ وفيه للمفسرين خمسة أقوال: أحدها: الشرك، قاله الحسن. والثاني: الإثم، قاله السدي. والثالث: الشيطان، قاله ابن زيد. والرابع: الشك. والخامس: المعاصي، حكاهما الماوردي. قال الزجاج: الرُّجس: كل مستقذر من مأكول أو عمل أو فاحشة. ونصب «أهل البيت» على وجهين: أحدهما: على معنى: أعني أهل البيت، والثاني: على النداء، فالمعنى: يا أهل البيت. وفي المراد بأهل البيت هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم نساء رسول الله ﷺ، لأنهن في بيته، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وابن السائب، ومقاتل. ويؤكد هذا القول أن ما قبله ويخده متعلق بأزواج رسول الله ﷺ. وعلى أرباب هذا القول اعتراض، وهو أن جمع المؤنث بالنون، فكيف قيل: «عنكم» ويظهركم؟ فالجواب أن رسول الله ﷺ فيهن، فنُلبِ المذكَّر. والثاني: أنه خاصٌّ في رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين، قاله أبو سعيد الخدري. وروي عن أنس وعائشة وأم سلمة نحو ذلك. والثالث: أنهم أهل رسول الله ﷺ وأزواجه^(٣)، قاله الضحاك. وحكى الزجاج أنهم نساء رسول الله ﷺ والرجال الذين هم آله؛ قال: واللغة تدل على أنها للنساء والرجال جميعاً، لقوله: «عنكم» بالميم، ولو كانت للنساء، لم يجز إلا «عنكن» ويظهركن.

كما قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إمامه الله مساجد الله، وليخرجن نفلات» (تاركات اللطيب والأدهان) وفي رواية: «ويوتهن خير لهن». اهـ. ومن

الحوادث الشرعية: الخروج للمح والمعة، وزيارة الوالدين، وعبادة المرضى، وغير ذلك.

(١) رواء الطبري ٤/٢٢ عن عكرمة عن ابن عباس، وذكره الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣٩٩/٨ من رواية ابن أبي حاتم وقال: إسناده قوي. وأروده السيوطي في «الدر» ١٩٧/٥ وزاد نسبة لابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكروه نهي نساء النبي أن يبرجن تبرج الجاهلية الأولى، ويجاز أن يكون ذلك ما بين آدم وعيسى، فيكون معنى ذلك: ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى التي قبل الإسلام. فإن قال قائل: أو في الإسلام جاهلية حتى يقال: عن بقوله (الجاهلية الأولى) التي قبل الإسلام؟ قيل: فيه أخلاق من أخلاق الجاهلية، ثم قال: ويجاز أن يكون ذلك ما بين آدم ونوح، ويجاز أن يكون ما بين إدريس ونوح، فتكون الجاهلية الأخيرة ما بين عيسى ومحمد، قال: وإذا كان ذلك مما يحتمله ظاهر التنزيل، فالصواب أن يقال في ذلك كما قال الله، إنه نهي عن تبرج الجاهلية الأولى. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ نص في دخوله أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا، لأنهن سبب نزول هذه الآية، قال: وسبب النزول داخل في قولاً واحداً، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح، ثم قال: وقال عكرمة: من شاء ما بعلمت أنها نزلت في شأن نساء النبي ﷺ، قال ابن كثير: فإن كان المراد أنهم من سبب النزول دون غيرهن، فصحيح، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن، ففي هذا نظر، فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أهم من ذلك. وسرد بعض تلك الأحاديث ثم قال: الذي لا يشك فيه من تدبير القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَكُنُّ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ ثم قال: ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقربانته أحق بهذه التسمية. اهـ. وفي «صحيح مسلم» ١٨٧٢/٤ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما بعدي إلا أيها الناس، فإمّا لنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربنا فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: «وأهل بيته، أذكركم الله في أهل بيته، أذكركم الله في أهل بيته، فقال له حسين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساء من أهل بيته؟ قال: نساء من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل حفص، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم.

والجمهور^(١). وذكر بعض المفسرين أن عبد الله بن جحش أخت زينب كره ذلك كما كرهته زينب، فلما نزلت الآية رضيا وسلمًا^(٢). قال مقاتل: والمراد بالمؤمن: عبد الله بن جحش، والمؤمنة: زينب بنت جحش. والثاني: أنها نزلت في أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي مَعِيْط، وكانت أوَّل امرأة هاجرت، فوهبت نفسها لرسول الله ﷺ، فقال: «قد بَلَّغْتُكِ»، وزَوَّجها زيد بن حارثة، فسخطت هي وأخوها، وقالوا: إِنَّمَا أَرَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ، فزَوَّجَهَا عَبْدَهُ؟! فنزلت هذه الآية، قاله ابن زيد^(٣). والأول عند المفسرين أصح.

قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ رِسْوَئَهُ أُولَئِكَ أَي: حَكَمًا بِذَلِكَ «أَنْ تَكُونَ» وقرأ أهل الكوفة: «أَنْ يَكُونَ» بالياء ﴿فَمَنْ لَمَّيْزَةٌ﴾ وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء: «الْخَيْرَةُ» بإسكان الياء؛ فجمع في الكناية في قوله: «لهم»، لأن المراد جميع المؤمنين والمؤمنات، والخَيْرَةُ: الاختيار، فأعلم الله ﷻ أنه لا اختيار على ما قضاه الله ورسوله. فلما زَوَّجها رسول الله ﷺ زيداً مكثت عنده حيناً، ثم إن رسول الله ﷺ أتى منزل زيد فنظر إليها وكانت بيضاء جميلة من أتم نساء قريش، ف وقعت في قلبه، فقال: «سبحان مقلب القلوب»، وفطن زيد، فقال: يا رسول الله ائذن لي في طلاقها^(٤). وقال بعضهم: أتى رسول الله ﷺ منزل زيد، فرأى زينب، فقال: «سبحان مقلب القلوب»، فسمعت ذلك زينب، فلما جاء زيد ذكرت له ذلك، فعلم أنها قد وقعت في نفسه، فاتاه فقال: يا رسول الله ائذن لي في طلاقها^(٥). وقال ابن زيد: جاء رسول الله ﷺ إلى باب زيد - وعلى الباب يستر من شعر - فرفعت الريح السُّتْرَ، فرأى زينب، فلما وقعت في قلبه كرهت إلى الآخر، فجاء فقال: يا رسول الله أريد فراقها، فقال له: «اتق الله»^(٦). وقال مقاتل: لما فطن زيد لتسبيح رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كِبْرًا، فهي تَعْظُم عَلَيَّ وتؤذيني بلسانها، فقال له النبي ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله». ثم إن زيداً طلقها بعد ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ^(٧) بِالْإِسْلَامِ ﴿وَأَنْتَ عَلَىٰ عَيْشٍ بِالْعَتَقِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ اللَّهُ﴾ أي: في أمرها فلا تطلقها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ أي: تُسِرُّ وتُضْمِرُ في قلبك ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: مُظْهِرُهُ؛ وفي أربعة أقوال: أحدها: حُبِّهَا، قاله ابن عباس. والثاني: عهد عهده الله إليه أن زينب ستكون له زوجة، فلما أتى زيد يشكوها، قال له: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، وأخفى في نفسه ما الله مبدية، قاله علي بن الحسين^(٨). والثالث: إشارته لطلاقها، قاله قتادة، وابن جريج، ومقاتل. والرابع: أن الذي أخفاه: إن طلقها زيد تزوجتها، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَتَخْفَى النَّاسُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه خشي اليهود أن يقولوا: تزوج محمد امرأة ابنه، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: أنه خشي لوم الناس أن يقولوا: أمر رجلاً بطلاق امرأته، ثم نكحها.

- (١) رواء الطبري ١١/٢٢ من رواية العوفي عن ابن عباس، وابن لهيعة عن ابن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس، ورواه عن مجاهد وقتادة، وذكره السيوطي في «الدر» عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.
- (٢) ذكره البغوي والخازن وغيرهما بدون سند.
- (٣) رواء الطبري ١٢/٢٤ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٠١/٥ من رواية ابن أبي حاتم عن ابن زيد. وقال الحافظ ابن حجر في «تخریج الكشاف» ١٣٤: رواء الثعلبي بهذا بغير سند.
- (٤) قال الحافظ ابن حجر في «تخریج الكشاف»: ذكره الثعلبي بدون سند. اهـ. وكذلك ذكر مثل هذا المعنى الخازن والبغوي وغيرهما بدون سند.
- (٥) وهذا أيضاً من المرسلات والمنقطعات التي ليس لها سند صحيح، وقد أورد مثلها السيوطي في «الدر» من طريق عبد بن حميد، وابن المنذر، عن عكرمة، ومن طريق ابن سعد والحاكم عن محمد بن يحيى بن حبان.
- (٦) رواء الطبري عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف.
- (٧) ذكره بنحو الحافظ ابن حجر في «تخریج الكشاف» عن الثعلبي بدون سند.
- (٨) رواء الطبري ١٣/٢٢ وفي سننه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. ورواه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين، وفي سننه أيضاً علي بن زيد بن جدعان، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً من طريق السدي، قال الحافظ ابن حجر عنه في «الفتح»: وهو أوضح سياقاً وأصح إسناداً إليه. اهـ. وقال الألويسي في «تفسيره» عن هذا المعنى: وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين، كالزهرى، ويكر بن العلاء، والقشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي، وغيرهم. اهـ. وقد رأيت كلام الحافظ ابن حجر قبل قليل، وهو قوله: والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَّهَ﴾ أي: أولى أن تخشى في كل الأحوال. وليس المراد أنه لم يخش الله في هذه الحال، ولكن لما كان لخشيته بالخلق نوع تعلق، قيل له: الله أحق أن تخشى منهم. قالت عائشة: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد عليه من هذه الآية، ولو كنتم شيئاً من الوحي لكنتمها^(١).

فصل

وقد ذهب بعض العلماء إلى تنزيه رسول الله من حُبها وإيثاره طلاقها. وإن كان ذلك شائعاً في التفسير^(٢). قالوا: وإنما عوتب في هذه القصة على شئيين: أحدهما: أنه أخبر بأنها ستكون زوجة له، فقال لزيد: «أمسك عليك زوجك» فكنتم ما أخبره الله به من أمرها حياةً من زيد أن يقول له: إن زوجتك ستكون امرأتي؛ وهذا يخرج على ما ذكرنا عن علي بن الحسين، وقد نصره الثعلبي، والواحدي. والثاني: أنه لما رأى اتصال الخصومة بين زيد وزينب، ظن أنهما لا يتفقان وأنه سيفارقها، وأضمر أنه إن طلقها تزوجها صلةً لرحمها، وإشفاقاً عليها، لأنها كانت بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، فعاتبه الله على إضمار ذلك وإخفائه حين قال لزيد: «أمسك عليك زوجك»، وأراد منه أن يكون ظاهره وباطنه عند الناس سواء كما قيل له في قصة رجل أراد قتله: هلاً أومات إلينا بقتله؟ فقال: «ما ينبغي لنبئ أن تكون له خاتمة الأعين»^(٣)، ذكر هذا القول القاضي أبو يعلى رحمة الله عليه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَّحَ زَيْدٌ بِتَبَا وَطَرَا﴾ قال الزجاج: الوطر: كل حاجة لك فيها همّة، فإذا بلغها البالغ قيل: قد قضى وطره، وقال غيره: قضاء الوطر في اللغة: بلوغ متهئى ما في النفس من الشيء، ثم صار عبارة عن الطلاق، لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة. والمعنى: لما قضى زيد حاجته من نكاحها ﴿زَوَّجْتَكهَا﴾، وإنما ذكر

(١) رواه الطبري بهذا اللفظ: ١٣/٢٢ من قول الحسن، ورواه أيضاً عن عائشة بلفظ: لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً ما أوحى إليه من كتاب الله لكنتم ﴿وَتَخَيَّرَ فِي تَقْلِيدِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَيَخَيَّرُ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَّهَ﴾ ورواه الترمذي: ١٥٣/٢ بنحوه وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأورده السيوطي في «الدرر» ٢٠٢/٥، وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن عائشة. وروى مسلم في «صحيحه» ١٦٠/١ عن عائشة ؓ قالت: ولو كان محمد ﷺ كاتباً شيئاً ما أنزل عليه لكنتم هذه الآية: ﴿كَلِمَةً تَقُولُ لِلَّذِي آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَمَنَتْ عَلَيْهِ أَسَدٌ عَلَيْكَ رَدِيحَةً وَإِنَّ اللَّهَ رَضِيحِي فِي تَقْلِيدِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَيَخَيَّرُ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَّهَ﴾ اهـ.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية ﴿وَتَخَيَّرَ فِي تَقْلِيدِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَيَخَيَّرُ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَّهَ﴾: ذكر ابن أبي حاتم والطبري ما هنا آثاراً عن بعض السلف ؓ أسبغوا أن تضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها. اهـ. يريد بذلك أمثال «فوقعت في قلبه» و«سبحان مقلب القلوب».

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني ٤٠٣/٨ بعدما ذكر أن الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة مختصراً كما في حديث البخاري، ثم ذكر حديثاً للبخاري في كتاب التوحيد أطول منه، وليس فيها ما تقدم من أنها وقعت في قلبه، وغير ذلك، قال: وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي فساقها ساقاً واضحةً حسناً، ولفظه: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجه زينب بن حارثة مولاه، فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ، فزوجها إياه، ثم أعلم الله ﷻ نبيه ﷺ بعدئذ أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك زوجته وأن يتي الله، وكان يخشى الناس أن يعيروا عليه ويقولوا: تزوج امرأة ابنه وكان قد تبنى زيداً. ثم قال ابن حجر: ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم، والطبري، ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها، قال: والذي أوردته هو المعتمد، ثم قال: والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، قال: والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنّي بأمر لا يبلغ في الإبطال منه، وهو تزوج امرأة الذي يُدعى ابناً، قال: ووقع ذلك من إمام المسلمين، ليكون أدعى لقبولهم، قال: وإنما وقع الخطي في تأويل متملق الخشية، والله أعلم. وقال الألويسي في «تفسيره»: وللقصص كلام لا ينبغي أن يجعل في حيز القبول، منه ما أخرجه ابن سعد والحاكم عن محمد بن يحيى بن حبان، ثم قال: وفي «شرح المواقف»: أن هذه القصة مما يجب صيانة النبي ﷺ عن مثله. اهـ. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وروى أحمد، ومسلم، والنسائي، من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال: لما انتقضت عدة زينب، قال رسول الله ﷺ لزيد: «اذكروها عليّ» قال: فانطلقت، قلت: يا زينب أبشري أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، فقالت: ما أنا بصانعة - حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ حتى دخل عليها بغير إذن. قال ابن حجر: وهذا أيضاً من أبلغ ما وقع في ذلك، وهو أن يكون الذي كان زوجها هو المخاطب، لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه، قال: وفيه أيضاً اختيار ما كان عنده منها، هل بقي منه شيء، أم لا؟ وفيه استحباب فعل المرأة الاستشارة، ودعائها عند الخطبة قبل الإجابة، وأن من وكل أمره إلى الله ﷻ يسر الله له ما هو الأظلم له والأنتفع دنيا وآخرى. اهـ.

(٣) رواه أبو داود في «سننه» رقم (٢٦٨٣) و(٤٣٥٩) من حديث أحمد بن المفضل قال: ثنا أسباط بن نصر، قال: زعم السدي عن مصعب بن سعد عن سعد... فذكره، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» ٢٩٨/٤ من رواية البيهقي من حديث أحمد بن المفضل به نحوه، ورواه النسائي في «المحاربة».

قضاء الوطر هاهنا ليبيّن أن امرأة المتبنّي تجلّ وإن وطئها، وهو قوله: ﴿لَكِنَّ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُتَبَنِّينَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاحِ أَدْعِيَابِهِمْ إِنَّا فَصَّرْنَا بَيْنَهُمْ وَطَرًا﴾؛ والمعنى: زوجناك زينب - وهي امرأة زيد الذي تبنيته - لكيلا يُظنّ أن امرأة المتبنّي لا يحلّ نكاحها. وروى مسلم في أفراده من حديث أنس بن مالك قال: لما انقضت عدّة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «اذهب فأذكّرهما علي»، قال زيد: فانطلقت، فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، لأن رسول الله ﷺ ذكرها، فولّيتها ظهري، ونكضت على عقيب، وقلت: يا زينب، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربّي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن^(١). وذكر أهل العلم أن من خصائص رسول الله ﷺ أنه أجزى له التزويج بغير مهر ليخلص قصد زوجته الله دون العوض، وليخفف عنه، وأجزى له التزويج بغير ولي، لأنه مقطوع بكفاهته، وكذلك هو مستغن في نكاحه عن الشهود. وكانت زينب تفاخر نساء النبي ﷺ وتقول: زوّجكنّ أهلركنّ، وزوّجني الله ﷺ^(٢).

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُودًا﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿الَّذِينَ يَلْتَمِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ يَخْتَنُونَ وَلَا يُخَشَوْنَ اللَّهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ حَيْبًا﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَرَ النَّبِيِّنَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ قال قتادة: فيما أحلّ الله له من النساء.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ هي منصوبة على المصدر، لأن معنى «ما كان على النبي من حرج»: سنّ الله سنّة واسعة لا حرج فيها. والذين خلّوا: هم النبيون؛ فالمعنى: أن سنّة الله في التوسعة على محمد فيما فرض له، كسنته في الأنبياء الماضين. قال ابن السائب: هكذا سنّة الله في الأنبياء، كداود، فإنه كان له مائة امرأة، وسليمان كان له سبعمائة امرأة وثلاثمائة سُرّيّة^(٣)، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُودًا﴾ أي: قضاء مقضياً. وقال ابن قتيبة: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ معناه: لا حرج على أحد فيما لم يخرم عليه. ثم أثنى الله على الأنبياء بقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْتَمِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ يَخْتَنُونَ وَلَا يُخَشَوْنَ اللَّهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يخافون لائمة الناس وقولهم فيما أجلّ لهم. وباقي الآية قد تقدم بيانه [النساء: ٦].

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ قال المفسرون: لما تزوّج رسول الله ﷺ زينب، قال الناس: إن محمداً قد تزوّج امرأة ابنه، فنزلت هذه الآية^(٤)، والمعنى: ليس باب لزيد فتخرم عليه زوجته ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال

(١) رواه مسلم في «صحيحه» ١٠٤٨/٢، ورواه أحمد في «مسنده»، والنسائي في «سننه»، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٠١/٥ وزاد نسبه لابن سعد، وأبي يعلى، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) رواه البخاري رحمه الله ٢٤٨/١٣ عن أنس بن مالك ﷺ قال: فكانت زينب تنفر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكنّ أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات. وذكره السيوطي في «الدر» ٢٠١/٥ وزاد نسبه لأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن أنس ﷺ.

(٣) كذا الأصل، والذي في «مجمع البيان» للطبرسي، والخازن عكس ما هاهنا: وكان لسليمان ثلاثمائة امرأة، وسبعمائة سُرّيّة. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣٣١/٦: وقد حكى وهب بن منبه في «المبتدأ» أنه كان لسليمان ألف امرأة، ثلاثمائة مهيّرة، وسبعمائة سُرّيّة، قال: ونحوه مما أخرج الحاكم في «المستدرک» من طريق أبي مشر عن محمد بن كعب قال: بلغنا أنه كان لسليمان ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمائة صرّيحة، وسبعمائة سُرّيّة. اهـ.

(٤) والذي في «صحيح البخاري» ٣٣٠/٦ في كتاب أحاديث الأنبياء عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فواصاً يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل، ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقّيه، فقال النبي ﷺ: طو قلبها لجاهلها في سبيل الله. وفي بعض روايات البخاري تسعين، ورجحها البخاري على سبعين، قال الحافظ ابن حجر: وعند مسلم سبعين. وأخرج الإسماعيلي والنسائي عن أبي الزناد، قال: مائة امرأة، ورواه أحمد وأبو عوانة من طريق هشام عن ابن سيرين فقال: مائة امرأة، قال: ومن طريق جعفر بن ربيعة عن الأعرج: مائة امرأة أو تسع وتسعون على الشك. قال الحافظ ابن حجر: فمحصل الروايات ستون، وسبعون، وتسعون، وتسع وتسعون، ومائة، والجمع بينهما أن الستين كن خرائر، وما زاد عليهن كن سراري، أو بالعكس، وأما السبعون، فللمبالغة، وأما التسعون والمائة، فكن دون المائة وفوق التسعين، فمن قال: تسعون ألغى الكسر، ومن قال: مائة، جبره، ومن ثم وقع التردد في رواية جعفر، قال: وأما قول بعض الشراح: ليس في ذكر القليل نفي الكثير، وهو من مفهوم المدد، وليس بحجة عند الجمهور، فليس يكافي في هذا المقام، وذلك أن مفهوم المدد معتبر عند كثيرين، والله أعلم. اهـ.

(٤) رواه الترمذي ١٥٢/٢ عن عائشة ﷺ.

الزجاج: من نصبه، فالمعنى: ولكن كان رسول الله، وكان خاتم النبيين؛ ومن رفعه، فالمعنى: ولكن هو رسول الله؛ ومن قرأ: «خاتم» بكسر التاء، فمعناه: وختم النبيين؛ ومن فتحها، فالمعنى: آخر النبيين. قال ابن عباس: يريد: لو لم أختبم به النبيين، لجعلت له ولدًا يكون بعده نبيًا^(١).

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ كَأَنَّمَا نُحْيِيهِمْ بِرُسُلِهِمْ﴾ نهي أن يقال بعد هذا: زيد ابن محمد، أي: لم يكن أباه وإن كان قد تبأه، فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم، فإنه ﷺ ولد له: القاسم، والطيب، والظاهر، من خديجة ﷺ، فماتوا صغاراً، وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فمات في حياته ﷺ ثلاث، وتأنرت فاطمة ﷺ حتى أصيبت به ﷺ، ثم ماتت بعده لسته أشهر، قال: وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ كقوله ﷺ: ﴿اللَّهُ أَهَمُّ حَيْثُ يَمَسُّ وَكَانَتْهُ قَال: هذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده، فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأخرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كان رسول نبي، ولا يتعكس، قال: وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة ﷺ. اهـ. وذكر ابن كثير كثيراً من الأحاديث التي تدل على ختم النبوة والمراسلة به ﷺ، منها ما أخرجه البخاري في «صحيحه» ٤/٤٠٨، ومسلم في «صحيحه» ٤/١٧٩١، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسته وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويمججون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين» واللفظ للبخاري. ومنها ما رواه مسلم في «صحيحه» ١/٣٧١، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الفنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»، ومنها ما رواه البخاري في «صحيحه» ٦/٤٠٤، ومسلم في «صحيحه» ٤/١٨٢٨، عن جبير بن مطعم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا المحشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد» واللفظ لمسلم - والعاقب: الذي ليس بعده نبي - وغير ذلك من النصوص الكثيرة الدالة على ختم باب النبوة برسولنا ونبينا محمد ﷺ.

قال ابن كثير: والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد: إرسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشریف لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، قال: وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه، ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده، فهو كذاب، أفاك، دجال، ضال، مضل، ولو تحرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والسيرنجيات، فكلها محال وضلال عند أولي الأبصار، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ومسيمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم وجي، أنهما كاذبان ضالان، لعنهما الله، وكذلك كل مدعٍ لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها، هذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرن معروف ولا ينهاون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لئلا لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإنك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَثَلٍ مُّثَلٍّ ذَلَّلتُ السُّبُلِينَ ﴿١٠٠﴾ تَنَزَّلَتْ عَلَىٰ قُلُوبِ الْغَيبِ ﴿١٠١﴾﴾ الآية، قال: وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم في غاية البر والصديق والرشد والاستقامة والمدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرن به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للمعادات، والأدلة الواضحات، والبراهين الباهرات، فصولات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات. اهـ.

هذا وقد ظهر في هذا القرن (القرن الثالث عشر الهجري) دجال في «قاديان» إحدى بلاد باكستان يدعى النبوة، يسمى: ميرزا غلام أحمد (١٢٥٢ - ١٣٢٦ هـ) وأتباعه يسمون أنفسهم «الأحمدية» نسبة إلى دجال قاديان، وهم المعروفون عندنا بالقادينيين، وهم يعتبرون ميرزا غلام أحمد القادياني إمام هذا الزمان، والمسيح الموعود، ويدعون أن النبوة لا تنقطع، وأن إمامهم من جملة الأنبياء، ويفسرون قوله تعالى: ﴿وَكَانَ كَأَنَّمَا نُحْيِيهِمْ بِرُسُلِهِمْ﴾ بأنه طابعهم، وليس آخرهم، وأن كل نبي يظهر بعده ﷺ تكون نبوته مطبوعاً عليها بخاتم تصديقه، مخالفين بذلك تفسير الصحابة والتابعين والمفسرين والمجتهدين والفقهاء والمحدثين وجهور المسلمين من السلف والخلف، ويستشهدون بقول مسيحيهم المزعوم في كتاب «ملفوظات أحمدية» صفحة (٢٩٠): أن المزماد به أنه لا يمكن أن تصدق الآن نبوة أي نبي من الأنبياء إلا بخاتمته ﷺ ويقول مسيحيهم بناءً على ذلك مدعياً الرسالة في كتابه «التبليغ» صفحة (٤٣ - ٤٥): «أرسلني ربي لدعوة الخلق، وأتاني من آيات بيته لأدعوهم إلى دينه، فطوبى للذين يقبلونني ويذكرون الموت أو يطالبون الآيات وبعد رؤيتها يؤمنون» والحق أنه رسول من قبل دولة الانكليز، يدل على ذلك قوله في كتابه «ضرورة الإمام» صفحة (٣٨) في تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَيْمِيُّ اللَّهُ وَأَطْمِيئُوا الرَّسُولَ وَطَلِّبُوا الْأَثْمَ وَتَوَكَّلُوا عَلَيَّ﴾ المراد من أولي الأمر جسمانياً الملك (ملك بريطانيا) وروحانياً إمام الزمان (يعني نفسه) وإن الشخص الجسماني الذي لا يخالفنا في مقاصدنا، ويمكننا أن نحصل لنا منه الفائدة الدينية فهو يكون منا، ولذلك فصيحتي لجماعتي هي أن يعدلوا ملك الانكليز من أولياء أمرهم ويطيعوهم بصلق القلب، لأن هؤلاء لا يخرجوننا في مقاصدنا الدينية. اهـ. ويقول منير الحضي من أتباعه في دمشق في شرح كلامه هذا في كتابه «الجماعة الأحمدية والانكليز» صفحة (١٨): ومن هذا الكلام الواضح يفهم كل قارئ أن المسيح الموعود ﷺ (يريد دجال قاديان) بين حكماً من أحكام القرآن المجيد، وهو إطاعة غير المسلمين إذا منحوا الحرية الدينية سواء أكانوا انكليز أم غير انكليز، وبما أن الانكليز كانوا في وقته ﷺ هم الحاكمين، كانوا لا يتعرضون للدين، لذلك قال بوجود طاعتهم. ويقول المسيح الكذاب مبيهاً نعمة الانكليز عليه وعلى أتباعه في كتابه «بركات الخلافة» صفحة (٦٥): «إن إحسان الحكومة الانكليزية إلينا هو كبير ونحن نعيش براحة واطمئنان كبيرين، وتتم مقاصدنا، إن أعظم مقصد لنا هو إشاعة الدين (دين دجال قاديان) ولأجل تسيب هذا المقصد نجد كل حرية، ويمكننا التبليغ في كل ركن من المملكة (الانكليزية) حيث نشاء، وإذا ذهبنا للتبليغ في الممالك الأخرى، فهناك أيضاً تساعدنا الحكومة البريطانية. اهـ كلام هذا الدجال، وهو واحد من الذين ظهروا، وسيظهر أمثاله، وذلك مصداق قول نبينا محمد ﷺ فيما رواه مسلم في «صحيحه» ٤/٢٢٤٠، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله».

﴿يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَخِرُوهُ بَكْرًا وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَةٌ مُمَدِّدَةٌ بِرُوحِهِمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٣﴾﴾
 قوله تعالى: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾ قال مجاهد: هو أن لا ينساه أبداً. وقال ابن السائب: يقال: «ذُكِرَ كثيراً» بالصلوات الخمس. وقال مقاتل بن حيان: هو التسييح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال: وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول ربكم: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَسَخِرُوهُ بَكْرًا وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ قال أبو عبيدة: الأصيل: ما بين العصر إلى الليل. وللمفسرين في هذا التسييح قولان: أحدهما: أنه الصلاة، واتفق أرباب هذا القول على أن المراد بالتسييح بكرة: صلاة الفجر. واختلفوا في صلاة الأصيل على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها صلاة العصر، قاله أبو العالية، وقاتدة. والثاني: أنها الظهر والعصر والمغرب والعشاء. قاله ابن السائب. والثالث: أنها الظهر والعصر، قاله مقاتل. والقول الثاني: أنه التسييح باللسان، وهو قول: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَةٌ﴾ في صلاة الله علينا خمسة أقوال: أحدها: أنها رحمته، قاله الحسن. والثاني: مغفرته، قاله سعيد بن جبير. والثالث: ثناؤه، قاله أبو العالية. والرابع: كرامته، قاله سفيان. والخامس: بركته، قاله أبو عبيدة. وفي صلاة الملائكة قولان: أحدهما: أنها دعائهم، قاله أبو العالية. والثاني: استغفارهم، قاله مقاتل. وفي الظلمات والنور هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الضلالة والهدى، قاله ابن زيد. والثاني: الإيمان والكفر، قاله مقاتل. والثالث: الجنة والنار، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿يَحْيِيهِمْ﴾ الهاء والميم كناية عن المؤمنين. فأما الهاء في قوله: ﴿يَلْقَوْنَهُ﴾ ففيها قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله ﷻ. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناها: تحييتهم من الله يوم يلقونه سلام. وروى صهيب عن النبي ﷺ «أن الله يسلم على أهل الجنة». والثاني: تحييتهم من الملائكة يوم يلقون الله: سلام، قاله مقاتل. وقال أبو حمزة الثمالي: تسلم عليهم الملائكة يوم القيامة، وتبشروهم حين يخرجون من قبورهم. والثالث: تحييتهم بينهم يوم يلقون ربهم: سلام، وهو أن يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والقول الثاني: أن الهاء ترجع إلى ملك الموت، وقد سبق ذكوره في ذكر الملائكة. قال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال له: ربك يقربك السلام^(٢). وقال البراء بن عازب: في قوله: ﴿يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ قال: ملك الموت، ليس مؤمناً

(١) رواه البخاري معلقاً ٤١٧/١٣، قال: وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ: قال الله تعالى: أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه. ورواه أحمد في «المسند» عن أبي هريرة ﷺ، وابن ماجه في «سننه» رقم ٣٧٩٢ عن أبي هريرة ﷺ، ورواه ابن حبان في «صحيحه» وهو في «موارد الظمان» للحافظ الهيثمي صفحة ٥٦٧، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٤٩٦/١ عن أبي الدرداء ﷺ، وصححه، ووافقه الذهبي. والأحاديث في فضل الذكر كثيرة، منها ما رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم بسند صحيح عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أتبعكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله: قال: «ذكر الله». ومنها ما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق المفردون؟» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذكارون الله كثيراً والذكارات». ومنها ما رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت». وعن عبد الله بن بسر أن رجلاً قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أنشئت به، قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى»، رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي. وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «من قعد مقعداً لم يذكر الله تعالى فيه، كانت عليه من الله تعالى تيرة، ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله تعالى فيه، كانت عليه من الله تيرة» - أي: نقص وتبعة وحسرة - رواه أبو داود، وهو حديث صحيح. والآيات والأحاديث والآثار في الحث على ذكر الله تعالى كثيرة جداً، وفي هذه الآية الكريمة حث على الإكثار من ذلك، وقد صنف العلماء في الأذكار المتعلقة بآثار الليل والنهار مصنفات كثيرة، ومن أحسنها في ذلك كتاب «الأذكار» للإمام النووي رحمه الله، وقد اختصره شيخ الإسلام ابن تيمية وسماه بـ «الكلم الطيب» وطبعه المكتب الإسلامي طباعة جيدة محققة، ليكون في متناول أيدي الناس - وخاصة الشباب منهم - وليجدوا بذلك عوناً لهم على ذكر الله ﷻ.

(٢) ذكره السيوطي في «الدرر» ٢٠٦/٥ من رواية المروزي في «الجنائز» وابن أبي الدنيا وأبي الشيخ عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

يقبض روحه إلا سلم عليه^(١). فأما الأجر الكريم، فهو الحسن في الجنة^(٢).

﴿يَأْتِيَا أُنثَىٰ إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُنِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَيُنِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَآنُ لَمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا يُطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعَّ أَدْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾
قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا أُنثَىٰ إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ أي: على أمتك بالبلاغ ﴿وَمُنِيرًا﴾ بالجنة لمن صدقك ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: منذرًا بالثأر لمن كذبك^(٣)، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى توحيدهِ وطاعته ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بأمرهِ، لا أنك فعلته من تلقاء نفسك ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أي: أنت لمن أتبعك «سراجًا»، أي: كالسراج المضيء في الظلمة يهتدى به.

قوله تعالى: ﴿وَيُنِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَآنُ لَمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ وهو الجنة. قال جابر بن عبد الله: لَمَّا أَنْزَلَ قَوْلَهُ: ﴿يَأْتِيَا أُنثَىٰ﴾... الآية [الفتح] قال الصحابة: هنيئًا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فترلت هذه الآية^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُطِيعُ الْكٰفِرِينَ﴾ قد سبق في أول السورة.

قوله تعالى: ﴿وَدَعَّ أَدْنَهُمْ﴾ قال العلماء: معناه: لا تجازهم عليه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في كفاية شرهم^(٥)؛ وهذا منسوخ بآية السيف.

﴿يَأْتِيَا أَلَيْنَ ءَأَمْرًا إِنَّمَا نَكْخِشُ الْمُؤْمِنِينَ نُرَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعْدُونَهَا فَمَعِيوهُنَّ وَسَرَّوهُنَّ سِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَكْخِشُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦) قال الزجاج: معنى «نكخشتم» تزوجتم. ومعنى «تمسوهن» تقرّبوهن. وقرأ حمزة، والكسائي: «تَمَسُوهُنَّ» بالف.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٠٦/٥ من رواية ابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن أبي الدنيا في «ذكر الموت»، وعبد بن حميد، وأبي يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿يُنِيرُهُمْ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ الظاهر أن المراد - والله أعلم - تحيتهم، أي من الله تعالى يوم يلقونه: سلام، أي: يسلم عليهم، كما قال عليه السلام: ﴿يُنِيرُهُمْ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، قال: وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَمَرَ كِبْرًا﴾ يعني الجنة وما فيه من المأكّل والمشرب والملابس والمسكن والمناجى والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. اهـ.

(٣) روى أحمد في «المسند» والبخاري في «صحيحه» عن عطاء بن يسار رضي الله عنه، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الترواة، قال: أجل، والله إنه لَمَوْصُوفٌ بِيَعِضِ صَفَةِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَأْتِيَا أُنثَىٰ إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُنِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ وجزراً للأمين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكّل، ليس يفظ، ولا غليظ، ولا سحَابٌ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ بِالسَيْتَةِ السَيْتَةَ، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقبم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعياناً عبياً، وأدانا صماً، وقلوباً غلفاً.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري عن عكرمة والحسن البصري قالا: لما نزلت ﴿يُنِيرُ اللَّهُ لَكُمْ نُرًّا مِّنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ قال رجال من المؤمنين: هنيئًا لك يا رسول الله قد حللنا ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل: ﴿يُنِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعَثَ...﴾ الآية، وأنزل في سورة (الأحزاب): ﴿وَيُنِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَآنُ لَمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يقول: وفوض إلى أمورك، وثق به، فإنه كافيك جميع من دونه حتى يأتيك أمره وقضاؤه، ﴿وَكَانَ يَأْتِي كَبِيرًا﴾ يقول: وحسبك بالله تيمناً بأمرك، وحافظاً لك وكاتلاً. اهـ.

(٦) قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة، منها إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح، هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية، فإنه استعمل في العقد وحده، لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا نَكْخِشُ الْمُؤْمِنِينَ نُرَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها، وقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ خرج مخرج الغالب، إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس رضي الله عنه، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعلي بن الحسين زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا نَكْخِشُ الْمُؤْمِنِينَ نُرَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله، وهذا مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى، قال: وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، فعندهما متى تزوجها طلقته منه، واختلفا فيما إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة، وقال أبو حنيفة رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه. قال: فأما الجمهور، فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية، قال: وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك»، رواه أحمد وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب، قال: وهكذا روى ابن ماجه عن علي والسور بن مخرمة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا طلاق قبل النكاح». اهـ.

يعض المفسرين: أن شرط الهجرة في التحليل منسوخ، ولم يذكر ناسخه، وحكى الماوردي في ذلك قولين: أحدهما: أن الهجرة شرط في إحلال النماء له على الإطلاق. والثاني: أنه شرط في إحلال قراباته المذكورات في الآية دون الأجنبيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْحَنَّا لَكَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ أي: وأحللنا لك امرأة مؤمنة ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لَكَ﴾، ﴿إِنْ أَرَادَ اللَّيْثُ أَنْ يَسْتَكْفِكَ﴾ أي: إن أثر نكاحها ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾ أي: خاصة. قال الزجاج: وإنما قال: ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلَّيْثِ﴾، ولم يقل: «لك»، لأنه لو قال: «لك»، جاز أن يتوهم أن ذلك يجوز لغير رسول الله ﷺ كما جاز في بنات العمّ وبنات العمّات. و«خالصة» منصوب على الحال. وللمفسرين في معنى «خالصة» ثلاثة أقوال: أحدها: أن المرأة إذا وهبت له نفسها، لم يلزمه صدقتها دون غيره من المؤمنين، قاله أنس بن مالك، وسعيد بن المسيّب. والثاني: أن له أن ينكحها بلا ولي ولا مهر دون غيره، قاله قتادة. والثالث: خالصة لك أن تملك عقد نكاحها بلفظ الهبة دون المؤمنين، وهذا قول الشافعي، وأحمد^(١). وفي المرواة التي وهبت له نفسها أقوال: أحدها: أم شريك. والثاني: خولة بنت حكيم. ولم يدخل بواحدة منهما. وذكروا أن ليلي بنت الخطيم وهبت نفسها له فلم يقبلها. قال ابن عباس: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له^(٢). وقد حكى عن ابن عباس أن التي وهبت نفسها له ميمونة بنت الحارث، وعن الشعبي: أنها زينب بنت خزيمة. والأول: أصح^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين غيرك ﴿فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أن لا يجاوز الرجل أربع نسوة، قاله مجاهد. والثاني: أن لا يتزوج الرجل المرأة إلا بولي وشاهدين وصدّاق، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: وما أبحنا لهم من ملك اليمين مع الأربع الحرائر من غير عدد محصور^(٤).

قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ هذا فيه تقديم؛ المعنى: أحللتنا لك أزواجك، إلى قوله: «خالصة لك من دون المؤمنين؛ لكيلا يكون عليك حرج».

قوله تعالى: ﴿رَبِّيَ مِنْ نَفْسِكَ يَتَّبِعُنَّ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿تُرْجِي﴾ مهموزاً؛ وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بغير همز. وسبب نزولها أنه لما نزلت آية التخيير المتقدمة، أشفقن أن يظلفن، فقلن: يا نبي الله، اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت، ودعنا على حالنا، فنزلت هذه الآية، قاله

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة: أي: لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل، لم تحل له حتى يعطيها شيئاً، وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما، أي: أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وجب عليه مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في تزويج بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصدق مثلها لما توفي عنها زوجها، قال: والموت والدخول سواء في تقرير المهر، وثبت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ، فأما هو عليه الصلاة والسلام، فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها، لأن له أن يتزوج بغير صدق ولا ولي ولا شهود، كما في قصة زينب بنت جحش، ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر، إلا للنبي ﷺ. اهـ.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/٢٢ من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤٠٤/٨: وإسناده حسن، والمراد: أنه لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان مباحاً له، لأنه راجع إلى إرادته، لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ اللَّيْثُ أَنْ يَسْتَكْفِكَ﴾.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤٠٤/٨: ومنه (بمعنى الموهوبات) زينب بنت خزيمة، جاء عن الشعبي، وليس ثابت، وقال: وعند ابن أبي حاتم من طريق قتادة عن ابن عباس قال: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، هي ميمونة بنت الحارث، قال: وهذا مقطوع، وقال: وأورده من وجه آخر مرسل، وإسناده ضعيف، اهـ. وقد ثبت أن بعض النساء وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ. وقد قال ابن كثير: اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير، كما قال البخاري عن عائشة، قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتعب المرأة نفسها؟! فلما أنزل الله تعالى: ﴿رَبِّيَ مِنْ نَفْسِكَ يَتَّبِعُنَّ وَتُورِي إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ وَمَنْ أَنْتَبِتِ مِنْ عَزْلِكَ فَلَا جُنْحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرى ذلك إلا يسارع في هرا.

(٤) قال ابن كثير: وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال أبي بن كعب، ومجاهد، والحسين، وقاتدة، وابن جرير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: من حصوم في أربع نسوة حرائر وما شأوا من الإماء، واشترط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة، وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً من ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. اهـ.

أبو رزين^(١). وفي معنى الآية أربعة أقوال: أحدها: تطلّق من تشاء من نسائك، وتُنميك من تشاء من نسائك، قاله ابن عباس. والثاني: تترك نكاح من تشاء، وتُنكح من نساء أمّتك من تشاء، قاله الحسن. والثالث: تغزّل من شئت من أزواجك فلا تأتيها بغير طلاق، وتأتي من تشاء فلا تغزّلها. قاله مجاهد. والرابع: تقبّل من تشاء من المؤمنات اللواتي يهين أنفسهنّ، وتترك من تشاء، قاله الشعبي، وعكرمة. وأكثر العلماء على أن هذه الآية نزلت مبيحة لرسول الله ﷺ مصاحبة نساته كيف شاء من غير إيجاب القسمة عليه والتسوية بينهما، غير أنه كان يسوّي بينهما^(٢). وقال الزُّهري: ما عَلِمْنَا رسولَ الله ﷺ أرجأَ منهمُ أحداً، ولقد آواهُنَّ كلَّهُنَّ حتى مات. وقال أبو رزين: أوى عائشة، وأم سلمة، وحفصة، وزينب، وكان قسّمهُ من نفسه وماله فيهنّ سواءً. وأرجأ سودة، وجويرة، وصفية، وأم حبيبة، وميمونة، وكان يقسّم لهنّ ما شاء. وكان أراد فراقهنّ فقلن: اقسّم لنا ما شئت، ودعنا على حالنا. وقال قوم: إنّما أرجأ سودة وحدها لأنها وهبت يومها لعائشة، فتوفي وهو يقسّم لثمان.

قوله تعالى: ﴿وَتُفَوِّضُ﴾ أي: تضم، ﴿وَمَنْ أَيْبَتِ يَمَنْ عَزَّتْ﴾ أي: إذا أردت أن تُؤوي إليك امرأة ممن عزلت من القسمة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: لا مئيل عليك بلؤم ولا عتب ﴿وَالَّذِي أَذْنَعُ أَنْ تَقْرَأَ آيَاتِهِنَّ﴾ أي: ذلك التخيير الذي خيرناك في صحبتهنّ أقرب إلى رضاهنّ. والمعنى: إنهنّ إذا عَلِمْنَ أن هذا أمر من الله، كان أطيب لأنفسهنّ. وقرأ ابن محيصن، وأبو عمران الجوني: «أن تُقرأ» بضم التاء وكسر القاف «أَعْيُنُهُنَّ» بنصب النون. «وَبَرِيضَاتٍ يَمَآءَ آيَاتِهِنَّ كَلِمَةً» أي: بما أعطيتهن من تقريب وتأخير^(٣) ﴿وَاللَّهُ يَلْمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من المئيل إلى بعضهنّ^(٤). والمعنى: إنّما خيرناك سهيلاً عليك.

قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ﴾ كلّمهم قرأ: «لا يحلّ» بالياء، غير أبي عمرو، فإنه قرأ بالياء؛ والتأنيث ليس بحقيقي، إنّما هو تأنيث الجمع، فالقراءتان حستانان. وفي قوله: ﴿يَوْمَ بَعْدَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: من بعد نسائك اللواتي خيرتهنّ فاخترن الله ورسوله، قاله ابن عباس، والحسن، وقادة في آخرين، وهُنَّ السّبع، فصار [مقصوراً] عليهنّ ممنوعاً من غيرهن. وذكر أهل العلم أن طلاقه لحفصة وعزّمه على طلاق سودة كان قبل التخيير^(٥). والثاني: من بعد الذي أحلّنا لك، فكانت الإباحة بعد نساته مقصورة على المذكور في قوله: ﴿إِنَّمَا أَطْلَقْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾؛ قاله أبي بن كعب، والضحاك. والثالث: لا تحلّ لك النساء غير المسلمات كاليهوديات والنصرانيات والمشركات، وتحلّ لك المسلمات، قاله مجاهد.

(١) قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: ١٣٥: أخرجه ابن أبي شيبة من رواية رزين، قال: وهذا مرسل. اهـ. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠٥ بدون سند وقال: وقال قوم... إلخ.

(٢) قال ابن كثير: ولهذا ذهب طائفة من العلماء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ﷺ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة، قال: وقال البخاري عن معاذ بن عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿تُفَوِّضُ مَنْ تَقَرَّرَ مِنْ تَقَرَّرَ وَتُفَوِّضُ مَنْ تَقَرَّرَ وَتُفَوِّضُ مَنْ تَقَرَّرَ وَتُفَوِّضُ مَنْ تَقَرَّرَ﴾ نقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذلك إليّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أوتر عليك أحداً. قال ابن كثير: فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجود القسم، وحديثها الأول - يعني: «أرى ربك يسارع في هواك» - يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات، قال: ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن، إن شاء قسم، وإن شاء لم يقسم، قال: وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين الأحاديث. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا إن تقسم لهن اختياراً منك، لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمئتك عليهن في قسمك لهن وتسويتك بينهما، وإتصافك لهن، وعذلك فيهن. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: أي: من المئيل إلى بعضهن دون بعض لما لا يمكن دفعه. اهـ. وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي بسند جيد عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ كان يقسم بين نساءه فيعدل ويقول: «اللهم هلا قسمي فيما أمك فلا تلمني فيما تمك ولا أمك». هذا بالنسبة له ﷺ، وقد قال رسول الله ﷺ بالنسبة لغيره فيما رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي بسند صحيح عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «إذا كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة ويثقه ساقط».

(٥) قال ابن كثير: فأما قضية سودة، ففي «الصحيح» عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها: وهي سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَادَتْ إِحْرَامًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُسَلِّحَ بِهَا سُلْحَاهَا...﴾ الآية، وأما قضية حفصة، فروى أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه» من طرق عن عمر أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها، قال: وهذا إسناد قوي. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن تطلق زوجاتك وتستبدل بهن سواهن^(١)، قاله الضحاك. والثاني: أن تبدل بالمسلمات المشركات، قاله مجاهد في آخرين. والثالث: أن تعطى الرجل زوجته وتأخذ زوجته، وهذه كانت عادة للجاهلية، قاله أبو هريرة، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ يعني الإمام. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: إلا أن تملك بالسبي، فيجلب لك وطوها وإن كانت من غير الصنف الذي أحلته لك؛ وإلى هذا أوما أبي بن كعب في آخرين. والثاني: إلا أن تصيب يهودية أو نصرانية فتطأها بملك اليمين، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثالث: إلا أن تبدل أمتك بأمة غيرك، قاله ابن زيد. قال أبو سليمان الدمشقي: وهذه الأقوال جائرة، إلا أننا لا نعلم أن رسول الله ﷺ نكح يهودية ولا نصرانية بتزويج ولا ملك يمين، ولقد سبى ربحانة القرظية فلم يذُنْ منها حتى أسلمت.

فصل

واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها منسوخة بقوله: ﴿إِنَّمَا أَحَلَّلْنَا لَكِ أَزْوَاجَكَ﴾، وهذا مروى عن علي، وابن عباس، وعائشة، وأم سلمة، وعلي بن الحسين، والضحاك. وقالت عائشة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أجل له النساء^(٢)، قال أبو سليمان الدمشقي: يعني نساء جميع القبائل من المهاجرات وغير المهاجرات. والقول الثاني: أنها محكمة؛ ثم فيها قولان: أحدهما: أن الله تعالى أثناب نساءه حين اخترته بأن قصره عليهن، فلم يجلب له غيرهن، ولم ينسخ هذا، قاله الحسن، وابن سيرين، وأبو أمامة بن سهل، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث^(٣). والثاني: أن المراد بالنساء هاهنا: الكافرات، ولم يجز له أن يتزوج كافرة، قاله مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وجابر بن زيد.

﴿يَتَأْتِيَ الْبُيُوتَ مَأْمُورًا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبَاتِيْنٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِنْ دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا إِنْ دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا وَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَسْتَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْغَيْبِ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَمًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْبُيُوتَ مَأْمُورًا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ...﴾ الآية^(٤). في سبب نزولها ستة أقوال: القول الأول: أخرجاه في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش دعا القوم،

(١) قال ابن كثير: فيها من الزيادة عليهن إن طلق واحدة منهن واستبدل غيرها بها إلا ما ملكت يمينه. اهـ.

(٢) رواه أحمد في «المسند» والترمذي في «جامعه» والنسائي في «سننه» عن عائشة ﷺ.

(٣) قال ابن كثير: ذكر غير واحد من العلماء، كابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقنادة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم، أن هذه الآية نزلت مجازة لأزواج النبي ﷺ، ورضى عنهم على حسن صنيعهم في اختيارهم الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهم رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية، فلما اخترن رسول الله ﷺ، كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ولو أعجبه حسنهن، إلا الإمام السراي، فلا حرج عليه فيهن، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج، لتكون البيعة لرسول الله ﷺ عليهن، وذكر ابن كثير بعض الأدلة على ذلك، ثم قال: وذلك قوله تعالى: ﴿تَزَوَّجْنَا مِنْكُمْ غَيْرِمْ...﴾ الآية، قال: فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة، كآبتي عدة الوفاة في (البقرة) الأولى ناسخة للتي بعدها، والله أعلم. قال: وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لَا يُجِلُّ لَكَ الْبَيْتَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ أي: من بعد ما يكرتلك من صفة النساء اللاتي أحللتك لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات العم والعمات والخال والخالات، والواوية، وما سوى ذلك من أصناف النساء، فلا يحل لك. وذكر بعض أقوال السلف في ذلك، ثم قال: واختار ابن جرير رحمه الله أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمتهم وكن تنسماً، قال: وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير من حكيتا عنه من السلف، فإن كثيراً منهم روي عنه هذا وهذا، ولا منافاة، والله أعلم. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب ﷺ، كما ثبت ذلك في «الصحيحين» عنه أنه قال: وافقت ربي ﷺ في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخلت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ مِنْكُمْ رِجَالٌ مُثَلَّمُونَ﴾ وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البئر والفاجر، فلو حجبتن، فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَيِّتَهُنَّ أَنْزَابًا بِغَيْرِ بَيْتِكَ﴾ فنزل كذلك. قال: وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهي قضية رابعة. اهـ.

فقطعوا ثم جلسوا يتحدثون، فأخذ كآبه يتهتأ للمقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام، وقعد ثلاثة، فجاء رسول الله ﷺ فدخل فإذا القوم جلوس، فرجع، وإيهم قاموا فانطلقوا، وجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، وذهبت أدخل فالتى الحجاب بيني وبينه، وأنزل الله تعالى هذه الآية^(١). والثاني: أن ناساً من المؤمنين كانوا يتحيتون طعام النبي ﷺ فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك^(٢)، ثم يأكلون ولا يخرجون، فكان رسول الله ﷺ يتأذى بهم، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(٣). والثالث: أن عمر بن الخطاب قال: قلت يا رسول الله! إن نساءك يدخلن عليهن الزبير والفاجر، فلو أمرتهن أن يخرجن، فنزلت آية الحجاب، أخرجه البخاري من حديث أنس، وأخرجه مسلم من حديث ابن عمر، كلاهما عن عمر^(٤). والرابع: أن عمر أمر نساء رسول الله ﷺ بالحجاب، فقالت زينب: يا ابن الخطاب، إنك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا! فنزلت الآية، قاله ابن مسعود^(٥). والخامس: أن عمر كان يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، فلا يفعل، فخرجت سودة ليلة، فقال عمر: قد عرفناك يا سودة - حرصاً على أن ينزل الحجاب - فنزل الحجاب، رواه عكرمة عن عائشة^(٦). والسادس: أن رسول الله ﷺ كان يطعم معه بعض أصحابه، فأصاب يد رجل منهم يد عائشة، وكانت معهم، فكره النبي ﷺ ذلك، فنزلت آية الحجاب، قاله مجاهد^(٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنبِئُكُمْ بِاللَّغَابِ﴾ أي: أن تُدْعُوا إليه ﴿مَعَرَّ نَطِيرِينَ﴾ أي: منتظرين ﴿إِنَّهُمْ﴾. قال الزجاج: موضع «أن» نصب؛ والمعنى: إلا بأن يؤذن لكم، أو لأن يؤذن، و«غيراً» منصوبة على الحال؛ والمعنى: إلا أن يؤذن لكم غير متظرين. وإِنَّمَا: نُفِضَهِ وَيُلُوغُهُ.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْشِرُوا﴾ أي: فاخرجوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْتَفِيدِينَ لِلْجَبِينِ﴾ المعنى: ولا تدخلوا مستأنين، أي: طالبي الأنس لحديث، وذلك أنهم كانوا يجلسون بعد الأكل فيتحدثون طويلاً، وكان ذلك يؤذيه، ويستحيي أن يقول لهم: قوموا، فعلمهم الله الأدب، فذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَفِيدُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي: لا يترك أن يبين لكم ما هو الحق ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ أي: شيئاً يُسْتَمْتَعُ به ويُتَمَتَّعُ به من آلة المنزل ﴿فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ﴾ أي: سؤالكم إياهن المتاع من وراء حجاب أطهر ﴿لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الرية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: ما كان لكم آذاه في شيء من الأشياء. قال أبو عبيدة: وكان من خروف الزوائد. والمعنى: ما لكم أن تؤذوا رسول الله ﷺ ﴿وَلَا أَنْ تَكْفُرُوا بِمَا آتَاكُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾.

- (١) البخاري ٤٠٦/٨، ٤٠٧، ومسلم ١٠٥٠/٢، ورواه ابن جرير الطبري بنحو ٣٧/٢٢، وأورده السيوطي في «الدر» ٢١٣/٥، وزاد نسبه لأحمد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» من طرق عن أنس ﷺ.
- (٢) أي: إلى أن يفضح الطعام.
- (٣) ذكره البغوي في «تفسيره» عن ابن عباس بدون سند.
- (٤) البخاري ٤٠٦/٨، ومسلم ١٨٦٥/٤ وهو طرف من حديث أوله: «وافقته ربي في ثلاث...» وقد تقدم.
- (٥) «الطبري» ٤٠/٢٢ من طريق عطاء بن السائب، عن أبي وائل عن ابن مسعود، وذكره السيوطي في «الدر» ٢١٤/٥ من رواية ابن مروجه عن ابن مسعود ﷺ. قال الحافظ ابن حجر في «تخرج الكشاف» ١٣٧: رواه الثعلبي من رواية مجاهد عن الشعبي.
- (٦) رواه الطبري ٤٠/٢٢ من طريق عروة عن عائشة، قال ابن كثير: هكذا وقع في هذه الرواية، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب، كما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ﷺ قالت: خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرأها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفات راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتشبهني يده يرق، فدخلت فقالت: يا رسول الله! إنني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا، قالت: فأوحى الله إلي، ثم رفع عنه وإن البرق في يده ما وضعه، فقال: فإنه قد أذن لك أن تخرجن لحاجتك، وقال ابن كثير: هذا لفظ البخاري. اهـ. وقال ابن كثير أيضاً: فقوله تعالى: ﴿لَا تَسْكُرُوا لِلَّهِ الْأَنْبِيَاءَ﴾ حظ على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة، قال: ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء...» الحديث، قال: ثم استثنى من ذلك فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنبِئُكُمْ بِاللَّغَابِ﴾ قال: قال مجاهد وقناة وغيرهما، أي: غير متحيتين نفضه واستواءه، أي: لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا مما يكرهه الله ويلمه، قال: وهذا دليل على تحريم التطفل، وهو الذي تسميه العرب: «الضيفين». اهـ.
- (٧) رواه الطبري ٣٩/٢٢ عن مجاهد مرسلأ، قال الحافظ ابن حجر في «تخرج الكشاف» ١٣٦: رواه ابن أبي شيبة والطبري من طريق مجاهد مرسلأ.

فقال: قولوا: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلَّيتَ على آل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد، وبارك^(٢) على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد»، أخرجه البخاري ومسلم^(٣). ومعنى قوله «قد علمنا التسليم عليك»: ما يقال في التشهد: «السلام عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته». وذهب ابن السائب إلى أن معنى التسليم: سلِّموا ليما يأمركم به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: في الذين طعنوا على رسول الله ﷺ حين اتخذ صفية بنت حبيبي، قاله ابن عباس^(٤). والثاني: نزلت في المصوِّرين، قاله عكرمة^(٥). والثالث: في المشركين واليهود والنصارى، وصفوا الله بالولد وكذبوا رسوله وشجَّروا وجهه وكسروا ربايعته وقالوا: مجنون شاعر ساحر كذاب^(٦). ومعنى أذى الله: وصفه بما هو منزَّه عنه، وعصيانُه^(٧)؛ ولعنُهم في الدنيا: بالقتل والجلاء، وفي الآخرة: بالنار.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن عمر بن الخطاب رأى جارية متبرجة فضربها وكفَّ ما رأى من زينتها، فذهبت إلى أهلها تشكو، فخرجوا إليه فأذوه، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس^(٨). والثاني: أنها نزلت في الرُّثاة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقصاء حوائجهن، فيرون المرأة فيدنون منها فيخمزونها؛ وإنما كانوا يؤذون الإماء، غير أنه لم تكن الأمة تُعرَف من الحرة، فشكون ذلك إلى أزواجهن، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(٩). والثالث: أنها نزلت فيمن تكلم في عائشة وصفوان بن المعطل بالإنك، قاله الضحاك^(١٠). والرابع: أن ناساً من المنافقين آذوا علي بن أبي طالب، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(١١). قال المفسرون: ومعنى الآية: يرمونهم بما ليس فيهم.

(١) ما بين المعقنين زيادة من «البخاري» و«مسلم» من حديث كعب بن عجرة.

(٢) في حديث كعب بن عجرة في البخاري ومسلم: «اللهم بارك».

(٣) البخاري ٤١٠/٨ ومسلم ٣٠٥/١، ولهذا الحديث صيغ أخرى بألفاظ مختلفة تراجع في محلها من كتب الحديث، انظر فتح الباري ١١/١٢٨ - ١٤٧. قال ابن كثير: والمقصود من هذه الآية - «إِنَّ اللَّهَ وَنَبِيِّهِ صَلَّى عَلَ النَّبِيِّ كَمَا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ سَلَامًا سَلَامًا وَسَلَامًا سَلَامًا» - أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملا الأعلى بأنه يبي عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، قال: ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً. اهـ. وقال ابن كثير أيضاً: ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير، فإن تركه لم تصح صلاته، ثم قال: وقد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة كما هو ظاهر الآية ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة، منهم: ابن مسعود، وأبو مسعود البديري، وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل بن حيان، قال: وإليه ذهب الشافعي، لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، قال: وإليه ذهب الإمام أحمد أخيراً فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي، وبه قال إسحاق بن راهويه، والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المؤاز المالكي رحمه الله، ثم قال: وللقول بوجوده ظواهر الحديث والله أعلم. قال: وما يؤيد ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن خزيمة وابن حبان في «صحيحهما» عن فضالة بن عبيد ﷺ قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، لم يمجِّد الله، ولم يصلي على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «جعل الله له آفة» ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله ﷻ والثناء عليه، ثم ليصلِّ على النبي، ثم ليدع بما شاء». اهـ.

(٤) رواه الطبري: ٤٥/٢٢ من رواية عطية العموي عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر»: ٢٢٠/٥، وزاد نسبه لابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ.

(٥) ذكره البيهقي عن عكرمة بدون سند، وقال ابن كثير: قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزلت في المصوِّرين. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: الذين يؤذون الله ورسوله هم أصحاب التصاویر.

(٦) ذكر هذا المعنى البيهقي والخازن عن ابن عباس بدون سند، وذكره السيوطي في «الدر»: ٢٢٠/٥ من رواية ابن المنذر عن ابن جريج قال: آذوا الله فيما يدعون معه، وآذوا رسول الله ﷺ قالوا: إنه ساحر مجنون. قال ابن كثير: والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومن آذاه فقد كذى الله، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله. اهـ.

(٧) ومن إيذاه تعالى، ما جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر أتقلب ليله ونهاره» ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا، فيستندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونوه، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ.

(٨) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ٢٠٧، ٢٠٨ عن عطاء عن ابن عباس بدون سند.

(٩) الواحدي في «أسباب النزول»: ٢٠٨ عن الضحاك والسدي والكلبي بدون سند.

(١٠) ذكره السيوطي في «الدر»: ٢٢٠/٥ من رواية ابن جرير عن ابن عباس قال: أنزلت في عبد الله بن أبي نانس معه تذفوا عائشة ﷺ.

(١١) الواحدي في «أسباب النزول»: ٢٠٨ عن مقاتل بدون سند، وكذلك البيهقي.

﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلَّ لَأَزْوَاجِكَ وَتَبَاكَ وَرِسَاةَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِكُ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ ذَلِكَ أَدَبٌ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ اللَّهُ عَقْرًا رَجِيمًا ﴿٥٩﴾ لَنْ تَرَى بَيْنَهُ الْمُتَّقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَتُفْرَقَنَّ عَنْهُمْ شُرُكُؤُهُمْ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مُلْعُونًا أَيْسًا تُفْقَرُونَ أُخِذُوا وَفُتِلُوا لَتَلْبَسُنَّ ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الذِّكْرِ خُلُوعًا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلَّ لَأَزْوَاجِكَ...﴾ الآية، سبب نزولها أن الفساق كانوا يؤذون النساء إذا خرجن بالليل، فإذا رآوا المرأة عليها فتاح تركوها وقالوا: هذه حرة، وإذا رآوها بغير فتاح قالوا: أمة، فأدوها، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(١).

قوله تعالى: ﴿يُدْرِكُ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ﴾^(٢) قال ابن قتبية: يلبس الأزدية. وقال غيره: يغطين رؤوسهن ووجوههن ليعلمن أنهن حرائر ﴿ذَلِكَ أَدَبٌ﴾ أي: أخرى وأقرب ﴿أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَى بَيْنَهُ الْمُتَّقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: عن نفاقهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: فجور، وهم الزناة ﴿وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ بالكذب والباطل، يقولون: أتاكم العدو، وقتلت سراياكم وهزمت ﴿لَتُفْرَقَنَّ عَنْهُمْ﴾ أي: لتسلطنك عليهم بأن نامرك بقتالهم. قال المفسرون: وقد أغري بهم، فقيل له: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٤٩]، وقال يوم الجمعة «أخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق، قم يا فلان فإنك منافق»^(٣) ﴿شُرُكُؤُهُمْ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ حتى يهلكوا، ﴿مُلْعُونًا﴾ منصوب على الحال؛ أي: لا يجاورونك إلا وهم ملعونون ﴿أَيْسًا تُفْقَرُونَ﴾ أي: وجدوا وأدركوا ﴿أُخِذُوا وَفُتِلُوا لَتَلْبَسُنَّ﴾ معنى الكلام: الأمر، أي: هذا الحكم فيهم، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ أي: سن في الذين ينافقون الأنبياء ويرجعون بهم أن يفعل بهم هذا.

﴿يَسْأَلُ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلَّ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِكُ لَمَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يُجِدُونَ وِلْيَةً وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تَقُفُّ أَرْجُلُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاتَنَا فَاذْلُبْنَا السَّيِّئَاتِ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمًا وَالْعَنَمُ لَمَنَا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ قال عروة: الذي سأله عنها عتبة بن ربيعة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِكُ﴾ أي: أي شيء يُعلمك أمر الساعة ومتى تكون؟ والمعنى: أنت لا تعرف ذلك؛ ثم قال: ﴿لَمَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾. فإن قيل: هلا قال: قريبة؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه أراد الظرف، ولو أراد صفة الساعة بعينها، لقال: قريبة، هذا قول أبي عبيدة. والثاني: أن المعنى راجع إلى البعث، أو إلى مجيء الساعة. والثالث: أن تأنيث الساعة غير حقيقي، ذكرهما الزجاج. وما بعد هذا قد سبق بيان ألفاظه [البقرة: ١٥٩، النساء: ١٠، الإسراء: ٤٩٧]. فاما قوله: ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فقال الزجاج: الاختيار الوقف بألف، لأن أواخر الآي وفواصلها تجري مجرى أواخر الآيات، وإنما حوطوا بما يعقلونه من الكلام المؤلف ليدل بالوقف بزيادة الحرف أن الكلام قد تم؛ وقد أشرنا إلى هذا في قوله: ﴿الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ٤١].

قوله تعالى: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاتَنَا﴾ أي: أشرافنا وعظماءنا. قال مقاتل: هم الْمُطْعَمُونَ في غزوة بدر. وكلهم قرأوا: «سادتنا» على التوحيد، غير ابن عامر، فإنه قرأ: «ساداتنا» على الجمع مع كسر التاء، ووافقه المفضل، ويعقوب، إلا أبا حاتم ﴿فَاذْلُبْنَا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عن سبيل الهدى، ﴿رَبَّنَا آتِنَاهُمْ﴾ يعنون السادة ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: ضعفي عذابنا، ﴿وَالْعَنَمُ لَمَنَا كَبِيرًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «كثيراً» بالثاء. وقرأ عاصم، وابن عامر: «كبيراً» بالباء. وقال أبو علي: الكثرة أشبه بالجوار المتكررة من الكبر.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٢٢/٥ من رواية ابن أبي حاتم عن السدي. وذكره الواحلي في «أسباب النزول» ٢٠٨ عن السدي بدون سند.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى أمرًا رسول الله ﷺ، أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدين عليهن من جلبيههن، لتمييزهن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء، قال: والجلباب: هو الرداء فوق الخمار، قاله ابن مسعود، وعبيدة، وقناة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وعطاء الخراساني، وغير واحد، وهو بمنزلة الإزار اليرم، وقال: قال الجوهري: الجلباب: الملحفة.

(٣) هو جزء من حديث طويل رواه الطبري ١٠/١١، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس، وفي سننه الحسين بن عمرو العتري، وهو ضعيف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَرَّاهُ اللَّهُ مَتَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصِلِحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيُضَرِّحْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدَ فَرَ وَرَأَى عَظِيماً ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ أي: لا تؤذوا محمداً كما آذى بنو إسرائيل موسى فينزل بكم ما نزل بهم. وفي ما آذوا به موسى أربعة أقوال: أحدها: أنهم قالوا: هو آذر، فذهب يوماً يغتسل، ووضع ثوبه على حجر، فقرأ الحجر بشوئه، فخرج في طلبه، فأرؤه فقالوا: والله ما به عن بأس. والحديث مشهور في الصحاح كلها من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «وقد ذكرته بإسناده في المغني» والمعادن^(١). قال ابن قتيبة: والآذر: عظيم الخصبين. والثاني: أن موسى صعد الجبل ومعه هارون، فمات هارون، فقال بنو إسرائيل: أنت قتلته، فأذوه بذلك، فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى مرت به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة بموته حتى عرف بنو إسرائيل أنه مات، فبرأه الله من ذلك، قاله علي رضي الله عنه^(٢). والثالث: أن قارون استاجر بنياناً^(٣) لتكذيب موسى بنفسها على ملا من بني إسرائيل فعصمها الله ويزراً موسى من ذلك. قاله أبو العالية^(٤). والرابع: أنهم رموه بالسحر والجنون، حكاها الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ قال ابن عباس: كان عند الله حظياً لا يسأله شيئاً إلا أعطاه. وقد بينا معنى الوجيه في (البحر) ٤٤٥^(٥). وقرأ ابن مسعود والأعمش، وأبو حنيفة: «وكان عبداً لله» بالتنوين والياء، وكسر اللام.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: صواباً، قاله ابن عباس. والثاني: صادقاً، قاله الحسن. والثالث: عدلاً، قاله السدي. والرابع: متخذاً، قاله ابن قتيبة. ثم في المراد بهذا القول ثلاثة أقوال: أحدها: أنه (لا إله إلا الله)، قاله ابن عباس، وعكرمة. والثاني: أنه الحلال في جميع الأوقات والأعمال، قاله قتادة. والثالث: في شأن زينب وزيد، ولا تنسوا رسول الله ﷺ إلى ما لا يصلح، قاله مقاتل بن حيان.

قوله تعالى: ﴿يُصِلِحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ فيه قولان. أحدهما: يتقبل حسناتكم، قاله ابن عباس. والثاني: يزكي أعمالكم، قاله مقاتل^(٦).

قوله تعالى: ﴿فَقَدَ فَرَ وَرَأَى عَظِيماً﴾ أي: قال الشيخ وظفر به.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴿٧٢﴾ لَعَلَّ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالشَّرِيفِينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَابْتُيِبَتْ لَهُمْ عَمَلُهُمْ وَكُلُّ الشَّيْءِ لِلَّهِ عِندَ رَبِّهِ ﴿٧٣﴾﴾

(١) روى البخاري في صحيحه ٣١٢/٦ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حياً، شبيهاً، لا يرى من جلده شيء استجابة منه، فألقه من الله من بني إسرائيل فقال: ما يستر هذا السر إلا من عب بجلده، إما برص، وإما آفة، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فحلق يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم افتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر حمل بشوئه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل فأرؤه هرباً ما حلق الله، وأبرئه مما يقولون، وقام حجر فأخذ بثوبه، فلبسه وطق بالحجر ضرباً بصاه، فوالله إن الحجر لتنبأ من أثر ضربه ثلاثاً، أو أربعاً أو خمساً، فلذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَرَّاهُ اللَّهُ مَتَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٩﴾﴾. قال ابن كثير عن هذا الحديث بعدما ذكره في «تفسيره»: وهذا سياق حسن مطول، قال وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم. اهـ. والحديث أورده السيوطي في «الدر» ٢٢٣/٥، وزاد نسبه لعبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والتلميذ، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «الطبري» ٥٢/٢٢، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤١١/٨: روى أحمد بن منيع في «مسنده» والطبري، وابن أبي حاتم، بإسناد قوي عن علي رضي الله عنه. ... فذكره، وأورد السيوطي في «الدر» ٢٢٣/٥ وزاد نسبه لابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن علي رضي الله عنه. قال ابن كثير: وجاز أن يكون هذا هو المراد بالأذى، وجاز أن يكون الأول هو المراد، فلا قول أولي من قول الله ﷻ، قال ابن كثير: قلت: يحتمل أن يكون الكل مراداً، وأن يكون معه غيره والله أعلم. اهـ. وقال الحافظ ابن حجر: وما في «الصحيح» أصح من هذا؛ لكن لا مانع أن يكون للشيء سببان فأكثر كما تقدم تقريره غير مرة. اهـ.

(٣) في الأصل: بنته. وفي «اللسان» والتاج مادة «بنله»: ولا يقال للمرأة: بنته.

(٤) رواه السيوطي في «الدر» ١٣٦/٥ من رواية ابن أبي شيبة في «المصنف». وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه. وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه مطولاً. والقصة نقلت بحرفها في الصفحة (٧٣) (١).

(٥) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ أي: أنه رجلاً وجاءه عند يده رضي الله عنه. قال: قال الحسن البصري: كان مستخيباً للبعثة عند الله، وقاله غيره من السلف: لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه. ولكن منع الروية لمد يشاء الله ﷻ، قال: وقال بعضهم: نزلت بها عند الله، لأنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله فقال: ﴿وَوَكَيْتُ لِرَبِّي نَجِيهاً أَنَّهُ هُوَ نَجِيهاً﴾. اهـ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدتها أثابها، وإن ضيعتها عذبها، فكرهت ذلك؛ وعرضها على آدم فقيلها بما فيها، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس^(١)؛ وكذلك قال سعيد بن جبيرة: عرضت الأمانة على آدم فقيل له: تأخذها بما فيها، إن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك، فقال: قُبلتُ، فما كان إلا كما بين صلاة العصر إلى أن غربت الشمس حتى أصاب الذئب^(٢). وممن ذهب إلى أنها الفرائض قتادة، والضحاك، والجمهور. والثاني: أنها الأمانة التي ياتمن الناس بعضهم بعضاً عليها. روى السدي عن أشياخه أن آدم لما أراد الحج قال للسماء: احفظي ولدي بالأمانة، فأبت، وقال للأرض، فأبت، وقال للجبال، فأبت، فقال لقابيل، فقال: نعم، تذهب وتجيء وتجد أهلك كما يسرك، فلما انطلق آدم قتل قابيل هابيل، فرجع آدم فوجد ابنه قد قتل أخاه، فذلك حيث يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ وهو ابن آدم، فما قام بها^(٣). وحكى ابن قتيبة عن بعض المفسرين أن آدم لما حضرته الوفاة قال: يا رب، من استخلف من بعدي؟ فقيل له: اعرض خلافتك على جميع الخلق، فعرضها، فكل أباه غير ولده. وللمفسرين في المراد بعرض الأمانة على السموات والأرض قولان: أحدهما: أن الله تعالى ركب العقل في هذه الأعيان، وأفهمهم خطابها، وأنطقهم بالجواب حين عرضها عليهم، ولم يُرد بقوله: «أَبَيْنَ» المخالفة، ولكنْ أَبَيْنَ لِلْحَشِيَّةِ والمخافة، لأن العَرَضُ كان تخييراً لا إلزاماً، و«أشفقن» بمعنى خفن منها أن لا يؤدبنا فيلحقهن العقاب، هذا قول الأكثرين. والثاني: أن المراد بالآية: إننا عرضنا الأمانة على أهل السموات وأهل الأرض وأهل الجبال من الملائكة، قاله الحسن، وفي المراد بالإنسان أربعة أقوال: أحدها: آدم في قول الجمهور. والثاني: قابيل في قول السدي. والثالث: الكافر والمنافق، قاله الحسن. والرابع: جميع الناس، قاله ثعلب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَانْتَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ظلوماً لنفسه، غرّاً بأمر ربّه، قاله ابن عباس، والضحاك. والثاني: ظلوماً لنفسه، جهولاً بعاقبة أمره، قاله مجاهد. والثالث: ظلوماً بمعصية ربّه، جهولاً بعقاب الأمانة، قاله ابن السائب. وذكر الزجاج في الآية وجهاً يخالف أكثر الأقوال، وذكر أنه موافق للتفسير فقال: إن الله تعالى اتّمن بني آدم على ما افترضه عليهم من طاعته، واتّمن السموات والأرض والجبال على طاعته والخضوع له، فأما السموات والأرض فقالتا: ﴿أَيْنَا ظَالِمِينَ﴾ [فصلت: ٤١١]، وأعلمنا أن من الحجارة ما يهبط من خشية الله، وأن الشمس والقمر والنجوم والجبال والملائكة يسجدون لله، فعرفنا الله تعالى أن السموات والأرض لم تحتل الأمانة، لأنها أدتها، وأداؤها: طاعة الله وترك معصيته، وكل من خان الأمانة فقد احتملها، وكذلك كل من أثم فقد احتل الإثم^(٤)، وكذلك قال الحسن: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ أي: الكافر والمنافق حملاًها، أي: خانها ولم يُطيعها؛ فأما من أطاع، فلا يقال: كان ظلوماً جهولاً.

قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال ابن قتيبة: المعنى: عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهم الله، ويظهر إيمان المؤمنين فيتوب الله عليهم، أي: يعود عليهم بالرحمة والمغفرة إن وقع منهم تقصير في الطاعات^(٥).



- (١) «الطبري» ٥٤/٢٢، وذكره السيوطي في «الدرر» ٥/٢٢٤، وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب «الأضداد» عن ابن عباس.
- (٢) «الطبري» ٥٤/٢٢ عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدرر» ٥/٢٢٥، وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب «الأضداد»، والحاكم وصححه، عن ابن عباس.
- (٣) روى هذا الخبر مطولاً الطبري ٥٦/٢٢، ٥٧ من رواية السدي في خبر ذكره عن أبي مالك. وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ.
- (٤) قال الألوسي عن قول الزجاج هنا: ولا يخفى بطله، ولم تر في المأثور ما يؤيده. اهـ.
- (٥) قال الألوسي في تسمية الآية: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» أي: مبالغاً في المغفرة والرحمة حيث تاب على المؤمنين والمؤمنات وغفر لهم قرانهم، وأتابهم بالفوز العظيم على طاعتهم، نسأل الله تعالى أن يتوب علينا ويغفر لنا ويشينا بالفوز العظيم، إنه - جل جلاله وعم نواله - غفور رحيم. اهـ.

سورة سبأ

وهي مكيّة بإجماعهم

وقال الضحاك، وابن السائب، ومقاتل: فيها آية مدنية، وهي قوله: ﴿وَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [سبأ: ٦].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا بَلَّغُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْمُنْتَوِي ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ يَخْرُجُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْمُبِينِ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ يَحْمَدُهُ أَوْلِيَائِهِ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ، فيقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ﴾ [الزمر: ٧٤] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْغُرْنَ﴾ [طاهر: ٣٤]١. ﴿يَعْلَمُ مَا بَلَّغُ فِي الْأَرْضِ﴾ من بذر أو مطر أو كثر أو غير ذلك ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من زرع ونبات وغير ذلك ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من مطر أو رزق أو ملك ﴿وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا﴾ من ملك أو عمل أو دعاء. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مُكْثِرِي البعث ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أي: لا تَبْعَثُ.٢)

قوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو: «عالم الغيب» بكسر الميم؛ وقرأ نافع، وابن عامر: برفعها. وقرأ حمزة، والكسائي: «عالم الغيب» بالكسر ولام قبل الألف. قال أبو علي: من كسر، فعلى معنى: الحمد لله عالم الغيب؛ ومن رفع، جاز أن يكون «عالم الغيب» خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو عالم الغيب، ويجوز أن يكون ابتداءً، خبره ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾؛ و«عالم» أبلغ من «عالم». وقرأ الكسائي وحده: «لا يَعْزُبُ» بكر الزاي؛ وهما لغتان.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ وقرأ ابن السميع، والنخعي، والأعمش: «ولا أصغر من ذلك ولا أكبر» بالنصب فيهما.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال الزجاج: المعنى: بلى ورَبِّي لتأنيتكم المُجَازاة. وقال ابن جرير: المعنى: أثبت مثقال الذرة وأصغر منه في كتاب مبین، لِتَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا، وَلِثَرِي الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ.

قوله تعالى: ﴿مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ﴾ قرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم، ويعقوب، [والمفضل]: «مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ» ورفعا؛

(١) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، والحاكم في جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّهُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١﴾ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿لِلَّهِ الْحَمْدُ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿١﴾﴾ قال: ثم قال ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ فهو المعبود أبدأ، المحمود على طول المدى، قال: وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ولا يخب عنه شيء. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لها من أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والمناد، قال: فإحداهم في سورة يونس ﷻ، وهي قوله تعالى: ﴿وَسَيُجِيبُكَ أَنتَهُ قُلْ إِلَىٰ رَبِّي أُنْمِتْ لِي أَن آتِنَا فَسْمِعِينَهُ ﴿١﴾﴾ والثانية هي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ والثالثة هي سورة (التغابن) وهي قوله تعالى: ﴿وَعَمَّ الْيَوْمِ كَفَرُوا لَنْ يُؤْتُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَكْفُرَنَّ بِنَا عَذَابَ الَّذِي عَلَّمَ يُبَيِّرُ ﴿١﴾﴾ فقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾. اهـ.

والباقون بالخفض فيهما^(١). وفي ﴿الَّذِينَ أُرُواْ أَلْمَلَكُ﴾ قولان: أحدهما: أنهم مؤمنوا أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأصحابه، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أصحاب محمد ﷺ، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ قال الفراء: «هو» عماد، فلذلك انتصب الحق. وما أخللنا به فقد سبق في مواضع [الحج: ٥١، ٥٢، البقرة: ١٣٠، ٢٦٧].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُنلِّكُ عَلَىٰ رِجْلِ يَنْبَغُكَ إِذَا مُزِّقَتْ كُلُّ مَرْزِقٍ لَّيْسَ لَكَ بِئِنَّ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلَقَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءُ نَضِيفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَمُطُّهَا عَلَيْهِمْ كَمَا مِنْ سَمَاءٍ لَّيْلَةٍ لِّكُلِّ عِبْدٍ مُّشْرِبٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم منكرو البعث، قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نُنلِّكُ عَلَىٰ رِجْلِ يَنْبَغُكَ﴾ أي: يقول لكم: إنكم ﴿إِذَا مُزِّقَتْ كُلُّ مَرْزِقٍ﴾ أي: فُرِّقَتْ كل تفریق؛ والمزَّق هاهنا مصدر بمعنى التمزيق ﴿إِنَّكُمْ لَئِي خَلَقَ جَسَدِي﴾ أي: يجدد خلقكم للبعث. ثم أجاب بعضهم فقالوا: ﴿أَفَرَأَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا﴾ حين زعم أنا نبعت؟! والفاء «أفترى» ألف استفهام، وهو استفهام تعجب وإنكار، ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون؟! فردَّ الله عليهم فقال: ﴿بَلْ﴾ أي: ليس الأمر كما تقولون من الافتراء والجنون، بل ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وهم الذين يجحدون البعث ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ إذا بُعثوا في الآخرة ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا^(٢). ثم وعظهم فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وذلك أن الإنسان حينما نظر رأى السماء والأرض قدامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله؛ فالمعنى أنهم أين كانوا فارضي وسمائي محيطة بهم؛ وأنا القادر عليهم، إن شئت خسفت بهم الأرض، وإن شئت أسقطت عليهم قطعة من السماء، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما يَرَوْنَ من السماء والأرض ﴿لَآيَةً﴾ تدلُّ على قدرة الله تعالى على بعثهم والخسف بهم ﴿لِكُلِّ عِبْدٍ مُّشْرِبٍ﴾ أي: راجع إلى طاعة الله، متأمل لما يرى.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٍ أَوْيٍ مَّعَهُ وَالطَّيْرِ وَالنَّارَ لَهُ الْحَدِيدَ﴾ أن أعمل سَيِّغَتِ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَعَمَلُوا صَلِحًا إِيَّيَ مَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ وهو النبوة والزبور وتسخير الجبال والطيور، إلى غير ذلك مما أنعم الله به عليه^(٣) ﴿يَجِبَالٍ أَوْيٍ مَّعَهُ﴾ وروى الحلبي عن عبد الوارث: «أَوْيٍ» بضم الهمزة وتخفيف الواو. قال الزجاج: المعنى: وقلنا: يا جبال أَوْيٍ معه، أي: رَجَّعِي معه. والمعنى: سَبَّحِي معه ورجَّعِي التسبيح. ومن قرأ: «أَوْيٍ»، معناه: عودي في التسبيح معه كلما عاد. وقال ابن قتيبة: «أَوْيٍ» أي: سَبَّحِي، وأصل التأويب في السير، وهو أن يسير النهار كله، وينزل ليلاً، فكانه أراد: ادأبي النهار [كله] بالتسبيح إلى الليل.

قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرِ﴾ وقرأ أبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو العالية، وابن أبي عمير، بالرفع. فأما قراءة النصب، فقال أبو عمرو بن العلاء: هو عطف على قوله: «ولقد آتينا داود منّا فضلاً» «وَالطَّيْرِ» أي: وسخَّرنا له الطَّيْرَ. قال الزجاج: ويجوز أن يكون نصبا على النداء، كأنه قال: دعونا الجبال والطَّيْرَ، فالطيور معطوف على موضع الجبال، وكل متاды عند البصريين فهو في موضع نصب؛ قال: وأما الرفع، فمن جهتين، إحداهما: أن يكون نسقاً على ما في «أَوْيٍ»، فالمعنى: يا جبال رَجَّعِي التسبيح معه أنتِ والطَّيْرُ؛ والثانية^(٤): على النداء، المعنى: يا جبال ويا أيُّها

(١) أي هنا وفي سورة [الجاثية: ١١]، قال في «إتحاف فضلاء البشر» ٢١٩: واختلف في «من رجز اليم» هنا و[الجاثية]، فابن كثير، وحفص، ويعقوب: برفع اليم فيها نعتاً لـ «عذاب»، وانفهم ابن محيصة، والباقون: بخفضه فيها نعتاً لـ «رجز» وهو العذاب السعير. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبيا. ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ أي: الكفر المنفي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما أتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن والجنود ذوي القدر والقدرة، وما أعطاه ومنحه من العيون العظيمة الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات الضم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغايات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، قال: وفي «الصحیح» أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري ﷺ يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال ﷺ: «لقد أوتي هذا زمراً من زمائر آل داود». اهـ.

(٤) في الأصل: والثاني.

الطير أوبي [معه]. قال ابن عباس: كانت الطير تسبح معه إذا سبح، وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته وبكت لبيكاته. وقال وهب بن منبه: كان يقول للجبال: سبحي، وللطير أجيبني، ثم يأخذ هو في تلاوة الزبور بين ذلك بصوته الحسن، فلا يرى الناس منظرأ أحسن من ذلك، ولا يسمعون شيئاً أطيّب منه.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ أي: جعلناه لبناً. قال قتادة: سحر الله له الحديد بغير نار، فكان يسويه بيده، لا يدخله النار، ولا يضره بحديدة، وكان أول من صنع الدروع، وكانت قبل ذلك صفائح.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ﴾ قال الزجاج: معناه: وقلنا له: اعمل، ويكون في معنى «لأن يعمل» ﴿سَيَحْنَتُ﴾ أي: دروعاً سابغات، فذكر الصفة لأنها تدل على الموصوف. قال المفسرون: كان يأخذ الحديد بيده فيصير كأنه عجيب يعمل به ما يشاء، فيعمل الدرع في بعض يوم فيبيعه بمال كثير، فيأكل ويتصدق. والسابغات: الدروع الكوامل التي تغطي لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض. ﴿وَقَدِرَ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: اجعله على قدر الحاجة. قال ابن قتيبة: السرد: التسنج، ومنه يقال لصانع الدروع: سرداً ورزاداً، تبدل من السنين الزاي، كما يقال: سراط^(١) ورزاط. وقال الزجاج: السرد في اللغة: تقدمت الشيء إلى الشيء، تأتي به متسقا بعضه في اثر بعض متتابعاً. ومنه قولهم: سرد فلان الحديث. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: عدل المسمار في الحلقة ولا تصغر فيقلق، ولا تعظمه فتنفصم الحلقة، قاله مجاهد. والثاني: لا تجعل حلقة واسعة فلا تقى صاحبها، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ خطاب لداود وآله.

﴿وَلَيْسَتَيْنِ الرِّيحِ غَدُومًا شَهْرٌ وَرَوَّاحًا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَمْ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرْجُ يَتَمَتَّعْ عَنْ أَمْرِنَا نُدْفَعُ مِنْ عَذَابِ السَّمِيرِ ﴿١﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْنُوبٍ وَتَتَمَنَّى لِفَتَانِ كَلْبُورٍ وَقَدُورٍ رَأْسِيَّتِ أَعْمَلُوا مَا لَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَدِيرًا مِنْ بِيَادِي الشُّكْرِ ﴿٢﴾ فَلَمَّا تَصَيَّنَّا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةً الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْقَيْبَ مَا لَيْسُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتَيْنِ الرِّيحِ﴾^(٢) قرأ الأكثرون بنصب الريح على معنى: وسحرنا لسليمان الريح. وروى أبو بكر، والمفضل عن عاصم: «الريح» رفعا، أي: له تسخير الريح. وقرأ أبو جعفر: «الرياح» على الجمع. «غَدُومًا شَهْرٌ» قال قتادة: تغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار، وتروح مسيرة شهر إلى آخر النهار، فهي تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين. قال الحسن: لما سحلت نبي الله سليمان الخيل عن الصلاة فعقرها^(٣)، أبدله الله خيراً منها وأسرع وهي الريح، فكان يغدو من دمشق فيقبل باضطرخ وبينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من إصطخر فيبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر للمسرع.

قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَمْ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ قال الزجاج: القطر: النحاس، وهو الصفر، أذيب مذ ذاك وكان قبل سليمان لا يذوب. قال المفسرون: أجرى الله لسليمان عين الصفر حتى صنع منها ما أراد من غير نار، كما ألين لداود الحديد بغير نار، فبقيت تجري ثلاثة أيام ولياليهن كجري الماء؛ وإنما يعمل الناس اليوم مما أعطي سليمان.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ الْجِنِّ﴾ المعنى: وسحرنا له من الجن ﴿مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بأمره؛ سحرهم الله له، وأمرهم بطاعته؛ والكلام يدل على أن منهم من لم يسحر له ﴿وَمَنْ يَرْجُ يَتَمَتَّعْ﴾ أي: يغدو ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ له بطاعة

(١) في الأصل: صراط، وما أنبتاه من «هرب القرآن» ٣٥٤، و«البحر» ٢٥٥/٧، و«اللسان»: زراط.

(٢) قال ابن كثير: لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له تحمل بساطه، غدوماً شهر ورواحها شهر. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري في سورة [ص: ٢٣] عند قوله تعالى: ﴿فَلَقَدْ سَبَّأَ بِالشَّرْقِ وَالْأُخْتَانِ﴾: واختلف أهل التأويل في معنى مسح سليمان بسوق هذه الخيل الجياد واعتاقها، فقال بعضهم: معنى ذلك: أنه عقرها وضرب اعتاقها، وقال آخرون: جعل يمسح أعرافها وعراقها بيده جيأ لها، ونقل ذلك عن ابن عباس، ثم قال: وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية، لأن نبي الله ﷺ (يريد سليمان) لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرق، ويهلك مالا من ماله بغير سبب سوى أن اشتغل عن صلواته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها. اهـ. وسأيت ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى من سورة (ص).

سليمان ﴿يُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ النَّعِيرِ﴾؛ وهل هذا في الدنيا، أم في الآخرة؟ فيه قولان: أحدهما: في الآخرة، قاله الضحاك. والثاني: في الدنيا، قاله مقاتل. وقيل: إنه كان مع سليمان مَلَكٌ بيده سوط من نار، فمن زاغ من الجن ضربه الملك بذلك السوط. ﴿يَعْلَمُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ مِنْ تَحْرِيْبٍ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها المساجد، قاله مجاهد، وابن قتيبة. والثاني: القصور، قاله عطية. والثالث: المساجد والقصور، قاله قتادة. وأما التماثيل، فهي الصُّور؛ قال الحسن: ولم تكن يومئذ محرمة^(١)؛ ثم فيها قولان: أحدهما: أنها كانت كالطَّواويس والعُقبان والنُّسور على كرسية ودرجات سريره لكي يهابها من أراد الذُّنُوبَ منه، قاله الضحاك. والثاني: أنها كانت صُورُ النَّبِيِّينَ والملائكة لكي يراهم الناس مصورين، فيعبُدوا مثل عبادتهم ويتشبهوا بهم، قاله ابن السائب. وفي ما كانوا يعملونها منه قولان: أحدهما: من النُّحاس، قاله مجاهد. والثاني: من الرُّخام والشُّبَّة^(٢)، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿رِجْوَانٍ كَلْبَجَانٍ﴾ الجِفَان: جمع جفنة، وهي القصة الكبيرة؛ والجَوَابِي: جمع جابية، وهي الحوض الكبير يُجَبَى فيه الماء، أي: يُجمع. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «كالجَوَابِي» بياء، إلا أن ابن كثير يثبت الياء في الوصل والوقف، وأبو عمرو يثبتها في الوصل دون الوقف. قال الزجاج: وأكثر القراء على الوقف بغير ياء، وكان الأصل الوقف بالياء، إلا أن الكسرة تنوب عنها. قال المفسرون: كانوا يصنعون [له] القِضَاعَ كحياض الإبل، يجتمع على القصة الواحدة ألف رجل يأكلون منها.

قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ أي: ثوابت؛ يقال: رسا يرسو: إذا ثبت. وفي علَّة ثبوتها في مكانها قولان: أحدهما: أن أثنافها منها^(٣)، قاله ابن عباس. والثاني: أنها لا تُنزل لِعِظَمِهَا، قاله ابن قتيبة. قال المفسرون: وكانت القُدُور كالجبال لا تحرك من أماكنها، يأكل من القُدُر ألف رجل.

قوله تعالى: ﴿أَتَمَلَّؤُاْ مَا لَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ المعنى: وقلنا: اعملوا بطاعة الله شُكْرًا له على ما آتاكم^(٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَّيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ يعني على سليمان. قال المفسرون: كانت الإنس تقول: إن الجن تعلم الغيب الذي يكون في غد، فوقف سليمان في محرابه يصلي متوكلًا على عصاه، فمكث كذلك حولًا والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته حتى أكلت الأرض^(٥) عصا سليمان، فخرَّ فعلموا بموته، وعلم الإنس أن الجن لا تعلم الغيب^(٦). وقيل: إن سليمان سأل الله تعالى أن يعيَّمي على الجن موته، فأخفاه الله عنهم حولًا. وفي سبب سؤاله قولان: أحدهما: لأن الجن كانوا يقولون للإنس: إِنَّا نَعْلَمُ الغيب، فأراد تكذيبهم. والثاني: لأنه كان قد بقي من عمارة بيت المقدس بقية. فأما «دَابَّةُ الْأَرْضِ» فهي: الأَرَضَةُ. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعاصم الجحدري: «دَابَّةُ الْأَرْضِ» بفتح الراء. الجنسأة: العصا. قال الزجاج: وإنما سُمِّيت مِنْسَاءً، لأنه يُنْسَأُ بها، أي: يُطْرَدُ ويُزَجَر. قال الفراء: أهل الحجاز لا يهزمون الجنسأة، وتميم وفصحاء قيس يهزمونها.

(١) قال الألوسي: وإنما هي في شرعنا حرام، ولا فرق عندنا بين أن تكون الصورة ذات ظل، وأن لا تكون كذلك. اهـ.

(٢) الشُّبَّة والشُّبَّة: ضرب من النحاس يلقى عليه دواء يصفو، سمي به، لأنه إذا فعل به ذلك أشبه الذهب بولوه.

(٣) الأثافي: الحجارة التي تُصَب وتُجَمَل القُدُر عليها.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿أَتَمَلَّؤُاْ مَا لَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ يقول تعالى ذِكْرُه: وقلنا لهم: اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكرًا له على ما أنعم عليكم من النعم التي خصكم بها عن سائر خلقه، مع الشكر له على سائر نعمه التي عممكم بها مع سائر خلقه. اهـ. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعلمه لله ﷻ شكر، وأفضل الشكر الحمد. وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: الشكر: تقوى الله تعالى والعمل الصالح، قال ابن كثير: وهذا يقال لمن هو متبسِّ بالفعل، قال: وقد كان آل داود ﷺ كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولًا وعملاً.

(٥) الأَرَضُ: جمع أَرَضَة، وهي دوية تأكل الخشب.

(٦) قال ابن كثير: يذكر الله تعالى كيفية موت سليمان ﷺ، وكيف عيَّمي الله موته على الجن المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكلًا على عصاه - وهي منسأة كما قال ابن عباس ﷺ، ومجاهد، والحسن، وقاتدة، وغير واحد - مدة طويلة نحوًا من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض وهي الأَرَضَةُ ضعفت وسقط إلى الأرض وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبيئت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك. اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَ الْإِيمَانُ﴾ أي: ظهرت، وانكشف للناس أنهم لا يعلمون الغيب، ولو علموا ﴿مَا لَيْسُوا فِي الْعَلَابِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما عملوا مستخربين وهو ميت وهم يظنونونه حياً. وقيل: تبيّن الجن، أي: علمت، لأنها كانت تتوهم باسراقها السمع أنها تعلم الغيب، فعلمت حيثئذ خطأها في ظنّها. وروى رويس عن يعقوب: ﴿تَبَيَّنَتْ﴾ برفع التاء والباء وكسر الياء.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاتَّكُرُوا لَمْ بَلَدَهُ طَبِئَةً وَرَبُّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْمَرْمَرِ وَوَدَّعْنَاهُمْ بِحَبْتِهِمْ حَبْتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ حَمَطٍ وَأَثَلٍ فَشَوُّوا مِنْ سِنْدٍ لَيْلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَزِيهِ إِلَّا الْكُفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْوَادِيَّ الْفَرَى الَّذِي بَرَكْنَا فِيهَا فَرًى ظَهَرَ وَكَانَ فِيهَا السَّيْرُ سَبْأُ مِنْهَا لَيْلِيٌّ وَبَيْتَانَا عَمِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَضْرُوقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ لِيْلُسٌ فَآذَنُوا فَآذَنُوا إِلَّا قَرِيْبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَتْلَمَّ مَنْ يُوْنُسَ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَاطِطٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ﴾^(١) قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «في مسكِينهم». وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: «مسكِينهم» بفتح الكاف من غير الف. وقرأ الكسائي، وخلف: «مسكِينهم» بكسر الكاف، وهي لغة. قال المفسرون: المراد بسبأ هاهنا: القبيلة التي هم من أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان؛ وقد ذكرنا في سورة [النمل: ٢٢] الخلاف في هذا، وأن قوماً يقولون: هو اسم بلد، وليس باسم رجل^(٢). وذكر الزجاج في هذا المكان أن من قرأ: «لسبأ» بالفتح وترك الضم، جعله اسماً للقبيلة. ومن صرف وكسر ونون، جعله اسماً للحي و اسماً لرجل؛ وكلٌّ جائزٌ حسن. و«آية» رفع، اسم «كان»، و«جنتان» رفع على نوعين: أحدهما: أنه بدل من «آية»، والثاني: على إضمار، كأنه لما قيل: «آية»، قيل: الآية جنتان.

الإشارة إلى قصتهم

ذكر العلماء بالتفسير والسيرة أن بلقيس لما ملكت [قومها] جعل قومها يقتلون على ماء واديهم، فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها، فتركت ملكها وانطلقت إلى قصرها فنزلته، فلما كثر الشر بينهم وندموا، أتوها فأرادوها على أن ترجع إلى ملكها، فأبت: فقالوا: لترجعي أو لتقتلنك، فقالت: إنكم لا تطيعونني وليست لكم عقول، فقالوا: فإننا نطيعك، فجاءت إلى واديهم - وكانوا إذا مطروا أتاه السيل من مسيرة أيام - فأمرت به، فسد ما بين الجبلين بمساة^(٣)، وحبس الماء من وراء السد، وجعلت له أبواباً بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدة أنهارهم، فكان الماء يخرج بينهم بالسوية، إلى أن كان من شأنها مع سليمان ما سبق ذكره [النمل: ٢٩-٤٤]، وبثوا بعدها على حالهم. وقيل: إنما بنوا ذلك البنيان لئلا يغشى السيل أموالهم فيهلكها، فكانوا يفتحون من أبواب السد ما يريدون، فيأخذون من الماء ما يحتاجون إليه، وكانت لهم جنتان عن يمين واديهم وعن شماله، فأخصبت أرضهم، وكثرت فواكههم، وإن كانت المرأة لتمر بين الجنتين والمكثل على رأسها، فترجع وقد امتلأ من الثمر ولا تمس بيدها شيئاً منه، ولم يكن [يرى] في بلدهم حية ولا عقرب ولا بعوضة ولا ذباب ولا يرغو، ويمر الغريب ببلدتهم وفي ثيابه القمل، فيموت القمل لطيب هوائها. وقيل لهم: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاتَّكُرُوا لَمْ بَلَدَهُ طَبِئَةً﴾ أي: هذه بلدة طيبة، أو

(١) قال ابن كثير: كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم وأنواع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، ففوقوا بإرسال السيل والفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مذر.

(٢) روى الترمذي في «سننه» ١٥٤/٢ عن فروة بن مسيك المرادي قال: قال رجل يا رسول الله، وما سبأ؟ أرض أو امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب... الحديث، ورواه أحمد والطبري وهو حديث حسن، وقد سبق تخريجه صفحة (١٠٤٤). وأورد السيوطي في «الدر» ٢٣١/٥ وزاد نسبة لعبد بن حميد، والبخاري في «تاريخه»، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه.

(٣) قال في «المصباح» مادة «سنن»: المساة: حافظ يئني في وجه الماء، ويسمى السد.

بلدتكم بلدة طيبة، ولم تكن سبخة^(١) ولا فيها ما يؤذي ﴿رَبِّيْ غَفُوْرٌ﴾ أي: والله رب غفور، وكانت ثلاثة عشرة قرية، فبعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً، فكذبوا الرُّسل، ولم يُفِرُّوا بِنِعْمِ اللَّهِ، فذلك قوله: ﴿فَأَعْرَضُوْا﴾ أي: عن الحق، وكذبوا أنبياءهم^(٢) ﴿فَارْتَمَيْنَا عَلَيْهِمْ سَيِّلَ الْعَرَمِ﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أن العَرَم: الشديد، رواه علي بن أبي طالب عن ابن عباس. وقال ابن الأعرابي: العَرَم: السَّيْل الذي لا يُطاق. والثاني: [أنه] اسم الوادي، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والضحاك، ومقاتل؛ والثالث: أنه المُسَنَّاة، قاله مجاهد، وأبو ميسرة، والفراء، وابن قتيبة. وقال أبو عبيدة: العَرَم: جمع عَرَمَة، وهي: السُّكْر والمُسَنَّاة. والرابع: أن العَرَم: الجُرْذ الذي نقب عليهم السُّكْر، حكاه الزجاج. وفي صفة إرسال هذا السيل عليهم قولان: أحدهما: أن الله تعالى بَعَثَ على سيكرهم دابةً من الأرض فنقبت فيه نقباً، فسأل ذلك الماء إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفون به، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال قتادة والضحاك في آخرين: بعث الله عليهم جُرْذاً يسمَّى الخُلْد - والخُلْد: الفأر الأعمى - فنقبه من أسفله، فأغرق الله [به] جثاتهم، وخرب به أرضهم. والثاني: أنه أرسل عليهم ماءً أحمر، أرسله في السدِّ فنسف وهدمه وحفر الوادي، ولم يكن الماء أحمر من السد، وإنما كان سيلاً أرسل عليهم، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَلُّهُمْ بِحَبَّتِهِمْ﴾ يعني اللتين تطعمان الفواكه. ﴿جَنَّتَيْنِ ذَرَأَتْ أُكُلِي حَمَلٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «أُكُلِي» بالتنوين. وقرأ أبو عمرو: «أُكُلِي» بالإضافة. وخفف الكاف ابن كثير ونافع، ونقلها الباقون. أمَّا الأكل، فهو الثمر. وفي المراد بالْحَمَط ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الأراك، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجمهور؛ فعلى هذا، أكله: ثمره؛ ويسمى ثمر الأراك: البرير. والثاني: أنه كل شجرة ذات شوك، قاله أبو عبيدة، والثالث: أنه كل نبت قد أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله، قاله المبرد والزجاج. فعلى هذا القول، الحَمَط: اسم للمأكول، فيحسن على هذا قراءة من نَوَّن الأكل؛ وعلى ما قبله، هو اسم شجرة، والأكل ثمرها، فيحسن قراءة من أضاف. فأما الأثل، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الطَّرْفَاء^(٣)، قاله ابن عباس. والثاني: أنه السَّمْر^(٤)، حكاه ابن جرير. والثالث: أنه شجر يشبه الطَّرْفَاء إلا أنه أعظم منه.

قوله تعالى: ﴿وَتَقْوَىٰ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ فيه تقديم، وتقديره: وشيء قليل من سدر، وهو شجر التَّبَق^(٥). والمعنى أنه كان الحَمَط والأثل في جثتهم أكثر من السدر. قال قتادة: بينا شجرهم من خير الشجر، إذ صيره الله من شر الشجر^(٦). قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ﴾ أي: ذلك التبدل جزيناهم ﴿بِمَا كَفَرُواْ وَكَلَّ جُنْحِيْ إِلَى الْكُفُوْرِ﴾. فإن قيل: قد يجازى المؤمن والكافر، فما معنى هذا التخصيص؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن المؤمن يُجزى ولا يُجازى، فيقال في أفصح اللغة: جزى الله المؤمن، ولا يقال: جزاه، لأن «جزاه» بمعنى كافاه، فالكافر يُجازى بسببته مثلها، مكافأة له، والمؤمن يُزاد في الثواب ويُفَضَّل عليه، هذا قول الفراء. والثاني: أن الكافر ليست له حسنة تكفر ذنوبه، فهو يُجازى

(١) أرض سبخة: أي: ملحة.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوْا﴾ أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله، كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿تَوَشَّكَتْ مِنْ سَيِّرٍ وَكَلَّ يَمِيْنٌ ﴿١٠﴾ إِلَىٰ رَبِيْعَاتٍ أَمْرًا تَنَلِكُهُمْ وَأُرْوِيَتْ مِنْ كُلِّ نَوْءٍ وَمَا عَرِشٌ عَظِيْمٌ ﴿١١﴾ وَبَدَتْهَا فَوْقَهَا سَبْعُونَ لَقِيْمًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّنَّ لَهُمُ الْقِيَمَاتُ أَعْمَانَهُمْ صَدَّهُمْ عَنِ الْقَبِيْلِ فَمَنْ لَا يَهْتَدِيْنَ ﴿١٢﴾﴾. اهـ.

(٣) قال في «القاموس» الطرفاء: شجر، وهي أربعة أصناف، منها الأثل، الواحدة طرفاءة وطرفقة، وقال في «المصباح»: قال سيبويه: الطرفاء واحد وجميع. قال في «اللسان»: قال أبو حنيفة (يعني الذئبوري): الطرفاء: من المضاء، وهذبه مثل هذب الأثل، وليس له خشب، وإنما يخرج عصبياً سمحاً في السماء، وقد تحمض بها الإبل إذا لم تجد حمضاً غيره.

(٤) قال في «المصباح»: السَّمْر، وزان رَجُلٍ وَسَمِعٌ: شجر الطلع، وهو نوع من البضاء، الواحدة سَمْرَة، وبها سُمِّيَ.

(٥) قال في «المصباح»: وإذا أطلق السدر في النسل، فالمراد: الورق المطحون، والسدر نوعان: أحدهما ينبت في الأرياف فينتج بوقه في النسل، وثمرته طيبة، والآخر ينبت في البر ولا ينتج بوقه في النسل، وثمرته عَفِيْضَة، قال: وقد تقدم في حرف الزاي أن الزُّعْرور ثمرة تنبت في البر، وهي بهذه الصفة، فيجوز أن يكون هو التَّبَق البري. اهـ.

(٦) قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَتَقْوَىٰ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيْلٍ﴾ قال: لما كان أجود هذه الأشجار المبدل هو السدر، قال: ﴿وَتَقْوَىٰ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيْلٍ﴾ فهذا الذي صار أمر تَبَق الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والتمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل.

بجميع الذنوب، والمؤمن قد أحبطت حسناته سيئاته، هذا قول الزجاج. وقال طاووس: الكافر يُجازى ولا يُغفر له، والمؤمن لا يُناقش الحساب^(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَمَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ هذا معطوف على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسِرٍّ﴾؛ والمعنى: كان من قصصهم آنا جعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها^(٢) وهي: قرى الشام؛ وقد سبق بيان معنى البركة فيها [الآية: ٢٧١]، هذا قول الجمهور. وحكى ابن السائب أن الله تعالى لما أهلك جنتيهم قالوا للرسول: قد عرفنا نعمة الله علينا، فليثن رد إلينا ما كنا عليه لتغيبته عبادة شديدة، فرد عليهم النعمة، وجعل لهم قرى ظاهرة، فعادوا إلى الفساد وقالوا: باعد بين أسفارنا، فمزقوا.

قوله تعالى: ﴿قُرَى ظَاهِرَةً﴾ أي: متواصلة ينظر بعضها إلى بعض. ﴿وَوَقَدْنَا فِيهَا آسَافًا﴾ فيقولان. أحدهما: أنهم كانوا يندون فيقولون في قرية، ويروحون فيبيتون في قرية، قاله المحسن، وفتادة. والثاني: أنه جعل ما بين القرية والقرية مقداراً واحداً، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ والمعنى: وقلنا لهم: سيروا فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليلاً ونهاراً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من مخاوف السفر من جوع أو عطش أو سبخ أو تعب. وكانوا يسرون أربعة أشهر في آسان، فبَطَرُوا النِّعْمَةَ وملأوها كما ملأ بنو إسرائيل المرن والسلولى ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَوِّعْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿بَعْدُ﴾ بتشديد العين وكسرها. وقرأ نافع، وعاصم، وحزمة: ﴿بَاعِدْهُ﴾ بآلف وكسر العين. وعن ابن عباس كالقراءتين. قال ابن عباس: إنهم قالوا: لو كانت جثتنا أبعد ممَّا هي، كان أجدر أن يشتهد جناها. قال أبو سليمان الدمشقي: لما ذكروهم الرُّسُلَ نَعَمَ اللهُ، أنكروا أن يكون ما هم فيه نعمة، وسألوا الله أن يباعد بين أسفارهم. وقرأ يعقوب: [ربنا] برفع الباء [باعد] بفتح العين والداد، جعله فعلاً ماضياً على طريق الإخبار للناس بما أنزل الله ﷻ بهم. وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو عبد الرحمن [السلمي]، وأبو رجاء، وابن السميع، وابن أبي عمير: ﴿بَعْدُ﴾ برفع العين وتخفيفها وفتح الداد من غير ألف، على طريقة الشكاية إلى الله ﷻ. وقرأ عاصم الجحدري، وأبو عمران الجوني: ﴿بُوعِدْ﴾ برفع الباء ويواو ساكنة مع كسر العين.

قوله تعالى: ﴿وَوَقَدْنَا أَسْفَارَهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: بالكسر وتكذيب الرُّسُل. والثاني: بقولهم: ﴿بَعْدُ﴾ بين أسفارنا. ﴿فَجَمَلْنَا لَهُمْ آيَاتِهِ﴾ لمن بعدهم يتحدثون بما فعل بهم ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقَبٍ﴾ أي: فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق، لأن الله لما غرق مكانهم وأذهب جنتيهم تبددوا في البلاد، فصارت العرب تتمثل في الفرقة بسياً^(٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما فعل بهم ﴿لَايَاتٍ﴾ أي: لغيراً ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن معاصي الله ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ طَيْبٌ إِلَيْهِمْ ظَنُّهُ﴾ عليهم بمعنى فيهم، وصدق في ظنه أنه ظن بهم أنهم يتبعونه إذ اغواهم، فوجدهم كذلك. وإنما قال: ﴿وَلَا يُضِلُّهُمْ وَلَا يَنبِتُهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] بالظن، لا بالعلم، فمن قرأ: ﴿صَدَقَ﴾ بتشديد الداد، فالمعنى: حقق ما ظنه فيهم بما فعل بهم؛ ومن قرأ بالتخفيف، فالمعنى: صدق عليهم في ظنه بهم^(٥). وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم أهل سبأ. والثاني: سائر المطيعين لإبليس.

(١) قال السيوطي في «الدر» ٢٣٣/٥: وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طاووس ﴿وَقَدْ جُرِّيَ إِلَّا الْكُفْرُ﴾ قال: هو المناقشة في الحساب، ومن نوقش الحساب غُذِبَ، وهو الكافر لا يغفر له.

(٢) قال ابن كثير: يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والمعيش الهنيء والرغد والبلاد الرخيصة، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثماراً، ويقبل في قرية ويبعث في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: أي: جعلناهم حديثاً للناس، وسمرأ يتحدثون به من خيرهم، وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والمعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد هائنا وهائنا، قال: ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ، وأباي سبأ، وتفرقوا شمر مذر. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في هذا الذي حلَّ بهؤلاء من النعمة والعلاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوها من الكفر والآثام، لعبارة ودلالة لكل عيب صبار على المصائب، شكور على النعم. اهـ. وروى مسلم في «صحيحه» ٤/٢٢٩٥ عن صهيب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿صَبَّارٌ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِذْ أَمَرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَبِئْسَ مَا لِحَالِ الْمُؤْمِنِ، إِذْ أَصَابَتْهُ سَرَاءُ شُكْرِ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَبْرٌ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ﴾.

(٥) قال ابن كثير: لما ذكر الله تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في أتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن أتبع الهوى وخالف

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطٰنٍ﴾ قد شرحناه في قوله: ﴿لٰسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. قال الحسن: والله ما ضروبهم بعضاً ولا قهرهم على شيء، إلا أنه دعاهم إلى الأمانى والغرور.
قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: ما كان تسلطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكين. وقرأ الزهري: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ بياء مرفوعة على ما لم يُسم فاعله. وقرأ ابن يعمر: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ بفتح الياء. وفي المراد يعلمه هاهنا ثلاثة أقوال قد شرحناها في أول (التكوير). ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الشك والإيمان ﴿حَفِيظٌ﴾، وقال ابن قتيبة: والحفيظ بمعنى الحافظ. قال الخطابي: وهو فَعِيل بمعنى فاعل، كالتقدير، والعليم، فهو يحفظ السموات والأرض بما فيها لتبقى مئة بقائها، ويحفظ عباده من المهالك، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويعلم نياتهم، ويحفظ أوليائهم عن موقعة الذنوب، ويحرسهم من مكاييد الشيطان.

﴿قُلْ ادْعُوا إِلٰهِي رَبِّكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ يَتَقَالَ دَرَرٌ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن شَيْءٍ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أُوذِيَ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ حَتَّىٰ إِذَا فُرِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا إِلٰهِي رَبِّكُمْ﴾ المعنى: قل للكفار: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لِيُنْعِمُوا عليكم بنعمة، أو يكشفوا عنكم بليّة. ثم أخبر عنه فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ يَتَقَالَ دَرَرٌ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من خير وشر ونفع وضرر ﴿وَمَا لَكُم مِّن شَيْءٍ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ لم يشاركوا في شيء من خلقهما، ﴿وَمَا لَكُم مِّن شَيْءٍ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من آلهة ﴿مِّن ظَهْرٍ﴾ أي من معين على شيء. ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أُوذِيَ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ حَتَّىٰ إِذَا فُرِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «أُوذِيَ له» بفتح الالف. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف: «أُوذِيَ له» برفع الالف. وعن عاصم كالقراءتين. أي: لا تنفع شفاعة ملك ولا نبي حتى يُؤذَن له في الشفاعة^(١)، وقيل: حتى يُؤذَن له فيمن يشفع. وفي هذا ردّ عليهم حين قالوا: إن هذه الآلهة تشفع لنا. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُرِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قرأ الأكثرون: «فُرِعَ» بضم الفاء وكسر الزاي. قال ابن قتيبة: حُفَّت عنها الفُرْع. وقال الزجاج: معناه: كُثِفَ الفُرْع عن قلوبهم. وقرأ ابن عامر، ويعقوب، وأبان: «فُرِعَ» بفتح الفاء والزاي، والفعل لله ﷻ. وقرأ الحسن، وقتادة، وابن يعمر: «فرغ» بالراء غير معجمة، وبالغين معجمة، وهو بمعنى الأول، لأنها فرغت من الفزع. وقال غيره: بل فرغت من الشك والشرك. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الملائكة. وقد دلّ الكلام على أنهم يفزعون لأمر يطرأ عليهم من أمر الله، ولم يذكره في الآية، لأن إخراج الفزع يدل على حصوله. وفي سبب فزعهم قولان: أحدهما: أنهم يفزعون لسماع كلام الله تعالى. روى عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلَ السَّمَاءِ صَلَٰوةً كَجَزِّ السَّلْسَلَةِ عَلَى الصَّفَا، فَيَصْعَقُونَ، فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمْ جَبْرِيْلُ، فَإِذَا جَاءَهُمْ جَبْرِيْلُ فُرِعَ عَن قُلُوبِهِمْ، فَيَقُولُونَ: يَا جَبْرِيْلُ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: الْحَقُّ، فَيُنَادُونَ: الْحَقُّ الْحَقُّ»^(٢). وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضَمَانًا لِقَوْلِهِ»^(٣)، كأنه سلسلة على صفوان^(٤)، فإذا فُرِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا: للذي قال الحق^(٥) «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»^(٦). والثاني: أنهم يفزعون من قيام

الرشاد والهدى، فقال: ﴿وَلَقَدْ سَدَدْنَا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ قال: قال ابن عباس ﷺ وغيره: هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام، ثم قال: ﴿أَرَأَيْتَ كَلِمًا أَلْفِي كَسَرْتُمْ عَلَىٰ نَوْبٍ لَمَرَّتْ بِهَا نَوْبٌ الْيَمِينُ لِأَنَّكُمْ دُرَيْتُمْ إِلَّا قِيْلًا﴾ وقال: ﴿ثُمَّ تَنَبَّهْتُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ رَبَّنَا عَلَيْكُمْ وَحَضْبَتِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، قال: والآيات في هذا كثيرة. اهـ.
(١) قال ابن كثير: ثبت في (الصحاحين) من غير وجه عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم وأكبر شقيق عند الله تعالى - أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربه لفضل القضاء قال: «فأسجد له تعالى فيذني ما شاء أن يذني، ويفتح عليّ بمحامد لا أحصيا الآن، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل سميع، وصل مطه، واشفع تشفع... الحديث بتمامه.
(٢) رواه أبو داود في «سننه» رقم (٤٧٣٨)، وأورده السيوطي في «الدر» ١/٣٢٦، وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة»، وابن مردويه، والبيهقي عن عبد الله بن مسعود ﷺ.
(٣) أي: تواضعاً وتواضعاً وانتقاداً لحكمه.
(٤) أي: حجر أملس.
(٥) أي: للذي قال القول الحق، وهو الله سبحانه وتعالى.
(٦) رواه البخاري في «صحيحه» ٤١٤/٨ عن أبي هريرة ﷺ، ورواه عنه أيضاً أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم.

الساعة. وفي السبب الذي ظنوه بدنو الساعة ففزعوا، قولان: أحدهما: أنه لما كانت الفترة التي بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، ثم بعث الله محمداً، أنزل الله جبريل بالوحي، فلما نزل ظنَّت الملائكة أنه نزل بشيء من أمر الساعة، فصعقوا لذلك، فجعل جبريل يمرُّ بكل سماءٍ ويكشف عنهم الفزع ويخبرهم أنه الوحي، قاله قتادة، ومقاتل، وابن السائب. وقيل: لما علموا بالإيحاء إلى محمد ﷺ، فزعوا، ليعلمهم أن ظهوره من أسرار الساعة. والثاني: أن الملائكة المعقبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض ويكتبون أعمالهم إذا أرسلهم الله تعالى فانحدروا، يُسْمَعُ لهم صوتٌ شديد، فيحسب الذين هم أسفل منهم من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرون سُجُداً، ويضعفون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة، وهذا كلُّما مرَّوا عليهم، رواه الضحاك عن ابن مسعود. والقول الثاني: أن الذي أشير إليهم المشركون^(١)؛ ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أن المعنى: حتى إذا كُشِفَ الفزع عن قلوب المشركين عند الموت - إقامة للحجة عليهم - قالت لهم الملائكة: ماذا قال ربُّكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فأقرُّوا حين لم ينفعهم الإقرار، قاله الحسن، وابن زيد. والثاني: حتى إذا كُشِفَ الغطاء عن قلوبهم يوم القيامة، قيل لهم: ماذا قال ربُّكم؟ قاله مجاهد.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي اللَّهِ وَإِلَّا أَوْ يَتَاكُمُ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ تُبِينُ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَسْتَلُوكَ عَمَّا جَاءَكُمْ وَلَا تَسْتَلُ عَمَّا تَمَلُّونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ يعني المطر، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ يعني النبات والشجر. وإنما أمر أن يسأل الكفار عن هذا، احتجاجاً عليهم بأن الذي يرزق هو المستحق للعبادة، وهم لا يُبْتَنُونَ رازقاً سواه، ولهذا قيل له: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ لأنهم لا يجيبون بغير هذا؛ وهامنا تم الكلام. ثم أمره أن يقول لهم: ﴿وَأَلَّا أَوْ يَتَاكُمُ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ تُبِينُ﴾ مذهب المفسرين أن «أو» هاهنا بمعنى الواو. وقال أبو عبيدة: معنى الكلام: وأنا لعلِّي هُدًى، وإنكم لفي ضلال مُبِين^(٢). وقال الفراء: معنى «أو» عند المفسرين معنى الواو، وكذلك هو في المعنى، غير أن العربية على غير ذلك، لا تكون «أو» بمنزلة الواو، ولكنها تكون في الأمر المفروض، كما تقول: إن شئت فخذ درهماً أو اثنين، فله أن يأخذ واحداً أو اثنين، وليس له أن يأخذ ثلاثة، وإنما معنى الآية: وأنا لضالُّون أو مهتدون، وإنكم أيضاً لضالُّون أو مهتدون، وهو يعلم أن رسوله المهتدي، وأن غيره الضالُّ، كما تقول للرجل تكذبه: والله إنَّ أحدنا لكاذب - وأنت تعنيه - فكذبته تكذيباً غير مكشوف؛ ويقول الرجل: والله لقد قديم فلان، فيقول له من يعلم كذبه: قل: إن شاء الله، فيكذبه بأحسن من تصريح التكذيب؛ ومن كلام العرب أن يقولوا: قاتله الله، ثم يستقبحونها، فيقول: قاتعه الله، ويقول بعضهم: كاتمه الله؛ ويقولون: جوعاً، دعاءً على الرجل، ثم يستقبحونها فيقولون: جوداً، وبعضهم يقول: جوساً؛ ومن ذلك قولهم: ويحك وويسك، وإنما هي في معنى «ويلك» إلا أنها دونها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَسْتَلُوكَ عَمَّا جَاءَكُمْ﴾ أي: لا تؤاخذون به ﴿وَلَا تَسْتَلُ عَمَّا تَمَلُّونَ﴾ من الكفر والتكذيب؛ والمعنى إظهار التبرُّي منهم^(٣). وهذه الآية عند أكثر المفسرين منسوخة بآية السيف، ولا وجه لذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا﴾ يعني عند البعث في الآخرة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أي يقضي ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ القاضي ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يقضي ﴿قُلْ﴾ للكفار ﴿أَرُونِي الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أعلموني من أي

(١) وقد اختار ابن جرير الطبري القول الأول، وهو أن الضمير عائد إلى الملائكة، وهم المشار إليهم، وقال ابن كثير: وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْ يَتَاكُمُ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ تُبِينُ﴾ هذا من باب اللف والنشر، أي: واحد من الفهيفين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد آمننا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيدهِ وإفراد العبادة له، فإن أجبتنا فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ كَذِبَكُمْ لَعَلَّ لِي عَذَابٌ وَلكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقال ابن كثير: ﴿وَمَا أَهْلُ الْأَرْضِ بِشَا تَسْتَلُوكَ﴾ اهـ.

وجه الحقمتوهم وهم لا يخلطون ولا يبرزفون؛ ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه؛ والمعنى: ارتدعوا عن هذا القول، وتنبهوا عن ضلالتكم، فليس الأمر على ما أنتم عليه^(١).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ قُلْ لَكُمْ يَوْمَآذٍ يَوْمٌ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: عامّة لجميع الخلائق. وفي الكلام تقديم، وتقديره: وما أرسلناك إلا للناس كافة. وقيل: معنى «كافة للناس»: تكفهم عمّا هم عليه من الكفر، والهاه فيه للمبالغة^(٢). ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ يعنون العذاب الذي يعدّهم به في يوم القيامة؛ وإنما قالوا هذا، لأنهم يُنكرون البعث، ﴿قُلْ لَكُمْ يَوْمَآذٍ يَوْمٌ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه يوم الموت عند النزع والسياق، قاله الضحاك. والثاني: يوم القيامة، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَاهُ إِلَّا فُلْهُنَ مَوْفُوتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا قَوْلًا مَّكَرًا مِّنْكُمْ عَنِ الْمَكِّ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ السُّدَامَةَ لَنَا رَأَىٰ الْعَذَابَ وَحَمَلْنَا الْأَقْلَابَ فِي أَصْنَافِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي مكة ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعنون التوراة والإنجيل، وذلك أن مؤمني أهل الكتاب قالوا: إن صفة محمد في كتابنا، فكفر أهل مكة بكتابهم. ثم أخبر عن حالهم في القيامة فقال: ﴿وَلَوْ نَرَاهُ إِلَّا فُلْهُنَ مَوْفُوتٍ﴾ يعني مشركي مكة ﴿مَوْفُوتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي: يزد بعضهم على بعض في الجدل واللوم. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا﴾ وهم الاتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم الأشراف والقادة: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدّقين بتوحيد الله؛ والمعنى: أنتم منعتمونا عن الإيمان؛ فأجابهم المتبوعون فقالوا: ﴿أَنْتُمْ مَكِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أي: منعناكم عن الإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ به الرسول؟ ﴿بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ﴾ بترك الإيمان - وفي هذا تنبيه الكفار على أن طاعة بعضهم لبعض في الدنيا تصير سبباً للعداوة في الآخرة - فردّ عليهم الاتباع فقالوا: ﴿بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: بل مكرّم بنا في الليل والنهار. قال الفراء: وهذا ممّا تتوسّع فيه العرب لوضوح معناه، كما يقولون: ليله قائم، ونهاره صائم، فنضيف الفعل إلى غير الأدميين، والمعنى لهم. وقال الأخفش: وهذا كقوله: ﴿مِن قَرِينِكَ إِلَٰهٍ آخَرَ حَتَّىٰ﴾ [محمد: ١٣]، قال جرير:

لقد لُمتنا يا أمّ غيّلان في السرى
وزمت وما لئيل المطي بنائم^(٣)
وقرأ سعيد بن جبير، وأبو الجوزاء، وعاصم الجحدري: «بل مكرّ» بفتح الكاف والراء «الليل والنهار» برفعهما. وقرأ ابن يعمر: «بل مكرّ» بإسكان الكاف ورفع الراء وتنوينها «الليل والنهار» بصبهما.

(١) قال ابن كثير في تلمة الآية: ﴿بَلْ هُوَ آتٌ﴾ أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له، ﴿الْمَرْبُوبُ الْمَكِيدُ﴾ أي: ذو العزة الذي قد فهر بها كل شيء، وغلبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علواً كبيراً، والله أعلم. اهـ.

(٢) وهو تأويل بعيد، وإن كان أصلها من الكفّ بمعنى المنع، والمراد هنا أن الله تعالى أرسله إلى جميع الخلائق من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِيئًا﴾ وقوله: ﴿بَلَّغْ أَلْحَىٰ نَزَلَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلنَّاسِ نَذِيرًا﴾، وروى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً لهما رجل من امتي أدركته الصلاة للصيل، وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة». وفي «صحيح مسلم»: «وبعثت إلى كل أحر وأسود»، أي: إلى الجن والإنس. وهذا من جملة ما امتاز به نبينا محمد ﷺ. قال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء، قالوا: يا ابن عباس، فبم فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ فَرِيدٍ﴾ وقال النبي ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس.

(٣) «ديوانه» ٥٥٤، و«مجاز القرآن» ٢٧٩/١، و«الطبري» ٩٨/٢٢، و«مجمع البيان» ٢٢/٢١٠.

قوله تعالى: ﴿وَمَّا تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون لهم: إن ديننا حق ومحمد كذاب، ﴿وَأْمُرُوا أَتَدَامَةَ﴾ وقد سبق بيانه في [يونس: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّنا الْأَعْيُنَ فِي أَصْحَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إذا دخلوا جهنم غُلت أيديهم إلى أعناقهم، وقالت لهم خزنة جهنم: هل تُجْزُونَ إلا ما كنتم تعملون في الدنيا. قال أبو عبيدة: مجاز «هل» هاهنا مجاز الإيجاب، وليس باستفهام؛ والمعنى: ما تُجْزُونَ إلا ما كنتم تعملون.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَذِبُونَ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي بِسِبْطِ الرِّزْقِ لَمِنَ بَيِّنَاتِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا ذُلًّا مَنْ مَأْمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ غَيْرِهَا يُعْطَوْنَ بِمَا عَمِلُوا وَمَنْ فِي الرِّفْدِ عَائِسُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ فِي عِيْنَيْنا مُنْجِرِينَ أَوْلِيَاءَ فِي الْأَذْبابِ مُخْتَفِرُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي بِسِبْطِ الرِّزْقِ لَمِنَ بَيِّنَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ وَيُؤْتِرْ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٢١﴾﴾
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ أي: نبي يُنذِر ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ وهم اغنياؤها وروساؤها(١).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾(٢). في المشار إليهم. قولان: أحدهما: أنهم المُتْرَفُونَ من كل أمة. والثاني: مشركو مكة، فظنوا من جهلهم أن الله خولهم المال والولد لكرامتهم عليه، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأن الله أحسن إلينا بما أعطانا فلا يعذبنا، فأخبر أنه ﴿بِسِبْطِ الرِّزْقِ لَمِنَ بَيِّنَاتِهِ وَقُدْرُهُ﴾؛ والمعنى أن بسط الرزق وتضييقه ابتلاء وامتحان، لا أن البسط يدل على رضى الله، ولا التضيق يدل على سخطه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك. ثم صرح بهذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا ذُلًّا﴾ قال القراء: يصلح أن تقع «التي» على الأموال والأولاد جميعاً، لأن الأموال جمع والأولاد جمع؛ وإن شئت وجهت «التي» إلى الأموال، واكتفيت بها من ذكر الأولاد؛ وأُشْدَ لِمَرَارِ الْأَسْدى:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ راضٍ والرأي مُخْتَلِفٌ(٣)
وقد شرحنا هذا في قوله: ﴿وَلَا يُفْقَهُنَّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] وقال الزجاج: المعنى: وما أموالكم بالتي تقرِّبكم، ولا أولادكم بالذين يقربونكم، فحذف اختصاراً. وقرأ أبي بن كعب، والحسن، وأبو الجوزاء: «باللاتي تقرِّبكم». قال الأخفش: و«رُفِّي» هاهنا اسم مصدر، كأنه قال: تقرِّبكم عندنا أولاداً(٤). وقال ابن قتيبة: «رُفِّي» أي: قُرْبى ومترلة عندنا(٥).

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مسلماً لنيه ﷺ وأمرأ له بالناسي بمن قبله من الرسل ومخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها واتبه ضغالفهم: كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿أَنْتَ اللَّهُ وَاللَّهُ الْأَكْبَرُ﴾ ﴿وَمَا رَبُّكَ اتَّخَذَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ أَوْلِيَاءَ مَا مِنْ قَوْمٍ يَكْفُرُونَ﴾ وقال ﷺ: «مَنْ مَأْمَنَ وَمَنْ يَنْتَهِي عَنْكُمْ أَنْ تَكْفُرُوا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ مُعْتَدُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي بِسِبْطِ الرِّزْقِ لَمِنَ بَيِّنَاتِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي بِسِبْطِ الرِّزْقِ لَمِنَ بَيِّنَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ وَيُؤْتِرْ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٢١﴾﴾
(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَذِبُونَ ﴿١٦﴾﴾ وقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمُعَذَّبِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي بِسِبْطِ الرِّزْقِ لَمِنَ بَيِّنَاتِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا ذُلًّا مَنْ مَأْمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ غَيْرِهَا يُعْطَوْنَ بِمَا عَمِلُوا وَمَنْ فِي الرِّفْدِ عَائِسُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ فِي عِيْنَيْنا مُنْجِرِينَ أَوْلِيَاءَ فِي الْأَذْبابِ مُخْتَفِرُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي بِسِبْطِ الرِّزْقِ لَمِنَ بَيِّنَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ وَيُؤْتِرْ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٢١﴾﴾
(٣) قال ابن كثير: افتخروا بكثره الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم، واعتاناه بهم، وأنه بما كان ليعلبهم هنا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة، وهيئات لهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُفَخِّرُكُمْ فِيهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَتَّبِعُكُمْ فِيهَا فِي السَّاعَةِ الْأُولَى﴾ وقال ﷺ: ﴿قُلُوبٌ مَثَلُ شَاةٍ رَجَبًا وَسَبَّحَ لَمْ تَأْكَلْ شَيْئًا﴾ ﴿وَبَيْنَ شَيْئًا﴾ ﴿وَمَهْدٌ لَمْ تَهْبِكْ﴾ ﴿ثُمَّ يُلْقَى أَنْ لَيْدٍ﴾ ﴿لَا أَرَى كَلِمَةً يَنْبَغُ عَلَيْهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ فِيهَا﴾ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ صَاحِبِ تَيْبِكَ الْجَنَّةِ أَنَّهُ كَانَتْهَا مَالِدُهُمْ وَوَالِدُهُمْ لَمْ يَفْخَرْ عَنْهُ شَيْئًا، بَلْ سَلِبَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ هَاهُنَا: ﴿قُلْ فِي رَبِّي سِبْطُ الرِّزْقِ لَمِنَ بَيِّنَاتِهِ وَقُدْرُهُ﴾ أي: يعطي المالك لمن يحب ومن لا يحب، فيفخر من يشاء ويفني من يشاء، وله الحكمة التابعة بالإنفة، والحبية الناطقة بالإنفة، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: اهـ.

(٣) سبق تخريج البيت ٥٨٠، وهو أيضاً في «الطبري» ١/١٢٢، و«القطبي» ٨/١٢٧.
(٤) في الأصل: لِيْلَانًا، وما أُنْتَهَا من «الصباح» و«اللسان» و«الناج»: زلف.
(٥) روى مسلم في «صحيحه» ٤/١٩٨٧ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صَوْرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

هذه، وتفسيرها ظاهر^(١). ثم أخبر أنهم لم يقولوا ذلك عن بيته، ولم يكذبوا محمداً عن يقين، ولم يأتهم قبله كتاب ولا نبي يخبرهم بفساد أمره، فقال: ﴿وَمَا آيَاتُنْهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ قال قتادة: ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد؛ وهذا محمول على الذين أنذرهم نبينا [محمد] ﷺ؛ وقد كان إسماعيل نذيراً للعرب. ثم أخبر عن عاقبة المكذبين قبلهم مخوفاً لهم، فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني الأمم الكافرة، ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَسَارَ مَا آيَاتُنْهُمْ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما بلغ كفار مكة معشار ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من القوة والعمال وطول العمر، قاله الجمهور. والثاني: ما بلغ الذين من قبلهم معشار ما أعطينا هؤلاء من الحجّة والبرهان. والثالث: ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم، حكاهما الماوردي. والمعشار: العشر. والتكثير: اسم بمعنى الإنكار. قال الزجاج: والمعنى: فكيف كان تكثيري؛ وإنما حذفت الياء، لأنه آخر آية.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِرِجْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى وُفِّرْدَيُّ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا يَصْلِحْكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (١) قُلْ مَا سَأَلْتُمْ مِنْ آجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ آجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٢) قُلْ إِنْ رَبِّي يَفْقَهُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ أَلْفُوبٍ (٣) قُلْ جَاءَ الْخَلْقَ وَمَا بِيَدِي الْبَطْلُ وَمَا بِيَدِي (٤) قُلْ إِنْ ضَلَّكَ فَإِنَّمَا أَهْمُ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتَ فِيمَا يُرْسِي إِلَيَّ رَبِّيَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥)

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ﴾ أي: أمركم وأوصيكم ﴿بِرِجْدَةٍ﴾ وفيها ثلاثة أقوال. أحدها: أنها «لا إله إلا الله»، رواه ليث عن مجاهد. والثاني: طاعة الله، رواه ابن أبي نجيع عن مجاهد. والثالث: أنها قوله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى وُفِّرْدَيُّ﴾، قاله قتادة. والمعنى: أن التي أعطتكم بها، قيامكم وتشميركم لطلب الحق، وليس بالقيام على الأقدام^(١). والمراد بقوله: «متى» أي: يجتمع اثنان فيتناظران في أمر رسول الله ﷺ. والمراد بـ «فردى»: أن يتفكر الرجل وحده، ومعنى الكلام: ليتفكر الإنسان منكم وحده، وليخل بغيره، وليناظر، وليستشير، فيستدلل بالمصنوعات على صانعها، ويصدق الرسول على أتباعه، ويُثقل الرجل لصاحبه: هَلُمَّ فَلتتصدق هل رأينا بهذا الرجل جنة قط، أو جرّنا عليه كذبة قط. وتم الكلام عند قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا يَصْلِحْكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾، وفيه اختصار تقديره: ثم تتفكروا لتعلموا صحة ما أمرتكم به وأن الرسول ليس بمجنون، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخرة^(٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُمْ مِنْ آجَرٍ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾. والمعنى: ما أسألكم شيئاً؛ ومثله قول القائل: ما لي في هذا فقد وهبته لك، يريد: ليس لي فيه شيء^(٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَفْقَهُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ﴾ أي: يلقى الوحي إلى أنبيائه ﴿عَلَّمَ الْفُؤُوبَ﴾ وقرأ أبو رجاء: «عَلَّمَ» نصب الميم. ﴿قُلْ جَاءَ الْخَلْقَ﴾ وهو الإسلام والقرآن. وفي المراد بالباطل ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الشيطان، لا يخلق أحداً ولا يعينه، قاله قتادة^(٤). والثاني: أنه الأصنام، لا تُبدئ خلقاً ولا تُحيي، قاله الضحاك. وقال أبو سليمان: لا يتبدئ الصنم

(١) وهي قوله تعالى: ﴿رَأَى نَارَ عَلَيْهِمْ يَكْتُبُ فَلَوَّى كَفْراً﴾ قالوا ما هذا؟ إلا رسولٌ يُريد أن يصدِّقَ عَنَّا كَذَّابٌ يُدْعَى بِهَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا نَفْسُ فَتَنَةٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيَكْفُرُنَّ لَنَا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا بَشِيرٌ نَشِيطٌ ﴿١﴾.

(٢) قال ابن كثير: يقول الله تبارك وتعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِرِجْدَةٍ﴾ أي: إنما أمرتكم بواحدة، وهي ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى وُفِّرْدَيُّ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا يَصْلِحْكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي: تقوموا فيما خلاص الله ﷺ من غير هوى ولا عصبية فيسأل بعضكم بعضاً: هل يحمّد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً.

(٣) روى البخاري في «صحيحه» ٤١٥/٨ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: صَدَّقَ النَّبِيَّ ﷺ الصفا ذات يوم فقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، قالوا: مالك؟ قال: «أوليتكم أو لغيرتكم أن العدو يصيبكم أو يمشيكم أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبتاً لك الهذا جملتنا، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾.

(٤) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لقومك المكذبيك الرادئين عليك ما أتيتهم به من عند ربك: ما أسألكم من أجل على إنذاركم عذاب الله وتخويفكم به بأسه، ونصيحتي لكم في أمري ليأكم بالإيمان بالله والعمل بطاعته، فهو لكم لا حاجة لي به، قال: وإنما معنى الكلام: قل لهم: إني لم أسألكم على ذلك جملأ فتشبهوني وتظنوا أنني إنما دعوتكم إلى أتباعي لئلا آخذكم منكم. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: وزعم قتادة والسدي أن المراد بالباطل هاتنا: إبليس، أي: إنه لا يخلق أحداً ولا يعينه ولا يقدر على ذلك، قال: وهذا وإن كان حقاً، ولكن ليس هو المراد هاتنا، والله أعلم. اهـ.

من عنده كلاماً فيُجاب، ولا يردُّ ما جاء من الحقِّ بحُجَّة. والثالث: أنه الباطل الذي يُضادُّ الحق؛ فالمعنى: ذهب الباطل بمجيء الحقِّ، فلم تبقَ منه بقيةٌ يُقبل بها أو يُدبر أو يُبدئ أو يعيد، ذكره جماعة من المفسرين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُمْ فَأَنَا ضَالٌّ مَعَكُمْ عَلَى نَفْسِي﴾ أي: إثم ضلالتني على نفسي، وذلك أن كُفَّار مكَّة زعموا أنه قد ضلَّ حين ترك دين آباؤه ﴿وَإِنْ أَهْتَدَيْتُمْ فِيمَا يُرْوَى إِلَيَّ رِزْقًا﴾ من الحكمة والبيان.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغْنَا فَلَا قُوَّةَ وَاتَّخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ اتِّتَابُؤُنَا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْعَنَبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُوعِلَ لِأَشْيَاعِهِمْ مِمَّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغْنَا﴾ في زمان هذا الفزع قولان: أحدهما: أنه حين البعث من القبور، قاله الأكثرون. والثاني: أنه عند ظهور العذاب في الدنيا، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة. وقال سعيد بن جبیر: هو الجيش الذي يُخسف به بالبلاء، يبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لُقوا^(١)، وهذا حديث مشروح في التفسير، وأن هذا الجيش يؤمُّ البيت الحرام لتخريبه، فيخسف بهم^(٢). وقال الضحاك وزيد بن أسلم: هذه الآية فيمن قُتل يوم بدر من المشركين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ المعنى: فلا قُوَّة لهم، أي: لا يُمكنهم أن يفوتونا ﴿وَأُتخذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من مكانهم يوم بدر، قاله زيد بن أسلم. والثاني: من تحت أقدامهم بالخسف، قاله مقاتل. والثالث: من القبور، قاله ابن قتبية. وأين كانوا، فهم من الله قريب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: حين عاينوا العذاب ﴿آمَنَّا بِهِ﴾. في هاء الكناية أربعة أقوال: أحدها: أنها تعود إلى الله ﷻ، قاله مجاهد. والثاني: إلى البعث، قاله الحسن. والثالث: إلى الرسول، قاله قتادة، والرابع: إلى القرآن، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ اتِّتَابُؤُنَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «التَّاتَاؤُنَا» غير مهموز. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، والمفضل عن عاصم: بالهمز. قال الفراء: من همز جعله من «نَأْتُتْ»، ومن لم يهمز، جعله من «نُتُتْ»، وهما متقاربان؛ والمعنى: تناولتُ الشيء، بمنزلة: ذُتُّ الشيء وذَامَتُهُ: إذا جَبَّتْ؛ وقد تناوش

(١) «الطبري» ١٠٧/٢٢.

(٢) ذكر الطبري عند تفسير هذه الآية ١٠٧/٢٢ حديثاً طويلاً عجيباً لا يصح، عن الجيش الذي يخسف به، ونصه بتمامه: حدثنا عاصم بن رواد بن الجراح، قال: ثنا أبي، قال: ثنا سفيان بن سعيد، قال: ثنا منصور بن المعتمر، عن ربعي بن جراح، قال: سمعت حنيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله ﷺ، وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب، قال: فبينما هم كذلك، إذ خرج عليهم السفيائي من الوادي اليابس في قُوْره ذلك حتى ينزل دمشق، فيبعث جيشين، جيشاً إلى المشرق، وجيشاً إلى المدينة، حتى ينزلوا بأرض «بابل» في المدينة الملعونة، والبقعة الخبيثة، فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف، ويقتلون بها أكثر من مائة امرأة، ويقتلون بها ثلاثمائة كيش من بني العباس، ثم ينحدرون إلى الكوفة فيخربون ما حولها، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام، فخرج راية من الكوفة، فتلحق ذلك الجيش منها على الفتيين فيقتلونهم لا يُقتل منهم مخبر، ويستقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم، ويحلِّي جيشه التالي بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام وليالها، ثم يخرجون متوجهين إلى مكة، حتى إذا كانوا بالبلاء، بعث الله جبريل فيقول: يا جبرائيل اذهب فأبذهم، فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم، فذلك قوله في سورة (سبأ): ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغْنَا فَلَا قُوَّةَ...﴾ الآية، ولا ينفلت منهم إلا رجلان، أحدهما بشير، والآخر نذير، وهما من جهينة، فلذلك جاء القول: «وعند جهينة الخبر اليقين». اهـ. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وحكى ابن جرير عن بعضهم قال: إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس ﷺ، ثم أورد في ذلك حديثاً موضعاً بالكيفية (يريد هذا الحديث)، قال: ثم لم يبقَ على ذلك، هذا أمر عجيب غريب منه. اهـ. ولكن قال الطبري بعد هذه الرواية: حدثنا محمد بن خلف المسقلاني، قال: سألت رواد بن الجراح عن الحديث الذي حدث به عنه عن سفيان الثوري عن منصور عن ربعي عن حنيفة عن النبي ﷺ، عن قصة ذكرها في الفتن، قال: فقلت له: أخبرني عن هذا الحديث، سمعت من سفيان الثوري؟ قال: لا، قلت: فقرأته عليه؟ قال: لا، قلت: فقرأه عليه؟ قال: لا، قلت: فما قصته؟ فما خبره؟ قال: جاءني قوم فقالوا: معنا حديث عجيب، أو كلام هذا معناه، نقرأه وتسمعه، قلت لهم: هاتوه، فقرأوه عليّ ثم ذهبوا فحلُّتوا به عني، أو كلام هذا معناه. اهـ. فهذا يدل على أن الطبري نفسه يراه غريباً.

وقد روى البخاري في «صحيحه» ٢٨٤/٤ حديث الجيش الذي يغزو الكعبة فيخسف به: عن عائشة ؓ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض (مكان معروف بين مكة والمدينة) يخسف بأولهم وآخرهم»؛ قلت: يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: «يخسف بأولهم وآخرهم ثم يعمون على نياتهم»، ولكن لا علاقة لهذا الحديث بتفسير هذه الآية، ولذلك قال ابن كثير: والصحيح أن المراد بذلك (أي بوقت الفزع): يوم القيامة، وهو الطامة العظمى. اهـ.

القَوْمُ فِي الْقِتَالِ: إِذَا تَنَاوَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالرَّمَا حِ، وَلَمْ يَتَدَانَا كُلُّ التَّدَانِي، وَقَدْ يَجُوزُ هَمْزُ «التَّنَاوُسِ» وَهِيَ مِنْ «نُشْتُ» لِانْتِزَامِ الرَّوَا، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا أَرْسَلْنَا أَنْتَ﴾ [المسرات: ١١]. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: مِنْ هَمْزِ «التَّنَاوُسِ» فَلِأَنَّ وَاوَ التَّنَاوُسِ مَضْمُومَةٌ، وَكُلُّ وَاوٍ مَضْمُومَةٌ ضَمَّتْهَا لِأَمَةٍ، إِنْ شَتَّتْ أَبْدَلَتْ مِنْهَا هَمْزَةً، وَإِنْ شَتَّتْ لَمْ تَبْدَلْ، نَحْوُ: أَدْوَرٌ^(١). وَقَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: مَعْنَى الْآيَةِ: وَأَنْتَى لَهُمُ التَّنَاوُسُ لِمَا أَرَادُوا بَلُوغَهُ وَإِدْرَاكَ مَا طَلَبُوا مِنَ التَّوْبَةِ ﴿بَيْنَ تَكَايُنٍ بَعِيدٍ﴾ وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي تُقْبَلُ فِيهِ التَّوْبَةُ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: أَنْتَى لَهُمُ بِنَتَاوُلِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ وَقَدْ تَرَكُوا ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالدُّنْيَا قَدْ ذَهَبَتْ!؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِدِينِهِ﴾ فِي هَاءِ الْكِنَايَةِ أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا بُعِدْتُمْ بِدِينِهِ﴾ [سبأ: ٥٢]. وَمَعْنَى ﴿بَيْنَ قَبَلٍ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا مِنْ قَبْلِ مَعَايِنَةِ أَمْوَالِ الْآخِرَةِ ﴿وَيَقْدُورُونَ بِالْقَيْبِ﴾ أَي: يَزْمُونُ بِالظَّنِّ ﴿بَيْنَ تَكَايُنٍ بَعِيدٍ﴾ وَهُوَ بَعْدَهُمْ عَنِ الْعِلْمِ بِمَا يَقُولُونَ. وَفِي الْمِرَادِ بِمَقَالَتِهِمْ هَذِهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُرَدُّونَ إِلَى الدُّنْيَا، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ قَوْلُهُمْ فِي الدُّنْيَا: لَا بَعَثَ لَنَا وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ، قَالَهُ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ قَوْلُهُمْ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: هُوَ سَاحِرٌ، هُوَ كَاهِنٌ، هُوَ شَاعِرٌ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَجِلَ بَيْنَهُمُ دَيْنٌ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أَي: مُنْعٌ هُوَ لِأَنَّ الْكُفْرَانَ مِمَّا يَشْتَرُونَ، وَفِيهِ سِتَّةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الرَّجُوعُ إِلَى الدُّنْيَا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: الْأَهْلُ وَالْمَالُ وَالْوَلَدُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَالثَّلَاثُ: الْإِيمَانُ، قَالَهُ الْحَسَنُ. وَالرَّابِعُ: طَاعَةُ اللَّهِ، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَالخَامِسُ: التَّوْبَةُ^(٢)، قَالَهُ السُّدِّيُّ. وَالسَّادِسُ: حِيلٌ بَيْنَ الْجَيْشِ الَّذِي خَرَجَ لِتَخْرِيْبِ الْكَعْبَةِ وَبَيْنَ ذَلِكَ بِأَنْ حُصِفَ بِهِمْ، قَالَهُ مِقَاتِلٌ^(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا قُوتِلَ﴾ وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأَبِي بِنُ كَعْبٍ، وَأَبُو عِمْرَانَ: «كَمَا قُوتِلَ» بِفَتْحِ الْفَاءِ وَالْعَيْنِ ﴿وَأَشْيَاعِهِمْ بَيْنَ قَبَلٍ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: أَي: بِمَنْ كَانَ مَذْهَبُهُ مَذْهَبَهُمْ^(٤). قَالَ الْمَفْسُورُونَ: وَالْمَعْنَى: كَمَا قُوتِلَ بِنُظْرَاتِهِمْ مِنَ الْكُفْرَانِ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُمْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَرُونَ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُمْ أَصْحَابُ الْفِيلِ حِينَ أَرَادُوا خَرَابَ الْكَعْبَةِ ﴿لِإِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ مِنَ الْبَعْثِ وَنَزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿مُتَمِيبٍ﴾ أَي: مُوَقِّعٍ لِلرَّيْبِ وَالتَّهْمَةِ^(٥).



(١) قَالَ فِي «الصَّحَاحِ» مَادَّةُ «دَوَّرَ»: الدَّارُ مُؤَنَّثَةٌ، وَأَدْنَى الْعَدَدِ: أَتَوَّرُ، فَالْهَمْزَةُ فِيهِ تُبَدَّلُ مِنْ وَاوٍ مَضْمُومَةٍ، وَلَكِنْ أَنْ لَا تَهْمَزَ.

(٢) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَرَجِلَ بَيْنَهُمْ دَيْنٌ مَا يَشْتَرُونَ﴾ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ وَزَهْرَةٍ وَأَهْلٍ، قَالَ: وَرَوَى نَحْوَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: وَهُوَ قَوْلُ الْبَخَاوِيِّ وَجَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَالَ: وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَا مَنَافَةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، فَإِنَّهُ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا طَلَبُوهُ فِي الْآخِرَةِ فَصَنَعُوا مِنْهُ. اهـ.

(٣) هَذَا التَّأْوِيلُ مُتَمَلِّقٌ بِمَا ذَكَرَ فِي حَدِيثِ الْجَيْشِ الَّذِي يُضَفُّ بِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا لَكَ فَرَسًا فَلَا تَوَكُّبَ﴾ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ.

(٤) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَي: كَمَا جَرَى لِلْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمَكْتَبَةِ بِالرَّسْلِ لِمَا جَاءَهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَمَتُّوا أَنْ لَوْ آمَنُوا فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ. اهـ.

(٥) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَي: كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ، فَلِهَذَا لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ الْإِيمَانَ عِنْدَ مَعَايِنَةِ الْعَذَابِ، وَقَالَ: قَالَ قَتَادَةُ: لِإِيْكَامِ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى شَكٍّ بَعَثَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى يَقِينٍ بَعَثَ عَلَيْهِ. اهـ.

سورة فاطر

وتسمى سورة الملائكة، وهي مكية بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَسْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَتَلَّتْ رَرْبَعٌ يَزِيدُ فِي الْفَلَاقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهَا مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْمَسْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالِقَهُمَا مبتدأ على غير مثال. قال ابن عباس: ما كنت أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى اختصم اعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتهما، أي: ابتدأتهما^(١).

قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ﴾ وروى الحلبي والقزاز عن عبد الوارث: «جَاعِلٌ» بالرفع والتنوين «الملائكة» بالنصب ﴿رُسُلًا﴾ يرسلهم إلى الأنبياء وإلى ما شاء من الأمور ﴿أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾ أي: أصحاب أجنحة ﴿مَّتَنَّىٰ وَتَلَّتْ رَرْبَعٌ يَزِيدُ﴾ فبعضهم له جناحان، وبعضهم [له] ثلاثة، وبعضهم له أربعة، و﴿يَزِيدُ فِي الْفَلَاقِ مَا يَشَاءُ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه زاد في خلق الملائكة الأجنحة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: يزيد في الأجنحة ما يشاء، رواه عباد بن منصور عن الحسن، وبه قال مقاتل^(٢). والثالث: أنه الخلق الحسن، رواه عوف عن الحسن. والرابع: أنه حُسن الصوت، قال الزهري، وابن جريج. والخامس: الملاحاة في العينين، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ أي: من خير ورزق. وقيل: أراد بها المطر ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وقرأ أبي بن كعب، وابن أبي عمير: «فلا مُمْسِكُ له». وفي الآية تنبيه على أنه لا إله إلا هو، إذ لا يستطيع أحدٌ إمساك ما فتح وفتح ما أسك^(٣).

﴿يَأْتِيَا النَّاسَ أَذْكَرًا بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْكَ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَلَّفَ تَوْفِيقًا ﴿٣﴾ وَإِنْ يَكْفُرْكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَاللَّهُ رَئِيسُ الْأُمُورِ ﴿٤﴾ يَأْتِيَا النَّاسَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَسْرُكُمُ الْهَيْبَةُ الَّذِينَ سَاءَ وَلَا يَغْرَبَكُم بِإِلَهِ الْغُرُوبِ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ أَذْكَرًا بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ قال المفسرون: الخطاب لأهل مكة، «واذكروا» بمعنى «احفظوا»، ونعمة الله عليهم: إسكانهم الحرم ومنع الغارات عنهم. ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «غير الله» بخفض الراء؛ قال أبو علي: جعلناه صفة على اللفظ، وذلك حسنٌ لإتباع الجر. وهذا استفهام تقرير وتوبيخ؛ والمعنى: لا خالق سواه ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ المطر ﴿و﴾ من ﴿الْأَرْضِ﴾ النبات. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأنعام: ٩٥، آل عمران: ١٨٤، البقرة: ٢١٠، لقمان: ٣٣] إلى قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ﴾ أي: إنه يريد هلاككم ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: أنزلوه من أنفسكم منزلة الأعداء، وتجنّبوا طاعته ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ أي: شيعته إلى الكفر ﴿يَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿أَمْسِنَ زَيْنٌ لَمْ سَوْهُ عَلَيْهِ، فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُفِيرُ صَخَابًا مَسْفُتَةً إِلَىٰ بَلَدٍ مَاتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ اللَّهُ الشَّعُورُ ﴿٩﴾﴾

(١) قال ابن كثير: وقال ابن عباس: «فاطر السموات والأرض»: أي: بديع السموات والأرض، قال: وقال الضحاك: كل شيء في القرآن «فاطر السموات والأرض» فهو خالق السموات والأرض. اهـ.

(٢) وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود: قال: «قد كان بين يدي رسول الله ﷺ» قال: رأى جبريل في صورته له ستائة جناح.

(٣) قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ زَيْنٌ لَّهُ سُوءٌ عَلَيْهِ﴾^(١) اختلفوا فمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أبي جهل ومشركي مكة، قاله ابن عباس. والثاني: في أصحاب الأهواء والجلل التي خالفت الهدى، قاله سعيد بن جبير. والثالث: أنهم اليهود والنصارى والمجوس، قاله أبو قلابة^(٢). فإن قيل: أين جواب «أَمَّنْ زَيْنٌ لَهُ؟» فالجواب من وجهين ذكرهما الزجاج: أحدهما: أن الجواب محذوف؛ والمعنى: أَمَّنْ زَيْنٌ لَهُ سُوءٌ عمله كمن هداه الله؟! ويدل على هذا قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. والثاني: أن المعنى: أَمَّنْ زَيْنٌ لَهُ سُوءٌ عمله فأضله الله ذهب نفسك عليهم حسرات؟! ويدل على هذا قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾. وقرأ أبو جعفر: «فلا تذهب» بضم الناء وكسر الهاء «نفسك» بنصب السين. وقال ابن عباس: لا تغتم ولا تُهلِكْ نَفْسَكَ حَسْرَةً على تركهم الإيمان.

قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّرُ صَوَابًا﴾ أي: تُرْجِعُهُ مِنْ مَكَانِهِ؛ وقال أبو عبيدة: تجمعه وتجيء به، و«سُقْبَانَهُ» بمعنى «نسوقه»؛ والعرب قد تضع «فَعَلْنَا» في موضع «تَفَعَّلَ»، وأنشدوا:

إِنْ يَسْمَعُوا رِيْبَةَ طَارُوا بِهَا فَرَحًا
مِئْتِي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَقْنَا^(٣)
المعنى: يَطِيرُوا وَيَذْفُونَا.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الشُّورُ﴾ وهو الحياة. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: كما أحيا الله الأرض بعد موتها يُحيي الموتى يوم البعث. روى أبو رزين العقيلي، قال: قلت: يا رسول الله: كيف يُحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: «هل مررت بوادي أهلك مَخْلًا، ثم مررت به يهتؤ خَصْرًا؟» قلت: نعم، قال: «فكذلك يُحيي الله الموتى، وتلك آيته في خلقه»^(٤). والثاني: كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء، كذلك يُحيي الله الموتى بالماء. قال ابن مسعود: يرسلُ الله تعالى ماءً من تحت العرش كميئ الرجل، قال: فتنبت لُحْمَانَهُمْ وَجُسْمَانَهُمْ من ذلك الماء، كما تنبت الأرض من الثرى، ثم قرأ هذه الآية. وقد ذكرنا في [الأعراف: ٥٧] نحو هذا الشرح.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْمَعْمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من كان يريد العزة بعبادة الأوثان ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، قاله مجاهد. والثاني: من كان يريد العزة فليتعزَّزْ بطاعة الله، قاله قتادة. وقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ رَبِّكُمْ يَقُولُ كُلَّ يَوْمٍ: أَنَا الْعَزِيزُ، فَمَنْ أَرَادَ عِزَّ الدَّارَيْنِ فَلْيَطِيعِ الْعَزِيزَ»^(٥). والثالث: من كان يريد عِلْمَ الْعِزَّةِ لِمَنْ هِيَ، فإنها لله جميعاً، قاله الفراء^(٦).

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو عبد الرحمن السلمي، والنخعي، والجحدري،

(١) قال السيوطي في «الدرر»: ٢٤٥/٥: أخرج ابن جرير من طريق جوير عن الضحاك رضي الله عنه قال: أنزلت هذه الآية ﴿أَمَّنْ زَيْنٌ لَّهُ سُوءٌ عَلَيْهِ قَرَبَهُ سَكَا﴾ حيث قال النبي ﷺ: «اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل ابن هشام، فهدي الله عمر رضي الله عنه، وأضل أبا جهل، فنيهما أنزلت.

وقال في «أسباب النزول»: ١٨٥: أخرج جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية... فذكره بنحوه.

(٢) قال السيوطي في «الدرر»: ٢٤٥/٥: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي قلابة أنه سئل عن هذه الآية ﴿أَمَّنْ زَيْنٌ لَّهُ سُوءٌ عَلَيْهِ قَرَبَهُ سَكَا﴾: أهم عمالنا هؤلاء الذين يصفون؟ قال: ليس هم، إن هؤلاء ليس أحدهم يأتي شيئاً مما لا يحل له إلا قد عرف أن ذلك حرام عليه، إن أتى الزنى فهو حرام، أو قتل النفس فهو حرام، إنما أولئك أهل الملل اليهود والنصارى والمجوس... إلخ.

(٣) سبق تخريج البيت ٥٠٩، وهو أيضاً في «مجاز القرآن»: ١٥٢/٢، و«اللسان» و«التاج»: أذن.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسنَد»: ١١/٤ من حديث حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن حلس عن عمه أبي رزين العقيلي. قال ابن كثير: ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث حماد بن سلمة به، ثم قال: ورواه أحمد أيضاً بسند آخر قال: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبي رزين العقيلي... فذكره بنحوه. والحديث أورده السيوطي في «الدرر»: ٢٤٥/٥، وزاد نسبة للطبري، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه.

(٥) ذكره الطبري في «مجمع البيان» بدون سند.

(٦) قال ابن جرير الطبري: والذي هو أولى الأقوال بالصواب عندي قول من قال: من كان يريد العزة فبالله فليتعزَّزْ، فله العزة جميعاً دون كل ما دونه من الآلهة والأوثان. وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة، فليعلم طاعة الله تعالى، فإنه يحصل له مقصوده، لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعاً. اهـ.

والشيزري عن الكسائي: «يُضَعَدُ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ» وهو توحيدهِ وذِكْرُهُ^(١) «وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» قال علي بن المديني: الكَلِمُ الطَّيِّبُ: لا إله إلا الله، والعمل الصالح: أداء الفرائض واجتناب المحارم^(٢). وفي هاء الكناية في قوله: «يرفعه» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الكَلِمِ الطَّيِّبِ؛ فالمعنى: والعمل الصالح يرفع الكَلِمِ الطَّيِّبِ، قاله ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك. وكان الحسن يقول: يُعْرَضُ الْقَوْلُ عَلَى الْفِعْلِ، فإن وافق الْقَوْلُ الْفِعْلُ قِيلَ، وإن خالف رُدَّ. والثاني: أنها ترجع إلى العمل الصالح، فالمعنى: والعمل الصالح، يرفعهُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، فهو عكس القول الأول، وبه قال أبو صالح، وشهر بن حوشب. فإذا قلنا: إن الْكَلِمِ الطَّيِّبِ هو التوحيد، كانت فائدة هذا القول أنه لا يُقْبَلُ عَمَلٌ صَالِحٌ إِلَّا مِنْ مُوحِّدٍ. والثالث: أنها ترجع إلى الله ﷻ؛ فالمعنى: والعمل الصالح يرفعهُ الله إليه، أي: يَقْبَلُهُ، قاله قتادة.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السُّيَّئَاتِ» قال أبو عبيدة: يَمْكُرُونَ: بمعنى: يكتسبون ويجتريحون. ثم في المشار إليهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم الذين مكروا برسول الله ﷺ في دار الندوة، قاله أبو العالية. والثاني: أنهم أصحاب الرياء، قاله مجاهد، وشهر بن حوشب. والثالث: أنهم الذين يعملون السُّيَّئَاتِ، قاله قتادة، وابن السائب. والرابع: أنهم قائلو الشُّرْكِ، قاله مقاتل^(٣). وفي معنى «يَمْكُرُونَ» قولان: أحدهما: يَيْظُلُّ، قاله ابن قتيبة. والثاني: يَنْسُدُّ، قاله الزجاج.

«وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا يَمْلِحُ أَمَّاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبَّةً تَسْبُرُهَا وَيَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِعٌ لِيَتَنَفَّسُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُؤَلِّجُ الْبَلَدَ فِي الْفَجْرِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي الْبَيْتِ وَسَحَّرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ كُلُّ جَبْرِيٍّ لِأَجْلِ مَسْئَلٍ ذِكْرُكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمَلَكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْرِهِ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَوَ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَهُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ» يعني آدم «ثُمَّ مِنْ نُفُفَةٍ» يعني نسله «ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا» أي: أصنافاً، ذكوراً وإناثاً؛ قال قتادة: زَوْجٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.

قوله تعالى: «وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ» أي: ما يطول عمر أحد «وَلَا يُنْقَضُ» وقرأ الحسن، ويعقوب: «يُنْقَضُ» بفتح الياء وضم القاف «وَمِنْ عُمرِهِ» في هذه الهاء قولان: أحدهما: أنها كناية عن آخر، فالمعنى: ولا يُنْقَضُ من عمر آخر؛ وهذا المعنى في رواية العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في آخرين^(٤). قال الفراء: وإنما كنى عنه كأنه الأول، لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول، كأنه قال: ولا يُنْقَضُ من عمر مُعَمَّرٍ، ومثله في الكلام: عندي درهم ونصفه؛ والمعنى: ونصف آخر. والثاني: أنها ترجع إلى المُعَمَّرِ المذكور؛ فالمعنى: ما يذهب من عمر هذا المُعَمَّرِ يوم أو ليلة إلا وذلك مكتوب؛ قال سعيد بن جبير: مكتوب في أول الكتاب: عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب أسفل من ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، ذهبت ثلاثة، إلى أن ينقطع عُمره؛ وهذا المعنى في رواية ابن جبير عن ابن عباس، وبه قال عكرمة

(١) قال ابن كثير: وقوله: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ» يعني الذكر والتلاوة والدعاء، قاله غير واحد من السلف.

(٢) الذي في «الطبري»: عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: قوله: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» قال: الكلام الطيب: ذكْرُ اللهِ، والعمل الصالح: أداء فرائضه، فمن ذكر الله سبحانه في أداء فرائضه، حمل عليه ذكر الله فصعد به إلى الله، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه، رَدَّ كَلِمَهُ عَلَى عَمَلِهِ فَكَانَ أَوْلَى بِهِ. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السُّيَّئَاتِ» قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وشهر بن حوشب: هم المراءون بأعمالهم، يعني يَمْكُرُونَ بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى، وهم بغضاء إلى الله ﷻ، يراءون بأعمالهم «وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا لِيُكَلِّمَهُمْ» قال: وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون، ثم قال ابن كثير: والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال تعالى: «ثُمَّ قَالَتْ سَبِيحًا وَتَكَرَّرَ لِوَجْهِكَ مَوْجُ يَمِينٍ» أي: يسجد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي، فإنه ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلنات لسانه، وما أسرَّ أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال: فالمرابي لا يروج أمره ويستمر إلا على غيبي، أما المؤمنون المصْرُوفُونَ، فلا يروج ذلك عليهم، بل ينكشف لهم عن قريب، قال: وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية. اهـ.

(٤) وهذا الذي اختاره ابن جرير الطبري، وقال عنه ابن كثير: وهو كما قال.

وأبو مالك في آخرين^(١). فأما الكتاب، فهو اللوح المحفوظ. وفي قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ قولان: أحدهما: أنه يرجع إلى كتابة الآجال. والثاني: إلى زيادة العمر وتقصانه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ يعني العذب والمِلْح؛ وهذه الآية وما بعدها قد سبق بيانه [الفرقان: ٥٣، النحل: ١٤، آل عمران: ٢٧، الرعد: ٢٢] إلى قوله: ﴿مَا يَسْكُوتُ مِنْ ظَمِيرٍ﴾ قال ابن عباس: هو القشر الذي يكون على ظهر النواة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ﴾ لأنهم جماد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ بأن يخلق الله لهم أسماعاً ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: لم يكن عندهم إجابة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يتبرؤون من عبادتكم ﴿وَلَا يَتَّبِعُكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ خَلْقٍ﴾ أي: عالم بالأشياء، يعني نفسه ﷻ؛ والمعنى أنه لا أخبر منه عز جل بما أخبر أنه سيكون.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ إن يتأ بدببكم ويأت يخلق جديدي ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا ثقل إنما تذر الذين يحشرونهم بالقيوم وأقاموا الصلوة ومن تزرى فإنه ينقلب إفسيداً ﴿وَلِلَّهِ الْغَنِيُّ﴾ ولا الظلمت ولا النور ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا النُّورُ﴾ وما يستوي الأجنة ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت يسوع من في القبور ﴿إِنَّ أَنْتَ مُسْتَمْسِكٌ بِالْئِينَاسِ وَإِنَّ آتِيسَاتِكُمْ إِلَى اللَّهِ سَبِيلٌ وَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ لِرَبِّهِ لَكَنُفِرٌ﴾ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جأتهنم رؤسهنم بالبينت وبآثرهن وبالكتب المنيرة ﴿فَرَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا كَيْفَ كَانَتْ تَكْوِينُ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: المحتاجون إليه ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن عبادتكم ﴿الْحَمِيدُ﴾ عند خلقه بإحسانه إليهم^(٢). وما بعد هذا قد تقدم بيانه [لإبراهيم: ١٩، الأنعام: ١٦٤] إلى قوله: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مَثَلَهُ﴾ أي: نفس مثقلة بالذنوب ﴿إِنَّ جِزْلَهَا﴾ الذي حملت من الخطايا ﴿لَا يَحْتَمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ ولو كان ﴿ذَا ثَقَلَيْنِ﴾ ذا قرابة^(٣) ﴿إِنَّمَا تُذَرُّ الَّذِينَ يحشرونهم بالقيوم﴾ أي: يخشونه ولم يروه؛ والمعنى: إنما تنفع بإنذارك أهل الخشية، فكانك تذرهم دون غيرهم لمكان اختصاصهم بالانتفاع، ﴿وَمَنْ تَزَرَ﴾ أي: تطهر من الشرك والفواحش، وفعل الخير ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي: فصلح له لنفسه ﴿وَلِلَّهِ الْغَنِيُّ﴾ فيجزى بالأعمال، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ يعني المؤمن والمشرك، ﴿وَلَا الظُّلُّ﴾ يعني الشرك والضلالات ﴿وَلَا النُّورُ﴾ الهدى والإيمان، ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا النُّورُ﴾ فيه قولان: أحدهما: ظل الليل وسُوم النهار، قاله عطاء. والثاني: الظل: الجنة، والحُرور: النار، قاله مجاهد. قال الفراء: الحُرور بمنزلة السُوم، وهي الرياح الحارة. والحُرور تكون بالنهار وبالليل، والسُوم لا تكون إلا بالنهار. وقال أبو عبيدة: الحُرور تكون بالنهار مع الشمس، وكان رؤية يقول: الحُرور بالليل، والسُوم بالنهار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَجْنَةُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أن الأحياء: المؤمنون، والأموات: الكفار. والثاني: أن الأحياء: العقلاء، والأموات: الجهال. وفي «لا» المذكورة في هذه الآية قولان: أحدهما: أنها زائدة مؤكدة. والثاني: أنها نافية لاستواء أحد المذكورين مع الآخر. قال قتادة: هذه أمثال ضربها الله تعالى للمؤمن والكافر، يقول: كما لا تستوي هذه الأشياء، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن^(٤). ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يفهم من يريد

(١) قال ابن كثير: وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا أحمد بن يحيى بن أبي زيد بن سليمان، قال: سمعت ابن وهب يقول: حدثني يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سُرِه أن يسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه»، قال ابن كثير: وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يونس بن يزيد الأيلي به. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: يخبر تعالى بصفاته مما سواه، ويقفقر المخلوقات كلها إليه وتذلها بين يديه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالنت، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي: هو المنفرد بالغي وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشعره، ثم قال في تمة الآية: وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُخَوِّضْكُمْ فِي السُّمُومِ﴾ أي: لو شاء لأنهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممنوع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي يوم القيامة.

(٣) وظل لسورة تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ولها قال ﷻ: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي: هو المنفرد بالغي وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشعره، ثم قال في تمة الآية: وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُخَوِّضْكُمْ فِي السُّمُومِ﴾ أي: لو شاء لأنهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممنوع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي يوم القيامة.

(٤) قال ابن كثير: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء، وللکافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ تَبَاً فَاجْتَبَيْتَهُ رَجَعْنَا لَكَ كُورًا يَشِيءُ﴾

إفهامه ﴿وَمَا أَنْتَ بِسَمِيعٍ مِّنَ الْقُبُورِ﴾^(١) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى، والحسن، والجحدري: «بِسْمِيعٍ مِّنْ» على الإضافة؛ يعني الكفار، شبههم بالموتى، ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾^(٢) قال بعض المفسرين: نُسخ معناها بآية السيف^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنَّكَ آيَاتٌ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: ما من آية إلا قد جاءها رسول^(٤). وما بعد هذا قد سبق بيانه لك عمران: ١٨٤، الحج: ٤٤٤ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَانَتْ نَجْوَىٰ﴾^(٥) أثبت فيها الباء في الحالين يعقوب، وافقه في الوصل ورش.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ النَّارِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلْكُوۗتُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ﴾ أي: ومِمَّا خَلَقْنَا مِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ. قال ابن قتيبة: الجُدُدُ: الخُطوط والطَّرَاقِ تكون في الجبال، فبعضها بَيضٌ، وبعضها حُمْرٌ، وبعضها غَرَابِيبٌ سُودٌ، والغَرَابِيبُ جمع غَرَابِيبٍ، وهو الشديد السواد، يقال: بَيضٌ أَسْوَدٌ غَرَابِيبٌ، وتمام الكلام عند قوله: «كذلك»، يقول: من الجبال مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ^(٧)، ﴿وَمِنَ النَّارِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كاختلاف الثمرات. قال الفراء: وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: وسودٌ غرابيب، لأنه يقال: أسودٌ غَرَابِيبٌ، وقلما يقال: غرابيب أسود. وقال الزجاج: المعنى: ومن الجبال غرابيب سود، وهي ذوات الصخر الأسود. وقال ابن دريد: الغَرَابِيبُ: الأسود، أحسب أن اشتقاقه من الغَرَابِ. وللمفسرين في المراد بالغرابيب ثلاثة أقوال: أحدها: الطرائق السود، قاله ابن عباس. والثاني: الأودية السود، قاله قتادة. والثالث: الجبال السود، قاله السدي. ثم ابتداء فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلْكُوۗتُ﴾ يعني العلماء بالله عز وجل. قال ابن عباس: يريد: إِنَّمَا يَخْفَى مِنْ خَلْقِي مَنْ عَلَّمَ جِبْرُوتِي وَعِزَّتِي وَسُلْطَانِي^(٨). وقال مجاهد والشعبي: العالم من خاف الله. وقال الربيع بن أنس: من لم يَخْشِ الله فليس بعالم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿١٨﴾ لِيُزَيِّنَهُمْ أَرْجُومَهُمْ وَيُزَيِّدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ أُوحِيَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُعَدًّا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(٩)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يعني قُرَّاء القرآن، فأثنى عليهم بقراءة القرآن؛ وكان مطرّف يقول: هذه آية القُرَّاء. وفي قوله: ﴿يَتْلُونَ﴾ قولان: أحدهما: يقرؤون. والثاني: يتبعون. قال أبو عبيدة: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بمعنى ويقيمون، وهو إدامتها لمواقيتها وحدودها.

يد في الآيتين كَمَثَلُ فِي الْكَلِمَاتِ لَيْسَ بِحَاجٍ إِلَيْهَا، وقال ﷺ: ﴿نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالنَّبِيِّ هَلْ يَسْتَوُونَ مَثَلًا؟﴾ فالؤمن بصير سمح في نور، يمضي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمضي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيِّ وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسُّوم والحميم وظل من يحوم لا بايو ولا كريم. اهـ.

(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنَّ سَمِيعٍ مِّنَ الْقُبُورِ﴾ يقول تعالى ذكروه: كما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله فيهدبهم به إلى سبيل الرشاد، فكذلك لا يقدر أن ينفع بمواعظ الله وبيان حججه من كان ميت القلب من إحياء عباده عن معرفة الله وفهم كتابه وتنزيله وروايع حججه. اهـ.

(٢) قال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾^(١٠) يقول تعالى ذكروه لنبية محمد ﷺ: ما أنت إلا نذير تنذر هؤلاء المشركين بالله الذين طبع الله على قلوبهم، ولم يُزِيلْكَ رِيكَ إِلَيْهِمْ لَاتَلْمِظَهُمْ رَسَالَتَكَ، ولم يَكْفُكْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا سَبِيلَ لَكَ إِلَيْهِ، فَمَا اعْتَدَاؤُهُمْ وَقَبُولُهُمْ مِنْكَ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدُ اللَّهِ لَا يَدُكَ وَلَا يَدُ غَيْرِكَ مِنَ النَّاسِ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنْ هُمْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: أي: وما من آمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر، وأزاح عنهم الغل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْتَبِعُوا صُلُوبَكُمْ فَكَيْفَ كَانَ اللَّهُ رَحِيمًا رَحِيمًا﴾^(١١) كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْتَبِعُوا صُلُوبَكُمْ فَكَيْفَ كَانَ اللَّهُ رَحِيمًا رَحِيمًا﴾^(١٢) الآية، قال: والآيات في هذا كثيرة. اهـ.

(٤) قال ابن جرير الطبري: ﴿كَذَٰلِكَ كَانَتْ نَجْوَىٰ﴾ فانظر يا محمد كيف كان تغييرهم بهم، وحلول عقوبتي بهم.

(٥) في «غريب القرآن»: ألوانها.

(٦) قال ابن كثير: أي: إِنَّمَا يَخْفَى حَقَّ خَشِيَتِهِ الْعُلَمَاءُ الْمَارِفُونَ بِهِ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنوت بالأسماء الحسنى، كلما كان المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر. اهـ.

قوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ عِذْرَةَ﴾ قال الفراء: هذا جواب قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ﴾. قال المفسرون: والمعنى: يرجون بفعلهم هذا تجارة لن تفسد ولن تهلك ولن تكسب. ﴿لِيُرِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال ابن عباس: سوى الثواب ما لم تر عين ولم تسمع أذن. فأما الشكور، فقال الخطابي: هو الذي يشكر اليسير من الطاعة، فيثيب عليه الكثير من الثواب، ويُعطي الجزيل من النعمة، ويرضى باليسير من الشكر؛ ومعنى الشكر المضاف إليه: الرضى بيسير الطاعة من العبد، والقبول له، وإعظام الثواب عليه؛ وقد يحتمل أن يكون معنى الثناء على الله بالشكور ترغيب الخلق في الطاعة قلت أو كثرت، لئلا يستقلوا القليل من العمل، ولا يتركوا اليسير منه.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ جئت عند دخولها محكون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولياسمها فيها حريرا ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ في ﴿ثُمَّ﴾ وجهان: أحدهما: أنها بمعنى الواو، والثاني: أنها للترتيب. والمعنى: أنزلنا الكتب المتقدمة، ثم أوزننا الكتاب. ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أمة محمد ﷺ، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم الأنبياء وأتباعهم، قاله الحسن. وفي الكتاب قولان: أحدهما: أنه اسم جنس، والمراد به الكتب التي أنزلها الله ﷻ، وهذا يخرج على القولين. فإن قلنا: الذين اصطفوا أمة محمد، فقد قال ابن عباس: إن الله أورث أمة محمد ﷺ كل كتاب أنزله. وقال ابن جرير الطبري: ومعنى ذلك: أورثهم الإيمان بالكتب كلها - وجميع الكتب تأمر باتباع القرآن - فهم مؤمنون بها عاملون بمقتضاها؛ واستدل على صحة هذا القول بأن الله تعالى قال في الآية التي قبل هذه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأُوتُوا الْحِكْمَ﴾ واتباعه بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ فعلمنا أنهم أمة محمد، إذ كان معنى الميراث: انتقال شيء من قوم إلى قوم، ولم تكن أمة على عهد نبينا انتقل إليهم كتاب من قوم كانوا قبلهم غير أمته. فإن قلنا: هم الأنبياء وأتباعهم، كان المعنى: أوزننا كل كتاب أنزل على نبي ذلك النبي وأتباعه. والقول الثاني: أن المراد بالكتاب القرآن^(١). وفي معنى «أوزننا» قولان: أحدهما: أعطينا، لأن الميراث عطاء، قاله مجاهد. والثاني: أخرجنا، ومنه الميراث، لأنه تأخر عن الميت؛ فالمعنى: أخرجنا القرآن عن الأمم السالفة وأعطيناها هذه الأمة، إكراما لها، ذكره بعض أهل المعاني.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه صاحب الصغائر؛ روى عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ أنه قال: (سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له)^(٢). وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في هذه الآية، قال: «كلهم في الجنة»^(٣). والثاني: أنه الذي مات على كبيرة ولم يتب منها، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أنه الكافر، رواه عمرو بن دينار عن ابن عباس، وقد رواه ابن عمر مرفوعاً إلى النبي ﷺ^(٤). فعلى هذا يكون الاصطفاة لجملة من أنزل عليه الكتاب، كما قال: ﴿وَرَأَيْتُمْ لِكُرْبِكُمْ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: لشرف لكم، وكم من مكرم لم يقبل الكرامة! والرابع: أنه المنافق، حكى عن الحسن^(٥). وقد روي عن الحسن أنه قال: الظالم: الذي ترجح

(١) قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يقول تعالى: ثم جعلنا القاتمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة. اهـ.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٣٩: رواه سعيد بن منصور عن فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد الله الحرازي عن سمع عمر، فذكره موقوفاً. وذكره السيوطي في «الدر» من رواية سعيد بن منصور، وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث» عن عمر بن الخطاب ﷺ موقوفاً، ولم يثبت في المرفوع.

(٣) رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ﷺ عنه بلفظ: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة» قال ابن كثير: هذا حديث غريب، وفي إسناده من لم يسم، ثم قال: ومعنى قوله: «بمنزلة واحدة» أي: في أنهم من هذه الأمة وأنهم من أهل الجنة وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة. اهـ. والحديث قد رواه ابن جرير الطبري بنحو حديث أحمد، وللحديث شواهد يشد بعضها بعضاً. ورواه بنحو الترمذي وقال: هذا حديث غريب حسن، وقد أورده السيوطي في «الدر» ٢٥١/٥ عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وزاد نسبه للطيالسي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٥٢/٥ من رواية ابن مردويه عن عمر مرفوعاً، والله أعلم.

(٥) قال ابن كثير: والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهو اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً. اهـ. يريد بذلك أمثال حديث أبي سعيد الخدري وغيره.

سَيِّئَاتِهِ عَلَى حَسَنَاتِهِ، وَالْمُقْتَصِدُ: الَّذِي قَدِ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ، وَالسَّابِقُ: مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ. وَرَوَى عَنْ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ آيَةَ، فَقَالَ: سَابِقُنَا أَهْلَ جِهَادِنَا، وَمُقْتَصِدُنَا أَهْلَ حَضْرَانَا، وَظَالِمُنَا أَهْلَ بَدُونِنَا^(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِثْمَهُمْ سَابِقٌ﴾ وَقَرَأَ أَبُو الْمُتَوَكَّلِ، وَالْجَحْدَرِيُّ، وَابْنُ السَّمِيعِ: «سَبَّاقٌ» مِثْلُ: «فَعَالَ» بِ«الْخَيْرَاتِ» أَيُّ: بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَوْ إِلَى الرَّحْمَةِ ﴿يَاذُنِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: بِإِرَادَتِهِ وَأَمْرِهِ ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يَعْنِي إِيْرَانَهُمُ الْكِتَابَ^(٢). ثُمَّ أَخْبَرَ بِشَوَابِهِمْ، فَجَمَعَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَقَالَ: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾^(٣) قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَحْدَهُ: «يَدْخُلُونَهَا» بِضَمِّ الْبَاءِ؛ وَفَتْحِهَا الْبَاقُونَ، وَقَرَأَ نَافِعٌ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ: «وَلَوْ لَوْأُ» بِالضَّمِّ. وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ أَنَّهُ كَانَ يَهْمِزُ الْثَانِيَةَ وَلَا يَهْمِزُ الْأُولَى؛ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ كَانَ يَهْمِزُ الْأُولَى وَلَا يَهْمِزُ الْثَانِيَةَ. وَالآيَةُ مَفْسُورَةٌ فِي سُورَةِ الْحَجِّ ١٢٣. قَالَ كَعْبٌ: تَحَاكَّتْ مَنَاكِبُهُمْ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، ثُمَّ أَعْطَا الْفَضْلَ بِأَعْمَالِهِمْ.

﴿وَقَالُوا لَمَعَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ الَّذِي لَطَمْنَا دَارَ الْقَمَامَةِ مِنْ قَسَلِهِ لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نُقُوبٌ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَاذِبٍ﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرَجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمُرِكُمْ مَا يَنْذُرُكُمْ فَبِمَا كَفَرْتُمْ كُفِّرْتُمْ وَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿فَدَقُّوْا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ خَلْفَهُ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا حَسَابًا﴾^(٤)

ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا يَقُولُونَ عِنْدَ دُخُولِهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَمَعَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ الْحَزْنَ وَالْحُزْنَ وَاحِدٌ، كَالْبُخْلِ وَالْبُخْلُ. وَفِي الْمَرَادِ بِهَذَا الْحَزْنَ خَمْسَةٌ أَقْوَالٌ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْحَزْنَ لَطُولُ الْمَقَامِ فِي الْمَحْشَرِ. رَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَمَّا السَّابِقُ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَمَّا الْمُقْتَصِدُ، فَيَحْسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ، فَإِنَّهُ حَزِينٌ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ»، فَهُوَ الْحَزْنَ وَالْغَمُّ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَمَعَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾^(٥). وَالثَّانِي: أَنَّهُ الْجُوعُ، رَوَاهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ أَيْضًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، [وَلَا يَصِحُّ]، وَبِهِ قَالَ شَمْرُ بْنُ عَطِيَّةَ^(٦). وَفِي لَفْظِ عَنْ شَمْرٍ أَنَّهُ قَالَ: الْحَزْنَ: هُمُ الْحُزْبُ^(٧)، وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ أَنَّهُ قَالَ: الْحَزْنَ: هُمُ الْحُزْبُ فِي الدُّنْيَا. وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ حَزْنُ النَّارِ، رَوَاهُ أَبُو الْجَوْزَاءِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٨). وَالرَّابِعُ: حَزْنُهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى ذُنُوبٍ سَلَفَتْ مِنْهُمْ، رَوَاهُ عِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٩). وَالْخَامِسُ: حَزْنُ الْمَوْتِ، قَالَهُ عَطِيَّةُ^(١٠). وَالآيَةُ عَامَّةٌ فِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَغَيْرِهَا^(١١)، وَمِنْ الْقَبِيحِ تَخْصِيصُ هَذَا الْحَزْنَ بِالْحُزْبِ وَمَا يَشْبَهُهُ، وَإِنَّمَا حَزَنُوا عَلَى ذُنُوبِهِمْ وَمَا يُوْجِبُ الْخَوْفَ.

(١) ذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ» ٢٥٢/٥ مِنْ رِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، ابْنِ مَرْدُودِيَةَ، عَنْ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ مَوْقُوفًا.

(٢) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ: وَقَوْلُهُ: «ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: سُبِقَ هَذَا السَّابِقُ مِنْ سَبْقِهِ بِالْخَيْرَاتِ يَاذُنِ اللَّهِ، هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ الَّذِي فَضَّلَ بِهِ مَنْ كَانَ مُقْتَصِرًا عَنْ مَنزَلَتِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ مِنَ الْمُقْتَصِدِ وَالظَّالِمِ لِنَفْسِهِ. اهـ.

(٣) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُصْطَفِينَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ الْمَنْزِلَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَا وَرَاهُمْ جَنَاتُ عَدْنٍ، أَيُّ: جَنَاتُ الْإِقَامَةِ يَدْخُلُونَهَا يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَقَدُومِهِمْ عَلَى اللَّهِ ﷻ ﴿يُحْسَبُونَ فِيهَا بِرَبِّهِمْ مِنْ ذَمِّ لَوْلُؤُا﴾ كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَبْلُغُ الْحَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوءُ» ﴿وَرَبَّائِهِمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وَلِهَذَا كَانَ مُحْظَرًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَأَبَاحَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ» وَقَالَ: «هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكِنْ فِي الْآخِرَةِ». اهـ.

(٤) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ» ٢٥١/٥، وَزَادَ نَسْبَهُ لِلْفَرِيَّابِيِّ، وَعَبْدُ بْنُ حَنِيدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالتَّبْرَانِيُّ، وَالحَاكِمُ، وَابْنُ مَرْدُودِيَةَ، وَابْنُ أَبِي الدَّرْدَاءِ.

(٥) لَمْ نَرِ الْحَزْنَ بِمَعْنَى الْجُوعِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَرْفُوعًا وَلَا مَوْقُوفًا عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ» ٢٥٣/٥ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ شَمْرٍ بِنِ عَطِيَّةَ مِنْ قَوْلِهِ.

(٦) ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ ١٣٨/٢٢.

(٧) «الطَّبْرِيُّ» ١٣٨/٢٢، وَذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ» ٢٥٣/٥، وَزَادَ نَسْبَهُ لِعَبْدِ بْنِ حَنِيدٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٨) ذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ» ٢٥٣/٥ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ بْنِ حَنِيدٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٩) «الطَّبْرِيُّ» ١٣٨/٢٢.

(١٠) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ: وَأُولَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ أَنْ يَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرَهُ أَخْبَرَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَكْرَمَهُمْ بِمَا أَكْرَمَهُمْ بِهِ، أَنَّهُمْ قَالُوا =

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَحْنَا﴾ أي: أنزلنا ﴿وَأَرَّ الْمَقَامِ﴾ قال الفراء: المقامة هي الإقامة، والمقامة: المجلس، بالفتح لا غير، قال الشاعر:

يَوْمَانِ يَوْمٌ مَقَامَاتٍ وَأَنْدِيَةٌ وَيَوْمٌ سَيْرٍ إِلَى الْأَغْدَاءِ تَأْوِيٍّ^(١)

قوله تعالى: ﴿مِنْ ضَلِيلِهِ﴾ قال الزجاج: أي: بتفضله، لا بأعمالنا. والنَّصَبُ: التَّعَبُ. واللُّغُوبُ: الإعياء من التَّعَبِ. ومعنى «لُغُوبٌ»: شيء يُلِيبُ؛ أي: لا يتكلف شيئاً نَعَتَى منه.

قوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا﴾ أي: لا يهلكون فيستريحوا مما هُمُ فيه^(٢)، ومثله: ﴿فَوَكَرَهُ مُؤْتَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [التقصم: ٥١].

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ بَجَرَى كُلِّ كَفُورٍ﴾ وقرأ أبو عمرو: «يُجزى» بالياء «كُلُّ» برفع اللام. وقرأ الباقون: «تَجزي» بالنون «كُلُّ» بنصب اللام.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَصْطَرِّحْ فِيهَا﴾ وهو افتعال من الصَّراخ: والمعنى: يستغيثون، فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مَعَمَلٍ مَكِيلًا﴾ أي: نوحك ونطيعك ﴿عَبْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من الشُّرك والمعاصي؛ فويُخهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُنعِمْكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: معناه التقرير، وليس باستفهام؛ والمعنى: أولم نعنكم عمراً يتدَّكر فيه من تَدَّكْرٍ؟! وفي مقدار هذا التعمير أربعة أقوال: أحدها: أنه سبعون سنة، قال ابن عمر: هذه الآية تعبير لأبناء السبعين. والثاني: أربعون سنة. والثالث: ستون سنة، رواهما مجاهد عن ابن عباس^(٣)، وبالأول منهما قال الحسن، وابن السائب. والرابع: ثمانين سنة، قاله عطاء، وهب بن منبه، وأبو العالية، وقناة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُنذِرُونَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الشيب، قاله ابن عمر، وعكرمة، وسفيان بن عيينة؛ والمعنى: أو لَمْ نعنكم حتى شيبتم؟! والثاني: النبي ﷺ، قاله قتادة، وابن زيد، وابن السائب، ومقاتل^(٤). والثالث: موت الأهل والأقارب. والرابع: الحمى، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا﴾ يعني: العذاب ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَاصِرٍ﴾ أي: من مانع يمنع عنهم. وما بعد هذا قد تقدم بيانه [المائدة: ٧] إلى قوله: ﴿خَلَقَتْ فِي آخِرِينَ﴾ وهي الأمَّة التي خَلَقَتْ مِنْ قَبْلِهَا ورأت فيمن تقدَّمتها ما ينبغي أن تُعتبر به ﴿فَن كَفَرْتُمْ فَمَا نُنزِّلُ الْغَمَامَ﴾ أي: جزاء كفره^(٥).

حين دخلوا الجنة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: وخوف دخول النار من الحزن، والجزع من الموت من الحزن، والجزع من الحاجة إلى المطعم من الحزن، ولم يخصم الله إذ أخبر عنهم أنهم حملوه على إذهابه الحزن عنهم نوعاً دون نوع، بل أخبر عنهم أنهم عموا جميع أنواع الحزن بقولهم ذلك، وكذلك ذلك، لأن من دخل الجنة فلا حزن عليه بعد ذلك، فحملهم على إذهابه عنهم جميع معاني الحزن. اهـ.

(١) البيت لسلامة بن جندل كما في مجاز القرآن ١٠/٢، والطبري ١٤٠/٢٢، واللسان والتاج: أرب.

(٢) قال ابن كثير: لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يُحْيَوْنَ﴾ وقال ﷺ: ﴿وَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يُحْيَوْنَ﴾ قال: «فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُنْفَخُ عَنْهُمْ رَيْبٌ مِنْ عَذَابِهَا﴾ كما قال ﷺ: ﴿إِنَّ النَّارَ لَمِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ عَلَيْهَا ٧٠﴾ لا يَمُوتُ عَنْهُمْ وَمَنْ يَمُوتُ يَمُوتُ فِيهَا وَقَالَ جِبِلٌّ وَعَلَا: ﴿كُنَّا حَتَّى زَهَقْتُمْ سَمِيرًا﴾، ﴿فَذُوقُوا نَارَ رَبِّكُمْ إِلَّا عَذَابًا ٧٠﴾، ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ بَجَرَى كُلِّ كَفُورٍ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق. اهـ.

(٣) روى البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال: «أهل الله ﷻ إلى امرئ أضر عمره حتى بلغ ستين سنة»، ورواه أحمد وغيره، ولما كان هذا هو العمر الذي يعمر الله تعالى إلى عباده به وينزع به عنهم الملل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة. وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة.

(٤) وروى الطبري قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُنذِرُونَ﴾ قال: التلبيز: النبي. وقرأ: ﴿هَكَذَا نَذِرُ مِنَ النَّارِ الْأَرْبَعِ ٧٠﴾، قال ابن كثير: وهذا هو الصحيح عن قتادة فيما رواه شيان عنه أنه قال: احتج عليهم بالمعمر والرسول، قال: وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُنذِرُونَ﴾ قال ابن كثير في تمة الآية: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُنذِرُونَ كَثُرْتُمْ وَعِنْدَ رَبِّكُمْ إِلَّا مَتْنًا﴾ أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزله في الجنة وزاد أجره وأجبه خالقه وبارئه رب العالمين. اهـ.

(٥) قال ابن كثير في تمة الآية: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُنذِرُونَ كَثُرْتُمْ وَعِنْدَ رَبِّكُمْ إِلَّا مَتْنًا﴾ أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزله في الجنة وزاد أجره وأجبه خالقه وبارئه رب العالمين. اهـ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْبَا أَوْ مَادَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَمَنْ عَلَى يَمِينِ يَمِينَهُ بَلْ إِنْ يَدُ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿١٤﴾﴾ * إِنَّ اللَّهَ يُصِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُم﴾ المعنى: أخبروني عن الذين عبدتم من دون الله واتخذتموهم شركاء بزعمكم، بأي شيء أوجبت لهم الشركة في العبادة؟! أباشيء خلقوه من الأرض، أم شاركوا خالق السموات في خلقها؟! ثم عاد إلى الكفار فقال: ﴿أَرَأَيْتُمْ كِتَابًا﴾ يأمرهم بما يفعلون ﴿فَمَنْ عَلَى يَمِينِ يَمِينَهُ﴾؟! اقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وحفص عن عاصم: «على بيئته» على التوحيد. وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «بيئات» جمعاً. والمراد: البيان بأن مع الله شريكاً^(١) ﴿بَلْ إِنْ يَدُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني المشركين يعبد ﴿بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ أن الأصنام تشفع لهم، وأنه لا حساب عليهم ولا عقاب. وقال مقاتل: ما يعبد الشيطان الكفار من شفاعته الآلهة إلا باطلاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُصِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي: يمنعهما من الزوال والذهاب والوقوع. قال الفراء: ﴿وَلَئِنْ﴾ بمعنى «ولو»، وإن بمعنى «ما»، فالتقدير: ولو زالتا ما أمسكهما من أحد. وقال الزجاج: لما قالت النصراني: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزيز ابن الله، كادت السموات يتفطرن والجبال أن تزول والارض أن تنشق، فأمسكها الله ﷻ؛ وإنما وحد «الارض» مع جمع «السموات»، لأن الأرض تدل على الأرضين. ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا﴾ تحتل وجهين: أحدهما: زوالهما يوم القيامة. والثاني: أن يقال تقديراً: وإن لم تزولا، وهذا مكان يدل على القدرة، غير أنه ذكر الجلم فيه، لأنه لما أمسكهما عند قولهم: ﴿أَنفَعَدَّ الرَّحْمَنُ وَلَكُلًّا﴾ [مريم: ٤٨٨]، حلم فلم يعجل لهم العقوبة^(٢).

﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْتِنِهِمْ لَيْتَ جَاهَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِمْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٥﴾﴾ ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا يَأْخُذُهُمْ فَهَلْ ينظرون إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَحْدِثَ اللَّهُ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْتِنِهِمْ﴾ يعني كفار مكة حلفوا بالله قبل إرسال محمد ﷺ ﴿لَيْتَ جَاهَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: رسول ﴿لِيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ﴾ أي: أضوب وينا ﴿مِنْ إِمْدَى الْأُمَمِ﴾ يعني: اليهود والنصارى والصابئين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: تبعاداً عن الهدى، ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عنزاً على الله وتكبراً عن الإيمان به^(٣). قال الأخفش: نصب «استكباراً» على البذل من النفور. قال الفراء: المعنى: فعلوا ذلك استكباراً ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾، فأضيف المكر إلى السَّيِّئِ، كقوله: ﴿وَرَأَيْتُمْ لِحَىٰ الْيَتِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحاقة: ٥١]، وتصديقه في قراءة عبد الله: ﴿وَمَكْرًا سَيِّئًا﴾، والهمزة في «السَّيِّئِ» مخفوضة، وقد جزمها الأعمش وحمزة، لكثرة الحركات؛ قال الزجاج: وهذا عند النحويين الحُدَاقِ كُحْنٌ، إنما يجوز في الشعر اضطراراً. وقال أبو جعفر النحاس: كان الأعمش يقف على «مَكْرَ السَّيِّئِ» فيترك الحركة، وهو وقف حسن تام، فغلب الراوي؛ فروى أنه كان يَحْدِفُ الإعراب في الوصل،

(١) أي: الإتيان بيئته تدل بأن مع الله شريكاً، قال الألوسي: وهو ضرب من التهكم. قال ابن جرير الطبري: ﴿أَرَأَيْتُمْ كِتَابًا فَمَنْ عَلَى يَمِينِ يَمِينَهُ﴾؟! يقول: أم أتينا هؤلاء المشركين كتاباً أنزلناه عليهم من السماء بأن يشركوا بالله الأوثان والأصنام ﴿فَمَنْ عَلَى يَمِينِ يَمِينَهُ﴾، فهم على برهان مما أمرتهم فيه من الإشراف؟! وقال ابن كثير: وقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ كِتَابًا فَمَنْ عَلَى يَمِينِ يَمِينَهُ﴾؟! أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر؟! ليس الأمر كذلك ﴿بَلْ إِنْ يَدُ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواهم وأراءهم وأمانيتهم التي تمنوا لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور. اهـ. وقال الألوسي: والمعنى أن عبادة هؤلاء إما بالمقل، ولا عقل يحكم بصحة عبادة من لا يخلق جزءاً ما من الأرض دلالة شرك في السماء، وإما بالنقل، ولم نوت المشركين كتاباً في الأمر بعبادة هؤلاء. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُصِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال ﷻ: ﴿وَتُصِيبُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَإِذْنِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَرَبُّنَا يُبْدِئُ أَنْ تَقُمَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حلِيمٌ غَفُورٌ، أي: يرى عباده وهم يتكبرون به ويعصونه وهو يتعلم فيؤخر ويُؤَنِّظُ، ويؤجل ولا يعجل، ويسترحم ويغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استكبروا عن أشياع آيات الله ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: ومكروا بالناس في صلحهم لإيادهم عن سبيل الله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا يَأْخُذُهُمْ﴾ أي: وما يعود ويال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم. اهـ.

فتابع حمزة الغالط، فقرأ في الإدراج بترك الحركة^(١). وللمفسرين في المراد بـ «مكر السَّيِّئِ» قولان: أحدهما: أنه الشُّرك^(٢). قال ابن عباس: عاقبة الشُّرك لا تُحُلُّ إلا بمن أشرك. والثاني: أنه المَكْر برسول الله ﷺ، حكاه الماوردي^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: إلا أن ينزل العذاب بهم كما نزل بالأمم المكذبة قبلهم. ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ فِي الْعَذَابِ تَبْدِيلًا﴾ وإن تأخر ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: لا يقدر أحد أن يحول العذاب عنهم إلى غيرهم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتٌ ۚ وَلَوْ يَرَى الْإِنسَانُ أَنَّهُ يُؤَخِّدُ اللَّهُ النَّاسَ إِنَّمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابِكَةٍ وَلَئِن يَرَوْهُم بِأَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا هَٰذَا أَجْلُهُمْ فَلَا تَسْمِعُ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ لَشَيْءٍ إِنَّهُمْ لَغَافِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الْإِنسَانُ أَنَّهُ يُؤَخِّدُ اللَّهُ النَّاسَ إِنَّمَا كَسَبُوا﴾ هذا عام، وبعضهم يقول: أراد بالناس المشركين. والمعنى: لو واخذهم بأفعالهم لعجل لهم العقوبة^(٤). وقد شرحنا هذه الآية في [النحل: ٦١]. وما أخللنا به فقد سبق بيانه [يوسف: ١٠٩، الروم: ٩، الأعراف: ٣٤، النحل: ٦١].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْمِعُ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ لَشَيْءٍ إِنَّهُمْ لَغَافِلُونَ﴾ قال ابن جرير: بصيراً بمن يستحق العقوبة ومن يستوجب الكرامة^(٥).



(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القراءة ما عليه قراء الأمصار من تحريك الهمزة فيه إلى الخفض، وغير جائز في القرآن أن يُقرأ بكل ما جاز في العربية، لأن القراءة إنما هي ما قرأت به الأئمة الماضية وجاء به السلف على النحو الذي أخذوا عن قبلهم. اهـ.

(٢) ذكره الطبري عن قتادة.

(٣) قال الألوسي: هو الخداع الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيد له.

(٤) قال ابن كثير: ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية. اهـ.

(٥) ونص كلام ابن جرير بتمامه: وقوله: ﴿فَلَا تَسْمِعُ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ لَشَيْءٍ إِنَّهُمْ لَغَافِلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: فإذا جاء أجل عقابهم، فإن الله كان يعبادهم بصيراً من الذي يستحق أن يعاقب منهم، ومن الذي يستوجب الكرامة، ومن الذي كان منهم في الدنيا له مطيعاً، ومن كان فيها به مشركاً، لا يخفى عليه أحد منهم، ولا يعزب عنه علم شيء من أمرهم. اهـ.

سورة يس

وفيها قولان: أحدهما: أنها مكِّيَّة، قاله ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقاتدة، والجمهور. وروي عن ابن عباس وقاتدة أنهما قالا: إنها مكِّيَّة إلا آية منها، وهي قوله: ﴿وَلِذَا قِيلَ لَهُمُ انْفِرُوا مَعَ رَسُولِكُمْ اللَّهُ﴾ [يس: ٤٥]. والثاني: أنها مدنية، حكاه أبو سليمان الدمشقي، وقال: ليس بالمشهور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾﴾

وفي قوله: ﴿يس ﴿١﴾﴾ خمسة أقوال: أحدها: أن معناها: يا إنسان، بالحشية، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومقاتل. والثاني: أنها قَسَمَ أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أن معناها: يا محمد، قاله ابن الحنفية، والضحاك. والرابع: أن معناها: يا رجل، قاله الحسن. والخامس: اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة^(١). وقرأ الحسن، وأبو الجوزاء: «يسن» بفتح الياء وكسر النون. وقرأ أبو المتوكل، وأبو رجاء، ابن أبي عبلة: بفتح الياء والنون جميعاً. وقرأ أبو حصين الأسدي: بكسر الياء وإظهار النون. قال الزجاج: والذي عند أهل العربية أن هذا بمنزلة افتتاح السُّور، وبعض العرب يقول: «يسنَّ القرآن» بفتح النون، وهذا جائز في العربية لوجهين: أحدهما: أن «يس» اسم للسورة، فكأنه قال: اتلَّ يس، وهو على وزن هابيل وقابيل لا ينصرف. والثاني: أنه فُتح لالتقاء الساكنين، والتسكين أجود، لأنه حرف هجاء.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴿١﴾﴾ هذا قَسَم، وقد سبق معنى «الحكيم» [البقرة: ٣٢]، قال الزجاج: وجوابه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢﴾﴾؛ وأحسن ما جاء في العربية أن يكون ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ خبر «إن»، ويكون قوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ خبراً ثانياً، فيكون المعنى: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ويجوز أن يكون «على صِرَاطٍ» من صلة «المرسلين»، فيكون المعنى: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا عَلَى طَرِيقَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «تنزيل» برفع اللام. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: «تنزيل» بنصب اللام. وعن عاصم كالقراءتين. قال الزجاج: من قرأ بالنصب، فعلى المصدر، على معنى: نَزَّلَ اللهُ ذَلِكَ تَنْزِيلاً، ومن قرأ بالرفع، فعلى معنى: الذي أَنْزَلَ إِلَيْكَ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ. وقال الفراء: من نصب، أراد إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ تَنْزِيلاً حَقّاً مُنْزَلاً، ويكون الرفع على الاستئناف، كقوله: ذلك تنزيل العزيز. وقرأ أبي بن كعب، وأبو رزين، وأبو العالية، والحسن، والجحدري: «تنزيل» بكسر اللام. وقال مقاتل: هذا القرآن تنزيل العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه.

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾ في «ما» قولان: أحدهما: أنها نفي، وهو قول قتادة والزجاج في الأكثرين. والثاني: أنها بمعنى «كما»، قاله مقاتل. وقيل: هي بمعنى «الذي». قوله تعالى: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ أي: عن حُجج التوحيد وأدلة البعث.

(١) قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة (البقرة)، وسورة (طه) وانظر التعليق الذي في أول سورة (العنكبوت). وكلمة (يس) هنا من الحروف المقطعة أمثال (طه) وغيرها، وقد قال ابن جرير الطبري في تفسير كلمة (طه) بعدما ذكر في معناها عدة أقوال: والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه، قول من قال: معناه: يا رجل، وتأويل الكلام: يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، ما أنزلنا عليك فكذلك ما لا طاقة لك به من العمل. اهـ. وكلمة (يس) هنا معناها قريب من (طه) كأنه قال: يا رجل والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين بوحى الله ﷻ إلى عباده، يريد به محمداً ﷺ.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَامِهِمْ آفَئِدًا فَهُمْ إِلَىٰ الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَعُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ سَكَنًا وَمِنَ خَلْفِهِمْ سَكَنًا فَأَعْيَيْنَتْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبِمَقَرِّهِمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرْتَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾ فيه قولان: أحدهما: وجب العذاب. والثاني: سبق القول بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني أهل مكة، وهذه إشارة إلى إرادة الله تعالى السابقة لكفرهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لِمَا سبق من القدر بذلك. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَامِهِمْ آفَئِدًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها مثل، وليس هناك غُلٌّ حقيقة، قاله أكثر المحققين، ثم لهم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها مثل لمنعهم عن كل خير، قاله قتادة. والثاني: لحبسهم عن الإنفاق في سبيل الله، بموانع كالأغلال، قاله الفراء، وابن قتبية. والثالث: لمنعهم من الإيمان بالله، قاله أبو سليمان الدمشقي. والقول الثاني: أنها موانع حسية منعت كما يمنع الغُلُّ؛ قال مقاتل بن سليمان: حلف أبو جهل لئن رأى النبي ﷺ يصلي ليدمغته، فجاءه وهو يصلي، فرفع حجراً فبيست يده والتصق الحجر بيده، فرجع إلى أصحابه فأخبرهم الخبر، فقام رجل منهم فأخذ الحجر، فلما دنا من رسول الله ﷺ طمس الله على بصره فلم يره، فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه، فنزل في أبي جهل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَامِهِمْ آفَئِدًا...﴾ الآية، ونزل في الآخر: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ سَكَنًا﴾^(١). والقول الثالث: أنه على حقيقته، إلا أنه وصفت لِمَا سَيُنزِلُهُ اللهُ تعالى بهم في النار، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿فَبَىٰ إِلَىٰ الْأَذْقَانِ﴾ قال الفراء: «فهي» كناية عن الإيمان، ولم تُذكر، لأن الغُلُّ لا يكون إلا في اليمين والعنق جامعاً لهما، فاكففتي بذكر أحدهما عن صاحبه. وقال الزجاج: «هي» كناية عن الأيدي، ولم يذكرهما إيجازاً، لأن الغُلُّ يتضمن اليد والعنق، وأنشد:

وما أدري إذا يَمُنْتُ أرضاً
أريدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي^(٢)

وإنما قال: أيهما، لأنه قد علم أن الخير والشر معروضان للإنسان. قال الفراء: والذَّقْنُ: أسفل اللُحْيَيْنِ، والمُتَمَحُّ: الغاصر بصره بعد رفع رأسه. قال أبو عبيدة: كُلُّ رَافِعِ رَأْسِهِ فَهُوَ مُقَامِحٌ وَقَامِحٌ، والجمع: قِمَاحٌ، فَإِن فَعَلَ ذَلِكَ بِنَاسٍ فَهُوَ مُقَمَّحٌ، ومنه هذه الآية. وقال ابن قتبية: يقال: بعيرٌ قَامِحٌ، وإِبِلٌ قِمَاحٌ: إِذَا رَوَيْتَ مِنَ الْمَاءِ قَمَمَحَتْ، قال الشاعر - وذكر سفينة -:

ونحنُ على جَوَانِبِهَا قُغُودٌ
نَغُضُّ الطَّرْفَ كَالِإِبِلِ القِمَاحِ^(٣)

وقال الأزهري: المراد أن أيديهم لما غُلَّت عند أعناقهم، رَفَعَتْ الأغلال أذقانتهم ورؤوسهم، فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال أيهاها.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ سَكَنًا﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بفتح السين، والباقون: بضمها، وقد تكلمنا على الفرق [بينهما] في [الكهف: ٩٤]. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: منعناهم عن الإيمان بموانع، فهم لا يستطيعون الخروج عن الكفر. والثاني: حجبتناهم عن أذى رسول الله ﷺ بالظلمة لما قصدوه بالأذى.

(١) قال الحافظ ابن حجر في تخرجه الكشاف، ١٣٩، ١٤٠: رواه ابن إسحاق في «السيرة» في كلام طويل، قال: رواه أبو نعيم في «الدلائل» من طريق ابن إسحاق: حدثني محمد بن محمد بن سعيد، أو عكرمة عن ابن عباس، أن أبا جهل قال: «إني أعاهد الله لأجلسن غداً لمحمد ببحر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه... فذكر نحوه إلى قوله: «قد يست يدها على حجره حتى قذف الحجر بين يديه». وقد ذكر سبب النزول هذا مختصراً الطبري عن عكرمة قال: قال أبو جهل لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَامِهِمْ آفَئِدًا﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قال: فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو؟ أين هو؟ لا يبصره. اهـ. وأصله في «البخاري» ٥٥٧/٨ سورة (اقرأ) عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَرَّ بِهٖ قَسَمًا بِاللَّهِ ﴿٥٥﴾ كَيْفَ كُنِيَ عَلَيْهِ ﴿٥٦﴾﴾ من عكرمة قال ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو فعله لأخذته الملائكة، وسأيتي ذلك في محله من سورة (اقرأ) إن شاء الله تعالى.

(٢) تقدم البيت ١٠٥ وتخرجه ٢١٨، وهو أيضاً في «معاني القرآن» ٣٣١، و«مشكل القرآن» ١٧٦، و«الطبري» ١٥١/٢٢.

(٣) البيت ليشر بن أبي خازم الأسدي، وهو في «مجاز القرآن» ١٥٧/٢، و«غريب القرآن» ٣٦٣، و«القرطبي» ٨/١٥، و«البحر المحيط» ٣٢٤/٧، و«روح المعاني» ١٩٧/٢٢، و«الصاحح» و«اللسان»، و«التاج»: قمع.

قوله تعالى: ﴿فَأَعَشَيْنَهُمُ﴾ قال ابن قتيبة: أغشينا عيونهم وأعميناهم عن الهدى. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة، ويحيى بن يعمر: «فأعشيناهم» بعين غير معجمة. ثم ذكر أن الإنذار لا ينفعهم لإضلاله ليأهم بالآية التي بعد هذه. ثم أخبر عن ينفعه الإنذار بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي: إنما ينفع إنذارك ﴿مَنِ اتَّبَعَ الْذِكْرَ﴾ وهو القرآن، فعمل به ﴿وَرَحِمَى الرَّحْمَنَ بِالْقَيْبِ﴾ وقد شرحناه في (الانبيا: ٤٩)، والأجر الكريم: الحسن، وهو الجنة. ﴿إِنَّا نَحْنُ الْمُوقِنُ﴾ للبعث ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من خير وشر في دنياهم. وقرأ النخعي، والجحدري: ﴿وَيُكْتَبُ﴾ بياء مرفوعة وفتح التاء «وَأَثَارُهُمُ» برفع الراء. وفي آثارهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنها خطاهم بأرجلهم، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة. قال أبو سعيد الخدري: شكك بنو سلمة إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾، فقال النبي ﷺ: «عليكم منازلكم، فإنما تكتب آثاركم»^(١)، وقال قتادة وعمر بن عبد العزيز: لو كان الله مغفلاً شيئاً، لأغفل ما تعفَى الرياح من أثر قدم ابن آدم. والثاني: أنها الخطأ إلى الجمعة، قاله أنس بن مالك^(٢). والثالث: ما أثروا من سنة حسنة أو سيئة يفعل بها بعدهم، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، واختاره الفراء، وابن قتيبة، والزجاج^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ وقرأ ابن السميع، وابن أبي عبيدة: «وكلُّ» برفع اللام، أي: من الأعمال ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي: حفظناه ﴿فِي إِمَارَةِ عِيسَى﴾ وهو اللوح المحفوظ.

﴿وَأَنْزَيْتَ لِمَنْ تَشَاءُ مَثَلًا﴾ الآية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتَيْنِي فَكَذَّبُوهُمَا فَكَرَّرْنَا بِسَالِكٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالُوا مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ سَمَوَاتِهِ إِلَّا سَحَابٌ مَائِيَّةٌ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَّعْنَا بِكُمْ لَيْنًا لَئِن لَّمْ نَنتَهِنَا لَمَنْعُكُمْ وَلَيْسَ بِنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿قَالُوا عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَيْتَ لِمَنْ تَشَاءُ﴾ المعنى: صف لأهل مكة مثلاً؛ أي: شيئاً. وقال الزجاج: المعنى: مثل لهم مثلاً ﴿أَحْصَى الْقَرْيَةَ﴾ وهو بدل من مثل، كأنه قال: اذكر لهم أصحاب القرية. وقال عكرمة، وقتادة: هذه القرية هي أنطاكية^(٤). ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتَيْنِي﴾ وفي اسميهما ثلاثة أقوال: أحدها: صادق وصدوق، قاله ابن عباس، وكعب. والثاني: يوحنا ويولس، قاله وهب بن منبه. والثالث: تومان ويولس، قاله مقاتل.

(١) رواه الترمذي ١٥٥/٢ وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه الطبري ١٥٤/٢٢، والحاكم ٤٢٨/٢ وصححه ووافقه الذهبي، ورواه الواحدي في (أسباب النزول) ٢٠٩، وأورده السيوطي في (الدرر) ٢٦٠/٥، وزاد نسبة لعبد الرزاق، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في (شعب الإيمان) عن أبي سعيد الخدري ﷺ. قال ابن كثير: وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية والسورة بكما لها مكية، فالله أعلم. اهـ. والحديث رواه مسلم في (صحيحه) ٤٦٢/١ دون سبب النزول من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراه بنو سلمة أن يتفلقوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إني قد بلغني أنكم تريدون أن تتفلقوا قرب المسجد؟» قالوا: نعم يا رسول الله قد أرفنا ذلك، فقال: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم».

(٢) قال الحافظ السيوطي في (الدرر) ٢٦٠/٥: أخرج ابن أبي حاتم عن أنس ﷺ في قوله: ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ قال: هذا في الخطو يوم الجمعة. اهـ. وروى الترمذي في (جامعه) عن أرس بن أوس الثقفي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من غسل يوم الجمعة واغتسل، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يَلْغُ، وكان له بكل خطوة يخطوها عمل سنة، أجر صيامها وقيامها» وقال: حديث حسن. ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وابن خزيمة وابن حبان في (صحيحهما) وهو حديث صحيح.

(٣) روى مسلم في (صحيحه) ٧٠٥/٢ عن جرير بن عبد الله الجبلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء»، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». وروى مسلم في (صحيحه) ١٢٥٥/٣ عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن مات الإنسان لتقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

(٤) قال ابن كثير: ذكر أبو سعيد الخدري ﷺ وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعث عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، قال: ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا نُوْحِيَ الْكِتَابَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ مَا آتَيْنَاكَ الْفُتُوحَ الْأُولَى﴾ قال: فعلى هذا يتبين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ بتشديد الزاي، قال ابن قتيبة: المعنى: قَوِّينَا وَشَدَّدْنَا، يقال: تعَزَّزْتُ لِحِمِّ النَّاقَةِ: إذا صَلَّب. وقرأ أبو بكر، والمفضل عن عاصم: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ خفيفة، قال أبو علي: أراد: فَعَلَّبْنَا. قال مقاتل: واسم هذا الثالث شمعون، وكان من الحواريين، وهو وصي عيسى عليه السلام. قال وهب: وأوحى الله إلى شمعون يُخبره خبر الاثنين ويأمره بِنصرتهما، فانطلق يؤمهما. وذكر الفراء أن هذا الثالث كان قد أرسل قبلهما؛ قال: ونراه في التنزيل كأنه بعدهما، وإنما المعنى: فعَزَّزْنَا بالثالث الذي قبلهما، والمفسرون على أنه إنما أرسل لنصرتهما، ثُمَّ إِنَّ الثَّالِثَ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ ثَانِيٍّ، فَأَمَّا إِذَا سَبَقَ الاثْنَيْنِ فَهُوَ أَوَّلٌ، وَإِنِّي لَأَتَعْجَبُ مِنْ قَوْلِ الْفَرَاءِ. واختلف المفسرون فيمن أرسل هؤلاء الرُّسُلَ على قولين: أحدهما: أن الله تعالى أرسلهم، وهو ظاهر القرآن، وهو مروى عن ابن عباس، وكعب، ووهب. والثاني: أن عيسى أرسلهم، وجاز أن يُضاف ذلك إلى الله تعالى لأنهم رسل رسول، قاله قتادة، وابن جريج^(١).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا آتَيْنَاكَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي: ما لكم علينا فضل في شيء ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا الرَّحْمَنَ مِنْ سَمَاءٍ﴾ أي: لم يُنزل كتاباً ولم يُرسل رسولاً. وما بعده ظاهر إلى قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا نَطَّعْنَا بِكُمْ﴾ وذلك أن المطر حُسب عنهم، فقالوا: إنما أصابنا هذا من قبلكم ﴿لَئِنْ لَوْ تَنَبَّأُوا﴾ أي: تسكتوا عنا ﴿لَرَجَحْنَاكُمْ﴾ أي: لَنَفَثَلْنَاكُمْ. ﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مِمَّا كَفَرْنَا بِهِ وَأَنْتُمْ تُبَدِّلُونَ الْأَقْلَامَ﴾ قال الأخفش: معناه: حيث دُكرتم، أي: وُعظمتم وُخُوفتم، وهذا استفهام جوابه محذوف، تقديره: أنن دُكرتم تطيرتم بنا؟! وقيل: أنن دُكرتم قلتم هذا القول؟ والمسرفون هاهنا: المشركون.

﴿رَجَاءٌ مِنْ أَقْسَامِ الْمَدِينَةِ﴾ رَجُلٌ يَسْتَعِينُ قَالَ يَتَقَوَّى أَهْلُهَا الرِّسَالَةَ ﴿أَنْبِئُوا مَنْ لَا يَسْتَكْفُرُ أَجْرًا وَهُمْ مُتَعَدُونَ﴾ ﴿وَمَا لِي لَأَ أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ رُجُوعِي﴾ ﴿أَلَيْسَ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةٌ إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ يَضْرِبُ لَأَنْ تَعْنِي سَفَعَتُهُمْ سَيْفًا وَلَا يُؤَدُّونَ﴾ ﴿إِنِّي إِذَا لَأُبْرِي سَكَلِي مَبِينٌ﴾ ﴿إِنِّي إِذْ مَأْسُتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْمَدِينَةَ قَالَ يَا بَنِي قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَا غَفْرُ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنُودٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَائِدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿رَجَاءٌ مِنْ أَقْسَامِ الْمَدِينَةِ﴾ واسمه حبيب النجار، وكان مجذوماً، وكان قد آمن بالرُّسُلِ لما وردوا القرية، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب القرية، فلما بلغه أن قومه قد كذبوا الرُّسُلَ وهُمُوا بقتلهم، جاء يسعي، فقال ما قصه الله علينا إلى قوله: ﴿وَهُمْ مُتَعَدُونَ﴾ يعني الرُّسُلَ، فأخذه ورفعوه إلى الملك، فقال له الملك: أفأنت تتبهم؟ فقال: ﴿وَمَا لِي﴾ أسكن هذه البياض حمزة، وخلف، ويعقوب ﴿لَأَ أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: وأي شيء لي إذا لم أعبد خالقي ﴿وَإِلَيْهِ رُجُوعِي﴾ عند البعث، فيجزىكم بكفركم؟! فإن قيل: لِمَ أضاف الفِطْرَةَ إلى نفسه والبعث إليهم وهو يعلم أن الله قد فطرهم جميعاً كما يبعثهم جميعاً؟ فالجواب: أن إيجاد الله تعالى نعمه يوجب الشُّكر، والبعث في القيامة وعيدٌ يوجب الرُّجْرَ، فكانت إضافة النعمة إلى نفسه أظهر في الشُّكر، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ في الرُّجْرِ. ثم أنكر عبادة الأصنام بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَأَ تَعْنِي سَفَعَتُهُمْ﴾ يعني أنه لا شفاعة لهم فتنني، ﴿وَلَا يُؤَدُّونَ﴾ أثبت هاهنا البياض في الحالين يعقوب، وورش، والمعنى: لا يخلصوني من ذلك المكروه. ﴿إِنِّي إِذَا﴾ فتح هذه البياض نافع، وأبو عمرو.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي إِذْ مَأْسُتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فتح هذه البياض أهل الحجاز وأبو عمرو. وفيمن خاطبهم بليمانه قولان: أحدهما: أنه خاطب قومه بذلك، قاله ابن مسعود. والثاني: أنه خاطب الرُّسُلَ. ومعنى ﴿فَاسْمَعُونِ﴾: أشهدوا لي بذلك، قاله الفراء. وقال أبو عبيدة: المعنى: فاسمعوا مِنِّي. وأثبت ياء ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ في الحالين يعقوب. قال ابن مسعود: لَمَّا

(١) قال ابن كثير: ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ﷺ، لا من جهة المسيح ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتِّبَانًا فَكَذَّبُوهُمَا فَسَبَّوهُمَا وَقَالُوا بِالْحَقِّ إِنَّا بِلَهُكُمْ رَبِّكُمْ لَسَاءُونَ﴾ إلى أن قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِنْ كُنَّا لَمُرْسَلِينَ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ النَّبِيُّ﴾ قال: ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ﷺ، والله تعالى أعلم، قال: ثم لو كانوا رسل المسيح، لما قالوا: ﴿مَا آتَيْنَاكَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾. اهـ.

خاطب قومه بذلك، وطفوه بأرجلهم. وقال السدي: رمّوه بالحجارة، وهو يقول: اللهم اهد قومي.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ لَمَّا قَتَلُوهُ فَلَقِيَ اللَّهَ، قيل له: «ادْخُلِ الْجَنَّةَ»، فَلَمَّا دَخَلَهَا ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي، وفي «ما» قولان: أحدهما: أنها مع «عَفَّرَ» في موضع مصدر؛ والمعنى: بغفران الله لي. والثاني: أنها بمعنى «الذي»، فالمعنى: ليتمهم يعلمون بالذي عَفَّرَ لِي [إبه] رَبِّي فَيُؤْمِنُونَ، فنصحهم حياً وميتاً. فَلَمَّا قَتَلُوهُ عَجَّلَ اللَّهُ لَهُمُ الْعَذَابَ، فذلك قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾ يعني قوم حبيب ﴿وَمِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد قتله ﴿وَمِنْ جُنْدٍ يَرَى السَّمَاءَ﴾ يعني الملائكة، أي: لم ينتصر منهم بجنّد من السَّمَاءِ ﴿وَمَا كُنَّا﴾ نُنزِّلُهُمْ عَلَى الْأُمَمِ إِذَا أَهْلَكْنَاهُمْ. وقيل: المعنى: ما بعثنا إليهم بعده نبياً، ولا أنزلنا عليهم رسالة. ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قال المفسرون: أخذ جبريل ﷺ ببعض آياتي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم ميتون لا يُسْمَعُ لَهُمْ حِسٌّ، كالتَّارِ إِذَا طُفِئَتْ، وهو قوله: ﴿فَإِنَّا هُمْ كَاحِدُونَ﴾ أي: ساكنون كهيبة الرَّمَادِ الخَامِدِ^(١).

﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْبِأْسِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرِهًا لَكُنَّا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ لِلنَّبِيِّمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿وَأَيُّهُمُ الْمُنْكَرُ الْأَرْضِ النَّيْتَةَ أَحْيَيْنَاهَا وَأَفْرَحْنَا بِهَا حَيًّا فَمِنَ مَا يَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَحَمَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَقَجْرًا فِيهَا مِنْ الْعُنُوتِ﴾ ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿سَبَّحْنَ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَمِمَّا تُولَدُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْبِأْسِ﴾ قال الفراء: المعنى: يا لها حسرة على العباد. وقال الزجاج: الحسرة أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية له حتى يبقى قلبه حسيباً. وفي المتحسر على العباد قولان: أحدهما: أنهم يتحسرون على أنفسهم، قاله مجاهد والزجاج: استهزأهم بالرُّسُلِ كان حسرة عليهم في الآخرة. وقال أبو العالية: لَمَّا عَابَتُوا الْعَذَابَ، قالوا: يا حسرتنا على المرسلين، كيف لنا بهم الآن حتى نُؤْمِنَ. والثاني: أنه تحسّر الملائكة على العباد في تكذيبهم الرُّسُلِ، قاله الضحاك. ثم خَوَّفَ كُفَّارَ مَكَّةَ فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم يَعْلَمُوا ﴿كَرِهًا لَكُنَّا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ فيعتبروا ويخافوا أن نعجل لهم الهلاك كما عجل لمن أهلك قبلهم ولم يرجعوا إلى الدنيا؟! قال الفراء: وألف ﴿أَنَّهُمْ﴾ مفتوحة، لأن المعنى: ألم يَرَوْا أَنَّهُمْ إليهم لا يرجعون وقد كسرهما الحسن، كأنه لم يُوقِعِ الرُّؤْيَةَ عَلَى «كَمْ»، فلم يوقعها على «أَنْ»، وإن استأنفتها كسرتها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا﴾ وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة: «لَمَّا» بالتشديد، «جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: إن الأمم يُحْضَرُونَ يوم القيامة، فيجازون بأعمالهم^(٢). قال الزجاج: من قرأ «لَمَّا» بالتخفيف، ف «ما» زائدة مؤكدة، والمعنى: وإن كُلُّ لَجَمِيعٍ، ومعناه: وما كُلُّ إِلَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ. ومن قرأ «لَمَّا» بالتشديد، فهو بمعنى «إِلَّا»، تقول: «سَأَلْتُكَ لَمَّا فَعَلْتَ» و«إِلَّا فَعَلْتَ». «وَأَيُّهُمُ الْمُنْكَرُ الْأَرْضِ النَّيْتَةَ﴾ وقرأ نافع: «النَّيْتَةَ» بالتشديد، وهو الأصل، والتخفيف أكثر، وكلاهما جائز؛ و«أَيُّهُ» مرفوعة بالابتداء، وخبرها «لهم»، ويجوز أن يكون خبرها «الأرض الميتة»؛ والمعنى: وعلامة تدلهم على التوحيد وأنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي الْمَوْتَى أَحْيَاءَ: الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ.

قوله تعالى: ﴿فَمِنَ مَا يَأْكُلُونَ﴾ يعني ما يُقَاتَلُ مِنَ الْحَبُوبِ.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَا فِيهَا﴾ وقوله: ﴿وَقَجْرًا فِيهَا﴾ يعني في الأرض.

قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ يعني النخيل، وهو في اللفظ مذكّر. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «عَمِلَتْهُ» بهاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «عَمِلَتْ» بغير هاء. والهاء مُثَبِّتَةٌ فِي مَصَاحِفِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالشَّامَ وَالْبَصْرَةَ، وَمَحْذُوفَةٌ مِنْ مَصَاحِفِ أَهْلِ الْكُوفَةِ. قال الزجاج: موضع «ما» خفض؛ والمعنى: ليأكلوا من ثمره وممَّا عملته أيديهم؛ ويجوز أن يكون «ما» نفيًا؛ والمعنى: ولم تعمله

(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿فَإِنَّا هُمْ كَاحِدُونَ﴾: فإذا هم هالكون.

(٢) قال ابن كثير: وإن جمع الأمم الماضية والآتية مستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها، قال: ومعنى هذا كقوله جل وعلا: ﴿وَرَأَى كُلًّا لِلنَّبِيِّمْ تَوَكُّلاً أَصْلَحْتُمْ﴾. اهـ.

أيديهم، وهذا على قراءة من أثبت الهاء، فإذا حُذفت الهاء، فالاختيار أن تكون «ما» في موضع خفض، وتكون بمعنى «الذي»، فيحسُن حذف الهاء؛ وكذلك ذكر المفسرون القولين، فمن قال بالأول، قال: لياكلوا ممّا عملت أيديهم، وهو الغُروس والحُرُوث التي تعبوا فيها، ومن قال بالثاني، قال: لياكلوا ما ليس من صنعم، ولكنه من فعل الحق ﷻ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى فيؤخّده؟ ثم نرّه نفسه بقوله: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَنْزٰجَ كُلَّهَا﴾ يعني الأجناس كلها ﴿وَمِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الفواكه والحبوب وغير ذلك ﴿وَمِنۢ أَنفُسِهِمۡ﴾ وهم الذكور والإناث ﴿وَمِمَّا لَا يَمۡلِكُونَ﴾ من دواب البر والبحر وغير ذلك ممّا لم يقفوا على علمه.

﴿وَأَيَّٰةٌ لَهُمۡ آيَٰتٌ نَّسَلَخۡ مِنْهُ النَّهَارَ إِذَا هُمۡ مُطۡلِقُونَ ﴿٧٧﴾ وَالشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرٍّ لَهَا ذٰلِكَ تَقۡدِيرُ الرَّبِّزِ الْعَلِيِّ ﴿٧٨﴾ وَاللَّيۡلُ نَزَّازَةٌ مِّنَ السَّمَٰوٰتِ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّٰةٌ لَهُمۡ آيَٰتٌ نَّسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: وعلامة لهم تدل على توحيدنا وقدرتنا الليل نسلخ منه النهار؛ قال الفراء: نرمي بالنهار عنه، و«منه» بمعنى «عنه». وقال أبو عبيدة: نُخْرِجُ مِنَ النَّهَارِ وَنَمَيِّرُهُ مِنْهُ فَتَجِيءُ الظُّلْمَةُ، قال الماوردي: وذلك أنّ النهار يتداخل في الهواء فيضيء، فإذا خرج منه الظلم. وقوله: ﴿إِذَا هُمۡ مُطۡلِقُونَ﴾ أي: داخلون في الظلام. ﴿وَالشَّمۡسُ﴾ أي: وآية لهم الشمس ﴿تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرٍّ لَهَا﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: إلى موضع قرارها؛ روى أبو ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿لِمُسۡتَقَرٍّ لَهَا﴾ قال: ﴿مُسۡتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرۡشِ﴾، وقال: ﴿أَنۢهَا تَذۡهَبُ حَتَّى تَسۡجُدَ بَيْنَ يَدَي رِبِّهَا، فَتَسۡتَأۡذِنُ فِي الطَّلُوعِ، فَيُؤَدِّنُ لَهَا﴾^(١). والثاني: أنّ مُسۡتَقَرَّهَا مَغْرِبُهَا لَا تَجَاوِزُهُ وَلَا تَقۡصُرُ عَنْهُ، قاله مجاهد. والثالث: لوقت واحد لا تعدوه، قاله قتادة. وقال مقاتل: لوقت لها إلى يوم القيامة. والرابع: تسير في منازلها حتى تستهي إلى مُسۡتَقَرَّهَا الَّذِي لَا تَجَاوِزُهُ، ثم ترجع إلى أوّل منازلها، قاله ابن السائب. وقال ابن قتيبة: إلى مُسۡتَقَرِّهَا، وَمُسۡتَقَرُّهَا: أَقۡصَىٰ مَنَازِلِهَا فِي الْعُرُوبِ، [وذلك] لأنها لا تزال تتقدّم إلى أقصى مغاربها، ثم ترجع. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة، وعلّي بن الحسين، والشيزري^(٢) عن الكسائي: «لا مُسۡتَقَرَّ لَهَا» والمعنى أنها تجري أبداً، لا تثبت في مكان واحد.

(١) رواه البخاري في صحيحه ٦/٢١٤ و ٨/٤١٦ و ١٣/٣٥٠، ومسلم ١/١٣٩، والترمذي ٢/١٥٥، قال: هذا حديث حسن صحيح، وأورده السيوطي في «الدر» ٥/٢٢٣ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العلامة»، وابن مردويه، والبيهقي في «الاسماء والصفات» عن أبي ذر ﷺ. قال ابن كثير: في معنى قوله تعالى: «المستقر لها» قولان: أحدهما: أن المراد مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات، لأنه سقفا، والقول الثاني: أن المراد بمستقرها، هو منتهى سيرها، وهو يوم القيامة يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكوز وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني. وقال الامام النووي في «شرح مسلم» ٢/١٩٥: وأما قوله ﷺ في الحديث الآخر في الشمس: «مستقرها تحت العرش فخرٌ ساجدة»: فهذا مما اختلف المفسرون فيه، فقال جماعة بظاهر الحديث، قال الواحدي: وعلى هذا القول، إذا غربت كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع من مغربها، وقال قتادة ومقاتل: معناه: تجري إلى وقت لها وأجل لا تعداه، قال الواحدي: وعلى هذا مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا، وهذا اختيار الزجاج، وقال الكلبي: تسير في منازلها حتى تستهي إلى آخر مستقرها الذي لا تجاوزه ثم ترجع إلى أول منازلها، واختار ابن قتيبة هذا القول، والله أعلم. وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: قال الخطابي: يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش: أنها تستقر تحته استقراراً لا يحيط به نحن، ويحتمل أن يكون المعنى: أو علم ما سألت عنه من مستقرها تحت العرش في كتاب فيه ابتداء أمور العالم ونهايتها، فينقطع دوران الشمس وتستقر عند ذلك ويبطل فعلها، وليس في سجدتها كل ليلة تحت العرش ما يعنى عن دورانها في سيرها. قلت (أي الحافظ ابن حجر): وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار: وقوعه في كل يوم وليلة عند سجودها، ومقابل الاستقرار السير الدائم المعتبر عنه بالجري، والله أعلم. قال الامام النووي في «شرح مسلم»: وأما سجود الشمس، فهو بتبزيء وإدراك بخلق الله تعالى فيها، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: قال ابن العربي: أنكروا سجودها، وهو صحيح ممكن، وتأولوه قوم على ما هي عليه من التسخير الدائم، قال ابن حجر: ويحتمل أن يكون المراد بالسجود سجود من هو موكل بها من الملائكة، أو تسجد بصورة الحال، فيكون عبارة عن الزيادة في الانقياد والخضوع في ذلك الحين. وقال ابن حجر: استئذان الشمس معناه أن يخلق فيها حياة يوجد القول عندها، لأن الله قادر على إحياء الجماد والموت، قال: وقال غيره: يحتمل أن يكون الاستئذان أسند إليها مجازاً، والمراد من هو موكل بها من الملائكة. اهـ.

(٢) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازي المعروف بالشيزري الحنفي، قال ابن الجزري في «طبقات القراء»: أخذ القراءة عرضاً وسامعاً عن الكسائي، وله عنه انفرادات.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذُكِرَ من أمر الليل والنهار والشمس ﴿تَقْدِيرُ النَّهْرِ﴾ في ملكه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يقدر.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «وَالْقَمَرُ» بالرفع. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «وَالْقَمَرَ» بالنصب. قال الزجاج: من قرأ بالنصب. فالمعنى: وقَدَرْنَا القمر قَدْرَانِه مَنَازِل، ومن قرأ بالرفع، فالمعنى: وآيَةٌ لهم القمر قَدْرَانِه، ويجوز أن يكون على الابتداء، وقَدَرْنَا «الخبر»^(١). قال المفسرون: ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً ينزلها من أوّل الشهر إلى آخره، وقد سَمَّيْنَاهَا في سورة (يونس: ٢٥)، فإذا صار إلى آخر منازلها، دَقَّ فعاد كالمرجون، وهو عود العذق الذي تركته الشماريح^(٢)، فإذا جَفَّتْ وقَدُمَ يُشْبِه الهلال. قال ابن قتيبة: «والقديم» هاهنا: الذي قد أتى عليه حَوْلٌ، شُبِّه القمرُ آخِرَ لَيْلَةٍ يَطْلُعُ به. قال الزجاج: وتقدير «مُجْرَجُونَ»: فَعُلُون، من الانعراج. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، والضحاك، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «كَالْمُرْجُونَ» بكسر العين.

قوله تعالى: ﴿لَا السَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهما إذا اجتمعا في السماء، كان أحدهما بين يدي الآخر، فلا يشتركان في المنازل، قاله ابن عباس. والثاني: لا يُشْبِه ضوءُ أحدهما ضوءَ الآخر، قاله مجاهد. والثالث: لا يجتمع ضوءُ أحدهما مع الآخر، فإذا جاء سلطان أحدهما ذهب سلطان الآخر، قاله قتادة؛ فيكون وجه الحكمة في ذلك أنه لو اتصل الضوء، لم يُعرف الليل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَيْلٌ سَائِيُ النَّهَارِ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو عمران، وعاصم الجحدري: «سَائِيُ» بالتثنية «التَّهَارُ» بالنصب، وفيه قولان: أحدهما: لا يَتَقَدَّمُ الليلُ قبل استكمال النهار. والثاني: لا يأتي ليل بعد ليل من غير نهارٍ فاصلٍ بينهما. وباقي الآية مفسر في سورة [الأنبياء: ٤٣].

﴿وَأَيُّهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْعُونِ﴾ ﴿١١﴾ وَصَلَّفْنَا لَمْ يَنْ يَنْبَغِي مَا يَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴿١٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِنَّ جِبْنَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ نافع، وابن عامر: «ذُرِّيَّاتِهِمْ» على الجمع؛ وقرأ الباقون من السبعة: «ذُرِّيَّتَهُمْ» على التوحيد. قال المفسرون: أراد: في سفينة نوح، فنسب الذُرِّيَّةَ إلى المخاطبين، لأنهم من جنسهم، كأنه قال: ذُرِّيَّةُ النَّاسِ. وقال الفراء: أي: ذُرِّيَّةُ مَنْ هُوَ مِنْهُمْ، فجعلها ذُرِّيَّةَ لهم، وقد سبقتهم. وقال غيره: هو حَمَلُ الْأَنْبِيَاءِ فِي أَصْلَابِ الْأَبَاءِ حِينَ رَكِبُوا السَّفِينَةَ، ومنه قول العباس:

بَلْ نَظَفَةٌ تَرَكَّبُ السُّفِينِ وَقَدْ

قال المفضل بن سلمة: الذُرِّيَّةُ: النُّسْلُ، لأنهم مَنْ ذَرَاهِمُ اللهُ مِنْهُمْ، والذُرِّيَّةُ أيضاً: الآباء، لأن الذُرَّ وقع منهم، فهو من الأضداد، ومنه هذه الآية، وقد شرحنا هذا في قوله: ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٢٣٤]؛ والمشحون: المملوء.

قوله تعالى: ﴿وَصَلَّفْنَا لَمْ يَنْ يَنْبَغِي﴾ فيه قولان: أحدهما: ومثل سفينة نوح، وهي السفن، روى هذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، وأبو مالك، وأبو صالح، والمراد بهذا ذُكِرَ مِنْتِه بأن خَلَقَ الخشب الذي تُعْمَلُ منه السفن. والثاني: أنها الإبل، خَلَقَهَا لهم للركوب في البرِّ مثل السفن المركوبة في البحر، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وعن الحسن وقاتدة كالقولين^(٤).

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا أنها قراءتان مشهورتان صحيحتا المعنى، فأيهما قرأ القارئ فمصيب.

(٢) الشماريح: الشعب التي على العذق، واحدها شِمْرَاحٌ وشَمْرُوحٌ، وكل غصن له شعب فهي شَمَارِيحٌ، والشمراخ: الذي عليه بسر وأصله في العذق.

(٣) البيت للعباس بن عبد المطلب ﷺ عم النبي ﷺ في شعر يمدح به رسول الله ﷺ، وهو في «اللسان» و«التاج»: نسر. قال ابن الأثير: يريد (أي بالنسر) الصنم الذي كان يعبده قوم نوح، على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وأشبه القولين بتأويل ذلك قول من قال: عنى بذلك السفن، وذلك لدلالة قوله: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَمْ﴾ على أن ذلك كذلك، وذلك أن الغرق معلوم أنه لا يكون إلا في الماء، ولا غرق في البرِّ. اهـ. وقال ابن كثير: ويقوَّى هذا المنع في المعنى قوله جل وعلا: ﴿إِنَّا لَمَّا كُنَّا آلَهُ مَحَلَّتْ لِي لَبَّيْكَ ﴿١١﴾ يَسْتَلِمَا لَكَ تَكْرِيماً رَبِّهَا إِنَّهُ رَبُّكَ ﴿١٢﴾﴾. اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيحَ لَكُمْ﴾ أي: لا مُغْنِيَتْ ولا مُجِيرٌ ﴿وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ﴾ أي: ينجون من الغرق، يقال: أنقذه واستقذه، إذا خلّصه من المكروه، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ المعنى: إلا أن نرحمهم ونمنعهم إلى آجالهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني الكُفَّارَ ﴿انفَرُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: «ما بين أيديكم»: ما مضى من الذنوب، «وما خلفكم»: ما يأتي من الذنوب، قاله مجاهد. والثاني: «[ما بين أيديكم]»^(١) ما تقدّم من عذاب الله للأسم، «وما خلفكم» من أمر الساعة، قاله قتادة. والثالث: «ما بين أيديكم» من الدنيا، «وما خلفكم» من عذاب الآخرة. قاله سفيان. والرابع: «ما بين أيديكم» من أمر الآخرة، «وما خلفكم» من أمر الدنيا فلا تَغْتَرُّوا بها، قاله ابن عباس والكلبي. ﴿لَمَلَكُوا زُجُومًا﴾ أي: لتكونوا على رجاء الرحمة من الله. وجواب «إذا» محذوف، تقديره: إذا قيل لهم هذا، أعرضوا؛ ويدلُّ على هذا المحذوف قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنَّ عَائِيَةٍ﴾ أي: من دلالة تدل على صدق الرسول.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفَرُوا مَا زُرَّكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَلِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَلَمَعَهُ إِنْ أُنشِرَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿١٧﴾ فَلَا يَسْتَظِيمُونَ تَوْبِيحَهُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَهْلِيهِمْ يَرْجَمُونَ ﴿١٨﴾ وَيُفَيْحُ فِي السُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِكْرِيمًا يَسْلُوكَ ﴿١٩﴾ قَالُوا بَوَلَّيْنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَمَدَّكُمُ الْمَوْتُورُونَ ﴿٢٠﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ ﴿٢١﴾ فَالْيَوْمَ لَا تَطْلُمُ نَفْسٌ سَبِيحًا وَلَا جُزْؤًا إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَسْحَبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ وَأَرْزُقَهُمْ فِي ظِلِّهَا عَلَى الْأَرْزَاقِ مُكْتَبُونَ ﴿٢٤﴾ لَكُمْ فِيهَا نِكَاحٌ وَالْمَآءُ يَدْعُونَ ﴿٢٥﴾ سَلِّمٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَبِّهِمْ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفَرُوا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: في اليهود، قاله الحسن. والثاني: في الزنادقة، قاله قتادة. والثالث: في مشركي قريش، قاله مقاتل؛ وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة: انفقوا على المساكين النصيب الذي زعمتم أنه لله من الحرث والأنعام، فقالوا: ﴿أَنْطَلِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَلَمَعَهُ﴾. وقال ابن السائب: كان العاص بن وائل إذا سأله مسكين، قال: اذهب إلى ربك فهو أولى بك مني، ويقول: قد منعه الله، أطمعه أنا؟^(٢) ومعنى الكلام أنهم قالوا: لو أراد الله أن يرزقهم لرزقهم، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم فلا نُظْمِعُهم؛ وهذا خطأ منهم، لأن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأقر بعضاً، ليلو الغني بالفقير فيما فرض له في ماله من الزكاة، والمؤمن لا يعترض على المشيئة، وإنما يوافق الأمر. وقيل: إنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء. وفي قوله: ﴿إِنْ أُنشِرَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قولان: أحدهما: أنه من قول الكفار للمؤمنين، يعنون: إنكم في خطأ من أتباع محمد. والثاني: أنه من قول الله للكفار لما ردّوه من جواب المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعنون القيامة؛ والمعنى: متى إنجاز هذا الوعد ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ يعنون محمداً وأصحابه. ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي النفخة الأولى. و﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بمعنى يختصمون، فأدغمت التاء في الصاد. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الباء والخاء وتشديد الصاد. وروى عن أبي عمرو اختلاس حركة الخاء. وقرأ عاصم، وابن عامر، والكسائي: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الباء وكسر الخاء. وعن عاصم كسر الباء والخاء. وقرأ نافع بسكون الخاء وتشديد الصاد. وقرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد، أي: يَخِصِّمُ بعضهم بعضاً. وقرأ أبي بن كعب: «يختصمون» بزيادة تاء؛ والمعنى أن الساعة تأتيهم أغفل ما كانوا عنها وهم متشاغلون في متصرفاتهم وبيعهم وشرائعهم، ﴿فَلَا يَسْتَظِيمُونَ تَوْبِيحَهُ﴾ قال مقاتل: أعجلوا عن الوصية فماتوا، ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَهْلِيهِمْ يَرْجَمُونَ﴾ أي: لا يعودون من الأسواق إلى منازلهم؛ فهذا وصف ما يُلْقُونَ في النفخة الأولى. ثم ذكر ما يُلْقُونَ في النفخة الثانية

(١) زيادة ليست في الأصل.

(٢) ذكر هذا المعنى الخازن في «تفسيره»، ولم ينسب لابن السائب ولا غيره، بل قال: قيل: كان العاص بن وائل إذا سأله مسكين... إلخ، والله أعلم. قال الألويسي: وظاهر ما تقدم يقتضي أنها نزلت في كفار مكة، أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله تعالى، وهو عام في الإطعام وغيره، فأجابوا بنفي الإطعام الذي لم يزالوا يفتخرون به، دلالة على نفي غيره بالطريق الأولى. اهـ.

فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ يعني القبور؛ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَسْلُوبُونَ﴾ أي: يخرجون بسرعة^(١)، وقد شرحنا هذا المعنى في سورة [الأنبياء: ٩٦]. ﴿قَالُوا يَا بُولَاقَ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾^(٢) وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو رزين، والضحاك، وعاصم الجحدري: «من بعثنا» بكسر الميم والثاء وسكون العين. قال المفسرون: إنما قالوا هذا، لأن الله تعالى رفع عنهم العذاب فيما بين النفتين. قال أبي بن كعب: ينامون نومة قبل البعث، فإذا بعثوا قالوا هذا.

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ في قاتلي هذا الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قول المؤمنين، قاله مجاهد، وقتادة، وابن أبي ليلى. قال قتادة: أول الآية للكافرين، وآخرها للمؤمنين. والثاني: أنه قول الملائكة لهم، قاله الحسن. والثالث: أنه قول الكافرين، يقول بعضهم لبعض: هذا الذي أخبرتنا به المرسلون أننا نبعث ونجازى، قاله ابن زيد^(٣). قال الزجاج: «من مرقدنا» هو وقف التمام، ويجوز أن يكون «هذا» من نعت «مرقدنا» على معنى: مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هذا الذي كُنَّا رَاقِدِينَ فيه؟ ويكون في قوله: «ما وعد الرحمن» أحد إضمارين، إما «هذا»، وإما «حق»، فيكون المعنى: حَقٌّ مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ^(٤). ثم ذكر النفخة الثانية، فقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿إِنَّ أَسْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ﴾ يعني في الآخرة ﴿فِي سُغُلٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «في سُغُلٍ» بإسكان الغين. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «في سُغُلٍ» بضم الشين والغين. وقرأ أبو هريرة، وأبو رجاء، وأيوب السختياني: «في سُغُلٍ» بفتح الشين والغين. وقرأ أبو مجلز، وأبو العالية، وعكرمة، والضحاك، والنخعي، وابن يعمر، والجحدري: «في سُغُلٍ» بفتح الشين وسكون الغين^(٥)، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن سُغُلَهُم اقتضاض العذارى، رواه شقيق عن ابن مسعود، ومجاهد عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن المسيب، وقتادة، والضحاك. والثاني: ضرب الأوتار، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٦)؛ وعن عكرمة كالتولين، ولا يثبت هذا القول. والثالث: النعمة، قاله مجاهد. وقال الحسن: سُغُلُهُم: نعيمهم عمّا فيه أهل النار من العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَنَكْبَهُنَّ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو المتوكل، وقتادة، وأبو الجوزاء، والنخعي، وأبو جعفر: «فَكَبَهُنَّ». وهل بينهما فرق؟ فيه قولان: أحدهما: أن بينهما فرقا. فأما «فاكهن» ففيه أربعة

(١) روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفتين أربعون يوماً» قال: أيّث، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أيّث، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أيّث، ثم يُنزل الله من السماء ماءً فيبتون كما يبيت البقل» قال: «وليس من الإنسان شيء إلا يلبى، إلا عظماً واحداً وهو عَجَبُ الذنْبِ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة» متفق عليه، واللفظ لسلم، ومعنى قول أبي هريرة: «أيّث»: امتنعت عن الجواب لأنني لا أدري ما هو الصواب. وعجب الذنب هو العظم الذي في أسفل الصلب، وهو رأس المُصْعَص، ويقال له: «عجم» بالميم، وهو أول ما يخلق من آدمي، وهو الذي يبقى من الإنسان ليعاد تركيب الخلق عليه.

(٢) قال ابن كثير: ينعون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كُذِّبوا به في محشرهم ﴿قَالُوا يَا بُولَاقَ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ قال: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والقول الأول أشبه بظاهر التنزيل، وهو أن يكون من كلام المؤمنين، لأن الكفار في قبورهم: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ دليل على أنهم كانوا بمن بعثهم من مرتدعهم جهلاً، ولذلك من جعلهم استنبوا، ومحال أن يكونوا استنبوا ذلك إلا من غيرهم ممن خالفت صفته صفتهم في ذلك. اهـ. قال ابن كثير: وهذا أصح، وذلك قوله تبارك وتعالى في (الصفوات): ﴿قَالُوا يَا بُولَاقَ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ دليل على أنهم كانوا بمن بعثهم من مرتدعهم جهلاً، ولذلك من جعلهم استنبوا، ومحال أن يكونوا استنبوا ذلك إلا من غيرهم ممن خالفت صفته صفتهم في ذلك. اهـ. قال ابن كثير: وهذا أصح، وذلك قوله تبارك وتعالى في (الصفوات): ﴿قَالُوا يَا بُولَاقَ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ دليل على أنهم كانوا بمن بعثهم من مرتدعهم جهلاً، ولذلك من جعلهم استنبوا، ومحال أن يكونوا استنبوا ذلك إلا من غيرهم ممن خالفت صفته صفتهم في ذلك. اهـ.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وفي قوله: «هذا» وجهان، أحدهما: أن تكون إشارة إلى «ما» ويكون ذلك كلاماً مبتدأ بعد تنافي الخبر الأول بقوله: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ فتكون «ما» حبيطة مرفوعة بـ «هذا»، ويكون معنى الكلام: هذا وعدُّ الرحمن، وصدق المرسلون؛ والوجه الآخر: أن تكون من صفة المرقد، وتكون خفضاً رداً على المرقد، وعند تمام الخبر الأول؛ فيكون معنى الكلام: مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هذا؟ ثم يبتدأ الكلام فيقال: ما وعد الرحمن، بمعنى: بمنكم وعدُّ الرحمن، فتكون «ما» حبيطة رفاً على هذا المعنى. اهـ.

(٥) قال ابن جرير الطبري: والصواب في ذلك عندي قراءة بضم الشين والغين، أو بضم الشين وسكون الغين، بأي ذلك قرأه القارئ فهو مصيب، لأن ذلك هو القراءة المعروفة في قراء الأمصار مع تقارب معنيهما، قال: وأما قراءته بفتح الشين والغين، فغير جائزة عندي، لإجماع الحجة من القراء على خلافها. اهـ.

(٦) قال ابن كثير: وقال ابن عباس رضي الله عنه في رواية عنه: ﴿فِي سُغُلٍ فَكَبَهُنَّ﴾ أي: بسمع الأوتار، قال: وقال أبو حاتم: لعله غلط من المستمع، وإنما هو اقتضاض الأبقار. اهـ. والاقتضاض والاقتضاض بمعنى واحد.

أقوال: أحدها: فَرِحُونَ، قاله ابن عباس. والثاني: مُفْعَبُونَ، قاله الحسن، وقتادة. والثالث: ناعمون، قاله أبو مالك، ومقاتل. والرابع: ذوو فاكهة، كما يقال: فلانٌ لَابِرٌ تَابِرٌ، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة. وأما «فَكِهُونَ» فيه قولان: أحدهما: أن الفَكِهَ: الذي ينفكُه، تقول العرب للرجل إذا كان ينفكُه بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس: إن فلاناً لفَكِهٌ بكذا، ومنه يقال للمُزاح: فُكَاهَةٌ، قاله أبو عبيدة. والثاني: فَكِهين بمعنى فَرِحين، قاله أبو سليمان الدمشقي. والقول الثاني: أن فَاكِهين وفَكِهين بمعنى واحد، كما يقال: حَافِرٌ وَحَدِرٌ، قاله الفراء. وقال الزجاج: فَاكِهُونَ وفَكِهُونَ بمعنى فَرِحين. وقال أبو زيد: الفَكِهَ: الطَّيِّبُ النَّفْسِ الصَّحُوكِ، يقال: رجل فَاكِهٌ وفَكِهٌ^(١).

قوله تعالى: ﴿مُمْ وَارْوَجَزْ﴾ يعني حلالهم ﴿فِي ظِلِّلٍ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «فِي ظَلِّلٍ». قال الفراء: الظلال جمع ظلٌّ، والظِّلُّ جمع ظُلَّةٌ، وقد تكون الظلال جمع ظُلَّةٍ أيضاً، كما يقال: حُلَّةٌ وَحُلَّلٌ؛ فإذا كثرت فهي الخلال والجلال والقيلال. قال مقاتل: والظلال: أكنان القصور. قال أبو عبيدة: والمعنى أنهم لا يَضْحَوْنَ. فأما الأرائك، فقد بيَّناها في سورة [الكهف: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَأْ يَدْخُونِ﴾ قال ابن قتيبة: ما يَتَمَتُّونَ، ومنه يقول الناس: هو في خيرٍ ما ادَّعى، أي: ما تَمَتَّى، والعرب تقول: ادَّع ما شئت، أي: تَمَن ما شئت. وقال الزجاج: هو مأخوذ من الدَّعاء؛ والمعنى: كلُّ ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم. وقوله: «سَلَّمٌ» بدل من «مَا»؛ المعنى: لهم ما يتمنون سلام، أي: هذا مُتَى أهل الجنة أن يُسَلِّمَ الله عليهم^(٢). و﴿قَوْلًا﴾ منصوب على معنى: سلام يقولُه الله قولاً. قال أبو عبيدة: «سلامٌ» رفع على «لهم»؛ فالمعنى: لهم فيها فاكهة ولهم فيها سلام. وقال الفراء: معنى الكلام: لهم ما يدعون مسلماً خالص، ونصب القول، كأنك قلت: قاله قولاً، وإن شئت جعلته نصباً من قوله: ولهم ما يدعون قولاً، كقولك: عِدَّةٌ من الله. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، والجحدري: «سلاماً قولاً» بصيها جميعاً.

﴿وَأَسْتَرُوا أَيُّمَ النَّجْرِيَّةِ﴾ ﴿أَنْزَ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ بَيْنَ مَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ شَيْنٌ﴾ ﴿وَأَنْ أَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَسْأَلْنَا مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَأَلْقَمَ تَكُونُوا تَقْلُونَ﴾ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿أَصْلَوْهَا أَيُّمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَرُوا أَيُّمَ النَّجْرِيَّةِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: انقطعوا عن المؤمنين وتميزوا منهم، يقال: ميزت الشيء من الشيء: إذا عزلته عنه، فانماز وامتاز، وميزته فتميز. قال المفسرون: إذا اختلط الإنس والجن في الآخرة، قيل: ﴿وَأَسْتَرُوا أَيُّمَ النَّجْرِيَّةِ﴾، فيقال للمجرمين: ﴿أَنْزَ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ؟﴾ أي: ألم أركم، أو أوصيكم؟ «وتعبدوا» بمعنى تُطِيعُوا، والشيطان هو إبليس، زين لهم الشُّركَ فاطاعوه، ﴿إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ شَيْنٌ﴾ ظاهر العداوة، أخرج أبيكم من الجنة. ﴿وَأَنْ أَعْبُدُوا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي: «وَأَنْ أَعْبُدُونِي» بضم النون. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة: «وَأَنْ أَعْبُدُونِي» بكسر النون؛ والمعنى: وحُدُونِي «هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» يعني التوحيد. ﴿وَلَقَدْ أَسْأَلْنَا مِنْكُمْ جِبَلًا﴾ قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف: «جِبَلًا» بضم الجيم والباء وتخفيف اللام. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر: «جِبَلًا» بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام. وقرأ نافع، وعاصم: «جِبَلًا» بكسر الجيم والباء مع تشديد اللام. وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، والزهري، والأعمش: «جِبَلًا» بضم الجيم والباء مع تشديد اللام. وقرأ عبد الله بن عمرو، وابن السميع: «جِبَلًا» بكسر الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام. وقرأ سعيد بن جبیر، وأبو المتوكل، ومعاذ القارئ: «جِبَلًا» برفع الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام. وقرأ أبو العالية: وابن يعمر: «جِبَلًا» بكسر الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام. وقرأ أبو عمران الجوني، وعمرو بن دينار: «جِبَلًا» مكسورة الجيم مفتوحة الباء وبألف. ومعنى الكلمة كيف تصرَّفت في هذه اللغات: الحَلَقُ والجماعة؛ فالمعنى: ولقد أضلَّ منكم

(١) قال ابن جرير: والصواب من القراءة في ذلك عندي قراءة من قرأ بالألف «فَكِهُونَ» لأن ذلك هو القراءة المعروفة. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والذي هو أولى بالصواب على ما جاء به الخبر عن محمد بن كعب القرظي أن يكون «سَلَّمٌ» خيراً لقوله: ﴿وَلَمْ تَأْ يَدْخُونِ﴾ فيكون معنى ذلك: ولهم فيها ما يدعوون، وذلك هو سلام من الله عليهم. اهـ.

خَلَقًا كَثِيرًا ﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَقُولُونَ؟﴾؛ فالمعنى: قد رأيتم آثار الهالكين قبلكم بطاعة الشيطان، أفلم تعقلوا ذلك؟! وقرا ابن عباس، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو رجاء، ومجاهد، وابن يعمر: «أفلم يكونوا يعقلون» بالياء فيها، فإذا أذنوا إلى جهنم قيل لهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿١٦﴾ بها في الدنيا ﴿أَسْمَلُوهَا﴾ أي: قاسوا حرها.

﴿الَّذِينَ نَحْنُ عَنْ آوَاهِهِمْ وَنُكَلِّمُهُمْ وَيَنْشَهُمْ أَرْجُلَهُمْ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَكَوْنُ نَشَاءَ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ وَكَوْنُ نَشَاءَ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَاتِبِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَمَنْ لَمْ يَزِدْهُ نُكُوتَهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَحْنُ عَنْ آوَاهِهِمْ﴾ وقرا أبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «يُحْتَمُّ» بياء مضمومة وفتح التاء ﴿وَنُكَلِّمُهُمْ﴾ قرا ابن مسعود: «وَلِنُكَلِّمُنَا» بزيادة لام مكسورة وفتح الميم وواو قبل اللام. وقرا أبي بن كعب، وابن أبي عمير: «لِنُكَلِّمُنَا» بلام مكسورة من غير واو قبلها وينصب الميم؛ وقراوا جميعاً: «وَلِنُشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ» بلام مكسورة وينصب الدال. ومعنى «نَحْنُ»: نطبع عليها، وقيل: منعها من الكلام هو الختم عليها، وفي سبب ذلك أربعة أقوال: أحدها: أنهم لما قالوا: ﴿وَاللَّهُ رَئِيفًا ذَكِيًّا مَا كُنَّا مُتْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] حَتَمَ اللهُ عَلَى آفْوَاهِهِمْ وَنَطَقَتْ جَوَارِحُهُمْ، قاله أبو موسى الأشعري. والثاني: ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم على المعاصي صارت شهوداً [عليهم]. والثالث: ليعرفهم أهل الموقف، فيتميزوا منهم بذلك. والرابع: لأن إقرار الجوارح أبلغ في الإقرار من نطق اللسان، ذكره الماوردي. فإن قيل: ما الحكمة في تسمية نطق اليد كلاماً ونطق الرجل شهادة؟ فالجواب: أن اليد كانت مباثرة والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة بما رأى، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما فعل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ولو نشاء لأذهبنا أعينهم حتى لا يبدوا لها شَقٌّ وَلَا جَفْنَ. والمطموس: الذي لا يكون بين جفنيه شَقٌّ، ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي: فتبادروا إلى الطريق ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ [أي]: فكيف يُبْصِرُونَ وقد أعمينا أعينهم؟! وقرا أبو بكر الصديق، وعروة بن الزبير، وأبو رجاء: «فَاسْتَبَقُوا» بكسر الباء «فَأَنَّى يُبْصِرُونَ» بالتاء. وهذا تهديد لأهل مكة، وهو قول الأكثرين. والثاني: ولو نشاء لأصلبناهم وأعميناهم عن الهدى، فَأَنَّى يُبْصِرُونَ الحق؟! رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: ولو نشاء لفقنا أعين ضلالتهم وأعميناهم عن غيهم وحوئلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى فأبصروا رشدهم، فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ولم أفعل ذلك بهم؟! روي عن جماعة منهم مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَاتِبِهِمْ﴾ وروى أبو بكر عن عاصم: «على مكائباتهم»؛ وقد سبق بيان هذا [البقرة: ٢٥]، وفي المراد بقوله: «لَمَسَخْنَاهُمْ» أربعة أقوال: أحدها: لأهلكتناهم، قاله ابن عباس. والثاني: لأقعدناهم على أرجلهم، قاله الحسن، وقتادة. والثالث: لجعلناهم حجارة، قاله أبو صالح، ومقاتل. والرابع: لجعلناهم قردة وخنزير لا أرواح فيها، قاله ابن السائب. وفي قوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: فما استطاعوا أن يتقدموا ولا أن يتأخروا، قاله قتادة. والثاني: فما استطاعوا مضياً عن العذاب، ولا رجوعاً إلى الخلقة الأولى بعد المسخ، قاله الضحاك. والثالث: مضياً من الدنيا ولا رجوعاً إليها، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَزِدْهُ نُكُوتَهُ فِي الْخَلْقِ﴾ قرا حمزة: «نُنُكُوتَهُ» مشددة مع ضم النون الأولى وفتح الثانية؛ والباقون: يفتح النون الأولى وتسكين الثانية من غير تشديد^(١)؛ وعن عاصم كالقراءتين. ومعنى الكلام: من نُظِّلَ عمره نُنُكُسَ خَلْقَهُ، فنجعل مكان القوة الضعيف، وبدل الشباب الهرم، فزده إلى أرذل العمر. ﴿أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ قرا نافع، وأبو عمرو: «أفلا تعقلون» بالتاء، والباقون بالياء. والمعنى: أفلا يعقلون أن من فعل هذا قادر على البعث؟!

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٢١﴾ يُسْذِرُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ قال المفسرون: إن كفار مكة قالوا: إن هذا القرآن شِعْرٌ وإن محمداً شاعر،

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قراء الامصار، فبايتهما قرا القارئ فمصيب، غير أن التي عليها عامة قراء الكوفيين أصعب إلي، لأن التكيس من الله في الخلق إنما هو حال بعد حال، وشيء بعد شيء، فلذلك تأييد للتشديد. اهـ.

فقال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمُ الشَّعْرَ وَمَا يَلْبِغِي لَكُمْ﴾ أي: ما يتسهّل له ذلك. قال المفسرون: ما كان يترنّن له بيت شعر، حتى إنه روي عنه ﷺ أنه تمثّل يوماً فقال:

«كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشُّنَيْبِ لِمَمْرُؤِ نَاهِيًا»

فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنما قال الشاعر:

كَفَى الشُّنَيْبِ وَالْإِسْلَامَ لِمَمْرُؤِ نَاهِيًا^(١)

أشهد أنك رسول الله، ما علمك الله الشعر، وما ينبغي لك^(٢). ودعا يوماً بجاس بن مرداس فقال: «أنت القائل: أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِيدِ - د بَيْنَ الْأَنْرَعِ وَعُيَيْنَةَ؟»^(٣)

فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي، لم يقل كذلك، فأنشده أبو بكر، فقال رسول الله ﷺ: «لَا يَضْرُكُ بَأَيْهِمَا بَدَأَتْ» فقال أبو بكر: والله ما أنت بشاعر، ولا ينبغي لك الشعر^(٤). وتمثّل يوماً، فقال:

«وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تَزَوِّدْهُ بِالْأَخْبَارِ»^(٥)

فقال أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله، فقال: «إِنِّي لَسْتُ بِشَاعِرٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِي»^(٦). وإنما مُنِعَ من قول الشعر،

(١) البيت لسحيم عبد بني الحساس، وهو في «ديوانه» ١٦، و«مجمع البيان» ٢٣/٢٧، و«البحر المحيط» ٧/٣٤٥، و«القرطبي» ١٥/٥٢، و«اللسان»: نهى، وهو بتامه:

عُمَيْرَةٌ وَوَعْنٌ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَادِيًا كَفَى الشُّنَيْبِ وَالْإِسْلَامَ لِلْمَمْرُؤِ نَاهِيًا

(٢) ذكر هذا الحديث ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن البصري قال: إن رسول الله ﷺ كان يتمثّل بهذا البيت كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله كفى الشيب للإسلام للمرء ناهياً قال أبو بكر أو عمر ﷺ: أشهد أنك رسول الله، يقول تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمُ الشَّعْرَ وَمَا يَلْبِغِي لَكُمْ﴾. اهـ. وهذا الحديث مرسل، وفي سننه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. والحديث ذكره السيوطي في «الدر» ٥/٢٦٨ من رواية ابن أبي حاتم، وزاد نسبه لابن سعد، والمرزباني في «مجمع الشعراء» عن الحسن ﷺ مرسلًا أن النبي ﷺ كان يتمثّل بهذا البيت.

(٣) البيت لعباس بن مرداس، وهو في «البحر المحيط» ٧/٣٤٥، و«القرطبي» ١٥/٥٢، و«روح المعاني» ٢٣/٤٥، و«اللسان» و«التاج»: نهب، وصوابه موزونًا:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِيدِ - د بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَنْرَعِ؟

(٤) ذكره ابن كثير في «التصريح» من رواية البيهقي في «الدلائل»، وأورده السيوطي في «الدر» ٥/٢٦٨ من رواية ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد أن النبي ﷺ قال للعباس بن مرداس: «أرأيت قولك»: «أصبح نهبي ونهب العبيد بين الأنرع وعيينة... إلخ، وفيه انقطاع، وعبد الرحمن بن أبي الزناد، ويقال له: عبد الله بن ذكوان المدني، صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد كما قال الحافظ بن حجر في «التقريب».

(٥) البيت لطرفة بن العبد البكري، وهو في «مختار الشعر الجاهلي» ١/٣٢٣، و«مجمع البيان» ٢٣/٤٥، و«البحر المحيط» ٧/٣٤٥، و«القرطبي» ١٥/٢١، ونصه بتامه:

سُئِدِي لَسْتُ الْإِيَّامَ مَا كُنْتُ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزَوِّدْ

(٦) رواه الإمام أحمد في «المسند» من حديث هشيم عن مغيرة عن الشعبي عن عائشة ﷺ، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخبر تمثّل فيه بيت طرفة «ويأتيك بالأخبار من لم تزود»، وذكره السيوطي في «الدر» ٥/٢٦٨ من رواية ابن أبي شيبة عن عائشة ﷺ بهذا اللفظ. قال ابن كثير: وهكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» من طريق إبراهيم بن مهاجر عن الشعبي عنها، قال: ورواه الترمذي والنسائي أيضاً من حديث المقدم بن شريح بن هانئ عن أبيه عن عائشة ﷺ كذلك، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. اهـ. والحديث رواه الطبري في «التصريح» ٢٣/٢٧، من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: قيل لعائشة ﷺ: هل كان رسول الله ﷺ يتمثّل بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثّل ببيت أخي بني قيس، فيجعل آخره أوله، وأوله آخره، فقال له أبو بكر: إنه ليس هكذا، فقال نبي الله: «إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي» وذكره السيوطي في «الدر» ٥/٢٦٨ بهذا اللفظ عن عائشة وزاد نسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأورده أيضاً من رواية ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يتمثّل من الأشعار «ويأتيك بالأخبار من لم تزود». اهـ. قال ابن كثير: وثبت في الصحيح أنه ﷺ تمثّل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة ﷺ، ولكن تبعاً لقول أصحابه ﷺ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون:

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَأَيْنَا

فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَنَسَبْتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَأَقَيْنَا

إِنْ الْأَلْسَى قَدِ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا قَتْلَنَا أَيْبَيْنَا

ويرفع صوته ﷺ بقوله: «أبيناً» ويملأها... قال: وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نخور العدو:

أَنَا السَّبِيحُ لَا كَسْبُ أَنْسَابِ ابْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ

لثلا تدخل الشبهة على قوم فيما أتى به من القرآن فيقولون: قوي على ذلك بما في طبعه من الفطنة للشعر.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ إلا موعظة ﴿وَرُؤُوسٌ تُبِينُ﴾ فيه الفرائض والسُنن [والأحكام].

قوله تعالى: ﴿يُنذِرُ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «لِيُنذِرَ» بالياء، يعنون القرآن. وقرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب: «لِيُنذِرَ» بالياء، يعنون النبي ﷺ، أي: لِيُنذِرَ يَا مُحَمَّدُ بما في القرآن. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن السميع: «لِيُنذِرَ» بياء مرفوعة وفتح الذال والراء جميعاً.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: حي القلب حي البصر، قاله قتادة. والثاني: من كان عاقلاً، قاله الضحاك. قال الزجاج: من كان يُعْقِلُ ما يخاطب به، فإن الكافر كالميت في ترك النذير. والثالث: مهتدياً، قاله السدي وقال مقاتل: من كان مهتدياً في علم الله. والرابع: من كان مؤمناً، قاله يحيى بن سلام؛ وهذا على المعنى الذي قد سبق في قوله: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يُخَشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [فاطر: ١٨]، ويجوز أن يريد: إنما ينفع إنذارك من كان مؤمناً في علم الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْيَى الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ معناه: يجب. وفي المراد بالقول قولان: أحدهما: أنه العذاب. والثاني: الحجة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَانَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَيَنْبَغِ رُكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَكَمْ فِيهَا مِنْ نَفِيعٍ وَسَّارِبٍ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَأَخَذْنَا مِنْ ذِي أَلْهَامٍ أَلْهَامَهُ لَكُلِّهِمْ يُصِرُّونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفَهُمْ وَمَنْ كَفَرَ لَمْ يُجِدْ كُفْرَهُمْ جُنْدًا يُحْضِرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُصِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

ثم ذكرهم قدرته فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَانَا أَنْعَامًا﴾ قال ابن قتيبة: يجوز أن يكون المعنى: مما عملناه بقوتنا وقدرتنا، وفي اليد القدرة والقوة على العمل، فاستعار اليد فتوضع موضعها، هذا مجاز للعرب يحتمله هذا الحرف، والله أعلم بما أراد. وقال غيره: ذُكِرَ الأيدي هاهنا يدل على انفراده بما خلق، والمعنى: لم يشاركنا أحد في إنشائها؛ والواحد مينا إذا قال: عملت هذا بيدي، دل ذلك على انفراده بعمله. وقال أبو سليمان الدمشقي: معنى الآية: مما أوجدناه بقدرتنا وقوتنا؛ وهذا إجماع أنه لم يرد هاهنا إلا ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: ضابطون، قاله قتادة، ومقاتل. قال الزجاج: ومثله في الشعر:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا
أملك رأس البعير إن نَسرا^(١)

أي: لا أضبط رأس البعير. والثاني: قادرون عليها بالتسخير لهم، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي: سخرناها، فهي ذليلة لهم ﴿فَيَنْبَغِ رُكُوبُهُمْ﴾ قال ابن قتيبة: الرُّكُوب: ما يركبون، والخلوب: ما يحلبون. قال الفراء: ولو قرأ قارئ: «فمنها رُكُوبُهُمْ»، كان وجهاً، كما تقول: منها أكلهم وشربهم وركوبهم. وقد قرأ بضم الراء الحسن، وأبو العالية، والأعمش، وابن يعمر في آخرين. وقرأ أبي بن كعب، وعائشة: «رُكُوبَتُهُمْ» بفتح الراء والياء وزيادة تاء مرفوعة. قال المفسرون: يركبون من الأنعام الإبل، ويأكلون الغنم، ﴿وَكَمْ فِيهَا

لكن قالوا: هذا وقع اتفاقاً من غير فصل لوزن شعر، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه، قال: وكذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غار فنبكت أصبعه، فقال ﷺ:

مَلْ أَنْبِتْ إِلَّا أَصْبَعُ دُمَيْبِ
وفي سبيل الله مال قبيبت

قال ابن كثير: وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً ولا يبيني له، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ﴿لَا تَأْتِيهِ الْبُطُحُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ حَيْكَةِ جَبْرِ ﴿٧٦﴾﴾ وليس هو يشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة ولا مفتعل، ولا سحر يؤثر كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال، قال: وقد كانت سجيته ﷺ تأتي صناعة الشعر طبعاً وشرعاً. ثم قال ابن كثير: على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت ﷺ، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم ﷺ أجمعين، ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ثم قال: وقد روى أبو داود، من حديث أبي بن كعب، وبريدة بن الخصيب، وعبد الله بن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكمة». اهـ.

(١) البيت للربيع بن منبغ الفزاري، وهو في «البحر المحيط» ٣٤٧/٧، و«روح المعاني» ٤٧/٢٣.

مَنْعِيٌّ» من الأصواف والأوبار والأشعار والنَّسَلِ «وَسَكَرِيَّةٍ» [من] البانها، «أَفَلَا يَشْكُرُونَ» رَبَّ هَذِهِ النَّعْمِ فَيُوحِدُونَهُ؟ ثم ذكر جهلهم فقال: «وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَّمَّا لَهُمُ بَصِيرَةٌ ﴿٧٦﴾» أي: لتمنعهم من عذاب الله؛ ثم أخبر أن ذلك لا يكون بقوله: «لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفَهُمْ» أي: لا تقدر الأصنام على منعهم من أمر أراد الله بهم «وَهُمْ» يعني الكفار «لَمْ» يعني الأصنام «جُنُدٌ مُّحَضَّرُونَ» وفيه أربعة أقوال. أحدها: جند في الدنيا محضرون في النار، قاله الحسن. والثاني: مُحَضَّرُونَ عند الحساب، قاله مجاهد. والثالث: المشركون جُنُدٌ للأصنام، يَغْضِبُونَ لها في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً، قاله قتادة^(١). وقال مقاتل: الكفار يَغْضِبُونَ للآلهة وَيَحْضُرُونَهَا في الدنيا. وقال الزجاج: هم للأصنام ينتصرون، وهي لا تستطيع نصرهم. والرابع: هم جُنُدٌ مُحَضَّرُونَ عند الأصنام يعبدونها، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: «فَلَا يَخْرُجُكَ قَوْلُهُمْ» يعني قول كفار مكة في تكذيبك «إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ» في ضمانهم من تكذيبك «وَمَا يُحْلُونَ» بأستهم من ذلك؛ والمعنى: إنا نثبك ونجازهم.

«أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَصَرَّبَ لَنَا مَثَلًا وَوَعَىٰ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعَظْمَ وَهِيَ رَيْبٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْرَبْتَهُ ثَوْبًا ﴿٨٠﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِن نُّطْفَةٍ بَنَ وَهُوَ الْجَلْبُوتُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِينُ مَكُونُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾»

قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن نُّطْفَةٍ» اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية والتي بعدها على خمسة أقوال: أحدها: أنه العاص بن وائل السهمي، أخذ عظماً من البطحاء ففقه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله هذا بعد ما أرى؟ فقال: نعم، يُمِيتُكَ اللهُ ثُمَّ يُحْيِيكَ ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ، فنزلت هذه الآيات، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس^(٢). والثاني: أنه عبد الله بن أبي بن سلول، جرى له نحو هذه القصة، رواه العوفي عن ابن عباس^(٣). والثالث: أنه أبو جهل بن هشام، وأن هذه القصة جرت له، رواه الضحاك عن ابن عباس^(٤). والرابع: أنه أمية بن خلف، قاله الحسن^(٥). والخامس: أنه أبي بن خلف الجُمحي^(٦)، وهذه القصة جرت له، قاله مجاهد، وقاتدة، والجمهور، وعليه المفسرون. ومعنى الكلام: التعجب من جهل هذا المخاصم في إنكاره البعث؛ والمعنى: ألا يعلم أنه مخلوق فيتفكر في بده خلقه فيترك خصومته؟ وقيل: هذا تنبيه له على نعمة الله عليه حيث أنشأه من نطفة فصار مجادلاً. «وَصَرَّبَ لَنَا مَثَلًا» في إنكار العث بالعظم البالي حين فقه بيده، وتعجب ممن يقول: إن الله يُحْيِيهِ «وَوَعَىٰ خَلْقَهُ» أي: نسي خلقنا له،

(١) قال ابن جرير الطبري: وهذا الذي قاله قتادة أولى عندنا بالصواب في تأويل ذلك، لأن المشركين عند الحساب تبتيراً منهم الأصنام وما كانوا يعبدونه، فكيف يكونون لها جنداً حيث؟ ولكنهم في الدنيا لهم جند يَغْضِبُونَ لهم ويقاثلون دونهم، وقال ابن كثير: وهكذا قال الحسن البصري، وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى. اهـ.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٣٠/٢٣ من رواية سعيد بن جبير مرسلاً، ورواه ابن أبي حاتم من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ، ورواه الحاكم عن ابن عباس وصححه، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٦٩/٥، وزاد نسبة لابن المنذر، والإسماعيلي في «معجمه»، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث»، والفياء في «المختارة» عن عبد الله بن عباس ﷺ.

(٣) رواه الطبري ٣١/٢٣ من رواية عطية العوفي عن ابن عباس، قال ابن كثير: وهذا منكر، لأن السورة مكية، وعبد الله بن أبي بن سلول إنما كان بالمدينة.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٧٠/٥ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس. والله أعلم.

(٥) وهكذا ذكره الشوكاني في «فتح القدير» عن الحسن ولم يستد له أحد.

(٦) رواه الطبري: ٣٠/٢٣ من مجاهد وقاتدة، والواحدي في «أسباب النزول» ٢٠٩ من طريق حصين عن أبي مالك، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٤٠: ورواه البيهقي في «الشعب» من طريق حصين عن أبي مالك. وأورده السيوطي في «الدر» ٢٦٩/٥ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس، ومن رواية سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث» عن أبي مالك، ومن رواية عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد، ومن رواية عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة، ومن رواية ابن أبي حاتم عن السدي، ومن رواية ابن أبي حاتم عن حكيم. قال ابن كثير: وعلى كل تقدير، سواء كانت هذه الآيات نزلت في أبي بن خلف، أو العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث، قال: والألف واللام في قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانَ» للجنس، يعم كل منكر للبعث. اهـ.

أي: تَرَكَ النَّظَرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ إِذْ خَلَقَ مِنْ نُظْفَةٍ ﴿قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ١٩؟ أي: بالية، يقال: رَمَّ الْعَظْمَ، إِذَا بَلَّيَ، فَهُوَ رَمِيمٌ، لِأَنَّهُ مَعْدُولٌ عَنْ فَاعِلِهِ، وَكُلُّ مَعْدُولٍ عَنْ وَجْهِهِ وَوَزْنِهِ فَهُوَ مَصْرُوفٌ عَنْ إِعْرَابِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَأَنَّ أَثْمَرَ بَيْتِكَ﴾ [مریم: ٢٢٨]، فَاسْقَطَ الْهَاءَ لِأَنَّهَا مَصْرُوفَةٌ عَنْ «بَاغِيَةٍ»؛ فَفَاسَ هَذَا الْكَافِرُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى بِقُدْرَةِ الْخَلْقِ، فَانْكَرَ إِحْيَاءَ الْعَظْمِ الْبَالِي لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ فِي مَقْدُورِ الْخَلْقِ. ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا﴾ أي: ابْتَدَأَ خَلْقَهَا ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ مِنْ الْإِبْتِدَاءِ وَالْإِعَادَةِ ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿الَّذِي جَمَعَ لَكَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: أَرَادَ الزُّنُودَ الَّتِي تُورِي بِهَا الْأَعْرَابُ مِنَ شَجَرِ الْمَرْخِ وَالْعَفَّارِ. فَإِنْ قِيلَ: لِمَ قَالَ: «الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ»، وَلَمْ يَقُلْ: الشَّجَرِ الْخُضْرُ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ الشَّجَرِ جَمْعٌ، هُوَ يُونُوثٌ وَيَذْكَرُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥٣]، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا أَنْشَرْنَاهُ فَوقُودًا﴾. ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، فَقَالَ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ﴾ وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعَاصِمُ الْجَحْدَرِيُّ: «يَقْدِرُ» بِيَاءٍ مِنْ غَيْرِ الْفَاءِ ﴿عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْ لَهْمِهِ﴾ ١٩؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ؛ وَالْمَعْنَى: مَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ الْعَظِيمِ، قَدَرَ عَلَى هَذَا الْيَسِيرِ^(١). وَقَدْ فَسَّرْنَا مَعْنَى «أَنْ يَخْلُقَ مِنْ لَهْمِهِ» فِي [بني إسرائيل: ٩٩]؛ ثُمَّ أَجَابَ هَذَا الْاسْتِفْهَامَ فَقَالَ: ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾ يَخْلُقُ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ. وَقَرَأَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَالْحَسَنُ، وَعَاصِمُ الْجَحْدَرِيُّ: «هُوَ الْخَالِقُ» ﴿الْعَلِيمِ﴾ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ. وَالْمَلَكُوتُ وَالْمَلِكُ وَاحِدٌ. وَبَاقِي السُّورَةِ قَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُهُ^(٢) [البقرة: ٣٢، ١١٧، الأنعام: ٧٥].



(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَقُولُ تَعَالَى مَثْبُتًا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَالنُّوَابِتِ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَرِمَالٍ وَبِحَارٍ وَقَفَارٍ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَمُرْشِدًا إِلَى الْاسْتِدْلَالِ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَادِ بِخَلْقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَسْبَغَ فِي خَلْقِ الْبَشَرِ مِنْ لَهْمٍ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْ لَهْمِهِ﴾ ١٩؟ أَي: مِثْلَ الْبَشَرِ فَيُعِيدُهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ ١٩؟ قَالَ: وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ سِمَةً﴾ وَمَعْنَى «يَخْلُقُ مِنْ لَهْمِهِ» أَنَّ الْبَشَرَ مِثْلَ الْبَشَرِ كَمَا خَلَقَ النَّاسَ مِنْ لَهْمٍ وَنَحْوِ نَحْوِهِ وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَاهُنَا: ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ١٩. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ خَلْقًا أَنْ يَقُولَ لَمْ يَكُنْ فَيَكُونُ ﴿١٩﴾ أَي: إِنَّمَا يَأْمُرُ بِالْشَيْءِ أَمْرًا وَاحِدًا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرُّرٍ وَتَأْكِيدٍ. اهـ.

(٢) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَسْبِخُونَ آلِي يَسُودَ مَلَكُوتُ كُلِّ نَبِيٍّ وَرَأْيِهِ رُحْمَتُونَ﴾ ١٩؟ أَي: تَنْزِيهِهُ وَتَقْدِيسُهُ وَتَبَرُّتَهُ مِنَ السُّوءِ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَهُوَ الْخَلَّاقُ وَالْأَمْرُ، وَإِلَيْهِ تَرْجِعُ الْعِبَادَةُ يَوْمَ الْمَعَادِ فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْمُنْعِمُ الْمُتَقَبَّلُ. اهـ.

سورة الصفات

وهي مَكِّيَّة كُتِبَتْ بِأَسْمَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّاتُكُنَّ صَمًا ۝ تَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَاهِنُونَ غَاثًا وَنَثًا ۝ وَالَّذِينَ هُمْ يُدْعُونَ لِلَّهِ وَاللَّاتِ وَتَالَّذِينَ يُضِلُّونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ يَحْسَبُونَ آلِهَةً مَثَلَهُ ۝ تَالَّذِينَ هُمْ يُدْعُونَ لِلَّهِ وَاللَّاتِ وَتَالَّذِينَ يُضِلُّونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ يَحْسَبُونَ آلِهَةً مَثَلَهُ ۝﴾

الْمَشْرُوقِ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتُكُنَّ صَمًا﴾ ﴿١﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الملائكة، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والجمهور. قال ابن عباس: هم الملائكة صُفوفٌ في السماء، لا يُعْرِفُ مَلَكٌ مِنْهُمْ مَنْ إِلَى جَانِبِهِ، لَمْ يَلْتَمِسْ مِنْذُ خَلَقَهُ اللَّهُ ﷻ. وقيل: هي الملائكة تُصَفُّ أجنحتها في الهواء واقفة إلى أن يأمرها الله ﷻ بما يشاء. والثاني: أنها الطَّيْرُ، كقوله: ﴿وَالطَّيْرُ صَفَّتْ﴾ [النور: ٤١]، حكاه الثعلبي. وفي الزاجرات قولان: أحدهما: أنها الملائكة التي تزجر السحاب، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنها زاجر القرآن وكلُّ ما ينهى ويزجر عن الفبيح، قاله قتادة^(١). وفي التاليات ذُكِرَ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الملائكة تقرأ كتب الله تعالى، قاله ابن مسعود، [والحسن]، والجمهور. والثاني: أنهم الرسل، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: ما يُتلى في القرآن من أخبار الأمم، قاله قتادة. وهذا قَسَمٌ بهذه الأشياء، وجوابه: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ﴿٢﴾. وقيل: معناه: وربُّ هذه الأشياء إلهٌ واحد.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِوقِ﴾ قال السدي: المشارق ثلاثمائة وستون مَشْرِقًا، والمغرب مثلها، على عدد أيام السنة. فإن قيل: لِمَ ترك ذِكْرَ الْمَغْرِبِ؟ فالجواب: أن المشارق تُدَلُّ على الْمَغْرِبِ، لأن الشُّرُوقَ قَبْلَ الْغُرُوبِ.

﴿إِنَّا زَيْنًا أَلْمَاءَ الدُّنْيَا بَيْنَهُ الْكُوكَبُ﴾ ﴿٣﴾ وَحِفْظًا تَبِينُ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِهَا الْأَعْلَى وَيَقْدُفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٥﴾ مُخَوِّرًا وَلَقَدْ صَدَقَ وَاسِعٌ ﴿٦﴾ إِلَّا مَنْ حَلَفَ لِلظَّفَةِ فَابْتَعَهُمْ بِهَا تَائِبٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَلْمَاءَ الدُّنْيَا﴾ يعني التي تلي الأرض، وهي أدنى السموات إلى الأرض ﴿بَيْنَهُ الْكُوكَبُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، والكسائي: «بزينة الكواكب» مضافاً، أي: بحسبها وضوئها. وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: «بزينة» متونة وخفض «الكواكب» [وجعل «الكواكب»] بدلاً من الزينة لأنها هي، كما تقول: مررت بأبي عبد الله زيد؛ [فالمعنى: إِنَّا زَيْنًا أَلْمَاءَ الدُّنْيَا بالكواكب]. وقرأ أبو بكر عن عاصم: «بزينة» بالتنوين وينصب «الكواكب»؛ [والمعنى: زَيْنًا أَلْمَاءَ الدُّنْيَا بأن زَيْنًا الكواكب فيها حين ألقيناها في منازلها وجعلناها ذات نور. قال الزجاج: ويجوز أن يكون «الكواكب» في النُصْبِ بدلاً من قوله: «بزينة» لأن قوله: «بزينة» في موضع نصب. وقرأ أبي بن كعب، ومعاذ القارئ، وأبو نهيك، وأبو حصين الأسدي في آخرين: «بزينة» بالتنوين «الكواكب» برفع الباء؛ قال الزجاج: والمعنى: إِنَّا زَيْنًا أَلْمَاءَ الدُّنْيَا بأن زَيْنَتِهَا الكواكبُ وبأن زَيْنَتِ الكواكب. ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: وحفظناها حفظاً. فأما المارد، فهو العاتي، وقد شرحنا هذا في قوله: ﴿سَكَبَلْنَا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

(١) قال ابن جرير الطبري: والذي هو أولى بتأويل الآية عندنا، ما قال مجاهد ومن قال: هم الملائكة، لأن الله تعالى ذكروا ابتداءً قَسَمَ بنوع من الملائكة، وهم الصافون بإجماع من أهل التأويل، فلأن يكون الذين بعده قَسَمًا بسائر أصنافهم أشبه. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض وما بينهما، أي: من المخلوقات، ورب المشارق، أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تدور من المشرق وتغرب من المغرب، قال: واكتفى بذكر المشارق عن المغرب لدلائلها عليه، وقد صرح بذلك في قوله ﷻ: ﴿لَا أَسْئَلُكُمْ رَبِّيَ الْكَرْبَ وَاللَّاتِ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ ﴿٣﴾ وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِوقِ وَرَبُّ الْمَغْرِبِ﴾ ﴿٤﴾ يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر. اهـ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ قال الفراء: «لا» هاهنا كقوله: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُرْبِ الْمَغْرِبِ﴾ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ. [الشراء: ٢٠٠، ٢٠١]؛ ويصلح في «لا» على هذا المعنى الجزم، فإن العرب تقول: ربطت الفرس لا يتفلت. وقال غيره: لكي لا يَسْمَعُوا إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وهم الملائكة الذين في السماء. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم وخلف: «لَا يَسْمَعُونَ» بتشديد السين، وأصله: يَسْمَعُونَ، فأدغمت التاء في السين. وإنما قال: ﴿إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ لأن العرب تقول: سمعت فلاناً، وسمعت من فلان، وإلى فلان. ﴿وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ بالشُّبِّ ﴿دُحُورًا﴾ قال قتادة: أي: قذفاً بالشُّبِّ. وقال ابن قتيبة: أي: طرداً، يقال: دَحَرْتُهُ دَحْرًا ودُحُورًا، أي: دفعته. وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو رجاء، وأبو عبد الرحمن، والضحاك، وأيوب السختياني، وابن أبي عمير: «دُحُورًا» بفتح الدال. وفي «الواصب» قولان: أحدهما: أنه الدائم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقاتدة، والفراء، وابن قتيبة. والثاني: أنه الموجه، قاله أبو صالح، والسدي. وفي زمان هذا العذاب قولان: أحدهما: أنه في الآخرة. والثاني: [أنه] في الدنيا، فهم يُخْرَجُونَ بِالشُّبِّ وَيُجْبَلُونَ إِلَى النَّفْخَةِ الْأُولَى فِي الصُّورِ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خِطَفَ لَلْفُطْفَةِ﴾ قرأ ابن السميع: «خِطَفَ» بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها. وقرأ أبو رجاء، والجدري: بكسر الخاء والطاء جميعاً والتخفيف. قال الزجاج: خِطَفَ وخِطَفَ، بفتح الطاء وكسرها، يقال: خِطَفْتُ أَخِطَفَ، وخِطَفْتُ أَخِطَفَ: إذا أخذت الشيء بسرعة، ويجوز «إِلَّا مَنْ خِطَفَ» بفتح الخاء وتشديد الطاء، ويجوز «خِطَفَ» بكسر الخاء وفتح الطاء؛ والمعنى: اختطف، فأدغمت التاء في الطاء، وسقطت الألف لحركة الخاء؛ فمن فتح الخاء، ألقى عليها فتحة التاء التي كانت في «اختطف»، ومن كسر الخاء، فليسكونها وسكون الطاء. فأما من روى [«خِطَفَ»] بكسر الخاء والطاء، فلا وجه لها إلا وجهاً ضعيفاً جداً، وهو أن يكون على إتباع الطاء كسرة الخاء. قال المفسرون: والمعنى: إلا من اختطف الكلمة من كلام الملائكة مُسَارِقَةً ﴿فَأَبْتَقَهُ﴾ أي: لِحِقَهُ ﴿بِهَاتِ تَأْتِي﴾ قال ابن قتيبة: أي كوكب مُضيء، يقال: أتوت نازك، أي: أضيتها، والتقوب: ما تُدَكِّي به النار.

﴿فَأَسْتَفِينَهُمْ أَمْ أَسَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ بِل عَجِبَتْ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنَّا نَدْعُهُمْ لَمُبَشِّرُونَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّا نَدْعُهُمْ لَمُبَشِّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّا نَدْعُهُمْ لَمُبَشِّرُونَ ﴿٢١﴾ وَإِنَّا نَدْعُهُمْ لَمُبَشِّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا نَدْعُهُمْ لَمُبَشِّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّا نَدْعُهُمْ لَمُبَشِّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّا نَدْعُهُمْ لَمُبَشِّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّا نَدْعُهُمْ لَمُبَشِّرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفِينَهُمْ﴾ أي: فسألهم سؤال تقرير ﴿أَمْ أَسَدُّ خَلْقًا﴾ أي: أحكم صنعة ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: أَمْ مَنْ عَدَدْنَا خَلَقْنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، قاله ابن جرير. والثاني: أَمْ مَنْ خَلَقْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، والمعنى: إنهم ليسوا بأقوى من أولئك وقد أهلكناهم بالتكذيب، فما الذي يؤمن هؤلاء؟ ثم ذكر خلق الناس فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ قال الفراء، وابن قتيبة: أي: لاصق لازم، والباء تبدل من الميم لقرب مخرجهما. قال ابن عباس: هو الطين الحر الجيد اللزق. وقال غيره: هو الطين الذي ينشف عنه الماء وتبقى رطوبته في باطنه فيلصق باليد كالشمع. وهذا إخبار عن تساوي الأصل في خلقهم وخلق من قبلهم؛ فمن قدر على إهلاك الأقباء، قدر على إهلاك الضعفاء.

قوله تعالى: ﴿بِل عَجِبَتْ﴾ «بل» معناه: ترك الكلام الأول والأخذ في الكلام الآخر، كأنه قال: دع يا محمد ما مضى. وفي «عجبت» قراءتان: قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «بِل عَجِبَتْ» بفتح التاء. وقرأ علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعكرمة، وقاتدة، وأبو مجلز، والنخعي؛ وطلحة بن مصرف، والأعمش، وابن أبي ليلى، وحمزة، والكسائي في آخرين: «بِل عَجِبَتْ» بضم التاء، [واختارها الفراء]. فمن فتح، أراد: بل عَجِبْتُ يا محمد، ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ هم. قال ابن السائب: أنت تُعَجِبُ منهم، وهم يَسْخَرُونَ منك. وفي ما عجب منه قولان: أحدهما: من الكفار إذ لم يؤمنوا بالقرآن. والثاني: إذ كفروا بالبعث. ومن ضم، أراد

الإخبار عن الله ﷻ أنه عَجِبَ، قال الفراء: وهي قراءة عليّ، وعبد الله، وابن عباس، وهي أحبُّ إليّ؛ وقد أنكر هذه القراءة قوم، منهم شريح القاضي، فإنه قال: إن الله لا يَعْجَب، إنما يَعْجَب مَنْ لا يَعْلَم. قال الزجاج: وإنكار هذه القراءة غلط، لأن العَجَبَ من الله خلاف العَجَبِ من آدميين، وهذا كقوله: ﴿وَيُنَكِّرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقوله: ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، وأصل العَجَبِ في اللغة: أن الإنسان إذا رأى ما يُنَكِّرُهُ وَيَقِلُّ مِنْهُ، قال: قد عَجِبْتُ من كذا، وكذلك إذا فَعَلَ الأدميُّون ما يُنَكِّرُهُ اللهُ ﷻ، جاز أن يقول: عَجِبْتُ، والله قد عَلِمَ الشيء قبل كونه. وقال ابن الأنباري: المعنى: جازيتهم على عجبهم من الحق، فسُمِّيَ الجزء على الشيء باسم الشيء الذي له الجزء، فسُمِّيَ فعله عَجَبًا وليس بِعَجَبٍ في الحقيقة، لأن المتعجب يدهش ويتحير، والله عزَّ وجلَّ قد جَلَّ عن ذلك؛ وكذلك سُمِّيَ تعظيم الثواب عَجَبًا، لأنه إنما يُتَعَجَّبُ من الشيء إذا كان في النهاية، والعرب تسمي الفعل باسم الفعل إذا دانه من بعض وجوهه وإن كان مخالفاً له في أكثر معانيه، قال عدي:

ثُمَّ أَضْحَكُوا لِعِيبِ الدُّفْرِ بِهِمْ

وَكُذَّابُ الدُّفْرِ يُودِي بِالرِّجَالِ (١)

فجعل إهلاك الدهر وإفساده لعباً، وقال ابن جرير: من ضم التاء، فالمعنى: بل عَظُمَ عندي وكَثُرَ اتِّخَاذُهُمْ لي سِرِيكًا وتكذيبهم تنزيلي. وقال غيره: إضافة العَجَبِ إلى الله على ضربين: أحدهما: بمعنى الإنكار والذم، كهذه الآية، والثاني: بمعنى الاستحسان والإخبار عن تمام الرضى، كقوله ﷻ: ﴿عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ شَأْبٍ لَيْسَ لَهُ صَبُوءٌ﴾ (٢).

قوله تعالى: ﴿رَأَى الْكُفْرَ لَا يَرْجُوهُ﴾ (٣) أي: إذا وُعِظُوا بالقرآن لا يَذْكُرُونَ ولا يَتَعَطَّوْنَ. وقرأ سعيد بن جبيرة، والضحاك، وأبو المتوكل، وعاصم الجحلبي، وأبو عمران: ﴿ذُكِرُوا﴾ بتخفيف الكاف. ﴿رَأَى الْكُفْرَ لَا يَرْجُوهُ﴾ قال ابن عباس: يعني انشاق القمر ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال أبو عبيدة: يَسْتَسْخِرُونَ وَيَسْخَرُونَ سواء. قال ابن قتيبة: يقال: سَخَّرَ واستَسَخَّرَ، كما يقال: قَرَّ واستَقَرَّ، وَعَجِبَ واستَعَجَبَ، ويجوز أن يكون: يسألون غيرهم من المشركين أن يَسْخَرُوا من رسول الله (٤)، كما يقال: استَعَبْتُهُ، أي: سأله العُتْبَى، واستَوْهَبْتُهُ، أي: سأله الهَبَةَ، واستَعَفَيْتُهُ: سأله العَفْوَ. ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا انشاق القمر﴾ ﴿أَلَا يَسْعُرُ يُبِينُ﴾ أي: بَيِّنَ لِمَنْ تَأَمَّلُ أَنَّهُ سِخْرٌ. ﴿أَوَلَا يَنْتَظِرُونَ﴾ قد سبق بيان [هذه] الآية [سرم: ٦٦]. ﴿أَوَلَا يَنْتَظِرُونَ﴾ هذه ألف الاستهزاء دخلت على حرف العطف، كقوله: ﴿أَوَلَا يَنْتَظِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨]. وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿أَوَلَا يَنْتَظِرُونَ﴾ بسكون الواو هاهنا وفي [الواقعة: ٤٨]. ﴿قُلْ نَسَمٌ﴾ أي: نَمَمٌ تُبْعَثُونَ ﴿وَأَنْتُمْ دَجْرُونَ﴾ أي: صاغرون. ﴿فَاتَّخَذْنَا مِنْكُمْ كِتَابًا﴾ أي: فإتَّخَذْنَا قِصَّةَ البعث صِبْحَةً واحدة من إسرائيل، وهي نفخة البعث، وسُمِّيَتْ زَجْرَةً، لأن مقصودها الزَّجْرُ ﴿كَلِمًا مِمَّنْ يَنْظُرُونَ﴾ قال الزجاج: أي: يُحْيَوْنَ وَيُحْيَوْنَ بَصْرًا يَنْظُرُونَ، فإذا عاينوا بعثهم، ذكروا إخبار الرُّسُلِ عن البعث، ﴿وَقَالُوا بَلْ يَنْفِخُ هَذَا بَمِثْلِ نَفْثِ الْفِيلِ﴾ أي: يوم الحساب والجزاء، فتقول الملائكة: ﴿هَذَا يَوْمَ الْقِيَامِ﴾ أي: يوم القضاء الذي يَفْصَلُ فيه بين المُحْسِنِ والمُسيءِ؛ ويقول الله ﷻ يومئذٍ للملائكة: ﴿اِئْتِنَا﴾ أي: اجتمعوا ﴿أَلَيْسَ كَلِمَاتُ﴾ من حيث هم، وفيهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون. والثاني: أنه عامٌّ في كل ظالم. وفي أزواجهم أربعة أقوال: أحدها: أمثالهم وأشباههم، وهو قول عمر، وابن عباس، والنعمان بن بشير، ومجاهد في آخرين. وروي عن عمر قال: يُخَسَّرُ صاحبُ الرِّبَا مع صاحبِ الرِّبَا، وصاحبُ الرِّبَا مع صاحبِ الرِّبَا، وصاحبُ الخمر مع صاحبِ الخمر. والثاني: أنَّ

(١) البيت لعدي بن زيد البجلي، وهو في «الأغاني» طبعة الدار ١٣٥/٢.

(٢) روى أحمد في «المسنَد» ١٥١/٤ من حديث ابن لهيعة عن أبي عثانة عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ ليعجب من الشاب ليس له صبوة»، قال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة»: ولتنام في «فوائد» والقضاعي في «مسند» من حديث ابن لهيعة: حدثنا أبو عثانة عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «إن الله ﷻ ليعجب من الشاب الذي ليس له صبوة» قال: وكذا هو عند أحمد وأبي يعلى، وسنده حسن، قال: وضعفه شيخنا (يعني الحافظ ابن حجر) في فتاويه لأجل ابن لهيعة. اهـ. والحديث ذكره الحافظ السيوطي في «الجامع الصغير» من رواية أحمد والطبراني عن عقبة بن عامر، قال الحافظ المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير»: وكذا رواه أبو يعلى عن عقبة بن عامر (أي الجهني) قال: قال الهيثمي: وإسناده حسن، وضعفه ابن حجر في «فتاويه» لضعف ابن لهيعة. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿رَأَى الْكُفْرَ لَا يَرْجُوهُ﴾ يقول: ﴿رَأَى الْكُفْرَ لَا يَرْجُوهُ﴾ يقول: وإذا أروا حجة من حجج الله عليهم ودلالة على نبوة نبيه محمد ﷺ يستسخرون، يقول: يسخرون ويستخرون. اهـ.

أزواجهم، المشركاء، قاله الحسن. والثالث: أشياعهم، قاله قتادة. والرابع: قرناؤهم من الشياطين الذين أضلّوهم، قاله مقاتل. وفي قوله: ﴿وَمَا كَانُوا بِعَيْدُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: الأصنام، قاله عكرمة، وقاتادة. والثاني: إبليس وحده، قاله مقاتل. والثالث: الشياطين، ذكره المارودي وغيره.

[قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا نِدْوَمُ إِنْ يَمُرُّ بِالْحَبِيمِ﴾ أي: دلّوهم على طريقها؛ والمعنى: اذهبوا بهم إليها. قال الزجاج: يقال: هدّيت الرجل: إذا دلّته، وهدّيت العروس إلى زوجها، وأهديت الهدية، فإذا جعلت العروس كالهدية، قلت: أهديتها].

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْهُمُ﴾ أي: أحبسوهم ﴿إِنَّهُمْ سَخِرُون﴾ وقرأ ابن السميع: «أنهم» بفتح الهجزة. قال المفسرون: لما سيقوا إلى النار حبسوا عند الصراط، لأن السؤال هناك. وفي هذا السؤال ستة أقوال: أحدها: أنهم سئلوا عن أعمالهم وأقوالهم في الدنيا. والثاني: عن «لا إله إلا الله»، روي جميعاً عن ابن عباس. والثالث: عن خطاياهم، قاله الضحاك والرابع: سألتهم خزنة جهنم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [المك: ٨] ونحو هذا، قاله مقاتل. والخامس: أنهم يسألون عما كانوا يعبدون، ذكره ابن جرير. والسادس: أن سؤالهم قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَحْمَدُونَ﴾ [١٩] [ذكره المارودي]. قال المفسرون: المعنى: ما لكم لا ينصرون بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا؟ وهذا جواب أبي جهل حين قال يوم بدر: ﴿مَنْ جِئْتُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الفر: ٤٤]، ف قيل لهم ذلك يومئذ توبيخاً. والمستسليم: المقادير الدليل؛ والمعنى أنهم مقادون لا حيلة لهم.

﴿وَأَقْبَلْ بِشَقْمٍ عَلَى بَعْضِ بَيْتَةِ لُونٍ﴾ [١٧] قَالَ إِنْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ [١٨] قَالُوا بَلْ لَأُرْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [١٩] وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ [٢٠] فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنْ لَأَذَابُكُمْ [٢١] فَأَعْرَبْنَاكُمْ إِنْ كُنَّا غَوِينَ [٢٢] فَأَنبَأَهُمْ بِمَوَاقِدِ الْعَذَابِ مُتَكْرِمِينَ [٢٣] إِنْ لَأَكْذَابُكُمْ نَفَعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ [٢٤] إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ [٢٥] وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهِتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ [٢٦] إِنَّكُمْ لَأَقْبِلُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [٢٧] وَمَا نُجِزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَسْمَلُونَ [٢٨] إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [٢٩] أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَلْمُومٌ [٣٠] فَوَكَّرَهُمْ وَكُرِّمُونَ [٣١] فِي حَسَنَاتِ الْعَالَمِينَ [٣٢] عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [٣٣] تَلَاكُ عَلَيْهِمْ كَمَا يَكُونُ مِنْ مَعِينٍ [٣٤] بَيْتَةٌ لَدُنَّ لِلشَّيْبَانِ [٣٥] لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ [٣٦] وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْعَذَابِ عِوَضًا [٣٧] كَانَتْهُمْ بِضْعُ مَكْرُونٍ [٣٨]

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلْ بِشَقْمٍ عَلَى بَعْضِ﴾ فيهم قولان: أحدهما: الإنس على الشياطين. والثاني: الأتباع على الرؤساء ﴿بَيْتَةِ لُونٍ﴾ تسأل توبيخ وتأنيب ولوم، فيقول الأتباع للرؤساء: [لِمَ] غررتونا؟ ويقول الرؤساء: لِمَ قَبِلْتُمْ مِنَّا؟ فذلك قوله: ﴿قَالُوا﴾ يعني الأتباع للمتبعين ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: كنتم تقهرونا بقدرتكم علينا، لأنكم كنتم أعزُّ مِنَّا، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: من قَبِلَ الدِّينَ فَتَضَلُّوا عَنْهُ، قاله الضحاك. وقال الزجاج: تأتوننا من قِبَلِ الدِّينِ فَتُخَدَعُونَ بِأَقْوَى الْأَسْبَابِ. والثالث: كنتم تؤثِّقون ما كنتم تقولون بأيمانكم، فتأتوننا من قِبَلِ الْإِيمَانِ الَّتِي تَخْلِفُونَهَا، حكاه علي بن أحمد النيسابوري. فيقول المتبعون لهم: ﴿بَلْ لَأُرْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لم تكونوا على حَقِّ فُضِّلْتُمْ عَنْهُ، إنما الكفر من قِبَلِكُمْ. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ قُوَّةٍ نَقْهَرُكُمْ بِهَا وَنُكْرَهُكُمْ عَلَى مُتَابَعَتِنَا، وَعَلَى الثَّانِي: الْحُجَّةُ. فيكون المعنى على الأول: وما كان لنا عليكم من قُوَّةٍ نَقْهَرُكُمْ بِهَا وَنُكْرَهُكُمْ عَلَى مُتَابَعَتِنَا، وَعَلَى الثَّانِي: لَمْ نَأْتِكُمْ بِحُجَّةٍ عَلَى مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ كَمَا آتَى الرَّسُلَ.

قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ أي: فوجبت علينا كلمة العذاب، وهي قوله: ﴿لَأَكْذَابُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٨] ﴿إِنَّا لَنَذَابُكُمْ﴾ العذاب جميعاً نحن وأنتم، ﴿فَأَعْرَبْنَاكُمْ﴾ أي، أضللناكم عن الهدى بدعائكم إلى ما نحن عليه، وهو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا غَوِينَ﴾. ثم أخبر عن الأتباع والمتبعين بقوله: ﴿فَأَنبَأَهُمْ بِمَوَاقِدِ الْعَذَابِ مُتَكْرِمِينَ﴾، والمجرمون هاهنا: المشركون، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: قولوا هذه الكلمة ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يتعظمون عن قولها، ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهِتَنَا﴾ المعنى: أنثركم عبادة الهتنا ﴿لِشَاعِرٍ﴾ أي: لاتباع شاعر؟ يعنون رسول الله ﷺ، فردَّ الله عليهم فقال: ﴿بَلْ﴾ أي: ليس الأمر على ما قالوا، بل ﴿جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ وهو التوحيد والقرآن، ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين كانوا قبله؛ والمعنى أنه أتى بما أنزأ به. ثم خاطب المشركين بما بعد هذا إلى قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يعني الموحدون. قال أبو عبيدة: والعرب تقول: إنكم لذاهبون إلا زبداً. وفي ما استثناءهم منه قولان: أحدهما: من

الجزاء على الأعمال، فالمعنى: إننا لا نؤاخذهم بسوء أعمالهم، بل نَغْفِرُ لهم، قاله ابن زيد. والثاني: من دون العذاب؛ فالمعنى: فإنهم لا يذوقون العذاب، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ لَمَ رِزْقٌ مَّمْلُومٌ﴾^(١) فيه قولان: أحدهما: أنه الجنة، قاله قتادة. والثاني: أنه الرزق في الجنة، قاله السدي. فعلى هذا، في معنى «مملوم» قولان: أحدهما: أنه بمقدار العادة والعيشي، قاله ابن السائب. والثاني: أنهم حين يشتهونه يُؤْتُونَ به، قاله مقاتل. ثم بيّن الرزق فقال: ﴿فَرِيقَةٌ﴾ [وهي جمع فاكهة] وهي الثمار كلها، وظبها ويابسها ﴿وَهُمْ مُكْرِمُونَ﴾ بما أعطاهم الله. وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [الحجر: ٤٧] إلى قوله: ﴿يُنَاطِقُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ عَيْنٍ﴾^(٢) قال الضحّاك: كلُّ كأس ذُكِرَتْ في القرآن، فإنما عُنِيَ بها الخمر، [قال أبو عبيدة: الكأس: الإناء بما فيه، والمعين: الماء الطاهر الجاري. قال الزجاج: الكأس: الإناء الذي فيه الخمر، ويقع الكأسُ على كل إناءٍ مع شرايه، فإن كان فارغاً فليس بكأس. والمعين: الخمر تجري كما يجري الماء على وجه الأرض من العيون.

قوله تعالى: ﴿بَيْضَةٌ﴾ قال الحسن: خمر الجنة أشدُّ بياضاً من اللبن. قال أبو سليمان الدمشقي: ويدل على أنه أراد بالكأس الخمر، أنه قال: «بيضاء»، فأنت، ولو أراد الإناء على انفراده، أو الإناء والخمر، لقال: أبيض. وقال ابن جرير: إنما أراد بقوله: «بيضاء» الكأس، ولتأنيث الكأس أثبت البياض.

قوله تعالى: ﴿لَذَّةٌ﴾ قال ابن قتيبة: أي: لذينة، يقال: شرابٌ لذيذٌ إذا كان طيباً. وقال الزجاج: أي: ذات لذة^(١). ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: ليس فيها صداع، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: ليس فيها وجع بطن، [رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وابن زيد]. والثالث: ليس فيها صداع رأس، قاله قتادة. والرابع: ليس فيها أذى ولا مكروه، قاله سعيد بن جبيرة. والخامس: لا تغتال عقولهم، قاله السدي. وقال الزجاج: لا تغتال عقولهم فتذهب بها ولا يُصيبهم منها وجع. والسادس: ليس فيها إثم، حكاه ابن جرير. والسابع: ليس فيها شيء من هذه الآفات، لأن كلَّ مَنْ ناله شيء من هذه الآفات، قيل: قد غالته غَوْلٌ، فالصواب أن يكون نفي القول عنها يعمُّ جميع هذه الأشياء، هذا اختيار ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُذَوَّبُونَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي: بكسر الزاي هاهنا وفي [الواقعة: ١٩]. وفتح عاصم الزاي هاهنا، وكسرها في [الواقعة: ١٩]. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: بفتح الزاي في السورتين. قال الفراء: فمن فتح، فالمعنى: لا تذهب عقولهم بشربها. يقال للسكران: تزيّف وتمزوف؛ [ومن] كسر، ففيه وجهان: أحدهما: لا يُنْفِدُونَ شرايهم، أي: هو دائم أبداً. والثاني: لا يسكرون، قال الشاعر:

لَعَمْرِي لَيْسَ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ
لَيْسَ السُّدَامَى كُنْتُمْ آلَ أُبَجْرَا^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَعِندَكُمْ قِصْرٌ الْكَلْبِيُّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم النساء قد قصرن ظرفهن على أزواجهن فلا يُنظَرْنَ إلى غيرهم. وأصل القصر: الحبس، قال ابن زيد: إن المرأة منهنّ لتقول لزوجها: وعِزَّة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلني زوجك وجعلك زوجي. والثاني: أنهم قد قصرن ظرف الأزواج عن غيرهنّ، لكمال حُسنهنّ، سمعته من الشيخ أبي محمد ابن الخشاب النحوي. وفي العين ثلاثة أقوال: أحدها: حسان العيون، قاله مجاهد. والثاني: عظام الأعين، قاله السدي، وابن زيد. والثالث: كبار العيون حسانها، وواحدتهنّ عيناها، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مِّمَّنْ كُنُونَ﴾^(٣) في المراد بالبيض هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اللؤلؤ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة. والثاني: بيض النعام، قاله الحسن، وابن زيد، والزجاج. قال جماعة من

(١) قال ابن كثير: وقوله ﴿لَذَّةٌ﴾ [لذّة كثيرين] أي: طعمها طيب كلونها، قال: وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك. اهـ.

(٢) زيادة ليست في الأصل.

(٣) البيت للأبيد الرياحي من بني معجل، كما في «مجاز القرآن» ١٦٩/٢، و«الطبري» ٥٥/٢٣، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: نرف.

أهل اللغة: والعرب تُشَبَّه المرأة الحسنة في بياضها وحُسن لونها بِبَيْضَةِ النَّعَمَةِ، وهو أحسن ألوان النساء، وهو أن تكون المرأة بيضاء مُشْرَبَةً صُفْرَةً. والثالث: أنه البيض حين يُقْشَرُ قبل أن تَمَسَّهُ الأيدي، قاله السدي، وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبير، وقتادة، وابن جرير^(١). فأما المكنون، فهو المصون. فعلى القول الأول: هو مكنون في صدقوه، وعلى الثاني: هو مكنون بريح النعام، وعلى الثالث: هو مكنون بقره.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٥٦) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٧﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ لِمَنِ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٨﴾ أَلَمْ نَقُلْ يَا قَوْمَنَا إِنْ كُنَّا نَعْلَمُ مَا لَكُمْ لَكُنَّا نَكْتُبُ مِنْ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٩﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٦٠﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْءَأْتٍ عَظِيمٌ ﴿٦٢﴾ لِيُثَلَّ هَذَا فَلْيَعْمَلَ الْعَمِلُونَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني أهل الجنة ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن أحوال كانت في الدنيا^(٢). ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ (٥٦) فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الصَّاحِبُ فِي الدُّنْيَا. والثاني: أنه الشريك، روى عن ابن عباس. والثالث: أنه الشيطان، قاله مجاهد. والرابع: أنه الأخ؛ قال مقاتل: وهما الأخوان المذكوران في سورة [الكهف]: ٣٢ في قوله: ﴿وَأَضْرَبَ لَكُم مَثَلًا نُحَيْثِينَ﴾؛ والمعنى: كان لي صاحب أو أخ يُنْكِرُ البعث، ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ لِمَنِ الْمَصْدِقِينَ﴾ (٥٧) قال الزجاج: هي مخففة الصاد، من صدَّق يصدِّق فهو مصدِّق، ولا يجوز ها هنا تشديد الصاد. قال المفسرون: والمعنى: أَيْتُكَ لِمَنِ الْمَصْدِقِينَ بالبعث؟ وقرأ بكر بن عبد الرحمن القاضي عن حمزة: «المُصَدِّقِينَ» بتشديد الصاد.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَقُلْ يَا قَوْمَنَا لَكُنَّا نَعْلَمُ مَا لَكُمْ لَكُنَّا نَكْتُبُ مِنْ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٥٩) أي: مَجْرُبُونَ بِأَعْمَالِنَا؛ يقال: دُنِّتُ بِمَا صَنَعْتُ، أي: جازيته. فأحبُّ المومنين أن يرى قرينه الكافر، فقال لأهل الجنة: ﴿هَلْ أَنتُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٥٩) أي: هل تُحِبُّونَ الاطِّلاعَ إِلَى النَّارِ لِتَعْلَمُوا أَيْنَ مَنْزِلَتِكُمْ مِنْ مَنْزِلَةِ أَهْلِهَا؟ وقرأ ابن عباس، والضحاك، وأبو عمران، وابن يعمر: «هل أنتم مُظْلِمُونَ» بآسكان الطاء وتخفيفها «فَأُطْلِعَ» بهمزة مرفوعة وسكون الطاء. وقرأ أبو رزين، وابن أبي عبيدة: «مُظْلِمُونَ» بكسر النون. قال ابن مسعود: أُطْلِعَ ثُمَّ التفت إلى أصحابه فقال: لقد رأيتُ جماجم القوم تغلي؛ قال ابن عباس: وذلك أن في الجنة كُورٌ ينظر منها أهلها إلى النار.

قوله تعالى: ﴿قَرِينًا﴾ يعني قرينه الكافر ﴿فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ (٦١) أي: فِي وَسْطِهَا. وقيل: إنما سمي الوسط سواءً، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب. قال خُلَيْدُ الْعَضْرِي: والله لولا أن الله عرّفه إِيَّاهُ، ما عرفه، لقد تغيّرَ جِزْرُهُ وَبَيْتُهُ^(٣). فعند ذلك ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لَأَتْرِبِينَ﴾ (٦١) قال المفسرون: معناه: والله ما كِدْتُ إِلَّا تُهْلِكُنِي؛ يقال: أَرِيدْتُ فَلانًا، أي: أَهْلَكْتَهُ. ﴿وَلَوْلَا بَيْتُهُ رَبِّي﴾ (٦٢) أي: إِنْعَامَهُ عَلَيَّ بِالْإِسْلَامِ ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ﴾ (٦٠) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إذا دُجِحَ الموت^(٤)، قال أهل الجنة: ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ﴾ (٦٠) إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ التي كانت في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؟ فيقال لهم: لا؛ فعند ذلك قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْءَأْتٍ عَظِيمٌ﴾ (٦١)، فيقول الله تعالى: ﴿لِيُثَلَّ هَذَا فَلْيَعْمَلَ الْعَمِلُونَ﴾ (٦٣)، قاله ابن السائب. وقيل: يقول ذلك للملائكة.

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: شُهِقَتْ فِي بِياضِهِمْ وَأَنْهَن لَمْ يَسْهَوْهُ قَبْلَ أَزْوَاجِهِمْ إِنْسٍ وَلَا جَانَ بِياضِ الْبَيْضِ الَّذِي هُوَ دَاخِلُ الْفُشْرِ، وذلك هو الجلدة البليسة المصحح قبل أن تَمَسَّهُ يد أو شيء غيرها، وذلك لا شك هو المكنون، فأما القشرة العليا، فإن الطائر يسبها، والأيدي تباشرها، والعتق يلقاها، والعرب تقول لكل مصون: مكنون، ما كان ذلك الشيء، لولوا كان، أو بياضاً، أو متاعاً. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون منها، وذلك من حديثهم على شرايهم واجتماعهم في تادمتهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على الشُرُرِ والخدَمِ بين أيديهم يَسْعَوْنَ وَيَجِيئُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلْبَاسٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ. اهـ.

(٣) قال في «اللسان»: أي: لونه وهيبته.

(٤) روى البخاري في «صحيحه» ٣٢٥/٨، ومسلم في «صحيحه» ٢١٨٨/٤ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فِيخَاةٌ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَيْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ لِيَشْرَبُوا (أي يرفعون رؤوسهم إلى المنادي) وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَمَّ هَذَا الْمَوْتِ، قَالَ: فَيُؤَمَّرُ بِهِ فَيُلْبَعُ، قَالَ: ثُمَّ يَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خَلَوْا فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خَلَوْا فَلَا مَوْتَ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَأَلْوَدَّعَهُمْ يَوْمَ الْقَسْرِ إِذْ قُوتِيَ الْأَمْرُ وَمَنْ فِي عَقْلِهِ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ﴾ وأشار بيده إلى الدنيا، واللفظ لمسلم.

والثاني: أنه قول المؤمن لأصحابه، فقالوا له: إنك لا تموت، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾، قاله مقاتل. وقال أبو سليمان الدمشقي: إنما خاطب المؤمن أهل الجنة بهذا على طريق الفرح بدوام النعيم، لا على طريق الاستفهام، لأنه قد عِلِمَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَيِّتِينَ، ولكن أعاد الكلام ليزداد بتكراره على سمعه سروراً. والثالث: أنه قول المؤمن لقرينه الكافر على جهة التوبيخ بما كان يُكْرَهُ، ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ هَذَا﴾ يعني النعيم الذي ذكّره في قوله: ﴿أَوَلَيْكَ لَمَوْ رِزْقٌ مُّكَلَّمٌ﴾ [الصفات: ٤١] ﴿فَلْيَتَمَلَّ الْعَمَلُونَ﴾، وهذا ترغيب في طلب ثواب الله ﷻ بطاعته^(١).

﴿أَذَلَّكَ حَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ سَجَرَةُ الرَّزْمِ﴾ [١] إِنَّا جَعَلْنَاهَا نَشْنَةَ لِلظَّالِمِينَ [٢] إِنَّمَا سَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ [٣] طَلْمَهَا كَأَنَّ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ [٤] فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَأَلْوَنَ مِنْهَا الطُّيُونَ [٥] ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّمَّ جِيمٍ [٦] ثُمَّ إِنَّ مَرْجَمَهُمْ لِأَوَّلَ الْجَحِيمِ [٧] إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آيَاتَهُمْ مَّرْصَالِينَ [٨] فَهُمْ عَلَىٰ مَا تَرَىٰ بُرْهَانَ [٩] وَلَقَدْ سَبَّلَ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ [١٠] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ ثَمُودَ [١١] فَاتَّخَذُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُؤَدِّينَ [١٢] إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [١٣]

﴿أَذَلَّكَ حَيْرٌ﴾ يشير إلى ما وصف لأهل الجنة ﴿نُزُلًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: رزقاً، ومنه: إقامة الأنزال، وأنزال الجنود: أرزاقها. وقال الزجاج: النُّزُل هاهنا: الرُّبْع^(٢) والفضل، يقال: هلهل طعام له نُزُل ونُزُل، بتسكين الزاي وضمها؛ والمعنى: أذلك خير في باب الأنزال التي تَنْقَرُوت ويمكن معها الإقامة، أم نُزُل أهل النار؟ وهو قوله: ﴿أَمْ سَجَرَةُ الرَّزْمِ؟﴾^(٣). واختلف العلماء هل هذه الشجرة في الدنيا، أم لا؟ فقال قطرب: هي شجرة مَرَّة تكون بأرض تهامة من أخبث الشجر. وقال غيره: الرُّزْم: ثمرة شجرة كريمة الطعم. وقيل: إنها لا تُعرف في شجر الدنيا، وإنما هي في النار، يُكْرَهُ أهل النار على تناولها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا نَشْنَةَ لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني للكافرين. وفي المراد بالفتنة ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لما ذكر أنها في النار، افتشوا وكذبوا، فقالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تأكل الشجر؟ فنزلت هذه الآية، قاله قتادة^(٤). وقال السدي: فتنة لأبي جهل وأصحابه. والثاني: أن الفتنة بمعنى العذاب، قاله ابن قتيبة. والثالث: أن الفتنة بمعنى الاختيار، اختبروا بها فكذبوا، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي: في قعر النار. قال الحسن: أصلها في قعر النار، وأغصانها ترتفع إلى ذرّكاتها. ﴿طَلْمَهَا﴾ أي: ثمرها، وسُمِّيَ طَلْمًا، لطلوعه ﴿كَأَنَّ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ﴾. فإن قيل: كيف شبَّهها بشيء لم يُشاهد؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه قد استقرَّ في النفوس قُبْحُ الشياطين - وإن لم تُشاهد - فجاز تشبيهها بما قد عِلِمَ قُبْحُه، قال امرؤ القيس:

أَبْفُشْلُنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِيي وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ^(٥)

قال الزجاج: هو لم ير العُور ولا أنيابها، ولكن التمثيل بما يُستفتح أبلغ في باب المذكر أن يُمثَّلُ بالشياطين، وفي باب المؤنث أن يشبَّه بالثور. والثاني: أن بين مكة واليمن شجر يسمى: رؤوس الشياطين، فشبَّهها بها، قاله ابن السائب. والثالث: أنه أراد بالشياطين: حَيَاتُ لها رؤوس ولها أعراف، فشبَّه طلعها برؤوس الحَيَات، ذكره

(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿لَيْسَ هَذَا قَلْبَسَلِ الْعَمَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكّره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة، فيعلم في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم.

(٢) قال في «اللسان»: الرُّبْع: النماء والزيادة.

(٣) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكّره: أهذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين الذين وصفت صفتهم من كرامتي في الجنة، ورتقتهم فيها من النعيم، خير، أو ما أعددت لأهل النار من الرُّزْم؟

(٤) روى ابن جرير الطبري عن قتادة قال: لما ذكر شجرة الرُّزْم افتتن المَلَكَةُ فقالوا: يتبكم صاحبكم هلنا أن في النار شجرة النار تأكل الشجر؟ فأئذ الله ما تسمعون أنها شجرة تخرج في أصل الجحيم عُذِيَّتْ بالنار ومنها خلقت. وأوردته السيوطي في «الدرر» ٢٧٧/٥، وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٥) «ديوانه» ٣٣، و«مختار الشعر الجاهلي» ٣٩/١، و«مجمع البيان» ٦٢/٢٣، و«روح المعاني» ٨٧/٢٣، و«اللسان»: غول.

الزجاج. قال الفراء: والعرب تسمي بعض الحيات شيطاناً، وهو حية ذو عُرْفٍ قَبِيحُ الوجه.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعْتُمُ الْكَاذِبِينَ وَبَيَّنَّا لِلنَّاسِ آيَاتِنَا﴾ أي: من ثمها ﴿فَمَا لَوْ أَنَّ الْبَطْرُونَ﴾ وذلك أنهم يُكْرَهُونَ على أكلها حتى تمتلئ بطونهم^(١). ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَّاءً بَيْنَ حِمِيرٍ﴾ قال ابن قتيبة: أي: لخلطاً من الماء الحار يشربونه عليها. قال أبو عبيدة: تقول العرب: كلُّ شيء خلطته بغيره فهو مشوب. قال المفسرون: إذا أكلوا الرُّقُومَ ثم شربوا عليه الحميم، شاب الحميم الرُّقُومَ في بطونهم فصار شوباً له. ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ﴾ أي: بعد أكل الرُّقُومِ وشرب الحميم ﴿لَأَلَى لِلْجَحِيمِ﴾ وذلك أن الحميم خارج من الجحيم، فهم يوردونه كما تورد الإبل الماء، ثم يُرْدُونَ إلى الجحيم؛ ويذلل على هذا قوله: ﴿يَطُورُونَ بَيْنًا وَبَيْنَ حِمِيرٍ مَّا إِنَّ﴾ [الرحمن: ٤٤]. و﴿الْقَوْلُ﴾ بمعنى وجدوا. و﴿يَهْرُونَ﴾ مشروح في [هود: ٧٨]، والمعنى أنهم يتبعون آباءهم في سرعة^(٢). ﴿وَلَقَدْ خَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل هؤلاء المشركين ﴿أَكْثَرَ الْأُولِينَ﴾ من الأمم الخالية.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُوعِينَ﴾ يعني الموحدنين، فإنهم نجوا من العذاب. قال ابن جرير: وإنما حُسن الاستثناء، لأن المعنى: فانظر كيف أهلكنا المتذنبين إلا عباد الله.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَيْسَ مِنَ الْمُجِيبِينَ﴾ وَتَحْتَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴿وَمَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ لِرَبِّ الْبَاقِينَ﴾ وَرَوَّكَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْغَايِبِ﴾ إِنْ كَذَّبَكَ ثَجْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴿إِنَّ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا﴾ أي: دعانا. وفي دعائه قولان: أحدهما: أنه دعا مستنصراً على قومه. والثاني: أن^(٣) ينجيه من الغرق ﴿فَلَيْسَ مِنَ الْمُجِيبِينَ﴾ نحن؛ والمعنى: إنا أنجينا وأهلكنا قومه. وفي ﴿الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ قولان: أحدهما: [أنه] الغرق. والثاني: أذى قومه. ﴿وَمَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ لِرَبِّ الْبَاقِينَ﴾ [وذلك] أن نسل [أهل] السفينة انقضوا غير نسل ولده، فالناس كلهم من ولد نوح^(٤)، ﴿وَرَوَّكَا عَلَيْهِ﴾ أي: تركنا عليه ذكراً جميلاً ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ وهم الذين جاؤوا بعده إلى يوم القيامة. قال الزجاج: وذلك الذكر الجميل قوله: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْغَايِبِ﴾ وهم الذين جاؤوا من بعده؛ والمعنى: تركنا عليه أن يصلّي عليه في الآخِرِينَ إلى يوم القيامة. ﴿إِنْ كَذَّبَكَ ثَجْرِي الْمُحْسِنِينَ﴾ قال مقاتل: جزاء الله بإحسانه الشاء الحسن في العالمين.

﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْعِيهِ إِيزَيزَةَ﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أَيْفَكَا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿فَمَا تَعْلَمُكَ رَبِّي الْعَالِيَيْنِ﴾ فَتَكَرَّرَ نَظْرُهُ فِي الثَّجْوَرِ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَتِيمٌ﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿فَرَأَى إِلَهَ الْهَيْهَاتُمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ خَمْرًا يَأْتِينَ﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يُرْوَدُونَ ﴿قَالَ أَسْتَعِينُ مَا تَنْحَرُونَ﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿قَالُوا إِنَّمَا لَمْ يَبْنِئْنَا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَتِيبِينَ﴾ رَبِّي هَبْ لِي مِنَ السَّالِطِينَ ﴿فَنَشَرْنَاهُ وَعَلَيْنَا حَيْبٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْعِيهِ إِيزَيزَةَ﴾ أي: من أهل دينه وولته. والهاء في «شيعته» عائدة على نوح في قول الأكرئين؛ وقال ابن السائب: تعود إلى محمد ﷺ، واختاره الفراء^(٥). فإن قيل: كيف يكون من شيعته، وهو قبله؟

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعْتُمُ الْكَاذِبِينَ وَبَيَّنَّا لِلنَّاسِ آيَاتِنَا﴾ ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبيض منها، ولا أفتح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها، ما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكُمْ سُلْمٌ إِلَّا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لا يبيد ولا يغي من شيء^(١). اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَأَنفُسًا نَابِئَةً مَرَّحَاتِينَ﴾ يقول: إن هؤلاء المشركين الذين إذا قيل لهم: قولوا: لا إله إلا الله يستكبرون، وجدوا آباءهم ضلالاً عن قصد السبيل، غير سالكين محبة الحق ﴿فَهُمْ عَلَى تَكْوِينٍ مَهْرُورُونَ﴾ يقول: فهؤلاء يسرع بهم في طريقهم ليقضوا آثارهم وسئوهم. اهـ.

(٣) في الأصل: «أنه».

(٤) قال ابن كثير: لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، لث فيه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة فدعا ربه أن يغلب فانصر، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا نُوْحًا نُوْحًا﴾ أي: فلنتم المجيئين له، و﴿تَحْتَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو التكذيب والأذى، و﴿مَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ لِرَبِّ الْبَاقِينَ﴾. اهـ.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وقد زعم بعض أهل العربية أن معنى ذلك: وإن من شيعته محمد لإبراهيم، وقال: ذلك مثل قوله: ﴿وَرَوَّكَا لَمْ أَتَا حَتَّىٰ دُرِّيَّتَهُمْ﴾ بمعنى أنا حملنا ذرية من هم منه، فجعلها ذرية لهم وقد سبقتهم. اهـ. وقال الألوسي: ﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْعِيهِ﴾ أي: ممن شايع نوحاً وتابعه في أصول

فالجواب: أنه مثل قوله: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: ٤١]، فجعلها ذُرِّيَّتَهُمْ وقد سبقتهم، وقد شرحنا هذا فيما مضى [يس: ٤١].
قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: صدق الله وأمن به ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك وكل دَسَس، وفيه أقوال ذكرناها في [الشعراء: ٨٩].
قوله تعالى: ﴿مَاذَا سُبُّونَ؟﴾ هذا استفهام توبيخ، كأنه يستفهم على عبادة غير الله. ﴿أَيُّكُمْ؟﴾ أي: أتأفكون إفاكاً وتعبدون آلهة سوى الله؟ ﴿مَا ظَنُّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٧] إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟! كأنه قال: فما ظنكم أن يصنع بكم؟ ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ [١٨] فيه قولان: أحدهما: [أنه] نظر في علم النجوم، وكان القوم يتعاطون علم النجوم، فعاملهم من حيث هم، وأراهم أنني أعلم من ذلك تعلمون، لثلاثا يتكروا عليه ذلك. قال ابن المسيب: رأى نجماً طالعاً، فقال: إني مريض غداً. والثاني: أنه نظر إلى النجوم، لا في علمها. فإن قيل: فما كان مقصوده؟ فالجواب: أنه كان لهم عيد، فأراد التخلف عنهم ليكيد أصنامهم، فاعتل بهذا القول.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ من معاريف الكلام. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: سأسقم، قاله الضحاك. قال ابن الأنباري: أعلمه الله ﷻ أنه يمتحنه بالسقم إذا طلع نجم يعرفه، فلما رأى النجم، علم أنه سيقم. والثاني: إني سقيم القلب عليكم إذ تكهنتم بنجوم لا تضر ولا تنفع، ذكره ابن الأنباري. والثالث: أنه سقم لعل عرضت له، حكاه الماوردي. وذكر السدي أنه خرج معهم إلى يوم عيدهم، فلما كان ببعض الطريق، ألقى نفسه وقال: إني سقيم أشتكى رجلي^(١)، ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [١٩] ﴿فَرَأَى إِلَهَ الْبَنِينَ﴾ أي: مال إليها - وكانوا قد جعلوا بين يديها طعاماً لتبارك فيه على زعمهم - ﴿فَقَالَ﴾ إبراهيم استهزاء بها ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ وقوله: ﴿صَرَبًا بِأَيْمِينٍ﴾ في اليمين ثلاثة أقوال: أحدها: أنها اليد اليمنى، قاله الضحاك^(٢). والثاني: بالقوة والقدرة، قاله السدي، والفراء. والثالث: باليمين التي سبقت منه، وهي قوله: ﴿وَاللَّهُ لَأكِيدٌ أَسَدُّكَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، حكاه الماوردي. قال الزجاج: «صَرَبًا» مصدر؛ والمعنى: فمال على الأصنام يضربها صرباً باليمين؛ وإنما قال: «عليهم»، وهي أصنام، لأنهم جعلوها بمنزلة ما يميز. ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْتُفُونَ﴾ [٢٠] قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «يَرْتُفُونَ» بفتح الياء وكسر الزاي وتشديد الفاء. وقرأ ابن حمزة، والمفضل عن عاصم: «يَرْتُفُونَ» برفع الياء وكسر الزاي وتشديد الفاء. وقرأ ابن السميع، وأبو المتوكل، والضحاك: «يَرْتُفُونَ» بفتح الياء وكسر الزاي وتخفيف الفاء. وقرأ ابن أبي عبيدة، وأبو نهيك: «يَرْتُفُونَ» بفتح الياء وسكون الزاي وتخفيف الفاء^(٣). قال الزجاج: أعرب القراءات فتح الياء وتشديد الفاء، وأصله من زيف الطعام، وهو ابتداء غدو الطعام، يقال: زَفَ الطعام يَرْتُفُ؛ وأما ضم الياء، فمعناه: يصيرون إلى الرُفيف، وأنشدوا:

[تَمَنَّى حُصَيْنٌ أَنْ يَسُودَ جَدَاعَهُ]

فأضحى حُصَيْنٌ قد أذَلَّ وأفْهَرًا^(٤)

الدين ﴿يَرْتُفُونَ﴾ وإن اختلفت فروع شريعتيهما، أو ممن شايه في التصلب في دين الله تعالى ومصايرة المكذبين، قال: ونقل هذا عن ابن عباس. قال: وذهب الفراء إلى أن ضمير «شيعته» لنبيينا محمد ﷺ، قال: والظاهر ما أشرنا إليه، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقناة والسدي، قال: وقُلماً يقال للمعتد: هو شيعته للمتأخر. اهـ.

(١) قال ابن كثير: إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أذف خروجهم إلى عيد لهم، فأجبت أن يختلي بأهلهم ليكسرهم، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [١٩] قال: قال قناة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم، يعني قناة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يليهم به فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف، قال ابن كثير: فأما الحديث الذي رواه ابن جرير عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات، نتبين في ذات الله تعالى، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ نَحْنُ كَرِهُمُ حَدًّا﴾ وقوله في سارة: «هي أختي» قال: فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يُدْمُ فاعله، حاشا وكلاً ولثماً، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعارض لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث: «إن في المعارض لندوحة عن الكذب». اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى، ولهذا تركهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة (الأنبياء) عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك. اهـ. وقال الألوسي: ﴿فَرَأَى نَجْمًا صَرَبًا بِأَيْمِينٍ﴾، أي: باليد اليمنى كما روي عن ابن عباس، قال: وتقيد الضرب باليمين، للدلالة على شدته وقوته، لأن اليمين أقوى الجارحين وأشدهما في الغالب، قال: وقوة الآلة تقتضي شدة الفعل وقوته. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القراءة في ذلك عندنا قراءة من قرأه بفتح الياء وتشديد الفاء، لأن ذلك هو الصحيح المعروف من كلام العرب والذي عليه قراءة الفصحاء من القراء. اهـ.

(٤) البيت للمُجَبَّل السُّدِّي كما في «الطبري» ٧٤/٢٣، و«اللسان» و«التاج»: قهر، جفع، وروي: قد أذَلَّ وأفْهَرًا، مبنياً للمجهول.

أي: صار إلى القهر. وأما كسر الزاي مع تخفيف الفاء، فهو من: وَرَفَّ يَرْفُفُ، بمعنى أَسْرَعَ يُسْرِعُ، ولم يعرفه الكسائي ولا الفراء، وعرفه غيرهما. قال المفسرون: بلغهم ما صنع إبراهيم، فأسرعوا، فلما انتهوا إليه، قال لهم محتجاً عليهم: «أَتَيْتُونَا مَا نَتَّجُونُ» بأيديكم «وَاللَّهِ خَلَقَكُمْ وَمَا تَمْلُونَ» (١١٩)؟!، قال ابن جرير: في «ما» وجهان: أحدهما: أن تكون بمعنى المصدر، فيكون المعنى: والله خلقكم [وعملكم]. والثاني: أن تكون بمعنى «الذي»، فيكون المعنى: والله خلقكم] وخلق الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام^(١)؛ وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة [لله]. فلما لزمتهم الحجّة «قَالُوا إِنَّا لَمُرَبِّينَا» وقد شرحنا قصته في سورة [الأنبياء: ٥٢ - ٧٤]، وبيننا معنى الجحيم في [البقرة: ١١٩]، والكيد الذي أرادوا به: إحراقه. ومعنى قوله: «فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ» أن إبراهيم علاهم بالحجّة حيث سلمه الله من كيدهم وحلّ الهلاك بهم^(٢). «وَقَالَ» يعني إبراهيم «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي» في هذا الذهاب قولان: أحدهما: أنه ذاهب حقيقة، وفي وقت قوله هذا قولان: أحدهما: أنه حين أراد هجرة قومه؛ فالمعنى: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي حيث أمرني ربي [بأن] «سَيِّدِينَ» إلى حيث أمرني، وهو الشام، قاله الأكثرون. والثاني: حين ألقى في النار، قاله سليمان بن صرد؛ فعلى هذا، في المعنى قولان: أحدهما: ذاهب إلى الله بالموت، سيهدين إلى الجنة. والثاني: [ذاهب] إلى ما قضى [به] ربي، سيهدين إلى الخلاص من النار. والقول الثاني: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي بقلبي وعملي ونيتي، قاله قتادة^(٣). فلما قِيم الأرض المقدّسة، سأل ربه الولد فقال: «رَبِّي هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ» (١٢٠)؟ أي: ولداً صالحاً من الصّالحين، فاجتزأ بما ذكر عمّا ترك، ومثله: «وَكُنَّا فِيهِ مِنَ الرَّاهِدِينَ» [يوسف: ٢٠]، فاستجاب له، وهو قوله: «فَبَشَّرْتَهُ بِإِبْرَاهِيمَ عَظِيمٍ» (١٢١) وفيه قولان: أحدهما: أنه إسحاق. والثاني: أنه إسماعيل. قال الزجاج. هذه الإشارة تدلُّ على أنه مبشّر بابن ذكّر، وأنه يبقى حتى يتهيّ في السن ويوصف بالعلم.

«فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى قَالَ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُ فَأَنْظَرْنَا مَاذَا فَعَلْتَ قَالَ يَا بَنِيَّ أَعْمَلُ مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ» (١٢٢) «فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» (١٢٣) «وَقَدَّيْنَهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ» (١٢٤) «فَدَّعَتْهُ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (١٢٥) «إِنَّ هَذَا لَمَوْءِدٌ لِّبَنِيكَ» (١٢٦) «وَقَدَّيْنَهُ بِذِي عَظِيمٍ» (١٢٧) «وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ» (١٢٨) «سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ» (١٢٩) «كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (١٣٠) «إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ» (١٣١) «وَبَشَّرْتَهُ إِسْحَاقَ بَيْنًا مِّنَ الصَّالِحِينَ» (١٣٢) «وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَعَلَمٌ لِّفِيهِ مُبَارَكٌ» (١٣٣)

قوله تعالى: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد بالسني هاهنا: العمل، قاله ابن عباس. والثاني: أنه المشي، والمعنى: مشى مع أبيه، قاله قتادة. قال ابن قتبية: بلغ أن يُصْرَفَ معه ويُعِينَهُ. قال ابن السائب: كان ابن ثلاث عشرة سنة. والثالث: أن المراد بالسني: العبادة، قاله ابن زيد؛ فعلى هذا، يكون قد بلغ.

قوله تعالى: «إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُ» أكثر العلماء على أنه لم ير أنه ذبحه في المنام، وإنما المعنى أنه أمر في المنام بذبحه، ويدل عليه قوله: «أَعْمَلُ مَا تَأْمُرُ». وذهب بعضهم إلى أنه رأى أنه يعالج ذبحه، ولم ير إراقة الدّم. قال قتادة: ورؤيا الأنبياء حقٌّ، إذا رأوا شيئاً، فعلوه. وذكر السدي عن أشياخه أنه لما بشر جبريل سارة بالولد، قال إبراهيم: هو إذاً لله ذبيح، فلما فرغ من بينان البيت، أتى في المنام، فقيل له: أَرَأَيْتَ بَشَّرْنَاكَ^(٤). واختلفوا في الذبيح على قولين: أحدهما: [أنه] إسحاق، قاله عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وأبو هريرة، وأنس، وكعب الأحبار، وهب بن منبه، [ومسروق]، وعبيد بن عمير، والقاسم ابن أبي بزة، ومقاتل بن سليمان، واختاره ابن جرير. وهؤلاء يقولون: كانت هذه القصة بالشام. وقيل: طويت له

- (١) قال ابن كثير: والأول أظهر، لما رواه البخاري في كتاب «أفعال العباد» عن علي بن المدني عن مروان بن معاوية عن أبي مالك عن رعي بن جراح عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال: «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعه» اهـ.
- (٢) قال ابن جرير الطبري: يقول الله: «فَجَعَلْنَاهُمْ» أي: فجعلنا قوم إبراهيم «الْأَسْفَلِينَ» يعني الأدنى حجّة، وعلينا إبراهيم عليهم بالحجة، وأنقلناه مما أرادوا به من الكيد. اهـ.
- (٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: «وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ» يقول: وقال إبراهيم لما أهلجه الله على قومه ونجاه من كيدهم: «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي» يقول: إني مهاجر من بلدة قومي إلى الله، أي: إلى الأرض المقدّسة، ومفارقتهم فمعتزلهم لعبادة الله. اهـ.
- (٤) ذكر ذلك البهوي في «تفسيره» بدون سند والله أعلم.

الأرض حتى حمله إلى المَنَحْرَ بِنَيْتٍ في ساعة. والثاني: أنه إسماعيل، قاله ابن عمر، وعبد الله بن سلام، والحسن البصري، وسعيد بن المسيّب، والشعبي، ومجاهد، ويوسف بن مهران، وأبو صالح، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن سابط^(١). واختلفت الرواية عن ابن عباس، فروى عنه عكرمة أنه إسحاق، وروى عنه عطاه، ومجاهد، والشعبي، وأبو الجوزاء، ويوسف بن مهران أنه إسماعيل، وروى عنه سعيد بن جبير كقولين. وعن سعيد بن جبير، وعكرمة، والزهري، وقتادة، والسدي روايتان. وكذلك عن أحمد رضي الله عنه روايتان. ولكل قوم حُجَّة ليس هذا موضعها، وأصحابنا ينصرون القول الأول^(٢).

الإشارة إلى قصة الذَّبْحِ

ذكر أهل العلم بالسَّيَرِ والتفسير أن إبراهيم لما أراد ذبح ولده، قال له: انطلق فقرب قرباناً إلى الله تعالى، فأخذ بيدينا وحَبَلًا، ثم انطلق، حتى إذا ذهب بين الجبال، قال له الغلام: يا أبت أين قربانك؟ قال: يا بني إني رأيتُ في المنام أني أذبحك، فقال له: اشدُّ رباطي حتى لا اضطرب، واكفَّف عني ثيابك حتى لا يتضح عليك من دمي فترأه أُمِّي فتحزن، وأشرع مَرَّ السَّكِينِ على حَلْقِي ليكون أهون للموت علي، فإذا أتيت أُمِّي فاقرأ عليها السلام مِنِّي؛ فأقبل عليه إبراهيم يقبله ويكي ويقول: نَعَمْ العون أنت يا بُنَيَّ على أمر الله تعالى، ثم [إنه] أمر السَّكِينِ على حَلْقَةِ فلم يَحِكْ شيئاً^(٣). وقال مجاهد: لَمَّا أمرها على حَلْقِهِ انقلب، فقال: مالك؟ قال: انقلب، قال: اطعن بها طعناً. وقال السدي: ضرب الله على حَلْقِهِ صفيحة من نحاس؛ وهذا لا يُحتاج إليه، بل منعها بالقُدرة أبلغ. قالوا: فلَمَّا طعَن بها، نَبَتْ، وعلم الله منهما الصدق في التسليم، فنودي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، هذا فداء ابنك؛ فنظر إبراهيم، فإذا جبريل معه كيش أملح.

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَوْتُمْ﴾ لَمْ يَقُلْ له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله تعالى، ولكن أراد أن ينظر ما عنده من الرأى. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: ﴿ماذا تروى﴾ بضم التاء وكسر الراء؛ وفيها قولان: أحدهما: ماذا تُرَي من صبرك أو جَزَعك، قاله الفراء. والثاني: ماذا تُبَيِّن، قاله الزجاج؛ وقال غيره: ماذا تُشِير.

قوله تعالى: ﴿أَتَمَلَّ مَا تُوَمَّرُ﴾ قال ابن عباس: أفعَل ما أوحى إليك من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْقَدِيرِينَ﴾ على البلاء.

(١) قال الحافظ ابن حجر في ترجمته في «تقريب التهذيب»: عبد الرحمن بن سابط، ويقال: ابن عبد الله بن سابط، وهو الصحيح. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: قال الله تعالى: ﴿بَشِّرْهُ بِبُكَرٍ كَثِيرٍ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل رضي الله عنه، فإنه أول ولد بُشِّرَ به إبراهيم رضي الله عنه، وهو أكبر من إسحاق بائناً للمسلمين وأهل الكتاب، قال: بل في نص كتابهم أن إسماعيل رضي الله عنه ولد لإبراهيم رضي الله عنه ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعُمُرُ إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، قال: وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحده، وفي نسخة أخرى: «بِكُرٍّ» قال: فأقحموا ما هنا كذباً وهبتاً إسحاق، قال: ولا يجوز هذا، لأنه مخالف لنص كتابهم، قال: وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوه، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم فزادوا ذلك، وحرّفوا «وحيدك» بمعنى «الذي ليس عندك غيره»، فإن إسماعيل كان ذُوب به وبأُمِّه إلى مكة، وهو تأويل وتخريف باطل، فإنه لا يقال: وحيدك إلا لمن ليس له غيره، قال: وأيضاً فإن أول ولده، له مَرَّةٌ ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار، قال: وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذَّبْحِ هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً. ثم قال: وليس ذلك في كتاب ولا سنَّة، وما أُظهِرَ ذلك تُنْفِي إلا عن أخبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مُسَلِّماً من غير حجة، قال: وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حلیم، وذكر أنه الذَّبْحِ، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ يَبَايَنَ الْقَدِيرِينَ﴾ وقال: ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا بَشِّرُوكَ بِبُكَرٍ كَثِيرٍ﴾. وقال ابن كثير في قوله تعالى عن امرأة إبراهيم رضي الله عنها: ﴿بَشِّرْكِ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ بَدَلِهِ إِسْحَاقَ يَتَّبِعُ﴾ من سورة (هود: ٧١) أي: يولد لها يكون له ولد وعقب نسل، فإن يعقوب ولد إسحاق، قال: ومن هاهنا استدلت بهذه الآية على أن الذَّبْحِ إنما هو إسماعيل، وأنه محتج أن يكون هو إسحاق، لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، قال: فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خلف فيه؟ قال: فيمتنع أن يؤمر بذبْحِ هذا والحالة هذه، قال: فتبين أن يكون هو إسماعيل، قال: وهذا من أحسن الاستدلال وأصحها وأبينها، والله الحمد. اهـ.

وقد قال الحافظ ابن قيم الجوزية في «الهدى النبوي»: إسماعيل هو الذَّبْحِ على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق، فمردود بأكثر من عشرين وجهاً، ونقل عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذا القول متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل في كتابهم، فإن فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بِكُرٍّ، وفي لفظ: «وحيد» وقد حرّفوا ذلك في التوراة التي بأيديهم. اهـ.

(٣) ذكر نحو هذا المعنى البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا لأمر الله ﷻ فأطاعا ورضينا، وقر علي، وابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، والأعمش، وابن أبي عبيدة: ﴿فَلَمَّا سَلَّمْنَا﴾ بتشديد اللام من غير همز قبل السين؛ والمعنى: سَلَّمْنَا لأمر الله ﷻ. وفي جواب قوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا﴾ قولان: أحدهما: أن جوابه: «فونادينا»، والواو زائدة، قاله الفراء. والثاني: أن الجواب محذوف لأن في الكلام دليلاً عليه؛ والمعنى: فلما فعل ذلك، سَعِدَ وأَجْرَلْ ثوابه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَتَلَكَّ لَبَّيْنِ﴾ قال ابن قتبية: أي: صرعه على جبينه فصار أحد جبينه على الأرض، وهما جبينان، والجهة بينهما، وهي ما أصاب الأرض في السجود، والناس لا يكادون يفرقون بين الجبين والجهة، فالجهة مسجد الرجل الذي يصيبه نَدْبُ السُّجُودِ، والجبينان يكتفانها، من كل جانب جبين.

قوله تعالى: ﴿وَوَدَّيْتَهُ﴾ قال المفسرون: نودي من الجبل: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُ﴾ ﴿قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا﴾ وفيه قولان: أحدهما: قد عَمِلْتَ ما أَمَرْتُ، وذلك أنه قصد الذَّبْحَ بما أمكنه، وطاوعه الابن بالتمكين مع الذَّبْحِ، إلا أن الله ﷻ صرف ذلك كما شاء، فصار كأنه قد ذَبَحَ وإن لم يتحقق الذَّبْحُ. والثاني: أنه رأى في المنام معالجة الذَّبْحِ، ولم ير إراقة الدَّمِ، فلَمَّا فَعَلَ في اليقظة ما رأى في المنام، قيل له: ﴿قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا﴾. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو عمران، والجحدري: ﴿قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا﴾ بتخفيف الدال، وهانئا تم الكلام. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَّبْنَاكَ﴾ أي: كما ذَكَّرْنَا من العفو من ذبح ولده ﴿بِحَبْرَى الْمُحْسِنِينَ﴾^(١). ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْبَيْتِ الْبَيْتِ﴾ في ذلك قولان: أحدهما: النعمة البَيْتِ، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثاني: الاختيار العظيم، قاله ابن زيد، وابن قتبية. فعلى الأول، يكون قوله هذا إشارة إلى العفو عن الذَّبْحِ. وعلى الثاني، يكون إشارة إلى امتحانه بذبح ولده.

قوله تعالى: ﴿وَوَدَّيْتَهُ﴾ يعني: الذَّبْحِ ﴿بِذَّبْحٍ﴾ وهو بكسر الدال: اسم ما ذَبَحَ، ويفتح الدال: مصدر ذَبَحْتُ، قاله ابن قتبية. ومعنى الآية: خلصناه من الذَّبْحِ بأن جعلنا الذَّبْحَ فداءً له. وفي هذا الذَّبْحِ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان كبشاً أقرن قد رعى في الجنة قبل ذلك أربعين عاماً، قاله ابن عباس في رواية مجاهد، وقال في رواية سعيد بن جبير: هو الكبش الذي قرّبه ابن آدم فتُتَبَّلُ منه، كان في الجنة حتى نُذِيَ به. والثاني: أن إبراهيم فدى ابنه بكبشين أبيضين أعينين أقرنين، رواه أبو الطفيل عن ابن عباس^(٢). والثالث: [أنه] ما فُدي إلا بتيس من الأزوي^(٣)، أهبط عليه من نبيير، قاله الحسن^(٤). وفي معنى ﴿عَظِيمٍ﴾ أربعة أقوال: أحدها: لأنه كان قد رعى في الجنة، قاله ابن عباس، وابن جبير. والثاني: لأنه ذُبِحَ على دين إبراهيم وسُنَّته، قاله الحسن. والثالث: لأنه مُتَقَبَّلٌ، قاله مجاهد. وقال أبو سليمان الدمشقي: لَمَّا قرّبه ابن آدم، رُفِعَ حيّاً، فرعى في الجنة، ثم جُعِلَ فداءً للذَّبْحِ، فقبِلَ مرتين. والرابع: لأنه عظيم الشخص والبركة، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَوَدَّيْنَاكَ عَيْدٍ﴾ قد فسرناه في هذه السورة [الصفات: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿وَوَدَّيْتَهُ بِإِسْحَاقَ﴾ من قال: إن إسحاق الذَّبْحُ، قال: بُشِّرَ إبراهيم بنبوة إسحاق، وأُثِيبَ إسحاق بصبره

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَّبْنَاكَ بِحَبْرَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مكنا نصرف عن أطمانا المكاره والشدادت، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَرَبِّيَ بَدِيَ اللَّهُ يَمْلِكُ لَهُ بِحَبْرَى رِبْقَةً مِنْ سِحِّ لَا يَحْسِبُ وَمَنْ يَبْزُلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَلِمَةُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ نَدْبًا ﴿١٠١﴾ قال: وقد استدل بهذه الآية والفصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافاً لطائفة من المعتزلة، قال: والدلالة من هذه الظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، قال: وإنما كان المقصود من شرعه أولاً، إثابة اللخيل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك، قال: ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْبَيْتِ الْبَيْتِ﴾ أي: الاختيار الواضح الجلي حيث أمر بلبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى، متقاداً لطاقته، قال: ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَوَدَّيْتَهُ أَلْوَى وَكَأَنَّ﴾ اهـ.

(٢) الذي في «الطبري» وابن كثير من رواية أبي الطفيل عن علي ؑ قال: كبش أقرن أعين.

(٣) الأزوي: الرحول.

(٤) قال ابن كثير في «التاريخ» بعد أن ذكر نحواً من هذا: ثم غالب ما هانئا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات، وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختيار الباهر، وأنه فدي بلبح عظيم، قال: وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً. اهـ. وقال في «التفسير»: والصحيح الذي عليه الأكثر أن فدى بكبش. اهـ. وثبير: جبل بمكة.

النبوة، وهذا قول ابن عباس في رواية عكرمة، وبه قال قتادة، والسدي^(١). ومن قال: الذبيح إسماعيل، قال: بشر الله إبراهيم بولد يكون نبياً بعد هذه القصة، جزاءً لطاعته وصبره، وهذا قول سعيد بن المسيب.

قوله تعالى: ﴿وَرَكَّبْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ يعني بكثرة ذريتهما، وهم الأسباط كلهم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتَيْهِمَا حَسَنٌ﴾ أي: مطيع لله ﴿وَعِيسَىٰ﴾ وهو العاصي له. وقيل: المُحْسِنُ: المؤمن، والظالم: الكافر.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٥٦﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٧﴾ وَنَمَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١٥٨﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُنِيرَ ﴿١٥٩﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦٠﴾ وَرَكَّبْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٦١﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٣﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّقِينَ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّ إِلَهًا لَيَمُنُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٥﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٦٧﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَالْأُولَٰئِكَ مَكَذِبُونَ ﴿١٦٨﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾ وَرَكَّبْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٧٠﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ آلِ يَأْسِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّقِينَ ﴿١٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أي: أنعمنا عليهما بالنبوة. وفي «الكرْبِ الْعَظِيمِ» قولان: أحدهما: استبعاد فرعون وبلاؤه، وهو معنى قول قتادة. والثاني: العرق، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَمَمَرْنَاهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: [أنه] يرجع إلى موسى وهارون وقومهما. والثاني: [أنه] يرجع إليهما فقط، فجمعاً، لأن العرب تذهب بالرئيس إلى الجمع، لجنوده وأتباعه، ذكرهما ابن جرير. وما بعد هذا قد تقدم بيانه [الأنبياء: ٤٨] إلى قوله: ﴿وَإِنَّ إِلَهًا لَيَمُنُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل، قاله الأكثرون. والثاني: أنه إدريس، قاله ابن مسعود، وقاتدة، وكذلك كان يقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، وأبو عثمان النهدي: «وإن إدريس» مكان «إلياس».

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون الله فتوحدونه وتعبدونه؟! ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بمعنى الرب، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. وقال الضحاك: كان ابن عباس قد أعياه هذا الحرف، فبينما هو جالس، إذ مرَّ أعرابي قد ضلَّتْ ناقته وهو يقول: من وجد ناقه أنا بعلها؟ فتبعه الصبيان يصيحون به: يا زوج الناقة، يا زوج الناقة، فدعا ابن عباس فقال: ويحك، ما عنيبت ببعلها؟ قال: أنا ربها، فقال ابن عباس: صدق الله ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾: رباً. وقال قتادة: هذه لغة يمانية. والثاني: أنه اسم صنم كان لهم، قاله الضحاك، وابن زيد. وحكى ابن جرير أنه به سُمِّيَتْ «بعلبك». والثالث: أنها امرأة كانوا يعبدونها، حكاه محمد بن إسحاق^(٢).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «الله ربكم» بالرفع. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف، ويعقوب: «الله» بالنصب.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا لِمُحَمَّدٍ﴾ التار، ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ الذين لم يكذبوه، فإنهم لا يخضرون النار.

(١) قال ابن كثير في «التاريخ»: وقد قال بأنه إسحاق طاقة كثيرة من السلف وغيرهم، قال: وإنما أخذه - والله أعلم - من كتب الأحبار أو صحف أهل الكتاب، قال: وليس في ذلك حديث صحيح عن المصنوع حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، قال: ولا يفهم هذا القرآن، بل المفهوم، بل المنطوق، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل، قال: وما أحسن ما استدلل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُنَّ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَآلِهِ إِسْحَاقُ بِعُورٍ﴾ قال: فكيف البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟ هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة، والله أعلم.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿لَيَمُنُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول جل ثناؤه: لمرسل من المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ يقول حين قال لقومه من بني إسرائيل: ألا تتقون الله أيها القوم فتخافونه وتحذرون عقوبته على عبادتكم رباً غير الله وإلهاً سواه ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾؟ يقول: وتدعون عبادة أحسن من قيل له خالق؟! ثم قال ابن جرير: وللبلع في كلام العرب أرجح، يقولون لرب الشيء: هو بئله، يقال: هذا بعل هذه الدار، يعني ربها، ويقولون لزوج المرأة: بعلها، ويقولون لما كان من الغروس والزروع مستغنياً بماء السماء ولم يكن شيئاً: بعل. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي: أتعبدون صنماً ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ الله رَبُّكُمْ وَالْأُولَٰئِكَ مَكَذِبُونَ ﴿١٦٨﴾ أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل العلم بالتفسير والسيرة أنه لما كثرت الأحداث بعد قبض حزقييل النبي ﷺ، وعُبدت الأوثان، بعث الله تعالى إليهم إلياس. قال ابن إسحاق: وهو إلياس بن تشبي بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، فجعل يدعوهم فلا يسمعون منه، فدعا عليهم بحبس المطر، فجهدوا جهداً شديداً، واستخفى إلياس خوفاً منهم على نفسه. ثم إنه قال لهم يوماً: إنكم قد هلكتم جهداً، وهلكت البهائم والشجر بخطاياكم، فاخرجوا بأصنامهم وأدعوها، فإن استجابت لكم، فالأمر كما تقولون، وإن لم تفعل، علمتم أنكم على باطل فنزعتم عنه، ودعوت الله ففرج عنكم، فقالوا: أنصفت، فخرجوا بأصنامهم وأوثانهم، فدعوا فلم يستجب لهم، فعرفوا ضلالهم، فقالوا: ادع الله لنا، فدعا لهم، فأرسل المطر وعاشت بلادهم، فلم ينزعوا عما كانوا عليه، فدعا إلياس ربّه أن يقرضه إليه ويربّحه منهم، فقيل له: اخرج يوم كذا إلى مكان كذا، فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبّه، فخرج، فأقبل فرس من نار، فوثب عليه، فانطلق به، وكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المظعم والمشرب، فطار في الملائكة، فكان إنسياً ملكياً، أرضياً سماوياً^(١).

قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «إلياسين» موصولة مكسورة الألف ساكنة اللام، فجعلوها كلمة واحدة؛ وقرأ الحسن مثلهم، إلا أنه فتح الهمزة. وقرأ نافع، وابن عامر، وعبد الوارث، ويعقوب إلا زيدا: «إل ياسين» مقطوعة، فجعلوها كلمتين. وفي قراءة البوصل قولان: أحدهما: أنه جئع لهذا النبي وأُمَّته المؤمنين به، وكذلك يُجمع ما يُنسب إلى الشيء بلفظ الشيء، فتقول: رأيت المهالبة، تريد: بني المهلب، والمسامعة، تريد: بني مسمع. والثاني: أنه اسم النبي وحده، وهو اسم عبراني، والمعجمي من الأسماء قد يُفعل به هكذا، [كما] تقول: ميكال وميكايل، ذكر القولين الفراء والزجاج. فأما قراءة من قرأ: «إل ياسين» مفصولة، ففيها قولان: أحدهما: أنهم آل هذا النبي المذكور، وهو يدخل فيهم، كقوله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(٢)، فهو داخل فيهم، لأنه هو المراد بالدعاء. والثاني: أنهم آل محمد ﷺ، قاله الكلبي: وكان عبد الله بن مسعود يقرأ:

(١) ذكر نحو هذا المعنى موطأ الطبري في «تفسيره» من رواية ابن إسحاق عن وهب بن منبه وغيره، وذكر نحوه ابن كثير في «التفسير» و«التاريخ» وقال في «التفسير»: هكذا حكاه وهب بن منبه عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته. وقال في «التاريخ»: ففي هذا نظر، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل الظاهر أن صحتها بعيدة، والله أعلم. اهـ.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» ٢٨٦/٣، باب صلاة الإمام ودعائه لأصحاب الصدقة، وهو في «البخاري» أيضاً ١٤٥/١١ باب هل يصلى على غير النبي ﷺ، ورواه مسلم ٧٥٧/٢ ولفظه بتمامه عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صل على آل أبي أوفى». قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٨٦/٣: قوله «على آل أبي أوفى» يريد أبا أوفى نفسه، لأن الآل يطلق على ذات الشيء، كقوله ﷺ في قصة أبي موسى الأشعري: «لقد أوتي مزاراً من مزارم آل داود» قال: واسم أبي أوفى: علقمة بن خالد بن الحارث الأسلمي، شهد هو وابنه عبد الله بيعة الرضوان تحت الشجرة، وعمر عبد الله إلى أن كان آخر من مات من الصحابة بالكوفة، وذلك سنة سبع وثمانين. قال ابن حجر: واستدل به (أي الحديث) على جواز الصلاة على غير الأنبياء، قال: وكرهه مالك والجمهور، قال: قال ابن التين: وهذا الحديث يعكّر عليه، قال: وقد قال جماعة من العلماء: يدعو أخذ الصدقة للمتصدق بهذا الدعاء، لهذا الحديث، قال: وأجاب الخطابي عته تديماً بأن أصل الصلاة: الدعاء، إلا أنه يختلف بحسب المدعول، فصلة النبي ﷺ على أمته: دعاء لهم بالمغفرة، وصلاة أمته عليه: دعاء له بزيادة القربى والزلفى، ولذلك كان لا يليق بغيره. انتهى. قال: واستدل به على استحباب دعاء أخذ الزكاة لمعطيها، قال: وأوجه بعض أهل الظاهر، وحكاة الحنطاي وجهاً لبعض الشافعية، وتعب به لأنه لو كان واجباً لعلمه النبي ﷺ السعة، ولأن سائر ما يأخذه الامام من الكفارات والديون وغيرهما لا يجب عليه فيها الدعاء، فكذلك الزكاة، قال: وأما الآية (يريد قوله تعالى: ﴿مَنْ ذُنِبَ مِنْكُمْ فَلْيُؤْمِرْ بِصَدَقَتِهِمْ فَمَا وَصَلْتُمْ بِهِمْ إِيَّاهُ فَطَرَبَتْكُمْ سَكَتُكُمْ﴾) فيحتمل أن يكون الوجوب خاصاً به ﷺ لكون صلواته سكناً لهم، بخلاف غيره. اهـ.

هذا وقد اختلف العلماء في الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً، فقال الامام النووي في «شرح مسلم» ١٨٥/٧: قال أصحابنا: لا يصلى على غير الأنبياء إلا تبعاً، لأن الصلاة في لسان السلف مخصصة بالأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم، قال: واختلف أصحابنا في النهي عن ذلك هل هو نهي تنزيه، أم محرم، أم مجرد أدب؟ على ثلاثة أوجه، الأصح الأشهر أنه مكروه، قال: واتفقوا على أنه يجوز أن يجعل غير الأنبياء تبعاً لهم في ذلك، فيقال: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريته وأتباعه» لأن السلف لم يمنعوا منه، وقد أمرنا به في التشهد وغيره. اهـ.

وقال ابن حجر في «الفتح» ١٤٦/١١، في حكم الصلاة على الأنبياء من المؤمنين: اختلف فيه، فقيل: لا تجوز إلا على النبي ﷺ خاصة، وحكي عن مالك، قال: وقالت طائفة: لا تجوز مطلقاً استقلالاً، وتجوز تبعاً فيما ورد فيه النص أو الحق به، لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْمَلُوا ذُكَاةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كدعاهم ببيعتكم بسناً، قال: ولأنه لما علمهم السلام قال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ولما علمهم الصلاة قصر ذلك عليه وعلى أهل بيته. قال: وهذا القول اختاره القرطبي في «المفهم» وأبو المعالي من الحنابلة، قال: وقالت طائفة: تجوز تبعاً مطلقاً، ولا تجوز استقلالاً، قال: وهذا قول =

«سلام على آذرايين» وقد بينّا مذهبه في أن إلياس هو إدريس. فإن قيل: كيف قال: «إدرايين» وإنما الواحد إدريس، والمجموع إدريسي، لا إدرايس ولا إدراسي؟ فالجواب: أنه يجوز أن يكون لغة، كإبراهيم وإبراهام، ومثله:

﴿قَدْنِي مِن نَّضْرِ الْحَبِيبِينَ قَدِي﴾^(١)

وقرأ أبي بن كعب، وأبو نهيك: «سلام على ياسين» بحذف الهزمة واللام^(٢).

﴿وَلَوْ لَوَّمَا لَمِنَ الرَّسُولِ﴾^(٣) إِذْ جَاءَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعُونَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِبِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَوَلَّكْنَا لَثُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ﴿١٣٧﴾ وَوَالَّتِي آفَلَا تَقُولُونَ ﴿١٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ «إذ» هاهنا لا يتعلق بما قبله، لأنه لم يُرسل إذ نُجِّي، ولكنه يتعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد إذ نُجينا^(٣). وقد تقدم تفسير ما بعد هذا [الشعراء: ١٧١] إلى قوله: ﴿وَوَلَّكْنَا لَثُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ﴾^(١٣٧) هذا خطاب لأهل مكة، كانوا إذا ذهبوا إلى الشام وجازوا، مروا على قرى قوم لوط صباحاً ومساءً، ﴿أَفَلَا تَقُولُونَ﴾ فتعجبون؟!

﴿وَلَوْ يُوَسَّسُ لِمَنَ الرَّسُولِ﴾^(٣٩) إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿٤١﴾ فَالْقَمْعَةُ الْكُوثُ وَهُوَ يُمِيطُ ﴿٤٢﴾ فَكَلَّمَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿٤٣﴾ لَمِيتٌ فِي بَطْنِهِ إِنْ يَبْهتُونَ ﴿٤٤﴾ تَبَدَّدَتْ بِالْمَرْءِ وَهُوَ سَاقِطٌ ﴿٤٥﴾ وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَبْطِينٍ ﴿٤٦﴾ وَوَسَّيْنَاهُ إِنْ يَأْتِيهِ آلُ أَبٍ أَرَّ يُبَدِّلُونَ ﴿٤٧﴾ فَتَأْتُوا مُتَّعْتَمِهَاتٍ إِلَىٰ جِبْرِيلَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَتَى﴾^(٣٩) قال المبرد: تأويل «أتى»: تبعاد؛ وقال أبو عبيدة: فزع؛ وقال الزجاج: هرب؛ وقال بعض أهل المعاني: خرج ولم يؤذن له، فكان بذلك كالهارب من مولاه. قال الزجاج: والفلك: السفينة، والمشحون: المملوء، وساهم بمعنى [قارع]، «مِنَ الْمُدْحَضِينَ» أي: المغلوبين؛ قال ابن قتيبة: يقال: أدحض الله حجتَهُ، فَدَحَضَتْ، أي: أزالها [فزالت]، وأصل الدحض: الرُّقْنُ.

الإشارة إلى قصته

قد شرحنا بعض قصته في آخر (يونس) وفي (الأنبياء: ٨٦) على قدر ما تحتمله الآيات، ونحن نذكر هاهنا ما تحتمله. قال عبد الله بن مسعود: لما وعد يونس قومه بالعذاب بعد ثلاث، جأروا إلى الله ﷻ واستغفروا، فكف عنهم العذاب، فانطلق مغاضباً حتى انتهى إلى قوم في سفينة، فعرفوه فحملوه، فلما ركب السفينة وقفت، فقال: ما لسفيتكم؟ قالوا: لا ندري، قال: لكني أدري، فيها عبد أتى من ربّه، وإنها والله لا تسير حتى تلقوه، فقالوا: أما أنت يا نبي الله فوالله لا نلتقيك، قال: فافترعوا، فمن قرع قلبع، فافترعوا، فقرع يونس، فأبوا أن يُمكّنوه من الوُقع، فعداوا إلى

أبي حنيفة وجماة، قال: وقالت طائفة: تكره استقلالاً لا تبعاً، قال: وهي رواية عن أحمد، قال: وقال النووي: هو خلاف الأولى، قال: وقالت طائفة: تجوز مطلقاً، قال: وهو مقتضى صنيع البخاري، فإنه صرّ بالآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَرَسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾، ثم علّق الحديث الدال على الجواز مطلقاً، وعطبه بالحديث الدال على الجواز تبعاً، ثم قال الحافظ ابن حجر: وقال ابن القيم: المختار أن يصلّى على الأنبياء والملائكة وأزواج النبي ﷺ وآله وذريّته وأهل الطاعة على سبيل الإجماع، وتكره في غير الأنبياء لشخص مفرد بحيث يصير شعاراً، ولا سيما إذا ترك في حق مثله أو أفضل منه، كما يفعله الرافضة، فلو اتفق وقوع ذلك مفرداً في بعض الأحيان من غير أن يتخذ شعاراً، لم يكن به بأس، ولهذا لم يرد في حق غير من أمر النبي ﷺ يقول ذلك لهم وهم من أدنى زكاته إلا نادراً. اهـ.

(١) الرجز لحמיד الأرقط كما في «الصحيح» و«اللسان»: قند، و«القرطبي» ١١٨/١٥.

(٢) قال الطبري: والصواب من القراءة في ذلك حنفنا قرأه من قرأه ﴿سَلَّمَ عَلَيَّ﴾ بكسر ألفها، على مثال «إدرايين» لأن الله تعالى ذكره إنما أخبر عن كل موضع ذكر فيه نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم في هذه السورة، بأن عليه سلاماً، لا على آله، فكذلك السلام في هذا الموضع، ينبغي أن يكون على إلياس، كسلامه على غيره من أنبيائه، لا على آله على نحو ما بينا من معنى ذلك، ثم قال: فإن ظن طان أن إلياسين غير إلياس، فإن فيما حكينا من احتجاج من احتج بأن إلياسين هو إلياس غيبي عن الزيادة فيه. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط ﷺ أنه بعث إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فأنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكتهم بأنواع من العقوبات وجعل محلّتهم من الأرض بحيرة متنة قيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمرّ بها المسافرون ليلاً ونهاراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَلَّكْنَا لَثُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ﴾^(١٣٧) وَوَالَّتِي آفَلَا تَقُولُونَ ﴿١٣٨﴾ أي: أفلا تعجبون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟!

(٤) قال ابن جرير الطبري: وإن يونس لمرسل من المرسلين إلى أقوامهم إذ أتى إلى الفلك المشحون. اهـ.

الْقُرْعَة حَتَّى قَرَعَ يُونُسَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. وَقَالَ طَاوُوسٌ: إِنَّ صَاحِبَ السَّفِينَةِ هُوَ الَّذِي قَالَ: إِنَّمَا يَمْنَعُهَا أَنْ تَسِيرَ أَنْ فَيَكُم رَجُلًا مَشْهُومًا، فَاقْتَرَعُوا لِنَلْقَى أَحَدَنَا، فَاقْتَرَعُوا، فَقَرَعَ يُونُسَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: وَكُلَّ اللَّهُ بِهِ حَوْتًا، فَلَمَّا أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ التَّقَمَهُ، وَأَمْرٌ أَنْ لَا يَضُرَّهُ وَلَا يَكْلِمُهُ، وَسَارَتِ السَّفِينَةُ حَيْثُذُ. وَمَعْنَى التَّقَمَهُ: ابْتَلَعَهُ. ﴿وَقَوْ مَلِيمٌ﴾ قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: أَي: مُذْنِبٌ، يُقَالُ: أَلَامَ الرَّجُلُ: إِذَا أَتَى ذَنْبًا يَلَامُ عَلَيْهِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

تَعُدُّ مَعَاوِرًا لَا عُذْرَ فِيهَا [وَمَنْ يَخُذَلْ أَحْسَاهُ فَقَدْ أَلَامَا ^(١)]

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ^(٢) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: مِنَ الْمُصَلِّينَ، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير. والثاني: مِنَ الْعَابِدِينَ، قاله مجاهد، وهب بن منبه. والثالث: قول ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قاله الحسن. وروى عمران القحطان عن الحسن قال: والله ما كانت إلا صلاة أحدتها في بطن الحوت؛ فعلى هذا القول، يكون تسيبته في بطن الحوت. وجمهور العلماء على أنه أراد: لولا ما تقدم له قبل التقام الحوت إياه من التسيب، ﴿لَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلاَّ يَوْمَ يُعْتَرُونَ﴾ ^(٣) قال قتادة: لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة، ولكنه كان كثير الصلاة في الرخاء، فنجاه الله تعالى بذلك ^(٤). وفي قدر مكته في بطن الحوت خمسة أقوال: أحدها: أربعون يوماً، قاله أنس بن مالك، وكعب، وأبو مالك، وابن جريج، والسدي. والثاني: سبعة أيام، قاله سعيد بن جبير، وعطاء. والثالث: ثلاثة أيام، قاله مجاهد، وقاتدة. والرابع: عشرون يوماً، قاله الضحاك. والخامس: بعض يوم، التقمه ضحى، ونبذ قبل غروب الشمس، قاله الشعبي ^(٥).

قوله تعالى: ﴿تَبَدَّدَتْهُ﴾ قال ابن قتيبة: أَي: أَلْقَيْنَاهُ ﴿وَالْعَرَبُ﴾ وهي الأرض التي لا يتوارى فيها بشجر ولا غيره، وكأنه من عَرِيَ الشَّيْءُ.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْ مَقِيمٌ﴾ أَي: مريض؛ قال ابن مسعود: كهية الفرخ الممعوط الذي ليس له ريش. وقال سعيد بن جبير: أرحى الله تعالى إلى الحوت أن ألقه في البر، فألقاه لا شعر عليه ولا جلد ولا ظفر.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ سَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ ^(٦) قال ابن عباس: هو القرع، وقد قال أمية بن أبي الصلت قبل الإسلام: فَأَلْبَسَتْ يَقْطِينًا عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ

مِنَ اللَّهِ نَوَلَا اللَّهُ أَلْفَيْ سَاحِبًا ^(٧)

قال الزجاج: كل شجرة لا تنبت على ساق وإنما تمتد على وجه الأرض نحو القرع والبطيخ والحنظل، فهي يقطين، واشتقاقه من: قَطَنَ بالمكان: إذا أقام، فهذا الشجر ورقه كله على وجه الأرض، ولذلك قيل له: يقطين. قال ابن مسعود: كان يستظل بها ويصيب منها فيسبى فبكى عليها، فأوحى الله إليه: أتبكي على شجرة أن يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم؟! قال يزيد بن عبد الله بن قسيط: قَيْضُ [الله] له أروية من الوحش تروح عليه بكرة وعشياً فيشرب من لبنها حتى نبت لحمه. فإن قيل: ما الفائدة في إنبات شجرة اليقطين عليه دون غيرها؟ فالجواب: أنه خرج كالفرخ على ما وصفنا، وجلده قد ذاب، فأدنى شيء يمر به يؤذيه، وفي ورق اليقطين خاصية، وهو أنه إذا ترك على شيء، لم يقربه ذباب، فأنبته الله ليغطي ورقها ويمنع الذباب ريحه أن يسقط عليه فيؤذيه ^(٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلاَّ يَأْتِيهِ النَّبِيُّ﴾ ^(٩) اختلّفوا، هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه، أم بعد ذلك؟ على قولين: أحدهما: أنها كانت بعد نبذ الحوت إياه، على ما ذكرنا في [يونس: ٩٨]، وهو مروى عن ابن عباس. والثاني:

(١) البيت لام عمير بن سلمى الحنفي، وهو في «غريب القرآن» ٤٢٢، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: لوم.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ يعني يونس «كَانَ» مِنَ الْمُصَلِّينَ لله قبل البلاء الذي ابتلي به من العقوبة بالحبس في بطن الحوت ﴿لَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلاَّ يَوْمَ يُعْتَرُونَ﴾ يقول: لبي في بطنه إلى يوم القيامة يوم يموت الله فيه خلقه محبوساً، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء فأنقذه ونجّاه. اهـ.

(٣) قال ابن كثير، بعد أن ذكر هذه الأقوال: والله أعلم بمقدار ذلك. اهـ.

(٤) البيت في «الطبري» ١٠٣/٢٣، و«مجمع البيان» ٨٤/٢٣، و«البحر المحيط» ٣٧٥/٧.

(٥) قال ابن كثير: وذكر بعضهم في القرع فوائد: منها سرعة نياحه، وتظليل ورقه لكبره ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة تغذية لحمه، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بله وقشره أيضاً، قال: وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب اللبأ ويتبعه من حواشي الضفحة. اهـ.

أنها كانت قبل التقام الحوت له، وهو قول الأكثرين، منهم الحسن، ومجاهد، وهو الأصح. والمعنى: وكنا أرسلناه إلى مائة ألف، فلما خرج من بطن الحوت، أمر أن يرجع إلى قومه الذين أرسل إليهم^(١). وفي قوله: ﴿أَرْبَعَةَ ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا: أَنَّهَا بِمَعْنَى «بِل» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْفَرَاءُ. وَالثَّانِي: أَنَّهَا بِمَعْنَى الْوَاوِ، قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ. وَقَدْ قَرَأَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَمَعَاذُ الْقَارِي، وَأَبُو الْمُتَوَكَّلِ، وَأَبُو عَمْرَانَ الْجَوْنِيُّ: «ويزيدون» من غير ألف. والثالث: أنها على أصلها، والمعنى: أو يزيدون في تقديركم، إذا رآهم الرائي قال: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون. وفي زيادتهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم كانوا مائة ألف يزيدون عشرين ألفاً، رواه أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ^(٢). والثاني: أنهم كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً. والثالث: مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً، رواه عن ابن عباس. والرابع: أنهم كانوا يزيدون سبعين ألفاً، قاله سعيد بن جبيرة، ونوف.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتُوا﴾ في وقت إيمانهم قولان: أحدهما: عند معاينة العذاب. والثاني: حين أرسل إليهم يونس ﴿فَسَمِعْتَهُمْ إِذْ يَسْتَفْتُونَ﴾ إلى متى أجلهم.

﴿فَأَسْتَفْتُوا رَبَّنَا رَبَّنَا لَبِئْسَ الْأَوَّلُ ﴿١﴾ وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ يَخْتَارُ ﴿٢﴾ أَلَمْ نَكُنْ مَعَهُمْ إِذْ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُرًا ﴿٣﴾ لِيُنزِلَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَنَجِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَلَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ غَمًّا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا نَزَلَ بِرُسُلِهِمْ قَالَ لَا تِلْكَ إِلَّا آيَاتُ اللَّهِ وَمَا تُفَكِّرُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿فَأَسْتَفْتُوا رَبَّنَا رَبَّنَا لَبِئْسَ الْأَوَّلُ ﴿٧﴾ وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ يَخْتَارُ ﴿٨﴾ أَلَمْ نَكُنْ مَعَهُمْ إِذْ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُرًا ﴿٩﴾ لِيُنزِلَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَنَجِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿فَأَسْتَفْتُوا رَبَّنَا رَبَّنَا لَبِئْسَ الْأَوَّلُ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ يَخْتَارُ ﴿١٢﴾ أَلَمْ نَكُنْ مَعَهُمْ إِذْ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُرًا ﴿١٣﴾ لِيُنزِلَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَنَجِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتُوا﴾ أي: سل أهل مكة سؤال توبيخ وتقرير، لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله. ﴿وَهُمْ يَسْتَفْتُونَ﴾ أي: حاضرون. ﴿أَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيٌّ مَنِيعٌ﴾ أي: كذبهم ﴿لَيَقُولُنَّ وَلَدَّ اللَّهُ﴾ حين زعموا أن الملائكة بناته.

قوله تعالى: ﴿أَسْطَفَى الْبَنَاتِ﴾ قال الفراء: هذا استفهام فيه توبيخ لهم، وقد تُطرح ألف الاستفهام من التوبيخ، ومثله: ﴿أَذَقْتُم مَائِكُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٠]، وأذهبتم يُستفهم بها ولا يُستفهم، ومعناها واحد. وقرا أبو هريرة، وابن المسيب، والزهري، وابن جمار عن نافع، وأبو جعفر، وشيبة: «وانهم لكاذبون اضطفي» بالوصل غير مهموز ولا ممدود؛ قال أبو علي: وهو على [وجه] الخبر، كأنه قال: اضطفي البنات على البنين كما يقولون، كقوله: ﴿ذَقَّ إِنَّكَ آتَى الْفَيْرُزَ الْكَرِيمَ﴾ [الدخان: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿١﴾ ﴿اللَّهُ بِالْبَنَاتِ وَلَا نَفْسِكُمْ بِالْبَنِينَ! ﴿٢﴾ ﴿لَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٣﴾ أي: حجة [بيّنة] على ما تقولون، ﴿فَأَتُوا بِكِبْرِكُمْ﴾ الذي فيه حجتكم. ﴿وَسَمَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَمِينِ سَبْأً﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قالوا: هو إبليس أخوان، رواه العوفي عن ابن عباس؛ قال الماوردي: وهو قول الزنادقة والذين يقولون: الخير من الله، والشَّرُّ من إبليس. والثاني: أن كفار قريش قالوا: الملائكة بنات الله، والحيَّة صنف من الملائكة يقال لهم: الحيَّة، قاله مجاهد. والثالث: أن اليهود قالت: إن الله تعالى تزوج إلى الجن فخرجت من بينهم الملائكة، قاله قتادة، وابن السائب. فخرج في معنى الحيَّة قولان: أحدهما: أنهم الملائكة. والثاني: الجن. فعلى الأول، يكون معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْيَمِينَةَ﴾ أي: عَلِمْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إن هؤلاء المشركين ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ النار. وعلى الثاني، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْيَمِينَةَ﴾ أي: إن الجن أنفسهم لَمُحْضَرُونَ الحساب^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يعني الموحدين. وفيما استثنوا منه قولان: أحدهما: أنهم استثنوا من حضور النار، قاله مقاتل. والثاني: مما يصف أولئك، وهو معنى قول ابن السائب.

(١) قال ابن كثير: قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً، أمر بالقرء إليهم بعد خروجه من الحوت فصدقوه كلهم. اهـ.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ١٠٤/٢٣، والترمذي ١٥٥/٢ وقال: حديث غريب، وذكره السيوطي في «اللؤلؤ» ٢١٩/٥، وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي بن كعب.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: إنهم لمحضرون العذاب، لأن سائر الآيات التي ذُكر فيها الاحضار في هذه السورة إنما عُنِي به الاحضار في العذاب، كذلك في هذا الموضع. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ يعني المشركين ﴿وَمَا تَتَّبِعُونَ﴾ من دون الله، ﴿مَا آتَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما تعبدون ﴿يَقْتُلِينَ﴾ أي: بمضلين أحداً، ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أي: من سبق له في علم الله أنه يدخل النار.

﴿وَمَا يَأْتِي إِلَّا لَمْ يَمُوتْ﴾ ﴿وَمَا تَلَحُّنُ الصَّافُونَ﴾ ﴿وَمَا تَلَحُّنُ اللَّسَّيُونَ﴾ ﴿وَأَنْ كَانُوا يَقُولُونَ﴾ ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ ﴿وَأَمِيرُهُمْ سَمَوْتُ بَعِيرُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَاتُنَا لِعِبَادَاتِ الرَّسُولِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَوْ جُنَدْنَا لَهُمُ النَّبِيُّونَ﴾ ﴿فَوَلَّوْا عَنْهُمْ حَتَّىٰ جَاءَ﴾ ﴿وَأَمِيرُهُمْ سَمَوْتُ بَعِيرُونَ﴾ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ثم أخبر عن الملائكة بقوله: ﴿وَمَا يَأْتِي﴾ والمعنى: ما مِنَّا مَلَكَ ﴿إِلَّا لَمْ يَمُوتْ﴾ أي: مكان في السموات مخصوص بعبد الله فيه، ﴿وَمَا تَلَحُّنُ الصَّافُونَ﴾ قال قتادة: صفوف في السماء. وقال السدي: هو الصلاة. وقال ابن السائب: صفوفهم في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَحُّنُ اللَّسَّيُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: الْمُصَلُّونَ. والثاني: المترهون لله ﷻ عن السوء. وكان عمر بن الخطاب إذا أقيمت الصلاة أقبل على الناس بوجهه وقال: يا أيها الناس استنوا، فإنما يريد الله بكم هدي الملائكة، وإنا لتلحن الصَّافُونَ، وإنا لتلحن المُسَبِّحُونَ. ثم عاد إلى الإخبار عن المشركين، فقال: ﴿وَأَنْ كَانُوا يَقُولُونَ﴾ ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا﴾ أي: كتاباً في «الْيَقُولُونَ» لام توكيد؛ والمعنى: وقد كان كفار قريش يقولون قبل بعثة النبي ﷺ: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا﴾ أي: كتاباً ﴿مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مثل كتب الأولين، وهم اليهود والنصارى، ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ أي: لأخلصنا العبادة لله ﷻ. ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَاتُنَا﴾ أي: تقدّمنا وأعدنا للمرسلين بنصرهم. والكلمة قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْيُنِكَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿إِنَّهُمْ لَمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِالْحُجَّةِ﴾ ﴿وَلَوْ جُنَدْنَا﴾ يعني حزبنا المؤمنين ﴿لَمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِالْحُجَّةِ﴾ أيضاً والظفر. ﴿فَوَلَّوْا عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن كفار مكة ﴿حَتَّىٰ جَاءَ﴾ أي: حتى تنقضي مدّة إمهالهم. وقال مجاهد: حتى نأمرك بالقتال؛ فعلى هذا، الآية مُحْكَمَةٌ. وقال في رواية: حتى الموت؛ وكذلك قال قتادة. وقال ابن زيد: حتى القيامة؛ فعل هذا، يتطرق نسختها. وقال مقاتل بن حيان: نسختها آية القتال.

قوله تعالى: ﴿وَأَمِيرُهُمْ﴾ أي: انظر إليهم إذا نزل العذاب. قال مقاتل بن سليمان: هو العذاب بيد؛ وقيل: أبصر حالهم بقلبك ﴿سَمَوْتُ بَعِيرُونَ﴾ ما أنكروا، وكانوا يستعجلون بالعذاب تكديماً به، فقيل: ﴿أَمِعَانَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ يعني العذاب. وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران، والجحدري، وابن يعمر: ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ برفع النون وكسر الزاي وتشديدها ﴿بِسَاحِهِمْ﴾ أي: بفنائهم وناحيتهم. والساحة: فناء الدار. قال الفراء: العرب تكتفي بالساحة والعقوة من القوم، فيقولون: نزل بك العذاب ويساحتك. قال الزجاج: فكان عذاب هؤلاء القتل ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ النَّبِيِّينَ﴾ أي: بُسَّ صباح الذين أئذروا العذاب^(٢). ثم كرر ما تقدم توكيداً لوعده بالعذاب، فقال: ﴿وَوَلَّوْا عَنْهُمْ...﴾ الآيةيتين. ثم نزه نفسه عن قولهم بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ﴾ قال مقاتل: يعني عزّة من يتعزّز من ملوك الدنيا.

قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: من أخذ النساء والأولاد. ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: تسليّمه عليهم إكراماً لهم. والثاني: إخباره بسلامتهم. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على هلاك المشركين ونصرة الأنبياء والمرسلين^(٣).

(١) روى مسلم في «صحيحه» ١/٣٧١ عن حذيفة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «فصلنا على الناس بثلاث: جعلت صفونا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء».

(٢) قال ابن كثير: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ النَّبِيِّينَ﴾ أي: فبئس ما يصبحون، أي: بئس الصباح صباحهم، قال: ولهذا ثبت في «الصحيحين» عن أنس بن مالك ؓ قال: صبح رسول الله ﷺ خير، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم وراوا الجيش رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر خربت خير، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: والحمد لله ربّ العالمين الجني والإنس خالصاً دون ما سواه، لأن كل نعمة لعباده، فمنه، فالحمد له خالص لا شريك له، كما لا شريك له في نعمه عناهم، بل كلّها من قبّله ومن عنده. اهـ.

سورة ص

ويقال لها: سورة داود، وهي مَكِّيَّة [كُلُّهَا] بإجماعهم

فأما سبب نزول أولها، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن قريشاً شكَّوا رسولَ الله ﷺ إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟ فقال: «يا عم، إنما أريد منهم كلمة تَدُلُّ لهم بها العرب وتؤدِّي إليهم الجزية بها العجم»، قال: كلمة؟ قال: «كلمة واحدة»، قال: ما هي؟ قال: «لا إله إلا الله»، فقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ فنزلت فيهم: ﴿ص وَالْقُرْآنِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا نَجْمٌ﴾^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ١ ﴿بِئْسَ الَّذِي كَفَرُوا فِي عِزِّ وَبِقَافٍ﴾ ٢ ﴿كُرْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِنِ قَرِينٍ قَادُوا وَلَا تَجِيءُ مِنْ مِثْلِهِ﴾ ٣

واختلفوا في معنى «ص» على سبعة أقوال: أحدها: أنه قَسَمَ أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه بمعنى: صدَّق محمد، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: صدَّق الله، قاله الضحاك. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: معناه: صادق فيما وعد. وقال الزجاج: معناه: الصادقُ اللهُ تعالى. والرابع: أنه اسم من أسماء القرآن، أقسم الله به، قاله قتادة. والخامس: أنه اسم حَيَّةٍ رأسها تحت العرش ودُنْبُهَا تحت الأرض السفلى، حكاه أبو سليمان الدمشقي، وقال: أظنه عن عكرمة. والسادس: أنه بمعنى: حادِثُ القرآن، أي: انظر فيه، قاله الحسن، وهذا على قراءة من كسروا، منهم ابن عباس، [والحسن]، وابن أبي عبلة. قال ابن جرير: فيكون المعنى: صادِقٌ بِعَمَلِكَ الْقُرْآنِ^(٢)، أي: عارضه. وقيل: عارضه على عملك^(٣)، فانظر أين هو [منه]. والسابع: أنه بمعنى: صادِقٌ محمدٌ قلوبَ الخلق واستمالها حتى آمنوا به وأحبوه، حكاه الثعلبي^(٤)، وهذا على قراءة من فتح، وهي قراءة أبي رجاء، وأبي الجوزاء، وحמיד، ومحبوب عن أبي عمرو. قال الزجاج: والقراءة «صاد» بتسكين الدال، لأنها من حروف التَّهْجِي. وقد فُرِثَ بالفتح وبالكسر؛ فمن فتحها، فعلى ضربين: أحدهما: لالتقاء الساكنين. والثاني: على معنى: اتَّئَلُ «صاد»، ويكون [صاد] اسماً للسورة لا يتصرف؛ ومن كسر، فعلى ضربين: أحدهما: لالتقاء الساكنين أيضاً. والثاني: على معنى: صادِ القرآنِ بعملك، من قولك: صادَى يُصادي: إذا قَابَلَ وعادَلَ، يقال: صادَيْتُهُ: إذا قَابَلْتَهُ^(٥).

قوله تعالى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ في المراد بالذِّكْر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الشُّرف، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والسدي. والثاني: البيان، قاله قتادة. والثالث: التذكير، قاله الضحاك^(٥). فإن قيل: أين جواب القسم بقوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ﴾

(١) رواه أحمد، والترمذي ١٥٥/٢ عن ابن عباس، وقال الترمذي: هنا حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم في مستدرکه ٤٣٢/٢ وصححه، ووافقه الذهبي. ورواه الطبري ١٢٥/٢٣، والواحدي: ٢٠٩، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٩٥/٥، وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس.

(٢) في الأصل: صاد بعملك القرآن، ولعله سهو من الناسخ، وقد كتب على الصواب بعد قليل، وما أثبتاه من «الطبري» وكتب التفسير «واللسان»: صدي. تقدم الكلام على الحروف التي في أوائل السور في التعليق الذي في أول سورة (العنكبوت) وغيرها بما أغنى عن إعادته هاهنا، وقد تكلم المصنف على ذلك في أول سورة (البقرة).

(٤) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القراءة في ذلك عندنا السكون في كل ذلك، لأن ذلك القراءة التي جاءت بها قرآءة الأمصار مستغنية فيهم، وأنها حروف هجاء لأسماء المسنجات، فَيُفَرِّقُ إعراب الأسماء والأدوات والأصوات، فَيُسَلِّكُ بهن مسالكهن، فتأويلها إذ كانت كذلك تأويل نظائرها التي قد تقدم بيانها فيما مضى. اهـ.

(٥) رجح الطبري القول الثالث، وهو أنه بمعنى التذكير، قال: لأن الله تعالى أتبع ذلك قوله: ﴿بِئْسَ الَّذِي كَفَرُوا فِي عِزِّ وَبِقَافٍ﴾ فكان معلوماً بذلك أنه إنما أعبر عن القرآن أنه أنزله ذكراً لعباده ذكَّرتهم به، وأن الكفَّار من الإيمان به في عِزَّةٍ وشقاق. اهـ. وقال ابن كثير: إن في هذا القرآن لذكرى لمن يتدبَّر عبرة لمن يعتبر، وإنما لم يتنح به الكافرون، لأنهم ﴿بِئْسَ الَّذِي كَفَرُوا﴾ أي: استكبار عنه وحمية ﴿بِقَافٍ﴾ أي: ومخالفة له ومعاندة ومفارقة. اهـ.

وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ فَعِنْدَ خَمْسَةِ أَجُوبَةٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ «صَرَ» جَوَابٌ لِقَوْلِهِ: «وَالْقُرْآنَ»، فَ«صَرَ» فِي مَعْنَاهَا، كَقَوْلِكَ: وَجِبَ وَاللهُ، نَزَلَ اللهُ، حَقُّ اللهُ، قَالَه الْفَرَاءُ، وَتَعَلَّبَ. وَالثَّانِي: أَنَّ جَوَابَ «صَرَ» قَوْلُهُ: ﴿كُرَّ أَهْلُكَا مِنْ قَبْلِهِمْ بَيْنَ قَرْنَيْنِ﴾، وَمَعْنَاهُ: لَكُمُ، فَلَمَّا طَالَ الْكَلَامُ، حُذِفَتِ اللَّامُ، وَمِثْلُهُ: ﴿وَالشَّيْرُ وَصَحَّهَا ۝﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ۝﴾ [الشعر: ١، ٢٩]، فَإِنَّ الْمَعْنَى: لَقَدْ أَفْلَحَ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمَّا اعْتَرَضَ بَيْنَهُمَا كَلَامٌ، تَبِعَهُ قَوْلُهُ: «قَدْ أَفْلَحَ»، حَكَاهُ الْفَرَاءُ، وَتَعَلَّبَ أَيْضاً. وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ أَرْبُلًا﴾ [ص: ١٤]، حَكَاهُ الْأَخْفَشُ. وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ۝﴾ [ص: ٦٤]، قَالَه الْكِسَائِيُّ، وَقَالَ الْفَرَاءُ: لَا نَجِدُهُ مُسْتَقِيمًا فِي الْعَرَبِيَّةِ، لِتَأَخُّرِهِ جَدًّا عَنْ قَوْلِهِ: «وَالْقُرْآنَ». وَالخَامِسُ: أَنَّ جَوَابَهُ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ مَا الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُ الْكُفَّارُ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَحْذُوفِ قَوْلُهُ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَيَسْتَفْتُونَ ۝﴾، ذَكَرَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَإِلَى نَحْوِهِ ذَهَبَ قِتَادَةٌ^(١). وَالْوَجْزُ: الْحَبِيئَةُ وَالتَّكْبِيرُ عَنِ الْحَقِّ. وَقَرَأَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَأَبُو رِزِينَ، وَابْنُ يَعْمَرَ، وَعَاصِمُ الْجَحْدَرِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَمْرٍو: «فِي غِرَّةٍ» بِغَيْنٍ مَعْجَمَةٌ وَرَاءَ غَيْرِ مَعْجَمَةٍ. وَالشَّقَاقُ: الْخِلَافُ وَالْعِدَاوَةُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ الْكَلِمَتَيْنِ مُشْرُوحًا [البقرة: ١٣٨، ٢٠٦]. ثُمَّ خَوَّفَهُمْ يَقُولُهُ: ﴿كُرَّ أَهْلُكَا مِنْ قَبْلِهِمْ بَيْنَ قَرْنَيْنِ﴾ يَعْنِي الْأُمَّمَ الْخَالِيَةَ «فَتَادُوا» عِنْدَ وَقُوعِ الْهَلَاكِ بِهِمْ. وَفِي هَذَا النَّدَاءِ قَوْلَانُ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ الدُّعَاءُ. وَالثَّانِي: الْاسْتِنَاةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجِدُ حِينَ وَمَنْسٍ﴾ وَقَرَأَ الضَّحَّاكُ، وَأَبُو الْمُتَوَكَّلِ، وَعَاصِمُ الْجَحْدَرِيُّ، وَابْنُ يَعْمَرَ: «وَلَا تَجِدُ حِينَ» بِفَتْحِ النَّوْءِ وَرَفْعِ النَّوْنِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ حِينَ يَرُوهُ فِرَارٌ. وَقَالَ عَطَاءٌ: فِي لُغَةِ أَهْلِ الْيَمَنِ «لَا تَجِدُ» بِمَعْنَى «لَيْسَ». وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مَنْبَهٍ: هِيَ بِالسَّرْيَانِيَّةِ. وَقَالَ الْفَرَاءُ: «لَا تَجِدُ» بِمَعْنَى «لَيْسَ»، وَالْمَعْنَى: لَيْسَ بِحِينَ فِرَارٌ. وَمَنْ الْقَرَاءُ مَنْ يَخْفِضُ «لَا تَجِدُ»، وَالْوَجْهَ النَّصْبُ، لِأَنَّهَا فِي مَعْنَى «لَيْسَ»، أَنْشَدَنِي الْمَفْضَلُ:

تَذَكَّرْتُ حُبَّ لَيْلَى لَا تَجِدُنَا
وَأَضْحَى السُّنْبُوبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرِينَا^(٢)

قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: كَانَ الْفَرَاءُ وَالْكَسَائِيُّ وَالْخَلِيلُ وَسَبِيوهُ وَالْأَخْفَشُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ النَّوْءَ فِي قَوْلِهِ: «وَلَا تَجِدُ» مِنْقُوعَةٌ مِنْ «حِينَ»، قَالَ: وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْوَقْفُ عِنْدِي عَلَى هَذَا الْحَرْفِ «وَلَا»، وَالْإِبْتِدَاءُ «تَحِينُ» ثَلَاثُ حُجُجٍ: إِحْدَاهُنَّ: أَنَّ تَفْسِيرَ ابْنِ عَبَّاسٍ يَشْهَدُ لَهَا، لِأَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ حِينَ يَرُوهُ فِرَارٌ؛ فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ «لَيْسَ» هِيَ أُخْتُ «لَا» وَفِي مَعْنَاهُ. وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ لَا نَجِدُ فِي شَيْءٍ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ «وَلَا تَجِدُ»، إِنَّمَا الْمَعْرُوفَةُ «لَا». وَالثَّلَاثَةُ: أَنَّ هَذِهِ النَّوْءَ، إِنَّمَا وَجَدْنَاهَا تَلْحَقُ بِمَعْنَى «حِينَ» وَمَعَ «الْآنَ» وَمَعَ «أَوَّانَ»، فَيَقُولُونَ: كَانَ هَذَا تَحِينٌ كَانَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ: «تَأَوَّانَ»، وَيُقَالُ: أَذْهَبَ تَلَاوَنًا، وَمِنَهُ قَوْلُ أَبِي وَجْزَةَ السَّعْدِيِّ:

الْعَاطِفُونَ تَحِينًا مَا مِنْ عَاطِفٍ
وَالْمُطْعِمُونَ زَمَانًا مَا مِنْ مُطْعِمٍ^(٣)

وَذَكَرَ ابْنُ قَتَيْبَةَ عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ أَنَّ مَعْنَى هَذَا الْبَيْتِ: «الْعَاطِفُونَ» بِالْهَاءِ، ثُمَّ تَبَدَّدَتْ: «حِينَ» مَا مِنْ عَاطِفٍ؛ قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: وَهَذَا خَلَطٌ، لِأَنَّ الْهَاءَ إِنَّمَا تُقْتَحَمُ عَلَى التَّوْنِ فِي مَوَاضِعِ الْقَطْعِ وَالسُّكُونِ، فَأَمَّا مَعَ الْإِتِّصَالِ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مُوَجُودٍ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ التِّيْسَابُورِيُّ: النَّحْوِيُّونَ يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: «وَلَا تَجِدُ»: «لَا» زَيْدٌ فِيهَا النَّوْءُ، كَمَا قَالُوا: ثُمَّ وَثُمْتُ، وَرُبُّ وَرَيْثُ، وَأَصْلُهَا هَاءٌ وَصَلَّتْ بِ«لَا»، فَقَالُوا: «لَا»، فَلَمَّا وَصَلَتْهَا، جَعَلُوهَا تَاءً؛ وَالْوَقْفُ عَلَيْهَا بِالنَّوْءِ عِنْدَ الزَّجَاجِ، وَأَبِيُّ عَلِيٍّ، وَعِنْدَ الْكِسَائِيِّ بِالْهَاءِ، وَعِنْدَ أَبِي عُبَيْدَةَ الْوَقْفُ عَلَى «لَا»^(٤). فَأَمَّا الْمَنَاصُ، فَهُوَ الْفِرَارُ. قَالَ الْفَرَاءُ: النَّوْءُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: التَّأَخُّرُ وَالْبُؤْسُ: التَّقَدُّمُ، قَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ:

(١) وهو الذي رجحه الطبري في «تفسيره».

(٢) البيت في «الطبري» ١٢٢/٢٣، و«مجمع البيان» ٩٥/٢٣، و«القرطبي» ١٤٧/١٥.

(٣) البيت في «مشكل القرآن» ٤٠٤، و«الطبري» ١٢٣/٢٣، و«اللسان» و«التاج»: حين.

(٤) قال ابن كثير: وهذه الكلمة، وهي «لَا تَجِدُ» هي «لَا» التي للفتي زيدت معها التاء كما تزداد في «ثم» فيقولون: «ثمنت» و«رب» فيقولون: «ربنت» - وهي مفصولة (بمعنى كلمة «لَا»)، والوقف عليها، قال: ومنهم من حكى عن المصنف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بـ«حين» «لَا تَجِدُ» مناص؛ قال: والمشهور الأول، قال: ثم قرأ الجمهور بنصب «حين» تقديره: وليس حين حين مناص. اهـ.

أَمِنْ ذِكْرِ سَلَمَى إِذْ نَأَتْكَ تَنُوصُ

فَتَقْضِرُ عَنْهَا عَظْوَةً وَتَبُوصُ^(١)

وقال أبو عبيدة: المتأص، مصدر ناص يتوص، وهو المنجى والفوز.

﴿وَجَبْرًا أَنْ جَاءَهُمْ سُذُورٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفْرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿أَجْمَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَجِدًّا إِنَّ هَذَا لَكُنْزٌ عَجَابٌ﴾ ﴿وَأَنطَلَقَ الْكَلَّا مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَسْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَكُنْزٌ يَرَادُ﴾ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْخِلَاقٌ﴾ ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابٌ﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُ خِزَائِنٌ رَحْمَةً رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ أَلْسِنَاتٌ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا فَتُرَفَّقُوا فِي الْأَنْسَابِ﴾ ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَبْرًا﴾ يعني الكفار ﴿أَنْ جَاءَهُمْ سُذُورٌ مِنْهُمْ﴾ يعني رسولا من أنفسهم يُذِرُهُم النَّارَ. ﴿أَجْمَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَجِدًّا﴾ لأنه دعاهم إلى الله وحده وأبطل عبادة آلهتهم؛ وهذا قولهم لما اجتمعوا عند أبي طالب، وجاء رسول الله ﷺ فقال: «أتعطوني كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم، وهي «لا إله إلا الله»، فقاموا يقولون: «أجعل الآلهة إلها واحدا»، ونزلت هذه الآية فيهم^(٢). ﴿إِنَّ هَذَا﴾ [الذي] يقول محمد من أن الآلهة إله واحد ﴿لَكُنْزٌ عَجَابٌ﴾ أي: لأمر عَجَبٌ. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو العالية، وابن يعمر، وابن السميع: «عَجَابٌ» بتشديد الجيم. قال اللغويون: العَجَابُ والعُجَابُ والعجيب بمعنى واحد، كما تقول: كَبِيرٌ وَكِبَارٌ وَكُبَارٌ، وَكَرِيمٌ وَكِرَامٌ وَكِرَامٌ، وَطَوِيلٌ وَطَوَالٌ وَطَوَّالٌ؛ وأنشد الفراء:

جَاؤُوا بِصُنْدِ عَجَبٍ مِنَ الْعَجَبِ

أَزِيرِقِ الْعَيْنِينَ طَوَّالِ الذَّنْبِ^(٣)

قال قتادة: عجب المشركون أن دُعي الله وَخَدَهُ، وقالوا: أَيْسَمُعُ لِجَاجَتَانَا جَمِيعًا إِلَهُ وَاحِدًا؟!

قوله تعالى: ﴿وَأَنطَلَقَ الْكَلَّا مِنْهُمْ﴾ قال المفسرون: لما اجتمع أشرف قريش عند أبي طالب وشكوا إليه رسول الله ﷺ على ما سبق بيانه، نفرّوا من قول: «لا إله إلا الله»، وخرجوا من عند أبي طالب، فذلك قوله: ﴿وَأَنطَلَقَ الْكَلَّا مِنْهُمْ﴾. والانطلاق: الذّهَابُ بسهولة، ومنه طَلَاةٌ الْوَجْهَ. والملا: أشرف قريش. فخرجوا يقول بعضهم لبعض: «أَمْشُوا». و﴿أَنْ﴾ بمعنى «أي»؛ فالمعنى: أي: امشوا. قال الزجاج: ويجوز أن يكون المعنى: انطلقوا بأن امشوا، أي: انطلقوا بهذا القول. وقال بعضهم: المعنى: انطلقوا يقولون: امشوا إلى أبي طالب فاشكوا إليه ابن أخيه، ﴿وَأَسْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي: اثبتوا على عبادتها ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي نراه من زيادة أصحاب محمد ﴿لَكُنْزٌ يَرَادُ﴾ أي: لأمر يُرَادُ بِتَأ. ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الذي جاء به محمد من التوحيد ﴿فِي آلِهَةِ الْآخِرَةِ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: النصرانية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وإبراهيم بن المهاجر عن مجاهد، وبه قال محمد بن كعب القرظي، ومقاتل. والثاني: أنها ملّة قريش، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد، وبه قال قتادة. والثالث: اليهودية والنصرانية، قاله الفراء، والزجاج؛ والمعنى أن اليهود أشركت بعزير، والنصارى قالت: ثالث ثلاثة، فهذا أنكرت التوحيد. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به محمد ﷺ ﴿إِلَّا أَنْخِلَاقٌ﴾ أي: كذب. ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ﴾ يعنون القرآن. «عليه» يعنون رسول الله ﷺ، ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: كيف حُصِّنَ بهذا دوننا وليس بأعلانا نسبًا ولا أعظمنا شرفًا؟! قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ أي: من القرآن؛ والمعنى أنهم ليسوا على يقين مما يقولون، إنما هم شاكّون ﴿بَلْ لَمَّا﴾ قال مقاتل: «لَمَّا» بمعنى «لم» كقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْعُلُ الْإِنْسُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٢١٤]. وقال غيره: هذا تهديد لهم؛ والمعنى أنه لو نزل بهم العذاب، علموا أن ما قاله محمد حق. وأثبت ياء ﴿عَذَابٌ﴾ في الحالين يعقوب. قال الزجاج: ولما دلّ قولهم: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ﴾ على حسدهم له، أعلم الله ﷻ أن المملك والرسالة إليه، فقال: ﴿أَمْ عِنْدَهُ خِزَائِنٌ رَحْمَةً رَبِّكَ﴾؟! قال المفسرون: ومعنى الآية: بأيديهم مفاتيح النبوّة فيضعونها حيث

(١) «ديوانه» ١٧٧، و«غريب القرآن» ٣٧٦، و«الطبري» ١٢٠/٢٣، و«مختار الشعر الجاهلي» ١٢٧/١، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: بوض.

(٢) تقدم تخريج الحديث في أول السورة حيث ذكر المصنف هناك سبب نزول هذه الآيات من أول السورة إلى هنا، وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٤١: وروى الترمذي والنسائي وابن حبان وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبري وابن أبي حاتم وغيرهم، من طريق يحيى بن عمار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: مرض أبو طالب فجاهته قريش وجاء النبي ﷺ... الحديث.

(٣) البيت في «مجمع البيان» ٩٤/٢٣.

شاؤوا؟! والمعنى: ليست بأيديهم، ولا مُلْكُ السموات والأرض لهم، فإن ادَّعَوْا شيئاً من ذلك ﴿فَلْيَرْتُقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ قال سعيد بن جبيرة: أي: في أبواب السماء. وقال الزجاج: فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء.

قوله تعالى: ﴿جُنْدٌ﴾ أي: هُمُ جُنْدٌ. والجُنْدُ: الأتباع؛ فكانه قال: هُمُ أتباعٌ مقلدون ليس فيهم عالمٌ راشد. و﴿مَأْ﴾ زائدة، و﴿مُنَالِكِ﴾ إشارة إلى بدر. والأحزاب: جميع مَنْ تقدّمهم من الكفار الذين تحزّبوا على الأنبياء. قال قتادة: أخبر الله نبيّه وهو بمكة أنه سيَهْزِمُ جُنْدَ المشركين، فجاء تأويلها يوم بدر.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَصَادُّ وَفِرْعَوْنُ ذُرَّ الْأَوْتَادِ ﴿١١﴾ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٢﴾ إِنْ كُلِّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿١٣﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾^(١) قال أبو عبيدة: قَوْمٌ من العرب يؤثنون «القوم»، وقوم يذكرون، فإن احتجّ عليهم بهذه الآية، قالوا: وقع المعنى على العشيرة، واحتجّوا بقوله: ﴿لَا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ﴿١١﴾﴾ [عبس: ١١]، قالوا: والمضمر مذكّر.

قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُرَّ الْأَوْتَادِ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أنه كان يعذب الناس بأربعة أوتاد يشدّهم فيها، ثم يرفع صخرة فتلقى على الإنسان فتشدّه، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وكذلك قال الحسن، ومجاهد: كان يعذب الناس بأوتاد يؤتدّها في أيديهم وأرجلهم. والثاني: أنه ذو البناء المُحكّم، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الضحاك، والقرظي، واختاره ابن قتيبة، قال: والعرب تقول: هُمُ في عزٍّ ثابتٍ الأوتاد، ومُلكٍ ثابتٍ الأوتاد، يريدون أنه دائم شديد، وأصل هذا، أن البيت [من بيوتهم] يثبت بأوتاد، قال الأسود بن يَغْفَرُ:

أولقد عَنُوا فيها بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ [فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ^(٢)]

والثالث: أن المراد بالأوتاد: الجنود، رواه عطية عن ابن عباس، وذلك أنهم كانوا يشدّون مُلكه ويُقوون أمره كما يقوي الوتد الشيء. والرابع: أنه كان يبني متاراً يذبح عليها الناس. والخامس: أنه كان له أربع أسطوانات، فيأخذ الرجل فيمُدُّ كلَّ قائمة إلى أسطوانة فيعذّبه، روي القولان عن سعيد بن جبيرة. والسادس: أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب له عليها، قاله عطاء، وقاتدة^(٣). ولما ذكر المكذّبين، قال: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ فأعلمنا أن مشركي قريش من هؤلاء، وقد عذبوا وأهلكوا، ﴿فَحَقَّ عِقَابٌ﴾^(٤)، أثبت الباء في الحاليين يعقوب. ﴿وَمَا يَنْظُرُ﴾ أي: وما ينتظر ﴿هَؤُلَاءَ﴾ يعني كفار مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها النفخة الأولى، قاله مقاتل. والثاني: النفخة الأخيرة، قاله ابن السائب^(٥). وفي الفَواقِ قراءتان: قرأ حمزة، وخلف، والكسائي: بضم الفاء. وقرأ الباقون:

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حلّ بهم من العذاب والثكال والنفقات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال: وقد تقدمت قصصهم بسوطة في أماكن متعددة. اهـ.

(٢) البيت في «غريب القرآن» ٣٧٧، و«البحر المحيط» ٣٨٦/٧، و«القرطبي» ١١٥/١٥، و«المفضليات» ٢١٧. ومعنى «عَنُوا»: أقاموا، يقال: عَنَيْنا بمكان كذا وكذا.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عَنِي بذلك الأوتاد، إما لتعذيب الناس، وإما ليلعب كان يُلقبُ به بها، وذلك أن ذلك هو المعروف من معنى الأوتاد (وتمود وقوم لوط) فود ذكرنا أخبار كلِّ هؤلاء فيما مضى قبل من كتابنا هذا، قال: ﴿وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾ يعني: وأصحاب النفخة. اهـ.

(٤) في الأصل: فكيف كان عقاب، ولعل المصنف رحمه الله اشتبهت عليه هذه الآية بآية سورة [الرعد: ٣٢]. قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ يقول تعالى ذكّره: هؤلاء الجماعات المجتمعة والأحزاب المتحرّية على معاصي الله والكفر به، الذين منهم يا محمد مشركو قومك، وهم مسلوک بهم سبيلهم ﴿إِنْ كُلِّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ يقول: ما كل هؤلاء الأمم إلا كذب رسل الله ﴿فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ يقول: فوجب عليهم عقاب الله إياهم. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي: كانوا أكثر منكم، وأشدّ قرة، وأكثر أمراً وأولاداً، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لئلا جاء أمر ربك، قال: ولهذا قال ﴿إِنْ كُلِّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ ففعل علّة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: وهذه الصيحة، هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرائيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع، إلا من استثنى الله ﷻ. اهـ.

بفتحها. وهل بينهما فرق، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنهما لغتان بمعنى واحد، وهو معنى قول الفراء، وابن قتيبة، والزجاج. قال الفراء: والمعنى: ما لها من راحة ولا إفاقة، وأصله من الإفاقة في الرضاع إذا ارتضعت البهيمة أمها ثم تركتها حتى تنزل شيئاً من اللبن، فتلك الإفاقة. وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «العبادة قَدْرُ فُوقِ نَاقَةٍ»^(١). ومن يفتح الفاء، فهي لغة جيدة عالية. وقال ابن قتيبة: الفُوقُ والفُوقُ واحد، وهو أن تُحَلَبَ النَّاقَةُ وتُتْرَكُ ساعة حتى تُنزل شيئاً من اللبن، ثم تُحَلَب، فما بين الحَلْبَيْنِ فُوق، فاستعير الفُوقُ في موضع المكث والانتظار. وقال الزجاج: الفُوقُ: ما بين حلبي النَّاقَةِ، وهو مشتق من الرُّجُوع، لأنه يَعُودُ اللَّبَنُ إلى الضَّرْعِ بين الحَلْبَيْنِ، يقال: أفاق من مرضه، أي: رَجَعَ إلى الصَّحَّةِ. والثاني: أن مَنْ فتحها، أراد: ما لها مِنْ راحة، ومن ضَمَّها، أراد: فُوقِ النَّاقَةِ، قاله أبو عبيدة. وللمفسرين في معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: ما لها من رجعة، ثم فيه قولان: أحدهما: مالها من ترداد، قاله ابن عباس، والمعنى أن تلك الصبيحة لا تُكْرَرُ. والثاني: ما لها من رجوع إلى الدنيا، قاله الحسن، وقتادة، والمعنى أنهم لا يعودون بعدوا إلى الدنيا. قاله الحسن، وقتادة، والمعنى أنهم لا يعودون بعدوا إلى الدنيا. والثاني: ما لهم منها من إفاقة، بل تُهْلِكُهُمْ، قاله ابن زيد. والثالث: مالها من قُتُورٍ ولا انقطاع، قاله ابن جرير. والرابع: ما لها من راحة، حكاها جماعة من المفسرين.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا جِئْنَاكَ بِفُلَانٍ قَدْرًا قَلِيلًا مِمَّا نَدْعُوا بِكَ وَالَّذِينَ آمَنُوا يَدْعُونَ لَكَ بِالنَّاقَةِ وَأَسْبَحُوا بِهَا وَرَبُّكَ الْأَعْلَى﴾^(٢) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا جِئْنَاكَ بِفُلَانٍ قَدْرًا قَلِيلًا مِمَّا نَدْعُوا بِكَ وَالَّذِينَ آمَنُوا يَدْعُونَ لَكَ بِالنَّاقَةِ وَأَسْبَحُوا بِهَا وَرَبُّكَ الْأَعْلَى﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا جِئْنَاكَ بِفُلَانٍ قَدْرًا قَلِيلًا مِمَّا نَدْعُوا بِكَ وَالَّذِينَ آمَنُوا يَدْعُونَ لَكَ بِالنَّاقَةِ وَأَسْبَحُوا بِهَا وَرَبُّكَ الْأَعْلَى﴾ في سبب قولهم هذا قولان: أحدهما: أنه لما ذُكِرَ لهم ما في الجنة، قالوا هذا، قاله سعيد بن جبير، والسدي. والثاني: أنه لما نزل قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَ بَيَّسَبُو...﴾^(٤) الآيات (الحاقة: ١٩ - ٢٧)، قالت قريش: زعمت يا محمد أننا نؤتي كتبنا بشمائلنا؟ فعجل لنا قُلْنَا، يقولون ذلك تكديباً له، قاله أبو العالية، ومقاتل^(٥). وفي المراد بالقَطِّ أربعة أقوال: أحدها: أنه الصحيفة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال الفراء: القَطُّ في كلام العرب: الصَّكُّ، وقال أبو عبيدة: القَطُّ: الكتاب، والقَطُوط: الكتب بالجواز، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن، ومقاتل، وابن قتيبة. والثاني: أن القَطُّ: الحساب، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه القضاء، قاله عطاء الخراساني، والمعنى أنهم لما وُعدوا بالقضاء بينهم، سألو ذلك. والرابع: أنه النصب، قاله سعيد بن جبير^(٦). [قال الزجاج: القَطُّ: النصب، وأصله: الصحيفة يُكْتَبُ للإنسان^(٧) فيها شيء يَصِلُ إليه، واشتقاقه من قَطَطْتُ، أي: قَطَعْتُ، فالنَّصِبُ: هو القطعة من الشيء. ثم في هذا القول للمفسرين قولان: أحدهما: أنهم سألوه نصيبهم من الجنة، قاله سعيد بن جبير]. والثاني: سألوه نصيبهم من العذاب، قاله قتادة. وعلى جميع الأقوال، إنما سألو ذلك استهزاءً، لتكذيبهم بالقيامة. ﴿أَسْبَحُوا عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾^(٨) أي: من تكذيبهم وأذاهم؛ وفي هذا قولان: أحدهما: أنه أمير البصير، سلوكاً لطريق أولي العزم، وهذا مُحْكَم. والثاني: أنه منسوخ بآية السيف فيما زعم الكلبي.

(١) هذا الحديث ذكره الحافظ السيوطي في «الجامع الصغير» من رواية البيهقي في «شعب الإيمان» عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «العبادة فُوقِ نَاقَةٍ» ولم يكلم عليه الحافظ المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير؛ بشيء، بل قال: ورواه عنه النليمي بلا سند. اهـ.

(٢) ذكر هذين القولين الطبرسي في مجمع البيان كما هما هنا بدون سند، وكذلك ذكر هذا المعنى البغوي والخازن بدون سند.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن القوم سألوهم تعجيل صحتهم بخلطهم من الخبز أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا، استهزاءً بوعد الله، قال: وإنما قلنا: إن ذلك كذلك، لأن القَطُّ هو ما وصفت من الكتب بالجواز والحظوظ، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوهم تعجيل ذلك لهم، ثم أتبع ذلك قوله لبيد: ﴿أَسْبَحُوا عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ فكان معلوماً بذلك أن سألهم ما سألو النبي ﷺ، لو لم تكن على وجه الاستهزاء منهم، لم يكن بالذي يقع الأمر بالبصير عليه، ولكن لما كان ذلك استهزاءً وكان فيه إرسول الله ﷺ أذى، أمره الله بالبصير عليه منهم حتى يأتيه قضاؤه فيهم، ولما لم يكن في قوله: ﴿جِئْنَاكَ بِفُلَانٍ قَدْرًا قَلِيلًا﴾ بيان أي القَطُوط إرادتهم، لم يكن لنا توجيه ذلك إلى أنه معني به القَطُوط بيمض معاني الخير أو الشر، فلذلك قلنا: إن سألهم كانت بما ذكرت من حظوظهم من الخير والشر. اهـ.

(٤) في الأصل: الإنسان.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ في وجه المناسبة بين قوله: «اصبر» وبين قوله: «وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ» قولان أحدهما: أنه أمر أن يتقوى على الصبر بذكر قوة داود على العبادة والطاعة. والثاني: أن المعنى: عرفهم أن الأنبياء ﷺ مع طاعتهم - كانوا خائفين مني، هذا داود مع قوته على العبادة، لم يزل باكباً مستغفراً، فكيف حالهم مع أفعالهم؟! فاما قوله: ﴿فَا الْآيَةُ﴾ فقال ابن عباس: هي القوة في العبادة. وفي «الصححين» من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الصَّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ»^(١). وفي الأواب أقوال قد ذكرناها في [بني إسرائيل: ٢٥]. ﴿لِنَا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ﴾. قد ذكرنا تسييح الجبال معه في [الأنبياء: ٧٨]، وذكرنا معنى العشي في مواضع مما تقدم [آل عمران: ٤١]، [الانعام: ٥٣]، وذكرنا معنى الإشراق في [الحجر: ٧٣] عند قوله: ﴿تُشْرِقُكَ﴾. قال الزجاج: الإشراق: طلوع الشمس [وإضاءتها]. وروي عن ابن عباس أنه قال: طَلَبْتُ صَلَاةَ الضُّحَى، فلم أجدها إلا في هذا الآية. وقد ذكرنا عنه أن صلاة الضحى مذكورة في [النور: ٣٦] في قوله: ﴿بِالنُّورِ وَالْأَصْوَالِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ مَخْشَوَةٌ﴾ وبالرفع فيها، أي: مجموعة إليه، تسبح الله معه ﴿كُلُّ لَهْمٍ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى داود، أي: كلُّ لداود ﴿وَأَبٌ﴾ أي: رجّاع إلى طاعته وأمره، والمعنى: كلُّ له مطيع بالتسبيح معه، هذا قول الجمهور. والثاني: [أنها] ترجع إلى الله تعالى، فالمعنى: كلُّ مسبح لله، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَرْنَا مَلَكًا﴾ أي: قويناها. وفي ما شدَّ به مُلْكُهُ قولان: أحدهما: أنه الحرسُ والجنود؛ قال ابن عباس: كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل. والثاني: أنه هَيِّئَةُ الْقِيَمَتِ له في قلوب الناس؛ وهذا المعنى مروى عن ابن عباس أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَتَأْتِيَنَّكَ الْحِكْمَةُ﴾ وفيها أربعة أقوال: أحدها: أنها الفهم، قاله ابن عباس، والحسن، وابن زيد. والثاني: الصواب، قاله مجاهد. والثالث: السنّة، قاله قتادة. والرابع: النبوة، قاله السدي. وفي فصل الخطاب أربعة أقوال: أحدها: علّم القضاء والعدل، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: بيان الكلام، روي عن ابن عباس أيضاً. وذكر الماوردي أنه البيان الكافي في كل غرض مقصود. والثالث: قوله «أما بعد»، وهو أول من تكلم بها، قاله أبو موسى الأشعري، والشعبي. والرابع: تكليف المدعي البيّنة، والمدعي عليه اليمين، قاله شريح، وقتادة؛ وهو قول حسن، لأن الخصومة إنما تُفصل بهذا.

﴿وَمَلَّ أَنْتَا نَبَا الْحَصَمِ إِذْ سَرَوْا بِالْحَرْبِ﴾ (١١) إِذْ سَلُّوا عَلَى دَاوُدَ فَنَزَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَاتَّكِرْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُلْطِفْ وَأَهْنَأْ إِلَى سَوَاءِ الْبَصِيرِ (١٢) إِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَسَعْ رِشْقُونَ تَجَمُّعًا وَرَى قِيَمَةً وَجِدَّةً فَقَالَ أَكْفَلِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (١٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيمِكَ إِنَّكَ يَلْمِجُوهُ وَإِنَّ كَبِيرًا مِنْ اللَّطَلِطِ لِيَبِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَعَلَى دَاوُدَ أَمَا فَتَنَّهُ فَاسْتَعْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (١٤) فَفَرَقْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَكَابٍ (١٥) يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْزِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنْفُسُ يَوْمَ الْحِسَابِ (١٦)

قوله تعالى: ﴿وَمَلَّ أَنْتَا نَبَا الْحَصَمِ﴾ قال أبو سليمان: المعنى: قد أتاك فاستمع له نقضض عليك. واختلف العلماء في السبب الذي امتحن لأجله داود ﷺ بما امتحن به على خمسة أقوال: أحدها: أنه قال: يا رب قد أعطيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذكر ما لو وِدِدْتُ أَنَّكَ أَعْطَيْتَنِي مِنْهُ، فقال الله تعالى: إني ابتليتهم بما لم آبتلك به، فإن شئت ابتليتك بمثل ما ابتليتهم به وأعطيتك كما أعطيتهم؟ قال: نعم، فبينما هو في محرابه إذ وقعت عليه حمامة، فأراد أن يأخذها فطارت، فذهب ليأخذها، فرأى امرأة تغتسل، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال السدي^(١). والثاني: أنه ما

(١) رواه البخاري في «صحيحه» ١٤/٣، ومسلم ٨١٦/٢ باختلاف يسير في الفاظه، والحديث رواه أيضاً أبو داود، والنسائي، وابن ماجه وغيرهم.

(٢) رواه الطبري من رواية العوفي عن ابن عباس ١٤٦/٢٣ والعوفي ضعيف، ورواه عن السدي بنحوه ١٤٧/٢٣.

زال يجتهد في العبادة حتى برز له قنאוؤه من الملائكة وكانوا يصلون معه ويُسعدونه بالبكاء، فلما استأنس بهم، قال: أخبروني بأي شيء أنتم موكلون؟ قالوا: ما نكتب عليك ذنباً، بل نكتب صالح عملك ونثبتك ونوقئك ونصرف عنك الشؤم، فقال في نفسه: ليت شعري، كيف أكون لو خلوني ونفسي؛ وتمنى أن يُخلى بينه وبين نفسه ليتعلم كيف يكون، فأمر الله تعالى قُرآنه أن يعتزلوه ليتعلم أنه لا عَنَاءَ به عن الله ﷻ، فلما فقدهم، جَدَّ واجتهد ضعفت عبادته إلى أن ظَنَّ أنه قد غَلَبَ نَفْسَهُ، فأراد الله تعالى [أن يَعْرِفَهُ ضَعْفَهُ، فأرسل إليه طائراً من طيور الجنة، فسقط في محرابه، فقطع صلاته ومدَّ يده إليه، فتنحى عن مكانه، فأَتَبَعَهُ بَصْرَهُ، فإذا امرأة أوريا، هذا قول وهب بن منبه^(١). والثالث: أنه تَذَاكُرُ هو وبنو إسرائيل، فقالوا: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً؟ فأضمر داود في نفسه أنه سَيُطِيقُ ذلك، فلما كان يوم عبادته، أغلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد وأكبَّ على قراءة الزُّبور، فإذا حمامة من ذهب، فأهوى إليها فطارت، ففتبعها فرأى المرأة، رواه مطر عن الحسن^(٢). والرابع: أنه قال لبني إسرائيل حين ملك: والله لأغْدِلَنَّ بينكم، ولم يستن، فابتلي، رواه قتادة عن الحسن. والخامس: أنه أعجبه كثرة عمله، فابتلي، قاله أبو بكر الوراق^(٣).

الإشارة إلى قصة ابتلائه

قد ذكرنا عن وهب أنه قال: كانت الحمامة من طيور الجنة. وقال السدي: تصوّر له الشيطان في صورة حمامة. قال المفسرون: إنه لما تبع الحمامة، رأى امرأة في بستان على شطِّ بركة لها تغتسل، وقيل: بل على سطح لها، فعجب من حسنها، فحانت منها التفاتة فرأت ظلّه، فنقضت شعرها، فغطى بدنّها، فزاده ذلك إعجاباً بها، فسأل عنها، فقيل: هذه امرأة أوريا، وزوجها في غزاة، فكتب داود إلى أمير ذلك الجيش أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا، وقدمه قبل التابوت، وكان مَنْ قُدِّمَ على التابوت لا يَحِلُّ له أن يرجع حتى يُفْتَحَ عليه أو يستشهد، ففعل ذلك، ففتّح عليه، فكتب إلى داود يخبره، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدوِّ كذا وكذا، ففتّح له، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدوِّ كذا وكذا، فقتل في المرّة الثالثة، فلما انقضت عدّة المرأة تزوّجها داود، فهي أم سليمان، فلما دخل بها لم^(٤) يلبث إلا يسيراً حتى بعث الله ﷻ ملكين في صورة إنسيين، وقيل: لم يأتها الملكان حتى جاء منها سليمان وشبَّ، ثم أتياه فوجدها في محراب عبادته، فمتعهما الحرس من الدخول إليه، فتسورا المحراب عليه؛ وعلى هذا الذي ذكرناه من القصة أكثر المفسرين^(٥)، وقد روى نحوه العوفي عن ابن عباس، وروي عن الحسن، وقاتة، والسدي، ومقاتل في آخرين. وذكر جماعة من المفسرين أن داود لما نظر إلى المرأة، سأل عنها، وبعث زوجها إلى الغزاة مرّة بعد مرّة إلى أن قُتل، فزوّجها؛ وروي مثل [هذا] عن ابن عباس، ووهب، والحسن في جماعة. قال المصنّف: وهذا لا يصح من طريق النقل، ولا يجوز من حيث المعنى، لأن الأنبياء منزّهون عنه. وقد اختلف المحقّقون في ذنبه الذي عُوتب عليه على أربعة أقوال: أحدها: أنه لما هويها، قال لزوجها: تحوّل لي عنها، فعُوتب على ذلك. وقد روى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: ما زاد داود على أن قال لصاحب المرأة: أَكْفُلِيْنِيهَا وتحوّل لي عنها؛ ونحو ذلك روي عن ابن مسعود^(٦). وقد حكى أبو سليمان

(١) ذكر الطبري ١٤٩/٢٣ بسند فيه جهالة من رواية ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه، والله أعلم.

(٢) رواه الطبري ١٤٨/٢٣ من رواية مطر عن الحسن، ومطر هو ابن طهمان الوراق، أبو رجاء، قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: صدوق كثير الخطأ.

(٣) قال ابن كثير عن تفسير هذه الآية: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب أتباعه، قال: ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ﷺ، ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، قال: فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُردَّ علمها إلى الله ﷻ، فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضاً. اهـ. وخبر يزيد الرقاشي، ذكره بطوله الطبري في «تفسيره» من رواية ابن لهيعة عن أبي صخر عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك ﷺ، وهو خير لا يصح سنده كما قال الحافظ ابن كثير.

(٤) في الأصل: فلم.

(٥) وقد رأيت قول ابن كثير قبل قليل: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب أتباعه.

(٦) «الطبري» ١٤٤/٢٣، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٠٣/٥ من رواية عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، ومن رواية ابن جرير عن ابن مسعود.

الدمشقي أنه بعث إلى أوريا فأقدمه من غزاته، فأدناه وأكرمه جداً، إلى أن قال له يوماً: أنزل لي عن امرأتك؛ وانظر أي امرأة شئت في بني إسرائيل أزوجكها، أو أي أمة شئت أبتاعها لك، فقال: لا أريد بامرأتي بديلاً؛ فلما لم يُجبه إلى ما سأل، أمره أن يرجع إلى غزاته. والثاني: أنه تمتى تلك المرأة حلالاً، وحدثت نفسه بذلك، فاتفق غزو أوريا وهلاكه من غير أن يسعى في سبب قتله ولا في تعريضه للهلاك، فلما بلغه قتله، لم يخزج عليه كما جزع على غيره من جنده، ثم تزوج امرأته، فغوتب على ذلك. وذنوب الأنبياء ﷺ وإن صغرث، فهي عظيمة عند الله ﷻ. والثالث: أنه لما وقع بصره عليها، أشبع النظر إليها حتى علقت بقلبه^(١). والرابع: أن أوريا كان قد خطب تلك المرأة، فخطبها داود مع علمه بأن أوريا قد خطبها، فتزوجها، فاغتم أوريا، وعاتب الله تعالى داود إذ لم يتزكها لخطبها الأول؛ واختار القاضي أبو يعلى هذا القول، واستدل عليه بقوله: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخَطْبِ﴾، قال: فدل هذا على أن الكلام إنما كان بينهما في الخطبة، ولم يكن قد تقدم تزوج الآخر، فغوتب داود ﷺ لشئني يبنغي للأنبياء التزوه عنهما، أحدهما: خطبته على خطبته غيره، والثاني: إظهار الحرص على التزويج مع كثرة نسائه، ولم يعتقد ذلك معصية، فعاتبه الله تعالى عليها؛ قال: فأما ما روي أنه نظر إلى المرأة فهويها وقدم زوجها للقتل، فإنه وجه لا يجوز على الأنبياء، لأن الأنبياء لا يأتون المعاصي مع العلم بها^(٢). قال الزجاج: إنما قال: «الحصم» بلفظ الواحد، وقال: «تسوروا المحراب» بلفظ الجماعة، لأن قولك: خصم، يصلح للواحد والاثنين والجماعة والذكر والأنثى، تقول: هذا خصم، وهي خصم، وهما خصم، وهم خصم؛ وإنما يصلح لجميع ذلك لأنه مصدر، تقول: خصمته أخصمته خصماً. والمحراب هاهنا كالغرفة، قال الشاعر:

رَيْةٌ مِحْرَابٍ إِذَا جِئْتُهَا
لَمْ أَلْقَهَا أَوْ أُرْتَقَى سُلْمًا^(٣)

و«تسوروا» يدل على علو. قال المفسرون: كانا ملكين، وقيل: هما جبريل وميكائيل ﷺ، أتياه لبيئها على التوبة. وإنما قال: «تسوروا» وهما اثنان، لأن معنى الجمع ضم شيء إلى شيء، والاثنتان فما فوقهما جماعة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ سَأَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ﴾ قال الفراء: يجوز أن يكون معنى «تسوروا»: دخلوا، فيكون تكراراً؛ ويجوز أن تكون «إذ» بمعنى «لما»، فيكون المعنى: إذ تسوروا المحراب لما دخلوا، ولما تسوروا إذ دخلوا.

قوله تعالى: ﴿فَفَرَّجَ بَيْنَهُمْ﴾ وذلك أنهما أتيا على غير صفة مجيء الخصوم، وفي غير وقت الحكومة، ودخلا تسوراً من غير إذن^(٤). وقال أبو الأحوص: دخل على كليل واحد منهما أخذ برأس صاحبه. و«حصان» مرفوع بإضمار «نحن»، قال ابن الأنباري: [المعنى]: نحن كخصمين، ومثل خصمين، فسقطت الكاف، وقام الخصمان مقامهما، كما تقول العرب: عبد الله القمر حسناً، وهم يريدون: مثل القمر، قالت هند بنت عتبة ترثي أباهما وعمها:

(١) وكذلك ينزه عن مثل هذا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما قال المصنف قبل قليل.

(٢) قال القاضي عياض في «الشفاء»: وأما قصة داود ﷺ، فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطره الإخباريون على أهل الكتاب الذين بقلوا وغيروا، ونقله بعض المفسرين، قال: ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح، قال: والذي نص الله عليه قوله: ﴿وَكَلَّمَ دَاوُدَ إِنَّمَا تَنَكَّرَ بِرَبِّهِ بِحُرِّ لُكَا وَأَنَّى﴾ وقوله فيه: ﴿أَلَيْسَ﴾، فمعنى (نشأه) أي: اختيرناه، و(أواب) قال فتادة: مطيع، قال: وهذا التفسير أولى، قال: قال ابن عباس وابن مسعود: ما زاد على أن قال للرجل: أنزل لي عن امرأتك وأكفليها، فعاتبه الله على ذلك وثبه عليه، وأنكر عليه شغله بالدنيا. ثم قال: وإلى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود من ذلك ذهب أحمد بن نصر، وأبو تمام وغيرهما من المحققين، قال: قال الداودي: ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت، ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم. اهـ. وقال الخازن في «تفسيره»: اعلم أن من خصه الله بنبوته، وأكرمه برسالته، وشرّفه على كثير من خلقه، واثنته على وحيه، وجعله واسطة بينه وبين خلقه، لا يليق أن يُنسب إليه ما لو نسب إلى أحاد الناس لاستكف أن يحدث به عنه، فكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام الأنبياء والصفوة الأماناء ذلك. اهـ. قال الخازن: وقال الإمام فخر الدين الرازي: حاصل القصة يرجع إلى أمرين: إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق، وإلى الطمع في زوجته، قال: وكلاهما منكر عظيم، فلا يليق بمعاقل أن يظن بداود ﷺ هذا. اهـ. وقال القاضي البيضاوي: وما قيل: أنه أرسل أوريا إلى الجهاد مراراً، وأمر أن يتقدم حتى قتل فتزوجها (بمعي امرأته)، هراء واقتراء. اهـ.

(٣) البيت لروضاح اليمن: وهو في «مجاز القرآن» ١/١٤٤، و«الأغاني» ٦/٢٣٧، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: حرب. وقد سبق البيت صفحة ١٩١.

(٤) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فَفَرَّجَ بَيْنَهُمْ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين، قد تسورا عليه المحراب، أي: احتاطا به يسالانه عن شأنهما. اهـ.

مَنْ حَسَّ لِي الْأَخْوَيْنِ كَالْ
أَسَدَيْنِ فِي عَيْلٍ يَجِيدُ الـ
صَفْرَيْنِ لَا يَتَذَلَّلَا
رُفْحَيْنِ حَظِيَّيْنِ فِي

أرادت: ويثل أسدين، ومثل صقرين، فأسقطت وثلاً وأقامت الذي بعده مقامه، ثم صرف الله ﷻ النون والألف في «بتضناً» إلى «نحن» المضمرة، كما تقول العرب: نحن قوم شرف أبونا، ونحن قوم شرف أبوهم، والمعنى واحد. والحق هاهنا: العدل. «ولا تشطط» أي: لا تتجر، يقال: شط وأشطط: إذا جار. وقرأ ابن أبي عبله: «ولا تشطط» بفتح التاء وضم الطاء. قال الفراء: وبعض العرب يقول: شططت علي في السؤم، وأكثر الكلام «أشططت» بالألف، وشططت الدار: تباعدت.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنَّا لَأَكْثَرُ الْأَشْرَارِ﴾ أي: إلى قصد الطريق^(٢)؛ والمعنى: أحملنا على الحق. فقال داود: تكلمنا، فقال أحدهما: ﴿إِنَّ كَذَا أَيْ﴾ قال ابن الأنباري: المعنى: قال أحد الخصمين اللذين شبه الملكان بهما: إن هذا أخي، فأضمر القول لوضوح معناه «لَمْ يَسَّعْ رَيْعُونَ نَيْمَةً﴾ قال الزجاج: كُني عن المرأة بالنعجة. وقال غيره: العرب تشبه النساء بالنعاج، وتورّي عنها بالشاء والبقرة. قال ابن قتيبة: ورى عن ذكر النساء بذكر النعاج، كما قال عترة:

يَا شَاءَ مَا قَنَصِ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ
حَرَمْتُ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ^(٣)

يعرض بجارية، يقول: أي صيد أنت لمن حل له أن يصيدك! فأما أنا، فإن حُرمة الجوار قد حرمتك علي. وإنما ذكّر الملك هذا العدد لأنه عدد نساء داود.

قوله تعالى: ﴿وَلِي نَيْمَةٌ وَجِدَةٌ﴾ فتح الياء حفص عن عاصم، وأسكنها الباقون. «فَقَالَ أَكْثَرُهَا﴾ قال ابن قتيبة: أي: ضمها إلي واجعلني كالثقل. وقال الزجاج: انزل أنت عنها واجعلني أنا أكثفها.

قوله تعالى: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخَطَابِ﴾ أي: غلبني في القول. وقرأ عمر بن الخطاب، وأبو رزين [العقيلي]، والضحاك، وابن يعمر، وابن أبي عبله: «وعازّني» بألف، أي: غالبني. قال ابن مسعود، وابن عباس في قوله «وعزّني في الخطاب»: ما زاد على أن قال: انزل لي عنها. وروى العوفي عن ابن عباس قال: إن دعوت ودعا كان أكثر، وإن بطش وبتش كان أشد مني. فإن قيل: كيف قال الملكان هذا، وليس شيء منه موجوداً عندهما؟ فالجواب: أن العلماء قالوا: إنما هذا على سبيل المثل والتشبيه بقصة داود، وتقدير كلامهما: ما تقول إن جاءك خصمان فقللا كذا وكذا؟ وكان داود لا يرى أن عليه تبعه فيما فعل، فنبهه الله بالملكين. وقال ابن قتيبة: هذا مثل ضربه الله [له] ونبيه على خطيئته. وقد ذكرنا آنفاً أن المعنى: نحن كحضمين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ يعني داود «لَقَدْ ظَلَمَكَ لِسْوَالِ نَيْمِكَ إِنَّ نَيْمِي﴾ قال الفراء: أي: بسؤاله نعتك، فإذا ألقى الهاء من السؤال، أضفت الفعل إلى النعجة، ومثله: «لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاؤِ الْخَيْرِ» [فصلت: ٤٩]، أي: من دعائه بالخير، فلما ألقى الهاء، أضاف الفعل إلى الخير، وألقى من الخير الباء، وأنشدوا:

قَلَسْتُ مُسْلِمًا مَا دُمْتُ حَيًّا
عَلَى زَيْدٍ بِتَسْلِيمِ الْأَمِيرِ^(٤)

أي: بتسليم علي الأمير.

(١) الأبيات في «شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام» ١٣٠، و«الأغاني» «ثقافة» ٢١٢/٤. حُس، من باب نصر، كاحس، وأصل «راهما»: وآهما، فحفت في الهزنة.

(٢) أي: بحيث لا تعيل عن الحق أصلاً.

(٣) البيت من معلقته، وهو في «ديوانه» ١٥٢، و«مشكل القرآن» ٢٠٦، و«العمدة» ٢٨١/١، و«مختار الشعر الجاهلي» ٣٧٨/١، و«شرح شواهد المعنى» ٢٥٢.

(٤) البيت غير منسوب في «معاني القرآن» ١٠٠، وانظر خبر الأعرابي قائل البيت لعمن بن زائدة في «بحر الأداب» ٢٩٣/٣.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَمَاجِئَ﴾ أي: لِيَضُمَّهَا إِلَى نِعَاجِهِ. قال ابن قتيبة: المعنى: بسؤال نعتك مضمومة إلى نِعَاجِهِ، فاختصر. قال: ويقال «إلى» بمعنى «مع». فإن قيل: كيف حكم داود قبل أن يسمع كلام الآخر؟ فالجواب: أن الخصم الآخر اعترف، فحكم عليه باعترافه، وحذف ذكر الاعتراف اكتفاءً بفهم السامع، والعرب تقول: أمرتُك بالتجارة فكسبتُ الأموال، أي: فاتَّجرتُ فكسبتُ، ويُدلُّ عليه قولُ السدي: إن داودَ قال للخصم الآخر: ما تقول؟ قال: نعم، أريد أن أخذها منه فأكمل بها نِعَاجِي وهو كاره، قال: إذا لا ندعُك، وإن رُمْتُ هذا ضرئنا منك هذا - ويشير إلى أنفه وجهته - فقال: أنت يا داودُ أحقُّ أن يُضربَ هذا منك حيث لك تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لأوريا إلا واحدة، فنظر داود فلم ير أحداً، فعَرَفَ ما وقع فيه.

قوله تعالى: ﴿وَأِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني الشركاء، واحدهم: خليط، وهو المُخَالِطُ في المال وإنما قال هذا، لأنه ظنَّهما شريكين، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: فإنهم لا يظلمون أحداً، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ «ما» زائدة، والمعنى: وقليل هم، وقيل: المعنى: هم قليل، يعني الصالحين الذين لا يظلمون.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ دَاوُدُ﴾ أي: أيقن وعلم ﴿أَنَّمَا فَتَنَّا﴾ فيه قولان: أحدهما: اختبرناه. والثاني: ابتليناه بما جرى له من نظره إلى المرأة وافتتانه بها^(١). وقرأ عمر بن الخطاب: «أَنَّمَا فَتَنَّا» بتشديد التاء والنون جميعاً. وقرأ أنس بن مالك، وأبو رزين، والجنس، وقتادة، وعلي بن نصر عن أبي عمرو: «أَنَّمَا فَتَنَّا» بتخفيف التاء والنون جميعاً، يعني المَلَكِين، قال أبو علي الفارسي: يريد: صَمَدًا له. وفي سبب علمه وتبنيه على ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أن المَلَكِين أفصحوا له بذلك، على ما ذكرناه عن السدي. والثاني: أنهما عَرَّجَا وهما يقولان: قضى الرجلُ على نفسه، فعلم أنه غني بذلك، قاله وهب. والثالث: أنه لما حكم بينهما، نظر أحدهما إلى صاحبه وضحك، ثم صعدا إلى السماء وهو ينظر، فعلم أن الله تعالى ابتلاه بذلك، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْقَرَ رَبِّي﴾ قال المفسرون: لما فطن داود بذنبه خَرَّ رَاكِعًا، قال ابن عباس: أي: ساجداً، وعبر عن السجود بالركوع، لأنها بمعنى الانحناء. وقال بعضهم: المعنى: فخرَّ بعد أن كان رَاكِعًا.

فصل

واختلف العلماء هل هذه من عزائم السجود؟ على قولين: أحدهما: ليست من عزائم السجود، قاله الشافعي. والثاني: أنها من عزائم السجود، قاله أبو حنيفة. وعن أحمد روايتان^(٢). قال المفسرون: فبقي في سجوده أربعين ليلة، لا يرفع رأسه إلا لوقت صلاة مكتوبة أو حاجة لا بُدَّ منها، ولا يأكل ولا يشرب، فأكلت الأرض من جبينه، ونبت العُشْبُ من دموعه، ويقول في سجوده: ربِّ داود، زَلَّ داود زَلَّةً أبعدَ ممَّا بين المشرق والمغرب. قال مجاهد: نبت البقلُ من دموعه حتى غطى رأسه، ثم نادى: ربِّ قريح الجبين وجَمَدت العينُ وداوُدُ لم يَرِجِعْ إليه في خطيئته شيء، فنودي: أجاجع فتقطع، أم مريض فتشفى، أم مظلومٌ فينتصر لك؟ فَنَحَبَ نَحْبًا هاج كلُّ شيء نبت، فعند ذلك غفر له^(٣). وقال ثابت البناني: اتخذ داود سبع حشايا من شَعْر وحشاهنَّ من الرَّمَاد، ثم بكى حتى أنفذهها دموعاً، ولم يشرب شرباً إلا ممزوجاً بدموع عينيه^(٤). وقال وهب بن منبه: نودي: يا داود ارفع رأسك فإننا قد غَفَرْنَا لَكَ، فرفع رأسه وقد زَمِن

(١) تقدم القول في مثل هذا لا يليق بالأنبياء ﷺ، والصواب هو القول الأول وهو أنه بمعنى اختبرناه.

(٢) قال ابن كثير: اختلف الأئمة في سجدة (ص) هل هي من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعي ﷺ: أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر، قال: والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد من حديث أيوب عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ أنه قاله في السجدة في (ص): ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها، قال: ورواه البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في «تفسيره» من حديث أيوب به، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) ذكر هذا المعنى السيوطي في «الدر» ٣٠٣/٥ من رواية أحمد وعبد بن حميد عن يونس بن خباب ﷺ، قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: يونس بن خباب الأسدي الكوفي: صدوق يخطئ ورمي بالرفض. اهـ.

(٤) ذكره السيوطي من رواية أحمد عن ثابت البناني، والله أعلم.

وصار مرعشاً. فأما قوله: ﴿وَأَنَابٌ﴾ فمعناه: رَجَعَ مِنْ ذَنْبِهِ تَائِباً إِلَى رَبِّهِ، ﴿فَنَفَرْنَا لَهُ ذَلِكُمْ﴾ يعني الذَّنْبَ ﴿وَأَنَّ لَهُ عِنْدَنَا لُزُومًا﴾ [قال ابن قتيبة]: أي: تقدّم وقُرْبَةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَنَ مَنَابٍ﴾ قال مقاتل: حُسْنُ مَرْجِعٍ، وهو ما أعدَّ الله له في الجنة.

قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ والمعنى: وقلنا له يا داود ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ﴾ أي: صَيَّرْنَاكَ ﴿خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تُدَبِّرُ أَمْرَ الْعِبَادِ مِنْ قِبَلِنَا بِأَمْرِنَا، فكانت خليفة عنا ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أي: لا تجل مع ما تشتهي إذا خالف أمر الله ﷻ ﴿يُضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: عن دينه^(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ﴾ وقرأ أبو نهيك، وأبو حيوة، وابن يعمر: ﴿يَضِلُّونَ﴾ بضم الياء.

قوله تعالى: ﴿يَا سَوَاءٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ فيه قولان: أحدهما: بما تركوا العمل ليوم الحساب، قاله السدي. قال الزجاج: لما تركوا العمل لذلك اليوم، صاروا بمنزلة الناسين. والثاني: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، تقديره: لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا، أي: تركوا القضاء بالعدل، وهو قول عكرمة^(٢).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لَدَيْنَ كَذْرًا مِنْ النَّارِ﴾ ﴿٧٧﴾ أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿٧٨﴾ كَتَبْنَا آيَاتِنَا إِلَيْكَ مَكْرُومًا يَلْتَكِبُهَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَزْوَاجًا الْأَنْبِيَاءِ﴾ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ أي: عبثاً ﴿ذَلِكُمْ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أن ذلك خلقٌ لغير شيء، وإنما خلقٌ للثواب والعقاب. ﴿أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إننا نغطى في الآخرة مثل ما نغطون، فنزلت هذه الآية^(٣). وقال ابن السائب: نزلت في الستة الذين تبارزوا يوم بدر، عليٌّ ﷺ، وحمزة ﷺ، وعبيدة بن الحارث ﷺ، وعتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة^(٤)، فذكر أولئك بالفساد في الأرض لعمَلهم فيها بالمعاصي، وسمى المؤمنين بالمتقين لانتقامهم الشرك، وحكم الآية عامً.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ﴾ أي: هذا كتاب، يعني القرآن، وقد بيّنا معنى بركته في سورة [الانعام: ٩٢]. ﴿يَلْتَكِبُهَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقرأ عاصم في رواية: ﴿يَلْتَدَبِّرُوا آيَاتِهِ﴾ بالثاء خفيفة الدال، أي: ليفتكروا فيها فيفتقر عندهم صحتها ﴿وَلْيَتَذَكَّرْ﴾ بما فيه من المواعظ ﴿أَزْوَاجًا الْأَنْبِيَاءِ﴾، وقد سبق بيان هذا [الرعد: ١٩]^(٥).

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الصَّبْرِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٧٥﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالرَّسِيِّ الصَّغِيرَتِ لِلجِبَادِ﴾ ﴿٧٦﴾ فَكَأَلِ إِنَّهُ أَحْبَبَتْ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ﴿٧٧﴾ رُدُّوهُمَا عَلَى طَلْقِفَيْهِمْ مَسْكًا إِلَيْهِمْ وَالرَّغِيصَ وَالْأَعْنَابَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ عَلَى كَرِيمِهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ ﴿٧٩﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُبْسِي لِي بِحَدِيدٍ إِنَّهُ تَلَّخَّ بِحَدِيدِ الْعُرْوَابِ﴾ ﴿٨٠﴾ فَصَبَّحْنَا لَهُ الْيَوْمَ بِأَمْرِهِ فَجَاءَ بِرُحَاهُ حَيْثُ أَصَابَ﴾ ﴿٨١﴾ وَالصَّيْلِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ ﴿٨٢﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَعْمَادِ﴾ ﴿٨٣﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ بِمَتَرٍ حِسَابٍ﴾ ﴿٨٤﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَنَابٍ﴾ ﴿٨٥﴾ وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا الْأَبْرَارَ إِذْ دَاوَدُ رَبَّهُ أَنَّى مَسَى السَّيْلَ نَظَىٰ وَعَدَابُ﴾ ﴿٨٦﴾ أَرَكُنَّ بِرِجَالِكَ هَذَا مُغْتَلِبًا بَارِدًا وَتَرَاكَ﴾ ﴿٨٧﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُمْ وَمَنْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذُكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٨٨﴾ وَخَذَّ بِيُوكِ ضِعْفًا فَأَنْزَبَ يَوْمَ وَلَا حَسَنُ إِلَّا وَجَدْنَاهُ صَالِحًا نِعَمَ الصَّبْرِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٨٩﴾

(١) قال ابن كثير: هذه وصية من الله ﷻ لولاء الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، قال: وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعد الأكيد والعذاب الشديد.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَسْبَابُ﴾ يقول تعالى ذكروه: وإن الذين يميلون عن سبيل الله وذلك الحق الذي شرعه لعباده وأمرهم بالعمل به فيجورون عنه في الدنيا، لهم في الآخرة يوم الحساب عذاب شديد على ضلالهم عن سبيل الله بما نسوا أمر الله. اهـ.

(٣) ذكر سبب النزول هذا البغوي عن مقاتل بدون سند، وكذلك ذكره الخازن والألوسي بدون سند ولم ينسبه لاحد، قال الألوسي: وأنت تعلم أن العبرة لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب.

(٤) ذكر سبب النزول هذا السيوطي في «الدر» ٣٠٨/٥ من رواية ابن عساکر عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: «الذين آمنوا»: علي، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، والمفسدين في الأرض: عتبة، وشيبة، والوليد، قال: وهم الذين تبارزوا يوم بدر.

(٥) قال ابن جرير الطبري: ﴿وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ يقول: وليعتبر أولو العقول والحجج ما في هذا الكتاب من الآيات فيردعوا عما هم عليه مقيمين من الضلالة، ويتنهدوا إلى ما دلهم عليه من الرشد وسبيل الصواب. اهـ.

قوله تعالى: ﴿يَمَّ الْمَسْجِدَ﴾ يعني به سليمان^(١). وفي الأواب أقوال قد تقدمت في [بني إسرائيل: ٢٥] أَلْيَقُهَا بهذا المكان أنه رَجَّاعٌ بالثبوتة إلى الله تعالى ممَّا يقع منه من السَّهْوِ وَالْعَفْلَةِ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ﴾ وهو ما بعد الرُّؤَالِ ﴿الْمَكِينَتِ﴾ وهي الخيل. وفي معنى الصَّافِنَاتِ قولان: أحدهما: أنها القائمة على ثلاث قوائم، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل؛ وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد، وابن زيد، واختاره الزجاج، وقال: هذا أكثرُ قيام الخيل إذا وقفت كأنها تراوح بين قوائمه، قال الشاعر:

أَلِفُ الصُّفُونِ فَمَا يَزَالُ كَأَنَّهُ
مِمَّا يَقْرُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا^(٢)

والثاني: أنها القائمة، سواء كانت على ثلاث أو غير ثلاث، قال الفراء: على هذا رأيت العرب، وأشعارهم تُدُلُّ على أنه القيام خاصة. وقال ابن قتيبة: الصافن في كلام العرب: الواقف من الخيل وغيرها، ومنه قوله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرُمَ لَهُ الرِّجَالُ صُفُونًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٣)، أي: يُدِيمُونَ القيام له^(٤). فأما الجِيَادُ، فهي السَّرَاعُ فِي الْجَزْيِ. وفي سبب عرضها عليه أربعة أقوال: أحدها: أنه عَرَضَهَا لأنه أراد جهاد عدو له، قاله علي بن أبي طالب ﷺ.

والثاني: أنها كانت من دواب البحر. قال الحسن: بلغني أنها كانت خيلاً خرجت من البحر لها أجنحة. وقال إبراهيم التيمي: كانت عشرين فرساً ذات أجنحة. وقال ابن زيد: أخرجتها له الشياطين من البحر. والثالث: أنه ورثها من أبيه داؤد ﷺ، فَعُرِضَتْ عليه، قاله وهب بن منبه، ومقاتل. والرابع: أنه غزا جيشاً، فظفر به وغنمها، فدعا بها فَعُرِضَتْ عليه، قاله ابن السائب. وفي عددها أربعة أقوال: أحدها: ثلاثة عشر ألفاً، قاله وهب. والثاني: عشرون ألفاً، قاله سعيد بن مسروق. والثالث: ألف فرس، قاله ابن السائب، ومقاتل. والرابع: عشرون فرساً، وقد ذكرناه عن إبراهيم التيمي^(٥). قال المفسرون: ولم تزل تُعْرَضُ عليه إلى أن غابت الشمس، ففاته صلاة العصر، وكان مهيباً لا يبتدئه أحد بشيء، فلم يذكروه، ونسي هو، فلما غابت الشمسُ ذكر الصلاة، ﴿فَقَالَ إِنَّي أَحْبَبْتُ﴾ فتح الباء^(٦) أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿حُبِّي الْكَلْبِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه المال، قاله سعيد بن جبيرة، والضحاك. والثاني: حُبُّ الخيل، قاله قتادة والسدي. والقولان يرجعان إلى معنى واحد، لأنه أراد بالخير الخيل، وهي مال. وقال الفراء: العرب تسمي الخيل: الخير. قال الزجاج: وقد سُمِّيَ رسولُ الله ﷺ زَيْدُ الخيل: زَيْدُ الخَيْرِ^(٧)، ومعنى «أَحْبَبْتُ»: آثَرْتُ حُبَّ الخَيْرِ على ذِكْرِ رَبِّي؛ وكذلك قال غير الزجاج: «عن» بمعنى «على». وقال بعضهم: يحتمل المعنى: فَشَعَّلَنِي عن ذِكْرِ رَبِّي. وقال أبو عبيدة: ومعنى [الكلام]: أَحْبَبْتُ حُبًّا، ثم أضاف الحُبَّ إلى الخير. وقال ابن قتيبة: سُمِّيَ الخَيْلُ خَيْرًا، لِمَا فِيهَا من

(١) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: ﴿وَرَوَّيْنَا لِيَكُونُوا سِتْرًا﴾ ابنه ولدًا ﴿يَمَّ الْمَسْجِدَ﴾ يقول: نعم العبد سليمان ﴿إِنَّهُ أَرَادَ﴾ يقول: إنه رجَّاع إلى طاعة الله، تواب إليه ممَّا يكرهه منه، وقيل: إنه حُبِّي به أنه كثير الذكر لله والطاعة. اهـ. وقال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان، أي نبياً، كما قال ﷺ: ﴿وَرَوَّيْتُ سِتْرًا دَاوُدَ﴾ أي في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. اهـ.

(٢) البيت في [مجمع البيان] ١١١/٢٣، و[البحر المحیط] ٣٨٨/٧، و[القرطبي] ١٥/١٩٣، و[روح المعاني] ٢٣/١٧٢، و[اللسان] و[التاج] صفر.

(٣) لم نره بهذا اللفظ، ورواه الترمذي ١٠٠/٢ من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ بلفظ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَمْتَلَّ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» وقال: هذا حديث حسن، قال: وفي الباب عن أبي أمامة، ورواه أبو داود رقم (٥٢٢٩). من حديث معاوية بلفظ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْتَلَّ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» ورواه أحمد في [المسند] ٩١/٤ بلفظ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْتَلَّ لَهُ عِبَادَ اللَّهِ قِيَامًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، وهو حديث صحيح.

(٤) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ الْمَكِينَتِ لِيَكُونَ﴾ أي: إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال ملكته وسلطانه الخيل الصافنات، قال: قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، قال: والجِيَادُ: السَّرَاعُ، قال: وكذا قال غير واحد من السلف. اهـ.

(٥) ذكر القول الرابع الطبري ١٥٤/٢٣ عن إبراهيم التيمي، وذكره السيوطي في [الدرر] ٥/٣٠٩، وزاد نسبة للفرجاني، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي ﷺ.

(٦) يعني الباء من كلمة «إني».

(٧) قال الحافظ ابن حجر في [الإصابة] في ترجمة زيد الخيل: وفد في سنة تسع، وسماه النبي ﷺ: زيد الخير، قال: وروى ابن شاهين من طريق بشير مولى بني هاشم عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال: كنا عند النبي ﷺ، فأقبل راكب حتى أتانا، فقال: يا رسول الله إني أتيتك من مسيرة تسع أسالك عن خصلتين، فقال: «ما اسمك؟» قال: أنا زيد الخيل، قال: «بل أنت زيد الخير، سل» قال: أسألك عن علامة الله فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد... الحديث. قال ابن حجر: وأخرج ابن عدي في ترجمة بشير (يعني بشير مولى بني هاشم) وضعفه. اهـ. وكان زيد الخيل شاعراً خطيباً شجاعاً كريماً، يكتب أباً مكثف ﷺ.

الخَيْر. والمفسرون على أن المراد بذكر ربه: صلاة العصر، قاله علي، وابن مسعود، وقتادة في آخرين. وقال الزجاج: لا أدري هل كانت صلاة العصر مفروضة، أم لا! إلا أن اعتراضه الخيل شغلَه عن وقت كان يذكر الله فيه ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ قال المصنف: وأهل اللغة يقولون: يعني الشمس، ولم يجز لها ذكر، ولا أحسبهم أعطوا في هذا الفِكر حَقَّهُ، لأن في الآية دليلاً على الشمس، وهو قوله: «بالعشي» ومعناه: عُرِضَ عليه بعد زوال الشمس حتى توارت الشمس بالحجاب، ولا يجوز الإضمار إلا أن يجري ذكر، أو دليل ذكر فيكون بمنزلة الذُّكْر؛ وأما الحِجَاب، فهو ما يحجبها عن الأبصار^(١).

قوله تعالى: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ قال المفسرون: لما شغلَه عَرْضُ الخيل عليه عن الصلاة، فصلاًها بعد خروج وقتها، اغتمَّ وغضب، وقال: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾، يعني: أعيذوا الخيلَ عَلَيَّ ﴿تَطْفِقُ﴾ قال ابن قتيبة: أي: أقبل ﴿مَسَّكًا﴾ قال الأخفش: أي: يَمَسُّ مَسْحًا. فأما السُّوقُ، فجمع ساق، مثل دُور ودار. وهمز السُّوقِ ابن كثير، قال أبو علي: وغيرُ الهمز أحسنُ منه. وقرأ أبو عمران الجوني، وابن محيصن: «بالسُّوق» مثل الرُّوس. وفي المراد بالمسح هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ضربها بالسيف. روى أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿تَطْفِقُ مَسَّكًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قال: «السيف»^(٢). وروى مجاهد عن ابن عباس قال: مسح أعناقها وسوقها بالسيف. وقال الحسن، وقتادة، وابن السائب: قطع أعناقها وسوقها، وهذا اختيار السدي، ومقاتل، والفراء، وأبي عبيدة، والزجاج، وابن قتيبة، وأبي سليمان الدمشقي، والجمهور^(٣). والثاني: أنه جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حَبًا لها، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال مجاهد: مسحها بيده، وهذا اختيار ابن جرير^(٤)، والقاضي أبي يعلى. والثالث: أنه كَوَى سَوْقَهَا وأعناقها وجبها في سبيل الله تعالى، حكاة الثعلبي. والمفسرون على القول الأول، وقد اعترضوا [على] القول الثاني، وقالوا: أي مناسبة بين شغلها إِيَّاهُ عن الصلاة وبين مسح أعرافها حَبًا لها؟! ولا أعلم قوله: «حَبًا لها» يثبت عن ابن عباس. وحملوا قول مجاهد «مَسَّحَهَا بيده» أي: تَوَلَّى صَرْبَ أعناقها. فإن قيل: فالقول الأول يفسد بأنه لا ذنب للحيوان، فكيف وجه العقوبة إليه وقصد التَّشْفِي بقتله، وهذا يشبه فِعْلَ الجَبَّارِين، لا فِعْلَ الأنبياء؟ فالجواب: أنه لم يكن لِيَتَعَلَّ ذلك إلا وقد أُبْحِحَ له، وجائز أن يُبَّاحَ له ما يُمْتَنَعُ منه في شرعنا، على أنه إذا ذبحها كانت قرباناً، وأكل

(١) قال ابن كثير: وقوله تبارك وتعالى: ﴿تَقَالُ إِلَىٰ أَحَبَّتْ حَتَّىٰ لَقِيَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، ثم قال ابن كثير: والذي يُتَقَلَعُ به أنه لم يتركها عمداً، بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، قال: وذلك ثابت في «الصححين» من غير وجه، قال: من ذلك حديث جابر ﷺ قال: جاء عمر ﷺ يوم الخندق بعدما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها» فقال: فقمنا إلى بطحان، فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة، وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب. اهـ.

(٢) ذكره السيوطي في «الدرر» ٣٠٩/٥ من رواية الطبراني في «الأوسط»، والإسماعيلي في «معجمه»، وابن مردويه عن أبي بن كعب ﷺ. قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩٩/٨: رواه الطبراني في «الأوسط» وليه سعيد بن بشير، وثقه شعبة وغيره، وضعفه ابن معين وغيره، قال: وثيقه رجاله ثقات. اهـ. وقد ضعف سعيد بن بشير الحافظ ابن حجر في «التقريب».

(٣) قال البيهقي في «تفسيره»: ﴿تَطْفِقُ مَسَّكًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فجعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف، قال: هذا قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومقاتل، وأكثر المفسرين، قال: وكان ذلك مباحاً له، لأن نبي الله لم يكن يقدم على محرم، ولم يكن يتوب عن ذنب يذنب آخر. اهـ. وقال ابن كثير: قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة، قال: ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عَوْضَهُ ﷻ ما هو خير منها، وهو الريح التي تجري بأمره رُخَاءً حيث أصاب، غَدَوْهَا شهر ورواحها شهر، قال: فهذا أسرع وخير من الخيل. اهـ. وقال الشوكاني في «فتح القدير» عن هذا القول: وهذا أولى بسياق الكلام، فإنه ذكر أنه أتربها على ذكر ربه حتى فاتته صلاة العصر، ثم أمرهم بردها عليه ليعاتب نفسه بإنسداد ما ألهاه عن ذلك، وما صدّه عن عبادة ربه، وشغلّه عن القيام بما فرضه الله عليه. اهـ. وقال آخرون غير هذا، منهم: الامام أبو جعفر ابن جرير الطبري، وسيأتي في التعليق الذي بعد هذا، والله أعلم.

(٤) قال ابن جرير الطبري ١٥٦/٢٣: حدثني علي قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية عن علي (يعني ابن أبي طلحة) عن ابن عباس قوله: ﴿تَطْفِقُ مَسَّكًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ يقول: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حَبًا لها، قال الطبري: وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس، أشبه بتأويل الآية، لأن نبي الله ﷺ لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة (يعني ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف) وبهلك مالا من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها. اهـ.

لحمها جائز، فما وقع تفریط. قال وهب بن منبه: لما ضرب سوقها وأعانقها، شكر الله تعالى له ذلك، فسخر له الريح مكانها، وهي أحسن في المنظر، وأسرع في السير، وأعجب في الأخذوة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَتَلْنَا شَيْطَانًا﴾ أي: ابتليناه وامتحانناه بسلب ملكه ﴿وَأَلَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ﴾ أي: على سريره ﴿جَسَدًا﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه شيطان، قاله ابن عباس، والجمهور. وفي اسم ذلك الشيطان ثلاثة أقوال. أحدها: صخر، رواه العوفي عن ابن عباس. وذكر العلماء أنه كان شيطاناً مريداً لم يسخر لسليمان. والثاني: آصف، قاله مجاهد، إلا أنه ليس بالمؤمن الذي عنده الاسم الأعظم، إلا أن بعض ناقلي التفسير حكى أنه آصف الذي عنده عظم من الكتاب، وأنه لما قُتِلَ سليمان سقط الخاتم من يده فلم يثبت، فقال آصف: أنا أقوم مقامك إلى أن يتوب الله عليك، فقام في مقامه، وسار بالسيرة الجميلة، وهذا لا يصح، ولا ذكره من يوثق به. والثالث: حقيق، قاله السدي؛ والمعنى: أجلسنا على كرسيه في ملكه شيطاناً. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع. وفيما رجع إليه قولان: أحدهما: تاب من ذنبيه، قاله قتادة. والثاني: رجع إلى ملكه، قاله الضحاك. وفي سبب ابتلاء سليمان بهذا خمسة أقوال: أحدها: أنه كانت له امرأة يقال لها: جرادة، وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة، ففرض بينهم بالحق، إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها، فعوقب حين لم يكن هواه فيهم واحداً، وأوحى الله تعالى إليه أنه سضيعك بلاء، فكان لا يدري آياته من السماء، أو من الأرض، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: أن زوجته جرادة كانت آثر النساء عنده، فقالت له يوماً: إن أخي بينه وبين فلان خصومة، وإني أحب أن تقضي له، فقال: نعم، ولم يفعل، فابتلي لأجل ما قال، قاله السدي. والثالث: أن زوجته جرادة كان قد سبها في غزاة له، وكانت بنت ملك فأسلمت، وكانت تبكي عنده بالليل والنهار، فسألها عن حالها، فقالت: أذكر أبي وما كنت فيه، فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا صورته في داري فأتسلى بها، [ففعل]. فكانت إذا خرج سليمان، تسجد له هي وولادها [أربعين صباحاً، فلما علم سليمان، كسر تلك الصورة، وعاقب المرأة وولادها] ثم تضرع إلى الله تعالى مستغفراً مما كان في داره، فسلب الشيطان على خاتمه، [هذا قول وهب بن منبه. والرابع: أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام، فأوحى الله تعالى إليه: يا سليمان، احتجبت^(١) عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي ولم تتصيف مظلوماً من ظالم؟! فسلب الشيطان على خاتمه]، قاله سعيد بن المسيب. والخامس: أنه قارب امرأة من نساته في الحيض أو غيره، قاله الحسن^(٢). والقول الثاني: أن المراد بالجسد الذي ألقى على كرسيه: أنه ولد له ولد [فاجتمعت الشياطين، فقال بعضهم لبعض: إن عاش له ولد، لم ننفك من البلاء، فسيئنا أن نقل ولد أو نخيله، فعلم بذلك سليمان، فأمر السحاب] فحملة، وعدا ابنه في السحاب خوفاً من الشياطين، فعاتبه الله تعالى على تخوفه من الشياطين، ومات الولد، فألقى على كرسيه ميتاً جسداً، قاله الشعبي. والمفسرون على القول الأول^(٣).

ونحن نذكر قصة ابتلائه على قول الجمهور.

(١) في الأصل: احتجب.

(٢) قال ابن كثير بعد أن ذكر بعض هذه الروايات في سبب ابتلاء سليمان ﷺ: وهذه كلها من الإسرائيلية، ثم ذكر أن من أنكرها ما رواه ابن أبي حاتم من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وسرد الرواية بطولها بنحو القول الأول الذي ذكره المؤلف هنا في سبب ابتلاء سليمان ﷺ، ولكن بأطول منه. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ١٤٣: وأما ما يحكى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان ﷺ، فإله أعلم بصحته، ثم قال: وروى النسائي من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس وإسناده قوي، وكذلك قال الحافظ السيوطي في «الدر» ٣١٠/٥: وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم بسند قوي عن ابن عباس ﷺ قال: أراد سليمان ﷺ أن يدخل الخلافة فأعطى لجرادة خاتمه، وكانت جرادة امرأته، وكانت أحب نساته إليه. وسرد القصة بطولها. قال ابن كثير بعد أن سرد هذا القول بطوله من رواية ابن أبي حاتم: إسناده إلى ابن عباس قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ﷺ - إن صح عنه - من أهل الكتاب، قال: وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، قال: ولهذا كان في هذا السياق منكرات، من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أمة السلف أن ذلك الجني لم يسلب على نساء سليمان، بل عصمهن الله ﷻ منه تشريفاً وتكريماً لنبية ﷺ، قال: وقد رويت هذه القصة مطوّلة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، قال: وكلها متلفاة من قصص أهل الكتاب، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. اهـ.

(٣) يريد به القول الأول الذي ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ قال: وفي قولان. أحدهما: أنه شيطان، قاله ابن عباس والجمهور.

الإشارة إلى ذلك

اختلف العلماء في كيفية ذهاب خاتم سليمان على قولين: أحدهما: أنه كان جالساً على شاطئ البحر، فوقع منه في البحر، قاله عليّ عليه السلام. والثاني: أن شياطيناً أخذته، وفي كيفية ذلك أربعة أقوال: أحدها: أنه دخل ذات يوم الحمام ووضع الخاتم تحت فراشه، فجاء الشيطان فأخذه وألقاه في البحر، وجعل الشيطان يقول: أنا نبيُّ الله، قاله سعيد بن المسيّب. والثاني: أن سليمان قال للشيطان: كيف تُفْتِنون النَّاسَ؟ قال: أرني خاتمك أُخْبِرْكَ، فأعطاه إياه، فنبذه في البحر، فذهب مُلك سليمان، وقعد الشيطان على كرسيه، قاله مجاهد. والثالث: أنه دخل الحمام، ووضع خاتمته عند أوثق نساته في نفسه، فاتاها الشيطان فتمثل لها في صورة سليمان وأخذ الخاتم منها، فلَمَّا خرج سليمان، طلبه منها، فقالت: قد دفعته إليك، فهرب سليمان، وجاء الشيطان فجلس على مُلكه، قاله سعيد بن جبير. والرابع: أنه دخل الحمام، وأعطى الشيطان خاتمته فألقاه الشيطان في البحر، فذهب مُلك سليمان، وألقي على الشيطان شَيْبُهُ، قاله قتادة. فأَمَّا قِصَّةُ الشيطان، فذكر أكثر المفسرين أنه لَمَّا أخذ الخاتم رمى به في البحر، وألقي عليه شَيْبُهُ سليمان، فجلس على كرسيه، وتحكَّم في سُلطانه. وقال السدي: لم يُلقِه في البحر حتى فرَّ من مكان سليمان. وهل كان يأتي [نساء] سليمان؟ فيه قولان: أحدهما: أنه لم يُقدِّر عليهنَّ، قاله الحسن، وقاتة. والثاني: أنه كان يأتيهنَّ في زمن الحِض، فأَنكرهنَّ، قاله سعيد بن المسيّب، والأول أصحُّ^(١). قالوا: وكان يقضي بقضايا فاسدة، ويحكِّم بما لا يجوز، فأنكره بنو إسرائيل، فقال بعضهم لبعض: إِمَّا أَنْ تكونوا قد هَلَكْتُمْ أَنْتُمْ، وإِمَّا أَنْ يكون مَلِكُكُمْ قد هَلَكَ، فأذْهبوا إلى نِسائه فأسأَلُوهُنَّ، فذهبنَّ، فقلُنَّ: إِنَّا والله قد أنْكَرْنَا ذلك؛ فلم يزل على حاله إلى أن انقضى زمن البلاء. وفي كيفية بُعْدِ الشيطان عن مكان سليمان أربعة أقوال: أحدها: أن سليمان وجد خاتمته فتختم به، ثم جاء فأخذ بناصية الشيطان، قاله سعيد بن المسيّب. والثاني: أن سليمان لَمَّا رَجَعَ إلى مُلكه وجاءته الرُّيح والظُّير والطيَّار، فرَّ الشيطان حتى دخل البحر، قاله مجاهد. والثالث: أنه لَمَّا مضى أربعون يوماً، طار الشيطان من مجلسه، قاله وهب. والرابع: أن بني إسرائيل لَمَّا أنكروه، أتوه فأحذقوا به، ثم نَشَرُوا التُّورَةَ فقرأوا، فطار من بين أيديهم حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت، قاله السدي. وفي قدر مكث الشيطان قولان: أحدهما: أربعون يوماً، قاله الأكثرون. والثاني: أربعة عشر يوماً، حكاه الثعلبي. وأما قصة سليمان عليه السلام، فإنه لما سلب خاتمته، ذهب ملكه، فانطلق هارباً في الأرض. قال مجاهد: كان يَسْتَطْعِمُ فلا يَطْعَمُ، فيقول: لو عَرَفْتُمُونِي أعطيْتُمُونِي، أنا سليمان، فيطردونه، حتى أعطته امرأةً حوتاً، فوجد خاتمته في بطن الحوت. وقال سعيد بن جبير: انطلق سليمان حتى أتى ساحل البحر، فوجد صيادين قد صادوا سمكاً كثيراً وقد أنتن عليهم بعضه، فأتاهم يَسْتَطْعِمُ، فقالوا: اذهب إلى تلك الحيتان فخذ منها، فقال: لا، أطيْعُمُونِي من هذا، فأبوا عليه، فقال: أطيْعُمُونِي فإني سليمان، فوثب إليه رجلٌ منهم فضره بالعصا عُضْباً لسليمان، فأتى تلك الحيتان فأخذ منها شيئاً، فشقُّ بطن حوت، فإذا هو بالخاتم. وقال الحسن: ذُكِرَ لي أنه لم يُؤوه أحدٌ من الناس، ولم يُعرَفَ أربعين ليلةً، وكان يأوي إلى امرأة مسكينة، فبينما هو يوماً على شطِّ نهر، وجد سمكة، فأتى بها المرأة فشتمتها فإذا بالخاتم. وقال الضحاك: اشترى سمكة من امرأة فشقُّ بطنها فوجد خاتمته. وفي المدة التي سلب فيها الملك قولان: أحدهما: أربعون ليلةً، كما ذكرنا عن الحسن. والثاني: خمسون ليلةً، قاله سعيد بن جبير. قال المفسرون: فلَمَّا جعل الخاتم في يده، ردَّ الله عليه بهاءه ومُلكه، فأظلمت الظُّير، وأقبل لا يستقبله جني ولا طائر ولا حجر ولا شجر إلا سجد له، حتى انتهى إلى منزله. قال السدي: ثم أرسل إلى الشيطان، فجيء به، فأمر به فجعل في صندوق من حديد، ثم أطبق عليه وأقل، وختم عليه بخاتمته، ثم أمر به فألقي في البحر، فهو فيه إلى أن تقوم الساعة. وقال وهب: جاب^(٢) صخرةً فأدخله فيها، ثم أوثقها بالحديد والرصاص، ثم قذفه في البحر.

(١) وقد رأيت قبل قليل كيف قال ابن كثير: فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله تعالى منه ترفيقاً وتكريماً لنبية عليها السلام، قال: وقد رويت هذه القصة عن جماعة من السلف، ثم قال: وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب. اهـ.

(٢) جاب: قطع.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لِي مُلْكًا لَّا يَبْتِغِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَدِيئَةٍ﴾ فتح الياء^(١) نافع، وأبو عمرو. وفيه قولان: أحدهما: لا يكون لأحد بعدي، قاله مقاتل، وأبو عبيدة. وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحاحين» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ عَفْرِيئًا مِنَ الْجِنِّ تَمَلَّتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمَكَّنَنِي اللَّهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَائِرَةِ مِنْ سُورِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سَلِيمَانَ: ﴿وَمَنْ لِي مُلْكًا لَّا يَبْتِغِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَدِيئَةٍ﴾، فَرَدَّدْتُهُ خَاسِمًا»^(٢). والثاني: لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني في حياتي، كما فعل الشيطان الذي جلس على كرسيه، قاله الحسن، وقتادة^(٣). وإنما طلب هذا المُلْك، ليعلم أنه قد عُفِرَ له، ويعرف منزلته بإجابة دعوته، قاله الضحاك. ولم يكن في مُلكه حين دعا بهذا الرِّيحُ ولا الشياطينُ ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾^(٤) وقرأ أبو الجوزاء، وأبو جعفر، وأبو المتوكل: «الرِّيحَ» على الجمع.

قوله تعالى: ﴿رُجَّةٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: مُطِيعَةٌ، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، والضحاك. والثاني: أنها الطيبة، قاله مجاهد. والثالث: اللينة، مأخوذ من الرخاوة، قاله اللغويون. فإن قيل: كيف وصفها بهذا بعد أن وصفها في سورة [الأنبياء: ٨١] بأنها عاصفة؟ فالجواب: أن المفسرين قالوا: كان يأمر العاصف تارة ويأمر الرخاء أخرى. وقال ابن قتيبة: كأنها كانت تشتد إذا أراد، وتلين إذا أراد.

قوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث قصد وأراد. قال الأصمعي: تقول العرب: أصاب فلان الصواب فأخطأ الجواب، أي: أراد الصواب.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّيْطَانِ﴾ أي: وسَخَّرْنَا له الشياطينَ ﴿كُلَّ بَنَاءٍ﴾ يبنون له ما يشاء ﴿وَعَوَاصِرٍ﴾ يغوصون له في البحار فيستخرجون الدر^(٥)، ﴿وَالْآخِرِينَ﴾ أي: وسَخَّرْنَا له آخرين، وهم مَرَدَّةُ الشياطين، سَخَّرهم له حتى قَرَنهم في الأصفاد ليكفرهم. قال مقاتل: وأقنهم في الحديد. وقد شرحنا معنى ﴿مَقْرَبِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ في سورة نبي الله إبراهيم ﷺ [إبراهيم: ٤٩]. ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ المعنى: قُلْنَا له: هذا عطاؤنا. وفي المشار إليه قولان: أحدهما: أنه جمع ما أعطي، ﴿فَأَمَّنَّ أَوْ أَمَّكَ﴾ أي: أَعْطَى مَنْ شِئْتَ مِنَ الْمَالِ، وَأَمَّنَّ مَنْ شِئْتَ. والمَرْنُ: الإحسان إلى من لا يطلب ثوابه. والثاني: أنه إشارة

(١) أي: ياء بعدي.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» ٣٢٩/٦، ٤٢٠/٨، ومسلم: ٣٨٤/١، والحديث ذكره السيوطي في «الدر» ٣١٣/٥، وزاد نسبه لعبد بن حميد، والنسائي، والحكيم الترمذي في «نواهد الأصول»، وابن مردويه عن أبي هريرة ﷺ. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وقوله: «تَمَلَّتْ عَلَيَّ» أي: تَمَرَّضَ لِي فَلتَ، أي: بنته، وقوله: «البارحة» أي: الليلة الخالية الزائلة، قال: والبارح: الزائل، قال: ويقال من بعد الزوال إلى آخر النهار: البارحة، قال: وقوله: «فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سَلِيمَانَ» أي: قوله: ﴿وَمَنْ لِي مُلْكًا لَّا يَبْتِغِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَدِيئَةٍ﴾ قال: وفي هذا إشارة إلى أنه ﷺ كان يقدر على ذلك، إلا أنه تركه رعاية لسليمان ﷺ، قال: ويحتمل أن تكون خصوصية سليمان استخدام الجن في جميع ما يريد لا في هذا القدر فقط، قال: واستدل الخطابي بهذا الحديث على أن أصحاب سليمان كانوا يرون الجن في أشكالهم وهيتهم حال تصرفهم، قال: وأما قوله: ﴿إِنَّكُمْ رَبَّنَا كُنْتُمْ تَوَاقِلًا﴾ أي: لا تَرُدُّوهُمْ، فالمراد: الأكثر الأغلب من أحوال بني آدم، قال: وتَعَقَّبَ بأن نفي رؤية الإنس للجن على هيتهم ليس بقاطع من الآية، بل ظاهرها أنه ممكن، فإن نفي رؤيتنا إياهم مقيد بحال رؤيتهم لنا، قال: ولا ينبغي إمكان رؤيتنا لهم في غير تلك الحالة، قال: ويحتمل العموم، وهو الذي فهمه أكثر العلماء، حتى قال الشافعي: من زعم أنه يرى الجن، أبطلنا شهادته، واستدل بهذه الآية. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: قوله: ﴿قَالَ نَبِيُّ أَفْرِيئٍ لِي وَمَنْ لِي مُلْكًا لَّا يَبْتِغِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَدِيئَةٍ﴾ يقول تعالى ذكره: قال سليمان راعياً إلى ربه: رب استر علي ذنبي الذي أذنبت بيني وبينك فلا تماقني به ﴿وَمَنْ لِي مُلْكًا لَّا يَبْتِغِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَدِيئَةٍ﴾ لا يسلبني أحد كما سلبني قبل هذه الشيطان. اهـ. وقال ابن كثير: قال بعضهم: معناه: لا ينبغي لأحد من بعدي، أي: لا يصلح لأحد أن يسلبني بعدي، كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس، قال: والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، قال: وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ. اهـ.

(٤) قال ابن جرير الطبري: فاستجبتنا له دعاءه فأعطيناه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فسخرنا له الريح.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَالشَّيْطَانِ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِرٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وسَخَّرْنَا له الشياطين فسُلْطَنَاهُ عَلَيْهَا مَكَانَ مَا ابْتَلَيْنَاهُ بِالذِّي أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ مِنْهَا، يستعملها فيما شاء من أعماله، من بِنَاءٍ وَغَوَاصِرٍ، فالبنائة منها يصنعون محاريب وتماثيل، والغاصية يستخرجون له الخُلِي من البحار، وآخرون يحنون له جفاناً وندوراً، والمرتدة في الأغلال مَقْرَبُونَ. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله جل جلاله: ﴿وَالشَّيْطَانِ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِرٍ﴾ أي: منهم من هو مستعمل في الابنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدر رسائيت إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، قال: وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللؤلؤ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها. اهـ.

إلى الشياطين المسحّرين له؛ فالمعنى: فامتنن على من شئت بإطلاقه، وأمسيك من شئت منهم. وقد روي معنى القولين عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿يَتَرِحَ حِسَابَ﴾ قال الحسن: لا تبعه عليك في الدنيا ولا في الآخرة. وقال سعيد بن جبير: ليس عليك حساب يوم القيامة. وقيل: في الكلام تقليد وتأخير، تقديره: هذا عطاؤنا بغير حساب فامتنن أو أمسيك^(١). وما بعد هذا قد سبق تفسيره [سبأ: ٣٧، الرعد: ٢٩، الأنبياء: ٨٣]^(٢) إلى قوله: ﴿مَسَى الشَّيْطَانُ﴾ وذلك أن الشيطان سلط عليه، فأضاف ما أصابه إليه.

قوله تعالى: ﴿يُنْسِي﴾ قرأ الأكترون بضم النون وسكون الصاد؛ وقرأ الحسن، وابن أبي عمير، وابن السميع، والجدري، ويعقوب؛ بفتحهما. وهل بينهما فرق؟ فيه قولان: أحدهما: أنهما سواء. قال الفراء: هما كالرشد والرشد، والعدم والعدم، والمؤمن والمؤمن، وكذلك قال ابن قتيبة، والوجلي. قال المفسرون: والمراد بالنصب: الضرب الذي أصابه. والثاني: أن النصب بتسكين الصاد: الشربة وتحريكها: الإعياء؛ قاله أبو عبيدة. وقرأت عائشة، ومجاهد، وأبو عمران، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو عمارة عن حفص: «بُصِب» بضم النون والصاد جميعاً. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو الجوزاء، وهبيرة عن حفص: «بُنْصِب» بفتح النون وسكون الصاد^(٣). وفي المراد بالعذاب قولان: أحدهما: أنه العذاب الذي أصاب جسده. والثاني: أنه أخذ ماله وولده.

قوله تعالى: ﴿رَكَضَ﴾ أي: اضرب الأرض ﴿بِرِجْلِكَ﴾^(٤)، ومنه: رَكَضْتُ الفرس^(٥). فَرَكَضَ فنبعث عين ماء، فذلك قوله ﷻ: ﴿هَذَا مَسَلُّ بَايِدٍ وَتَرَايِدٍ﴾. قال ابن قتيبة: المَغْسَلُ: الماء، وهو الغسل أيضاً. قال الحسن: رَكَضَ بـرجله فنبعث عَيْنَ [فاغْسَلْ منها، ثم مشى نحواً من أربعين ذراعاً، ثم رَكَضَ بـرجله فنبعث عَيْنَ] فَشَرِبَ منها؛ وعلى هذا جمهور العلماء أنه رَكَضَ ركضتين فنبعث له عينان، فاغسل من واحدة، وشرب من الأخرى.

قوله تعالى: ﴿رُحِدَ بِرِكَ ضَيْئًا﴾ كان قد حَلَفَ لئن شفاه الله لَيَجْلِدَنَّ زوجته مائة جلدة^(٦). وفي سبب هذه اليمين ثلاثة أقوال: أحدها: أن إبليس جلس في طريق زجة أيوب كأنه طيب، فقالت له: يا عبد الله: إن هاهنا إنساناً مهتلياً، فهل لك أن تداويه؟ قال: نعم، إن شاء شفيته، على أن يقول إذا برأ: أنت شفيتني، فجمعت فأخبرته، فقال: ذاك الشيطان، لله علي إن شفاني أن أجلِدَك مائة جلدة، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس^(٧). والثاني: أن إبليس لقيها

(١) قال ابن جرير الطبري: أخبر تعالى أنه سخر له ما لم يسخر لأحد من بني آدم، وذلك تسخيره له الريح والشياطين قال: ثم قال عز ذكره: هذا الذي أعطيتك من الملك وتسخيرنا ما سخرنا لك، عطاؤنا، ووهبنا لك ما سألتنا أن نهبه من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعدك، ثم قال: والله لا يحاسب على ما أعطى من ذلك الملك والسلطان. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله ﷻ: ﴿مَكَانًا مَكَّنَّا لَكُنْزًا أَوْ آيَةً يُتَرَكَّى حِسَابَ﴾ أي: هذا الذي أعطيتك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك مهما فعلت، فهو جازر لك، احكم بما شئت فهو صواب. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره لئيبه محمد ﷻ: ﴿وَأَذْكُرُ﴾ أيضاً يا محمد ﴿حَدَّثَنَا أَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ مستتياً به فيما نزل به من البلاء يا رب ﴿أَلَيْ سَمَى الشَّيْطَانُ بِسَمِي﴾. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القراءة في ذلك حديثنا ما عليه قراءة الأمصار، وذلك الضم في النون والسكون في الصاد. اهـ.

(٤) قال القاسمي: أي: استجنتا له ولنا: اركض بـرجلك، أي: اعد بها وامش فقد برئت وشفيت من مرضك وقوي جسمك وضح بدنك ﴿رَكَضَ بِرِجْلِكَ مَكَانًا مَسَلُّ بَايِدٍ وَتَرَايِدٍ﴾ أي: ماء تغتسل به وتشرّب منه، قال: والإشارة إلى عين أو نهر أو نحوهما. وقال الطبري: فاغسل وشرب، ففرجنا عنه ما كان فيه من البلاء، ووهبنا له أهله من زوجة وولد ﴿وَنُظِّمَ مَعَهُمْ رَمَةً يُبَالِغُ﴾ له ﴿وَذُكِّرْنَا﴾ يقول: وتذكيراً لأولي العقول ليقتروا بها فيعتظوا. اهـ.

(٥) في «الصحيح» و«اللسان»: وركضت الفرس بـرجلي: إذا استعنتت ليغزو، ثم كثر حتى قيل: ركضت الفرس: إذا غدا، وليس بالأصل، والصواب: ركضت الفرس، على ما لم يُسَمَّ فاعله، فهو مؤرَّض.

(٦) قال ابن كثير: وقوله: ﴿رُحِدَ بِرِكَ ضَيْئًا فَأُتْرِبَ بِيَدٍ وَلَا حَسَنَةً﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته - قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه - فلأمها على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليفسرها مائة جلدة، وقيل لغير ذلك من الأسباب، فلما شفاه الله ﷻ وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ ضئاً وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برئت يمينه وخرج من حنّة زوجته بنته، قال: وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه. اهـ.

(٧) ذكره السيوطي في «الدرر» ٣١٦/٥ من رواية أحمد في «الزهده»، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷻ.

فقال: إني أنا الذي فعلت بأبيوب ما به، وأنا إله الأرض، وما أخذته منه فهو بيدي، فانطلقني أريك، فمشى بها غير بعيد، ثم سَحَرَ بِصَرِّهَا، فأراها وادياً عميقاً فيه أهلها وولدها ومألها، فأنت أيوب فأخبرته، فقال: ذاك الشيطان، ويحك كيف رَعَى قَوْلَهُ سَمْعُكَ؟ والله لئن شفاني الله ﷻ لأَجْلِدَنَّكَ مائة، قاله وهب بن منبه. والثالث: أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة، فقال: لِيَذْبَحْ لِي هذه وقد برأ؛ فأخبرته، فحَلَفَتْ لِيَجْلِدَنَّهَا، وقد ذكرنا هذا القول في سورة [الأنبياء: ٨٣] عن الحسن. فأما الصُّغْتُ، فقال الفراء: هو كُلُّ ما جمعته من شيءٍ ومثلِ الحُزْمَةِ الرُّطْبَةِ، قال: وما قام على ساق واستطال ثم جمعته، فهو صِغْتُ. وقال ابن قتيبة: هو الحُزْمَةُ من الخلال والعيدان. قال الزجاج: هو الحُزْمَةُ من الحشيش والزئحان وما أشبهه. قال المفسرون: جزی الله زوجته بحسن صبرها أن أفناه في ضربها فسَهَل الأمر، فجمع لها مائة عود، وقيل: مائة سنبله، وقيل: كانت أسلاً^(١)، وقيل: من الإذخیر^(٢)، وقيل: كانت شماريح، فضربها بها ضربةً واحدةً ولم يَحْتُثْ في يمينه. وهل ذلك خاصٌّ له، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه عامٌّ، وبه قال ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، [وابن أبي ليلى]. والثاني: أنه خاصٌّ لأيوب، قاله مجاهد.

فصل

وقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يَضْرِبَ عبده عشرة أسواط فجمعها كلها وضربه بها ضربة واحدة، فقال مالك، والليث بن سعد: لا يَبْرُ، وبه قال أصحابنا. وقال أبو حنيفة والشافعي: إذا أصابه في الضربة الواحدة كُلُّ واحدٍ منها، فقد بَرَّ، واحتجوا بعموم قصة أيوب عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ مُسِرًّا﴾ أي: على البلاء الذي ابتليناه به^(٣).

﴿وَأَذَكَّرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَنْصَارِ﴾ ﴿١٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِحَالَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿١٦﴾ وَإِنَّمَا عِنْدَنَا لَبَنٌ الْمُصَفَّى وَالْأَخْيَارِ ﴿١٧﴾ وَأَذَكَّرْ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَدَا الْكَافِيَ وَكُلَّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿١٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَّابِ ﴿١٩﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مِّنْهُنَّ لَهُمُ الْأَنْبُوبُ ﴿٢٠﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِكُنُهُمْ كَثِيرًا وَتَرَابٍ ﴿٢١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْكَرْبِ الرَّابِ ﴿٢٢﴾ هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ يُؤْتَوَى الْحِسَابِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرْزَاقٌ مَا لَمْ يَنْ تَقَادِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذَكَّرْ عِبْدَنَا﴾ وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحמיד، وابن محيصن، وابن كثير: «عبدنا»، إشارة إلى إبراهيم، وجعلوا إسحاق ويعقوب عطفاً عليه، لأنه الأصل وهما ولداه، والمعنى: أذكُر صبرهم، فإبراهيم ألقى في النار، وإسحاق أضجع للذبح^(٤)، ويعقوب صبر على ذهاب بصره وابتلي بفقد ولده؛ ولم يُذكَر إسماعيل معهم، لأنه لم يُتَلَى كما ابتلوا^(٥). ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾ يعني القوة في الطاعة ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ البصائر في الدين والعلم. قال ابن جرير: وذُكِرَ الأيدي مثل، وذلك لأن باليد البطش، وبالبطش تُعرف قُوَّة القوي، فلذلك قيل للقوي: ذو يدي؛ وعنى بالبصر: بصر القلب، وبه تُنال معرفة الأشياء. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وابن أبي عمير: «أولي الأيدي» بغير ياء في الحاليين. قال الفراء: ولها وجهان: أحدهما: أن يكون القارئ لهذا أراد الأيدي، فحذف الياء، وهو صواب، مثل الجوار والمناد. والثاني: أن يكون من القُوَّة والتأييد، من قوله: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّوسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ أي: اصطفييناهم وجعلناهم لنا خالصين، فأوردناهم بمُفَرَّدة من خصال الخير؛ ثم أبان

- (١) قال في «المصباح»: الأسَلُ: شجرٌ، ويقال: كل شجر له شوك طويل فتَوَكَّمه أسَلٌ.
- (٢) قال في «المصباح»: الإذخِر، بكسر الهمزة والخاء: نبات معروف ذكي الريح، وإذا جَفَّتْ أبيض.
- (٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ مُسِرًّا﴾ يقول: إنا وجدنا أيوب مسيراً على البلاء، لا يحمله البلاء على الخروج عن طاعة الله والدخول في معصية ﴿يَتَمَّ التَّيْبُ إِنَّهُ لَكْرِيمٌ﴾ يقول: إنه إلى طاعة الله مقبل، وإلى رضا رجاء. اهـ.
- (٤) هذا على رأي من قال بأن اللبيح هو إسحاق، وبذلك قال المصنف، وقد رجح ذلك الطبري، وقد تقدم أن الصواب في ذلك أن اللبيح إسماعيل ﷺ، لا إسحاق، وعليه الجمهور.
- (٥) قال ابن كثير: يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأبيائه العابدين ﴿وَأَذَكَّرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَنْصَارِ﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع، والقوة في العبادة والبصيرة النافذة. اهـ.

عنها بقوله: ﴿ذَكَرَى الدَّارِ﴾. وفي المراد بالدار هاهنا قولان: أحدهما: الآخرة. والثاني: الجنة. وفي الذكرى قولان: أحدهما: أنها من الذُّكْر، فعلى هذا يكون المعنى: أخلصناهم بذكر الآخرة، فليس لهم ذُكْر غيرها، قاله مجاهد، وعطاء، والسدي. وكان الفضيل بن عياض رحمة الله عليه يقول: هو الخوف الدائم في القلب. والثاني: أنها التذكير، فالمعنى أنهم يذُكُّون الناس إلى الآخرة وإلى عبادة الله تعالى، قاله قتادة. وقرأ نافع: «بخالصة ذُكْرَى الدَّارِ»، فأضاف «خالصة» إلى «ذُكْرَى الدار» قال أبو غلي: تحتل قراءة من نون وجهين: أحدهما: أن تكون «ذُكْرَى» بدلاً من «خالصة»، والتقدير: أخلصناهم بذكر الدار، والثاني: أن يكون المعنى: أخلصناهم بأن يذُكُّوا الدَّارَ بالتأهب للآخرة والزُّهد في الدنيا. ومن أضاف، فالمعنى: أخلصناهم بإخلاصهم ذُكْرَى الدَّارِ بالخوف منها. وقال ابن زيد: أخلصناهم بأفضل ما فيه الجنة^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنبَأَهُمُ عَنَّا لَوْنِ السَّمَلِيِّينَ﴾ أي: من الذين اتخذهم الله صَفْوَةً فصفاهم من الأنداس ﴿الْأَخْيَارِ﴾ الذين اختارهم. ﴿وَأَذَكَّرَ إِسْمَاعِيلَ وَأَلْسَعَ وَدَا الْكُفْلَ﴾ أي: اذكروهم بفضلهم وصبرهم لِتَسْلُكِ طَرِيقِهِمْ. وَالتَّيَسُّعِ نَبِيِّ، واسمه أعجمي معرب، وقد ذكرناه في [الانعام: ٨٥]، وشرحنا في سورة [الأنبياء: ٨٥] قصة ذي الكفل، وتكلمنا في [البقرة: ١٢٥] في اسم إسماعيل، وزعم مقاتل أن إسماعيل هذا ليس بابن إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أي: شرف وثناء جميل يُذَكِّرون به أبداً ﴿وَإِنَّ لِلنَّشُوتِيِّينَ لَحَسَنَ مَنَابٍ﴾ أي: حُسْنَ مَرْجِعٍ يرجعون إليه في الآخرة. ثم بيَّن ذلك المَرْجِعَ، فقال: ﴿جَنَّتِي عَدُوٌّ مُنْعَمَةٌ لَّهُمُ الْاَكْرَبُ﴾ قال الفراء: إنما رُفِعَتْ «الأبواب» لأن المعنى: مفتحة لهم أبوابها، والعرب تجعل الألف واللام خلفاً من الإضافة، فيقولون: مرتت على رَجُلٍ حَسَنِ العَيْنِ، قبيح الأنف، والمعنى: حسنة عينه، قبيح أنفه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْبَيْهَتِيِّينَ الْاَكْرَبُ﴾ [التازعات: ٣٩] والمعنى: مأواه. وقال الزجاج: المعنى: مُفْتَحَةٌ لهم الأبواب منها، فالألف واللام للتعريف، لا للبدل. قال ابن جرير: والفائدة في ذِكْرٍ تفتيح الأبواب، أن الله ﷻ أخبر عنها أن أبوابها تُفْتَحُ لهم بغير فتح سَكَّانها لها بيد، ولكن بالأمر، قال الحسن: هي أبواب تكلم، فتكلم: انفتحتي، انغلقي.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَبِيرَةٌ اَطْرَفِي﴾ قد مضى بيانه في [الصافات: ٤٨]. قال الزجاج: والأتراب: اللواتي أسنأتهنَّ واحدةً وهُنَّ في غاية الشباب والحُسن. قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا نُوعِدُكُمْ﴾^(٢) قرأ أبو عمرو، وابن كثير بالياء. والباقون بالثاء. قوله تعالى: ﴿يُرْوَى السَّابِ﴾ اللام بمعنى «في». والنقاد. الانقطاع. قال السدي: كلُّما أخذ من رِزْقِ الجنة شيء، عاد بئله.

﴿هَذَا وَرِثَ اللَّطِيفِينَ لَثَرَ مَنَابٍ﴾ جَهَّمَ يَصَلَوْتَهَا وَيَسَّ الْهَمَاءُ ﴿١﴾ هَذَا قَبِيرَةٌ وَجِيْدَةٌ وَعَصَاكُ ﴿٢﴾ وَتَاخَرُ مِنْ شَكْلِهِ اَرْوَجُ ﴿٣﴾ هَذَا فَوْجٌ مُنْعَمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ مِنْهُمْ صَلَاةُ النَّارِ ﴿٤﴾ قَالُوا بَلْ اَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ اَنْتُمْ قَدْ مَشَوْا لَنَا يَمَسُّ التَّسَارُّ ﴿٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَلَيْنَا عَصَاكُ فِي النَّارِ ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِيَالًا كَمَا نَعُدُّمْ مِنْ اَلْاَشْرَارِ ﴿٧﴾ اَفَقَدْ نَهَّمْ سَخِرًا اَمْ رَاَعَتْ عَنْهُمْ الْاَبْصَارُ ﴿٨﴾ اِنَّ ذٰلِكَ لَمَوْعِظَةٌ لِّاَهْلِ النَّارِ ﴿٩﴾ قُلْ اِنَّمَا اَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ اِلٰهٍ اِلَّا اِنَّهُ اَلْوَيْدُ الْقَهَّارُ ﴿١٠﴾ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْاَلْمُنَدِرُ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿هَذَا﴾ المعنى: هذا الذي ذكرناه ﴿وَرِثَ اللَّطِيفِينَ﴾ يعني للكافرين. ﴿لَثَرَ مَنَابٍ﴾^(٣)، ثم بيَّن ذلك

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك على قراءة من قرأه بالتثنية أن يقال: معناه: إنا أخلصناهم بخالصة هي ذُكْرَى الدار الآخرة، فعملوا لها في الدنيا فاطعوا الله وراقبوه. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: أي: هذا الذي ذكرناه من صفة الجنة، هي التي وعدنا لعباده المتقين الذين يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿هَذَا﴾ الذي وصفت لهؤلاء المتقين، قال: ثم استأنف جل وعز الخبر عن الكافرين به الذين طغوا عليه وبقوا فقال: ﴿وَرِثَ اللَّطِيفِينَ﴾ وهم الذين تمردوا على ربهم فقصدوا أمره مع إحسانه إليهم ﴿لَثَرَ مَنَابٍ﴾، يقول: لثَرٌ مرجع ومصير يصيرون إليه في الآخرة بعد خروجهم من الدنيا. اهـ.

بقوله: ﴿جَهَّمَ﴾ والمهاد: الفراش. ﴿كَذَا فَلْيُدْوِقُوهُ﴾ قال الفراء: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: هذا حميمٌ وعَسَاقٌ فَلْيُدْوِقُوهُ؛ وإن شئتَ جعلتَ الحميم مستأنفاً، كأنك قلتَ: هذا فَلْيُدْوِقُوهُ، ثم قلتَ: منه حميمٌ، ومنه عَسَاقٌ، كقول الشاعر:

حَتَّى إِذَا مَا أَضَاءَ الصُّبْحُ فِي غَلَسِ
وَعُودِرَ السَّفَلِ مَلُوبٍ وَمَخْصُودٍ^(١)
فأما الحميم، فهو الماء الحارّ. وأما العَسَاق، ففيه لغتان، قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص: بالتشديد، وكذلك في (عم يتساءلون: ٢٥)، تابعهم المفضل في ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، وقرأ الباقون بالتخفيف. وفي العَسَاق أربعة أقوال: أحدها: الزمهير، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال مجاهد: العَسَاق لا يستطيعون أن يدوقوه من برده. والثاني: أنه ما يجري من صديد أهل النار، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال عطية، وقتادة، وابن زيد. والثالث: أن العَسَاق: عَيْنٌ فِي جَهَنَّمَ يَسِيلُ إِلَيْهَا حُمَةٌ كُلُّ ذَاتِ حُمَةٍ مِنْ حَيٍّ أَوْ عَرَبٍ أَوْ غَيْرِهَا، فَيَسْتَنْقِعُ، فَيُوتِي بِالْأَدْمِيِّ فَيُعْمَسُ فِيهَا عُمَسَةً، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، وَيَجْرُ لِحْمَهُ جَرَّ الرَّجُلِ ثَوْبَهُ، قاله كعب. والرابع: أنه ما يسيل من دموعهم، قاله السدي. قال أبو عبدة: العَسَاق: ما سال، يقال: عَسَقَتِ العَيْنُ والجرح. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن قتيبة قال: لم يكن أبو عبيدة [يذهب] إلى أن في القرآن شيئاً من غير لغة العرب، وكان يقول: هو اتفاق يقع بين اللغتين، وكان [غيره] يزعم أن العَسَاق: البارد المُتَيْنِ بلسان الترك. وقيل: فعَال، من عَسَقَ يَعْسِقُ؛ فعلى هذا يكون عربياً. وقيل في معناه: إنه الشديد البرد، يخرق من برده. وقيل: هو ما يسيل من جلود أهل النار من الصديد^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ﴾ قرأ أبو عمرو، والمفضل: «وأخْرَجَ» بضم الهمزة من غير مدٍّ، فجمعاً لأجل نعتة بالأزواج، وهي جمع. وقرأ الباقون بفتح الألف ومدّه على التوحيد، واحتجوا بأن العرب تنعت الاسم إذا كان فعلاً بالقليل والكثير؛ قال الفراء: تقول: عذابُ فلانٍ ضروبٌ شتى، وضربان مختلفان؛ وإن شئتَ جعلتَ الأزواج نعتاً للحميم والسقاق والآخر، فهنّ ثلاثة، والأشبه أن تجعله صفة لواحد. وقال الزجاج: من قرأ «وأخْرَجَ» بالمدِّ، فالمعنى: وعذاب آخر ﴿مِنْ سُكَّيْهِ﴾ أي: مثل الأول. ومن قرأ: «وأخْرَجَ»، فالمعنى: وأنواعٌ آخر، لأن قوله: ﴿أَزْوَاجٌ﴾ بمعنى أنواع. وقال ابن قتيبة: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ سُكَّيْهِ﴾ أي: مِنْ نَحْوِهِ، «أَزْوَاجٌ» أي: أصناف. وقال ابن جرير: ﴿مِنْ سُكَّيْهِ﴾ أي: مِنْ نَحْوِ الْحَمِيمِ. قال ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ سُكَّيْهِ﴾: هو الزمهير. وقال الحسن: لما ذكر الله تعالى العذاب الذي يكون في الدنيا، قال: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ سُكَّيْهِ﴾ أي: وأخْرَجَ لَمْ يَرِ فِي الدُّنْيَا^(٣).

قوله تعالى: ﴿مَنْذَرٌ قَوْحٌ﴾ هذا قول الرّبّانية للقادة المتقدمين في الكفر إذا جاؤوهم بالأنباع. وقيل: بل هو قول الملائكة لأهل النار كلما جاؤوهم بأمة بعد أمة^(٤). والفوج: الجماعة من الناس، وجمعه: أفواج. والمُتَّجِمُ: الدّاخل في الشيء رميةً بنفسه. قال ابن السائب: إنهم يُضْرَبُونَ بِالْمَقَامِعِ، فَيُلْقَوْنَ أَنْفُسَهُمْ فِي النَّارِ وَيَبْنُونَ فِيهَا خَوْفاً مِنْ تِلْكَ الْمَقَامِعِ. فلما قالت الملائكة ذلك لأهل النار، قالوا: ﴿لَا مَرَجًا لِيَوْمِ﴾، فاتصل الكلام كأنه قول واحد، وإنما الأول من قول الملائكة، والثاني من قول أهل النار؛ وقد بيّنا مثل هذا في قوله: ﴿لِيَلْمَنَ أَنِّي لَمْ أَهْتُمْ بِالنَّبِيِّ﴾ [يوسف: ٥٢]. والمَرْحَبُ والرَّحْبُ: السَّعَةُ. والمعنى: لا أَسْعَتَ بِهِمْ مَسَاكِنُهُمْ. قال أبو عبيدة: تقول العرب للرجل: لا مَرَحِبًا [لك] أي: لا رَحْبَتَ عَلَيْكَ الْأَرْضِ. وقال ابن قتيبة: معنى قولهم: «مَرَحِبًا وَأَهْلًا» أي: آتَيْتَ رُحْبًا، أي: سَعَةً، وَأَهْلًا، أي: آتَيْتَ

(١) البيت من شواهد الفراء، وهو في (معاني القرآن: ١٩٣)، و(الطبري: ١٧٦/٢٣)، والغلس: ظلام آخر الليل. والملوي: اليباس النابل.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو ما يسيل من صديدهم، قال: لأن ذلك هو الأغلب من معنى السُّوق، وإن كان للأخر وجه صحيح. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ سُكَّيْهِ أَرْوَاحٌ﴾ أن الأرواح من العذاب، قال: وقال غيره: كالزمهير والسموم وشراب الحميم وأكل الرُّوم والصمود والهوي، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة، قال: والجميع مما يعذبون به ويهانون بسببه. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: وقوله ﷻ: ﴿مَنْذَرٌ قَوْحٌ تُنذِرُكُمْ أَنَّكُمْ كَرِهْتُمْهُمْ لِيَوْمِ تُسْأَلُونَ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كَلِمًا تَكَلَّمَ اللَّهُ لَكُنَّ كُنْفَرًا يُعْتَبَرُونَ وَمَا كُنْتُمْ بِبَاطِلٍ يُعْتَبَرُونَ﴾ يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض.

أهلاً لا غرباء، فائس ولا تستوحش، وسهلاً، أي: أتيت سهلاً لا حزناً، وهو في مذهب الدعاء، كما تقول: أقيمت خيراً. قال الزجاج: «ومَرَجَبًا» منصوب بقوله: رَحِبْتُ بِلَاذِكْ مَرَجَبًا، وصادفت مَرَجَبًا، فأدخلت «لا» على ذلك المعنى. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَأَلُوا النَّارَ﴾ أي: داخلوها كما دخلناها، ومُقاسون حَرَّهَا. فأجابهم القوم، ف ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَجَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ فَلَمَّمْتُمُو لَنَا﴾. إن قلنا: إن هذا قول الأتباع للرؤساء، فالمعنى: أنتم زُيْتُمْ لنا الكفر؛ [وإن قلنا: إنه قول الأمة المتأخرة للأمة المتقدمية، فالمعنى: أنتم شرعتم لنا الكفر] وبدأنتم به قبلنا، فدخلتم النار قبلنا ﴿فِيَسْ أَلْفَكَرًا﴾ أي: بشس المُسْتَقَرَّ والمنزل. ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ أي: مَنْ سَنَّهُ وشرعه ﴿فَرَدَّهُ عَلَيْنَا مِتْمَنًا فِي النَّارِ﴾ وقد شرحناه في [الأعراف: ٢٨]. وفي القائلين لهذا قولان: أحدهما: أنه قول جميع أهل النار، قاله ابن السائب. والثاني: قول الأتباع. قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني أهل النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كَمَا نَعُدُّمُ مِنَ النَّارِ﴾ قال المفسرون: إذا دخلوا النار، نظرنا فلم يَرَوْا مَنْ كَانَ يَخَالِفُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فيقولون ذلك. قال مجاهد: يقول أبو جهل في النار: أين صُهِيب، أين عَمَار، أين خَبَاب، أين بلال؟

قوله تعالى: ﴿أَفَعَدَّيْتُمْ سَخِرًا﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «مِنَ الْأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ» بالوصل على الخير؛ أي: [إننا] اتَّخَذْنَاهُمْ، وهؤلاء يتدنون بكسر الهمزة. وقال الفراء: وهذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ، والمعنى أنهم يويئون أنفسهم على ما صنعوا بالمؤمنين. و«سَخِرًا» يُقْرَأ بضم السين وكسرها. وقد شرحناها في آخر سورة [المؤمنين: ١١٠] ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ أي: وهم مَعَنًا في النار ولا نراهم!؟ وقال أبو عبيدة: «أم» هاهنا بمعنى «بل».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ﴾ قال الزجاج: [أي]: إن الذي وصفناه عنهم لَحَقٌّ. ثم بيَّن ما هو، فقال: هو ﴿تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾^(١) وقرأ أبو الجوزاء، وأبو الشعثاء، وأبو عمران، وابن أبي عبيدة: «تَخَاصُّمُ» برفع الصاد وفتح الميم، وكسر اللام من «أهل»، وقرأ أبو مجلز، وأبو العالية، وأبو المتوكل، وابن السميع: «تَخَاصُّمُ أَهْلِ» بفتح الصاد والميم ورفع اللام.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ^(٣) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْأَوَّلِ إِذْ يَخْفَى^(٤) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَا أَنَا تَبِيرٌ تُبِينُ^(٥) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَنَاتٍ لَّيْنٍ^(٦) فَإِذَا سَوَّيْتُهُنَّ وَفَضَحْتُهُنَّ وَفِي رُوحِي نَفْسٌ لَمْ تَكُنْ لَكَ سَكِينٌ^(٧) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ^(٨) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ^(٩) قَالَ يَا أَيْدِي مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْتَالِينَ^(١٠) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ^(١١) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَاكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ^(١٢) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ^(١٣) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ^(١٤) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ^(١٥) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ^(١٦) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ^(١٧) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ^(١٨) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ^(١٩) لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَمَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ^(٢٠) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ^(٢١) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ^(٢٢) وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(٢٣)

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾^(٢٤) النَّبَأُ: الْخَبِيرُ. وفي المشار إليه قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله ابن عباس، ومجاهد، والجمهور. والثاني: أنه البعث بعد الموت، قاله قتادة^(٢٥)، ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾^(٢٦) أي: لا تتفكرون فيه فتعلمون صدقي في نبؤتي، وأن ما جئت به من الأخبار عن قصص الماضين لم أعلمه إلا بوحي من الله. ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْأَوَّلِ﴾ يعني الملائكة ﴿إِذْ يَخْفَى﴾ في شأن آدم حين قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؛ والمعنى: إِنِّي مَا عَلِمْتُ هَذَا إِلَّا بِوَحْيٍ، ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: ما يوحي إليّ ﴿إِلَّا أَنَا أَنَا تَبِيرٌ تُبِينُ﴾

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض، ولعن بعضهم لبعض، لَحَقٌّ لا مرية فيه ولا شك. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره لنبئ محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك المكذبيك فيما جئتكم به من عند الله من هذا القرآن القائلين لك فيه: إن هذا إلا اختلاق ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يقول: هذا القرآن خبر عظيم. اهـ.

[أي]: **إِلَّا أَنِّي نَبِيٌّ أَتَيْتُكُمْ وَأَبَيَّنْ لَكُمْ مَا تَأْتُونَهُ وَتَجْتَنِبُونَهُ**^(١). ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ هذا متصل بقوله: «يَخْتَصِمُونَ»، وإنما اعترضت تلك الآية بينهما. قال ابن عباس: اختصموا حين سُورُوا فِي خُلُقِ آدَمَ، فقال الله لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وهذه الخصومة منهم إنما كانت مُنَاطَرَةً بينهم. وفي مُنَاطَرَتِهِمْ قولان: أحدهما: أنه قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنهم قالوا: لَنْ يُخَلِّقَ اللهُ خَلْفًا إِلَّا كُنَّا أَكْرَمَ مِنْهُ وَأَعْلَمَ، قاله الحسن؛ هذا قول الأكثر من المفسرين. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «رَأَيْتُ رَبِّي ﷻ، فقال لي: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قلت: أنت أعلم يا رب، قال: في الكفارات والدرجات، فأما الكفارات، فإسباغ الوضوء في السَّيرَاتِ^(٢)، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. وأما الدَّرَجَاتُ، فإفشاء السَّلام، وإطعام الطَّعام، والصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامًا»^(٣).

قوله تعالى: ﴿اسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: استكبرت بنفسك حين أثبتت السُّجودَ ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي: من قوم يتكبرون؟ فتكبرت عن السُّجود لكونك من قوم يتكبرون؟!

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّكَ رَبِّمْ﴾ أي: مرجوم باللذم واللعن.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي بَرَأْتُ الْفَلَكِ الْوَعْدِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو وقت النَّفْثَةِ الْأُولَى، وهو حين موت الخلائق. وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْوَى الْعُنُقُ﴾ يعني: يوم تروى عنقه. وما أخللنا به في هذه القصة فهو مذكور في [الأعراف: ١٢] و[الحجر: ٣٤] وغيرهما مما تقدم.

(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّهِ الْإِلَهِيِّ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في شأن آدم من قبل أن يوحى إليّ ربي فعملني ذلك، يقول: ففي إخباري لكم عن ذلك دليل واضح على أن هذا القرآن وحى من الله، وتزيل من عنده، لأنكم تعلمون أن علم ذلك لم يكن عندي قبل نزول هذا القرآن، ولا هو ما شاهدته فعابته، ولكني علمت ذلك بأخبار الله إياي به. اهـ.

(٢) السَّيرَات: جمع سيرة يسكنون الباء، وهي الغداة الباردة.

(٣) لهذا الحديث طرق متعددة، وروايات مختلفة ذكرها السيوطي في «الدرر» ٣١٩/٥ - ٣٢٠، وقد رواه أحمد في «المستند» ٢٤٣/٥ مطولاً من حديث عبد الرحمن بن عياش الحضرمي عن مالك بن يخامر أن معاذ بن جبل ﷺ قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نترأى قرن الشمس، فخرج رسول الله ﷺ سريعاً، فثوب بالصلاة وصلى وتجوّز في صلاته، فلما سلم قال: «كما أتم على مصافكم»، ثم أتبل إلينا فقال: «إني سأحدثكم ما جئني عنكم الغداة، إنني قمت من الليل فصليت ما قدر لي، فنصت في صلاتي حتى استيقظت، فإذا أنا بربي ﷻ في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب، قال: يا محمد فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب، فأريته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صلدي، فتجلى لي كل شيء، وعرفت، فقال: يا محمد فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت: في الكفارات، قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجماعات، وجلس في المساجد بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء عند الكريهات، قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام، قال: سل، قلت: اللهم أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة في قوم تنرفني غير مفتون، وأسألك حيّك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك» وقال رسول الله ﷺ: «إنها حق فادرسوها وتعلموها». قال ابن كثير: فهو حديث المنام المشهور، قال: ومن جملة بقطة، فقد غلط، قال: وهو في «السنن» من طرق، قال: وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي به وقال: حسن صحيح، قال: وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن، فإن هذا قد فُسر، وأما الاختصاص الذي في القرآن، فقد فُسر بعد هذا، وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِ الْعُلَى خَلِّفُوا بَيْنَ يَدَيْ لَعَلَّ كُنْتُمْ تُرْغَبُونَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، قال ابن كثير: «إِنَّ الْإِلَهَانَ لَسَبَّ عَلَى سَبِّكَ...» الآيات. اهـ. وقد شرح هذا الحديث الحافظ ابن رجب الحنبلي في رسالة سماها «اختيار الأولى» في شرح حديث اختصاص الملا الأعلى، وقال عنه بعد ما ذكره من رواية أحمد في «المستند» عن معاذ بن جبل ﷺ: وخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، قال (يعني الترمذي): وسألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا؟ فقال: هذا حديث حسن صحيح. قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: قلت: وفي إسناده اختلاف، وله طرق متعددة، وفي بعضها زيادة، وفي بعضها نقصان، ثم قال: ففي الحديث دلالة على أن النبي ﷺ لم يكن من عاداته تأخير صلاة الصبح إلى قريب طلوع الشمس، وإنما كانت عاداته التغليس بها، وكان أحياناً يسفر بها عند انتشار الضوء على وجه الأرض، قال: وأما تأخيرها إلى قريب طلوع الشمس، فلم يكن من عاداته، قال: ولهذا اعتزل لهم عنه في هذا الحديث، قال: وفي الحديث دلالة على أن من أخر الصلاة إلى آخر الوقت لعذر أو غيره، وخاف خروج الوقت في الصلاة إن طولها، أن يخففها حتى يدرکہا كلها في الوقت، قال: وفي حديث معاذ دليل على أن من رأى رؤيا تسره فإنه يقفها على أصحابه وإخوانه المحييين له، ولا سيما إن تضمنت رؤياه بشارة لهم وتعلماً لما ينفعم، قال: وقد كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر يقول لأصحابه: «من رأى منكم الليلة رؤيا...»، قال: وفيه أيضاً أن من استنقل نومه في تهجده بالليل حتى رأى رؤيا تسره، فإن في ذلك بشرى له، قال: وفيه دلالة على أن الملا الأعلى وهم الملائكة أو المقربون منهم يختصمون فيما بينهم ويتراجمون القول في الأعمال التي تقرب بني آدم إلى الله ﷻ وتكفر بها عنهم خطاياهم... إلى غير ما هنالك من الفوائد، ومن أراد الزيادة، فليرجع إلى رسالته «اختيار الأولى» في شرح حديث اختصاص الملا الأعلى، فإنها ثيمة في هذا الباب.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقْوَلُ ﴾ (١) قرأ عاصم إلا حَسَنُونَ عن هبيرة، وحمزة، وخلف، وزيد عن يعقوب: «فالحقُّ» بالرفع في الأول ونصب الثاني، وهذا مروى عن ابن عباس، ومجاهد؛ قال ابن عباس في معناه: فأنا الحقُّ وأقولُ الحقُّ؛ وقال غيره: خبر الحقُّ محذوف، تقديره: الحقُّ مِنِّي. وقرأ محبوب عن أبي عمرو بالرفع فيهما؛ قال الزجاج: من رفعهما جميعاً، كان المعنى: فأنا الحقُّ والحقُّ أقولُ. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: بالنصب فيهما. قال الفراء: وهو على معنى قولك: حَقًّا لَا تَبْتَئُكَ، ووجودُ الألف واللام وطَرُحُهما سواء، وهو بمنزلة قولك: حمداً لله. وقال مكِّي بن أبي طالب: انتصب الحق الأول على الإغراء، أي: اتَّبِعُوا الحقَّ، واسمَعُوا والزَمُوا الحقَّ. وقيل: هو نصب على القَسَم، كما تقول: اللهُ لَأَفْعَلَنَّ، فَتَنْصِبُ حين حذفت الجارَ، لأن تقديره: فبالحقِّ؛ فأما الحقُّ الثاني، فيجوز أن يكون الأول، وكَرَّرَهُ توكيداً، ويجوز أن يكون منصوباً بـ «أقولُ» كأنه قال: وأقولُ الحقَّ. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو رجاء، ومعاذ القارئ، [والأعمش]: «فالحقُّ» بكسر القاف «والحقُّ» بنصبها. وقرأ أبو عمران [الجوني] بكسر القافين جميعاً. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو نهيك: «فالحقُّ» بالنصب «والحقُّ» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ﴾ أي: مِنْ نَفْسِكَ وَذُرِّيَّتِكَ. ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَأْسٍ ﴾ أي: على تبليغ الوحي ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ﴾ أي: لم أتكلف إتيانكم من قبلي نفسي، إنما أمرتُ أن أتيتكم، ولم أقل القرآن من تلقاء نفسي، إنما أوحى إليَّ (١). ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي: ما هو، يعني القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي: موعظة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾. ﴿ وَتَلْمِزٌ ﴾ يا معاشر الكُفَّار ﴿ بَيِّنَاتٌ ﴾ أي: خير صدق القرآن ﴿ بَدِّحِينَ ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: بعد الموت. والثاني: يوم القيامة (٢)، روى عن ابن عباس، وبالأول يقول قتادة، وبالثاني يقول عكرمة. والثالث: يوم بدر، قاله السدي، ومقاتل. وقال ابن السائب: من بقي إلى أن ظهر أمرُ رسول الله ﷺ عَلِمَ ذلك، ومن مات عَلِمَهُ بعد الموت. وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولا وجه لذلك.



- (١) قال ابن كثير: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ﴾ أي: وما أزيد على ما أرسلني الله تعالى به ولا ابتغى زيادة عليه، بل ما أمرت به آيته، لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما ابتغى بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة، قال: قال سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور عن أبي الضمى عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود ﷺ فقال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله ﷻ قال لنيكم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَأْسٍ ﴾ أي: لم أطلب منكم شيئاً، وإنما أطلب منكم ما لا يعلم: الله أعلم، قال: أخرجه من حديث الأعمش به. اهـ.
- (٢) قال ابن كثير: ولا منافاة بين القولين، فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة، قال: وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَتَلْمِزٌ ﴾ بَيِّنَاتٌ بَدِّحِينَ (٣) قال الحسن: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين. اهـ.

سورة الزمر

وتسمى سورة الغرف

فصل في نزولها

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكّية، وبه قال الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وجابر بن زيد. وروي عن ابن عباس أنه قال: فيها آيتان نزلتا بالمدينة: قوله: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] قوله: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال مقاتل: فيها من المدني ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآية [الزمر: ٥٣]، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ٤١٠]. وفي رواية أخرى عنه قال: فيها آيتان مدينتان ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الزمر: ٥٣] وقوله: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾^(١) [الزمر: ١٠]. وقال بعض السلف: فيها ثلاث آيات مدينت ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٢﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْجِدَ وَلَكَا لَاصْطَلَقَ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سَمِعْتَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ قال الزجاج: الكتاب هاهنا القرآن، ورفع «تنزيل» من وجهين: أحدهما: الابتداء، ويكون الخبر «بِسْمِ اللَّهِ»، فالمعنى: نزل من عند الله. والثاني: على إضمار: هذا تنزيل الكتاب؛ و«مُخْلِصًا» منصوب على الحال؛ فالمعنى: فاعبد الله موحدًا لا تُشرك به شيئًا.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ يعني: الخالص من الشرك، وما سواه ليس بدين الله الذي أمر به؛ [وقيل]: المعنى: لا يستحقّ الدين الخالص إلا الله. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني آلهة، ويدخل في هؤلاء اليهود حين قالوا: ﴿عَزَّزْتُ أَبْنَاءَ اللَّهِ﴾ والنصارى لقولهم: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وجميع عبَاد الأصنام، ويدلّ عليه قوله بعد ذلك: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْجِدَ وَلَكَا﴾ [الزمر: ٤].

قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي: يقولون ما نعبدهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: لِيَسْتَفْعُوا لَنَا إِلَى اللَّهِ. والزُّلْفَى: القُرْبَى، وهو اسم أقيم مقام المصدر، فكأنه قال: إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ تَقْرِيْبًا. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين أهل الأديان فيما كانوا يختلفون فيه من أمر الدين. وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولا وجه لذلك. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ أي: لا يرشد ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ في قوله: إن الآلهة تشفع ﴿كَفَّارٌ﴾ أي: كافر بآخاذها آلهة، وهذا إخبار عمن سبق عليه القضاء بجرمان الهداية^(٢). ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْجِدَ وَلَكَا﴾ [أي]: على ما يزعم من ينسب ذلك إلى الله ﴿لَاصْطَلَقَ﴾ أي: لا اختار ممّا يخلُق. قال مقاتل: أي: من الملائكة^(٣).

(١) قال في «إتحاف فضلاء البشر»: وافقوا على حلف الباء من ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إِلَّا ما انفرد به أبو العلاء عن رويس من إنباتهما وقفًا، فخالف سائر الناس كما مر في المرسوم.

(٢) قال ابن كثير: وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يرشد إلى الهداية من قصد الكذب والافتراء على الله تعالى وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْجِدَ وَلَكَا لَاصْطَلَقَ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، قال: وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، قال: وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال ﴿لَوْ أَرَادَ أَنْ تَنْزِيْلًا لَمَخَّذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا نَبِيْنًا﴾ ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَّىٰ أَرَدْنَا أَنْ نَبْعِيْبَهُ﴾ قال: كل هذا من باب الشرط، قال: ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم. اهـ.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَقَّ يَكْوُرُ الْبَدَلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوُرُ اللَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَقَّ﴾ [أي]: لم يخلقهما لغير شيء. ﴿يَكْوُرُ الْبَدَلُ عَلَى النَّهَارِ﴾ قال أبو عبيدة: يُدْخِلُ هذا على هذا. قال ابن تينية: وأصل التَّكْوِيرُ: اللَّفْتُ، ومنه كَوُرَ العِمَامَةُ. وقال غيره. التَّكْوِيرُ: طَرْحُ الشيء بعضه على بعض. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذلَّهما للسَّيرِ على ما أراد ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى الأجل الذي وقَّت الله للذَّنبِ. وقد شرحنا معنى العزيز في [البقرة: ١٢٩] ومعنى الغفار في [طه: ٤٨٢].

﴿خَلَقَ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ نُمَّ جَمَلٌ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأُنزِلَ لَكَرٍ مِنَ الْأَمْتَرِ نَسِيئَةً أَرْوَجَ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَن تَضَرُّوهُ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ يعني آدم ﴿نُمَّ جَمَلٌ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: قَبْلَ خَلْقِكُمْ جعل منها زوجها، لأنَّ حَوَاءَ خُلِقَتْ قَبْلَ الذَّرِيَّةِ، ومثله في الكلام أن تقول: قد أعطيتك اليوم شيئاً، نُمَّ الذي أعطيتك أمس أكثر؛ هذا اختيار الفراء. وقال غيره: ثم أخبركم أنه خلق منها زوجها ﴿وَأُنزِلَ لَكَرٍ مِنَ الْأَمْتَرِ﴾ أي: خَلَقَ ﴿نَسِيئَةً أَرْوَجَ﴾، وقد بيَّناها في سورة [الانعام: ١٤٣]. ﴿خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ﴾ أي: نَفْطًا نُمَّ عَلَقًا نُمَّ مَضْغًا نُمَّ عَظْمًا نُمَّ لَحْمًا نُمَّ أَنْبَتَ الشَّعْرَ، إلى غير ذلك من تقلُّب الأحوال إلى إخراج الأطفال، هذا قول الجمهور. وقال ابن زيد: خَلَقًا فِي الْبُطُونِ مِنْ بَعْدِ خَلْقِكُمْ فِي ظَهْرِ آدَمَ.

قوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظُلْمَةُ الْبَطْنِ، وَظُلْمَةُ الرَّجْمِ، وَظُلْمَةُ الْمَيْمِئَةِ^(١)، قاله الجمهور، وابن زيد معهم. وقال أبو عبيدة: إنها ظُلْمَةُ صُلْبِ الْآبِ، وَظُلْمَةُ بَطْنِ الْمَرَاةِ، وَظُلْمَةُ الرَّجْمِ.

قوله تعالى: ﴿فَأَن تَضَرُّوهُ﴾ أي: من أين تُضَرُّونَ عن طريق الحقِّ بعد هذا البيان!؟

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْ عِبَادِي وَلَا يَرْضَى لِبِئَادِي الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِدُ وَارِدَةً وَزِدَ أُخْرَى ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ تَرْجِعُكُمْ فَأَيُّكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْ عِبَادِي﴾ أي: عن إيمانكم وعبادتكم ﴿وَلَا يَرْضَى لِبِئَادِي الْكُفْرَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يرضاه للمؤمنين، قاله ابن عباس. والثاني: لا يرضاه لأحد وإن وقع بإرادته، وفرق بين الإرادة والرِّضَا، وقد أشرنا إلى هذا في [البقرة: ٢٠٥] عند قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضى ذلك الشُّكْرَ لكم^(٢)، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما في القلوب.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكَمْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: في عتبة بن ربيعة، قاله عطاء. والثاني: في أبي حذيفة بن المغيرة، قاله مقاتل^(٣). والضُّرُّ: البلاء والشَّدَّةُ. ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: راجعاً إليه من شركه. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أي: أعطاه وملَّكه ﴿نِعْمَةً مِنْهُ﴾ بعد البلاء الذي أصابه، كالصَّحَّةَ بعد المرض، والغنى بعد الفقر ﴿نِسِيَ﴾ أي: ترك ما كان يدعو إليه، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: نسي الدُّعَاءَ الذي كان يتضرَّع به إلى الله تعالى. والثاني: نسي الضُّرَّ الذي [كان] يدعو [الله] إلى كُشْفِهِ. والثالث: نسي الله الذي [كان] يتضرَّع إليه. قال الزجاج: وقد تُدَلُّ «ما» على الله ﷻ، كقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا عَبَدْتُمْ﴾ [الكاغفرون: ٣]. وقال الفراء: تَرَكَّ ما كان يدعو إليه. وقد سبق معنى الأنداد [البقرة: ٢٢] ومعنى ﴿يُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٤٩].

(١) المشيمة وزان كريمة: غشاء ولد الإنسان، وقال ابن الأعرابي: يقال لما يكون فيه الوليد: المشيمة والكيس والغلاف.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ يقول: وإن تومنوا بربكم وتطيعوه يرض شُكْرَكُمْ له، وذلك هو إيمانهم به وطاعتهم إياه، فكفي عن الشكر ولم يُذَكَّرْ، وإنما ذُكِرَ الفعل الدال عليه، وذلك نظير قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا كَانَتْ تَقْوَاهُمْ يُبْشِرُ﴾ بمعنى: فزادهم قول الناس لهم ذلك إيماناً. اهـ.

(٣) ذكر سبب النزول هذا؛ البغوي والخازن بدون سند.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمَنَّعْ بِكَرِّكَ﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه التهديد، ومثله: ﴿فَنَسْتَوْفَىٰ فَسَوْفَ تَمْلُونُ﴾ [النحل: ٥٥].

﴿أَمَّنْ هُوَ قِنْتُكَ مَائَةَ أَلِيلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ قُلْ يَتَّبِعَادِ الَّذِينَ آمَنُوا أَفْعَا رَحْمَتِي لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قِنْتُكَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة، وأبو جعفر، والمفضل عن عاصم، وزيد عن يعقوب: «أمن» بالتخفيف؛ وقرأ الباقون: بالشديد. فأما المشددة، فمعناها: أهذا الذي ذكرنا خير، أمن هو قانت؟ والأصل في «أمن»: أم من، فأدغمت الهمزة في الميم. وأما المخففة، ففي تقديرها ثلاثة أوجه: أحدها: أنها بمعنى النداء. قال الفراء: فسرها الذين قرؤوا بها فقالوا: يا من هو قانت، وهو وجه حسن، والعرب تدعو بالالف كما تدعو بياء، فيقولون: يا زيد أقبل، و: أزيد أقبل، فيكون المعنى: أنه ذكر الناسي الكافر، ثم فصص قصة الصالح بالنداء، كما تقول: فلان لا يصوم ولا يصلي، فيا من يظوم أبشؤ. والثاني: أن تقديرها: أمن هو قانت كمن ليس بقانت؟! والثالث: أمن هو قانت كمن جعله الله أندادا؟! وقد ذكرنا معنى القنوت في [البقرة: ١٦٦]. ومعنى «مئة أليل» في [آل عمران: ١١٣].

قوله تعالى: ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ يعني في الصلاة^(١). وفيمن نزلت فيه هذه الآية خمسة أقوال: أحدها: أنه أبو بكر الصديق، رواه عطاء عن ابن عباس^(٢). والثاني: عثمان بن عفان، قاله ابن عمر^(٣). والثالث: عمار بن ياسر، قاله مقاتل^(٤). والرابع: ابن مسعود، وعمار، وصهيب، وأبو ذر، قاله ابن السائب^(٥). والخامس: أنه رسول الله ﷺ، حكاه يحيى بن سلام^(٦).

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ أي: عذاب الآخرة. وقد قرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن عباس، وعروة، وسعيد بن جبيرة، وأبو رجاء، وأبو عمران: «يَحْذَرُ عَذَابَ الْآخِرَةِ» بزيادة «عذاب». «وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ» فيها قولان: أحدهما: أنها المغفرة، قاله ابن السائب. والثاني: الجنة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ﴾ أَنَّ مَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ حَقٌّ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ وباقى الآية قد تقدم في [الرمذ: ١٩]^(٧)، وكذلك قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قد تقدم في [النحل: ٣٠]. وفي قوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ قولان: أحدهما: أنه حث لهم على الهجرة من مكة إلى حيث يأمنون. والثاني: أنها أرض الجنة رغبهم فيها. «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ» الذين صبروا لأجل الله تعالى على ما نالهم «بِغَيْرِ حِسَابٍ» أي: يُعْطَوْنَ عَطَاءً كَثِيرًا أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحْسَبَ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ، لا على قدر أعمالهم.

(١) قال ابن كثير: يقول ﷺ: أمن هذه صفة كمن أشرك بالله وجعل له أندادا؟! لا يستون عند الله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مَن أَهَلَّ الْكِتَابِ أَنَّهُ قَائِمًا يَتْلُونَ كَاتِبًا اللَّهُ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا وَيَمَّزُجُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ وقال تبارك وتعالى هاهنا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قِنْتُكَ مَائَةَ أَلِيلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه، ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده كما ذهب إليه آخرون. اهـ.

(٢) الواحدي في «أسباب النزول»، والبغوي في «التفسير» بدون سند.

(٣) قال السيوطي في «الدرر» ٣٢٣/٥: أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، وابن حساك عن ابن عمر ﷺ: أنه تلا هذه الآية: ﴿أَمَّنْ هُوَ قِنْتُكَ مَائَةَ أَلِيلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ...﴾ الآية، قال: ذاك عثمان بن عفان، وفي لفظ: نزلت في عثمان بن عفان. وذكر سبب النزول هذا الواحدي والبغوي والحاخاني عن ابن عمر بدون سند.

(٤) الواحدي في «أسباب النزول» عن مقاتل بدون سند، وقال السيوطي في «الدرر» ٣٢٣/٥: أخرج ابن سعد في «طبقاته»، وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قِنْتُكَ مَائَةَ أَلِيلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ قال: نزلت في عمار بن ياسر.

(٥) قال السيوطي في «الدرر» ٣٢٣/٥: أخرج جوير عن ابن عباس ﷺ قال: نزلت هذه الآية في ابن مسعود، وعمار، وسالم مولى حنيفة ﷺ. وذكر البغوي عن الكلبي بدون سند أنها نزلت في ابن مسعود وعمار وسلمان. وذكر الألويسي عن مقاتل بدون سند أن المراد بمن هو قانت: عمار وصهيب وابن مسعود وأبو ذر.

(٦) ذكره الألويسي عن يحيى بن سلام بدون سند. والآية عامة في كل من اتصف بما تقدم.

(٧) قال ابن كثير: أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعله الله أندادا لفضل عن سيئه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل، والله اعلم. اهـ.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ عَبُدَ اللَّهَ خَلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ السَّلِيلِينَ ﴿٢﴾ قُلْ إِنِّي لَكَافٌ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي مَلَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ خَلِصًا لَهُ دِينِي ﴿٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ لِكُلِّ سَعْيٍ لَدِينٍ خَيْرًا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الِئْبَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ لِكُلِّ شَرَّكَانٍ الِئْبِي ۖ لَمْ يَنْ تَوْفِيهِمْ ظُلْمٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِمْ ظُلْمٌ ذَٰلِكَ بِحُفُوفِ اللَّهِ بِهِ عِبَادُهُمْ يَكْبَهُوا فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ لَبِئْتُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَتَّبِعُوا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَمْ يَشْرَبُوا الِئْبَتْرَةَ فَبَيَّرَ عِبَادُ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْآلِئْبِ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾ قال مقاتل: وذلك أن كُفَّار قريش قالوا لرسول الله ﷺ: ما حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي آتَيْتَنَا بِهِ؟ ألا تَنْتَظِرُ إِلَى مِلَّةِ آبَائِكَ فَتَأْخُذُ بِهَا؟ فنزلت هذه الآية (١)؛ والمعنى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ خَلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) أي: أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَهُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ السَّالِمِ مِنَ الشَّرْكِ، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ السَّلِيلِينَ﴾ (٣) من هذه الأُمَّة. ﴿قُلْ إِنِّي لَكَافٌ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي﴾ بالرجوع إلى دين آبائي ﴿مَلَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ وقد اختلفوا في نسخ هذه الآية كما بيَّنا في نظيرتها في (الأنام: ١٥). ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ خَلِصًا لَهُ دِينِي﴾ (٤) بالتوحيد، ﴿فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ﴾، وهذا تهديد، وبعضهم يقول: هو منسوخ بآية السيف، وهذا باطل، لأنه لو كان أمراً، كان منسوخاً، فأما أن يكون بمعنى الوعيد، فلا وجه لِنَسْخِهِ. ﴿قُلْ إِنِّي لِكُلِّ سَعْيٍ لَدِينٍ خَيْرًا أَنفُسَهُمْ﴾ بأن صاروا إلى النار ﴿و﴾ خسروا ﴿أهْلِيهِمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم خَسِرُوا الحُورَ العِينِ اللَّوَاتِي أُعْذِنَ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ لَوْ أَطَاعُوا، قاله الحسن، وقتادة. والثاني: خَسِرُوا الأهل في النَّارِ، إذ لا أهل لهم فيها، قاله مجاهد، وابن زيد. والثالث: خَسِرُوا أهْلِيهِمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا، إذ صاروا إلى النار بِكُفْرِهِمْ، وصار أهلهم إلى الجَنَّةِ بِلِيْمَانِهِمْ، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَنْ تَوْفِيهِمْ ظُلْمٌ مِّنَ النَّارِ﴾ وهي الأطباق من النار. وإنما قال: ﴿وَمِنْ تَحْتِمْ ظُلْمٌ لِمَنْ تَحْتَهُمْ﴾ (ذَٰلِكَ) الذي وصف الله من العذاب ﴿بِحُفُوفِ اللَّهِ بِهِ عِبَادُهُمُ﴾ المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَبِئْتُوا الطُّغُوتَ﴾ روى ابن زيد عن أبيه أن هذه الآية والتي بعدها نزلت في ثلاثة نَفَرٍ كَانُوا فِي الجاهلية يوحّدون الله تعالى: زيد بن عمرو بن نُقَيْلٍ، وأبي ذَرٍّ، وسلمان الفارسي، ﷺ (٢)؛ قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ بغير كتاب ولا نبي. وفي المراد بالطاغوت هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الشياطين، قاله مجاهد. والثاني: الكهنة، قاله ابن السائب. والثالث: الأوثان، قاله مقاتل، فعلى قول مقاتل هذا (٣)؛ إنما قال: «يعبُدوها» لأنها مؤنثة. وقال الأخفش: إنما قال: «يعبُدوها» لأن الطاغوت في معنى جماعة، وإن شئت جعلته واحداً مؤنثاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: رجعوا إليه بالطاعة ﴿لَمْ يَشْرَبُوا الِئْبَتْرَةَ﴾ بالجنة «فَبَشَّرَ عِبَادِي» بياؤ، وحرك الياء أبو عمرو. ثم نعمتهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: [أنه] القرآن، قاله الجمهور. فعلى هذا، في معنى «يَسْتَمِعُونَ أَحْسَنَهُ» أقوال قد شرحناها في (الأعراف: ١٤٥) عند قوله: ﴿وَأَمَّا قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهِ﴾. والثاني: أنه جميع الكلام. ثم في المعنى قولان: أحدهما: [أنه الرَّجُلُ] يَجْلِسُ مَعَ القومِ فَيَسْمَعُ كلامهم، فيعمل بالمحاسن ويحذّرُ بها، وَيَكْتَفُ عَنِ الْمَسَائِرِ ولا يُظْهِرُهَا، قاله ابن السائب. والثاني: [أنه] لِمَا أَدْعَى مسيلمة أنه قد أتى بقرآن، وأتت الكهنة بالكلام المزخرف في الأباطيل، فَرَّقَ المؤمنون بين ذلك وبين كلام الله، فاتبَعُوا كلامَ الله، ورفضوا أباطيل أولئك، قاله أبو سليمان الدمشقي (٤).

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُؤَدُّ مِنْ فِي النَّارِ﴾ (٥) لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَرَّا رَبَّهُمْ لَمْ يَحْرِفُوا عَرُفًا مَبِينَةً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْآكْثَرُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الِئْبِعَادَ ﴿٦﴾

(١) ذكر سبب النزول هذا الخازن في «التفسير» بدون سند.

(٢) «الطبري» ٢٣/٢٠٧ عن زيد بن أسلم. وأورده السيوطي في «الدر» ٥/٣٢٤ من رواية ابن جرير، وزاد نسبه لابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٠ عن عبد الرحمن بن زيد بدون سند، وكذلك ذكر ابن كثير سبب النزول هذا عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بدون سند، ثم قال: والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن، فهؤلاء هم الذين لهم البشرية في الحياة الدنيا وفي الآخرة. اهـ.

(٤) لم يذكر المصنف سوى قولين، ولعله اكتفى بهما عن القول الثالث.

(٣) عبارة الأصل: فعلى هذا قول مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ قال ابن عباس: سبق في علم الله أنه في النار. فإن قيل: كيف اجتمع في هذه الآية استفهامان بلا جواب؟ قيل: أما الفراء، فإنه يقول: هذا مما يُراد به استفهام واحد، فسبق الاستفهام إلى غير موضعه فَرَدَّ إلى موضعه الذي هو له، فيكون المعنى: أفأنت تُثَقِّدُ مَنْ في النار مَنْ حَقَّتْ عليه كلمة العذاب؟ ومثله: ﴿أَيُّدْرُوكُوا أَكْرَابًا وَإِنَّمَا يُرْمَى بِهَا حُجَرٌ﴾ [المؤمنون: ٣٥] فَرَدَّ «أَنْتُمْ» مرتين، والمعنى: أَيُّدْرِكُكُمْ أَنْتُمْ مَخْرُجُونَ إِذَا مِتُّمْ؟ ومثله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَاكُمْ﴾ ثم قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فَرَدَّ «تَحْسَبَنَّ» مرتين، والمعنى: لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بمفازة من العذاب. وقال الزجاج: يجوز أن يكون في الكلام محذوف، تقديره: أفمن حَقَّ عليه كلمة العذاب فيتخلص منه أو ينجو، أفأنت تنقذه؟ قال المفسرون: أفأنت تخلصه مما قُدِّرَ له فتجعله مؤمناً؟ والمعنى: ما تقدر على ذلك. قال عطاء: يريد بهذه الآية أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو جعفر: «لَكِنَّ» بتشديد النون [وفتحها]. قال الزجاج: والغَرْفُ: هي المنازل الرفيعة في الجنة، «وَمِنْ قَوْمٍ غُرْفٌ» أي: منازل أرفع منها. «وَعَدَّ اللَّهُ» منصوب على المصدر؛ فالمعنى: وعدهم الله غرفاً وعداً. ومن قرأ: «وَعَدَّ اللَّهُ» بالرفع؛ فالمعنى: ذلك وَعْدٌ لله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاءً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال الشعبي: كُلُّ ما في الأرض فمن السماء ينزل ﴿فَسَلَكَهُ يَنبِيعَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: أدخله فجعله ينبيع، أي: عُيوناً تَنْبِيعُ، «ثُمَّ يَهِيجُ» أي: يَنْبَسُ. قال الأصمعي: يقال للنبت إذا تَمَّ جفافه: قد هَاجَ يَهِيجُ هَيْجاً. فأما الحُطَاءُ، فقال أبو عبيدة: هو ما يَبَسَ فَتَحَاتْ من النَّبَاتِ، ومثله الرُّفَاتُ. قال مقاتل: هذا مَثَلٌ ضُرِبَ لِلدُّنْيَا، بينما ترى النبت أخضر، إذ تَغَيَّرَ فَيَبَسَ ثُمَّ هَلَكَ، وكذلك الدُّنْيَا وزينتها. وقال غيره: هذا البيان للدلالة على قدرة الله ﷻ.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ نُّورِهِ فَوَيْلٌ لِلْفُجِسِيَّةِ قُلُوبِهِمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْ لِيَكَّ فِي صَلَاتِهِمْ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ قال الزجاج: جوابه متروك، لأن الكلام دالٌّ عليه، تقديره: أفمن شَرَحَ الله صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يَهْتَدِ؟ ويُدلُّ على هذا قوله: ﴿قَوْلًا لِلْفُجِسِيَّةِ قُلُوبِهِمْ﴾؛ وقد روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، فقلنا: يا رسول الله وما هذا الشرح؟ فذكر حديثاً قد ذكرناه في قوله: ﴿فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: اليقين، قاله ابن عباس. والثاني: كتاب الله يأخذ به ويتبهي إليه، قاله قتادة. والثالث: البيان، قاله ابن السائب. والرابع: الهدى، قاله مقاتل. وفيمن نزلت هذه الآية؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أبي بكر الصديق وأبي بن خلف، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: في علي وحزمة

(١) في الأصل: الدلالة.

(٢) قال ابن كثير في تمة الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء، ثم تعود جعوراً شوهاً، قال: والشاب يعود شيخاً هرمًا كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، قال: وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء وينبت به زرعاً وثماراً ثم يكون بعد ذلك حطاً.

(٣) انظر ٤٦٦، والحديث بتمامه: روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ﴾ فقيل له: يا رسول الله، وما هذا الشرح؟ قال: «نور يقذفه الله في القلب فيفتح القلب» قالوا: فهل لذلك من أماره؟ قال: «نعم» قيل: وما هي؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله». رواه الطبري من طريقين عن عبد الله بن مسعود، وكلاهما ضعيف، وذكره ابن كثير في «التفسير» مرسلًا ومتصلاً، وقال: فهذه طرق لهذا الحديث مرسله ومتصلة يشد بعضها بعضاً، وقد قال الحافظ ابن حجر في «تخرج الكشاف»: رواه الثعلبي والحاكم والبيهقي في «الشعب» من حديث ابن مسعود، وفيه أبو فروة الرهاوي، فيه كلام، ثم ذكر أنه رواه الحكيم الترمذي في «نوار الأصول» وفي سننه رجل ضعيف. اهـ.

وأبي لهب وولده، قاله عطاء. والثالث: في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل، قاله مقاتل^(١).

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لَّيْقِيَةٍ قُلُوبُهُمْ بَيْنَ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قد بينّا معنى القساوة في [البقرة: ٧٤]. فإن قيل: كيف يقسو القلب من ذكر الله ﷻ؟ فالجواب: أنه كلما تليّ عليهم ذكر الله الذي يكذبون به، قَسَت قلوبهم عن الإيمان به. وذهب مقاتل في آخرين إلى أن «مين» هاهنا بمعنى «عز»، قال الفراء: كما تقول: أتخمت عن طعام أكلته، ومين طعام أكلته؛ وإنما قَسَت قلوبهم من ذكر الله، لأنهم جعلوه كذباً فأقسى قلوبهم؛ ومن قال: قَسَت قلوبهم عنه، أراد: أعرضت عنه. [وقد] قرأ أبي بن كعب، وابن أبي عبله، وأبو عمران: «قُلُوبُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» مكان قوله: «مين».

﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّتَابِي تَشَعَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن؛ وقد ذكرنا سبب نزولها في أول (يوسف)^(٢).

قوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن بَعْضَهُ يُشْبِهُ بَعْضًا فِي الْأَيِّ وَالْحُرُوفِ، فالآية تشبه الآية، والكلمة تشبه الكلمة، والحرف يشبه الحرف. والثاني: أن بَعْضَهُ يَصْدُقُ بَعْضًا، فليس فيه اختلاف ولا تناقض. وإنما قيل له: ﴿مَّتَابِي﴾ لأنه كُرِّرَتْ فِيهِ الْقِصَصُ وَالْفَرَائِضُ وَالْحُدُودُ وَالنُّوَابِ وَالْعِقَابُ. فإن قيل: ما الحكمة في تكرار القصص، والرواحة قد كانت تكفي؟ فالجواب: أن وفود العرب كانت تَرُدُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فيقرتهم المسلمون شيئاً من القرآن، فيكون ذلك كافياً لهم، وكان يَتَمَثَّلُ إِلَى الْقِبَالِ الْمُتَفَرِّقَةِ بِالسُّورِ الْمُخْتَلَفَةِ، فلو لم تكن الأنبياء والقصص مثناة مكررة، لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، فأراد الله تعالى أن يُشِيرَ هَذِهِ الْقِصَصُ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ وَيُلْقِيَهَا إِلَى كُلِّ سَمْعٍ. فأما فائدة تكرار الكلام من جنس واحد، كقوله: ﴿يَأْتِي الْآءَ رِيكًا مَّكَدَّيًّا﴾ [الرحمن]، وقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا سَعَدُونِ﴾ [الكافرون]، وقوله: ﴿أَنْزِلْ لَكَ آؤُلَاقًا﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥] ﴿وَمَا أَدْرِيكَ مَا يَوْمَ الْآزِينِ﴾ [الانشطار: ١٧، ١٨] فنسذكرها في سورة (الرحمن) ﷻ.

قوله تعالى: ﴿تَشَعَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: تأخذهم تشعيرة، وهو تغير يحدث في جلد الإنسان من الوجَل. وروى العباس بن عبد المطلب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا اشْتَعَرَ جِلْدُ الْعَبْدِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، تَحَاتَّتْ قُلُوبُهُ كَمَا يَتَحَاتُّ عَنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ وَرَقُهَا»^(٣). وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: تَشَعَّرُ مِنْ وَعِيدِهِ، وتلين عند وْغْدِهِ، قاله السدي. والثاني: تَشَعَّرُ مِنَ الْخَوْفِ، وتلين من الرَّجَاءِ. والثالث: تَشَعَّرُ الْجُلُودُ لِإِعْظَامِهِ، وتلين عند تلاوته، ذكرهما الماوردي. وقال بعض أهل المعاني: مفعول الذَّكْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ محذوف، لأنه معلوم؛ والمعنى: تَطَلَّعَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ الْجَنَّةِ وَالنُّوَابِ. قال قتادة: هذا نَعَتْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، تَشَعَّرُ جُلُودُهُمْ [وتلين قلوبهم]، ولم يَنْتَعِمُ بِهِمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ وَالْخِشْيَانِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبِدْعِ، وهذا من الشيطان. وقد روى أبو حازم، قال: مرَّ ابْنُ عَمْرٍو بِرَجُلٍ سَاقِطٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَقَالَ: مَا شَأْنُهُ؟ فَقَالُوا: إِنَّهُ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ يُصِيبُهُ هَذَا، قَالَ: إِنَّا لَنَخْشَى اللَّهَ ﷻ، وَمَا نَسْقُطُ. وقال عامر بن عبد الله بن الزبير: جئت أبي، فقال لي: أين كنت؟ فقلت: وجدت قوماً، ما رأيت خيراً منهم قط، يذكرون الله ﷻ فيرعد واحد منهم حتى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﷻ، فقعدهت معهم، فقال: لا تقعد معهم بعدها [أبدًا]، قال: فرأني كاني لم يأخذ ذلك فيّ، فقال: رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن، ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يُصِيبُهُمْ هَذَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، أَفْتَرَى أَنَّهُمْ أَخْشَى اللَّهَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍو؟ قال: فرأيت ذلك كذلك. وقال عكرمة: سُئِلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ: هَلْ كَانَ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْخَوْفِ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْهُمْ كَانُوا

(٢) انظر ٦٧٩.

(١) ذكر سبب النزول هذا الخازن بدون سند، والله أعلم.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» ٣٢٦/٥ من رواية الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» عن العباس بن عبد المطلب ﷻ، وقد ذكره في «الجامع الصغير» أيضاً من رواية بسموه في «فوائده»، والطبراني في «الكبير»، قال الحافظ المنائي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير»: وكلنا رواه البزار والبيهقي في «الشعب» عن العباس بن عبد المطلب، قال: قال المنزلي والعراقي: سنده ضعيف، قال: وبينه البيهقي فقال: فيه أم كلثوم بنت العباس ﷻ، لم أعرّفها، وبقي رجاله ثقات.

يكون. وقال عبد الله بن عروة بن الزبير: قلت لجَدَّتِي أسماء بنت أبي بكر، كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى، تَدْمَعُ عَيْنُهُمْ وَتَقْشَعُرُ جُلُودَهُمْ. فقلت لها: إن ناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن، حَرَّ أَحَدُهُمْ مَعْشِيَةً عَلَيْهِ، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وكان جَوَابَ يُرْعَدُ عند الذُّكْرِ، فقال له إبراهيم النخعي: إن كنت تملكه، فما أبالي أن لا اعتد بك، وإن كنت لا تملكه، فقد خالفت مَنْ كان قبلك^(١).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ في المشار إليه قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله مقاتل. والثاني: أنه ما ينزل بالمؤمنين عند تلاوة القرآن من اقشعرار الجلود عند الوعيد، ولينها عند الوعد، قاله ابن الأنباري.

﴿أَمَّنَ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾ فَأَذَابَهُمُ اللَّهُ لِحِزْبٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٩﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا عَرَبِ ذِي عَرَبٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَننَّ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: شِدَّتَهُ. قال الزجاج: جوابه محذوف، تقديره: كَمَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ وجاء في التفسير أن الكافر يلقى في النار مغلولاً، ولا يتهيأ له أن يتقيها إلا بوجهه. ثم أخبر عما يقول الخزونة للكفار بقوله: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني الكافرين ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: جزاء كَسْبِكُمْ.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل كفار مكة ﴿فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وهم آمنون غافلون عن العذاب، ﴿فَأَذَابَهُمُ اللَّهُ لِحِزْبٍ﴾ يعني الهوان والعذاب، ﴿وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ مما أصابهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، ولكنهم لا يعلمون ذلك. ﴿وَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: وَصَفْنَا لَهُمْ ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل شبه يشبه أحوالهم.

قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ قال الزجاج: «عربياً» منصوب على الحال، المعنى: ضربنا للناس في هذا القرآن في حال عربيته وبيانه، فذكر «قرآناً» توكيداً، كما تقول: جاءني زيد رجلاً صالحاً، وجاءني عمرو إنساناً عاقلاً، فذكر رجلاً وإنساناً توكيداً.

قوله تعالى: ﴿عَرَبِ ذِي عَرَبٍ﴾ روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: غير مخلوق. وقال غيره: مستقيم غير مختلف^(٢).

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا نَجَّارًا فِيهِ شُرَكَاءَ مُتَشَكِّكُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا رَجُلًا هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا لِّمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِهِ السَّمَاءُ سَكِّينًا وَسِيفًا وَنَارًا يَلْمِزُونَ عِنْدَ رَبِّكَمْ فَتَكْفُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ ثم بيَّنه فقال: ﴿رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءَ مُتَشَكِّكُونَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: مختلفون، يتنازعون ويتشاورون فيه، يقال: رَجُلٌ شَكِيسٌ. وقال اليزيدي: الشكيس من الرجال: الضَّيِّقُ المَحْلُوقُ. قال المفسرون: وهذا مثل

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ يَلْقَوْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ يَلْقَوْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمة ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه. أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نعمات الآيات من أصوات القينات. والثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سُجُودًا وَيَكْبِتُونَ بِأَبَدٍ وَخَشِيَةً وَرَجَاءً وَمَحَبَّةً وَفَهْمًا وَعِلْمًا، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ حَيْثُ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُمُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لَهُمْ لِمَا كُفَرُوا بِهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَآ يَرْجِعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أَي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مضغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها، فلها إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة، لا عن جهل ومتابعة لغيرهم. والثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة ﷺ عند سماعهم كلام الله تعالى، من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلمون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: أي: هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، قال: وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد. اهـ.

ضربه الله للمؤمن والكافر، فإن الكافر يعبد آلهة شتى، فمثلُه يعبد يملكه جماعة يتنافسون في خدمته، ولا يقدر أن يبلغ رضاهم أجمعين؛ والمؤمن يعبد الله وحده، فمثلُه يعبد لرجل واحد، قد عِلِمَ مقاصده وعَرَفَ الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاكس الخُلطاء فيه، فذلك قوله: «سَلَمًا لِرَجُلٍ» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو إلا عبد الوارث في غير رواية القَزَاز، وأبان عن عاصم: «ورجلاً سالماً» بالف وكسر اللام وبالنصب والتنوين فيهما؛ والمعنى: ورجلاً خالصاً لرجلٍ قد سلِمَ له من غير مُتَنَازِع. ورواه عبد الوارث إلا القَزَاز كذلك، إلا أنه رفع الاسمين، فقال: «ورجُلٌ سَلِمٌ لِرَجُلٍ» وقرأ ابن أبي عبيدة: «سَلِمٌ لِرَجُلٍ» بكسر السين ورفع الميم. وقرأ الباقون: «ورجلاً سَلَمًا» بفتح السين واللام [وبالنصب] فيهما والتنوين. والسَلَمُ، بفتح السين واللام، معناه الصُّلح، والسَلْمُ، بكسر السين مثله. قال الزجاج: من قرأ: «سَلَمًا» و«سَلَمًا» فهما مصدران وُصِفَ بهما، فالمعنى: ورجلاً ذا سَلْمٍ لرجلٍ وذا سَلْمٍ لرجلٍ؛ فالمعنى: ذا سَلْمٍ؛ والسَلْمُ: الصُّلح، والسَلْمُ، بكسر السين مثله. وقال ابن قتيبة: [من قرأ]: «سَلَمًا لِرَجُلٍ» أراد: سَلِمَ إليه فهو سَلِمٌ له. وقال أبو عبيدة: السَلْمُ والسَلْمُ الصُّلح^(١).

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هذا استفهام معناه الإنكار، أي: لا يستويان، لأن الخالص لمالكٍ واحدٍ يَسْتَحِقُّ من معونته وإحسانه ما لا يَسْتَحِقُّه صاحب الشركاء المتشاكسين. وقيل: لا يستويان في باب الرّاحة، لأن هذا قد عرف الطريق إلى رضا مالكة، وذاك متحيز بين الشركاء. قال ثعلب: وإنما قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ولم يُقَل: مَثَلَيْنِ، لأنهما جميعاً ضرباً مثلاً واحداً، ومثله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ مِثْمِمْ وَثُمَّ مَائَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]، ولم يُقَل: آيتين، لأن شأنهما واحد. وتم الكلام هاهنا، ثم قال: ﴿أَلَمْ نَدِّ لِرَبِّكَ﴾ أي: له الحمد دون غيره من المعبودين ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والمراد بالأكثر الكلُّ. ثم أخبر نبيّه بما بعد هذا الكلام أنه يموت، وأن الذين يكذبونه يموتون، وأنهم يجتمعون للخصومة عند الله ﷻ، المُحِقُّ والمُبْطِلُ، والمظلومُ والظالمُ. وقال ابن عمر: نزلت هذه الآية وما ندرى ما تفسيرها، وما نرى أنها نزلت إلا فينا وفي أهل الكتابين، حتى قُتِلَ عثمان، فعرفت أنها فينا نزلت. وفي لفظ آخر: حتى وقعت الفتنة بين عليٍّ ومعاوية^(٢).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [التيس في جهنم متوى للكافرين] ﴿وَالَّذِي جَاءَهُ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [لَمْ مَّا يَسْأَلُونَكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ] ﴿يُكْفِّرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٥٥]

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بأن دعا له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ وهو التوحيد والقرآن ﴿التيس في جهنم متوى للكافرين﴾ أي: مقامٌ للجاحدين؟! وهذا استفهام بمعنى التقرير، يعني: إنه كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَهُ بِالصِّدْقِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه رسول الله ﷺ، قاله علي بن أبي طالب، وابن عباس، وقتادة، وابن زيد. ثم في الصِّدْقِ الذي جاء به قولان: أحدهما: أنه «لا إله إلا الله»، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال [سعيد] بن جبیر. والثاني: [أنه] القرآن، قاله قتادة. [وفي الذي صدَّق به ثلاثة أقوال. أحدها: أنه رسول الله ﷺ أيضاً، هو جاء بالصِّدْقِ، وهو صدَّق به، قاله ابن عباس، والشعبي. والثاني: أنه أبو بكر، قاله علي بن

(١) في «فتح الباري» ٤٢٢/٨: وعن أبي عبيدة: «ورجلاً سالماً»، الرجل سالم وسَلِمَ واحد، وهو من الصلح. فعلى هذا التفسير، السَلْمُ: مصدر أريد به اسم الفاعل.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَتَذَكَّرُ لَكُمْ وَيُؤْتِيكُمْ مَغْفِرَةً﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصِّدْقِ ﷺ عند موت الرسول ﷺ حتى تحققت الناس موته مع قوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَكَيْفَ إِذَا كُنَّ آيَاتُ اللَّهِ تُكْفَرُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قال: ومعنى هذه الآية: إنكم ستفلقون من هذه الدر لا محالة وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله ﷻ فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين، قال: ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة، فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة. اهـ.

أبي طالب. والثالث: أنهم المؤمنون، قاله قتادة، والضحاك، وابن زيد. والقول الثاني: [أن] الذي جاء بالصدق: أهل القرآن، وهو الصدق الذي يُجيّبون به يوم القيامة، وقد أدوا حَقَّهُ، فهُم الذين صدّقوا به قاله مجاهد. والثالث: أن الذي جاء بالصدق الأنبياء، قاله الربيع، فعلى هذا، يكون الذي صدّق به: المؤمنون. والرابع: أن الذي جاء بالصدق: جبريل، وصدق به: محمد، قاله السدي^(١).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: الذين اتَّقَوْا الشُّرْكَ^(٢)؛ وإنما قيل: «هُم»، لأن معنى «الذي» معنى الجمع، كذلك قال اللغويون، وأنشد أبو عبيدة، والزجاج:

فَلِأَنَّ السَّيِّئَ حَانَتْ بِفَلَجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ السَّقْوَمُ، كُحِلُّ السَّقْوَمِ، يَا أُمَّ خَالِدٍ^(٣)

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ المعنى: أعطاهم ما شاؤوا ليُكَفِّرَ عنهم ﴿أَسْوَاَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، أي: لِيَسْتُرَ ذلك بالمغفرة ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ بمحاسن أعمالهم، لا بمساوئها.

﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَكْفُرُ مَا تَكْفُرُونَ مِنْ شُعْبَلِ اللَّهِ يَمْزِيحُ ذِي أُنْفِكَارٍ^(٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كَتَبْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادْنَاهُ بِضَرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ إِنْ أَرَادْنَاهُ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ^(٥)

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ ذكر المفسرون أن مشركي مكة قالوا: يا محمد، ما تزال تذكر آلهتنا وتعيبها، فاتق أن تصيبك بسوء، فنزلت هذه الآية^(٦). والمراد بعبدته هاهنا: محمد ﷺ. وقرأ حمزة، والكسائي: «عبادة» على الجمع، وهم الأنبياء، لأن الأمم قصدتهم بالسوء؛ فالمعنى أنه كما كفى الأنبياء قبلك، يكفيك. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وأبو عمران الجوني: «يكافي» مثبته الياء «عَبْدِي» بكسر الدال والهاء من غير ألف. وقرأ أبي بن كعب، وأبو العالية، وأبو الجوزاء، والشعبي مثله، إلا أنهم أثبتوا الألف في «عباده». وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش: «يكافي» بالثنون، «عبادة» على الجمع. وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء العطاردي: «يكافي» بياء مرفوعة قبل الكاف وياء ساكنة بعد الفاء «عبادة» على الجمع. ﴿وَيُحَوِّلُونَ﴾ أي: بالذين يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ، وهم الأصنام. ثُمَّ أَعْلَمَ بِمَا بَعْدَ هَذَا أَنَّ الْإِضْلَالَ وَالْهَدَايَةَ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ مُنْتَقِمٌ مِمَّنْ عَصَاهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ مَعَ عِبَادَتِهِمْ، يُيَوَّرُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ. ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُخْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ مَا يَعْبُدُونَ لَا يَمْلِكُ كَشْفَ ضُرِّ وَلَا جَلْبَ خَيْرٍ. وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «كاشفاتُ ضُرِّه» و«ممسكاتُ رحمته» منوئاً. والباقون: «كاشفاتُ ضُرِّه» و«ممسكاتُ رحمته» على الإضافة.

﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنْ عَمِلْتُمْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثِيمٌ^(٧) إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَمَنِ افْتَكَرَ وَلَيْسَ لَهُ مِنَ اللَّهِ عَاقِبَةٌ وَمَنْ سَلَ قَائِمًا يَصِلُ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ^(٨)

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَمَلُوا﴾ ذكر بعض المفسرين أنها والآية التي تليها نُسخَتْ بِآيَةِ السِّيفِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: لجميع الخلق ﴿بِالْحَقِّ﴾ ليس فيه باطل. وتمام الآية مفسر في آخر [يونس: ٤١٠٨]، وذكروا أنه منسوخ بآية السيف.

(١) قال ابن جرير الطبري: والصباب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره عنى بقوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالسِّفِّ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ كل من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسوله، والعمل بما أتبع به رسوله ﷺ من بين رسول الله وأتباعه والمؤمنين به، وأن يقال: الصدق هو القرآن وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدق به: المؤمنون بالقرآن من جميع خلق الله كاتباً من كان من نبي الله وأتباعه. اهـ.

(٢) قال ابن جرير: وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يقول جل ثناؤه: هؤلاء الذين هذه صفتهم، هم الذين اتَّقَوْا الله بتوحيده والبراءة من الأوثان والأنداد، وأداء فرائضه واجتناب معاصيه فخافوا عقابه. اهـ.

(٣) البيت للشهيد بن زُمَيْلَةَ، وهو في «الكتاب» ٩٦/١، و«مجاز القرآن» ١٩٠/٢، و«مشكل القرآن» ٢٨١، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: فليج.

(٤) قال الحافظ السيوطي في «الدرر» ٣٢٨/٥: أخرجه عبد الرزاق، وابن المنذر عن قتادة قال: قال لي رجل: قالوا للنبي ﷺ: لتكفئن عن شتم آلهتنا أو لنامرئها فلتخبلنك، فنزلت: ﴿وَيُحَوِّلُونَ﴾ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

﴿اللَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَوْتِهِ وَالَّذِي لَمْ يَمُتْ فِي مَوَاتِهِ فَمِمَّا كُنِيَ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرِيدُ الْآخِرَةَ إِلَهُ أَجَلٍ مُّسْتَعْتَبٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١)

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَوْتِهِ﴾ أي: يَفِيضُ الأرواحَ حين موت أجسادها ﴿وَالَّذِي لَمْ يَمُتْ﴾ أي: ويتوفى التي لم تمُت ﴿فِي مَوَاتِهِ﴾. ﴿فَمِمَّا كُنِيَ﴾ أي: عن الجسد [والنفس] ﴿الَّذِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ وقرا حمزة، والكسائي: ﴿قَضَىٰ﴾ بضم القاف وفتح الباء، «الموت» بالرفع. ﴿وَيُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ إلى الجسد ﴿إِلَهُ أَجَلٍ مُّسْتَعْتَبٍ﴾ وهو انقضاء العُمر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في أمر البعث (١). وروى [سعيد] بن جبيرة عن ابن عباس قال: تلقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات في المنام، فيتعارفون ويتساءلون، ثم تُرَدُّ أرواح الأحياء إلى أجسادها، فلا يُخْطَأُ بشيء منها، فذلك قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقال ابن عباس في رواية أخرى: في ابن آدم نفسٌ وروحٌ، فبالنفس العقل والتمييز، وبالروح النفس والحريك، فإذا نام العبد، قبض الله نفسه ولم يقبض روحه. وقال ابن جريج: في الإنسان روح ونفس، بينهما حاجز، فهو تعالى يقبض النفس عند النوم ثم يردها إلى الجسد عند الانتباه، فإذا أراد إماتة العبد في نومه، لم يرُدَّ النفسَ وقبض الروح. وقد اختلف العلماء، هل بين النفس والروح فرق؟ على قولين قد ذكرتهما في «الوجوه والنظائر»، وزدت هذه الآية شرحاً في باب التوفي في كتاب «النظائر». وذهب بعض العلماء إلى أن التوفي المذكور في حق النائم هو نومه، وهذا اختيار الفراء وابن الأنباري؛ فعلى هذا، يكون معنى توفي النائم: قبض نفسه عن التصرف، وإرسالها؛ إطلاقها باليقظة للتصرف.

﴿أَرِ أَخْذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلُو كَأَنَّا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ﴾ (١٢) ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٣)

قوله تعالى: ﴿أَرِ أَخْذُوا﴾ يعني كفار مكة. وفي المراد بالشفعاء قولان: أحدهما: أنها الأصنام، زعموا أنها تشفع لهم في حاجاتهم، قاله الأكثرون. والثاني: الملائكة، قاله مقاتل. ﴿قُلْ أَوْلُو كَأَنَّا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ من الشفاعة ﴿وَلَا يَقُولُونَ﴾ أنكم تعبدونهم؟! وجواب هذا الاستفهام محذوف، تقديره: أولو كانوا بهذه الصفة تتخذونهم؟! ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: لا يملكها أحدٌ إلا بتملكه، ولا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه.

﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شَمَّرتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٤) ﴿قُلْ أَلَيْسَ لِلَّهِ فَايُزُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَيْهِ الْعِشْيُ وَالشَّهَادَةُ أَنْتُمْ عَشْرٌ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا كَانَ فِيهِ يَحْتَلِفُونَ﴾ (١٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (١٦) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٧)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شَمَّرتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: انقبضت عن التوحيد، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: استكبرت، قاله قتادة. والثالث: تفرقت، قاله أبو عبيدة، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعني الأصنام ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون. وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [الإنعام: ١٤، ١٣، البقرة: ١١٣، الرعد: ١٨] إلى قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾. قال السدي: ظنوا أن أعمالهم حسنة، فبدت لهم سيئات. وقال غيره: عملوا أعمالاً ظنوا أنها تنفعهم، فلم تنفع مع شركهم. قال مقاتل: ظهر لهم حين بُعثوا ما لم يحتسبوا أنه نازل بهم؛ فهذا القول يحتمل وجهين: أحدهما: أنهم كانوا يرجون القرب من الله بعبادة الأصنام، فلما حوِّقوا عليها، بدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون. والثاني: أن البعث والجزاء لم يكن في حسابهم.

(١) قال ابن كثير: قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَوْءَدُ الَّذِينَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَيَسْمَعُ مَا جَزَعْتُمْ وَأَنْتُمْ تَمَّ بِمَنْعِكُمْ فِيهِ لِيَقْبَضَ أَجَلُ مُسْتَعْتَبٍ ثُمَّ إِلَهُ سَمِعْتُمْ مِمَّا كُنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ﴿وَمَوْءَدُ الْقَائِمِينَ قَوْلَهُ يَوْمَئِذٍ وَيُرِيدُ عَلَيْكُمْ حَسْبَةً حَسْرَةً إِذَا جَاءَ كُنْتُمْ الْمَوْتُ تَوَكُّفًا وَمِنْكُمْ لَمْ لَا يَقُولُونَ﴾ فذكر الوفاة الصغرى ثم الكبرى، قال: وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَوْتِهِ وَالَّذِي لَمْ يَمُتْ فِي مَوَاتِهِ فَمِمَّا كُنِيَ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرِيدُ الْآخِرَةَ إِلَهُ أَجَلٍ مُّسْتَعْتَبٍ﴾. اهـ.

وروي عن محمد بن المنكدر أنه جزع عند الموت وقال: أخشى هذه الآية أن يدولي ما لا احتسب.

قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: نزل بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: ما كانوا يتكبرونه ويكذبون به.

﴿إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَمَاحًا ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِمَّا قَالِ إِحْمًا أُوْتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١)
 قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّا افْتَنَّا عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ فَأَصَابَهُمْ سِتَاتٌ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سِتَاتٌ
 مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣﴾ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْتُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَمَاحًا﴾ قال مقاتل: هو أبو حذيفة بن المغيرة، وقد سبق في هذه السورة نظيره (الزمر: ٨). وإنما كتبت عن النعمة بقوله: ﴿أُوْتِيَتْهُ﴾، لأن المراد بالنعمة: الإنعام. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عندي، أي: على خير عليمه الله عندي. وقيل: على علم من الله بأنني له أهل، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هِيَ﴾ يعني النعمة التي أنعم [الله] عليه بها ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: بلوى يتلقى بها العبد ليشكر أو يكفر، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك استدراج لهم وامتحان. وقيل: بل هي أي: المقالة التي قالها الفتنة. ﴿قَدْ قَالُوا﴾ يعني تلك الكلمة، وهي قوله: ﴿إنما أوتيت على علم﴾ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم الأمم الماضية، قاله السدي. والثاني: قارون، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَمَا افْتَنَّا عَنْهُمْ﴾ أي: ما دفع عنهم العذاب ﴿مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: من الكفر. والثاني: من عبادة الأصنام. والثالث: من الأموال. ﴿فَأَصَابَهُمْ سِتَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ أي: جزاء سيئاتهم، وهو العذاب. ثم أورد كُفَّارًا مَكَّةَ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سِتَاتٌ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: إنهم لا يُعْجِزُونَ الله ولا يفوتونه. قال مقاتل: ثم وعظهم ليُعلموا وحدانيته حين مُطِّروا بعد سبع سنين، فقال: ﴿أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في بسط الرزق وتقديره ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْتُونَ﴾.

﴿قُلْ يَبَادِيُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥)
 وَيَأْتِيَا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمْتُمْ لَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ وَأَعْرَفُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ تَنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَدَابِقُ بَعَثَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَبَادِيُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن ناساً من المشركين كانوا قد قتلوا فآكثروا، وزنوا فآكثروا، ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسن، لو نُخِّرْنَا أَنْ لِمَا عَمَلْنَا كَفَّارَةً، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(١). والثاني: أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونقر من المسلمين كانوا قد أسلموا، ثم عُذِّبُوا فافْتَبَتُوا، فكان أصحاب رسول الله يقولون: لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً، قوم تركوا دينهم بعذاب عُذِّبُوا فنزلت هذه الآية، فكتبها عمر إلى عياش والوليد وأولئك النفر، فأسلموا وهاجروا؛ وهذا قول ابن عمر^(٢). والثالث: أنها نزلت في وحشي؛ وهذا القول ذكرناه مشروحاً في آخر [الفرقان: ٦٨] عن ابن عباس^(٣). والرابع: أن أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يُغْفَرْ له، فكيف نهاجر ونُسَلِّم وقد فعلنا ذلك؟! فنزلت هذه الآية؛ وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً^(٤). ومعنى «أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ» ارتكبوا الكبائر. والقنوط بمعنى اليأس^(٥). ﴿وَيَأْتِيَا﴾ بمعنى ارجعوا إلى الله من الشرك والذنوب،

(١) رواه البخاري ٤٢٢/٨ من حديث ابن جريج عن يعلى بن مسلم المكي عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، «الطبري» ٤١/١٩، وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن جريج عن يعلى بن مسلم المكي عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وكذلك رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٢١١، ورواه البخاري أيضاً ٣٨٠/٨ في سورة الفرقان مختصراً. والحديث أورده السيوطي في «الدر» ٧٧/٥، وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ١٥/٢٤، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١١ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، بدون سند.

(٣) قال السيوطي في «الدر» ٣٣٠/٥: أخرج الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند فيه لين عن ابن عباس، الخ.

(٤) «الطبري» ١٤/٢٤، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١١ عن ابن عباس بدون سند، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٣١/٥، وزاد نسبه لابن مردويه عن ابن عباس.

(٥) قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وأخبار بأن الله تبارك وتعالى يفر الذنوب جميعاً لمن تاب =

﴿وَأَسْلِمُوا لَكُمْ﴾ أي: أخلصوا له التوحيد. و«تُضْضَرُونَ» بمعنى تُمْتَعُونَ. ﴿وَأَسْعِيوْا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ قد بيّناه في قوله: ﴿يَأْتِدُوا بِأَحْسِنَهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦) أو تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أو تَقُولَ مِنْ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَلَكَّ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٥٩)

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ قال المبرد: المعنى: بإدروا قَبْلَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ، وَحَدْرًا مِنْ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ. وقال الزجاج: خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها هذا القول ومعنى ﴿بِحَسْرَةٍ﴾ يا ندامتا ويا حزنا. والنحس: الاغتمام على ما فات. والألف في «يا حسرتا» هي [ياء] المتكلم، والمعنى: يا حسرتي^(١)، على الإضافة. قال الفراء: والعرب تحوّل الياء إلى الألف في كل كلام معناه الاستغاثة ويخرج على لفظ الدعاء، وربما أدخلت العرب الهاء بعد هذه الألف، فيخفونها مرّةً، ويرفعونها أخرى. وقرأ الحسن، وأبو العالية، وأبو عمران، وأبو الجوزاء: «يا حسرتي» بكسر التاء، على الإضافة إلى النفس. وقرأ معاذ القارئ، وأبو جعفر: «يا حسرتاي»، بألف بعد التاء وياء مفتوحة. قال الزجاج: وزعم الفراء أنه يجوز «يا حسرتاة» على كذا، «يا حسرتاه»، بالضم والكسر، والنحويون أجمعون لا يجيزون أن تُثَبَّتَ هذه الهاء مع الوصل.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: في طاعة الله تعالى، قاله الحسن. والثاني: في حق الله، قاله سعيد بن جبير. والثالث: في أمر الله، قاله مجاهد، والزجاج. والرابع: في ذكْر الله، قاله عكرمة، والضحاك. والخامس: في قُرْب الله؛ روي عن الفراء أنه قال: الجَنْبُ: القُرْب، أي: في قُرْب الله وجواره؛ يقال: فلان يعيش في جنب فلان، أي: في قُرْبِهِ وجواره؛ فعلى هذا يكون المعنى: [على] ما فَرَّطْتُ في طلب قُرْب الله تعالى، وهو الجنة. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ أي: وما كنتُ إِلَّا من المستهزئين بالقرآن وبالمؤمنين في الدنيا. ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ أي: أرشدني إلى دينه ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ الشُّرْك؛ فيقال لهذا القائل: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَلَكَّ آيَاتِي﴾ قال الزجاج: و«بلى» جواب النفي، وليس في الكلام لفظ النفي، غير أن معنى «لو أن الله هداني»: ما هديتُ، فقيل: «بلى قد جاءتك آياتي». وروى ابن أبي سريج [عن الكسائي]: «جاءتْك»، «فكذبتْ»، «واستكبرتْ»، و«كُنْتَ»، بكسر التاء فيهنّ، مخاطبةً للنفس. ومعنى «استكبرتْ»: تكبرت عن الإيمان بها.

﴿وَيَوْمَ الْيَوْمِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَوَجَّهُهُمُ مُسَوِّدَةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتٌ لِمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٥٧) وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَالَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٥٨)

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْيَوْمِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ فزعموا أن له ولداً وشريكاً ﴿وَوَجَّهُهُمُ مُسَوِّدَةٌ﴾. وقال الحسن: هم الذين يقولون: إن شئنا فعلنا، وإن شئنا لم نفعل. وياقي الآية قد ذكرناه آنفاً [الزمر: ٣٢]. قوله تعالى: ﴿وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَالَتِهِمْ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «بمفازاتهم». قال الفراء: وهو كما قد تقول: قد تبين أمر القوم وأمورهم، وارتفع الصوت والأصوات، والمعنى واحد. وفيها للمفسرين ثلاثة أقوال. أحدها: بفضائلهم، قاله السدي. والثاني: بأعمالهم، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثالث: بفوزهم من النار. قال المبرد: المَفَازة: مَفْعَلَةٌ من الفوز، وإن جُمع فحسن، كتولك: السعادة والسعادات، والمعنى: ينجيهم الله بفوزهم، أي: بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة.

= منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زيد البحر، قال: ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة، لأن الشرك لا يفرغ لمن لم يتب منه، وسرد بعض الأحاديث المتعلقة بهذه الآية التي تدل على سعة رحمة الله وفضله، ثم قال: وهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يفرغ جميع الذنوب مع التوبة، قال: ولا يقطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿أَكْثَرَ يَسْلُبُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَبْقَى الْكُفْرَةَ مِنَ يَسْأَلُونَ﴾ وقال ﷺ: ﴿وَمَنْ يَسْأَلْ شَوْءًا أَوْ يَكْلَمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَفِيرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ عَفْوًا كَيْفَمَا ﷻ﴾. ثم ذكر عدة أحاديث في نفي القنوط، واعتقاد أن الله تعالى غفور رحيم لمن تاب إليه وأتاب.

(١) في الأصل: «يا حسرتا».

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ أَؤْتِيَهُمْ
الْخَيْرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: مفاتيحها وخزائنها، لأن مالك المفاتيح مالك الخزائن، واحدها: إقليد، وجمع على غير واحد، كما قالوا: مذاكير جمع ذكر، ويقال: هو فارسي معرب. لو قرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي: الإقليد: المفتاح، فارسي معرب، قال الراجز:

لَمْ يُؤْذِهَا الدِّيكُ بِصَوْتِ تَغْرِيدٍ وَلَمْ تُعَالِجْ عَاقِباً بِأَقْلِيدٍ^(١)

والمقليدُ: لغة في الإقليد، والجمع: مقاليد. وللمفسرين في المقاليد قولان: أحدهما: المفاتيح، قاله ابن عباس. والثاني: الخزائن، قاله الضحاك. وقال الزجاج: تفسيره أن كل شيء في السموات والأرض، فهو خالقه وفتح بابه. قال المفسرون: مفاتيح السموات: المطر، ومفاتيح الأرض: النبات.

﴿قُلْ أَقْتَرِ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعِلٌ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَقْتَرِ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾ قرأ نافع، وابن عامر: «تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ» مخففة، غير أن نافعاً فتح الياء، ولم يفتحها ابن عامر. وقرأ ابن كثير: «تَأْمُرُونِي» بتشديد النون وفتح الياء، وقرأ الباقون بسكون الياء. وذلك حين دعوته إلى دين آباءه ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ أي: فيما تأمرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ فيه تقديم وتأخير، تقديره: ولقد أوحى إليك لئن أشركت لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ، وكذلك أوحى إلى الذين مِن قَبْلِكَ. قال أبو عبيدة: ومجازها مجاز الأمرين اللذين يُخْبِرُ عن أحدهما وَيُكْفُ عن الآخر، قال ابن عباس: هذا أدب من الله تعالى لنبيه ﷺ وتهديده لغيره، لأن الله ﷻ قد عصمه من الشرك. وقال غيره: إنما خاطبه بذلك، ليُعرف من دونه أن الشرك يُحِبِطُ الأعمال المتقدمة كلها ولو وقع من نبي. وقرأ أبو عمران، وابن السميع، ويعقوب: «لَتُنْحِطَنَّ» بالنون، «عَمَلُكَ» بالنصب. ﴿بَلِ اللَّهُ فَاعِلٌ﴾ أي: وحْدُ.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَكَ وَعَمَّا يَشْرُكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ سبب نزولها أن رجلاً من أهل الكتاب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم، بلغنا أن الله تعالى يَحْمِلُ الخلائق على إضْبَعِ الأَرْضِينَ على إضْبَعِ الشَّجَرِ على إضْبَعِ الثَّرَى على إضْبَعِ! فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قاله ابن مسعود^(٢). [وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» نحوه عن ابن مسعود^(٣). وقد فسرنا أول هذه الآية في «الإنعام» ٩١] قال ابن عباس: هذه الآية في الكفار، فأما مَنْ آمَنَ بالله على كل شيء قدير، فقد قَدَرَ اللهُ حَقَّ قَدْرِهِ. ثم ذكر عظَّمته بقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثم يقول: أنا المَلِكُ، أين ملوك الأَرْضِ؟»^(٤)؛ وأخرجنا من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يَطْوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثم يأخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليمَنِ، ثم يقول: أنا

(١) الرجز في «المعرب» للجواليقي ٢٠.

(٢) روى سبب النزول هذا بهذا اللفظ الواحد في «أسباب النزول» ٢١٢ عن عبد الله بن مسعود ﷺ، وهو في «الصحيحين» دون سبب النزول.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» ٤٢٣/٨، ومسلم ٢١٤٨/٤ عن عبد الله بن مسعود ﷺ، ورواه الطبري ٢٧/٢٤، والحديث أورده السيوطي في «الدرر»، وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والدارقطني في «الأسماء والصفات» عن عبد الله بن مسعود ﷺ. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» في قوله: «حتى بدت نواجذه»؛ وليس ذلك منافياً للحديث الآخر أن ضحكه كان تبسماً كما سيأتي في تفسير سورة (الأحقاف). اهـ.

(٤) رواه البخاري في «صحيحه» ٤٢٣/٨، ومسلم ٢١٤٨/٤، ورواه الطبري ٢٧/٢٤، وذكره السيوطي في «الدرر» ٣٣٥/٥، وزاد نسبه لابن المنذر، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي هريرة ﷺ.

الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون؟»^(١) قال ابن عباس: الأرض والسماوات كلها بيمينه. وقال سعيد بن جبيرة: السماوات قبضة والأرضون قبضة^(٢).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَوِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنَامٍ يُنظَرُونَ﴾^(٣) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بَشُورًا وَرُئِيَ الْكُنُوبُ وَجَاءَتِ الْيَتِيمَ وَالشُّهَدَاءَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَوِقَ﴾ قرأ ابن السميع، وابن يعمر، والجحدري: «فصوِقَ» بضم الصاد «من في السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ» أي: ماتوا من الفزع وشيئة الصوت. وقد بيَّنا هذه الآية والخلاف في الذين استثنوا في سورة [النمل: ٢٨٧]. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ وهي نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ يعني الخلائق ﴿بِنَامٍ يُنظَرُونَ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بَشُورًا﴾ أي: أضاءت. والمراد بالأرض: عرصات القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَرُئِيَ الْكُنُوبُ﴾ فيه قولان: أحدهما: كتاب الأعمال، قاله قتادة، ومقاتل. والثاني: الحساب، قاله السدي. وفي الشهداء قولان: أحدهما: أنهم الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، قاله الجمهور. ثم فيهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم المرسلون من الأنبياء. والثاني: أمة محمد يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة وتكذيب الأمم إياهم، روي عن ابن عباس رضي الله عنه. والثالث: الحفظة، قاله عطاء. والرابع: النبيون والملائكة وأمة محمد صلى الله عليه وآله والجوارح، قاله ابن زيد. والثاني: أنهم الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، قاله قتادة؛ والأول أصح. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: جزاء عملها ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يحتاج إلى كاتب ولا شاهد.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا ۚ إِذَا جَاءَهُمْ فَضَحَّتْ أُذُنُهَا وَقَالَ لِمُؤْمِنًا مِّنْهُمْ خَرَّنْتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلشَّاكِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ أُذُنُهَا وَقَالَ لِمُؤْمِنًا مِّنْهُمْ خَرَّنْتُهَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لِمَن يَتَّقِ اللَّهَ تَأْتِيهِ أَمْثَلُ مِثْلٍ وَجُودًا ﴿٦٩﴾ وَقَالُوا الْحَسْبُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٠﴾ وَرَبِّ الْمَلَائِكَةِ حَافِيَتٍ مِّنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا﴾ قال أبو عبيدة: الزُّرْمَرُ: جماعات في تفرقة بعضهم على إثر بعض، واحدها: زُرْمَرَةٌ^(٤).

قوله تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من أنفسكم. و«كَلِمَةُ الْعَذَابِ» هي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ٤١٨].

قوله تعالى: ﴿فَضَحَّتْ أُذُنُهَا﴾ قال ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «فَضَحَّتْ» و«فَضَحَّتْ» مشدَّدتين؛ وقرأ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» ١٣/٣٣٤ مَخْتَصَرًا، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ ٤/٢١٤٨ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، وَاللَّفْظُ لَهُ، وَتَمَامُ الْحَدِيثِ عِنْدَهُ: «ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ، أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ».

(٢) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مُتَمَلِّقَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، قَالَ: وَالطَّرِيقُ فِيهَا وَفِي امْتِثَالِهَا مَذْهَبُ السَّلَفِ، وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ. اهـ.

(٣) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالزَّلَازِلِ الْهَائِلَةِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَوِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قَالَ: هَذِهِ النُّفْخَةُ هِيَ الثَّانِيَةُ، وَهِيَ نَفْخَةُ الصَّمْعِ، وَهِيَ الَّتِي يَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، كَمَا جَاءَ مَصْرُوحًا مُفْتَرًّا فِي حَدِيثِ الصُّورِ الْمَشْهُورِ، قَالَ: ثُمَّ يَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْبَاقِيْنَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ مَنْ يَمُوتُ مَلِكُ الْمَوْتِ، وَيُنْفِذُ الْحَيَّ الْقِيَوْمَ الَّذِي كَانَ أَوْلَىٰ، وَهُوَ الْبَاقِي آخِرًا بِالْبَيْمُومَةِ وَالْبِقَاءِ، وَيَقُولُ: ﴿لَيْسَ الْكُلُوبُ الْإِيْمُ﴾ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَجِيبُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ يَقُولُ: ﴿يَوْمَ الرَّجِيْدِ الْكَلْبَارِ﴾ أَنَا الَّذِي كُنْتُ وَجْدِي وَقَدْ قَهَرْتُ كُلَّ شَيْءٍ وَحَكَمْتُ الْبِنَاءَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، قَالَ: ثُمَّ يَجِيبِي أَوَّلُ مَنْ يَجِيبِي إِسْرَافِيلُ وَيَأْمُرُهُ أَنْ يَنْفِخَ فِي الصُّورِ آخِرَى، وَهِيَ النُّفْخَةُ الثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْبِعْثِ، قَالَ صلى الله عليه وآله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنَامٍ يُنظَرُونَ﴾ أَي: أَحْيَاءٌ بَعْدَمَا كَانُوا عِظَامًا وَرُفَاتًا صَارُوا أَحْيَاءً يَنْظُرُونَ إِلَى أَمْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّا مِنْ جَهَنَّمَ رَجِيْدٌ ﴿٦٧﴾ فَإِنَّا هُمْ وَالنَّاسِوَةٌ ﴿٦٨﴾﴾. اهـ.

(٤) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْكُفَّارِ كَيْفَ يَسَاقُونَ إِلَى النَّارِ، قَالَ: وَإِنَّمَا يَسَاقُونَ سَوْقًا عَنِيْفًا بِرُجْرٍ وَتَهْدِيدٍ وَعَعِيدٍ، كَمَا قَالَ صلى الله عليه وآله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى النَّارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿٦٧﴾﴾ أَي: يَدْعُونَ لِيَهَا دَعْمًا، هَذَا وَهُمْ عَطَاشٌ لِيْمَاءٍ، كَمَا قَالَ جَل وَعَلَا فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿يَوْمَ تَحْتَسِرُ النَّفْسُ إِلَى الرَّجَمِ وَقَالَا ﴿٦٨﴾ وَرَبِّ النَّفْسِ إِلَى جَهَنَّمَ وَنَدَا ﴿٦٩﴾﴾ وَهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ صَمٌّ وَبُكْمٌ وَعَمِي، مِنْهُمْ مَنْ يَعْشَى عَلَى وَجْهِهِ ﴿وَتَحْتَرِّقُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهِهِمْ شَيْئًا وَيَكْفُرُ رُسُلًا فَأَنْبِئُهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا حَتَّ وَذَهَبَهُمْ سَيْبًا﴾.

عاصم، وحزمة، والكسائي: بالتخفيف. وفي هذه الواو ثلاثة أقوال^(١): أحدها: أنها زائدة، روي عن جماعة من اللغويين منهم الفراء. والثاني: أنها واو الحال؛ فالمعنى: جاؤوها وقد فتحت أبوابها، فدخلت الواو لبيان أن الأبواب كانت مفتحة قبل مجيئهم، وحذفت من قصة أهل النار لبيان أنها كانت مُغلقة قبل مجيئهم، ووجه الحكمة في ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها: أن أهل الجنة جاؤوها وقد فتحت أبوابها ليستعملوا السرور والفرح إذا رأوا الأبواب مفتحة، وأهل النار يأتونها وأبوابها مُغلقة ليكون أشدَّ لحرها، ذكره أبو إسحاق ابن شافلا من أصحابنا^(٢). والثاني: أن الوقوف على الباب المغلق نوعٌ دُلٌّ، فصين أهل الجنة عنه، وجعل في حق أهل النار، ذكره لي بعض مشايخنا. والثالث: أنه لو وجد أهل الجنة بابها مُغلقة لأثر انتظار فتحه في كمال الكرم، ومن كمال الكرم غلقت باب النار إلى حين مجيء أهلها، لأن الكريم يعجل المشوبة، ويؤخر العقوبة، وقد قال ﷺ: ﴿مَا يَقَعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْسَمْتُمْ﴾ [النساء: ٤١٤٧]؛ قال المصنف: هذا وجهٌ خطر لي. والقول الثالث: أن الواو زيدت، لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، والعرب تعطف في العدد بالواو على ما فوق السبعة على ما ذكرناه في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَاتَّامَنَهُمْ كَلِمَتٌ﴾ [الكهف: ٢٢]، حكى هذا القول والذي قبله الثعلبي. واختلف العلماء أين جواب هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أن الجواب محذوف، قاله أبو عبيدة، والمبرد، والزجاج في آخرين. وفي تقدير هذا المحذوف قولان. أحدهما: أن تقديره: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمَا...﴾ إلى آخر الآية... سَعِدُوا، قاله المبرد. والثاني: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمَا...﴾ إلى قوله: ﴿فَادْخَلُوهَا حَلِيلِينَ﴾.. دخلوها، وإنما حُذف، لأن في الكلام دليلاً عليه، وهذا اختيار الزجاج. والقول الثاني: أن الجواب: قال لهم خزنتها، والواو زائدة، ذكره الأخفش، قال: ومثله في الشعر:

فإذا وذلك يا كُبَيْسَةَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَلِمَةً حَالِمٍ بِحَيَالِ^(٣)

أي: فإذا ذلك. والثالث: الجواب: حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها، والواو زائدة، حكاه الزجاج عن قوم من أهل اللغة. وفي قوله: ﴿يُنَبِّئُ﴾ خمسة أقوال: أحدها: أنهم إذا انتهوا إلى باب الجنة وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فيسربون من إحداهما، فلا يبقى في بطونهم أدنى ولا قذى إلا خرج، ويفتسلون من الأخرى، فلا تغيَّر جلودهم ولا تسعت أشعارهم أبداً، حتى إذا انتهوا إلى باب الجنة قال لهم عند ذلك خزنتها: ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾، رواه عاصم بن ضمرة عن علي ﷺ^(٤)، وقد ذكرنا في [الأعراف: ٤٤] نحوه عن ابن عباس. والثاني: طاب لكم المقام، قاله ابن عباس. والثالث: طيبتم بطاعة الله، قاله مجاهد. والرابع: أنهم طيَّبوا قبل دخول الجنة بالمغفرة، واقتص من بعضهم ليعض، فلما هُدبوا قالت لهم الحزنة: طيبتم، قاله قتادة. والخامس: كنتم طيبين في الدنيا، قاله الزجاج. فلما دخلوها قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ﴾ بالجنة ﴿وَأُورِثْنَا الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة ﴿نَتَّبِعُ مِنْ أَلْبَتَرِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: نتخذ فيها من المنازل ما نشاء. وحكى أبو سليمان الدمشقي أن أمه محمد ﷺ يدخلون الجنة قبل الأمم، فينزلون منها حيث شاؤوا، ثم تنزل الأمم بعدهم فيها، فلذلك قالوا: ﴿نَتَّبِعُ مِنْ أَلْبَتَرِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾؛ يقول الله ﷻ: ﴿نَعْمَ أَجْرَ الْعَمَلِينَ﴾ أي: نعم ثواب المطيعين في الدنيا الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَرَى الْمَلَأَكَةَ حَلِيلِينَ مِنْ حَوْلِ الرَّؤْسِ﴾: أي مخلوقين به، يقال: حَفَّ القومُ بفلان: إذا أخذوا به؛

(١) وهي الواو في قوله تعالى: ﴿وَوَيْحَاتُ الْبُرُوقِ وَقَالَ لَنْزَحْرَتِكُمْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن شافلا البزار الحنبلي، جليل القدر، كثير الرواية، حسن الكلام في الأصول والفروع، توفي رحمه الله سنة (٣٦٩ هـ).

(٣) البيت لتميم بن مقبل، «ديوانه» ٢٥٩ من تصديده مطعماً:

سَائِلٌ بِكُحْبَيْسَةَ دَارِمِ الْأَطْلَالِ قَدْ مَيَّجَتْكَ رُشُومُهَا إِسْوَالِ

وهو في الطبري ٣٦/٢٤، «الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: لسم. ورواية البيت في الديوان: «إلا كحلمة... والحلمة: المرة من «حلَم»: إذا رأى شيئاً في المنام، وقال ابن بري: قوله: «فإذا وذلك» مبتدأ، والواو زائدة، كذا ذكره الأخفش، ولم يكن خبره.

(٤) «الطبري» ٣٥/٢٤. وذكره السيوطي في «الدرر» ٣٤٢/٥، وزاد نسبه لابن المبارك في «الزهدة»، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، والبيهقي في «البعث»، والضياء في «المختارة» عن علي ﷺ.

ودخلت «مِنْ» للتوكيد، كقولك: ما جاءني من أحد. ﴿يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال السدي، ومقاتل: بأمر ربهم. وقال بعضهم: يُسَبِّحُونَ بالحمد له حيث دخل الموحدون الجنة. وقال ابن جرير: التَّسْبِيحُ هاهنا بمعنى الصَّلَاة. قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا قول أهل الجنة شُكْرًا لله تعالى على إنعامه. قال المفسرون: ابتداء الله ذِكْرَ الخَلْقِ بِالْحَمْدِ فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] وختم^(١) غاية الأمر - وهو استقرار الفريقين في منازلهم - بالحمد لله بهذه الآية، فنبه على تحميده في بداية كُلِّ أمرٍ وخاتمته.



سورة المؤمن

قال أبو سليمان الدمشقي: ويقال لها: سورة الطَّوْلِ^(١). وهي مَكِّيَّة، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة. وحكي عن ابن عباس وقتادة أن فيها آيتين نزلتا بالمدينة: قوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ والتي بعدها [المؤمن: ٣٥، ٣٦]. قال الزجاج: وذكُرَ أَنَّ الحواميم كُلَّهَا نزلت بمكة. قال ابن قتيبة: يقال: إن «حم» اسم من أسماء الله أضيفت هذه السُورَةُ إليه، كأنه قيل: سُورَةُ الله، لِشَرَفِهَا وَفَضْلِهَا، فقيل: آل حاميِم، وإن كان القرآن كُلُّهُ سُورَةَ الله، وإن هذا كما يقال: بَيْتُ الله، وَحَرَمُ الله، وَنَافَةُ الله، قال الكميِت:

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيِمٍ آيَةً
تَأْوَلَهَا مِنَّا تَقِيِيٌّ وَمُغْرِبٌ^(٢)

وقد تُجعل «حم» اسماً للسورة، ويدخل الإعراب ولا يُضَرَف، ومن قال هذا في الجميع: الحواميم، كما يقال: «طس» والطواسين. وقال محمد بن القاسم الأنباري: العرب تقول: وقع في الحواميم، وفي آل حاميِم، أنشد أبو عبيدة:

حَلَفْتُ بِالسَّبْعِ اللُّوَاتِي طُوَلْتُ
وَبِمَثَانٍ تُنَيِّتُ فَكُرَّرْتُ
وبالحواميم اللُّوَاتِي سُبَعْتُ

فمن قال: وقع في آل حاميِم، جعل حاميِم اسماً لِكُلِّهِنَّ؛ ومن قال: وقع في الحواميم، جعل «حم» كأنه حرف واحد بمنزلة قاييل وهابيل. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللخوي قال: من الخطأ أن تقول: قرأت الحواميم، وليس من كلام العرب، والصَّوابُ أن تقول: قرأت آل حاميِم. وفي حديث ابن مسعود «إذا وقعت في آل حم»^(٤) وقعت في روضات دوثات^(٥)، وقال الكميِت:

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيِمٍ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَم﴾ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ﴿٢﴾

وفي ﴿حَم﴾ أربعة أقوال: أحدها: قَسَمَ أَقْسَمَ الله به وهو من أسمائه ﷻ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. قال أبو سليمان: وقد قيل: إن جواب القَسَمِ قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾ [المؤمن: ١٠]. والثاني: أنها حروف من أسماء الله ﷻ، ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن «الر» و«حم» و«نون» حروف الرحمن، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أن الحاء مفتاح اسمه «حميد»، والميم مفتاح اسمه «مجيد»، قاله أبو العالية. والثالث: أن الحاء مفتاح كل اسم لله ابتداءه حاء، مثل «حكيم»، و«حليم»، و«حي»، والميم مفتاح كل اسم له، ابتداءه ميم مثل «ملك»، و«متكبر» و«مجيد»، حكاه أبو سليمان الدمشقي. وروي نحوه عن عطاء الخراساني. والثالث: أن معنى «حم»: قَضِي ما

(١) ويقال لها أيضاً: سورة غافر.

(٢) البيت في «الكتاب» ٣٠/٢، و«مجاز القرآن» ١٩٣/٢، و«غريب القرآن» ٣٦، و«الطبري» ٤٠/٢٤، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: عرب.

(٣) «مجاز القرآن» ٧/١ والزيادة بين المعنيين منه.

(٤) كذا في الأصول وكتب التفسير، وفي «النهاية» و«اللسان» و«التاج»: «قرأت آل حاميِم» بدل «وقعت في آل حاميِم».

(٥) قال السيوطي في «الدرر» ٣٤٤/٥: أخرج أبو عبيد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إذا وقعت في الحواميم وقت في روضات أتأتئ فيهن.

هو كائن، رواه أبو صالح عن ابن عباس. ورُوي عن الضحاك والكسائي مثل هذا كأنهما أرادا^(١) الإشارة إلى حُمّ، بضم الحاء وتشديد الميم. قال الزجاج: وقد قيل في «حَمّ»: حُمّ الأمر. والرابع: أن «حَمّ» اسم من أسماء القرآن، قال قتادة: وقرأ ابن كثير: «حَمّ» بفتح الحاء؛ وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: بكسرهما؛ واختلف عن الباين. قال الزجاج: أما الميم، فساكنة في قراءة القراء كلهم إلا عيسى بن عمر، فإنه فتحها؛ وفتحها على ضريبن. أحدهما: أن يجعل «حَمّ» اسماً للشورة، فينصبه ولا ينونه، لأنه على لفظ الأسماء الأعجمية نحو هاييل وقابيل. والثاني: على معنى: اتل حَمّ؛ والأجود أن يكون فتح لالتقاء الساكنين حيث جعله اسماً للشورة، ويكون حكاية حروف الهجاء^(٢).

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذا تنزيل الكتاب. والتَّوْبُ: جمع تَوْبَةٍ، وجائز أن يكون مصدرًا من تاب يَتُوبُ تَوْبًا. والطَّوْلُ: الفُضْلُ. قال أبو عبيدة: يقال: فلان ذو طَوْلٍ على قومه، أي: ذو فَضْلٍ. وقال ابن قتيبة: يقال: طُلَّ عَلَيَّ يرحمك الله، أي: تَفَضَّلَ. قال الخطابي: ذو: حرف النسبة، والنسبة في كلامهم على ثلاثة أوجه. بالياء، كقولهم: أسدي، وبكري، والثاني: على الجمع، كقولهم: المهالبة، والمسامعة، والأزارقة، والثالث: بـ «ذِي» و«ذات»، كقولهم: رجل مال، أي: ذو مال، وكيش صاف، أي: ذو صوف، وناقصة ضامر، أي: ذات ضمر؛ فقوله: ذُو الطَّوْلِ، معناه: أهل الطَّوْلِ والفُضْلِ.

﴿مَا يُجِدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنْزِلُ فِي قُلُوبِهِمْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي كَذَّبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ يَنْزِلُ فِي الْأَخْرَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَخَفَدُوا بِالسَّبِيلِ يُدْجِحُوا بِهِ لَلْفَقِّ فَأَخَذْتَهُمْ فَيَكْفَىٰ كَانَ عِقَابِ ۗ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا يُجِدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ما يُخَاصِمُ فيها بالكذب لها ودفعها بالباطل ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وبأبي الآية في (آ عمران: ١٩٦)؛ والمعنى: إن عاقبة أمرهم إلى العذاب كماقبة من قَبْلِهِمْ.

قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: ليقبضوه، قاله ابن عباس، وفتادة. والثاني: ليحبسوه ويعذبوه، ويقال للأسير: أخيد، حكاة ابن قتيبة. قال الأخفش: وإنما قال: «ليأخذوه» فجمع على الكل، لأن الكل مذكر ومعناه معنى الجماعة. وما بعد هذا مفسر في [الكهف: ٥٦] إلى قوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ أي: عاقبتهم وأهلكتهم ﴿فَيَكْفَىٰ كَانَ عِقَابِ﴾ استفهام تقرير لعقوبتهم الواقعة بهم. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل الذي حَقَّ على الأمم المكذبة ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب، وهي قوله: ﴿لَأَنزِلَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الاعراف: ١٨] على الذين كفروا من قومك. وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾، ﴿أَنَّهُمْ﴾ قال الأخفش: لأنهم أو بأنهم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

﴿الَّذِينَ يَجْمَعُونَ الرِّمْتَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّعْيَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّعْيَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجَعْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَرُزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

ثم أخبر بفضل المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْمَعُونَ الرِّمْتَ﴾ وهم أربعة أملاك، فإذا كان يوم القيامة جعلوا ثمانية ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ قال وهب بن منبه: حَوْلُ العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة ليس فيهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبحه الآخر. وقال غيره: الذين حول العرش هم الكروبيون وهم سادة الملائكة. وقد ذكرنا في السورة المتقدمة معنى قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون: رَبَّنَا ﴿وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ قال الزجاج: هو منصوب على التمييز. وقال غيره: المعنى: وَسِعَتْ رحمتك وعلمك كل شيء ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ من الشرك ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ وهو

(١) في الأصل: أراد.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والقول في ذلك عندي نظير القول في أخواتها، قال: وقد بينا ذلك في قوله: ﴿الَّذِينَ تَابُوا﴾ ففي ذلك كفاية عن إعادته في هذا الموضوع، إذ كان القول في ﴿حَمّ﴾ ﴿٦﴾ وجميع ما جاء في القرآن على هذا الوجه، أعني حروف التهجى قولاً واحداً، اهـ.

دين الإسلام. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿وَرَيْبُهُمُ السَّيِّئَاتِ﴾ قال قتادة: يعني العذاب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ قالوا ربنا أمتنا اتَّخَذَتِمْ وَأَمِينَتَا أَلْتَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَزُومُوا فَلْيَكُفِّرْ بِلِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادونَ لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ قال المفسرون: لما رأوا أعمالهم وأدخلوا النار مَقْتُوا أَنفُسَهُمْ لِسُوءِ فِعْلِهِمْ، فناداهم مُنادٍ: لَمَقْتُ اللَّهِ إِيَّاكُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أكبرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ. ثم أخبر عما يقولون في النار بقوله: ﴿رَبَّنَا أمتنا اتَّخَذَتِمْ وَأَمِينَتَا أَلْتَتَيْنِ﴾ وهذا مثل قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا فَلَمَّا كَفَرْتُمْ لَمَسْتُمْ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَتُكْفِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقد فسّرناه هناك.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾ أي: من النار إلى الدنيا لنعمل بالطاعة ﴿مِن سَبِيلٍ﴾؟ وفي الكلام اختصار، تقديره: فأجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك؛ وقيل لهم: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني العذاب الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ أي: إذا قيل «لا إله إلا الله» أنكروتم، وإن جعل له شريكاً أمتهم، ﴿فَلْيَكُفِّرْ بِلِلَّهِ﴾ فهو الذي حكم على المشركين بالنار. وقد بيّنا في سورة [البقرة: ٢٥٥] معنى العليّ، وفي [الرعد: ٩] معنى الكبير.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُرْسِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرَبُونَ لَا يُحِيقُونَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَّيْنِ الْمَلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْفَتْحُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ يُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: مصنوعاته التي تدلُّ على وحدانيته وقدرته. والرِّزْقُ هاهنا: المطر، سُمِّيَ رِزْقًا، لأنه سبب الأرزاق، و﴿يَتَذَكَّرُ﴾ بمعنى يتعظ، و﴿يُنِيبُ﴾ بمعنى يرجع إلى الطاعة. ثم أمر المؤمنين بتوحيده فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: موحدين.

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ قال ابن عباس. يعني رافع السموات. وحكى الماوردي عن بعض المفسرين قال: معناه: عظيم الصفات.

قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: خالقه ومالكه.

قوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه القرآن. والثاني: النبوة. والقولان مرويان عن ابن عباس. وبالأول قال ابن زيد، والثاني قال السدي. والثالث: الوحي، قاله قتادة. وإنما سُمِّيَ القرآن والوحي روحاً، لأن قوام الدين به، كما أن قوام البدن بالروح. والرابع: جبريل، قاله الضحاك. والخامس: الرحمة، حكاه إبراهيم الحربي.

قوله تعالى: ﴿مِن أَمْرِهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من قضاة، قاله ابن عباس. والثاني: بأمره، قاله مقاتل. والثالث: من قوله، ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني الأنبياء. ﴿يُنذِرُ﴾ في المشار إليه قولان: أحدهما: أنه الله ﷻ. والثاني: النبي الذي يوحي إليه. والمراد ب﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾: يوم القيامة. وأثبت ياء «التلاقي» في الحاليين ابن كثير ويعقوب، وأبو جعفر وافقهما في الوصل؛ والباقون بغير ياء في الحاليين، وفي سبب تسميته بذلك خمسة أقوال: أحدها: أنه يلتقي فيه أهل السماء والأرض، رواه يوسف بن مهرا عن ابن عباس. والثاني: يلتقي فيه الأولون والآخرون، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: [يلتقي] فيه الخلق والخالق، قاله قتادة ومقاتل. والرابع: يلتقي المظلوم والظالم، قاله ميمون بن مهرا. والخامس: يلتقي المرء بعمله، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرَبُونَ﴾ أي: ظاهرون من قُبورهم ﴿لَا يُحِيقُونَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾. فإن قيل: فهل يحفى عليه منهم اليوم شيء؟ فالجواب: أن لا، غير أن معنى الكلام التهديد بالجزاء؛ وللمفسرين فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا

يُخْفَى عَلَيْهِ مِمَّا عَمِلُوا شَيْئًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: لَا يَسْتَرُونَ مِنْهُ بِجَبَلٍ وَلَا مَدْرٍ، قَالَ قَتَادَةُ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّ الْمَعْنَى: أَبْرَزَهُمْ جَمِيعًا، لِأَنَّهُ لَا يُخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ، حَكَاهُ الْمَاوَرِدِيُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْكُلُّكَ آيَاتٍ﴾ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ هَذَا يَقُولُهُ اللَّهُ ﷻ بَعْدَ فَنَاءِ الْخَلَائِقِ. وَاخْتَلَفُوا فِي وَقْتِ قَوْلِهِ لَهُ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: [أَنَّهُ] يَقُولُهُ عِنْدَ فَنَاءِ الْخَلَائِقِ إِذَا لَمْ يَبْقَ مُجِيبٌ، فَيَرُدُّهُ عَلَى نَفْسِهِ فَيَقُولُ: ﴿اللَّهُ الْوَجِيدُ الْفَهَّارُ﴾، قَالَه الْأَكْثَرُونَ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ يَقُولُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَفِي مَنْ يُجِيبُهُ حِينَئِذٍ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يُجِيبُ نَفْسَهُ وَقَدْ سَكَتَ الْخَلَائِقُ لِقَوْلِهِ، قَالَه عَطَاءٌ. وَالثَّانِي: أَنَّ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ يُجِيبُونَهُ فَيَقُولُونَ: ﴿اللَّهُ الْوَجِيدُ الْفَهَّارُ﴾ قَالَه ابْنُ جَرِيرٍ.

﴿وَأَنْبِئْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسِيٍّ وَلَا لَظِيمٍ وَلَا سَفِيحٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَسْلَمُ حَآيَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفَى الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْبِئْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، قَالَه الْجُمْهُورُ. قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: وَسُمِّيَتْ الْقِيَامَةُ بِذَلِكَ لِقُرْبِهَا، يُقَالُ: أَرَفْتُ شَخْصًا فَلَانَ، أَي: قُرْبًا. وَالثَّانِي: أَنَّهُ يَوْمُ حُضُورِ الْمَنِيَّةِ، قَالَه قَطْرِبٌ^(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهَا تَرْتَقِي إِلَى الْحَنَاجِرِ فَلَا تَخْرُجُ وَلَا تَعُودُ، هَذَا عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ وَعَلَى الثَّانِي: الْقُلُوبُ هِيَ النُّفُوسُ تَبْلُغُ الْحَنَاجِرَ عِنْدَ حُضُورِ الْمَنِيَّةِ؛ قَالَ الزَّجَاجُ: وَ﴿كَظِيمِينَ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، وَالْحَالُ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ لَا يُقَالُ لَهَا: كَاطِمِينَ، وَإِنَّمَا الْكَاطِمُونَ أَصْحَابُ الْقُلُوبِ؛ فَالْمَعْنَى: إِذْ قَلُوبُ النَّاسِ لَدَى الْحَنَاجِرِ فِي حَالِ كَظْمِهِمْ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: «كَاطِمِينَ» أَي: مَغْمُومِينَ مَمْتَلِئِينَ خَوْفًا وَحُزْنًا، وَالكَاطِمُ: الْمُحْسِكُ لِلشَّيْءِ عَلَى مَا فِيهِ؛ وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَى هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَالْكَظِيمِيُّ الْقَمِيطُ﴾ [إِل عَمْرًا: ١٣٤]. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي الْكَافِرِينَ ﴿وَمِنْ حَسِيٍّ﴾ أَي: قَرِيبٍ يَنْفَعُهُمْ ﴿وَلَا سَفِيحٍ يُطَاعُ﴾ فِيهِمْ فَتَقَبَّلَ شَفَاعَتَهُ. ﴿يَسْلَمُ حَآيَةَ الْأَعْيُنِ﴾ قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: الْخَائِنَةُ وَالْحَيَانَةُ وَاحِدٌ. وَلِلْمَفْسُورِينَ فِيهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الرَّجُلُ يَكُونُ فِي الْقَوْمِ تَمَرًا بِهَ الْمَرَأَةِ فَيُرِيهِمْ أَنَّهُ يُغْضُ بَصَرَهُ، فَإِذَا رَأَى مِنْهُمْ غَفْلَةً لَحَظَّ إِلَيْهَا، فَإِنْ خَافَ أَنْ يَغْطُنُوا لَهُ غَضَّ بَصَرَهُ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ نَظَرَ الْعَيْنَ إِلَى مَا نُهِيَ عَنْهُ، قَالَه مَجَاهِدٌ. وَالثَّلَاثُ: الْغَمُزُ بِالْعَيْنِ، قَالَه الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ. قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ الْغَمُزُ بِالْعَيْنِ فِيمَا لَا يُجِبُهُ اللَّهُ وَلَا يَرْضَاهُ. وَالرَّابِعُ: النَّظْرَةُ بَعْدَ النَّظَرِ، قَالَه ابْنُ السَّائِبِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُخْفَى الصُّدُورُ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: مَا تُضْمِرُهُ مِنَ الْفِعْلِ أَنْ لَوْ قَدَّرْتَ عَلَى مَا نَظَّرْتَ إِلَيْهِ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: الْوَسُوسَةُ، قَالَه السُّدِّيُّ. وَالثَّلَاثُ: مَا يُبْرِئُهُ الْقَلْبُ مِنْ أَمَانَةٍ أَوْ خِيَانَةٍ، حَكَاهُ الْمَاوَرِدِيُّ^(٢).

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ أَوْلَمَ يَسِيرًا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ صَیْفُهُ أَلَيْسَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ بِرْتَهُمْ قُوَّةً وَوَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ رَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِذْ هُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَٰهَ رَعُونَ وَهَمَلْنَا وَنُودُوا فَقَالُوا سَدِجْرٌ كَثَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكُمْ وَاسْتَخَيَبُوا إِسَاءَتَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أَي: يَحْكُمُ بِهِ فَيَجْزِي بِالْحَسَنَةِ وَالسُّيِّئَةِ ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ مِنَ الْآلِهَةِ. وَقَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ: «تَدْعُونَ» بِالنَّاءِ، عَلَى مَعْنَى: قُلْ لَهُمْ: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أَي: لَا يَحْكُمُونَ بِشَيْءٍ وَلَا يُجَاوِزُونَ بِهِ؛ وَقَدْ نَبَّهَ اللَّهُ ﷻ بِهَذَا عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُ وَيَقْضِي مَنْ كَانَ حَيًّا، وَأَيْدِ ذَلِكَ بِذِكْرِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا يَشْتَانُ لِحَقِّ، قَالَه أَبُو سَلِيمَانَ الدَّمَشْقِيُّ. وَمَا بَعْدَ هَذَا قَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُهُ [يُوسُف: ١٠٩] وَيَعْضُهُ ظَاهِرٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَوْمَ الْأَزْفَةِ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِاقْتِرَابِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي الْأَوَّلَةُ ﴿٢٠﴾﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَلِمَةٌ ﴿٢١﴾﴾ وَقَالَ عَلِيُّ: «اتَّقَرَبَ النَّاسُ وَأَشَدَّ الْقَرَبُ ﴿٢٠﴾﴾ وَقَالَ جَل وَعَلَا: «اتَّقَرَبَ لِلنَّاسِ جَسَابُهُمْ» وَقَالَ: «اللَّهُ أَمْرٌ اللَّهُ فَلَا تَسْتَلِمْهُ» وَقَالَ جَل جَلَالَهُ: «تَقَرَّبَ رَأَى لَمَّةً يُشَوُّهُ الْأَوَّلُ كَثَرًا...» الآية. اهـ.

(٢) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْلَمُ حَآيَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفَى الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ يَخْبُرُ ﷻ عَنْ عِلْمِهِ التَّامِ الْمَحِيطِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، دَقِيقِهَا وَلَطِيفِهَا، لِيَحْذِرَ النَّاسَ عِلْمَهُ فِيهِمْ فَيَسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى الْحَيَاءِ، وَيَتَّقُوهُ حَتَّى تَقْوَاهُ، وَيَرَاتِقُوهُ مَرَاقِبَةً مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنَّ ﷻ يَعْلَمُ الْعَيْنَ الْخَائِنَةَ وَإِنْ أَبَدَتْ أَمَانَةً، وَيَعْلَمُ مَا تَطْوِي عَلَيْهِ خِيَابِ الصُّدُورِ مِنَ الصَّمَاتِ وَالسَّرَائِرِ. اهـ.

يُنْمِتُهُمْ قُوَّةً ﴿٢٦﴾ وقرأ ابن عامر: «أَشَدُّ مِنْكُمْ» بالكاف، وكذلك هو في مصاحفهم، وهو على الانصراف من الغيبة إلى الخطاب، «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ» أي: من عذاب الله ﴿٢٧﴾ «بَيْنَ يَدَيْهِ» بقي العذاب عنهم. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك العذاب الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ...﴾ إلى آخر الآية. ثم ذكر قصة موسى وفرعون ليعتبروا. وأراد بقوله: «أَقْتُلُوا إِنْسَانَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ» أعيدهوا القتل عليهم كما كان أولاً، قاله ابن عباس. وقال قتادة: كان فرعون قد كَفَّ عن قتل الولدان، فلما بعث الله موسى، أعاد عليهم القتل ليصُدَّهم بذلك عن متابعة موسى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ أي: إنه يذهب باطلاً ويحقيق بهم ما يريد الله ﴿بِئْسَ﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَبْتَلِيهِمْ وَيَجْعَلِي آلِي عِبَادًا أَتَّخِذُ مِنْكُمْ مَنَاسِكًا ۚ أَذُنُ غُرَّتِي بِرَبِّي وَأَخَذْتُ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ بِكَرْبٍ يَعْتَبِرُ ۗ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَمِينٌ وَآلٌ يَنْتَحِبُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقْوَمُ لَكُمْ الْيَوْمَ ظَهْرِي فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصُرْتَابًا مِنْ بَيْنِ أَيْدِي اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقْوَمُ إِلَيْنَا أَلْحَابًا يَوْمَ يُخْرَجُ الْخَرَابُ ﴿٣٠﴾ يَمْشِي دَابَّ قَوْمٍ تُوِّجَ وَكَادَ وَتَمَرَّدُ وَالَّذِينَ مِنْ بَدَاهِمُ مِمَّا نَتَّبِعُ ﴿٣١﴾ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣٢﴾ وَيَقْوَمُ إِلَيْنَا أَلْحَابًا يَوْمَ يُنَادِي السَّمَاءُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ تُقَالُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ بِضَلَالِهِ أَجَلٌ مُّسْتَقَرٌّ وَمَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ عَاصِيٍّ مِمَّا يَكْفُرُ بِهِ إِذَا هَلَكَ قَلْبُهُ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مَنْ بَعْدَهُ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَبْتَلِيهِمْ وَيَجْعَلِي آلِي عِبَادًا أَتَّخِذُ مِنْكُمْ مَنَاسِكًا ۚ أَذُنُ غُرَّتِي بِرَبِّي وَأَخَذْتُ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ بِكَرْبٍ يَعْتَبِرُ ۗ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَمِينٌ وَآلٌ يَنْتَحِبُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقْوَمُ لَكُمْ الْيَوْمَ ظَهْرِي فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصُرْتَابًا مِنْ بَيْنِ أَيْدِي اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقْوَمُ إِلَيْنَا أَلْحَابًا يَوْمَ يُخْرَجُ الْخَرَابُ ﴿٣٠﴾ يَمْشِي دَابَّ قَوْمٍ تُوِّجَ وَكَادَ وَتَمَرَّدُ وَالَّذِينَ مِنْ بَدَاهِمُ مِمَّا نَتَّبِعُ ﴿٣١﴾ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣٢﴾ وَيَقْوَمُ إِلَيْنَا أَلْحَابًا يَوْمَ يُنَادِي السَّمَاءُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ تُقَالُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ بِضَلَالِهِ أَجَلٌ مُّسْتَقَرٌّ وَمَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ عَاصِيٍّ مِمَّا يَكْفُرُ بِهِ إِذَا هَلَكَ قَلْبُهُ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مَنْ بَعْدَهُ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَبْتَلِيهِمْ وَيَجْعَلِي آلِي عِبَادًا أَتَّخِذُ مِنْكُمْ مَنَاسِكًا ۚ أَذُنُ غُرَّتِي بِرَبِّي وَأَخَذْتُ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ بِكَرْبٍ يَعْتَبِرُ ۗ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَمِينٌ وَآلٌ يَنْتَحِبُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقْوَمُ لَكُمْ الْيَوْمَ ظَهْرِي فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصُرْتَابًا مِنْ بَيْنِ أَيْدِي اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقْوَمُ إِلَيْنَا أَلْحَابًا يَوْمَ يُخْرَجُ الْخَرَابُ ﴿٣٠﴾ يَمْشِي دَابَّ قَوْمٍ تُوِّجَ وَكَادَ وَتَمَرَّدُ وَالَّذِينَ مِنْ بَدَاهِمُ مِمَّا نَتَّبِعُ ﴿٣١﴾ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣٢﴾ وَيَقْوَمُ إِلَيْنَا أَلْحَابًا يَوْمَ يُنَادِي السَّمَاءُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ تُقَالُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ بِضَلَالِهِ أَجَلٌ مُّسْتَقَرٌّ وَمَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ عَاصِيٍّ مِمَّا يَكْفُرُ بِهِ إِذَا هَلَكَ قَلْبُهُ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مَنْ بَعْدَهُ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَبْتَلِيهِمْ وَيَجْعَلِي آلِي عِبَادًا أَتَّخِذُ مِنْكُمْ مَنَاسِكًا ۚ أَذُنُ غُرَّتِي بِرَبِّي وَأَخَذْتُ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ بِكَرْبٍ يَعْتَبِرُ ۗ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَمِينٌ وَآلٌ يَنْتَحِبُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقْوَمُ لَكُمْ الْيَوْمَ ظَهْرِي فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصُرْتَابًا مِنْ بَيْنِ أَيْدِي اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقْوَمُ إِلَيْنَا أَلْحَابًا يَوْمَ يُخْرَجُ الْخَرَابُ ﴿٣٠﴾ يَمْشِي دَابَّ قَوْمٍ تُوِّجَ وَكَادَ وَتَمَرَّدُ وَالَّذِينَ مِنْ بَدَاهِمُ مِمَّا نَتَّبِعُ ﴿٣١﴾ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣٢﴾ وَيَقْوَمُ إِلَيْنَا أَلْحَابًا يَوْمَ يُنَادِي السَّمَاءُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ تُقَالُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ بِضَلَالِهِ أَجَلٌ مُّسْتَقَرٌّ وَمَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ عَاصِيٍّ مِمَّا يَكْفُرُ بِهِ إِذَا هَلَكَ قَلْبُهُ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مَنْ بَعْدَهُ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَبْتَلِيهِمْ وَيَجْعَلِي آلِي عِبَادًا أَتَّخِذُ مِنْكُمْ مَنَاسِكًا ۚ أَذُنُ غُرَّتِي بِرَبِّي وَأَخَذْتُ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ بِكَرْبٍ يَعْتَبِرُ ۗ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَمِينٌ وَآلٌ يَنْتَحِبُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقْوَمُ لَكُمْ الْيَوْمَ ظَهْرِي فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصُرْتَابًا مِنْ بَيْنِ أَيْدِي اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقْوَمُ إِلَيْنَا أَلْحَابًا يَوْمَ يُخْرَجُ الْخَرَابُ ﴿٣٠﴾ يَمْشِي دَابَّ قَوْمٍ تُوِّجَ وَكَادَ وَتَمَرَّدُ وَالَّذِينَ مِنْ بَدَاهِمُ مِمَّا نَتَّبِعُ ﴿٣١﴾ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣٢﴾ وَيَقْوَمُ إِلَيْنَا أَلْحَابًا يَوْمَ يُنَادِي السَّمَاءُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ تُقَالُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ بِضَلَالِهِ أَجَلٌ مُّسْتَقَرٌّ وَمَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ عَاصِيٍّ مِمَّا يَكْفُرُ بِهِ إِذَا هَلَكَ قَلْبُهُ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مَنْ بَعْدَهُ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَقْتُلُوا إِنْسَانَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ لأن يقول ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وهذا استفهام إنكار ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بما يدل على صدقه، ﴿وَإِنْ يَكُ كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي: لا يضركم ذلك ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ﴾

(١) في الأصل: جبرك، والتصحيح من كتب التفسير.

(٢) قال ابن كثير: المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون، قال: قال السدي: كان ابن عم فرعون، قال: ويقال: إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام، قال: واختاره ابن جرير وروى قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فرعون انتقل للكلام واستمعه وكثف عن قتل موسى ﷺ، قال: ولو كان إسرائيلياً لأرشد أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم.

يَعِدُّكُمْ ﴿٢٦﴾ من العذاب.. وفي «بعض» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بمعنى «كُلٌّ»، قاله أبو عبيدة، وأنشد للبيد:

تَرَاكَ أَنْ كَيْتَ إِذَا لَمْ أَرْضْهَا

أَوْ يَغْتَلِقُ بَعْضَ النُّفُوسِ حَمَاهَا ^(١)

أراد: كُلُّ النُّفُوسِ. والثاني: أنها صِلَةٌ؛ والمعنى: يُصِيبُكُمْ الذي يَعِدُّكُمْ، حُكِيَ عن الليث. والثالث: أنها على أصلها، ثم في ذلك قولان: أحدهما: أنه وعدمه النجاة إن آمنوا، والهلاك إن كفروا، فدخل وَكَّرَ البعض لأنهم على أحد الحالين. والثاني: أنه وعدمه على كفرهم الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، فصار هلاكهم في الدنيا بعض الوعد، ذكرهما الماوردي. قال الزجاج: هذا باب من النظر يذهب فيه المُناظِر إلى إلزام الحجة بأيسر ما في الأمر، وليس في هذا نفي إصابة الكلِّ، ومثله قول الشاعر:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ

وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْمُسْتَعْجِلِ الرَّؤْلُ ^(٢)

ولما ذكر البعض ليجب الكلِّ، لأن البعض من الكلِّ، ولكن القائل إذا قال: أقل ما يكون للمتأني إدارك بعض الحاجة، وأقل ما يكون للمستعجل الرُّل، فقد أبان فضل المتأني على المستعجل بما لا يُقدَّر الخصم أن يدفعه، فكان المؤمن قال لهم: أقلُّ ما يكون في صدقه أن يُصِيبَكُمْ بعض الذي يَعِدُّكُمْ، وفي بعض ذلك هلاككم؛ قال: وأما بيت لبيد، فإنه أراد ببعض النفوس: نفسه وحدها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْقَائِلِينَ بِاللَّذَاتِ﴾ أي: لا يوفق للصواب ﴿مَنْ هُوَ مُشْرِكٌ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه المشرك، قاله قتادة. والثاني: أنه السَّفَاك للدم، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿ظَلَمْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عالين في أرض مصر ﴿فَمَنْ يَضُرُّكُمْ﴾ أي: من يَمُنَعُنَا ﴿مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ أي: من عذابه؛ والمعنى: لا تتعرضوا للعذاب بالتكذيب وقتل النبي؛ فقال فرعون عند ذلك: ﴿مَا أُرِيكُمْ﴾ من الرأي والنصيحة ﴿إِلَّا مَا أُرِي﴾ لنفسه ﴿وَمَا آهِيكُمْ﴾ أي: أدعوكم إلا إلى طريق الهدى في تكذيب موسى والإيمان بي، وهذا يدلُّ على أنه انقطع عن جواب المؤمن. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَفْقَهُوا إِلَهَ آبَائِكُمْ بِمَثَلِ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ قال الزجاج: أي: بِمَثَلِ يَوْمِ حَرْبِ حِزْبٍ؛ والمعنى: أخاف أن تُقيموا على كفركم فينزل بكم من العذاب مثل ما نزل بالأمم المكذبة رسلاً ^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ النَّارِ﴾ قرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «التَّوَادِ» بغير ياء. وأثبت الباء في الوصل والوقف ابن كثير، ويعقوب، وافقهم أبو جعفر في الوصل. وقرأ أبو بكر الصديق، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وابن جبير، وأبو العالية، والضحاك: «التَّوَادِ» بتشديد الدال. قال الزجاج: أما إثبات الباء فهو الأصل، وحذفها حسن جميل، لأن الكسرة تدلُّ على الباء، وهو رأس آية، وأواخر هذه الآيات على الدال، ومن قرأ بالتشديد، فهو من قولهم: نَدَّ فلان، ونَدَّ البعير: إذا هرب على وجهه، ويدل على هذا قوله: ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ يَبُؤُا النَّاسُ زَفِيرًا مِنْ زَفِيرِهِمْ﴾ [ص: ٣٤]؛ قال أبو علي: معنى الكلام: إني أخاف عليكم عذاب يوم التَّوَادِ. قال الضحاك: إذا سمع من حيث جاؤوا. وقال غيره: يُؤَمَّرُ بهم إلى النار فيَقْرُونَ ولا عاصم لهم. فأما قراءة التخفيف، فهي من التَّوَادِ، وفيها للمفسرين أربعة أقوال: أحدها: أنه عند نفخة الفزع ينادي الناس بعضهم بعضاً، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يَأْمُرُ اللَّهُ ﷻ إِسْرَائِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى فيقول: انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَزَعِ، فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فتُسَيَّرُ

(١) البيت لبيد بن ربيعة العامري من معلقته، وهو في «ديوانه» ٣١٣، و«مجاز القرآن» ٢٠٥/٢، و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» ٥٧٣، و«مختار الشعر الجاهلي» ٣٩٤/٢، و«اللسان» بعض.

(٢) البيت للقطامي، وهو في «البحر المحيط»: ٤٦١/٧.

(٣) قال ابن كثير: هذا إخبار من الله ﷻ عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَفْقَهُوا إِلَهَ آبَائِكُمْ بِمَثَلِ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف جل بهم بأس الله وما رده عنهم راد، ولا صدق عنهم صاد ﴿وَمَا آهِيكُمْ﴾ أي: إنما أهلكنهم الله تعالى بنفوسهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فانفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿وَيَتَذَكَّرُ إِلَهُ أُولَئِكَ يَوْمَ تَكُونُ الْأَشْيَاءُ كَالْعِهْنِ﴾ يعني يوم القيامة. اهـ.

الجبال، وتُزجُّ الأرض، وتذلملُ المراضعُ، وتضع الحواملُ، ويولِّي الناس مُذبرين ينادي بعضهم بعضاً (وهو قوله: «يومَ التَّنَادِ»^(١)). والثاني: أنه نداء أهل الجنة والنار بعضهم بعضاً كما ذكر في [الأعراف: ٤٤، ٥٠]، وهذا قول قتادة. والثالث: أنه قولهم: يا حسرتنا! يا ويلتنا، قاله ابن جريج. والرابع: أنه ينادي فيه كلُّ أناس بإمامهم بسعادة السعداء وشقاة الأشقياء.

قوله تعالى: «يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُذْبِرِينَ» فيه قولان: أحدهما: هرباً من النار. والثاني: أنه انصرفهم إلى النار.

قوله تعالى: «مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ» أي: من مانع.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ» وهو يوسف بن يعقوب، ويقال: إنه ليس به، وليس بشيء.

قوله تعالى: «مِنْ قَبْلِ» أي: مِنْ قَبْلِ موسى «بِالْبَيِّنَاتِ» وهي الدلالات على التوحيد، كقوله: «مَأْتِيَكَ مَتَفَرِّقُونَ حَيْرًا...» الآية [يوسف: ٣٩]، وقال ابن السائب: البيِّنات: تعبير الرؤيا وشقُّ القميص، وقيل: بل بعثه الله تعالى بعد موت ملك مصر إلى القبط.

قوله تعالى: «فَأَرْزَأْتُمْ فِي سَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ» أي: من عبادة الله وحده «حَقَّ إِذَا هَلَكَ» أي: مات «فَلْتَرَنَّ يَيْسَكُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا» أي: إنكم أقمتهم على كفرهم وظننتم أن الله لا يجدد لإيجاب الحجية عليكم «كَذَلِكَ» أي: ومثل هذا الضلال «يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ» أي: مُشْرِكٌ «مُرْتَابٌ» أي: شاكٌّ في التوحيد وصدق الرُّسل^(٢).

«الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ» كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطَّلِعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ وَقَرْنٌ يَهْتَكِرُنَّ آيِنِ لِي مَرَمًا لَعَلَّيْ أَتْلُعُ الْأَسْتَبَّ ﴿٦٠﴾ أَسْتَبَّ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَهُ إِلَهُهُ مَوْحِنٌ وَإِنِّي لَأَكْفُرُهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ رَزَقَ لِيَزْعَمُونَ سُوءَ عَمَلِهِمْ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ» قال الزجاج: هذا تفسير المسرف المرتاب، والمعنى هُم الذين يجادلون في آيات الله. قال المفسرون: يجادلون في إبطالها والتكذيب بها بغير سلطان، أي: بغير حُجَّةٍ أتتهم من الله. «كَبُرَ مَقْتًا» أي: كَبُرَ جَدَاهُمْ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا، والمعنى: يَمَقْتُهُمُ اللَّهُ وَيَمَقْتُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ الجِدَالِ. «كَذَلِكَ» أي: كما طَلِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ حَتَّى كَذَّبُوا وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ، يَطَّلِعُ «عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ» عَن عِبَادَةِ اللَّهِ وتوحيده. وقد سبق بيان معنى الجَبَّارِ في [هود: ٥٩]. وقرأ أبو عمرو: «على كلِّ قلبٍ» بالتونين، وغيره من القراء السبعة يُضيفه. وقال أبو علي: المعنى: يطبع على جملة القلب من المتكبر. واختار قراءة الإضافة الزجاج، قال: لأن المتكبر هو الإنسان، لا القلب. فإن قيل: لو كانت هذه القراءة أصوب لتقدم القلب على الكلِّ؟ فالجواب: أن هذا جائز عند العرب، قال الفراء: تقدم هذا وتأخره واحد، سمعتُ بعض العرب يقول: هو يَرَجُلُ شعره يومَ كلِّ جمعة، يريد: كلَّ

(١) هذا جزء من حديث الصور الطويل، وقد ذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» - عند قوله تعالى: «يَوْمَ يَخْفَى فِي الْكُفْرِ» من سورة [الأنعام: ٧٣] - بطوله من رواية الحافظ أبي القاسم الطبراني في كتابه «المطولات» ثم نقل عن الطبراني قوله عقب الحديث: هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعظه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمفهم من وقته، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمرو بن علي الفلامس، ومنهم من قال فيه: هو متروك، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر، إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء، قال ابن كثير: قلت: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه فغريب جداً، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياًقاً واحداً فأنكر عليه بسبب ذلك، ثم قال ابن كثير: وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفًا قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، فإله أعلم. اهـ. والحديث أورده السيوطي في [الدرر: ٥/٣٣٩ - ٣٤٢] بطوله، وزاد نسبه لعبد بن حميد، وعلي بن سعيد في كتاب «الطاعة والمعصيان»، وأبي يعلى، وأبي الحسن الطغان في «المطولات»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي موسى المدني في «المطولات»، وأبي الشيخ في «العظمة»، والبيهقي في «البعث والنشور» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تبارك وتعالى: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ» يعني أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام، كان عزيز أهل مصر وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي، ولهذا قال تعالى: «فَأَرْزَأْتُمْ فِي سَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقَّ إِذَا هَلَكَ قَلْتُمْ أَنَّكُمْ تَبْعُونَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا» أي: يستم فقلتم طامعين: «نَنْ يَيْسَكُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا» وذلك لكفرهم وتكذيبهم «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ» أي: كحالكم هذا يكون حال من يضل الله لإسرافه في أفعاله وارتباب قلبه.

يوم الجمعة، والمعنى واحد. وقد قرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني: «على قلب كل متكبر» بتقديم القلب. قال المفسرون: فلما وعظ المؤمنُ فرعونَ وزجره عن قتل موسى، قال فرعونُ لوزيره: «يَهْتَكُنْ آيَاتِي صَرَخًا» وقد ذكرناه في [القصص: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أبلغُ الْأَسْبَبَ أَسْبَبَ السَّمَكِ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعني أبوابها. وقال أبو صالح: طرقها. وقال غيره: المعنى: لعلي أبلغُ الطَّرُقَ من سماءٍ إلى سماءٍ. وقال الزجاج: لعلي أبلغ ما يؤدني إلى السموات. وما بعد هذا مفسرٌ في [القصص: ٣٨] (١) إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ما وصفنا ﴿رَبِّ لِيَرْعُونَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ﴾ عن سبيل الهدى. قرأ عاصم، وحزمة والكسائي: ﴿وَصَدَّ﴾ بضم الصاد، والباقون بفتحها، ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ في إبطال آيات موسى ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: في بطلان وخسران.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقْتُلُوا أَنفُسَهُمْ سَبِيلَ الرَّسَادِ﴾ (٣٨) يَقْتُلُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا فِيهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّا دَكَرَ أَوْ أَنْفُوهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

ثم عاد الكلام إلى نصيحة المؤمن لقرومه، وهو قوله: ﴿أَتَيْعُونَ آهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّسَادِ﴾ أي: طريق الهدى، ﴿يَقْتُلُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ﴾ يعني الحياة في هذه الدار متاع يتمتع بها أياماً ثم تنقطع ﴿وَالَّذِينَ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ التي لا زوال لها (٣٩). ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الشرك، ومثلها جهنم، قاله الأكثرون. والثاني: المعاصي، ومثلها: العقوبة بمقدارها، قاله أبو سليمان الدمشقي. فعلى الأول، العمل الصالح: التوحيد، وعلى الثاني هو [على] الإطلاق.

قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿يُدْخَلُونَ﴾ بضم الياء. وقرأ نافع، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: بالفتح، وعن عاصم كالقراءتين. وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قولان: أحدهما: أنهم لا تبعه عليهم فيما يُعطون في الجنة، قاله مقاتل. والثاني: أنه يُصَبُّ عليهم الرُّزْقُ صبًّا بغير تقدير، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿وَيَقْتُلُوا مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحَيَوةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ﴾ (٤٠) تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّوْبَةِ إِلَى التَّوْبَةِ (٤١) لَا جَرَمَ لَنَا تَدْعُونِي إِلَى لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٢) فَتَذَكَّرُونَ مَا أَوَّلَ لَكُمْ وَأَفْرُسُ أَمْرَةٍ إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْإِسْكَادِ (٤٣) فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَمَا يَكْفُرُونَ سَوْءَ الْمَذَابِ (٤٤) أَنَاذُ بِرَضْوَتِ عَظْمِيَا عُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٥)

قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُوا مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحَيَوةِ﴾ أي: مالكم، كما تقول: مالي أراك حزينا، معناه: مالك، ومعنى الآية: أخبروني كيف هذه الحال، أدعوكم ﴿إِلَى الْحَيَوةِ﴾ من النار بالإيمان، ﴿وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ﴾ أي: إلى الشرك الذي يوجب النار! ثم فسّر الدُعوتَين بما بعد هذا. ومعنى ﴿لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا أعلم هذا الذي ادّعوه شريكا له. وقد سبق بيان ما بعد هذا [البقرة: ١٢٠، ط: ٨٢] إلى قوله: ﴿لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ﴾ وفيه قولان: أحدهما: ليس له استجابة دعوة، قاله السدي. والثاني: ليس له شفاعة، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مرّجعتنا؛ والمعنى أنه يجازينا بأعمالنا. وفي المُسْرِفِينَ قولان قد ذكرناهما عند قوله: ﴿مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ [غافر: ٤٢٨].

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعذره وتمرده وإفترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً - وهو القصر العالي المنيف الشاهق - وكان اتخاذه من الأجر المضروب من الطين المشوي، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ طِينًا لِيَكْتُمَ لِي صَرَخًا﴾.

(٢) قال ابن كثير: يقول المؤمن لقرومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ونسى الجبار الأعلى فقال لهم: ﴿يَقْتُلُوا أَنفُسَهُمْ سَبِيلَ الرَّسَادِ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَا آفِيئِكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّسَادِ﴾ ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى وصدّتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿يَقْتُلُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ﴾ أي: قليلة زائلة فانية، عن قريب تذهب وتضمحل ﴿وَالَّذِينَ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل، إما نعيم، وإما جحيم. اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَسْتَذَكِّرُونَ مِمَّا قَدَّمْنَا لَكُمْ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، وأبو عمران الجوني، وأبو جهم: «فستذكرون» بفتح الذال وتخفيفها وتشديد الكاف وفتحها؛ وقرأ أبي بن كعب، وأيوب السخنياني: بفتح الذال والكاف وتشديدهما جميعاً. أي: إذا نزل العذاب بكم، ما أقول لكم في الدنيا من النصيحة؟! ﴿وَأَنْزِلُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أُرْزِئُهُ^(١)، وذلك أنهم تواعدوه لمخالفتي دينهم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْمَكِيدِ﴾ أي: بأوليائه وأعدائه. ثم خرج المؤمن عنهم، فطلبوه فلم يقدروا عليه، ونجا مع موسى لما عبر البحر، فذلك قوله: ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ أي: ما أرادوا به من الشرِّ ﴿وَصَاقٍ يَبَالٍ فِرْعَوْنَ﴾ لما لجوا في البحر ﴿سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ قال المفسرون: هو الفرق^(٢).

قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾^(٣) قال ابن مسعود وابن عباس: إن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يُعْرَضُونَ على النار كُلَّ يوم مرتين فيقال: يا آل فرعون هذه داركم. وروى ابن جرير قال: حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير، قال: حدثنا حماد بن محمد البلخي قال: سمعت الأوزاعي، وسأله رجل، فقال: رأينا طيوراً^(٤) تخرج من البحر فتأخذ ناحية الغرب بيضاً، فزجاً فزجاً، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشي رجع مثلها سوداً، قال: وقطتكم إلى ذلك؟ قال: نعم، قال: إن تلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون يُعْرَضُونَ على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت ريشها وصارت سواده، فينبئ عليها من الليل ريشا بيض، وتتناثر السود، ثم تغدو ويعرضون^(٥).

(١) قال ابن جرير: يقول تعالى يذكر مخرّباً عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وقومه: فستذكرون أيها القوم - إذا عاينتم عقاب الله قد حلّ بكم، ولقيتم ما لقيتموه - صدق ما أقول، وحقية ما أخبركم به من أن المسرفين هم أصحاب النار، ثم قال: وقوله: ﴿وَأَنْزِلُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ يقول: وأسلم أمري إلى الله وأجمله إليه واتوكل عليه فإنه الكافي من توكل عليه. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: ﴿وَصَاقٍ يَبَالٍ فِرْعَوْنَ سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ وهو الفرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ نَقُومُ السَّكَّةَ أَهْلًا مَالٍ وَنَعْرَكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: أشدّ ألماً، وأعظمه تكالفاً.

(٣) قال ابن كثير: وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ قال: ولكن هنا سؤال، وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ، وقد قال الامام أحمد: ثنا هاشم - هو ابن القاسم أبو النصر - ثنا إسحاق بن سعيد - هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص - ثنا سعيد - يعني أباه - عن عائشة رضي الله عنها أن اليهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقال الله عذاب القبر، قالت عائشة رضي الله عنها: فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ فقلت: يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال صلى الله عليه وسلم: «لا»، من زعم ذلك؟ قالت: هذه اليهودية لا أضنع معها شيئاً من المعروف إلا قالت: وقال الله عذاب القبر، قال صلى الله عليه وسلم: «كذب يهودية، وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة» ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه محمراً عينا وهو ينادي بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم، أيها الناس لو تعلمون ما أحلم بكمين كثيراً وضحكتم قليلاً، أيها الناس استعملوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق» قال: وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم، ولم يخرجاه، قال: وروى أحمد ومسلم: ثنا يزيد، ثنا سفيان، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: وقال الله من عذاب القبر، فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك، فلما رأت النبي صلى الله عليه وسلم قالت له، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا»، قالت عائشة رضي الله عنها: ثم قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك: «إني أوحى إليّ أنكم تشفون في قبوركم» قال: وهذا أيضاً على شرطهما. قال: فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ؟ قال: والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الأثني ذكرها. قال: وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بنبذ، قال: وما يدل على ذلك ما رواه الامام أحمد: ثنا عثمان بن عمر، ثنا يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها وهدنها امرأة من اليهود وهي تقول: أشعرت أنكم تشفون في قبوركم؟ فارتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «إنما يفتن يهود» قالت عائشة رضي الله عنها: فلبينا ليالي، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشعرت أنه أوحى إليّ أنكم تشفون في القبور؟» وقالت عائشة رضي الله عنها: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد يستدعي من عذاب القبر، قال: وهكذا رواه مسلم عن هارون بن سعيد، وحرملة، كلاهما عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري به. قال: وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ، قال: ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها، فلما أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك بخصوصه، استعاذ منه، والله سبحانه وتعالى أعلم. قال: وقد روى البخاري من حديث شعبة عن أشعث عن ابن أبي الشعثاء عن أبيه عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت: نمؤذ بالله من عذاب القبر، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر، فقال صلى الله عليه وسلم: «نعم عذاب القبر حق» قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلى صلاة إلا نمؤذ من عذاب القبر. قال ابن كثير: فهذا يدل على أنه بادر صلى الله عليه وسلم إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر، وقَرَّز عليه، قال: وفي الأخبار المتقدمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي، قال: فلعلهما قضيتان، والله سبحانه أعلم، قال: وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً.

(٤) في الأصل: «طيراً» وانتصوب من «الطيري».

(٥) في الأصل: «طيراً» وانتصوب من «الطيري».

على النار غدوًا وعشيًا، ثم ترجع إلى وكورها^(١)، فذلك دأبها^(٢) في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله ﷻ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾. وقد روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷻ: «إِنْ أَحَدَكُمْ إِذْ مَاتَ حُرِّضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْفِدَاءِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ [أَهْلِ] الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ [أَهْلِ] النَّارِ»، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة^(٣). وهذه الآية تدل على عذاب القبر، لأنه بين ما لهم في الآخرة فقال: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَذْخِلُوا﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، [وأبو عمرو]، وأبو بكر وأبان عن عاصم: «الساعة اذخلوا» بالضم وضم الخاء على معنى الأمر لهم بالدخول، والابتداء على قراءة هؤلاء بضم الألف. وقرأ الباقر: بالقطع مع كسر الخاء على جهة الأمر للملائكة بإدخالهم، وهؤلاء يبتدئون بفتح الألف.

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ قِيَعًا يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِمَّا نَسَّرْنَا لَكَ الْذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْوَسَاةِ ﴿١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُحْثِفْ عَلَيْكُمْ يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿١٧﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاؤُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الۡاَشۡهَادُ ﴿١٩﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعٰذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ الْعَذَابُ الۡعَظِيمُ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ﴾ المعنى: واذكر لقومك يا محمد إذ يختصرون، يعني أهل النار، والآية مفسرة في [سورة] [إبراهيم: ٢١]، والذين استكبروا هم القادة. ومعنى ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: نحن وأنتم، ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْوَسَاةِ﴾ أي: قضى هذا علينا وعليكم^(٥). ومعنى قول الخازنة لهم: ﴿فَادْعُوا﴾ أي: نحن لا ندعو لكم ﴿وَمَا دَعَاؤُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ أي: إن ذلك يبطل ولا ينفع^(٦). ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن ذلك يثبت حججهم. والثاني: بإهلاك عدوهم. والثالث: بأن العاقبة تكون لهم. وفصل الخطاب: أن نصرهم حاصل لا بد منه، فتارة يكون بإعلاء أمرهم كما أعطى داود وسليمان من المملك ما قهر به كل كافر، وأظهر محمداً ﷺ على مكذبيه، وتارة يكون بالانتقام من مكذبيهم بإنهاء الرسل وإهلاك أعدائهم، كما فعل بنوح وقومه وموسى وقومه، وتارة يكون بالانتقام من مكذبيهم بعد وفاة الرسل، كسليطه يختصر على قيلة يحيى بن زكريا. وأما نصرهم يوم يقوم الأشهاد، فإن الله منجيهم من العذاب، وواحد الأشهاد شاهد، كما أن واحد الأصحاب صاحب. وفي الأشهاد ثلاثة أقوال: أحدها: الملائكة، شهدوا للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالكذب، قال مجاهد، والسدي. قال مقاتل: وهم الحفظة من الملائكة. والثاني: الملائكة والأنبياء، قاله قتادة. والثالث: أنهم أربعة: الأنبياء والملائكة والمؤمنون والجوارح، قاله ابن زيد^(٧).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿تَنْفَعُ﴾ بالياء، والباقرن بالياء؛ لأن المعذرة والاعتذار بمعنى. ﴿الظَّٰلِمِينَ مَعٰذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا يُقبلُ منهم إن اعتذروا ﴿وَلَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: البعد من الرحمة. وقد بينا في [الرد: ٢٥] أن «لهم» بمعنى «عليهم»، و«سورة الدار»: النار.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَزَلْنَا بِقَوْمِ إِسْرٰوِيلَ الْكِبٰتَ ﴿٢١﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢٢﴾ فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَقْبَرْنَا لِذٰلِكَ وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٢٣﴾﴾

(٢) في الأصل: «دأبهم» والتصويب من «الطبري».

(١) زيادة من «الطبري».

(٤) رواه البخاري ١٩٣/٣، ومسلم ٢١٩٩/٤.

(٣) زيادة من «البخاري» ومسلم.

(٥) قال ابن جرير الطبري ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْوَسَاةِ﴾ بفصل قضائه، فأسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فلا نحن مما نحن فيه من البلاء خارجون، ولا هم مما فيه من النعيم متقلون. اهـ.

(٦) قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَمَا دَعَاؤُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ يقول: قد دعوا، وما دعاؤهم إلا في ضلال، لأنه دعاء لا يفهم ولا يستجاب لهم، بل يقال لهم: اخشوا فيها ولا تكلمون. اهـ. وقال ابن كثير: ﴿وَمَا دَعَاؤُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب. اهـ.

(٧) قال ابن كثير: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الۡاَشۡهَادُ﴾ أي: يوم القيامة تكون النصرمة أعظم وأكبر وأجل. اهـ.

صُدُّوهُمْ إِلَّا كَثْرًا مَّا هُمْ بِيَلْبِئِهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّكِينُ الْمَمِيذُ ﴿٥٦﴾ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْثَرَ مِنْ خَلْقِ
 النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا النُّسِيُّ لَيْسَ مَا
 تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ
 الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادِي سَدَحُوا جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْبَيْتَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ
 اللَّهَ لَدُوٌّ فَضِيحٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا
 تَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَابَعُوا اللَّهَ بِعَدْوَانِهِمْ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
 وَسَوَّاهُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَفَعَكُمْ مِنَ الطُّبْحِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أُعْبِدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنَا جَاهٌ فِي
 الْبَيْتِ مِنْ رَبِّي وَأَمَرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ مِّنْ نَّفْسٍ مِّنْ لَّدُنِّي مِمَّا بَخْرَجَكُمْ مِنْ بطنِ امْرَأَةٍ
 لِيَتَّبِعُوا أُمَّتَكُمْ ثُمَّ أَدْبَرُوا وَشِبْهًا مِنْكُمْ مَنْ يُؤْفَى مِنْ قَبْلِ رَبِّلَهُمْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي
 وَيُمِيتُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ من الضلالة، يعني التوراة ﴿وَأَوْزَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ بعد موسى، وهو التوراة
 أيضاً في قول الأكثرين؛ وقال ابن السائب: التوراة والإنجيل والزبور. والدُّكْرَى بمعنى التكدير. ﴿فَأَصْبِرْ﴾ على أذاهم
 ﴿إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ في نصرتك، وهذه الآية في هذه السورة في موضعين [غانر: ٥٥، ٧٧]، وقد ذكروا أنها منسوخة بآية
 السيف^(١). ومعنى «سَبَّحَ»: صَلَّى. وفي المراد بصلاة العشي والإيكار ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الصلوات الخمس، قاله
 ابن عباس. والثاني: صلاة الغداة وصلاة العصر، قاله قتادة. والثالث: أنها صلاة كانت قبل أن تُفرض الصلوات،
 ركعتان عُذْوَةٌ، وركعتان عَشِيَّةٌ، قاله الحسن. وما بعد هذا قد تقدم آنفاً [المومن: ٥] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا
 كَثِيرٌ...﴾ الآية نزلت في قريش^(٢)؛ والمعنى: ما يُخَوِّلُهُمْ على تكذيبك إلا ما في صدورهم من التكبر عليك، وما
 هم بيالغي مقتضى ذلك الكبر، لأن الله تعالى مُذِلُّهُمْ، ﴿فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شرهم؛ ثم نبه على قدرته بقوله: ﴿لَخَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْثَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ أي: من إعادتهم، وذلك لكثرة أجزائها وعِظَمِ جِزْمِهَا^(٣)، فنبههم على قدرته
 على إعادة الخلق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني الكفار حين لا يستدلون بذلك على التوحيد. وقال مقاتل:
 عظمت اليهود الدجال وقالوا: إن صاحبنا يُبعث في آخر الزمان وله سلطان، فقال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ
 اللَّهِ﴾ لأن الدجال من آياته، ﴿يَتَّبِعِ سُلْطَنًا﴾ أي: [بغير] حجة، فاستعذ بالله من فتنة الدجال. قال: والمراد بـ«خَلَقَ
 النَّاسَ»: الدجال؛ وإلى نحو هذا ذهب أبو العالية، والأول أصح^(٤). وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ
 لَكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: وحُدوني وعبُدوني أيُنكم، قاله ابن عباس. والثاني: سلوني أعظكم، قاله السدي^(٥). ﴿إِنَّ

(١) قال ابن كثير: ﴿تَنْبِرٌ﴾ أي: يا محمد ﴿إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: وعدناك أنا سألني كلمتك ونجعل العاقبة لك ولن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد، قال: وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك. اهـ.

(٢) قال البغوي: قال أهل التفسير: نزلت في اليهود، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: إن صاحبنا المسيح ابن داود - يعنون الدجال - يخرج في آخر الزمان فيبعث سلطانه البر والبحر ويرة الملك إينا، قال الله تعالى: ﴿فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من فتنة الدجال ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّيِّئُ الْمَعْبُودُ﴾. اهـ. قال السيوبي في «الدر» ٥/ ٣٥٣: أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية ﷺ قال: إن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: إن الدجال يكون منا في آخر الزمان، ويكون من أمره، فعظموا أمره وقالوا: يصنع كذا، فانزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقْتَرِبُونَ أَتْنَهُمْ مِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كَثِيرًا مَّا هُمْ بِيَلْبِئِهِ﴾ قال: لا يبلغ الذي يقول، ﴿فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فأمر نبيه ﷺ أن يتعوذ من فتنة الدجال ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْثَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾. اهـ. قال ابن كثير: وقال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية في اليهود ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقْتَرِبُونَ أَتْنَهُمْ مِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كَثِيرًا مَّا هُمْ بِيَلْبِئِهِ﴾ قال أبو العالية: وذلك أنهم ادَّعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ أمر أن يستعذ من فتنة الدجال، ولهذا قال ﷺ: ﴿فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّيِّئُ الْمَعْبُودُ﴾ قال ابن كثير: وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه، والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ. ولذلك قال المصنف: نزلت في قريش، وسيذكر بعد قليل عن مقاتل أنها نزلت في اليهود، قال: وإلى نحو هذا ذهب أبو العالية، ثم قال: والأول أصح، يعني أنها نزلت في قريش، والله أعلم.

(٣) الجزم: بالكسر: الجسد، والجمع أجرام، مثل جِئْمٍ وأحمال. (٤) وهو أنها نزلت في قريش.

(٥) قال ابن كثير: هذا من فضله - تبارك وتعالى - وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا من أحب عباده =

الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴿١﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: عَنِ تَوْحِيدِي، وَالثَّانِي: عَنِ دَعَائِي وَمَسَالَتِي ﴿سَيَذَخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ (١) قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنِ عَاصِمٍ، وَعَبَّاسُ بْنُ الْفَضْلِ (٢) عَنِ أَبِي عَمْرٍو: «سَيُذَخَلُونَ» [بِضْمِ الْيَاءِ]، وَالْبَاقُونَ بَفَتْحِهَا. وَالذَّآخِرُ: الضَّآغِرُ. وَمَا بَعْدَ هَذَا قَدْ سَبِقَ فِي مَوَاضِعٍ مُتَفَرِّقَةٍ [بِوَسْنِ: ٦٧، الْقِصَصِ: ٧٣، الْأَنْعَامِ: ٩٥، النَّمْلِ: ٦١، الْأَعْرَافِ: ٥٤، ٢٩، الْحَجِّ: ٤٥] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَيَبْلَغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ وَهُوَ أَجَلُ الْحَيَاةِ إِلَى الْمَوْتِ ﴿وَلَمَّا لَكُم مَّوْعِلُونَ﴾ تَوْحِيدَ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصْرَفُونَ﴾ (١) الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا سَفَوتًا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَهْتِفِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٣﴾ فِي التَّلْبِيحِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ آيَاتُ مَا كُنتُمْ تُشْكِرُونَ ﴿٥﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلَاةٌ عَلَانًا لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧﴾ أَذْخَلُوا أَنْبِيَاءَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَمَنْ مَتَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٨﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ كَمَا كَانَتْ تُرِيكَتُ بَعْضَ الَّذِينَ قَدَّمْنَا أَوْ تَوَقَّيْتُكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٩﴾ وَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ فَأَمْرٌ بِالْحَقِّ وَخَبَرَ هَذَاكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَلَيْسَ لَهَا عَلَيْهَا حَاجَةٌ فِي صُدُورِكُمْ وَعَظْمِهَا وَكُلِ الْفَالِكِ تَحْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَرَبِّكُمْ آيَاتِيهِ. فَأَمَّا آيَاتُ اللَّهِ فَشُكْرُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ يَوْمًا فِي الْأَرْضِ يُنظَرُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَصَافَكُ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِمْ يُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّثُوا وَكَذَّبْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِنِعْمَتِهِمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَبَرَ هَذَاكَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، يَقُولُونَ: لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ﴿أَنَّهُمْ يُصْرَفُونَ﴾ أَي: كَيْفَ صُرِفُوا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ؟! وَفِيهِمْ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ الْقَدْرِيَّةُ، ذَكَرَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ. وَكَانَ ابْنُ سِيرِينَ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تَكُنْ نَزَلَتْ فِي الْقَدْرِيَّةِ فَلَا أُدْرِي فِيمَنْ نَزَلَتْ (٣). وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو رَزِينٍ، وَأَبُو مَجَلَزٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ يَعْمَرَ، وَابْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ: «وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ» بِفَتْحِ اللَّامِ وَالْيَاءِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِذَا سَحَبُوهَا كَانَ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ.

قوله تعالى: ﴿يُسْجَرُونَ﴾ قال مجاهد: توقد بهم النار فصاروا وقودها.

قوله تعالى: ﴿آيَاتُ مَا كُنتُمْ تُشْكِرُونَ﴾ مفسر في [الأعراف: ٤١٩٠]. وفي قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ قولان: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ الْأَصْنَامَ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا، لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُضَرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ قَالُوهُ عَلَى وَجْهِ الْجُحُودِ، قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّمَشْقِيُّ، «كَذَلِكَ» أَي: كَمَا أَضَلَّ اللَّهُ هَؤُلَاءِ يُضِلُّ الْكَافِرِينَ. «وَالَّذِينَ كُنتُمْ تُشْكِرُونَ» الَّذِي نَزَلَ بِكُمْ «بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» أَي: بِالْبَاطِلِ «وَمِمَّا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ» وَقَدْ شَرَحْنَا الْمَرَحَ فِي ابْنِي إِسْرَائِيلَ: [٣٧]. وَمَا بَعْدَ هَذَا قَدْ تَقَدَّمَ بِتَمَامِهِ [النحل: ٢٩، يونس: ١٠٩، النساء: ١٦٤] إِلَى قَوْلِهِ: «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِ الْآيَاتِ «فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ» وَهُوَ قَضَاؤُهُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَأُمَّمِهِمْ، وَ«الْمُبْطِلُونَ»: أَصْحَابُ الْبَاطِلِ.

إليه من سأله فأكثر سؤاله، وبما من أبعث عباده إليه من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يا رب، رواه ابن أبي حاتم، قال: وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

الله يفضي إن تركت سؤاله

ويضي آدم حين يسأل يفضي

(١) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» ٢٧١/٤ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثُمَّ قَرَأَ: «أَدْعُوهُ اسْتَجِبَ لَكُمْ إِنْ أَلَيْكَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَذَخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَلِكُمْ» وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ كَمَا قَالَ. وَالحَدِيثُ ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الدُّرِّ» ٣٥٥/٥، وَزَادَ نِسْبَةَ لِسَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَبْدُ بْنُ حَبَانَ، وَالبَخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ» وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالتُّبْرَانِيُّ، وَابْنُ حَبَانَ، وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْدُودٍ، وَابْنُ نَجِيمٍ فِي «الْحَلِيقَةِ»، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه.

(٢) قَالَ ابْنُ الْجَزَرِيِّ فِي «طَبَقَاتِ الْقُرَّاءِ»: الْعَبَّاسُ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَمِيدِ بْنِ الْفَضْلِ بْنِ حَنْظَلَةَ أَبُو الْفَضْلِ الْوَاقِفِيُّ الْأَنْصَارِيُّ الْبَصْرِيُّ، قَاضِي الْمَوْصَلِ، أَسَاطِدُ حَافِظٌ ثَقَّةٌ، قَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْعَلَاءِ: وَكَانَ مِنْ أَكْبَارِ أَصْحَابِ أَبِي عَمْرٍو فِي الْقِرَاءَةِ.

(٣) «الطبري» ٨٣/٢٤ من رواية سفيان عن داود بن أبي هند عن محمد بن سيرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَبَأُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِهِمْ﴾ أي: حوائجكم في البلاد^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَغْنَىٰ عَنْهُمْ اللَّهُ تَنَكُّرُونَ﴾ استفهام توبيخ^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ في «ما» قولان: أحدهما: أنها للنفي. والثاني: [أنها] للاستفهام، ذكرهما ابن جرير^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: [أنهم] الأمم المكذبة، قاله الجمهور؛ ثم في معنى الكلام قولان. أحدهما: أنهم قالوا: نحن أعلم منهم لن نُبْعَثَ ولن نُحَاسَبَ، قاله مجاهد. والثاني: فرحوا بما كان عندهم أنه عِلْمٌ^(٤)، قاله السدي. والقول الثاني: أنهم الرُّسُلُ؛ والمعنى: فرح الرُّسُلُ لما هلك المكذَّبون ونَجَّوْا بما عندهم من العِلْمِ بالله إذ جاء تصديقُه، حكاه أبو سليمان وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَوَاقٍ بِهِمْ﴾ يعني بالمكذِّبين العذاب الذي كانوا به يستهزؤون^(٥). والبأس: العذاب. ومعنى ﴿سَكَتَ اللَّهُ﴾: أنه سَنَّ هذه السُّنَّةَ في الأمم، أي: أن إيمانهم لا ينفعهم إذا رأوا العذاب، ﴿وَوَسَّيْرَ هَؤُلَاءِ الْكٰفِرُونَ﴾. فإن قيل: كأنهم لم يكونوا خاسرين قبل ذلك؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن «خسر» بمعنى «هلك»، قاله ابن عباس. والثاني: أنه إنما بَيَّنَّ لهم عُصْرَانَهُمْ عند نزول العذاب، قاله الزجاج.



(١) قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَلَسَبَأُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِهِمْ﴾ يقول: ولتبلغوا بالعمولة على بعضها - وذلك الإبل - حاجة في صدوركم لم تكونوا بالغيها لولا هي إلا بشق لأنفس، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَتَحْسِبُ أَنْفُسَكُمْ أَنْ تَكُونُوا بَدِيبًا إِلَّا يَشِقُّ الْأَكْثَرُونَ﴾. اهـ.

(٢) قال ابن جرير: يقول: فأغنى عنهم ذلك شيئاً، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله، قال: وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم، واستغفروا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

(٣) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر وماذا حلَّ بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال، قال: فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله، قال: وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم، واستغفروا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

(٤) الذي في «الطبري» وابن كثير: عن السدي: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بهيئتهم.

(٥) قال ابن كثير: ﴿وَوَاقٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه. ثم قال في تلميح الآية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا بِاللَّهِ وَرَسُولَهُ كَسَبُوا بِيَعْلَانًا﴾ أي: وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقال العثرات ولا تنفع المعذرة، قال: ولهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿مَا كُنْتُ أَتَىٰ لَكَ إِلَهَ إِلَّا الْآلِهَةُ مِثْلِي وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَقَدَّ عَصَيْتَ نَبَلًا وَرَكِبْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ (١١) أي: فلم يقبل الله منه، لأنه قد استجاب لنية موسى عليه الصلاة والسلام دعاه عليه حين قال: ﴿وَأَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ نَارُ جَهَنَّمَ خَيْرٌ لِّمِثْلِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: وهكذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَكَتَ اللَّهُ الْكٰفِرُونَ﴾ أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معارضة العذاب أنه لا يقبل، قال: ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغره» أي: فإذا غرغره وبلغت الروح الحجرية وعابن الملك، فلا توبة حينئذ، قال: ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَسَّيْرَ هَؤُلَاءِ الْكٰفِرُونَ﴾. اهـ.

سورة السجدة

مَكِّيَّة [كُلُّهَا] ياجماعهم، ويقال لها: سجدة المؤمن، ويقال لها: المصابيح^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَدِّثْ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كُنْتُ نُصَلِّتُ مَا بَيْنَهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ نَبِيًّا وَكَذِبًا فَاعْرِضْ أَعْيُنَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُوكَ إِنَّا كُنَّا قَوْمًا كَافِرِينَ ﴿٤﴾ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلِّمٌ يُوحِي إِلَىٰ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَهُ رَبِّكُمْ فَاسْتَجِيبُوا لِي وَلِأَسْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرٌ مَمْنُونٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ قال الفراء: يجوز أن يرتفع «تنزيل»، بـ ﴿حَدِّثْ﴾، ويجوز أن يرتفع بإضمار «هذا». وقال الزجاج: «تنزيل» مبتدأ، وخبره، ﴿كُنْتُ نُصَلِّتُ مَا بَيْنَهُمْ﴾، هذا مذهب البصريين. و﴿قُرْآنًا﴾ منصوب على الحال، المعنى: يَبَيِّنُ آيَاتُهُ فِي حَالِ جَمْعِهِ، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لِمَنْ يَعْلَمُ.

قوله تعالى: ﴿فَاعْرِضْ أَعْيُنَهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ تكبراً عنه، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ﴾ أي: في أغلبية فلا نفقه قولك. وقد سبق بيان «الأكثرة» و«الوقر» في [الانعام: ٢٥]. ومعنى الكلام: إِنَّا فِي تَرْكِ الْقَبُولِ مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَفْهَمُ، ﴿وَمِنَ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ أي: حاجزٌ في التُّحُلَّةِ وَالذِّبْنِ. قال الأخفش: و«من» هاهنا للتوكيد. قوله تعالى: ﴿فَاعْمَلْ﴾ فيه قولان: أحدهما: اعمل في إبطال أمرنا إنا عاملون على إبطال أمرك. والثاني: اعمل على وبنك إنا عاملون على ديننا. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلِّمٌ﴾ أي: لولا الوحي لَمَا دَعَوْتُكُمْ. ﴿فَاسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ، واستغفروه من الشرك^(٢).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: لا يشهدون أن «لا إله إلا الله»، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، والمعنى: لا يظهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد. والثاني: لا يؤمنون بالزكاة ولا يُؤْتُونَ بها، قاله الحسن، وقتادة. والثالث: لا يزكُّون أعمالهم، قاله مجاهد، والربيع. والرابع: لا يتصدقون، ولا يُنْفِقُونَ فِي الطَّاعَاتِ، قاله الضحاك، ومقاتل. والخامس: لا يُعْطُونَ زكاة أموالهم، قال ابن السائب: كانوا يُحْجُونَ ويعتمرون ولا يزكُّون^(٣).

(١) ويقال لها: نُصَلِّتُ.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلِّمٌ يُوحِي إِلَىٰ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَهُ رَبِّكُمْ﴾، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: اخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل ﴿وَاسْتَجِيبُوا﴾ أي: لسالف الذنوب، ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دمار لهم وهلاك عليهم.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا: معناه: لا يؤدون زكاة أموالهم، قال: وذلك أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة، وأن في قوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ دليلاً على أن ذلك كذلك، لأن الكفار الذين عُذِّبُوا بهذه الآية كانوا لا يشهدون أن لا إله إلا الله، فلو كان قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ مراد به الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله، لم يكن لقوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ معنى، لأنه معلوم أن من لا يشهد أن لا إله إلا الله لا يؤمن بالآخرة، قال: وفي اتباع الله قوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ما ينشئ عن الزكاة في هذا الموضوع معني بها زكاة الأموال. وقال ابن كثير: ﴿وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال قتادة: الذين يمنعون زكاة أموالهم، قال: وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير، قال: وفيه نظر، لأن لإيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد، قال: وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأموراً به في ابتداء البعثة، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنَّا بِحَقِّكُم بِبُورٍ حَسَابِينَ﴾ قال: فأما الزكاة ذات النُصْبِ والمقادير، فإنما بُيِّنَ أمرها بالمدينة، قال: ويكون هذا جمعاً بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في بئداء البعثة، فلما كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس، وفُضِّلَ شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئاً فشيئاً، والله أعلم. اهـ.

قوله تعالى: ﴿عَبْرَ مَثْنُونَ﴾ أي: غير مقطوع ولا متقوص.

﴿قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَصَمَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١﴾ وَصَلَّ فِيهَا رَوْسِيَّ مِنْ قَوْفِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْيَا طَوِّبَا أَوْ كَرِهَا فَأَلَّا أُنْيَا طَلَامِينَ ﴿١٣﴾ فَفَضَّنَهُنَّ سَبْعَ سَعَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحَفِطْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ قال ابن عباس: في يوم الأحد والاثنتين، وبه قال عبد الله بن سلام، والسدي، والأكثر. وقال مقاتل: في يوم الثلاثاء والأربعاء. وقد أخرج مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «خَلَقَ اللهُ ﷻ التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس»، وهذا الحديث يخالف ما تقدم، وهو أصح^(١).

قوله تعالى: ﴿وَصَمَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا﴾ قد شرحناه في [البقرة: ٢٢] و﴿ذَلِكَ﴾ الذي فعل ما ذكر ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿وَصَلَّ فِيهَا رَوْسِيَّ﴾ أي: جبلاً ثوابت من فوق الأرض، ﴿وَبَرَكَ فِيهَا﴾ بالأشجار والثمار والحبوب والأنهار، وقيل: البركة فيها: أن ينمي فيها الزرع، فتخرج الحبة حبات، والنواة نخله ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ قال أبو عبيدة: هي جمع قوت، وهي الأرزاق وما يحتاج إليه. وللمفسرين في هذا التقدير خمسة أقوال: أحدها: أنه شقق الأنهار وغرس الأشجار، قاله ابن عباس. والثاني: أنه قسم أرزاق العباد والبهائم، قاله الحسن. والثالث: أقواتها من المطر، قاله مجاهد. والرابع: قدر لكل بلدة ما لم يجعله في الأخرى كما أن ثياب اليمن لا تصلح إلا بـ «اليمن» والهروية بـ «هراة»، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة، قاله عكرمة، والضحاك. والخامس: قدر البر لاهل قنطرة، والثمر لاهل قنطرة، والذرة لاهل قنطرة، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في تمة أربعة أيام. قال الأخفش: ومثله [أن] تقول: تزوجت أمس امرأة، واليوم ثنتين، وإحدهما التي تزوجتها أمس. قال المفسرون: يعني: الثلاثاء والأربعاء، وهما مع الأحد والاثنتين أربعة أيام.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءً﴾ قرأ أبو جعفر: «سواء» بالرفع. وقرأ يعقوب، وعبد الوارث: «سواء» بالجر. وقرأ الباقر من العشرة بالنصب. قال الزجاج: من قرأ بالخفض، جعل «سواء» من صفة الأيام؛ فالمعنى: في أربعة أيام مستويات تأتت؛ ومن نصب، فعلى المصدر؛ فالمعنى: استوت سواء واستواء؛ ومن رفع، فعلى معنى: هي سواء. وفي قوله: ﴿لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ وجهان: أحدهما: للسائلين القوت، لأن كلاً يطلب القوت ويسأله. والثاني: لمن يسأل: في كم خلقت الأرض؟ فيقال: خلقت في أربعة أيام سواء، لا زيادة ولا نقصان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ قد شرحناه في [البقرة: ٢٩] ﴿وَوَجَّهَ دُخَانًا﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه لما خلق

(١) ولفظ الحديث بتمامه عند مسلم ٢١٤٩/٤: عن أبي هريرة ؓ قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله ﷻ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم ؑ بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل». وهذا الحديث من أفراد مسلم كما ذكر المؤلف رحمه الله، وقد رواه الإمام أحمد في «المستد» من حديث أبي هريرة ؓ، وكذلك رواه النسائي في «التفسير» وابن أبي حاتم، وابن مردويه. وقال الحافظ ابن كثير عن هذا الحديث في «التفسير»، بعد ما أورده: وهذا الحديث من غرائب «صحيح مسلم» وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب الأحبار، وأن أبا هريرة سمعه من كعب الأحبار، وإنما اشبهه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً، وقد حرر ذلك البيهقي. اهـ. والحديث سنده صحيح، ومن صححه الشوكاني في «فتح القدير»، وإنما تكلم عليه بعض العلماء من جهة منته، ورأوا أنه معارض للقرآن، والذي صحح الحديث سندا ومتناً رأى أنه لا تعارض بينه وبين نص القرآن، فإن القرآن ذكر أن الله تعالى خلق السموات والأرض جميعاً في ستة أيام، وخلق الأرض وحدها في يومين، والحديث يبين أن الله خلق ما في الأرض في سبعة أيام، ويحتمل أن تكون هذه الأيام السبعة، غير الأيام الستة التي ذكرها الله في خلق السموات والأرض، ويحتمل لا تعارض، وإنما الحديث فصل كيفية الخلق على الأرض وحدها، والله تعالى أعلم.

[الماء] أرسل عليه الريح فثار منه دخان فارتفع سما، فسماه سماء. والثاني: أنه لما خلق الأرض أرسل عليها ناراً، فارتفع منها دخان فسما.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضُ﴾ قال ابن عباس: قال للسماء: أظهري شمسك وقمرك ونجومك، وقال للأرض: شققي أنهارك، وأخرجي ثمارك، ﴿طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتْ أَيْنَا طَائِعِينَ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على الحال، وإنما لم يقل: طائعات، لأنهنَّ جبرن مجرى ما يغفل ويميز، كما قال في النجوم: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، قال: وقد قيل: أتيننا نحن ومنَّ فينا طائعين. ﴿فَقَسَّهْنَهُنَّ﴾ أي: خلقهنَّ وصنعهنَّ. قال أبو ذؤيب الهذلي:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا
مَعْنَاهُ: عَمِلَهُمَا وَصَنَعَهُمَا.

قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ قال ابن عباس وعبد الله بن سلام: وهما يوم الخميس ويوم الجمعة. وقال مقاتل: الأحد والاثنين، لأن مذهبه أنها خلقت قبل الأرض. وقد بيَّنا مقدار هذه الأيام في [الاعراف: ٥٤]. ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أوحى ما أراد، وأمر بما شاء، قاله مجاهد، ومقاتل. والثاني: خلقت في كل سماء خلقها، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي: القُرْبَى إلى الأرض ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ وهي النجوم، والمصابيح: السُّرُج، فسُمِّي الكوكب مصباحاً، لإضاءته ﴿وَحِفْظًا﴾ قال الزجاج: معناه: وحفظناها^(١) من استماع الشياطين بالكواكب حِفْظًا.

﴿فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَوْفَةَ مِثْلَ صَوْفَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (١٣) ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْقُرْآنَ بِأَلْسِنَتِكُمْ يَوْمَ كُفْرِكُمْ﴾ (١٤) ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْمَدُونَ﴾ (١٥) ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْسَبَاتٍ لِيَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْغِيظِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَنْ لَا يَصْبِرْ لَهُ﴾ (١٦) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْإِسْلَامِ فَخَذَّبْنَاهُمْ مِمَّا كَفَرُوا بِيَوْمِ يَوْمِ يَمُوتُ لَمَّا وَكُنَّا بِالْأَيْدِي حَقِيقِينَ﴾ (١٧)

قوله تعالى: ﴿فَإِن أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَوْفَةَ﴾ الصاعقة: المهلك من كل شيء؛ والمعنى: أنذرتكم عذاباً مثل عذابهم^(٢). وإنما خصَّ القبيلتين، لأن قريشاً يُمُرُون على قري القوم في أسفارهم. ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أتت آباءهم ومنَّ كان قبلهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: من خلف الآباء، وهم الذين أرسلوا إلى هؤلاء المهلكين ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أي: بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ أي: لو أراد دعوة الخلق ﴿لَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْقُرْآنَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: تكبروا عن الإيمان وعمِلوا بغير الحق. وكان هود قد تهددهم بالعذاب فقالوا: نحن نقدر على دفعه بفضل قوتنا. والآيات هاهنا: الحُجيج. وفي الرِّيح الصَّرصر أربعة أقوال: أحدها: أنها الباردة، قاله ابن عباس، وفتادة، والضحاك. وقال الفراء: هي الرِّيح الباردة تحرق كالنار، وكذلك قال الزجاج: هي الشديدة البرد جداً؛ فالصَّرصر متكرر فيها البرد، كما تقول: أقللت الشيء وقلقلته، فأقللته بمعنى رفعته، وقلقلته: كررت رفعه. والثاني: أنها الشديدة السُّموم^(٣)، قاله مجاهد. والثالث: الشديدة الصَّوت، قاله السدي، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. والرابع: الباردة الشديدة، قاله مقاتل^(٤).

(١) البيت في شرح أشعار الهذليين: ٣٩١/١، ومجاز القرآن: ٢٧٥/١، وغريب القرآن: ٣٨٨، ومشكل القرآن: ٣٤٢، والطبري: ٦٧/٢٢، والصحاح واللسان والتاج: قضي.

(٢) في الأصل: وحفظناه.

(٣) قال ابن كثير: يقول تعالى، قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذِّبين بما جنتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جنتكم به من عند الله تعالى، فإني أنذركم حلول نعمة الله بكم كما حلَّت بالأمم الماضية من المكذِّبين بالمسلمين. اهـ.

(٤) السُّموم: الريح الحارَّة.

(٥) قال ابن كثير: والحق أنها منصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة =

قوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الْحَسَاتُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «نَحْسَاتٍ» بإسكان الحاء؛ وقرأ الباقون: بكسرها. قال الزجاج: من كسر الحاء، فواحدُهن «نَحْسٌ»، ومن أسكنها، فواحدُهن «نَحْسٌ»؛ والمعنى: مشؤومات^(١). وفي أول هذه الآيات ثلاثة أقوال: أحدها: غداة يوم الأحد، قاله السدي. والثاني: يوم الجمعة، قاله الربيع بن أنس. والثالث: يوم الأربعاء، قاله يحيى بن سلام. والخزفي: الهوان.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نَسُودٌ فَهُدَيْتَهُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بيتاً لهم، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة. وقال قتادة: بيتاً لهم سبيل الخير والشر. والثاني: دعوتناهم، قاله مجاهد. والثالث: دللناهم على مذهب الخير، قاله الفراء. قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبُوا أَلْمَنَ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، ﴿فَأَعَدَّتْهُمْ صِغْفَةَ الْمَدَابِ الْمُؤْنِ﴾ أي: ذي الهوان، وهو الذي يُهَيِّئُهُمْ^(٢).

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١١﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُومُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا سَمَلْتُمْ ﴿١٤﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَنْزَلْنَاكُمْ فَمَسِيحَتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿١٦﴾ وَفِيصْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْآيَاتِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ وقرأ نافع: «نَحْشَرُ» بالنون «أعداء» بالنصب.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُخْبَس أولُهم على آخرهم ليتلاحقوا. ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ يعني النار التي حُشروا إليها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾، وفي المراد بالجلود ثلاثة أقوال: أحدها: الأيدي والأرجل. والثاني: الفروج، روي عن ابن عباس. والثالث: أنه الجلود نفسها، حكاه الماوردي. وقد أخرج مسلم في أفرادهِ من حديث أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون ممَّ أضحك؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مخاطبة العبد ربِّه، يقول: يا رب ألم تُجزني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجزي علي إلا شهداً مئياً، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيُحْتَمَّ على فيه، فيقال لأركانهِ^(٣): أنطقي، قال: فتنتطق بأعماله، قال: ثمَّ يُعْخَلَى بيته وبين الكلام، فيقول: بُغْدًا لَكُنَّ وَسُخْفًا، فعنكُ كنت أناضيل^(٤)».

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: ممَّا نطق. وهانئا تم الكلام. وما بعده ليس من جواب الجلود.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ﴾ روى البخاري ومسلم في «الصحاحين» من حديث ابن مسعود قال: كنتُ مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفرٍ، قرشيٌّ وخثانيٌّ ثقفِيٌّ، أو ثقفِيٌّ وخثانيٌّ قرشيَّان،

= البرد جداً، كقوله تعالى: ﴿يَبِيعُ سَعِيرٌ يَبِيعُونَ﴾ أي: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، قال: ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق «مصرراً» لقوة صوت جريهِ. اهـ.

(١) وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الْحَسَاتُ﴾ قال: أيام متتابعات أنزل الله فيهن العذاب، قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى بذلك المشاييم، قال: وقال آخرون: معنى ذلك: أيام ذات شر، وقال آخرون: النحسات: الشداد. ثم قال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عنى بها: أيام مشاييم ذات نحوس، لأن ذلك هو المعروف من معنى النحس في كلام العرب. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وقال الثوري: دعوتناهم ﴿فَأَسْتَجِبُوا أَلْمَنَ عَلَى الْمَدِينِ﴾ أي: بضرناهم، وبيتنا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام فخالفوه وكذبوه، وعفروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامه على صدق نبيهم ﴿فَأَعَدَّتْهُمْ صِغْفَةَ الْمَدَابِ الْمُؤْنِ﴾ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿وَمَا كَانُوا يَكْبُرُونَ﴾ أي: من التكذيب والجحود ﴿وَيَحْتَكِرُونَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: من بين أظهرهم لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم وتقواهم لله ﷻ. اهـ.

(٣) أي: جوارحه.

(٤) أي: أدافع وأجادل. والحديث في «صحيح مسلم» ٤/ ٢٢٨٠ عن أنس بن مالك ﷺ، ورواه النسائي وغيره.

كثيرٌ شخُمٌ يُطونهم، قليلٌ فقهٌ قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمع، فقال أحدهم: أترؤن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخرون: إنا إذا رفعا أصواتنا سَمِعَهُ، وإن لم تُرفع لم يسمع، وقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كُلُّه، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَيَنْ الْكٰفِرِينَ﴾^(١). ومعنى «تسترون»: تستخفون «أن يشهد» أي: من أن يشهد عليكم سَمْعُكُمْ لأنكم لا تقدرون على الاستخفاء من جوارحك، ولا تظنون أنها تشهد «ولكن ظننتم أن الله لا يملك كبيراً وما سَمَلُونَ» قال ابن عباس: كان الكفار يقولون: إن الله لا يعلم ما في أنفسنا، ولكنه يعلم ما يظهر، «وذلكَ ظَنُّكُمْ» أي: أن الله لا يعلم ما تعملون، «أَرَدْنَكُمْ أَهْلَكُكُمْ»^(٢). «فَإِنْ يَصْبِرُوا» أي: على النار، فهي مسكنهم، «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا» أي: يسألوا أن يُرجع لهم إلى ما يحبون، لم يُرجع لهم^(٣)، لأنهم لا يستحقون ذلك. يقال: اعتبني فلان، أي: أرضاني بعد إسخاطه إياي. واستعتبته، أي: طلبت منه أن يُغيب، أي: يرضى.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا لَكُمْ قِرَاءَةَ﴾ أي: سببنا لهم قراءة من الشياطين «فَرَزَنُوا لَمْ يَأْتِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما بين أيديهم: من أمر الآخرة أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب، وما خَلْفَهُمْ: من أمر الدنيا، فَرَزَنُوا لهم اللذات وجمع الأموال وترك الإنفاق في الخير. والثاني: ما بين أيديهم: من أمر الدنيا، وما خلفهم: من أمر الآخرة، على عكس الأول. والثالث: ما بين أيديهم: ما فعلوه، وما خلفهم: ما عزموا على فعله. وباقي الآية [قد تقدم تفسيره (الإسراء: ١٦، الأعراف: ٢٨)].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لَنَا قُرْآنًا وَالْوَعْدُ فِيكُمْ تَقِيلُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿فَلْيَقِظُوا الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَتَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَارُ الَّذِينَ كَانُوا يَمْسَلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَمْ يَأْتِ فِيهَا دَارُ الْمُجَلَّةِ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لَنَا قُرْآنًا﴾ أي: لا تسمعوه «وَالْعَوَّا فِيهِ» أي: عارضوه باللغو، وهو الكلام الخالي عن فائدة. وكان الكفار يوصي بعضهم بعضاً: إذا سمعتم القرآن من محمد وأصحابه فارعوا أصواتكم حتى تلبسوا عليهم قولهم. وقال مجاهد: والعوَّا فيه بالمكاء والصفير والتخليط من القول على رسول الله ﷺ إذا قرأ «أَمَلَكُ تَقِيلُونَ» فيسكتون...

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَمْ يَأْتِ فِيهَا دَارُ الْمُجَلَّةِ﴾ يعني العذاب المذكور. وقوله: ﴿النَّارِ﴾ بدل من الجزاء «لَمْ يَأْتِ فِيهَا دَارُ الْمُجَلَّةِ» أي: دار الإقامة. قال الزجاج: النار هي الدار، ولكنه كما تقول: لك في هذه الدار. دار السرور، وأنت تعني الدار بعينها، قال الشاعر:

أخو رغائبٍ يُعطيها ويسألها يأبى الظلّامة منه التّوقّلُ الرُّقْرُ^(٤)

(١) رواه البخاري ٤٣١/٨، ٤٣٢، ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه أحمد في «المسنند» رقم (٣٦١٤) و(٣٨٧٥) و(٤٠٤٧) واللفظ له، والترمذي: ١٥٢/٢ وقال: حديث حسن، والطبري: ١٠٩/٢٤، والواحدي في «أسباب النزول» ٢١٣، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٦٢/٥، وزاد نسبة لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والسماني، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «الاسماء والصفات» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ٢٢٠٦/٤ عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» ورواه أحمد في «المسنند» عن جابر بلفظ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوماً قد أراحهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾» وأورده السيوطي في «الدر» ٣٦٢/٥، وزاد نسبة للبراني، وعبد بن حميد، وأبي داود، وابن ماجه، وابن حبان، وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه.

(٣) عبارة الطبري: «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا» وإن يسألوا العتبي، وهي الرجعة لهم إلى الدين يحبون «فَمَا كُنْتُمْ يَنْ كَسَبْتُمْ» فليسوا بالقوم الذين يُرجع بهم إلى الجنة اهـ.

(٤) البيت لأعشى باهلة من مريثه المفضلة المشهورة يرثي بها أخاه لأنه المنتشر بن وهب، ومطلعا:

فَسَدَّ جِئَاءَ مَنْ عَمِلَ أَنْبَاءَ أَنْبِؤُمَا إِلَيْيَ لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخَرُ

وهي في «الأصمعيات» ٨٩ و«جمهرة أشعار العرب»، و«مختارات ابن الشجري»، و«أمالى الشريف المرتضى» و«خزانة الأدب» ٨٩/١. والرغائب: العطايا الواسعة، والتوقّل: الكثير التواقل، أي: العطايا، والرُّقْرُ: السيد، لأنه يزدفر بالأموال في الخمالات مطبقاً لها. وفي «اللسان»: زفر، وقوله: «منه» مؤكدة للكلام، والمعنى: يأبى الظلّامة لأنه التوقّل الرُّقْرُ، كما في قوله تعالى: «يَبْتَغِي لَكُمْ مِنَ دُونِكُمْ» والسخر، بفتحين وبضمين: السخرية.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا مِنْ آلِ الْبَنَاتِ وَرَبَّنَا كَرِهْنَا لَأَنَّ الْفِتْيَانَ مِنَ الدُّنْيَا نَحْنُ خَيْرٌ مِنَ الْبَنَاتِ إِنَّا نَحْنُ الْحَيَّةُ وَالنَّيْبُ وَالْمَرْءُ الْمَخْتُومُ الَّذِي كَتَبْنَا لَهُ الْفِتْيَانَ وَالنَّيْبُ وَالْمَرْءُ الْمَخْتُومُ الَّذِي كَتَبْنَا لَهُ الْبَنَاتِ﴾ (١٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (١٨) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (١٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٢٠) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٢١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٢٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٢٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٢٤) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٢٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٢٦) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٢٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٢٨) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٢٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٣٠) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٣١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٣٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٣٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٣٤) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٣٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ (٣٦)

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما دخلوا النار ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «أرنا» بسكون الراء. قال المفسرون: يعنون إبليس وقابيل، لأنهما سنا المعصية، ﴿يَجْمَعُهُمَا تَحْتَ أَقْدَانِنَا يَكُونَا مِنَ الْأَشْقَلِينَ﴾ أي: في الدرك الأسفل، وهو أشد عذاباً من غيره. ثم ذكر المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا﴾ [أي: وحدهم] ﴿ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: استقاموا على التوحيد، قاله أبو بكر الصديق، ومجاهد؛ والثاني: على طاعة الله وأداء فرائضه، قاله ابن عباس، والحسن، وقناة. والثالث: على الإخلاص والعمل إلى الموت، قاله أبو العالية، والسدي^(١). وروى عطاء عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق، وذلك أن المشركين قالوا: ربنا الله، والملائكة بناته، وهؤلاء شفاعونا عند الله، فلم يستقيموا، وقالت اليهود: ربنا الله، وعزير ابنه، ومحمد ليس بنبي، فلم يستقيموا، وقالت النصارى: ربنا الله، والمسيح ابنه، ومحمد ليس بنبي، فلم يستقيموا، وقال أبو بكر: ربنا الله وحده، ومحمد عبده ورسوله، فاستقام^(٢).

قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا﴾ أي: بأن لا تخافوا. وفي وقت نزولها عليهم قولان: أحدهما: عند الموت، قاله ابن عباس، ومجاهد؛ فعلى هذا في معنى «لا تخافوا» قولان: أحدهما: لا تخافوا الموت، ولا تحزنوا على أولادكم، قاله مجاهد. والثاني: لا تخافوا ما أمامكم، ولا تحزنوا على ما خلفكم، قاله عكرمة، والسدي. والقول الثاني: تنزل عليهم إذا قاموا من القبور، قاله قناة؛ فيكون معنى «لا تخافوا»: أنهم يبشرونهم بزوال الخوف والحزن يوم القيامة^(٣).

قوله تعالى: ﴿تَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ﴾ قال المفسرون: هذا قول الملائكة لهم، والمعنى: نحن [الذين] كنا نتولاكم في الدنيا، لأن الملائكة تتولى المؤمنين وتحبهم لما تروى من أعمالهم المرفوعة إلى السماء، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: ونحن معكم في الآخرة لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة. وقال السدي: هم الحفظة على ابن آدم، فلذلك قالوا: ﴿تَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾؛ وقيل: هم الملائكة الذين يأتون لقبض الأرواح^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة. ﴿زُكُوفًا﴾ قال الزجاج: معناه: أبشروا بالجنة تنزلونها [نزولاً]. وقال الأخفش: لكم فيها ما تشتهي أنفسكم أنزلناه نزولاً.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَجِلَ صَلَّى صَلِيحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢٢) ﴿وَلَا تَسْتَوِي السُّعْتَةُ وَلَا النَّمِينَةُ آدَمُ بِالَّذِي هُوَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٣) ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُرٌّ عَظِيمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٤) ﴿وَإِنَّا بِرَعْعِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْوَدَ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٥)

(١) روى مسلم في «صحيحه» ٦٥/١ عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» والحديث ذكره السيوطي في «الدر» ٣٦٣/٥، وزاد نسبة لأحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والبخاري في «تاريخه»، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان.

(٢) ذكر سبب النزول هذا الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٣ من رواية عطاء عن ابن عباس بدون سند.

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه: يعني عند الموت قائلين ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم: أي: مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أبو ذؤين، فإنما خلفكم فيه ﴿وَلْيَتْرِكُوا بِالْمَنَّةِ أَيُّ كَثْرَةِ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بدهاب الشر وحصول الخير، قال: وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريه، اخرجي إلي زوج وريحان ورب غير غضبان. اهـ»

(٤) قال ابن كثير: وقوله تبارك وتعالى: ﴿تَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا نسدكم ونوقمكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك تكون معكم في الآخرة، تؤنس منكم الروح في القبور، وعند الضغنة في الصور، ونؤمكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تخافون مما تشتهي النفوس وتقر به العيون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ فيمن أريد بهذا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المؤذنون. روى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نزلت في المؤذنين»^(١)، وهذا قول عائشة، ومجاهد، وعكرمة. والثاني: أنه رسول الله ﷺ دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله، قاله ابن عباس، والسدي، وابن زيد. والثالث: أنه المؤمن أجاب الله إلى ما دعاه، ودعا الناس إلى ذلك ﴿وَعَصِلَ صَلِيحًا﴾ في إجابته، قاله الحسن. وفي قوله: ﴿وَعَصِلَ صَلِيحًا﴾ ثلاثة أقوال. أحدها: صلى ركعتين بعد الأذان، وهو قول عائشة، ومجاهد، وروى إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ قال: الأذان ﴿وَعَصِلَ صَلِيحًا﴾ قال: الصلاة بين الأذان والإقامة. والثاني: أدى الفرائض وقام لله بالحقوق، قاله عطاء. والثالث: صام وصلى، قاله عكرمة^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي لِمَنْسَنَةٌ وَلَا أَسْتَيْتَةٌ﴾ قال الزجاج: «لا» زائدة مؤكدة؛ والمعنى: ولا تستوي [الحسنة] والسَّيِّئَةُ. وللمفسرين فيها ثلاثة أقوال. أحدها: أن الحسنة: الإيمان، والسَّيِّئَةُ: الشُّرك، قاله ابن عباس. والثاني: الجلم والفُحْش، قاله الضحاك. والثالث: الثُّغور والصَّبْر، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَدْعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وذلك كدفع الغضب بالصبر، والإساءة بالعفو، فإذا فعلت ذلك صار الذي بينك وبينه عداوة كالصديق القريب. وقال عطاء: هو السَّلام على من تعاديه إذا لَئِيْتَهُ. قال المفسرون: وهذه الآية منسوخة بآية السف^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا مَنْ جَاءَهَا﴾ أي: ما يُعْطَاهَا. قال الزجاج: ما يُلْقِي هذه الفَعْلَةُ وهي دفع السَّيِّئَةِ بالحسنة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على كظم الغيظ ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الخير. وقال السدي: إِلَّا ذُو جَدِّ. وقال قتادة: الحظُّ العظيم: الجنة؛ فالمعنى: ما يُلْقَاهَا إِلَّا مَنْ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَزَعُكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَجْعٌ﴾ قد فسَّرناه في [الأعراف: ٢٠٠]^(٥).

(١) الذي في كتب التفسير وأسباب النزول عن عائشة ومجاهد وعكرمة موقوفاً عليهم أن هذه الآية نزلت في المؤذنين، وقد قال السيوطي في «الدر» /٥/ ٣٦٤: أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما أرى هذه الآية نزلت إلا في المؤذنين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾. اهـ. ولم نرو رواية جابر بن عبد الله التي ذكرها المؤلف في المرفوع، والله أعلم. وقد قال ابن كثير في «التفسير»: والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، قال: فأما حال نزول هذه الآية، فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية، لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أراه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري رضي الله عنه في منامه فقصه على رسول الله ﷺ فأمره أن يلقيه على بلال رضي الله عنه فإنه أئدى صوتاً كما هو مقرر في موضعه. ثم قال ابن كثير: فالصحيح إذن أنها عامة، كما قال عبد الرزاق عن يعمر بن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَصَحِلَ صَلِيحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فقال: هذا حبیب الله، هذا ولي الله، هذا صفة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وحصل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين، هذا خليفة الله. اهـ.

وقال الشوكاني في تفسيره «فتح القدير»: ويجاب عن هذا بأن الآية مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة، والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ، ويدخل فيها من كان سبباً لنزولها دخولاً أولياً، فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه الله، وحصل عملاً صالحاً، وهو تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه، وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم، فلا شيء أحسن منه ولا أوضح من طريقته، ولا أكثر ثواباً من عمله. اهـ.

وقال الخازن في «تفسيره»: وقيل: إن كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق فهو داخل في هذه الآية، قال: والدعوة إلى الله مراتب، الأولى: دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والثانية: دعوة العلماء، والثالثة: دعوة المجاهدين في سبيل الله، والرابعة: دعوة المؤمنين إلى الصلاة، قال: فهم أيضاً دعاء إلى الله تعالى وإلى طاعته.

(٢) والصحيح أنها عامة في كل ذلك.

(٣) قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَإِذَا أُلْقِيَ بِكَ الْفُتُورُ فَإِنَّهُ عَذَابٌ مُرْتَبِطٌ﴾ يقول تعالى ذكره: افعل هذا الذي أمرتك به يا محمد، من دفع سيئة المسيء إليك بإحسانك الذي أمرتك به إليه، فيصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة، كأنه من ملاحظته إياك ويؤرِّه لك، ولي لك من بني أعمامك، قريب النسب بك، قال: والحميم: هو القريب. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يُشَقُّ على النفوس، ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، قال: قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزَعُكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَجْعٌ﴾ أي: إن شيطان الإنس ربما يتخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن، فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستمادة بخالفه الذي سلطه عليك، فإذا استمعت بالله والتجأت إليه، كُفِّ عَنكَ وَرُدَّ كَيْدُهُ، قال: وقد كان رسول الله ﷺ إذا

﴿وَمِن مَّا يَتَّبِعُونَ آيَاتَ الرَّسُولِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَا يَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُمُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْخَرُونَ ﴿٢﴾ وَمِن مَّا يَتَّبِعُونَ أَنَّهُ تَرَى الْأَرْضَ حَنِيئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِذْ الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَلْحَقُوا بِالسَّعَةِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ [أي: تكبروا عن التوحيد والعبادة] ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: يصلون. و«يسأمون» بمعنى يمتلئون. وفي موضع السجدة قولان: أحدهما: أنه عند قوله: «يسأمون»، قاله ابن عباس، ومسروق، وقتادة، واختاره القاضي أبو يعلى، لأنه تمام الكلام. والثاني: [أنه] عند قوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١)، روي عن أصحاب عبد الله، والحسن، وأبي عبد الرحمن.

قوله تعالى: ﴿وَمِن مَّا يَتَّبِعُونَ أَنَّهُ تَرَى الْأَرْضَ حَنِيئَةً﴾ قال قتادة: غبراء مهتسمة. قال الأزهري: إذا يبست الأرض ولم تظفر، قيل: حَسَعَتْ.

قوله تعالى: ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ أي: عكثت، لأن النبات إذا أراد أن يظهر ارتفعت له الأرض؛ وقد سبق بيان هذا [الحج: ٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْقُقُونَ عَلَيْنَا أَقْنَ يَلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي بِلَايَا يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا كُنتُمْ إِتْمَعُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لَهُمْ لَكَلْبًا عَزِيزٌ ﴿٥﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال مقاتل: نزلت في أبي جهل (٢). وقد شرحنا معنى الإلحاد في [النحل: ١٠٣]؛ وفي المراد به هاهنا خمسة أقوال: أحدها: أنه وضع الكلام على غير موضعه، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه المكاء والصفير عند تلاوة القرآن، قاله مجاهد. والثالث: أنه التكذيب بالآيات، قاله قتادة. والرابع: أنه المعاندة، قاله السدي. والخامس: أنه التمثيل عن الإيمان بالآيات، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْقُقُونَ عَلَيْنَا﴾ هذا وعيد بالجزاء ﴿أَقْنَ يَلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي بِلَايَا يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهذا عام. غير أن المفسرين ذكروا فيمن أريد به سبعة أقوال: أحدها: أنه أبو جهل وأبو بكر الصديق، رواه الضحاك عن ابن عباس (٣). والثاني: أبو جهل وعمار بن ياسر، قاله عكرمة (٤). والثالث: أبو جهل ورسول الله ﷺ، قاله ابن السائب،

قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»، قال: وقد قلنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة (الأعراف) عند قوله تعالى: ﴿عِذَ النَّوْرِ كَذَّبَ بِاللَّيْلِ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمَهَلِكِ﴾ (١) وَإِنَّا بِرَفْعِكَ مِنَ السَّمَاوَاتِ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ عِذْرًا ﴿٢﴾ وفي سورة (المؤمنين) عند قوله: ﴿وَأَتَقَ بِأَلْفِي يَوْمَ عَمْسٍ أُكُنُتُ نَعْنُ أَقْنَمَ بِمَا يَسْمُونُ﴾ (١) وَقُلْ رَبِّ أَعْرِضْ عَنَّا وَبِئْسَ مَكْرَمُ الْكٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَصْبُرُوا ﴿٣﴾. اهـ.

(١) يريد بذلك الآية التي قبل قوله: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا...﴾ الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِن مَّا يَتَّبِعُونَ آيَاتَ الرَّسُولِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَا يَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١) وقد حذفها المؤلف ولم يفسرها لوضوح معناها. قال القرطبي في تفسيره: هذه الآية آية سجدة بلا خلاف، واختلفوا في موضع السجود منها، فقال مالك: موضعه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ لأنه متصل بالامر، وكان علي وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله: «تعبدون»، وقال ابن وهب والشافعي: موضعه ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَعْتُونَ﴾ لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال، وبه قال أبو حنيفة، وكان ابن عباس يسجد عند قوله: «يسأمون»، وقال ابن عمر: أسجدوا بالآخرة منهما، وكذلك يروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثاب، وطلحة وزيد اليامين (نسبة إلى يامة بطن من همدان) والحسن وابن سيرين، وكان أبو وائل وقتادة ويكر بن عبد الله يسجدون عند قوله: «يسأمون» قال ابن العربي: والامر قريب. اهـ. وقال الخازن في تفسيره: فصل: وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة، وفي موضع السجود فيها قولان للعلماء، وهما وجهان لأصحاب الشافعي، أحدهما: أنه عند قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وهو قول ابن مسعود والحسن، وحكاه الرافعي عن أبي حنيفة وأحمد، لأن ذكر السجدة قبله، والثاني وهو الأصح عند أصحاب الشافعي وكذلك نقله الرافعي: أنه عند قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَعْتُونَ﴾ وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب وقتادة، وحكاه الزمخشري عن أبي حنيفة، لأن عنده يتم الكلام. اهـ.

- (٢) ذكر ذلك البيهقي عن مقاتل بدون سند.
- (٣) قال السيوطي في «الدرر» ٣٦٦/٥ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿أَقْنَ يَلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي بِلَايَا يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا﴾ قال: أبو جهل بن هشام، ﴿أَمْ مَن يَأْتِي بِلَايَا يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا﴾ قال: أبو بكر الصديق ﷺ.
- (٤) قال السيوطي في «الدرر» ٣٦٦/٥ أخرج ابن عساکر عن عكرمة ﷺ في قوله: ﴿أَقْنَ يَلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي بِلَايَا يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا﴾ نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل.

ومقاتل. والرابع: أبو جهل وعثمان بن عفان، حكاة الثعلبي. والخامس: أبو جهل وحمزة، حكاة الواحدي. والسادس: أبو جهل وعمر بن الخطاب. والسابع: الكافر والمؤمن، حكاهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَتَمَلُّوْا مَا سُئِمْتُمْ﴾ قال الزجاج: لفظه لفظ الأمر، ومعناه الوعيد والتهديد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ يعني القرآن؛ ثم أخذ في وصف الذِّكْر؛ وَتَرَكَ جَوَابَ «إِنَّ»، وفي جوابها هاهنا قولان: [أحدهما]: أنه ﴿أَوَّلَيْكَ يُتَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْبٍ﴾، ذكره الفراء. والثاني: أنه متروك، وفي تقديره قولان: أحدهما: إن الذين كفروا بالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ كفروا به. والثاني: إن الذين كفروا يجازون بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُمْ لِكُنُوبِكُمْ عَذِيبٌ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: مَنَعَ من الشيطان لا يجد إليه سبيلاً، قاله السدي. والثاني: كريم على الله، قاله ابن السائب. والثالث: مَنَعَ من الباطل، قاله مقاتل. والرابع: يمتنع على الناس أن يقولوا بغيره، حكاة الماوردي.

قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطُلُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: التكذيب، قاله سعيد بن جبيرة. والثاني: الشيطان. والثالث: التبديل، روي عن مجاهد. قال قتادة: لا يستطيع إبليس أن ينقص منه حقاً، ولا يزيد فيه باطلاً. وقال مجاهد: لا يدخل فيه ما ليس منه. وفي قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: بين يَدَيْ تزييله، وبعد نزوله. والثاني: أنه ليس قبَّله كتاب يُبْطِله، ولا يأتي بعده كتاب يُبْطِله. والثالث: لا يأتيه الباطل في إخباره عما تقدم، ولا في إخباره عما تأخر.

﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَعْرُوفٌ وَدُوٌّ عِقَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٣﴾ وَكَوْزَجَمَلَتَهُ قُرْءَانًا أَعْجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا نُفِصِلَتْ آيَاتُنَا مَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرَةٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَآ يُوْثِرُونَ فِي مَا أَنزَلْنَاهُمْ مِنْ قُرْءَانٍ وَعَسَىٰ أَهْلِ الْبَيْتِ يَدْعُونَكَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْبٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه قد قيل فيمن أزيل قبلك: ساحر وكاهن ومجنون، وكذبوا كما كُذِّبَتْ، هذا قول الحسن، وفتادة، والجمهور. والثاني: ما تُخْبِرُ إِلَّا بما أُخْبِرَ الأنبياء قبلك من أن الله غفور، وأنه ذو عقاب، حكاة الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَكَوْزَجَمَلَتَهُ﴾ يعني الكتاب الذي أنزل عليه ﴿قُرْءَانًا أَعْجَبًا﴾ أي: بغير لغة العرب ﴿لَقَالُوا لَوْلَا نُفِصِلَتْ آيَاتُنَا﴾ أي: هلأ بيئت آياته بالعربية حتى نفهمه؟ ﴿مَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عمر، وحفص عن عاصم: «أعجمي» [بهمزة] ممدودة. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «الأعجمي» بهمزتين، والمعنى: أكتاب أعجمي ونبي عربي؟ وهذا استفهام إنكار؛ أي: لو كان كذلك لكان أشد لتكذيبهم. ﴿قُلْ هُوَ﴾ يعني القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرَةٌ﴾ للشكوك والأوجاع. و«الوثر»: الصَّمم؛ فهم في ترك القبول بمنزلة من في أذنه صمم. ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٌ﴾ أي: ذو عَمٍّ. قال قتادة: صموا عن القرآن وعموا عنه ﴿أَوَّلَيْكَ يُتَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْبٍ﴾ أي: إنهم لا يسمعون ولا يفهمون كالذي يُتَادِي من بعيد.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخَشِيَ فِيهِ فُجُورًا﴾ وَكَوْزَجَمَلَتَهُ سَبَّحْتَ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَمْلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ؛ والمعنى: كما آمن بكتابك قومٌ وكذب به قومٌ، فكذلك كتاب موسى، ﴿وَكَوْزَجَمَلَتَهُ﴾ سَبَّحْتَ مِنْ رَبِّكَ في تأخير العذاب إلى أجل مسمى وهو القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بالعذاب الواقع بالمكذِّبين ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ﴾ من صدقك وكتابك، ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: شوق لهم الريبة.

﴿إِنَّ إِلَهَهُمُ اللَّهُ وَمَا تُشْرِكُونَ﴾ وَمَا تَدْعُوا مِنْ دُونِهِ مِنْ آلِهَةٍ لَّا يَخْلُقُونَ وَهُمْ يَخْلُقُونَ إِنَّهُمْ لَشُرَكَاءُ قَالُوا مَاذَا نَدْعُكَ مَا وَمَا مِنْ شَيْءٍ ﴿٤٧﴾ وَصَلَّ عَلَيْنَا مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَلَمْنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيْحٍ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَهُمُ اللَّهُ وَمَا تُشْرِكُونَ﴾ سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن الساعة إن كنت رسولاً كما

تزعج، قاله مقاتل^(١). ومعنى الآية: لا يتعلم قيامها إلا هو، فإذا شئل عنها فعلمها مردودٌ إليه. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «من ثمرة». وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «من ثمرات» على الجمع ﴿بَيْنَ أَكْمَامِهَا﴾ أي: أوعيتها. قال ابن قتيبة: أي: من المواضع التي كانت فيها مستورة، وغلاف كل شيء؛ كُتْمُه، وإنما قيل: كُتْمُ القميص، من هذا. قال الزجاج: الأكام: ما غطى^(٢)، وكلُّ شجرة تُخْرِجُ ما هو مُكْتَمٌ فهي ذات أكام، وأكامُ النخلة: ما غطى جُمارها من السَّعْفِ والليف والجذع، وكلُّ ما أخرجته النخلة فهو ذو أكام، فالظلمة كُتْمُها قشرها، ومن هذا قيل للقلنسوة: كُتْمُه، لأنها تُغْطِي الرأس، ومن هذا كُتْمُ القميص، لأنها يغطيان اليدين^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُكَادِبُكُمْ﴾ أي: ينادي الله تعالى المشركين ﴿أَنَّهُمْ شُرَكَاءِي﴾ الذين كنتم تزعمون ﴿قَالُوا ءَأَدَّبَكَ﴾ قال الفراء، وابن قتيبة: أعلمناك، وقال مقاتل: أسمعنالك ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه من قوم المشركين؛ والمعنى: ما مِنَّا مِنْ شَيْءٍ بَأَنَّ لَكَ شريكاً، فيتبرؤون يومئذٍ مما كانوا يقولون، هذا قول مقاتل. والثاني: [أنه] من قول الألهة التي كانت تُعْبَدُ؛ والمعنى: ما مِنَّا مِنْ شَيْءٍ لَهِمْ بِمَا قَالُوا، قاله الفراء، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: بطل عنهم في الآخرة ﴿مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ أي: يعبدون في الدنيا، ﴿وَوَطَّأُوا﴾ أي: أيقنوا ﴿مَا لَكُمْ مِنْ حَيٍّ﴾ وقد شرحنا المحيص في سورة [النساء: ١٢١].

﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاؤِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَدْعُو قَوْلُهُ﴾ ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿وَلِذَا أَمْسَأَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَفْرَصٌ وَنَا بِحَايِيهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاؤٍ عَرِيضٍ﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَسْأَلَ مِنِّي فُو فِي شِقَاقِي بَعِيدٍ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ﴾ قال المفسرون: المراد به الكافر؛ فالمعنى: لا يملُّ الكافر ﴿بِإِنْ دُعَاؤِ الْخَيْرِ﴾ أي: من دعائه بالخير، وهو المال والعافية. ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ وهو الفقر والشدة؛ والمعنى: إذا اختبر بذلك يشس من رَوْحِ الله، وقَطَنَ من رحمته. وقال أبو عبيدة: اليؤوس، قُفُولٌ من يأس^(٤)، والقَطُوط، قُفُولٌ من قَطَط.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: خيراً وعافية وغيثاً، ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: هذا واجب لي بعملي وأنا محقوق به، ثم يشكُّ في البعث فيقول: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: لستُ على يقين من البعث ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَىٰ﴾ يعني الجنة، أي: كما أعطاني في الدنيا يعطيني في الآخرة ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لنُخَبِّرَنَّهُمْ بمساوئ أعمالهم. وما بعده قد سبق [إبراهيم: ١٧، الإسراء: ٨٣] إلى قوله تعالى: ﴿وَنَا بِحَايِيهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «ونأى» مثل «نعى». وقرأ ابن عامر: «وناء» مفتوحة النون ممدودة والهمزة بعد الألف. وقرأ حمزة: «نشى» مكسورة النون والهمزة^(٥). ﴿فَذُو دُعَاؤٍ عَرِيضٍ﴾ قال الفراء، وابن قتيبة: معنى العريض: الكثير، وإن وصفته بالطول أو بالعرض جاز في الكلام. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿وَمِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَسْأَلَ مِنِّي فُو فِي شِقَاقِي﴾ أي: خلاف للحق ﴿بَعِيدٍ﴾ عنه؟! وهو اسم؛ والمعنى: فلا أحدٌ أَسْأَلَ مِنكُمْ. وقال ابن

(١) قال الشوكاني في «فتح القدير»: وقد روي أن المشركين قالوا: يا محمد إن كنت نبياً فخبرنا متى تقوم الساعة؟ فنزلت. وقد تقدم في سورة [الأعراف: ١٨٧] عند قوله تعالى: ﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عِنْدَ رَبِّكَ لَأَبْرَأٌ وَإِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قولان في سبب نزولها: أحدهما: أن قوماً من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة؟ فنزلت، والثاني: أن قريشاً قالت: يا محمد بيننا وبينك قرابة فبين لنا متى الساعة؟ فنزلت، وقد قال ابن جرير الطبري هناك: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قوماً سألوا رسول الله ﷺ عن الساعة؛ فأنزله الله هذه الآية، وجازت أن يكون كانوا من قريش، وجازت أن يكون كانوا من اليهود، ولا خبر بذلك عندنا يجوز قطع القول على أي ذلك كان. اهـ.

(٢) عبارة [اللسان]: وقال الزجاج في قوله: «ذات الأكام» قال: عن الأكام ما غطى...

(٣) في الأصل: اليد، والتصريح من [اللسان].

(٤) في «معجم القرآن»: «يؤوس» فعول من يست؛ وفي [اللسان]: قال سيبويه: يئس يئأس ويئس يئأس ويئس يئأس ثم يركب منهما لفة.

(٥) سبق ذكره القراءات في قوله تعالى: ﴿وَلِذَا أَمْسَأَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَفْرَصٌ وَنَا بِحَايِيهِ﴾ في سورة [الإسراء: ٨٣].

جرير: معنى الآية: [لئنم] كفرتم به، أستمم في شفاقي للحق وبُعد عن الصواب! فجعل مكان هذا باقي الآية.

﴿سُرِّيهِمْ مَا بَيْنَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَبِينُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمَ يَكْفِي بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّمَا فِي رِيَّاتِهِ بَيْنَ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّمَا يَكْفِي شَيْءٌ مُجِيبٌ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ مَا بَيْنَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: في الأفاق: فتح أقطار الأرض، وفي أنفسهم: فتح مكة، قاله الحسن، ومجاهد، والسدي. والثاني: أنها في الأفاق: وقائع الله في الأمم الخالية، وفي أنفسهم: يوم بدر، قاله قتادة، ومقاتل. والثالث: أنها في الأفاق: إمساك القطر عن الأرض كلها، وفي أنفسهم: البلايا التي تكون في أجسادهم، قاله ابن جرير. والرابع: أنها في الأفاق: آيات السماء كالشمس والقمر والنجوم، وفي أنفسهم: حوادث الأرض، قاله ابن زيد. وحكي عن ابن زيد أن التي في أنفسهم: سبيل الغائط والبول، فإن الإنسان يأكل ويشرب من مكان واحد، ويخرج من مكانين. والخامس: أنها في الأفاق: آثار من مضى قبلهم من المكذبين، وفي أنفسهم: كونهم خُلِقُوا نَظْفًا ثُمَّ عَلَفًا ثُمَّ مُضَعًا ثُمَّ عِظَامًا إِلَى أَنْ تَقْلُوا إِلَى الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ، قاله الزجاج^(١).

قوله تعالى: ﴿حَقٌّ يَبِينُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن. والثاني: إلى جميع ما دعاهم إليه الرسول. وقال ابن جرير: معنى الآية: حتى يعلموا حقيقة ما أنزلنا على محمد وأوحينا إليه من الوعد له بأننا مُظْهِرُو دِينِهِ عَلَى الْأَدْيَانِ كُلِّهَا. ﴿أَوْلَمَ يَكْفِي بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: أَوْلَمَ يَكْفِي بِهِ أَنَّهُ شَاهِدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ! قال الزجاج: المعنى: أَوْلَمَ يَكْفِيهِمْ شَهَادَةُ رَبِّكَ!؟ ومعنى الكناية هاهنا: أنه قد بين لهم ما فيه كفاية في الدلالة على توحيدِهِ وتثبيت رسله^(٢).



(١) قال ابن كثير: ﴿سُرِّيهِمْ مَا بَيْنَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: سنظهر لهم دلائلنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية في الأفاق من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، قال مجاهد والحسن والسدي: ودلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم، نصر الله فيها محمداً ﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه، ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى، وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقيح وغير ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحلزه أن يجوزها ولا يتعداها. اهـ.

(٢) قال ابن كثير في تمة الآية: وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا فِي رِيَّاتِهِ بَيْنَ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون له ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هدر لا يعيرون به، وهو كائن لا محالة، وواقع لا ريب في، قال: ثم قال تعالى مقرراً أنه على كل شيء قدير، ويكفي شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا يَكْفِي شَيْءٌ مُجِيبٌ﴾ أي: المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طغي علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا إله إلا هو. اهـ.

سورة حم عسق

واسمها سورة الشورى

وهي مكيّة، رواه العوفي وغيره عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والجمهور. وحكي عن ابن عباس وقتادة قالا: إلا أربع آيات نزلن بالمدينة، أولها: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الشورى: ٢٣]. وقال مقاتل: فيها من المدني قوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشورى: ٢٣] إلى قوله: ﴿بَدَاتِ السُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ٣٩] إلى قوله: ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَوْءُودًا الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَكُوتُ يَنْتَظِرُكَ مِنْ تَوَقُّعِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْتَعِجُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَفْهِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَائِمُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾
قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾﴾ قد سبق تفسيره [المؤمن].

قوله تعالى: ﴿عَسَقٌ ﴿٢﴾﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قَسَمَ أقسم الله به، وهو من أسماء، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه حروف من أسماء؛ ثم فيه خمسة أقوال: أحدها: أن العين علم الله، والسين سناؤه، والقاف قدرته، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الحسن. والثاني: أن العين فيها عذاب، والسين فيها مسخ، والقاف فيها قذف، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس. والثالث: أن الحاء من حرب، والميم من تحويل مُلك، والعين من عدو مقهور، والسين استئصال بسنين كسني يوسف، والقاف من قدرة الله في ملوك الأرض، قاله عطاء. والرابع: أن العين من عالم، والسين من قُدوس، والقاف من قاهر، قاله [سعيد] بن جبيرة. والخامس: أن العين من العزيز، والسين من السلام، والقاف من القادر، قاله السدي. والثالث: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة^(١).

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه كما أوحيت ﴿حَمْدٌ عَسَقٌ﴾ إلى كل نبي، كذلك نوحها إليك، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: كذلك نوحى إليك أخبار الغيب كما أوحينا إلى مَنْ قَبْلَكَ، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أن ﴿حَمْدٌ عَسَقٌ﴾ نزلت في أمر العذاب، فقيل: كذلك نُوحِي إليك أن العذاب نازل بمن كذبت كما أوحينا ذلك إلى مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، قاله مقاتل. والرابع: أن المعنى: هكذا نوحى إليك، قاله ابن جرير. وقرأ ابن كثير: ﴿يُوحَىٰ﴾ بضم الياء وفتح الحاء. كأنه إذا قيل: من يوحى؟ قيل: الله. وروى أبان عن عاصم: «نوحى» بالنون وكسر الحاء. ﴿تَكَادُ السَّمَكُوتُ يَنْتَظِرُكَ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحزمة: «تَكَادُ» بالياء «يَنْتَظِرُونَ» بياء وتاء مفتوحة وفتح الطاء وتشديدها. وقرأ نافع، والكسائي: «يَكَادُ» بالياء «يَنْتَظِرُونَ» مثل قراءة ابن كثير. وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «تَكَادُ» بالياء «يَنْتَظِرُونَ» بالنون وكسر الطاء وتخفيفها، أي: يَنْتَظِرُونَ «مِنْ تَوَقُّعِهِ» أي: من فوق الأرضين من عظمة الرحمن؛ وقيل: من قول المشركين: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾. ونظيرها [النبي] في [عريم: ٩٠]. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَسْتَعِجُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال بعضهم: يصلون بأمر ربهم؛ وقال بعضهم: ينزهونه عما لا يجوز في صفته، ﴿وَيَسْتَفْهِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه أراد المؤمنين، قاله قتادة، والسدي. والثاني: أنهم كانوا يستغفرون للمؤمنين، فلما ابتلي هاروت

(١) قال الشوكاني في تفسيره «فتح القديري»: واختلفا في ﴿حَمْدٌ عَسَقٌ﴾ فقيل: معناها: حُمْدٌ، أي: قضي، وقيل: إن «ح» حمله، و«م» مجده، و«ع» علمه، و«س» سناؤه، و«ق» قدرته، أقسم الله بها، وقيل غير ذلك منها هو متكلف متعسف لم يدل عليه دليل، ولا جاءت به حجة ولا شبهة حجة، قال: وقد ذكرنا قبل هذا ما روي في ذلك ما لا أصل له. اهـ. وقد تقدم الكلام على أوائل الحروف في (العنكبوت) وغيرها بما فيه كفاية.

وماروت استغفروا لمن في الأرض. ومعنى استغفارهم: سؤالهم الرزق لهم، قاله ابن السائب. وقد زعم قوم منهم مقاتل أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]، وليس بشيء، لأنهم إنما يستغفرون للمؤمنين دون الكفار، فلفظ هذه الآية عام، ومعناها خاص، ويدل على التخصيص قوله: ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]، لأن الكافر لا يستحق أن يستغفر له.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني كفار مكة اتَّخَذُوا آلَهُ فَعَبَدُوها من دونه؛ ﴿اللَّهُ حَافِظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: حافظ لأعمالهم ليجازيهم بها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: لم نوكلك بهم فتوخذ بهم. وهذه الآية عند جمهور المفسرين منسوخة بآية السيف، ولا يصح.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ قُرَيْشٌ فِي الْجَنَّةِ وَقُرَيْشٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ﴿٧﴾ وَكَوَيْدًا لِلَّهِ لِيَأْتِيَنَّكَ رِجْسًا وَلَكِنَّهُ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَوِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ما ذكرنا ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ليهيئوا ما فيه ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ يعني مكة، والمراد أهلها^(١)، ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي: وتنتهرهم يوم الجمع، وهو يوم القيامة، يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وأهل السموات والأرضين ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أي: لا شك في هذا الجمع أنه كان، ثم بعد الجمع يتفرقون، وهو قوله: ﴿قُرَيْشٌ فِي الْجَنَّةِ وَقُرَيْشٌ فِي السَّعِيرِ﴾. ثم ذكر سبب افتراقهم فقال: ﴿وَكُوَيْدًا لِلَّهِ لِيَأْتِيَنَّكَ رِجْسًا﴾ أي: في دينه ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ وهم الكافرون ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعهم منه. ﴿أَوِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ أي: بل اتخذ الكافرون من دون الله ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يعني آلهة يتولونهم ﴿قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي: ولي أوليائه، فليتخذوه ولياً دون الآلهة؛ وقال ابن عباس: وليك يا محمد وولي من أتبعك.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿١٠﴾ قَائِلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْثَمِيزِ أَزْوَاجًا يَدْخُرُكُمْ فِيهِ لِيَسْئَلَكُمْ عَنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَمْ يَخْلُقْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِسَبْطِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ اللَّهُ يَكُلُ شَيْءٌ عِلْمٌ ﴿١٢﴾ ﴿شَرَحَ لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَا وَصَنَ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُصِّحَتْ بَيْنَهُمْ وَلَئِنِ الَّذِينَ أُرْسِلُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنَنصِفَنَّكَ لِنِي سَائِكٍ مِنْهُ مُرْسِي﴾ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: من أمر الدين؛ وقيل: بل هو عام ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ فيه قولان. أحدهما: علمه عند الله. والثاني: هو يحكم فيه. قال مقاتل: وذلك أن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن، وأمن بعضهم، فقال الله: أنا الذي أحكم فيه. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ الذي يحكم بين المختلفين، هو ﴿رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مهماتي، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع في المعاد. ﴿قَائِلُ السَّمَوَاتِ﴾ قد سبق بيانه [الأنعام: ٤١٤]، ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنَ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من مثل خلقكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساء، ﴿وَمِنَ الْأَنْثَمِيزِ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً ذكوراً، وإناثاً؛ والمعنى أنه خلق لكم الذكر، والأنثى من الحيوان كله، ﴿يَدْخُرُكُمْ﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: يخلقكم، قاله السدي. والثاني: يُعِيْشُكُمْ، قاله مقاتل. والثالث: يكثركم، قاله الفراء. [وفي قوله] ﴿يَوْمَ﴾ قولان: أحدهما: أنها على أصلها، قاله الأثرون. فعلى هذا في هاء الكناية

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: واضعاً جليلاً بيناً ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً، قال: وصيت مكة أم القرى، لأنها أشرف من سائر البلاد، لأجل كثرة مذكورة في مواضعها، قال: ومن أوجز ذلك وأدله ما قاله الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: إن عبد الله بن عبد بن الحمراء الزهري أخبرني أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزرة في سوق مكة: فوالله إنك لتخبر أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنه أخرجت منك ما خرجت؛ قال ابن كثير: هكذا رواية الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث الزهري به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى بطون الإناث وقد تقدم ذكر الأزواج، قاله زيد بن أسلم. فعلى هذا يكون المعنى: يخلقكم في بطون النساء، وإلى نحو هذا ذهب ابن قتيبة، فقال: يخلقكم في الرِّجَم أو في الرُّوج^(١)؛ وقال ابن جرير: يخلقكم فيما جعل لكم من أزواجكم، ويعيشكم فيما جعل لكم من الأنعام. والثاني: أنها ترجع إلى الأرض، قاله ابن زيد؛ فعلى هذا يكون المعنى: يذروكم فيما خلق من السموات والأرض. والثالث: أنها ترجع إلى الجعل المذكور؛ ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: يعيشكم فيما جعل من الأنعام، قاله مقاتل. والثاني: يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر من جعل الأزواج، قاله الواحدي. والقول الثاني: أن «فيه» بمعنى «به»؛ والمعنى: يكثركم بما جعل لكم، قاله الفراء، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ قال ابن قتيبة: أي: ليس كهو شيء، والعرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول: مثلي لا يقال له هذا، أي: أنا لا يقال لي هذا. وقال الزجاج: الكاف مؤكدة، والمعنى: ليس مثله شيء. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الزمر: ٦٣، الرعد: ٢٦]. إلى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾ أي: بين وأوضح ﴿يَوْمَ الَّذِينَ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تحليل الحلال وتحريم الحرام، قاله قتادة. والثاني: تحريم الأخوات والأمهات، قاله الحكم. والثالث: التوحيد وترك الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن وشرائع الإسلام، قال الزجاج: المعنى: وشرع الذي أوحينا إليك وشرع لكم ما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى^(٢). وقوله: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا الَّذِينَ﴾ تفسير قوله: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾، وجائز أن يكون تفسيراً لـ ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ ولقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ولقوله: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا﴾^(٣) به إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى، فيكون المعنى: شرع لكم ولمن قبلكم إقامة الدين وترك الفُرقة، وشرع الإجتماع على أتباع الرسل. وقال مقاتل: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا الَّذِينَ﴾ يعني التوحيد ﴿وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ﴾ أي: لا تختلفوا ﴿كَبَّرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عظم على مشركي مكة ﴿مَا نَدَّعَوْهُمْ إِلَيْهِ﴾ يا محمد من التوحيد.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَخْتَصِمُ إِلَيْهِ﴾ أي: يصطفي من عباده ليدينه ﴿مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي﴾ إلى دينه ﴿مَنْ يُنِيبُ﴾ أي: يرجع إلى طاعته. ثم ذكر افتراقهم بعد أن أوصاهم بترك الفُرقة، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ يعني أهل الكتاب ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْكِتَابُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من بعد كثرة علمهم للبغي. والثاني: من بعد أن علموا أن الفُرقة ضلال. والثالث: من بعد ما جاءهم القرآن، بغياً منهم على محمد ﷺ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في تأخير المكذبين من هذه الأمة إلى يوم القيامة، ﴿لَفُصِّحَتْ بَيْنَهُمْ﴾ بإنزال العذاب على المكذبين ﴿وَلَنْ الَّذِينَ أَوْفُوا بِكِتَابِهِ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿يَوْمَ يَعْبُدِينَ﴾ أي: من بعد أنيائهم ﴿لَنْ يَسْأَلَ سَأَلًا﴾ أي: من محمد ﷺ.

﴿فَلْيَذَلِكِ قَادِعٌ وَأَسْتَمِعَ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَلْعَبْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابِهِ وَأَمَرْتُ لِأَعْمَلِ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنْ أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجْمَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جُحُومُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيَذَلِكِ قَادِعٌ﴾ قال الفراء: المعنى: فإلى ذلك، تقول: دعوت إلى فلان، ودعوت لفلان، و«ذلك» بمعنى «هذا»؛ وللمفسرين فيه قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله ابن السائب. والثاني: أنه التوحيد، قاله مقاتل^(٤).

(١) قال القرطبي: أو في الزوج، أي: يخلقكم في بطون الإناث. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم ﷺ، وهو نوح ﷺ، وأخبرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهو إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية (الأحزاب) عليهم في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَرِثْنَا نَحْنُ مِنَ الَّذِينَ يَتَّبِعُكُمْ مِنْكُمْ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...﴾ الآية، قال: والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا لَنَا فَاعْبُدُونَا ﴿١٦﴾﴾ وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد غلات ديننا واحد» أي: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومانعهم، كقوله جل جلاله: ﴿يَكْفُرُ كَمَا كَفَرْنَا بِكُمْ بِنِعْمَةٍ رَبَّنَا﴾. اهـ.

(٣) في الأصل: «ما وصى».

(٤) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: فإلى ذلك الدين الذي شرع لكم، ووصى به نوحاً، وأوحاه إليك يا محمد، فاع عبادة الله، واستقم على =

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني أهل الكتاب، لأنهم دعوه إلى دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمِرتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قال بعض النحويين: المعنى: أمرتُ كي أعدل. وقال غيره: المعنى: أمرتُ بالعدل. وتقع «أمرتُ» على «أن»، وعلى «كي»، وعلى «اللام»؛ يقال: أمرتُ أن أعدل، وكي أعدل، ولا عدل. ثم في ما أمر أن يعدل فيه قولان: أحدهما: في الأحكام إذا تراعفوا إليه. والثاني: في تبليغ الرسالة.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو إلهنا وإن اختلفنا، فهو يجازينا بأعمالنا، فذلك قوله: ﴿لَمَّا أَعْمَلْنَا﴾ أي: جزاها. ﴿لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال مجاهد: لا خصومة بيننا وبينكم.

فصل

وفي هذه الآية قولان: أحدهما: أنها اقتضت الاختصار على الإنذار، وذلك قبل القتال، ثم نزلت آية السيف فنسختها، قاله الأكثرون. والثاني: أن معناها: إن الكلام - بعد ظهور الحجج والبراهين - قد سقط بيننا، فعلى هذا هي مُحْكَمَةٌ، حكاه شيخنا علي بن عبيد الله عن طائفة من المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: يُخَاصِمُونَ في دينه، قال قتادة: هم اليهود، قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، فنحن خير منكم. وعلى قول مجاهد: هم المشركون، طمعوا أن تعود الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ بَعْدَ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾ أي: من بعد إجابة الناس إلى الإسلام؛ ﴿عَجِبْتُمْ دَاحِضَةً﴾ أي: خصومتهم باطلة.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٧﴾ يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِفُونَ بِهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ آلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَمَيَّ سَكَلٍ بَعِيدٍ ﴿٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَرَزَقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَتْ رِيْدُ حَرْتِ الْآخِرَةِ فَرَدَ لَهُمْ فِي حَرْبِهِ وَمَنْ كَانَتْ رِيْدُ حَرْتِ الدُّنْيَا فَوَدَّ بِهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: لم ينزله لغير شيء، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه العدل، قاله ابن عباس، وقاتدة، والجمهور. والثاني: أنه الذي يوزن به، حكى عن مجاهد. ومعنى إنزاله: إلهام الخلق أن يعملوا به، وأمر الله ﷻ إياهم بالإنصاف، وسمي العدل ميزاناً، لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق. وتام الآية مشروح في [الأحزاب: ٦٣].

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ لأنهم لا يخافون ما فيها، إذ لم يؤمنوا بكونها، فهم يطلبون قيامها استبعاداً واستهزاءً، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِفُونَ﴾ أي: خائفون ﴿وبها﴾ لأنهم يعلمون أنهم مُحَاسِبُونَ ومَجْزِيُّونَ، ولا يدرون ما يكون منهم، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: أنها كائنة لا محالة. ﴿آلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي: يُخَاصِمُونَ في كونها ﴿لَمَيَّ سَكَلٍ بَعِيدٍ﴾ حين لم يفكروا، فعملوا قدرة الله على إقامتها. ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ قد شرحنا معنى [اسمه] «اللطيف» في [الأنعام: ١٠٣]. وفي عبادته ما هنا قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون. والثاني: أنه عامٌ في الكل. ولطفه بالفاجر: أنه لا يهلكه. ﴿رَزَقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع له الرزق.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ رِيْدُ حَرْتِ الْآخِرَةِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: عمل الآخرة، يقال: فلان يحرت للذنيا، أي: يعمل لها ويجمع المال؛ فالمعنى: من أراد بعمله الآخرة ﴿رَزَقُ لَهُمْ فِي حَرْبِهِ﴾ أي: نُصَاعِفُ له الحسنات. قال

العمل به، ولا ترغ عنه، وأثبت عليه كما أمرك ربك بالاستقامة. اهـ.

وقال ابن كثير: اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلة كل منها مفصلة عن التي قبلها، حُكِمَ برأسها، قال: قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرمي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه، قال: وقوله: ﴿فَيَذَلِّكَ نَازِحٌ﴾ أي: فالذي أوحينا إليك من الدين الذي وطينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار الشبعة كأولي النزوم وغيرهم فادع الناس إليه، قال: وقوله ﷻ: ﴿وَأَسْتَقِيمُ كَعَمَّا أُرِيتُ﴾ أي: واستقم أنت ومن أتبعك على عبادة الله تعالى كما أمرك الله ﷻ. اهـ.

المفسرون: من أراد العمل لله بما يرضيه، أعانه الله على عبادته، ومن أراد الدنيا مؤثراً لها على الآخرة لأنه غير مؤمن بالآخرة، يؤته منها، وهو الذي قسم له، ﴿وَمَا لَكُمْ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (١) لأنه كافر بها لم يعمل لها (١).

فصل

اتفق العلماء على أن أول هذه الآية إلى «حرته» مُحَكَّم، واختلفوا في باقيها على قولين: أحدهما: [أنه] منسوخ بقوله: ﴿عَجَبْنَا لَكُمْ فِيهَا مَا نَشَأُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، وهذا قول جماعة منهم مقاتل. والثاني: أن الآيتين مُحَكَّمتان مَثَقَتان في المعنى، لأنه لم يقل في هذه الآية: نؤته مُراداً، فَعَلِمَ أنه إنما يؤتيه الله. ما أراد، وهذا موافق لقوله: ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾، ويَحَقِّقُ هذا أن لفظ الآيتين لفظ الخبر ومعناهما معنى الخبر، وذلك لا يدخله النسخ، وهذا مذهب جماعة منهم قتادة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَوَلَّوْا كَلِمَةَ الْفَصْلِ لِقَوْمٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣) ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَأَعْلَمُ الصَّالِحِينَ هَلْ لَا أَنْتَكُمُ عَلَيْهِ أَجْرٌ إِلَّا التَّوَدُّعُ فِي الرِّقَابِ وَمَنْ يُتَرَفَقْ حَسَنَةً زَادَ لَهَا حَسَنَةً إِنَّ اللَّهَ عَفُوفٌ شَكُورٌ (٤) أَمْ يَقُولُونَ افْعَلْ عَلَيَّ كَمَا فَعَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني كفار مكة؛ والمعنى: أَلَهُمْ آلِهَةٌ ﴿شَرَعُوا﴾ أي: ابتدعوا ﴿لَهُمْ﴾ دِيناً لم يأذن به الله؟ (٢) ﴿وَوَلَّوْا كَلِمَةَ الْفَصْلِ﴾ وهي: القضاء السابق بأن الجزاء يكون في القيامة ﴿لِقَوْمٍ يَنْهَوْنَ﴾ في الدنيا بنزول العذاب على المكذبين. والظالمون في هذه الآية والتي تليها: يراد بهم المشركون. والإشفاق: الخوف. والذي كَسَبُوا: هو الكفر والتكذيب، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ يعني جزاءه. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: ما تقدم ذكره من الجنات ﴿الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: «ذلك» بمعنى: هذا الذي أخبركم به بشي يسر الله بها عباده. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمره، والكسائي: «يُسْرُ» بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين.

قوله تعالى: ﴿هَلْ لَا أَنْتَكُمُ عَلَيْهِ أَجْرٌ﴾ في سبب نزول هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن المشركين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ بمكة، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس (٣). والثاني: أنه لما قَدِمَ المدينة كانت تُثَرِبُه نوابُ وليس في يده سَعَةٌ، فقال الأنصار: إن هذا الرجل قد هداكم الله به، وليس في يده سَعَةٌ، فاجتمعوا له من أموالكم ما لا يضركم، ففعلوا ثم أتوه به، فنزلت هذه الآية، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً (٤). والثالث: أن المشركين اجتمعوا في مجمع لهم، فقال بعضهم لبعض: أترون محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة (٥). والهاء في «عليه» كناية عما جاء به من الهدى. وفي الاستثناء هاهنا قولان: أحدهما: أنه من الجنس، فعلى هذا يكون سائلاً

(١) قال ابن كثير: أي: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همّ البتة بالكليّة، حرمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل لها هذه، وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، قال: والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التي في ﴿يَسْتَعِينُ﴾ وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغَنَاءَ فَلْيَسْعْ وَمَنْ كَانَ يُرِيدِ الثَّرْثَرَةَ فَلْيَصْطِرْ﴾ (١) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَهَا لَهَا سَعَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ تَأْتِيكَ كَسَابَةٌ شَاهِدٌ تَشْكُرُ (٢) كَلَّا لَئِنِ دُئِنُوا لَكَلِمَةً يَنْتَوُونَ مِنْ عَمَلِهِمْ مَنْ وَكَلَّ وَهِيَ وَمَا كَانَ عَمَلَهُ رَبِّكَ مُنْتَهَى (٣) أَنْتُمْ كَيْتَ فَلَنْ نَسْتَعِينَهُ عَلَى صَغِيرَةٍ وَلَا كَثِيرَةٍ أَوْ نَزْهَةٍ وَآكُفَّرْ بِتُجْلِبَا (٤) [الإسراء].

(٢) قال ابن كثير: وقوله جل وعلا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القيم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأموال الفاسدة. اهـ.

(٣) قال السيوطي في «الدر» ٦/٦١: أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس ؓ قال: نزلت هذه الآية بمكة، وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿لَنْ﴾ لهم. يا محمد: ﴿لَا أَنْتَكُمُ عَلَيْهِ﴾ يعني على ما أَدْعَوْكُمْ إِلَيْهِ ﴿أَجْرًا﴾ عوضاً من الدنيا ﴿إِلَّا التَّوَدُّعُ فِي الرِّقَابِ﴾ إلا الحفظ في قرابتي فيكم.

(٤) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٣ عن ابن عباس بدون سند. (٥) وكذلك ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٣ عن قتادة بدون سند.

أجرأ. وقد أشار ابن عباس في رواية الضحاك إلى هذا المعنى، ثم قال: نُسخت هذه بقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ...﴾ الآية (سبا: ٤٤٧)، وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل. والثاني: أنه استثناء من غير الأول، لأن الأنبياء لا يسألون على تبليغهم أجرأ؛ وإنما المعنى: لكُنِّي أذكركم المؤدّة في القرئى، وقد روى هذا المعنى جماعة عن ابن عباس، منهم العوفي، وهذا اختيار المحققين، وهو الصحيح، فلا يتوجّه النسخ أصلاً^(١). وفي المراد بالقرئى خمسة أقوال: أحدها: أن معنى الكلام: إلا أن تؤدوني لقرابتي منكم، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد في الأكثرين، قاله ابن عباس: ولم يكن بطنٌ من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة. والثاني: [إلا أن] تؤدوا قرابتي، قاله علي بن الحسين، وسعيد بن جبير، والسدي. ثم في المراد بقرابته قولان: أحدهما: علي وفاطمة وولدها، وقد روه مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ^(٢). والثاني: أنهم الذين تخرم عليهم الصدقة ويُقسّم فيهم الخمس، وهم بنو هاشم وبنو المطلب. والثالث: أن المعنى: إلا أن تؤدوا إلى الله تعالى فيما يقرّبكم إليه من العمل الصالح، قاله الحسن، وقتادة. والرابع: إلا أن تؤدوني، كما تؤفون قرابتكم، قاله ابن زيد. والخامس: إلا أن تؤدوا قرابتكم وتصلوا أرحامكم، حكاه الماوردي. والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْرَقْ﴾ أي: مَنْ يَكْتَسِبُ ﴿حَسَنَةً زَدَتْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا﴾ أي: نُضاعفها بالواحدة عشراً فصاعداً. وقرأ ابن السميع، وابن يعمر، والجحدري: ﴿يَزِدْ لَهُ﴾ بالياء. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ لِلذُّنُوبِ﴾، ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل حتى يضاعفه. ﴿أَمْ يَتَوَلَّوْنَ﴾ أي: بل يقول كفار مكة ﴿أَنفَعَكِ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ حين زعم أن القرآن من عند الله! ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّرْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يَخْتِمُ على قلبك فيُنسِك القرآن، قاله قتادة. والثاني: يَرْبِط على قلبك بالصبر على أذاهم فلا يَشُقُّ عليك قولهم: إنك مفتي، قاله مقاتل، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَيَسَّخُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ قال الفراء: ليس بمردود على ﴿يَخْتِمُ﴾ فيكون جزءاً، وإنما هو مستأنف، ومثله مما حذفت منه الواو، ﴿وَيَبِغِ الْإِنْسَانَ بِأَنْفَرِهِ﴾ [الإسراء: ٤١]. وقال الكسائي: فيه تقديم وتأخير. تقديره: والله يمحو الباطل. وقال الزجاج: الوقف عليها «ويعمحوها» بواو وألف؛ والمعنى: والله يمحو الباطل على كل حال، غير أنها كُتبت في المصاحف بغير واو، لأن الواو تسقط في اللفظ لالتقاء الساكنين، فكتبت على الوصل، ولفظ الواو ثابت؛ والمعنى: ويمحو الله الشرك ويحق الحق بما أنزله من كتابه على لسان نبيه ﷺ.

﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴿وَلَوْ سَئَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُؤْتِي بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِبِئَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ قد ذكرناه في [إبراهيم: ١٠٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَسَّخُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ أي: من خير وشر. قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بالتاء، وقرأ الباقون: بالياء، على الإخبار عن المشركين والتهديد لهم. و«يستجيب» بمعنى يُجيب. وفيه قولان. أحدهما: أن الفعل

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالمراد وأشبهها بظاهر التنزيل قول من قال: معنا: قل لا أسألكم عليه أجرأ بما معشر قريش، إلا أن تؤدوني في قرابتي منكم وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ لَئِنْ إِلَّا التَّوْبَةَ فِي التَّوْبَةِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطونه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم مني، وتقدوني بأبلغ رسالات ربي، إن لم تصدوني فلا تصدوني بما بيني وبينكم من القرابة. اهـ.

(٢) قال السيوطي في «الدرر»: ٧/٦: أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ لَئِنْ إِلَّا التَّوْبَةَ فِي التَّوْبَةِ﴾ قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت موتهم؟ قال: «علي وفاطمة وولدها» وقد ذكره الحافظ ابن حجر في «تخریج الكشاف» وقال: في سنة حسين الأشقر ضعيف ساقط، قال: وقد عارضه ما هو أولى منه، ففي البخاري من رواية طاووس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية، فقال سعيد بن جبير: قرئ آل محمد ﷺ؟ فقال ابن عباس: «عجلت»، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة... الحديث. قال ابن كثير: ولا نكر الوصلة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرأ وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا ميثمين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة كما كان عليه سلفهم كالمباين وبينه، وعلي وأهل بيته وقرئته، ﷺ أجمعين. اهـ.

فيه لله، والمعنى: فيجيبهم إذا سألوه؛ وقد روى قتادة عن أبي إبراهيم اللخمي^(١)، ﴿وَسَجَّيْبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: يُشْفَعُونَ في إخوانهم، ﴿وَزَيْدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: يُشْفَعُونَ في إخوان إخوانهم. والثاني: أنه للمؤمنين؛ فالمعنى: يجيبونه. والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ قال حَبَاب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنا نَظَرْنَا إلى أموال بني قريظة والنضير فتمتيناها، فنزلت هذه الآية^(٢). ومعنى الآية: لو أوسع الله الرزق لعباده لبطروا وعضوا وبغى بعضهم على بعض، ﴿وَلَكِنْ يُزِيلُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: ينزل أمره بتقدير ما يشاء مما يصلح أمورهم ولا يطغيهم ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُوهُ حَيْثُ بَدِيرٌ﴾ فمنهم من لا يصلحه إلا الغنى، ومنهم من لا يصلحه إلا الفقر^(٣).

﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْفَيْتَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَاكِّنٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ مِنْكُمْ مِنْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْفَيْتَ﴾ يعني المطر وقت الحاجة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي: يشوا، وذلك أدعى لهم إلى شكر منزلته ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ في الرحمة هاهنا قولان: أحدهما: المطر، قاله مقاتل؛ والثاني: الشمس بعد المطر، حكاه أبو سليمان الدمشقي. وقد ذكرنا «الولي» في سورة [النساء: ٤٥] و«الحميد» في [البقرة: ٢٦٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ وهو ما يلحق المؤمن من مكروه ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من المعاصي. وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بغير فاء، وكذلك [هي] في مصاحف أهل المدينة والشام، ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ من السيئات فلا يعاقب بها. وقيل لأبي سليمان الداراني: ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمَّن أساء إليهم؟ قال: إنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم، وقرأ هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ إن أراد الله عقوبتكم، وهذا يدخل فيه الكفار والعصاة كلهم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ﴿٢٩﴾ إن بَسَّأَ يُسْكِنُ الرِّيحَ فَيُظَلِّلَنَّ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٠﴾ أَوْ يُوقِعَهُنَّ يَمًا كَسْبًا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣١﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُبَدِّلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِسَابٍ ﴿٣٢﴾ قَا أَوْيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنَجِّئِمْهُمُ الْحَبِوَةَ الْأَدْنَىٰ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَيْبٍ أَنْ يَكُونُوا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ﴾ والمراد بالجوار: السفن. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «الجوارى» بياء في الوصل، إلا أن ابن كثير يقف أيضاً بياء، وأبو عمرو بغير ياء، ويعقوب يوافق ابن كثير، والباقون بغير ياء في الوصل والوقف؛ قال أبو علي: والقياس ما ذهب إليه ابن كثير، ومن حذف، فقد كثر حذف مثل هذا في كلامهم. ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ قال ابن قتيبة: كالجبال، واحدها: عَلم. وروي عن الخليل بن أحمد أنه قال: كل شيء مرتفع - عند العرب - فهو عَلم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ بَسَّأَ يُسْكِنُ الرِّيحَ﴾ التي تُجربها ﴿فَيُظَلِّلَنَّ﴾ يعني الجوارى ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ أي: سواكن على ظهر البحر [لا يَجْرِينَ]. ﴿أَوْ يُوقِعَهُنَّ﴾ أي: يُهْلِكُهُنَّ وَيُغْرِقُهُنَّ، والمراد أهل السفن، ولذلك قال: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: من

(١) كذا الأصل، والذي في «الطبري»: إبراهيم اللخمي.

(٢) ذكر سبب النزول هذا عن حباب بن الأرت بهذا اللفظ الواحد في «أسباب النزول» ٢١٣ بدون سند، وكذلك ذكره البيهقي والخازن في «تفسيرهما» عن حباب رضي الله عنه بدون سند. وروى الطبري في «تفسيره» من رواية عمرو بن حريث وغيره قال: يقولون: إنما نزلت في أهل الطُّفَّة. وقال السيوطي في «الدر» ٨/٦: أخرج ابن المنذر، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند صحيح عن أبي هانئ الخولاني قال: سمعت عمرو بن حريث وغيره يقولون: إنما أنزلت هذه الآية في أهل الطُّفَّة: ﴿وَلَوْ بَسَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَطَرُوا وَغَضَبُوا﴾ ﴿وَلَوْ بَسَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَطَرُوا وَغَضَبُوا﴾ وقال السيوطي أيضاً: وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن علي رضي الله عنه قال: إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الطُّفَّة: ﴿وَلَوْ بَسَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَطَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وذلك أنهم قالوا: ﴿وَلَوْ بَسَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَطَرُوا وَغَضَبُوا﴾. انتهى.

(٣) قال ابن كثير: أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر. اهـ.

الذُّنُوبِ ﴿وَيَعْتَفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ من ذنوبهم، فيُنَجِّهِم من الهلاك. ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ قرأ نافع، وابن عامر: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ بالرفع على الاستئناف وقطعه من الأول؛ وقرأ الباقون بالنصب. قال الفراء: هو مردود على الجزم، إلا أنه صُرف، والجزم إذا صُرف عنه معطوفه نُصب. وللمفسرين في معنى الآية قولان: أحدهما: ويعلم الذين يخاصمون في آيات الله حين يؤخِّدون بالفرق أنه لا ملجأ لهم. والثاني: أنهم يعلمون بعد البعث أنه لا مهرب لهم من العذاب.

قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما أعطيتم من الدنيا فهو متاع تتمتعون به، ثم يزول سريعاً، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا للكافرين، لأنه إنما أعد لهم في الآخرة العذاب.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا اسَاءَهُمُ الْبَيْتُ مِنْ بَنِيهِمْ يَخِرَّضُونَ ﴿٣٩﴾ وَكَرُوا مَا سَخَّرَ اللَّهُ لَهُمْ وَمَا عَصَى عَنْهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٤٠﴾ وَلَكِنْ اتَّخَذَ الْمُشْرِكُونَ آلَهُمْ قُرْبَانًا فَلَوْلَا ذَلِكَ كَانَتِ الْأَرْضُ كَثَبًا زَوَالِكًا ﴿٤١﴾ وَلَكِنْ صَبَّرْنا عَلَيْهِمْ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَفِي السَّيْلِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ عَلَى الَّذِينَ يَتْلُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ يُقِرُّوا الْحَقَّ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عِزَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: «كبير الإثم» على التوحيد من غير ألف، والباقون بألف. وقد شرحنا الكبائر في سورة النساء: [٣١]. وفي المراد بالفواحش هاهنا قولان: أحدهما: الزنا. والثاني: موجبات الحدود.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: يغفون عنهم ظلمهم طلباً لثواب الله تعالى (٣٧). ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: أجابوه فيما دعاهم إليه. ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن قتيبة: أي: يتشاورون فيه [بينهم]. وقال الزجاج: المعنى أنهم لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه (٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا اسَاءَهُمُ الْبَيْتُ مِنْ بَنِيهِمْ يَخِرَّضُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ اختلفوا في [هذا] البَيْتِ على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بغي الكفار على المسلمين. قال عطاء: هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة وبعثوا عليهم، ثم مكَّنهم الله منهم فانتصروا. وقال زيد بن أسلم: كان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين بمكة، فرقة كانت تُؤدِّي فتعفو عن المشركين، وفرقة كانت تُؤدِّي فتنتصر، فأثنى الله ﷻ عليهم جميعاً، فقال في الذين لم ينتصروا: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، وقال في المنتصرين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا اسَاءَهُمُ الْبَيْتُ مِنْ بَنِيهِمْ يَخِرَّضُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ أي: من المشركين. وقال ابن زيد: ذكر المهاجرين، وكانوا صنفين، صنفاً عفا، وصنفاً انتصر، فقال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، فبدأ بهم، وقال في المنتصرين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا اسَاءَهُمُ الْبَيْتُ مِنْ بَنِيهِمْ يَخِرَّضُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ أي: من المشركين؛ وقال: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْفِرُونَ﴾ وهم الأنصار؛ ثم ذكر الصنف الثالث فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا اسَاءَهُمُ الْبَيْتُ مِنْ بَنِيهِمْ يَخِرَّضُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ من المشركين. والثاني: أنه بغي المسلمين على المسلمين خاصة. والثالث: أنه عام في جميع البغاة، سواء كانوا مسلمين أو كافرين.

فصل

واختلف في هذه الآية علماء الناسخ والمنسوخ، فذهب بعض القائلين بأنها في المشركين إلى أنها منسوخة بآية السيف، فكانهم يشيرون إلى أنها أثبتت الانتصار بعد بغي المشركين، فلما جاز لنا أن نبدأهم بالقتال، دلَّ على أنها منسوخة. وللقائلين بأنها في المسلمين قولان: أحدهما: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَلَكِنْ صَبَّرْنا عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٤٣] فكانت بَيِّهت على مدح المنتصر، ثم أعلمنا أن الصبر والغفران أمدح، فبان وجه النسخ. والثاني: أنها محكمة، لأن الصبر

(١) انظر ٢٧٥.

(٢) قال ابن كثير: أي: سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس.

(٣) قال ابن كثير: أي: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليساعدوا بأرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا فِي الْكُفْرِ... الآية﴾، قال: ولهذا كان ﷺ يتشاورهم في الحروب ونحوها ليطلب بذلك قلوبهم، قال: وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب ﷺ الوفاة حين طُن من جمل الأمر بعده شوري في ستة نفر، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، ﷺ، فاجتمع رأي الصحابة كلهم ﷺ على تقديم عثمان عليهم، ﷺ. اهـ.

والغفران فضيلة، والانتصار مباح، فعلى هذا تكون محكمة، [وهو الأصح]. فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية - وظاهرها مدح المنتصر - وبين آيات الحث على العفو؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه انتصار المسلمين من الكافرين، وتلك رتبة الجهاد كما ذكرنا عن عطاء. والثاني: أن المنتصر لم يخرج عن فعل أبيض له، وإن كان للعفو أفضل، ومن لم يخرج من الشرع بفعله، حسن مدحه. قال ابن زيد: جعل الله المؤمنين صنفين، صنف يعفو، فبدا يذكره، وصنف ينتصر. والثالث: أنه إذا بنى على المؤمن فاستحق، فلا بد له اجترأ الفساق عليه، وليس للمؤمن أن يذلل نفسه، فينبغي له أن يكسر شوكة العصاة لتكون الجزة لأهل الدين. قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون للمؤمنين أن يذللوا أنفسهم فيجترأ عليهم الفساق، فإذا قدروا عفووا. وقال القاضي أبو يعلى: هذه الآية محمولة على من تعدى وأصر على ذلك، وآيات العفو محمولة على أن يكون الجاني نادماً.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا سَيِّئًا يَبْتَغِيهَا﴾ قال مجاهد والسدي: هو جواب القبيح، إذا قال له كلمة أجابه بمثلها من غير أن يعتدي. وقال مقاتل: هذا في القصاص في الجراحات والدماء. ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ فلم يقتص ﴿وَأَمْلَحَ﴾ العمل ﴿فَأَجْرٌ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَجِدُ الْفَالِغِينَ﴾ يعني من بدأ بالظلم. وإنما سُمي المجازاة سيئة، لما بيئنا عند قوله: ﴿فَمَنْ عَفَاكَ عَلَيْهِمْ فَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ [البقرة: ١٧٤]. قال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مُنادٍ: لِيَقُمْ مَنْ كَانَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، فلا يقوم إلا مَنْ عفا. ﴿وَلَمَنْ أَسْرَبَ بِدَارِكِهِ﴾ أي: بعد ظلم الظالم إياه؛ والمصدر هاهنا مضاف إلى المفعول، ونظيره: ﴿وَمَنْ دَعَا الْخَيْرَ﴾ [نصفت: ٤٩] ﴿وَسُؤَالَ تَعْيِكَ﴾^(١) [ص: ٢٤]، ﴿فَأُولَئِكَ﴾ يعني المنتصرين ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: من طريق إلى لزوم ولا حد، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ النَّاسَ﴾ أي: يبتدئون بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: يعملون فيها بالمعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ سَبَّ﴾ فلم ينتصر ﴿وَعَفَا لِمَنْ ذَلَّ﴾ الصبر والتجاوز ﴿لَمَنْ عَزَّى الْأُمُورِ﴾ وقد شرحناه في لآل عمران: [١٨٦].

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَادٍ مِنْ بَعْدِهِ وَرَى الْفَالِغِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُ هَلْ إِلَى مَرَزٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [١٧٤] ﴿وَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا حَشِيعَةً مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ حَافِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْمُتَسِدِّينَ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الْفَالِغِينَ فِي عَذَابٍ مُتَّفِقٍ﴾ [١٧٥] ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [١٧٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَادٍ﴾ أي: من أحد يلي هدايته بعد إضلال الله إياه. ﴿وَرَى الْفَالِغِينَ﴾ يعني المشركين ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ في الآخرة يسألون الرجعة إلى الدنيا ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَزٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾؟ ﴿وَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿حَشِيعَةً﴾ أي: خاضعين متواضعين ﴿وَمِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ حَافِيٍّ﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: من طرف ذليل، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. وقال الأخفش: ينظرون من عين ضعيفة. وقال غيره: ﴿مِنْ﴾ بمعنى «الباء». والثاني: يسارقون النظر، قاله قتادة، والسدي. والثالث: ينظرون ببعض العين، قاله أبو عبيدة. والرابع: أنهم ينظرون إلى النار بقلوبهم، لأنهم قد حُشروا حُشياً، فلم يروها بأعينهم، حكاها الفراء، والزجاج. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأنعام: ١٢، مود: ٣٩] إلى قوله: ﴿يَصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يمتعونهم من عذاب الله.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ [١٧٧] ﴿فَمَنْ أَعْرَضُوا﴾ [١٧٨] ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْكَلْعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ مِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [١٧٩] ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْتَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً إِنَّهُ يَسْمَعُ الْدُّكُورَ﴾ [١٨٠] أَوْ يُرْجِعُهُمْ دُكْرَانًا وَيَسْمَعُ مِمَّا يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [١٨١].

قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أي: اجيبوه، فقد دعاكم برسوله ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَا مَرَّةَ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا يقدر أحد على رده ودفعه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ﴾ تلجؤون إليه، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ قال مجاهد:

من ناصر ينضركم. وقال غيره: من فُدره على تغيير ما نزل بكم^(١). ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإجابة ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ لحفظ أعمالهم ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَدُ﴾ أي: ما عليك إلا أن تبلغهم. وهذا عند المفسرين منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿وَرِئًا إِذَا أَقْنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحَمَةَ رَبِّهِ﴾ قال المفسرون: المراد به: الكافر؛ والرحمة: الغنى والصحة والمطر ونحو ذلك، والسببية: المرض والفقر والقحط [ونحو ذلك]. والإنسان هاهنا: اسم جنس، فلذلك قال: ﴿وَرِئًا فُضِيهِمْ سَبِيحًا بِمَا قَدَّمَتْ آيَاتِهِمْ﴾ أي: بما سلف من مخالفتهم ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ بما سلف من النعم. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ أي: له التصرف فيها بما يريد، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا﴾ يعني البنات ليس فيهن ذكر، كما وهب للوط عليه السلام، فلم يولد له إلا البنات ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَرَ﴾ يعني البنين ليس معهم أنثى، كما وهب لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، [فلم يولد له إلا الذكور]. ﴿أَوْ بُرُوجُهُمْ﴾ يعني الإناث والذكور. قال الزجاج: ومعنى «بُرُوجُهُمْ»: يَبْرُؤُهُمْ. وكل شيئين يقترن أحدهما بالآخر، فهما زوجان، ويقال لكل واحد منهما: زوج، تقول: عندي زوجان من الخفاف، يعني اثنين. وفي معنى الكلام للمفسرين قولان: أحدهما: أنه وضع المرأة غلاماً ثم جارية ثم غلاماً ثم جارية، قاله مجاهد والجمهور. والثاني: [أنه] وضع المرأة جاريةً وغلاماً توأمين، قاله ابن الحنفية. قالوا: وذلك كما جمع لمحمد ﷺ، فإنه وهب له بنين وبنات، ﴿وَيَجْمَعُ مَن يَشَاءُ عَفِيمًا﴾ لا يولد له، كيحیی بن زكريا عليه السلام. وهذه الأقسام موجودة في سائر الناس، وإنما ذكروا الأنبياء تمثيلاً.

﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْحِقَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن رَّوَاهِي حِجَابٍ أَوْ رِيْسِلٍ رَّسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُحْمًا مِّنْ أَمْرًا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٥١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْحِقَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ قال المفسرون: سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتنتظر إليه إن كنت نبياً صادقاً كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فقال لهم: «لم ينظر موسى إلى الله»، ونزلت هذه الآية^(٢). والمراد بالوحي هاهنا: الوحي في المنام. ﴿أَوْ مِن رَّوَاهِي حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى^(٣). ﴿أَوْ رِيْسِلٍ﴾ قرأ نافع وابن عامر: «يُورِسِلُ» بالرفع «فَيُوحِي» بسكون الياء. وقرأ الباقون: «يُورِسِلُ» بنصب اللام «فيوحي» بتحريك الياء، والمعنى: «أو يرسل رسولاً» كجبرائيل «فيوحي» ذلك الرسول إلى المرسل إليه ﴿بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾. قال مكي بن أبي طالب: من قرأ «أو يرسل» بالنصب، عطفه على معنى قوله: «إلا وحياً» لأنه بمعنى: إلا أن يوحي. ومن قرأ بالرفع، فعلى الإبتداء، كأنه قال: أو هو يرسل. قال القاضي أبو يعلى: وهذه الآية محمولة على أنه لا يكلم بشراً إلا من وراء حجاب في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما أوحينا إلى الرُّسُلِ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، وقيل: الواو عطف على أول السورة، فالمعنى: كذلك نوحى إليك وإلى الذين من قبلك. ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُحْمًا مِّنْ أَمْرًا﴾ قال ابن عباس: هو القرآن. وقال

(١) قال ابن كثير: لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأحوال والأمور العظام الهائلة، حذر منه، وأمر بالاستعداد له فقال: ﴿أَسْتَجِيبُ لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ بِيَوْمَ لَا مَرَّةَ لَهُ مِنْ رَبِّكَ أَمْرًا﴾ أي: إذا أمر بكونه، فإنه كلمح البصر يكون وليس له دافع ولا مانع، قال: وقوله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ مِّن تَمَكُّلٍ يَتَّبِعُونَ وَمَا لَكُمْ مِّن تَكْبِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصن تحصنتمون فيه، ولا مكان يستتركم وتتكبرون فيه فتفبيون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿يُنزِّلُ الْإِنْسَانَ يَتَّيِبُ إِلَيْهِ أَلْسِنَهُ﴾ ﴿كَلَّا لَا تَتَذَكَّرُ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِبُيُوتِكُمْ لَشَهِيدٌ﴾ ﴿٥١﴾. اهـ.

(٢) ذكر سبب النزول هذا الواحد في «أسباب النزول» ٢١٤ بدون سند، وكذلك ذكره البغوي والخازن وغيرهما بدون سند. وقال الحافظ ابن حجر في «تخریج الكشاف»: حديث أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتنتظر إليه، فإن لن تؤمن لك حتى تفعل ذلك، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْحِقَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ لم أجده. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله ﷻ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في رُوح النبي ﷺ شيئاً لا يتماهى فيه أنه من الله ﷻ، كما جاء في «صحيح ابن حبان» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فأتقوا الله وأجمعوا في الطلب» قال: وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن رَّوَاهِي حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام فإنه سأل الروية بعد التكلم فحجب عنها. ثم قال: وقوله ﷻ: ﴿أَوْ رِيْسِلٍ رَّسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

مقاتل: وَحِيًّا بَأْمَرِنَا^(١).

قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ وذلك أنه لم يكن يعرف القرآن قبل الوحي ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بمعنى الدعوة إلى الإيمان، قاله أبو العالية. والثاني: أن المراد به شرائع الإيمان ومعالمه، وهي كلها إيمان؛ وقد سُمِّي الصلاة إيماناً بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِسْمَتَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، هذا اختيار ابن قتيبة، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة. والثالث: أنه ما كان يعرف الإيمان حين كان في المهد وإذ كان طفلاً قبل البلوغ، حكاه الواحدي. والقول ما اختاره ابن قتيبة، وابن خزيمة، وقد اشتهر في الحديث عنه ﷺ أنه كان قبل النبوة يوحد الله، وَيُغِضُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَيُحُجُّ وَيَعْتَمِر، وَيَتَّبِعُ شَرِيعَةَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ. قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه، فهو قول سوء، ليس كان لا يأكل ما ذُبيح على النُّصب؟ وقال ابن قتيبة: قد جاء في الحديث أنه كان على دين قومه أربعين سنة. ومعناه: أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين إسماعيل، من ذلك جُحُّ البيت، والختان، وإيقاع الطلاق إذا كان ثلاثاً، وأن للزوج الرجعة في الواحدة والاثنتين، ودية النفس مائة من الإبل، والغسل من الجنابة، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر. وكان عليه الصلاة والسلام على ما كانوا عليه من الإيمان بالله والعمل بشرائعهم في الختان والغسل والحج، وكان لا يقرب الأوثان، ويعيها. وكان لا يعرف شرائع الله التي شرعها لعباده على لسانه، فذلك قوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ [يعني القرآن] ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ يعني شرائع الإيمان؛ ولم يُرد الإيمان الذي هو الإقرار بالله، لأن آباءه الذين ماتوا على الشرك كانوا يؤمنون بالله ويحجون له [البيت] مع شركهم. قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ جَلَلَتَهُ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن. والثاني: إلى الإيمان. ﴿تُورَا﴾ أي: ضياءً ودليلاً على التوحيد ﴿تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ﴾ [من عبادنا] إلى دين الحق^(٢). ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي﴾ أي: لتدعو ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام^(٣).



(١) في الأصل: هو وحياً بأمرنا.

(٢) قال البغوي في تفسيره: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ قبل الوحي ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ يعني شرائع الإيمان ومعالمه، قال: وقال محمد بن خزيمة: الإيمان في هذا الموضع: الصلاة، ودليله قوله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِسْمَتَكُمْ﴾ قال: وأهل الأصول على أن الأنبياء ﷺ كانوا مؤمنين قبل الوحي، وكان النبي ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم ولم يتبين له شرائع دينه. اهـ.

وقال ابن كثير: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن. اهـ. وقال الشوكاني في تفسيره «فتح القدير»: ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحى إليه، فقال: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ أي: أي شيء هو؟ لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وذلك أدخل في الإعجاز وأدلى على صحة نبوته، قال: ومعنى ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أنه كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع ولا يهتدي إلى معالمها، قال: وخص الإيمان، لأنه رأسها وأساسها، قال: وقيل: أراد بالإيمان هنا: الصلاة، قال بهذا جماعة من أهل العلم، منهم إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة، قال واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِسْمَتَكُمْ﴾ يعني الصلاة، فسمها إيماناً، قال: وذهب جماعة إلى أن الله سبحانه لم يعث نبياً إلا وقد كان مؤمناً به، وقالوا: معنى الآية: ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿تَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الحق القويم، ثم قال في تمة الآية: ثم فسره بقوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ أي: شرعه الذي أمر به الله ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ فَكَيْفَ اسْتَنْزَلَتْ وَمَا فِي الْأَرْشِينِ﴾ أي: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿إِلَّا إِلَهُهُ تَسْبِيحُ الْأَرْشِينِ﴾ أي: ترجع الأمور فيفضلها ويحكم فيها، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. اهـ.

سورة الزخرف

وهي مكيّة ياجماعهم

وقال مقاتل: هي مكيّة، إلا آية، وهي ^(١) قوله: ﴿وَمَثَلٌ مِّنْ أَرْسَلْنَا﴾ [الزخرف: ٤٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الْيَمِينِ

﴿حَمْدٌ﴾ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَإِنَّمَا فِي أَرْكِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ④ أَنْضَرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ⑤ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑦ فَأَهْلَكْنَا أَسَدًّا مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ⑧ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ⑨ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑩

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ﴾ ① قد تقدم بيانه [المؤمن]. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ② قسم بالقرآن. ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ قال سعيد بن جبير: أنزلناه. وما بعد هذا قد تقدم بيانه [النساء: ٨٢، يوسف: ٢] إلى قوله: ﴿وَإِنَّمَا﴾ يعني القرآن ﴿فِي أَرْكِ الْكِتَابِ﴾ قال الزجاج: أي: في أصل الكتاب، وأصل كل شيء: أمه، والقرآن مُثَبَّتٌ عند الله ﷻ في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا ﴿لَعَلِّي﴾ أي: رفيع. وفي معنى الحكيم قولان: أحدهما: مُحْكَمٌ، أي: ممنوعٌ من الباطل، قاله مقاتل. والثاني: حاكمٌ لأهل الإيمان بالجنة ولأهل الكفر بالنار، ذكره أبو سليمان الدمشقي، والمعنى: إن كذبتم به يا أهل مكة فإنه عندنا شريفٌ عظيمٌ المَحَلُّ.

قوله تعالى: ﴿أَنْضَرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: نُمَسِكُ عَنْكُمْ فلا نذكركم صفحاً، أي: إعراضاً، يقال: صَفَحْتُ عن فلان: إذا عرضت عنه، والأصل في ذلك أن تُولِّيه صَفْحَةَ عُنُقِكَ، قال كُثَيْبٌ يصف امرأة: صَفُوحاً فَمَا تُلْفَاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ

أي: مُعْرِضَةً بِرُجُوعِهَا، يقال: صَرَيْتُ عن فلان كذا: إذا أمسكته وأضربت عنه. ﴿أَنْ كُنْتُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «أَنْ كُنْتُمْ» بالنصب ^(٣)، أي: لأن كنتم قوماً مسرفين. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي: «إِنْ كُنْتُمْ» بكسر الهمزة. قال الزجاج: وهذا على معنى الاستقبال، أي: إن تكونوا مسرفين نُضَرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ. وفي المراد بالذِّكْر قولان: أحدهما: أنه ذِكرُ العذاب، فالمعنى: أفنمسيك عن عذابكم وترككم على كفركم! وهذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، والسدي. والثاني: أنه القرآن، فالمعنى: أفنمسيك عن إنزال القرآن من أجل أنكم لا تؤمنون به! وهو معنى قول قتادة، وابن زيد. وقال قتادة: «مُسْرِفِينَ» بمعنى مشركين. ثم أعلم نبيه أني قد بعثت رُسُلًا فكَذَّبُوا فَأَهْلَكْتُ الْمَكذِبِينَ بِالآيَاتِ التي تلي هذه.

قوله تعالى: ﴿أَسَدًّا مِنْهُمْ﴾ أي: من قريش ﴿بَطْشًا﴾ أي: قُوَّةٌ ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سبق وصف عقابهم فيما أنزل عليك. وقيل: سبق تشبيه حال أولئك بهؤلاء في التكذيب، فستقع المشابهة بينهم في الإهلاك. ثم أخبر عن جهلهم حين أقروا بأنه خالق السموات والأرض ثم عدوا غيره بالآية التي تلي هذه؛ ثم التي تليها مفسرة في [طه: ٥٣] إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي تهتدوا في أسفاركم إلى مقاصدكم.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ⑪ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ

(١) في الأصل: وهو.

(٢) «غريب القرآن» ٣٩٥، «اللسان» و«التاج»: صفح. وفي «غريب القرآن» و«التاج»: «إلا بخيلة» بدل «بخيلة».

(٣) أي: بفتح الهمزة.

الْفَالِكِ وَالْأَنْعَمِ مَا زَكَّيْنًا ﴿١٤﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا بِضَمَّةٍ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ ﴿١٥﴾ وَإِنَّا لَهُ لَنَسْفِكُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَّا السَّمَاءَ مَاءً يَقْدِرُ﴾ قال ابن عباس: يريد أنه ليس كما أنزل على قوم نوح بغير قدر فأغرقهم، بل هو بقدر ليكون نافعاً. ومعنى «أنشأنا» أحيانا.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُكَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر: «تَخْرُجُونَ» بفتح التاء. وضم الراء؛ والباقون بضم التاء وفتح الراء. وما بعد هذا قد سبق (يس: ٣٦، ٤٢) إلى قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ قال أبو عبيدة: هاء التذكير لـ «ما». ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا بِضَمَّةٍ رَبِّكُمْ﴾ إذ سَخَّرَ لَكُمْ ذَلِكَ الْمَرْكَبَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي: مُطِيقِينَ، قال ابن قتيبة: يقال: أنا مُقْرَنٌ لَكَ، أي: مُطِيقٌ لَكَ، ويقال: هو من قولهم: أنا قِرْنٌ لِفُلَانٍ: إذا كُنْتُ مِثْلَهُ فِي الشَّدَةِ، فَإِن قُلْتُ: أَنَا قِرْنٌ لِفُلَانٍ - بفتح القاف - فمعناه: أن تكون مثله بالسَّنِّ. وقال أبو عبيدة: «مُقْرِبِينَ» أي: ضابطين، يقال: فلان مُقْرِنٌ لِفُلَانٍ، أي: ضابط له.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِلَهُ رَبَّنَا لَمُسْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: راجعون في الآخرة^(١).

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْأً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَيِّنِ ﴿١٨﴾ وَإِذَا بُيِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَّبَ لِلرَّحْمَنِ مِثْلًا ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٩﴾ أَوْ مَن يُنشَأُ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْأً﴾ أنا الجعل هاهنا، فمعناه: الحكم بالشيء، وهم الذين زعموا أن الملائكة بنات الله؛ والمعنى: جعلوا له نصيباً من الولد، قال الزجاج: وأنشدني بعض أهل اللغة بيتاً يدل على أن معنى «جزء» معنى الإناث - ولا أدري البيت قديم أو مصنوع -:

إِن أُجْزِئَتْ حُرَّةٌ، يَوْمًا، فَلَا عَجَبُ
أَي: أَنْتِ، وَلِدْتَ أُنثَى^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ يعني الكافر ﴿لَكَفُورٌ﴾ أي: جحودٌ ليعم الله ﷻ ﴿مُبِينٌ﴾ أي: ظاهرٌ الكفر. ثم أنكر عليهم فقال: ﴿أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وهذا استفهام توبيخ وإنكار ﴿وَأَصْفَنَكُمْ﴾ أي: أخلصكم ﴿بِالْبَيِّنِ﴾. ﴿وَإِذَا بُيِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَّبَ لِلرَّحْمَنِ مِثْلًا﴾ أي: بما جعل لله شبها، وذلك أن ولد كل شيء شبهه وجنسه. والآية مفسرة في النحل: ٤٥٨.

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن يُنشَأُ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص: «يُنشَأُ» بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين؛ وقرأ الباقر: بفتح الياء وسكون النون. قال المبرد: تقديره: أو يجعلون من ينشأ ﴿فِي الْحَيَاةِ﴾ قال أبو عبيدة: الحلية: الجلى. قال المفسرون: والمراد بذلك: البنات، فإنهن زبين في الحلي. والخصام بمعنى المخاصمة، ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ حجة. قال قتادة: فلما تتكلم امرأة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. وقال بعضهم: هي الأصنام.

﴿وَجَعَلُوا إِلَهًا لَّيْلِكُمْ الَّذِينَ هُمْ عِبُدُ الرَّحْمَنِ إِنشَاءً أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَخَّكِبٌ شَهِدَتْهُمْ وَسْتَوُونَ ﴿٢١﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْمَرُونَ ﴿٢٢﴾ أَمْ مَا يَنْتَظِرُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ مَا يَنْتَظِرُونَ كِتَابًا مِنْ رَبِّهِمْ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِبُونَ ﴿٢٤﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا نَابِهَاتًا عَلَىٰ أَعْرُوفِنَا وَإِنَّا عَلَىٰ أَعْيُنِنَا جَبَلٌ مَّوَدَّةً ﴿٢٥﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوعًا إِنَّا وَجَدْنَا نَابِهَاتًا عَلَىٰ أَعْرُوفِنَا وَإِنَّا عَلَىٰ أَعْيُنِنَا جَبَلٌ مَّوَدَّةً ﴿٢٦﴾ فَذَلِكُنَّ أَهْلُ الْيَمِينِ يَوْمَ يُنْفَخُ أَصْفَارُهُمْ فَيُجَنَّبُوا يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمَكِيدِينَ ﴿٢٧﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكِيدِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(١) روى مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر، كبر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ وَإِنَّا لَهُ لَنَسْفِكُونَ﴾ اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عتاً بقدره، اللهم أنت صاحب السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من غشاة السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل، وإذا رجع قالهن، وزاد فيهن «أيون تايون، عابدون، لربنا حامدون».

(٢) البيت غير منسوب في «غريب القرآن» ٣٩٦، و«القرطبي» ٦٩/١٦، و«البحر المحیط» ٨/٨، و«اللسان» و«التاج»: جزأ.

(٣) قال في «غريب القرآن» نقلًا عن الزجاج: فمعنى «إن أجزاء» أي: أنت، أنت، أي: أنت بآنى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ قال الزجاج: الجعل هاهنا بمعنى القول والحكم على الشيء، تقول: قد جعلت زيداً أعلم الناس، أي: قد وصفته بذلك وحكمت به. قال المفسرون: وجعلهم الملائكة إناثاً قولهم: هُنَّ بناتُ الله.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، ويعقوب، وأبان عن عاصم، والسيبيري عن الكسائي: «عند الرحمن» بنون من غير ألف، وقرأ الباقون: «عبادُ الرحمن»، ومعنى هذه القراءة: جعلوا له من عباده بنات^(١) والقراءة الأولى موافقة لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الاحزاب: ٤٢٠٦]، وإذا كانوا في السماء كان أبعد للعلم بحالهم. «أشهدوا خلقهم» قرأ نافع، والمفضل عن عاصم: «أشهدوا» بهمزتين، الأولى مفتوحة والثانية مضمومة. وروى المسيبي عن نافع: «أؤشهدوا» ممدودة من أشهدت، والباقون لا يمدون. «أشهدوا» من شهدت، أي: أخضروهم فعرّفوا أنهم إناث؟ وهذا توبيخ لهم إذ قالوا فيما يُعلم بالمشاهدة من غير مشاهدة. «سَكَّنْتُ شَهَدْتُمْ» على الملائكة أنها بناتُ الله. وقال مقاتل: لما قال الله ﷻ: ﴿أشهدوا خلقهم﴾، سُئِلُوا عن ذلك قالوا: [لا]، فقال النبي ﷺ: «فما يُدريكم أنها إناث؟» فقالوا: سمعنا من آبائنا، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا، فقال الله: ﴿سَكَّنْتُ شَهَدْتُمْ وَتُسَكَّنُونَ﴾ عنها في الآخرة^(٢). وقرأ أبو رزين، ومجاهد: «سَكَّنْتُ» بنون مفتوحة «شهادتهم» بنصب الناء، ووافقهم ابن أبي عبله في «سَكَّنْتُ» وقرأ: «شهاداتهم» بألف.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ في المكني عنهم قولان. أحدهما: أنهم الملائكة، قاله قتادة، ومقاتل في آخرين. والثاني: الأوثان، قاله مجاهد. وإنما عَزَّوا بهذا أنه لو لم يرَضْ عبادتنا لها لعجل لعقوبتنا، فردَّ عليهم قولهم بقوله: ﴿تَا لَّهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمِي﴾. وبعض المفسرين يقول: إنما أشار بقوله: «ما لهم بذلك مِنْ عِلْمٍ» إلى ادعائهم أَنَّ الملائكة إناث؛ قال: ولم يتعرض لقولهم^(٣): «لو شاء الرحمن ما عَبَدْنَاهم»^(٤) لأنه قول صحيح؛ والذي اعتمدنا عليه أصح، لأن هذه الآية كقوله: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الانعام: ٤١٤٨]، وقوله: ﴿أَنْظِمُ مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْظِمُوا﴾ [يس: ٤٧] وقد كشفنا عن هذا المعنى هنالك. ويخْرُصُونَ بمعنى: يكذبون. وإنما كذبهم، لأنهم اعتقدوا أنه رضي منهم الكفر ديناً. «أَمْ أَنْظِمْتُمْ كَلِمًا مِنْ قَلْبِهِ» أي: مِنْ قَبْلِ هذا القرآن، أي: بأن يعبدوا غير الله ﴿فَهُمْ بِهِ سَمْتِسِين﴾ يأخذون بما فيه^(٥). «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِ» أي: على سُنَّةٍ وِثْمَةٍ وِدِينٍ ﴿وَرَبَّنَا عَلَيْنَا مَا آتَيْنَاهُمْ هُدًى﴾ فجعلوا أنفسهم مهتدين بمجرد تقليد الآباء من غير حُجَّة^(٦)؛ ثم أخبر أن غيرهم قد قال هذا القول، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما قالوا قال مُشْرَفُو الثُّرَيِّ مِنْ قَبْلِهِمْ، ﴿وَرَبَّنَا عَلَيْنَا مَا آتَيْنَاهُمْ مُفْتَدُونَ﴾ بهم. «قُلْ أَرَأَيْتُمْ جِئْتُمْكُمْ» وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ جِئْتُمْكُمْ﴾ [بألف]. قال أبو علي: فاعل «قال» التذير، المعنى: فقال لهم التذير. وقرأ أبو جعفر: «أَرَأَيْتُمْ جِئْتُمْكُمْ» بألف ونون ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ أي: بأصوب وأرشد. قال الزجاج: ومعنى الكلام: قُلْ: أَتَبْعُونَ ما وجدتم عليه آباءكم وإن جئتم بأهدى منه؟ وفي هذه الآية إبطال القول بالتقليد. قال مقاتل: فردوا على النبي ﷺ فقالوا: ﴿إِنَّا يَمَّا أَزْيَمْتُمْ بِهِ كُفْرُونًا﴾؛ ثم رجع إلى الأمم الخالية، فقال: ﴿فَأَنْظِمْنَا مِنْهُمُ...﴾ الآية^(٧).

(١) في الأصل: عن عباده بنات.

(٢) ذكر هذا الحديث البغوي في «تفسيره» عن الكلبي ومقاتل بدون سند، وهو مقطوع. وذكره الخازن أيضاً من غير سند، ولم يعزّه لأحد.

(٣) في الأصل: بقولهم.

(٤) في الأصل: لو شاء الله ما عبَدناهم، ولفظ الآية كما أثبتناه.

(٥) قال ابن كثير: يقول تعالى منكرًا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ أَنْظِمْتُمْ كَلِمًا مِنْ قَلْبِهِ﴾ أي: من قبل شركهم ﴿فَهُمْ بِهِ سَمْتِسِين﴾ أي فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، كقوله ﷻ: ﴿أَمْ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ سَلَكْنَا فَرْسَاتِكُمْ بِمَا كَانُوا بِهِ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لم يكن ذلك. اهـ.

(٦) قال ابن كثير: أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمّة، قال: والمراد بها الدين هاهنا وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبَّنَا قَلْبِي أُنْزِلْهُ إِنَّهُ وَبِيءٌ﴾، قال: وقولهم: ﴿وَرَبَّنَا عَلَيْنَا مَا آتَيْنَاهُمْ هُدًى﴾ أي: وراهم ﴿مُتَّبِعُونَ﴾ قال: دعوى منهم بلا دليل. اهـ.

(٧) قال ابن كثير: بين جل وعلا أن عقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للزمل تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقاتلهم: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَلْبٌ أَوْ جَهْرٌ﴾ ﴿أَفَأَمْسَرْنَا بِهِ لَمْ هُمْ قَوْمٌ مُعَذِّبُونَ﴾ قال: وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفًا عَلَيْهَا رَبِّيَ إِنَّا كَانُوا عَلَيْهِ يَصَدِّقُونَ﴾ قال: ثم قال ﷻ: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ وَمَا رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَاهِيٍّ قَالُوا إِنَّا يَمَّا أَزْيَمْتُمْ بِهِ كُفْرُونًا﴾ أي: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به لما اتقادوا لذلك، لسوء فصلهم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٣٧﴾ وَجَمَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴿٣٨﴾ لَمَلَّهْمُ رِجْسُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ مَنَعَتْ هُكُولَاءَ وَإِنَّا لَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٤٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ قال الزجاج: البراء بمعنى البريء، والعرب تقول للواحد: أنا البراء منك، وكذلك للثنتين والجماعة، وللذكر والأنثى، يقولون: نحن البراء منك والحلاء منك، لا يقولون: نحن البراءان منك، ولا البراءون منك، وإنما المعنى: أنا ذو البراء منك، ونحن ذو البراء منك، كما يقال: رجل عدل، وامرأة عدل. وقد بينا استثناء إبراهيم ربه ﷺ مما يعبدون عند قوله: ﴿إِلَّا رَبِّي الْعَلِيِّنَ﴾ [الشعراء: ١٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَجَمَلَهَا﴾ يعني كلمة التوحيد، وهي «لا إله إلا الله» ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ أي: فيمن يأتي بعده من ولده، فلا يزال فيهم موحد ﴿لَمَلَّهْمُ رِجْسُونَ﴾ إلى التوحيد كلهم إذا سمعوا أن أباهم تبرأ من الأصنام ووحد الله ﷻ. ثم ذكر نعمته على قريش فقال: ﴿بَلْ مَنَعَتْ هُكُولَاءَ وَإِنَّا لَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ وهو محمد ﷺ، فكان ينبغي لهم أن يقابلوا النعم بالطاعة للرسول، فخالفوا. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني قريشاً في قول الأكثرين. وقال قتادة: هم اليهود. و﴿الْحَقُّ﴾ القرآن.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣٦﴾ أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ حَتَّىٰ مَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّيْمَنَةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَسْخَدَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَخِرَاءً مَّعًا ﴿٣٧﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُشْرِكَنَّهُ سُقْمًا مِّنْ فَضْلِهِ وَمَعَايِبَ عَلَيْهَا يُظْهِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَلِيُؤْتِيَهُم آيَاتِنَا وَمِنرًا عَلَيْهَا يَكْفُرُونَ ﴿٣٩﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَاكٍ لَّمَّا مَنَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أما الفريقان، فمكة والطائف، قاله ابن عباس، والجماعة؛ وأما عظيم مكة، ففيه قولان: أحدهما: الوليد بن المغيرة القرشي، رواه العوفي وغيره عن ابن عباس، [وبه قال قتادة، والسدي]. والثاني: عتبة بن ربيعة، قاله مجاهد. وفي عظيم الطائف خمسة أقوال: أحدها: حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: مسعود بن عمرو بن عبيد الله، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي، رواه ليث عن مجاهد، وبه قال قتادة. والرابع: [أنه] ابن عبد ياليل^(٢)، رواه ابن أبي نجیح عن مجاهد. والخامس: كنانة بن عبد [بن]^(٣) عمرو بن عمير الطائفي، قاله السدي. فقال الله ﷻ رداً عليهم وإنكاراً: ﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني النبوة، فيضعونها حيث شاؤوا، لأنهم اعترضوا على الله بما قالوا^(٤). ﴿حَتَّىٰ مَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّيْمَنَةً﴾ المعنى أنه إذا كانت الأرزاق بقدر الله، لا بحول المحتال - وهو دون النبوة - فكيف تكون النبوة؟! قال قتادة: إنك لتلقى ضعيف الحيلة عبيء اللسان قد بسط له الرزق، وتلقى شديد الحيلة بسيط اللسان^(٥) وهو مقتور عليه.

ومكابرتهم للحق وأهله قال الله تعالى: ﴿فَنَسَفْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: من الأسم المكلبة بأنواع من العذاب كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم: ﴿كَأَنَّهُمْ كَانَتْ عَيْنًا مَّكْرِيَةً﴾ أي: كيف بادوا وهلكوا وكيف نجى الله المؤمنين. اهـ.

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليفه إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومنهجها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ ﴿وَجَمَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله»، أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداة الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لَمَلَّهْمُ رِجْسُونَ﴾ أي: إليها. اهـ.

(٢) هو كنانة بن عبد ياليل الثقفي، شاعر جاهلي، من أهل الطائف (في الحجاز)، كان رئيس تقيف في زمانه، مدح النعمان بن المنذر، وأدرك الإسلام، وقدم على النبي ﷺ في وفد تقيف بعد حصار الطائف، فأسلم الوفد إلا كنانة، فتوجه إلا بلاد الروم فمات فيها.

(٣) زيادة من «الطبري» و«القرطبي».

(٤) قال ابن كثير: قال الله تبارك وتعالى وادأ عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله ﷻ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً. اهـ.

(٥) كذا الأصل «بسيط اللسان» والذي في الطبري «سليط اللسان».

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: بالغنى والفقر. والثاني: بالحرية والرقي ﴿إِن تَسْخَدْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآءً﴾ وقرأ ابن السميع، وابن محيصن: «سِخْرِيآءً» بكسر السين. ثم فيه قولان: أحدهما: يستخدم الأغنياء الفقراء بأموالهم، فَيَلْتَمِمْ قِوَامَ الْعَالَمِ، وهذا على القول الأول. والثاني: ليملك بعضهم بعضاً بالأموال فيَتَخَدُونَهُمْ عِبِيدًا، وهذا على الثاني^(١).

قوله تعالى: ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ﴾ فيها قولان: أحدهما: الثبوة خير من أموالهم التي يجمعونها، قاله ابن عباس. والثاني: الجنة خير مما يجمعون في الدنيا، قاله السدي^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فيه قولان: أحدهما: لولا أن يجتمعوا على الكفر، قاله ابن عباس. والثاني: على إثارة الدنيا على الدين، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ لهوان الدنيا عندها. قال الفراء: إن شئت جعلت اللام في «لِيُؤْتِيَهُمْ» مكررة، كقوله: ﴿يَتَكَلَّمُونَ عَنِ الْكُفْرِ الْكَرِيمِ وَقَالِ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وإن شئت جعلتها بمعنى «على»، كأنه قال: جعلنا لهم على بيوتهم، تقول للرجل: جعلت لك لقومك الأعطية، أي: جعلتها من أجلك لهم. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «سُقْفًا» على التوحيد. وقرأ الباقون: «سُقْفًا» بضم السين والقاف جميعاً. قال الزجاج: والسُقْف واحد يدُلُّ على الجمع؛ فالمعنى: جعلنا لبيت كل واحد منهم سقفاً من فِضَّةٍ وَمَعَارِجٍ وهي الدَّرَجُ والمعنى: وجعلنا معارج من فِضَّةٍ، وكذلك ﴿وَلِيُؤْتِيَهُمْ آيَاتِكُمْ﴾ أي: من فِضَّةٍ ﴿وَسُرَّتِكُمْ﴾ أي: من فِضَّةٍ.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قال ابن تيبة: أي: يعلون، يقال: ظَهَرْتُ عَلَى الْبَيْتِ: إِذَا عَلَوْتُ سَطْحَهُ.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْذَهَبُ﴾ وهو الذهب؛ والمعنى: ويجعل لهم مع ذلك ذهباً وغنى ﴿وَإِن كُفِرْ لَكَ لَمَّا مَنَعَ الْكَيْدَ﴾ أَدْبِيًّا المعنى: لَمَسَّاحَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وما زائدة وقرأ عاصم، وحمزة: «لَمَّا» بالتشديد، فجعله بمعنى «إلا»؛ والمعنى: إن ذلك يُمْتَنَعُ بِهِ قَلِيلاً ثُمَّ يَزُولُ ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْتِينَ﴾ خاصة لهم^(٣).

﴿وَمَن يَشَأْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَسُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَقًّا إِذَا جَاءَنَا قَالَ بَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَثَرَتَيْنِ قِيَاسَ الْقَرِينِ ﴿٣٨﴾ وَكَأَن يَتَمَنَّوْنَ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَكْثَرُ فِي الْمَذَابِ مُتَوَكِّفُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تَشْتَعِبُ الشُّرَكَاءَ أَوْ تَهْدِي السُّمَىٰ وَمَنْ كَانَتْ فِي صُلْبِكَ شِدْبَةٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَشَأْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يُعْرِضُ، قاله الضحاك عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والفراء، والزجاج. والثاني: يَمُنُّ، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال عطاء، وابن زيد. والثالث: أنه البَصَرُ الضعيف، حكاها الماوردي. وقال أبو عبيدة: تُظَلِّمُ عَيْنَهُ عَنْهُ. وقال الفراء: من قرأ: «يَعِشُ»، فمعناه: يُعْرِضُ، ومن نصب الشين،

(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يقول تعالى ذكروه: بل نحن نقسم رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا من خلقنا، فنجعل من شئنا رسولا، ومن أردنا صديقا، ونسخذ من أردنا خليلا، كما قسمنا بينهم معيشتهم التي يعيشون بها في حياتهم الدنيا من الأرزاق والأقوات، فجعلنا بعضهم فيها أرفع من بعض درجة، بل جعلنا هذا غنيا، وهذا فقيرا، وهذا ملكا، وهذا مملوكا ﴿إِن تَسْخَدْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآءً﴾.

وقال ابن كثير: قال الله ﷻ مبيئا أنه قد فاءت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والمقولات والفهوم وغير ذلك من القرى الظاهرة والباطنة فقال: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ في الكبرياء الدنيا... الآية، قال: وقوله جئت عظمته: ﴿إِن تَسْخَدْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآءً﴾ قيل: معناه: ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال، لاجتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي وغيره، وقال قتادة والضحاك: ليملك بعضهم بعضاً.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ سَخِرَآءً﴾ يقول تعالى ذكروه: ورحمة ربك يا محمد بإدخالهم الجنة خير لهم مما يجمعون من الأموال في الدنيا. اهـ. وقال ابن كثير: أي: ورحمة الله خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَإِن كُفِرْ لَكَ لَمَّا مَنَعَ الْكَيْدَ﴾ يقول تعالى ذكروه: وما كل هذه الأشياء التي ذكرت، من السقف من الفضة والمعارج والأبواب والسُرر من الفضة والزخرف، إلا ممتع يستمتع به أهل الدنيا في الدنيا ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْتِينَ﴾ يقول تعالى ذكروه: ورزق الدار الآخرة وبهاؤها عند ربك للمتقين - الذين اتقوا الله فخافوا عقابه، فجدوا في طاعته وحذروا معاصيه - خاصة، دون غيرهم من خلق الله. اهـ. وفي «الصحاحين» عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تشربوا في آنية اللعب والقهقهة، ولا تأكلوا في صحافهما، فإنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة». وروى الترمذي عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

أراد: يَغَمُّ عنه؛ قال ابن قتيبة: لا أرى القول إلا قول أبي عبيدة، ولم نر أحداً يجيز «عَشَوْتُ عن الشيء»: أعرضت عنه، إنما يقال: «تَعَاشَيْتُ عن كذا»، أي: تغافلت عنه، كأنني لم أره، ومثله: تعاميتُ، والعرب تقول: «عَشَوْتُ إلى النار»: إذا استدلتَّت إليها يبصر ضعيف، قال الحطيئة:

مَتَى تَأْتِيهِ تَغَشُّو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ

ومنه حديث ابن المسيَّب: «أن إحدى عَيْنَيْهِ ذَهَبَتْ، وَهُوَ يَغْشُو بِالْأُخْرَى»، أي: يُبْصِرُ بِهَا بَصِراً ضَعِيفاً. قال المفسرون: «وَمَنْ يَمَسُّ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ» فلم يَخَفْ عِقَابَهُ ولم يلتفت إلى كلامه «فَنَقِصَ لَكَ» أي: نسب له «سَطَلْنَا» فنجعل ذلك جزاءه «فَهُوَ لَمْ يَرَيْن» لا يفارقه^(١). «وَأَتَيْتُمْ» يعني الشياطين «لِيَسُدُّوْكُمْ» يعني الكافرين، أي: يمنعونهم عن سبيل الهدى؛ وإنما جمع، لأن «مَنْ» في موضع جمع، «وَيَحْسَبُونَ» يعني كفار بني آدم «أَتَيْتُمْ» على هدى. «حَوَّ إِذَا جَاءَكَ» وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «جاءنا» واحد، يعني الكافر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «جاءنا» بالفيين على الشنية، يعنون الكافر وشيطانه. وجاء في التفسير أنهما يُجعلان يوم البعث في سلسلة، فلا يفترقان حتى يُصَيِّرَهُمَا اللهُ إلى النار، «قَالَ» الكافر للشيطان: «بَنَيْتَ بَيْتِي وَبَنَيْتَ بَعْدَ الشَّرِيقَيْنِ» أي: بُعد ما بين المَشْرِقَيْنِ؛ وفيهما قولان: أحدهما: أنهما مَشْرِقُ الشَّمْسِ في أقصر يوم في السنة، ومَشْرِقُهَا في أطول يوم، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثاني: أنه أراد المَشْرِقُ والمَغْرِبُ، فغلبَ ذِكْرُ المَشْرِقِ، كما قالوا: سُنَّةُ العَمْرَيْنِ، يريدون: أبا بكر وعمر، وأنشدوا من ذلك:

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْنَا

يريد: الشمس والقمر؛ وأنشدوا:

فَبَضْرَةُ الْأَزْدِ مِنَّا وَالْجِرَاءُ لَنَا

يريد: الجزيرة والموصل، [وهذا اختيار الفراء، والزجاج].

قوله تعالى: «يَسَّ الْقُرَيْشُ» أي: أنت أيها الشيطان. ويقول الله ﷻ يومئذٍ للكفار: «وَلَكِنْ يَنْفَعُكُمْ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ» أي: أشركتم في الدنيا «أَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا مُشْرِكُونَ» أي: لن ينفعكم الشرك في العذاب، لأن لكل واحد منه الحظ الأوفر. قال المبرد: بُعِثَ رُوحُ النَّاسِ، لأن النَّاسِ يُسَهِّلُ الْمُصِيبَةَ، وأنشد للخنساء أخت صخر بن مالك في هذا المعنى:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي

على إخوانهم لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أُخِي وَلَكِنْ

أَعَزَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالنَّاسِ^(٥)

وقرأ ابن عامر: «إنكم» بكسر الالف. ثم أخبر عنهم بما سبق لهم من الشفاقة بقوله: «أَفَأَنْتَ تُسَبِّحُ الشَّمْسَ...» الآية.

«فِيمَا نَذَبْتَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْفِعُونَ» أو نُرِيئُكَ الَّذِي وَعَدْنَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُنْقِدُونَ ﴿١٦﴾ فَاسْتَسِيكَ بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّا كَلَّا صِرْطَ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَعْيُنًا وَمَنْ يَنْصُرُكَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: «فِيمَا نَذَبْتَ بِكَ» قال أبو عبيدة: معناها: فإن نذبتَ؛ وقال الزجاج دخلت «ما» توكيداً للشرط، ودخلت النون الثقيلة في «نَذَبْتَ» أيضاً؛ والمعنى: إننا نتنم عنهم إن تُوفيتَ أو نُرِيئَكَ ما وَعَدْنَاهم وَعَدْنَاكَ فِيهِم

(١) «ديوانه» ١٦١، و«مجاز القرآن» ٢/٢٠٤، و«غريب القرآن» ٣٩٨، و«الكتاب» ١/٤٤٥، و«الخرائفة» ٣/٦٦٢، و«روح المعاني» ٧٤/٢٥، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: عشا.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: «وَمَنْ يَمَسُّ» أي: يتماهى ويتغافل ويعرض «عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ» قال: والعشا في العين: ضعف بصرها، والمراد هاهنا: عشا البصيرة «فَنَقِصَ لَكَ سَطَلْنَا» فهو لَمْ يَرَيْن «كقوله تعالى: «وَمَنْ يُكَافِرِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَصْبِحْ مِنَ الظَّالِمِينَ» قَوْلُهُ مَا قَوْلٌ وَمُسْلِمٌ جَهَنَّمَ وَسَكَتْهُ صَبِيرًا ﴿١٥﴾» اهـ.

(٣) البيت للفرزدق، «ديوانه» ٥١٩، و«الكامل» ١٢٤، و«الطبري» ٧٤/٢٥.

(٤) البيت غير منسوب في «الطبري» ٧٤/٢٥، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: وصل.

(٥) «ديوانها» ٨٤، و«الكامل»: ١٥، و«البحر المحيط» ١٧/٨، و«روح المعاني» ٧٧/٢٥، و«الناسي»: التصير.

من النَّصْر. قال ابن عباس: ذلك يوم بدر. وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله: ﴿فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ﴾ منسوخ بآية السيف، ولا وجه [له].

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتُمْ﴾ يعني القرآن ﴿لَذِكْرِكُمْ﴾ أي: شَرَفْتُ لَكُمْ بما أعطاك الله ﴿وَلِقَوْلِكَ﴾ في قومه ثلاثة أقوال: أحدها: العرب قاطبة. والثاني: قريش. والثالث: جميع من آمن به. وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا سئل: لِمَنْ هذا الأمرُ من بعدك؟ لم يُخبر بشيء، حتى نزلت هذه الآية، فكان بعد ذلك إذا سئل قال: «لقريش»^(١) وهذا يُدلُّ على أن النبي ﷺ فهم من هذا أنه يلي على المسلمين بحُكم النبوة وشرف القرآن، وأن قومه يخلفونه من بعده في الولاية لشرف القرآن الذي أنزل على رجل منهم. ومذهب مجاهد أن القوم هاهنا: العرب، والقرآن شَرَفْتُ لهم إذ أنزل بلغتهم. قال ابن قتيبة: إنما وضع الذكر موضع الشرف، لأن الشرف يُذكر. وفي قوله: ﴿وَسَوْفَ تَشْكُرُونَ﴾ قولان: أحدهما: عن شكر ما أعطيتهم من ذلك. والثاني: عما لزمكم فيه من الحقوق.

﴿وَسَتَلَّ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّيِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَأَعْلَبُ عَلَيْهِمْ رَبِّحُمُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا جَاءَكُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا سِحْرٌ مُضْمَرٌ فَأَنْزَلْنَاهُمْ فِي الْقُرْآنِ حَقِيقَةً مُبِينًا ﴿١٩﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ لَمُحَذِّبِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ لَمُحَذِّبِينَ ﴿٢١﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ لَمُحَذِّبِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ لَمُحَذِّبِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ لَمُحَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ لَمُحَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ لَمُحَذِّبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ لَمُحَذِّبِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ لَمُحَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ لَمُحَذِّبِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ لَمُحَذِّبِينَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَتَلَّ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ إن قيل: كيف يسأل الرسل وقد ماتوا قبله؛ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه لما أسري به جُمع له الأنبياء فصلَّى بهم، ثم قال [له] جبريل: سَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ... الآية^(٢). فقال: لا أسأل، قد اكتفيتُ، رواه عطاء عن ابن عباس، وهذا قول سعيد بن جبيرة، والزهري، وابن زيد؛ قالوا: جُمع له الرسل ليلة أسري به، فلقيهم، وأمر أن يسألهم، فما شك ولا سأل. والثاني: أن المراد [أسأل] مؤمني أهل الكتاب [من] الذين أرسلت إليهم الأنبياء، روي عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي في آخرين. قال ابن الأنباري: والمعنى: سَلْ أَتْبَاعَ مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ، كما تقول: السخاء حاتم، أي: سخاء حاتم، والشعر زهير، أي: شعر زهير. وعند المفسرين أنه لم يسأل على القولين. وقال الزجاج: هذا سؤال تقرير، فإذا سأل جميع الأمم، لم يأتوا بأن في كتبهم: أن اعبدوا غيري. والثالث: [أن] المراد بخطاب النبي ﷺ: خطاب أمته، فيكون المعنى: سَلُّوا، قاله الزجاج^(٣). وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بها وتكذيباً. ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ يعني ما ترادف عليهم من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس، فكانت كُلُّ آيَةٍ أَكْبَرُ مِنَ الَّتِي قَبْلُهَا، وهي العذاب المذكور في قوله: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾، فكانت عذاباً لهم، ومعجزات لموسى ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ في خطابهم له بهذا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أرادوا: يا أيها العالمين، وكان

(١) ذكره البغوي من رواية الضحاك عن ابن عباس بدون سند، وكذلك ذكره البغوي عن ابن عباس بدون سند. قال السيوطي في «الدر» ١٨/٦: أخرج ابن عدي، وابن مردويه عن علي وابن عباس قالا: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل بمكة، ويهدم الظهور، فإذا قالوا: لمن الملك بعدك؟ أمسك فلم يجبه بشيء، لأنه لم يؤمر في ذلك بشيء، حتى نزلت: ﴿وَرَأَيْتُمْ لَذِكْرِكُمْ﴾ فكان بعد ذلك إذا سئل، قال: «لقريش» فلا يجيبه، حتى قبلته الانتصار على ذلك. وروى البخاري في «صحيحه» عن معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديه أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الذين». قال ابن كثير: ومعناه: أنه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعلمهم بمقتضاه، قال: وهكذا كان خيارهم ورضوتهم من المخلص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابهم. اهـ.

(٢) وهذا تفسير للآية، ولفظها: ﴿وَسَتَلَّ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾. (٣) رجح القول الثاني ابن جرير الطبري في «تفسيره».

الساحر فيهم عظيماً، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم قالوه على جهة الاستهزاء، قاله الحسن. والثالث: أنهم خاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالساحر، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: مؤمنون بك. فدعا موسى، فكُشف عنهم، فلم يؤمنوا. وقد ذكرنا ما تركناه هاهنا في [الأعراف: ١٣٥].

قوله تعالى: ﴿عَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ أي: من تحت قصوري^(١) ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي وشدة ملكي؟! ﴿أَنْزَأْنَا خَيْرٌ﴾ قال أبو عبيدة: أراد: بل أنا خيرٌ. وحكى الزجاج عن سيبويه والخليل أنهما قالوا: عطف «أنا» بـ «أم» على «أفلا تُبْصِرُونَ» [فكانه قال: أفلا تُبْصِرُونَ] أم أنتم بُصراء؟! لأنهم إذا قالوا: أنت خيرٌ منه، فقد صاروا عنده بُصراء. قال الزجاج: والمهين: القليل؛ يقال: شيء مهين، أي: قليل. وقال مقاتل: «مهين» بمعنى ذليل ضعيف^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أشار إلى عقدة لسانه التي كانت به ثم أذهبها الله عنه، فكانه عيره بشيء قد كان وزال، ويدل على زواله قوله تعالى: ﴿قَدْ أُرْيَيْتَ سُوْلَكَ يَمُوْسَى﴾ [طه: ٣٦]، وكان في سؤاله: ﴿رَأْسُكَ عُقْدَةٌ مِنْ لِسَانِكَ﴾ [طه: ٢٧]. وقال بعض العلماء: ولا يكاد يُبين الحجة ولا يأتي ببيان يفهم^(٣). ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلاً ﴿أَلْقَيْ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةً مِنْ ذَهَبٍ﴾ وقرأ حفص عن عاصم: «أسورة» بغير ألف. قال الفراء: واحد الأسورة: إسوار، وقد تكون الأسورة جمع أسورة، كما يقال في جمع الأسقية: الأساق، وفي جمع الأكرع: الأكارع، وقال الزجاج: يصلح أن تكون الأسورة جمع الجمع تقول: أسورة وأسورة، كما تقول: أقوال وأقاول، ويجوز أن تكون جمع إسوار، وإنما صرفت أسورة، لأنك ضمنت الهاء إلى أساور، فصار اسماً واحداً، وصار له مثال في الواحد، نحو «علانية». قال المفسرون: إنما قال فرعون هذا، لأنهم كانوا إذا سؤدوا الرجل منهم سؤروه يسوار. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِكُ مُقَرَّبِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: متابعين، قاله قتادة. والثاني: يمشون معه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ﴾ قال الفراء: استفرهم؛ وقال غيره: استحفَّت أحلامهم وحملهم على خفة الجلم بكيدة وغروره ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ في تكذيب موسى. ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ قال ابن عباس: أغضبونا. قال ابن قتيبة: الأسف: الغضب، يقال: أسفت أسفاً، أي: غضبت^(٤). ﴿فَجَمَلْنَهُمْ سَلْفًا﴾ أي: قوماً تقدموا. وقرأها أبو هريرة، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وحמיד الأعرج: «سلفاً» بضم السين وفتح اللام، كان واحده سلفاً من الناس، مثل القطعة، يقال: تقدمت سلفاً من الناس، أي: قطعة منهم. وقرأ حمزة، والكسائي: «سلفاً» بضم السين واللام، وهو جمع «سلف»، كما قالوا: حَسَبٌ وحُسْبٌ، وثَمَرٌ وثَمَرٌ، ويقال: هو جمع «سليف»، وكلُّه من التقدُّم. وقال الزجاج: «السليف» جمع قد مضى؛ والمعنى: جعلناهم سلفاً متقدمين ليحفظ بهم الآخرون.

قوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْنَا﴾ أي: عيّرنا [وعظة].

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَوْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُوَ

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده أنه جمع قومه فنأدى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها ﴿الَّذِينَ لِي مَلِكٌ وَشَرٌّ مَكَذِبٌ وَكَذِبُوا الْآلِهَةَ عَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾.

(٢) قال ابن كثير: يعني فرعون - لعنه الله - بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام. قال: وقد كذب في قوله هذا كذباً بيئاً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، قال: ويعني بقوله: «مهين» كما قال سفيان: حقير، وقال قتادة والسدي: يعني ضعيف، قال: وقال ابن جرير: يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضاً (يعني من فرعون لعنه الله) فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله ﷻ أن يحل عقدة من لسانه ليفهموا قوله، قال: وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله: ﴿قَدْ أُرْيَيْتَ سُوْلَكَ يَمُوْسَى﴾ قال: ويتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاب والإفهام، قال: فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، قال: وفرعون وإن كان يفهم وله عقل، فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء. اهـ.

(٤) قال ابن جرير الطبري: قال ابن زيد في قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ قال: أغضبونا ﴿انكسرتنا ويثرتنا﴾ يقول: انتقمنا منهم بما جل العذاب الذي جعلناه لهم، فأعزناهم جميعاً في البحر. اهـ.

قَوْمٌ حَاصِرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَيْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَوَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَكَلَّمَ نِسَاءً لِّجَلْنَا بِنِكَرٍ مَّلَكِيَّةً فِي الْأَرْضِ بِمَخْلُوفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَوِئْلِمَ لِسَاعَةِ فَلَا تَسْتَرْكَبُهَا وَالنَّبِيُّونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاتَّخَذَ الْأَعْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا صُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في مجادلة ابن الزبير رسول الله ﷺ حين نزل قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨] وقد شرحنا القصة في سورة [الأنبياء: ١٠١] (١). والمشركون هم الذين ضربوا عيسى مثلاً لألهتهم وشبهوه بها، لأن تلك الآية إنما تضمنت ذكراً الأصنام، لأنها عُبِدَتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فالزموه عيسى، وضربوه مثلاً لأصنامهم، لأنه معبود النصارى. والمراد بقومه: المشركون. فأما ﴿يَصُدُّونَ﴾ فقرأ ابن عامر، ونافع، والكسائي: بضم الصاد، وكسرهما الباقون؛ قال الزجاج: ومعناها جميعاً: يَصُدُّونَ، ويجوز أن يكون معنى المضمومة: يُعْرِضُونَ. وقال أبو عبيدة: من كسر الصاد، فمجازها: يَصُدُّونَ، ومن ضمها، فمجازها: يُعْدِلُونَ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَلَيْسَ خَيْرٌ مِنْ هَذَا هُوَ﴾ المعنى: ليست خيراً منه، فإن كان في النار لأنه عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فقد رضينا أن تكون ألهتنا بمنزلته. ﴿مَا صَرَفُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي: ما ذكروا عيسى إلا ليجادلوك به، لأنهم قد علموا أن المراد بـ «حصب جهنم» ما اتخذوه من الموات (٢) ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ حَاصِرُونَ﴾ أي: أصحاب خصومات (٣).

قوله تعالى: ﴿وَوَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ أي: آية وعبرة ﴿لِئِنْ إِسْرَائِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله على ما يريد، إذ خلقه من غير أب. ثم خاطب كفار مكة، فقال: ﴿وَكَلَّمَ نِسَاءً لِّجَلْنَا بِنِكَرٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: لَجَعَلْنَا بدلاً منكم ﴿مَلَكِيَّةً﴾؛ ثم في معنى «يَخْلُفُونَ» ثلاثة أقوال: أحدها: يخلف بعضهم بعضاً، قاله ابن عباس. والثاني: يخلفونكم ليكونوا بدلاً منكم، قاله مجاهد. والثالث: يخلفون الرُّسُلَ فيكونون رسلاً إليكم بدلاً منهم، حكاه الماوردي. والقول الثاني: أن المعنى: ﴿وَكَلَّمَ نِسَاءً لِّجَلْنَا بِنِكَرٍ مَلَكِيَّةً﴾ أي: قَلَبْنَا الخَلْقَةَ فَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ مَلَكَةً يَخْلُفُونَ مَنْ ذَهَبَ مِنْكُمْ، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَوِئْلِمَ لِسَاعَةِ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: [أنها] تُرْجِعُ إِلَى عِيسَى ﷺ. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: نزول عيسى من أشراط الساعة يُعَلِّمُ به قُرْبَاهَا، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي. والثاني: أن إحياء عيسى الموتى دليل على الساعة وبعث الموتى، قاله ابن إسحاق. والقول الثاني: أنها تُرْجِعُ إِلَى الْقُرْآنِ، قاله الحسن، وسعيد بن جبيرة. وقرأ الجمهور: «لَعَلِمَ» بكسر العين وتسكين اللام؛ وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن، وقتادة، وحמיד، وابن محيصن: بفتحهما (٤). قال ابن قتيبة: من قرأ بكسر العين، فالمعنى أنه يُعَلِّمُ به قُرْبُ السَّاعَةِ، ومن فتح العين واللام، فإنه بمعنى العلامة والدليل (٥).

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ١٧٥، ٢١٤، وذكره البغوي بدون سند قال: قال ابن عباس وأكثر المفسرين: إن الآية نزلت في مجادلة عبد الله بن الزبير مع النبي ﷺ في شأن عيسى ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وكذلك ذكره الخازن بدون سند، وقد ذكر المفسرون ذلك في سورة [الأنبياء: ١٠١]، وانظر ٩٤٥ من كتابنا هذا.

(٢) عبارة البغوي والخازن: وقد علموا أن المراد من قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ هؤلاء الأصنام.

(٣) روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير الطبري عن أبي أمامة ﷺ بسند صحيح قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا صَرَفُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَبِيرُونَ﴾.

(٤) في الأصل: بفتحها، والتصويب من كتب التفسير.

(٥) قال ابن كثير: تقدم تفسير ابن إسحاق أن المراد من ذلك ما بعث به عيسى عليه الصلاة والسلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الأقسام، قال: وفي هذا نظر، قال: وأبعد منه ما حكاه قتادة عن الحسن البصري وسعيد بن جبيرة أن الضمير في «وإنه» عائد على القرآن، قال: بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن السياق في ذكره، قال: ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أُمَّلِ الْكِتَابِ إِلَّا يُكْرَمُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَوْمَ أُنزِلَتْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْبًا﴾ قال: ويؤيد هذا المعنى القراءة =

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمَنَّوْا بِهَا﴾ أي: فلا تشكَّنَّ فيها ﴿وَأَتَّبِعُونَ﴾ على التوحيد ﴿هَذَا﴾ الذي أنا عليه ﴿مِرْطَلُ مُسْتَقِيمٍ﴾. ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قد شرحنا هذا في [البقرة: ٤٨٧]. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ وفيها قولان: أحدهما: النبوة، قاله عطاء، والسدي. والثاني: الإنجيل، قاله مقاتل. ﴿وَلَا يَنْبَغُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [أي]: من أمر دينكم؛ وقال مجاهد: ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من تبديل التوراة؛ وقال ابن جرير: من أحكام التوراة. وقد ذهب قوم إلى أن البعض هاهنا بمعنى الكل. وقد شرحنا ذلك في [ختم المؤمن: ٢٨]؛ قال الزجاج: والصحيح أن البعض لا يكون في معنى الكل، وإنما بين لهم عيسى بعض الذي اختلفوا فيه مما احتاجوا إليه؛ وقد قال ابن جرير: كان بينهم اختلاف في أمر دينهم ودنياهم، فبين لهم أمر دينهم فقط. وما بعد هذا قد سبق بيانه [النساء: ١٧٥، مريم: ٢٧] إلى قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ يعني كفار مكة.

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿يَعْبَادُ لَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿انْخَلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ﴿طَلَّاقٌ عَلَيْهِمْ يُصَافِي بَيْنَ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُوهُ الْأَنْفُسُ وَكَذَلِكَ الْأَعْرُثُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ﴾ أي: في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن الحُلة إذا كانت في الكفر والمعصية صارت عداوة يوم القيامة؛ وقال مقاتل: نزلت في أمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ يعني الموحدين^(١). فإذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد ﴿يَعْبَادُ لَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٧٣﴾، فيرفع الخلائق رؤوسهم، فيقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٧٢﴾، فينكس الكفار رؤوسهم^(٢). قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «يا عبادي» بإثبات الياء في الحالين وإسكانها، وحذفها في الحالين ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص، والمفضل عن عاصم، وخلف. وفي أزواجهم قولان: أحدهما: زوجاتهم. والثاني: قرنائهم. وقد سبق معنى ﴿تُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ٤١٥].

قوله تعالى: ﴿طَلَّاقٌ عَلَيْهِمْ يُصَافِي﴾ قال الزجاج: واحدها صحفة، وهي القضة. والأكواب، واحدها: كُوب، وهو إناء مستدير لا عُرْوَة له؛ قال الفراء: الكُوب [الكوز]^(٣) المستدير الرأس الذي لا أذن له، وقال عدي: مُتَّكِئاً تَضْفُفُ أَبْوَابُهُ

وقال ابن قتيبة: الأكواب: الأباريق التي لا عُرَى لها. وقال شيخنا أبو منصور اللغوي: وإنما كانت بغير عُرَى ليُشرب الشارب من أين شاء، لأن العروة تُرَدُّ الشارب من بعض الجهات.

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهُوهُ الْأَنْفُسُ﴾ وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «تشتيه» بزيادة هاء. وحذف الهاء كإثباتها في المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَعْرُثُ﴾ يقال: لِدُدْتُ الشيء، واستلذذته، والمعنى: ما من شيء اشتتهه نفس أو استلذذته

= الأخرى ﴿وَرِثَهُ لَعَلَّمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي: أمانة ودليل على وقوع الساعة، قال: قال مجاهد: ﴿وَرِثَهُ لَعَلَّمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة، قال: هكذا روي عن أبي هريرة، وابن عباس، وأبي العالية، وأبي مالك، وعكرمة، والحسن، وقنادة، والضحاك، وغيرهم، قال: وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى ابن مريم ﷺ قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقيماً. اهـ.

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ أي: كل صداقة وصحابة لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله ﷻ، فإنه دائم بدمائه، قال: وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِثْلَهُ نِسْتَدِينُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْعِلَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَأْوَاهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ ﴿٧٢﴾. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿يَعْبَادُ لَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ وفي هذا الكلام محذوف استغني بدلالة ما ذكر عليه، قال: ومعنى الكلام: الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، فإنهم يقال لهم: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم من عقابي، فإني قد أمنتكم منه برضاي عنكم، ولا أنتم تحزنون على فراق الدنيا، فإن الذي قدمتم عليه خير لكم مما فارقتموه منها. اهـ.

(٣) زيادة من «اللسان».

(٤) البيت لعدي بن زيد، وهو في «مجاز القرآن» ٢/٢٠٦، و«القرطبي» ١٦/١١٤، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: كُوب.

عين إلا وهو في الجنة، وقد جمع الله تعالى جميع نعيم الجنة في هذين الوصفين، فإنه ما من نعمة إلا وهي نصيب النفس أو العين، وتعام النعيم الخلود، لأنه لو انقطع لم تطيب. ﴿وَرَبِّكَ لَبِئْسَ﴾ يعني التي ذكرها في قوله: ﴿أَنذَلُوا الْجَنَّةَ﴾ ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ قد شرحنا هذا في [الأعراف: ٤٣] عند قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَجَرِّبِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لا يُغْتَرَّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ وَكَادُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَاحِقٌ كُفْرَهُمْ ﴿٧٧﴾ أَمْ أَرَبُوهَا آمْرًا فَإِنَّا مَبْرُؤُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٧٩﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلزَّحَّانِ وَلَدٌ فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَابِدِينَ ﴿٨٠﴾ شُبْحَانَ رَبِّيَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّيَ الْمَشْرِعُ عَمَّا يَمْشُونَ ﴿٨١﴾ فَذَرَهُمْ مَحْضُوحًا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَجَرِّبِينَ﴾ يعني الكافرين، ﴿لَا يُغْتَرَّ﴾ أي: لا يخفف ﴿عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ﴾ يعني في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ قال ابن قتيبة: آيسون من رحمة الله. وقد شرحنا هذا في [الأنعام: ٤٤] ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أي: ما عذبناهم على غير ذنب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بما جَنَوْا عليها. قال الزجاج: والبصريون يقولون: «هم» هاهنا فصل، كذلك يسمونها، ويسمونها الكوفيون: العباد.

قوله تعالى: ﴿وَكَادُوا يَكْفُرُونَ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب عليه السلام، وابن مسعود، وابن يعمر: [«يا مال»] بغير كاف مع كسر اللام. قال الزجاج: وهذا يسميه النحويون: [الترخيم]، ولكني أكرهها لمخالفة المصحف. قال المفسرون: يَدْعُونَ مَالِكًا خازن النار فيقولون: ﴿لَيْتَنَّا عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [أي: لَيْتَنَّا^(١)]. والمعنى: أنهم توسلوا به ليسأل الله تعالى لهم الموت فيستريحوا من العذاب؛ فيسكت عن جوابهم مُدَّةً، فيها أربعة أقوال: أحدها: أربعون عاماً، قاله عبد الله بن عمرو، ومقاتل. والثاني: ثلاثون سنة، قاله أنس. والثالث: ألف سنة، قاله ابن عباس. والرابع: مائة سنة، قاله كعب. وفي سكوته عن جوابهم هذه المدة قولان: أحدهما: أنه سكت حتى أوحى الله إليه أن أجبه، قاله مقاتل. والثاني: لأن بُعد ما بين النداء والجواب أخزى لهم وأذل. قال الماوردي: فَرَّدَ عَلَيْهِم مَالِكٌ فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ تَكْفُرُونَ﴾ أي: مقيمون في العذاب. ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: أرسلنا رسلنا بالتوحيد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد: كُلُّكُمْ ﴿كُفْرَهُمْ﴾ لما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم.^(٢)

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَرَبُوهَا آمْرًا﴾ في «أم» قولان: أحدهما: أنها للاستفهام. والثاني: بمعنى «بل». والإبرام: الإحكام. وفي هذا الأمر ثلاثة أقوال: أحدها: المَكْرُ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليقنطوه أو يُخْرِجوه حين اجتمعوا في دار الندوة؛ وقد سبق بيان القصة [الأنفال: ٣٠]، قاله الأكثرون. والثاني: أنه إحكام أمرهم في تكذيبهم، قاله قتادة. والثالث: أنه: إبرام أمرهم يُنجيهم من العذاب، قاله الفراء. ﴿إِنَّا مَبْرُؤُونَ﴾ أي: مُخَيَّمُونَ آمْرًا في مجازاتهم. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ هو ما يسرونه من غيرهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ ما يتناجون به بينهم ﴿بَلَىٰ﴾ والمعنى: إنا نسمع ذلك ﴿وَرُسُلْنَا﴾ يعني [من] الحَفِظَةَ ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾. ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلزَّحَّانِ وَلَدٌ﴾ في «إن» قولان: أحدهما: أنها بمعنى الشرط؛ والمعنى: إن كان له ولد في قولكم وعلى زعمكم^(٣)، فعلى هذا في قوله: ﴿فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَابِدِينَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: فأننا أول الجاحدين، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: أن أعرابيين اختصما إليه، فقال أحدهما: إن هذا كانت لي في يده أرض، فعبديها، فقال ابن عباس: الله أكبر، فأننا أول العابدين الجاحدين أن الله ولدأ. والثاني: فأننا أول من عبَد الله مخالفاً لقولكم، هذا قول مجاهد. وقال الزجاج: معناه: إن كنتم تزعمون للرحمن ولدأ، فأننا أول الموحدين.

(١) في الأصل: يعيتنا، والتصويب من كتب الضمير.

(٢) قال ابن كثير: ﴿لَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَاحِقٌ كُفْرَهُمْ﴾ أي: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله، ولا تُقْبَلُ عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه وتصد عن الحق وتباه، وتبغض أهله، فتوهوا على أنفسكم بالملامة واندموا حيث لا تنفعكم الندامة. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كَانَ لِلزَّحَّانِ وَلَدٌ فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَابِدِينَ﴾ أي: لو فرض هذا لعبدته على ذلك لأنني عبد من عبده مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممنوع في حقه تعالى، قال: والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿هُوَ أَوَّلُ مَا أَنْزَلَ أَنْ يَخْبُدَ وَكَلَّا لَأَسْطَلْنَ مِنَّا بِحَقِّ مَا نَسَكْنَا شُبْحَانَ رَبِّيَ أَوَّلَ الْوَحْدِ الْفَعْلُ﴾. اهـ.

والثالث: فأننا أول الآتئين لله مما قُلتم، قاله ابن السائب، وأبو عبيدة. قال ابن قتيبة: يقال: عَدَيْتُ من كذا، أَعْبَدْتُ عَبْدًا، فأننا عَدَيْدٌ وَعَابِدٌ، قال الفرزدق:

[أولئك قَوْمٌ إِنْ هَجَوْنِي هَجَوْتُهُمْ] وَأَعْبَدَ أَنْ تُهَجَى تَسِيْمٌ بِدَارِمٍ^(١)
أي: آتَف. وأنشد أبو عبيدة:

وَأَغْبَدُ أَنْ أُسَبِّهُمُ بِقَوْمِي
والرابع: أن معنى الآية: كما أتى لسْتُ أول عابِدٍ لله، فكذلك ليس له ولد؛ وهذا كما تقول: إِنْ كُنْتُ كَاتِبًا فأنَا حَاسِبٌ، أي: لست كاتباً ولا أنا حاسبٌ؛ حكى هذا القول الواحدي عن سفيان بن عيينة. والقول الثاني: أن «إِنْ» بمعنى «مَا»، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد؛ فيكون المعنى: ما كان للرحمن [ولد]، فأننا أولٌ من عَبَدَ الله على يقين أنه لا وَكَلَهُ له. وقال أبو عبيدة: الفاء على [هذا القول] بمعنى الواو^(٢).

قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿يَجْرُسُوا﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْمُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن محيصن، وأبو جعفر: «حتى يَلْقُوا» بفتح الباء والقاف وسكون اللام من غير الف. والمراد: يلاقوا [يوم] القيامة وهذه الآية [عند الجمهور] منسوخة بآية السيف.

﴿وَمَوْ أَلَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) ﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ الْشَرِكُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا وَبِغَدُ عِلْمُ الشَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥) ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) ﴿وَكَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) ﴿وَقِيلَ يَزْرَبُ إِنَّ هَذَا لَوَاقِعٌ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ إِلَّا اللهُ وَهُوَ يَسْمَعُ سَوَاقِطَ مَا يَلْمُونَ﴾ (٨٨)

قوله تعالى: ﴿وَمَوْ أَلَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يُعْبَدُ فِي السَّمَاءِ وَيُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ. وقال الزجاج: هو الموحد في السماء وفي الأرض. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن عباس، وابن السميع، وابن يعمر^(٣)، والجحدري: «في السماء الله وفي الأرض الله» بألف ولام من غير تنوين ولا همز فيهما. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأعراف: ٥٤، لقمان: ٣٤]^(٤) إلى قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا: إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا، فنحن نتولى الملائكة، فهم أحق بالشفاعة من محمد؛ فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(٥). وفي معنى الآية قولان: أحدهما: أنه أراد بالذين يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ: ألهتهم، ثم استثنى عيسى وعزير والملائكة، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وهو أن يشهد أن لا إله إلا الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم، وهذا مذهب الأكثرين، منهم قتادة. والثاني: أن المراد بالذين يَدْعُونَ: عيسى وعزير والملائكة الذين عبدتهم المشركون بالله لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ﴾ أي: [إِلَّا] لِمَنْ شَهِدَ ﴿بِالْحَقِّ﴾ وهي كلمة الإخلاص ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله ﷻ خلق عيسى وعزير والملائكة، وهذا مذهب قوم، منهم مجاهد. وفي الآية دليل على أن شرط جميع الشهادات أن يكون الشاهد عالماً بما يشهد به.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَزْرَبُ﴾ قال قتادة: هذا نبئكم يشكو قومه إلى ربِّه. وقال ابن عباس: شكنا إلى الله تخلف

(١) البيت في مجاز القرآن ٢/٢٠١، وغريب القرآن ٤٠١، والبحر المحيط ٢٨/٨، والقرطبي ١٦/١٢٠، والصحاح «واللسان» والتاج: عبد.

(٢) قال ابن جرير الطبري: أولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معنى «إِنْ»: الشرط الذي يقضي الجزاء.

(٣) في النسخة الاستبوابية: «وأبو الجوزاء» بدل «وإبن يعمر».

(٤) قال ابن كثير: وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَوْ أَلَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبداه أهلها وكلهما خاضعون له أذلاء بين يديه، وهو الحكيم العليم، قال: وهذه الآية كقولهِ سبحانه وتعالى: ﴿وَمَوْ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَلْمُ وَيُؤْمَرُ وَيُحْتَمَرُ وَمَا تَكْبِيرُ﴾ (٨٦) أي: هو المدعوُّ اللهُ في السموات والأرض، ﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ الْشَرِكُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا معانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك، أي: استقر له السلامة من العيوب والنقائص، لأنه الربُّ العليُّ العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمنة الأمور نقضاً وإبراماً، ﴿وَبِغَدُ عِلْمُ الشَّاعَةِ﴾ أي: لا يجليها لوقتها إلا هو ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: فيجازي كلُّ ما عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. اهـ.

(٥) ذكر سبب النزول هذا الخازن في «تفسيره» بدون سند، ولم يعزه لأحد، بل قال: قيل: سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا... إلخ.

قومه عن الإيمان. قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو: «وَقِيلَهُ» بنصب اللام؛ وفيها ثلاثة أوجه: أحدها: أنه أضمر معها قولاً، كأنه قال: وقال قَيْلَهُ، وشكا شكواه إلى رَبِّهِ. والثاني: أنه عطف على قوله: «أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ» وقِيلَهُ؛ فالمعنى: ونَسْمَعُ قَيْلَهُ، ذكر القولين الفراء، والأخفش. والثالث: أنه منصوب على معنى: وعنده عِلْمُ الساعة وَيَعْلَمُ قَيْلَهُ، لأن معنى «وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ»: يَعْلَمُ الساعة وَيَعْلَمُ قَيْلَهُ، هذا اختيار الزجاج. وقرأ عاصم، وحمة: «وَقِيلَهُ» بكسر اللام والهاء حتى تبلغ إلى الياء؛ والمعنى: وعنده عِلْمُ الساعة وَعِلْمُ قَيْلِهِ. وقرأ أبو هريرة، وأبو رزين، وسعيد بن جبير، وأبو رجاء، والجحدري، وقتادة، وحמיד: برفع اللام؛ والمعنى: ونداؤه هذه الكلمة: يا رب؛ ذكر عِلَّةَ الخفض والرفع الفراء والزجاج.

قوله تعالى: «فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ» أي: فأغرض عنهم «وَقُلْ سَلِّمُوا» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: قُلْ خيراً بدلاً من شرهم، قاله السدي. والثاني: ازُدد [عليهم] معروفاً، قاله مقاتل. والثالث: قُلْ ما تَسَلِّمُ به من شرهم، حكاه الماوردي. «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يَعْلَمُونَ عاقبة كفرهم. والثاني: أنك صادق. والثالث: حلول العذاب بهم، وهذا تهديد لهم: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»^(١). وقرأ نافع، وابن عامر: «تعلمون» بالياء. ومن قرأ بالياء، فعلى الأمر للنبي ﷺ بأن يخاطبهم بهذا، قاله مقاتل؛ فنسخت آية السيف الإعراض والسلام.



(١) قال ابن كثير: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» هذا تهديد من الله تعالى لهم. قال: ولهذا أحلَّ بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، قال: وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام في المشارق والمغرب، والله أعلم.

سورة الدخان

وهي مكِّيَّة كلها باجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمِّ﴾ ① وَالْحَمِّبِ الْبَيْبِ ② إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ③ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ④ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ⑤ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ⑥ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑦ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑧ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ⑨ إِنْ كُنْتُمْ تُوقِنُونَ ⑩ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ الْأُولَى ⑪ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ⑫

قوله ﴿حَمِّ﴾ ① وَالْحَمِّبِ الْبَيْبِ ② ﴿قد تقدم بيانه [المؤمن، والزخرف]، وجواب القسم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، والهاء كناية عن الكتاب، وهو القرآن ﴿فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها ليلة القدر، وهو قول الأكثرين. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: أنزل القرآن من عند الرحمن ليلة القدر جملة واحدة، فوضع في السماء الدنيا، ثم أنزل نجوماً. وقال مقاتل: نزل القرآن كله في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. والثاني: أنها ليلة النصف من شعبان، قاله عكرمة^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ③ أي: مخوفين عقابنا^(٢). ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الليلة ﴿يُفْرَقُ كُلُّ﴾ أي: يُفَصَّلُ^(٣). وقرأ أبو المتوكل، وأبو نهيك، ومعاذ القاري: ﴿يُفْرَقُ﴾ بفتح الياء وكسر الراء «كُلُّ» ينصب اللام ﴿أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: مُحْكَم. قال ابن عباس: يُكْتَبُ من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال، حتى الحاج، وإنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى. وعلى ما روي عن عكرمة أن ذلك في ليلة النصف من شعبان، والرواية عنه بذلك مضطربة قد خولف الراوي لها، فروي عن عكرمة أنه قال: في ليلة القدر، وعلى هذا المفسرون^(٤).

قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ ⑤ قال الأخفش: «أمرًا» و«رحمة» منصوبان على الحال؛ المعنى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ آمْرِينَ أمرًا وراحمين رحمة. قال الزجاج: ويجوز أن يكون منصوبًا بـ «يُفْرَقُ» بمنزلة يُفْرَقُ قَرْقًا، لأن «أمرًا» بمعنى «قَرْقًا». قال الفراء: ويجوز أن تُنصب الرحمة بوقوع «مرسيلين» عليها، فتكون الرحمة هي النبي ﷺ. وقال مقاتل: «مرسيلين» بمعنى منزلين هذا القرآن، أنزلناه رحمةً لِمَنْ آمَنَ به. وقال غيره: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ ⑤ أي: إِنَّا نَأْمُرُ بِنَسْخِ مَا يُنْسَخُ من

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك قول من قال: عنى بها ليلة القدر. وقال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ③ وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، ثم قال: ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان - كما روي عن عكرمة - فقد أهدى النجمة، فإن نص القرآن أنها في رمضان.

(٢) قال ابن كثير: وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ③ أي: معلِّمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده.

(٣) قال ابن كثير: وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ④ أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون إلى آخرها، قال: وهكذا روي عن ابن عمر، ومجاهد، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد من السلف. اهـ. وكذلك ذكر غيره من المفسرين أن الضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ④ يعود على الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن، وهي ليلة القدر، وهو الحق الذي لا معدل عنه، ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان، فحجته في ذلك بعض الآثار الضعيفة التي لا تقوم بها حجة، ومن ذلك تعلم خطأ الدعاء الذي يقرؤه بعض الناس في ليلة النصف من شعبان: «... إلهي بالتجلي الأعظم في ليلة النصف من شهر شعبان المكرم التي يفرق فيها كل أمر حكيم ويريم...» فإن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، هي ليلة القدر المقصودة في هذه السورة، وليست ليلة النصف من شعبان.

(٤) قال ابن كثير: والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح عن الليث عن عقيل عن الزهري: أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأحنس قال: إن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل ليتكعب ويولد له وقد أخرج اسمه في الموتى» قال: فهو حديث مرسل، ومثله لا يعارض به النصوص. اهـ.

اللوح^(١) ﴿إِنَّا كُنَّا مُتَسِلِينَ﴾ الأنبياء، ﴿رَحْمَةً﴾ متا بخلقنا ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «ربُّ» بالرفع. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «رَبُّ» بكسر الباء. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿بَلْ هُمْ﴾ يعني الكفار ﴿فِي سَبِيلِكَ﴾ مما جئناهم به ﴿يَلْمُزُونَ﴾ به.

﴿فَأَرْقَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿رَبَّنَا أَخْبِنَا عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿أَنَّ هُمْ الذَّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ لِّمِثْلُنَا ﴿إِنَّا كَانِمْوُا الْعَذَابَ قَلِيلًا﴾ ﴿إِنَّا كَانِمْوُا الْعَذَابَ قَلِيلًا﴾ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ الْبَطْسَةُ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْعِمُونَ﴾ ﴿١١﴾

﴿فَأَرْقَبَ﴾ أي: فانتظر ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ اختلفوا في هذا الدخان ووقته على ثلاثة أقوال: أحدها: [أنه] دخان يجيء قبل قيام الساعة، فروى عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الدخان يجيء فيأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام»^(٢). وروى عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس ذات يوم، فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: طلع الكوكب ذو الذئب، فخشيت أن يطرق الدخان^(٣)، وهذا المعنى مروى عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، والجنس. والثاني: أن قريشاً أصابهم جوع، فكانوا يرون بينهم وبين السماء دخاناً من الجوع؛ فروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث مسروق، قال: كنا عند عبد الله، فدخل علينا رجل، فقال: جئتك من المسجد وتركت رجلاً يقول في هذه [الآية] ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾: يغشاهم يوم القيامة دخان يأخذ بأنفاسهم حتى يصيبهم منه كهيئة الزكام؛ فقال عبد الله: من علم علماً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، إنما كان [هذا] لأن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد، حتى أكلوا العظام والميتة، وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْبِنَا عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١﴾، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَانِمْوُا الْعَذَابَ قَلِيلًا﴾ ﴿إِنَّا كَانِمْوُا الْعَذَابَ قَلِيلًا﴾، فكشف عنهم، ثم عادوا إلى الكفر، فأخذوا يوم بدر، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ الْبَطْسَةُ الْكُبْرَىٰ﴾^(٤)، وإلى نحو هذا ذهب مجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وابن السائب، ومقاتل. والثالث: أنه يوم فتح مكة لما حُجبت السماء بالغبرة، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ﴾ أي: يقولون: هذا عذاب. ﴿رَبَّنَا أَخْبِنَا عَنَّا الْعَذَابَ﴾ فيه قولان: أحدهما: الجوع. والثاني: الدخان ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن. ﴿أَنَّ هُمْ الذَّكْرَىٰ﴾ أي: من أين لهم التذکر والأتعاط بعد نزول هذا

(١) عبارة الطبرسي في «مجمع البيان» والشوكاني في «فتح القدير»: إننا نأمر ببيان ذلك ونسخه من اللوح المحفوظ.

(٢) ذكر الطبري نحوه عن عبد الله بن مسعود موقوفاً عليه من رواية أبي الضحى عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جليوساً وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إن قاصاً عند أبواب كندة يقص ويزعجهم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام... الخ.

(٣) «الطبري» ١١٣/٢٥، قال ابن كثير: وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن ابن عمر عن سفیان عن عبد الله بن أبي مليكة عن ابن عباس ؓ... فذكره، قال: وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ؓ حبر الأمة وترجمان القرآن، قال: وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين ؓ أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرْقَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١١﴾ أي: بين واضح يراه كل أحد، قال: وعلى ما فسره ابن مسعود ؓ (أي في الحديث الذي بعد هذا من رواية البخاري ومسلم عن مسروق) إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد. اهـ.

قال الشوكاني في «فتح القدير»: قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح (يريد بذلك سند رواية ابن أبي حاتم)، وكذا صححه السيوطي، ولكن ليس فيه أنه سبب نزول الآية، قال: وقد عرفناك أنه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدخان الذي كان يترامى لقريش من الجوع، وبين كون الدخان من آيات الساعة وهلاماتها وأشراتها، فقد وردت أحاديث صحاح وحسان وضعاف بذلك، وليس فيها أنه سبب نزول الآية، فلا حاجة بنا إلى التطويل بذكرها، والواجب التمسك بما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أن دخان قريش عند الجهد والجوع هو سبب النزول، قال: وبهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجح أنه الدخان الذي هو من أشرط الساعة، كإبن كثير في «تفسيره» وغيره، قال: وهكذا يتدفع قول من قال: إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة، متمسكاً بما أخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال: كان يوم فتح مكة دخان، وهو قول الله: ﴿فَأَرْقَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١١﴾، قال: فإن هذا لا يعارض ما في «الصحيحين» على تقدير صحة إسناده، مع احتمال أن يكون أبو هريرة ؓ ظن من وقوع ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية، قال: ولهذا لم يصح بأنه سبب نزولها. اهـ.

(٤) ذكره البخاري بالفاظ مختلفة: ٣٩٤/٨، ٤٢٠، ٤٤٠، ورواه مسلم أيضاً، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٨/٦، وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبي نعيم والبيهقي معاً في «الدلائل».

البلاء، ﴿و﴾ حالهم أنه ﴿قد جاءهم رسول مبين﴾ أي: ظاهر الصدق؟! ﴿فَمَنْ تَوَلَّاهُ عَنْهُ﴾ أي: أعرضوا ولم يقبلوا قوله ﴿وَقَالُوا مَتَىٰ نَحْنُ﴾ أي: هو معلّم يعلمه بشر مجنون بادعائه النبوة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ أي: زماناً يسيراً. وفي العذاب قولان: أحدهما: الضّر الذي نزل بهم كُشف بالخصب، هذا على قول ابن مسعود. قال مقاتل: كشفه إلى يوم بدر. والثاني: أنه الدخان، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾ فيه قولان: أحدهما: إلى الشرك، قاله ابن مسعود. والثاني: إلى عذاب الله، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبِّئُشُ الْبَلَّغَةَ الْكُبْرَى﴾ وقرا الحسن، وابن يعمر، وأبو عمران: «يَوْمَ نَبِّئُشُ» ببناء مرفوعة وفتح الطاء «الْبَلَّغَةُ» بالرفع. قال الزجاج: المعنى: واذكر يومَ نَبِّئُشُ، ولا يجوز أن يكون منصوباً بقوله: «منتقمون»، لأن ما بعد «إِنَّا» لا يجوز أن يعمل فيما قبلها. وفي هذا اليوم قولان: أحدهما: يوم بدر، قاله ابن مسعود، وأبيّ بن كعب، وأبو هريرة، وأبو العالية، ومجاهد، والضحاك. والثاني: يوم القيامة، قاله ابن عباس، والحسن. والبطن: الأخذ بقوة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَوْمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِرَسُولِهِمْ﴾ ﴿٧﴾ ﴿أَن أَدُّوا إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِلَىٰ لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿٨﴾ ﴿وَأَن لَا تَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ إِلَهًا إِلَّا مَا يَكْفُرُ بِسُلْطَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿٩﴾ ﴿وَأَن يَدْعُوا بِرَبِّكَ وَرَبِّكَ أَن تَرْجُمُونَ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَن هَذَا قَوْمٌ مَّجْرُمُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿فَأَنزَلَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ فِيهِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿وَاتْرِكُوا الْبَحْرَ رَمَاقًا﴾ ﴿١٣﴾ ﴿كَمَا تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَارِبٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿وَتَسْمَعُوا كَمَا لَبِثُوا فِيهَا فَكَيْفَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي: ابتلينا ﴿قَوْمًا﴾ أي: قِبَل قومك ﴿قَوْمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بإرسال موسى إليهم ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ على ربه، قاله الفراء. والثالث: شريف وسيط النسب، قاله أبو سليمان.

قوله تعالى: ﴿أَن أَدُّوا﴾ أي: بأن أدوا ﴿إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أدوا إلي ما أدعوكم إليه من الحق بآبائي، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس. فعلى هذا ينتصب «عباد الله» بالنداء. قال الزجاج: ويكون المعنى: أن أدوا إلي ما أترككم به يا عباد الله. والثاني: أرسلوا معي بني إسرائيل، قاله مجاهد، وفتادة، والمعنى: أطلقوهم من تسخيركم، وسلموهم إلي. ﴿وَأَن لَا تَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا تفتروا عليه، قاله ابن عباس. والثاني: لا تمتوا عليه^(١)، قاله قتادة. والثالث: لا تعظموا عليه، قاله ابن جرير ﴿إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أي: بحجة تدل على صدقي. فلما قال هذا تواعدوه بالقتل فقال: ﴿وَأَن يَدْعُوا بِرَبِّكَ وَرَبِّكَ أَن تَرْجُمُونَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه رجم القول، قاله ابن عباس؛ فيكون المعنى: أن يقولوا: شاعر أو مجنون. والثاني: القتل، قاله السدي. ﴿وَأَن لَّزَّ قَوْمًا يَلُون﴾ أي: فاتركوني لا معي ولا علي، فكفروا ولم يؤمنوا، ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَن هَذَا قَوْمٌ مَّجْرُمُونَ﴾ من فتح «أَن»، فالمعنى: بأن هؤلاء؛ ومن كسر، فالمعنى: قال: إن هؤلاء، وإن «بعد القول مكسورة». وقال المفسرون: المنجرون هاهنا: المشركون. فأجاب الله دعاه، وقال: ﴿فَأَنزَلَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ يعني بالمؤمنين ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾ يتبعكم فرعون وقومه؛ فأعلمهم أنهم يتبعونهم، وأنه سيكون سبباً لغرقهم. ﴿وَاتْرِكُوا الْبَحْرَ رَمَاقًا﴾ أي: ساكتاً على حاله بعد أن انفرد لك، ولا تأمره أن يرجع كما كان حتى يدخله فرعون وجنوده. والرّهو: مشي في سكون. قال قتادة: لما قطع موسى البحر، عطف يضرب البحر بعصاه ليلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده، فقيل [له]: ﴿وَاتْرِكُوا الْبَحْرَ رَمَاقًا﴾ أي كما هو - طريقاً يابساً^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّزَّ قَوْمًا يَلُون﴾ أخبره الله ﷻ بغرقهم لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ في ترك البحر على حاله. ﴿كَمَا تَرَكُوا﴾ أي:

(١) كذا الأصل: «لا تمتوا» بتامين، والذي في الطبري عن قتادة: «لا تبغوا».

(٢) قال ابن كثير: وقوله ﷻ: ﴿وَاتْرِكُوا الْبَحْرَ رَمَاقًا﴾ ذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاز هو وبنو إسرائيل البحر أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ليصير حلالاً بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكتاً، ويشره بأنهم جند مغرورون فيه، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى. اهـ.

بعد غرقهم ﴿مِنْ جَنَّتِي﴾ وقد فسرنا الآية في [الشعراء: ٥٧]. فأما «التَّعْمَةُ» فهو العيش اللَّيِّن الرغدد. وما بعد هذا قد سبق بيانه [يس: ٥٥] إلى قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ﴾ أي: على آل فرعون؛ وفي معناه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه على الحقيقة؛ روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ مُنْطَلِمٍ إِلَّا وَلَهُ فِي السَّمَاءِ بَابَانِ، بَابٌ يَصْعَدُ فِيهِ عَمَلُهُ، وَبَابٌ يَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ، فَإِذَا مَاتَ بِكِبَايَا عَلَيْهِ» وتلا ﷺ هذه الآية (١). وقال علي عليه السلام: «إِنِ الْمُؤْمِنُ إِذَا مَاتَ بِكَى عَلَيْهِ مُضَلَّاهُ مِنَ الْأَرْضِ وَمُضْعَدُ عَمَلِهِ مِنَ السَّمَاءِ» (٢). وإن آل فرعون لم يكن لهم في الأرض مُضَلَّى وَلَا فِي السَّمَاءِ مُضْعَدُ عَمَلٍ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾، وإلى نحو هذا ذهب ابن عباس، والضحاك، ومقاتل. وقال ابن عباس: الحُمْرة التي في السماء: بكاؤها. وقال مجاهد: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، فقبل له: أو تبكي؟ قال: وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالكروك والسجود؟! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسيحه وتكبيره فيها ذَوِي كَدْوِي النَّحْلِ (٣)؟! والثاني: أن المراد: أهل السماء وأهل الأرض، قاله الحسن، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَصْنَعَ لِكُلِّ أَتْرَافًا﴾ [محمد: ٤]، أي: أهل الحرب. والثالث: أن العرب تقول إذا أرادت تعظيم مهلك عظيم: أَظْلَمَتِ الشَّمْسُ لَهُ، وَكَسَفَتِ الْقَمَرَ لِفَقْدِهِ، وَيَكْتَهُ الرِّيحُ وَالبَرَقُ وَالسَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، يَرِيدُونَ الْمَبَالِغَةَ فِي وَصْفِ الْمُصِيبَةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِكُذْبٍ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُمْ جَمِيعاً مُتَوَاطِئُونَ عَلَيْهِ، وَالسَّابِغُ لَهُ يَعْرفُ مَذْهَبَ الْقَاتِلِ فِيهِ؛ وَرَبِّتُهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: أَظْلَمَتِ الشَّمْسُ: كَادَتْ تُظْلِمُ، وَكَسَفَتِ الْقَمَرَ: كَادَ يُكْسِفُ، وَمَعْنَى «كَادَ»: هَمٌّ أَنْ يَفْعَلَ وَلَمْ يَفْعَلْ؛ قَالَ ابْنُ مَقْرَمٍ يَرِثِي رَجُلًا:

الرِّيحُ تَبْكِي شَجْوَهُ وَالبَرَقُ يَلْمَعُ فِي غَمَامَةٍ (٤)

وقال الآخر:

الشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ - تَبْكِي عَلَيْكَ - نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا (٥)

أراد: الشمس طالعة تبكي عليه، وليست مع طلوعها كاسفة للنجوم والقمر، لأنها مظلمة، وإنما تكيف بضوئها، فنجوم الليل بادية بالنهار، فيكون معنى الكلام: إن الله لما أهلك قوم فرعون لم يترك عليهم باك، ولم يجزع جازع، ولم يوجد لهم فعد، هذا كله كلام ابن قتيبة.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَا بِقِيَ إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٥) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عَيْرٍ عَلَىٰ الْمَلَكِينَ (١٧) وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ لِكُلِّ شَيْءٍ (١٨) إِنَّ هَذِهِ لَقَوْلُونَ (١٩) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٢٠) فَأَنزَلْنَا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢١) أَهْمَ حَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٢٢) وَمَا عَلَّمْنَا السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لِيَجِيبَ (٢٣) مَا عَلَّمْنَاهُمَا إِلَّا بِالسَّمْعِ وَلَكِنْ أَسْمَعْنَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٤) إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ يَبِغْتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٢٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْتَ عَنْ مَوْتٍ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٢٦) إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٢٧)﴾

قوله تعالى: ﴿مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ يعني قتل الأبناء واستخدام النساء والتعب في أعمال فرعون، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾ أي: جباراً. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عَيْرٍ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عَيْرٍ﴾ علمه الله فيهم على عالمي زمانهم، ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ كأنفراق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، إلى غير ذلك ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: نعمة ظاهرة. ثم رجع إلى ذم كفر مكة، فقال: ﴿إِنَّ هَذِهِ لَقَوْلُونَ (١٩) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ﴾ يعنون التي تكون في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾

(١) رواه الترمذي في (سننه) ١٥٨/٢ من حديث موسى بن عبيدة عن يزيد بن أبان الرقاشي عن أنس بن مالك عليه السلام، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة، ويزيد بن أبان الرقاشي يصفغان في الحديث. والحديث ذكره السيوطي في «الدر» ٣٠/٦، وزاد نسبه لابن أبي الدنيا في «ذكر الموت»، وأبي يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الحلية»، والخطيب عن أنس بن مالك عليه السلام.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ٣١/٦ من رواية ابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر من طريق السيب بن رافع عن علي عليه السلام.

(٣) أورده السيوطي في «الدر» ٣٠/٦ من رواية عبد بن حميد، وأبي الشيخ في «العظمة» عن مجاهد بنحوه.

(٤) البيت ليزيد بن مفرغ الحميري، وهو في «مشكل القرآن» ١٢٨، و«الأضداد» للأباري ٤٢٤، و«الأغاني» ١٨/١٨٧.

(٥) البيت لجرير يري عمر بن عبد العزيز، «ديوانه» ٣٠٤، و«مشكل القرآن» ١٢٨، و«الصحاح»، و«اللسان» و«التاج»: بكى. ورواية البيت في «الديوان»:

فَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَيْسَتْ بِطَالِعَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا

أي: بمبعوثين، ﴿فَأَتُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: ابعثهم لنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في البعث. وهذا جهل منهم من وجهين: أحدهما: أنهم قد رأوا من الآيات ما يكفي في الدلالة؛ فليس لهم أن ينتظروا. والثاني: أن الإعادة للجزاء؛ وذلك في الآخرة، لا في الدنيا. ثم خوفهم عذاب الأمم قبلهم، فقال: ﴿أَنْتُمْ حَرٌّ﴾ أي: أشد وأقوى ﴿أَمْ قَوْمٌ تُبِّعُ﴾؟! أي: ليسوا خيراً منهم. روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أدري تبعاً، نبي، أو غير نبي»^(١). وقالت عائشة: لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً، ألا ترى أن الله تعالى ذم قومه ولم يذمه^(٢). وقال وهب: أسلم تبع ولم يسلم قومه، لذلك ذكر قومه ولم يذكر. وذكر بعض المفسرين أنه كان يعبد النار، فأسلم ودعا قومه - وهم حمير - إلى الإسلام، فكذبوه. فأما تسميته بـ «تبع» فقال أبو عبيدة: كل ملك من ملوك اليمن كان يسمى: تبعاً، لأنه يتبع صاحبه، فموضع «تبع» في الجاهلية موضع الخليفة في الإسلام، وقال مقاتل: إنما سمي تبعاً لكثرة أتباعه، واسمه: ملكيكراب^(٣). إنما ذكر قوم تبع، لأنهم كانوا أقرب في الهلاك إلى كفار مكة من غيرهم. وما بعد هذا قد تقدم [الأنبياء: ١٦، الحجر: ٨٥] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم يفصل الله ﷻ بين العباد ﴿بِيعْتُهُمْ﴾ أي: ميعادهم ﴿أَجْمِيعًا﴾ أي: يأتيه الأولون والآخرون. ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يتبع قريب قريباً، قاله مقاتل. وقال ابن قتيبة: لا يغني ولي عن وليه بالقرابة أو غيرها. والثاني: لا يتبع ابن عم ابن عمه، قاله أبو عبيدة. ﴿وَلَا هُمْ يُصْرَتُونَ﴾ أي، لا يمتنعون من عذاب الله، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ وهم المؤمنون، فإنه يشفع بعضهم في بعض.

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُورِ﴾ طَعَامُ الْأَيْمِيِّ ﴿١٢﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبَطْنِ ﴿١٣﴾ كَعَلَى الْحَمِيرِ ﴿١٤﴾ خَذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِنَّكَ سَوَاءٌ الْحَمِيرِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ سَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيرِ ﴿١٦﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الْمَتَّوِّينَ فِي مَقَابِرِ آيِينَ ﴿١٩﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوتٍ ﴿٢٠﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَرْقٍ مُتَّقَلِينَ ﴿٢١﴾ كَذَلِكَ وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٢﴾ يَدْخُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ آيِينِكِ ﴿٢٣﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّعْنَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ عَذَابِ الْحَمِيرِ ﴿٢٤﴾ فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّمَا يَنْتَرِكَنَّهُ لِيَتَكَلَّمُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنهْمُ مُرْتَقِبُونَ ﴿٢٧﴾

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُورِ﴾ ﴿١٢﴾ قد ذكرناها في [الصافات: ٦٢]. و«الأييم»: الفاجر؛ وقال مقاتل: هو أبو جهل. وقد ذكرنا معنى «المهل» في [الكهف: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿يَغْلِي فِي الْبَطْنِ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «يغلي» بالياء؛ والباقون: بالتاء. فمن قرأ [تغلي] بالتاء، فلتأنيث الشجرة؛ ومن قرأ بالياء، حمله على الطعام. قال أبو علي الفارسي: ولا يجوز أن يُحْمَلَ الْعَلْيُ عَلَى الْمُهْلِ. لأن المهل ذكر للتشبيه في الذؤب، وإنما يغلي ما شُبِّه به ﴿كَعَلَى الْحَمِيرِ﴾ وهو الماء الحار إذا اشتدَّ غليانه.

قوله تعالى: ﴿خَذُوهُ﴾ أي: يقال للزبانية: خذوه ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، ويعقوب: بضم التاء؛ وكسرهما الباقون؛ قال ابن قتيبة: ومعناه: قودوه بالعنف، يقال: جيء بفلان يُعْتَلُّ إلى السلطان، و﴿سَوَاءٌ الْحَمِيرِ﴾: وسط النار. قال مقاتل: الآيات في أبي جهل يضربه الملك من خزان جهنم على رأسه بمقعدة من حديد فتنب عن دماغه، فيجري دماغه على جسده، ثم يصبُّ الملك في الثقب ماءً حميمياً قد انتهى حره، فيقع في بطنه، ثم يقول [له] الملك: ﴿ذُقْ﴾ العذاب ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ هذا توبيخ له بذلك؛ وكان أبو جهل يقول: أنا أعزُّ قريش وأكرمها. وقرأ الكسائي: ﴿ذُقْ أَنْتَ﴾ بفتح الهمزة؛ والباقون: بكسرها. قال أبو علي: من كسرهما، فالمعنى: أنت

(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: ١٤٨: رواه الثعلبي عن طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة روى عنه، قال: والمعروف بهذا الإسناد: «ما أدري العيني هو، أم لا؟ وما أدري أعزير نبي، أم لا؟» أخرجه أبو داود، والحاكم، لكن قال: «فوق القرنين» بدل «عزير» قال: قال الدارقطني: تفرد به عبد الرزاق، وغيره أرسله. اهـ.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک»: ٤٥٠/٢ عن عائشة روى عنه، ووافقه الذهبي. قال ابن كثير: وكأنه - والله أعلم - كان كافراً ثم أسلم وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح ﷺ، وحج البيت في زمن الجرميين وكساء الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحوه سنة آلاف بدنة، وعظمه وأكرمه ثم عاد إلى اليمن. اهـ.

(٣) الذي في «القرطبي»: وقال الكلي: تبع: هو أبو كرب أسد بن ملكيكراب.

العزير في زعمك، ومن فتح، فالمعنى: بأنك. فإن قيل: كيف سُمِّي بالعزير وليس به!؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه قيل ذلك استهزاءً به، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل. والثاني: أنت العزير [الكريم] عند نَسْكَ، قاله قتادة. والثالث: أنت العزير في قومك، الكريم على أهلك، حكاه الماوردي. ويقول الخزّان لأهل النار: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ (٤٦) أي: تشكّون في كونه. ثم ذكر مستقرّ المُتَمَيّن فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَمَيّنِينَ فِي مَقَابِرِ أَيْمِينَ﴾ (٤٧) قرأ نافع، وابن عامر: ﴿فِي مَقَامٍ بَضْمِ الْمِيمِ وَالْباقون: بفتحها. قال الفراء: المَقَام، بفتح الميم: المكان، وبضمها: الإقامة.

قوله تعالى: ﴿أَيْمِينَ﴾ أي: آمينوا فيه الغيّر والحوادث. وقد ذكرنا «الجَنَات» في [البقرة: ٣٥] و[الذّكرنا] معنى «الغيون» ومعنى «مقابلين» في [الحجر: ٤٥، ٤٧] وذكرنا «السُّنْدُسُ وَالإِسْتِزِقُ» في [الكهف: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر كما وصفنا ﴿وَرَدَّجَنَّتْهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ قال المفسرون: المعنى: قرّناهم بيّهن، وليس من عقد التزويج. قال أبو عبيدة: المعنى: جعلنا ذكور أهل الجنة أزواجاً ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ من النساء، تقول للرجل: زوّج هذه النعل الفرد بالنعل الفرد، أي: اجعلهما زوجاً، والمعنى: جعلناهم اثنين اثنين. وقال يونس: العرب لا تقول: تزوّج بها، إنما يقولون: تزوّجها. ومعنى ﴿وَرَدَّجَنَّتْهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾: قرّناهم. وقال ابن قتيبة: يقال: زوّجته امرأة، وزوّجته بامرأة. وقال أبو علي الفارسي: والتنزيل على ما قال يونس، وهو قوله تعالى: ﴿وَرَدَّجَنَّتْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وما قال: زوّجناك بها. فأما الحُور، فقال مجاهد: الحُور: النساء النقيات البياض. وقال الفراء: الحُوراء: البياض من الإبل؛ قال: وفي «الحُور العين» لغتان: حُور عِين، وجير عِين، وأنشد:

أزمانَ عِيناءِ سرورِ المسيرِ
وحوراءِ عِيناءِ مِنّ العِينِ الجيرِ
وقال أبو عبيدة: الحوراء: الشديدة بياض العين، الشديدة سواد سوادها. وقد بيّنا معنى «العِين» في [الصافات: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكِحَةٍ أَيْمِينَ﴾ (٤٨) فيه قولان: أحدهما: آتين من انقطاعها في بعض الأزمنة. والثاني: آتين من التَّحْمِ والأسقام والآفات.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا النَّوْتَةَ الْأُولَى﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بمعنى «سوى»، فتقدير الكلام: لا يدعون في الجنة الموت سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا؛ ومثله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، وقوله: ﴿حَلِيلِيْنَ فِيهَا مَا كَانَتِ النَّوْتَةُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَاءَ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠٧] أي: سوى ما شاء لهم ربك من الزيادة على مقدار الدنيا، هذا قول الفراء، والزجاج. والثاني: أن السعداء حين يموتون يصيرون إلى الرُوح والرَّيحان وأسباب من الجنة يزوّن منازلهم منها، وإذ ماتوا في الدنيا، فكانهم ماتوا في الجنة، لاتصالهم بأسبابها، ومشاهدتهم إياها، قاله ابن قتيبة. والثالث: أن «إِلَّا» بمعنى «بعد»، كما ذكرنا في أحد الوجوه في قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، وهذا قول ابن جرير (١).

قوله تعالى: ﴿فَضَلَا يَنْ رَبِّكَ﴾ أي: فعل الله ذلك بهم فضلاً منه (٢). ﴿فَأَنبَأَ يَتْرَبْتَهُ﴾ أي: سهّلناه، والكناية عن القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: بلغة العرب ﴿لَمَلَهُمْ يَنْكَرُونَ﴾ أي: لكي يتعظروا فيؤمنوا، ﴿فَأَنبَأَ﴾ أي: انتظر بهم العذاب ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَابُونَ﴾ هلاكك (٣)؛ وهذه عند أكثر المفسرين منسوخة بآية السيف، وليس بصحيح.



(١) قال ابن كثير: وقوله: ﴿لَا يَدْعُونَ فِيهَا النَّوْتَةَ إِلَّا النَّوْتَةَ الْأُولَى﴾ هذا استثناء يؤكد النفي، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يدعون فيها الموت أبداً، كما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كيش أملح فيوقف بين الجنة والنار، ثم يلبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلوه فلا موت، ويا أهل النار خلوه فلا موت».

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَوَكَّلْنَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضَلَا يَنْ رَبِّكَ﴾ يقول تعالى ذكره: ووقى هؤلاء المتقين ربهم يومئذ عذاب النار، تفضلاً يا محمد من ربك عليهم، وإحسانه من إليهم بذلك، ولم يعاقبهم بجرم سلف منهم في الدنيا، قال: ولولا تفضله عليهم بصفحة لهم من العقوبة لهم على ما سلف منهم من ذلك، لم يبيهم عذاب الجحيم؛ ولكن كان يتألمهم ويصيبهم ألمه ومكرهه. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله ﷺ مُسَلِّماً له وواعداً له بالنصر ومتوعداً لمن كذب بالمطب والهلاك ﴿فَأَنبَأَ﴾ أي: انتظر ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَابُونَ﴾ أي: فيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فلنألك وإلاخوانك من النبيين والمرسلين ومن أتبعهم من المؤمنين. اهـ.

سورة الجاثية

وتسمى سورة الشريعة

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مَكِّيَّة، وهو قول الحسن، [وعكرمة]، ومجاهد، وقتادة، والجمهور. وقال مقاتل: هي مَكِّيَّة كلها. وحكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا: هي مَكِّيَّة إلا آية، وهي قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ [الجاثية: ١٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ نَزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْكَرِيمِ ۝٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَنبَاءَ لِلَّذِينَ عَلَّمُوا ۝٣ وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ وَإِنبَاءَ يَوْمِكُمْ ۝٤ وَأَخْلَقْنَا السَّمَاءَ مِن رُّزْقِنَا فَانبأ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْجِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ۝٥ إِنبَاءُ لِقَوْمٍ يُغْفِرُونَ ۝٦ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَبِيدٍ يَعْبُدُ اللَّهَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ۝٧ وَإِذَا عَلَّمَ مِنَ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُرُوًّا أُولَئِكَ هُمُ عَلَدَاءُ مُهِينُونَ ۝٨ وَإِن رَأَوْهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ عَلَدَاءُ عَظِيمُونَ ۝٩ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَدَابٌ مِّن رَّبِّهِمْ إِن يَجْحَدُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْرِيَ فِيهَا فَاكُمُ فِيهِ بِأَمْرِهِ فَلَيَنْتَبِهَنَّ مِنَ فَضْلِهِ وَلَكُمُ النَّشُورُ ۝١٠ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا يَوْمَ تَبْتَئُونَ ۝١١

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝١ نَزِيلَ الْكِتَابِ﴾ قد شرحناه في أول (المؤمن).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ وَإِنبَاءَ يَوْمِكُمْ ۝٣﴾ أي: من تراب ثم من نطفة إلى أن يتكامل خلق الإنسان ﴿وَمَا بِئُكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: وما يفرق في الأرض من جميع ما خلق على اختلاف ذلك في الخلق والصور ﴿إِنبَاءُ﴾ تدلُّ على وحدانيته. قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿آيَاتُ﴾ رفعا ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ رفعا أيضا. وقرأ حمزة، والكسائي: بالكسر فيهما. والرُّزْقُ هاهنا بمعنى المطر.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي: هذه حجج الله ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَبِيدٍ يَعْبُدُ اللَّهَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ﴾ أي: بعد حديثه ﴿وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ﴾ يؤمن هؤلاء المشركون؟!

قوله تعالى: ﴿وَأَخْلَقْنَا السَّمَاءَ مِن رُّزْقِنَا فَانبأ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْجِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ۝٥﴾ روى أبو صالح عن ابن عباس أنها نزلت في النصر بن الحارث^(١) وقد بيَّنا معناها في [الشعراء: ٢٢٢]، والآية التي تليها مفسرة في [النساء: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلَّمَ مِنَ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُرُوًّا أُولَئِكَ هُمُ عَلَدَاءُ مُهِينُونَ ۝٨﴾ قال مقاتل: معناه: إذا سمع. وقرأ ابن مسعود: ﴿وَإِذَا عَلَّمَ﴾ برفع العين وكسر اللام وتشديدها.

قوله تعالى: ﴿أَخَذَهَا حُرُوًّا﴾ أي: سخر منها، وذلك كفعل أبي جهل حين نزلت: ﴿إِن سَخَّرَ لَكُمُ الرُّزْقَ ۝١١﴾ لَطَمَ الْأَيْبِيرَ ۝١٢﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤] فدعا بتمر وزُبد، وقال: تَزَقَّمُوا فَمَا يَعِدُكُمُ مُحَمَّدٌ إِلَّا هَذَا. وإنما قال: ﴿أُولَئِكَ﴾ لأنه ردُّ الكلام إلى معنى «كُلٌّ». ﴿مِن رَّبِّهِمْ جَهَنَّمَ﴾ قد فسَّرناه في [إبراهيم: ١٦] ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ من الأموال، ولا ما عبدوا من الآلهة.

قوله تعالى: ﴿هَذَا هُدًى﴾ يعني القرآن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ به، ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَدَابٌ مِّن رَّبِّهِمْ إِن يَجْحَدُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير، وحفص عن

(١) قال البغوي: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ كذَّاب صاحب إثم، يعني النصر بن الحارث. وقال الألوسي: والآية نزلت في أبي جهل، وقيل في النصر بن الحارث، وكان يشتري حديث الأعاجم ويشغل به الناس عن استماع القرآن، قال: لكنها عامة كما هو مقتضى «كُلٌّ»، ويدخل من نزلت فيه دخولا أوليا. اء.

عاصم: «الْيَمِّ» بالرفع على نعت العذاب. وقرأ الباقون: بالكسر على نعت الرّجز. والرّجز بمعنى العذاب، وقد شرحناه في [الأعراف: ١٣٤].

قوله تعالى: ﴿جِيئًا مِّنْهُ﴾ أي: ذلك التسخير منه لا من غيره، فهو من فضله. وقرأ عبد الله بن عمرو، وابن عباس، وأبو مجلز، وابن السميع، وابن محيصن، والجاحدي: «جميعاً مِّنْهُ» بفتح النون وتشديدها وتاء منصوبة مؤنثة. وقرأ سعيد بن جبير: «مِنُّهُ» بفتح الميم ورفع النون والهاء مشددة النون.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَةَ وَالْوَيْحَ وَرَدَقْنَاهُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَإِنَّا لَنُؤْتِيهِم مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا لَيَخْلِفُونَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْأَمْرُ فَيَتَّبِعُنَا يَنْهَوْنَ عَنْ رَبِّكَ يَفْتَضِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بِمَعْزِمِهِمْ آوِيَةٌ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا الشَّيْءَ أَنْ نَحْمَلَهُمْ كَالنَّهْلِ إِمَامًا وَاعْبَدُوا الصَّالِحِينَ سُوءًا مِّمَّا هُمْ شَرِكُوا مَا مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا...﴾ [الآية] في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أنهم نزلوا في غزاة بني المصطلق على بئر يقال لها: المريسيع، فأرسل عبد الله بن أبي غلامه ليستقي الماء، فأبطأ عليه، فلما أتاه قال له: ما حبسك؟ قال: غلام عمر، ما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قُرب النبي ﷺ وقُرب أبي بكر، وملأ لمولاه، فقال عبد الله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سَمْنُ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ، فبلغ قوله عمر، فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس^(١). والثاني: [أنها] لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال يهودي بالمدينة يقال له فنحاص: احتاج ربُّ محمد، فلما سمع بذلك عمر، اشتمل [على] سيفه وخرج في طلبه، فنزل جبريل ﷺ بهذه الآية، فبعث النبي ﷺ في طلب عمر، فلما جاء، قال: «يا عمر، ضَعْ سَيْفَكَ» وتلا عليه الآية، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس^(٢). والثالث: أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذى شديد من المشركين قبل أن يؤمروا بالقتال، فشكروا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، قاله القرظي، والسدي^(٣). والرابع: أن رجلاً من كفار قريش شتم عمر بن الخطاب، فهمَّ عمر أن يبطش به، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(٤). ومعنى الآية: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا: اغْفِرُوا، ولكن شبه بالشرط، والجزاء، كقوله: ﴿قُلْ لِيُعَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُؤْمِنُوا السَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقد مضى بيان هذا. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يخافون وقائع الله في الأمم الخالية، لأنهم لا يؤمنون به، فلا يخافون عقابه. وقيل: لا يذرون أنعم الله عليهم، أم لا. وقد سبق بيان معنى «أيام الله» في سورة [إبراهيم: ١٥].

فصل

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية منسوخة، لأنها تضمنت الأمر بالإعراض عن المشركين. واختلفوا في ناسخها على ثلاثة أقوال: أحدها: [أنه] قوله: ﴿فَأَقْضُوا الشُّرْكَانَ﴾^(٥) [التوبة: ٥]، رواه معمر عن قتادة. والثاني: أنه قوله في [الأنفال: ٥٧]: ﴿إِنَّمَا تَنفَعْتُمْ فِي الْحَرْبِ﴾، وقوله في [براءة: ٣٦]: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾، رواه سعيد عن قتادة.

(١) ذكر سبب النزول هذا الألويسي بدون سند. قال: قيل: إن النبي ﷺ وأصحابه نزلوا في غزوة بني المصطلق... الخ.

(٢) الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٥.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» عن القرظي والسدي بدون سند، وقال: ثم نسخها آية القتال. وكذلك ذكره الخازن بدون سند، ولم يعزه لأحد.

(٤) ذكره البغوي عن ابن عباس ومقاتل بدون سند، وكذلك ذكره الخازن بدون سند.

(٥) في الأصل: «أَقْضُوا الْمُشْرِكِينَ» بدون فاء.

والثالث: [أنه] قوله: ﴿أَوِنَ لِلَّذِينَ بَغْتُلُواكَ بِأَنَّهُمْ ظُلْمٌ﴾ [الحج: ٢٩]، قاله أبو صالح.

قوله تعالى: ﴿يَجْزِي قَوْمًا﴾ وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿لِنَجْزِي﴾ بالنون «قوماً» يعني الكفار، فكانه قال: لا تكافئوهم أنتم لنكافئهم نحن. وما بعد هذا قد سبق للإسراء: [٧] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ وهو الفهم في الكتاب، ﴿وَوَدَّعْنَاهُمْ مِّنَ الْأَلْبَانِ﴾ يعني المَنَّ والسَّلْوَى ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانهم. ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ فيه قولان: أحدهما: بيان الحلال والحرام، قاله السدي. والثاني: العلم بمبعت النبي ﷺ وشواهد نبوته، ذكره الماوردي. وما بعد هذا قد تقدم بيانه [آل عمران: ١٩] إلى قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ سبب نزولها أن رؤساء قريش دعوا رسولَ الله ﷺ إلى مِلَّةِ آبائهم، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(١). فأما قوله: ﴿عَلَىٰ شَرِيحٍ﴾ فقال ابن قتيبة: [أي] على مِلَّةٍ ومذهب، ومنه يقال: شَرَعَ فلان في كذا: إذا أخذ فيه، ومنه «مشارعُ الماء» وهي الفُرْض التي شرع فيها الوارد^(٢). قال المفسرون: ثم جئناك بعد موسى على طريقة من الأمر، أي: من الدين ﴿فَأَتَيْنَاهَا﴾^(٣). و﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كفار قريش. ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ لَنَا كَافِرِينَ بَلَّغْتُمْ إِلَيْنَا رَسُولَنَا﴾ أي: لن يدفَعوا عنك عذاب الله إن أتبعتمهم، ﴿وَأَنَّ الْفَالِغِينَ﴾ يعني المشركين^(٤). ﴿وَأَنَّ الْفَالِغِينَ﴾ الشرك. والآية التي بعدها [مفسرة] في آخر [الأعراف: ٢٠٣]. ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّعْيَاتِ﴾ سبب نزولها أن كفار مكة قالوا للمؤمنين: إِنَّا نُعْطِي فِي الْآخِرَةِ مثلما تُعْطُونَ مِنَ الْأَجْرِ، قاله مقاتل^(٥). والاستفهام هاهنا استفهام إنكار. و«اجترحوا» بمعنى اكتسبوا. ﴿سَوَاءٌ لَّكَ يَوْمَئِذٍ وَمَا تُعْمَلُ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وزيد عن يعقوب: «سواء» نصباً؛ وقرأ الباقون: بالرفع. فمن رفع، فعلى الابتداء؛ ومن نصب، جعله مفعولاً تانياً، على تقدير: أن نجعل محياهم ومماتهم سواء؛ والمعنى: إن هؤلاء يَخِيحُونَ مؤمنين ويموتون مؤمنين، وهؤلاء يَخِيحُونَ كافرين ويموتون كافرين؛ وشتان ما هم في الحال والمآل ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بشس ما يقضون^(٦). ثم ذكر بالآية التي تلي هذه أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي: للحق والجزاء بالعدل، لئلا يُظن الكافر أنه لا يجزي بكفره.

﴿أَرْمَيْتَ مَنِ انْتَحَدَ إِلَيْهِمْ هَوْنًا وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَحَمَمَ عَلَىٰ سَمِيمٍ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْنَوَةً فَمَنْ يَبْصُرُ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٧) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبَدِّلُهَا إِلَّا الأَدْعَىٰ وَمَا لَكُم بِذَلِكَ مِنَ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا تَظُنُّونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ مَا يَشَاءُونَ مَا كَانَ حُسْبُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَأْتُونَنَا بِبَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ قُلِ اللَّهُ يُجَسِّمُ كَيْفَ يُشَاءُ ثُمَّ يُبَدِّلُ كَيْفَ يَشَاءُ لَكُمْ يَوْمَ الْيَقِينِ لَا رَهْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبَدِّلُهُ بِبَصَرٍ الْمُتَبَلِّغِينَ ﴿٢٠﴾ وَرَبِّ كُلِّ أُمَّةٍ جَانِيئَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا

(١) قال البغوي: وذلك أنهم كانوا يقولون له: ارجع إلى دين آبائكم فإنهم كانوا أفضل منكم، فقال الله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ لَنَا كَافِرِينَ بَلَّغْتُمْ إِلَيْنَا رَسُولَنَا﴾، وكذلك قال الخازن. قال القرطبي: «وَلَا تُبَيِّنُ أُمَّةٌ الْآيَةَ لَا تَسْمَعُونَ» قال ابن عباس: نزلت لما دعت قريش إلى دين آبائهم. وقال الألوسي: «وَلَا تُبَيِّنُ أُمَّةٌ الْآيَةَ لَا تَسْمَعُونَ» أي: آراء الجهال التابعة للشهوات، قال: والمراد بهم ما يعم كل شاة، وقيل: هم جهال قريظة والضمير، وقيل: رؤساء قريش كانوا يقولون له ﷺ: ارجع إلى دين آبائكم.

(٢) قال في «اللسان»: شَرَعَ الوارد شَرَعًا وشُرُوعًا: تناول الماء بفيه.

(٣) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره لبيد محمد ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ بَعْدِ الَّذِي آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ وَصَفْنَا لَكَ صَفْتَهُمْ ﴿عَلَىٰ شَرِيحٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ يقول: على طريقة وشئ ومنهاج من أمرنا الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا ﴿فَأَتَيْنَاهَا﴾ يقول: فأنتج تلك الشريعة التي جعلناها لك ﴿وَلَا تُبَيِّنُ أُمَّةٌ الْآيَةَ لَا تَسْمَعُونَ﴾ يقول: ولا تتبع مع دعاك إليه الجاهلون بالله الذين لا يعرفون الحق من الباطل فتعمل به فتهلك إن عملت به. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: ﴿وَأَنَّ الْفَالِغِينَ بِشَمِّهِمْ أَوْلِيَاءُ تَبِعُوا﴾ أي: وما تتني عنهم ولا يهجم لبعضهم بعضاً، لأنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً. اهـ.

(٥) قال البغوي والخازن: نزلت في نفر من مشركي مكة قالوا للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقاً لنفضلن عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا. وقال الألوسي: والآية وإن كانت في الكفار على ما نقل عن «البحر»، وهو ظاهر ما روي عن الكلبي من أن عتبة وشيبة والوليد بن عتبة قالوا لعلي كرم الله تعالى وجهه، وحمزة ﷺ، والمؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولئن كان ما تقولون حقاً لحائنا أفضل من حالكم في الآخرة كما هو أفضل في الدنيا، فنزلت الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّعْيَاتِ...﴾ إلخ، قال: وهي متضمنة للرد عليهم على جميع أوجهها، كما يعرف بأدنى تلبس يستنبط منها تبين حالي المؤمن الناصي والمؤمن الطائع. اهـ.

(٦) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّعْيَاتِ﴾ يقول تعالى ذكره: أم ظن الذين اجترحوا السيئات من الأعمال في الدنيا وكذبوا رسل الله وخالفوا أمر ربهم وعبدوا غيره، أن نجعلهم في الآخرة كالذين آمنوا بالله وصدقوا رسله وعملوا الصالحات فأطاعوا الله وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الأنداد والآلهة؟ كلاً ما كان الله ليفعل ذلك، لقد تميز بين الفريقين، فجعل حزب الإيمان في الجنة، وحزب الكفر في السعير، اهـ.

الْيَوْمَ نُجْزِيَنَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْأَمِينُ ﴿٢٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ مَأْتِي تَنْتَلِ عَلَيْهِمْ فَاسْتَكَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تَجْرِمِينَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَأْنَا الْغُرَابَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ قد شرحناه في [الفرقان: ٤٣]. وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في الحارث بن قيس السهمي ^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا اللَّهُ عَلَىٰ عِبْرَةٍ آي: على علمه السابق فيه أنه لا يهتدي ^(٢)﴾ ﴿وَحَمَّ عَلَىٰ سَمِيءٍ﴾ آي: طبع عليه فلم يسمع الهدى ﴿ور﴾ على ﴿قلبه﴾ فلم يعقل الهدى. وقد ذكرنا الغشاوة والختم في [البقرة: ٧]. ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ يَأْتِ بِآيَاتٍ﴾ آي: من بعد إضلاله إياه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفوا قدرته على ما يشاء ^(٣). وما بعد [هذا] مفسر في سورة [المؤمنون: ٣٧] ^(٤) إلى قوله: ﴿وَمَا يَجْعَلُ إِلَّا أَلْهَرَجًا﴾ آي: اختلاف الليل والنهار ﴿وَمَا لَكُمْ يَذُكَّرُ﴾ آي: ما قالوه عن علم، إنما قالوه شاكين فيه. ومن أجل هذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿لَا تَسُبُّوا الْمُفْرَفَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الذُّهْرُ﴾ ^(٥) آي: هو الذي يؤهلكم، لا ما توهمونه من مرور الزمان. وما بعد هذا ظاهر، وقد تقدم بيانه [البقرة: ٢٨، الشورى: ٧] إلى قوله: ﴿يَحْتَسِرُ الْوَيْلُ لِلَّذِينَ﴾ يعني المكذبين الكافرين أصحاب الأباطيل؛ والمعنى: يظهر خسرتهم يومئذ. ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ قال الفراء: ترى أهل كل دين ﴿جَائِئَةً﴾ قال الزجاج: آي: جالسة على الركب، يقال: قد جثا فلان جثوا: إذا جلس على ركبته، ومثله: جذا يجذو. والجذو أشد استيفازاً من الجثو، لأن الجذو: أن يجلس صاحبه على أطراف أصابعه. قال ابن قتيبة: والمعنى أنها غير مطمئنة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ نَدَعُ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كتابها الذي فيه حسناتها وسيئاتها، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه حسابها ^(٦)، قاله الشعبي، والفراء، وابن قتيبة. والثالث: كتابها الذي أنزل على رسوله، حكاه الماوردي. ويقال لهم: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِيَنَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كتاب الأعمال الذي تكتبه الحفظة، قاله ابن السائب. والثاني: اللوح المحفوظ، قاله مقاتل: والثالث: القرآن، والمعنى أنهم يقرؤونه فيدلهم ويذكرهم، فكانه يُنطق عليهم، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ آي: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم، آي: بكتبتها وإبانتها. وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ، من اللوح المحفوظ، نَسْتَنسِخُ الملائكة كل عام ما يكون من أعمال بني آدم، فيجدون ذلك موافقاً ما يعملونه. قالوا: والاستنساخ لا يكون إلا من أصل. قال الفراء: يرفع الملكان العمل كله،

(١) ذكر سبب النزول هذا القرطبي بدون سند، قال: قال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين، لأنه كان يعبد ما تنوء نفسه. اهـ. وقال الألويسي: والآية نزلت على ما روي عن مقاتل في الحارث بن قيس السهمي، كان لا يهوى شيئاً إلا ركبها، قال: وحكمها عام، قال: وفيها من دُم اتباع هوى النفس ما فيها. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا اللَّهُ عَلَىٰ عِبْرَةٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وخذله عن محجة الطريق وسبيل الرشاد في سابق علمه على علم منه بأنه لا يهتدي ولو جاءته كل آية. اهـ.

(٣) قال ابن جرير: وقوله: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ يَأْتِ بِآيَاتٍ﴾ يقول تعالى ذكره: فمن يوقه لإصابة الحق وإبصار محجة الرشاد بعد إضلال الله إياه؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أيها الناس فتعلموا أن من فعل الله به ما وصفنا، فلن يهتدي أبداً، ولن يجد لنفسه ولياً مرشداً؟ اهـ.

(٤) في الأصل: «المؤمن».

(٥) رواه بهذا اللفظ مسلم في [صحيحه] ١٧٦٣/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الامام النووي في [شرح مسلم]: آي لا تسبوا فاعل النوازل، فإنكم إذا سبتم فاعلها وقع السب على الله تعالى، لأنه هو فاعلها ومنزلها، قال: وأما الدهر الذي هو الزمان، فلا فعل له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى، قال: ومعنى «إن الله هو الدهر» آي: فاعل النوازل والحوائث وخالق الكائنات، والله أعلم. اهـ. وقال ابن كثير: قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر، فيستنون تلك الأفعال إلى الدهر، ويسبونه، قال: وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكانهم إنما سبوا الله ﷻ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلها نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويستنونون إليه تلك الأفعال. قال ابن كثير: هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. اهـ. وللحديث ألفاظ أخر، منها ما رواه أحمد في [المسند] والبخاري ومسلم في [صحيحهما] وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب ليله ونهاره».

(٦) في الأصل: «حسناتها» والتصويب من «غريب القرآن».

فَبَيَّنْتُ اللهُ مِنْهُ مَا فِيهِ ثَوَابٌ أَوْ عِقَابٌ، وَيَطْرَحُ مِنْهُ اللَّغْوُ. وقال الزجاج: نستسخ ما تكتبه الحفظة، ويثبت عند الله ﷻ. قوله تعالى: ﴿فِي رَحْمَتِي﴾ قال مقاتل: في جنته.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ نَكُنْ آيَاتِي﴾ فيه إضمار، تقديره: فيقال لهم ألم تكن آياتي، يعني آيات القرآن ﴿تُنَالُ عَلَيْكُمْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ﴾؟ قال ابن عباس: كافرين.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَبَّ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنظَرُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُحْتَسِبِينَ﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكَ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا وَمَأْوَعُكَ النَّارُ وَمَا لَكَ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُمْ أَهْذَاتُمْ آيَاتُ اللَّهِ هُزُوعًا وَعَرَقًا مَحِيدًا قَالُوا لَا يَخْرُجُونَ مِنهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ﴾ ﴿فَلِلَّهِ الْمَعَادُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَاللَّهُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ أي: كائن ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ قرأ حمزة: «والساعة» بالنصب ﴿لَا رَبَّ فِيهَا﴾ أي: كائنة بلا شك ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي: أنكرتموها ﴿إِنْ نُنظَرُ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: ما نعلم ذلك إلا ظناً وحنساً، ولا نستيقن كونها. وما بعد هذا قد تقدم [الزمر: ٤٤٨] إلى قوله: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكَ﴾ أي: نترككم في النار ﴿كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا﴾ أي: كما تركتم الإيمان والعمل للقاء هذا اليوم^(١). ﴿ذَلِكَ﴾ الذي فعلنا بكم ﴿وَاللَّهُ أَهْذَاتُمْ آيَاتُ اللَّهِ هُزُوعًا﴾ أي: مهزوءاً بها ﴿وَعَرَقًا مَحِيدًا﴾ حتى قلت: إنه لا بعث ولا حساب ﴿قَالُوا لَا يَخْرُجُونَ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿لَا يَخْرُجُونَ﴾ بفتح الياء وضم الراء. وقرأ الباقون: «[لَا يُخْرَجُونَ]» بضم الياء وفتح الراء ﴿مِنهَا﴾ أي: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعة الله ﷻ، لأنه ليس بحين توبة ولا اعتذار.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْكَبِيرُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: السلطان، قاله مجاهد. والثاني: الشرف، قاله ابن زيد. والثالث: العظمة، قاله يحيى بن سلام، والزجاج^(٢).



(١) ثبت في «صحيح مسلم» ٢٢٧٩/٤ عن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أكرمك وأسودك؟» (أي أجعلك سيداً على غيرك) وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأدرك رأسك (أي تكون رئيس القوم) وترجع؟ (أي: تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنمة، أي أخذت ربع أموالهم. ومعناه: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً؟) فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننت أنك ملاهي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني (أي: أمتنع الرحمة كما امتنعت من طاعتي).

(٢) قال ابن كثير: ﴿وَاللَّهُ الْكَبِيرُ﴾ في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿قَالَ﴾ قال مجاهد: يعني السلطان، أي: هو العظيم المسجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه، قال: وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما أسكتته ناري». ثم قال في تسمية الآية: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الذي لا يقال ولا يمانع ﴿الْكَبِيرُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس لا إله إلا هو. اهـ.

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الْعَظِيمِ

﴿حَمَّ ۝ نَزَّلَ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ التَّمْزِيحَ لِلتَّكْبِيرِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِلَىٰ مُسْئِرٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَدْعُونَ إِلَهُاتِكُمْ مِنَ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتَدْعُونَ تِلْكَ عَلِيمٌ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾

فصل في نزولها

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكِّيَّة، وبه قال الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والجمهور. وروي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا: فيها آية مدنيَّة، وهي قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ١٠]. وقال مقاتل: نزلت بمكة غير آيتين: قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ١٠] وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَؤُلَا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] نزلتا بالمدينة. وقد تقدم تفسير فاتحتها [المومن، الحجر: ٨٥] إلى قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو أجل فناء السموات والأرض، وهو يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ مفسر في [فاطر: ٤٠] إلى قوله: ﴿أَتَدْعُونَ إِلَهُاتِكُمْ﴾، وفي الآية اختصار، تقديره: فإن ادَّعُوا أن شيئاً من المخلوقات صنعهُ آلهتهم، فقل لهم: إيتوني بكتاب ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: من قبلي القرآن فيه برهان ما تدَّعون من أن الأصنام شركاء الله، ﴿أَوْ أَتَدْعُونَ تِلْكَ عَلِيمٌ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الشيء يشره مستخرجه، قاله الحسن. والثاني: بقیة من علم تؤثر عن الأولين، قاله ابن قتيبة، وإلى نحوه ذهب الفراء، وأبو عبيدة. والثالث: علامة من علم، قاله الزجاج^(١). وقرأ ابن مسعود، وأبو رزين، وأيوب السخيتاني، ويقعوب: «أَثَرَةٌ» بفتح التاء، مثل شجرة. ثم ذكروا في معناها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحُطُّ، قاله ابن عباس؛ وقال: هو حُطُّ كانت العرب تحُطُّه في الأرض، قال أبو بكر بن عيَّاش: الحُطُّ هو العيافة. والثاني: أو علم تأثرونه عن غيركم، قاله مجاهد. والثالث: خاصَّة من علم، قاله قتادة. وقرأ أبي بن كعب، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وقتادة، والضحاك، وابن يعمر: «أَثَرَةٌ» بسكون التاء من غير ألف بوزن نظيرة^(٢). وقال الفراء: قرئت «أثارة» و«أثرَةٌ»، وهي لغات، ومعنى الكل: بقیة من علم، ويقال: أو شيء مأثور من كتب الأولين، فمن قرأ «أثارة» فهو المصدر، مثل قولك: الساحة والشجاعة، ومن قرأ «أثرَةٌ» فإنه بناء على الأثر، كما قيل: فثرة، ومن قرأ «أثرَةٌ» فكانه أراد مثل قوله: «الحُطَّة» [الصافات: ١٠] و«الرَّجْفَةُ» [الأعراف: ٧٨]. وقال البيهقي: الأثارة: البقیة؛ والأثره، مصدر أثره يأثره، أي: يذكره ويرويه، ومنه: حديث مأثور.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الْحِسَابِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُيِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝ وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ مَا نَشَاءُ مِنْ آيَاتِنَا يَقْتَتِلُوا قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوِ لَدُنَّا الْحَقُّ لَنَأْتَيْنَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ فِيهِ كُنْ بِهِ سَمِيحًا يَتَّبِعْ وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ﴾ يعني الأصنام^(٣) ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لأنها جماد لا تسمع، فإذا قامت

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الأثارة: البقیة من علم، قال: لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب. اهـ.

(٢) قال ابن جرير: والقراءة التي لا أستجيز غيرها ﴿أَوْ أَتَدْعُونَ تِلْكَ عَلِيمٌ﴾ بالألف، لإجماع قراء الأمصار عليها. اهـ.

(٣) وأول الآية: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾. قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: وأبي عبد أضل من عبد يدعو من دون الله آلهة ﴿لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ يقول: لا يجيب دعاءه أبداً، لأنها حجر أو خشب أو نحو ذلك.

القيامة صارت الآلهة أعداء لعابديها في الدنيا^(١). ثم ذكر [بما] بعد هذا أنهم يسمون القرآن سحراً وأن محمداً افتراه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لا تقدرون على أن تردوا عني عذابه، أي: كيف أفترى من أجلكم وأنتم لا تقدرون على دفع عذابه عني؟! ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ فِيهِ﴾ أي: بما تقولون في القرآن وتخوضون فيه من التكذيب والقول بأنه سحر ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أن القرآن جاء من عند الله ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ في تأخير العذاب عنكم. وقال الزجاج: إنما ذكر هاهنا العُقران والرحمة ليعلمهم أن من أتى ما أتيتم ثم تاب فإن الله تعالى غفور له رحيم به.

﴿قُلْ مَا كُنتُمْ بِدَعَا مِنِّي الرَّسُلِ وَمَا آدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ إِن أَنبِغُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِبَادِ اللَّهِ كَافِرَةٌ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ يَدَيْهِ فَتَمَنَّوْا بِمَوْتِكُمْ لَأَن تَكُونَ لَكُمْ آيَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ لَوْلَا أَن نَّهَىٰ اللَّهُ عَنِ الْفُلُكِيِّينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُمْ بِدَعَا مِنِّي الرَّسُلِ﴾ أي: ما أنا بأول رسول^(٢). والبذع والبديع من كل شيء: المبتدأ ﴿وَمَا آدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾ وقرأ ابن يعمر، وابن أبي عيلة: «ما يفعل» بفتح الياء، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه أراد بذلك ما يكون في الدنيا. ثم فيه قولان: أحدهما: [أنه] لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ، رأى في المنام أنه هاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء، فقصها على أصحابه، فاستبشروا بذلك لما يلقون من أذى المشركين. ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك، فقالوا: يا رسول الله متى تُهاجر إلى الأرض التي رأيت؟ فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا آدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾، يعني لا أدري، أخرج إلى الموضوع الذي رأيت في منامي أم لا؟ ثم قال: «إنما هو شيء رأيت في منامي، وما «أَنْبِغُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ»، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٣) وكذلك قال عطية: ما أدري هل يتركتي بمكة أو يخرجني منها. والثاني: ما أدري هل أخرج كما أخرج الأنبياء قبلي، أو أقتل كما قُتلوا، ولا أدري ما يفعل بكم، أنعدبون أم تؤخرون؟ أنصدفون أم تُكذَّبون؟ قاله الحسن. والقول الثاني: أنه أراد ما يكون في الآخرة^(٤). روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية، نزل بعدها ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وقال: ﴿لَيُنزِلَنَّ الْغُورِيْنَ وَالشُّرَيْكِيْنَ جَنَّتٍ...﴾. الآية [الفتح: ٥] فأعلم ما يفعل به وبالمؤمنين^(٥). وقيل: إن المشركين فرحوا عند نزول هذه الآية وقالوا: ما أمرنا وأمر محمد إلا واحد، ولولا أنه ابتدع ما يقوله لأخبره الذي بعثه بما يفعل به، فنزل^(٦) قوله: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ...﴾ الآية [الفتح: ٢]، فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت: ﴿لَيُنزِلَنَّ الْغُورِيْنَ وَالشُّرَيْكِيْنَ جَنَّتٍ...﴾ الآية [الفتح: ٥]؛ وممن ذهب إلى هذا القول أنس، وعكرمة، وقتادة، وروى عن الحسن ذلك.

(١) قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَمَنْ عَن دُعَاؤِهِمْ يُوْحَىٰ﴾ يقول تعالى ذكره: والتهتم التي يدعونهم عن دعائهم ليأهم في غفلة، لأنها لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، قال: وإنما عنى بوصفها بالغفلة تعميلاً بالإنسان السامي عما يقال له، إذ كانت لا تفهم مما يقال لها شيئاً، كما لا يفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه، قال: وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم وقبح اختيارهم في عبادتهم من لا يعقل شيئاً ولا يفهم، وتركهم عبادة من جميع ما بهم من نعمته، ومن به استفتاتهم عندما ينزل بهم من الجوائح والمصائب. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: أي لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظره له حتى تستكروني وتستعبدون بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم. اهـ.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٥ هكذا بدون سند عن أبي صالح عن ابن عباس. وكذلك ذكره البغوي والحاخا عن ابن عباس بدون سند، والله أعلم.

(٤) قال ابن كثير: قال أبو بكر الهذلي عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَمَا آدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾ قال: أما في الآخرة، فمعاذ الله، وقد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيضف بكم أو ترمون بالحجارة؟ قال: وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير الطبري، وأنه لا يجوز غيره، قال: ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن أتبعه، وأما في الدنيا، فلم يدرك ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا، أيومنون، أم يكفرون فيعدون فيستأصلون بكفرهم؟ اهـ.

(٥) رواه بنحوه مختصراً الطبري ٧/٢٦، وذكره السيوطي في «الدرر» ٣٨/٦ بنحوه، وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ.

(٦) في الأصل: فنزلت.

(٧) هكذا ذكره البغوي والحاخا بدون سند، وذكره بنحوه مختصراً أحمد في «المسنند» والبخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنبِئْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه عبد الله بن سلام، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد. والثاني: أنه موسى بن عمران عليه السلام، قاله الشعبي، ومسروق. فعلى القول الأول يكون ذلك المثل صلة، فيكون المعنى: وشهد شاهد من بني إسرائيل عليه، أي: على أنه من عند الله، ﴿قَامَنَّ﴾ الشاهد، وهو ابن سلام ﴿وَأَسْكَنْتُمْ﴾ يا معشر اليهود. وعلى الثاني يكون المعنى: وشهد موسى على التوراة التي هي مثل القرآن أنها من عند الله، كما شهد محمد على القرآن أنه كلام الله، ﴿قَامَنَّ﴾ من آمن بموسى والتوراة ﴿وَأَسْكَنْتُمْ﴾ أنتم يا معشر العرب أن تؤمنوا بمحمد والقرآن. فإن قيل: أين جواب «إن»؟ قيل: هو مُضْمَرٌ؛ وفي تقديره ستة أقوال: أحدها: أن جوابه: فَمَنْ أَضَلَّ مِنْكُمْ، قاله الحسن. والثاني: أن تقدير الكلام: وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن، أنؤمنون؟ قاله الزجاج. والثالث: أن تقديره: أتأمنون عقوبة الله؟ قاله أبو علي الفارسي. والرابع: أن تقديره: أفما تهلكون؟ ذكره الماوردي. والخامس: من المُحِقِّ مِنَّا ومنكم ومن المُيْطِلِّ؟ ذكره الثعلبي. والسادس: أن تقديره: أليس قد ظَلَمْتُمْ؟ ويدلُّ على هذا المحذوف قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ذكره الواحدي.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْكَ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِمْ فَسَيَرْوُونَ هَذَا إِفْكًا قَدِيدًا ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَزَّلْنَا بِسْمِ اللَّهِ عَلَىٰ طَمْرُوقٍ لِسَانَ عَرَبٍ إِذْ نَزَّلْنَا الْبُرْجَانَ عَلَىٰ قَوْمِ مِصْرَ ﴿١٢﴾ أُولَٰئِكَ أَحْسَنُ لِمَنْتَ خَلِيلِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَإِنَّا لَنَعْلَمُ شَتْرَهُ حَتَّىٰ إِذَا نَلَكَ اشْتَدَّ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرَيْحِي إِنِّي بئْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَتَّقُلْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْأَقْبَابِ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآية، في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أن الكفار قالوا: لو كان دين محمد خيراً ما سبقنا إليه اليهود، فنزلت هذه الآية، قاله مسروق. والثاني: أن امرأة ضعيفة البصر أسلمت، وكان الأشراف من قريش يهزؤون بها ويقولون: والله لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هذه إليه، فنزلت هذه الآية، قاله أبو الزناد. والثالث: أن أبا ذر الغفاري أسلم واستجاب به قومه إلى الإسلام، فقالت قريش: لو كان خيراً ما سبقونا إليه، فنزلت هذه الآية، قاله أبو المتوكل. والرابع: أنه لما اهتدت مُرَيْتَةُ وَجْهِيَّتُهُ وأسلمت، قالت أسد وَعَطْفَان: لو كان خيراً ما سبقنا إليه رعاء الشاء، يعنون مُرَيْتَةَ وَجْهِيَّتَةَ، فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب. والخامس: أن اليهود قالوا: لو كان دين محمد خيراً ما سبقتمونا إليه، لأنه لا علم لكم بذلك، ولو كان حقاً لدخلنا فيه، ذكره أبو سليمان الدمشقي وقال: [هو قول من يقول: إن الآية نزلت بالمدينة؛ ومن قال: هي مكية، قال: هو قول المشركين. فقد خرج في «الذين كفروا» قولان: أحدهما: أنهم المشركون. والثاني: اليهود. وقوله: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾ أي: لو كان دين محمد خيراً ﴿مَا سَبَقْنَا إِلَيْكَ﴾. فمن قال: هم المشركون، قال: أرادوا: إِنَّا أَعَزُّ وَأَفْضَلُ؛ ومن قال: هم اليهود، قال: أرادوا: لَأَنَا أَعْلَمُ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِمْ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَرْوُونَ هَذَا إِفْكًا قَدِيدًا﴾ أي: كذب متقدّم، يعنون أساطير الأولين. ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ﴾ أي: من قَبْلِ الْقُرْآنِ التَّوْرَةُ. وفي الكلام محذوف، تقديره: فلم يهتدوا، لأن المشركين لم يهتدوا بالتوراة. ﴿إِمَامًا﴾ قال الزجاج: هو منصوب على الحال ﴿وَرَحْمَةً﴾ عطف عليه ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ المعنى: مصدقٌ للتوراة ﴿لِسَانَ عَرَبٍ﴾ منصوب على الحال؛ المعنى: مصدقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ عَرَبِيًّا؛ وذكر «لساناً» توكيداً، كما تقول: جاءني زيد رجلاً صالحاً، تريد: جاءني زيد صالحاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ شَتْرَهُ حَتَّىٰ إِذَا نَلَكَ اشْتَدَّ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قرأ عاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: ﴿لِيُنْزِرَ﴾ بالياء. وقرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب: ﴿لِيُنْزِرَ﴾ بالياء. وعن ابن كثير كالفراءتين. و«الذين ظلموا» المشركون ﴿وَبَشَّرِ﴾ أي: وهو يُشِرُّ ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وهم الموحّدون يبشّروهم بالجنة. وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [فصلت: ٣٠] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقرأ

عاصم، وحمزة، والكسائي: «إحساناً» بألف. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «كُرْهًا» بفتح الكاف؛ وقرأ الباقون: بضمها. قال الفراء: والنحويون يستحبون الضمَّ هاهنا، ويكروهون الفتح، للعلَّة التي بيَّناها عند قوله: ﴿وَمَوْ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. قال الزجاج: والمعنى: حملته على مشقة ﴿وَوَصَّيْتَهُ﴾ على مشقة^(١).
 ﴿وَفَصَّلَهُ﴾ أي: فطامه. وقرأ يعقوب: «وَفَضَّلَهُ» بفتح الفاء وسكون الصاد من غير ألف ﴿تَلْتَلُونَ شَهْرًا﴾^(٢). قال ابن عباس: ﴿وَوَصَّيْتَهُ كُرْهًا﴾ يريد به شِدَّة الطَّلُق. واعلم أن هذه المدة قُدِّرَتْ لِأَقَلِّ الحَمَلِ وأكثر الرِّضَاع؛ فأما الأشدُّ، ففيه أقوال قد تقدَّمت؛ واختار الزجاج أنه بلوغ ثلاث وثلاثين سنة، لأنه وقت كمال الإنسان في بدنه وقوته واستحكام شأنه وتمييزه^(٣). وقال ابن قتيبة: أشدُّ الرُّجُل غير أشدُّ البتيم، لأن أشدَّ الرُّجُل: الاكتهال والحُكَّة وأن يشتدَّ رأيه وعقله، وذلك ثلاثون سنة، ويقال: ثمان وثلاثون سنة، وأشدُّ العُلام: أن يشتدَّ حُلُقُه ويتناهى نَبَاتُه^(٤).
 وقد ذكرنا بيان الأشدُّ في [الأنعام: ١٥٣] وفي [يوسف: ٢٢] وهذا تحقيقه. واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: [أنها] نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أنه صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة وهم يريدون الشام في تجارة، فنزلوا منزلاً فيه سيذرة، ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظلِّها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين، فقال [له]: مَنْ الرُّجُل الذي في ظلِّ السِّدْرَةِ؟ فقال: ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال: هذا والله نبيي، وما استظلُّ تحتها أحدٌ بعد عيسى إلا محمدٌ نبيُّ الله، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، فكان لا يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسفاره وحضره، فلما نُبئ رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو ابن أربعين سنة وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة - صدَّق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما بلغ أربعين سنة قال: ربُّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أنعمت عليَّ، رواه عطاء عن ابن عباس^(٥)، وبه قال الأكثرون؛ قالوا: فلما بلغ أبو بكر أربعين سنة، دعا الله صلى الله عليه وسلم بما ذكره في هذه الآية، فأجابه الله، فأسلم والداه وأولاده ذكروهم وإنائهم، ولم يجتمع ذلك لغيره من الصحابة. والقول الثاني: أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص، وقد شرحنا قصته في سورة [المنكبوت: ٤٨]، وهذا مذهب الضحَّاك، والسدي^(٦). والثالث: أها نزلت على العموم، قاله الحسن. وقد شرحنا في سورة [النمل: ١٩] معنى قوله: ﴿أَوْزَعْنِي﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ قال ابن عباس: أجاهه الله - يعني أبا بكر - فأعتق تسعة من المؤمنين كانوا يُعذَّبون في الله صلى الله عليه وسلم، ولم يرِدْ شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه، واستجاب له في دُرَيْتِه فأمنوا، ﴿إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: رَجَعْتُ إلى كل ما تُحِبُّ^(٧).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ تَتَّبَعُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «يَتَّقِبُلُ» و«يَتَجَاوَزُ» بالياء المضمومة فيهما. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف: «تَتَّقِبُلُ» و«تَتَجَاوَزُ» بالنون فيهما. وقرأ أبو المتوكل، وأبو رجاء، وأبو عمران الجوني: «يَتَّقِبُلُ» و«يَتَجَاوَزُ» بياء

(١) قال ابن كثير: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا﴾ أي: قاست بسببه في حال حمل مشقة وتعباً من رحم وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ﴿وَوَصَّيْتَهُ كُرْهًا﴾ أي: بمشقة أيضاً من الطلق وشدته. اهـ.

(٢) ﴿وَفَصَّلَهُ وَفَصَّلَهُ تَلْتَلُونَ شَهْرًا﴾ قال ابن كثير: وقد استدلل عليَّ صلى الله عليه وسلم بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَوَصَّيْتَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزِينُونَ أَوْلَادَهُمْ حُرُوفٍ كَرِيمَةٍ لِيَنْزِلُوا إِلَيْكَ مِنَ الرَّسَائِلِ﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، قال: وهو استنباط قوي صحيح، قال: ووافقه عليه عثمان رضي الله عنه وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم. اهـ.

(٣) ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قال ابن كثير: أي: قوي وشب وارتعج ﴿وَوَصَّيْتَهُ رَبِّي سَنَةً﴾ أي: تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه. اهـ.

(٤) في النسخة الاستبوية: بيانه، والذي في [اللسان] و[التاج]: ويتهي شيا به.

(٥) هكذا ذكره الواحدي بتمامه في «أسباب النزول» ٢١٦ من رواية عطاء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه بدون سند. وقال السيوطي في «الدر» ٤٠/٦: أخرج ابن عساکر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِإِلَاتِهِ حُسْنًا﴾ إلى قوله: ﴿وَعَدَّ الْوَيْسِقَ إِلَىٰ كَأَنَّمَا يُرِيدُ﴾.

(٦) قال البغوي: قال السدي والضحاك: نزلت في سعد بن أبي وقاص، وقال الخازن: قيل: نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص.

(٧) قال ابن كثير: ﴿إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ رَبِّي مِنَ التَّائِبِينَ﴾ قال: وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله صلى الله عليه وسلم ويعزم عليها. اهـ.

مفتوحة فيهما، يعني أهل هذا القول. والأحسن بمعنى الحسن. ﴿فِي أَحْسَبِ اللَّيْلَةِ﴾ أي: في جملة من يتجاوز عنهم، وهم أصحاب الجنة. وقيل: «في» بمعنى «مع». ﴿وَعَدَّ الصِّدْقِ﴾ قال الزجاج: هو منصوب، لأنه مصدر مؤكد لما قبله، لأن قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ بمعنى الورد، لأنه وعدهم القبول بقوله: ﴿وَعَدَّ الصِّدْقِ﴾، يؤكد ذلك قوله: ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: على السنة الرُّسَل في الدنيا^(١).

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَيُّكُمْ أُعَدِّي أَن أَخْرَجَ وَقَدَّ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَمَا يَسْتَيْسِرَانِ اللَّهُ وَرَيْكَ مَا يَنْ رَدَّ اللَّهُ حَقِّي فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا سُلْطَانٌ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْغَنِّ وَالْإِنْسَانُ إِنَّهُم كَانُوا فَخِيرِينَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلًا وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْ لِيَبَيِّحُوا فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَعَمْتُمْ بِهَا فَأَيُّكُمْ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَا كُفْرًا نَفْسُونَ﴾ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَيُّكُمْ أُعَدِّي﴾ قرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «أف لكما» بالخفض من غير تنوين. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: بفتح الفاء. وقرأ نافع، وحفص عن عاصم: «أف» بالخفض والتنوين. وقرأ ابن يعمر: «أف» بتشديد الفاء مرفوعة منوثة. وقرأ حميد، والجدري: «أفأ» بتشديد الفاء وبالنصب والتنوين. وقرأ عمرو بن دينار: «أف» بتشديد الفاء وبالرفع من غير تنوين. وقرأ أبو المتوكل، [وعكرمة]، وأبو رجاء: «أف لكما» بإسكان الفاء خفيفة. وقرأ أبو العالية، وأبو عمران: «أفني» بتشديد الفاء وياء ساكنة مُمالة. وروي عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام، وهو يابى، وعلى هذا جمهور المفسرين. وقد روي عن عائشة أنها كانت تُنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن، وتُخلف على ذلك وتقول: لو شئت لسميت الذي نزلت فيه. قال الزجاج: وقول من قال: إنها نزلت في عبد الرحمن، باطل بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، فأعلم الله أن هؤلاء لا يؤمنون، وعبد الرحمن مؤمن؛ والتفسير الصحيح أنها نزلت في الكافر العاق. وروي [عن] مجاهد أنها نزلت في عبد الله بن أبي بكر، وعن الحسن [أنها] نزلت في جماعة من كفار قريش قالوا ذلك لأبائهم^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَدَّ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾^(٣) فيه قولان: أحدهما: مضت القرون فلم يرجع منهم أحد، قاله مقاتل. والثاني: مضت القرون مكذبة بهذا، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَيْسِرَانِ اللَّهُ﴾ أي: يدعوان الله له بالهدى، ويقولان له: ﴿وَرَيْكَ مَا يَنْ رَدَّ اللَّهُ حَقِّي﴾ أي: صدق بالبعث، ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا﴾ الذي تقولان ﴿إِلَّا سُلْطَانٌ الْأَوَّلِينَ﴾ وقد سبق شرحها [الأنام: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني الكفار ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم قضاء الله أنهم من أهل النار ﴿فِي أُمْرٍ﴾ أي: مع أمم. فذكر الله تعالى في الآيتين قبل هذه من بَرِّ والديه وعَمَلِ بوصية الله ﷻ، ثم ذكر من لم يعمل بالوصية ولم يُطع ربه ولا والديه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَخِيرِينَ﴾ وقرأ ابن السميع، وأبو عمران: «أنهم» بفتح الهمزة. ثم قال: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلًا﴾ أي: منازل ومراتب بحسب ما اكتسبوه من إيمان وكفر، فيفاضل أهل الجنة في الكرامة، وأهل

(١) قال ابن كثير: قال الله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلْتُمْ عَنْهُمْ لَحْنًا مَا عَمِلُوا وَتَجَارَوْنَ عَنْ سَبِيلِهِمْ فِي أَحْسَبِ اللَّيْلَةِ﴾ أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله، المنيبون إليه، المستركون ما فات التوبة والاستغفار، هم الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا، وتجاوز عن سيئاتهم، فغفر لهم الكثير من الزلل، وتقبل منهم اليسير من العمل «في أصحاب الجنة» أي: هم في جملة أصحاب الجنة، قال: وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله ﷻ من تاب إليه وأتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَيُّكُمْ أُعَدِّي﴾: هذا عام في كل من قال هذا، قال: ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ، فقوله ضعيف، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه، قال: وروي العوفي عن ابن عباس ﷺ أنها نزلت في ابن أبي بكر الصديق ﷺ، قال: وفي صفة هذا نظر، والله تعالى أعلم، قال: وقال ابن جرير عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر ﷺ، قاله ابن جريج، وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ، وهذا أيضاً قول السدي، قال: وإنما هذا عام في كل من عاق والديه وكذب بالحق فقال للوالدين: أف لكما، عفيهما. اهـ.

(٣) وأول الآية: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَيُّكُمْ أُعَدِّي أَن أَخْرَجَ﴾ أي: أن أميت ﴿وَقَدَّ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾.

النار في العذاب ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أُهْلَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو: «وَلِيُوَفِّيَهُمْ» بالياء، وقرأ الباقون: بالنون؛ أي: جزاء أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ﴾ والمعنى: واذكر لهم يوم يعرض ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ﴾ أي: ويقال لهم: أذهبتم، قرأ ابن كثير: [«أَذْهَبْتُمْ» بهمزة مطولة^(١)]. وقرأ [ابن عامر: «أأذهبتم» بهمزتين]. وقرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «أَذْهَبْتُمْ» على الخبر، وهو توبيخ لهم. قال الفراء والزجاج: [العرب] تُوَبِّحُ بالألف ويغير الألف، فتقول: أَذْهَبْتُ وفعلت كذا؟! و: ذهبْتُ ففعلت؟! قال المفسرون: والمراد بطيئاتهم: ما كانوا فيه من اللذات مشتغلين بها عن الآخرة مُعْرِضِينَ عن شكرها. ولَمَّا وَيَجْهَمُ اللهُ بِذَلِكَ، أَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ وَالصَّالِحِينَ بَعْدَهُمْ اجْتِنَابَ نَعِيمِ الْعَيْشِ وَلَذَّةِ لَيْتِكُمْ لِتَكْمُلَ أَجْرُهُمْ وَلِتَلَّا يُلْهِمَهُمْ عَنْ مَعَادِهِمْ. وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حَصْفَةٍ وبعضه على التراب وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً، فقال: يا رسول الله: أنت نبيُّ الله وشفوئهِ، وكسرى وقبصر على سُرْرِ الذَّهَبِ وَفُرْشِ الدَّبِيَّاجِ والحريز؟ فقال ﷺ: «يا عمر، إن أولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيِّبَاتُهُمْ، وهي وشبكة الانقطاع، وإِنَّا نُحْرَثُ لَنَا طَيِّبَاتِنَا»^(٢). وروي جابر بن عبد الله قال: رأى عمر بن الخطاب لحمًا معلقًا في يدي، فقال: ما هذا يا جابر؟ فقلت: اشتريت لحمًا فاشتريته، فقال: أو كلِّمًا اشتيت اشتريت يا جابر؟! أما تخاف هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾^(٣). وروي عن عمر أنه قيل له: لو أمرت أن تصنع لك طعاماً ألين من هذا، فقال: إني سمعت الله عيِّر أقواماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

قوله تعالى: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تتكبرون عن عبادة الله والإيمان به.

﴿وَأَذْكَرَ لَنَا إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَابِ وَقَدْ خَلَّتِ الْأَنْدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّ لَنَا عَلَيْكَ عَذَابٍ قَدِيرًا عَظِيمًا﴾ قالوا أجنبتنا لئلا نفكنا عن ما بيننا فأبنا بما وعدنا إن كنت من الصديقين ﴿١٥﴾ قال إنما أليكم عند الله وأليكم ما أرسلتكم به ولكن أليكم أنفسكم فما جهلوت ﴿١٦﴾ فلما رأوه عارضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُطْرَقًا لَنْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنَتُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكَرَ لَنَا عَادٌ﴾ يعني هوداً ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَابِ﴾ قال الخليل: الأحفاف: الرمال العظام. وقال ابن قتيبة: واحد الأحفاف: حِجْفٌ، وهو من الرَّمْلِ: ما أشرف من كُثبانهِ واستطال وانحنى. وقال ابن جرير: هو ما استطال من الرَّمْلِ ولم يبلغ أن يكون جَبَلًا. واختلفوا في المكان الذي سُمِّيَ بهذا الاسم على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه جبل بالشام، قاله ابن عباس، والضحاك. والثاني: أنه واد، ذكره عطية. وقال مجاهد: هي أرض. وحكى ابن جرير أنه واد بين عُمان ومَهْرَةَ. وقال ابن إسحاق: كانوا ينزلون ما بين عُمان وحَضْرَمَوْتِ، واليمن كلُّه. والثالث: أن الأحفاف: رمال مشرفة على البحر بأرض يقال لها: الشُّحْرُ، قاله قتادة^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْأَنْدُرُ﴾ أي: قد مضت الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِ هُودٍ وَمِنْ بَعْدِهِ بِيَانِذَارِ أُمَّهَاتِهَا ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾؛ والمعنى: لم يُبعث رسولٌ قَبْلَ هُودٍ وَلَا بَعْدَهُ إِلَّا بِالْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدِهِ. وهذا كلام اعترض بين إنذار هود وكلامه لقومه. ثم عاد إلى كلام هود فقال: ﴿إِنَّ لَنَا عَلَيْكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِنَأْفِكَنَّ﴾ أي: لتصرفنا عن عبادة آلهتنا بالإفك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: هو يَعْلَمُ متى يأتيكم العذاب. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يعني ما يوعدون في قوله: ﴿بِمَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿عَارِضًا﴾ أي: سحب يعرض من ناحية السماء. قال ابن قتيبة: العارض: السحاب. قال المفسرون: كان المطر

(١) قال في «إتحاف فضلاء البشر»: وقرأ ابن كثير والداجوني عن هشام من طريق النهرواني ورويس بهمزتين محققةً فمسهلةً مع عدم الفصل.

(٢) روه الحاكم في «المستدرک» من حديث ابن عباس ﷺ وقال: صحيح على شرط مسلم، ورواه ابن ماجه في «سننه» بنحوه من حديث ابن عباس أيضاً بإسناد صحيح، وابن حبان في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك ﷺ بنحوه.

(٣) ذكره بنحوه البغوي والحاخازن من رواية جابر بن عبد الله عن عمر بدون سند.

(٤) قال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى أخبر أن عاداً أنذرهم أخوهم هوداً بالأحفاف، قال: والأحفاف ما وصفت من الرمال المستطيلة المشرفة. اهـ.

قد حُيس عن عاد، فساق الله إليهم سحابة سوداء، فلما رأوها فرحوا و﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌ﴾، فقال لهم هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾، ثم بين ما هو فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فنشأت الريح من تلك السحابة، ﴿ثَدِيرٌ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: تُهلك كل شيء مرّت به من الناس والدواب والأموال. قال عمرو بن ميمون: لقد كانت الريح تحتل الطعينة فترفعها حتى تُرى كأنها جرادة، ﴿فَأَسْبَحُوا﴾ يعني عاداً ﴿لَا يُرَى إِلَّا مَسْكَنُهُمْ﴾ قرأ عاصم، وحمزة: ﴿لَا يُرَى﴾ برفع الياء إلا مساكينهم برفع النون. وقرأ علي، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وقناة، والجحدري: ﴿لَا تُرَى﴾ بناء مضمومة. وقرأ أبو عمران، وابن السميع: ﴿لَا تُرَى﴾ بناء مفتوحة ﴿إِلَّا مَسْكَنُهُمْ﴾ على التوحيد. وهذا لأن السكّان هلكوا، فقيل: أصبحوا. وقد غطتهم الريح بالرّمّل فلا يُرَوْن.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمًا وَاسْمًا وَاقْتَدَ فَمَا اغْتَفَّ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَبْصَرْتُمْ بَيْنَ شَعْوَى إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آلَاتِكُمْ لَكُمْ بِرِجْمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ سَأَلُوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٩﴾

ثم خوف كفار مكة، فقال ﴿١٧﴾: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ في «إِنْ» قولان: أحدهما: أنها بمعنى «لم»، فتقديره: فيما لم نمكّنكم فيه، [قاله^(١) ابن عباس، وابن قتيبة. وقال الفراء: هي بمنزلة «ما» في الجحد، فتقدير الكلام: في الذي لم نمكّنكم فيه]. والثاني: أنها زائدة؛ والمعنى: فيما مكّناكم فيه، وحكاها ابن قتيبة أيضاً. ثم أبحر أنه جعل لهم آيات الفهم، فلم يتدبروا بها، ولم يتفكروا فيما يدلهم على التوحيد. قال المفسرون: والمراد بالافتدة: القلوب؛ وهذه الآيات لم ترد عنهم عذاب الله^(٢). ثم زاد كفار مكة في التخوف، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ كديار عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من الأمم المهلكة ﴿وَصَرَفْنَا آلَاتِكُمْ﴾ أي: بيّناها ﴿لَكُم﴾ يعني أهل القرى ﴿بِرِجْمُونَ﴾ عن كفرهم. وهانها محذوف، تقديره: فما رجعوا عن كفرهم. ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا ﴿نَصْرُهُمْ﴾ أي: منعه من عذاب الله ﴿الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾! يعني الأصنام التي تقربوا بعبادتها إلى الله على زعمهم؛ وهذا استفهام إنكار، معناه: لم ينصروهم ﴿بَلْ سَأَلُوا عَنْهُمْ﴾ أي: لم ينفعوهم عند نزول العذاب ﴿وَذَلِكَ﴾ يعني دعاءهم الآلهة ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وابن يعمر، وأبو عمران: ﴿وَذَلِكَ أَفْكُهُمْ﴾ بفتح الهمزة وقصرها وفتح الفاء وتشديدها ونصب الكاف. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس، وأبو رزين، والشعبي، وأبو العالية، والجحدري: ﴿أَفْكُهُمْ﴾ بفتح الهمزة وقصرها ونصب الكاف والفاء [وتخفيفها]. قال ابن جرير: أي: أصلهم. وقال الزجاج: معناها: صرفهم عن الحق فجعلهم ضلّالاً. وقرأ ابن مسعود، وأبو المتوكل: ﴿أَفْكُهُمْ﴾ بفتح الهمزة ومدّها وكسر الفاء وتخفيفها ورفع الكاف، أي: مضلهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَصَرُوهُ قَالُوا أَنسَرْنَا فَلَمَّا فُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ شُذِرِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿قَالُوا يَنْقَرِمَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ سَمَاءٍ مَّوَدَّةً مِّنْ رَبِّكَ لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِنَّ لَطَوِيفَ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿يَنْقَرِمَا أَيْبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَمَا يُرَىٰ بِهِ يَغْفِر لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّئُ مِّنْ عَذَابِ آيَاتِهِ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أُزْلِيَةٌ أُولَٰئِكَ فِي سَلَاطِنٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ ونسخ الله ﴿٢٠﴾ بهذه الآية كفار قريش بما آمنتم به الجن. وفي سبب صرفهم إلى النبي ﷺ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم صرفوا إليه بسبب ما حدث من رجهم بالشُّهب. روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد

(١) في الأصل: قال، والصواب من كتب التفسير.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: ولقد مكّنّا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناها منها ما لم تعطكم مثله ولا قريباً منه، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وافتدة ﴿فَمَا اغْتَفَّ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَبْصَرْتُمْ بَيْنَ شَعْوَى إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: واحاط بهم العذاب والتكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيسيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة. اهـ.

حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: جِيلٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانظُرُوا مَا هَذَا الْأَمْرُ، فَمَرَّ النَّفْرُ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ نَهْمَاءَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بـ «نَخْلَةٌ»^(١) وَهُوَ يَصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ، فَهَذَا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ «فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الْكُرْشِيِّ﴾ [الجن: ١-٢] فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِلَىٰ آلِهِ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴿١﴾».

وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن، ولا رآهم، وإنما أتوه وهو بـ «نخلة» فسمعوا القرآن. والثاني: أنهم ضُربوا إليه لِيُنذِرَهُمْ، وأمر أن يقرأ عليهم القرآن، هذا مذهب جماعة، منهم قتادة. وفي أفراد مسلم من حديث علقمة قال: قلت لعبد الله: من كان منكم مع النبي ﷺ ليلة الجن؟ فقال: ما كان منّا معه أحد، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة، فقلنا: اغتيل رسول الله ﷺ أو استُطير، فانطلقنا نطلبه في الشُّعَابِ، فلقيناه مُقْبِلًا مِنْ نَحْوِ جِرَاءِ، فقلنا: يا رسول الله، أين كنت؟ لقد أشققتنا عليك، وقلنا له: بِئْسَ اللَّيْلَةُ بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَقَدْنَاكَ، فقال: «إِنَّهُ أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ أَقْرِئُهُمُ الْقُرْآنَ»، فذهب بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم^(٢). وقال قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنِّي أُبْرِئُ أَنْ أقرأ على الجن، فأَيْكُمْ يَتَّبِعُنِي؟» فأطرقوا، ثم استمعهم فأطرقوا، ثم استمعهم الثالثة فأطرقوا، فأتبعه عبد الله بن مسعود، فدخل نبي الله ﷺ شِعْبًا يُقَالُ لَهُ: «شِعْبُ الْحَجُونِ»، وخطَّ على عبد الله خطًّا لِيُشَبِّهَهُ بِهِ، قَالَ: فَسَمِعْتُ لَغَطًا شَدِيدًا حَتَّى خِفْتُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا اللَّغَطُ الَّذِي سَمِعْتُ؟ قَالَ: «اجْتَمَعُوا إِلَيَّ فِي قَبِيلِ كَانَ بَيْنَهُمْ، فَقَضَيْتُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ»^(٣). والثالث: أنهم مرُّوا به وهو يقرأ، فسمعوا القرآن. فذكر بعض المفسرين أنه لما يس من أهل مكة أن يجيبوه، خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام. وقيل: ليلتمس نصرهم. وذلك بعد موت أبي طالب، فلما كان ببطن نخلة قام يقرأ القرآن في صلاة الفجر، فمرَّ به نفرٌ من أشرفِ جِنِّ نصيبين، فاستمعوا القرآن. فعلى هذا القول والقول الأول، لم يعلم بحضورهم حتى أخبره الله تعالى؛ وعلى القول الثاني، عَلِمَ بِهِمْ حِينَ جَاءُوا^(٤). وفي المكان الذي سمعوا فيه تلاوة النبي ﷺ قولان: أحدهما: الْحَجُونِ، وقد ذكرناه عن ابن مسعود، وبه قال قتادة. والثاني: بطن نخلة، وقد ذكرناه عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. وأما النَّفْرُ، فقال ابن قتيبة: يُقَالُ: إِنْ النَّفْرُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ. وللمفسرين في عدد هؤلاء النَّفْرِ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم كانوا سبعة، قاله ابن مسعود، وزرُّ بن حبيش، ومجاهد، ورواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: تسعة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: اثني عشر ألفاً، روي عن عكرمة، ولا يصح، لأن النَّفْرَ لَا يُطْلَقُ عَلَى الْكَثِيرِ.

قوله تعالى: «فَلَمَّا حَضَرُوا» أي: حضروا استماعه، و«فَقُتِلَ» يعني: فُرِعَ مِنْ تَلَاوَتِهِ «وَلَوْ أَنَّ قَوْمَهُمْ مُذْذِرِينَ» أي: محذرين عذاب الله ﷻ لَمَ لَمْ يَوْمِنَا. وهل أنذروا قومهم مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ، أم جعلهم رسول الله ﷺ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ؟

(١) موضع بين مكة والطائف، وهي التي ينسب إليها، «بطن نخلة» قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: ووقع في رواية مسلم «بنخل» بلا هاء، والصواب إثباتها. اهـ.

(٢) رواه البخاري ٢/٢١٠، ٥١٣/٨، ومسلم ١/٣٣١، والحديث أورده السيوطي في «الدرر» ٦/٢٧٠، وزاد نسبه لأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم، والطبراني، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس ﷺ.

(٣) رواه مسلم ١/٣٣٢، ورواية المصنف له عن مسلم بالمعنى. والحديث رواه أيضاً أحمد في «المستند» رقم (٤١٤٩). وأورده السيوطي في «الدرر» وزاد نسبه لعبد بن حميد، والترمذي.

(٤) هذه الرواية مرسله، رواها ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٥) هذا الخبر من رواية ابن إسحاق عن يزيد بن رومان عن محمد بن كعب القرظي. قال ابن كثير بعد أن سرد كثيراً من الروايات حول هذا الموضوع: فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن فصدأ، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله ﷻ، وشرع الله تعالى لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت، قال: وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم كما قاله ابن عباس ﷺ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود ﷺ. قال: وأما ابن مسعود، فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، قال: وإنما كان بعيداً منه، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، قال: هذه طريقة البيهقي، قال: وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ﷺ ولا غيره، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى، والله أعلم.

فيه قولان. قال عطاء: كان بين أولئك الجن اليهودية، فلذلك قالوا: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْسَى﴾.

قوله تعالى: ﴿أَجِبُوا دَعِيَ اللَّهِ﴾ يعنون محمداً ﷺ. وهذا يدل على أنه أُرْسِلَ إلى الجن والإنس^(١).

قوله تعالى: ﴿يَنْفِرَ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ﴾ «مِنْ» هاهنا صلة^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ يُعْتَمِرُ فِي الْأَرْضِ﴾^(٣) أي: لا يُعْجِزُ الله تعالى ﴿وَلَيْسَ لَكَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي: أنصار يمنعونه

من عذاب الله تعالى ﴿أَوْلِيَاكَ﴾ الذين لا يجيبون الرُّسُلَ ﴿فِي صَلَاتِكَ ثَبِينَ﴾.

﴿أَوْلَىٰ بَرًّا أَنْ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ وَلَدًا﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٩﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلَا الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بِرَبِّكُمْ مَا يُوعَدُونَ لَوْ بَلَّغْتُمْ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْتَكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ثم احتجَّ على إحياء الموتى بقوله: ﴿أَوْلَىٰ بَرًّا...﴾ إلى آخر الآية. والرؤية هاهنا بمعنى العلم^(٤). ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ

أي: لم يُعْجِزْ عن ذلك؛ يقال: عَيَّ فلانٌ بأمره، إذا لم يَهْتَدِ له ولم يَقْدِرْ عليه. قال الزجاج: يقال: عَيَّيتُ بالأمر، إذا لم تعرف وجهه، وأعيَّيتُ، إذا تعبتُ.

قوله تعالى: ﴿يَقْدِرُ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش: الباء زائدة مؤكدة. وقال الفراء: العرب تُدْخِلُ الباءَ مع الجحد، مثل قولك: ما أَطُنُّكَ بقاتم، وهذا قول الكسائي، والزجاج. وقرأ يعقوب: ﴿يَقْدِرُ﴾ بياء مفتوحة مكان الباء وسكون القاف ورفع الراء من غير ألف. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿كَمَا صَبَرَ أَوْلَا الْعَرْشِ﴾ أي: ذُو الْحَزْمِ وَالصَّبْرُ؛ وفيهم عشرة أقوال: أحدها: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلى الله عليهم وسلم، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، وعطاء الخراساني، وابن السائب. والثاني: نوح، وهود، وإبراهيم، ومحمد، صلى الله عليهم وسلم، قاله أبو العالية الرياحي. والثالث: أنهم الذين لم تُصْبِحْهم فتنة من الأنبياء، قاله الحسن. والرابع: أنهم العرب من الأنبياء، قاله مجاهد، والشعبي. والخامس: أنهم إبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمد، صلى الله عليهم وسلم، قاله السدي. والسادس: أن منهم إسماعيل، ويعقوب، وأيوب، وليس منهم آدم، ولا يونس، ولا سليمان، قاله ابن جريج. والسابع: أنهم الذين أمروا بالجهاد والقتال، قاله ابن السائب، وحكي عن السدي. والثامن: أنهم جميع الرُّسُلِ، فإن الله لم يُبْعَثْ رسولاَ إلا كان من أولي العزم، قاله ابن زيد، واختاره ابن الأنباري، وقال: «مِنْ» دخلتُ للتجنيس لا للتبعض، كما تقول: قد رأيتُ الثيابَ من الحَزْمِ والجِبابِ من القُرَى. والتاسع: أنهم الأنبياء الثمانية عشر المذكورون في سورة (الأنعام: ٨٣ - ٨٦)، قاله الحسين بن الفضل. والعاشر: أنهم جميع الأنبياء إلا يونس، حكاها الثعلبي^(٥).

(١) قال ابن كثير: فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس حيث دعاهم إلى الله تعالى، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم وعييدهم، وهي سورة (الرحمن)، قال: ولهذا قال: ﴿أَجِبُوا دَعِيَ اللَّهِ وَكَايِئًا بِهِ﴾.

(٢) وصحة الآية: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي: ويقبض من عذابه الأليم، قال ابن كثير: وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحهم أن يُجَارُوا من عذاب النار يوم القيامة، ثم قال: والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة كما هو مذهب جماعة من السلف، قال: وقد استدل بعضهم لهذا بقوله ﷺ: ﴿لَنْ يَلْحَقَنَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَا يَجَانَّ﴾ قال: وفي هذا الاستدلال نظر، قال: وأحسن منه قوله جل وعلا: ﴿وَلَيْسَ كَانَ مِنْكُمْ نَبِيٌّ قَبْلَكَ إِلَّا إِذَا نَادَىٰ رَبَّهُمْ عَلَا صَوْتُ هَوَاهٍ يَحِيدُ وَهُمْ كَرِهُوا﴾ قال: وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس فقالوا: «ولا بشيء من آياتك ربنا نكذبُ فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتنن عليهم بجزاء لا يحصل لهم. اهـ.

(٣) وأول الآية: ﴿وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَعِيَ اللَّهِ﴾.

(٤) قال ابن كثير: يقول تعالى: أو لم ير هؤلاء المنكرون للبهت يوم القيامة، المستعدون لقيام الأجساد يوم المعاد، أن الله الذي خلق السموات والأرض ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ وَلَدًا﴾ أي: ولم يكثره خلقهم، بل قال لها كوني فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة بل طائفة محببة خاضعة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟

(٥) قال ابن كثير: وقد اختلفوا في تعدد أولي العزم على أقوال، وأشهرها أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قال: قد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتَي (الأحزاب) و(الشورى).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لُنَّ﴾ يعني العذاب. قال بعض المفسرين: كان النبي ﷺ ضَجِرَ بعض الضَّجَرِ، وأحب أن ينزل العذاب بمن أبي من قومه، فأمر بالصَّبر.

قوله تعالى: ﴿كُلُّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب ﴿لَنْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً يَنْ نَّهَارٍ﴾ لأن ما مضى كأنه لم يكن وإن كان طويلاً. وقيل: لأن مقدار مكثهم في الدنيا قليل في جناب مكثهم في عذاب الآخرة. وهاهنا تم الكلام. ثم قال: ﴿بَلَّغْ﴾ أي: هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغ عن الله إليكم. وفي معنى وصف القرآن بالبلاغ قولان: أحدهما: أن البلاغ بمعنى التبليغ. والثاني: أن معناه: الكفاية، فيكون المعنى: ما أخبرناهم به لهم فيه كفاية وغنى. وذكر ابن جرير وجهاً آخر، وهو أن المعنى: لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ذلك بُنْتُ بلاغ، أي: ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى آجالهم، ثُمَّ حُذِفَتْ «ذَلِكَ بُنْتُ» اكتفاءً بدلالة ما ذُكِرَ في الكلام عليها. وقرأ أبو العالية، وأبو عمران: ﴿بَلَّغْ﴾ بكسر اللام وتشديدها وسكون الغين من غير ألف.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ﴾ وقرأ أبو رزين، وأبو المتوكل، وابن محيصن: «يَهْلِكُ» بفتح الياء وكسر اللام، أي: عند رؤية العذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن أمر الله ﷻ!؟^(١).



(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: فهل يهلك الله بعباده إذا أنزله إلا القوم الذين خالفوا أمره وخرجوا عن طاعته وكفروا به! قال: ومعنى الكلام: وما يهلك الله إلا القوم الفاسقين. اهـ.

سورة محمد ﷺ

وفيها قولان: أحدهما: [أنها] مدنيّة، قاله الأكثرون، منهم مجاهد، ومقاتل. وحكي عن ابن عباس وقناة أنها مدنيّة، إلا آية منها نزلت عليه بعد حجّه حين خرج من مكة وجعل ينظر إلى البيت، وهي قوله: ﴿وَكَأَن يَنْ قَرَيْهَ مِنْ أَشَدِّ قُوَّةٍ يَنْ قَرَيْكَ﴾ [محمد: ١١٣]. والثاني: أنها مكّيّة، قاله الضحاك، والسدي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَصَلَّ أَهْلَهُمْ ① وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ كَذُرِّ عَنَتِهِمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ② ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَطِلَ وَالَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ③ فَإِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرَبَ الرَّقَابَ حَتَّى إِذَا أَغْتَسَمُوهُمْ فَتُدُّوا الرِّقَابَ إِنَّمَا مَتَا بَدُّ وَإِنَّمَا فِدَاةٌ حَتَّى تَصْنَعَ الْمَرْءُ أَرْزَاقَهُ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ يُبَدِّلُ أَعْمَلَهُمْ ④ سَيِّئَاتِهِمْ وَيَصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤ وَيَجْزِيهِمْ لَيْسَةَ عَرَفَهَا لَكُمْ ⑥﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بتوحيد الله ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس عن الإيمان به، وهم مشركو قريش، ﴿أَصَلَّ أَهْلَهُمْ﴾ أي: أبطلها، ولم يجعل لها ثواباً، فكأنها لم تكن؛ وقد كانوا يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ، وَيَصِلُونَ الْأَرْحَامَ، وَيتَصَدَّقُونَ، ويفعلون ما يعتقدونه قُرْبَةً. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني أصحاب محمد رسول الله ﷺ. ﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وقرا ابن مسعود: ﴿نُزِّلَ﴾ بفتح النون والرّاي وتشديدها. وقرا أبي بن كعب، ومعاذ القاري: ﴿أُنزِلَ﴾ بهمزة مضمومة مكسورة الرّاي. وقرا أبو رزين، وأبو الجوزاء، وأبو عمران: ﴿نُزِّلَ﴾ بفتح النون والرّاي وتخفيفها، ﴿كَذُرِّ عَنَتِهِمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: غفرها لهم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: حالهم، قاله قتادة، والمبرد.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ قال الزجاج: معناه: الأمرُ ذلك، وجائز أن يكون: ذلك الإضلال، لا تُباعهم الباطل، وتلك الهداية والكفارات بأثباع المؤمنين الحق، ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ أي: كذلك يبيّن أمثال حسنات المؤمنين وسيئات الكافرين كهذا البيان.

قوله تعالى: ﴿فَصَرَبَ الرَّقَابَ﴾ إغراء؛ والمعنى: فاقتلوه، لأن الأغلب في موضع القتل ضرب العنق^(١) ﴿حَتَّى إِذَا أَغْتَسَمُوهُمْ﴾ أي: أكثرتم فيهم القتل ﴿فَتُدُّوا الرِّقَابَ﴾ يعني في الأسر؛ وإنما يكون الأسر بعد المبالغة في القتل. ﴿وَالرِّقَابَ﴾ اسم من الإيثاق؛ تقول: أوثقتُه إيثاقاً وَوَتَاقاً، إذا شدت أسره لثلاث يُقْلِتُ ﴿إِنَّمَا مَتَا بَدُّ﴾ قال أبو عبيدة: إنما أن تمثوا، وإما أن تبادوا، ومثله: سَقِيّاً، وَرَغِيّاً، وإنما هو سُقِيَّتٌ وَرُغِيَّتٌ. وقال الزجاج: إنما مَنَّتُمْ عليهم بعد أن تأسروهم مَتّاً، وإما أطلقتموهم بِفِدَاءٍ.

فصل

وهذه الآية محكمة عند عامّة العلماء. وممن ذهب إلى أن حكم العنق والفداء باقٍ لم يُنسخ: ابن عمر، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، وأحمد، والشافعي. وذهب قوم إلى نسخ العنق والفداء بقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٢)، وممن ذهب إلى هذا ابن جريج، والسدي، وأبو حنيفة. وقد أشرنا إلى القولين في [براءة: ٥].

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَصْنَعَ الْمَرْءُ أَرْزَاقَهُ﴾ قال ابن عباس: حتى لا يبقى أحد من المشركين. وقال مجاهد: حتى لا

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرَبَ الرَّقَابَ﴾ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيف. اهـ.

(٢) في الأصل: «أقتلوا» بدل «فاقتلوا».

يكون دينٌ إلا دين الإسلام. وقال سعيد بن جبير: حتى يخرج المسيح. وقال الفراء: حتى لا يبقى إلا مُسْلِمٌ أو مُسَالِمٌ. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: حتى يضع أهل الحرب سلاحهم؛ قال الأعشى:

وَأَعْدَدْتُ لِنَحْرِبِ أَوْزَارَهَا: رِمَاحاً طَوَّالاً وَخَيْلاً ذُكُوراً^(١)

وأصل «الوزر» ما حملته، فسمي السلاح «أوزاراً» لأنه يُحْمَل، هذا قول ابن قتيبة. والثاني: حتى تضع حربكم وقتالكم أوزار المشركن وقبايح أعمالهم بأن يُسْلِمُوا ولا يُعْبِدُوا إلا الله، ذكره الواحدي.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الذي ذكّرنا ﴿وَلَوْ بَشَاءَ اللَّهِ لَانفَصَرْتُمْ﴾ بإهلاكهم أو تعذيبهم بما شاء ﴿وَلَكِن﴾ أمركم بالحرب ﴿لِيُؤَلِّمَنَّكُمْ يَتِيمًا﴾ فيئيب المؤمن ويكرمه بالشهادة، ويخزي الكافر بالقتل والعذاب.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ قرأ أبو عمرو، وحفص عن عاصم: «قُتِلُوا» بضم القاف وكسر التاء؛ والباقون: «قاتلوا» بالف.

قوله تعالى: ﴿سَيَّبِيحٌ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: يهديهم إلى أرشد الأمور، قاله ابن عباس. والثاني: يحقّق لهم الهداية، قاله الحسن. والثالث: إلى مُحَاجَّةٍ منكّرٍ ونكير. والرابع: إلى طريق الجنة، حكاهما الماوردي. وفي قوله: ﴿عَرَفَهَا لَمْ﴾ قولان: أحدهما: عرفهم منازلهم فيها فلا يستدلّون عليها ولا يُحِطُّونَها، هذا قول الجمهور، منهم مجاهد، وقتادة، واختاره الفراء، وأبو عبيدة. والثاني: طيّبها لهم، رواه عطاء عن ابن عباس. قال ابن قتيبة: وهو قول أصحاب اللغة، يقال: طعماً معرّف، أي: مطيّب. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، وابن محيصة: «عَرَفَهَا لَمْ» بتخفيف الراء^(٢).

﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن نصرُوا الله يَصْرِكُمْ وَيُؤَيِّتُ أَتَانَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَا لَمْ وَأَمَلَّ أَهْلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَيْهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَهْلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴿أَلَمْ يَبْسُؤُوا فِي الْأَرْضِ يَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَهْلُكُمَا﴾ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنَّ الْكُفْرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا رَحِمًا رَحِيمًا وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْثَمُ وَالنَّارُ مَثْوَى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهُ أَهْلَكْنَاهُ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ إِفْكٌ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ مِن رَبِّهِ. كُنْزٌ لِّمَن سُوِيَ عَالِمِيهِ وَأَتَمُّوا آهْوَاهُمْ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِن نَصْرُوا اللَّهَ﴾ أي: تنصروا دينه ورسوله ﴿يَصْرِكُمْ﴾ على عدوكم ﴿وَيُؤَيِّتُ أَتَانَكُمْ﴾ عند القتال. وروى المفضل عن عاصم: «ويؤيِّت» بالتخفيف. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَا لَمْ﴾ قال الفراء: المعنى: فأتعسهم الله، والدُّعاء قد يجزي مَجْرَى الأمر والنهي. قال ابن قتيبة: هو من قولك: تَعَسْتُ، أي: عَكَرْتُ وَسَقَطْتُ. وقال الزجاج: التَّعَسُّ فِي اللُّغَةِ:

الانحطاط والعُشُور. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الكهف: ١٠٥، يوسف: ١٠٩] إلى قوله: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكتهم [الله] ﴿١٣﴾ ﴿وَالِلْكَافِرِينَ أَهْلُكُمَا﴾ أي: أمثال تلك العاقبة. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي فعله بالمؤمنين من النصر، وبالكافرين من الدمار ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: وليّهم. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿وَأَكْلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْثَمُ﴾^(٤) أي: إن الأنعام تأكل وتُشْرَب، ولا تُدرِي ما في غد، فكذلك الكفار لا يلتفتون إلى الآخرة. و«المَثْوَى»: المَنْزِل. ﴿وَكَأَيِّن﴾ مشروح في [الكهف: صرمان: ١٤٦] ﴿٥﴾ والمراد بقريته: مكة؛ وأضاف القوة والإخراج إليها، والمراد أهلها، ولذلك قال: ﴿أَهْلَكْنَاهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفْكَانٌ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ مِن رَبِّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه رسول الله ﷺ، قاله أبو العالية. والثاني: أنه

(١) «ديوانه» ٩٩، و«غريب القرآن» ٤٠٩، و«القرطبي» ٢٢٩/١٦٦، و«الصالح» و«اللسان» و«التاج»: ووزر.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: سيوفق الله تعالى ذكره للعمل بما يرى ويحبّ هؤلاء الذين قاتلوا في سبيله ﴿سَيَّبِيحٌ بَالَم﴾ ويصلح أمرهم وحالهم في الدنيا والآخرة ﴿سَيَّبِيحٌ لِنَنَّ عَرَفَهَا لَمْ﴾ يقول: ويدخلهم الله جنه عرفها ويئيبها لهم، قال: حتى إن الرجل يأتي منزله منها إذا دخلها كما كان يأتي منزله في الدنيا لا يشكّل عليه ذلك. اهـ. وروى البخاري في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار، حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتفاضلون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هلبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا».

(٣) قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَبْسُؤُوا﴾ يعني المشركين بالله المكذّبين لرسوله ﴿فِي الْأَرْضِ يَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عاقبهم بتكذيبهم وكرهم.

(٤) وأول الآية: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْثَمُ﴾. (٥) وأول الآية: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهُ﴾.

المؤمن، قاله الحسن. وفي «البيئنة» قولان: أحدهما: القرآن، قاله ابن زيد. والثاني: الدين، قاله ابن السائب. ﴿كُنْزِينَ لَمْ سَوْ عَلَيَّ﴾ يعني عبادة الأوثان، وهو الكافر ﴿وَأَبْتَمُوا أَمْوَاهُمْ﴾^(١) عبادتها.

﴿نَتَلَّ الْجَنَّةَ أَلَيْ وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ فيها أُنْتَهَرَ مِنْ مَاءٍ عَرَّيْنَا مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَرَّ طَعْمُهُ وَأُنْتَهَرَ مِنْ حَمْرٍ لَدَوَّ لِشَدِيدِينَ وَأُنْتَهَرَ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَمِنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِمَّن رَزَيْتُمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيلٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْسَاهُمْ ﴿١٥﴾

﴿نَتَلَّ الْجَنَّةَ أَلَيْ وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صِفَتْهَا، وقد شرحناه في [الرعد: ٣٥]. و«المتَّقُونَ» عند المفسرين: الذين يَتَّقُونَ الشُّرْكَ. و«الآسِين» المتغَيَّرُ الرِّيحِ، قاله أبو عبيدة، والزجاج. وقال ابن قتيبة: هو المتغَيَّرُ الرِّيحِ وَالطَّعْمِ، و«الآجِن» نحوه. وقرأ ابن كثير: «غير آسين» بغير مد. وقد شرحنا قوله ﴿لَدَوَّ لِشَدِيدِينَ﴾ في [الصفات: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَسَلٍ لَيْسَ فِيهِ عَكْرٌ وَلَا كَدْرٌ كَعَسَلٍ أَهْلِ الدُّنْيَا﴾.

قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيلٌ فِي النَّارِ﴾ قال الفراء: أراد: مَنْ كَانَ فِي هَذَا النَّعِيمِ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ!؟^(٢)

قوله تعالى: ﴿مَاءٌ حَمِيمًا﴾ أي: حَارًّا شَدِيدَ الْحَرَارَةِ. و«الأمعاء» جميع ما في البطن من الحوايا^(٣).

﴿وَنَوْمُهُمْ مِمَّن يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا رَجَعُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَاذَا قَالَ آدَمُ مَاذَا قَالَ آدَمُ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَانْتَمَوْا أَمْوَاهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَوَسَّعَتْ لَهُمْ قُلُوبَهُمْ ﴿١٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْ كُمْ إِذَا جَاءَهُمْ وَكَرِهْتُمْ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَوْمُهُمْ مِمَّن يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ﴾ يعني المنافقين. وفيما يستمعون قولان: أحدهما: أنه سماع خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة. والثاني: سماع قوله على عموم الأوقات، فأما ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، فالمراد بهم: علماء الصحابة.

قوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ آدَمُ﴾ قال الزجاج: أي: ماذا قال الساعة، وهو من قولك: استأنفت الشيء: إذا ابتدأته، وروضة أنف: لم تُرْعَ، أي: لها أَوَّلٌ يُرْعَى؛ فالمعنى: ماذا قال في أَوَّلِ وَقْتٍ يَقْرُبُ مِنَّا. وحَدَّثَنَا عَنْ أَبِي عَمْرِو غلام ثعلب أنه قال: معنى «آدَمُ» مُذْ سَاعَةٍ. وقرأ ابن كثير، في بعض الروايات عنه: «آدَمُ» بالقصر، وهذه قراءة عكرمة، وحמיד، وابن محيصن. قال أبو علي: يجوز أن يكون ابن كثير توهم، مثل حاذِرٍ وحَذِيرٍ، وفاكِهٍ وفَكِهَةٍ. وفي استفهامهم قولان: أحدهما: لأنهم لم يَتَّقِلُوا ما يقول، ويذُلُّ عليه باقي الآية. والثاني: أنهم قالوه استهزاء.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم المسلمون، قاله الجمهور. والثاني: قومٌ من أهل الكتاب كانوا على الإيمان بأبنائهم وبمحمد ﷺ، فلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ آمَنُوا بِهِ، قاله عكرمة. وفي الذي زادهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الله ﷻ. والثاني: قول الرسول. والثالث: استهزاء المنافقين زاد المؤمنين هُدًى، ذكرهن الزجاج. وفي معنى الهدى قولان: أحدهما: أنه العِلْمُ. والثاني: البصيرة. وفي قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَقُونَهُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: ثواب تقواهم في الآخرة، قاله السدي. والثاني: انقضاء المنسوخ والعمل بالناسخ، قاله عطية. والثالث: أعطاهم التقوى مع الهدى، فأتقوا معصيته خوفاً من عقوبته، قاله أبو سليمان الدمشقي^(٤). و«نَظَرُونَ» بمعنى ينتظرون، ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو الأشهب، وحמיד: ﴿إِنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بكسر الهمزة من غير ياء بعد التاء. والأشراط: العلامات؛ قال أبو عبيدة: الأشراط: الأعلام، وإنما سُمِّيَ الشُّرْطُ - فيما ترى - لأنهم أعلموا أنفسهم. قال المفسرون: ظهور النبي ﷺ من

(١) يقول تعالى: ﴿أَمَّا كَانَتْ عَلَىٰ يَدَيْهِمْ رَبِّيهِمْ﴾ أي: على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ﴿كَمَنْ رُونَ لَمْ سَوْ عَلَيَّ وَأَبْتَمُوا أَمْوَاهُمْ﴾!؟ أي: ليس هذا كهذا، كقوله تعالى: ﴿أَمَّا يَتَذَكَّرُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا رَبُّكَ لَتَلَذَّ لَكَ مَرْ أَمْرًا﴾، وكقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَمْسَبُ النَّارِ وَأَمْسَبُ الْجَنَّةِ أَمْسَبُ الْجَنَّةِ هُمْ النَّارِيُّونَ﴾. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدرجات. اهـ.

(٣) قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْسَاهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: وسُقِي هؤلاء الذين هم خلود في النار ماء قد انتهى حرُّه، فقطع ذلك الماء من شدة حرِّه أمعاهم. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًىٰ﴾ أي: والذين فصلوا الهداية، وقَّعهم الله تعالى لها، فهداهم إليها، وبثبتم عليها، وزادهم منها ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَقُونَهُمْ﴾ أي: الهمهم رشدهم. اهـ.

أشراط الساعة، وانشقاق القمر والدخان وغير ذلك^(١). ﴿فَأَنَّ لَهْمَ﴾ أي: فمن أين لهم ﴿إِنَّا جَاءَهُمْ﴾ الساعة ﴿وَذَكَّرَهُمْ﴾! قال قتادة: أتى لهم أن يذكروا ويتوبوا إذا جاءت!

﴿فَاعَلَّزَّ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَلِّكُمْ﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْفِتْنَةَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَصٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَتَشِقِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَبَرًا لَهُمْ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿فَاعَلَّزَّ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال بعضهم: أثبت على علمك، وقال قوم: المراد بهذا الخطاب غيره؛ وقد شرحنا هذا في فاتحة (الأحزاب). وقيل: إنه كان يصيق صدره بما يقولون، فقيل له: اعلم أنه لا كاشف لِمَا بِكَ إِلَّا اللهُ. فأما قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرَ لِذَنبِكَ﴾ فإنه كان يستغفر في اليوم مائة مرة^(٢)، وأمر أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات إكراماً لهم لأنه شفيحٌ مُجَابٌ^(٣). ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَلِّكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: مُتَقَلِّبِكُمْ في الدنيا ومثواكم في الآخرة، وهو معنى قول ابن عباس. والثاني: مُتَقَلِّبِكُمْ في أصلاب الرجال إلى أرحام النساء، ومقامكم في القبور، قاله عكرمة. والثالث: «مُتَقَلِّبِكُمْ» بالنهار ومثواكم» أي: ما أوامكم بالليل، قاله مقاتل^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ﴾ قال المفسرون: سألوا ربهم أن ينزل سورة فيها ثواب القتال في سبيل الله، اشتياًقاً منهم إلى الوحي وجرصاً على الجهاد، فقالوا: «لولا» أي: هلا؛ وكان أبو مالك الأشجعي يقول: «لا» هاهنا صلة، فالمعنى: لو أنزلت سورة، شوقاً منهم إلى الزيادة في العلم، ورجبة في الثواب والأجر بالاستكثار من الفرائض. وفي معنى «مُحْكَمَةٌ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها التي يُذَكَّر فيها القتال، قاله قتادة. والثاني: أنها التي يُذَكَّر فيها الحلال والحرام. والثالث: التي لا منسوخ فيها، حكاهما أبو سليمان الدمشقي. ومعنى قوله: ﴿وَذَكَرَ فِيهَا الْفِتْنَةَ﴾ أي: فُرِضَ فيها الجهاد. وفي المراد بالمرض قولان: أحدهما: النفاق، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجمهور. والثاني: الشك، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يَشْخَصُونَ نحوك بأبصارهم ينظرون نظراً شديداً كما ينظر الشاخص ببيصره عند الموت، لأنهم يكرهون القتال، ويخافون إن قعدوا أن يتبين نفاقهم. ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد: «أُولَئِكَ لَكَ» أي: وَلِيكَ وَقَارِيكَ ما تكره. وقال ابن تقيية: هذا وعيدٌ وتهديد، تقول للرجل - إذا أردت به سوءاً، ففَاتِكَ - أُولَئِكَ لَكَ، ثم ابتداء، فقال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ...﴾ وقال سيبويه والخليل: المعنى: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثل. وقال الفراء: الطاعةٌ معروفة^(٥) في كلام العرب، إذا قيل لهم: افعلوا كذلك، قالوا: سَمِعُ طَاعَةً، فوصف [الله] قولهم قبل أن تنزل السورة أنهم يقولون: سَمِعُ طَاعَةً، فإذا نزل الأمر كرهوا. وأخبرني حبان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ﴾، ثم قال: ﴿لَهُمْ﴾ أي: للذين آمنوا منهم ﴿طَاعَةً﴾، فصارت «أُولَئِكَ» وعيداً

(١) قال ابن كثير: فبعضة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة، لأنه خاتم الرسل الذين أكمل الله تعالى به الدين، وأقام به الحججة على العالمين، قال: وقد أعير ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يوت به نبي قبله، قال: ولهذا جاء في أسماته ﷺ أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والمعائب الذي ليس بعده نبي. اهـ. وروى البخاري في «صحيحه» عن سهل بن سعد ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتي عليها: «بئس أنا والساعة كهاتين».

(٢) روى مسلم في «صحيحه» عن الأغر بن يسار المزني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإنني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» والمراد بليغان: أن يفتر عن الذكر الذي في شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمر ما عد ذلك ذنباً فاستغفر منه. وروى البخاري في «صحيحه» عن شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» قال: «ومن قالها في النهار موثقاً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موثق بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة».

(٣) روى أحمد في «مسنده» من حديث شعبة عن حاصم الأحول قال: سمعت عبد الله بن سرجس قال: أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله، فقال ﷺ: «وللك» فقلت (أي شعبة): استغفر لك؟ قال: «نعم ولكم»، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرَ لِذَنبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. قال ابن كثير: ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن حاصم الأحول به.

(٤) والقول الثالث أولى كما قال ابن كثير. (٥) في الأصلين: مرفوعة.

لَمَنْ كَرِهَهَا، واستأنف الطاعة بـ «لهم»؛ والأول عندنا كلام العرب، وهذا غير مردود، يعني حديث أبي صالح. وذكر بعض المفسرين أن الكلام متصل بما قبله، والمعنى: فأولى لهم أن يُطيعوا وأن يقولوا معروفًا بالإجابة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ قال الحسن: جَدُّ الأمر. وقال غيره: جَدُّ رسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد، وَلَزِمَ فرضُ القتال، وصار الأمر معروفًا عليه. وجواب «إذا» محذوف، تقديره: فإذا عَزَمَ الأمرُ نَكَلُوا؛ يدلُّ على المحذوف ﴿تَلَوْا صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي: في إيمانهم وجهادهم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من المعصية والكرهية.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْصَامَكُمْ﴾ ﴿١٣﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَمْ يَمُتُوا اللَّهُ فَاصْتَمَرُوا وَأَعَمَّتْ أَبْصَرَهُمْ ﴿١٤﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِيهَا ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيحًا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ وَاللَّهُ يَعْزِمُ بِإِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَتَرَبَّصَاتٌ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ ﴿١٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آخَضُوا مَا أَحْطَ اللَّهُ بِكُرْهُوهُمْ رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ في المخاطب بهذا أربعة أقوال: أحدها: المنافقون، وهو الظاهر. والثاني: منافقو اليهود، قاله مقاتل. والثالث: الخوارج، قاله بكر بن عبد الله المزني. والرابع: قريش، حكاها جماعة منهم الماوردي. وفي قوله: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه بمعنى الإعراض. فالمعنى: إن أعرضتم عن الإسلام ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأن تعودوا إلى الجاهلية يقتل بعضكم بعضاً، ويُغير بعضكم على بعض، ذكره جماعة من المفسرين. والثاني: أنه من الولاية لأمر الناس، قاله القرظي. فعلى هذا يكون معنى «أن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ»: بالجور والظلم. وقرأ يعقوب: «وتقطعوا» بفتح التاء والطاء وتخفيفها وسكون القاف^(١). ثم ذم من يريد ذلك بالآية التي بعد هذه. وما بعد هذا قد سبق [النساء: ٨٢] إلى قوله: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِيهَا﴾ «أم» بمعنى «بل»، وذكر الأفعال استعارة، والمراد أن القلب يكون كالبيت المُقفل لا يصل إليه الهدى. [قال مجاهد]: الزان أسير من الطَّيِّع، والطَّيِّع أسير من الإفتال، والإفتال أشدُّ ذلك كُلُّهُ. وقال خالد بن معدان: ما مِنْ آدميٍ إلَّا وله أربع أعين، عَيْنَانِ فِي رَأْسِهِ لِذُنْيَاهُ وَمَا يُضْلِحُهُ مِنْ مَعِيشَتِهِ، وَعَيْنَانِ فِي قَلْبِهِ لِذُنْبِهِ وَمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْعَيْبِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ أَنْ يَبْصُرَ عَيْنَاهُ اللَّتَانِ فِي قَلْبِهِ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ طَمَسَ عَلَيْهِمَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِيهَا﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ أي: رجعوا كُفَّاراً؛ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم المنافقون، قاله ابن عباس، والسدي، وابن زيد. والثاني: أنهم اليهود، قاله قتادة، ومقاتل. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: مِنْ بَعْدِ مَا وَضَحَ لَهُمُ الْحَقَّ. ومن قال: هم اليهود، قال: مِنْ بَعْدِ أَنْ تَبَيَّنَ لَهُمْ وَصَفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ونَعْتَهُ فِي كِتَابِهِمْ. ومعنى زَيْنٌ، ﴿وَأَمَلَّ لَهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو، وزيد عن يعقوب: «وَأَمَلِّي لَهُمْ» بضم الهمزة وكسر اللام وبعدها ياء مفتوحة. وقرأ يعقوب إلا زيدا، وأبان عن عاصم كذلك، إلا أنهما أسكنا الياء. وقرأ الباقون بفتح الهمزة واللام. وقد سبق معنى الإملة [آل عمران: ١٧٨، الأعراف: ١٨٣].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ قال الزجاج: المعنى: الأمرُ ذلك، أي: ذلك الإضلال بقولهم ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وفي الكاهن قولان: أحدهما: أنهم المنافقون، فعلى هذا في معنى قوله: ﴿سَطِيحًا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ﴾ ثلاثة

(١) أي: وتقطعوا الأرحام. قال ابن كثير: وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض، وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأعمال وبذل الأموال، قال: وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة. أهدى روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يسقط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه». وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «للرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعني الله». وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة؟ قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك» ثم قال رسول الله ﷺ: «الرواد إن شتم» ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْصَامَكُمْ﴾ ﴿١٣﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَمْ يَمُتُوا اللَّهُ فَاصْتَمَرُوا وَأَعَمَّتْ أَبْصَرَهُمْ ﴿١٤﴾.

(٢) رواه الطبري ٥٧/٢٦ وفي سننه ضعف.

أقوال: أحدها: في السُّعُود عن نُصْرَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، قاله السدي. والثاني: في المَمْلِ إليكم والمظاهرة على محمد ﷺ. والثالث: في الارتداد بعد الإيمان، حكاهما الماوردي. والثاني: أنهم اليهود، فعلى هذا في الذي أطاعوهم فيه قولان: أحدهما: في أن لا يصدِّقوا شيئاً من مقالة رسول الله ﷺ، قاله الضحاك. والثاني: في كُتْم ما عَلِمُوهُ من نُبوِّته، قاله ابن جريج^(١). ﴿وَاللَّهُ يَمَلِكُ إِسْرَارَكُمْ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص عن عاصم، والوليد عن يعقوب: بكسر الألف على أنه مصدر أسررتُ؛ وقرأ الباقون: بفتحها على أنه جمع سرٌّ، والمعنى أنه يتعلَّم ما بين اليهود والمنافقين من السُّرِّ. قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ؟﴾ أي: فكيف يكون حالهم حينئذٍ؟ وقد بيَّنا في [الأنفال: ٥٠] معنى قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَصَكَّرُوا رِضْوَانَكُمْ﴾ أي: كَرِهُوا ما فيه الرِّضْوَان، وهو الإيمان والطاعة. ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ﴾ ﴿١٣﴾ وَوَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْزَقْنَكُمْ فَلَقَرَفَتُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿١٤﴾ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجْرِمِينَ مِنْكُمْ وَالتَّائِبِينَ وَيَبْلُوا آخَابَكُمْ ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرُّسُلَ مِنْ بَدَى مَا بَدَى لَهُمُ الْمُؤْتَنُونَ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَلِهِمْ ﴿١٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلِيعُوا اللَّهَ وَلِيعُوا الرُّسُلَ وَلَا تَبْلُغُوا أَهْلَكُمْ ﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ كَفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: نفاق ﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ﴾ قال الفراء: أي لن يُبدي الله عداوتهم ويغضبهم لمحمد ﷺ. وقال الزجاج: أي: لن يُبدي عداوتهم لرسوله ﷺ ويُظهِرُهُ على نفاقهم^(٢). ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْزَقْنَكُمْ﴾ أي: لعرفناكم، تقول: قد أرزقتُ هذا الأمر، أي: قد عرفتك إياه، المعنى: لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة، وهي السيماء ﴿فَلَقَرَفَتُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي: بتلك العلامة ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: في فحوى القول، فدلَّ بهذا على أن قول القائل وفعله يدلُّ على نيَّته. وقولُ الناس: قد لَحَنَ فلانٌ، تأويله: قد أخذ في ناحية عن الصواب، وعَدَلُ عن الصواب إليها، وقول الشاعر:

مَنْ لَطَّقَ صَائِبٌ وَتَلَحَّنَ أَحْيَا نَأً، وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَخْنًا^(٣)

تأويله: خير الحديث من يثُل هذه ما كان لا يعرفه كلُّ أحد، إنما يُعرَف قولها في أنحاء قولها. قال المفسرون: ولتَعْرِفَنَّهُمْ في فحوى الكلام ومعناه ومقصد، فإنهم يتعرَّضون بتهجين أمرِك والاستهزاء بالمسلمين. قال ابن جرير: ثم عرَّفه الله إياهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: ولتُعابِلَنَّكُمْ معاملة المُخْتَبِرِ بأن تأمرِك بالجهاد ﴿حَتَّى تَعْلَمَ﴾ العِلْم الذي هو عِلْم وجود، وبه يقع الجزاء؛ وقد شرحنا هذا في [المنكوت: ٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَبْلُوا آخَابَكُمْ﴾ أي: نُظهِرُهَا ونُكشِفُهَا بإبائه من يأبى القتال ولا يَضِرُّ على الجهاد. وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ﴾ حتى يَعْلَمَ بالياء «ويَبْلُوا» بالياء فيهن. وقرأ معاذ القارئ، وأيوب السخيتاني: «أخياركم» بالياء جمع «خير»^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [الآية]^(٥) اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها في المُطَّوعِينَ

(١) قال ابن كثير: أي: ما لُوِّمُوا وناصحوهم في الباطن على الباطل، قال: وهذا شأن المنافقين يظهرن خلاف ما يظنون، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَمَلِكُ إِسْرَارَكُمْ﴾ أي: ما سرُّون وما يخفون، والله مطلع عليه وعالم به، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْشِرُونَ﴾. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ﴾؟ أي: أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟! بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذرؤ البصائر، قال: وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة (براءة) فينبئ فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، قال: ولهذا كانت تسمى «الفاضحة»، قال: والأضغان جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائلين بنصره. اهـ.

(٣) البيت لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري، وهو في «البيان والتبيين» ١/١٤٧، و«الأمالي» ٥/١، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: لحن. قال في «اللسان»: تأويله: وخير الحديث من مثل هذه الجارية ما كان لا يعرفه كلُّ أحد، إنما يُعرَف أمرها في أنحاء قولها.

(٤) قال في «اللسان»: ورجلٌ خَيْرٌ وخَيْرٌ، مشدّد ومخفف، وامرأة خَيْرَةٌ وخَيْرَةٌ، والجمع أخيارٌ وخَيْرٌ.

(٥) وتامها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرُّسُلَ مِنْ بَدَى مَا بَدَى لَهُمُ الْمُؤْتَنُونَ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَلِهِمْ﴾.

يوم بدر، قاله ابن عباس^(١). والثاني: أنها نزلت في الحارث بن سويد، ووحوش الأنصاري، أسلما ثم ارتدّا، فتاب الحارث ورجع إلى رسول الله ﷺ، وأبى صاحبه أن يرجع حتى مات، قاله السدي. والثالث: أنها في اليهود، قاله مقاتل. والرابع: أنها في قريظة [والنضير]، ذكره الواحدي^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبَلِّغُوا إِلَيْكُمْ﴾^(٣) اختلفوا في مُبَلِّغُهَا على أربعة أقوال: أحدها: المعاصي والكبائر، قاله الحسن. والثاني: الشكّ والثفاق، قاله عطاء. والثالث: الرّياء والسُّمعة، قاله ابن السائب. والرابع: بالَمَنْ^(٤)، وذلك أن قوماً من الأعراب قَدِمُوا على رسول الله ﷺ فقالوا: أتيناك طائعين، فلنا عليك حق، فنزلت هذه الآية، ونزل قوله: ﴿يَسْتَوُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧]، هذا قول مقاتل^(٥). قال القاضي أبو يعلى: وهذا يدلُّ على أن كُلَّ مَنْ دَخَلَ فِي قُرْبَةِ لَمْ يَجُزْ لَهُ الْخُرُوجُ مِنْهَا قَبْلَ إِتِمَامِهَا، وهذا على ظاهره في الحج، فأما في الصلاة والصيام، فهو على سبيل الاستحباب^(٦).

﴿فَلَا تَهْتَفُوا إِلَى السِّلَاحِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهِ مَعَكُمْ وَإنْ يَرَوْكُمْ أَهْتِكُمْ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا لِكَيْلِ الْذِيئَةِ لَوْ لَبَّ وَكَلَهُمْ وَإِنْ تَوَيْتُمْ وَتَنَقَّوْا يُؤْتِكُمْ لُجُودَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿١٨﴾ إِنْ يَسْأَلُكُمْ مَا يَسْأَلُونَ فَتَحَلُّوا وَمَخْرُجُ أَصْفَانِكُمْ ﴿١٩﴾ هَآئِذَا هَدَاكُمْ تَذَكَّرْتُمْ لِيُفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْغِلُ وَمَنْ يَسْتَحِلُّ فَإِنَّمَا يَبْغِلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا﴾ أي: فلا تَضَعُفُوا ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السِّلَاحِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم: «إلى السُّلْم» بفتح السين؛ وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: بكسر السين، والمعنى: لا تَدْعُوا الْكُفْرَانَ إِلَى الصِّلْحِ ابْتِدَاءً. وفي هذا دلالة على أنه لا يجوز طلب الصِّلْحِ من المشركين، ودلالة على أن النبي ﷺ لم يدخل مكة صلحاً، لأنه نهاه عن الصِّلْحِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: أنتم أَعَزُّ مِنْهُمْ، وَالْحُجَّةُ لَكُمْ، وَأَجْرُ الْأَمْرِ لَكُمْ وَإِنْ غَلَبَكُمْ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ^(٧) ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بِالْعَزْوَ وَالنُّصْرَةَ ﴿وَأَنْ يَرَوْكُمْ﴾ قال ابن قتبية: أي: لَنْ يَنْقُضَكُمْ وَلَنْ يَغْلِبَكُمْ، يُقَالُ: وَرَثْتِي حَقِّي، أَي: بِحَسَبِيَّتِي. قال المفسرون: المعنى: لَنْ يَنْقُضَكُمْ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾^(٨) أي: لَنْ يَسْأَلَكُمْ بِهَا كُلَّهَا.

قوله تعالى: ﴿فَيَخُونَكُمْ﴾ قال الفراء: يُجَاهِدُكُمْ. وقال ابن قتبية: يُلْحِقُ عَلَيْكُمْ بِمَا يُوْجِبُهُ فِي أَمْوَالِكُمْ ﴿تَبَحَّلُوا﴾، [يقال: أَخْفَانِي بِالْمَسْأَلَةِ وَالْحَف: إِذَا أَلْحَ. وقال السدي: إِنْ يَسْأَلُكُمْ جَمِيعَ مَا فِي أَيْدِيكُمْ تَبَحَّلُوا]. ﴿وَمَخْرُجُ أَصْفَانِكُمْ﴾ وقرأ سعد بن أبي وقاص، وابن عباس، وابن عمر: «وَيُخْرَجُ» بياء مرفوعة وفتح الراء «أَصْفَانِكُمْ» بالرفع. وقرأ أبي بن كعب، وأبو رزين، وعكرمة، وابن السميع، وابن محيصن، والجحدري: «وَتُخْرَجُ» بئاء مفتوحة ورفع الراء،

(١) ذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند.

(٢) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن كفر وصعد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى، أنه لن يضرب الله شيئاً، وإنما يضرب نفسه، ويخسرهما يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يشبهه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه برده مقال بوضوء من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات. اهـ.

(٣) والآية بتمامها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُذْهِبْ اللَّهُ رُسُلَهُمْ وَلَا يُبَلِّغُوا إِلَيْكُمْ﴾.

(٤) قال الشوكاني في «فتح القدير»: والظاهر النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال كانتا ما كان من غير تخصيص بنوع معين. اهـ.

(٥) ذكره البغوي عن مقاتل بدون سند.

(٦) روى أحمد والبيهقي بسند جيد عن أم هانئ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ شرب شراباً، فناولها لتشرب، فقالت: إني كنت صائمة، ولكني كرهت أن أورد سؤرك، فقال: «إِنْ كَانَ قِضَاءً مِنْ رَمَضَانَ، فَاقْضِي يَوْمًا مَكَانَهُ، وَإِنْ كَانَ تَطَوُّعًا، فَإِنْ شِئْتَ فَاقْضِي، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَقْضِي».

(٧) قال ابن كثير: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا﴾ أي: لا تَضَعُفُوا مِنَ الْأَعْدَاءِ ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السِّلَاحِ﴾ أي: إِلَى الْمَهَادِنَةِ وَالْمَسَالِمَةِ، وَوَضَعَ الْقِتَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْكُفْرَانِ فِي حَالِ قُرْبَتِكُمْ وَكَرَّةِ عَدَدِكُمْ وَعُدُدِكُمْ، قَالَ: وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا وَتَدْعُوا إِلَى السِّلَاحِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: فِي حَالِ حُلُوكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ، قَالَ: فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْكُفْرَانُ فِيهِمْ قُوَّةً وَكَرَّةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمْعِ الْمُسْلِمِينَ، وَرَأَى الْإِمَامُ فِي الْمَهَادِنَةِ وَالْمَعَاهِدَةِ مَصْلَحَةً، فَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ صَدَّ كُفْرَانُ قُرَيْشٍ عَنِ مَكَّةَ وَدَعَا إِلَى الصِّلْحِ وَوَضَعَ الْحَرْبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَشْرَ سَنِينَ، فَأَجَابَهُمْ ﷺ إِلَى ذَلِكَ. اهـ.

(٨) والآية بتمامها: ﴿إِنَّمَا لِكَيْلِ الْذِيئَةِ لَوْ لَبَّ وَكَلَهُمْ وَإِنْ تَوَيْتُمْ وَتَنَقَّوْا يُؤْتِكُمْ لُجُودَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾.

«أضغانكم» بالرفع. وقرأ ابن مسعود، والوليد عن يعقوب: «وُنُخِرَج» بنون مرفوعة وكسر الراء، «أضغانكم» نصب النون، أي: يُظهِرُ بُغْضَكُمْ وَعِدَاوَتَكُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، ولكنه فرض عليكم يسيراً. وفيمن يضاف إليه هذا الإخراج وجهان: أحدهما: إلى الله ﷻ. والثاني: البخل، حكاهما الفراء. وقد زعم قوم أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة، وليس بصحيح، لأنَّها قد بيَّنا أن معنى الآية: إِنْ سَأَلْتُمْ جَمِيعَ أَمْوَالِكُمْ؛ وَالزَّكَاةُ لَا تَنَافِي ذَلِكَ.

قوله تعالى: ﴿هَكَانَتْ هَؤُلَاءِ نَدْعَوْتِ لِيُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني ما فرض عليكم في أموالكم ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْغُلُ﴾ بما فرض عليه من الزكاة ﴿وَمَنْ يَبْغُلْ فَإِنَّمَا يَبْغُلْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: على نفسه بما ينفعهما في الآخرة ﴿وَاللَّهُ النَّقِيُّ﴾ عنكم وعن أموالكم ﴿وَأَنْتُمْ أَفْقَرَاءُ﴾ إليه وإلى ما عنده من الخير والرحمة، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن طاعته ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أطوع له منكم ﴿فَلَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ بل خيراً منكم. وفي هؤلاء القوم ثمانية أقوال: أحدها: أنهم العجم، قاله الحسن. وفيه حديث يرويه أبو هريرة قال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ كان سلمان إلى جنب رسول الله ﷺ، فقالوا^(١): يا رسول الله، مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِذَا تَوَلَّيْنَا اسْتَبَدَّلُوا بِنَا؟ فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [يَدَهُ] عَلَى مَنْكِبِ سَلْمَانَ، فَقَالَ: «هَذَا وَقَوْمُهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ الدِّينَ مَعْلَقٌ بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِّنْ فَارِسٍ»^(٢). والثاني: فارس والروم، قاله عكرمة. والثالث: من يشاء من جميع الناس، قاله مجاهد. والرابع: يأتي بخلق جديد غيركم، وهو معنى قول قتادة. والخامس: كندة والنخع، قاله ابن السائب. والسادس: أهل اليمن، قاله راشد بن سعد، وعبد الرحمن بن جبير، وشريح بن عبيد. والسابع: الأنصار. قاله مقاتل. والثامن: أنهم الملائكة، حكاها الزجاج وقال: فيه بُعْدٌ [لأنه] لَا يُقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ «قَوْمٌ»، إنما يقال ذلك للآدميين؛ قال: وقد قيل: إن تَوَلَّى أَهْلٌ مَّكَّةَ اسْتَبَدَّلَ اللَّهُ بِهِمْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ، وهذا [معنى] ما ذَكَرْنَا عَنْ مَقَاتِلِ^(٣).



(١) في الأصل: فقال.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٦٦/٢٦، وفي سننه مسلم بن خالد المخزومي المعروف بالزنجي، قال الحافظ ابن حجر عنه في «التقريب»: ففيه صدوق كثير الأوهام، وذكره ابن كثير في التفسير من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم، وقال: تفرد به مسلم بن خالد الزنجي، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم، والله أعلم. ورواه الترمذي في «سننه» ١٥٨/٢، وفي سننه جعفر بن عبد الله بن نجيح، قال الحافظ ابن حجر عنه في «التقريب»: ضعيف. وأورده السيوطي في «الدر» ٦٧/٦، وزاد نسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «الدلائل» عن أبي هريرة ﷺ. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٥٢: رواه الترمذي، وابن حبان، والحاكم، والطبري، وابن أبي حاتم وغيرهم من طريق الملاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة، وله طرق عنه وعن غيره. ورواه البخاري في «صحيحه» ٤٩٢/٨، ومسلم ١٩٧٢/٤ بسبب نزول سورة (الجمعة)، ولفظه عند مسلم: عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نزلت سورة (الجمعة) فلما قرأ: ﴿وَمَا كُنَّا بِنَبِيٍّ نَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال رجل: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فلم يراجع النبي ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً، قال: وفينا سلمان الفارسي، قال: فوضع النبي ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لثاله رجال من هؤلاء»، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وفي بعض طرق الحديث عند أبي نعيم عن أبي هريرة أن ذلك كان عند نزول قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قال: ويحتمل أن يكون ذلك صدر عند نزول كل من الآيتين (بريد آية سورة «الجمعة» وآية سورة «محمد»). اهـ. والحديث رواه مسلم في «صحيحه» دون سبب النزول عن أبي هريرة بلفظ: «لو كان الدين عند الثريا للعب به رجل من فارس (أو قال: من أبناء فارس) حتى يتناوله». ورواه أحمد في «المسنند» عن أبي هريرة بلفظ: «لو كان العلم معلقاً بالثريا لتناوله ناس من أولاد فارس» وفي سننه شهر بن حوشب، وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام كما قاله الحافظ ابن حجر في «التقريب».

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله تعالى ذكره: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: وإن تَوَلَّوْا أيها الناس عن هذا الدين الذي جاءكم به محمد ﷺ فترتُّوا راجعين عنه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، يقول: يهلككم، ثم يجيء بقوم آخرين غيركم بدلاً منكم، يصدِّقون به، ويعملون بشرائعه ﴿فَلَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾، يقول: ثم لا يبخلوا بما أمروا به من النفقة في سبيل الله، ولا يضيِّعوا شيئاً من حدود دينهم، ولكنهم يقومون بذلك كلُّه على ما يؤمرون به. اهـ.

سورة الفتح

وهي مدنيّة كلّها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ بِكَ بِرَّكَاتِكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيُضَرِّكَ اللَّهُ صَمْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾﴾
قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾... ﴿[الآية] سبب نزولها أنه لما نزل قوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاكَ مَا يَفْعَلُ بِكَ وَلَا يَنْصُرُكَ اللَّهُ﴾ [الاحقاف: ٩] قال اليهود: كيف نُسب رجلًا لا يدري ما يُفعل به؟ فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس^(١). وفي المراد بالفتح أربعة أقول: أحدها: أنه كان يوم الحديبية، قاله الأكثرون. قال البراء بن عازب: نحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان^(٢). وقال الشعبي: وهو فتح الحديبية، غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهديّ محلّه، وظهّرت الرومُ على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكّن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلُق كثير وكثر بهم سواد الإسلام. قال مجاهد: يعني بالفتح ما قضى الله له من نحر الهديّ بالحديبية وخلق رأسه. وقال ابن قتيبة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ أي: قضينا لك قضاء عظيمًا، ويقال للقاضي الفتح. قال الفراء: والفتح قد يكون صلحًا، ويكون أخذ الشيء عنوةً، ويكون بالقتال. وقال غيره: معنى الفتح في اللغة: فتح المنغلق، والصلح الذي يجعل مع المشركين بالحديبية كان مسدودًا متعذرًا حتى فتحه الله تعالى.

الإشارة إلى قصة الحديبية^(٣)

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ رأى في النوم كأن قائلًا يقول [له]: لَتَدْخُلَنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمين، فأصبح فحدث الناس برويها، وأمرهم بالخروج للعمرة^(٤)؛ فذكر أهل العلم بالسيرة أنه خرج واستنفر أصحابه للعمرة،

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٧ من رواية عطاء عن ابن عباس بدون سند.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» ٣٤٠/٧ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية». وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: قوله: «ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان» يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ قال: وهذا موضع وقع فيه اختلاف قديم، والتحقق أنه يختلف ذلك باختلاف المراد من الآيات، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ المراد بالفتح هنا: الحديبية، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتّب على الصلح الذي وقع منه الأمن ووقع الحرب، وتمكّن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك، كما وقع لخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وغيرهما، ثم تبعته الأسباب بعضها بعضًا إلى أن كمل الفتح. ثم قال: وأما قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَأَذَانَهُمْ نَسَّا قَرِيبًا﴾ فالمراد بها فتح خيبر على الصحيح، لأنها هي التي وقعت فيها المغنمات الكثيرة للمسلمين، قال: وقد روى أحمد وأبو داود والحاكم من حديث مجمع بن جارية قال: شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا وجدنا رسول الله ﷺ واقفًا عند كراع الغميم وقد جمع الناس قرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾... الآية، فقال رجل: يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: «أي والذي نفسي بيده إنه الفتح»، ثم قسمت خيبر على أهل الحديبية، قال: وروى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبي في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ قال: صلح الحديبية، وغفر له ما تقدم وما تأخر، وتبايعوا بيعة الرضوان، وأطعموا نخيل خيبر، وظهّرت الروم على فارس، وفرح المسلمون بنصر الله. قال: وأما قوله تعالى: ﴿تَمَسَّكْ بِذِي ذُلِّكَ فَتَمَّا قَرِيبًا﴾ فالمراد بالحديبية. وأما قول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَاءَكَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ وقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»، فالمراد به فتح مكة باتفاق، قال: فيها ما يرفع الإشكال وتجتمع الأقوال بعموم الله تعالى. اهـ.

(٣) الحُدَيْبِيَّةُ: قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت بئر عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها، أو بشجرة حذباء كانت في ذلك الموضع، وبين الحديبية ومكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل.

(٤) قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصّروا، فأخبر بذلك =

وذلك في سنة ست، ولم يخرج بسلاح إلا السيوف في القُرب. وساق هو وأصحابه البُذَن، فصلَّى الظهر بـ «ذي الحليفة»، ثم دعا بالبُذَن فجلَّت، ثم أشعرها وقلَّدها، وفعل ذلك أصحابه، وأحرم ولئى، فبلغ المشركين خروجُه، فأجمع رأيهم على صدِّه عن المسجد الحرام، وخرجوا حتى عسكروا بـ «بلَدَح»^(١)، وقدموا مائتي فارس إلى كُراع الغميم، وسار رسولُ الله ﷺ حتى دنا من الحديدية؛ قال الزجاج: وهي بئر، فسَمِّي المكان باسم البئر؛ قالوا: وبينها وبين مكة تسعة أميال، فوقفت يدًا راحلته، فقال المسلمون: حَلَّ حَلٌّ^(٢) يَزْجرونها، فأبَتْ، فقالوا: خَلَّاتِ القِضَاءُ^(٣) - والخِلاءُ في النَّاقَةِ مثل الجِراحِ في الفَرَسِ - فقال: «ما خَلَّاتِ، ولكن حَبَسَهَا حَابِسُ القَبِيلِ، أما والله لا يسألوني خَطَّةً فيها تعظيمُ حُرْمَةِ الله إلا أعطيتهم إِيَّاهَا»، ثم جرَّها فقامت، فولَّى راجعاً عَوْدَهُ على بُذَنه حتى نزل على تَمَدٍ من أُمَدِ الحديدية قليل الماء^(٤)، فانترع سهماً من كنانته فغرزَه فيها، فجاشت لهم بالرَّوَاءِ^(٥)، وجاءه بُذَيْلُ بن ورقاء في ركب فسَلَّمُوا وقالوا: جئناك من عند قومك وقد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، يُقْسِمون، لا يَحُلُّون بينك وبين البيت حتى تُبَيِّدَ خَضْرَاءَهُمْ^(٦)، فقال رسولُ الله ﷺ: «لَمْ نَأْتِ لِقَاتِ أَحَدٍ إِنَّمَا جِئْنَا لِنَطُوفَ بِهَذَا البَيْتِ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْه قَاتِلُنَاهُ»، فرَجَعَ [بِدَيْلِ] فَأَخْبَرَ قَرِيشاً، فبعثوا عروة بن مسعود، فكَلَّمَهُ بنحو ذلك، فأخبر قريشاً، فقالوا: نَرُدُّهُ مِن عَامِنَا هَذَا، وَيَرْجِعُ مِن قَابِلٍ فَيَدْخُلُ مَكَةَ وَيَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فأرسل رسولُ الله ﷺ عثمان بن عفان، قال: «أَذْهَبُ إِلَى قَرِيشٍ فَأُخْبِرُهُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقَاتِ أَحَدٍ وَإِنَّمَا جِئْنَا زُؤَاراً لِهَذَا البَيْتِ»، معنا الهدى ننحره وننصرف، فأتاهم فأخبرهم، فقالوا: لا كان هذا أبداً، ولا يَدْخُلُهَا العَامَ، وَيَلْغُ رسولُ الله ﷺ أن عثمان قد قُتِلَ، فقال: «لَا تَبْرَحْ حَتَّى تُنَاجِرَهُمْ»، فذاك حين دعا المسلمين إلى بيعة الرضوان، فبايعهم تحت الشجرة^(٧). وفي عددهم يومئذٍ أربعة أقوال: أحدها: ألف وأربعمائة، قاله البراء، وسلمة بن الأكوع، وجابر، ومعتل بن يسار. والثاني: ألف وخمسمائة، روي عن جابر أيضاً، وبه قال قتادة. والثالث: ألف وخمسمائة وخمس وعشرون، رواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: ألف وثلاثمائة، قاله عبد الله بن أبي أوفى. قال: وَضَرَبَ يومئذٍ رسولُ الله ﷺ بِشِمَالِهِ على يمينه لعثمان، وقال: إنه ذهب في حاجة الله ورسوله، وَجَعَلَتْ الرُّسُلُ تَخْتَلِفُ بَيْنَهُمْ، فأجمعوا على الصُّلْحِ، فبعثوا سهيل بن عمرو في عِدَّةِ رِجَالٍ، فصالحه كما ذكرنا في [براءة: ٧]، فأقام بالحديبية بضعة عشر يوماً، ويقال: عشرين ليلة، ثم انصرف، فلَمَّا كان بـ «صَحْبَانَ»^(٨) نزل عليه: ﴿إِنَّا نَمَتْنَا لَكَ تَمَاتًا نَبِيًّا﴾، فقال جبريل: يَهَيْئِكَ يَا رسولَ الله، وهتأه المسلمون. والقول الثاني: أن هذا الفتح فتح مكة، رواه مسروق عن عائشة، وبه قال السدي. وقال بعض مَنْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا: إِنَّمَا وُعدَ بفتح مكة بهذه الآية. والثالث: أنه فتح خيبر، قاله مجاهد، والعوفي وعن أنس بن مالك كالثولين. والرابع: أنه القضاء له بالإسلام، قاله مقاتل. وقال غيره: حَكَّمْنَا لَكَ بِإِظْهَارِ دِينِكَ وَالتُّصْرَةِ عَلَى عَدُوِّكَ.

= أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك، فلما رجعوا من الحديدية ولم يدخلوها مكة، فقال المناقرون: والله ما حلقنا، ولا قَصَرْنَا، ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله هذه الآية. اهـ.

- (١) قال في «معجم البلدان»: «بلدح»: آخره حاء مهملة والذال قبله: وإد قبل مكة من جهة المغرب.
- (٢) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: حل حل، بفتح المهملة وسكون اللام: كلمة يقال للثقة إذا تركت الشيء. قال الخطابي: إن قلت: «حل» واحدة، فالسكون، وإن أهدتها، نُؤتت في الأولى، وسُكنت في الثانية. قال: حكى غيره السكون فيهما والتونين، كتنظيره في: «بيع بئح» يقال: حَلَحْتُ فلاناً: إذا أزعجته عن موضعه. اهـ.
- (٣) قال الحافظ ابن حجر: القِضَاءُ، بفتح القاف بعدها مهملة ومدّ: اسم ناقة رسول الله ﷺ، وزعم الداودي أنها كانت لا تسبق، فقيل لها: القِضَاءُ، لأنها بلغت من السبق أقصاه.
- (٤) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: التَّمَدُ: حفيرة فيها ماء مشمود، أي قليل، قال: وقوله: قليل الماء، تأكيد لدفع توهم أن يراد لغة من يقول: إن التمد: الماء الكثير. قال: وقيل: التمد: ما يظهر من الماء في الشتاء ويذهب في الصيف.
- (٥) قال في «اللسان»: وماء زرواء، ممدود مفتوح الزاء، أي: عذب.
- (٦) قال في «اللسان»: وقولهم: أباد الله خضراءهم، أي سوادهم ومُنَظَّمَهُمْ.
- (٧) حديث قصة الحديدية، ذكره أهل السير، وهو في «مسند أحمد» و«صحيح البخاري» وأبي داود، والنسائي، وابن جرير، وغيرهم مختصراً ومطولاً، بالفاظ مختلفة، وانظر «صحيح البخاري» ٥/٢٤١، و٣٤٨/٧، و«البداية والنهاية» لابن كثير ٤/١٧٣، و«الدر المنثور» ٦/٧٦، و«تفسير ابن كثير» ٤/١٩٤.
- (٨) قال في «معجم البلدان»: صَحْبَانَ: جبل بناحية تهامة.

قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ قال ثعلب: اللام لام «كي»، والمعنى: لكي يجتمع لك [مع] المغفرة تمام النعمة في الفتح، فلما انضم إلى المغفرة شيء حادث، حَسُنَ معنى «كي»، وغَلِطَ من قال: ليس الفتح سبب المغفرة.

قوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال ابن عباس: والمعنى: «ما تقدم» في الجاهلية، و«ما تأخر» ما لم تعلمه، وهذا على سبيل التأكيد، كما تقول: فلان يَضْرِبُ من يلقاه ومن لا يلقاه.

قوله تعالى: ﴿وَيُنَبِّئُكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن ذلك في الجنة. والثاني: أنه بالنبوة والمغفرة، روى ابن عباس. والثالث: بفتح مكة والطائف وخيبر، حكاه الماوردي. والرابع: بإظهار دينك على سائر الأديان، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيكَ سِرَابًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: وَيُنَبِّئُكَ عليه؛ وقيل: ويهدي بك، ﴿وَيُضْرِكُكَ اللَّهُ﴾ على عدوك ﴿نَمْرًا عَرَبِيًّا﴾ قال الزجاج: أي: نَضْرًا ذا عِرْ لا يقع معه ذل^(١).

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِبْنِهِمْ وَوَلَّهُ جُنُودَ الْمَكُونَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عِيَا حِكِيمًا ﴿١﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا ﴿٢﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُتَنَفِّينَ وَالْمُتَعَفِّينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالشِّرْكِيِّينَ وَالظَّالِمِينَ بِاللَّهِ عَلَى النَّوَى دَاهِيَةً السَّوَى وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٣﴾ وَوَلَّهُ جُنُودَ الْمَكُونَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَرَبِيًّا حَكِيمًا ﴿٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُنِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٥﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُعْرِضُوهُ وَتُوقِرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأُمْسِيًا ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِيكَ يُبَاهِيُكَ إِنَّمَا يُبَاهِيُكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَكَ فَإِنَّمَا يَنْكُكَ عَلَى نَقِيصٍ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ سَبَّوْهُ جِرًا عَظِيمًا ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: السكون والطمأنينة ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لئلا تنزعج قلوبهم لما يرد عليهم، فسلموا لقضاء الله، وكانوا قد اشتد عليهم صدُّ المشركين لهم عن البيت، حتى قال عمر: علام نعطى الذبيبة في ديننا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيئني»^(٢)، ثم أَوْفَعَ الله الرضى بما جرى في قلوب المسلمين، فسلموا وأطاعوا. ﴿لِيَرْدَادُوا إِيمَانًا﴾ وذلك أنه كلما نزلت فريضة زاد إيمانهم. ﴿وَوَلَّهُ جُنُودَ الْمَكُونَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يريد أن جميع أهل السموات والأرض مُلْكٌ له، لو أراد نصرة نبيِّه بغيركم لَفَعَلَ، ولكنه اختاركم لذلك، فاشكروه.

قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [الآية] سبب نزولها أنه لما نزل قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ قال أصحاب رسول الله ﷺ: هنيئًا لك يا رسول الله بما أعطاك الله، فما لنا؟ فنزلت هذه الآية، قاله أنس بن مالك^(٣). قال مقاتل: فلما سمع عبد الله بن أبي بذر، انطلق في نَمْرٍ إلى رسول الله ﷺ فقالوا: ما لنا عند الله؟ فنزلت: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُتَنَفِّينَ...﴾ الآية. قال ابن جرير: كُرِّرَتِ اللَّامُ فِي «لِيُدْخِلَ» عَلَى اللَّامِ فِي «لِيُغْفِرَ»، فالمعنى: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ، ولذلك لم يُدْخِلَ بينهما واو العطف، والمعنى: لِيُدْخِلَ وَلِيُعَذِّبَ.

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال كثيرة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة، قال: ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدَّ تعظيمًا ولا وأمره ونواهيهِ قال حين بركت به الناقة: حبسها حابس الفيل؛ ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئًا يعظّمون به حرمت الله إلا أجبتهم إليها» قال: فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنَبِّئُكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة ﴿وَيَهْدِيكَ سِرَابًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي بما يشرع لك من الشرع العظيم والدين القويم ﴿وَيُضْرِكُكَ اللَّهُ نَمْرًا عَرَبِيًّا ﴿٢﴾﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله ﷻ يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله ﷻ إلا رفعه الله تعالى». اهـ.

(٢) رواه أحمد في «المستد» بهذا اللفظ، ورواه البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير بمعناه.

(٣) رواه أحمد في «المستد»، والبخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أنس بن مالك ﷺ، ورواه الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٧، وذكره السيوطي في «الدر» ٧٠/٦، وزاد نسبه لعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن مردويه، وأبي نعيم في «المعروف» عن أنس بن مالك ﷺ.

قوله تعالى: ﴿طَلَبْتُمْ دَابِرَةَ السُّوءِ﴾^(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: بضم السين؛ والباقون: بفتحها.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الوعد بإدخالهم الجنة وتكفير سيئاتهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ لهم؛ والمعنى: أنه حكم لهم بالفوز، فلذلك وعدهم إدخال الجنة.

قوله تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَرْفَ السُّوءِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنهم ظنوا أن الله شريكاً. والثاني: أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه. والثالث: أنهم ظنوا به حين خرج إلى الحديبية أنه سيقتل أو يهزم ولا يعود ظافراً. والرابع: أنهم ظنوا أنهم ورسول الله ﷺ بمنزلة واحدة عند الله. والخامس: ظنوا أن الله لا يبعث الموتى. وقد بينا معنى «دابة السوء» في [براءة: ٩٨]. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الفتح: ٤، الأحزاب: ٤٥] إلى قوله: ﴿لَتُؤْتِنَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «لَيُؤْمِنُوا» بالياء «وَيُعَزُّرُوهُ وَيُوقِرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ» كلهن بالياء؛ والباقون: بالتاء؛ على معنى: قل لهم: إنا أرسلناك، لتؤمنوا. وقرأ علي بن أبي طالب: وابن السميع: «وَيُعَزُّرُوهُ» بزاعين. وقد ذكرنا في [الأعراف: ١٥٧] معنى «وَيُعَزُّرُوهُ» عند قوله: ﴿وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيُوقِرُوهُ﴾ أي: يعظموه ويجلوه. واختار كثير من القراء الوقف هاهنا، لاختلاف الكناية فيه وفيما بعده.

قوله تعالى: ﴿وَتَسْبِيحُهُ﴾ هذه الهاء ترجع إلى الله ﷻ^(٢). والمراد بتسبيحه هاهنا: الصلاة له. قال المفسرون: والمراد بصلاة البكرة: الفجر، وبصلاة الأصل: باقي الصلوات الخمس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبِرَّ لِيَأْبُرَنَّكَ﴾ يعني بيعة الرضوان بالحديبية. وعلى ماذا يابعه؟ فيه قولان: أحدهما: أنهم يابعه على الموت، قاله عبادة بن الصامت. والثاني: على أن لا يفرّوا، قاله جابر بن عبد الله. ومعناها متقارب، لأنه أراد: على أن لا تفرّوا ولو مئثم. وسميت بيعة، لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة، وكان العقد مع رسول الله ﷺ، فكانهم يابعوا الله ﷻ، لأنه ضمن لهم الجنة بوفائهم. «يُدُّ اللَّهُ فَوْقَ آيَاتِهِمْ» فيه أربعة أقوال: أحدها: يد الله في الوفاء فوق أيديهم. والثاني: يد الله في الثواب فوق أيديهم. والثالث: يد الله عليهم في المنة بالهداية فوق أيديهم بالطاعة، ذكر هذه الأقوال الزجاج. والرابع: قُوَّةُ اللَّهِ ونصرته فوق قُوَّتِهِم ونصرتهم، ذكره ابن جرير، وابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿مَنْ نَكَتْ﴾ أي: نقض ما عقده من هذه البيعة ﴿فَلَنَمَّا يَنْكُتُ عَلَيَّ نَقِيضًا﴾ أي: يرجع ذلك النقص عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيَّ اللَّهُ﴾^(٣) من البيعة ﴿فَسَيُؤْتِيهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبان عن عاصم: «فسنؤتيه» بالنون. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: بالياء ﴿لَجَرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة. قال ابن السائب: فلم ينكث العهد منهم غير رجل واحد يقال له: الجذ بن قيس، وكان منافقاً^(٤).

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا لَنَا يُبْرُونَ﴾ وَالسَّيِّئَاتُ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ مَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ شَيْءًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ مَرًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَقْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ آلِهِمْ آبَاءًا وَرِيثًا ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْكُتُ السُّوءِ وَسُئِرْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَمَاذَا أَخَذْنَا مِنَ الْكٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَيَقُولُ مَالِكُ السَّمُرِيِّ وَالْأَرَبِيُّ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَمْدُبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال ابن إسحاق: لما أراد العمرة استنفر من حول المدينة من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه، خوفاً من قومه أن يعرضوا له بحرب أو بصد، فتناقل عنه كثير منهم، فهم الذين

(١) هذه الفقرة من الآية الكريمة تنتم لقوله تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَرْفَ السُّوءِ﴾ الذي سيأتي بعد قليل، وكان حق المؤلف أن يذكرها في محلها، ولعله ذكرها هنا ليتكلم عن الخلاف في قراءتها فقط، لأنه لم يرد أن يفسرها في محلها حيث قال: وقد بينا معنى «دَابِرَةُ السُّوءِ» في [براءة].

(٢) وذكر ابن جرير عن قتادة أن في بعض القراءات: «وسبّحوا الله بكرة وأصيلاً».

(٣) قال الألويسي في «روح المعاني»: قرأ الجمهور «عليه» بكسر الهاء كما هو الشائع، وضمها حفص هنا. ثم قال: وحسن الضم في الآية، للتوصل به إلى تخفيف لفظ الجلالة الملائم لتخفيف أمر العهد المشعر به الكلام. اهـ.

(٤) ونقل الزمخشري في «الكشاف» نحوه عن جابر بن عبد الله ﷺ، والذي في «صحيح مسلم» ١٤٨٣٣٣ عن جابر: فبايعناه، غير جدّ بن قيس اختياً تحت بطن بعيره. ولأبي يعلى: بايعناه كلنا إلا الجذ بن قيس، فإنه اختياً تحت بطن بعيره، فهذا ليس فيه أنه بايع ونكث، بل فيه أنه لم يبايع أصلاً.

عنى الله بقوله: ﴿سَيُؤَلِّقُ لَكَ الْمُخْلَفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾، قال أبو صالح [عن ابن عباس]: وهم غفار ومزينة وجهينة وأشجع والدليل وأسلم. قال يونس النحوي: الدليل في عبد القيس ساكن الياض. والدؤل من حنيفة ساكن الوار، والدؤل في كنانة رهط أبي الأسود الدؤلي^(١). فأما المخلفون، فإنهم تخلّفوا مخافة القتل. ﴿سَقَلْنَا أَمْرًا وَأَقْلَوْنَا﴾ أي: خفنا عليهم الضيعة ﴿فَأَسْتَفْتِرْ لَكَ﴾ أي: ادع [الله] أن يغفر لنا تخلّفنا عنك ﴿بِقَوْلُونَ وَإِلَيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ما يبالون استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «ضَرًّا» بضم الضاد؛ والباقون: بالفتح. قال أبو علي: «الضَرُّ» بالفتح: خلاف النفع، وبالضم: سوء الحال، ويجوز أن يكونا لغتين كالْفَقْرِ والفُقْر، وذلك أنهم ظنوا أن تخلّفهم يدفع عنهم الضرّ، ويعجل لهم النفع سلامة أنفسهم وأموالهم، فأخبرهم الله تعالى أنه إذا أراد بهم شيئاً، لم يقدّر أحد على دفعه [عنهم]، ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَمَلَّوْنَ خَبِيرًا﴾ من تخلّفهم وقولهم عن المسلمين أنهم سيهلكون، وذلك قوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ﴾ أي: توهمتم ﴿أَنْ كُنْ يَتَّقِيكَ الْرَسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِلَهُ أٰهْلِيهِمْ﴾ أي لا يرجعون إلى المدينة، لاستئصال العدو إياهم، ﴿وَرَوَّيْتُمْ فَأَنْزَلْنَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وذلك من ترين الشيطان.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ قد ذكرناه في [الفرقان: ١٨].
﴿سَيُؤَلِّقُ الْمُخْلَفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَيْكَ مَعَانِرَ لِتَأْخُذُوهَا ذُرُوعًا تَنِيْعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُسْؤَلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾
قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ سَيُؤَلِّقُونَ بَلْ تَحْسُدُونَ بَلْ كَاؤًا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿سَيُؤَلِّقُ الْمُخْلَفُونَ﴾ الذين تخلّفوا عن الحديدية ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَيْكَ مَعَانِرَ﴾ وذلك أنهم لما انصرفوا عن الحديدية بالصلح وعدّهم الله فتح خير، وخصّ بها من شهد الحديدية فانطلقوا إليها، فقال هؤلاء المخلفون: ﴿ذُرُوعًا تَنِيْعُكُمْ﴾، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُسْؤَلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «أَنْ» يبدلوا كَلِمَ اللَّهِ بكسر اللام. وفي المعنى قولان: أحدهما: أنه مواعيد الله بغنيمة خير لأهل الحديدية خاصة، قاله ابن عباس. والثاني: أمر الله نبيّه أن لا يسير معه منهم أحد، وذلك أن الله وعده وهو بالحديدية أن يفتح عليه خير، ونهاه أن يسير معه أحد من المتخلّفين، قاله مقاتل. وعلى القولين: قصدوا أن يجيز لهم رسول الله ﷺ ما يخالف أمر الله، فيكون تبديلاً لأمره.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ﴾ فيه قولان. أحدهما: قال: إن غنائم خيبر لَمَنْ شهد الحديدية، وهذا على القول الأول. والثاني: قال: لن تسمعونا، وهذا قول مقاتل. ﴿فَسَيُؤَلِّقُونَ بَلْ تَحْسُدُونَ﴾ أي: يمنعكم الحسد من أن نصيب معكم الغنائم.

﴿قُلْ لِلْمُخْلَفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَدْعُونَ إِلَّا قَوْمَ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ لَقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا فَإِنْ تَطَلَّمُوا يُؤَيِّدُكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَنَزَّلُوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلِ يَمْدُبْكُمْ عَنَّا يَا أَيُّهَا﴾

قوله تعالى: ﴿سَدْعُونَ إِلَّا قَوْمَ﴾ المعنى: إن كنتم تريدون الغزو والغنيمة فسدّعون إلى جهاد قوم ﴿أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. وفي هؤلاء القوم ستة أقوال: أحدها: أنهم فارس، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال عطاء بن أبي رباح، وعطاء الخراساني، وابن أبي ليلى، وابن جريج في آخرين. والثاني: فارس والروم، قاله الحسن، ورواه ابن أبي نجيب عن مجاهد. والثالث: أنهم أهل الأوثان، رواه ليث عن مجاهد. والرابع: أنهم الروم، قاله كعب. والخامس: أنهم هوازن وغطفان، وذلك يوم حنين، قاله سعيد بن جبيرة، وقتادة. والسادس: بنو حنيفة يوم البمامة، وهم أصحاب مسيلمة الكذاب، قاله الزهري، وابن السائب، ومقاتل^(٢). قال مقاتل: خلافة أبي بكر في هذه بيّنة مؤكدة. وقال رافع بن خديج: كتنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دعي أبو بكر إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم هم. وقال بعض أهل

(١) قال أبو العباس المبرّد: الدؤلي مضمومة الدال مفتوحة الواو من الثليل بضم النال وكسر الياض: وهو دابة.

(٢) قال ابن كثير: اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولي بأس شديد على أقوال، ثم قال: وعن مجاهد: هم رجال أولو بأس شديد، قال: ولم يعين فرقة، وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. اهـ.

العلم: لا يجوز أن تكون هذه الآية إلا في العرب، لقوله: ﴿تَقْبَلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا﴾، وفارس والروم إنما يقاتلون حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية. وقد استدلل جماعة من العلماء على صحة إمامة أبي بكر وعمر بهذه الآية، لأنه إن أريد بها بنو حنيفة، فأبو بكر دعا إلى قتالهم، وإن أريد بها فارس والروم، فعمرو دعا إلى قتالهم، والآية تلزمهم اتباع طاعة من يدعوهم، وتتوعددهم على التخلف بالعقاب. قال القاضي أبو يعلى: وهذا يدل على صحة إمامتهما إذا كان المتولي عن طاعتها مستحقاً للعقاب^(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ قال ابن جريج: فإن تطيعوا أبا بكر وعمر، ﴿وَلَنْ تَتَوَلَّوْا﴾ عن طاعتها ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة محمد ﷺ في المسير إلى الحديبية. وقال الزجاج: المعنى: إن تبتم وتركتم نفاقكم وجاهدتم، يؤتكم الله أجراً حسناً، وإن توليتم فاقمتم على نفاقكم، وأعرضتم عن الإيمان والجهاد كما توليتم على عهد رسول الله ﷺ يعذبكم عذاباً أليماً^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ قال المفسرون: عذر الله أهل الرمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية^(٣).

قوله تعالى: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾^(٤) قرأ نافع، وابن عامر: «فُدْخِلْهُ» وتعدبه بالنون فيهما؛ والباقون: بالياء.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً فَأَخَذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٥) وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَفَانِدَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٦) وَأُخْرَى لَرَأَى تَقْدِيرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَّامٌ لِّغُيُوبٍ قَدِيرًا ﴿وَلَوْ فَتَنَّاكَ لِلدِّينِ لَكُنَّا لَوَلَا الْأَذَى ثُمَّ لَا يُعْدُونَ وَإِنَّا لَا نَعْبُدُ إِلَّاكَ وَلَا نَحْمَدُ إِلَّاكَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَنَّا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنَّا وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(٨)

ثم ذكر الذين أخلصوا نيتهم وشهدوا بيعة الرضوان بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد ذكرنا سبب هذه البيعة آنفاً. وإنما سميت بيعة الرضوان، لقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ روى إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه، قال: بينما نحن قائلون زمن الحديبية، نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة، البيعة، نزل روح القدس، قال: فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمره، فبايعناه^(٩). وقال عبد الله بن مغفل: كان رسول الله ﷺ تحت الشجرة يبايع الناس، وإني لأرفع أعضائها عن رأسه^(١٠). وقال بكير بن الأشج: كانت الشجرة بفتح نحو مكة^(١١). قال نافع: كان الناس يأتون تلك الشجرة فيصلون عندها، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فأوعدهم فيها، وأمر بها فقطعت^(١٢).

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿تَقْبَلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكم النصر عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار.

(٢) قال ابن كثير: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا﴾ أي تستجيبوا وتتفرقوا في الجهاد وتؤثروا الذي عليكم فيه ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ أَمْرًا حَسَنًا وَكَانَ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ يَنْ قَوْلٍ﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿بِطُوبَى لَكُمْ سَدَّهَا أَيْسًا﴾.

(٣) قال ابن كثير: ذكر تعالى الأعداء في ترك الجهاد، فمنها لازم كالمسمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطراً أياً ما ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بغير الأعداء اللازمة حتى يبرأ. اهـ.

(٤) والآية بتامها: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَنَبَّيْنًا يَنْزِلُ فِيهَا مِنْ مَغْدِقَةٍ مَعْدِنَةٍ فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِيهَا طَائِفًا أَلِيمًا﴾ وذلك ترغيب في الجهاد وطاعة الله ورسوله، وأن من نكل عن الجهاد وأقبل على المعاش يعذبه عذاباً أليماً في الدنيا بالملئمة، وفي الآخرة بالنار.

(٥) رواه ابن جرير الطبري ٨٦/٢٦ وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف، وعند مسلم ١٤٨٦/٣ من حديث مولى سلمة بن الأكوع قال: قلت لسلمة: على أي شيء يبايعهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت. والسر: وزان وزجل وسبع: شجر الطلع، وهو نوع من المعشاء، الواحدة: سمره.

(٦) رواه الطبري ٩٣/٢٦، ٩٤ وإسناده حسن، وهو في مسلم ١٤٨٥/٣ بمعناه من حديث مغفل بن يسار.

(٧) رواه الطبري: ٨٦/٢٦ عن بكير بن الأشج أنه بلغه أن الناس بايعوا رسول الله ﷺ على الموت، فقال رسول الله ﷺ: «على ما استطعتم» والشجرة التي يبيع تحتها بفتح نحو مكة.

(٨) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣٤٥/٧ رواه ابن سعد بإسناد صحيح.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصدق والوفاء، والمعنى: عَلِمَ أَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ ﴿فَأَنزَلْنَا السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني الطمأنينة والرُضَى حتى بايعوا على أن يقاتلوا ولا يفرُّوا ﴿وَأَنبَأَهُمْ﴾ أي: عَوَّضَهُمْ عَلَى الرُّضَى بِقَضَائِهِ وَالصَّبْرَ عَلَى أَمْرِهِ ﴿فَتَمَّا قَرِيبًا﴾ وهو خيبر، ﴿وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ أي: من خيبر، لأنها كانت ذات عقار وأموال. فأما قوله بعد هذا: ﴿وَعَدَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ فقال المفسرون: هي الفُتُوح التي تُفْتَح على المسلمين إلى يوم القيامة. ﴿فَمَجَّلَ لَكُمْ هَوَاهُ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها غنيمة خيبر، قاله مجاهد، وقادة، والجمهور. والثاني: أنه الصُّلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش، رواه العوفي عن ابن عباس^(١).

قوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ الَّذِينَ أَنَابَ عِنْدَكُمْ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود همُّوا أن يقاتلوا عيال المسلمين الذين خلفوهم في المدينة، فكفَّهم الله عن ذلك، قاله قتادة. والثاني: أنهم أسد وغطفان جاؤوا لينصروا أهل خيبر، فقذَّبَ الله في قلوبهم الرُّعب، فانصرفوا عنهم، قاله مقاتل. وقال الفراء: كانت أسد وغطفان [مع أهل خيبر، فقصدهم رسول الله ﷺ فصالحوه وخلُّوا بينه وبين خيبر. وقال غيرهما: بل هَمَّتْ أسد وغطفان] باغتيال [أهل] المدينة، فكفَّهم الله عن ذلك. والثالث: أنهم أهل مكة كفَّهم الله بالصُّلح، حكاها الثعلبي وغيره. ففي قوله: «عنكم» قولان: أحدهما: أنه على أصله، قاله الأكثرون. والثاني: عن عيالكم، قاله ابن قتيبة، وهو مقتضى قول قتادة. ﴿وَلَتَكُونَنَّ مَأْيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في المشار إليها قولان: أحدهما: أنها الفُعلة التي فَعَلَهَا بكم من كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ كانت آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُتَوَلِّي حِرَاسَتِهِمْ فِي مَشْهَدِهِمْ وَمَعْيِهِمْ. والثاني: أنها خيبر كان فتحها علامةً لِلْمُؤْمِنِينَ في تصديق رسول الله ﷺ فيما وعدهم به.

قوله تعالى: ﴿وَيَهَيِّئْكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ فيه قولان: أحدهما: طريق التوكل عليه والتفويض إليه، وهذا على القول الأول. والثاني: يَزِيدُكُمْ هُدًى بِالتَّصَدِيقِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فيما جاء به من وعد الله تعالى بالفتح والغنيمة.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى﴾ المعنى: وعدكم الله مغانم أخرى؛ وفيها أربعة أقوال: أحدها: أنها ما نُفِخَ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ. روى سماك الحنفي عن ابن عباس ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدَرُوا عَلَيْهَا﴾ قال: ما فتح لكم من هذه الفتوح، وبه قال مجاهد. والثاني: أنها خيبر، رواه عطية، والضحاك عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد. والثالث: فارس والروم، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الحسن، وعبد الرحمن بن أبي ليلى. والرابع: مكة، ذكره قتادة، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ آيَةٌ بِهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أحاط بها علماً أنها ستكون من فُتُوحِكُمْ. والثاني: حَفِظَهَا لَكُمْ وَمَعْتَهَا مِنْ غَيْرِكُمْ حَتَّى تَفْتَحُوهَا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَلَّكُمْ آلِيَنَ كَرَّوَالِ﴾ هذا خطاب لأهل الحديبية، قاله قتادة؛ والذين كفروا مشركو قريش. فعلى هذا يكون المعنى: لو قاتلوكم يومَ الحديبية ﴿لَوَلَوْ أَلَدَبْتُمْ﴾ لما في قلوبهم من الرُّعب ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ وَيَلِيَا﴾ لأن الله قد خذلهم. قال الزجاج: المعنى: لو قاتلك من لم يقاتلك لُنصرت عليه، لأن سُنَّةَ اللَّهِ تُنصِرُ لِأَوْلِيَائِهِ. ﴿وَسُنَّةَ اللَّهِ﴾ منصوبة على المصدر، لأن قوله: ﴿لَوَلَوْ أَلَدَبْتُمْ﴾ معناه: سَنَّ اللَّهُ ﷻ جِدْلَانَهُمْ سُنَّةً. وقد مرَّ ومثُلُ هذا في قوله: ﴿يَكْتَلِبُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله: ﴿سُنَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٨].

قوله تعالى: ﴿وَمَوْ أَلِيَّ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ روى أنس بن مالك أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غزوة^(٢) النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلباً^(٣)، فاستجابه، وأنزل الله

(١) قال ابن جرير: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد، وهو أن الذي أنابهم الله من سيرهم ذلك مع الفتح القريب: المغانم الكثيرة من مغانم خيبر، وذلك أن المسلمين لم يفتنوا بعد الحديبية غنيمة، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها. اهـ.

(٢) الرِّبَّةُ: هي الغزوة، أي: يريدون أن يصادفوا منه ومن أصحابه غزلة عن التأهب لهم ليتمكنوا من غدرهم والفتك بهم.

(٣) قال الامام النووي في «شرح مسلم» ١٨٧/١٢: «سلباً» ضبطه بوجهين: أحدهما: سَلَمًا، والثاني: سَلَمًا، قال الحميدي: ومعناه: الصلح. قال القاضي في «المشارق»: هكذا ضبطه الأكثرون، قال فيه وفي الشرح: والرواية الأولى أظهر. والمعنى: أسرهم. والسلم: الأسر. وجزم الخطابي بفتح اللام والسين، قال: والمراد به: الاستسلام والإذعان، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْفَا لِيَكُنَّ لَكُمْ آيَةً﴾ أي: الانتقاد، وهو مصدر يقع على الواحد والاثنتين.

هذه الآية^(١). وروى عبد الله بن مغفل قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة، فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً، فناروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد؟» أو «هل جعل لكم أحد أماناً؟» قالوا: اللهم لا، فخلّى سبيلهم، ونزلت هذه الآية^(٢). وذكر قتادة أن رسول الله ﷺ بعث خَيْلاً، فأتوه بائني عشر فارساً من الكفار، فأرسلهم^(٣)، وقال مقاتل: خرجوا يقاتلون رسول الله ﷺ، فهزمهم النبي ﷺ بالطعن والنبل حتى أدخلهم بيوت مكة. قال المفسرون: ومعنى الآية: إن الله تعالى ذكر منته إذ حجز بين الفريقين فلم يقتلوا حتى تم الصلح بينهم. وفي بطن مكة ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحديبية، قاله أنس. والثاني: وادي مكة، قاله السدي. والثالث: التعيم، حكاه أبو سليمان الدمشقي. فأما «مكة» فقال الزجاج: «مكة» لا تصرف لأنها مؤنثة، وهي معرفة، ويصلح أن يكون اشتقاقها كاشتقاق «بكة»، والميم يُبدل من الباء، يُقال: ضربة لازم، ولازب، ويصلح أن يكون اشتقاقها من قولهم: امتك الفصيل ما في ضرع الناقة: إذا مصّ مصاً شديداً حتى لا يقي فيه شيئاً، فيكون سميّت بذلك لشيءة الازدحام فيها؛ قال: والقول الأول أحسن. وقال قطرب: مكة من تَمَكَّكْتُ المَحَّ: إذا أكلته. وقال ابن فارس: تَمَكَّكْتُ العظم: إذا أخرجت مَحَّهُ؛ والتَمَكَّكْتُ: الاستقصاء؛ وفي الحديث: «لا تَمَكَّكُوا على غرماكم»^(٤). وفي تسمية «مكة» أربعة أقوال: أحدها: لأنها مثابة يؤمها الخلق من كل فج، وكأنها هي التي تجذبهم إليها، وذلك من قول العرب: امتك الفصيل ما في ضرع الناقة. والثاني: أنها سميّت (مكة) من قولك: بككْتُ الرجل: إذا وضعت منه ورذذت نخوته^(٥)، فكانها تمكُّ من ظلم فيها، أي: تُهلكه وتقصه، وأنشدوا:

يا مَكَّةُ، الفاجر مُكِّي مَكًّا ولا تُمَكِّي مَذْجِجاً وعَكًّا^(٦)

والثالث: [أنها] سميّت بذلك لجهد أهلها. والرابع: لِقَلَّةِ الماءِ بها. وهل مكة وبكة واحد؟ قد ذكناه في [آل عمران: ٩٦].

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَرْغَمَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بهم؛ يقال: ظَفَرْتُ بفلان، وظَفَرْتُ عليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ بَصِيرًا﴾ قرأ أبو عمرو: [يعملون] بالياء؛ والباقون: بالياء.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَكُونًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَرَأَيْتُم مَن تَقُولُونَ فَنُصِيبُكُمْ مِنَّمْ عَمَّرُوا بِعَدُوِّ اللَّهِ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَنَذَرْنَا الْذِيكُ كَمَا كَفَرُوا وَمَنْهُمْ عَدَاوَةٌ أَيْسًا ﴿١٥﴾ إِذْ جَعَلَ الذِّكْرُ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ لَمَيِّتَةً حَيَّةً لِلنَّبِيِّ لَمَّا نَزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَنَةَ كَلِمَةً الْقُرْآنِ وَكَانُوا لَمَعًا يَبَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أهل مكة ﴿وَصَدُّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن تطوفوا به وتحلوا من غيركم ﴿وَالْمَدَى﴾ قال الزجاج: أي: وصدوا الهدي ﴿مَكُونًا﴾ أي: محبوساً ﴿أَنْ يَبْلُغَ﴾ أي: عن أن يبلغ ﴿حِمْلَهُمْ﴾ قال المفسرون: «حمله» منخره، وهو حيث يحلُّ نخره ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ﴾ وهم المستضعفون بمكة ﴿لَرَأَيْتُمْ مَن تَقُولُونَ﴾ أي: لم تعرفوهم ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ بالقتل. ومعنى الآية: لولا أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات بالقتل، وتوقعوا بهم ولا تعرفونهم، ﴿فَنُصِيبُكُمْ مِنَّمْ عَمَّرُوا﴾ وفيها أربعة أقوال: أحدها: إنم، قاله ابن زيد. والثاني: عُرْم

= والجمع، قال ابن الأثير: هذا هو الأشبه بالقصة، فإنهم لم يؤخذوا صلحاً، وإنما أخذوا قهراً، وأسلموا أنفسهم عجزاً، قال: وللقول الآخر وجه، وهو أنه لما لم يجر معهم قتال، بل عجزوا عن دفعهم والنجاة منهم، فرضوا بالأسر، فكانهم قد صلحوا على ذلك. اهـ.

(١) رواه مسلم ١٤٤٢/٣، والطبري ٩٤/٢٦، وذكره السيوطي في «الدرر» ٧٥/٦، وزاد نسبة لأحمد، وعبد بن حميد، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) رواه الطبري ٩٤/٢٦ وإسناده حسن، والحاكم ٤٦٠/٢، وصححه، والواحدي في «أسباب النزول» ٢١٨، وذكره السيوطي في «الدرر» ٧٨/٦ وزاد نسبة لأحمد، والنسائي، وأبي نعيم في «الدلائل»، وابن مردويه، عن عبد الله بن مغفل ﷺ.

(٣) «الطبري» ٩٤/٢٦ وهو مرسل، وذكره السيوطي في «الدرر» ٧٥/٦ وزاد نسبة لعبد بن حميد عن قتادة.

(٤) هذا الحديث ذكره ابن الأثير في «النهاية» في غريب الحديث، ولم نره في كتب الحديث.

(٥) كانت العبارة في الأصل هكذا (تَمَكَّكْتُ الرجل: إذا أردت نخوته) وقد صوبناها كما ترى نقلاً عن المصنف كما مر سابقاً عن الزبيدي وقطرب، ومن كتب اللغة.

(٦) الرجز غير منسوب في «اللسان» و«التاج»: مكك.

الذبيّة، قاله ابن إسحاق. والثالث: كفارة قتل الخطأ، قاله ابن السائب. والرابع: عيب يقتل من هو على دينكم، حكاة جماعة من المفسرين. وفي الآية محذوف، تقديره: لأدخلكم من عامكم هذا؛ وإنما حُلت بينكم وبينهم ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: في دينه ﴿مَنْ يَسْأَلْكُمْ﴾ من أهل مكة، وهم الذين أسلموا بعد الصلح ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ قال ابن عباس: لو تفرّقوا. وقال ابن قتيبة، والزجاج: لو تميّزوا. قال المفسرون: لو انماز المؤمنون من المشركين ﴿لَمَدَّبْنَا إِلَيْكُم كَفَرًا﴾ بالقتل والسبي بأيديكم. وقال قوم: لو تزئل المؤمنون من أصلاب الكفار لعذبنا الكفار. وقال بعضهم: قوله: ﴿لَمَدَّبْنَا﴾ جواب لكلامين: أحدهما: «لولا رجال»، والثاني: «لو تزئلوا»، وقوله: ﴿إِذْ جَعَلْنَا﴾ من صلة قوله: ﴿لَمَدَّبْنَا﴾. والحمية: الأتفة والجبرية. قال المفسرون: وإنما أخذتهم الحمية حين أراد رسول الله ﷺ دخول مكة، فقالوا: يدخلون علينا [وقد قتلوا] أبناءنا وإخواننا فتحدثت العرب بذلك! والله لا يكون ذلك، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يدخلهم ما دخل أولئك فيخالفوا الله في قتالهم. وقيل: الحمية ما تداخل سهيل بن عمرو من الأتفة أن يكتب في كتاب الصلح ذكر «الرحمن الرحيم» وذكر «رسول الله» ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمْتُمُ كَلِمَةَ الْفَقْرِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: «لا إله إلا الله»، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن زيد في آخرين، وقد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ^(١)؛ فعلى هذا يكون معنى: «الزهم»: حَكَمَ لهم بها، وهي التي تنفي الشرك. والثاني: «لا إله إلا الله والله أكبر»، قاله ابن عمر. وعن علي بن أبي طالب كالتولين. والثالث: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»، قاله عطاء بن أبي رباح. والرابع: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، قاله عطاء الخراساني. والخامس: «بسم الله الرحمن الرحيم» قاله الزهري. فعلى هذا يكون المعنى أنه لما أبى المشركون أن يكتبوا هذا في كتاب الصلح، ألزمه الله المؤمنين ﴿وَكَاذِبًا أَحَقَّ بِهَا﴾ من المشركين ﴿و﴾ كانوا «أهلها» في علم الله تعالى.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَبِيتٍ يُحْيِيانَ رُؤُوسَكُمْ وَمَقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ قَوْمًا لَمْ تَكُنْ لَكُمْ فَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَمَا قَرِيبًا ﴿١٧﴾﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَبِالْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ قال المفسرون: سبب نزلها أن رسول الله ﷺ كان أرى في المنام قبل خروجه إلى الحديبية قائلاً يقول له: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ ورأى كأنه هو وأصحابه يدخلون مكة وقد حلقوا وقصروا، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، فلما خرجوا إلى الحديبية حسيبوا أنهم يدخلون مكة في عامهم ذلك، فلما رجعوا ولم يدخلوا قال المنافقون: أين رؤياه التي رأيت؟ فنزلت هذه الآية^(٢)، فدخلوا في العام المقبل. وفي قوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ستة أقوال: أحدها: أن «إن» بمعنى «إذ»، قاله أبو عبيدة، وابن

(١) روى الترمذي في «سننه» ١٥٩ قال: حدثنا الحسن بن قزعة البصري، حدثنا سفيان بن حبيب عن شعبة عن ثوير بن أبي فاختة عن أبيه عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه عن النبي ﷺ: ﴿وَأَلْزَمْتُمُ كَلِمَةَ الْفَقْرِ﴾ قال: «لا إله إلا الله» قال الترمذي: هنا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة، قال: وسألت أبا زرعة عن هنا الحديث فلم يعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. اهـ. وثوير بن أبي فاختة ضعيف، ورواه الطبري ٢٦/ ١٠٤ بنفس السند، وذكره السيوطي في «الدر» ٨٠/٦ وزاد نسبه لعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، والدارقطني في «الأفراد»، وابن مردويه، والبيهقي في «الاسماء والصفات»، عن أبي بن كعب مرفوعاً، وذكر السيوطي أيضاً من رواية ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً، ومن رواية ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع مرفوعاً.

(٢) روى سبب النزول هنا البيهقي والخازن حكلاً بغير سند. ورواه الطبري ١٠٧/٢٦ من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية، قال: قال لهم النبي ﷺ: «إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلّقين رؤوسكم ومقصّرين»، فلما نزل بالحديبية، ولم يدخل ذلك العام، طعن المنافقون في ذلك فقالوا: أين رؤياه؟ فقال الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿وَشَهِيدًا لَا تَخَافُونَ﴾ إني لم أره يدخلها هذا العام، وليكن ذلك.

وروى الطبري أيضاً من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد في قوله: ﴿الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ قال: أرى بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلّقين، فقال أصحابه حين نحر بالحديبية: أين رؤيا محمد ﷺ. وذكره السيوطي في «الدر» ٨٠/٦ وزاد نسبه للفرجاني، وعبد بن حيد، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل» عن مجاهد.

تقية. والثاني: أنه استثناء من الله، وقد علمه، والخَلْقُ يستنون فيما لا يَعْلَمُونَ، قاله ثعلب؛ فعلى هذا يكون المعنى أنه علم أنهم سيدخلونه، ولكن استثنى على ما أمر الخَلْقُ به من الاستثناء. والثالث: أن المعنى: لتدخلن المسجد الحرام إن أمركم الله به، قاله الزجاج. والرابع: أن الاستثناء يعود إلى دخول بعضهم أو جميعهم، لأنه علم أن بعضهم يموت، حكاية الماوردي. والخامس: أنه على وجه الحكاية لما رآه النبي ﷺ في المنام أن قائلاً يقول: ﴿لَتَدْخُلَنَّ السَّجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَابِرِينَ﴾، حكاية القاضي أبو يعلى. والسادس: أنه يعود إلى الأمن والخوف، فأما الدُخُولُ، فلا شك فيه، حكاية الثعلبي^(١).

قوله تعالى: ﴿عَابِرِينَ﴾ من العَدْوِ. ﴿مُخْلِطِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ من الشَّعْرِ^(٢) ﴿لَا تَخَافُوكُمْ﴾ عدواً. ﴿تَلِيمَ مَا كُمْ تَمَلَّكُوا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: علم أن الصَّلَاحَ في الصُّلْحِ. والثاني: أن في تأخير الدُخُولِ صلاحاً. والثالث: فعلم أن يفتح عليكم خير قبل ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَجَمَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَمَّ قَرِيبًا﴾ فيه قولان: أحدهما: فتح خير، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وابن زيد، ومقاتل. والثاني: صلح الحديدية، قاله مجاهد، والزهري، وابن إسحاق. وقد بينا كيف كان فتحاً في أول السورة. وما بعد هذا مفسر في إبرة: [٣٣] إلى قوله^(٣): ﴿وَكُنَّ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه شهد له على نفسه أنه يُظهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، قاله الحسن. والثاني: كفى به شهيداً أن محمداً رسوله، قاله مقاتل.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رِجَالًا بَيْنَهُمْ يَنِيَّةٌ رَبُّهُمْ رَكَمًا سَجِدًا يَتَعَفَّوْنَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الْجُوْدِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيمٌ أَفْجَعُ سَطْفَهُ فَفَارَزَهُ فَاَسْتَقَلَّ قَامَتَوَيْ عَلَى سَوْفِهِ يَجْعَبُ الزَّرْجَ لِيَعْبُدَ يَوْمَ الْكُفَّارِ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَصَلُوا الْمَلَائِكَةَ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وقرأ الشعبي، وأبو رجاء، وأبو المتوكل، والجحدري: «محمداً رسول الله» بالنصب فيها. قال ابن عباس: شهد له بالرسالة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يعني أصحابه، والأشداء: جمع شديد. قال الزجاج: والأصل: أشيداء، نحو نصيب وأنصاء، ولكن الدالين تحركتا، فأدغمت الأولى في الثانية، [ومثله] «مَنْ يَتَدَّ يَنْكُم» [المائدة: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿رِجَالًا بَيْنَهُمْ﴾ الرُّحَمَاءُ جمع رحيم، والمعنى أنهم يُغْلِظُونَ عَلَى الْكُفَّارِ، وَيَتَوَادُّونَ بَيْنَهُمْ^(٥) ﴿رَبُّهُمْ رَكَمًا سَجِدًا﴾ يَصِفُ كَثْرَةَ صَلَاتِهِمْ ﴿يَتَعَفَّوْنَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ﴾ وهو الجنة ﴿وَرِضْوَانًا﴾ وهو رضا الله عنهم. وهذا الوصف لجميع الصحابة عند الجمهور^(٥) وروى مبارك بن فضالة عن الحسن البصري أنه قال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أبو بكر ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ عمر ﴿رِجَالًا بَيْنَهُمْ﴾ عثمان ﴿رَبُّهُمْ رَكَمًا سَجِدًا﴾ علي بن أبي طالب ﴿يَتَعَفَّوْنَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ طلحة والزبير

(١) قال ابن كثير: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء.

(٢) قال ابن كثير: وقوله: ﴿مُخْلِطِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا ملحقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه، ومنهم من قصره. اهـ. وقد روى مسلم في «صحيحه» ٩٤٦/٢ عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر للمحلقين قالوا: يا رسول الله! والمقصرين، قال: «اللهم اغفر للمحلقين» قالوا: يا رسول الله! والمقصرين، قال: «اللهم اغفر للمحلقين» قالوا: يا رسول الله! والمقصرين، قال: «والمقصرين».

(٣) قال ابن كثير: ﴿تَلِيمَ مَا كُمْ تَمَلَّكُوا﴾ أي: فعلم الله ﷻ من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿فَجَمَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي: قبل دخولكم الذي رُدتم به في روبا النبي ﷺ ﴿فَتَمَّ قَرِيبًا﴾ وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: وهذه صفة المؤمنين، أن يكون أحدهم شديداً عفيفاً على الكفار رحيماً برباً بالأخيار، غضوباً عوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا لِلَّذِينَ يَبُذُّونَ إِلَيْكُمْ بِاللِّسَانِ لَيْسَ بِكُمْ عِظْمٌ﴾ وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في تواديبهم وتراحمهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداءى له سائر الجسد بالحسنى والنهارة» وقال ﷺ: «والؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك ﷺ بين أصابعه، قال: وكلا الحديثين في الصحيح.

(٥) قال ابن كثير: وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبُّهُمْ رَكَمًا سَجِدًا يَتَعَفَّوْنَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها ﷻ، والاحصاء عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة المشتملة على فضل الله ﷻ، وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول، كما قال جل وعلا: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. اهـ.

وعبد الرحمن وسعد وسعيد وأبو عبيدة^(١).

قوله تعالى: ﴿سَيَاہُمْ﴾ أي: علامتهم ﴿في جُوههم﴾، وهل هذه العلامة في الدنيا، أم في الآخرة؟ فيه قولان: أحدهما: في الدنيا. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها السَّمْتُ الحسن، قاله ابن عباس في رواية ابن أبي طلحة؛ وقال في رواية مجاهد: أما إنه ليس بالذي ترون، ولكنه سيما الإسلام وَسَمْتُهُ وَخُشُوعُهُ، وكذلك قال مجاهد: ليس بِنَدَبِ التراب في الوجه، ولكنه الخُشُوع والوقار والتواضع. والثاني: أنه نَدَى الطَّهْر وتري الأرض، قاله سعيد بن جبیر. وقال أبو العالية: لأنهم يسجدون على التراب لا على الأثواب. وقال الأوزاعي: بلغني أنه ما حَمَلَتْ جباههم من الأرض. والثالث: أنه السُّهُوم^(٢)، فإذا سهم وجه الرجل من الليل أصبح مُصْفَراً. قال الحسن البصري: ﴿سَيَاہُمْ في جُوههم﴾: الصُّفرة؛ وقال سعيد بن جبیر: أثر السهر؛ وقال شمر بن عطية: وهو تَهْيِج في الوجه من سهر الليل. والقول الثاني: أنها في الآخرة^(٣). ثم فيه قولان: أحدهما: أن مواضع السجود من وجوههم يكون أشدَّ وجوههم بياضاً يوم القيامة، قاله عطية العوفي، وإلى نحو هذا ذهب الحسن، والزهري. وروى العوفي عن ابن عباس قال: صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة. والثاني: أنهم يُعْثُونَ غَراً مُحَجَّلِينَ من أثر الطَّهْر^(٤)، ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ﴾ أي: صِفَتُهُمْ؛ والمعنى أن صفة محمد ﷺ وأصحابه ﴿في الْكُرْبِيِّ﴾ هذا. فأما قوله: ﴿وَتَلَّحَّرَ فِي الْإِنجِيلِ﴾ ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن هذا المَثَل المذكور أنه في التوراة هو مَثَلُهُمْ في الإنجيل. قال مجاهد: مَثَلُهُمْ في التوراة والإنجيل واحد. والثاني: أن المتقدم مَثَلُهُمْ في التوراة فأما مَثَلُهُمْ في الإنجيل فهو قوله: ﴿كِرْكِرَ﴾، وهذا قول الضحاک، وابن زيد^(٥). والثالث: أن مَثَلُهُمْ في التوراة والإنجيل كِرْكِرَ، ذكره هذه الأقوال أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ سَطَطَهُ﴾ وقرأ ابن كثير، وابن عامر: [سَطَطَاهُ] بفتح الطاء والهمزة. وقرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: [سَطَّاهُ] بسكون الطاء. وكلهم يقرأ بهمزة مفتوحة. وقرأ أبي بن كعب، وأبو العالية، وابن أبي عبله: [سَطَّاهُ] بفتح الطاء [وبالمد] والهمزة وبالف. قال أبو عبيدة: أي: فراخه يقال: أسطا الزُّرْعُ فهو مُسْطِيٌّ؛ إذا أفرخ ﴿تَنْزِيرَهُ﴾ أي: ساواه، وصار مثل الأم. وقرأ ابن عامر: «فَأَزَّرَهُ» مقصورة الهمزة مثل فَعَلَهُ. وقال ابن قتيبة: أزَّره: أعانه وقواه ﴿فَأَسْتَقْلَطَ﴾ أي: غَلَطَ ﴿فَأَسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ وهي جمع «ساق»، وهذا مَثَلٌ ضربه الله ﷺ للنبِيِّ ﷺ إذ خرج وحده، فأيدّه بأصحابه، كما قوى الطّاقة من الزُّرْع بما نبت منها حتى كَثُرَتْ^(٦) وَغَلَطَتْ واستحكمت. وقرأ ابن كثير: «على سُوقِهِ» مهموزة؛ والباقون: بلا همزة. وقال قتادة: في الإنجيل: سَيَخْرُجُ قَوْمٌ يَبْنُونَ نَبَاتَ الزُّرْعِ^(٧). وفيمن أريد بهذا المَثَل قولان: أحدهما: أن أصل الزُّرْع: عبد المطلب ﴿أَخْرَجَ سَطَطَهُ﴾: أخرج محمداً ﷺ ﴿تَنْزِيرَهُ﴾: بأبي بكر ﴿فَأَسْتَقْلَطَ﴾: بعمر ﴿فَأَسْتَوَى﴾: بعثمان ﴿عَلَى سُوقِهِ﴾: علي بن طالب، رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس^(٨). والثاني: أن المراد بالزُّرْع:

(١) اللغة لا تحتمل هنا التأويل، وليس مع الحسن نقل ثبت عن رسول الله ﷺ. ومبارك بن فضالة الراوي عن الحسن موصوف بالتدليس.

(٢) قال في «اللسان»: الشَّاهم والشَّاهم: الضَّمْر وتغير اللون ودُبُول الشَّقَاتَيْن. سَهَمٌ، بالفتح، يَسْهَمُ شُهَاماً وشُهوماً، وسَهْمٌ أيضاً، بالضم، يَسْهَمُ سُهُوماً فيهما، وسُهْمٌ يَسْهَمُ، فهو سُهُومٌ؛ إذا ضَمُرَ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك الصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبرنا أن سيما هؤلاء القوم الذي وصف صفتهم في وجوههم من أثر السجود، قال: ولم يخص ذلك على وقت دون وقت، قال: وإذ كان ذلك كذلك، فذلك على كل الأوقات، فكان سيماهم الذي كانوا يعرفون به في الدنيا أثر الإسلام، وذلك خشوعه وهدية وزهدته وسَمْتُهُ وآثار أداء فرائضه وتطوعه، وفي الآخرة ما أخبر أنهم يعرفون به، وذلك العُزَّة في الوجه، والتحجيل في الأيدي والأرجل من أثر الوضوء وبياض الوجوه من أثر السجود. اهـ.

(٤) روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أمي يأتون يوم القيامة غُراً مُحَجَّلِينَ من أثر الوضوء» واللفظ لمسلم.

(٥) وهو الذي اختار ابن جرير الطبري وابن كثير وغيرهما. (٦) كذا الأصل، وفي «غريب القرآن»: حتى كَثُرَتْ.

(٧) قال ابن كثير: أي: فكل ذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزره وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطه مع الزرع.

(٨) هذا تأويل بعيد، وليس تفسيراً لظاهر لفظ القرآن، وقد ذكر مثل هذا المعنى السيوطي في «الدر» ٨٣/٦ من رواية ابن مردويه، والمخطيب، وابن عساکر عن ابن عباس، والله أعلم بصحته، وكذلك الخبر الذي بعد هذا من رواية الضحاک عن ابن عباس، ومبارك عن الحسن، والأولى في ذلك أن يكون هذا مثلاً لأصحاب رسول الله ﷺ في الإنجيل على العموم، ولا شك أن هؤلاء أفضل من غيرهم، فهم داخلون بطريق الأولى.

محمد^(١) ﷺ ﴿أَفْرَحَ سَلَفُهُ﴾: أبو بكر ﴿فَنَازِدُهُ﴾: بعمر ﴿فَأَسْتَقْلَطُ﴾: بعثمان ﴿فَأَسْتَوِي عَلَى سُورِهِ﴾: بعلي. ﴿يُصِجُّهُ الرَّجَاعُ﴾: يعني المؤمنين ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ وهو قول عمر لأهل مكة: لا يُعْبَدُ اللهُ سِوَاً بعد اليوم، رواه الضحاك عن ابن عباس، ومبارك عن الحسن.

قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ أي: إنَّما كَثُرَهم وقَوَّاهم لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ. وقال مالك بن أنس: من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية. وقال ابن إدريس: لا آمَنُ أن يكونوا قد ضارَعوا الكُفَّارَ، يعني الرافضة، لأن الله تعالى يقول: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ تَقْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال الزجاج: في «من» قولان: أحدهما: أن يكون تخليصاً للجنس من غيره، كقوله: ﴿فَأَجْعَلِيبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْاَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، ومثله أن تقول: أُنْفِقْ مِنَ الدَّرَاهِمِ، أي: اجعل نفقتك من هذا الجنس. قال ابن الأنباري: معنى الآية: وَعَدَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ هَذَا الجنس، أي: من جنس الصحابة. والثاني: أن يكون [هذا] الرغْدُ لِمَنْ أَقَامَ مِنْهُمُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ^(٣).



(١) في الأصل: (محمدًا).

(٢) ولا يجوز لمسلم أن يظن في الصحابة رضوان الله عليهم، أو يتعرض لهم بسوء، أو يضر في قلبه بفضأ لأحد منهم، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: ﴿لا تسيبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدكم، ولا نصيفه﴾ وروى مسلم عن أبي بردة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: ﴿أصحابي أمة أمتي، فإذا ذهب أصحابي أتاهم ما يورعون، أي من الفتن.

(٣) قال ابن كثير في تلمة الآية: ﴿تَقْفِرَةً﴾ أي للذنوب ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ثواباً جزيلاً، وورقاً كريماً، قال: ووعده الله حقاً وصدق، لا يخلف ولا يبذل، وكل من اقتفى أثر الصحابة ﷺ، فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة ﷺ وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل. اهـ.

سورة الحجرات

وهي مدنيّة بإجماعهم

روى ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله أعطاني السبع الطول^(١) مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربّي بالمفضل^(٢)». أما السبع الطول فقد ذكرناها [«عند قوله»]^(٣)؛ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ التَّنْزِيلِ﴾ [الحجر: ٨٧]. وأما المئون، فقال ابن قتبية: هي ما ولي الطول، وإنما سميت بالمئين، لأن كل سورة تزيد على مائة آية أو تقاربها، والمثاني: ما ولي المئين من السور التي دون المائة، كأن المئين مباد، وهذه مئان، وأما المفضل، فهو ما يلي المثاني من قصر السور، وإنما سميت مفضلاً لِقصرها وكثرة الفصول فيها بسطر: بسم الله الرحمن الرحيم. وقد ذكر الماوردي في أول «تفسيره» في المفضل ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من أول سورة (محمد) إلى آخر القرآن، قاله الأكثرون. والثاني: من سورة (قاف) إلى آخره، حكاه عيسى بن عمر عن كثير من الصحابة. والثالث: من (الضحى) إلى آخره، قاله ابن عباس^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ أُنزِلَتْ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا فِي يَدَيْ اللَّهِ رِيسُولَهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَسْوَأَكُمْ تَرَفًا

- (١) السبع الطول، بضم الطاء وفتح الواو، جمع «الطولى» مثل «الكبرى» و«الكبرى». قال ابن جرير الطبري: والسبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس؛ في قول سعيد بن جبير، قال: وإنما سميت هذه السور: السبع الطول، لطولها على سائر سور القرآن. اهـ. وقال ابن كثير: قال سعيد ابن جبير: بين فهن الفرائض والحلود والقصص والأحكام، وقال ابن عباس بين الأشكال والخبر والبيبر. اهـ.
- (٢) أخرجه البيهقي في «التفسير» بإسناد الثعلبي عن ثوبان رضي الله عنه، وفيه ضعف، ورواه أحمد في «المستدرك» ١٠٧/٤، و«الطبري» ١٠٠/١ عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه من طريق أبي داود الطيالسي عن أبي العوام عن قتادة عن أبي المليح عن وائلة، وإسناده صحيح. وذكره الهيثمي في «معجم الزوائد» ٧/ ١٥٨ من حديث وائلة، وقال: رواه أحمد، والطبراني بنحوه.
- (٣) زيادة ليست في الأصل.

- (٤) قال ابن كثير في أول سورة (ق) هذه السورة هي أول الحزب المفضل، وقيل: من (الحجرات)، قال: وأما ما يقول العوام: إنه من (عم) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء رضي الله عنهم المعتبرين فيما نعلم، قال: والدليل على أن هذه السورة (يعني سورة (ق)) هي أول المفضل، ما رواه أبو داود في «سننه»: «باب تحزيب القرآن» ثم قال: حدثنا مسدد، أخبرنا قرآن (الأصل: قراب وهو خطأ) ابن تمام - ح - وحدنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، ثنا سليمان بن حبان، وهذا لفظه عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى، عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن جده، قال عبد الله بن سعيد: حدثني أوس بن حذيفة، ثم اتفقا، قال: قدما على رسول الله ﷺ في وفد ثيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبّة له، قال مسدد: وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا، قال أبو سعيد: قائماً على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام، فأكثر ما يحدثنا رضي الله عنه ما لقي من قومه قریش، ثم يقول رضي الله عنه: «لا سواء (في ابن كثير): «لا آساء» وفي «تهذيب السنن» «لا أنسى» وكلاهما خطأ) وكنا مستضعفين مستذلين، قال مسدد: بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجلاً بيننا وبينهم، نُدال عليهم، ويُدالون علينا، فلما كانت ليلة أبطاً عنا رضي الله عنه عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة، قال رضي الله عنه: إنه طرأ عليّ حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى آتمه، قال أوس (يعني ابن حذيفة) سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يحرّزون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفضل وحده. قال ابن كثير: رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي خالد الأحمر به. قال: ورواه الامام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي عن عبد الله بن عبد الرحمن - هو ابن يعلى الطائفي - به، ثم قال ابن كثير: إذا علم هذا، فإنا عدت ثمانياً وأربعين سورة، فالثي بعدن سورة (ق) بيانه: «ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء، و«خمس»: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، و«سبع»: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والمحل. و«تسع»: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والتور، والفرقان. و«إحدى عشرة»: الشعراء، والنمل، والقصص، والمنكوت، والبروم، ولقمان، وآم السجدة، والأحزاب، وسبا، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وهن، والزمر، وخافق، وحج السجدة، وحج عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفضل، كما قاله الصحابة رضي الله عنهم، قال: فتمين أن أوله سورة (ق) وهو الذي قلنا، والله الحمد والمنة. اهـ.

صَوَّبَ النَّبِيُّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُضْمِنُونَ صَوَابَهُمْ هَيْدًا
رَسُولَ اللَّهِ أَتْلُوكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلْقُوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن رَجَبًا من بني تميم قَدِموا على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافتك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾، فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ [بعد هذه الآية] حتى يستفهمه، رواه عبد الله بن الزبير^(١). والثاني: أن قومًا ذَبَحوا قبل أن يُصَلِّي رسول الله ﷺ يوم النحر، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُعيدوا الذبح، فنزلت هذه الآية، قاله الحسن^(٢). والثالث: أنها نزلت في قوم كانوا يقولون: لو أنزل الله في كذا وكذا فكره الله ذلك، وقَدِم فيه، قاله قتادة^(٣). والرابع: [أنها] نزلت في عمرو بن أمية الضمري، وكان قد قتل رجلين من بني سليم قبل أن يستأذن رسول الله ﷺ، قاله ابن السائب^(٤). وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة^(٥). وروى العوفي عنه قال: نُهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه^(٦). وروى عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية قالت: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم^(٧). ومعنى الآية على جميع الأقوال: لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل. قال ابن قتيبة: يقال فلان يُقَدِّم بين يدي الإمام وبين يدي أبيه، أي: يُعَجِّل بالأمر والنهي دونه. فأما «تقدّموا» فقرأ ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو رزين، وعائشة، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعكرمة، والضحاك وابن سيرين، وقاتدة، وابن يعمر، ويعقوب: بفتح التاء والداد؛ وقرأ الباقون: بضم التاء وكسر الدال. قال الفراء: كلاهما صواب، يقال: قَدَّمْتُ، وتَقَدَّمْتُ؛ وقال الزجاج: كلاهما واحد؛ فأما «بين يدي الله ورسوله» فهو عبارة عن الأمام، لأن ما بين يدي الإنسان أمامه؛ فالمعنى: لا تقدّموا قدام الأمير.

قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن أبا بكر وعمر رفعوا أصواتهما فيما ذكرناه آنفًا في حديث ابن الزبير، وهذا قول ابن أبي مليكة^(٨). والثاني: [أنها] نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان

(١) رواه البخاري في «صحيحه» ٤٥٤/٨ عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، باب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤَدُّونَكَ مِنْ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى أَصْحَابُكُمْ لَا يَقُولُونَ﴾ ما دون قوله: «فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ حتى يستفهمه» فإنه ذكره في الباب الذي قبله من سورة الحجرات ٤٥٢/٨ باب: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ قَرِيبًا مَوَدَّةً﴾ الآية من حديث ابن أبي مليكة، ثم قال: قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى ينضمهم، يريد بذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ قَرِيبًا مَوَدَّةً﴾ الآية. والحديث ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٨ بسنده، دون قول ابن الزبير: «فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ حتى يستفهمه» وأورده السيوطي في «الدر» ٨٢/٦ بنحوه من رواية البخاري، وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

(٢) ذكره الطبري عن الحسن بن سعيد بن سند ١١٧/٢٦، وأورده السيوطي في «الدر» ٨٤/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن الحسن.

(٣) رواه الطبري ١١٧/٢٦ عن قتادة، وذكره السيوطي في «الدر» ٨٤/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٤) ذكره الألويسي بمعناه بغير سند ولم يعزه لأحد.

(٥) رواه الطبري ١١٦/٢٦، وذكره السيوطي في «الدر» ٨٤/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الحلية» عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٦) «الطبري» ١١٦/٢٦، وذكره السيوطي في «الدر» ٨٤/٦ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» ٨٤/٦ من رواية الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها.

(٨) رواه البخاري في «صحيحه» ٤٥٢/٨ باب: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ قَرِيبًا مَوَدَّةً﴾ الآية، من حديث نافع عن ابن أبي مليكة قال: كاذب الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعوا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافتك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ قَرِيبًا مَوَدَّةً﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر. اهـ. وفي رواية الترمذي: وما ذكر ابن الزبير جده، وفي رواية الطبري: وما ذكر ابن الزبير جده، يعني أبا بكر. اهـ. والحديث أورده السيوطي في «الدر» ٨٤/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، والطبراني عن ابن أبي مليكة.

جَهْوَرِيَّ الصَّوْتِ، فربما كان إذا تكلم تأذى رسول الله ﷺ بصوته، قاله مقاتل^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الجهر بالصوت في المخاطبة، قاله الأكثرون. والثاني: لا تدعوه باسمه: يا محمد، كما يدعو بعضكم بعضاً، ولكن قولوا: يا رسول الله، ويا نبي الله، وهو معنى قول سعيد بن جبير، والضحاك، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَحِطَّ﴾ قال ابن قتيبة: لئلا تحبط. وقال الأخفش: مخافة أن تحبط. قال أبو سليمان الدمشقي: وقد قيل معنى الإحباط هاهنا: نقص المنزلة، لا إسقاط العمل من أصله كما يسقط بالكفر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُعْتَبِرُونَ أَسْمَاءَهُمْ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَسْمَاءَكُمْ﴾ تألى أبو بكر أن لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار، فأنزل الله في أبي بكر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُعْتَبِرُونَ أَسْمَاءَهُمْ﴾، والغرض: التقص^(٢) كما بينا عند قوله: ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُلًا﴾ [النور: ٣٠]. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ﴾ قال ابن عباس: أخلصها ﴿لِلْقُرْآنِ﴾ من المعصية. وقال الزجاج: اختبر قلوبهم فوجدهم مخلصين، كما تقول: قد امتحنت هذا الذهب والفضة، أي: اختبرتها بأن أذيتها حتى خلصا، فعلمت حقيقة كل واحد منهما. وقال ابن جرير: اختبرها بامتحانها إياها، فاصطفاها وأخلصها للقرآن.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادَوْنَكَ مِنَ قَوْمِكَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادَوْنَكَ مِنَ قَوْمِكَ أَكْثَرُهُمْ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن بني تميم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فنادوا على الباب: يا محمد اخرج إلينا، فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين، فخرج وهو يقول: إنما ذلكم الله، فقالوا: نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال: «ما بالشعر يُعْتَبَرُ ولا بالفخار أُمِرْتُ، ولكن هاتوا»، فقال الزبيرقان بن بدر لشاب منهم: قُمْ فاذكُرْ فَضْلَكَ وَفَضْلَ قَوْمِكَ، فقام فذكر ذلك، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس، فأجابه: وقام شاعرهم، فأجابه حسان، فقال الأقرع بن حابس: والله ما أدري ما هذا الأمر؟! تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر، ثم دنا فأسلم، فأعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم، وارتفعت الأصوات وكثر اللغط عند رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية، هذا قول جابر بن عبد الله في آخرين^(٣). وقال ابن إسحاق: نزلت في جفاعة بني تميم، وكان فيهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، والزبيرقان بن بدر، [وقيس بن عاصم المنقرفي]، وخالد بن مالك، وسويد بن هشام، وهما نهشليان، والقعقاع بن معبد، وعطاء بن حابس، ووكيع بن وكيع^(٤). والثاني: أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى بني العنبر، وأمر عليهم عيينة بن حصن الفزاري، فلما علموا بذلك هربوا وتركوا عيالهم، فسباهم عيينة، فجاء رجالهم يُقَدِّون الدُّراري، فقَدِّموا وقت الظهيرة

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٨ بغير سند، ولم يعرّه لأحد. وحديث ثابت بن قيس بن شماس رواه البخاري في «صحيحه» ٤٥٤/٨ من حديث موسى بن أنس، عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته متكئاً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فآخروه أنه قال كذا وكذا، فقال موسى (يعني ابن أنس) فرجع إليه المرة الآخرة بشارة عظيمة، فقال: «أذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكك من أهل الجنة». ورواه مسلم من رواية حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك ﷺ، وأورده السيوطي في «الدر» ٨٤/٦ وزاد نسبه لأحمد، وأبي يعلى في مجمع الصحابة، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٩ عن ابن عباس بغير سند، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبي بكر قال: لما نزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَسْمَاءَكُمْ قَوْلَ سَوِيَّةِ النَّبِيِّ﴾ قلت: يا رسول الله آليت ألا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله، قال: وأخرجه الحاكم والبيهقي في «المدخل» من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ يُعْتَبِرُونَ...﴾ الآية، قال أبو بكر: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله ﷺ، وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٣) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٠ مطولاً، من رواية معلّى بن عبد الرحمن عن عبد الحميد بن جعفر عن عمر بن الحكم عن جابر بن عبد الله، وفي سنده معلّى بن عبد الرحمن الواسطي، ضعفه الدارقطني وغيره، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به.

(٤) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٩ عن محمد بن إسحاق بغير سند.

ورسول الله ﷺ قائل، فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا، حتى أيقظوه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١).
والثالث: أن ناساً من العرب قال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبياً نكن أسعد الناس به، وإن
يكن ملكاً نعش في جناحه، فجاؤوا، فجعلوا ينادون يا محمد، يا محمد، فنزلت هذه الآية، [قاله زيد بن أرقم]^(٢).
فأما «الحجرات» فقرأ أبي بن كعب، وعائشة، وأبو عبد الرحمن السلمي، ومجاهد، وأبو العالية، وابن يعمر، وأبو
جعفر، وشيبة: بفتح الجيم؛ وأسكنها أبو رزين، وسعيد بن المسيب، وابن أبي عبله؛ وضمها الباقر. قال الفراء:
وجه الكلام أن تُضمَّ الحاء والجيم، وبعض العرب يقول: الحُجرات والرُّكبات، وربما خفَّفوا فقالوا: «الحُجرات»،
والتخفيف في تميم، والتثقيب في أهل الحجاز. وقال ابن قتيبة: واحد الحُجرات حُجرة، مثل ظُلْمة وظُلْلمات. قال
المفسرون: وإنما نادوا من وراء الحُجرات، لأنهم لم يعلموا في أي الحُجج رسول الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ قال الزجاج: أي: لكان الصبر خيراً لهم. وفي وجه
كونه خيراً لهم قولان: أحدهما: لكان خيراً لهم فيما قَدِموا له من فداء ذراريهم، فلو صَبَرُوا خَلَّى سبيلهم بغير فداء،
قاله مقاتل. والثاني: لكان أحسنَ لأدابهم في طاعة الله ورسوله، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب منهم.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَهُمْ قَائِلٌ يُبَشِّرُهُمْ أَنَّ صَبْرَهُمْ قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَفُصِحُوا عَلَىٰ مَا قَعَلْتُمْ تَرْوِين﴾ ① ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ
رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُبَيِّنُ لَكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَمَنِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ لِقُلُوبِكُمْ وَكَرَّ الْكَرَّ وَالْفُسُوقَ وَالْوَعْيَانَ أُولَٰئِكَ
هُمُ الرَّاغِبُونَ﴾ ② ﴿فَضَلَّكَ يَنْ اللَّهُ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ ③

قوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكَ قَائِلٌ يُّبَشِّرُكَ فَوَيْبَاتٌ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة، بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق ليُقبض
صدقاتهم، وقد كانت بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فسار بعض الطريق، ثم خاف فرجع فقال: إنهم قد منعوا الصدقة
وأرادوا قتلي، فصرف رسول الله ﷺ البعث إليهم، فنزلت هذه الآية^(٣). وقد ذكرتُ القصة في كتاب «المُغني» وفي
«الحدائق» مستوفاة، وذكرْتُ معنى «فَوَيْبَاتٌ» في سورة [النساء: ٩٤]، والثَّابِي: الخبر، و«أَنْ» بمعنى «لثلاث»، والجهالة هاهنا:
أن يجهل حال القوم، ﴿فَفُصِحُوا عَلَىٰ مَا قَعَلْتُمْ﴾ من إصابتهم بالخطأ «تَرْوِين». ثم خَوْفهم فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ
اللَّهِ﴾ أي: إن كَذَّبتموه أخبره الله فافتضحتم، ثم قال: ﴿لَوْ يُبَيِّنُ لَكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: مما تخبرونه فيه بالباطل
﴿لَمَنِمْ﴾ أي: لَوَقَعْتُمْ فِي عَتَبٍ. قال ابن قتيبة: وهو الضَّرُّ والفساد. وقال غيره: هو الإثم والهلاك، وذلك أن
المسلمين لما سَمِعُوا أن أولئك القوم قد كَفَرُوا قالوا: ابْعَثْ إليهم يا رسول الله واغزهم واقتلهم؛ ثم خاطب المؤمنين
فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْوَعْيَانَ﴾، ثم عاد إلى الخبر عنهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ﴾
أي: المهتدون إلى محاسن الأمور، ﴿فَضَلَّكَ يَنْ اللَّهُ﴾ قال الزجاج: المعنى: ففعل بكم ذلك فضلاً أي: للفضل والنعمة.

﴿وَإِن طَافَتَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَنَلَا فَاسْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَدَّتْ إِسْدَهُمَا عَلَى الْأَخْرَىٰ فَتَلَاؤُا أَلَىٰ تَبَىٰ حَتَّىٰ تَقْرَبَ إِلَٰهَ أَمْرٍ أَلَلَّ فَإِن فَاءَتْ
فَاسْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْمَدْلِ وَأَقْطِرُوا﴾ ④ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاسْلِحُوا بَيْنَ لَحُوبِكُمْ وَأَقْرَأُوا لِلَّهِ لَكُمْ رِزْقُونَ﴾ ⑤
قوله تعالى: ﴿وَإِن طَافَتَا...﴾. الآية، في سبب نزولها قولان: أحدهما: ما روى البخاري ومسلم في

(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخریج الكشاف»: أخرجه ابن مردويه من رواية إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهو إسناد تالف.

(٢) رواه الطبري ١٢١/٢٦، وذكره السيوطي في «الدرر» ٨٦/٦ وزاد نسبه لابن راهويه، ومسده، وأبي يعلى، والطبراني، وابن أبي حاتم عن زيد بن أرقم.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٢ بغير سند، ورواه الطبري من حديث أم سلمة، وفي سننه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف، ورواه أحمد في
«المستدر» من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي، قال الحافظ ابن حجر في «تخریج الكشاف»: رواه ابن إسحاق، والطبراني من حديث أم سلمة، وفيه
موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. قال: ونحوه رواه أحمد والطبراني أيضاً من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي. وأخرجه ابن مردويه من طريق
عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن جابر. قال الحافظ ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين أن
هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، قال: ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في
«مسنده» من رواية ملك بني المصطلق وهو الحارث بن ضرار والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين ﷺ، ثم قال: وكذا ذكر غير واحد من السلف،
منهم ابن أبي ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل بن حيان وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في الوليد بن عقبة، والله أعلم.

«الصححين» من حديث أنس بن مالك قال: قيل لرسول الله ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فركب حماراً وانطلق معه المسلمون يمشون، فلما أتاه النبي ﷺ، قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيّب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجلاً من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ...﴾ الآية^(١). وقد أخرجنا جميعاً من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ خرج يعود سعد بن عباد، فمرّ بمجلس فيهم عبد الله بن أبي، وعبد الله بن رواحة، فحمر ابن أبي وجهه بردائه، وقال: لا تغبروا علينا، فذكر الحديث، وأن المسلمين والمشركين واليهود استبوا^(٢). وقد ذكرت الحديث بطوله في «المغني» و«الحدائق». وقال مقاتل: وقف رسول الله ﷺ على الأنصار وهو على حماره، فبال الحمار، فقال عبد الله بن أبي: أف، وأمسك على أنفه، فقال عبد الله بن رواحة: والله لهُوَ أطيّب ريحاً منك، فكان بين قوم ابن أبي وابن رواحة ضرب بالنعال والأيدي والسعف، ونزلت هذه الآية. والقول الثاني: أنها نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مُمارة في حقّ بينهما، فقال أحدهما: لآخذنّ حقي قنوة، وذلك لكثرة عشيرته، ودعاه الآخر ليحاكمه إلى رسول الله ﷺ، فلم يزل الأمر بينهما حتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال، قاله قتادة^(٣). وقال مجاهد: المراد بالطائفتين: الأوس والخزرج؛ اقتتلوا بالعصي بينهم. وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود، وأبو عمران الجوني: «اقتلا» على فعل اثنين مذكّرين. وقرأ أبو المتوكل الناجي، وأبو الجون، وابن أبي عبله: «اقتلتنا» بناء وألف بعد اللام على فعل اثنين مؤنثتين. وقال الحسن وقاتدة والسدي «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» بالدعاء إلى حكم كتاب الله ﷻ والرضى بما فيه لهما وعليهما ﴿فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَهُمَا﴾ طلبت ما ليس لها، ولم ترجع إلى الصلح، ﴿فَقَبِلُوا آلِي تَيْبٍ حَقَّ تَيْبٍ﴾ أي: تَزَجَّجَ ﴿إِنَّكَ أَمْرٌ أَلْوَى﴾ أي: إلى طاعته في الصلح الذي أمر به.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِطُوا﴾ أي: اعدلوا في الإصلاح بينهما^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ قال الزجاج: إذا كانوا متفقين في دينهم رجّعوا باتفاقهم إلى أصل النسب، لأنهم لأدم وجواء، فإذا اختلفت أديانهم افرقوا في النسب^(٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ لُؤْيُوكُمُ﴾ قرأ الأكثرون: [بين أخويكم] بياء على التنبيه، وقرأ أبي بن كعب، ومعاوية، وسعيد بن المسيب، وابن جبير، [وقتادة]، وأبو العالية، وابن يعمر، وابن أبي عبله، ويعقوب: [بين إخوانكم] بناء مع كسر الهمزة على الجمع. وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، والشعبي، وابن سيرين: [بين إخوانكم] بالنون وألف قبلها. قال قتادة: ويعني بذلك الأوس والخزرج.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحْزَنَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا يَسْأَلُونَ عَسَىٰ أَن يَكُونَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّغَابِ يَسِّرَ الْإِسْمُ الْأَسْوَأَ بَدَ الْإِيْمَنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ هذه الآية نزلت على ثلاثة أسباب؛ فأما أولها إلى قوله تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾

(١) رواه البخاري ٢١٨/٥، ومسلم ١٤٢٤/٣، وذكره السيوطي في «الدر» ٩٠/٦، والحديث رواه أيضاً أحمد في «المسنند» وابن جرير الطبري في «التفسير»، وذكره السيوطي في «الدر» ٩٠/٦، وزاد نسخة لابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) رواه البخاري ١٧٣/٨، ومسلم ١٤٢٤/٣.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» ٩٠/٦ من رواية عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة قال: ذُكر لنا هذه الآية نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مُمارة... الخ.

(٤) وتسم الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: إن الله يحب العادلين في أحكامهم، الفاضلين بين خلقه بالقسط اهـ. وهو العدل، وروى مسلم في «الصحیح» ١٤٥٨/٣ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلنا يديه يمين. الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا».

(٥) قال ابن كثير، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» وفي «الصحیح»: «والله في عون العبد ما كان في عون أخيه» وفي «الصحیح» أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك بظلمه والأحاديث في هذا كثيرة. قال: وفي «الصحیح»: «مثل المؤمن في تولدهم وتواضعهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تدعى له سائر الجسد بالحمى والسهر». وفي «الصحیح» أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه ﷺ. اهـ.

فنزلت على سبب، وفيه قولان: أحدهما: أن ثابت بن قيس بن شماس جاء يوماً يريد الدُّنُوَّ من رسول الله ﷺ، وكان به صمم، فقال لرجل بين يديه: افسح، فقال له الرجل: قد أصبت مجلساً، فجلس مُخَضَّباً، ثم قال للرجل: من أنت؟ قال: أنا فلان. فقال ثابت: أنت ابن فلانة!! فذكر أمأ له كان يعير بها في الجاهلية، فأغضى الرجل ونكس رأسه، ونزل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُ قَوْمٌ مِّن قَوْمِ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(١). والثاني: أن وفد تميم استهزؤوا بفقراء أصحاب رسول الله ﷺ لما رأوا من رثائه حالهم، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك ومقاتل^(٢). وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُكَ مِّن سَأَلِكُمْ﴾ فنزلت على سبب، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن نساء رسول الله ﷺ عيرن أم سلمة بالخصر، فنزلت هذه [الآية]، قاله أنس بن مالك^(٣). وزعم مقاتل أن عائشة استهزأت من خصر أم سلمة. والثاني: أن امرأتين من أزواج رسول الله ﷺ سخرتا من أم سلمة زوج رسول الله ﷺ، وكانت أم سلمة قد خرجت ذات يوم وقد ربطت أحد طرفي جلبابها على حَقْوِها، وأرخت الطرف الآخر خلفها، ولا تعلم، فقالت إحداهما للأخرى: انظري، ما خلقت أم سلمة كأنه لسان كلب، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(٤). والثالث: أن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يعيرنني ويقولن: يا يهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله ﷺ: «هَلَّا قُلْتِ: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد» فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٥). وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللَّاتِقَاتِ﴾ فنزلت على سبب، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ قديم المدينة ولهم ألقاب يُدْعَوْنَ بها، فجعل الرجل يدعو الرجل بلقبه، فقيل له: يا رسول الله: إنهم يكرهون هذا، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِاللَّاتِقَاتِ﴾، قاله أبو جبير بن الضحاك^(٦). والثاني: أن أبا ذر كان بينه وبين رجل منازعة، فقال له الرجل: يا ابن اليهودية، فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِاللَّاتِقَاتِ﴾، قاله الحسن. والثالث: أن كعب بن مالك الأنصاري كان بينه وبين عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي كلام، فقال له: يا أعرابي، فقال له عبد الله: يا يهودي، فنزلت فيهما ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللَّاتِقَاتِ﴾، قاله مقاتل. وأما التفسير، فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ أي: لا يستهزئ غني بفقر، ولا مستور عليه ذنبه بمن لم يستر عليه، ولا ذو حسب بلثيم الحسب، وأشبه ذلك مما ينتقصه به، عسى أن يكون عند الله خيراً [منه]. وقد بينا في [البقرة: ٥٤] أن القوم اسم الرجال دون النساء، ولذلك قال: ﴿وَلَا يَسْأَلُكَ مِّن سَأَلِكُمْ﴾ و«تَلْمِزُوا» بمعنى تعيبوا، وقد سبق بيانه [التوبة: ٥٨]. والمراد بالأنفُس هاهنا: الإخوان. والمعنى: لا تعيبوا إخوانكم من المسلمين لأنهم كأنفسكم. والتنايز: التفاعل من النَّبَز، وهو مصدر، والنَّبَز الاسم. والألقاب جمع لقب، وهو اسم يُدعى به الإنسان سوى الاسم الذي سُمِّيَ به. قال ابن قتيبة: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِاللَّاتِقَاتِ﴾ أي: لا تتداعوا بها. و«الألقاب» و«الأنبا» واحد، ومنه الحديث: «تَبَزُّهُمُ الرافضة» أي: لقبهم^(٧). وللمفسرين في المراد بهذه الألقاب أربعة أقوال: أحدها: تعبير التائب بسببَات قد كان عملها، رواه عطية العوفي عن ابن عباس^(٨). والثاني: أنه تسميته بعد إسلامه بدينه قبل الإسلام، كقوله

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٣ بغير سند ولم يعزه لأحد. وذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند. وقال الحافظ ابن حجر في «تخریج الکشف»: ذكره العلوي ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند.

(٢) ذكر البغوي والخازن عن الضحاك بغير سند. وأورده السيوطي في «الدر» ٩١/٦ من رواية ابن أبي حاتم عن مقاتل.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن أنس بن مالك بغير سند، وكذلك البغوي والخازن.

(٤) ذكره الألويسي بغير سند ولم يعزه لأحد.

(٥) ذكره البغوي والخازن في «التفسير»، والواحدي في «أسباب النزول» عن عكرمة عن ابن عباس بلا سند.

(٦) رواه الترمذي ١٥٩/٢ وقال: حديث حسن، ورواه الطبري ١٣٢/١٦، والواحدي في «أسباب النزول»، وأورده السيوطي في «الدر» ٩١/٦ وزاد نسبه لأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والنسائي، وابن ماجه، وأبي يعلى، وابن المنذر، والبغوي في «معجمه»، وابن حبان، والثيراني في «الألقاب»، والطبراني، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي جبير بن الضحاك.

(٧) قال ابن قتيبة في «غريب القرآن»: ومن قيل في الحديث: «قوم تبزهم الرافضة» أي لقبهم، قال الفقيه شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي في مقدمته كتابه «الصواعق المحرقة في الرد على أهل البعق والزندقة». أخرجه الدارقطني عن علي بن النبي ﷺ: «سأيت من بعدي قوم لهم نيز يقال لهم: الرافضة». الحديث، ولم نشر عليه، والله أعلم بصحته.

(٨) «الطبري» ١٣٣/٢٦.

لليهودي إذا أسلم: يا يهودي، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً^(١)، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وعطاء الخراساني، والقرظي. والثالث: أنه قول الرجل للرجل: يا كافر، يا منافق، قاله عكرمة^(٢). والرابع: أنه تسميته بالأعمال السيئة، كقوله: يا زاني؛ يا سارق، يا فاسق، قاله ابن زيد^(٣). قال أهل العلم: والمراد بهذه الألقاب: ما يكرهه المنادى به، أو يُعَدُّ ذمّاً له. فأما الألقاب التي تكسب حمداً وتكون صدقاً، فلا تُكره، كما قيل لأبي بكر: عتيق، ولعمر: فاروق، ولعثمان: ذو النورين، ولعلي: أبو تراب، ولخالد: سيف الله، ونحو ذلك. وقوله: ﴿يَسْأَلُ الْفُتُوٰى﴾ أي: تسميته فاسقاً أو كافراً وقد آمن، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتَّخِذْ مِنَ النَّبِزِ ﴿فَأُولَٰئِكَ مُمْ أَكْلُؤُنَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: الضارون لأنفسهم بمعصيتهم، قاله ابن عباس. والثاني: هم أظلم من الذين قالوا لهم ذلك، قاله ابن زيد.

﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ أَسْأَلُوكَ خَيْرًا مِنَّا فَكْرِهُوهُمُ وَالْقُرْآنَ اللَّهُ إِنَّا اللَّهُ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَسْأَلُوكَ خَيْرًا مِنَّا﴾ قال ابن عباس: نهى الله تعالى المؤمن أن يظنَّ بالمؤمن شراً. وقال سعيد بن جبير: هو الرجل يسمع من أخيه كلاماً لا يريد به سوءاً أو يدخل مَدْخِلاً لا يريد به [سوءاً]^(٤)، فيراه أخوه المسلم فيظنُّ به سوءاً. وقال الزجاج: هو أن يظنُّ بأهل الخير سوءاً. فأما أهل السوء والفسق، فلنا أن نَظَرَ بهم ومثل الذي ظهر منهم. قال القاضي أبو يعلى: هذه الآية تدل على أنه لم يُنه عن جميع الظنِّ؛ والظنُّ على أربعة أضرب: محظور، ومأمور به، ومباح، ومدنوب إليه، فأما المحظور، فهو سوء الظن بالله تعالى، والواجب: حُسْنُ الظن بالله^(٥)، وكذلك سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة محظور^(٦)، وأما الظن المأمور به، فهو ما لم ينصب عليه دليل يوصل إلى العلم به، وقد تُعْبَدُنَا بتنفيذ الحكم فيه، والاعتصام على غالب الظن، وإجراء الحكم عليه واجب، وذلك نحو ما تُعْبَدُنَا به من قبول شهادة المُدُول، وتحريُّ القيلة، وتقويم المستهلكات، وأروش الجنائيات التي لم يَرُدِّ بمقاديرها توقيف، فهذا وما كان من نظائره قد تُعْبَدُنَا فيه بأحكام غالب الظنون. فأما الظن المباح، فكالشَّاكُّ في الصلاة إذا كان إماماً، أمره النبي ﷺ بالتحريُّ والعمل على ما يُغْلِبُ في ظنِّه، وإن فعله كان مباحاً، وإن عدلَّ عنه إلى البناء على اليقين كان جائزاً وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا تَحْقُقُوا﴾^(٧)، وهذا من الظن الذي يعرض في قلب الإنسان في أخيه فيما يوجب الرِّيبة، فلا ينبغي له أن يحقِّقه. وأما الظن المدنوب إليه، فهو إحسان الظن بالأخ المسلم يُنْدَب إليه ويُثَاب عليه. فأما ما روي في الحديث: ﴿احْتَرِسُوا مِنَ النَّاسِ بِسُوءِ الظَّنِّ﴾^(٨)، فالمراد: الاحتراس بحفظ المال، مثل أن يقول: إن تركت بابي مفتوحاً خشيت السُّراق.

- (١) ذكره الطبري ١٣٣/٢٦ عن الحسن، وذكره السيوطي في «الدر» ٩١/٦ من رواية عبد الرزاق عن الحسن.
- (٢) «الطبري» ١٣٢/٢٦، وذكره السيوطي في «الدر» ٩١/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة.
- (٣) «الطبري» ١٣٣/٢٦.
- (٤) زيادة ليست في الأصلين.
- (٥) روى مسلم في «صحيحه» ٢٢٠٦/٤ عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ﷻ».
- (٦) روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسنوا ولا تحسبوا، ولا تاجسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تباغضوا، ولا تداربوا، وكونوا عباد الله إخواناً».
- (٧) ذكره ابن كثير في «التفسير» من رواية الطبراني، ولفظه بتمامه: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة، والحسد، وسوء الظن» فقال رجل: وما يذهبهين يا رسول الله ممن هن في؟ قال ﷺ: «إذا حدثت فاستغفر، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»، وأورده الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/٧٨ وقال: رواه الطبراني، وفيه إسماعيل بن قيس الأنصاري، وهو ضعيف.
- (٨) رواه الطبراني في «الأوسط» وابن عدي من حديث بقة بن الوليد عن معاوية بن يحيى عن سليمان بن سليم عن أنس مرفوعاً. قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨٦/٨: بقة بن الوليد مدلس، وبقية رجاله ثقات، وقال الحافظ المناري في «فيض القدير»: قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: خرج الطبراني في «الأوسط» من طريق أنس، وهو من رواية بقة بالنعنة، عن معاوية بن يحيى وهو ضعيف، فله علتان. قال: وضح من قول مطرف، أخرجه مسند. وقال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة»: رواه أحمد في «الزهة» والبيهقي في «السنن» وغيرهما، كلاهما من قول مطرف بن الشخير أحد التابعين. اهـ. والحديث مخالف للأحاديث الصحيحة التي يأمر فيها النبي ﷺ المسلمين بأن لا يستعوا الظن بإخوانهم، منها قوله ﷺ في الحديث الذي تقدم: «إياكم والظن... الحديث، ولا تستقيم المعاملة مع الناس على إساءة الظن بهم».

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بَعَشٌ الْفَلْظِ إِنْشَاءً﴾ قال المفسرون: هو ما تكلم به مما ظنّه من السوء بأخيه المسلم، فإن لم يتكلّم به فلا بأس، وذهب بعضهم إلى أنه يأثم بنفس ذلك الظن وإن لم يُنطق به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وقرأ أبو رزين، والحسن، والضحاك، وابن سيرين، وأبو رجاء، وابن يعمر: بالحاء. قال أبو عبيدة: التجسس والتجسس واحد، وهو التَّبَحُّثُ، ومنه الجاسوس. وروي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: التجسس، بالجيم: البحث عن عورات الناس، وبالحاء: الاستماع لحديث القوم. قال المفسرون: التجسس: البحث عن عيب المسلمين وعوراتهم؛ فالمعنى: لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه ليطلع عليه إذ ستره الله. وقيل لابن مسعود: هذا الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمرأ، فقال: إنا نُهينا عن التجسس، فإن يظهر لنا شيء نأخذ به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْتَبِ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: لا يتناول بعضهم بعضاً بظهر الغيب بما يسوؤه. وقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ سئل ما الغيبة؟ قال: «ذَكَرَكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قال: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ. قال: «إِنْ كَانَ فِي أَخِيكَ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(١). ثم صَرَّبَ اللهُ لِلْغَيْبَةِ مَثَلًا، فَقَالَ: «أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَبِيهِ مَيْتًا» وقرأ نافع «مَيْتًا» بالتشديد. قال الزجاج: وبيانه أن ذَكَرَكَ بِسَوْءٍ مِنْ لَمْ يَحْضُرْ، بِمَنْزِلَةِ أَكْلِ لَحْمِهِ وَهُوَ مَيْتٌ لَا يُحْيَسُ بِذَلِكَ. قال القاضي أبو يعلى: وهذا تأكيد لتحريم الغيبة، لأن أكل لحم المسلم محظور، ولأن النفوس تعافه من طريق الطَّعْبِ، فينبغي أن تكون الغيبة بمنزلة الكراهة.

قوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وقرأ الضحاك، وعاصم الجحدري: «فَكَرِهْتُمُوهُ» برفع الكاف وتشديد الراء. قال الفراء: أي: وقد كرهتموه فلا تفعلوه، ومن قرأ «فَكَرِهْتُمُوهُ» أي: فقد بَغِضَ إِلَيْكُمْ، والمعنى واحد. قال الزجاج: والمعنى: كما تكرهون أكل لحمه ميتاً، فكذلك تجنّبوا ذكّره بالسوء غائباً.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفُوا اللَّهَ﴾ أي: في الغيبة «إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ» على من تاب «تَوَّابٌ» به.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْ خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأَنْتُمْ وَجَعَلْتُمْ شُعُوبًا وَيَبْقِلُ لِنِعَارِهِمْ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْتَنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَمِيمٌ خَبِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْ خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأَنْتُمْ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: نزلت في ثابت بن قيس وقوله في الرجل الذي لم يفسح له: أنت ابن فلانة، وقد ذكرناه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]^(٢). والثاني: أنه لما كان يوم الفتح أمر رسول الله ﷺ بلالاً فصدع على ظهر الكعبة فأذن، وأراد أن يُذِلَّ المشركين بذلك، فلما أذن، قال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض أسيداً قبل اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟! وقال سهيل بن عمرو: إن يَكْرَهُ اللهُ شيئاً يغيّره، وقال أبو سفيان: أما أنا فلا أقول شيئاً، فأني إن قلت شيئاً لتشهدن عليّ السماء، ولتخبرن عني الأرض، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(٣). والثالث: أن عبداً أسود مرض فعاده رسول الله ﷺ، ثم قبض فتولّى غسله وتكفينه ودفنه، فأثر ذلك عند الصحابة، فنزلت هذه الآية، قاله يزيد بن شجرة^(٤). فأما المراد بالذَكَرِ والأُنثى، فأدم وحواء. والمعنى: إنكم تتساوون في النسب؛ وهذا زجر عن التفاخر بالأنساب. فأما الشعوب، فهي جمع شعب. وهو الحيّ العظيم، مثل مضر وربيعة، والقبائل دونها، كبكر من ربيعة، وتميم من مضر، هذا قول الجمهور من المفسرين وأهل اللغة. وروى عطاء عن ابن عباس قال: يريد بالشعوب: الموالي، وبالقبائل: العرب. وقال أبو رزين: الشعوب: أهل الجبال الذين لا يَعْتَرُونَ

(١) رواه أبو داود في «سننه» رقم (٨٧٤٤)، والترمذي في «جامعه» ١٥/٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن جرير ١٢٧/٢٦. وأورده السيوطي في «الدرر» ٩٤/٦ وزاد نسبة لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، كلهم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ورواه مسلم في «صحيحه» ٤/٢٠١ ولفظه: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذَكَرَكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ». أي: قلت فيه البهتان، وهو الباطل.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٣ بلا سند، ولم يعزه لأحد، وذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بلا سند أيضاً. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: ذكره الثعلبي ومن قبله عن ابن عباس بغير سند.

(٣) ذكره. الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٤ عن مقاتل.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٥٩: هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند.

لأحد، والقبائل: قبائل العرب. وقال أبو سليمان الدمشقي: وقد قيل: إن القبائل هي الأصول، والشعوب هي البُطون التي تشعب منها، وهذا ضد القول الأول.

قوله تعالى: ﴿إِنْتَعَرُوا﴾ أي: ليُعرف بعضكم بعضاً في قُرب النسب ويُعده. قال الزجاج: المعنى: جعلناكم كذلك لتعارفوا، لا لتفاحروا. ثم أعلمهم أن أرفعهم عنده منزلةً أتقاهم. وقرأ أبيُّ بن كعب، وابن عباس، والضحاك، وابن يعمر، وأبان عن عاصم: ﴿لِتَعْرِفُوا﴾ بإسكان العين وكسر الراء من غير ألف. وقرأ مجاهد، وأبو المتوكل، وابن محيصن: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ بئاء واحدة مشددة وبألف مفتوحة الراء مخففة. وقرأ أبو نهيك، والأعمش: ﴿لِتَتَعَرَّفُوا﴾ بئاء من مفتوحة الراء وبشديدها من غير ألف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي، ومجاهد، وأبو الجوزاء: ﴿أَنَّ﴾ بفتح الهمزة. قال الفراء: من فتح ﴿أَنَّ﴾ فكانه قال: لتعارفوا أَنَّ الكريمةَ النَّقِيَّة، ولو كان كذلك لكانت ﴿لِتَعْرِفُوا﴾، غير أنه يجوز ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ على معنى: ليُعرف بعضكم بعضاً أن أكرمكم عند الله اتقاكم^(١).

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآءًا قَلٍ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسَلْنَا لَكُمْ لِقَاءَ الْيَوْمِ فَأَنبَأُوا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الَّذِي لَكُمْ وَعِلْمُهُمْ خَيْرٌ مِّنْ عِلْمِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ لِّمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(٢) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآءًا قَلٍ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسَلْنَا لَكُمْ لِقَاءَ الْيَوْمِ فَأَنبَأُوا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الَّذِي لَكُمْ وَعِلْمُهُمْ خَيْرٌ مِّنْ عِلْمِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ لِّمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(٣) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآءًا قَلٍ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسَلْنَا لَكُمْ لِقَاءَ الْيَوْمِ فَأَنبَأُوا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الَّذِي لَكُمْ وَعِلْمُهُمْ خَيْرٌ مِّنْ عِلْمِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ لِّمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآءًا﴾ قال مجاهد: نزلت في أعراب بني أسد بن خزيمه. ووصف غيره حالهم، فقال: قديموا المدينة في سنة مُجْدِيَّة، فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات، وأغلوا أسعارهم، وكانوا يُمنون على رسول الله ﷺ يقولون: آيتناك بالأنفال والعيال، ولم نُقاتلك، فنزلت فيهم هذه الآية^(٥). وقال السدي: نزلت في أعراب مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار [وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة (الفتح)] وكانوا يقولون: آمنا بالله، ليامنوا على أنفسهم، فلما استنصروا إلى الحديدية تخلَّفوا، فنزلت فيهم هذه الآية^(٦). وقال مقاتل: كانت منازلهم بين مكة والمدينة، فكانوا إذا مرَّت بهم سرَّية من سرايا رسول الله ﷺ قالوا: آمنا، ليامنوا على دمائهم وأموالهم، فلما سار رسول الله ﷺ إلى الحديدية استنصروهم فلم يُنصروا معه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ أي: لَمْ تصدَّقوا ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسَلْنَا﴾ قال ابن قتيبة: أي: استسلمنا من خوف السيف، وانقذنا. قال الزجاج: الإسلام: إظهار الخُضوع والقَبول لِمَا أتى به رسول الله ﷺ، وبذلك يُحْفَن الدَّم، فإن

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ أي: إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى، لا بالأحساب. قال: وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري في (صحيحه) عن أبي هريرة ؓ قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». وروى مسلم في (صحيحه) عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» وروى أبو داود في (سننه) والترمذي وحسنه عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْعَبَ عَنْكُمْ خِيبةَ الجاهلية (كبرها ونغوتها) ولفخرها بالأبواء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أتم بنو آدم وأدم من تراب، ليُدْعَى رجالٌ فخرهم بأقلام إنسا هم فحَم من فحَم جهنم، أو ليكونن لعون على الله من الجملان التي تدفع بأنفسها التَّن».

وروى أحمد في «السنن» بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس ألا إن ريكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أصيبي، ولا لمجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى» ثم قال ابن كثير في تلمحة الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليهم بكم، خبير بأمركم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله، قال: واستدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاية في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ قلت: ورويه الحديث المروغ: ﴿إِذَا اتَّكَمَ مِنْ تَرْضُونِ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ فَرُجُوا بِهِ إِلَّا تَفَعَلُوا تَكُنْ قَتْلَهُ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادَ هَرِيضٍ» رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم، وهو حديث حسن.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» والبيهقي والخازن في «الظهير» بلا سند.

(٣) ذكره البيهقي والخازن عن السُّدي بغير سند، ولم يعزوا لأحد.

كان معه اعتقاد وتصديق بالقلب، فآخَرَجَ اللهُ هؤلاء من الإيمان بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لَمْ تُصَدِّقُوا، إنما أسلمتم تعزُّداً من القتل، وقال مقاتل: «ولمَّا» بمعنى «ولم» يدخل التصديق في قلوبكم^(١). قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَئِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا مَلَأَ الْكُفْرَ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَلَا يَرْتَدُّوا عَنْهُمْ قُلُوبُهُمْ وَهُمْ يُرِيدُونَ الْإِيمَانَ﴾ قال ابن عباس: إن تُخْلِصُوا الإيمان ﴿لَا يَلْتَكِرْ﴾ قرأ أبو عمرو: «يَالْتَكُم» بألف وهمز؛ وروي عنه بألف ساكنة مع ترك الهزمة: وقرأ الباقون: «يَلْتَكُم» بغير ألف ولا همز. فقراءة أبي عمرو من أَلَتْ يَالِثٌ، وقراءة الباقين من لَات يَلِثٌ، قال الفراء: وهما لغتان، قال الزجاج: معناهما واحد. والمعنى: لا يَنْفُصُكُمْ. وقال أبو عبيدة: فيها ثلاث لغات: أَلَتْ يَالِثٌ، تقديرها: أَفَكَ يَأْفِكُ، وأَلَات يَلِثٌ، تقديرها: أَقَالَ يُقِيلُ، ولَات يَلِثٌ، قال روية:

وَلَيْلَةٌ ذَاتِ نَسْدَى سَرَيْتٌ وَلَمْ يَلِثْنِي عَنْ سُرَاهَا لَيْتٌ^(٢)

قوله تعالى: ﴿يُنْزِلُ عَلَيْكُمْ غُيُوبَهُمْ وَيُنزِلُ فِي أَلْسِنَتِهِمُ الْقَوْلَ يُخَوِّفُ الْبَشَرَةَ لَأَلَّا يَدْرِكُوا مَرْحَلَهُمْ لَخَوِّفَهُمُ الْيَوْمَ الَّذِي فِيهِ يُنْفِثُونَ السَّحَابَ﴾ أي: من ثوابها. ثم نعت الصادقين في إيمانهم بالآية التي تلي هذه^(٣). ومعنى: ﴿بِرَّكَابِئِهِمْ﴾ يَشْكُوا. وإنما ذكر الجهاد، لأن الجهاد مع رسول الله ﷺ كان فرضاً في ذلك الوقت، ﴿أُولَئِكَ هُمُ السَّادِقُونَ﴾ [في إيمانهم. فلما نزلت هاتان الآيتان أتوا رسول الله ﷺ يحلفون أنهم مؤمنون صادقون] فتزلت [هذه الآية]. قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَسْتَمِرُّونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ﴾ و«علم» بمعنى «أعلم»، ولذلك دخلت الباء في قوله: «بدينكم» والمعنى: أتخبرون [الله] بالذين الذي أنتم عليه؟! أي: هو عالمٌ بذلك لا يحتاج إلى إخباركم؛ وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ قالوا: أسلمنا ولم نقابلك^(٤) [والله أعلم].



(١) قال ابن كثير: يقول تعالى منكرأ على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادَّعَوْا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يمتكّن الإيمان في قلوبهم بعد ﴿قَالَتِ الْكُفْرَةُ مَاتَنَا قُلْ لَمْ تَمُوتُوا وَلَكِنْ قَوْلًا أَسَلْنَا لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ قال: وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، قال: ويدل عليه حديث جبريل ﷺ حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه. اهـ.

(٢) الرجز في «مجاز القرآن» ٢/٢٢١، و«الطبري» ٢/١٥ و٢/٢٦ و١٤٣، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: ليت.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ آفَةٌ عَلَى الْعَالَمِينَ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ كَالْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال: وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، قال: ويدل عليه حديث جبريل ﷺ حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه. اهـ.

(٤) قال الحافظ السيوطي في «الدرة» ١٠٠/٦: أخرج ابن المنذر، والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن أبي أوفى أن ناساً من العرب قالوا: يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأنزل الله ﴿بَشِّرْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...﴾ الآية، قال الحافظ الهيثمي في «المجمع» ١١٢/٧: رواه الطبراني في «الكبير» والأوسط، وفيه الحجاج بن أرطاة وهو ثقة، ولكنه منلس، وبقية رجاله رجال الصحيح. وذكره ابن كثير عن البزار من طريق أبي عون عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، ثم قال: قال البزار: لا تعلمه يروي إلا من هذا الوجه، ولا نعلم زوى أبو عون محمد بن عبد الله غير هذا الحديث. وذكره السيوطي في «أسباب النزول» من رواية النسائي والبزار وابن مردويه عن ابن عباس، ومن رواية سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن سعيد بن جبير، ومن رواية ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن. والله أعلم. اهـ.

سورة ق (١)

ويقال لها: سورة الباسقات

روى العوفي [وغيره] عن ابن عباس أنها مكِّيَّة، وكذلك قال الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والجمهور. وحكي عن ابن عباس وقتادة أن فيها آية مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية [ق: ٣٨].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا نَجْمٌ مِّنْ سَمَوَاتٍ ﴿٢﴾ أَوَلَمْ نَسْأَلْكَ رَبًّا فَتَنَّا وَتَبَوَّأْنَا الْاَرْضَ مَا تَنصُورُ الْاَرْضَ مِنْهُمْ فَعِدْلًا كَتَبَ خِيطًا ﴿٣﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ق﴾ قرأ الجمهور بإسكان الفاء، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو المتوكل، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: «قاف» بنصب الفاء، وقرأ أبو رزين، وقتادة: «قاف» برفع الفاء. وقرأ الحسن، وأبو عمران: «قاف» بكسر الفاء. وفي «ق» خمسة أقوال: أحدها: أنه قسم أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه جبل من زَبْرَجْدَة خضراء، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: خَلَقَ اللَّهُ جِبَلًا يُقَالُ لَهُ: «ق» محيط بالعالم، وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض، فإذا أراد الله ﷻ أن يزلزل قرية، أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية. وقال مجاهد: هو جبل محيط بالأرض. وروى عن الضحاك أنه من زمردة خضراء، وعليه كَتَفًا (١) السماء، وخُضْرَة السماء منه. والثالث: أنه جبل من نار في النار، قاله الضحاك في رواية عنه عن ابن عباس. والرابع: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة. والخامس: أنه حرف من كلمة. ثم فيه خمسة أقوال. أحدها: أنه افتتاح اسمه «قدير»، قاله أبو العالية. والثاني: أنه افتتاح أسمائه: القدير والقاهر والقريب ونحو ذلك، قاله القرظي. والثالث: أنه افتتاح «قضي الأمر»، وأنشدوا:

فُلْنَا لَهَا قِوْفِي فَقَالَ ثَقَافٌ (٢)

معناه: أقف، فاكتفت بالقاف من «أقف»، حكاة جماعة منهم الزجاج. والرابع: قف عند أمرنا ونهينا، ولا نَعُدُّهُمَا، قاله أبو بكر الورّاق. والخامس: قُلْ يا محمد، حكاة الثعلبي (٣).

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قال ابن عباس، وابن جبير: المَجِيد: الكريم. وفي جواب هذا القسم أربعة أقوال: أحدها: أنه مُضْمَر، تقديره: لتبَيَّنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ. قاله الفراء، وابن قتيبة، ويدلُّ عليه قول الكفار: ﴿هَذَا نَجْمٌ﴾

(١) وهي أول المفصل على الصحيح، وقد تقدم الكلام على ذلك في أول سورة (الحجرات) فليراجع، وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه السورة في المجامع الكبار كالعبد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والمعاقب والترغيب والترهيب.

(٢) في الأصلين: كتفا بالناء وهو تصحيف.

(٣) الرجز في «الطبري» ١٤٧/٢٦، و«القرظي» ٢/١٧، و«اللسان»: وقف.

(٤) قال ابن كثير: روي عن بعض السلف أنهم قالوا: (ق) جبل محيط بجميع الأرض يقال له: جبل قاف، وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، إما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما اتري في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأمتها - أحاديث عن النبي ﷺ وما بالمهد من يَدَم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمر، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كلبه، فليس من هذا القبيل والله أعلم، قال: وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، وعلى الله الحمد والمئة، ثم قال: والذي ثبت عن مجاهد أن (ق) حرف الهجاء، كقول: (ص، ذ، ح، ط، س، الم) ونحو ذلك. قال: وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة (البقرة) اهـ. وقد ذكرنا نحن الكلام على ذلك في أول سورة (الشعراء) فليراجع.

عَجِبَ. والثاني: أنه قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، فيكون المعنى: [قاف] والقرآن المجيد لقد عَلِمْنَا، فحُدِثَ اللّٰهُمَّ لَأَنْ مَا قَبْلَهَا عَوْضٌ مِنْهَا، كقوله: ﴿وَالْتَّيْسُ وَصَحْبُهَا... قَدْ أَلْفَحَ﴾ [النسر: ١-٩] أي: لقد أفلح، أجاز هذا القول الزجاج. والثالث: أنه قوله: ﴿مَا يَلِيْطُ مِنْ قَوْلِهِ﴾، حكى عن الأخفش. والرابع: أنه في سورة أخرى، حكاه أبو سليمان الدمشقي، ولم يبين في أي سورة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ مفسر في [ص: ٤] إلى قوله: ﴿تَعْتَهُ عَجِيبٌ﴾ أي: مُعْجِبٌ. ﴿أَوَدَا مِنَّا﴾ قال الأخفش: هذا الكلام على جواب، كأنه قيل لهم: إنكم ترجعون، فقالوا: أنذا متنا وكنا تراباً؟ وقال غيره: تقدير الكلام: ق والقرآن لِيُثْبِتَنَّ، فقال: أنذا متنا وكنا تراباً؛ والمعنى: أنثبت إذا كنا كذلك؟! وقال ابن جرير: لما تعجبوا من وعيد الله على تكذيبهم بمحمد ﷺ فقالوا: هذا شيء عجيب، كان كأنه قال لهم: ستعلمون إذا بعثتم ما يكون حالكم في تكذيبكم محمداً، فقالوا: أنذا متنا وكنا تراباً؟!

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ﴾ أي: ردُّ إلى الحياة ﴿بَعِيدٌ﴾ قال ابن قتيبة: أي: لا يكون. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من لحومهم ودماهم وأشعارهم إذا ماتوا، يعني أن ذلك لا يغزب عن علمه، ﴿وَعَدْنَاكَ﴾ مع علمنا بذلك ﴿كَيْتَبُ حَيْطٌ﴾ أي: حافظ لعددهم وأسمائهم ولما تنقص الأرض منهم، وهو اللوح المحفوظ قد أثبت فيه ما يكون. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ وهو القرآن. والمريخ: المختلط، قال ابن قتيبة: يقال: مَرَجَ [أمر] الناس، ومَرَجَ الدُّيْنُ، وأصل هذا أن يَفْلُقَ الشيء، ولا يستقر، يقال: مَرَجَ الخاتم في يدي: إذا قلق، للهزال. قال المفسرون: ومعنى اختلاط أمرهم: أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ مرّة: ساحر، ومرّة: شاعر، ومرّة: مُعَلِّمٌ، ويقولون للقرآن مرّة: سحر، ومرّة: مُفْتَرِيٌّ، ومرّة: رَجَزٌ، فكان أمرهم ملتبساً مختلطاً عليهم.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَزَقْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ١١ ﴿وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِيَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ١٢ ﴿تَبِيرَةٌ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُّثِيبٍ﴾ ١٣ ﴿وَرَزَقْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَلْبَسْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ اللَّصِيدِ﴾ ١٤ ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَبِيْدٌ﴾ ١٥ ﴿رِزْقًا لِلْبِئَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ لِلرُّوحِ﴾ ١٦ ﴿كَذَّبَتْ قَلْبَهُمْ قَوْمٌ نُّوحٍ وَأَصْحَبُ الْأرْيَاقِ وَرَمُودٌ﴾ ١٧ ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ ١٨ ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُجِّعُ كُلُّ كَذَّبِ الرُّسُلِ هُنَّ رَوْدِيٌّ﴾ ١٩ ﴿أَفَمِنَّا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ٢٠ ﴿ثُمَّ دَلَّهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعثِ عَلَى الْبَعثِ بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ بغير عمد ﴿وَرَزَقْنَاهَا﴾ بالكواكب ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي: من صدوع وشقوق. والزواج: الجنس. والبهيج: الحسن، قاله أبو عبيدة. وقال ابن قتيبة: البهيج: الذي يتهيج به.

قوله تعالى: ﴿تَبِيرَةٌ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُّثِيبٍ﴾ ١٣ قال الزجاج: أي: فعلنا ذلك لِنَبْصُرَ وَنَدَّلُ عَلَى الْقُدْرَةِ. والمُنْثَبِ: الذي يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ وَيَفْكُرُ فِي قُدْرَتِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو المطر ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: كثير الخير، فيه حياة كل شيء، ﴿فَأَلْبَسْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ وهي البساتين ﴿وَحَبَّ اللَّصِيدِ﴾ أراد: الحَبَّ الحَصِيدَ، فأضافه إلى نفسه، كقوله: ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] وقوله: ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فالْحَبْلُ هو الوريد، وكما يقال: صلاة الأولى، يراد: الصلاة الأولى، ويقال: مسجد الجامع، يراد: المسجد الجامع، وإنما تضاف هذه الأشياء إلى أنفسها لاختلاف لفظ اسمها، وهذا قول الفراء، وابن قتيبة. وقال غيرهما: أراد حَبَّ النَّبْتِ الحَصِيدِ. ﴿وَالنَّخْلَ﴾ أي: وأنبتنا النخل: ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ و«بَسُقَاتٍ»: طولها. قال ابن قتيبة: يقال: بَسَقَ الشيءُ يَبْسُقُ بَسُقَاتٍ: إذا طال، والنَّبِيدُ: المنضود بعضه فوق بعض، وذلك قبل أن يَفْتَحَ، فإذا انشَقَّ جُفُ طَلَعَهُ وَفَرَّقَ فَلَيْسَ بِنَبِيدٍ.

قوله تعالى: ﴿رِزْقًا لِلْبِئَادِ﴾ أي: أنبتنا هذه الأشياء للرزق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بالمطر ﴿بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ لِلرُّوحِ﴾ من القبور. ثم ذكر الأمم المكذبة بما بعد هذا، وقد سبق بيانه إلى قوله: ﴿هُنَّ رَوْدِيٌّ﴾ أي: وجب عليهم عذابي. ﴿أَفَمِنَّا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ هذا جواب لقولهم: ذلك رَجْعٌ بَعِيدٌ. والمعنى: أعجزنا عن ابتداء الخلق، وهو الخلق الأول، فنصبا بالبعث وهو الخلق الثاني؟! وهذا تقرير لهم، لأنهم اعترفوا أنه الخالق، وأنكروا البعث ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ أي: في شك ﴿مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو البعث.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ فَتَسَمَّرْ وَأَقْرَبْ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴿١٨﴾ وَمَعَاتٍ سَكَرَةً لَمَّا تَوَلَّى بَالِغًا ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ حَسِيبًا ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَمَعَاتٍ كُلِّ نَفْسٍ مِمَّا سَاءَتْ وَرَيْبٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكُنْفَنَا عَنْكَ فَغَلَّاهُ بِفِعْرِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني ابن آدم ﴿وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ فَتَسَمَّرْ﴾ أي: ما تحدّثه به نفسه. وقال الزجاج: نعلم ما يَكُنُّه في نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ﴾ أي: بالعلم ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ الحبل هو الوريد، وإنما أضافه إلى نفسه لما شرحناه آنفًا في قوله: ﴿وَحَبَّ النَّفْسِ﴾ [ق: ٩] قال الفراء: والوريد: عِرْقٌ بين الحُلُقُومِ والعِلْبَاوَيْنِ. وعنه أيضاً قال: عرق بين اللَّبَّةِ والعِلْبَاوَيْنِ. وقال الزجاج: الوريد: عِرْقٌ في باطن العُنُقِ، [وهما وريدان]، والعِلْبَاوان: العَصْبَتَانِ الصَّفْرَاوانِ في مَثْنِ العُنُقِ، واللَّبَّتَانِ: مَجْرَى الفُرْطِ في العُنُقِ. وقال ابن الأنباري: اللَّبَّةُ حيث يتذبذب الفُرْطُ مِمَّا يَثْرُبُ من شحمة الأذن. وحكى بعض العلماء أن الوريد: عِرْقٌ متفرّق في البدن مُخَالِطٌ لجميع الأعضاء، فلَمَّا كانت أبعاض الإنسان يحجب بعضها بعضاً، أعلّم أن علمه لا يحجب شيئاً. والمعنى: ونحن أقرب إليه حين يتلقّى المُتَلَقِّيَانِ، وهما الملكان الموكّلتان بابن آدم يتلقّيان عمه^(١). وقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يأخذان ذلك ويثبّتانه ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ كاتب الحسنات ﴿وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ كاتب السيئات. قال الزجاج: والمعنى: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فدلّ أحدهما على الآخر، فحذف المدلول عليه، قال الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَ رِضَايِ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ^(٢)
وقال آخر:

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَاللَّيْثِي بَرِيئاً، وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي^(٣)

المعنى: كنتُ منه بريئاً. وقال ابن قتيبة: القعيد بمعنى قاعد، كما يقال: «قديراً» بمعنى «قادر»، ويكون القعيد بمعنى مُقَاعِدِ، كالأكل والشرب بمنزلة: المُؤَاكِلِ والمُشَارِبِ.

قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ يعني الإنسان، أي: ما يتكلّم من كلام فيلفظه، أي: يرميه من فمه، ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أي: حافظ، وهو الملك الموكّل به، إمّا صاحب اليمين، وإمّا صاحب الشمال ﴿عَيْنٌ﴾ قال الزجاج: العتيد: الثابت للأزم، وقال غيره: العتيد: الحاضر معه أينما كان. وروى أبو أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يساره، فكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها له صاحب اليمين عشرأً، وإذا عمل سيئة، وأراد صاحب الشمال أن يكتبها، قال صاحب اليمين: أمسك، فيمنعك عنه سبع ساعات، فإن استغفر منها لم يكتب عليه شيء، وإن لم يستغفر كتب عليه سيئة واحدة^(٤)». وقال ابن عباس: جَعَلَ اللَّهُ

(١) قال ابن كثير: وقوله ﷺ: ﴿وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني ملائكة تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم، وإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس. ولكن اللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل: «وأنا أقرب إليه من حبل الوريد» وإنما قال: ﴿وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحاضر: ﴿وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني ملائكة. وكما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّكَ الْوَكَارُؤُنَآءُ لَمْ نَحْطَرِكْ﴾ قال: فالملائكة نزلت بالذكور وهو القرآن، بإذن الله ﷻ، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقتدار الله جل وعلا لهم على ذلك، قال: فالملك لمة من الإنسان كما أن للشيطان لمة، قال: وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ﴾ أي مترصد. اهـ. وقد سبقه إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وأوضحه في كتابه «شرح حديث النزول».

(٢) سبق تخرجه البيت في ٥٨٠ و ١١٥٢، وانظر «اللسان»: قعد.

(٣) البيت لعمر بن أحمد بن العمرد الباهلي، أو للأزرق بن طرفة، وهو في «الكتاب» ٢٨٠/١، ومعاني القرآن ٤٥٨/١، و«مجاز القرآن» ١٦١/٢، و«شواهد الكشاف» ١٢٨، و«الصحاح»، و«اللسان» و«التاج»: حول.

(٤) روى البغوي والثعلبي من طريق حماد بن سلمة عن جعفر بن الزبير عن القاسم بن محمد عن أبي أمامة وفيه ضعف، قال الحافظ ابن حجر في «تخرجه الكشاف»: ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني، وأخرجه البيهقي من هذا الوجه ومن رواية بشر بن نمير عن القاسم نحوه، وأخرجه الطبراني من رواية ثور بن يزيد عن القاسم نحوه، وروى أبو نعيم في «الحلية» وابن مردويه، من طريق إسماعيل بن عياش، عن عاصم بن رجا عن عروة بن روم عن القاسم عن أبي أمامة، وعند الطبري من طريق علي بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة قال: دخل عثمان بن عفان على =

على ابن آدم حافظين في الليل، وحافظين في النهار. واختلفوا هل يكتبان جميع أفعاله وأقواله على قولين: أحدهما: أنهما يكتبان عليه كل شيء حتى أتينه في مرضه، قاله مجاهد. والثاني: أنهما لا يكتبان إلا ما يؤجر [عليه]، أو يؤزر، قاله عكرمة. فأما مجلسهما، فقد نطق القرآن بأنهما عن اليمين وعن الشمال، وكذلك ذكرنا في حديث أبي أمامة. وقد روى عليّ كرم الله وجهه عن النبي ﷺ قال: «إن مقعد ملكيك على نيتيك، ولسانك قلمهما، وريقك مدادهما، وأنت تجري فيما لا يعينك»^(١) وروي عن الحسن والضحاك قالا: مجلسهما تحت الشعر على الحنك.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ وهي غمرته وشيئته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله وتدلّه على أنه ميت، ﴿بِالْحَقِّ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أن معناه: جاءت بحقيقة الموت. والثاني: بالحق من أمر الآخرة، فأبانت للإنسان ما لم يكن يبئاً له من أمر الآخرة. ذكر الوجهين الفراء، وابن جرير. وقرأ أبو بكر الصديق ﷺ: ﴿وجاءت سكرة الحق بالموت﴾، قال ابن جرير: ولهذه القراءة وجهان: أحدهما: أن يكون الحق هو الله تعالى، فيكون المعنى: وجاءت سكرة الله بالموت. والثاني: أن تكون السكرة هي الموت، أضيفت إلى نفسها، كقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ أَلْبِينٌ﴾ [الواقعة: ٩٥]، فيكون المعنى: وجاءت السكرة الحق بالموت، بتقديم «الحق». وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران: «وجاءت سكرات» على الجمع «الحق بالموت» بتقديم «الحق». وقرأ أبي بن كعب، وسعيد بن جبيرة: «وجاءت سكرات الموت» على الجمع «بالحق» بتأخير «الحق».

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: يقال للإنسان حينئذ: «ذلك» أي: ذلك الموت ﴿مَا كُنْتَ يَتَّعِدُ﴾ أي: تهرب وتفرّج^(٢). وقال ابن عباس: تكره.

قوله تعالى: ﴿وَفِيهِ فِي أَشْرِهِ﴾ يعني نفخة البعث ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمَ الرَّيْدِ﴾ أي: يوم وقوع الوعيد. قوله تعالى: ﴿مَمَّا سَاءَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن السائق: ملك يسوقها إلى محشرها، قاله أبو هريرة^(٣). والثاني: أنه قرينها من الشياطين، سمي سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثها. وفي الشهيد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ملك يشهد عليها بعملها، قاله عثمان بن عفان، والحسن. وقال مجاهد: الملكان: سائق، وشهيد. وقال ابن السائب: السائق: الذي كان يكتب عليه السيئات، والشهيد: الذي كان يكتب الحسنات. والثاني: أنه العمل يشهد على الإنسان، قاله أبو هريرة. والثالث: الأيدي والأرجل تشهد عليه بعمله، قاله الضحاك. وهل هذه الآيات عامة، أم خاصة؟ فيها قولان: أحدهما: أنها عامة، قاله الجمهور. والثاني: خاصة في الكافر، قاله الضحاك، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ أي: ويقال له: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ اليوم. وفي المخاطب بهذه الآيات ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الكافر، قاله ابن عباس، وصالح بن كيسان في آخرين. والثاني: أنه عام في البر والفاجر، قاله حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، واختاره ابن جرير. والثالث: أنه النبي ﷺ، وهذا قول ابن زيد^(٤). فعلى القول الأول يكون المعنى: لقد كنت في غفلة من هذا اليوم في الدنيا بكفرك به؛ وعلى الثاني: كنت غافلاً عن أهوال القيامة، ﴿كَلَّمْنَاكَ عَنَّا وَعَمَّا لَكَ﴾ الذي كان في الدنيا يغشى قلبك وسمعك وبصرك. وقيل معناه: أريناك ما كان مستوراً

= رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم مع العبد ملك؟... الحديث. وقد ذكره السيوطي في «الدر» ١٠٤/٦ من رواية الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن أبي أمامة ﷺ.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ١٠٣/٦ عن علي موقوفاً قال: أخرج ابن أبي الدنيا في «الصمت» عن علي قال: لسان الإنسان قلم الملك، وريقه مداد. وذكره مرفوعاً من رواية أبي نعيم، والديلمي عن معاذ بن جبل ﷺ: «إن الله لَغَفَّ الملكين الحافظين حتى أجلسهما على التاجلين وجعل لسانه قلمهما، وريقه مدادهما» والله أعلم.

(٢) قال ابن كثير: أي: هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص.

(٣) قال ابن كثير: هذا هو الظاهر من الآية الكريمة، وهو اختيار ابن جرير.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عُني بها البر والفاجر، لأن الله أتبع هذه الآيات قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ مَا نُوَسِّوْهُ بِرِدِّئِهِ﴾ والإنسان في هذا الموضع بمعنى الناس كلهم، غير مخصوص بهم بعضهم دون بعض، فمعلم إذا كان ذلك كذلك أن معنى قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ يَتَّعِدُ﴾ وإذا كان ذلك كذلك، كانت بينة صريحة ما قلنا. - اهـ.

عنك؛ وعلى الثالث: لقد كنت قبل الوحي في غفلة عما أوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بالوحي ﴿فَمَرَّكَ أَيَّامَ حَرِيدٍ﴾ وفي المراد بالبصر قولان: أحدهما: البصر المعروف، قاله الضحاک. والثاني: العلم، قاله الزجاج. وفي قوله: «اليوم» قولان: أحدهما: أنه يوم القيامة، قاله الأکرون. والثاني: أنه في الدنيا، وهذا على قول ابن زيد. فأما قوله: «حديده» فقال ابن قتيبة: الحديد بمعنى الحاد. أي: فأنت ثاقب البصر. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فبصرك حديد إلى لسان الميزان حين تُوزَنُ حسناتك وسيئاتك، قاله مجاهد. والثاني: أنه شاخص لا يطرف لمعاينة الآخرة، قاله مقاتل. والثالث: أنه العلم النافذ، قاله الزجاج.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿١٣﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كِئَابًا لِّلنَّارِ ﴿١٤﴾ مَتَّاعٍ لِّلْغَيْرِ مُنْتَمِرٍ ﴿١٥﴾ أَلَدَىٰ جَمَلٍ مَّعَ اللَّهِ إِنَّهَا مَأْوَىٰ قَائِمِيهِ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿١٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَفْتَيْتُمُوهَا وَلَكِنْ كَأَنَّ فِي صُلْبِكُم مَّيْمِدٌ ﴿١٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْهِ وَقَدْ قَدَّمْتُمُوهَا بِالْوَيْدِ ﴿١٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْمَيْدِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ قال مقاتل: هو ملكه الذي كان يكتب عمله السعي في دار الدنيا، يقول لربه: قد كتبت ما وكنتني به، فهذا عندي مُعَدُّ حاضر من عمله الخبيث، فقد أتيتك به ويعمله. وفي «ما» قولان: أحدهما: أنها بمعنى «من» قاله مجاهد. والثاني: أنها بمعنى الشيء، فتقديره: هذا شيء لديّ عتيد، قاله الزجاج. وقد ذكرنا معنى العتيد في هذه السورة (ق: ١٨)، فيقول الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ وفي معنى هذا الخطاب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مخاطبة للواحد بلفظ الخطاب للاثنتين، قال الفراء: والعرب تأمر الواحد والقوم بأمر الاثنتين، فيقولون للرجل: ويملك ارحلاها وازجرها، سمعتها من العرب، وأنشدني بعضهم:

فَقُلْتُ لِصَاحِبِي لَا تَخْبِسَانَا

وَأَنْشَدَنِي أَبُو نُزَوَانَ:

فَلِإِن تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ

ونرى أن ذلك منهم، لأن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه اثنان، وكذلك الرُفْقَةُ أدنى ما تكون ثلاثة، فجرى الكلام على صاحبه، ألا ترى الشعر أكثر شيء قِيلاً: يَا صَاحِبِي وَيَا خَلِيلِي. قال امرؤ القيس:

خَلِيلِي مُرًّا بِسِي عَالِي أُمِّ جُنْدَبِ

ثم قال:

أَلَمْ تَرَ أَنِي كَلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا

فرجع إلى الواحد، وأول كلامه اثنان، وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل، وقال: «ألقيا» خطاب للخازن، يعني خازن النار. والثاني: أنه فعل تُنِّي توكيداً، كأنه لما قال: «ألقيا»، ناب عن ألقى ألتى، وكذلك: وَقَفَا تَبْلِكُ (٥)، معناه: وَقَفَ، فلما ناب عن فعلين، تُنِّي، قاله المبرد. والثالث: أنه أمر للملكين، يعني السائق والشهيد، وهذا اختيار الزجاج. فأما «الكفار»، فهو أشدُّ مُبَالَعَةً من الكافر. و «العنيد» قد فسرناه في (مرد: ٤٥٩).

(١) البيت لمُفَرَّسِ بْنِ يَنْبُغِ الْأَسَدِيِّ، وهو في «مشكل القرآن» ٢٢٤، و«الطبري» ١٦٥/٢٦، و«الصاحح»، و«اللسان» و«التاج»: جزز، ونسبه الجوهري ليزيد ابن الطرية. وقوله: «فقلت لصاحبي» أراد بالصاحب من يحتطب له، يقول لصاحبه: لا تحبسا عن شيء اللحم بأن تقلع أصول الحطب وعروقه، بل اكتف بقطع الشخخ فو أسهل وأسرع.

(٢) البيت في «مشكل القرآن» ٢٢٥، و«الطبري» ١٦٥/٢٦، وقوله: «وإن تدعاني» أي: إن تركتاني حمت عرضي ممن يؤذيني، وإن زجرتاني انزجرت وصبرت.

(٣) في الأصل ايقضي، والتصويب من «الدبيان».

(٤) «ديوانه» ٤١، و«الطبري» ١٦٦/٢٦، و«مختار الشعر الجاهلي» ٤٣/١. و«اللبنات»: جمع لبانة، وهي الحاجة، والطارق: الذي يأتي ليلاً، يعني أنها طيبة الريح وإن لم تمس طيباً، وخاصة في الوقت الذي تتغير فيه الأفواه.

(٥) جزء من أول بيت في معلقة امرئ القيس، والبيت بتمامه:

قَفَا تَبْلِكُ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

بِسْفِطِ السُّوَى بَيْنَ السُّخُولِ نَحْوَمَلِ

قوله تعالى: ﴿مَتَّعَ لِلْعَيِّبِ﴾ في المراد بالخير هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الزكاة المفروضة، قاله قتادة. والثاني: أنه الإسلام، يمنع الناس من الدُّخُول فيه، قاله الضحاك، ومقاتل، وذكر أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، منع بني أخيه عن الإسلام^(١). والثالث: أنه عامٌ في كل خير من قول أو فعل، حكاه الماوردي^(٢).

قوله تعالى: ﴿مَمْتَرٌ﴾ أي: ظالم لا يُؤَيَّر بالتوحيد^(٣) ﴿مُرِيْبٌ﴾ أي: شاكٌ في الحق، من قولهم: أراب الرجل: إذا صار ذا ريب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبَدَّلَ﴾ فيه قولان: أحدهما: شيطانه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، والجمهور. وفي الكلام اختصار تقديره: إن الإنسان ادعى على قرينه من الشياطين أنه أضله فقال: ﴿رَبَّنَا مَا لَلْفِتْنَةِ﴾ أي: لم يكن لي قُوَّة على إضلاله بالإكراه، وإنما طغى هو بضلاله. والثاني: أنه الملك الذي كان يكُتِب السُّبُتَات. ثم فيما يدعيه الكافر على الملك قولان: أحدهما: [أنه] يقول: زاد عليّ فيما كتب، فيقول الملك: ما أطغيته، أي: ما زدته عليه، قاله سعيد بن جبير. والثاني: أنه يقول: كان يُعْجِلني عن التَّوْبَةِ، فيقول: ربَّنَا ما أطغيته، هذا قول الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي مَقَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: بعيد من الهدى، فيقول الله تعالى: ﴿لَا تَحْتَسِبُوا لَدَيْ﴾. في هذا الخصام قولان: أحدهما: أنه اعتذارهم بغير عذر، قاله ابن عباس. والثاني: أنه خصامهم مع قرانهم الذين أغوؤهم، قاله أبو العالية. فأما اختصاصهم فيما كان بينهم من المظالم في الدنيا، فلا يجوز أن يُهْمَل، لأنه يوم التناصف.

قوله تعالى: ﴿رَوَدَّ نَضْرَتَهُ إِذْ يَكْفُرُ بِالرَّبِّ﴾ أي: قد أخبرتكم على السنن الرُّسُل بعدايي في الآخرة لمن كفر. ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيْ﴾ فيه قولان: أحدهما: ما يبديل [القول] فيما وعدته من ثواب وعقاب، قاله الأثرون. والثاني: ما يكذب عندي ولا يغيّر القول عن جهته، لأنني أعلم الغيب وأعلم كيف ضلُّوا وكيف أضللتهم، هذا قول ابن السائب واختيار الفراء وابن قتيبة، ويدل عليه أنه قال تعالى: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيْ﴾ ولم يقل: ما يبديل قولي ﴿وَمَا أَنَا بِمُكَلِّمٍ لِلْمُتَّبِعِينَ﴾ فأزيد على إساءة المُسِيء، أو نقص من إحسان المُحْسِن.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ وَأَوَّلَتْ لِمَنَّةٍ لِّلسُّعْيَيْنِ عَرَبِيَّةٌ ﴿١٦١﴾ هَذَا مَا دُوْعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّلَابٍ حَافِظٍ ﴿١٦٢﴾ مَن حَافِظٌ الرَّحْمَنُ بِالرَّبِّ وَبِآيَاتِهِ يَقْبَلُ تُبَيِّبٌ ﴿١٦٣﴾ أَدْعُلُوهُمَا بِسَلْمٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْقُلُوبِ ﴿١٦٤﴾ لَمْ تَأْتِيَاكَ وَبِنَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿١٦٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْسَبِينَ ﴿١٦٦﴾ إِذْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِّمَن كَانَ لَمْ يَلْتَمِسْ أَوْ آتَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿١٦٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُؤْبٍ ﴿١٦٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿١٦٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿١٧٠﴾

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «يوم نقول» بالنون المفتوحة وضم القاف. [وقرأ نافع، وأبو بكر، والمفضل عن عاصم: «يوم يقول» بالياء المفتوحة وضم القاف]. وقرأ أبي بن كعب، والحسن، وعبد الوارث عن أبي عمرو: «يوم يقال» بياء مضمومة وفتح القاف وإثبات ألف. قال الزجاج: وانتصاب «يوم» على وجهين: أحدهما: على معنى: ما يبديل القول لديّ في ذلك اليوم. والثاني: على معنى: وأنذرتهم يوم نقول لجهنم. فأما فائدة سؤاله إياها، وقد علم هل امتلأت أم لا، فإنه توبيخ لمن أدخلها. وزيادة في مكروهه، ودليل على تصديق قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وفي قولها: ﴿هل من مزيد﴾ قولان عند أهل اللغة: أحدهما: أنها تقول ذلك بعد امتلائها، فالمعنى: هل بقي في موضع لم يمتلئ؟ أي: قد امتلأت. والثاني: أنها تقول تغيطاً على من عصى الله

(١) ذكره البغوي والخازن في «تفسيريهما» بنحوه بغير سند ولم يعزوه لأحد.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي أنه كل حق وجب لله تعالى أو لأدمي في ماله، قال: والخير في هذا الموضوع هو المال، وإنما قلنا: ذلك هو الصواب من القول، لأن الله تعالى ذكره عم بقوله: ﴿مَتَّعَ لِلْعَيِّبِ﴾ أنه يمنع الخير، ولم يخص منه شيئاً دون شيء، فذلك على كل خير يمكن منعه طالبه. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: «معتد» يقول: معتد على الناس بلسانه، بالبناء والفحش في المنطق، ويبدد بالسطوة والبطش ظملاً. اهـ. وقال ابن كثير: «معتد» أي: فيما يفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد، قال: وقال قتادة: معتد في منطقه وسيره وأمره. اهـ.

تعالى، وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهَا أَنْ تَمَيَّزَ وَتَخَاطَبَ، كما جَعَلَ فِي النَّمْلَةِ أَنْ قَالَتْ: ﴿أَدْخُلُوا سَكَنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨] وفي المخلوقات أَنْ تَسِيحَ بِحَمْدِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَزَلَّتْ رَحْمَةُ اللَّهِ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١) أَي: قُرِبَتْ لِلْمُتَّقِينَ [الشرك] ﴿غَيْرَ بَيِّنَةٍ﴾ أَي: جُعِلَتْ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ حَيْثُ يَرَاهَا أَهْلُ الْمَوْقِفِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿هَذَا﴾ الَّذِي تَرَوْنَهُ ﴿مَا تُرْمَكُونَ﴾ وَقَرَأَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَانَ، وَابْنُ عُمَرَ، وَمُجَاهِدٌ، وَعُكْرَمَةُ، وَابْنُ مَحِيصَنٍ: «يُوعِدُونَ» بِالْيَاءِ ﴿يَكُلُّ أَرَابٍ﴾ وَفِيهِ أَقْوَالٌ قَدْ ذَكَرْنَاهَا فِي [بني إسرائيل: ٢٥]. وَفِي ﴿حَافِظٌ﴾ قَوْلَانٌ: أَحَدُهُمَا: الْحَافِظُ لِلذَّنْبِ حَتَّى يَرْجِعَ عَنْهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: الْحَافِظُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَهُ مَقَاتِلٌ.

قوله تعالى: ﴿مَنْ حَيَّى الرَّحْمَنَ وَالرَّحِيمَ﴾ (٢) قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي [الأنبياء: ٤٩] ﴿وَجَاءَ بِقَلْبِي نُبِيًّا﴾ أَي: رَاجِعٌ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ. ﴿أَدْخُلُوا﴾ أَي: يُقَالُ لَهُمْ: أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴿بِسَلَامٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ سَلِمُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَسَلِمُوا فِيهَا مِنَ الْعُمُومِ وَالتَّغْيِيرِ وَالرِّوَالِ، وَسَلَّمَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ عَلَيْهِمْ ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فِي الْجَنَّةِ، لِأَنَّهُ لَا مَوْتَ فِيهَا وَلَا زَوَالَ. ﴿لَمْ تَأْتِكُمْ رِيَّاتٌ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ حَتَّى تَنْتَهِيَ سَأَلُهُمْ، فَيُعْطُونَ مَا سَأَلُوا، ثُمَّ يَزِيدُهُمْ مَا لَمْ يَسْأَلُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. وَلِلْمُفْسِّرِينَ فِي الْمَرَادِ بِهَذَا الْمَزِيدِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ ﷻ؛ رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قَالَ: يَتَجَلَّى لَهُمْ (٣). وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: يَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ تَعَالَى فِي كُلِّ جُمُعَةٍ (٤). وَالثَّانِي: أَنَّ السَّحَابَ يَمُرُّ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَمْطَرُهُمُ الْحَوْرَ، فَتَقُولُ الْحَوْرُ: نَحْنُ اللَّوَاتِي قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، حِكَاةُ الزَّجَاجِ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى مَا تَمَنَّوْهُ وَسَأَلُوا مِمَّا لَمْ تَسْمَعْ بِهِ أذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذَكَرَهُ أَبُو سَلِيمَانَ الدَّمَشَقِيُّ. ثُمَّ خَوْفُ كَفَارِ مَكَّةَ بِمَا بَعْدَ هَذَا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَتَقَبَّأُوا فِي الْبَلَدِ﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ «فَتَقَبَّأُوا» بِفَتْحِ النُّونِ وَالْقَافِ مَعَ تَشْدِيدِهَا. وَقَرَأَ أَبُو بَيِّنَةَ بْنِ كَعْبٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَالحَسَنُ، وَابْنُ السَّمِيعِ، وَيَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ كَذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَسَرُوا الْقَافَ عَلَى جِهَةِ الْأَمْرِ تَهْدِئاً. وَقَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ أَبِي عِبْلَةَ، وَعَبِيدُ بْنُ أَبِي عَمْرٍو: «فَتَقَبَّأُوا» بِفَتْحِ الْقَافِ وَتَخْفِيفِهَا. قَالَ الْفَرَّاءُ: وَمَعْنَى «فَتَقَبَّأُوا»: سَارُوا فِي الْبِلَادِ، فَهَلْ كَانَ لَهُمْ مِنَ الْمَوْتِ ﴿بَيْنَ عَجِيرَيْنِ﴾ فَأَضْمَرْتَ «كَانَ» هَاهُنَا، كَقَوْلِهِ: ﴿أَمَلَكُنَّهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] أَي: فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَاصِرٌ. وَمَنْ قَرَأَ «فَتَقَبَّأُوا» بِكَسْرِ الْقَافِ، فَإِنَّهُ كَالْوَعِيدِ؛ وَالْمَعْنَى: أَذْهَبُوا فِي الْبِلَادِ وَجِئُوا فَهَلْ مِنَ الْمَوْتِ مِنْ مَحِيصٍ!؟ وَقَالَ الزَّجَاجُ: «فَتَقَبَّأُوا»: طَرُقُوا وَفَتَّشُوا، فَلَمْ تَرَوْا مَحِيصاً مِنَ الْمَوْتِ. قَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ:

لَقَدْ تَقَبَّأْتُ فِي الْأَفْئِقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْعَزِيمَةِ بِالْإِيَابِ (٥)

فَأَمَّا الْمَحِيصُ فَهُوَ الْمَعْدِلُ؛ وَقَدْ اسْتَوْفِينَا شَرْحَهُ فِي سُورَةِ [النساء: ١٢١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يَعْنِي الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ إِهْلَاكِ الْقُرَى ﴿لَذِكْرٍ﴾ أَي: تَذَكُّرَةٍ وَعِظَةٍ ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَي: عَقْلٌ. قَالَ الْفَرَّاءُ: وَهَذَا جَائِزٌ فِي اللَّغَةِ أَنْ تَقُولَ: مَالِكٌ قَلْبٌ، وَمَا مَعَكَ قَلْبُكَ، تَرِيدُ الْعَقْلَ. وَقَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: لَمَّا كَانَ الْقَلْبُ مَوْضِعاً لِلْعَقْلِ كُنِيَ بِهِ [عنه]. وَقَالَ الزَّجَاجُ: الْمَعْنَى: لَمَنْ صَرَفَ قَلْبَهُ إِلَى التَّفَهُّمِ ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أَي: اسْتَمَعَ مِنِّي ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أَي: وَقَلْبُهُ فِيمَا يَسْمَعُ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: «هُوَ شَهِيدٌ» أَي: شَهِدَ لَيْسَ بِغَائِبٍ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ذَكَرَ الْمُفْسِّرُونَ أَنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، آخِرُهَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَاسْتِرَاحَ يَوْمَ السَّبْتِ، فَذَلِكَ لَا نَعْمَلُ فِيهِ شَيْئاً، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ،

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَي: مِنْ خَافِ اللَّهَ فِي سِرِّهِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ ﷻ، كَقَوْلِهِ ﷻ: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَآضَتْ عَيْنَاهُ».

(٢) ذَكَرَهُ الْأَلُوسِيُّ فِي «رُوحِ الْمَعَانِي» ١٧٣/٢٧ مِنْ رِوَايَةِ الْبَيْهَقِيِّ فِي «الرُّوْبِيَّةِ» وَالدَّبَلِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قَالَ: يَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ ﷻ.

(٣) ذَكَرَهُ الْأَلُوسِيُّ فِي «رُوحِ الْمَعَانِي» ١٧٣/٢٧ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ الْمُنْذَرِ وَجَمَاعَةٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي ذَلِكَ أَيْضاً: يَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ جُمُعَةٍ.

(٤) «دِيوَانَةٌ» ٩٩، وَفَسْجَازُ الْقُرْآنِ ٢/٢٢٤، وَ«الطَّبْرِيُّ» ١٧٦/٢٦، وَ«مَخْتَارُ الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ» ٨٠/١، وَ«اللِّسَانُ» وَ«التَّاجُ»: تَقَبَّ. وَفِي «الدِّيْوَانِ»: «وَقَدْ طَوَّفَتْ» بِدَلِّ «لَقَدْ تَقَبَّتْ».

فأكذبهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوبٍ﴾^(١). قال الزجاج: واللُثوب: الثَّعب والإعياء.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من يهتهم وكذبهم. قال المفسرون: ونسخ معنى قوله: «فاصبر» بآية السيف، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صلِّ بالثناء على ربك والتنزيه [له] ممَّا يقول المُنِيطلون ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ وهي صلاة الفجر. ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ فيها قولان: أحدهما: صلاة الظهر والعصر، قاله ابن عباس. والثاني: صلاة العصر، قاله قتادة. وروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث جرير بن عبد الله، قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ ليلة البدر، فقال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ حِينَئِذَا كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ»^(٢) في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاةٍ قبلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فافعلوا. وقرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها صلاة الليل كله، أي وقت صلَّي منه، قاله مجاهد. والثاني: صلاة العشاء، قاله ابن زيد. والثالث: صلاة المغرب والعشاء، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلشُّجُرِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة، وخلف: بكسر الهمزة؛ وقرأ الباقون بفتحها. قال الزجاج: من فتح ألف «أدبار» فهو جمع دُبُر، ومن كسرهما فهو مصدر: أدبر يُدبِر إِدْبَارًا. وللمفسرين في هذا التسييح ثلاثة أقوال: أحدها: أنه^(٤) الرُّكْعَتَانِ بعد صلاة المغرب، روي عن عمر، وعلي، والحسن بن علي ﷺ، وأبي هريرة، والحسن، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، وقاتدة في آخرين، وهو رواية العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه^(٤) النوافل بعد المفروضات، قاله ابن زيد. والثالث: أنه التسييح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات، رواه مجاهد عن ابن عباس. وروي عن أبي الأحوص أنه قال في جميع التسييح المذكور في هاتين الآيتين كذلك.

﴿وَأَسْتَبِيعَ يَوْمَ يَأْتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغَارِبِهَا﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا لَمَصِيرُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿١٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبِيعَ يَوْمَ يَأْتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغَارِبِهَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر «ينادي المنادي» بياء في الوصل. ووقف ابن كثير بياء، ووقف نافع وأبو عمرو بغير ياء. ووقف الباقون ووصلوا بياء. قال أبو سليمان الدمشقي: المعنى: واستمع حديث يوم ينادي المنادي. قال المفسرون: والمنادي: إسرائيل، يقف على صخرة بيت المقدس فينادي: يا أيها الناس هلمُّوا إلى الحساب، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء؛ وهذه هي النفخة الأخيرة. والمكان القريب: صخرة بيت المقدس. قال كعب ومقاتل: هي قرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلًا. وقال ابن السائب: بانتي عشر ميلًا. قال الزجاج: ويقال: إن تلك الصخرة في وسط الأرض^(٥).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ وهي [هذه] النَّفْخَةُ الثانية «بِالْحَقِّ» أي: بالبعث الذي لا شك فيه ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ من القبور. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ أي: نُمِيت في الدنيا ونُحْيِي للبعث ﴿وَإِنَّا لَمَصِيرُ﴾ بعد البعث، وهو قوله: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «تَشَقُّقُ» بتشديد الشين؛ وقرأ الباقون بتخفيفها: «سِرَاعًا» أي: فيخرجون منها سرعًا. ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: هَيِّنٌ. ثم عزى نبيِّه فقال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ في تكذيبك، يعني كفار مكة ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ قال ابن عباس: لم تبعث لتجبرهم على الإسلام إنما بُعثت مذكرًا،

(١) ذكره الطبري عن قتادة، وأورده السيوطي في «الدر» ١١٠/٦ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وابن المنذر عن قتادة، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٦ عن الحسن وقاتدة.

(٢) «لا تضامون» يجوز ضم التاء وفتحها. وهو بتشديد الميم من الضم، أي: لا يضم بعضهم إلى بعض، ولا يقول: أرنيه، بل كل ينفر برويته. وروي بتخفيف الميم من الضم، وهو الظلم، يعني: لا يتالكم ظلم بأن يرى بعضهم دون بعض، بل تستون كلكم في رؤيته تعالى.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» ٤٥٨/٨، ومسلم ٤٣٩/١، ورواه أحمد في «المستند» وأصحاب «السنن» عن جرير بن عبد الله ﷺ.

(٤) في الأصل: أنها.

(٥) ذكره البيهقي عن مقاتل بغير سند، والحاازن بغير سند ولم يعزه لأحد، وذكره ابن جرير الطبري ١٨٣/٢٦ عن قتادة عن كعب الأحبار مطولًا، ومختصرًا عن بريدة ﷺ، وأورده السيوطي في «الدر» ١١٠/٦ من رواية ابن عساکر والواسطي في «فضائل بيت المقدس» عن يزيد بن جابر.

وذلك قبل أن يؤمر بقتالهم؛ وأنكر الفراء هذا القول فقال: العرب لا تقول: «فَعَلْتُ» من «فَعَلْتُ» لا يقولون: «خَرَّجْتُ» يريدون «مُخْرِجٌ» ولا «دَخَلَ» يريدون «مُدْخِلٌ»، إنما يقولون «فَعَلْتُ» من «فَعَلْتُ»، وإنما الجَبَّارُ هنا في موضع السلطان من الجبرية، وقد قالت العرب في حرف واحد: «دَرَأْتُ» من «أَدْرَكْتُ» وهو شاذ، فإن جعل هذا على هذه الكلمة فهو وجه. وقال ابن قتيبة: «يَجْبَرُ» أي: بمسَلط، والجَبَّارُ: الملك، سُمِّيَ بذلك لِتَجْبِرَهُ، يقول: لَسْتُ عَلَيْهِم بِمَلِكٍ مُسَلِّطٍ. قال اليزيدي: لَسْتُ بِمَسَلِّطٍ فَتَقَهَّرَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ. وقال مقاتل: لِنَقْتُلَهُمْ. وذكر المفسرون أن قوله: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» منسوخ بأية السيف.

قوله تعالى: «تَذَكَّرَ بِالْقُرْآنِ» أي: فَعِظَ بِهِ «مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ» [وقرأ يعقوب: «وعيدي» بياء في الحالين]، أي: ما أوعدتُ مَنْ عَصَانِي مِنَ الْعَذَابِ^(١).



(١) قال ابن كثير: «تَذَكَّرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ» أي: بلغ أنت رسالة ربك، وإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده، ويرجو وعده كقوله تعالى: «إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَالْحَيَاتُ الْوَعْدَانُ» وقولوا جل جلاله: «تَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ ۗ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَوِّرٍ ۝١٠ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَوِّرٍ»، «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَوِّرٍ»، «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَوِّرٍ وَتَلْحِقُونَ اللَّهَ بِتَبْءِهِ مِنْ يَشَاءُ»، «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»، ولهذا قال تعالى هاهنا: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَّرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ» اهـ.

سورة الذاريات

مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوجًا ﴿١﴾ فَالْمَخْلُوعَاتِ ﴿٢﴾ وَالْمَلَكُوتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ وَالْمَفْصَلَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الْيَوْمَ لَرِجٌّ ﴿٦﴾ وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْمُنَبِّهِ ﴿٧﴾ إِنَّكَ لَنَى قَوْلِ مَخْلُوفٍ ﴿٨﴾ يُؤْتِكُ عَنْهُ مِنَ الْغَيْبِ ﴿٩﴾ وَيُؤْتِي السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْأَبْصَارَ ﴿١٠﴾ وَيَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١١﴾ ذُوقُوا عَذَابَ الْغَوْلِ ﴿١٢﴾ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُسْتَعْتَلُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّ السَّمْعِينَ فِي جَنَّتِ رَعِينٍ ﴿١٤﴾ وَالْبَصِيرِينَ مَا بَدَأْتَهُمْ رِجْمًا ﴿١٥﴾ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُخْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ الْبَيْتِ مَا يَجْعَلُونَ ﴿١٧﴾ وَالْأَسْخَارَ هُمْ يَسْتَفْتِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْزَلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ تَرَبَّيْتُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوجًا﴾ يعني الرِّيحُ، يقال: ذَرَّتْ الرِّيحُ التُّرابَ تَذْرُوهُ ذُرُوجًا: إذا فَرَّقْتَهُ. قال الزجاج: يقال: ذَرَّتْ فهي ذارية، وأذرت فهي مُذرية، بمعنى واحد. ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾، مجرور على القَسَمِ، المعنى: أخليف بالذَّارياتِ وهذه الأشياء، والجواب ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ﴾، قال قوم: المعنى: وربُّ الذاريات، وربُّ الجاريات.

قوله تعالى: ﴿فَالْمَخْلُوعَاتِ﴾ يعني السحاب التي تحمل وقرها من الماء. ﴿وَالْمَلَكُوتِ يُسْرًا﴾ يعني السفن تجري ميسرة [في الماء] جرياً سهلاً. ﴿وَالْمَفْصَلَاتِ أَمْرًا﴾ يعني الملائكة تقسم الأمور على ما أمر الله به^(١). قال ابن السائب: والمقسمات أربعة، جبريل، وهو صاحب الوحي والغلظة، وميكائيل، وهو صاحب الرزق والرَّحمة، وإسرافيل، وهو صاحب الصُّور واللُّوح، وعزرائيل، وهو قابض الأرواح. وإنما أقسم بهذه الأشياء لِمَا فيها من الدلالة على صنعه وقدرته. ثم ذكر المُقسَم عليه فقال: ﴿إِنَّا مَا نُوعَدُوكُمْ﴾ أي: من الثواب والعقاب يوم القيامة ﴿لَصَادِقٍ﴾ أي: لَحَقٍّ. ﴿وَإِنَّ الْيَوْمَ لَرِجٌّ﴾ فيه قولان: أحدهما: الحساب. والثاني: الجزءاء ﴿رِجٌّ﴾ أي: لكانن. ثم ذكر قَسَمًا آخر فقال: ﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْمُنَبِّهِ﴾ وقرأ عمر بن الخطاب، وأبو رزين: «الحَبِك» بكسر الحاء والباء جميعاً. وقرأ عثمان بن عفان، والشعبي، وأبو العالية، وأبو حيوية: «الحَبِك» بكسر الحاء وإسكان الباء. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس وأبو رجاء، وابن أبي عبيدة: «الحُبْك» برفع الحاء وإسكان الباء. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة: «الحَبِك» بفتح الحاء والباء جميعاً. وقرأ أبو الدرداء، وأبو الجوزاء، وأبو المتوكل، وأبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «الحَبِك» بفتح الحاء وكسر الباء. ثم في معنى «الحبك» أربعة أقوال: أحدها: ذات الخَلْقِ الحَسَنِ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثاني: البُنيان المُشَقَّن، قاله مجاهد. والثالث: ذات الرُّبَيْنة، قاله سعيد بن جبيرة. وقال الحسن: حُبْكُهَا: نُجُومُهَا. والرابع: ذات الطرائق، قاله الضحاك واللغويون^(٢). وقال الفراء: الحُبْك: تَكْشُرُ كُلُّ شَيْءٍ كَالرَّمْلِ إِذَا مَرَّتْ بِهِ الرِّيحُ السَّاكِنَةُ، والماء القائم إذا مَرَّتْ بِهِ الرِّيحُ، والشَّعْرَةُ الجَعْدَةُ تَكْشُرُهَا حُبْكٌ، وواحد الحُبْك: حَبَاكٌ وَحَبِيكَةٌ. وقال الزجاج: أهل اللغة يقولون: الحُبْك: الطرائق الحَسَنَةُ، والمَحْبُوكُ في اللغة: ما أُجيدَ عَمَلُهُ، وكل ما تراه من الطرائق

(١) قال السيوطي في «الدرر» ١١١/٦: أخرج عبد الرزاق، والفرهاني، وسعيد بن منصور، والحارث بن أبي أسامة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «المصاحف» والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» من طرق عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوجًا﴾ قال: الرياح ﴿فَالْمَخْلُوعَاتِ﴾ قال: السحاب ﴿وَالْمَلَكُوتِ يُسْرًا﴾ قال: السفن ﴿وَالْمَفْصَلَاتِ أَمْرًا﴾ قال: الملائكة.

(٢) قال ابن كثير: وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس رضي الله عنه، فإنها من حسنها مرتفعة شفاقة صفيقة شديدة البهاء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

في الماء وفي الرَّمْل إذا أصابته الرِّيح فهو حُبْك. وروي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: هذه هي السماء السابعة. ثم ذكر جواب القَسَم الثاني، قال: ﴿إِنكُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿أَلَيْ قَوْلِي تَحْلِي﴾ في أمر محمد ﷺ، بعضكم يقول: شاعر، وبعضكم يقول: مجنون. وفي القرآن [بعضكم] يقول: سخر، وبعضكم يقول: كهانة ورَجَز، إلى غير ذلك. ﴿يُؤَلِّكُ عَنْهُ مَنَ أُولَئِكَ﴾ أي: يُضَرِّفُ عن الإيمان [به] مَن ضَرَفَ [فحَرَمَهُ]، [والهاء في] «عنه» عائدة إلى القرآن، وقيل: يُضَرِّفُ عن هذا القول، أي: من أجله وسببه عن الإيمان من ضَرَفَ. وقرأ قتادة: «مَنْ أُولَئِكَ» بفتح الألف والفاء. وقرأ عمرو بن دينار: «مَنْ أُولَئِكَ» بفتح الألف وكسر الفاء. ﴿يُنَزِّلُ الْمَرْصُومَ﴾ قال الفراء: يعني [لعن] الكذَّابون الذين قالوا: إن النبي ﷺ ساحر وكذَّاب وشاعر، خَرَصُوا ما لا علم لهم به. وفي رواية العوفي عن ابن عباس: أنهم الكهنة. وقال ابن الأنباري: والقتل إذ أخبر عن الله به فهو بمعنى اللعنة، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول المهلك.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرُو﴾ أي: في عمى وجهالة بأمر الآخرة: ﴿سَاهُونَ﴾ أي: غافلون. والسَّهْوُ: الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه. ﴿تَسْتَأْذِنُ بَآئِنَ يَوْمِ الَّذِينَ﴾ أي: يقولون: يا محمد متى يوم الجزاء؟! تكذيباً منهم واستهزاء. ثم أخبر عن ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ﴾ قال الزجاج: «اليوم» منصوب على معنى: يقع الجزاء يوم هُم على النَّارِ ﴿بِقَتْنُوكَ﴾ أي: يُحَرِّقُونَ ويمدَّبُونَ، ومن ذلك يقال للحجارة السُّود التي كانها قد أحرقت بالنار: القَتِين.

قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا﴾ المعنى: يقال لهم: ذوقوا ﴿وَيَنْتَكِرُوا﴾ وفيها قولان: أحدهما: تكذيبكم، قاله ابن عباس. والثاني: حريقكم، قاله مجاهد. قال أبو عبيدة: هاهنا تم الكلام، ثم انتنف، فقال: ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ قال المفسرون: يعني الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا استهزاء. ثم ذكر ما وعد الله لأهل الجنة فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وقد سبق شرح هذا [البقرة: ٢٥، الحجر: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ قال الزجاج؛ هو منصوب على الحال، فالمعنى: في جنات وعيون في حال أخذ ﴿مَا آتَيْنَهُمْ رِزْقًا﴾ قال المفسرون: أي ما أعطاهم الله من الكرامة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في أعمالهم. وفي الآية وجه آخر: ﴿بِإِذْنِهِ مَا آتَيْنَهُمْ﴾ أي: عاملين بما أمرهم به من الفرائض ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا﴾ أن تفرض الفرائض عليهم، ﴿بِحُسْنٍ﴾ أي: مطيعين، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية مسلم البطين^(١). ثم ذكر إحسانهم فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ﴾ والهُجُوع: التَّوَمُّ بالليل دون النهار^(٢). وفي «ما» قولان: أحدهما: النفي. ثم في المعنى قولان: أحدهما: كانوا يسهرون قليلاً من الليل. قال أنس بن مالك، وأبو العالية: هو ما بين المغرب والعشاء. والثاني: كانوا ما ينامون قليلاً من الليل. واختار قوم الوقف على قوله: «قليلاً» على معنى: كانوا من الناس قليلاً، ثم ابتداءً فقال: «من الليل ما يهجمون» على معنى نفي النوم عنهم البتة، وهذا مذهب الضحَّاك، ومقاتل. والقول الثاني: أن «ما» بمعنى الذي، فالمعنى: كانوا قليلاً من الليل الذي يهجمونه، وهذا مذهب الحسن، والأحف بن قيس، والزهري، وعلى هذا يحتمل أن تكون «ما» زائدة.

قوله تعالى: ﴿وَبِأَلْسَانِهِمْ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وقد شرحناه في لك عمران: [١٧].

قوله تعالى: ﴿رَفِئَتْ أَمْوَالُهُمْ حَقًّا﴾ أي: نصيب، وفيه قولان: أحدهما: أنه ما يصلون به رَجِمًا، أو يقرُّون به ضيفاً، أو يحملون به كلاً، أو يعينون به محروماً، وليس بالزُّكَاة، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الزُّكَاة، قاله قتادة، وابن سيرين.

(١) رواه ابن جرير ١٩٦/٢٦ وفي سننه ضعف وانقطاع، وذكره ابن كثير عن عثمان بن أبي شيبة بسند حسن. وقد رد ابن كثير على ابن جرير هذا التفسير الذي أورده في «تفسيره» واقتصر عليه بقوله: والذي فسر به ابن جرير، فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ حال من قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ فالمتقون في حال كونهم في الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم، أي: من النعم والسرور والنعطة. وقوله ﷺ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ﴾ في الدار الدنيا ﴿بِحُسْنٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَتْلُوا مِن آيَاتِ هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾.

(٢) روى أحمد في «المستدرك» والترمذي وابن ماجه في «سننهما» بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس عليه (أي: ذهبوا)، مسرعين إليه فكانت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «أفئوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تلذخوا الجنة بسلام».

قوله تعالى: ﴿لَسَالٍ﴾ وهو الطالب. وفي: «المَحْرُوم» ثمانية أقوال: أحدها: أنه الذي ليس له سهم في شيء المسلمين، وهو المَحَارِف^(١)، قاله ابن عباس. وقال إبراهيم: هو الذي لا سهم له في الغنيمة. والثاني: أنه الذي لا ينمي له شيء، قاله مجاهد، وكذلك قال عطاء: هو المحروم في الرزق والتجارة. والثالث: أنه المسلم الفقير، قاله محمد بن علي. والرابع: أنه المتعفف الذي لا يسأل شيئاً، قاله قتادة، والزهري. والخامس: أنه الذي يجيء بعد الغنيمة، وليس له فيها سهم، قاله الحسن بن محمد ابن الحنفية. والسادس: أنه المصاب ثمرته وزرعه أو نسل ماشيته، قاله ابن زيد. والسابع: أنه المملوك، حكاه الماوردي. والثامن: أنه الكلب، روي عن عمر بن عبد العزيز. وكان الشعبي يقول: أعياني أن أعلم ما المحروم. وأظهر الأقوال قول قتادة والزهري، لأنه قرنه بالسائل، والمتعفف لا يسأل - ولا يكاد الناس يعطون من لا يسأل - ثم يتحفظ بالمتعفف من ظهور أثر الفاقة عليه، فيكون محروماً من قيل نفسه حين لم يسأل، ومن قيل الناس حين لا يعطونه، وإنما يفطن له متيقظ. وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة، ولا يصح.

قوله تعالى: ﴿رَبِّيَ الْأَبْيَضَ بَيِّنَةً﴾ كالجبال والأنهار والأشجار والثمار وغير ذلك ﴿لِتُرْفَقِينَ﴾ بالله ﷻ الذين يعرفونه بصنغته. ﴿رَبِّيَ أَسْوَدًا﴾ آيات إذ كنتم نطفاً، ثم عظاماً، ثم علقاً، ثم مضغاً، إلى غير ذلك من أحوال الاختلاف، ثم اختلاف الصور والألوان والطباع، وتقويم الأدوات، والسمع والبصر والعقل، وتسهيل سبيل الحدث، إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم. وتم الكلام عند قوله: «وفي أنفسكم»، ثم قال: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال مقاتل: أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث^(٢).

قوله تعالى: ﴿رَبِّيَ الْكَلْبَ وَيَرْفُقُ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وحמיד، وأبو حصين الأسدي: «أرزاقكم» براء ساكنة وبألف بين الزاي والقاف. وقرأ ابن مسعود، والضحاك، وأبو نهيك: «أرزاقكم» بفتح الزاء وكسر الزاي وبألف بينهما. وعن ابن محيصن^(٣) كهاتين القراءتين. وفيه قولان: أحدهما: أنه المطر، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وليث عن مجاهد، وهو قول الجمهور. والثاني: الجنة، رواه ابن أبي نجیح عن مجاهد. وفي قوله: ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنه الخير والشر كلاهما يأتي من السماء، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وابن أبي نجیح عن مجاهد. والثاني: الجنة، رواه ليث عن مجاهد. قال أبو عبيدة: في هذه الآية مضمرة مجازة: عند من في السماء رزقكم، وعنده ما توعدون، والعرب تُضمِر، قال نابغة [ذبيان]:

كَأَنَّكَ مِنْ جَمَالِ بَنِي أَيْشٍ

يُقَعِّقُ حَلْفَ رَجُلَيْهِ بِسَنٍ^(٤)

أراد: كأنك جمل من جمال بني أيش.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ قال الزجاج: يعني ما ذكره من أمر الآيات والرزق وما توعدون وأمر النبي ﷺ ﴿يُنزَلُ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «يُنزَلُ» برفع اللام. وقرأ الباقون بنصب اللام. قال الزجاج: فمن رفع «يُنزَلُ» فهي من صفة الحق، والمعنى: إنه لَحَقُّ يَنْزَلُ نَطَقَكُمْ؛ ومن نصب فعلى ضربين: أحدهما: أن يكون في موضع رفع، إلا أنه لما أُضيف إلى «أَنْ» فُتِح. والثاني: أن يكون منصوباً على التأكيد، على معنى: إنه لَحَقُّ حَقًّا يَنْزَلُ نَطَقَكُمْ، وهذا الكلام كما تقول: إنه لَحَقُّ كما أنك تتكلم.

﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثٌ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ لِآبَائِهِمْ مِنَ الْقَدَمِ شَيْءٌ أَذْهَبُوا بِهِ﴾ ﴿إِذْ سَأَلُوا عَلَيْهِ فَمَا سَلَتْهُ قَالَ أَتَقْنُونَ﴾ ﴿فَرَأَى إِلَهُهُ فَخَدَّ يَدَيْهِ سِيمِينَ﴾ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿فَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَظُوا بَشَرَتَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرْرِهَا حَقًّا﴾

(١) قال في «الصحاح»: ورجل محارف، بفتح الحاء، أي محدود محروم، وهو خلاف قولك: مبارك، وقد حورف كسب فلان: إذا شدد عليه في معاشه، كأنه ميل برزقه عنه.

(٢) قال ابن جرير الطبري: ﴿رَبِّيَ أَسْوَدًا﴾ أيضاً أيها الناس آيات وعبر تلكم على وحدانية صانعكم، وأنه لا إله لكم سواه، إذ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه إياكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يقول: أفلا تظنون في ذلك فتصنوا فيه فتعلموا حقيقة وحدانية خالقكم؟!.

(٣) في الأصل: «محيصن».

(٤) تقدم البيت ٥٥٨.

رَحْمَتَهَا وَقَاتَ جَعُورَ عَقِيمٍ ﴿١٦١﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿١٦٢﴾ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿١٦٣﴾ قَالُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاكَ لِآلِ قَوْمِ مَكْرَهٍ مِنْ آلِ مَكْرَهٍ أَنْ يَرْسَلَ عَلَيْهِمْ حِسَابًا مِنْ رَبِّهِمْ ﴿١٦٤﴾ قَالُوا قَاتِلْهُمْ فَمَا جُنَادُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِنَّهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿١٦٥﴾ قَالُوا قَاتِلْهُمْ فَمَا جُنَادُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِنَّهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا قَاتِلْهُمْ فَمَا جُنَادُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِنَّهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَيْثُ صَبَّ إِلَيْهِمُ الْمَكْرُوبِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾ «هل» بمعنى «قد» في قول ابن عباس، ومقاتل، فيكون المعنى: قد أتاك فاستمع تقضضه عليك، وضيغه: هم الذين جاؤوا بالبشرى. وقد ذكرنا عددهم في [هود: ٧٠]، وذكرنا هناك معنى الضيف. وفي معنى «المُكْرَبِينَ» أربعة أقوال: أحدها: لأنه أكرمهم بالعبء، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثاني: بأن خدمهم هو وامراته بأنفسهما، قاله السدي. والثالث: أنهم مُكْرَمُونَ عند الله، قاله عبد العزيز بن يحيى. والرابع: لأنهم أضياف، والأضياف مُكْرَمُونَ، قاله أبو بكر الوراق.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ قد ذكرناه في [هود: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿قَوْمٌ شُكِرُوا﴾ قال الزجاج: ارتفع على معنى: أنتم قومٌ مُنْكَرُونَ. وللمفسرين في سبب إنكارهم أربعة أقوال: أحدها: لأنه لم يعرفهم، قاله ابن عباس. والثاني: لأنهم سلموا عليه، فأنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض، قاله أبو العالية. والثالث: لأنهم دخلوا [عليه] من غير استئذان. والرابع: لأنه رأى فيهم صورة البشر وصورة الملائكة.

قوله تعالى: ﴿رَأَى لِكَ آتٍ أَمْلِيَةً﴾ قال ابن قتيبة: أي: عدل إليهم في حقيقته، ولا يكون الرواغ إلا أن تخفي ذهابك ومجيئك.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهُمُ عِتْقًا﴾ وكان مشورتياً ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: والمعنى: فقربه إليهم ليأكلوا منه، فلم يأكلوا، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ على التكثير، أي: أمركم في ترك الأكل مما أنكره^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قد شرحناه في [هود: ٧٠]، وذكرنا معنى: «غلام عليم» في [الحجر: ٥٤]. ﴿فَأَنْبَأَتْ أُمَّرَأَتُهُمْ﴾ وهي: سارة. قال الفراء وابن قتيبة: لم تُقْبَلِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، وإنما هو كقولك: أقبل يَشْتُمْنِي، وأقبل يصيح ويتكلم، أي: أخذ في ذلك، والصرّة: الصبيحة. وقال أبو عبيدة: الصرّة: شدة الصوت. وفيما قالت في صيحتها قولان: أحدهما: أنها تأوهت، قاله قتادة. والثاني: أنها قالت: يا ولينا، ذكره الفراء.

قوله تعالى: ﴿فَصَكَتَ رَحْمَتَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: لطمت وجهها، قاله ابن عباس. والثاني: ضربت جبينها تعجباً، قاله مجاهد. ومعنى الصك: ضرب الشيء بالشيء العريض^(٢). ﴿وَقَاتَ جَعُورًا﴾ قال الفراء: هذا مرفوع بإضمار «أَتَيْدُ عَجُورًا». وقال الزجاج: المعنى: أنا عجوز عقيم، فكيف ألد؟ وقد ذكرنا معنى «العقيم» في [هود: ٧٢]. ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ أنك ستلدين غلاماً؛ والمعنى: إنما نخبرك عن الله ﷻ وهو حكيم عليم يُقَدِّرُ أَنْ يَجْعَلَ الْعَقِيمَ وَلُودًا، فعلم [حينئذ] إبراهيم أنهم ملائكة. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ﴾ مفسر في [الحجر: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿حِسَابًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس: هو الأجر.

قوله تعالى: ﴿سُوءَ عَذَابٍ﴾ قد شرحناه في [هود: ٨٣].

قوله تعالى: ﴿الْمُتَّسِرِينَ﴾ قال ابن عباس: للمشركين.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا﴾، أي: من قري لوط ﴿وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ الآية.

[هود: ٨٢].

(١) قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾: تَلَفٌ فِي الْعِبَارَةِ وَعَرَضٌ حَسَنٌ، وَهَذِهِ الْآيَةُ انْتَضَمَتْ آدَابُ الضِّيَافَةِ، فَإِنَّهُ جَاءَ بِطَعَامٍ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ بِسُرْعَةٍ، وَلَمْ يَمْتَنِ عَلَيْهِمْ أَوْلًا فَقَالَ: نَاتِيكُمْ بِطَعَامٍ. بَلْ جَاءَ بِهِ بِسُرْعَةٍ وَخَفَاءً، وَأَتَى بِأَفْضَلِ مَا وَجَدَ مِنْ مَالِهِ وَهُوَ عَجَلٌ نَتِي سَمِينٌ مِثْوِي. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ، لَمْ يَضَعُهُ، وَقَالَ: اقْتَرَبُوا، بَلْ وَضَعَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ أَمْرًا يَشُقُّ عَلَى سَامِعِهِ بِصِيغَةِ الْجَزْمِ، بَلْ قَالَ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ عَلَى سَبِيلِ الْعَرَضِ وَالْتِظْفُقِ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ الْيَوْمَ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَضَلَّ وَتَحْسَنَ وَتَصَدَّقَ فَافْعَلْ.

(٢) قال في «اللسان»: الصك: الضرب الشديد بالشيء العريض، وقيل: هو الضرب عامة بأي شيء كان، صكه يصكه صكاً.

﴿مَا وَدَعْنَا فِيهَا عَبْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهو لوط وابتناه، وصفهم الله ﷻ بالإيمان والإسلام، لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم.

﴿وَرَزَقْنَا يَبْنَءَ آيَةَ﴾ أي: علامة للخائفين من عذاب الله تذلُّهم على أن الله أهلهم. وقد شرحنا هذا في المنكوب: ٢٣٥ وبيَّنا المكني عنها.

﴿وَفِي مِصْرَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٨﴾ نَتَوَكَّلْ بِرُكْبِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ جِنُّونٌ ﴿٢٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٣٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٣١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٣٢﴾ وَفِي نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ تَتَّبِعُوا حَتَّىٰ جِئْتُمْ مَعِيَ فَهَاتُوا بُرْهَانَ رَبِّكُمْ فَاتَّخَذْتُمُ الصَّخْرَةَ الْحَكِيمَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٣٣﴾ مَا اسْتَلْعَمُوا مِنْ بَابِ وَنَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿٣٤﴾ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٥﴾ وَالصَّخْرَةَ بَيْنَهَا بِابْتِدَاءٍ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَالْأَرْضَ فَرَقْنَاهَا فِيمَافِ الْمَهْدُونَ ﴿٣٧﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَجُلَيْنِ لِمَا لَكُرَّ نَذْرُونَ ﴿٣٨﴾ فَعَرَّوْا إِلَى اللَّهِ إِنْ لَكَ مِنْهُ دَبْرٌ مُبِينٌ ﴿٣٩﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنْ لَكَ مِنْهُ دَبْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِي مِصْرَ﴾ أي: وفيه أيضاً آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة ظاهرة ﴿نَتَوَكَّلْ﴾ أي: أعرض ﴿بِرُكْبِهِ﴾ قال مجاهد: بأصحابه. وقال أبو عبيدة: بركته و «بجانبه» سواء، إنما هي ناحيته ﴿وَقَالَ سِحْرٌ﴾ أي: وقال لموسى: هذا ساحر ﴿أَوْ جِنُّونٌ﴾ وكان أبو عبيدة يقول: «أو» بمعنى الواو. فأما «الْيَمِّ» فقد ذكرناه في الأعراف: ١٣٦ و «مُليم» في الصافات: ١٤٢.

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أي: في إهلاكهم آية أيضاً ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (١) وهي التي لا خير فيها ولا بركة، لا تُلْقِحُ شَجراً وَلَا تَحْمِلُ مَطْراً، وإنما هي للإهلاك. وقال سعيد بن المسيب: هي الجَنُوبُ. ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: من أنفسهم وأموالهم، ﴿إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهالك البالي. قال الفراء: الرَّمِيمُ: نبات الأرض إذا بَيَسَ وَوَيْسَ. وقال الزجاج: الرَّمِيمُ: الورد الجاف المتحطم مثل الهشيم. ﴿وَفِي نُوحٍ﴾ آية أيضاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ تَتَّبِعُوا حَتَّىٰ جِئْتُمْ مَعِيَ﴾ في قولان: أحدهما: أنه قيل لهم: تَمَتُّعُوا فِي الدُّنْيَا إِلَى وَقْتِ انْقِضَاءِ أَجَالِكُمْ تَهْدُوا لَهُمْ. والثاني: أن صالحاً قال لهم بعد عقر الناقة: تَمَتُّعُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؛ فَكَانَ الْجِنُّ وَقَتْ فَنَاءَ أَجَالِهِمْ، ﴿فَمَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ قال مقاتل: عصوا أمره ﴿فَاتَّخَذْتُمُ الصَّخْرَةَ﴾ يعني العذاب، وهو الموت من صيحة جبريل. وقرأ الكسائي وحده: «الصَّخْرَةَ» [يسكون العين من غير الف]؛ وهي الصَّوْتُ الَّذِي يَكُونُ عَنِ الصَّاعِقَةِ.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ في قولان: أحدهما: يَرَوْنَ ذَلِكَ عِيَانًا. والثاني: وهم يَنْتَظِرُونَ العذاب، فاتاهم صيحة يوم السبت.

قوله تعالى: ﴿مَا اسْتَلْعَمُوا مِنْ بَابِ﴾ في قولان: أحدهما: ما استطاعوا نُهوضاً من تلك الصَّرعَةِ. والثاني: ما أطاقوا ثبوتاً لعذاب الله ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ﴾ أي: ممتنعين من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ﴾ قرأ أبو عمرو إلا عبد الوارث، وحمزة، والكسائي: بخفض الميم، وروى عبد الوارث رفع الميم، والباقون بنصبها. قال الزجاج: من خفض القوم فالمعنى: وفي قوم نوح آية، ومن نصب فهو عطف على معنى قوله: ﴿فَاتَّخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ﴾ فإن معناه: أهلكناهم، فيكون المعنى: وأهلكنا قوم نوح، والأحسن - والله أعلم - أن يكون محمولاً على قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ لأن المعنى: أغرقناه، وأغرقنا قوم نوح. ﴿وَالصَّخْرَةَ بَيْنَهَا﴾ المعنى: وبيننا السماء وبيننا، ﴿بِابْتِدَاءٍ﴾ أي بقوة، وكذلك قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وسائر المفسرين واللغويين: [بأيد] أي بقوة. وفي قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسَىٰ﴾ خمسة أقوال: أحدها: لموسى الرزق بالمطر، قاله الحسن. والثاني: لموسى السماء، قاله ابن زيد. والثالث: لقادرون، قاله ابن قتيبة. والرابع: لموسى ما بين السماء والأرض، قاله الزجاج. والخامس: لذو سعة لا يضيق عما يريد، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَقْنَاهَا فِيمَافِ الْمَهْدُونَ﴾ قال الزجاج: هذا عطف على ما قبله منصوب بفعل مُضْمَرٌ

(١) وهي الدبور، فقد روى مسلم في «صحيحه» ٦١٧/٢ عن عبد الله بن عباس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور».

محذوف يدل عليه قوله: «فرشناها»، فالمعنى فرشنا الأرض فرشناها ﴿يَتِمَّ النَّهْدُونَ﴾ أي: فينعم الماهدون نحن. قال مقاتل: «فرشناها» أي: بسطانها مسيرة خمسمائة عام، وهذا بعيد، وقد قال قتادة: الأرض عشرون ألف فرسخ^(١)، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ كَلْبٍ نَبِيٍّ خَلَقْنَا زَيْنِينَ﴾، أي: صنفين ونوعين كالذكر والأنثى، والبر والبحر، والليل والنهار، والحلو والمر، والثور والظلمة، وأشبه ذلك ﴿لَمَّا كُمُتُمْ نَزَعْنَا مَا خَالقَ الْأَزْوَاجِ وَاحِدًا﴾ ﴿فَقَرَّبْنَا إِلَى اللَّهِ﴾ بالتوبة من ذنوبكم؛ والمعنى: اهتربوا مما يوجب العقاب من الكفر والعصيان إلى ما يوجب الثواب من الطاعة والإيمان.

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ بَيْنِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِيرًا أَوْ حَمْرًا﴾ ﴿أَتَوْسَا بِدَبِّهِمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ ﴿قَوْلَ عَنَّهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلَكٍ﴾ ﴿وَذَكَرْنَا لِلذَّكَرَيْنِ نَفْعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِي﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَبِينِ﴾ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا يَبْتَلُونَ﴾ ﴿فَأُولَئِكَ يَلْعَنُونَ﴾ ﴿قَوْلَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَيْنِهِمْ الَّذِينَ يُوعَدُونَ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما كذبت قومك وقالوا: ساحر أو مجنون، كانوا من قبلك يقولون للأنبياء.

قوله تعالى: ﴿أَتَوْسَا بِدَبِّهِمْ﴾ أي: أوصى أولهم آخرهم بالكذب! وهذا استفهام توبيخ. وقال أبو عبيدة: أتواطؤوا عليه فأخذ بعضهم من بعض!؟

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي يحملهم الطغيان فيما أعطوا من الدنيا على التكذيب؛ والمشار إليهم أهل مكة. ﴿قَوْلَ عَنَّهُمْ﴾ فقد بلغتهم ﴿فَمَا أَنْتَ﴾ عليهم ﴿بِمَلَكٍ﴾ لأنك قد آذيت الرسالة. ومذهب أكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة، ولهم في ناسخها قولان: أحدهما: أنه قوله: ﴿وَذَكَرْنَا لِلذَّكَرَيْنِ نَفْعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. والثاني: آية السيف. وفي قوله: ﴿وَذَكَرْنَا﴾ قولان: أحدهما: عطف، قاله مقاتل. والثاني: ذكرهم بأيام الله وعذابه ورحمته، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ أثبت الباء في «يعبدون» و «يطعمون» و «لا يستعجلون» في الحاليين يعقوب. واختلفوا في هذه الآية على أربعة أقوال: أحدها: إلا لأمرهم أن يعبدوني، قاله علي بن أبي طالب، واختاره الزجاج. والثاني: إلا ليقرؤوا بالعبودية طوعاً وكرهاً، قاله ابن عباس؛ وبيان هذا قوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُوا اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٤٨٧]. والثالث: أنه خاص في حق المؤمنين. قال سعيد بن المسيب: ما خلقت من يعبدني إلا ليعبدني. وقال الضحاك، والفراء، وابن قتيبة: هذا خاص لأهل طاعته، وهذا اختيار القاضي أبي يعلى فإنه قال: معنى هذا الخصوص لا العموم، لأن البهائم والأطفال والمجانين لا يدخلون تحت الخطاب وإن كانوا من الإنس، فكذلك الكفار يخرجون من هذا بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الاعراف: ١٧٩]، فمن خلق للشفاء ولجهنم، لم يخلق للعبادة. والرابع: إلا ليخضعوا إليّ ويتذلّلوا. ومعنى العبادة في اللغة: الذلّ والانقياد. وكلّ الخلق خاضع ذليل لقضاء الله ﷻ لا يملك خروجاً عما قضاه الله ﷻ، هذا مذهب جماعة من أهل المعاني.

قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ أي: ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِي﴾ أي: أن يطعموا أحداً من خلقي، لأنني أنا الرزاق. وإنما أسند الإطعام إلى نفسه، لأن الخلق عيال الله، ومن أطعم عيالاً أحد فقد أطعمه. وقد جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا ابن آدم: استطعمتك فلم تطعمني»، أي: لم تطعم عبيدي^(٢). فأمّا ﴿الرَّزَّاقُ﴾ فقرأ الضحاك، وابن محيصن: «الرازق» بوزن «العالم». قال الخطابي: هو المتكفل بالرزق القائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها. ﴿الَّذِينَ﴾ الشديد القوة الذي لا تنقطع قوته ولا يلحقه في

(١) ليس في هذا خير عن الشارح، وإنما هو ضرب من الظن والتخمين.

(٢) وهو قطعة من حديث طويل رواه مسلم في «صحيحه» ١/٤١٩٠، ونصه: عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعطني، قال: يا رب كيف أهوكت وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبيدي فلا تأمرهم أن يعبدوا الله، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعنتك فلم تطعمني، قال: يا رب وكيف أطعمتك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعنتك عبيدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقيني، قال: يا رب كيف أسقيت وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبيدي فلان فلم تسقني، أما إنك لم تسقني ووجدت ذلك عندي».

أفعاله مَشَقَّةٌ. وقد روى قتيبة عن الكسائي أنه قرأ: «المتين» بكسر النون. وكذا قرأ أبو رزين، وقتادة، وأبو العالية، والأعمش. قال الزجاج: «ذُو الْقُوَّةِ المتين» أي: ذو الاقتدار الشديد، ومن رفع «المتين» فهو صفة الله ﷻ، ومن خفضه جعله صفة للقوة، لأن تأنيث القوة تأنيث الموعظة، فهو كقوله: «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ» [البقرة: ٢٧٥].

قوله تعالى: «إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا» يعني مشركي مكة «ذُنُوبًا» أي: نصيباً من العذاب «يُنَالُ ذُنُوبَ أَصْحَابِهِمُ» الذين أهلكوا، كقوم نوح وعاد وثمود. قال الفراء: الذُّنُوبُ في كلام العرب: الدَّلُؤُ العظيمة، ولكن العرب تذهب بها إلى النَّصِيبِ والحِظِّ: (١)، قال الشاعر:

لَنَا ذُنُوبٌ وَلَكُمْ ذُنُوبٌ فإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ (٢)

والذُّنُوبُ يُذَكَّرُ ويؤنَّثُ. وقال ابن قتيبة، أصل الذُّنُوبِ: الدَّلُؤُ العظيمة، وكانوا يَسْتَقُونَ، فيكون لكل واحد ذُنُوبٌ، فيجعل «الذُّنُوبُ» مكان «الحِظِّ والنَّصِيبِ».

قوله تعالى: «فَلَا يَسْتَمْلِئُونَ» أي: بالعذاب إن أُخْرُوا إلى يوم القيامة، وهو يومهم الذي يوعدون، ويقال: هو يوم بدر.



(١) وتام كلام الفراء: وبذلك أتى الضمير، فإن للذين ظلموا حظاً من العذاب كما نزل بالذين من قبلهم.

(٢) البيت في «معاني القرآن» الورقة ٣١٣، و«الطبري» ٢٧/٤٤، و«البحر» ١٣٢/٨، و«اللسان» و«التاج»: ذنب. والقليب: البر.

سورة الطُّور

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الْعِظِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكَتَبْنَا مَسْطُورًا ٢ فِي رَقٍ مَّنشُورٍ ٣ وَاللَّيْلِ الْمَسْمُورِ ٤ وَالنَّعْفِ الْمَرْجُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩ وَيَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ قَوْلًا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١ الَّذِينَ هُمْ فِي حُوزٍ يَلْمِئُونَ ١٢ يَوْمَ يَدْعُوتُ لِكُلِّ نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَيْسَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ ١٥ أَصَلُّوْا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ بَعْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ هذا قسم بالجبل الذي كلم الله ﷺ عليه موسى ﷺ، وهو بأرض مدين لإواسمه زبيراً^(١). ﴿ وَكَتَبْنَا مَسْطُورًا ٢ ﴾ أي: مكتوب، وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه اللوح المحفوظ، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: كتب أعمال بني آدم، قاله مقاتل، والزجاج. والثالث: التوراة. والرابع: القرآن، حكاهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ فِي رَقٍ ﴾ قال أبو عبيدة: الرُّقُّ: الزَّرَق. فأما المنشور: فهو المبسوط.

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ الْمَسْمُورِ ٤ ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بيت في السماء. وفي أي سماء هو؟ [فيه] ثلاثة أقوال: أحدها: [أنه] في السماء السابعة، رواه أنس عن النبي ﷺ^(٢). وحديث مالك بن صعصعة الذي أخرج في «الصححين» يدل عليه^(٣). والثاني: أنه في السماء السادسة، قاله علي ﷺ^(٤). والثالث: أنه في السماء الدنيا، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ^(٥). وقال ابن عباس: هو حيال الكعبة يُحجُّه كُلُّ يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون فيه حتى تقوم الساعة، يسمى الضُّراح. وقال الربيع بن أنس: كان البيت المعمور مكان الكعبة في زمان آدم، فلَمَّا كان زمن نوح أمر الناس بحجِّه، فعصوه، فلَمَّا طغى الماء رُفِعَ فجعل بحذاء البيت في السماء الدنيا^(٦). والثاني: أنه البيت الحرام، قاله الحسن. وقال أبو عبيدة: ومعنى «المعمور»: الكثير الغاشية.

قوله تعالى: ﴿ وَالنَّعْفِ الْمَرْجُوعِ ٥ ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه السماء، قاله علي ﷺ والجمهور. والثاني: العرش، قاله الربيع.

(١) قال ابن كثير: يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. قال: فالطور: هو الجبل الذي يكون فيه أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى، قال: وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً، إنما يقال له جبل. اهـ.

(٢) روى ابن جرير الطبري ١٧/٢٧ من حديث حماد عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ قال: «البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة»، ورواه الحاكم ٤٨٨/٢ وصححه ووافقه الذهبي، وأورده السيوطي في «الدرر» ١١٦/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) حديث مالك بن صعصعة رواه البخاري في «صحيحه» ٢١٩/٦، ومسلم ١٥٠/١ وهو حديث طويل، والشاهد منه هنا قوله ﷺ: «فأتينا السماء السابعة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ مرحباً به ولنم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه فقال: مرحباً بك من ابن نبي، فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور يصلِّي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه، آخر ما عليهم...» واللفظ للبخاري.

(٤) رواه ابن جرير الطبري ١٦/٢٧ وفي سننه خالد بن عرعة وهو مجهول، وهو معارض للحديث الصحيح.

(٥) ذكره السيوطي في «الدرر» ١١٧/٦ ونسبه إلى ابن المنذر، والعقيلي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وضمف إسناده. وقال ابن كثير: والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة، والله أعلم.

(٦) والقول الأول، وهو أن البيت المعمور في السماء السابعة هو الصواب كما ثبت ذلك في «الصححين» وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بحر تحت العرش ماؤه غليظ يُمطرُ العباد منه بعد النسخة الأولى أربعين صباحاً فينبئون في قبورهم، قاله عليّ عليه السلام. والثاني: أنه بحر الأرض^(١)، ذكره الماوردي. وفي ﴿الْجَبْرِ﴾ أربعة أقوال: أحدها: المملوء، قاله الحسن، وأبو صالح، وابن السائب، وجميع اللغويين^(٢). والثاني: أنه الموقد، قاله مجاهد، وابن زيد. وقال شمر بن عطية: هو بمنزلة التنور المسجور. والثالث: أنه اليابس الذي قد ذهب ماؤه ونضب، قاله أبو العالية. وروي عن الحسن قال: تسجر، يعني البحار، حتى يذهب ماؤها، فلا يبقى فيها قطرة. وقول هذين يرجع إلى معنى قول مجاهد. وقد نقل في الحديث «أن الله تعالى يجعل البحار كلها ناراً، فتزاد في نار جهنم»^(٣). والرابع: أن «المسجور» المختلط عذبه ببلحه، قاله الربيع بن أنس. فأقسم الله تعالى بهذه الأشياء للتنبية على ما فيها من عظيم قدرته على أن تعذيب المشركين حق، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾ أي: لكائن في الآخرة. ثم بين متى يقع، فقال: ﴿وَمِمَّا تَدْعُونَ لَمَبْرًا ﴿٨﴾﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: تدور دَوْرًا، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة والزجاج. والثاني: تحرك تحركاً، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة. وقال أبو عبيدة: «تمور» أي: تكفأ، وقال الأعشى:

كَأَنَّ مَشِينَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا
مَوْزُ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ^(٤)

والثالث: يموج بعضها في بعض لأمر الله تعالى، قاله الضحاك. وما بعد هذا قد سبق بيانه [النمل: ٨٨] إلى قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْمُجُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: يخوضون في حديث محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والاستهزاء، ويلهون بذكره، فالويل لهم. ﴿وَمِمَّا يُدْعُونَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: يُدْفَعُونَ، يقال: دَعَعْتُهُ أَدْعُهُ، أي: دفعته، ومنه قوله: ﴿يُدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [الماعن: ٢]. قال ابن عباس: يُدْفَعُ في أعناقهم حتى يردوا النار. وقال مقاتل تَغَلُّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجْمَعُ نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يُدْفَعُونَ إلى جهنم على وجوههم، حتى إذا ذنوا منها قالت لهم خزنتها: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٢﴾﴾ في الدنيا «أفيسر هذا» العذاب الذي ترون؟ فإنكم زعمتم أن الرسل سحرة ﴿لَمَّ أَنْتُمْ لَا تَبْصِرُونَ﴾ النار؟ فلما ألقوا فيها قال لهم خزنتها: ﴿أَصَلَّوْهَا﴾. وقال غيره: لما نسبوا محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أنه ساحر يغطي على الأبصار بالسحر، ويؤخو عند رؤية النار بهذا التوبيخ، وقيل: ﴿أَصَلَّوْهَا﴾ أي: قاسوا شدتها ﴿فَأَصْبُرُوا﴾ على العذاب ﴿أَوْ لَا تَصْبُرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ الصبر والجزع ﴿إِنَّمَا تَجْرُونَ﴾ جزاء ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب.

﴿إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ فكيف بين ما آلتهم رَيْثٌ ووقفتهم رَيْثٌ عَذَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَيْثَا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ مِيمٍ ﴿٢٠﴾﴾

ثم وصف ما للمؤمنين بما بعد هذا، وقوله: ﴿فَنَكِيهِينَ﴾ قرئت بألف وبغير ألف، وقد شرحناها في [يس: ٥٥]، ﴿وَوَقَدْنَاهُمْ﴾ أي: صرف عنهم و﴿الْجَنِّيمِ﴾ مذكور في [البقرة: ١١٩]. ﴿كَلُوا﴾ أي: يقال لهم: كُلُوا ﴿وَأَشْرَبُوا هَيْثَا﴾ تأمنون حدوث المرض عنه. قال الزجاج: المعنى: ليهنكم ما صيرتم إليه، وقد شرحنا هذا في سورة [النساء: ٤]. ثم ذكر حالهم عند أكلهم وشربهم، فقال: ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ﴾ وقال ابن جرير: فيه محذوف تقديره: على نمارق على سُرُرٍ، وهي جمع سرير ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ قد وُضِعَ بعضها إلى جنب بعض. وباقى الآية مفسر في سورة [الدخان: ٥٤].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّفْتَانِ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ شَاكِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْمُجُونَ ﴿٢٢﴾ يَلْمُجُونَ فِيهَا كَمَا لَا تَلُو فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلْفًا لَهُمْ مَا كَانَتْهُمْ تَلُوهُ مَكُونًا ﴿٢٤﴾ وَأَبَدَلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلَانَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلَ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

(١) وهو قول الجمهور، والأول لا يصح.

(٢) وهو الذي اختاره الطبري ووجهه بأنه ليس موقداً اليوم فهو مملوء.

(٣) لم نقف على هذا الحديث مستنداً فيما بين أيدينا من المصادر، وقد أورده بعض المفسرين كالمصنف بلا سند.

(٤) «ديوانه» ٥٥، و«مجاز القرآن» ٢٣١/٢، و«الطبري» ٢٧/٢٠، و«مختار الشعر الجاهلي» ٩٧/٢، و«اللسان» و«التاج»: مور. وفي «الديوان»: «متر» بدل «مور».

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وحمره، والكسائي: «وَاتَّبَعْتَهُمْ» بالثاء «ذُرِّيَّتَهُمْ» واحدة ﴿يَوْمَ ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ واحدة أيضاً. وقرأ نافع: «وَاتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» واحدة «بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ» جمعاً. وقرأ ابن عامر: «وَاتَّبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ» «بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ» جمعاً في الموضوعين. واختلفوا في تفسيرها على ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناها: اتبعتهم ذُرِّيَّتُهُمْ بليمان الحقنا بهم [ذُرِّيَّاتِهِمْ] من المؤمنين في الجنة، وإن كانوا لم يبلغوا أعمال آبائهم، تكرمةً من الله تعالى لأبائهم المؤمنين باجتماع أولادهم معهم، روى هذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُمْ بليمان، أي: بلغت أن آمنث، ألحقنا بهم ذُرِّيَّتَهُمْ الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان. وروى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. ومعنى هذا القول، أن أولادهم الكبار تبعوهم بليمان منهم، وأولادهم الصغار تبعوهم بليمان الآباء، [لأن الولد يُحْكَم له بالإسلام تبعاً لوالده. والثالث: «وَاتَّبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ» بليمان الآباء] فأدخلناهم الجنة، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْتَنَّهُمْ﴾ قرأ نافع: وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحمره، والكسائي: «وما أكتناهم» بالهمزة وفتح اللام. وقرأ ابن كثير: «وما أكتناهم» بكسر اللام. وروى ابن شنبوذ عن قنبل عنه «وما إكتناهم» بإسقاط الهمزة مع كسر اللام. وقرأ أبو العالية، وأبو نهيك، ومعاذ القارئ بإسقاط الهمزة مع فتح اللام. وقرأ ابن السميع «وما أكتناهم» بمد الهمزة وفتحها. وقرأ الضحاك، وعاصم الجحدري: «وما وكتناهم» بواو مفتوحة من غير همزة وينصب اللام. وقرأ ابن مسعود، وأبو المتوكل: «وما أكتنهم» مثل جعلتهم. وقد ذكرنا هذه الكلمة في [الحجرات: ١٤٠] والمعنى: ما نَقَضْنَا الآباء بما أعطينا الذُرِّيَّةَ. ﴿كُلُّ نَرِيٍّ بِمَا كَسَبَ زَهِينٌ﴾ أي: مُرْتَهَنٌ بعمله لا يؤاخذ أحدٌ بذنب أحد. وقيل: هذا الكلام يختص بصفة أهل النار، وذلك الكلام قد تم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال ابن عباس: هي الزيادة على الذي كان لهم.

قوله تعالى: ﴿يَنْتَدِرُونَ﴾ قال أبو عبيدة: أي: يتعاطون ويتداولون، وأشد الأخطل:

نَارَ عَشْتُهُ طَيْبِ الرِّيحِ السَّمُولِ وَقَدْ صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقَعَةُ السَّارِي^(١)

قال الرَّجَّاجُ: يتناول هذا الكاس من يد هذا، وهذا من يد هذا. فأما الكاس فقد شرحناها في [الصفات: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿لَا تَوَّ فِيهَا وَلَا تَأْتِي﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «لا تَعَوَّ فِيهَا وَلَا تَأْتِي» نصباً، وقرأ الباقون: «لَا تَوَّ فِيهَا وَلَا تَأْتِي» رفعاً منوئاً. قال ابن قتيبة: أي: لا تذهب بعقولهم فيلغوا ويترفوا فيأثموا، كما يكون ذلك في خمر الدنيا. وقال غيره: التائيم: تعيل من الإثم، يقال: أثمه: إذا جعله ذا إثم. والمعنى أن تلك الكأس لا تجعلهم آثمين. ﴿وَيَطْرُقُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة «وَلَمَّا لَهَرُ كَأْتِيكُمْ» في الحُسن والبياض «لَوْلَوْ تَكُونُ» أي: مصونٌ لَمْ تَمَسَّ الأيدي. وسئل رسول الله ﷺ فقيل: يا نبي الله، هذ الخادم، فكيف المخدوم؟ فقال: «إِنَّ فَضْلَ الْمُخْدُومِ عَلَى الْخَادِمِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَذَلَّ بِسْمُغٍ عَلَى بَعِيضِ نِسْكَاتِهِ﴾ قال ابن عباس: يتذكرون ما كانوا فيه في الدنيا من الخوف والتعب، وهو قوله: ﴿فَأَلَّا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلَانَا﴾ أي: في دار الدنيا «مُشْفِقِينَ» أي: خائفين من العذاب، ﴿فَسَرَّ اللَّهُ مَلِيئًا﴾ بالمغفرة «وَوَقْنَا عَذَابَ السُّورِ» أي: عذاب النار. وقال الحسن: السُّمُومُ من أسماء جهنم. وقال غيره: سُمُومُ جهنم: وهو ما يوجد من نَفْحِهَا وَحَرِّهَا، «إِنَّا كُنَّا مِنْ بَيْنِ بَدْعَةٍ تَدْعُو» أي: نوحده ونُخْلِصُ له «إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ» وقرأ نافع، والكسائي: «أنه» بفتح الهمزة. وفي معنى «البر» ثلاثة أقوال: أحدها: الصادق فيما وعد، رواه أبو صالح عن

(١) «ديوانه» ١١٦، و«مجاز القرآن» ٢/٢٣٢، و«الطبري» ٢٧/٢٨.

(٢) روى ابن جرير الطبري ٢٧/٢٩ عن قتادة قوله: ﴿وَيَطْرُقُ عَلَيْهِمْ لَمَّا لَهَرُ كَأْتِيكُمْ لَوْلَوْ تَكُونُ﴾ ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله هذا الخادم، فكيف المخدوم؟ قال: «والذي نفس محمد بيده، إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» وهو مرسل، وأورده السيوطي في «الدر» ١١٩/٦ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وابن المنذر وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٦٠: رواه عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة به.

ابن عباس. والثاني: اللطيف، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: العطوف على عباده المحسن إليهم الذي عمَّ بیره جميع خلقه، قاله أبو سليمان الخطابي.

﴿نَذَكَّرَ مَا أَنْتَ بِمَعْتَبَرٍ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (١١) أم يقولون شاعرٌ نَزَّصُ بِهِ رَبَّ السَّمَوَاتِ ﴿١٢﴾ قُلْ تَرَىٰ مَا أَنْتَ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿١٣﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَعْلَانُهُمْ يَهْدُوا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿١٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿١٦﴾
قوله تعالى: ﴿نَذَكَّرَ﴾ أي: فَعِظَ بِالْقُرْآنِ ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَعْتَبَرٍ بِكَاهِنٍ﴾ أي: بإنعامه عليك بالنبوة ﴿بِكَاهِنٍ﴾ وهو الذي يوهم أنه يعلم الغيب ويُخبر عما في غد من غير وحي. والمعنى: إنما تُنطق بالوحي لا كما يقول [فيك] كفار مكة. ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أي: هو شاعر. وقال أبو عبيدة: «أم» بمعنى «بل»، قال الأخطل:

كَذَّبْتُكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِسَوَابِطِ
غَلَسَ الظُّلَامِ مِنَ الرَّبَابِ حَيَالًا^(١)
لم يستفهم، إنما أوجب أنه رأى.

قوله تعالى: ﴿نَزَّصُ بِهِ رَبَّ السَّمَوَاتِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الموت، قاله ابن عباس. والثاني: حوادث الدهر، قاله مجاهد، قال ابن قتيبة: حوادث الدهر وأوجاعه ومصائبه، و «المنون» الدهر، قال أبو ذؤيب:

أَمْسَرَ السَّمُونَ وَرَبِّهِ نَسْوَجُجُ
وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مَنِ يَجْرَعُ^(٢)
هكذا أشدنا أصحاب الأصمعي عنه، وكان يذهب إلى أن المنون الدهر، قال: وقوله: «والدهر ليس بمُعْتَبَرٍ» يدلُّ على ذلك، كأنه قال: «أَمْسَرَ الدَّهْرُ وَرَبِّهِ تَوَجَّعُ؟!» قال الكسائي: العرب تقول: لا أكلمك آخِرَ المنون، أي: آخِرَ الدهر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَىٰ مَا أَنْتَ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: من المتظرين عذابكم، فعذبوا يوم بدر بالسيف. وبعض المفسرين يقول: هذا منسوخ بآية السيف، ولا يصح، إذ لا تضاد بين الآيتين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَعْلَانُهُمْ يَهْدُوا﴾ قال المفسرون: كانت عظمة قريش توصف بالأحلام، وهي العُقُول، فأزرى الله بخلوهم، إذ لم تُشجِّر لهم معرفة الحق من الباطل. وقيل لعمر بن العاص: ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقول؟! فقال: تلك عُقول كادها بارئها، أي: لم يَضَحَّهَا التَّوْفِيقُ. وفي قوله: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ» وقوله: ﴿أَمْ هُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنهما بمعنى «بل»، قاله أبو عبيدة. والثاني: بمعنى ألف الاستفهام، قاله الزجاج؛ قال: والمعنى: أتاؤهم أحلامهم بترك القبول ممن يدعوهم إلى التوحيد وياتيهم على ذلك بالدلائل، أم يكفرون طغياناً وقد ظهر لهم الحق؟! وقال ابن قتيبة: المعنى: أم تدلُّهم عقولهم على هذا؟! لأن الجلم يكون بالعقل، فكفي عنه به.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: افتعل القرآن من تلقاء نفسه؟ والتقول: تكلف القول، ولا يستعمل إلا في الكذب ﴿بَلْ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن، استكباراً. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ في نظمه وحسن بيانه. وقرأ أبو رجاء، وأبو نهيك، ومورق العجلي، وعاصم الجحدري: «بحدِيثٍ مِثْلِهِ» بغير تنوين ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أن محمداً تقوله.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (١٧) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُحْسِنُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَوُونَ بِهِ فَلْيَأْتِ سَمْعُهُمْ بِسُلْطَنِ رَبِّينِ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ تَنْظُرُهُمْ كُنُوزًا مِنْ مَقَرٍّ مَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٢٤﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أم خُلِقُوا من غير ربِّ خالق؟ والثاني: أم خُلِقُوا من غير آباء ولا أمهات، فهم كالجماد لا يعقلون؟ والثالث: أم خُلِقُوا من غير شيء كالسماوات والأرض؟ أي: إنهم ليسوا بأشياء خُلِقُوا من السماوات والأرض، لأنها خُلقت من غير شيء، وهم خُلِقُوا من آدم، وآدم من تراب. والرابع: أم

(١) سبق تخرجه البيت ٤٥٠.

(٢) البيت مطلع مرثية الجيلة، وهو في «ديوانه» ١/١، و«غريب القرآن» ٤٢٥، و«المفصليات» ٤٢١، و«ديوان الهنليين» ١/١، و«اللسان» و«التاج»:

خُلِقُوا لغير شيء؟ فتكون «مِنْ» بمعنى اللام. والمعنى: ما خُلِقُوا عَبَثًا فلا يُؤْمَرُونَ ولا يُنْهَوْنَ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فلذلك لا يَأْتَمَرُونَ ولا يَنْتَهَوْنَ؟ لأن الخالق لا يؤمر ولا يُنهي.

قوله تعالى: ﴿بَلْ لَّا يُؤْتُونَكَ بِالْحَقِّ، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَقَدْرَتُهُ عَلَى الْبَعثِ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: المطر والرِّزْق، قاله ابن عباس. والثاني: النُّبُوَّة،

قاله عكرمة. والثالث: عِلْمٌ ما يكون من الغيب، ذكره الثعلبي. وقال الزجاج: المعنى: أعندهم ما في خزائن رَيْكَ من العِلْمِ، وقيل: من الرِّزْق، فهم مُعْرِضُونَ عَنْ رَبِّهِمْ لاسْتِغْنَائِهِمْ!؟

قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْمُضَيَّبُونَ﴾ قرأ ابن كثير: «المُضَيَّبُونَ» بالسین. وقال ابن عباس: المُسَلِّطُونَ^(١). قال أبو

عبيدة: «المُضَيَّبُونَ»: الأرباب. يقال: تَسَيَّرْتُ عَلَيَّ، أي: اتَّخَذْتَنِي حَوْلًا، قال: ولم يأت في كلام العرب اسم على «مُضَيَّبٌ» إلا خمسة أسماء: مُهَيَّبٌ، ومُجَيَّبٌ، ومُضَيَّبٌ، ومُتَسَيَّرٌ، ومُتَبَيَّبٌ، ومُتَبَيَّرٌ؛ فالْمُهَيَّبُ: الله الناظر الْمُحْصِي الذي لا يفوته شيء؛ ومُجَيَّبٌ: جبل؛ والمُضَيَّبُ: المُسَلِّطُ؛ ومُتَبَيَّبٌ: يَبْتَاطِرُ؛ والمُتَبَيَّرُ: الذي يَخْرُجُ من أرض إلى أرض، يقال: يَبْتَارُ: إذا خرج من بلد إلى بلد، قال امرؤ القيس:

أَلَا هَلْ أَنَا مَا، وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ
بِأَنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ ابْنَ تَمْلِكَ بَيَّرَا^(٢)؟

قال الزَّجَّاجُ: المَسِيَّطُونَ: الأرباب المُسَلِّطُونَ، يقال: قد تَسَيَّرَ عَلَيْنَا وتَصَيَّرَ: بالسین والصاد، والأصل

السین، وكل سین بعدها طاء، فيجوز أن تُقْلَبَ صادًا، تقول: سطر واطر، وسطا علينا واططا. قال المفسرون: معنى الكلام: أم هم الأرباب فيفعلون ما شاؤوا ولا يكونون تحت أمر ولا نهى!؟

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ نَكُنْ سَاءً﴾ أي: مَرَقَى ومضعدٌ إلى السماء ﴿بَسْتَيَّبُونَ يَوْمًا﴾ أي: عليه الرحي، كقوله: ﴿فِي جُدُوعِ

الْتَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، فالمعنى: يستمعون [الوحي] فيعلمون أن ما هُم عليه حق ﴿تِلْكَ آيَاتُ سَعْتِهِمْ﴾ إن ادَّعى ذلك ﴿يَسْأَلُنَّ يُسُوبًا﴾ أي، بِحُجَّةٍ واضحة كما أتى محمد بِحُجَّةٍ على قوله. ﴿أَمْ لَمْ نَكُنْ لَكُمْ الْبُتُونَ﴾ هذا إنكار عليهم حين جعلوا الله البنات. ﴿أَمْ تَسْأَلُنَّ أُمَّهَاتَهُنَّ مِن تَفْصِيلٍ فَتُنْفَرْنَ فَتُكْفَرْنَ﴾ [٥١]؛ أي: هل سألتهم أجرًا على ما جئت به، فاتقلهم ذلك الذي تطلبه منهم فمنعهم عن الإسلام؟ والمُفْرَمُ بمعنى العُزْمِ، وقد شرحناه في [براهة: ٤٩٨].

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿تَنْزِيلُ يَوْمَ رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾؛ والمعنى: أعندهم الغيب؟ وفيه

قولان: أحدهما: أنه اللوح المحفوظ، ﴿فَعَمَّ يَكْتُمُونَ﴾ ما فيه ويخبرون الناس. قاله ابن عباس. والثاني: أعندهم عِلْمُ الغيب فيعلمون أن محمداً يموت قبلهم ﴿فَعَمَّ يَكْتُمُونَ﴾ أي، يحكمون فيقولون: سَنَفْهَرُكَ. والكتاب: الحُكْمُ؛ ومنه قول النبي ﷺ: «سأقضي بينكما بكتاب الله»^(٣)؛ أي: بِحُكْمِ اللَّهِ ﷻ؛ وإلى هذا المعنى: ذهب ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو ما كانوا عزموا عليه في دار النَّدوة؛ وقد شرحنا ذلك في قوله: ﴿وَإِذْ يَسْكُرُكَ

الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠] ومعنى ﴿مُرُّ الْمَكِيدُونَ﴾ هم الْمُجَزَّبُونَ بكيدهم، لأن ضرر ذلك عاد عليهم فقتلوا بيدٍ وغيرها. ﴿أَمْ لَمْ نَلِكْ لَكُمْ عِزًّا مِنَ اللَّهِ﴾ أي أَلْهَمُ إِلَهَ يَرْزُقُهُمْ ويحفظهم غيرُ الله؟ والمعنى أن الأصنام ليست بألهاة، لأنها لا تنفع ولا تدفع. ثم نَرَى نَفْسَهُ عن شركهم بباقي الآية.

(١) روى البخاري في «صحيحه» ٤٦٣/٨ عن جبير بن مطعم ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خَلِقُوا الْسَمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَّا يُؤْتُونَكَ بِالْحَقِّ أَمْ هُنَّ الْكَافِرَاتُ﴾ قال: أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر وهو أقره منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله، واثبت لي، فقال رسول الله ﷺ: «قل: قال: إن ابني كان سيِّفًا (جبراً) على هذا فزني بامرأته، وإني أخبرت أن علي ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا أمضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم رد (مرودة إليك) وعلى ابنيك جلد مائة وتغريب عام، واغدا يا أييس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها» قال: فنفا عليها فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت.

(٢) هو قطعة من حديث أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن، من حديث أبي هريرة، ولفظه عند مسلم ١٣٢٤/٣: عن أبي هريرة زيد بن خالد الجهني أنهما قالا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر وهو أقره منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله، واثبت لي، فقال رسول الله ﷺ: «قل: قال: إن ابني كان سيِّفًا (جبراً) على هذا فزني بامرأته، وإني أخبرت أن علي ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا أمضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم رد (مرودة إليك) وعلى ابنيك جلد مائة وتغريب عام، واغدا يا أييس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها» قال: فنفا عليها فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت.

(٣) هو قطعة من حديث أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن، من حديث أبي هريرة، ولفظه عند مسلم ١٣٢٤/٣: عن أبي هريرة زيد بن خالد الجهني أنهما قالا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر وهو أقره منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله، واثبت لي، فقال رسول الله ﷺ: «قل: قال: إن ابني كان سيِّفًا (جبراً) على هذا فزني بامرأته، وإني أخبرت أن علي ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا أمضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم رد (مرودة إليك) وعلى ابنيك جلد مائة وتغريب عام، واغدا يا أييس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها» قال: فنفا عليها فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت.

﴿وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ (٤٤) ﴿فَذَرْنَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ (٤٥) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَأَن لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِن آكَرَهُم لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٤٨) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ (٤٩)

ثم ذكر عندهم فقال: ﴿وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ والمعنى: لو سقط بعض السماء عليهم لَمَا انتهوا عن كفرهم، ولقالوا: هذه قطعة من السحاب قد رُكِمَ بعضه على بعض. ﴿فَذَرْنَهُمْ﴾ أي خَلَّ عنهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا﴾ قرأ أبو جعفر «يُلَاقُوا» بفتح الياء والقاف وسكون اللام من غير ألف ﴿يَوْمَهُمْ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوم موتهم. والثاني: يوم القيامة. والثالث: يوم النسخة الأولى.

قوله تعالى: ﴿يُصْعَقُونَ﴾ قرأ عاصم، وابن عامر: «يُصْعَقُونَ» برفع الياء، من أصعقهم غيرهم؛ والباقون بفتحها، من صعقوهم. وفي قوله: ﴿يُصْعَقُونَ﴾ قولان: أحدهما: يموتون. والثاني: يُغشى عليهم، كقوله: ﴿وَحَرَّ مَوْسَى صَوْفًا﴾ [الاعراف: 1٤٣]، وهذا يخرج على قول من قال: هو يوم القيامة، فإنهم يُغشى عليهم من الأهوال. وذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولا يصح، لأن معنى الآية الرعيد.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ هذا اليوم الأول؛ والمعنى: لا ينفعهم مكرهم ولا يدفع عنهم العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: يُمنعون من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَن لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي، قبل ذلك اليوم؛ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه عذاب القبر، قاله البراء، وابن عباس. والثاني: عذاب القتل يوم بدر، وروي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال مقاتل. والثالث: مصائبهم في الدنيا، قاله الحسن، وابن زيد. والرابع: عذاب الجوع، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن آكَرَهُم لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون ما هو نازل بهم. ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لما يحكمك به عليك ﴿وَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال الزجاج: فإنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك، فلا يصلون إلى مكروهك. وذكر المفسرون: أن معنى الصبر نُسَخَ بآية السيف، ولا يصح، لأنه لا تضاد. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: صلِّ لله حين تقوم من منامك، قاله ابن عباس. والثاني: قُلْ: «سبحانك اللهم وبحمدك» حين تقوم من مجلسك، قاله عطاء، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد في آخرين. والثالث: قُلْ: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك» حين تقوم في الصلاة، قاله الضحاك. والرابع: سبِّح الله إذا قُمْتَ من نومك، قاله حسان بن عطية. والخامس: صلِّ صلاة الظهر إذا قُمْتَ من نوم القائلة، قاله زيد بن أسلم^(١). والسادس: اذْكُر الله بلسانك حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ قال مقاتل: صلِّ المغرب وصلِّ العشاء ﴿وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ قرأ زيد عن يعقوب، وهارون عن أبي عمرو، والجعفي عن أبي بكر: «وإدبار النجوم» بفتح الهمزة؛ و[قرأ] الباقون بكسرهما. وقد شرحناها في [ق: ٤٠]؛ والمعنى: صلِّ له في إدبار النجوم، أي: حين تدبير، أي: تغيب بضوء الصبح. وفي هذه الصلاة قولان: أحدهما: أنها الرُّكْعَتَانِ قَبْلَ صلاة الفجر، رواه عليٌّ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قول الجمهور^(٢). والثاني: أنها صلاة الغداة، قاله الضحاك، وابن زيد.



(١) رجح هذا القول ابن جرير الطبري في «تفسيره».

(٢) أخرجه مسند في «مسنده»، وابن المنذر، وابن مردويه كما في «الدر» ١١٠/٦ عن علي بن أبي طالب قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إدبار النجوم والسجود، فقال: «إدبار السجود: الركعتان بعد المغرب، وإدبار النجوم: الركعتان قبل الغداة».

سورة النجم

وهي مَكِّيَّة بإجماعهم

إلا أنه قد حُكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا إلا آية منها، وهي ﴿الَّذِينَ يَخْتَفُونَ كَثِيرًا مِنَ الْأُنْجُومِ﴾ [النجم: ٣٢]، وكذلك قال مقاتل؛ [قال]: وهذه أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الْعَظِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا سَلَكَ سَاجِدُكُمْ وَمَا هَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَطُوعُ عَنِ الْمَوْتَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجْمٌ يُرْمَىٰ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [١] وما سَلَكَ سَاجِدُكُمْ وَمَا هَوَىٰ [٢] هذا قسم. وفي المراد بالنجم خمسة أقوال: أحدها: أنه الثريا، رواه العوفي عن ابن عباس، وابن أبي نجيح عن مجاهد^(١). قال ابن قتيبة؛ والعرب تسمي الثريا - وهي ستة أنجم - نجماً. وقال غيره: هي سبعة، فسته ظاهرة، وواحد خفي يمتحن به الناس أبصارهم. والثاني: الرُّجُوم من النُّجُوم، يعني ما يرمى به الشياطين، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أنه القرآن نزل نجوماً متفرقة، قاله عطاء عن ابن عباس، والأعمش عن مجاهد. وقال مجاهد: كان ينزل نجوماً ثلاث آيات وأربع آيات ونحو ذلك. والرابع: نجوم السماء كلها، وهو مروى عن مجاهد أيضاً. والخامس: أنها الزُّهْرَةُ؛ قاله السدي. فعلى قول من قال: النجم: الثريا، يكون «هوى» بمعنى «غاب»؛ ومن قال: هو الرُّجُوم، يكون هَوِيَّهَا في رمي الشياطين، ومن قال: القرآن، يكون معنى «هوى»: نزل، ومن قال: نجوم السماء كلها، ففيه قولان: أحدهما: أن هَوِيَّهَا أن تغيب. والثاني: أن تنتشر يوم القيامة. قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر هذه السورة كلها بفتح أو آخر آياتها. وقرأ أبو عمرو ونافع بين الفتح والكسر. وقرأ حمزة والكسائي ذلك كله بالإمالة.

قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَ سَاجِدُكُمْ﴾ هذا جواب القسم؛ والمعنى: ما سَلََّ عن طريق الهدى، والمراد به: رسول الله ﷺ. ﴿وَمَا يَطُوعُ عَنِ الْمَوْتَىٰ﴾ [٣] أي: ما يتكلم بالباطل. وقال أبو عبيدة: «عن» بمعنى الباء. وذلك أنهم قالوا: إنه يقول القرآن من تلقاء نفسه. ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجْمٌ﴾ أي: ما القرآن إِلَّا رَجْمٌ من الله ﴿يُرْمَىٰ﴾ وهذا مما يحتج به من لا يجيز للنبي أن يجتهد، وليس كما ظنوا، لأن اجتهاد الرأي إذا صدر عن الوحي، جاز أن يُنسَب إلى الوحي.

﴿عَلَّمَ شَيْدُ الْقُرْآنِ ﴿٤﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٦﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٧﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَرْجَىٰ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ ﴿٩﴾ مَا أَتَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتَسْمُرُونَ عَلَيَّ مَا بَرَأىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَمَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةٌ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَتَشَى الْمُنْتَهَىٰ مَا يَشْفَىٰ ﴿١٦﴾ مَا رَضِيَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ شَيْدُ الْقُرْآنِ﴾ [٤] وهو جبريل ﷺ علم النبي ﷺ؛ قال ابن قتيبة: وأصل هذا من «قُوَى الجَبَل» وهي طاقاته، الواحدة: قُوَّة؛ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو قُوَّة، وأصل المِرَّة: القنْطَل. قال المفسرون: وكان من قُوَّتِهِ أنه قلع قريات لوط وحملها على جناحه قلبها، وصاح بشمود فأصبحوا خامدين.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ [٥] وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ [٦] فيه قولان: أحدهما: فاستوى جبريل، وهو يعني النبي ﷺ؛ والمعنى أنهما استويا بالأفق الأعلى لما أسري برسول الله ﷺ، قاله الفراء^(٢). والثاني: فاستوى جبريل، وهو - يعني جبريل -

(١) قال ابن كثير: وكلتا روي عن سفیان الثوري، واختاره ابن جرير الطبري.

(٢) قال ابن كثير: وقد قال ابن جرير هاهنا قولاً لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد، وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي هذا الشيدى القوي ذو المِرَّة هو ومحمد ﷺ بالأفق الأعلى، أي: استويا جميعاً بالأفق الأعلى، وذلك ليلة الإسراء، كذا قال. ولم يوافق أحد على ذلك، ثم شرع يوجه ما قال من حيث العربية، فقال: وهو كتوبه: ﴿هَمَّا كَانَا زَيْنًا وَمَا بَيْنَنَا﴾ فغطف بالأبواب على المكثي في «كنا» من غير إظهار «نحنا» فكذلك قوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ وهو، قال: وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده:

بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية، لأنه كان يتَّعَمَلُ لرسول الله ﷺ إذا هبط عليه بالوحي في صورة رجل، وأحبَّ رسولَ الله ﷺ أن يراه على حقيقته، فاستوى في أفق المَشْرِيقِ، فملاً الأفق؛ فيكون المعنى: فاستوى جبريلُ بالأفق الأعلى في صورته، هذا قول الزَّجَّاجِ. قال مجاهد: والأفق الأعلى: هو مَطْلِعُ الشمسِ. وقال غيره: إنما قيل له: «الأعلى» لأنه فوق جانب المَغربِ في صعيد الأرض لا في الهواء.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (٨١) قال الفراء: المعنى: ثم تَدَلَّى فدنا، ولكنه جائز أن تقدّم أيّ الفعلين شئتَ إذا كان المعنى فيهما واحداً، فنقول: قد دنا فقرب، وقرب فدنا، وشم فأساء، وأساء فشم، ومنه قوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [الفر: ١١]، المعنى - والله أعلم -: انشق القمر واقتربت الساعة. قال ابن قتيبة، المعنى: تَدَلَّى فدنا، لأنَّه تَدَلَّى لِلدُّنُوِّ، ودنا بالتدلي. وقال الزجاج: دنا بمعنى قَرَّبَ، وتدلى: زاد في القُرْبِ، ومعنى اللفظين واحد. وقال غيرهم: أصل التَّدَلَّى: التَّزُولُ إلى الشيء حتى يقرب منه، فوضع موضع القُرْبِ. وفي المشار إليه بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا ثَلَاثَةَ آقْوَالٍ أَحَدُهَا: أَنَّهُ اللهُ ﷻ. روى البخاري ومسلم في «الصحیحین» من حديث شريك بن أبي نجر عن أنس بن مالك قال: «دنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»^(١). وروى أبو سلمة عن ابن عباس: «ثم دنا» قال: دنا ربه فتدلى، وهذا اختيار مقاتل. قال: دنا الرَّبُّ من محمد ليلة أُسْرِي به، فكن منه قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. وقد كشفتُ هذا الوجه في كتاب «المُنْي» وبيَّنتُ أنه ليس كما يخطر بالبال من قُرب الأجسام وقطع المسافة، لأن ذلك يختص بالأجسام، واللَّه منزَّه عن ذلك. والثاني: أنه محمد دنا من ربِّه، قاله ابن عباس، والقرظي. والثالث: أنه جبريل. ثم في الكلام قولان: أحدهما: دنا جبريلُ بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فنزل إلى رسول الله ﷺ، قاله الحسن، وقتادة. والثاني: دنا جبريلُ من ربِّه ﷻ فكان منه قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩١) وقرأ ابن مسعود، وأبو رزين: «فكان قاد قوسين» بالدال. وقال أبو عبيدة: القَابُ والقَادُ: القُدْرُ. وقال ابن فارس: القَابُ: القدر. ويقال: بل القَابُ: ما بين المَقْبُضِ والسِّبَةِ، ولكل قوس قبان. وقال ابن قتيبة: سِبَةِ القَوْسِ: ما عُوْطِفَ من طَرَفَيْهَا. وفي المراد بالقوسين قولان: أحدهما: أنها القوس التي يُرمى بها، قاله ابن عباس، واختاره ابن قتيبة، فقال: قَدَّرَ قَوْسَيْنِ. وقال الكسائي: أراد بالقوسين: قوساً واحداً. والثاني: أن القوس: الذراع؛ فالمعنى: كان بينهما قَدْرُ ذِرَاعَيْنِ، حكاية ابن قتيبة، وهو قول ابن مسعود، وسعيد بن جبیر، والسدي. قال ابن مسعود: دنا جبريل منه حتى كان قَدْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها بمعنى «بل»، قاله مقاتل. والثاني: أنهم خوطبوا على لغتهم؛ والمعنى: كان على ما تقدرونه أنتم قَدْرُ قَوْسَيْنِ أَوْ أَقْلَ، هذا اختيار الزَّجَّاجِ.

الم تر أن السَّبْعَ يَصْلُبُ عِزَّهُ وَلَا يَسْتَوِي وَالْخُرُوجَ الْمُنْتَقِصَ

وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، لكن لا يساعده المعنى على ذلك، فإن هذه الرواية لجبريل، لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل ﷻ، وتَدَلَّى إليه فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرواية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل ﷻ أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة «آزأ» ثم قرأ الوحي... حتى تبدي له جبريل ورسول الله ﷺ بالأبيض في صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق، فاقترب منه وأوصى إليه عن الله ﷻ ما أمره به، ففرغ عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه بالرسالة، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذي بعث إليه. اهـ.

(١) حديث شريك أخرجه البخاري في «صحيحه» ٣٩٩/١٣، وذكر مسلم ١٤٨/١ قطعة منه، ثم قال: فقدم وأخر وزاد وتقص. وقد جاء في رواية شريك في هذا الحديث أروام أنكرها عليه الحفاظ، وغلطوه فيها. منها ما نقله ابن كثير عن الحافظ أبي بكر البيهقي أنه قال: في حديث شريك زيادة تفرد بها على مله من زعم أنه ﷻ رأى الله ﷻ يعني قوله: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» قال البيهقي: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصبح. قال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق، فإن أبا ذر قال: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «نور أتى أراه» وفي رواية «أريت نوراً» أخرجه مسلم. وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (٩١) إنما هو جبريل ﷻ كما ثبت ذلك في «الصحیحین» عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا، قلت: وهذا القول هو الصواب وما عنده من الأقوال لا يصح. وإذا أردت الاطلاع على بقية ما أخطأ فيه شريك في هذا الحديث فانظر «شرح مسلم» ٢/٢١٠، وفتح البازي ١٣/٤٠٢، ٤٠٥.

قوله تعالى: ﴿تَأْوِيْنَ إِلَىٰ عِبَادِي مَا آمَنَ﴾^(١) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أوحى الله إلى محمد كِفاحاً^(٢) بلا واسطة، وهذا على قول من يقول: إنه كان في ليلة المعراج. والثاني: أوحى جبريل إلى النبي ﷺ ما أوحى الله إليه، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أوحى [الله] إلى جبريل ما يوحيه، روي عن عائشة رضي الله عنها، والحسن، وقناة.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾^(٣) قرأ أبو جعفر، وهشام عن ابن عامر، وأبان عن عاصم: «ما كَذَّبَ» بتشديد الدال؛ وقرأ الباقون بالتخفيف. فمن شدد أراد: ما أنكر فؤاده ما رآه عينه؛ ومن خفف أراد: ما أوهمه فؤاده أنه رأى، ولم ير، بل صدق^(٤) الفؤاد رؤيته. وفي الذي رأى قولان: أحدهما: أنه رأى ربه رضي الله عنه، قاله ابن عباس، [وأنس] والحسن، وعكرمة^(٥). والثاني: أنه رأى جبريل في صورته التي خلق عليها، قاله ابن مسعود وعائشة.

قوله تعالى: ﴿أَفْتَمْرُؤُهُ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، والمنضفل، وخلف، ويعقوب: «أَفْتَمْرُؤُهُ». قال ابن قتيبة: معنى «أَفْتَمْرُؤُهُ»: أفتجادلونه، من الفراء، ومعنى «أَفْتَمْرُؤُهُ»: أفتنجدونه.

قوله تعالى: ﴿رَلَقَدَّ رَوَاهُ تَزَلَّةٌ لَأُنْفَىٰ﴾^(٦) قال الزجاج: أي: رآه مرة أخرى. قال ابن عباس: رأى محمد ربه؛ وبيان هذا أنه تردّد لأجل الصلوات مراراً، فرأى ربه في بعض تلك المرات مرة أخرى. قال كعب: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين محمد وموسى، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين. وقد روي عن ابن مسعود أن هذه الرؤية لجبريل أيضاً، رآه على صورته التي خلق عليها^(٧). فأما سيذرة المُنْتَهَى، فالسُّرَّة: شجرة التِّبْق، وقد صح في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجْرٍ، وَوَزَنُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفَيْضِ»^(٨). وفي مكانها قولان: أحدهما: أنها فوق السماء السابعة، وهذا مذکور في «الصحيحين» من حديث مالك بن صعصعة^(٩). قال مقاتل: وهي عن يمين العرش. والثاني: أنها في السماء السادسة، أخرجه مسلم في أفراد^(١٠) عن ابن مسعود، وبه قال الضحاك. قال المفسرون: وإنما سُمِّيَتْ سيذرة المُنْتَهَى، لأنه إليها مُنْتَهَى ما يُضَعَدُ به من الأرض، فيُبْقَضُ منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فيُبْقَضُ منها، وإليها ينتهي علم جميع الملائكة.

قوله تعالى: ﴿عِنْدَهَا﴾ وقرأ معاذ القارئ، وابن يعمر، وأبو نهيك: «عِنْدَهَا» بهاء مرفوعة على ضمير مذكّر ﴿جَنَّةٍ الْأُولَى﴾ قال ابن عباس: هي جنة يأوي إليها جبريل والملائكة. وقال الحسن: هي التي يصير إليها أهل الجنة. وقال مقاتل: هي جنة إليها تأوي أرواح الشهداء. وقرأ سعيد بن المسيّب، والشعبي، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو العالية: «جَنَّةُ الْمَأْوَى» بهاء صحيحة مرفوعة. قال ثعلب: يريدون أجنته، وهي شاذة. وقيل: معنى «عندها»: أدركه البيت، يعني رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْتَنقِذُكَ مَا يَسْتَنقِذُكَ﴾^(١١) روى مسلم في أفراد^(١٢) من حديث ابن مسعود قال: عَشِيهَا قَرَأْتُ مِنْ ذَهَبِ^(١٣). وفي حديث مالك بن صعصعة عن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا عَشِيهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا عَشِيهَا، تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِي اللَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا»^(١٤). وقال الحسن، ومقاتل: تَعَشَّاهَا الملائكة أمثال الغربان حين يَقَعْنَ على الشجرة. وقال الضحاك: [عَشِيهَا] نور رب العالمين.

(١) كِفاحاً، أي: مواجهة.

(٢) في الأصل: صدقة.

(٣) روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ و﴿رَلَقَدَّ رَوَاهُ تَزَلَّةٌ لَأُنْفَىٰ﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين. قال ابن كثير: وكذا رواه سناك عن عكرمة عن ابن عباس مثله، وكذا قال أبو صالح والسدي وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين، قال: وقد خالفه ابن مسعود وغيره، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية، قال: وهي محمولة على العقيدة بالفؤاد، قال: ومن روى عنه بالبرص فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم، قال: وقول البخاري في «تفسيره»: ذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة، فيه نظر، والله أعلم.

(٤) وهو الذي عليه أكثر المحققين. قال ابن كثير: هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء.

(٥) رواه البخاري في صحيحه ١٦٤/٧، ومسلم ١٥٠/١، وهو جزء من حديث الإسراء الطويل.

(٦) البخاري ١٦٤/٧، ومسلم ١٥٠/١.

(٧) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: ولا يعارض قوله: إنها في السادسة ما دلت عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل السماء السابعة، لأنه يحمل على أن أصلها في السادسة وأعضاؤها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها.

(٨) هذا اللفظ في رواية ثابت الباني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن مسلم في صحيحه ١٤٦/١.

(٩) هذا اللفظ في رواية ثابت الباني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن مسلم في صحيحه ١٤٦/١.

قوله تعالى: ﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ﴾ أي: ما عدلَ بصرُ رسول الله ﷺ يميناً ولا شمالاً ﴿وَمَا لَطَفَ﴾ أي: ما زاد ولا جاوز ما رأى؛ وهذا وصف أدبه ﷺ في ذلك المقام. ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ فيه قولان: أحدهما: [لقد] رأى من آيات ربِّه العظام. والثاني: لقد رأى من آيات ربِّه [الآية] الكبرى^(١) وللمفسرين في المراد بما رأى من الآيات ثلاثة أقوال: أحدها: أنه رأى رفقاً أحضر من الجنة قد سدَّ الأفق، قاله ابن مسعود. والثاني: أنه رأى جبريل في صورته التي يكون عليها في السماوات، قاله ابن زيد. والثالث: أنه رأى من أعلام ربِّه وأدلته [الأعلام والأدلة]^(٢) الكبرى، قاله ابن جرير^(٣).

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ وَمِنَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ ﴿الْكُمُ الْذَكَرُ﴾ وَكَهَ الْأُنثَىٰ ﴿عَلَيْكَ إِذَا قَسَمْتُ صَبْرِي﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمَا أُنْتُمْ وَمَا أَزْكَرَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَفْسُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهَدْيُ ﴿أَمْ لَأَنْسَيْنَا مَا كُنَّا ﴿اللَّهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ وَكَرَّ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَنْفِي سَفْعَتَيْهِمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾

قال الزجاج: فلما قصَّ الله تعالى هذه الأقسام هذه قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ والمعنى: أخبرونا عن هذه الآلهة التي تعبدونها هل لها من القدرة والعظمة التي وُصف بها ربُّ العزرة شيء؟ فأما «اللات» فقرأ الجمهور بتخفيف التاء، وهو اسم صنم كان لثقيف أخذوه من دون الله، وكانوا يشتمون لأصنامهم، من أسماء الله تعالى، فقالوا من «الله»: اللات، ومن «العزير»: العزى. قال أبو سليمان الخطابي: كان المشركون يتعاطون «الله» اسماً لبعض أصنامهم، فصرفه الله إلى اللات صيانة لهذا الاسم ودباً عنه. وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك، وابن السميع، ومجاهد، وابن يعمر، والأعمش، وورش عن يعقوب^(٤): «اللات» بتشديد التاء؛ ورد في تفسير ذلك عن ابن عباس ومجاهد أن رجلاً كان يُلْتُ السويق ويبيعه عند ذلك الصنم، فسُمي الصنم: اللات. وكان الكسائي يقف عليها الزجاج: زعموا أن رجلاً كان يُلْتُ السويق ويبيعه عند ذلك الصنم، فسُمي الصنم: اللات. وكان الكسائي يقف عليها بالهاء، فيقول: «الللة»؛ وهذا قياس، والأجود الوقوف بالتاء، لاتباع المصحف. وأما «العزى» ففيها قولان: أحدهما: أنها شجرة لغطفان كانوا يعبدونها، قاله مجاهد. والثاني: صنم لهم، قاله الضحاك. قال: وأما «مناة» فهو صنم لهذيل وخزاعة يعبدُه أهل مكة. وقال قتادة: بل كانت للأنصار. وقال أبو عبيدة: كانت اللات والعزى ومناة أصناماً من حجارة في جوف الكعبة يعبدونها. وقرأ ابن كثير: «ومناة» ممدودة مهموزة. فأما قوله: ﴿الثَّالِثَةُ﴾ فإنه نعت لـ «مناة»، هي ثالثة الصنمين في الذكر، و«الأخرى» نعت لها. قال الثعلبي: العرب لا تقول للثالثة: الأخرى، وإنما الأخرى نعت للثانية؛ فيكون في المعنى وجهان: أحدهما: أن ذلك لوفاق رؤوس الآي، كقوله: ﴿مَنَارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] ولم يقل، آخر، قال الخليل. والثاني: أن في الآية تقديماً وتأخيراً تقديره: أفرايتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة، قاله الحسين بن الفضل.

قوله تعالى: ﴿الْكُمُ الْذَكَرُ﴾ قال ابن السائب: إن مشركي قريش قالوا للأصنام والملائكة: بناتُ الله، وكان الرجل منهم إذا بُسِّرَ بالأُنثى كره، فقال الله تعالى مُنْكَرًا عليهم: ﴿الْكُمُ الْذَكَرُ﴾ وَكَهَ الْأُنثَىٰ ﴿١٩﴾ يعني الأصنام وهي [إنات] في أسمائها. ﴿عَلَيْكَ إِذَا قَسَمْتُ صَبْرِي﴾ ﴿٢٠﴾ قرأ عاصم، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [«ضيزى»] بكسر الضاد من غير همز؛ وافقهم ابن كثير [في] كسر الضاد، لكنه همز. وقرأ أبيُّ بن كعب، ومعاذ القارئ: «ضيزى»

(١) قال في «البحر المحيط»: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قيل: «الكبرى» مفعول «رأى» أي: رأى الآيات الكبرى والعظمى التي هي بعض آيات ربه، أي: حين رقى إلى السماء رأى عجائب الملكوت، وتلك بعض آيات الله. وقيل: «من آيات» هو في موضع المفعول، و«الكبرى» صفة لـ «آيات ربه»، ومثل هذا الجمع يوصف بوصف الواحدة، وحسن ذلك هنا، كونها فاصلة كما في قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ مِنْ رَبِّهِمَا الْكُبْرَى﴾ عند من جعلها صفة لـ «آياتها» اهـ.

(٢) زيادة من «الطبري».

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ كقوله: ﴿لِرَبِّهِمْ مِنْ رَبِّهِمَا الْكُبْرَى﴾ أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا، قال: وهاتين الآيتين استدلل من ذهب من أهل السنة إلى أن الروية تلك الليلة لم تقع، لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك، ولقال ذلك للناس. اهـ.

(٤) في النسخة الاستنبولية: وروى عن يعقوب.

بفتح الضاد من غير همز. قال الزجاج: الضيبي في كلام العرب: الناقصة الجائرة، يقال: ضازه يضيئه إذا قصه حقه، ويقال: ضأزه يضاؤه^(١) بالهمز. وأجمع النحويون أن أصل ضيبي: ضوزي، وحججهم أنها نقلت من «فعلى» من ضوزى إلى ضيبي، لتسلم الياء، كما قالوا: أبيض وبيض، وأصله: بوض، فنقلت الضمة إلى الكسرة. وقرأت على بعض العلماء باللغة: في «ضيبي» لغات يقال: ضيبي، وضوزي، وضوزي، وضأزي على «فعلى» مفتوحة؛ ولا يجوز في القرآن إلا «ضيبي» بياء غير مهموزة؛ وإنما لم يقل النحويون: إنها على أصلها لأنهم لا يعرفون في الكلام «فعلى» صفة، إنما يعرفون الصفات على «فعلى» بالفتح، نحو سكرى وغضبي، أو بالضم، نحو حبلى وقضلى.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ﴾ يعني الأوثان ﴿إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ والمعنى: إن هذه الأوثان التي سموا بها هذه الأسمي لا معنى تحتها، لأنها لا تضر ولا تنفع، فهي تسميات ألقيت على جمادات، ﴿مَّا أُنزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: لم ينزل كتاباً فيه حجة بما يقولون: إنها آلهة. ثم رجع إلى الإخبار عنهم بعد الخطاب لهم فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ في أنها آلهة، ﴿إِلَّا الظَّنُّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾^(٢) وهو ما زين لهم الشيطان، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْفُتْنَةُ﴾ وهو البيان بالكتاب والرسول، وهذا تعجيب من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وضوح البيان. ثم أنكر عليهم تمسيبهم شفاعتها فقال: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ﴾ يعني الكافر ﴿مَا تَنبَى﴾ من شفاعاة الأصنام، ﴿فَاللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾^(٣) أي لا يملك فيهما أحد شيئاً إلا بإذنه. ثم أكد هذا بقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفِي شَفَاعَتَهُمْ شَيْئاً﴾ فجمع في الكناية، لأن معنى الكلام الجمع ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ في الشفاعاة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضَى﴾؛ والمعنى أنهم لا يشفعون إلا لمن رضي الله عنهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئَرُونَ لِللَّذِيكَ نَسِيَةَ الْآثِقِ﴾^(٤) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَخْلَعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُفِي مِنَ الْمُتَّقِي شَيْئاً ﴿١٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ قَوْلَ عَنْ ذِكْرَانَا وَرُبِّدَ إِلَّا الْحَيَوةَ الشَّيْبَانَا ﴿١٩﴾ ذَلِكَ سَبَلُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ إِنْ رَكَهُ هُوَ أَتَمُّ مِنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَغْلَرُ مِنْ أَهْتَدَى ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: بالبعث ﴿لَيَسْئَرُونَ لِللَّذِيكَ نَسِيَةَ الْآثِقِ﴾ وذلك حين زعموا أنها بنات الله، ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ بذلك، ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما يستيقنون أنها إناث ﴿إِنْ يَخْلَعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُفِي مِنَ الْمُتَّقِي شَيْئاً﴾ أي: لا يقوم مقام العلم^(٥)؛ فالحق هاهنا بمعنى العلم ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ قَوْلَ عَنْ ذِكْرَانَا﴾ يعني القرآن؛ وهذا عند المفسرين منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ سَبَلُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ﴾ قال الزجاج: إنما يعلمون ما يحتاجون إليه في معاشهم، وقد نبذوا أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَغْلَرُ مِنْ سَبَلٍ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية؛ والمعنى أنه عالم بالفريقين فيجازيهم. ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَيَجْزِي الَّذِينَ أَسْتَفَا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾^(٦) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفُرْجِحِ إِلَّا اللَّهُ إِنْ رَكَ وَبِيعَ الْمُصْفَرُّ هُوَ أَغْلَرُ بِكَوْ إِذْ أَسْأَكَرَ تَرِكَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَسْأَرَ أَيْتَةً فِي طَبْوَرِ أَمْتَيْكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَغْلَرُ مِنْ أَتَقَى ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا إخبار عن قدرته وسعة ملكه، وهو كلام معترض بين الآية الأولى وبين قوله: ﴿لَيَجْزِي الَّذِينَ أَسْتَفَا﴾ لأن اللام في «الجزى» متعلقة بمعنى الآية الأولى، لأنه إذا كان أعلم بهما، جازى كلًّا بما يستحقه، وهذه لام العاقبة، وذلك أن علمه بالفريقين أدى إلى جزائهم باستحقاقهم، وإنما يفتلر على مجازاة الفريقين إذا كان واسع الملك، فلذلك أخبر به في قوله: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. قال المفسرون: و «أسأوا» بمعنى أشركوا، و «أحسنوا» بمعنى وحّدوا. والحسنى: الجنة. والكباثر مذكورة في سورة [النساء: ٣١]. وقيل: كباثر الإثم: كلُّ ذنب حُتم بالنار، والفواحش: كلُّ ذنب فيه الحدّ. وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل، وخلف:

(١) في الأصل: ضازه يضيئه بالهمز، والتصويب من كتب اللغة.

(٢) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسوا، ولا تجسوا، ولا تتاجسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تبايروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

(٣) ما بين المقتفين زيادة سقطت من الأصل.

يَجْتَنِبُونَ كِبِيرَ الْإِثْمِ وَاللَّمَمَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْمُقَارَبَةُ لِلشَّيْءِ. وفي المراد به هاهنا ستة أقوال: أحدها: ما أَلْمُوا به من الإثم والفواحش في الجاهلية، فإنه يُغْفَرُ في الإسلام، قاله زيد بن ثابت. والثاني: أن يُلَمَّ بالذَّنْبِ مَرَّةً ثم يتوب ولا يعود، قاله ابن عباس، والحسن، والسدي. والثالث: أنه صِغارُ الذُّنُوبِ، كالتَّنْظَرَةِ والقَبْلَةِ وما كان دون الرُّنَا، قاله ابن مسعود، وأبو هريرة، والشعبي، ومسروق، ويؤيد هذا حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الرُّنَا، فَرْنَا الْعَيْنِينَ النَّظْرَ، وَرْنَا اللِّسَانَ النَّطْقَ، وَالنَّفْسَ تَشْتَهِي وَتَمْتَنِي، وَيَصْدَقُ ذَلِكَ وَيَكْذِبُهُ الْفَرْجُ»^(١)، فإن تَقَدَّمَ بَفَرْجِهِ كان الرُّنَا، وإلا فهو اللَّمَم. والرابع: أنه ما يَهْمُ به الإنسان، قاله محمد بن الحنفية. والخامس: أنه ألم بالقلب، أي: حَظَر، قاله سعيد بن المسيب. والسادس: أنه النَّظَرُ من غير تَعَمُّد، قاله الحسين بن الفضل. فعلى القولين [الأولين] يكون الاستثناء من الجنس، وعلى باقي الأقوال ليس من الجنس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَنَفَرَةِ﴾ قال ابن عباس: لِمَنْ فعل ذلك ثم تاب، وهاهنا تمَّ الكلام. ثم قال: ﴿هُوَ أَكْبَرُ يَكْبَرُ﴾ يعني قبل خلقكم ﴿إِنَّ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يعني آدم ﷺ ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ﴾ جمع جِنِين؛ والمعنى أنه عِلِمَ ما تفعلون وإلى ماذا تصيرون، ﴿فَلَا تَرْكُؤًا أَنفُسِكُمْ﴾ أي: لا تشهدوا لها أنها زَكِيَّةٌ بريئة من المعاصي. وقيل: لا تمدحوها بحُسن أعمالها. وفي سبب نزول هذه الآية قولان: أحدهما: أن اليهود كانوا إذا هلك لهم صبي، قالوا: صِدِّيقٌ، فنزلت هذه الآية، هذا قول عائشة رضي الله عنها^(٢). والثاني: أن ناساً من المسلمين قالوا: قد صلينا وضمنا وفعلنا، يُرْكُونُ أَنفُسَهُمْ، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَكْبَرُ بَيْنَ أُمَّةٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: عمل حسنة وارعوى عن معصية، قاله علي رضي الله عنه. والثاني: أخلص العمل لله، قاله الحسن. والثالث: اتقى الشرك فأمن، قاله الثعلبي.

﴿أَنزَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْثَى ﴿١٣٦﴾ أَعْنَدُمُ عِلْمِ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرِيءٌ ﴿١٣٧﴾ أَمْ لَمْ يَبَيِّنْ يَمًا فِي صُحُفٍ مَّوَسَى ﴿١٣٨﴾ وَابْتَرَاهِمَ الَّذِي وَكَّلَ ﴿١٣٩﴾ أَلَا نُرِيذُ رِزْزَةً وَرِذْءَ ثَمَرِ ﴿١٤٠﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿١٤١﴾ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ بَرَى ﴿١٤٢﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْآخِرَ ﴿١٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَنزَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ ﴿١٣٦﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنه الوليد بن المغيرة، وكان قد تبع رسول الله ﷺ على دينه، فغيره بعض المشركين، وقال: تركت دين الأشياخ وضللتهم؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضيحت له إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ﷻ ففعل، فأعطاه بعض الذي ضيحت له، ثم يخجل ومنعه، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد، وابن زيد. والثاني: أنه النضر بن الحارث أعطى بعض فقراء المسلمين خمس قلائص حتى ارتد عن إسلامه. وضيحت له أن يخجل عنه إنمه، قاله الضحاك. والثالث: أنه أبو جهل، وذلك أنه قال: واللَّهِ ما يأمرنا محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق، قاله محمد بن كعب القرظي. والرابع: أنه العاص بن وائل السهمي، وكان ربماً وافق رسول الله ﷺ في بعض الأمور، قاله السدي. ومعنى «تَوَلَّى»: أعرض عن الإيمان. ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أطاع قليلاً ثم عصى. قاله ابن عباس. والثاني: أعطى قليلاً من نفسه بالاستماع ثم أكدى بالانقطاع، قاله مجاهد. والثالث: أعطى قليلاً من ماله ثم منع، قاله الضحاك. والرابع: أعطى قليلاً من الخير بلسانه ثم قطع، قاله مقاتل. قال ابن قتبية: ومعنى «أَكْثَى»: قطع، وهو من كُذِيَ الرِّكِيَّةِ، وهي الصَّلابة فيها، وإذا بلغها الحافر يش من حفرها، فقطع الحُفْرَ، فقليل لكل من طلب شيئاً فلم يبلغ آخره، أو أعطى ولم يُيَمِّ: أَكْثَى.

قوله تعالى: ﴿أَعْنَدُمُ عِلْمِ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرِيءٌ﴾ ﴿١٣٧﴾ فيه قولان: أحدهما: فهو يرى حاله في الآخرة، قاله الفراء. والثاني: فهو يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة وغيرها، قاله ابن قتبية.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَبَيِّنْ يَمًا فِي صُحُفٍ مَّوَسَى﴾ ﴿١٣٨﴾ يعني التوراة، ﴿وَابْتَرَاهِمَ﴾ أي: وصحف إبراهيم. وفي حديث

(١) رواه البخاري في «صحيحه» ٢٢/١١، ومسلم ٢٠٤٦/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٦ عن ثابت بن الحارث الأنصاري وفي سننه ابن لهيعة، وفكره السيوطي في «الدر» ١٢٨/٦. وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي نعيم في «المعرفة»، وابن مردويه عن ثابت بن الحارث الأنصاري.

أبي ذر عن النبي ﷺ «أن الله تعالى أنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف»^(١).
 قوله تعالى: ﴿الَّذِي وَفَى﴾ قرأ سعيد بن جبير، وأبو عمران الجوني، وابن السميع اليماني «وفى» بتخفيف الفاء.
 قال الزجاج: قوله: «وفى» أبلغ من «وفى»، لأن الذي أمحن به من أعظم المحن. وللمفسرين في الذي وفى عشرة أقوال: أحدها: أنه وفى عمله يومه بأربع ركعات في أول النهار، رواه أبو أمامة عن رسول الله ﷺ^(٢). والثاني: أنه وفى في كلمات كان يقولها. روى سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم لم سمي الله إبراهيم خليله [الذي وفى]؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: ﴿فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ حِينَ نُنسُوكَ وَحِينَ تَنْسِيحُونَ﴾» وختم الآية [الروم: ١٧]^(٣). والثالث: أنه وفى الطاعة فيما فعل بآبائه، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال القرظي. والرابع: أنه وفى ربّه جميع شرائع الإسلام، روى هذا المعنى عكرمة عن ابن عباس. والخامس: أنه وفى ما أمر به من تبليغ الرسالة، روي عن ابن عباس أيضاً. والسادس: أنه عمل بما أمر به، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وقال مجاهد: وفى ما فرض عليه. والسابع: أنه وفى بتبليغ هذه الآيات، وهي: ﴿أَلَا نُرِذُّ زُرَّةً وَنُرِذُّ لُثْرَةَ﴾ وما بعدها، وهذا مروى عن عكرمة، ومجاهد، والنخعي. والثامن: وفى شأن المناسك، قاله الضحاك. والتاسع: أنه عاهد أن لا يسأل مخلوقاً شيئاً، فلما قُذِف في النار قال له جبريل، ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا^(٤)، فوفى بما عاهد، ذكره عطاء بن السائب. والعاشر: أنه أدى الأمانة، قاله سفيان بن عيينة. ثم بين ما في صحفهما فقال: ﴿أَلَا نُرِذُّ زُرَّةً وَنُرِذُّ لُثْرَةَ﴾^(٥) أي: لا تحمل نفس حاملةً جمل أخرى؛ والمعنى: لا تؤخذ بإثم غيرها. ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ قال الزجاج: هذا في صحفهما أيضاً. ومعناه: ليس للإنسان إلا جزاء سعيه، إن عمل خيراً جزى عليه خيراً، وإن عمل شراً جزى شراً. واختلف العلماء في هذه الآية على ثمانية أقوال: أحدها: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَأَتبعناهم ذرياتهم بإيمان﴾^(٦) [الطور: ٢١] فأدخل الأبناء الجئة بصلاح الآباء، قاله ابن عباس، ولا يصح، لأن لفظ الآيتين لفظ خبر، والأخبار لا تنسخ. والثاني: أن ذلك كان لقوم إبراهيم وموسى، وأما هذه الأئمة فلهم ما سَعَوْا وما سعى غيرهم، قاله عكرمة، واستدل بقول النبي ﷺ للمرأة التي سألته: إن أبي مات ولم يحج، فقال: «حجني عنه»^(٧). والثالث: أن المراد بالإنسان هاهنا: الكافر، فأما المؤمن، فله ما سعى وما سعى له، قاله الربيع بن أنس. والرابع: أنه ليس للإنسان إلا ما سعى من طريق العدل، فأما من باب الفضل، فجاز أن يزيد الله ﷻ ما يشاء، قاله الحسين بن الفضل. والخامس: أن معنى «ما سعى»: ما نوى، قاله أبو بكر الورّاق. والسادس: ليس للكافر من الخير إلا ما عمله في الدنيا، فيُثاب عليه فيها حتى لا يبقى له في الآخرة خير، ذكره الثعلبي. والسابع: أن اللام بمعنى «على»، فتفديده: ليس على الإنسان إلا ما سعى. والثامن: أنه ليس له إلا سعيه، غير أن الأسباب مختلفة، فتارة يكون سعيه في تحصيل قرابة وولد يترحم عليه وصديق، وتارة يسعى في خدمة الدين والعبادة، فيكتسب محبة أهل الدين، فيكون ذلك سبباً حصل بسعيه، حكى

(١) قال السيوطي في «الدر»: ٣٤١/٦: أخرج عبد بن حميد، وابن مردويه، وابن عساكر عن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف... إلخ».

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٧٣/٢٧ وفي سننه جعفر بن الزبير الباهلي، قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: متروك الحديث، وكان صالحاً في نفسه، وذكره السيوطي في «الدر»: ١٢٩/٦ وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والسيرافي في «الأنساب» والديلمي بسند ضعيف عن أبي أمامة ﷺ.

(٣) رواه أحمد في «المسند»: ٣٣٩/٣ عن معاذ بن أنس، وابن جرير الطبري ٧٣/٢٧، وفي سننه زيان بن فائد وهو ضعيف. وأورده السيوطي في «الدر»: ١٥٤/٥ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «الدعوات» عن معاذ بن أنس ﷺ.

(٤) قد تقدم الكلام على هذا الأثر ٩٣٤ فانظره في.

(٥) قراءة حفص ﴿وَالَّذِينَ تَزَيَّجْتُمْ﴾ وهذه قراءة ابن عامر.

(٦) رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عبد الله بن عباس ﷺ، ونسبه: أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي أهدركه فريضة الله في الحج شيئاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره، قال: «فحجني عنه».

القولين شيخنا علي بن عبيد الله الزاغوني^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ سَعَيْمٌ سَوَّافٌ يَرَى﴾^(١٥) فيه قولان: أحدهما: سوف يُعَلِّمُ، قاله ابن قتيبة. والثاني: سوف يرى العبد سعيه يوم القيامة، أي: يرى عمله في ميزانه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿يُحْيِيهِمُ﴾ الهاء عائدة على السعي ﴿الْحَجَرَةَ الْأَوَّلَى﴾ أي: الأكلم الأتم.

﴿وَأَنْ إِنْ رَبِّكَ الشَّهَنُ﴾^(١٦) وَأَنْهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى^(١٧) وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا^(١٨) وَأَنْهُ خَلَقَ الرَّزْمِيَّ الذَّكْرَ وَالْأُنْثَى^(١٩) مِنْ تُلْفُفَةٍ إِنْ تَنَقَّرَ^(٢٠) وَأَنْ عَلَيْهِ الشَّاةُ الْآخْرَى^(٢١) وَأَنْهُ هُوَ أَفْقَى وَأَقْنَى^(٢٢) وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ السَّعْرَى^(٢٣) وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَادَا الْأَوَّلَى^(٢٤) وَتَمَوَّنَا مَا أَفْنَى^(٢٥) وَقَوْمٌ نُجٌّ يَنْ قَبْلَ إِيْتِهِمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَمَ^(٢٦) وَالْمَوْزَنِيَّةَ أَهْوَى^(٢٧) فَفَسَّخْنَا مَا عَشَّى^(٢٨) فَبَأَى مَالَهُ رَبِّكَ تَسَاءَى^(٢٩) ﴿وَأَنْ إِنْ رَبِّكَ الشَّهَنُ﴾^(٣٠) أي: مُتَّهِى الْعِبَادِ وَمَرَجُّهُمْ. قال الزجاج: هذا كُلُّهُ فِي صَحْفِ إِبْرَاهِيمَ وَدُوسَى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾^(٣١) قالت عائشة: مرَّ رسولُ الله ﷺ بقوم يضحكون، فقال: «لو تَعْلَمُونَ مَا أَفْلَمْتُمْ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ بِهذه الآية، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: مَا خَطَبُوتُ أَرْبَعِينَ خَطْوَةً حَتَّى أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّتَ هُوَ لَا فَعْلَ لَهُمْ: إِنْ اللهُ يَقُولُ: وَأَنْهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى»^(٣٢)، وفي هذا تنبيه على أن جميع الأعمال بقضاء الله وقدره حتى الضحك والبكاء. وقال مجاهد: أَضْحَكَ أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَأَبْكَى أَهْلَ النَّارِ. وقال الضحاك: أَضْحَكَ الْأَرْضَ بِالنبات، وَأَبْكَى السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتٌ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَأَحْيَا﴾ لِلْبَعِثِ ﴿وَأَنْهُ خَلَقَ الرَّزْمِيَّ﴾ أَي: الصَّنْفَيْنِ ﴿الذَّكْرَ وَالْأُنْثَى﴾ مِنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ ﴿مِنْ تُلْفُفَةٍ إِنْ تَنَقَّرَ﴾^(٣٣) فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: إِذَا تَرَأَى فِي الرَّجْمِ، قَالَه ابْنُ السَّائِبِ. وَالثَّانِي: إِذَا تُخَلِّقُ وَتُقَدِّرُ. ﴿وَأَنْ عَلَيْهِ الشَّاةُ الْآخْرَى﴾^(٣٤) وَهِيَ الْخَلْقُ الثَّانِي لِلْبَعِثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿وَأَنْهُ هُوَ أَفْقَى﴾ فِيهِ أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ: أَحَدُهَا: أَعْنَى بِالْكَفَايَةِ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: بِالْمَعِيشَةِ، قَالَه الضَّحَّاكُ. وَالثَّلَاثُ: بِالْأَمْوَالِ، قَالَه أَبُو صَالِحٍ. وَالرَّابِعُ: بِالْقِنَاعَةِ، قَالَه سَفِيَانٌ. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَقْنَى﴾ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ: أَحَدُهَا: أَرْضَى بِمَا أُعْطِيَ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: أَخْدَمَ، قَالَه الْحَسَنُ، وَقَتَادَةَ، وَعَنْ مَجَاهِدٍ كَالْقَوْلَيْنِ. وَالثَّلَاثُ: جَعَلَ لِلْإِنْسَانِ قِيَّتَهُ، وَهُوَ أَصْلُ مَالٍ، قَالَه أَبُو عُبَيْدَةَ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ السَّعْرَى﴾^(٣٥) قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: هُوَ الْكَوْكَبُ الَّذِي يُظَلِّعُ بَعْدَ الْجُزْأَاءِ، وَكَانَ نَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْبُدُونَهَا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَادَا الْأَوَّلَى﴾^(٣٦) قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَعَاصِمٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَحَمْزَةٌ، وَالْكَسَائِيُّ: «عَادَا الْأَوَّلَى» مَثْوَةٌ. وَقَرَأَ نَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو: «عَادَا لَوْلَى» مُوصُولَةٌ مَدْمُومَةٌ. ثُمَّ فِيهِمْ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ قَوْمٌ هُودٍ، وَكَانَ لَهُمْ عَقِبٌ فَكَانُوا عَادَا الْآخَرَى، هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ. وَالثَّانِي: أَنَّ قَوْمَ هُودٍ هُمْ عَادَا الْآخَرَى، وَهَمٌّ مِنْ أَوْلَادِ عَادِ الْأَوَّلَى، قَالَه كَعْبُ الْأَحْبَارِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: وَفِي «الْأَوَّلَى» لَفَاتٌ، أَجْوَدُهَا سَكُونُ اللَّامِ وَإِثْبَاتُ الْهَمْزِ، وَالثَّانِي تَلْبِيهَا فِي الْجُودَةِ ضَمُّ اللَّامِ وَطَرَحُ الْهَمْزَةِ، وَمَنْ الْعَرَبُ مِنْ يَقُولُ: لَوْلَى، يُرِيدُ: الْأَوَّلَى، فَتَطْرَحُ الْهَمْزَةُ لِتَحْرَكَ اللَّامُ.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُجٌّ يَنْ قَبْلَ﴾ أَي: يَنْ قَبْلَ عَادِ وَثَمُودَ: ﴿إِيْتِهِمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَمَ﴾ مِنْ غَيْرِهِمْ، لَطُولُ دَعْوَةِ نُوْحٍ إِلَيْهِمْ، وَعَتْوَاهُمْ، ﴿وَالْمَوْزَنِيَّةَ﴾ قَرَى قَوْمٌ لَوْطَ ﴿أَهْوَى﴾ [أي]: أَسْقَطَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى ذَلِكَ جِبْرِيلُ بَعْدَ أَنْ رَفَعَهَا، وَأَتَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْحِجَارَةِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَفَسَّخْنَا﴾ أَي: أَلْبَسَهَا ﴿مَا عَشَّى﴾ يَعْنِي الْحِجَارَةَ ﴿فَبَأَى مَالَهُ رَبِّكَ تَسَاءَى﴾^(٣٧) هَذَا خُطَابٌ لِلْإِنْسَانِ، لَمَّا عَدَّدَ اللَّهُ مَا فَعَلَهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ قَالَ: فَبَأَى نِعَمَ رَبِّكَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَشْكُرُكَ؟ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَبَأَى آيَةً رَبِّكَ تَكْذِبُ يَا وَلِيدَ، يَعْنِي [الموليد] بِنِ الْمَغْيِرَةِ.

﴿هَذَا يُبَيِّنُ مِنَ الْكُذْبِ الْأَوَّلَى﴾^(٣٨) أَرَيْتَ الْآيَةَ^(٣٩) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَائِفَةٌ^(٤٠) أَوْنِ هَذَا الْمَلِيكِ تَسْجُونَ^(٤١) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ^(٤٢) وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ^(٤٣) فَاصْبِرُوا لِلَّهِ وَأَصْبِرُوا^(٤٤)

(١) هو علي بن عبيد الله بن نصر بن السري البغدادي مؤرخ فقيه من أعيان الحنابلة، قال ابن رجب: كان متفتناً في علوم شتى من الأصول والفروع والحديث والوعظ ووصف في ذلك كله. توفي سنة ٥٢٧هـ.

(٢) ذكره السيوطي في «الدرر» ٦/ ١٣٠ من رواية ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه القرآن، نذيرٌ بما أنذرت الكتبُ المتقدِّمة، قاله قتادة. والثاني: أنه رسول الله ﷺ، نذيرٌ بما أنذرت به للإنبياء، قاله ابن جريج.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتِ الْآيَةَ﴾ (٤٧) أي: دنت القيامة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (٤٨) فيه قولان: أحدهما: إذا غَشِيَتِ الخَلْقُ شدائدُها وأحوالُها لم يَكْشِفْها أحدٌ ولم يَرُدِّها، قاله عطاء، وقاتدة، والضحاك. والثاني: ليس لِعَلْمِها كاشفٌ دونَ الله، أي: لا يَعْلَمُ عِلْمِها إلا اللهُ، قاله الفراء، قال: وتأنيت «كاشفة» كقوله: ﴿فَهَلْ رَمَى لَهُمْ مِنْ بَاطِنِهِ﴾ (الحاقة: ٨)، يريد: من بقاء؛ والعافية والباقية والناحية كُلُّه في معنى المصدر. وقال غيره: تأنيت «كاشفة» على تقدير: نفس كاشفة.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَذَّبَ﴾ قال مقاتل: يعني القرآن «تَجَبُّونَ» تكذيباً به، ﴿وَتَضَحَّكُونَ﴾ استهزاءً ﴿وَلَا يَكُونُ﴾ مما فيه من الوعيد؟! ويعني بهذا كفار مكة، ﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾ (٤٩) فيه خمسة أقوال: أحدها: لاهون، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الفراء والزجاج. قال أبو عبيدة: يقال: دَخَّ عنك سُمُودُك، أي: لهُوك. والثاني: مُعْرِضُونَ، قاله مجاهد. والثالث: أنه الغناء، وهي لغة يمانية، يقولون: اسْمُدْ لنا، أي: تَعَنَّ لِن، رواه عكرمة عن ابن عباس. وقال عكرمة: هو الغناء بالجمْريَّة. والرابع: غافلون، قاله قتادة. والخامس: أشيروا بِطُورِ، قاله الضحاك.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه سُجُودُ التلاوة، قاله ابن مسعود. والثاني: سُجُودُ الفِرْضِ في الصلاة. قال مقاتل: يعني بقوله: «فأسجدوا»: الصلوات الخمس. وفي قوله: ﴿وَاعْبُدُوا﴾ قولان: أحدهما: أنه التوحيد. والثاني: العبادة (٥٠).



(١) الآية في التلاوة: ﴿فَهَلْ رَمَى لَهُمْ مِنْ بَاطِنِهِ﴾ وقد سوغ المتقدمون حذف الواو والفاء عند ذكر الآية للاستدلال، انظر «الرسالة» للشافعي ٣٦١ بتحقيق العلامة أحمد شاكر رحمه الله.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ يقول تعالى ذكروه: فأسجدوا لله أيها الناس في صلواتكم دون من سواه من الألهة والأنداد، وإياه فاعبدوا دون غيره، فإنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا له، فأخلصوا له العبادة والسجود، ولا تجعلوا له شريكاً في عبادتكم إياه. وروى البخاري في «صحيحه» ٤٧٢/٨ عن ابن عباس ؓ قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. وروى البخاري أيضاً عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة «وَالَّذِينَ» قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف.

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿أَنزَلْنَا السَّاعَةَ وَأَنشَقَّ الْقَمَرَ ۝١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ مُّسْتَوِرَةٌ ۝٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ مُرْدَجَةٌ ۝٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ لِّمَا تُعْنِي أَلْدُرُّ ۝٥﴾ .

وهي مكية بإجماعهم، وقال مقاتل: مكية غير آية ﴿سَبِّهِمْ لِمَنَعُ﴾ [القمر: ٤٥]، وحكي عنه أنه قال: إلا ثلاث آيات، أولها: ﴿أَمْرٌ يُؤَلِّقُ لِنَحْنِ جَمِيعٍ مُّنْجُورٍ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٤-٤٦]، قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن فعلت تؤمنون؟» قالوا: نعم، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا، فانشق القمر فرقتين، ورسول الله ﷺ ينادي: «يا فلان يا فلان أشهدوا»، وذلك بمكة قبل الهجرة^(١). وقد روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» من حديث ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال رسول الله ﷺ: «أشهدوا»^(٢). وقد روى حديث الانشقاق جماعة، منهم عبد الله بن عمر، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عباس، وأنس بن مالك^(٣)، وعلى هذا جميع المفسرين، إلا أن قوماً شذوا فقالوا: سينشق يوم القيامة. وقد روى عثمان بن عطاء عن أبيه نحو ذلك، وهذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع، ولأن قوله: ﴿وَأَنشَقَّ﴾ لفظ ماضٍ، وحمل لفظ الماضي على المستقبل يفتقر إلى قرينة تنقله ودليل، وليس ذلك موجوداً^(٤). وفي قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ دليل على أنه قد كان ذلك. ومعنى ﴿أَنزَلْنَا﴾: دَنَتْ، و ﴿السَّاعَةَ﴾ القيامة. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير، تقديره: انشق القمر واقتربت الساعة. وقال مجاهد: انشق القمر فصار فرقتين، فثبت فرقة، وذهبت فرقة وراء الجبل. وقال ابن زيد: لما انشق القمر كان يرى نصفه على قُعَيْقَعَانَ، والنصف الآخر على أبي قُبَيْسٍ - قال ابن مسعود: لما انشق القمر قالت قريش: سحرهم ابن أبي كبشة، فاسألوا السُّفَّارَ، فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأينا، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَنزَلْنَا السَّاعَةَ وَأَنشَقَّ الْقَمَرَ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾ أي: آية تدلهم على صدق الرسول، والمراد بها هاهنا: انشقاق القمر ﴿يُعْرِضُوا﴾ عن التصديق ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ذاهبٌ، من قولهم: مرَّ الشيء واستمرَّ: إذا ذهب، قاله مجاهد، وقادة، والكسائي، والفراء؛ فعلى هذا يكون المعنى: هذا سحر، والسحر يذهب ولا يثبت. والثاني: شديدٌ قويٌّ، قاله أبو العالية، والضحاك، وابن قتيبة، قال: وهو مأخوذ من الجرّة، والجرّة: القتل^(٦). والثالث: دائمٌ، حكاة الرجاج.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا﴾ يعني كذبوا النبي ﷺ وما عاينوا من قدرة الله تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ما زين لهم الشيطان ﴿وَكُلُّ أُمَّةٍ مُّسْتَوِرَةٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن كلَّ أمةٍ مستقرَّةٌ بأهلها، فالخير يستقرُّ بأهل الخير، والشر يستقرُّ بأهل

(١) رواه البخاري ٤٦٤/٦ بمعناه مختصراً، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٣٢/٦ ونسبه إلى أبي نعيم في «الحلية» من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس.

(٢) البخاري ٤٧٤/٨، ومسلم ٢١٥٨/٤.

(٣) حديث عبد الله بن عمر رواه مسلم والترمذي والبيهقي: وحديث حذيفة أخرجوه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وابن جرير، وابن مردويه. وحديث جبير بن مطعم رواه أحمد والبيهقي. وحديث ابن عباس رواه البخاري في «صحيحه». وحديث أنس بن مالك رواه أحمد والبخاري ومسلم.

(٤) في الأصل: موجود.

(٥) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٧، وابن جرير الطبري ٨٥/٢٧، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٣٢/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه، وأبي نعيم والبيهقي كلاهما في «الدلائل» من طريق مسروق عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) في الأصل: القتل، وهو تصحيف، والتصويب من «غريب القرآن».

الشر، قاله قتادة. والثاني: لكل حديث مُتَهَيَّ وحقيقة، قاله مقاتل. والثالث: أن قرار تكذيبهم مستقر، وقرار تصديق المصدقين مستقر حتى يعلموا حقيقة الثواب والعقاب، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: من أخبار الأمم المكذبة في القرآن ﴿مَا فِيهِ مُرَدِّجٌ﴾ قال ابن تقيية: أي: مُتَعَطِّ وَمُتَهَيَّ.

قوله تعالى: ﴿حِكْمَةً بَلِغَةً﴾ قال الزجاج: هي مرفوعة لأنها بدل من «ما»، فالمعنى: ولقد جاءهم حكمة بالغة [وإن شئت رفعتها بإضمار: هو حكمة بالغة]. و «ما» في قوله: ﴿فَمَا تَتْنِي أَلْتَدُرُّ﴾ جائز أن يكون استفهاماً بمعنى التوبيخ، فيكون المعنى: أي شيء تُغْنِي التُّدْرُ؟! وجائز أن يكون نفيًا، على معنى، فليست تُغْنِي التُّدْرُ. قال المفسرون: والمعنى: جاءهم القرآن وهو حكمة تامة قد بلغت الغاية، فما تُغْنِي التُّدْرُ إذا لم يؤمنوا!.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَسُدُّ الدَّلَاعُ إِلَيْكَ شَيْءٌ نُكْرٌ﴾ ﴿حُخْشَا أَسْرَمُرُّ يَخْرُجُونَ مِنَ الْآبِيَانِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَهِرٌ﴾ ﴿مُهْطِئِينَ إِلَى الدَّلَاعِ يَقُولُ الْكُفْرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ قال الزجاج: هذا وقف التمام، و ﴿يَوْمٌ﴾ منصوب بقوله: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْآبِيَانِ﴾. وقال مقاتل: فتولَّ عنهم [إلى] يوم ﴿يَسُدُّ الدَّلَاعُ﴾ أثبت هذه الباء في الحاليين يعقوب؛ ووافقه أبو جعفر، وأبو عمرو في الوصل، وحذفها الأكثرون في الحاليين. و «الداعي»: إسرافيل ينفخ النسخة الثانية. ﴿إِلَيْكَ شَيْءٌ نُكْرٌ﴾ وقرأ ابن كثير: «نُكْرٌ» خفيفة؛ أي: إلى أمر فظيع. وقال مقاتل: «النُّكْرُ» بمعنى المُتَنَكَّر، وهو القباية، وإنما يُنَكِّرُونَهُ إعظاماً له. والتَّوَلَّى المذكور في الآية منسوخ عند المفسرين بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿حُخْشَا أَسْرَمُرُّ﴾ قرأ أهل الحجاز، وابن عامر، وعاصم: «حُخْشَا» بضم الخاء وتشديد الشين من غير ألف. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «خَاشِعَا» بفتح الخاء وألف بعدها وتخفيف الشين. قال الزجاج المعنى: يخرجون حُخْشَاً، و «خَاشِعَا» منصوب على الحال، وقرأ ابن مسعود: «خَاشِعَا»؛ ولك في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد والتأنيث والجمع؛ تقول: مررت بشبانٍ حَسَنٍ أَوْجُهُمْ، وحسانٍ أَوْجُهُمْ، وحَسَنَةً أَوْجُهُمْ، قال الشاعر:

وَسَبَابِ حَسَنِ أَوْجُهُهُمْ

مِنْ إِسَادِ بَنِي زُرَّارِ بْنِ مَعَدَةَ^(١)

قال المفسرون: والمعنى أن أبصارهم ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب. والأحداث: القبور، وإنما شبههم بالجراد المنتشر، لأن الجراد لا جهة له يقيدها، [فهو أبدأ مختلف بعضه في بعض]، فهم يخرجون فزعين ليس لأحد منهم جهة يقيدها. والداعي: إسرافيل. وقد أثبت ياء «الداعي» في الحاليين ابن كثير، ويعقوب؛ تابعهما في الوصل نافع، وأبو عمرو؛ والباقون بحذفها في الحاليين. وقد بينا معنى «مُهْطِئِينَ» في سورة [إبراهيم: ٤٣] والعسير: الصَّعْبُ الشَّدِيدُ.

﴿كَذَّبَتْ قَالَهُمْ قَوْمٌ نُوْجٌ مَّكَذِبُوا عِبْدَانَا وَقَالُوا بَحْتُونَ وَأَزْدَجِرٌ﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ ﴿فَفَنَعْنَا آوَابَ السَّمَاءِ بِآوٍ مُنْتَهِرٍ﴾ ﴿وَبَعَثْنَا الْأَرْبَعُ عِوَابًا فَأَلْقَى السَّمَاءَ عَلَى أَمْرِ قَدِ فَرْدٍ﴾ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَرْجِ وَسَمِرٌ﴾ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرٌ﴾ ﴿وَلَقَدْ زَكَّيْنَاهَا بِآيَةٍ فَقَلَّ مِنْ مُدْرِكٍ﴾ ﴿كَفَيْتَ كَانَ عَذَابِي وَنُدْرٌ﴾ ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُدْرٌ﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مَرْمَرًا فِي يَوْمِ نَحِيشٍ مُسْتَعِيرٍ﴾ ﴿يَرْجِعُ النَّاسُ أَلْفَبًا نَحْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ ﴿كَفَيْتَ كَانَ عَذَابِي وَنُدْرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَالَهُمْ﴾ أي: قبل أهل مكة ﴿قَوْمٌ نُوْجٌ مَّكَذِبُوا عِبْدَانَا﴾ نوحاً ﴿وَقَالُوا بَحْتُونَ وَأَزْدَجِرٌ﴾ قال أبو عبيدة: افتعل من رُجِر. قال المفسرون: زجره عن مقالته ﴿فَدَعَا﴾ عليهم نوح ﴿رَبِّي﴾ بـ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ أي: فانصِّم لي ممن كذبني. قال الزجاج: وقرأ عيسى بن عمر النحوي: «إِنِّي» بكسر الألف، وفسرها سيويه فقال: هذا على إرادة القول، فالمعنى: قال: إني مغلوب؛ ومن فتح، وهو الوجه، فالمعنى: دعا ربه بـ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾.

(١) البيت للحارث بن دوس الإيادي، ويروي لأبي داود الإيادي «هاشم القرطبي» ١٢٩/١٧. وهو في «الطبري» ٩٠/٢٧. والبيت من شواهد الفراء في «معاني القرآن» الورقة ٣١٧ قال: إذا تقدم الفعل قبل اسم مؤنث وهو له، أو قبل جمع مؤنث، مثل الأنصار والأعمار وما أشبهها، جاز تأنيث الفعل وتذكيره وجمعه.

قوله تعالى: ﴿فَنَحْنُ أَوْزَابُ السَّمَاءِ﴾ قرأ ابن عامر «فَفَتَّحْنَا» بالتشديد. فأما المُنْهَمِرُ، فقال ابن قتيبة: هو الكثير السريع الانصباب، ومنه يُقال: هَمَرَ الرَّجُلُ: إذا أكثر من الكلام وأسرع. وروى عليٌّ رضي الله عنه أن أبواب السماء فُتحت بالماء من المجزأة، وهي شَرَجُ السماء. وعلى ما ذكرنا من القصة في [هود: ٤٤] أن المطر جاءهم، يكون هو المراد بقوله: ﴿فَنَحْنُ أَوْزَابُ السَّمَاءِ﴾ قال المفسرون: جاءهم الماء من فوقهم أربعين يوماً، وفُجرت الأرض من تحتهم عيوناً أربعين يوماً. ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري: «الماءان» بهمزة وألف ونون مكسورة. وقرأ ابن مسعود: «المايان» بياء وألف ونون مكسورة من غير همز. وقرأ الحسن، وأبو عمران: «الماوان» بواو وألف وكسر النون. قال الزجاج: يعني بالماء: ماء السماء وماء الأرض، ويجوز الماءان، لأن اسم الماء اسم يجمع ماء الأرض وماء السماء.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدِّدٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: كان قَدَّرَ ماء السماء كَقَدَّرَ ماء الأرض، قاله مقاتل. والثاني: قد قَدَّرَ في اللوح المحفوظ، قاله الزجاج. فيكون المعنى: على أمر قد قُضِيَ عليهم، وهو الفرق.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَتْهُ﴾ يعني نوحاً ﴿عَلَىٰ ذَاتِ الْأَرْجِ وَدَسَّرَ﴾ قال الزجاج. أي: على سفينة ذات الألواح. قال المفسرون: ألواحها: خشباتها العريضة التي منها جُمعت. وفي الدُّسْرُ أربعة أقوال: أحدها: أنها المسامير، رواه اللالبي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والقرظي، وابن زيد. وقال الزجاج: الدُّسْرُ: المسامير والشُّرَطُ التي تُشَدُّ بها الألواح، وكل شيء نحو السَّمَرِ أو إدخال شيء في شيء بقوة وشدة قَهْرُ فهو دَسَّرَ، يقال: دَسَّرْتُ المسمار أدسَرُهُ وأدسِرُهُ. والدُّسْرُ: واحد دَسَرَ، نحو جمار، وحُمُر. والثاني: أنه صَدْرُ السفينة، سُمِّيَ بذلك لأنه يَدُسِّرُ الماء، أي: يدفعه، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن وعكرمة؛ ومنه الحديث في العنبر أنه شيء دسره البحر، أي: دفعه^(١). والثالث: أن الدُّسْرُ: أضلاع السفينة، قاله مجاهد. والرابع: أن الدُّسْرُ: طرفاها وأصلها، والألواح: جانبها، قاله الضحاك.

قوله تعالى: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بِمَنْظَرٍ ومرأى مِنَّا ﴿جَرَائِمَ﴾ قال الفراء: فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه وإغراقهم ثواباً لمن كُفِرَ به. وفي المراد بـ «مَنْ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الله تعالى، وهو مذهب مجاهد، فيكون المعنى: عوقبوا الله وكفروهم به. والثاني: أنه نوحٌ كُفِرَ به وجُجد أمرُهُ، قاله الفراء. والثالث: أن «مَنْ» بمعنى «ما»؛ فالمعنى: اجزاء لما كان كُفِرَ من نعم الله عند الذين أغرقهم، حكاه ابن جرير. وقرأ قتادة: «لِمَنْ كان كَفَرًا» بفتح الكاف والفاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهُ﴾ في المشار إليها قولان: أحدهما: أنها السفينة، قال قتادة: أبقاها الله على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة. والثاني: أنها الفعلة، فالمعنى: تركنا هذه الفعلة وأمر سفينة نوح آية، أي: علامة ليعتبر بها، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ وأصله مُدْتَكِرٌ، فأبدلت التاء دالاً على ما بيَّنا في قوله: ﴿وَأَذَكَّرَ بِمَدَامَةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]. قال ابن قتيبة؛ أصله: مُدْتَكِرٌ، فأدغمت التاء في الدال، ثم قُلبت دالاً مشددة. قال المفسرون: والمعنى: هل من متدكِّرٍ يعتبر بذلك؟ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ وفي هذه السورة «وَنُذْرٌ» ستة مواضع، أثبت الياء فيهن في الحاليين يعقوب، تابعه في الوصل ورش، والباقون بحذفها في الحاليين. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ استفهام عن تلك الحالة، ومعناه التعظيم لذلك العذاب. قال ابن قتيبة: والنُّذْرُ هاهنا جمع نذير، وهو بمعنى الإنذار، ومثله التَّكْيِيرُ بمعنى الإنكار. قال المفسرون: وهذا تحوير لمشركي مكة. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ أي: سهَّلناهُ ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: للحفظ والقراءة ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي: من ذاكِرٍ يذكره ويقروه؛ والمعنى: هو الحث على قراءته وتعلُّمه^(٢) قال سعيد بن جبیر: ليس من كتب الله كتاب يُقرأ كُلُّه ظاهراً إلا القرآن. وأما الرُّبُوحُ الصَّرصرُ، فقد ذكرناها في [حم السجدة].

(١) قال الشيخ محمد السفاريني في [شرح ثلاثيات مستند الإمام أحمد]: جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه: مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زكاة العنبر؟ فقال: [إنما هو شيء دسره البحر].

(٢) قال ابن كثير: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراد، ليذكر الناس، كما قال: ﴿كَيْفَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُزَكَّاةً لِيَذَّبَ بِهِ وَلِيُنذِرَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني مؤثراً أولاً الأتية صلى الله عليه وسلم وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني مؤثراً =

قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسِرَ﴾ قرأ الحسن: «في يوم» بالتثنية، على أن اليوم ممنوع بالتحسين. والمستمر: الدائم الشوم، استمر عليهم بنحوه. وقال ابن عباس: كانوا يتشاءمون بذلك اليوم. وقيل: إنه كان يوم أربعاء في آخر الشهر^(١). ﴿تَبِعَ النَّاسَ﴾ أي: تقلدهم من الأرض من تحت أقدامهم فتصرعهم على رقابهم فتدق رقابهم فتبين الرأس عن الجسد، فـ ﴿كَانَهُمْ أَصْحَابُ نَخْلٍ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وابن السميع: «أعجز نخل» برفع الجيم من غير ألف بعد الجيم. وقرأ ابن مسعود، وأبو مجلز، وأبو عمران: «كانهم عجز نخل» بضم العين والجيم. ومعنى الكلام: كأنهم أصول نخل ﴿شَقِيعٍ﴾ أي: مُتَقَلِّعٍ. وقال الفراء: المُتَقَرِّعُ: المُتَضَرِّعُ مِنَ النَّخْلِ. قال ابن قتيبة: يقال: قَعَرْتُهُ فَأَقْعَرَهُ، أي قلعته فسقط. قال أبو عبيدة: والنخل يُذَكَّرُ ويؤنث، فهذه الآية على لغة من ذكّر، وقوله: ﴿أَعْبَارُ نَخْلٍ حَارِيٍّ﴾ [الحاقة: ٨] على لغة من أنث. وقال مقاتل: شبههم حين وقعوا من شدة العذاب بالنخل الساقطة التي لا رؤوس لها، وإنما شبههم بالنخل لظولهم، وكان طول كل واحد منهم اثني عشر ذراعاً.

﴿وَلَقَدْ بَرَأَ الْفَرَادَ لِلذِّكْرِ إِذْ فَهَلَ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدَى﴾ ﴿فَقَالُوا أَبْنَاءُ رَبِّنَا وَجِدَا يُنْعِمُ عَلَيْنَا إِنَّا لَأَنَّى سَأَلْنَا وَشَرُّهُ﴾ ﴿أَلَمْ يَلْقَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيمٌ﴾ ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَثِيمِ﴾ ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَبَنَى لَهُمْ قَارِئَتَهُمْ وَأَمْلَأَهُمْ وَبَيَّنَّتْ أَنَّ الْمَاءَ فَمَسَّهُ بَيْنَهُمْ كُلُّ زَبْرٍ حَنُوزٍ﴾ ﴿فَادْرَأُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَبْحَةً وَّجِدَةً فَكَانُوا كَهَيِّبِ الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿وَلَقَدْ بَرَأَ الْفَرَادَ لِلذِّكْرِ إِذْ فَهَلَ مِنْ مُكْرِمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدَى﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه جمع نذير. وقد بينّا أن من كذب نبياً واحداً فقد كذب الكل. والثاني: أن النذر بمعنى الإنذار كما بينّا في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾؛ فكانهم كذبوا الإنذار الذي جاءهم به صالح، ﴿فَقَالُوا أَبْنَاءُ رَبِّنَا﴾ [قال الزجاج: هو منصوب بفعل مُضَمَّرٍ والذي ظهر تفسيره، المعنى: أنتع^(٢) بشراً بيننا ووجدنا]، قال المفسرون: قالوا: هو آدمي وبنينا، وهو واحد فلا تكون له تبعاً ﴿إِنَّا إِذَا﴾ إن فعلنا ذلك ﴿لَأَنَّى سَأَلْنَا﴾ أي: خطباً وذهاب عن الصواب ﴿وَشَرُّهُ﴾ قال ابن عباس: أي: جنون. قال ابن قتيبة: هو من: تَسَعَّرَتْ^(٣) النَّارُ إذا تهبّت، يقال: ناقةٌ مَسْعُورَةٌ، أي: كأنها مجنونة من النشاط. وقال غيره: لقي شقاءً وعناءً لأجل ما يلزمنا من طاعته. ثم أنكروا أن يكون الوحي يأتيه فقالوا: ﴿أَلَمْ يَلْقَ الذِّكْرَ﴾؟ أي: أنزل الوحي ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟ أي: كيف خص من بيننا بالنبوة والوحي؟! ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيمٌ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه المرح المتكبر، قاله ابن قتيبة. والثاني: البطر، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ قرأ ابن عامر وحزمة: «ستعلمون» بالياء «غداً» فيه قولان: أحدهما: يوم القيامة، قاله ابن السائب. والثاني: عند نزول العذاب بهم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ﴾ وذلك أنهم سألوا صالحاً أن يظهر لهم ناقة من صخرة، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ﴾ أي: مخرجوها كما أرادوا ﴿فَبَنَى لَهُمْ﴾ أي: محنة واختباراً ﴿قَارِئَتَهُمْ﴾ أي فانتظر ما هم صانعون ﴿وَأَمْلَأَهُمْ﴾ على ما يصببك من الأذى، ﴿وَبَيَّنَّتْ أَنَّ الْمَاءَ فَمَسَّهُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين ثمود وبين الناقة، يوم لها ويوم لهم، فذلك قوله: ﴿كُلُّ زَبْرٍ حَنُوزٍ﴾ يحضره صاحبه ويستحقه.

قوله تعالى: ﴿فَادْرَأُوا صَاحِبَهُمْ﴾ واسمه قُدار بن سالف ﴿فَتَعَاطَى﴾ قال ابن قتيبة: تعاطى عقر الناقة ﴿فَعَقَرَ﴾ أي: قتل؛ وقد بينّا هذا في [الأعراف: ١٧٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَبْحَةً وَّجِدَةً﴾ وذلك أن جبريل ﷺ صاح بهم؛ وقد أشرنا إلى قصتهم في [مرد: ٦١]

١ - قراءته، وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن. وقال الضحاك عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الأعميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ. وقوله: ﴿فَهَلَ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ أي: فهل من متكبر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟! وقال محمد بن كعب القرظي: فهل منجز عن المعاصي؟!.

(١) الشوم من مصدقات الجاهلية المقيتة التي أبطلها الإسلام، وما يروى مرفوعاً من أن «يوم الأربعاء يوم نخس مستمر» فلا يصح منه شيء.

(٢) في الأصل: اتبع، والتصويب من «القرظي».

(٣) في الأصل: تسعر، والتصويب من «غريب القرآن».

﴿تَكَانُوا كَهَيْسِرِ الْخَيْطِ﴾ قال ابن عباس: هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك دون السباع، فما سقط من ذلك وداسته الغنم، فهو الهشيم. وقد بينا معنى «الهشيم» في [الكف: ٤٥] وقال الزجاج: الهشيم: ما يس من الورق وتكسر وتحطم، والمعنى: كانوا كالهشيم الذي يجمعه صاحبُ حظيرة بعد أن بلغ الغاية في الجفاف، فهو يُجمع ليوقد. وقرأ الحسن: «المُحتظِر» بفتح الظاء، وهو اسمُ حظيرة؛ والمعنى: كهشيم المكان الذي يُحتظَر فيه الهشيم من الحطب. وقال سعيد بن جبیر: هو التراب الذي يتناثر من الحيطان. وقال قتادة: كالعظام النَّجْرة المحترقة. والمراد من جميع ذلك: أنهم يادوا وهلكوا حتى صاروا كالشيء المتحطم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمَ لُوطٍ بِالَّذِي﴾ [١٣٧] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَخْرِ﴾ [١٣٨] ﴿نِعْمَةً مِنَّا عِندَنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [١٣٩] ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَلْغَاءً فَتَكَارَفَا بِالَّذِي﴾ [١٤٠] ﴿وَلَقَدْ رَدَدُوهُ عَنَّا فَجَبَّوهُ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَخِرَ﴾ [١٤١] ﴿وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْزَلَ فِيهِ الْفُرْقَانَ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْزَلَ فِيهِ الْفُرْقَانَ لِلَّذِي قَهَلَ مِنْ يُدِّكِرِ﴾ [١٤٢] ﴿

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ قال المفسرون: هي الحجارة التي قذفوا بها ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ يعني لوط وابنتيه ﴿نَجَّيْنَاهُمْ﴾ من ذلك العذاب ﴿بِسَخْرِ﴾ قال الفراء: «سَخِر» هاهنا يجري^(١) لأنه نكرة، كقوله: نجيتناهم بليل، فإذا ألقت العرب منه الباء لم يجر، لأن لفظهم به بالألف واللام، يقولون: ما زال عندنا منذ السخِر، لا يكادون يقولون غيره، فإذا حذف منه الألف واللام لم يُصرف. وقال الزجاج: إذا كان السخِر نكرة يراد به سَخِرٌ من الأسحار، انصرف، فإذا أردت سَخَرَ يومك، لم يَنْصرف.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ قال مقاتل: من وحَّد الله تعالى لم يُعَذَّب مع المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَدَدُوهُ عَنَّا فَجَبَّوهُ عَنْ صَلَاتِهِ﴾ أي: طلبوا أن يسلم إليهم أضيافه، وهم الملائكة ﴿فَطَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ وهو أن جبريل ضرب أعْيُنَهُم بجناحه فأذهبها. وقد ذكرنا القصة في سورة [مود: ٤٨]. وتم الكلام هاهنا، ثم قال: ﴿قَدْ وَقُوهَا﴾ أي: قتلنا لقوم لوط لما جاءهم العذاب: ذوقوا ﴿عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: ما أنذركم به لوط، ﴿وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ بِكَرَّةٍ﴾ أي: أتاهم صباحاً ﴿عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: نازل بهم. قال مقاتل: استقر بهم العذاب بكرَّة. قال الفراء: والعرب تُجري «عُدوة» و «بُكرة» ولا تُجريهما، وأكثر الكلام في «عُدوة» ترك الإجراء، وأكثر في «بُكرة» أن تُجري، فمن لم يُجرها جعلها معرفة، لأنها اسم يكون أبداً في وقت واحد بمنزلة «أمس» و «غد»، وأكثر ما تُجري العرب «عُدوة» إذا قرنت بعشيّة، يقولون: إني لأتيهم عُدوةً وعشيّةً، [وبعضهم يقول: «عُدوة»، فلا يُجريها، و «عشيّة» فيجريها، ومنهم من لا يُجري «عشيّة» لكثرة ما صحبت «عُدوة». وقال الزجاج: العُدوة والبُكرة إذا كانتا نكرتين نُوتتا وُصِفتا، فإذا أردت بهما بُكرة يومك وعُدوة يومك، لم تصرفهما، والبُكرة هاهنا نكرة، فالصرف أجود، لأنه لم يثبت رواية في أنه كان في يوم كذا في شهر كذا.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ [١٤٣] ﴿كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَلَنَنْزِلَنَّهُمْ أَجْدَ عَذَابٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [١٤٤] ﴿أَكْفَارُكُمْ حِينَئِذٍ سَكْرَةٌ مِنْ أَلْهِكُمْ أَمْ لَمْ يُبْهَرُوا﴾ [١٤٥] ﴿أَمْ يَقُولُونَ كُلٌّ مِثْلُ مَا وَقَعْنَا بِاللَّذِينَ﴾ [١٤٦] ﴿أَمْ يَقُولُونَ كُلٌّ مِثْلُ مَا وَقَعْنَا بِاللَّذِينَ﴾ [١٤٧] ﴿أَمْ يَقُولُونَ كُلٌّ مِثْلُ مَا وَقَعْنَا بِاللَّذِينَ﴾ [١٤٨] ﴿أَمْ يَقُولُونَ كُلٌّ مِثْلُ مَا وَقَعْنَا بِاللَّذِينَ﴾ [١٤٩] ﴿أَمْ يَقُولُونَ كُلٌّ مِثْلُ مَا وَقَعْنَا بِاللَّذِينَ﴾ [١٥٠] ﴿

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ يعني القبط ﴿النَّذِيرُ﴾ فيهم قولان: أحدهما: [أنه] جمع نذير، وهي الآيات التي أنذرهم بها موسى. والثاني: أن النَّذِير بمعنى الإنذار؛ وقد بيناه أنفأ، ﴿فَلَنَنْزِلَنَّهُمْ﴾ بالعذاب ﴿أَجْدَ عَذَابٍ﴾ أي: غالب في انتقامه ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ قادر على هلاكهم. ثم خوف أهل مكة فقال: ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ يا معشر العرب ﴿مِثْرٌ﴾ أي: أشد وأقوى ﴿مِنْ أَلْهِكُمْ﴾! وهذا استفهام معناه الإنكار؛ والمعنى: ليسوا بأقوى من قوم نوح وعاد وثمود، وقد أهلكناهم ﴿أَمْ لَمْ يُبْهَرُوا﴾ من العذاب أنه لا يصيبكم ما أصابهم ﴿فِي الْأَنْزِيلِ﴾ أي: في الكتب المتقدمة، ﴿أَمْ يَقُولُونَ كُلٌّ مِثْلُ مَا وَقَعْنَا بِاللَّذِينَ﴾ من العذاب؛ أي: نحن يدٌ واحدة على من خالفنا فننتصر منهم؟ وإنما وحَّد المُنتَصِر للفظ الجميع، فإنه على لفظ «واحد» وإن كان اسماً للجماعة ﴿سَيَبْرُهُمْ لِمَسْحٍ﴾ وروى أبو حاتم بن يعقوب: «سنهزم» بالنون، «الجمع» بالنصب،

«وتولون» بالثناء، ويعني بالجمع: جمع كفار مكة «وَيَتَوَلَّوْنَ الذَّبِيرَ» ولم يقل: الأدبار، وكلاهما جائز؛ قال الفراء: ومثله أن يقول: إن فلاناً لكثير اللينار والدرهم. وهذا مما أخبر الله به نبيه من علم الغيب، فكانت الهزيمة يوم بدر.

قوله تعالى: «وَالسَّاعَةَ أَهْوَى» قال مقاتل: هي أفضع «وَأَمْرٌ» من القتل. قال الزجاج: ومعنى الذاهية: الأمر الشديد الذي لا يهتدي لدوائه؛ ومعنى «أمرٌ»: أشدُّ مرارةً من القتل والأسر.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي سَلَاحٍ وَسَعِيرٍ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُورًا مِّنْ سَعَرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿١٩﴾ وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَجِدَةً كَلَجَ بِالْبَصَرِ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٢١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٢٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهَرٍ ﴿٢٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ لَبِيبٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: «﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي سَلَاحٍ وَسَعِيرٍ﴾» في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن مشركي مكة جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يُخاصمون في القدر، فنزلت هذه الآية إلى قوله: «خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» انفرد بإخراجه مسلم من حديث أبي هريرة^(١) وروى أبو أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذه الآية نزلت في القدرية»^(٢). والثاني: أن أشقف نجران جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد تزعم أن المعاصي بقدر، وليس كذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أنتم خصماء الله»، فنزلت: «﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾» إلى قوله: «﴿بِقَدَرٍ﴾»، قاله عطاء.

قوله تعالى: «﴿وَسَعِيرٍ﴾» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: الجنون. والثاني: العناء، وقد ذكرناهما في صدر السورة. والثالث: أنه نار تشتعل عليهم، قاله الضحاك. فأما «سَعَرٌ» فقال الزجاج: هي اسم من أسماء جهنم لا ينصرف لأنها معرفة، وهي مؤنثة. وقرأت على شيخنا أبي منصور قال: سَعَرٌ: اسم لنار الآخرة أعجمي، ويقال: بل هو عربي، من قولهم: سَعَرْتَهُ الشمس: إذا أذابته، سميت بذلك لأنها تذيب الأجسام. وروى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْرٌ مَّنَادِيًا فَنَادَى نِدَاءً يَسْمَعُهُ الْأَوْلَادُ وَالْآخِرُونَ: أَيْنَ حُصَمَاءَ اللَّهِ؟ فَتَقُومُ الْقَدَرِيَّةُ فَيُؤَمِّرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿دُورًا مِّنْ سَعَرٍ﴾ ﴿١٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾»^(٣)، وإنما قيل لهم: «حُصَمَاءَ اللَّهِ» لأنهم يُخاصمون في أنه لا يجوز أن يُقدَّر المعصية على العبد ثم يعذبه عليها. وروى هشام بن حسان عن الحسن قال: واللّه لو أن قديراً صام حتى يصير كالجحل، ثم صلى حتى يصير كالوتر، ثم أخذ ظلماً وزوراً حتى ذبح بين الركن والمقام لكبه الله على وجهه في سَعَرٍ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. لوروى مسلم في أفراده من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ»^(٤). وقال ابن عباس: كل شيء بقدر حتى وضع يدك على خدك. وقال الزجاج: معنى «بِقَدَرٍ» أي: كل شيء خلقناه بقدر مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، ونصب «كُلُّ شَيْءٍ» بفعل مضمر؛ المعنى: إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدرًا.

قوله تعالى: «﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَجِدَةً﴾» قال الفراء: أي: إلا مرة واحدة، وكذلك قال مقاتل: مرة واحدة لا مشنوية لها. وروى عطاء عن ابن عباس قال: يريد: إن قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر. وقال ابن السائب: المعنى: وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كالمح البصر. ومعنى اللَّمَح بالبصر: النظر بسرعة. «﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾» أي: أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم الماضية «﴿فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾» أي متعظ «﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾» يعني الأمم. وفي «﴿الزُّبُرِ﴾» قولان: أحدهما: أنه كُتِب الحَفْظَة. والثاني: اللُّوح المحفوظ. «﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾» أي: من الأعمال المتقدمة «﴿مُسْتَطَرٌّ﴾» أي: مكتوب، قال ابن قتيبة: هو «مُقْتَلٌ» من «سَطَرْتُ» إذا كتبت، وهو مثل «مُسْطُور».

(١) ٢٠٤٦/٤، ورواه أحمد في «المستد»، والترمذي، وابن ماجه، والواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٨، وابن جرير الطبري، وذكره السيوطي في «الدر» ١٣٦/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ١٣٧/٦ ونسبه إلى ابن عدي، وابن مردويه، والديلمي، وابن عساكر، بسند ضعيف عن أبي أمامة رضى الله عنه.

(٣) ذكره بنصه الخازن في «تفسيره» نقلاً عن المؤلف، وذكر السيوطي في «الدر» ١٣٨/٦ نحوه عن ابن عباس رضى الله عنه بأطول منه من رواية ابن مردويه.

(٤) «صحيح مسلم» ٢٠٤٥/٤، والكييس: ضد العجز، وهو النشاط والحلق بالأمر، ومعناه أن العاجز قد قدر عجزه والكييس قد قدر كيبسه. والحديث رواه أيضاً أحمد في «المستد».

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ قال الزجاج: المعنى: في جنات وأنهار، والاسم الواحد يدل على الجميع، فيجتزأ به من الجميع. أنشد سيويه والخليل:

بِهَا حَيْفُ الْحَسْرَى، فَأَمَّا عِظَامُهَا
يريد: وأما جلودها، ومثله:

فِي خَلْقِكُمْ عَظْمٌ وَقَدْ شَجِينَا^(١)

ومثله:

كُلُّوا فِي زِيْضٍ بَطْنِكُمْ تَعْرِشُوا^(٢)

وحكى ابن قتيبة عن الفراء أنه وُحِدَ لأنه رأسُ آية، فقابل بالتوحيد رؤوس الآي، قال: ويقال: النَّهْرُ: الضياء والسَّعة، من قولك: أَنَهَرْتُ الطعنة: إذا وسَّعتها، قال قيس بن الخطيم يصف طعنة:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا
أي: أوسعتُ فَتَقَّهَا. قلت: وهذا قول الضحاك. وقرأ الأعمش «ونُهْر».

قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: مَجْلِسِ حَسَنٍ؛ وقد نَبَّهْنَا على هذا المعنى في قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢٢]. فأما المَلِيك، فقال الخطابي: المَلِيك: هو المالك، وبناء فَعِيل للمبالغة في الوصف، ويكون المَلِيك بمعنى المَلِك، ومنه هذه الآية. والمُقْتَدِر مشروح في [الكهف: ٤٥].



(١) تقدم تخريجه ٢٩٩.

(٢) سبق الرجز ٢٩٩.

(٣) سبق الشطر ١٣٣ و٥٠٥ والبيت بكامله ٧٨٠.

(٤) «ديوانه» ٨، و«غريب القرآن» ٤٣٥، و«مشكل القرآن» ١٣٢، و«الصحاح»، و«اللسان» و«التاج»: نهر.

سورة الرحمن

وفي نزولها قولان: أحدهما: أنها مكيّة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعطاء، ومقاتل، والجمهور، إلا أن ابن عباس قال: سوى آية، وهي قوله: ﴿يَسْتَلْهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩]. والثاني: أنها مدنيّة، رواه عطية عن ابن عباس. وبه قال ابن مسعود.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ عِلْمُ الْقُرْمَانَ ٢ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْبِيرَاتَ ٧﴾ أَلَّا تَلْقَوْا فِي الْبَيْرَانِ ٨ ﴿وَأَيُّمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْبَيْرَانَ ٩﴾ وَالْأَرْضَ وَمَعَهَا لِلْأَنْبَارِ ١٠ ﴿فِيهَا فَنَكُهُمُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ١١﴾ وَاللَّهُ ذُو الْعَرْشِ وَالرِّيحَانُ ١٢ ﴿فَأَيُّ مَالَةٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾
قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ عِلْمُ الْقُرْمَانَ ٢ قال مقاتل: لما نزل قوله: ﴿أَسْمِعُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٠] قال كُفَّار مَكَّةَ: وما الرَّحْمَنُ؟! فأنكروه وقالوا: لا نعرف الرَّحْمَنَ، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي أنكروه هو الذي ﴿عِلْمُ الْقُرْمَانَ ٢﴾: وفي قوله: ﴿عِلْمُ الْقُرْمَانَ ٢﴾ قولان: أحدهما: علّمه محمداً، وعلّم محمداً أمته، قاله ابن السائب. والثاني: يسر القرآن، قاله الزجاج^(١).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اسم جنس، فالمعنى: خلق الناس جميعاً، قاله الأكثرون. فعلى هذا، في «البيان» ستة أقوال: أحدها: التَّنْقِطُ والتَّمْيِيزُ، قاله الحسن^(٢). والثاني: الحلال والحرام، قاله قتادة. والثالث: ما يقول وما يُقال له، قاله محمد بن كعب. والرابع: الخير والشر، قاله الضحاك. والخامس: [طُرق] الهدى، قاله ابن جريج. والسادس: الكتابة والخط، قاله يمان. والثاني: أنه آدم، قاله ابن عباس، وفتادة. فعلى هذا في «البيان» ثلاثة أقوال: أحدها: أسماء كل شيء. والثاني: بيان كل شيء. والثالث: اللغات. والقول الثالث: أنه محمد ﷺ، علّمه بياناً ما كان وما يكون، قاله ابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥﴾ أي: بحساب ومنازل، لا يَغْدُوَانَهَا، وقد كَشَفْنَا هذا المعنى في [الأنام: ٩٦]. قال الأخفش: أضمر الخبر، وأظنه - والله أعلم - أراد: يجريان بحُسبان.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦﴾ في النجم قولان: أحدهما: أنه كُلُّ نَبْتٍ ليس له ساق، وهو مذهب ابن عباس، والسدي، ومقاتل، واللغويين. والثاني: أنه نَجْمُ السَّمَاءِ، والمراد به: جميعُ النُّجُومِ، قاله مجاهد. فأما الشَّجَرُ: فكلُّ ما له ساق. قال الفراء: سُجُودُهُمَا: أنهما يستَقِيلَانِ الشَّمْسَ إذا أشرقت، ثم يَمِيلَانِ معها حتى ينكسر الفيء. وقد أشرت في [الحل: ٤٩] إلى معنى سُجُودٍ ما لا يَغْفِلُ. قال أبو عبيدة: وإنما نبي فعلهما على لفظهما.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ٧﴾ وإنما فعل ذلك ليحيا الحيوان وتمتد الأنفاس، وأجرى الرِّيحَ بينها وبين الأرض، كما يتروح^(٣) [الخلق]. ولولا ذلك لماتت الخلائق كُزْباً.

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْبَيْرَاتَ ٧﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه العَدْلُ، قاله الأكثرون، منهم مجاهد والسدي

(١) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: الرحمن أيها الناس برحمته إياكم علمكم القرآن، فأنعم بذلك عليكم، إذ بضركم به ما فيه رضا وركم، وعرفكم ما فيه سخطه، لتطيّموا باتباعكم ما يرضيه عنكم وعملكم بما أمركم به، ويتجنبكم ما يسخط عليكم فتسجوا بذلك جزيل ثوابه، وتتجوا من أليم عقابه. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى، لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها. اهـ.

(٣) في الأصل: يتروح.

واللغويون. قال الزجاج: وهذا لأن المعادلة: مُوازنة الأشياء. والثاني: أنه الميزان المعروف، ليتناصف الناس في الحقوق، قاله الحسن، وقتادة، والضحاك. والثالث: أنه القرآن، قاله الحسين بن الفضل.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ ذكر الزجاج في «أن» وجهين: أحدهما: أنها بمعنى اللام؛ والمعنى: لنلّا تَطْغَوْا. والثاني: أنها للتضخيم، فتكون «لا» للتهيؤ؛ والمعنى: أي: لا تَطْغَوْا، أي لا تُجاوِزوا العُدل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَيِّرُوا الْيَمِينَ﴾ قال ابن قتيبة، أي: لا تنقصوا الوزن. فأما الأنام، فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الناس، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: كل ذي رُوح، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والشعبي، وقتادة، والسدي، والفراء. والثالث: الإنس والجن، قاله الحسن، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَكَّهْمٌ﴾ أي، ما يُتفكّه [به] من ألوان الشمار. ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ والأكمام: الأوعية والغُلْف؛ وقد استوفينا شرح هذا في [حم السجدة: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَالعَصْفُ﴾ يريد: جميع الحبوب، كالثبر والشعير وغير ذلك. وقرأ ابن عامر: «والحَبُّ» بنصب الباء «ذا العصف» بالألف «والرَّيْحَانُ» بنصب النون. وقرأ حمزة، والكسائي إلّا ابن أبي سُرَيْج، وخلف: ﴿وَالعَصْفُ ذُو العَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ بخفض النون؛ وقرأ الباقون بضم النون. وفي «العصف» قولان: أحدهما: أنه بين الزُّرْع وورقه الذي تعصفه الرياح، قاله ابن عباس. وكذلك قال مجاهد: هو ورق الزُّرْع، قال ابن قتيبة: العصف: ورق الزُّرْع، ثم يصير إذا جفَّ ويس وديس تبناً. والثاني: أن العصف: المأكول من الحَبِّ، حكاه الفراء. وفي «الرَّيْحَانُ» أربعة أقوال: أحدها: أنه الرُّزْق، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والسدي. قال الفراء: الرَّيْحَانُ في كلام العرب: الرُّزْق، تقول: خرجنا نطلب رَيْحانَ الله، وأنشد الزجاج للتَّوْبَرِ بن تَوَلْب:

سَلامُ الإِلهِ وَزِيحائِهِ
وَزِحْمائِهِ وَسَماءِ وَرَزِّ^(١)

والثاني: أنه حُضرة الزُّرْع، رواه الوابي عن ابن عباس. قال أبو سليمان الدمشقي: فعلى هذا، سُمِّي رَيْحاناً، لاستراحة النَّفْسِ بالنظر إليه. والثالث: أنه رَيْحانكم هذا الذي يُسَمُّ، روى العوفي عن ابن عباس قال: «الرَّيْحَانُ»: ما أنبتت الأرض من الرَّيْحَانِ، وهذا مذهب الحسن، والضحاك، وابن زيد. والرابع: أنه ما [لم] يؤكل من الحَبِّ، والعصف: المأكول منه، حكاه الفراء.

قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ فإن قيل: كيف خاطب اثنين، وإنما ذكر الإنسان وحده؟ فعنه جوابان ذكرهما الفراء: أحدهما: أن العرب تخاطب الواحد بفعل الاثنين كما بيّنا في قوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤]. والثاني: أن الذكر أريد به: الإنسان والجان، فجرى الخطاب لهما من أول السورة إلى آخرها. قال الزجاج: لما ذكر الله تعالى في هذه السورة ما يدلُّ على وحدانيته من خَلَقَ الإنسان وتعليم البيان وخلق الشمس والقمر والسماء والأرض، خاطب الجن والإنس قال: ﴿فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ أي: فَيَأْتِي نِعَمٌ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ من هذه الأشياء المذكورة، لأنها كلُّها مُنعم بها عليكم في دلالتها إيتاكم على وحدانيته وفي رزقه إيتاكم ما به قوامكم. وقال ابن قتيبة: الآلاء: النعم، واحدها: آء، مثل: قفأ، وإلّا، مثل: يعى.

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالعَصْفَارِ﴾ وَخَلَقَ الْجَادَّ مِنْ مَرِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ رَبُّ التَّوْبَتَيْنِ وَرَبُّ الْمَرْبُوتَيْنِ ﴿فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ مَرَجُ الْبَعْرَيْنِ يَلْبِقَانِ ﴿يَبْتَهِمُا بَرِّحًا لَا يَبْتَغِيَانِ﴾ ﴿فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ يَصْرَعُ يَبْتَهِمُا أَلْوَلُّوْا وَالْمَرْجَاتُ ﴿فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ وَهُوَ الْمَرْجُ الْشَّتَاتُ فِي الْبَعْرِ كَالعَصْفِ ﴿فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ يعني آدم ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ قد ذكرنا في [العجر: ٢٦، ٢٧] الصَّلْصَالُ والجان، فأما قوله: ﴿كَالعَصْفَارِ﴾ فقال أبو عبيدة: خُلِقَ من طينٍ يابس لم يُطبخ، فله صوت إذا نُقِرَ، فهو من يُنْبِسه كالعَصْفَارِ. والقَصَّار: ما

(١) البيت في (غرب القرآن) ٤٣٧، و(الطبري) ١٢٣/٢٧، و(القرطبي) ١٥٧/١٧، و(الصحاح)، و(اللسان) و(التاج): روح، وبعده:

عَمَامٌ مُنْزَلٌ رِزْقُ الْمَوْجِبِادِ نَسَائِمِا إِيلَادِ طَطَابِ النَّسِيجِزِ

طبخ بالنار. فأما المارج، فقال ابن عباس: هو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت. وقال مجاهد: هو المختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدث. وقال مقاتل: هو لهب النار الصافي من غير دخان. وقال أبو عبيدة: المارج: خلط من النار. وقال ابن قتيبة: المارج: لهب النار، من قولك: قد مَرَجَ الشيءُ: إذا اضطرب ولم يستقر. وقال الزجاج: هو اللهب المختلط بسواد النار. فإن قيل: قد أخبر الله تعالى عن خلق آدم عليه السلام بالفاظ مختلفة، فتارة يقول: ﴿عَلَّكُمْ مِنْ رَبِّي﴾ [آل عمران: ٥٩]، وتارة: ﴿مِنْ سَلْطَنِي﴾، وتارة: ﴿مِنْ طِينِ الْأَرْضِ﴾ [الصافات: ١١]، وتارة: ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، وتارة: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْئُورٍ﴾ [الحجر: ٢٩]؛ فالجواب: [أن الأصل التراب فجعل طيناً، ثم صار كالحمل المسنون، ثم صار صلصالاً كالْفَخَّارِ، هذه أخبار عن حالات أصله. فإن قيل: ما الفائدة في تكرار قوله: ﴿فِي أَيِّ مَالٍ وَرَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ [الجواب: أن ذلك التكرير لتقرير النعم وتأکید التذكير بها. قال ابن قتيبة: من مذاهب العرب التكرار للتوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار [للتخفيف والإيجاز، لأن افتتان المتكلم والخطيب في الفنون أحسن من اقتصاره] في المقام على فنٍ واحد، يقول القائل منهم: واللّه لا أفعله، ثم واللّه لا أفعله، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله، كما يقول: واللّه أفعله، بإضمار «لا» إذا أراد الاختصار، ويقول القائل المستعجل: اعجل اعجل، وللرامي: ارم ارم، قال الشاعر:

كَمْ نِعْمَةٌ كَانَتْ لَهُ وَكَمْ وَكَمْ ^(١)

وقال الآخر:

هَلَا سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنَا
دَةً يَزُومُ وَلَوْ أَيْنَ أَيْنَا ^(٢)

وربما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها، واستوحشوا من إعادتها ثانية لأنها كلمة واحدة، فغيروا منها حرفاً ثم أتبعوها الأولى، كقولهم: عَطَّشَانُ نَطَّشَانُ، وشَيْطَانُ لَيْطَانُ، وَحَسَنُ بَسَنُ. قال ابن دريد: ومن الإتيان: جائع نائع، ومليح قريح، وقبيح شقيح، وشحيح نخيح، وخبيث نبيث، وكثير بثير: وسبغ لبغ، وسائغ لائغ، وحقير فقير، وضئيل بثيل، وخضر مضر ^(٣)، وعفريت بفرئت، وثقة بقة، وكن إن، وواحد فاحد، وحائر بائر، وَسَمَّحُ لَمَّحُ. قال ابن قتيبة: فلما عدّد الله تعالى في هذه السورة نعماءه، وأدكر عباده آلامه، وبههم على قدرته، جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين كل نعمتين، ليُفهّمهم النعم ويُقرّهم بها، كقولك للرجل: ألم أبولك منزلاً وكنت طريداً؟ أفتتكر هذا؟ ألم أحج بك وأنت ضرورة ^(٤)؟ أفتتكر هذا؟ وروى الحاكم أبو عبد الله في «صحيحه» من حديث جابر بن عبد الله قال: قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها [ثم] قال: «ما لي أراكم سكوتاً؟ أَلَلَّجْنُ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدّاً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿فِي أَيِّ مَالٍ وَرَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ [١٤] إلا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد» ^(٥).

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ قرأ أبو رجاء، وابن أبي عيلة: «رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ» بالخفض، وهما مشرق الصّيف ومشرق الشتاء ومغرب الصّيف ومغرب الشتاء للشمس والقمر جميعاً.

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسل العذب والمِلْحَ وخلّاهما وجعلهما: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾، ﴿يَتَّبِعَانِ بَرَزَخٌ﴾ أي: حاجز

(١) الرجز غير منسوب في «مشكل القرآن» ١٨٣ وفيه:

كَمْ نِعْمَةٌ كَانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ

وهو أيضاً في «أمالي المرتضى» ٨٤/١، و«الصناعيين» ١٤٤، و«الصاحبي» ١٧٧.

(٢) البيت لعبيد بن الأبرص، «ديوانه» ١٤٢، و«مشكل القرآن» ١٤٣، و«مختارات ابن الشجري» ٣٩/٢، و«الشعر والشعراء» ٢٢٤/١.

(٣) قال في «اللسان»: مضر: أخذ الشيء خضراً يضرأً وخضراً مضراً، أي: غضاً طرياً.

(٤) في «اللسان»: صرد: ورجل ضرور وضرورة: لم ينج قط.

(٥) رواه الترمذي ١٦١/٢، والحاكم في «المستدرک» ٧٣/٢ من حديث الوليد بن مسلم ثنا زهير بن محمد عن محمد بن محمد بن المنكدر عن جابر عليه السلام وصححه ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حدث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد. قلت: وزهير بن محمد هذا وإن أخرج له الشيخان فقد قال البخاري كما في «التهديب» ٣/٣٤٩: ما روى عنه أهل الشام، فإنه متاكير، وما روى عنه أهل البصرة فإنه صحيح، قلت: وهذا الحديث مما رواه عنه الوليد بن مسلم وهو من أهل الشام.

من قدرة الله تعالى: ﴿لَا يَبْيَأَنَّ﴾ أي: لا يختلطان فيبني أحدهما على الآخر. وقال ابن عباس: بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كل عام. قال الحسن: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ يعني [بحر] فارس والروم، بينهما برزخ، يعني الجزائر؛ وقد سبق بيان هذا في [الفرقان: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال الزجاج: إنما يخرج من البحر الملح، وإنما جمعهما، لأنه إذا خرج من أحدهما فقد أخرج منهما، ومثله: ﴿وَجَمَلَ الْقَمَرِ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١١٦]. قال أبو علي الفارسي: أراد: يخرج من أحدهما، فحذف المضاف. وقال ابن جرير: إنما قال «منهما» لأنه يخرج من أصداف البحر عن قطر السماء. فأما اللؤلؤ والمرجان، ففيهما قولان: أحدهما: أن المرجان: ما صغر من اللؤلؤ، واللؤلؤ: العظام، قاله الأكثرون. منهم ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والفراء. وقال الزجاج: اللؤلؤ: اسم جامع للحب الذي يخرج من البحر، والمرجان: صغاره. والثاني: أن اللؤلؤ: الصغار، والمرجان: الكبار، قاله مجاهد، والسدي، ومقاتل. قال ابن عباس: إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف أفواهاها، فما وقع فيها من مطر فهو لؤلؤ؛ قال ابن جرير: حيث وقعت قطرة كانت لؤلؤة. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: ذكر بعض أهل اللغة أن المرجان أعجمي معرب. قال أبو بكر، يعني ابن دريد: ولم أسمع فيه بفعل منصرف، وأخر به أن يكون كذلك. قال ابن مسعود: المرجان: الخرز الأحمر. وقال الزجاج: [المرجان] أبيض شديد البياض. وحكى القاضي أبو يعلى أن المرجان: ضرب من اللؤلؤ كالقضباني.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَرْجَارُ﴾ يعني السفن ﴿الْمُنْتَثَثُ﴾ قال مجاهد: هو ما قد رُفِعَ قَلْعُهُ من السفن دون ما لم يُرْفَع قَلْعُهُ. قال ابن قتيبة: هُنَّ اللواتي أنشئن، أي: ابتدئ بهنَّ ﴿فِي الْبَحْرِ﴾، وقرأ حمزة: «الْمُنْتَثَثُ»، فجعلهن اللواتي ابتدأن، يقال: أنشأت السحابة تُمطر: إذا ابتدأت، وأنشأ الشاعر يقول. والأعلام: الجبال، وقد سبق هذا [التورى: ٣٢].

﴿كُلٌّ مِّنْ عَلِيَّا قَانُ﴾ ﴿وَبَيْنَ يَمِينِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ دُو الْبَلْبَلِ وَالْإِكْرَارِ﴾ ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَبَّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ ﴿يَسْأَلُهُمْ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَبَّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلِيَّا قَانُ﴾ أي: على الأرض، وهي كناية عن غير المذكور، «قَانُ»: أي؛ هالك. ﴿وَبَيْنَ يَمِينِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَبُّكَ﴾ أي: وبقى ربُّك ﴿دُو الْبَلْبَلِ وَالْإِكْرَارِ﴾ قال أبو سليمان الخطابي: الجلال: مصدر الجليل، يقال: جليل بين الجلالة والجلال. والإكرام: مصدر أكرم يُكْرَمُ إكراماً؛ والمعنى أن الله تعالى مستحق أن يُجْلَى ويُكْرَمَ، ولا يُجْحَد ولا يُكْفَر به؛ وقد يحتمل أن يكون المعنى: أنه يُكْرَمُ أهل ولايته ويرفع درجاتهم؛ وقد يحتمل أن يكون أحد الأمرين - وهو الجلال - مضافاً إلى الله تعالى بمعنى الصفة له، والآخر مضافاً إلى العبد بمعنى الفعل منه، كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْلُ الْفَقْرَى وَأَهْلُ الْفَقْرَى﴾ [المدثر: ٥٦]. فانصرف أحد الأمرين إلى الله وهو المغفرة، والآخر إلى العباد وهو التقوى.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُمْ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المعنى أن الكل يحتاجون إليه فيسألونه وهو غني عنهم ﴿كُلٌّ يَوْمَ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مثل أن يُحيي ويُميت، ويُعزِّز ويُذل، ويشفي مريضاً، ويُعطي سائلاً، إلى غير ذلك من أفعاله. وقال الحسين بن الفضل: هو سَوق المقادير إلى المواقيت. قال مقاتل: وسبب نزول هذه الآية أن اليهود قالت: إن الله لا يقضي في يوم السبت شيئاً، فنزلت: ﴿كُلٌّ يَوْمَ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

﴿سَفَرُكُمْ لَكُمْ أَيُّهُ الْفَقْرَانِ﴾ ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَبَّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ ﴿يَسْأَلُهُمْ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَاتِفُدُوا لَا تَسْأَلُونَ إِلَّا سُلْطَانِ﴾ ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَبَّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ ﴿يَسْأَلُهُمْ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَاتِفُدُوا لَا تَسْأَلُونَ إِلَّا سُلْطَانِ﴾ ﴿يَسْأَلُهُمْ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَاتِفُدُوا لَا تَسْأَلُونَ إِلَّا سُلْطَانِ﴾ ﴿فِي أَيِّ مَاءٍ رَبَّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾

قوله تعالى: ﴿سَفَرُكُمْ لَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «سَفَرُكُمْ» بنون مفتوحة. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وعبد الوارث: [«سِفْرُكُمْ»] بياء مفتوحة. وقرأ ابن السميع، وابن يعمر، وابن أبي عبيدة، وعاصم الجحدري، عن عبد الوارث: «سِفْرُكُمْ» بضم الياء وفتح الراء. قال الفراء: هذا وعيد من الله تعالى، لأنه لا يسأل عنه شيء عن شيء، تقول للرجل الذي لا شغل له: قد فرغت لي؛ قد فرغت تشمتني؟! أي: قد أخذت في هذا وأقبلت عليه؟! قال الزجاج: الفراغ في اللغة على ضربين. أحدهما: الفراغ من شغل. والآخر:

القصد للشيء، تقول: قد فرغت مما كنت فيه، أي: قد زال شغلي به، وتقول: سأنتفخ لفلان، أي: سأجعله قصدي، ومعنى الآية: ستفقد لحسابكم. فأما «القلان» فهما الجن والإنس، سُميا بذلك لأنهما ثقل الأرض.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَنْدُوا﴾ أي: تخرجوا؛ يقال: نفذ الشيء من الشيء: إذا خلص منه، كالسهم ينفذ من الرميّة؛ والأقطار: النواحي والجوانب. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموا؛ قاله ابن عباس. والثاني: إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض فاهربوا وأخرجوا منها؛ والمراد: أنكم حينما كنتم أدرككم الموت، هذا قول الضحاك ومقاتل في آخرين. والثالث: إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا؛ وإنما يقال لهم هذا يوم القيامة، ذكره ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿لَا تَنْدُرُ إِلَّا بِطَلْحِي﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا تندون إلا في سلطان الله وملكه، لأنه مالك كل شيء، قاله ابن عباس. والثاني: لا تندون إلا بحجة، قاله مجاهد. والثالث: لا تندون إلا بملك، وليس لكم ملك، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ عَلَيْكَ﴾ فثنى على اللفظ. وقد جمع في قوله: ﴿إِنْ اسْتَلْتُمْ﴾ على المعنى. فأما «الشواظ» ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لهب النار، قاله ابن عباس. وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع من النار. والثاني: الدخان، قاله سعيد بن جبير. والثالث: النار المحضة، قاله الفراء. وقال أبو عبيدة: هي النار التي تأجج لا دخان فيها، ويقال: شواظ وشواظ. وقرأ ابن كثير بكسر الشين؛ وقرأ أيضاً هو وأهل البصرة: «ونحاس» بالخفض، والباقون برفعهما. وفي «النحاس» قولان: أحدهما: أنه دخان النار، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، والفراء وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج، ومنه قول الجعدي يذكر امرأة:

نُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيمِ
طَلْمٌ يَجْعَلُ اللَّهْ فِيهِ نُحَاسًا^(١)

وذكر الفراء في السليط ثلاثة أقوال: أحدها: أنه دهن السنام، وليس له دخان إذا استُصيح به. والثاني: أنه دهن السمسم. والثالث: الزيت. والثاني: أنه الصُفْرُ المُذَابُ يُصَبُّ على رؤوسهم، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقاتة. قال مقاتل: والمراد بالآية: كفار الجن والإنس، يرسل عليهما في الآخرة لهب النار والصُفْرُ الذائب، وهي خمسة أنهار تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار، ثلاثة أنهار على مقدار الليل، ونهران على مقدار نهار الدنيا^(٢)، ﴿فَلَا تَنْصَرُونَ﴾ أي: فلا تمتعان من ذلك.

﴿إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (٧) ﴿يَأْتِي مَالَهُمْ رَبُّكَمُ نَكِّدًا﴾ (٨) ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَسْكُنُ عَنْ دَلِيلِهِ إِشٌّ وَلَا جَبَأٌ﴾ (٩) ﴿يَأْتِي مَالَهُمْ رَبُّكَمُ نَكِّدًا﴾ (١٠) ﴿يَعْرِفُ الْمُنَجَّرُونَ بِسَبْتِهِمْ فَيُؤَخِّدُ بِالرِّيسِ وَالْأَقْدَامِ﴾ (١١) ﴿يَأْتِي مَالَهُمْ رَبُّكَمُ نَكِّدًا﴾ (١٢) ﴿يَكُذِّبُ بِهَا الْمُنَجَّرُونَ﴾ (١٣) ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ (١٤) ﴿يَأْتِي مَالَهُمْ رَبُّكَمُ نَكِّدًا﴾ (١٥)

قوله تعالى: ﴿إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي: انفرجت من المجرة لتزول من فيها يوم القيامة «فَكَانَتْ وَرْدَةً» وفيها قولان: أحدهما: كلون الفرس الوردة، قاله أبو صالح، والضحاك. وقال الفراء: الفرس الوردة، تكون في الربيع وردة إلى الصُفْرَة، فإذا اشتد الحر كانت وردة حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة، فشبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل؛ وكذلك قال الزجاج: «فَكَانَتْ وَرْدَةً» أي: كلون فرس وردة؛ والكُميت: الورد يتلون، فيكون لونه في الشتاء خلاف لونه في الصيف، ولونه في الصيف خلاف لونه في الشتاء، فالسماء تتلون من الفزع الأكبر. وقال ابن قتيبة: المعنى: فكانت حمراء في لون الفرس الورد. والثاني: أنها وردة النبات؛ وقد تختلف ألوانها، إلا أن الأغلب عليها الحمرة، ذكره الماوردي. وفي الدهان قولان: أحدهما: أنه واحد، وهو الأديم الأحمر، قاله ابن عباس. والثاني: أنه جمع دهن، والدَّهْنُ تختلف ألوانه بخضرة وحمرة وُصْفرة، حكاه البيهقي، وإلى نحوه ذهب

(١) البيت في معجم القرآن ٢/ ٢٤٥، و«غريب القرآن» ٤٣٨، و«الطبري» ٢٧/ ١٤١، و«اللسان» و«التاج»: نحس.

(٢) هذا الخبر لا سند له، ورواه مقاتل - وهو ابن سليمان الأزدي المفسر - كذبوه وهجروه ورموه بالتجسيم كما في «الطبري».

مجاهد. وقال الفراء: شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل، وشبه الورد في اختلاف ألوانها بالدهن.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (١٦) في ثلاثة أقوال: أحدها: لا يسألون ليعلم حالهم؛ لأن الله تعالى أعلم منهم بذلك. والثاني: لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله لاشتغال كل واحد منهم بنفسه، روي القولان عن ابن عباس. والثالث: لا يسألون عن ذنوبهم لأنهم يعرفون بسيماهم، فالكافر أسود الوجه، والمؤمن أقر محجل من أثر وضوئه، قاله الفراء. قال الزجاج: لا يسأل أحد عن ذنبه لئستفهم، ولكنه يسأل سؤال توبيخ.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمَشْرُوعَ بَيْنَهُمْ﴾ قال الحسن: بسواد الوجوه، ووزق الأعين: ﴿يَتَوَخَّذُ بِالْقَدَمِ وَالْأَقْدَامِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن خزنة جهنم تجمع بين نواصيهم إلى أقدامهم من وراء ظهورهم، ثم يدفعونهم على وجوههم في النار، قاله مقاتل. والثاني: يؤخذ بالتواصي والأقدام، فيسحبون إلى النار، ذكره الثعلبي. وروي مردويه الصائغ، قال: صلى بنا الإمام صلاة الصبح فقرأ سورة «الرحمن» ومعنا علي بن الفضيل بن عياض، فلما قرأ ﴿يَعْرِفُ الْمَشْرُوعَ بَيْنَهُمْ﴾ حَرَّ عَلِيٌّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ حَتَّى فَرَعْنَا مِنَ الصَّلَاةِ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ قُلْنَا لَهُ: أَمَا سَمِعْتَ الْإِمَامَ يَقْرَأُ ﴿حَرُّ مَقْصُورَةٌ فِي الْخِيَارِ؟ قَالَ: شَغَلَنِي عَنْهَا ﴿يَعْرِفُ الْمَشْرُوعَ بَيْنَهُمْ يَتَوَخَّذُ بِالْقَدَمِ وَالْأَقْدَامِ﴾.

قوله تعالى: ﴿هَذِيهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: يقال لهم: هذه جهنم ﴿أَلَيْسَ بِكُذِّبَتْ بِهَا الْمَشْرُوعُونَ﴾ يعني المشركين، ﴿يَطْرُقُونَ بَيْنَهَا﴾ وقرأ أبو العالية، وأبو عمران الجوني: «يَطْرُقُونَ» بياء مضمومة مع تشديد الواو؛ وقرأ الأعشى مثله إلا أنه بالياء. قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَ جَبِينِ آدَمَ﴾ قال ابن قتبية: الحميم؛ الماء الحار، والآني: الذي قد انتهت شدته حره. قال المفسرون: المعنى أنهم يسعون بين عذاب الحميم وبين الحميم، إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم الشديد الحرارة.

﴿وَلَمَنَ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (١٧) ﴿يَأْتِي مَاءَهُ زَيْكًا نَكِيدًا﴾ (١٨) ﴿ذَوَاتًا أَقْنَانٍ﴾ (١٩) ﴿يَأْتِي مَاءَهُ زَيْكًا نَكِيدًا﴾ (٢٠) ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (٢١) ﴿يَأْتِي مَاءَهُ زَيْكًا نَكِيدًا﴾ (٢٢) ﴿وَلَمَنَ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٢٣) ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ نَدْبَانٍ﴾ (٢٤) ﴿يَأْتِي مَاءَهُ زَيْكًا نَكِيدًا﴾ (٢٥) قوله تعالى: ﴿وَلَمَنَ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٢٣) في قولان: أحدهما: قيامه بين يدي ربه ﷻ يوم الجزاء. والثاني: قيام الله على عبده بإحصاء ما اكتسب. وجاء في التفسير؛ أن العبد يهيم بمعصية فيتركها خوفاً من الله ﷻ فله جنتان، وهما بستانان^(١). ﴿ذَوَاتًا أَقْنَانٍ﴾ (٢٤) في قولان: أحدهما: أنها الأغصان، وهي جمع قنن، وهو العُصن المستقيم طولاً، وهذا قول مجاهد، وعكرمة، وعطية، والفراء، والزجاج. والثاني: أنها الألوان والضروب من كل شيء، وهي جمع قنن، وهذا قول سعيد بن جبيرة. وقال الضحاك: ذواتا ألوان من الفاكهة. وجمع عطاء بين القولين، فقال: في كل غصن فنون من الفاكهة.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (٢١) قال ابن عباس: تجريان بالماء الزلال، إحداهما: السلسيل، والأخرى: التسنيم. وقال عطية: إحداهما: من ماء غير آسن، والأخرى: من خمر. وقال أبو بكر الوراق: فيهما عينان تجريان لمن كانت له في الدنيا عينان تجريان من البكاء.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ نَدْبَانٍ﴾ (٢٤) أي: صنغان ونوعان. قال المفسرون: فيهما من كل ما يتفككه به نوعان، رطب ويابس، لا يقصر أحدهما عن الآخر في فضله.

﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَلَابُثًا مِنْ إِسْتَرْقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (٢٦) ﴿يَأْتِي مَاءَهُ زَيْكًا نَكِيدًا﴾ (٢٧) ﴿فِيهَا قَصِيرَاتُ الْظَّرَبِ لَرَّ يَطْلِيْنُهُنَّ إِسْءٌ قَسَابُهُ وَلَا جَانٌّ﴾ (٢٨) ﴿يَأْتِي مَاءَهُ زَيْكًا نَكِيدًا﴾ (٢٩) ﴿كَلَّا تَنْزِيلُ الْيَاقُوتِ وَالْمَرْيَمَ﴾ (٣٠) ﴿يَأْتِي مَاءَهُ زَيْكًا نَكِيدًا﴾ (٣١) ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (٣٢) ﴿يَأْتِي مَاءَهُ زَيْكًا نَكِيدًا﴾ (٣٣)

﴿مُتَّكِنِينَ﴾ هذا حال المذكورين ﴿عَلَى فُرُشٍ﴾ جمع فراش: ﴿بَلَابُثًا﴾ جمع بطانة، وهي التي تحت الظهارة. وقال أبو هريرة: هذه البطائن، فما ظنكم بالظواهر؟! وقال ابن عباس: إنما ترك وصف الظواهر، لأنه ليس أحد يعلم ما هي.

(١) روي البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ﷻ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

وقال قتادة: البطائن: هي الظواهر بلغة قوم. وكان الفراء يقول: قد تكون البطانة ظاهرة، والظاهرة بطانة، لأن كل واحد منهما قد يكون وجهاً، والعرب تقول: هذا ظَهْرُ السماء، وهذا بَطْنُ السَّمَاءِ، لظاهرها، وهو الذي نراه، وقال ابن الزبير يعيب قَتلة عثمان: خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية، فقتلهم الله كل قتل، ونجا منهم من نجا تحت بطون الكواكب. يعني هربوا ليلاً؛ فجعلوا ظهور الكواكب بطوناً، وذلك جائز في العربية. وأنكر هذا القول ابن قتيبة جداً، وقال: إنما أراد الله أن يعرفنا - من حيث نفهم - فضل هذه الفُرُش وأن ما ولي الأرض منها إستَبْرَقٌ، وإذا كانت البطانة كذلك، فالظاهرة أعلى وأشرف. وهل يجوز [لأحد] أن يقول لوجه مصل: هذا بطانته، ولما ولي الأرض منه: هذا ظهره^(١)؟ وإنما يجوز هذا في ذي الوجهين المتساويين، تقول لِمَا وَلَيْكَ مِنَ الحائط: هذا ظَهْرُ الحائط، ويقول جارك لِمَا وَلَيْكَ: هذا ظَهْرُ الحائط، وكذلك السماء ما وَلَيْتَا منها: ظَهْرُ، وهي لِمَنْ قَوْفَهَا: بَطْنٌ^(٢). وقد ذكرنا الإستبرق في [سورة] [الكهف: ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَتَيْنَا مِنْ بَنَاتِنَا لَمَّا خَلَّوْنَ بِهِمْ وَقَبِيحَ الْعَمَلِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لِيَوْمِئِذٍ مُّسْتَعْتَبِينَ﴾ قال أبو عبيدة: أي: ما يُجتنى قريباً لا يُعنى الجاني.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمْ قَوْمٌ لَّيْسَ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ قد شرحناه في [الصافات: ٤٨]. وفي قوله: ﴿فِيهِمْ قَوْلَانٌ﴾ أحدهما: أنها تعود إلى الجنتين وغيرهما مما أعدّ لصاحب هذه القصة، قاله الزجاج. والثاني: أنها تعود إلى الفُرُش، ذكره علي بن أحمد النيسابوري.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَلْمِزُوكَ لِأَنَّا بَدَأْنَا مِنْ حُسْنِ الْبَدَأِ مَا يُؤْمِنُونَ﴾ قرأ الكسائي بضم الميم، والباقون بكسرها، وهما لغتان: يَطْلِمُ وَيَطْلُمْتُ، مثل يَفْكِفُ وَيَفْكُفُ. وفي معناه قولان: أحدهما: لم يفتضحهن؛ والظلمت: التكاثر بالندمية، ومنه قيل للحائض: طاميت، قاله الفراء. والثاني: لم يمتسهن؛ يقال: ما طمّت هذا البعيرَ حَبْلٌ [قَطَط]، أي: ما مسّه، قاله أبو عبيد. قال مقاتل: وذلك لأنهن خُلفن من الجنة؛ فعلى قوله، هذا صفة الحور. وقال الشعبي: هن من نساء الدنيا لم يمتسهن مذ أنشئن خلق. وفي الآية دليل على أن الجنة يغشى المرأة كالإنسي.

قوله تعالى: ﴿كُلُّهُمْ أَكَاوُشٌ وَمَرْجَانٌ﴾ قال قتادة: هن في صفاء الياقوت وبياض المَرْجَان. وذكر الزجاج أن أهل التفسير وأهل اللغة قالوا: هن في صفاء الياقوت وبياض المَرْجَان^(٣) والمَرْجَان: صغار اللؤلؤ، وهو أشدُّ بياضاً. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: «الياقوت» فارسيّ معرب، والجمع «اليواقيت»، وقد تكلمت به العرب، قال مالك بن نويرة البرنوعي:

لَنْ يُذْهِبَ اللَّؤْمُ تاجَ قَدْ حُسِبَتْ بِهِ
مِنَ الرَّزْجَدِ وَالْيَاقوتِ وَالذَّهَبِ^(٤)

قوله تعالى: ﴿مَلَّ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانَ﴾ قال الزجاج، أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة. وقال ابن عباس: هل جزاء من قال: «لا إله إلا الله» وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة. وروى أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية، وقال: «هل تدرون ما قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن ربكم يقول: هل جزاء من أتبعنا عليه بالتوحيد إلا الجنة»^(٥)!

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿١٧﴾ فَإِنَّ مَاءَ آيَةٍ رَبِّكَمَا تَكْوِيَانِ ﴿١٨﴾ مُدْمَعَتَانِ ﴿١٩﴾ وَإِنَّ مَاءَ آيَةٍ رَبِّكَمَا تَكْوِيَانِ ﴿٢٠﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ مَصْلَحَتَانِ ﴿٢١﴾﴾

(١) في الأصل «بطانته»، والتصويب من «غريب القرآن».

(٢) روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضواء كوكب دوي في السماء، لكل امرئ منه زوجتان اثنتان، يرى مع سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب».

(٣) البيت في «المعرب» ٣٥٦.

(٤) رواه البغوي في «تفسيره» وفي إسناده ضعف، وذكره السيوطي في «الدر» ١٤٩/٦ وزاد نسبه للحكيم الترمذي في «نوارد الأصول» والديلمي في «مسند الفردوس» وابن النجار في «تاريخه» عن أنس بن مالك ﷺ. وقال السيوطي في «الدر» ١٤٩/٦: أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» وضعفه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿مَلَّ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانَ﴾ قال: «ما جزاء من أتبعنا عليه بالتوحيد إلا الجنة». قال: وأخرج عبد حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قوله: ﴿مَلَّ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هل جزاء من أتبعنا عليه ممن قال: لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة».

يَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ فِيمَا نَكَهْتَهُ وَنَحْلَ رَوَّانَ ﴿٧٨﴾ يَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٩﴾ فِيمَا خَيْرَتْ حَسَانَ ﴿٨٠﴾ يَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨١﴾ حُرٌّ مَقْصُورَتٌ فِي الْخِيَارِ ﴿٨٢﴾ يَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٣﴾ لَمْ يَلْبِسْتُهُنَّ إِثْمَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانًّا ﴿٨٤﴾ يَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٥﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خَضِرٍ وَبَعْرِتِي حَسَانَ ﴿٨٦﴾ يَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٧﴾ تَبَرَّكَ أَنْتُمْ رَبُّكَ ذِي الْمَلَكِ وَالْأَكْرَمِ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ قال الزجاج: المعنى: ولمن خاف مقام ربه جنتان، وله من دونهما جنتان.. وفي قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾ قولان: أحدهما: دونهما في الدرج، قاله ابن عباس. والثاني: دونهما في الفضل كما روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿جنتان من ذهب وجنتان من فضة﴾^(١)؛ وإلى نحو هذا ذهب ابن زيد، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿مُدَّاهِنَاتَانِ﴾ قال ابن عباس [وابن الزبير]: خضراوان من الرِّيِّ. وقال أبو عبيدة: من خضرتهما قد اسودتا. قال الزجاج: يعني أنهما خضراوان تضرب خضرتهما إلى السواد، وكل نبت أخضر فتنام خضرته وورثه أن يضرب إلى السواد.

قوله تعالى: ﴿نَضَّاجَاتَانِ﴾ قال أبو عبيدة: فَوَارَتَانِ. وقال ابن قتيبة: تفوران، و«النضج» أكثر من «النضح». وفيما يفوران به أربعة أقوال: أحدها: بالمسك والكافور، قاله ابن مسعود. والثاني: بالماء، قاله ابن عباس. والثالث: بالخير والبركة، قاله الحسن. والرابع: بأنواع الفاكهة، قاله سعيد بن جبيرة.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْلٌ رَوَّانٌ﴾ قال ابن عباس: نَحْلُ الْجَنَّةِ: جذوعها زمرّد أخضر، وكربها: ذهب أحمر^(٢)، وسعفها: كسوة أهل الجنة، منها مقطعاتهم وحللمهم. وقال سعيد بن جبيرة: نخل الجنة: جذوعها من ذهب، وعروقها من ذهب، وكرانيفها من زمرّد، ورطبها كالدلاء أشد بياضاً من اللبن، والين من الرُّبْد، وأحلى من العسل، ليس له عَجَمٌ^(٣). قال أبو عبيدة: الكرانيف: أصول السَّعَفِ الغلاظ، الواحدة: كَرْنَاةٌ^(٤). وإنما أعاد ذكر النخل والرمان - وقد دخلا في الفاكهة - لبيان فضلها كما ذكرنا في قوله: ﴿وَنَبَاتٍ كَثِيرٍ وَرُسُلِهِ وَجَنَّةٍ وَسِدْرٍ وَمِيسَكٍ﴾ [البقرة: ٩٨]، هذا قول جمهور المفسرين واللغويين. وحكى الفراء والزجاج أن قوماً قالوا: ليسا من الفاكهة؛ قال الفراء: وقد ذهبوا مذهباً، ولكن العرب تجعلهما فاكهة. قال الأزهري: ما علمت أحداً من العرب قال في النخيل والكروم وثمارها: إنها ليست من الفاكهة، وإنما قال من قال، لِقَلَّةِ عِلْمِهِ بكلام العرب، فالعرب تذكر أشياء جملة ثم تحصُّ شيئاً منها بالتسمية تنبيهاً على فضل فيه، كقوله: ﴿وَجَنَّةٍ وَمِيسَكٍ﴾ [البقرة: ٩٨]؛ فمن قال: ليسا من الملائكة كفر، ومن قال: ثمر النخل والرمان ليسا من الفاكهة جهل.

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾ يعني في الجنان الأربع: ﴿خَيْرَاتٌ﴾ يعني الحور. وقرأ معاذ القاري، وعاصم الجحدري، وأبو نهيك؛ «خَيْرَاتٌ» بتشديد الباء. قال اللغويون: أصله «خَيْرَاتٌ» بالتشديد، فُحُفٌ، كما قيل: هَيْئٌ لَيْنٌ. وَهَيْئٌ لَيْنٌ. وروت أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: «خَيْرَاتُ الْأَخْلَاقِ حِسَانُ الْوُجُوهِ»^(٥).

قوله تعالى: ﴿حُرٌّ مَقْصُورَتٌ﴾ قد بيّنا في سورة [الدخان: ٥٤] معنى الحور. وفي المقصورات قولان: أحدهما: المحبوسات في الجبال، قاله ابن عباس، وهو مذهب الحسن، وأبي العالية، والقرظي، والضحاك، وأبي صالح. والثاني: المقصورات الطرف على أزواجهن، فلا يرفعن طرفاً إلى غيرهم، قاله الربيع. وعن مجاهد كالقولين. والأول أصح، فإن العرب تقول: امرأة مَقْصُورَةٌ وَقَصِيرَةٌ: إذا كانت ملازمة خدرها، قال كُثَيْبٌ:

لَعَمْرِي لَقَدْ حَبَّبَتْ كُلَّ قَصِيرَةٍ
إِلَيَّ، وَمَا تَدْرِي بِذَلِكَ الْقَصَايِرِ^(٦)

(١) رواه البخاري في «صحيحه» ٤٧٩/٨ ومسلم ١٦٣/١ ولفظه يتناما: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رءاه الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

(٢) قال في «النهاية»: وفي صفة نخل الجنة: كربها ذهب، وهو بالحريك أصل السفن، وقيل: ما يبقى من أصوله في النخلة بعد القطع كالعراقي.

(٣) المعجم بالحريك: النوى، الواحدة: عجمة، مثل قصبه وقصب.

(٤) كرنافة: بكسر الكاف وضمة.

(٥) رواه ابن جرير الطبري ١٥٨/٢٧ وفي سننه ضعف، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٥٠/٦ وزاد نسيته للطبراني، وابن مردويه عن أم سلمة ؓ.

(٦) البيتان في «غريب القرآن» ٤٤٣، و«القرظي» ١٧/١٨٩، و«البحر» ٨/١٨٩، و«اللسان» و«التاج»: قصر.

عَنْبُتٌ قَصِيرَاتُ الْحَجَالِ، وَلَمْ أَرِدْ

وبعضهم ينشده: قَصُورَةٌ، وَقَصُورَاتٌ؛ والباحتر القصار. وفي «الخيام» قولان: أحدهما: أنها البيوت. والثاني: خيام تضاف إلى القصور. وقد روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ [أنه] قال: «إن للمؤمن في الجنة نخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها في السماء ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم [المؤمن]، فلا يرى بعضهم بعضاً»^(١). وقال عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن عباس: الخيام: دُرٌّ مُجَوَّفٌ. وقال ابن عباس: الخيمة: لؤلؤة واحدة أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِبِينَ عَلَى رُفُوفٍ﴾ وقرأ عثمان بن عفان، وعاصم الجحدري، وابن محيصن: «على رُقَارِف» جمع غير مصروف. وقرأ الضحاك، وأبو العالية، وأبو عمران الجوني مثلهم، إلا أنهم صرفوا «رفارف» قال ثعلب: إنما لم يقل: أخضر، لأن الرُفْرَف جمع، وأحدته: رفرة، كقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠] ولم يقل: الخُضْر، لأن الشجر جمع، تقول: هذا حصي أبيض، وحصي أسود، قال الشاعر:

أَحَقًّا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ مَا شِئْتُ
بِهَرْجَابٍ مَا دَامَ الْأَرَاكُ بِهِ خُضْرًا^(٢)

واختلف المفسرون في المراد بالرُفْرَف على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها فضول المحابس [والبُسط]، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال أبو عبيدة: هي: الفُرْش والبُسط. وحكى الفراء، وابن قتيبة: أنها المحابس^(٣). وقال النقاش: الرُفْرَف: المحابس الخُضْر فوق الفُرْش. والثاني: أنها رياض الجنة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير. والثالث: أنها الوسائد، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَعَبْقَرِيَّ حَسَانٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها الزُرَابِيَّة، قاله ابن عباس، وعطاء، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وكذلك قال ابن قتيبة: العبقرية: الطنائف النُحَان. قال أبو عبيدة: يقال لكل شيء من البُسط: عبقرية. والثاني: أنه اللبّياح الغليظ، قاله مجاهد. قال الزجاج: أصل العبقرية في اللغة أنه صفة لكل ما بُولَغ في وصفه، وأصله أن عبقر: بلد كان يوشى فيه البُسط وغيرها، فُنسب كل شيء جيد إليه، قال زهير:

بِحَيْلٍ عَلَيْهَا جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ
جَدِيدُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْمَلُوا^(٤)

وقرأ عثمان بن عفان، وعاصم الجحدري، وابن محيصن: «وَعَبَاقِرِيَّةٌ» بألف مكسورة القاف مفتوحة الباء من غير تنوين؛ قال الزجاج: ولا وجه لهذه القراءة في العربية، لأن الجمع الذي بعد ألفه حرفان، نحو: مساجد ومفاتيح، لا يجوز أن يكون فيه مثل عباقري، لأن ما جاوز الثلاثة لا يُجمع بياء التَّسْب، فلو جمعت «عبقري» كان جمعُه «عباقرة»، كما أنك لو جمعت «مُهَلبِي» كان جمعه «مُهَالبِي»، ولم تقل: «مُهَالبِي»، قال: فإن قيل: «عبقري» واحد، و«حَسَانٌ» جمع، فكيف جاز هذا؟ فالأصل أن واحد هذا «عبقرية» والجمع «عبقري»، كما تقول: ثَمْرَةٌ، وَتَمْرٌ، وَلَوْزَةٌ، وَلُوزٌ، ويكون أيضاً «عبقري» اسماً للجنس. وقرأ الضحاك، وأبو العالية، وأبو عمران: «وَعَبَاقِرِيَّةٌ» بألف مع التنوين.

قوله تعالى: ﴿بِذِكْرِكَ أَمْزُ رَبِّكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن ذَكَرَ «الاسم» صِلَةٌ، والمعنى: تبارك ربك. والثاني: أنه أصل. قال ابن الأنباري: المعنى: تفاعل من البركة، أي: البركة ثَمَل وَتَكْتَسَب بِذِكْرِ اسْمِهِ. وقد بينّا معنى «تبارك» في [الأعراف: ٥٤]، وذكرنا في هذه السورة معنى ﴿ذِي الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وكان ابن عامر يقرأ: «ذو الجلال» وكذلك هي في مصاحف أهل الشام؛ والباقون: «ذو الجلال» وكذلك هي في مصاحف أهل الحجاز والعراق، [وهم] متفقون على الموضوع الأول أنه «ذو».



(١) رواه البخاري ٤٧٩/٨، ومسلم ٢١٨٢/٤.

(٢) الشطر الثاني من البيت في «اللسان» و«التاج»: هرجب. و«هرجاب»: اسم موضع.

(٣) المحابس: جمع محبس، وهو الثوب يطرح عن ظهر الفراش للنوم عليه.

(٤) «ديوانه» ١٠٣، و«مجاز القرآن» ٢٤٦/٢، و«القرطبي» ١٩٢/١٧، و«اللسان»: عبقر.

سورة الواقعة

وفيها قولان: أحدهما: أنها مَكِّيَّة، قاله الأكثرون، منهم ابن عباس، والحسن، وعطاء، وعكرمة، وقتادة، وجابر، ومقاتل. وحكي عن ابن عباس أن فيها آية مدنيَّة وهي قوله: ﴿وَيَعْمَلُونَ لَكُمْ لِكَايَاتٍ﴾ [الواقعة: ٤٨٣]. والثاني: أنها مدنيَّة، رواه عطية عن ابن عباس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَادِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رَمَتْ الْأَرْضُ كِبًا ﴿٤﴾ وَسَوَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ تَكَاتُ هَبَاءٌ مُبِينًا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ الشَّرِيفُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي حَشَّتِ النَّجْمِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: لما قال المشركون: متى هذا الوعد، متى هذا الفتح؟! نزل قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، فالمعنى: يكون إذا وقعت الواقعة. قال المفسرون: والواقعة: القيامة، وكل آتٍ يتوقع، يقال له إذا كان: قد وقع، والمراد بها هاهنا: النَّفْخَةُ فِي الصُّورِ لِقِيَامِ السَّاعَةِ. ﴿لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَادِبَةٌ﴾ أي: لظهورها ومجيئها «كاذبة» أي: كذب، كقوله: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيًّا لَيًّا﴾ [الناس: ١١] أي: لغواً. قال الزجاج: «وكاذبة» مصدر، كقولك: عافاه الله عافيةً، وكذَّب كاذبَةً، فهذه أسماء في موضع المصدر. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: لا رجعة لها ولا ارتداد، قاله قتادة. والثاني: ليس الإخبار عن وقوعها كذباً، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أي: هي خافضة رافعةٌ ﴿وقرأ أبو رزين^(١)، وأبو عبد الرحمن، وأبو العالية، والحسن، وابن أبي عبيدة، وأبو حيوة، واليزيدي في اختياره: «خافضة رافعة» بالنصب فيهما. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: أنها خفضت فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد، رواه العوفي عن ابن عباس. وهذا يدل على أن المراد بالواقعة: صيحة القيامة. والثاني: أنها خفضت ناساً، ورفعت آخرين، رواه عكرمة عن ابن عباس. قال المفسرون: تخفض أقواماً إلى أسفل السافلين في النار، وترفع أقواماً إلى عليين في الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رَمَتْ الْأَرْضُ كِبًا﴾ أي: حُرُكَتْ حركةً شديدةً وزلزلت، وذلك أنها ترتج حتى ينهدم ما عليها من بناء، ويشتت ما عليها من جبل. وفي ارتجاجها قولان: أحدهما: أنه لإماتة من عليها من الأحياء. والثاني: لإخراج من في بطنها من الموتى.

قوله تعالى: ﴿رُئِيتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ فيه قولان: أحدهما: قُتَّتْ قَتًّا، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. قال ابن قتيبة: قُتَّتْ حتى صارت كالدَّقِيقِ والسُّويقِ الميسوس. والثاني: لُتَّتْ، قاله قتادة. وقال الزجاج: خُلِطَتْ وَلُتَّتْ. قال الشاعر:

لَا تَخْطِيزُوا خَنْبِزًا وَبُسًّا بَسًّا^(٢)

وفي «الهباء» أقوال قد ذكرناها في [الفرقان: ٢٣]. وذكر ابن قتيبة أن الهباء المُتَّبَتُّ: ما سطع من سناكب الخيل، وهو من «الهيبة»، والهيبة: العُبار. والمعنى: كانت تراباً مشتراً.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافاً ثَلَاثَةً. ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ فيهم ثمانية أقوال: أحدها: [أنهم] الذين كانوا على يمين آدم حين أخرجت دُرَّتِيَّةُ مِنْ صُلْبِهِ، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم الذين يُعْطَوْنَ كتبهم بأيمانهم، قاله

(١) في النسخة الأستنبولية: أبو المتوكل.

(٢) الرجز في «مجاز القرآن» ٢/٢٤٨، و«الطبري» ٢٧/١٦٧، و«القرطبي» ١٧/١٩٦، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: بسن.

الضحاك، والقرظي. والثالث: أنهم الذين كانوا يمامين على أنفسهم، أي: مباركين، قاله الحسن، والربيع. والرابع: أنهم الذين أخذوا من شئ آدم الأيمن، قاله زيد بن أسلم. والخامس: أنهم الذين منزلتهم عن اليمين، قاله ميمون بن مهران. والسادس: أنهم أهل الجنة، قاله السدي. والسابع: أنهم أصحاب المنزلة الرفيعة، قاله الزجاج. والثامن: أنهم الذين يؤخذ بهم] ذات اليمين إلى الجنة، ذكره علي بن أحمد النيسابوري.

قوله تعالى: ﴿مَا أَحْضَبُ النَّسَمَةَ﴾ قال الفراء: عَجِبَ نَبِيَّهُ ﷺ منهم؛ والمعنى: أي شيء هُم؟ قال الزجاج: وهذا اللفظ في العربية مجراه مجرى التعجب، ومجراه من الله ﷻ في مخاطبة العباد ما يعظم به الشأن عندهم، ومثله: ﴿مَا لَكَائَةُ﴾ [الحاقة: ٢٢]، ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٢٢]؛ قال ابن قتيبة: ومثله أن يقول: زَيْدٌ مَا زَيْدًا أَي: أَيُّ رَجُلٍ هُوَ! ﴿وَأَحْضَبُ النَّسَمَةَ مَا أَحْضَبُ النَّسَمَةَ﴾ [أي: أصحاب] (١) الشمال، والعرب تسمي اليد اليسرى: الشؤمي، والجانب الأيسر: الأشام، ومنه قيل: اليمين والشؤم، فاليمين: كأنه [ما] (٢) جاء عن اليمين، والشؤم [ما جاء] عن الشمال، ومنه سميت «اليمين» و «الشام» لأنها عن يمين الكعبة وشمالها. قال المفسرون: أصحاب الميمنة: هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين، ويعطون كتبهم بأيمانهم؛ وتفسير أصحاب المشأمة على ضد تفسير أصحاب الميمنة سواء، والمعنى: أي قوم هم! ماذا أعد لهم من العذاب!؟

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [١٦] فيهم خمسة أقوال: أحدها: أنهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة، قاله الحسن، وقتادة. والثاني: أنهم الذين صلوا [إلى] القبليتين، قاله ابن سيرين. والثالث: أهل القرآن، قاله كعب. والرابع: الأنبياء، قاله محمد بن كعب. والخامس: السابقون إلى المساجد وإلى الخروج في سبيل الله، قاله عثمان بن أبي سودة. وفي إعادة ذكرهم قولان: أحدهما: أن ذلك للتوكيد. والثاني: أن المعنى: السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله، ذكرهما الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْأَخْرَجُونَ﴾ [١١] قال أبو سليمان الدمشقي: يعني عند الله في ظل عرشه وجواره.

﴿ثُمَّ يَنْزِلُ مِنَ الْأَرْوَامِ﴾ [١٢] وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ [١٣] عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ [١٤] مُتَّكِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ [١٥] يَلُوفٌ عَلَيْهِمْ وَوُجُوهُهُمْ مُخَلَّدُونَ [١٦] يَا كَرِيمَ وَالْبَارِقَ تَكْوِينِ مِيمُونَ [١٧] لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُرْفَعُونَ [١٨] وَلَكِنَّهُمْ مِمَّا يَبْتَغُونَ رِيبًا [١٩] وَتَحَرُّوا عَيْنَ الْمُتَنَبِّلِ الْكَلْبِ الْأَكْبَرِ [٢٠] جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَمَكُونُ [٢١] لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا نَجْوَى وَلَا تَأْتِيهَا [٢٢] إِلَّا قِيلًا سَلَكْنَا سُلَكًا [٢٣]

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَنْزِلُ مِنَ الْأَرْوَامِ﴾ [١٢] الثلثة: الجماعة غير محصورة العدد. وفي الأولين والآخريين هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن الأولين: الذين كانوا من زمن آدم إلى زمن نبينا ﷺ، والآخرون: هذه الأمة. والثاني: [أن الأولين]: أصحاب رسول الله ﷺ، والآخريين: التابعون. والثالث: أن الأولين [والآخريين: من] أصحاب نبينا محمد ﷺ. فعلى الأول يكون المعنى: إن الأولين السابقين جماعة من الأمم المتقدمة الذين سبقوا بالتصديق لأنبيائهم من جاء بعدهم مؤمنًا، وقليل من أمة محمد ﷺ، لأن الذين عاينوا الأنبياء أجمعين وصدّقوا بهم أكثر ممن عاين نبينا وصدّق به. وعلى الثاني: أن السابقين: جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم الأولون من المهاجرين والأنصار، وقليل من التابعين وهم الذين أتبعوهم بإحسان. وعلى الثالث: أن السابقين: الأولون من المهاجرين والأنصار، وقليل ممن جاء بعدهم لعجز المتأخرين أن يلحقوا الأولين، فقليل منهم من يقاربه في السبق. وأما «الموضونة»، فقال ابن قتيبة: هي المنسوجة، كان بعضها أَدْخَلَ في بعض، أو نُصِدَ بعضها على بعض، ومنه قيل للدُّرْع: مَوْضُونَةٌ، ومنه قيل: وَضِيْنُ النَّاقَةِ، وهو بَطَانٌ من سُيُورٍ يَدْخُلُ بعضُه في بعض. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الأَجْرُ مَوْضُونٌ بعضُه على بعض، أي: مُشْرَجٌ. وللمفسرين في معنى «مَوْضُونَةٌ» قولان: أحدهما: مرمولة بالذهب (٢)، رواه مجاهد عن ابن عباس. وقال عكرمة: مشبكة بالدُّرِّ والياقوت، وهذا معنى ما ذكرناه عن ابن قتيبة، وبه قال الأكترون. والثاني: مصفوفة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وما بعد هذا قد تقدم بيانه [الكهف: ٣٠] إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْمُخَلَّدُونَ﴾ [الولدان:

الغلمان. وقال الحسن البصري: هؤلاء أطفال لم يكن لهم حسنة فيُجَزَّون بها، ولا سيئات فيعاقبون عليها. فوضعا بهذا الموضع. وفي المخلدين قولان: أحدهما: أنه من الخُلْد؛ والمعنى: أنهم مخلوقون للبقاء لا يتغيرون، وهم على سنٍّ واحد. قال الفراء: والعرب تقول للإنسان إذا كَبُرَ ولم يَشْمَطْ: أو لم تذهب أسنانه عن الكِبَر: إنه لمخلد، هذا قول الجمهور. والثاني: أنهم المُفَرِّطُونَ، ويقال: المُسَوَّرُونَ، ذكره الفراء، وابن قتيبة، وأنشدوا في ذلك:

وَمُخَلَّدَاتٌ بِاللُّجَيْنِ كَأَمَّا أَعْجَازُهُنَّ أَقَاوِرُ الْكُنْبَانِ^(١)

قوله تعالى: ﴿أَكْوَابُ وَأَبَارِيقُ﴾ الكوب: إناء لا عروة له ولا خُرطوم، وقد ذكرناه في [الزخرف: ١٧٢]؛ والأباريق: آنية لها عُرَى وخراطيم؛ وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: الإبريق: فارسيّ معرّب، وترجمته من الفارسية أحدُ شيتين، إمّا أن يكون: طريق الماء، أو: صب الماء على هيئة، وقد تكلمت به العرب قديماً، قال عدي بن زيد:

وَدَعَا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ^(٢)

وباقى الآيات في [الصفات: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿لَا يَصْدُقُونَ عَتَا وَلَا يُزْفُونَ﴾^(٣) فيه قولان: أحدهما: لا يَلْحَقُهُم الصُّدَاعُ الذي يلحق شاربِي خمر الدنيا. و «عنها» كناية عن الكأس المذكور، والمراد بها: الخمر، وهذا قول الجمهور. والثاني: لا يتفَرَّقون عنها، من قولك: صدغته فأنصدع، حكاه ابن قتيبة. «ولا يُزْفُونَ» مفسر في [الصفات: ٤٧]^(٤).

قوله تعالى: ﴿هَمَّا يَتَخَزَّيْتُ﴾ أي: يختارون، تقول: تخيَّرت الشيء: إذا أخذت خيره.

قوله تعالى: ﴿رَبِّئِي طَيْرٌ﴾ قال ابن عباس: يخظر على قلبه الطير، فصير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى. وقال مغيث بن سمي: تقع على أغصان شجرة طوبى طير كأمثال البُخْتِ^(٥)، فإذا اشتهى الرجل طيراً دعاه، فيجيء حتى يقع على خوانه^(٦)، فيأكل من أحد جانبيه قديداً والأخر شواءً، ثم يعود طيراً فيطير فيذهب.

قوله تعالى: ﴿بُحُورٌ عَيْنٌ﴾^(٧) قرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «وَحُورٌ عَيْنٌ» بالرفع فيهما. وقرأ أبو جعفر، وحزمة، والكسائي، والمفضل عن عاصم: بالخفض فيهما. وقرأ أبي بن كعب، وعائشة، وأبو العالية، وعاصم الجحدري: «وَحُوراً عَيْناً» بالنصب فيهما. قال الزجاج: والذين رفعوا كرهوا الخفض، لأنه معطوف على قوله: ﴿طُورٌ عَيْنٌ﴾، قالوا: والحُور ليس ممّا يُطاف به، ولكنه مخفوض على غير ما ذهب إليه هؤلاء، لأن المعنى: يطوف عليهم ولدانٌ مخلدون بأكوابٍ ينعمون بها، كذلك ينعمون بلحم طير، فكذلك ينعمون بحُور عَيْنٍ، والرفع أحسن، والمعنى: ولهم حُورٌ عَيْنٌ؛ ومن قرأ «وَحُوراً عَيْناً» حمّله على المعنى، لأن المعنى: يُعْطَوْنَ هذه الأشياء ويُعْطَوْنَ حوراً عينا، إلا أنها تخالف المصحف فتكروه. ومعنى ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ﴾ أي: صفاؤها وتلاؤها كصفاء اللؤلؤ وتلاؤه. والمكنون: الذي لم يغيّره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال، فهو كاللؤلؤ حين يخرج من صدفه. ﴿جَزَاءً﴾ منصوب مفعول له؛ والمعنى: يُفعل بهم ذلك جزاءً بأعمالهم، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه مصدر، لأن معنى ﴿طُورٌ عَيْنٌ وَوَلَدٌ مَخْلُودٌ﴾: يُجَازُونَ جزاءً بأعمالهم؛ وأكثر التحوّين على هذا الوجه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاً﴾ قد فسرنا معنى اللغو والسلام في سورة ارميم: [٦٢] ومعنى التائيم في [الطور: ٢٣] ومعنى ﴿هَذَا أَصْحَابٌ آتِينَ﴾ في أول هذه السورة [الواقعة: ٤٩]. فإن قيل: التائيم لا يُسمع فكيف ذكره مع المسموع؟ فالجواب: أن العرب يُتبعون آخر الكلام أوّله، وإن لم يحسن في أحدهما ما يحسن في الآخر، فيقولون: أكلتُ خبزاً ولبناً، واللبن لا يؤكل، إنما حَسُنَ هذا لأنه كان مع ما يؤكل، قال الفراء: أنشدني بعض العرب:

(١) البيت غير منسوب في «غريب القرآن» ٤١٧، و«القرطبي» ٢٠٢/١٧، و«اللسان» و«التاج»: قوز. والأقاز: جمع قوز، وهو كتيب من الرمل صغير شبه به أرداد النساء، فالإضافة للبيان.

(٢) البيت في «المعرب» للجواليقي ٢٣.

(٣) قال ابن كثير: وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: الشُّكْر، والصُّدَاع، والقيء، والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزّهها عن هذه الخصال. اهـ.

(٤) البُخْت: الإبل الحُرّاسانية.

(٥) الخوان، بضم الخاء وكسرها: الذي يؤكل عليه.

إِذَا مَا الْغَايَاتِ بَرَزْنَ يَوْمًا
قَالَ: وَالْعَيْنُ لَا تَزُجُّجُ إِلَّا تَكْحُلُ، فَرَدَّهَا عَلَى الْحَاجِبِ لِأَنَّ الْمَعْنَى يُعْرَفُ، وَأَنْشَدَنِي آخَرَ:
وَلَقَيْتُ زَوْجَكَ فَنِي الْوَعَى
وَأَنْشَدَنِي آخَرَ:

عَلَفْتُهَا تَبْنَاءً وَمَاءً بَارِدًا^(٢)

والماء لا يُعْلَفُ وإنما يُشْرَبُ، فجعله تابعاً للثبني؛ قال الفراء: وهذا [هو] وجه قراءة من قرأ، «وَحُورِ عَيْنٍ» بالخفض، لإتباع آخر الكلام أوّله، وهو وجه العربية.

﴿رَأَيْتُ الْيَمِينَ مَا أَحْسَبُ الْيَمِينَ﴾ (٧) فِي يَدِي مَحْضُورٍ (٨) وَكَلَجَ مَحْضُورٍ (٩) وَظَلَى مَمْدُورٍ (١٠) وَمَاوُ مَشْكُوبٍ (١١) وَتَكْهَهُ كَيْفَهُ (١٢) لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْرُوعَةٌ (١٣) وَرُبِّي مَرْمُوعَةٌ (١٤) إِنَّا أَنْشَأْتَهُنَّ إِنثَاءً (١٥) جَمَلْتُهُنَّ أَكْبَارًا (١٦) عُرَا أَرْكَابًا (١٧) لِأَحْسَبُ الْيَمِينَ (١٨) نَلَّةٌ يَكُ الْأَوَّلَى (١٩) وَنَلَّةٌ يَنْ الْآخِرِينَ (٢٠)

وقد شرحنا معنى قوله: ﴿رَأَيْتُ الْيَمِينَ﴾ في قوله: ﴿رَأَيْتُ الْيَمِينَ﴾ [الواقعة: ٩]. وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال: أصحاب اليمين: أطفال المؤمنين^(٤).

قوله تعالى: ﴿فِي يَدِي مَحْضُورٍ﴾ (٨) سبب نزولها أن المسلمين نظروا إلى وَجْهِهِ وهو وادٍ بالطائف مخصب. فأعجبهم سدره، فقالوا: يا ليت لنا مثل هذا؟ فنزلت هذه الآية، قاله أبو العالية، والضحاك. وفي المخضود ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الذي لا شوك فيه، رواه أبو طلحة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وقاسم بن زهير. قال ابن قتيبة: كلفه جُحُودٌ شوكة، أي: قلع، ومنه قول النبي ﷺ في المدينة: «لَا يُحْضَدُ شَوْكُهَا»^(٥). والثاني: أنه الموقر حملاً، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والضحاك. والثالث: أنه الموقر الذي لا شوك فيه، ذكره قتادة. وفي الطَّلْح قولان: أحدهما: أنه الموز، قاله علي، وابن عباس، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، [والحسن]، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد، وقاتدة. والثاني: أنه شجر عظام كبار الشوك، قال أبو عبيدة: هذا هو الطَّلْح عند العرب، قال الحادي:

بَشَّرَهَا دَلِيلُهَا وَقَالَ
عَدَا تَرَيْنَ الطَّلْحَ وَالْجِبَالَ^(٦)

فإن قيل: ما الفائدة في الطَّلْح؟ فالجواب أن له نَوْراً وريحاً طيبةً، فقد وعدهم ما يعرفون ويميلون إليه، وإن لم يقع التساوي بينه وبين ما في الدنيا. وقال مجاهد: كانوا يُعْجَبُونَ بِ«وَجْهِهِ» وظلاله من طلحه وسدره. فأما المنضود، فقال ابن قتيبة: هو الذي قد نُضِذَ بِالْحَمْلِ أو بالورق والحمل من أوّله إلى آخره، فليس له ساق بارزة، وقال مسروق: شجر الجنة نضيد من أسفلها إلى أعلاها.

قوله تعالى: ﴿وِظَلَى مَمْدُورٍ﴾ (١٠) أي: دائم لا تنسخه الشمس^(٧). ﴿وَمَاوُ مَشْكُوبٍ﴾ (١١) أي: جار غير منقطع. قوله تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْرُوعَةٌ﴾ (١٣) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا مقطوعة في حين دون حين، ولا ممنوعة بالحيطان والنواطير، إنما هي مطلقّة لمن أرادها، هذا قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقاتدة. ولخصه بعضهم فقال: لا مقطوعة بالأزمان، ولا ممنوعة بالأثمان. والثاني: لا تنقطع إذا جُنِيتْ، ولا تُمنَع من أحد إذا أريدت،

(١) البيت غير منسوب في مشكل القرآن ١٦٥، والطيبي ١٧٦/٢٧، وأساس البلاغة والصالح، واللسان والتاج: زجج.

(٢) سبق البيت ٣٦٢.

(٣) سبق الشطر ٣٦٢.

(٤) رواه الطيبي ١٧٩/٢٧ وفي سنده عثمان بن قيس وهو ضعيف.

(٥) رواه أحمد في المستدرك رقم (٢٩٢٣) ولفظه بتمامه: عن ابن عباس عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي حرم، وحرمي المدينة، اللهم إني أحرمها بحرمك، أن لا يورى فيها محدث، ولا يخلى خلاها، ولا يعهد شوكتها، ولا تؤخذ لقطتها إلا لمتشد» وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٠١/٣ عن أحمد وحسنه. قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٣٧/٤: ووقع في رواية لعمر بن شبة بلفظ «لا يخضد» بالخاء المعجمة بدل العين المهملة، وهو راجع إلى معناه، فإن أصل الخضد: الكسر ويستعمل في القطع. اهـ.

(٦) البيت غير منسوب في مجاز القرآن ٢/٢٥٠، والطيبي ١٨١/٢٧، ونسبه «القرطبي» ٢٠٨/١٧ إلى الجمدي.

(٧) روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة عليه السلام عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، الرووا إن شئت: ﴿وِظَلَى مَمْدُورٍ﴾».

روي عن ابن عباس. والثالث: لا مقطوعة بالفناء، ولا ممنوعة بالفساد، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَرُفِعَ تَرَفُوعُهُ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الحشايا المفروشة للجلوس والنوم، وفي رفعها قولان: أحدهما: [أنها] مرفوعة فوق السُّرر. والثاني: أن رفعها؛ زيادة حشوها لطيب الاستمتاع بها. والثاني: أن المراد بالفراش: النساء؛ والعرب تسمي المرأة: فراشاً وإزاراً ولباساً؛ وفي معنى رفعهن ثلاثة أقوال: أحدها: أنهن رُفِعن بالجمال على نساء أهل الدنيا. والثاني: رُفِعن عن الأذناس. والثالث: في القلوب لشدّة الميل إليهن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾ يعني النساء. قال ابن قتيبة: اكتفى بذكر الفُرُش لأنها محل النساء عن ذكرهن. وفي المشار إليهن قولان: أحدهما: أنهن نساء أهل الدنيا المؤمنات؛ ثم في إنشأتهن قولان: أحدهما: أنه إنشأوهن من القبور، قاله ابن عباس. والثاني: إعادتهن بعد السَّمَط^(١) والكِبَر أباكراً صغاراً، قاله الضحاك. والثاني: أنهن الحُور العين، وإنشأوهن: إيجادهن عن غير ولادة، قاله الزجاج. والصواب أن يقال: إن الإنشاء عَمَهُنَّ كُلَّهُنَّ، فالحُور أنشئن ابتداءً، والمؤمنات أنشئن بالإعادة وتغيير الصفات؛ وقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ مِنَ الْمُنشَأَتِ اللَّائِي كُنَّ فِي الدُّنْيَا عَجَائِزَ حَمَشًا رُفُصًا﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿مَجَسَّطَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي: عذارى. وقال ابن عباس: لا يأتيها زوجها إلا وجدها بكراً.

قوله تعالى: ﴿عُرْبًا﴾ قرأ الجمهور: بضم الراء. وقرأ حمزة، وخلف: بإسكان الراء؛ قال ابن جرير: هي لغة تميم وبكر. وللمفسرين في معنى «عُرْبًا» خمسة أقوال: أحدها: أنهن المتحبيات إلى أزواجهن، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنهن العواشق، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، ومقاتل، والمبرد؛ وعن^(٣) مجاهد كالتولين. والثالث: الحسنه التبعل، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة. والرابع: العُجُنجات، قاله عكرمة. والخامسة: الحسنه الكلام، قاله ابن زيد. فأما الأتراب فقد ذكرناهن في [ص: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ هذا من نعت أصحاب اليمين. وفي الأولين والآخرين خلاف، وقد سبق شرحه [الرواية: ١١٣]. وقد زعم مقاتل أنه لما نزلت الآية الأولى، وهي قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ وجد المؤمنون من ذلك وجداً شديداً حتى أنزلت ﴿وَالثَّلَاثَةُ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ فسخطها. وروي عن عروة بن رُويم نحو هذا المعنى. قلت: وادعاء النسخ هاهنا لا وجه له لثلاثة أوجه: أحدها: أن علماء الناسخ والمنسوخ لم يوافقوا على هذا. والثاني: أن الكلام في الآيتين خبر، والخبر لا يدخله النسخ، [فهو هاهنا لا وجه له]. والثالث: أن الثَلَاثَةَ بمعنى الفِرْقَةَ والفتنة؛ قال الزجاج: اشتقاقهما من القِطْعَةِ، والثَلُّ: الكسر والقطع. فعلى هذا قد يجوز أن تكون الثَلَاثَةُ في معنى القليل.

﴿وَأَحْسَبُ الْإِنَّمَالِ مَا أَحْسَبُ الْإِنَّمَالِ﴾ (١) فِي سُبُورٍ دَجِيمٍ (٢) وَظِلٌّ يَنْ يَسْمُورُ (٣) لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ (٤) إِيَّاهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَبِينَ (٥) وَكَانُوا يَصْرَفُونَ عَلَى لَيْسَانَ الْعَظِيمِ (٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيْدِيَنَا وَمَنَا وَكُنَّا شُرَكَاءَ وَعِظْمَانَا لَمَسْمُورُونَ (٧) أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٨) قَدْ لَبَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٩) لَمَسْمُورُونَ إِنْ يَمْدَتْ يَوْمَ مَمْلُوكٍ (١٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ إِيَّاهُ السَّالُونَ الْكَافِرُونَ (١١) لَأَكْفُرَنَّ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُوقِرٍ (١٢) فَلَوْلَنَّا مِنهَا الْبَلْبُورُ (١٣) فَتَسْوِرُونَ عَلَيْهِ يَوْمَ لَيْسَمٍ (١٤) فَتَسْوِرُونَ شَرِبَ الْمَيْمِ (١٥) هَذَا تَزَلُّمٌ يَوْمَ الدِّينِ (١٦)

قوله تعالى: ﴿مَا أَحْسَبُ الْإِنَّمَالِ﴾ قد بينا أنه بمعنى التعجب من حالهم؛ والمعنى: ما لهم، وما أعد لهم من الشر؟ ثم بين لهم سوء مُتَقَلِّبِهِمْ فقال: ﴿فِي سُبُورٍ﴾ قال ابن قتيبة: هو حَرُّ النَّارِ.

قوله تعالى: ﴿وَظِلٌّ يَنْ يَسْمُورُ﴾ قال ابن عباس: ظلٌّ من دخان. قال الفراء: الِيْحُموم: الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ، ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ فوجه الكلام الخفض تبعاً لما قبله، ومثله ﴿زَيْتُونٌ لَا شَرِيْبٌ وَلَا غَرِيْبٌ﴾ [النور: ٢٥]، وكذلك قوله:

(١) السَّمَط: الثَّيْب.

(٢) رواه ابن جرير ٢٧/١٨٥، ١٨٦، والترمذي في «جامعه» ٢/١٦٤ من رواية موسى بن عبيدة الربذي عن يزيد بن أبان الرقاشي عن أنس، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث موسى بن عبيدة، قال: وموسى بن عبيدة ويؤيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث.

(٣) في الأصل: عن.

﴿وَتَكْفَهُمْ كَيْفَ ۙ لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ﴾، ولو رفعت ما بعد «لا» كان صواباً، والعرب تجعل الكريم تابِعاً لكل شيء نفت عنه فعلاً يُنَوَّى إليه [الذم، فتقول: ما هذه الدار بواسعة ولا كريمة، وما هذا بسمين ولا كريم. قال ابن عباس: لا بارد المدخل ولا كريم المنظر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي: في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي: متنعمين في ترك أمر الله، فشغلهم ترفههم عن الاعتبار والتعبُد. ﴿وَكَاثُرًا صُورُونَ﴾ أي: يُقيمون ﴿عَلَّ لَيْسَ﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الشُّرك، قاله ابن عباس، والحسن، والضحاك، وابن زيد. والثاني: الذُّنْب العظيم الذي لا يتوبون منه. قاله مجاهد. وعن قتادة كالقولين. والثالث: أنه اليمين الغموس، قاله الشعبي. والرابع: الشُّرك والكفر بالبعث، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمُ الْأَوْلَادَ﴾ قال أبو عبيدة: الواو متحركة لأنها ليست بواو ﴿أَوْ﴾ إنما هي «وَأَبَاؤُنَا»، فدخلت عليها ألف الاستفهام فثُكُت مفتوحة. وقرأ أهل المدينة، وابن عامر: «أَوْ أَبَاؤُنَا» بإسكان الواو. وقد صحق بيان ما لم يُذكَر هاهنا (مرود: ١٠٣، الصافات: ٦٢، الأنعام: ٧٠) إلى قوله: ﴿فَسَيُرُونَ شَرَّ آبَائِهِمْ﴾ قرأ أهل المدينة، وخصم، وحمزة: «شُرْب» بضم الشين؛ والباقون بفتحها. قال الفراء: والعرب تقول: شُرِبْتُهُ شُرْباً، وأكثر أهل نجد يقولون شُرْباً بالفتح، أنشدني عامتهم:

تَكْفِيهِ حَزَّةً فَلَمَّا إِذَا لَمْ يَهَا
مِنَ الشَّوَاءِ وَيَكْفِي شُرْبُهُ الشُّمْرُ^(١)

وزعم الكسائي أن قوماً من بني سعد بن تميم يقولون: «شُرِبَ الهِيم» بالكسر. وقال الزجاج: «الشُّرب» المصدر، و«الشُّرب» بالضم: الاسم، قال: وقد قيل: إنه مصدر أيضاً. وفي «الهيم» قولان: أحدهما: الإبل العطاش، رواه ابن أبي طلحة. والعرقي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقاتدة. قال ابن قتيبة: هي الإبل يُصيبيها داءٌ فلا تَرَوِي من الماء، يقال: بعيرٌ أهيمٌ، وناقَةٌ هيَمَاءٌ. والثاني: أنها الأرض الرَّملة التي لا تَرَوِي من الماء، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً. قال أبو عبيدة: الهيم: ما لا يَرَوِي من زمّل أو بعير.

قوله تعالى: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ﴾ أي: رزقهم. ورواه عباس عن أبي عمرو: «نُزُلُهُم» بسكون الزاي، أي: رزقهم وطعامهم. وفي «الذين» قولان قد ذكرناهما في (الفاتحة).

﴿فَمَنْ حَقَّ لَكُمْ فَتْوَىٰ فَصُدُّوا عَنْكُمْ فَمَا تَعْلَمُونَ﴾ ٥٧ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ٥٨ ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ كُنْتُمْ فَتَىٰ﴾ ٥٩ ﴿فَمَنْ حَقَّ لَكُمْ فَتْوَىٰ فَصُدُّوا عَنْكُمْ﴾ ٦٠ ﴿فَمَنْ حَقَّ لَكُمْ فَتْوَىٰ فَصُدُّوا عَنْكُمْ﴾ ٦١ ﴿فَمَنْ حَقَّ لَكُمْ فَتْوَىٰ فَصُدُّوا عَنْكُمْ﴾ ٦٢

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَقَّ لَكُمْ فَتْوَىٰ فَصُدُّوا عَنْكُمْ﴾ أي: أوجدناكم ولم تكونوا شيئاً، وأنتم تُفَرِّقُونَ بهذا ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهللاً ﴿فَصُدُّوا﴾ بالبعث؟ ثم احتج على بعثهم بالقدرة على ابتدائهم فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ قال الزجاج: أي: ما يكون منكم من المني، يقال: أمنى الرجل يمني، ومنى يمني، فيجوز على هذا «تُمْنُونَ» بفتح التاء إن ثبت به رواية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ كُنْتُمْ فَتَىٰ﴾ أي: تخلقون ما تُمْنون بَشراً؟ وفيه تنبيه على شيئين: أحدهما: الامتنان، إذ خلق من الماء المهيمن بَشراً سويّاً. والثاني: أن من قَدَّر على خَلْق ما شاهدتموه من أصل وجودكم كان أَقْدَرَ على خَلْق ما غاب عنكم من إعادتكم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَقَّ لَكُمْ فَتْوَىٰ فَصُدُّوا عَنْكُمْ﴾ وقرأ ابن كثير: «فَدَرْنَا» بتخفيف الدال. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: قضينا عليكم بالموت. والثاني: سوينا بينكم في الموت ﴿وَمَا تَعْلَمُ بِمَسْبُوتِينَ﴾ ٦٢ ﴿عَلَىٰ أَنْ يُدْرَأَ أَتْلَحَّكُمْ﴾ قال الزجاج: المعنى: إن أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق، ولا يفوتنا ذلك. وقال ابن قتيبة: لسنا مغلوبين على أن نستبدل بكم أمثالكم.

(١) البيت لأعشى باهلة من قصيدته الجيدة التي يرثي بها أخاه المتشرب بن وهب الباهلي ومطلعا:

قد جاء من عل أنبأ أنبوا

إسي لا عجب منها ولا سحر

وهي في «الأصمعيات» ٨٩، و«جمهرة أشعار العرب» ٢٥٤ و«مختارات ابن السجري» ١٩، و«أمالي المرتضى» ١٠٥/٣ وغيرها، والحزة: ما قطع من اللحم طولاً، والفلذ: كيد البعير، والنمر: أصغر الأقداح.

قوله تعالى: ﴿وَتُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَمْلِكُونَ﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: نبذل صفاتكم ونجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم، قاله الحسن. والثاني: ننشئكم في حواصل طير سود تكون بـ «برهوت» كأنها الخطاطيف، قاله سعيد بن المسيب^(١). والثالث: نخلقكم في أي خلق شئنا، قاله مجاهد. والرابع: نخلقكم في سوى خلقكم، قاله السدي. قال مقاتل: نخلقكم سوى خلقكم في ما لا تعلمون من الصور.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ﴾ وهي ابتداء خلقكم من نطفة وعلقة ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فهلاً تتعجبون فتعلموا قدرة الله فتقروا بالبعث.

﴿أَوْرَثَكُمْ مَا حَمَرْتُمْ﴾ ٦٣ ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ٦٤ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَتَلَّكُمْ نَخْلًا لَّكَلِمَةٍ كَتَمْتُمْ﴾ ٦٥ ﴿إِنَّا لَمَعْرُوفُونَ﴾ ٦٦ ﴿بَلْ نَحْنُ حَمْرُومٌ﴾ ٦٧ ﴿أَوْرَثْنَاهُ الْمَاءَ الْيَسْبَغَ فَتَسْتَمُونَ﴾ ٦٨ ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ ٦٩ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَسْبَابًا فَلَوَلَا تَشْكُرُونَ﴾ ٧٠ ﴿أَوْرَثْنَاهُ النَّارَ آلِي تَوْرُونَ﴾ ٧١ ﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتًا أَرْتُمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ ٧٢ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَنَسِّيًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٧٣ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْقَوِيمِ﴾ ٧٤

﴿أَوْرَثَكُمْ مَا حَمَرْتُمْ﴾ ٦٣: أي: ما تعملون في الأرض من إنارتها، وإلقاء البذور فيها، ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أي: تبتنونه؟! وقد بئ هذا الكلام على أشياء منها إحياء الموتى، ومنها الامتنان بإخراج الفوت، ومنها القدرة العظيمة الدالة على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَاهُ﴾ يعني الزرع ﴿حُطَبًا﴾ قال عطاء: تبناً لا قمح فيه. وقال الزجاج: أبطلناه حتى يكون محتطماً لا حنطة فيه، ولا شيء.

قوله تعالى: ﴿فَطَلَّكُمْ﴾ وقرأ الشعبي، وأبو العالية، وابن أبي عبيدة؛ ﴿فَطَلَّكُمْ﴾ بكسر الظاء؛ وقد بيناه في قوله: ﴿طَلَّكَ عَلَيْهِمْ قَارِعًا﴾ [طه: ٢٤٧].

قوله تعالى: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وابن السميع، والقاسم بن محمد، وعروة: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ بالنون. وفي المعنى أربعة أقوال: أحدها: تتعجبون، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، ومقاتل. قال الفراء: تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم. والثاني: تتذمون، قاله الحسن، والزجاج. وعن قتادة كالقولين. قال ابن قتيبة: يقال: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: تتذمون، ومثلها: تَفَكَّهُونَ، وهي لغة لكُلِّي. والثالث: تتلامون، قاله عكرمة. والرابع: تتضجعون، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَعْرُوفُونَ﴾ ٦٥: قال الزجاج: أي: تقولون: قد حُرِّمْنَا وذهب زرعنا. وقال ابن قتيبة: ﴿لَمَعْرُومُونَ﴾ أي: لَمَعْدُونُونَ^(٢).

قوله تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ حَمْرُومٌ﴾ ٦٧: أي: حُرِّمْنَا ما كُنَّا نطلبه من الرِّيح في الزرع. وقد نبه بهذا على أمرين: أحدهما: إنعامه عليهم إذ لم يجعل زرعهم حطاماً. والثاني: قدرته على إهلاكهم كما قدر على إهلاك الزرع. فأما المُنزَن، فهي السحاب، وأحدها: مُزْنَةٌ. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿تَوْرُونَ﴾ قال أبو عبيدة: تستخرجون، من أَوْرَيْتَ، وأكثر ما يقال: وَرَيْتَ. وقال ابن قتيبة؛ التي تستخرجون من الزُّنود. قال الزجاج: «تورون»: أي: تقدحون، تقول: أوريْتُ النارَ إذا قدحتها.

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتًا﴾ في المراد بشجرتها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الحديد، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها الشجرة التي تتخذ منها الزُّنود، وهو خشب يُحَكُّ بعضه ببعض فتخرج منه النار، هذا قول ابن قتيبة، والزجاج. والثالث: أن شجرتها: أصلها، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا﴾ قال المفسرون: إذا رآها الرائي ذكر نار جهنم، وما يخاف من عذابها، فاستجار بالله منها ﴿وَمَتَّعًا﴾ أي: منفعة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفيهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم المسافرون، قاله ابن عباس،

(١) برهوت: واد باليمن، وقد روي أن أرواح الكفار تجتمع فيه، وأن أرواح المؤمنين بالجافية من أرض الشام، ولكن لا دليل عليه من الكتاب والسنة الصحيحة، ولعل ذلك من الإسرائيليات.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصراب قول من قال: معناه: إننا لمعدبون، وذلك أن الغرام عند العرب: العذاب.

وقتادة، والضحاك. قال ابن قتيبة: سماوا بذلك لنزلهم القوي، وهو القفر. وقال بعض العلماء: المسافرون أكثر حاجة إليها من المقيمين، لأنهم إذا أوقدوها هربت منهم السباع واهتدى بهم الضال. والثاني: أنهم المسافرون والحاضرون، قاله مجاهد. والثالث: أنهم الجائعون، قال ابن زيد: المقوي: الجائع في كلام العرب. والرابع: أنهم الذين لا زاد معهم ولا مرد لهم، قاله أبو عبيدة^(١).

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ اللَّيْلُ نَظِيرًا﴾ قال الزجاج: لما ذكر ما يدل على توجيده، وقدرته، وإنعامه، قال: «فسبح» أي: برّ الله ونزّهه عما يقولون في وصفه. وقال الضحاك: معناه: فصل باسم ربك، أي: استفتح الصلاة بالتكبير. وقال ابن جرير: سبح بذكر ربك وتسميته. وقيل: الباء زائدة. والاسم يكون بمعنى الذات، والمعنى: فسبح ربك.

﴿فَلَا أُنسِئُ بِمَرْجِعِ الْجَبْرِ﴾ وَإِنَّ لِقَاسِرٍ أَوْ تَلْمُؤُونَ عَظِيمًا ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ لِقَوْمٍ كَرِيمٍ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْتُوبٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَثُوهُونَ ﴿٨١﴾ وَتَحْمِلُونَ رِزْقَكُمْ أَنكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٨٢﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَا أُنسِئُ﴾ في «لا» قولان: أحدهما: أنها دخلت توكيداً. والمعنى: فأقسم، ومثله ﴿إِنَّمَا يَمَسُّهُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحشر: ٢٢٩] قال الزجاج: وهو مذهب سعيد بن جبيرة. والثاني: أنها على أصلها. ثم في معناها قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى ما تقدم، ومعناها: النهي، تقدير الكلام: فلا تكذبوا، ولا تجحدوا ما ذكرته من النعم والجنح، قاله الماوردي. والثاني: أن^(٢) «لا» رد لما يقوله الكفار في القرآن: إنه سحر، وشعر، وكهانة. ثم استأنف القسم على أنه قرآن كريم، قاله علي بن أحمد النيسابوري: وقرأ الحسن: فلا قسم بغير ألف بين اللام والهمزة.

قوله تعالى: ﴿بِمَرْجِعٍ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: «بموقع» على التوحيد. قال أبو علي: مواقعها: مساقطها. ومن أفرد، فلأنه اسم جنس. ومن جمّع، فلاختلاف ذلك. وفي «النجوم» قولان: أحدهما: نجوم السماء، قاله الأكثرون. فعلى هذا في مواقعها ثلاثة أقوال: أحدها: انكدارها وانتشارها يوم القيامة، قاله الحسن. والثاني: منازلها، قاله عطاء وقتادة. والثالث: بمغيبها في المغرب، قاله أبو عبيدة. والثاني: أنها نجوم القرآن، رواه ابن جبيرة عن ابن عباس. فعلى هذا سميت نجوماً لنزولها متفرقة، ومواقعها: نزولها ﴿وَإِنَّ لِقَاسِرٍ﴾ الهاء كناية عن القسم. وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: وإنه لقسم عظيم لو تعلمون عظّمه. ثم ذكر المقسم عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لِقَوْمٍ كَرِيمٍ﴾ والكريم: اسم جامع لما يحمد، وذلك أن فيه البيان، والهدى، والحكمة، وهو مُعْظَمٌ عند الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس. والثاني: أنه المصحف الذي بأيدينا، قاله مجاهد، وقتادة. وفي «المكتون» قولان: أحدهما: مستور عن الخلق، قاله مقاتل، وهذا على القول الأول. والثاني: مصون، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من قال: إنه اللوح المحفوظ. فالمطهرون عنده: الملائكة، وهذا قول ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة. فعلى هذا يكون الكلام خبيراً. ومن قال: هو المصحف، ففي المطهرين أربعة أقوال: أحدها: أنهم المطهرون من الأحداث، قاله الجمهور. فيكون ظاهر الكلام النفي، ومعناه النهي. والثاني: المطهرون من الشرك، قاله ابن السائب. والثالث: المطهرون من الذنوب والخطايا، قاله الربيع بن أنس. والرابع: أن معنى الكلام: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به، حكاه الفراء^(٣).

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: عُني بذلك المسافر الذي لا زاد معه ولا شيء له، وأصله من قولهم: أقوت الدار: إذا خليت من أهلها وسكانها. اهـ.

(٢) في الأصل: أنه.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه أخبر أنه لا يمس الكتاب المكتون إلا المطهرون، فعم بغيره المطهرين، ولم يخص بعضاً دون بعض، قال: فالملائكة من المطهرين، والرسول والأنبياء من المطهرين، قال: وكل من كان مطهراً من الذنوب، فهو ممن استثنى، وعني بقوله: ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ اهـ.

قال ابن كثير: وقال آخرون: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي من الجنابة والحدث، قالوا: ولفظ الآية خبر، ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن =

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ أي: هو تنزيل. والمعنى: هو منزل، فسمي المنزل تنزيلاً في اتساع اللغة، كما تقول للمقدور: قدر، وللمخلوق: خلق.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يعني: القرآن ﴿أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: مكذبون، قاله ابن عباس، والضحاك، والفراء. والثاني: مائلون الكفار على الكفر به، قاله مجاهد. قال أبو عبيدة: المدهن: المدهان، وكذلك قال ابن قتيبة: «مدهنون» أي: مدهنون. يقال: أدهن في دينه، وداهن ﴿وَيَحْتَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾^(١) روى مسلم في «صحيحه»^(٢) من حديث ابن عباس قال: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكراً، ومنهم كافر». قالوا: هذه رحمة وضعها الله حيث شاء. وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، وكذا، فنزلت هذه الآية ﴿فَلَا أُتِيسَرُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ حتى بلغ ﴿أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾. وروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث زيد بن خالد الجهني، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة بالحديبية على إثر سماء^(٣) كانت من الليل. فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأما المؤمن فقال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، كافر بالكواكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»^(٤). وللمفسرين في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن الرزق هاهنا بمعنى الشكر. روت عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿وَيَحْتَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ قال: «شكركم»^(٥)، وهذا قول علي بن أبي طالب، وابن عباس. وكان علي يقرأ «وتجعلون شكركم»^(٦). والثاني: أن المعنى: وتجعلون شكر رزقكم تكذيبكم، قاله الأكثرون. وذلك أنهم كانوا يمتطرون، فيقولون: مطرنا بنوء كذا. والثالث: أن الرزق بمعنى الحظ. فالمعنى: وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، ذكره الثعلبي. وقرأ أبي بن كعب، والمفضل عن عاصم «تَكْذِبُونَ» بفتح التاء، وإسكان الكاف، مخففةً الذال.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُكُمُ ﴿١٧﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُنظَرُونَ ﴿١٨﴾ وَخَسِرَ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَكِنْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَرَفْتُمْ مَبِئَاتَ ﴿٢٠﴾ تَرْجُومَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٢٢﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَبِييٌ ﴿٢٣﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢٤﴾ فَسَلَّوْا لَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢٥﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ إِنْ هَذَا إِلَّا مَوْحٌ مِنْ السَّمَاءِ ﴿٢٦﴾ فَسَيَّجُوا بِرَأْسِهِمُ السَّمَاءَ كَالسَّمَاءَ الْوَعْدِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلاً ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُكُمُ﴾ يعني: النَّفْس، فترك ذكرها لدلالة الكلام، وأنشدوا من ذلك: إِذَا حَشَرَ جَنَّتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصُّنْدُ^(٧)

ها هنا: المصحف، كما روى مسلم في «صحيحه» عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو، واحتجوا في ذلك بما رواه الإمام مالك في «موطئه» عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهر، قال: وروى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمس القرآن إلا طاهر» اهـ. قلت: وقد روي الحديث موصولاً عن كثير من الصحابة، وهو صحيح بمجموع طرقه اهـ.

(١) ٨٤، ٨٣/١ (٢) إثر وأثر، لغتان مشهورتان، أي بعد المطر، والسماء: المطر.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» ٤٣٤/٢، ومسلم ٨٤/١ واللفظ للبخاري. قال أبو عمرو بن الصلاح: النوء في أصله ليس هو نفس الكوكب، فإنه مصدر تاء يتوء، أي: سقط وغاب، وقيل: أي نهض وطلع. اهـ.

(٤) لم تقف على هذا الحديث من طريق عائشة وإنما هو من طريق علي ﷺ عن النبي ﷺ كما رواه الطبري ٢٧/٢٠٧ وفي سننه عبد الأعلى بن عامر الثعلبي وهو ضعيف، ورواه أحمد أيضاً ٧٧/٢ من حديث عبد الأعلى عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن النبي ﷺ قال: ﴿وَيَحْتَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾^(٨) قال: «شكركم (وفي «السنن» شكركم وهو خطأ). مطرنا بنوء كذا وكذا: بنجم كذا وكذا.

وروى ابن جرير في «تفسيره» ٢٧/٢٠٨ بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: ما مطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا وقرأ ابن عباس «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون».

(٥) أخرجه ابن جرير ٢٧/٢٠٨ عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: كان علي ﷺ يقرأ «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» وفي سننه عبد الأعلى الثعلبي، وقد حمل بعض الشراح هذه القراءة على التفسير، من غير قصد للتلاوة.

(٦) البيت لحاتم الطائي، «ديوانه» ٥٠ وصدوره:

أماوي ما ينسني الشراء من النفسى

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ﴾ يعني أهل الميت ﴿تَنْظُرُونَ﴾ إلى سلطان الله وأمره. والثاني: تنظرون إلى الإنسان في تلك الحالة، ولا تملكون له شيئاً ﴿وَكُنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: ملك الموت أدنى إليه من أهله ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ الملائكة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: ونحن أقرب إليه منكم بالعلم والقدرة والرؤية ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: لا تعلمون، والخطاب للكفار، ذكره الواحدي.

قوله تعالى: ﴿عَيْرَ مَدِينٍ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: محاسبين، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وابن جبير، وعطاء، وعكرمة. والثاني: موقنين، قاله مجاهد. والثالث: مبعوثين، قاله قتادة. والرابع: مجزيين. ومنه يقال: دنته، وكما تدن تدان، قاله أبو عبيدة. والخامس: مملوكين أذلاء من قولك: دنت له بالطاعة، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿تَرْجُؤُنَا﴾ أي: تردون النفس. والمعنى: إن جحدتم الإله الذي يحاسبكم ويجازيكم، فهلأ تردون هذه النفس؟! فإذا لم يمكنكم ذلك، فاعلموا أن الأمر لغيركم. قال الفراء: وقوله تعالى: ﴿تَرْجُؤُنَا﴾ هو جواب لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُوكُمُ﴾ (١٨١) ولقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينٍ﴾ (١٨٢) فإنهما أجيبتا بجواب واحد. ومثله قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا حُوفَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ثم ذكر طبقات الخلق عند الموت فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ يعني: الذي بلغت نفسه الحلقوم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عند الله. قال أبو العالية؛ هم السابقون ﴿فَرُوحٌ﴾ أي: قلُّ رُوح. والجمهور يفتحون الراء. وفي معناها ستة أقوال: أحدها: الفرح، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: الراحة، رواه أبو طلحة عن ابن عباس. والثالث: المغفرة والرحمة، رواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: الجنة، قاله مجاهد. والخامس: رُوح من الغم الذي كانوا فيه، قاله محمد بن كعب. والسادس: رُوح في القبر، أي: طيب نسيم، قاله ابن قتيبة^(١). وقرأ أبو بكر الصديق، وأبو رزين، والحسن، وعكرمة، وابن يعمر، وقاتدة، ورويس عن يعقوب، وابن أبي سريج عن الكسائي: «فَرُوحٌ» برفع الراء. وفي معنى هذه القراءة قولان: أحدهما: أن معناها: فرحة، قاله قتادة. والثاني: فحياة وبقاء، قاله ابن قتيبة. وقال الزجاج: معناها: فحياة دائمة لا موت معها. وفي «الريحان» أربعة أقوال: أحدها: أنه الرزق، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: أنه المستراح، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنه الجنة، قاله مجاهد، وقاتدة. والرابع: أنه الريحان المشموم. وقال أبو العالية: لا يخرج أحد من المقربين من الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة، فيشمه، ثم تقبض فيه روحه، وإلى نحو هذا ذهب الحسن، وقال أبو عمران الجوني: بلغنا أن المؤمن إذا قبض روحه تلقى بضاير^(٢) الريحان من الجنة، فتجعل روحه فيه.

قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ اللَّهُ مِنْ أَحْسَبِ الْآيِينَ﴾ (١٨٣) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فسلامة لك من العذاب، قاله أبو صالح

والحشرجة: الفرغة عند الموت، وتردد النفس، وهو في «أمالى المرتضى» ٦٣/٤، و«العمدة» ٢٦٣/٢، و«مجموعه المعاني» ٣١، و«العقد الفريد»

١/٣٣٦، و«أمالى ابن السجري» ١/٥٠.

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: عنى بالرُوح: الفرح والرحمة والمغفرة، وأصله من قولهم: وجدت رُوحاً: إذا وجد نسيماً يستروح إليه من كرب الحر. وروى الإمام أحمد في «المسند» عن أم هانئ أنها سألت رسول الله ﷺ: أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضاً؟ فقال رسول الله ﷺ: سيكون النسيم طيراً يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها، وفي سننه ابن لهيعة، قال ابن كثير: هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن. ومعنى يعلق: يأكل، ويشهد لهذا الحديث بالصحة ما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، عن الإمام مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» قال: وهذا إسناد عظيم ومتن قوم، قال: وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في رياض الجنة حيث شامت ثم تأتي إلى فتاديل معلقة بالمرش...» الحديث. اهـ. وروى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاءه كره الله لقاءه» فقالت عائشة أو بعض أزواجه ﷺ: إنا نكره الموت، قال: «ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاءه الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وحقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاءه الله وكره الله لقاءه».

(٢) الضباير - كما في «اللسان» - الجماعات في تفرقة، وفي الحديث: أتته الملائكة بحريرة فيها مسك، ومن ضباير الريحان. قلت: أخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» عن أبي عمران الجوني في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَرُوحٌ رِيحًا﴾ قال: بلغني أن المؤمن إذا نزل به الموت يلقى بضاير الريحان من الجنة فتجعل روحه فيها. انظر «الدر المنثور» ٦/١٦٧.

عن ابن عباس . والثاني: تسلّم عليه الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين، قاله عطاء . والثالث: أن المعنى: أنك ترى فيهم ما تحب من السلامة . وقد علمت ما أعدّ لهم من الجزاء، قاله الزجاج .
قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْفِرِينَ﴾ أي: بالبعث ﴿الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى ﴿فَنَزَّلْنَا﴾ وقد بيّناه في هذه السورة [الواقعة: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني ما ذكر في هذه السورة ﴿لَمَوْحٌ حَقٌّ الْيَقِينِ﴾ أي: هو اليقين حقاً، فأضافه إلى نفسه، كقولك: صلاة الأولى، وصلاة العصر، ومثله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقد سبق هذا المعنى . وقال قوم: معناه: وإنه للمتقين حقاً . وقيل للحق: اليقين .
قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قد ذكرناه في هذه السورة [الواقعة: ٤٤] ^(١) .



(١) روى الإمام أحمد عن عقبه بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْكَلِيمِ﴾ قال: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» ورواه أيضاً أبو داود وابن ماجه . وإسناده صحيح . وروى البخاري في آخر «صحيحه» عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» .

سورة الحديد

وفيه قولان: أحدهما: أنها مدنية، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وجابر بن زيد، وقادة، ومقاتل. والثاني: أنها مكية، قاله ابن السائب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الْإِسْمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّكِيمُ﴾ ① لَمْ تَلِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بِحَيْثُ وَوَسِيَّتٌ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ يَكِلُ شَيْءٌ عَالِمٌ ③ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَغْلِبُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَمْ تَلِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَلِئَلَّ اللَّهُ تَرْتِيبُ الْأُمُورِ ⑤ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑥

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أما تسييح ما يعقل، فمعلوم، وتسييح ما لا يعقل، قد ذكرنا معناه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ قال أبو سليمان الخطابي: هو السابق للأشياء ﴿وَالْآخِرُ﴾ الباقي بعد فناء الخلق ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ بحججه الباهرة، وبراهينه الثيرة، وشواهده الدالة على صحته وحدانيته. ويكون: الظاهر فوق كل شيء بقدرته. وقد يكون الظهور بمعنى العلو، ويكون بمعنى الغلبة. والباطن: هو المحتجب عن أبصار الخلق الذي لا يستولي عليه توهم الكيفية. وقد يكون معنى الظهور والبطون: احتجابه عن أبصار الناظرين، وتجليه لبصائر المتفكرين. ويكون معناه: العالم بما ظهر من الأمور، والمطلع على ما بطن من الغيوب ① ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مفسر في [الأعراف: ٥٤] إلى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو مفسر في [سبا: ٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: بعلمه وقدرته ②. وما بعده ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿أَمْسُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال المفسرون: هذا الخطاب لكفار قريش ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَلِّطِينَ فِيهِ﴾ يعني: المال الذي كان بأيدي غيرهم، فأهلكهم الله، وأعطى قريشاً ذلك المال، فكانوا فيه خلفاء من مضي.

﴿أَمْسُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَلِّطِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا مِنْكُمْ كَثِيرٌ ⑦ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ⑧ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ عَلَى عَبْدِهِ مَائِدَةً يَنْتَظِرُ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

(١) قال ابن كثير: وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعه عشر قولاً، وقال البخاري: قال يحيى: (يريد به يحيى بن زياد الفراء صاحب معاني القرآن) الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً. اهـ. وروى مسلم في [صحيحه] ٢٠٨٤/٤ عن سهيل بن أبي صالح قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحد أن ينم أن يضغط على شقه الأيمن ثم يقول: «اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أوردك من شئ كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر» قال: وكان (يعني أبا صالح) يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ يقول: وهو شاهد لكم أيها الناس، أينما كنتم يعلمكم ويعلم أعمالكم ومقاليكم ومثاقمكم، وهو على عرشه فوق سماواته السبع، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول: والله بأعمالكم التي تعملونها من حسن وسيئ، وطاعة ومعصية، ذو بصير، وهو لها محصن، ليجازي المحسن منكم بإحسانه، والسيئ بإساءته. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي وقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر في ليل أو نهار، في البيوت أو في القفار، الجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يُلْقُونَ سُودُورَهُمْ لِتَسْمَعُوا مِنْهُ آلا جِنَّ يَسْتَنْشِقُونَ بُيُوتَهُمْ يَعْلمُ مَا يُبْرُونَ وَمَا يَكْتُمُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ يَنْكُرُ مِنْ أُنْتَرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ⑧ فلا إله غيره ولا رب سواه. قال: وقد ثبت في [الصحيح] أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان: «إن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». اهـ.

النُّورَ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُرْهُوَتِ رَبِّهِ ﴿١١﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَكَانَ أُوتِيَهُكَ عَظِيمٌ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَفَلُوا وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُسْتَقِيمِينَ ﴿١٢﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ كَرِيمًا ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ هذا استفهام إنكار، والمعنى: أي شيء لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا بالله ﴿وَقَدْ أَخَذَ يَشْفَقُكُمْ﴾؟ قرأ أبو عمرو «أخذ» بالرفع. وقرأ الباقون «أخذ» بفتح الخاء ﴿يَشْفَقُكُمْ﴾ بالفتح. والمراد به: حين أخرجتم من ظهر آدم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالحجج والدلائل.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكَ عَلَى عَيْدِهِ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿وَإِنِّي بَيْنَتِي﴾ يعني: القرآن ﴿لِيُخَيِّرَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني الشرك ﴿إِنَّ﴾ نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُرْهُوَتِ رَبِّهِ﴾ حين بعث الرسول ونصب الأدلة. ثم حثهم على الإنفاق فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ أي: أي شيء لكم في ترك الإنفاق مما يقرب إلى الله ﷻ وأنتم ميتون تاركون أموالكم؟! ثم بين فضل من سبق بالإنفاق فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه فتح مكة، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنه فتح الحديبية، قاله الشعبي. والمعنى: لا يستوي من أنفق قبل ذلك ﴿وَكُنْتُمْ﴾ ومن فعل ذلك بعد الفتح^(١). قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق^(٢). ﴿أُوتِيَهُكَ عَظِيمٌ دَرَجَةً﴾ قال ابن عباس: أعظم منزلة عند الله. قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها. قال الزجاج: لأن المتقدمين كانت بصائرهم أنفذ، ونالهم من المشقة أكثر ﴿وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُسْتَقِيمِينَ﴾ أي: وكلا الفريقين وعده الله الجنة. وقرأ ابن عامر «وَكُلُّ» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر «فَيُضْعِفُهُ» مشددة بغير ألف، إلا أن ابن كثير يضم الفاء، وابن عامر يفتحها. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي «فِيضَاعُهُ» بالألف وضم الفاء، واقفهم عاصم، إلا أنه فتح الفاء. قال أبو علي: يضاعف ويضعف بمعنى واحد، إلا أن الرفع في «يضاعف» هو الوجه، لأنه محمول على «يقترض» أو على الانقطاع من الأول، كأنه [قال: فهو يضاعف. ويحمل قول الذي نصب على المعنى، لأنه إذا قال: من ذا الذي يقترض الله، معناه: يقترض الله أحد قرضاً يضاعفه. والآية مفسرة في البقرة: ٢٤٥ والأجر الكريم: الجنة^(٣).

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْبِهِمْ بِشْرِكُهُمَ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لِيَلْبِغُنَّ عَلَيْنَا أَنْظُرْنَا بِرَأْسِنَا أَمْ يَكْفُرُونَ أَنَّا بِأَبْنَاءٍ لَكُمْ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ فَقُولُوا إِنَّا هُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَهُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ لِيُضَعِفَنَّكُمْ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّقُونَ

(١) أي: لا يستوي هذا ولم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح، فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ودخل الناس في دين الله أفواجا، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوتِيَهُكَ عَظِيمٌ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَفَلُوا وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُسْتَقِيمِينَ﴾ والمراد بالفتح هاهنا: فتح مكة، وعن الشعبي وغيره: أن المراد بالفتح هاهنا: صلح الحديبية.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣٠٣ عن محمد بن فضال بن غزوان عن الكلبي، والكلبي منهم بالكذب، ورواه الواحدي بسنده عن ابن عمر، وفي سننه ضعف. وذكره ابن كثير وقال: هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه. اهـ. ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أب بكر ﷺ له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ﷻ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها.

(٣) قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال. قال ابن كثير: والصحيح أنه أهم من ذلك، تكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَكُمْ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ثُمَّ آتَاكَ حَكِيمًا﴾ وله أجر كريم أي: جزاء جميل، ورزق باهر، وفي الجنة يوم القيامة. اهـ. وقال الألويسي: القرض الحسن: الإنفاق بالإخلاص، وتحري أكرم المال وأفضل الجهات قال: وذكر بعضهم أن القرض الحسن: ما يجمع عشر صفات: أن يكون من الحلال، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وأن يكون من أكرم ما يملكه المرء، وأن يكون والمرء صحيح شحيح يأمل العيش ويخشى الفقر، وأن يضعه في الأحوج الأولى، وأن يكتم ذلك، وألا يتبعه باليمن والأذى، وأن يقصد به وجه الله تعالى، وأن يستحقر ما يعطي وإن كثر، وأن يكون من أحب أمواله إليه، وأن يتوخى في إيصاله للفقير ما هو أمر لديه من الوجوه كحمله إلى بيته، قال: ولا يخفى أنه يمكن الزيادة والنقص فيما ذكر. اهـ.

اللَّهُ وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْمَرْوُ ﴿١٤﴾ فَأَلَيْمٌ لَا يُؤَخِّدُ بَيْنَكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَثُرُوا مَاؤُنْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسِّرُ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَسِّرُ قُرُومٌ﴾ قال المفسرون: يضيء لهم نور عملهم على الصراط على قدر أعمالهم. قال ابن مسعود: منهم من نوره مثل الجبل، وأدناهم نوراً نوره على إبهامه يطفى مرة، ويتقد أخرى. وفي قوله تعالى: ﴿وَيُسِّرُ﴾ قولان: أحدهما: أنه كتبهم يعظونها بأيمانهم، قاله الضحاك. والثاني: أنه نورهم يسعى، أي: يمضي بين أيديهم، وعن إيمانهم، وعن شمائلهم. والباء بمعنى: «في». و«في» بمعنى «عن»، هذا قول الفراء. قوله تعالى: ﴿يُسِّرُكُمْ إِلَيْمٌ﴾ هذا قول الملائكة لهم.

قوله تعالى: ﴿انظرونا تقيس﴾ وقرأ حمزة: «انظرونا» بقطع الهمزة، وفتحها، وكسر الظاء. قال المفسرون: يغشى الناس يوم القيامة ظلمة شديدة، فيعطى المؤمنون النور، فيمشي المنافقون في نور المؤمنين، فإذا سبقهم المؤمنون قالوا: انظرونا نقتبس من نوركم ﴿وَيَلْ أَرْجِعُوا رَدَّةً﴾ في القائل قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون، قاله ابن عباس. والثاني: الملائكة، قاله مقاتل. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: ارجعوا إلى المكان الذي قبستم فيه النور، فيرجعون، فلا يرون شيئاً. والثاني: ارجعوا فاعملوا عملاً يجعله الله لكم نوراً. والثالث: أن المعنى: لا نور لكم عندنا. ﴿فَقَسْرَبَ بَيْنَهُمْ سُورٌ﴾ قال ابن عباس: هو الأعراف، وهو سورٌ بين الجنة والنار ﴿بَابِلُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ وهي: الجنة ﴿وَوَظَاهِرُهُ﴾ يعني: من وراء السور ﴿وَمِنْ فِيهِ أَلْعَابُ﴾ وهو جهنم. وقد ذهب قوم إلى أن هذا السور يكون بيت المقدس في مكان السور الشرقي بين الوادي الذي يسمى: وادي جهنم، وبين الباب الذي يسمى: باب الرحمة، وإلى نحو هذا ذهب عبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو، وكعب^(١).

قوله تعالى: ﴿يَأْتُواكُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين من وراء السور: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي: على دينكم نصلي بصلاتكم، ونغزو معكم! فيقول لهم المؤمنون: ﴿بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنَّا أَنْتُمْ﴾ قال الزجاج: استعملتموها في الفتنة. وقال غيره: آتمتموها بالنفاق ﴿وَفَرَّسْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: ترصمت بالتوبة. والثاني: ترصمت بمحمد الموت، وقلتم: يوشك أن يموت فنستريح ﴿وَأَرَبَّيْتُمْ﴾ شككتهم في الحق ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانَةَ﴾ يعني: ما كانوا يتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه الموت. والثاني: إلقاؤهم في النار ﴿وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْمَرْوُ﴾ أي: غرکم الشيطان بحكم الله وإمهاله. ﴿فَأَلَيْمٌ لَا يُؤَخِّدُ بَيْنَكُمْ فِدْيَةً﴾ وقرأ أبو جعفر، وابن عامر، ويعقوب «لا تؤخذ» بالياء، أي: بدل وعوض عن عذابكم. وهذا خطاب للمنافقين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَنْ الَّذِينَ كَثُرُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَانَكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: أي: أولى بكم. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَ قُلُوبُهُمْ لِلرَّحْمَةِ الَّتِي لَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ آوَوْا إِلَى الْكُفَّابِ مِنْ قَبْلُ فَلَا تَحْتَمِلُهُمُ الْأَمْنُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكِبْرُ مِنْهُمْ فَنَسُوا ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في المؤمنين. قال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا، وبين أن عوتبتنا بهذه الآية إلا أربع سنين^(٢)، فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً. والثاني: أنها نزلت في المنافقين، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(٣). قال مقاتل: سأل المنافقون سلمان الفارسي فقالوا:

(١) قال ابن كثير: وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى، ومثلاً لذلك، لا أن هذا هو الذي أريد من القرآن هذا الجدار الميّن ونفس المسجد وما وراءه من الوادي المعروف بـ«وادي جهنم» فإن الجنة في السموات في أعلى عِلين، والنار في الدركات أسفل سافلين، قال: وقول كعب الأحبار: إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الذي هو أحد أبواب المسجد، فهذا من إسرائيليات وتزواته، وإنما المراد بذلك: سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من وراءه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة. اهـ.

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» ٢٣١٩/٤ عن عبد الله بن مسعود، ورواه أيضاً النسائي وابن ماجه، وذكره السيوطي في «الدر» ١٧٥/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود.

(٣) هذا غير صحيح، لأن الآية صريحة في الذين آمنوا.

حَدَّثَنَا عَنْ التَّوْرَةِ، فَإِنَّ فِيهَا الْعَجَائِبَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (١). وقال الزجاج: نزلت هذه الآية في طائفة من المؤمنين حُتُوا على الرِّقَّةِ والخشوع. فأما من كان وصفه الله ﷻ بالخشوع، والرِّقَّةُ، فطبقة من المؤمنين فوق هؤلاء. فعلى الأول: يكون الإيمان حقيقة. وعلى الثاني: يكون المعنى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالسُّتْمِ. قال ابن قتيبة: المعنى: ألم يحن، تقول: أنى الشيء: إذا حان.

قوله تعالى: ﴿أَنْ فَتَحَ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: تَرَقَّى وتلين لذكر الله (٢). المعنى: أنه يجب أن يورثهم الذُّكر خشوعاً ﴿وَمَا نَزَلَ مِنْ كَلِمَةٍ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي «وما نُزِّلَ» بفتح النون، والزاي، مع تشديد الزاي. وقرأ نافع، وحفص، والمفضل عن عاصم «نزل» بفتح النون، وتخفيف الزاي. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو العالية، وابن يعمر، ويونس بن حبيب عن أبي عمرو، وأبان عن عاصم «نُزِّلَ» برفع النون، وكسر الزاي، مع تشديدها. وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء «وما أنزل» بهمزة مفتوحة، وفتح الزاي. وقرأ أبو مجلز، وعمرو بن دينار مثله، إلا أنه بضم الهمزة، وكسر الزاي. و«الحق» القرآن، ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ قرأ رويس عن يعقوب «لا تكونوا» بالثاء ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني: اليهود، والنصارى، ﴿فَلَا عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ﴾ وهو: الزمان. وقال ابن قتيبة: الأمد: الغاية. والمعنى: أنه بعد عهدهم بالأنبياء والصالحين ﴿فَقَسَتْ قُلُوبَهُمْ وَكَبُرَتْ بَنِينَ فَيُفُوتُ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا بعبسى ومحمد ﷺ (٣) ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمِي الْأَرْضَ بَدَدَ مَوْجٍ﴾ أي: يخرج منها النبات بعد يسها، فكذلك يقدر على إحياء الأموات (٤) ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾، أي: لكي تتأملوا.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُؤْتَفِقِينَ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَابَةً حَسَنًا يُنْعَمُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (٥) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّاهِدُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٦) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُؤْتَفِقِينَ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم إلا حفصاً بتخفيف الصاد فيهما على معنى التصديق وقرأ الباقون، بالتشديد على معنى الصدقة (٥).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّاهِدُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اختلفوا في نظم الآية على قولين: أحدهما: أن تمام الكلام عند قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ثم ابتداء فقال تعالى: ﴿وَالشَّاهِدُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ هذا قول ابن عباس، ومسروق، والفراء في آخرين. والثاني: أنها على نظمها. والواو في «والشهداء» واو النسق. ثم في معناها قولان: أحدهما: أن كل مؤمن صديق شهيد، قاله ابن مسعود، ومجاهد. والثاني: أنها نزلت في قوم مخصوصين، وهم ثمانية نفر سبقوا إلى

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣٣ عن الكلبي ومقاتل بغير سند، وكذلك ذكره البقوي، والصحيح الأول كما جاء في «صحيح مسلم» وغيره عن ابن مسعود.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: أما أن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله والموعظة وسماع القرآن فتضهم وتتقاد له وتسمع له وتطيعه. اهـ. وقال الألوسي: المعنى: ألم يأن لهم أن ترق قلوبهم لأجل ذكر الله تعالى وكتابه الحق النازل فيسارعوا إلى الطاعة على أكمل وجوهاها! اهـ.

(٣) قال ابن كثير: نهى الله تعالى المؤمنين أن يشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بللوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به شيئاً قليلاً وبنذروه وراء ظهورهم وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المتفككة وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا آحبارهم ورجبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكرب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجيدة الهامة بالغيث الهتان الرباب، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مغلقة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فقال، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال. اهـ.

(٥) قال ابن جرير الطبري: قرأته عامة قراء الأصحاب خلا ابن كثير وعاصم بتشديد الصاد والدال، بمعنى: إن المتصدقين والمتصدقات، قال: ثم تلغم التاء في الصاد فتجعلها صاداً مشددة، كما قيل: ﴿بِأَيِّ آيَاتِنَا﴾ يعني: المتزمل: قال: وقرأ ابن كثير وعاصم: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُؤْتَفِقِينَ﴾ بتخفيف الصاد وتشديد الدال، بمعنى: إن اللين صدقوا الله ورسوله. قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان صحيح معنى كل واحدة منهما، فبأيهما قرأ القارئ فمصيب. قال: فتأويل الكلام إذن على قراءة من قرأ ذلك بالتشديد في الحرفين أعني في الصاد والدال: إن المتصدقين من أموالهم والمتصدقات ﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَابَةً حَسَنًا﴾ بالنفقة في سبيله، وفيما أمر بالنفقة فيه، أو فيما ندب إليه ﴿يُنْعَمُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ﴾ يقول: يضاعف الله لهم قروضهم التي أقرضوها إياه، فيوفيهم ثوابها يوم القيامة ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يقول: ولهم ثواب من الله على صدقهم وقروضهم إياه كريم، وذلك الجنة. اهـ.

الإسلام: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وحزمة بن عبد المطلب، وطلحة، والزبير، وسعد، وزيد، قاله الضحاك. وفي الشهداء قولان: أحدهما: أنه جمع شاهد. ثم فيهم قولان: أحدهما: أنهم الأنبياء خاصة، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم الشاهدون عند ربهم على أنفسهم بالإيمان لله، قاله مجاهد. والقول الثاني: أنه جمع شهيد، قاله الضحاك، ومقاتل.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَمِيزَةٌ وَلَمَوْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَذَلِكِ عَيْتِ أَجْبَ الْكُفَّارِ بِنَاءِهِ ثُمَّ يَجْعَلُ فَرِيضَةً مُصَفَّرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ ﴿٢٥﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني: الحياة في هذه الدار ﴿لَمِيزَةٌ وَكُتُوبٌ﴾ أي: غرور ينقضي عن قليل. وذهب بعض المفسرين إلى أن المشار بهذا إلى حال الكافر في دنياه، لأن حياته تنقضي على لهو ولعب وتزين الدنيا، ويفاجر قرناه وجيرانه، ويكاثروهم بالأموال والأولاد، فيجمع من غير حلّه، ويتطاول على أولياء الله بماله، وخدمه، وولده، فيفني عمره في هذه الأشياء، ولا يلتفت إلى العمل للآخرة. ثم بين لهذه الحياة شبهاً، فقال: ﴿كَذَلِكِ عَيْتِ﴾ يعني: مطراً ﴿أَجْبَ الْكُفَّارِ﴾ وهم الزُّرَّاعُ، وسموا كنفاراً، لأن الزارع إذالقى البذر في الأرض كفره، أي: غطاه. ﴿بِنَاءِهِ﴾ أي: ما نبت من ذلك الغيث ﴿ثُمَّ يَجْعَلُ﴾ أي: يبيس ﴿فَرِيضَةً مُّصَفَّرًا﴾ بعد خضرته ورَبِّهِ ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي: ينحطم، وينكسر بعد يبسه^(١). وشرح هذا المثل قد تقدم في «يونس» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ آية: [٢٤]، وفي «الكهف» عند قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ آية: [٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: لأعداء الله ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لأوليائه وأهل طاعته. وما بعد هذا مذكور في (آل عمران: ١٨٥) إلى قوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ بين أنه لا يدخل الجنة أحد إلا بفضل الله^(٢).

﴿مَا آتَاكَ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٦﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُتَخَالِفٍ فَخُورٍ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَلُوتُ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَغْيِ وَمَنْ يُؤَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْكَلِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا آتَاكَ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: قحط المطر، وقلة النبات، ونقص الثمار، ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من الأمراض، وفقد الأولاد ﴿وَلَا فِي كِتَابٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهُ﴾ أن نخلقها، يعني: الأنفس ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إثبات ذلك على كثرته هين على الله ﷻ ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ أي: تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ وقرأ أبو عمرو - إلا اختيار البيهقي - بالقصر على معنى: جاءكم من الدنيا. وقرأ الباقون بالمد على معنى: أعطاكم الله منها. وأعلم أنه من علم أن ما قضي لا بد أن يصيبه قل حزنه وفرحه. وقد روى قتبية بن سعيد قال: دخلت بعض أحياء العرب، فإذا بفضاء من الأرض فيه من الإبل ما لا يحصى عدده، كلها قد مات، فسألت عجوزاً: لمن كانت هذه الإبل؟ فأشارت إلى شيخ على تل يغزل الصوف، فقلت له: يا شيخ ألك كانت

(١) قال ابن كثير: هكذا الحياة الدنيا، تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، قال: والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعشوان شبابه فحماً طرياً، لين الأظفار بهي المنظر، ثم إنه يشرح في الكهولة فتتغير طبعه ويفقد بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى قليل الحركة يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن سَفوفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَيْنِ سَفوفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِّن بَيْنِ قُوَّةٍ حَصَافًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٢٦﴾﴾ قال: ولما كان هذا المثل حالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها، ورجب فيما فيها من الخير فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُورِ﴾ أي: وليس في الآخرة الآنية القريبة إلا هذا، وإما هذا، إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُورِ﴾ أي هي متاع فإن غار لمن ركن إليه فإنه ينتز بها وتعجزه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراعها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة. اهـ.

(٢) وذلك مصداق قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري وسلم عن أبي هريرة ؓ: قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحدكم منكم صله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «فولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة» متفق عليه واللفظ لمسلم.

هذه الإبل؟ قال: كانت باسمي، قلت: فما أصابها؟ قال: ارتجعها الذي أعطاها، قلت: فهل قلت في ذلك شيئاً؟ قال: نعم، قلت:

لا وَالَّذِي أَنَا عَبْدٌ فِي عِبَادَتِهِ
ما سَرَّنِي أَنْ يُسَلِّيَ فِي مَبَارِكِهَا
وَالْمَرْءُ فِي الدَّهْرِ نَضِبَ الرُّزْءَ وَالْحَزْنَ
وما جرى في قَضَا رَبِّ السَّوَرَى يَكُنْ

وما بعد هذا قد ذكرناه في سورة [النساء: ٢٣٧] والذي قيل في البخل هناك هو الذي قيل هاهنا إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الإيمان ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن عباده ﴿الْحَمِيدُ﴾ إلى أولياته. وقد سبق معنى الاسمين في [البقرة: ٢٦٧] وقرأ نافع وابن عامر ﴿فإن الله الغني الحميد﴾ ليس فيها «هو» وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة، والشام.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَرْسَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقَومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَرْسَلْنَا الْهَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَضُرُّهُ وَمَنْ يَنْفَعُهُ بِالْبَيِّنَاتِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالآيات والحجج ﴿وَأَرْسَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ ببيان الشرائع، والأحكام. وفي «الميزان» قولان: أحدهما: أنه العدل، قاله ابن عباس، وقتادة. والثاني: أنه الذي يوزن به، قاله ابن زيد ومقاتل. فعلى القول الأول: يكون المعنى: وأمرنا بالعدل. وعلى الثاني: ووضعنا الميزان، أي أمرنا به ﴿لِيُقَومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: لكي يقوموا بالعدل.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الْهَدِيدَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الله تعالى أنزل مع آدم السندان، والكلبتين، والمطرقة، قاله ابن عباس. والثاني: أن معنى «أرسلنا»: أنشأنا وخلقنا، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَيَكُنُ الْآيَاتِ لِلَّذِينَ اعْتَقَلُوا مَتَلَكُافًا﴾ [النور: ٦].

قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ قال الزجاج: وذلك أنه يُمتنع به، ويُحارَب به ﴿وَمَنْفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ في أدواتهم، وما يتفقون به من آية وغيرها^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ هذا معطوف على قوله تعالى: ﴿لِيُقَومَ النَّاسُ﴾، والمعنى: ليتعامل الناس بالعدل وليعلم الله ﴿مَنْ يَضُرُّهُ﴾ بالقتال في سبيله ونصرة دينه، وذلك أنه أمر في الكتاب الذي أنزل بذلك. وقد سبق معنى قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ في مواضع. وقوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: ولم ير الله، ولا أحكام الآخرة، وإنما يجهد ويثاب من أطاع بالغيب.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِمْهُنَّ مُنْهَلٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَيَسُوقُونَ ﴿١١﴾ ثُمَّ قَتَلْنَا عَلَى أَيْدِيهِمْ يُسُلَيْمًا وَفَقَّيْنَا يَعْسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَهَاتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانَةٌ اتَّبَعُواهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَاتٌ يُضَوِّنُ اللَّهُ فَمَا رَعَوْهَا حَتَّى رِعَابِنَهَا فَتَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ فَأَمْسُوا مِنْهُمْ أَيْهَةً وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَسَيُؤْتُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ يعني: الكتب ﴿فَمِمْهُنَّ﴾ يعني: من الذرية ﴿مُنْهَلٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسَيُؤْتُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: كافرون، قاله ابن عباس. والثاني: عاصون، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَتَلْنَا عَلَى أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أتبعنا على آثار نوح، وإبراهيم، وذريتهما ﴿يَعْسَى﴾ وكان آخر أنبياء بني إسرائيل، ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ يعني: الحواريين وغيرهم من أتباعه على دينه ﴿رَأْفَةً﴾ وقد سبق بيانها [النور: ٢٢] متوآدين، كما وصف الله تعالى أصحاب نبيينا عليه الصلاة والسلام، فقال تعالى: ﴿رَحْمَةً لِيَتُحَمَّلُوا﴾ [الفتح: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَرَهَابَانَةٌ اتَّبَعُواهَا﴾ ليس هذا معطوفاً على ما قبله، وإنما انتصب بفعل مضمر، يدل عليه ما بعده، تقديره: وابتدعوا رهبانةً ابتدعوها، أي: جاؤوا بها من قبل أنفسهم، وهي غلوهم في العبادة، وحمل المشاق على

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الْهَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحججة عليه، قال: ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبيانات ودلالات، فلما قامت الحججة على من خالف، شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهوام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده. قال: ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني السلاح كالسيوف والحرايب والسنان والنصال والدروع ونحوها ﴿وَمَنْفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ أي في معاشهم، كالسكة والنفاست والقدم والمنتشار والإزميل والمجرقة والآلات التي يستعان بها في الحرث والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه، وغير ذلك. اهـ.

أنفسهم في الامتناع عن المطعم والمشرب والملبس والنكاح والتعبّد في الجبال ﴿مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ما فرضناها عليهم. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا آيَةً رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أنه يرجع إلى قوله تعالى: «ابتدعوها»، وتقديره: ما كتبناها عليهم إلا أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، ذكره علي بن عيسى، والرمانى عن قتادة، وزيد بن أسلم. والثاني: أنه راجع إلى قوله تعالى: «ما كتبناها». ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: ما كتبناها عليهم بعد دخولهم فيها تطوعاً إلا ابتغاء رضوان الله. قال الحسن: تطوّعوا بابتداعها ثم كتبها الله عليهم. وقال الزجاج: لما ألزموا أنفسهم ذلك التطوع لزمهم إتمامه، كما أن الإنسان إذا جعل على نفسه صوماً لم يفترض عليه، لزمه أن يتمّه^(١). قال القاضي أبو يعلى: والابتداع قد يكون بالقول، وهو ما ينذر ويوجهه على نفسه، وقد يكون بالفعل بالدخول فيه. وعموم الآية تتضمن الأمرين، فاقضى ذلك أن كل من ابتدع قربة، قولاً، أو فعلاً، فعليه رعايتها وإتمامها. والثاني: أن المعنى: ما أمرناهم منها إلا بما يرضى الله ﷻ، لا غير ذلك، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الذين ابتدعوا الرهبانية، قاله الجمهور. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم ما رَعَوْهَا لتبديل دينهم وتغييرهم له، قاله عطية العوفي. والثاني: لتقصيرهم فيما ألزموه أنفسهم. والثالث: لكفرهم برسول الله ﷺ لما بُعث، ذكر القولين الزجاج. والثاني: أنهم الذين اتبعوا مبتدعي الرهبانية في رهبانيتهم، ما رَعَوْهَا بسلك طريق أوليهم، روى هذا المعنى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(٢). قوله تعالى: ﴿فَنَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: الذين آمنوا بمحمد ﴿وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَكُفِرُوا﴾ وهم الذين لم يؤمنوا به. والثاني: أن الذين آمنوا: المؤمنون بعبسى، والفاسفون: المشركون. والثالث: أن الذين آمنوا: مبتدعو الرهبانية، والفاسفون: متبعوهم على غير القانون الصحيح.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَيُؤْتُونَ مِنْكُمْ كَفَالَيْنِ﴾ من رَحْمَتِهِ وَيَصَلِّ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ. وَيَنْزِلُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٨﴾ لَيْلًا يَلْمُزُ أَهْلَ الْكَلْبِ أَلَّا يَقْرَأُوا عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَيَأْتُوا رَسُولَهُ﴾ عامة المفسرين على أن هذا الخطاب لليهود والنصارى. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله، وآمنوا برسوله محمد ﷺ ﴿يُؤْتِيَا كَفَالَيْنِ﴾ أي: نصيبين، وحظين ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾^(٣) قال الزجاج: الكفل: كساء يمنح الراكب أن يسقط، فالمعنى: يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي. وقد بينا معنى «الكفل» في سورة [النساء: ٨٥] وفي المراد بالكفولين هاهنا قولان: أحدهما: لإيمانهم بمن تقدّم من الأنبياء، والآخر: لإيمانهم بمحمد ﷺ، قاله ابن عباس. والثاني: أن: أحدهما: أجر الدنيا، والثاني: أجر الآخرة، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَيَصَلِّ لَكُمْ نُورًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: القرآن، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: نوراً تمشون به على الصراط، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: الهدى، قاله مجاهد. والرابع: الإيمان، قاله ابن السائب.

(١) وهو مذهب الحنفية والمالكية، وأما عند الشافعية فلم يوجبوا الإتمام، ففي «المجموع» ٣٩٢/٦: قال الشافعي والأصحاب رحمهم الله تعالى: فإذا دخل في صوم تطوع أو صلاة تطوع، استحبه له إتمامها، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْلُغُوا أَهْلَكُورًا﴾ وللخروج من خلاف العلماء، فإن خرج منهما بغير علم أو بغير علم، لم يحرم عليه ذلك، ولا قضاء عليه، لكن يكره الخروج منهما بلا علم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْلُغُوا أَهْلَكُورًا﴾ هذا هو المذهب.

(٢) جاء في «تفسير القاسمي» ٥٦٩٨/١٦: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: ما قاموا بما التزموا منها حق القيام من التزهد والتخلي للعبادة وعلم الكتاب، بل اتخذوها آلة للترس والسودد وإخضاع الشعب لأموالهم.

(٣) حمل ابن عباس هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب وأنهم يؤتون أجراً مرتين، كما في الآية التي في (القصص)، وكما في حديث «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجراً مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن ببيته وأمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أذب أمة فأحسن تأديتها ثم أحفظها وتزوجها فله أجران». ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك وعتبة ابن أبي حكيم وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير. وقال سعيد بن جبيرة: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجراً مرتين، أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَيَأْتُوا رَسُولَهُ﴾ أي ضعفين ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾. وزادهم ﴿وَيَصَلِّ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني هدىً يتبصر به من العمى والجهالة، ﴿وَيُؤْتِيَا لَكُمْ﴾، ففضلهم بالنور والمغفرة.

قوله تعالى: ﴿لَيْلًا يَمُوتُ﴾ «لا» زائدة. قال الفراء: والعرب تجعل «لا» صلة في كل كلام دخل في آخره أو أوله جحد، فهذا مما جعل في آخره جحد. والمعنى: ليعلم ﴿أَهْلِي الْكِتَابِ﴾ الذين لم يؤمنوا بمحمد ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ أي: أنهم لا يقدرُونَ ﴿عَلَىٰ تَحْيِيهِ مِن قَضَىٰ اللَّهِ﴾ والمعنى: أنه جعل الأجرين لمن آمن بمحمد ﷺ ليعلم من لم يؤمن به أنه لا أجر لهم ولا نصيب في فضل الله ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ فاتاه المؤمنين. هذا تلخيص قول الجمهور في هاتين الآيتين. وقد ذهب قوم إلى أنه لما نزل في مُسلمة أهل الكتاب ﴿الَّذِينَ ءَايَتْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤] افتخروا على المسلمين بزيادة الأجر، فشق ذلك على المسلمين، فنزلت هاتان الآيتان، وهذا المعنى في رواية أبي صالح عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. فعلى هذا يكون الخطاب للمسلمين، ويكون المعنى: يؤتكم أجرين ليعلم مؤمنو أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضل الله الذي خصَّكم، فإنه فضلكم على جميع الخلاق. وقال قتادة: لما نزل قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ...﴾ الآية، حسد أهل الكتاب المسلمين عليها، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْلًا يَمُوتُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الآية.



سورة المجادلة

وهي مدنية في قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، والجمهور. وروي عن عطاء أنه قال: العشر الأول منها مدني، والباقي مكي. وعن ابن السائب: أنها مدنية سوى آية، وهي قوله تعالى: ﴿مَا يَكُوثُ مِنْ نَجْوَى تَلْتَوِي﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِعَ نَجْوَى مَا يَكُوثُ مِنْ نَجْوَى تَلْتَوِي﴾ قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أما سبب نزولها، فروي عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة فكلمت رسول الله ﷺ، وأنا في جانب البيت أسمع كلامها، ويخفي علي بعضه، وهي تشتكي زوجها وتقول: يا رسول الله: أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات^(١). فأما تفسيرها، فقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ قال الزجاج: إدغام الدال في السين حسن لقرب المخرجين، لأنهما من حروف طرف اللسان، وإظهار الدال جائز، لأنه وإن قرب من مخرج السين، فله حيز على حدة، ومن موضع الدال الطاء والتاء، فهذه الأحرف الثلاثة موضعها واحد، والسين والزاي والصاد من موضع واحد، وهي تسمى: حروف الصفير. وفي اسم هذه المجادلة ونسبتها أربعة أقوال: أحدها: خولة بنت ثعلبة، رواه مجاهد، عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وقتادة، والقرظي. والثاني: خولة بنت خويلد، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: خولة بنت الصامت، رواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: خولة بنت الدليج، قاله أبو العالية. واسم زوجها: أوس بن الصامت، وكانا من الأنصار. قال ابن عباس: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية: أنت علي كظهر أمي، حرمت عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس، ثم ندم، وقال لامرأته: انطلقني إلى رسول الله ﷺ فسله، فأنته، فنزلت هذه الآيات^(٢). فأما مجادلتها رسول الله ﷺ، فإنه كان كلما قال لها: قد حرمت عليك، تقول: والله ما ذكر طلاقاً، فقال: ما أوحى إلي في هذا شيء، فجعلت تشتكي إلى الله. وتشتكي بمعنى: تشكو. يقال: اشتكيت ما بي، وشكوته. وقالت: إن لي صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا. فأما التحاور، فهو مراجعة الكلام. قال عترة في فرسه:

لو كان يذري ما المُحَاوَرَةُ اشْتَكَى

ولو كان لو عَليم الكلام مُكَلِّمِي^(٣)

﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُسْكِرًا مِنَ الْقَوْلِ وَرُؤُوفًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعْرُوفٌ عَزِيزٌ﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَبْذُرُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ ذَلِكَ تُوعَطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿فَمَنْ لَوْ عَجِدَ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ نِسَائِهِمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ فَمَنْ لَوْ سَطَعَ لِقَاعًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَسَيَكُنْ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَتَذَكَّرُ اللَّهُ وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابَ آلِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو «يَظَاهِرُونَ» بفتح الياء، وتشديد

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٠٤، والطبري ٢٨/٦٠٥، والحاكم في «المستدرک» ٢/٤٨١ وصححه، وواقفه الذهبي، وابن ماجه في «سننه» رقم (٢٠٦٣) وسنده صحيح، والبيهقي في «سننه» ٧/٣٨٢.

(٢) رواه البيهقي في «سننه» ٧/٣٨٣ من طريق عكرمة عن ابن عباس، وفي سننه أبو حمزة الثمالي، وهو ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب». والخبر ذكره السيوطي في «الدرر» ٦/١٧٩ وزاد نسبة للنحاس، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٣) هو من معلقته المشهورة. وفي «شرح القصائد السبع» لابن الأنباري: أو كان لو علم الكلام مكلمي. وفي «مختار الشعر الجاهلي» ١/٣٧٩: أو كان يذري ما جواب تكلمي.

الظاء والهاء وفتحهما من غير ألف. وقرأ أبو جعفر، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بفتح الياء، وتشديد الظاء، وبألف، وتخفيف الهاء. وقرأ عاصم «يُظَاهِرُونَ» بضم الياء، وتخفيف الظاء والهاء، وكسر الهاء في الموضعين مع إثبات الألف. وقرأ ابن مسعود «يُتَظَاهِرُونَ» بياء، وتاء، وألف. وقرأ أبي بن كعب «يُتَظَاهِرُونَ» بياء، وتاء، وتخفيف الياء، وتشديد الهاء من غير ألف. وقرأ الحسن، وقتادة، والضحاك «يُظَاهِرُونَ» بفتح الياء، وفتح الظاء، مخففة، مكسورة الهاء مشددة. والمعنى: تقولون لهم: أنتن كظهور أمهاتنا. «مَا مَرُّهُنَّ أَهْنَهُنَّ» قرأ الأكثرون بكسر التاء. وروى المفضل عن عاصم رفعها. والمعنى: ما اللواتي تجعلن كالأمهات بأمهات لهم «إِنَّ أَهْنَهُنَّ» أي: ما أمهاتهم «إِلَّا أَلَيْ وَدَنَّهُنَّ» قال الفراء: وانتصاب «الأمهات» هاهنا بإلقاء الباء، وهي قراءة عبد الله «مَا مَرُّهُنَّ بِأَمِهَاتِهِمْ»، ومثله: «مَا هَذَا بَشَرًا» (يوسف: ٢٣١)، المعنى: ما هذا ببشر، فلما ألقى الباء أبقي أثرها، وهو: النصب، وعلى هذا كلام أهل الحجاز. فأما أهل نجد، فإنهم إذا ألقوا الباء رفعوا، وقالوا: «ما من أمهاتهم» و «ما هذا بشرًا» أنشدني بعض العرب:

رِكَابٌ حُسَيْنِلِ أَحْرَ الصَّيْنِفِ بُدُنْ
وَيَسْرَعُمُ حَسِلُ أَنْ فَرَعُ قَوْمِهِ
وَنَسَاقَةُ عَمْرُو مَا يُحِلُّ لَهَا رَحْلُ^(١)
وَمَا أَنْتَ فَرَعٌ يَا حُسَيْنِلُ وَلَا أَضْلُ

قوله تعالى: «إِنَّ فَمَّ» يعني: المظاهرين «يَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ» لتشبيههم الزوجات بالأمهات، والأمهات محرمات على التأييد، بخلاف الزوجات. «وَرُؤُوسًا» أي: كذبًا «وَرَبَّ اللَّهُ لَمَتُّو عَفْوًا» إذ شرع الكفارة لذلك^(٢).

قوله تعالى: «ثُمَّ يَبُودُونَ لَنَا قَالُوا» اللام في «لما» بمعنى «إلى» والمعنى: ثم يعودون إلى تحليل ما حرّموا على أنفسهم من وطء الزوجة بالعزم على الوطء. قال الفراء: معنى الآية: يرجعون عما قالوا، وفي نقض ما قالوا. وقال سعيد بن جبيرة: المعنى: يريدون أن يعودوا إلى الجماع الذي قد حرّموه على أنفسهم. وقال الحسن، وطاوس، والزهري: العود: هو الوطء. وهذا يرجع إلى ما قلناه. وقال الشافعي: هو أن يمسخها بعد الظهار مدة يمكنه طلاقها فيه فلا يطلقها. فإذا وجد هذا، استقرت عليه الكفارة، لأنه قصد بالظهار تحريمها، فإن وصل ذلك بالطلاق فقد جرى على ما ابتدأه، وإن سكت عن الطلاق، فقد ندم على ما ابتدأ به، فهو عود إلى ما كان عليه، فحينئذ تجب الكفارة. وقال داود: هو إعادة اللفظ ثانيًا، لأن ظاهر قوله تعالى: «يَبُودُونَ» يدل على تكرير اللفظ. قال الزجاج: وهذا قول من لا يدري اللغة. وقال أبو علي الفارسي: ليس في هذا كما ادّعوا، لأن العود قد يكون إلى شيء لم يكن الإنسان عليه قبل، وسميت الآخرة معادًا، ولم يكن فيها أحد ثم عاد إليه. قال الهذلي:

وَعَادَ الْفَتَى كَالْكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلِ
سِوَى الْحَقِّ شَيْئًا وَاسْتَرَاحَ الْعَوَائِلِ^(٣)

وقد شرحنا هذا في قوله تعالى: «وَلَيْلَى اللَّهُ تَرْجِعَ الْأَمْثُورَ» (البقرة: ٢١٠) قال ابن قتيبة: من توهم أن الظهار لا يقع حتى يلفظ به ثانية، فليس بشيء، لأن الناس قد أجمعوا أن الظهار يقع بلفظ واحد. وإنما تأويل الآية: أن أهل الجاهلية كانوا يطلقون بالظهار، فجعل الله حكم الظهار في الإسلام خلاف حكم عندهم في الجاهلية، وأنزل قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ» يريد في الجاهلية «ثُمَّ يَبُودُونَ لَنَا قَالُوا» في الإسلام، أي: يعودون لما كانوا يقولونه من هذا الكلام^(٤)، «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» قال المفسرون: المعنى: فعليتهم، أو فكفارتهم تحرير رقية، أي: عتقها. وهل

(١) أنشد البيهقي صاحب «الإنصاف في مسائل الخلاف» ٦٩٤ ولم يعزها لقائل، والشاهد في قوله: «وما أنت فرع يا حُسَيْنِلُ ولا أصل» فإنه أهمل «ما» النافية فلم يرفع بها الاسم وينصب الخبر، وإعمالها لغة نميم، وإعمالها لغة الحجاز.

(٢) قال ابن كثير: أصل الظهار: مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهروا أحدهم من امرأته قال لها: أنت علي كظهر أمي، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً، فأرخص الله لهذه الأمة، وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم، هكذا قال غير واحد من السلف. اهـ.

(٣) في الأصلين: كالطفل، وهو خطأ، وقائل البيت أبو خراش خويلد بن مرة الهذلي، وهو في «شرح أشعار الهذليين» ٣/١٢٢٣، و«ديوان الهذليين» ٢/١٥٠، و«سيرته ابن هشام» ٢/١٧٣، و«الطبري» ٢/١٦٣، و«الأغانى» ٢١/٤١، و«الكامل» ١/٢٦٧، و«مشكل القرآن» ١١٢، و«شرح الحماسة» للمرزوقي ١٣١٤ من أبيات جياذ في رثاء صديق له. وفي «ديوان الهذليين» يقول: رجع الفتى عما كان عليه من قوته. وصار كأنه كهل. قوله. فاستراح العواذل، لأنهن لا يجدن ما يعلنن فيه سوى العدل، أي: سوى الحق.

(٤) قال ابن كثير: اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى: «ثُمَّ يَبُودُونَ لَنَا قَالُوا» فقال بعض الناس: العود: هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرهه، =

يشترط أن تكون مؤمنة؟ فيه عن أحمد روايتان^(١).

قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَّأَ﴾ وهو: كناية عن الجماع على أن العلماء قد اختلفوا: هل يباح للمظاهر الاستمتاع باللمس والقبلة؟ وعن أحمد روايتان. وقال أبو الحسن الأخصس: تقدير الآية «والذين يظاهرون من نسائهم فتحريروا رقبة لما قالوا ثم يعودون إلى نسائهم».

فصل

إذا وطئ المظاهر قبل أن يكفر أئمه، واستقرت الكفارة. وقال أبو حنيفة: يسقط الظهار والكفارة. واختلف العلماء فيما يجب عليه إذا فعل ذلك، فقال الحسن، وسعيد بن المسيب، وطاوس، ومجاهد، وإبراهيم، وابن سيرين: عليه كفارة واحدة، وقال الزهري، وقتادة في آخرين: عليه كفارتان. فإن قال: أنت علي كظهر أمي اليوم، بطل الظهار بمضي اليوم، هذا قول أصحابنا، وأبي حنيفة، والثوري، والشافعي. وقال ابن أبي ليلى، ومالك، والحسن بن صالح: هو مظاهر أبداً.

واختلفوا في الظهار من الأمة، فقال ابن عباس: ليس من أمة ظهار، وبه قال سعيد بن المسيب، والشعبي، والنخعي، وأبو حنيفة، والشافعي. وقال سعيد بن جبيرة، وطاوس، وعطاء، والأوزاعي، والثوري، ومالك: هو ظهار. ونقل أبو طالب عن أحمد أنه قال: لا يكون مظاهراً من أمته، ولكن تلزمه كفارة الظهار، كما قال في المرأة إذا ظهرت من زوجها لم تكن مظهراً، وتلزمها كفارة الظهار.

واختلفوا فيمن ظاهر مراراً، فقال أبو حنيفة، والشافعي: إن كان في مجالس، فكفارات، وإن كان في مجلس واحد، فكفارة. قال القاضي أبو يعلى: وعلى قول أصحابنا: يلزمه كفارة واحدة، سواء كان في مجلس، أو في مجالس، ما لم يكفر، وهذا قول مالك.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ﴾ قال الزجاج: ذلكم التغليظ توعظون به. والمعنى: أن غلظت الكفارة وغلظت لكم حتى تركوا الظهار.

قوله تعالى: ﴿فَن لَّمْ يَنْدَ﴾ يعني: الرقبة ﴿فَوَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ أي: فعليه صيام شهرين ﴿مَتَّاعَيْنِ﴾ من قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَّأَ فَن لَّمْ يَنْدَ الصيام ﴿فَن﴾ كفارته ﴿وَالْعَمَامُ سِتْنَيْنِ﴾ يشكناً ذلك، أي: الفرض ذلك الذي وصفنا ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: تصدقوا بأن الله أمر بذلك وتصدقوا بما أتى به الرسول ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ يعني: ما وصفه الله من الكفارات في الظهار ﴿وَالكَّافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: لمن جحد هذا وكذب به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَنْزَلْنَا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿يَوْمَ يَسْأَلُهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَأَلَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا حَسَمَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ قد ذكرنا معنى المحاداة في [التوبة: ٦٣] ومعنى «كُتِبُوا» في [آل عمران: ١٢٧]

وهذا القول باطل، وهو اختيار ابن حزم وقول داود. حكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير بن الأشج والفراء وفرقة من أهل الكلام. وقال الشافعي: هو أن يسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق في فلا يطلق. وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة، وقد حكى عن مالك أنه العزم على الجماع أو الإنسائك، وعنه: أنه الجماع. وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية، فمضى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمتها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة، وإليه ذهب أصحابه واليث بن سعد. وقال ابن لبيبة: حدثني عطاء عن سعيد بن جبيرة ﴿يَوْمَ يَنْشِئُونَ لَنَا قَارًا﴾ يعني يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرّموه على أنفسهم. قال الحسن البصري: يعني الغشيان في الفرج، وكان لا يرى بأساً أن ينشئ فيما دون الفرج قبل أن يكفر.

(١) قال ابن كثير: هانئا الرقبة مطلقه غير مقيدة بالإيمان، فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلق هانئا على ما يؤد هناك، لاتحاد الموجب، وهو حق الرقبة، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده عن معاوية بن الحكم السلمي في قصة الجارية السوداء، وأن رسول الله ﷺ قال: «اعتقها فإنها مؤمنة» وقد رواه أحمد في «مسنده» ومسلم في «صحيحه».

عند قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكْتُمُهُمْ﴾. وقال ابن عباس: أخزوا يوم الخندق بالهزيمة كما أخزي الذين من قبلهم ممن قاتل الرسل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: من قبورهم ﴿فَيُنزِّلُهُم بِمَاءٍ غَيْرِ حَرِيمٍ﴾ من معاصيه، وتضييع فرائضه. ﴿أَخَصَّنَهُ اللَّهُ﴾ أي: حفظه الله عليهم ﴿وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ من أعمالهم في السر والعلانية ﴿شَهِيدٌ﴾. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم.

قوله تعالى: ﴿مَا يَكْفُرُونَ لِيَوْمِئِذٍ﴾ وقرأ أبو جعفر «ما تكون» بالتاء. قال ابن قتيبة: النجوى: السرار. وقال الزجاج: ما يكون من خلوة ثلاثة يسرون شيئاً، ويتناجون به ﴿إِلَّا هُوَ رَبُّهُمْ﴾ أي: عالم به. و«نجوى» مشتق من النجوة، وهو ما ارتفع. وقرأ يعقوب «ولا أكثر» بالرفع. وقال الضحاک: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: علمه معهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَمُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَرَتَّبُوا بِالْإِنشِرِ وَالْعُدُونِ وَمَمَّصَتِ الرَّسُولُ وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يَحْيِكْ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَعْمَلُ حَسْبَهُمْ جَهَنَّمَ بَصُورًا مِمَّا يَبْلُغُونَ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نَنبَأُكُمْ أَنَّ النَّجْوَى بِالْإِنشِرِ وَالْعُدُونِ وَمَمَّصَتِ الرَّسُولُ وَنَجَّوْنَا بِالْبَيْتِ وَالْقَدُونَ وَأَنَّ اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَّتِهِمْ شَيْئٌ إِلَّا يَأْذَنُ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فَيْسُوكِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين، وينظرون إلى المؤمنين، ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا قد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا، قتل أو موت، أو مصيبة، فيقع ذلك في قلوبهم، ويحزنهم، فلا يزالون كذلك حتى تقدم أصحابهم. فلما طال ذلك وكثر، شكوا المؤمنون إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). والثاني: نزلت في اليهود، قاله مجاهد. قال مقاتل: وكان بين اليهود وبين رسول الله موادة، فإذا رأوا رجلاً من المسلمين وحده تناجوا بينهم، فيظن المسلم أنهم يتناجون بقتله، أو بما يكره، فترك الطريق من المخافة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنهاهم عن النجوى، فلم ينتهوا، وعادوا إليها، فنزلت هذه الآية. وقال ابن السائب: نزلت في المنافقين. والنجوى: بمعنى المناجاة. ﴿ثُمَّ يَمُودُونَ﴾ إلى المناجاة التي نهوا عنها ﴿وَرَتَّبُوا بِالْإِنشِرِ وَالْعُدُونِ﴾ قرأ حمزة، ويعقوب إلا زبداً، وروحاً «ويتناجون» وقرأ الباقون «ويتناجون» بألف. وفي معنى تنجيهم ﴿وَالْإِنشِرِ وَالْعُدُونِ﴾ وجهان: أحدهما: يتناجون بما يسوء المسلمين، فذلك الإثم والعدوان، ويوصي بعضهم بعضاً بمعصية الرسول. والثاني: يتناجون بعد نهي الرسول، ذلك هو الإثم والعدوان ومعصية الرسول.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يَحْيِكْ بِهِ اللَّهُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: نزلت في اليهود. قالت عائشة رضي الله عنها: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقلت: السام عليكم، وفعل الله بكم، فقال رسول الله ﷺ: «مه يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش، ولا التفتُّش، فقلت: يا رسول الله! ترى ما يقولون؟ فقال: أأست ترميني أردُّ عليهم ما يقولون، وأقول: وعليكم، قالت: فنزلت هذه الآية في ذلك»^(٢). قال الزجاج: والسام: الموت. والثاني: أنها نزلت في المنافقين، رواه عطية عن ابن عباس. قال المفسرون: ومعنى «حَيْوَتُكَ» سَلِّمُوا عليك بغير سلام الله عليك، وكانوا يقولون: سام عليك. فإذا خرجوا يقولون في أنفسهم، أو يقول بعضهم لبعض: لو كان نبياً عذبنا بقولنا له ما نقول.

(١) هو في «أسباب النزول» ٣٠٦ عن ابن عباس ومجاهد بغير سند.

(٢) رواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروق عن عائشة وإسناده صحيح، وهو أيضاً في «صحيح مسلم» ١٧٠٧/٤ عن عائشة رضي الله عنها. ورواه أحمد في «المستدرج» رقم (٦٥٨٩) عن عبد الله بن عمر أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَعْمَلُ﴾ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يَحْيِكْ بِهِ اللَّهُ﴾. وقال ابن كثير: إسناده حسن، وهو في «معجم الزوائد» ١٢١/٧، وقال: رواه أحمد والبخاري والطبراني، وإسناده جيد، لأن حماداً سمع من عطاء في حالة الصحة..

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَاكَ إِلَيْكَ ءَأْمَتُوا إِنْ تَتَّبِعْتَهُمْ﴾ فيها قولان: أحدهما: نزلت في المنافقين، فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بزعيمهم، وهذا قول عطاء ومقاتل. والثاني: أنها في المؤمنين، والمعنى: أنه نهاهم عن فعل المنافقين واليهود، وهذا مذهب جماعة، منهم الزجاج.

قوله تعالى: ﴿تَنْتَجِرُوا﴾ هكذا قرأ الجماعة بألف. وقرأ يعقوب وحده «فلا تنتجوا». فأما «البر» فقال مقاتل: هو الطاعة، و«التقوى» ترك المعصية. وقال أبو سليمان الدمشقي: «البر» الصدق، و«التقوى» ترك الكذب. ثم ذكر أن ما يفعله اليهود والمنافقون، من الشيطان، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من تزيينه، والمعنى: إنما يزين لهم ذلك ﴿يَحْزَنُ الَّذِينَ ءَأْمَتُوا﴾ وقد بينا اتقاء ما كان يحزن المؤمنين من هذه النجوى ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾ أي: وليس الشيطان بضار المؤمنين شيئاً ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بإرادته ﴿وَعَلَّ اللَّهُ فَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فليكلوا أومرهم إليه.

﴿يَأْتِيَاكَ إِلَيْكَ ءَأْمَتُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فانشُرُوا بِرَفْعِ اللَّهِ إِلَيْهِ ءَأْمَتُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْوَيْلَ دَرَجَتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ وقرأ عاصم «في المجالس» على الجمع، وذلك لأن كل جالس له مجلس، فالمعنى: ليفسح كل رجل منكم في مجلسه. قال المفسرون: نزلت في نفر من المؤمنين كانوا يسابقون إلى مجلس رسول الله ﷺ، فإذا أقبل المهاجرون وأهل السابقة، لم يجدوا موضعاً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يليه أولو الفضل ليحفظوا عنه، فبينما رسول الله ﷺ يوم جمعة جالس في صفة ضيقة في المسجد، جاء نفر من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس، فسلموا وانتظروا أن يوسعوا لهم، فأوسعوا لبعضهم، وبقي بعضهم، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فقال: قم يا فلان، قم يا فلان، حتى أقام من المجلس على عدة من هو قائم من أهل السابقة، فرأى رسول الله ﷺ في وجوه من أقامهم الكراهة، وتكلم المنافقون في ذلك وقالوا: والله ما عدل، فنزلت هذه الآية. وقال قتادة: كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله ﷺ، فإذا أقبل مقبل صَنَتُوا بمجلسهم، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض، قال المفسرون: ومعنى «تفسحوا» توسعوا وذلك أنهم كانوا يجلسون متضايقين حول رسول الله ﷺ فلا يجد غيرهم مجلساً عنده، فأمرهم أن يوسعوا لغيرهم ليتساوى الناس في الحظ منه، ويظهر فضيلة المقرئين إليه من أهل بدر وغيرهم. وفي المراد «بالمجلس» هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مجلس الحرب، ومقاعد القتال، كان الرجل يأتي القوم في الصف، فيقول لهم: تَوَسَّعُوا، فيأبئون عليه لحرصهم على القتال، وهذا قول ابن عباس، والحسن، وأبي العالية، والقرظي. والثاني: أنه مجلس رسول الله ﷺ، قاله مجاهد. وقال قتادة: كان هذا للنبي ﷺ ومن حوله خاصة. والثالث: مجالس الذكر كلها، روي عن قتادة أيضاً^(١). وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن، ومجاهد، والحسن، وعكرمة، وقاتل، وابن أبي عبيدة، والأعمش: ﴿تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ بألف على الجمع.

قوله تعالى: ﴿يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يوسع الله لكم الجنة، والمجالس فيها. ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا﴾ قرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم «انشُرُوا فانشُرُوا» برفع الشين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: بكسر الشين فيهما. ومعنى «انشُرُوا» قوموا. قال الفراء: وهما لفتان. وفي المراد بهذا القيام خمسة أقوال: أحدها: أنه القيام إلى الصلاة، وكان رجال يتأقلون عنها، فقيل لهم: إذا نودي للصلاة فانهضوا، هذا قول عكرمة، والضحاك. والثاني: أنه القيام إلى قتال العدو، قاله الحسن. والثالث: أنه القيام إلى كل خير، من قتال، أو أمر بمعروف، ونحو ذلك، قاله مجاهد. والرابع: أنه الخروج من بيت رسول الله ﷺ، وذلك أنه كانوا إذا جلسوا في بيت رسول الله ﷺ أطالوا ليكون كل واحد منهم آخرهم عهداً به، فأمروا أن ينشُرُوا إذا قيل لهم: انشُرُوا، قاله ابن زيد. والخاص: أن المعنى: قوموا

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره، أمر المؤمنين أن يفسحوا في المجلس. ولم يخص بذلك مجلس النبي ﷺ دون مجلس القتال، وكلا الموضوعين يقال له: مجلس، فذلك على جميع المجالس من مجالس رسول الله ﷺ ومجالس القتال. اهـ.

وتحزكوا وتوسعوا لإخوانكم، قاله الثعلبي^(١).

قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: يرفعهم بإيمانهم على من ليس بمنزلتهم من الإيمان ﴿و﴾ يرفع ﴿الذين أوتوا العلم﴾ على من ليس بعالم. وهل هذا الرفع في الدنيا، أم في الآخرة؟ فيه وجهان: أحدهما: أنه إخبار عن ارتفاع درجاتهم في الجنة. والثاني: أنه ارتفاع مجالسهم في الدنيا، فيكون ترتيبهم فيها بحسب فضائلهم في الدين والعلم. وكان ابن مسعود يقول: أيها الناس: افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم، فإن الله يرفع المؤمن العالم فوق من لا يعلم درجات^(٢).

﴿تَأْتِيهِمُ الْبُيُوتُ إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَذَرُوا مَا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِن لَّا يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣)
 ﴿أَشْتَقُّمُ أَن تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ فَإِذ لَّا تَقْدِمُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَا تَمَلَّكُونَ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن الناس سألوا رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه، فأنزل هذه الآية، قاله ابن عباس^(٣). والثاني: أنها نزلت في الأغنياء، وذلك أنهم كانوا يكثرن مناجاة رسول الله ﷺ، ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره رسول الله ﷺ ذلك، فنزلت هذه الآية، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً، وأما أهل الميسرة فخلوا، واشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فنزلت الرخصة، قاله مقاتل بن حيان، وإلى نحوه ذهب مقاتل بن سليمان، إلا أنه قال: فقدر الفقراء حينئذ على مناجاة رسول الله ﷺ، ولم يقدم أحد من أهل الميسرة صدقة غير علي بن أبي طالب. وروى مجاهد عن علي رضي الله عنه قال: آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي، ولن يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى. كان لي دينار، فبعته بعشرة دراهم، فكلما أردت أن أناجي رسول الله ﷺ قدمت درهماً فنسختها الآية الأخرى ﴿أَشْتَقُّمُ أَن تَقْدِمُوا﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ﴾ أي: تقديم الصدقة على المناجاة خير لكم، لما فيه من طاعة الله، وأطهر لذنوبكم ﴿فَإِن لَّا يَجِدُوا﴾ يعني: الفقراء ﴿فَإِذ لَّا يَجِدُوا﴾ إذ عفا عن لا يجد.

قوله تعالى: ﴿أَشْتَقُّمُ﴾ أي: خفتم بالصدقة الفاقة ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فتجاوز عنكم، وحقق بنسخ إيجاب الصدقة. قال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك عشر ليال. قال قتادة: ما كان إلا ساعة من نهار.

﴿أَن تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُم بِنِعْمِكُمْ وَلَا يَتَنَبَّهُوا وَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٥) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾^(٦) أَتَقْدَرُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾^(٧) لَن تَنفَى عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ

(١) روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عن النبي ﷺ قال: لا يقسم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا. وروى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به». قال ابن كثير: وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أحوال، فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث: «قوموا إلى سيدكم» ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» ومنهم من فصل فقال: يجوز عند التردد من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة، قرأه مقبلاً قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم» وما ذاك إلا ليكون أئد لحكمه، والله أعلم. قال: فأما اتخاذ ديدناً، فإنه من شعار العمم، قال: وقد جاء في «السنن» أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له لما يعلمون من كراهيته لذلك. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْبُحْرَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَسْلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: لا تعتقدوا أنه إذا نسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل، أو إذا أمر بالخروج فخرج، أن يكون ذلك نقصاً في حقه، بل هو رتبة ورتبة عند الله، والله تعالى لا يضيع ذلك له، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْبُحْرَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَسْلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي خبير بمن يستحق ذلك ومن لا يستحقه. اهـ.

وروى مسلم في «صحيحه» ٥٥٩/١ عن عامر بن وإثله أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب وكان عمر يستعمله على مكة. فقال: من استعملت على أهل الروادي؟ فقال: ابن أبيزى، قال: ومن ابن أبيزى؟ قال: مولى من موليتنا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷺ، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين».

(٣) ذكر سبب النزول هذا البخوي في «تفسيره» عن ابن عباس بغير سند، وأورده السيوطي في «الدرر» ١٨٥/٦ من رواية ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس وقال في آخره: فأنزل الله بعد هذا ﴿أَشْتَقُّمُ﴾ الآية، فوسع الله عليهم ولم يضيق.

مَنْ اللَّهُ شَيْئًا أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧﴾ يَوْمَ يَبْتَسِمُ اللَّهُ جِيْمًا يَتَلَفَتُونَ لِمَ كُنَّا يَمَلُؤُونَ لَكَرًا وَنَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ قَوْلٍ آٰلَآئِهِمْ هُمْ أَكْثَرُونَ ﴿٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ وَذَكَرَ اللَّهُ أَوْلَيْكَ حَزْبَ الشَّيْطَانِ آٰلَآئِ إِنَّ حَزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْكَافِرِينَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَحَادِثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَيْكَ فِي الْآَدْلَيْنِ ﴿١٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَوْلًا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ نزلت في المنافقين الذين تولوا اليهود، ونقلوا إليهم أسرار المؤمنين. وقال السدي، ومقاتل: نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق، وذلك أنه كان يجالس رسول الله ﷺ، ويرفع حديثه إلى اليهود، فدخل عليه يوماً، وكان أزرق، فقال له رسول الله ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فحلف بالله ما فعل، فقال له النبي ﷺ: «فعلت» فانطلق فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما سبوه، فانزل الله هذه الآيات. وروى الحاكم أبو عبد الله في «صحيحه» من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ كان في ظل حُجرة من حجروه، وعنده نفر من المسلمين، فقال: إنه سيايتكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه، فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: علام تشتمني أنت وفلان وفلان؟ فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا بالله، واعتذروا إليه، فانزل الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْتَسِمُ اللَّهُ جِيْمًا يَتَلَفَتُونَ﴾ الآية^(١). فاما التفسير، فالذين تولوا: هم المنافقون، والمغضوب عليهم: هم اليهود ﴿وَيَلْمُوكَ عَلَى الْكُذِبِ﴾ وهو ما ذكرنا في سبب نزولها. وقال بعضهم: حلفوا أنهم ما سبوا رسول الله ﷺ، ولا تولوا اليهود ﴿وَهُمْ يَمَلُوكُ﴾ أنهم كذبة ﴿أَفْتَدُوا أَنفُسَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: ستره يَتَّقُونَ بها القتل. قال ابن قتيبة: المعنى: استتروا بالحلف، فكلما ظهر لهم شيء يوجب معاقبتهم حلفوا كاذبين، ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: صدوا الناس عن دين الإسلام، قاله السدي. والثاني: صدوا عن جهادهم بالقتل وأخذ مالهم.

قوله تعالى: ﴿يَتَلَفَتُونَ لِمَ﴾ قال مقاتل، وفتادة: يحلفون لله في الآخرة أنهم كانوا مؤمنين، كما حلفوا لأوليائه في الدنيا ﴿وَنَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ قَوْلٍ﴾ من أيمانهم الكاذبة ﴿آٰلَآئِهِمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ في قولهم وأيمانهم. قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ قال أبو عبيدة: غلب عليهم، وحاذهم، وقد بينا هذا في سورة النساء: [١٤١] عند قوله تعالى: ﴿تَسْتَحْوِذُ عَلَيْهِمْ﴾، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿أَوْلَيْكَ فِي الْآَدْلَيْنِ﴾ أي: في المغلوبين، فلمهم في الدنيا ذلك، وفي الآخرة جزئ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحَادِثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَيْكَ فِي الْآَدْلَيْنِ﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَخِيكَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوْلِي عَزِيْرٌ ﴿١١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَوْلَيْكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَتَنَّهُمْ يَرُوحُ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أَوْلَيْكَ حَزْبُ اللَّهِ آٰلَآئِ إِنَّ حَزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ أي: قضى الله ﴿لَأَخِيكَ أَنَا وَرَسُولِي﴾ وفتح الياء نافع، وابن عامر. قال المفسرون: من بُعث من الرسل بالحرب، فعاقبه الأمر له، ومن لم يبعث بالحرب، فهو غالب بالحجة ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوْلِي عَزِيْرٌ﴾ أي: مانع حزبه من أن يذل.

قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا﴾ الآية. اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: نزلت في أبي عبيدة بن الجراح، قتل أباه يوم أحد، وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، فقال: يا رسول الله دعني أكون في الرعدة الأولى^(٢)، فقال: متعنا بنفسك يا أبا بكر، وفي مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن حمزة يوم أحد، وفي عمرو قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر. وفي علي وحزمة قتلا عتبة وشيبة يوم بدر، قاله ابن مسعود^(٣). والثاني: أنها نزلت في

(١) الحاكم في «المستدرک» ٤٨٢/٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، ورواه أحمد في «المسنَد» رقم (٣٢٧٧)، وإسناده جيد كما قال ابن كثير.

(٢) الرعدة والرَّعِيل: القطعة المتخذة من الخيل، يريد: الفوج الأول المتقدم ليقاتل في سبيل الله.

(٣) ذكره الراحدي في «أسباب النزول» ٣١٠ بغير سند، وروى الحاكم في «المستدرک» ٢٦٥/٣ عن عبد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينصب آل آل (وهي الحرمة العريضة المصل) لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصد أبو عبيدة، فقتله، فانزل الله فيه هذه الآية حين قتل أباه ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا﴾ وقال الحافظ في «الإصابة» ٢٤٤/٢: وأخرجه الطبري بسند جيد عن عبد الله بن شوذب.

أبي بكر الصديق، وذلك أن أبا قحافة سبَّ رسول الله ﷺ، فصغَّه أبو بكر صغَّةً شديدةً سقط منها، ثم ذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أو فعلته؟» قال: نعم. قال: فلا تعدَّ إليه، فقال أبو بكر: والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته، فنزلت هذه الآية، قاله ابن جرير^(١). والثالث: نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أبي، وذلك أنه كان جالساً إلى جنب رسول الله، فشرب رسول الله ماءً، فقال عبد الله: يا رسول الله أبق فضلة من شرابك، قال: وما تصنع بها؟ قال: أسقيها أبي، لعل الله سبحانه يطهر قلبي، ففعل، فأتى بها أباه، فقال: ما هذا؟ قال: فضلة من شراب رسول الله جئتك بها لتشربها، لعل الله يطهر قلبك، فقال: هلا جئتني ببول أمك! فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: ائذن لي في قتل أبي، قال: فقال رسول الله ﷺ: ارفق به، وأحسن إليه، فنزلت هذه الآية، قاله السدي. والرابع: أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة يخبرهم أن رسول الله ﷺ قد عزم على قصدهم، قاله مقاتل، واختاره الفراء، والزجاج. وهذه الآية قد بينت أن موذة الكفار تقدح في صحة الإيمان، وأن من كان مؤمناً لم يوال كافراً وإن كان أباه أو ابنه أو أحداً من عشيرته.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين، يعني: الذين لا يوادون من حادَّ الله ورسوله ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ وقرأ المفضل عن عاصم «كُتِبَ» برفع الكاف والنون من «الإيمان». وفي معنى «كتب» خمسة أقوال: أحدها: أثبت في قلوبهم الإيمان، قاله الربيع بن أنس. والثاني: جعل، قاله مقاتل. والثالث: كتب في اللوح المحفوظ أن في قلوبهم الإيمان، حكاه الماوردي. والرابع: حكم لهم بالإيمان. وإنما ذكر القلوب، لأنها موضع الإيمان، ذكره الثعلبي. والخامس: جمع في قلوبهم الإيمان حتى استكملوه، قاله الواحدي.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُمْ﴾ أي: قوَّاهم ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ وفي المراد «بالروح» ها هنا خمسة أقوال: أحدها: أنه النصر، قاله ابن عباس، والحسن. فعلى هذا سمي النصر روحاً، لأن أمرهم يحيا به. والثاني: الإيمان، قاله السدي. والثالث: القرآن، قاله الربيع. والرابع: الرحمة، قاله مقاتل. والخامس: جبريل ﷺ أيدهم به يوم بدر، ذكره الماوردي. فأما ﴿حَزَبَ أَلُو﴾ فقال الزجاج: هم الداخلون في الجمع الذين اصطفاهم وارتضاهم، و«ألا» كلمة تنبيه وتوكيد للقصة.



(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣١٠ عن ابن جرير قال: حدثت أن أبا قحافة... الخ، وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» ١٦٦: نقله الثعلبي عن ابن جرير قال: حدثت أن أبا قحافة... فذكره.

سورة الحشر

وهي مدنية كلها بإجماعهم

وذكر المفسرون أن جميعها أنزلت في بني النضير^(١). وكان ابن عباس يسمي هذه السورة «سورة بني النضير»^(٢) وهذه الإشارة إلى قصتهم.

ذكر أهل العلم بالتفسير والتسير: أن رسول الله ﷺ خرج إلى مسجد قباء، ومعه نفر من أصحابه، فصلّى فيه، ثم أتى بني النضير، فكلمهم أن يعينوه في دية رجلين كان قد أمتنهما، فقتلها عمرو بن أمية الضمري وهو لا يعلم، فقالوا: نفعل، وهُمُوا بِالْقَدْرِ به، وقال عمرو بن جحاش: أنا أظهر على البيت، فأطرح عليه صخرة، فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا، والله ليُخَبِرَنَّ بما همتم به، وجاء رسول الله ﷺ الخُبْرُ، فنهض سريماً، فتوجه إلى المدينة، فلحقه أصحابه، فقالوا: قمت ولم نشعر! فقال: هَمَّتْ يَهُودُ بِالغَدْرِ، فأخبرني الله بذلك، فقمت، وبعث إليهم رسول الله محمد بن مسلمة: أن اخرجوا من بلدي، فلا تساكنوني، وقد همتم بما همتم به، وقد أجَلتكم عشراً^(٣). فمن رثي بعد ذلك ضربت عنقه، فمكثوا أياماً يتجهّزون، فأرسل إليهم ابنُ أَبِي: لا تخرجوا، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم، وتَمَدُّكُمْ قريظة، وحلفاؤكم من غطفان، وطمع حُيَيِّ فيما قال ابن أبي، فأرسل إلى رسول الله ﷺ: إنا لا نخرج، فاصنع ما بدا لك، فكبر رسول الله ﷺ، وكبر المسلمون لتكبيره، وقال: حاربت يهود، ثم سار إليهم في أصحابه، فلما رأوه، قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارة، فاعتزلتهم قريظة، وخذلهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، وكان رئيسهم كعب بن الأشرف قد خرج إلى مكة فعاقد المشركين على التظاهر على رسول الله، فأخبر الله رسوله بذلك، فبعث محمد بن مسلمة فاعتزّه فقتله، وحاصرهم رسول الله، وقطع نخلهم، فقالوا: نحن نخرج عن بلادك، فأجلاهم عن المدينة، فمضى بعضهم إلى الشام، وبعضهم إلى خيبر، وقبض سلاحهم وأموالهم، فوجد خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً^(٤). فأما التفسير فقد ذكرنا فاتحة هذه السورة في [الحديد]: ١.

(١) وهم طائفة من اليهود أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة بعدما تقضوا العهد الذي بينه وبينهم على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أحد كما ذكر ذلك عبد الرزاق في «مصنّفه» عن معمر بن الزهري عن عروة.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» ٢٥٦/٧ عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس سورة الحشر؟ قال: قل: سورة النضير. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤٨٣/٨: كأنه كره تسميتها بالحشر، لئلا يظن أن المراد: يوم القيامة، وإنما المراد به هنا: إخراج بني النضير.

(٣) هكذا رواية ابن سعد: «وقد أجَلتكم عشراً». والذي في «دلائل النبوة» للبيهقي كما في «فتح الباري» ٢٥٤/٧ من حديث محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني النضير وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام.

(٤) روى هذا الخبر ابن سعد في «الطبقات» ٥٧/٢، ٥٨ في غزوة بني النضير، وذكره ابن هشام في «السيرة» ١٩٠/٢ بنحوه من رواية ابن إسحاق، وانظر «البداية والنهاية» لابن كثير الدمشقي ٧٥/٤، و«شرح المواهب اللدنية للزرقاني» ٩٥/٢، ٩٦. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٥٥/٧: وروى ابن مردويه قصة بني النضير بإسناد صحيح إلى معمر بن الزهري: أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبي وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر يهددونهم بإيوائهم النبي ﷺ وأصحابه ويتوعدونهم أن يغزوهم بجميع العرب، فهم ابن أبي ومن معه يقتال المسلمين، فأتاهم النبي ﷺ فقال: ما كادكم أحد بمثل ما كادتكم قريش، يريدون أن تلقوا بأسكم بينكم، فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فترقوا، فلما كانت وقعة بدر كتب كفار قريش بعدها إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون يتهدّدونهم، فأجمع بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك أتبعناك، ففعل، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع وصحبهم بالكتائب فحصرهم يومه، ثم غدا على بني قريظة، فحاصرهم، فهاهده، فانصرف عنهم إلى بني النضير، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا السلاح، فاحتلوا حتى أبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها ويحملون ما يوافقهم من خشبها. وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام، قال الحافظ: وكذا أخرجه عبد بن حميد في «تفسيره» عن عبد الرزاق، قال: وفي ذلك رد على ابن التين في زعمه أنه ليس في هذه القصة حديث بإسناد. قلت (القاتل ابن حجر): فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق من أن سبب غزوة بني النضير طلبه ﷺ أن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ① هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَنَّاهُمْ عَنْهُمْ فَرَغُوا مِنْ اللَّهِ فَأَنزَلَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُجْرُونَ يُدْعِمُ بِالْبُدَيْمِ وَيُدْعِمُ الْمُؤْمِنِينَ فَأَعْرِضُوا يَتَّوَلُوا الْأَيْمِينَ ② وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَائَةَ لَمَذَّبْنَاهُمْ فِي الذُّلْيَا وَلَمْ يَكُنْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَبْتُمَهَا فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ⑤

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: يهود بني النضير ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي: من منازلهم ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنهم أول من حُشر وأخرج من داره، قاله ابن عباس. وقال ابن السائب: هم أول مَنْ نفي من أهل الكتاب. والثاني: أن هذا كان أول حشرهم، والحشر الثاني: إلى أرض المحشر يوم القيامة، قاله الحسن. قال عكرمة: من شك أن المحشر إلى الشام فليقرأ هذه الآية، وأن النبي ﷺ قال لهم يومئذ: اخرجوا، فقالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر^(١). والثالث: أن هذا كان أول حشرهم. والحشر الثاني: نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، قاله قتادة. والرابع: أن هذا كان أول حشرهم من المدينة، والحشر الثاني: من خيبر^(٢)، وجميع جزيرة العرب إلى أذربا^(٣)، وأريحا^(٤) من أرض الشام في أيام عمر بن الخطاب، قاله مرة الهمداني.

قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ﴾ يخاطب المؤمنين ﴿أَنْ يَخْرُجُوا﴾ من ديارهم لعزهم، ومنتبتهم، وخصونهم ﴿وظننوا﴾ يعني: بني النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله ﴿فَأَنزَلَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ وذلك أنه أمر نبيه بقتالهم وإجلائهم، ولم يكونوا يظنون أن ذلك يكون، ولا يحسبونه، ﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ﴾ لخوفهم من رسول الله ﷺ، وقيل: لقتل سيدهم كعب بن الأشرف ﴿يُجْرُونَ يُدْعِمُ بِالْبُدَيْمِ وَيُدْعِمُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ أبو عمرو «يُخْرِبُونَ» بالتشديد. وقرأ الباقر «يُخْرِبُونَ». وهل بينهما فرق، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أن المشددة معناها: النقص والهدم. والمخففة معناها: يخرجون منها ويتروكها خراباً معطلة، حكاه ابن جرير. روي عن أبي عمرو أنه قال: إنما اخترت التشديد، لأن بني النضير نقضوا منازلهم، ولم يرتحلوا عنها وهي معمورة. والثاني: أن القراءتين بمعنى واحد. والتخريب والإخراب لغتان بمعنى، حكاه ابن جرير عن أهل اللغة^(٥). وللمفسرين فيما فعلوا بمنزلهم أربعة أقوال: أحدها: أنه كان المسلمون كلما ظهروا على دار من دُورهم هدموها ليتسع لهم مكان القتال، وكانوا هم يقبضون دورهم، فيخرجون إلى ما يليها، قاله ابن عباس. والثاني: أنه كان المسلمون كلما هدموا شيئاً من حصونهم نقضوا ما يتنون به الذي خربه المسلمون، قاله الضحاك. والثالث: أنهم كانوا ينظرون إلى الخشبة في منازلهم، أو العمود، أو الباب، فيستحسنونه، فيهدمون البيوت، وينزعون ذلك منها، ويحملونه معهم، ويخرب المؤمنون باقيها، قاله الزهري. والرابع: أنهم كانوا يخرجونها لثلاث يسكنها المؤمنون، حسداً منهم وبغياً، قاله ابن زيد.

= يعنيه في دية الرجلين، لكن وافق ابن إسحاق جلَّ أهل المغازي، قاله أعلم. اهـ.

(١) روى ابن أبي حاتم عن أبيه حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن أبي سعد عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ.

(٢) وذلك أن رسول الله ﷺ لما أجلي يهود بني النضير من المدينة لندوم، ذهبوا إلى خيبر، وأذربا، وخبير مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية بُرُود (٩٦ ميلاً) من المدينة إلى جهة الشام، فتحها رسول الله سنة سبع من الهجرة. وقد روى البخاري في «صحيحه» عن أنس بن مالك ﷺ قال: صبحتنا خيبر بكرة، فخرج أهلها بالمساحي (آلات الحرب) فلما بصروا بالنبي ﷺ قالوا: محمد والله، محمد والخميس (الجيش) فقال النبي ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»، وكذلك رواه مسلم، ثم بعدما فتحها رسول الله ﷺ قسم غنائمها، فأعطى الراجل سهماً، والفراس ثلاثة أسهم، بعد أن خسها خمسة أجزاء، ثم دفعها لأهل خيبر ليعملوا فيها بشرط ما يخرج منها من ثمر أو زرع على أن يخرجهم منها إذا شاء، فاستمروا على ذلك إلى خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، إلى أن وقعت منهم خيانة وغدر لبعض المسلمين فأجلاهم إلى الشام بعد أن استشار في ذلك الصحابة ﷺ.

(٣) أذربا: بفتح الهمزة، وسكون اللال، وكسر الراء، وعين مهمله، وألف، وتاء: بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان، والنسب إليها أذري، وقد خرج منها طائفة من أهل العلم.

(٤) أريحا: بفتح الهمزة وكسر الراء وياء ساكنة وهاء مهمله وألف بالقصر: مدينة في الغور من أرض الأردن بالشام.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندي قراءة من قرأ بالتخفيف لإجماع الحجة من القراء عليه. اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ الاعتبار: النظر في الأمور، ليعرف بها شيء آخر من جنسها، و «الابصار» العقول. والمعنى: تدبروا ما نزل بهم ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ﴾ أي: قضى ﴿عَلَيْهِمُ الْجَمْلَةَ﴾ وهو خروجهم من أوطانهم. وذكر الماوردي بين الإخراج والجلاء فرقين: أحدهما: أن الجلاء: ما كان مع الأهل والولد، والإخراج: قد يكون مع بقاء الأهل والولد. والثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة. والإخراج: قد يكون لواحد ولجماعة. والمعنى: لولا أن الله قضى عليهم بالخروج ﴿لَمَدَّبْتُمْ فِي الذَّنْبِ﴾ بالقتل والسبي، كما فعل بقرينة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ مع ما حل بهم في الدنيا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذلك الذي أصابهم ﴿يَأْتُهُمْ سَأْوَأُ اللَّهِ﴾ وقد سبق بيان الآية [الانفاذ: ١١٣] و [محمد: ١٣٢]. قال القاضي أبو يعلى: فقد دلت هذه الآية على جواز مصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير سبي ولا استرقاق، ولا جزية، ولا دخول في ذمة، وهذا حكم منسوخ إذا كان في المسلمين قوة على قتالهم، لأن الله تعالى أمر بقتال الكفار حتى يسلموا، أو يؤدوا الجزية. وإنما يجوز هذا الحكم إذا عجز المسلمون عن مقاومتهم فلم يقدروا على إدخالهم في الإسلام أو الذمة، يجوز لهم حينئذ مصالحتهم على الجلاء من بلادهم. وفي هذه القصة دلالة على جواز مصالحتهم على مجهول من المال، لأن النبي ﷺ صالحهم على أرضهم، وعلى الحلقة، وترك لهم ما أقلت الإبل، وذلك مجهول.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير، وقطع، فنزلت هذه الآية، أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر^(١). وذكر المفسرون أنه لما نزلت ببني النضير تحصنوا في حصونهم، فأمر بقطع نخيلهم، وإحراقها، فجزعوا، وقالوا: يا محمد زعمت أنك تريد الإصلاح، أفمن الصلاح عقر الشجر، وقطع النخل؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك الفساد في الأرض؟ فشق ذلك على رسول الله ﷺ، ووجد المسلمون في أنفسهم من قولهم. واختلف المسلمون، فقال بعضهم: لا تقطعوا، فإنه مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: بل نغيظهم بقطعها، فنزلت هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله تعالى^(٢). وفي المراد «باللينة» ستة أقوال: أحدها: أنه النخل كله ما خلا العجوة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وبه قال عكرمة، وقتادة، والفراء. والثاني: أنه النخل والشجر، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أنها ألوان النخل كلها إلا العجوة، والبرنية، قاله الزهري، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. وقال الزجاج: أهل المدينة يسمون جميع النخيل: الألوان، ما خلا البرني والعجوة. وأصل «الينة»: لؤنة، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها. والرابع: أنها النخل كله، قاله مجاهد وعطية، وابن زيد. قال ابن جرير: معنى الآية: ما قطعتم من ألوان النخيل. والخامس: أنها كرام النخل، قاله سفيان. والسادس: أنها ضرب من النخل يقال لتمرها: اللون، وهي شديدة الصفرة، ترى نواه من خارج، وكان أعجب ثمرهم إليهم^(٣)، قاله مقاتل^(٤). وفي عدد ما قطع المسلمون ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قطعوا وأحرقوا ست نخلات، قاله الضحاك. والثاني: أحرقوا نخلة وقطعوا نخلة، قاله ابن إسحاق. والثالث: قطعوا أربع نخلات، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال يزيد بن رومان ومقاتل: بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿وَالْيَحْزِيَّةَ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني اليهود. وخزيمهم: أن يُرهبهم أموالهم يتحكّم فيها المؤمنون كيف أحبوا. والمعنى: وليحزبي الفاسقين، أذن في ذلك، ودل على المحذوف قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

﴿وَمَا آتَاكُمْ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿مَا آتَاكُمْ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا

(١) البخاري في «صحيحه» ٢٥٦/٧ و ٤٨٣/٨، ومسلم ١٣٦٥/٣، ١٣٦٦.

(٢) الواحدي في «أسباب النزول» ٣١٢، ورواه الطبري ٣٤/٢٨ من رواية ابن إسحاق، ثنا يزيد بن رومان.

(٣) في الأصل: إليه.

(٤) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك قول من قال: اللينة: النخلة، وهو من ألوان النخل ما لم تكن عجوة.

يُنذِرُهُمْ وَأَمْرُهُمْ بِيَتُونِ فَضَلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَرَضَوْنَ اللَّهَ وَرِضْوَانَهُ أَوْلَيْتُكُمْ هُمْ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مِنْ هَاجِرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْمَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي: مارءٌ عليهم ﴿مِنْهُمْ﴾ يعني: من بني النضير ﴿فَمَا أَرْحَمْتَهُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ قال أبو عبيدة؛ الإيجاف: الإيضاع، والركاب: الإبل. قال ابن قتيبة: يقال: وجف الفرس والبعير، وأوجفته، ومثله: الإيضاع، وهو الإسراع في السير. وقال الزجاج: معنى الآية: أنه لا شيء لكم في هذا، إنما هو لرسول الله ﷺ خاصة. قال المفسرون: طلب المسلمون من رسول الله ﷺ أن يخمس أموال بني النضير لما أجلوا، فنزلت هذه الآية تبين أنها فيء لم تحصل لهم بمحاربتهم، وإنما هو بتسليط رسول الله ﷺ، فهو له خاصة، يفعل فيه ما يشاء، فقسمه رسول الله ﷺ بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منه شيئاً، إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم: أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة. ثم ذكر حكم الفيء فقال تعالى: ﴿مَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أي من أموال كفار أهل القرى: ﴿فَلِلَّهِ﴾ أي: يأمركم فيه بما أحب، ﴿وَلِرَسُولِهِ﴾ بتحليل الله إياه. وقد ذكرنا ذوي القربى واليتامى في [الأنفال: ٤١] وذكرنا هناك الفرق بين الفيء والغنيمة.

فصل

واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فذهب قوم: أن المراد بالفيء هاهنا: الغنيمة التي يأخذها المسلمون من أموال الكافرين عنوة، وكانت في بدو الإسلام للذين سأمهم الله هاهنا دون الغالبيين^(١) الموجفين عليه، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى في [الأنفال: ٤١]: ﴿وَأَقْلَبُوا مَا مَتَّعْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ وَبِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. هذا قول قتادة ويزيد بن رومان. وذهب قوم إلى أن هذا الفيء: ما أخذ من أموال المشركين ما لم يوجف بخيل ولا ركاب، كالصلح، والجزية، والعشور ومال من مات منهم في دار الإسلام ولا وارث له، فهذا كان يقسم في زمن رسول الله ﷺ خمسة أخماس، فأربعة لرسول الله ﷺ يفعل بها ما يشاء، والخمس الباقي للمذكورين في هذه الآية. واختلف العلماء فيما يصنع بسهم رسول الله ﷺ بعد موته على ما بيننا في [الأنفال: ٤١] فعلى هذا تكون هذه الآية مثبتة لحكم الفيء والتي في [الأنفال: ٤١] مثبتة لحكم الغنيمة، فلا يتوجه النسخ^(٢).

قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ﴾ يعني: الفيء ﴿ذُولَةً﴾ وهو اسم للشيء يتداوله القوم. والمعنى: لتلا يتداوله الأغنياء بينهم فيغلبوا الفقراء عليه. قال الزجاج: الذولة؛ اسم الشيء يتداول. والذولة، بالفتح: الفعل والانتقال من حال إلى حال. ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ﴾ من الفيء ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْكُمْ﴾ عن أخذه ﴿فَاتَّقُوا﴾ وهذا نزل في أمر الفيء. وهو عام في كل ما أمر به، ونهى عنه^(٣). قال الزجاج: ثم بين من المساكين الذين لهم الحق، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ

(١) في الأصل: العالمين.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى مبيهاً ما الفيء؟ وما قسمته؟ وما حكمها؟ فالفيء: كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي: لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصالحة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ، فأفاده الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء، فرده على المسلمين في وجه البر والمصالح التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآية فقال تعالى: ﴿مَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أي من بني النضير ﴿فَمَا أَرْحَمْتَهُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يعني الإبل ﴿وَلَيْكِنَّ اللَّهُ يَسْئَلُ شَيْئًا مِمَّنْ يَبْتَئِ اللَّهُ عَلَيْهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ جَزَاءٌ﴾ أي هو قدير لا يغال ولا يمانع، بل هو القاهر لكل شيء، ثم قال تعالى: ﴿مَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أي: جميع البلدان التي تفتح هكذا، فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ لِزِينَةِ الرَّسُولِ وَكَانَ فِي قُلُوبِهِمُ الْغِلُّ وَالْحَبْأَةُ الْأَخْسَرُ﴾.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ يقول تعالى ذكروه: وما أعطاكم رسول الله ﷺ مما آفاه الله عليه من أهل القرى فنخذوه، ﴿وَمَا نَهَيْكُمْ عَنْهُ﴾ من الغلول وغيره من الأمور: ﴿فَاتَّقُوا﴾. اهـ. وقال ابن كثير: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْكُمْ عَنْهُ فَاتَّقُوا﴾ أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر. اهـ. وقال الشوكاني في فتح القدير: والحق أن هذه الآية عامة في كل =

أَفْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴿١﴾ قال المفسرون: يعني بهم المهاجرين ﴿يَتَّبِعُونَ نَصْرًا مِنْ اللَّهِ﴾ أي: رزقاً يأتيهم ﴿وَرِضْوَانًا﴾ رضا ربهم حين خرجوا إلى دار الهجرة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ في إيمانهم. ثم مدح الأنصار حين طابت أنفسهم عن الفداء، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ﴾ يعني: دار الهجرة، وهي المدينة ﴿وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فيها تقديم وتأخير، تقديره: والذين تبوؤوا الدار من قبلهم، أي: من قبل المهاجرين، والإيمان عطف على «الدار» في الظاهر، لا في المعنى، لأن «الإيمان» ليس بمكان يتبوأ، وإنما تقديره: وآثروا الإيمان، وإسلام المهاجرين قبل الأنصار، وسكنى الأنصار المدينة قبل المهاجرين. وقيل: الكلام على ظاهره، والمعنى: تبوؤوا الدار والإيمان قبل الهجرة ﴿حُجْرًا مِّنْ حَاجَرِ الْإِيمَانِ﴾ وذلك أنهم شاركوهم في منازلهم، وأموالهم، ﴿وَلَا يَحْدُونُ فِي سُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ أي: حسداً وغيظاً مما أوتي المهاجرون. وفيما أوتوه قولان: أحدهما: مال الفداء، قاله الحسن. وقد ذكرنا آنفاً أن النبي ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين، ولم يعط من الأنصار غير ثلاثة نفر. والثاني: الفضل والتقدم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَرِزْقًا مِّنْ دِيَارِهِمْ﴾ بأموالهم ومنازلهم ﴿وَلَوْ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حَصَصَةٌ﴾ أي فقر وحاجة، فبين الله ﷻ أن يثأرهم لم يكن عن غنى^(١). وفي سبب نزول هذا الكلام قولان: أحدهما: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ، وقد أصابه الجهد، فقال: يا رسول الله؛ إني جائع فأطعمني، فبعث رسول الله ﷺ إلى أزواجه: هل عندكن شيء؟ فكلهن قلن: والذي بعثك بالحق ما عندنا إلا الماء، فقال: ما عند رسول الله ﷺ ما يطعمك هذه الليلة. ثم قال: «مَنْ يَضِيفُ هَذَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ؟» فقام رجل فقال: أنا يا رسول الله، فأتى به منزله، فقال لأهله: هذا ضيف رسول الله ﷺ، فأكرمه ولا تدخري عنه شيئاً، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، فقال: قومي فعلمهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعموا شيئاً، ثم أصبح سراجك^(٢)، فإذا أخذ الضيف لياكل، قومي كأنك تصلحين السراج، فأطفيئه، وتعالى نمضغ ألسنتنا لأجل ضيف رسول الله ﷺ حتى يشبع، ففعلت ذلك، وظن الضيف أنها يأكلان معه، فشيح هو، وياتا طاويين، فلما أصبحا عَدَدَا إلى رسول الله ﷺ، فلما نظر إليهما تبسّم، ثم قال: ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما^(٣)، فأنزل الله تعالى: ﴿وَرِزْقًا مِّنْ دِيَارِهِمْ وَلَوْ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حَصَصَةٌ﴾ الآية. أخرجه البخاري ومسلم في «الصححين» من حديث أبي هريرة^(٤). وفي بعض الألفاظ عن أبي هريرة: أن الضيف كان من أهل الضفة، والمضيف كان من الأنصار، وأن

شيء يأتي به رسول الله ﷺ من أمر أو نهي أو قول أو فعل، وإن كان السبب خاصاً، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكل شيء أتانا به من الشرع، نند أعطانا إياه وأوصلنا إليه، قال: وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها! ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرسول وترك ما نهاهم عنه، أمرهم بتقواه وخوفهم شدة عقوبته فقال: ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فهو معاقب من لم يأخذ ما أتاه الرسول ولم يترك ما نهاه عنه. اهـ. وقد روى الإمام أحمد في «المسنَد»، والبخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن علقمة قال: قال عبد الله بن مسعود ﷺ: لعن الله الواشعات والمستوشعات، والمتنصعات والمقلعات للحسن المعثرات خلق الله ﷻ، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، فجماعت إليه فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، قال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله ١٩ قالت: لقد قرأت ما بين لوعي المصحف فما وجدت فيه شيئاً من هذا؟ قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدت فيه، أما قرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفِّرُوا بَيْنَكُمْ عَنَّا تَابَعُوا﴾ ١٩ قالت: بلى، قال: فإن رسول الله ﷺ قد نهي عنه... وروى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

(١) ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل» وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله تعالى بقوله: ﴿وَرِزْقًا مِّنْ دِيَارِهِمْ﴾ وقاله: ﴿وَمَا أَكَلْنَا مِنْ ثَمَرِهِمْ﴾ فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوا، من هذا الباب تصدق الصديق ﷺ بجميع ماله، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال ﷺ: أبقيت لهم الله ورسوله، وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثل أروح ما يكون إليه، فرده الآخر إلى الثالث، حتى وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم، ﷻ وأرضاهم.

(٢) أي أرقديه.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: نسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية، والمراد بهما: الرضا بصنيعيهما؛ وقوله «فعالكما» وفي رواية «فعالكما» بالفراد، قال في «البارع»: الفعال بالفتح: اسم الفعل الحسن، مثل الجود والكرم، قال: وفي «التهديب»: الفعال بالفتح: فعل الواحد في الخير خاصة، يقال: هو كريم الفعال بفتح الفاء، وقد يستعمل في الشر. والفعال بالكسر: إذا كان الفعل بين اثنين، يعني أنه مصدر فاعل، مثل قاتل قتلاً.

(٤) البخاري في «صحيحه» ٧/٩٠، ٩١، و٤٨٤/٨، ومسلم ٣/١٦٢٤.

النبي ﷺ قال: «لقد عجب من فعالكما أهل السماء»^(١). والثاني: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ أهدي له رأس شاة، فقال: إن أخي فلاناً وعياله أروح إلى هذا منا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى واحد حتى تداولها سبعة أهل أبيات، حتى رجعت إلى أولئك، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عمر^(٢). وروي نحو هذه القصة عن أنس بن مالك قال: أهدي لبعض الصحابة رأس شاة مشوي، وكان مجهوداً، فوجه به إلى جارية له فتناوله تسعة أنفس، ثم عاد إلى الأول، فنزلت هذه الآية^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ وقرأ ابن السميع، وأبو رجاء «ومن يُوقِ» بتشديد القاف. قال المفسرون: هو أن لا يأخذ شيئاً مما نهاه الله عنه، ولا يمتنع شيئاً أمره الله بأدائه. والمعنى: أن الأنصار ممن وقى شح نفسه حين طابت أنفسهم بترك الفداء للمهاجرين.

فصل

وقد اختلف العلماء في الشح والبخل، هل بينهما فرق، أم لا؟ فقال ابن جرير: الشح في كلام العرب: هو منع الفضل من المال. وقال أبو سليمان الخطابي: الشح أبلغ في المنع من البخل، وإنما الشح بمنزلة الجنس والبخل بمنزلة النوع، وأكثر ما يقال في البخل: إنما هو في أفراد الأمور وخواص الأشياء، والشح عام، فهو كالوصف اللازم للإنسان من قبيل الطبع والحيطة. وحكى الخطابي عن بعضهم أنه قال: البخل: أن يَصْمُ بِماله، والشح: أن يبخل بماله ومعروفه. وقد روى أبو الشعثاء أن رجلاً أتى ابن مسعود فقال: إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال: وما ذاك؟ قال: أسمع الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال: ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله في القرآن، الشح: أن تأكل مال أخيك ظملاً، إنما ذلك البخل، وبش الشيء البخل^(٤). وروي أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «برئ من الشح من أدى الزكاة، وقَرَى الضيف، وأعطى في النائة»^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني التابعين إلى يوم القيامة. قال الزجاج: والمعنى: ما أفاء الله على رسوله فله وللرسول ولهؤلاء المسلمين، وللذين يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة ما أقاموا على محبة أصحاب رسول الله ﷺ، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الذين جاؤوا في حال قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْنِزْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ فمن ترحم على أصحاب رسول الله ﷺ ولم يكن في قلبه غلٌ لهم، فله حظٌ من فداء المسلمين، ومن شتمهم ولم يترحم عليهم، وكان في قلبه غلٌ لهم، فما جعل الله له حقاً في شيء من فداء المسلمين بنص الكتاب. وكذلك روى عن مالك بن أنس رضي الله عنه أنه قال: من تنقص أصحاب رسول الله ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غلٌ، فليس له حق في فداء المسلمين، ثم تلا هذه الآيات.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ

(١) كذا لفظ الحديث في «أسباب النزول» للواحدى ٣١٣، ٣١٤، وكون المضيف من الأنصار ثابت في «الصحيحين». وأهل الشفة: أضياف الإسلام من قراء المهاجرين، ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه، كانوا يبيتون في مسجد رسول الله ﷺ، والشفة: موضع مظلل من المسجد كانوا يأوون إليه.

(٢) رواه الواحدى في «أسباب النزول» ٣١٤ عن عبد الله بن عمر، وفي سننه عبيد الله بن الوليد الوصافي، قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: ضعيف. والحديث رواه الحاكم في «المستدرک» ٤٨٤/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: قلت: عبيد الله بن الوليد، ضعفوه. وأورده السيوطي في «الدرر» ١٩٥/٦ وزاد نسبه لابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» في رواية البخاري الأولى: هذا هو الأصح في سبب نزول هذه الآية، ثم ذكر رواية ابن مردويه هذه وقال: ويحتمل أن تكون نزلت بسبب ذلك كله. اهـ.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» ٢٥/١٨ ونسبه إلى الثعلبي عن أنس، بلفظ: «فتناولت سبعة أنفس في سبعة أبيات» بدل «فتناولت تسعة أنفس».

(٤) رواه ابن جرير: ٤٣/٢٨، وذكره ابن كثير ٣٣٩/٤ ونسبه إلى ابن أبي حاتم، وإسناده صحيح، إلا أن السمعودي أحد رواه اختلط قبل موته.

(٥) رواه ابن جرير الطبري ٤٤/٢٨ وفي سننه ضعف، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٩٧/٦ وزاد نسبه لابن مردويه، والبيهقي عن أنس رضي الله عنه. وقد روى مسلم في «صحيحه» ١٩٩٦/٤ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنْصُرَكُمْ وَاللَّهُ يَتَذَرُكُمْ لِنَفْسِهِ لَكُلِّيُونَ ﴿١١﴾ لَيْنٌ أُخْرِجُوا لَا يَحْرَمُونَ مَعَهُمْ وَلَيْنٌ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُهُمْ وَلَيْنٌ نَصْرُهُمْ لِيُؤَلِّبُوا الْإِدْبَرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنْتُمْ قَوْمٌ لَا تَبْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَتَّقِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحْتَصِنَةٍ أَوْ مِنْ وَدَّعِ جُدُرٍ بِأَسْهُرٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقِيَّةٌ ذَلِكَ بِأَنْتُمْ قَوْمٌ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ كَتَلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتًا وَإِلَّآ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَتَلَّ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْمَالِكِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا آتِمًا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ يعني: عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في الدين، لأنهم كفار مثلهم، وهم اليهود ﴿لَيْنٌ أُخْرِجْتُمْ﴾ من المدينة ﴿لَتَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا تُطِيعُكُمْ﴾ أي: في خذلانكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ فكذبهم الله تعالى في ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَتَذَرُكُمْ لِنَفْسِهِ لَكُلِّيُونَ﴾ ثم ذكر أنهم يخلفونهم ما وعدوهم من الخروج والنصر بالآية التي تلي هذه، فكان الأمر على ما ذكره الله تعالى، لأنهم أخرجوا فلم يخرج معهم المنافقون، وقوتلوا فلم ينصروهم، ومعنى ﴿وَلَيْنٌ نَصْرُهُمْ﴾: لئن قدر وجود نصرهم، لأن الله نفى نصرهم، فلا يجوز وجوده. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَا يَنْصُرُهُمْ﴾ يعني: بني النضير.

قوله تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ﴾ يعني: المؤمنين أشد ﴿رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم المنافقون، قاله مقاتل. والثاني: بنو النضير، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّقِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله الأكثرون. والثاني: اليهود والمنافقون، قاله أبو سليمان الدمشقي. والمعنى: أنهم لا يبرزون لحربكم، إنما يقاتلون مُتَحَصِّنِينَ ﴿فِي قُرَى مُحْتَصِنَةٍ أَوْ مِنْ وَدَّعِ جُدُرٍ﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبان «جدار» بآلف. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي «جُدْر» بضم الجيم والدال. وقرأ أبو بكر الصديق، وابن أبي عبلة «جُدْر» بفتح الجيم والدال جميعاً، وقرأ عمر بن الخطاب، ومعاوية، وعاصم الجحدري «جُدْر» بفتح الجيم وسكون الدال. وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعكرمة، والحسن، وابن سيرين، وابن يعمر «جُدْر» بضم الجيم وإسكان الدال. ﴿بِأَسْهُرٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ فيما وراء الحصون شديد، وإذا خرجوا إليكم فهم أجبن خلق الله.

قوله تعالى: ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود والمنافقون، قاله مقاتل. والثاني: بنو النضير، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَقِيَّةٌ﴾ قال الزجاج: أي: هم مختلفون لا تستوي قلوبهم، ولا يتعاونون بنيات مجتمعة، لأن الله تعالى ناصر حزبه، وخاذل أعدائه.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: ذلك الاختلاف ﴿بِأَنْتُمْ قَوْمٌ لَا يَتَّقِلُونَ﴾ ما فيه الحفظ لهم. ثم ضرب لليهود مثلاً، فقال تعالى: ﴿كَتَلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: بنو قينقاع، وكانوا وادعوا رسول الله، ثم غدروا، فحصرهم، ثم نزلوا على حكمه أن له أموالهم، ولهم النساء والأرضية. فالمعنى: مثل بني النضير فيما فعل بهم كبنى قينقاع فيما فعل بهم. والثاني: أنهم كفار قريش يوم بدر، قاله مجاهد. والمعنى: مثل هؤلاء اليهود كمثل المشركين الذين كانوا من قبلهم قريباً، وذلك لقرب غزاة بني النضير من غزاة بدر. والثالث: أنهم بنو قريظة، فالمعنى: مثل بني النضير كبنى قريظة ﴿ذَاتًا وَإِلَّآ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ بأن قُتِلت مقاتلتهم، وسُبيت ذراريهم، وهؤلاء أجلوا عن ديارهم فذاقوا وبال أمرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً فقال تعالى: ﴿كَتَلَّ الشَّيْطَانُ﴾. والمعنى: مثل المنافقين في غرورهم بني النضير، وقولهم: لئن أخرجتم لنخرجن معكم، ولئن قوتلتن لننصرنكم، كمثل الشيطان: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه مثل ضربه الله تعالى للكافر في طاعة الشيطان، وهو عام في جميع الناس، قاله مجاهد. والثاني: أنه مثل ضربه الله لشخص معين، وعلى هذا جمهور المفسرين، وهذا شرح قصته. ذكر أهل التفسير أن عابداً من بني إسرائيل كان يقال له: برصيصة تعبد في صومعة له أربعين سنة لا يقدر عليه الشيطان، فجمع إبليس يوماً مردة الشياطين، فقال: ألا أحد منكم يكفيني برصيصة، فقال الأبيض، وهو صاحب الأنبياء: أنا

أفكيكه، فانطلق على صفة الرهبان، وأتى صومعته، فناده فلم يجبه، وكان لا يفتل عن صلاته إلا في كل عشرة أيام، ولا يفطر إلا في كل عشرة أيام، فلما رأى أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته، فلما انتقل برصيصة، أطلع فرأه منتصباً يصلي على هيئة حسنة، فناده: ما حاجتك؟ فقال: إني أحببت أن أكون معك، أقتبس من عملك، وأتأدّب بأدبك، ونجتمع على العبادة، فقال برصيصة: إني لفي شغل عنك، ثم أقبل على صلاته، وأقبل الأبييض يصلي، فلم يُقْبَلْ إليه برصيصة أربعين يوماً، ثم انتقل، فرأه يصلي، فلما رأى شدة اجتهاده قال: ما حاجتك؟ فأعاد عليه القول، فأذن له، فصعد إليه، فأقام معه حولاً لا يفطر إلا كل أربعين يوماً، ولا يفتل من صلاته إلا في كل أربعين يوماً، وربما زاد على ذلك، فلما رأى برصيصة اجتهاده، أعجبه شأنه وتقاصرت إليه نفسه، فلما حال الحول قال الأبييض لبرصيصة: إني منطلق عنك، فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً مما أرى، وكان يبلغنا عنك غير الذي أرى، فاشتد ذلك على برصيصة، وكره مفارقتها، فلما ودَّعه قال له الأبييض: إن عندي دَعَوَاتٍ أعلمكها، يشفي الله بها السقيم، ويعافي بها المبتلى، فقال برصيصة: إني أكره هذه المنزلة، لأن لي في نفسي شغلاً، أخاف أن يعلم الناس بهذا، فيشغلوني عن العبادة، فلم يزل به حتى علمه إياها، ثم انطلق إلى إبليس فقال: قد والله أهلكك الرجل، فانطلق الأبييض، فتعرَّض لرجل فخته، ثم جاءه في صورة رجل متطبّب، فقال لأهله: إن بصاحبكم جنوناً فأعالجها؟ قالوا نعم، فقال لهم: إني لا أقوى على جَنِّهِ، ولكن سأرشدكم إلى من يدعو له فيعافي، فقالوا له: دُنَّا، قال: انطلقوا إلى برصيصة العابد، فإن عنده اسم الله الأعظم، فانطلقوا إليه، فدعا بتلك الكلمات، فذهب عنهم الشيطان، وكان الأبييض يفعل بالناس ذلك، ثم يرشدهم إلى برصيصة، فيعافون، فلما طال ذلك عليه انطلق إلى جارية من بنات ملوك بني إسرائيل، لها ثلاثة إخوة، فختهها، ثم جاء إليهم في صورة متطبّب، فقال: أعالجها؟ قالوا: نعم. فقال: إن الذي عرض لها مارد لا يطاق، ولكن سأرشدكم إلى رجل تدعونها عنده، فإذا جاء شيطانها دعا لها، قالوا: ومن هو؟ قال: برصيصة، قالوا: فكيف لنا أن يقبلها منّا، وهو أعظم شأناً من ذلك؟! قال: إن قبلها، وإلا فضعوها في صومعته، وقولوا له: هي أمانة عندك، فانطلقوا إليه، فأبى عليهم، فوضعوها عنده. وفي بعض الروايات أنه قال: ضعوها في ذلك الغار، وهو غار إلى جنب صومعته، فوضعوها، فجاء الشيطان فقال له: انزل إليها فامسحها بيدك تعافي، وتتصرف إلى أهلها، فنزل، فلما دنا إلى باب الغار دخل الشيطان فيها، فإذا هي تركض، فسقطت عنها ثيابها، فنظر العابد إلى شيء لم يرمثه حسناً وجمالاً، فلم يتمالك أن وقع عليها، وضرب على أذنه، فجعل يختلف إليها إلى أن حملت، فقال له الشيطان: ويحك يا برصيصة قد افتضحت، فهل لك أن تقتل هذه وتتوب؟! فإن سألك عنها فقل: جاء شيطانها فذهب بها، فلم يزل بها حتى قتلها، ودفنها، ثم رجع إلى صومعته، فأقبل على صلاته إذ جاء إخوتها يسألون عنها، فقالوا: يا برصيصة! ما فعلت أختنا؟ قال: جاء شيطانها فذهب بها، ولم أطقه، فصدَّقوه، وانصرفوا. وفي بعض الروايات أنه قال: دعوت لها، فعافاها الله، ورجعت إليكم، فتفرَّقوا ينظرون لها أثراً، فلما أمسوا جاء الشيطان إلى كبيرهم في منامه، فقال: ويحك: إن برصيصة فعل بأختك كذا وكذا، وإنه دفنها في موضع كذا من جبل كذا، فقال: هذا حلم، وبرصيصة خير من ذلك، فتتابع عليه ثلاث ليال، ولا يكثر، فانطلق إلى الأوسط كذلك، ثم إلى الأصغر مثل ذلك، فقال الأصغر لإخوته: لقد رأيت كذا وكذا، فقال الأوسط، وأنا والله، فقال الأكبر: وأنا والله، فأتوا برصيصة، فسألوه عنها، فقال: قد أعلمتكم بحالها، فكانكم اتهمتموني، قالوا: لا والله، واستحيوا، وانصرفوا، فجاءهم الشيطان فقال: ويحكم إنها لمدفونة في موضع كذا وكذا، وإن أزارها لخارج من التراب، فانطلقوا، فحفروا عنها، فأروها، فقالوا: يا عدو الله لم قتلتها؟ اهبط، فهدموا صومعته، ثم أوثقوه، وجعلوا في عنقه حبلاً، ثم قادوه إلى الملك فأقرَّ على نفسه، وذلك أن الشيطان عرض له، فقال: تقتلها ثم تكابر، فاعترف، فأمر الملك بِقَتْلِهِ وَصَلْبِهِ، فعرض له الأبييض، فقال: أتعرفتني؟ قال: لا، أنا صاحبك الذي علمتكَ الدعوات، ويحك ما اتَّقيت الله في أمانة خنت أهلها، أما استحييت من الله؟! ألم يكفك ذلك حتى أقررت ففضحت نفسك وأشباهك بين الناس؟! فإن ميَّ على هذه الحالة لم تفلح، ولا أحد من نظرائك، قال: فكيف أصنع؟ قال: تطيعني في خصلة حتى أنجيك، وأخذ بأعينهم، وأخرجك من مكانك، قال: ما هي؟ قال: تسجد لي، فسجد له،

فقال: هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك أن كفرت ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ ثم قتل^(١١). فضرب الله هذا المثل لليهود حين عَرَّهَمُ المناقون، ثم أسلموهم.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ ونصب ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو ياء «إني» وأسكنها الباقون. وقد بينا المعنى في [الأنفال: ٤٨] ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ يعني: الشيطان وذلك الكافر.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْتُمُ اللَّهُ وَتَنْتَظِرُ نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ لِغَيْرِ اللَّهِ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سَوَّاهُ اللَّهُ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٨﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَنْتَظِرُ نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: لينظر أحدكم أي شيء قدَّم؟ أعمالاً صالحاً يُنجيه؟ أم سيئاً يُويِّقه؟ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سَوَّاهُ اللَّهُ﴾ أي: تركوا أمره ﴿فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: أنساهم حظوظ أنفسهم، فلم يعملوا بالطاعة، ولم يقدموا خيراً. قال ابن عباس: يريد قريظة، والنضير، وبني قينقاع.

﴿قُلْ أَرْزَأُكُمْ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتُمْ خَشِيماً مُضَضَّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُهُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي لَا يُؤْثِرُ فِي الْقُدُوسِ أَلْسِنَةً الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقِينَ الْغَيْرِ الْغَيْرِ الْجَبَّارِ الْمُتَكَبِّرِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرْزَأُكُمْ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ أخبر الله بهذا عن تعظيم شأن القرآن، وأنه لو جعل في جبل - على قساوته وصلابته - ميميزاً، كم جعل في بني آدم، ثم أنزل عليه القرآن لتشقق من خشية الله، وخوفاً أن لا يؤدي حق الله في تعظيم القرآن. و «الخالع» المتطاطى الخاضع، و «المتصدع»: المتشقق. وهذا توبيخ لمن لا يحترم القرآن، ولا يؤثر في قلبه مع الفهم والعقل، ويدلُّك على هذا المثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْفِتْيَانُ لَنَحْنُ خَيْرٌ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ثم أخبر بعظمته وربوبيته، فقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال الزجاج: قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ ردُّ على قوله تعالى في أول السورة: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فأما هذه الأسماء، فقد سبق ذكر «الله»، و «الرحمن»، و «الرحيم» في (الفاتحة) وذكرنا معنى «عالم الغيب والشهادة» في [الأنعام: ٧٣]. و «الملك» في سورة [المؤمنين: ١١٦]. فأما «القدوس» فقرأ أبو الأشهب، وأبو نهيك، ومعاذ القارئ بفتح القاف. قال أبو سليمان الخطابي:

(١١) الخبر بطوله أخرجه ابن جرير الطبري ٥٠/٢٨ وغيره عن ابن عباس موقوفاً عليه وإسناده ضعيف جداً، وأخرجه الحاكم في «المستدرک» ٤٨٤/٢ عن علي عليه السلام قال: كان راهب يتعبد في صومته وامرأة زيت له نفسها، فوقع عليها، فحملت، فجاه الشيطان فقال: اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك انقضت، فقتلها فدفنتها، فجاؤوا فأخذوه فذهبوا به، فبينما هم يمشون، إذ جاءه الشيطان فقال: أنا الذي زيتت لك، فاسجد لي سجدة أنجيك، فسجد له، فأنزل الله عليه: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَلِّينِي إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ الآية. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأورده السيوطي في «الدرر» ١٩٩/٦ وزاد نسبه لعبد الرزاق وابن راهويه، وأحمد في «الزهد»، والبخاري في «تاريخه»، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن علي عليه السلام. وما رواه ابن أبي الدنيا وغيره عن عبيد بن رفاعه الزرقني يبلغ به النبي صلى الله عليه وآله في قصة هذا الراهب، فلا يصح رفعها، بل الصحيح أنها موقوفة على علي عليه السلام وغيره، ولعلها من الإسرائيليات، والله أعلم. وقد أورد هذه القصة ابن كثير في «تفسيره» من رواية ابن جرير الطبري عن ابن مسعود ثم قال: وكذا روي عن ابن عباس وطاووس ومقاتل بن حيان نحو ذلك، قال: واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو «برصيصا» فإله أعلم.

وجاء في هامش نسخة الرباط بخط مغربي ما يلي:

له در الحافظ ابن الجوزي، إذ لم ينص على ضعف هذه القصة، إذ نسبها صاحب «الدر المنثور» لعبد الرزاق، وابن راهويه، وأحمد في «الزهد» وعبد بن حميد، والبخاري في «تاريخه»، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححها، وسلمه الذهبي في «التلخيص» وابن مردويه، والبيهقي عن علي موقوفاً. ثم أوردتها أيضاً من عند ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً، ثم عن ابن مسعود كذلك، أخرجه ابن جرير، ثم عن ابن أبي الدنيا، وابن مردويه، والبيهقي عن عبد الله بن رفاعه الزرقني مرفوعاً، لكن رفعها لا يصح، إنما الصحيح فيها الوقف على علي، خلافاً لقول ابن عطية لما علقها: منسوبة للخصاص ضعيفة. اهـ. فلان كاتبه محمد بن جبر إسلام. وقال الشوكاني في «فتح القدير»: والمراد بالإنسان هنا - ﴿كَذَلِكَ أَنْتَلِّينِي إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ - جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان. وقيل: هو عابد كان في بني إسرائيل حمله الشيطان على الكفر فأطاعه، فلما كفر قال: إنني بريء منك. وقيل: المراد بالإنسان هنا: أبو جهل، قال: والأول أولى اهـ. يريد بذلك عموم جنس الإنسان. وقال الرازي في «تفسيره»: أي مثل المناقنين الذين عرَّوا بني النضير بقولهم: ﴿إِنِّي أَخْرَجْتُكَ لَتَرْجِعَ مِنْكَ﴾ ﴿كَذَلِكَ أَنْتَلِّينِي إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ ثم تبرأ منه في العاقبة. اهـ.

«القدوس»: الظاهر من العيوب، المنزّه عن الأنداد والأولاد. و القدس: الطهارة. ومنه سمي: بيت المقدس، ومعناه: المكان الذي يُنظَّهُر فيه من الذنوب. وقيل للجنة: حظيرة القدس، لطهارتها من آفات الدنيا. والقدس: السطل الذي يتطهر فيه، ولم يأت من الأسماء على فِعول بضم الفاء إلا «قُدُوس»، و «سُبُوح» وقد يقال أيضاً: قُدُوس، وسُبُوح بالفتح فيهما، وهو القياس في الأسماء، كقولهم: سَفُود، وكُلُوب. فأما «السلام» فقال ابن قتيبة: سمي نفسه سلاماً، لسلامته مما يلحق الخلق من العيب والنقص والفناء. وقال الخطابي: معناه: ذو السلام. والسلام في صفة الله سبحانه: هو الذي سَلِمَ من كل عيب، ويرى من كل آفة ونقص يلحق المخلوقين. قال: وقد قيل: هو الذي سَلِمَ الخلق من ظلمه. فأما «المؤمن»، ففيه ستة أقوال: أحدها: أنه الذي آمَنَ الناسُ ظلمَهُ، وأَمِنَ مَنْ آمَنَ به عَذَابُهُ، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنه المجبر، قاله القرظي. والثالث: الذي يصدّق المؤمنون إذا وحّدوه، قاله ابن زيد. والرابع: أنه الذي وحّد نفسه، لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] ذكره الزجاج. والخامس: أنه الذي يصدّق عباده وعده، قاله ابن قتيبة. والسادس: أنه يصدّق ظنون عباده المؤمنين، ولا يُخَيَّبُ آمالَهُم، كقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما يحكيه عن ربه ﷻ: «أنا عند ظن عبدي بي»^(١) حكاه الخطابي. فأما «المهمين» ففيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الشهيد، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والكسائي. قال الخطابي: ومنه قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْنَا عِيَالَهُمُ﴾ [المائدة: ٤٨]، فالله الشاهد على خلقه بما يكون منهم من قول أو فعل. والثاني: أنه الأمين، قاله الضحّاك، قال الخطابي: وأصله: مؤيمن، فقلبت الهمزة هاء، لأن الهاء أخفُّ عليهم من الهمزة. ولم يأت مُفَيَّلٌ في غير الصغير، إلا في ثلاثة أحرف «مسيطر» و «مُبيطر» و «مهمين». وقد ذكرنا في سورة [الطور: ٣٧] عن أبي عبيدة، أنها خمسة أحرف. والثالث: المصدّق فيما أخبر، قاله ابن زيد. والرابع: أنه الرقيب على الشيء، والحافظ له، قاله الخليل. قال الخطابي: وقال بعض أهل اللغة. الهيمنة: القيام على الشيء، والرعاية له، وأنشد:

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِ
مُهَيِّمِنُهُ التَّالِيهِ فِي الْعُرْفِ وَالنُّكْرِ

يريد القائم على الناس بعده بالرعاية لهم. وقد زدنا هذا شرحاً في [المائدة: ٤٨] وبيّنا معنى «العزیز» في [البقرة: ١٢٩]. فأما «الجبار»، ففيه أربعة أقوال: أحدها: أنه العظيم، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما يريد، قاله القرظي والسدي. وقال قتادة: جبر خلقه على ما شاء. وحكى الخطابي: أنه الذي جبر الخلق على ما أراد من أمره ونهيه. يقال: جبره السلطان، وأجبره. والثالث: أنه الذي جبر مفاقر الخلق، وكفاهم أسباب المعاش والرزق. والرابع: أنه العالي فوق خلقه، من قولهم: تجبر النبات: إذا طال وعلا، ذكر القولين الخطابي. فأما «المتكبر» ففيه خمسة أقوال: أحدها: أنه الذي تكبر عن كل سوء، قاله قتادة. والثاني: أنه الذي تكبر عن ظلم عباده، قاله الزجاج. والثالث: أنه ذو الكبرياء، وهو الملك، قاله ابن الأنباري. والرابع: أنه المتعالي عن صفات الخلق. والخامس: أنه الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعه العظمة، فقصمهم، ذكرهما الخطابي. قال: والتاء في «المتكبر» تاء التفرّد، والتخصّص، لأن التعاطي والتكلف والكبر لا يليق بأحد من المخلوقين، وإنما سمة العبد الخضوع والتذلّل. وقيل: إن المتكبر من الكبرياء الذي هو عظمة الله، لا من الكبر الذي هو مذموم في الخلق^(٢). وأما «الخالق» فقال

(١) هذه قطعة من حديث قدسي رواه البخاري في «صحيحه» ٣٢٥/١٣، ومسلم ٢١٠٢/٤، ولفظه عند البخاري بتمامه: عن أبي هريرة ؓ قال: قال النبي ﷺ: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا مع ما إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باهاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». والحديث يرشد إلى تحسين الظن بالله ﷻ، ولكن حسن الظن إنما يكون لمن تاب وندم وأقلم وبدّل السيئة بالحسن، واستقبل بقية عمره بوسائل النجاة، فمن فعل ذلك، ثم أحسن الظن، فقد أحسن، وحله منحه، وأما من أساء وأصر على الكبائر، فوحشة المعاصي لا يجامعها إحسان الظن بالله تعالى. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤٢٧/١٣: قال صاحب «المشارق»: والمراد بما جاء في الحديث سرعة قبول توبة الله للعبد، أو تيسير طاعته وتقويته عليها، وتام هدانيته وتوفيقه، والله أعلم بمراده. اهـ.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ١٧٣/١٦ عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينادعني حذبه» قال النووي: هكذا هو في جميع النسخ «العز إزاره، والكبرياء رداؤه» فالضمير في «إزاره ورداؤه» يعود إلى الله تعالى، للمعلم به، وفيه محذوف =

الخطابي: هو المبتدئ للخلق المخترع لهم على غير مثال سبق، فأما في نعوت الأدميين، فمعنى الخلق: كقول زهير:
 وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَيَعُو
 ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي^(١)
 يقول: إذا قدرت شيئاً قطعته، وغيرك يقدر ما لا يقطعه، أي: يتمنى ما لا يبلغه. ﴿الْبَارِئُ﴾ الخالق. يقال:
 برأ الله الخلق يبرؤهم. و«المصوّر»: الذي أنشأ خلقه على صُوَرٍ مختلفة ليتعارفوا بها. ومعنى: التصوير: التخطيط
 والتشكيل. وقرأ الحسن، وأبو الجوزاء، وأبو عمران، وابن السميع «البارئ المصور» بفتح الواو والراء جميعاً، يعني:
 آدم ﷺ. وما بعد هذا قد تقدم بيانه [الأعراف: ١٨٠، والإسراء: ١١٠] إلى آخر السورة.



= تقديره، قال الله تعالى: ومن ينازعي ذلك أعليه، ومعنى ينازعي: يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك.

(١) «ديوانه»: ٩٤ «ومختار الشعر الجاهلي» ٢٦٥/١ و«الأضداد» لابن السكيت: ٢٠٥، وشرح شواهد الشافية: ٢٢٩، و«الكتاب» ٢٨٩/٢ و«الحيوان»: ٣٨٣/٣. والخالق هنا: الذي يقدر الجلد ويهيئه لأن يقطعه ويخرزه. والفري: القطع، يريد أنك إذا تهيأت لأمر مضيت له وأنفذته ولم تمجز عنه كما يمجز بعض القوم عن إتمامه.

سورة الممتحنة

وهي مدنية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ حَرَّجْتُمْ فِي سَبِيلِ الْوَيْفَاءِ مِمَّا نَسَبْتُمْ إِلَى اللَّهِ وَالْوَدَّ وَالْوَدَّاءَ مَا أَغْنَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَبِيلَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَّبِعْتُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُرُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَيَأْسُؤُا وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أُولَادَكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ يَقُولُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ذكر أهل التفسير أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صفية بن هاشم أنت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، فقال لها: «أمسلمة جئت؟» قالت: لا، قال: «فما جاء بك؟» قالت: أنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد احتجت حاجة شديدة، فقدمت إليكم لتعطيني. قال لها رسول الله ﷺ: «فأين أنت من شباب أهل مكة؟» وكانت مغنية، فقالت: ما طلبت مني شيء بعد وقعة بدر، فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، فكسوها، وحملوها، وأعطوها، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، فكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطاهم عشرة دنانير على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة، [وكتب في الكتاب: من حاطب إلى أهل مكة] إن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذرکم، فخرجت به سارة، ونزل جبريل فأخبر رسول الله ﷺ بما فعل حاطب، فبعث رسول الله ﷺ علياً، وعماراً، والزبير، وطلحة، والمقداد، وأبا مرزئد، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ»^(١)، فإن فيها ظعينة^(٢) معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها، واخلؤا سبيلها، فإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها» فخرجوا حتى أدركوها، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، ففتشوا متاعها فلم يجدوا شيئاً، فهمو بالرجوع، فقال علي: والله ما كذبتنا ولا كذبتنا، وسل سيفه، وقال: أخرجي الكتاب، وإلا ضربت عنقك، فلما رأت الجذأ أخرجه من ذؤابتها^(٣)، فخلؤا سبيلها، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى حاطب، فأتاه، فقال له: «هل تعرف الكتاب؟» قال: نعم. قال: «فما حملك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلأى وله بمكة من يمنع عشيرته، وكنت [غريباً] فيهم، وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وكتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله ﷺ وعذره، ونزلت هذه السورة تنهى حاطباً عما فعل، وتنهى المؤمنين أن يفعلوا كفعله، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله أطلع على أهل بدر، فقالوا: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٤). وقد أخرج هذا الحديث في «الصحاحين» مختصراً، وفيه ذكر علي، وابن الزبير، وأبي مرزئد فقط^(٥).

(١) «روضة خاخ»: موضع بين مكة والمدينة، شرفها الله تعالى، بقرب المدينة.

(٢) الظعينة هنا: الجارية، وهي في الأصل: اليهودج، وسميت بها الجارية لأنها تكون فيه.

(٣) اللؤابة: الناصية، أو منبتها من الرأس، وشعر في أعلى ناصية الفرس، والمراد هنا: الشعر المفضور من شعر الرأس.

(٤) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣١٥ ولم ينسبه لأحد، بل قال: قال جماعة من المفسرين: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة... فذكره.

(٥) انظر «صحيح البخاري» ٤٠٠/٧ و ٤٨٦/٨، و«مسلم» ١٩٤١/٤، والحديث أورده السيوطي في «الدر» ٢٠٢/٦ من رواية «الصحاحين» وزاد نسبه لأحمد في «المستد» والمحمدي، وعبد بن حميد، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وأبي عوانة، وابن حبان، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

قوله تعالى: ﴿ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أن الباء زائدة، والمعنى: تلقون إليهم المودة، ومثله ﴿ وَنَ يُرِيدُ فِيهِ بِالْحَاكِمِ يُظَلِّمُوا ﴾ [الحج: ٢٥]، هذا قول الفراء، وأبي عبيدة، وابن قتيبة، والجمهور. والثاني: تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ وبشره بالمودة التي بينكم وبينه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا ﴾ الواو للحال، وحالهم أنهم كفروا بما جاءكم من الحق، وهو القرآن ﴿ يَخْرُجُونَ الرُّسُلَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ من مكة ﴿ أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَسْتُمْ ﴾ هذا شرط، جوابه متقدم، وفي الكلام تقديم وتأخير. قال الزجاج: معنى الآية: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء.

قوله تعالى: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ الباء في «المودة» حكما حكم الأولى. قال المفسرون: والمعنى: تُسِرُّونَ إليهم النصيحة ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَنْفَيْتُمْ ﴾ من المودة للكفار ﴿ وَمَا أَعْلَمْتُمْ ﴾ أي: أظهرتم بالستكم. وقال ابن قتيبة: المعنى: كيف تستسرون بمودتكم لهم مني وأنا أعلم بما تضمرون وما تظهرون؟!

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَمْلِكْ مِنْكُمْ ﴾ يعني: الإسرار والإلقاء إليهم ﴿ فَقَدْ سَلَ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي: أخطأ طريق الهدى. ثم أخبر بعداوة الكفار فقال تعالى: ﴿ إِنْ يَنْقُضْكُمْ ﴾ أي: يظفروا بكم ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾ لا موالين ﴿ وَيَسْطَرُوا إِلَيْكُمْ آيَاتِهِمْ ﴾ بالضرب والقتل ﴿ وَاللَّيْسَتْهُمْ بِأَشْيُوهُ ﴾ وهو: الشتم ﴿ وَرَوَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ فترجعون إلى دينهم. والمعنى: أنه لا ينفعكم التقرب إليهم بنقل أخبار رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ ﴾ أي: قراباتهم. والمعنى: ذوو أرحامكم، أراد: لن ينفعكم الذين عصيتهم الله لأجلهم، ﴿ يَوْمَ الْيَقِينَةِ يَمُصُّ بَيْنَكُمْ ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «يُفْضَلُ» برفع الياء، وتسكين الفاء، ونصب الصاد. وقرأ ابن عامر: «يُفْضَلُ بَيْنَكُمْ» برفع الياء، والتشديد، وفتح الصاد، وافقه حمزة، والكسائي، وخلف، إلا أنهم كسروا الصاد. وقرأ عاصم، غير المفضل، ويعقوب بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد، وتخفيفها. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس، وأبو العالية: «نُفْضَلُ» بنون مرفوعة، وفتح الفاء، مكسورة الصاد مشددة. وقرأ أبو رزين، وعكرمة، والضحاك: «نُفْضِلُ» بنون مفتوحة، ساكنة الفاء، مكسورة الصاد خفيفة، أي: فصل بين المؤمن والكافر وإن كان ولده. قال القاضي أبو يعلى: في هذه القصة دلالة على أن الخوف على المال والولد لا يبيح التقية في إظهار الكفر، كما يبيح في الخوف على النفس، ويبين ذلك أن الله تعالى فرض الهجرة، ولم يعذرهم في التخلف لأجل أموالهم وأولادهم. وإنما ظن حاطب أن ذلك يجوز له ليدفع به عن ولده، كما يجوز له أن يدفع عن نفسه بمثل ذلك عند التقيّة، وإنما [قال] (١) عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق لأنه ظن أنه فعل ذلك عن غير تأويل.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرًا بِكُمْ وَيَكْفُرُوا بَيْنَكُمْ وَالْمَدَاوَةَ وَالنَّفْسَاءَ أَتَدْرَأُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَا يَصْرِفُهُمْ وَلَا يَتَلَوَّنَا مِنْهُ لَعَلَّ بَعْضُكُمْ يَكْتُمُ حَقًّا لَكُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِي الرُّسُلِ كَيْفَ يَشَاءُ لِيُخَبِّرَ الْغَافِلِينَ ﴾ [١]

﴿ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ ﴾ [٢] ﴿ وَرَوَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [٣] ﴿ وَاللَّيْسَتْهُمْ بِأَشْيُوهُ ﴾ [٤] ﴿ وَرَوَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [٥] ﴿ وَاللَّيْسَتْهُمْ بِأَشْيُوهُ ﴾ [٦] ﴿ وَاللَّيْسَتْهُمْ بِأَشْيُوهُ ﴾ [٧] ﴿ وَاللَّيْسَتْهُمْ بِأَشْيُوهُ ﴾ [٨] ﴿ وَاللَّيْسَتْهُمْ بِأَشْيُوهُ ﴾ [٩] ﴿ وَاللَّيْسَتْهُمْ بِأَشْيُوهُ ﴾ [١٠]

قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ وقرأ عاصم: «أسوة» بضم الألف، وهما لغتان، أي: اقتداء

حاتم، وابن مردويه، والبيهقي وأبي نعيم في «الدلائل» عن علي ؑ. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٨/٤٨٧ في شرح قوله ﷺ: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». قال القرطبي: وقد ظهر لي أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف، تضمن أن هؤلاء، حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السابقة، وتأهلوا أن يغير لهم ما يستأنف من الذنوب اللاحقة، ولا يلزم من وجود الصلاحية للشيء وقوعه، وقد أظهر الله صدق رسوله في كل من أخبر عنه بشيء من ذلك، فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا، ولو قدر صدور شيء من أحدهم لبادر إلى التوبة ولازم الطريق المثلى، ويعلم ذلك من أحوالهم بالقطع من اطلاع على سيرهم. اهـ.

(١) زيادة ليست في الأصل والسياق يقتضيها.

حَسَنَ بِهِ وَيَمْنُ مَعَهُ. وَفِيهِمْ قَوْلَانُ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمُ الْأَنْبِيَاءُ. وَالثَّانِي: الْمُؤْمِنُونَ، ﴿إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَيُنَكِّمُكُمْ﴾ قَالَ الْفِرَاءُ: يَقُولُ: أَفَلَا تَأَسَّيْتَ يَا حَاطِبُ بِإِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ فَبَرَّاتٍ مِنْ أَهْلِكَ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنْ قَوْمِهِمْ؟!

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: وَالْمَعْنَى: تَأَسَّؤًا بِإِبْرَاهِيمَ إِلَّا فِي اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ فَلَا تَأَسَّؤًا بِهِ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ كَانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴿وَمَا أَتَيْكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَي: مَا أَدْفَعُ عَنْكَ عَذَابَ اللَّهِ إِنْ أَشْرَكَتَ بِهِ، وَكَانَ مِنْ دَعَاؤِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِهِ: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَىٰ قَوْلِكَ تَعَالَى: ﴿الْمَزِيدُ الْحَكِيمُ﴾ قَالَ الْفِرَاءُ: قَوْلُوا أَنْتُمْ: رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا. وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا جَمْعَ لَنَا سِنَّةً لِمَنْ لَدَيْنَا كَقُرْآنٍ﴾ فِي يُونُسَ: ٢٨٥. ثُمَّ أَعَادَ الْكَلَامَ فِي ذِكْرِ الْأَسْوَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ أَي: فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ مَعَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْغِضُونَ مَنْ خَالَفَ اللَّهَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ بَدَلَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَكُمْ﴾ وَيَبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْوَةَ لِمَنْ يَخَافُ اللَّهَ، وَيُخْشَى عِقَابَ الْآخِرَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أَي: يَعْرِضُ عَنِ الْإِيمَانِ وَيُوَالِ الْكُفْرَانَ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِ. فَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِعِدَاةِ الْكُفْرَانَ عَادُوا أَقْرَبَاءَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ مَخْرَجًا وَيَنْزِلُ عَلَيْهِمْ رِزْقًا﴾ أَي: مِنْ كُفْرَانِ مَكَّةَ ﴿مَوْدَّةً﴾ فَفَعَلَ ذَلِكَ، بِأَنْ أَسْلَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سَفْيَانَ، فَانْكَسَرَ أَبُو سَفْيَانَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ عَلَىٰ جَعْلِ الْمَوْدَةِ ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ لَهُمْ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ بَعْدَمَا أَسْلَمُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَهَكَّرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْبَلُوا فِي الْإِيمَانِ﴾ اخْتَلَفُوا فِيْمَنْ نَزَلَتْ عَلَىٰ خَمْسَةِ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهَا فِي أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّهَا ثَقِيلَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُزَيِّ، قَدِمَتْ عَلَيْهَا الْمَدِينَةَ بِهَدَايَا، فَلَمْ يَقْبَلْ هَدَايَاهَا، وَلَمْ تَدْخُلْهَا مَنْزِلَهَا، فَسَأَلَتْ لَهَا عَائِشَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَأَمَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَدْخُلَ مَنْزِلَهَا، وَتَقْبَلَ هَدِيَّتَهَا، وَتَكْرِمَهَا، وَتَحْسِنَ إِلَيْهَا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ^(١). وَالثَّانِي: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي خِزَاعَةَ وَبَنِي مَدْلَجٍ، وَكَانُوا صَالِحُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ أَنْ لَا يَقَاتِلُوهُ، وَلَا يَعِينُوا عَلَيْهِ أَحَدًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي خِزَاعَةَ، وَبَنِي الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ مَنْفَرٍ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ، فَدَامُوا عَلَىٰ الْوَفَاءِ بِهِ. وَالثَّلَاثُ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مِنْهُمْ الْعَبَّاسُ، قَالَهُ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيَّةُ وَمَرَّةً. وَالرَّابِعُ: أَنَّهَا عَامَةٌ فِي جَمِيعِ الْكُفْرَانَ، وَهِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَالْخَامِسُ: نَزَلَتْ فِي النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ، حَكَاهُ الزُّجَاجُ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: وَهَذِهِ الْآيَةُ رُخْصَةٌ فِي صَلَةِ الَّذِينَ لَمْ يَنْصَبُوا الْحَرْبَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَوَّازٌ بِرُؤْمِهِمْ، وَإِنْ كَانَتْ الْمَوَالَاةُ مَنْقُطَةً مِنْهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَرْجِعُكُم مِّنْ يَدَيْكُمْ﴾ أَي: مِنْ مَكَّةَ ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمُ وَتَقْطِعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أَي: تَعَامَلُوهُمْ بِالْعَدْلِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَرَّوْنَا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ أَي: عَاوَنُوا عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿أَنْ قَوْلَهُمْ﴾ وَالْمَعْنَى: إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ عَنْ أَنْ تَوَلَّوْا هَؤُلَاءِ، لِأَنَّ مَكَاتِبَتَهُمْ بِإِظْهَارِ مَا أَسْرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوَالَاةً. وَذَكَرَ بَعْضُ الْمَفْسُورِينَ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السِّيفِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَا وَجْهَ لِأَدْعَاءِ النَّسْخِ، لِأَنَّ بَرَّ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُحَارِبِينَ سَوَاءً كَانُوا قَرَابَةً أَوْ غَيْرَ قَرَابَةٍ، غَيْرَ مُحْرَمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ تَقْوِيَةٌ لَهُمْ عَلَىٰ الْحَرْبِ بِكَرَاعٍ أَوْ سِلَاحٍ، أَوْ دَلَالَةٌ لَهُمْ عَلَىٰ عَوْرَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ. وَيَبْدَلُ عَلَىٰ ذَلِكَ حَدِيثَ أَسْمَاءَ وَأُمَّهَا الَّذِي سَبَقَ.

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣١٧ من رواية عبد الله بن المبارك عن مصعب بن ثابت عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عبد الله بن الزبير. ومصعب بن ثابت لين الحديث كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب». ورواه أحمد في «المسند» ٤/٤ من رواية ابن المبارك، والطبري، والحاكم في «المستدرک» ٤٨٥/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٢٣/٧ من رواية أحمد والطبراني والبيهقي، وقال: وفيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة، وبقيته رجاله رجال الصحيح، وأورده السيوطي في «الدرر» ٢٠٤/٦ وزاد نسبه للطائفي، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في «تاريخه»، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير ﷺ. وروى أحمد في «مسند» والبخاري ومسلم في «صحيحهما» بغير هذا السياق عن أسماء بنت أبي بكر ﷺ قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة، أفصلها؟ قال: «نعم صلي أمك».

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ التَّوْبَتُ مُنِجْرَتٍ فَأَمَّا جَنُودُ اللَّهِ فَمَنْ جُنُودُ اللَّهِ فَإِنَّ كَيْدَهُمْ لَافْتِنَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ مَشْرُكَ مَكَّةَ صَالِحُوا
 جَلَّ لَمَّ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ مَنْ وَآثَمُوا مَا أَنْفَقُوا وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُمْ إِذَا عَلَّمْتُمْهُمُ الْجُرْمَ وَلَا تُنكِحُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَرَسَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ
 وَلَسْتُمْ لَهُمْ بَشِيرُونَ وَلَا نَذِيرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي آتَى الْكُفَّارَ فَمَا قَبِلْتُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي ذَهَبَتْ
 أَنْبِيَاءُهُمْ بِشَلِّ مَا أَنْفَقُوا وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي آتَى بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ التَّوْبَتُ مُنِجْرَتٍ فَأَمَّا جَنُودُ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: إن مشركي مكة صالحوا
 رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم. ومن أتى أهل مكة من أصحابه، فهو لهم، وكتبوا
 بذلك الكتاب، وختموه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي بالحديبية، فأقبل زوجها
 وكان كافراً، فقال: يا محمد: ارد علي امرأتي، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم
 تجف بعد، فنزلت هذه الآية (١٧). وذكر جماعة من العلماء منهم محمد بن سعد (٢) كاتب الواقدي (٣) أن هذه الآية نزلت
 في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي أول من هاجر من النساء إلى المدينة بعد هجرة رسول الله ﷺ، فقديمت
 المدينة في هدنة الحديبية، فخرج في أثرها أخوها الوليد وعمارة ابنا عقبة، فقالا: يا محمد، أوف لنا بشرطنا، وقالت
 أم كلثوم: يا رسول الله، أنا امرأة، وحال النساء إلى الضعف ما قد علمت، فتردني إلى الكفار يفتنونني عن ديني، ولا
 صبر لي؟! فنقض الله عز وجل العهد في النساء، وأنزل فيهن المحنة، وحكم فيهن بحكم رضوهن كلهن، ونزل في أم
 كلثوم ﴿فَأَمَّا جَنُودُ اللَّهِ﴾ فامتحنها رسول الله ﷺ، وامتحن النساء بعدها، يقول: والله ما أخرجكن إلا حباً لله ورسوله، وما
 خرجتن لزوج ولا مال؟ فإذا قلن ذلك تركن، فلم يردن إلى أهلهن (٤). وقد اختلف العلماء في المرأة التي كانت سبياً
 لنزول هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها سبيعة، وقد ذكرناه عن ابن عباس. والثاني: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي
 معيط، وقد ذكرناه عن جماعة من أهل العلم، وهو المشهور. والثالث: أميمة بنت بشر من بني عمرو بن عوف، ذكره
 أبو نعيم الأصبهاني. قال الماوردي: وقد اختلف أهل العلم هل دخل رد النساء في عقد الهدنة لفظاً أو عمومياً؟ فقالت
 طائفة: قد كان شرط ردهن في لفظ الهدنة لفظاً صريحاً، فنسخ الله تعالى ردهن من العقد، ومنع منه، وأبقاه في الرجال
 على ما كان. وقالت طائفة: لم يشرط ردهن في العقد صريحاً، وإنما أطلق العقد، وكان ظاهر العموم اشتماله مع
 الرجال، فبين الله ﷻ خروجهن عن عمومهن، وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين: أحدهما: أنهن ذوات فروج تحرم
 عليهن. والثاني: أنهن أرق قلوباً، وأسرع تقلباً منهم. فاما المقيمة على شركها فمردودة عليهم. وقال القاضي أبو يعلى:
 وإنما لم يرد النساء عليهم، لأن النسخ جائز بعد التمكن من الفعل، وإن لم يقع الفعل (٥). قال المفسرون: والمراد

(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الشكاف» ١٦٨: مكلدا ذكره البغوي عن ابن عباس بغير سند.

(٢) هو محمد بن سعد بن منيع الزهري، مولاها أبو عبد الله (١٦٨ - ٢٣٠هـ) صاحب «الطبقات الكبرى»: مؤرخ ثقة ومن حفاظ الحديث الثقات، ولد في
 البصرة، وسكن بغداد توفي فيها وصحب الواقدي المؤرخ زماناً، فكتب له وروى عنه، وعرف بـ «كاتب الواقدي» المؤرخ. قال الحافظ ابن حجر عنه
 في «التقريب»: صدوق فاضل.

(٣) هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله الواقدي (١٣٠ - ٢٠٧هـ) من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم
 ومن حفاظ الحديث، ولد بالمدينة، ثم انتقل إلى العراق، وولي قضاء بغداد، واستمر فيها إلى أن توفي، وهو الذي ينسب إليه كتاب «فتوح الشام»
 وأكثره مما لا تصح نسبة إليه، له مؤلفات كثيرة، ولكنه مع سعة علمه متروك، كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»، وأشهر من روى عنه كاتبه
 محمد بن سعد الزهري، صاحب «الطبقات».

(٤) ذكره ابن سعد في «الطبقات» ٨/ ٢٣٠ بغير سند. وخرجه السيوطي في «الدر» ٦/ ٢٠٦ من رواية ابن سعد عن ابن شهاب بنحوه وهو مقطوع. وذكره
 بنحوه الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ١٢٢ من رواية الطبراني عن عبد الله بن أبي أحمد، وقال: وفيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف،
 وأورده بنحوه الحافظ السيوطي في «الدر» ٦/ ٢٠٦ فقال: أخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن عبد الله بن أبي أحمد... فذكره.

(٥) قال القرطبي في «تفسيره» ١٨/ ٦٣: أكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان عليه الصلاة والسلام عاهد عليه قريشاً، من أنه يرد إليهم من جاء منهم
 مسلماً، فنسخ من ذلك النساء، قال: وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٣٥٠: تقدم في سورة (الفتح) ذكر صلح
 الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فكان فيه: على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا ردهته إلينا. وفي رواية: على أنه لا
 يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا ردهته إلينا، قال: وهذا قول عروة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد، والزهري، ومقاتل بن حيان، والسدي،
 قال: فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة، وهذا من أحسن أمثلة ذلك، قال: وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله ﷻ

بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ رسول الله ﷺ، لأنه هو الذي تولّى امتحانهم، ويراد به سائر المؤمنين عند غيبته ﷺ. قال ابن زيد: وإنما أمرنا بامتحانهم، لأن المرأة كانت إذا غضبت على زوجها بمكة، قالت: لألحقنُ بمحمد. وفيما كان يمتحنهم به ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان يمتحنهم بـ «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله» رواه العوفي عن ابن عباس^(١). والثاني: أنه كان يستحلف المرأة بالله: ما خرجت من بغض زوج، ولا رغبةً عن أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، وما خرجت إلا حباً لله ورسوله، روي عن ابن عباس أيضاً^(٢). والثالث: أنه كان يمتحنهم بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ فمن أقرت بهذا الشرط قالت: قد بايعتك، هذا قول عائشة^(٣).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَتَّبِعُونَ﴾ أي: إن هذا الامتحان لكم، والله أعلم بهن، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ وذلك يُعلم بإقرارهن، فحينئذ لا يحل ردهن ﴿إِلَّا الْكُفَّارَ﴾ [لأن الله تعالى لم يبيح مؤمنة لمشرك ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾ يعني أزواجهن الكفار] ﴿مَا أَنفَقُوا﴾ يعني: المهر. قال مقاتل: هذا إذا تزوجها مسلم. فإن لم يتزوجها أحد، فليس لزوجها الكافر شيء ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ وهي المهور.

فصل

عندنا إذا هاجرت الحرة بعد دخول زوجها بها، وقعت الفرقة على انقضاء عدتها. فإن أسلم الزوج قبل انقضاء عدتها فهي امرأته، وهذا قول الأوزاعي، والليث، ومالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: تقع الفرقة باختلاف الدارين^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِصِمِّ الْكُفَّارِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «تُمسِكُوا» بضم التاء، والتخفيف. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب: «تُمسِكُوا» بضم التاء، وبالتشديد. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وابن يعمر، وأبو حنيفة: «تُمسِكُوا» بفتح التاء، والميم، والسين مشددة. و«الكوفار» جمع كافرة، والمعنى: إن الله تعالى نهى المؤمنين عن المقام على نكاح الكوفار، وأمرهم بفراقهن. وقال الزجاج: المعنى: أنها إذا كفرت، فقد زالت العصمة بينها وبين المؤمن، أي: قد انبثَّ عَقْدُ النكاح. وأصل العصمة: الحبل، وكلُّ ما أمسك شيئاً فقد عصمه.

قوله تعالى: ﴿وَسَتَلَوْا مَا انْفَقْتُمْ﴾ أي: إن لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدةً، فاسألوهما ما أنفقتم من المهر إذا لم يدفعوها إليكم ﴿وَلَسْتَلَوْا مَا أَنفَقُوا﴾ يعني: المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم مؤمنات إذا تزوجن منكم، فليسأل أزواجهن الكفار من تزوجهن «ما أنفقوا» وهو المهر. والمعنى: عليكم أن تغرموا لهم الصداق كما يغرمون لكم. قال أهل السير: وكانت أم كلثوم حين هاجرت عاتقاً لم يكن لها زوج فيبعث إليه قدر مهرها، فلما هاجرت تزوجت زيد بن حارثة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ﴾ يعني ما ذكر في هذه الآية.

= أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار، لا هن حل لهم، ولا هم يحلون لهن. اهـ.

(١) رواه الطبري ٦٨/٢٨ بإسناد سلسل بالضعفاء عن ابن عباس.

(٢) رواه الطبري ٦٧/٢٨ من حديث قيس بن الربيع عن الأغر بن الصباح عن خليفة بن حصين، عن أبي نصر الأسدي قال: سئل ابن عباس... وقيس بن الربيع الأسدي قال الحافظ: صدوق تغير لما كبير، أدخل عليه ابته ما ليس من حديثه فحدث به، وأبو نصر الأسدي وثقه أبو زرعة، وقال البخاري: لم يعرف سماعه من ابن عباس.

(٣) رواه الطبري ٦٨/٢٨ من رواية ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة ؓ، والترمذي ١٦٤/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) قال القرطبي عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا إِلَّا الْكُفَّارَ لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا تُمْسِكُونَ عَنْهُمْ﴾ هذا أول دليل على أن الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامها، لا هجرتها. وقال أبو حنيفة: الذي فرق بينهما هو اختلاف الدارين، قال: والصحيح الأول، لأن الله تعالى قال: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا تُمْسِكُونَ عَنْهُمْ﴾ فبين أن العلة عدم الحل بالإسلام، وليس باختلاف الدار. والله أعلم.

فصل

وذكر بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسِيكِرُوا بَعْضَ الْكُفَّارِ﴾ أنه نسخ ذلك في حرائر أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]، وهذا تخصيص لا نسخ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَكُونُوا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَأَقَاتِمُ﴾ قال الزجاج: أي: أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنتم. وقرأ ابن مسعود، والأزهري، والنخعي: «فَعَقَبْتُمْ» بغير ألف، وفتح العين والقاف، وتخفيفها. وقرأ ابن عباس، وعائشة، وحמיד، والأعمش مثل ذلك، إلا أن القاف مشددة. قال الزجاج: المعنى في التشديد والتخفيف واحد، فكانت العقوبة لكم بأن غلبتم. وقرأ أبي بن كعب، وعكرمة، ومجاهد: «فَأَعَقَبْتُمْ» بهمزة ساكنة العين، مفتوحة القاف خفيفة. وقرأ معاذ القارئ، وأبو عمران الجوني: «فَعَقَبْتُمْ» بفتح العين، وكسر القاف وتخفيفها من غير ألف ﴿فَأَقَاتِمُ الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْزَابُهُمْ بِئْتَلُ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي: أعطوا الأزواج من رأس الغنيمة ما أنفقوا من المهر. وذكر بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في عياض بن غنم^(١)، كانت زوجته مسلمة، وهي أم الحكم بنت أبي سفيان، فارتدت، فلحق بمكة، فأمر الله المسلمين أن يعطوا زوجها من الغنيمة بقدر ما ساق إليها من المهر، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿بِرَّاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢١] إلى رأس الخمس.

فصل

قال القاضي أبو يعلى: وهذه الأحكام في أداء المهر، وأخذه من الكفار، وتعمير الزوج من الغنيمة، أو من صدق قد وجب رده على أهل الحرب، منسوخة عند جماعة من أهل العلم. وقد نص أحمد على هذا. قلت: وكذا قال مقاتل: كل هؤلاء الآيات نسختها آية السيف.

﴿يَأْتِيَا الْبَيْتَ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَيَّ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ وَلَا يَبْغِيَنَّ وَلَا يَكْفُرَنَّ وَلَا يَهْتَبِيَنَّ بِعَقِبَتِي بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَلَا يَرْسُلِيَهُمْ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَكُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ﴾ قال المفسرون: لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاءته النساء يباعته، فنزلت هذه الآية، وشرط في مبايعتهن الشروط المذكورة في الآية، فبايعهن وهو على الصفا، فلما قال: ولا يزني، قالت هند^(٢): أو تزني الحرة؟ فقال: ولا يقتلن أولادهن، فقالت: ربيتهن صغاراً فقتلتموهن كباراً، فأنتم وهم أعلم^(٣). وقد صح في الحديث أن النبي ﷺ لم يصاح في البيعة امرأة، وإنما بايعهن بالكلام^(٤). وقد سُمينا من أحصينا من المبايعات

(١) هو عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد الفهري، شهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد، وكان يقال له: زاد الراكب، لأنه كان يطعم رفقته ما كان عنده، وإذا كان مسافرًا آثرهم بزاده، فإن نفذ نحر لهم جملة.

(٢) هي هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان.

(٣) ذكره بنحو البغوي في «تفسيره» وكذلك الخازن، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: لم أره بسياقه، لكن أخرجه الطبري بمعناه وأخص منه من طريق العوفي عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق مقاتل بن حيان، وفيه قول هند: ربيتهن صغاراً وقتلتموهن كباراً، فضحك عمر بن الخطاب ﷺ حتى استلقى.

(٤) روى البخاري في «صحيحه» ٤٨٨/٨ عن عروة بن الزبير أن عائشة ﷺ زوج النبي ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية بقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الْبَيْتَ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات: قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك كلاماً» والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك». والحديث أورده السيوطي في «الدرر» ٢٠٩/٦ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة ﷺ.

وروى الإمام أحمد من حديث سفيان بن محمد بن المنكدر عن أميمة بنت ربيعة قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: أن لا نشرك بالله شيئاً... الآية. وقال: «فيما استمعن وأطقن» قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولني لامرأة واحدة قولني لمائة امرأة» قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح، قال: وقد رواه الترمذي، والنسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة، والنسائي أيضاً من حديث الثوري، ومالك بن أنس، كلهم عن محمد بن المنكدر به، وقال الترمذي: حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر، وقد رواه أحمد أيضاً من حديث محمد بن إسحاق عن محمد بن المنكدر عن أميمة به، وزاد: «لم يصافح منا امرأة» قال: وكذا رواه ابن جرير من طريق موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر به.

والمبايعة عبارة عن المعاهدة، سميت بذلك تشبيهاً بالمعاهدة المالية.

في كتاب «التلخيص» على حروف المعجم، وهن أربع مائة وسبع وخمسون امرأة، والله الموفق.
قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قال المفسرون: هو الواد الذي كانت الجاهلية تفعله.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِنَّ بَنَاتٌ يَغْتَرِبْنَ بَيْنَ أَيْدِيٍّ وَأَرْجُلَيْهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم، قاله ابن عباس، والجمهور، وذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفترى. وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيٍّ وَأَرْجُلَيْهِ﴾ لأن الولد إذا وضعت الأم سقط بين يديها ورجليها. وقيل: معنى ﴿بَغْتَرِبْنَ بَيْنَ أَيْدِيٍّ﴾: يأخذنه لقيطاً ﴿وَأَرْجُلَيْهِ﴾ ما ولدته من زنى. والثاني: السحر. والثالث: المشي بالنيمة، والسعي في الفساد، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعَنَّكَ فِي مَرْوِيٍّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه النوح، قاله ابن عباس، وروي مرفوعاً عن النبي ﷺ^(١). والثاني: أنه لا يذعن ويلاً، ولا يخذش وجهاً، ولا يثشش شعراً، ولا يشفق ثوباً، قاله زيد بن أسلم. والثالث: جميع ما يأمرهن به رسول الله ﷺ من شرائع الإسلام وأدابه، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي هذه الآية دليل على أن طاعة الولاة إنما تلزم في المباح دون المحظور.

قوله تعالى: ﴿فَابْعَثْنِ﴾ المعنى: إذا بايعتك على هذه الشروط فبايعهن.

﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوْلَوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئَسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْسَبِ الْقُبُورِ﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوْلَوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود، وذلك أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين، يتقربون إليهم بذلك ليصيروا من ثمارهم وطعامهم، فنزلت هذه الآية^(٢).

قوله تعالى: ﴿قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ وذلك أن اليهود بتكذيبهم محمداً، وهم يعرفون صدقه، قد يسؤوا من أن يكون لهم في الآخرة خير، والمعنى: قد يسؤوا من ثواب الآخرة، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح. وقال قتادة: قد يسؤوا أن يبعثوا، ﴿كَمَا يَبِئَسَ الْكُفَّارُ﴾ فيه قولان: أحدهما: كما يبئس الكفار من بعث من في القبور، قاله ابن عباس. والثاني: كما يبئس الكفار الذين ماتوا من ثواب الآخرة، لأنهم أيقنوا بالعذاب، قاله مجاهد.



قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤٨٨/٨: قوله: «قد بايعتك كلاماً» أي يقول ذلك كلاماً فقط، لا مصافحة باليد، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة.

وقال الشيخ محمد السفاريني الحنبلي في كتابه «شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد» طبع المكتب الإسلامي ٩٢٨/٢: وما جاء عن ابن خزيمة، وابن حبان، والبخاري، وابن مردويه، من طريق إسماعيل بن عبد الرحمن عن جده أم عطية ؓ في قصة المبايعة، قالت: فمد يده من خارج البيت، ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال: «اللهم اشهد» وكذا حديثها الذي في «البخاري» وغيره: فقبضت منا امرأة يدها، فإنه يشعر بأنهن كن يبايعنه بأيديهن، والتي قبضت يده هي أم عطية أبهت نفسها. قال: وأجيب عن الأول بأن مد الأيدي من وراء الحجاب، إشارة إلى وقوع المبايعة وإن لم تقع مصافحة، وعن الثاني بأن المراد بقبض الأيدي: التأخر عن القبول. وأم عطية التي قبضت يدها وتأخرت عن المبايعة، رجعت بعد ذلك وبايعها رسول الله ﷺ. فهذه النصوص التي تقدمت تدل على أن المبايعة كانت كلاماً، ولم تكن مصافحة باليد، وأن الرسول ﷺ ما مست يده امرأة قط.

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» ٦٤٦/٢ من حديث أم عطية قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿بَايَعْتَكُمْ عَلَّ أَنْ لَا يَشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا... وَلَا يَتَّبِعَنَّكَ فِي مَرْوِيٍّ﴾ قالت: كان منه النجاة... وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم من حديث أم سلمة الأنصارية قالت امرأة من هذه النسوة: ما هذا المعروف الذي لا ينبغي أن نعصيك فيه؟ فقال ﷺ: «لا تتحنن...» الحديث.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣١٨ بغير سند ولم يعزه لأحد، وكذلك البيهقي والخازن في تفسيريهما، وقال الحافظ السبوي في «الدر» ٦/٢١١: أخرج ابن إسحاق وابن المنذر، عن ابن عباس ؓ قال: كان عبد الله بن عمر، وزيد بن حارثة، يوافقون رجالاً من يهود، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوْلَوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

سورة الصف

ويقال لها: سورة الحواريين

وفيها قولان: أحدهما: مدنية، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والجمهور. والثاني: مكية، قاله ابن يسار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ حَاكِمَهُمْ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَلَّا يَخِفُّ عَلَيْهِمْ أَن يُصْرَفَ بِهِمْ أَمْوَالُهُمْ عَلَى مَا يَسْتَحِبُّونَ وَهُوَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: ما روى أبو سلمة عن عبد الله بن سلام، قال: قعدنا نقرأ من أصحاب رسول الله ﷺ، فقلنا: لو تعلم أي الأعمال أحب إلى الله ﷻ عملناه، فأنزل الله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ إلى آخر السورة^(١). والثاني: أن الرجل كان يجيء إلى النبي ﷺ، فيقول: فعلت كذا وكذا، وما فعل، فنزلت ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ رواه عكرمة عن ابن عباس^(٢)، وكذلك قال الضحاك: كان الرجل يقول: قاتلت، ولم يقاتل، وطعنت، ولم يطعن، وصبرت، ولم يصبر، فنزلت هذه الآية. والثالث: أن ناساً من المسلمين كانوا يقولون قبل أن يفرض الجهاد: لوددنا أن الله تعالى دلنا على أحب الأعمال إليه، فلما نزل الجهاد، كرهه ناس من المؤمنين، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس^(٣). والرابع: أن صهيياً قتل رجلاً يوم بدر، فجاء رجل فادعى أنه قتله وأخذ سلبه، فقال صهيب: أنا قتلته يا رسول الله، فأمره أن يدفع سلبه إلى صهيب، ونزلت هذه الآية، رواه سعيد بن المسيب عن صهيب. والخامس: أن المنافقين كانوا يقولون للنبي وأصحابه: لو قد خرجتم معكم، ونصرناكم. فلما خرج النبي ﷺ نكصوا عنه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: «مقتاً» منصوب على التمييز، والمعنى: كَبُرَ قولُكم ما لا تفعلون مقتاً عند الله^(٤). ثم أعلم ﷻ ما الذي يحبه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ حَاكِمَهُمْ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَلَّا يَخِفُّ عَلَيْهِمْ أَن يُصْرَفَ بِهِمْ أَمْوَالُهُمْ عَلَى مَا يَسْتَحِبُّونَ وَهُوَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بنيان لاصق بعضه ببعض، فأعلم أنه يحب من ثبت في الجهاد، ويلزم مكانه كشيتوب النبيان

(١) رواه الدراري في سننه ٢٠٠/٢، والواحد في «أسباب النزول»، ورواه بمعناه أحمد في «المسنند» ٤٥٢/٥، والحاكم في «المستدرک» ٤٨٦/٢ مسللاً وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والترمذي ١٦٤/٢، وذكره السيوطي في «الدر» ١١٢/٦ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن حبان، ثم قال: وأخرجه ابن المنذر مسللاً، والبيهقي في «الشعب» والسنن مسللاً، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤١٩/٨: وقد وقع لنا سماع هذه السورة مسللاً في حديث ذكر في أوله سبب نزولها وإسناده صحيح قل أن وقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوه.

(٢) ذكره السيوطي بنحوه في «الدر» ١١٢/٦ من رواية ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس ﷺ.

(٣) رواه ابن جرير الطبري ٨٤/٢٨ من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ، وابن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر» ١١٢/٦ من رواية ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ. وهذا القول اختاره ابن جرير الطبري.

(٤) وقال ابن كثير في تفسيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ فيه إنكار على من يبدع وعداً أو يقول قولاً لا يفهمه، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه عزم للموعد، أم لا، واحتجوا أيضاً بما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان» وفي الحديث الآخر في الصحيح: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها...» فذكر منه إخلاف الوعد، ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾. وذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعد، وجب الوفاء به، كما لو قال لغيره: تزوج ولك علي كل يوم كذا، فتزوج، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك، لأنه تعلق به حق آدمي، وهو مبني على المضايقة، وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمتوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، وهكذا هذه الآية معناها، وهذا اختيار ابن جرير.

المرصوص. ويجوز أن يكون عنى أن يستوي ثباتهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص. وللمفسرين في المراد بـ «المرصوص» قولان: أحدهما: أنه الملتصق بعضه ببعض، فلا يرى فيه خلل لإحكامه، قاله الأكثرون. والثاني: أنه المبني بالرصاص، وإلى نحو هذا ذهب الفراء، وكان أبو بحرية يقول: كانوا يكرهون القتال على الخيل، ويستحبون القتال على الأرض لهذه الآية^(١). اسم أبي بحرية: عبد الله بن قيس التراغمي، يروي عن معاذ^(٢)، وكأنه أشار بذلك إلى أن الفرسان لا يصطفون في الغالب إنما يصطف الرجال^(٣).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ وَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُكُمْ أَنْ تَقُولُوا مَا تَالِهُونَ وَأَلَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿١﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْوَيْدِ وَبَشِيرًا رَسُولًا يَا مَعْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذْتُ ميثاقكم بالبينت قالوا هذا سحر مبين ﴿٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّذَرَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ يُلَاقُوا اللَّهَ بِأَرْوَاهُمْ وَاللَّهُ مِتْمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ الَّذِي رُفِيَ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ المعنى: اذكر لمن يؤديك من المنافقين ما صنعت بالذين أدوا موسى. وقد ذكرنا ما أدوا به موسى في [الأحزاب: ٦٩]^(٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا﴾ أي: مالوا عن الحق: ﴿أَنَّ اللَّهَ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: أمالها عن الحق جزاء لما ارتكبهوه، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿يَأْتِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم «من بعدني اسمه» بفتح الياء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم «من بعدني اسمه» بإسكان الياء^(٥) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّذَرَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله مقاتل. والثاني: النصاري حين قالوا: عيسى ابن الله، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقرأ ابن مسعود، وعاصم الجحدري، وطلحة بن مصرف «يدعي إلى الإسلام» بفتح الياء، والدال، وتشديدها، ويكسر العين، وما بعد هذا في [براء: ٣٢] إلى قوله تعالى: ﴿مِثْمُ نُورِهِ﴾ قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم وخلف «مِثْمُ نُورِهِ» مضاف. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم «مِثْمُ» رفع منون.

﴿يَأْتِي الدِّينَ مَأْمُرًا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَعْرَزٍ تُجِيرُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَسَّلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمْلِكُونَ وَأَقْسَمُوا ذَلِكَ حُزْرًا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيَسَّرُ لَكُمْ فِي جَنَّتِ عَدْوً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْأَعْظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُجِيبُونَ نَصْرًا مِنْ اللَّهِ وَنَصْرًا مِنْكُمْ قُلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ مَنْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ فَخِطَابًا فَلْيَسْمَعُوا أَصْوَابَهُمْ وَبَشِيرًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالَتْ لِقَوْمِهَا قَالُوا يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُونَ آلَ الْفِرْعَوْنَ وَمَنْ لَهُمْ مِنْ آلِ الْفِرْعَوْنَ نَصْرٌ وَمَنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارَهُ إِلَى اللَّهِ قَالَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارَ اللَّهُ فَاتَّخَذَتْ طَائِفَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَرَّهَتْ طَائِفَةً فَأَخَذْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدْوِّهِمْ فَنَاصَبُوا قُلُوبَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَعْرَزٍ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية حين قالوا: لو علمنا أي الأعمال أحب إلى الله (١) رواه الطبري في «تفسيره» ٨٦/٢٨ وفي سننه بقية بن الوليد، وهو صدوق كثير التديس عن الضملاء، وقد عنعن في هذا الخبر.

(٢) هو عبد الله بن قيس الكندي السكوني التراغمي أبو بحرية الحمصي، شهد خطبة عمر بالجابية، روى عن معاذ بن جبل وأبي عبيدة بن الجراح وأبي الدرداء وأبي هريرة ومالك بن يسار السكوني وحمزة بن ثعلبة، وعنه ابنه بحرية، ويزيد بن قطيب السكوني، وخالد بن معدان، ويزيد بن أبي زياد مولى ابن عباس، وأبو ظبية الكلاعي، وعبد الملك بن مروان، وأبو بكر بن عبيد الله بن أبي مريم، قال ابن عبد البر: تابعي ثقة، وذكر أبو الحسن بن سميع أنه أدرك الجاهلية. قال الحافظ في «التقريب»: حمصي مشهور مخضرم ثقة، مات سنة سبع وسبعين.

(٣) الرِّجَالُ، جمع راجل، وهو الذي يمشي على رجله، وله جموع كثيرة، قال في «القاموس»: ورجل - كرفح - فهو راجل، ورجل، ورجل، ورجل، ورجل، وإذا لم يكن له ظهر يركبه، والجمع رجال، ورجالة، ورجال، ورجالي، ورجالي، ورجلي، ورجلان، ورجلة، ورجلة، وأرجلة، وأرجل، وأرجل.

(٤) قال ابن كثير: وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر، قال: ولهذا قال: «رحمة الله على موسى، لقد أودى بأكثر من هذا فصره» قال: وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِي الدِّينَ مَأْمُرًا لَا تَكْفُرُوا كَالَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ نَبَوْا أَنَّ اللَّهَ إِذَا مَلَكَكُمْ إِذْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ حَسْبًا﴾.

(٥) قال ابن كثير: فميسى هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملا بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وانظر (١١٦٦) من كتابنا هذا.

لعملنا به أبداً، فدلّهم الله على ذلك، وجعله بمنزلة التجارة لمكان ربحهم فيه^(١).

قوله تعالى: ﴿سُجِّرَكُمْ﴾ قرأ ابن عامر «تنجّيكم» بالتشديد. وقرأ الباقون بالتخفيف. ثم بيّن التجارة، فقال تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ قال الزجاج: وقوله: «يغفر لكم» جواب قوله: «وتجاهدون»، لأن معناه معنى الأمر. والمعنى: آمنوا بالله وجاهدوا، يغفر لكم، أي: إن فعلتم ذلك، يغفر لكم. وقد غلط بعض النحويين، فقال: هذا جواب «هل» وهذا غلط بيّن، لأنه ليس إذا دلّهم على ما ينفعهم غفر لهم، إنما يغفر له إذا عملوا بذلك. ومن قرأ «يغفر لهم» بإدغام الراء في اللام، فغير جائز عند سيبويه والخليل، لأنه لا تدغم الراء في اللام في قولهم. وقد روّيت عن أبي عمرو بن العلاء، وهو إمام عظيم، ولا أحسبه قرأها إلا وقد سمعها من العرب: وقد زعم سيبويه والخليل وجميع البصريين، ما خلا أبا عمرو، أن اللام تدغم في الراء، وأن الراء لا تدغم في اللام، وحجّتهم أن الراء حرف مكرر قوي، فإذا أدغمت في اللام ذهب التكرير منها. وما بعد هذا قد سبق إلى قوله تعالى: ﴿وَلَعَزَى تَحْجُبُنَا﴾ قال الفراء: والمعنى: ولكم في العاجل مع ثواب الآخرة أخرى تحجبونها، ثم فسرها فقال تعالى: ﴿نَصَرَ يَنْ اللَّهُ وَفَتَحَ قَرِيْبًا﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه فتح مكة، قاله ابن عباس. والثاني: فتح فارس والروم، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿وَبَيَّرَ الْمُنْبِيِّينَ﴾ أي: بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة. ثم حصّهم على نصر دينه بقوله تعالى: ﴿كُرُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو «كونوا أنصاراً لله» منوثة. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي «أنصاراً لله». معنى الآية: دُوموا على ما أنتم عليه، وانصروا دين الله، مثل نُصرة الحواريين لما قال لهم عيسى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ وحرّك نافع ياء «مَنْ أنصاري إلى الله». وقد سبق تفسير هذا الكلام (إلا عمران: ٥٢) ﴿فَأَمَّنْتَ عَلَاقَةَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعيسى ﴿وَكَفَّرْتَ عَلَاقَةَ﴾^(٢) ﴿فَأَقْبَدْنَا إِلَيْنِ أَسْمَاءَ﴾ بعيسى ﴿عَلَى عَدُوْرِهِ﴾ وهم مخالفو عيسى، كذلك قال ابن عباس، ومجاهد، والجمهور وقال مقاتل: تم الكلام عند قوله تعالى: ﴿وَكَفَّرْتَ عَلَاقَةَ﴾، ﴿فَأَقْبَدْنَا إِلَيْنِ أَسْمَاءَ﴾ بمحمد ﴿مَنْ عَدُوْرِهِ فَاصْبِرُوا طَاهِرِينَ﴾ بمحمد على الأديان. وقال إبراهيم النخعي: أصبح من آمن بعيسى ظاهرين بتصديق محمد ﷺ أن عيسى كلمة الله وروحه بتعليم الحجة^(٣). قال ابن قتيبة: ﴿فَأَصْحَرُوا طَاهِرِينَ﴾ أي: غالبن عليهم بمحمد. من قولك: ظهرت على فلان: إذا علوته، وظهرت على السطح: إذا صرّت فوقه.



(١) ذكر ذلك البغوي والخازن في «تفسيريهما» وقد تقدم في حديث عبد الله بن سلام في أول السورة أن الصحابة ﷺ أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله ﷻ ليفعلوه، فأنزل الله هذه السورة، ومن جعلتها هذه الآية.

(٢) قال ابن كثير: أي لما بلغ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه، ووازره من وازره من الحواريين، اهدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به وجحدوا نبوته ورّموه وأمه بالطائفة، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة، قال: وغلّت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، واقتروا فرقاً وشيعاً، فمن قائل منهم: إنه ابن الله، وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس، ومن قائل: إنه الله، وهم النصارى، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وقال ابن كثير أيضاً في سورة [المائدة: ٧٢، ٧٣] عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ هُوَ النَّسِيخُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ و ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً، قال: وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدٌ لِقَدْحٍ﴾ ولم يقل: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ ولا: ابن الله، بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدٌ لِقَدْحٍ كَلِمَتِي وَسَمِّيَ بِئِكَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَيْدًا اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمُ اللَّهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته أمراً لهم بعبادة الله ربه وربه وحده لا شريك له. ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ النَّسِيخُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكُوا بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

(٣) والأول أظهر، والله أعلم.

سورة الجمعة

وهي مدنية كلها بإجماعهم

وقد سبق شرح فاتحتها. وقرأ أبو البرداء، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعكرمة، والشعبي، والوليد عن يعقوب «الملك القدوس والعزیز الحكيم» بالرفع فيهن. فإن قيل: فما الفائدة في إعادته ذكر التسيح في هذه السورة؟ فالجواب: أن ذلك لاستفتاح السور بتعظيم الله ﷻ، كما توضحه بـ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وإذا جُلَّ المعنى في تعظيم الله، حسن الاستفتاح به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحٰنَ اللَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَكَ الْقُدُّوسُ الْأَعَزُّ لَتَكْبِرُنَّ ۗ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُوْلًا مِّنْهُمْ يَتْلُو آيٰتِهِمْ عَلَيْهِنَّ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ لَيْ سَلَٰلٍ مُّبِيْنٍ ۗ وَآخَرِيْنَ مِّنْهُمْ لَنَأْبَحُقُوْنَ بِهِمْ ۗ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ ۗ ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ﴾ يعني: العرب، وكانوا لا يكتبون وقد شرحنا هذا المعنى في [البقرة: 178] ﴿رَسُولًا﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من جنسهم ونسبهم. فإن قيل: فما وجه الامتنان في أنه بعث نبياً أمياً؟ فغنه ثلاثة أجوبة: أحدها: لموافقة ما تقدمت البشارة [به في كتب] الأنبياء. والثاني: لمشاكلته حاله لأحوالهم، فيكون أقرب لموافقتهم. والثالث: لتلا يظن به أنه يعلم كتب من قبله. وما بعد هذا في سورة [البقرة: 179]. إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ لَيْ سَلَٰلٍ مُّبِيْنٍ﴾، أي: وما كانوا قبل بعثته إلا في ﴿سَلَٰلٍ مُّبِيْنٍ﴾، بين، وهو الشرك^(١).

قوله تعالى: ﴿وَآخَرِيْنَ مِّنْهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: وبعث محمداً في آخرين منهم، أي: من الأميين. والثاني: ويعلم آخرين منهم، ويزكئهم. وفي المراد بالآخرين أربعة أقوال: أحدها: أنهم العجم، قاله ابن عمر، وسعيد بن جبير، وهي رواية ليث عن مجاهد^(٢). فعلى هذا إنما قال: «منهم»، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم، إذ المسلمون يد

(١) قال ابن كثير: وتخصيص الأميين بالذكر لا يفي من عبادهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال تعالى في قوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَلْهَمَنَا الْوَعْدَ الَّذِي نَبُوءُ بِكُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ وهو ذكر لغيبهم يتذكرون به، وكذا قال تعالى: ﴿أَنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ بِوَيْحٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بِرَبِّمَا﴾ وقوله: ﴿لَا تُؤْتُواهُم مِّن رِّزْقِكُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ وقوله إيجاباً عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَإِنَّهُ فِئْتَمَّةٌ تَبِيْعَةٌ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعث صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أجمعهم وأسودهم.

(٢) وهذه الآية، هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم حين دعا لأهل مكة أن يعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكئهم ويعلمه الكتاب والحكمة، فيث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل وطموس من السبل وقد اشتدت الحاجة إليه وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، أي: نزرأ سيرا ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم ﷺ. وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل ﷺ، فبدلوه وغيروه، وقلوبه وخالفوه، واستبدلوا بالترديد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ﷻ، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأمور والفروع، وجمع الله تعالى - وله الحمد والمنة - جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

(٣) روى البخاري في «صحيحه» ٤٩٢/٨ عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فأنزلت عليه سورة (الجمعة) ﴿وَآخَرِيْنَ مِّنْهُمْ لَنَأْبَحُقُوْنَ بِهِمْ﴾ قال: قلت: من هم يا رسول الله، فلم يراجع حتى سألت ثلاثاً وفيها سلمان الفارسي، وضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لثاله رجال - أو رجل - من هؤلاء».

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» تعليقا على قوله: فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وَآخَرِيْنَ مِّنْهُمْ لَنَأْبَحُقُوْنَ بِهِمْ﴾: كأنه يريد أنزلت عليه هذه الآية من سورة (الجمعة). وإلا فقد نزل منها قبل إسلام أبي هريرة الأمر بالسعي، قال: ووقع في رواية الدراودي عن ثور عند مسلم: نزلت عليه سورة (الجمعة) فلما قرأ ﴿وَآخَرِيْنَ مِّنْهُمْ﴾.

واحدة، وملة واحدة. والثاني: أنهم التابعون، قاله عكرمة، ومقاتل. والثالث: جميع من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة، قاله ابن زيد، وهي رواية ابن أبي نجيج عن مجاهد. والرابع: أنهم الأطفال، حكاه الماوردي^(١).

قوله تعالى: ﴿لَنَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: لم يلحقوا بهم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ﴾ يعني: الإسلام والهدى ﴿وَأَلَّهُ ذُو الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ بإرسال محمد ﷺ.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُلُوا النَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قل يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَضِيتُمْ أَنْتُمْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَقَاتُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ وَلَا يَتَذَكَّرُ أَلَا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتُ أَلَّذِي تَتَرَوْنَ كَيْفَ تُقْرُونَ مِنْتَهُ فَإِنَّهُ مُلَوِّكُكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّينَ وَالْعَلْيِينَ وَالشَّهَادَةُ بَيْنَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

ثم ضرب لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلاً، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُلُوا النَّورَةَ﴾ أي: كُفُّوا العمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: لم يعملوا بموجبها، ولم يؤدوا حقها ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ وهي جمع سفر. والسُّفْر: الكتاب، فشيبههم بالحمار لا يعقل ما يحمل، إذ لم ينتفعوا بما في التوراة، وهي دالة على الإيمان بمحمد [وهذا المثل يلحق من لم يعمل بالقرآن ولم يفهم معانيه ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ ذم مثلهم، والمراد ذمهم، واليهود كذبوا بالقرآن وبالتوراة حين لم يؤمنوا بمحمد] ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بتكذيب الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿إِنْ رَضِيتُمْ أَنْتُمْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ وذلك أن اليهود، قالوا: نحن ولد إسرائيل الله، ابن ذبيح الله، ابن خليل الله، ونحن أولى بالله ﷻ من سائر الناس، وإنما تكون النبوة فينا. فقال الله ﷻ لنبية عليه الصلاة والسلام ﴿قُلْ﴾ لهم إن كنتم ﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ... فَتَقَاتُوا اللَّهَ﴾ لأن الموت خير لأولياء الله من الدنيا. وقد بينا هذا وما بعده في [البقرة: ١٧٤] إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ أَلَّذِي تَتَرَوْنَ كَيْفَ تُقْرُونَ مِنْتَهُ﴾ وذلك أن اليهود علموا أنهم أفسدوا على أنفسهم أمر الآخرة بتكذيبهم محمداً، وكانوا يكرهون الموت، ف قيل لهم: لا بد من نزوله [بكم] بقوله تعالى: ﴿فَأِنَّهُ مُلَوِّكُكُمْ﴾ قال الفراء: العرب تدخل الفاء في كل خير كان اسمه مما يوصل، مثل «من» و «الذي» فمن أدخل الفاء هاهنا ذهب «بالذي» إلى تأويل الجزاء. وفي قراءة عبد الله «إن الموت الذي تترؤون منه ملائكتكم» وهذا على القياس، لأنك تقول: إن أحاك قائم، ولا تقول: فقائم، ولو قلت: إن ضاريك فظالم، لجاز، لأن تأويله: إن من يضريك فظالم. وقال الزجاج: إنما جاز دخول الفاء، لأن في الكلام معنى الشرط والجزاء. ويجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله تعالى «تترؤون منه» كأنه قيل: إن فررتم من أي موت كان من قتل أو غيره «فإنه ملائكتكم» وتكون «فإنه» استئنافاً بعد الخبر الأول.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعْتُمْ لِلصَّلَاةِ مِنْ بَوَاقِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ الْأَرْضِ وَمِنْكُمْ اللَّهُ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٧٤﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا تَوَدَّعْتُمْ لِلصَّلَاةِ﴾ وهذا هو النداء الذي ينادى به إذا جلس الإمام على المنبر، ولم يكن في عهد رسول الله ﷺ نداء سواه، كان إذا جلس على المنبر أذن بلال على باب المسجد، وكذلك كان على عهد أبي بكر، وعمر، فلما كثرت الناس على عهد عثمان أمر بالتأذين على دار له بالسوق، يقال لها: «الزوراء»^(٢) وكان إذا

- قال ابن كثير: والحديث رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من طرق عن ثور بن يزيد الدبلي عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة به، قال: ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، لأنه نزل قوله تعالى: ﴿وَتَاخِرُونَ بِهِمْ﴾ بفارس، قال: ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله ﷻ وإلى اتباع ما جاء به، ولهذا قال مجاهد وغيره في قوله تعالى: ﴿وَتَاخِرُونَ بِهِمْ لَنَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال: هم الأماجم وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب.

(١) ذكر ابن جرير الطبري أن أولى الأقوال بالصواب قول من قال: عنى بذلك كل لاحق لحق بالذين كانوا صحبوا النبي ﷺ في إسلامهم من أي الأجناس، لأن الله ﷻ هم بقوله: ﴿وَتَاخِرُونَ بِهِمْ لَنَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ كل لاحق بهم من آخرين، ولم يخص منهم نوعاً دون نوع، فكل لاحق بهم فهو من الآخرين الذين لم يكونوا في عهد الأولين الذين كان رسول الله ﷺ يتلو عليهم آيات الله.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» ٣٢٦٧/٢ من السائب بن يزيد ﷺ قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبي ﷺ.

جلس أذن أيضاً^(١).

قوله تعالى: ﴿لِلصَّلَاةِ﴾ أي: لوقت الصلاة. وفي «الجمعة» ثلاث لغات: ضم الجيم والميم، وهي قراءة الجمهور. وضم الجيم مع إسكان الميم، وبها قرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو رجاء، وعكرمة، والزهري، وابن أبي ليلى، وابن أبي عبله، والأعمش. وضم الجيم مع فتح الميم، وبها قرأ أبو مجلز، وأبو العالية، والنخعي، وعدي بن الفضل عن أبي عمرو. قال الزجاج: من قرأ بتسكين الميم، فهو تخفيف الجمعة لثقل الضميتين. وأما فتح الميم، فمعناها: الذي يجمع الناس، كما تقول: رجل لُغَةٌ: يكثر لعنة الناس، وضحكٌ: يكثر الضحك. وفي تسمية هذا اليوم بيوم الجمعة ثلاثة أقوال: أحدها: لأن فيه جُمع آدم. روى سلمان قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري ما الجمعة؟» قلت: لا. قال: «فيه جُمع أبوك» يعني: تمام خلقه في يوم^(٢). والثاني: لاجتماع الناس فيه للصلاة. والثالث: لاجتماع المخلوقات فيه، لأنه اليوم الذي منه فرغ من خلق الأشياء^(٣). وفي أول من سماها بالجمعة قولان: أحدهما: أنه كعب بن لؤي سماها بذلك، وكان يقال ليوم الجمعة: العروبة، قاله أبو سلمة. وقيل: إنما سماها بذلك لاجتماع قريش فيه. والثاني: أول من سماها بذلك الأنصار، قاله ابن سيرين^(٤).

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِزَّ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وفي هذا السعي ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المشي، قاله ابن عباس. وكان ابن مسعود يقرؤها «فامضوا» ويقول لو قرأتها «فاستعوا» لسعيت حتى يسقط ردائي^(٥). وقال عطاء: هو الذهاب والمشي إلى الصلاة. والثاني: أن المراد بالسعي: العمل، قاله عكرمة، والقرظي، والضحاك، فيكون المعنى: فاعملوا على

وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما كان عثمان رضي الله عنه وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء. وفي رواية أخرى للبخاري عن السائب بن يزيد زيادة «فبیت الأمر على ذلك». قال ياقوت في «معجم البلدان»: الزوراء: موضع عند سور المدينة قرب المسجد. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: قوله «زاد النداء الثالث» في رواية وكيع عن ابن أبي ذئب «فامر عثمان بالأذان الأول» ونحوه للشافعي من هذا الوجه. قال: ولا منافاة بينهما، لأنه باعتبار مزيداً يسمى ثالثاً، وباعتبار كونه جعل مقدماً على الأذان والإقامة يسمى أولاً، قال: ولفظ رواية عقيل (يعني في البخاري) أن التأذين بالثاني أمر به عثمان، قال: وتسميته ثانياً أيضاً متوجه بالنظر إلى الأذان الحقيقي لا الإقامة. والمقصود من الأذان الثالث، الإقامة.

(١) أي إذا جلس على المنبر أذن الأذان الثاني.

(٢) هو جزء من حديث طويل رواه أحمد في «المسند» ٤٤٠/٥ وتتمته قال النبي ﷺ: «ألا أحدثك عن يوم الجمعة، لا يتطهر رجل مسلم ثم يمشي إلى المسجد، ثم يمضت حتى يقضي الإمام صلاته إلا كان كفارة لما بينها وبين الجمعة التي بعدها ما اجتنبت المقتلة». وهو حديث حسن، قال الحافظ الهيثمي في «معجم الزوائد» ١٧٤/٢: رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن، قال: وروى النسائي بعضه، وأورده السيوطي في «الدرر» ٢١٦/٦ وزاد نسبة لسعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. وروى مسلم في «صحيحه» ٥٨٥/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة». وروى مالك في «الموطأ» ١٠٨/١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهبط من الجنة، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيخة (مصفيحة لنفخة الساعة) يوم الجمعة، من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة، إلا الإنس والجن، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه» وسنده صحيح، ورواه بنحوه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، قال الترمذي ٣٦٦/٢: هذا حديث صحيح. وروى أبو داود في «سننه» رقم (١٠٤٧) عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فآكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي»، قال: قالوا: يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ يقولون: بليت، فقال: «إن الله ﷻ حرم على الأرض أن تاكل أجساد الأنبياء». وسنده صحيح. ورواه النسائي وابن ماجه وغيرهما.

(٣) قال ابن كثير: إنما سميت الجمعة جمعة، لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار، قال: وفيه كمل جميع الخلائق، فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣٩٤/٢: روى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ وقيل أن تنزل الجمعة، فقال الأنصار: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى كذلك، فهلم فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونصلي ونشكر. فجمعوه يوم القروية.

(٥) رواه الطبري ١٠٠/٢٨ من رواية إبراهيم عن ابن مسعود، وفي سنده انقطاع. قال الحافظ الهيثمي في «المعجم» ١٢٤/٧: رواه الطبراني، وإبراهيم لم يدرك ابن مسعود، ورجاله ثقات، وأورده السيوطي في «الدرر» ٢١٩/٦ وزاد نسبة لعبد الرزاق، والقرطبي، وأبي عبيد، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن الأباري من طرق عن عبد الله بن مسعود. وضح عن عمر أنه قرأها كذلك. ونقل القرطبي عن ابن شهاب أنه قرأها كذلك، ثم قال: وهو كله تفسير منهم. وقال البخاري في «صحيحه» (باب فرض الجمعة) لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَكَّدَ لِّلصَّلَاةِ فِي يَوْمِ الَّتِي هُمُوعًا فَاسْتَعِزَّ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَكَرُوا الْحَبِيبَ﴾ قال: فاستعوا: فامضوا. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وهو تفسير منه للمراد بالسعي، بخلاف قوله في الحديث: «فلا تأتوها تسعون» فالمراد به: الجري، وقد جاء أن عمر قرأ «فامضوا» وهو يؤيد ذلك.

المضي إلى ذكر الله بالتفريغ له، والاشتغال بالطهارة ونحوها. والثالث: أنه النية بالقلب، قاله الحسن. وقال ابن قتيبة: هو المبادرة بالنية والجد. وفي المراد «بذكر الله» قولان: أحدهما: أنه الصلاة، قاله الأكثرون. والثاني: موعظة الإمام، قاله سعيد بن المسيب.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: دعوا التجارة في ذلك الوقت. وعندنا: أنه لا يجوز البيع في وقت النداء، ويقع البيع باطلاً في حق من يلزمه فرض الجمعة. وبه قال مالك^(١) خلافاً للأكثرين^(٢).

فصل

تجب الجمعة على من سمع النداء من المصر، إذا كان المؤذن صَيِّتاً، والريح ساكنة. وقد حدّه مالك بفرسخ، ولم يحده الشافعي. وعن أحمد في التحديد نحوهما. وتجب الجمعة على أهل القرى^(٣). وقال أبو حنيفة: لا تجب إلا على أهل الأمصار. ويجوز لأهل المصر أن يقيموا الجمعة في الصحراء القريبة من المصر خلافاً للشافعي. ولا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين. وعن أحمد: أقله خمسون. وعنه: أقله ثلاثة. وقال أبو حنيفة تنعقد بثلاثة والإمام، والعدد شرط في الجمعة^(٤) وقال أبو حنيفة في إحدى الروايتين: يصح أن يخطب منفرداً. وهل تجب الجمعة على العبيد؟ فيه عن أحمد روايتان. وعندنا: تجب على الأعمى إذا وجد قائداً، خلافاً لأبي حنيفة: ولا تنعقد الجمعة بالعبيد والمسافرين، خلافاً لأبي حنيفة. وهل تجب الجمعة والعيدان من غير إذن سلطان؟ فيه عن أحمد روايتان. وتجزز الجمعة في موضعين في البلد مع الحاجة. وقال مالك، والشافعي، وأبو يوسف: لا تجوز إلا في موضع واحد. وتجزز إقامة الجمعة قبل الزوال خلافاً لأكثرهم، وإذا وقع العيد يوم الجمعة أجزأ حضوره عن يوم الجمعة، وبه قال الشعبي، والنخعي، خلافاً للأكثرين. والمستحب لأهل الأعدار أن يصلوا الظهر في جماعة. وقال أبو حنيفة: يكره. ولا يجوز السفر يوم الجمعة بعد الزوال. وقال أبو حنيفة: يجوز. وهل يجوز السفر بعد طلوع الفجر؟ فيه عن أحمد روايتان. ونقل عن أحمد: أنه لا يجوز الخروج في الجمعة إلا للجهاد. وقال أبو حنيفة: يجوز لكل سفر. وقال الشافعي: لا يجوز أصلاً. والخطبة شرط في الجمعة. وقال داود: هي مستحبة. والطهارة لا تشترط في الخطبة، خلافاً للشافعي في أحد قوليه. والقيام ليس بشرط في الخطبة، خلافاً للشافعي. ولا تجب القعدة بين الخطبتين، خلافاً له أيضاً. ومن شرط الخطبة: التحميد، والصلاة على النبي ﷺ، وقراءة آية، والموعظة. وقال أبو حنيفة: يجوز أن يخطب بتسبيحة.

وقال ابن كثير: أي: اقتصدوا واعدوا واهتموا في سيركم إليها، قال: وليس المراد بالسمي هاهنا: المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ آذَى الْآخِرَةَ وَسَمَّنَ لَهَا سَمِيهَا يُعَذَّبْ مُعَذِّبًا﴾ قال: وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود، ﷺ يقرآنها «فامضوا إلى ذكر الله» قال: فأما المشي السريع إلى الصلاة، فقد نهي عنه، لما أخرجاه في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعت الإقامة فامشوا إلى الصلاة، وعليكم السكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا».

(١) قال القرطبي في تفسير الآية: وملهب مالك أن يترك البيع إذا نودي للصلاة، ويفسخ عنده ما وقع من ذلك من البيع في ذلك الوقت، ولا يفسخ المتق والتكاح والطلاق وغيره، إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع، قالوا: وكذلك الشركة والهبة والصدقة ناهي لا يفسخ. قال: قال ابن العربي: والصحيح فسخ الجميع، لأن البيع إنما منع منه للاشتغال به، فكل أمر يشغل عن الجمعة من المقعد كلها، فهو حرام شرعاً منسوخ ودعاً.

(٢) كأي حنيفة، والشافعي، وغيرهما، فإن البيع عندهم يتعقد مع الحرمة بعد النداء ولا يفسخ. قال ابن كثير: اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني، واختلفوا: هل يصح إذا تعاطا متعاط، أم لا؟ على قولين، قال: وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: عن عمر أنه كتب إلى أهل البحرين أن جئتموها حيثما كنتم. قال: وهذا يشغل المدن والقرى، أخرج ابن أبي شيبة من طريق أبي رافع عن أبي هريرة عن عمر، وصححه ابن خزيمة، قال: وعند عبد الرزاق بإسناد صحيح عن ابن عمر أنه كان يرى أهل البياض بين مكة والمدينة يجتمعون فلا يجب عليهم.

(٤) لا خلاف بين العلماء أن الجماعة شرط من شروط صحة الجمعة، ولكن اختلفوا في العدد الذي تنعقد به الجمعة إلى عدة أقوال ذكرها الحافظ ابن حجر في «الفتح»، والراجح أنها تصح باثنين فأكثر، قال الشوكاني في «نيل الأوطار»: وقد انعقدت سائر الصلوات بالاثنتين بالإجماع، والجمعة صلاة، فلا تختص بحكم يخالف غيرها إلا ببديل، ولا دليل على اعتبار عدد فيها زائد على المعتبر في غيرها، وقد قال عبد الحق الإشبيلي: إنه لا يثبت في عدد الجمعة حديث، وكذلك قال السيوبي: لم يثبت في شيء من الأحاديث تبين عدد مخصوص، ومن ذهب إلى هذا: الطبري، وداود، والنخعي، وابن حزم.

والخطبتان واجبتان. وأما القراءة في الخطبة الثانية، فهي شرط، خلافاً للشافعي. والسنة للإمام إذا صعد المنبر، واستقبل الناس: أن يسلم، خلافاً لأبي حنيفة، ومالك. وهل يحرم الكلام في حال سماع الخطبة؟ فيه عن أحمد روايتان. ويحرم على المستمع دون الخاطب، خلافاً للأكثرين. ولا يكره الكلام قبل الابتداء بالخطبة، وبعد الفراغ منها، خلافاً لأبي حنيفة. ويستحب له أن يصلي تحية المسجد والإمام يخطب، خلافاً لأبي حنيفة، ومالك^(١). وهل يجوز أن يخطب واحد، ويصلي آخر، فيه عن أحمد روايتان.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كان لكم علم بالأصلح ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي: فرغتم منها ﴿فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا أمر بإباحة ﴿وَأَنْتَقُوا مِنَ فَضْلِ اللَّهِ﴾ إباحة لطلب الرزق بالتجارة بعد المنع منها بقوله تعالى: ﴿وَدَرُوا الْأَمْشِقَ﴾ وقال الحسن، وابن جبير: هو طلب العلم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمَنِ الْبَحْرُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنَ الرَّزْقِ﴾^(٢) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ كان يخطب يوم الجمعة، إذ أقبلت عبر قد قدمت، فخرجوا إليها حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية، أخرجه البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث جابر بن عبد الله^(٣)، قاله الحسن. وذلك أنهم أصابهم جوع، وغلاء سعر، فلما سمعوا بها خرجوا إليها، فقال النبي ﷺ: ﴿لَوْ اتَّبَعْتُمْ آخِرَهُمْ أَوْلَهُمُ التَّهْبُ عَلَيْهِمُ الوَادِي نَارًا﴾^(٤). قال المفسرون: كان الذي قدم بالتجارة دحية بن خليفة الكلبي، قال مقاتل: وذلك قبل أن يسلم. قالوا: قديم بها من الشام، وضرب لها طبل يُؤذن الناس بقدمها. وهذه كانت عادتهم إذا قدمت عبر^(٥). قال جابر بن عبد الله: كانت التجارة طعاماً. وقال أبو مالك: كانت زيتاً. والمراد باللهم: ضرب الطبل. و«انفضوا» بمعنى: تفرقوا عنك، فذهبوا إليها. والضمير للتجارة. وإنما خصت برد الضمير إليها، لأنها كانت أهم إليهم، هذا قول الفراء، والمبرد. وقال الزجاج: المعنى: وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهواً انفضوا إليه، فحذف خبر أحدهما، لأن الخبر الثاني يدل على الخبر المحذوف. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبيدة «انفضوا إليهما» على التنثية. وعن ابن مسعود، وابن أبي عبيدة «انفضوا إليه» على ضمير مذكر ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ وهذا القيام كان في الخطبة ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من ثواب الصلاة والثبات مع رسول الله ﷺ ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمَنِ الْبَحْرُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنَ الرَّزْقِ﴾ لأنه يرزق من يؤمن به ويعبده، ومن يكفر به ويجحده، فهو يعطي من سأل، ويبتدئ من لا يسأل، وغيره إنما يرزق من يرجو منفعة، ويُقبل على خدمته^(٥).



(١) وذهب الشافعي إلى الاستحباب أيضاً. وحجتها في ذلك ما رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن جابر ﷺ قال: دخل رجل يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب، فقال: «صليت؟» قال: لا، قال: «فصل ركعتين» والرجل هو: سليك النطفاني ﷺ. وروى مسلم في «صحيحه» عن جابر ﷺ قال: جاء سليك النطفاني يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب، فجلس، فقال له: يا سليك قم فاركع ركعتين وتجاوز فيهما» ثم قال: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجاوز فيهما».

(٢) البخاري ٤٩٣/٨، ومسلم ٥٩٠/٢.

(٣) ذكره بنحوه البغوي والهازمي عن الحسن بن علي بن مسعود. وذكره السيوطي في «الدرر» ٢٢١/٤ من رواية عبد بن حميد عن الحسن بن مسعود بنحوه. قال ابن كثير: وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا هشيم، عن حصين، عن سالم بن أبي الجعد وأبي سفيان، عن جابر بن عبد الله قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقلت عبر إلى المدينة، فابتدأ أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو تابعتهم حتى لم يبق منكم أحد لسأل بكم الوادي نارا» ونزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾.

(٤) ذكره السيوطي في «الدرر» ٢٢١/٦ من رواية البيهقي عن قتادة مرسلاً.

(٥) قال ابن جرير الطبري: «والله خير رازق، فإليه فارغبوا في طلب أرزاقكم، وإياه فاسألوا أن يوسع عليكم من فضله دون غيره».

سورة المنافقون

وهي مدنية بإجماعهم

وذكر أهل التفسير أنها نزلت في عبدالله بن أبيي ونظرائه. وكان السبب أن عبد الله خرج مع النبي ﷺ في خَلْتِي كثير من المنافقين إلى المُرَيْسِع، وهو ماء لبني المصطلق طلباً للغنيمة، لا للرجبة في الجهاد، لأن السفر قريب. فلما قضى رسول الله ﷺ غزوه، أقبل رجل من جهينة، يقال له: سنان، وهو حليف لعبد الله بن أبيي، ورجل من بني غفار يقال له: جهجاه بن سعيد، وهو أجير لعمر بن الخطاب لاستقاء الماء، فدار بينهما كلام، فرفع الغفاري يده فطمم الجهني، فأدماه، فنادى الجهني: يا آل الخزرج، فأقبلوا، ونادى الغفاري: يا آل قريش، فأقبلوا، فأصلح الأمر قوم من المهاجرين. فبلغ الخبرُ عبد الله بن أبيي، فقال وعنده جماعة من المنافقين: والله ما مَتَلَكُم ومَتَل هؤلاء الرهط من قريش إلا مَتَل ما قال الأول: سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ، ولكن هذا فعلكم بأنفسكم، أو يتموهم في منازلكم، وأنفقتم عليهم أموالكم، فقوموا وَصَعْفُتُمْ. وإيم الله؛ لو أمسكتم أيديكم لتفرقت عن هذا جموعه، ولئن رجعنا إلى المدينة لِيُخْرِجَنَّ الأَعْرُضُ منها الأذَلَّ، وكان في القوم زيد بن أرقم، وهو غلام يومئذٍ لا يؤبهُ له، فقال عبد الله: أنت والله اللذليل القليل، فقال: إنما كنت أَلْعَب، فأقبل زيد بالخبر إلى رسول الله ﷺ، فقال: دعني أضرب عنقه. فقال: إذن ترد له آنف كبيرة، قال: فإن كرهت أن يقتله رجل من المهاجرين، فمر سعد بن عبادة، أو محمد بن مسلمة، أو عبّاد بن بشر فليقتله، فقال: إذن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبيي، فأتاه، فقال: أنت صاحب هذا الكلام؟ فقال: والذي أنزل عليك ما قلت شيئاً من هذا، وإن زيدا لكذّاب، فقال من حضر: لا يصدق عليه كلام غلام، عسى أن يكون قد وهم، فعززه رسول الله ﷺ، وفشت الملامة من الأنصار لزيد، وكذّبوه، وقال له عمّه: ما أردت إلا أن كذّبتك رسول الله ﷺ والمسلمون، ومقتوك! فاستحيا زيد، وجلس في بيته. فبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبيي ما كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيي، لما بلغك عنه. فإن كنت فاعلاً فمُرني، فانا أحمل إليك رأسه، فإني أخشى أن يقتله غيري، فلا تدعني نفسي حتى أقتل قاتله، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل تحسن صحبته ما بقي معنا»، وأنزل الله سورة (المنافقين) في تصديق زيد، وتكذيب عبد الله، فأرسل رسول الله ﷺ فقرأها عليه، فقال: إن الله قد صدقك. ولما أراد عبد الله بن أبيي أن يدخل المدينة جاء ابنه، فقال: ما وراءك، قال: مالك وملك؟ قال: والله لا تدخلها أبداً إلا بإذن رسول الله ﷺ ليعلم اليوم من الأعرُض، ومن الأذَلَّ، فشكا عبد الله إلى رسول الله ﷺ ما صنع، فأرسل إليه رسول الله ﷺ أن خلّ عنه حتى يدخل، فلما نزلت السورة وبان كذبه قيل له: يا أبا حجاب: إنه قد نزلت فيك آيات شداد، فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك، فلوى به رأسه، فذلك قوله تعالى: ﴿أَوْرَاؤَهُمُ﴾^(١) وقيل: الذي قال له هذا عبادة بن الصامت^(٢).

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٢١، ٣٢٢ بنحو مختصراً. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: حديث أن رسول الله ﷺ حين لقي بني المصطلق على المرَيْسِع، وهو ماء لهم وهزمهم، وقتل منهم، ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد - أجير عمر - يقود فرسه، وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبيي واقتتلا... الحديث، وفيه قصة زيد بن أرقم في قول عبد الله بن أبيي: ليخرجن الأعرُض منها الأذَلَّ، وغير ذلك إلى قوله: إن الله قد صدقك وكذب المنافق... هكذا ذكره الواقدي في «المنغازي» بغير إسناد، وعزاه إلى الثعلبي والواحدي ولأصحاب السير، قال: وأخرجه ابن إسحاق في «السيرة»: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ومحمد بن يحيى بن حبان، كل قد حدثني بعض حديث بني المصطلق، فذكر الغزوة بطولها، والقصة المذكورة باختلاف سير، وكذا أخرجه الطبري من طريقه، وأصل القصة في «الصحيحين» من طريق أبي إسحاق عن زيد بن أرقم قال: كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبيي يقول... الحديث. وأوله عندهما أيضاً من طريق عمرو بن دينار عن جابر قال: كنا في غزوة بني المصطلق، ففتح رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار... قال: ورواه الترمذي والنسائي والحاكم من طريق أبي سعد الأودي: حدثنا زيد بن أرقم قال: غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب، فكانت ينزل الماء، وكان الأعراب يسبقونا، سبق أعرابي فلما الحوض فذكر القصة بطولها، وفي سياقها اختلاف.

(٢) يعني قوله: يا أبا حجاب إنه قد نزلت فيك آيات شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك، والصحيح الأول.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ قَالُوا نَبهَدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ رَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشهَدُ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ائْتَدُوا أَيَنْتَهُمْ جُنَّةٌ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَجَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَرَجٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُّسْنَدٌ يَحْسِرُونَ كُلٌّ صَيحَةٌ عَلَيْهِمْ هُرِّ الْمَدْدُ فَاحْذَرْتُمْ فَتَنَاهُ اللَّهُ أَنْ يَقُولُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ﴾ يعني: عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿قَالُوا نَبهَدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وهاهنا تم الخبر عنهم. ثم ابتداء فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ رَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشهَدُ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ وإنما جعلهم كاذبين، لأنهم أضمرُوا غير ما أظهروا. قال الفراء: إنما كذب ضميرهم. ﴿ائْتَدُوا أَيَنْتَهُمْ جُنَّةٌ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قد ذكرناه في [المجادلة: ١٦]. قال القاضي أبو يعلى: وهذه الآية تدل على أن قول القائل: «أشهد» يمين، لأنهم قالوا: «نشهد» فجعله يميناً بقوله تعالى: ﴿ائْتَدُوا أَيَنْتَهُمْ جُنَّةٌ﴾ وقد قال أحمد، والأوزاعي، والثوري، وأبو حنيفة: أشهد، وأقسم، وأغزم، وأخلف، كلها أيمان. وقال الشافعي: «أقسم» ليس بيمين. وإنما قوله: «أقسم بالله» يمين إذا أراد اليمين^(١).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الكذب ﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ باللسان ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ في السر ﴿فَطَجَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَرَجٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الإيمان والقرآن ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ يعني: أن لهم أجساماً ومناظر. قال ابن عباس: كان عبد الله بن أبي جسيماً فصيحاً، ذُلقَ اللسان^(٢)، فإذا قال، سمع النبي ﷺ قوله. وقال غيره: المعنى: تصغي إلى قولهم، فتخيب أنه حق. ﴿كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: وحزمة: «خُشْبٌ» بضم الخاء، والشين جميعاً، وهو جمع خشبة. مثل نَمْرَةٍ، وتُمَيْرٍ. وقرأ الكسائي: بضم الخاء، وتسكين الشين، مثل: بَدَنَةٌ، وبُذْنٌ، وأَكْمَةٌ، وأُكْمٌ. وعن ابن كثير، وأبي عمرو مثله. وقرأ أبو بكر الصديق، وعروة، وابن سيرين: «خُشْبٌ» بفتح الخاء، والشين جميعاً. وقرأ أبو نهيك، وأبو المتوكل، وأبو عمران بفتح الخاء، وتسكين الشين، فوصفهم الله بحسن الصورة، وإبانة المنطق، ثم أعلم أنهم في ترك التفهيم والاستبصار بمنزلة الخُشْبِ. والمُسْنَدُ: الممالة إلى الجدار. والمراد: أنها ليست بأشجار تثمر وتمي، بل خُشْبٌ مُسْنَدٌ إلى حائط. ثم عابهم بالجين فقال تعالى: ﴿يَحْسِرُونَ كُلٌّ صَيحَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا يسمعون صوتاً إلا ظنوا أنهم قد أتوا لما في قلوبهم من الرعب أن يكشف الله أسرارهم، وهذه مبالغة في الجين. وأنشدوا في هذا المعنى:

لَوْ أَنهَا عُضْفُورَةٌ لَحَبِئَتْهَا

مُسُوْمَةٌ تَدْعُو عُبَيْدًا وَأَزْمًا^(٣)

أي: لو طارت عصفورة لحسبتها من جينك خيلاً تدعو هاتين القبيلتين.

قوله تعالى: ﴿هُرِّ الْمَدْدُ فَاحْذَرْتُمْ﴾ أي: لا تأمنهم على سِرِّكَ، لأنهم عيون لأعدائك من الكفار. ﴿فَتَنَاهُ اللَّهُ أَنْ يَقُولُونَ﴾ مفسر في [براءة: ٣٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا لَوًّا زُرًّا وَمَسُحًا وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نُسِفُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْصُرُوا لِلَّهِ حَزَائِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَبِّمَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: من قال: أقسم بالله، أو أشهد بالله، أو أهرم بالله، أو أحلف بالله، أو أقسمت بالله، أو أشهدت بالله، أو أهرمت بالله، أو أحلفت بالله، فقال في ذلك كله «بالله» فلا خلاف في أنها يمين. قال: وكذلك عند الله وأصحابه إن قال: أقسم، أو أشهد، أو أهرم، أو أحلف، ولم يقل: «بالله» إذا أراد «بالله»، قال: وإن لم يرد «بالله» فليس بيمين، قال: حكاة الكفاة عن الشافعي، قال القاضي: إذا قال: أشهد بالله ونوى اليمين كان يميناً، قال: وقال أبو حنيفة وأصحابه: لو قال: أشهد بالله لقد كان كذا، كان يميناً، ولو قال: أشهد لقد كان كذا دون النية كان يميناً، لهذه الآية، لأن الله تعالى ذكر منهم الشهادة، ثم قال: ﴿ائْتَدُوا أَيَنْتَهُمْ جُنَّةٌ﴾ قال: وهذا الشافعي لا يكون ذلك يميناً وإن نوى اليمين، لأن قوله تعالى: ﴿ائْتَدُوا أَيَنْتَهُمْ جُنَّةٌ﴾ ليس يرجع إلى قوله: ﴿قَالُوا نَبهَدُ﴾ وإنما يرجع إلى ما في [براءة] من قوله تعالى: ﴿يَحْسِرُونَ كُلٌّ صَيحَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ والله ما قالوا.

(٢) أي طلق اللسان، يقال: تكلم فلان بلسان ذلق طلق. أي: فصيح بليغ. قال في «اللسان»: لسان ذلق طلق، وذلق طلق، وذلق طلق، وذلق طلق، وأربع لغات فيها، والذلق: النصح اللسان.

(٣) البيت للعرام بن شاذب، الشيباني، وهو في «مشكل القرآن» ٦، و«غرب القرآن» ٤٦٨، و«الناقص» ٥٨٥، و«العقد الفريد» ١٩٥/٥، و«معجم الشعراء» ٣٠٠، و«هيون الأخبار» ١/١٦٦، و«الصالح» و«اللسان» و«التاج»: زمن، و«القرطبي» ٢٨/١٢٦، و«أزمن» بطن من بني يربوع.

يَتِيهَا الْأَذَلُّ وَاللَّهُ أَلَمَرَّةٌ وَالرَّسُولِيُّ وَالْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَنَبِّئِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَعَاذُوا لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ قد بيّنا سببه في نزول السورة ﴿لَوْزًا رُؤْسَهُمْ﴾ وقرأ نافع، والمفضل عن عاصم، ويعقوب: ﴿لَوْزًا﴾ بالتحفيف. واختار أبو عبيدة التشديد. وقال: لأنهم فعلوا ذلك مرّة بعد مرّة. قال مجاهد: لما قيل لعبد الله بن أبيّ: تعال يستغفر لك رسول الله لوى رأسه، قال: ماذا قلت؟ وقال مقاتل: عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار. وقال الفراء: حركوها استهزاء بالنبي وبدعائه.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ أي: يعرضون عن الاستغفار. ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: متكبرون عن ذلك. ثم ذكر أن استغفاره لهم لا يضعهم بقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَوْ قَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ﴾: «استغفرت» بالمد.

قوله تعالى: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نُسْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ﴾ قد بيّنا أنه قول ابن أبيّ. و ﴿تَنْصُرُوا﴾ بمعنى: يتبرقوا. ﴿وَاللَّهُ خَرَابٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال المفسرون: خرابان السموات: المطر، وخرابان الأرض: النبات. والمعنى: أنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين، لا أولئك، ﴿وَلَكِنَّ الْمُتَنَبِّئِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن الله رازقهم في حال إنفاق هؤلاء عليهم. ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَمْنَا﴾ من هذه الغزوة. وقد تقدم ذكرها وهذا قول ابن أبيّ ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ﴾ يعني: نفسه، وعن يـ ﴿الْأَذَلُّ﴾ رسول الله ﷺ. وقرأ الحسن: ﴿لِيُخْرِجَنَّ﴾ بالنون مضمومة وكسر الراء «الأعز» بنصب الزاي [والأذل منصوب] على الحال [بناء على جواز تعريف الحال، أو زيادة «ال» فيه، أو بتقدير «مثل»]. المعنى: لنخرجنه ذليلاً على أي حال ذل. والكل نصبوا «الأذل» فرد الله ﷻ عليه فقال: ﴿وَاللَّهُ أَلَمَرَّةٌ﴾ وهي: المنعة والقوة ﴿وَالرَّسُولِيُّ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ بإعزاز الله ونصره إياهم ﴿وَلَكِنَّ الْمُتَنَبِّئِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

﴿يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَمْوَالُكُمْ أَتَمَّتْ بِقَوْلِ رَبِّ لَوْلَا فَتَرْتَمِي إِلَيْكَ أَعْيُنُ قَرِيبٍ فَاصْذُكْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَكُنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلَهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ أي: لا تشغلكم. وفي المراد بذكر الله هاهنا أربعة أقوال: أحدها: طاعة الله في الجهاد، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الصلاة المكتوبة، قاله عطاء، ومقاتل. والثالث: الفرائض من الصلاة، وغيرها، قاله الضحاك. والرابع: أنه على إطلاقه. قال الزجاج: حطهم بهذا على إدامة الذكر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ في هذه النفقة ثلاثة أقوال: أحدها: أنه زكاة الأموال، قاله ابن عباس. والثاني: أنه النفقة في الحقوق الواجبة بالمال، كالزكاة والحج، ونحو ذلك، وهذا المعنى مروى عن الضحاك. والثالث: أنه صدقة التطوع، ذكره الماوردي. فعلى هذا يكون الأمر ندباً، وعلى ما قبله يكون أمر وجوب.

قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ قال الزجاج: أي: من قبل أن يعاين ما يعلم منه أنه ميت.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا فَتَرْتَمِي﴾ أي: هلاً آخرتي ﴿إِلَىٰ أَجْلِ قَرِيبٍ﴾ يعني بذلك الاستزادة في أجله ليتصدق ويذكي، وهو قوله تعالى: ﴿فَاصْذُكْ﴾ قال أبو عبيدة: «فأصدق» نصب، لأن كل جواب بالفاء للاستفهام منصوب. تقول: مَنْ عندك فأتيتك. هلاً فعلت كذا فأنفعل كذا، ثم تبعها ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بغير واو. وقال أبو عمرو: إنما هي، وأكون، فذهبت الواو من الخط. كما يكتب أبو جاد أبجد هجاء، وهكذا يقرؤها أبو عمرو «وأكون» بالواو، ونصب النون. والباقون يقرؤون «وأكن» بغير واو. قال الزجاج: من قرأ «وأكون» فهو على لفظ فأصدق. ومن جزم «أكن» فهو على موضع «فأصدق»، لأن المعنى: إن أخرتني أصدق وأكن. وروى أبو صالح عن ابن عباس: «فأصدق» أي: أذكي مالي «وأكن» من الصالحين» أي: أخرج مع المؤمنين، وقال في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ والمعنى: بما تعملون من التكذيب بالصدقة. قال مقاتل: يعني المنافقين. وروى الضحاك عن ابن عباس: ما من أحد يموت، وقد كان له مال لم يركه، وأطاق الحج فلم يحج، إلا سأل الله الرجعة عند الموت، فقالوا له: إنما يسأل الرجعة الكفار، فقال: أنا أتلو عليكم به قرآنا، ثم قرأ هذه الآية (١).

سورة التغابن

وفيها قولان: أحدهما: أنها مدنية، قاله الجمهور، منهم ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة. والثاني: أنها مكية، قاله الضحاك. وقال عطاء بن يسار: هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة قوله تعالى: ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَكُ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ﴾ واللذان بعدها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْجُدْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَكَ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَارِهُكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَلْقَى وُجُوهَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُكْتُمُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ بَأْسٌ كَانَتْ تَأْيِيبُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثْلُ مَا كَفَرْنَا فَجَاءُوا وَقَوْلُوا لَنْ نَسْتَعِينُ اللَّهَ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٥﴾

وقد سبق تفسير فاتحتها إلى قوله تعالى: ﴿وَنُكِرَ كَارِهُكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً، رواه الوابي عن ابن عباس. والأحاديث تعضد هذا القول، كقوله عليه الصلاة والسلام: «خلق فرعون في بطن أمه كافراً، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً»^(١)، وقوله: «فيؤمر الملك بأربع كلمات: بكتب رزقي، وأجله، وعملي، وشقي أم سعيد»^(٢). والثاني: أن تمام الكلام عند قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ ثم وصفهم، فقال تعالى: ﴿وَنُكِرَ كَارِهُكُمْ مُؤْمِنٌ﴾، واختلف أرباب هذا القول فيه على أربعة أقوال: أحدها: فمنكم كافر يؤمن، ومنكم مؤمن يكفر، قاله أبو الجوزاء عن ابن عباس. والثاني: فمنكم كافر في حياته مؤمن في العاقبة، ومنكم مؤمن في حياته كافر في العاقبة، قاله أبو سعيد الخدري. والثالث: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب، قاله عطاء بن أبي رباح، وعنى بذلك شأن الأنواء. والرابع: فمنكم كافر بالله خلقه، ومؤمن بالله خلقه، حكاه الزجاج^(٣). والكفر بالخلق مذهب الدهرية، وأهل الطباع. وما بعد هذا قد سبق إلى قوله تعالى: ﴿وَوَصَّوْكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ قال الزجاج: أي: خلقكم أحسن الحيوان كله. وقرأ الأعمش «صوركم» بكسر الصاد. ويقال في جمع صورة: صُور، وصور، كما يقال في جمع لحية: لِحَى، ولِحَى. وذكر ابن السائب أن معنى ﴿فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أحكمها. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكُمْ مَا تُسْرُونَ﴾ روى المفضل عن عاصم «يسرون» و«يعلنون» بالياء فيهما: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ هذا خطاب لأهل مكة خوفهم ما نزل بالكفار قبليهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم، وهو ما أصابهم من العذاب في الدنيا ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أصابهم ﴿بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْيِيبُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فينكرون ذلك، ويقولون: ﴿أَبَشْرًا﴾ أي: ناس مثلنا ﴿مِثْلُ مَا كَفَرْنَا؟﴾ والبشر اسم جنس معناه الجمع، وإن كان

(١) ذكر هذا الحديث السيوطي في «الجامع الصغير» من رواية ابن عدي، والطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً، وخلق فرعون في بطن أمه كافراً» قال الحافظ المناري في «فيض القدير»: وكذا رواه الدلمي عن ابن مسعود، وفي سننه محمد بن سليم العبدي الراسبي، قال النسائي: ليس بالقوي في الحديث، وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: صدوق فيه لين.

(٢) هو قطعة من حديث طويل رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدمكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إله غيره إن أحدمكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

(٣) جاء في «القرطبي» ١٣٣/١٨: وقال الزجاج - وهو أحسن الأقوال، والذي عليه الأمة والجمهور من الأمة -: إن الله خلق الكافر، وكفره فقل له وكسب، مع أن الله خلق الكفر، وخلق المؤمن، وإيمانه فقل له وكسب، مع أن الله خلق الإيمان.

لفظه واحداً ﴿كَفَرُوا وَكُفِّرُوا وَرَوَّى﴾ أي: عرضوا عن الإيمان ﴿وَأَسْتَفْتَى اللَّهُ﴾ عن إيمانهم وعبادتهم.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا وَعَدُوا لَهُمْ وَمَا عَدَّتْ رَبِّكَ لِلنَّبِيِّينَ ثُمَّ لَنْتَبُونَ﴾ ﴿٧﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْبَأْسُ أَتَاهُمْ رُسُلُهُمْ فَاذْكُرُوا لِلَّذِينَ أَتَوْا بِبُرْهَانٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا كَفَرُوا بِهِ إِلَّا يَأْذَنُ اللَّهُ وَمَنْ يَأْذَنْ لِلَّهِ فَلْيَكْفُرْ إِنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٩﴾ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَمَهَّلِ اللَّهُ لَهُ الْكُفْرَ وَالْكَفِيرَ مَا سَأَلَ اللَّهُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَقُولُوا رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٌ مِنَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مَعَ اللَّهِ شُرَكَاءَ بَدْعًا لَهُمْ لِيُذَكَّرُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿١١﴾ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنْفَكُونَ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿إِنْ تَقْرُبُوا اللَّهَ قَرَّبْنَا حَسَنَاتٍ لَكُمْ وَنَتَقَرَّبَ لَكُمْ وَاللَّهُ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿عَلِمَ الْقَائِمُ وَالشَّهَادَةُ الْغَيْرُ لِلْحَكِيمِ﴾ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كان ابن عمر يقول: «زعموا» كناية الكذب. وكان مجاهد يكره أن يقول الرجل: زعم فلان.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هو القرآن، وفي بيان أمر البعث والحساب والجزاء.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُجْمَعُونَ﴾ هو منصوب بقوله تعالى: «اللتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم» ﴿يَوْمَ يُجْمَعُونَ يَوْمَ الْمَجْعِ﴾ وهو يوم القيامة. سمي بذلك لأن الله تعالى يجمع فيه الجن والإنس، وأهل السموات، وأهل الأرض، ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تفاعل من الغبن، وهو فوت الحظ. والمراد في تسميته يوم القيامة بيوم التغابن فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه ليس من كافر إلا وله منزل وأهل في الجنة، فيرت ذلك المؤمن، فيغبن حينئذ الكافر، ذكر هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: غبن أهل الجنة أهل النار، قال مجاهد، والقرظي. والثالث: أنه يوم غبن المظلوم الظالم، لأن المظلوم كان في الدنيا مغبوناً، فصار في الآخرة غابناً، ذكره الماوردي. والرابع: أنه يوم يظهر فيه غبن الكافر بتركه للإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان، ذكره الثعلبي. قال الزجاج: وإنما ذكر ذلك مثلاً للبيع والشراء، كقوله تعالى: ﴿فَمَا رَهِتَ يُعَذِّبُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَدْرَكَ عَلَى يَمِينِهِ﴾ [الصف: ١٠] وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿يُكْفَرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ قرأ نافع، وابن عامر، والمفضل عن عاصم «نكفر»، و«ندخله» بالنون فيهما. والباقون: بالياء. ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: بعلمه وقضائه، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَمَهَّلِ اللَّهُ لَهُ الْكُفْرَ وَالْكَفِيرَ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من قبل الله تعالى، فيسلم، ويرضى. والثاني: يهد قلبه للاسترجاع، وهو أن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، قاله مقاتل. والثالث: أنه إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر، قاله ابن السائب، وابن قتيبة. والرابع: يهد قلبه، أي: يجعله مهتدياً، قاله الزجاج. والخامس: [يهد وليه بالصبر والرضا، قاله أبو بكر الوراق. والسادس: [يهد قلبه لاتباع السنة إذا صح إيمانه، قاله أبو عثمان الحيري. وقرأ أبو بكر الصديق، وعاصم الجحدري، وأبو نعيم: ﴿يُهْدَى﴾ بياء مفتوحة ونصب الدال، «قَلْبُهُ» بالرفع. قال الزجاج: هذا من هدا يهدا: إذا سكن. فالمعنى: إذا سلم لأمر الله سَكَنَ قَلْبُهُ. وقرأ عثمان بن عفان، والضحاك، وطلحة بن مصرف، والأزرق عن حمزة: «نَهْد» بالنون. وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو عبد الرحمن: ﴿يُهْدَى﴾ بضم الياء، وفتح الدال «قَلْبُهُ» بالرفع. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدَّةً لَكُمْ﴾ سبب نزولها أن الرجل كان يسلم. فإذا أراد الهجرة منعه أهله، وولده، وقالوا: نَشُدُّكَ اللَّهُ أَنْ تَذْهَبَ وَتَدَعَ أَهْلَكَ وَعَشِيرَتَكَ وَتَصِيرَ إِلَى الْمَدِينَةِ بِلَا أَهْلِ وَلَا مَالٍ فَمَنْهُمْ مَنْ يَرْقُ لَهُمْ، وَيَقِيمُ فَلَا يَهَاجِرُ، فنزلت هذه الآية. فلما هاجر أهلك، ورأوا الناس قد قَفَّهوا في الدين هُمُوا أَنْ يِعَاقِبُوا أَهْلَهُمُ الَّذِينَ مَنَعُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَمَّوْا وَصَفَحُوا﴾ إلى آخر الآية، هذا قول ابن عباس^(١). وقال

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣٢٢ عن ابن عباس رضي الله عنه، ورواه بنحوه الترمذي في «جامعه» ١٦٥/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح، =

الزجاج: لما أرادوا الهجرة قال لهم أزواجهم، وأولادهم: قد صبرنا لكم على مفارقة الدِّين ولا نصبر لكم على مفارقتكم، ومفارقة الأموال، والمساكن، فأعلم الله ﷻ أن من كان بهذه الصورة، فهو عدوٌّ، وإن كان ولدًا، أو كانت زوجة. وقال مجاهد: كان حب الرجل ولده وزوجته يحمله على قطيعة رحمه ومعصية ربه. وقال قتادة: كان من أزواجهم، وأولادهم من ينهاهم عن الإسلام، ويثبطهم عنه، فخرج في قوله تعالى: ﴿عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: بمنعه من الهجرة، وهذا على قول ابن عباس. والثاني: بكونهم سبباً للمعاصي، هذا على قول مجاهد. والثالث: بنهيهم عن الإسلام، وهذا على قول قتادة.

قوله تعالى: ﴿فَلْتَحَذَرُوهُمْ﴾ قال الفراء: لا تطيعوهم في التخلف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاء وشغل عن الآخرة. فالمال والأولاد يوقعان في العظائم إلا من عصمه الله. وقال ابن قتيبة: أي: إغرام. يقال: فتن فلان بالمرأة، وشغف بها، أي: أغرم بها. وقال الفراء: قال أهل المعاني: إنما دخل «من» في قوله تعالى: «إن من أزواجكم» لأنه ليس كل الأزواج، والأولاد أعداء. ولم يذكر «من» في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنها لا تخلو من الفتنة، واشتغال القلب بها. وقد روى بريدة عن رسول الله ﷺ أنه كان يخطب، فجاء الحسن، والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان، ويعثران، فنزل من المنبر، فحملهما، فوضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان، ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي، ورفعتهما»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ثواب جزيل، وهو الجنة. والمعنى: لا تعصوه بسبب الأولاد، ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: ما أطقتم ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ ما تؤمرون به ﴿وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ وفي هذه النفقة ثلاثة أقوال: أحدها: الصدقة، قاله ابن عباس. والثاني: نفقة المؤمن على نفسه، قاله الحسن. والثالث: النفقة في الجهاد، قاله الضحاك. ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ حتى يعطي حق الله في ماله. وقد تقدم بيان هذا في [الحشر: ٩] وما بعده قد سبق بيانه إلى آخر السورة [البقرة: ٢٤٥. والحديد: ١١، ١٨. والحشر: ٢٣، ٢٤].



ورواه الطبري في «التفسير» ١٢٤/٢٨، والحاكم في «المستدرک» ٤٩٠/٢. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٢٨/٦ وزاد نسبه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه.

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» ٣٥٤/٥ وفي سننه الحسين بن واقد المروزي أبو عبد الله القاضي، قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: ثقة له أوهام، قال ابن كثير: ورواه أهل «السنن» من حديث حسين بن واقد به، وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٧٣: أخرجه أصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى، والبخاري، من رواية حسين بن واقد عن ابن بريدة عن أبيه، قال: قال البخاري: لا نعلم له طريقاً إلا هذا.

سورة الطلاق

وتسمى سورة النساء القُصْرَى^(١)، وهي مدنية كلها ياجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقَتُّمُ النِّسَاءَ فَلْيُطَوِّدْنَ لِمَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحٍ مُبِينٍ وَيُطَلِّقَنَّ مِنْكُمْ حُكْمًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ بَعَدَ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُخْرِجُكُمْ مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقَتُّمُ النِّسَاءَ﴾ قال الزجاج: هذا خطاب للنبي ﷺ، والمؤمنون داخلون معه فيه. ومعناه: إذا أردتم طلاق النساء، كقوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة: ٦]. وفي سبب نزول هذه الآية قولان: أحدهما: أنها نزلت حين طلق رسول الله ﷺ حُصَّةَ، وقيل له: راجعها، فإنها صَوَامَةٌ قَوَّامَةٌ، وهي من إحدى زوجاتك في الجنة، قاله أنس بن مالك. والثاني: أنها نزلت في عبد الله بن عمر، وذلك أنه طلق امرأته حائضاً فأمره النبي ﷺ أن يراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، قاله السدي^(٢).

قوله تعالى: ﴿لِمَدَّتِهِنَّ﴾ أي: لزمان عدتهن، وهو الطهر. وهذا للمدخول بها، لأن غير المدخول بها لا عدَّة عليها. والطلاق على ضربين: سُتِّي، ويُدْعَى. فالسُّتِّي: أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، وذلك هو الطلاق لِلْعِدَّةِ، لأنها تمتدُّ بذلك الطهر من عدَّة، وتقع في العدة عقيب الطلاق، فلا يطول عليها زمان العدة. والطلاق البدعي: أن يقع في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، فهو واقع، وصاحبه آثم. وإن جمع الطلاق الثلاث في طهر واحد، فالمصور من مذهبه أنه بدعة.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: زمان العدة. وفي إحصائها فوائد. منها: مراعاة زمان الرجعة، وأوان النفقة، والسكنى، وتوزيع الطلاق على الإترار إذا أراد أن يطلق ثلاثاً، وليَعْلَمَ أنها قد بانَتْ، فيتزوج بأختها، وأربع سواها. قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: فلا تعصوه فيما أمركم به. ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ فيه دليل على وجوب السكنى. ونسب البيوت إليهن، لسكنانهن قبل الطلاق فيهن، ولا يجوز لها أن تخرج في عدتها إلا لضرورة ظاهرة. فإن خرجت أئمت، ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحٍ مُبِينٍ﴾ وفيها أربعة أقوال: أحدها: المعنى: إلا أن يخرج من قبل انقضاء العدة، فخرجهن هو الفاحشة المبينة، وهذا قول عبد الله بن عمر، والسدي، وابن السائب. والثاني: أن الفاحشة: الزنى، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والشعبي، وعكرمة، والضحاك. فعلى هذا يكون المعنى: إلا أن يزني فيُخْرِجَنَّ لإقامة الحدِّ عليهن. والثالث: الفاحشة: أن تبدؤ على أهلها، فيحلُّ لهم إخراجها، رواه محمد بن إبراهيم عن ابن عباس. والرابع: أنها إصابة حدٍّ، فتخرج لإقامة الحدِّ عليها، قاله سعيد بن المسيب^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ يعني: ما ذكر من الأحكام ﴿وَمَنْ بَعَدَ حُدُودَ اللَّهِ﴾ التي بينتها، وأمر بها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ

(١) سماها بذلك عبد الله بن مسعود ﷺ كما في «صحيح البخاري» ٥٠٢/٨.

(٢) ذكره الرازي في «أسباب النزول» ٣٢٣ عن السدي بغير سند. وأخرج البخاري ومسلم من حديث سالم أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتفيظ رسول الله ﷺ، ثم قال: «يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسها، فذلك العدة التي أمر بها الله ﷻ، ولنظ مسلم: «فذلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء» وفي رواية لمسلم قال ابن عمر: «قرأ النبي ﷺ: «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فليطوون لمدتهن في قبل عدتهن».

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحٍ مُبِينٍ﴾ أي: لا يخرج من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل، قال: الفاحشة المبينة، تشمل الزنى كما قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو قلابة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والسدي، وسعيد بن أبي هلال، وغيرهم. قال: وتشمل ما إذا نشزت المرأة، أو بذوت على أهل الرجل، وأذنتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب، وابن عباس، وعكرمة وغيرهم.

تَسْمُرُ أَي: أتم فيما بينه وبين الله تعالى ﴿لَا تَدْرِي لِمَلَّ اللَّهُ بِحَدِيثِ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أي: يوقع في قلب الزوج المحبة لرجعتها بعد الطلقة والطلاقين. وهذا يدل على أن المستحب في الطلاق تفريقه، وأن لا يجمع الثلاث.

﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَبْنُ بِلِطْمِ الْأُمِّهِمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَأَيُّوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِكُمْ وَيُنذِرُ أَلَّا تُكُونَ لِلدُّنْيَا لُغْوًا وَكَيْفَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١٠﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّكِلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرُهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَبْنُ﴾ أي: قاربن انقضاء العدة ﴿فَأَيُّوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وهذا مبين في [البقرة: ٢٣١] ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ قال المفسرون: أشهدوا على الطلاق، أو المراجعة. واختلف العلماء: هل الإشهاد على المراجعة واجب، أم مستحب؟ وفيه عن أحمد روايتان، وعن الشافعي قولان^(١) ثم قال للشهداء: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي: اشهدوا بالحق، وأدوها على الصحة، طلباً لمرضاة الله، وقياماً بوصيته. وما بعده قد سبق بيانه [البقرة: ٢٣٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ فذكر أكثر المفسرين أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، أسر العدو ابناً له، فذكر ذلك للنبي ﷺ، وشكا إليه الفاقة، فقال: اتق الله، واصبر، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ففعل الرجل ذلك، فغفل العدو عن ابنه، فساق غنمهم، وجاء بها إلى أبيه، وهي أربعة آلاف شاة، فنزلت هذه الآية^(٢). وفي معناها للمفسرين خمسة أقوال: أحدها: ومن يتق الله يُنجِه من كل كرب في الدنيا والآخرة، قاله ابن عباس. والثاني: بأن مَخْرَجَهُ: علمه بأن ما أصابه من عطاء أو منع، من قِبَلِ الله، وهو معنى قول ابن مسعود. والثالث: ومن يتق الله، فيطلق للسنَّة، ويراجع للسنَّة، يَجْعَلُ له مخرجاً، قاله السدي. والرابع: ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة، يجعل له مخرجاً من النار إلى الجنة، قاله ابن السائب. والخامس: يجعل له مخرجاً من الحرام إلى الحلال، قاله الزجاج. والصحيح أن هذا عام، فإن الله تعالى يجعل للنقي مخرجاً من كل ما يضيِّق عليه. ومن لا يتقي، يقع في كل شدة. قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجاً من كل ما يضيِّق على الناس ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من حيث لا يأمل، ولا يرجو. قال الزجاج: ويجوز أن يكون: إذا اتقى الله في طلاقه، وجرى في ذلك على السنَّة، رزقه الله أهلاً بدل أهله ﴿وَمَنْ يَتَّكِلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: مَنْ وَتَّقَ به فيما نابه، كناه الله ما أهّمه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ وروى حفص، والمفضل عن عاصم «بالغ أمره» مضاف. والمعنى: يقضي ما يريد ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: أجلاً ومنتهاً ينتهي إليه، قدّر الله ذلك كله، فلا يقدّم ولا يؤخر^(٣). قال مقاتل: قد جعل الله لكل شيء من الشدة والرخاء قدراً، فقدّر متى يكون هذا الغني فقيراً، وهذا الفقير غنياً.

﴿وَالَّذِي يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: مَنْ وَتَّقَ به فيما نابه، كناه الله ما أهّمه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ وروى حفص، والمفضل عن عاصم «بالغ أمره» مضاف. والمعنى: يقضي ما يريد ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: أجلاً ومنتهاً ينتهي إليه، قدّر الله ذلك كله، فلا يقدّم ولا يؤخر^(٣). قال مقاتل: قد جعل الله لكل شيء من الشدة والرخاء قدراً، فقدّر متى يكون هذا الغني فقيراً، وهذا الفقير غنياً.

(١) وقال عطاء: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهداً عدل، كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ إلا أن يكون من عدل. وروى أبو داود في «سننه» رقم (٢١٨٦)، وابن ماجه (٢٠٢٥) عن عمران بن حصين ﷺ سئل عن رجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها؟ قال: طلقت لغير سنة، ورجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تُعد. وإسناده صحيح كما قال الحافظ في «بلوغ المرام».

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٢٤ بغير سند. وأورده السيوطي في «الدرر» ٢٣٣/٦ من رواية ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وينحوه من رواية الخطيب البغدادي في تاريخه من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس. ورواه ابن جرير الطبري من طريق سالم أبي الجعد مرسلًا قال: نزلت في رجل من أشجع، فذكره بنحوه. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٧٤: رواه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قال: وروى الحاكم من طريق سالم أبي الجعد عن جابر قال: نزلت هذه الآية في رجل من أشجع... فذكره. قال: وفيه عيب بن كثير تركه الأزدي.

(٣) روى أحمد في «السنن»، والترمذي في «سننه» عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال لي: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ربمت الألقام، ورجفت الصحف» قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهو كما قال: وروى أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم عن عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خصاصاً، وتروح بطاناً» قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم وأقره الذهبي. ومعنى خصاصاً: جياً، وطاناً: شباعاً.

قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يُنْسَى مِنَ الْمَحِيضِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها لما نزلت عِدَّة المطلقة، والمتوفى عنها زوجها في [البقرة: ٢٢٧، ٢٢٢] قال أُبَيُّ بن كعب: يا رسول الله: إن نساء من أهل المدينة يقلن: قد بقي من النساء ما لم يذكر فيه شيء. قال: «وما هو؟» قال: الصغار والكبار، وذوات الحمل، فنزلت هذه الآية، قاله عمرو بن سالم^(١). والثاني: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ بِرِضَاكِهِنَّ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٨] قال خَلَاد بن النعمان الأنصاري: يا رسول الله، فما عِدَّة التي لا تحيض، وعِدَّة التي لم تحض، وعِدَّة الحُبلى؟ فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(٢). ومعنى الآية: ﴿إِنْ أُرْتَبِتْ﴾، أي: شككتهم فلم تَدْرُوا ما عِدَّتِهِنَّ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ كذلك^(٣).

فصل

قال القاضي أبو يعلى: المراد بالارتباب هاهنا: ارتياب المخاطبين في مقدار عدة الآيسة والصغيرة كم هو؟ وليس المراد به ارتياب المعتدات في اليأس من المحيض، أو اليأس من الحمل للسبب الذي ذكر في نزول الآية. ولأنه لو أريد بذلك النساء لتوجه الخطاب إليهن، فقيل: إن ارتبتين، أو ارتبتين، لأن الحيض إنما يعلم من جهتهن. وقد اختلف في المرأة إذا تأخر حيضها لا لعارض كم تجلس؟ فمذهب أصحابنا أنها تجلس غالب مدة الحمل، وهو تسعة أشهر، ثم ثلاثة. والعدة: هي الثلاثة التي بعد التسعة. فإن حاضت قبل السنة بيوم، استأنفت ثلاث حيض، وإن تَمَّت السَنَةُ من غير حيض، حَلَّت، وبه قال مالك. وقال أبو حنيفة، والشافعي في الجديد: تمكث أبداً حتى يعلم براءة رحمها قطعاً، وهي أن تصير في حد لا يحيض مثلها، فتعتد بعد ذلك ثلاثة أشهر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ يعني: عدتهن ثلاثة أشهر أيضاً، لأنه كلام لا يستقل بنفسه، فلا بد له من ضمير وضميره تقدم ذكره مظهراً، وهو العدة بالشهور. وهذا على قول أصحابنا محمول على من لم يأت عليها زمان الحيض: أنها تعدد ثلاثة أشهر. فأما من أتى عليها زمان الحيض، ولم تحض، فإنها تعدد سنة.

قوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ عامٌ في المطلقات، والمتوفى عنهن أزواجهن، وهذا قول عمر، وابن عمر، وابن مسعود، وأبي مسعود البدرى، وأبي هريرة، وقهقاء الأمصار. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: تعدد آخر الأجلين. ويدل على قولنا عموم الآية. وقول ابن مسعود: من شاء لاعتته ما نزلت ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها^(٤)، وقول أم سلمة: إن سبيعة وضعت بعد وفاة زوجها بأيام، فأمرها رسول الله ﷺ أن تزوج^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ أي: فيما أمر به ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ يُسَهِّلْ عَلَيْهِ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وهذا قول

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٢٤ عن عمرو بن سالم، ورواه بنحوه ابن جرير الطبري ١٤١/٢٨، والحاكم ٤٩٢/٢ وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وواقفه الذهبي، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٣٤/٦ وزاد نسبه لإسحاق بن راهويه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن أبي بن كعب ؓ.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٢٤ عن مقاتل بغير سند. وكذلك ذكره البغوي والخازن عن قتادة.

(٣) قال ابن كثير: وهذا مروى عن سعيد بن جبير، وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى. وذكر أنه يحتاج لذلك بحديث عمرو بن سالم الذي تقدم ذكره.

(٤) قال السيوطي في «الدر» ٢٣٥/٦: أخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وسعيد بن منصور، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً يقول: تعدد آخر الأجلين، فقال: من شاء لاعتته، إن الآية التي نزلت في سورة النساء القصصى (يريد بذلك سورة الطلاق) نزلت بعد سورة [البقرة] ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ بكذا وكذا شهراً، فكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها.

رواه البخاري في «صحيحه» ٥٠١/٨ عن أم سلمة قالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها. قال ابن كثير: هكذا أورد البخاري هذا الحديث هاهنا مختصراً، وقد رواه مسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه أخر، وذكره من رواية أحمد ثم قال: ورواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من طرق عن أم سلمة ؓ. وأورده السيوطي في «الدر» ٢٣٦/٦ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه.

الأكثرين. وقال الضحاك: ومن يتق الله في طلاق الشئته، يجعل الله له من أمره يسراً في الرجعة ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أي: يمحي عنه خطاياها: ﴿وَيَنْظِمَ لَهُ أَجْرَهُ﴾ في الآخرة.

﴿أَتَكُونُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَّرْتُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِضَيْقُوهُنَّ عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أَرْكَتَ حَمْلٍ فَأَلْفِقُوهُنَّ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضْمَنَّ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآوَهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَأَلْفِقُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَأَسَّرْتُمُ فَاسْتَرْضِعْ لَهُنَّ أُخْرَىٰ ۗ لَيْسَ لَكُمْ ذُرٌّ عَلَىٰ سَعَةٍ بَيْنَ سَعَتَيْهِ وَمَنْ أَدْرَاكُمْ عَلَيْهِمْ ذُرًّا فَصَيِّبْ ۖ بِمَا عَالَمَهُ اللَّهُ لَا يَكْثِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا عَالَمَهَا سَجَعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عَشْرِ بَشْرًا ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَكُونُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَّرْتُمْ﴾ و «من» صلة قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ قرأ الجمهور بضم الواو. وقرأ أبو هريرة، وأبو عبد الرحمن، وأبو رزين، وقتادة، ورواح عن يعقوب بكسر الواو. قرأ ابن يعمر، وابن أبي عبله، وأبو حنيفة: بفتح الواو. قال ابن قتيبة: أي: بقدر وسعيكم. والوجد: المقدرة والغنى، يقال: افقر فلان بعد وجده. قال الفراء: يقول: على ما يجد، فإن كان مؤسماً عليه، وسع عليها في المسكن والثففة، وإن كان مقترراً عليه، فعلى قدر ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضَارُّوهُنَّ﴾ بالضميق عليهن في المسكن والثففة، وأنتم تجدون سعة. قال القاضي أبو يعلى: المراد بهذا: المطلقة الرجعية دون المبتوتة، بدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ أَخَذَ مِنْكُمْ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٦]. وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسِّرُوا لَهُمْ وَأُولَٰئِكَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا﴾ [الطلاق: ٦] فدل ذلك على أنه أراد الرجعية. وقد اختلف الفقهاء في المبتوتة: هل لها سكنى، ونفقة في مدة العدة، أم لا؟ فالمشهور عند أصحابنا: أنه لا سكنى لها ولا نفقة، وهو قول ابن أبي ليلى. وقال أبو حنيفة: لها السكنى، والنفقة. وقال مالك والشافعي: لها السكنى، دون النفقة. وقد رواه الكوسج^(١) عن أحمد. ويدل على الأول حديث فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ قال لها: «إنما النفقة للمرأة على زوجها ما كانت له عليها الرجعة، فإذا لم يكن له عليها، فلا نفقة ولا سكنى»^(٢). ومن حيث المعنى: إن النفقة إنما تجب لأجل التمكين من الاستمتاع، بدليل أن الناشز لا نفقة لها. واختلفوا في الحامل، والمتوفى عنها زوجها، فقال ابن مسعود، وابن عمر، وأبو العالية، والشعبي، وشريح، وإبراهيم: نفقتها من جميع المال، وبه قال مالك، وابن أبي ليلى، والثوري. وقال ابن عباس، وابن الزبير، والحسن، وسعيد بن المسيب، وعطاء: نفقتها في مال نفسها، وبه قال أبو حنيفة، وأصحابه. وعن أحمد كالقولين.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآوَهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ يعني: أجره الرضاع. وفي هذا دلالة على أن الأم إذا رضيت أن ترضعه بأجرة مثلها، لم يكن للأب أن يسترضع غيرها ﴿وَأَلْفِقُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾، أي: لا تشتط المرأة على الزوج فيما يطلبه من أجره الرضاع، ولا يقصر الزوج عن المقدار المستحق ﴿وَإِنْ تَأَسَّرْتُمُ﴾ في الأجرة، ولم يتراض الوالدان^(٣) على شيء ﴿فَسْتَرْضِعْ لَهُنَّ أُخْرَىٰ﴾ لفظه لفظ الخبر، ومعناه: الأمر، أي: فليسترضع الوالد غير والدة الصبي. ﴿لَيْسَ لَكُمْ ذُرٌّ عَلَىٰ سَعَةٍ بَيْنَ سَعَتَيْهِ وَمَنْ أَدْرَاكُمْ عَلَيْهِمْ ذُرًّا فَصَيِّبْ ۖ بِمَا عَالَمَهُ اللَّهُ لَا يَكْثِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا عَالَمَهَا سَجَعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عَشْرِ بَشْرًا ۗ﴾ أي: على قدر ما أعطاه من المال ﴿سَجَعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عَشْرِ بَشْرًا﴾ أي: بعد ضيق وشدة، غنى وسعة، وكان الغالب عليهم حينئذ الفقر، فأعلمهم أنه سيفتح عليهم بعد ذلك.

﴿وَكَلِّبْنَ بَيْنَ قَرْنَيْهِ عَنَّتْ عَنِ أَمْرِ نِسَاءٍ وَرَسُولِهِ فَمَا سَأَلَتْهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّتْهَا عَدَابًا لَكِرًا﴾ [٨] فَذَاتَتْ وَكَانَ أَمْرُهَا وَكَانَ عَيْبُهَا أَرْهَابًا حُتْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَدَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مِثْنَتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ

(١) هو إسحاق بن منصور بن بهرام أبو يعقوب المروزي المعروف بالكوسج، وهو الذي دون المسائل الفقهية عن الإمام أحمد بن حنبل، روى عنه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود، وهو ثقة ثبت من رجال الحديث، توفي رحمه الله سنة (٢٥١هـ).

(٢) رواه أحمد في «المسنند» ٣٧٣/٦ عن فاطمة بنت قيس وهو جزء من حديث طويل. قال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١٠٨/٧: تفرد برفعه مجالد بن سعيد، وهو ضعيف، قال: وقد تابعه في رفعه بعض الرواة، قال في «الفتح»: ولكنه أضعف من مجالد، وهو في أكثر الروايات موقوف عليها، والرفع زيادة يتعين قولها لما بيناه في غير موضع، ورواية الضعيف مع الضعيف توجب الارتفاع عن درجة السقوط إلى درجة الاعتبار.

(٣) في الأصل: الولدان.

مَأْتُوا وَحَلُوا الصَّلَاتِ مِنَ الْفُلْكَتِ إِلَى الثُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ﴾ أي: وكم ﴿مِنْ قَرِيْبَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهَا﴾، أي: عن أمر رسله. والمعنى: عتا أهلها. قال ابن زيد: عنت، أي: كفرت، وتركت أمر ربها، فلم تقبله. وفي باقي الآية قولان: أحدهما: أن فيها تقديمًا، وتأخيرًا. والمعنى: عذبناها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع، والسيف، والبلايا، وحاسبتها حساباً شديداً في الآخرة، قاله ابن عباس، والفراء في آخرين. والثاني: أنها على نظمها، والمعنى: حاسبتها بعملها في الدنيا، فجازيها بالعذاب على مقدار عملها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَعَذَّبْنَاهَا﴾ فجعل المجازاة بالعذاب محاسبة. والحساب الشديد: الذي لا عفو فيه، والتكر: المنكر ﴿فَذَاقَتْ وَكَالَ أَمْرَهَا﴾ أي: جزاء ذنبها ﴿وَكَانَ عَقِبَهُ أَمْرًا خَيْرًا﴾ في الدنيا، والآخرة، وقال ابن قتيبة: الخسر: الهلكة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَكُمْ دِكْرًا﴾ أي: قرآناً ﴿رَسُولًا﴾ أي: وبعثه رسولاً، قاله مقاتل. وإلى نحوه ذهب السدي. وقال ابن السائب: الرسول هاهنا: جبرائيل، فعلى هذا: يكون الذكر والرسول جميعاً منزّلين. وقال ثعلب: الرسول: هو الذكر. وقال غيره: معنى الذكر هاهنا: الشرف. وما بعده قد تقدّم [البقرة: ٢٥٧، والأحزاب: ٤٣، والتغابن: ٩] إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا﴾ يعني: الجنة التي لا ينقطع نعيمها.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُونَ مِنْهَا الْآيَاتِ بَيِّنَاتٍ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٢﴾

قوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُونَ﴾ أي: وخلق الأرض بعددهن^(١). وجاء في الحديث: كثافة كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وما بينها وبين الأخرى كذلك، وكثافة كل أرض خمسمائة عام، وما بينها وبين الأرض الأخرى كذلك^(٢). وقد روى أبو الضحى عن ابن عباس قال: في كل أرض آدم مثل آدمكم، ونوح مثل نوحكم، وإبراهيم مثل إبراهيمكم، وعيسى كعيسى، فهذا الحديث [تارة] يرفع إلى ابن عباس، وتارة يوقف على أبي الضحى^(٣)، وليس له معنى إلا ما حكى أبو سليمان الدمشقي، قال: سمعت أن معناه: إن في كل أرض خلقاً من خلق الله لهم سادة، يقوم كبيرهم ومقدمهم في الخلق مقام آدم فينا، وتقوم ذرّيته في السنّ والقدّم كمقام نوح. وعلى هذا المثال سائرهم. وقال كعب:

(١) قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُونَ﴾ أي: سبعاً أيضاً، كما ثبت في «الصححين»: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين» وفي «صحيح البخاري»: «خسف به الله سبع أرضين» قال: ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم، فقد أهدى النجمة، وأغرقت في التزع، وخالف القرآن والحديث بلا مستند. وقد صح من رواية البخاري وغيره قوله ﷺ: «اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقلن...» الحديث.

(٢) روى ابن جرير الطبري ١٥٣/٢٨، وعثمان بن سعيد الدارمي في كتاب «الرد على الجهمية» ص ٢٦ طبع المكتب الإسلامي من طريق عاصم عن زاذ عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفاً عليه قال: خلق الله سبع سموات، غلظ كل واحدة مسيرة خمسمائة عام، وبين كل واحدة منهن خمسمائة عام، وفوق السبع السموات الماء، والله جل ثناؤه فوق الماء، ولا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم، والأرض سبع، وبين كل أرضين خمسمائة عام، وغلظ كل أرض خمسمائة عام. وإسناده حسن ولكنه موقوف. ورواه مرفوعاً أحمد في «المسنند» رقم (١٧٧٠) و(١٧٧١)، وأبو داود رقم (٤٧٢٣)، وعثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» ص ٢٤، وفي سننه عندهم عبد الله بن عميرة وهو مجهول، وفيه أسطورة الأوعال. ورواه الترمذي ١٦٢/٢ من رواية الحسن بن أبي هريرة وليس فيه ذكر الأوعال وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، ويروى عن أيوب ويونس وعلي بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة. وروى شريك بعض هذا المعنى عن سماك ووقفه، فالحديث لا يصح مرفوعاً، وهو حسن موقوفاً والله أعلم.

(٣) قال ابن كثير في «التفسير» ٢٨٥/٤: وروى البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» هذا الأثر عن ابن عباس فقال: أنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أحمد بن يعقوب، ثنا عبيد بن غنام الحنفي، أنا علي بن حكيم، ثنا شريك، عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس في قول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُونَ﴾ قال: في كل أرض نبي كنبئكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. قال: ثم رواه البيهقي من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحى عن ابن عباس في قول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُونَ﴾ قال: في كل أرض نحو إبراهيم ﷻ، قال: ثم قال البيهقي: إسناده هذا عن ابن عباس صحيح، وهو شاذ بمرّة، لا أعلم لأبي الضحى عليه متاباً، والله أعلم.

وقال ابن كثير أيضاً في «البداية والنهاية» ٢١/١: وهو محمول - إن صح نقله عن ابن عباس - على أنه أخذه ﷺ عن الإسرائيليات، والله أعلم.

ساكن الأرض الثانية: البحر العميق، وفي الثالثة: حجارة جهنم، والرابعة: كبريت جهنم، والخامسة: حيات جهنم، والسادسة: عقارب جهنم، والسابعة: فيها إبليس^(١).

قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْأَمْزُ بَيْنَهُنَّ﴾، في الأمر قولان: أحدهما: قضاء الله وقدره، قاله الأكثرون. قال قتادة: في كل أرضٍ من أرضه وسماؤه من سمائه خَلَقَ من خَلْقِهِ، وأَمَرَ من أَمْرِهِ، وَقَضَى من قَضَائِهِ. والثاني: أنه الوحي، قاله مقاتل^(٢).

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أعلمكم بهذا لتعلموا قدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء^(٣).



قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْأَمْزُ بَيْنَهُنَّ﴾، في الأمر قولان: أحدهما: قضاء الله وقدره، قاله الأكثرون. قال قتادة: في كل أرضٍ من أرضه وسماؤه من سمائه خَلَقَ من خَلْقِهِ، وأَمَرَ من أَمْرِهِ، وَقَضَى من قَضَائِهِ. والثاني: أنه الوحي، قاله مقاتل^(٢).

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أعلمكم بهذا لتعلموا قدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء^(٣).

وهذا أيضاً - والله أعلم - من الإسراءيات التي نقلها كعب وغيره عن أهل الكتاب.

قال ابن جرير: وقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْأَمْزُ بَيْنَهُنَّ﴾ يقول تعالى ذكروه: ينزل أمر الله بين السماء السابعة والأرض السابعة.

قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول تعالى ذكروه: ينزل قضاء الله وأمره بين ذلك، كما تعلموا أيها الناس كنه قدرته وسلطانه، وأنه لا يتعذر عليه شيء أراد، ولا يمنع عليه أمر شاء، ولكنه على ما يشاء قدير ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يقول جل ثناؤه: وتعلموا أيها الناس أن الله بكل شيء من خلقه محيط علماً، ولا يعجز عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. يقول جل ثناؤه: فخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم عقوبة، فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع، وهو على كل شيء قادر، ومحيط أيضاً بأعمالكم، فلا يخفى عليه منها خاف، وهو محصيها عليكم ليجازيكم بها، يوم تجزي كل نفس ما كسبت.

(١) وهذا أيضاً - والله أعلم - من الإسراءيات التي نقلها كعب وغيره عن أهل الكتاب.

(٢) قال ابن جرير: وقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْأَمْزُ بَيْنَهُنَّ﴾ يقول تعالى ذكروه: ينزل أمر الله بين السماء السابعة والأرض السابعة.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول تعالى ذكروه: ينزل قضاء الله وأمره بين ذلك، كما تعلموا أيها الناس كنه قدرته وسلطانه، وأنه لا يتعذر عليه شيء أراد، ولا يمنع عليه أمر شاء، ولكنه على ما يشاء قدير ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يقول جل ثناؤه: وتعلموا أيها الناس أن الله بكل شيء من خلقه محيط علماً، ولا يعجز عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. يقول جل ثناؤه: فخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم عقوبة، فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع، وهو على كل شيء قادر، ومحيط أيضاً بأعمالكم، فلا يخفى عليه منها خاف، وهو محصيها عليكم ليجازيكم بها، يوم تجزي كل نفس ما كسبت.

سورة التحريم^(١)

وهي مدنية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَحْمَةٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّى مَرْضَاتِ أَرْوَاهُ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْلَةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَرْوَاهِهِ حَيْثَمَا فَلَمَّا بَيَّنَّتْ يَدَهُ وَأَظْهَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بِعَمَلِهِ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضِ فَلَئَمَا بَيَّنَّتْ يَدَهُ قَالَ مَنَ أَبَاكَ هَذَا قَالَ بَنَانِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ إِنْ نُبُوًّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَمَتَ قَلْبُكَ وَإِنْ تَطَهَّرَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكَ وَجِبْرِيْلُ وَمَصْلِيحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكَةُ بَدَدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَنِ رَبِّهِ إِنْ طَلَّقَكَ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسَلِّمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ فَيُنكِحَ عِيْدَتَ سَبِيحَتِ فَيُنكِحَ وَأَكْبَارًا ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِرَحْمَةٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن حفصة ذهبت إلى أبيها تتحدث عنه، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته، فظلت معه في بيت حفصة، وكان اليوم [الذي] يأتي فيه عائشة، فرجعت حفصة، فوجدتها في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها، وغارت غيرة شديدة. فلما دخلت حفصة قالت: قد رأيت من كان عندك. والله لقد سؤتني، فقال النبي ﷺ: «والله لأرضيتك، وإني مسرٌ إليك سرًا فاحفظيه»، قالت: وما هو؟ قال: «إني أشهدك أن سيرتني هذه علي حرام رضى لك»، وكانت عائشة وحفصة متظاهرتين على نساء النبي ﷺ، فانطلقت حفصة إلى عائشة، فقالت لها: أبشري، إن النبي ﷺ قد حرم عليه فاتته، فنزلت هذه الآية، رواه العوفي عن ابن عباس^(٢). وقد روي عن عمر نحو هذا المعنى، وقال فيه: فقالت حفصة: كيف تحرمها عليك، وهي جاريته؟! فحلف لها أن لا يقربها، فقال لها: «لا تذكره لأحد»، فذكرته لعائشة، فألى أن لا يدخل على نساءه شهرًا، فنزلت هذه الآية^(٣) وقال الضحاك: قال لها: «لا تذكرى لعائشة ما رأيت»، فذكرته، فغضبت عائشة، ولم تزل بنبي الله حتى حلف أن لا يقربها، فنزلت هذه الآية^(٤)، وإلى هذا المعنى: ذهب سعيد بن جبيرة، ومجاهد، وعطاء، والشعبي، ومسروق، ومقاتل، والأكثرون. والثاني: ما روى عروة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلو والعسل^(٥)، وكان إذا انصرف من صلاة العصر دخل على نساءه، فدخل على حفصة بنت عمر، احتبس عندها، فسألت عن ذلك، فقيل: أهدت لها امرأة من قومها عكَّةً من عسل^(٦)، فسقت رسول الله ﷺ، فقلت: أما والله لنحتالن له^(٧)، فقلت لسودة: إنه سيدنو منك إذا دخل عليك، فقول له: يا رسول الله أكلت مغافير، فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقول لي؛

(١) ويقال لها: سورة التحريم، وسورة «لم تحرم». قال الألويسي: ويقال لها «سورة النبي ﷺ» وعن ابن الزبير: سورة النساء.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ١٥٧/٢٨ عن محمد بن سعد صاحب «الطبقات» من رواية عطية العوفي عن ابن عباس، وعطية ضعيف. وأورده السيوطي في «الدر» ٢٣٩/٦ وزاد نسبه لابن مردويه عن ابن عباس ﷺ.

(٣) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٢٥، قال ابن كثير: وقال الهيثم بن كليب في «مسنده»: ثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي، ثنا مسلم بن إبراهيم، ثنا جرير بن حازم، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم علي حرام» فقالت: أتحرّم ما أحل الله لك؟ قال: «فوالله لا أقرّبها» قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، قال: فأنزل الله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْلَةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، قال: وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج».

(٤) رواه الطبري ١٥٦/٧٨ وفي آخره: وأمره أن يكفر عن يمينه ويأتي جاريته، وفي سننه انقطاع.

(٥) المراد بالحلو هنا: كل شيء حلوا، وذكر المسئل بعدها تنبيه على شرفه وميزته، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام، وفيه جواز أكل للخبز الأطعمة والطيبات من الرزق، وأن ذلك لا ينافي الزهد والمراقبة، لا سيما إذا حصل اتفاقاً.

(٦) قال الجوهري: الفكة: آنية السمن، أو القرية الصغيرة.

(٧) أي لتظنين له الحيلة، وهي الحدق في تدبير الأمور وتقلب الفكر حتى يهتدي إلى المقصود.

جَرَسَتْ نَحْلَهُ الْعُرْفُطُ^(١) وسأقول ذلك، وقولي أنت يا صفية ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله أسقيك منه؟ قال: لا حاجة لي فيه. قالت: تقول سودة: سبحان الله، والله لقد حَرَمْتَاهُ^(٢) قلت لها: اسكتي، أخرجه البخاري ومسلم في «الصحيحين»^(٣). وفي رواية ابن أبي مليكة عن ابن عباس: أن التي شرب عندها العسل سودة، فقالت له عائشة: إني لأجد منك ريحاً، ثم دخل على حفصة، فقالت: إني أجد منك ريحاً، فقال: «إني أراه من شراب شربته عند سودة، والله لا أشربه»، فنزلت هذه الآية^(٤). وفي حديث عبيد بن عمير عن عائشة أن التي شرب عندها العسل زينب بنت جحش، فتواطأت حفصة وعائشة أن تقولاً له ذلك القول^(٥). قال أبو عبيد: المغافير: شيء شبيه بالصمغ فيه حلالة. وخرج الناس يتمغفرون: إذا خرجوا يجتنونوه. ويقال: المغافير بالشاء، مثل جدث، وجدف. وقال الزجاج: المغافير: صمغ متغير الرائحة. فخرج في المراد بالذي أحلَّ الله له قولان: أحدهما: أنه جاريته. والثاني: العسل^(٦).

قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَ مَرَاتَ أَنْزَلِكُمْ﴾ أي: تطلب رضاها بتحريم ذلك. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفر الله لك التحريم ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال مقاتل: قد بينَّ الله لكم ﴿مَحَلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: كفاية أيمانكم، وذلك البيان في [المائدة: ٤٨٩]. قال المفسرون: وأصل «مَحَلَّةٌ» تَحَلُّلَةٌ على وزن تَفَعُّلَةٍ، فأدغمت، والمعنى: قد بين الله لكم تحليل أيمانكم بالكفارة، فأمره الله أن يكفر يمينه، فأعتق رقبة^(٧). واختلّفوا هل حرم مارية على نفسه يمين، أم لا؟ على قولين: أحدهما: حرّمها من غير ذكر يمين، فكان التحريم موجِباً لكفارة اليمين، قاله ابن عباس^(٨). والثاني: أنه حلف يميناً حرّمها بها، قاله الحسن. والشعبي، وقتادة^(٩)، ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: وليكم وناصركم.

- (١) أي: رعت نحل هذا العسل الذي شربته، يقال: جرس النحل تجرس جرساً: إذا أكلت لتعسل، ويقال للنحل: جوارس، والعرفط: مفعول جرس، وهو شجر ينضج الصمغ المعروف بالمغافير، أي لكونها رعته وأخفت منه حصلت هذه الرائحة.
- (٢) حرّمناه، هو يتخفف الراء، أي: منناه، يقال فيه: حرّمته وأحرّمته، والأول أنصح.
- (٣) رواه البخاري في «صحيحه» ١١ / ٢٩٥ - ٢٩٧ ومسلم ١١٠١ / ٢ من حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها.
- (٤) وقال السيوطي في «الدرر» ٦ / ٢٣٩: أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يشرب من شراب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحاً، فدخل على حفصة فقالت: إني أجد منك ريحاً، فقال: أراه من شراب شربته عند سودة، والله لا أشربه؛ فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَكْفُرُونَ بِمَا كَفَرْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الآية. وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١١ / ٢٩٢: وأخرج ابن مردويه من طريق ابن أبي مليكة عن ابن عباس أن شرب العسل كان عند سودة... والراجح أن صاحبة العسل زينب لا سودة، لأن طريق عبيد بن عمير أثبت من طريق ابن أبي مليكة بكثير.
- (٥) رواه البخاري ١١ / ١٩٣، ومسلم ٢ / ١١٠٠، قال ابن كثير بعد أن ساق حديث عبيد بن عمير وحديث عروة: وقد يقال: إنهما واقعتان، ولا يُبعد في ذلك، إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم، قال: وما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان، الحديث الذي رواه أحمد عن ابن عباس، وفيه أنه سأل عمر بن الخطاب عن المرتأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ نَظْرًا إِلَىٰ أُولَٰئِكَ لَفَقْدَ صَغْتٍ قُرْبًا﴾، فقال: هي عائشة وحفصة. والحديث بطوله أخرجه البخاري ٥٠٣ / ٨ وغيره.
- (٦) قال الحافظ في «الفتح» ١١ / ١٩٩: وقد اختلف في الذي حرم على نفسه وعوقب على تحريمه كما اختلف في سبب حلفه على أن لا يدخل على نساءه على أقوال، فالذي في «الصحيحين» أنه العسل، وقول آخر: إنه في تحريم جاريته مارية، ووقع في رواية يزيد بن رومان عن عائشة عند ابن مردويه ما يجمع القولين، وذكر غيره، ثم قال: والراجح من الأقوال كلها قصة مارية، لاختصاص عائشة وحفصة بها، بخلاف العسل، فإنه اجتمع فيه جماعة منهن، قال: ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت فأشير إلى أهمها، ويؤيده شمول الحلف للجميع، ولو كان مثلاً في قصة مارية فقط لاختص بحفصة وعائشة.
- (٧) ذكر الحافظ السيوطي في «الدرر» ٦ / ٢٤٠ من رواية ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه: فأعتق رسول الله ﷺ رقبة. قال القرطبي: وقد قال جماعة من أهل التفسير: إنه لما نزلت هذه الآية كفر عن يمينه بعق رقبة وعاد إلى مارية رضي الله عنها، قاله زيد بن أسلم وغيره. وكذلك ذكر الزمخشري والخازن، والشوكاني، والألويسي. وأخرج النسائي ١٥١ / ٦. من طريق سالم الأفلح عن سعد بن جبيرة عن ابن عباس أن رجلاً جاءه فقال: إني جعلت امرأتي عليّ حراماً، قال: كنت ما هي عليك بحرام، ثم تلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَكْفُرُونَ بِمَا كَفَرْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثم قال له: عليك رقبة. وإسناده صحيح. قال الحافظ: وكانه أشار عليه بالرقبة لأنه عرف أنه موسر، فأراد أن يكفر بالأغظ من كفارة اليمين، لا أنه تعين عليه عتق الرقبة. وذكره السيوطي في «الدرر» ٦ / ٢٤١ من رواية ابن المنذر، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عباس.
- (٨) رواه ابن جرير ٢٨ / ١٥٧ من طريق العوفي عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدرر» ٦ / ٢٣٩ من رواية ابن سعد، وابن مردويه عن ابن عباس. قال ابن كثير: ومن هاهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جارية أو زوجة أو طعاماً أو شرباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة، قال: وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية إذا حرم يمينهما أو أطلق التحريم فيهما في قول، فأما إن نوى طلاق الزوجة أو عتق الأمة نفذ فيهما.
- (٩) قال السيوطي في «الدرر»: أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن الشعبي وقتادة رضي الله عنهما، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَكْفُرُونَ بِمَا كَفَرْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: حرم جاريته، قال =

قوله تعالى: ﴿وَرَاةَ أَسْرَ النَّبِيِّ إِذَا بَغِيَ أَحَدٌ مِنْ آلِهِ﴾ يعني: حفصة من غير خلاف علمناه. وفي هذا السر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قال لها: إني ميسر إليك سرّاً فأحفظيه، سرتي هذه عليّ حرام، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال عطاء، والشعبي، والضحاك، وقتادة، وزيد بن أسلم، وابنه، والسدي. والثاني: أنه قال لها: «أبوك، وأبو عائشة، واليا الناس من بعدي، فلياك أن تخبري أحداً»، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(١). والثالث: أنه أسر إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي، قاله ميمون بن مهران^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَاتَ بِرَبِّهِ﴾ أي: أخبرت به عائشة ﴿وَأَطَهَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلع الله نبيه على قول حفصة لعائشة، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، لأنه استكنم حفصة ذلك، ثم دعاها، فأخبرها ببعض ما قالت، فذلك قوله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَفَ عَنْ بَعْضٍ﴾ وفي الذي عرفها إياه قولان: أحدهما: أنه حدثها ما حدثتها عائشة من شأن أبي بكر وعمر، وسكت عما أخبرت عائشة من تحريم مارية، لأنه لم يبال ما أظهرت من ذلك، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن الذي عرف: تحريم مارية، والذي أعرض عنه: ذكر الخلافة لثلاث يتتشر، قاله الضحاك^(٣)، وهذا اختيار الزجاج. قال: ومعنى «عرف بعضه» عرف حفصة بعضه. وقرأ الكسائي، «عرفت» بالتخفيف. قال الزجاج: على هذه القراءة قد عرف كل ما أسره، غير أن المعنى جارٍ على بعضه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَكْتُمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٩]، أي: يعلمه ويجاز عليه، وكذلك: ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ يَسْمَلْ بِشِقَالِ دَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] أي: يرى جزاءه. فقيل: إن النبي ﷺ طلق حفصة طليقة، فكان ذلك جزاءها عنده، فأمره الله أن يراجعها. وقال مقاتل بن حيان: لم يطلقها، وإنما هم بطلاقها، فقال له جبريل: لا تطلقها، فإنها صوامة قوامة^(٤). وقال الحسن: ما استقصى كريم قط، ثم قرأ ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَفَ عَنْ بَعْضٍ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن السميع «عرفاً» برفع العين، وتشديد الراء وبألف «بعضه» بالخفض.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّا مَا فِي رُءُوسِهِ﴾ أي: أخبر حفصة بإفنائها السرّ ﴿قَالَتْ مَنْ أَبَاكَ هَذَا؟﴾ أي: من أخبرك بأني أنشيت سرّك؟ ﴿قَالَ نَبِيُّكَ الْخَيْرُ﴾ ثم خاطب عائشة وحفصة، فقال: ﴿إِنْ نَوَّأَ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من التعاون على رسول الله ﷺ بالإيذاء ﴿فَعَدَّ صَدَقَاتِكُمْ﴾ قال ابن عباس: زاغت، وأثمت. قال الزجاج: عدلت، وزاغت عن الحق. قال مجاهد: كنا نرى قوله تعالى: ﴿فقد صفت قلوبكما شيئاً هيئاً حتى وجدناه في قراءة ابن مسعود: فقد زاغت قلوبكما. وإنما جعل

الشمعي: وحلف يميناً على التحريم، فعاتبه الله في التحريم، وجعل له كفارة اليمين، وقال قتادة: حرماً فكانت يميناً.

(١) ذكر الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١١/٢٠٠ من رواية ابن مردويه عن الضحاك عن ابن عباس قال: دخلت حفصة على النبي ﷺ بيتهما فوجدت معه مارية فقال: «لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببيارة، إن أباك يلي هذا الأمر بعد أبي بكر إذا أتت...» قال: وفي سننه ضعف.

(٢) قال السيوطي في «الدرر» ٦/٣٤١: أخرج ابن عساکر عن ميمون بن مهران في قوله: ﴿وَرَاةَ أَسْرَ النَّبِيِّ إِذَا بَغِيَ أَحَدٌ مِنْ آلِهِ﴾ قال: أسر إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي. وهذان الأثران مختلفان للأحاديث الصحيحة، فإنها ليس فيها التصريح بإمارة أبي بكر وعمر ﷺ، وإلا لما حصل خلاف في ذلك أبداً، ولكنها تشير إلى أن أحق الناس بالخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ أبو بكر ﷺ، من ذلك ما رواه مسلم في «صحيحه» عن عائشة ﷺ قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «لهي لك أبوك وأخاك حتى أكتب كتاباً فإني أعرف أن يمتحن من يقول قائل: أنا أولي، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر». وروى البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال: أتت النبي ﷺ امرأة، فكلت في شيء، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: يا رسول الله أرايت إن جئت ولم أجدك - كأنها تريد الموت - قال: «فأني أبا بكر». وروى الترمذي بسند جيد عن عمر ﷺ قال: أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ. وقال ﷺ في أبي بكر وعمر فيما رواه الترمذي عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أدرى ما بقائي فيكم؟ فانتدوا بالثلثين من بعدي أبي بكر وعمر» وهو حديث حسن، وروى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر وعمر سيدنا كهول أهل الجنة من الأولين الآخرين إلا النبيين والمرسلين» وهو حديث صحيح. وروى الترمذي عن عتبة بن عامر قال: قال النبي ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب» وهو حديث حسن. وروى البخاري عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدّل بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نزل أصحاب النبي ﷺ لا تفاضل فيهم.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: أخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: دخلت حفصة على النبي ﷺ بيتهما فوجدت معه مارية، فقال: لا تخبري عائشة، فأخبرتها، فعاتبها ولم يعاتبها على أمر الخلافة، فلعلها قال الله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَفَ عَنْ بَعْضٍ﴾. قاله: وأخرج الطبراني في «الأوسط» وفي «عشرة النساء» عن أبي هريرة نحوه بشامه، وفي كل منهما ضعف.

(٤) تقدم الحديث في الصفحة ١٤٥٠. بلطف: فراجعها فإنها صوامة قوامة هو يدل على أنه ﷺ طلقها، ويؤيده ما رواه أبو داود ٢٨٢/٢ والنسائي ٢١٣/٦ عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ طلق حفصة ثم راجعها. وإسناده صحيح.

القلبين جماعة لأن كل اثنين فما فوقهما جماعة. وقد أشرنا إلى هذا في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ﴾ [النساء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ سَأَلُوا الْعِزَّةَ﴾ [ص: ١١]. قال المفسرون: وذلك أنهما أحيا ما كره رسول الله ﷺ من اجتناب جاريته، ﴿وَأَنْ تَطَهَّرُوا﴾^(١) وقرأ ابن مسعود، وأبو عبد الرحمن، ومجاهد، والأعمش «تطاهرا» بتخفيف الظاء، أي: تعاونا على النبي ﷺ بالإيذاء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانِي﴾ أي: وليه في العون والنصرة ﴿وَجَبْرِيْلُ﴾ وليه ﴿وَصَلِّحِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وفي المراد بصالح المؤمنين ستة أقوال: أحدها: أنهم أبو بكر وعمر، قاله ابن مسعود، وعكرمة، والضحاك. والثاني: أبو بكر، رواه مكحول عن أبي أمامة. والثالث: عمر، قاله ابن جبير، ومجاهد. والرابع: خيار المؤمنين، قاله الربيع بن أنس. والخامس: أنهم الأنبياء، قاله قتادة، والعلاء بن زياد العدوي، وسفيان. والسادس: أنه علي عليه السلام، حكاه الماوردي. قاله الفراء: «فصالح المؤمنين» موحد في مذهب جميع، كما تقول: لا يأتيني إلا سائس الحرب، فمن كان ذا ساسة للحرب، فقد أمر بالمجيء، ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَسَارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ يَأْتِيهَا مِنْكُمْ﴾ [النساء: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافِرٌ﴾ [المعارج: ١٩] في كثير من القرآن يؤدي معنى الواحد عن الجميع^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي: ظهراً، وهذا مما لفظه لفظ الواحد، ومعناه الجميع، ومثله ﴿يَحْرِمُكُمْ طِفْلاً﴾ [غافر: ٦٧]، وقد شرحناه هناك. ثم خوف نساءه، فقال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ وسبب نزلها ما روى أنس عن عمر بن الخطاب قال: بلغني بعض ما آذى به رسول الله نساؤه، فدخلت عليهن، فجعلت أستقرهن واحدة واحدة، فقلت: والله لتنتهين، أو ليدلتهن الله أزواجاً خيراً ممنكن، فنزلت هذه الآية^(٣). والمعنى واجب من الله ﴿إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ رسوله ﴿أَنْ يُؤَلِّهَهُنَّ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ مَسْلُومَاتٍ﴾ أي: خاضعات لله بالطاعة ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ مصدقات بتوحيد الله ﴿فَتَبْتَكَ﴾ أي: طائعات ﴿مَسْكُوتٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: صائعات، قاله ابن عباس، والجمهور. قد شرحنا هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿الْمَسْكُوتُونَ﴾ [التوبة: ١١٣]. والثاني: مهاجرات، قاله زيد بن أسلم، وابنه. والثبات جمع تيب، وهي المرأة التي قد تزوجت، ثم ثابت إلى بيت أبيها، فعدت كما كانت غير ذات زوج. «والأبكار»: العذارى.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قَوْلًا أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَوُدَّهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَتَدَبَّرُوا الْقَوْلَ إِنَّمَا كُنَّ بَحْرُونٌ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قَوْلًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُورًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لِمَنْ لَا يُجْرَى اللَّهُ لِلَّذِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بِيَدِهِمْ وَإِيمَانُهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا رَبَّنَا نُورًا مِثْلَ نُورِكُمْ إِنَّا نَعْلَمُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿قَوْلًا أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ وقاية النفس: بامتنال الأوامر، واجتناب النواهي، ووقاية الأهل: بأن يؤمروا بالطاعة، ويُنهوا عن المعصية. وقال علي عليه السلام: «علموهم وأدبوهم»^(٤): «وَوُدَّهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ» وقد ذكرناه في

(١) بحذف إحدى التامين وتخفيف الظاء وهي قراءة حاصم ونافع في رواية، وقرأ الجمهور «تطاهرا» بتشديد الظاء.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي أن قوله: ﴿وَصَلِّحِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن كان في لفظ واحد، فإنه بمعنى الجميع، وهو بمعنى قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافِرٌ﴾ فالإنسان وإن كان في لفظ واحد، فإنه بمعنى الجميع، وهو نظير قول الرجل: لا تقربن إلا قارئ القرآن، يقال: قارئ القرآن، وإن كان في اللفظ واحداً، فمعناه الجميع، لأنه قد أذن لكل قارئ القرآن أن يقربه واحداً كان أو جماعة.

(٣) رواه ابن جرير الطبري ١٦٤/٢٨ وسنده صحيح، وذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم.

(٤) روي ابن جرير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿قَوْلًا أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَوُدَّهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾ قال: فيقيم: أن يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصيته، وأن يقوم عليهم بأمر الله، يأمرهم به، ويساعدهم عليه، فإذا رأيت له معصية ودعتهم عنها، وزجرتهم عنها. وقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: استفتهم من عذاب الله بإقامة الصلاة وأصبر أنت على مثلها.

وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه أحمد في «مسئله» ١٨٧/٢، وأبو داود في «سننه» رقم (٤٩٥) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أمروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع» وهو حديث حسن. ومعنى: فرقوا بينهم في المضاجع: أي: ذكروا كانوا أو إناثاً، وهو من باب سد الذرائع، ومن محاسن هذه الشريعة الفراء. قال ابن كثير: وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على الجادة، لكي يبلغ وهو مستتر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر، والله الموفق. ويدخل هذا في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَتَذَكَّرْ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَسْئُولٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ أَهْلِهِ وَرِعِيَّتِهِ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ =

[البقرة: ٢٤] ﴿عَلَيْهَا مَلِكُهَا غِلَظًا﴾ على أهل النار ﴿شِدَادًا﴾ عليهم. وقيل: غلاظ القلوب شِدَادُ الأبدان. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: خَزَنَةُ النَّارِ سَعَةٌ عَشْرٌ، مَا بَيْنَ مَنكِبَيْ أَحَدِهِمْ مَسِيرَةٌ سَنَةٌ، وَقُوَّتُهُ: أَنْ يَضْرِبَ بِالْمَقْمَعَةِ، فَيُدْفَعُ بِتِلْكَ الضَّرْبَةِ سَبْعِينَ أَلْفًا، فَيَهُوُونَ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ ﴿لَا يَصُورُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ أي: لا يخافون فيما يأمر ﴿وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يتجاوزون ما يؤمرون. والثاني: يفعلونه في وقته لا يؤخروه ولا يقدمونه. ويقال لأهل النار: ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْتَدْرِبُوا الْيَوْمَ﴾.

قوله تعالى: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً صُورًا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم، وخارجة عن نافع «نُصوحًا» بضم النون. والباقون بفتحها. قال الزجاج: فمن فتح فعلى صفة التوبة، ومعناه: توبة بالغة في النصح، و«فَعُول» من أسماء الفاعلين التي تستعمل للمبالغة في الوصف. تقول: رجل صبور، وشكور. ومن قرأ بالضم، فمعناه: يتصحون فيها نصوحاً، يقال: نصحت له نصوحاً، ونصاحه، ونصوحاً. وقال غيره: من ضم أراد: توبة نُضِحَ لأنفسكم. وقال عمر بن الخطاب: التوبة النصوح: أن يتوب العبد من الذنب وهو يحدث نفسه أنه لا يعود. وسئل الحسن البصري عن التوبة النصوح، فقال: ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود. وقال ابن مسعود: التوبة النصوح تكفر كل سيئة، ثم قرأ هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَخْرَى اللَّهُ لِلْبَيْتِ﴾ قد بينا معنى «الخزي» في [آل عمران: ١٩٢] وبيننا معنى قوله تعالى: ﴿تُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ﴾ في [الحديد: ١٢] ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا ثُورَنَا﴾ وذلك إذا رأى المؤمنون نور المنافقين يُطْفَأُ سألوا الله تعالى أن يتم لهم [تورهم]، ويبلغهم به الجنة. قال ابن عباس: ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نوراً يوم القيامة. فاما المنافق فيُطْفَأُ نوره، والمؤمن مُشْفِقٌ مما رأى من إطفاء نور المنافق، فهم يقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا ثُورَنَا﴾.

﴿بِأَيِّهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَعِيرُ﴾ ﴿١﴾ ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِيَةِ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَخِزْيَانًا مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَسَلِيهِ وَخِزْيَانًا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَلِيمِ﴾ ﴿٣﴾ ﴿وَمَرَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوْحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قد شرحناه في [براءة: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ﴾ قال المفسرون منهم مقاتل: هذا المثل يتضمن تخويف عائشة وحفصة أنهما إن عصيا ربهما لم يُغْنِ رسول الله ﷺ عنهما شيئاً. قال مقاتل: اسم امرأة نوح «والهة» وامرأة لوط «والغاة».

قوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ يعني: نوحاً ولوطاً ﷺ ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتها في الدين، كانت امرأة نوح تخبر الناس أنه مجنون، وكانت امرأة لوط تدل على الأضياف، فإذا نزل بلوط ضيف بالليل أوقدت النار، وإذا نزل بالنهار دخنت ليعلم قومه أنه قد نزل به ضيف. وقال السدي: كانت خيانتها: كفرهما. وقال الضحاك: نميمتهما. وقال ابن السائب: نفاقهما.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فلم يدفعا عنهما من عذاب الله شيئاً. وهذه الآية تقطع طمع من ركب المعصية ورجا أن ينفعه صلاح غيره. ثم أخبر أن معصية الغير لا تضر المطيع بقوله تعالى: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ وَهِيَ أَسِيَّةُ بِنْتُ مِزَاحِمَ﴾. وقال يحيى بن سلام: ضرب الله المثل الأول يحذر به عائشة وحفصة ﷺ. ثم ضرب لهما هذا المثل يرغبهما في التمسك بالطاعة. وكانت أسيه قد آمنت بموسى. قال أبو هريرة:

«وسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، والخدام راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته».

ضرب فرعون لامرأته أوتاداً في يديها ورجليها، وكانوا إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة، فقالت: ﴿رَبِّ أَيْنَ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فكشف الله لها عن بيتها في الجنة حتى رآته قبل موتها^(١) ﴿رَبِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ يعني: أهل دين المشركين. عمله: جماعه. والثاني: أنه دينه^(٢) روي عن ابن عباس، ﴿رَبِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ يعني: أهل دين المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ قد ذكرنا فيه قولين في سورة (الأنبياء: ٩٢) فمن قال: هو فرج ثوبها، قال «الهاء» في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ يرجع إليه، وذلك أن جبريل مَدَّ جيب درعها، فدخل فيه. ومن قال: هو مخرج الولد، قال: «الهاء» كناية عن غير مذكور، لأنه إنما نفخ في درعها لا في فرجها^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنها قول جبريل ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مریم: ١٩]. والثاني: أن الكلمات هي التي تضمنتها كتب الله المنزل. وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز، وعاصم الجحدري «بكلمة ربها» على التوحيد. «وَكُتِّبَهُ»، قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «وكتابه» على التوحيد، وقرأ أبو عمرو، وحفص عن عاصم، وخارجة عن نافع «وَكُتِّبَهُ» جماعة، وهي التي أنزلت على الأنبياء، ومن قرأ «وكتابه» فهو اسم جنس على ما بيَّنا في خاتمة [البقرة: ٢٨٥] وقد بيَّنا فيها القنوت مشروحاً [البقرة: ١١٦]. ومعنى الآية: وكانت من القانتين، ولذلك لم يقل: من القانتات^(٤).



(١) قال السيوطي في «الدر» ٦/٢٤٥: أخرج أبو يعلى والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها، فكانوا إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة ﷺ، فقالت: ﴿رَبِّ أَيْنَ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فكشف لها عن بيتها في الجنة.

(٢) أي: شركه وكفره، وهذا القول أولى، والمعنى: نجني من نفس فرعون الخبيثة وخصوصاً من عمله وهو الكفر وعبادة غير الله والتعليب بغير جرم وغير ذلك من قبائحه.

(٣) قال ابن كثير: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي: بواسطة الملك وهو جبريل، فإن الله بعث إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله أن ينفخ فيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى ﷺ.

(٤) روى البخاري وسليم في «صحيحهما» عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أكمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وأسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

سورة الملك

وهي مكية بإجماعهم

قال ابن مسعود: هي المانعة من عذاب القبر^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَحَابَ مَسَكٍ سَكْرَاتٍ يَلْفَأُ مَا قَرَأَ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفْوُوتٍ فَأَنجَبَ الْبَصِيرَ هَلْ تَرَى مِن نُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَنجَبَ الْبَصِيرَ كَرِيمًا يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصِيرَ حَايِتًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَاللَّذِينَ كَفَرُوا فِيهِمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَيُقَسَّ الْأَبْصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُنقَرُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ النَّارِ كُلَّمَا أُنقِرَتْ نَفْثَتْ فِيهَا فَوْجٌ مَّسَلَمٌ خَرَّتْهَا أَلْدُ بِأَيْكُورٍ بَدِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا لَوْلَا قَدْ جَاءَنَا بَدِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَشِرْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ نَسْحًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ قد شرحناه في [الأعراف: ٥٤].^(١)

قوله تعالى: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ قال ابن عباس: يعني: السلطان يُعزُّ وَيُذِلُّ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قال الحسن: خلق الموت المزيل للحياة، والحياة التي هي ضد الموت ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قد شرحناه في [مرد: ٧] قال الزجاج: والمعلق بـ ﴿أَيُّكُمْ﴾ مضمرة تقديره: ليبلوكم، فيعلم أيكم أحسن عملاً، وهذا علم وقوع. وارتفعت «أي» بالابتداء، ولا يعمل فيها ما قبلها، لأنها على أصل الاستفهام، ومثله ﴿أَيُّ الْفَرِيِّنِ أَحْسَنُ﴾ [الكهف: ١٢]. والمعنى: خلق الحياة ليختبركم فيها، وخلق الموت ليعتكم ويجازيكم. وقال غيره: اللام في «ليبلوكم» متعلق بخلق الحياة دون خلق الموت، لأن الابتلاء بالحياة، ﴿الَّذِي خَلَقَ سَحَابَ مَسَكٍ سَكْرَاتٍ يَلْفَأُ مَا قَرَأَ﴾ أي: خلقهن مطابقات، أي: بعضها فوق بعض ﴿مَّا تَرَى﴾ يا ابن آدم ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفْوُوتٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «من تفوت» بتشديد الواو من غير ألف. وقرأ الباقون بألف. قال الفراء: وهما بمنزلة واحدة، كما تقول: تعاهدت الشيء، وتعهدته. والتفاوت: الاختلاف. وقال ابن قتيبة: التفاوت: الاضطراب والاختلاف، وأصله من الفوت، وهو أن يفوت شيء شيئاً، فيقع الخلل، ولكنه متصل ببعضه ببعض.

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَبَ الْبَصِيرَ﴾ أي: كرَّر البصر ﴿هَلْ تَرَى مِن نُطُورٍ﴾ وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي «هل ترى» بإدغام اللام في التاء، أي: هل ترى فيها فروجاً وصدوعاً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنجَبَ الْبَصِيرَ كَرِيمًا﴾ أي: مرة بعد مرة ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصِيرَ حَايِتًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: مبعداً من قولك: خسأت الكلب: إذا बादته ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل منقطع عن أن يلحق ما نظر إليه. وقال الزجاج: قد أعيا من قبل أن يرى في السماء خللاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وقد شرحناه في [عم السجدة: ١٢] ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي: يرمج بها مسترقو السمع. وقد سبق بيان هذا المعنى [الحجر: ١٨] ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ وهذا وما بعده قد سبق بيانه إلى قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا﴾ أي: صوتاً مثل صوت الحمار. وقد بينا معنى الشهيق في [مرد: ١٠٦].

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٤٦/٦ من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود موقوفاً عليه، وقد ورد هذا المعنى عن ابن عباس مرفوعاً، وهو ضعيف.

(٢) روى أحمد في «المستند»، وأصحاب «السنن» الأربعة بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سورة في القرآن ثلاثون آية شفعت ل صاحبها حتى يحفر له، وهي ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾».

﴿وَهُيَ تَقْوَىٰ﴾ أي: تغلي بهم كغلي اليرزجل ﴿كَكَادُ تَمِيرٍ﴾ أي: تنقطع من تعيظها عليهم ﴿كَلَّمَآ أَنَّىٰ فَبَا فَرَجٌ﴾ أي: جماعة منهم ﴿سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا آلَ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ١٢ وهذا سؤال توبيخ.

قوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَشْرَفْتُمْ﴾ أي: قلنا للرسل: ﴿إِنِ اسْتَشْرَفْتُمْ إِلَّا فِي سَبِيلِنَا﴾ أي: في ذهاب عن الحق بعيد. قال الزجاج: ثم اعترفوا بجهلهم فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ أي: سماع من يعي ويفكر ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ عقل من يُمَيِّزُ وينظر ﴿مَا كُنَّا﴾ من أهل النار ﴿نَسُحِقًا﴾ أي: بُغْدًا. هو منصوب على المصدر، المعنى: أسحقهم الله سحقاً، أي: باعدهم الله من رحمته مباحة، والسحق: البعد. وكذلك روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿فسحقاً﴾ أي: بُغْدًا. وقال سعيد بن جبير، وأبو صالح: السحق: واو في جهنم يقال له: سُحِقَ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ١٣ ﴿وَأَسْرَأُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ١٤ ﴿أَلَا يَتْلُمَنَّ خَلْقًا وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ١٥ ﴿هُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ذُرُوءًا غَاثًا وَنَاقِلًا﴾ ١٦ ﴿لَكُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ١٧ ﴿وَأَسْرَأُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ ١٨ قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبرائيل بما قالوا، فيقول بعضهم: أسروا قولكم حتى لا يسمع إله محمد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ قد شرحناه في سورة [الأنبياء: ٤٩] ﴿لَكُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو: الجنة. ثم عاد إلى خطاب الكفار، فقال تعالى: ﴿وَأَسْرَأُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبرائيل بما قالوا، فيقول بعضهم: أسروا قولكم حتى لا يسمع إله محمد.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَتْلُمَنَّ خَلْقًا﴾ ١٥ أي: ألا يعلم ما في الصدور خالقها؟ ١٩ و ﴿اللطيف﴾ مشروح في [الأنعام: ١٠٣] و ﴿الخبير﴾ في [البقرة: ٢٢٤].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ذُرُوءًا﴾ أي: مُدَلَّلَةً سَهْلَةً لم يجعلها ممتنعاً بالخزونة والغلظ. قوله تعالى: ﴿تَأْتَشُرُوا فِي مَنَازِكِهَا﴾ في ثلاثه أقوال: أحدها: طرقاتها، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثاني: جبالها، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة، واختاره الزجاج، قال: لأن المعنى: سهل لكم السلوك فيها، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها، فهو أبلغ في التليل. والثالث: في جوانبها، قاله مقاتل، والفراء، وأبو عبيدة، واختاره ابن قتيبة^(١)، قال: ومنكبا الرجل: جانباه.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْهِ النَّشُورُ﴾ ١٩ أي: إليه تُعْتَبُونَ من قوركم. ﴿مَا أُنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ إِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ ٢٠ ﴿أَمْ أُنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَلْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ ٢١ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ إِلَى الْأَعْلَىٰ فَوَقَّهْمُ سَنَدَاتٍ وَقَبِيضًا مَا يُسْكِنُهُنَّ إِلَّا الرِّجْحَنُ إِنَّهُ يُكَلِّمُ قَوْمَ بَيْبُوتٍ﴾ ٢٢.

ثم خوف الكفار فقال: ﴿مَا أُنْتُمْ﴾ قرأ ابن كثير: ﴿وَأَلَيْهِ النَّشُورُ﴾ وقرأ نافع، وأبو عمرو: ﴿النشور أمتهم﴾ بهمزة مدودة. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: ﴿أمتهم﴾ بهمزتين ﴿مَن فِي السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس: أمتهم عذاب مَن في السماء، وهو الله عز وجل؟ ١٩ و ﴿تمور﴾ بمعنى: تدور. قال مقاتل: والمعنى: تدور بكم إلى الأرض السفلى.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهي: الحجارة، كما أرسل على قوم لوط، ﴿فَسَتَلْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ أي: كيف كانت عاقبة إنثاري لكم في الدنيا إذا نزل بكم العذاب، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفار الأمم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرٌ﴾ أي: إنكاري عليهم بالعذاب. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَعْلَىٰ فَوَقَّهْمُ سَنَدَاتٍ﴾ أي: تصف أجنتها في الهواء، وتقبض أجنتها بعد البسط، وهذا معنى الطيران، وهو بسط الجناح وقبضه بعد البسط ﴿مَا يُسْكِنُهُنَّ﴾ أن يقعن: ﴿إِلَّا الرِّجْحَنُ﴾. ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّونَ مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ ٢٣ ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْفَعُكَ إِنْ أَسَّكَ رَبُّكَ بِكَ لُجُأً فِي عُرْوَةٍ وَيَقْوَىٰ﴾ ٢٤ ﴿أَفَنَبِيٌّ مِّثْلًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ بَنِي سَوَآءٍ عَلَىٰ حِرْطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ٢٥ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

(١) وهو اختيار ابن جرير الطبري أيضاً.

وَالْأَسْرَ وَالْأَفْوَءَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وُجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾ هذا استفهام إنكار. ولفظ «الجُنْد» مُوحَّد، فلذلك قال تعالى: «هذا الذي هو» والمعنى: لا جُنْدَ لَكُمْ ﴿يَصْرُفُكُمْ﴾ أي: يمنعكم من عذاب الله إن أَرَادَهُ بِكُمْ ﴿إِنِ الْكُفْرَ الْوَاحِدَ إِلَّا فِي غُرُوبٍ﴾ وذلك أن الشيطان يغرهم، فيقول: إن العذاب لا ينزل بكم ﴿إِنَّمَا هَذَا الَّذِي بَرَزْتُمْ لَهُ الْمَطَرُ وَغَيْرَهُ﴾ ﴿إِنِ اسْتَكْبَرَ﴾ الله ذلك عنكم ﴿جَلَّ لَجْرًا فِي عُتُوبٍ﴾ أي: تماذ في كفر ﴿وَيُفْتِرُ﴾ عن الإيمان. ثم ضرب مثلاً، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَّبِعُ نِكَاحًا عَلَى وَجْهِهِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: لا يبصر يميناً، ولا شمالاً، ولا من بين يديه. يقال: أَكْبَى فلانٌ على وجهه بالالف، وكبَّه الله لوجهه، وأراد: الأعمى. قال المفسرون: هذا مثل للمؤمن، والكافر. و«السوي»: المعتدل، أي: الذي يبصر الطريق. وقال قتادة: هذا في الآخرة يحشر الله الكافر مُكِبًّا على وجهه، والمؤمن يمشي سويًا.

قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم لا يشكرون، قاله مقاتل. والثاني: يشكرون قليلاً، قاله أبو عبيد.

قوله تعالى: ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعنون بالوعد: العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي: رأوا العذاب قريباً منهم ﴿سَيَّتَ وُجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال الزجاج: أي: تبين فيها السوء. وقال غيره: قُبِحت بالسواد ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن «تَدْعُونَ» بالتشديد، بمعنى تدعون بالتخفيف، وهو «تفتعلون» من الدعاء. يقال: دعوت، وأدعيت، كما يقال: حَبَزْتُ وَاحْتَبَزْتُ، ومثله: يَدْكِرُونَ، وَيَدْكُرُونَ، هذا قول الفراء، وابن قتيبة. والثاني: أن المعنى: هذا الذي كتتم من أجله تَدْعُونَ الأباطيل والأكاذيب، تَدْعُونَ أنكم إذا مُتُّمْ لا تُبْعَثُونَ! وهذا اختيار الزجاج. وقرأ أبو رزين، والحسن، وعكرمة، وقاتدة، والضحاك، وابن أبي عبله، ويعقوب: «تَدْعُونَ» بتخفيف الدال، وسكونها، بمعنى تَفْعَلُونَ من الدعاء. وقال قتادة: كانوا يَدْعُونَ بالعذاب.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَبَ مَاؤُكْرَ عَوْرًا مَنِ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ﴾ بعذابه ﴿وَمَنْ مَعِيَ﴾ من المؤمنين. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «معي» بفتح الباء. وقرأ أبو بكر عن عاصم، والكسائي: «معي» بالإسكان، ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فلم يعدُّبنا ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ﴾ أي يمنعهم ويؤمنهم ﴿مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ومعنى الآية: إنا مع إيماننا، بين الخوف والرجاء: فمن يجيركم مع كفركم من العذاب؟! أي: لأنه لا رجاء لكم كرجاء المؤمنين، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ الذي نعيذ ﴿بِاسْتِعْلَانِهِ﴾ وقرأ الكسائي: «فسيعلمون» بالياء عند معاينة العذاب من الضالِّ نحن أم أنتم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَصْحَبَ مَاؤُكْرَ عَوْرًا﴾ قد بيناه في [الكهف: ٤١] ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾! أي: بماؤ ظاهر تراه العيون، وتناله الأرضية.



سورة القلم

وهي مكية كلها بإجماعهم

إلا ما حكى عن ابن عباس وقتادة أن فيها من المدني قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الْعَظِيمِ

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمُحْجَبٍ رَّبِّكَ يَمْحُوهُ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خُلِقَ عَظِيمٌ ﴿٤﴾ فَسَتُبِيرُ وَيُسِيرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٦﴾ إِنْ رُبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ت﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وحفص: ﴿نُ والقلم﴾ النون في آخر الهجاء من نون ظاهرة عند الواو، وهذا اختيار الفراء. وروى أبو بكر عن عاصم أنه كان لا يبين النون من (نون). وبها قرأ الكسائي، وخلف، ويعقوب، وهو اختيار الزجاج. وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وقتادة، والأعمش: «نون والقلم» بكسر النون. وقرأ الحسن، وأبو عمران، وأبو نهيك: «نُ والقلم» برفع النون. وفي معنى نون سبعة أقوال: أحدها: أنها الدواة. روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله القلم، ثم خلق النون، وهي الدواة»^(١) وهذا قول ابن عباس في رواية سعيد بن جبيرة، وبه قال الحسن وقتادة. والثاني: أنه آخر حروف الرحمن، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أنه الحوت الذي على ظهر الأرض، وهذا المعنى في رواية أبي ظبيان عن ابن عباس^(٢)، وهو مذهب مجاهد، والسدي، وابن السائب، ومقاتل. والرابع: أنه لُوح من نور، قاله معاوية بن قرة. والخامس: أنه افتتاح اسمه «نصير»، و «ناصر»، قاله عطاء. والسادس: أنه قَسَمٌ بِنُصْرَةِ الله للمؤمنين، قاله القرظي. والسابع: أنه نهر في الجنة، قاله جعفر الصادق^(٣). وفي «القلم» قولان: أحدهما: أنه الذي كتب به في اللوح المحفوظ. والثاني: أنه الذي يكتب به الناس^(٤). وإنما أقسم به، لأن كتبه إنما تكتب، و «يَسْطُرُونَ» بمعنى: يكتبون. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الملائكة. وفيما أرادوا بما يكتبونه قولان: أحدهما: أنه الذكر، قاله مجاهد، والسدي. والثاني: أعمال بني آدم، قاله مقاتل. والقول الثاني: أنهم جميع الكتبة، حكاه الثعلبي. ﴿مَا أَنْتَ بِمُحْجَبٍ رَّبِّكَ يَمْحُوهُ﴾ أي: ما أنت بإنعام ربك عليك بالإيمان والتبوء بمجنون. قال الزجاج: هذا جواب قولهم: إنك لمجنون. وتأويله: فارتك الجنون بتعمة الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ بصبرك على افترائهم عليك، ونسبتهم إليك إلى الجنون ﴿لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع ولا منقوص، ﴿وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خُلِقَ عَظِيمٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: دين الإسلام، قاله ابن عباس. والثاني:

(١) رواه ابن عساکر ١٧/٢٤٧/١٧ عن الحسن بن يحيى الخشي عن أبي عبد الله مولى بني أمية عن أبي صالح عن أبي هريرة ؓ بأطول منه، وتماه: «ثم قال له: اكتب، قال: وما اكتب؟ قال: اكتب ما يكون - أو ما هو كائن من عمل أو رزق أو أجل، فكتب ذلك إلى يوم القيامة، فلذلك قوله: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ثم ختم على القلم فلم يتكلم إلى يوم القيامة، ثم خلق العقل وقال: وهرني لأكملنك فيمن أحببت، ولأقتصنك ممن أبغضت. والحسن بن يحيى صدوق كثير الغلط كما قال الحافظ في «التقريب»، والحديث رواه أحمد في «المسند» ٥/٣١٧ من طرق عن الوليد بن عباد عن أبيه عباد بن الصامت ؓ، وليس فيه ذكر النون في أوله، ولا ذكر العقل في آخره، ورواه الترمذي ٢/١٦٢ بنحو رواية أحمد وقال: حديث حسن صحيح فريب، ورواه أيضاً أبو داود في «سننه» رقم (٤٧٠٠)، والطبري ٢٩/١٧ وهو حديث صحيح بهذا القدر.

(٢) رواه الطبري ٢٩/١٤، وأبو ظبيان قايوس، فيه لين كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب».

(٣) والصواب أن (نون) من الحروف الهجائية التي ذكرت في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته، وقد تقدم ذلك.

(٤) قال ابن كثير: والظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَرَدْنَا الْأَكْثَمَ ﴿١﴾ أَلَى عَدُوِّ الْبَقْرِ ﴿٢﴾ عَدُوِّ الْإِنْسَانِ مَا تَرَى ﴿٣﴾﴾ فهو قسم منه تعالى وتبنيه لخلقته على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

أدب القرآن، قاله الحسن. والثالث: الطبع الكريم. وحقيقة «الخُلُق»: ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب، فسمي خُلُقًا، لأنه يصير كالخُلْفَة في صاحبه. فأما ما طبع عليه فيسمى: «الخِيم» فيكون الخِيم: الطبع الغريزي، والخُلُق: الطبع المُتَكَلَّف. هذا قول الماوردي. وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلُقِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: كان خُلُقُه القرآن^(١). تعني: كان على ما أمره الله به في القرآن.

قوله تعالى: ﴿سَبَّيْحٌ وَمَبِيبٌ﴾^(٢) يعني: أهل مكة. وهذا وعيد لهم بالعذاب. والمعنى: سترى ويرون إذا نزل بهم العذاب بيبدر ﴿بِأَيْكُمُ الْكُفْرُ﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: الضال، قاله الحسن. والثاني: الشيطان، قاله مجاهد. والثالث: المجنون، قاله الضحاك. والمعنى: الذي قد فتن بالجنون. والرابع: المعدب، حكاه الماوردي. وفي الباء قولان: أحدهما: أنها زائدة، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة. وأنشدوا:

نَخْرُنُ بِنُو جَفْدَةَ أَصْحَابِ الْفَلَجِ
نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرْجِ^(٣)

والثاني: أنها أصلية، وهذا قول الفراء، والزجاج. قال الزجاج: ليس كونها لغواً بجائز في العربية في قول أحد من أهلها. وفي الكلام قولان للتحويين: أحدهما: أن «المفتون» هاتنا: الفتون. والمصادر تجيء على المفعول. تقول العرب: ليس هذا معقود رأي، أي: عقد رأي، وتقول: دعه إلى ميسوره، أي: يسره. والمعنى: بأيكم الجنون. والثاني: بأيكم المفتون بالفرقة التي أنت فيها، أم بفرقة الكفار؟ فيكون المعنى: في أي الفرقتين المجنون. وقد ذكر الفراء نحو ما شرحه الزجاج. وقد قرأ أبي بن كعب، وأبو عمران، وابن أبي عبيدة: «في أي المفتون». ثم أخبر أنه عالم بالفرقتين بما بعد هذا.

﴿فَلَا تُطِيعُ الشُّكَّيْنِ﴾^(٤) وَدُرًا لَوْ تَدْرَهُنَّ بَيْهَتُونَ^(٥) وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ^(٦) هَتَارٌ تَشْلَمُ بِيَمِينِ^(٧) مَتَاعٌ لَلْمَتْرِ مَعْتَدُو أَمِيرٍ^(٨) عَثَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبِرٌ^(٩) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَرِيحٍ^(١٠) إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِ مَا نَسْنَا قَالَ أَسْطَلِرُ الْأَوَّلِينَ^(١١) سَكَبْتُ عَلَى الْكُرْهُو^(١٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُ الشُّكَّيْنِ﴾^(٤) وذلك أن رؤساء أهل مكة دَعَوْهُ إلى دين آباءه، فنهاه الله أن يطيعهم ﴿وَدُرًا لَوْ تَدْرَهُنَّ بَيْهَتُونَ﴾^(٥) فيه سبعة أقوال: أحدها: لو ترخص فبرخصون، قاله ابن عباس. والثاني: لو تُضَايِعُهُمْ في دينك فَضَايِعُونَ في دينهم، قاله الحسن. والثالث: لو تكفر فيكفرون، قاله عطية، والضحاك، ومقاتل. والرابع: لو تَلَيَّنُوا فليتنون لك، قاله ابن السائب. والخامس: لو تنافق وترائي فيناقفون ويراثون، قاله زيد بن أسلم. والسادس: ودُّوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم. وكانوا أرادوه على أن يعبد آلهم مَدَّةً، ويعبدوا الله مدة، قاله ابن قتيبة. وقال أبو عبيدة: هو من المداهنة. والسابع: لو تقاربهم فيقاربونك، قاله ابن كيسان^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ وهو كثير الحلف بالباطل «مُهِينٌ» وهو الحقير الدنيء. وروى العوفي عن ابن عباس قال: المهين: الكذاب. واختلفوا فيمن نزل هذا على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الوليد بن المغيرة، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: الأحنس بن شريق، قاله عطاء، والسدي. والثالث: الأسود بن عبد يغوث، قاله مجاهد^(٤).

(١) هو قطعة من حديث طويل رواه الإمام أحمد في «مسنده» ٥١/٦، ٥٢، ورواه مسلم ٥١٢/١ بنحو حديث أحمد. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٢/ ٤٩٩ مختصراً، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ورواه الذهبي، وأزاده السيوطي في «الدرر» ٦/٢٥٠ مختصراً، وزاد نسبه لابن أبي شبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها. قال ابن كثير: ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجيته له وخُلُقًا تطبعه وترك طبعه الجبلي، فهما أمره القرآن فعله، وهما نهاه عنه تركه، لهذا مع ما جيله الله عليه من الخلق العظيم، من أعيان، والكرم، والشجاعة، والصفح، والحلم، وكل خلق جميل.

(٢) هو لراجز من بني جمدة، كما في «مجاز القرآن» ٥/٢، و«الخرزاة» ٤/١٦٠، و«الانقصاب» ٤٥٨، وشواهد «المعني» ١٦٤، و«الطبري» ١٤/١٨، و٢٩/ ٢٠، و«القرطبي» ١٢/٣٥. والفعل يتحرك اللام: موضع لبني جمدة بن قيس بنجد، وهو في أعلى بلاد قيس، والبيت شاهد على زيادة الباء في قوله «بالفرج»، أي: وترجو الفرج، وهي زائدة في المفعول به سماعاً، ويروى البيت: تضرب بالبيض وتدعو بالفرج. وكلا الروايتين بمعنى واحد.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: ودُّ هؤلاء المشركون يا محمد لو تلبن لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهم فيليتون لك في عبادتك إلهك، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَيَوَدُّ أَنْ يَبْتَئِكَ لَقَدْ كَرِهْتَ تَرَكَهُنَّ إِنِّيهِنَّ نَبِيًّا قِيلًا﴾^(١) إذا لَدَّبْتَكَ يَمَنَّفَ النَّبِيَّةَ رَضِمَتْ أَلْسَانًا﴾ قال: وإنما هو مأخوذ من الذُّهن، شبه التلبين في القول بتلبين الذُّهن.

(٤) روى البخاري في «صحيحه» ٥٠٧/٨ عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿عَثَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبِرٌ﴾^(١) قال: رجل من قريش له زئمة مثل زئمة الشاذ. قال الحافظ =

قوله تعالى: ﴿مَنْزِلٌ﴾ قال ابن عباس: هو المختاب. وقال ابن قتيبة: هو العَيَّاب.

قوله تعالى: ﴿تَشْتَمُ بِبَيْبِيرٍ﴾ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهو نقل الكلام السيئ من بعضهم إلى بعض ليفسد بينهم^(١) ﴿مَنْعٌ لِّلْحَتِيرِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه منع ولده وعشيرته الإسلام، قاله ابن عباس. والثاني: مَنْعٌ للحقوق في ماله، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: ظلوم ﴿أَبِيرٍ﴾ فاجر ﴿عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: مع ما وصفناه به^(٢). وفي «العُتْلُ» سبعة أقوال: أحدها: أنه العاتي الشديد المنافق، قاله ابن عباس. والثاني: أنه المتوقر الجسم، قاله الحسن. والثالث: الشديد الأثير. قاله مجاهد. والرابع: القوي في كفره، قاله عكرمة. والخامس: الأكل الشروب القوي الشديد، قاله عبيد بن عمير. والسادس: الشديد الخصومة بالباطل، قاله الفراء. والسابع: أنه الغليظ الجافي، قاله ابن قتيبة. وفي «الزَّيْمِ» أربعة أقوال: أحدها: أنه الدَّعِيُّ في قريش وليس منهم، رواه عطاء عن ابن عباس، وهذا معروف في اللغة أن الزَّيْمِ هو الملتصق في القوم وليس منهم، وبه قال الفراء. وأبو عبيدة، وابن قتيبة. قال حسان:

وَأَنْتَ زَيْمٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ

كَمَا نَيْطٌ خَلْفَ الرَّايِبِ الْقَدْحِ الْفَرْدِ^(٣)

والثاني: أنه الذي يعرف بالثُّرُ، كما تعرف الشاة بِزَنْمَتِهَا^(٤)، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثالث: أنه الذي له زَنْمة مثل زَنْمة الشاة. وقال ابن عباس: نُعت قلم يعرف حتى قيل: زَيْمٌ، فعرف، وكانت له زَنْمة في عنقه يعرف بها. ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه من ذكر عيوب الوليد، لأنه وصفه بالحلف، والمهانة، والعب للناس، والمشي بالنميمة، والبخل، والظلم، والإثم، والجفاء، والدَّعوة، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة. والزَّيْمَتَانِ: المعلقتان عند حلوق المعزى. وقال ابن فارس: يعني التي تتعلق من أذنها. والرابع: أنه الظلوم، رواه الوالي عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ﴾ ﴿١﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وحفص عن عاصم: «أن كان» على الخبر، أي: لأن كان. والمعنى: لا تطعه لماله وبنيه. وقرأ ابن عباس بهزتين، الأولى: مخففة. والثانية: ملينة، وفصل بينهما بألف أبو جعفر. وقرأ حمزة: «أن كان» بهزتين مخففتين على الاستفهام، وله وجهان: أحدهما: لأن كان ذا مال تطيعه؟ والثاني: لأن كان ذا مال وبينين؟ ﴿إِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ يكفر بها؟ فيقول: ﴿أَسْئَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ ذكر القولين الفراء. وقرأ ابن مسعود: «أن كان» بهزمة واحدة مقصورة. ثم أوعده فقال تعالى: ﴿سَيَسْأَلُ عَلَى الْخُرُوبِ﴾ ﴿٢﴾ الخرطوم: الأنف. وفي هذه السمة ثلاثة أقوال: أحدها: سنسمة بالسيف، فنجعل ذلك علامة على أنه ما عاش، فقاتل يوم بدر فخطم بالسيف، قاله ابن عباس. والثاني: سنلحق به شيئاً لا يفارقه، قاله قتادة، واختاره ابن قتيبة. والثالث: أن المعنى: سنسود وجهه. قال الفراء: و«الخرطوم» وإن كان قد خص بالسمة، فإنه في مذهب الوجه، لأن بعض الوجه يؤذي عن البعض. وقال الزجاج: سنجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل النار من أسوداد وجوههم. وجائز - والله أعلم - أن يفرد بسمة لمبالغته في عداوته لرسول الله ﷺ يتبين بها عن غيره.

(١) ابن حجر في «الفتح»: اختلف في الذي نزلت فيه، فقليل: هو الوليد بن المغيرة. وذكره يحيى بن سلام في «تفسيره». وقيل: الأسود بن عبد يغوث، ذكره سيده بن داود في «تفسيره»، وقيل: الأخنس بن شريق، وذكره السهيلي عن القتيبي. وحكى هذين القولين الطبري، فقال: يقال: هو الأخنس، وزعم قوم أنه الأسود، وليس به، وأبعد من قال: إنه عبد الرحمن بن الأسود، فإنه يصغر عن ذلك، وقد أسلم، وذكر في الصحابة.

(٢) وقد ثبت في «الصححين» من حديث ابن عباس ؓ قال: مرَّ رسول الله ﷺ بقبرين، فقال: «إنهما ليعلمان، وما يعلمان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة». وفي «الصححين» أيضاً من حديث حذيفة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتاتٌ أي: تمام»، كما في رواية أخرى لمسلم.

(٣) في «الصححين» عن حارثة بن وهب الخرازمي ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أتيتكم بأهل الجنة، كل ضعيف متصفف لو أقسم على الله لأبره، ألا أتيتكم بأهل النار كل ختل جواظ مستكبر». والجواظ: الجموع المنوع.

(٤) «ديوانه» ١٦٠، و«مجاز القرآن» ٢/٢٦٥، و«الطبري» ٢٩/٢٥، و«القرطبي» ١٨/٢٣٤.

(٤) قال في «المصباح»: الزَّيْمَةُ مثال قصبة: المتدلية من الحلق.

﴿إِنَّا بَوَيْتُهُمْ كَمَا بَوَيْتْنَا أَحْسَبَ لَيْلَتِي إِذِ انْتَرَا لَيْسْرَتَنَا مُسَيِّبِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا عَلَيَا لَمَّاهُتْ بَيْنَ رَبِّكَ وَرَبِّ نَابُونَ ﴿١٩﴾ فَأَسْبَحَتْ كَالْمَيِّمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَا مُسَيِّبِينَ ﴿٢١﴾ أَوِ اقْدُوا عَلَى حَرْزِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ﴿٢٢﴾ فَاطْلُقُوا وَرَبِّمَنَعْتُونَهُ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَسْتَلْبِثَ الْيَمَّ عَلَيْكُمْ يَسْكِينُ ﴿٢٤﴾ وَغَدَاً عَلَى حَرِّ قَدِيدٍ ﴿٢٥﴾ فَمَا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَمَسْأَلُونَ ﴿٢٦﴾ عَلَى غَنِّ غَرْمُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَلْتُمْ أَوْ أَمَلْ لَكُمْ لَوْلَا تَسْتَعِينُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سَبَحْنَا رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَبْكَلَ بَسْتَمَهُمْ عَلَى بَعْضِ يَتَلَوُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يُؤَيَّلُ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا حَبْرًا بَيْنَنَا إِنَّا إِذْ رَبَّنَا رَعِيثُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الدَّلَابُ وَالسَّلَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَادُوا يَلْمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الْيَمِينِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ الْيَمِيمِ ﴿٣٤﴾ فَانْجَلَّ السَّلِيمِينَ كَالْمَجْرِيمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كَيْفَ يَبْهَرُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عِنْدَنَا بَلَدَةٌ إِنْ لَمْ يُؤْمَرْ لَكُمْ لَمْ تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلَّمَهُ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ رَبِّهِمْ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَمْ تُشْرِكُوا قَبْلَئِذَا يُشْرِكُهُمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَوَيْتُهُمْ﴾ يعني: أهل مكة، أي: ابتليناهم بالجوع، والقحط ﴿كَمَا بَوَيْتْنَا أَحْسَبَ لَيْلَتِي﴾ حين هلكت جثتهم

وهذه الإشارة إلى قصتهم

ذكر أهل التفسير أن رجلاً كان بناحية اليمن له بستان، وكان مؤمناً. وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام، وكان يأخذ منه قدر قوته، وكان يتصدق بالباقي. وقيل: كان يترك للمساكين ما تعداه المنجل، وما يسقط من رؤوس النخل، وما ينثر عند الدُّراس، فكان يجتمع من هذا شيء كثير، فمات الرجل عن ثلاث بنين، فقالوا: والله إن المال لقليل، وإن العيال لكثير، وإنما كان أبونا يفعل هذا إذ كان المال كثيراً، والعيال قليلاً، وأما الآن فلا نستطيع أن نفعل هذا. فغرموا على حرمان المساكين، وتحالفوا بينهم ليعذُّوا قبل خروج الناس، فليصرم نخلهم، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذِ انْتَرَا﴾ أي: جلفوا ﴿لَيْسْرَتَنَا﴾ أي: ليقطعن نخلهم ﴿مُسَيِّبِينَ﴾ أي: في أول الصباح. وقد بقيت من الليل ظلمة لئلا يبقى للمساكين شيء ^(١). وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ قولان: أحدهما: لا يقولون: إن شاء الله، قاله الأكثرون. والثاني: لا يستنون حق المساكين، قاله عكرمة. ﴿فَلَمَّا عَلَيَا لَمَّاهُتْ بَيْنَ رَبِّكَ﴾ أي: من أمر ربك. قال الفراء: الطائف لا يكون إلا بالليل. قال المفسرون: بعث الله عليها ناراً بالليل، فاحترقت، فصارت سوداء، فذلك قول تعالى: ﴿فَأَسْبَحَتْ كَالْمَيِّمِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: كالرَّمَادِ الأسود، قاله ابن عباس. والثاني: كالليل المسود، قاله الفراء. وكذلك قال ابن قتيبة: أصبحت سوداء كالليل محترقة. والليل: هو الصريم، والصبح أيضاً: صريم، لأن كل واحد منهما ينصرم عن صاحبه. والثالث: أصبحت وقد ذهب ما فيها من الشمر، فكانه قد صرم، أي: قطع وجُدَّ، حكاه ابن قتيبة أيضاً.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَادَا مُسَيِّبِينَ﴾ أي: نادى بعضهم بعضاً لما أصبحوا ﴿أَوِ اقْدُوا عَلَى حَرْزِكُمْ﴾ يعني: الشمار والزروع والأعنان بـ ﴿أَنْ لَا يَسْتَلْبِثَ الْيَمَّ عَلَيْكُمْ يَسْكِينُ﴾ أي: فاطعين للنخل، ﴿فَاطْلُقُوا﴾ أي: ذهبوا إلى جثتهم ﴿وَرَبِّمَنَعْتُونَهُ﴾ قال ابن قتيبة: ينساررون بـ ﴿أَنْ لَا يَسْتَلْبِثَ الْيَمَّ عَلَيْكُمْ يَسْكِينُ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: على قدرة، قاله ابن عباس. والثاني: على فاقة، قاله الحسن في رواية. والثالث: على جد، قاله الحسن في رواية، وقتادة، وأبو العالية، والفراء، ومقاتل. والرابع: على أمر مجمع قد أسسوه بينهم، قاله مجاهد، وعكرمة. والخامس: أن الحرد: اسم الجنة، قاله السدي. والسادس: أنه الحرق والغضب على المساكين، قاله الشعبي، وسفيان. وأشد أبو عبيدة:

أُسُودٌ شَرِيٌّ لَأَنْتَ أُسُودٌ خَفِيٌّ
تَسَاقَوْا عَلَى حَرْدٍ دِمَاءِ الْأَسَاوِدِ ^(٢)

والسابع: أنه المنع، مأخوذ من حازدت السنة فليس فيها مطر، وحازدت الناقة فليس لها لبن، قاله أبو عبيدة. وابن قتيبة. والثامن: أنه القصد. يقال: حردت حردك، أي: قصدت قصدك، حكاه الفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. وأنشدوا:

(١) ذكر هذه القصة البهري في «تفسيره» من رواية محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وذكرها الخازن عن ابن عباس بنجر سند.

(٢) البيت للأشهب بن زَيْلَةَ الذي كان يهاجي الفرزدق، وهو في «مجاز القرآن» ٢/٢٦٦، و«الكامل» للمبرد ٤٣٨، و«الطبري» ٣٣/١٩، و«القرطبي» ٢/١٧٧، و«السمط» ٣٥، و«معجم ما استمعج» ٣/٧٨٥، و«العيني» ١/٤٨٢، و«الخزانة» ٢/٥٠٨، و«الشرى» و«خفية» مأسدتان معروفتان، و«الحرد»: الغضب، من حرد يخرُد خرداً، مثل قصب يفتب غضباً. والأساود: جمع أسود، وهو اسم للحية، ولذلك جمع كما تجمع الأسماء على «أناهل»، مثل «أرانب»، ولو كان صفة لجمع على: سود.

قَدْ جَاءَ سَيْئِلٌ كَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ

يَخْرُجُ الْجَنَّةَ الْمُخْلِةَ

أي: يقصد قصدها. قال ابن قتيبة: وفيها لغتان: حَرَدٌ، وَحَرْدٌ، كما يقال: الدَّرَكُ، والدَّرَكُ. وفي قوله تعالى: ﴿تَدِيرُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: قاديرين على جَنَّتِهِمْ عند أنفسهم، قاله قتادة. والثاني: قاديرين على المساكين، قاله الشعبي. والثالث: أن المعنى: منعوا وهم قادرون، أي: واجدون، قاله ابن قتيبة. قالوا: ﴿لَا تَأْوَمُّ﴾ محترقة ﴿قَالَ إِنَّا لَنَأْوَمُّ﴾ أي: قد ضللنا طريق جَنَّتِنَا، فليست هذه. ثم علموا أنها عقوبة، فقالوا: ﴿بَلْ لَعْنُ تَرْوُونَ﴾ (١٧) ﴿أي: حُرْمَتُنَا تَمَرُ جَنَّتِنَا بمنعنا المسكين﴾ ﴿هَلْ أَوْطَأْتُمْ﴾ أي: أعدلهم، وأفضلهم ﴿لَوْلَا﴾ أي: هَلَا ﴿تَسْبُحُونَ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: هلا تَسْتَبُحُونَ عند قولكم: «ليصْرْمُنْهَا مصبحين» قاله ابن جريج والجمهور. والمعنى: هَلَا قلتم: إن شاء الله. قال الزجاج: إنما قيل للاستثناء: تسبيح، لأن التسبيح في اللغة: تنزيه الله ﷻ عن السوء. والاستثناء تعظيم لله، وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلاً إلا بمشيئة الله. والثاني: أنه كان استثناءهم قول: «سبحان الله»، قاله أبو صالح. والثالث: هلا تَسْبُحُونَ الله وتشكرونه على ما أعطاكم، حكاه الثعلبي. وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا سَبَّحْتَ رَبَّنَا﴾ فنزوهه أن يكون ظالماً فيما صنع، وأقروا على أنفسهم بالظلم فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بمنعنا المساكين ﴿فَأَنْبَأَكَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَّبِعُونَ﴾ (١٧) ﴿أي: يلوم بعضهم بعضاً في منع المساكين حقوقهم. يقول هذا لهذا: أَنْتَ أَشْرَتْ عَلَيْنَا، ويقول الآخر: أَنْتَ فَعَلْتَ، ثم نادوا على أنفسهم بالويل، فقالوا: ﴿وَبِئْسَ مَا كُنَّا فَعَلِينَ﴾ حين لم نصنع ما صنع آباؤنا، ثم رجعوا إلى الله تعالى فسألوه أن يبدلهم خيراً منها، فذلك قوله: ﴿عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾. وقرأ قوم: «بيدنا» بالتحفيف، وهما لغتان. وفرق قوم بينهما، فقالوا: التبديل: تغيير حال الشيء وصفته والعين باقية. والإبدال: إزالة الشيء ووضع غيره مكانه. ونقل أن القوم أخلصوا، فبدلهم الله جَنَّةَ العتقِ مِنْهَا وَثَرُ بَغْلٍ.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَلْقَيْنَا﴾ ما فعلنا بهم ففعل بمن تعدى حدودنا. وهانئا انتهت قصة أهل الجنة. ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دُبِئَ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: المشركين. ثم ذكر ما للمتقين عنده بما بعد هذا، فقال المشركون: إنا لنُعْطِي فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِمَّا تُعْطُونَ، فقال تعالى مكذباً لهم: ﴿فَتَجَمَّلَ الشَّيْرِينَ كَلْتَمِيمِينَ﴾ (١٧) ﴿قال الزجاج: هذه ألف الاستفهام مجازها هانئا مجاز التوبيخ، والتقرير.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: كيف تقضون بالجور ﴿إِنَّ لَكُمْ كِتَابًا﴾ أنزل من عند الله ﴿فِيهِ﴾ هذا ﴿تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرأون ما فيه ﴿إِنَّ لَكُمْ﴾ في ذلك الكتاب ﴿لَا تَحْزَنُونَ﴾ أي: ما تختارون وتشتنون. وقرأ أبو الجوزاء، وعاصم الجحدري، وأبو عمران: «أن لكم» بفتح الهمزة. وهذا تفريع لهم، وتوبيخ على ما يتمنون من الباطل ﴿سَلَّمْتُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ رَيْبًا﴾ (١٨) ﴿إِنَّ لَكُمْ آيَاتٍ مِمَّا بَلَّغْتُمْ﴾ أي: ألكم عهد على الله تعالى حلف لكم على ما تدعون بأيمان بالغت، أي: مؤكدة. وكل شيء متناه في الجودة والصحة فهو بالغ. ويجوز أن يكون المعنى: بالغت إلى يوم القيامة، أي: تبلغ تلك الأيمان إلى يوم القيامة في لزومها وتوكيدها. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَأَنَّ تَحْكُمُونَ﴾ لأنفسكم به من الخير والكرامة عند الله تعالى. قال الفراء: والقراء على رفع «بالغت» إلا الحسن فإنه نصبها على مذهب المصدر، كقوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ [الروم: ٤٤٧]. ومعنى الآية: هل لكم إيمان علينا بالغت بأن لكم ما تحكمون؟! فلما كانت اللام في جواب «إن» كسرتها.

قوله تعالى: ﴿سَلَّمْتُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ رَيْبًا﴾ (١٨) ﴿فيه قولان: أحدهما: أنه الكفيل، قاله ابن عباس، وقاتدة. والمعنى: أَيُّهُمْ كفل بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين من الخير. والثاني: أنه الرسول، قاله الحسن.

(١) الرجز غير منسوب (مجاز القرآن) ٢/٢٦٦، و«الكامل» ٥٠، و«الطبري» ٣٣/٢٩، و«القرطبي» ١٨/٣٤٢، و«شواهد الكشاف» ٢٥٤، وفي «معاني القرآن» للفراء: والحد أيضاً: القصد كما يقول الرجل: قد أقبلت، وقصدت تصدك، وحدثت حركك، وأنشدني بعضهم: وجاء سيل كان... وجاء في «الكامل» للمبرد بعد إنشاد البيت: قال أبو حاتم: هذه صنعة من لا أحسن الله ذكره يعني قطرياً. وأبو حاتم: هو سهل بن محمد بن عثمان السجستاني من شيوخ أبي العباس، وقوله: «هذه صنعة» يريد حذف الألف من لفظ الجلالة، والألئق باسم الله أن ينطق به على أكمل وجه، والمراد بـ «قطري» قطري بن المعجزة الخارجي. قال المرصفي في شرح «الكامل» ١/١٨٠: ومن الغريب من نقل عن ابن السيد شارح الكتاب أن هذا الرجز لقطرب بن المستنير تلميذ سيويه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني: الأصنام التي جعلوها شركاء الله تعالى، والمعنى: ألهم أرباب يفعلون بهم هذا الذي زعموا. وقيل: يشهدون لهم بصدق ما ادَّعَوْا ﴿فَتَنَّاوْا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في أنها شركاء الله. وإنما أضيف الشركاء إليهم لادِّعائهم أنهم شركاء الله.

﴿يَوْمَ يُكْفَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (١٧) خَشِيعَةً أَمْرَهُمْ رَهْمَهُمْ وَإِلَهُ وَتَدَّ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ وَمَنْ سَلَّوْنَ (١٨) قَدَفَيْنِ مِنَ الْكُذِّبِ يَهْدَا لَلْوَيْبِ سَتَدْرِيهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ (١٩) وَأَمَلِي لَمْ يَكُنْ إِذْ كِيدِي مَيْتًا (٢٠) أَمْ تَسْتَلْهُمُ لَعْنًا فَهَمْ مِنْ تَقَرُّوْا تُنْقَلُونَ (٢١) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٢٢)

﴿يَوْمَ يُكْفَفُ﴾ المعنى: فلْيأتوا بها يوم يكشف عن ساق. قرأ الجمهور: «يُكْفَفُ» بضم الياء، وفتح الشين. وقرأ ابن أبي عبلة، وعاصم الجحدري، وأبو الجوزاء، بفتح الياء، وبكسر الشين. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس: «تُكْفِفُ» بياء مفتوحة، وكسر الشين. وقرأ ابن مسعود، وأبو مجلز، وابن يعمر، والضحاك: «نُكْشِفُ» بنون مفتوحة مع كسر الشين. وهذا اليوم هو يوم القيامة. وقد روي عكرمة عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ يُكْفَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ قال: يُكْفَفُ عَنْ شِدَّةِ (١)، وأنشد:

وَقَامَتْ الْحَزْبُ بِنَاءً عَلَى سَاقٍ (٢)

وهذا قول مجاهد، وقناة. قال ابن قتيبة: وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه، شمر عن ساقه، فاستعيرت الساق في موضع الشدة، هذا قول الفراء، وأبي عبيدة، واللخمين. وقد أضيف هذا الأمر إلى الله تعالى. فروي في «الصحاحين» من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه «يكشف عن ساقه» (٣)، وهذا إضافة إليه، لأن الكل له وفعله. وقال أبو عمر الزاهد: يراد بها النفس، ومنه قول علي عليه السلام: أقاتلهم ولو تلفت ساقِي، أي: نفسي. فعلى هذا يكون المعنى: يتجلى لهم.

قوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ﴾ يعني: المنافقين: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ كان في ظهورهم سفافيد الحديد. قال النقاش: وليس ذلك بتكليف لهم أن يسجدوا، وهم عجزوا، ولكنه توبيخ لهم بتركهم السجود ﴿خَشِيعَةً أَمْرَهُمْ﴾ أي: خاضعة ﴿رَهْمَهُمْ وَإِلَهُ﴾ أي: تغشاهم ﴿وَتَدَّ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ﴾ يعني: بالأذان في دار الدنيا، ويؤمرون بالصلاة المكتوبة ﴿وَمَنْ سَلَّوْنَ﴾ أي: معاقون ليس في أصلابهم مثل سفافيد الحديد. وفي هذا وعيد لمن ترك صلاة الجماعة. وكان كعب يقول: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات. ﴿قَدَفَيْنِ مِنَ الْكُذِّبِ يَهْدَا لَلْوَيْبِ﴾ يعني: القرآن. والمعنى: خلّ بيني وبينه. قال الزجاج: أي: لا تشغل قلبك به، كُله إليّ فانا أكفيك أمره. وذكر بعض الفسرين أن هذا القدر من الآية إلى قوله: «الحديث» منسوخ بآية السيف. وما بعد هذا مفسر في [الأعراف: ١٨٢ - ١٨٣] إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْتَلْهُمُ لَعْنًا﴾ فإنها مفسرة والتي قبلها في [الطور: ٣٩، ٤٠].

﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْكُوْبِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (٤١) وَلَا أَنْ تَذَكَّرَ يَمَةً مِنْ رَبِّهِ لَيْدٌ بِالرَّعْلَةِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٢) فَاجْتَنِبْ رَبَّهُمْ فَعَسَىٰ أَنْ يَكْفُرُوا بِاللَّيْنِ كَفَرُوا بِالرَّغْبَةِ بِأَمْرٍ لَنَا سَمِعًا الذَّكْرَ وَقَوْلُوا إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٤٣) وَمَا هُوَ إِلَّا وَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٤٤)

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آتٍ. وقيل: معنى الأمر بالصبر منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْكُوْبِ﴾ وهو يونس. وفيماذا نُهي أن يكون مثله قولان: أحدهما: أنه العجلة والغضب، قاله قناة. والثاني: الضعف عن تبليغ الرسالة، قاله ابن جرير. قال ابن الأنباري: وهذا لا يُخرج يونس من

(١) قال النووي في «شرح مسلم»: فسر ابن عباس وجمهور أهل اللغة وغريب الحديث الساق هنا بالشدة، أي: يكشف عن شدة وأمر مهول.

(٢) هذا البيت من الرجز المشطور، ذكره الطبري ٣٨/٢٩ من رواية ابن حميد عن مهرا عن سفيان عن المغيرة عن إبراهيم عن ابن عباس، ونص رواية عكرمة عن ابن عباس ﴿يَوْمَ يُكْفَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ قال: هو يوم حرب وشدة، ولم يذكر الرجز فيها.

(٣) هو جزء من حديث طويل مشهور في البخاري ٣٥٩/١٣، ومسلم ١/١٦٨، ورواه البخاري مختصراً ٥٠٨/٨ ونصه: عن أبي سعيد الخدري عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعةً فيلهب ليسجد ليعود ظهره طبقاً واحداً».

أولي العزم، لأنها خطيئة. ولو قلنا: إن كل مخطئ من الأنبياء ليس من أولي العزم، خرجوا كلهم إلا يحيى. ثم أخبر عن عقوبته إذ لم يصبر، فقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قال الزجاج: مملوء غمًا وكرهًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَن تَدْرَكْكُمُ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن أبي عبيدة: «لولا أن تداركته» بتاء خفيفة، وبتاء ساكنة بعد الكاف مع تخفيف الدال. وقرأ أبو هريرة، وأبو المتكلى: «تداركه» بتاء واحدة خفيفة مع تشديد الدال. وقرأ أبي بن كعب: «تنداركه» بتاءين خفيفتين. ﴿يَمَّةٌ بَيْنَ رَيْبٍ﴾ فرحمه بها، وتاب عليه من معاصيه ﴿كَيْدٌ بِالرَّهْمِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ وقد بينا معنى «العراء» في [الصفات: ١٤٥]. ومعنى الآية: أنه نبيذ غير مذموم لنعمة الله عليه بالتوبة والرحمة. وقال ابن جريج: نبيذ بالعراء، وهي: أرض المحشر، فالمعنى: أنه كان يبقى مكانه إلى يوم القيامة ﴿فَاتَّبَعْتَهُ رَيْبٌ﴾ أي: استخلصه واصطفاه، وخلّصه من الدم ﴿نَجَمَةٌ بَيْنَ النَّجْمَيْنِ﴾ فردّ عليه الوحي، وشقّعه في قومه ونفسه ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُواكَ بِأَضْرِبٍ﴾ قرأ الأكثرون بضم الياء من أزلقته، وقرأ أهل المدينة، وأبان بفتحها من زلقتّه أزلقته، وهما لغتان مشهورتان في العرب. قال الزجاج: يقال: زلق الرجل رأسه وأزلقه. إذا حلقه. وفي معنى الآية للمفسرين قولان: أحدهما: أن الكفار قصدوا أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين، وكان فيهم رجل يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل شيئاً، ثم يرفع جانب خبائه، فتمرّ به النعم، فيقول: لم أر كاليوم إبلاً لا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها عذة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين، فعصم الله نبيه، وأنزل هذه الآية، هذا قول الكلبي، وتابعه قوم من المفسرين تلقّوا ذلك من تفسيره، منهم الفراء^(١). والثاني: أنهم كانوا ينظرون إليه بالعداوة نظراً شديداً يكاد يُزْلِقُهُ من شدته، أي: يلقيه إلى الأرض. وهذا مستعمل في كلام العرب. يقول القائل: نظر إليّ فلان نظراً كاد يصرعني. وأنشدوا:

يَنْتَقِرُضُونَ إِذَا التَّقَوْا فِي مَوْطِنٍ نَظَرًا يُزِيلُ مَوَاطِنَ الْأَقْدَامِ^(٢)

أي: ينظر بعضهم إلى بعض نظراً شديداً بالعداوة يكاد يزيل الأقدام، وإلى هذا ذهب المحققون، منهم ابن قتيبة، والزجاج. ويدل على صحته أن الله تعالى قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿لَنَا يَوْمَ الذِّكْرِ﴾ والقوم كانوا يكرهون ذلك أشدّ الكراهة، فيجدّون النظر إليه بالبغضاء. وإصابة العين، إنما تكون مع الإعجاب والاستحسان، لا مع البغض، فلا يُظن بالكلبي أنه فهم معنى الآية. ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: موعظة.



(١) قال ابن كثير: وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله ﷻ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة. وقد روى مسلم في «صحيحه» ١٧١٩/٤ عن ابن عباس رضيهما عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا».

وروى البخاري وأصحاب «السنن» عن ابن عباس رضيهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤمّذ الحسن والحسين يقول: «أصليكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة».

(٢) البيت غير منسوب في «غريب القرآن» ٤٨٢، و«مشكل القرآن» ١٣٠، و«البيان والتبيين» ١١/١، و«الصناعين» ٢٨١، و«اللسان»: قرض، و«تفسير القرطبي» ٢٥٦/٨، و«البحر المحيط» ٣١٧/٨، و«الكشاف» ١٣٢/٤: ١٤٥.

سورة الحاقة

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿لَمَّاتٌ ۙ مَا لَمَّاتٌ ۙ وَمَا آذُنُكَ مَا لَمَّاتٌ ۙ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَّارِقِهَا ۙ وَرَأَتْهَا إِذَا تُرَىٰ إِذْ تَأْتِي السَّمَاءَ بِضُغَابٍ وَهَامَاتٍ ۙ وَبَدَّتْ كَرْعًا رَوَّاتٍ ۙ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا ۙ بِالطَّاغِيَةِ ۙ وَمَا عَادَ ۙ فَأَمْلِكُوا ۙ بِرِيحٍ مَّصْرُورٍ ۙ عَلَيْكُمْ ۙ سُحَّرَمَا عَلَيْكُمْ ۙ سَحَّ لَيْلَالٍ ۙ وَنَهْنِيَةٌ ۙ آيَاتٍ ۙ حُسُومًا ۙ فَتَرَىٰ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ۙ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ۙ حَاوِيَةٍ ۙ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۙ وَبِمَاءٍ يُرَعُونَ ۙ وَمَنْ يَلْبَسْهُ ۙ وَالْمُتَنَبِّكُ ۙ وَالطَّاغِيَةُ ۙ فَمَصُورًا ۙ رَسُولَهُ ۙ مِنْهُمْ ۙ فَأَخَذَهُمْ لَعْنَةُ رَبِّهِ ۙ إِنَّهَا لَكُنَّا عُلُقَابًا ۙ فَجَمَلْنَا فِي الْغَابِرَةِ ۙ لِكُلِّ نَذْرَةٍ ۙ وَقِيَّتَهَا ۙ أَذُنٌ ۙ وَرِيَّةٌ ۙ﴾

﴿لَمَّاتٌ ۙ﴾: القيامة. قال الفراء: إنما قيل لها: حاقة، لأن فيها حواقي الأمور. وقال الزجاج: إنما سميت الحاقة، لأنها تحق كل إنسان بعمله من خير وشر.

قوله تعالى: ﴿مَا لَمَّاتٌ ۙ﴾؟ هذا استفهام، معناه التفتيح لشأنها، كما تقول: زيد، وما زيد؟ على التعظيم لشأنه. ثم زاد في التهويل بأمرها، فقال تعالى: ﴿وَمَا آذُنُكَ مَا لَمَّاتٌ ۙ﴾ أي: لأنك لم تعانيتها، ولم تدر ما فيها من الأهوال. ثم أخبر عن المكذبين بها، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَّارِقِهَا ۙ﴾ قال ابن عباس: الطارقة: اسم من أسماء يوم القيامة. قال مقاتل: وإنما سميت بالطارقة، لأن الله تعالى يقرع أعداءه بالعذاب. وقال ابن قتيبة: الطارقة: القيامة لأنها تقرع، يقال: أصابهم قوارع الدهر. وقال الزجاج: لأنها تقرع بالأهوال. وقال غيره: لأنها تقرع القلوب بالفرع. فأما ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾ ففيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها طغيانهم وكفرهم، قاله ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. قال الزجاج: ومعنى الطاغية عند أهل اللغة: طغيانهم. و «فاعلة» قد يأتي بمعنى المصادر، نحو عاقبة، وعافية. والثاني: بالصيحة الطاغية، قاله قتادة. وذلك أنها جاوزت مقدار الصباح، فأهلكتهم. والثالث: أن الطاغية: عاقر الناقة، قاله ابن زيد. والريح الصرصر قد فسرناها في [آدم السجدة: ١٦]. والعاتية: التي جاوزت المقدار. وجاء في التفسير أنها عتت على خُرَّانها يومئذ، فلم يكن لهم عليها سبيل.

قوله تعالى: ﴿سُحَّرَمَا عَلَيْكُمْ ۙ﴾ أرسلها وسلطها. والتسخير: استعمال الشيء بالاعتقاد. وفي قوله تعالى: ﴿حُسُومًا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تبعاً، قاله ابن عباس. قال الفراء: الحسوم: التباع، يقال في الشيء إذا تبع، فلم ينقطع أوله عن آخره: حسوم. وإنما أُجِدَّ - والله أعلم - من حَسَمَ الدَّاءُ: إذا كُوي صاحبه، لأنه يحمنى ثم يكوى، ثم يتابع الكوي عليه. والثاني: كاملة، قاله الضحاك. فيكون المعنى: أنها حسمت الليالي والأيام فاستوفتها على الكمال، لأنها ظهرت مع طلوع الشمس، وذهبت مع غروبها. قال مقاتل: هاجت الريح عُذْوَةً، وسكنت بالعشي في اليوم الثامن، وقبضت أرواحهم في ذلك اليوم، ثم بعث الله طيراً أسوداً فالتقطهم حتى ألقاهم في البحر. والثالث: أنها حسمتهم، فلم تبق منهم أحداً، أي: أذهبهم وأفتتهم، هذا قول ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿فَتَرَىٰ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ۙ﴾ أي: في تلك الليالي والأيام ﴿صَرْعَىٰ﴾ وهو جمع صريع، لأنهم صرعوا بموتهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ۙ﴾ أي: أصول نخل ﴿حَاوِيَةٍ﴾ أي: بالية. وقد بيَّنا هذا في سورة [القمر: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۙ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من بقاء، قاله الفراء. والثاني: من بقية، قاله أبو عبيدة. قال: وهو مصدر كالتاغية. والثالث: هل ترى لهم من أثر؟ قاله ابن قتيبة. ﴿وَبِمَاءٍ يُرَعُونَ ۙ وَمَنْ يَلْبَسْهُ ۙ﴾ قرأ أبو عمرو، ويعقوب، والكسائي، وأبان: بكسر القاف، وفتح الباء. والباقون: بفتح القاف، وإسكان الباء. فمن كسر القاف أراد: من يليه ويحف به من جنوده وأتباعه. ومن فتحها أراد: من كان قبله من الأمم الكافرة. وفي «المؤتفكات»

ثلاثة أقوال: أحدها: قرى قوم لوط. والمعنى: وأهل المؤتفكات، قاله الأكثرون. والثاني: أنهم الذين ائتمفكوا بذنوبهم، أي: هلكوا بالذنوب التي معظمها الإفك، وهو الكذب، قاله الزجاج. والثالث: أنه قارون وقومه، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿بِالْمَلَأْتِ﴾ قال ابن قتيبة أي: بالذنوب، وقال الزجاج: الخاطئة: الخطأ العظيم. ﴿فَمَعَسَا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كذبوا رسلكم. ﴿فَلَمَذَمْتُمْ أَنْدَةً رَأَيْتُمْ﴾ أي: زائدة على الأحداث ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ أي: تجاوز حده حتى علا على كل شيء في زمن نوح: ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ يعني: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم ﴿فِي الْبُلُودِ﴾ وهي: السفينة التي تجري في الماء: ﴿لِيَجْهَلَكَهَا﴾ أي: لنجعل تلك الفعلة التي فعلنا من إغراق قوم نوح، ونجاة من حملنا معه: ﴿نَذِيرًا﴾ أي: عبرة، وموعظة: ﴿وَرَبَّيَا أَذُنَ خَيْبَةَ﴾ أي: أذن تحفظ ما سمعت، وتعمل به. وقال الفراء: لتحفظها كل أذن، فتكون عظة لمن يأتي بعده.

﴿وَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ذَلِكَ ذِكْرٌ وَاحِدٌ﴾ ﴿فِيَوْمٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فُجُورًا وَرَأَيْتُمْ وَالْمَلَائِكَةَ عَلَى سُدُورِهِمْ حَمَلِ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ ﴿يَوْمَ يَوْمِي يَتَذَكَّرُ الْأُنسَ وَالنُّسَ وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَفِئَ مِنْهَا فَكَيْفَ يُنْفِئُهَا مِنَ الْيَوْمِ النَّارُ تُظَلِّمُ إِلَيْهَا وَيَوْمَ يُرْمَى السَّمَكُ الْغَابِرَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْبَرُ﴾ ﴿إِنِّي لَمَلَكٌ حَسْبِي﴾ ﴿فَهُوَ فِي يَمِينِي رَأْسِي﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قَطْرُهَا ذَوَابِقُ يُثِيمٍ﴾ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَيْثُ مَا أَنْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي أُخْلِقْتُمْ فِيهَا وَمَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْبَرُ﴾ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْ مَالِهِ﴾ ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلَيْمِيَّةٌ﴾ ﴿عُدُوهُ فَلَنُكْفِرَهُ﴾ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿وَلَا يُحْسِنُ إِلَىٰ طَلَمِ الْيَسْكِينِ﴾ ﴿فَقَبَسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَبِيمٌ﴾ ﴿وَلَا طَلَمٌ إِلَّا مِنْ غِيظِنَا﴾ ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْفَلَّاتُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها النفخة الأولى، قاله عطاء. والثاني: الأخيرة، قاله ابن السائب، ومقاتل. ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي: حملت الأرض والجبال وما فيها ﴿ذَلِكَ ذِكْرٌ وَاحِدٌ﴾ أي: كسرتا، ودقتا دفقة واحدة، لا يثنى عليها حتى تستوي بما عليها من شيء، فتصير كالأديم الممدود. وقد أشرنا إلى هذا المعنى في (الأعراف: ١٤٣) عند قوله تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ دَكَّ﴾. قال الفراء: وإنما قال: فدكتا، ولم يُقَل: فَدَكْتُمْ، لأنه جعل الجبال كالشيء الواحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمَكِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَنَقْنَهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠)، وأنشدوا:

هُمَا سَيِّدَانَا يَزْعُمَانِ وَإِنَّمَا يَسُودَانِنَا أَنْ يَسَّرَتْ عَلَيْنَا غَمَاهُمَا^(١)

والعرب تقول: قد سيرت الغنم: إذا ولدت، أو تهيأت للولادة.

قوله تعالى: ﴿فِيَوْمٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ لتزول من فيها من الملائكة ﴿فُجُورًا وَرَأَيْتُمْ وَالْمَلَائِكَةَ عَلَى سُدُورِهِمْ حَمَلِ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ أي: على جوانبها. قال الزجاج: ورجاء كل شيء: ناحيته، مقصور. والثنوية: رجوان، والجمع: أرجاء. وأكثر المفسرين على أن المشار إليها السماء. قال الضحاك: إذا انشقت السماء كانت الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الله تعالى، فينزلون إلى الأرض، فيحيطون بها، ومن عليها. وروي عن سعيد بن جبيرة أنه قال: على أرجاء الدنيا.

(١) البيت في تفسير ابن جرير الطبري: ٥٦/٢٩، ونسبه في «اللسان»: بسر، والمعنى في شرح شواهد الألفية: إلى أبي أسيدة الدُّبَيْرِي، وأنشد في «اللسان» قبله بيتاً آخر هو:

إِن لَنَا سَيِّدَيْنِ لَا يَشْفَعَانِنَا غَيْبَيْنِ لَا يُجِدِي عَلَيْنَا غَمَاهُمَا

أي: ليس فيهما من السيادة إلا كونهما قد سيرت غنماهما، أي: كثرت ألبانها ونسلها، والسودد يوجب البذل والمطاء والحراسة والحماية وحسن التدبير والحلم، وليس عندهما من ذلك شيء، واستشهد المؤلف بهذا البيت على أن الشاعر قال: غنماهما بلفظ الثنية للغنم، مع أن الغنم اسم للجمع، وليس بمفرد، ولكنه عامله معاملة المفرد، كما اعتبرت الجبال في قوله تعالى: ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ذَلِكَ ذِكْرٌ وَاحِدٌ﴾ في حكم المفرد كالأرض، ولذلك قال: فدكتا، ولم يقل: فدككن.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فوق رؤوسهم، أي: العرش على رؤوس الحَمَلَة، قاله مقاتل. والثاني: فوق الذين على أرجائها، أي: أن حملة العرش فوق الملائكة الذين هم على أرجائها. والثالث: أنهم فوق أهل القيامة، حكاهما الماوردي. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿تَمَيِّزَةً﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ثمانية أملاك. وجاء في الحديث أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة أملاك آخرين، هذا قول الجمهور^(١). والثاني: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله ﷻ، قاله ابن عباس، وابن جبير، وعكرمة. والثالث: ثمانية أجزاء من الكروبيين لا يعلم عددهم إلا الله، قاله مقاتل. وقد روى أبو داود في «سننه» من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حِمْلَةِ الْعَرْشِ، أَنْ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةٌ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ على الله لحسابكم ﴿لَا تَخَفْنَ﴾ عليه. قرأ حمزة، والكسائي «لا يخفى» بالياء. وقرأ الباقون بالياء. والمعنى: لا يخفى عليه ﴿وَيُنَكَّرُ حَافِيَةً﴾ أي: نفس خافية، أو قَعْلَةٌ خافية. وفي حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجذال، ومعاذير، وأما الثالثة، فعندها تتطاير الصحف في الأيدي، فأخذ بيمينه، وأخذ بشماله»^(٣)، وكان عمر بن الخطاب يقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ لا تخصي منكم خافية. ﴿يَقُولُ هَازِمٌ﴾ قال الزجاج: «هازم» أمر من الجماعة. بمنزلة هاكم. تقول للواحد: ها يا رجل، وللثنتين: هاؤما يا رجلان. وللثلاثة: هاؤم يا رجال. قال المفسرون: إنما يقول هذا ثقة بسلامته وسروراً بنجاته. وذكر مقاتل أنها نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي كُنْتُ﴾ أي: علمت وأيقنت في الدنيا ﴿أَنَّ مَلَكِي حَسِيَّةٌ﴾ أي: أبعث، وأحاسب في الآخرة ﴿فَتَوَّءُ فِي سِينِي﴾ أي: حالة من العيش ﴿رَائِيَةً﴾ قال الفراء: أي: فيها الرضا. وقال الزجاج: أي: ذات رضى يرضاها من يعيش فيها. وقال أبو عبيدة: مجازها مجاز مرضية ﴿فِي جَنَّةٍ عَلَيْكَ﴾^(٤) أي: عالية المنازل ﴿فَطَرَفُهَا﴾ أي: ثمارها ﴿دَائِيَةٌ﴾ أي: قريبة ممن يتناولها، وهي جمع قطف. والقطف: ما يقطف من الثمار. قال البراء بن عازب: يتناول الثمرة وهو نائم.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا﴾ أي: يقال لهم: كلوا ﴿وَأَشْرَبُوا حَيْثُ مَا سَأَلْتُمْ﴾ أي: قَدَّمْتُمْ من الأعمال الصالحة ﴿فِي الْأَشْجَارِ كَلَالِيَةٍ﴾ الماضية، وهي أيام الدنيا. ﴿وَأَمَّا مَنْ أَرَبَ كِنْتَهُ يُشْمَلُ بِهِ﴾ قال مقاتل: نزلت في الأسود بن عبد الأسد، قتله حمزة بيدر، وهو أخو أبي سلمة. وقيل: نزلت في أبي جهل.

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُنِي رَزَقَتِي كِنْتِيَّةٌ﴾ وذلك لما يرى فيه من القبايح ﴿وَرَزَقَتِي أَرَبَ مَا حَسِيَّةٌ﴾^(٥) لأنه لا حاصل له في ذلك الحساب، إنما كُله عليه. وكان ابن مسعود، وقتادة، ويعقوب، يحذفون الهاء من «كتابيه»، و«حسابيه» في الوصل. قال الزجاج: الوجه أن يوقف على هذه الهاءات، ولا توصل، لأنها أدخلت للوقف. وقد حذفها قوم في الوصل، ولا أحب مخالفة المصحف، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾^(٦) [القارة: ١٠].

(١) رواه الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ، وهو خبر مقطوع. ورواه الطبري أيضاً من طريق ابن إسحاق قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «هم اليوم أربعة» يعني حملة العرش «فإذا كانوا يوم القيامة أمدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية» وقد قال الله: ﴿وَيَجْعَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ لَيْبَةً﴾ وهذا خبر مقطوع أيضاً. قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ لَيْبَةً﴾ أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة، قال: ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش، العرش العظيم، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب اهـ.

(٢) رواه أبو داود في «سننه» رقم (٤٧٧٧) وسنده جيد، وذكره ابن كثير في «تفسيره» من رواية ابن أبي حاتم وقال: وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات.

(٣) رواه أحمد في «المسند»، وابن ماجه ١٤٣٠/٢ من رواية وكيع عن علي بن رفاعه عن الحسن بن أبي موسى. قال البوصيري في «الزوائد»: رجال الإسناد ثقات، إلا أنه منقطع، والحسن لم يسمع من أبي موسى، قاله علي بن المديني، وأبو حاتم، وأبو زرعة، وقد رواه الترمذي عن الحسن بن أبي هريرة وقال: لا يصح هذا الحديث من جليل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة. ورواه الطبري ٥٩/٢٩ من رواية مجاهد بن موسى عن زيد، عن سليمان بن حامد عن مروان الأصغر عن أبي وائل عن عبد الله نحوه، وقال ابن كثير: ورواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلًا مثله.

قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُهُ﴾ يعني: الموتة التي ماتها في الدنيا ﴿كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ أي: القاطعة للحياة، فكانه تمنى دوام الموت، وأنه لم يُبْعَثْ للحساب ﴿هَلَاكَ عَنِّي سَاطِنِيَّةٌ﴾ (١) فيه قولان: أحدهما: ضلّت عني حجتي، قاله مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والسدي. والثاني: زال عني ملكي، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿خُدْرُهُ﴾ أي: يقول الله تعالى: ﴿خُدْرُهُ قَلْبُهُ﴾ (٢) أي: اجتمعوا يده إلى عنقه ﴿رُزِّقَ اللَّجِيمَ سَلْوَهُ﴾ أي: أدخلوه النار. وقال الزجاج: اجعلوه يضلّي النَّارَ ﴿رُزِّقَ فِي سَلِيلَةٍ﴾ وهي: حلّق متظلمة ﴿ذَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ قال ابن عباس: بذراع المَلَك. وقال نوف الشامي^(١): كل ذراع سبعون باعاً، الباع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان في رحبة الكوفة. وقال سفيان: كل ذراع سبعون ذراعاً. وقال مقاتل: ذرعها سبعون ذراعاً بالذراع الأول. ويقال: إن جميع أهل النار في تلك السلسلة.

قوله تعالى: ﴿تَأْسَلُكُونُ﴾ أي: أدخلوه. قال الفراء: وذكر أنها تدخل في دبر الكافر فتخرج من رأسه، فذلك سلكه فيها. والمعنى: ثم اسلكوا فيه السلسلة، ولكن العرب تقول: أدخلت رأسي في القلنسة، وأدخلتها في رأسي. ويقال: الخاتم لا يدخل في يدي، وإنما اليد تدخل في الخاتم، وإنما استجازوا ذلك، لأن معناه معروف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣) أي: لا يصدّق بوحديته وعظمته ﴿وَلَا يَحْشُرُ عَلَىٰ طَعْمِ آتِسِكِينَ﴾ (٤) أي: لا يطعمه، ولا يأمر بإطعامه ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَمًّا مِّمَّا جَبَمَ﴾ (٥) أي: قريب ينفعه، أي: يشفع له ﴿وَلَا طَعْمَ إِلَّا مِن عَشِيرٍ﴾ (٦) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه صديد أهل النار، قاله ابن عباس. قال مقاتل: إذا سال القبيح، والدم، بادروا أكله قبل أن تأكله النار. والثاني: شجر يأكله أهل النار، قاله الضحاك، والربيع: والثالث: أنه غسالة أجوافهم، قاله يحيى بن سلام. قال ابن قتيبة: وهو «فغليل» من «غسلت» كأنه غسالة^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْخَاطِرُونَ﴾ يعني: الكافرين.
﴿فَلَا أُقِيمُ بِمَا تُبْهَرُونَ﴾ (٧) وَمَا لَا تُبْهَرُونَ (٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٩) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (١٠) وَلَا يَقُولُ كَافٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (١١) نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٢)

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ﴾ «لا» ردّ لكلام المشركين، كأنه قيل: ليس الأمر كما يقول المشركون «أقيم بما تُبْهَرُونَ» (٧) وَمَا لَا تُبْهَرُونَ» وقال قوم: «لا» زائدة مؤكدة. والمعنى: أقسم بما ترون، وما لا ترون، فأراد جميع الموجودات. وقيل: الأجسام والأرواح، «إِنَّهُ» يعني: القرآن ﴿لَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: محمد ﷺ، قاله الأكثرون. والثاني: جبريل، قاله ابن السائب، ومقاتل. قال ابن قتيبة: لم يرد أنه قول الرسول، وإنما أراد أنه قول الرسول عن الله تعالى، وفي الرسول ما يدل على ذلك، فاكتفى به من أن يقول عن الله ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ وقرأ ابن كثير: «يؤمنون» و«تذكرون» بالياء فيهما. قال الزجاج: «ما» مؤكدة، وهي لغو في باب الإعراب. والمعنى: قليلاً تؤمنون. وقال غيره: أراد نفي إيمانهم أصلاً. وقد بيّنا معنى «الكاهن» في [الطور: ٢٩]. قال الزجاج: وقوله تعالى: «تنزيل» مرفوع بـ «هو» مضمرة يدل عليها قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ هو تنزيل.

﴿وَلَوْ نَفَقْنَا مِنكُم مِّمَّنْ فَسَوَّيْنَا لَكُمْ السُّبُلَ﴾ (١٣) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (١٤) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (١٥) فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَلْوٍ عَنهُ حَنْجِرِينَ (١٦) وَإِنَّهُ لَنذَكُورٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٧) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُم مُّكَذِبِينَ (١٨) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (١٩) وَإِنَّهُ لَعَنَ الْمُتَّقِينَ (٢٠) فَسَجَّ بِأَنفِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٢١)﴾
قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَفَقْنَا مِنكُم﴾ أي: لو تكلف محمد أن يقول علينا ما لم نقله ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (١٤) أي: لا أخذناه بالقوة والقدرة، قاله الفراء، والمبرد، والزجاج. قال ابن قتيبة: إنما أقام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في يمامته.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (١٥) وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، فإذا انقطع بطلت القوى،

(١) هو نوف بن فضالة الحميري البكالي، إمام أهل دمشق في عصره، من رجال الحديث، ورد ذكره في «الصحيحين»، وكان راوياً للقصاص، وهو ابن زوجة كعب الأحبار. توفي نحو (٩٥هـ) رجمه الله.

(٢) في الأصل: الغسالة.

ومات صاحبه. قال أبو عبيدة: الوتين: نياط القلب، وأنشد الشَّمَاخ:

إِذَا بَسَلْتُغْتِي وَخَمَلْتُ رُحْلِي

عَرَابَةَ فَاشْرَقِي بِدَمِ الْوَيْتِينَ^(١)

وقال الزجاج: الوتين: عرق أبيض غليظ كأنه قصبه.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَمَلٍ عَنْهُ حَنِيزٌ﴾ أي ليس منكم أحد يحجزنا عنه، وإنما قال تعالى: ﴿حَنِيزٌ﴾ لأن أحدا يقع على الجمع، كقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَأُ بَيْنَ أَهْلِ يَمِينِ رَسُولٍ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، هذا قول الفراء، وأبي عبيدة، والزجاج. ومعنى الكلام: أنه لا يتكلف الكذب لأجلكم مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه، ثم لم يقدر على دفع عقوبتنا عنه ﴿وَأَيْدِي﴾ يعني: القرآن ﴿لِحَسْرَةٍ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ في يوم القيامة. يندمون إذ لم يؤمنوا به ﴿وَأَلَمَ لَحَقَّ الْيَقِينَ﴾ إضافة إلى نفسه لاختلاف اللفظين، كقوله تعالى: ﴿وَلَذَارُ الْأَخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]. قال الزجاج: المعنى: وأنه لليقين حق اليقين، وقد شرحنا هذا المعنى، وما بعده في [الواقعة: ٩٥، ٩٦].



(١) البيت للشماخ بن ضرار التنجلي، «ديوانه» طبع القاهرة ٩٢، و«الطبري» ٩٧/٢٩، و«القرطبي» ٢٧٦/١٨ من قصيدة يمدح بها عرابة بن أوس بن قبيص، وكان هو وأبوه من الصحابة، وكان عرابة مشهوراً بالكرم.

سورة المعارج

سورة سأل سائل، ويقال لها: سورة المعارج، ويقال لها:

سورة الواقع، وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّكَّابِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ أَلَمِ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ بِمِقْدَارِ حَمِيمٍ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ قَامِرٍ صَبْرًا جَبِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ الْمَسَاءُ كَاللَّيْلِ كَاللَّيَالِ كَاللَّيْلِ كَاللَّيْلِ وَلَا يَنْتَلِ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿٨﴾ يَمْشُرُونَ بِمُؤَدِّ الْمُنِجِمِ لَوْ يَفْقَدِي مِنَ عَذَابٍ يَوْمَهُمْ يَبِينُ ﴿٩﴾ وَصَجَّيْتَهُ يَا جِبِّي وَأَنْجِيهِ ﴿١٠﴾ وَفَصَّلِيتهِ أَلْيَ تَتَوَيَّرُ ﴿١١﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جِمْعًا نَمَّ يُجِيبُهُ ﴿١٢﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَّلَى ﴿١٣﴾ نَزَاعَةً لِّلشَّوَى ﴿١٤﴾ تَمَعُّوْا مِنْ أَدْبَرَ وَقَوْلٌ ﴿١٥﴾ وَجَمْعٌ قَائِمٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ قال المفسرون: نزلت في النضر بن الحارث حين قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِكْمًا مِنَ السَّمَاءِ﴾^(١) [الأنفال: ٢٢]، وهذا مذهب الجمهور، منهم ابن عباس، ومجاهد. وقال الربيع بن أنس: هو أبو جهل. قرأ أبو جعفر، ونافع، وابن عامر: «سأل» بغير همز. والباقون: بالهمز^(٢). فمن قرأ: «سأل» بالهمز ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: دَعَا دَاعٍ على نفسه بعذاب واقِع. والثاني: سأل سائل عن عذاب واقِع لمن هو؟ وعلى من يتوَلَّى ومتى يكون؟ وذلك على سبيل الاستهزاء، فتكون الباء بمعنى «عن»، وأنشدوا:

فَإِنْ تَسَأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَلْيَأْتِنِي

خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَيِّبٌ^(٣)

والثالث: سأل سائل عذاباً واقعاً، والباء زائدة. ومن قرأ بلا همز ففيه قولان: أحدهما: أنه من السؤال أيضاً، وإنما كُنِ الهمزة، يقال: سأل، وسال، وأنشد الفراء:

تَعَالَوْا فَسَأَلُوا يَعْلَمِ النَّاسُ أَتِنَا

لِصَاحِبِهِ فِي أَوَّلِ الدُّفْرِ تَابِعِ

والثاني: المعنى: سأل وإد في جهنم بالعذاب للكافرين، وهذا قول زيد بن ثابت، وزيد بن أسلم، وابن عبد الرحمن. وكان ابن عباس في آخرين يقرؤون «سَأَلَ سَائِلٌ» بفتح السين، وسكون الياء من غير ألف ولا همز وإذا قلنا: إنه من السؤال، فقوله تعالى: «للكافرين» جواب للسؤال، كأنه لما سأل: لمن هذا العذاب؟ قيل: للكافرين. والواقع: الكائن. والمعنى: أن العذاب للذي سأله هذا الكافر كائن لا محالة في الآخرة ﴿لِكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿١٦﴾ مِنْ أَلَمِ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: المعنى: ذلك العذاب واقع من الله للكافرين.

قوله تعالى: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها السموات، قاله ابن عباس. وقال مجاهد: هي معارج الملائكة. قال ابن قتيبة: أصل «المعارج» الدَّرَج، وهي من عَرَجَ: إِذَا صَعِدَ. قال الفراء: لما كانت الملائكة تَعْرُجُ إليه، وصف نفسه بذلك. قال الخطابي: المعارج: الدَّرَج، واحدها: مَعْرَجٌ، وهو المصْعَدُ، فهو الذي يُصْعَدُ إليه بأعمال العباد، وبأرواح المؤمنين. فالمعارج: الطرائق التي يُصْعَدُ فيها. والثاني: أن المَعَارِجَ: الفَوَاضِلُ والنِّعَمُ، قاله قتادة.

(١) رواء الحاكم في «المستدرک» ٥٠٢/٢ عن سعيد بن جبیر وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وتعبه الذهبي فقال: على شرط البخاري فقط، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٦٣/٦ وزاد نسبه للقرطبي، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والذي هو أولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأه بالهمز، لإجماع الحجة من القراء على ذلك، وأن عامة أهل التأويل من السلف بمعنى الهمزة تأولوه.

(٣) البيت لمعلقة بن عبدة، وهو في «ديوانه» ١١، و«المفضليات» ٣٩٣، و«أدب الكاتب» ٥٠٥، و«القرطبي» ٢٧٩/٢٨ والشاهد فيه أن الباء في قوله «بالنساء» بمعنى «عن». والمعنى: فإن تسألوني عن النساء. والأدواء: جمع داء.

قوله تعالى: ﴿تَبٰرَكَ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ قرأ الكسائي: «يَعْرُجُ» بالياء. «وَالرُّوحُ» في «الروح» قولان: أحدهما: جبريل، قاله الأثرون. والثاني: رُوح الميت حين تُقبَضُ، قاله قبيصة بن ذؤيب.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي﴾ أي: إلى الله ﷻ ﴿لَوْ يَرَى كَانَ يَقْدَارُهُ حَمِيمَ النَّارِ سَوَاءً﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه يوم القيامة، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والقرظي، وهذا هو مقدار يوم القيامة من وقت البعث إلى أن يفصل بين الخلق. وفي الحديث: «إِنَّهُ لِيُخَفِّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَحْتَفَ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ»^(١). وقيل: بل لو ولي حسب الخلق سوى الله ﷻ لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة، والحق يفرغ منه في ساعة من نهار. وقال عطاء: يفرغ الله من حساب الخلق في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا. فعلى هذا يكون المعنى: ليس دافع من الله في يوم مقداره خمسين ألف سنة. قيل: المعنى: سألت سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير. والثاني: أن مقدار صعود الملائكة من أسفل الأرض إلى العرش لو صعد غيرهم قطعه في خمسين ألف سنة، وهذا معنى قول مجاهد.

قوله تعالى: ﴿فَأَنزِلْ﴾ أي: اصبر على تكذيبهم إياك ﴿صَبْرًا جَبِيلًا﴾ لا جزع فيه، وهذا قبل أن يُؤْمَرَ بقتالهم، ثم نسخ بآية السيف. ﴿إِنَّمَا يَرْوَدُ﴾ يعني: العذاب ﴿بِعَيْدًا﴾ غير كائن ﴿وَرَبَّهٖ قَرِيْبًا﴾ ﴿٧﴾ كائناً، لأن كل ما هو آت قريب. ثم أخبر متى يكون فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ النَّسَمَةُ كَالْهَلْبَلِ﴾ ﴿٨﴾ وقد شرحناه في «الكهف: ٢٢٩» ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ﴿٩﴾ أي: كالصوف، فَشَبَّهَهَا فِي صَفْهِهَا وَلِينِهَا بِالصُّوفِ. وقيل: شَبَّهَهَا بِهِ فِي خِفَّتِهَا وَسَهْوِهَا، لأنه قد نقل أنها تسير على صورتها، وهي كالهباء. قال الزجاج: «العهن» الصوف. واحدته: عِهْنَةٌ، ويقال: عُهْنَةٌ، وعُهْنٌ، مثل: صُوفِيٌّ، وُصُوفِيٌّ. وقال ابن قتيبة: «الجهن» الصوف المصبوغ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلِ حِمِيْرٌ حِمِيْرًا﴾ قرأ الأثرون: «يسال» بفتح الياء. والمعنى: لا يسأل قريب عن قرابته، لاشتغاله بنفسه. وقال مقاتل: لا يسأل الرجل قرابته، ولا يكلمه من شدة الأهوال. وقرأ معاوية، وأبو رزين، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وابن محيصن، وابن أبي عبله، وأبو جعفر بضم الياء. والمعنى: لا يقال للحميم: أين حميمك؟

قوله تعالى: ﴿يَسْمُرُونَ﴾ أي: يعرّف الحميم حميمه حتى يعرفه، وهو مع ذلك لا يسأل عن شأنه، ولا يكلمه اشتغالاً بنفسه. يقال: يَسْمُرْتُ زَيْدًا كَذَا: إِذَا عَرَفْتَهُ إِيَّاهُ. قال ابن قتيبة: معنى الآية: لا يسأل ذو قرابة عن قرابته، ولكنهم يَصْمُرُونَ نَهْمًا، أي: يُعَرِّفُونَهُمْ. وقرأ قتادة، وأبو المتوكل، وأبو عمران «يَصْمُرُونَ نَهْمًا» بإسكان الباء، وتخفيف الصاد، وكسرهما.

قوله تعالى: ﴿بُودُ الْمُتْرِمِ﴾ يعني: يتمنى المشرك لو قُبِلَ منه الفداء ﴿بِوَيْدِ بَيْنِهِ﴾ ﴿١٠﴾ وَصَجِيْرِهِ﴾ وهي الزوجة ﴿وَقَصِيْبَتِهِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: عشيرته. وقال الزجاج: هي أدنى قبيلته منه. ومعنى: ﴿تَتَوَدُّ﴾ تضمينه، فيؤدُّ أن يفتدي بهذه المذكورات ﴿بِمِمْ يَبِيْدِ﴾ ذلك الفداء، ﴿كَلًّا﴾ لا ينجيه ذلك ﴿إِنَّمَا لَقِيْنَا﴾ قال الفراء: هو اسم من أسماء جهنم، فلذلك لم يُجْر، وقال غيره: معناها في اللغة: اللهب الخالص. وقال ابن الأنباري: سميت لظي لشدة تَوَقُّدِهَا وتَلْهِبِهَا، يقال: هو يَتلْظِي، أي: يَتلْهَبُ ويتوقّد. وكذلك النار تَتلْظِي يراد بها هذا المعنى. وأنشدوا:

جَحِيْمًا تَلْظِي لَا تَفْتَرُّ سَاعَةً
وَلَا الْحَرُّ مِنْهَا غَايِرَ الدَّهْرِ يَبْرُدُ

﴿نَزَاعَةُ لِشَوِيْلٍ﴾ ﴿١١﴾ قرأ الجمهور «نَزَاعَةُ لِشَوِيْلٍ» بالرفع على معنى: هي نَزَاعَةٌ. وقرأ عمر بن الخطاب، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن، ومجاهد، وعكرمة، وابن أبي عبله، وحفص عن عاصم «نَزَاعَةٌ» بالنصب. قال الزجاج: وهذا على أنها حال مؤكدة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [فاطر: ٣١] ويجوز أن ينصب على معنى «إنها تَتلْظِي نَزَاعَةٌ». وفي

(١) رواه الإمام أحمد عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، ولفظه: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا» ورواه ابن جرير الطبري عن بونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج به، ودراج وشيخه أبو الهيثم ضعيفان.

المراد بـ ﴿إِلْتَبَرًا﴾ أربعة أقوال: أحدها: جلدة الرأس، قاله مجاهد. والثاني: محاسن الوجه، قاله الحسن، وأبو العالية. والثالث: العصب، والعقب، قاله ابن جبير. والرابع: الأطراف: اليدان، والرجلان، والرأس، قاله الفراء، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿تَعْمُرُوا مِنَ آتَابِ﴾ عن الإيمان ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ عن الحق. قال المفسرون: تقول: إلى يا مشرك، إلي يا منافق ﴿وَجَعَّ فَارَعًا﴾ قال الفراء: أي جمع المال في وعاء فلم يؤد منه زكاة، ولم يصل منه رحماً.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١) إِذَا سَأَلَ النَّشْرُ جُرُوعًا (٢) وَإِذَا سَأَلَ الْفَقْرُ مَرْعًا (٣) إِلَّا النَّصْلَيْنِ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِبُونَ (٥) وَالَّذِينَ فِي أَرْهَابِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٦) لَسَّائِيلٍ وَالْمَرْغُورِ (٧) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ (٨) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٩) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْتَابِهِمْ حَقِيقُونَ (١٠) إِلَّا عَلَى أَرْجُلِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (١١) فَمَنْ أَمِنَ رِزْقَ رَبِّكَ فَالْحَادُونَ (١٢) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَسْتِغْنِيهِمْ وَهُمْ يُغْنَوْنَ (١٣) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ (١٤) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ حَامِلُونَ (١٥) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (١٦) قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهَيِّئٌ لَنَا الْقِيَامَ وَمَنْ أَسْرَفَ عَلَيْنَا فَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ وَالْحَدِيدِ إِنَّا لَنَجْعَلُ لَكَ آيَاتٍ وَمَا تُعْزِئُكَ مِنْهُمَا شَيْئًا وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْكُفُورُ كَمَا يُنْفَخُ الْبُغْيَاءُ وَتُجْعَلُ لِلْأَعْمَى آيَاتٌ وَمَا يُبْصِرُهَا يُسْمِعُ بَعْضُهُمْ أَسْمَاعَ الْآخَرِينَ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَا يُعْمَلُونَ (١٧) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٨) قال مقاتل: عنى به أمية بن خلف الجُمحي. وفي الهلوع سبعة أقوال: أحدها: أنه الموصوف بما يلي هذه الآية، رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة، والزجاج. والثاني: أنه الحريص على ما لا يحل له، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: البخيل، قاله الحسن، والضحاك. والرابع: الشحيح، قاله ابن جبير. والخامس: الشَّره، قاله مجاهد. والسادس: الضُّجُور، قاله عكرمة، وقناة، ومقاتل، والفراء. والسابع: الشديد الجزع، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿إِذَا سَأَلَ النَّشْرُ﴾ أي: أصابه الفقر ﴿جُرُوعًا﴾ لا يصبر، ولا يحتسب ﴿وَإِذَا سَأَلَ الْفَقْرُ﴾ أصابه المال ﴿مَرْعًا﴾ بمنعه من حق الله ﷻ ﴿إِلَّا النَّصْلَيْنِ﴾ وهم أهل الإيمان بالله. وإنما استثنى الجمع من الإنسان، لأنه اسم جنس ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِبُونَ﴾ وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الذين يحافظون على المكتوبات، وهو معنى قول ابن مسعود. والثاني: أنهم لا يلتفتون عن إيمانهم وشمالهم في الصلاة، قاله عقبه بن عامر، واختاره الزجاج. قال: ويكون اشتقاقه من الدائم، وهو الساكن، كما جاء في الحديث أنه نهى عن البول في الماء الدائم (١). والثالث: أنهم الذين يكثرون فعل التطوع، قاله ابن جريج. ﴿وَالَّذِينَ فِي أَرْهَابِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ قد سبق شرح هذه الآية والتي بعدها في (الدايات: ١٩) وبيننا معنى «يوم الدين» في الفاتحة. وما بعد هذا قد شرحناه في (المؤمنين: ٧، ٨) إلى قوله تعالى: ﴿لَا تَسْتَكْبِرُوا﴾ قرأ ابن كثير وحده: «لأمانتهم» ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «بشهادتهم» على التوحيد. وقرأ حفص عن عاصم: «بشهاداتهم» جمعاً ﴿قَائِمُونَ﴾ أي: يقومون فيها بالحق ولا يكتُمونها. ﴿قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهَيِّئٌ لَنَا الْقِيَامَ﴾ نزلت في جماعة من الكفار جلسوا حول رسول الله ﷺ يستهزئون بالقرآن، ويكذبون به. قال الزجاج: والمُهَيِّطُ: المُقْبِلُ بَصْرَهُ عَلَى الشَّيْءِ لَا يُزَايِلُهُ، وكانوا ينظرون إلى النبي نظر عداوة. وقد سبق الخلاف في قوله تعالى: ﴿مُهَيِّئُوا﴾ [إبراهيم: ٤٣، والقمر: ٨].

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَلْبَسَ وَيَنْ أَيْسَالِ عَيْنٍ﴾ (١٩). قال الفراء: العززون، الحلق، الجماعات، وأخذتها؛ عزة، وكانوا يجتمعون حول النبي ﷺ فيقولون: إن دخل هؤلاء الجنة، كما يقول محمد ﷺ، فلندخلها قبلهم، فنزل قوله تعالى: ﴿أَبْطَغَ كُلُّ أَسْرِي يَتَمُّ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَبِيِّهِ﴾ (٢٠) وقرأ ابن مسعود، والحسن، وطلحة بن مصرف، والأعمش، والمفضل عن عاصم «أن يَدْخُلَ» بفتح الياء، وضم الخاء. وقال أبو عبيدة: عزين جمع عزة، مثل تبة، وتبين، فهي جماعات في تفرقة (٢١).

قوله: ﴿مَنْ أَلْبَسَ وَيَنْ أَيْسَالِ عَيْنٍ﴾ (٢٠). قال الفراء: العززون، الحلق، الجماعات، وأخذتها؛ عزة، وكانوا يجتمعون حول النبي ﷺ فيقولون: إن دخل هؤلاء الجنة، كما يقول محمد ﷺ، فلندخلها قبلهم، فنزل قوله تعالى: ﴿أَبْطَغَ كُلُّ أَسْرِي يَتَمُّ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَبِيِّهِ﴾ (٢٠) وقرأ ابن مسعود، والحسن، وطلحة بن مصرف، والأعمش، والمفضل عن عاصم «أن يَدْخُلَ» بفتح الياء، وضم الخاء. وقال أبو عبيدة: عزين جمع عزة، مثل تبة، وتبين، فهي جماعات في تفرقة (٢١).

(١) روى البخاري ومسلم في (صحيحهما) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبول أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه».
 (٢) ذكره الواحدي عن المفسرين بغير سند ولم يعزه لأحد.
 (٣) روى مسلم في (صحيحه) ٣٢٤/١ عن جابر بن سمرة ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فرأنا جلقاً، فقال: «ما لي أراكم عزين؟» أي جماعات في =

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يكون ذلك ﴿إِنَّا عَلَّمْنَهُمْ إِنَّمَا يَمْلِكُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة، فالمعنى: لا يستوجب الجنة أحد بما يدعيه من الشرف على غيره، إذ الأصل واحد، وإنما يستوجبها بالطاعة. والثاني: إنا خلقناهم من أقدار. فيماذا يستحقون الجنة ولم يؤمنوا؟! وقد روى بشر^(١) بن جحاش عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية ﴿إِنَّا عَلَّمْنَهُمْ إِنَّمَا يَمْلِكُونَ﴾ ثم بَرَّقَ، قال: يقول الله ﷻ: أئنّي تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه!؟ حتى إذا سَوَيْتُكَ، وَعَدَّلْتُكَ، مَشَيْتُ بَيْنَ بُرْدَيْنِ، وللأرض منك وئيد، فجمعت، ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدّق، وأئنّ أوان الصدقة؟!^(٢)

قوله تعالى: ﴿كَلَّا أَتَيْتُ﴾ قد تكلمنا عليه في [الحاقة: ٢٨] والمراد بالمشارق، والمغارب: شرق كل يوم ومغربهُ ﴿إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ عَالِمٌ أَنْ يُبَدِّلَ خَيْرًا يَتَمَّ ﴿أَي: نَخْلُقُ أَمْثَلَ مِنْهُمْ، وَأَطْرَعُ لَكَ حِينَ عَصَاؤُا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْرُورِينَ﴾ مفسر في [الواقعة: ٦٠] ﴿فَبَدَّلْنَاهُمْ يُجْرُسُوا﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْبَسُوا﴾ أي: يلهاوا في دنياهم ﴿حَقَّ يَلْقَاؤُا﴾ وقرأ ابن محيصن ﴿يَلْقَاؤُا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة. وهذا لفظ أمر، ومعناه الوعيد. وذكر المفسرون أنه منسوخ بأية السيف. وإذا قلنا: إنه وعيد بقاء يوم القيامة، فلا وجه للنسخ. ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَاثِ رِيكَا﴾ أي: يخرجون بسرعة كأنهم يَسْتَقِفُونَ.

قوله تعالى: ﴿كَانَتْهُمْ إِلَيْنَا نَصِبٌ﴾ قرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم بضم النون والصاد. وقال ابن جرير: وهو واحد الأنصاب، وهي ألتهم التي كانوا يعبدونها. فعلى هذا يكون المعنى: كأنهم إلى ألتهم التي كانوا يعبدونها يسرعون. وقرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي بفتح النون وسكون الصاد، وهي في معنى القراءة الأولى، إلا أنه مصدر. كقول القائل: نصبت الشيء أنصبه نصباً. قال قتادة: معناه: كأنهم إلى شيء منصوب يسرعون. وقال ابن جرير: تأويله: كأنهم إلى صنم منصوب يسرعون. وقرأ ابن عباس، وأبو مجلز، والنخعي «نُصِب» برفع النون، وإسكان الصاد. وقرأ الحسن، وأبو عثمان النهدي، وعاصم الجحدري «إِلَى نَصْبٍ» بفتح النون والصاد جميعاً. قال ابن قتيبة: النصب، حجر يُنْصَبُ أو صنم، يقال: نُصِبَ، ونُصِبَ، ونُصِبَ. وقال الفراء: النَّصْبُ والنُّصْبُ واحد، وهو مصدر، والجمع: الأنصاب. وقال الزجاج: النَّصْبُ، والنُّصْبُ: العلم المنصوب. قال الفراء: والإيفاض: الإسراع.

قوله تعالى: ﴿رَمَقَهُمْ وَرَاءَهُ﴾ قرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعمرو بن دينار «وَأَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ» بغير تونين، ويخفف الميم. وباقى السورة قد تقدم بيانه [المعارج: ٤٢].



١ - تفرقة، جمع عزة، وأصلها «عزوة» فحذفت الواو وجمعت جمع السلامة على غير قياس كثير جمع ثبة. والحديث رواه أيضاً أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير الطبري. وفي هذا الحديث دلالة على أن التفرقة في الأجسام تؤكد التفرقة في القلوب.

(١) كذا الأصل: «بشر» وقد ذكره الحافظ ابن حجر في «الإصابة» «يسر» بالسین المهملة بن جحاش قال: بكسر الجيم بعدها هملة خفيفة، قال: ويقال: يفتحها بعدها مثلة، وبعد الألف معجمة، قرشي نزل حمص. قال ابن منده: أهل العراق يقولونه بالمعجمة (بشر) وقال الدارقطني وابن زيد: لا يصح بالمعجمة، وكذا ضبطه بالمهملة أبو علي الهجري في «نواذره» لكن سمي أباه جحشاً. وقال مسلم وابن السكن وغيرهما: لم يرو عنه غير جبير بن نغير، وحديثه عند أحمد وابن ماجه والحاكم من طريقه بإسناد صحيح. قال ابن منده: عداه في الشاميين، مات بجمص.

(٢) رواه أحمد في «المستدرک» ٤/٢١٠ من حديث حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن مسيرة عن جبير بن نغير عن بسر بن جحاش، وإسناده حسن، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٢/٥٠٢ قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي فقال: صحيح. ورواه ابن ماجه رقم (٢٧٠٧)، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح. وأورده السيوطي في «الدر» ٦/١٦٧ من رواية البيهقي في «شعب الإيمان».

سورة نوح

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ آلِي لَكُمْ لَذِيرٌ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا يُغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَاكُمْ بِهِ الْيَوْمَ وَلَٰكِنْ كَثُرَ تَوَلُّوهُمْ ﴿٣﴾﴾
قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أنذر قومك. و«العذاب الأليم» العرق.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وعلي بن نصر عن أبي عمرو «أن أعبدوا الله» بضم النون. وقرأ عاصم، وحمزة، وعبد الوارث عن أبي عمرو «أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ» بكسر النون. قال أبو علي: من ضم كره الكسر.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أثبت الياء في الحاليين يعقوب.

قوله تعالى: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ «من» هاهنا صلة. والمعنى: يغفر لكم ذنوبكم، قاله السدي ومقاتل. وقال الزجاج: إنما دخلت «من» هاهنا لتختص الذنوب من سائر الأشياء. ولم تدخل لتبعض الذنوب، ومثله ﴿فَأَجْعَلِيبُوا الرِّيسَ مِنْ الْأَرْسَلِينَ﴾ [المج: ٣٠] وذهب بعض أهل المعاني إلى أنها للتبعض. والمعنى: يغفر لكم من ذنوبكم إلى وقت الإيمان ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ أي: عن العذاب ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ وهو منتهى آجالهم. والمعنى: فتموتوا عند منتهى آجالكم غير ميتة المعتدلين، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أجل الموت، قاله مجاهد. فيكون المعنى: إن أجل الله الذي أجلكم إليه لا يؤخر إذا جاء، فلا يمكنكم حينئذ الإيمان. والثاني: أنه أجل البعث، قاله الحسن. والثالث: أجل العذاب، قاله السدي ومقاتل.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مَعُونٌ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُومًا لِيُغْفِرَ لَهُمْ جَمَلًا أَسِيئًا فِي مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦﴾ وَأَسْتَفْتُوا نِيَابَهُمْ وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِتْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ بِأَمْوَالٍ يُغْنِي وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجِعُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمْعَ سَمَوَاتٍ لِيُبَاقَا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَلْبَسَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ بُيُوتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا بِيضًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوْحٌ رَبِّ إِنِّي مَعُونٌ عَصَوْتُمْ وَأَنْتُمْ مَنَ أُرِيدُهُ مَا لَهُمْ مِنْكُمْ وَلَا تَدْرَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَدْرَهُ إِلَّا هُجْرًا وَلَا تَدْرَهُ وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَمُوتُ وَيَمُوتُ وَتَشَارًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا زَيْدٌ مِنَ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: تباعدوا من الإيمان ﴿وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُومًا﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿جَمَلًا أَسِيئًا﴾ لئلا يسمعو صوتي ﴿وَأَسْتَفْتُوا نِيَابَهُمْ﴾ أي: غطوا بها وجوههم لئلا يروني ﴿وَأَسْرَرُوا﴾ على كفرهم ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان بك وأتباعي ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي: معلناً لهم بالدعاء. قال ابن عباس: بأعلى صوتي ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ﴾ أي: كررت الدعاء معلناً ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِتْرَارًا﴾ قال ابن عباس: يريد أكلّم الرجل بعد الرجل في السر، وأدعوه إلى توحيدك وعبادتك ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ قال المفسرون: منع الله عنهم القطر، وأعقم أرحام نسايتهم أربعين سنة، فقال لهم نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك، أي: استدعوا مغفرته بالتوحيد ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ قد شرحناه في أول [الانعام: ٦] ومعنى الكلام أنه أخبرهم أن الإيمان يجمع لهم خير الدنيا والآخرة^(١).

(١) قال ابن كثير: أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقامكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت

قوله تعالى: ﴿تَا كُرًّا لَا رُحُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؟ فيه أربعة أقوال: أحدها: لا تَرَوْنَ لله عظمة، قاله الفراء، وابن قتيبة. والثاني: لا تخافون عظمة الله، قاله الفراء، وابن قتيبة. والثالث: لا تَرَوْنَ لله طاعة، قاله ابن زيد. والرابع: لا ترجون عاقبة الإيمان والتوحيد، قاله الزجاج: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ ﴿١٣﴾ أي: وقد جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده من خلقه إياكم من نطفة، ثم من علقه شيئاً بعد شيء إلى آخر الخلق. قال ابن الأنباري: الطُّور: الحال، وجمعه: أطوار. وقال ابن فارس: الطُّور: التارة، طوراً بعد طور، أي: تارة بعد تارة. وقيل: أراد بالأطوار: اختلاف المناظر والأخلاق، من طويل، وقصير، وغير ذلك، ثم قرَّروهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبله «طباقي» بتنين القاف، وكسرهما من غير الف. وقد بيَّنَّا هذا في سورة [الملك: ٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَمَلُ الْقَمَرِ فِيهِمْ تُورًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن وجه القمر قبيل السموات، وظهره قبيل الأرض، يضيء لأهل السموات، كما يضيء لأهل الأرض، وكذلك الشمس، هذا قول عبد الله بن عمرو. والثاني: أن القمر في السماء الدنيا. وإنما قال: «فيهم» لأنهم كالشيء الواحد، ذكره الأخفش والزجاج، وغيرهما. وهذا كما تقول: أتيت بني تميم، وإنما أتيت بعضهم، وركبت السفن، و«جَمَلُ الْقَمَرِ فِيهِمْ تُورًا» يستضيء بها العالم^(١) ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: أن مبتدأ خلقكم من الأرض، وهو آدم ﴿يَتَاءَمُّ﴾ قال الخليل: معناه: فنيتم نباتاً. وقال الزجاج: «نباتاً» محمول في المصدر على المعنى، لأن معنى أنبتكم: جعلكم تنبتون نباتاً. قال ابن قتيبة: هذا مما جاء فيه المصدر على غير المصدر، لأنه جاء على نبت. ومثله: ﴿وَيَنْتَلِ إِلَيْهِ بَيْبِلًا﴾ [الزمل: ٨] فجاء على «بئل»، قال الشاعر:

وَحَيْبِرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ
هـ وليس بِأَنْ تَتَّبِعَهُ أَتْبَاعًا^(٢)
فجاء على اتَّبَعْتُ. وقال الآخر:

وإن شئتمتم تـمـا وندنا عـواداً

فجاء على «عادونا»، وإنما تجيء المصادر مخالفة الأفعال، لأن الأفعال وإن اختلفت أبنيتها، واحدة في المعنى. قوله تعالى: ﴿سُبْحًا يَبَاقًا﴾ قال الفراء: هي الطرق الواسعة.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مِنْ لُرِّيذِهِ مَأْهُ وَوَالِدِهِ﴾ قرأ أهل المدينة، وابن عامر، وعاصم «ووالده» بفتح اللام والواو. وقرأ الباقون «ووالده» بضم الواو، وسكون اللام. قال الزجاج: وهما بمعنى واحد، مثل العَرَب، والعُرَب، والقَجْم، والعُجْم. وقرأ الحسن، وأبو العالية، وابن يعمر، والجحدري: «ووالده» بكسر الواو، وإسكان اللام. قال المفسرون: المعنى: أن الأتباع، والفقراء اتَّبَعُوا رأيي الرؤساء والكبراء.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿١٤﴾ قرأ أبو رجاء، وأبو عمران: «كِبَارًا» برفع الكاف، وتخفيف الباء. وقرأ ابن يعمر، وأبو الجوزاء، وابن محيصن «كِبَارًا» بكسر الكاف مع تخفيف الباء. والمعنى «كبيراً» يقال: كبير، وكبار. وقد شرحنا هذا في أول (ص). ومعنى «المكر»: السعي في الفساد. وذلك أن الرؤساء منعوا أتباعهم من الإيمان بنوح ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تَدَهْنُ عبادتها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ رَدًا﴾ قرأ أبو جعفر، ونافع بضم الواو. والباقون بفتحها. وهذا الاسم وما بعده أسماء ألهتهم. وجاء في التفسير أن هذه أسماء قوم صالحين، كانوا بين آدم ونوح، ونشأ قوم بعدهم

= لكم الزرع، وأذر لكم الضرع، وأمذكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وغلَّها بالأنهار الجارية بينها. ثم قال: هذا مقام الدعوة بالترغيب، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿تَا كُرًّا لَا رُحُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؟

(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَجَمَلُ الْقَمَرِ فِيهِمْ تُورًا﴾ يقول: وجعل القمر في السموات السبع نوراً، وجعل الشمس فيهن سراجاً. وقال ابن كثير: المقصود أن الله سبحانه وتعالى: خلق سبع سموات طباقاً، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً، أي: فاوت بينهما في الاستارة، فجعل كلاً منهما نموذجاً على حدة ليصرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر للقمر منازل ويروجاً، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستمر ليلد على مضي الشهر والأعوام، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَمَلُ الْقَمَرِ فِيهِمْ تُورًا﴾ وقال الألويسي: ﴿وَجَمَلُ الْقَمَرِ فِيهِمْ تُورًا﴾ متوراً لوجه الأرض في ظلمة الليل، وجعله فيهن مع أنه في إحداثهن وهي السماء الدنيا، كما يقال: زيد في بناد وهو في بقعة منها، والمرجح له الإيجاز والملابسة بالكلفة والجزئية وكونها طباقاً شفاة.

(٢) البيت للقطامي، وهو في «ديوان» ٣٥، «واللسان»: تبع. وضع الأتباع موضع التبعية مجازاً، لأن تَبِعْتُ في معنى اتَّبَعْتُ.

يأخذون بأخذهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صورتم صُورَهُمْ كان أنشط لكم، وأشوق للعبادة، ففعلوا. ثم نشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم، فعبدهم، وكان ابتداء عبادة الأوثان من ذلك الوقت. وسميت تلك الصور بهذه الأسماء، لأنهم صوروها على صور أولئك القوم المسمين بهذه الأسماء. وقيل: إنما هي أسماء لأولاد آدم، مات منهم واحد، فجاء الشيطان فقال: هل لكم أن أصور لكم صورته، فتذكرونه بها؟ فصورها. ثم مات آخر، فصور لهم صورته، إلى أن صور صوراً خمسة. ثم طال الزمان، وتركوا عبادة الله، فقال لهم الشيطان: مالكم لا تعبدون شيئاً؟ فقالوا: لمن نعبد؟ قال: هذه آلهتكم، وآلهة آبائكم، ألا ترونها مصورة في مصلاكم؟ فعبدها. وقال الزجاج: هذه الأصنام كانت لقوم نوح، ثم صارت إلى العرب، فكان «ود» لكلب، و«سواع» لهمدان، و«يعوث» لبني غطفان، وهم حي من مراد. وقيل: لما جاء الطوفان غطى على هذه الأصنام وطمها التراب، فلما ظهرت بعد الطوفان صارت إلى هؤلاء المذكورين، قال الواقدي: كان «ود» على صورة رجل، و«سواع» على صورة امرأة، و«يعوث» على صورة أسد، و«يعوق» على صورة فرس، و«نسر» على صورة النسر من الطير.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخْلَلْنَا كَيْبَرًا﴾ فيه قولان: أحدهما: وقد أخضت الأصنام كثيراً من الناس، أي: ضلوا بسببها. والثاني: وقد أضل الكبراء كثيراً من الناس. ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: الكافرين ﴿إِلَّا سَلَكَ﴾ وهذا دعاء من نوح عليهم، لما أعلمه الله أنهم لا يؤمنون.

﴿يَمَّا خَطبْتَهُمْ أَتَرُقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ ﴿١٥﴾ وَقَالَ نُوْحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَ الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ دِيَارًا ﴿١٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فٰجِرًا كَفٰرًا ﴿١٧﴾ رَبِّ أَنْقِزْ لِيْ وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيْ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنٰتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِيْنَ إِلَّا نَارًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿يَمَّا خَطبْتَهُمْ﴾ «ما»: صلة. والمعنى: من خطبتاتهم: أي: من أجلها، وسببها. وقرأ أبو عمرو «مما خطاياهم»، وقرأ أبو الجوزاء، والجحدري «خطبتهم» من غير ألف، ﴿أَتَرُقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ قال ابن السائب: المعنى: سيدخلون في الآخرة ناراً، فجاء لفظ الماضي بمعنى الاستقبال، لأن الوعد حق، هذا قول الأكثرين. وقال الضحاك: فأدخلوا ناراً في الدنيا، وذلك أنهم كانوا يغرِقون من جانب، ويحترقون في الماء من جانب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ أي: لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿دِيَارًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: أحداً. يقال: ما بالمنازل دياراً، أي: ما بها أحد، وهو من الدار، أي: ليس بها نازل داراً. وقال الزجاج: أصلها: «دَيُّوَار» فيقال: قلبت الواو ياءً، وأدغمت إحداهما في الأخرى. وإما دعا عليهم نوح، لأن الله تعالى أوحى إليه ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّوْا عِبَادَكَ﴾ وذلك أن الرجل منه كان يطلق بانه إلى نوح، فيحذره تصديقه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فٰجِرًا كَفٰرًا﴾ قال المفسرون: إن الله تعالى أخبر نوحاً أنهم لا يلدون مؤمناً، فلذلك علم الفاجر الخارج عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَنْقِزْ لِيْ وَلِوَالِدَيَّ﴾ قال الحسن: وذلك أنهما كانا مؤمنين. وقرأ أبو بكر الصديق، وسعيد بن المسيب، وابن جبير، والجحدري، والجوني «ولوالدي» ساكنة الياء على التوحيد. وقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، وابن يعمر، والزهري، والنخعي «ولوالدي» من غير ألف على التنثية «وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيْ» وقرأ حفص عن عاصم «بيتي» بفتح الياء. وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: منزله، قاله ابن عباس. والثاني: مسجده، قاله الضحاك. والثالث: سفينته، حكاها الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنٰتِ﴾ هذا عام في كل من آمن، ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِيْنَ﴾ يعني: الكافرين ﴿إِلَّا نَارًا﴾ أي: هلاكاً. ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا تَبَرُّوْا﴾ [الفرقان: ٣٩].

سورة الجن

كلها مكية بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَ إِنْ أَنَا أَنسَمَعُ نَحْرًا مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ قَتَلُ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ مِنَ الْإِنْسِ بِوَدُونِ يَحْيَىٰ مِمَّنَ الْإِنْسِ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا ﴿٤﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَمَعَتَ اللَّهُ أَحْمَكًا ﴿٥﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّيِّئَةَ فَنَجَدْنَاهَا مُلَمَّتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ﴿٦﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ فِيهَا مَا نَصَبَا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَوِيدٍ يَمُنُّ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمُ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ وَدَكَا ﴿٩﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَنْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَكِن نُّعَجِّزُهُ هَرَبًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدْيَةَ يَمَانًا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحْمِلُ الْيُسْرَىٰ وَلَا يُهَمِّقُهَا ﴿١١﴾ وَأَنَّا مِنَّا الشَّالِثُونَ وَمِنَّا الْقَاطِبُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأَوْلِيكَ تَحْرُورًا رَشَدًا ﴿١٢﴾ وَأَمَّا الْقَاطِبُونَ فَكَانُوا لِيَجْهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٣﴾ وَالَّذِي اسْتَفْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذْبًا ﴿١٤﴾ لَيَقْبِضَنَّ فِيهِ وَمَنْ يَمُرْ بِهِ مِنْ دُونِ رَبِّهِ يَلَسْكَهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَ إِنْ أَنَا أَنسَمَعُ نَحْرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ قد ذكرنا سبب نزول هذه الآية في [الاحقاف: ٢٩] وبيئنا هنالك سبب استماعهم. ومعنى «النفر» وعددهم، فأما قوله تعالى: ﴿ قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ فمعناه: بليغاً يعجب منه لبلاغته ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أي: يدعو إلى الصواب من التوحيد والإيمان ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا ﴾ أي: لن نعدل بربنا أحداً من خلقه. وقيل: إبليس، أي: لا نطيعه في الشرك بالله.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ قَتَلُ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ اختلف القراء في اثنتي عشرة همزة في هذه السورة، وهي: «وأنه تعالى»، «وأنه كان يقول»، «وأننا ظننا»، «وأنه كان رجال»، «وأنهم ظنوا»، «وأننا لمسنا»، «وأننا كنا»، «وأننا لا ندرى»، «وأننا منا»، «وأننا ظننا أن لن نعجز الله»، «وأننا لما سمعنا»، «وأننا منا» ففتح الهمزة في هذه المواضع ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وحفص عن عاصم، ووافقهم أبو جعفر في ثلاثة مواضع: «وأنه تعالى»، «وأنه كان يقول»، «وأنه كان رجال»، وكسر الباقيات. وقرأ الياقون بكسرهم. وقال الزجاج: والذي يختاره النحويون في هذه السورة أن ما كان من الרוحي قيل فيه: «أن» بالفتح، وما كان من قول الجن قيل: «إن» بالكسر، معطوف على قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ وعلى هذا يكون المعنى: وقالوا: إنه تعالى جدُّ ربنا، وقالوا: إنه كان يقول سفيهاً. فأما من فتح، فذكر بعض النحويين، يعني القراء: أنه معطوف على الهاء في قوله تعالى: ﴿ قَاتِمًا بِهِ ﴾ وبأنه تعالى جدُّ ربنا. وكذلك ما بعد هذا وهذا رديء في القياس، لا يعطف على الهاء المتمكنة المخفوضة إلا بإظهار الخافض. ولكن وجهه أن يكون محمولاً على معنى أمنا به، فيكون المعنى: وصدفنا أنه تعالى جدُّ ربنا. وللمفسرين في معنى ﴿ قَتَلُ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ سبعة أقوال: أحدها: قُدْرَةُ رَبِّنَا، قاله ابن عباس. والثاني: غِنَى رَبِّنَا، قاله الحسن. والثالث: جَلَالُ رَبِّنَا، قاله مجاهد، وعكرمة. والرابع: عَظَمَةُ رَبِّنَا، قاله قتادة. والخامس: أَمْرُ رَبِّنَا، قاله السدي. والسادس: ارتفاع ذكره وعظمته، قاله مقاتل. والسابع: مُلْكُ رَبِّنَا وثناؤه وسلطانه، قاله أبو عبيدة. ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ سَوِيئًا ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه إبليس، قاله مجاهد، وقاتدة. والثاني: أنه كفارهم، قاله مقاتل. و«الشطط»: الجور، والكذب، وهو: وصفه بالشريك، والولد. ثم قالت الجن: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُقْرِئَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٦﴾ ﴾ وقرأ يعقوب: «أن لن نقول» بفتح القاف، وتشديد الواو. والمعنى: ظنناهم صادقين في قولهم: لله صاحبة وولد، وما ظنناهم يكذبون حتى سمعنا القرآن، يقول الله ﷻ ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ مِمَّنَ الْإِنْسِ بِوَدُونِ يَحْيَىٰ مِمَّنَ الْجِنِّ ﴾ وذلك أن الرجل في الجاهلية كان إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض قال: أعوذ

يسئد هذا الوادي من سرّ سفهاء قومه، فبييت في جوارٍ منهم حتى يصبح. ومنه حديث كردم بن أبي السائب الأنصاري، قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فأوانا المييت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب، فأخذ حملًا من الغنم، فوثب الراعي فنادى: يا عامر الوادي جارك، فنادى منادٍ لا نراه: يا سرحان أرسله. فإذا الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة^(١)، فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿وَأَنْتَ كَانَ يَجَالُيَنَ الْإِنسِ﴾ الآية^(٢). وفي قوله تعالى: ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ قولان: أحدهما: أن الإنس زادوا الجن رهقًا لتعوّذهم بهم، قاله مقاتل. والمعنى: أنهم لما استعاذوا بسادتهم قالت السادة: قد سلنا الجن والإنس. والثاني: أن الجن زاد الإنس رَهَقًا، ذكره الزجاج. قال أبو عبيدة: زادوهم سَفَهًا وطغيانًا. وقال ابن قتيبة: زادوهم ضلالًا. وأصل الرهق: العيب. ومنه يقال: فلان يرهق في دينه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ ظَنُّوا﴾ يقول الله ﷻ: ظن الجن ﴿كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها الإنس المشركون أنه لا بعث. وقالت الجن: ﴿وَأَنَا لَسْنَا السَّكَّةَ﴾ أي: أتيناها ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ وهم الملائكة الذين يحرسونها من استراق السمع ﴿وَشُهْبًا﴾ جمع شهاب، وهو النجم المضيء ﴿وَأَنَا كَمَا تَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ﴾ أي: كنا نستمع، فالآن حين حاولنا الاستماع بعد بعث محمد ﷺ رُمينا بالشُّهْب. ومعنى ﴿رَصَدًا﴾ قد أرصد له المرعى به ﴿وَأَنَا لَا تَدْرِي أَتَرُّ أَرِيدُ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ بإرسال محمد إليهم، فيكذبونه، فيهلكون ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وهو أن يؤمنوا فيهدتوا، قاله مقاتل. والثاني: أنه قول كفر الجن، والمعنى: لا تدري أشرُّ أريدُ بمن في الأرض بحدوث الرجم بالكواكب، أم صلاح؟ قاله الفراء. ثم أخبروا عن حالهم، فقالوا: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْفَلْيُحُونَ﴾ وهم المؤمنون المخلصون ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم المشركون. والثاني: أنه أهل الشرِّ دون الشرك. ﴿كَمَا طَرِيقًا يَدْعَا﴾ قال الفراء: أي: فرقًا مختلفة أهواؤنا. وقال أبو عبيدة: واحد الطرائق: طريقة، وواحد القيد: قدة، أي: ضروريًا وأجناسًا وميلاً. قال الحسن، والسدي: الجن مثلكم، فمنهم قَدْرِيَّةٌ، ومرجئةٌ، ورافضةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ظَنُّوا﴾ أي: أيقنًا ﴿أَنَّ لَنْ تُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لن تُفوتَه إذا أراد بنا أمرًا ﴿وَلَنْ تُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي: أنه يدركننا حيث كنا ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدْعَةَ﴾ وهو القرآن الذي أتى به محمد ﷺ ﴿هَامِنًا يَوْمَ﴾ أي: صدقنا أنه من عند الله ﷻ ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحَافُ بِمَنَّا﴾ أي: نقصاً من الثواب: ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي: ولا ظلمًا ومكروها يغشاه ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ قال مقاتل: المخلصون لله ﴿وَمِنَّا الْفَلْيُطُونَ﴾ وهم المرءة. قال ابن قتيبة: القاسطون؛ الجاثرون. يقال: قسط: إذا جار، وأقسط: إذا عدل^(٣). قال المفسرون: هم الكافرون. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَرُوقُ﴾ أي: تَوَخَّوه، وأمؤوه. ثم انقطع كلام الجن. قال مقاتل: ثم رجع إلى كفار مكة فقال تعالى: ﴿وَأَلِّئْتُمْ عَلَيْهِمُ الْطُرُقَ﴾ يعني: طريقة الهدى، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، واختاره الزجاج. قال: لأن الطريقة هاهنا بالالف واللام معرفة، فالأوجب أن تكون طريقة الهدى. وذهب قوم إلى أن المراد بها: طريقة الكفر، قاله محمد بن كعب، والربيع، والفراء، وابن قتيبة، وابن كيسان. فعلى القول الأول يكون المعنى: لو آمنوا لوَسَعْنَا

(١) أي: أثر عَض.

(٢) ذكر هذا الحديث ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم، وفي سننه عبد الرحمن بن إسحاق الكوفي، وهو ضعيف، وذكره الهيثمي في «معجم الزوائد» ١٢٩/٧ وقال: رواه الطبراني، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الكوفي، وهو ضعيف، قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» في ترجمة (كردم بن أبي السائب) بعدما ساق حديثه هذا من رواية العقيلي من طريق عبد الرحمن بن إسحاق عن أبيه عن كردم بن أبي السائب: وأخرجه ابن مردويه في «التفسير» من هذا الوجه، وأخرج له شاهداً من حديث معاوية بن قره عن أبيه. وأورده السيوطي في «الدرر» ٢٧١/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، وأبي الشيخ في «العظمة»، وابن عساكر عن كردم بن أبي السائب الأنصاري ﷺ. قال ابن كثير: وروي عن عبيد بن عمير، ومجاهد، وأبي العالية، والحسن، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي نحوه، ثم قال: وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل وهو ولد الشاة، كان جيتًا حتى يرهق الإنسي ويخاف منه، ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويخرجه عن دينه، والله أعلم. اهـ.

(٣) ومنه قوله ﷺ فيما رواه مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نورة».

عليهم ﴿لِيَتَّبِعَكُمْ﴾ أي: لنختبرهم ﴿فِيهِ﴾ فننظر كيف شكرهم. والماء العَذَقُ: الكثير. وإنما ذكر الماء مثلاً، لأن الخير كله يكون بالمطر، فأقيم مقامه إذ كان سببه. وعلى الثاني: يكون المعنى: لو استقاموا على الكفر فكانوا كفاراً كلهم، لأكثرنا لهم المال لغشمتهم فيه عقوبة واستدرجاً، ثم نعذبهم على ذلك. وقيل: لأكثرنا لهم الماء فأغرقتهم كقوم نوح، ﴿وَمَنْ يُرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّيَ﴾ يعني: القرآن ﴿يَسْلُكْهُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر «نسلكه» بالنون. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بالياء «عذاباً صَعَكاً» قال ابن قتيبة: أي: عذاباً شاقاً. يقال: تصعدني الأمر: إذا شقَّ عليّ. ومنه قول عمر: ما تصعدني شيء ما تصعدتني خطبة النكاح. ونرى أصل هذا كله من الصعود، لأنه شاق، فكفي به عن المشقات. وجاء في التفسير أنه جبل في النار يكلف صعوده، وسنذكره عند قوله تعالى: ﴿سَاءَ يَفْعَلُ صَوْرًا﴾ [المنذر: ١٧] إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [١٥] وَأَنَّ لِمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا ﴿١٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿١٧﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿١٨﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُغَيِّرَ مِنِّي اللَّهُ أَحَدًا وَلَا أَجِدُ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿١٩﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً مِنِّي وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَانَ لَمْ يَكُنْ يَهْتَمِ خَلِيلِينَ وَمَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَمَيَّامُونَ مَن أضعف ناصراً وأقلَّ عدداً ﴿٢١﴾ قُلْ إِن أَدْرَعْتِ أَقْرَبًا مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْمَعُ لَكُمْ رَبِّيْ أَسْمَاءًا ﴿٢٢﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٤﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْتَلَوْنَا رُسُلَهُمْ وَالْمَلَأَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْسَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ فيها أربعة أقوال: أحدها: أنها المساجد التي هي بيوت الصلوات، قاله ابن عباس. قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا، فأمر الله ﷺ المسلمين أن يخلصوا له إذا دخلوا مساجدهم. والثاني: الأعضاء التي يسجد عليها العبد، قاله سعيد بن جبير، وابن الأنباري، وذكره الفراء. فيكون المعنى، لا تسجدوا عليها لغيره^(١). والثالث: أن المراد بالمساجد هاهنا: البقاع كلها، قاله الحسن. فيكون المعنى: أن الأرض كلها مواضع للسجود، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها. والرابع: أن المساجد: السجود، فإنه جمع مسجد. يقال: سجدت سجوداً، ومسجداً، كما يقال: ضربت في الأرض ضرباً، ومضرباً، ثم يجمع، فيقال: المساجد، والمضارب. قال ابن قتيبة: فعلى هذا يكون واحداً: مسجداً، بفتح الجيم. والمعنى: أخلصوا له، ولا تسجدوا لغيره. ثم رجع إلى ذكر الجن فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ لِمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿يَدْعُوهُ﴾ أي: يعبده. وكان يصلي بطن نخلة على ما سبق بيانه في [الاحقاف: ٢٩] ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ قرأ الأکثرون: «لِيَدًا» بكسر اللام، وفتح الباء. وقرأ هشام عن ابن عامر، وابن محيصن «لِيَدًا» بضم اللام، وفتح الباء مع تخفيفها. قال الفراء: ومعنى القراءتين واحد. يقال: لِيَدَةً، ولِيَدَةً. قال الزجاج: والمعنى: كاد يركب بعضهم بعضاً. ومنه اشتقاق اللبد الذي يفترش. وكل شيء أضعته إلى شيء فقد لبدته. وقرأ قوم منهم الحسن، والجدري: «لِيَدًا» بضم اللام مع تشديد الباء. قال الفراء: فعلى هذه القراءة يكون صفة للرجال، كقولك: رُكْعًا وروكوعاً، وسُجْدًا وسجوداً. قال الزجاج: هو جمع لابد، مثل راع، وركع. وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إخبار الله تعالى عن الجن يحكي حالهم. والمعنى: أنه لما قام يصلي كاد الجن لازدحامهم عليه يركب بعضهم بعضاً، جزصاً على سماع القرآن، رواه عطية عن ابن عباس. والثاني: أنه من قول الجن لقومهم لما رجعوا إليهم، فوصفوا لهم طاعة أصحاب محمد رسول الله ﷺ واتمامهم به في الركوع، والسجود، فكانهم قالوا: لما قام يصلي كاد أصحابه يكونون عليه ليداً، وهذا المعنى في رواية ابن جبير عن ابن عباس. والثالث: أن المعنى: لما قام رسول الله ﷺ بالدعوة تلبّدت الإنس والجن، وتظاهروا عليه، ليلطلوا الحق الذي جاء به، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد^(٢).

(١) ومنه قوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة» (وأشار بيده إلى شفه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين).

(٢) وهذا اختيار ابن جرير الطبري. قال ابن كثير: وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [١٥] أي قال لهم الرسول لما أدّوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليلطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿سَاءَ أَدْعَاؤُ رَبِّي﴾ [١٧] أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستعير به؛ وأتوكل عليه ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ قرأ عاصم، وحمزة ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ بغير ألف. وقرأ الباقون «قال» على الخبر عن النبي ﷺ. قال مقاتل: إن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم لم يسمع بمثله فارجع عنه، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَأَمْلِكُ لَكُمْ صَرًّا﴾ أي: لا أدمعه عنكم ﴿وَلَا﴾ أسوق إليكم ﴿رَشْدًا﴾ أي: خيراً، أي: إن الله تعالى يملك ذلك، لا أنا ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: إن عصيته لم يمنعي منه أحد، وذلك أنهم قالوا: اترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك ﴿وَلَنْ أجد مِنْ دُونِهِ مَلْتَمَةً﴾ وقد بيناه في [الكهف: ٢٧] ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ﴾ فيه وجهان، ذكرهما الفراء: أحدهما: أنه استثناء من قوله تعالى: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ صَرًّا وَلَا رَشْدًا﴾ إلا أن أبلغكم. والثاني: لن يجيرني من الله أحد إن لم أبلغ رسالته. وبالأول قال ابن السائب، وبالثاني قال مقاتل. وقال بعضهم: المعنى: لن يجيرني من عذاب الله إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت، فذلك البلاغ هو الذي يجيرني. ﴿وَمَنْ يَقِمْ أَفْئِدَةً لِلَّهِ وَسُؤْلًا﴾ بترك الإيمان والتوحيد.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ يعني: الكفار ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الدنيا، وهو القتل، وفي الآخرة: ﴿فَسَيَلَمُّونَ مَنْ أضعَفَ ناصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا﴾ أي: جنداً ونصراً، أهم، أم المؤمنون؟ ﴿قُلْ إِنْ أَذْرَبْتُ﴾ أي: ما أدري ﴿أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُمُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أي: غاية ويئداً^(١). وذلك لأن علم الغيب لله وحده ﴿فَلَا يَظْهَرُ﴾ أي: فلا يطلع ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ﴾ الذي يعلمه ﴿إِلَهًا﴾ من الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولِي﴾ لأن من الدليل على صدق الرسل إخبارهم بالغيب والمعنى: أن من ارتضاه للرسالة أطلعه على ما شاء من غيبه. وفي هذا دليل على أن من زعم أن النجوم تدل على الغيب فهو كافر. ثم ذكر أنه يحفظ ذلك الذي يطلع عليه الرسول فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَسَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: من بين يدي الرسول ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أي: يجعل له حَفَظَةً من الملائكة يحفظون الوحي من أن تُسْتَرْقَه الشياطين، فتلقه إلى الكهنة، فيتكلمون به قبل أن يخبر النبي ﷺ الناس. وقال الزجاج: يسلك من بين يدي الملك ومن خلفه رصداً. وقيل: يسلك من بين يدي الوحي. فالرُصْدُ من الملائكة يدفعون الشياطين عن أن تستمتع ما ينزل من الوحي.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: ليعلم محمد ﷺ أن جبرائيل قد بلغ إليه، قاله ابن جبير. والثاني: ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله ﴿قَدْ أَتَلَوْا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وأن الله قد حفظها فدفع عنها، قاله قتادة^(٢). والثالث: ليعلم مكذوب الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم، قاله مجاهد. والرابع: ليعلم الله ﷻ ذلك موجوداً ظاهراً يجب به الثواب، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْرِ أَنَّهُ الَّذِينَ خَبَرُوا بِبَيْتِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، قاله ابن قتبية. والخامس: ليعلم النبي أن الرسل قد أتته ولم تصل إلى غيره، ذكره الزجاج. وقرأ رويس عن يعقوب «لِيُعْلَمَ» بضم الياء على ما لم يسم فاعله، وقال ابن قتبية: ويُقرأ «لَتُعْلَمَ» بالثاء، يريد: لتعلم الجن أن الرسل قد بلغت عن إلههم بما رجوا من استراق السمع. ﴿وَأَمَّا بِمَا كَذَّبْتُمْ﴾ أي: علم الله ما عند الرسل ﴿وَأَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ فلم يفته شيء حتى الذر والخردل.



(١) قال ابن كثير: وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلف تحت الأرض، كذب لا أصل له، ولم نره في شيء من الكتب، وقد كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة، فلا يجيب عنها، ولما تبدي له جبريل في صورة أعزابي، كان فيما سأله أن قال: يا محمد: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» ولما ناداه ذلك الأعزابي بصوت جهوري فقال: يا محمد متى الساعة؟ قال: «فويلك إنها كائنة فما أعددت لها؟» قال: أما إنني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام، ولكنني أحب الله ورسوله، قال: «فأنت مع من أحببت» قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث.

(٢) هذا القول اختاره ابن جرير الطبري في تفسيره.

سورة المزمل

وهي مكية كلها بإجماعهم

إلا أنه قد روي عن ابن عباس أنه قال: سوى آيتين منها، قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ والتي بعدها [المزمل: ١١، ١٠]. وقال ابن يسار، ومقاتل: فيها آية مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِمَا لَكَ قَوْمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُولُ ﴿١﴾ فَرَأَيْتَ لَآ أَيْلَ إِلَّا قَيْلًا ﴿٢﴾ نَسَمَةً أَوْ أَنْفُسَ يَتَه قَيْلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَزَقَ الْقُرْآنَ تَرِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَبِيلاً ﴿٥﴾ إِنْ كَانَتْهَ الْآيِلُ مِنْ أَسَدٌ مَطْلًا وَأَقْوَمُ قَيْلًا ﴿٦﴾ إِنْ لَكَ فِي النَّهَارِ سِتْمًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكَرَ نَسَمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلَ إِلَيْهِ تَبِيلاً ﴿٨﴾ رَبُّ الشَّرِيفِ وَالْقَرِيبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْمُرْهُمْ هَجْرًا حَبِيلاً ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَيْلًا ﴿١١﴾ إِنْ لَدَيْنَا أُنكَاةٌ وَرَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَسَلَامًا فَا عَسَىٰ وَعَدَاءُ آلِيَا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَاللِّجَالُ وَكَانَتْ لِجِبَالِ كَيْبَا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ رُفُوعَانَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَمَنْ يَرْوِثِ الرَّسُولَ فَلْيَخُذْهُ أَثَدًا وَيِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَنْقُوتُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ وَمَا يُجْمَلُ الْوَالِدَانَ شَيْئًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

وقرأ أبي بن كعب، وأبو العالية، وأبو مجلز، وأبو عمران، والأعمش «المزمل» بإظهار التاء. وقرأ عكرمة، وابن يعمر: «المزمل» بحذف التاء، وتخفيف الزاي. قال اللغويون «المزمل» الملتف في ثيابه، وأصله «المزتمل» فأدغمت التاء في الزاي، فنقلت. وكل من التف بشويه فقد تزمل. قال الزجاج: وإنما أدغمت فيها لقرئها منها. قال المفسرون: وكان النبي ﷺ يتزمل في ثيابه في أول ما جاء جبريل فرقا منه حتى أنس به. وقال السدي: كان قد تزمل للنوم. وقال مقاتل: خرج من البيت وقد لبس ثيابه، فناداه جبريل: يا أيها المزمّل. وقيل: أريد به مزمّل النبوة. قال عكرمة في معنى هذه الآية: زملت هذا الأمر، فقم به. وقيل: إنما لم يخاطب بالنبي والرسول هاهنا، لأنه لم يكن قد بلغ. وإنما كان في بدء الوحي.

قوله تعالى: ﴿فَرَأَيْتَ لَآ أَيْلَ إِلَّا قَيْلًا﴾ أي: للصلاة. وكان قيام الليل فرضاً عليه ﴿إِلَّا قَيْلًا﴾ نَسَمَةً، هذا بدل من الليل، كما تقول: ضربت زيداً رأسه. فإنما ذكرت زيداً لتوكيد الكلام، لأنه أوكد من قولك: ضربت رأس زيد. والمعنى: قم من الليل النصف إلا قليلاً ﴿أَوْ أَنْفُسَ يَتَه قَيْلًا﴾ أي: من النصف ﴿أَوْ زِدَ عَلَيْهِ﴾ أي: على النصف. قال المفسرون: انقص من النصف إلى الثلث، أو زد عليه إلى الثلثين، فجعل له سعة في مدة قيامه، إذ لم تكن محدودة، فكان يقوم ومعه طائفة من المؤمنين، فشق ذلك عليه وعليهم، فكان الرجل لا يدرى كم صلى، وكم بقي من الليل، فكان يقوم الليل كله مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب، فنسخ ذلك عنه وعنهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِمَا لَكَ قَوْمٌ أَثَدًا مِنْ ثَلَاثِ الْآيِلِ...﴾ الآية، هذا مذهب جماعة من المفسرين. وقالوا: ليس في القرآن سورة نَسَخَ آجْرُهَا أَوْلَهَا سوى هذه السورة. وذهب قوم إلى أنه نُسِخَ قِيَامُ اللَّيْلِ فِي حَقِّهِ بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْلٌ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، ونسخ في حق المؤمنين بالصلوات الخمس. وقيل: نسخ عن الأمة، وبقي عليه فرضه أبداً. وقيل: إنما كان مفروضاً عليه دونهم. وفي مدة فرضه قولان: أحدهما: سنة، قال ابن عباس: كان بين أول: (المزمل) وآخرها سنة. والثاني: ستة عشر شهراً، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَ الْقُرْآنَ تَرِيلاً﴾ قد ذكرنا الترتيل في [الفرقان: ٣٢] ^(١).

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَ الْقُرْآنَ تَرِيلاً﴾ أي: اقرأه على تمهل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبيره، قال، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة فيرثلها حتى تكون أطول من أطول منها. وفي صحيح البخاري: من أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مدّاً، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿يَسْمُ اللَّهُ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿يَسْمُ اللَّهُ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ﴾. ثم قال: وروى الإمام أحمد عن

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ فَأَوْلَا نَبِيَّكَ﴾ وهو القرآن. وفي معنى يُثَقِّلُه ستة أقوال: أحدها: أنه كان يُثَقِّلُ عليه إذا أوحى إليه، وهذا قول عائشة. قالت: ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، يعني يتخلص عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً^(١). والثاني: أن العمل به ثقيل في فروضه وأحكامه، قاله الحسن، وقتادة. والثالث: أنه يثقل في الميزان يوم القيامة، قاله ابن زيد. والرابع: أنه المهيب، كما يقال للرجل العاقل: هو رزين راجح، قاله عبد العزيز بن يحيى. والخامس: أنه ليس بالخييف ولا السفاسف، لأنه كلام الرب ﷻ، قاله الفراء. والسادس: أنه قول له وزن في صحته وبيانه ونفعه، كما تقول: هذا كلام رصين، وهذا قول وزن: إذا استجدته، ذكره الزجاج^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس: هي قيام الليل بلسان الحبشة. وهل هي في وقت مخصوص من الليل، أم في جميعه؟ فيه قولان: أحدهما: أنها في جميع الليل. وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال: الليل كله ناشئة. وإلى هذا ذهب اللخويون. قال ابن قتيبة: ناشئة الليل: ساعاته الناشئة، من نشأ: إذا ابتدأ. وقال الزجاج: ناشئة الليل: ساعات الليل، كل ما نشأ منه، أي: كل ما حدث. وقال أبو علي الفارسي: كأن المعنى: إن صلاة ناشئة، أو عمل ناشئة الليل. والثاني: أنها في وقت مخصوص من الليل. ثم فيه خمسة أقوال: أحدها: أنها ما بين المغرب والعشاء، قاله أنس بن مالك. والثاني: أنها القيام بعد النوم، وهذا قول عائشة، وابن الأعرابي. وقد نص عليه أحمد في رواية المروزي. والثالث: أنها ما بعد العشاء، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، وأبو مجلز. والرابع: أنها بدء الليل، قاله عطاء، وعكرمة. والخامس: أنها القيام من آخر الليل، قاله يمان، وابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿يٰٓأَيُّهَا أَشَدُّ وَطْأً﴾ قرأ ابن عامر، وأبو عمرو، «وِطَاءً» بكسر الواو مع المد، وهو مصدر واطأت فلاناً على كذا مواطأةً، وِطَاءً، وأراد أن القراءة في الليل يتواطأ فيها قلب المصلي ولسانه وسمعه على التفهيم للقرآن والإحكام لتأويله^(٣). ومنه قوله تعالى: ﴿لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾. [النوبة: ١٣٧]. وقرأ الباقون «وِطَاءً» بفتح الواو مع القصر. والمعنى: إنه أثقل على المصلي من ساعات النهار، من قول العرب: اشتدت على القوم وِطَاءُ السلطان: إذا ثقل عليهم ما يلزمهم. ومنه قول النبي ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مضمراً»^(٤). ذكر معنى القراءتين ابن قتيبة. وقرأ ابن محيصن «أشد وِطَاءً» بفتح الواو، والطاء، وبالمد.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ يُلَا﴾ أي: أخلص للقول وأسمع له، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات فتخلص القراءة، ويفرغ القلب لفهم التلاوة، فلا يكون دون سماعه وتفهمه حائل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ أي: فراغاً لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك، قاله ابن عباس، وعطاء. وقرأ علي، وابن مسعود، وأبو عمران، وابن أبي عبله «سبخاً» بالخاء المعجمة. قال الزجاج: ومعناها في اللغة صحيح. يقال: قد سبخت القطن بمعنى نفشته. ومعنى نَفَّشْتَهُ: وسَّعْتَهُ، فيكون المعنى: إن لك في النهار توسعاً طويلاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أُمَّ رَبِّكَ﴾ أي: بالنهار أيضاً ﴿وَيَتَّبِعْ إِلَيْهِ نَبِيَّكَ﴾ قال مجاهد. أخلص له إخلاصاً. وقال

= عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «يقال لقارئ القرآن: اقرأ واروق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإ منزلتك عند آخر آية تقرؤها» ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(١) رواه البخاري في «صحيحه» عن عائشة ؓ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الرحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الرحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه يفضد عرقاً.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله وصفه بأنه قول ثقيل، فهو كما وصفه به ثقيل محمله، ثقيل العمل بحدوده وفرائضه.

(٣) في الأصل: والإحكام وتلاوته، والتصويب من «غريب القرآن». قال ابن كثير: أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغظ الأصوات وأوقات المعاش.

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة ؓ في قصة القنوت في صلاة الصبح.

ابن قتيبة: انقطع إليه، من قولك: بئَلْتُ الشيء: إذا قطعته. وقال الزجاج: انقطع إليه في العبادة. ومنه قيل لمريم: البتول، لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة. وكذلك صدقة بتلة: منقطعة من مال المصدق. والأصل في مصدر تَبَتَّلَ تبتلاً. وإنما قوله تعالى: «تبتلاً» محمول على معنى: تبتل. «رَبُّكَ الشَّرِيفُ» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم «رَبُّ» بالرفع. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم بالكسر. وما بعد هذا قد سبق [الشراء: ٢٨] إلى قوله تعالى: «وَأَصْبِرْ عَلٰٓى مَا يَقُولُونَ» من التكذيب لك والأذى «وَأَهْرَجْتُمْ هَجْرًا حَيْلًا» لا جزع فيه. وهذه الآية عند المفسرين منسوخة بآية السي. «وَدَرْجِي وَالْكَذِبِينَ» أي: لا تهتم بهم، فإنا أكفيهم «أُولُو الْأَلْمَمَةِ» يعني: التَّعَمُّ. وفيمن غُني بهذا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المطعمون يَبْذِرُ، قاله مقاتل بن حيان. والثاني: أنهم بنو المغيرة بن عبد الله، قاله مقاتل بن سليمان. والثالث: أنهم المستهزون، وهم صناديد قريش، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: «وَمَهَلِكُمْ قِيَلًا» قالت عائشة: فلم يكن إلا اليسير حتى كانت وقعة بدر، وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، وليس بصحيح.

قوله تعالى: «إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا» وهي القيود، واحدها: نكل. وقد شرحنا معنى «الجحيم» في [البقرة: ١١٩] «وَمَا كُنَّا قَا ضَعُفًا» وهو الذي لا يسوغ في الحلق. وفيه للمفسرين أربعة أقوال: أحدها: أنه شوك يأخذ الحلق فلا يدخل ولا يخرج، قاله ابن عباس، وعكرمة. والثاني: الرُّقُومُ، قاله مقاتل. والثالث: الضَّرِيعُ، قاله الزجاج. والرابع: الرُّقُومُ والغُسلين والضَّرِيعُ، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ» قال الزجاج: هو منصوب بقوله تعالى: «إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا» والمعنى: ينكل الكافرين ويعذبهم «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ» أي: تُزَلْزَلُ وتُحْرَكُ أغلظ حركة.

قوله تعالى: «كَانَتْ لِيَالًا» قال مقاتل: المعنى: وصارت بعد الشدة، والقوة «كَيْبًا» قال الفراء: «الكثيب»: الرمل. و«المهيل»: الذي تحرك أسفله، فينهال عليك من أعلاه. والعرب تقول: مهيل ومهيول، ومكيل ومكيول. وقال الزجاج: الكثيب جمعه: كثبان، وهي: القطع العظام من الرمل. وللمهيل: السائل.

قوله تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ» يعني أهل مكة «رَسُولًا» يعني: محمداً ﷺ «شَاهِدًا عَلَيْكَ» بالتبليغ، وإيمان من آمن، وكفر من كفر «كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى رُحُونٍ رُسُلًا» وهو موسى ﷺ. والوييل: الشديد. قال ابن قتيبة: هو من قولك: استويت المكان: [إذا استوخمته]. ويقال: كلاً مُسْتَوِيلٌ أي: لا يُسْتَمَرُّ. قال الزجاج: الوييل: الثقل الغليظ جداً. ومنه قيل للمطر العظيم: وابل. قال مقاتل: والمراد بهذا الأخذ الوييل: الغرق. وهذا تخويف لكفار مكة أن ينزل بهم العذاب لتكذيبهم، كما نزل بفرعون.

قوله تعالى: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا» أي: عذاب يوم. قال الزجاج: المعنى: بأي شيء تتحصنون من عذاب يوم من هوله يتسبب الصغير من غير كبير. وقرأ أبي بن كعب، وأبو عمران «نجعل الولدان» بالنون.

قوله تعالى: «السَّمَاءُ مُنْفِطِرٌ بِدُءٍ» قال الفراء: السماء تُذَكَّرُ وتَوَثُّت. وهي هاهنا في وجه التذكير. قال الشاعر:
فَلَسَزَ رَعَجُ السَّمَاءِ إِلَيْهِ قَوْمًا
لَجَجْنَا بِالسَّمَاءِ مَعَ السَّحَابِ^(١)

قال الزجاج: وتذكير السماء على ضربين: أحدهما: على أن معنى السماء معنى السقف. والثاني: على قولهم: امرأة مُرْضِعٌ على جهة النسب. فالمعنى: السماء ذات انقطاع، كما أن المرضع ذات الرضاع. وقال ابن قتيبة: ومعنى الآية: السماء مُنْفِطِرٌ به، أي: فيه، يعني في ذلك اليوم.

قوله تعالى: «كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا» وذلك أنه وعد بالبعث، فهو كائن لا محالة.
«إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ أَحْذَرَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا» ﴿٢٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ بِمَا أَنْتَ قَوْمٌ آدَنُ مِنْ لُغِيِّ أَيْلٍ رَضَمَةٌ وَتِلْكَ مَلَائِكَةٌ بَيْنَ الْأَيْمَنِ مَعَكُمْ وَاللَّهُ بِتَقْدِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلِيمٌ أَنْ لَنْ يَخْشَوْهُ قَاتِبٌ عَلَيْكَ قَاتِعُومًا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِيمٌ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَهْطٌ وَمَاخِرُونَ بِضُرُوبٍ فِي

الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَا حَرُّونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَبُوا مَا يَشَاءُونَ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرِيبًا وَمَا تَقْتَرِبُونَ إِلَّا بِغَيْرِ حَسَبٍ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَأَسْتَفِرُّوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾

﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ يعني: آيات القرآن ﴿تَذَكِّرُ﴾ أي: تذكير وموعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَيْ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ بالإيمان والطاعة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَمْلِكُ أَنْ تَقُومَ أَدْنَى﴾ أي: أقل ﴿مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَيَضَعُ وَكَلْتَهُ﴾ وقرأ ابن كثير، وأهل الكوفة بفتح الفاء والثاء والباقون: بكسرهما.

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةً مِنَ الَّذِينَ مَكَتَ﴾ يعني: المؤمنين ﴿وَاللَّهُ يُضَيِّرُ الْبَلَّ وَالنَّهَارَ﴾ يعلم مقاديرهما، فيعلم القدر الذي تقومون^(١) به من الليل ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ وفيه قولان: أحدهما: لن تطيقوا قيام ثلثي الليل، ولا ثلث الليل، ولا نصف الليل، قاله مقاتل. والثاني: لن تحفظوا مواقيت الليل، قاله الفراء. ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عاد عليكم بالمغفرة والتخفيف ﴿فَأَقْرَبُوا مَا يَشَاءُونَ﴾ عليكم ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ يعني: في الصلاة، من غير أن يوقت وقتاً. وقال الحسن: هو ما يقرأ في صلاة المغرب والعشاء. ثم ذكر أعضائهم فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُونٌ﴾ فلا يطيقون قيام الليل ﴿وَمَا حَرُّونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وهم المسافرون للتجارة: ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: من رزقه فلا يطيقون قيام الليل ﴿وَمَا حَرُّونَ يَضْرِبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المجاهدون فلا يطيقون قيام الليل ﴿فَأَقْرَبُوا مَا يَشَاءُونَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ وذكروا أن هذا نسخ عن المسلمين بالصلوات الخمس، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: الصلوات الخمس في أوقاتها^(٢) ﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرِيبًا حَسْبًا﴾ وقد سبق بيانه [الحديد: ١٨]. قال ابن عباس: يريد سوى الزكاة في صلة الرحم، وقرى الضيف، ﴿وَمَا تَقْتَرِبُونَ إِلَّا بِغَيْرِ حَسَبٍ هُوَ﴾ أي: تجدوا ثوابه في الآخرة. ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ قال أبو عبيدة: المعنى: تجدوه خيراً. قال الزجاج: ودخلت (هو) فضلاً. وقال المفسرون: ومعنى «خيراً» أي: أفضل مما أعطيتكم ﴿وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ من الذي تؤخرونه إلى وقت الوصية عند الموت^(٣).



(١) في الأصل: تقوموا.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرِيبًا﴾ أي: أقربوا صلواتكم الواجبة عليكم، وأتوا الزكاة المفروضة، قال: وهذا يدل لمن قال: إن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النُصَب والمخْرَج لم يُبَيِّنْ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ، والله أعلم. قال: وقد قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والنَّحْسَن، وقتادة، وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل، واختلفا في المدة التي بينهما على أقوال، وقد ثبت في «الصحاحين» أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل الذي سأله: ماذا فرض الله عليه من الصلوات؟ قال: «خمس صلوات في اليوم واللييلة» قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع».

(٣) قال ابن جرير الطبري في تلمة الآية من آخر السورة ﴿وَأَسْتَفِرُّوا اللَّهَ﴾ يقول تعالى ذكره: سلوا الله غفران ذنوبكم، يصفح لكم عنها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول: إن الله ذو مغفرة للذنوب من تاب من عباده من ذنوبه، وذو رحمة إن يعاقبهم عليها من بعد توبتهم منها.

سورة المدثر

وهي مكية بإجماعهم

وقال مقاتل: فيها من المدني آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ [المدثر: ٣١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ ﴿٣﴾ وَبِالْبَيْتِ كَلِّفْنَا ﴿٤﴾ وَالرُّجُزَ فَاهْبِطْ ﴿٥﴾ وَلَا تَنْسِنَا تَنْكِحُوا ﴿٦﴾ وَرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتَ وَجْهًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتَ لَهُ مَا لَا مَنَدَ لَهُ ﴿١٢﴾ وَيَتَيْنَ شُهُورًا ﴿١٣﴾ وَمَهْدَتْ لَهُ صَمِيمًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَلْمَعُ أَنْ أُرِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِنْتِنَا عَنِينًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهَقُهُ صِمُومًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ نَكَرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَبُئِيَ كَيْفَ تَقَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا بَحْرُ مُؤْتَرٍ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُخْبِرُهُ سَعْرًا ﴿٢٦﴾ وَمَا أَنْزَلَهُ مَا سَعَّرَ ﴿٢٧﴾ لَا يَتَّبِعِي وَلَا تَنْذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوْ كُنَّا لِلشَّرِّ لَنَسْتَرِيحَ ﴿٢٩﴾ أَوْفُوا الْكِتَابَ وَرِزْقًا لِلَّذِينَ أَوْفُوا الْكِتَابَ وَالَّذِينَ هُمْ فِي قُلُوبِهِمْ تَرَضٍ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِمَّا آتَاكُمْ اللَّهُ بِهَا سَعْرًا ﴿٣١﴾ هَذَا سَعْرًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ كِتَابٌ مِنْهُ وَمَا هُوَ بِمَنْزِلِ جُودٍ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَكُنْ إِلَّا ذِكْرًا لِلنَّاسِ ﴿٣٢﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٤﴾ وَالشُّجْرِ إِذَا أَسْرَعَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَأْتِيهِ الْكُوفِرُ ﴿٣٦﴾ نَذِيرًا لِلنَّاسِ ﴿٣٧﴾ لِيَنْتَهَرُوا أَنْ يَقَدَّمَ أَوْ يَنْتَهَرُوا ﴿٣٨﴾﴾

فأما سبب نزولها، فروى^(١) البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث جابر بن عبد الله قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء شهرًا، فلما قضيت جوارِي^(٢) نزلت فاستبطنت بطن الوادي^(٣)، فنوديت، فنظرت أمامي، وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فلم أرَ أحدًا، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو في الهواء (يعني: جبريل ﷺ) فاقبلت إلى خديجة، فقلت: ذُتروني ذُتروني»، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾ قال المفسرون: فلما رأى جبريل وقع مغشياً عليه، فلما أفاق دخل إلى خديجة، ودعا بماء فصبه عليه، وقال: ذُتروني، فذُتروه بقطيفة، فأتاه جبريل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وقرأ أبيُّ بن كعب، وأبو عمران، والأعمش «المدثر» بإظهار التاء. وقرأ أبو رجاء، وعكرمة، وابن يعمر «المدثر» بحذف التاء، وتخفيف الدال. قال اللغويون: وأصل «المدثر» المتدثر، فأدغمت التاء، كما ذكرنا في المترجم، وهذا في قول الجمهور من التدثير بالثياب. وقيل المعنى: يا أيها المدثر بالنبوة، وأثقالها. قال عكرمة: ذُترت هذا الأمر فقم به.

قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾ كفاً مكة العذاب إن لم يُوحِّدوا ﴿٣﴾ وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ ﴿٣﴾﴾ أي: عظمه عما يقول عبدة الأوثان. ﴿وَبِالْبَيْتِ كَلِّفْنَا ﴿٤﴾﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: لا تلبسها على معصية، ولا على غدر. قال غيلان بن سلمة الثقفي:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا تَنْوِبُ فَاجِرٍ

لَيْسَتْ وَلَا مِنْ عَذْرَةِ أَنْفَعِ^(٥)

روى هذا المعنى عكرة عن ابن عباس. والثاني: لا تكن ثيابك من مكسب غير طاهر، روي عن ابن عباس

(١) في الأصل: روى.

(٢) أي: مجاورتي واعتكافي.

(٣) أي: جبرت في باطنه.

(٤) رواه البخاري ٥٢٠/٨، ومسلم ١٤٤/١، وأحمد في «المستدرك» ٣٠٦/٣، والطبري ١٤٣/٢٩، والواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٣، وأورده السيوطي في «الدرر» ٦/٢٨٠ وزاد نسبة لطائلي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن الضريس، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن الأثير في «المصاحف» من جابر ﷺ.

(٥) البيت في «الطبري» ١٤٥/٢٩، و«القرطبي» ٦٢/١٩، و«البحر المحيط» ٣٧١/٨، و«ابن كثير» ٤٤١/٤، و«الدرر» ٣٨١/٦، وفتح «القدر» للشوكاني ٣١٥/٥ منسوباً إلى غيلان بن سلمة الثقفي، وهو في «اللسان»: نوب.

أيضاً. والثالث: طهر نفسك من الذنب، قاله مجاهد، وقادة. ويشهد له قول عترة:

فَشَكَّكَتْ بِالرُّمُوحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ لَبَسَ الْكِرِيمُ عَلَيَّ الْقَنَّا بِمُحَرَّمٍ^(١)
أي: نفسه، وهذا مذهب ابن قتيبة. قال: المعنى: طهر نفسك من الذنوب، فكنتى عن الجسم بالثياب، لأنها تشتمل عليه. قالت ليلي الأخيلية وذكَّرت إبلاً:

رَمَوْهَا بِأَنْسَابٍ خِفَافٍ فَلَا تَرَى لَهَا شَبَهًا إِلَّا النَّعَامَ الْمُنْقَرَا^(٢)
أي: ركبوها، فَرَمَوْهَا بأنفسهم. والعرب تقول للعفاف: إزار، لأن العفيف كأنه استتر لما عَفَتْ. والرابع: وَعَمَلَكَ فَأُضْلِعُ، قاله الضحاك. والخامس: خُلِقْتَ فَحَسِّنْ، قاله الحسن، والقرظي. والسادس: وَيَبَابِكَ فَفَقَصْرٌ وَشَمْرٌ، قاله طاووس. والسابع: قَلْبِكَ فَطَهَّرْ، قاله سعيد بن جبير. ويشهد له قول امرئ القيس:

فَلَانَ يَكُ قَدْ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ فَسَلِّ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ^(٣)
أي: قلبي من قلبك. والثامن: اغسل ثيابك بالماء، ونقها، قاله ابن سيرين، وابن زيد^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَالرَّجْزُ نَافِعٌ﴾^(٥) قرأ الحسن، وأبو جعفر، وشيبة، وعاصم إلا أبا بكر، ويعقوب، وابن محيصة، وابن السميع «والرَّجْزُ» بضم الراء. والباقون بكسرهما. ولم يختلفوا في غير هذا الموضع. قال الزجاج: ومعنى القراءتين واحد. وقال أبو علي: قراءة الحسن بالضم، وقال: هو اسم صنم. وقال قتادة: صنمان: إساف، ونائلة. ومن كسر، فالرَّجْزُ: العذاب. فالمعنى: ذو العذاب فاهجر. وفي معنى «الرجز» للمفسرين ستة أقوال: أحدها: أنه الأصنام، والأوثان، قاله ابن عباس. ومجاهد، وعكرمة، وقادة، والزهري، والسدي، وابن زيد. والثاني: أنه الإثم، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: الشرك، قاله ابن جبير، والضحاك. والرابع: الذنب، قاله الحسن. والخامس: العذاب، قاله ابن السائب. قال الزجاج: الرَّجْزُ في اللغة: العذاب. ومعنى الآية: اهجر ما يؤدي إلى عذاب الله. والسادس: الشيطان، قاله ابن كيسان^(٦). ﴿وَلَا تَمَنَّ تَنْكَرُ﴾^(٧) فيه أربعة أقوال: أحدها: لا تعط عطيةً تلتبس بها أفضل منها، قاله ابن عباس، وعكرمة، وقادة. قال المفسرون: معناه: أعط لربك وأرد به الله، فأذبه بأشرف الآداب. ومعنى «لا تمنن»: لا تعط شيئاً من مالك لتعطى أكثر منه، وهذا الأدب للنبي ﷺ خاصة، وليس على أحد من أمته إثم أن يهدي هدية يرجو بها ثواباً أكثر منها. والثاني: لا تمنن بعملك تستكثره على ربك، قاله الحسن. والثالث: لا تضعف عن الخير أن تستكثر منه، قاله مجاهد. والرابع: لا تمنن على الناس بالنبوة لتأخذ عليها منهم أجراً، قاله ابن زيد^(٨). ﴿وَرَبِّكَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لأجل ربك. والثاني: لثواب ربك. والثالث: لأمر ربك. والرابع: لوغيد ربك ﴿فَأَمِّرْ﴾ فيه قولان: أحدهما: على طاعته وفرائضه. والثاني: على الأذى والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا فِي مَتَلَابِهِمُ﴾^(٩) أي: نفخ في الصور. وهل هذه النفخة هي الأولى أو الثانية؟ فيه قولان، فذلك يرمز يوم عيب^(١٠) أي: يعسر الأمر فيه ﴿عَلَى الْكَاذِبِينَ عَيْبٌ لَّيْسَ لَهُمْ شَرَفٌ فِي مَتَلَابِهِمُ﴾^(١١) قد شرحناه في [المزمّل: ١١] وَمَنْ خَلَقْتَ أَي: ومن خلقته ﴿وَجِدًا﴾ فيه قولان: أحدهما: خلقته وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد، قاله

(١) «ديوانه» ١٢٥، و«شرح القصائد العشر» ١٨٤، و«أمالي المرتضى» ٦٤/٢، و«مختار الشعر الجاهلي» ٣٧٧/١.

(٢) هو في «المعاني الكبير» ٤٨٦/١، و«الصناعتين» ٢٧٧، و«الفاثق» ٢٨/١، و«اللسان»: ثوب، غير منسوب. قال ابن قتيبة: يعني بأجسام خفاف، يريد: ركبوها.

(٣) «ديوانه» ١٣ وروايته فيه: وإن كنت قد ساءت مني خليفة... الخ.

(٤) واختار هذا الأخير ابن جرير الطبري قال: قال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر ويظهر ثيابه. وقال ابن كثير: وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب.

(٥) قال ابن كثير: وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبيسه ﷺ بشيء من ذلك. كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا فِي مَتَلَابِهِمُ﴾، ﴿وَقَالَ مَرَسٌ لَأُجِيبَهُ مَشْرِكٌ لَنْظُنِّي فِي قَبْرِي وَأَسْلِحْ وَلَا تَنْجُ سَيْدَ الْمَشْرُوبِ﴾.

(٦) قال ابن جرير الطبري: وأولى هذه الأقوال عندني بالصواب قول من قال، معنى ذلك: ولا تمنن على ربك من أن تستكثر عملك الصالح، قال: وإنما قلت: ذلك أولى بالصواب، لأن ذلك في سياق آيات تقدم فيها أمر الله نبيه ﷺ بالجهد في الدعاء إليه، والصبر على ما يلقي من الأذى فيه، قال: فهذه بأن تكون من أنواع تلك أشبه منها بأن تكون من غيرها.

مجاهد. والثاني: خلقتة وحدي لم يُشركني في خلقه أحد، قاله الزجاج. قال ابن عباس: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكانه رَقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فاتاه، فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما يقوله، فقال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً. قال: فقل في قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، فوالله ما يشبهها الذي يقول، والله إن لقوله حلاوة، وإن عليه طلاوة، وإنه لثمر أعلاه، مندرج أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلَى. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه. فقال: هذا سحر يؤثر: يآثره عن غيره، فنزلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِداً ۝...﴾ الآيات كلها^(١). وقال مجاهد: قال الوليد لقريش: إن لي إليكم حاجة فاجتمعوا في دار الندوة، فقال: إنكم ذروا أحساب وأحلام، وإن العرب يأتونكم، وينطلقون من عندهم على أمر مختلف، فاجتمعوا على شيء واحد. ما تقولون في هذا الرجل؟ قالوا: نقول: إنه شاعر، فعبس عندها، وقال: قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر. فقالوا: نقول: إنه كاهن، قال: إذن يأتونه فلا يجدونه يحدث بما يحدث به الكهنة، قالوا: نقول: إنه مجنون، قال: إذن يأتونه فلا يجدونه مجنوناً. فقالوا: نقول: إنه ساحر. قال: وما الساحر؟ قالوا: بشر يحببون بين المتباغضين، ويبغضون بين المتحابين، قال: فهو ساحر، فخرجوا لا يلتقى أحد منهم النبي إلا قال: يا ساحر، فاشتد ذلك عليه، فأنزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ۖ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَى﴾^(٢) وذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِداً ۝ منسوخ بآية السيف، ولا يصح.

قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا لِمَالَا مَسَدُوا﴾^(٣) في معنى الممدود ثلاثة أقوال: أحدها: كثيراً، قاله أبو عبيدة. والثاني: دائماً، قاله ابن قتيبة. والثالث: غير منقطع، قاله الزجاج. وللمفسرين في مقدره أربعة أقوال: أحدها: غلَّة شهر بشهر، قاله عمر بن الخطاب. والثاني: ألف دينار، قاله ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير. قال الفراء: نرى أن الممدود مجمل غاية للعدد، لأن «الف» غاية للعدد يرجع في أول العدد من الألف. والثالث: أربعة آلاف، قاله قتادة. والرابع: أنه بستان كان له بالطائف لا ينقطع خيره شيئاً ولا صيفاً، قاله مقاتل^(٤).

قوله تعالى: ﴿رَبِّينَ شُوبَا﴾^(٥) أي: حضوراً معه لا يحتاجون إلى التصرف والسفر فيغيثوا عنه. وفي عددهم أربعة أقوال: أحدها: عشرة، قاله مجاهد، وقاتة. والثاني: ثلاثة عشر، قاله ابن جبير. والثالث: إثنا عشر، قاله السليبي. والرابع: سبعة، قاله مقاتل. ﴿وَمَدَدْتُ لِمَ مَوْجِدَا﴾^(٦) أي: بسطت له العيش، وطول العمر، ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾^(٧) فيه قولان: أحدهما: يطمع أن أدخله الجنة، قاله الحسن. والثاني: أن أزيد من المال والولد، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾^(٨) أي: لا أفعل، فمنعه الله المالَ والولدَ حتى مات فقيراً، ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينَا﴾^(٩) أي: معانداً. وفي المراد بالآيات هنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن، قاله ابن جبير. والثاني: الحق، قاله مجاهد. والثالث: رسول الله ﷺ، قاله السليبي.

قوله تعالى: ﴿سَأُفِيئُهُ صَعُودًا﴾^(١٠) قال الزجاج: سأحمله على مشقة من العذاب. وقال غيره: سأكلّفه مشقة من العذاب لا راحة له منها. وقال ابن قتيبة: «الصَّعُود»: العقبة الشاقة، وكذلك «الكؤود». وفي حديث أبي سعيد عن نبي الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَأُفِيئُهُ صَعُودًا﴾^(١١) قال: قال جبل من نار يكلف أن يصعده، فإذا وضع رجله عليها ذابت، فإذا رفعها عادت. يصعد سبعين خريفاً، ثم يهوي فيه كذلك أبداً^(١٢). وذكر ابن السائب أنه جبل من صخرة ملساء في

(١) رواه بهذا اللفظ الواحد في «أسباب النزول» ٣٣٠ من رواية عبد الرزاق عن معمر عن أيوب السخيتي عن عكرمة عن ابن عباس، وسنده صحيح. ورواه الحاكم به وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري، ولم يخرجاه. ورواه الطبري من رواية معمر عن عباد بن منصور عن عكرمة. ورواه أيضاً الطبري بنحوه من رواية عطية العوفي عن ابن عباس. قال ابن كثير: وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد نحوه من هذا.

(٢) ذكره بنحوه وبأخصر منه الواحد في «أسباب النزول» ٣٣٠ من مجاهد بغير سند.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله: ﴿وَبَعَثْنَا لِمَالَا مَسَدُوا﴾ وهو الكثير الممدود عدده أو مساحته.

(٤) هذا الحديث ذكره المؤلف ملفقاً من حديثين، الأول رواه ابن جرير الطبري من رواية شريك بن عبد الله بن أبي شريك النخعي عن عمارة بن القعقاع عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري، ورواه ابن أبي حاتم من رواية شريك بن عمار الدعيني عن عطية به، بلفظ ﴿سَأُفِيئُهُ صَعُودًا﴾^(١٠) قال: هو جبل =

النار، يكلف أن يصعدهما حتى إذا بلغ أعلاها أحدر إلى أسفلها، ثم يكلف أن يصعدهما، فذلك ذابها أبداً، يجذب من إمامه سلاسل الحديد، ويضرب من خلفه بمقامع الحديد، فيصعدهما في أربعين سنة.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَسَّكَ أَي: تفكر ماذا يقول في القرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ القول في نفسه ﴿ثَقِيلًا﴾ أي: لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ثم قيل كيف نكَّسك أي: لعن على أي حال قَدَّرَ ما قَدَّرَ من الكلام. وقيل: «كيف» هاهنا بمعنى التعجب والإنكار والتوبيخ. وإنما كرر تأكيداً ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ في طلب ما يدفع به القرآن، ويردُّه ﴿ثُمَّ عَسَّ وَبَسَّ﴾ قال اللغويون: أي: كره وجهه وقلَّب. يقال: بسر الرجل وجهه، أي: قبضه. وأنشدوا لقوته:

وَقَدَّرَ رَبِّي مِنْهَا ضُدُودَ رَأْيَيْهِ
وَإِعْرَاضَهَا عَنْ حَاجَتِي وَيُسُورَهَا^(١)

قال المفسرون: كره وجهه، ونظر بكراهية شديدة، كالمهتَم المتفكر في الشيء ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان ﴿وَأَسْكَبَ﴾ أي: تكبر حين دعي إليه ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا﴾ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّا بَيِّنَاتٌ﴾ أي: يروى عن السحرة ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلَ الْبَشَرِ﴾ أي: من كلام الإنس، وليس من كلام الله تعالى، فقال الله تعالى: ﴿سَأُصَلِّيهُ سَمَرًا﴾ أي: سأدخله النار. وقد ذكر «سمر» في سورة القمر: [٤٨] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَمَرٌ﴾ لِعِظَمِ شَأْنِهَا ﴿لَا يَبْقَى وَلَا تَدْرُ﴾ أي: لا تبقَى لهم لحماً إلا أكلته، ولا تدرهم إذا أعيدوا خلقاً جديداً ﴿لَرَأَيْتَهُ﴾ أي: مغيرة. يقال: لأتته الشمس، أي: غيرته. وأنشدوا:

يَا ابْنَتُ عَنِّي لِأَخْنِي الْهَوَاجِرِ^(٢)

وقرأ ابن مسعود، وابن السميع، وابن أبي عبله «لِوَأَحَّةٍ» بالصب. وفي «البشَر» قولان: أحدهما: أنه جمع بشرة، وهي جلدة الإنسان الظاهرة، وهذا قول مجاهد، والفراء، والزجاج. والثاني: أنهم الإنس من أهل النار، قاله الأخفش، وابن قتيبة في آخره.

قوله تعالى: ﴿عَلِيًّا يَمَعَهُ عَشْرٌ﴾ وهم خزائنها، مالك ومعه ثمانية عشر، أعينهم كالبرق الخاطف، وأنبياهم كالصياصي يخرج لهب النار من أفواههم، ما بين منكبَي أحدهم مسيرة سنة، يسع كفت أحدهم مثل ربيعة ومضر. قد نزعَتْ منهم الرحمة. فلما نزلت هذه الآية قال أبو جهل: يخوفكم محمد بتسعة عشر، أما له من الجنود إلا هؤلاء! أيعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد منهم، ثم يخرجون من النار! فقال أبو الأشدِين^(٣) - قال مقاتل: اسمه: أسيد بن كلد. وقال غيره: كلد بن خلف الجمحي - يا معشر قريش: أنا أمشي بين أيديكم فأرفع عشرة بمنكبَي الأيمن، وتسعة بمنكبَي الأيسر، فندخل الجنة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا حَبَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَكَةً﴾ لا آدميين، فمن يطيقهم ومن يغلبهم؟! ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ﴾ في هذه القلَّة ﴿إِلَّا يَشْتَةً﴾ أي: ضلالة ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حتى قالوا ما قالوا ﴿يَسْتَبِينَ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكُتُبَ﴾ أن ما جاء به محمد حق، لأن عَدَتَهُمْ في التوراة تسعة عشر ﴿وَيَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من أهل الكتاب ﴿إِيمَانًا﴾ أي: تصديقاً بمحمد ﷺ إذ وجدوا ما يخبرهم موافقاً لما في كتابهم ﴿وَلَا يُزَادُ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكُتُبَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ولا يشك هؤلاء في عَدَدِهِ الْخَزَوَةَ ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمَرٌ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه النفاق، ذكره الأكثرون. والثاني: أنه الشك، قاله مقاتل. وزعم أنهم يهود أهل المدينة، وعنده أن هذه الآية مدنية. والثالث: أنه الخلاف، قاله الحسين بن الفضل. وقال: لم يكن بيعة نفاق. وهذه مكية. فأما «الكافرون» فهم مشركو العرب، ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ﴾ أي: أي شيء أراد الله

من نار يكلف أن يصعد، فإذا وضع يده ذابت، وإذا وضع رجله ذابت، وإذا رفعها عادت. وعلية العوفي ضعيف. والحديث الثاني رواه أحمد من حديث ابن لبيبة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري، والطبري عن عمرو بن الحارث عن دراج به، بلفظ «الضُّعُود: جبل من نار، يصعد فيه الكافر سبعين جريفاً، ثم يهوي به كذلك منه أبداً» ودراج عن شيخه أبي الهيثم ضعيفان. وقال ابن كثير بعدما ذكر حديث أحمد والطبري (وهو الرواية الثانية): وفيه غرابة ونكارة.

(١) البيت لقوية بن الحُمَيْرِ، وهو في «مجاز القرآن» ٢/٢٧٥، و«الأغانِي» ١٠/٢٧٢، و«الطبري» ٢٩/١٥٦، و«القرطبي» ١٩/٧٤.

(٢) هو في «مجاز القرآن» ٢/٢٧٥، و«القرطبي» ١٩/٧٦، و«الألوسي» ٢٩/٢٢٥.

(٣) كذا الأصل: «أبو الأشدِين»، وهو كذلك في بعض كتب التفسير، وفي النسخة الاستنبالية: أبو الأشدِين، والذي في «القرطبي»، و«البحر»، و«روح المعاني»: أبو الأشد أسيد بن كلد الجمحي. وكان شديد البأس، وذكروا أنه كان يسطر له الأديم العكاظي فيقوم عليه ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فلا ينزع إلا قطعاً، ويبقى موضع قطعته، وكان من أعداء النبي ﷺ.

﴿يَهْدِي﴾ الحديث والخير ﴿مَكَلًا﴾ والمثل يكون بمعنى الحديث نفسه. معنى الكلام: يقولون: ما هذا من الحديث ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما أضلُّ من أنكر عَدَدَ الْحَزَنَةِ، وهدي من صدق ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وأنزل في قول أبي جهل: أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر: ﴿وَمَا يَكْفُرُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار. وذلك أن لكل واحد من هؤلاء التسعة عشر من الأعوان ما لا يعلمه إلا الله. وذكر الماوردي في وجه الحكمة في كونهم تسعة عشر قولاً محتملاً، فقال: التسعة عشر: عدد يجمع أكثر القليل، وأقل الكثير، لأن الأحاد أقل الأعداد، وأكثرها تسعة، وما سوى الأحاد كثير. وأقل الكثير: عشرة، فوقع الاختصار على عدد يجمع أقل الكثير، وأكثر القليل. ثم رجع إلى ذكر النار فقال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: ما النار في الدنيا إلا مذكِّرة لنار الآخرة ﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً ﴿وَالْقَمَرِ﴾ والآيات إذ أدبر؟ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «إذا أدبر» وقرأ نافع، وحزمة، وحفص، والفضل عن عاصم، ويعقوب «إذا بسكون الدال من غير ألف بعدها «أدبر» بسكون الدال، وبهمزة قبلها. وهل معنى القراءتين واحد، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنهما لغتان بمعنى واحد. يقال: دبر الليل، وأدبر. ودبر الصيف وأدبر، هذا قول الفراء، والأخفش، وتعلب. والثاني: أن «دبر» بمعنى خلف، و«أدبر» بمعنى ولى. يقال: دبرني فلان: جاء خلفي، وإلى هذا المعنى ذهب أبو عبيدة وابن قتيبة^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَرْنَا﴾ أي: أضاء وتبين ﴿إِنهَا﴾ يعني: سفر ﴿لِيَهْدِيَ الْكَلْبَ﴾ قال ابن قتيبة: الكُبر، جمع كبرى، مثل الأول، والأولى، والصُّغْرُ والصُّغْرَى. وهذا كما يقال: إنها لإحدى العظام. قال الحسن: والله ما أنذر الله بشيء أوهى منها. وقال ابن السائب، ومقاتل: أراد بالكُبر: دركات جهنم السبعة.

قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِّبَشَرٍ﴾ قال الزجاج: نصب «نذيراً» على الحال. والمعنى: إنه لكبيرة في حال الإنذار. وذكر «النذير»، لأن معناه معنى العذاب. ويجوز أن يكون «نذيراً» منصوباً متعلقاً بأول السورة، على معنى: قم نذيراً للبشر.

قوله تعالى: ﴿لِيَنْ شَأَ يَنْكُرَ﴾ بدل من قوله تعالى: «للبشر»، ﴿أَنْ يَتَّقُوا أَوْ يَتَّقُوا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن يتقدم في طاعة الله أو يتأخر عن معصيته، قاله ابن جريج. والثاني: أن يتقدم إلى النار، أو يتأخر عن الجنة، قاله السدي. والثالث: أن يتقدم في الخير، أو يتأخر إلى الشر، قاله يحيى بن سلام. والرابع: أن يتقدم في الإيمان، أو يتأخر عنه. والمعنى: أن الإنذار قد حصل لكل أحد ممن أقر أو كفر.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ﴾ ﴿إِلَّا أَحْسَبَ آلِيْنَ﴾ ﴿فِي جَنَّتِ يَسَاءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ النَّبِيِّينَ﴾ ﴿مَا سَأَلُكَ فِي سَفَرٍ﴾ ﴿قَالُوا لَرَبِّكَ مِنَ الْمُسَلِّينَ﴾ ﴿وَلَرَبُّكَ تَعْلِيمُ إِلَهِيْنَ﴾ ﴿وَكُنَّا نَحْنُ مَعَ الْفَالِيِّينَ﴾ ﴿وَكُنَّا نَكُودُ بِرُؤْيُ الْوَيْدِ﴾ ﴿حَتَّىٰ آتَانَا الْوَيْدَ﴾ ﴿فَمَا نَعْمُهُمْ﴾ ﴿شَفَعَةُ الشَّيْبِيِّينَ﴾ ﴿فَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ التَّوَكُّرِ مُرْمِيْنَ﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَبِيرَةٌ﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَمٍ﴾ ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنثَرَةً﴾ ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ تَرَكُوهُ﴾ ﴿فَمَنْ سَاءَ ذَكَرَهُ﴾ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُرْآنِ وَاهْلُ الْمَثُورِ﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: كل نفس بالغو مرتبهة بعملها لتحاسب عليه ﴿إِلَّا أَحْسَبَ آلِيْنَ﴾ وهم أطفال المسلمين، فإنه لا حساب عليهم، لأنه لا ذنوب لهم، قاله علي، واختاره الفراء. والثاني: كل نفس من أهل النار مرتبهة في النار، إلا أصحاب اليمين، وهم المؤمنون، فإنهم في الجنة، قاله الضحاك. والثالث: كل نفس مرتبهة بعملها لتحاسب عليه إلا أصحاب اليمين، فإنهم لا يحاسبون، قاله ابن جريج.

قوله تعالى: ﴿يَسَاءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ النَّبِيِّينَ﴾ قال مقاتل: إذا خرج أهل التوحيد من النار قال المؤمنون لمن بقي في النار: ﴿مَا سَأَلُكَ فِي سَفَرٍ﴾؟ قال المفسرون: سلككم بمعنى: أدخلكم. وقال مقاتل: ما حبسكم فيها؟ ﴿قَالُوا لَرَبِّكَ مِنَ الْمُسَلِّينَ﴾ ﴿لَرَبِّكَ تَعْلِيمُ إِلَهِيْنَ﴾ ﴿وَكُنَّا نَحْنُ مَعَ الْفَالِيِّينَ﴾ ﴿فَمَا نَعْمُهُمْ﴾

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا أنها قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فبأيهما قرأ القارئ فصيب.

الباطل والتكذيب ﴿رَكَابًا نَكِيبًا يَوْمَ الْآيَاتِ﴾ (١) أي: يوم الجزاء والحساب ﴿حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينُ﴾ (٢) وهو الموت. يقول الله تعالى: ﴿فَمَا تَعْمَهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (٣) وهذا إنما جرى بعد شفاعة الأنبياء والملائكة والشهداء والمؤمنين. وهذا يدل على نفع الشفاعة لمن آمن. ﴿فَمَا لَكُمْ مِنَ الْذِكْرِ مُرْسِينَ﴾ (٤)؟ يعني: كفار قريش حين نفروا من القرآن والتكبير بمواعظه. والمعنى: لا شيء لهم في الآخرة إذ أعرضوا عن القرآن فلم يؤمنوا به، ثم شبههم في نفورهم عنه بالحُمُر، فقال تعالى: ﴿كَانَتْهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَفِرَّةٌ﴾ (٥) قرأ أبو جعفر، ونافع، وابن عامر، والمفضل عن عاصم بفتح الفاء. والباقون بكسرهما. قال أبو عبيدة، وابن قتيبة: من قرأ بفتح الفاء أراد: مذعورة، استنفرت فنفرت. ومن قرأ بكسر الفاء أراد: نافرة. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: حُمُرٌ مُّسْتَفِرَّةٌ. وناس من العرب يكسرون الفاء. والفتح أكثر في كلام العرب. وقراءتنا بالكسر. أنشدني الكسائي:

إخْبِسْ جِمَارَكَ إِنَّهُ مُسْتَشْفِرُ
فِي إِثْرِ أَحْمِرَةِ عَمَدَنْ لِيُغْرِبَ (١)

و«غرب» موضع. وفي «القسورة» سبعة أقوال: أحدها: أنه الأسد، رواه يوسف بن مهرا عن ابن عباس. وبه قال أبو هريرة، وزيد بن أسلم، وابنه. قال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هزبت منه، فكذلك هؤلاء المشركون إذا سمعوا النبي ﷺ هربوا منه، وإلى هذا ذهب أبو عبيدة، والزجاج. قال ابن قتيبة: كأنه من التَّسْرِ والتَّهْرِ. فالأسد يقهر السباع. والثاني: أن القسورة: الرماة، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال أبو موسى الأشعري، ومجاهد، وقادة، والضحاك، ومقاتل، وابن كيسان. والثالث: أن القسورة: جبال الصيادين، رواه عكرمة عن ابن عباس. والرابع: أنهم عُصَبُ الرُّجَالِ، رواه أبو حمزة عن ابن عباس. واسم أبي حمزة: نصر بن عمران الضبيعي. والخامس: أنه رَجَزُ النَّاسِ، وهذا في رواية عطاء أيضاً عن ابن عباس. ورجز الناس: جِسْمُهُمْ وأصواتهم. والسادس: أنه الظُّلْمَةُ والليل، قاله عكرمة. والسابع: أنه التَّبَلُّ، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ آتِيهِمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّثَنَّنَةً﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قالوا للنبي ﷺ: إن سَرَكَ أَنْ تَنْشِئَكَ، فليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله تعالى إلى فلان ابن فلان يؤمر فيه بأباعتك، قاله الجمهور. والثاني: أنهم أرادوا براءة من النار أن لا يعدبوا بها، قاله أبو صالح. والثالث: أنهم قالوا: كان الرجل إذا أذنب في بني إسرائيل وجده مكتوباً إذا أصبح في رُقعة. فما بالنا لا نرى ذلك؟ فنزلت هذه الآية، قاله الفراء. فقال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يؤتون الصُّحُفَ ﴿كَلَّا لَا يَتَأْتُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي: لا يَحْشُونَ عَذَابَهَا. والمعنى: أنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات بعد قيام الدلالة ﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً. وقيل: معنى ﴿كَلَّا﴾: ليس الأمر كما يريدون ويقولون ﴿إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ أي: تذكير وموعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ الهاء عائدة على القرآن، فالمعنى: فمن شاء أن يذكر القرآن ويتعظ به ويفهمه، ذكره. ثم رد المشيئة إلى نفسه فقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا أن يريد لهم الهدى ﴿هُوَ أَهْلُ الْقُرْآنِ﴾ أي: أهل أن يتقوا ﴿وَأَقْلُ الْغَفُورِ﴾ أي: أهل أن يخفوا لمن تاب. روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه تلا هذه الآية، فقال: «قال ربكم ﷻ: أنا أهل أن أتقى، فلا يشرك بي غيري. وأنا أهل لمن أتقى أن يشرك بي غيري أن أضفر له» (٢).



(١) البيت في «اللسان»: نفر، منسوباً لابن الأعرابي، وأوله «اربط حمارك» بدل «اجيس» وهو في «الطبري» ١٦٨/٢٩ غير منسوب، و«القرطبي» ٨٧/١٩ وأوله فيهما «اسك حمارك» بدل «اجيس». و«غريب» كسج: اسم موضع وجبل دون الشام في بلاد بني كلب.

(٢) رواه أحمد في «المسند»، والترمذي ١٦٨/٢، و«الحاكم» ٥٠٨/٢، وابن ماجه، والدارمي، والطبراني في «الأوسط»، وابن عدي، وأبو يعلى، والبخاري، وكلهم من رواية سهيل بن أبي حزم القطعي عن ثابت بن أنس، وهو ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب». قال الترمذي: حديث حسن غريب، وسهيل ليس بالقوي في الحديث، وقد تفرّد سهيل بهذا الحديث عن ثابت. قال الحافظ ابن حجر في «تخریج الكشاف» ١٨٠: ورواه الحكيم الترمذي في السبع والسبعين بعد المائة بلفظ: «قال: هو أهل أن يتقى، فمن اتقى فهو أهل أن يفقر له» وله شاهد من رواية عبد الله قال: سمعت ثلاثة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ أبا هريرة، وابن عمر، وابن عباس يقولون: مثل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى... فذكره.

سورة القيامة

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَدْرِي أَيُّ يَوْمٍ آتِيَةٌ﴾ ١ وَلَا أَدْرِي أَيُّ نَفْسٍ الْوَارِثَةُ ٢ ائْتَسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ٣ بَلْ قَدِيرٌ عَلَيْهِ أَنْ سُئِيَ بِنَاتِهِ ٤ بَلْ يَرِيهِ الْإِنْسَانُ لِيَجْعَلَ لِمِائِهِ ٥ يَنْتَظِرُ أَنَّهُ يَوْمَ الْبَيْتَةِ ٦ إِنَّا بِرَأْفَةِ الْبَصَرِ ٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ٨ وَجَمَّعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ٩ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَطَرُ ١٠ كَلَّا لَا دُونَهُ ١١ إِنَّ رَبَّهُ يَوْمَئِذٍ لَلشَّكْرُ ١٢ يُبَيِّنُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ١٤ وَلَوْ أَلْفَ مَعَادِيرٍ ١٥

قوله تعالى: ﴿لَا أَدْرِي﴾ اتفقوا على أن المعنى «أقسم» واختلفوا في «لَا» فجعلها بعضهم زائدة، كقوله تعالى: ﴿لَيَلَّا يَمْلِكَنَّ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] وجعلها بعضهم رداً على منكري البعث. ويدل عليه أنه «أقسم» «على كون البعث. قال ابن قتيبة: زيدت «لَا» على نية الرد على المكذبين، كما تقول: لا والله ما ذاك، ولو حذفته جليز، ولكنه أبلغ في الرد، وقرأ ابن كثير إلا ابن فليح «لأقسم» بغير ألف بعد اللام، فجعلت لاهياً دخلت على «أقسم»، وهي قراءة ابن عباس. وأبي عبد الرحمن، والحسن، ومجاهد وعكرمة، ابن محيصة. قال الزجاج: من قرأ «لأقسم» فاللام لام القسم والتوكيد. وهذه القراءة بعيدة في العربية، لأن لام القسم لا تدخل على الفعل المستقبل إلا مع النون، تقول: لأضربن زيداً. ولا يجوز: لأضرب زيداً.

قوله تعالى: ﴿لَا أَدْرِي أَيُّ نَفْسٍ الْوَارِثَةُ﴾ قال الحسن: أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية. وقال قتادة: حكما حكم الأولى^(١). وفي «النفس الوارثة» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها المذمومة، قاله ابن عباس. فعلى هذا: هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم. والثاني: أنها النفس المؤمنة، قاله الحسن. قال: لا يُرَى المؤمن إلا يلوم نفسه على كل حال. والثالث: أنها جميع النفوس. قال الفراء: ليس من نفس برؤ ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملياً خيراً قال: هلا زدت. وإن كانت عملت سوءاً، قال: ليتني لم أفعل^(٢).

قوله تعالى: ﴿ائْتَسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ المراد بالإنسان هاهنا: الكافر. وقال ابن عباس: يريد أبا جهل. وقال مقاتل: عدي بن ربيعة، وذلك أنه قال: أيجمع الله هذه العظام؟ فقال النبي ﷺ له: «نعم»، فاستهزأ منه، فنزلت هذه الآية^(٣). قال ابن الأنباري: وجواب القسم محذوف، كأنه: لَتُبْعَثُنَّ، لَتُحَاسَبُنَّ، فدل قوله تعالى: ﴿ائْتَسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ على الجواب، فحذف^(٤).

قوله تعالى: ﴿بَلْ يَرِيهِ﴾ وقوف حسن. ثم يُبَيِّنُ «بَلْ قَدِيرٌ» على معنى: بلى نجعلها قادرين. ويصلح نصب «قادرين» على التكرير: بلى فليحسبنا قادرين^(٥) ﴿عَلَى أَنْ سُئِيَ بِنَاتِهِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً

(١) قال ابن كثير: والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً، كما قاله قتادة رحمه الله، وهو المراد عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، واختاره ابن جرير.

(٢) قال ابن جرير: وكل هذه الأقوال مقاربة المعنى، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتلوم على ما فات.

(٣) قال البغوي: نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة تحت الأحنس بن شريق الثقفي، وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اكفني جزاي سوء»، يعني عدياً والأحنس، وذلك أن عدي بن ربيعة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد حدثني عن القيامة متى تكون؟ وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال: لو هابت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أؤمن بك، أو يجمع الله العظام؟ أنزل الله ﷻ: ﴿ائْتَسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ يعني الكافر «أَلَّنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ» بعد التفريق والبلى فتحية قبل ذكر العظام، وذكره كذلك بغير سند القرطبي والخازن. والله أعلم. وفي «القرطبي» و«البحر المحيط»: وقيل: نزلت في أبي جهل.

(٤) قال ابن كثير: والمقسم عليه هاهنا، هو إثبات المعاد، والرد على ما يزعم الجاهل من عدم بعث الأجساد.

(٥) قال ابن كثير: والظاهر من الآية أن قوله تعالى: «قَدِيرٌ» حال من قوله تعالى: «يَجْمَعُ» أي أظن الإنسان أنا لا نجعل عظامه؟ ﴿بَلْ يَرِيهِ﴾ «قَدِيرٌ» على أن سُئِيَ بِنَاتِهِ، أي قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئت لبنتناه أزيد مما كان نجعل بناته وهي أطراف أصابعه مستوية.

واحداً كُخِّفَ البعير، وحافر الحمار، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللطيفة، كالكتابة والخياطة، هذا قول الجمهور. والثاني: نقدر على أن نسوي بنانه. كما كانت، وإن صغرت عظامها، ومن قدر على جمع صغار العظام، كان على جمع كبارها أقدر، هذا قول ابن قتيبة، والزجاج. وقد بينا معنى البنان في [الأنفال: ٤١٢].

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُبْذِرُ الْإِنْسَانَ تَجَرُّعًا مَاتَهُ﴾ (١) فيه قولان: أحدهما: يكذب بما أمامه من البعث والحساب، قاله ابن عباس. والثاني: يقدم الذنب ويؤخر التوبة، ويقول: سوف أتوب، قاله سعيد بن جبيرة. فعلى هذا: يكون المراد بالإنسان: المسلم. وعلى الأول: الكافر^(١).

قوله تعالى: ﴿يَسْتَلْ أَتَانَ وَمِ الْبَقِينَةَ﴾ (٢) أي: متى هو؟ تكذيباً به، وهذا هو الكافر ﴿وَإِنَّا بِرِقِّ الْبَصْرِ﴾ (٣) قرأ أهل المدينة، وأبان عن عاصم «بِرِّق» بفتح الراء، والباقون بكسرها. قال الفراء: العرب تقول: بَرِّقَ البصر بيزرق، وبِرِّقَ بيزرق: إذا رأى هولاً يفرغ منه. و «بِرِّق» أكثر وأجود^(٤)، قال الشاعر:

فَنَفْسِكَ فَسَانِعٌ وَلَا تَنْفَعَنِي
وَدَاوِ الْكُلُومَ وَلَا تَنْبَرِّقِي^(٥)

بالمفتح. يقول: لا تنزع من هول الجراح التي^(٦) بك. قال المفسرون: يشخص بصر الكافر يوم القيامة، فلا يظرف لما يرى من العجائب التي كان يكذب بها في الدنيا. وقال مجاهد: بريق البصر عند الموت.

قوله تعالى: ﴿وَكَسَفَ الْقَمَرَ﴾ (٧) قال أبو عبيدة: كَسَفَ وَخَسَفَ بمعنى واحد، أي: ذهب ضوءه.

قوله تعالى: ﴿رَمَحَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ﴾ (٨) إنما قال «جمع» لتذكير القمر، هذا قول أبي عبيدة. وقال الفراء: إنما لم يقل: جُمِعَتْ، لأن المعنى: جمع بينهما. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: جمع بين ذاتيهما. وقال ابن مسعود: جمعا كالبحيرين القرينين. وقال عطاء بن يسار: يُجْمَعَانِ ثُمَّ يُقَدَّقَانِ فِي الْبَحْرِ. وقيل: يُقَدَّقَانِ فِي النَّارِ. وقيل: يجمعان، فيطلعان من المغرب. والثاني: جمع بينهما في ذهاب نورهما، قاله الفراء، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ يعني: المكذَّب بيوم القيامة: ﴿إِنَّ الْمَرْءَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الميم، والمغاء، وقرأ ابن عباس، ومعاوية، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن، والحسن، وعكرمة، والضحاك، وابن يعمر، وابن أبي عبيدة: بكسر الميم. قال الزجاج: فمن فتح، فالمعنى: أين الفرار؟ ومن كسر، فالمعنى: أين مكان الفرار؟ تقول: جلست مجلساً بالمفتح، يعني: جلوساً. فإذا قلت: مجلساً بالكسر، فأنت تريد المكان.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا رَدَّ﴾ (٩) قال ابن قتيبة: لا ملجأ. وأصل الوزر: الجبل الذي يمتنع فيه ﴿إِلَّا رَبُّكَ يَوْمَئِذٍ تَتَنَبَّأُ﴾ (١٠) أي: المنتهى والمرجع. ﴿يَتَّبِعُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ يَمَّا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١١) فيه ستة أقوال: أحدها: بما قدَّم قبل موته، وما سَرَّ من شيء ففعل به بعد موته، قاله ابن مسعود، وابن عباس. والثاني: يَتَّبِعُ بِأَوَّلِ عَمَلِهِ وَأَخَّرَهُ. قاله مجاهد. والثالث: بما قدَّم من الشَّرِّ، وأخَّر من الخير، قاله عكرمة. والرابع: بما قدَّم من فرض، وأخَّر من فرض، قاله الضحاك. والخامس: بما قدَّم من معصية، وأخَّر من طاعة. والسادس: بما قدَّم من أمواله، وما خَلَّفَ للورثة، قاله زيد بن أسلم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَلَى الْإِنْسَانِ عَسَىٰ تَبِيرٌ﴾ (١٢) قال الفراء: المعنى: بل على الإنسان من نفسه بصيرة، أي: رقباء يشهدون عليه بعمله، وهي: الجوارح. قال ابن قتيبة: فلما كانت جوارحه منه، أقامها مقامه. وقال أبو عبيدة:

(١) قال ابن كثير: وروي عن عكرمة وسعيد بن جبيرة والضحاك والسدي وغير واحد من السلف: هو الذي يجعل الذنوب وسوق التوبة.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى القراءتين في ذلك عندنا بالصواب كسر الراء، ﴿وَإِنَّا بِرِقِّ﴾ بمعنى: فرغ نشق ونشق من هول القيامة وفرغ الموت، قال: وبذلك جاءت أشعار العرب.

(٣) البيت لطرفة بن العبد في «ديوانه» ٢١٨، وهو في «الطبري» ١٧٨/٢٩، و«القرطبي» ٩٤/١٩، و«اللسان»: بريق. وتبرق: تهتد. يقول طرفة لعناته: إذا نأقت نَفْسُكَ إِلَى السَّخْرِيَّةِ وَالْإِسْتِهْزَاءِ، فابعد عني واستهزئ بنفسك واحترقها، واحبس نفسك داخل لشداوي ما أصبتك به من جروح، ولياك وتهديد الأبطال مرة أخرى فلست منهم، ولا تقوى عليهم. وقبله بيت، وهو:

نَسَانِي حَسَانَةً طَوِيلَةً
تَسُفُّ بِسَبِيحٍ مِنَ السُّوَيْفِ

ومعنى نحاني: شبرني وحاوَل أن يسيء سمعتي، طويالة: نعمة، لقبه بذلك، وهي منصوبة على الترخيم. تسف: تأكل. اليبس: العثوق. نبات معروف. ومعنى الكلام: إن حنانه قد حاول أن يبيني ويشهر بي، فرحمة لك أيها النجعة التي ترعى يابس العشب وأرؤده.

(٤) في الأصل: الذي.

جاءت الهاء في «بصيرة» في صفة الذكر، كما جاءت في رجل «راوية»، و «طاغية»، و «علامة».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي السَّمَاوَاتِ مِثْرَةَ حَبِّ شَعِيرٍ عِندَ رَبِّهِمْ لَأَتَتْهُم بِالْحَبِّ حَبَابًا ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في المعاذير قولان: أحدهما: أنه جمع عذر، فالمعنى: لو اعتذر، وجادل عن نفسه، فعليه من يكذب عذره، وهي: الجوارح، وهذا قول الأكثرين. والثاني: أن المعاذير جمع معذار، وهو: الستور. والمعاذير: الستور. فالمعنى: ولو أرخى ستوره، هذا قول الضحاک، والسدي، والزجاج. فيخرج في معنى «القي» قولان: أحدهما: قال، ومنه «فَأَلْفَوْا لِیَهْمُ الْقَوْلُ» [النحل: ٣٦]، وهذا على القول الأول. والثاني: أرخى، وهذا على القول الثاني.

﴿لَا تُحْرِكُهُ بِهِ لِسَانُكَ لِتَسْجَلَ بِهِ﴾ (١١) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٢) ﴿إِذَا قَرَأْتَ فَالْتَمِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٣) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٤) ﴿لَا تَلْبِسُ الْقَالِجَةَ﴾ (١٥) ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ (١٦) ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ تَائِبُهُ﴾ (١٧) ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (١٨) ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ بِكِبْرِهِ﴾ (١٩) ﴿تَلْذُنْ أَنْ يُهْلِكَ بِهَا قَافِرَةٌ﴾ (٢٠)

قوله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكُهُ بِهِ لِسَانُكَ﴾ روى سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان يشد عليه جفظه، وكان إذا نزل عليه الوحي يُحرك لسانه وشفته قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، مخافة أن لا يحفظه، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١). ومعناها: لا تحرك بالقرآن لسانك لتعجل بأخذه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ قال ابن قتيبة: أي: ضمّه وجمعه في صدرك ﴿إِذَا قَرَأْتَ﴾ أي: جمعناه ﴿فَالْتَمِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: جمعه. قال المفسرون يعني: اقرأ إذا فرغ جبريل من قراءته. قال ابن عباس: فاتبع قنادة: قال جبريل: فاتبع حلاله وحرامه ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: نبينه بلسانك، فتقروه كما أقرأك جبريل. وكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب، قرأه كما وعده الله، قاله ابن عباس. والثاني: إن علينا أن نجزيه به يوم القيامة بما فيه من وعد ووعد، قاله الحسن. والثالث: إن علينا بيان ما فيه من الأحكام، والحلال، والحرام، قاله قنادة. والرابع: علينا أن ننزله قرآناً عربياً، فيه بيان للناس، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكُهُ بِهِ لِسَانُكَ﴾ قال عطاء: أي: لا يؤمن أبو جهل بالقرآن وبيانه، وقال ابن جرير: المعنى: ليس الأمر كما تقولون من أنكم لا تتعنون، ولكن دعاكم إلى قبل ذلك مَحَبَّتِكُمْ للعاجلة.

قوله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكُهُ الْقَالِجَةَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو «بل يحيون العاجلة ويذرون» بالياء فيها. وقرأ الباقون بالتاء فيها. المراد: كفار مكة، يحبونها ويعملون لها «ويذرون الآخرة» أي: يتركون العمل لها إيثاراً للدنيا عليها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ تَائِبُهُ﴾ أي: مشرقة بالنعيم ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ روى عطاء عن ابن عباس قال: إلى الله ناظرة. قال الحسن: حق لها أن تُنظر وهي تنظر إلى الخالق، وهذا مذهب عكرمة. وروية الله ﷻ حق لا شك فيها، والأحاديث فيها صحاح، قد ذكرت جملة منها في «المعني» و «الحدائق»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ بِكِبْرِهِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: عابسة مقطبة.

قوله تعالى: ﴿تَلْذُنْ﴾ قال الفراء: أي: تعلم، و «الفاقرة» الداهية. قال ابن قتيبة: إنه من فقرة الظهر، كأنها تكسره، يقال: فقرت الرجل: إذا كسرت فقاره، كما يقال: رأسه: إذا ضربت رأسه، ويظننه: إذا ضربت بظنه. قال ابن زيد: الفاقة: دخول النار. قال ابن السائب: هي أن تُحجَبَ عن ربها، فلا تنظر إليه.

﴿لَا إِذَا مَلَكَتِ السَّحَابُ﴾ (٢١) ﴿مَلِكٌ مِّنْ رَّبِّهِ﴾ (٢٢) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِشْرَةَ أَصْفَادٍ مِّمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٣) ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِمَا عَمِلْتُمْ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٤) ﴿فَلَا مَكْدُورٌ لَّكَ﴾ (٢٥) ﴿وَلَكِنَّ كَذَبَ تَوَلَّى﴾ (٢٦) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ يَنْتَقِلُ﴾ (٢٧) ﴿أَنْزَلَ لَكَ آيَاتٍ﴾ (٢٨) ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ لَكَ آيَاتٍ﴾ (٢٩) ﴿أَنْتُمْ أَعْيُنُ الْإِنْسَانِ أَنْ يَبْرُكَ مِنْكُمْ﴾ (٣٠)

(١) روله الإمام أحمد في «المسنن» من حديث سعيد بن جبیر عن ابن عباس، و«البخاري» ٣٢٥/٨، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٨٩/٦، وزاد نسبه للطيالسي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «المصاحف» والطيبراني، وابن مردويه، وأبي نعيم والبيهقي معاً في «الدلائل» عن ابن عباس ﷺ.

(٢) وقد ثبت رؤية المؤمنين لله ﷻ في النار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها، كحديث أبي سعيد وأبي هريرة، وهما في «الصححين» أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحب؟» قالوا: لا، قال: «إنكم ترون ربكم كذلك» وفي «الصححين» عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطمعت أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا».

أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ قُلُوبٌ بَيْنَ يَدَيْكُمْ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَتْ عَقَّةً فَمَلَأْكُمْ سَخَوٰنَ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ بَيْنَهُ الرِّجْسَيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ لِكُلِّ قَوْمٍ ﴿٤٠﴾ قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الزجاج: «كلا» ردع وتنبيه. المعنى: ارتدعوا عما يؤدي إلى العذاب. وقال غيره: معنى «كلا»: لا يؤمن الكافر بهذا.

قوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ يعني: النفس. وهذه كناية عن غير مذكور. و«التراقي» العظام المكتنفة للقرّة النحر عن يمين وشمال. وواحدة التراقي: ترقوة، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت، ﴿وَقِيلَ مَنْ لَكُلُّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه قول الملائكة بعضهم لبعض: من يرقى روحه، ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب؟ رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس، وبه قال أبو العالية ومقاتل. والثاني: أنه قول أهله: هل من راقٍ يزقيه بالرقى؟ وهو مروى عن ابن عباس أيضاً، وبه قال عكرمة، والضحاك، وأبو قلابة، وقتادة، وابن زيد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ﴾ أي: أيقن الذي بلغت روحه التراقي ﴿أَنَّهُ الرِّاقُ﴾ للدنيا ﴿وَاللَّيْلِ النَّسَاءُ﴾ ﴿وَالنَّسَاءُ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أمر الدنيا بأمر الآخرة، رواه الوالي عن ابن عباس: وبه قال مقاتل. والثاني: اجتمع فيه الحياة والموت، قاله الحسن. وعن مجاهد كالقولين. والثالث: التفت ساقاه في الكفن، قاله سعيد بن المسيب. والرابع: التفت ساقاه عند الموت، قاله الشعبي. والخامس: الشدة بالشدة، قاله قتادة. قال الزجاج: آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَيْبَكَ يَمْهَدِي لِأَنْسَاءٍ﴾ ﴿٤١﴾ أي: إلى الله المنتهى. ﴿فَلَا سَدَقَ لَهَا صَلَاً﴾ ﴿٤٢﴾ قال أبو عبيدة: «لا» هاهنا في موضع «لم». قال المفسرون: هو أبو جهل^(٢) ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ عن الإيمان: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَلِكُ﴾ ﴿٤٣﴾ أي: رجع إليهم يتبختر ويختال. قال الفراء: «يتمطى»، أي: يتبختر، لأن الظهر هو المَطَا، فيلوي ظهره متبخترًا. وقال ابن قتيبة: أصله يتمطط، فقلبت الطاء فيه ياءً، كما قيل: يتظنى، وأصله: يتظنن، ومنه المشية المُطِيطَاء. وأصل الطاء في هذا كله دال. إنما هو مد يده في المشي إذا تبختر. يقال: مَطَطْتُ وَمَدَدْتُ بمعنى.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ لَكَ قُلُوبٌ﴾ قل ابن قتيبة: هو تهديد ووعيد. وقال الزجاج: العرب تقول: أولى لفلان: إذا دعت عليه بالمكروه، ومعناه: وليك المكروه يا أبا جهل.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ يعني: أبا جهل ﴿بِرَبِّكَ سَعِي﴾ قال ابن قتيبة: أي: يهمل فلا يؤمر ولا ينهى ولا يعاقب، يقال: أسديت الشيء، أي: أهملته. ثم دل على البعث بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ قُلُوبٌ بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ ﴿٣٧﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة، الكسائي وأبو بكر عن عاصم: «تُمْنَى» بالياء. وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم، ويعقوب «يُمْنَى» بالياء. وعن أبي عمرو كالقراءتين. وقد شرحنا هذا في [النجم: ٢٤] ﴿ثُمَّ كَانَتْ عَقَّةً﴾ بعد النطفة ﴿فَمَلَأْكُمْ﴾ فيه الروح، وسوى خلقه ﴿فَجَعَلَ بَيْنَهُ﴾ أي: خلَقَ من مائه أولاداً ذكوراً وإناثاً. ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾ الذي فعل هذا ﴿بِقَدِيرٍ﴾؟ وقرأ أبو بكر الصديق، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري «يقدر» ﴿عَلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ المَوْتِ﴾؟ وهذا تقرير لهم، أي: إن من قَدَرَ على الابتداء قَدَرَ على الإعادة. قال ابن عباس: إذا قرأ أحدكم هذه الآية، فليقل: اللهم بلى^(٣).



(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة عندي قول من قال: معنى ذلك: والتفت ساق الدنيا بساق الآخرة، وذلك من شدة كرب الموت، بشدة هول المطلق.

(٢) والصحيح أنها عامة في أبي جهل وغيره.

(٣) ذكره ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً من حديث أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وأبو إسحاق السبيعي ثقة عابد لكنه اختلط بأخرة. ورواه أبو داود والترمذي مطولاً عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً وفي سننه أعرابي لم يسم، وعنه أخرجه أحمد ٢/٢٤٩، والترمذي ٢/٢٣٨ مختصراً وأعله بالأعرابي. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٢/٥١٠ وصححه ووافقه الذهبي، وفي سننه يزيد بن عياض، وهو متروك كما قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف». ورواه أبو داود رقم (٤٨٤) من رواية موسى بن أبي عائشة عن رجل سمعه من النبي ﷺ قال ابن كثير: تفرد به أبو داود، ولم يسم هذا الصحابي، ولا يضر ذلك.

سورة الدهر

سورة هل أتى: ويقال لها: سورة الإنسان

وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها مدنية كلها، قاله الجمهور منهم، مجاهد وقتادة. والثاني: مكية، قاله ابن يسار، ومقاتل، وحكي عن ابن عباس. والثالث: أن فيها مكياً ومدنياً. ثم في ذلك قولان: أحدهما: أن المكّي منها آية، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِغْ بِتَمَّتْ مِائِيهَا أَوْ كُفُورًا﴾ وبقاها جميعه مدني، قاله الحسن وعكرمة. والثاني: أن أولها مدني إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [الإنسان: ٢٤] ومن هذه الآية إلى آخرها مكّي، حكاه الماوردي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى﴾ قال الفراء: معناه: قد أتى. و«هل» تكون خبراً، وتكون جحداً، فهذا من الخبر، لأنك تقول: هل وعظمتك؟ هل أعطيتك؟ فنقرره بأنك قد فعلت ذلك. والجحد، أن تقول: وهل يقدر أحد هلّي مثل هذا؟ وهذا قول المفسرين، وأهل اللغة. وفي هذا الإنسان قولان: أحدهما: أنه آدم ﷺ. والحين الذي أتى عليه: أربعون سنة، وكان مصوراً من طين لم يُنْفَخ فيه الروح، هذا قول الجمهور. والثاني: أنه جميع الناس، روي عن ابن عباس، وابن جريج، فعلى هذا يكون الإنسان اسم جنس، ويكون الحين زمان كونه نطفة، وعلقة، ومضغة.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ المعنى: أنه كان شيئاً، غير أنه لم يكن مذكوراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني: ولد آدم ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ قال ابن قتيبة: أي: أخلاط. يقال: مشجته، فهو مشيج، يريد: اختلاط ماء المرأة بماء الرجل.

قوله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ قال الفراء: هذا مقدّم، ومعناه التأخير، لأن المعنى: خلقناه وجعلناه سمياً بصيراً لتبليّه. قال الزجاج: المعنى: جعلناه كذلك لتخبرته. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي: بيّنا له سبيل الهدى بنصب الأدلة، وبعث الرسول ﴿إِنَّا شَاكِرًا﴾ أي: خلقناه إما شاكراً ﴿وإِنَّا كَفُورًا﴾ قال الفراء: بيّنا له الطريق إن شكر، أو كفر (١).

﴿إِنَّا أَنْشَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلِيلًا وَأَعْلَاكَ وَسَعِيرًا ﴿١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَنْتَرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ رِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٢﴾ عِنَّا تَرْتِبُ يَا عِبَادِ اللَّهِ يَجْعَلُونَهَا تَمِيمًا ﴿٣﴾ يُؤْتُونَ بِالذَّهْرِ عِقَابُونَ وَإِنَّا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٤﴾ وَيَطْمَئِنُّونَ عَلَى الْكَلَمِ عَلَى حَيْدٍ يَسْكَنُ وَيَسَا وَأَسِيرًا ﴿٥﴾ إِنَّا نَلْمُكَ لَوِثَةً أَلَّا لَا تُرِيدُ بِشَرِّ جَرَّهَ وَلَا شَكُورًا ﴿٦﴾ إِنَّا نَحْنُ مِنْ رَبِّنَا إِنَّمَا عِشْرًا فَطُورًا ﴿٧﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذِيكَ الْقَوْرِ وَقَلَّبَهُمُ تَمَرَةً وَسُورًا ﴿٨﴾ وَجَعَلَهُمْ بِنَا صَبْرًا حَسْبَ وَحِيرًا ﴿٩﴾ تُشَكِّبُونَ بِنَا عَلَى الْأَرْكَانِ لَا يَرُونَ بِنَا سَمَسًا وَلَا زَهْرًا ﴿١٠﴾ وَدَايَةً عَلَيْهِمْ فَلَنَبَا وَأُولَئِكَ فَطَرْنَا تَرِيلاً ﴿١١﴾ وَطَلَّاهُمْ عَلَيْهِمْ كَأَيِّهِ مِنْ يَضَعُ وَأَكْوَابَ كَانَتْ قَوَائِرًا ﴿١٢﴾ قَوَائِرًا مِنْ يَضَعُ نَدْرَاهَا نَقِيرًا ﴿١٣﴾ وَشَقَقْنَا بِنَا كَأَسَا كَانَ رِزَاجُهَا رَعِيلاً ﴿١٤﴾ عِنَّا فِيهَا سَمٌّ سَلِيلًا ﴿١٥﴾ وَطَلَّاهُمْ عَلَيْهِمْ وَبَدَأَ مَخْلُودُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حِينَهُمْ لَوْلَا نُشُورًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ مَمَّ رَأَيْتَ نِيمًا وَمَلَكًا كَرِيمًا ﴿١٧﴾ عَلَيْهِمْ يَأْتِ سُنْبُ حُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴿١٨﴾ وَطَلَّاهُمْ أَسَابِيرًا مِنْ يَضَعُ وَسَمْنَهُمْ رَيْتَهُمْ سَرَابًا طُهورًا ﴿١٩﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرَّ جَرَّهَ وَكَانَ سَعِيرًا مُشْكُورًا ﴿٢٠﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَرِيلاً ﴿٢١﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِغْ بِتَمَّتْ مِائِيهَا أَوْ كُفُورًا ﴿٢٢﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٣﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

(١) قال ابن كثير: وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بيّنا له ووضعناه وبصّرناه به، كقوله جل وعلا: ﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ﴾ وقاله جل وعلا: ﴿وَمَكَتَنَاهُ الْبُحْرَيْنِ﴾، أي: بيّنا له طريق الخير وطريق الشر، وهذا قول عكرمة وعطية وابن زيد مجاهد في المشهور عنه والجمهور.

(٢) قال ابن كثير: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يفتلر فبائع نفسه لعمتها أو موثقا».

﴿إِنَّ هَذِهِ جُنُودُ الْمَلَائِكَةِ يُدْرُونَ وِرْدَهُمْ بِوَيْلَا نَيْلًا﴾ ﴿١٠﴾ نَحْنُ خَلَقْنَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ لَتُحَذَّرْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٢﴾ وَمَا تَسْأَلُونَ إِلَّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٣﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة «سلاسل» بغير تنوين، ووقفوا بألف. ووقف أبو عمرو بألف. قال مكي بن أبي طالب النحوي: «سلاسل» و«قوارير» أصله أن لا ينصرف، ومن صرفه من القراء، فإنها لغة لبعض العرب. وقيل: إنما صرفه لأنه وقع في المصحف بالألف، فصرفه لاتباع خط المصحف. قال مقاتل: السلاسل في أعناقهم، والأغلال في أيديهم. وقد شرحنا معنى «السعير» في [النساء: ١٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْتَرَاءَ﴾ واحدهم بَرٌّ، وبَارٌّ، وهم الصادقون. وقيل: المطيعون. وقال الحسن: هم الذين لا يؤذون الذرَّ ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ أي: من إناء فيه شراب ﴿كَأَنَّ يَرَأُجُهَا﴾ يعني: مزاج الكأس ﴿كَأَفْوًا﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الكافور المعروف، قاله مجاهد، ومقاتل، فعلى هذا في المراد «بالكافور» ثلاثة أقوال: أحدها: برده، قاله الحسن. والثاني: ريحه، قاله قتادة. والثالث: طعمه، قاله السدي. والثاني: أنه اسم عين في الجنة، قاله عطاء، وابن السائب. والثالث: أن المعنى: مزاجها كالكافور لطيب ريحه، أجازه القراء، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ قال القراء: هي المفسرة للكافور، وقال الأخفش: هي منصوبة على معنى: أعين عيناً. وقال الزجاج: الأجود أن يكون المعنى: من عين ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يشرب منها. والثاني: يشربها، والباء صلة. والثالث: يشرب بها عباد الله الخمر يمزجونها بها. وفي هذه العين قولان: أحدهما: أنها الكافور الذي سبق ذكره. والثاني: التسنيم، و﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ هاهنا: أولياؤه ﴿يَسْجُرُونَهَا تَجْجِيرًا﴾ قال مجاهد: يقودونها إلى حيث شاؤوا من الجنة. قال القراء: حيث ما أحب الرجل من أهل الجنة فجرها لنفسه.

قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ بِالْقَذَرِ﴾ قال القراء: فيه إضمار «كانوا» يؤفون بالنذر. وفيه قولان: أحدهما: يؤفون بالنذر إذا نذروا في طاعة الله، قاله مجاهد، وعكرمة. والثاني: يؤفون بما فرض الله عليهم^(١)، قاله قتادة. ومعنى «النذر» في اللغة: الإيجاب. فالمعنى: يؤفون بالواجب عليهم ﴿وَيَعَاذُونَ يَوْمًا كَأَنَّ شُرُوءًا مُتَّيِّرًا﴾ قال ابن عباس: فاشياً. وقال ابن قتيبة: فاشياً متشراً. يقال: استطار الحريق: إذا انتشر، واستطار الفجر: إذا انتشر الضوء. وأنشدوا للأعشى:

فَبَانَتْ وَقَدْ أَسَارَتْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَصَدَعَا عَلَى نَائِيهَا مُسْتَطِيرًا^(٢)

وقال مقاتل: كان شره فاشياً في السموات، فانشقت، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وكورت الشمس والقمر في الأرض، ونسفت الجبال، وغارت المياه، وتكسر كل شيء على وجه الأرض من جبل، ويناؤه، وفشا شره يوم القيامة فيها.

قوله تعالى: ﴿وَيُظْمِئُونَ الْعُلَمَاءَ عَلَىٰ حَيْدٍ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: نزلت في علي بن أبي طالب. أجر نفسه ليسقي نخلاً بشيء من شعير ليلة حتى أصبح. فلما قبض الشعير طحن ثلثه، وأصلحوه منه شيئاً يأكلونه، فلما استوى أتى مسكين، فأخرجوه إليه، ثم عمل الثلث الثاني، فلما تم أتى يتيماً، فأطعموه، ثم عمل الثلث الباقي، فلما استوى جاء أسير من المشركين، فأطعموه وطوَّراً يومهم ذلك، فنزلت هذه الآيات، رواه عطاء عن ابن عباس^(٣).

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَيُظْمِئُونَ الْعُلَمَاءَ عَلَىٰ حَيْدٍ﴾ أي: يعمدون الله فيما أوجه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر. قال الإمام مالك في «الموطأ» ٤٧٦/٢: «من طلحة بن عبد الملك الأيلي عن القاسم بن محمد بن الصديق عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطعم الله فليطعمه، ومن نذر أن يعصي فلا يعصه» ورواه البخاري في «صحيحه» كتاب الأيمان والنذور باب النذر في الطاعة من حديث مالك.

(٢) البيت للأعشى الكبير ميمون بن قيس، وهو في «ديوانه» ٩٣ برواية الشطر الأول فيه: وبنات وقد أوزَّعت في الفواد... الخ وهو في «الطبري» ٢٩/٢٠٩، و«المقرئ» ١٩٨/١٩٨، و«الدين كثير» ٤٥٤/٢٤، و«الشوكاني» ٣٣٧/٥.

(٣) ذكره الواحدي في «أسانيد التزويل» ٣٣٦، والبغوي من رواية عطاء عن ابن عباس بغير سند. وأورده السيوطي في «الدر» ٢٩٩/٦ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ. والله أعلم.

والثاني: أنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري صام يوماً، فلما أراد أن يفطر جاء مسكين، ویتيم، وأسیر، فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيف واحد، فنزلت فيهم هذه الآية، قاله مقاتل^(١). وفي هاء الكناية في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ حَيْبِهِ﴾ قولان: أحدهما: ترجع إلى الطعام، فكانهم كانوا يؤثرون وهم محتاجون إليه، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والزجاج، والجمهور^(٢). والثاني: ترجع إلى الله تعالى، قاله الداراني^(٣). وقد سبق معنى «المسكين والیتيم» [البقرة: ٨٣]. وفي الأسير أربعة أقوال: أحدها: أنه المسجون من أهل القبلة، قاله عطاء، ومجاهد، وابن جبير. والثاني: أنه الأسير المشرك، قاله الحسن، وقتادة. والثالث: المرأة، قاله أبو حمزة الثمالي. والرابع: العبد، ذكره الماوردي^(٤).

فصل

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية تضمنت مدحهم على إطعام الأسير المشرك. قال: وهذا منسوخ بآية السيف. وليس هذا القول بشيء، فإن في إطعام الأسير المشرك ثواباً، وهذا محمول على صدقة التطوع. فأما الفرض فلا يجوز صرفه إلى الكفار، ذكره القاضي أبو يعلى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُطْمِئِنُّ بِرِئْتِ اللَّهِ﴾ أي: لطلب ثواب الله. قال مجاهد، وابن جبير: أما إنهم ما تكلموا بهذا، ولكن علمه الله من قلوبهم، فأنى به عليهم ليرغب في ذلك راغب.

قوله تعالى: ﴿لَا تَرِيَهُ يَنْكُرُ حِرَّةً﴾ أي: بالفعل ﴿وَلَا شُكْرًا﴾ بالقول ﴿إِنَّمَا تَخَافُ مِنْ رَبِّكَ يَوْمًا﴾ أي: ما في يوم ﴿عَبُودًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: تمسب فيه الوجوه، فجعله من صفة اليوم، كقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، أراد: عاصف الريح. فأما «القمطير» فروى ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: أنه الطويل. وروى عنه العوفي أنه قال: هو الذي يقبض فيه الرجل ما بين عينيه. فعلى هذا يكن اليوم موصوفاً بما يجري فيه، كما قلنا في «العبوس» لأن اليوم لا يوصف بتبيض ما بين العينين. وقال مجاهد، وقتادة: «القمطير» الذي يقلص الوجوه، ويقبض الحياة، وما بين العينين من شدته. وقال الفراء: هو الشديد. يقال: يوم قمطير، ويوم قماطر. وأنشدني بعضهم:

بَنِي عَمَّانَ هَلْ تَذْكُرُونَ بِلَاءَنَا
عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ قُمَاطِرًا^(٥)

وقال أبو عبيدة: العبوس، والقمطير، والقماطر، والعصيب، والعصنب: أشد ما يكون من الأيام، وأطولها في البلاء.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ بطاعتهم في الدنيا ﴿وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ﴾ أي: سُنَّناً وبياضاً في الوجوه ﴿وَسُرَّوْهُ﴾ لا انقطاع له. وقال الحسن: النَّصْرَةُ في الوجوه، والسُّرُورُ في القلوب ﴿وَجَزَّهَمُ بِمَا صَبَّرَهُ﴾ على طاعته، وعن معصيته

(١) ذكره البغوي عن مقاتل بغير سند قال: نزلت في رجل من الأنصار، ولم يسمه، وقال الخازن: قيل: نزلت في رجل من الأنصار يقال له: أبو الدحداح، وقال القرطبي في «تفسيره» ١٢٨/١٩: والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلاً حسناً، فهي عامة، قال: وقد ذكر النقاش، والتعليق، والتشيري وغير واحد من المفسرين في قصة علي وفاطمة وجاريتيها حديثاً لا يصح ولا يثبت، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الشكاف» ١٨٠: رواه الثعلبي من رواية القاسم بن بهرام عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عباس، ومن رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ إِذْ بُدِّئَتْ زَوَالُهُ يَوْمَ كَانَتْ شُرُوطٌ شَدِيدًا﴾ ﴿وَتَلْمِيزَةٌ أَلْفَمٌ عَلَىٰ حَيْبِهِ سَبِيحًا رَبِّيًّا وَرَبِّيًّا﴾ وزاد في اثنتان شعراً لعلي وفاطمة ﴿ثم قال: قال الحكيم الترمذي: هذا حديث مزوق مفصل لا يروج إلا على أحمد ق جاهل، ورواه ابن الجوزي في «الموضوعات» من طريق أبي عبد الله السمرقندي عن محمد بن كثير عن الأصمغين بن نباتة، قال: مرض الحسن والحسين... إلخ. فذكره بشعره وزيادة الفاظ ثم قال: وهذا لا نشك في وضعه.

(٢) قال ابن كثير: والأظهر أن الضمير عائد على الطعام، أي: ويطمعون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد، ومقاتل، واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَلَىٰ حَيْبِهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالَهُ آلِهَةً حَتَّىٰ نُفَيْتًا يَمَّا نُفِينُ﴾ ثم قال: وفي الصحيح: «أفضل الصدقة أن تضدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر» أي: في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه، ولهذا قال: ﴿وَتَلْمِيزَةٌ أَلْفَمٌ عَلَىٰ حَيْبِهِ سَبِيحًا رَبِّيًّا وَرَبِّيًّا﴾.

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المنحجي أبو سليمان الداراني، زاهد مشهور من أهل داريا (بغوة دمشق) توفي فيها رحمه الله سنة (٢١٥هـ).

(٤) قال ابن كثير: قال عكرمة: هم العبيد، واختاره ابن جرير، لعموم الآية للمسلم والمشرك، وهكذا قال سعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة، وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث، حتى إنه آخر ما أوصى أن جعل يقول: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم».

(٥) البيت في «اللسان»: قماطر، ولم ينسبه، وهو في «الطبري» ٢٩/٢١١، و«القرطبي» ١٩/١٣٣، و«ابن كثير» ٤/٤٥٥، و«الشوكاني» ٥/٣٣٨.

﴿جَنَّةٌ وَحَرِيرٌ﴾ وهو لباس أهل الجنة ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ قال الزجاج: هو منصوب على الحال، أي: جزاهم جنة في حال اتكائهم فيها. وقد شرحنا هذا في [الكيف: ٣١].

قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ فيؤذيهم حرُّها ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ وهو البرد الشديد. والمعنى: لا يجدون فيها الحرَّ والبرد. حكى عن ثعلب أنه قال: الزمهرير: القمر، وأنشد:

وَلَيْلَةٌ ظَلَامُهَا قَدْ اغْتَكَّرَ
قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرَ^(١)

أي: لم يطلع القمر.

قوله تعالى: ﴿وَدَائِبَةً﴾ قال الفراء: المعنى: وجزاهم جنة، ودائبةٌ عليهم ظلالها، أي: قرية منهم ظلال أشجارها: ﴿وَدَلَّتْ ظُلُمُهَا نَدِيلًا﴾ قال ابن عباس: إذا همَّ أن يتناول من ثمارها تدلَّتْ إليه حتى يتناول ما يريد. وقال غيره: قُرِبَتْ إليهم مُدَلَّلَةٌ كيف شاؤوا، فهم يتناولونها قياماً، وقعوداً، ومضطجعين، فهو كقوله تعالى: ﴿فَطَرُهَا دَائِبَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]. فأما «الأكواب» فقد شرحناها في [الزخرف: ٧١]. ﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ أي: تلك الأكواب هي قوارير، ولكنها من فضة.

قال ابن عباس: لو ضربت فضة الدنيا حتى جعلتها مثل جناح الذباب، لم يرَ الماء من ورائها، وقوارير الجنة من فضة في صفاء القارورة. وقال الفراء، وابن قتيبة: هذا على التشبيه، المعنى: كأنها من فضة، أي لها بياض كبياض الفضة وصفاء كصفاء القوارير. وكان نافع، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم يقرؤون «قواريراً قواريراً» فيصَلُونَهَا جميعاً بالتونين. ويقفون عليهما بالألف. وكان ابن عامر وحمة يَصِلَانِهُمَا جميعاً بغير تونين، ويقفان عليهما بغير ألف. وكان ابن كثير يَصِلُ الأول بالتونين، ويقف عليه بالألف، ويَصِلُ الثاني بغير تونين، ويقف بغير ألف. وروى حفص عن عاصم أنه كان يقرأ «سلاسل» و «قوارير قوارير» يَصِلُ الثلاثة بغير تونين، ويقف على الثلاثة بالألف. وكان أبو عمرو يقرأ الأول «قواريرا» فيقف عليه بالألف، ويصل بغير تونين. وقال الزجاج: الاختيار عند النحويين أن لا يصرف «قوارير» لأن كل جمع يأتي بعد ألفه حرفان لا ينصرف. ومن قرأ «قواريرا» يصرف الأول علامة رأس آية، وترك صرف الثاني لأنه ليس بأخر آية. ومن صرف الثاني: أتبع اللفظ اللفظ، لأن العرب ربما قلبت إعراب الشيء لتشبع اللفظ اللفظ، كما قالوا: جُحِرُ صَبُّ حَرِبٍ. وإنما الحَرِبُ من نعت الجحر.

قوله تعالى: ﴿قَدَرُوا الْقَدْرَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو عمران، والجحدري، وابن يعمر «قَدَرُوا» برفع القاف، وكسر الدال، وتشديدها. وقرأ حميد، وعمرو بن دينار «قَدَرُوا» بفتح القاف، والدال، وتخفيفها. ثم في معنى الآية قولان: أحدهما: قَدَرُوا في أنفسهم، فجاءت على ما قَدَرُوا، قاله الحسن. وقال الزجاج: جعل الإناء على قَدَرٍ ما يحتاجون إليه ويريدونه على تقديرهم. والثاني: قَدَرُوا على مقدارٍ لا يزيد ولا ينقص، قاله مجاهد. وقال غيره: قَدَرُ الكأس على قَدَرِ رِيحِهِمْ، لا يزيد عن رِيحِهِمْ فَيُقْبَلُ الكَفِّ، ولا ينقص منه فيطلب الزيادة، وهذا ألدُّ الشراب. فعلى هذا القول يكون الضمير في «قَدَرُوا» للسقاة والخدم. وعلى الأول للشاربين.

قوله تعالى: ﴿رَشَقُونَ فِيهَا﴾ يعني في الجنة ﴿كَمَا كَانَ رِزَاقُهَا زَجْجَالًا﴾ والعرب تضرب المثل بالزنجبيل والخمر مزوجين. قال المسيب بن علس يصف فم امرأة:

فَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ
إِذْ ذُوقْتَهُ وَسُلَاقَةَ الْحَمْرِ^(٢)

وقال آخر:

كَأَنَّ الْقَرْنُفُلَ وَالزَّنْجَبِيلَ
لِ بَاتَا بِفِيهَا وَأَزْبَأُ مُشَارًا^(٣)

(١) البيت غير منسوب في «القرطبي» ١٣٦/١٩، و«الألوسي» ١٥٨/٢٩.

(٢) هو في آخر «ديوان الأعمى» ابن أخت المسيب بن علس، وراوته ٣٥٢ من قصيدة مطلعها:
أصرمت حبل الوصيل من فتر

وهجرتها ولججت في التخر

(٣) رواية البيت في «ديوان الأعمى الكبير» ميمون بن قيس ٩٣:

كَأَنَّ جَزِيئًا مِنَ الزَّنْجَبِيلِ
لِ غَالَطَ نَاقًا وَأَزْبَأُ مَشُورًا

الأزى: العسل. والمشار: المستخرج من بيوت النحل. قال مجاهد: والزنجبيل: اسم العين التي منها شراب الأبرار. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: الزنجبيل معرب. وقال الدِّيَنْوَرِيُّ: يَبْتَثُ في أرياف عُمان، وهي عروق تسري في الأرض، وليس بشجرة تؤكل رطباً، وأجود ما يحمل من بلاد الصين. قال الزجاج: وجاز أن يكون فيها طعم الزنجبيل، والكلام فيه كالكلام السابق في الكافور. وقيل: شراب الجنة على برد الكافور، وطعم الزنجبيل، وريح المسك.

قوله تعالى: ﴿عَيْنَا فِيهَا﴾ قال الزجاج: يسقون عينا. وسلسيل: اسم العين، إلا أنه صرف لأنه رأس آية. وهو في اللغة: صفة لما كان في غاية السلاسة. فكان العين وصفة وسميت بصفتها. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: قوله تعالى: ﴿سَلْسَلًا سَلْسَلًا﴾ قيل: هو اسم أعجمي نكرة، فلذلك انصرف. وقيل: هو اسم معرفة، إلا أنه أجري، لأنه رأس آية. وعن مجاهد قال: حديقة الجرية. وقيل: سلسيل: سلسل ماؤها، مستفيد لهم. وقال ابن الأنباري السلسيل صفة للماء، لِسَلْسِيهِ وسهولة مدخله في الحلق. يقال: شراب سَلْسَل، وسَلْسَال، وسَلْسِيل. وحكى الماوردي: أن علياً قال: المعنى: سَلْ سَيْلًا^(١) إليها، ولا يصح^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَطُوبٌ لَهُمْ وِلْدَانٌ مُّحَلَّدُونَ﴾ قد سبق بيانه [الواقعة: ١٧] ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا نَّشُورًا﴾ أي: في بياض اللؤلؤ وحُسنه، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظراً. وإنما شُبهوا باللؤلؤ المنشور، لانتشارهم في الخدمة. ولو كانوا صفًا لشُبهوه بالمنظم. ﴿وَلِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يعني: الجنة ﴿رَأَيْتَ نَيْبًا﴾ لا يوصف، ﴿وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ أي: عظيماً واسعاً لا يريدون شيئاً إلا قَدَرُوا عليه، ولا يدخل عليهم ملك إلا باستئذان.

قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ قرأ أهل المدينة، وحمزة، والمفضل عن عاصم بإسكان الياء، وكسر الهاء. وقرأ الباقون بفتح الياء، إلا أن الجعفي عن أبي بكر قرأ ﴿عَالِيَتُهُمْ﴾ بزيادة تاء مضمومة. وقرأ أنس بن مالك، ومجاهد، وقاتدة ﴿عَالِيَهُمْ﴾ بفتح اللام، وإسكان الياء من غير تاء، ولا ألف. قال الزجاج: فأما تفسير إهراق «عَالِيَهُمْ» بإسكان الياء، فيكون رفعه بالابتداء، ويكون الخبر ﴿نَيْبًا سُدِّيًّا﴾ وأما «عَالِيَهُمْ» بفتح الياء، فنصبه على الحال من شيئين، أحدهما من الهاء والميم، والمعنى: يطوف على الأبرار وِلْدَانٌ مُّحَلَّدُونَ عَالِيًا للأبرار ثيابٌ سندس، لأنه وصف أحوالهم في الجنة، فيكون المعنى: يطوف عليهم في هذه الحال هؤلاء. ويجوز أن يكون حالاً من الوردان. المعنى: إذا رأيتهم حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا منشوراً في حال عُلُوِّ الثياب. وأما «عَالِيَتُهُمْ» فقد قرئت بالرفع والنصب، وهما وجهان جيّدان في العربية، إلا أنهما يخالفان المصحف، فلا أرى القراءة بهما، وتفسيرها كتفسير «عاليهم».

قوله تعالى: ﴿نَيْبًا سُدِّيًّا حُضْرًا﴾ قرأ ابن عمر، وأبو عمرو «حُضْرًا» رفعا «وَإِسْتَبْرَقٌ» خفضاً. وقرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم «حُضْرًا» خفضاً «وَإِسْتَبْرَقٌ» رفعا. وقرأ نافع، وحفص عن عاصم «حُضْرًا وَإِسْتَبْرَقٌ» كلاهما بالرفع. وقرأ حمزة، والكسائي «حُضْرًا وَإِسْتَبْرَقٌ» كلاهما بالخفض. قال الزجاج: من قرأ «حُضْرًا» بالرفع، فهو نعت الثياب، ولفظ الثياب لفظ الجمع، ومن قرأ «حُضْرًا» فهو من نعت السندس، والسندس في المعنى راجع إلى الثياب. ومن قرأ «وَإِسْتَبْرَقٌ» فهو نسق على «ثياب» المعنى: وعليهم إستبرق. ومن خفض، عطفه على السندس، فيكون المعنى: عليهم ثياب من هذين النوعين. وقد بيّنا في [الكهف: ٣١] معنى السندس، والإستبرق، والأساور.

قوله تعالى: ﴿وَسَنَنَّهُمْ رَبَّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يُحْدِثُونَ ولا يَبُولُونَ عن شُرْبِ حَمْرِ الْجَنَّةِ، قاله عطية. والثاني: لأن خمر الجنة طاهرة، وليست بنجسة كخمر الدنيا، قاله الفراء. وقال أبو قلابة: يُؤْتَوْنَ بعد الطعام بِالشَّرَابِ الطَّهْوَرِ فيشربون فَتَضْمُرُ بذلك بَطُونَهُمْ، ويفيض من جلودهم عَرَقٌ مثل ريح المسك.

(١) على أنه أمر للنبي ﷺ ولأمة بسؤال السيل إليها.

(٢) قال الألويسي: وهو غير مستقيم بظاهره، إلا أن يراد أن جملة قول القائل: «سل سَيْلًا» جعلت اسماً للعين؛ كما قيل: تأبط شراً، وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سَيْلًا بالعمل الصالح، وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع، وعزوه إلى مثل الأمير ﷺ أبداع، ونص بعضهم على أنه افتراء عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني: ما وصف من نعيم الجنة ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ بأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعِيرًا﴾ أي: عملكم في الدنيا بطاعته ﴿تَشْكُرُونَ﴾ قال عطاء: يريد: شكرتكم عليه، وأثبتكم أفضل الثواب ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾، أي: فضّلناه في الإنزال، فلم نُنزِلْهُ جُمْلَةً واحدة ﴿فَأَمَرَ لِيُكْرَمَ عَلَيْكَ﴾ وقد سبق بيانه في مواضع [الطور: ٤٨، والقلم: ٤٨]. والمفسرون يقولون: هذا منسوخ بأية السيف، ولا يصح، ﴿وَلَا نُفِغُ مِنْهُمْ﴾ أي: من مشركي أهل مكة: ﴿إِنَّمَا أَرْكَبُونَ﴾ أو بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿أَوِ الْكُوفِيِّينَ﴾ [الانعام: ١٤٦]. وقد سبق هذا. وللمفسرين في المراد بالأثم والكفور ثلاثة أقوال: أحدها: أنهما صفتان لأبي جهل. والثاني: أن الأثم: عتبة بن ربيعة، والكفور: الوليد بن المغيرة. والثالث: الأثم: الوليد. والكفور: عتبة، وذلك أنهما قالا له: ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج. ﴿وَأَذْكُرُكُمْ رَبِّكُمْ﴾ أي: اذكروه بالتوحيد في الصلاة ﴿بِكُرْبَةٍ﴾ يعني: الفجر ﴿وَأَسْمِلًا﴾ يعني: العصر. وبعضهم يقول: صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَجِدْ لَهُمْ﴾ يعني: المغرب والعشاء. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وهي: صلاة الليل، كانت فريضة عليه، وهي لأمتيه تطوّع ﴿إِنَّ هَذِهِ لَمَكَّةُ﴾ يعني: كفّار مكة ﴿يُحْيُونَ الْعَامِلَةَ﴾ أي: الدار العاجلة، وهي الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ وراءَهُمُ﴾ أي: أمامهم ﴿وَبِئْسَ قِيْلًا﴾ أي: عسيراً شديداً. والمعنى: أنهم يتركون الإيمان به، والعمل له. ثم ذكر قدرته، فقال تعالى: ﴿مَنْ حَقَّقْتَهُمْ وَسَدَدْتَهُمْ أَصْرَهُمْ﴾ أي: خلقهم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. قال ابن قتيبة: يقال: امرأة حسنة الأسر، أي: حسنة الخلق، كأنها أيرث، أي: شدّت. وأصل هذا من الإسار، وهو: القيد. [الذي تشد به الأفتاب] يقال: ما أحسن ما أسر قتيبه، أي: ما أحسن ما شدّه [بالقيد]. وروي عن أبي هريرة قال: مفاصلهم. وعن الحسن قال: أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب، ﴿وَإِنَّا سَخَّانَا بَدَلًا أَنْتَلَاهُمْ﴾ أي: إن سخنا أهلكتناهم وأتينا بأشياهم، فجعلناهم بدلاً منهم ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ﴾ قد شرحنا الآية في [المزمل: ١٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَا فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِإِيجَادِ السَّبِيلِ﴾ [إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ] ذلك لكم. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، «وما يشاؤون» بالياء.

قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ قال المفسرون: الرحمة هاهنا: الجنة، ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ المشركون. قال أبو عبيدة: نصب «الظالمين» بالجوار. المعنى: ولا يُدخل الظالمين في رحمته. وقال الزجاج: إنما نصب «الظالمين» لأن^(١) قلبه منصوباً. المعنى: يُدخل من يشاء في رحمته، ويعذب الظالمين، ويكون قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيراً لهذا المضمّر، وقرأ أبو العالية، وأبو الجوزاء، وابن أبي عمير: «والظالمون» رفعاً.



(١) في الأصل: لأنه، والتصحيح من «تفسير الرازي».

سورة المرسلات مكية كلها في قول الجمهور

وحكي عن ابن عباس، وقتادة، ومقاتل أن فيها آية مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ يَوْمَ تُرْجَعُونَ﴾

[المرسلات: ٤٨].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا ۝١ قَالَتْصِفَتٍ عَصَا ۝٢ وَالشِّبْرِيَّةُ نَسْرًا ۝٣ قَالَتَرَدَّتْ رُبَا ۝٤ قَالَتَأْتِيَنِي ذِكْرًا ۝٥ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَرَبٍّ ۝٧ وَإِنَّا لَشَجَرٌ مُّسْتَأْتَمِتٌ ۝٨ وَإِنَّا لَمَكَّةٌ مُّحْيَتٌ ۝٩ وَإِنَّا لَمَبَالٌ تُبِيتٌ ۝١٠ وَإِنَّا لَأَرْسُلٌ أُنْتِ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخْبِتٌ ۝١٢ يَوْمَ الْقَصْفِ ۝١٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْقَصْفِ ۝١٤ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكَّةَ ۝١٥ أَلَّا تَهَيَّبِيكَ الْآزْوَارُ ۝١٦ ثُمَّ نَقِمْهُمْ الْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكَّةَ ۝١٩ أَلَّا تَتَلَفَّعُ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَمَلَتِ فِي قَرَارٍ تَكِينٍ ۝٢١ إِنْ قَدَّرَ تَعْلُوبٌ ۝٢٢ فَفَدَّرْنَا فِتْمَ الْقَيْدُونَ ۝٢٣ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكَّةَ ۝٢٤ أَلَّا تَجْمَلَ الْأَرْضَ كَمَا كَانَ ۝٢٥ أَحْيَاءٌ وَأَمْوَالُهَا ۝٢٦ وَجَمَلْنَا فِيهَا رَسُولِيَّ فَجَمَلْنَا وَأَسْتَشْكُرُ مَاةَ قُرْآنًا ۝٢٧ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكَّةَ ۝٢٨ أَطْلِقُوا إِنِّي مَا كُنْتُ بِهِ تَكْذِيبُونَ ۝٢٩ أَطْلِقُوا إِنِّي ظَلِي ذِي نَلَكٍ شَمِ ۝٣٠ لَا ظِلِيلٍ وَلَا بَغْيٍ مِنَ اللَّهِ ۝٣١ إِنَّمَا تَرَى بِسَكْرِ الْاَقْصَرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُ يَجْلَسُ سُمْرٌ ۝٣٣ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكَّةَ ۝٣٤ هَذَا يَوْمٌ لَا يَلِيقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤَدُّ لَكُمْ فِئْتَدُونَ ۝٣٦ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكَّةَ ۝٣٧ هَذَا يَوْمُ الْقَصْفِ جَمَعْتُمْ وَالْآزْوَارُ ۝٣٨ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ۝٣٩ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكَّةَ ۝٤٠ إِذْ الْمُنْفِئِينَ فِي ظِلَالٍ وَغِيُونٍ ۝٤١ وَفَوَيْكَ يَا بَشْتَمُونَ ۝٤٢ كَلُّوا وَأَسْرَبُوا هَيْتَا بِمَا كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكَّةَ ۝٤٥ كَلُّوا وَتَمَتُّعُوا وَيَلَا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكَّةَ ۝٤٧ وَإِنَّا قَدِ لَمُنُّ اتَّقُوا اللَّهَ يَوْمَ تُرْجَعُونَ ۝٤٨ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَكَّةَ ۝٤٩ قِيَامِي حَيْثُ بَسَدُوا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ (١) في أربعة أقوال: أحدها: أنها الرياح يتبع بعضها بعضاً، رواه أبو العبيد (١) عن ابن مسعود، والوعوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة. والثاني: أنها الملائكة التي أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه، رواه مسروق عن ابن مسعود، وبه قال أبو هريرة، ومقاتل. وقال الفراء: هي الملائكة. فأما قوله تعالى: ﴿عُرْفًا﴾ فيقال: أُرسِلتُ بالمعروف، ويقال: تَتَابَعَت كُحْرَفُ الْفَرَسِ. والعرب تقول: يركب الناس إلى فلان عُرْفًا واحداً: إذا توجهوا إليه فأكثروا. قال ابن قتبية: يريد أن الملائكة متتابعة بما ترسل به وأصله من عُرْفُ الْفَرَسِ، لأنه سطر مستوي بعضه في إثر بعض، فاستعير للقوم يتبع بعضهم بعضاً. والثالث: أنهم الرسل بما يعرفون به من المعجزات، وهذا معنى قول أبي صالح، ذكره الزجاج. والرابع: الملائكة والريح، قاله أبو عبيدة. قال: ومعنى ﴿عُرْفًا﴾: يتبع بعضها بعضاً. يقال: جاؤني عُرْفًا (٢). وفي ﴿قَالَتْصِفَتٍ عَصَا﴾ قولان: أحدهما: أنها الرياح الشديدة الهبوب، قاله الجمهور. والثاني: الملائكة، قاله مسلم بن صبيح. قال الزجاج: تصف بروح الكافر. وفي «الناشرات» خمسة أقوال: أحدها: أنها الرياح تنشر السحاب، قاله ابن مسعود، والجمهور. والثاني: الملائكة تنشر الكتب، قاله أبو صالح. والثالث: الصحف تنشر

(١) أبو العبيد، بالتصغير والثنية: هو معاوية بن سبرة بفتح السين وسكون الباء: الشوائي بضم السين والمدّ، العامري الكوفي الأعمى. روى عن ابن مسعود. وهو ثقة، كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب».

(٢) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عننا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عُرْفًا، وقد ترسل عُرْفًا الملائكة، وترسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدل على أن المعنى بذلك أحد الحزبين دون الآخر، وقد عم جل شأوه بإقسامه بكل ما كانت صفة ما وصف، فكل من كانت صفة كذلك، فداخل في تسمه ذلك، ملكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلًا. وقال ابن كثير: الأظهر أن المرسلات: هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَنفِثَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَوْجٌ كَأَنَّهَا كَالْأَكْبَادِ يُغْرَقُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَوْجٌ كَأَنَّهَا كَالْأَكْبَادِ يُغْرَقُ﴾ ومكلا المعاصفات هي الرياح، يقال: عصفت الرياح: إذا هبت بتصويت، وكنا الناشرات: هي الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب ﷻ .

على الله تعالى بأعمال العباد، قاله الضحاک. والرابع: البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح، قاله الربيع. والخامس: المطر ينشر النبات، حكاه الماويدي. وفي «الفارقات» أربعة أقوال: أحدها: الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل، قاله الأثرون. والثاني: أي القرآن فرقت بين الحلال والحرام، قاله الحسن، وقاتدة، وابن كيسان. والثالث: الريح تفرق بين السحاب فتبدده، قاله مجاهد. والرابع: الرسل، حكاه الزجاج. «فَأَلْمِيقَاتٍ ذِكْرًا» ﴿٦﴾ قولان: أحدهما: الملائكة تلقي ما حلت من الوحي إلى الأنبياء، وهذا مذهب ابن عباس، وقاتدة، والجمهور. والثاني: الرسل يلقون ما أنزل عليهم إلى الأم، قاله قطرب^(١).

قوله تعالى: ﴿عَذْرًا أَوْ تُوذْرًا﴾ ﴿٦﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم «عَذْرًا خَفِيفًا» أو نُذْرًا» مثلاً. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وحفص، وخلف «عَذْرًا أَوْ نُذْرًا» خَفِيفَانِ. قال الفراء: وهو مصدر، مثلاً كان أو مخففاً. ونسبه على معنى: أرسلت بما أرسلت به إذاراً من الله وإنذاراً. وقال الزجاج: المعنى: فالمليقات عذراً أو نُذراً. ويجوز أن يكون المعنى: فالمليقات ذكراً للإعذار والإنذار. وهذه المذكورات مجرورات بالقسم. وجواب القسم «إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاعٍ» ﴿٧﴾ قال المفسرون: إن ما توعدون به من أمر الساعة، والبعث، والجزاء لواقع، أي: لكائن. ثم ذكر متى يقع فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْكُفْرُ بِلَيْسَتَ﴾ ﴿٨﴾ أي: مُجِئِي نُورِهَا ﴿٩﴾ وَإِنَّمَا السَّكَاةُ تُرِجَّتَ ﴿١٠﴾ أي: شُقَّتْ ﴿١١﴾ وَإِنَّمَا الْإِبِلَ أُبِيَّتْ ﴿١٢﴾ قال الزجاج: أي: ذُهِبَ بِهَا كُلُّهَا بِسُرْعَةٍ. يقال: انْتَسَفَتِ الشَّيْءُ: إِذَا أَخَذَتْهُ بِسُرْعَةٍ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا الرُّسُلُ آيَاتٌ﴾ ﴿١٣﴾ قرأ أبو عمرو «وُقَّتَتْ» بوواو مع تشديد القاف. ووافقه أبو جعفر، إلا أنه خَفَفَ اللقاف. وقرأ الباقون: «أُقَّتَتْ» بألف مكان الواو مع تشديد القاف. قال الزجاج: وَقَّتَتْ وَأُقَّتَتْ بمعنى واحد. فمن قرأ «أُقَّتَتْ» بالهمز، فإنه أبدل الهمزة من الواو لانضمام الواو. وكل واو انضمت، وكانت ضميتها لازمة، جاز أن تبدل منها همزة. وقال الفراء: الواو إذا كانت أول حرف، وضمَّتْ، همزت. تقول: صلى القوم أحداناً. وهذه أجوه حسان. ومعنى «أُقَّتَتْ»: جمعت لوقتها يوم القيامة. وقال ابن قتيبة: جمعت لوقت، وهو يوم القيامة. وقال الزجاج: جعل لها وقت واحد لفصل القضاء بين الأمة.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ ﴿١٤﴾ أي: أُخْرِجَتْ. وَضُرِبَ الْأَجَلُ لَجْمَعِهِمْ، يَعِجِبُ الْعِبَادَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ. ثُمَّ بَيَّنَّ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ ﴿١٥﴾ وهو يوم يفصل الله تعالى فيه بين الخلاق. ثم عَظَّمَ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ بِلَيْسَتَ كَذِبِينَ﴾ بالبعث. ثم أخبر الله تعالى عما فعل بالأمم المكذبة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ تِلْكَ الْأَكْدَانِ﴾ ﴿١٧﴾ يعني بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلمهم ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٨﴾ والقراء على رفع العين في «نتبعهم»، وقد قرأ قوم منهم أبو حيوة بإسكان العين. قال الفراء: «نتبعهم» مرفوعة. ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود «وستنبتهم الآخريين». ولو جزم على معنى: ألم تقدر على إهلاك الأولين وإتباعهم الآخريين كان وجهاً جيداً. وقال الزجاج: الجزم عطف على «نهلك»، ويكون المعنى: لمن أهلك أولاً وآخراً. والرفع على معنى: ثم نتبع الأول الآخر من كل مجرم. وقال مقاتل: ثم نتبعهم الآخريين: يعني: كفار مكة حين كذبوا بالنبي ﷺ. وقال ابن جرير: الأولون: قوم نوح، و عاد، وثمود، والآخرون: قوم إبراهيم، ولوط، ومذنبين.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك ﴿فَعَمَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: المكذبين. فإن قيل: ما الفائدة في تكرار قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ بِلَيْسَتَ كَذِبِينَ﴾ ﴿١٦﴾؟ فالجواب: أنه أراد بكل آية منها غير ما أراد بالآخرى، لأنه كلما ذكر شيئاً قال: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ بِلَيْسَتَ كَذِبِينَ﴾ ﴿١٦﴾ بهذا.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْنَا﴾ قرأ قالون عن نافع بإظهار القاف. وقرأ الباقون بإدغامها.

قوله تعالى: ﴿بَيْنَ مَاوٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مُّكِينٍ﴾ ﴿١٩﴾ يعني: الرحم ﴿إِن كَادَ لَتَمْلُؤُنَّ﴾ وهو ملة

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: «فَأَلْمِيقَاتٍ ذِكْرًا» ﴿٦﴾ فَمَلِيقَاتٍ ذِكْرًا ﴿٦﴾ يعني الملائكة، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، ومجاهد، وقاتدة، والربيع بن أنس، والسدي، والثوري، ولا خلاف ها هنا، فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إذار إلى الخلق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره.

الحمل ﴿سَدَّرْنَا﴾ قرأ أهل المدينة، والكسائي ﴿فَقَدَّرْنَا﴾ بالشديد. وقوله الباقون: بالتخفيف. وهل بينهما فرق؟ فيه قولان: أحدهما: أنهما لغتان بمعنى واحد. قال الفراء: تقول العرب: قَدَّر عليه، وَقَدَّر عليه. وقفه احتج من قرأ بالتخفيف فقال: لو كانت مشددة لقال: فنعلم المقدرون، فأجاب الفراء فقال: قد تجمع العرب بين اللغتين، كقوله تعالى: ﴿مَهْلِكِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رَبِّأً﴾ ﴿١٧﴾ ﴿الطارق: ١٧﴾. قال الشاعر:

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْت

مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا السُّنْبَ وَالصَّلَامَا^(١)

يقول: ما أنكرت إلا ما يكون في الناس. والثاني: أن المخففة من القُدرة والملك، والمشددة من التقدير والقضاء. ثم بين لهم صنعه ليعتبروا فيوحده، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ يَجْعَلُ الْأَرْضَ كِنَانًا﴾ ﴿١٦﴾ قال اللغويون: الكفت في اللغة: الضم. والمعنى: أنها تضم أهلها أحياء على ظهرها، وأمواتاً في بطنها. قال ابن قتيبة: يقال: اكفت هذا إليك، أي: ضمه. وكانوا يسمون بقبع الغرقاد: كفته، لأنه مقبرة يضم الموتى. وفي قوله تعالى: ﴿أَحْيَاةً وَأَمْوَاتًا﴾ ﴿١٦﴾ قولان: أحدهما: أن المعنى: تكفتم أحياء وأمواتاً، قاله الجمهور. قال الفراء: وانتصب الأحياء والأموات بوقوع الكفات عليهم، كأنك قلت: ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات، فإذا نَوَّنت نصبت كما يقرأ ﴿أَرَأَيْتَ يَجْعَلُ الْأَرْضَ كِنَانًا﴾ ﴿١٦﴾. وقال الأخفش: انتصب على الحال. والقول الثاني: أن المعنى: ألم نجعل الأرض أحياء للنبات والجمادات، وأمواتاً بالخراب والنبس، هذا قول مجاهد، وأبي عبيدة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُؤُوسًا﴾ قد سبق بيانه ﴿شَيْخَيْنِ﴾ أي: عاليات، ﴿وَأَنْعَمْنَا﴾ قد سبق معنى ﴿أَسْقِينَا﴾، [الحجر: ٢٢، والجن: ١٦] ومعنى «الفرات» [الفرقان: ٥٣، واطر: ١٢] والمعنى: إن هذه الأشياء أعجب من البحث. ثم ذكر ما يقال لهم في الآخرة: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْدِبُونَ﴾ في الدنيا، وهو النار ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ قرأ الجمهور هذه الثانية بكسر اللام على الأمر. وقرأ أبي بن كعب، وأبو عمران، ورويس عن يعقوب بفتح اللام على الخبر بالفعل الماضي. قال ابن قتيبة: «والظل» هاهنا: ظل من دخان نار جهنم سطع، ثم افترق ثلاث فرق، وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع أن يتشعب، فيقال لهم: كونوا فيه إلى أن يفرغ من الحساب، كما يكون أولياء الله في ظل عرشه أو حيث شاء من الظل، ثم يُؤمَرُ بكل فريق إلى مستقره من الجنة والنار. ﴿إِلَّا ظِلٌّ﴾ أي: لا يظلكم من حر هذا اليوم بل يدانيكم من لهب النار إلى ما هو أشد عليكم من حر الشمس. قال مجاهد: تكون شعبة فوق الإنسان، وشعبة عن يمينه، وشعبة عن شماله، فتحيط به. وقال الضحاك: الشعب الثلاث: هي الضريع، والزقوم، والغسلين. فعلى هذا القول يكون هذا بعد دخول النار.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقِي بِنَ الْأَهْبِ﴾ أي: لا يدفع عنكم لهب جهنم. ثم وصف النار فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَرَىٰ يُشْكِرُونَ﴾، وهو جمع شررة، وهو ما يتطاير من النار متفرقاً ﴿كَالْقَصْرِ﴾ قرأ الجمهور بإسكان الصاد على أنه واحد القصور المبنية. وهذا المعنى في رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وهو قول الجمهور. وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، ومجاهد، وأبو الجوزاء «كالقصر» بفتح الصاد. وفي أفراد البخاري^(٢) من حديث ابن عباس قال: كنا نرفع الخشب [بقصر]^(٣) ثلاثة أذرع أو أقل [فترفعه]^(٤) للشئاء، فنسميه: القصر. قال ابن قتيبة: من فتح الصاد أوداد: أصول النخل المقطوعة المقلوعة. قال الزجاج: أراد أعناق الإبل. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وعائشة، وهكرمة، وأبو مجلز، وأبو المتوكل، وابن يعمر «كالقصر» بفتح القاف، وكسر الصاد. وقرأ ابن مسعود، وأبو هريرة، والنخعي «كالقصر» بفتح القاف والصاد جميعاً. وقرأ أبو الدرداء، وسعيد بن جبيرة «كالقصر» بكسر القاف، وفتح الصاد، وقرأ أبو العالية، وأبو عمران، وأبو نهيك، ومعاذ القارئ «كالقصر» بضم القاف وإسكانه الصاد.

قوله تعالى: ﴿كَاثِمٌ يَجَلَّتْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم «جمالات» بالفتح،

(١) البيت للأعشى الكبير ١٠١ من قصيدة يمدح بها مؤدب بن علي المحض ملك اليمامة، وأنشده الفراء في معاني القرآن ٢٠٤، و«الطبري»: ٢٣٦/٢٩، و«القرطبي»: ١٥٨/١٩.

(٢) زيادة من «صحيح البخاري».

(٣) ٥٢٨/٨ تفسير سورة المرسلات.

وكسر الجيم. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم «جَمَالَةٌ» على التوحيد. وقرأ رويس عن يعقوب «جَمَالَاتٌ» بضم الجيم. وقرأ أبو رزين، وحמיד، وأبو حيوة «جَمَالَةٌ» برفع الجيم على التوحيد. قال الزجاج: من قرأ «جَمَالَاتٌ» بالكسر، فهو جمع جَمَال، كما تقول: بُيوت، وبيوتات، وهو جمع الجمع، فالمعنى: كأن الشرارات كالجمالات. ومن قرأ «جَمَالَاتٌ» بالضم، فهو جمع «جمالة» ومن قرأ «جَمَالَةٌ» فهو جمع جَمَل وجمالة، كما قيل: حَجْر، وحبارة. وذكر، وذكارة. وقرئت «جمالة» على ما فسرناه في جمالات بالضم. و«الصُّفْرُ» هاهنا: السود. يقال للإبل التي هي سود تضرب إلى الصفرة: إبل صُفْرٌ. وقال الفراء: الصُّفْرُ: سود الإبل لا يرى الأسود من الإبل إلا وهو مُشْرَبٌ صُفْرَةً، فلذلك سَمَّتِ العرب سود الإبل: صُفْرًا، كما سَمَّوا الظباء: أدمًا لما يعلوها من الظلمة في بياضها.

قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٥٥) قال المفسرون: هذا في بعض مواقف القيامة. قال عكرمة: تكلموا واختصموا، ثم ختم على أفواههم، فتكلمت أيديهم، وأرجلهم، فحيثئذ لا ينطقون بحجة تُنْفَعُهُمْ. وقرأ أبو رجاء، والقاسم بن محمد، والأعمش، وابن أبي عبله «هذا يومٌ لا ينطقون» بنصب الميم.

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْلُ الْقَصْرِ﴾ أي: بين أهل الجنة وأهل النار ﴿مَمْنَعُكُمْ﴾ يعني: مكذبي هذه الأمة، ﴿وَالْأَلْبَانِ﴾ من المكذبين الذين كذبوا أنبياءهم، ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ (٥٦) أثبت فيها البياء في الحالين يعقوب، أي: إن قَدَرْتُمْ على حيلة، فاحتالوا لأنفسكم. ثم ذكر ما للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنِيِّينَ فِي ظِلِّ الشَّجَرِ، وَظِلَالِ أكنان القصور، ﴿رَبِيْرٍ﴾ الماء، وهذا قد تقدم بيانه، إلى قوله تعالى: ﴿كُلُوا﴾ أي: ويقال لهم: كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون في الدنيا بطاعة الله. ثم قال لكفار مكة: ﴿كُلُوا وَتَسْمَعُوا قَلِيْلًا﴾ في الدنيا إلى منتهى آجالكم ﴿إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ أي: مشركون بالله.

قوله تعالى: ﴿رِزْقًا قَلِيْلًا﴾ (٥٧) فيه قولان: أحدهما: أنه حين يُدْعَوْنَ إلى السجود يوم القيامة، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه في الدنيا كانوا إذا قيل لهم: اركعوا، أي صلوا ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: لا يصلون. وإلى نحو هذا ذهب مجاهد في آخرين، وهو الأصح. وقيل: نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة، فقالوا: لا نحني، فإنها مسبة علينا، فقال: ﴿لا خير في دين ليس فيه ركوع﴾ (٥٨).

قوله تعالى: ﴿يَأْتِي حَرِيْبٍ بَعْدُ يُؤْمِنُ﴾ أي: إن لم يصدقوا بهذا القرآن، فبأي كتاب بعده يصدقون، ولا كتاب بعده.



(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٨١: هكذا ذكره الثعلبي، قال: وأخرجه أبو داود ٢٢٢/٣، وأحمد ٢١٨/٤، وابن أبي شيبة، والطبراني، من رواية الحسن بن عثمان بن أبي العاص به، وأنتم منه. قلت: وفيه عنمة الحسن.

سورة النبا

ويقال لها: سورة التساؤل
وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَمْكُونَهُ ﴿٤﴾ وَكَلَّا سَيَمْكُونَهُ ﴿٥﴾ أَرَأَيْتَ لِمَ تَجْعَلُ الْأَرْضَ يَهْدًا ﴿٦﴾ وَاللِّجَالَ أَرْدَابًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْتَهُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ مِثْرًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْتَ الْيَلَّ لِأَسَا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْتَ الْفَجَارَ مَمَازًا ﴿١١﴾ وَبَشَرْنَا نَوْمَكُمْ سِنًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا يُرُكِبًا وَمَنَآبِقًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَجَاءَ بِهٖ حَيًّا وَرَبَّانًا ﴿١٤﴾ لِنُفِخَ بِهِ حَآءًا وَرَبَّانًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْتَ الْآفَاقَ ﴿١٦﴾ إِذْ يَوْمَ الْفَصْلِ كَأَن يَصْفَقَا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ قَاتُونَ أَزْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَبُحِثَتِ النَّسَمَةُ فَمَا كَانَتْ أَزْوَاجًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ اللَّيَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِذْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَافًا ﴿٢١﴾ لِلطَّالِئِينَ مَنَآبًا ﴿٢٢﴾ لِيُبَيِّنَ فِيهَا أَجْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بِرَبِّهَا وَلَا شُرَكَاءَ ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَيْسًا وَشَسَافًا ﴿٢٥﴾ حِكْرًا وَرَبَّانًا ﴿٢٦﴾ لِيَأْتِيَهُمْ كَأَن يَمْشُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذْبًا ﴿٢٨﴾ وَكَلَّ تَوْنًا أَعْمَصِينَ ﴿٢٩﴾ كَتَبْنَا ﴿٣٠﴾ فَذُوقُوا فَن تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣١﴾ إِذْ لَمَسْتُمُوهَا ﴿٣٢﴾ سَخَّانًا وَأَمْنًا ﴿٣٣﴾ وَكَلِمَاتٍ أَزْوَاجًا ﴿٣٤﴾ وَلَا تَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا كِذْبًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَلَيْهِ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَلْعَلُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَوْمُ الْأُخْرُجِ وَاللَّيْلَةِ كَمَا صَفَا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِيَ لَهُ الرَّجْحَنُ وَقَالَ مَرَبًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾﴾ أصله «عن ما» فأدغمت النون في الميم، وحذفت ألف «ما» كقولهم: فيم، وبم. قال المفسرون: لما بُعِثَ رسولُ الله ﷺ جَعَلَ المشركون يتساءلون بينهم، فيقولون: ما الذي أتى به؟ ويتجادلون، ويختصمون فيما بعث به، فنزلت هذه الآية^(١). واللفظ لفظ استفهام، والمعنى: تخميم القصة، كما يقولون: أي شيء زيد؟ إذا أردت تعظيم شأنه. ثم بيَّن ما الذي يتساءلون عنه، فقال تعالى: ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ يعني: عن الخبر العظيم الشأن. وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: القرآن، قاله مجاهد، ومقاتل، والفراء. قال الفراء: فلما أجاز صارت «عم» كأنها في معنى: لأي شيء يتساءلون عن القرآن. والثاني: البعث، قاله قتادة. والثالث: أنه أمر النبي ﷺ، حكاة الزجاج.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ ﴿٢﴾﴾ من قال: إنه القرآن، فإن المشركين اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو سحر، وقال بعضهم: هو شعر، وقال بعضهم: أساطير الأولين، إلى غير ذلك. وكذلك من قال: هو أمر النبي ﷺ. فأما من قال: إنه البعث والقيامة، ففي اختلافهم فيه قولان: أحدهما: أنهم اختلفوا فيه لما سمعوا به، فمنهم من صدق وآمن، ومنهم من كذب، وهذا معنى قول قتادة. والثاني: أن المسلمين والمشركين اختلفوا فيه، فصدق به المسلمون، وكذب به المشركون، قاله يحيى بن سلام.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال بعضهم: هي ردع وزجر. وقال بعضهم: هي نفي لاختلافهم، والمعنى: ليس الأمر على ما قالوا ﴿سَيَمْكُونَهُ﴾ عاقبة تكذيبهم حين ينكشف الأمر ﴿كَلَّا سَيَمْكُونَهُ﴾ وعيد على إثر وعيد. وقرأ ابن عامر «استعلمون» في الحرفين بالياء. ثم ذكر صنعه ليعرفوا توحيد، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ لِمَ تَجْعَلُ الْأَرْضَ يَهْدًا ﴿١﴾﴾ أي: فراضاً وبسطاً ﴿وَاللِّجَالَ أَرْدَابًا ﴿٧﴾﴾ للارض لثلاث تمديد ﴿وَخَلَقْتَهُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾﴾ أي: أصنافاً، وأضداداً، ذكوراً، وإناثاً، سوداً،

(١) روى ابن جرير الطبري سبب النزول هذا عن الحسن ١/٣٠، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٠٥/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن الحسن.

ويضاً، وحمرأ ﴿وَجَعَلْنَا قَوْمَكَ سَبَا﴾ قال ابن قتيبة: أي: راحة لأبدانكم. وقد شرحنا هذا في [الفرقان: ٤٧] وشرحنا هناك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْآلَ يَاسَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَنَاسًا﴾ أي: سبباً لمعاشكم. والمعاش: العيش، وكل شيء يُعَاشُ به، فهو مَعَاشٌ. والمعنى: جعلنا النهار مطلباً للمعاش. وقال ابن قتيبة: معاشاً، أي: عيشاً، وهو مصدر. ﴿وَلَيْسَتَا فَوْقَكُمْ سَبَاً شِدَاكًا﴾ قال مقاتل: هي السموات، غلظ كل سماءٍ مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماءين مثل ذلك، وهي فوقكم يا بني آدم. فاحذروا أن تُعْضُوا فتخزَّ عليكم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَرَكًا﴾ يعني: الشمس ﴿وَمَوَاسِمًا﴾ قال ابن عباس: هو المضيء. وقال اللغويون: الوهاج: الوقاد. وقيل: الوهاج يجمع النور والحرارة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها السموات، قاله أبي بن كعب، والحسن، وابن جبير. والثاني: أنها الرياح، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، ومقاتل. وقال زيد بن أسلم: هي الجنوب. فعلى هذا القول تكون «مِنْ» بمعنى «الباء»، فتقديره: بالمعصرات. وإنما قيل للرياح: معصرات، لأنها تستدرُّ المطر. والثالث: أنها السحاب، رواه الوالي عن ابن عباس، وبه قال أبو العالية، والضحاك، والربيع. قال الفراء: السحابة المعصر: التي تتحلَّبُ بالمطر ولما يجتمع، مثل الجارية المعصر، قد كادت تحيض، ولما تحض. وكذلك قال ابن قتيبة: شَبَّهت السحاب بمعاصير الجوارى، والمُعَصِرُ: الجارية التي قد دنت من الحيض. وقال الزجاج: إنما قيل للسحاب: معصرات، كما قيل: أجرُ الزرعُ، فهو مُجْرٌ، أي: صار إلى أن يُجْرَ، فكذلك السحاب إذا صار إلى أن يطر، فقد أعصر.

قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال مقاتل: أي: مطراً كثيراً مُنْصَباً يتبع بعضه بعضاً. وقال غيره: يقال: نَجَّ الماءُ ينج: إذا انصبَّ ﴿يُنْجِرُ بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿مَبْرًا وَمَبْرًا﴾ وفيه قولان: أحدهما: أن الحب: ما يأكله الناس، والنبات: ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام، هذا قول الجمهور. وقال الزجاج: كُلُّ مَا حُصِدَ حَبٌّ، وكُلُّ مَا أَكَلْتَهُ الْمَاشِيَةُ من الكلال، فهو نبات. والثاني: أن الحب: اللؤلؤ، والنبات: العشب. قال عكرمة: ما أنزل الله من السماء قطراً، إلا أنبت به في البحر لؤلؤاً، وفي الأرض عشباً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتَنِي﴾ يعني: بساتين ﴿الْبَنَاتِ﴾ قال أبو عبيدة: أي: متلقةً من الشجر ليس بينها خلال، الواحدة: لَفَاءٌ، وجنات لَفٌ، وجمع الجمع: أَلْفَافٌ. قال المفسرون: فدلَّ بذكر المخلوقات على البعث. ثم أخبر عن يوم القيامة فقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يوم القضاء بين الخلائق ﴿كَأَنَّ سَيْقِنًا﴾ لما وعد الله من الثواب والعقاب. ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ قَاتُونَ﴾ من قبوركم ﴿أَنزَابًا﴾ أي: زَمْرًا زَمْرًا من كل مكان ﴿وَفِي حَيْثُ السَّمَاءِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر «وَقُتِحَتْ» بالتشديد. وقرأ عاصم، وحمره، والكسائي بالتخفيف، وإنما تفتح لنزول الملائكة ﴿كَانَتْ أَرْبَابًا﴾ أي: ذات أبواب ﴿وَسِيْرَتِ الْإِنْبَاءِ﴾ عن أماكنها ﴿كَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: كالسراب، لأنها تصير هباءً منبثاً فيراها الناظر كالسراب بعد شدتها وصلابتها ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ قال المبرد: مرصاداً يرصدون به، أي: هو مُعَدُّ لَهُمْ يَرْصُدُ بها خزنتها الكفار. وقال الأزهرى: المرصاد: المكان الذي يَرْصُدُ فيه الراصد العدو. ثم بين لمن هي مرصاد فقال تعالى: ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: للمشركين ﴿وَأَنبَاءًا﴾ أي: مرجعاً.

قوله تعالى: ﴿الْبَيْتِينَ﴾ وقرأ حمزة «لَيْشِينَ» والمعنى فيهما واحد. يقال: هو لايت بالمكان، وليت. ومثله ظامع، وطمع، وفاره، وقره. وأما الأحقاب فجمع حقب، وقد ذكرنا الاختلاف فيه في [الكهف: ٦٠]. فإن قيل: ما معنى ذكر الأحقاب، وخلودهم في النار لا نفاذ له؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن هذا لا يدلُّ على غاية، لأنه كلما مضى حقب تبعه حقب. ولو أنه قال «الباين فيها عشرة أحقاب أو خمسة» دلَّ على غاية، هذا قول ابن قتيبة، والجمهور. وبيانه أن زمان أهل الجنة والنار يَتَّصِرُ دخوله تحت العدد، وإن لم يكن لها نهاية^(١). والثاني: أن المعنى: أنهم يلبثون فيها أحقاباً ﴿

(١) في النسخة الاستنبولية: وإن لم يكن لها غاية.

يَذُوقُونَ ﴿١﴾ فِي الْأَحْقَابِ ﴿بِرِّدًا وَلَا تَرَدًّا﴾ ﴿٢﴾ فَأَمَا خلودهم في النار فدائم. هذا قول الزجاج. وبيانه أن الأحقاب حَدُّ لعذابهم بالحميم والغساق، فإذا انتقضت الأحقاب عُذِّبُوا بغير ذلك من العذاب. وفي المراد «بالبرد» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه برد الشراب. روى أبو صالح عن ابن عباس قال: لا يذوقون فيها برد الشراب، ولا الشراب. والثاني: أنه الرُّوح والراحة، قاله الحسن، وعطاء. والثالث: أنه النوم، قاله مجاهد، والسدي، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، وأنشدوا:

لَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النَّسَاءَ سِوَاكُمُ
وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا وَلَا بَرْدًا^(١)

قال ابن قتيبة: النقاخ: الماء، والبرد: النوم، سمي بذلك لأنه تبرد فيه الحرارة. وقال مقاتل: لا يذوقون فيها برداً ينفعهم من حرها، ولا شرباً ينفعهم من عطش، ﴿إِلَّا حِيمًا وَنَسَاءً﴾ ﴿١٥﴾ ﴿٢﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر «غَسَاقًا» بالتخفيف. وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل، وحفص عن عاصم بالتشديد. وقد تقدم ذكر الحميم، والغساق [ص: ٥٧] ﴿جَزَاءً وَنِقَابًا﴾ قال الفراء: وفقاً لأعمالهم. وقال غيره: جُوزُوا جزاءً وفقاً لأعمالهم على مقدارها، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ﴿١٧﴾ ﴿٣﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يخافون أن يحاسبوا، لأنهم لا يؤمنون بالبعث، قاله الجمهور. والثاني: لا يرجون ثواب حساب، لأنهم لا يؤمنون بالبعث، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ قال الفراء: الكذاب بالتشديد لغة يمانية فصيحة، يقولون: كذبت به كذباً، وخرقت القميص خرقاً، وكل «فعلت» فمصدره في لغتهم مُشَدَّد. قال لي أعرابي منهم على المروة يستفتيني: الخلق أحب إليك، أم القيصار؟ وأنشدني بعض بني كلاب:

لَقَدْ طَالَ مَا تَبَطَّنِي عَنْ صَحَابَتِي
وَعَنْ حَوْجٍ قِضَاوَاهَا مِنْ شِفْسَائِيَا^(٤)

وأما أهل نجد، فيقولون: كذبت به تكديماً. وقال أبو عبيدة: الكذاب أشد من الكذاب، وهما مصدر المكاذبة. قال الأعي: قال الأعي:

فَصَدَّقْتُهَا وَكَذَّبْتُهَا
وَالْمَرَّةُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ^(٥)

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ قال الزجاج: «كل» منصوب بفعل مضمر تفسيره: أحصيناه، والمعنى: أحصينا كل شيء، و«كتبنا» توكيد^(٦) لـ«أحصيناه» لأن معنى «أحصيناه» و«كتبناه» فيما يحصل ويثبت واحد. فالمعنى: كتبناه كتاباً. قال المفسرون: وكل شيء من الأعمال أثبتناه في اللوح المحفوظ. ﴿مُذَوَّبًا﴾ أي: فيقال لهم: ذوقوا جزاء فعالكم ﴿هَلْ نَرِيكُمْ إِلَّا عِدَابًا﴾ ﴿١٥﴾ إِنَّ لِلنَّاسِ الَّذِينَ لَمْ يَشْكُرُوا ﴿مَغَازًا﴾ وفيه قولان: أحدهما: متنزهاً، قاله ابن عباس، والضحاك. والثاني: فازوا بأن نجواً من النار بالجنة، ومن العذاب بالرحمة، قاله قتادة. قال ابن قتيبة: «مغازاً» في موضع «فوز». ﴿مَنَائِقَ﴾ قال ابن قتيبة: الحدائق: بسايتين نخل، واحدها: حديقة.

قوله تعالى: ﴿وَكَايِبَ﴾ قال ابن عباس: الكواعب: التواهد. قال ابن فارس: يقال: كعبت المرأة كعباً، فهي كاعب: إذا نكأ نكأً ذليها. وقد ذكرنا معنى «الأتراب» في [ص: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَسَا وَهَاقًا﴾ ﴿١٦﴾ ﴿٣﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الملاى، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال

(١) البيت لعبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان المرجمي، وهو في «ديوانه» ١٠٩، و«غريب القرآن» ١٤٦، ٥٠٩، و«شواهد الكشاف» ٣٤، والقرطبي ١٧٨/١٩، و«البحر» ٤١٤/٨.

(٢) البيت من شواهد الفراء في «معاني القرآن» (الورقة ٣٥٥) وهو في الطبري ١٦/٣٠، والقرطبي ١٧٩/١٩، و«اللسان»: قضى. والشاهد فيه تشديد «قضاؤها».

(٣) البيت في ملحق «ديوان الأعي» ٢٣٨، و«مجاز القرآن» ٢/٢٨٣، و«الكامل» للمبرد ٥٦٤. قال المبرد: وأنشد المازني للأعي، وليس مما روت الرواة متصلاً بقصيدة:

فَصَدَّقْتُ شُهُمَ وَكَذَّبْتُ شُهُمَ
وَالْمَرَّةُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ

وهو في الطبري ٢٠/٣٠، والقرطبي ١٧٩/١٩، و«اللسان» و«التاج»: صدق.

(٤) في الأصل: توكيداً.

الحسن، وقتادة، وابن زيد. والثاني: أنها المتتابعة. رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال ابن جبير. وعن مجاهد كالقولين. والثالث: أنها الصافية، قاله عكرمة.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة إذا شربوها ﴿لَتَوَّ﴾ وقد ذكرناه في [الطور: ٢٣] وغيرها ﴿وَلَا كَذِبًا﴾ أي: لا يكذب بعضهم بعضاً، لأن أهل الدنيا إذا شربوا الخمر تكلموا بالباطل، وأهل الجنة مُتَّزِهون عن ذلك. قال الفراء: وقراءة علي عليه السلام ﴿كِذَابًا﴾ بالتخفيف، كأنه - والله أعلم - لا يتكاذبون فيها. وكان الكسائي يخفف هذه ويشدد، ﴿وَكَذِبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا﴾ لأن «كذبوا» يقيد «الكذاب» بالمصدر، وهذه ليست مقيدة بفعل بصيرها مصدرًا. وقد ذكرنا عن أبي عبيدة أن الكذاب بالتشديد والتخفيف مصدر المكاذبة. وقال أبو علي الفارسي: «الكذاب» بالتخفيف مصدر «كذب»، مثل «الكتاب» مصدر «كتب».

قوله تعالى: ﴿جَزَاءً﴾ قال الزجاج: المعنى: جازاهم بذلك جزاءً، وكذلك «عطاء»، لأن معنى أعطاهم وجازاهم واحد. و«جسًا» معناه: ما يكفيهم، أي: فيه كل ما يشتهون. يقال: أحسبني كذا بمعنى كفاي. ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والمفضل «رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرض وما بينهما الرحمن» برفع الباء من «رب» والنون من «الرحمن» على معنى: هو ربُّ السَّمَوَاتِ. وقرأ عاصم، وابن عامر بخفض الباء والنون على الصفة من «رَبُّكَ». وقرأ حمزة والكسائي بكسر الباء ورفع النون، واختار هذه القراءة الفراء، ووافقه على هذا جماعة، وعللوا بأن الربُّ قريب من المخفوض، والرحمن بعيد منه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَلِكُونُ يَتَّهُ خَطَابًا﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يملكون الشفاعة إلا بإذنه، قاله ابن السائب. والثاني: لا يقدر الخلق أن يكلموا الربُّ إلا بإذنه، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: أنه جند من جند الله تعالى، وليسوا بملائكة، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(١). وقال مجاهد: هم خلق على صورة بني آدم يأكلون ويشربون. والثاني: أنه ملك أعظم من السَّمَوَاتِ والجبال، والملائكة، قاله ابن مسعود، ومقاتل بن سليمان^(٢). وروى عطاء عن ابن عباس قال: الروح: ملك ما خلق الله أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام هو وحده صَفًّا، وقامت الملائكة كلهم صَفًّا واحدًا، فيكون عِظْمُ خَلْقِهِ مثل صفوفهم. والثالث: أنها أرواح الناس تقوم مع الملائكة فيما بين النفتين قبل أن تُرَدَّ إلى الأجسام، رواه عطية عن ابن عباس. والرابع: أنه جبريل عليه السلام، قاله الشعبي، وسعيد بن جبير، والضحاك. والخامس: أنهم بنو آدم، قاله الحسن، وقتادة. والسادس: أنه القرآن، قاله زيد بن أسلم. والسابع: أنهم أشرف الملائكة، قاله مقاتل بن حيان^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْمَلِكَةُ صَفًّا﴾ قال الشعبي: هما سمامطان، سمامط من الروح، وسمامط من الملائكة. فعلى هذا يكون المعنى: يوم يقوم الرُّوحُ صَفًّا، والملائكة صَفًّا. وقال ابن قتيبة: معنى قوله تعالى: ﴿صَفًّا﴾ صفوفًا.

قوله تعالى: ﴿لَا يَكْفُرُونَ﴾ يعني: الخلق كلهم ﴿إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الكلام ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: قال في الدنيا صوابًا، وهو الشهادة بالتوحيد عند أكثر المفسرين. وقال مجاهد: قال حقًا في الدنيا، وعمل به ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ أَنقَضَ﴾ الكائن الواقع بلا شك ﴿فَمَنْ شَاءَ أَخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا﴾ أي: مرجعًا إليه بطاعته. ثم حُوِّفَ كَفَّار مكة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ وهو عذاب الآخرة، وكل آت قريب ﴿يَوْمَ يُنظَرُ الرُّمَّةُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: يرى عمله مثبتًا في صحيفته خيرا كان أو شرا ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ يا ليتني لم أبعث. وحكى الثعلبي عن بعض أشياخه أنه رأى في بعض التفاسير أن الكافر هاهنا: إبليس، وذلك أنه عاب آدم، لأنه خُلِقَ من التراب، فتمنى يوم القيامة أنه كان بمكان آدم، فقال: يا ليتني كنت ترابًا^(٤).

(١) ذكره السيوطي في «الدرر» ٣٠٩/٦ من رواية ابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «المعظمة»، وابن مردويه عن ابن عباس، والله أعلم بصحة سنده. وقد ذكر ابن كثير هذا المعنى عن ابن عباس موقوفًا عليه، وذكره ابن كثير والشوكاني عن مجاهد وأبي صالح، ولعله مما تلقاه ابن عباس من الإسرائيليات، والله أعلم.

(٢) روى هذا المعنى ابن جرير الطبري في «تفسيره» ٢٢/٣٠ عن ابن مسعود. قال ابن كثير: وهذا قول غريب جداً.

(٣) توفي ابن جرير الطبري فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها، وقال ابن كثير: والأشبه عندي - والله أعلم - أنهم بنو آدم.

(٤) والصحيح أنها عامة في كل كافر، وإبليس داخل بطريق الأولى.

سورة النازعات

مكية كلها ياجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَقًا﴾ ① وَالنَّشِيطَاتُ تَطَافًا ② وَالسَّيْحَاتُ لَهْفًا ③ فَلَمَّ يَسْتَقِدَّتْ سَبَا ④ فَلَمَّ يَدْرَبَتْ أَثَرًا ⑤ يَوْمَ تَرْجُمُ الرَّاكِبَةَ ⑥ تَنْبُهًا الرَّاكِبَةَ ⑦ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِعَةٌ ⑧ أَمْسَدَهَا خَشِيمَةٌ ⑨ يَقُولُونَ أَوَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ رُحَمَاءُ ⑩ أَوْ دَا كُنَّا عَلَيْكُمْ تَحَرُّمًا ⑪ قَالُوا يَا لَيْلَ إِذَا كُرُّهُ خَائِرَةٌ ⑫ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ زَيْدَةٌ ⑬ فَإِذَا هُمْ بِالنَّازِعَاتِ ⑭

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتُ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: أنها الملائكة تَنْزِعُ أرواح الكفار، قاله علي، وابن مسعود. وروى عطية عن ابن عباس قال: هي الملائكة تَنْزِعُ نفوس بني آدم، وبه قال مسروق. والثاني: أنه الموت يَنْزِعُ النفوس، قاله مجاهد. والثالث: أنها النفس حين تَنْزِعُ، قاله السدي. والرابع: أنها النجوم تَنْزِعُ من أفق إلى أفقٍ تطلع ثم تغيب، قاله الحسن، وقتادة، وأبو عبيدة، والأخفش، وابن كيسان. والخامس: أنها القيسي تَنْزِعُ بالسهم، قاله عطاء، وعكرمة. والسادس: أنها الوحوش تَنْزِعُ وتفر، حكاه الماوردي. والسابع: أنها الرُماة، حكاه الثعلبي^(١).

قوله تعالى: ﴿غَرَقًا﴾ اسم أقيم مقام الإغراق. قال ابن قتيبة: والمعنى: والنازعات إغراقاً، كما يغرق النازع في القوس، يعني: أنه يبلغ به غاية المد.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّشِيطَاتُ تَطَافًا﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنها الملائكة^(٢). ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أنها حين تنشط أرواح الكفار حتى تخرجها بالكرب والغم، قاله علي عليه السلام. قال مقاتل: ينزع ملك الموت روح الكافر، فإذا بلغت ترقوته غرقها في حلقه، فيعذبها في حياته، ثم ينشطها من حلقه - أي: يجذبها - كما ينشط السفود من الصوف المتبل. والثاني: أنها تنشط أرواح المؤمنين بسرعة، كما ينشط العقال من يد البعير إذا حلَّ عنها، قاله ابن عباس. وقال الفراء: الذي سمعته من العرب: كما أنشط من عقال بالف. تقول: إذا ربطت الحبل في يد البعير: نشطته، فإذا حلته قلت: أنشطته. والقول الثاني: أنها أنفس المؤمنين تنشط عند الموت للخروج، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً. ويبان أن المؤمن يرى منزله من الجنة قبل الموت فتتنشط نفسه لذلك. والثالث: أن الناشطات: الموت ينشط نفس الإنسان، قاله مجاهد. والرابع: النجوم تنشط من أفق إلى أفق، أي: تذهب، قاله قتادة، وأبو عبيدة، والأخفش. ويقال لبقير الوحش: نواشط، لأنها تذهب من موضع إلى موضع. قال أبو عبيدة: والهموم تنشط بصاحبها. قال هيمان بن حقافة:

أَمْسَتْ هُمُومِي تَنْشِطُ الْمَنَاشِطَا

الشَّامُ بِي طُورًا وَطُورًا وَاسْطَا^(٣)

والخامس: أنها النفس حين تنشط بالموت، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّيْحَاتُ لَهْفًا﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أنها الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين، قاله علي عليه السلام. قال ابن السائب: يقبضون أرواح المؤمنين كالذي يسبح في الماء. فأحياناً ينغمس، وأحياناً يرتفع، يسألونها سلاً رقيقاً،

(١) ذكر ابن كثير أن الصحيح في قوله: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَقًا﴾: الملائكة، قال: يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتفرقه في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة، وكأنما حلته من نشاط، وهو قوله: ﴿وَالنَّشِيطَاتُ تَطَافًا﴾.

(٢) وهو الأقرب.

(٣) البيت في «اللسان»: نشط، لهيمان بن حقافة، راجز إسلامي. وهو في «مجاز القرآن» ٢/٢٨٤، والطبري ٣٠/٢٩، والقرطبي ١٩/١٩٠، و«أرواح المعاني» ٣٠/٢٤، ومعنى البيت: يقول: صارت همومي تنقلني من بلد إلى بلد، فمرة إلى الشام، ومرة إلى واسط.

ثم يدعونها حتى تستريح. والثاني: أنهم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، كما يقال للفرس الجواد: سابح. إذا أسرع في جريه، قاله مجاهد، وأبو صالح، والفراء. والثالث: أنه الموت يسبح في نفوس بني آدم، روي عن مجاهد أيضاً. والرابع: أنها السفن تسبح في الماء، قاله عطاء. والخامس: أنها النجوم، والشمس، والقمر، كل في فلك يسبحون، قاله قتادة، وأبو عبيدة. والسادس: أنها الخيل، حكاه الماوردي^(١).

قوله تعالى: ﴿فَالْتَبَيَّنَتْ سَبْعًا ۝١١﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنها الملائكة. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء، قاله علي، ومسروق. والثاني: أنها تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، قاله مجاهد، وأبو رزق. والثالث: أنها سبقت بني آدم إلى الإيمان، قاله الحسن. والقول الثاني: أنها أنفوس المؤمنين تسبق الملائكة شوقاً إلى لقاء الله، فيقبضونها وقد عاينت السرور، قاله ابن مسعود. والثالث: أنه الموت يسبق إلى النفوس، روي عن مجاهد أيضاً. والرابع: أنها الخيل، قاله عطاء. والخامس: أنها النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿فَالْمُدْبِرَاتُ أَمْرًا ۝١٢﴾ قال ابن عباس: هي الملائكة. قال عطاء: وكُلْتُ بأمر عَرَفْنَهُمُ اللهُ العمل بها. وقال عبد الرحمن بن سابط: يُدَبِّرُ أمر الدنيا أربعة أملاك: جبريل، وهو موكل بالرياح والجنود. وميكائيل، وهو موكل بالقطر والنبات. وملك الموت، وهو موكل بقبض الأنفس. وإسرافيل، وهو ينزل بالأمر عليهم. وقيل: بل جبريل للوحي، وإسرافيل للصور. وقال ابن قتيبة: فالمدبِّراتُ أمرًا: تنزل بالحلال والحرام. فإن قيل: أين جواب هذه الأقسام؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن الجواب قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن يَخْشَى ۝١٣﴾، قاله مقاتل. والثاني: أن الجواب مضمرة، تقديره: لَتُبْعَثَنَّ، وَلَتَحَاسِبُنَّ، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أَوَدَا كُنَّا عَظْمًا نَّحْرَةً ۝١٤﴾ قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرُجُّمُ الرَّجِمَةُ ۝١٥﴾، وهي النفخة الأولى التي يموت منها جميع الخلائق. و«الراجفة» صيحة عظيمة فيها تردد واضطراب كالرعد إذا تمحض. و«ترجف» بمعنى: تتحرك حركة شديدة ﴿تَبَعَهَا الرَّادِفَةُ ۝١٦﴾ وهي: النفخة الثانية ردت الأولى، أي: جاءت بعدها. وكل شيء جاء بعد شيء فهو يردفه ﴿فَلَوْ يَوْمَهِمْ وَاجِعَةً ۝١٧﴾ أي: شديدة الاضطراب لما عاينت من أحوال القيامة، ﴿أَبْصَرَكُمْ خَشِيعَةً ۝١٨﴾ أي: ذليلة لمعاينة النار. قال عطاء: وهذه أبصار من لم يمت على الإسلام. ويدل على هذا أنه ذكر منكري البعث، فقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَوَنَّا لَكُرْدُودُونَ فِي لَكَاظِرَةٍ ۝١٩﴾ قرأ ابن عامر وأهل الكوفة «أنا» بهمزتين مخففتين على الاستهزام، وقرأ الباقون بتخفيف الأولى وتلين الثانية، وفصل بينهما بألف نافع وأبو عمرو. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أن الحافرة: الحياة بعد الموت. فالمعنى: أترجع أحياء بعد موتنا؟! وهذا قول ابن عباس، وعطية، والسدي. قال الفراء: يعنون: أترد إلى أمرنا الأول إلى الحياة؟ والعرب تقول: أتيت فلاناً، ثم رجعت على حافرتي، أي: رجعت من حيث جئت. قال أبو عبيدة: يقال: رجع فلان في حافرته، وعلى حافرته: إذا رجع من حيث جاء، وهذا قول الزجاج. والثاني: أنها الأرض التي تحفر فيها قبورهم، فسُميت حافرة، والمعنى: محفورة، كما يقال: ﴿هَلْوَ دَابِّي ۝٢٠﴾ [الطارق: ٦]، و﴿يَسِّرُوا رَأْسِي ۝٢١﴾ [الحاقة: ٢١] وهذا قول مجاهد والخليل. فيكون المعنى: أتنا لمرودون إلى الأرض خلقاً جديداً؟! قال ابن قتيبة: «في الحافرة» أي: إلى أول أمرنا. ومن فسرها بالأرض، فإلى هذا يذهب، لأننا منها بُدِّئنا. قال الشاعر:

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ سَفْوٍ وَعَارٍ^(٢)

[كانه قال: أرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبأ^(٤) بعد ما شيبْتُ وَصَلَعْتُ؟^(٥)]. والثالث: أن الحافرة: النار، قاله ابن زيد^(٦).

(١) والقول الأول أقرب إلى الصواب.

(٢) البيت في «غريب القرآن» ٥١٣، والطبري ٣٣/٣٠، والقرطبي ١٩/١٩٥، وهو في «اللسان»: حفر، قال: وأشد ابن الأعرابي... فذكروه.

(٤) في الأصل: أرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من القول في الصبا. والتصحيح من «لسان العرب».

(٥) زيادة من «اللسان».

(٦) ما بين المعقوفين زيادة من النسخة الإستانبولية.

قوله تعالى: ﴿وَأَوَدًا كُنَّا عِظْمًا خَيْرَةً﴾ ﴿١٥﴾ وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم «ناخِرة». قال الفراء: وهما بمعنى واحد في اللغة. مثل طمع، وطامع. وحزير، وحازير. وقال الأخفش: هما لغتان. وقال الزجاج: يقال: نَجَرَ العظم يَنْجُرُ، فهو نَجْرٌ. مثل عَفِنَ الشيء يَعْفُنُ، فهو عَفِينٌ. وناخرة على معنى: عظاماً فارغة، يجيء فيها من هبوب الريح كالنخير. قال المفسرون: والمراد أنهم أنكروا البعث، و ﴿عَالُوا﴾: نُزِدُ أحياء إذا متنا ووليت عظامنا؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا كَرِهْنَا لَكُمْ غَيْرَ﴾ أي: إن رُودنا بَعْدَ الموت لِنَحْسِرَنَّ بما يصيبنا مما يَعِدُنَا به محمد، فأعلمهم الله بسهولة البعث عليه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا كَرِهْنَا لَكُمْ غَيْرَ﴾ أي: صيحة في الصور يسمعونها من إسرافيل وهم في الأرض فيخرجون ﴿فَإِنَّا هُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ ﴿١٦﴾ وفيها أربعة أقوال: أحدها: أن الساهرة: وجه الأرض، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، واللغويون^(١). قال الفراء: كأنها سميت بهذا الاسم، لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم. والثاني: أنه جبل عند بيت المقدس، قاله وهب بن منبه. والثالث: أنها جهنم، قاله قتادة. والرابع: أنها أرض الشام، قاله سفيان.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى﴾ ﴿١٧﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٨﴾ أَذْهَبَ إِلَيْكَ رِجُونَ إِنْ تَرَىٰ لَهُنَّ ﴿١٩﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَهُ ﴿٢٠﴾ وَأَقْبِيكَ إِلَهَ رَبِّكَ فَتَنَّتْ ﴿٢١﴾ فَارْتَدَّ الْآيَةُ الْكُبْرَى ﴿٢٢﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢٣﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَغَيَّبُ ﴿٢٤﴾ فَقَضَىٰ فَآذَنَّا ﴿٢٥﴾ أَنَّا رَجِمْنَاكَ فَأَخْلَقْنَا لَكَ نُفُوسَ الْبَنَاتِ أَلَمْ نَخْلُقْ لَكَ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن يَتَفَكَّرُ ﴿٢٧﴾ مَا نَسُوا اللَّهَ أَن يُرْسِلَ إِلَيْهِمُ آيَةً فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُم كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٨﴾ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَجْهًا ﴿٢٩﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣٠﴾ وَالْجِبَالِ أَوَّسَهَا ﴿٣١﴾ سَمًا لِّكُرِّ الْأَعْيُنِ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى﴾ ﴿١٧﴾ أي: قد جاءك. وقد بيَّننا هذا في [طه: ٩] وما بعده إلى قوله تعالى: ﴿طُوًى﴾ ﴿١٨﴾ أَذْهَبَ: قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو «طوى اذهب» غير مجرأة. وقرأ الباقون «طوى» منونة ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَهُ﴾ ﴿٢٠﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع «تَرْكِي» بتشديد الزاي، أي: تَطَهَّرَ من الشرك ﴿وَأَقْبِيكَ إِلَهَ رَبِّكَ﴾ أي: ادعوك إلى توحيد، وعبادته ﴿فَتَنَّتْ﴾ عذابه ﴿فَارْتَدَّ الْآيَةُ الْكُبْرَى﴾ ﴿٢٢﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها اليد والعصا، قاله جمهور المفسرين. والثاني: أنها اليد، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ﴾ أي بأنها من الله، ﴿وَعَصَى﴾ نبيّه ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ﴾ أي: أعرض عن الإيمان ﴿يَتَغَيَّبُ﴾ أي: يعمل بالفساد في الأرض ﴿فَتَنَّتْ﴾ أي: فجمع قومه وجنوده ﴿فَآذَنَّا﴾ لما اجتمعوا ﴿فَقَالَ أَنَّا رَجِمْنَاكَ فَأَخْلَقْنَا لَكَ نُفُوسَ الْبَنَاتِ﴾ أي: لا رب قوتي. وقيل: أراد أن الأصنام أرباب، وأنها ربُّها وربكم. وقيل: أراد: أنا ربُّ السادة والقادة.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَجْهًا﴾ ﴿٢٩﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن الأولى قوله: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِن آيَةٍ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿فَآذَنَّا﴾ ﴿٢٥﴾ والآخرة قوله: ﴿أَنَا رَجِمْنَاكَ فَأَخْلَقْنَا لَكَ نُفُوسَ الْبَنَاتِ﴾ ﴿٢٦﴾، قاله ابن عباس، وعكرمة، والشعبي، ومقاتل، والفراء. ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد. قال ابن عباس: وكان بينهما أربعون سنة. قال السدي: بقي بعد الآخرة ثلاثين سنة. قال الفراء: فالمعنى: أخذه الله أخذاً نكالاً للآخرة والأولى. والثاني: المعنى: جعله الله نكالاً الدنيا والآخرة، أغرقه في الدنيا، وعذبه في الآخرة، قاله الحسن، وقاتادة. وقال الربيع بن أنس: عذبه الله في أول النهار بالعرق، وفي آخره بالنار. والثالث: أن الأولى: تكذيبه وعصيانه. والآخرة قوله: ﴿أَنَا رَجِمْنَاكَ فَأَخْلَقْنَا﴾، قاله أبو رزين. والرابع: أنها أول أعماله وآخرها، رواه منصور عن مجاهد. قال الزجاج: النكال: منصوب مصدر مؤكد، لأن معنى أخذه الله: نكل الله به نكال الآخرة والأولى: فأغرقه في الدنيا ويعذبه في الآخرة^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن يَتَفَكَّرُ﴾ أي: لعظة ﴿لِّمَن يَتَفَكَّرُ﴾ الله. ثم خاطب منكري البعث، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا كَرِهْنَا لَكُمْ غَيْرَ﴾ قال الزجاج: ذهب بعض النحويين إلى أن قوله تعالى: ﴿بَنَاتٍ﴾ من صفة

(١) وهذا هو الصحيح كما قال ابن كثير، وبقية الأقوال غريبة.

(٢) قال ابن كثير: ﴿وَأَلْمَنَّا لَكَ الْكُفْرَ وَالْأُولَى﴾ ﴿٢٥﴾ أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأنثاله من المتمردين في الدنيا، ﴿وَرَجِمْنَاكَ بِسَمِّ الْآيَةِ﴾ كما قال تامل: ﴿وَبَسَمَلَتْنَهُمْ آيَةً كَبُرَتْ إِلَى الْكُفْرِ وَرَجِمْنَاكَ بِسَمِّ الْآيَةِ﴾ قال: وهذا الصحيح في معنى الآية أن المراد بقوله: ﴿فَكَذَّبَ الْآيَةَ﴾ أي الدنيا والآخرة.

السماء، فيكون المعنى: أم السماء التي بناها. وقال قوم: السماء ليس مما توصل، ولكن المعنى: أنتم أشد خلقاً، أم السماء أشد خلقاً؟ ثم بيّن كيف خلقها، فقال تعالى: ﴿بَنَاهَا﴾ قال المفسرون: أَخْلَقَكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ أَشَدُّ عِنْدَكُمْ، أم السماء في تقديركم؟ وهما في قدرة الله واحد. ومعنى: «بناها» رفعها. وكل شيء ارتفع فوق شيء فهو بناء. ومعنى ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا﴾ رفع ارتفاعها وعلوها في الهواء ﴿سَمَوَاتِهَا﴾ بلا شقوق، ولا فطور، ولا تفاوت، يرتفع فيه بعضها على بعض ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: أظلمه فجعله مظلماً. قال الزجاج: يقال: غطش الليل وأغطش، وغبش وأغبش، وغسق وأغسق، وغشي وأغشى، كله بمعنى أظلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَجَ سَحَابَهَا﴾ أي: أبرز نهارها. والمعنى: أظهر نورها بالشمس. وإنما أضاف النور والظلمة إلى السماء لأنها مصدران ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد خلق السماء ﴿دَحَاهَا﴾ أي: بسطها. وبعض من يقول: إن الأرض خلقت قبل السماء يزعم أن «بعد» هاهنا بمعنى «قبل»، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. وبعضهم يقول: هي بمعنى «مع»؛ كقوله تعالى: ﴿عَلَّلْنَا بِبَدِّ ذَلِكَ زَينَهُ﴾ [القم: ١٣]، ولا يمتنع أن تكون الأرض خلقت قبل السماء، ثم دحيت بعد كمال السماء، وهذا مذهب عبد الله بن عمرو بن العاص. وقد أشرنا إلى هذا الخلاف في [البقرة: ٢٩] (١). ونصبت الأرض بمضمر تفسيره قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾. «أَنزَجَ سَحَابَهَا مَاءَهَا» أي: فَجَرَّ العيون منها ﴿وَوَزَعَهَا﴾ وهو ما يأكله الناس والأنعام، ﴿وَأَلْبَسَ أَرْضَهَا﴾ قال الزجاج: أي: أثبتنا ﴿سَمَكًا لَكُرٍّ﴾ أي: للإمتاع، لأن معنى أخرج منها ماءها ومرعاها: أمتع بذلك. وقال ابن قتيبة: ﴿سَمَكًا لَكُرٍّ﴾ أي: منفعة لكم].

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّلَاقُ الْكُبْرَى﴾ ﴿يَوْمَ يَذُكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ ﴿وَوَزَّيْتِ الْجَبِيضُ لِمَنْ رَى﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ﴿وَأَنزَجَ لَمِيذَةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿فَإِنَّ الْجَبِيضَ مِنَ السَّادَى﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْفَوَاحِشِ﴾ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ﴿يَتَلَوَّنَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَبَانَ مُرْسِنَهَا﴾ ﴿يَوْمَ أَنْتَ مِنَ ذِكْرِنَهَا﴾ ﴿إِلَّا رَيْكَ مِنْهُنَّ﴾ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ بَيْنُنَّهَا﴾ ﴿كَلِمَتٌ يَوْمَ بُرْزَخٍ لَّا يَلْتَمِتُ لَئِذَا أُنزِلَتْ﴾ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا الدُّنْيَا﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّلَاقُ الْكُبْرَى﴾ والطامة: الحادثة التي تطمُّ على ما سواها، أي: تعلقو فوقه. وفي المراد بها هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: النفخة الثانية التي فيها البعث. والثاني: أنها حين يقال لأهل النار: قوموا إلى النار. والثالث: أنها حين يساق أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار.

قوله تعالى: ﴿يَذُكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ أي: ما عمل من خير وشر ﴿وَوَزَّيْتِ الْجَبِيضُ لِمَنْ رَى﴾ أي: لأبصار الناظرين. قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق. وقرأ أبو مجلز، وابن السميع: «لمن ترى» بالتاء. وقرأ ابن عباس، ومعاذ القارئ «لمن رأى» بهمزة بين الراء والألف.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ في كفره ﴿وَأَنزَجَ لَمِيذَةَ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة ﴿فَإِنَّ الْجَبِيضَ مِنَ السَّادَى﴾ قال الزجاج: أي هي المأوى له. وهذا جواب ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّلَاقُ﴾ فإن الأمر كذلك. قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ قد ذكرناه في سورة [الرحمن: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْفَوَاحِشِ﴾ أي: عما تهوى من المحارم. قال مقاتل: هو الرجل يهيم بالمعصية، فيذكر مقامه للحساب، فيتركها.

قوله تعالى: ﴿يَتَلَوَّنَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَبَانَ مُرْسِنَهَا﴾ ﴿يَوْمَ أَنْتَ مِنَ ذِكْرِنَهَا﴾ أي: لست في شيء من علمها وذِكْرِهَا. والمعنى: إنك لا تعلمها ﴿إِلَّا رَيْكَ مِنْهُنَّ﴾ أي: منتهى علمها ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ بَيْنُنَّهَا﴾ وقرأ أبو جعفر «منذر» بالتونين. ومعنى الكلام: إنما أنت مُخَوِّفٌ من يخافها. والمعنى: إنما ينفع إنذارك من يخافها، وهو المؤمن بها. وأما من لا يخافها فكانه لم يُنذَرْ ﴿كَلِمَتٌ يَوْمَ بُرْزَخٍ﴾ أي: يعاينون القيامة ﴿لَئِذَا يُنزَلُ﴾ في الدنيا. وقيل: في قبورها ﴿إِلَّا عِشَّةً أَوْ حَبْلًا﴾ أي: قَدَّرَ آخر النهار من بعد العصر، أو أوَّلَه إلى أن

(١) قال ابن كثير ٩٢/٤: أما خلق الأرض، فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنه فيما ذكره البخاري. انظر «صحيح البخاري» ٤٢٧/٨، ٤٢٨. ثم قال ابن كثير ٤٦٨/٤: ولكن إنما دحيت الأرض بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، قال: وهذا معنى قول ابن عباس وغير واحد، واختاره ابن جرير.

ترتفع الشمس. قال الزجاج: والهاء والألف في «ضحاهها» عائدان^(١) إلى العشية. والمعنى: إلا عشية، أو ضحى العشية. قال الفراء: فإن قيل: للعشية ضحى، إنما الضحى لصدر النهار؟ فالجواب: أن هذا ظاهر في كلام العرب أن يقولوا: آتتك العشية، أو غداتها، أو آتتك الغداة، أو عَشَيْتَهَا، فتكون العشية في معنى «آخر»، والغداة في معنى «أول». أنشدني بعض بني عقيل:

نَحْنُ صَبَحْنَا عَامِرًا فِي دَارِهَا عَشِيَّةَ الْهَلَالِ أَوْ مِرَارِهَا^(٢)

أراد: عشية الهلال، أو عشية سرار العشية، فهذا أشد من قولهم: آتتك الغداة أو عشتها.



(١) في الأصل: عائد.

(٢) البيت لبعض بني عقيل، أنشده الفراء في «معاني القرآن» ٣٥٧ عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَرِئْتَهَا﴾ وهو في الطبري ٥٠/٣٠، والقرطبي ٢٠٨/١٩.

سورة عبس

مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَيْسَ وَتَوَكَّلْ﴾ (١) ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَحْسَنُ﴾ (٢) ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ يَرْجُو﴾ (٣) ﴿أَوْ يَلْذُكَرُ فَنَنْتَعِمُهُ الذِّكْرَى﴾ (٤) ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى﴾ (٥) ﴿فَأَنْتَ لَمْ تَسْأَلْهُ﴾ (٦) ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْجُو﴾ (٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَهُ يَسْرًا﴾ (٨) ﴿وَهُوَ يَخْتَفَى﴾ (٩) ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ لَخَلٌّ﴾ (١٠) ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَنْزِيلُهُ﴾ (١١) ﴿فَرَسًا ذَكْرًا﴾ (١٢) ﴿فِي صُحُفٍ مُتَكَرِّرَةٍ﴾ (١٣) ﴿تَرُوعَهُمْ مَطْهَرًا﴾ (١٤) ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ (١٥) ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (١٦)

قوله تعالى: ﴿عَيْسَ وَتَوَكَّلْ﴾ (١) قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ يوماً يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، وأمياً وأبياً ابني خلف، ويذعوهم إلى الله تعالى، ويرجو إسلامهم، فجاها ابن أم مكتوم الأعمى، فقال: علمني يا رسول الله مما علمك الله، وجعل يناديه، ويكرّر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بكلام غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجهه ﷺ لقطعه كلامه، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وأقبل على القوم يكلمهم، فنزلت هذه الآيات، فكان رسول الله ﷺ يكرمه بعد ذلك، ويقول: «مرحبا بمن عاتبني فيه ربي»^(١). وذهب قوم، منهم مقاتل، إلى أنه إنما جاء ليؤمن، فأعرض عنه النبي ﷺ اشتغالا بالرؤساء، فنزلت فيه هذه الآيات. ومعنى ﴿عَيْسَ﴾ قَطْبٌ وكَلْحٌ ﴿تَوَكَّلْ﴾ أَعْرَضَ بِوَجْهِهِ ﴿أَنْ جَاءَهُ﴾ أي: لأن جاءه. وقرأ أبي بن كعب، والحسن، وأبو المتوكل، وأبو عمران، «أَنْ جَاءَهُ» بهمزة واحدة مفتوحة ممدودة. وقرأ ابن مسعود، وابن السميع «أَنْ» بهمزتين مقصورتين مفتوحتين. و﴿الْأَحْسَنُ﴾ هو ابن أم مكتوم، واسمه عمرو بن قيس. وقيل: اسمه عبد الله بن عمرو ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ يَرْجُو﴾ (٣) أي: يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح، وما يتعلمه منك. وقال مقاتل: لعله يؤمن ﴿أَوْ يَلْذُكَرُ﴾ (٤) أي: يتعظ بما يتعلمه من مواضع القرآن ﴿فَنَنْتَعِمُهُ الذِّكْرَى﴾ (٤) قرأ حفص عن عاصم «فتنعمه» بفتح العين، والباقون برفعها. قال الزجاج: من نصب، فعلى جواب «لعل»، ومن رفع، فعلى العطف على «يرجى».

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى﴾ (٥) قال ابن عباس: استغنى عن الله وعن الإيمان بماله. قال مجاهد: ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى﴾: عتبة، وشيبة، ﴿فَأَنْتَ لَمْ تَسْأَلْهُ﴾ (٦). قرأ ابن كثير، ونافع «تصدى» بتشديد الصاد. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي «تصدى» بفتح التاء، والصاد وتخفيفها، وقرأ أبي بن كعب، وأبو الجوزاء، وعمرو بن دينار: «تصدى» بتاءين مع تخفيف الصاد. قال الزجاج: الأصل: تصدى، ولكن حذف التاء الثانية لاجتماع تاءين. ومن قرأ «تصدى» بإدغام التاء، فالمعنى أيضاً: تصدى، إلا أن التاء أدغمت في الصاد لقرب مخرج التاء من الصاد. قال ابن عباس: «تصدى» تقبل عليه بوجهك. وقال ابن قتيبة: تتعرض^(٢). وقرأ ابن مسعود، وابن السميع، والجدري: «تصدى» بتاء واحدة مضمومة، وتخفيف الصاد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ (٧) أي: أي شيء عليك في أن لا يُسَلِّمَ مَنْ تدعوه إلى الإسلام؟ يعني: أنه ليس عليه إلا البلاغ. ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَهُ يَسْرًا﴾ (٨) فيه قولان: أحدهما: يمشي. والثاني: يعمل في الخير، وهو ابن أم مكتوم ﴿وَهُوَ يَخْتَفَى﴾ (٩) الله ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ لَخَلٌّ﴾ (١٠) وقرأ ابن مسعود، وطلحة بن مصرف، وأبو الجوزاء «تلهي» بتاءين. وقرأ أبي بن

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٣ بغير سند، وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» ١٨١: ذكره الثعلبي بلا إسناد، وأخرجه ابن أبي حاتم من رواية العوفي عن ابن عباس نحوه. وأخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وابن حبان عن عائشة قالت: أنزلت سورة «عيس وتوكل» في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أتري بما أقول بأساً؟ فيقول: لا، ففي هذا أنزلت.

(٢) وفي «غريب القرآن»: تعرّض.

كعب، وابن السميع، والجحدري: «تَلَّهَى» بئاء واحدة خفيفة مرفوعة. قال الزجاج: أي: تشاغل عنه. يقال: لهيت عن الشيء ألهى عنه: إذا تشاغلت عنه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا تفعل ذلك. ﴿إِنِّي﴾ في المكني عنها قولان: أحدهما: آيات القرآن، قاله مقاتل. والثاني: هذه السورة، قاله الفراء. «والتذكرة» بمعنى التذكير ﴿فَن نَّاهُ ذَكْرًا﴾ مفسر في آخر [المدر: ٥٥]. ثم أخبر بجلالة القرآن عنده، فقال تعالى: ﴿فِي حُجُبٍ مَّكِينَةٍ﴾ أي: هو في صحف، أي: في كتب مكرّمة، وفيها قولان: أحدهما: أنها اللوح المحفوظ، قاله مقاتل. والثاني: كتب الأنبياء، ذكره الثعلبي. فعلى هذا يكون معنى «مرفوعة»: عالية القدر. وعلى الأول يكون رفعها كونها في السماء. وفي معنى «المطهرة» أربعة أقوال: أحدها: مطهرة من أن تنزل على المشركين، قاله الحسن. والثاني: مطهرة من الشرك والكفر، قاله مقاتل. والثالث: لأنه لا يمسه إلا المطهرون، قاله الفراء. والرابع: مطهرة من الدنس، قاله يحيى بن سلام.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِي سَرًّا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم الملائكة، قاله الجمهور. والثاني: أصحاب محمد ﷺ، قاله وهب بن منبه. وفي معنى «سَرًّا» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الكتّبة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج. قال الزجاج: واحدهم: سَافِرٌ، وسَفْرَةٌ، مثل كَاتِبٌ، وكتّبة، وكافرٌ، وكفّرة. وإنما قيل للكتّاب: سفرٌ، وللكتّاب: سافرٌ، لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه. يقال: أسفر الصبح: إذا أضاء. وسفرت المرأة: إذا كشفت النقاب عن وجهها. ومنه: سفرت بين القوم، أي: كشفت ما في قلب هذا، وقلب هذا، لأصلح بينهم. والثاني: أنهم القراء، قاله قتادة. والثالث: أنهم السفراء، وهم المصلحون. قال الفراء: تقول العرب: سفرت بين القوم، أي: أصلحت بينهم، فجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله، كالسفير الذي يصلح بين القوم. قال الشاعر:

وَمَا أَدْعُ السُّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي
وَمَا أُنشِي بِبُشٍّ إِنْ مَسَّيْتُ^(١)

قوله تعالى: ﴿رَكِيمٌ﴾ أي: على رَيْبٍ ﴿رَبِّرٌ﴾ أي: مطيعين. قال الفراء: واحد «البررة» في قياس العربية: بَارٌّ، لأن العرب لا تقول: فَعَلَتْ يَتُونَ به الجمع إلا والواحد منه فاعل، مثل كافرٌ، وكفّرة، وفاجرٌ، وفجّرة.

﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ ١٧ ﴿بَيْنَ أَيِّ قَوْمٍ خَلَقْتَهُ﴾ ١٨ ﴿بَيْنَ تَلْفَعُو خَلَقْتَهُ فَتَدَّرُ﴾ ١٩ ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُرُ﴾ ٢٠ ﴿ثُمَّ أَنَا فَأَقْدَرُ﴾ ٢١ ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُهُ﴾ ٢٢ ﴿كَلَّا لَنَا قَبْضٌ مَا أَمْرٌ﴾ ٢٣ ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَائِفِهِ﴾ ٢٤ ﴿أَنَا سَيِّئٌ أَلَمَ سَاءٌ﴾ ٢٥ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ٢٦ ﴿فَأَلْبَنَّا رَبَابًا حَسًّا﴾ ٢٧ ﴿رَبَابًا وَقَبًا﴾ ٢٨ ﴿وَوَرَوْنَا وَخَلَا﴾ ٢٩ ﴿وَسَدَّيْنِ عَلَا﴾ ٣٠ ﴿وَكَلِمَةً وَأَنَا﴾ ٣١ ﴿نَسْنَا لَكُورًا وَكَلِمَةً﴾ ٣٢

قوله تعالى: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ﴾ أي: لعن. والمراد بالإنسان هاهنا: الكافر. وفيمن عنى بهذا القول ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أشار إلى كل كافر، قاله مجاهد. والثاني: أنه أمية بن خلف، قاله الضحاك. والثالث: عتبة بن أبي لهب، قاله مقاتل. وفي قوله تعالى: ﴿مَا أَكْفَرُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: ما أشد كفرة، قاله ابن جريج. والثاني: أي شيء أكفره؟ قاله السدي. فعلى هذا يكون استفهام توبيخ. الثالث: أنه على وجه التعجب، وهذا التعجب يؤمر به الآدميون، والمعنى: اعجبوا أنتم من كفرة، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿بَيْنَ أَيِّ قَوْمٍ خَلَقْتَهُ﴾ ١٨ ثم فسره فقال تعالى: ﴿بَيْنَ تَلْفَعُو خَلَقْتَهُ﴾. وفي معنى «فَتَدَّرُ» ثلاثة أقوال: أحدها: قَدَّرَ أعضائه: رأسه، وعينه، ويديه، ورجليه، قاله ابن السائب. والثاني: قَدَّرَهُ أطواراً: نطفة، ثم علقه، إلى آخر خلقه، قاله مقاتل. والثالث: قَدَّرَهُ على الاستواء، قاله الزجاج. ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُرُ﴾ ٢٠ فيه قولان: أحدهما: سَهَّلَ له العلم بطريق الحق والباطل، قاله الحسن، ومجاهد. قال الفراء: والمعنى: ثم يسره للسبيل. والثاني: يسر له السبيل في خروجه من بطن أمه، قاله السدي، وقائل^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَأَقْدَرُ﴾ قال الفراء: أي جعله مقبوراً، ولم يجعله ممن يلقى للسباع والطيور، فكان القبر مما أُكْرِمَ به المسلم. ولم يقل: قبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده. والمُقْبِرُ الله، لأنه صيِّره مقبوراً، فليس فعله كفعل الآدمي.

(١) البيت من شواهد الفراء في «معاني القرآن» ٣٥٨، وفي «اللسان»: سفر، وهو في الطبري ٥٤/٣٠، والقرطبي ٢١٤/١٩، وابن كثير ٤٧١/٤.

(٢) وهو الذي اختاره ابن جرير الطبري وغيره.

والعرب تقول: بَتَرْتُ ذَنْبَ البعير، والله أبتره. وَعَضَبْتُ قَرْنَ الثور، والله أَعْضَبَهُ. وطردتُ فلاناً عني، والله أطرده، أي: صيَّره طريداً. وقال أبو عبيدة: أقبره: أي أمر أن يقبر، وجعل له قبراً. قالت بنو تميم لعمر بن هبيرة لما قتل صالح بن عبد الرحمن: أقبِرنا صالحاً، فقال: دونكموه. والذي يدفن بيده هو القابر. قال الأعشى:

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلَى نَحْرِهَا
عَاشَتْ وَلَمْ يُسَلِّمْ إِلَى قَابِرِ^(١)
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنْ أَنتَ أَنتَرُ^(٢)﴾ أي: بعثه. يقال: أنشَر الله الموتى، فَتَشِرُوا، وَتَشَر المَيْتُ: حَيِيَ [هو] بِنَفْسِهِ، وواحدهم نَاشِر. قال الأعشى:

حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا
يَا عَجَباً لِمَئِيَّتِ النَّاشِرِ^(٣)
قوله تعالى: ﴿لَا﴾ قال الحسن: حقاً ﴿لَنَا يَقِي مَا أَرَى﴾ به رَبُّهُ، ولم يؤدِّ ما فرض عليه. وهل هذا عام، أم خاص؟ فيه قولان: أحدهما: أنه عام. قال مجاهد: لا يقضي أحد أبداً كُلِّ ما افترض الله عليه^(٤). والثاني: أنه خاص

للكافر لم يقض ما أُمِرَ به من الإيمان والطاعة، قاله يحيى بن سلام. ولما ذَكَر خَلْقُ ابنِ آدمَ، ذَكَر رِزْقَهُ ليعتبر وليستدلُّ بالنبات على البعث، فقال تعالى: ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَيِّبِهِ^(٥)﴾ قال مقاتل: يعني به عِثَةٌ بن أبي لهب. ومعنى الكلام: فلينظر الإنسان كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته؟ ثم بين فقال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ أَتَى ابن كثير، وتنافع، وأبو عمرو، وابن عامر «إنا» بالكسر. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي ﴿أَفَأَنْتَ سَيِّئاً﴾ بفتح الهمزة في الوصل وفي الابتداء، ووافقهم رويس على فتحها في الوصل، فإذا ابتدا كسر. قال الزجاج: من كسر «إنا» فعلى الابتداء والاستئناف، ومن فتح، فعلى البدل من الطعام، المعنى: فلينظر الإنسان أنا صبينا. قال المفسرون: أراد بصب الماء: المطر ﴿ثُمَّ سَنَقْنَا الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿سَقًا﴾ ﴿فَأَلْبَسْنَا يُبَا حَبًا﴾ يعني به جميع الحبوب التي يُتَعَدَّى بها ﴿وَبَعَا وَقَدَا﴾ قال الفراء: هو الرُّطْبَةُ. وأهل مكة يسمون القُتَّ: القُضْب^(٦). قال ابن قتيبة: ويقال: إنه سمي بذلك، لأنه يُقَضَّبُ مرة بعد مرة، أي: يقطع، وكذلك القَصِيلُ، لأنه يُقْضَلُ، أي: يقطع.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّوْنَا وَتَحَلَّا﴾ ﴿وَسَدَّوْنَا عَلَيَّ﴾ قال الفراء: كل بستان كان عليه حائط، فهو حديقة، وما لم يكن عليه حائط لم يقل: حديقة. والغُلْبُ: ما غلظ من النخل. قال أبو عبيدة: يقال: شجرة غُلْبَاء: إذا كانت غليظة. وقال ابن قتيبة: الغُلْبُ: الغلاظ الأعناق. وقال الزجاج: هي المتكافئة، العظام.
قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكُمَا﴾ يعني: ألوان الفاكهة ﴿وَأَبَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه ما ترعاه البهائم، قاله ابن عباس، وعكرمة، واللغوَيون. وقال الزجاج: هو جميع الكلال التي تعتلفه الماشية. والثاني: أنه الثمار الرطبة، رواه الوالبي عن ابن عباس^(٧). ﴿مَنْنَا لَكَ وَلَا تَنْفِكُ﴾ قد بيَّناه في السورة التي قبلها [التنازع: ١٣٣].

(١) البيت للأعشى الكبير ميمون بن قيس، «ديوانه» ١٣٩ من قصيدة يهجو بها علقمة بن علاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المناقرة التي جرت بينهما، وهو في «مجاز القرآن» ٢٨٦/٢، والطبري ٥٦/٣، والقرطبي ٢١٧/١٩. ورواية البيت فيها: عاش ولم يُقَلِّ إلى قابر.

(٢) هو أيضاً للأعشى الكبير من القصيدة نفسها ١٤١، وبعد البيت السابق بلا فاصل بينهما، وهو في «مجاز القرآن» لأبي عبيد ٢٨٦/٢، والطبري ٥٦/٣، والقرطبي ٢١٧/١٩.

(٣) قال ابن كثير: وحكاها البغوي عن الحسن البصري بنحو هذا من هذا، قال: ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا، والذي يقع لي في معنى ذلك - والله أعلم - أن المعنى: ﴿ثُمَّ إِنْ أَنتَ أَنتَرُ﴾ أي: بعثه ﴿لَا نَكَا يَقِي مَا أَرَى﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرح القدر من بني آدم ممن كتب الله أن يسجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدرًا، فإذا تاهى ذلك عند الله أنشَر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم.

(٤) القُضْب: الرُّطْبَةُ، ويقال لها: القُضْبُ، وهي التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها: القُتُّ أيضاً، وكلها بمعنى واحد.

(٥) وما ورد من أن أبا بكر الصديق ﷺ سئل عن قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكُمَا﴾ فقال: أي سماء تظلني وأبي أرض تغلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم، فقد رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن»، من رواية محمد بن زيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي عن أبي بكر ﷺ، وهو منقطع بين إبراهيم التيمي وبين أبي بكر ﷺ. وقد روى ابن جرير قال: حدثنا بشار، حدثنا ابن أبي عدي، حدثنا حميد، عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﷺ ﴿مَنْنَا لَكَ﴾ حتى أتى على هذه الآية ﴿وَرَبَّكُمَا﴾ قال: قد عرفنا ما الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إلى عمر بن الخطاب ﷺ، وقد رواه غير واحد عن أنس به، ولكن هذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْبَسْنَا يُبَا حَبًا﴾ ﴿وَبَعَا وَقَدَا﴾ ﴿وَرَبَّوْنَا وَتَحَلَّا﴾ ﴿وَسَدَّوْنَا عَلَيَّ﴾ ﴿وَرَبَّكُمَا﴾ ﴿مَنْنَا لَكَ وَلَا تَنْفِكُ﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾ (٣٣) يَوْمَ يَبْعُوكَ مِنَ الْكُفْرِ مِنْ أَيْدِيهِمْ (٣٤) وَأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيهِمْ (٣٥) وَصَنَابِيذِهِمْ (٣٦) لِكُلِّ أُمَّةٍ يَنْتَهِمُ يَوْمَئِذٍ شَأْنَهُ يَنْتَهِمُ (٣٧) وَيَوْمَ تُنْفَخُ السُّنُورُ (٣٨) حَاكِكَةً مَسْتَبِيرَةً (٣٩) وَيَوْمَ يُؤْيَدُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْفَعُهَا نَدْرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ الْفَجَرَةُ (٤٢)

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾ (٣٣) وهي الصيحة الثانية. قال ابن قتيبة: الصاخة تصحّ صَحْحًا، أي: تُصِمُّ. يقال: رجل أصح، وأصلح: إذا كان لا يسمع. والداهية صاخة أيضاً. وقال الزجاج: هي الصيحة التي تكون عليها القيامة، تصحّ الأسماع، أي: تصمتها، فلا تسمع إلا ما تدعى به لإحيائها. ثم فسّر في أي وقت تجيء، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعُوكَ مِنَ الْكُفْرِ مِنْ أَيْدِيهِمْ﴾ (٣٤) قال المفسرون: المعنى: لا يلتفت الإنسان إلى أحد من أقاربه، ليعظم ما هو فيه. قال الحسن: أول من يَبْعُوكَ من أخيه هابيل، ومن أمه وأبيه إبراهيم، ومن صاحبه نوح ولوط، ومن ابنه نوح. وقال قتادة: يفر هابيل من قابيل، والنبي ﷺ من أمه، وإبراهيم من أبيه، ولوط من صاحبه، ونوح من ابنه^(١).

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ يَنْتَهِمُ يَوْمَئِذٍ شَأْنَهُ يَنْتَهِمُ﴾ (٣٧) قال الفراء: أي: يَشْعَلُهُ عن قرابته. وقال ابن قتيبة: أي: يَضْرِفُهُ ويصده عن قرابته، يقال: أغنى عني وجهك، أي: أصرفه، وأغن عني السفه. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والزهري، وأبو العالية، وابن السميع، وابن محيصن، وابن أبي عمير «يعنيه» بفتح الياء والعين غير معجمة. قال الزجاج: معنى الآية: له شأن لا يقدر مع الاهتمام به على الاهتمام بغيره. وكذلك قراءة من قرأ «يعنيه» بالعين، معناه: له شأن لا يهمه معه غيره. وقد روى أنس بن مالك قال: قالت عائشة للنبي ﷺ: أنحشر عراة؟ قال: نعم. قالت: واسومتاه، فأنزل الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ يَنْتَهِمُ يَوْمَئِذٍ شَأْنَهُ يَنْتَهِمُ﴾ (٣٧)^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِالسُّبُورِ﴾ (٣٧) أي: مضية قد علمت ما لها من الخير ﴿حَاكِكَةً﴾ لسرورها ﴿مَسْتَبِيرَةً﴾ أي: فرحة بما نالها من كرامة الله ﷻ ﴿وَوُجُودٌ يُؤْيَدُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤٠) أي: غبار. وقال مقاتل: أي: سواد وكآبة ﴿تَرْفَعُهَا﴾ أي: تغشاها ﴿نَدْرَةٌ﴾ أي: ظلمة. وقال الزجاج: يعلوها سواد كالدخان. ثم بيّن من أهل هذه الحال، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ الْفَجَرَةُ﴾ (٤٢) وهو جمع كافر وفاجر.



(١) والصحيح أن الآية عامة. قال الخازن: وفائدة الترتيب: كأنه قيل: يوم يفر المرء من أخيه، بل من أبويه لأنها أقرب من الإخوة، بل من الصحابة والولد، لأن تعلقه بهما أشد من تعلقه بالأبوين. قال ابن كثير: يراهم ويفرّ منهم، لأن الهول عظيم، والخطب جليل. ثم قال: وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق يقول: نفسي نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، حتى إن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتها.

(٢) رواه بنحوه الطبري ٦١/٣٠ من رواية الحسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عائذ بن شريح عن أنس، ورواه ابن أبي حاتم من رواية أزهري بن حاتم عن الفضل بن موسى عن عائذ بن شريح به، وعائذ بن شريح، قال أبو حاتم الرازي في «الجرح والتعليل»: في حديثه ضعف. وروى الترمذي في «سننه» ١٦٨/٢ عن ابن عباس رضى عن النبي ﷺ قال: «تحشرون حفاة عراة غرلاء» فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: يا ثلاثة ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ يَنْتَهِمُ يَوْمَئِذٍ شَأْنَهُ يَنْتَهِمُ﴾ (٣٧) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غير وجه عن ابن عباس. وروى مسلم في «صحيحه» ٤/٢١٩٤ عن عائشة رضى قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشرون الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاء» (غير مختونين)، قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

سورة التكوير

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُيِّرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قِيلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ شُوِّرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُفِّرَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْمَجِمْ سُمِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْبُنَىٰ أُرْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَابَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْصَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

روى أبو عبد الله الحاكم في «صحيحه» من حديث عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾» (١). وفي قوله تعالى: ﴿كُوِّرَتْ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أظلمت، رواه الوابي عن ابن عباس، وكذلك قال الفراء: ذهب ضوءها، وهذا قول قتادة، ومقاتل. والثاني: ذُهِبَتْ، رواه عطية عن ابن عباس، وكذلك قال مجاهد: اضمحلَّت. والثالث: غُوِّرَتْ، روي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وابن الأنباري، وهذا من قول الناس بالفارسية: كُورِبَكَرد (٢). وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: هو بالفارسية كوربوز. والرابع: أنها تُكْوَرُ مثل تكوير العمامة، فتلث وتحمي، قاله أبو عبيد. قال الزجاج: ومعنى «كُوِّرَتْ» جمع ضوءها، ولثمت كما تلف العمامة. ويقال: كُوِّرَتْ العمامة على رأسي أكوؤها: إذا لَفَقْتَهَا. قال المفسرون: تُجمع الشمس بعضها إلى بعض، ثم ثلث ويرمي بها في البحر. وقيل: في النار (٣). وقيل: تعاد إلى ما خلقت منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ (٢): أي: تناثرت، وتهاقت. يقال: انكدر الطائر في الهواء: إذا انقض. ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٣): عن وجه الأرض، فاستوت مع الأرض ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ (٤): قال المفسرون وأهل اللغة: العشار: النوق الحوامل، وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر فقيل لها: العشار لذلك، وذلك الوقت أحسن زمان حملها، وهي تضع إذا وضعت لتمام في سنة، فهي أنفس ما للعرب عندهم، فلا يعطلونها، إلا لإتيان ما يشغلهم عنها، وإنما خوطبت العرب بأمر العشار، لأن أكثر عيشهم ومالهم من الإبل. ومعنى «عُطِّلَتْ» سُبِّبَتْ وأهْمِلَتْ، لاستغفالهم عنها بأهوال القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُيِّرَتْ﴾ يعني: دواب البحر ﴿حُيِّرَتْ﴾ وفيه قولان: أحدهما: ماتت، قاله ابن عباس. والثاني: جمعت إلى القيامة، قاله السدي. وقد زدنا هذا شرحاً في [الأنعام: ١١١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (٦): قرأ ابن كثير، وأبو عمرو «سُجِّرَتْ» بتخفيف الجيم، وقرأ الباقر بتشديدها. وفي المعنى ثلاثة أقوال: أحدها: أوقدت فاشتعلت ناراً، قاله علي وابن عباس. والثاني: يبست، قاله الحسن. والثالث: ملئت بأن صارت بحراً واحداً، وكثر ماؤها، قاله ابن السائب، والفراء، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٧): فيه ثلاثة أقوال: أحدها: قرنت بأشكالها، قاله عمر رضي الله عنه. الصالح مع الصالح في الجنة، والفاجر مع الفاجر في النار، وهذا قول الحسن، وفتادة (٤). والثاني: رُذَّتْ الأرواح إلى الأجساد،

(١) أخرجه أحمد في «المستدرج» رقم ٤٨١٦ و٤٩٣٤ و٤٩٤١ و٥٧٥٥ وإسناده صحيح، والترمذي ١٦٨/٢، والحاكم ٥١٥/٢، وصححه ووافقه الذهبي، وأورده السيوطي في «الدرر» ٣١٩/٦ وزاد نسبه لابن المنذر وابن مردويه.

(٢) أخرجه عن سعيد بن جبير الطبري، ونقله عنه ابن كثير، والسيوطي في «الدرر المنتثرة» بألفاظ مختلفة.

(٣) وقد ورد في المرفوع من حديث أبي هريرة: «الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة»، رواه الطحاوي في «مشكل الآثار» وإسناده صحيح. ورواه بنحوه أبو يعلى والبخاري من حديث أبي هريرة، والطائسي من حديث أنس. وذلك تكية لمن عبدهما في الدنيا.

(٤) وهو الذي اختاره ابن جرير الطبري وابن كثير، وهو الصحيح.

فَرَوَّجَتْ بِهَا، قاله الشعبي. وعن عكرمة كالفولين. والثالث: رُوِّجَتْ أَنْفُسَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحُورِ الْعِينِ، وَأَنْفُسَ الْكَافِرِينَ بِالشَّيَاطِينِ، قاله عطاء، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوْكُوبَةُ سُجَّتْ﴾ قال اللغويون: المورودة: البنت تُدْفَنُ وهي حَيَّةٌ، وكان هذا من فعل الجاهلية. يقال: وَأَدَّ وَكَدَهُ، أي: دفنه حياً. قال الفرزدق:

وَمِنَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَا
بِ فَأَخِيَا الرَّيِّدَ وَلَمْ يُؤَادِ^(١)

يعني: صعصعة بن صوحان، وهو جدُّ الفرزدق. قال الزجاج: ومعنى سؤالها: تبيكت قاتليها في القيامة، لأن جوابها: قُتِلْتُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ. ومثل هذا التبيكت قوله تعالى: ﴿أَنْتَ تَلَّتْ لِلنَّاسِ الْحُدُودَ وَأَنْتَ إِلَهِيْنَ﴾ [المائدة: ١١٦]. وقرأ علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن، وابن يعمر، وابن أبي عبيدة، وهارون عن أبي عمرو «سَأَلْتُ» بفتح السين، وألف بعدها «بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلْتُ» بإسكان اللام، وضم التاء الأخيرة. وسؤالها هذا أيضاً تبيكت لقاتليها. قال ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت، فكان أوان ولادها حفرت حفيرة، فتمخضت على رأس الحفيرة، فإن ولدت جارية رَمَتْ بِهَا فِي الْحَفِيرَةِ، وإن ولدت غلاماً حبسته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الضُّفَى بُرِثَتْ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفر، وابن عامر، ويعقوب «نُشِرَتْ» بالتخفيف، والباقون بالتشديد. والمراد بالصحف: صحائف أعمال بني آدم تنشر للحساب، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قال الفراء: نُزِعَتْ، فطُوِثَتْ. وفي قراءة عبد الله «فُشِطَتْ» بالقاف، وهكذا تقوله قيس، وتميم، وأسد، بالقاف. وأما قریش، فتقوله بالكاف، والمعنى واحد. والعرب تقول: القافور، والكافور، والقسط، والكسط. وإذا تقارب الحرفان في المخرج تعاقبا في اللغات، كما يقال: حَدَثٌ، وَحَدَّثٌ. قال ابن قتيبة: كُشِطَتْ كَمَا يُكْشِطُ الْعِظَاءُ عَنِ الشَّيْءِ، فطُوِثَتْ. وقال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف. «سُورَتْ» أو قدت. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم «سُورَتْ» مشددة. قال الزجاج: المعنى واحد. إلا أن معنى المشددة: أو قدت مرة بعد مرة. «أَنْفَلَتْ» فُرِثَتْ مِنَ الْمُتَقَاتِلِينَ. وجواب هذه الأشياء «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ» أي: إذا كانت هذه الأشياء، علمت في ذلك الوقت كل نفس ما أحضرت من عملٍ، فأثبتت على قدر عملها. وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾: لهذا جرى الحديث^(٢).

وقال ابن عباس: من أول السورة إلى هاهنا اثنا عشرة خصلة، ستة في الدنيا، وستة في الآخرة. ﴿فَلَا أَسْمُ بِالْحَقِّينِ﴾ الجوارح الكسبيَّة. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ وَالْفَجْرِ إِذَا نَفَسَ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿سَطَّاعٌ تَمْ أَيْنٍ﴾ وَمَا سَاجِدٌ يَسْتَجِيبُ ﴿لَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْبِينَ﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ فَإِنَّ تَدْهَبُونَ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَسْمُ﴾ لا زائدة، والمعنى: أَسْمُ «الْحَقِّينِ» وفيها خمسة أقوال: أحدها: أنها خمسة نجوم تُخَسُّسُ بالنهار فلا تُرى، وهي: زُحَلٌ، وَعُطَّارِدٌ، وَالْمَشْتَرِيُّ، وَالْمَرِيخُ، وَالزُّهْرَةُ، قاله علي، وبه قال مقاتل، وابن قتيبة. وقيل: اسم المشتري: البرجس. واسم المريخ: بهرام. والثاني: أنها النجوم، قاله الحسن وقتادة على الإطلاق، وبه قال أبو عبيدة. والثالث: أنها بقرة الوحش، قاله ابن مسعود. والرابع: الظباء، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير. والخامس: الملائكة، حكاه الماوردي. والأكثرون على أنها النجوم^(٣). قال ابن قتيبة: وإنما سماها حُتْسًا، لأنها تسير في البروج والمنازل، كسير الشمس والقمر، ثم تُخَسُّسُ، أي: ترجع، بينا يرى أحدها في آخر البروج كَرَّ رَاجِعًا إِلَى أَوْلِهِ، وَسَمَّاهَا كُتْسًا، لأنها تكنس، أي: تسير كما تكنس الظباء. وقال الزجاج: تخنس، أي: تغيب، وكذلك تكنس، أي: تغيب في المواضع التي تغيب فيها. وإذا كان المراد الظباء فهو يدخل الكناس، وهو الغصن من أغصان الشجر. ووقف يعقوب على «الجواري» بالياء.

(١) «ديوانه» ٢٠٣/١، وفي «الأغاني» و«الكامل» و«معاهد التنصيص» وجدي الذي منع الروائدات، وهو في «اللسان»: وأد، و«مجاز القرآن» (٢٨٧/٢)، والقرطبي (٢٣١/١٩)، و«شواهد الكشاف» (١٠٢).

(٢) في «تفسير ابن كثير»: أجرى الحديث.

(٣) وهو الأقرب إلى الصواب.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْلَ إِذَا عَمَّسَ ۝٧﴾ فيه قولان: أحدهما: ولَّى، قاله ابن عباس، وابن زيد، والفراء. والثاني: أقبل، قاله ابن جبير، وقتادة. قال الزجاج: يقال: عمس الليل: إذا أقبل. وعمس: إذا أدبر. واستدل من قال: إن المراد: إدباره بقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ إِذَا تَنَسَّ ۝٨﴾ وأنشد أبو عبيدة لعقمة بن قرط:

حتى إذا الصُّبْحُ لها تَنَفَّسًا ۝ وانجاب عنها ليلُها وعَسَمَسًا ۝١

وفي قوله تعالى: ﴿تَنَسَّ﴾ قولان: أحدهما: أنه طلوع الفجر، قاله علي وقتادة. والثاني: طلوع الشمس، قاله الضحاك. قال الزجاج: معناه: إذا امتد حتى يصير نهاراً بيئاً. وجواب القسم في قوله: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحَيْسِ ۝١٥﴾ وما بعده قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٦﴾ يعني: أن القرآن نزل به جبريل. وقد بيئنا هذا في [الحاقة: ٤٠]. ثم وصف جبريل بقوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ وقد شرحناه في [النجم آية: ٦] ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝١٧﴾ يعني: في المنزلة ﴿شَلَّاحٍ تَمَّ أَمِينٍ ۝١٨﴾ أي: في السموات تطيعه الملائكة. فَمَنْ طَاعَهُ الملائكة له: أنه أمر خازن الجنة ليلة المعراج حتى فتحها لمحمد ﷺ فدخلها ورأى ما فيها، وأمر خازن جهنم ففتح له عنها حتى نظر إليها. وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود، وأبو حنيفة «ثُمَّ» بضم التاء. ومعنى «أمين» على وحي الله ورسالاته. قال أبو صالح: أمين على أن يدخل سبعين سرادقاً من نور بغير إذن.

قوله تعالى: ﴿وَمَا سَأَلْنَاكَ بِمَثُورٍ ۝١٩﴾ يعني محمداً ﷺ، والخطاب لأهل مكة. قال الزجاج: وهذا أيضاً من جواب القسم، وذلك أنه أقسم أن القرآن نزل به جبريل، وأن محمداً ليس بمجنون كما يقول أهل مكة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَيْمَنِ الَّذِينَ﴾ قال المفسرون: رأى محمد ﷺ جبريل على صورته بالأفق. وقد ذكرنا هذا في سورة [النجم: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿عَلَّ الْغَيْبِ﴾ أي: على خبر السماء الغائب عن أهل الأرض ﴿بِضَيْبٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ورويس «بظنين» بالظاء، وقرأ الباقون بالضاد. قال ابن قتيبة: من قرأ بالظاء، فالمعنى: ما هو بمؤتمهم على ما يُخبر به عن الله، ومن قرأ بالضاد، فالمعنى: ليس ببخيل عليكم بعلم ما غاب عنكم مما ينفعكم. وقال غيره: ما يكتمه كما يكتم الكاهن لياخذ الأجر عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ قال مقاتل: وذلك أن كفار مكة قالوا: إنما يجيء به الشيطان، فليقله على لسان محمد.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَدَبَّرْنَا ۝٢٠﴾ قال الزجاج: معناه: فأى طريق تسلكون أبتين من هذه الطريقة التي قد بيئنا لكم؟ ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو، يعني: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: موعظة للخلق أجمعين ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيحَ ۝٢١﴾ على الحق والإيمان. والمعنى: أن القرآن إنما يتعظ به من استقام على الحق. وقد بيئنا سبيل الاستقامة، فمن شاء أخذ في تلك السبيل. ثم أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه بما بعد هذا، وقد بيئنا هذا في سورة [الإنسان: ٣٠] قال أبو هريرة: لما نزلت ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيحَ ۝٢١﴾ قالوا: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٢﴾ وقيل: القائل لذلك أبو جهل. وقرأ أبو بكر الصديق، وأبو المتوكل، وأبو عمران: «وما يشاؤون» بالياء.

فصل

وقد زعم بعض ناقلي التفسير أن قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيحَ ۝٢١﴾ وقوله تعالى في [عبس: ١٢]: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝١٢﴾، وقوله تعالى في سورة [الإنسان: ٢٩] وفي سورة [المزمل: ١٨]: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ كله منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ولا أرى هذا القول صحيحاً؛ لأنه لو جاز وقوع مشيئتهم مع عدم مشيئته توجيه النسخ. فاما إذ أخبر أن مشيئتهم لا تقع إلا بعد مشيئته، فليس للنسخ وجه.

سورة الانفطار

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرِّجِيِّ

﴿ إِذَا الشَّاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكُوكُوبُ انْفَرَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُفِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْجِبُورُ بُورَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ ﴿٥﴾ وَأَلْفَرَّتْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ رَبِّكَ الْكَبِيرَ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ خَلْقَكَ فَسْوَكًا فَعَدَلَكَ ﴿٨﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٩﴾ كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ ﴿١٠﴾ وَالْبَيْنَ ﴿١١﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٢﴾ كِرَامًا كَشِيبِينَ ﴿١٣﴾ يَمْشُونَ مَا نَحْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنْ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٥﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جِيمٍ ﴿١٦﴾ يَسَلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٧﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٩﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ لِلَّهِ يُهْدِي لِمَا يَشَاءُ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿ إِذَا الشَّاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ [١] انفطارها: انشفاقها. و﴿ انْفَرَّتْ ﴾ بمعنى تساقطت. و﴿ كُفِّرَتْ ﴾ بمعنى فُتح بعضها في بعض فصارت بحراً واحداً. وقال الحسن: ذهب ماؤها، و﴿ بُورَتْ ﴾ بمعنى أثيرت. قال ابن تقيية: قُلِبَتْ فأخرج ما فيها. يقال: بَغَرْتُ المتاع وَبَغَرْتُهُ: إذا جعلت أسفله أعلاه.

قوله تعالى: ﴿ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمْتَ وَأَلْفَرَّتْ ﴾ [٥] هذا جواب الكلام. وقد شرحناه في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَلْفَرَّتْ ﴾ [القيامة: ١٣].

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه عُزِّيَ به أبو الأشدين^(١)، وكان كافراً، قاله ابن عباس، ومقاتل. وقد ذكرنا اسمه في [المسثر: ٣٠]. والثاني: أنه الوليد بن المغيرة، قاله عطاء. والثالث: أبي بن خلف، قاله عكرمة. والرابع: أنه أشار إلى كل كافر، ذكره الماوردي^(٢).

قوله تعالى: ﴿ مَا غَرَّبَكَ ﴾ قال الزجاج: أي: ما خدَعَكَ وسوَّلَ لك حتى أضعت ما وجب عليك؟ وقال غيره: المعنى: ما الذي أُنمِنُكَ من عقابه وهو كريم متجاوز إذ لم يعاقبك عاجلاً؟ وقيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله سبحانه يوم القيامة، وقال: ما غرَّكَ بربك الكريم، ماذا كنت تقول؟ قال: أقول: غرني سُتُورُكَ المرحاة. وقال يحيى بن معاذ: لو قال لي: ما غرَّكَ بي؟ قلت: يركُّكَ سالفاً وآتفاً. قيل: لما ذكر الصفة التي هي الكرم هاهنا دون سائر صفاته، كان كأنه لَقَّنَ عبده الجواب، ليقول: غَرَّنِي كرم الكريم.

قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ خَلْقَكَ فَسْوَكًا ﴾ إنساناً تسمع وتبصر ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ بالشديد. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ بالتخفيف. قال الفراء: من قرأ بالتخفيف، فوجهه - والله أعلم -: فسوِّكَ إلى أي صورة شاء، إما حَسَنٌ، وإما قبيح، وإما طويل، وإما قصير. وقيل: في صورة أب، في صورة عم، في صورة بعض القربات تشبيهاً. ومن قرأ بالشديد، فإنه أراد - والله أعلم -: جعلك معتدلاً، معدل الخلق. وقال غيره: عدلُ أعضاءك فلم تفضل يد على يد، ولا رجل على رجل، وعدل بك أن يجعلك حيواناً بهيماً.

قوله تعالى: ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [٩] قال الزجاج: يجوز أن تكون «ما» زائدة. ويجوز أن تكون بمعنى الشرط والجزاء، فيكون المعنى: في أي صورة ما شاء أن يرَكِّبَكَ فيها رَكَّبَكَ. وفي معنى الآية أربعة أقوال: أحدها: في أي صورة من صور القربات رَكَّبَكَ، وهو معنى قول مجاهد. والثاني: في أي صورة، من حسن، أو قبح، أو طول، أو

(١) قد تقدم الكلام عليه في سورة المدثر.

(٢) وهذا هو الصواب أنه عام لكل كافر.

قصر، أو ذُكر، أو أنثى، وهو معنى قول الفراء. والثالث: إن شاء أن يرُجِّب في غير صورة الإنسان رُجِّب، قاله مقاتل. وقال عكرمة: إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير. والرابع: إن شاء في صورة إنسان بأفعال الخير. وإن شاء في صورة حمار بالبلادة والبله، وإن شاء في صورة كلب بالبخل، أو خنزير بالشره، ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿بَلْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِينَ﴾ وقرأ أبو جعفر «بالياء» أي: بالجزاء والحساب، تزعمون أنه غير كائن. ثم أعلمهم أن أعمالهم محفوظة، فقال تعالى: ﴿وَرَأَى عَلَيْكُمْ كِتَابَيْنِ﴾ أي: من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم ﴿كِرَامًا﴾ على ربهم ﴿كُتُبِينَ﴾ يكتبون أعمالكم ﴿يَقْتُلُونَ مَا تَفْلَحُونَ﴾ من خير وشر، فيكتبونه عليكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَجْوَى﴾ وذلك في الآخرة إذا دخلوا الجنة ﴿وَرَأَى الْقَجَارَ﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون. والثاني: الظلمة. ونقل عن سليمان بن عبد الملك أنه قال لأبي حازم: يا ليت شعري ما لنا عند الله؟ فقال له: اعرض عملك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عنده، فقال: وأين أجده؟ قال: عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَجْوَى﴾ ﴿وَرَأَى الْقَجَارَ لَفِي حَبْوَى﴾ قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين.

قوله تعالى: ﴿يَسْلَوْنَ﴾ يعني: يدخلون الجحيم مقاسين حرها ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي: يوم الجزاء على الأعمال ﴿وَمَا مُمْ عَنَّا﴾ أي: عن الجحيم ﴿يَسْأَلُونَ﴾ وهذا يدل على تخليد الكفار. وأجاز بعض العلماء أن تكون «عنها» كناية عن القيامة، فتكون فائدة الكلام تحقيق البعث. ويشتمل هذا على الأبرار والفجار. ثم عظم ذلك اليوم بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ثم كرر ذلك تفضيماً لشأنه، وكان ابن السائب يقول: الخطاب بهذا للإنسان الكافر، لا لرسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو «يوم» بالرفع، والباقون: بالفتح. قال الزجاج: من رفع «اليوم» فعلى أنه صفة لقوله تعالى: «يوم الدين». ويجوز أن يكون رفعه^(١) بإضمار «هو» ونصبه على معنى: هذه الأشياء المذكورة تكون ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ قال المفسرون: ومعنى الآية أنه لا يملك الأمر أحدٌ إلا الله، ولم يملك أحدٌ من الخلق شيئاً كما ملكهم في الدنيا. وكان مقاتل يقول: لا تملك نفس لنفس كافر شيئاً من المنفعة. والقول على الإطلاق، لأن مقاتلاً فيما أحسب خاف نفي شفاعة المؤمنين. والشفاعة إنما تكون عن أمر الله وتمليكه.



(١) في نسخة الرباط: رفعها، وفي النسخة الاستنبولية: رفعاً.

سورة المطففين

وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها مكية، قاله ابن مسعود، والضحاك، ويحيى بن سلام. والثاني: مدنية، قاله ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة، ومقاتل، إلا أن ابن عباس، وقتادة قالوا: فيها ثمان آيات مكية، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المطففين: ٢٩] إلى آخرها. وقال مقاتل: فيها آية مكية، وهي قوله تعالى: ﴿إِذَا نُنزلُ عَلَيْكَ آيَاتَنَا قَالُوا سُبُلُ الْأَنْبِيَاءِ﴾ [المطففين: ١٣]. والثالث: أنها نزلت بين مكة، والمدنية، قاله جابر بن زيد وابن السائب، وذكر هبة الله ابن سلامة^(١) المفسر أنها نزلت في الهجرة بين مكة والمدنية، نصفها يقارب مكة، ونصفها يقارب المدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَوُّهُمْ يَحْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَّا يَرْؤُا أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْآلَيْنِ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ قال ابن عباس: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبت الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك^(٢). وقال السدي: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وبها رجل يقال له: أبو جهينة، ومعه صاعان، يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فأنزل الله هذه الآية. وقد شرحنا معنى «الويل» في [البقرة: ٧٩]. وقال ابن تقيية: المطفف: الذي لا يوفي الكيل، يقال: إناء طَفَّانٌ: إذا لم يكن مملوئاً. وقال الزجاج: إنما قيل: مطفف، لأنه لا يكاد يسرق في الميزان والمكيال إلا الشيء الطفيف، وإنما أخذ من طَفَّ الشيء، وهو جانبه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: من الناس. ف«على» بمعنى «من» في قول المفسرين واللغويين. قال الفراء: «على»، و«من» يعقبان في هذا الموضع، لأنك إذا قلت: اكلت عليك، فكأنك قلت: أخذت ما عليك [كيلاً]، وإذا قلت: اكلت منك، فهو كقولك: استوفيت منك [كيلاً]. قال الزجاج: المعنى: إذا اكلوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، وكذلك إذا اتزنوا، ولم يذكُرْ «إِذَا اتَّزَنُوا»، لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فيما يُكَالُ ويوزن، فأحدهما يدل على الآخر ﴿وَإِذَا كَالُواهُمْ﴾ أي: كالوا لهم ﴿أَوْ وَزَوُّهُمْ﴾ أي: وزنوا لهم ﴿يَحْسِرُونَ﴾ أي: ينقصون في الكيل والوزن. فعلى هذا لا يجوز أن يقف على «كالوا»، ومن الناس من يجعل «هم» توكيداً لما كالوا^(٣)، ويجوز أن يقف على «كالوا» والاختيار الأول. قال الفراء: سمعت أعرابية تقول: إذا صدر الناس أتينا التاجر، فيكيلنا المد والمدين إلى الموسم المقبل.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَرْؤُا أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ قال الزجاج: المعنى: لو ظنوا أنهم يُبْعَثُونَ ما نقصوا في الكيل والوزن، ﴿يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ يعني به يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ منصوب بقوله تعالى: ﴿مَبْعُوثُونَ﴾. قال المفسرون: والظن هاهنا بمعنى العلم واليقين. ومعنى: يقوم الناس، أي: من قبورهم ﴿لِرَبِّهِمُ الْآلَيْنِ﴾ أي: لأمره، أو لجزائه وحسابه. وقيل: يقومون بين يديه لفصل القضاء. وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: في

(١) في الأصل: سلام، وهو خطأ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٧٤٨/٢)، والطبري (٩١/٣٠)، والواحدي (٣٣٣)، وقال الحافظ في «تخريج الكشاف» (١٢٨): رواه النسائي وابن حبان والحاكم من رواية يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس. وأورده السيوطي في «الدرر» (٢٣٣/٦) وزاد نسبته إلى الطبراني وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند صحيح عن ابن عباس.

(٣) قال الألوسي: «هم» ضمير مرفوع، تأكيد للضمير المرفوع وهو الواو، يعني في «كالوا».

هذه الآية: «يقوم أحدهم في رَشْحِهِ»^(١) إلى أنصاف أذنيه»^(٢). وقال كعب: يقفون ثلاثمائة عام. قال مقاتل: وذلك إذا خرجوا من قبورهم.

﴿كَلَّا إِنْ كُنْتَ الْفَجَّارَ لِنِي سَيِّئِينَ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَئِذٍ ﴿٨﴾ كَيْتَبُ تَرْقُومٍ ﴿٩﴾ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْتُوبُ بِهِ إِلَّا كُلٌّ مُعْتَدٍ أَيُّومٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِ مَائِدَاتُ الْأَزَلِ الْأَبَدِ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُنَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنْ كُنْتُمْ الْأَبْرَارَ لِنِي عَيْتُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُونَ ﴿١٩﴾ كَيْتَبُ تَرْقُومٍ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُفَرِّقُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لِنِي نِيْمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَذْيَاقِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَرَوْنَ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّيْمِ ﴿٢٤﴾ يُسْتَوْنَ مِنْ تَحِيْقِ مَخْرُومٍ ﴿٢٥﴾ حَتَّمَهُمْ سِكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَنِرَابُهُمْ مِنْ تَنْبِيْهِ ﴿٢٧﴾ عَيْنَا يَنْتَرِبُ بِهَا الْمُفَرَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر، أي: ليس الأمر على ما هم عليه، فليرتدعوا. وهاهنا تم الكلام عند كثير من العلماء. وكان أبو حاتم يقول: ﴿كَلَّا﴾ ابتداء يتصل بما بعده على معنى «حقاً» ﴿إِنَّ كَيْتَبَ الْفَجَّارِ﴾ قال مقاتل: إن كتاب أعمالهم ﴿لِنِي سَيِّئِينَ﴾ وفيها أربعة أقوال: أحدها: أنها الأرض السابعة، وهذا قول مجاهد، وقناة، والضحاك، وابن زيد، ومقاتل. وروي عن مجاهد قال: ﴿سَيِّئِينَ﴾ صخرة تحت الأرض السابعة، يجعل كتاب الفجار تحتها، وهذه علامة لخسارتهم، ودلالة على خسارة منزلتهم. والثاني: أن المعنى: إن كتابهم لفي سفال، قاله الحسن. والثالث: لفي خسار، قاله عكرمة. والرابع: لفي حيس، فُعِلَ من السجن، قاله أبو عبيدة^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَئِذٍ ﴿٨﴾﴾ هذا تعظيم لأمرها. وقال الزجاج: أي: ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك.

قوله تعالى: ﴿كَيْتَبُ تَرْقُومٍ ﴿٩﴾﴾ أي: ذلك الكتاب الذي في سجين كتاب مرقوم، أي: مكتوب. قال ابن قتيبة: والرقم: الكتاب. قال أبو ذؤيب:

عَرَفْتُ الدِّيَارَ كَرَقْمِ الدَّوَا
وَ يَنْزُرُهُ الكَاتِبُ الجَنِّيَّري^(٤)

وأشده الزجاج: «يُدْبِرُهَا» بالذال المعجمة، وكسر الباء. قال الأصمعي: يقال: زبر: كتب، وذبر: قرأ. وروى أبو عمرو عن ثعلب، عن ابن الأعرابي، قال: الصواب: زبرت - بالزاي - كتبت. وذبرت - بالذال - أتقتت ما حفظت. قال: والبيت يزبرها، بالزاي والضم. وقال ابن قتيبة: يروى «يزبرها» و«يذبرها» وهو مثله، يقال: زبر الكتاب يزبره، ويذبره. وذبره يذبره، ويذبره. وقال قناة: رقم له بشر، كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه الكافر. وقيل: المعنى: إنه مثبت لهم كالرقم في الثوب، لا ينسى ولا يمحي حتى يجازوا به.

قوله تعالى: ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾ هذا منتظم بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾، وما بينهما كلام معترض. وما بعده قد سبق بيانه إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر «بَلْ رَانَ» بفتح الراء مدغمة، وقرأ أبو بكر عن عاصم «بَلْ رَانَ» مدغمة بكسر الراء. وقرأ حفص عن عاصم «بَلْ» بإظهار اللام ﴿رَانَ﴾ بفتح الراء. قال اللغويون: أي: غلب على قلوبهم، يقال: الخمرة ترين على عقل السكران. قال الزجاج: قرئت بإدغام اللام في الراء، لقرب ما بين الحرفين، وإظهار اللام جائز، لأنه من كلمة، والرأس من كلمة أخرى. ويقال: ران على قلبه الذئب يرين ريناً: إذا غشي على قلبه، ويقال: غان يغين غيناً، والغين كالغيم الرقيق، والرين كالصدا يغشى على

(١) أي: عرق، لأنه يخرج من البدن شيئاً بعد شيء، كما يرشح الإناء المتحلل الأجزاء.

(٢) رواء مالك في «الموطأ» والبخاري ٥٣٥/٨، ومسلم ٢١٩٥/٤ واللفظ لاسلم.

(٣) قال ابن كثير: والصحيح أن «سجياً» مأخوذ من السجن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالي منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم، وهي أسفل السافلين؛ كما قال تعالى: ﴿فَتَرَىٰ رَدْدَهُ لَمَسًا لَّسِيَّيْنِ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال هاهنا: ﴿كَلَّا إِنْ كُنْتَ الْفَجَّارَ لِنِي سَيِّئِينَ ﴿٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَئِذٍ﴾، وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَتَىٰ النَّارَ يَتَّحَاتَا حَتَّىٰ يُفْعَلَنَ دَعْوًا مِّمَّا تَكُنُّ تُرِيقًا﴾.

(٤) البيت لأبي ذؤيب حويلد بن خالد، جاهلي إسلامي، وهو في «ديوان الهلليين» (٦٤/١)، و«غريب القرآن» (٥١٩) وفيهما: «يزبرها» بدلاً من «يزبره».

القلب. وسمعت شيخنا أبا منصور اللغوي يقول: الغين يقال: بالراء، وبالغين، ففي القرآن ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ وفي الحديث: «إنه ليغان على قلبي»^(١)، وكذلك الراءة يقال بالراء، وبالغين، والرميصاء تكتب «بالغين»، وبالراء، لأن الرمص يكتب بهما. قال المفسرون: لما كثرت معاصيهم وذنوبهم أحاطت بقلوبهم. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمر القلب^(٢).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يصدقون. ثم استأنف ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ قال ابن عباس: إنهم عن النظر إلى ربهم يومئذ لمحجوبون، والمؤمن لا يحجب عن رؤيته. وقال مالك بن أنس: لما حجب أعداءه فلم يَرَوْهُ تجلَّى لأوليائه حتى رآوه. وقال الشافعي: لما حجب قوماً بالشُّطْطِ دَلَّ على أن قوماً يَرَوْنَهُ بالرضا^(٣). وقال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن الله ﷻ يُرَى في القيامة. ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خسست منزلة الكفار بأنهم يحجبون عن ربهم. ثم من بعد حجبتهم عن الله يدخلون النار، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ هَآؤُكَ﴾ أي: يقول لهم خزنة النار: ﴿هَآؤُكَ الْعَذَابُ﴾ ﴿الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَكَذِّبُونَ كَلَّا﴾ أي: لا يؤمن بالعذاب الذي يصلاه. ثم أعلم أين محلّ ﴿كُنتُمْ بِالْأَبْرَارِ﴾ فقال تعالى: ﴿لَنَبِيٍّ عِيتِيَّةٌ﴾ وفيها سبعة أقوال: أحدها: أنها الجنة، ورواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: أنه لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش فيه أعمالهم مكتوبة، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنها السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين، قاله كعب، وهو مذهب مجاهد، وابن زيد. والرابع: أنها قائمة العرش اليمنى، قاله قتادة. وقال مقاتل: ساق العرش. والخامس: أنه سدرة المنتهى، قاله الضحاك. والسادس: أنه في علوِّ وصعود إلى الله ﷻ، قاله الحسن. وقال الفراء: في ارتفاع بعد ارتفاع. والسابع: أنه أعلى الأمكنة، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِثْرُنَا﴾ هذا تعظيم لشأنها.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نَرْوُمُوهَا﴾ الكلام فيه كالكلام في الآية التي قبلها.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَهْزِئُ الْمُرُوءَةُ﴾ أي: يحضر المقرَّبون من الملائكة ذلك المكتوب، أو ذلك الكتاب إذا صُعد به إلى عليين. وما بعد هذا قد سبق بيانه [لافتظار: ١٣] إلى قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: إلى ما أعطاهم الله من الكرامة. والثاني: إلى أعدائهم حين يعذبون.

قوله تعالى: ﴿تَمَثَّلْنَ فِي وُجُوهِهِمْ نُقُورٌ النَّعِيمِ﴾ قرأ أبو جعفر، ويعقوب «تُعَرَّفُ» بضم التاء، وفتح الراء «نُقُورُهُ» بالرفع. قال الفراء: بريق النعيم ونداه. قال المفسرون: إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعيم، لما ترى من الحسن والنور. وفي «الرحيق» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الخمر، قاله الجمهور. ثم اختلفوا أي الخمر هي على أربعة أقوال: أحدها: أجود الخمر، قاله الخليل بن أحمد. والثانية: الخالصة من الغش، قاله الأخفش. والثالث: الخمر البيضاء، قاله مقاتل. والرابع: الخمر العتيقة، حكاه ابن قتيبة. والقول الثاني: أنه عين في الجنة مشوبة بالمسك، قاله الحسن. والثالث: أنه الشراب الذي لا عَشَّ فيه، قاله ابن قتيبة، والزجاج. وفي قوله تعالى: ﴿تَمَثَّلْنَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: ممزوج، قاله ابن مسعود. والثاني: مختوم على إنائه، وإلى نحو هذا ذهب مجاهد. والثالث: له ختام، أي: عاقبة ريح، وتلك العاقبة هي قوله تعالى: ﴿حِجَّتُمْ مَسْكًا﴾، أي: عاقبته. هذا قول أبي عبيدة. ﴿حِجَّتُمْ مَسْكًا﴾ قرأ ابن كثير،

(١) روى مسلم في «صحيحه» ٢٧٧٥/٤ عن الأغر المزني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإنني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

(٢) روى الترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن محمد بن عجلان، عن الفقعاق بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾»، وقال الترمذي: حسن صحيح، ولفظ النسائي: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب، صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تملو قلبه، فهو الران الذي قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾».

(٣) وقال ابن كثير: قال الإمام أبو عبد الله الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه ﷻ يومئذ، وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم الآية، كما دلَّ عليه منطوق قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْيَىٰ نَائِبُهُ ﴿١١﴾﴾ ﴿إِلَّا نَبِيًّا كَاطِرًا﴾ وكما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة رؤية بالأبصار في عرصات القيامة وفي روضات الجنات الفاخرة.

وعاصم، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة ﴿حَتْمَةٌ﴾ بكسر الخاء، ويفتح التاء، وبألف بعدهما، مرفوعة الميم. وقرأ الكسائي «حَاتَمَه» بحاء مفتوحة، بعدها ألف، وبعدها (١) تاء مفتوحة. وروى الشيزري «حَاتِمَه» مثل ذلك، إلا أنه يكسر التاء. وقرأ أبي بن كعب، وعروة، وأبو عالية: «حَتَمَه» بفتح الخاء والتاء وبإضمار الميم من غير ألف. وللمفسرين في قوله تعالى: ﴿حَتْمَةُ سِكِّ﴾ أربعة أقوال: أحدها: حَلَطَه مسك، قاله ابن مسعود، ومجاهد. والثاني: أن حَتَمَه الذي يختم به الإناء مسك، [قاله ابن عباس. والثالث: أن طعمه وريحه مسك، قاله علقمة. والرابع: أن آخر طعمه مسك] (٢) قاله سعيد بن جبيرة، والفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَبَّهُوا أَي: فليجدوا في طلبه، وليحرصوا عليه بطاعة الله. والتنافس: كالنشاح على الشيء، والتنازع فيه.

قوله تعالى: ﴿رَوَّابَةٌ مِّن تَنِيمٍ﴾ (٧) فيه قولان: أحدهما: أنه اسم عين في الجنة يشربها المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين. والثاني: أن التسنيم الماء، قاله الضحاك. قال مقاتل: وإنما سمي تسنيماً، لأنه يتسّم عليه من جنة عدن، فينصب عليهم انصباباً، فيشربون الخمر من ذلك الماء. قال ابن قتيبة: يقال: إن التسنيم أرفع شراب في الجنة. ويقال: إنه يمتزج بماء ينزل من تسنيم، أي: من علو. وأصل هذا من سنام البعير، ومن تسنيم القبور. وهذا أعجب إليّ، لقول المسيّب بن علس في وصف امرأة:

كَأَنَّ بِرِيْقَتِهَا لَلْمِرَا

ج مِنْ تُلُجِّ تَسْنِيمٍ شِينِبَتْ عُقَارَا (٣)

أراد: كأن بريقها عقاراً شبيهاً للمزاج من تلج تسنيم، يريد: جبلاً. قال الزجاج: المعنى: ومزاجه من تسنيم عيناً تأتيهم من تسنيم، أي: من علو يتسّم عليهم من الغرف. ف«عيناً» في هذا القول منصوبة، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَطْمَعُ فِي يَوْمِ ذِي مَسْجَبٍ﴾ (١٠) [البلد: ١٥]. ويجوز أن تكون «عيناً» منصوبة بقوله: يُسْقُونَ عيناً، أي: من عين. وقد بينا معنى ﴿يَسْتَرِيبُ يَهَا﴾ في [هل أنى: ٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٨) وَإِذَا مَرُوا بِهِمْ يَنْقَابُونَ ﴿٩﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿١١﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿١٢﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿١٣﴾ عَلَى الْأَرْءَاكِ يَنْظُرُونَ ﴿١٤﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني أصحاب رسول الله ﷺ، مثل عمّار، وبلال، وخبّاب وغيرهم ﴿يَضْحَكُونَ﴾ على وجه الاستهزاء بهم ﴿وَإِذَا مَرُوا﴾ يعني: المؤمنین ﴿بِهِمْ﴾ أي: بالكفار ﴿يَنْقَابُونَ﴾ أي: يشيرون بالجنف والحاجب استهزاء بهم ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا﴾ يعني: الكفار ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: متعجبين بما هم فيه يفتكّهون بذكرهم. وقرأ أبو جعفر، وحفص عن عاصم، وعبد الرزاق عن ابن عامر ﴿فَكِهِينَ﴾ بغير ألف. وقد شرحنا معنى القراءتين في [يس: ٥٥] ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: رأوا أصحاب رسول الله ﷺ ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا﴾ يعني الكفار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنین ﴿حَافِظِينَ﴾ يحفظون أعمالهم عليهم، أي: لم يؤكّلوا بحفظ أعمالهم ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ إذا رأوهم يعذبون في النار. قال أبو صالح: يقال لأهل النار وهم فيها: اخرجوا، وافتح لهم أبوابها، فإذا أقبلوا يريدون الخروج، حُلقت أبوابها دونهم. والمؤمنون ﴿عَلَى الْأَرْءَاكِ يَنْظُرُونَ﴾ (١٤) إلى عذاب عدوهم. قال مقاتل: لكل رجل من أهل الجنة ثلثة ينظرون إلى أعداء الله كيف يعذبون، فيحمدون الله على ما أكرمهم به، فهم يكلمون أهل النار ويكلمونهم إلى أن تطبق النار على أهلها، فتسدّ حيثنذ الكوى.

قوله تعالى: ﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وهارون عن أبي عمرو ﴿هَلْ تُؤِيبُ﴾ بإدغام اللام. أي: هل جوزوا وأثبوا على استهزائهم بالمؤمنين في الدنيا؟ وهذا الاستفهام بمعنى التقرير.

(١) في الأصل: وبعده.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من نسخة الرباط، واستدركناه من النسخة الإستنبولية.

(٣) البيت في «غريب القرآن» ٥٢٠.

سورة الانشقاق

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وُحِّتَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُتَّتْ ﴿٥﴾ بِأَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿٦﴾ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقِهْ ﴿٧﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْدَهُ بِسَيْبِهِ ﴿٨﴾ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا سِيرًا ﴿٩﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴿١٠﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْدَهُ وَرَهًا ظَهْرِيَّةً ﴿١١﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُوكًا ﴿١٢﴾ وَيَصِلُ سِيرًا ﴿١٣﴾ إِنَّكَ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴿١٤﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَمُورَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ قال المفسرون: انشقاقها من علامات الساعة. وقد ذكر ذلك في مواضع من القرآن: [الفرقان: ٢٢٥، الرحمن: ٣٧، الحاقة: ٤١٦]. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت وأطاعت في الانشقاق، من الأذن، وهو الاستماع للشيء والإصغاء إليه، وأنشدوا:

صُمْ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا دُكِرَتْ بِوِ
فَإِنْ دُكِرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أُذِنُوا^(١)

﴿وُحِّتَتْ﴾ أي: حق لها أن تطيع ربها الذي خلقها ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ قال ابن عباس: تُمدُّ مدَّ الأديم، ويزاد في سعتها. وقال مقاتل: لا يبقى جبل ولا بناء إلا دخل فيها.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الموتى والكنوز و﴿تَخَلَّتْ﴾ أي: خلَّت من ذلك، فلم يبق في باطنها شيء. واختلفوا في جواب هذه الأشياء المذكورات على أربعة أقوال: أحدها: أنه متروك، لأن المعنى معروف قد تردَّد في القرآن. والثاني أنه ﴿بِأَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ كقول القائل: إذا كان كذا وكذا، فيا أيها الناس ترون ما عملتم، فيجعل ﴿بِأَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ هو الجواب، وتضمير فيه الفاء، كأن المعنى: يرى الثواب والعقاب إذا السماء انشقت، وذكر القولين الفراء. والثالث: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه إذا السماء انشقت، قاله المبرد. والرابع: أن الجواب مدلول عليه بقوله تعالى: ﴿فَلْيَقِهْ﴾. فالمعنى: إذا كان يوم القيامة لقي الإنسان عمله، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا﴾ فيه قولان: أحدهما: إنك عامل لربك عملاً، قاله ابن عباس. والثاني: ساع إلى ربك سعيًا، قاله مقاتل. قال الزجاج: و«الكدح» في اللغة: السعي، والدأب في العمل في باب الدنيا والآخرة. قال تميم بن مقبل:

وَمَا الدَّفْعُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا
أُمُوتٌ وَأُخْرَىٰ أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ^(٢)

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ قولان: أحدهما: عامل لربك، وقد ذكرناه عن ابن عباس. والثاني: إلى لقاء ربك، قاله ابن قتيبة. وفي قوله تعالى: ﴿فَلْيَقِهْ﴾ قولان: أحدهما: فملاقى عمَلِك. والثاني: فملاقى ربك، كما ذكرهما الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا سِيرًا ﴿٨﴾﴾ وهو أن تعرض عليه سيئاته، ثم يغفرها الله له. وفي «الصحاحين» من حديث عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب هلك، فقلت: يا رسول الله، فإن الله يقول: ﴿فَسَوْفَ

(١) البيت لقنَّب بن ضمرة ابن أم صاحب أم قنعب، وكان في أيام الوليد، وهو في «مجاز القرآن» ١٧٧/١، و«الطبري» ١١٢/٣٠، و«السمط» ٣٦٢، و«اللائقصاب» ٢٩٢، و«شواهد الكشاف» ١٤٣، و«القرطبي» ٢٦٧/١٩، و«اللسان» أذن، وأورد بيتاً قبله، هو:

إِنْ يَسْتَمُوا وَيَبْنَ طَارُوا بِهَا فَرَحًا
يَتِي وَمَا عَلِمُوا مِنْ صَلَاحٍ دَفَنُوا

(٢) «ديوانه» (٢٤)، وسيويه ٣٧٦/١، و«الكامل» ٩٠٨/٣، و«الحيوان» ٤٨/٣، و«حماصة البحري» ١٨٣، و«القرطبي» ٢٦٩/١٩.

يَحْسَبُ حِسَابًا بَصِيرًا ﴿١٩﴾ قَالَ: ذَلِكَ الْعَرَضُ (١).

قوله تعالى: ﴿وَنَقَلِبُ إِلَيْهِمْ أَهْلِيهِمْ﴾ يعني: في الجنة من الحور العين والآدميات ﴿سَرُورًا﴾ بما أوتي من الكرامة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ﴾ قال المفسرون: نُغِّلَ يده اليمنى إلى عنقه، وتجعل يده اليسرى وراء ظهره ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ قال الزجاج: يقول: يا ويلاه، يا ثُبُوراه، وهذا يقوله كلُّ من وقع في هلكة.

قوله تعالى: ﴿وَيَصَلِّ سَوِيْرًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي: «ويُصَلِّي» بضم الياء، وتشديد اللام.. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة «ويصلي» بفتح الياء خفيفة، إلا أن حمزة والكسائي يميلانها. وقد شرحناه في سورة النساء: [١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِيهِ أَعْمَى﴾ يعني في الدنيا ﴿سَرُورًا﴾ باتباع هواه، وركوب شهواته ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحُورَ﴾ أي: لن يرجع إلى الآخرة، ولن يبعث وهذه صفة الكافر. قال اللغويون: الحور في اللغة: الرجوع، وأنشدوا للبيد:

وَمَا الْمَرْءُ كَالشَّهَابِ وَضَوْؤُهُ
يَحُورُ زَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ (٢)

﴿يَنْزِلُ إِذَا رِيَّتْ كَانَ يَدُهُ بَصِيرًا﴾ ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالشَّفَقِ﴾ ﴿وَأَلَيْلٍ وَمَا وَسَقَ﴾ ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ ﴿لَتَرَكُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقِي﴾ ﴿فَمَا لَمْ لَا يُؤْمِرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا فُرِغَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ ﴿فَيَقْرَأَهُمْ بِمَدَائِبِ الْبَيْرِ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ أَجْرٌ عَيْرَ مَسْنُونٍ﴾

قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ﴾ قال الفراء: المعنى: بلى ليحورون، ثم استأنف، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رِيَّتْ كَانَ يَدُهُ بَصِيرًا﴾ قال المفسرون: بصيراً به على جميع أحواله.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ﴾ قد سبق بيانه. فأما «الشفق» فقال ابن قتيبة: هما شفقان: الأحمر، والأبيض؛ فالأحمر: من لدن غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء ثم يغيب، ويبقى الشفق الأبيض إلى نصف الليل. وللمفسرين في المراد «بالشفق» هاهنا ستة أقوال: أحدها: الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس. وقد روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشفق: الحمرة» (٣)، وهذا قول عمر، وابنه، وابن مسعود، وعبادة، وأبي قتادة، وجابر بن عبد الله، وابن عباس، وأبي هريرة، وأنس، وابن المسيب، وابن جبير، وطاوس، ومكحول، ومالك، والأوزاعي، وأبي يوسف، والشافعي، وأبي عبيد، وأحمد، وإسحاق، وابن قتيبة، والزجاج. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول وعليه ثوب مصبوغ: كأنه الشفق، وكان أحمر. والثاني: أنه النهار. والثالث: الشمس، روي القولان عن مجاهد. والرابع: ما بقي من النهار، قاله عكرمة. والخامس: السواد الذي يكون بعد ذهاب البياض، قاله أبو جعفر محمد بن علي. والسادس: أنه البياض، قاله عمر بن عبد العزيز.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْلٍ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: وما جمع وضم. وأنشدوا:

إِنْ لَنَا قَلْبًا نَبْصًا حَقَائِقًا
مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ يَجِدُنَّ سَائِقًا (٤)

قال أبو عبيدة: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ ما علا فلم يمنع منه شيء، فإذا جَلَّ الليل الجبال، والأشجار، والبحار، والأرض، فاجتمعت له، فقد وسقها. وقال بعضهم: معنى: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾: ما جمع مما كان منتشراً بالنهار في تصرفه إلى ماواه.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ قال الفراء: اتساقه: اجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة، وأربع عشرة، إلى ست عشرة.

(١) رواه البخاري ١٧٦/١ ٥٣٥/٨ ٣٤٧/١١، ومسلم ٢٢٠٤/٤، ورواه الطبري ١١٦/٣٠، والترمذي ١٦٩/٢، وقال: حديث حسن صحيح، وأورده السيوطي في «الدرر» ٣٢٩/٦، وزاد نسبه لأحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة.

(٢) «ديوانه» ١٦٩.

(٣) أخرجه الدارقطني في «سننه» ١٠٠، وصححه البيهقي وقفه، وقال في «المعرفة»: روي هذا الحديث عن عمر، وعلي، وابن عباس، وعبادة بن الصامت، وشداد بن أوس، وأبي هريرة، ولا يصح عن النبي ﷺ فيه شيء، وذكره السيوطي في «الدرر» موقوفاً على ابن عمر، وعزاه إلى عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وعبد بن حميد، وابن مردويه.

(٤) الرجز في «ملحق ديوان المصباح» ٨٤، وهو في «مجاز القرآن» ٢٩١/٢، و«الطبري» ١٢٠/٣٠، و«القرطبي» ٢٧٥/١٩، و«اللسان» وسق.

قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ﴿١١﴾ قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: «لَتَرْكَبَنَّ» بفتح التاء والباء، وفي معناه قولان: أحدهما: أنه خطاب لرسول الله ﷺ، ثم في معناه قولان: أحدهما: لتركبَنَّ سماءً بعد سماء، قاله ابن مسعود، والشعبي، ومجاهد. والثاني: لتركبَنَّ حالاً بعد حال، قاله ابن عباس، وقال: هو نبيكم. والقول الثاني: أن الإشارة إلى السماء. والمعنى: أنها تتغير ضرورياً من التغيير، فتارة كالمُهَل، وتارة كالدَّهَان، روي عن ابن مسعود أيضاً. وقرأ عاصم، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بفتح التاء، وضم الباء، وهو خطاب لسائر الناس. ومعناه: لتركبَنَّ حالاً بعد حال. وقرأ ابن مسعود، وأبو الجوزاء، وأبو الأشهب: «ليركبَنَّ» بالياء، ونصب الباء. وقرأ أبو المتوكل، وأبو عمران، وابن يعمر: «ليركبَنَّ» بالياء، وضم الباء. و«عن» بمعنى «بعد». وهذا قول عامة المفسرين واللغويين، وأنشدوا للأقرع بن حابس:

إِنِّي أَمْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ
وَسَأَقِنِي طَبَقٌ مِنْهُ إِلَى طَبَقٍ^(١)

ثم في معنى الكلام خمسة أقوال: أحدها: أنه الشدائد، والأحوال، ثم الموت، ثم البعث، ثم العرض، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الرخاء بعد الشدة، والشدة بعد الرخاء، والغنى بعد الفقر، والفقر بعد الغنى، والصحة بعد السقم، والسقم بعد الصحة، [قاله الحسن. والثالث: أنه كون الإنسان رضيعاً ثم فطيماً ثم غلاماً شاباً ثم شيخاً^(٢)]، قاله عكرمة. والرابع: أنه تغير حال الإنسان في الآخرة بعد الدنيا، فيرتفع من كان رضيعاً، ويتضع من كان مرتفعاً، وهذا مذهب سعيد بن جبيرة. والخامس: أنه ركوب سنن من كان قبلهم من الأولين، قاله أبو عبيدة. وكان بعض الحكماء يقول: من كان اليوم على حالة، وغداً على حالة أخرى، فليعلم أن تدييره إلى سواء^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ يعني: كفار مكة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بمحمد والقرآن، وهو استفهام إنكار ﴿رِئَاسَةً عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يسلون، قاله عطاء، وابن السائب. والثاني: لا يخضعون له، ويستكينون، قاله ابن جرير، واختاره القاضي أبو يعلى. قال: وقد احتجَّ بها قوم على وجوب سجود التلاوة، وليس فيها دلالة على ذلك، وإنما المعنى: لا يخشعون، ألا ترى أنه أضاف السجود إلى جميع القرآن، والسجود يختص بمواضع منه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿١٣﴾ بالقرآن، والبعث، والجزاء ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ ﴿١٤﴾ في صدورهم ويضمرون في قلوبهم من التكذيب. قال ابن قتيبة: ﴿يُوعُونَ﴾: يجمعون في قلوبهم. وقال الزجاج: أوعيت المتاع في الوعاء، ووعيت العلم.

قوله تعالى: ﴿بَنَيْتُمْ مِصَابِيحَ آلِيهِ﴾ ﴿١٥﴾ أي: أخبرهم بذلك. وقال الزجاج: اجعل للكفار بدل البشارة للمؤمنين بالجنة والرحمة، العذاب الأليم. و«المؤمنون» عند أهل اللغة: المقطوع.



(١) أنشده القرطبي في «تفسيره» ٢٧٨/١٩.

(٢) زيادة سقطت من نسخة الرباط، واستدركناها من النسخة الاستنبولية.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من التأويل قول من قال: لتركبَنَّ أنت يا محمد حالاً بعد حال، وأمرأ بعد أمر من الشدائد، والمراد بذلك - وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ - موجهاً - جميع الناس، أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أحوالاً.

سورة البروج

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْاُزْقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ نَسُوا الْمَوْتِينَ وَالْمَوْتَمَاتِ ثُمَّ لَا تَأْتِيهِمْ فَالَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّةً تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِيعُ السَّمِيعِ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَمَالِ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجُبُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ حَاطِبٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَاحِظٍ مَحْقُودٍ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ قد ذكرنا البروج في [الحجر: ١٦] ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾﴾ هو يوم القيامة بإجماعهم ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾ فيه أربعة وعشرون قولاً: أحدها: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ^(١)، وبه قال علي، وابن عباس في رواية، وابن زيد. فعلى هذا سمي يوم الجمعة شاهداً؛ لأنه يشهد على كل عامل بما فيه، وسمي يوم عرفة مشهوداً، لأن الناس يشهدون فيه موسم الحج، وتشهده الملائكة. والثاني: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم النحر، قاله ابن عمر. والثالث: أن الشاهد: الله ﷻ، والمشهود: يوم القيامة، رواه الوالبي عن ابن عباس. والرابع: أن الشاهد: يوم عرفة، والمشهود: يوم القيامة، رواه مجاهد عن ابن عباس. والخامس: أن الشاهد: محمد ﷺ، والمشهود: يوم القيامة، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس، وبه قال الحسن بن علي. والسادس: أن الشاهد: يوم القيامة، والمشهود: الناس، قاله جابر بن عبد الله. والسابع: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم القيامة، قاله الضحاك. والثامن: أن الشاهد: يوم التروية، والمشهود: يوم عرفة، قاله سعيد بن المسيّب. والتاسع: أن الشاهد: هو الله، والمشهود: بنو آدم، قاله سعيد بن جبيرة. والعاشر: أن الشاهد: محمد، والمشهود: يوم عرفة، قاله الضحاك. والحادي عشر: أن الشاهد: آدم ﷺ، والمشهود: يوم القيامة، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد. والثاني عشر: أن الشاهد: ابن آدم، والمشهود: يوم القيامة، رواه ليث عن مجاهد، وبه قال عكرمة. الثالث عشر: أن الشاهد: آدم ﷺ، وذريته، والمشهود: يوم القيامة، قاله عطاء بن يسار. والرابع عشر: أن الشاهد: الإنسان، والمشهود: الله ﷻ، قاله محمد بن كعب. والخامس عشر: أن الشاهد: يوم النحر، والمشهود: يوم عرفة، قاله إبراهيم. والسادس عشر: أن الشاهد: عيسى ﷺ، والمشهود: أمته، قاله أبو مالك. ودليله قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١١٧﴾﴾. والسابع عشر: أن الشاهد: محمد ﷺ، والمشهود: أمته، قاله عبد العزيز بن يحيى، وبيانه ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾. والثامن عشر: أن الشاهد: هذه الأمة، والمشهود: سائر الناس، قاله الحسين^(٢) بن الفضل، ودليله ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴿١٤٣﴾﴾. والتاسع عشر: أن الشاهد: الحفظة، والمشهود: بنو آدم، قاله محمد بن علي الترمذي، وحكي عن عكرمة نحوه. والعشرون: أن

(١) رواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وفي سننه موسى بن عبيدة الرندي، وهو ضعيف كما قال الحافظ بن حجر في «التقريب»، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة: يضعف في الحديث، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره من قبل حفظه، وقال ابن كثير: وروى هذا الحديث ابن خزيمة من طرق عن موسى بن عبيدة الرندي، وهو ضعيف، وقد روي موقوفاً على أبي هريرة، وهو أشبه.

(٢) في الأصل: الحسن.

الشاهد: الحق، والمشهود: الكون، قاله الجنيد. والحادي والعشرون: أن الشاهد: الحجر الأسود، والمشهود: الحاج. والثاني والعشرون: أن الشاهد: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمشهود: محمد ﷺ، وبيانه «وَرَأَى أَخَذَ اللَّهُ يَمِينَهُ أَتَيْتَنِي...» الآية (آل عمران: ٤٨١). والثالث والعشرون: أن الشاهد: الله ﷻ، والملائكة، وأولو العلم، والمشهود: لا إله إلا الله، وبيانه «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَاللَّهُ يَكْفُرُ وَأُولُو الْأَلْبَابِ» (آل عمران: ٤٨)، حكى هذه الأقوال الثلاثة الثعلبي. والرابع والعشرون: أن الشاهد: الأنبياء ﷺ، والمشهود: الأمم، حكاها شيخنا علي بن عبيد الله^(١). وفي جواب القسم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ لَكُتُوبًا﴾ قال قتادة، والزجاج. والثاني: أنه قوله تعالى: ﴿قِيلَ آمَنَ بِنُوحٍ وَأَلْحَدُودُ﴾، كما أن القسم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ رَضَخْنَا﴾: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾، حكاها الفراء. والثالث: أنه متروك، وهذا اختيار ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ آمَنَ بِنُوحٍ وَأَلْحَدُودُ﴾ أي: لُتُونُوا. والأحدود: شق يشق في الأرض، والجمع: أخايد. وهؤلاء قوم حضروا حفائر في الأرض وأوقدوا فيها النار، وألقوا فيها من لم يكفر. واختلف العلماء فيهم على ستة أقوال: أحدها: أنه مَلِكٌ كان له ساحر فبعث إليه غلاماً يعلمه السحر، وكان الغلام يمرُّ على راهب، فأعجبه أمره، فتبعه، فعلم به المَلِكُ، فأمره أن يرجع عن دينه، فقال: لا أفعل، فاجتهد الملك في إهلاكه، فلم يقدر، فقال الغلام: لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به: اجمع الناس في صعيد واحد، واصلبيني على جذع، وارمني بسهم من كنانتي، وقل: بسم الله ربِّ الغلام، ففعل، فمات الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فخذ الأخايد، وأضرم فيها النار، وقال: من لم يرجع عن دينه فاقموه فيها، ففعلوا، وهذا مختصر الحديث، وفيه طول، وقد ذكرته في «المعني» و«الحدائق» بطوله من حديث صهيب عن رسول الله ﷺ^(٢). والثاني: أن ملكاً من الملوك سكر، فوقع على أخته، فلما أفاق قال لها: ويحك: كيف المخرج؟ فقالت^(٣): [له: اجمع أهل مملكتك فأخبرهم أن الله ﷻ قد أحلَّ نكاح الأخوات، فإذا ذهب هذا في الناس وتناسوه، خطبتهم فحرمتهم. ففعل ذلك، فأبوا أن يقبلوا ذلك منه، فبسط فيهم السوط، ثم جرد السيف، فأبوا، فخذ لهم أخدوداً، وأوقد فيه النار، وقذف من أبي قول ذلك، قاله علي بن أبي طالب^(٤). والثالث: أنهم ناس اقتتل مؤمنهم وكفارهم، فظهر المؤمنون، ثم تعاهدوا أن لا يغيِّر بعضهم بعض، فنذر كفارهم، فأخذوهم، فقال له رجل من المؤمنين: أوقدوا ناراً، واعرضوا عليها، فمن تابعكم على دينكم، فذاك الذي تحبون، ومن لم يتبعكم أقحم النار فاسترحم منه، ففعلوا، فجعل المسلمون يقتحمونها، ذكره قتادة. والرابع: أن قوماً من المؤمنين اعتزلوا الناس في الفترة، فأرسل إليهم جبَّار من عبدة الأوثان، فعرض عليهم الدخول في دينه فأبوا، فخذ لهم أخدوداً، وألقاهم فيه، قاله الربيع بن أنس. والخاص: أن جماعة آمنوا من قوم يوسف بن ذي نواس بعدما رفع عيسى، فخذ لهم أخدوداً، وأوقد فيه النار، فأحرقهم كلهم، فأنزل الله تعالى: ﴿قِيلَ آمَنَ بِنُوحٍ وَأَلْحَدُودُ﴾ وهم: يوسف بن ذي نواس وأصحابه، قاله مقاتل. والسادس: أنهم قوم كانوا يعبدون صنماً، ومعهم قوم يكتنون إيمانهم، فعلموا بهم، فخذوا لهم أخدوداً، وقذفوهم فيه، حكاها الزجاج^(٥). واختلفوا في الذين أحرقوا على خمسة أقوال: أحدها: أنهم كانوا من الحيشة، قاله

- (١) وقال الطبري بعد أن سرد معظم الأقوال التي ساقها المصنف: والصواب في ذلك عندنا أن يقال: إن الله أقسم بشاهد شهد، ومشهود شهد، ولم يخبرنا مع إسمائه بذلك أي شاهد وأي مشهود أراد، وكل الذي ذكرنا أن العلماء قالوا هو المعنى مما يستحق أن يقال: شاهد ومشهود.
- (٢) انظر الحديث بطوله في «مسند أحمد» ١٧/٦، و«صحيح مسلم» رقم ٢٠٠٥، و«سنن الترمذي» ١٦٩/٢.
- (٣) من هنا وحتى قبيل تفسير سورة (الشمس) وقع نقص في نسخة الرباط، استدركتها من النسخة الاستنبوية، وقد بدلنا الغاية في تقويم ما فيها من تحريف كثير، نبهنا إلى بعضه، وأغلنا أكثره لعقم فائدته.
- (٤) ذكره الطبري ١٣٢/٣٠ وفيه أن ذلك الملك كان من المجوس، وأنهم كانوا أهل كتاب، وذكر في آخره: فلم يزالوا منذ ذلك يستحلون نكاح الأخوات والبنات والأهتات.

(٥) قال ابن كثير: وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيراً، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا صفوان، عن عبد الرحمن بن جبير قال: كانت الأخدود في اليمن زمان تبع، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم من دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتوناً والتي في النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد، وفي العراق في أرض بابل بختنصر الذي صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له فامتنع دانيال وصاحبه عزريا وميشائيل، فأوقد لهم أتوناً والتي في الحطب والنار، ثم ألقاهم فيه، فجعلها الله تعالى عليهما برداً وسلاماً، وأغلقها منها،

عليّ كرم الله وجهه. والثاني: من بني إسرائيل، قاله ابن عباس. والثالث: من أهل اليمن، قاله الحسن. وقال الضحاك: كانوا من نصارى اليمن، وذلك قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة. والرابع: من أهل نجران، قاله مجاهد. والخامس: من التبت، قاله عكرمة. وفي عددهم ثلاثة أقوال: أحدها: اثنا عشر ألفاً، قاله وهب. والثاني: سبعون ألفاً، قاله ابن السائب. والثالث: ثمانون رجلاً، وتسعة نسوة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿النَّارَ ذَاتِ الْوُجُوهِ﴾ هذا بدل من ﴿الْأَخْدُودِ﴾ كأنه قال: قتل أصحاب النار، و﴿الْوُجُوهِ﴾ مفسر في [البقرة: ٢٤]. وقرأ أبو رزين العقيلي، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، ومجاهد، وأبو العالية، وابن يعمر، وابن أبي عمير، و﴿الْوُجُوهِ﴾ بضم الواو. ﴿إِذْ هَرَمْنَا عُيُودًا﴾ أي: عند النار. وكان الملك وأصحابه جلوساً على الكراسي عند الأخدود يعرضون المؤمنين على الكفر، فمن أبى ألقوه ﴿وَمَنْ عَلَا مَا يَمْلُؤُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُؤْبًا﴾ أي: حضور، فأخبر الله ﷻ في هذه الآيات بقصة قوم بلغ من إيمانهم وقيمتهم أن صبروا على التحريق بالنار، ولم يرجعوا عن دينهم. قوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْوُوا مِنْهُمْ﴾ قرأ ابن أبي عمير: ﴿نَقِمُوا﴾ بكسر القاف. قال الزجاج: أي: ما أنكروا عليهم إيمانهم، وقد شرحنا معنى تقموا في [المائدة: ٥٩] و[براءة: ٧٤] وشرحنا معنى ﴿الْمُزَيِّنِ الْمُنِيدِ﴾ في [البقرة: ١٢٩، ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لم يخف عليه ما صنعوا، فهو شهيد عليهم بما فعلوا. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: أحرقوهم، وعذبوهم، وكفروهم: ﴿يَوْمَ تَمُوتُ عَنِ النَّارِ يُنْتَوْنَ﴾ [الذاريات: ١٣] ﴿نَمَّ لِرَبِّهِمْ﴾ من شركهم وفعلهم ذلك بالمؤمنين ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتٌ﴾ بما أحرقوا المؤمنين، وكلا العذابين في جهنم عند الأكثرين. وذهب الربيع بن أنس في جماعة إلى أن النار ارتفعت إلى الملك وأصحابه فأحرقتهم، فذلك عذاب الحريق في الدنيا. قال الربيع: وقبض الله أرواح المؤمنين قبل أن تمسهم النار. وحكى الفراء أن المؤمنين نَجَوْا من النار، وأنها ارتفعت فأحرقت الكفرة. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْقَرَارُ الْكَبِيرُ﴾ لأنهم فازوا بالجنة. وقال بعض المفسرين: فازوا من عذاب الكفار، وعذاب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَلَدَكُمْ رِجَالٌ﴾ قال ابن عباس: إن أخذته بالعذاب إذا أخذ الظلمة والجباية ﴿لَشَدِيدٌ﴾. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْبِدِئُ وَالْبِدِئُ﴾ فيه قولان: أحدهما: بيدئ الخلق ويعيدهم، قاله الجمهور. والثاني: بيدئ العذاب في الدنيا على الكفار ثم يعيده عليهم في الآخرة، رواه العوفي عن ابن عباس. وقد شرحنا في [مرد: ٩٠] معنى ﴿الْوُجُوهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذُو الْقُرْسِيِّ الْجَبِيدِ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم «المجيد» بالخفض، وقرأ غيرهم بالرفع، فمن رفع «المجيد» جعله من صفات الله ﷻ، ومن كسر جعله من صفة العرش. قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثٌ﴾ أي: قد أتاك حديث ﴿الْمُنُودِ﴾ وهم الذين تجندوا على أولياء الله. ثم بين من هم، فقال تعالى: ﴿وَمَعُونَ وَنُودٌ﴾ بئ الذين كَفَرُوا يعني: مشركي مكة ﴿فِي تَكْذِيبِ﴾ لك والقرآن، أي: لم يعتبروا بمن كان قبلهم ﴿وَاللَّهُ مِنْ زَلَّامِهِمْ شَيْطٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ أي: كريم، لأنه كلام الله، وليس كما يقولون بشعر، ولا كهانة، ولا سحر. وقرأ أبو العالية، وأبو الجوزاء، وأبو عمران، وابن السميع ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ بغير تنوين وبخفض «مجيد» ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، منه نسخ القرآن وسائر الكتب، فهو محفوظ عند الله، محروس به من الشياطين، ومن الزيادة فيه والنقصان منه. وقرأ نافع «محفوظ» رفماً على نعت القرآن. فالمعنى: إنه محفوظ من التحريف والتبديل.



= وألقى فيها الذين بغوا عليه، وهم تسعة رهط فاكلتهم النار. وذكر نحوه عن أسباط عن السدي، وعن ابن أبي حاتم من رواية الربيع بن أنس، والله أعلم.

سورة الطارق

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلَ وَالطَّارِقَ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ أَلَيْسَ النَّبِيُّ الْقَارِعُ ﴿٣﴾ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ رِيحَ عَيْقُورٍ ﴿٥﴾ عَيْقُورٍ مِنْ سَلَوٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الشُّلُبِ وَالرَّأْسِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجِيمٍ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَبْلُغُ النُّجُومُ ﴿٩﴾ قَالَتْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٌ ﴿١٠﴾﴾
 قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ وَالطَّارِقَ ﴿١﴾﴾ قال ابن قتيبة: الطارق: النجم، سمي بذلك، لأنه يطرق، أي: يطلع ليلاً، وكل من أتاك ليلاً، فقد طرقتك.. ومنه قول هند ابنة عتبة:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ
 نمشي على النمارق^(١)

تريد: إن أبانا نجم في شرفه وعلوه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿١﴾﴾ قال المفسرون: ذلك أن هذا الاسم يقع على كل ما طرق ليلاً^(٢)، فلم يكن النبي ﷺ يدري ما المراد به حتى تبينه بقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ الْقَارِعُ ﴿٣﴾﴾ يعني: المضيء، كما بينا في [الصفات: ١٠]. وفي المراد بهذا النجم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه زُحَل، قاله علي عليه السلام، وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس عليه السلام قال: هو زحل، ومسكنه في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم، فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء، هبط، فكان معها، ثم رجع إلى مكانه من السماء السابعة، فهو طارق حين ينزل، وطارق حين يصعد. والثاني: أنه الثريا، قاله ابن زيد. والثالث: أنه اسم جنس، ذكره علي بن أحمد النيسابوري.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ قرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل [إن] بالتشديد «كل» بالنصب ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ وقرأ أبو جعفر، وابن عامر، وعاصم الجحدري، وحمزة، وأبو حاتم عن يعقوب «لَمَّا» بالتشديد. وقرأ الباقون بالتخفيف. قال الزجاج: هذه الآية جواب القسم، ومن خفف فالمعنى: لَعَلَّهَا حَافِظٌ و«ما» لغو. ومن شدد، فالمعنى: [إلا^(٣)]، قال: فاستعملت «لما» في موضع «إلا» في موضعين. أحدهما: هذا. والآخر^(٤): في باب القسم. تقول: سألتك لما فعلت، بمعنى: [إلا فعلت]. قال المفسرون: المعنى: ما من نفس إلا عليها حافظ، وفيه قولان: أحدهما: أنهم الحفظة من الملائكة، قاله ابن عباس. قال قتادة: يحفظون على الإنسان عمله من خير أو شر. والثاني: حافظ يحفظ الإنسان حتى حين يسلمه إلى المقادير، قاله الفراء. ثم نبه على البعث بقوله تعالى: ﴿فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ رِيحَ عَيْقُورٍ ﴿٥﴾﴾ أي: من أي شيء خلقه الله؟ والمعنى: فلينظر نظر التمعُّر والاستدلال ليعرف أن الذي ابتداء من نطفة قادرٌ على إعادته.

قوله تعالى: ﴿عَيْقُورٍ مِنْ سَلَوٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ قال الفراء: معناه: مدفوق، كقول العرب: سر^(٥) كاتم، وهم ناصب، وليل نائم، وعيشة راضية. وأهل الحجاز يجعلون المفعول فاعلاً. قال الزجاج: ومذهب سيويه وأصحابه أن معناه النسب إلى الاندفاق، والمعنى: من ماء ذي اندفاق^(٦).

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الشُّلُبِ ﴿٧﴾﴾ قرأ ابن مسعود، وابن سيرين، وابن السميعف، وابن أبي عبله ﴿الشُّلُبِ﴾ بضم

(١) انظر «الأغاني» طبع دار الثقافة ٣٤٣/١٢، والقرطبي ٢٠/٢٠.

(٢) قال ابن كثير: قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارِقاً، لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار، قال: ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً، أي: يأتيهم فجأة بالليل.

(٣) في الأصل: إلاط.

(٤) في الأصل: ستر.

(٥) في الأصل: والأخرة.

(٦) في الأصل: من ماذا اندفاق.

الصاد، واللام جميعاً، يعني: يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة. قال الفراء: يريد يخرج من الصلب والترائب. يقال: يخرج من بين هذين الشيئين خير كثير. بمعنى: يخرج منهما. وفي «الترائب»^(١) ثلاثة أقوال: أحدها: أنه موضع القلادة، قاله ابن عباس. قال الزجاج: قال أهل اللغة أجمعون: الترائب: موضع القلادة من الصدر، وأنشدوا لامرئ القيس:

مَهْفَهْفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مَفَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مَضْفُوءَةٌ كَالسَّجَنَجْلِ^(٢)

قرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: السججل: المرأة بالرومية. وقيل: هي سبيكة الفضة، وقيل: السججل: الزعفران، وقيل: ماء الذهب. ويروى: البيت «بالسججل». والثاني: أن الترائب: اليدان والرجلان والعينان، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثالث: أنها أربعة أضلاع من يمنة الصدر، وأربعة أضلاع من يسرة الصدر، حكاه الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ الهاء كناية عن الله ﷻ ﴿عَلَىٰ تَبِيءٍ﴾ الرجوع: رد الشيء إلى أوّل حاله. وفي هذه الهاء قولان: أحدهما: أنها تعود على الإنسان، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه على إعادة الإنسان حياً بعد موته قادر، قاله الحسن، وقادة. قال الزجاج: ويدلّ على هذا القول قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْكَارُ﴾. والثاني: أنه على رجعه من حال الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة قادر، قاله الضحاك^(٣). والقول الثاني: أنها تعود إلى الماء. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: ردّ الماء في الإحليل، قاله مجاهد. والثاني: على ردّه في الصلب، قاله عكرمة، والضحاك. والثالث: على حبس الماء فلا يخرج، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْكَارُ﴾ التي بين العبد وبين ربّه حين يظهر خيرها من شرّها، ومؤدّيها من مضيعها، فإن الإنسان مستور في الدنيا، لا يُدرى أصله، أم لا؟ أتوضأ، أم لا؟ فإذا كان يوم القيامة أبدى الله كل سرّ، فكان زيناً في الوجه، أو شيناً. وقال ابن قتيبة: تُخْتَبَرُ سرائر القلوب.

قوله تعالى: ﴿فَا لَمْ يَنْ فُؤُةً﴾ أي: فما لهذا الإنسان المنكر للبعث من قوّة يمتنع بها من عذاب الله ﴿وَلَا نَابِرٍ﴾ ينصره.

﴿وَأَلْأَيْسَٰرَ ذَاتِ الْوَعْدِ﴾ وَالْأَيْسَٰرَ ذَاتِ الْوَعْدِ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ لَوْلَا فَصْلٌ ﴿١٨﴾ وَمَا هُوَ بِالْمَرْءِ ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿٢٠﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿٢١﴾ فَمَهْلِكُ الْكَاذِبِينَ أَنفُسَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَلْأَيْسَٰرَ ذَاتِ الْوَعْدِ﴾ أي: ذات المطر، وسمي المطر رجماً لأنه يجيء ويرجع ويتكرّر ﴿وَأَلْأَيْسَٰرَ ذَاتِ الْوَعْدِ﴾ أي: ذات الشق. وقيل لها هذا، لأنها تتصدّع وتتشقّق بالنبات، هذا قول المفسّرين وأهل اللغة في الحرفين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَوْلَا فَصْلٌ﴾ يعني به القرآن، وهذا جواب القسم. والفصل: الذي يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما ﴿وَمَا هُوَ بِالْمَرْءِ﴾ أي: باللعب. والمعنى: إنه جدّ، ولم ينزل باللعب. وبعضهم يقول: الهاء في «إنه» كناية عن الوعيد المتقدم ذكره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني مشركي مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [أي: يحنلون] وهذا الاحتيال المكر برسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي: أجازيهم [على كيدهم] بأن أستدرجهم من حيث لا يعلمون، فأنتم منهم في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بالنار. ﴿فَمَهْلِكُ الْكَاذِبِينَ﴾ هذا وعيد من الله لهم. ومَهْلِكُ وأمهْلُ لغتان جمعتا هاهنا. ومعنى الآية: مهْلهم قليلاً حتى أهلكهم، ففعل الله ذلك بِتَدْرٍ، ونسخ الإمهال بآية السيف. قال ابن قتيبة: ومعنى ﴿وَمَا هُوَ بِالْمَرْءِ﴾ مهلاً،

(١) في الأصل: وفي التراب.

(٢) «ديوانه» ١٥، «إحجاز القرآن» للباقلاني ٢٧٠، والقرطبي ٥/٢٠، والمههفة: الخفيفة اللحم ليست برهلة، ولا ضخمة البطن، والمفاضة: المسترخية البطن، والترائب جمع تربية، وهي موضع القلادة من الصدر.

(٣) واختاره ابن جرير الطبري.

ورويّدك بمعنى أمهل. قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَلْمِزْتُمْ مِنْهُمْ رُودًا﴾ (١٧) أي: أمهلهم قليلاً، فإذا لم يتقدمها ﴿أَتَيْتُمْ﴾ كانت بمعنى «مهلاً». ولا يتكلم بها إلا مصغرة ومأموراً بها، وجاءت في الشعر بغير تصغير في غير معنى الأمر. قال الشاعر:

كَأَنَّهَا مِثْلُ مَنْ يَمْشِي عَلَى رُودٍ^(١)

أي: على مهل.



(١) كنا أنشده ابن قتيبة في «مشكل القرآن» ٤٢٣، وتبعه ابن فارس في «الصاحبي» ١٢٤، و«مقاييس اللغة» ٤٥٨/٢، و«الصواب ما في «القرطبي» ١٢/٢٠، و«اللسان» مادة: رود قال الجموح الطفري:

تَكَادُ لَا تُشْلِمُ الْبِطْحَاءَ وَطَائِعَهَا

كَأَنَّهَا مِثْلُ يَمْشِي عَلَى رُودٍ

وفي «أساس البلاغة» ٣٧٩/١: قال الهذلي:

تَكَادُ لَا تُشْلِمُ الْبِطْحَاءَ خَطْوَتِهَا....

سورة الأعلى

وهي مكية كلها بإجماعهم^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَرْزَقَ أَزْوَاجَ ﴿٤﴾ فَجَعَلَ غَنَاءَ أَحْوَى ﴿٥﴾ سُبْحَانَكَ فَلَا تَنفَعُ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ وَمَا يُخْفَى ﴿٧﴾ وَيُبَشِّرُكَ بِالْغَنَى ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَجَنَّبَهَا الْأَسْفَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصَلِّ أَنْتَارَ الْكُفْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾﴾

وفي معنى ﴿سَبِّحْ﴾ خمسة أقوال: أحدها: قل: سبحان ربِّي الأعلى، قاله الجمهور. والثاني: عَظُمَ. والثالث: صَلَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ، روي القولان عن ابن عباس. والرابع: نَزَّهَ رَبِّكَ عَنِ السُّوءِ، قاله الزجاج. والخامس: نَزَّهَ اسْمَ رَبِّكَ وَذَكَرَ إِيَّاهُ أَنْ تَذَكَّرَهُ وَأَنْتَ مَعْظَمٌ لَهُ، خَاشِعٌ لَهُ، ذَكَرَهُ الثَّلْعَبِيُّ^(٢). وفي قوله تعالى: ﴿اسْمَ رَبِّكَ﴾ قولان: أحدهما: أَنْ ذَكَرَ الْاسْمَ صَلَةً، كَقَوْلِ لَيْدِ بْنِ رَبِيعَةَ:

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا

والثاني: أَنَّهُ أَصْلِي^(٤). وقال الفراء [سبح ربك، وأ^(٥) سبح اسم ربك سواء في كلام العرب.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ ﴿١﴾﴾ أَي: فَعَدَّلَ الْخَلْقَ. وقد أشرنا إلى هذا المعنى في [الانتظار: ٧] ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ قرأ الكسائي وحده «قَدَّرَ» بالتخفيف «فَهْدَى» فيه سبعة أقوال: أحدها: قَدَّرَ الشَّقَاوَةَ وَالسَّعَادَةَ، وَهَدَى لِلرُّشْدِ وَالضَّلَالَةَ، قَالَه مَجَاهِدٌ. والثاني: جَعَلَ لِكُلِّ دَابَّةٍ مَا يَصْلِحُهَا وَهَدَاهَا إِلَيْهِ، قَالَه عَطَاءٌ. والثالث: قَدَّرَ مَدَّةَ الْجِنِينِ فِي الرَّحِمِ ثُمَّ هَدَاهُ^(٦) لِلخُرُوجِ، قَالَه السُّدِّيُّ. والرابع: قَدَّرَهُمْ ذِكْرًا وَإِنَاءً، وَهَدَى الذِّكْرَ لِإِتْيَانِ الْأَنْثَى، قَالَه مِقَاتِلٌ. والخامس: أَنَّ الْمَعْنَى: قَدَّرَ فَهْدَى وَأَضَلَّ، فَحُذِفَ «وَأَضَلَّ»، لِأَنَّ فِي الْكَلَامِ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ، حَكَاهُ الزَّجَاجُ. والسادس: قَدَّرَ الْأَرْزَاقَ، وَهَدَى إِلَى طَلِبِهَا. والسابع: قَدَّرَ الذُّنُوبَ، وَهَدَى إِلَى التُّوبَةِ، حَكَاهُمَا الثَّلْعَبِيُّ.

(١) روى البخاري في «صحيحه» ٥٣٧/٨ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (يعني بالمدينة) مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلنا يقرآنا القرآن، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ في سور مثلها. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها وسورة الغاشية في صلاة الجمعة والميدين وتر العشاء، وثبت في «الصحيحين» أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ: «هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يبسها؟».

(٢) وفي «الطبري»: نزه تسميتك يا محمد ربك الأعلى وذكرك إياه: أن تذكره إلاً وأنت له خاشع متذلّل، وفي «معالم التنزيل»: نزه تسمية ربك بأن تذكره وأنت له معظّم ولذكرة محترم. وروى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عقبه بن عامر الجهني لما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجعلوها في ركوعكم»، فلما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم» وإسناده صحيح.

(٣) تقدم تخريج البيت رقم (٦٠٠)، يقوله لبيد لابنته، في أبيات هي:

تَمَنَّى الْإِنْسَانِي أَنْ يَمِيشَ أَبُوهُمَا
فَقَوْمًا فَسَقُولًا بِالَّذِي قَدَّ عَلِمْتُمَا
وقولوا هو المرء الذي لا خليله
وقوله: «إلى الحول»، أي: إلى أن يحول الحول. والحول: السنة كاملة بأسرها، وقوله: «فقد اعتدز» هنا، بمعنى اعتدز، أي بلغ أقصى الغاية في العذر.

(٤) قال الألويسي في «روح المعاني» ٣٤٧/٩: أي نزه أسماء عز وجل عما لا يليق، فلا تزول مما ورد منها اسماً من غير مقتض، ولا تبقه على ظاهره إذا كان ما وضع له مما لا يصح له تعال، ولا تطلقه على غيره سبحانه أصلاً إذا كان مختصاً به كالاسم الجليل، أو على وجه يشعر بأنه تعالٍ وغيره فيه سواء إذا لم يكن مختصاً، فلا تقل لمن أعطاك شيئاً مثلاً: هذا رازقي على وجه يشعر بذلك وصنه عن الابتذال والتلفظ به في محل لا يليق به...

(٥) زيادة ليست في الأصل، ولكنها يفتضحها السياق. (٦) في الأصل: هدى.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَىٰ لَكَ الْحَقَّ﴾ (١) أي: أنبت العشب، وما ترعاه البهائم ﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد الخضرة ﴿غُثَاءً﴾ قال الزجاج، أي: جفّفه حتى جعله هشياً جافاً كالغناء الذي تراه فوق ماء السيل^(١). وقد بينا هذا في سورة [المؤمنين: ٤١]. فأما قوله تعالى: ﴿أَحْوَىٰ﴾ فقال الفراء: الأحوى: الذي قد اسودّ عن القدم، والعنق^(٢)، ويكون أيضاً: أخرج المرعى أحوى: أسود من الخضرة، فجعله غثاء^(٣)؛ كما قال تعالى: ﴿مُدْمَأَمَّتَانِ﴾ (٤) [الرحمن: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿سُنَّتْرِكَ فَلَا تَسْخِ﴾ (٥) قال مقاتل: سنعلمك^(٤) القرآن، ونجمعه في قلبك فلا تنساه أبداً. قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدهما: إلا ما شاء الله أن ينسخه فتنساه، قاله الحسن، وقتادة. والثاني: إلا ما شاء الله أن تنسى شيئاً، فإنما هو كقوله تعالى: ﴿خَلِيلِكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [معد: ١٠٧]، فلا يشاء^(٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَدْرَأُ الْيَهُودَ﴾ من القول والفعل ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ منهما ﴿وَيُنَبِّئُكَ لِلسَّيْرِ﴾ (٦) أي: نُسهل^(٦) عليك عمل الخير ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: عظ أهل مكة ﴿إِنْ نَمَّتِ الذُّرُوءُ﴾ وفي ﴿إِنْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الشرطية، وفي معنى الكلام قولان، أحدهما: إن قيلت^(٧) الذكرى، قاله يحيى بن سلام. والثاني: إن نفعت وإن لم تنفع، قاله علي بن أحمد النيسابوري. والثاني: أنها بمعنى «قد»، فتقديره: قد نفعت الذكرى، قاله مقاتل. والثالث: أنها بمعنى «ما» فتقديره: فذكر ما نفعت الذكرى، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿سَيَذَرُكَ﴾ سيحفظ^(٨) بالقرآن ﴿مَنْ يَخْفَىٰ وَيَجْتَبِئُ﴾ ويتجنب الذكرى ﴿الْأَنْفَىٰ الَّذِي يَصِلُ الْكَارَ الْكَبْرَىٰ﴾ (٧) أي: العظيمة القطيعة لأنها أشد من نار الدنيا ﴿ثُمَّ لَا يَبُوءُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَجِيءُ﴾ حياة تنفعه. وقال ابن جرير: تصير نفس أحدهم في حلقه، فلا تخرج فتضارقه فيموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيها. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّىٰ﴾ (٨) و﴿كَرَّرَ أَسَدَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ (٩) بل تُؤثِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٠) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿صُفِّ بِرَبِّهِمْ وَرُؤْسَىٰ﴾ (١١)

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ قال الزجاج: أي: صادف البقاء الدائم، والفوز ﴿مَنْ زَكَّىٰ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: من تطهّر^(٩) [من] الشرك بالإيمان، قاله ابن عباس. والثاني: من أعطى صدقة الفطر، قاله أبو سعيد الخدري، وعطاء، وقتادة. والثالث: من كان عمله زاكياً، قاله الحسن، والربيع. والرابع: أنها زكوات الأموال كلّها، قاله أبو الأحوص. والخامس: تكثّر بتقوى الله. ومعنى الزاكي: النامي الكثير، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ أَسَدَ رَبِّهِ﴾ قد سبق بيانه [الأحزاب: ٣١]. وفي قوله تعالى: ﴿فَصَلَّىٰ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الصلوات الخمس، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: صلاة العيدين، قاله أبو سعيد الخدري. والثالث: صلاة التطوع، قاله أبو الأحوص. والقول قول ابن عباس في الآيتين، فإن هذه السورة مكية بلا خلاف، ولم يكن بمكة زكاة، ولا عيد.

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤثِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ (١١) قرأ أبو عمرو، وابن قتيبة، وزيد عن يعقوب «بل يؤثرون» بالياء،

(١) في الأصل: السيل، وهو تصحيف.

(٢) في الأصل: والعنق، وهو تصحيف، والتصحيح من «اللسان» نقلًا عن الفراء.

(٣) نص عبارة الفراء كما في «اللسان»: وقد يكون معناه أيضاً: أخرج المرعى أحوى، أي: أخضر فجعله غثاء بعد خضرته، فيكون مؤخرًا معناه التقديم، والأحوى: الأسود من الخضرة.

(٤) في الأصل: سيعلمك.

(٥) عبارة الفراء كما في «القرطبي» ١٨/١٠: إلا ما شاء الله وهو لم يشأ أن ينسى شيئاً؛ كقوله تعالى: ﴿خَلِيلِكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ولا يشاء.

(٦) في الأصل: لسهل.

(٧) في الأصل: قلت، والتصحيح من مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٨) في الأصل: أسرمت يتعظ، والتصحيح من «مجمع البيان» للطبرسي. (٩) في الأصل: يظهر.

والباقون بالتاء، واختار الفراء والزجاج التاء، لأنها رويت عن أبي بن كعب: «بل أنتم تؤثرون». فإن أريد بذلك الكفار، فالمعنى: أنهم يؤثرون الدنيا على الآخرة، لأنهم لا يؤمنون بها. وإن أريد به المسلمون، فالمعنى: يؤثرون الاستكثار من الدنيا على الاستحسان من الثواب. قال ابن مسعود: إن الدنيا عجلت لنا، وإن الآخرة نُعِثَتْ^(١) لنا، وزويت عنا، فأخذنا بالعاجل [وتركنا الأجل]^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ لك؛ يعني الجنة أفضل ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: أدام من الدنيا. ﴿إِنَّ هَذَا لَنِي السُّحُوفِ الْأُولَى﴾ في المشار إليه أربعة أقوال: أحدها: أنه قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ قاله قتادة. والثاني: هذه السورة، قاله عكرمة، والسدي. والثالث: أنه لم يرد [أن معنى] السورة [في الصحف الأولى]، ولا الألفاظ^(٣) بعينها، وإنما أراد أن الفلاح لمن تزكى وذكر اسم ربه فصلّى، في الصحف الأولى، كما هو في القرآن، قاله ابن قتيبة. والرابع: أنه من قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ إلى قوله: ﴿وَأَبْقَى﴾ قاله ابن جرير^(٤). ثم بين الصحف الأولى ما هي، فقال: ﴿صُحُفٌ يُرْهِمُ وَمُوسَى﴾ وقد فسرتها في [النجم: ٣٦].



(١) في الأصل: نُعِيت.

(٢) زيادة لم ترد في الأصل، استلكتها من الطبري، والبغوي و«مجمع البيان» والقرطبي، وابن كثير. وعبارة ابن جرير الطبري في «التفسير»: عن عرفة الثقفي قال: استقرت ابن مسعود «صَحَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْكَلَّ» فلما بلغ: ﴿يَوْمَ تُؤْتَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لانا رأينا زيتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فأخذنا العاجل وتركنا الأجل. قال ابن كثير: وهذا منه على وجه التواضع والهضم، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو، والله أعلم.

(٣) في الأصل: لفاظها، والتصويب من «غريب القرآن» ٥٢٤.

(٤) واختاره، وقال: وإنما قلت: ذلك أولى بالصحة من غيره، لأن «هذا» إشارة إلى حاضر، فلان يكون إشارة إلى ما قُرِبَ منها، أولى من أن يكون إشارة إلى غيره.

سورة الغاشية

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهُ يُوسِّدُونَ خُنُوفَهُ ﴿٢﴾ عَائِلَةٌ نَائِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا سَائِبَةً ﴿٤﴾ تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ مَائِبَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسَوِّنُ وَلَا يَفِي مِنْ حِجْرِ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي: قد أتاك، قاله قطرب. وقال الزجاج: والمعنى: هذا لم يكن من علمك^(١)، ولا من علم قومك. وفي ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ قولان: أحدهما: أنها القيامة تغشى الناس بالآهوال، قاله ابن عباس، والضحاك، وابن قتيبة. والثاني: أنها النار تغشى وجوه الكفار، قاله سعيد بن جبيرة، والقرطبي، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَجُوهُ يُوسِّدُونَ خُنُوفَهُ﴾ أي: ذليلة، وفيها قولان: أحدهما: أنها وجوه اليهود والنصارى، قاله ابن عباس. والثاني: أنه جميع الكفار، قاله يحيى بن سلام.

قوله تعالى: ﴿عَائِلَةٌ نَائِبَةٌ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنهم الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام، كعبدة الأوثان، وكفأ أهل الكتاب، مثل الرهبان وغيرهم، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: أنهم الرهبان، وأصحاب الصوامع، رواه أبو الضحى عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبيرة، وزيد بن أسلم. والثالث: عاملة ناصبة في النار بمعالجة السلاسل والأغلال، لأنها [لم]^(٢) تعمل لله في الدنيا، فأعملها وأنصبها في النار، وروى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن. وقال قتادة: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله، فأعملها وأنصبها في النار بالانتقال من عذاب إلى عذاب. قال الضحاك: يُكَلِّفُونَ ارتقاء جبل في النار. وقال ابن السائب: يَخْرُجُونَ على وجوههم في النار. وقال مقاتل: عاملة في النار تأكل من النار، ناصبة للعذاب. والرابع: عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار يوم القيامة، قاله عكرمة السدي. والكلام هاهنا على الوجوه، والمراد أصحابها. وقد بينا معنى «النصب» في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَهْمُ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٤٨].

قوله تعالى: ﴿تَصَلَّى نَارًا سَائِبَةً﴾ قرأ أهل البصرة وعاصم إلا حفصاً «تُضَلَّى» بضم التاء. والباقون بفتحها^(٣). قال ابن عباس: قد حimit فهي تتلظى^(٤) على أعداء الله، ﴿تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ مَائِبَةٍ﴾ أي: متناهية في الحرارة. قال الحسن: وقد [أوقدت]^(٥) عليها جهنم منذ خلقت، فدفعوا إليها [ورداً]^(٦) عطاشاً.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أنه نبت ذو شوك لاطع بالأرض، وتسميه قريش «الشُّبْرُق» فإذا هاج سموه: صريعاً، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقاتدة. والثاني: أنه شجر من نار، رواه الوابي عن ابن عباس. والثالث: أنها الحجارة، قاله ابن جبيرة. والرابع: أنه السِّلْمُ^(٧)، قاله أبو الجوزاء. والخامس: أنه في الدنيا: الشوك اليابس الذي ليس له ورق، وهو في الآخرة شوك من نار، قاله ابن زيد. والسادس: أنه طعام يضرعون إلى الله تعالى منه، قاله ابن كيسان. قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال المشركون:

(١) في الأصل: عمك، والتصحيح من «القرطبي».

(٢) قال في «البحر» و«روح المعاني»: وقرأ خارجة «تُضَلَّى» بضم التاء، وفتح الصاد مشدداً للام، للبيان.

(٣) في الأصل: تتلظى.

(٤) كلمة «أوقدت» سقطت من الأصل، واستدركتها من البغوي والخازن والقرطبي.

(٥) في الأصل: السلا.

(٦) زيادة من البغوي والخازن والقرطبي.

إِنْ إِبْلِنَا لَتَسْمَنَّ عَلَى الضَّرِيعِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِيَنَّ وَلَا يَتَّقِيَنَّ مِنْ جُوعٍ﴾ (٧) ﴿وَكَذَّبُوا، فَإِنَّ الْإِبِلَ إِنَّمَا تَرَعَاهُ مَا دَامَ رَطْبًا، وَحِينَئِذٍ يَسْتَوِي شَبْرِقًا، لَا ضَرِيعًا، فَإِذَا يَبِيسُ يَسْمَى: ضَرِيعًا لَمْ يَأْكُلْ شَيْءًا. فَإِنَّ قِيلَ: إِنَّهُ (٨) قَدْ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (٩) ﴿وَفِي مَكَانٍ آخَرَ: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشَلِينَ﴾ (١٠) [الحاشية: ٣٦] فَكَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ النَّارَ حَرَكَاتٌ، وَعَلَى قَدْرِ الذَّنُوبِ تَقَعُ الْعُقُوبَاتُ، فَمِنْهُمْ مَنْ طَعَامُهُ الرِّقُّومُ، [وَمِنْهُمْ] (١١) مَنْ طَعَامُهُ غَشَلِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَرِبَهُ الْحَمِيمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَرِبَهُ الصَّدِيدَ، قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ.

﴿وَجُوعٌ يَوْمَئِذٍ نَاعَةٌ﴾ (١٢) ﴿لِسَعْيَا رَاضِيَةً﴾ (١٣) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (١٤) ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيْفَةَ﴾ (١٥) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٦) ﴿فِيهَا مَرْزُورَةٌ مَرْوُوعَةٌ﴾ (١٧) ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْشُوعَةٌ﴾ (١٨) ﴿وَمَنَارٌ مَصْفُوعَةٌ﴾ (١٩) ﴿وَرِزْقًا مَبْنُوعَةٌ﴾ (٢٠) ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٢١) ﴿وَأَلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (٢٢) ﴿وَلَا لِبَالٍ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (٢٣) ﴿وَأَلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٤) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢٥) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢٦) ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٢٧) ﴿يَمَذِّبُهُ اللَّهُ الذَّمَّابَ الْأَكْبَرَ﴾ (٢٨) ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٢٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٣٠)

قوله تعالى: ﴿وَجُوعٌ يَوْمَئِذٍ نَاعَةٌ﴾ (١٢) أي: في نعمة وكرامة ﴿لِسَعْيَا﴾ في الدنيا ﴿راضية﴾ والمعنى: رضية بثواب عملها ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (١٣) قد فسرناه في [الحاشية: ٢٢]، ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيْفَةَ﴾ (١٥) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورويس ﴿لَا يُسْمَعُ﴾ بياء مضمومة. «لاغية» بالرفع. وقرأ نافع كذلك إلا أنه بياء مضمومة، والباقون بياء مفتوحة، ونصب «لاغية» والمعنى: لا تسمع فيها كلمة [لغوي] (٤) ﴿فِيهَا مَرْزُورَةٌ مَرْوُوعَةٌ﴾ (١٦) قال ابن عباس: ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد، والدر، والياقوت، مرتفعة ما لم يجيء أهلها، فإذا أراد أن يجلس عليها صاحبها، تواضعت له حتى يجلس عليها، ثم ترتفع إلى موضعها ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْشُوعَةٌ﴾ (١٨) عندهم. وقد ذكرنا «الأكواب» في [الزخرف: ٧١]، ﴿وَمَنَارٌ﴾ وهي الوسائد، واحدها: منرقة بضم النون. قال الفراء: وسمعت بعض كلب تقول: ينمرقة، بكسر النون والراء وهي «مَصْفُوعَةٌ» بعضها إلى جنب بعض، والزرايبي: الطنافس [التي] (٥) لها حَمَلٌ (٦) رقيق ﴿مَبْنُوعَةٌ﴾ كثيرة. قال ابن قتيبة: كثيرة مفزقة. قال المفسرون: لما نعت الله سبحانه ما في الجنة، عجب من ذلك أهل الكفرة، فذكروهم صنعه، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾ (٧) وقال قتادة: ذكر الله ارتفاع [سُرُرٍ] (٨) الجنة، وفرشها، فقالوا: كيف نصعدُها، فنزلت هذه الآية (٩). قال العلماء: وإنما خص الإبل من غيرها لأن العرب لم يَرَوْا بهيمة قط أعظم منها، ولم يشاهدوا الفيل إلا الشاذ منهم، ولأنها كانت أنفس أموالهم وأكثرها، لا تفارقهم ولا يفارقونها، فيلاحظون فيها العير الدالة على قدرة الخالق، من إخراج لبنها من بين قرث ودم [و] (١٠) من عجيب خلقها، وهي على عظمها مُدَلَّلة للحمل الثقيل، وتنقاد للصبي الصغير، وليس في ذوات الأربع ما يحمل عليه وقره وهو بارك فيطبق النهوض به سواها. وقرأ ابن عباس، وأبو عمران الجوني، والأصمعي عن أبي عمرو «الإبل» بإسكان الباء، وتخفيف اللام. وقرأ أبي بن كعب، وعائشة، وأبو المتوكل، والجحدري، وابن السميع، ويونس بن حبيب وهارون كلاهما عن أبي عمرو «الإبل» بكسر الباء، وتشديد اللام. قال هارون: قال أبو عمرو: «الإبل» بتشديد اللام: السحاب الذي يحمل الماء.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبو العالية، وأبو عمران، وابن أبي عمير ﴿خُلِقَتْ﴾ بفتح الخاء، وضم التاء. وكذلك قرؤوا: «رَفَعَتْ» و«نَصَبَتْ» و«سَطَّحَتْ».

قوله تعالى: ﴿وَأَلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (٢٢) ﴿وَأَلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٤) من الأرض حتى لا ينالها شيء بغير عمد ﴿وَأَلَى الْبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (٢٣)

(١) في الأصل: ابن.

(٢) زيادة لم ترد في الأصل.

(٣) سقطت من الأصل، واستدركتها من القرطبي نقلاً عن الفراء والأخفش.

(٤) زيادة من الطبري والقرطبي.

(٥) في الأصل: حل.

(٦) رواه ابن جرير الطبري ١٦٥/٣٠، وأراده السيوطي في «الدر» ٣٤٣/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

(٧) كلمة «سرد» سقطت من الأصل، واستدركتها من البغوي والمخازن.

(٨) ذكره البغوي والمخازن عن قتادة بغير سند.

(٩) زيادة ليست في الأصل.

على الأرض لا تزول ولا تتغير ﴿وَرَأَى الْأَرْضَ كَيْفَ سَطَحَتْ﴾ (١) أي: بُسِطَتْ. والسطح: بسط الشيء، وكل ذلك يدل على [قدرة] (٢) خالقه ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: عِظْ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي: واعظ، ولم يكن حينئذ أمر بغير التذكير، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿كُنْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَوِّبٍ﴾ أي: بمسلط، فتقتلهم وتكرهمهم على الإيمان (٣). ثم نسختها آية السيف. وقرأ أبو رزين، وأبو عبد الرحمن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والحلواني عن ابن عامر «بمسيطر» بالسين. وقد سبق بيان «المسيطر» في قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْمُضِلُّونَ﴾ [الطور: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى﴾ وهذا استثناء منقطع معناه: لكن من تولى ﴿وَكَفَرَ﴾ بعد التذکر. وقرأ ابن عباس، وعمرو بن العاص، وأنس بن مالك، وأبو مجلز، وقتادة، وسعيد بن جبیر «ألا من تولى» بفتح الهمزة وتخفيف اللام ﴿فَعَذَابُ اللَّهِ الدَّابَّ الْأَكْبَرُ﴾ (٤) وهو أن يدخله جهنم، وذلك أنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع، والقتل، والأسر، فكان عذاب جهنم هو الأكبر ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٥) قرأ أبي بن كعب، وعائشة، وعبد الرحمن، وأبو جعفر «إيابهم» بتشديد الياء، أي: رجوعهم ومصيرهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٦) قال مقاتل: أي: جزاءهم.



(١) قال القرطبي: وقرأ الحسن وأبو حيرة وأبو رجاء «سَطَحَتْ» بتشديد الطاء وإسكان التاء.

(٢) زيادة ليست في الأصل.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» ٥٣/١ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (١) كُنْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَوِّبٍ»، ورواه الترمذي (١٧٠/٢) وقال: حديث حسن صحيح.

سورة الفجر

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَبِالْيَمِينِ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَنزَرُ ٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِمْرٍ ٥﴾ أَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ٦﴾ بِمَا يُؤْمَرُ ٧﴾ إِذْ دَنَا إِلَهُكَ ٨﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَنزَرُ ٩﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ١٠﴾ وَرُؤُوسَ ذِي الْأُكَادِ ١١﴾ الَّذِينَ طَعَنُوا ١٢﴾ فِي الْبَلَدِ ١٣﴾ فَأَكْرَمُوا فِيهَا الْفَسَادَ ١٤﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِغُ الْعَذَابِ ١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ قال ابن عباس: الفجر: انفجار الظلمة عن الصباح، وانفجر الماء: انبجس. قال شيخنا علي بن عبيد الله: الفجر: ضوء النهار إذا انشق عنه الليل، وهو مأخوذ من الانفجار، يقال: انفجر النهر ينفجر انفجاراً: إذا انشق فيه موضع لخروج الماء، ومن هذا سمي الفاجر فاجراً، لأنه خرج عن طاعة الله. وللمفسرين في المراد بهذا الفجر ستة أقوال: أحدها: أنه الفجر المعروف الذي هو بدء النهار، قاله علي رضي الله عنه. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو انفجار الصباح كل يوم، وبهذا قال عكرمة، وزيد بن أسلم، والقرظي. والثاني: صلاة الفجر، رواه عطية عن ابن عباس. والثالث: النهار كله، فعبر عنه بالفجر، لأنه أوله، وروى هذا المعنى أبو نصر^(١) عن ابن عباس. والرابع: أنه فجر يوم النحر خاصة، قاله مجاهد^(٢). والخامس: أنه فجر أول يوم^(٣) من ذي الحجة، قاله الضحاك. والسادس: أنه أول يوم من المحرم تفجر منه السنة، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْيَمِينِ ٢﴾ فيها أربعة أقوال: أحدها: أنه عشر ذي الحجة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي ومقاتل^(٤). والثاني: أنها العشر الأواخر من رمضان، رواه أبو طيبان عن ابن عباس. والثالث: العشر الأول من رمضان، قاله الضحاك. والرابع: العشر الأول من المحرم، قاله يمان بن رثاب.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف «الووتر» بكسر الواو، وفتحها الباقون، وهما لغتان. قال الفراء: الكسر لقريش وتميم وأسد، والفتح لأهل الحجاز. وللمفسرين في «الشفع والوتر» عشرون قولاً: أحدهما: أن الشفع: يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر: ليلة النحر، رواه أبو أيوب الأنصاري عن رسول الله ﷺ^(٥). والثاني: يوم النحر، والوتر: يوم عرفة، رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ، وبه قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك^(٦). والثالث: أن الشفع والوتر: الصلاة، منها الشفع، ومنها الوتر، رواه عمران بن حصين عن

(١) وهو المختار، وقد قال بذلك أيضاً ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والسدي.

(٢) في الأصل: أبو نصر، والتصحيح من «الطبري» وكتب الرجال، ولا يعرف له اسم. أخرج له البخاري في «الأدب المفرد»، وقال أبو زرعة: أبو نصر الأسدي الذي يروي عن ابن عباس ثقة.

(٣) وبذلك قال مسروق، ومحمد بن كعب، وهو خاتمة الليالي العشر. (٤) في الأصل: يوم أول.

(٥) وهو الذي اختاره ابن جرير الطبري، وقال: الصواب من القول في ذلك عندنا أنها عشر الأضحى، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه. وقال ابن كثير: الليالي العشر: المراد بها عشر ذي الحجة، كما قاله ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف، قال: وقد ثبت في «صحيح البخاري» عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله لهن من هذه الأيام يعني عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء».

(٦) قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٣٧/٧: رواه الطبراني في حديث طويل، وفيه واصل بن السائب، وهو متروك. وقال الحافظ السيوطي في «الدرر» ٢٤٦/٦: أخرجه الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ.

(٧) عبارة الأصل: «رواه جابر بن عبد الله عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ، وبه قال عكرمة والضحاك» وهي خطأ، فإن جابراً ﷺ لم يروه عن رسول الله ﷺ بواسطة ابن عباس، وإنما رواه مباشرة عن رسول الله ﷺ كما في «مسند أحمد» ٣٢٧/٣ من رواية زيد بن الحباب عن عياض بن عتبة =

رسول الله ﷺ^(١)، وبه قال قتادة. والرابع: [أن الشفع: الخلق كله، والوتر: الله تعالى]^(٢)، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في رواية مسروق، وأبو صالح. والخامس: أن الوتر: آدم شفع بزوجه^(٣)، رواه مجاهد عن ابن عباس. والسادس: أن الشفع يومان بعد يوم النحر، وهو النفر الأول، والوتر: اليوم الثالث، وهو النفر الأخير، قاله عبد الله بن الزبير، واستدل بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ مَّجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. والسابع: أن الشفع: صلاة الغداة، والوتر: صلاة المغرب، حكاه عطية. والثامن: أن الشفع: الركعتان من صلاة المغرب، والوتر: الركعة الثالثة، قاله أبو العالية، والربيع بن أنس. والتاسع: أن الشفع والوتر: الخلق كله، منه شفع، ومنه وتر، قاله ابن زيد ومجاهد في رواية. والعاشر: أنه العدد، منه شفع، ومنه وتر، وهذا والذي قبله مرويان عن الحسن. والحادي عشر: أن الشفع: عشر ذي الحجة، والوتر: أيام [منى]^(٤) الثلاثة، قاله الضحاك. والثاني عشر: أن الشفع: هو الله، لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِمُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، والوتر: هو الله، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٥)، قاله سفيان بن عيينة. والثالث عشر: أن الشفع: هو آدم وحواء. والوتر: الله تعالى، قاله مقاتل بن سليمان. والرابع عشر: أن الشفع: الأيام والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلة [بعده]^(٦)، وهو يوم القيامة، قاله مقاتل بن حيان. والخامس عشر: الشفع: درجات الجنان، لأنها ثمان، والوتر: ذرّكات النار لأنها سبع، فكان الله أقسم بالجنة والنار، قاله الحسين بن الفضل. والسادس عشر: الشفع: تضادّ أوصاف المخلوقين بين عزّ وذلّ، وقدرة وعجز، وقوة وضعف، وعلم وجهل، وموت وحياة. والوتر: انفراد صفات الله ﷻ: عزّ بلا ذلّ، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، قاله أبو بكر الورّاق. والسابع عشر: أن الشفع: الصفا والمروة، والوتر: البيت. والثامن عشر: أن الشفع: مسجد مكة والمدينة، والوتر: بيت المقدس. والتاسع عشر: أن الشفع: القرآن بين^(٧) الحج والتمتع، والوتر: الأفراد. والعشرون: الشفع: العبادات المتكرّرة، كالصلاة، والصوم، والزكاة، والوتر: العبادة التي لا تتكرّر، وهو الحجّ، حكى هذه الأقوال الأربعة الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئْ إِذًا يَسِّرَ﴾^(٨) وقرأ ابن كثير، ويعقوب «يسري» بياء في الوصل والوقف، وافقهما في الوصل نافع وأبو عمرو. وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي «يسرّ» بغير ياء في الوصل والوقف. قال الفراء، والزجاج: الاختيار حذفها لمشاكلتها لرؤوس الآيات، ولاتباع المصحف^(٩). وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئْ إِذًا يَسِّرَ﴾^(٩) قولان: أحدهما: أن الفعل له، ثم فيه قولان: أحدهما: إذا يسري ذاهباً، قاله الجمهور، وهو اختيار الزجاج. والثاني: إذا يسري مقبلاً، قاله قتادة. والقول الثاني: أن الفعل لغيره^(١٠)، والمعنى: إذا يسري فيه؛ كما يقال: ليل نائم، أي: ينام

= عن خير بن نعيم عن أبي الزبير عن جابر، وأبو الزبير، هو محمد بن مسلم بن تدرس أبو الزبير المكي، وهو صدوق من رجال مسلم، إلا أنه يدلّس كما قال المحافظ ابن حجر في «التقريب». وقال ابن كثير: ورواه النسائي عن محمد بن رافع وعبد بن عبد الله، وكل منهما عن زيد بن الحباب به، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زيد بن الحباب به، قال: وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه تكارة، والله أعلم. وقال المحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٣٧/٧: رواه البزار، وأحمد، ورجالهما رجال الصحيح، غير عياش بن عبة، وهو ثقة، وأما عبد الله بن عباس، فلم يروه مرفوعاً، وإنما روي هذا المعنى مرفوعاً، كما في «الطبري» ١٧٠/٣٠، ولذلك قال ابن كثير بعدما أورد حديث جابر من رواية أحمد والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم، قاله (أي هذا المعنى) ابن عباس، وعكرمة، والضحاك أيضاً.

(١) رواه أحمد في «المستند» ٤٤٢/٤ من حديث همام عن قتادة عن عمران بن عصام الضبي أبو عمارة البصري، عن شيخ من أهل البصرة، عن عمران بن حصين رضي الله عنه. ورواه أيضاً الترمذي ١٧٠/٢ من حديث همام عن قتادة به، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة، وقد رواه خالد بن قيس أيضاً عن قتادة، ورواه ابن جرير الطبري ١٧٢/٣٠ عن خالد بن قيس عن قتادة به، والمحاكم في «المستدرک» ٥٢٢/٢ من حديث همام عن قتادة به، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ورواه الذهبي، وفيه نظر؛ لأن الراوي عن عمران بن حصين مجهول، ولم يوثقه إلا ابن حبان، وأورده السيوطي في «الدرر» ٣٤٦/٦ وزاد نسبة لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) عبارة الأصل: «أن الشفع الوتر وله الخلق كله، والوتر: الله تعالى» والصحيح من الطبري والقرطبي.

(٣) في الأصل: بن وجه، والتصحيح من القرطبي، وقيل: إن الشفع والوتر آدم وحواء، لأن آدم كان فرداً فشفع بزوجه حواء، فصار شفعاً بعد وتر.

(٤) سقطت من الأصل، واستدركتاها من القرطبي.

(٥) سقطت من الأصل، واستدركتاها من القرطبي.

(٦) في الأصل: في.

(٧) في الأصل: لعبرة.

(٨) في الأصل: لعبرة.

(٩) وهو اختيار ابن جرير الطبري.

فيه، قاله الأخفش، وابن قتيبة. وفي المراد بهذا الليل ثلاثة أقوال: أحدها: أنه عام في كل ليلة، وهذا الظاهر. والثاني: أنه ليلة المزدلفة، وهي ليلة جَمْعٍ^(١)، قاله مجاهد وعكرمة. والثالث ليلة القدر، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: [هل في ذلك المذكور من الأمور التي أقسمنا بها]^(٢) ﴿قَسَمَ أَيُّ حَيٍّ﴾ أي: لذي عقل، وسمي العقل حجراً، لأنه يحجر صاحبه عن الفسح، وسمي عقلاً، لأنه يعقل عما لا يحسن، وسمي العقل النهي، لأنه ينهي عما لا يحل^(٣). ومعنى الكلام: أن من كان ذا لبٍ عليم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء، فيه دلائل على توحيد الله وقدرته، فهو حقيق أن يقسم به لدلالته. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ فاعترض بين القسم وجوابه بقوله^(٤) تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَاءِ﴾ فخوف أهل مكة بإهلاك من كان أشد منهم. وقرأ ابن مسعود، وابن يعمر «بعاد إرم» بكسر الدال من غير تنوين على الإضافة. وفي «إرم» أربعة أقوال: أحدها: أنه اسم بلدة، قال الفراء: ولم يُجَزَّ^(٥) «إرم» لأنها اسم بلدة ثم فيها ثلاثة أقوال، أحدها: أنها دمشق، قاله سعيد بن المسيب، وعكرمة، وخالد الربيعي. والثاني: الاسكندرية، قاله محمد بن كعب^(٦). والثالث: أنها مدينة صنعها شداد بن عاد، وهذا قول كعب. وسبأتي ذكره إن شاء الله تعالى. والقول الثاني: أنه اسم أمة من الأمم، ومعناه: القديمة^(٧)، قاله مجاهد. والثالث: أنه قبيلة من قوم عاد^(٨)، قاله قتادة ومقاتل. قال الزجاج: وإنما لم تنصرف «إرم» لأنها جعلت اسماً للقبيلة ففتحت، وهي في موضع خفض. والرابع: أنه اسم لجد عاد، لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق^(٩). قال الفراء: فإن كان اسماً لرجل على هذا القول، فإنما ترك إجراؤه^(١٠)، لأنه كالعجمي، قال أبو عبيدة: هما عادان، فالأولى: هي إرم، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠]، وهل قوم هود عاد الأولى، أم لا؟ فيه قولان قد ذكرناهما في [النجم]^(١١). وفي قوله تعالى: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْكِمَادِ﴾ أربعة أقوال: أحدها: لأنهم كانوا أهل عمد وخيام يطلبون الكلا حيث كان، ثم يرجعون إلى منازلهم، فلا يقيمون في موضع، روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وفتادة، والفراء^(١٢). والثاني: أن معنى ذات العماد: ذات الطول، روى عن ابن عباس أيضاً، وبه قال مقاتل، وأبو عبيدة. قال الزجاج: يقال: رجل مُعَمَّدٌ: إذا كان طويلاً. والثالث:

(١) في الأصل: جمعة، والتصحيح من الطبري «والدر المنثور»، سميت بذلك لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله تعالى.

(٢) عبارة الأصل: فيما سأله ولده وقد قرئنا كما ترى اعتماداً على كتب التفسير.

(٣) عبارة البغوي: وسمي العقل حجراً، لأنه يحجر صاحبه عما لا يحل ولا ينبغي، كما يسمى عقلاً، لأنه يعقله عن القبائح، ونهي، لأنه ينهي عما لا ينبغي.

(٤) سقطت من الأصل الباء من «بقوله»، والتصحيح من «مجمع البيان» للطبرسي.

(٥) في الأصل: ولم يجز، وهو تصحيف، والتصويب من الطبري، ومعنى «لم يجز» لم يصرف.

(٦) علق ابن كثير رحمه الله على هذه الأقوال بقوله: ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْكِمَادِ﴾ مدينة، إما دمشق كما روي عن سعيد بن المسيب، وعكرمة، أو إسكندرية، كما روي عن القرظي، أو غيرها، ففيه نظر، فإنه كيف يلتزم الكلام على هذا ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَاءِ﴾ ﴿إِرمَ ذَاتِ الْكِمَادِ﴾ إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ. ثم المراد إما هو الإخيار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أن المراد الإخيار عن مدينة أو إقليم، قال: وإنما تبعت على ذلك لثلاث يفتقر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية من ذكر مدينة يقال لها: إرم ذات العماد، مبنية ببلن الذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها، وأن حصانها لآلى وجواهر، وترابها بنادق المسك، وأنها راسحة، وشارها سافطة، ودورها لا أنيس بها، وسورها وأبوابها تصفر، ليس بها داء ولا مجيب، وأنها تنتقل، فتارة تكون بارض الشام، وتارة باليمن، وتارة بالعراق، وتارة بغير ذلك من البلاد، فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين من وضع بعض زنادقتهم، ليختيروا بذلك عقول الجبهة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك.

(٧) يعني عاداً الأولى.

(٨) قال ابن جرير الطبري: وأشبه الأقوال فيه بالصواب عندي أنها اسم قبيلة من عاد، ولذلك جاءت القراءة بترك إضافة عاد إليها وترك إجرائها، قال: ولو كانت إرم اسم بلدة أو اسم جد لعاد، لجاءت القراءة بإضافة عاد إليها، ولكنها اسم قبيلة منها فيما أرى، كما قال فتادة والله أعلم، فلذلك أجمعت القراءة فيها على ترك الإضافة وترك الإجراء.

(٩) الذي في الطبري والقرظي وابن كثير عن ابن إسحاق: عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح.

(١٠) في الأصل: ترك جاؤه.

(١١) في الأصل زيادة «أحدهما» بين قوله: «قولان» وقد. وانظر تفسير الآية (٥٠) من سورة النجم.

(١٢) واختاره ابن جرير الطبري.

ذات القوة والشدة، مأخوذ من قوة الأعمدة، قاله الضحاك. والرابع: ذات البناء المحكم بالعماد، قاله ابن زيد. وقيل: إنما سميت ذات العماد لبناء بناه بعضهم^(١).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَخْلُقْ يَتْلُهَا فِي الْإِنْدَادِ﴾ ﴿٨﴾ وقرأ أبو المتوكّل، وأبو الجوزاء، وأبو عمران: «لم تَخْلُقْ» بناءً مفتوحة ورفع اللام «مثلها» بنصب اللام. وقرأ معاذ القارئ، وعمرو بن دينار: «لم تَخْلُقْ» بتون مفتوحة ورفع اللام «مثلها» بنصب اللام. وفي المشار إليها قولان: أحدهما: لم يَخْلُقْ مثل تلك القبيلة في الطول والقوة، وهذا معنى قول الحسن^(٢). والثاني: المدينة لم يخلق مثل مدينتهم ذات العماد، قاله عكرمة. وقد جاء في التفسير صفات تلك المدينة، وهذه الإشارة إلى ذلك: روى وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت، فبينما هو في صحاري عدن وقع على مدينة في تلك الفلوات عليها حصن، وحول الحصن قصور كثيرة. فلما دنا منها ظن أن فيها أحداً يسأله^(٣) عن إبله، فلم ير خارجاً ولا داخلاً، فنزل عن دابته، وعقلها، وسل سيفه، ودخل من باب الحصن، فلما دخل^(٤) الحصن إذا هو ببايين^(٥) عظيمين [لم ير أعظم منهما^(٦)]، والبايان مُرْصَعَان بالياقوت [الأبيض و^(٧) الأحمر، فلما رأى ذلك دهش^(٨)]، ففتح أحد البايين، فإذا هو بمدينة لم ير أحد مثلها، وإذا قصور، كلُّ قصر فوقه غرف^(٩) وفوق الغرف غرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت. ومصاريع تلك الغرف مثل مصاريع المدينة، يقابل بعضها بعضاً، مفروشة كلها باللؤلؤ، وبنادق من مسك وزعفران. فلما عين ذلك، ولم ير أحداً، هاله ذلك، ثم نظر إلى الأزقة فإذا هو في كل زقاق منها شجر قد أثمر، وتحت الشجر أنهار مطردة يجري ماؤها من قنوات من فضة. فقال الرجل: إن هذه هي الجنة، فحمل معه من لؤلؤها، ومن بنادق المسك والزعفران ورجع إلى اليمن، فأظهر ما كان معه. وبلغ الأمر إلى معاوية، فأرسل إليه، فقصص عليه ما رأى، فأرسل معاوية إلى كعب الأبحر، فلما أتاه قال له: يا أبا إسحاق! هل في الدنيا مدينة من ذهب وفضة؟ قال: نعم، أخبرك بها ويمن بناها؟ إنما بناها شداد بن عاد، والمدينة: «إرم ذات العماد»، قال: فحدثني حديثها، فقال: إن عاداً^(١٠) المنسوب إليهم عاد الأولى، كان له ولدان: شديد، وشداد. فلما مات [عاد]^(١١)، ثم مات شديد وبقي شداد، ملك الأرض، ودانت له الملوك، وكان مولعاً بقراءة الكتب، فكان إذا مر بذكر الجنة دعت نفسه إلى بناء مثلها عتوراً على الله تعالى. فأمر بصنع «إرم ذات العماد»، فأمر على عملها مائة قهرمان^(١٢) مع كل قهرمان ألف من الأعوان، وكتب إلى ملوك الأرض أن يمدّوه بما في بلادهم من الجواهر، فخرج القهارة^(١٣) يسرون^(١٤) في الأرض ليجدوا أرضاً موافقة، فوققوا على صحراء^(١٥) عظيمة نقية من التلال، وإذا فيها عيون ماء ومروج^(١٦) فقالوا: هذه صفة الأرض التي أمر الملك أن يبني بها، فوضعوا على أساسها من الجوزع اليمني، وأقاموا في بنائها ثلاثمائة سنة، وكان عمر شداد تسعمائة سنة، فلما أتوه وقد فرغوا منها^(١٧) قال: انطلقوا، واجعلوا عليها حصناً، واجعلوا حول الحصن ألف قصر، عند كل قصر ألف عَلم ليكون في كل قصر من تلك القصور وزير من وزرائي، ففعلوا ذلك، فأمر الملك الوزراء - وهم ألف وزير - أن يتهيّأوا للنقلة إلى «إرم ذات العماد»، وكان الملك وأهله في جهازهم عشر سنين، ثم ساروا إليها، فلما كانوا منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله

- (١) في الأصل: لبنائه بعضهم، والتصحيح من الطبري.
(٢) في الأصل: أن فيها أحد سأله، والتصحيح من «مجمع البيان» للطبرسي.
(٣) في الأصل: دنا، والتصحيح من «مجمع البيان».
(٤) في الأصل: ما بين.
(٥) زيادة من «مجمع البيان».
(٦) في الأصل: دهن.
(٧) في الأصل: كل قصر منها فيها غرف، والتصحيح من «مجمع البيان».
(٨) في الأصل: عاد.
(٩) القهرمان: من أمراء الملك وخاصته، فارسي معرب.
(١٠) في الأصل: فتبدوا.
(١١) في الأصل: لتجدوا ما يوافق حتى وقعوا على صحرة، والتصحيح من الخازن.
(١٢) في الأصل: وإذا هم يمتون مطردة، والتصحيح من الخازن.
(١٣) في الأصل: وقد فرغوا منه، والتصحيح من الخازن.

عليه، وعلى من كان معه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعاً، ولم يَبْقَ منهم أحد^(١). وروى الشعبي عن دَعْفَل^(٢) الشيباني عن علماء جَمَيْر قالوا: لما هلك شداد بن عاد ومن معه من الصيحة، ملك بعده ابنه مَرْتَد بن شَدَاد، وقد كان أبوه خَلَفَهُ بحضرموت على ملكه وسلطانه، فأمر بحمل أبيه من تلك المفازة إلى حضرموت، وأمر [بدفنه]^(٣) فَحُفِرَتْ له حفيرة في^(٤) مفازة، فاستودعه فيها على سرير من ذهب، وألقى عليه سبعين حُلَّةً منسوجة بقضبان الذهب، ووضع عند رأسه لوحاً عظيماً من ذهب وكتب عليه:

رَوُودُ بِالسَّعْمِ الْمَدِيدِ^(٥)
صَاحِبُ الْحَصَنِ الْمَشِيدِ^(٦)
سَاءَ وَالْمَلِكِ الْحَشِيدِ^(٧)
لِي مَنْ خُوفٍ وَعَيْدِي^(٨)
بِ سِلْطَانِ شَدِيدِ
لِدَةٍ فِيهِ وَالْمَعْدِيدِ
فِي ضَلَالٍ قَبْلَ هَوْدِ
هَ إِلَى الْأَمْرِ الرَّشِيدِ^(٩)
مَا لَكُمْ هَلْ مِنْ مَحِيدِ؟^(١٠)
يُوي مِنَ الْأَفْئِقِ الْبَعِيدِ
وَسَطَ بِبَيْدَاءِ حَصِيدِ

إِعْتَبِرِيَا أَيُّهَا الْمَغْدُ
أَنَا شَدَادُ بْنُ عَادِ
وَأَخُو الْقُوَّةِ وَالْبِيَاءِ
دَانَ أَهْلَ الْأَرْضِ طُوراً
وَمَلِكَةَ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ
وَيَفْضَلَ الْمَلِكِ وَالْمَعْدِ
فَأَتَى هَوْدَ وَكُنْتُ
فَدَعَانَا لِقَبْلِنَا
فَعَصَيْنَاهُ وَنَادَى
فَأَتَيْنَا^(١١) صِيحَةَ تَهْ
فَتَوَافَيْنَا كَزَعِ

قوله تعالى: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ﴾ قطعوه ونقبوه. قال إسحاق: والوادي: وادي القرى. وقرأ الحسن: «بالوادي» بإثبات الباء في الحاليين. ﴿وَمُرْعُونَ ذِي الْأَرْبَابِ﴾ مفسر في سورة [ص: ١٢]، ﴿الَّذِينَ طَفَعُوا فِي الْأَلْبَدِ﴾ يعني: عاداً، وثمود، وفرعون، عملوا بالمعاصي، وتجبروا على أنبياء الله ﴿فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ القتل والمعاصي ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، قال ابن قتيبة: وإنما قال: سوط عذاب، لأن التعذيب قد يكون بالسوط. وقال الزجاج:

(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٨٤ عن حديث عبد الله بن قلابة الذي ساقه المؤلف بطوله: رواه الثعلبي من طريق عثمان الدارمي عن عبد الله بن أبي صالح عن ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت، فذكره مطولاً. قال ابن حجر: قلت: آثار الوضع عليه لائحة. وقال ابن كثير: فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي، فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخيال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك، وهذا مما يقطع بعدم صحته، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين من وجود مطالب تحت الأرض فيها قناطير الذهب والفضة، وألوان الجواهر والياقوت، واللآلئ والإكسير الكبير، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها، والأخذ منها، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاير ونحو ذلك من الهدايا، ويطنزون بهم، والذي يجزم به أن في الأرض دقاتن جاهلية وإسلامية، وكنوزاً كثيرة، من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله، فأما على الصفة التي زعموها، فكذب وافتراء وبهت، ولم يصح في ذلك شيء مما يقولون إلا أن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب.

وقال الشوكاني في «فتح القدير» عن حديث عبد الله بن قلابة: وهذا كذب على كذب وافتراء على افتراء، وقد أصيب الإسلام وأهله بداهية دهاء، وفارقة عظمى، وروية كبرى، من أمثال هؤلاء الكذابين الذين يجتثرون على الكذب، تارة على بني إسرائيل، وتارة على الأنبياء، وتارة على الصالحين، وتارة على رب العالمين، وتضاعف هذا الشر وزاد كثره بتصنّف جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضميمتها من موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز، فأدخلوا هذه الخرافات المختلقة والأقايص المنحولة والأساطير المفتعلة في تفسير كتاب الله سبحانه، فحرفوا وغيروا وبدّلوا، قال: ومن أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر في كتابي الذي سميت «الوقائد المجموعة في الأحاديث الموضوععة».

(٢) في الأصل: وعقل.

(٣) زيادة ليست في الأصل.

(٤) في الأصل: من.

(٥) في الأصل: الشديد، والتصحيح من «معجم البلدان» لياقوت: إرم.

(٦) في الأصل: «العميد».

(٧) في الأصل: الحصيد.

(٨) البيت في الأصل: وإن أهل الأرض لي من خوف وعدي ووعدي، والتصحيح من «معجم البلدان».

(٩) في الأصل: الشديد، وفي «معجم البلدان»: «أجنياب» مكان قوله: «قلبان».

(١٠) البيت في الأصل: فعصيناه وناديت ألا هل من مجيد؟

(١١) في الأصل: فأنتناه.

[أي جعل سوطهم الذي ضربهم به العذاب] ^(١١) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمُرْسَلِينَ﴾ أي: يرصد من كفر به بالعذاب، والمرصد: الطريق، وقد شرحناه في قوله تعالى: ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبا: ٢١].

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ^(١٢) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ^(١٣) كَلَّا بَلْ لَمْ تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ^(١٤) وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ عِلْمِ الْإِنْسَانِ ^(١٥) وَيَتَكَبَّرُونَ الْأَثْرَارَ ^(١٦) أَصْلًا لِّمَاءٍ ^(١٧) وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ^(١٨) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ^(١٩) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ^(٢٠) وَجِئَهُ يَوْمَئِذٍ بِحِجَابٍ ^(٢١) يُؤْمِنُ بِهِ لَا يَسْفَهِنَ عَنْ يَتِهِمْ أُمَّةً ^(٢٢) وَلَا يُونُسَ فِي مَتْنِهِ ^(٢٣) وَجِئَهُ يَوْمَئِذٍ بِحِجَابٍ ^(٢٤) يُؤْمِنُ بِهِ لَا يَسْفَهِنَ عَنْ يَتِهِمْ أُمَّةً ^(٢٥) وَلَا يُونُسَ فِي مَتْنِهِ ^(٢٦) وَجِئَهُ يَوْمَئِذٍ بِحِجَابٍ ^(٢٧) يُؤْمِنُ بِهِ لَا يَسْفَهِنَ عَنْ يَتِهِمْ أُمَّةً ^(٢٨) وَلَا يُونُسَ فِي مَتْنِهِ ^(٢٩) وَجِئَهُ يَوْمَئِذٍ بِحِجَابٍ ^(٣٠) يُؤْمِنُ بِهِ لَا يَسْفَهِنَ عَنْ يَتِهِمْ أُمَّةً ^(٣١) وَلَا يُونُسَ فِي مَتْنِهِ ^(٣٢)

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ فيمن عنى به أربعة أقوال: أحدها: عتبة بن ربيعة، وأبو حذيفة بن المغيرة، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: أبي بن خلف، قاله ابن السائب. والثالث: أمية بن خلف، قاله مقاتل. والرابع: أنه الكافر الذي لا يؤمن بالبعث. قال الزجاج: وابتلاه بمعنى اختبره بالغنى ^(١٢) واليسر «فَأَكْرَمَهُ» بالمال «وَنَعَّمَهُ» بما وسع عليه من الإفضال «فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ» فتح ياء «رَبِّي» «أَكْرَمَنِي» «رَبِّي» «أَهَانَنِي» ^(١٣) أهل الحجاز، وأبو عمرو ^(١٤)، أي: فضلني بما أعطاني، ويظن أن ما أعطاه من الدنيا لكرامته عليه «وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ» بالفقر «فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ» وقرأ أبو جعفر، وابن عامر «فَقَدَّرَ» بتشديد الدال، والمعنى: ضيق عليه بأن جعله على مقدار البُلْعَةِ «فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ» أي: هذا الهوان ^(١٥) منه لي حين أذلتني بالفقر. واعلم أن من لا يؤمن بالبعث، فالكرامة عنده زيادة الدنيا، والهوان قلتها ^(١٦).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما يظن. قال مقاتل: ما أعطيت [من أغنيت] ^(١٧) هذا الغنى لكرامته عليّ، ولا أفقرت [من] ^(١٨) أفقرت لهوانه عليّ ^(١٩). وقال الفراء: المعنى: لم يكن ينبغي له أن يكون هكذا، إنما ينبغي أن يحمد الله على الأمرين: الفقر، والغنى ^(٢٠). ثم أخبر عن الكفار فقال تعالى: ﴿بَلْ لَمْ تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ قرأ أهل البصرة «يَكْرُمُونَ» و«يَحْضُونَ» و«يَأْكُلُونَ» و«يَجْبُونَ» بآباء فيهن، والباقون بالناء. ومعنى الآية: إني أهنت من أهنت من أجل أنه لا يكرم اليتيم، والآية تحتل معنيين: أحدهما: أنهم كانوا لا يبرؤونه. والثاني: لا يعطونه حَقَّهُ من الميراث، وكذلك كانت عادة الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان. ويدل على المعنى الأول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ قرأ أبو جعفر، وأهل الكوفة «تحاضون» بألف مع فتح التاء. وروى الشيرازي عن الكسائي كذلك إلا أنه ضم التاء. والمعنى: لا يأمرؤن بإطعامه لأنهم لا يرجون ثواب الآخرة. ويدل على المعنى الثاني قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ الْأَثْرَارَ أَصْلًا لِّمَاءٍ﴾ قال ابن قتيبة: التراث: الميراث، والتاء فيه منقلبة عن واو، كما قالوا: نُجَاه ^(٢١)، والأصل: نُجَاه، وقالوا: نُحْمَةٌ، والأصل: وَحْمَةٌ ^(٢٢). و«لِمَاءٍ» أي: شديداً، وهو من قولك: لَمُمْتُ ^(٢٣) بالشيء: إذا جمعته، وقال الزجاج: هو ميراث اليتامى.

(١) حيازة الأصل: «أحسن من هذا قد جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب» والتصحيح من القرطبي نقلاً عن الزجاج.

(٢) في الأصل: في العنا.

(٣) في الأصل: أهابني.

(٤) قال القرطبي: وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو «رَبِّي» بفتح الباء في الموضوعين، وأسكن الباقون، وأثبت الِزِّي وابن محيضر ويعقوب الباء من «أكرم» و«أهان» في الحالين، لأنها اسم فلا تحذف، وأثبتها المدنيون في الوصل دون الوقف اتباعاً للمصحف، وخير أبو عمرو في إتيانها في الوصل أو حذفها، لأنها رأس آية، وحذفها في الوقف لخط المصحف، والباقون بحذفها، لأنها رقت في الموضوعين بغير ياء.

(٥) في الأصل: أهون.

(٦) قال القرطبي: وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعه وتوفيقه المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا خيده وشكره.

(٧) زيادة ليست في الأصل.

(٨) ونقل الطبري عن قتادة: كلا إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلتها، ولكن أكرم من أكرمت بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي.

(٩) قال القرطبي: وقال الفراء: «كلا» في هذا الموضع بمعنى: لم يكن ينبغي للبعد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله عز وجل على الغنى والفقر.

(١٠) في الأصل: نحاء، والتصحيح من «غريب القرآن» لابن قتيبة.

(١١) في الأصل: وقالوا: تحمه والأصل وجد، والتصحيح من «غريب القرآن».

(١٢) في الأصل: حمت، والتصحيح من «غريب القرآن».

قوله تعالى: ﴿وَيُحْرِقُ الْعَالَ﴾ أي: تحبون جمعه ﴿حُجًا جَمًّا﴾ أي: كثيراً فلا تنفقونه في خير ﴿كَلًّا﴾ أي: ما هكذا ينبغي أن يكون [الأمراء^(١)]. ثم أخبر عن تلقفهم على ما سلف منهم حين لا يفهمهم، فقال تعالى: ﴿إِذَا ذُكِّتِ الْأَرْضُ ذِكًّا ذَكًّا﴾ أي: مرة بعد مرة، فتكسر كل شيء عليها، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ قد ذكرنا هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: تأتي [ملائكة^(٢)] كل سماء صفاً صفاً^(٣) على حدة. قال الضحاك: يكونون سبعة صفوف، ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ روى مسلم في أفراده من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بهن يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع [كل زمام]^(٤) سبعون^(٥) ألف ملك يجرونها». قال مقاتل: يجاء بها فتقام عن يسار العرش.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم يجاء بهنهم ﴿يَلْدَكُرُّ الْإِنْسَانُ﴾ أي: يتعظ الكافر ويتوب. قال مقاتل: هو أمية بن خلف ﴿وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي: كيف له بالتوبة وهي في القيامة لا تنفع ﴿يَقُولُ لِيَأْتِنِي قَدَمْتُ﴾ العمل الصالح في الدنيا ﴿يَلِيَانِي﴾ في الآخرة التي لا موت فيها ﴿فَيُؤَيِّزُ لَا يُعْذِرُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ قرأ الكسائي، ويعقوب، والمفضل «لا يعذب» بفتح الذا، والباقون بكسرها، فمن فتح، أراد: لا يعذب عذاب الكافر أحد، ومن كسر أراد: لا يعذب عذاب الله أحد، أي كعذابه، وهذه القراءة تختص بالدنيا، والأولى تختص بالآخرة^(٦).

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ اختلّفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال: أحدها: في حمزة بن عبد المطلب لما استشهد يوم أحد، قاله أبو هريرة، وبريدة الأسلمي. والثاني: في عثمان بن عفان حين أوقف بئر رومة^(٧)، قاله الضحاك. والثالث: في خبيب بن عدي لما صلبه أهل مكة، قاله مقاتل. والرابع: في أبي بكر الصديق ﷺ، حكاه الماوردي. والخامس: [في]^(٨) جميع المؤمنين، قاله عكرمة^(٩). وفي معنى «الْمُطْمَئِنَّةُ» ثلاثة أقوال: أحدها: المؤمنة، قاله ابن عباس. وقال الزجاج: المطمئنة بالإيمان. والثاني: الراضية بقضاء الله، قاله مجاهد. والثالث: الموقنة بما وعد الله، قاله قتادة. واختلفوا في أي حين يقال لها ذلك على قولين: أحدهما: عند خروجها من الدنيا، قاله الأكثرون. والثاني: عند البعث يقال لها: ارجعي إلى صاحبك، وإلى جسدك، فيأمر الله الأرواح أن تعود إلى الأجساد، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وعكرمة والضحاك. وفي قوله تعالى: ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً﴾ أربعة أقوال: أحدها: ارجعي إلى صاحبك الذي كنت في جسده، وهذا المعنى في رواية العوفي عن ابن عباس، وبه قال عكرمة والضحاك. والثاني: ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ بعد الموت في الدنيا، قاله أبو صالح. والثالث: ارجعي إلى ثواب ربك، قاله الحسن. والرابع: يا أيها النفس المطمئنة [إلى الدنيا]^(١٠)، ارجعي إلى الله تعالى بتركها، حكاه الماوردي^(١١).

(١) زيادة من البغوي.

(٢) سقطت من الأصل، واستدركتها من «صحيح مسلم» ٤/٢١٨٤.

(٣) في الأصل: سبعين، قال الإمام النووي في «شرح مسلم» ١٧/١٧٨: هذا الحديث مما استدركه الدارقطني على مسلم وقال: رفعه وهم، رواه الثوري ومروان وغيرهما عن العلاء بن خالد موقوفاً. قلت: وخصص (أحد الرواة) ثقة حافظ إمام، فزيادته الرفع مقبولة كما سبق نقله عن الأكثرين والمحققين. والحديث رواه الترمذي أيضاً موقوفاً وموقوفاً على ابن مسعود، ورواه ابن جرير الطبري ٣٠/١٨٨ موقوفاً على عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٤) والصحيح أنها عامة في كل كافر.

(٥) قال ابن جرير الطبري: والصبوب من القول في ذلك عندنا ما عليه قراء الأمصار، وذلك كسر الذا والشاء، لإجماع الحجة من القراءة عليه. وقال الشوكاني في «فتح القدير»: والضميران على قراءة الجمهور في «يعذب» و«يؤتى» مبنيان للفاعل، لله عز وجل، قال: وقرأ الكسائي على البناء للمفعول فيهما، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان، أي: لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد، ولا يؤتى كوثاقه أحد، والمراد بالإنسان الكافر.

(٦) هي بتر بالمدينة.

(٧) قال القرطبي: والصحيح أنها عامة في كل نفس مؤمن مخلص طائع.

(٨) سقطت من الأصل، واستدركتها من البغوي والغازن.

(٩) وقال الألويسي رحمه الله في «فروع البيان» ٩/٣٧٠: ارجعي، أي: من حيث حوسبت إلى محل عنايته تعالى وموقف كرامته عز وجل لك أولاً، وهذا لأن للمعدة قبل الحساب كما يفهم من الأخبار موقفاً في المحشر مخصوصاً بكرمهم الله تعالى به لا يجدون فيه ما يجده غيرهم في مواقفهم من النصب، ومنه ينادي الواحد بعد الواحد للحساب، فمتى كان هذا القول عند تمام الحساب اقتضى أن يكون المعنى ما ذكره

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (١٨) أي: في جملة عبادي المصطفين. قال أبو صالح: يقال لها عند الموت: ارجعي إلى ربك، فإذا كان يوم القيامة قيل لها: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (١٩) وقال الفراء: ادخلي مع عبادي. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وأبي بن كعب، وابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وأبو العالية، وأبو عمران: «في عبدي» على التوحيد^(١). قال الزجاج: فعلى هذه القراءة - والله أعلم - يكون المعنى: ارجعي إلى ربك، أي: إلى صاحبك الذي خرجت منه، فادخلي فيه^(٢).



(١) في «البحر المحيط»: وقرأ الجمهور ﴿فِي عِبَادِي﴾ جمعاً، وابن عباس، وعكرمة، والضحاك، ومجاهد، وأبو صالح، والكلبي، وأبو شيخ الهنائي، واليماني «فِي عِبْدِي» على الإفراد. قال الطبري: والصواب من القراءة في ذلك ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (١٨) بمعنى: فادخلي في عبادي الصالحين، لإجماع الحجة من القراء عليه.

(٢) والظاهر الأول، قال ابن كثير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْمِعُوا بَيْنَهُمْ لَوْ يُكَلِّمُنَا رَبُّكُمْ﴾ إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿رَائِدَةً﴾ أي في نفسها ﴿مُتَوَكِّئَةً﴾ أي قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاهما ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (١٨) أي في جملتهم ﴿فَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ قال: وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، فكل ذلك هاهنا.

سورة البلد

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِئِذَا يَدْعَاكَ رَبُّكَ ﴿٣﴾ وَوَالِئِذَا يَدْعَاكَ رَبُّكَ ﴿٤﴾ وَوَالِئِذَا يَدْعَاكَ رَبُّكَ ﴿٥﴾ وَوَالِئِذَا يَدْعَاكَ رَبُّكَ ﴿٦﴾ وَوَالِئِذَا يَدْعَاكَ رَبُّكَ ﴿٧﴾ وَوَالِئِذَا يَدْعَاكَ رَبُّكَ ﴿٨﴾ وَوَالِئِذَا يَدْعَاكَ رَبُّكَ ﴿٩﴾ وَوَالِئِذَا يَدْعَاكَ رَبُّكَ ﴿١٠﴾﴾
قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ قال الزجاج: المعنى: أقسم. و﴿وَالِئِذَا﴾ دخلت توكيداً؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَمُوكُمْ أَهْلُ الْكَلْبِ﴾ [الحديد: ٢٩] وقرأ عكرمة، ومجاهد، وأبو عمران، وأبو العالية: «لَأُقْسِمُ»^(١) قال الزجاج: وهذه القراءة بعيدة في العربية، وقد شرحنا هذا في أول «القيامة».

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: و﴿الْبَلَدِ﴾ هاهنا: مكة^(٢). أحدها: حلُّ لك ما صنعت في هذا البلد من قتل^(٣) أو غيره، قاله ابن عباس، ومجاهد. قال الزجاج: يقال: رجل حلٌّ، وحلال، ومُجَلِّ. قال المفسرون: والمعنى: إن الله^(٤) تعالى وعد نبيه^(٥) أن يفتح مكة على يديه بأن يُجَلِّها له، فيكون فيها حلالاً. والثاني: فأنتم مُجَلِّ بهذا البلد غير مُحَرَّم في دخوله، يعني: عام الفتح، قاله الحسن، وعطاء. والثالث: أن المشركين بهذا البلد يستحلون إخراجك^(٦) وقتلك^(٧)، ويحرِّمون قتل الصيد، حكاة الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَوَالِئِذَا يَدْعَاكَ رَبُّكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه آدم وما ولد، قاله الحسن، ومجاهد، والضحاك، وقتادة. والثاني: أولاد إبراهيم، وما ولد: ذريته^(٨)، قاله أبو عمران الجوني. والثالث: أنه عامٌّ في كل والدٍ وما ولد، حكاة الزجاج^(٩).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ هذا جواب القسم. وفيمن عنى بالإنسان خمسة أقوال: أحدها: أنه اسم جنس، وهو معنى قول ابن عباس. والثاني: أنه أبو الأشدين الجمحي^(١٠)، وقد سبق ذكره، [المدرثر: ٢٩، والانفطار: ٥] قاله الحسن. والثالث: أنه الحارث بن عامر بن نوفل، وذلك أنه أذنب ذنباً، فأمره النبي ﷺ بالكفارة، فقال: لقد ذهب مالي

(١) في الأصل: لا أقسم.

(٢) قال القرطبي: أي أقسم بالبلد الحرام الذي أنت فيه لكرامتك عليّ وحبّي لك. وقال ابن كثير: هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حلالاً، ليثب على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها.

(٣) في الأصل: قتل. (٤) في الأصل: إن شاء الله.

(٥) وعد نبيه.

(٦) عبارة الأصل: «أنه حل عند المشركين بهذا البلد يستحلون إخراجك».

(٧) في الأصل: وقتلك.

(٨) في الأصل: وما ولد: محمد ﷺ، والتصويب من الطبري، والقرطبي، وابن كثير. قال الشوكاني والألوسي: وقيل: الوالد: إبراهيم، والولد: إسماعيل ومحمد ﷺ.

(٩) وهذا الذي اختاره ابن جرير الطبري. قال ابن كثير: وقال مجاهد، وأبو صالح، وقتادة، والضحاك، وسفيان الثوري، وسعيد بن جبيرة، والسدي، والحسن البصري، وخصيف، وشرحيل بن سعيد وغيرهم: يعني بالوالد: آدم، وما ولد: ولده، قال: وهذا الذي ذهب إليه مجاهد حسن قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكين، أقسم بعده بالساكن وهو آدم أبو البشر وولده.

(١٠) وجاء في القرطبي: قال الكلبي: إن هذا نزل في رجل من بني جمح كان يقال له: أبو الأشدين. وكان يأخذ الأديم المعكافي فيجعله تحت قدميه فيقول: من أزالني عنه فله كذا، فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماء، وكان من أعداء النبي ﷺ وفيه نزل ﴿يَسْتَبْ أَنْ لَنْ يَقُولَ كَلِمَةً أَسْءُ﴾ يعني لقوته. وفي «الاشتقاق» لابن دريد ٢٥١: ومن رجالهم (أي: رجال بني سعد بن زيد مائة بن تميم) سنان بن خالد الأشد، وسمي الأشد، لشجاعته، وهو كذلك في «شرح القاموس».

في الكفارات، والنفقات منذ^(١) دخلت في دين محمد، قاله مقاتل. والرابع: آدم عليه السلام، قاله ابن زيد. والخامس: الوليد بن المغيرة، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿فِي كَيْدٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: في نَصَبٍ، رواه الواهبي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو عبيدة، فإنهم قالوا: في شدة. قال الحسن: يكابد الشكر على السَّراء والصبر على الضَّراء، لأنه لا يخلو من أحدهما^(٢)، ويكابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة. قال ابن قتيبة: في شدة غلبية ومكابدة لأمر الدنيا والآخرة^(٣)، فعلى هذا يكون من مكابدة الأمر، وهي معاناته. والثاني: أن المعنى: خلق منتصباً يمشي على رجلين^(٤)، وسائر الحيوان غير منتصب، رواه مقسم عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، والضحاك، وعطية، والفراء، فعلى هذا يكون معنى الكيد: الاستواء والاستقامة. والثالث: في وسط السماء، قال ابن زيد: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني: آدم ﴿فِي كَيْدٍ﴾ أي: في وسط السماء^(٥).

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَدْوَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ﴿٦﴾ يعني الله ﴿٧﴾ أي: [أيحسب أن] ﴿٨﴾ لن تقدر على بعثه، ومعاقبته؟! ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ ﴿٩﴾ أي: كثيراً، قال أبو عبيدة: هو فعل من التلبد^(٧)، وهو المال الكثير يعضه على بعض. قال ابن قتيبة: وهو المال المتلبد، كأنَّ بعضه على بعض. قال الزجاج: وهو فعل للكثرة^(٨)، كما يقال: رجل حُطِمَ: إذا كان كثير الحُطْم. وقرأ أبو بكر الصديق ﴿٩﴾، وعائشة، وأبو عبد الرحمن، وقتادة، وأبو العالية، وأبو جعفر «لَبَدَأَ» بضم اللام، وتشديد الباء مفتوحة. وقرأ عمر بن الخطاب ﴿١٠﴾، وأبو المتوكل، وأبو عمران «لَبَدَأَ» بفتح اللام وتسكين الباء خفيفة. وقرأ عثمان بن عفان، والحسن، ومجاهد «لَبَدَأَ» برفع اللام والباء وتخفيفهما. وقرأ عليّ وابن أبي الجوزاء «لَبَدَأَ» بكسر اللام، وفتح الباء مخففة. وفيما قال لأجله ذلك قولان: أحدهما: أنه أراد: أهلك ما لا كثيراً في عداوة محمد، قاله ابن السائب، فكانه استطال بما أنفق. والثاني: أنفقت في سبيل الله وفي الكفارات ما لا كثيراً، قاله مقاتل. فكانه ندم على ما أنفق^(٩).

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١١﴾ يعني الله ﴿١٢﴾. والمعنى: أيظن أن الله لم يرَ نفقته، ولم يُخصمها؟! وكان قد ادّعى ما لم ينفق.

قوله تعالى: ﴿أَنْزَجَلْ لَمْ يَخَيَّرِ﴾ ﴿١٣﴾ والمعنى: ألم تفعل به ما يدلّ على أن الله قادر على بعثه؟! قوله تعالى: ﴿وَهَدَّيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ﴿١٤﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: سبيل الخير والشر، قاله علي، والحسن، والفراء. وقال ابن قتيبة: يريد طريق الخير والشر. وقال الزجاج: النجدان: الطريقان الواضحان. والنجد: المرتفع من الأرض،

(١) في الأصل: منه، والتصحيح من «القرطبي».

(٢) في الأصل: في شدة عليه ومكابده من أمور الدنيا والآخرة، والتصحيح من «غريب القرآن» لابن قتيبة.

(٣) في الأصل: على رجله، وما أثبتناه من «الطبري».

(٤) أصل الكيد: الشدة، ومنه تكيد اللبن: غلظ وحكّر واشتدّ، ومنه الكيد، لأنه دم تغلظ واشتدّ. ويقال: كابدت هذا الأمر: قاسيت شدته، قال لبيد يري أخاه:

يَا عَيْنُ هَلْأَ بِكَيْبِ أَزِيدُ إِذْ ثَمَّأَ وَقَامَ الْخَصِيمُ فِي كَيْبِ

فقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَيْدٍ﴾ أي: في تعب ومشقة، والله سبحانه قد جعل حياة الإنسان سلسلة من الجهاد متصلة الحلقات، وجعلها مبتدأة بالجهاد والمشقة، ومنتهية بهما أيضاً، فهو ما يزال يقاسي من المشقة الوأناً وضروباً مختلفة منذ نشأته في بطن أمه، ومن استهلاله صارخاً إلى أن يكبر ويصير رجلاً، وفي هذا العهد تزداد مشقاته، ويكثر عليه الجهد، فمن تحصيل رزقه إلى تربية أولاده، ومن جهاد نفسه ورياضتها على البر والتقوى إلى مقارعة خطوب الدهر ونوازله، ومن الصبر على البلاء إلى الخضوع إلى رب الأرض والسماء، ومن الاجتهاد في المعرفة إلى مصابرة النفس على الطاعة، ثم هو بعد ذلك كله يعرض ويموت، ويلاتي في قبره وفي آخرته من المشاق والمتاعب ما لا يقدر عليه إلا بتيسير الله سبحانه، وكان هذا هو المشار إليه بـ «في» التي تدل على الظرفية في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَيْدٍ﴾.

(٦) زيادة ليست في الأصل.

(٧) في الأصل: التلبد، والتصحيح من مجاز القرآن «أي عبيدة».

(٨) في الأصل: فعل الكثير، والتصحيح من «فتح القدير» للشوكاني نقلاً عن الزجاج.

(٩) لقد ذكر المصنف قبل قليل قول مقاتل بلفظ: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد، وهو كذلك في «القرطبي» وغيره. قال القرطبي: وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطلاة بما أنفق، فيكون طيفياً منه، أو أسفاً عليه، فيكون نعتاً منه.

فالمعنى: ألم نُعرفه طريق الخير والشر كَتَبَيْنِ الطريقتين العاليتين. والثاني: سبيل الهدى والضلال، قاله ابن عباس. وقال مجاهد: هو سبيل الشقاوة والسعادة. والثالث: الثديان ليتغذى بلبنهما، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال ابن المسيب، والضحاك، وتادة^(١).

﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (٢) ﴿فَكُ رَقَبَةٌ﴾ (٣) ﴿أَوْ يَطْمَعُ فِي يَوْمِ ذِي مَسْجَبٍ﴾ (٤) ﴿يَسْمَا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (٥) ﴿أَوْ مَسْكِيئًا﴾ (٦) ﴿ذَا مَرْتَبٍ﴾ (٧) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ (٨) ﴿أُولَئِكَ أَحْصَى الْبَلْتَنَ﴾ (٩) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكَايِبُنَا لَهُمْ أَمْسِحَتُ السَّمِشْقَةِ﴾ (١٠) ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾ (١١)

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ قال أبو عبيدة: فلم يقتحم العقبة [في الدنيا]^(١). وقال ابن قتيبة: فلا هو اقتحم العقبة. قال الفراء: لم يضم إلى قوله تعالى: فلا اقتحم العقبة كلاماً آخر فيه «لا»، والعرب لا تكاد تفرد «لا» في الكلام حتى يعيدها^(٢) عليه في كلام آخر؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا سَدَّ وَلَا مَكَلَ﴾ [القيامة: ٣١]، ﴿وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]. ومعنى: «لا» مأخوذ من آخر هذا الكلام، فافتكى بواحدة من الأخرى، ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة، فقال: ﴿فَكُ رَقَبَةٌ﴾ (٣). ﴿أَوْ يَطْمَعُ فِي يَوْمِ ذِي مَسْجَبٍ﴾ (٤). ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ففسرها بثلاثة أشياء، فكأنه كان في أول الكلام: فلا فعل ذا، ولا ذا. وذهب ابن زيد في آخرين إلى أن المعنى: أفلا اقتحم العقبة؟ على وجه الاستفهام، والمعنى: فهل أنفق ماله في فك الرقاب والإطعام ليجاوز بذلك العقبة؟ فأما الاقتحام^(٤) فقد بيّناه في [ص: ٥٩]. وفي العقبة سبعة أقوال: أحدها: أنه جبل في جهنم، قاله ابن عمر. والثاني: عقبة دون الجسر، قاله الحسن. والثالث: سبعون دركة^(٥) في جهنم، قاله كعب. والرابع: الصراط، قاله مجاهد، والضحاك. والخامس: نار دون الجسر، قاله تادة. والسادس: طريق النجاة، قاله ابن زيد. والسابع: أن ذكر العقبة هاهنا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة. يقول: لم يحمل على نفسه المشقة بعثت الرقبة والإطعام، ذكره علي بن أحمد النيسابوري في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (١) قال سفيان بن عيينة: كل ما فيه ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾، فقد أخبره به، وكل ما فيه ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ فإنه لم يخبره به. قال المفسرون: المعنى: وما أدراك ما اقتحام العقبة؟ ثم بيّنه فقال تعالى: ﴿فَكُ رَقَبَةٌ﴾ (٢) ﴿قُرْأَ ابْنِ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، إِلَّا عَبْدَ الْوَارِثِ، وَالْكَسَائِيَّ، وَالِدَاجُونِيَّ عَنِ ابْنِ ذَكْرَانَ﴾ (٣) ﴿فَكُ﴾ بفتح الكاف ﴿رَقَبَةٌ﴾ بالنصب، «أو أطعم» بفتح الهزعة والميم وسكون الطاء من غير ألف. وقرأ عاصم، وابن عامر، ونافع، وحمزة ﴿فَكُ﴾ بالرفع «رقبة» بالخفض، «أو إطعام» بالألف. ومعنى فك الرقبة: تخليصها من أسر الرق، وكل شيء أطلقته فقد فككته^(٤). ومن قرأ ﴿فَكُ رَقَبَةٌ﴾ على الفعل، فهو تفسير اقتحام العقبة بالفعل، واختاره الفراء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن قتيبة: والمسغبة: المجاعة. يقال: سَغِبَ يَسْغُبُ سُغُوبًا: إذا جاع ﴿يَسْمَا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (٥) ﴿أَي: ذَا

(١) والصواب القول الأول كما قال ابن جرير. وقال: والثديان وإن كانا سبيلي اللبن، فإن الله تعالى ذكره إذ عدده على العبد نعمه بقوله: ﴿إِنَّا كَفَّلْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ لَقْفَةٍ أَسْفَاجٍ يَبْكِيهِ فَكَلَّمْتَهُ سِيَّمًا بَعِيرًا﴾ (١) ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ إنما عدده عليه هدايته إياه إلى سبيل الخير من نعمه، فكذلك قوله: ﴿وَمَنْبَتُهُ أَنْجَلِيَّتَيْنِ﴾ (٢).

(٢) زيادة من «مجاز القرآن» لأبي عبيدة، يريد أن «لا» بمعنى «لم».

(٣) في الأصل: والعرب لا تكاد تقرر «لا» في الكلام حتى يعيدها، والتصحيح من «القرطبي».

(٤) الاقتحام: الدخول في الأمر الشديد، وأصله القحم، وهي المهالك والأمر العظام، يقال: قحم في الأمر قحوماً: رمى نفسه من غير روية، والقحمة: المهلكة والسنة الشديدة، يقال: أصابت الأعراب القحمة: إذا أصابهم قحط، فدخلوا الرفيف.

(٥) وفي الطبري وابن كثير: درجة. قال في «اللسان»: قال أبو عبيدة: جهنم دركات، أي منازل وأطباق، وقال غيره: الدركات: بعضها تحت بعض، قال الأزهري: والدرجات: منازل ومراقي بعضها فوق بعض، فالدركات ضد الدرجات. وقال الزبيدي في «تاج المروس شرح القاموس»: وقال المصنف (يعني صاحب القاموس) في «البصائر»: الدرك: اسم في مقابلة الدرج، بمعنى أن الدرج مراتب باعتبار الصعود، والدرك مراتب باعتبار الهبوط، ولهذا عبروا عن منازل الجنة بالدرجات، وعن منازل جهنم بالدركات.

(٦) في الأصل: فكته، وروى مسلم في «صحيحه» ١١٤٧/٣ أن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى يعق فرجه بقرجه» ورواه بمعناه أحمد والبخاري.

قراءة^(١) ﴿أَوْ يَسْكِينًا دَا مَعْرَبًا﴾ أي: ذا فقر كأنه لصق بالتراب^(٢). وقال ابن عباس: هو المطروح في التراب لا يقيه شيء. ثم بين أن هذه القُرْبَ إنما تنفع مع الإيمان بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و«ثم» هاهنا بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ﴾ [يونس: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَوَاصُوا بِالصَّبْرِ﴾ على فرائض الله وأمره ﴿وَوَاصُوا بِالرَّحْمَةِ﴾ أي بالتراحم بينهم. وقد ذكرنا أصحاب الميمنة والمشامة في [الواقعة: ٧، ٨]. قال الفراء: و«المؤصدة» المطبقة. قال مقاتل: يعني أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب، ولا يخرج منها غم، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد. وقال ابن قتيبة: يقال: أَوْصَدْتُ الباب وأصدته: إذا أطبقته. وقال الزجاج: المعنى: أن العذاب مطبق عليهم. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «مُوصِدَةٌ» بغير همز هاهنا، وفي [الهمزة: ٨] وقرأ أبو عمرو، وحمزة، وحفص عن عاصم بالهمز في الموضعين.



(١) روى الإمام أحمد عن سلمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان، صدقة وصلته» ورواه الترمذي والنسائي وهو حديث صحيح.

(٢) تقول: تَرَبَّ الرجل يَتَرَبُّ تَرَبًّا ومرتبة: إذا افتقر حتى لصق بالتراب، وتقول: أترب فلان، إذا كثر ماله حتى صار كالتراب في الكثرة.

سورة الشمس

وهي مكية كلها ياجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَرُحْنَهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضَ وَمَا حَتَّىٰهَا ﴿٦﴾﴾
 وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَرُحْنَهَا﴾ في المراد «بضحائها» ثلاثة أقوال: أحدها: ضوءها، قاله مجاهد، والزجاج. والضحي: حين يصفو ضوء الشمس بعد طلوعها. والثاني: النهار كله، قاله قتادة، وابن قتيبة. والثالث: حرها، قاله السدي، ومقاتل^(١). ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: إذا تبعها، قاله ابن عباس في آخرين. ثم في وقت اتباعه لها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه في أول ليلة من الشهر يرى القمر إذا سقطت الشمس، قاله قتادة. والثاني: أنه في الخامس عشر يطلع القمر مع غروب الشمس، حكاه الماوردي. والثالث: أنه في النصف الأول من الشهر إذا غربت تلاها القمر في الإضاءة، وحققها في النور، حكاه علي بن أحمد النيسابوري. والقول الثاني: إذا ساواها، قاله مجاهد. وقال غيره: إذا استدار، فتلا الشمس في الضياء والنور، وذلك في الليالي البيض.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ في المكني عنها قولان: أحدهما: أنها الشمس، قاله مجاهد، فيكون المعنى: النهار إذا بين الشمس، لأنها تتبين إذا انبسط النهار. والثاني: أنها الظلمة، فيكون كناية عن غير مذكور، لأن المعنى معروف، كما تقول: أصبحت باردة، وهبت شمالاً، وهذا قول الفراء، واللغويين^(٢). ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ أي: يغشى الشمس حين تغيب فنظلم الآفاق.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا﴾ في ﴿وَمَا﴾ قولان: أحدهما: بمعنى «مَنْ» تقديره «ومن بناها»، قاله الحسن، ومجاهد، وأبو عبيدة، وبعضهم يجعلها بمعنى الذي. والثاني: أنها بمعنى المصدر، تقديره: وبنائها، وهذا مذهب قتادة، والزجاج. وكذلك القول في ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ وقد قرأ أبو عمران الجوني في آخرين «ومن بناها» «ومن طحاها» «ومن سَوَّاهَا» كله بالنون. قال أبو عبيدة: ومعنى «طحاها»: بسطها يميناً وشمالاً، ومن كل جانب^(٣). قال ابن قتيبة: يقال: حَيَّرَ طَاحَ^(٤)، أي: كثير متسع. وفي المراد «بالنفس» هاهنا قولان: أحدهما: آدم، قاله الحسن. والثاني: جميع النفوس، قاله عطاء^(٥). وقد ذكرنا معنى «سَوَّاهَا» في قوله تعالى: ﴿فَسَوَّيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ﴾ [الانفطار: ٧] فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: أقم جل ثناؤه بالشمس ونهارها، لأن ضوء الشمس الظاهرة هو النهار.

(٢) وقال ابن كثير: ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى «وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا» أي البسيطة لكان أولى، ولصح تأويله في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ فكان أجود وأقوى، والله أعلم، ولهذا قال مجاهد: «وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا» إنه كقوله تعالى: «وَالنَّهَارُ إِذَا تَلَّهَا». قال: وأما ابن جرير فاختار عود الضمير في ذلك كله على الشمس لجريان ذكرها.

(٣) قال ابن كثير: وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، والترمذي، وأبو صالح، وابن زيد: طحاها: بسطها، وهو أشهر الأقوال، وعليه الأكثر من المفسرين، وهو المعروف عند أهل اللغة، قال الجوهري: طحوته مثل دحوته، أي: بسطته، والمعنى بسطها لانفراشها وازدراعها والضرب في أكتافها.

(٤) الذي في «غريب القرآن»: حَيَّرَ طَاحَ. قال في «القاموس»: والطاقح: الذي ملا كل شيء كثرة.

(٥) قال ابن كثير: أي: خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمية، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِصَلَاتِنَا أَوْ قُرْآنٍ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد اليهودية بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» أخرجاه من رواية أبي هريرة. وفي «صحیح مسلم» من رواية عياض بن حمار المجاشعي عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم من دينهم».

وَقَوْلَهَا ﴿١٠﴾ الإلهام: إيقاع الشيء في النفس. قال سعيد بن جبير: ألزما فجورها وتقواها^(١١). وقال ابن زيد: جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور^(١٢).

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ ﴿١١﴾ قال الزجاج: هذا جواب القسم. والمعنى: لقد أفلح، ولكن اللام حذفت لأن الكلام طال، فصار طوله عوضاً منها. قال ابن الأنباري: جوابه محذوف. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: قد أفلحت نفس زكاهها الله ﷻ، قاله ابن عباس، ومقاتل، والفراء، والزجاج. والثاني: قد أفلح من زكّى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال، قاله قتادة، وابن قتبية. ومعنى ﴿زَكَّهَا﴾: أصلحها وطهرها من الذنوب. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّنَهَا﴾ ﴿١٢﴾ فيه قولان كالذي قبله. فإن قلنا: إن الفعل لله، فمعنى ﴿دَسَّنَهَا﴾: خذلها، وأخملها، وأخفى محلها، [بالكفر والمعصية] ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح. وإن قلنا: الفعل للإنسان، فمعنى ﴿دَسَّنَهَا﴾: أخفاها بالفجور. قال الفراء: ويروى أن ﴿دَسَّنَهَا﴾ دَسَّنَهَا لأن البيخل يخفي منزله وماله. وقال ابن قتبية: المعنى: دسى نفسه، أي: أخفاها بالفجور والمعصية. والأصل من دَسَسْتُ فقلبت السين ياءً، كما قالوا: قصّيت أظفاري، أي: قصصتها. فكان الـنُطْفَتُ^(١٣) بارتكاب الفواحش دس نفسه^(١٤)، وقمعها، ومُضْطَنِعُ المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبَا للشهرة. واللتام تنزل الأطراف لتخفي أماكنها^(١٥). وقال الزجاج: معنى ﴿دَسَّنَهَا﴾ جعلها قليلة حسيسة.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَوَافِئَ﴾ ﴿١٦﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٧﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٩﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَوَافِئَ﴾ ﴿١٦﴾ أي: كذبت رسولها بطغيانها^(٢١). والمعنى: أن الطغيان حملهم على التكذيب. قال الفراء: أراد بطغواها: طغيانها، وهما مصدران، إلا أن الطغوى أشكل برؤوس الآيات، فاختير لذلك. وقيل: كذبوا العذاب ﴿إِذِ انبَعَثَ﴾ أي: انتدب^(٢٢) ﴿أَشْقَاهَا﴾ وهو: عاقر الناقة لعقرها^(٢٣) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وهو

(١) بمعنى أن الله تعالى خلق في المؤمن القوى، وفي الكافر القجور، فالخلق لله، والإنسان قادر على سلوك أيهما شاء ومختير فيه، وبذلك الاختيار للخير أو الشر يثاب أو يعاقب. قال ابن جرير الطبري: ﴿فَأَلَمْنَا لِيُزَكِّمًا وَقَوَّيْنَا﴾ ﴿١٦﴾ فيمن لها ما ينبيها لها أن تأتي أو تدر من خير أو شر، أو طاعة أو معصية. وقال الشوكاني في فتح القدير: أي عرفها وأهملها حالهما وما فيهما من الحسن والقيح.

(٢) إن الله سبحانه وتعالى أوعى في نفس الإنسان خصائص القدرة على إدراك الخير والشر، والهدى والضلال، والحق والباطل، ليختار أيهما شاء، ففي طبيعة هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي الطريقين شاء؛ وقد منح الله عز وجل القدرة على سلوك أيهما شاء ﴿وَمَدَدْنَاهُ الثَّيْبَيْنِ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿إِنَّا مَدَدْنَاهُ السَّيْلَ إِنَّا سَائِرٌ كَرِيمًا كَرِيمًا﴾، وزود الإنسان باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر، وقادر على توجيه نفسه إلى الخير والشر على السواء، وهذه القدرة كامنة في نفسه، يعبر عنها القرآن تارة بالإلهام ﴿فَأَلَمْنَا لِيُزَكِّمًا وَقَوَّيْنَا﴾ ﴿١٦﴾ وتارة بالهداية ﴿وَمَدَدْنَاهُ الثَّيْبَيْنِ﴾ ﴿١٦﴾، فهي كامنة بصورة استعدادات، والآيات القرآنية والرسول الإلهية والتوجيهات تروظ هذه الاستعدادات وتوجهها، ولكنها لا تخلق الاستعداد خلقاً جديداً، لأنها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعاً، وكائنة إلهاماً، أضف إلى ذلك أن الله تعالى خلق في الإنسان قوة واعية مدركة، فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها وتغلبه على استعداد الشر فقد أفلح وأنجح، ومن ظلم هذه القوة الواعية العبدية وخيأها وأضعفها فقد خاب وخسر ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ ﴿١٦﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّنَهَا﴾، والله عز وجل لم يبع الإنسان لاستعداد فطرته الإلهامي، ولا للقوة الواعية، بل أعانته بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة، وتكشف له عن موجبات الإيمان ودلائل الهدى، وتجلو عنه غواشي الهوى فيظهر له الحق في صورته الصحيحة، وبذلك يتضح له الطريق وضوحاً كاشفاً لا شبهة فيه فتصرف القوة الواعية حينئذ من بصيرة وإدراك لحقيقة هذا الاتجاه الذي يختاره ويسير فيه. ولما كانت هذه النفس عرضة للتأثر والمغدير، فقد كان عليه الصلاة والسلام يدعو بقوله: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكها، أنت وليها ومولاها» رواه أحمد ومسلم عن زيد بن أرقم ﷺ.

(٣) النطف: المتهم كما في «اللبان».

(٤) في الأصل: نفسها، وفي النسخة الإبتوائية: نفسه، وهو الصواب، وهو كذلك في «مشكل القرآن».

(٥) في الأصل: إمكانها، وما أثبتناه هو في النسخة الإبتوائية و«مشكل القرآن».

(٦) عبارة ابن قتبية في «غريب القرآن»: كذبت الرسول إليها بطغيانها.

(٧) تقول: نذبت إلى كذا، فانتدب، أي أمرته فامتثل، وفي الطبري: انبعث: ثار، وفي القرطبي: نهض، والانتباحت هو الإسراع.

(٨) وهو قدار بن سالف. روى البخاري في «صحيحه» (٥٤٢/٨) عن عبد الله بن زعمة أنه سمع النبي ﷺ يخطف وذكر الناقة والذي عقر، فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ انبعث لها رجل عزم حارم منيع في رهطه مثل أبي زعمة» ورواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم.

صالح ﴿فَاقَةَ اللَّهِ﴾ قال الفراء: نصب الناقة على التحذير، وكل تحذير فهو نصب. قال ابن قتيبة: المعنى: احذروا ناقة الله وشربها. وقال الزجاج: المعنى: ذُرُّوا ناقة الله ﴿و﴾ ذُرُّوا ﴿سِقْيَاهَا﴾. قال المفسرون: سقياها: شربها من الماء. والمعنى: لا تتعرضوا ليوم شربها ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في تحذيره إياهم العذاب بعقرها ﴿فَمَقَرُّوْهَا﴾ وقد بيَّنا معنى «العقر» في [الأعراف: 177]، ﴿فَكَذَّبَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ قال الزجاج: أي: أطبق عليهم العذاب. يقال دمدمت على الشيء: إذا أطبقت فكررت الإطباق. وقال المؤرِّج^(١): الدمدمة: إهلاك باستئصال. وفي قوله تعالى: ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ قولان: أحدهما: سوَّى بينهم في الإهلاك^(٢)، قاله السدي، ويحيى بن سلام. وقيل: سوَّى الدمدمة عليهم. والمعنى: أنه أهلك صغيرهم، وكبيرهم. والثاني: سوَّى الأرض عليهم. قال مقاتل: سوَّى بيوتهم على قبورهم. وكانوا قد حفروا قبوراً فاضطجعوا فيها، فلما صبح بهم فهلكوا زُلزلت بيوتهم فوقعت على قبورهم^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ﴿٧٥﴾ قرأ أبو جعفر، ونافع، وابن عامر، «فلا يخاف» بالفاء، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة والشام. وقرأ الباقر بالواو، وكذلك هي في مصاحف مكة، والكوفة، والبصرة. وفي المشار إليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الله ﷻ، فالمعنى: لا يخاف الله من أحد تَبَعَةٍ في إهلاكهم، ولا يخشى عقبي ما صنع، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: أنه الذي عقرها، فالمعنى: أنه لم يخف عقبي ما صنع، وهذا مذهب الضحاك والسدي، وابن السائب. فعلى هذا في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: إذ انبعث أشقاها وهو لا يخاف عقباها. والثالث: أنه نبي الله صالح لم يخف عقباها، حكاة الزجاج^(٤).



- (١) في الأصل: المؤرخ، وفي النسخة الاستبوية: المؤرخ، وهو تصحيف.
- (٢) في الأصل: إهلاك، وما أتياه من النسخة الاستبوية.
- (٣) قال ابن كثير: ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء، قال قتادة: بلنا أن أحمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأتاهم، فلما اشترك القوم في عقرها، دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها.
- (٤) والقول الأول أوّل دلالة السياق عليه، كما قال ابن كثير، والله أعلم.

سورة الليل

وهي مكة كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝ فَمَا مِّنْ أَعْمَلٍ وَالْقَدْرُ ۝ وَصَدَقَ الْيَقِينُ ۝ سَنَسِيرُهُ لِلسَّيْرِ ۝ وَأَنَا مِنْ جِيلٍ وَاسْتَفْتَىٰ ۝ كَذَّبَ بِالَّذِينَ ۝ سَنَسِيرُهُ لِمَشْرَىٰ ۝ وَمَا يُقِينُ عَمَلَهُ إِذَا تَزَدَّىٰ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ قال ابن عباس: يغشى بظلمته النهار. وقال الزجاج: يغشى الأفق، ويغشى جميع ما بين السماء والأرض، ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي: بان وظهر من بين الظلمة، ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ في «ما» قولان، وقد ذكرناهما عند قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَأْنَا﴾ [الشمس: ٥]. وفي ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ قولان: أحدهما: آدم وحواء، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثاني: أنه عام، ذكره الماوردي^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا جواب القسم. قال ابن عباس: إن أعمالكم لمختلفة، عمل للجنة، وعمل للنار. وقال الزجاج: سعي المؤمن والكافر مختلف، بينهما بُعد^(٢). وفي سبب نزول هذه السورة قولان: أحدهما: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه اشترى بطلاً من أمية وأبي ابن خلف ببردوة عشرة أواق، فاعتقه، فأنزل الله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ يعني: سعي أبي بكر، وأمية وأبي، قاله عبد الله بن مسعود^(٣). والثاني: أن رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال، وكان الرجل إذا صعد النخلة ليأخذ منها الثمر، فربما سقطت الثمرة، فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من نخلته حتى يأخذ الثمرة من أيديهم، فإن وجدها في فم أحدهم أدخل أصبعه حتى يخرجها، فشكا ذلك الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلقي النبي صلى الله عليه وسلم صاحب النخلة، فقال: «تعطيني نخلتك التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة؟» فقال الرجل: إن لي نخلاً وما فيه نخلة أعجب إليّ منها، ثم ذهب الرجل، فقال رجل ممن سمع ذلك الكلام: يا رسول الله تعطيني نخلة في الجنة إن أنا أخذتها؟ قال: نعم، فذهب الرجل، فلقي صاحب النخلة، فسأومها منه، فقال له: أما شعرت أن محمداً أعطاني بها نخلة في الجنة؟ فقلت: ما لي نخلة أعجب إليّ منها، فقال له: أتريد بيعها؟ قال: لا، إلا أن أعطى بها ما لا أظنني أعطى، قال: ما منك؟ قال: أربعون نخلة، فقال: أنا أعطيك أربعين^(٤) نخلة، فأشهد له ناساً، ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن النخلة قد صارت في ملكي، وهي لك، فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صاحب الدار، فقال: النخلة لك ولعمالك، فأنزل الله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ رواه عكرمة عن ابن عباس^(٥). وقال عطاء: الذي اشتراها

(١) قال الشوكاني: والظاهر العموم.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ٢٠٣/١ عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل الناس يفتنوا، فيباع نفسه فمعتقها، أو موبقها» أي: كل إنسان يسعى بنفسه، فمنهم من يبيعه الله بطاعته فيمعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعه للشيطان والهوى ياتباعها فيوبقها، أي: يهلكها.(٣) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٥، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٥٨/٦ من رواية ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن عساکر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وذكره البغوي والخازن بغير سند.

(٤) في الأصل: أربعون، وهو خطأ، والتصحيح من النسخة الاستنبولية وكتب التفسير.

(٥) رواه ابن أبي حاتم والواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٥ من طريق حفص بن عمر العليني عن الحكم بن أبان العليني عن عكرمة عن ابن عباس، وهو حديث ضعيف، لضعف حفص بن عمر، والحكم بن أبان العليني، صدوق حابله له أوهام، كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب». والحديث ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير من رواية ابن أبي حاتم وقال في آخره: وهو حديث غريب جداً. وأورده السيوطي في «الدر» ٣٥٧/٦ من رواية ابن أبي حاتم بسند ضعيف. وما يدل على ضعف سبب النزول هذا وعدم صحته، أن القصة كانت بالمدينة، وسورة «الليل» نزلت بمكة.

من الرجل أبو الدحداح، أخذها بحائط له، فأنزل الله تعالى هذه الآيات إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أبو الدحداح، وصاحب النخلة^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَطَّلَقَ وَأَقْبَلَ﴾ قال ابن مسعود: يعني: أبا بكر الصديق، هذا قول الجمهور^(٢). وقال عطاء: هو أبو الدحداح. وفي المراد بهذا المعنى ثلاثة أقوال: أحدها: أعطى من فضل ماله، قاله ابن عباس. والثاني: أعطى الله الصدق من قلبه، قاله الحسن. والثالث: أعطى حق الله عليه، قاله قتادة. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: اتقى الله، قاله ابن عباس. والثاني: اتقى البُخْل، قاله مجاهد. والثالث: اتقى محارم الله التي نهى عنها، قاله قتادة. وفي «الحسنى» ستة أقوال: أحدها: أنه «لا إله إلا الله»، رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثاني: الخَلْف^(٣)، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الحسن. والثالث: الجَنَّة، قاله مجاهد. والرابع: نِعَم الله عليه، قاله عطاء. والخامس: بوعد الله أن يشيه، قاله قتادة، ومقاتل. والسادس: الصلاة، والزكاة، والصوم، قاله زيد بن أسلم.

قوله تعالى: ﴿فَسَتِيرُهُ لِيُتْرِكَ﴾ ضم أبو جعفر سين «اليسرى» وسين «العسرى» وفيه قولان: أحدهما: للخير، قاله ابن عباس. والمعنى: يُتْرِكُ ذلك عليه. والثاني: للجنة، قاله زيد بن أسلم. ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ قال ابن مسعود: يعني بذلك أمية وأبي إبيته خلف. وقال عطاء: هو صاحب النخلة. قال المفسرون: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بالشفقة في الخير والصدقة. وقال قتادة: بحق الله ﷻ، ﴿وَأَسْتَفْتِي﴾ عن ثواب الله فلم يرغب فيه ﴿وَكَلَّمَ بِالْحَقِّ﴾ وقد سبقت الأقوال فيها. وفي «العسرى» قولان: أحدهما: النار، قاله ابن مسعود. والثاني: الشر، قاله ابن عباس. والمعنى: سبته للشر فيؤديه إلى الأمر العسير، وهو عذاب النار^(٤). ثم ذكر أن ما أمسكه من ماله لا ينفعه، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ عَثَّةً مَالِهِ﴾ الذي بخل به عن الخير ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ وفيه قولان: أحدهما: إذا تردى في جهنم، قاله ابن عباس، وقاتلة. والمعنى: إذا سقط فيها. والثاني: إذا مات فتردى في قبره، قاله مجاهد.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلْفَلُحُونَ ﴿١٧﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٨﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٩﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآفَتَىٰ ﴿٢٠﴾ الَّذِي يَتَّبِعُ مَالَهُ يَتْرَكُهُ ﴿٢١﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَمُ ﴿٢٢﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٣﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ قال الزجاج: المعنى: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ أي: فليطلبنا منا ﴿فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلْفَلُحُونَ﴾ أي: توفد وتوهج ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ يعني: المشرك ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ الرسول ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الإيمان. قال أبو عبيدة: ﴿الْآفَتَىٰ﴾ بمعنى الشقي. والعرب تضع «أفعل» في موضع «فاعل». قال طرفة:

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» من رواية علي بن حجر عن إسحاق بن نجيع الملطي عن عطاء، وإسحاق بن نجيع الملطي قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: كذبوه، وعطاء أرسله، وقد ورد التصريح باسم أبي الدحداح في رواية الواحدي في «أسباب النزول» حيث قال عن الشخص الذي اشتراها: ثم ذهب الرجل لقلبي رجلاً هو ابن الدحداح كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ... الخ، وهو حديث ضعيف كما تقدم. قال الخازن: والصحيح أنها نزلت في أبي بكر الصديق وأميه بن خلف، لأن سياق الآيات يقتضي ذلك.

(٢) ونقل القرطبي قول ابن مسعود هذا عن عامة المفسرين. وروى الحاكم في «المستدرک» ٥٢٥/٢ من حديث زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قال أبو فحافة لأبي بكر: أراك تعنى رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت اعتقت رجلاً جليداً ينعونك ويقومون دونك، فقال أبو بكر: يا أبت إنني إنما أريد ما أريد، فأنزلت هذه الآيات ﴿فَأَمَّا مَنْ أَطَّلَقَ وَأَقْبَلَ﴾ ﴿وَسَدَّ بِالسِّنِّ﴾ ﴿فَسَتِيرُهُ لِيُتْرِكَ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَكُودُ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَمُ﴾ ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وسكت عليه الذهبي، ورواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٦ من حديث إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق به، ورواه ابن جرير الطبري ٢٢١/٣٠ وأورده السيوطي في «الدرر» ٣٠٨/٦ من رواية ابن جرير وزاد نسبة لابن عساكر.

(٣) أي: بالخلف من الله تعالى على عطاء.

(٤) قال ابن كثير: والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عز وجل يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدر مقدر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة، وذكر منها ما رواه البخاري عن علي بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيق الفرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار»، فقالوا: يا رسول الله أفلا تنكل؟ فقال: «اعملوا فكل مبسر لما خلق له، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَطَّلَقَ وَأَقْبَلَ﴾ ﴿وَسَدَّ بِالسِّنِّ﴾ ﴿فَسَتِيرُهُ لِيُتْرِكَ﴾ إلى قوله: ﴿يُتْرِكَ﴾.

تَمَنَّى رَجَالٌ أَنْ أُمُوتَ وَإِنْ أُمُتَ قَتَلَكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحِدٍ^(١)
 قال الزجاج: وهذه الآية التي من أجلها زعم أهل الإرجاء^(٢) أنه لا يدخل النار إلا كافر، وليس [الأمر] كما
 ظنوا. هذه نار موصوفة بعينها، ولأهل النار منازل. فلو كان [كل]^(٣) من لا يشرك لا يعذب لم يكن في قوله تعالى: ﴿وَيَنْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فائدة [وكان «ويغفر ما دون ذلك» كلاماً لا معنى له]^(٤).
 قوله تعالى: ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا﴾ أي: يُبَعِّدُ عنها، فيجعل منها على جانب ﴿الْأَنْفَى﴾ يعني: أبا بكر الصديق في قول جميع
 المفسرين ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾^(٥) أي: يطلب أن يكون عنه الله زاكياً، ولا يطلب الرياء، ولا السمعة ﴿وَمَا يَلْحَقُ
 عِنْدَهُ مِنْ يَتَمَتَّعْ بِحَيْرَتِكَ﴾^(٦) أي: لم يفعل ذلك مجازاة ليد أشديت إليه. وروى عطاء عن ابن عباس أن أبا بكر لما اشترى
 بلائاً بعد أن كان يعذب قال المشركون: ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليد كانت لبلال عنده، فأُنزل الله تعالى: ﴿وَمَا يَلْحَقُ
 عِنْدَهُ مِنْ يَتَمَتَّعْ بِحَيْرَتِكَ﴾^(٧) إِلَّا أَيُّهَا وَبِوَيْرُوهَ الْأَعْلَى^(٨) أي: إلا طلباً لشواب ربه. قال الفراء: و﴿إِلَّا﴾ بمعنى «لكن»
 ونصب ﴿أَيُّهَا﴾ على إضمار إنفاقه. فالمعنى: وما ينفق إلا ابتغاء وجه ربه.
 قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرَمُّنَّ﴾^(٩) أي: بما يُعْطَى في الجنة من الثواب^(١٠).



- (١) هو في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ٣٠١/٢، و«الطبري» ٢٢٧/٣٠، و«القرطبي» ٨٨٠/٢٠.
- (٢) ويسمون المرجئة، وهم فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة، وسُموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي، أي أخره عنهم. وقيل: المرجئة: فرقة من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل، كأنهم قدموا القول، وأرجوا العمل، أي أخرروه، لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ولم يصوموا لنجاهم إيمانهم.
- (٣) زيادة من القرطبي.
- (٤) زيادة من القرطبي، وروى البخاري في «صحيحه» (٢١٤/١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي»، قالوا: يا رسول الله ومن أبي؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى».
- (٥) ذكره القرطبي وغيره عن عطاء عن ابن عباس بنيفر سند.
- (٦) قال ابن كثير: «ولسوف يرضى» أي: ولسوف يرضى من أنصف بهذه الصفات. قال: وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَنْفَى﴾^(١) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى^(٢) وَمَا يَلْحَقُ عِنْدَهُ مِنْ يَتَمَتَّعْ بِحَيْرَتِكَ^(٣) ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذلاً لأمواله في طاعة مولاة ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منته يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد تقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يدك عندي لم أجزك بها لأجتك. وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَلْحَقُ عِنْدَهُ مِنْ يَتَمَتَّعْ بِحَيْرَتِكَ﴾^(٤) إِلَّا أَيُّهَا وَبِوَيْرُوهَ الْأَعْلَى^(٥) وَكَسَوْنَ بَرَمْنَ^(٦)، وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعه خزنة الجنة: يا عبد الله هذا خير» فمن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصنيام دعي من باب الريان، فقال أبو بكر: يا رسول الله ما على أحد يدعي من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعي منها كلها أحد؟ قال: «نعم وأرجو أن تكون منهم».

سورة الضحى

وهي مكية كلها بإجماعهم

اتفق المفسرون: على أن هذه [السورة] نزلت بعد انقطاع الوحي مدة. ثم اختلفوا في سبب انقطاعه على ثلاثة أقوال: أحدها: أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن ذي القرنين، وعن أصحاب الكهف، وعن الروح، فقال: سأخبركم غداً، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي. والثاني: لِقَلَّةِ النظافة في بعض أصحابه، وقد ذكرنا هذين القولين في سورة [مريم: ٦٥]. والثالث: لأجل جرو كان في بيته، قاله زيد بن أسلم^(١). وفي مدة احتباسه عنه أقوال قد ذكرناها في مريم: ٦٦. وروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث جُنْدُب قال: قالت امرأة من قريش للنبي ﷺ: «ما أرى شيطانك إلا قد ودَعَكَ»، فنزلت ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾^(٢) جندب: هو ابن سفيان، والمرأة: يقال لها: أم جميل امرأة أبي لهب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾

وفي المراد «بالضحى» أربعة أقوال: أحدها: ضوء النهار، قاله مجاهد. والثاني: صدر النهار، قاله قتادة. والثالث: أول ساعة من النهار إذا ترخلت الشمس، قاله السدي، ومقاتل. والرابع: النهار كله، قاله الفراء. وفي معنى «سَجَىٰ» خمسة أقوال: أحدها: أظلم. والثاني: ذهب، روي عن ابن عباس. والثالث: أقبل، قاله سعيد بن جبيرة. والرابع: سكن، قاله عطاء، وعكرمة، وابن زيد. فعلى هذا: في معنى «سكن» قولان: أحدهما: استقر ظلامه، قال الفراء «سَجَىٰ» بمعنى أظلم وركد في طولهِ. كما يقال: بَخَّرَ سَاجٌ، وَلَيْلٌ سَاجٌ، إذا ركد وأظلم. ومعنى: ركد: سكن. قال أبو عبيدة: يقال: ليلة ساجية، وساكنة، وشاكرة. قال الحادي:

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٥٤٥/٨: وجدت في «الطبري» بإسناد فيه من لا يعرف أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره ﷺ لم يشعر به، فأبطأ عنه جبريل لذلك، وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ مردود بما في «الصحيح» والله أعلم. وورد لذلك سبب ثالث، وهو ما أخرجه الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً، فتغير بذلك، فقالوا: ودعه ربه وقلاه، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾. ومن طريق إسماعيل مولى آل الزبير قال: فتر الوحي حتى شق ذلك على النبي ﷺ وأحزنه، فقال: فقد خشيت أن يكون صاحبي قلاني، فجاء جبريل بسورة «الضحى». وذكر سليمان التيمي في السيرة التي جمعها، ورواها محمد بن عبد الأعلى عن معتمر بن سليمان عن أبيه قال: وفتّر الوحي فقالوا: لو كان من عند الله لتابع، ولكن الله قلاه، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ و﴿الَّتِي تَرَىٰ﴾ بكاملهما، قال: وكل هذه الروايات لا تثبت، والحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول «الضُّحَىٰ»، غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي، فإن تلك دامت أياماً، وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً، فاختلفتا على بعض الرواة. وتحرير الأمر في ذلك ما بيته، وقد أوضحت ذلك في التعبير لله الحمد، ووقع في «سيرة ابن إسحاق» في سبب نزول «الضُّحَىٰ» شيء آخر، فإنه ذكر أن المشركين لما سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين والروح وغير ذلك، وعدهم بالجواب ولم يستثن، فأبطأ عليه جبريل اثنتي عشرة ليلة أو أكثر، فضاقت صدره وتكلم المشركون، فنزل جبريل بسورة «الضُّحَىٰ» وبجواب ما سألوا، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَأُ لِيْسَاءَهُوْا إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكُمْ غَدًا ﴿١﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وذكر سورة «الضحى» هنا بعيد، لكن يجوز أن يكون الزمان في القصتين مقارناً، فضم بعض الرواة إحدى القصتين إلى الأخرى، وكل منهما لم يكن في ابتداء البعث، وإنما كان بعد ذلك بمدة، والله أعلم.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» ٥٤٥/٨، ومسلم ١٤٢٣/٣، وأحمد في «المسنَد» ٣١٢/٤، وابن جرير الطبري ٢٣١/٣٠، والواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٧، وأورده السيوطي في «الدرر» ٣٦٠/٦، وزاد نسبه للترمذي، والنسائي، والبيهقي وأبي نعيم معاً في «الدلائل» عن جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي ﷺ.

يَا حَبَّبًا الْقَمْرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاحِ

وَطُرُقٌ مِثْلُ مُلَاءِ التَّنْسَاجِ^(١)

قال ابن قتيبة: ﴿سَجِيٌّ﴾ بمعنى سكن، وذلك عند تناهي ظلامه وركوده. والثاني: سكن الخلق فيه، ذكره الماوردي. والخامس: امتد ظلامه، قاله ابن الأعرابي^(٢).

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ وقرأ عمر بن الخطاب، وأنس، وعروة، وأبو العالية، وابن يعمر، وابن أبي عمير، وأبو حاتم عن يعقوب ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ بتخفيف الدال. وهذا جواب القسم. قال أبو عبيدة: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ من التوديع كما يودع المفاقر، و﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ مخففة من ودعه يدعه ﴿رَمَا قَلَّ﴾ أي: أبغض.

قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ قال عطاء: خير لك من الدنيا. وقال غيره: الذي لك في الآخرة أعظم مما أعطاك من الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ في الآخرة من الخير ﴿فَرَضَى﴾ بما تُعْطَى. قال عليّ والحسن: هو الشفاعة في أمته حتى يرضى. قال ابن عباس: عُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يُفْتَحُ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ كَفَرًا كَفَرًا، فَسُرَّ بِذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْتَضِ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ فيه قولان: أحدهما: جعل لك مأوى إذا صَمَّكَ إلى عمك أبي طالب، فكفالك المؤونة، قاله مقاتل. والثاني: جعل لك مأوى لنفسك أغناك عن كفالة أبي طالب، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: ضالًّا عن معالم النبوة، وأحكام الشريعة، فهذا إليها، قاله الجمهور، منهم الحسن، والضحاك. والثاني: أنه ضلَّ وهو صبي صغير في شعاب مكة، فردَّه الله إلى جدِّه عبد المطلب، رواه أبو الضحى عن ابن عباس. والثالث: أنه لما خرج مع ميسرة غلام خديجة أخذ إبليس بزمام ناقته، فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل - ففتح إبليس نفخة وقع منها إلى الحبيشة، وردَّه إلى القافلة، فمَنَّ اللهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ، قاله سعيد بن المسيَّب. والرابع: أن المعنى: ووجدك في قوم ضلَّال، فهذاك للتوحيد والنبوة، قاله ابن السائب. والخامس: ووجدك نسيًّا، فهذاك إلى الذكر. ومثله: ﴿أَنْ تَصِلَ إِبْدَهُمَا فَتُكْرَمَ إِحْدَهُمَا الْآخِرَى﴾ [البقرة: ٢٧٢]، قاله ثعلب. والسادس: ووجدك خاملاً لا تُذْكَرُ ولا تُعْرَفُ، فهذاك إلى الناس إليك حتى عرفوك، قاله عبد العزيز بن يحيى، ومحمد بن علي الترمذي.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ قال أبو عبيدة: أي: ذا فقر. وأنشد:

وَمَا يَذْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ
وَمَا يَذْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعْجِيلُ^(٤)

أي: يفتقر. قال ابن قتيبة: العائل: كان له عيال، أو لم يكن. يقال: عال الرجل: إذا افتقر. وأعال: إذا كثر عياله.

قوله تعالى: ﴿فَأَغْنَى﴾ قولان: أحدهما: رَضَّكَ بما أعطاك من الرزق، قاله ابن السائب، واختاره الفراء. وقال:

(١) الرجز في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة، و«الكامل»، ١٦١، و«الطبري»، ٢٣٠/٣٠، و«القرطبي»، ٩١/٢٠، و«اللسان»: سجي.

(٢) قال الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي في ذلك قول من قال: معناه: واللَّيْلُ إذا سكن بأمله، وثبت بظلامه، كما يقال: بحر ساج: إذا كان ساكنًا.

(٣) رواه ابن جرير الطبري ٢٣٢/٣٠ من رواية الإمام الأوزاعي عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عبد الله بن عباس، ورواه ابن أبي حاتم من طريقه به. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا ما يقال عن توقيف. ورواه الواحدي في «أسباب النزول»، ٣٣٨، و«الحاكم»، ٥٢٦/٢، ورواه الطبراني في «الكبير». قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد»، ١٣٩/٧: وإسناد الطبراني في «الكبير» حسن. وأورد السيويني في «الدرر»، ٣٦١/٦: وزاد نسبه لعبد بن حميد، والبيهقي وأبي نعيم كلاهما في «الدلائل»، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٤) البيت لأبيح بن الجلاح الأوسي، وهو في «جمهرة أشعار العرب»، ١٢٥، و«معاني القرآن» للفراء، ٢٥٥/١، و«الجمهرة»، ١٩٣/٢، و«الطبري»، ٧/٥٤٩، و«اللسان» عيل، و«مجاز القرآن»، ٣٠٢/٢، و«القرطبي»، ٩٩/٢٠.

لم يكن غناه عن كثرة المال، ولكن الله رضاء بما آتاه. والثاني: فأغناك بمال خديجة عن أبي طالب، قاله جماعة من المفسرين^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾^(٢) فيه قولان: أحدهما: لا تحقر، قاله مجاهد. والثاني: لا تقهره على ماله، قاله الزجاج^(٣). ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ ففيه قولان: أحدهما: سائل البر، قاله الجمهور. والمعنى: إذا جاءك السائل، فإما أن تعطيه، وإما أن تردّه ردّاً لئناً. ومعنى ﴿فَلَا تُنْهَرْ﴾ لا تنهه، يقال: نهره وانتهره: إذا استقبله بكلام يزجره. والثاني: أنه طالب العلم، قاله يحيى بن آدم في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَتِمُّكَ فَوَدَّ﴾ في النعمة ثلاثة أقوال: أحدها: النُبُوَّة. والثاني: القرآن، روي عن مجاهد. والثالث: أنها عامة في جميع الخيرات، وهذا قول مقاتل. وقد روي عن مجاهد قال: قرأت على ابن عباس، فلما بلغت ﴿وَالضُّحَى﴾ قال: كبر إذا ختمت كل سورة حتى تختم. وقد قرأت على أبي بن كعب فأمرني بذلك. قال علي بن أحمد النيسابوري: ويقال: إن الأصل في ذلك أن الوحي لما فتر عن رسول الله ﷺ، وقال المشركون: قد هجره شيطانه وودَّعه، اغتم بذلك، فلما نزل ﴿وَالضُّحَى﴾ كبر عند ذلك رسول الله ﷺ فرحاً بنزول الوحي، فاتخذته الناس سُنَّةً^(٤).



(١) روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى من كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»، وروى مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أُلْحِمَ من أسلم وورق كفافاً وقته الله بما آتاه».

(٢) وفي «صحيح البخاري» عن سعد بن أبي وقاص ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما قليلاً. ورواه أيضاً بمعناه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والسنائي.

(٣) قال عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير المفسر: روي من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ، قال: قرأت على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد، فلما بلغت: ﴿وَالضُّحَى﴾ قال لي: كبر حتى تختم مع كل خاتمة كل سورة، فإنا قرأنا على ابن كثير (يريد به عبد الله بن كثير أحد القراء السبعة، المتوفى سنة ١٢٠هـ) فأمرنا بذلك، وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك، فهذه سُنَّةٌ تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث، فقد ضعفه أبو حاتم الرازي، وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العجلي قال: هو منكر الحديث، لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في «شرح الشاطبية» عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة فقال: أحسنت وأصبت السنة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث. قال ابن كثير: ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفية، فقال بعضهم: يكبر من آخر ﴿وَأَلَيْلَ إِذَا يَتَنَّ﴾ وقال آخرون: من آخر ﴿وَالضُّحَى﴾ وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول: الله أكبر ويقصم، ومنهم من يقول: الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر. قال ابن كثير: وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة ﴿وَالضُّحَى﴾ أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة، ثم جاء الملك فأوحى إليه ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَأَلَيْلَ إِذَا يَتَنَّ﴾ في السورة بتمامها، كبر فرحاً وسروراً. قال: ولم يرد ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف، فالله أعلم.

سورة الانشرح

مكية كلها يجمعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنْزَحَ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ أَنْفَقَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْزَحَ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ الشرح: بالذهاب ما يصدّ عن الإدراك. والله تعالى فتح صدر نبيه للهدى والمعرفة بإذهاب الشواغل التي تصدر عن إدراك الحق. ومعنى هذا الاستفهام: التقرير، أي: قد فعلنا ذلك^(١). ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ أي: حَطَطْنَا عَنْكَ إِثْمَكَ الذي سَلَفَ في الجاهلية، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، والفراء، وابن قتبية في آخرين. وقال الزجاج: المعنى: أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال ابن قتبية: وأصل الوِزْرُ: ما حمله الإنسان على ظهره، فَشُبِّهَ بالحمل فجعل مكانه. ومعنى ﴿أَنْفَقَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ أثقله حتى سمع نقيضه، أي: صوته. وهذا مُثَلٌّ، يعني: أنه لو كان حملاً يحمل لَسَمِعَ نقيضَ الظهر منه. وذهب قوم إلى أن المراد بهذا تخفيف أعباء النبوة التي يُثْقَلُ القيامُ بها الظَّهْرَ، فَسَهَّلَ اللهُ له ذلك حتى تيسَّرَ عليه الأمر. وممن ذهب إلى هذا عبد العزيز بن يحيى.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ فيه خمسة أقوال أحدها: ما روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية، فقال: قال الله ﷻ: إِذَا ذُكِرْتُ [ذُكِرْتُ] ^(٢) معي ^(٣). قال قتادة: فليس خطيب، ولا مُتَشَهِّدٌ، ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وهذا قول الجمهور. والثاني: رفعنا لك ذِكْرَكَ بالنبوة، قاله يحيى بن سلام. والثالث: رفعنا لك ذكرك في الآخرة كما رفعناه في الدنيا، حكاه الماوردي. والرابع: رفعنا لك ذكرك عند الملائكة في السماء. والخامس: بأخذ الميثاق لك على الأنبياء، وإلزامهم الإيمان بك، والإقرار بفضلك، حكاهما الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾﴾ ضم سين «العُسْر»، وسين «اليسر» أبو جعفر، و«العُسْر» مذكور في الآيتين بلفظ التعريف. و«اليسر» مذكور بلفظ التنكير، فدل على أن العسر واحد، واليسر اثنان. قال ابن مسعود، وابن عباس في هذه [الآية]^(٤): لن يغلب عُسْر يسرين. قال الفراء: العرب إذا ذكَّرت نِكْرَةً ثم أعادتها بنكرة صارت اثنتين؛ كقولك: إذا كسبت درهماً فانفق درهماً، فالثاني غير الأول، وإذا أعادتها معرفة، فهي كقولك: إذا كسبت درهماً فانفق الدرهم، فالثاني هو الأول. ونحو هذا قال الزجاج: ذَكَرَ العُسْرَ بالالف واللام، ثم ثَنَى ذِكْرَهُ، فصار المعنى: إن مع العسر يسرين. وقال الحسين بن يحيى الجرجاني - ويقال له: صاحب النظم -: معنى الكلام: لا يحزنك ما يُعَيِّرُك به

(١) قال ابن كثير: يقول الله تعالى: ﴿أَنْزَحَ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ يعني: إننا شرحنا لك صدرك، أي نورناه وجعلناه رحيماً واسعاً، كقوله: ﴿مَنْ يُؤَدِّ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيهِ فَيَنْبَغِ سَكْرَهُ لِلنَّاسِ﴾ وكما شرح الله صدره، كذلك جعل شرعه فيسباً واسعاً سبباً سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق.

(٢) سقطت هذه الكلمة من الأصل، واستدركتها من الطبري وغيره.

(٣) رواه ابن جرير الطبري ٢٣٥/٣٠ من رواية يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري، ودراج، وإن كان صدوقاً في حديثه فإنه في روايته عن أبي الهيثم ضعيف، كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب» ومع ذلك فقد صححه ابن حبان. وقال ابن كثير: وكذا روى الحديث ابن أبي حاتم عن يونس عن عبد الأعلى به، ورواه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج. وأورد السيوطي في «الدرر» ٦/٣٦٤ وزاد نسبت لابن المنذر، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الدلائل» عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) زيادة من النسخة الإستنبولية.

المشركون من الفقر ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [عاجلاً في الدنيا، فأنجزه بما وعده، بما فتح عليه، ثم ابتداءً فصلاً آخر فقال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(١)، والدليل على ابتدائه تعريه من الفاء والواو، وهو وعد لجميع المؤمنين أن مع عسر المؤمنين يسراً في الآخرة، فمعنى قولهم: لن يغلب عسر يسرين: لن يغلب عسر الدنيا اليسر الذي وعده الله المؤمنين في الدنيا، فاليسر الذي وعدهم في الآخرة، إنما يغلب أحدهما، وهو يسر الدنيا. فأما يسر الآخرة، فإذ لا ينقطع، كقوله ﷺ: «شهرها عيد لا ينقصان»^(٢)، أي: لا يجتمعان في النقص. وحكي عن العتبي قال: كنت ذات ليلة في البادية بحالة من الغم، فألقي في روعي بيت من الشعر، فقلت:

أَرَى الْمَوْتَ لِمَنْ أَضَبَ

فلما جن الليل سمعت هاتفاً يهتف:

أَلَا يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ أَلَمْ

وَقَدْ أَنْشَدَ بِنِتَائِلٍ لَمْ

إِذَا اشْتَدَّ بِكَ الْعُسْرُ

فُعُسْرُ بَيْنَ يُسْرَيْنِ

فحفظت الأبيات وقرج الله عني.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾^(٣) أي: فادأب في العمل، وهو من النَّصَبِ، والنَّصَبُ: التعبُ، الدُّؤوبُ في العمل. وفي معنى الكلام خمسة أقوال: أحدها: فإذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، قاله ابن مسعود. والثاني: فإذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء، قاله ابن عباس، والضحاك، ومقاتل. والثالث: فإذا فرغت من أمر دينك فانصب في عمل آخرتك، قاله مجاهد. والرابع: فإذا فرغت من التشهد فادع لدينك وآخرتك، قاله الشعبي، والزهري. والخامس: إذا صحَّ بدنك فاجعل صحبتك نصيباً في العبادة، ذكره علي بن أبي طلحة، «وَلَا رَيْبَ فَارْتَبِ»^(٤) قال الزجاج: اجعل رغبتك إلى الله ﷻ وحده^(٥).



(١) زيادة من النسخة الاستبوية.

(٢) رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن أبي بكره ﷺ، واللفظ لمسلم ٧٦٦/٢ وهو بتمامه: «شهرها عيد لا ينقصان: رمضان وذو الحجة» ولفظ البخاري ١٠٨/٤: «شهران لا ينقصان، شهرها عيد: رمضان وذو الحجة»، قال الإمام النووي في «شرح مسلم»: قوله ﷺ: «شهرها عيد لا ينقصان: رمضان وذو الحجة» الأصح أن معناه: لا ينقص أجرهما والثواب المرتب عليهما وإن نقص عددهما. وقيل: معناه: لا ينقصان جميعاً في سنة واحدة غالباً، وقيل: لا ينقص ثواب ذي الحجة عن ثواب رمضان، لأن فيه المناسك، حكاة الخطائي وهو ضعيف، والأول هو الصواب المعتمد. ومعناه أن قوله ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»، وقوله ﷺ: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً...» وغير ذلك، فكل هذه الفضائل تحصل، سواء تم عدد رمضان أم نقص، والله أعلم.

وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٠٦/٤ ما ملخصه: وقد اختلف العلماء في معنى هذا الحديث، فمنهم من حمله على ظاهره فقال: لا يكون رمضان ولا ذو الحجة أبداً إلا ثلاثين، وهذا قول مردود معانده للموجود المشاهد، ويكفي في رده قوله ﷺ: «صوموا لرويته، وأفطروا لرويته، فإن هم عليكم فأكملوا العدة»، فإنه لو كان رمضان أبداً ثلاثين لم يحتج إلى هذا، قال: ومنهم من تأزل له معنى لثاقاً، قال أبو الحسن: كان إسحاق بن راهويه يقول: لا ينقصان في الفضيلة إذا كانا تسعة وعشرين أو ثلاثين، وقال البيهقي في «المعرفة»: إنما خصهما بالذكر لتملح حكم الصوم والحج بهما. قال ابن حجر: والمعنى أن كل ما ورد منهما من الفضائل والأحكام حاصل سواء كان رمضان ثلاثين أو تسعاً وعشرين.

ثم قال: وفي الحديث حجة لمن قال: إن الثواب ليس مرتباً على وجود المشقة دائماً، بل لله أن يفضل بإلحاق الناقص بالتمام في الثواب، ثم قال: وهذا الحديث يقتضي أن التسوية في الثواب بين الشهر الذي يكون تسعاً وعشرين، وبين الشهر الذي يكون ثلاثين، إنما هو بالنظر إلى جعل الثواب متعلقاً بالشهر من حيث الجملة، لا من حيث تفضيل الأيام. وأطلق على رمضان أنه شهر عيد لقربه من العيد، ونظيره قوله ﷺ: «المغرب وتر النهار» أخرجه الترمذي من حديث ابن عمر، وصلاة المغرب ليلية جهرية، وأطلق كونها وتر النهار لقربها منه، وفيه إشارة أن وقتها يدخل أول ما تغرب الشمس.

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾^(١) وَلَا رَيْبَ فَارْتَبِ ﴿٢﴾ أي: إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علاقتها، فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة، قال: ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يداعه الأعيان»، وقوله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة وحضر المشاء، فأبدؤوا بالمشاء».

سورة التين

وفيها قولان: أحدهما: مكة، قاله الجمهور، منهم الحسن، وعطاء^(١). والثاني: أنها مدينة، حكاه الماوردي عن ابن عباس، وقتادة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿التِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ هُمْؤا رَحِيمًا وَرَحِيمًا فَصَلَّوْا سَلَامًا فَهُمْ أُمَّةٌ حَنُوفًا ﴿٦﴾ نَمَا بِكَ يَسُدُّ بِالَّذِينَ ﴿٧﴾ آتَى اللَّهُ بِالتَّكْوِينِ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿التِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ﴿١﴾ فيهما سبعة أقوال: أحدها: أنه التين المعروف، والزيتون المعروف، قاله ابن عباس، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، وجابر بن زيد، وإبراهيم. وذكر بعض المفسرين أنه إنما أقسم بالتين لأنها فاكهة مخلصنة من شائب التنفيس، وهو يدل على قدرة من هيأه على تلك الصفة. وجعل الواحدة منه على مقدار اللقمة، وإنما أقسم بالزيتون لكثرة الانتفاع به. والثاني: أن التين: مسجد نوح ﷺ الذي بني على الجودي. والزيتون: بيت المقدس، رواه عطية عن ابن عباس^(٢). والثالث: التين: المسجد الحرام، والزيتون: المسجد الأقصى، قاله الضحاك. والرابع: التين: مسجد دمشق، والزيتون: بيت المقدس، قاله كعب، وقتادة، وابن زيد. والخامس: أنهما جبلان، قاله عكرمة في رواية. وروي عن قتادة قال: التين: الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون: الجبل الذي عليه بيت المقدس. والسادس: أن التين: مسجد أصحاب الكهف، والزيتون: مسجد إيلياء، قاله القرظي. والسابع: أن التين: جبال ما بين حلوان إلى همدان، والزيتون: جبال بالشام، حكاه الفراء^(٣). فأما ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ ﴿٢﴾ فالطور: جبل، وفيه قولان: أحدهما: أنه الجبل الذي كلم الله موسى عليه، قاله كعب الأحبار في الأكثرين. والثاني: أنه جبل بالشام، قاله قتادة. فأما ﴿سِينِينَ﴾ فهو لغة في سيناء، وقد قرأ علي، وسعد بن أبي وقاص، وأبو العالية، وأبو مجلز «طور سيناء» ممدودة مهموزة، مفتوحة السين. وقرأ ابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو حيوية: «طور سيناء» مثلهم إلا أنهم كسروا السين. وقرأ أبو رجاء، والجحدري «سينين» كما في المصحف، لكنهما فتحا السين. وقال ابن الأنباري: «سينين» هو سيناء. واختلفوا في معناه، فقيل: معناه: الحسن، وقيل: المبارك، وقيل: إنه اسم للشجر الذي حوله. وقد شرحنا هذا في سورة [المؤمنين: ٢٠] قال الزجاج: وقد قرئ هاهنا «طور سيناء» وهو أشبه لقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. وقال مقاتل: كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين، وسيناء بلغة النبط^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ﴿٣﴾ يعني: مكة يأمن فيه الخائف في الجاهلية، والإسلام^(٥). قال الفراء: ومعنى ﴿الْأَمِينِ﴾ ﴿٣﴾ الآمن. والعرب تقول للأمين: آمن. قال الشاعر:

(٢) وعطية ضعيف.

(١) وهو الصواب.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا قول من قال: التين، هو التين الذي يوكل، والزيتون: هو الذي يعصر منه الزيت، لأن ذلك هو المعروف عند العرب.

(٤) قال أبو جعفر الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: طور سينين، جبل معروف، لأن الطور هو الجبل ذو النبات، فإضافته إلى سينين، تعريف له، ولو كان تعناً للطور كما قال من قال: حسن أو مبارك، لكان الطور منوناً، وذلك أن الشيء لا يضاف إلى نعته لغيره علة تدعو إلى ذلك.

(٥) قال ابن كثير: وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلأ من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأول محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم ﷺ، والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ، قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من سامير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا أَسْمَ وَنَحَكَ أَنْسِي

حَلَفْتُ يَمِينًا لَا أُخُونُ أَمِينِي^(١)

يريد أمني.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ﴾ هذا جواب القسم. وفي المراد بالإنسان هاهنا خمسة أقوال: أحدها: أنه كَلْدَة بن أسيد، قاله ابن عباس. والثاني: الوليد بن المغيرة، قاله عطاء. والثالث: أبو جهل بن هشام. والرابع: عتبة، وشيبة، حكاهما الماوردي. والخامس: أنه اسم جنس، وهذا مذهب كثير من المفسرين^(٢)، وهو معنى قول مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: في أعدل خلق. والثاني: منتصب القامة، روى عن ابن عباس. والثالث: في أحسن صورة، قاله أبو العالية. والرابع: في شباب وقوة، قاله عكرمة^(٣). ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَتَقَلَّ سَفِينٍ﴾^(٤) فيه قولان: أحدهما: إلى أرذل العُمر، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وإبراهيم، وقادة^(٥). وقال الضحاك: إلى الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة. والسالفون: هم الضعفاء، والرُمنى، والأطفال، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً. قال الفراء: وإنما قال ﴿سَفِينٍ﴾ على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى جمع. تقول: هذا أفضل قائم، ولا تقول: قائمين، لأنك تريد واحداً، فإذا لم ترد واحداً ذكرته بالتحديد وبالجمع. والثاني: إلى النار، قاله الحسن، وأبو العالية، ومجاهد. والمعنى: إنا فعلنا هذا بكثير من الناس. تقول العرب: أنفق فلان ماله على فلان، وإنما أنفق بعضه، ومثله قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾^(٦) [الليل: ٤١٨] لم يُرِدْ كُلَّ مَالِهِ. ثم استثنى من الإنسان فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن معنى الإنسان الكثير. وللمفسرين في معنى الاستثناء قولان: أحدهما: إلا الذين آمنوا، فإنهم لا يُرَدُّون إلى الحَرْفِ وأرذل العُمر وإن عُمروا طويلاً، وهذا على القول الأول. قال ابن عباس: من قرأ القرآن لم يُرَدَّ إلى أرذل العمر. وقال النخعي: إذا بلغ المؤمن من الكِبَر ما يعجز عن العمل كُتِبَ له ما كان يعمل، وهو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ وقال ابن قتيبة: المعنى: إلا الذين آمنوا في وقت القوة والقدرة، فإنهم حال الكِبَر غير متقوصين وإن عجزوا عن الطاعات؛ لأن الله تعالى علم أنهم لو لم يسلبهم القوة لم ينقطعوا عن أفعال الخير، فهو يجري لهم أجر ذلك. والثاني: إلا الذين آمنوا، فإنهم لا يُرَدُّون إلى النار. وهذا على القول الثاني^(٧). وقد شرحنا معنى «الممنون» في «ن» آية: [٣].

قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَدًّا بِالَّذِينَ﴾^(٨) فيه قولان: أحدهما: فما يكذبك أيها الإنسان بعد هذه الحجة، ﴿وَالَّذِينَ﴾ أي: ما الذي يجعلك مكذباً بالجزاء؟، وهذا توبيخ للكافر، وهو معنى قول مقاتل. وزعم أنها نزلت في عدي بن ربيعة. والثاني: فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعدما تبين له خلقنا الإنسان على ما وصفنا، قاله الفراء. فأما «الَّذِينَ» فهو الجزاء. والمشار بذكره إلى البعث، كأنه استدلل بتقليب الأحوال على البعث.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنسَأَلُكَ اللَّهُ بِأَمْرِكَ لِلْمَكِينِ﴾^(٩) أي: بأقصى القاضين. قال مقاتل: يحكم بينك وبين مكذبيك. وذكر بعض المفسرين: أن معنى هذه الآية تسليته في تركهم والإعراض عنهم، ثم نسخ هذا المعنى بآية السيف^(١٠).

= فاران - يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ، فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أتمم بالأشرف، ثم الأشرف منه، ثم الأشرف منهما.

(١) البيت من شواهد الفراء ٣٧١، وهو في الطبري ٢٤١/٣٠، والقرطبي ١١٣/٢٠.

(٢) وهو الصواب.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن معنى ذلك: لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأعدلها، لأن قوله: ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ إنما هو نعت لمحلوف، وهو في تقويم أحسن تقويم، فكأنه قال: لقد خلقناه في تقويم أحسن تقويم.

(٤) واختار هذا القول ابن جرير الطبري، ورده ابن كثير، فقال: ولو كان هذا هو المراد، لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك، لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه (يعني القول الثاني: النار)؛ كقوله تعالى: ﴿وَالصَّمِرُ﴾^(١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

(٥) وهو الأقرب إلى معنى الآية، كما قال ابن كثير.

(٦) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنسَأَلُكَ اللَّهُ بِأَمْرِكَ لِلْمَكِينِ﴾^(١) أي: أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجوز ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه.

سورة العلق^(١)

وتسمى: سورة القلم، وسورة العلق، وهي مكية بإجماعهم. وهي أول ما نزل من القرآن. وقيل: إنها نزلت عليه في أول الوحي خمس آيات منها، ثم نزل باقيها في أبي جهل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ⑤﴾
قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ﴾ قرأ أبو جعفر بتخفيف الهمزة في الحرفين. قال أبو عبيدة: المعنى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ والباء زائدة. وقال المفسرون: المعنى: اذكر اسمه مستفتحاً به قراءتك. وإنما قال تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ﴾ لأن الكفار كانوا يعلمون أنه الخالق دون أصنامهم. والإنسان هاهنا: ابن آدم. والعلق: جمع علقة، وقد بيَّناها في سورة «الحج». قال الفراء: لما كان الإنسان في معنى الجمع جمع العلق مع مشاكلة زووس الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ﴾ تقرير للتأكيد. ثم استأنف فقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ قال الخطابي: الأكرم: الذي لا يوازيه كرم، ولا يعادله في الكرم نظير. وقد يكون الأكرم بمعنى الكريم، كما جاء الأعزُّ والأطول بمعنى العزيز والطويل. وقد سبق تفسير الكريم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④﴾ أي: علَّم الإنسان الكتابة بالقلم ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ⑤﴾ من الخط، والصناعات، وغير ذلك. وقيل: المراد بالإنسان هاهنا: محمد ﷺ.

﴿كَلَّا ① إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ② إِنَّ رَبَّهُ اسْتَمَعَ ③ نَدْوَةَ رَبِّهِ أَلْتَسْمَعُ ④ وَإِن كَادَ لَأَنْتَسِمَعُ ⑤ وَإِن كَادَ لَأَنْتَسِمَعُ ⑥ وَإِن كَادَ لَأَنْتَسِمَعُ ⑦﴾
الملك ⑧ أو أمر بالقرآن ⑨ أَوْتَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑩ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ اللَّهُ رَبًّا ⑪ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَنْصَبَنَّ إِلَيْكَ سَوِيًّا ⑫ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ⑬ فَلْيَنْصَبْ نَادِيَهُ ⑭ سَتَجِدُنَا أَعْيُنًا ⑮ كَلَّا لَا تُلْعَمُونَ بِالْحَسَنِ وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ ⑯﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ①﴾ أي: حقاً. وقال مقاتل: ﴿كَلَّا ①﴾ لا يعلم أن الله علمه. ثم استأنف فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ②﴾ يعني: أبا جهل. وكان إذا أصاب مالأً أشر وبَطِرَ في ثيابه، ومراكبه، وطعامه، ﴿إِنَّ رَبَّهُ اسْتَمَعَ ③﴾ قال ابن قتيبة: أي: أن رأى نفسه استغنى، و﴿الْحَسَنِ ⑯﴾: المرجع.

قوله تعالى: ﴿أَوْتَيْتَ الْإِنْسَانَ يَتْلُو ①﴾ معنى: أرأيت: تعجيبه المخاطب، وإنما كررها للتأكيد والتعجيب. والمراد بالناهي هاهنا: أبو جهل. قال أبو هريرة: قال أبو جهل: هل يعرف محمدٌ وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فبالذي يحلف به^(٢) لئن رأيته لأطأنَّ على رقبته. فقيل له: ها هو ذاك يصلِّي. فانطلق ليَطَأَنَّ على رقبته، فما فجاهم إلا وهو ينكص على عقبه^(٣)، ويَتَّقِي بيديه، فأتأذوه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار، وهو لأَجْنِبِحَةً. وقال نبي الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوْتَيْتَ الْإِنْسَانَ يَتْلُو ①﴾ إلى آخر السورة^(٤). وقال ابن عباس: كان النبي ﷺ يصلِّي، فجاه أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟! ١؟

(١) في الأصل: سورة اقرأ.

(٢) في الأصل: عقبه، والتصحيح من مسلم والطبري.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» ٢١٥٤/٤، وابن جرير الطبري ٢٥٦/٣٠، ورواه أحمد، والنسائي، وابن أبي حاتم. وأورد السيوطي في «الدرر» ٣٧٠/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي، وأبي نعيم عن أبي هريرة ﷺ.

وروى البخاري في «صحيحه» ٥٥٧/٨ دون سبب النزول، ولنظفه: عن عكرمة قال ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيته محمداً يصلِّي عند الكعبة لأطأنَّ عقبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة» ورواه ابن جرير بنحوه بلفظ: «لو فعل لأخذته الملائكة عتاتاً». ورواه بنحو رواية الطبري: الترمذي في «سننه» ١٧٠/٢ وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وأورد السيوطي في «الدرر» ٣٦٩/٦ وزاد نسبه لعبد الرزاق،

فانصرف إليه النبي ﷺ فزّره^(١)، فقال أبو جهل: والله إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّهُمْ﴾^(٢) قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله^(٣). قال المفسرون: والمراد بالعبد هنا: محمد ﷺ. وقيل: كانت الصلاة صلاة الظهر.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ يعني المنهي وهو النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يعني: الناهي، وهو أبو جهل، قال الفراء: والمعنى: أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى، وهو كاذب متوَلَّى عن الذكر، فأى شيء أعجب من هذا؟! قال ابن الأنباري: تقديره: أرايته مصيباً.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَةً﴾ يعني أبا جهل ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِرَبِّكُمْ﴾ ذلك فيجازه ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يعلم ذلك، ﴿لَهُنَّ لَأَرْبَابٌ﴾ عن تكذيب محمد وشمته وإذائه ﴿أَسْتَفْتَىٰ بِالسَّعَةِ﴾ السفع: الأخذ، والناصية: مُقَدِّمُ الرَّأْسِ. قال أبو عبيدة: يقال: سفعتُ بيده، أي: أخذتُ بها. وقال الزجاج: يقال: سفعتُ الشيء: إذا قبضت عليه وجذبتة جذباً شديداً. والمعنى: لتَجْرُونَ ناصيته إلى النار.

قوله تعالى: ﴿أَعْيَبَكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: هي بدل، فلذلك جرّها. قال الزجاج: والمعنى: بناصية صاحبها كاذب خاطئ، كما يقال: نهاره صائم، وليله قائم، أي: هو صائم في نهاره، قائم في ليله. ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: أهل ناديه، وهم أهل مجلسه فليستنصرهم ﴿سَنَعُ الزَّيْنَةَ﴾ قال عطاء: هم الملائكة الغلاظ السُّدَادِ. وقال مقاتل: هم حَزَنَةُ جَهَنَّمَ. وقال قتادة: الزَّيْنَةُ في كلام العرب: الشَّرْطُ. قال الفراء: كان الكسائي يقول: لم أسمع للزَّيْنَةُ بواحد، ثم قال بأخرة: واحد الزَّيْنَةُ: زَيْنِيٌّ، فلا أدري أقياساً منه أو سماعاً. وقال أبو عبيدة: واحد الزَّيْنَةُ: زَيْنِيَّةٌ، وهو كل متمرد من إنس، أو جان. يقال: فلان زَيْنِيَّةٌ عَفْرِيَّةٌ. قال ابن قتيبة: وهو مأخوذٌ من الزَّيْنِ، وهو الدَّفْعُ، كأنهم يدفعون أهل النار إليها. قال ابن دريد: الزَّيْنُ: الدَّفْعُ. يقال: ناقة زبون: إذا زَبَنَتْ حاليها، ودفعته برجليها. وَتَزَابِنُ القوم: تدارؤوا. واشتقاق الزَّيْنَةُ من الزَّيْنِ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر على ما عليه أبو جهل ﴿لَا تُطِئْتُمْ﴾ في ترك الصلاة ﴿وَأَسْتَجِدُّ﴾ أي: صلَّ الله ﴿وَأَقْتَرِبُ﴾ إليه بالطاعة، وهذا قول الجمهور أن قوله تعالى: ﴿وَأَقْتَرِبُ﴾ خطاب للنبي ﷺ. وقد قيل: إنه خطاب لأبي جهل، ثم فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: اسجد أنت يا محمد، واقترب أنت يا أبا جهل من النَّارِ، قاله زيد بن أسلم. والثاني: واقترب يا أبا جهل تَهْدِداً له، رواه أبو سليمان الدمشقي عن بعض القُدَمَاءِ. وهذا يشرحه حديث أبي هريرة الذي قَدَمناه. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْشَرُوا الدِّهَانَ﴾^(٤).



= وعبد بن حميد، وابن مردويه، وابن المنذر، وأبي نعيم والبيهقي معاً في «الدلائل» عن ابن عباس ؑ.

(١) أي: نهره وأغلظ له.

(٢) رواه الترمذي ١٧١/٢ وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. ورواه أحمد في «المسند» رقم ٢٣٢١ و٣٠٤٥، وابن جرير الطبري ٢٥٦/٣٠، والواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٩، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٦٩/٦ وزاد نسبتة لابن أبي شيبة، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وأبي نعيم والبيهقي عن ابن عباس ؑ.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» ٣٥٠/١.

سورة القدر

وفيها قولان: أحدهما: أنها مكية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: مدنية، قاله الضحاك، ومقاتل. قال الماوردي: والأول قول الأكثرين^(١). وقال الثعلبي: الثاني قول الأكثرين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَرِيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْوٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ مِنْ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وذلك أنه أنزل جملة في تلك الليلة إلى بيت العزّة، وهو بيت في السماء الدنيا. وقد ذكرنا هذا الحديث في أوّل كتابنا^(٢). والهاء في ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ كناية عن غير مذكور. وقال الزجاج: قد جرى ذكره في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُنْذَرَكِي﴾ [الدخان: ٤٣]. فأما ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ ففي تسميتها بذلك خمسة أقوال: أحدها: أن القدر: العظمة، من قولك: لفلان قدر، قاله الزهري. ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّىٰ قَدَرُوهُ﴾ [الأنعام: ٩١] [الزمر: ٦٧]. والثاني: أنه من الضيق، أي: هي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون، قاله الخليل بن أحمد، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُدِرْ عَلَيْهِ رَيْفَهُ﴾ [الطلاق: ٧]. والثالث: أن القدر: الحكم، كان الأشياء تُقدّر فيها، قاله ابن قتيبة. والرابع: لأن من لم يكن له قدر صار بمراعاتها ذا قدر، قاله أبو بكر الورّاق. والخامس: لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر، وتنزل فيها رحمة ذات قدر، وملائكة ذوو قدر، حكاها شيخنا علي بن عبيد الله.

فصل

واختلف العلماء هل ليلة القدر باقية، أم كانت في زمن النبي ﷺ خاصة؟ والصحيح بقاؤها. وهل هي في جميع السنة، أم في رمضان؟ فيه قولان: أحدهما: في رمضان، قاله الجمهور^(٣). والثاني: في جميع السنة، قاله ابن مسعود. واختلف القائلون بأنها في شهر رمضان هل تختص ببعضه دون بعض؟ على قولين: أحدهما: أنها في العشر الأواخر، قاله الجمهور، وأكثر الأحاديث الصحيحة تدلّ عليه. وقد روى البخاري في أفرادها من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، أو سابعة تبقى، أو في خامسة تبقى»^(٤). وفي حديث أبي بكر قال: ما أنا بملتمسها لشيء سمعته من رسول الله ﷺ، إلا في العشر الأواخر، فإني سمعته يقول: «التمسوها في تسع يبقين، أو سبع يبقين، أو خمس يبقين، أو ثلاث يبقين، أو آخر ليلة»^(٥). والقول الثاني: أنها في جميع رمضان، قاله الحسن البصري. واختلف القائلون بأنها في العشر الأواخر هل تختص ليالي الوتر دون الشفع؟

(١) وهو الصواب.

(٢) وهو الصواب الذي تؤيده الأدلة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، وسيورد المصنف بعضها.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» ٢٢٦/٤ ولفظه: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى». قال ابن كثير بعدما ذكر حديث البخاري هذا: فسره كثيرون بليالي الأوتار، وهو أظهر وأشهر.

(٤) رواه الترمذي في «سننه» ٩٨/١ من حديث عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي بكر قال: هذا حديث حسن صحيح، وقال الترمذي في آخر الحديث: وكان أبو بكر يصلي في العشرين من رمضان كصلاته في سائر السنة، فإذا دخل العشر يعني الأخير اجتهد. وقال الحافظ السيوطي في «الدر» ٣٧٣/١: أخرج الطيالسي، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير والحاكم وصححه، والبيهقي عن عبد الرحمن بن جوشن قال: ذكرت ليلة القدر عند أبي بكر فقال: أما أنا فليست بملتمسها إلا في العشر الأواخر بعد حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها في العشر الأواخر، لتاسعة تبقى، أو سابعة تبقى، أو ثالثة تبقى، أو آخر ليلة»، فكان أبو بكر ﷺ يصلي في عشرين من رمضان كما كان يصلي في سائر السنة، فإذا دخل العشر اجتهد.

على قولين: أحدهما: أنها تختص الأفراد، قاله الجمهور. والأحاديث الصحاح كلها تدلّ عليه. وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحاحين» من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ابتغوها في العشر الأواخر في الوتر منها»^(١). والثاني: أنها تكون في الشفع كما تكون في الوتر، قاله الحسن. وروي عن الحسن ومالك بن أنس قالا: هي ليلة ثماني عشرة^(٢). واختلف القائلون بأنها في الأفراد في أخصّ الليالي بها على خمسة أقوال: أحدها: أن الأخص بها ليلة إحدى وعشرين. فروى البخاري ومسلم في «الصحاحين» من حديث أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله ﷺ العشر الوسط، واعتكفنا معه، فلما أصبحنا صبيحة عشرين رجع، ورجعنا معه، وأري ليلة القدر، ثم أنسيتها، فقال: «إني رأيت ليلة القدر، ثم أنسيتها وأراني أسجد في ماء وطين، فمن اعتكف فليرجع إلى مُعتكفه، وهاجت علينا السماء آخر تلك العشية، وكان سَقْفُ المسجد عرشاً من جريد، فوكف [المسجد]^(٣) فوالذي هو أكرمه، وأنزل عليه الكتاب لَرَأَيْتُهُ يصلّي، بدأ المغرب ليلة إحدى وعشرين، وإن جبهته وأرنبه أنفه لفي الماء والطين»^(٤)، وهذا مذهب الشافعي. والثاني: أن الأخص بها ليلة ثلاث وعشرين. روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال ليلة ثلاث وعشرين: «اطلبوها الليلة»^(٥). وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان منكم يريد أن يقوم من الشهر شيئاً فليقم ليلة ثلاث وعشرين»^(٦). وروى مسلم في أفراده من أفراد عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ قال: «أريّت ليلة القدر، ثم أنسيتها»^(٧)، وأراني صُبْحَهَا^(٨) أسجد في ماء وطين». قال: فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا رسول الله ﷺ فانصرف^(٩) وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه. قال: وكان عبد الله بن أنيس يقول: ليلة ثلاث وعشرين^(١٠). والثالث: ليلة خمس وعشرين، روى هذا المعنى أبو بكره عن النبي ﷺ^(١١). والرابع: ليلة سبع وعشرين، روى مسلم في أفراده من حديث ابن عمر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان متحرّياً فليتحزّها ليلة سبع وعشرين»، يعني: ليلة القدر^(١٢)، وهذا مذهب عليّ وأبي بن كعب. وكان أبيّ يحلف لا يستثني أنها ليلة سبع

(١) رواه البخاري ٢٢٥/٤ وهو جزء من حديث طويل، ولقظه: «... فابتغوها في العشر الأواخر، وابتغوها في كل وتر...» وهو في «مسلم» ٨٢٤/٢، ٨٢٥ بمعناه.

(٢) قال الترمذي ٩٨/١: وروي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر. قال ابن كثير: وهذا الذي حكاه الترمذي عن أبي قلابة نصّ عليه مالك، والثوري، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، والمزني، وأبو بكر بن خزيمة، وغيرهم، قال: وهو محكي عن الشافعي، نقله القاضي عنه، وهو الأشبه، والله أعلم.

(٣) زيادة من البخاري ومسلم، ومعنى وكف: أي: قطر ماء المطر من سقفه.

(٤) رواه البخاري ٢٣٦/٤، ٢٤٣، ٢٤٤، ومسلم ٨٢٤/٢، ٨٢٦.

(٥) قال السيوطي في «الدرر» ٣٧٢/٦: وأخرج ابن زنجويه، وابن مردويه بسند صحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: ذكرنا ليلة القدر عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «كم بقي من الشهر؟ قلنا: مضت اثنتان وعشرون، وبقي ثمان، فقال رسول الله ﷺ: مضت اثنتان وعشرون، وبقيت سبع، التمسوها الليلة، الشهر تسع وعشرون».

(٦) هذا قطعة من حديث ذكره الطبرسي في «مجمع البيان» ١٩٣/٣٠ عن عبد الله بن عمر يغير سند ولم يعزه لأحد، ولقظه عنده بتمامه: عن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني رأيت في النوم كأن ليلة القدر هي ليلة سابعة تبقى، فمن كان منكم يريد أن يقرم من الشهر شيئاً فليقم ليلة ثلاث وعشرين، ولم نره عند غيره بهذا اللفظ، نعم رواه البخاري ومسلم في «الصحاحين» عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد توأمت في السبع الأواخر، فمن كان متحرّياً فليتحزّها في السبع الأواخر». قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٢١/٤: والظاهر أن المراد به أواخر الشهر، ثم قال: ولمسلم من طريق عقبة بن حريث عن ابن عمر: «التمسوها في العشر الأواخر، فإن ضمف أحدكم أو هجر، فلا يغلبن على السبع البواتي»، قال: وهذا البيان يرجح الاحتمال في تفسير السبع.

(٧) في الأصل: نسيتها.

(٨) في الأصل: فأبصرته.

(٩) رواه مسلم ٨٢٧/٢، وقال الحافظ السيوطي في «الدرر» ٣٧٣/٦: أخرجه مالك، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، وابن زنجويه، والطحاوي، والبيهقي عن عبد الله بن أنيس أنه سئل عن ليلة القدر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها الليلة، وتلك الليلة ليلة ثلاث وعشرين».

(١٠) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٢٩/٤: حكاه ابن العربي في «المعارضة»، وعزاه ابن الجوزي في «المشكّل» لأبي بكره.

(١٢) لفظ رواية مسلم ٨٢٢/٢: «فمن كان متحرّياً فليتحزّها في السبع الأواخر». قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٢٩/٤: ولابن المنذر: «من كان

وعشرين^(١)، وبه قال ابن عباس، وعائشة، ومعاوية. واختاره أحمد رضي الله عنه. وروي عن ابن عباس: أنه استدلل على ذلك بشيئين: أحدهما: أنه قال: إن الله تعالى خلق الإنسان على سبعة أصناف، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُكَّارٍ﴾ [المؤمنون: ١٧٢] الآيات^(٢). ثم جعل رزقه في سبعة أصناف يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَبْنِئَ الْكَوْكَبِ﴾ [١٥] ﴿عس: ٢٥﴾^(٣)، ثم تُصَلَّى الجمعة على رأس سبعة أيام، وجعل السموات سبعا، والأرضين سبعا، والمثاني سبعا^(٤)، فلا أرى ليلة القدر إلا ليلة السابعة [وعشرين]^(٥). والثاني: أنه قال: قوله تعالى: ﴿سُكَّرٌ﴾ هي الكلمة السابعة والعشرون، فدل على أنها كذلك. واحتج بعضهم فقال: ليلة القدر كُرِّرت في هذه السورة ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، والتسعة إذا كُرِّرت ثلاثا فهي سبع وعشرون، وهذا تنبيه على ذلك. والقول الخاص: أن الأولى طلبها في أول ليلة من رمضان، قاله أبو رزين العقيلي. وروي أيوب عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر^(٦). فأمد الحكمة في إخفائها فليتحقق اجتهاد العباد في ليالي رمضان ظمعا منهم في إدراكها، كما أخفى ساعة الجمعة^(٧)، وساعة الليل^(٨)، واسم الأعظم^(٩)، والصلاة الوسطى^(١٠)،

متحرها فليتحضرها ليلة سبع وعشرين، قال: وعن جابر بن سمرة نحوه، أخرجه الطبراني في «أوسطه»، وعن معاوية نحوه، أخرجه أبو داود. وقال الحافظ السيوطي في «الدر» ٢٧٥/٦: أخرج عبد بن حميد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التمسوا ليلة القدر ليلة سبع وعشرين».

(١) روى مسلم في «صحيحه» ٨٧٨/٢ من رواية عبدة وعاصم بن أبي الجرد سمعا زر بن حبيش يقول: سألت أبا عبد الله رضي الله عنه قلت: إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر، فقال رحمه الله: أراد أن لا يتكلم الناس، أما إنه قد علم أنها في رمضان، وأنها في العشر الأواخر، وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين، قلت: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالعلامة، أو بالآية التي أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تطلع يومئذ لا شعاع لها. والحديث ذكره السيوطي في «الدر» ٣٧٤/٦. وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وأحمد، وابن زنجويه، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وأبي داود، وابن جرير، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي عن زر بن حبيش عن أبي رضي الله عنه.

(٢) نصها بتمامها: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُكَّارٍ مِنْ طِينٍ﴾ [١] ﴿مِنْ جَسَدٍ نَظْفٍ وَ قَرَارٍ نَكِيٍّ﴾ [٢] ﴿رُزُقْنَا أَلْفَةً عَلَفَةً نَمَلْنَا أَلْفَةً مُمْسِكَةً نَمَلْنَا الشَّمْسَةَ عَلَيْنَا كَكْرًا الْوَلَطَةَ لَمَّا رُزِقْنَا نَسَاءً نَحْرَ نَسَاةٍ اللَّهُ أَسْمَنُ لِلْقَلْبِ﴾.

(٣) والآيات بتمامها: ﴿يَوْمَ الْإِنْسَانِ إِذْ طَلَّبَهُ﴾ [١] ﴿أَنَا سَيِّدُ الْكَلْبِ سَا﴾ [٢] ﴿مِنْ نَمَلِ الْأَرْضِ نَمَلًا﴾ [٣] ﴿تَاللَّهِ يَا سَا﴾ [٤] ﴿وَمَا وَقَفَا﴾ [٥] ﴿وَوَيَّوَا وَفَلَا وَمَدَّيْنِ عَلَا﴾ [٦] ﴿وَكَيْفَا يَا﴾ [٧] ﴿نَمَلًا لَكْرًا وَنَسَاةً﴾.

(٤) وهي سورة الفاتحة سبع آيات، سميت بالثاني، لأنها تنفي في كل ركعة، أي تكوّر.

(٥) كلمة «وعشرين» سقطت من الأصل، واستدركناها من النسخة الاستبوابية.

(٦) انظر الصفحة ١٥٧١، التعليق رقم ٢.

(٧) روى البخاري ٣٤٤/٢، ومسلم ٥٨٣/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه إياه» وأشار بيده يقلنها. واللفظ البخاري. وروى مسلم في «صحيحه» ٥٨٤/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه» قال: وهي ساعة خفيفة. ورواه أحمد في «المسند» ٢٧٢/٢ وزاد فيه: «وهي بعد العصر». وروى مسلم في «صحيحه» ٥٨٤/٢ عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال: قال لي عبد الله بن عمر: سمعت أباك يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن ساعة الجمعة؟ قال: قلت: نعم، سمعته يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «هو ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة» وروح هذا القول النووي. وقال الترمذي في «سننه» ٣٦١/٢ بتحقيق أحمد شاكر: وروى بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم أن الساعة التي ترجى فيها، بعد العصر إلى أن تغرب الشمس، قال: وبه يقول أحمد، وإسحاق. قال: وقال أحمد: أكثر الأحاديث في الساعة التي ترجى فيها إجابة الدعوة أنها بعد صلاة العصر، وترجى بعد زوال الشمس. ومن شاء التفصيل فليرجع إلى «فتح الباري» ٣٤٥/٢ - ٣٥٦، وشرح مسلم للنووي ١٤٠/٦، وانظر كلام أحمد شاكر على الترمذي ٣٦٢/٢ - ٣٨٤. وعلى كل فهي ساعة (أي لحظة) مخفية تمر على الإنسان، سواء أكانت ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة، أم بعد العصر، وقد حثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسها لما فيها من الأجر العظيم والثواب الكبير.

(٨) روى مسلم في «صحيحه» ٥٢١/١ عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة». قال النووي في «شرح مسلم» ٢٦/٦: فيه إثبات ساعة الإجابة في كل ليلة، ويتضمن الحث على الدعاء في جميع ساعات الليل رجاء مصادقتها.

(٩) روى البخاري في «صحيحه» ٢٦٢/٥، ومسلم ٢٠٦٣/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة». وفي رواية لمسلم: «من حفظها دخل الجنة»، والمعنى: من حفظها متفكرا في مدلولاتها معتبرا بمعانيها، عاملا بمقتضاها، مقدما لمسماها، دخل الجنة مع الأولين.

(١٠) قال ابن كثير: اختلف السلف والخلف أي صلاة هي، فقيل: إنها الصبح، وذكر بعض الأدلة على ذلك. وقيل: إنها الظهر، وذكر أيضاً بعض الأدلة

والولي في الناس^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا آذَرَكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ هذا على سبيل التعظيم والتشويق إلى خيرها.

قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال مجاهد: قيامها والعمل فيها خير من قيام ألف شهر وصيامها ليس فيها ليلة القدر، وهذا قول قتادة، واختيار الغراء، وابن قتيبة، والزجاج. وروى عطاء عن ابن عباس أن النبي ﷺ ذكّر له رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك، وتمنى أن يكون ذلك في أمته، فأعطاه الله ليلة القدر، وقال: هي خير من ألف شهر التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله^(٢). وذكر بعض المفسرين أنه كان الرجل فيما مضى لا يستحق أن يقال^(٣) له: عابد حتى يعبد الله ألف شهر كانوا يعبدون فيها.

قوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا اللَّكْظَةَ﴾ قال أبو هريرة: الملائكة ليلة القدر في الأرض أكثر من عدد الحصى^(٤). وفي «الروح» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه جبريل، قاله الأكترون. وفي حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كعبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله ﷻ»^(٥). والثاني: أن الروح:

على ذلك. وقيل: إنها العصر، قال: قال الترمذي والبخاري رحمهما الله تعالى: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم. وقال القاضي المارودي: هو قول جمهور التابعين، وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر، وقال أبو محمد بن عطية في «تفسيره»: وهو قول جمهور الناس. ثم ذكر أنه جاء التصريح بها في الأحاديث الصحيحة، منها ما رواه أحمد ومسلم عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملائكة قلوبهم ويوتهم ناراً». قال: وأخرجه الشيخان، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغير واحد من أصحاب «المسند» و«السنن» و«الصحاح» من طرق يطول ذكرها. وذكر أقوالاً أخرى كثيرة، ثم قال: وقد ثبت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها. وهذا يدل على أن الصلاة الوسطى أصبحت معروفة وليست خفية كما ذكر المؤلف رحمه الله.

(١) الولي لا يعرف بعينه، ولكن الله تعالى ذكر صفات الأولياء في كتابه فقال: ﴿آلَٰئِكَ أَوْلِيَاةُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآية. وأما

﴿رَكَعًا يُكْتَبُ﴾ فكل من كان مؤمناً تقياً كان له ولياً. قال ابن كثير: ثم يعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في «سننه» عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: «اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبطل مكانه قرحاً، فقل: يا رسول الله، أفلا تعلمها؟ فقال: بلى وينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها» وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي بمثله، قال: وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «الأحاديث في شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ وهي كثيرة، وقد اختلف العلماء في تعيين اسمه الأعظم. وقد روى أصحاب «السنن» عن بريدة عن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب»، فله أعلم أي الأسماء من هؤلاء الأعظم، وكلها عظيمة.

(٢) روى هذا الحديث البخاري في «تفسيره» من رواية عطاء عن ابن عباس بغير سند، وكذلك ذكره القرطبي في «تفسيره»، وذكره ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم عن مجاهد عن النبي ﷺ، وهو مقطوع، وكذلك ذكره السيوطي في «الدر» ٣٧١/٦. وزاد نسبه لابن المنذر، والبيهقي في «سننه».

قال ابن كثير: وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر ليس في ذلك الشهر ليلة القدر، قال: هكذا قال قتادة والشافعي وغير واحد، قال: وقال عمرو بن قيس الملائي: عمل فيها خير من عمل ألف شهر، قال: وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، هو اختيار ابن جرير، وهو الصواب، لا ما عدها، وهو كقولهم ﷺ: «رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل» رواه أحمد، وكما جاء في قاصد الجمعة بيئية حسنة وثبة صالحة أنه يكتب له عمل سنة أجر صيامها وقيامها، إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ قال: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغلّب فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم»، ثم قال: ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها ألف شهر، ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

(٣) في الأصل: يقول، والتصحيح من النسخة الإسنوبولية.

(٤) قال ابن كثير: أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، قال: والملائكة ينزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما ينزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق، تعظيماً له.

(٥) حديث أنس هذا، ذكره السيوطي في «الدر» ٣٧٧/٦ وعزاه للبيهقي، والكعبة: الجماعة.

طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشمس إلى طلوع الفجر، قاله كعب، ومقاتل بن حيان. والثالث: أنه ملك عظيم يفي بخلق من الملائكة، قاله الواقدي.

قوله تعالى: ﴿ فِيهَا ﴾ أي: في ليلة القدر ﴿ يَأْتِنَ رَبِّهِمْ ﴾ أي: بما أمر به وقضاه ﴿ مِّنْ كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ قال ابن قتيبة: أي: بكل أمر. قال المفسرون: ينزلون بكل أمر قضاه الله في تلك السنة إلى قاييل. وقرأ ابن عمر، وابن عباس، وأبو العالية، وأبو عمران الجوني: «من كل امرئ» بكسر الراء وبعدها همزة مكسورة منوَّنة. ويوصل اللام من غير همز، ولهذه القراءة وجهان: أحدهما: من كل ملك سلام. والثاني: أن تكون «من» بمعنى «على» تقديره: على كل امرئ من المسلمين سلام من الملائكة؛ كقوله تعالى: ﴿ وَنَصَرْتَهُ بِمَنْ آوَى إِلَيْهِ مِنَ الْكُفْرَانِ ﴾ [الأنبياء: ٧٧]. والقراءة الموافقة لخط المصحف هي الصواب. ويكون تمام الكلام عند قوله تعالى: ﴿ مِّنْ كُلِّ أُمَّةٍ ﴾، ثم ابتداء فقال تعالى: ﴿ سَلَّمَ هِيَ ﴾ أي: ليلة القدر سلام. وفي معنى السلام قولان: أحدهما: أنه لا يحدث فيها داءٌ ولا يُرسل فيها شيطان، قاله مجاهد. والثاني: أن معنى السلام: الخير والبركة، قاله قتادة. وكان بعض العلماء يقول: الوقف على ﴿ سَلَّمَ ﴾ على معنى تنزل الملائكة بالسلام.

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة «مطلع» بفتح اللام. وقرأ الكسائي بكسرها. قال الفراء: والفتح أقوى في قياس العربية، لأن المطلق بالفتح: الطلوع، وبالكسر: الموضع الذي يطلع منه، إلا أن العرب تقول: طلعت الشمس مطلوعاً، بالكسر، وهم يريدون المصدر؛ كما تقول: أكرمتك كرامة، فتجتزئ بالاسم عن المصدر. وقد شرحنا هذا المعنى في [الكهف: ٩] عند قوله تعالى: ﴿ مَطْلَعِ النَّجْمِ ﴾ شرحاً كافياً، والله الحمد.



سورة البينة^(١)

وفيها قولان: أحدهما: مدنية، قاله الجمهور^(٢). والثاني: مكية، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره يحيى بن

سلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُرْسِلُوا إِلَّا لِيُعْذِبُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ خُفَّاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ مِنْ تَنْبِيهِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ومن المشركين، وهم عبدة الأوثان ﴿مُنْفِكِينَ﴾ أي: منفصلين وزائلين - يقال: فككت الشيء، فانفك، أي: انفصل - والمعنى: لم يكونوا زائلين عن كفرهم وشركهم ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ﴾ أي: حتى أتتهم، فلفظه لفظ المستقبل، ومعناه الماضي. و﴿الْبَيِّنَةُ﴾ الرسول، وهو محمد ﷺ، وذلك أنه بيّن لهم ضلالهم وجهلهم. وهذا بيان عن نعمة الله على من آمن من الفريقين إذ أنقذهم. وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية: لم يخلتوا أن الله يبعث إليهم نبياً حتى يبعث فافترقوا. وقال بعضهم: لم يكونوا يتركوا منفكين عن حجج الله حتى أقيمت عليهم البيّنة. والوجه هو الأول. والرسول هاهنا محمد ﷺ، ومعنى ﴿يَتْلُو صُحُفًا﴾ أي: ما تضمنته الصحف من المكتوب فيها، وهو القرآن. ويدل على ذلك أنه كان يتلو القرآن عن ظهر قلبه لا من كتاب. ومعنى ﴿مُطَهَّرَةً﴾ أي: من الشرك والباطل. ﴿فِيهَا﴾ أي: في الصحف ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي: عادلة مستقيمة تُبَيِّنُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وهي الآيات. قال مقاتل: وإنما قيل لها: كتب لما جَعَعَتْ من أمورٍ شَتَّى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني: من لم يؤمن منهم ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها محمد ﷺ، والمعنى: لم يزلوا مجتمعين على الإيمان به حتى بُعِثَ، قاله الأكثرون. والثاني: القرآن، قاله أبو العالية. والثالث: ما في كتبهم من بيان بُرُوبِهِ، ذكره الماوردي. وقال الزجاج: وما تَفَرَّقُوا في كفرهم بالنبيِّ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ تَبَيَّنُوا أَنَّهُ الَّذِي وُعدُوا بِهِ فِي كُتُبِهِمْ^(٣).

(١) في الأصل: سورة لم يكن. وروى البخاري في «صحيحه» ٩٠/٦، ومسلم في «صحيحه» ١٩١٥/٤ عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: وسماني؟ قال: نعم، فيكى. ورواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وغيرهم. وتخصيص هذه السورة بالذكر يقتضي اختصاصها وامتيازها، لما اشتملت عليه من التوحيد، والرسالة، والإخلاص، والصحف والكتب المنزلة على الأنبياء، وذكر الصلاة، والزكاة، والمعاد، وبيان أهل الجنة والنار، مع وجازتها.

(٢) وهو الصواب.

(٣) روى أبو داود في «سننه» رقم ٤٥٩٧ عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام لنا فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفرق على ثلاث وسبعين التتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة» ورواه أحمد في «المسنن» ١٠٢/٤ من حديث معاوية، وأبو داود في «سننه» رقم ٤٥٩٦ من حديث أبي هريرة، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وهو حديث صحيح لطرفة. وروى مسلم في «صحيحه» رقم ١٣٣٧ من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «فروني ما تركتم لأنما هلك من كان قبلك بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء، فاتوا به ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء، فدوموه».

وروى مسلم في «صحيحه» ١٩٧/١٧ بشرح النووي عن عياض بن حمار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض لمقتتهم حربهم ومعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب... الحديث، قال النووي: المراد بهذا المقمت والنظر: ما قبل بعثة رسول الله ﷺ، والمراد بقايا الكتاب: الباقيون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْزَأَا﴾ أي: في كتبهم ﴿إِلَّا يَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: إلا أن يعبدوا الله. قال الفراء: والعرب تجعل اللام في موضع «أن» في الأمر والإرادة كثيراً؛ كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَتَّبِعَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، و﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨]. وقال في الأمر ﴿وَأَرْزَأَنَا لِلْسُّلَيْمِ﴾ [الانعام: ٧١].

قوله تعالى: ﴿تَخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: موحدين لا يعبدون سواه ﴿حُنَفَاءَ﴾ على دين إبراهيم^(١) ﴿وَتَقِيْمُوا الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة في أوقاتها ﴿وَرِيْزُوا الزَّكَاةَ﴾ عند وجوبها ﴿وَدَلِّكُمُ الَّذِي أَمَرُوا بِهِ هُوَ﴾ [يُنِ الْقِيَمَةَ] قال الزجاج: أي دين الأمة القيِّمة بالحق. ويكون المعنى: ذلك الدِّينُ دِينُ الْمِلَّةِ الْمُسْتَقِيْمَةِ^(٢).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فُرِّحُوا بِالَّذِي يُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ قرأ نافع، وابن ذكوان عن ابن عامر بالهمز بالكلمتين. وقرأ الباقون بغير همز فيهما. قال ابن قتيبة: البرية: الخلق. وأكثر العرب والقراء على ترك همزها لكثرة ما جرت على الألسنة، وهي فعيلة بمعنى مفعولة. ومن الناس من يزعم أنها مأخوذة من بَرَيْتُ العود، ومنهم من يزعم أنها من البَرَى وهو التراب [أي خلق من التراب، وقالوا: لذلك لا يهزم، وقال الزجاج: لو كان من البَرَى وهو التراب]^(٣) لما قرنت بالهمز، وإنما اشتقاقها من بَرَأَ الله الخلق. وقال الخطابي: أصل البرية الهمز، إلا أنهم اصطالحوا على ترك الهمز فيها. وما بعده ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ قال مقاتل: رضي الله عنهم بطاعتهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بشوابه. وكان بعض السلف يقول: إذا كنت لا ترضى عن الله، فكيف تسأله الرضا عنك!؟

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: خافة في الدنيا، وتناهى عن معاصيه^(٤).



فمن أدرك من أهل الكتاب محمداً ﷺ خاتم النبيين وآمن به، فذلك يؤتى أجره مرتين، وقد روى مسلم في «صحيحه» رقم ١٥٤ عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنية وأدرك النبي (يعني نفسه ﷺ) فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران... الحديث. ومن أدرك محمداً ﷺ من أهل الكتاب ولم يؤمن فهو كافر بلا شك ولا ريب، لأن الأنبياء المتقدمين عليه ﷺ كموسى وعيسى ﷺ أخذوا العهد والميثاق على أقرانهم إن أدركوا محمداً ﷺ أن يؤمنوا به، ويشروا بمجيبته، فمن أدركه ولم يؤمن به فقد كفر بمحمد وعيسى وموسى، لأنه كذب أقوالهم. وقد روى مسلم في «صحيحه» رقم ١٥٣ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بي إلا كان من أصحاب النار». ولذلك قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالشُّرَكِيِّينَ فِي تَكْوِينِهِمْ خَلْقَيْنَ سِوَا أُولَئِكَ هُمُ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي الخليفة، لكفرهم وعنادهم. وذكر عن الذين أدركوا محمداً ﷺ من أهل الكتاب والمشركين فآمنوا به وسلكوا شريعتهم خير البرية، لأنهم آمنوا بخاتم الأنبياء والمرسلين، وصدقوا الأنبياء المتقدمين.

- (١) قال القرطبي: أي: ماثلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام.
 - (٢) قال ابن كثير: وقد استدلل كثير من الأئمة، كالزهري، والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن الأحمال داخلية في الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْزَأَا إِلَّا لِيُتَّبِعُوا اللَّهَ تَخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَرِيْزُوا الزَّكَاةَ وَذَلِّكُمُ الَّذِي أَمَرُوا بِهِ هُوَ﴾.
 - (٣) زيادة سقطت من الأصل، واستدركتها من النسخة الاستنبولية.
 - (٤) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ يقول تعالى ذكره: هذا الخير الذي وصفته ووعدته الذين آمنوا. وعلما بالصالحات يوم القيامة ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ يقول: لمن خاف الله في الدنيا في سره وعلانيته، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه.
- وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتقاه حق تقواه، وعبداه كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه.

سورة الزلزلة

وفيها قولان: أحدهما: أنها مدينة، قاله ابن عباس، وقتادة، ومقاتل، والجمهور. والثاني: مكية، قاله ابن مسعود، وجابر، وعطاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاكَ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ مَنْ يَعْمَلْ يَشْكُرْ دَرُؤَهُ حَيْرًا ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ يَشْكُرْ دَرُؤَهُ شَرًّا يَئِسْ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ أي: حُرِّكَتْ حركَةً شديدةً، وذلك عند قيام الساعة. وقال مقاتل: تنزل من شدة صوت إسرافيل حتى يَنْكَسِرَ كُلُّ مَا عَلَيْهَا من شدة الزلزلة ولا تسكن حتى تلقي ما على ظهرها من جبل، أو بناء، أو شجر، ثم تتحرك وتضطرب، فَتُخْرِجُ ما في جوفها. وفي وقت هذه الزلزلة قولان: أحدهما: تكون في الدنيا، وهي من أشرطة الساعة، قاله الأثرون. والثاني: أنها زلزلة يوم القيامة، قاله خارجه بن زيد في آخرين. قال الفراء: حدثني محمد بن مروان، قال: قلت للكليبي: رأيت قول الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾؟ فقال: هذه بمنزلة قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٨] فأضيف المصدر إلى صاحبه، وأنت قائل في الكلام: لأعطينك عَطِيَّتَكَ، تريد عطية^(١). والزَّلْزَال بالكسر المصدر، وبالفتح: الاسم. وقد قرأ أبو العالية، وأبو عمران، وأبو حيوة الجحدري «زَّلْزَالها» بفتح الزاي.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ فيه قولان: أحدهما: ما فيها من الموتى، قاله ابن عباس^(٢). والثاني: كتوزها، قاله عطية. وجمع الفراء بين القولين، فقال: لفظت ما فيها من ذهب، أو فضة، أو ميت.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه اسم جنس يعم الكافر والمؤمن، وهذا قول من جعلها من أشرطة الساعة، لأنها حين ابتدأت لم يعلم الكل أنها من أشرطة الساعة، فسأل بعضهم بعضاً حتى أيقنوا. والثاني: أنه الكافر خاصة، وهذا قول من جعلها زلزلة القيامة؛ لأن المؤمن عارف بها فلا يسأل عنها، والكافر جاحد لها لأنه لا يؤمن بالبعث، فلذلك يسأل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ قال الزجاج: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ ﴿وَأَخْرَجَتِ﴾ ففي ذلك اليوم تحدث بأخبارها، أي: تخبر بما عمل عليها. وفي حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أندرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا»^(٣).

(١) الذي في القرطبي: أي: عطيتي لك.

(٢) قال ابن كثير: قاله غير واحد من السلف، وهذه كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَثْقَالًا يَرْجِعُونَ﴾ [زلزلة: ١] كقولهم: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا»، وقوله: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾. وقال ابن كثير: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا»، وروى مسلم في صحيحه رقم ١٠١٣ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تقوى الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قُتِلْتُ، وبيء القاطع فيقول: في هذا قُتِمْتُ رحمي، وبيء السارق فيقول: في هذا قُتِمْتُ يدي، ثم يذفونه فلا يأخذون منه شيئاً».

(٣) رواه الترمذي في مسنده ١٧١/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وفي آخره «فهذه أخبارها» ورواه أحمد في «المسند» والحاكم في «المستدرک» ٥٣٣/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد أورده السيوطي في «الدرر» ٣٨٠/٦ وزاد نسبه لمعد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وللحديث شاهد عند الطبراني من رواية ربيعة الجريسي.

قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۗ﴾ قال الفراء: تحدّث أخبارها بوحى الله وإذنه لها. قال ابن عباس: أوحى لها، أي: أوحى إليها، وأذن لها أن تخبر بما عمل عليها. وقال أبو عبيدة: ﴿لَهَا﴾ بمعنى «إليها»^(١). قال العجاج: وَحَىٰ^(٢) لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ^(٣)

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّ النَّاسُ﴾ أي: يرجعون عن موقف الحساب ﴿أَشْنَأُ﴾ أي: فرقاً. فأهل الإيمان على حدة، وأهل الكفر على حدة، ﴿إِثْرًا أَعْمَلْتُمْ﴾ وقرأ أبو بكر الصديق، وعائشة، والجحدري: «لِيَرَوْا» بفتح الياء. قال ابن عباس: أي ليروا جزاء أعمالهم. فالمعنى: أنهم يرجعون عن الموقف فرقاً لينزلوا منازلهم من الجنة والنار. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم يومئذ يصدر الناس أشنأتاً. فعلى هذا: يرون ما عملوا من خير أو شر في موقف العرَضِ ﴿فَمَنْ يَسْكَلْ يَشْكَلْ دَرَّةً﴾ قال المفسرون: من يعمل في الدنيا مثقال ذرة من الخير أو الشر يره^(٤)، وقرأ أبان عن عاصم «يُره» بضم الياء في الحرفين. وقد بيّنا معنى «الدَّرَّة» في سورة [النساء: ٤٠] وفي معنى هذه الرؤية قولان: أحدهما: أنه يراه في كتابه. والثاني: يرى جزاءه. وذكر مقاتل: أنها نزلت في رجلين كانا بالمدينة، كان أحدهما يستقل أن يعطي السائل الكسرة، أو التمرة. وكان الآخر يتهاون بالدُّنْب اليسير، فأنزل الله ﷻ هذا يُرْعِبُهُمْ فِي الْقَلِيلِ مِنَ الْخَيْرِ، وَيُحَذِّرُهُمَ الْيَسِيرَ مِنَ الشَّرِّ^(٥).



(١) قال ابن كثير: قال البخاري: أوحى لها، وأوحى إليها، ووحى لها، ووحى إليها، واحد.

(٢) كذا في «القرطبي» و«اللسان»، وروايته في «مجاز القرآن» و«البحر» و«روح المعاني»: أوحى، وكلاهما صواب.

(٣) الرجز في «مجاز القرآن» ٣٠٦/٢، و«القرطبي» ١٤٩/٢٠، و«البحر» ٥٠١/٨، و«روح المعاني» ١٠/٣٠، و«اللسان»: وحى.

(٤) روى البخاري في «صحيحه» ٥٥٩/٨ عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «الخيال ثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ينثر، وعلى رجل وذر، فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها أي (حبلها الطويل) ذلك في العرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت في طيلها فاستثقت (خذت) شرفاً أو شرفين (شوطاً أو شوطين) كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشرمت منه ولم يرد أن يسقي: كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تعفياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ينثر، ورجل ربطها فخراً ورياء، ونواة (عدواة لأهل الإسلام) فهي على ذلك وذر»، فسل رسول الله ﷺ عن الخمر، (أي عن صدقتها)، قال: «ما أنزل الله حلّي فيها إلا هذه الآية الفأدة (المنفردة) الجامعة: ﴿فَمَنْ يَسْكَلْ يَشْكَلْ دَرَّةً حَبْرًا يَسْرُ ۗ وَمَنْ يَسْكَلْ يَشْكَلْ دَرَّةً شَكْرًا يَسْرُ ۗ﴾»، ورواه مسلم في «صحيحه» بأطول منه ٦٨٠/٢، ٦٨١.

(٥) ذكر سبب النزول هذا الواحد في «أسباب النزول» ٣٤٠، والبغوي في «التفسير» عن مقاتل بغير سند، وذكره ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم من طريق ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير، وابن لهيعة صدوق خلط بعد احتراق كتبه، وعطاء بن دينار صدوق، إلا من روايته عن سعيد بن جبير من صحيفته، وسعيد بن جبير أرملة.

سورة العاديات

وفيها قولان: أحدهما: أنها مكية، قاله ابن مسعود، وعطاء، وعكرمة، وجابر. والثاني: مدنية، قاله ابن عباس، وقتادة، ومقاتل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمَدْيَنَيتِ صَبِيحًا ﴿١﴾ وَالْمُورِيَّتِ قَدَسًا ﴿٢﴾ وَالْمُعَيَّرَاتِ صَبِيحًا ﴿٣﴾ فَأَتَرْنَ بِرَبِّهِنَّ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَاسًا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمَدْيَنَيتِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها الإبل في الحج، قاله علي، وابن مسعود، وعبيد بن عمير، والقرظي، والسدي. وروي عن علي أنه قال: ﴿وَالْمَدْيَنَيتِ صَبِيحًا﴾ من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى. وروي عن علي أنه قال هذا في صفة وقعة بدر. قال: وما كان معنا يومئذ إلا فرس، وفي بعض الحديث أنه كان معهم فرسان. والثاني: أنه الخيل في سبيل الله، قاله ابن عباس، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، وقتادة، وعطية، والربيع، واللغويون^(١). وكان ابن عباس يذهب إلى أن هذا كان في سرية، فروى عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث خيلاً، فلم يأت خبرها شهراً، فنزلت ﴿وَالْمَدْيَنَيتِ صَبِيحًا﴾ صبحت بمنأخرها ﴿وَالْمُورِيَّتِ قَدَسًا﴾ قدحت بحوافرها الحجارة فأورت ناراً ﴿وَالْمُعَيَّرَاتِ صَبِيحًا﴾ صبحت القوم بغارة ﴿فَأَتَرْنَ بِرَبِّهِنَّ نَقْعًا﴾ أثارت بحوافرها التراب ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ قال: صبحت الحي جميعاً^(٢). وقال مقاتل: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حَيِّين من كنانة واستعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصاري، فأبطأ عنه خبرها، فجعل اليهود والمنافقون إذا رأوا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ تناجوا، فيظن الرجل أنه قد قُتِلَ أخوه أو أبوه، أو عمته، فيجد من ذلك حزناً، فنزلت: ﴿وَالْمَدْيَنَيتِ صَبِيحًا﴾ فأخبر الله كيف فعل بهم^(٣). قال الفراء: الضبح: أصوات أنفاس الخيل إذا عَدَّزْنَ. وقال ابن قتيبة: الضبح: صوت حلوقها إذا عَدَّتْ. وقال الزجاج: ضببها: صوت أجوافها إذا عَدَّتْ.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُورِيَّتِ قَدَسًا﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنها الخيل تُوري النار بحوافرها إذا جرت، وهذا قول الجمهور^(٤). قال الزجاج: إذا عدت الخيل بالليل، فأصابت بحوافرها الحجارة، انقدحت منها النيران. والثاني: أنها نيران المجاهدين إذا أوقدت، روي عن ابن عباس. والثالث: مَكْرُ الرجال في الحرب، قاله مجاهد، وزيد بن أسلم^(٥). والرابع: نيران الحجيج بالمزدلفة، قاله القرظي. والخامس: أنها الألسنة إذا ظهرت بها الحجج وأقيمت بها الدلائل على الحق وفضح بها الباطل، قاله عكرمة.

(١) قال البغوي: هذا قول أكثر المفسرين. وقال القرظي: كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٤١، وفي سننه حفص بن جميع، وهو ضعيف. قال ابن كثير: وقد روى أبو بكر البزار هاهنا حديثاً غريباً جداً... فذكره وذكره. الهنسي في «مجمع الزوائد» ١٤٢/٦ من رواية البزار، وقال: فيه حفص بن جميع، وهو ضعيف. وأورده السيوطي في «الدر» ٣٨٣/٦ وزاد نسبة لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في «الأفراد»، وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ.

(٣) هذا خبر منقطع، ومقاتل توفي سنة ١٥٠هـ. بينه وبين رسول الله ﷺ مفاوز، والحديث ذكره الطبرسي في «مجمع البيان» مصدراً إياه بقوله: بعث رسول الله ﷺ سرية... فذكره، ولم يعزه لأحد، وذكره القرظي وصدره بقوله: وروي أن رسول الله ﷺ بعث سرية... فذكره، ولم يعزه لأحد. وكذلك الألويسي في «روح المعاني». والله أعلم بصحته.

(٤) ورجحه الطبري.

(٥) تقول العرب إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه: أما والله لأورين لك بزئد وار، ولأقدحن لك.

قوله تعالى: ﴿فَالْمُخَيَّرَاتُ صَبَحًا﴾ (٤) هي التي تغير على العدو عند الصباح، هذا قول الأكثرين. وقال ابن مسعود: فالمغيرات صباحاً حين يُبيضون من جمع.

قوله تعالى: ﴿فَأَثَرُنَا بِهِ﴾ قال الفراء: يريد بالوادي ولم يذكره قبل ذلك، وهذا جائز، لأن الغبار لا يثار إلا من موضع. والقمع: الغبار، ويقال: التراب. وقال الزجاج: المعنى: فأثرن بمكان عذوبين، ولم يتقدم ذكر المكان، ولكن في الكلام دليل عليه ﴿فَوْسَطَنَ بِهِ جَمًّا﴾ (٥) قال المفسرون: المعنى: توسطن جمعاً من العدو، فأغارت عليهم. وقال ابن مسعود: فوسطن به جمعاً، يعني مزدلفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٦) هذا جواب القسم. والإنسان هاتنا: الكافر. قال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقال مقاتل: نزلت في قوط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي. وفي «الكنود» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الذي يأكل وحده، ويمنع وفده^(١)، ويضرب عبده، رواه أبو أمامة عن رسول الله ﷺ^(٢). والثاني: أنه الكفور، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك. والثالث: لَوَامٍ لِرَبِّهِ يَعُدُّ المصيبات^(٣)، وينسى النعم، قاله الحسن. قال ابن قتيبة: والأرض الكنود: التي لا تثبت شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَنَسِيحٌ﴾ (٧) في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله ﷻ، [تقديره]^(٤): وإن الله على كفره لشهيد. والثاني: أنها ترجع إلى الإنسان، فتقديره: إن الإنسان شاهد على نفسه أنه كنود، روي القولان عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ﴾ يعني: الإنسان ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ يعني: المال ﴿لَنَسِيدٌ﴾. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: وإنه من أجل^(٥) حُبِّ المال لبخيل، هذا قول الحسن، وابن قتيبة، والزجاج. قال أبو عبيدة: ويقال للبخيل: شديد، ومُتَشَدِّدٌ. قال طرفة:

أَرَى الْمَوْتَ يَغْتَامُ الْكِرَامَ وَيَضْطَلْفِي

عَقِيلَةَ مَالِ الْبَاخِلِ الْمُتَشَدِّدِ^(٦)

والثاني: وإنه للخير لشديد الحب، وهذا اختيار الفراء. قال: فكأن الكلمة لما تقدم فيها الحب، وكان موضعه أن يضاف إليه «شديد»، حذف الحب من آخره لما جرى ذكره في أوله، ولرؤوس الآي. ومثله ﴿أَشَدَّتْ يَدُ الرَّجُلِ فِي يَوْمِ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم طرحت من آخره.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتْلُمُ﴾ يعني: الإنسان المذكور ﴿إِذَا بَعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أنير وأخرج ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي أَشْدُورِ﴾ (٨) أي: مُبَيَّنَّ واستخرج. والتحصيل: تميز ما يحصل. وقال ابن عباس: أبرز ما فيها. وقال ابن قتيبة: مُبَيَّنَّ ما فيها من الخير والشر. وقال أبو سليمان الدمشقي: المعنى: لو علم الإنسان الكافر ما له في ذلك اليوم لزهده في الكفر، ويأدر إلى الإسلام. ثم ابتدأ فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (٩) وقال غيره: إنما قرئت «إن» بالكسر لأجل اللام، ولولاها كانت مفتوحة بوقوع العلم عليها. فإن قيل: أليس الله خبيراً بهم في كل حال، فلم خص ذلك اليوم؟ فالجواب أن المعنى: أنه يجازيهم على أفعالهم يومئذ، ومثله ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَصَلُّونَ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: ٦٣] ومعناه: يجازيهم على ذلك، ومثله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦].

(١) الرقد، بكسر الراء: العطاء والصلة.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٢٧٨/٣٠ وفي سننه جعفر بن الزبير، وذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم من طريق جعفر بن الزبير، وقال: هو متروك، فهذا إسناد ضعيف. وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٤٢/٦: رواه الطبراني بإسنادين، في أحدهما جعفر بن الزبير، وهو ضعيف، وفي الآخر من لا أهرقه. وقال السيوطي في «الدرر» ٣٨٤/٦: أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساکر، بسند ضعيف عن أبي أمامة... فذكره. ورواه الطبراني ٢٧٨/٣٠ من حديث حريز بن عثمان عن حمزة بن هانئ عن أبي أمامة موقوفاً عليه.

(٣) وفي النسخة الاستنبولية، والطبري، والقرطبي: المصابب. (٤) زيادة من النسخة الاستنبولية.

(٥) في الأصل: من أحب، وهو خطأ، والتصحيح من النسخة الإسنوية، ومن الطبري.

(٦) «مختار الشعر الجاهلي» ٣١٨/١ من معلقته، ومجاز القرآن» لأبي عبيدة ٣٠٨/٢، والطبري ٢٧٩/٣٠، والقرطبي ١٦٢/٢٠، و«شواهد الكشاف» ٣٩. ومعنى يتغام الكرام: أي يختارهم، والعقيلة من كل شيء: أكرمه، يقول: أرى الموت يختار كرام الناس وصفوة مال البخلاء، أي: يأخذ النفيس الذي يضر به، كما يأخذ الحقيقير فلا يفي شيئاً.

سورة القارعة

وهي مكية بإجماعهم

قد ذكرنا تفسير فاتحتها في أول [الحاقة].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠ ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ١١ ﴿

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ اليوم منصوب على الظرف. المعنى: يكون يوم يكون الناس ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه غوغاء الجراد، قاله الفراء. قال ابن قتيبة: غوغاء الجراد: صغاره، ومنه قيل لعامة الناس: غوغاء^(١). والثاني: أنه طير ليس ببعض ولا دُبَّان، قاله أبو عبيدة^(٢). والثالث: أنه ما تهافت في النار من البعوض، قاله ابن قتيبة. وكذلك قال الزجاج: ما يُرى كصغار البق تهافت في النار. وشبهه الناس في وقت البعث به وبالجراد المتشر، لأنهم إذا بعثوا ماج بعضهم في بعض. وذكر الماوردي: أن هذا التشبيه للكفار، فهم يتهافتون في النار يوم القيامة تهافت الفراش^(٣). فأما ﴿الْمَبْثُوثِ﴾ فهو المتشر والمترق.

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ الذي قد ندف. قال مقاتل: وتصير الجبال كالصوف المندوف. فإذا رأيت الجبل قلت: هذا جبل: فإذا مسسته لم تر شيئاً، وذلك من شدة الهول.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، أي: رجحت بالحسنات، وقد بيّنا هذه الآية في أول [الأعراف: ٤٨] وبيّنا معنى ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ في [الحاقة: ٢١].

قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾، وقرأ ابن مسعود، وطلحة بن مصرف، والجحدري «فإمه» بكسر الهمزة. وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أم رأسه هاوية، يعني: أنه يهوي في النار على رأسه، هذا قول عكرمة، وأبي صالح. والثاني: أنها كلمة عربية كان الرجل إذا وقع في أمر شديد قالوا: هَوَتْ أُمُّهُ، قاله قتادة. والثالث: أن المعنى: فمسكته النار. وإنما قيل لمسكته: أمه، لأن الأصل السكنون إلى الأمهات. والثار لهذا كالأُم، إذ لا ماوى له غيرها، هذا قول ابن زيد، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج، ويدل على صحة هذا ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا مات العبد تلقى رُوحه أرواح المؤمنين، فتقول له^(٤): ما فعل فلان؟ فإذا قال: مات، قالوا: دُهِبَ به إلى أمه الهاوية، فَبِسَّتِ الأُمُّ،

(١) قال في «اللسان»: أصل القَرَاة: الجراد حين يخف للطيوان، ثم استعير للسفلو من الناس والمتسرعين إلى الشر، ويجوز أن يكون القَرَاة: الصوت والجلبة، لكثرة لفظهم وصياحهم.

(٢) في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة: طير، لا بعوض ولا ذباب، بالياء. ويجمع الذباب على دُبَّان، قال في «التاج»: والذباب: معروف، وهو الأسود الذي يكون في البيوت يسقط في الإناء والطعام، وقال الديرري في «حياة الحيوان»: سمي ذباباً، لكثرة حركته واضطرابه، أو لأنه كلما ذُهِبَ آت، والذباب أيضاً: النحل. والواحدة من ذباب الطعام: ذبابة، بهاء، ولا تقل: ذبابة، وقال في ذباب النحل، لا يقال: ذبابة، والصواب: ذباب، وهو واحد. وفي «التعليق»: واحد الدُبَّان: ذباب بغير هاء، قال: ولا يقال: ذبابة، وفي التنزيل: ﴿وَلَنْ يَسْتَنفِثَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً﴾ فسروه للواحد. والجمع: أذبة، مثل غراب وأخرية، ودُبَّان بالكسر مثل غِرْبَان.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» رقم ٢٢٨٥ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مطي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الخنايب (كالجراد) والفراش يتقرن فيها وهو يلجئها عنهما، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي».

(٤) في «الدرر» ٦/٣٨٥ من رواية الحاكم: فيقولون له.

وَبَسَّتِ الْمَرْبِئَةَ^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ يعني: الهاوية. قرأ حمزة، ويعقوب «ما هي» بحذف الهاء الأخيرة في الوصل، وإثباتها في الوقف. وقرأ الباقون بإثباتها في الحالين. قال الزجاج: الهاء في «هيه» دخلت في الوقف، لتبين فتحة الياء، فالوقف «هيه» والوصل هي نار. والذي يجب اتباع المصحف. والهاء فيه ثابتة فتوقف عليها، ولا توصل. ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي: حارة قد انتهى حرها^(٢).



(١) رواه بهذا اللفظ الحاكم في «المستدرک» ٢/٥٣٢ من الحسن مرسلأ، وأورده السيوطي في «الدر» ٦/٣٨٥ من رواية ابن مردويه عن أنس بن مالك مرفوعاً بنحوه، وبأطول منه من رواية ابن مردويه أيضاً عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً. والله أعلم بصحة سنده. وقد ذكره القرطبي بمعناه عن أبي هريرة مرفوعاً، ولم يعزه لأحد. ورواه ابن جرير الطبري موقوفاً على الأشعث بن عبد الله الأعمى. وذكره السيوطي أيضاً في «الدر» ٦/٣٨٥ من رواية ابن المبارك عن أبي أيوب الأنصاري موقوفاً عليه بأطول منه.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» رقم ٦/٢٣٨، ومسلم في «صحيحه» رقم ٢٨٤٣ عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «تأركم هذه التي يؤقده ابن آدم، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: «لإنها فضلت عليها بنسمة وستين جزءاً كلها مثل حرها» واللفظ لمسلم. وروى البخاري ٦/٢٣٨، ومسلم رقم ٦١٧ عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً، فأذن بها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»، واللفظ لمسلم. وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم»، واللفظ لمسلم. وفيح جهنم: سطوح حرها وانتشاره وغليانها.

سورة التكاثر

وفي سبب نزولها قولان: أحدهما: أن اليهود قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، فألهامهم ذلك حتى ماتوا ضلّالاً، فنزلت هذه فيهم، قاله قتادة^(١). والثاني: أن حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم كان بينهما لِحَاءً^(٢)، فقال هؤلاء: نحن أكثر سيّداً، وأعزُّ نقرأً. وقال أولئك مثل هذا؛ فتعادوا السادة والأشراف أيهم أكثر، فكثّرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعدُّ موتانا، فزاروا القبور، فعدّوا موتاهم، فكثّرهم بنو سهم، لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية، فنزلت هذه فيهم، قاله ابن السائب، ومقاتل^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتَسْتَأْذِنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّوْمِ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿الْهَنَكُمُ﴾ وقرأ أبو بكر الصّدّيق، وابن عباس، والشعبي، وأبو العالية، وأبو عمران، وابن أبي عمير: «ألهامكم» بهمزتين مقصورتين على الاستهزام. وقرأ معاوية، وعائشة «ألهامكم» بهمزة واحدة ممدودة استفهاماً أيضاً. ومعنى الهامك: شغلكم عن طاعة الله وعبادته. وفي المراد بالتكاثر ثلاثة أقوال: أحدها: التكاثر بالأموال والأولاد، قاله الحسن. والثاني: التفاخر بالقبائل والعشائر، قاله قتادة. والثالث: التشاغل بالمعاش والتجارة، قاله الضحاك. وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ قولان: أحدهما: حتى أدرككم الموت على تلك الحال، حضرتم في المقابر زوّاراً ترجعون منها إلى منازلكم من الجنة أو النار، كرجوع الزائر إلى منزله. والثاني: حتى زرتم المقابر فتعدّتم من فيها من موتاكم^(٤).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الزجاج: هي ردع وتنبية. والمعنى: ليس الأمر الذي ينبغي أن يكونوا عليه التكاثر.

(١) ذكر سبب النزول هذا الواحد في «أسباب النزول» ٣٤١ عن قتادة بغير سند، وكذا ذكره البغوي في التفسير، وذكره القرطبي عن مقاتل وفتادة بغير سند. ورواه الطبري ٢٨٣/٣٠ من طريق معمر عن قتادة ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، فألهامهم ذلك حتى ماتوا ضلّالاً، ولم يذكر أنهم اليهود. ورواه بنحوه من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وأورده السيوطي في «الدرر» ٦/٣٨٧ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٢) أي نازعته. قال في «اللسان»: ولاحيته ملاحاةً ولِحَاءً: إذا نازعته، قال: واللحاء ممدود: الملاحاة كالسباب، ولاحي الرجل ملاحاةً ولِحَاءً: شاتمه، وتلاحي الرجلان: تشاتما. ولاحي فلان فلاناً ملاحاةً ولِحَاءً: إذا استقصى عليه. قال: واللحاء: اللعن، واللحاء: العذل.

(٣) ذكر سبب النزول هذا البغوي في «التفسير» عن مقاتل والكلبي بغير سند، والكلبي هو محمد بن السائب النسابة المفسّر، متهم بالكذب، وقد ضعفه غير واحد، وكذلك ذكره القرطبي وأبو حيان والألويسي عن ابن عباس ومقاتل والكلبي بغير سند، وأورده ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم من طريق صالح بن حيان عن ابن بريدة قال: نزلت في قبيلتين من الأنصار في بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان ابن فلان وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان؟ يشيرون إلى القبور، ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك، فانزل الله: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾. وصالح بن حيان القرظي الكوفي ضعيف كما قال المحافظ ابن حجر في «التقريب». قال ابن كثير: والصحيح أن المراد بقوله: ﴿ثُمَّ لَتَسْتَأْذِنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّوْمِ﴾ أي صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعود فقال: «لا بأس بطهور إن شاء الله»، فقال: قلت: «طهور» بل هي حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور، قال: «فنعيم إذن»، والآية عامة في كل من ألهته دنياه عن آخرته.

(٤) روى مسلم في «صحيحه» رقم ٢٩٥٨ عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي (قال) وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأفنت»، وروى مسلم أيضاً رقم ٢٩٥٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول العبد: مالي، مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقتى (أخبره لأخرته) وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس». وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بيع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبمه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله».

قوله تعالى: ﴿سَوْفَ نَمَلُوكُمْ﴾ عاقبة تكاثركم وتفاحركم إذا نزل بكم الموت. وقيل: العلم الأول: يقع عند نزول الموت. والثاني: عند نزول القبر.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ المعنى: لو تعلمون الأمر علماً يقيناً لتعلمكم ما تعلمون عن التكاثر، والتفاخر. وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف: وهو ما ذكرنا. ثم أوعدهم وعيداً آخر فقال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وحزمة ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ وحمزة ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ وفتح التاء. وقرأ مجاهد، وعكرمة، وحמיד، وابن أبي عمير «لَتَرَوُنَّ» و«لَتَرَوُنَّ» بضم التاء فيهما من غير همز ﴿لَتَرَوُنَّ عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي: مشاهدة، فكان المراد بـ ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ نفسه، لأن عين الشيء: ذاته.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّبِيِّ﴾ اختلفوا، هل هذا السؤال عام، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه خاص للكفار، قاله الحسن. والثاني: عام، قاله قتادة^(١). وللمفسرين في المراد بالنعيم عشرة أقوال: أحدها: أنه الأمن والصحة، رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ^(٢)، وتارة يأتي موقوفاً عليه^(٣)، وبه قال مجاهد والشعبي. والثاني: أنه الماء البارد، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ^(٤). والثالث: أنه الخبز البُرُّ والماء العَذْبُ، قاله أبو أمامة. والرابع: أنه ملاذ المأكول والمشروب، قاله جابر بن عبد الله. والخامس: أنه صحة الأبدان^(٥)، والأسماع، والأبصار، قاله ابن عباس. وقال قتادة: هو العافية. والسادس: أنه الغذاء والعشاء، قاله الحسن. والسابع: الصحة والفراغ، قاله عكرمة^(٦). والثامن: كل شيء من لذة الدنيا، قاله مجاهد^(٧). والتاسع: أنه إنعام الله على الخلق بإرسال محمد ﷺ، قاله القرظي. والعاشر: أنه صنوف النعم، قاله مقاتل. والصحيح أنه عام في كل نعيم، وعام في جميع الخلق، فالكافر يسأل توبيخاً إذا لم يشكر المنعم، ولم يؤخده. والمؤمن يسأل عن شكرها. وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: «ثلاث

- (١) والصحيح أن السؤال عام، ولكن سؤال الكافر سؤال توبيخ، لأنه ترك الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف، لأنه شكر. قال ابن جرير الطبري: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّبِيِّ﴾ يقول: ثم لئسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا علمتم فيه؟ ومن أين وصلتكم إليه؟ وقيم أصبتموه؟ وماذا علمتم به؟ وقال ابن كثير: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّبِيِّ﴾ أي: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم نعمه من شكره وعبادته. وروى الترمذي عن أبي هريرة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وقيم أنفق، وعن جسده فيما أبلاه» ورواه الترمذي من حديث ابن مسعود وهو حديث حسن بشواهد.
- (٢) ذكره ابن كثير من رواية أبي حاتم من طريق إبراهيم بن موسى عن محمد بن سليمان ابن الأصبهاني عن ابن أبي ليلى أظنه عن عامر الشعبي عن ابن مسعود. ومحمد بن سليمان الأصبهاني، صدوق يخطئ، وابن أبي ليلى، صدوق سبى الحفظ، وعامر الشعبي يرسل عن ابن مسعود. فالحديث ضعيف، وذكره السيوطي في «الدرر» ٣٨٨/٦ وزاد نسبه لعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، وابن مردويه عن ابن مسعود.
- (٣) رواه الطبراني ٢٨٦/٣٠ من طريق خالد الزيات عن ابن أبي ليلى عن عامر الشعبي عن ابن مسعود موقوفاً عليه. وفي سننه ضعيف، وأورده السيوطي في «الدرر» ٣٨٨/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وهناد، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود.
- (٤) رواه الترمذي ١٧١/٢، والطبري ٢٨٨/٣٠ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة - يعني العبد من النعم - أن يقال له: ألم نصنع لك جسمك ونروك من الماء البارد؟» وقال: هذا حديث غريب، وأورده السيوطي في «الدرر» ٣٨٨/٦ وزاد نسبه لأحمد في «زوائد الزهد»، وعبد بن حميد، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».
- (٥) روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال: النعيم: صحة الأبدان، والأسماع، والأبصار، قال: يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله: ﴿إِنَّهُ لَنَسَجَعَكُمُ مِنَ التَّوَالِدِ كَمَا أَلْبَسَكُمْ لِئَلَّا تُكْفِرُوا بِهِ﴾ زاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس.
- (٦) روى البخاري في «صحيحه» ١٩٦/١١ عن عبد الله بن عباس قال: قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». قال الحافظ ابن جرير في «الفتح» ١٩٧/١١ وقوله في الحديث: «مغبون فيهما كثير من الناس» كقولته تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾، فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية، ونقل عن ابن بطال أن معنى الحديث: أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن، فمن حصل له ذلك، فليحرص على أن لا يغبين بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فمن فرط في ذلك فهو المتنبون. قال ابن جرير: وأشار بقوله: «كثير من الناس» إلى أن الذي يوفق لذلك قليل. ونقل عن ابن الجوزي قوله: قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متبرغاً لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتعماد ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المنفيوط، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم.
- (٧) وقول مجاهد هنا يشمل جميع الأقوال المتقدمة.

لا أسأل عبدي عن شكرهن وأسأله عما سوى ذلك: بيت يُكْتَه، وما يقيم به صلبه من الطعام، وما يوارى به عورته من اللباس»^(١).



(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٦/ ٢٩١ من رواية عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، عن الحسن مرسلًا، وهو ضعيف في المرفوع، ورواه الطبري في «تفسيره» ٣٠/ ٢٨٩ بنحوه عن الحسن وقتادة من كلامهما، ولم يذكره في المرفوع. وروى مسلم في «صحيحه» رقم ٢٠٣٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالوا: الجوع يا رسول الله، قال: «أنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا! قماموا معي، فأني رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله وصاحبه، ثم قال: الحمد لله ما أحذ اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق فجاهم بعذق (غصن) فيه بسر وتمر ووظب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المديفة (السكين) فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب!» فذبح لهم. فأكلوا من الشاة ومن ذلك العلق، وشربوا، فلما أن شبعوا ووزوا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا التميم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا التميم».

سورة العصر

وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله ابن عباس، وابن الزبير، والجمهور. والثاني: مدنية، قاله مجاهد، وقتادة، ومقاتل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّجِيْبِ

﴿وَالْمَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمَصْرِ ﴿١﴾﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الدهر، قاله ابن عباس، وزيد بن أسلم، والفراء، وابن قتبية. وإنما أقسم بالدهر لأن فيه عبرة للناظر من مرور الليل والنهار على تقدير لا ينخرم. والثاني: أنه العشي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، قاله الحسن وقتادة. والثالث: صلاة العصر، قاله مقاتل^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾ قال الزجاج: هو جواب القسم. والإنسان هاهنا بمعنى الناس، كما تقول: كثر الدرهم في أيدي الناس، تريد الدراهم. والخسر والخسران في معنى واحد. قال أهل المعاني: الخسر: هلاك رأس المال أو نقصه. فالإنسان إذا لم يستعمل نفسه فيما يوجب له الربح الدائم، فهو في خسران، لأنه عمل في إهلاك نفسه، وهما أكبر رأس ماله ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بالطاعة ﴿وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ﴾ أي: بالتوحيد، والقرآن، واتباع الرسول ﴿وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله، والقيام بشريعته. وقال إبراهيم في تفسير هذه السورة: إن الإنسان إذا عُمر في الدنيا لفي نقص وضعف، إلا المؤمنين، فإنهم يكتب لهم أجور أعمالهم التي كانوا يعملون في شبابهم وصحتهم^(٢).



(١) أقسم سبحانه وتعالى بصلاة العصر لفضلها، وهي الصلاة الوسطى عند الجمهور، لقوله عليه الصلاة والسلام: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» منقذ عليه. ولقوله ﷺ: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» رواه مسلم. والأعم من ذلك أن الله تعالى أقسم بالزمان الذي تقع فيه أعمال بني آدم من خير وشر، قاله ابن كثير.

(٢) قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكففتهم. وذلك لما فيها من المراتب التي باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله، إحداهما: معرفة الحق، والثانية: عمله به، والثالثة: تعليمه من لا يحسنه، والرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

سورة الهمزة

وهي مكية بإجماعهم

قال هبة الله المفسر^(١): وقد قيل: إنها مدنية. واختلف المفسرون هل نزلت في حق شخص بعينه، أم نزلت عامة؟ على قولين: أحدهما: نزلت في حق شخص بعينه. ثم فيه ستة أقوال: أحدها: الأخنس بن شريق، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال السدي، وابن السائب. والثاني: العاص بن وائل السهمي، قاله عروة. والثالث: جميل بن عامر، قاله ابن أبي نجیح. والرابع: الوليد بن المغيرة، قاله ابن جريج، ومقاتل. والخامس: أمية بن خلف، قاله ابن إسحاق. والسادس: أبي بن خلف، حكاه الماوردي. والقول الثاني: أنها نزلت عامة لا في شخص بعينه، قاله مجاهد^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ بِحَسْبِ أَنْ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لِيُبَدَنَّ فِي اللَّطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا اللَّطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْجُودَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِينَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَذَابٍ مُّتَدَدٍ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾^(١) اختلفوا في الهمزة واللمزة هل هما بمعنى واحد، أم مختلفان؟ على قولين: أحدهما: أنهما مختلفان. ثم فيهما سبعة أقوال: أحدها: أن الهمزة: المغتاب، واللمزة: العيَاب، قاله ابن عباس. والثاني: أن الهمزة: الذي يهزم الإنسان في وجهه. واللمزة: يلزمه إذا أدبر عنه، قاله الحسن، وعطاء، وأبو العالية. والثالث: أن الهمزة: الطعان في الناس، واللمزة: الطعان في أنساب الناس، قاله مجاهد. والرابع: أن الهمزة: بالعين، واللمزة: باللسان، قاله قتادة. والخامس: أن الهمزة: الذي يهزم الناس بيده ويضربهم، واللمزة: الذي يلزمهم بلسانه، قاله ابن زيد. والسادس: أن الهمزة: الذي يهزم بلسانه، واللمزة: الذي يلزم بعينه، قاله سفيان الثوري. والسابع: أن الهمزة: المغتاب، واللمزة: الطاعن على الإنسان في وجهه، قاله مقاتل. والقول الثاني: أن الهمزة: العيَاب الطعان، واللمزة مثله. وأصل الهمز واللمز: الدفع، قاله ابن قتيبة، وكذلك قال الزجاج: الهمزة اللمزة: الذي يغتاب الناس ويغضبهم^(٣). قال الشاعر:

إِذَا لَوَيْتُكَ عَنْ كُرْوَةِ تُكَاشِرُنِي وَإِنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتُ الْهَامِرَ اللَّمَزَةَ^(٤)

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ قرأ أبو جعفر، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وروح: «جَمَعَ» بالتشديد. والباقون بالتخفيف.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الدال. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وابن يعمر بتخفيفها^(٥). وللمفسرين في معنى الكلام قولان: أحدهما: أحصى عدده، قاله السدي. والثاني: أعدّه لما يكفيه في

(١) هو هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي أبو القاسم الضريير المفسر، من أهل بغداد، وبها وفاته، كانت له حلقة في جامع المنصور، له مؤلفات، منها «الناسخ والمنسوخ في القرآن» مطبوع، توفي رحمه الله (سنة ٤١٠هـ).

(٢) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عمّ بالقول كل همزة لزمة، كل من كان بالصفة التي وصف هذا الموصوف بها، سيبله سيبله كاتماً من كان من الناس.

(٣) في الأصل: وبعضهم، والتصحيح من «اللسان» و«مجاز القرآن»، والطبري، والغض: الهمز والعيب.

(٤) تقدم البيت ص ٥٨٩، ورواية الشطر الأول: إذا لويتك تبدي لي مكاشرة.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وقد ذكر عن بعض المتقدمين بإسناد غير ثابت أنه قرأه «جمع مالا وعدده» بتخفيف الدال، بمعنى: جمع مالا، وجمع عشيرته وعدده، قال: وهذه قراءة لا استجيز القراءة بها، بخلافها قراءة الأمصار، وخروجها عما عليه الحجة مجمعة في ذلك.

السَّيْنِ، قاله عكرمة. قال الزجاج: من قرأ «عَدَّه» بالتشديد، فمعناه: عدَّه للدهور. ومن قرأ «عَدَّه» بالتخفيف، فمعناه: جمع مالا وعدداً، أي: وقوماً اتخذهم أنصاراً.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبَنَّ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (٢١) أخلده بمعنى يخلده، والمعنى: يظن ماله مانعاً له من الموت، فهو يعمل عمل من لا يظن أنه يموت ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يخلده ماله ولا يبقى له ﴿يَلْبُدَنَّ﴾ أي: لِيُظَرِّحَنَّ ﴿فِي الْأُطْمَةِ﴾ وهو اسم من أسماء جهنم. سميت بذلك لأنها تحطم ما يُلقى فيها، أي: تكسره، فهي تكسر العظم بعد أكلها اللحم. ويقال للرجل الأكلول: إنه لحطمة. وقرأ أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبد الرحمن، والحسن، وابن أبي عتبة، وابن محيصن: «اليندان» بألف ممدودة، وبكسر النون، وتشديدها، أي: هو وماله.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي تَطَّلَعُ عَلَى الْأُفُقِ﴾ (٢٢) أي: تأكل اللحم والجلود حتى تقع على الأفئدة فتحرقها. قال الفراء: يبلغ ألمها الأفئدة. والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى واحد، والعرب تقول: متى طلعت أرضنا؟ أي: بلغت. وقال ابن قتيبة: تَطَّلَعُ عَلَى الْأُفُقِ، أي: توفي عليها وتشرف. وخص الأفئدة، لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه، فأخبر أنهم في حال من يموت، وهم لا يموتون. وقد ذكرنا تفسير ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ في سورة [البلد: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿فِي عَذْبٍ﴾ قرأ حمزة، وخلف، والكسائي، وعاصم إلا حفصاً بضم العين، وإسكان الميم. قال المفسرون: وهي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار. و«في» بمعنى الباء. والمعنى: مطبقة بعُمْدٍ. قال قتادة: وكذلك هو في قراءة عبد الله. وقال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم، ثم شُدَّتْ بأوتادٍ من حديد، حتى يرجع عليهم عُمُها وحرُّها. و﴿عُمْدَةٌ﴾ صفة العُمْد، أي: أنها ممدودة مطوَّلة، وهي أرسخ من القصيرة. وقال قتادة: هي عُمْدٌ يعذبون بها في النار^(١). وقال أبو صالح: ﴿فِي عَذْبٍ مُنْدَدٍ﴾ (٢٣) قال: القيود الطوال.



سورة الفيء

مكية بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ جَمَلَهُمْ كَمِصَصٍ مَّاكُولٍ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَ﴾ فيه قولان: أحدهما: ألم تُخَيِّرْ، قاله الفراء. والثاني: ألم تَعْلَمَ، قاله الزجاج. ومعنى الكلام معنى التعجب. وأصحاب الفيء هم الذين قصدوا تخريب الكعبة. وفي سبب قصدهم لذلك قولان: أحدهما: أن أبرهة بنى بيعة^(١) وقال: لست منتهباً حتى أضيف إليها حجَّ العرب، فسمع بذلك رجل من بني كنانة، فخرج، فدخلها ليلاً، فأحدث فيها، فبلغ ذلك أبرهة، فحلف ليسيرن إلى الكعبة فيهدمها، قاله ابن عباس. والثاني: أن قوماً من قريش خرجوا في تجارة إلى أرض النجاشي فنزلوا في جنب بيعة، فأوقدوا ناراً، وشوؤوا لحماً، فلما رَحَلُوا هَبَّتْ الرِّيحُ، فاضطرم المكان ناراً، فغضب النجاشي لأجل البيعة، فقال له كبراء أصحابها - منهم حجر بن شراحيل، وأبو يكسوم - لا تحزن، فنحن نهدم الكعبة، قاله مقاتل. وقال ابن إسحاق: أبو يكسوم اسمه أبرهة بن الأشرم. وقيل: وزيره، وجنر من قواديو.

ذكر الإشارة إلى القصة

ذكر أهل التفسير أن أبرهة لما سار بجنوده إلى الكعبة ليهدمها خرج معه بالفيء، فلما دنا من مكة أمر أصحابه بالغارة على نَمِّ الناس، فأصابوا إبلاً لعبد المطلب، وبعث بعض جنوده، فقال: سل عن شريف مكة، وأخبره أنني لم آت لقتال، وإنما جئت لأهدم هذا البيت، فانطلق حتى دخل مكة، فلقي عبد المطلب بن هاشم، فقال: إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت، ثم ينصرف عنكم، فقال عبد المطلب: ما له عندنا قتال، وما لنا به يد، إنا سنخلي بينه وبين ما جاء له، فإن هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه، فهو بيته وحرمة، وإن يخل بينه وبين ذلك، فوالله ما لنا به قوّة. قال: فانطلق معي إلى الملك، فلما دخل عبد المطلب على أبرهة أعظمه، وكرمه، ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له الترجمان، فقال: حاجتي أن يرّد عليّ مائتي بعير أصابها. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبني حين رأيتك، ولقد زهدت الآن فيك، جئت إلى بيت هو دينك لأهدمه، فلم تكلمني فيه، وكلمتني لإبل أصبثها. فقال عبد المطلب: أنا ربُّ هذه الإبل، ولهذا البيت ربُّ سيمنعه. فأمر بإبله فُرِدَّتْ عليه، فخرج، فأخبر قريشاً، وأمرهم أن يتفرّقوا في الشعاب ورووس الجبال خوفاً من مَعَرَّةِ الجيش إذا دخل، ففعلوا، فأتى عبد المطلب الكعبة، فأخذ بحلقة الباب، وجعل يقول:

يَا رَبِّ لَا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَ

إِنَّ عَدُوَّ الْبَيْتِ مَنْ عَادَاكَ

يَا رَبِّ فَأَمْنَعُ مِنْهُمْ حِمَاكَ

أَمْنَعُهُمْ أَنْ يُخْرِبُوا قُرَاكَ

وقال أيضاً:

(١) البيعة بكسر الباء: كنيسة النصارى، وقيل: كنيسة اليهود، والجمع: بيع.

لَا هُمْ^(١) إِنَّ الْمَمْرَةَ يَمْنَعُ
لَا يَنْفِكُ بَنَ صَلِيْبُهُمْ
جَرُّوا جَمِيْعَ بِلَادِهِمْ
عَمِدُوا جِمَاكَ بِكَيْدِهِمْ
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَكُفُّ

نَعُّ رَحْلَهُ فَا مَنَعَ حِلَالَكَ^(٢)
وَمَحَالَهُمْ عَزَّوَأَوْ مَحَالَكَ^(٣)
وَالْفَيْلَ كَيْ يَسْبُوْا عِيَالَكَ
جَهْلًا وَمَا رَقَبُوا جَلَالَكَ
بَتْنَا قَأْمُرًا بَدَالَكَ

ثم إن أبرهة أصبح مهتياً للدخول، فبرك الفيل، فبعثوه فأبى، فضربوه، فأبى، فوجهوه إلى اليمن راجعاً، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، وإلى المشرق ففعل مثل ذلك، فوجهوه إلى الحرم، فأبى، فأرسل الله طيراً من البحر. واختلفوا في صفتها، فقال ابن عباس: كانت لهم خراطيم كخراطيم الطير، وأكفت كأكفت الكلاب. وقال عكرمة: كانت لها رؤوس كرووس السباع. وقال ابن إسحاق: كانت أمثال الخطاطيف. واختلفوا في ألوانها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها كانت خضراء، قاله عكرمة، وسعيد بن جبير. والثاني: سوداء، قاله عبيد بن عمير. والثالث: بيضاء، قاله قتادة. قال: وكان مع كل طير ثلاثة أحجار، حَجْرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، وَحِجْرٌ فِي مَنْقَارِهِ. واختلفوا في صفة الحجارة فقال بعضهم: كانت كأمثال الحمص والعدس. وقال عبيد بن عمير: بل كان الحجر ك رأس الرجل والجمل، فلما غشيت القوم أرسلتها عليهم، فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك. وكان الحجر يقع على رأس الرجل، فيخرج من دبره. وقيل: كان على كل حجر اسم الذي وقع عليه، فهلكوا ولم يدخلوا الحرم، وبعث الله على أبرهة داءً في جسده، فتساقطت أنامله، وانصدع صدره قطعتين عن قلبه، فهلك، ورأى أهل مكة الطير وقد أقبلت من ناحية البحر، فقال عبد المطلب: إن هذه الطير غريبة. ثم إن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله على فرس ينظر إلى القوم، فرجع يركض ويقول: هلك القوم جميعاً، فخرج عبد المطلب وأصحابه فغنموا أموالهم. وقيل: لم ينبج من القوم إلا أبو يكسوم، فسار، وطائر يطير من فوقه، ولا يشعر به حتى دخل على النجاشي، فأخبره بما أصاب القوم، فلما أتم كلامه رماه الطائر فمات، فأرى الله تعالى النجاشي كيف كان هلاك أصحابه^(٤). واختلفوا كم كان بين مولد رسول الله ﷺ وبين هذه القصة على ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل، وهو الأصح^(٥). والثاني: كان بينهما ثلاث وعشرون سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أربعون سنة، حكاه مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ وهو ما أرادوا من تخريب الكعبة ﴿فِي تَضْيَلٍ﴾ أي: في ذهاب. والمعنى: أن كيدهم ضلَّ عما قصدوا له، فلم يصلوا إلى مرادهم ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبْيَلَ﴾. وفي «الآبائيل» خمسة أقوال: أحدها: أنها المتفرقة من هاهنا وهاهنا، قاله ابن مسعود، والأخفش. والثاني: أنها المتتابعة التي يتبع بعضها بعضاً،

(١) لاهم: أصلها: اللهم، والعرب تحذف الألف واللام منها وتكفي بما بقي، كما تقول: لاؤ أبوك، وهي تريد: لله أبوك، وكما قالوا أيضاً: أجنك تفعل كذا وكذا، أي: من أجل أنك تفعل كذا وكذا. والجلال: بكسر الحاء جمع حلة، وهي جماعة البيوت، ويريد هنا: القوم الحلول، والجلال أيضاً: مناع البيت، وجاز أن يكون هذا المعنى الثاني مراداً هنا.

(٢) البيت في الأصل:

لَاهِمُ إِنْ الْمَمْرَةَ يَمْنَعُ رَحِيًّا
وَهُوَ خَطَأٌ، وَالتَّصْحِيحُ مِنْ سِيْرَةِ ابْنِ هِشَامٍ: وَكَبَّ التَّضْيِيرَ.

(٣) عَزَّوَأَوْ، أي: غداً، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لاهم، ولم يستعمل تاماً إلا في الشعر. واليحيال بكسر الميم: القوة والشدة.

(٤) ذكر الخبر بنحوه البخاري من رواية ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس، وفي سننه جهالة، ومن رواية الواقدي، والله أعلم.

قال ابن كثير: هذه من التسم التي امتنَّ الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود فأبادهم الله وأرغم آتافهم وخبَّب سعيهم وأضلَّ عملهم وردَّهم بشرَّ نخبة، وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم تنصركم يا معشر قريش على الحبيسة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرقه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه على خاتم الأنبياء.

(٥) قال ابن كثير: ولد في ذلك العام على أشهر الأقوال.

لَهُ وَحِلَالَهُ فَا مَنَعَ حِلَالَكَ

قاله ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل. والثالث: الكثيرة، قاله الحسن، وطاووس. والرابع: أنها الجمع بعد الجمع، قاله عطاء، وأبو صالح، وكذلك قال أبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج: «الأبايل»: جماعات في تفرقة. والخامس: المختلفة الألوان، قاله زيد بن أسلم. قال الفراء، وأبو عبيدة: «الأبايل» لا واحد لها.

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ قرأ أبو عبد الرحمن السلمي «يرميهم» بالياء، وقد بينا معنى «يَبِيلِي» في [مورد: ٨٢]، ومعنى «العصف» في سورة الرحمن ﴿١٢﴾. وفي معنى «تَأْكُولُ» ثلاثة أقوال: أحدها: أن يكون أراد أنه أخذ ما فيه من الحب فأكل، وبقي هو لا حب فيه. والثاني: أن يكون أراد أن العصف مأكول البهائم، كما يقال للحنطة: هذا المأكول ولمّا يؤكل. وللماء: هذا المشروب ولمّا يشرب، يريد أنهما مما يؤكل ويشرب، ذكرهما ابن قتيبة. والثالث: أن المأكول هاهنا: الذي وقع فيه الأكال. فالمعنى: جعلهم كوزق الزرع الذي جفّ وأكل، أي: وقع فيه الأكال، قاله الزجاج.



سورة قریش

ويقال لها: سورة لإيلاف

وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله الجمهور. والثاني: مدنية، قاله الضحاك، وابن السائب. واختلف القراء في «إيلاف» فقرأ ابن عامر «الإلاف» بغير ياء بعد الهمزة، مثل: لعلاف. وقرأ أبو جعفر بياء ساكنة من غير همز. وروى حماد بن أحمد عن الشموني بهزتين مخففتين، الأولى: مكسورة، والثانية: ساكنة على وزن لعلاف. وقرأ الباقون بعدها ياء ساكنة، مثل لعيلاف^(١). وفي لام «الإيلاف» ثلاثة أقوال: أحدها: موصولة بما قبلها، المعنى: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قریش، أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قریش. وما قد ألفوا من رحلة الشتاء، والضيف [هذا قول الفراء والجمهور. والثاني: أنها لام التعجب، كأن المعنى: اعجبوا لإيلاف قریش رحلة الشتاء والضيف]^(٢)، وتركهم عبادة رب هذا البيت، قاله الأعمش، والكسائي. والثالث: أن معناها متصل بما بعدها. المعنى: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والضيف، لأنهم كانوا في الرحلتين آمنين، فإذا عَرَّض لهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله فلا يَتَّعَرَّضُ لهم، قال الزجاج: وهذا الوجه قول النحويين الذين ترضى أقوالهم. وقال ابن قتيبة: بعض الناس يذهب إلى أن هذه السورة وسورة الفيل واحدة، وأكثر الناس على أنهما سورتان، وإن كانتا متصلتي الألفاظ^(٣). والمعنى: إن قریشاً كانت بالحرم آمنة من الأعداء. والحرم وإد جديب لا زرع فيه ولا شجر، وإنما كانت قریش تعيش فيه بالتجارة وكانت لهم رحلتان في كل سنة، رحلة في الشتاء، ورحلة في الصيف إلى الشام. ولولا هاتان الرحلتان لم يكن به مقام. ولولا أنهم بمجاورة البيت لم يقدروا على التصرف، فلما قصد أصحاب الفيل هدم الكعبة أهلكهم الله لتقيم قریش بالحرم، فذكَّروهم الله نعمته بالسورتين. والمعنى: أنه أهلك أولئك ليؤلَّف قریشاً هاتين الرحلتين اللتين بهما^(٤) معاشهم، ومقامهم بمكة. تقول: ألَّفْتُ موضع كذا: إذا لزمته، وألَّفنيهِ الله، كما تقول: لزمْتُ موضع كذا وكذا، وألَّزمنيهِ الله، وكرر ﴿لِإِيلَافٍ﴾ للتوكيد، كما تقول: أعطيتك المال لصيانة وجهك صيانة عن كل الناس. قال الزجاج: يقال: ألَّفْتُ المكان إلفاً، وألَّفته إيلافاً بمعنى واحد. وأما قریش فهم ولد النضر بن كنانة، وكل من لم يلد له النضر فليس بقرشي. وقيل: هم من ولد فهر بن مالك بن النضر، فمن لم يلد له فهر فليس بقرشي. وإنما سموا قریشاً لتجارتهن وجمعهم المال. والقرش: الكسب. يقال: هو يقرش لعياله، ويقترش، أي: يكتسب. وقد سأل معاوية ابن عباس رضي الله عنه: لم سميت قریش قریشاً؟ فقال ابن عباس: بداية تكون في البحر يقال لها: القریش لا تمر بشيء من العتِّ^(٥) والسمين إلا أكلته. وأنشد:

وقريش هي التي تسكنُ البحر

رَبِّهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشًا^(٦)

- (١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القراءة في ذلك عندي من قرأه ﴿لِإِيلَافٍ قُرَيْشٍ﴾ ﴿لِإِيلَافٍ﴾ بإثبات الياء فيها بعد الهمزة من ألَّفْتُ الشيء أولفه إيلافاً، لإجماع الحجة من القراء عليه.
- (٢) زيادة سقطت من الأصل، واستدركتها من النسخة الإستانبولية. وصوب ابن جرير هذا القول، وقال: ذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان.
- (٣) قال ابن كثير: هذه السورة منفصلة عن التي قبلها في المصحف، كتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، وإن كانت متعلقة بما قبلها كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله لإيلاف قریش، أي لانتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين.
- (٤) في الأصل: التي بها.
- (٥) العتُّ: الرديء من كل شيء.
- (٦) البيت في البيهقي ٢٤٧/٧ استشهد به ابن عباس ونسبه للجمعي، وهو في «الدر المنثور» ٣٩٨/٦، و«روح البيان» ٢٣٩/٣٠، وأورده القرطبي ونسبه إلى تبع.

وقال ابن الأنباري: قال قوم: سُومُوا قريشاً بالافتراش، وهو وقوع الرِّماح بعضها على بعض. قال الشاعر:

ولما دنا الرّياض وأفتَرَشَ القَنَا
وظارَ مَعَ القَوْمِ المُلُوبُ الرِّوَاجِفُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذْ لَيْفَ قُريشٍ ﴿١﴾ إِلَيْنِهِمْ رِمْلَةَ الشَّيْءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ حَؤُوبِ﴾ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْنِهِمْ﴾ قرأ أبو جعفر وابن فليح عن ابن كثير، والوليد بن عتبة عن ابن عامر، والتغليبي عن ابن ذكوان، عنه «إلافهم» بهجزة مكسورة من غير ياء بعدها، مثل: علافهم. وروى الخزاعي عن ابن فليح، وأبان بن تغلب عن عاصم «إلفهم» بسكون اللام أيضاً. ورواه الشموني إلا حماداً بهجتين مكسورتين بعدهما ياء ساكنة، ورواه حماد كذلك إلا أنه حذف الياء. وقرأ الباقر بهجزة مكسورة بعدهما ياء ساكنة مثل «عيلافهم». وجمهور العلماء على أن الرّحلتين كانتا للتجارة، وكانوا يخرجون إلى الشام في الصيف، وإلى اليمن في الشتاء لشدة برد الشام. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كانوا يشتون بمكة، ويصفون بالطائف. قال الفراء: والرحلة منصوبة بإيقاع الفعل عليها.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿٣﴾ أي: ليعبده ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: بعد الجوع، كما تقول: كسوتك من عُزي، وذلك أن الله تعالى آمنهم بالحرم، فلم يُتَعَرَّضْ لهم في رحلتهم، فكان ذلك سبباً لإطعامهم بعدما كانوا فيه من الجوع. وروى عطاء عن ابن عباس قال: كانوا في ضُرٍّ ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرّحلتين، فكانوا يقسمون ريحهم بين الغني والفقير حتى استغنوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَهُم مِّنْ حَؤُوبٍ﴾ وذلك أنهم كانوا آمنين بالحرم، إن حضروا حماهم، وإن سافروا قيل: هؤلاء أهل الحرم، فلا يُفَرِّضْ لهم أحد^(١).



(١) قال ابن كثير: ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿٣﴾ أي: فليؤدوه بالعبادة كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُبْرِحُ أَنْ أَعْبَدَ رَبِّكَ كَمَا بَدَأَ الْبَدَأَ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَكُلَّ كَلْبٌ مِّنْهُ وَأُكْرِهُ أَنْ أَكْرِهَ بَيْنَ النَّاسِ﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي هو رب البيت وهو الذي أطعمهم من جوع ﴿وَمَا آمَنَهُم مِّنْ حَؤُوبٍ﴾ أي: تفضل عليهم بالأمن والرخص، فليؤدوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا تداً ولا وتناً، قال: ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبها منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ عَصَاءً فَكَانَ كَيْفَ عَصَى فَأَنزَلْنَا فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ نَجْمًا فَذُوقُوا وَعَذَابًا إِنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ فَالِقَةٌ لِّلْجَبَرُوتِ وَالْعَقْرَبِ﴾ كما ذُوقُوا وَعَذَابًا إِنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ فَالِقَةٌ لِّلْجَبَرُوتِ وَالْعَقْرَبِ ﴿١٠﴾ وَلَكِنَّ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَنزَلْنَا لَهُمُ السَّكَابُوتَ وَبَقُوا فِيهَا ﴿١١﴾

سورة الماعون

ويقال لها: سورة آرايت

وفيها قولان، أحدهما: مكية، قاله الجمهور. والثاني: مدنية، روي عن ابن عباس، وقتادة. وقال هبة الله المفسر: نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل، ونصفها بالمدينة في عبد الله بن أبي المنافق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْسَ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتِيمِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ ﴿٦﴾ وَيَسْتَمْتُونَ الْكَاغُورَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ ﴿١﴾﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على ستة أقوال: أحدها: نزلت في رجل من المنافقين، قاله ابن عباس. والثاني: نزلت في عمرو بن عائذ، قاله الضحاك. والثالث: في الوليد بن المغيرة، قاله السدي. والرابع في العاص بن وائل، قاله ابن السائب. والخامس: في أبي سفيان بن حرب، قاله ابن جريج. والسادس: في أبي جهل، حكاه الماوردي. وفي «الدين» أربعة أقوال: أحدها: أنه حكم الله ﷻ، قاله ابن عباس. والثاني: الحساب، قاله مجاهد، وعكرمة. والثالث: الجزاء، حكاه الماوردي. والرابع: القرآن، حكاه بعض المفسرين، و﴿يَدْعُ﴾ بمعنى يدفع. وقد ذكرناه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [الطور: ١٧٣]. والمعنى: أنه يدفع اليتيم عن حقه دفعاً عنيفاً يأخذ ماله. وقد بيناً فيما سبق أنهم كانوا لا يورثون الصغير، وقيل: يدفع اليتيم إبعاداً له، لأنه لا يرجو ثواب إطعامه ﴿وَلَا يُحِصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتِيمِ ﴿٣﴾﴾ أي: لا يطعمه، ولا يأمر بإطعامه لأنه مكذّب بالجزاء.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ نزل هذا في المنافقين الذين لا يرجون لصلاتهم ثواباً، ولا يخافون على تركها عقاباً. فإن كانوا مع النبي ﷺ صلّوا رياءً، وإن لم يكونوا معه لم يصلوا، فذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ ﴿٦﴾﴾ وقال ابن مسعود: والله ما تركوها البتة ولو تركوها البتة كانوا كفاراً، ولكن تركوا المحافظة على أوقاتها. وقال ابن عباس: يؤخرونها عن وقتها. ونقل عن أبي العالية أنه قال: هو الذي لا يدري عن كم انصرف، عن شفع، أو عن وتر. وردّ هذا بعض العلماء فقال: هذا ليس بشيء، لأن رسول الله ﷺ قد سها في صلاته، ولأنه قال تعالى: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: في صلاتهم، ولأن ذلك لا يكاد يدخل تحت طوق ابن آدم. قال الشيخ رحمه الله: قلت: ولا أظن أنّ أبا العالية أراد السهو النادر، وإنما أراد السهو الدائم، وذلك يبتئنا عن التفات القلب عن احترام الصلاة، فيتوجّه الذم إلى ذلك لا إلى السهو^(١). وفي «الكاغور» ستة أقوال: أحدها: أنه الإبرة، والماء، والنار، والفأس، وما يكون في البيت من هذا النحو، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ^(٢)، وإلى نحوه ذهب ابن مسعود^(٣)

(١) قال ابن كثير: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق وأبو الضحى، وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور بها، وإما عن الخشوع فيها والتدبير لمعاتبها، فاللفظ يشمل ذلك كله، ولكل من أتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية.

(٢) قال السيوطي في «الدرر» ٤٠٠/٦: أخرج أبو نعيم، والدليلي، وابن عساکر، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيَسْتَمْتُونَ الْكَاغُورَ﴾ قال: ما يتعاوره الناس بينهم: الفأس، والقدر، والذلو وأشباهه.

(٣) قال السيوطي في «الدرر» ٤٠٠/٦: أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» من طرق عن ابن مسعود قال: كنّا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارئة الذلو، والقدرة، والفأس، والميزان وما تتعاطون بينهم.

وابن عباس في رواية. وروى عنه أبو صالح أنه قال: الماعون: المعروف كلُّه حتى ذَكَرَ الْقِدْرَ، والقصعة، والفأس. وقال عكرمة: ليس الويل لمن منع هذا، إنما الويل لمن جمعهن، فراءى في صلاته، وسها عنها^(١)، ومنع هذا. قال الزجاج: والماعون في الجاهلية: كل ما كان فيه منفعة كالفأس، والقدر، والدلو، والقداحة، ونحو ذلك، وفي الإسلام أيضاً. والثاني: أنه الزكاة، قاله علي، وابن يعمر، والحسن، وعكرمة، وقتادة. والثالث: أنه الطاعة، قاله ابن عباس في رواية. والرابع: المال، قاله سعيد بن المسيب، والزهري. والخامس: المعروف، قاله محمد بن كعب. والسادس: الماء، ذكره الفراء عن بعض العرب^(٢) قال: وأنشدني:

يَمِجُ صَبِيرُهُ السَّمَاعُونَ صَبِيًّا^(٣)

والصبير: السحاب.



(١) في الأصل: وسها هذا، والتصحيح من النسخة الإستانبولية.

(٢) قال ابن كثير: وقال عكرمة: رأس الماعون: زكاة المال، وأدناه: المنخل، والدلو، والإبرة. رواه ابن أبي حاتم. قال ابن كثير: وهذا الذي قاله عكرمة حسن، فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحد، وهو: ترك المعاونة بمال أو بمنفعة.

(٣) ذكره القرطبي ٢٠/٢١٤.

سورة الكوثر

وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: مدنية، قاله الحسن، وعكرمة، وقاتدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

وفي «الكوثر» ستة أقوال: أحدها: أنه نهر في الجنة. روى البخاري في أفراده من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «بيننا أنا أسير في الجنة»^(١) إذا بنهر حافته قباب الدرّ المجوف. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ﷻ، فإذا طينه، أو طيبه مسك أذفر»^(٢). وروى مسلم أيضاً في أفراده من حديث أنس قال: أذفى رسول الله ﷺ إغفاءة»^(٣)، ثم رفع رأسه متبسماً إما قال لهم، وإما قالوا له: لِمَ ضَحِكْتَ؟ فقال: «إنه أنزل عليّ الآن آتفاً»^(٤) سورة» فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ﴿١﴾﴾ حتى ختمها. وقال: «هل تدرون ما الكوثر؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هو نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة عليه خير كثير تردُّ عليه أمتي يوم القيامة آتيه عدد كواكب السماء، يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب إنه من أمتي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»^(٥). والثاني: أن الكوثر: الخير الكثير الذي أعطيت نبينا ﷺ، قاله ابن عباس. والثالث: العلم والقرآن، قاله الحسن. والرابع: النبوة، قاله عكرمة. والخامس: أنه حوض رسول الله ﷺ الذي يكثر الناس عليه، قاله عطاء. والسادس: أنه كثرة أتباعه وأمته، قاله أبو بكر بن عياش.

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ في هذه الصلاة ثلاثة أقوال: أحدها: صلاة العيد. وقال قاتدة: صلاة الأضحى. والثاني: صلاة الصبح بالمزدلفة، قاله مجاهد. والثالث: الصلوات الخمس، قاله مقاتل. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْحَرْ﴾ خمسة أقوال: أحدها: اذبح يوم النحر، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال عطاء ومجاهد والجمهور. والثاني: وضع اليمين على اليسرى عند النحر في الصلاة. والثالث: أنه رفع اليدين بالتكبير إلى النحر، قاله أبو جعفر محمد بن علي. والرابع: أن المعنى: صلِّ لله، وانحر لله، فإن ناساً يصلون لغيره، وينحرون لغيره، قاله القرظي^(٦). والخامس: أنه استقبال القبلة بالنحر، حكاها الفراء^(٧).

(١) أي ليلة الإسراء، كما في رواية البخاري في «التفسير» ٥٦٢/٨ عن أنس رضي الله عنه قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «وأبيت على نهر حائفه قباب اللؤلؤ مجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر».

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» بهذا اللفظ في كتاب الرقاق، باب الحوض ٤١٢/١١ وشك الرازي في آخره، وهو (هدية بن خالد) في رواية: «فإذا طينه أو طيبه»، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤١٢/١١: أراد بذلك أن أبا الوليد لم يشك في روايته، وأنه بالنون، وهو المعتمد. قال: وتقدم في تفسير سورة الكوثر من طريق شيخان عن قاتدة: فأمرى الملك بيده فاستخرج من طينه مسكاً أذفر. والأذفر: طيب الريح.

(٣) أي: نام نومة. (٤) أي: قرياً.

(٥) رواه مسلم في «صحيحه» ٣٠٠/١، واللفظ الذي أورده المصنف هنا لفظ أحمد في «السنن»، ورواية مسلم تختلف بسيراً عن رواية أحمد. قال ابن كثير: وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسلة من السورة، وأنها منزلة معها.

(٦) قال ابن كثير: أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة، ونحرك فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ سَلَامِي وَنَسْجِي وَنَحْبِي وَنَسَافِي يَوْمَ رَبِّيَ الْتَلْيِينِ ﴿١﴾﴾ لا شريك له وَبِذَلِكَ لِيُرِيَنَّ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ، قال ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، ويعني بذلك نحر البدن ونحوها. وكذا قال قاتدة، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك، والربيع، وعطاء الخراساني، والحكم، وسعيد بن أبي خالد، وغير واحد من السلف، وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَتَّى تَأْكُلُوهُ مِنْ حَيْثُ سَقَرْتُمْ وَمِمَّا ضَرَبْتُمُ الْبُحْبُوحَ﴾ الآية.

(٧) قال ابن جرير الطبري: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون ما سواه من الأنداد

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ اختلفوا فيمن عنى بذلك على خمسة أقوال: أحدها: أنه العاص بن وائل السهمي، قال ابن عباس: نزلت في العاص بن وائل، لقي رسول الله ﷺ على باب المسجد فوقف يحدثه حتى دخل العاص المسجد، وفيه أناس من صناديد قريش، فقالوا له: مَنْ الذي كُنْتَ تُحَدِّثُ؟ قال: ذاك الأبتري، يعني النبي ﷺ، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله ﷺ، وكانوا يسمون من ليس له ابن: أبتري، فأنزل الله ﷻ هذه السورة. وممن ذهب إلى أنها نزلت في العاص: سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنه أبو جهل، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أبو لهب، قاله عطاء. والرابع: عقبه بن أبي معيط، قاله شمر بن عطية. والخامس: أنه عنى به جماعة من قريش، قاله عكرمة^(١). والشانئ: المبغض، والأبتري: المتقطع عن الخير^(٢).



والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكرأ له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفه له، وخصك به من إعطائه إياك الكوثر. قال ابن كثير: وهذا الذي قاله ابن جرير في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى، محمد بن كعب القرظي، وعطاء.

(١) قال ابن كثير: قال الزوار: حدثنا زياد بن يحيى الحساني، حدثنا ابن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى إلى الصنبر المنتبر من قومه؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة، وأهل السقاية، فقال: أنتم خير منه، فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. قال ابن كثير: هكذا رواه الزوار، وهو إسناد صحيح. وجاء في «اللسان» مادة (صنبر) أصل الصنبرور: سعفة تنبت في جلع النخلة، لا في الأرض، قال أبو عبيدة: الصنبرور: النخلة تبقى منفردة ويدق أسفلها وينقشر، يقال: صنبر أسفل النخلة. ومراد كفار قريش: أنه إذا قلع انقطع ذكره كما يذهب أصل الصنبرور لأنه لا عقب له. وقال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن يبغض رسول الله ﷺ هو الأقل الأذل المتقطع عقبه، فذلك صفة كل من أبغضه من الناس، وإن كانت الآية نزلت في شخص بعينه.

(٢) قال ابن كثير: قال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا: بتر، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا: بتر محمد، فأنزل الله ﷻ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ قال: وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتري: الذي إذا مات، انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره، وحاشا وكلاً، بل قد أبقي ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد.

سورة الكافرون^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله ابن مسعود، والحسن، والجمهور. والثاني: مدنية، روي عن قتادة.

ذكر سبب نزولها. اختلفوا على ثلاثة أقوال: أحدها: أن رهطاً من قريش منهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث لقوا العباس بن عبد المطلب، فقالوا: يا أبا الفضل، لو أن ابن أخيك أسلم بعض آلهتنا لصدقتنا بما يقول ولأمتنا بالله، فأتاه العباس فأخبره، فنزلت هذه السورة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن عتبة بن ربيعة، وأمّية بن خلف لقيا رسول الله ﷺ فقالا: يا محمد، لا ندعك حتى تتبع ديننا، وتبني دينك، فإن كان أمرنا رشحاً كنت قد أخذت بحظك منه، وإن كان أمرك رشحاً كنا قد أخذنا بحظنا منه، فنزلت هذه السورة، قاله عبيد بن عمير. والثالث: أن قريشاً قالوا للنبي ﷺ: إن سرك أن تتبع دينك عاماً، وترجع إلى ديننا عاماً، فنزلت هذه السورة، قاله وهب. قال مقاتل في آخرين: نزلت هذه السورة في أبي جهل وفي المستهزئين، ولم يبق^(٢) من الذين نزلت فيهم أحد^(٣). وأما قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ فهو في موضع «مَنْ» ولكنه جعل مقابلاً لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وهي الأصنام. وفي تكرار الكلام قولان: أحدهما: لتأكيد الأمر، وحسم أطماعهم فيه، قاله الفراء. وقد أنعمنا^(٤) شرح هذا في سورة الرحمن: [١٣]. والثاني: أن المعنى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ في حالي هذه ﴿وَلَا أَنْتُمْ﴾ في حالكم ﴿عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ فيما استقبل، وكذلك أنتم، فنفي عنه وعنهم ذلك في الحال والاستقبال، وهذا في قوم بأعيانهم، أعلمه الله ﷻ أنهم لا يؤمنون، كما ذكرنا عن مقاتل، فلا يكون حينئذ تكراراً، هذا قول ثعلب، والزجاج^(٥). وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فتح ياء ﴿وَلِيَ﴾ نافع، وحفص، وأبان عن عاصم. وأثبت ياء «ديني» في الحاليين يعقوب. وهذا منسوخ عند المفسرين بآية السيف^(٦).



- (١) ويقال لها أيضاً: الممشقة، أي: المبرقة من النفاق.
- (٢) قال ابن كثير: هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي أمرة بالإخلاص فيه، فقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش. وقيل: إنهم من جهلم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يترأ من دينهم بالكالية.
- (٣) أي: زدتنا، يقال: أنعم أن يحسن أو يسيء، أي: زاد، وأنعم فيه: بالغ وفعل كذا، وأنعم أي: زاد. ويقال: أنعم النظر في الشيء: إذا أطال الفكرة فيه.
- (٤) قال ابن كثير: ونمّ قول نصره أبو العباس ابن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي الفعل، لأنها جملة فعلية ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ نفي قبوله للكالية، لأن النفي بالجملة الاسمية أكد، فكانه نفي الفعل وكونه قابلاً لذلك، ومعناه: نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، قال ابن كثير: وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم.
- (٥) قال ابن كثير: إن العابد لا بد له من معبود يعبد، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أي لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله، ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿رَبِّانَا كَذَّبْتُمْ فَلَا تَعْبُدُونَنَا وَلَكُمْ دِينُكُمْ فَاتَّبِعُوهُنَّ أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: ﴿لَا أَعْبُدُكُمْ وَلَكُمْ دِينُكُمْ﴾.
- (٦) وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف، وفي «صحيح مسلم» أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر (أي في سنة الفجر).

سورة النصر

وهي مدنية بإجماعهم

وفي أفراد مسلم من حديث ابن عباس أنها آخر سورة نزلت جميعاً^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي: معونته على الأعداء. ﴿وَالْفَتْحُ﴾: فتح مكة. قال الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة قالت العرب: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان^(٢) فدخلوا في دين الله أفواجاً. قال أبو عبيدة: والأفواج: جماعات في تفرقة.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الصلاة، قاله ابن عباس. والثاني: التسبيح المعروف، قاله جماعة من المفسرين. قال المفسرون: نُجِيتَ إليه نفسه بنزول هذه السورة، وأُعلِمَ أنه قد اقترب أجله^(٣)، فأمر بالتسبيح والاستغفار ليختم له عمره بالزيادة في العمل الصالح^(٤). قال ابن عباس: إذا جاء نصر الله والفتح: داغ من الله، ووَدَاعَ من الدنيا. قال قتادة: وعاش بعد نزول هذه السورة ستين.

(١) روى مسلم في «صحيحه» رقم ٣٠٢٤ عن عبيد الله بن عتبة، قال: قال لي ابن عباس: تعلم (وقال هارون: تدري) آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعاً؟ قلت: نعم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: صدقت. قال مسلم: وفي رواية ابن أبي شيبه (أحد الرواة): تعلم أي سورة، ولم يقل: آخر. قال الحافظ في «الفتح» ٥٦٤/٨: وأخرج النسائي من حديث ابن عباس أنها آخر سورة نزلت من القرآن. قال: وقد تقدم في تفسير (براهة) أنها آخر سورة نزلت، قال: والجمع بينهما أن آخريه سورة النصر، نزولها كاملة، بخلاف (براهة)، فالمراد نزول بعضها أو معظمها، وألا فيها آيات كثيرة نزلت قبل سنة الوفاة النبوية، وأوضح من ذلك أن أول (براهة) نزل عقب فتح مكة في سنة تسع عام حج أبي بكر، وقد نزل ﴿أَيُّمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهي في (المائدة) في حجة الوداع سنة عشر، فالظاهر أن المراد معظمها، ولا شك أن غالبها نزل في غزوة تبوك، وهي آخر غزوات النبي ﷺ. هذا بالنسبة للسورة، وأما بالنسبة لآخر آية نزلت، فقد روى البخاري عن ابن عباس: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا، وفي «الفتح»: وجاء عن ابن عباس أيضاً من وجه آخر: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿وَأَلْقُوا يَوْمَ بُرُجٍ يَوْمَ إِلَى اللَّهِ﴾» أخرجه الطبري من طرق. قال الحافظ: وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية ختام الآيات المنزلة في الربا، وهي معطوفة عليهن، ثم قال: وأما ما سيأتي في آخر سورة (النساء) من حديث البراء: آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتِيكَ فِي اللَّهِ يَرْحَمُكَ فِي الْكَافَّةِ﴾ فيجمع بينه وبين قول ابن عباس، بأن الآيتين نزلتا جميعاً، فيصدق أن كلاً منهما آخر بالنسبة لما عدهما. قال: ويحتمل أن تكون الأخيرة في آية (النساء) مقيدة بما يتعلق بالمواريث مثلاً، بخلاف آية (البقرة)، ويحتمل عكسه، والأول أرجح لما في آية (البقرة) من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول. قال: وأصح الأنوال في آخريه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَلْقُوا يَوْمَ بُرُجٍ يَوْمَ إِلَى اللَّهِ﴾ ونقل ابن عبد السلام: آخر آية نزلت آية الكلاله، فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزلت آية البقرة ﴿وَأَلْقُوا يَوْمَ بُرُجٍ يَوْمَ إِلَى اللَّهِ﴾ وحكى ابن عبد السلام أن النبي ﷺ عاش بعد نزول هذه الآية (يعني آية البقرة) أحدًا وعشرين يوماً، والله اعلم.

(٢) أي طاقة.

(٣) روى البخاري في «صحيحه» ٥٦٥/٨: عن ابن عباس ﷺ، قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وعد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله! فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعا ذات يوم فأدخله معهم، فما رثيت أنه دعاني يومئذ إلا ليُرِيهم، قال: ما تقولون في قوله الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: ألك ذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أهلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وفي الحديث فضيلة ظاهرة لابن عباس، وتأثير لإجابة دعوة النبي ﷺ أن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين، وفي جواز تحديث المرء عن نفسه بكل هذا، لإظهار نعمة الله عليه، وإعلام من لا يعرف قدره لينزله منزله، وغير ذلك من المقاصد الصالحة، لا للمفاخرة والمباهاة، وفيه جواز تأويل القرآن ما يفهم من الإشارات، وإنما يمكن من ذلك من رسخته في العلم، ولهذا قال علي ﷺ: أو فهماً يؤتبه الله رجلاً في القرآن.

(٤) روى البخاري في «صحيحه» ٥٦٤/٨، من حديث عائشة ؓ قالت: ما صلى النبي ﷺ بعد أن نزلت عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: =

سورة تبت

وهي مكية بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلُونَ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾

وسبب نزولها ما روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: «أرايكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم، أو ممسيكم، أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». قال أبو لهب: تباً لك، ألهذا دعوتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾^(١). ومعنى: ﴿تَبَّتْ﴾: خسرت يدا أبي لهب ﴿وَتَبَّ﴾ أي: خسر هو. قال الفراء: الأول: دعاء، والثاني: خبر؛ كما يقول الرجل: أهلكك الله وقد أهلكك، وجعلك الله صالحاً وقد جعلك. وقيل: ذكر يديه، والمراد نفسه، ولكن هذا عادة العرب يعبرون ببعض الشيء عن جميعه؛ كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. وقال مجاهد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ولد أبي لهب. فأما أبو لهب فهو عم رسول الله ﷺ. وقيل: إن اسمه عبد العزى. وقرأ ابن كثير وحده «أبي لهب» بإسكان الهاء. قال أبو علي: يشبه أن يكون لغة كالتشمع، والتشمع^(٢) والنهز، والنهز. فإن قيل: كيف كناه الله ﷻ، وفي الكنية نوع تعظيم؟ فنه جوابان: أحدهما: أنه إن صح أن اسمه عبد العزى، فكيف يذكره الله بهذا الاسم وفيه معنى الشرك؟! والثاني: أن كثيراً من الناس اشتبهوا بكناهم، ولم يعرف لهم أسماء. قال ابن قتيبة: خبرني غير واحد عن الأصمعي أن أبا عمرو بن العلاء، وأبا سفيان بن العلاء أسماؤهما كناهما، فإن كان اسم أبي لهب كنيته، فإنما ذكره بما لا يعرف إلا به.

قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ قال ابن مسعود: لما دعا رسول الله ﷺ أقربيه إلى الله ﷻ، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفندي بمالي، ولولدي، فقال الله ﷻ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾^(٣). قال الزجاج: و«مَا» في موضع رفع. المعنى: ما أغنى عنه ماله وكسبه، أي: ولده. وكذلك قال المفسرون: المراد بكسبه هاهنا: ولده. و«أغنى» بمعنى يغني ﴿سَيَصِلُونَ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: تلتهب عليه من غير دخان ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ أي: ستصلى امرأته، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان. وفي هذا دلالة على صحة بُنُوَّة نبيينا عليه الصلاة والسلام، لأنه أخبر بهذا المعنى أنه وزوجته يموتان على الكفر، فكان كذلك. إذ لو قالا بالسنتهما: قد أسلمنا، لوجد الكفار متعلقاً في الرد على رسول الله ﷻ، غير أن الله علم أنهما لا يسلمان باطناً ولا ظاهراً، فأخبره بذلك.

= سبحانه ربنا وبصالحك اللهم اغفر لي.

(١) رواه البخاري ٥٦٧/٨، ورواه مسلم ١٩٤/١ بمعناه. وقوله: يا صباحاه: كلمة يخاطبونها عند وقوع أمر عظيم، فيقولونها ليجتمعوا ويتأهبوا له. ورواه ابن جرير الطبري ٣٣٦/٣٠، وأورده السيوطي في «الدر» ٤٠٨/٦ وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن عبد الله بن عباس ﷺ. وإنما كتني يأتي لهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له، والازدراء به، والتقصص له ولذنبه.

(٢) في الأصل: كالشمع والشمع، والتصحيح من «اللسان».

(٣) ذكره البهوتي وكثير من المفسرين عن ابن مسعود بنير سند، وذكره القرطبي عن ابن عباس أيضاً بنير سند، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنها كانت تمشي بالنميمة، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي، والفراء. وقال ابن قتيبة: فشيئها النميمة بالحطب، والعداوة والشحناء بالنار، لأنهما يقعان بالنميمة، كما تلتهب النار بالحطب. والثاني: أنها كانت تحتطب الشوك، فتلقيه في طريق رسول الله ﷺ ليلاً، رواه عطية عن ابن عباس. وبه قال الضحاك، وابن زيد^(١). والثالث: أن المراد بالحطب: الخطايا، قاله سعيد بن جبير. والرابع: أنها كانت تُعَيِّرُ رسول الله ﷺ بالفقر، وكانت تحتطب فُعَيْرَتْ بذلك، قاله قتادة. وليس بالقوي، لأن الله تعالى وصفه بالمال^(٢). وقرأ عاصم وحده «حمالة الحطب» بالنصب. قال الزجاج: من نصب «حمالة» فعلى الذم. والمعنى: أعني: حمالة الحطب. والجيد: العُنُق. والمَسَدُ في لغة العرب: الحَبْلُ إذا كان من ليف المُقْل. وقد يقال لما كان من أوبار الإبل من الحبال: المَسَد. قال الشاعر:

وَمَسَدٍ أَمِيرٍ مِنْ أَيْأَانَتِي [صُهِبَ عِنَاقِ ذَاتِ مُخِّ زَاهِقِي]^(٣)

وقال ابن قتيبة: المَسَدُ عند كثير من الناس: اللَّيْفُ دون غيره، وليس كذلك، إنما المسد: كُلُّ مَا صُفِرَ وَفُيْلَ مِنَ اللَّيْفِ وغيره. واختلف المفسرون في المراد بهذا الحبل على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها حبال كانت تكون بمكة، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال الضحاك: حبل من شجر كانت تحتطب به. والثاني: أنه قلادة من وَدَع، قاله قتادة. والثالث: أنه سلسلة من حديد ذُرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً، قاله عروة بن الزبير. وقال غيره: المراد بهذا الحبل: السلسلة التي ذكرها الله تعالى في النار، طولها سبعون ذراعاً. والمعنى: أن تلك السلسلة قد فتلت فتلاً مُحْكَمًا، [فهي] في عنقها تعذب بها في النار^(٤).



(١) ورجحه الطبري.

(٢) قال ابن كثير: ﴿أَمْرًا كَثِيرًا حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾ كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناؤه، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمْرًا كَثِيرًا حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾ في جديها حَبْلٌ مِنْ نَسِيمٍ يعني تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه وهي مهية لذلك مستعدة له. قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد، وأحمد بن إسحاق، قالوا: حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿بِئْسَ مَا كَانَتْ تَكْتُمُ﴾ جاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالساً ومعه أبو بكر، فقال له أبو بكر: لو تنحيت لا تؤذيك بشيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ سِيحَالٌ بَيْنِي وَبَيْنَهَا»، فأقبلت حتى وقعت على أبي بكر وقالت: يا أبا بكر هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به، فقالت: إنه لمصنَّق، فلما ولت، قال أبو بكر: ما رأيتك، قال: «مَا زَالَ مَلِكٌ يَسْتُرُنِي حَتَّى وَلَّتْ» ثم قال البزار: لا تعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد عن أبي بكر ﷺ. وحسن إسناده أيضاً الحافظ في «الفتح» ٥٦٧/٨.

(٣) الرجز لعمارة بن طارق، وقال أبو عبيدة: لعبة الهجيمي، وهو في «مجاز القرآن» ٣١٥/٢، والطبري ٣٤١/٣، والقرطبي ٢٤٢/٢٠، و«اللسان»: مسد. وقوله «أمر» أي قتل فتلاً شديداً، والأيانق، جمع ناقة، والصهب، جمع الأصهب، وهو يعبر ليس بشديد البياض، والعناق جمع عتيق، وهو الكريم. وزهق المخ: إذا اكتنز (اجتمع) لحمه، فهو زاهق.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو حبل جمع من أنواع مختلفة. قال ابن كثير: وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فِي جَدِيهَا حَبْلٌ مِنْ نَسِيمٍ﴾ في عنقها حبل من نار جهنم ترفع به إلى شفيرها ثم ترمى إلى أسفلها، ثم كذلك دائماً.

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَكَ يَدٌ وَكَمْ يُولَدُ ﴿٣﴾ وَكَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾

وفيها قولان: أحدهما: أنها مكية، قاله ابن مسعود، والحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر. والثاني: مدنية، روي عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك. وقد روى البخاري في أفراده من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده إنها لتعبدن ثلث القرآن»^(١). وروى مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إنها تعدل ثلث القرآن»^(٢). وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة، قاله أبي بن كعب^(٣). والثاني: أن عامر بن الطفيل قال لرسول الله ﷺ: إلام تدعوننا يا محمد؟ قال: إلى الله ﷻ. قال: صفه لي، أمن ذهب هو، أو من فضة، أو من حديد، فنزلت هذه السورة، قاله ابن عباس^(٤). والثالث: أن الذين قالوا هذا، قوم من أخبار اليهود قالوا: من أي جنس هو، وممن ورث الدنيا، ولمن يورثها؟ فنزلت هذه السورة، قاله قتادة، والضحاك^(٥). قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمز، والكسائي «أَحَدُ اللَّهِ» وقرأ أبو عمرو «أَحَدُ اللَّهِ» بضم الدال، ووصلها باسم الله. قال الزجاج: هو كناية عن ذكر الله ﷻ. والمعنى: الذي سألتم تبين نسبه هو الله. و«أَحَدٌ» مرفوع على معنى: هو أحد، فالجنى: هو الله. وهو أحد. وقرئت «أَحَدُ اللَّهِ الصَّمَدُ» بتنوين أحد. وقرئت «أَحَدُ اللَّهِ» بترك التنوين، وقرئت بإسكان الدال «أَحَدُ اللَّهِ» وأجودها الرفع بإثبات التنوين، وكثير التنوين لسكونه وسكون اللام في «اللَّهُ»، ومن حذف التنوين، فلالتقاء الساكنين أيضاً، ومن أسكن أراد الوقف ثم ابتدأ «اللَّهُ الصَّمَدُ» وهو أردوها. فأما «الأحد» فقال ابن عباس، وأبو عبيدة: هو الواحد. وفرّق قوم بينهما. وقال أبو سليمان الخطابي: [الواحد]: هو المنفرد بالذات، فلا يضاويه أحد. والأحد: هو المنفرد بالمعنى، فلا يشاركه فيه

(١) رواه البخاري في «صحيحه» ١٠٥/٦ باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ولفظه بتمامه: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددّها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتفألها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن».

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» ٥٥٧/١ ولفظه بتمامه: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أحسدوا (اجتمعوا) فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فتحدّ من تحدّد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خيرٌ جاء من السماء، فذاك الذي أدخله، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: «إني قلت لكم: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن».

(٣) رواه أحمد في «المسند» ١٣٣/٥، والترمذي ١٧٢/٢، والطبري ٣٠٠/٣٢٢، والواحدى في «أسباب النزول» ٣٤٦ من حديث أبي سعد الصغاني عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالقة عن أبي بن كعب وفي سنده ضعف. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٤٤٠/٣ أيضاً من حديث أبي سعد الصغاني به، وصححه، ووافقه الذهبي. وأورده السيوطي في «الدر» ٤٠٩/٦، وزاد نسبه للبخاري في «تاريخه»، وابن خزيمة، وابن أبي حاتم في «السنن»، والبخاري في «معجمه»، وابن المنذر في «العظمة»، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي بن كعب ﷺ. ورواه الترمذي ٢/١٧٢ عن عبد بن حميد عن عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالقة فذكره مرسلًا، ولم يذكر فيه عن أبي بن كعب، وقال: وهذا أصح من حديث أبي سعد الصغاني. ورواه الطبراني عن محمد بن عوف عن شريح عن إسماعیل بن مجالد عن الشعبي عن جابر. وذكره ابن كثير من رواية أبي يعلى الموصلي من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر، وأورده الحافظ الهيثمي في «معجم الزوائد» ١٤٦/٧ من رواية الطبراني في «الأوسط» وأبي يعلى. قال ابن كثير: وقد أرسله غير واحد من السلف، قال: وروى عبيد بن إسحاق العطار عن قيس بن الربيع عن أبي عاصم عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال: قال الطبراني: ورواه القريائي وغيره عن قيس عن أبي عاصم عن أبي وائل مرسلًا، قال: ثم روى الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عثمان الطرائفي عن الوازع بن مانع عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لكل شيء نسبة، ونسبة الله: قل هو الله أحد. فهذه الروايات كلها شواهد لحديث أبي ﷺ.

(٤) ذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بغير سند.

(٥) رواه الطبراني ٣٠٠/٣٤٣ عن قتادة مرسلًا، وذكره السيوطي في «الدر» ٤١٠/٦ من رواية الطبراني في «السنن» عن الضحاك مرسلًا.

أحد. وأصل «الأحد» عند النحويين: الوجد، ثم أبدلوا من الواو الهمزة. وفي «الصكك» أربعة أقوال: أحدها: أنه السيد الذي يُصمَدُ إليه في الحوائج، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(١). وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: الصمد: السيد الذي قد كمل في سُؤدِهِ^(٢). قال أبو عبيدة: هو السيد الذي ليس فوقه أحد. والعرب تسمي أشرافها: الصمد. قال الأسدي:

لَقَدْ بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِي بَنِي أَسَدٍ
بِعَمْرٍو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ^(٣)

وقال الزجاج: هو الذي ينتهي إليه السُّؤدُ، فقد صمد له كل شيء قصد قصده. وتأويل صمود كل شيء له: أن في كل شيء أثر صنعه. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد: السيد الذي ليس فوقه أحد يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم. والثاني: أنه الذي لا جوف له، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن جبير، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي. وقال ابن قتيبة: فكان الدال من هذا التفسير مبدلة من تاء، والمصمت من هذا. والثالث: أنه الدائم. والرابع: الباقي بعد فناء الخلق، حكاهما الخطابي وقال: أصح الوجوه الأول، لأن الاشتقاق يشهد له، فإن أصل الصمد: القصد. يقال: اصمد صمد فلان، أي اقصد قصده. فالصمد: السيد الذي يصمد إليه في الأمور، ويقصد في الحوائج.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ﴾ قال مقاتل: لم يلد فيورث ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيشارك، وذلك أن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الرحمن. وقالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فبراً نفسه من ذلك. قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ قرأ الأكثرون بالثقل والهمز. ورواه حفص بالثقل وقلب الهمز واواً. وقرأ حمزة بسكون الفاء. والكفاء: المثل المكافئ. وفيه تقديم وتأخير، تقديره: ولم يكن له أحد كُفُوًا، فقدم وأخر لتفتق رؤوس الآيات.



(١) ذكره الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٦/٣٠٨ من تفسير ابن عباس موقوفاً عليه، وهو جزء من حديث طويل في باب: كيف يفسر القرآن بالقرآن، قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني وفي إسناده جوير، وهو متروك.

(٢) وهو في الطبري ٣٠/٣٤٦ بلفظ: الصمد: السيد الذي قد كمل في سُؤدِهِ، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفة لا تنبغي إلا له.

(٣) البيت لسيرة بن عمرو الأسدي، وهو في «مجاز القرآن» ٢/٣١٦، و«تهذيب الألفاظ» ٢٧٠، و«السمط» ٩٣٣، والطبري ٣٠/٣٤٧، والقرطبي ٢٠/٢٤٥، و«اللسان»: صمد.

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴿

وفيها قولان: أحدهما: مدنية، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة في آخرين. والثاني: مكية، رواه كريب عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر. والأول أصح، ويدل عليه أن رسول الله ﷺ سحر وهو مع عائشة، فنزلت عليه المعوذتان. فذكر أهل التفسير في نزولهما: أن غلاماً من اليهود كان يخدم رسول الله ﷺ، فلم يزل به اليهود حتى أخذ مُشَاطَةَ رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وعدة أسنانٍ من مُشْطِهِ، فأعطاهما اليهود فسحروه فيها. وكان الذي تولى ذلك لبيد بن أعصم اليهودي. ثم دسها في بئر لبني زريق، يقال لها: بئر ذروان. ويقال: ذي أروان^(١)، فمرض رسول الله ﷺ، وانتشر شعر رأسه، وكان يرى أنه يأتي النساء وما يأتيهن، ويخيّل إليه أنه يفعل الشيء، وما يفعله، فبينما هو ذات يوم نائم أتاه ملكان، فقعده أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما بال الرجل؟ قال: طُبِّ، قال: وما طُبُّ؟ قال: سُجِّر. قال: ومن سَحَره؟ قال: لبيد بن أعصم. قال: وبم طَبُّه؟ قال: بِمُشْطِ وَمُشَاطَةِ. قال: وأين هو؟ قال: فِي جُفِّ طَلْعِ^(٢) تحت راعوفة في بئر ذروان - والنجف: قشر الطلع. والراعوفة: صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت^(٣) - فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقّي عليها، فأنبت رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة أما شعرت أن الله أخبرني بدائي»، ثم بعث علياً، والزبير، وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء تلك البئر، ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الجُفَّ، وإذا فيه مُشَاطَةُ رَأْسِهِ، وأسنان مشطه، وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة [مغرورة بالبرية، فأنزل الله تعالى المعوذتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة^(٤)]. ووجد رسول الله ﷺ خِفَّةً حين انحلت العُقْدَةُ الأخيرة. وجعل جبريل ﷺ يقول: بسم الله أريق من كل شيء يؤذيك، ومن حاسد وعين، والله يشفيك. فقالوا: يا رسول الله، أفلا نأخذ الخبيث فنقتله؟ فقال: «أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً^(٥)». وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث عائشة حديث سحر رسول الله ﷺ^(٦)، وقد بينا معنى «أعوذُ» في أول كتابنا^(٧). وفي «الْفَلَقِ» ستة أقوال: أحدها: أنه الصبح، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والقرظي، وابن زيد، واللغويون قالوا: ويقال: هذا أبين من قَلَقَ الصبحَ وَفَرَّقَ الصبحَ. والثاني: أنه الخَلْقُ، رواه الوالبي عن ابن عباس. وكذلك قال الضحاك: الفَلَقُ: الخَلْقُ كُلُّهُ. والثالث: سيحْنٌ في جهنم، روي عن ابن عباس أيضاً. وقال وهب والسدي: جُبُّ في جهنم. وقال ابن السائب: وإد في جهنم. والرابع: شجرة في النار، قاله

(١) في الأصل: ويقال: أروان، والتصحيح من «القرظي». وهي بئر بالمدينة في بستان بني زريق.

(٢) الجف - بضم الجيم وتشديد الفاء: الغشاء الذي يكون على الطلع. (٣) في النسخة الإستنبولية: إذا احضرت.

(٤) زيادة سقطت من الأصل، واستدركتها من النسخة الإستنبولية.

(٥) ذكره ابن كثير بنحوه من رواية الثعلبي في «تفسيره» بلا إسناد، قال: وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد، والله أعلم. وبغني عن هذه الرواية رواية الصحيحين التي بعدها.

(٦) رواه البخاري في «صحيحه» ١٠/١٩٢ - ١٩٩، ومسلم ٤/١٧١٩ عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وهو حديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، وقد رواه أيضاً أحمد في «المستدرك» عن زيد بن أرقم وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ورواه النسائي عن زيد بن أرقم، وابن ماجه عن عائشة، وابن مردويه والبيهقي عن عائشة، وابن مردويه عن ابن عباس، وغيرهم.

وانظر أقوال العلماء مفصلة في سحر رسول الله ﷺ في تعليقنا على هذا الكتاب (صفحة ٩١١ - ٩١٢).

(٧) (صفحة ٣١).

عبد الله بن عمرو^(١). والخامس: أنه كُلُّ ما انفلق عن شيء كالصبح، والحَبُّ، والتَّوى، وغير ذلك، قاله الحسن. قال الزجاج: وإذا تأملت الخلق بَانَ لك أن أكثره عن انفلاق، كالأرض بالنبات، والسحاب بالمطر. والسادس: أنه اسم من أسماء جهنم، قاله أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد الحبلي^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَنْسُفُ مَا خَلَقَ﴾ ﴿١٠﴾ وقرأ ابن السميع، وابن يعمر: «خُلِقَ» بضم الخاء، وكسر اللام. وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه عام، وهو الأظهر. والثاني: أن شر ما خُلِقَ: إبليسُ وذُرِّيته، قاله الحسن. والثالث: جهنم، حكاه الماوردي. وفي «غاسق» أربعة أقوال: أحدها: أنه القمر، روت عائشة قالت: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر، فقال: «استعدي بالله من شره فإنه الغاسق إذا وقب»، رواه الترمذي، والنسائي في كتابيهما^(٣). قال ابن قتيبة: ويقال: الغاسق: القمر إذا كسف فاسودَّ. ومعنى «وَقَبَ» دخل في الكسوف. والثاني: أنه النجم، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ^(٤). والثالث: أنه الليل، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والقرظي، والفراء، وأبو عبيد، وابن قتيبة، والزجاج. قال اللغويون: ومعنى «وَقَبَ» دخل في كل شيء فأظلم. و«الغسق» الظلمة. وقال الزجاج: الغاسق: البارد، فقيل لليل: غاسق، لأنه أبرد من النهار. والرابع: أنه الثريا إذا سقطت، وكانت الأسقام، والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها، قاله ابن زيد^(٥). فأما «الْتَفَنَّتْ» فقال ابن قتيبة: هن السواحر ينفثن، أي: يَتَفَنَّئْنَ إذا سحرن، ورَقَّتَيْن. قال الزجاج: يَتَفَنَّئْنَ بلا ريق، كأنه نفخ. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: تفسير تَفَنَّتْ: نَفَخَ نفخاً ليس معه ريق، ومعنى تفل: نفخ نفخاً معه ريق. قال ذو الرُّمَّة:

ومن جَوفِ ماءٍ عَرَضَ الحَوْلِ قَوْفُهُ
متى يَخْسُ منه مائِحُ القومِ يَخْفُلُ^(٦)

وقد روى ابن أبي سُرَيْج^(٧) «التفائنات» بألف قبل الفاء مع كسر الفاء وتخفيفها^(٨). وقال بعض المفسرين: المراد بالتَّفَائِنَاتِ هاهنا: بنات لبيد بن أعصم اليهودي سحرن رسول الله ﷺ. «وَمِنْ سَكْرِ حَاسِدٍ» يعني: اليهود حسدوا رسول الله ﷺ. وقد ذكرنا حدَّ الحسد في [البقرة: ١٠٩]. والحسد: أخس الطبايع. وأوَّلُ معصية عُصِيَ الله بها في السماء حَسَدُ إبليس لآدم، وفي الأرض حَسَدُ قايِلِ هَابِيلَ^(٩).



(١) في النسخة الاستنبولية (عبد الله بن عمرو) وهو كذلك في «القرطبي».

(٢) قال ابن جرير: والصبوب القول الأول: أنه فلق الصبح. وقال ابن كثير: وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري في «صحيحه» رحمه الله تعالى.

(٣) الترمذي ١٧٢/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه أحمد في «المستدرك» ٦١/٦، وابن جرير الطبري ٣٠/٣٥٢، والحاكم في «المستدرک» ٢/٥٤١ وصححه، وواقفه الذهبي. وأورده السيوطي في «الدر» ٦/٤١٨ وزاد نسبه لابن المنذر، وأبي الشيخ في «العظمة»، وابن مردويه عن عائشة ؓ.

(٤) رواه ابن جرير الطبري ٣٠/٣٥٢ من رواية محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة. قال ابن كثير: وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ.

(٥) قال الشوكاني في «فتح القدير»: وهذا محتاج إلى نقلي عن العرب أنهم يصفون الثريا بالنسوق.

(٦) «ديوانه» طبع المكتب الإسلامي صفحة (٦٠٠). والجوف: المطمئن من الأرض، والمرض: الخضرة التي تملو الماء، وهي المرض، والعلق، والطحلب، والشبا. والمائع: الذي ينزل البثر فيملا الدلو. والمائع: الذي يجذب الدلو. وفي «الأساس»: وذاق ماء البحر فقله، أي: صبه كراهةً له.

(٧) ابن أبي سريج، هو أحمد بن الصباح، أبو جعفر الرازي، الثقة البت، وهو شيخ البخاري، وأحد أصحاب الشافعي، قرأ على الكسائي.

(٨) قال القرطبي: وقرأ عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن سابط، وعيسى بن عمر، ورويس عن يعقوب «التفائنات» في وزن «فاعلات» ورويت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر ؓ.

(٩) وانظر قصتهما في [سورة المائدة: ٢٧].

سورة الناس

وفيها قولان: أحدهما: أنها مدنية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها مكية، رواه أبو كريب عن ابن عباس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِنَا النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

فإن قيل: لم خصّ الناس هاهنا بأنه ربُّهم، وهو ربُّ كل شيء؟ فعنه جوابان: أحدهما: لأنهم معظّمون متميِّزون على غيرهم. والثاني: لأنه لما أمر بالاستعاذة من شرِّهم أعلم أنه ربهم، ليعلم أنه هو الذي يعيد من شرِّهم. ولما كان في الناس ملوك قال تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ﴿١﴾ ولما كان فيهم من يعبد غيره قال تعالى: ﴿إِلَهِنَا النَّاسِ﴾ ﴿٢﴾. ﴿١﴾. و﴿الْوَسْوَاسِ﴾ الشيطان، وهو ﴿الْخَنَّاسِ﴾ يوسوس في الصدور، فإذا ذكّر الله، خَسَسَ، أي: كَفَّ وأقصر. قال الزجاج: الوسواس هنا: ذو الوسواس. وقال ابن قتيبة: الصدور هاهنا: القلوب. قال ابن عباس: الشيطان جائم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل، وسوس، فإذا ذكّر الله، خَسَسَ.

قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ﴿١﴾ وفي معنى الآية قولان: أحدهما: يوسوس في صدور الناس جتّهم وناسهم، فسمى الجن هاهنا ناساً، كما سّماهم رجالاً في قوله تعالى: ﴿يُؤَدُّونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، وسماههم نفراً بقوله تعالى: ﴿اسْتَمَعَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، هذا قول الفراء. وعلى هذا القول يكون الوسواس موسوساً للجن، كما يوسوس للإنس. والثاني: أن الوسواس: الذي يوسوس في صدور الناس، هو من الجنّة، وهم من الجن. والمعنى: من شر الوسواس الذي هو من الجن. ثم عطف قوله تعالى: ﴿وَالنَّاسِ﴾ على ﴿الْوَسْوَاسِ﴾. والمعنى: من شر الوسواس، ومن شر الناس، كأنه أمر أن يستعيذ من الجن والإنس، هذا قول الزجاج (٢).

قال الشيخ رحمه الله: فهذا آخر «زاد المسير»، والحمد لله على الإنعام الغزير، وإذ قد بلغنا بحمد الله مرادنا مما أملنا، فلا يعتقّدن من رأى اختصارنا أننا أقللنا، فإننا قد أشرنا بما ذكرنا إلى ما تركنا ودللنا، فليكن الناظر في كتابنا متيقظاً لما أغفلنا، فإننا ضمنا الاختصار مع نيل المراد، وقد فعلنا. ومن أراد زيادة بسط في التفسير، فعليه بكتابنا «المعني في التفسير». فإن أراد مختصراً، فعليه بكتابنا المسمى بـ «تذكرة الأريب في تفسير الغريب». والحمد لله رب

(١) قال ابن كثير: هذه ثلاث صفات من صفات الرّبِّ عز وجل: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء، ومليكه، وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة، عبيد له، فأمر المستعبد أن يتموّد بالمتصف بهذه الصفات، من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخيال، والمصوم من عصمه الله. وروى مسلم في «صحيحه» ٢١٦٧/٤ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير». وقوله: «فأسلم» برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمن رفع قال: معناه: أسلم أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: إن القرين أسلم من الإسلام، وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير. قال القاضي عياض: وأعلم أن الأمة مجتمعمة على عصمة النبي صلى الله عليه وآله من الشيطان في جسمه وخطأه ولسانه، وفي هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه، فأعلمنا بأن معنا، لنحتز منه بحسب الإمكان. وثبت في «الصحيحين» عن أنس في قصة زيارة صفة للنبي صلى الله عليه وآله وهو معتكف وخروجه معها ليلاً ليردّها إلى منزلها، فلقبه رجلاً من الأنصار، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وآله أسرع، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «على وسلكما إنها صفة بنت حبي»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وآله: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإنني خشيت أن يفلد في قلوبكما شيئاً - أو قال: شراً».

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ١١٦/١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلّموا أو يعملوا».

العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آبيه آدم، وذريته الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

تم بعون الله تعالى وتوفيقه طبع هذا التفسير القيم
وقد قام بمقابلة أصوله الخطية، وتصحيحه
وتفصيله وترقيمه، وتخريج نصوصه،
والتعليق عليه، والإشراف على طبعه
الأساتذة

محمد زهير الشاويش، وشعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دمشق

الأربعاء ١٧ رجب الفرد ١٣٨٨ هـ

الموافق ٩ تشرين الأول ١٩٦٨ م



الفهارس

* فهرس الآيات

* فهرس الأحاديث

* فهرس الأشعار



[Faint, illegible text, possibly a list or index]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[Faint, illegible text, possibly a list or index]

فهرس السور

الصفحة	رقم	السورة	الصفحة	رقم	السورة
١١١٢	٣٣	سورة الأحزاب	٣٣	١	سورة الفاتحة
١١٤٢	٣٤	سورة سبأ	٣٧	٢	سورة البقرة
١١٥٧	٣٥	سورة فاطر	١٧٧	٣	سورة آل عمران
١١٦٧	٣٦	سورة يس	٢٥٣	٤	سورة النساء
١١٨٢	٣٧	سورة الصافات	٣٥٠	٥	سورة المائدة
١٢٠٠	٣٨	سورة ص	٤٢٤	٦	سورة الأنعام
١٢٢٣	٣٩	سورة الزمر	٤٨٣	٧	سورة الأعراف
١٢٣٩	٤٠	سورة غافر (المؤمن)	٥٣٩	٨	سورة الأنفال
١٢٥٢	٤١	سورة فصلت أو السجدة	٥٦٥	٩	سورة التوبة
١٢٦٣	٤٢	سورة الشورى	٦١٥	١٠	سورة يونس
١٢٧٤	٤٣	سورة الزخرف	٦٤١	١١	سورة هود
١٢٨٧	٤٤	سورة الدخان	٦٧٩	١٢	سورة يوسف
١٢٩٣	٤٥	سورة الجاثية	٧٢٤	١٣	سورة الرعد
١٢٩٨	٤٦	سورة الأحقاف	٧٤٠	١٤	سورة إبراهيم
١٣٠٨	٤٧	سورة محمد ﷺ	٧٥٣	١٥	سورة الحجر
١٣١٦	٤٨	سورة الفتح	٧٧٠	١٦	سورة النحل
١٣٢٨	٤٩	سورة الحجرات	٨٠١	١٧	سورة الإسراء
١٣٣٨	٥٠	سورة ق	٨٣٧	١٨	سورة الكهف
١٣٤٧	٥١	سورة الذاريات	٨٧٦	١٩	سورة مريم
١٣٥٤	٥٢	سورة الطور	٨٩٩	٢٠	سورة طه
١٣٦٠	٥٣	سورة النجم	٩٢٤	٢١	سورة الأنبياء
١٣٦٩	٥٤	سورة القمر	٩٤٧	٢٢	سورة الحج
١٣٧٦	٥٥	سورة الرحمن	٩٦٩	٢٣	سورة المؤمنون
١٣٨٥	٥٦	سورة الواقعة	٩٨٤	٢٤	سورة النور
١٣٩٦	٥٧	سورة الحديد	١٠١٠	٢٥	سورة الفرقان
١٤٠٤	٥٨	سورة المجادلة	١٠٢٦	٢٦	سورة الشعراء
١٤١٢	٥٩	سورة الحشر	١٠٤٠	٢٧	سورة النمل
١٤٢٣	٦٠	سورة الممتحنة	١٠٥٧	٢٨	سورة القصص
١٤٣٠	٦١	سورة الصف	١٠٧٦	٢٩	سورة العنكبوت
١٤٣٣	٦٢	سورة الجمعة	١٠٨٩	٣٠	سورة الروم
١٤٣٨	٦٣	سورة المنافقون	١٠٩٩	٣١	سورة لقمان
١٤٤١	٦٤	سورة التغابن	١١٠٦	٣٢	سورة السجدة

الصفحة	رقم	السورة	الصفحة	رقم	السورة
١٥٥١	٩٠	سورة البلد	١٤٤٤	٦٥	سورة الطلاق
١٥٥٥	٩١	سورة الشمس	١٤٥٠	٦٦	سورة التحريم
١٥٥٨	٩٢	سورة الليل	١٤٥٦	٦٧	سورة الملك
١٥٦١	٩٣	سورة الضحى	١٤٥٩	٦٨	سورة القلم (ن)
١٥٦٤	٩٤	سورة الانشراح	١٤٦٦	٦٩	سورة الحاقة
١٥٦٦	٩٥	سورة التين	١٤٧١	٧٠	سورة المعارج
١٥٦٨	٩٦	سورة العلق	١٤٧٥	٧١	سورة نوح
١٥٧٠	٩٧	سورة القدر	١٤٧٨	٧٢	سورة الجن
١٥٧٥	٩٨	سورة البينة	١٤٨٢	٧٣	سورة المزمل
١٥٧٧	٩٩	سورة الزلزلة	١٤٨٦	٧٤	سورة المدثر
١٥٧٩	١٠٠	سورة العاديات	١٤٩٢	٧٥	سورة القيامة
١٥٨١	١٠١	سورة القارعة	١٤٩٦	٧٦	سورة الإنسان (الدهر)
١٥٨٣	١٠٢	سورة التكاثر	١٥٠٢	٧٧	سورة المرسلات
١٥٨٦	١٠٣	سورة العصر	١٥٠٦	٧٨	سورة النبأ
١٥٨٧	١٠٤	سورة الهمزة	١٥١٠	٧٩	سورة النازعات
١٥٨٩	١٠٥	سورة الفيل	١٥١٥	٨٠	سورة عبس
١٥٩٢	١٠٦	سورة قريش	١٥١٩	٨١	سورة التكوير
١٥٩٤	١٠٧	سورة الماعون	١٥٢٢	٨٢	سورة الانفطار
١٥٩٦	١٠٨	سورة الكوثر	١٥٢٤	٨٣	سورة المطففين
١٥٩٨	١٠٩	سورة الكافرون	١٥٢٨	٨٤	سورة الانشقاق
١٥٩٩	١١٠	سورة النصر	١٥٣١	٨٥	سورة البروج
١٦٠٠	١١١	سورة تبت	١٥٣٤	٨٦	سورة الطارق
١٦٠٢	١١٢	سورة الإخلاص	١٥٣٧	٨٧	سورة الأعلى
١٦٠٤	١١٣	سورة الفلق	١٥٤٠	٨٨	سورة الغاشية
١٦٠٦	١١٤	سورة الناس	١٥٤٣	٨٩	سورة الفجر

فهرس الأحاديث مرتباً على الحروف الهجائية

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
٢٣٦	أذهب فتاد في الناس	٩٨٨	حرف الهمزة - همزة الوصل
٥٠١	أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غابياً	١٥٧١	اتني بأربعة شهداء وإلا فحد في ظهرك
٧٢٩	ارجع إليه فادعه	٤٦١	ابتغوها في العشر الأواخر في الوتر منها
٣٦٣	ارجع فأحسن وضوءك	١٤١٧	اتركهم حتى يتوب تائبهم
١٣٣	استحيوا إن الله لا يستحي من الحق	١٠٣٩	اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم
١٦٠٥	استعذبني بالله من شره فإنه الغاسق إذا وقب	٧٦٤	اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة
٥٩٩، ٢٥١	استغفروا لأخيكم وسلوا له الثبوت فإنه الآن يسأل	١١٢٦	اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله
٦٧٦	استقم ولتحسن خلقك	٦٧٦	اتق الله
٢٥٣	استوصوا بالنساء خيراً	١٣٠٥	اتق الله حيثما كنت
٢٩٧	إلى جارك	٩٩٢، ٢٧٥، ١٦٩	اجْتَمَعُوا إِلَيَّ فِي قِتْلٍ كَانَ بَيْنَهُمْ
٨٦٤، ٢٩٧	اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يبلغ الجدر	١٥٣٧، ١٣٩٥	اجتنبوا السبع الموقبات
٧٨٥	اسقه عسلاً	١٥٣٧ و ١٣٩٥	اجعلوها في ركوعكم
١٥٨٢	اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً	٥٩٣	اجعلوها في سجودكم
١٣٦٩	اشهدوا	١٣٣٤	احبسوا عليَّ الركب
٩٦٠	اصبروا فإنني لم أؤمر بالقتال	١٦٠٢	احترسوا من الناس بسوء الظن
٩٩٤	اصرف بصرك	٢٧٠	احشدوا فإنني سأقرأ عليكم ثلث القرآن
١٣١	اصنعوا كل شيء إلا النكاح	٢٥٥	اختر أيتهما شئت
١٥٧١	اطلبوها الليلة، أي في ليلة ثلاث وعشرين	٥٤٩	اختر منهن أربعة
٢٥٤	اعبد الله كأنك تراه	٣٨٠	اخرجوا إليه واكنموا
٦٧٦	اعبد الله ولا تشرك به شيئاً	٥٦٦	اخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله
٣٨٠	اغزوا باسم الله في سبيل الله	٨٢٦	اخرج بهذه القصة من صدر براءة
١٤٥٢	اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر	١١٣٩	اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس
٢٨٣	اقرأ عليَّ القرآن	١٠٨	اخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق
٣٧	اقروا الزهراوين: البقرة وآل عمران	١٤٥٢	ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة
٣٨٢	اقطعوا يدها	١١٢٧	ادعي لي أباك وأخاك
١٥٧١	التمسوها في تسع يقين	١٣١٧	اذكراها عليَّ
١٥٧١	التمسوها في العشر الأواخر من رمضان	١٣٣٠	أذهب إلى قريش فأخبرهم أنا لم تأت لقتال أحد
١٥٧٠	التمسوا ليلة القدر ليلة سبع وعشرين	١١٢٨	أذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة
	حرف الهمزة - همزة القطع	٥٣٩	أذهب فاذكراها علي
٩٨٩	أبشري فقد أنزل الله براءتك	٥٣٩	أذهب فاطرحه في القبض
٨٩١	أبطأت علي حتى ساء ظني	٥٣٩	أذهب فخذ سيفك
٥٦١	أبكي للذي عرض علي أصحابك من الفداء	٥٩٣	أذهب فسلهم عما كانوا يضحكون منه، وقل لهم:
١٤٥٢	أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة		أحرقكم الله

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٣٣٢	إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب	٤١١	أبوك حذافة
٣٥٤	إذا رميت بالمعراض فخرق فكله	١١٧٨	أتجعل نهيي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة
٧١٨	إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب	٢٠٤	احلف
٨٧٣	إذا سألتهم الله الجنة فاسألوه الفردوس	١٥٧٧	أتدرون ما أخبأها
١٤٣٦	إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة	١٠١٩	أتدرون ماذا قال ربكم
١١٣٨	إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله عز وجل والثناء عليه	١٣٣٥	أتدرون ما الغيبة
١٦٩	إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله	٩٢١	أتدرون ما المعيشة الضنك
٣٥	إذا قال الإمام «عَبْرَ الْمُتَضَرِّبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّكَّالِينَ»	١٧٥	أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم
٥٣٨	إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان	١٢٠٢	أتعطوني كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم
	إذا قضى الله عز وجل الأمر في السماء ضربت الملائكة	١٥٩٦	أتيت على نهر حثافه قباب للؤلؤ مجوف
١١٤٩	بأجنحتها	٩٣٨	أجدني مضموماً
١١٣٤	إذا كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما	٩٣٨	أجدني مكروباً
٣٥٨	إذا لم تصطحبوا ولم تغتبقوا ولم تحفثوا بقلأ فشانكم	٣٤٨	أجورهم يدخلهم الجنة
١١٦٩ ، ١٠٢٥	إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث	١٠٢١	أحب حبيك هوناً ما
١٥٨١	إذا مات العبد تلقى روحه أرواح المؤمنين	١٢٠٥	أحب الصيام إلى الله صيام داود
٧٣٧	إذا مضت على النطفة خمس وأربعون ليلة	٣٥٤	أحل لكم ميتتان ودمان
٣٣٩	إذا نزلتم يقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف	٥٢٧	أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان
٣٥٦	إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة	٣٣٩	أخرج متاعك فضعه على الطريق
١٤٥١	أراه من شرب شرابه عند سودة والله لا أشربه	١٣٥٩	إدبار السجود الركعتان بعد المغرب
١٦٠٠	أرايتكم إن أخيرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم	٢٩٤	أد الأمانة إلى من ائتمنك
١٥٧١	أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر	١٦٠٢	أدعوكم إلى الله عز وجل
١١٥٤	أرايتكم لو أخيرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم	١٣٣٦	إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجه
١٤٣٠	أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً	١٠٢١	إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون
٢١٠	أربعون سنة	٧٥٤	إذا اجتمع أهل النار في النار
٢٩٣	أرني المفتاح إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر	٨٩٨	إذا أحب الله عبداً قال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأجبهوه
١١١٦	أريت دار هجرتكم أرض بين حرتين	٩١٢	إذا أخذتم الساحر فاقتلوه
١٥٧١	أريت ليلة القدر ثم أنسيتهما	٦٧٦	إذا أسأت فأحسن
٤٩١	الأزم دواء والمعدة داء	٩٩٣	إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليصرف
٣٦٣	أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار	١٥٨٢	إذا اشتد الحر فأبردوا
٣٧٨	الإسلام يهدم ما كان قبله	١٢٢٨	إذا اقشمر جلد العبد من خشية الله تحانت ذنوبه
٦٠٧	أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً	١٥٦٥	إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدؤوا بالشاء
١٠٧٦	أشد الناس بلاء الأنبياء	١٤١٦	إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم
١٣٢٧	أصحابي أمة	١٥٥٦	إذ أتيت أشقاها أتيت لها رجل عزيز عارم
٥٦٢	أضعفوا على العباس الفداء	١١٤٩	إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء
٣١٣	أظنه قد أحدث حدثاً	٣٦٤	إذا تروأ العبد المسلم أو المؤمن
	أعذر الله عز وجل إلى امرئ آخر عمره حتى بلغ ستين	١٤٣٧	إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين
١١٦٤	سنة	١٣٧٤	إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة
٢٦١	أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن	١٣٣٤	إذا حسدت فاستغفر
١١٥١ ، ٢٢٩	أعطيت حسناً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي		إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة
٨٨	أعوذ بك من دعاة لا يسمع	١٣٠٩	والنار
١٤٦٥	أعيدكما بكلمات الله التامة	٦٢٢	إذا دخل أهل الجنة الجنة
١٣٤٨	أفقتوا السلام وأطعموا الطعام	٨٨٦	إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
٢٣١	إني عباد الله، أنا رسول الله	١٤٩٨	أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح
٣٢٢	أما إذا قلتما فاذعبا فانتسما	١٤١٦	أفضل الصدقة جهد المقل
١٠٢١	أما إن ملكاً بينكما يذب عنك	١٣٢	أقبل وأدبر وأتق الدبر والحبيضة
١٦٠٤	أما أنا فقد شفاني الله وأكره أن أثير على الناس شراً	٣١٥	أقتله بعدما قال: أمنت؟!
٥٧٨	أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم	١٥٦٩	أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد
١١٢٤	أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر	١٣٣٦	أكرمهم عند الله اتقاهم
٥٩٦	أما ترضى أن تكون مثل نبي الله	٧٤٦	أكرموا عمتكم النخلة
١١٦٣	أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب	٢٠٤	ألك بيته؟
٥٥٣	أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله	٢٣٦	ألم أعهد إليكم ألا تبرحوا
١١٠٢	أما ما ظهر للإسلام وما سوى الله من خلقك	١١١٠	ألم أنه عن القتال
٧٠٢	أما نقصان العقل	١٥٨٤	ألم نصبح لك جسمك ونزوك من الماء البارد
١٤٨٠	أمرت أن أسجد على سبعة أعظم	ألم يسفل الله: ﴿أَسْتَجِيبُا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكَ لِمَا يُحْيِيكَ﴾	٥٤٧
١٥٤٢	أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله	١١٣٠	ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم
٣٩٢	أمرني خليلي ﷺ بسبح	١٠٢٤، ٢٧٦	ألا أنبئكم بأكبر الكبائر
٨٤٤	أمرني رسول الله ﷺ أن اتخذ أنفاً من ذهب	١٤٦١	ألا أنبئكم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف
١١٢٦	أمسك عليك زوجك	٦٩٨	ألا احتطت فإن البضع ما بين السبع والتسع
١٤٢٣	أمسلمة جنت	١٤٣٥	ألا أحدثك عن يوم الجمعة؟ لا يتطهر رجل مسلم ثم يمشي إلى المسجد...
١٠٢٢، ٢٧٦	أن تجعل لله نداً وهو خلقك	٨٨٤	ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم
١٠٢٢	أن تزاني حليلة جارك	٢٢٥	ألا أخبركم بخير من ذلك
٢٠٨	أن تصدق وأنت صحيح شحيح	٢٥٢	ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا
١٠٢٢	أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك	١٣٦٦	ألا أخبركم لِمَ سُمِّيَ الله إبراهيم خليله ﴿الَّذِي وَدَّعَ﴾
٢١٣	أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى	٧٦٢	ألا أراكم تضحكون
٣٥٩	إن أرسلت كلبك وسميت فأخذ فقتل فكل	٩٩٥	ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا لا يدخلن عليكم
٤٢٣	إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم	١٠٩٥	ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم
٨٣١	إن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم	٥٨٢	ألا إن الزمان قد استدار
٨٥٤	إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه	١٥٧٥	ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة
١١٠٨	إن شئت أنبأتك بأبواب الخير	٣٢٢	ألا إنما أنا بشر وإنما أقضي بنحو مما أسمع
٤٦١	إن فعلت تصدقوني	١٦٠٢	ألا إنها تعدل ثلث القرآن
١٣٦٩	إن فعلت تؤمنون	٢٩٤	ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه
١٣٣٥	إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته	٣٩٧	ألا رجل صالح يحرسني الليلة
١٠٩	إن كان وسادك إذا لعريض	١٦٩	ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع
٧٠٤	أنا أكرم ولد آدم على ربه	٥٦٧	ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب
٣٦٩	أنا أولى الناس بعيسى	٥٦٦	ألا لا يحج بعد العام مشرك
٥٩٩	أنا بين خيرتين استغفر لهما أو لا تستغفر لهما	٥٦٧	ألا هل بلغت؟
١٣١٨	أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره	٤٢٢	ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم
٧٢٧	أنا المنذر	٥٦٧	أليست البلدة؟
١٤٢١	أنا عند ظن عبدي بي	٥٦٧	أليس ذا الحجة؟
١١٧٨	أنا النبي لا أكذب أنا ابن عبد المطلب	٥٦٧	أليس يوم النحر؟
١٥٦٣	أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا	٥٦٧	إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله
١٢٥	أنت أبصر	٣٥١	
٧٢٧	أنت الهادي يا علي بك يهتدى من بعدي		

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
٧٣٨	إن الله تعالى في ثلاث ساعات يبيِّن من الليل ينظر في الكتاب	١١٢٠	أنت يا طلحة ممن قضى نحبه
١٠٨٧	إن الله لم يأمرني بكتز الدنيا ولا باتباع الشهوات	١٥٤	أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقاء جالوت
٧٦٠	إن الله لم يمسخ شيئاً فيدع له نسلأ	١٣٧٤	أنتم خصماء الله
٣٩٤	إن الله لم يمسخ قومأ أو يهلك قومأ فيجعل لهم نسلأ	٤٥٣	أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى
٨٠٢	إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشرية فيحمد الله عليها	٣٥٣	انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً
١١٨٤	إن الله عز وجل يعجب من الشاب ليست له صبوة	٦٠٥	انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه
٥٩٦	إن الله معني أن أقبل منك صدقتك	١١٥٣	أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً
١٥٧٥	إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا	١٢٥	أنفق على نفسك
١٧٥	إن الله وضع عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه	١٣٦٦	إن أبي أدرته فريضة الحج شيخاً كبيراً
١٠٢١	إن الله يسطر يده بالليل ليتوب مسيء النهار	١٢٤٨	إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي
١٣٥٥	إن الله تعالى يجعل البحار كلها ناراً	١٤٤١ ، ٩٤٩	إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة
٣٥٨	إن الله يحب أن تؤتى رخصه	٣٣٧	إن أقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر
١٤٠٩	إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين	١٦٩	إن أرى الربا عرض الرجل المسلم
٤٨٥	إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الناس	١٣٩٤ ، ٩٥	إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة
١١٣٠	إن الله يسلم على أهل الجنة	١٣٢٦	إن أمي يأتون يوم القيامة غراً محجلين
١٥٠	إن الله يضاعف الحسنه ألف حسنة	٩٥٠	إن الإسلام لا يقال
١٠١٥	إن الله تعالى يطوي السموات بيمينه	٩٣٢	إن الجنة لا يدخلها المعاجز
٩٤٤	إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين	١٢٥٠	إن الدماء هو العبادة
٢٦٦	إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغفر	٥٦٧	إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق السموات والأرض
١٣٥٢	إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعطني	١٦٠٦	إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم
٢٨٣	إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة	١٥٢٩	إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء
٨٣٠	إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد	٩٩١	إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها
٤١١	إن الله لا يقبل إلا الطيب	٨٦٦	إن الغلام الذي قتل الخضر طبع كافراً
١١٥٢ ، ١٣٣٦	إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم	١٣٢٦	إن الكريم بن الكريم بن الكريم [ابن الكريم] يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم
٨٣٣	إن الذي أمشاه على رجله في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة	٧٠١	إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً
١٤٧٩ ، ١٣٣٢ ، ٢٥٥	إن للمقسطين عند الله على منابر من نور	٨٩٨	إن الله أعطاني السبع الطول مكان التوراة
١٢٥٧	إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة	١٣٢٨	إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾
٤١٤	إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه	١٥٧٥	إن الله بعثني مبلغاً ولم يعثني متعتاً
٢٥١	إن أول ثلة تدخل الجنة لفقراء المهاجرين	١١٢٢	إن الله تجاوز لي عن أمي ما حدثت به أنفسها
١٣٨٢	إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر	١٧٤	إن الله تعالى حاط حائط الجنة لبنه من ذهب ولبنه من فضة
١٦٩	إن أول دم أضع من دماتنا دم ابن ربيعة بن الحارث	٩٦٩	إن الله حرم مكة فلم تحل لأحد قبلي
٥٧٦	إن أول ما نبأ به في يومنا هذا أن نصلي	٤٠٩	إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض
١٥٨٤	إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة	٥٣	إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم
٤٢٥	إن بعدكم قومأ يخونون ولا يؤتمنون	١٣١٢	إن الله زوى لي الأرض فأريت مشارقتها ومغاريها
٦٩٠	إن ثلاثة خرجوا فلجؤوا إلى غار، فانطبقت عليهم صخرة	١٠٠٥ ، ٥٧٩	إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب
		٨٧٥	إن الله قد أذهب عنكم عبئ الجاهلية
		١٣٣٦	إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا
		١٣٦٥	إن الله كتب عليكم الحج
		٤١١	

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٤٩٤	إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر	٣٥٨	إن جبريل كان واعدني أن يلقاني
٢١٦	إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها	١٤٣	إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة
١٣٤٥	إنكم سترون ربكم عياناً	١٦٩	إن ذمائمكم وأموالكم حرام عليكم كحرمه يومكم هذا
٨٧٧	إنكم لا تدعون أصم	٥٠	إن ربكم حيي كريم
٧٠٢	إنكم أكثر أهل النار	١١٥٨	إن ربكم يقول كل يوم: أنا العزيز
١٠٨٩	إنما الضع ما بين الثلاث إلى التسع	١٢٧٢	إن روح القدس نفث في روعي
٨٦١	إنما سمي الخضر لأنه جلس على فزوة بيضاء	٨٧٨	إن زكريا كان نجاراً
٩٥٦	إنما سقى الله البيت: العتيق، لأن الله أعتقه من الجبابرة		إن سورة في القرآن ثلاثون آية شفعت ل صاحبها حتى
١٠٤٤	إن صبأ رجل من العرب	١٤٥٦	حضر له
١٣٣٠	إنما ذلكم الله	١٢١٥	إن صفيراً من الجن تغلت علي البارحة ليقطع علي صلاتي
١٤٢٨	إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة		إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا
١٣٩٤	إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة	١٣٨٨	يقطعها
٣٨١	إنما هلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه	٣١٦	إن في الجنة مائة درجة أعدما الله للمجاهدين
١٣٧١	إنما هو شيء دسره البحر	١٥٧٢	إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم . . .
	إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير	٩٣٢	إن في المعارض للمتدوحة عن الكذب
١٠٥١	هاتين المرتين	٨٤٧	إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين
٤٥١	إنما هو الشرك	١٥٧٢	إن لله تسعة وتسعين اسماً
١٢٩٩	إنما هو شيء رأته في مناهي	٥٢٢	إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة
١٢٤٧	إنما يقتن يهود	١٣٨٤	إن للمؤمن في الجنة نخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة
١٣٠٥	إنه أثنائي داعي الجن	٣٠٥٥	إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش
١٠٧٤	إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد	١١٢٩	إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد
١٥٩٦	إنه أنزل علي الآن آتفا سورة	١١٢٩	إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً
٣٧٣	إنه أول من سن القتل	١٣٤١	إن مقعد ملكي على شيبتيك
٣٦٠١	إنه سيحال بيني وبينها	٣٣٩	إن ملكاً كان يجيب عنك
١١٩٩	إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تتقلوا قرب المسجد	١٤٣٥	إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة
٨٧٣ ٤٨٥	إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة	١١٧٩	إن من البيان سحراً
١٥٢٦ ١٣١١	إنه ليغان على قلبي	٧٤٥	إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها
٨٦٦	إنه كان ذهباً وفضة		إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم
١٢٠٢	إنها تعدل ثلث القرآن	٦٣٠	الأنبياء والشهداء
١٢٢١	إنها حق فادرسوها وتعلموها	١٣٨٩	إن من المنشآت اللاتي كن في الدنيا عجائز عمشاً رمصاً
٧٩	إنها فتنت ملكين	٨٥٩	إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل
٦١٠٣	إنها في علم الله قليل	١١٤٠	إن موسى كان رجلاً حياً سترأ
٧٤٥	إنها النخلة	١٢٨٠	إن هذا الأمر في قريش
٩٤٦١	إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير	١٠٥٦	إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض
٧٠٢	إني أرى أكثر أهل النار	٣٦٥	إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم
١٣٠٥	إني أمرت أن أقرأ على الجن	٨٧١	إن يأجوج ليحفرون السد كل يوم
٩٣٣	إني حاكمك على ولد الناقة	٣٩٦	إن يمين الله ملأى لا يفيضها نفقة
١٠٩٤	إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالهم الشياطين	٨١٣	أن الأولى كانت نسياناً من موسى
١٥٧١	إني رأيت ليلة القدر ثم أنسيتها	٩٣٣	إنما أحاملوك على ولد الناقة
١٢٢١	إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الفتاة	٣٥٨	إنما لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة
	إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام، ملحقين	٥٢٣	إنك قلت لها: إنني لا أدري ما يصيبني في وجهي
١٣٢٤	رؤوسكم ومقصرين	٣٢٢	إنكم تمخضتمون إليّ وإنما أنا بشر

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٤٢٩	اللهم اشهد	١٦٠٢	إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن
٩٧٩	اللهم أعني عليهم بسبع كسبح يوسف	١٠٢٣	إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة
٩٧٩	اللهم أعني على قريش بسنين كسني يوسف	٩٤٠	إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه
١٣٢٥	اللهم اغفر للمحلقين	١١٧٨	إني لست بشاعر ولا ينبغي لي
٧٢٩	اللهم اكفنيهما بما شئت	٧٦٢	إني لما خرجت، جاء جبريل عليه السلام
١٤٩٢	اللهم اكفني جاري السوء	٩٤٥	إني لم أبعث لعاناً
٢٢٣	اللهم أنج الوليد بن الوليد	٣٤٦	إني والله أعلم أنكم لتعلمون أني رسول الله
٥٤٢	اللهم أنجز ما وعدتني	١١٧٨	إني والله ما أنا بشاعر
٣١٢	اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد	١٤٥٢	إني لا أدري ما بقائي فيكم؟
١٥٧٣	اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله	١٤٢٨	إني لا أصفح النساء
٨٨	اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع	٥٧٥	انهزموا ورب الكعبة
١٢٧٥	اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى	٤٤٢	أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء
٣٨٢	اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه	٢٩٨	أو غير ذلك؟... فأعني على نفسك بكثرة السجود
١١٣٨	اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد	١٦٩	أول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب
١٣٩٦	اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم	١٤٥٩	أول ما خلق الله القلم
١٤٤٨	اللهم رب السموات السبع وما أظللن	٣٤٩	أوليس قد بين الله تعالى ذلك
١١٩٥	اللهم صل على آل أبي أوفى	١٧٢	أوليس قد ابتعته منك؟
٩٩٧	اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض	١٠١٢	أول من يكسى من أهل النار يوم القيامة إبليس
٨١	اللهم لا نبغيها	٢٤٦	أيا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب
٢٢٦	اللهم لا يعلون علينا	٩٩٤	إياكم والجلوس على الطرقات
٥٤٧	اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك	١١٣٦ ، ٩٩٥	إياكم والدخول على النساء
١١٢١	اللهم منزل الكتاب سريع الحساب	١٣٦٤ ، ١٣٣٤	إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث
١٩٩	اللهم هؤلاء أهلي	١٥٨٥	إياك والحلوب
١١٣٤ ، ٣٣٢	اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك	٤٦١	أي شيء تحبون؟
٩٠٠	اللهم هل بلغت	١٠٦٨ ، ٦٠٨	أي عم قل مي: لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله
		٦٤٣	أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله عز وجل
		١٢٠	أيكم يحتمل خبيباً عن خشبته وله الجنة
		٢٧٩	أيما حلف كان في الجاهلية
٣١٤ و ٢٩٠	حرف الياء	٣٣٩	أي مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً
٧٦٨	بئس عبد الله	٦٥٩	أيما رجل أعر عمرى له ولعقبه
٢٠٩	بخ يخ ذلك مال رابع	٥٦٣	أين الذهب الذي تركته عند أم الفضل
١٤١٧	برئ من الشح من أدى الزكاة	٩٧٦	أيها للناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً
٥٨٠	بشر الكافرين بكفي في ظهورهم	٥٣٨	أيها الناس أربعوا على أنفسكم
١٨٤	بعثت إلى الأحمر والأسود	٤١١	أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا
١٣١١	بعثت أنا والساعة كهاتين	٣٩٧	الله
٩٢٣	بعني كذا وكذا من الدقيق	٥٦٣	الله-أخبرني
١٢١١	بل أنت زيد الخير	١٤١٣ ، ١١٩٩	الله أكبر خريت خبير
١٨٥	بل إلى كتاب الله	١٥٥٦	اللهم آت نفسي تقواها
٩٣٨	بل أنا وأرأساه	١٠٩٧	اللهم اجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً
١٧٢	بل قد ابتعته منك	١٠٩٧	اللهم اجعلها رباحاً ولا تجعلها ربحاً
٦٧٥	بل هي للمسلمين عامة	٣٦٤	اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين
١١٢٥	بلى فانكحني فإني قد رضيتك لك	٥٩٦	اللهم ارزق ثعلبة

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٦٢	ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة: المتان بما أعطى	٦٠٩	بلى والله لاستغفرون لأبي
١٥٧٦ ، ١٤٠٢ ، ١٠٦٧	ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين	١٧٢	يَمَّ تشهد؟
٢١٠	ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد	١٥٩٦	بيننا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب الدر
٨٠١	ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين	٨٠١	بيننا أنا في الحطيم
٨٦٤	ثم دع الماء يرجع إلى الجدر	١٠٧٢	بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به
١٤٥٩	ثم قال له: اكتب	١٠٥٢	بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون
٢٣٥	التيب أحق بنفسها من وليها	٤٦٤	البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك
	حرف الجيم	٤٩١	البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء
٨٢٩	جاء الحق وزهق الباطل	٩٨٥	البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام
١٤٨٨	جبل من نار يكلف أن يصعده	٢٣٥	البكر تُستأمر في نفسها
٨٦١	جليس في فروة يبيضه فاخضرت		حرف التاء
٨٧٣	جنان الفردوس أربع	١١٦٢ ، ٩٥٣	تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء
١٢٨٢	جنتان من ذهب وجنتان من فضة	١٠٥٢	تخرج الدابة معها خاتم سليمان وعصا موسى
١٢٨١ ، ٨٧٢	جنتان من فضة أتيتهما وما فيهما	٦١٠	تحب ذلك؟
١٦٦	الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة	١٥١٨	تحشرون حفاة عراة غرلاً
٦٢٢	الجنة	٩٤٧	تدرون أي يوم ذلك؟
٨٧٢	الجنة مائة درجة	١٢٦	تدع الصلاة أيام أقرائها
	حرف الحاء	٩٩٦	تزوجوا الولود تناسلوا فإني مباه بكم
٤٧٤	حرم رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية	٢٧٦	تسع أعظمهن الإشراك بالله
٩٢٤	حسبنا الله ونعم الوكيل	١٠٥٢	تسم المؤمن بين عينيه وتكتب بين عينيه مؤمن
٩٢٤	حسي من سؤالي علمه بحالي	٢٢١	تسوموا فإن الملائكة قد تسومت
١١٦	الحج عرفة	٩٨١	تشويه النار فتقلص شفته العليا
٤٤٠	الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرني أن أبدأهم بالسلام	١٢٥	تصدقوا
٨٤٨	الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر	١٢٥	تصدق به على خادمك
	حرف الخاء	١٢٥	تصدق به على زوجك
٩٨٥ ، ٢٦٥	خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً	١٢٥	تصدق به على نفسك
٥٣	خلق الله آدم بعد العصر يوم الجمعة	١٢٥	تصدق به على ولدك
٥٢	خلق الله تعالى آدم طوله ستون ذراعاً	٢٥٤	تصدق رجل من ديناره
١٢٥٢ ، ٤٩٩	خلق الله عز وجل التربة يوم السبت	١٢٨٧	تقطع الأجال من شعبان إلى شعبان
١٤٤١	خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً	٨٢٧	تفضل صلاة في الجميع على صلاة الرجل وحده خمساً
١٤٤١	خلق فرعون في بطن أمه كافراً	١٥٧٧	وعشرين درجة
٩٢٧ ، ٧٦٠	خلقت الملائكة من نور	٧٠٢	تقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان
١٤٨٥	خمس صلوات في اليوم والليلة	٦٧٩	تكثرون اللعن وتكفرون العشير
٤٠٨	خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم	٣٣٧	تلك الأحاديث التي تتدرون الانتفاع بها
٢٨١	خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه	٦٧٥	تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق
٤٢٥	خير أممي قرني	٦٧٥	توضأ وضوءاً حسناً ثم قم فصل
٤٢٥	خير الناس قرني ثم الذين يلونهم	٢٨٧	التيتم ضربة للوجه والكفين
١٤٢٥	خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة		حرف التاء
١٢٨٢	خيرات الأخلاق حسان الوجوه	١٥٨٥	ثلاث لا أسأل عبدي عن شكرهن
٤٢٥	خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم	١٣٢٤	ثلاث لازمات لأمتي، الطيرة والحسد وسوء الظن
		٩٩٦	ثلاثة حق على الله عونهم

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٦٦	سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله	١٥٧٨	الخيل لثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر
١١٣٠	سبق المفردون		حرف الدال
١٠٨٣	ستمتمه صلاته	١٦٩	درهم ربا يأكل الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية
١٨٣	سلاني	٨٩	دعوة أبي إبراهيم، ويشري عيسى
٤١١	سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء ما دعت في مقام هذا	٩٤١	دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت
٥٩٧	إلا بيته لكم	١٣٦١	دنا الجبار رب العزة فتدلى
٢٢١	سوف أستغفر لهم أكثر من سبعين، لعل الله يفر لهم	٣١٢	دية المعاهد نصف دية المسلم
١٣١١	سوموا فإن الملائكة قد سومت		حرف الذال
١٠٨٣	سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي	١٥٧٥ ، ٤١١	ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم
	سيتها ما تقول	٣٥٠	ذكاة الجنين ذكاة أمه
	حرف الشين	١٣٣٥	ذكرك أخاك بما يكره
٥٤٥	شامت الوجوه	٨٣١	ذلك إلى الله عز وجل
٨٧٠	شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع	١٥٢٩	ذلك العرض
٧٣٤	شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة		حرف الراء
١٥٧٣ ، ١٤٦	شغلوا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر	١٠٥١	رأيت جبريل وله ستمائة جناح
١٥٦٥	شهرًا عيد لا يتقصان	٤١٢	رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً
٦٤١	شيتي هود وأخوانها	١٢٢١	رأيت ربي عز وجل فقال لي: فيم يختصم الملا الأعلى؟
١٥٣١	الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة	٤١٢	رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار
٢٧٦	الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين	١٦٩	رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني
١٥٢٩	الشفق الحمره	١٤٥٢	راجمها فإنها صوامة قوامة
١٥١٩	الشمس والقمر نوران مكوران في النار	١٥٧٣	رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه
	حرف الصاد	٢٥٢	رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها
٧٨٥	صدق الله وكذب بطن أخيك	٧٠٤	رحم الله أخي يوسف
٢٢٢	صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة	٦٦٦	رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد
٧٦٩ ، ٢٤٩	صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً	١٤٣١	رحمة الله على موسى، لقد أوفيت بأكثر من هذا فصبر
١٤٣٧	صليت؟ قال: لا، قال: فصل ركعتين	٢٤١	ردوا عليّ الرجل
١٥٦٥	صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته	٢٥٨	رفع القلم عن ثلاثة
١٥٥٤	الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان	١٦٩	الربا ثلاثة وسبعون باباً
١٤٨٨	الصمود: جبل من نار	١٣١٢	الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله
١٤٩٨ ، ٢٨٢	الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم	١٧٥٨	الريح الجنوب من الجنة
٨١	الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن		حرف الزاي
٤٤٨	الصور قرن ينفخ فيه ثلاث نفخات	٢١٢	الزاد والراحلة
١١٠٨	الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة	٦٢٢	الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل
	حرف الضاد		حرف السين
٦٢٢ ، ٤٧٨	ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً	٤٤٥	سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنين، ومنعتني واحدة
٥٦٥	ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا	٤٢٣	سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها
	حرف الطاء	١١٦٢	سألتنا سابق ومتصدقنا ناج وظالمنا مغفور له
٢٧٠	طلق إحداهما	١١٦٢	سبحان مقلب القلوب
١١٣٥	طلق رسول الله ﷺ حفصة ثم راجعها	١٥٩٩	سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي
١٠٥٣	طولها ستون ذراعاً		

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١١٩٩	فضلنا على الناس بثلاث	٣٦٤	الطهور شطر الإيمان
١١٥٨	كذلك يحيى الله الموتى وتلك آية في خلقه		حرف العين
٨٨٤	فما رأيت عبيراً يفري فري عمر	١١٨٤	عجب ربك من شاب ليست له صبوة
٨٣٤	فما متعكم أن تتبعوني؟	٢١٧	عجب الله عز وجل من قوم يدخلون الجنة في السلاسل
١٥٧١	فمن كان متحريراً فليحررها في السبع الأواخر	٤٣٧	عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير
١٤٢٨	فيما استطعتن وأطقتن	١١٣٨	عجل هذا
٨٧١	فيشغفون الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم	٢٤٣	عرضت علي أمي وأعلمت من يؤمن بي ومن يكفر
	فيقول الله عز وجل: أرجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال	٦٩٠	عني لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم أو تعمل
٢٨٣	ذرة	١٤١٠	علام تستمني؟
	فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يعني يوم	١٦٠٦	على رسلكما إنها صافية
١٥٧٢	الجمعة	١٣٢١	على ما استطعتن
	حرف القاف	١٢٦٨	علي وفاطمة ولولدهما
٣٢٩	قاربوا وسددوا	٣٥٩	عليكم بالأسود البيهيم
١٠١٩	قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر	١١٦٩	عليكم منازلكم فإنما نكتب أثاركم
١٤٩١	قال ربكم عز وجل: أنا أهل أن أتقى	٣٦١	عمداً قتلته يا عمر
١٧٤	قال الله تعالى: إذا هم عبدي بسية فلا تكتبوها عليه	١٤٢١	العز إزاره والكبرياء رداؤه
١٠٩٤	قال الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء	١٢٠٤	العبادة فراق ناقة
٦٣٠	قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي	١٤٦٥	العين حق
٣٧٥	قتل الصبر لا يمر بذنوب إلا محاه		حرف القين
١٨٤	قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً	٨٤٧	غداً أخبركم
٥٨٧	قد أذنت لك	٣٢٩	غفر الله لك يا أبا بكر، ألت تمرض؟ ألت تحزن؟
١٤٢٨	قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً قد بايعتك كلاماً	١٦٠٤	الغاسق النجم
١٥٧٣	قد جاءكم شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه		حرف الفاء
٣٣٠	قد سمع الله ما تقول، فإن شاء أجابك	١٣٥٤	فأينما السماء السابعة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل
٧١٩	قد قال أخي يعقوب: سوف أستغفر لكم ربي	١٤٥٢	فأنتي أبا بكر
١١٢٦	قد قبلكم		فأسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله أن يدعني ويفتح علي
١٠٢٢	قد كنت أحب أن أراك على غير جوار	١١٤٩	بمحمداً لا أحصيها الآن
٣٥٨	قد كنت وعدتني أن تلقاني البارحة	٥٦٧	فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام
٧٦٥	قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين		فإن ربكم يقول: هل جزء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا
١٢٥٧	قل آمنت بالله ثم استقم	١٣٨٢	الجنة
١٠٦٨	قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة	٧٨٠	فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها
٥٩٣	قلتم كذا وكذا	٧٥٦	فإنها لا يرعى بها لموت أحد ولا لحياته
١١٣٩	قم يا فلان فإنك منافق	٤٥٣	فأنت الحجر السمين
٨٨٥	قول عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾	١١٥٤	فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد
١٤٠٩	قوموا إلى سيدكم	٣٠	فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء
١١٠٨	قيام العبد من الليل	٦٣	فدخلوا يزحفون على أستاههم
١١٣٨	قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد	٨٠١	فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء
١٢٤٧	القبر كقطع الليل المظلم	٨٠١	فركبه حتى أتيت بيت المقدس
	حرف الكاف	٩٦٧	فضلت سورة على مائر القرآن بسجديتين
١٣٤٠	كاتب الحسنات على يمين الرجل	١١٢٩	فضلت على الأنبياء بست
٥٦٢	كاد يصيبنا في خلفك بلاء		

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
٢٧٦	الكبائر: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين	٩٣٩	كان ذو الكفل رجلاً لا يتزع عن ذنب
٢٧٥	الكبائر سبع الإشراف بالله أولهن	٣١٤	كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار
٢٧٥	الكبائر الشرك بالله وقتل النفس		كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخبر تمثل فيه ببيت طرفة
١٥٨٠	الكفود الذي يأكل وحده ويمتنع رفته ويضرب عبده	١١٧٨	(ويأتيك بالأخبار من لم تزود)
	حرف اللام	١٢٤٧	كان رسول الله ﷺ بعد يستعبد من عذاب القبر
٦٠٨	لأستغفرن لك ما لم أنه عنك	١٢٨٠	كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل
٨٠٠	لئن ظفرت بقاتل حمزة لأملن به	٧١٤	كان ليعقوب أخ مواخ
٤٣٦ ، ٢٩٤	لئودن المحقوق إلى أهلها	٤٣٤	كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض
٥٣٢	لنقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما	٨٥٩	كانت الأولى من موسى نسياناً
٨٤٩	لِسُرَادِقِ النَّارِ أُرْبَعَةُ جُدُرٍ	٨٨	كانت الملايكة تحجج إلى البيت قبل آدم
١٦٨	لئن رسول الله أكل الربا وموكله وكتابه وشاهديه	٨٦٤	كانوا أهل قرية لتاماً
٩١٢ ، ٧٦٧	لئن العاضة والمستعضة	٩٦٥	كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض
٣٢٧	لئن الله الراشحات والمستوشحات	١٤٤٨	كثافة كل سماء مسيرة خمسمائة عام
	لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت	٤٥٤	كذا أنزلت علي فأتيتها
١٠٢٣	عليه الشمس	٩٣٢ ، ٧٠٩	كذب إبراهيم ثلاث كذبات
٩٦٩	لقد أنزلت علينا عشر آيات من أقامهن دخل الجنة	١٢٤٧	كذبت يهودية
١١٩٥ ، ١١٤٣	لقد أوتي هذا زمزماً من مزامير آل داود	١١٧٨	كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً
١١٢٢	لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة	١٠٨٥	كفى بها حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاء به
٩٧١	لقد ختمت بما تكلمت به يا ابن الخطاب	١٥٦٠	نبيهم
١٥٦١	لقد خشيت أن يكون صاحبي قلاني		كل أمي يدخلون الجنة
٣٥١	لقد دخل بوجه كافر ويخرج بعقبي غادر	١٩٢	كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من
٢٢٤	لقد ذهبتم فيها عريضة	٤٧٤	يحيى بن زكريا
١٢٨٠	لقريش	١٣٧٤	كل ذي ناب من السباع حرام
١٣٨٨	لكل نبي حرم وحرمي المدينة	٩٩٥	كل شيء بقدر حتى العجز والكيس
٢٨٢	للمملوك طعامه وكسوته	٢٥٨	كل عين زانية
٤٠٢	لم أوامر بذلك	١٠٩٤ ، ٤٢٧	كل من مال يتيمك غير مسرف
١٣١٧	لم نأت لقتال أحد إنما جئنا لنطوف بهذا البيت		كل مولود يولد على الفطرة
١١٩٠ ، ٩٣٢	لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا ثلاث كذبات	٢٥٢	كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في
٢٣٩	طير خضر		سبيل الله
٣٩٧	لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعاً	١٥٥٨ ، ١٤٩٦	كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها
١٣٦٢	لما غشيتها عن أمر الله ما غشيتها تغيرت	١٣٩٥	كلمتان خفيتان على اللسان
٦٧٥	لمن عمل بها من أمي	١٤٥٤	كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته
٤٣٦	لكن الله يدري وسيقضي بينهما	١١٦٢	كلهم في الجنة
١٤٠٠	لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة	٢٣٦	كلا إني رأيته في النار في بردة غلها
٢٥١	لو أعطاني لأوفيته إني لأمين في السماء أمين في الأرض	١٢٢١	كما أنتم على مصافكم
	لو أنكم توكلون على الله حق توكله لودقكم كما يرزق	١٤٥٥	كمل من الرجال كثير
١٤٤٥	الطير	١٥٧١	كم بقي من الشهر؟
	لو أن يوسف قال: إني حفيظ عليم إن شاء الله، لملك من	١٥٠	كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح
٧٠٤	وقته	١١١٥	كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث
١٣٦٧	لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً	١١١٥	كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد
		١٤٨٣	كيف يأتيك الوحي
		٢٢٣	كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
٢٨٢	ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة	٢٩٤	لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف
٦٠٦	ما الذي أثنى الله به عليكم؟	٢٣٠	لو رأيتم الطير تخطفنا فلا تبرحوا من مكانكم
١٤٨١	ما المسؤول عنها بأعلم من السائل	١٠١٤	لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة
٦٠٤	ما أمرت أن أخذ من أموالكم شيئاً	١١٦٨	لو فعله لأخذته الملائكة
٨٣١	ما أنا بالذي يسأل ربه هذا	١٥٦٨	لو فعل لأخذته الملائكة عياناً
١٥٧٨	ما أنزل الله عليّ فيها إلا هذه الآية الفاذة	١١٢٨	لو قالها لجاهدوا في سبيل الله
٣٥٥	ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا	٤١١	لو قلت نعم لوجبت
٩٧٦	ما بعث الله نبياً إلا رعى الفتنم	١٤٢٣، ١٣١٥	لو كان الإيمان عند الثريا لثاله رجال من هؤلاء
١٣٣٠	ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت	١٤٥٢	لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب
٨٣١	ما بهذا بعثت وقد أبلغنكم ما أرسلت به	١٢٧٨	لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة
١١٧٥، ٤٤٨	ما بين الفختين أربعون	١٣١٥	لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس
١٨٥	ما تجدون في التوراة في شأن الزنا	١١٩	لو كان على أيك دين قضيته أما كان ذلك يجرى عنه؟
٢٢٤	ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها	٧٠١	لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي
٥٦١	ما ترى يا ابن الخطاب	٧٦٢	لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد
٣٦٣	ما توضع عبد فأحسن الرضوء ثم قام إلى الصلاة، إلا غفر له	٣٦١	لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء
١٣١٧	ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل	٧٩٩	لولا أن تحزن النساء، أو تكون سنة بعدي لتركته
	ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه	٣٥٩	لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها
٧٣٣	في اليوم	٨٧٣	لؤيتين يوم القيامة بالعظيم الطويل
٢٨١	ما زال جبريل يوصيني بالجار	٥٧٩	ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار
١٥٦	ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة	١٤٤٤	ليراجعها ثم ليمسكها حتى تظهر
١٦٢	ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم	٣٤٦	ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل
٥٨٤	ما ظنك باثنين الله ثالثهما	١٠٤٤	ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من الولد
٧٥٦	ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية	١٥٦٣	ليس الغنى عن كثرة العرض
١٣٧٨	مالي أراكم سكوتاً؟	٣٩٠	ليس لبني النضير على بني قريظة فضل في عقل ولا دم
١٤٧٣	مالي أراكم عزين!	١٦٧	ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرثان
٤٩٦	ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار	٤٢٧	ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة
٢٤٤	ما نحن أحد لا يؤدي زكاة ماله	٣٣٩	ليلة الضيف واجبة على كل مسلم
٦٩١	ما من أحد يلقى الله تعالى إلا وقد همّ بخطيئة أو عملها	٢٣٤	لإني منكم أولو الأحلام والنهى
	ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه	١٥٦	ليهنك العلم يا أبا المنذر
١٥٤٣، ٩٥٥	الأيام	٥٧٥	الآن حمي الوطيس
	ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة	١٧٤	الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه
٢٤٤	شجاع أقرع	٩٣٣	الذي في عينيه بياض
٥٨١	ما من صاحب كتر لا يؤدي زكاته	١٣٣	الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى
٢٩٠	ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك		
١١١٤	ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به		
٣٦٤	ما من امرئ يتوضأ فيحسن وضوءه	١٤١٦	ما أبقيت لأهلك
١٢٩٠	ما من مسلم إلا وله في السماء بابان	١٥٨٥	ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة
	ما من مسلم دعا الله تعالى بدعوة ليس فيها قطعة رحم	٦٠٥	ما أردت بما أرى
١٠٧	ولا إثم	١٢٩١	ما أدري نبياً، نبي أو غير نبي
٣٢٣	ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ فيصلي	١٢١١	ما اسمك؟
١٠٩٤، ٤٢٧	ما من مولود إلا يولد على الفطرة	١٥٧٣	ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك
١١٥٣	ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان يتزلان	٢٢٥	ما أصبر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة

حرف الجيم

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٠٠٠	من بنى مسجداً لله كمفحص قطة	١٥٥٩	ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعه من النار
٣٦٤	من توضع فأحسن الوضوء	١٦٠٦	ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن
٦٧٦	من توضع وضوئي، ثم صلى الظهر غفر له ما كان بينها وبين صلاة الصبح	٤٩٦	ما منكم من أحد إلا وله منزلان
٣١٧	من جهز جيش العسرة فله الجنة	٣٦٤	ما منكم من أحد يتوضأ فليبلغ الوضوء أو فيسغ
١٦٢	من حفر رومة فله الجنة	٣٧٢	ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر
٨٣٧	من حفظ عشر آيات من أول سورة البقرة	٣٤٠	ما نقصت صدقة من مال
٢٥٣	من حلف بغير الله فقد أشرك	٥٤٤	ما هزم قوم إذا بلغوا اثني عشر ألفاً من قلة
١٢٠٤	من حلف على يمين وهو فيها فاجر	٧٧٥	ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب
٣٥٣	من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه	٥٩٩	ما يغني عنه قميصي من عذاب الله تعالى
٣٥٣	من دل على خير فله مثل أجر فاعله	١١٢٧	ما يبني ليني أن تكون له خاتمة الأعين
١٢٢١	من رأى منكم الليلة رؤيا	١٤٥	معها ولو بقلنسوتك
٤٠٣	من رغب عن سني فلوس مني	٥٤٨	مثل القائم على حدود الله والواقع فيها
٢٤٧	من مثل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار	١١٣٠	مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت
١١٦٠	من سره أن يسطر له في رزقه وينسأ له في أثره	١٣٣٢، ١٣٧٥	مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم
١٢٠٠	من سره أن يمثل للرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار	١٥٨١، ١٠٠٩	مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً
١١١٦	من سقى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى	١٥١٥	مرحبا بمن غابني فيه ربي
١١٦٩	من سن في الإسلام سنة حسنة	٥٩٦	مؤلاً يتعلمه ويغفلان
١٥٦٥	من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه	٦٠٩	مؤتة بغير أهي فصلت ركعتين
٢١١	من طاف بالبيت لم يرفع قدماً ولم يضع أخرى إلا كتب الله له بها حسنة	١٤٥٣	مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين
١٤٤٨	من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين	١١٧٢	مسقرها تحت العرش فتخر ساجدة
٥٠٥	من عقر جواده	١٥٧١	مضت اثنتان وعشرون وبقيت سبع التمسوها الليلة، الشهر
١٠٠٩	من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد	٤٤٢	تسع وعشرون
١١٦٩	من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر	١٣٣	مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله
١٥٨٦	من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله	١٣٣	ملعون من أتى النساء في أديارهن
١٤٠٩	من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به	٢٤٤	من آتاه الله مالاً فلم يوذ زكاته
١٥٧٣	من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه	١٣٣	من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها
١٧٤	من قرأ بالآيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه	١٣١٢	من أحب أن يسطر له في رزقه وأن ينسأ له في أثره
٥٣٩	من قتل قتيلاً فله كذا وكذا	٢٤٦	من أحب أن يزحزح عن النار
٢٧٤	من قتل نفسه بحديدة فله يده	١٢١١	من أحب أن يمثل له عباد الله قياماً فليتبوأ مقعده من النار
٨٣٧	من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف	١٢١١	من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ ﴿إِذَا الْبُشُورُ
٨٣٧	من قرأ عشر آيات من آخر الكهف	١٥١٩	﴿كُرِّتِ﴾
١١٣٠	من قعد مقعداً لم يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله ترة	١٣٩٤	من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه
٢٥٣	من كان حالماً فلا يحلف إلا بالله	٥٥٣	من أحسن في الإسلام لم يواخذ في الجاهلية
١٥٧١	من كان متحرراً فليتحرها ليلة سبع وعشرين يعني ليلة القدر	٣٠٤	من أطاعني فقد أطاع الله
٢٨١	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره	١٥٥٣	من اعتق رقبة مؤمنة اعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار
٣٣٦	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر	١١١٠	من أغلق بابيه فهو آمن
١٥٧١	من كان منكم يريد أن يقوم من الشهر شيئاً فليقيم ليلة ثلاث وعشرين	١٥٦٠	من أتفق زوجين في سبيل الله
		٥٠٥	من أغرق نفسه وعقر جواده
		١٠٠٠	من بنى لله مسجداً يتبني به وجهه لله

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٤٩٢	نعم بجمع الله هذه العظام	١١٦٣	من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة
١٥٠	نعم أي يريد منا القرض		من لم تنته صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله
١٥٦٠	نعم وأرجو أن تكون منهم	١٠٨٣	إلا يعلأ
٩٦٧	نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما	٢٩٨	من مات على ذلك كان مع النبيين
٢١٨٠	نعم يملك الله ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم	١٤٩٧	من نثر أن يطيع الله فليطعمه
٢٥٨٤	نعتان مغبون فيهما كثير من الناس	٩٠١	من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها
١٥٨٣	التعيم الأمن والصحة	٦٠٣	من هوى
١٥٨٣	التعيم الماء البارد	٢١٢	من وجد الزاد والراحلة
٨٨٥	تقاعاً حينما توجهت	٢٤٦	موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها
١٠٨٢	نهى رسول الله ﷺ عن الخذف	٤٦٠	من الكباثر شتم الرجل والديه
٤٧٤	نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع	١٢٥٥	من مخاطبة العبد ربه
	حرف الهاء	١٤٠٧	مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش ولا التضحش
١١٦٢	هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة	٨٢٣	المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض ملائكته
٢٩٣	هات المفتاح	٩٣٣٣، ١٢٢٥	المؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه بعضاً
٤٧٥	هنا ما أوحى إليّ أنه محرم على المسلمين وعلى اليهود	٢٩٨	الغرة مع من أحب
٥٩٦	هنا عملك، قد أمرتك فلم تطعني	٣٣٩	المنتجان ما قالوا فعلى المبادئ منهما
٥٦٩	هنا ما اصطاح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو	٢١٠	المسجد الأقصى
١٠٨٥	هنا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله	٢١٠	المسجد الحرام
	هنا وقومه والذي نفسي بيده لو أن هذا الدين معلق بالثرى	١٣٣٢	المسلم آخر المسلم لا يظلمه ولا يسلمه
١٣١٥	لتناوله رجال من فارس	١٦٦	المغرب وتر النهار
٥٣١	هذه أمتي بالحق يأخذون	٢٥٥	المقسطون في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة
٥٣١	هذه لكم وقد أعطي القوم مثلها	١٠٧٩	الموت
٣٩٢	هل أعطاك أحد شيئاً؟		حرف النون
١١٧٩	هل أنت إلا أصعب دميته؟	٥٧٤	ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة
١٣٩٣، ١٣٨٢	أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر	١٥٨٢، ٧٦٠	ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم
١٥٩٦	هل تدرون ما الكوثر؟	٥٧٥	ناولني حصيات
١٢٥٥	هل تدرون مم أضحك؟	٥٤٥	ناولني كفاً من حصياء
	هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس فواتهما	٣٦٩	نبي ضيعة قومه
١٤٩٤	سحاب؟	٩٥٨	تخرنا مع رسول الله ﷺ البدينة عن سبعة والبقرة عن سبعة
١٣٢٣	هل جنتم في عهد أو هل جعل لكم أحد أماناً؟	٢٨٨	نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات
	هل مررت بوادي أهلك محلاً ثم مررت به يهتو خضراً؟	٨٧٧	نحن معاشر الأنبياء لا نورث
١١٥٨	قلت: نعم	٣٣٩	نزل ملك من السماء يكذبه
	هلا صليت بـ «سبح اسم ربك الأعلى والشمس	١٢٥٨	نزلت في المؤذنين
١٥٣٧	وضحاها؟»	٢٤٠	نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة
	هلا قلت: إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي	١٣٥١، ١١١٥، ٥٥٦	نُصِرَتْ بِالصَّبَا وأهلك عاد بالبور
١٣٢٢	محمد	٨٢٥	نعم
٦٩٠	هلك المصرؤون	٨٧٢	نعم إذا كثر الخبث
٢٨٢	هم إخوانكم خولكم	١٨٣	نعم أي أنا محمد
٨٧٠	هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز	٤٤٢٥	نعم صلي أمك
٥٦٠	هم اللجن وإن الشيطان لا يخبل أحداً في داره فمن احتق	٩٢٤٧	نعم عذاب القبر حق
٦٣٥	هم قوم تحايروا بروح الله	١١٢	نعم أي: نهيت عن القتال في الشهر الحرام

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
	والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه	٣٩١	هم قوم هذا
١١١٤	من نفسه	١٤٦٨	هم اليوم أربعة
	والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به	١٤١٢	همت يهود بالغدر
١٣١٨	حرمات الله إلا . . .	١٤٩١	هو أهل أن يتقى
١٥٧٦ ، ١٨٤	والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة	١٤٨٨	هو جبل من نار يكلف أن يصعبه
	والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا	٣٥٤	هو الطهور ماؤه الحل ميتته
٣٣	في الزبور ولا في الفرقان مثلها	٤٤٨	هو قرن ينفخ فيه
١٣٣	وما الذي أهلكك	٦٠٦	هو مسجدي هذا
١٤٢٣	وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر	١٥٩٦	هو نهر أعطانيه ربي عز وجل
١١٢٥	(ومم ذاك) قاله لأسماء بنت عميس	١١٢٣	من حولي كما ترى يسألني النفقة
١٤٥٢	ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر	٦٧٦	من لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر
١٤٨١	ويحك إنها كائنة فما أعددت لها؟	٧٤٥	هي النخلة
٥٩٦	ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه	١٥٧٢	هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة
٣٦٣	ويل للأعقاب من النار		حرف الواو
٧١	ويل: واد في جهنم	٥٦٠	وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة إلا وإن القوة الرمي
٨٩٣	الورود: الدخول لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها	١٣٢٤	وألزمهم كلمة التقوى لا إله إلا الله
٨١٩	الولد ثمرة القلب وإنه مجيبة بمخلة	٦٠٣	وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم
	حرف لا	١٥٨٥	وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما
٣٨١	لا أراك تكلمني في حد من حدود الله	١١٢٤	وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي
٦٠٠	لا أجد ما أحملكم عليه	١٣٩٣	وتجعلون رزقكم قال: شكركم
١٢٨٠	لا أسأل قد اكتفيت	٧٧٢	وجندي في أهل غنيمة يشقُّ
١٠١٥	لا أكل حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله	١١٠٨	وصلاة الرجل في جوف الليل
٢٣٦	لا ألقين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته يعير له رغاء	١٣٦٦	وغيَّ عمل يوم أربع ركعات في أول النهار
١١٢١	لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده	١٠٨٤	وللذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه
٨٧٢	لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب	١٠٦٨	والله لأستغفرن لك ما لم أنة عنك
١٠٧٤	لا، إن الله جميل يحب الجمال	٧٩٩	والله لأملئن سبعين منهم
١٥٨٣	لا بأس طهور إن شاء الله	١٢٩٤	والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله
٩٤٤	لا، بل لكل من عبد من دون الله	١٣٣٢	والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه
٦٧٥	لا، بل للناس كافة	٤٣٤	والله ليؤمن الله هذا الأمر
٩٧٧	لا، بل هم الذين يصلون وهم مشفقون	٩٢٣	والله لو باعني أو أسلفني لتقضيته
١٣٣	لا تأتوا النساء في أعجازهن	١٥٦	والله لينك المعلم أبا المنذر
٩٩٥	لا تباشر المرأة المرأة تمتعاً لزوجها		والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبحه
١٦٦	لا تصدقوا إلا على أهل دينكم	٥٨٣	هذه في اليم
٦٠١	لا تجالسوهم ولا تكلموهم	١٢١٢	وَالله ما صليتها
٣٧	لا تجعلوا بيوتكم مقابر	٨٧١	والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن
٢٦٩	لا تحرم الإملاجة والإملاجات	١٦٠٢	والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن
٢٦٩	لا تحرم الرضعة أو الرضعتان	١٣٥٨ ، ٩٨٥	والذي نفسي بيده لأقضي بينكم بكتاب الله
٢٦٩	لا تحرم المصاة أو المصتان	١٥٨٥	والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة
٢٥٣	لا تحلفوا بأبائكم		والذي نفسي بيده لو تابعتكم حتى لم يبق منكم أحد لساير
١٤٥٠	لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم عليّ حرام	١٤٣٧	بكم الوادي ناراً
١٤٥٢	لا تخبري عائشة	١٥٦٨	والذي نفسي بيده لو دنا مني لاخطفته الملائكة عضواً عضواً

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
٥٥٤	لا يتم بعد حلم	٤٨٠	لا تزال القوة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها
٢٧١	لا يجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها	١٥٨٤	لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه
١٣٣	لا يحل أن تأتوا النساء في جشوشهن	١١٢٣	لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها
٥٦٠	لا يغبل بيت فيه عتيق من الخيل	٣٣٨	لا تسبخي عنه
١٤٦١	لا يدخل الجنة قتات	١٣٢٧	لا تسبوا أصحابي
٩٩٥	لا يدخلن هذا عليك	١٢٩٦	لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر
٥٧٩	لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى		لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق
١١٣٠	لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى	٨٣٤	لا تشربوا في آية الذهب والفضة
١٣٣	لا يستحيي الله من الحق	١٢٧٨	لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم
١١٧٨	لا يضرك بأيهما بدأت	١٠٨٤	لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً
٢٦٨	لا يترك مؤمن مؤمنة	٣٨١، ٣٨٠	لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها
١٠٨	لا يقبل الله دعاءً من قلب غافل لاه	٣٧٥، ٣٧٣	لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها
١٤٠٩	لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه	٤٨٠	لا تقوم الساعة حتى يموت دجالون كذابون
١٣٩٣	لا يمسن القرآن إلا طاهر	١١٢٩	لا تكفرن أحداً من أصحابك على المسير معك
١٣٣٤، ١٣٥٦	لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل	١٢٧	لا تمنن... لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة
٧٢٠	لا ينحني له، ولا يلتزمه ولا يقبله	١٤٢٩	لا حاجة لي فيه
٨٣٣	لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة من الدبر	٩٨٤	لا خلف في الإسلام
	حرف الياء	١٤٥١	لا خير في دين ليس فيه ركوع
٢٨١	يا أبا ذر إذا طبخت مرقة	٢٧٩	لا صلاة بحضرة طعام
٧٨٠	يا أبا ذر تدري أين ذهب الشمس؟	١٥٠٥	لا طلاق قبل النكاح
٤٣٦	يا أبا ذر أتدري فيما انتطحتا؟	١٥٦٥	لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك
٣١٦	يا أبا سعيد من رضي الله رياً وبالإسلام ديناً	١١٣١	لا، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله
١٥٦	يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟	١١٣١	لا فضل لعربي على أعجمي
١١٥٣	يا ابن آدم أفنق أفنق عليك	٢٠٥	لا قطع على الخائن
١٠٨٧	يا ابن عمر ما لك لا تأكل؟	١٣٣٦	لا، ما زال ملك يسترني حتى ولت
٨٧٧	يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة	٣٨١	لا تبرح حتى تناجزهم
١٣٣٦	يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد	١٦٠١	لا نورث ما تركنا صدقة
١١٢	يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض	٨٧٧	لا هجرة بعد الفتح
٩٤٥	يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله خفاة	١٣١٦	لا، وإنه قد أوحى إلي أنكم تقتنون في قبوركم
٩٤٦	يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة	١٢٤٧	لا، ولكن لا يبلغ عني إلا رجل مني
٢٧٧	يا أيها الناس إني قد كنت أذنت في الاستمتاع	٥٦٦	لا والله لا يلقى حبيبه في النار
٩٠٠	يا أيها الناس أي يوم هذا؟	٣٦٩	لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك
٢٩٨	يا ثوبان ما غير وجهك؟	١١١٤	لا يأمن حيث وجد
٣٤٩	يا جابر لا أراك ميتاً من وجعك هذا	٩١٢	لا يولف تحت الأرض
٨٩١	يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا	١٤٨١	لا يبقى على رأس مائة ممن هو اليوم على ظهر الأرض
٥٨٧	يا جد هل لك في جلد بني الأصفر؟	٨٦٢	أحد
٣٩٧	يا رب كيف أصنع إنما أنا وحدي يجتمع علي الناس		لا يبقى على ظهر الأرض مدر ولا وير إلا أدخله الله كلمة الإسلام
١٤٣٧	يا سليك قم فاركع ركعتين	٥٧٩	لا يبولن أحدكم في الماء الدائم
١٦٠٠، ١١٥٤	يا صباحاه	١٤٧٣	
٩١١	يا عائشة أشعرت أن الله أفانني فيما استفتيته فيه		

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٥١٨ ، ٩٤٥	يحشر الناس يوم القيامة حفاة غرلاً	١١٢٣	يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً
٩١٢	يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله	١٥١٨ ، ٩٤٥	يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض
	يخلص المؤمنون من النار، فيجسون حتى قنطرة بين الجنة والنار	١٦٠٤	يا عائشة أما شعرت أن الله أخبرني بداتي
٤٩٦	يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب	٥٥٨	يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي
٨٣٠	يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كفه	٩٩٤	يا عطلي لا تتبع النظرة النظرة
١٧٤	يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة	٣٩٧	يا حمصه إن الله قد عصمني من الجن والإنس
١٢٣٥	يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا بببءاء من الأرض	١٣٠٣	يا حمر إن أولئك قوم عجبت لهم طياتهم
١١٥٥	يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء يمينه	٢٧٥	يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟
١٢٣٥	يقضي الله في ذلك	١٢٩٤	يا عمر ضع سيفك
٢٦١	يقال لتارح القرآن: اقرأ ورتل	١٤٤٥	يا غلام إني أعلمك كلمات
١٤٨٣	يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة	٦٠٣	يا فلان اخرج فلانك منافق
٢٠٨	يقول ابن آدم مالي مالي	١٣٦٩	يا فلان يا فلان اشهدوا
١٥٨٣	يقول ربكم: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه	١٣٠	يا جرمد الزاني لا يتكح إلا زانية أو مشركة
١١٢٠	يقول العبد: مالي مالي، يتم له من ماله ثلاث	٩٩٦	يا محبش الشباب من استطاع منكم البائة فليتزوج
١٥٨٣	يقول الله تعالى: ابن آدم لقي تمجزي وقد خلقتك؟	١٠٣٧	يا محبش قريش اشترؤا أنفسكم من الله
٧٧٦	يقول الله تعالى: إذا هم عبدي بسببة ولم يعملها لم أكتبها عليه	١٨٨	يا محبش قريش لقد خالقتم ملة أياكم إبراهيم
٦٩٠	يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت	٧٠٢	يا محبش النساء تصدقن
١١٠٨	يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء	٥٤٧	يا مقبل القلوب ثبت قلبي على دينك
١٥٥٥	يقول الله تعالى: إني مبتليكم ومبتلي بك	٥٩٦	يا وبع ثعلبة
١٠١٤	يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم: قم فابعث بعث النار	٩٥٠	يا يهودي إن الإسلام يسبك الرجال
٩٤٧	يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد	٨٧٠	يا أجوج أمة وما أجوج أمة
٤٨١	يقول الله عز وجل لأهل الجنة: يا أهل الجنة هل رضيتم	١٢٤٤	يا أمم الله عز وجل إسرائيل بالفضحة الأولى
٥٩٤	يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر	٨٧٣ ، ٤٨٥	يؤتى بالرجل الطويل الأكل الشروب العظيم فيوزن
١٢٩٦	يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه	١٠٢٣	يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صفار ذنوبه
١٥٢٥	يكشف ربنا عن ساقه	١٢٩٢	يؤتى بالموت في صورة كيش أملح
١٤٦٤	يكون النسيم طيراً يعلق بالشجر	٨٨٦	يؤتى يوم القيامة بناس إلى الجنة
١٣٩٤	يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة	٧٥١	يسطها ويمدها مد الأديم
٤٤٨	ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال	١٥٨٣	يتبع الميت ثلاثة
١٩٨	ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا	١٣٤٤	يتجلى لهم الرب
١٨٢	يوشك أن يأتي زمان يغربل فيه الناس غربلة	٧٢٨	يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار
١٠١٩		١١٨٧	يحتاج بالموت يوم القيامة كأنه كيش أملح
		٥٤٩	يبيزك الثلث
		٩٢	يجهي النبي يوم القيامة ومعه الرجل
		٢٦٩	يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة
		١١٨٥	يحشر صاحب الربا مع صاحب الربا

الصفحة	الشاعر	القافية	صدر البيت
٥٠٧ ، ١٢٣		لهن ذنوبٌ	فإن تكن الأيام
٢٦٨		وهو عاتبٌ	ومن لم يغمض
٢٦٨		الدهر صاحبٌ	ومن يتتبع
٥٨٠	ضايح بن الحارث	بها لغريبٌ	فمن يك
٥٣٥		فتصروا	تمزقها
٤٩٢		طبيبٌ	تقول ابنتي
٤٩٢		والخطوب تُشيبُ	تتابع أحداث
٥٩٥	عبد الله بن قيس الرقيات	إن غضبوا	ما نقم الناس
٥٩٥	عبد الله بن قيس الرقيات	عليهم العرب	وأنتهم سادة
٦٤٨	أبو أسماء بن الضريبة	أن يغمضوا	ولقد طعنت
٦٩٠		دونك الأسبابُ	طلباً لمعرفك
٣٩		ما يقول الكذوبُ	ليس في الحق
١٣٥٣		قلنا القليبُ	لنا ذنوب
٦٧٠ ، ٢٤٧	الفرزدق	علي جوائها	تميم بن قيس
٧٥٩	ذو الرمة	وأخاطبُه	وقنت علي
٧٥٩	ذو الرمة	وملاعبُه	وأسقيه حتى
٢٢٨		ومنه ثوابها	وكائن أصابت
٣٢٤		وغارُبُه	فقلت انجروا
٤٤	أبو الطحان اليقيني	ثاقبُه ^(١)	أضواء لهم
٢١٨	أبو ذؤيب	أرشد طلابها	عصيت إليها
١٥٠٨	الأعشى	كذابُه	فصدقتها
٥٨٤		لغاريه دائبها	ألم تر أن الدهر
٨٣٨	الأعشى	كفا مخضبا	أرى رجلاً
٥١٢	الأعشى	منها قريبا	فما أذكر
٣٥٣	أبو خراش الهذلي	صليبها	جريمة نامض
٧٨١	أبو الأسود الدؤلي	وأصبها	لا أبتغي
١٥٩٥		الماعون صبا	يمج صبيره
٧٥٧	أوس بن حجر	تخاله طنبا	فانقض كالدرية
١٣٤٢	أوس بن حجر	الفؤاد المعذب	خليلي مرابي
١٣٤٢	أوس بن حجر	وإن لم تطيب	ألم تر أنني
٧٨١	التابعة الذبياني	بطيء الكواكب	كليني لهم
٥٩٥	التابعة الذبياني	قراع الكنائب	ولا عيب فيهم
٤٧٥	جرير	أو نقيق العقارب	كان نقيق
٢٨٠	أبو الغول الطهوي	أنك عائبي	أتاني كلام
٦٦١		ومؤها بالحواجب	فقلنا السلام
٥٥	مالك بن نويرة	عري السُنْب	يا صاح بلغ
٩٤٣		ابن أبي كعب	لعمري أيتها
٨١٥	التابعة الذبياني	وبالشراپ	أرانا مرصدين

(١) وهو في «الكامل» للمبرد ٤٦، ٤٧، و«أمالي المرتضى» ١٨٦/١، و«اللسان» ٢/٩، ونسبه في «الحيوان» ٩٣/٣، و«الشعر والشعراء» للقطيب بن زرار

الصفحة	الشاعر	القافية	صدر البيت
١٣٤٤	امرؤ القيس	بالإياب	لقد نقتبت
٣١٨	الناطقة الجعدي	المزاعم والمذاهب	كطود يلاذ
٦٥٩ ، ١٦٥	عمرو بن معد يكرب	وذا نشيب	أمرتك الخير
١١٦٤	سلامة بن جندل	إلى الأعداء تأويب	يسومان يوم
١٣٨٢	مالك بن نيرة	والياقوت والذهب	لئن يذهب
١٤٨٤		مع السحاب	فلو رفع السماء
١٤٩١		عمدن لغرب	احبس حمارك
٣٦٦	دريد بن الصمة	مراضع القنب	متبذلاً تبدو
١٢٨٣	عدي بن زيد	العبد بالكوب	امثكثاً تصفق
٧٥٧	بشر بن أبي حازم	انقضاض الكواكب	والغير يرهقها
١٢٠٢		طوال الذنب	جانوا بصيد

حرف التاء

٧٤٠	قيس بن ذريح	ودعـوـت	إذا خـلـدت
٧٤٠	قيس بن ذريح	وقضيت	دعوت التي
٤٣٢	يزيد بن ضبة	يفجؤك البغث	ولكنهم بانوا
١٥١٦		إن مشيت	ومنا أوع
٣٠٧	السموئل	الحساب مقيث	ألي النفضل
١٣٢٧	رؤبة	سراها ليث	وليلة ذات
١٨٦		واستقيث	ومنهل فيه
٣٠٧	أحيحة بن الجلاح	مساءته مقيثاً	وذي ضنن
٦٨٩		إذا أتينا	أبلغ أمير
٦٨٩		فهيت هيتا	إن العمراق
٦٨٩		بهالهيثا	قد رابني
١٣٥	كثير	الألية برت	قليل الألايا
٥٨٨	كثير	إن تقلت	أنيني بنا
١٢٧٤	كثير	الوصل ملث	صفوحاً فما
٣٦		فانفعلت	أمين ومن أعطاك
٧١٦		سمعي وطاعتي	أترجو بنو مروان
٢٦٤		كبرت لداتي	من اللواتي
١٢٣٩		قد أمثيت	حلفت بالسبع
١٢٣٩		تُأثت	ومثان
١٢٣٩		تُصأث	وبالحواميم

حرف الجيم

١٠٥٥	الناطقة الجعدي	تهملج	بأرعن مثل
١٠٢٣		وناراً تاججا	متى تاتنا
١٤٦٠ ، ٨٨٢		ونرجو بالفرج	نحن بنو جمعة
١٥٦٢		ملاء النساج	يا حبذا القمرء

حرف الحاء

٤٧	ذو الرمة	مئة يبرح	إذا غير النأي
----	----------	----------	---------------

الصفحة	الشاعر	القافية	صدر البيت
٨١ ، ٤٦	ذو الرمة	في العين أملحُ	سدت مثل قرن
١٥٢٨ ، ٢٨٨	تميم بن مقبل	العميش أكدحُ	وما الدهر
٧٥٨	نهشل بن حري	طوحته الطوائخ	ليبك يزيد
٨٥١		العميش أرواحُ	وكلتاها قد
٨٥٠	أبو ذؤيب	الصاب مفيوحُ	إنسي أرقست
٥٠٢		وأستريحُ	إنسي لأجسو
٧٠٨		وذبانحُ	وانفح جوانب
٢٢٢	النمو بن تولب	علي كشوحها	أقارض أتراماً
١٠٤٩	أبو ذؤيب	المصروحا	على طرق كنعور
١٣٤٢	مضرس بن ريمي	واجتز شحاحا	فقلت لصاحبي
١٣٨٨ ، ٣١٢		سيفاً وروحاً	يا ليت بعلك
٣٢٥	عبيد بن الأبرص	يمشي بقرواح	فمن بنجوته
١١٦٨	بشر بن أبي خازم	كالإبل القماح	ونحن على جوانبه
١٠٠٣ ، ٥٣	جرير	بطنون راح	ألتئم غير
١٠٦٣	جرير	في جناحي	سأشكر إن
١٢٨٥		ويئني زواج	وأعبد أن
٩٠٣		والجنح	أضمه للمدر
١٥٦٥		به برح	ألا يا أيها
١٥٦٥		لسه أروح	أرى الموت

حرف الدال

١٤٦١	حسان بن ثابت	القدح الفردُ	وأنت زعيم
٨٧٤	حسان بن ثابت	فيها يخلدُ	فبين ثواب الله
٣٨٨	الحطيئة	والبعمدُ	ألا حبنا هند
٥٧٠	الحطيئة	أديتكم قتلوا	فكيف ولم
٥٣٠		ويولدُ	تعز أمير المؤمنين
٥٠١	عروة	منك بعمدُ	عشية لا عرفاء
٩٣٣		فسوف تعودُ	أنا ابن الذي
٩٣٣		حولها وتعودُ	تبري الناس
٥٩٠	الراعي	له سببُ	أما الفقير
١١٧٨ ، ٦٢٣		ملوي ومحصورُ	حتى إذا ما
٦٨٥		وأذرك المجلودُ	تهد والذني
٢٢٢	الأعشى	والأكباد سودُ	فما أجشمت
١٨٧	الطرماح	انقضى أمته	كل حي
٢٦٤	الأعشى	تزور محمداً	فأليت لا أرشي
٣٥٣	زائدة بن صمعة	بها بُدأ	إذا ما انتبنا
١٥٠٨ ، ٤٠٦	العرجي	ولا بسردا	فإن شئت
٦٦٠	حطاط بن يعفر	أر بخيلاً مخلداً	أرئني جواداً
٨١٦	الأحوص	جلمداً	إذا كنت عزهامة
٣٦		أموننا وجدنا	فقلت له
٣٦		تبارحه جهداً	أمين وأضناه

صفحة البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
٣٥	ما بيننا بعدا		٣٥
٣٢١	أم واحدا		٣٢١
٧٧٣	جساء ويدا		٧٧٣
٦٦٥	الحلي جدها		٦٦٥
١٤٧٦	عـــــوا		١٤٧٦
٤٦١	أو في ضحى الغدي	عدي بن زيد	٤٦١
٥٣٤	شيمة العبد	المقتع الكندي	٥٣٤
١٣٣١ ، ٤٥	يا أم خالد	الأشهب بن رميلة	١٣٣١ ، ٤٥
٢٤٣	طريف وتاليد	متمم بن نويرة	٢٤٣
٧٣٠	الماء بالسيد		٧٣٠
٩٠١	غيك المتردد	عدي بن زيد	٩٠١
١٠٩٢	أنت مخلدي	طرفة	١٠٩٢
١٥٦٠ ، ١٠٩٣	فيها بأوحد	طرفة	١٥٦٠ ، ١٠٩٣
١٥٨٠	الباخل المتشدد	طرفة	١٥٨٠
١٢٧٩	خير موقد	الحطيفة	١٢٧٩
١٤٦٢	دماء الأساود	الأشهب بن رميلة	١٤٦٢
٤٧	جرهم ونمرد		٤٧
٤٧	مقام جحود		٤٧
١٥٣٦	علسى رود		١٥٣٦
٧١٩	من أمر بمردود	هانئ بن شكيم	٧١٩
١٢٠٣	ثابت الأوتاد	الأسود بن يعفر	١٢٠٣
٨٢٧	صرورة متهجد	النابعة الذبياني	٨٢٧
٨٢٧	وإن لم يرثد	النابعة الذبياني	٨٢٧
٦٦٦	جامد البرد	النابعة الذبياني	٦٦٦
٩٠٩	عقوبة المتعمد		٩٠٩
٣٢٥	قديم عهد		٣٢٥
٨٨	موتاب وغادي		٨٨
١٠٤٧	فسي رماد	حسان بن ثابت	١٠٤٧
٩٠٢	الحرب لا تقعد	امرؤ القيس	٩٠٢
١٥٢٠	ولم يواد	الفرزدق	١٥٢٠
٥١	أو نصفه نقد	النابعة الذبياني	٥١
٧٠١	عصرة المنجود	أبو زيد الطائي	٧٠١
١٥٤٧	بالعمر المديد		١٥٤٧
١١٩٦	بالشحيح الملحد	حميد الأرقط	١١٩٦
٥٥٢	أصبدي		٥٥٢
١٠٩	عند حدادها	الأعشى	١٠٩
١٦٠٣	وبالسيد الصمد	سيرة بن عمرو	١٦٠٣
١٣٧٠	نزار بن ميمد	الجارث بن دوس	١٣٧٠
١٩٨	ليسوا من أسد ^(١)	منظور الوري	١٩٨

(١) وهو في أمجاز القرآن ١٣٢/٢ ، وفهري للقرآن ٣٤٦ .

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
إلى أمير	الممتاذاً	رؤية	٤١٩
لم يؤذها	باقليذاً		١٢٣٥
وطصاب	ويبرذاً		٧٨٣
حرف الراء			
أما وي	وضاق بها الصدر	حاتم الطائي	١٣٩٣
بني عمنا	يوم قماطر		١٤٩٨
غنيننا زماناً	بكأسيهما الدهر	حاتم الطائي	٥٠٨
فما زادنا	بأحابتنا الفقر	حاتم الطائي	٥٠٨
ألا أيهذا الباخع	يديه المقايير	ذو الرمة	٨٣٨
فلا يدعني	وتسلم عامر		٦٩٠
فما عصمة الأعراب	يُعمصر		٧٠١
إذا قلت	يطلع الفجر	أبو صخر الهذلي	٧١٨
ولا عائداً	ولك الشكر	أبو صخر الهذلي	٩٤٠
وإن فؤاداً	الهوى لصبور		٧٤٨
ولو أن نفسي	يُعد كثير		٧٨٦
ولكنها نفس	اللثام قذور		٧٨٦
وصاحب صدق	عامداً أجر ^(١)		٥٥
أخو رغائب	السنوئل الزفر	أعشى باهلة	٢١٥
تكفيه حزة	شربه النمر	أعشى باهلة	١٣٩٠
إن امرءاً	لمفروذ		١٨٠
لا يغمز الساق	شروفه الصغر	أعشى باهلة	١٦٧
الله يعملم	إلى جيراننا صور		١٦١
لولا ابن جمعة	ينفخ الصور		٤٤٨
نخالي اللحم	نفخ القدور		٦٤٨ ، ٥٦٨ ، ٨٩
فقلنا أسلموا	الإحزني الصدور	العباس بن مرداس	٦٣٤ ، ٢٩٩
فيوم علينا	ويوم نسر	النمر بن تولب	٣٥٦
ما ضر جاراً	لبابه ستر	مسكين الدارمي ^(٢)	٤٥
أعمى إذا ما	جارتني الخدر	مسكين الدارمي	٤٥
وتصم عما	كانه وقر	مسكين الدارمي	٤٥
يا رسول المليك	إذ أنسا بوز	عبد الله بن الزبير	١٠١٣
وقد رابني	ويسورها	توبة	١٤٨٩
وقاسمها بالله	إذا ما نشورها	خالد بن زهير	٦٢
وشر المتايا	الحي حاضر	الحطيئة	٧٦
المرء يهوى	قد يضمره	الثابتة الجمدي	٦٥٨ ، ٢٣٤
تفنى بشائته	المعيش مره	الثابتة الجمدي	٦٥٨
وتصرف الأيام	شيئاً يسه	الثابتة الجمدي	٦٥٨
يا ابنة عمي لاحني	الهواجر		١٤٨٩
فأنت أعاليه	البسر أحمر	امرؤ القيس	٤٥٧

(١) البيت غير منسوب في «مجالس ثعلب» ١/ ٨٥، و«اللسان» ١٥/ ٢٦٨.

(٢) الأبيات الثلاثة في «الشعر والشعراء» ١/ ٥٣٠، و«معجم الأدباء» ٤/ ٢٠٦، و«أمالي المرتضى» ٢/ ١٢٠ و١٣٣، و«البيات الآداب» ٢٦٥.

الصفحة	الشاعر	القافية	صدر البيت
١٣٥٨	امرؤ القيس	تملك بيقرأ	ألا هل أتاهما
٦٩٠		جزاء موفرا	جزى ربه
٦٢٨	الفرزدق	كان أضمرأ	ولمما رأى
٨١١	الفرزدق	يصبح مسكرا	أبا حاضر
١١٩٠	المخبل السعدي	أذل وأفهرا	تمنى حصين
١١٨٦	الأبيرد الرياحي	آل أبجرا	لعمري لئن
١٤٨٧	ليلي الأخيلية	النعام المنفرا	رموها
١٣٨٤		الأراك به خضرا	أحقاً عباد الله
٦٩٥		أكبرن إكبارا	نأني النساء
١٢٩٠	جرير	والقمرا	الشمس طالعة
٥٧٥	أبو عريف الكلبي	ووقارا	له قبير
١٢١١		الثلاث كسيرا	ألف الصفون
١١٧٩		إن ننفرا	أصبحت لا
٤٧٨	الراعي	واستفارا	رعبته أشهرأ
٦٤٤	ابن أحمر	الفرح الإزارا	ولا ينسيني
٥٠٠	أمية بن أبي الصلت	أمس كسيرا	مجدوا الله
٥٠٠	أمية بن أبي الصلت	السماء سريرا	بالبناء الأعلى
٥٠٠	أمية بن أبي الصلت	صورا	شرجعاً لا يناله
٦٩٤ ، ٤٩٢		بيننا مستعارا	نشرب الإثم
٣٠٤	الأسود بن عامر	عبداً كفورا	وبيت قولي
٢٧٩	أبو دؤاد الأيادي	بالليل نارا	أكل امرئ
١٣٠٩	الأعشى	وخيلاً ذكورا	وأعددت
١٤٩٩ ، ٢٣٥	الأعشى	وأرباً مثارا	كان القرنفل
١٤٩٧	الأعشى	نأيها مستظيرا	فبانث وقد
١٢٣		الغنى والفقيرا	لا أرى الموت
٥٥٢		كهرة وزبرا	قلت له
٢١٣		أم حمارا	فتولى غلامهم
٧٨٤			جعلت عيب الأكرمين سكرا
١٦٤			إن كنت ربحاً فقد لاقيت إعصارا
٤٧٥		وذا ظفراً	ألم تر أن
٤٠	ليبيد	عاد وحمير	نحل بلاداً
٩٥١	الراعي	أرض عامر	إذا أدير
٩٦٢		حنمام المقادر	تمنى كتاب
٩٤٢		على عمرو	فإن حراماً
٨٩٧		منتصح الصنبر	ألا رب
٨٤٣	عيد بن وهب العبيسي	غير منكر	بأرض فضاء
٨١٥	ليبيد	الأنام المسخر	فإن تالينا
١٤٢١		في العرف والنكر	ألا إن خير الناس
٦١٦	ذو الرمة	طمت على البحر	لكم قدم
٧٤٨		نهضاً إلى وكير	كان فؤادي
٧١٤		بني صخر	فما فتئت

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
بحيش	سجداً للحوائف	زيد الخيل	٧٨٠
هنالك لا	مبلاً بالجرائر	الشتري	٤٤٧
لقد كنت ذا	ولا ظفري		٤٧٥
سقى الله	المدجات المواطر		٣٥
أمين وأدى	حمام المقادر		٣٥
فلما التقت	واعترينا لعامر	الراعي	٤٩
يرى طاعة الله	جاحم الجمر	عمران بن حطان	٨٥
ولا تبك ميتاً	وأكل أبي بكر		١٥٣
مستقبلين	القطن منشور	الفرزدق	٨٢٢
ما بين لقمته	قيد أظفر		٤٧٥
يأت حواطب	ولا دعير	تميم بن مقبل	١٠٦٣
نازعه طيب	وقعة الساري	الأخطل	١٣٥٦
لوما الحياء	عبتما عوري	تميم بن مقبل	٧٥٤
هن الحرائر	لا يقرآن بالسور		٩٥٤
إني ضمننت	غير غلور		٥٨٠
من كان مروراً	بوجه نهار	الربيع بن زياد	٢٠٢
فلست مُلماً	بتسلم الأمير		١٢٠٨
أحافرة	سفه وعار		١٥١١
هما استويا	بغير زور		٥٠٠
ألا أبلغ	ثقة إزاري	بقيلة الأشجعي	١٠٨
شهد الحطيثة	بالمندر	الحطيثة	٧٧
لمن الديار	ومن شهر	زهير	٧٧٣ ، ٦٠٦
ولأنت تفري	ثم لا يفري	زهير	٩٧١
سألتاني	جثمانني بنكر	زيد بن عمر بن قنيل	٢٠٧٣
ويحك أن	عيش ضر	زيد بن عمر بن قنيل	١٠٧٣
لسوا أمندت	إلى قابر	الأعشى	١٥١٧
حيثي يقول	للميت الناشر	الأعشى	١٥١٧ ، ٥٠٢
فكان طعم	وسلافة الخمر	المسيب بن علس	١٤٩٩
أبلغ النعمان	وانتظاري	عدي بن زيد	٥٢
لو بغير الماء	بالماء اعتصاري	عدي بن زيد	٧٠١
لا يبعدن	وأفة الجزر	الخرنق بنت هفان	٣٤٤
النازليين	معاقد الأزر	الخرنق بنت هفان	٣٤٤
من كميته	في القلور		١٧٨
أزمان عيناه	العين الحير		١٢٩٢
عرفت الديار	الكاتب الحميري		١٥٢٥
نحن صبحنا	أو سرارها		١٥١٤
تمنى ابتدائي	ربيعة أو مفر	لييد	٤٦
إلى الحول	فقد اعتنر	لييد	١٥٣٧ ، ٦٠٠
سلام الإله	وسماء ورو	النمر بن توبل	١٣٧٧
أتعني لسان	قول نكسر		٣٠٥

الصفحة	الشناصر	القافية	صلو البيت
٧٤٨ ، ١٧٨	امرؤ القيس	فلم أنتهز	وأنشني بهم
١٢١		فعل الضجر	أخذته عزة
٣٠٤	عبيدة بن همام	بشيء نكز	أتوني فلم أرض
٧٧٣		اللحم ضرز	يعلفها اللحم
١٤٩٩		ما زهرز	وليلة ظلامها
٧٠١		معتصرز	ولما العيش

حرف الزاي

١٥٨٧ ، ٥٨٩	زياد الأعاجم	الهامز اللمزه	إذا لقيتك
٦١٨ ، ٣٣٥	الخنساء	عزُّ بزُّ	كأن لم يكونوا
٨٣٩		الأجرراز	قد جرفتهن
٦٣	رؤية	بالرجرز	حتى وقمنا

حرف السين

٩٤٣		هامنا رأس	بشوب ووينار
٨٤٣		أيمانهن الفوارس	إلى ظمعي
٨٢٥ ، ٧٦	عدي بن ربيعة	يا كليب المجلس	نبئت أن
٦٩		النساء المجلس	خير من
٤٤	النايفة الجعدي	بالفواد التباسا	أضاعت لنا
١٠٨	النايفة الجعدي	عليه لباسا	إذا ما الضجيع
١٣٨٠	النايفة الجعدي	فيه نحاسا	تضيء كضوء
٥٢٥	ذو الأصبح العدواني	أثراً بشيما	جنتاً علي
٤٣٧	العجاج	وأبلسا	يا صاح هل
١٥٢١	علقمة بن قرط	وعمسا	حتى إذا
١٣٨٥		بأ	لا تخبزوا
٧٨٠	جرير	جلد الجواميس	السواردون وتيم
١٢٧٩	الخنساء	لقتلت نفسي	ولسولا كثرة
١٢٧٩	الخنساء	عنه بالتأسي	وما يكون مثل
٨٥٠		كلون السندي	وليلة من
٤٣٨	رؤية	صفرة وإيلاس	وحضرت يوم

حرف الشين

١٥٩٢		قريشاً	وقريش هي
------	--	--------	----------

حرف الصاد

١٢٠٢	امرؤ القيس	وتبوص	أمن ذكر سلمى
٤٩٧		حريص	أكبائره
١٣٧٥ ، ٧٨٠ ، ٥٠٥ ، ٤٠		زمن خميص	كلوا في

حرف الضاد

١٧٠		وأدت بعمضا	داينت أروى
٨٧٩	طرفة	أهون من بعض	أبامنلر
٦٩١		وانعمي تبقيضي	إن شكلي
٦٨٢		وطوين عرضي	طنول الليالي

الصفحة	الشاعر	القافية	صدر البيت
٧٦٧	رؤية	بالمعصى	وليس
		حرف الطاء	
١٥١٠	هيان تحافة	وطوراً واسطاً	أمت همومي
		حرف العين	
٦٩٣	التابعة الذبياني	تبتغيه الأصابع	وقد حال هم
٤٧	التابعة الذبياني	إليك نوازع	خطاطيف حجن
٥٧	التابعة الذبياني	وذا العام سابع	توهمت آيات
٣٤٨		لعينك مَدْعُ	فبانوا فلولا
٥٢٦		في رحمة الله أطمع	فيا رب ليلى
٥٢١		الرياح الزعازع	مننا الذي
٤٨٨		كليب مجاشع	أرى الخطفى
٧٤٣	ليد	عليها الأصابع	أليس ورائي
١٥٢٩ ، ١٠٧٥ ، ١٢٣	ليد	إذ هو ساطع	وما المرء إلا
٧١٤		وتقَطَّعُ	فما فتئت
٦٣٣	قيس بن خويج	مالهن رجوع	أراجعها يا لبن
٩٣٣	عبد الله بن رواحة	من الصبح طالع	وقينا رسول الله
٩٣٣	عبد الله بن رواحة	بالكافرين المضاجع	يبيت بجاني
٨٦٠	بيس العذري	أفرحتك الودائع	إذا أنست
١٢٧٩		والنجوم الطوائع	أخذنا بأفاق
١٤٨٦	غيلان بن سلمة الثقفي	غدره أتعنع	وإني بحمد الله
١٤٧١		الدهر تابع	تعالوا فالوا
٦٨٣	جرير	والجبال الخضع	لما أتى
١٥٥	أبو ذؤيب	لا تدفع	ولقد حرصت
٣٨٠	أبو ذؤيب	التي لا ترقع	فتخالسا
١٢٥٤	أبو ذؤيب	السوابغ تُبَعُ	وعليهما مسرودتان
٣٣٥		ضرب وجيع	وخيل قد
٧٦٨			كان بياض غرقه صديق
٩١٠ ، ٦٣١		وأمرى مجمع	يا ليت شعري
٩٧٤	الأحوص	إليك رجوعها	تذكر أياماً
٣٠١	جرير	الكمي المقنعا	تعبدون عقر
٦٤٦ ، ٣٠٣	امرؤ القيس	لك مدنعا	فأقسم لو
٤٤٤	سهر بن النعمان	كواكب أننعا	فدى لبني
٧٠٨		القصائد مصنعا	فأدركت من
١٣٤٢		عرضاً ممنعا	فان تزجراني
	الأعشى	المرء مضطجعا	عليك مثل
١٥٠٤ ، ٦٦١	الأعشى	الشيبة والصلعا	فأنكرتني وما
٢٠٣		الخليل خدوعا	ما كنت
١٤٧٦		تبعه اتباعا	وخير الأمر
٦٦٤			إليك إليك ضاق بهم ذراعاً
٤٥٨		فديننعا	فني قباب

الصفحة	الشاعر	الفائفة	صدر البيت
٧٤٩		شئناً أطمعاً	انغض نحوي
٣٩٢	الأضبط بن قريع	قد رفعمه	لا تذل الفقير
٢٥٩		ليس بجائع	ونقفي وليد
١٢٠	خبيب	مصصرعي	ولست أبالي
١٢٠	خبيب	ثلوم مزع	وذلك في
٤٨٢	الشماع	عن ربوع	تصيبهم
٩٥٩	الشماع	من القنوع	لممال المرء
١٤٤	الحطينة	أنف القصاع	وينحرم سر
٥١٥	عمرو بن معدكرب	وأضغ	يا ليتني فيها
٤١	سويد بن كاهل	الريق غدغ	أبيض السلون
٥٤	سويد بن كاهل	أصم المستمع	ساجد المنخر
٦٨٣	سويد بن كاهل	لحمي رتع	وخبيب لي
٦٩٠		صاعاً بصاع	لصاع جف

حرف الفاء

٨٤٧	مزد	قسي وزائف	وما زودوني
١٥٩٣		القلوب الرواجف	ولما دنا
٩٠٩	الفرزدق	أو مجلّف	وعض زمان
٣٧٠	الفرزدق	إيلياء مشرف	وبيتان بيت
٧١٨		قوم تقصف	وليس صرير
٧١٨		الثناء المخلف	وليس فتيق
٧٤٤		الشمس كاسف	ويضحك عرفان
١٩٧		حين نزاحف	ونحن أناس
١٩٧		فيما تخالف	جماعتنا يوم
١٣٦١		الخروج المتقصف	ألم تتران
٩٣١		ولا طـرف	بني المهلب
١٣٤٠ ، ١١٥٢ ، ٥٨٠		والرأي مختلف	نحن بما عندنا
٩٩٠		تكاد تنفر	تنام عن
٥٤٤		سيرهن تزحف	لمن الظعائن
٧٤١		علي الأكفا	ينردون في
٧٤٢		علي السوظيفا	قد أننى
٦٧٥	العجاج	زلفاً فزلفا	نأج طواه
٨٢٦	العجاج	كي تزحلفا	والشمس قد
٢٤٤		إلى خلاف	إذا نهى
٤٩٧		على الأعراف	كل كـناز
١٣٣٨ ، ٣٨	الوليد بن عقبة	الإيجاف	قلنا لها

حرف القاف

٧٣١ ، ١٩٣	حميد بن ثور	تـذوق	فلا الظلّ
٤٧	ذومة الرمة	كاد يبرق	ولوان لقمان
١٠٧١		ما أطيقت	فديت بنفسه
١٣٨٧	عدي بن زيد	يمينا يبرق	ودعا بالصبح

الصفحة	الشاعر	المقافية	صدر البيت
١٠٢٨		دموعها شرقي	لنم أنس
١٠٢٨		وتبطلت	وقولها والركاب
١١٧٣		وأمله الخرق	بيل نطفة
٨٤٩	الفرزدق	السرادقا	تمنيتهم حتى
١٥٢٩		لو يجدن سائقاً	إنا لنا
٨٨		خاماً لبيقا	فنالت سليمي
٨٠٨		لم تفئني	قضت أموراً
٤٧٤		لم تشفقني	سأمنعها
٤٨		كسل موثق ^(١)	وقلتم لنا
٤٨		في الملا منالي	فلما كفنا
١٥٣٠	الأقرع بن حابس	إلى طبعني	إنني امرؤ
١٤٩٣	طرفة	ولا تبرقي	فتفك فانع
٣٩٨		في شقاي	وإلا فاعلموا
٤٤٦	عوف بن الأحوص	بدم مراقبي	وإيالي بني
٥٠٠		ودم مهراق	حتى استوى
١٦٠١		مخ زامتي	ومسد
٨٦٤		أطعني وانطلق	قد كنت
٨٦٥		لما نطق	ضحكوا والدمر
١٠٢٥		له بالمضيئ	من شاء
١٥٣٤		على النمارق	نحن بنات
١٤٦٤		على ساق	وقامت
٩٩٠		تلق	جاءت به
حرف الكاف			
٤٨	نخاف بن لدية	أنا ذلكا	أقول له والرمح
٩١		من مثلكا	يا عادلي
٣١		به إيثاركا	والله أممك
١٥٨٩	عبد المطلب	منهم حماكا	يساروب لا
١٣٣٣		مذحجاً وعكا	يضا مكة الفاجر
٨٢٦	ذو الرمة	السدوالك	مضايح ليست
١٥٩٠	عبد المطلب	فامنع حلالك	لانهم إن
حرف اللام			
١٤٠٥	أبو خراش	واستراح العوادل	وعاد الفتى
١٤٠٥		لهارحل	ركاب حليل
١٣٨٤	زهير	ينالوا فيستعلوا	بخيل عليها
٣٧٩		والوسائل	إذا غفل الواشون
١٠٩٣، ٥٤٠	معن بن أوس	المنية أول	لعمرك ما أدري
٥٣٥	عبد بن الطيب	قوم معازل	إذا أشرف
٧٣١		أظلالكن طويل	أيأ أثلات القاع

(١) البيتان غير منسوخين في «الطبري» ٣٦٤/١، و«أمالى ابن السجري» ٥١/١.

الصفحة	الشاعر	القافية	صدر البيت
٦٢٢		للوشاة جزيلُ	فإن سأل الواشون
٦٢٣		بعدها فمطيلُ	من لم يلبس
٩٧٢	زهير	أنبت للسيفلُ	وأبنت ذوي
١٦٠٥	ذو الرمة	القوم يتفعلُ	ومن جوف
٧٦	ورقة بن نوفل	الصندر مخزُلُ	وجبريل يأتيه
٧٣		هو القتلُ	ثلاثة أحباب
١٦٢		كذلك قليلُ	أثنت قليلاً
٢٠٣	ابن همام السلولي	لهائثل ^(١)	يذمون للنديا
١٠٣١	الراعي	تلقاتك الأملُ	أثنتُ خيرك
١٢٤٤	القطامي	المستعجل الرُّكُلُ	قد يدرك
١٠٩١	الأعشى	مبيل مَطْلُ	ما روضة
١٠٩١	الأعشى	إذ دننا الأضلُ	يوماً بإطيب
٤٩٧	الأعشى	يحفى ويتحلُ	في فتية
١٣٥٥	الأعشى	لا ريث ولا عجلُ	كأن مشيتها
١٠٩٣، ٥١٨	الفرزدق	أعز وأطولُ	إن أئذي
١٠٩٣	الأحوص	الصلود لأميلُ	أصبحت أمحك
٥٠٩، ٨٨	شمير بن الحارث الضبي	ما آتوؤ	دعوت الله
١٥٦٢، ٥٧٦	أخيرة بن الجلاح	متى يعيلُ	وما يدري
٦٦٢		لها يستهلُ	تضحك الضبُعُ
٧١٤		ما حملوا	لم يشمر
٧١٤		حنينها الإبل	تأله أنسى
٥٥	الفرزدق	يستيلها	فإن الندي
٢٠٥		صديقكم مأكُ	لسانك معسول
٨٣٢	الأعشى	قبيلها	نصالحكم
٩٠١	ضابئ البرجمي	تبكي جلاته	همت ولم أفعل
٩٧٤		بالعقيق نواصله	وأيهات أيهات
٣٧٦	توبة بن مضر	أنا أجلُ	وأهل خباء
٤٥٢	الرماح	الخلافة كاهله	وجدنا الوليد
٧٣٠		تسفه أناملُ	وإنسي وإياكم
٤٩١		فلا أجلُ	اليوم يبدو
٧٨٣		حواصله	مبثل
١٣٥٧، ٤٥٠		الرباب خيالاً	كذبتك عينك
٧١٦		الليل أرملا	لييك على
٥٧		اللقاح المطافلا	خرجنا من
٧٨٨	الأخطل	فوقه حملا	ضخم تعلق
٦٥	عدي بن زيد	قد فصلا	وجاعل الشمس
١٢٣	أمية بن أبي الصلت	بعد أبوالا	تلنك المكارم
٧٧	جزير	وكذبوا ميكالاً	عبدوا الصليب

(١) البيت في «مجالس ثعلب» ٥١٥/١، وقد أسنده المحقق فرواء: يذمون لي الدنيا.

الصفحة	الشاعر	القافية	صدر البيت
٦٨٥		معقولاً	حتى إذا
٨١١	الفرزدق	لتخضب الأبطالا	أخضبت فعلك
٦٩	الفرزدق	تنالها الأوعالا	إن الفرزدق
٨٧٣	عبد الله بن رواحة	ولا تحويلا	في جنان
٣٤٧	عمر بن أبي ربيعة	أسهلا	فواعديه
٢١٣		تلك السبيل ^(١)	فلا تبعد
٨٧٩	الخطبة	مقام مقالا	تحنن علي
١٣٨٨		الطلع والجبالا	بشورها
٦٦٤		السلم البطولا	يروم عصب
٧١٦	الأعشى	خلفها أطفالها	الوهاب المائة
٢١٤	الأعشى	إليك حبالها	وإذا تجوزها
٢٠٠	الخنساء	من قائلها	وقائيه
٢٠٠	الخنساء	أرعائلها	تقد الذواية
٢٠٠	الخنساء	أمثائلها	نطقت
٧١٤	الخنساء	نائحة مائلها	فباقت
٨٠٦ ، ٧٠٠	عامر بن جوين الطائي	أبقل إيقالها	فلا مزنة
٦٣٣	أمرؤ القيس	القلب يفعل	أغرك منسي
٧١٣ ، ٣٧٥	أمرؤ القيس	لديك وأوصالي	فقلت يمين
٦٢٢	أمرؤ القيس	شماريخ ميالي	فلما تنازعنا
١٥٣٥	أمرؤ القيس	كالسجنجل	مهففة
١٤٨٧	أمرؤ القيس	ثيابك تنسل	فإن تسك
١٧٨	أمرؤ القيس	وناء بكلكل	فقلت له
١١٨٨	أمرؤ القيس	كأنياب أغوال	أبقتلني
١٤٤	أمرؤ القيس	السر أمثالي	ألا زعمت
١٧٨	أمرؤ القيس	قلب مقتل	وما ذرفت
٦٢٢ ، ١٩٠	أمرؤ القيس	أي إذلال	فصرنا إلى
٦٧٠	أمرؤ القيس	الغواية تنجلي	فقلت يمين
٦٧٠	أمرؤ القيس	مرط مرحل	خرجت بها
١٠٧١	هدبة بن خشم الفارسي	صرفه المتحول	وليت بمفراج
١٠١٣	ذو الرمة	العين بالمهل	فظلوا ومنهم
٩٦٢ ، ٧١		على رسل	تمنى كتاب الله
١٠٢٧	كثير عزة	أرسلتهم برسول	لقد كذب
٨٥٢		إياك لا أقلي	وترمينني بالطرف
٢٢٤		كفة حابلي	كأن بلاد الله
٧٤٢	أبو ذؤيب	من أحد قبلي	جزيتك ضعف
٣٢١	أبو ذؤيب	نوب عواملي	إذا لسمته
٥٣٨	أبو ذؤيب	بالأصائل	لعمري لانت
٦٨٢	المتخل	العشيرة والأهل	فإن أنا يوماً
٥٩٠	ليد	كالفقير الأعزل	لما رأى

الصفحة	الشاعر	القافية	صدر البيت
٧٥٣	أبو كبير الهذلي	لنفت بهيضل	أزهـيران
١٩٢	عبد قيس	لقاع ممجل	وإذا لقيت
١٩٢	عبد قيس	بضنك فانزلي	فأعنهم
٩٢١	عترة	بضنك فانزلي	إن يلحقوا
٧٥٤		كحل العقال	وإنما تجزع
٧٣٠	الأعشى	شديد المحال	فزع نبع
٧٣٠	الأعشى	فإنه لا يبالي	إن يعاقب
٤٣	أمية بن أبي الصلت	السجن والأغلال	أيما شاطن
٥٧	أمية بن أبي الصلت	سوابغ الأذيال	إنسني زارد
٥٧	أمية بن أبي الصلت	بنني إسراي	لا أرى ممن
١٠٢٦ ، ٦٨٢	جزير	من الهلال	رأت مـرر
٦٦٠	زيد الخيل	بعض مالي	كمنية جابر
٤٩٢		تذهب بالعقول	شريت الإثم
٧٥٩	ليد	من هلال	سقى قومي
٨٦٥	ليد	بنني عقيل	يريد الرمح
١٢٥		العبد الذليل	وما رمت
١٢٥		قيل وقالي	وأغضيت
١١٨٤	عدي بن زيد	يودي بالرجال	ثم أضحوا
٥٥٢	عترة بن عكبرة الطائي	بدم القتيل	إنك والجور
٦٤	أبو النجم	مالك ونهشل	تبقلت في
٦٩٤	جميل بن معمر	من قلبه	فظلنا
٩٠	أم الأخف	من هزله	والله لـولا
٩٤٨	ابن رواحة	عن خليله	ويذهل
٧٥٨	الطرماح	منها وحائل	قلق لافنان
٣٧	ليد	غيايات الطفل	فتدليت
٥٢	ليد	فبدلنا ما سأل	وغلّام أرسلته
٨٢٧	ليد	الدمر عَمَل	قال هجدنا
٧٣١	ليد	فاضحل	بينما الظل
٥٣٩	ليد	ريشي وعجل	إن تقوى ربنا

حرف الميم

٦٣٥	الأعشى	وأنفك راغم	فلا ينبسط
٣٠٩	الأعشى	والأنوف رواغم	إذا اتصلت
٨٥	الأعشى	والمنوت جناح	يعدون للهباء
٩١٣		لهاطعم	ألا ممن لنفس
١٦٢		ودر مننظم	فمتمي علينا
٧٢		النساء يتيم	أناطم إنني
٧١٤	العرجي	شفتني السقم	إنني أمرؤ
١٢٧٩		مصر والحرم	فبصرة الأزد
٨٩٣		ولا مخروم	ولقد أبيت
٧١٧		والحترم	عبيادك

الصفحة	الشاعر	القافية	صدر البيت
٧٧٢		عليهن السلام	ولا يبقى
١٩٣	أوسى بن خلفاء	والسلام	ومركضة
٤٨٠		شاعكم السلام	ألا يا نخله
١٧٨		الفنن الحمام	تبكي هاشماً
٥٥٩		بى حكيم	أطوف نسي
٤٨٧	حسان بن ثابت	وكلهم مذؤوم	وأقاموا حتى
٧٤٧		من يُثيئ	فسأى امرئ
٨٦٦		اللين والرؤم	وكيف بظلم
٨٦	عبد المطلب	وهو قاتم	عذت بما
٩٦٣		بمثله عقم	عقم النساء
١٢٤٤	ليد	النفوس جمائها	تراك أمكنة
٣١		سورة بيئ	باسم الذي
٣١		وقرصاب سئ	وعامنا أعجبنا
٥٠٢		المياه نبيئها	وهبت له
٧٥٨			ومر بسفاح التراب عقيها
٣٣		زاد وتمما	يسرب الذي
١٧٩		بمنطقها فما	عجبت لها
٢١٩		أن يتندما	لمللي إن
٣٥٧	حاتم الطائي	البهم مبهما	يرى الخمص
٨٣٣	المتلمس	العرانين ميمما	ولسو غبير
٩٠٩	المتلمس	الشجاع لصمما	فأطرق إطراق
٥٧٩	المتلمس	لها ابنمما	فهل لي أم
٤٨٩	حميد بن ثور	غياً موثما	فيلما كشفن
٥٧٠		ولا ذمما	إن الروثاة
٦٩	هند بنت عتبة	بالسلام سلاما	طاف الخيال
١٢٠٨	هند بنت عتبة	أو من رأما	من حس لي
١٢٠٨	هند بنت عتبة	عرواهما	أمليين في
١٢٠٨	هند بنت عتبة	جماهما	صقريين
١٢٠٨	هند بنت عتبة	تراهما	ومحيين
٥٧		يحبون الطعاما	ألا أبلغ
٨٥٣		تذريت المناما	أنا سيف
١١٩٧	أم عمير	فقد الأما	نعمد مماذراً
٤٨٩	جرير	زيارتكم الماما	رياشي منكم
٣٠٣	النمر بن قولب	تصادفه أينما	فإن المنية
١٠٢١	بشر بن أبي خازم	وكان غراما	ويوم الفساد
١٢٠٧ ، ١١٩١	وهناح اليمن	أو أرتقي سلما	رية محراب
٦٧٢		بالسيف الدما	كفناك كف
٤٢	ذو الرمة	الرياح الشوامس	منشين كما
٩٢		الليالي بمعظم	هنم وسط
١٢١	الأعشى	للهجين المذم	دهوت خليلي
٢٢٨		أو أصر لعائس	وكانن أرينا

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
وكائن ترى في التكلّم		٢٢٨
أقول لهم فإيس زهدم	سحيم بن وثيل اليربوعي	٧٣٥
وتشرق بالقول من الدم	الأضى	٦٨٣
وما الحرب بالحديث المرجم	زهير	٨٤٥
فلما وردن الحاضر المتخيم	زهير	٨٩٤
بها العين كلّ تُجتم	زهير	١٠١٢
لقد لمتنا المطي بنائم		٦٣١
أولئك قوم تميم بدارم	الفرزدق	١٢٨٥
فيه الرماح نسج سلام	الحطية	٧٨
أبلغ أبا بين أقوام ^(١)		١٠٣
لا يدرك المجد عزوا لأقوام		٢٢٥
ويؤتمنوا صفح أحلام		٢٢٥
هزمت عليك بالنوال وأنعم		١٥٤
لولا الحياء أم القاسم	عدي بن الرقاع	٣٠١ ، ٦٤
وكانها بين جانر جاسم	عدي بن الرقاع	١٥٦
وسنان أقصده وليس بنائم	عدي بن الرقاع	١٥٦
شظت مزار ابنة مخرم	عترة	٨٩٣ ، ٦٢١ ، ٥٦٧
فشككت بالرمح القنبا بمحرم	عترة	١٤٨٧
لو كان يدري الكلام مكلمي	عترة	١٤٠٤
بائثاة ما لم تحرم	عترة	١٢٠٨
ذم المنازل بعد أم الهيثم	عترة	٦١
ترى للمؤمنين أولئك الأيام	جرير	٨١٣
لقد لمتنا الرؤف الرحيم	جرير	٦١٣ ، ٩٣
ثلاث واثنتان المطي بنائم	جرير	١١٥١
ندمت على إلى شمامي	الفرزدق	١١٥
وأيقنت التفرق جوف عجم	الحطية	٢٠٥
لعمرك إن أريد بالسهم	ليد	٢٤٢
لا والله رال النمام	حسان بن ثابت	٥٧٠
كان فريضة ولم تُكلم		٨٥٨
حارث قد فريضة الرجم		٨١١ ، ١٠٠
أوعدني وتجلي غمي	رؤية	٤٤
الريح تبكي والأدهم		٥٠٧
يقوم على في غمايه		١٢٩٠
وكان دعنا أو ينجم	الأضى	٢٠٤
عكم تغشى قد صرم	الأضى	٦٣٥
وكلام سبي قبل اليوم		٩٣٢
قد لفها من صمم	المثقب العبدى	٤٣٠
 ولا غنم	الحطم	٣٥١

(١) البيت غير منسوب في «مشكل القرآن» ٥، و«اللسان» ١٨/١٤، وهو في أمالي الزبدي من أبيات ليمض المتقدمين، وفي «عيون الأخيار» لأبي القعقاع

الأسدي ٩١/١، وفي «العقد الفريد» لهشام الرقاشي، وفي «البيان والتبيين» لهشام الرقاشي ٣١٦/٢ و ٢٠٢/٣ و ٨٥/٤.

الصفحة	الشاعر	القافية	صدر البيت
٣٥١	الحطيم	لم ينم	ولا بجزار
٣٥١	الحطيم	ممسوح القدم	بات يقاسيها
٨٦		على إثرهم	نحن آل الله
حرف التون			
٦٣٥		تبنى المساكن	وللموت تغذو
٦٩٥		الخليط المباين	
٤٨٤	كثير	بها فيهون	إذا منلت
٤٣	النايفة الذبياني	بها رهين	نأت بعماد
٦٥٨	النايفة الذبياني	بي الظنون	أتيتك عارياً
١٥٢٨	قعب بن ضمرة	عندهم أذنوا	صمم إذا
٤٨٥		مخاصم ميزائه	قد كنت
٧٧	عمران بن حطان	عند الله مأمونا	والروح جبريل
٣٦		قال آمينا	يا رب
٣٤	ليبد	بعد سعيينا	باتت تشكي
٥٨٩	أمية بن أبي الصلت	ربي ومسانا	الحمد لله
٤٩٠		القوم عريانا	إنني كأنني
٦٦٧	تميم بن مقبل	الأبطال سجينا	ورجلة يضربون
٢١٥	تميم بن مقبل	متنه لينا	أر كاهم تزاز
٦٣٥		الناس عمرانا	وللمنايا نربي
١٢٧٥		المذكرا أحياناً	إن أجزأت
٤٣١	أبو طالب	التراب دفينا	والله لسن
٤٣١	أبو طالب	منك عيتونا	فاصدع بأمرك
٤٣١	أبو طالب	البرية ديتنا	وعرضت دينا
٤٣١	أبو طالب	بذاك مبينا	لولا الملامة
٢١٤		حبلنا متينا	فلو حبلنا
٣٣	الحطيئة	منك العالمينا	تنحي فاجلسي
٤٣	عمرو بن كلثوم	جهل الجاهلينا	ألا لا يجهلن
٤٦	عمر بن كلثوم	بأيدي لاعبيننا	كان سيرفنا
٣٠٥	عمر بن كلثوم	لم تقرا جنينا	ذراعي عيطل
٨٨٣	عمر بن كلثوم	مروالك العيوننا	بيوم كرهية
١٢٠١		قطع القربنا	تذكر حب
٨٨٣		الحواجب والعيونا	إذا ما الغانيات
٦١	عدي بن زيد	كذباً ومينا	
٥٨٠	حسان بن ثابت	كان جنونا	إن شـرخ
١٣١٣	مالك بن أسماء	ما كان لحننا	منطق صائب
١٣٧٨ ، ١١٥	عبيد بن الأبرص	أيننا	هلا سألت
٨٧		اسماعينا	قال جواربي
٨٢		إذ يوصينا	عجبت من
٥٧		إسرائينا	يقول أهل

الصفحة	الشاعر	القافية	صدر البيت
١٣٧٥، ٩٤٩، ٢٩٩		وقد شجرنا	سريت بهم
٦٦٦		بأرسان	بواد يمان
٩٥٤		والشبهان	فليت لنا
٨٤٢ و ٤١٧	الأحول الكندي	على طهيان	ألم تعلمي
١٥٦٧		لا أخون أميني	رمانني بأمر
١٣٤٠، ١٠		الطوي رماني	لا والسذي
١٤٠١		الرزء والحزني	ماسرني
١٤٠١		الورى يكن	ومخلدات
١٣٨٧		أقاروز الكشبان	ومنا أدري
١١٦٨، ٦٤٩ و ٢١٨، ١٠٥	المثقب العبدى	أيهما يليني	الخير الذي
٢١٨، ١٠٥	المثقب العبدى	هو يبتغيني	إذا ما قمت
٦٠٩	المثقب	الرجل الحزين	ذعرت به
٩٧	الشمخ	كالرجل اللعين	إذا بلفتني
١٤٨٠	الشمخ	بدم الوتين	وكلل أخ
٣١١		إلا الفرقدان	أبالموت
١٠٧٣	أبو حية النميري	تخوفيني	كانك من
١٣٤٩، ٥٥٨	الناطقة الذبياني	رجليه بشن	بورك الميت
٤٥٧		الرمان والزيتون	إن دهرأ
٨٦٥		يهم بالأحسان	ووجه
٦٧٤		حقان	قد جعلت
٦٢٤		تبع القرين	ياوي إلى
٦٦٥		ومجد باني	تيممت قياً
١٦٤	الأعشى	ذي شـزـن	وإن تستضيفوا
٥٩٤	الأعشى	قد عدن	ومن شأنى
١٨٤	الأعشى	له أنكرن	نحن نطحنام
٤٤٨	الأعشى	غبار النعمين	لأه در
حرف الهاء			
٣٢	رؤية	من تألهي	ومخفق من
٤٣	رؤية	في مهمه	ويقلن شيب
٩١٠	عبد الله بن قيس الرقيات	فقلت إنى	والموت أعظم
١٠٣٦		على الجبله	قد جاء سيل
١٤٦٣		الجنة المغلقة	أقتلهم ولا
٤٧٥		العظيم الحاوية	وشريت بردا
٣٠٠	يزيد بن مفرغ	كنت هامه	
حرف الياء			
٥٠٨		فتاختكم غنى	ألا أبلغ
٥٢	العجاج ^(١)	دواي	أطرباً وأنت
٧٤٣	سوار بن المضرب	والفلاة ورائيا	أنرجو بنو

الصفحة	الشاعر	القافية	صدر البيت
٦٩١	الفرزدق	أشد لجاميا	هنا تنفلاني
٢٢٧	عبد الله بن معاوية	حتى بدا ليا	رايت فضيلا
٥٥٢	الناطقة الجمدي	من المال باقيا	فنى كملت
٦٤٣	عترة	الستين الخواليا	ألا قاتل
٦٤٣	عترة	ليت ذاليا	وقولك للشيء
١١٩٧		ألني ضاحيا	فأنت يقطينا
١١٧٨	سحيم بن الححاس	للمرء ناهيا	غميرة ودع
١٥٠٨		من شفانيا	لننقد طال
٥٣٠		الدهر نبيها	أنتوالنا لنوي
٦٤٧	حسان بن ثابت	والموت لاقيا	أوردت مسروها
٥٨	طفيل الغنوي	النجم حادينا	أنا ابن طوق
٧١٢		أعناقهم كالأرثية	إنني إذا ما

حرف الألف المقصورة

٦٤٩		به أرغى	يظن سعيد
١٤٦٧	أبو أسيلة الديبيري	يسرت غنماها	هما سيدانا
٨٦٣ ، ١٤١	ليلي الأخيلية	الغننة سقاها	شفاها من
٩٠٢		ما مضى	كادت وكدت
٥٠٤		ولا يخون إلى	أبيض لا
٣٨		الافنا	نقادوم
٣٨		إلا أن تـ	بالخير خيرات
١٠٦٤		ويا يدي اليمنى	يا عصمتي
١٠٦٤		في الشري يبلى	لاصنت وجهاً
٢١٦	يزيد بن الصمغ	خفتها قلاها	وإن اللآله
١٠٨٣		هوابتناها	عنى مطالهم
٨٦٥		فكلانا مبتلى	يشكرو إلي
٤٢٢		السموات العلى	نثم جزاك
١٣٨٨ ، ٣٦٢		همالة عينها	علفتها تبنا

